

تماغوسی بعدن بیوك وعدلسی توکتا غازیسی

کتابه سیاسنه اریب حالوه دنیاده [illegible]

تحریه [illegible] توجهی تصحیح ایله [illegible] مشغول اولوب [illegible]

[illegible] عالم شانی مخصوصه ظفر [illegible] اکر [illegible]

[illegible] پرهیز ایدوب ازکار دوام و [illegible]

غایت الحکیم

[illegible]

[illegible] ابجد حساب [illegible] طرح اکر [illegible]

[illegible] غالب [illegible]

[illegible] مغلوب [illegible]

[illegible] مغلوب [illegible] غالب [illegible]

(فهرست الجزء الثامن من تفسير الفخر الدين الرازى)

صحيفه

صحيفه

صحيفه

(تمت فهرست الجزء الثامن بعون الله تعالى)

الجزء الثامن من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير
الكبير للامام محمد فخر الدين الرازى
ابن العلامة ضياء الدين عمر
المشتهر بخطيب الرى
نفع الله به المسلمين
آمين

* (وبهامشه تفسير العلامة أبي السعود) *

الجزء الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

* (سورة الرحمن سبعون وست او سبع او ثمان آيات مكية) *

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان) اعلم اولا ان مناسبة هذه السورة لما قبلها
بوجهين (احدهما) ان الله تعالى افتتح السورة المتقدمة بذكر معجزة تدل على العزة
والجبروت والهيبة وهو انشقاق القمر فان من يقدر على شق القمر يقدر على هدا الجبال
وقد الرجال وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت وهو القرآن
الكريم فانه شفاء القلوب بالصفاء عن الذنوب (ثانيهما) انه تعالى ذكر فى السورة المتقدمة
فكيف كان عذابى ونذر غير مرة وذكر فى السورة فبأى آلاء ربكما تكذبان مرة بعد
مرة لما بينا ان تلك السورة سورة اظهار الهيبة وهذه السورة سورة اظهار الرحمة ثم ان
اول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها حيث قال فى آخر تلك السورة عند مليك مقتدر
والاقتدار اشارة الى الهيبة والعظمة وقال ههنا الرحمن اى عزيز شديد منتقم مقتدر
بالنسبة الى الكفار والفجار رحمن منعم غافر للابرار * ثم فى التفسير مسائل (المسئلة
الاولى) فى لفظة الرحمن ابحاث ولا يتبين بعضها الا بعد البحث فى كلمة الله فنقول (البحث
الاول) من الناس من يقول ان الله مع الالف واللام اسم علم لموجد الممكنات وعلى هذا
ففيهم من قال الرحمن ايضا اسم علم له وتمسك بقوله تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن
اياما تدعوا فله الاسماء الحسنى اى اياما منهما وجوز بعضهم قول القائل يا الرحمن كما يجوز
يا الله وتمسك بالآية وكل هذا ضعيف وبعضها اضعف من بعض اما قوله الله مع الالف

(واللام)

(سورة الرحمن مكية او مدنية)
(او متبعضة وآيها ست)
(وسبعون)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

لما عدد فى السورة السابقة ما نزل
بالامم السالفة من ضروب نقم الله
عز وجل وبين عقيب كل ضرب
منها ان القرآن قد يسر لحمل الناس
على التذكر والاتعاظ ونعى عليهم
اعراضهم عن ذلك عدد فى هذه
السورة الكريمة ما افاض على

واللام اسم علم ففيه بعض الضعف وذلك لانه لوكان كذلك لكانت الهمزة فيه اصلية فلايجوز ان تجعل وصلية وكان يجب ان يقال خلق الله كما يقال علم احمد وفهم اسمعيل بل الحق فيه احد القولين اما ان نقول اله اولاه اسم لموجد الممكنات اسم علم ثم استعمل مع الالف واللام كما فى الفضل والعباس والحسن والخليل وعلى هذا فمن سمى غيره الها فهو كمن يستعمل فى مولود له فيقول لابنه محمد واحمد وان كانا علمين لغيره قبله فى انه جائز لان من سمى ابنه احمد لم يكن له من الامر المطاع ما يمنع الغير عن التسمية ولم يكن له الاختيار واخذ الاسم لنفسه اولولده بخلاف الملك المطاع اذا استأثر لنفسه اسما لايستجرئ احد ممن تحت ولايته مادام له الملك ان يسمى ولده او نفسه بذلك الاسم خصوصا من يكون مملوكا لايمكنه ان يسمى نفسه باسم الملك ولا ان يسمى ولده به والله تعالى ملك مطاع وكل من عداه تحت امره فاذا استأثر لنفسه اسما لايجوز للعبيد ان يتسموا بذلك الاسم فمن يسمى فقد تعدى فالمشركون فى التسمية معتدون وفى المعنى ضالون واما ان نقول اله او لاه اسم لمن يعبد والالف واللام للتعريف ولما امتنع المعنى عن غير الله امتنع الاسم فان قيل فلو سمى احد ابنه به كان ينبغى ان يجوز قلنا لايجوز لانه يوهم انه اسم موضوع لذلك الابن لمعنى لا لكونه علما فان قيل تسمية الواحد بالكريم والودود جائزة قلنا كل ما يكون حمله على العلم وعلى اسم لمعنى ملحوظ فى اللفظ الذكرى لايفضى الى خلل يجوز ذلك فيه فيجوز تسمية الواحد بالكريم والودود ولايجوز تسميته بالخالق والقديم لان على تقدير حمله على انه علم غير ملحوظ فيه المعنى يجوز وعلى تقدير حمله على انه اسم لمعنى هو قائم به كالقدرة التى بها بقاء الخلق او العدم فلايجوز لكن اسم المعبود من هذا القبيل فلايجوز التسمية به فأحد هذين القولين حق وقولهم مع الالف واللام علم ليس بحق اذا عرفت البحث فى الله فما يترتب عليه وهو ان الرحمن اسم علم اضعف منه وتجويز يا الرحمن اضعف من الكل (البحث الثانى) الله والرحمن فى حق الله تعالى كالاسم الاول والوصف الغالب الذى يصير كالاسم بعد الاسم الاول كما فى قولنا عمر الفاروق وعلى المرتضى وموسى الرضا وغير ذلك مما نجده فى اسماء الخلفاء واوصافهم المعرفة لهم التى كانت لهم وصفا وخرجت بكثرة الاستعمال عن الوصفية حتى ان الشخص وان لم يتصف به او فارقه الوصف يقال له ذلك كالعلم فاذن للرحمن اختصاص بالله تعالى كما ان لتلك الاوصاف اختصاصا بأولئك غير ان فى تلك الاسماء والاوصاف جاز الوضع لما بينا حيث استوى الناس فى الاقتدار والعظمة ولايجوز فى حق الله تعالى فان قيل ان من الناس من اطلق لفظ الرحمن على اليمامى نقول هو كما ان من الناس من اطلق لفظ الاله على غير الله تعديا وكفرا نظرا الى جوازه لغة وهو اعتقاد باطل (البحث الثالث) لله تعالى رحمتان سابقة ولاحقة فالسابقة هى التى بها خلق الخلق واللاحقة هى التى اعطى بها الخلق بعد ايجاده اياهم من الرزق والفطنة وغير ذلك فهو تعالى بالنظر الى الرحمة السابقة رحمن وبالنظر الى اللاحقة رحيم

كافة الانام من فنون نعمة الدينية والدنيوية الانفسية والآفاقية وانكر عليهم اثر كل فن منها اخلالهم بمواجب شكرها وبدئ بتعليم القرآن فقيل (الرحمن علم القرآن) لانه اعظم النعم شأنا وارفعها مكانا كيف لا وهو مدار للسعادة الدينية والدنيوية عيار على سائر الكتب السماوية ما من مرصد يرنو اليه احداق الامم

ولهذا يقال يارحمن الدنيا ورحيم الآخرة فهو رحمن لانه خلق الخلق اولا برحمته فلما لم يوجد في غيره هذه الرحمة ولم يخلق احد احدا لم يجز ان يقال لغيره رحمن والمتخلق الصالحون من عباده ببعض اخلاقه على قدر الطاقة البشرية واطعم الجائع وكسا العاري وجد شيء من الرحمة اللاحقة التي بها الرزق والاعانة فجاز ان يقال له رحيم وقد ذكرناهذا كله في تفسير سورة الفاتحة غير انا اردنا ان يصير ماذكرنا مضموما الى ماذكرناه هناك فاعدناه ههنا لان هذا كله كالتفصيل لماذكرناه في الفاتحة (المسئلة الثانية) الرحمن مبتدأ خبره الجملة الفعلية التي هي قوله علم القرآن وقيل الرحمن خبر مبتدأ تقديره هو الرحمن ثم أتى بجملة بعد جملة فقال علم القرآن والاول اصح وعلى القول الضعيف الرحمن آية (المسئلة الثالثة) قوله تعالى علم القرآن لابدله من مفعول ثان فاذلك نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) قيل علم بمعنى جعله علامة اى هو علامة النبوة ومعجزة وهذا يناسب قوله تعالى وانشق القمر على مابينا انه ذكر في اول تلك السورة معجزة من باب الهيبة وهو انه شق مالايشقه احد غيره وذكر في هذه السورة معجزة من باب الرحمة وهو انه نشر من العلوم مالاينشره غيره وهو مافي القرآن وعلى هذا الوجه من الجواب ففيه احتمال آخر وهو انه جعله بحيث يعلم فهو كقوله ولقد يسرنا القرآن للذكر والتعليم على هذا الوجه مجاز يقال لمن انفق على متعلم واعطى اجرة على تعليمه علمه (وثانيهما) ان المفعول الثاني لابدمنه وهو جبريل وغيره من الملائكة علمهم القرآن ثم انزله على عبده كما قال تعالى نزل به الروح الامين على قلبك ويحتمل ان يقال المفعول الثاني هو محمد صلى الله عليه وسلم وفيه اشارة الى ان القرآن كلام الله تعالى لا كلام محمد وفيه وجه ثالث وهو انه تعالى علم القرآن الانسان وهذا أقرب ليكون الانعام اعم والسورة مفتتحة لبيان الاعم من النعم الشاملة (المسئلة الرابعة) لم ترك المفعول الثاني نقول اشارة الى ان النعمة في تعميم التعليم لافي تعليم شخص دون شخص يقال فلان يطعم الطعام اشارة الى كرمه ولايبين من يطعمه (المسئلة الخامسة) مامعنى التعليم نقول على قولنا له مفعول ثان افادة العلم به فان قيل كيف يفهم قوله تعالى علم القرآن مع قوله ومايعلم تأويله الا الله نقول من لايقف عند قوله الا الله ويعطف الراسخون على الله عطف المفرد على المفرد لايرد عليه هذا ومن يقف ويعطف قوله تعالى والراسخون في العلم على قوله ومايعلم تأويله عطف جملة على جملة يقول انه تعالى يعلم علم القرآن لان من علم كتابا عظيما ووقع على مافيه وفيه مواضع مشكلة فلم مافي تلك المواضع بقدر الامكان يقال فلان يعلم الكتاب الفلاني ويتقنه بقدر وسعه وان كان لم يعلم مراد صاحب الكتاب بيقين وكذلك القول في تعليم القرآن او نقول لايعلم تأويله الا الله واما غيره فلا يعلم من تلقاء نفسه مالم يعلم فيكون اشارة الى ان كتاب الله تعالى ليس كغيره من الكتب التي يستخرج مافيها بقوة الذكاء والعلوم * ثم قال تعالى خلق الانسان علمه البيان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في وجه الترتيب وهو على وجهين (احدهما)

الا وهو منشؤه ومناطه ولامقصد يمتد اليه اعناق الهمم الا وهو منهجه وصراطه واسناد تعليمه الى اسم الرحمن للايذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة واحكامها وقد اقتصر على ذكره تنبيها على اصالته وجلالة قدره ثم قيل (خلق الانسان علمه البيان) تعيينا للعلم وتبيينا لكيفية التعليم والمراد بخلق الانسان انشاؤه على ماهو

ماذكرنا ان المراد من علم علم الملائكة وتعليمه الملائكة قبل خلق الانسان فعلم تعالى ملائكته المقربين القرآن حقيقة ويدل عليه قوله تعالى انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون ثم قال تعالى تنزيل من رب العالمين اشارة الى تنزيله بعد تعليمه وعلى هذا ففى النظم حسن زائد وذلك من حيث انه تعالى ذكر امورا علوية وامورا سفلية وكل علوى قابله بسفلى وقدم العلويات على السفليات الى آخر الآيات فقال علم القرآن اشارة الى تعليم العلويين وقال علمه البيان اشارة الى تعليم السفليين وقال الشمس والقمر فى العلويات وقال فى مقابلتهما من السفليات والنجم والشجر يسجدان ثم قال تعالى والسماء رفعها وفى مقابلتها والارض وضعها (وثانيهما) ان تقديم تعليم القرآن اشارة الى كونه أتم نعمة واعظم انعاما ثم بين كيفية تعليم القرآن فقال خلق الانسان علمه البيان وهو كقول القائل علمت فلانا الأدب حملته عليه وانفقت عليه مالى فقوله حملته وانفقت بيان لما تقدم وانما قدم ذلك لانه الانعام العظيم (المسئلة الثانية) ما الفرق بين هذه السورة وسورة العلق حيث قال هناك اقرأ باسم ربك الذى خلق ثم قال وربك الاكرم الذى علم بالقلم فقدم الخلق على التعليم نقول فى تلك السورة لم يصرح بتعليم القرآن فهو كالتعليم الذى ذكره فى هذه السورة بقوله علمه البيان بعد قوله خلق الانسان (المسئلة الثالثة) ما المراد من الانسان نقول هو الجنس وقيل المراد محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد آدم والاول اصح نظرا الى اللفظ فى خلق ويدخل فيه محمد وآدم وغيرهما من الانبياء (المسئلة الرابعة) ما البيان وكيف تعليمه نقول من المفسرين من قال البيان المنطق فعلمه ما ينطق به ويفهم غيره ما عنده فان به يمتاز الانسان عن غيره من الحيوانات وقوله خلق الانسان اشارة الى تقدير خلق جسمه الخاص وعلمه البيان اشارة الى تميزه بالعلم عن غيره وقد خرج ماذكرنا اولا ان البيان هو القرآن واعاده ليفصل ماذكره اجمالا بقوله تعالى علم القرآن كما قلنا فى المثال حيث يقول القائل علمت فلانا الأدب حملته عليه وعلى هذا فالبيان مصدر اريد به مافيه المصدر واطلاق البيان بمعنى القرآن على القرآن فى القرآن كثير قال تعالى هذا بيان للناس وقد سمى الله تعالى القرآن فرقانا وبيانا والبيان فرقان بين الحق والباطل فصح اطلاق البيان وارادة القرآن (المسئلة الخامسة) كيف صرح بذكر المفعولين فى علمه البيان ولم يصرح بهما فى علم القرآن نقول اما ان قلنا ان المراد من قوله علم القرآن هو انه علم الانسان القرآن فنقول حذفه لعظم نعمة التعليم وقدم ذكره على من علمه وعلى بيان خلقه ثم فصل بيان كيفية تعليم القرآن فقال خلق الانسان علمه وقد بين ذلك واما ان قلنا المراد علم القرآن الملائكة فلأن المقصود تعديد النعم على الانسان ومطالبته بالشكر ومنعه من التكذيب به وتعليمه للملائكة لا يظهر للانسان انه فائدة راجعة الى الانسان واما تعليم الانسان فهى نعمة ظاهرة فقال علمه البيان اى علم الانسان تعديدا للنعم عليه ومثل هذا قال فى اقرأ قال مرة علم بالقلم من غير بيان المعلم ثم قال مرة اخرى علم الانسان مالم يعلم

عليه من القوى الظاهرة والباطنة والبيان هو التعبير عما فى الضمير وليس المراد بتعليمه مجرد تمكين الانسان من بيان نفسه بل منه ومن فهم بيان غيره ايضا اذ هو الذى يدور عليه تعليم القرآن والجمل الثلاث اخبار مترادفة للرحمن واخلاء الاخيرتين عن العاطف لورودها منهاج التعديد

وهو البيان ويحتمل ان تمسك بهذه الآية على ان اللغات توقيفية حصل العلم بها بتعليم الله ❊ ثم قال تعالى (الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان) وفى الترتيب وجوه (احدها) هو ان الله تعالى لما ثبت كونه رحمن واشار الى ماهو شفاء ورحمة وهو القرآن ذكر نعمه وبدأ بخلق الانسان فانه نعمة جميع النعم به تتم ولولا وجوده لما انتفع بشئ ثم بين نعمة الادراك بقوله علمه البيان وهو كالوجود اذ لولاه لما حصل النفع والانتفاع ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما اظهر انواع النعم السماوية وهما الشمس والقمر ولولا الشمس لما زالت الظلمة ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فان نعمها لاتظهر لكل احد مثل ماتظهر نعمتهما ثم بين كمال نفعهما فى حركتهما بحساب لايتغير ولوكانت الشمس ثابتة فى موضع لما انتفع بها احد ولوكان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات فى اوقاتها وبناء الامر على الفصول ثم بين فى مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الارض وهما النبات الذى لاساق له والذى له ساق فان الرزق اصله منه ولولا النبات لما كان للآدمى رزق الاماشاء الله واصل النعم على الرزق الدار وانما قلنا النبات هو اصل الرزق لان الرزق امانباتى واماحيوانى كاللحم واللبن وغيرهما من اجزاء الحيوان ولولا النبات لما عاش الحيوان والنبات هو الاصل وهو قسمان قائم على ساق كالحنطة والشعير والاشجار الكبار واصول الثمار وغير قائم كالبقول المنبسطة على الارض والحشيش والعشب الذى هو غذاء الحيوان (ثانيها) هو انه تعالى لما ذكر القرآن وكان هو كافيا لايحتاج معه الى دليل آخر قال بعده الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر وغيرها من الآيات اشارة الى ان بعض الناس ان لم تكن له النفس الزكية التى يغنيها الله بالدلائل التى فى القرآن فله فى الآفاق آيات منها الشمس والقمر وانما اختارهما للذكر لان حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرهما على وجه مخصوص ولو اجتمع من فى العالم من الطبيعيين والفلاسفة وغيرهم وتواطؤا ان يثبتوا حركتهما على الممر المعين على الصوب المعين والمقدار المعلوم فى البطء والسرعة لما بلغ احد مراده الى ان يرجع الى الحق ويقول حركهما الله تعالى كما اراد وذكر الارض والسماء وغيرهما اشارة الى ماذكرنا من الدلائل العقلية المؤكدة لما فى القرآن من الدلائل السمعية (ثالثها) هو انا ذكرنا ان هذه السورة مفتتحة بمعجزة دالة عليها من باب الهيئة فذكر معجزة القرآن بما يكون جوابا لمنكرى النبوة على الوجه الذى نبهنا عليه وذلك هو انه تعالى انزل على نبيه الكتاب وارسله الى الناس بأشرف الخطاب فقال بعض المنكرين كيف يمكن نزول الجرم من السماء الى الارض وكيف يصعد ماحصل فى الارض الى السماء فقال تعالى الشمس والقمر بحسبان اشارة الى حركتهما ولاشك ان حركتهما بمحرك مختار ليس بطبيعى وهم وافقونا فيه وقالوا ان الحركة الدورية لايمكن ان تكون طبيعية بل اختيارية فنقول من حرك الشمس والقمر على الاستدارة انزل الملائكة على الاستقامة ثم النجم والشجر

(الشمس والقمر بحسبان) اى يجريان بحساب مقدر فى بروجهما ومنازلهما بحيث تنتظم بذلك امور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والاوقات وتعلم السنون والحساب (والنجم) اى النبات الذى ينجم اى يطلع من الارض ولاساق له (والشجر) اى الذى له ساق (يسجدان) اى ينقادان له تعالى فيما يريد بهما طبعا انقياد

يتحرك ان الى فوق على الاستقامة مع ان الثقيل على مذهبكم لا يصعد الى جهة فوق فذلك بقدرة الله تعالى وارادته فكذلك حركة الملك جائزة مثل الفلك واما قوله بحسبان ففيه اشارة الى الجواب عن قولهم أأنزل عليه الذكر من بيننا وذلك لانه تعالى كما اختار لحركتهما ممرا معينا وصوبا معلوما ومقدارا مخصوصا كذلك اختار للملك وقتا معلوما وممرا معينا يفصله وفى التفسير مباحث (الاول) ما الحكمة فى تعريته عما يرجع الى الله تعالى حيث قال هما بحسبان ولم يقل حركهما الله بحسبان او سخرهما او اجراهما كما قال خلق الانسان وقال علمه البيان نقول فيه حكم (منها) ان يكون اشارة الى ان خلق الانسان وتعليمه البيان اتم واعظم من خلق المنافع له من الرزق وغيره حيث صرح هناك بانه فاعله وصانعه ولم يصرح هنا (ومنها) ان قوله الشمس والقمر ههنا مثل هذا فى النظم بقول القائل انى اعطيتك الالوف والمئات مرارا حصل لك الآحاد والعشرات كثيرا وما شكرت ويكون معناه حصل لك منى ومن عطائى لكنه يخصص التصريح بالعطاء عند الكثير (ومنها) انه لما بينا ان قوله الشمس والقمر اشارة الى دليل عقلى مؤكد بالسمعى ولم يقل فعلت صريحا اشارة الى انه معقول اذا نظرت اليه عرفت انه منى واعترفت به واما السمعى فصرح بما يرجع اليه من الفعل (الثانى) على اى وجه تعلق الباء من بحسبان نقول هو بين من تفسيره والتفسير ايضا مر بيانه وخرج من وجه آخر فنقول فى الحسبان وجهان (الاول) المشهور ان المراد منه الحساب يقال حسب حسابا وحسبانا وعلى هذا فالباء للمصاحبة تقول قدمت بخير اى مع خير ومقرونا بخير فكذلك الشمس والقمر يجريان ومعهما حسابهما ومثله انا كل شئ خلقناه بقدر وكل شئ عنده بمقدار ويحتمل ان تكون للاستعانة كما فى قولك بعون الله غلبت وبتوفيق الله حججت فكذلك يجريان بحسبان من الله (الوجه الثانى) ان الحسبان هو الفلك تشبيها له بحسبان الرحا وهو ما يدور فيدير الحجر وعلى هذا فهو للاستعانة كما يقال فى الآلات كتبت بالقلم فهما يدوران بالفلك وهو كقوله تعالى وكل فى فلك يسبحون (الثالث) على الوجه المشهور هل كل واحد يجرى بحسبان او كلاهما بحسبان واحد ما المراد نقول كلاهما محتمل فان نظرنا اليهما فلكل واحد منهما حساب على حدة فهو كقوله تعالى كل فى فلك لا بمعنى ان الكل مجموع فى فلك واحد وكقوله وكل شئ عنده بمقدار وان نظرنا الى الله تعالى فللكل حساب واحد قدر الكل بتقدير حسبانهما بحساب مثاله من يقسم ميراث نفسه لكل واحد من الورثة نصيبا معلوما بحساب واحد ثم يختلف الامر عندهم فيأخذ البعض السدس والبعض كذا والبعض كذا فكذلك الحساب الواحد * واما قوله والنجم والشجر يسجدان ففيه ايضا مباحث (الاول) ما الحكمة فى ذكر الجمل السابقة من غير واو عاطفة ومن هنا ذكرها بالواو العاطفة نقول ليتنوع الكلام نوعين وذلك لان من يعد النعم على غيره تارة يذكر نسقا من غير حرف فيقول فلان انعم عليك كثيرا اغناك بعد فقر أعزك بعد ذل قواك بعد ضعف

الساجدين من المكلفين طوعا والجملتان خبران آخران للرحمن جردتا عن الرابط اللفظى تعويلا على كمال قوة الارتباط المعنوى اذ لا يتوهم ذهاب الوهم الى كون حال الشمس والقمر بتسخير غيره تعالى ولا الى كون سجود النجم والشجر لما سواه تعالى كأنه قيل الشمس والقمر بحسبانه والنجم

واخرى يذكرها بحرف عاطف وذلك العاطف قديكون واوا وقديكون فاء وقديكون ثم فيقول فلان اكرمك وانعم عليك واحسن اليك ويقول رباك فعلمك فاغناك ويقول اعطاك ثم اغناك ثم احوج الناس اليك فكذلك هنا ذكر التعديد بالنوعين جميعا فان قيل زده بيانا وبين الفرق بين النوعين فى المعنى قلنا الذى يقول بغير حرف كأنه يقصد به بيان النعم الكثيرة فيترك الحرف ليستوعب الكل من غير تطويل كلام ولهذا يكون ذلك النوع فى اغلب الامر عند مجاوزة النعم ثلاثا او عند ماتكون اكثر من نعمتين فان ذكر ذلك عند نعمتين فيقول فلان اعطاك المال وزوجك البنت فيكون فى كلامه اشارة الى نعم كثيرة وانما اقتصر على النعمتين للانموذج والذى يقول بحرف فكأنه يريد التنبيه على استقلال كل نعمة بنفسها واذهاب توهم البدل والتفسير فان قول القائل انعم عليك اعطاك المال هو تفسير للاول فليس فى كلامه ذكر نعمتين معا بخلاف ما اذا ذكر بحرف فان قيل ان كان الامر على ماذكرت فلو ذكر النعم الاول بالواو ثم عند تطويل الكلام فى الآخر سردها سردا هل كان اقرب الى البلاغة وورود كلام الله تعالى عليه كفاه دليلا على ان ماذكره الله تعالى ابلغ وله دليل تفصيلى ظاهر يبين ببحث وهو ان الكلام قد يشرع فيه المتكلم اولا على قصد الاختصار فيقتضى الحال التطويل اما لسائل يكثر السؤال واما لطالب يطلب الزيادة للطف كلام المتكلم واما لغيرهما من الاسباب وقد يشرع على قصد الاطناب والتفصيل فيعرض مايقتضى الاقتصار على المقصود من شغل السامع او المتكلم او غير ذلك مما جاء فى كلام الآدميين نقول كلام الله تعالى فوائده لعباده لا له ففى هذه السورة ابتدأ الامر بالاشارة الى بيان اتم النعم اذ هو المقصود فاتى بما يختص بالكثرة ثم ان الانسان ليس بكامل العلم يعلم مراد المتكلم عند مايكون المتكلم من ابناء جنسه فكيف اذا كان الكلام كلام الله تعالى فبدأ الله به على الفائدة الاخرى واذهاب توهم البدل والتفسير والنص على ان كل واحد منها نعمة كاملة فان قيل اذا كان كذلك فالحكمة فى تخصيص العطف بهذا الكلام والابتداء به لا بما قبله ولا بما بعده قلنا ليكون النوعان على السواء فذكر الثمانية من النعم كتعليم القرآن وخلق الانسان وغير ذلك اربعا منها بغير واو واربعا بالواو واما قوله تعالى فيها فاكهة والنخل وقوله والحب ذو العصف فلبيان نعمة الارض على التفصيل ثم فى اختيار الثمانية لطيفة وهى ان السبعة عدد كامل والثمانية هى السبعة مع الزيادة فيكون فيه اشارة الى ان نعم الله خارجة عن حد التعديد لما ان الزائد على الكمال لايكون معينا مبينا فذكر الثمانية منها اشارة الى بيان الزيادة على حد العدد لا لبيان الانحصار فيه (المسئلة الثانية) النجم ماذا نقول فيه وجهان (احدهما) النبات الذى لاساق له (والثانى) نجم السماء والاول اظهر لانه ذكره مع الشجر فى مقابلة الشمس والقمر ذكر ارضيين فى مقابلة سماويين ولان قوله يسجدان يدل على ان المراد ليس نجم السماء لان من فسر به قال يسجد بالغروب وعلى هذا فالشمس

والشجر يسجدان له واخلاء الجملة الاولى عن العاطف لما ذكر من قبل وتوسيط العاطف بينها وبين الثانية لتناسبهما من حيث التقابل لما ان الشمس والقمر علويان والنجم والشجر سفليان ومن حيث ان كلا من حال العلويين وحال السفليين من باب الانقياد لامر الله عز وجل

(والقمر)

والقمر ايضا كذلك يغربان فلا يبقى للاختصاص فائدة واما اذا قلنا هما ارضيان فنقول يسجدان بمعنى ظلالهما تسجد فيختص السجود بهما دون الشمس والقمر وفي سجودهما وجوه (احدها) ماذكرنا من سجود الظلال (ثانيها) خضوعهما لله تعالى وخروجهما من الارض ودوامهما وثباتهما عليها باذن الله تعالى فسخر الشمس والقمر بحركة مستديرة والنجم بحركة مستقيمة الى فوق فشبه الثبات في مكانها بالسجود لان الساجد يثبت (ثالثها) حقيقة السجود توجد منهما وان لم تكن مرئية كما يسبح كل منهما وان لم يفقه كما قال تعالى ولكن لاتفقهون تسبيحهم (رابعها) السجود وضع الجبهة او مقاديم الرأس على الارض والنجم والشجر في الحقيقة رؤسهما على الارض وارجلهما في الهواء لان الرأس من الحيوان مابه شربه واغتذاؤه والنجم والشجر اغتذاؤهما وشربهما باجذالهما ولان الرأس لاتبقى بدونه الحياة والشجر والنجم لايبقى شيء منهما ثابتا غضا عند وقوع الخلل في اصولهما ويبقى عند قطع فروعهما واعاليهما وانما يقال للفروع رؤس الاشجار لان الرأس في الانسان هو مايلي جهة فوق فقيل لاعالي الشجر رؤس اذا علمت هذا فالنجم والشجر رؤسهما على الارض دائما فهو سجودهما بالشبه لابطريق الحقيقة (المسئلة الثالثة) في تقديم النجم على الشجر موازنة لفظية للشمس والقمر وامر معنوى وهو ان النجم في معنى السجود ادخل لما انه ينبسط على الارض كالساجد حقيقة كما ان الشمس في الحسبان ادخل لان حساب سيرها ايسر عند المقومين من حساب سير القمر اذ ليس عند المقومين اصعب من تقويم القمر في حساب الزيج * ثم قال تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان) ورفع السماء معلوم معنى ونصبها معلوم لفظا فانها منصوبة بفعل يفسره قوله رفعها كأنه تعالى قال رفع السماء وقرئ والسماء بالرفع على الابتداء او العطف على الجملة الابتدائية التي هي قوله الشمس والقمر واما وضع الميزان فاشارة الى العدل (وفيه لطيفة) وهي انه تعالى بدأ اولا بالعلم ثم ذكر مافيه اشرف انواع العلوم وهو القرآن ثم ذكر العدل وذكر اخص الامور له وهو الميزان وهو كقوله تعالى وانزلنا الكتاب والميزان ليعمل الناس بالكتاب ويفعلوا بالميزان مايأمرهم به الكتاب فقوله علم القرآن ووضع الميزان مثل وانزلنا الكتاب والميزان فان قيل العلم لاشك في كونه نعمة عظيمة واما الميزان فما الذي فيه من النعم العظيمة التي بسببها يعد في الآلاء نقول النفوس تأبى الغبن ولا يرضى احد بأن يغلبه الآخر ولو في الشيء اليسير ويرى ان ذلك استهانة به فلا يتركه لخصمه لغلبة فلا احد يذهب الى ان خصمه يغلبه فلولا التبيين ثم التساوى لاوقع الشيطان بين الناس البغضاء كما وقع عند الجهل وزوال العقل والسكر فكما ان العقل والعلم صار اسببا لبقاء عمارة العالم فكذلك العدل في الحكمة سبب واخص الاسباب الميزان فهو نعمة كاملة ولا ينظر الى عدم ظهور نعمته لكثرته وسهولة الوصول اليه كالهواء والماء اللذين لايتبين فضلهما الا عند فقدهما * ثم قال تعالى (الا تطغوا في الميزان) وعلى هذا قيل المراد من

(والسماء رفعها) اى خلقها مرفوعة محلا ورتبة حيث جعلها منشأ احكامه وقضاياه ومتنزل اوامره ومحل ملائكته وفيه من التنبيه على كبرياء شأنه وعظم ملكه وسلطانه مالا يخفى وقرئ بالرفع على الابتداء (ووضع الميزان) اى شرع العدل وامر به بأن وفر كل مستحق ما استحقه ووفى كل ذى حق حقه حتى انتظم به امر العالم واستقام كما قال عليه الصلاة والسلام بالعدل قامت السموات والارض قيل فعلى هذا الميزان القرآن وهو قول الحسين بن الفضل كما في قوله تعالى وانزلنا معهم الكتاب والميزان وقيل هو مايعرف

الميزان الاول العدل ووضعه شرعه كأنه قال شرع الله العدل لئلا تطغوا في الميزان الذى هو آلة العدل هذا هو المنقول والاولى ان يعكس الامر ويقال الميزان الاول هو الآلة والثانى هو بمعنى المصدر ومعناه وضع الميزان لئلا تطغوا في الوزن او بمعنى العدل وهو اعطاء كل مستحق حقه فكأنه قال وضع الآلة لئلا تطغوا في اعطاء المستحقين حقوقهم ويجوز ارادة المصدر من الميزان كارادة الوثوق من الميثاق والوعد من الميعاد فاذن المراد من الميزان آلة الوزن والوجه الثانى ان ان مفسرة والتقدير شرع العدل اى لا تطغوا فيكون وضع الميزان بمعنى شرع العدل واطلاق الوضع للشرع والميزان للعدل جائز ويحتمل ان يقال وضع الميزان اى الوزن وقوله ألا تطغوا في الميزان على هذا الوجه المراد منه الوزن فكأنه نهى عن الطغيان في الوزن والاتزان واعادة الميزان بلفظه يدل على ان المراد منهما واحد فكأنه قال ألا تطغوا فيه فان قيل لو كان المراد الوزن لقال ألا تطغوا في الوزن نقول لو قال في الوزن لظن ان النهى مختص بالوزن للغير لا بالاتزان للنفس فذكر بلفظ الآلة التى تشتمل على الاخذ والاعطاء وذلك لان المعطى لو وزن ورجح رجحانا ظاهرا يكون قداربى ولا سيما في الصرف وبيع المثلى ❊ وقوله تعالى (واقيموا الوزن بالقسط) يدل على ان المراد من قوله ان لا تطغوا في الميزان هو بمعنى لا تطغوا في الوزن لان قوله واقيموا الوزن كالبيان لقوله ألا تطغوا في الميزان وهو الخروج عن اقامته بالعدل وقوله واقيموا الوزن بالقسط يحتمل وجهين (احدهما) اقيموا بمعنى قوموا به كما في قوله تعالى أقيموا الصلاة اى قوموا بها دواما لان الفعل تارة يعدى بحرف الجر وتارة بزيادة الهمزة تقول اذهبه وذهب به (ثانيهما) ان يكون اقيموا بمعنى قوموا يقال في العود اقمته وقومته والقسط العدل فان قيل كيف جاء قسط بمعنى جار لا بمعنى عدل نقول القسط اسم ليس بمصدر والاسماء التى لا تكون مصادر اذا أتى بها آت أو اوجدها موجد يقال فيها افعل بمعنى اثبت كما يقال فلان اطرف واتحف واعرف بمعنى جاء بطرفة وتحفة وعرف وتقول اقبض السيف بمعنى اثبت له قبضة وأعلم الثوب بمعنى جعل له علما وأعلم بمعنى اثبت العلامة وكذا الجم الفرس واسرج فاذا امر بالقسط اوأثبته فقد اقسط وهو بمعنى عدل واما قسط فهو فعل من اسم ليس بمصدر والاسم اذا لم يكن مصدرا في الاصل ويورد عليه فعل فربما يغيره عما هو عليه في اصله مثاله الكتف اذا قلت كتفته كتافا فكأنك قلت اخرجته عما كان عليه من الانتفاع وغيرته فان معنى كتفته شددت كتفيه بعضهما الى بعض فهو مكتوف فالكتف كالقسط صارا مصدرين عن اسم وصار الفعل معناه تغير عن الوجه الذى ينبغى ان يكون وعلى هذا لا يحتاج الى ان يقال القاسط والمقسط ليس اصلهما واحدا وكيف كان يمكن ان يقال اقسط بمعنى ازال القسط كما يقال اشكى بمعنى ازال الشكوى واعجم بمعنى ازال العجمة وهذا البحث فيه فائدة في قول القائل فلان اقسط من فلان وقال الله تعالى ذلكم اقسط عند الله والاصل في افعل التفضيل ان

به مقادير الاشياء من ميزان ومكيال ونحوهما وهو قول الحسن وقتادة والضحاك فالمعنى خلقه موضوعا مخفوضا على الارض حيث علق به احكام عباده وقضاياهم وما تعبدهم به من التسوية والتعديل في اخذهم واعطائهم (الا تطغوا في الميزان) اى لئلا تطغوا فيه على ان ان ناصبة ولا نافية ولام العلة مقدرة متعلقة بقوله تعالى ووضع الميزان او اى لا تطغوا على انها مفسرة لما في الشرع من معنى القول ولا ناهية اى لا تعتدوا ولا تتجاوزوا الانصاف وقرئ لا تطغوا على ارادة القول (واقيموا الوزن بالقسط)

يكون من الثلاثى المجرد تقول اظلم واعدل من ظالم وعادل فكذلك اقسط كان ينبغى ان يكون من قاسط ولم يكن كذلك لانه على ما بينا الاصل القسط وقسط فعل فيه لاعلى الوجه والاقساط ازالة ذلك ورد القسط الى اصله فصار اقسط موافقا للاصل وافعل التفضيل يؤخذ مما هو اصل لامن الذى فرع عليه فيقال اظلم من ظالم لامن مظلم واعلم من عالم لامن معلم والحاصل ان الاقسط وان كان نظرا الى اللفظ كان ينبغى ان يكون من القاسط لكنه نظرا الى المعنى يجب ان يكون من المقسط لان المقسط اقرب من الاصل المشتق وهو القسط ولا كذلك الظالم والمظلم فان الاظلم صار مشتقا من الظالم لانه اقرب الى الاصل لفظا ومعنى وكذلك العالم والمعلم والخبير والمخبر ❊ ثم قال (ولا تخسروا الميزان) اى لاتنقصوا الموزون والميزان ذكره الله تعالى ثلاث مرات كل مرة بمعنى آخر فالاول هو الآلة ووضع الميزان والثانى بمعنى المصدر لاتطغوا فى الميزان اى الوزن والثالث للمفعول لاتخسروا الميزان اى الموزون وذكر الكل بلفظ الميزان لما بينا ان الميزان اشمل للفائدة وهو كالقرآن ذكره الله تعالى بمعنى المصدر فى قوله تعالى فاتبع قرآنه وبمعنى المقروء فى قوله ان علينا جمعه وقرآنه وبمعنى الكتاب الذى فيه المقروء فى قوله تعالى ولو ان قرآنا سيرت به الجبال فكأنه آلة ومحل له وفى قوله تعالى آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم وفى كثير من المواضع ذكر القرآن لهذا الكتاب الكريم وبين القرآن والميزان مناسبة فان القرآن فيه من العلم ما لا يوجد فى غيره من الكتب والميزان فيه من العدل مالا يوجد فى غيره من الآلات فان قيل ما الفائدة فى تقديم السماء على الفعل حيث قال والسماء رفعها وتقديم الفعل على الميزان حيث قال ووضع الميزان نقول قد ذكرنا مرارا ان فى كل كلمة من كلمات الله فوائد لا يحيط بها علم البشر الا ما ظهر والظاهر ههنا انه تعالى لما عد النعم الثمانية كما بينا وكان بعضها اشد اختصاصا بالانسان من بعض فما كان شديد الاختصاص بالانسان قدم فيه الفعل كما بينا ان الانسان يقول اعطيتك الالوف وحصلت لك العشرات فلا يصرح فى القليل باسناد الفعل الى نفسه وكذلك يقول فى النعم المختصة اعطيتك كذا وفى التشريك وصل اليك مما اقتسمتم بينكم كذا فيصرح بالاعطاء عند الاختصاص ولا يسند الفعل الى نفسه عند التشريك فكذلك ههنا ذكر امورا اربعة بتقديم الفعل قال تعالى علم القرآن خلق الانسان علمه البيان ووضع الميزان وامورا اربعة بتقديم الاسم قال تعالى الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء رفعها والارض وضعها لما ان تعليم القرآن نفعه الى الانسان اعود وخلق الانسان مختص به وتعليمه البيان كذلك ووضع الميزان كذلك لانهم هم المنتفعون به لا الملائكة ولا غير الانسان من الحيوانات واما الشمس والقمر والنجوم والشجر والسماء والارض فينتفع به كل حيوان على وجه الارض وتحت السماء ❊ ثم قال تعالى (والارض وضعها للانام) فيه مباحث (الاول) هو انه قد مر ان تقديم الاسم على الفعل كان فى مواضع عدم الاختصاص وقوله تعالى للانام يدل

قوموا وزنكم بالعدل وقيل اقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل وقيل الاقامة باليد والقسط بالقلب (ولا تخسروا الميزان) اى لاتنقصوه امر اولا بالتسويه ثم نهى عن الطغيان الذى هو اعتداء وزيادة ثم عن الخسران الذى هو تطفيف ونقصان وكرر لفظ الميزان تشديدا للتوصية به وتأكيدا للامر باستعماله والحث عليه وقرئ ولا تخسروا بفتح التاء وضم السين وكسرها يقال خسر الميزان يخسره ويخسره وبفتح السين ايضا على ان الاصل ولا تخسروا فى الميزان فحذف الجار واوصل الفعل

على الاختصاص فان اللام لعود النفع نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ماقيل ان الانام يجمع الانسان وغيره من الحيوان فقوله للانام لايوجب الاختصاص بالانسان (ثانيهما) ان الارض موضوعة لكل ماعليها وانما خص الانسان بالذكر لان انتفاعه بهـا اكثر فانه ينتفع بها وبما عليها فقال للانام لكثرة انتفـاع الانام بها اذا قلنا ان الانام هو الانسان وان قلنا انه الخلق فالخلق يذكر ويراد به الانسان فى كثير من المواضع ❊ وقوله تعالى (فيها فاكهة والنخل ذات الاكمام) اشارة الى الاشجار وقوله والحب ذو العصف اشارة الى النبات الذى ليس بشجر والفاكهة ماتطيب به النفس وهى فاعلة اما على طريقــة عيشة راضية اى ذات رضا يرضى بهـا كل احد واما على تسمية الآلة بالفاعل يقال راوية للقربة التى يروى بها العطشان وفيه معنى المبالغة كالراحلة لما يرحل عليه ثم صار اسما لبعض الثمار وضعت اولا من غير اشتقاق والتنكير للتكثير اى كثيرة كما يقال لفلان مال اى عظيم وقد ذكرنا وجه دلالة التنكير على التعظيم وهو ان القائل كأنه يشير الى انه عظيم لايحيط به معرفة كل احد فتنكيره اشارة الى انه خارج عن انه يعرف كنهه وقوله تعالى والنخل ذات الاكمام اشارة الى النوع الآخر من الاشجار لان الاشجار المثمرة افضل الاشجار وهى منقسمة الى اشجار ثمارها فواكه لايقتات بها والى اشجار ثمارها قوت وقد يتفكه بها كما ان الفاكهة قد يقتات بها فان الجائع اذا لم يجد غير الفواكه يتقوت بها ويأكلها غير متفكه بها وفيه مباحث (الاول) ماالحكمة فى تقديم الفاكهة على القوت نقول هو من باب الابتداء بالادنى والارتقاء الى الاعلى والفاكهة فى النفع دون النخل الذى منه القوت والتفكه وهو دون الحب الذى عليه المدار فى سائر المواضع وبه يتغذى الانام فى جميع البـلاد فبـدأ بالفاكهة ثم ذكر النخل ثم ذكر الحب الذى هو اتم نعمة لموافقته مزاج الانسان ولهذا خلقه الله فى سائر البلاد وخصص النخل بالبـلاد الحـارة (البحث الثـانى) ماالحكمة فى تنكير الفاكهة وتعريف النخل وجوابه من وجوه (احدها) ان القوت محتاج اليه فى كل زمان متداول فى كل حين وأوان فهو اعرف والفاكهة تكون فى بعض الازمان وعند بعض الاشخاص (وثانيهما) هو ان الفاكهة على مابينا مايتفكه به وتطيب به النفس وذلك عند كل احد بحسب كل وقت شئ فمن غلب عليه حرارة وعطش يريد التفكه بالحامض وامثاله ومن الناس من يريد التفكه بالحلو وامثاله فالفاكهة غير متعينة فنكرها والنخل والحب معتادان معلومان فعرفهما (وثالثهـا) النخل وحدها نعمة عظيمة تعلقت بهـا منافع كثيرة واما الفاكهة فنوع منهـا كالخوخ والاجاص مثـلا ليس فيه عظيم النعمة كما فى النخل فقال فاكهة بالتنكير ليدل على الكثرة وقد صرح بالكثرة فى مواضع أخر فقال يدعون فيها بفاكهة كثيرة وقال وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولاممنوعة فالفاكهة ذكرها الله تعالى ووصفها بالكثرة صريحا وذكرها منكرة لتحمل على انها موصوفة بالكثرة اللائقة بالنعمة فى

(والارض وضعها) اى خفضها مدحوة على الماء (للانام) اى الخلق قيل المراد به كل ذى روح وقيل كل ماعلى ظهر الارض من دابة وقيل الثقلان وقوله تعالى (فيها فاكهة) الخ استئناف مسوق لتقرير ماافاده الجملة السـابقة من كون الارض موضوعة لمنافع الانام وتفصيل المنافع العائدة الى البشر وقيل حال مقدرة من الارض فالاحسن حينئذان يكون الحال هو الجار والمجرور وفاكهة رفع على الفاعلية اى فيها ضروب كثيرة ممايتفكه به (والنخل ذات الاكمام) هى اوعية الثمر جمع كم او كل مايكم اى

النوع الواحد منها بخلاف النخل (البحث الثالث) ما الحكمة في ذكر الفاكهة باسمها لا باسم اشجارها وذكر النخل باسمها لا باسم ثمرها فنقول قد تقدم بيانه في سورة يس حيث قال تعالى من نخيل واعناب وهو ان شجرة العنب وهي الكرم بالنسبة الى ثمرتها وهي العنب حقيرة وشجرة النخل بالنسبة الى ثمرتها عظيمة وفيها من الفوائد الكثيرة على ما عرف من اتخاذ الظروف منها والانتفاع بجمارها وبالطلع والبسر والرطب وغير ذلك فثمرتها في اوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة فهي اتم نعمة بالنسبة الى الغير من الاشجار فذكر النخل باسمه وذكر الفاكهة دون اشجارها فان فوائد اشجارها في عين ثمارها (البحث الرابع) ما معنى ذات الاكمام نقول فيه وجهان (احدهما) الاكمام كل ما يغطى جمع كم بضم الكاف ويدخل فيه لحاؤها وليفها ونواها والكل منتفع به كما ان النخل منتفع بها واغصانها وقلبها الذي هو الجمار (ثانيهما) الاكمام جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء الطلع فانه يكون اولا في وعاء فينشق ويخرج منه الطلع فان قيل على الوجه الاول ذات الاكمام في ذكرها فائدة لانها اشارة الى انواع النعم واما على الوجه الثاني فما فائدة ذكرها نقول الاشارة الى سهولة جمعها والانتفاع بها فان النخلة شجرة عظيمة لا يمكن هزها لتسقط منها الثمرة فلابد من قطف من الشجرة فلو كان مثل الجميز الذي يقال انه يخرج من الشجرة متفرقا واحدة واحدة لصعب قطافها فقال ذات الاكمام اي يكون في كم شيء كثيرا اذا اخذ عنقود واحد منه كفى رجلا واثنين كعناقيد العنب فانظر اليها فلو كان العنب حباتها في الاشجار متفرقة كالجميز والزعرور لم يمكن جمعه بالهز متى اريد جمعه فخلقه الله تعالى عناقيد مجتمعة كذلك الرطب فكونها ذات الاكمام من جملة اتمام الانعام * ثم قال تعالى (والحب ذو العصف والريحان) اقتصر من الاشجار على النخل لانها اعظمها ودخل في الحب القمح والشعير وكل حب يقتات به خبزا او يؤدم به وقد بينا انه اخره في الذكر على سبيل الارتقاء درجة فدرجة فالحبوب أنفع من النخل واعم وجودا في الاماكن وقوله تعالى ذو العصف فيه وجوه (احدها) التبن الذي ينتفع به دوابنا التي خلقت لنا (ثانيها) اوراق النبات الذي له ساق الخارجة من جوانب الساق كاوراق السنبلة من اعلاها الى اسفلها (ثالثها) العصف هو ورق ما يؤكل فحسب والريحان فيه وجوه قيل ما يشم وقيل الورق وقيل هو الريحان المعروف عندنا وبزره ينفع في الادوية والاظهر ان رأسها كالزهر وهو اصل وجود المقصود فان ذلك الزهر يتكون بذلك الحب وينعقد الى ان يدرك فالعصف اشارة الى ذلك الورق والريحان الى ذلك الزهر وانما ذكرهما لانهما يؤلان الى المقصود من احدهما علف الدواب ومن الآخر دواء الانسان وقرئ الريحان بالجر معطوفا على العصف وبالرفع عطفا على الحب وهذا يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون المراد من الريحان المشموم فيكون امرا مغايرا للحب فيعطف عليه (والثاني) ان يكون التقدير ذو الريحان بحذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه كما في واسئل

يغطى من ليف وسعف وكفرى فانه مما ينتفع به كالمكموم من ثمره وجماره وجذوعه (والحب) هو ما يتغذى به كالحنطة والشعير (ذو العصف) هو ورق الزرع وقيل التبن (والريحان) قيل هو الرزق اريد به اللب اي فيها ما يتلذذ به من الفواكه والجامع بين التلذذ والتغذى وهو ثمر النخل وما يتغذى به وهو الحب الذي له عصف هو علف الانعام وريحان هو مطعم الناس وقرئ والحب ذا العصف والريحان اي خلق الحب والريحان او اخص ويجوز ان يراد وذا الريحان فحذف المضاف

القرية وهذا مناسب للمعنى الذى ذكرنا ليكون الريحان الذى ختم به انواع النعم الارضية اعز واشرف ولو كان المراد من الريحان هو المعروف او المشمومات لما حصل ذلك الترتيب وقرئ والريحان ولا يقرأ هذا الا من يقرأ والحب ذا العصف ويعود الوجهان فيه * ثم قال تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه مباحث (الاول) الخطاب مع من نقول فيه وجوه * الاول الانس والجن وفيه ثلاثة اوجه * احدها ان يقال الانام اسم للجن والانس وقد سبق ذكره فعاد الضمير الى ما فى الانام من الجنس * ثانيها الانام اسم الانسان والجان لما كان منويا وظهر من بعد بقوله وخلق الجان جاز عود الضمير اليه وكيف لا وقد جاز عود الضمير الى المنوى وان لم يذكر منه شئ تقول لا ادرى ايهما خير من زيد وعمرو * ثالثها ان يكون المخاطب فى النية لا فى اللفظ كأنه قال فبأى آلاء ربكما تكذبان أيها الثقلان (الثانى) الذكر والانثى فعاد الضمير اليهما والخطاب معهما (الثالث) المراد فبأى آلاء ربك تكذب فبأى آلاء ربك تكذب بلفظ واحد والمراد التكرار للتأكيد (الرابع) المراد العموم لكن العام يدخل فيه قسمان بهما ينحصر الكل ولا يبقى شئ من العام خارجا عنه فانك اذا قلت انه تعالى خلق من يعقل ومن لا يعقل او قلت الله يعلم ما ظهر وما لم يظهر الى غير ذلك من التقاسيم الحاصرة يلزم التعميم فكأنه قال يا أيها القسمان فبأى آلاء ربكما تكذبان واعلم ان التقسيم الحاصر لا يخرج عن امرين اصلا ولا يحصل الحصر الا بهما فان زاد فهناك قسمان قد طوى احدهما فى الآخر مثاله اذا قلت اللون اما سواد واما بياض واما حمرة واما صفرة واما غيرها فكأنك قلت اللون اما سواد واما ليس بسواد او اما بياض واما ليس ببياض ثم الذى ليس ببياض اما حمرة واما ليس بحمرة وكذلك الى جملة التقسيمات فأشار الى القسمين الحاصرين على ان ليس لأحد ولا لشئ ان ينكر نعم الله (الخامس) التكذيب قد يكون بالقلب دون اللسان كما فى المنافقين وقد يكون باللسان دون القلب كما فى المعاندين وقد يكون بهما جميعا فالكذب لا يخرج عن ان يكون باللسان او بالقلب فكأنه تعالى قال يا أيها القلب واللسان فبأى آلاء ربكما تكذبان فان النعم بلغت حدا لا يمكن المعاند ان يستمر على تكذيبها (السادس) المكذب مكذب بالرسول والدلائل السمعية التى بالقرآن ومكذب بالعقل والبراهين التى فى الآفاق والانفس فكأنه تعالى قال يا أيها المكذبان بأى آلاء ربكما تكذبان وقد ظهرت آيات الرسالة فان الرحمن علم القرآن وآيات الواحدانية فانه تعالى خلق الانسان وعلمه البيان ورفع السماء ووضع الارض (السابع) المكذب قد يكون مكذبا بالفعل وقد يكون التكذيب منه غير واقع بعد لكنه متوقع فالله تعالى قال يا أيها المكذب تكذب وتتلبس بالكذب ويختلج فى صدرك انك تكذب فبأى آلاء ربكما تكذبان وهذه الوجوه قريبة بعضها من بعض والظاهر منها الثقلان لذكرهما فى الآيات من هذه السورة بقوله سنفرغ لكم ايها الثقلان

(وبقوله)

واقيم المضاف اليه مقامه والريحان اما فعلان من روح فقلبت الواو ياء وادغم ثم خفف او فعلان قلبت واوه ياء للتخفيف او للفرق بينه وبين الروحان وهو ماله روح قاله القرطبى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى للانام وسينطق به قوله تعالى ايها الثقلان والفاء لترتيب الانكار والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء وصنوف الآلاء الموجبة للايمان والشكر حتما والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية والتربية مع الاضافة الى ضميرهم لتأكيد النكير

وبقوله يامعشر الجن والانس وبقوله خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان الى غير ذلك والزوجان لوروده في القرآن كثيرا والتعميم بارادة نوعين حاصرين للجميع يمكن ان يقال التعميم اولى لان المراد لو كان الجن والانس اللذان خاطبهما بقوله فبأى آلاء ربكما تكذبان ما كان يقول بعد خلق الانسان بل كان يخاطب ويقول خلقناك يأيها الانسان من صلصال وخلقناك يأيها الجان او يقول خلقك ربك يا أيها الانسان لان الكلام صار خطابا معهما ولما قال خلق الانسان دل على ان المخاطب غيره وهو العموم فيصير كأنه قال يأيها الخلق والسامعون انا خلقنا الانسان من صلصال كالفخار وخلقنا الجان من مارج من نار وسيأتى باقي البيان في مواضع من تفسير هذه السورة ان شاء الله تعالى (الثانى) ما الحكمة في الخطاب ولم يسبق ذكر مخاطب نقول هو من باب الالتفات اذ مبنى افتتاح السورة على الخطاب مع كل من يسمع فكأنه لما قال الرحمن علم القرآن قال اسمعوا ايها السامعون والخطاب للتقريع والزجر كأنه تعالى نبه الغافل المكذب على انه يفرض نفسه كالواقف بين يدى ربه يقول ربه انعمت عليك بكذا وكذا ثم يقول فبأى آلائى تكذب ولاشك انه عند هذا يستحى استحياء لايكون عند فرض الغيبة (الثالث) ما الفائدة في اختيار لفظة الرب واذا خاطب اراد خطاب الواحد فلم قال ربكما تكذبان وهو الحاضر المتكلم فكيف يجعل التكذيب المسند الى المخاطب وارادا على الغائب ولو قال بأى آلائى تكذبان كان اليق في الخطاب نقول في السورة المتقدمة قال كذبت ثمود بالنذر وكذبت قوم لوط بالنذر وقال كذبوا بآياتنا وقال فأخذناهم وقال كيف كان عذابى ونذر كلها بالاسناد الى ضمير المتكلم حيث كان ذلك للتخويف فالله تعالى اعظم من ان يخشى فلو قال اخذهم القادر او المهلك لما كان في التعظيم مثل قوله فأخذناهم ولهذا قال تعالى ويحذركم الله نفسه وهذا كان المشهور بالقوة والعزة يقول انا الذى تعرفنى فيكون في اثبات الوعيد فوق قوله انا المعذب فلما كان الاسناد الى النفس مستعملا في تلك السورة عند الاهلاك والتعذيب ذكر في هذه السورة عند بيان الرحمة لفظا يزيل الهيبة وهو لفظ الرب فكأنه تعالى قال فبأ آلاء ربكما تكذبان وهو ربا كما (الرابع) ما الحكمة في تكرير هذه الآية وكونه احدى وثلاثين مرة نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ان فائدة التكرير التقرير واما هذا العدد الخاص فالاعداد توقيفية لايطلع على تقدير المقدورات اذهان الناس والاولى ان لايبالغ الانسان في استخراج الامور البعيدة في كلام الله تعالى تمسكا بقول عمر رضى الله تعالى عنه حيث قال مع نفسه عند قراءته سورة عبس كل هذا قد عرفناه فما الاب ثم رفض عصا كانت بيده وقال هذا لعمر الله التكليف وما عليك ياعمر ان لاتدرى ما الاب ثم قال اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه وسيأتى فائدة كلامه تعالى في تفسير السورة ان شاء الله تعالى (الجواب الثانى) ما قلناه انه تعالى ذكر في السورة المتقدمة فكيف كان عذابى

وتشديد التوبيخ ومعنى تكذيبهم بالآلائه تعالى كفرهم بها اما بانكار كونه نعمة في نفسه كتعليم القرآن وما يستند اليه من النعم الدينية واما بانكار كونه من الله تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة اليهم باسناده الى غيره تعالى استقلالا او اشتراكا صريحا او دلالة فان اشراكهم لآلهتهم به تعالى في العبادة من دواعى اشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لما ان دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الايمان والشكر شهادة منها بذلك

وندر اربع مرات مرة لبيان ما فى ذلك الكلام من المعنى وثلاث مرات للتقرير والتكرير والثلاث والسبع من بين الاعداد فوائد ذكرناها فى قوله تعالى والبحر يمده من بعده سبعة ابحر فلما ذكر العذاب ثلاث مرات ذكر الآلاء احدى وثلاثين مرة مرة لبيان ما فيه من المعنى وثلاثين مرة للتقرير لتكون الآلاء مذكورة عشر مرات اضعاف مرات ذكر العذاب اشارة الى معنى قوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها (الثالث) ان الثلاثين مرة تكرير بعد البيان فى المرة الاولى لان الخطاب مع الجن والانس والنعم منحصرة فى دفع المكروه وتحصيل المقصود لكن اعظم المكروهات عذاب جهنم ولها سبعة ابواب واتم المقاصد نعيم الجنة ولها ثمانية ابواب فاغلاق الابواب السبعة وفتح الابواب الثمانية جميعه نعمة واكرام فاذا اعتبرت تلك النعم بالنسبة الى جنسى الجن والانس تبلغ ثلاثين مرة وهى مرات التكرير للتقرير والمرة الاولى لبيان فائدة الكلام وهذا منقول وهو ضعيف لان الله تعالى ذكر نعم الدنيا والآخرة وما ذكره اقتصار على بيان نعم الآخرة (الرابع) هو ان ابواب النار سبعة والله تعالى ذكر سبع آيات تتعلق بالتخويف من النار من قوله تعالى سنفرغ لكم ايها الثقلان الى قوله تعالى يطوفون بينها وبين حميم آن ثم انه تعالى ذكر بعد ذلك جنتين حيث قال ولمن خاف مقام ربه جنتان ولكل جنة ثمانية ابواب تفتح كلها للمتقين وذكر من اول السورة الى ما ذكرنا من آيات التخويف ثمان مرات فبأى آلاء ربكما تكذبان سبع مرات للتقرير بالتكرير استيفاء للعدد الكثير الذى هو سبعة وقد بينا سبب اختصاصه فى قوله تعالى سبعة ابحر وسنعيد منه طرفا ان شاء الله تعالى فصار المجموع ثلاثين مرة والمرة الواحدة التى هى عقيب النعم الكثيرة لبيان المعنى وهو الاصل والتكثيرة تكرار فصار احدى وثلاثين مرة ❊ ثم قال تعالى (خلق الانسان من صلصال كالفخار) وفى الصلصال وجهان (احدهما) هو بمعنى المسنون من صل اللحم اذا انتن ويكون الصلصال حينئذ من الصلول (وثانيهما) من الصليل يقال صل الحديد صليلا اذا حدث منه صوت وعلى هذا فهو الطين اليابس الذى يقع بعضه على بعض فيحدث فيما بينهما صوت اذ هو الطين اللازب الحر الذى اذا التزق بالشئ ثم انفصل عنه دفعة سمع منه عند الانفصال صوت فان قيل الانسان اذا خلق من الصلصال كيف ورد فى القرآن انه خلق من التراب وورد انه خلق من الطين ومن حمأ ومن ماء مهين الى غير ذلك نقول اما قوله من تراب تارة ومن ماء مهين اخرى فذلك باعتبار شخصين آدم خلق من صلصال ومن حمأ واولاده خلقوا من ماء مهين ولولا خلق آدم لما خلق اولاده ويجوز ان يقال زيد خلق من حمأ بمعنى ان اصله الذى هو جده خلق منه واما قوله من طين لازب ومن حمأ وغير ذلك فهو اشارة الى ان آدم عليه السلام خلق اولا من التراب ثم صار طينا ثم حمأ مسنونا ثم لازبا فكأنه خلق من هذا ومن ذاك ومن ذلك والفخار الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف مستعمل على اصل الاشتقاق وهو مبالغة الفاخر كالعلام فى العالم وذلك

فكفرهم بها تكذيب بها لا محالة اى فاذا كان الامر كما فصل فبأى فرد من افراد آلاء الله ربكما تكذبان مع ان كلا منها ناطق بالحق شاهد بالصدق (خلق الانسان من صلصال كالفخار) تمهيد للتوبيخ على اخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتى كل واحد من الثقلين والصلصال الطين اليابس الذى له صلصلة والفخار الخزف وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طينا ثم حمأ مسنونا ثم صلصالا فلا تنافى بين الآية الناطقة باحدها وبين ما نطق بأحد الآخرين

ان التراب الذى من شأنه التفتت اذا صار بحيث يجعل ظرف الماء والمائعات ولا يتفتت ولا ينقع فكأنه يفتخر على افراد جنسه ※ ثم قال تعالى (وخلق الجان من مارج من نار فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفى الجان وجهان (احدهما) هو ابو الجن كما ان الانسان المذكور هنا هو ابو الانس وهو آدم (ثانيهما) هو الجن بنفسه فالجان والجن وصفان من باب واحد كما يقال ملح ومالح او نقول الجن اسم الجنس كالملح والجان مثل الصفة كالمالح (وفيه بحث) وهو ان العرب تقول جن الرجل ولا يعلم له فاعل يبنى الفعل معه على المذكور واصل ذلك جنه الجان فهو مجنون فلا يذكر الفاعل لعدم العلم به و يقتصر على قولهم جن فهو مجنون و ينبغى ان يعلم ان القائل الاول لا يقول الجان اسم علم لان الجان للجن كآدم لنا وانما يقول بان المراد من الجان ابوهم كما ان المراد من الانسان أبونا آدم فالاول منا خلق من صلصال ومن بعده خلق من صلبه كذلك الجن الاول خلق من نار ومن بعده من ذريته خلق من مارج والمارج المختلط ثم فيه وجهان (احدهما) ان المارج هو النار المشوبة بدخان (والثانى) النار الصافية والثانى اصح من حيث اللفظ والمعنى (اما اللفظ) فلانه تعالى قال من مارج من نار اى نار مارجة وهذا كقول القائل هذا مصوغ من ذهب فان قوله من ذهب فيه بيان تناسب الاخلاط فيكون المعنى الكل من ذهب غير انه يكون انواعا مختلفة مختلطة بخلاف ما اذا قلت هذا قمح مختلط فلك ان تقول مختلط بماذا فيقول من كذا وكذا فلو اقتصر على قوله من قمح وكان منه ومن غيره ايضا لكان اقتصاره عليه مخلا بما طلب من البيان (واما المعنى) فلانه تعالى كما قال فى خلق الانسان من صلصال اى من طين حر كذلك بين ان خلق الجان من نار خالصة فان قيل فكيف يصح قوله مارج بمعنى مختلط مع انه خالص نقول النار اذا قويت التهبت ودخل بعضها فى بعض كالشئ الممتزج امتزاجا جيدا لا تميز فيه بين الاجزاء المختلطة وكأنه من حقيقة واحدة كما فى الطين المختمر وذلك يظهر فى التنور المسجور ان قرب منه الحطب تحرقه فكذلك مارج بعضها ببعض لا يعقل بين اجزائها دخان واجزاء ارضية وسنبين هذا فى قوله تعالى مرج البحرين فان قيل المقصود تعديد النعم على الانسان فما وجه بيان خلق الجان نقول الجواب عنه من وجوه (احدها) ما بينا ان قوله ربكما خطاب مع الانس والجن يعدد عليهما النعم لا على الانسان وحده (ثانيها) انه بيان فضل الله تعالى على الانسان حيث بين انه خلق من اصل كثيف كدر وخلق الجان من اصل لطيف وجعل الانسان افضل من الجان فانه اذا نظر الى اصله علم انه ما نال الشرف الا بفضل الله تعالى فكيف يكذب بآلاء الله (ثالثها) ان الآية مذكورة لبيان القدرة لا لبيان النعمة وكأنه تعالى لما بين النعم الثمانية التى ذكرها فى اول السورة فكأنه ذكر الثمانية لبيان خروجها عن العدد الكثير الذى هو سبعة ودخولها فى الزيادة التى يدل عليها الثمانية كما بينا وقلنا ان العرب عند الثامن تذكر الواو اشارة الى ان الثامن من

وخلق الجان) اى الجن او ابا الجن (من مارج) من لهب صاف (من نار) بيان لمارج فانه فى الاصل للمضطرب من مرج اذا اضطرب (فبأى آلاء ربكما تكذبان) مما افاض عليكما فى تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم (رب المشرقين ورب المغربين) بالرفع على خبرية مبتدأ محذوف اى الذى فعل ما ذكر من الافاعيل البديعة رب مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما ومن

جنس آخر فبعد تمام السبعة الاول شرع في بيان قدرته الكاملة وقال هو الذي خلق الانسان من تراب والجان من نار فبأى الآلاء الكثيرة المذكورة التي سبقت من السبعة والتي دلت عليها الثامنة تكذبان واذا نظرت الى مادلت عليه الثمانية والى قوله كل يوم هو في شأن فبأى آلاء ربكما تكذبان يظهر لك صحة ماذكر انه بين قدرته وعظمته ثم يقول فبأى تلك الآلاء التي عددتها او لا تكذبان وسنذكر تمامه عند تلك الآيات ۞ ثم قال تعالى (رب المشرقين ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه وجوه (اولها) مشرق الشمس والقمر ومغربهما والبيان حينئذ في حكم اعادة ماسبق مع زيادة لانه تعالى لما قال الشمس والقمر بحسبان دل على ان لهما مشرقين ومغربين ولما ذكر خلق الانسان علمه البيان دل على انه مخلوق من شئ فبين انه الصلصال (الثاني) مشرق الشتاء ومشرق الصيف فان قيل ماالحكمة في اختصاصهما مع ان كل يوم من ستة اشهر للشمس مشرق ومغرب يخالف بعضها لبعض نقول غاية انحطاط الشمس في الشتاء وغاية ارتفاعها في الصيف والاشارة الى الطرفين تتناول مابينهما فهو كما يقول القائل في وصف ملك عظيم له المشرق والمغرب ويفهم ان له مابينهما ايضا (الثالث) التثنية اشارة الى النوعين الحاضرين كما بينا ان كل شئ فانه ينحصر في قسمين فكأنه قال رب مشرق الشمس ومشرق غيرها فهما مشرقان فتناول الكل او يقال مشرق الشمس والقمر وما يفرض اليهما العاقل من مشرق غيرهما فهو تثنية في معنى الجمع ۞ ثم قال تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في تعلق الآية بما قبلها فنقول لما ذكر تعالى المشرق والمغرب وهما حركتان في الفلك ناسب ذلك ذكر البحرين لان الشمس والقمر يجريان في الفلك كما يجرى الانسان في البحر قال تعالى وكل في فلك يسبحون فذكر البحرين عقيب المشرقين والمغربين ولان المشرقين والمغربين فيهما اشارة الى البحر لانحصار البر والبحر بين المشرق والمغرب لكن البر كان مذكورا بقوله تعالى والارض وضعها فذكر ههنا مالم يكن مذكورا (المسئلة الثانية) مرج اذا كان متعديا كان بمعنى خلط اوما يقرب منه فكيف قال تعالى من مارج من نار ولم يقل من ممروج نقول مرج متعد ومرج بكسر الراء لازم فالمارج والمرج والمريج من مرج يمرج كفرح يفرح والاصل في فعل ان يكون غريزيا والاصل في الغريزي ان يكون لازما ويثبت له حكم الغريزي وكذلك فعل في كثير من المواضع (المسئلة الثالثة) في البحرين وجوه (احدها) بحر السماء وبحر الارض (ثانيها) البحر الحلو والبحر المالح كما قال تعالى ومايستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج وهو اصح واظهر من الاول (ثالثها) ماذكرنا في المشرقين وفي قوله تكذبان انه اشارة الى النوعين الحاضرين فدخل فيه بحر السماء وبحر الارض والبحر العذب والبحر المالح (رابعها) انه تعالى خلق في الارض بحارا تحيط بها الارض وبعض جزائرها يحيط الماء وخلق بحرا

(محيطا)

قضيته ان يكون رب مابينهما من الموجودات قاطبة وقيل على الابتداء والخبر قوله تعالى مرج الخ وقرئ بالجر على انه بدل من ربكما (فبأى آلاء ربكما تكذبان) مما في ذلك من فوائد لاتحصى من اعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث مايناسب كل فصل في وقته الى غير ذلك (مرج البحرين) اى ارسلهما من مرجت الدابة اذا ارسلتها والمعنى ارسل البحر الملح والبحر

محيطا بالارض وعليه الارض واحاط به الهواء كما قال به اصحاب علم الهيئة وورد به اخبار مشهورة وهذه البحار التى فى الارض لها اتصال بالبحر المحيط ثم انهما لا يبغيان على الارض ولا يغطيانها بفضل الله تعالى لتكون الارض بارزة يتخذها الانسان مكانا وعند النظر الى امر الارض يحارا لطبيعى ويتلجلج فى الكلام فان عندهم موضع الارض بطبعه ان يكون فى المركز ويكون الماء محيطا بجميع جوانبه فاذا قيل لهم فكيف ظهرت الارض من الماء ولم ترسب يقولون لانجذاب البحار الى بعض جوانبها فان قيل لماذا انجذب فالذى يكون عنده قليل من العقل يرجع الى الحق ويجعله بارادة الله تعالى ومشيئته والذى يكون عديم العقل يجعل سببه من الكواكب واوضاعها واختلاف مقابلاتها وينقطع فى كل مقام مرة بعد أخرى وفى آخر الامر اذا قيل له اوضاع الكواكب لم اختلفت على الوجه الذى اوجب البرد فى بعض الارض دون بعض آخر صار كما قال تعالى فبهت الذى كفر ويرجع الى الحق ان هداه الله تعالى (المسئلة الرابعة) اذا كان المرج بمعنى الخلط فما الفائدة فى قوله تعالى يلتقيان نقول قوله تعالى مرج البحرين اى ارسل بعضهما فى بعض وهما عند الارسال بحيث يلتقيان او من شأنهما الاختلاط والالتقاء ولكن الله تعالى منعهما عما فى طبعهما وعلى هذا يلتقيان حال من البحرين ويحتمل ان يقال من محذوف تقديره تركهما فهما يلتقيان الى الآن ولا يمتزجان (وعلى الاول) فالفائدة اظهار القدرة فى النفع فانه اذا ارسل الماءين بعضهما على بعض وفى طبعهما بخلق الله وعادته السيلان والالتقاء ويمنعهما البرزخ الذى هو قدرة الله او بقدرة الله يكون ادل على القدرة مما اذا لم يكونا على حال يلتقيان وفيه اشارة الى مسئلة حكمية وهى ان الحكماء اتفقوا على ان الماء له حيز واحد بعضه ينجذب الى بعض كاجزاء الزئبق غير ان عند الحكماء المحققين ذلك باجراء الله تعالى ذلك عليه وعند من يدعى الحكمة ولم يوفقه الله من الطبيعيين يقول ذلك له بطبعه فقوله يلتقيان اى من شأنهما ان يكون مكانهما واحدا ثم انهما بقيا فى مكانين متميزين فذلك برهان القدرة والاختيار (وعلى الوجه الثانى) الفائدة فى بيان القدرة ايضا على المنع من الاختلاط فان الماءين اذا تلاقيا لا يمتزجان فى الحال بل يبقيان زمانا يسيرا كالماء المسخن اذا غمس اناء مملوء منه فى ماء بارد ان لم يمكث فيه زمانا لا يمتزج بالبارد لكن اذا دام مجاورتهما فلا بد من الامتزاج فقال تعالى مرج البحرين خلاهما ذهابا الى ان يلتقيان ولا يمتزجان فذلك بقدرة الله ثم قال تعالى بينهما برزخ لا يبغيان اشارة الى ما ذكرناه من منعه اياهما من الجريان على عادتهما والبرزخ الحاجز وهو قدرة الله تعالى فى البعض وبقدرة الله فى الباقى فان البحرين قد يكون بينهما حاجز أرضى محسوس وقد لا يكون * وقوله لا يبغيان فيه وجهان (احدهما) من البغى اى لا يظلم احدهما على الآخر بخلاف قول الطبيعى حيث يقول الماآن كلاهما جزء واحد فقال هما لا يبغيان ذلك (وثانيهما) ان يقال لا يبغيان من البغى بمعنى

العذب (يلتقيان) اى يتجاوران ويتماس سطوحهما لا فصل بينهما فى مرأى العين وقيل ارسل بحرى فارس والروم يلتقيان فى المحيط لانهما خليجان يتشعبان منه (بينهما برزخ) اى حاجز من قدرة الله عز وجل او من الارض (لا يبغيان) اى لا يبغى احدهما على الآخر بالممازجة وابطال الخاصية او لا يتجاوزان حديهما باغراق ما بينهما (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وليس

الطلب اى لايطلبان شيأ وعلى هذا فيه وجه آخر وهو ان يقال ان يبغيان لا مفعول له معين بل هو بيان انهما لايبغيان فى ذاتهما ولا يطلبان شيأ اصلا بخلاف مايقول الطبيعى انه يطلب الحركة والسكون فى موضع عن موضع * ثم قال تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى القرا آت التى فيها قرئ يخرج من خرج ويخرج بفتح الراء من اخرج وعلى الوجهين فاللؤلؤ والمرجان مرفوعان ويخرج بكسر الراء بمعنى يخرج الله ونخرج بالنون المضمومة والراء المكسورة وعلى القراءتين بنصب اللؤلؤ والمرجان واللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره وقيل المرجان هو الحجر الاحمر (المسئلة الثانية) اللؤلؤ لايخرج الامن المالح فكيف قال منهما نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان ظاهر كلام الله تعالى اولى بالاعتبار من كلام بعض الناس الذى لايوثق بقوله ومن علم ان اللؤلؤ لايخرج من الماء العذب وهب ان الغواصين ماا خرجوه الامن المالح وماوجدوه الافيه لكن لايلزم من هذا ان لايوجد فى الغير سلمنا لم قلتم ان الصدف يخرج بامر الله من الماء العذب الى الماء المالح وكيف يمكن الجزم به والامور الارضية الظاهرة خفيت عن التجار الذين قطعوا المفاوز وداروا البلاد فكيف لايخفى أمر مافى قعر البحر عليهم (ثانيهما) ان نقول ان صح قولهم فى اللؤلؤ انه لا يخرج الامن البحر المالح فنقول فيه وجوه (احدها) ان الصدف لايتولد فيه اللؤلؤ الامن المطر وهو بحر السماء (ثانيها) انه يتولد فى ملتقاهما ثم يدخل الصدف فى المالح عند انعقاد الدر فيه طالبا للملوحة كالمتوحمة التى تشتهى الملوحة اوائل الحمل فيثقل هنالك فلا يمكنه الدخول فى العذب (ثالثها) ان ماذكر تم انما كان يردان لو قال يخرج من واحد منهما فاما على قوله يخرج منهما لايرد اذ الخارج من احدهما مع ان احدهما مبهم خارج منهما كما قال تعالى وجعل القمر فيهن نورا ويقال فلان خرج من بلاد كذا ودخل فى بلاد كذا ولم يخرج الامن موضع من بيت من محلة فى بلدة (رابعها) ان من ليست لابتداء شئ كما يقال خرجت من الكوفة بل لابتداء عقلى كما يقال خلق آدم من تراب ووجدت الروح من امر الله فكذلك اللؤلؤ يخرج من الماء اى منه يتولد (المسئلة الثالثة) اى نعمة عظيمة فى اللؤلؤ والمرجان حتى يذكرهما الله تعالى مع نعمة تعلم القرآن وخلق الانسان وفى الجواب قولان (الاول) ان نقول النعم منها خلق الضروريات كالارض التى هى مكاننا ولولا الارض لما امكن وجود التمكن وكذلك الرزق الذى به البقاء ومنها خلق المحتاج اليه وان لم يكن ضروريا كانواع الحبوب واجراء الشمس والقمر ومنها النافع وان لم يكن محتاجا اليه كانواع الفواكه وخلق البحار من ذلك كما قال تعالى والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ومنها الزينة وان لم يكن نافعا كاللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى وتستخرجون حلية تلبسونها فالله تعالى ذكر انواع النعم الاربعة التى تتعلق بالقوى الجسمانية وصدرها بالقوة العظيمة التى هى الروح وهى العلم بقوله علم القرآن (والثانى)

منهما شئ يقبل التكذيب (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) اللؤلؤ الدر والمرجان الخرز الاحمر المشهور وقيل اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره فنسبة خروجهما حينئذ الى البحرين مع انهما انما يخرجان من الملح على ماقالوا لما قيل انهما لايخرجان الا من ملتقى الملح والعذب اولانهما لما التقيا وصارا كالشئ الواحد ساغ ان يقال يخرجان منهما كما يقال يخرجان من البحر مع

(ان)

ان نقول هذه بيان عجائب الله تعالى لا بيان النعم والنعم قد تقدم ذكرها وذلك لان خلق الانسان من صلصال وخلق الجان من نار من باب العجائب لا من باب النعم ولو خلق الله الانسان من اى شئ خلقه لكان انعاما اذا عرفت هذا فنقول الاركان اربعة التراب والماء والهواء والنار فالله تعالى بين بقوله خلق الانسان من صلصال ان الانسان خلقه من تراب وطين وبين بقوله خلق الجان من مارج من نار ان النار ايضا اصل لمخلوق عجيب وبين بقوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ان الماء اصل لمخلوق آخر كالحيوان عجيب بقى الهواء لكنه غير محسوس فلم يذكر انه اصل مخلوق بل بين كونه منشأ للجوارى التى فى البحر كالاعلام ❊ فقال (وله الجوار المنشآت فى البحر كالاعلام فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة فى جعل الجوارى خاصة له وله السموات ومافيها والارض وما عليها نقول هذا الكلام مع العوام فذكر مالا يغفل عنه من له ادنى عقل فضلا عن الفاضل الذكى فقال لاشك ان الفلك فى البحر لا يملكه فى الحقيقة احد اذلا تصرف لاحد فى هذا الفلك وانما كلهم منتظرون رحمة الله تعالى معترفون بأن اموالهم وارواحهم فى قبضة قدرة الله تعالى وهم فى ذلك يقولون لك الفلك ولك الملك وينسبون البحر والفلك اليه ثم اذا خرجوا ونظروا الى بيوتهم المبنية بالحجارة والكلس وخفى عليهم وجوه الهلاك يدعون مالك الفلك وينسون ماكانوا ينسبون البحر والفلك اليه واليه الاشارة بقوله فاذاركبوا فى الفلك الآية (المسئلة الثانية) الجوارى جمع جارية وهى اسم للسفينة او صفة فان كانت اسما لزم الاشتراك والاصل عدمه وان كانت صفة فالاصل ان تكون الصفة جارية على الموصوف ولم يذكر الموصوف هنا فنقول الظاهر ان تكون صفة للتى تجرى ونقل عن الميدانى ان الجارية السفينة التى تجرى لما انها موضوعة للجرى وسميت المملوكة جارية لان الحرة تراد للسكن والازدواج والمملوكة لتجرى فى الحوائج لكنها غلبت فى السفينة لانها فى اكثر احوالها تجرى ودل العقل على ماذكرنا من ان السفينة هى التى تجرى غير انها غلبت بسبب الاشتقاق على السفينة الجارية ثم صار يطلق عليها ذلك وان لم تجر حتى يقال للسفينة الساكنة او المشدودة على ساحل البحر جارية لما انها تجرى وللمملوكة الجالسة جارية فللغلبة ترك الموصوف واقيمت الصفة مقامه فقوله تعالى وله الجوار اى السفن الجاريات على ان السفينة ايضا فعيلة من السفن وهو النحت وهى فعيلة بمعنى فاعلة عند ابن دريد اى تسفن الماء او فعيلة بمعنى مفعولة عند غيره بمعنى منحوتة فالجارية والسفينة جاريتان على الفلك (وفيه لطيفة لفظية) وهى ان الله تعالى لما امر نوحا عليه السلام باتخاذ السفينة قال واصنع الفلك بأعيننا ففى اول الامر قال لها الفلك لانها بعد لم تكن جرت ثم سماها بعد ما عملها سفينة كما قال تعالى فانجيناه واصحاب السفينة وسماها جارية كما قال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية وقد عرفنا امر الفلك وجريها

انما لا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه وهو الاظهر وقرئ يخرج مبنيا للمفعول من الاخراج ومبنيا للفاعل بنصب اللؤلؤ والمرجان وبنون العظمة (فبأى آلاء ربكما تكذبان وله الجوار) اى السفن جمع جارية وقرئ برفع الراء وبحذف الياء كقول من قال ❊ لها ثنايا اربع حسان
واربع فكلها ثمان
(المنشآت) المرفوعات الشرع او

وصارت كالسماة فيها فالفلك قبل الكل ثم السفينة ثم الجارية (المسئلة الثالثة) مامعنى المنشآت نقول فيه وجهان (احدهما) المرفوعات من نشأت السحابة اذا ارتفعت وانشأه الله اذا رفعه وحينئذ اما هى بأنفسها مرتفعة فى البحر واما مرفوعات الشراع (وثانيهما) المحدثات الموجودات من انشأ الله المخلوق اى خلقه فان قيل الوجه الثانى بعيد لان قوله فى البحر كالاعلام متعلق بالمنشآت فكأنه قال وله الجوارى التى خلقت فى البحر كالاعلام وهذا غير مناسب واما على الاول فيكون كأنه قال الجوارى التى رفعت فى البحر كالاعلام وذلك جيد والدليل على صحة ماذكرنا انك تقول الرجل الجرئ فى الحرب كالاسد فيكون حسنا ولو قلت الرجل العالم بدل الجرىء فى الحرب كالاسد لايكون كذلك نقول اذا تأملت فيما ذكرنا من كون الجارية صفة اقيمت مقام الموصوف كان الانشاء بمعنى الخلق لاينافى قوله فى البحر كالاعلام لان التقدير حينئذ له السفن الجارية فى البحر كالاعلام فيكون اكثر بيانا للقدرة كأنه قال له السفن التى تجرى فى البحر كالاعلام اى كأنها الجبال والجبال لاتجرى الا بقدرة الله تعالى فالاعلام جمع العلم الذى هو الجبل واما الشراع المرفوع كالعلم الذى هو معروف فلا عجب فيه وليس العجب فيه كالعجب فى جرى الجبل فى الماء وتكون المنشآت معروفة كما انك تقول الرجل الحسن الجالس كالقمر فيكون متعلق قولك كالقمر الحسن لا الجالس فيكون منشأ للقدرة اذ السفن كالجبال والجبال لاتجرى الا بقدرة الله تعالى (المسئلة الرابعة) قرئ المنشئات بكسر الشين ويحتمل حينئذ ان يكون قوله كالاعلام يقوم مقام الجملة والجوارى معرفة ولا توصف المعارف بالجمل فلا تقول الرجل كالاسد جاءنى ولا الرجل هو اسد جاءنى وتقول رجل كالاسد جاءنى ورجل هو اسد جاءنى فلا تحمل قراءة الفتح الاعلى ان يكون حالا وهو على وجهين (احدهما) ان تجعل الكاف اسما فيكون كأنه قال الجوارى المنشآت شبه الاعلام (ثانيهما) يقدر حالا هذا شبهه كأنه يقول كالاعلام ويدل عليه قوله فى موج كالجبال (المسئلة الخامسة) فى جمع الجوارى وتوحيد البحر وجمع الاعلام فائدة عظيمة وهى ان ذلك اشارة الى عظمة البحر ولو قال فى البحار لكانت كل جارية فى بحر فيكون البحر دون بحر يكون فيه الجوارى التى هى كالجبال واما اذا كان البحر واحدا وفيه الجوارى التى هى كالجبال يكون ذلك بحرا عظيما وساحله بعيدا فيكون الانجاء بقدرة كاملة ❊ ثم قال تعالى (كل من عليها فان) وفيه وجهان (احدهما) وهو الصحيح ان الضمير عائد الى الارض وهى معلومة وان لم تكن مذكورة قال تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا الآية وعلى هذا فله ترتيب فى غاية الحسن وذلك لانه تعالى لما قال وله الجوار المنشآت اشارة الى ان كل واحد يعرف ويجزم بأنه اذا كان فى البحر فروحه وجسمه وماله فى قبضة قدرة الله تعالى فاذا خرج الى البر ونظر الى الثبات الذى للارض والتمكن الذى له فيها ينسى امره فذكره وقال لا فرق بين الحالتين بالنسبة الى قدرة الله تعالى وكل من على

المصنوعات وقرئ بكسر الشين اى الرافعات الشرع او اللاتى ينشئن الامواج بجريهن (فى البحر كالاعلام) كالجبال الشاهقة جمع علم وهو الجبل الطويل (فبأى آلاء ربكما تكذبان) من خلق مواد السفن والارشاد الى اخذها وكيفية تركيبها واجرائها فى البحر باسباب لايقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه (كل من عليها) اى على الارض من الحيوانات

وجه الارض فانه كمن على وجه الماء ولو امعن العاقل النظر لكان رسوب الارض الثقيلة فى الماء الذى هى عليه أقرب الى العاقل من رسوب الفلك الخفيفة فيه (الثانى) ان الضمير عائد الى الجارية الا انه بضرورة ما قبلها كأنه تعالى قال له الجوارى ولا شك فى ان كل من فيها الى الفناء أقرب فكيف يمكنه انكار كونه فى ملك الله تعالى وهو لا يملك لنفسه فى تلك الحالة نفعا ولا ضرا وقوله تعالى ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام يدل على ان الصحيح الاول وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من للعقلاء وكل ما على وجه الارض مع الارض فان فا فائدة الاختصاص بالعقلاء نقول المنتفع بالتخويف هو العاقل فخصصه تعالى بالذكر (المسئلة الثانية) الفانى هو الذى فنى وكل من عليها سيفنى فهو باق بعد فليس بفان نقول هو كقوله انك ميت وكما يقال للقريب انه واصل وجواب آخر وهو ان وجود الانسان عرض وهو غير باق وما ليس بباق فهو فان فأمر الدنيا بين شيئين حدوث وعدم اما البقاء فلا بقاء له لان البقاء استمرار ولا يقال هذا تثبيت بالمذهب الباطل الذى هو القول بأن الجسم لا يبقى زمانين كما قيل فى العرض لانا نقول قوله من بدل قوله ما ينفى ذلك التوهم لانى قلت من عليها فان لا بقاء له وما قلت ما عليها فان ومن مع كونه على الارض يتناول جسما قام به اعراض بعضها الحياة والاعراض غير باقية فالمجموع لم يبق كما كان وانما الباقى احد جزأيه وهو الجسم وليس يطلق عليه بطريق الحقيقة لفظة من فالفانى ليس ما عليها ومن عليها ليس بباق (المسئلة الثالثة) ما الفائدة فى بيان انه تعالى قال فان نقول فيه فوائد (منها) الحث على العبادة وصرف الزمان اليسير الى الطاعة (ومنها) المنع من الوثوق بما يكون للمرء فلا يقول اذا كان فى نعمة انها لن تذهب فيترك الرجوع الى الله معتمدا على ماله وملكه (ومنها) الامر بالصبر ان كان فى ضر فلا يكفر بالله معتمدا على ان الامر ذاهب والضر زائل (ومنها) ترك اتخاذ الغير معبودا والزجر عن الاغترار بالقرب من الملوك وترك التقرب الى الله تعالى فأن امرهم الى الزوال قريب فيبقى القريب منهم عن قريب فى ندم عظيم لانه ان مات قبلهم يلقى الله كالعبد الآبق وان مات الملك قبله فيبقى بين الخلق وكل احد ينتقم منه ويتشفى فيه ويستحيى ممن كان يتكبر عليه وان ماتا جميعا فلقاء الله عليه بعد التوفى فى غاية الصعوبة (ومنها) حسن التوحيد وترك الشرك الظاهر والخفى جميعا لان الفانى لا يصلح لان يعبد ❊ ثم قال تعالى (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الوجه يطلق على الذات والمجسم يحمل الوجه على العضو وهو خلاف العقل والنقل اعنى القرآن لان قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه يدل على ان لا يبقى الا وجه الله تعالى فعلى القول الحق لا اشكال فيه لان المعنى لا يبقى غير حقيقة الله او غير ذات الله شئ وهو كذلك وعلى قول المجسم يلزم ان لا تبقى يده التى اثبتها ورجله التى قال بها لا يقال فعلى قولكم أيضا يلزم ان لا يبقى علم الله ولا قدرة الله لان الوجه جعلتموه ذاتا والذات غير الصفات فاذا قلت كل شىء هالك الا حقيقة الله خرجت

او المركبات ومن للتغليب او من الثقلين (فان) هالك لا محالة (ويبقى وجه ربك) اى ذاته عز وجل (ذو الجلال والاكرام) اى ذو الاستغناء المطلق والفضل التام وقيل الذى عنده الجلال والاكرام للمخلصين من عباده وهذه من عظائم صفاته ولقد قال صلى الله عليه وسلم الظوا بياذا الجلال والاكرام وعنه عليه الصلاة والسلام انه مر برجل وهو يصلى ويقول ياذا الجلال

الصفات عنها فيكون قولكم نفيا للصفات نقول الجواب عنه بالعقل و النقل اما النقل فذلك أمر يذكر في غير هذا الموضع و اما العقل فهو ان قول القائل لم يبق لفلان الاثوب يتناول الثوب و ماقام به من اللون و الطول و العرض و اذا قال لم يبق الا كمه لايدل على بقاء جيبه و ذيله فكذلك قولنا يبقى ذات الله تعالى يتناول صفاته و اذا قلتم لايبقى غير وجهه بمعنى العضو يلزمه ان لاتبقى يده (المسئلة الثانية) فما السبب في حسن اطلاق لفظ الوجه على الذات نقول انه مأخوذ من عرف الناس فان الوجه يستعمل في العرف لحقيقة الانسان ألاترى ان الانسان اذا رأى وجه غيره يقول رأيته و اذا رأى غير الوجه من اليد و الرجل مثلا لايقول رأيته و ذلك لان اطلاع الانسان على حقائق الاشياء في اكثر الامر يحصل بالحس فان الانسان اذا رأى شيئا علم منه مالم يكن يعلم حال غيبته لان الحس لايتعلق بجميع المرئي و انما يتعلق ببعضه ثم ان الحس يدرك و الحدس يحكم فاذا رأى شيئا بحسه يحكم عليه بأمر بحدسه لكن الانسان اجتمع في وجهه اعضاء كثيرة كل واحد يدل على أمر فاذا رأى الانسان وجه الانسان حكم عليه بأحكام ما كان يحكم بها لولا رؤيته وجهه فكان ادل على حقيقة الانسان و احكامه من غيره فاستعمل الوجه في الحقيقة في الانسان ثم نقل الى غيره من الاجسام ثم نقل الى ماليس بجسم يقال في الكلام هذا وجه حسن و هذا وجه ضعيف و قول من قال ان الوجه من المواجهة كما هو المسطور في البعض من الكتب الفقهية فليس بشيء اذ الامر على العكس لان الفعل من المصدر و المصدر من الاسم الاصلي و ان كان بالنقل فالوجه اول ماوضع للعضو ثم استعمل و اشتق منه غيره و يعرف ذلك العارف بالتصريف البارع في الادب (المسئلة الثالثة) لو قال و يبقى ربك او الله او غيره لحصلت الفائدة من غير وقوع في توهم ماهو ابتداع نقول ما كان يقوم مقام الوجه لفظ آخر و لاوجه فيه الا ماقاله الله تعالى و ذلك لان سائر الاسماء المعروفة لله تعالى اسماء الفاعل كالرب و الخالق و الله عند البعض بمعنى المعبود فلو قال و يبقى ربك و لقولنا ربك معنيان عند الاستعمال احدهما ان يقال شيء من كل ربك ثانيهما ان يقال يبقى ربك مع انه حالة البقاء ربك فيكون المربوب في ذلك الوقت و كذلك لو قال لو يبقى الخالق و الرازق و غيرهما (المسئلة الرابعة) ما الحكمة في لفظ الرب و اضافة الوجه اليه و قال في مواضع اخر فاينما تولوا فثم وجه الله و قال يريدون وجه الله نقول المراد في الموضعين المذكورين هو العبادة اما قوله فثم وجه الله فظاهر لان المذكور هناك الصلاة و اما قوله يريدون وجه الله فالمذكور هو الزكاة قال تعالى من قبل فآت ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله و لفظ الله يدل على العبادة لان الله هو المعبود و المذكور في هذا الموضع النعم التي بها تربية الانسان فقال وجه ربك (المسئلة الخامسة) الخطاب بقوله ربك مع من نقول الظاهر انه مع كل احد كأنه يقول و يبقى وجه ربك ايها السامع و يحتمل ان يكون الخطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم فان قيل فكيف قال فبأى آلاء

و الاكرام فقال قد استجيب لك وقرئ ذي الجلال و الاكرام على انه صفة ربك و ايا ما كان ففي وصفه تعالى بذلك بعد ذكر فناء الخلق و بقائه تعالى ايذان بأنه تعالى يفيض عليهم بعد فنائهم ايضا آثار لطفه و كرمه حسبما ينبئ عنه قوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فان احياءهم بالحياة الابدية و اثابتهم بالنعيم المقيم اجل النعماء و اعظم الالاء

ربكما تكذبان خطابامع الاثنين وقال وجه ربك خطابامع الواحد تقول عند قوله ويبقى وجه ربك وقعت الاشارة الى فناء كل احد وبقاء الله فقال وجه ربك اى يا أيها السامع فلا تلتفت الى احد غير الله تعالى فان كل من عداه فان والخاطب كثيرا مايخرج عن الارادة فى الكلام فانك اذا قلت لمن يشكو اليك من اهل موضع سوأ اعاقب لاجلك كل من فى ذلك الموضع يخرج المخاطب عن الوعيد وان كان من اهل الموضع فقال ويبقى وجه ربك ليعلم كل احد ان غيره فان ولو قال وجه ربكما لكان كل واحد يخرج نفسه ورفيقه المخاطب من الفناء فان قلت لو قال ويبقى وجه الرب من غير خطاب كان أدل على فناء الكل نقول كأن الخطاب فى الرب اشارة الى اللطف والابقاء اشارة الى القهر والموضع موضع بيان اللطف وتعديد النعم فلو قال بلفظ الرب لم يدل على مايدل عليه الخطاب وفى لفظ الرب عادة جارية وهى انه لايترك استعماله مع الاضافة فالعبد يقول ربنا اغفر لنا ورب اغفر لى والله تعالى يقول ربكم ورب آبائكم ورب العالمين وحيث ترك الاضافة ذكره مع صفة اخرى من اوصاف اللفظ حيث قال تعالى بلدة طيبة ورب غفور وقال تعالى سلام قولا من رب رحيم ولفظ الرب يحتمل ان يكون مصدرا بمعنى التربية يقال ربه يربه ربا مثل رباه يربيه ويحتمل ان يكون وصفا من الرب الذى هو مصدر بمعنى الراب كالطب للطبيب والسمع للحاسة والبخل للبخيل وامثال ذلك لكن من باب فعل وعلى هذا فيكون كأنه فعل من باب فعل يفعل اى فعل الذى للغريزى كما يقال فيما اذا قلنا فلان اعلم واحكم فكان وصفا له من باب فعل اللازم ليخرج عن التعدى (المسئلة السادسة) الجلال اشارة الى كل صفة هى من باب النفى كقولنا الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولهذا يقال جل ان يكون محتاجا وجل ان يكون عاجزا والتحقيق فيه ان الجلال هو بمعنى العظمة غير ان العظمة اصلها فى القوة والجلال فى الفعل فهو عظيم لايسعه عقل ضعيف فجل عن ان يسعه كل فرض معقول والاكرام اشارة الى كل صفة هى من باب الاثبات كقولنا حى قادر عالم واما السميع والبصير فانهما من باب الاثبات كذلك عند اهل السنة وعند المعتزلة من باب النفى وصفات باب النفى قبل صفات باب الاثبات عندنا لانا اولا نجد الدليل وهو العالم فنقول العالم محتاج الى شئ وذلك الشئ ليس مثل العالم فليس بمحدث ولا محتاج ولا ممكن ثم نثبت له القدرة والعلم وغيرهما ومن هنا قال تعالى لعباده لااله الاالله وقال صلى الله عليه وسلم امرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا لااله الاالله ونفى الالهية عن غير الله نفى صفات غير الله عن الله فانك اذا قلت الجسم ليس باله لزم منه قولك الله ليس بجسم والجلال والاكرام وصفان مرتبان على امرين سابقين فالجلال مرتب على فناء الغير والاكرام على بقائه تعالى فيبقى الفرد وقد عزان يحد امره بفناء من عداه وماعداه ويبقى وهو مكرم قادر عالم فيوجد بعد فنائهم من يريد وقرئ ذو الجلال وذى الجلال وسنذكر مايتعلق به فى تفسير آخر السورة ان شاء الله

تعالى ❊ ثم قال تعالى (يسأله من فى السموات والارض كل يوم هو فى شأن فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه وجهان (احدهما) انه حال تقديره يبقى وجه ربك مسؤلا وهذا منقول معقول وفيه اشكال وهو انه يفضى الى التناقض لانه لما قال ويبقى وجه ربك كان اشارة الى بقائه بعد فناء من على الارض فكيف يكون فى ذلك الوقت مسؤلا لمن فى الارض فأما اذا قلنا الضمير عائد الى الجارية فلا اشكال فى هذا الوجه واما على الصحيح فنقول عنه اجوبة (احدها) لما بينا انه فان نظرا اليه ولا يبقى الا بابقاء الله فيصح ان يكون الله مسؤلا (ثانيها) ان يكون مسؤلا معنى لا حقيقة لان الكل اذا فنوا ولم يكن وجود الا بالله فكأن القوم فرضوا سائلين بلسان الحال (ثالثها) ان قوله ويبقى للاستمرار فيبقى ويعيد من كان فى الارض ويكون مسؤلا (والثانى) انه ابتداء كلام وهو اظهر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ماذا يسأله السائلون فنقول يحتمل وجوها (احدها) انه سؤال استعطاء فيسأله كل احد الرحمة وما يحتاج اليه فى دينه ودنياه (ثانيها) انه سؤال استعلام اى عنده علم الغيب لا يعلمه الا هو فكل احد يسأله عن عاقبة امره وعما فيه صلاحه وفساده فان قيل ليس كل احد يعترف بجهله وعلم الله نقول هذا كلام فى حقيقة الامر من جاهل فان كان من جاهل معاند فهو فى الوجه الاول ايضا وارد فان من المعاندين من لا يعترف بقدرة الله فلا يسأله بلسانه وان كان يسأله بلسان حاله لا مكانه (والوجه الاول) اشارة الى كمال القدرة اى كل احد عاجز عن تحصيل ما يحتاج اليه (والوجه الثانى) اشارة الى كمال العلم اى كل احد جاهل بما عند الله من المعلومات (ثالثها) ان ذلك سؤال استخراج امر وقوله من فى السموات والارض اى من الملائكة يسألونه كل يوم ويقولون يا الهنا ماذا نفعل وبما ذا تأمرنا وهذا يصلح جوابا آخر عن الاشكال على قول من قال يسأله حال لانه يقول قال تعالى كل من عليها فان ومن عليها تكون الارض مكانه ومعتمده ولولاها لا يعيش واما من فيها من الملائكة الارضية فهم فيها وليسوا عليها ولا تضرهم زلزلتها فعند ما يفنى من عليها ويبقى الله تعالى لا يفنى هؤلاء فى تلك الحال فيسألونه ويقولون ماذا نفعل فيأمرهم بما يأمرهم ويفعلون ما يؤمرون ثم يقول لهم عند ما يشاء موتوا فيموتون هذا على قول من قال يسأله حال وعلى الوجه الآخر لا اشكال (المسئلة الثانية) هو عائد الى من نقول الظاهر المشهور انه عائد الى الله تعالى وعليه اتفاق المفسرين ويدل عليه ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه سئل عن ذلك الشان فقال يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع من يشاء ويضع من يشاء ويحتمل ان يقال هو عائد الى يوم وكل يوم ظرف سؤالهم اى يقع سؤالهم فى كل يوم وهو فى شان يكون جملة وصف بها يوم وهو نكرة كما يقال يسألنى فلان كل يوم هو يوم راحتى اى يسألنى ايام الراحة وقوله هو فى شأن يكون صفة مميزة للايام التى فيها شان عن اليوم الذى قال تعالى فيه لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فانه تعالى فى ذلك اليوم يكون هو السائل وهو المجيب ولا يسئل فى ذلك اليوم لانه ليس يوما هو فى شان يتعلق بالسائلين من الناس والملائكة

(يسأله من فى السموات والارض) قاطبة ما يحتاجون اليه فى ذواتهم ووجوداتهم حدوثا وبقاء وسائر احوالهم سؤالا مستمرا بلسان المقال أو بلسان الحال فانهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل من استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من الكمالات بالمرة بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الالهية من العلاقة لم يشموا رائحة الوجود اصلا فهم فى كل آن مستمرون على الاستدعاء والسؤال وقد مر فى تفسير قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها من سورة ابراهيم عليه

(وغيرهم)

وغيرهم وانما يسألونه في يوم هو في شأن يتعلق بهم فيطلبون ما يحتاجون اليه او يستخرجون امره بما يفعلون فيه فان قيل فهذا ينافي ماورد في الخبر نقول لامنافاة لقوله عليه السلام في جواب من قال ماهذا الشان فقال يغفر ذنبا اى فالله تعالى جعل بعض الايام موسومة بسوم يتعلق بالخلق من مغفرة الذنوب والتفريج عن المكروب فقال تعالى يسأله من في السموات والارض في تلك الايام التي في ذلك الشأن وجعل بعضها موسومة بان لاداعي فيها وسائل وكيف لانقول بهذا ولو تركنا كل يوم على عمومه لكان كل يوم فيه فعل وامر وشأن فيفضي ذلك الى القول بالقدم والدوام اللهم الا ان يقال عام دخله التخصيص كقوله تعالى واوتيت من كل شئ وتدمر كل شئ (المسئلة الثالثة) فعلى المشهور يكون الله تعالى في كل يوم ووقت في شان وقد جف القلم بما هو كائن نقول فيه اجوبة منقولة في غاية الحسن فلا نبخل بها واجوبة معقولة نذكرها بعدها (اما المنقولة) فقال بعضهم المراد سوق المقادير الى المواقيت ومعناه ان القلم جف بما يكون في كل يوم ووقت فاذا جاء ذلك الوقت تعلقت ارادته بالفعل فيه فيوجد وهذا وجه حسن لفظا ومعنى وقال بعضهم شؤن يبديها لاشؤن يبتديها وهو مثل الاول معنى اى لايتغير حكمه بأنه سيكون ولكن يأتي وقت قدر الله فيه فعله فيبدو فيه ماقدره الله وهذان القولان ينسبان الى الحسن بن الفضل اجاب بهما عبدالله بن طاهر وقال بعضهم يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويشفي سقيما ويمرض سليما ويعز ذليلا ويذل عزيزا الى غير ذلك وهو مأخوذ من قوله عليه السلام يغفر ذنبا ويفرج كربا وهو احسن وابلغ حيث بين امرين احدهما يتعلق بالآخرة والآخر بالدنيا وقدم الاخروي على الدنيوي (واما المعقولة) فهي ان نقول هذا بالنسبة الى الخلق ومن يسأله من اهل السموات والارض لانه تعالى حكم بما اراد وقضى وابرم فيه حكمه وامضى غير ان ماحكمه يظهر كل يوم فنقول ابرم الله اليوم رزق فلان ولم يرزقه امس ولا يمكن ان يحيط علم خلقه بما احاط به علمه فتسأله الملائكة كل يوم انك ياالهنا في هذا اليوم في اى شأن في نظرنا وعلمنا (الثاني) هو ان الفعل يتحقق بأمرين من جانب الفاعل بأمر خاص ومن جانب المفعول في بعض الامور ولا يمكن غيره وعلى وجه يختاره الفاعل من وجوه متعددة (مثال الاول) تحريك الساكن لايمكن الا بازالة السكون عنه والاتيان بالحركة عقيبه من غير فصل (ومثال الثاني) تسكين الساكن فانه يمكن مع ابقاء السكون فيه ومع ازالته عقيبه من غير فصل او مع فصل او يمكن ان يزيل عنه السكون ولا يحركه مع بقاء الجسم اذا عرفت هذا فالله تعالى خلق الاجسام الكثيرة في زمان واحد وخلق فيها صفات مختلفة في غير ذلك الزمان فايجادها فيه لا في زمان آخر بعد ذلك الزمان فمن خلقه فقيرا في زمان لم يمكن خلقه غنيا في عين ذلك الزمان مع خلقه فقيرا فيه وهذا ظاهر والذي يظن ان ذلك يلزم منه العجز او يتوهم فليس كذلك بل العجز في خلاف ذلك لانه لو خلقه فقيرا في

السلام (كل يوم) اى كل وقت من الاوقات (هو في شأن) من الشؤن التي من جلتها اعطاء ماسألوا فانه تعالى لايزال ينشئ اشخاصا ويفني آخرين ويأتي بأحوال ويذهب بأحوال حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة وفي الحديث من شأنه ان يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين قيل وفيه رد على اليهود حيث يقولون ان الله لايقضي يوم السبت شيئا (فبأى آلاء ربكما تكذبان) مع مشاهدتكم لما ذكر من احسانه

زمان يريد فيه كونه غنيا لما وقع الغنى فيه مع انه أراده فيلزم العجز من خلاف ما قلنا لا فيما قلنا فاذن كل زمان هو غير الزمان الآخر فهو معنى قوله كل يوم هو فى شأن وهو المراد من قول المفسرين اغنى فقيرا وافقر غنيا واعز ذليلا واذل عزيزا الى غير ذلك من الاضداد ثم اعلم ان الضدين ليسا منحصرين فى مختلفين بل المثلان فى حكمهما فانهما لا يجتمعان فمن وجد فيه حركة الى مكان فى زمان لا يمكن ان توجد فيه فى ذلك الزمان حركة اخرى ايضا الى ذلك المكان وليس شان الله مقتصرا على افقار غنى او اغناء فقير فى يومنا دون افقاره او اغنائه امس ولا يمكن ان يجمع فى زيد اغناء هو امسى مع اغناء هو يومى فالغنى المستمر للغنى فى نظرنا فى حقيقة الامر متبدل الحال فهو ايضا من شان الله تعالى واعلم ان الله تعالى يوصف بكونه لا يشغله شأن عن شأن ومعناه ان الشأن الواحد لا يصير مانعا له تعالى عن شان آخر كانه يكون مانعا لنا مثاله واحدنا اذا أراد تسويد جسم بصبغة يسخنه بالنار او تبييض جسم ببرده بالماء والماء والنار متضادان اذا طلب منه احدهما وشرع فيه يصير ذلك مانعا له من فعل الآخر وليس ذلك الفعل مانعا من الفعل لان تسويد جسم وتبييض آخر لا تنافى بينهما وكذلك تسخينه وتسويده بصبغة لا تنافى فيه فالفعل صار مانعا للفاعل من فعله ولم يصر مانعا من الفعل وفى حق الله ما لا يمنع الفعل لا يمنع الفاعل فيوجد تعالى من الافعال المختلفة ما لا يحصر ولا يحصى فى آن واحد اما ما يمنع من الفعل كالذى يسود جسما فى آن لم يمكنه ان يبيضه فى ذلك الآن فهو قد يمنع الفاعل ايضا وقد لا يمنع ولكن لا بد من منعه للفاعل فالتسويد لا يمكن معه التبييض والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن اصلا لكن اسبابه تمنع اسبابا اخر لا تمنع الفاعل اذا علمت هذا البحث فقد افادتك التحقيق ❊ فى قوله تعالى (سنفرغ لكم ايه الثقلان فبأى آلاء ربكما تكذبان) ولنذكرا ولا ما قيل فيه تبركا باقوال المشايخ ثم نحققه بالبيان الشافى فنقول اختلف المفسرون فيه واكثرهم على ان المراد سنقصدكم بالفعل وقال بعضهم خرج ذلك مخرج التهديد على ما هى عادة استعمال الناس فان السيد يقول لعبده عند الغضب سأفرغ لك وقد يكون السيد فارغا جالسا لا يمنعه شغل واما التحقيق فيه فنقول عدم الفراغ عبارة عن ان يكون الفاعل فى فعل لا يمكنه معه ايجاد فعل آخر فان من يخيط يقول ما انا بفارغ للكتابة لكن عدم الفراغ قد يكون لكون احد الفعلين مانعا للفاعل من الفعل الآخر يقال هو مشغول بكذا عن كذا كما فى قول القائل انا مشغول بالخياطة عن الكتابة وقد يكون عدم الفراغ لكون الفعل مانعا من الفعل لا لكونه مانعا من الفاعل كالذى يحرك جسما فى زمان لا يمكن تسكينه فى ذلك الزمان فهو ليس بفارغ للتسكين ولكن لا يقال فى مثل هذا الوقت انا مشغول بالتحريك عن التسكين فان فى مثل هذا الموضع لو كان غير مشغول به بل كان فى نفس المحل حركة لا بفعل ذلك الفاعل لا يمكنه التسكين فليس امتناعه منه الا لاستحالته بالتحريك وفى الصورة الاولى لولا اشتغاله بالخياطة

(سنفرغ لكم) اى سنتجرد لحسابكم وجزائكم وذلك يوم القيامة عند انتهاء شؤن الخلق المشار اليها بقوله تعالى كل يوم هو فى شأن فلا يبقى حينئذ الا شأن واحد هو الجزاء فعبر عنه بالفراغ لهم بطريق التمثيل وقيل هو مستعار من قول المتهدد لصاحبه سأفرغ لك اى سأتجرد للايقاع بك من كل ما يشغلنى عنه والمراد التوفر على النكاية فيه والانتقام منه وقرئ سيفرغ مبنيا للفاعل وللمفعول وقرئ سنفرغ

(لتمكن)

لتمكن من الكتابة اذا عرفت هذا صار عدم الفراغ قسمين احدهما بشغل والآخر ليس بشغل فنقول اذا كان الله تعالى باختياره اوجد الانسان وابقاه مدة ارادها بمحض القدرة والارادة لايمكن مع هذا اعدامه فهو في فعل لايمنع الفاعل لكن يمنع الفعل ومثل هذا بينا انه ليس بفراغ وان كان له شغل فاذا اوجد ما أراد او لاثم بعد ذلك امكن الاعدام والزيادة في آنه فيتحقق الفراغ لكن لما كان للانسان مشاهدة مقتصرة على افعال نفسه وافعال ابناء جنسه وعدم الفراغ منهم بسبب الشغل يظن ان الله تعالى فارغ فحمل الخلق عليه انه ليس بفارغ فيلزم منه الشغل وهو لايشغله شأن عن شأن يلزمه حمل اللفظ على غير معناه واعلم ان هذا ليس قولا آخر غير قول المشايخ بل هو بيان لقولهم سنقصد كم غير آن هذا مبين والحمد لله على ان هذا البيان من غير خروج عن قول ارباب اللسان واعلم ان اصل الفراغ بمعنى الخلو لكن ذلك ان كان في المكان فيتسع ليتمكن آخر وان كان في الزمان فيتسع للفعل فالاصل ان زمان الفاعل فارغ عن فعله وغير فارغ لكن المكان مرئي بالخلو فيه فيطلق الفراغ على خلو المكان في الطرف الفلاني والزمان غير مرئي فلا يرى خلوه ويقال فلان في زمان كذا فارغ لان فلانا هو المرئي لا الزمان والاصل ان هذا الزمان من ازمنة فلان فارغ فيمكنه وصفه للفعل فيه وقوله تعالى سنفرغ لكم استعمال على ملاحظة الاصل لان المكان اذا خلا يقال لكذا ولا يقال الى كذا فكذلك الزمان لكن لما نقل الى الفاعل وقيل الفاعل على فراغ وهو عند الفراغ يقصد الى شئ آخر قيل في الفاعل فرغ من كذا الى كذا وفي الظرف يقال فرغ من كذا لكذا فقال لكم على ملاحظة الاصل وهو يقوى ماذكرنا ان المانع ليس بالنسبة الى الفاعل بل بالنسبة الى الفعل ❊ واما ايها فنقول الحكمة في نداء المبهم والاتيان بالوصف بعده هي ان المنادي يريدصون كلامه عن الضياع فيقولون اولا اي اي نداء لمبهم ليقبل عليه كل من يسمع ويتنبه لكلامه من يقصده ثم عند اقبال السامعين يخصص المقصود فيقول الرجل والتزم فيه امران (احدهما) الوصف بالمعرف باللام او باسم الاشارة فتقول ياأيها الرجل او ياأيهذا لا الاعرف منه وهو العلم لان بين المبهم الواقع على كل جنس والعلم المميز عن كل شخص تباعدا (وثانيهما) توسط ها التنبيه بينه وبين الوصف لان الاصل في اي الاضافة لما انه في غاية الابهام فيحتاج الى التميز واصل التميز على ما بينا الاضافة فوسط بينهما لتعويضه عن الاضافة والتزم ايضا حذف لام التعريف عند زوال اي فلا تقول يا الرجل لان في ذلك تطويلا من غير فائدة فانك لاتفيد باللام التنبيه الذي ذكرنا فقولك يارجل مفيد فلا حاجة الى اللام فهو يوجب اسقاط اللام عند الاضافة المعنوية فانها لما افادت التعريف كان اثبات اللام تطويلا من غير فائدة لكونه جمعا بين المعرفين وقوله تعالى الثقلان المشهور ان المراد الجن والانس وفيه وجوه (احدها) انهما سميا بذلك لكونهما مثقلين بالذنوب (ثانيها) سميا بذلك لكونهما ثقيلين على وجه الارض فان التراب

اليكم اي سنقصد اليكم (ايه الثقلان) هما الانس والجن سميا بذلك لثقلهما على الارض اولرزانة آرائهما اولانهما مثقلان بالتكليف (فبأي آلاء ربكما) التي من جلتها التنبيه على ماسيلقونه يوم القيامة للتحذير عما يؤدي الى سوء الحساب (تكذبان) بأقوالكما واعمالكما

وان لطف فى الخلق ليتم خلق آدم لكنه لم يخرج عن كونه ثقيلا واما النار فلما ولد فيها خلق الجن كثفت يسيرا فكما ان التراب لطف يسيرا فكذلك النار صارت ثقيلة فهما ثقلان فسميا بذلك (ثالثها) الثقيل احدهما لا غير وسمى الآخر به للمجاورة والاصطحاب كما يقال العمران والقمران واحدهما عمرو قمر ويحتمل ان يكون المراد العموم بالنوعين الحاضرين تقول يا أيها الثقل الذى هو كذا والثقل الذى ليس كذا والثقل الامر العظيم قال عليه السلام انى تارك فيكم الثقلين ❊ ثم قال تعالى (يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا لاتنفذون الا بسلطان فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى وجه الترتيب وحسنه وذلك لانه تعالى لما قال سنفرغ لكم ايه الثقلان وبينا انه لم يكن له شغل فكأن قائلا قال فلم كان التأخير اذا لم يكن شغل هناك مانع فقال المستعجل يستعجل اما لخوف فوات الامر بالتأخير واما لحاجة فى الحال واما لمجرد الاختيار والارادة على وجه التأخير وبين عدم الحاجة من قبل بقوله كل من عليها فان ويبقى وجه ربك لان ما يبقى بعد فناء الكل لا يحتاج الى شئ فبين عدم الخوف من الفوات وقال لا يفوتون ولا يقدرون على الخروج من السموات والارض ولو امكن خروجهم عنهما لما خرجوا عن ملك الله تعالى فهو آخذهم اين كانوا وكيف كانوا (المسئلة الثانية) المعشر الجماعة العظيمة وتحقيقه هو ان المعشر العدد الكامل الكثير الذى لا عدد بعده الا بابتداء فيه حيث يعيد الآحاد ويقول احد عشر واثنا عشر وعشرون وثلاثون اى ثلاث عشرات فالمعشر كأنه محل العشر الذى هو الكثرة الكاملة (المسئلة الثالثة) هذا الخطاب فى الدنيا اوفى الآخرة نقول الظاهر فيه انه فى الآخرة فان الجن والانس يريدون الفرار من العذاب فيجدون سبعة صفوف من الملائكة محيطين باقطار السموات والارض والاولى ما ذكرنا انه عام بمعنى لا مهرب ولا مخرج لكم عن ملك الله تعالى واينما توليتم فثم ملك الله واينما تكونوا اتاكم حكم الله (المسئلة الرابعة) ما الحكمة فى تقديم الجن على الانس ههنا وتقديم الانس على الجن فى قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله نقول النفوذ من اقطار السموات والارض بالجن اليق ان امكن والاتيان بمثل القرآن بالانس اليق ان امكن فقدم فى كل موضع من يظن به القدرة على ذلك (المسئلة الخامسة) ما معنى لاتنفذون الا بسلطان نقول ذلك يحتمل وجوها (احدها) ان يكون بيانا بخلاف ما تقدم اى ما تنفذون ولا تنفذون الا بقوة وليس لكم قوة ذلك (ثانيها) ان يكون على تقدير وقوع الامر الاول وبيان ان ذلك لا ينفعكم وتقديره ما تنفذوا وان نفذتم ما تنفذون الا ومعكم سلطان الله كما يقال خرج القوم بأهلهم اى معهم (ثالثها) ان المراد من النفوذ ما هو المقصود منه وذلك لان نفوذهم اشارة الى طلب خلاصهم فقال لاتنفذون من اقطار السموات اى لا تتخلصون من العذاب ولا تجدون ما تطلبون من

(يا معشر الجن والانس) هما الثقلان خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير ولان الجن مشهورون بالقدرة على الافاعيل الشاقة فخوطبوا بما ينبئ عن ذلك لبيان ان قدرتهم لا تفى بما كلفوه (ان استطعتم) ان قدرتم (ان تنفذوا من اقطار السموات والارض) اى ان تهربوا من قضائى وتخرجوا من ملكوتى ومن اقطار سمواتى وارضى (فانفذوا) منها وخلصوا انفسكم من عقابى (لاتنفذون) لا تقدرون على النفوذ (الا بسلطان) اى بقوة وقهر وانتم من ذلك بمعزل بعيد روى ان الملائكة تنزل فتحيط بجميع الخلائق فاذا رآهم الجن والانس هربوا فلا يأتون وجها الا وجدوا الملائكة أحاطت به (فبأى آلاء ربكما تكذبان) اى من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة على العقوبة

النفوذ وهو الخلاص من العذاب الا بسلطان من الله يجيركم والا فلا مجير لكم كما تقول لا ينفك البكاء الا اذا صدقت وتريد به ان الصدق وحده ينفعك لانك ان صدقت فينفعك البكاء (رابعها) ان هذا اشارة الى تقرير التوحيد ووجهه هو كأنه تعالى قال يأيها الغافل لا يمكنك ان تخرج بذهنك عن اقطار السموات والارض فاذا انت ابدا تشاهد دليلا من دلائل الوحدانية ثم هب انك تنفذ من اقطار السموات والارض فاعلم انك لا تنفذ الا بسلطان تجده خارج السموات والارض قاطع دال على وحدانيته تعالى والسلطان هو القوة الكاملة ❊ ثم قال تعالى (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه تعلق الآية بما قبلها نقول ان قلنا يامعشر الجن والانس نداء ينادى به يوم القيامة فكأنه تعالى قال يوم يرسل عليكما شواظ من نار فلا يبقى لكما انتصار ان استطعتما النفوذ فانفذا وان قلنا ان النداء فى الدنيا فنقول قوله ان استطعتم اشارة الى انه لامهرب لكم من الله فيمكنكم الفرار قبل الوقوع فى العذاب ولا ناصر لكم فيخلصكم من النار بعد وقوعكم فيها وارسالها عليكم فكأنه قال ان استطعتم الفرار لئلا تقعوا فى العذاب ففروا ثم اذا تبين لكم ان لافرار لكم ولابد لكم من الوقوع فيه فاذا وقعتم فيه وارسل عليكم فاعلموا انكم لا تنتصرون فلا خلاص لكم اذن لان الخلاص اما بالدفع قبل الوقوع واما بالرفع بعده ولاسبيل اليهما (المسئلة الثانية) كيف ثنى الضمير فى قوله عليكما مع انه جمع قبله بقوله ان استطعتم والخطاب مع الطائفتين وقال فلا تنتصران وقال من قبل لا تنفذون الا بسلطان (نقول فيه لطيفة) وهى ان قوله ان استطعتم لبيان عجزهم وعظمة ملك الله تعالى فقال ان استطعتم ان تنفذوا باجتماعكم وقوتكم فانفذوا ولا تستطيعون لعجزكم فقد بان عند اجتماعكم واعتضاد كم بعضكم ببعض فهو عند افتراقكم اظهر فهو خطاب عام مع كل احد عند الانضمام الى جميع من عداه من الاعوان والاخوان وان قوله تعالى يرسل عليكما فهو لبيان الارسال على النوعين لا على كل واحد منهما لان جميع الانس والانس لا يرسل عليهم العذاب والنار فهو يرسل على النوعين ويتخلص منه بعض منهما بفضل الله ولا يخرج احد من الاقطار اصلا وهذا يتأيد بما ذكرنا انه قال لا فرار لكم قبل الوقوع ولا خلاص لكم عند الوقوع لكن عدم الفرار عام وعدم الخلاص ليس بعام (والجواب الثانى) من حيث اللفظ وهو ان الخطاب مع المعشر فقوله ان استعطتم اى ايها المعشر وقوله يرسل عليكما ليس خطابا مع النداء بل هو خطاب مع الحاضرين وهما نوعان وليس الكلام مذكورا بحرف واو العطف حتى يكون النوعان مناديين فى الاول وعند عدم التصريح بالنداء فالتثنية اولى كقوله تعالى فبأى آلاء ربكما وهذا يتأيد بقوله تعالى سنفرغ لكم ايه الثقلان وحيث صرح بالنداء جمع الضمير وقال بعد ذلك فبأى آلاء ربكما حيث لم يصرح بالنداء (المسئلة الثالثة) ما الشواظ وما النحاس

(يرسل عليكما شواظ) قيل هو اللهب الخالص وقيل المختلط بالدخان وقيل اللهب الاحمر وقيل اللهب الاخضر المنقطع من النار وقيل هو الدخان الخارج من اللهب وقيل هو النار والدخان جميعا وقرئ شواظ بكسر الشين (من نار) متعلق بيرسل او بمضمر هو صفة لشواظ اى كائن من نار والتنوين للتفخيم (ونحاس) اى دخان وقيل صفر مذاب يصب على رؤسهم وقرئ بكسر النون وقرئ بالجر عطفا على نار وقرئ نرسل بنون العظمة ونصب شواظا ونحاسا وقرئ نحس جمع نحاس مثل لحاف ولحف وقرئ ونحس اى نقتل بالعذاب (فلا تنتصران) اى لاتمتنعان (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فان بيان

نقول الشواظ لهب النار وهو لسانه وقيل ذلك لايقال الا للمختلط بالدخان الذى من الحطب والظاهر ان هذا مأخوذ من قول الحكماء ان النار اذا صارت خالصة لاترى كالتى تكون فى الكير الذى يكون فى غاية الاتقاد وكما فى التنور المسجور فانه يرى فيه نور وهو نار واما النحاس ففيه وجهان احدهما الدخان والثانى القطر وهو النحاس المشهور عندنا ثم ان ذكر الامرين بعد خطاب النوعين يحتمل ان يكون لاختصاص كل واحد بواحد وحينئذ فالنار الخفيف للانس لانه يخالف جوهره والنحاس الثقيل للجن لانه يخالف جوهره ايضا فان الانس ثقيل والنار خفيفة والجن خفاف والنحاس ثقيل وكذلك ان قلنا المراد من النحاس الدخان ويحتمل ان يكون ورودهما على حد واحد منهما وهو الظاهر الاصح (المسئلة الرابعة) من قرأ نحاس بالجر كيف يعربه ولو زعم انه عطف على النار يكون شواظ من نحاس والشواظ لا يكون من نحاس نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) تقديره شئ من نحاس كقولهم تقلدت سيفا ورمحا (وثانيهما) وهو الاظهر ان يقول الشواظ لم يكن الا عند مايكون فى النار اجزاء هوائية وارضية وهو الدخان فالشواظ مركب من نار ومن نحاس وهو الدخان وعلى هذا فالمرسل شئ واحد لاشيئان غير انه مركب (فان قيل) على هذا الافائدة لتخصيص الشواظ بالارسال الابيان كون تلك النار بعد غير قوية قوة تذهب عنه الدخان (نقول) العذاب بالنار التى لاترى دون العذاب بالنار التى ترى لتقدم الخوف على الوقوع فيه وامتداد العذاب والنار الصرفة لاترى اوترى كالنور فلا يكون لها لهيب وهيبة وقوله تعالى فلا تنتصران نفى لجميع انواع الانتصار فلا ينتصر احدهما بالآخر ولا هما بغيرهما وان كان الكفار يقولون فى الدنيا نحن جميع منتصر والانتصار التلبس بالنصرة يقال لمن اخذ الثأر انتصر منه كأنه انتزع النصرة منه لنفسه وتلبس بها ومن هذا الباب الانتقام والادخار والادهان والذى يقال فيه ان الانتصار بمعنى الامتناع فلا تنتصران بمعنى لاتمتنعان وهو فى الحقيقة راجع الى ماذكرنا لانه يكون متلبسا بالنصرة فهو ممتنع لذلك ❁ ثم قال تعالى (فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان فبأى آلاء ربكما تكذبان) اشارة الى ماهو اعظم ارسال الشواظ على الانس والجن فكأنه تعالى ذكر اولا ما يخاف منه الجنسان ثم ذكر مايخاف منه كل واحد ممن له ادراك من الجن والانس والملك حيث تخلو مساكنهم بالشق ومساكن الجن والانس بالخراب ويحتمل ان يقال انه تعالى لما قال كل من عليها فان اشارة الى سكان الارض قال بعد ذلك فاذا انشقت السماء بيانا لحال سكان السماء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الفاء فى الاصل للتعقيب على وجوه ثلاثة (منها) التعقيب الزمانى للشيئين اللذين لايتعلق احدهما بالآخر عقلا كقولك قعد زيد فقام عمرو لمن سألك عن قعود زيد وقيام عمرو وانهما كانا معا او متعاقبين (ومنها) التعقيب الذهنى للذين يتعلق احدهما بالآخر كقولك جاء زيد فقام عمرو اكراما له اذ يكون فى مثل هذا قيام عمرو

عاقبة ما هم عليه من الكفر والمعاصى لطف واى لطف ونعمة واى نعمة (فاذا انشقت السماء) اى انصدعت يوم القيامة (فكانت وردة) كوردة حمراء وقرئ وردة بالرفع على ان كان تامة اى حصلت سماء وردة فيكون من باب التجريد كقول من قال
ولئن بقيت لارحلن بغزوة
تحوى الغنائم اويموت كريم
(كالدهان) خبر ثان لكانت اونعت لوردة اوحال من اسم كانت اى كدهن الزيت وهو اما جمع دهن اواسم لمايدهن به كالحزام والادام وقيل هو الاديم الاحمر وجواب اذا محذوف اى يكون من الاحوال والاهوال مالا يحيط به دائرة المقال (فبأى آلاء ربكما تكذبان) مع عظم شأنها .

مع مجئ زيد زمانا (ومنها) التعقيب فى القول كقولك لا أخاف الامير فالملك فالسلطان كأنك تقول اقول لا اخاف الامير واقول لا اخاف الملك واقول لا اخاف السلطان اذا عرفت هذا فالفاء هنا تحتمل الاوجه جميعا (اما الاول) فلأن ارسال الشواظ عليهم يكون قبل انشقاق السموات ويكون ذلك الارسال اشارة الى عذاب القبر والى مايكون عند سوق المجرمين الى المحشر اذ ورد فى التفسير ان الشواظ يسوقهم الى المحشر فيهربون منها الى ان يجتمعوا فى موضع واحد وعلى هذا معناه يرسل عليكما شواظ فاذا انشقت السماء يكون العذاب الاليم والحساب الشديد على ماسنبين ان شاء الله (واما الثانى) فوجهه ان يقال يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فيكون ذلك سببا لكون السماء تكون حمراء اشارة الى ان لهيبها يصل الى السماء ويجعلها كالحديد المذاب الاحمر (واما الثالث) فوجهه ان يقال لما قال فلا تنتصران اى فى وقت ارسال الشواظ عليكما قال فاذا انشقت السماء وصارت كالمهل وهو كالطين الذائب كيف تنتصران اشارة الى ان الشواظ المرسل لهب واحد او فاذا انشقت السماء وذابت وصارت الارض والجو والسماء كلها نارا فكيف تنتصران (المسئلة الثانية) كلمة اذا قد تستعمل لمجرد الظرف وقد تستعمل للشرط وقد تستعمل للمفاجأة وان كانت فى اوجهها ظرفا لكن بينها فرق (فالاول) مثل قوله تعالى والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى (والثانى) مثل قوله تعالى اذا اكرمتنى اكرمك ومن هذا الباب قوله تعالى فاذا عزمت فتوكل على الله وفى الاول لابد وان يكون الفعل فى الوقت المذكور متصلا به وفى الثانى لا يلزم ذلك فانك اذا قلت اذا علمتنى تثاب يكون الثواب بعده زمانا لكن استحقاقه يثبت فى ذلك الوقت متصلا به (والثالث) مثل مايقال خرجت فاذا قد اقبل الركب امالو قال خرجت اذا اقبل الركب فهو فى جواب من يقول متى خرجت اذا عرفت هذا فنقول على اى وجه استعمل اذا ههنا نقول يحتمل وجهين (احدهما) الظرفية المجردة على ان الفاء للتعقيب الزمانى فان قوله فاذا انشقت السماء بيان لوقت العذاب كأنه قال اذا انشقت السماء يكون العذاب اى بعد ارسال الشواظ وعند انشقاق السماء يكون (وثانيهما) الشرطية وذلك على الوجه الثالث وهو قولنا فلا تنتصران عند ارسال الشواظ فكيف تنتصران اذا انشقت السماء كأنه قال اذا انشقت السماء فلا تتوقعوا الانتصار اصلا واما الحمل على المفاجأة على ان يقال يرسل عليكما شواظ فاذا السماء قد انشقت فبعيد ولا يحمل ذلك الا على الوجه الثانى من ان الفاء للتعقيب الذهنى (المسئلة الثالثة) ما المختار من الاوجه نقول الشرطية وحينئذ له وجهان (احدهما) ان يكون الجزاء محذوفا رأسا ليفرض السامع بعده كل هائل كما يقول القائل اذا غضب السلطان على فلان لا يدرى احد ماذا يفعله ثم ربما يسكت عند قوله اذا غضب السلطان متعجبا آتيا بقرينة دالة على تهويل الامر ليذهب السامع كل مذهب ويقول كأنه اذا غضب السلطان يقتل ويقول الآخر اذا غضب السلطان

ينهب ويقول الآخر غير ذلك (وثانيهما) ما بينا من بيان عدم الانتصار ويؤيد هذا قوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام الى ان قال تعالى وكان يوما على الكافرين عسيرا فكأنه تعالى قال اذا ارسل عليهما شواظ من نار فلا ينتصران فاذا انشقت السماء كيف ينتصران فيكون الامر عسيرا فيكون كأنه قال فاذا انشقت السماء يكون الامر عسيرا في غاية العسر ويحتمل ان يقال فاذا انشقت السماء يلقى المرء فعله ويحاسب حسابه كما قال تعالى اذا السماء انشقت الى ان قال يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه الآية (المسئلة الرابعة) ما المعنى من الانشقاق نقول حقيقته ذوبانها وخرابها كما قال تعالى يوم نطوي السماء اشارة الى خرابها ويحتمل ان يقال انشقت بالغمام كما قال تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام وفيه وجوه منها ان قوله بالغمام اي مع الغمام فيكون مثل ما ذكرنا ههنا من الانفطار والخراب (المسئلة الخامسة) ما معنى قوله تعالى فكانت وردة كالدهان نقول المشهور انها في الحال تكون حمراء يقال فرس ورد اذا اثبت للفرس الحمرة وحجرة وردة اي حمراء اللون وقد ذكرنا ان لهيب النار يرتفع في السماء فتذوب فتكون كالصفر الذائب حمراء ويحتمل وجها آخر وهو ان يقال وردة للمرة من الورود كالركعة والسجدة والجلسة والقعدة من الركوع والسجود والجلوس والقعود وحينئذ الضمير في كانت كما في قوله ان كانت الاصيحة واحدة اي الكائنة او الداهية وانث الضمير لتأنيث الظاهر وان كان شيئا مذكرا فكذا ههنا قال فكانت وردة واحدة اي الحركة التي بها الانشقاق كانت وردة واحدة وتزلزل الكل وخرب دفعة والحركة معلومة بالانشقاق لان المنشق يتحرك ويتزلزل * وقوله تعالى كالدهان فيه وجهان احدهما جمع دهن وثانيهما ان الدهان هو الاديم الاحمر فان قيل الاديم الاحمر مناسب للوردة فيكون معناه كانت السماء كالاديم الاحمر ولكن ما المناسبة بين الوردة وبين الدهان نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) المراد من الدهان ما هو المراد من قوله تعالى يوم تكون السماء كالمهل وهو عكر الزيت وبينهما مناسبة فان الورد يطلق على الاسد فيقال اسد ورد فليس الورد هو الاحمر القانئ (والثاني) ان التشبيه بالدهن ليس في اللون بل في الذوبان (والثالث) هو ان الدهن المذاب ينصب انصبابة واحدة ويذوب دفعة والحديد والرصاص لا يذوب غاية الذوبان فتكون حركة الدهن بعد الذوبان اسرع من حركة غيره فكأنه قال حركتها تكون وردة واحدة كالدهان المصبوبة صبا لا كالرصاص الذي يذوب منه الطفه وينتفع به ويبقى الباقي وكذلك الحديد والنحاس وجمع الدهان لعظمة السماء وكثرة ما يحصل من ذوبانها لاختلاف اجزائها فان الكواكب تخالف غيرها * ثم قال تعالى (فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان) وفيه وجهان (احدهما) لا يسئل احد عن ذنبه فلا يقال له انت المذنب او غيرك ولا يقال من المذنب منكم بل يعرفون بسواد وجوههم وغيره وعلى هذا فالضمير في ذنبه عائد الى مضمر مفسر بما بعده

(فيومئذ) اي يوم اذ تنشق السماء حسبما ذكر (لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان) لانهم يعرفون بسيماهم وذلك اول ما يخرجون من القبور ويحشرون الى الموقف ذودا ذودا على اختلاف مراتبهم واما قوله تعالى فوربك لنسألنهم اجمعين ونحوه ففي موقف المناقشة والحساب وضمير ذنبه للانس لتقدمه رتبة وافراده لما أن المراد فرد من الانس كأنه قيل لا يسئل عن ذنبه انسي ولا جني (فبأي آلاء ربكما تكذبان) مع كثرة منافعها فان الاخبار بما ذكر مما يزجركم عن الشر المؤدي اليه واما ما قيل مما انعم الله على عباده المؤمنين في هذا اليوم فلا تعلق له بالمقام وقوله تعالى

(وتقديره)

وتقديره لايسئل انس عن ذنبه ولا جان اى عن ذنبه يسأل (وثانيهما) معناه قريب من معنى قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر اخرى كأنه يقول لايسئل عن ذنب مذنب انس ولا جان وفيه اشكال لفظى لان الضمير فى ذنبه ان عاد الى أمر قبله يلزم استحالة ماذكرت من المعنى بل يلزم فساد المعنى رأسا لانك اذا قلت لايسئل مسؤل واحد اوانسى مثلا عن ذنبه فقولك بعد انس ولا جان يقتضى تعلق فعل بفاعلين وانه محال والجواب عنه من وجهين (احدهما) ان لايفرض عائدا وانما يجعل بمعنى المظهر لاغير ويجعل عن ذنبه كأنه قال عن ذنب مذنب (ثانيهما) وهو ادق وبالقبول احق ان يجعل مايعود اليه الضمير قبل الفعل فيقال تقديره فالمذنب يومئذ لايسئل عن ذنبه انس ولا جان * وفيه مسائل لفظية ومعنوية (اما اللفظية) فالاولى الفاء للتعقيب وانه يحتمل ان يكون زمانيا كانه يقول فاذا انشقت السماء يقع العذاب فيوم وقوعه لايسئل وبين الاحوال فاصل زمانى غير متراخ ويحتمل ان يكون عقليا كانه يقول يقع العذاب فلايتأخر تعلقه بهم مقدار مايسألون عن ذنبهم ويحتمل ان يكون اراد الترتيب الكلامى كأنه يقول تهربون بالخروج من اقطار السموات واقول لاتمتنعون عند انشقاق السماء فأقول لاتمهلون مقدار ماتسئلون (المسئلة الثانية) ما المراد من السؤال نقول المشهور ماذكرنا انهم لايقال لهم من المذنب منكم وهو على هذا سؤال استعلام وعلى الوجه الثانى سؤال توبيخ اى لايقال له لم اذنب المذنب ويحتمل ان يكون سؤال موهبة وشفاعة كما يقول القائل اسألك ذنب فلان اى اطلب منك عفوه فان قيل هذا فاسد من وجوه (احدها) ان السؤال اذا عدى بعن لايكون الا بمعنى الاستعلام او التوبيخ واذا كان بمعنى الاستعطاء يعدى بنفسه الى مفعولين فيقال نسألك العفو والعافية (ثانيها) الكلام لايحتمل تقديرا ولايمكن تقديره بحيث يطابق الكلام لان المعنى يصير كأنه يقول لايسئل واحد ذنب احد بل احد لايسئل ذنب نفسه (ثالثها) قوله يعرف المجرمون بسيماهم لايناسب ذلك نقول (اما الجواب عن الاول) فهو ان السؤال ربما يتعدى الى مفعولين غير انه عند الاستعلام يحذف الثانى ويؤتى بما يتعلق به يقال سألته عن كذا اى سألته الاخبار عن كذا فيحذف الاخبار ويكتفى بما يدل عليه وهو الجار والمجرور فيكون المعنى طلبت منه ان يخبرنى عن كذا (وعن الثانى) ان يكون التقدير لايسئل انس ذنبه ولا جان والضمير يكون عائدا الى المضمر لفظا لا معنى كما تقول قتلوا انفسهم فالضمير فى انفسهم عائد الى مافى قولك قتلوا لفظا لا معنى لان مافى قتلوا ضمير الفاعل وفى انفسهم ضمير المفعول اذ الواحد لايقتل نفسه وانما المراد كل واحد قتل واحدا غيره فكذلك انس لايسئل ذنبه اى ذنب انس غيره ومعنى الكلام لايقال لاحد اعف عن فلان لبيان ان لامسؤل فى ذلك الوقت من الانس والجن وانما كلهم سائلون الله والله تعالى حينئذ هو المسئول (واما المعنوية) فالاولى كيف الجمع بين هذا وبين قوله تعالى فوربك لنسئلنهم اجمعين وبينه وبين قوله تعالى وقفوهم مسؤلون نقول على الوجه

قوله اما الجواب الخ هذا الجواب لم يفد غير تقرير السؤال الاول اهـ

المشهور جوابان (احدهما) ان للآخرة مواطن فلايسئل فى موطن ويسئل فى موطن (وثانيهما) وهو احسن لايسئل عن فعله احدمنكم ولكن يسئل بقوله لم فعل الفاعل فلا يسئل سؤال استعلام بل يسئل سؤال توبيخ واما على الوجه الثانى فلايرد السؤال فلا حاجة الى بيان الجمع (المسئلة الثانية) ما الفائدة فى بيان عدم السؤال نقول على الوجه المشهور فائدته التوبيخ لهم كقوله تعالى وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة وقوله تعالى واما الذين اسودت وجوههم وعلى الثانى بيان ان لايؤخذ منهم فدية فيكون ترتيب الآيات احسن لان فيها حينئذ بيان ان لامفر لهم بقوله ان استطعتم ان تنفذوا ثم بيان ان لامانع عنهم بقوله فلا تنتصران ثم بيان ان لافداء لهم عنهم بقوله لايسئل وعلى الوجه الاخير بيان ان لاشفيع لهم ولاراحم (وفائدة اخرى) وهو انه تعالى لما بين ان العذاب فى الدنيا مؤخر بقوله سنفرغ لكم بين انه فى الآخرة لايؤخر بقدر ما يسئل (وفائدة اخرى) وهو انه تعالى لما بين ان لامفر لهم بقوله لاتنفذون ولاناصر لهم يخلصهم بقوله فلا تنتصران بين امرا آخر وهو ان يقول المذنب ربما انجو فى ظل خمول واشتباه حال فقال ولا يخفى احد من المذنبين بخلاف امر الدنيا فان الشرذمة القليلة ربما تنجو من العذاب العام بسبب خمولهم

❊ وقال تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والاقدام فبأى آلاء ربكما تكذبان) اتصال الآيات بما قبلها على الوجه المشهور ظاهر لاخفاء فيه اذ قوله يعرف المجرمون كالتفسير وعلى الوجه الثانى من ان المعنى لايسئل عن ذنبه غيره كيف قال يعرف ويؤخذ وعلى قولنا لايسئل سؤال حط وعفو ايضا كذلك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) السيما كالضيزى واصله سومى من السومة وهو يحتمل وجوها (احدها) كى على جباههم قال تعالى يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم (وثانيها) سواد كما قال تعالى واما الذين اسودت وجوههم وقال تعالى وجوههم مسودة (ثالثها) غبرة وقترة (المسئلة الثانية) ماوجه افراد يؤخذ مع ان المجرمين جمع وهم المأخوذون نقول فيه وجهان (احدهما) ان يؤخذ متعلق بقوله تعالى بالنواصى كما يقول القائل ذهب بزيد (وثانيهما) ان يتعلق بما يدل عليه يؤخذ فكأنه تعالى قال فيؤخذ المأخوذون بالنواصى فان قيل كيف عدى الاخذ بالباء وهو يتعدى بنفسه قال تعالى لايؤخذ منكم فدية وقال خذها ولاتخف نقول الاخذ يتعدى بنفسه كما بينت وبالباء ايضا كقوله تعالى لاتأخذ بلحيتى ولابرأسى لكن فى الاستعمال تدقيق وهو ان المأخوذ ان كان مقصودا بالاخذ توجه الفعل نحوه فيتعدى اليه من غير حرف وان كان المقصود بالاخذ غير الشئ المأخوذ حسا تعدى اليه بحرف لانه لما لم يكن مقصودا فكأنه ليس هو المأخوذ وكان الفعل لم يتعد اليه بنفسه فذكر الحرف ويدل على ماذكرنا استعمال القرآن فان الله تعالى قال خذها ولاتخف فى العصا وقال تعالى وليأخذوا أسلحتهم واخذ الالواح الى غير ذلك فلما كان ماذكر هو المقصود بالاخذ عدى الفعل اليه من غير حرف وقال تعالى لاتأخذ بلحيتى ولابرأسى وقال تعالى

(يعرف المجرمون بسيماهم) استئناف يجرى مجرى التعليل لعدم السؤال قيل يعرفون بسواد الوجوه وزرقة العيون وقيل بما يعلوهم من الكآبة والحزن (فيؤخذ بالنواصى والاقدام) الجار والمجرور هو القائم مقام الفاعل يقال اخذه اذا كان المأخوذ مقصودا بالاخذ ومنه قوله تعالى خذوا حذركم ونحوه واخذ به اذا كان المأخوذ شيئا من ملابسات المقصود بالاخذ ومنه قوله تعالى لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى وقول المستغيث خذ بيدى اخذ الله بيدك اى يجمع بين نواصيهم واقدامهم فى سلسلة من وراء ظهورهم وقيل تسحبهم الملائكة تارة تأخذ بالنواصى وتارة تأخذ بالاقدام (فبأى آلاء ربكما تكذبان)

فيؤخذ بالنواصي والاقدام ويقال خذبيدي وأخذالله بيدك الى غير ذلك مما يكون المقصود بالاخذ غير ماذكرنا فان قيل ماالفائدة في توجيه الفعل الى غير ما وجه اليه الفعل الاول ولم قال يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذبالنواصي نقول فيه بيان نكالهم وسوء حالهم ونبين هذا بتقديم مثال وهو ان القائل اذا قال ضرب زيد فقتل عمرو فان المفعول في باب مالم يسم فاعله قائم مقام الفاعل ومشبه به ولهذا اعرب اعرابه فلولم يوجه يؤخذ الى غير ما وجه اليه يعرف لكان الاخذ فعل من عرف فيكون كأنه قال يعرف المجرمين عارف فيأخذهم ذلك العارف لكن المجرم يعرفه بسيماه كل احد ولا يأخذه كل من عرفه بسيماه بل يمكن ان يقال قوله يعرف المجرمون بسيماهم المراد يعرفهم الناس والملائكة الذين يحتاجون في معرفتهم الى علامة اما كتبة الاعمال والملائكة الغلاظ الشداد فيعرفونهم كما يعرفون انفسهم من غير احتياج الى علامة وبالجملة فقوله يعرف معناه يكونون معروفين عند كل احد فلو قال يؤخذون يكون كأنه قال فيكونون مأخوذين لكل احد كذلك اذا تأملت في قول القائل شغلت فضرب زيد علمت عند توجه التعليق الى مفعولين دليل تغاير الشاغل والضارب لانه يفهم منه اني شغلني شاغل فضرب زيدا ضارب فالضارب غير ذلك الشاغل واذا قلت شغل زيد فضرب لا يدل على ذلك حيث توجه الى مفعول واحد وان كان يدل فلا يظهر مثل مايظهر عند توجهه الى مفعولين اما بيان النكال فلأنه لما قال فيؤخذ بالنواصي بين كيفية الاخذ وجعلها مقصودا للكلام ولو قال فيؤخذون لكان الكلام يتم عنده ويكون قوله بالنواصي فائدة جاءت بعد تمام الكلام فلا يكون هو المقصود واما اذا قال فيؤخذ فلابد له من امر يتعلق به فينتظر السامع وجود ذلك فاذا قال بالنواصي يقول هذا هو المقصود وفي كيفية الاخذ ظهور نكالهم لان في نفس الاخذ بالناصية اذلالا واهانة وكذلك الاخذ بالقدم لا يقال قد ذكرت ان التعدية بالباء انما تكون حيث لا يكون المأخوذ مقصودا والآن ذكرت ان الاخذ بالنواصي هو المقصود لانا نقول لاتنافي بينهما فان الاخذ بالنواصي مقصود الكلام والناصية ما اخذت لنفس كونها ناصية وانما اخذت ليصير صاحبها مأخوذا وفرق بين مقصود الكلام وبين الاخذ وقوله تعالى فيؤخذ بالنواصي والاقدام فيه وجهان (احدهما) يجمع بين ناصيتهم وقدمهم وعلى هذا ففيه قولان احدهما ان ذلك قد يكون من جانب ظهورهم فيربط بنواصيهم اقدامهم من جانب الظهر فتخرج صدورهم نتأ والثاني ان ذلك من جانب وجوههم فتكون رؤسهم على ركبهم ونواصيهم في اصابع ارجلهم مربوطة (الوجه الثاني) انهم يسحبون سحبا فبعضهم يؤخذ بناصيته وبعضهم يجر برجله والاول اصح واوضح ❊ ثم قال تعالى (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون) والمشهور ان ههنا اضمارا تقديره يقال لهم هذه جهنم وقد تقدم مثله في مواضع ويحتمل ان يقال معناه هذه صفة جهنم فاقيم المضاف اليه مقام المضاف ويكون ماتقدم هو المشار اليه والاقوى ان يقال

وقوله تعالى (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون) على ارادة القول اي يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ على ان الجملة اما استئناف وقع جوابا عن سؤال ناشئ من حكاية الاخذ بالنواصي والاقدام كأنه قيل فماذا يفعل بهم عند ذلك فقيل يقال الخ او حال من اصحاب النواصي والاقدام لان الالف واللام عوض عن المضاف اليه ومابينهما اعتراض

الكلام عند النواصي والاقدام قدتم وقوله هذه جهنم لقربها كما يقال هذا زيد قدوصل اذا قرب مكانه فكأنه قال جهنم التي يكذب بها المجرمون هذه قريبة غير بعيدة عنهم ويلائمه قوله يكذب لان الكلام لو كان باضمار يقال لقال تعالى لهم هذه جهنم التي كذب بها المجرمون لان فى هذا الوقت لا يبقى مكذب وعلى هذا التقدير يضمر فيه كان يكذب ❊ وقوله تعالى (يطوفون بينها وبين حميم آن) هو كقوله تعالى وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل وكقوله تعالى كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها لانهم يخرجون فيستغيثون فيظهر لهم من بعد شئ مائع هو صديدهم المغلى فيظنونه ماء فيردون عليه كما يرد العطشان فيقعون ويشربون منه شرب الهيم فيجدونه اشد حرا فيقطع امعاءهم كما ان العطشان اذا وصل الى ماء ملح لا يبحث عنه ولا يذوقه وانما يشربه عبا فيحرق فؤاده ولا يسكن عطشه وقوله حميم اشارة الى مافعل فيه من الاغلاء وقوله تعالى آن اشارة الى ما قبله وهو كما يقال قطعته فانقطع فكأنه حميته النار فصار فى غاية السخونة وانى الماء اذا انتهى فى الحر نهاية ❊ ثم قال تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه بحث وهو ان هذه الامور ليست من الآلاء فكيف قال فبأى آلاء نقول الجواب من وجهين (احدهما) ماذكرناه (وثانيهما) ان المراد فبأى آلاء ربكما مما اشرنا اليه فى اول السورة تكذبان فتستحقان هذه الاشياء المذكورة من العذاب وكذلك نقول فى قوله ولمن خاف مقام ربه جنتان هى الجنان ثم ان تلك الآلاء لاترى وهذا ظاهر لان الجنان غير مرئية وانما حصل الايمان بها بالغيب فلا يحسن الاستفهام بمعنى الانكار مثل ما يحسن الاستفهام عن هيئة السماء والارض والنجم والشجر والشمس والقمر وغيرهما مما يدرك ويشاهد لكن النار والجنة ذكرتا للترهيب والترغيب كما بينا ان المراد فبأيهما تكذبان فتستحقان العذاب وتحرمان الثواب ❊ ثم قال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه لطائف (الاولى) التعريف فى عذاب جهنم قال هذه جهنم والتنكير فى الثواب بالجنة اشارة الى كثرة المراتب التى لاتحد ونعمه التى لاتعد ليعلم ان آخر العذاب جهنم واول مراتب الثواب الجنة ثم بعدها مراتب وزيادات (الثانية) قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ان الخوف خشية سببها ذل الخاشى والخشية خوف سببه عظمة المخشى قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء لانهم عرفوا عظمة الله فخافوه لالذل منهم بل لعظمة جانب الله وكذلك قوله من خشية ربهم مشفقون وقال تعالى لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله اى لو كان المنزل عليه العالم بالمنزل كالجبل العظيم فى القوة والارتفاع لتصدع من خشية الله لعظمته وكذلك قوله تعالى وتخشى الناس والله احق ان تخشاه وانما قلنا بان الخشية تدل على ماذكرنا لان الشيخ للسيد والرجل الكبير يدل على حصول معنى العظمة فى (خ ش ى) وقال تعالى فى الخوف ولاتخف سنعيدها لما كان الخوف يضعف فى موسى وقال لاتخف ولاتحزن وقال

(يطوفون بينها) اى بين النار يحرقون بها (وبين حميم آن) ماء بالغ من الحرارة اقصاها يصب عليهم او يسقون منه وقيل اذا استغاثوا من النار اغيثوا بالحميم (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقد اشير الى سر كون بيان امثال هذه الامور من قبيل الآلاء مرارا (ولمن خاف مقام ربه) شروع فى تعداد الآلاء الفائضة عليهم فى الآخرة بعد تعداد ما وصل اليهم فى الدنيا من الآلاء الدينية والدنيوية واعلم ان ما عدد فيما بين هذه الآية وبين خاتمة السورة الكريمة من فنون الكرامات كما ان انفسها آلاء جليلة واصلة اليهم فى الآخرة كذلك حكاياتها الواصلة اليهم فى الدنيا آلاء عظيمة لكونها داعية لهم الى السعى فى تحصيل ما يؤدى الى نيلها من الايمان والطاعة وان مافصل من فاتحة السورة الكريمة الى قوله تعالى كل يوم هو فى شأن من النعم الدينية والدنيوية الانفسية والآفاقية آلاء جليلة واصلة اليهم فى الدنيا وكذلك حكاياتها من حيث ايجابها للشكر والمثابرة على

فاخاف ان يقتلون وقال انى خفت الموالى من ورائى ويدل عليه تقاليب (خ و ف) فان قولك خفى قريب منه و الخافى فيه ضعف و الاخيف يدل عليه ايضا واذا علم هذا فالله تعالى مخوف ومخشى والعبد من الله خائف وخاش لانه اذا نظر الى نفسه رآها فى غاية الضعف فهو خائف واذا نظر الى حضرة الله رآها فى غاية العظمة فهو خاش لكن درجة الخاشى فوق درجة الخائف فلهذا قال انما يخشى الله من عباده العلماء جعله منحصرا فيهم لانهم وان فرضوا أنفسهم على غير ماهم عليه وقدروا ان الله رفع عنهم جميع ماهم فيه من الحوائج لايتركون خشيته بل تزداد خشيتهم وأما الذى يخافه من حيث انه يفقره او يسلب جاهه فربما يقل خوفه اذا أمن من ذلك فلذلك قال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان واذا كان هذا للخائف فاظنك بالخاشى (الثالثة) لما ذكر الخوف ذكر المقام وعند الخشية ذكر اسمه الكريم فقال انما يخشى الله وقال لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وقال عليه السلام خشية الله رأس كل حكمة لانه يعرف ربه بالعظمة فيخشاه وفى مقام ربه قولان (احدهما) مقام ربه اى المقام الذى يقوم هو فيه بين يدى ربه وهو مقام عبادته كما يقال هذا معبدالله وهذا معبد البارى اى المقام الذى يعبد الله العبد فيه (والثانى) مقام ربه الموضع الذى فيه الله قائم على عباده من قوله تعالى افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت اى حافظ ومطلع اخذا من القائم على الشئ حقيقة الحافظ له فلا يغيب عنه وقيل مقام مقحم يقال فلان يخاف جانب فلان اى يخاف فلانا وعلى هذا الوجه يظهر الفرق غاية الظهور بين الخائف والخاشى لان الخائف خاف مقام ربه بين يدى الله فالخاشى لو قيل له افعل ماتريد فانك لاتحاسب ولاتسئل عما تفعل لما كان يمكنه ان يأتى بغير التعظيم والخائف ربما كان يقدم على ملاذ نفسه لو رفع عنه القلم وكيف لا ويقال خاصة الله من خشية الله فى شغل شاغل عن الاكل والشرب واقفون بين يدى الله سابحون فى مطالعة جماله غائصون فى بحار جلاله وعلى الوجه الثانى قرب الخائف من الخاشى وبينهما فرق (الرابعة) فى قوله جنتان وهذه اللطيفة نبينها بعد ماتذكر ماقيل فى التثنية قال بعضهم المراد جنة واحدة كما قيل فى قوله القيا فى جهنم وتمسك بقول القائل

ومهمهين سرت مرتين * قطعته بالسهم لا السهمين

فقال اراد مهمها واحدا بدليل توحيد الضمير فى قطعته وهو باطل لان قوله بالسهم يدل على ان المراد مهمهان وذلك لانه لو كان مهمها واحدا لما كانوا فى قطعته يقصدون جذلا بل يقصدون التعجب وهو ارادته قطع مهمهين بأهبة واحدة وسهم واحد وهو من العزم القوى واما الضمير فهو عائد الى مفهوم تقديره قطعت كليهما وهو لفظ مقصور معناه التثنية ولفظه للواحد يقال كلاهما معلوم ومجهول قال تعالى كلتا الجنتين آتت اكلها فوحد اللفظ ولا حاجة ههنا الى التعسف ولا مانع من ان يعطى الله جنتين وجنانا عديدة وكيف وقد قال بعد ذواتا افنان وقال فيهما والثانى وهو الصحيح انهما جنتان

مايؤدى الى استدامتها واماما عدد فيما بين قوله تعالى سنفرغ لكم وبين هذه الآية من الاحوال الهائلة التى ستقع فى الآخرة فليست هى من قبيل الالاء وانما الآلاء حكاياتها الموجبة للانزجار عما يؤدى الى الابتلاء بها من الكفر والمعاصى كما اشير اليه فى تضاعيف تعدادها ومقامه تعالى موقفه الذى يقف فيه العباد للحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين او قيامه تعالى على احواله من قام عليه اذا راقبه اومقام الخائف عند ربه للحساب بأحد المعنيين واضافته الى الرب للتفخيم والتهويل اوهو مقحم للتعظيم (جنتان) جنة للخائف الانسى وجنة للخائف الجنى فان الخطاب للفريقين فالمعنى لكل خائفين منكما اولكل واحد جنة لعقيدته واخرى لعمله او جنة لفعل الطاعات واخرى لترك المعاصى او جنة يثاب بها واخرى يتفضل بها عليه اوروحانية وجسمانية وكذا ماجاء مثنى بعد (فبأى آلاء ربكما تكذبان)

وفيه وجوه (احدها) انهما جنة للجن وجنة للانس لان المراد هذان النوعان (وثانيها) جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصى لان التكليف بهذين النوعين (وثالثها) جنة هى جزاء وجنة اخرى زيادة على الجزاء ويحتمل ان يقال جنتان جنة جسمية والاخرى روحية فالجسمية فى نعيم والروحية فى روح فكان كما قال تعالى فروح وريحان وجنة نعيم وذلك لان الخائف من المقربين والمقرب فى روح وريحان وجنة نعيم (واما اللفظية) فنقول لما قال تعالى فى حق المجرم انه يطوف بين نار وبين حميم آن وهما نوعان ذكر لغيره وهو الخائف جنتين فى مقابلة ماذكر فى حق المجرم لكنه ذكر هناك انهم يطوفون فيفارقون عذابا ويقعون فى الآخر ولم يقل ههنا يطوفون بين الجنتين بل جعلهم الله تعالى ملوكا وهم فيهما يطاف عليهم ولا يطاف بهم احتراما لهم واكراما فى حقهم وقد ذكرنا فى قوله تعالى مثل الجنة التى وعد المتقون وقوله ان المتقين فى جنات انه تعالى ذكر الجنة والجنتين والجنات فهى لاتصال اشجارها ومساكنها وعدم وقوع الفاصل بينها كمهامه وقفار صارت كجنة واحدة ولسعتها وتنوع اشجارها وكثرة مساكنها كأنها جنات ولاشتمالها على ماتلتذ به الروح والجسم كأنها جنتان فالكل عائد الى صفة مدح ❊ ثم قال تعالى (ذواتا افنان فبأى آلاء ربكما تكذبان) هى جمع فنن اى ذواتا اغصان او جمع فن اى فيهما فنون من الاشجار وانواع من الثمار فان قيل اى الوجهين اقوى نقول الاول لوجهين (احدهما) ان الافنان فى جمع فنن هو المشهور والفنون فى جمع الفن كذلك ولا يظن ان الافنان والفنون جمع فن بل كل واحد منهما جمع معرف بحرف التعريف والافعال فى فعل كثير والفعول فى فعل اكثر (ثانيهما) قوله تعالى فيهما من كل فاكهة زوجان مستقل بماذكر من الفائدة ولان ذلك فيما يكون ثابتا لاتفاوت فيه ذهنا ووجودا اكثر (فان قيل كيف) تمدح بالافنان والجنات فى الدنيا ذوات افنان كذلك (نقول) فيه وجهان (احدهما) ان الجنات فى الاصل ذوات أشجار والاشجار ذوات اغصان والاغصان ذوات أزهار وأثمار وهى لتنزه الناظر الا ان جنة الدنيا لضرورة الحاجة وجنة الآخرة ليست كالدنيا فلا يكون فيها الا مافيه اللذة واما الحاجة فلا واصول الاشجار وسوقها امور محتاج اليها مانعة للانسان عن التردد فى البستان كيفما شاء فالجنة فيها افنان عليها اوراق عجيبة وثمار طيبة من غير سوق غلاظ ويدل عليه انه تعالى لم يصف الجنة الا بما فيه اللذة بقوله ذواتا افنان اى الجنة هى ذات فنن غير كائن على اصل وعرق بل هى واقفة فى الجو واهلها من تحتها (والثانى) من الوجهين هو ان التنكير للافنان للتكثير او التعجيب ❊ ثم قال تعالى (فيهما عينان تجريان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما من كل فاكهة زوجان فبأى آلاء ربكما تكذبان) اى فى كل واحدة منهما عين جارية كما قال تعالى فيها عين جارية وفى كل واحدة منهما من الفواكه نوعان وفيها مسائل بعضها يذكر عند تفسير قوله تعالى فيهما عينان نضاختان فيهما فاكهة ونخل ورمان وبعضها

وقوله تعالى (ذواتا أفنان) صفة لجنتان ومابينهما اعتراض وسط بينهما تنبيها على ان تكذيب كل من الموصوف والصفة موجب للانكار والتوبيخ والافنان اما جمع فن اى ذواتا انواع من الاشجار والثمار او جمع فنن اى ذواتا اغصان متشعبة من فروع الشجر وتخصيصها بالذكر لانها التى تورق وتثمر وتمد الظل (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وليس فيها شئ يقبل التكذيب (فيهما عينان تجريان) صفة أخرى لجنتان اى فى كل واحدة منهما عين تجرى كيف يشاء صاحبها فى الاعالى والاسافل وقيل تجريان من جبل من مسك وعن ابن عباس والحسن تجريان بالماء الزلال احداهما التسنيم والاخرى السلسبيل وقيل احداهما من ماء غير آسن والاخرى من خمر لذة للشاربين قال ابو بكر الوراق فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه فى الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى (فيهما من كل فاكهة زوجان) اى صنفان معروف وغريب او رطب ويابس صفة اخرى لجنتان وتوسيط الاعتراض بين الصفات لما مر آنفا (فباى آلاء ربكما تكذبان)

يذكرهننا (المسئلة الاولى) هي ان قوله ذواتا أفنان وفيهما عينان تجريان وفيهما من كل فاكهة زوجان كلها اوصاف للجنتين المذكورتين فهو كالكلام الواحد تقديره جنتان ذواتا أفنان ثابت فيهما عينان كائن فيهما من كل فاكهة زوجان فان قيل فما الفائدة في فصل بعضها عن بعض بقوله تعالى فبأى آلاء ربكما تكذبان ثلاث مرات مع انه في ذكر العذاب ما فصل بين كلامين بها حيث قال يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران مع ان ارسال نحاس غير ارسال شواظ وقال يطوفون بينها وبين حميم آن مع ان الحميم غير الجحيم وكذا قال تعالى هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون وهو كلام تام وقوله تعالى يطوفون بينها وبين حميم آن كلام آخر ولم يفصل بينهما بالآية المذكورة نقول تغليب جانب الرحمة فان آيات العذاب سردها سردا وذكرها جملة ليقصر ذكرها والثواب ذكره شيئا فشيئا لان ذكره يطيب للسامع فقال بالفصل وتكرار عود الضمير الى الجنس بقوله فيهما عينان فيهما من كل فاكهة لان اعادة ذكر المحبوب محبوب وتطويل الكلام بذكر اللذات مستحسن (المسئلة الثانية) قوله تعالى فيهما عينان تجريان اى في كل واحدة عين واحدة كما مر وقوله فيهما من كل فاكهة زوجان معناه في كل واحدة منهما زوج او معناه في كل واحدة منهما من الفواكه زوجان ويحتمل ان يكون المراد مثل ذلك اى في كل واحدة من الجنتين زوج من كل فاكهة ففيهما جميعا زوجان من كل فاكهة وهذا اذا جعلنا الكنايتين فيهما للزوجين او نقول من كل فاكهة لبيان حال الزوجين ومثاله اذا دخلت من على مالا يمكن ان يكون كائنا في شيء كقولك في الدار من الشرق رجل اى فيها رجل من الشرق ويحتمل ان يكون المراد في كل واحدة منها زوجان وعلى هذا يكون كالصفة بما يدل عليه من كل فاكهة كأنه قال فيهما من كل فاكهة اى كائن فيهما اى من كل فاكهة وذلك الكائن زوجان وهذا بين فيما تكون من داخلة على مالا يمكن ان يكون هناك كائن في الشيء غيره كقولك في الدار من كل ساكن فاذا قلنا فيهما من كل فاكهة زوجان (الثالث) عند ذكر الافنان لو قال فيهما من كل فاكهة زوجان كان متناسبا لان الاغصان عليها الفواكه فما الفائدة في ذكر العينين بين الامرين المتصل احدهما بالآخر نقول جرى ذكر الجنة على عادة المتنعمين فانهم اذا دخلوا البستان لايبادرون الى أكل الثمار بل يقدمون التفرج على الاكل مع ان الانسان في بستان الدنيا لا يأكل حتى يجوع ويشتهي شهوة مؤلمة فكيف في الجنة فذكر مايتم به النزهة وهو خضرة الاشجار وجريان الانهار ثم ذكر مايكون بعد النزهة وهو أكل الثمار فسبحان من يأتي بالآي بأحسن المعاني في أبين المباني ❊ ثم قال تعالى (متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه مسائل نحوية ولغوية ومعنوية (المسئلة الاولى من النحوية) هو ان المشهور ان متكئين حال وذو الحال من في قوله ولمن خاف مقام ربه والعامل مايدل عليه اللام الجارة تقديره لهم في حال الاتكاء

وقوله تعالى (متكئين) حال من الخائفين لان من خاف في معنى الجمع او نصب على المدح (على فرش بطائنها من استبرق) من ديباج ثخين وحيث كانت بطائنها كذلك فما ظنك بظهائرها وقيل ظهائرها من سندس وقيل من نور (وجنى الجنتين دان) اى مايجتنى من اشجارها من الثمار قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع قال ابن عباس رضي الله عنهما تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله ان شاء قائما وان شاء قاعدا وان شاء مضطجعا وقرئ جنى بكسر الجيم (فبأى آلاء ربكما تكذبان)

جنتان وقال صاحب الكشاف يحتمل ان يكون نصبا على المدح وانما حمله على هذا اشكال فى قول من قال انه حال وذلك لان الجنة ليست لهم حال الاتكاء بل هى لهم فى كل حال فهى قبل الدخول لهم ويحتمل ان يقال هو حال وذو الحال ماتدل عليه الفاكهة لان قوله تعالى فيهما من كل فاكهة زوجان يدل على متفكهين بها كأنه قال يتفكه المتفكهون بها متكئين وهذا فيه معنى لطيف وذلك لان الآكل ان كان ذليلا كالخول والخدم والعبيد والغلمان فانه يأكل قائما وان كان عزيزا فان كان يأكل لدفع الجوع يأكل قاعدا ولا يأكل متكئا الاعزيز متفكه ليس عنده جوع يقعده للاكل ولاهنالك من يحتشمه فالتفكه مناسب للاتكاء (المسئلة الثانية) من المسائل النحوية على فرش متعلق بأى فعل هو ان كان متعلقا بما فى متكئين حتى يكون كأنه يقول يتكؤن على فرش كما يقال فلان اتكأ على عصاه او على فخذيه فهو بعيد لان الفراش لايتكأ عليه وان كان متعلقا بغيره فماذا هو نقول متعلق بغيره تقديره يتفكه الكائنون على فرش متكئين من غير بيان مايتكؤن عليه ويحتمل ان يكون اتكاؤهم على الفرش غير ان الاظهر ماذكرنا ليكون ذلك بيانا لما تحتهم وهم بجميع بدنهم عليه وهو انعم واكرم لهم (المسئلة الثالثة) الظاهر ان لكل واحد فرشا كثيرة لا ان لكل واحد فراشا فلكلهم فرش هم عليها كائنون (المسئلة الرابعة) لغوية الاستبرق هو الديباج الثخين وكما ان الديباج معرب بسبب ان العرب لم يكن عندهم ذلك الا من العجم استعمل الاسم المعجم فيه غير انهم تصرفوا فيه تصرفا وهو ان اسمه بالفارسية ستبرك بمعنى ثخين تصغير ستبر فزادوا فيه همزة متقدمة عليه وبدلوا الكاف بالقاف اما الهمزة فلأن حركات اوائل الكلمة فى لسان العجم غير مبينة فى كثير من المواضع فصارت كالسكون فأثبتوا فيه همزة كما اثبتوا همزة الوصل عند سكون اول الكلمة ثم ان البعض جعلوها همزة وصل وقالوا من استبرق والاكثرون جعلوها همزة قطع لان اول الكلمة فى الاصل متحرك لكن بحركة فاسدة فأتوا بهمزة تسقط عنهم الحركة الفاسدة وتمكنهم من تسكين الاول وعند تساوى الحركة فالعود الى السكون اقرب وأواخر الكلمات عند الوقف تسكن ولا تبدل حركة بحركة واما القاف فلأنهم لو تركوا الكاف لاشتبه ستبرك بمسجدك وداركِ فأسقطوا منه الكاف التى هى على لسان العرب فى آخر الكلم للخطاب وابدلوها قافا ثم عليه سؤال مشهور وهو ان القرآن انزل بلسان عربى مبين وهذا ليس بعربى والجواب الحق ان اللفظة فى اصلها لم تكن بين العرب بلغة وليس المراد انه انزل بلغة هى فى اصل وضعها على لسان العرب بل المراد انه منزل بلسان لايخفى معناه على احد من العرب ولم يستعمل فيه لغة لم تتكلم العرب بها فيصعب عليهم مثله لعدم مطاوعة لسانهم التكلم بها فعجزهم عن مثله ليس الا لمعجز (المسئلة الخامسة) معنوية الاتكاء من الهيئات الدالة على صحة الجسم وفراغ القلب فالمتكئ تكون امور جسمه على ماينبغى واحوال قلبه

قوله بالفارسية ستبرك فى القاموس الاستبرق معرب استروه اه مصححه

على ما ينبغي لان العليل يضطجع او يستلقي او يستند الى شيء على حسب ما يقدر عليه للاستراحة واما الاتكاء بحيث يضع كفه تحت رأسه ومرفقه على الارض ويجافي جنبيه عن الارض فذاك امر لا يقدر عليه واما مشغول القلب في طلب شيء فتحركه تحرك مستوفز (المسئلة السادسة) قال اهل التفسير قوله بطائنها من استبرق يدل على نهاية شرفها فان ما تكون بطائنها من الاستبرق تكون ظهائرها خيرا منها وكأنه شيء لا يدركه البصر من سندس وهو الديباج الرقيق الناعم وفيه وجه آخر معنوي وهو ان اهل الدنيا يظهرون الزينة ولا يتمكنون من ان يجعلوا البطائن كالظهائر لان غرضهم اظهار الزينة والبطائن لا تظهر واذا انتفى السبب فلما لم يحصل في جعل البطائن من الديباج مقصودهم وهو الاظهار تركوه وفي الآخرة الامر مبني على الاكرام والتنعيم فتكون البطائن كالظهائر فذكر البطائن (المسئلة السابعة) قوله تعالى وجنى الجنتين دان فيه اشارة الى مخالفتها لجنة دار الدنيا من ثلاثة اوجه (احدها) ان الثمرة في الدنيا على رؤس الشجرة والانسان عند الاتكاء يبعد عن رؤسها وفي الآخرة هو متكئ والثمرة تنزل اليه (ثانيها) في الدنيا من قرب من ثمرة شجرة بعد عن الاخرى وفي الآخرة كلها دان في وقت واحد ومكان واحد وفي الآخرة المستقر في جنة عنده جنة اخرى (ثالثها) ان العجائب كلها من خواص الجنة فكان اشجارها دائرة عليهم سائرة اليهم وهم ساكنون على خلاف ما كان في الدنيا وجناتها وفي الدنيا الانسان متحرك ومطلوبه ساكن وفيه الحقيقة وهي ان من لم يكسل ولم يتقاعد عن عبادة الله تعالى وسعى في الدنيا في الخيرات انتهى امره الى سكون لا يحوجه شيء الى حركة فأهل الجنة ان تحركوا تحركوا لا لحاجة وطلب وان سكنوا سكنوا لا للاستراحة بعد التعب ثم ان الولي قد تصير له الدنيا انموذجا من الجنة فانه يكون ساكنا في بيته ويأتيه الرزق متحركا اليه دائرا حواليه يدلك عليه قوله تعالى كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا (المسئلة الثامنة) الجنتان ان كانتا جسميتين فهو ابدا يكون بينهما وهما عن يمينه وشماله وهو يتناول ثمارها وان كانت احداهما روحية والاخرى جسمية فلكل واحدة منهما فواكه وفرش تليق بها ❊ ثم قال تعالى (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان) وفيه مباحث (الاول) في الترتيب وانه في غاية الحسن لانه في اول الامر بين المسكن وهو الجنة ثم بين ما يتنزه به فان من يدخل بستانا يتفرج اولا فقال ذواتا افنان فيهما عينان ثم ذكر ما يتناول من المأكول فقال فيهما من كل فاكهة ثم ذكر موضع الراحة بعد التناول وهو الفراش ثم ذكر ما يكون في الفراش معه (الثاني) فيهن الضمير عائد الى ماذا نقول فيه ثلاثة اوجه (احدها) الى الآلاء والنعم اي في الآلاء قاصرات الطرف (ثانيها) الى الفرش اي في الفرش قاصرات وهما ضعيفان اما الاول فلأن اختصاص القاصرات بكونهن في الآلاء مع ان الجنتين في الآلاء والعينين فيهما والفواكه كذلك لا يبقى له فائدة واما الثاني فلأن

وقوله تعالى (فيهن) اي في الجنان المدلول عليها بقوله تعالى جنتان لما عرفت انهما لكل خائفين من الثقلين او لكل خائف حسب تعدد عمله وقد اعتبر الجمعية في قوله تعالى متكئين وقيل فيما فيهما من الاماكن والقصور وقيل في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش (قاصرات الطرف) نساء يقصرن ابصارهن على ازواجهن لا ينظرن الى غيرهم (لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان) اي لم يمس الانسيات احد من الانس ولا الجنيات احد من الجن قبل ازواجهن المدلول عليهم بقاصرات الطرف وقيل بقوله تعالى متكئين وفيه دليل على ان الجن يطمثون وقرئ يطمثهن بضم الميم والجملة صفة لقاصرات الطرف لان اضافتها لفظية او حال منها لتخصصها بالاضافة (فبأي آلاء ربكما تكذبان)

الفرش جعلها ظرفهم حيث قال متكئين على فرش واعاد الضمير اليها بقوله بطائنها ولم يقل بطائنهن فقوله فيهن يكون تفسير الضمير فيحتاج الى بيان فائدة ولأنه تعالى قال بعد هذا مرة اخرى فيهن خيرات ولم يكن هناك ذكر الفرش فالاصح اذن هو الوجه الثالث وهو ان الضمير عائد الى الجنتين وجمع الضمير ههنا وثنى فى قوله فيهما عينان وفيهما من كل فاكهة وذلك لانا بينا ان الجنة لها اعتبارات ثلاثة (احدها) اتصال اشجارها وعدم وقوع الفيافى والمهامه فيها والاراضى الغامرة ومن هذا الوجه كأنها جنة واحدة لا يفصلها فاصل (وثانيها) اشتمالها على النوعين الحاصرين للخيرات فان فيها ما فى الدنيا وما ليس فى الدنيا وفيها ما يعرف وما لا يعرف وفيها ما يقدر على وصفه وفيها ما لا يقدر وفيها لذات جسمانية ولذات غير جسمانية فلاشتمالها على النوعين كأنها جنتان (وثالثها) لسعتها وكثرة اشجارها واماكنها وانهارها ومساكنها كأنها جنات فهى من وجه جنة واحدة ومن وجه جنتان ومن وجه جنات اذا ثبت هذا فنقول اجتماع النسوان للمعاشرة مع الازواج والمباشرة فى الفراش فى موضع واحد فى الدنيا لا يمكن وذلك لضيق المكان او عدم الامكان او دليل ذلة النسوان فان الرجل الواحد لا يجمع بين النساء فى بيت الا اذا كن جوارى غير ملتفت اليهن فاما اذا كانت كل واحدة كبيرة النفس كثيرة المال فلا يجمع بينهن واعلم ان الشهوة فى الدنيا كما تزداد بالحسن الذى فى الازواج تزداد بسبب العظمة واحوال الناس فى اكثر الامر تدل عليه اذا ثبت هذا فنقول الحظايا فى الجنة يجتمع فيهن حسن الصورة والجمال والعز والشرف والكمال فتكون الواحدة لها كذا وكذا من الجوارى والغلمان فتزداد اللذة بسبب كمالها فاذن ينبغى ان يكون لكل واحدة ما يليق بها من المكان الواسع فتصير الجنة التى هى واحدة من حيث الاتصال كثيرة من حيث تفرق المساكن فيها فقال فيهن واما الدنيا فليس فيها تفرق المساكن دليلا للعظمة واللذة فقال فيهما وهذا من اللطائف (الثالث) قاصرات الطرف صفة لموصوف حذف واقيمت الصفة مكانه والموصوف النساء او الازواج كأنه قال فيهن نساء قاصرات الطرف (وفيه لطيفة) فانه تعالى لم يذكر النساء الا بأوصافهن ولم يذكر اسم الجنس فيهن فقال تارة حور عين وتارة عربا أترابا وتارة قاصرات الطرف ولم يذكر نساء كذا وكذا الوجهين (احدهما) الاشارة الى تخدرهن وتسترهن فلم يذكرهن باسم الجنس لان اسم الجنس يكشف من الحقيقة ما لا يكشفه الوصف فانك اذا قلت المتحرك المريد الآكل الشارب لا تكون بينته بالاوصاف الكثيرة اكثر مما بينته بقولك حيوان وانسان (وثانيهما) اعظاما لهن ليزداد حسنهن فى اعين الموعودين بالجنة فان بنات الملوك لا يذكرن الا بالاوصاف (المسئلة الرابعة) قاصرات الطرف من القصر وهو المنع اى المانعات اعينهن من النظر الى الغير او من القصور وهو كون اعينهن قاصرة لا طماح فيها للغير اقول والظاهر انه من القصر اذ القصر مدح والقصور ليس كذلك ويحتمل ان يقال هو من القصر بمعنى انهن قصرن

(ابصارهن)

ابصارهن فأبصارهن مقصورة وهن قاصرات فيكون من اضافة الفاعل الى المفعول والدليل عليه هو ان القصر مدح والقصور ليس كذلك وعلى هذا ففيه لطيفة وهي انه تعالى قال من بعد هذه حور مقصورات فهن مقصورات وهن قاصرات وفيه وجهان (احدهما) ان يقال هن قاصرات ابصارهن كما يكون شغل العفائف وهن قاصرات انفسهن في الخيام كما هو عادة المخدرات لانفسهن في الخيام ولا بصارهن عن الطماح (وثانيهما) ان يكون ذلك بيانا لعظمتهن وعفافهن وذلك لان المرأة التي لا يكون لها رادع من نفسها ولا يكون لها اولياء يكون فيها نوع هوان واذا كان لها اولياء أعزة امتنعت عن الخروج والبروز وذلك يدل على عظمتهن واذا كن في انفسهن عند الخروج لا ينظرن يمنة ويسرة فهن في انفسهن عفائف فجمع بين الاشارة الى عظمتهن بقوله تعالى مقصورات منعهن اولياؤهن وههنا اولياهن الله تعالى وبين الاشارة الى عفتهن بقوله تعالى قاصرات الطرف ثم تمام اللطف انه تعالى قدم ذكر ما يدل على العفة على ما يدل على العظمة وذكر في اعلى الجنتين قاصرات وفي ادناهما مقصورات والذي يدل على ان المقصورات يدل على العظمة انهن يوصفن بالمخدرات لا بالمتخدرات اشارة الى انهن خدرهن خادر لهن غيرهن كالذي يضرب الخيام ويدلي الستر بخلاف من تتخذه لنفسها وتغلق بابها بيدها وسنذكر بيانه في تفسير الآية بعد (المسئلة الخامسة) قاصرات الطرف فيها دلالة على عفتهن وعلى حسن المؤمنين في اعينهم فيحببن ازواجهن حبا يشغلهن عن النظر الى غيرهم ويدل ايضا على الحياء لان الطرف حركة الجفن والحورية لا تحرك جفنها ولا ترفع رأسها (المسئلة السادسة) لم يطمثهن فيه وجوه (احدها) لم يفرعهن (ثانيها) لم يجامعهن (ثالثها) لم يمسهن وهو اقرب الى حالهن واليق بوصف كمالهن لكن لفظ الطمث غير ظاهر فيه ولو كان المراد منه المس لذكر اللفظ الذي يستحسن وكيف وقد قال تعالى وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن وقال فاعتزلوا ولم يصرح بلفظ موضوع للوطء فان قيل فما ذكرتم من الاشكال باق وهو انه تعالى كنى عن الوطء في الدنيا باللمس كما في قوله تعالى اولامستم النساء على الصحيح في تفسير الآية وسنذكره وان كان على خلاف قول امامنا الشافعي رضي الله عنه وبالمس في قوله من قبل ان تمسوهن ولم يذكر المس في الآخرة بطريق الكناية نقول انما ذكر الجماع في الدنيا بالكناية لما انه في الدنيا قضاء للشهوة وانه يضعف البدن ويمنع من العبادة وهو في بعض الاوقات قبيح كقبح شرب الخمر وفي بعض الاوقات هو كالاكل الكثير وفي الآخرة مجرد عن وجوه القبح وكيف لا والخمر في الجنة معدودة من اللذات واكلها وشربها دائم الى غير ذلك فالله تعالى ذكره في الدنيا بلفظ مجازي مستور في غاية الخفاء بالكناية اشارة الى قبحه وفي الآخرة ذكره بأقرب الالفاظ الى التصريح او بلفظ صريح لان الطمث ادل من الجماع والوقاع لانهما من الجمع والوقوع اشارة الى خلوه عن وجوه القبح (المسئلة السابعة)

ماالفائدة فى كلمة قبلهم قلنالو قال لم يطمثهن انس ولاجان يكون نفيالطمث المؤمن اياهن وليس كذلك (المسئلة الثامنة) ماالفائدة فى ذكرالجان مع ان الجان لايجامع نقول ليس كذلك بل الجن لهم اولاد وذريات وانما الخلاف فى انهم هل يواقعون الانس ام لا والمشهور انهم يواقعون والا لما كان فى الجنة احساب ولاانساب فكان مواقعة الانس اياهن كمواقعة الجن من حيث الاشارة الى نفيها ※ ثم قال تعالى (كأنهن الياقوت والمرجان فبأى آلاء ربكما تكذبان) وهذا التشبيه فيه وجهان (احدهما) تشبيه بصفائهما (وثانيهما) بحسن بياض اللؤلؤ وحمرة الياقوت والمرجان صغار اللؤلؤ وهى اشد بياضا وضياء من الكبار بكثير فان قلنا ان التشبيه لبيان صفائهن فنقول فيه لطيفة وهى ان قوله تعالى قاصرات الطرف اشارة الى خلوصهن عن القبائح وقوله كأنهن الياقوت والمرجان اشارة الى صفائهن فى الجنة فأول ما بدأ بالعقليات وختم بالحسيات كما قلنا ان التشبيه لبيان مشابهة جسمهن بالياقوت والمرجان فى الحمرة والبياض فكذلك القول فيه حيث قدم بيان العفة على بيان الحسن ولا يبعد ان يقال هو مؤكد لما مضى لأنهن لما كن قاصرات الطرف ممتنعات عن الاجتماع بالانس والجن لم يطمثن فهن كالياقوت الذى يكون فى معدنه والمرجان المصون فى صدفه لايكون قدمسه يد لامس وقد بينامرة اخرى فى قوله تعالى كأنهن بيض مكنون ان كأن الداخلة على المشبه به لاتفيد من التأكيد ما تفيده الداخلة على المشبه فاذاقلت زيد كالاسد كان معناه زيد يشبه الاسد واذاقلت كأن زيدا الاسد فمعناه يشبه ان زيدا هو الاسد حقيقة لكن قولنا زيد يشبه الاسد ليس فيه مبالغة عظيمة فانه يشبهه فى انهما حيوانان وجسمان وغير ذلك وقولنا زيد يشبه الاسد لايمكن حمله على الحقيقة امامن حيث اللفظ فنقول اذا دخلت الكاف على المشبه به وقيل ان زيدا كالاسد عملت الكاف فى الاسد عملا لفظيا والعمل اللفظى منع العمل المعنوى فكان الاسد عمل به عمل حتى صار زيدا واذا قلت كأن زيدا الاسد تركت الاسد على اعرابه فاذن هو متروك على حاله وحقيقته وزيد يشبه به فى تلك الحال ولاشك فى ان زيدا اذا شبه بأسد هو على حاله باق يكون اقوى مما اذا شبه بأسد لم يبق على حاله وكأن من قال زيد كالاسد نزل الاسد عن درجته فساواه زيد ومن قال كأن زيدا الاسد رفع زيدا عن درجته حتى ساوى الاسد وهذا تدقيق لطيف ※ ثم قال تعالى (هل جزاء الاحسان الا الاحسان فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه وجوه كثيرة حتى قيل ان فى القرآن ثلاث آيات فى كل آية منها مائة قول (الاولى) قوله تعالى فاذكرونى اذكركم (الثانية) قوله تعالى وان عدتم عدنا (الثالثة) قوله تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان ولنذكر الاشهر منها والاقرب اما الاشهر فوجوه (احدها) هل جزاء التوحيد غير الجنة اى جزاء من قال لا اله الا الله ادخال الجنة (ثانيها) هل جزاء الاحسان فى الدنيا الا الاحسان فى الآخرة (ثالثها) هل جزاء من احسن اليكم فى الدنيا بالنعم وفى العقبى بالنعيم الا ان

وقوله تعالى (كأنهن الياقوت والمرجان) اماصفة لقاصرات الطرف اوحال منها كالتى قبلها اى مشبهات بالياقوت فى حمرة الوجنة والمرجان اى صغار الدر فى بياض البشرة وصفائها فان صغار الدر انصع بياضا من كباره قيل ان الحوراء تلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الاحمر فى الزجاجة البيضاء (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى (هل جزاء الاحسان الا الاحسان) استئناف مقرر لمضمون مافصل قبله اى ماجزاء الاحسان فى العمل الا الاحسان فى الثواب (فبأى آلاء ربكما تكذبان)

تحسنوا اليه بالعبادة و التقوى * واما الاقرب فانه عام لجزاء كل من احسن الى غيره ان يحسن هو اليه ايضا ولنذكر تحقيق القول فيه ونرجع الوجوه كلها الى ذلك فنقول الاحسان يستعمل فى ثلاثة معان (احدها) اثبات الحسن وايجاده قال تعالى فأحسن صوركم وقال تعالى الذى احسن كل شئ خلقه (ثانيها) الاتيان بالحسن كالاظراف والاغراب للاتيان بالظريف والغريب قال تعالى من جاء بالحسنة فله عشر امثالها (ثالثها) يقال فلان لايحسن الكتابة ولايحسن الفاتحة اى لايعلمهما والظاهر ان الاصل فى الاحسان الوجهان الاولان والثالث مأخوذ منهما وهذا لايفهم الا بقرينة الاستعمال مما يغلب على الظن ارادة العلم اذا علمت هذا فنقول يمكن حمل الاحسان فى الموضعين على معنى متحد من المعنيين ويمكن حمله فيهما على معنيين مختلفين (اما الاول) فنقول هل جزاء الاحسان اى هل جزاء من أتى بالفعل الحسن الا ان يؤتى فى مقابلته بفعل حسن لكن الفعل الحسن من العبد ليس كل مايستحسنه هو بل الحسن هو مااستحسنه الله منه فان الفاسق ربما يكون الفسق فى نظره حسنا وليس بحسن بل الحسن ماطلبه الله منه كذلك الحسن من الله هو كل مايأتى به مما يطلبه العبد كما أتى العبد بما يطلبه الله تعالى منه واليه الاشارة بقوله تعالى وفيها ماتشتهى الانفس وتلذ الاعين وقوله تعالى وهم فيما اشتهت انفسهم خالدون وقال تعالى للذين احسنوا الحسنى اى ماهو حسن عندهم (واما الثانى) فنقول هل جزاء من اثبت الحسن فى عمله فى الدنيا الا ان يثبت الله الحسن فيه وفى احواله فى الدارين وبالعكس هل جزاء من اثبت الحسن فينا وفى صورنا واحوالنا الا ان نثبت الحسن فيه ايضا لكن اثبات الحسن فى الله تعالى محال فاثبات الحسن ايضا فى انفسنا وافعالنا فنحسن انفسنا بعبادة حضرة الله تعالى وافعالنا بالتوجه اليه واحوال باطننا بمعرفته تعالى والى هذا رجعت الاشارة وورد فى الاخبار من حسن وجوه المؤمنين وقبح وجوه الكافرين (واما الوجه الثالث) وهو الحمل على المعنيين فهو ان نقول هل جزاء من أتى بالفعل الحسن الا ان يثبت الله فيه الحسن وفى جميع احواله فيجعل وجهه حسنا وحاله حسنا ثم فيه لطائف (الاولى) هذه اشارة الى رفع التكليف عن العوام فى الآخرة وتوجيه التكليف على الخواص فيها (اما الاول) فلأنه تعالى لما قال هل جزاء الاحسان الا الاحسان والمؤمن لاشك فى انه يثاب بالجنة فيكون له من الله الاحسان جزاء له ومن جازى عبدا على عمله لايأمره بشكره ولان التكليف لو بقى فى الآخرة فلو ترك العبد القيام بالتكليف لاستحق العقاب والعقاب ترك الاحسان لان العبد لما عبد الله فى الدنيا مادام وبقى يليق بكرمه تعالى ان يحسن اليه فى الآخرة مادام وبقى فلا عقاب على تركه بلا تكليف (واما الثانى) فنقول خاصة الله تعالى عبدوا الله تعالى فى الدنيا لنعم قد سبقت له علينا فهذا الذى اعطانا الله تعالى ابتداء نعمة واحسان جديد فله علينا شكره فيقولون الحمد لله ويذكرون الله ويثنون عليه فيكون

نفس الاحسان من الله تعالى في حقهم سببا لقيامهم بشكره فيعرضون هم على انفسهم عبادته تعالى فيكون لهم بأدنى عبادة شغل شاغل عن الحور و القصور و الأكل و الشرب فلا يأكلون ولا يشربون ولا يتنابذون ولا يلعبون فيكون حالهم كحال الملائكة في يومنا هذا لا يتناكحون ولا يلعبون فلا يكون ذلك تكليفا مثل هذه التكاليف الشاقة وانما يكون ذلك لذة زائدة على كل لذة هي غيرها (اللطيفة الثانية) هذه الآية تدل على ان العبد محكم في الآخرة كما قال تعالى لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون وذلك لانا بينا ان الاحسان هو الاتيان بما هو حسن عند من أتى بالاحسان لكن الله لما طلب منا العبادة طلب كما اراد فأتى به المؤمن كما طلب منه فصار محسنا فهذا يقتضي ان يحسن الله الى عبده ويأتي بما هو حسن عنده وهو مايطلبه كما يريد فكأنه قال هل جزاء الاحسان اي هل جزاء من أتى بما طلبته منه على حسب ارادتي الا ان يؤتى بما طلبه مني على حسب ارادته لكن الارادة متعلقة بالرؤية فيجب بحكم الوعد ان تكون هذه آية دالة على الرؤية البلكفية (اللطيفة الثالثة) هذه الآية تدل على ان كل مايفرضه الانسان من انواع الاحسان من الله تعالى فهو دون الاحسان الذي وعدالله تعالى به لان الكريم اذا قال للفقير افعل كذا ولك كذا دينارا وقال لغيره افعل كذا على ان احسن اليك يكون رجاء من لم يعين له اجرا اكثر من رجاء من عين له هذا اذا كان الكريم في غاية الكرم ونهاية الغنى اذا ثبت هذا فالله تعالى قال جزاء من احسن الى ان احسن اليه بما يغبط به واوصل اليه فوق مايشتهيه فالذي يعطى الله فوق مايرجوه وذلك على وفق كرمه وافضاله ❊ ثم قال تعالى (ومن دونهما جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان مدهامتان فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان نضاختان فبأي آلاء ربكما تكذبان) لما ذكر الجزاء ذكر بعده مثله وهو جنتان اخريان وهذا كقوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة وفي قوله تعالى دونهما وجهان (احدهما) دونهما في الشرف وهو مااختاره صاحب الكشاف وقال قوله مدهامتان مع قوله في الاولين ذواتا افنان وقوله في هذه عينان نضاختان مع قوله في الاولين عينان تجريان لان النضخ دون الجري وقوله في الاولين من كل فاكهة زوجان مع قوله في هاتين فاكهة ونخل ورمان وقوله في الاليين فرش بطائنها من استبرق حيث ترك ذكر الظهائر لعلوها ورفعتها وعدم ادراك العقول اياها مع قوله في هاتين رفرف خضر دليل عليه ولقائل ان يقول هذا ضعيف لان عطايا الله في الآخرة متناسبة لايعطى شيئا بعد شيء الا ويظن الظان انه ذلك او خير منه ويمكن ان يجاب عنه تقريرا لما اختاره الزمخشري ان الجنتين اللتين دون الاولين لذريتهم الذين الحقهم الله بهم ولأتباعهم ولكنه انما جعلهما لهم انعاما عليهم او هاتان الاخريان لكم اسكنوا فيهما من تريدون (الثاني) ان المراد دونهما في المكان كأنهم في جنتين ويطلعون من فوق على جنتين اخريين دونهما ويدل عليه قوله تعالى لهم غرف من فوقها غرف الآية والغرف العالية عندها

(افنان)

وقوله تعالى (ومن دونهما جنتان) مبتدأ وخبر اي ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين جنتان اخريان لمن دونهم من اصحاب اليمين (فبأي آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى (مدهامتان) صفة لجنتان وسط بينهما الاعتراض لما ذكر من التنبيه على ان تكذيب كل من الموصوف والصفة حقيق بالانكار والتوبيخ اي خضراوان تضربان الى السواد من شدة الخضرة وفيه اشعار بان الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الارض وعلى الاولين الاشجار والفواكه (فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان نضاختان) اي فوارتان بالماء والنضخ اكثر من النضح بالحاء المهملة وهو الرش (فبأي آلاء ربكما تكذبان)

افنان والغرف التي دونها ارضها مخضرة وعلى هذا في الآيات لطائف (الاولى) قال في الاولين ذواتا افنان وقال في هاتين مدهامتان اى مخضرتان في غاية الخضرة وادهام الشئ اى اسود لكن قد لايستعمل في بعض الاشياء والارض اذا اخضرت غاية الخضرة تضرب الى سواد ويحتمل ان يقال الارض الخالية عن الزرع يقال لها بياض ارض واذا كانت معمورة يقال لها سواد ارض كما يقال سواد البلد وقال النبي صلى الله عليه وسلم عليكم بالسواد الاعظم ومن كثر سواد قوم فهو منهم والتحقيق فيه ان ابتداء الالوان هو البياض وانتهاءها هو السواد فان الابيض يقبل كل لون والاسود لايقبل شيئا من الالوان ولهذا يطلق الكافر على الاسود ولايطلق على لون آخر ولما كانت الخالية عن الزرع متصفة بالبياض واللاخالية بالسواد فهذا يدل على انهما تحت الاولين مكانا فهم اذا نظروا الى ما فوقهم يرون الافنان تظلهم واذا نظروا الى ما تحتهم يرون الارض مخضرة وقوله تعالى فيهما عينان نضاختان اى فائرتان ماؤهما متحرك الى جهة فوق واما العينان المتقدمتان فتجريان الى صوب المؤمنين فكلاهما حركتهما الى جهة مكان اهل الايمان واما قول صاحب الكشاف النضخ دون الجرى فغير لازم لجواز ان يكون الجرى يسيرا والنضخ قويا كثيرا بل المراد ان النضخ فيه الحركة الى جهة العلو والعينان في مكان المؤمنين لحركة الماء تكون الى جهتهم فالعينان الاوليان في مكانهم فتكون حركة مائهما الى صوب المؤمنين جريا ❊ واما قوله تعالى (فيهما فاكهة ونخل ورمان فبأى آلاء ربكما تكذبان) فهو كقوله تعالى فيهما من كل فاكهة زوجان وذلك لان الفاكهة ارضية نحو البطيخ وغيره من الارضيات المزروعات وشجرية نحو النخل وغيره من الشجريات فقال مدهامتان بأنواع الخضر التي منها الفواكه الارضية وفيهما ايضا الفواكه الشجرية وذكر منها نوعين وهما الرمان والرطب لانهما متقابلان فأحدهما حلو والآخر غير حلو وكذلك احدهما حار والآخر بارد واحدهما فاكهة وغذاء والآخر فاكهة واحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد الباردة واحدهما اشجاره في غاية الطول والآخر اشجاره بالضد واحدهما مايؤكل منه بارزوما لايؤكل كامن والآخر بالعكس فهما كالضدين والاشارة الى الطرفين تتناول الاشارة الى ما بينهما كما قال رب المشرقين ورب المغربين وقدمنا ذلك ❊ ثم قال تعالى (فيهن خيرات حسان فبأى آلاء ربكما تكذبان) اى في باطنهن الخير وفي ظاهرهن الحسن والخيرات جمع خيرة وقد بينا ان في قوله تعالى قاصرات الطرف الى ان قال كأنهن اشارة الى كونهن حسانا ❊ وقوله تعالى (حور مقصورات في الخيام فبأى آلاء ربكما تكذبان لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان) اشارة الى عظمتهن فانهن ماقصرن حجرا عليهن وانما ذلك اشارة الى ضرب الخيام لهن وادلاء الستر عليهن والخيمة مبيت الرجل كالبيت من الخشب حتى ان العرب تسمى البيت من الشعر خيمة لانه معد للاقامة اذا ثبت هذا

فيهما فاكهة ونخل ورمان) عطف الاخيران على الفاكهة عطف جبريل وميكال على الملائكة بيانا لفضلهما فان ثمرة النخل فاكهة وغذاء والرمان فاكهة ودواء وعن هذا قال ابو حنيفة رحمه الله من حلف لايأكل فاكهة فأكل رمانا او رطبا لم يحنث (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى (فيهن خيرات) صفة أخرى لجنتان كالجملة التي قبلها والكلام في جمع الضمير كالذى مر فيما مر وخيرات مخففة من خيرات لان خيرا الذى بمعنى اخير لايجمع وقد قرئ على الاصل (حسان) اى حسان الخلق والخلق (فبأى الاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى (حور) بدل من خيرات (مقصورات في الخيام) قصرن في خدورهن يقال امرأة قصيرة وقصورة اى مخدرة او مقصورات الطرف على ازواجهن وقيل ان الخيمة من خيامهن درة مجوفة (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى (لم يطمثهن انس قبلهم ولاجان) كالذى مر في نظيره من جميع الوجوه (فبأى الاء ربكما تكذبان

فنقول قوله مقصورات فى الخيام اشارة الى معنى فى غاية اللطف وهوان المؤمن فى الجنة لايحتاج الى التحرك لشئ وانما الاشياء تتحرك اليه فالمأكول والمشروب يصل اليه من غير حركة منه ويطاف عليهم بما يشتهونه فالحور يكن فى بيوت وعند الانتقال الى المؤمنين فى وقت اراداتهم تسير بهم للارتحال الى المؤمنين خيام وللمؤمنين قصور تنزل الحور من الخيام الى القصور وقوله تعالى لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان قدسبق تفسيره* ثم قال تعالى (متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة فى تأخير ذكر اتكائهم عن ذكر نسائهم فى هذا الموضع مع انه تعالى قدم ذكر اتكائهم على ذكر نسائهم فى الجنتين المتقدمتين حيث قال متكئين على فرش ثم قال قاصرات الطرف وقال ههنا فيهن خيرات حسان ثم قال متكئين والجواب عنه من وجهين (احدهما) ان اهل الجنة ليس عليهم تعب وحركة فهم منعمون دائما لكن الناس فى الدنيا على اقسام منهم من يجتمع مع اهله اجتماع مستفيض وعند قضاء وطره يستعمل الاغتسال والانتشار فى الارض للكسب ومنهم من يكون مترددا فى طلب الكسب وعند تحصيله يرجع الى اهله ويريح قلبه من التعب قبل قضاء الوطر فيكون التعب لازما قبل قضاء الوطر او بعده فالله تعالى قال فى بيان اهل الجنة متكئين قبل الاجتماع بأهلهم وبعد الاجتماع كذلك ليعلم انهم دائمون على السكون فلا تعب لهم لا قبل الاجتماع ولا بعد الاجتماع (وثانيهما) هو انا بينا فى الوجهين المتقدمين ان الجنتين المتقدمتين لاهل الجنة الذين جاهدوا والمتأخرتين لذرياتهم الذين الحقوا بهم فهم فيهما واهلهم فى الخيام منتظرات قدوم ازواجهن فاذا دخل المؤمن جنته التى هى سكناه يتكئ على الفرش وتنتقل اليه ازواجه الحسان فكونهن فى الجنتين المتقدمتين بعد اتكائهم على الفرش واما كونهن فى الجنتين المتأخرتين فذلك حاصل فى يومنا واتكاء المؤمن غير حاصل فى يومنا فقدم ذكر كونهن فيهن هنا واخره هناك ومتكئين حال والعامل فيه مادل عليه قوله لم يطمثهن انس قبلهم وذلك فى قوة الاستثناء كأنه قال لم يطمثهن الا المؤمنون فانهم يطمثونهن متكئين وماذكرنا من قبل فى قوله تعالى متكئين على فرش يقال ههنا (المسئلة الثانية) الرفرف اما ان يكون اصله من رف الزرع اذا بلغ من نضارته فيكون مناسبا لقوله تعالى مدهامتان ويكون التقدير انهم متكؤن على الرياض والثياب العبقرية واما ان يكون من رفرفة الطائر وهى حومه فى الهواء حول ما يريد النزول عليه فيكون المعنى انهم على بسط مرفوعة كما قال تعالى وفرش مرفوعة وهذا يدل على ان قوله تعالى ومن دونهما جنتان انهما دونهما فى المكان حيث رفعت فرشهم وقوله تعالى خضر صيغة جمع فالرفرف يكون جمعا لكونه اسم جنس ويكون واحده رفرفة كحنظلة وحنظل والجمع فى متكئين يدل عليه فانه لما قال متكئين علم انهم على رفارف (المسئلة الثالثة) ما الفرق بين الفرش والرفرف حيث لم يقل رفارف اكتفاء بما يدل عليه

متكئين) نصب على الاختصاص (على رفرف خضر) الرفرف اما اسم جنس او اسم جمع واحده رفرفة قيل هو ماتدلى من الاسرة من اعالى الثياب وقيل هو ضرب من البسط او البسط وقيل الوسائد وقيل النمارق وقيل كل ثوب عريض رفرف ويقال لاطراف البسط وفضول الفسطاط رفارف ورفرف السحاب هيدبه (وعبقرى حسان) العبقرى منسوب الى العبقر تزعم العرب انه اسم بلد الجن فينسبون اليه كل شئ عجيب والمراد به الجنس ولذلك وصف بالجمع حملا على المعنى كما فى رفرف على احد الوجهين وقرئ على رفارف خضر بضمتين وعباقرى كمدائنى نسبة الى عباقر فى اسم البلد (فبأى آلاء ربكما تكذبان)

قوله متكئين وقال فرش ولم يكتف بما يدل عليه ذلك نقول جمع الرباعي اثقل من جمع
الثلاثي ولهذا لم يجئ للجمع في الرباعي الامثال واحد وامثلة الجمع في الثلاثي كثيرة وقد قرئ
على رفارف خضر ورفارف خضار وعباقر (المسئلة الرابعة) اذا قلنا ان الرفرف هي
البسط فا الفائدة في الخضر حيث وصف تعالى ثياب الجنة بكونها خضرا قال تعالى
ثياب سندس خضر نقول ميل الناس الى اللون الاخضر في الدنيا اكثر وسبب الميل اليه
هو ان الالوان التي يظن انها اصول الالوان سبعة وهي الشفاف وهو الذي لا يمنع نفوذ
البصر فيه ولا يحجب ماوراءه كالزجاج والماء الصافي وغيرهما ثم الابيض بعده ثم الاصفر
ثم الاحمر ثم الاخضر ثم الازرق ثم الاسود والاظهر ان الالوان الاصلية ثلاثة الابيض
والاسود وبينهما غاية الخلاف والاحمر متوسط بين الابيض والاسود فان الدم خلق على
اللون المتوسط فان لم تكن الصحة على ماينبغي فان كان لفرط البرودة فيه كان ابيض وان
كان لفرط الحرارة فيه كان اسود لكن هذه الثلاثة يحصل منها الالوان الاخر فالابيض
اذا امتزج بالاحمر حصل الاصفر يدل عليه مزج اللبن الابيض بالدم وغيره من الاشياء الحمر
واذا امتزج الابيض بالاسود حصل اللون الازرق يدل عليه خلط الجص المدقوق بالفحم
واذا امتزج الاحمر بالاسود حصل الازرق ايضا لكنه الى السواد اميل واذا امتزج
الاصفر بالازرق حصل الاخضر فالاخضر من الاصفر والازرق وقد علم ان الاصفر من
الابيض والاحمر والازرق من الابيض والاسود والاحمر والاسود فالاخضر حصل فيه
الالوان الثلاثة الاصلية فيكون ميل الانسان اليه لكونه مشتملا على الالوان الاصلية
وهذا بعيد جدا والاقرب ان الابيض يفرق البصر ولهذا لا يقدر الانسان على ادامة
النظر في الارض عند كونها مستورة بالثلج وانه يورث الجهر والنظر الى الاشياء السود
يجمع البصر ولهذا كره الانسان النظر اليه والى الاشياء الحمر كالدم والاخضر لما اجتمع
فيه الامور الثلاثة دفع بعضها اذى بعض وحصل اللون الممتزج من الاشياء التي في بدن
الانسان وهي الاحمر والابيض والاصفر والاسود ولما كان ميل النفس في الدنيا الى
الاخضر ذكر الله تعالى في الآخرة ماهو على مقتضى طبعه في الدنيا (المسئلة الخامسة)
العبقري منسوب الى عبقر وهو عند العرب موضع من مواضع الجن فالثياب المعمولة
عملا جيدا يسمونها عبقريات مبالغة في حسنها كأنها ليست من عمل الانس ويستعمل في
غير الثياب ايضا حتى يقال للرجل الذي يعمل عملا عجيبا هو عبقري اى من ذلك البلد قال
النبي صلى الله عليه وسلم في المنام الذي رآه فلم ار عبقريا من الناس يفرى فريه واكتفى
بذكر اسم الجنس عن الجمع ووصفه بما توصف به الجموع فقال حسان وذلك لما بينا ان جمع
الرباعي يستثقل بعض الاستثقال واما من قرأ عباقري فقد جعل اسم ذلك الموضع عباقر
فان زعم انه جمعه فقد وهم وان جمع العبقري ثم نسب فقد التزم تكلفا خلاف ماتكلف
الادباء التزامه فانهم في الجمع اذا نسبوا ردوه الى الواحد وهذا القارئ تكلف في الواحد

ورده الى الجمع ثم نسبه لان عند العرب ليس فى الوجود بلاد كلها عبقر حتى تجمع ويقال عباقر فهذا تكلف الجمع فيما لا جمع له ثم نسب الى ذلك الجمع والادباء تكره الجمع فيما ينسب لئلا يجمعوا بين الجمع والنسبة ❊ ثم قال تعالى (تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الترتيب وفيه وجوه (احدها) انه تعالى لما ختم نعم الدنيا بقوله تعالى ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ختم نعم الآخرة بقوله تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام اشارة الى ان الباقى والدائم لذاته هو الله تعالى لا غير والدنيا فانية والآخرة وان كانت باقية لكن بقاؤها بابقاء الله تعالى (ثانيها) هو انه تعالى فى أواخر هذه السور كلها ذكر اسم الله فقال فى السورة التى قبل هذه عند مليك مقتدر وكون العبد عند الله من اتم النعم كذلك ههنا بعد ذكر الجنات وما فيها من النعم قال تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام اشارة الى ان اتم النعم عند الله تعالى وأكمل اللذات ذكر الله تعالى وقال فى السورة التى بعد هذه فروح وريحان وجنة نعيم ثم قال تعالى فى آخر السورة فسبح باسم ربك العظيم (ثالثها) انه تعالى ذكر جميع اللذات فى الجنات ولم يذكر لذة السماع وهى من اتم انواعها فقال متكئين على رفرف خضر يسمعون ذكر الله تعالى (المسئلة الثانية) اصل التبارك من البركة وهى الدوام والثبات ومنها بروك البعير وبركة الماء فان الماء يكون فيها دائما وفيه وجوه (احدها) دام اسمه وثبت (وثانيها) دام الخير عنده لان البركة وان كانت من الثبات لكنها تستعمل فى الخير (وثالثها) تبارك بمعنى علا وارتفع شأنا لا مكانا (المسئلة الثالثة) قال بعد ذكر نعم الدنيا ويبقى وجه ربك وقال بعد ذكر نعم الآخرة تبارك اسم ربك لان الاشارة بعد عد نعم الدنيا وقعت الى عدم كل شئ من الممكنات وفنائها فى ذواتها واسم الله تعالى ينفع الذاكرين ولا ذاكر هنالك يوحد الله غاية التوحيد فقال ويبقى وجه الله تعالى والاشارة هنا وقعت الى ان بقاء اهل الجنة بابقاء الله ذاكرين اسم الله متلذذين به فقال تبارك اسم ربك اى فى ذلك اليوم لا يبقى اسم احد الا اسم الله تعالى به تدور الالسن ولا يكون لاحد عند احد حاجة بذكره ولا من احد خوف فان تذاكروا تذاكروا باسم الله (المسئلة الرابعة) الاسم مقحم او هو اصل مذكور له التبارك نقول فيه وجهان (احدهما) وهو المشهور انه مقحم كالوجه فى قوله تعالى ويبقى وجه ربك يدل عليه قوله فتبارك الله احسن الخالقين وتبارك الذى بيده الملك وغيره من صور استعمال لفظ تبارك (وثانيهما) هو ان الاسم تبارك وفيه اشارة الى معنى بليغ اما اذا قلنا تبارك بمعنى علا فمن علا اسمه كيف يكون مسماه وذلك لان الملك اذا عظم شأنه لا يذكر اسمه الا بنوع تعظيم ثم اذا انتهى الذاكر اليه يكون تعظيمه له اكثر فان غاية التعظيم للاسم ان السامع اذا سمعه قام كما جرت عادة الملوك انهم اذا سمعوا فى الرسائل اسم سلطان عظيم يقومون عند سماع اسمه ثم ان اتاهم السلطان بنفسه بدلا عن كتابه الذى فيه اسمه يستقبلونه ويضعون الجباه على الارض بين يديه وهذا من الدلائل الظاهرة

وقوله تعالى (تبارك اسم ربك) تنزيه وتقديس له تعالى فيه تقرير لما ذكر فى السورة الكريمة من آلائه الفائضة على الانام اى تعالى اسمه الجليل الذى من جملته ما صدرت به السورة من اسم الرحمن المنبئ عن افاضته الآلاء المفصلة وارتفع عما لا يليق بشأنه من الامور التى من جملتها جحود نعمائه وتكذيبها واذا كان حال اسمه بملابسة دلالته عليه فما ظنك بذاته الاقدس الاعلى وقيل الاسم بمعنى الصفة وقيل مقحم كما فى قول من قال الى الحول ثم اسم السلام عليكما (ذى الجلال والاكرام) وصف به الرب تكميلا لما ذكر من التنزيه والتقرير وقرئ ذو الجلال على انه نعت للاسم * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرحمن ادى شكر ما انعم الله عليه

على ان علو الاسم يدل على علو زائد فى المسمى اما ان قلنا بمعنى دام الخير عنده فهو اشارة الى ان ذكر اسم الله تعالى يزيل الشر ويهرب الشيطان ويزيد الخير ويقرب السعادات واما ان قلنا بمعنى دام اسم الله فهو اشارة الى دوام الذاكرين فى الجنة على ماقلنا من قبل (المسئلة الخامسة) القراءة المشهورة ههنا ذى الجلال وفى قوله تعالى ويبقى وجه ربك ذو الجلال لان الجلال للرب والاسم غير المسمى واما وجه الرب فهو الرب فوصف هناك الوجه ووصف ههنا الرب دون الاسم ولو قال ويبقى الرب لتوهم ان الرب اذا بقى رباً فله فى ذلك الزمان مربوب فاذا قال وجه انسى المربوب فحصل القطع بالبقاء للحق فوصف الوجه يفيد هذه الفائدة والله اعلم والحمد لله رب العالمين وصلاته على محمد وآله وصحبه وسلامه

سورة الواقعة وهى ست وتسعون آية مكية

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة) اما تعلق هذه السورة بما قبلها فذلك من وجوه (احدها) ان تلك السورة مشتملة على تعديد النعم على الانسان ومطالبته بالشكر ومنعه عن التكذيب كما مر وهذه السورة مشتملة على ذكر الجزاء بالخير لمن شكر وبالشر لمن كذب وكفر (ثانيها) ان تلك السورة متضمنة للتنبيهات بذكر الآلاء فى حق العباد وهذه السورة كذلك لذكر الجزاء فى حقهم يوم التناد (ثالثها) ان تلك السورة سورة اظهار الرحمة وهذه السورة سورة اظهار الهيبة على عكس تلك السورة مع ماقبلها واما تعلق الاول بالآخر ففى آخر تلك السورة اشارة الى الصفات من باب النفى والاثبات وفى اول هذه السورة الى القيامة والى مافيها من المثوبات والعقوبات وكل واحد منهما يدل على علو اسمه وعظمة شأنه وكمال قدرته وعز سلطانه * ثم فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسيرها جملة وجوه (احدها) المراد اذا وقعت القيامة الواقعه او الزلزلة الواقعة يعترف بها كل احد ولا يتمكن احد انكارها ويبطل عناد المعاندين فتخفض الكافرين فى دركات النار وترفع المؤمنين فى درجات الجنة هؤلاء فى الجحيم وهؤلاء فى النعيم (الثانى) اذا وقعت الواقعة تزلزل الناس فتخفض المرتفع وترفع المنخفض وعلى هذا فهى كقوله تعالى جعلنا عاليها سافلها فى الاشارة الى شدة الواقعة لان العذاب الذى جعل العالى سافلا بالهدم والسافل عاليا حتى صارت الارض المنخفضة كالجبال الراسية والجبال الراسية كالارض المنخفضة اشد وابلغ فصارت البروج العالية مع الارض متساوية والواقعة التى تقع ترفع المنخفض فتجعل من الارض اجزاء عالية ومن السماء اجزاء سافلة ويدل عليه قوله تعالى اذا رجت الارض رجا وبست الجبال بسا فانه اشارة الى ان الارض تتحرك بحركة مزعجة والجبال تتفتت فتصير الارض المنخفضة كالجبال الراسية والجبال الشامخة كالارض السافلة كما يفعل هبوب الريح فى الارض المرملة (الثالث) اذا وقعت الواقعة يظهر وقوعها لكل احد وكيفية وقوعها فلا يوجدلها

* (سورة الواقعة مكية وهى سبع) *
* (وتسعون آية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(اذا وقعت الواقعة) اى اذا قامت القيامة وذلك عند النفخة الثانية والتعبير عنها بالواقعة للايذان بتحقق وقوعها لامحالة كانها واقعة فى نفسها مع قطع النظر عن الوقوع الواقع فى حيز الشرط كأنه قيل كانت الكائنة وحدثت الحادثة وانتصاب اذا بمضمر ينبىء عن الهول والفظاعة كأنه قيل اذا وقعت الواقعة يكون من الاهوال مالا يفى به المقال وقيل بالنفى المفهوم من قوله تعالى (ليس لوقعتها كاذبة) اى لا يكون عند وقوعها نفس تكذب على الله تعالى او تكذب فى نفيها كما تكذب اليوم واللام كهى فى قوله تعالى ياليتنى قدمت لحياتى وهذه الجملة على الوجه الاول اعتراض مقرر لمضمون الشرط على ان الكاذبة مصدر كالعافية اى ليس لاجل وقعتها وفى حقها كذب اصلا بل كل ماورد فى شأنها من الاخبار حق صادق لاريب فيه

كاذبة ولامتأول يظهر فقوله خافضة رافعة معطوف على كاذبة نسقا فيكون كما يقول القائل ليس لى فى الامر شك ولا خطأ أى لاقدرة لأحد على رفع المنخفض ولا خفض المرتفع (المسئلة الثانية) اذا وقعت الواقعة ويحتمل ان تكون الواقعة صفة لمحذوف وهى القيامة او الزلزلة على ما بينا يحتمل ان يكون المحذوف شيئا غير معين وتكون تاء التأنيث مشيرة الى شدة الامر الواقع وهوله كما يقال كانت الكائنة والمراد كان الامر كائنا ما كان وقولنا الامر كائن لايفيد الا حدوث امر ولو كان يسيرا بالنسبة الى قوله كانت الكائنة اذ فى الكائنة وصف زائد على نفس كونه شيئا ولنبين هذا ببيان كون الهاء للمبالغة فى قولهم فلان راوية ونسابة وهو انهم اذا أرادوا ان يأتوا بالمبالغة فى كونه راويا كان لهم ان يأتوا بوصف بعد الخبر ويقولون فلان راو جيد او حسن او فاضل فعدلوا عن التطويل الى الايجاز مع زيادة فائدة فقالوا نأتى بحرف نيابة عن كلمة كما اتينا بهاء التأنيث حيث قلنا ظالمة بدل قول القائل ظالم انثى ولهذ الزمهم بيان الانثى عند مالا يمكن بيانها بالهاء فى قولهم شاة انثى وكالكناية فى الجمع حيث قلنا قالوا بدلا عن قول القائل قال وقال وقال وقالا بدلا عن قوله قال وقال فكذلك فى المبالغة أرادوا ان يأتوا بحرف يغنى عن كلمة والحرف الدال على الزيادة ينبغى ان يكون فى الآخر لان الزيادة بعد اصل الشئ فوضعوا الهاء عند عدم كونها للتأنيث والتوحيد فى اللفظ المفرد لا فى الجمع للمبالغة اذا ثبت هذا فنقول فى كانت الكائنة ووقعت الواقعة حصل هذا معنى لا لفظا اما معنى فلانهم قصدوا بقولهم كانت الكائنة ان الكائن زائد على اصل مايكون واما لفظا فلأن الهاء لو كانت للمبالغة لما جاز اثبات ضمير المؤنث فى الفعل بل كان ينبغى ان يقولوا كان الكائنة ووقع الواقعة ولا يمكن ذلك لانا نقول المراد به المبالغة (المسئلة الثالثة) العامل فى اذا ماذا نقول فيه ثلاثة اوجه (احدها) فعل متقدم يجعل اذا مفعولا به لا ظرفا وهو اذكر كأنه قال اذكر القيامة (ثانيها) العامل فيها ليس لوقعتها كاذبة كما تقول يوم الجمعة ليس لى شغل (ثالثها) يخفض قوم ويرفع قوم وقد دل عليه خافضة رافعة وقيل العامل فيها قوله واصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة اى فى يوم وقوع الواقعة (المسئلة الرابعة) ليس لوقعتها اشارة الى انها تقع دفعة واحدة فالوقعة للمرة الواحدة * وقوله كاذبة يحتمل وجوها (احدها) كاذبة صفة لمحذوف اقيمت مقامه تقديره ليس لها نفس تكذب (ثانيها) الهاء للمبالغة كما تقول فى الواقعة وقد تقدم بيانه (ثالثها) هى مصدر كالعاقبة فان قلنا بالوجه الاول فاللام تحتمل وجهين (احدهما) ان تكون للتعليل اى لاتكذب نفس فى ذلك اليوم لشدة وقعتها كما يقال لا كاذب عند الملك لضبطه الامور فيكون نفيا عاما بمعنى ان كل احد يصدقه فيما يقول وقال وقبله نفوس كواذب فى امور كثيرة ولا كاذب فيقول لاقيامة لشدة وقعتها وظهور الامر وكما يقال لايحتمل الامر الانكار لظهوره لكل احد فيكون نفيا خاصا بمعنى لايكذب احد فيقول لاقيامة

وقوله تعالى (خافضة رافعة) خبر مبتدأ محذوف اى هى خافضة لاقوام رافعة لآخرين وهو تقرير لعظمها وتهويل لامرها فان الوقائع العظام شأنها كذلك او بيان لما يكون يومئذ من حط الاشقياء الى الدركات ورفع السعداء الى الدرجات ومن زلزلة الاشياء وازالة الاجرام عن مقارها بنثر الكواكب واسقاط السماء كسفا وتسيير الجبال فى الجو كالسحاب وتقديم الخفض على الرفع للتشديد فى التهويل * وقرئ خافضة رافعة بالنصب على الحال من الواقعة

وقبله نفوس قائلة به كاذبة فيه (ثانيهما) ان تكون للتعدية وذلك كما يقال ليس لزيد ضارب وحينئذ تقديره اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها امرؤ يوجد لها كاذب ان اخبر عنها فهى خافضة رافعة تخفض قوما وترفع قوما وعلى هذا لا تكون عاملا فى اذا وهو بمعنى ليس لها كاذب يقول هى امر سهل يطاق يقال لمن يقدم على امر عظيم ظانا يطيقه سل نفسك اى سهلت الامر عليك وليس بسهل * وان قلنا بالوجه الثانى وهو المبالغة ففيه وجهان (احدهما) ليس لها كاذب عظيم بمعنى ان من يكذب ويقدم على الكذب العظيم لا يمكنه ان يكذب لهول ذلك اليوم (وثانيهما) ان احدا لو كذب وقال فى ذلك اليوم لا قيامة ولا وقعة لكان كاذبا عظيما ولا كاذب لهذه العظمة فى ذلك اليوم والاول ادل على هول اليوم وعلى الوجه الثالث يعود ماذكرنا الى انه لا كاذب فى ذلك اليوم بل كل احد يصدق (المسئلة الخامسة) خافضة رافعة تقديره هى خافضة رافعة وقد سبق ذكره فى التفسير الجملى وفيه وجوه اخر (احدها) خافضة رافعة صفتان للنفس الكاذبة اى ليس لوقعتها من يكذب ولا من يغير الكلام فتخفض امرا فيه وترفع آخر فهى خافضة رافعة او يكون هو زيادة لبيان صدق الخلق فى ذلك اليوم وعدم امكان كذبهم والكاذب يغير الكلام ثم اذا أراد نفى الكذب عن نفسه يقول ماعرفت مما كان كلمة واحدة وربما يقول ماعرفت حرفا واحدا وهذا لان الكاذب قد يكذب فى حقيقة الامر وربما يكذب فى صفة من صفاته والصفة قد يكون ملتفتا اليها وقد لا يكون ملتفتا اليها التفاتا معتبرا وقد لا يكون ملتفتا اليها اصلا (مثال الاول) قول القائل ماجاء زيد ويكون قد جاء (ومثال الثانى) ماجاء يوم الجمعة (ومثال الثالث) ماجاء بكرة يوم الجمعة ويكون قد جاء بكرة يوم الجمعة وماجاء اول بكرة يوم الجمعة والثانى دون الاول والرابع دون الكل فاذا قال القائل ماعرف كلمة كاذبة نفى عنه الكذب فى الاخبار وفى صفته والذى يقول ماعرفت حرفا واحدا نفى امرا وراءه والذى يقول ماعرفت اعرافه واحدة يكون فوق ذلك فقوله ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة اى من يغيره تغييرا ولو كان يسيرا * ثم قال تعالى (اذا رجت الارض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا) اى كانت الارض كثيبا مرتفعا والجبال مهيلا منبسطا وقوله فكانت هباء منبثا كقوله تعالى فى وصف الجبال كالعهن المنفوش وقد تقدم بيان فائدة ذكر المصدر وهى انه يفيد ان الفعل كان قويا معتبرا ولم يكن شيئا لا يلتفت اليه ويقال فيه انه ليس بشئ فاذا قال القائل ضربته ضربا معتبرا لا يقول القائل فيه انه ليس بضرب محتقر اله كما يقال هذا ليس بشئ * والعامل فى اذا رجت يحتمل وجوها (احدها) ان يكون اذا رجت بدلا عن اذا وقعت فيكون العامل فيها ماذكرنا من قبل (ثانيها) ان يكون العامل فى اذا وقعت هو قوله ليس لوقعتها والعامل فى اذا رجت هو قوله خافضة رافعة تقديره تخفض الواقعة وترفع وقت رج الارض وبس الجبال والفاء للترتيب الزمانى لان الارض مالم تتحرك والجبال مالم تنبس لا تكون هباء منبثا والبس

وقوله تعالى (اذا رجت الارض رجا) اى زلزلت زلزالا شديدا بحيث ينهدم مافوقها من بناء وجبل متعلق بخافضة رافعة اى تخفض وترفع وقت رج الارض اذ عند ذلك يخفض ماهو مرتفع ويرتفع ماهو منخفض او بدل من اذا وقعت (وبست الجبال بسا) اى فتتت حتى صارت مثل السويق الملتوت من بس السويق اذا لته اوسيقت وسيرت من اماكنها من بس الغنم اذا ساقها كقوله تعالى وسيرت الجبال وقرئ رجت وبست اى ارتجت وذهبت (فكانت) اى فصارت بسبب ذلك (هباء) غبارا (منبثا) منتشرا

التقليب والهباء هو الهواء المختلط باجزاء ارضية تظهر في خيال الشمس اذا وقع شعاعها في كوة وقال الذين يقولون ان بين الحروف والمعاني مناسبة ان الهواء اذا خالطه اجزاء ثقيلة ارضية ثقل من لفظه حرف فابدلت الواو الخفيفة بالباء التي لا ينطق بها الا باطباق الشفتين بقوة ما وفي الباء ثقل ما ❊ ثم قال تعالى (وكنتم ازواجا ثلاثة فاصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة واصحاب المشأمة ما اصحاب المشأمة) اى في ذلك اليوم انتم ازواج ثلاثة اصناف وفسرها بعدها بقوله فأصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الفاء تدل على التفسير وبيان ما ورد على التقسيم كأنه قال ازواجا ثلاثة اصحاب الميمنة واصحاب المشأمة الخ ثم بين حال كل قوم فقال فاما اصحاب الميمنة فترك التقسيم اولا واكتفى بما يدل عليه فانه ذكر الاقسام الثلاثة مع احوالها وسبق قوله تعالى وكنتم ازواجا ثلاثة يغني عن تعديد الاقسام ثم اعاد كل واحدة لبيان حالها (المسئلة الثانية) اصحاب الميمنة هم اصحاب الجنة وتسميتهم بأصحاب الميمنة اما لكونهم من جملة من كتبهم بايمانهم واما لكون ايمانهم تستنير بنور من الله تعالى كما قال تعالى يسعى نورهم بين ايديهم وبأيمانهم واما لكون اليمين يراد به الدليل على الخير والعرب تتفاءل بالسانح والذي يقصد جانب اليمين من الطيور والوحوش عند الزجر والاصل فيه امر حكمي وهو انه تعالى لما خلق الخلق كان له في كل شيء دليل على قدرته واختياره حتى ان في نفس الانسان له دلائل لا تعد ولا تحصى ودلائل الاختيار اثبات مختلفين في محلين متشابهين او اثبات متشابهين في محلين مختلفين اذ حال الانسان من اشد الاشياء مشابهة فانه مخلوق من متشابه ثم انه تعالى اودع في الجانب الايمن من الانسان قوة ليست في الجانب الايسر لو اجتمع اهل العلم على ان يذكروا له مرجحا غير قدرة الله وارادته لا يقدرون عليه فان كان بعضهم يدعي كياسة وذكاء يقول ان الكبد في الجانب الايمن وبها قوة التغذية والطحال في الجانب الايسر وليس فيه قوة ظاهرة النفع فصار الجانب الايمن قويا لمكان الكبد على اليمين فنقول هذا دليل الاختيار لان اليمين كالشمال وتخصيص الله اليمين بجعله مكان الكبد دليل الاختيار اذا ثبت ان الانسان يمينه اقوى من شماله فضلوا اليمين على الشمال وجعلوا الجانب الايمن للاكابر وقيل لمن له مكانة هو من اصحاب اليمين ووضعوا له لفظا على وزن العزيز فينبغي ان يكون الامر على ذلك الوجه كالسميع والبصير ومالا يتغير كالطويل والقصير وقيل له اليمين وهو يدل على القوة ووضعوا مقابلته اليسار على الوزن الذي اختص به الاسم المذموم عند النداء بذلك الوزن وهو الفعال فان عند الشتم والنداء بالاسم المذموم يؤتى بهذا الوزن مع البناء على الكسر فيقال يا فجار يا فساق يا خباث وقيل اليمين اليسار ثم بعد ذلك استعمل في اليمين واما الميمنة فهي مفعلة كأنه الموضع الذي فيه اليمين وكل ما وقع يمين الانسان في جانب من المكان فذلك موضع اليمين فهو ميمنة كقولنا ملعبة (المسئلة الثالثة) جعل الله تعالى الخلق على ثلاثة اقسام دليل غلبة الرحمة

(وكنتم) اما خطاب للامة الحاضرة والامم السالفة تغليبا او للحاضرة فقط (ازواجا) اى اصنافا (ثلاثة) فكل صنف يكون مع صنف آخر في الوجود او في الذكر فهو زوج وقوله تعالى (فاصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة واصحاب المشأمة ما اصحاب المشأمة) تقسيم وتنويع للازواج الثلاثة مع الاشارة الاجمالية الى احوالهم قبل تفصيلها فقوله تعالى فاصحاب الميمنة مبتدأ وقوله ما اصحاب الميمنة خبره على ان ما الاستفهامية مبتدأ ثان ما بعده خبره والجملة خبر الاول والاصل ما هم اى اى شيء هم في حالهم وصفتهم فان ما وان شاعت في طلب مفهوم الاسم والحقيقة لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد فيقال عالم او طبيب فوضع الظاهر موضع الضمير لكونه ادخل في التفخيم وكذا الكلام في قوله تعالى واصحاب المشأمة ما اصحاب المشأمة

(وذلك)

وذلك لان جوانب الانسان اربعة يمينه وشماله وخلفه وقدامه واليمين فى مقابلة الشمال والخلف فى مقابلة القدام ثم انه تعالى اشار بأصحاب اليمين الى الناجين الذين يعطون كتبهم بأيمانهم وهم من اصحاب الجانب الاشرف المكرمون وبأصحاب الشمال الى الذين حالهم على خلاف اصحاب اليمين وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم وهم مهانون وذكر السابقين الذين لاحساب عليهم ويسبقون الخلق من غير حساب بيمين او شمال اوالذين يكونون فى المنزلة العليا من جانب الايمن وهم المقربون بين يدى الله تعالى يتكلمون فى حق الغير ويشفعون للغير ويقضون اشغال الناس وهؤلاء اعلى منزلة من اصحاب اليمين ثم انه تعالى لم يقل فى مقابلتهم قوم مايكونون متخلفين مؤخرين عن اصحاب الشمال لايلتفت اليهم لشدة الغضب عليهم وكانت القسمة فى العادة رباعية فصارت بسبب الفضل ثلاثية وهو كقوله تعالى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ولم يقل ومنهم متخلف عن الكل (المسئلة الرابعة) ما الحكمة فى الابتداء بأصحاب اليمين والانتقال الى اصحاب الشمال ثم الى السابقين مع انه فى البيان بين حال السابقين ثم حال اصحاب الشمال على الترتيب (والجواب) ان نقول ذكر الواقعة ومايكون عند وقوعها من الامور الهائلة انمايكون لمن لايكون عنده من محبة الله تعالى مايكفيه مانعا عن المعصية واما الذين سرهم مشغول بربهم فلايحزنون بالعذاب فلماذكر تعالى اذاوقعت الواقعة وكان فيه من التخويف مالايخفى وكان التخويف بالذين يرغبون ويرهبون بالثواب والعقاب اولى ذكر ماذكره لقطع العذر لالنفع الخبر واما السابقون فهم غير محتاجين الى ترغيب او ترهيب فقدم سبحانه اصحاب اليمين الذين يسمعون ويرغبون ثم ذكر اصحاب الشمال ثم ذكر السابقين ليجتهد اصحاب اليمين ويقربوا من درجتهم وان كان لاينالها احد الابجذب من الله فان السابق ينال ماناله بجذب واليه الاشارة بقوله جذبة من جذبات الرحمن خير من عبادة سبعين سنة (المسئلة الخامسة) مامعنى قوله مااصحاب الميمنة نقول هو ضرب من البلاغة وتقريره هو ان يشرع المتكلم فى بيان امر ثم يسكت عن الكلام ويشير الى ان السامع لايقدر على سماعه كما يقول القائل لغيره اخبرك بما جرى على ثم يقول هناك هو مجيبا لنفسه لااخاف ان يحزنك وكما يقول القائل من يعرف فلانافيكون ابلغ من ان يصفه لان السامع اذا سمع وصفه يقول هذا نهاية ماهو عليه فاذاقال من يعرف فلانا يفرض السامع من نفسه شيئا ثم يقول فلان عند هذا المخبر اعظم مما فرضته وانبه مما علمت منه (المسئلة السادسة) مااعرابه ومنه يعرف معناه نقول فأصحاب الميمنة مبتدأ اراد المتكلم ان يذكر خبره فرجع عن ذكره وتركه وقوله مااصحاب الميمنة جملة استفهامية على معنى التعجب كما تقول لمدعى العلم مامعنى كذا مستفهما ممتحنا زاعما انه لايعرف الجواب حتى انك تحب وتشتهى ان لايجيب عن سؤالك ولو أجاب لكرهته لان كلامك مفهوم كأنك تقول انك لاتعرف الجواب اذا عرفت هذا فكان المتكلم فى اول الامر مخبرا ثم لم يخبر بشئ لان

والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين فى الفخامة والفظاعة كأنه قيل فاصحاب الميمنة فى غاية حسن الحال واصحاب المشأمة فى نهاية سوء الحال وتكلموا فى الفريقين فقيل اصحاب الميمنة اصحاب المنزلة السنية واصحاب المشأمة اصحاب المنزلة الدنية اخذا

في الاخبار تطويلا ثم لم يسكت وقال ذلك ممتحنا زاعما انك لاتعرف كنهه وذلك لان من يشرع في كلام ويذكر المبتدأ ثم يسكت عن الخبر قد يكون ذلك السكوت لحصول علمه بأن المخاطب قد علم الخبر من غير ذكر الخبر كما ان قائلا اذا اراد ان يخبر غيره بأن زيدا وصل وقال ان زيدا ثم قبل قوله جاء وقع بصره على زيد ورآه جالسا عنده يسكت ولا يقول جاء لخروج الكلام عن الفائدة وقد يسكت عن ذكر الخبر من اول الامر لعلمه بأن المبتدأ وحده يكفي لمن قال من جاء فانه ان قال زيد يكون جوابا وكثيرا مانقول زيد ولانقول جاء وقد يكون السكوت عن الخبر اشارة الى طول القصة كقول القائل الغضبان من زيد ويسكت ثم يقول ماذا اقول عنه اذا علم هذا فنقول لما قال فأصحاب الميمنة كان كأنه يريد ان يأتي بالخبر فسكت عنه ثم قال في نفسه ان السكوت قد يوهم انه لظهور حال الخبر كما يسكت على زيد في جواب من جاء فقال ما اصحاب الميمنة ممتحنا زاعما انه لا يفهم ليكون ذلك دليلا على ان سكوته على المبتدأ لم يكن لظهور الامر بل لخفائه وغرابته وهذا وجه بليغ وفيه وجه ظاهر وهو ان يقال معناه انه جملة واحدة استفهامية كأنه قال واصحاب الميمنة ماهم على سبيل الاستفهام غير انه اقام المظهر مقام المضمر وقال اصحاب الميمنة مااصحاب الميمنة والاتيان بالمظهر اشارة الى تعظيم امرهم حيث ذكرهم ظاهرا مرتين وكذلك القول في قوله تعالى واصحاب المشأمة مااصحاب المشأمة وكذلك في قوله الحاقة ما الحاقة وفي قوله القارعة ماالقارعة (المسئلة السابعة) ما الحكمة في اختيار لفظ المشأمة في مقابلة الميمنة مع انه قال في بيان احوالهم واصحاب الشمال مااصحاب الشمال نقول اليمين وضع للجانب المعروف اولا ثم تفاءلوا به واستعملوا منه الفاظا في مواضع وقالوا هذا ميمون وقالوا ايمن به ووضعوا للجانب المقابل له اليسار من الشئ اليسير اشارة الى ضعفه فصار في مقابلة اليمين كيفما يدور فيقال في مقابلة اليمنى اليسرى وفي مقابلة الايمن الايسر وفي مقابلة الميمنة الميسرة ولا تستعمل الشمال كما تستعمل اليمين فلا يقال الاشمل ولا المشملة ولاتستعمل المشأمة كما تستعمل الميمنة فلا يقال في مقابلة اليمين لفظ من باب الشؤم واما الشآم فليس في مقابلة اليمين بل في مقابلة يمان اذا علم هذا فنقول بعدما قالوا باليمين لم يتركوه واقتصروا على استعمال لفظ اليمين في الجانب المعروف من الآدمي ولفظ الشمال في مقابلته وحدث لهم لفظان آخران فيه (احدهما) الشمال وذلك لانهم نظروا الى الكواكب من السماء وجعلوا ممرها وجه الانسان وجعلوا السماء جانبين وجعلوا احدهما اقوى كما رأوا في الانسان فسموا الاقوى بالجنوب لقوة الجانب كما يقال غضوب ورؤف ثم رأوا في مقابلة الجنوب جانبا آخر شمل ذلك الجانب عمارة العالم فسموه شمالا واللفظ الآخر المشأمة والاشام في مقابلة الميمنة والايمن وذلك لانهم لما اخذوا من اليمين اليمن وغيره للتفاؤل وضعوا الشؤم في مقابلته لا في اعضائهم وجوانبهم تكرها لجعل جانب من جوانب نفسه شؤما ولما

من تيمنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل وقيل الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم والذين يؤتونها بشمائلهم وقيل الذين يؤخذ بهم ذات اليمين الى الجنة والذين يؤخذ بهم ذات الشمال الى النار وقيل اصحاب اليمن واصحاب الشؤم فان السعداء ميامين على انفسهم بطاعاتهم والاشقياء مشائيم عليها بمعاصيهم

وضعوا ذلك واستمر الامر عليه نقلوا اليمين من الجانب الى غيره فالله تعالى ذكر الكفار بلفظين مختلفين فقال اصحاب المشأمة واصحاب الشمال وترك لفظ الميسرة واليسار الدال على هون الامر فقال ههنا اصحاب المشأمة بأفظع الاسمين ولهذا قالوا في العساكر الميمنة والميسرة اجتنابا من لفظ الشؤم ٭ ثم قال تعالى (والسابقون السابقون اولئك المقربون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في اعرابه ثلاثة اوجه (احدها) والسابقون عطف على اصحاب الميمنة وعنده تم الكلام وقوله والسابقون اولئك المقربون جملة واحدة (والثاني) ان قوله والسابقون السابقون جملة واحدة كما يقول القائل انت انت وكما قال الشاعر ٭ انا ابو النجم وشعري شعري ٭ وفيه وجهان (احدهما) ان يكون لشهرة امر المبتدأ بما هو عليه فلا حاجة الى الخبر عنه وهو مراد الشاعر وهو المشهور عند النحاة (والثاني) للاشارة الى ان في المبتدأ ما لا يحيط العلم به ولا يخبر عنه ولا يعرف منه الا نفس المبتدأ وهو كما يقول القائل لغيره أخبرني عن حال الملك فيقول لا اعرف من الملك الا انه ملك فقوله السابقون السابقون اى لا يمكن الاخبار عنهم الا بنفسهم فان حالهم وما هم عليه فوق ان يحيط به علم البشر (وههنا لطيفة) وهي انه في اصحاب الميمنة قال ما اصحاب الميمنة بالاستفهام وان كان للاعجاز لكن جعلهم مورد الاستفهام وههنا لم يقل والسابقون ما السابقون لان الاستفهام الذي للاعجاز يورد على مدعي العلم فيقال له ان كنت تعلم فبين الكلام واما اذا كان يعترف بالجهل فلا يقال له كذبت ولا يقال كيف كذا وما الجواب عن ذلك فكذلك في والسابقون ما جعلهم بحيث يدعون فيورد عليهم الاستفهام فيبين عجزهم بل بنى الامر على انهم معترفون في الابتداء بالعجز وعلى هذا فقوله تعالى والسابقون السابقون كقول العالم لمن سأل عن مسئلة معضلة وهو يعلم انه لا يفهمها وان كان ابانها غاية الابانة ان الامر فيها على ما هو عليه ولا يشتغل بالبيان (وثالثها) هو ان السابقون ثانيا تأكيد لقوله والسابقون والوجه الاوسط هو الاعدل الاصح وعلى الوجه الاوسط قول آخر وهو ان المراد منه ان السابقين الى الخيرات في الدنيا هم السابقون الى الجنة في العقبى (المسئلة الثانية) اولئك المقربون يقتضي الحصر فينبغي ان لا يكون غيرهم مقربا وقد قال في حق الملائكة انهم مقربون نقول اولئك المقربون من الازواج الثلاثة (فان قيل) فأصحاب الميمنة ليسوا من المقربين (نقول) للتقريب درجات والسابقون في غاية القرب ولا حد هناك ويحتمل وجها آخر وهو ان يقال المراد السابقون مقربون من الجنات حال كون اصحاب اليمين متوجهين الى طريق الجنة لانه بمقدار ما يحاسب المؤمن حسابا يسيرا ويؤتى كتابه بيمينه يكون السابقون قد قربوا من المنزل او قربهم الى الله في الجنة واصحاب اليمين بعد متوجهون الى ما وصل اليه المقربون ثم ان السير والارتفاع لا ينقطع فان السير في الله لا انقطاع له والارتفاع لا نهاية له فكلما تقرب اصحاب اليمين من درجة السابق يكون قد انتقل هو الى موضع

وقوله تعالى (والسابقون السابقون) هو القسم الثالث من الازواج الثلاثة ولعل تأخير ذكرهم مع كونهم اسبق الاقسام واقدمهم في الفضل ليقترن ذكرهم ببيان محاسن احوالهم على ان ايرادهم بعنوان السبق مطلقا معرب عن احرازهم لقصب السبق من جميع الوجوه وتكلموا فيهم ايضا فقيل هم الذين سبقوا الى الايمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم وتوان وقيل الذين سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات وقيل هم الذين صلوا الى القبلتين كما قال تعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار وقيل هم السابقون الى الصلوات الخمس وقيل المسارعون في الخيرات وايا ما كان فالجملة مبتدأ وخبر والمعنى والسابقون هم الذين اشتهرت احوالهم وعرفت محاسنهم كقول ابي النجم انا ابو النجم وشعري شعري

اعلى منه فأولئك هم المقربون فى جنات النعيم فى اعلى عليين حال وصول اصحاب اليمين الى الحور العين (المسئلة الثالثة) بعد بيان اقسام الازواج لم يعد الى بيان حالهم على ترتيب ذكرهم بل بين حال السابقين مع انه أخرهم وأخر ذكر اصحاب الشمال مع انه قدمهم اولا فى الذكر على السابقين نقول قد بينا ان عند ذكر الواقعة قدم من ينفعه ذكر الاهوال وأخر من لا يختلف حاله بالخوف والرجاء واما عند البيان فذكر السابق لفضيلته وفضيلة حاله ❊ ثم قال تعالى (فى جنات نعيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) عرف النعيم باللام ههنا وقال فى آخر السورة فروح وريحان وجنة نعيم بدون اللام والمذكور فى آخر السورة هو واحد من السابقين فله جنة من هذه الجنات وهذه معرفة بالاضافة الى المعرفة وتلك غير معرفة فما الفرق بينهما فنقول الفرق لفظى ومعنوى (فاللفظى) هو ان السابقين معرفون باللام المستغرقة لجنسهم فجعل موضع المعرفين معرفا واما هناك فهو غير معرف لان قوله ان كان من المقربين اى ان كان فردا منهم فجعل موضعه غير معرف مع جواز ان يكون الشخص معرفا وموضعه غير معرف كما قال تعالى ان المتقين فى جنات وعيون وان المتقين فى جنات ونهر وبالعكس ايضا (واما المعنوى) فنقول عند ذكر الجمع جمع الجنات فى سائر المواضع فقال تعالى ان المتقين فى جنات وقال تعالى اولئك المقربون فى جنات لكن السابقون نوع من المتقين وفى المتقين غير السابقين ايضا ثم ان السابقين لهم منازل ليس فوقها منازل فهى صارت معروفة لكونها فى غاية العلو او لانها لا احد فوقها واما باقى المتقين فلكل واحد مرتبة وفوقها مرتبة فهم فى جنات متناسبة فى المنزلة لا يجمعها صقع واحد لاختلاف منازلهم وجنات السابقين على حد واحد فى اعلى عليين يعرفها كل احد واما الواحد منهم فان منزلته بين المنازل ولا يعرف كل احد انه لفلان السابق فلم يعرفها واما منازلهم فيعرفها كل احد ويعلم انها للسابقين ولم يعرف الذى للمتقين على وجه كهذا (المسئلة الثانية) اضافة الجنة الى النعيم من اى الانواع نقول اضافة المكان الى ما يقع فى المكان يقال دار الضيافة ودار الدعوة ودار العدل فكذلك جنة النعيم وفائدتها ان الجنة فى الدنيا قد تكون للنعيم وقد تكون للاشتغال والتعيش بأثمان ثمارها بخلاف الجنة فى الآخرة فانها للنعيم لا غير (المسئلة الثالثة) فى جنات النعيم يحتمل ان يكون خبرا بعد خبر ويحتمل ان يكون خبرا واحدا (اما الاول) فتقديره أولئك المقربون كائنون فى جنات كقوله ذو العرش المجيد فعال لما يريد (واما الثانى) فتقديره هم المقربون فى الجنات من الله كما يقال هو المختار عند الملك فى هذه البلدة وعلى الوجه الاول فائدته بيان تنعيم جسمهم وكرامة نفسهم فهم مقربون عند الله فهم فى غاية اللذة وفى جنات فجسمهم فى غاية النعيم بخلاف المقربين عند الملوك فانهم يلتذون بالقرب لكن لا يكون لجسمهم راحة بل يكونون فى تعب من الوقوف وقضاء الاشغال ولهذا قال فى جنات النعيم ولم يقتصر على جنات وعلى الوجه الثانى فائدته التمييز عن الملائكة فان

(المقربين)

وفيه من تفخيم شأنهم والايذان بشيوع فضلهم واستغنائهم عن الوصف بالجميل مالا يخفى وقيل والسابقون الى طاعة الله تعالى السابقون الى رحمته او السابقون الى الخير السابقون الى الجنة وقوله تعالى (اولئك) اشارة الى السابقين ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل ومحله الرفع على الابتداء خبره مابعده اى اولئك الموصوفون بذلك النعت الجليل (المقربون) اى الذين قربت الى العرش العظيم درجاتهم واعليت مراتبهم ورقيت الى حظائر القدس نفوسهم الزكية هذا اظهر ماذكر فى اعراب هذه الجمل واشهره والذى تقتضيه جزالة التنزيل ان قوله تعالى فاصحاب الميمنة خبر مبتدأ محذوف وكذا قوله تعالى واصحاب المشأمة وقوله تعالى والسابقون فان المترقب عند بيان انقسام الناس الى الاقسام الثلاثة بيان أنفس الاقسام الثلاثة

المقربين في يومنا هذا في السموات هم الملائكة والسابقون المقربون في الجنة فيكون المقربون في غيرها هم الملائكة (وفيه لطيفة) وهي ان قرب الملائكة قرب الخواص عند الملك الذين هم للاشغال فهم ليسوا في نعيم وان كانوا في لذة عظيمة ولا يزالون مشفقين قائمين بباب الله يرد عليهم الامر ولا يرتفع عنهم التكليف والسابقون لهم قرب عند الله كما يكون لجلساء الملوك فهم لا يكون بيدهم شغل ولا يرد عليهم امر فيلتذون بالقرب ويتنعمون بالراحة ❊ ثم قال تعالى (ثلة من الاولين وقليل من الآخرين) وهذا خبر بعد خبر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرت ان قوله والسابقون السابقون جملة وانما كان الخبر عين المبتدأ لظهور حالهم او لخفاء امرهم على غيرهم فكيف جاء خبر بعده نقول ذلك المقصود قد افاد ذكر خبر آخر لمقصود آخر كان واحدا يقول زيد لا يخفى عليك حاله اشارة الى كونه من المشهورين ثم يشرع في حال يخفى على السامع مع انه قال لا يخفى لان ذلك كان لبيان كونه ليس من الغرباء كذلك ههنا قال السابقون السابقون لبيان عظمتهم ثم ذكر حال عددهم (المسئلة الثانية) الاولين من هم نقول المشهور انهم من كان قبل نبينا صلى الله عليه وسلم وانما قال ثلة والثلة الجماعة العظيمة لان من قبل نبينا من الرسل والانبياء من كان من كبار اصحابهم اذا جمعوا يكونون اكثر بكثير من السابقين من امة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا قيل ان الصحابة لما نزلت هذه الآية صعب عليهم قلتهم فنزل بعده ثلة من الاولين وثلة من الآخرين وهذا في غاية الضعف من وجوه (احدها) ان عدد امة محمد صلى الله عليه وسلم اذا كان في ذلك الزمان بل الى آخر الزمان بالنسبة الى من مضى في غاية القلة فما ذا كان عليهم من انعام الله على خلق كثير من الاولين وما هذا الاخلف غير جائز (وثانيها) ان هذا كالنسخ في الاخبار وانه في غاية البعد (وثالثها) ما ورد بعدها لا يرفع هذا لان الثلة من الاولين هنا في السابقين من الاولين وهذا ظاهر لان امة محمد صلى الله عليه وسلم كثروا ورحمهم الله تعالى فعفا عنهم امورا لم تعف عن غيرهم وجعل للنبي صلى الله عليه وسلم الشفاعة فكثر عدد الناجين وهم اصحاب اليمين واما من لم يأثم ولم يرتكب الكبيرة من امة محمد صلى الله عليه وسلم فهم في غاية القلة وهم السابقون (ورابعها) هذا توهم وكان ينبغي ان يفرحوا بهذه الآية لانه تعالى لما قال ثلة من الاولين دخل فيهم الاول من الرسل والانبياء ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم فاذا جعل قليلا من امته مع الرسل والانبياء والاولياء الذين كانوا في درجة واحدة يكون ذلك انعاما في حقهم ولعله اشارة الى قوله عليه السلام علماء امتي كانبياء بني اسرائيل (الوجه الثاني) المراد منه السابقون الاولون من المهاجرين والانصار فان اكثرهم لهم الدرجة العليا لقوله تعالى لا يستوي منكم من انفق الآية وقليل من الآخرين الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وعلى هذا فقوله وكنتم ازواجا ثلثة يكون خطابا مع الموجودين وقت التنزيل ولا يكون فيه بيان الاولين الذين كانوا قبل نبينا عليه السلام وهذا ظاهر فان

واما اوصافها واحوالها فحقها ان تبين بعد ذلك باسنادها اليها والتقدير فأحدها اصحاب الميمنة والآخر اصحاب المشأمة والثالث السابقون خلا انه لما اخر بيان احوال القسمين الاولين عقب كل منهما بجملة معترضة بين القسمين منبئة عن ترامي احوالهما في الخير والشر انباء اجماليا مشعرا بان لاحوال كل منهما تفصيلا مترقبا لكن لا على ان ما الاستفهامية مبتدأ وما بعدها خبر على ما رآه سيبويه في امثاله بل على انها خبر لما بعدها فان مناط الافادة بيان ان اصحاب الميمنة امر بديع كما يفيده كون ما خبرا لا بيان ان امرا بديعا اصحاب الميمنة كما يفيده كونها مبتدأ وكذا الحال في ما اصحاب المشأمة واما القسم الاخير فحيث قرن بيان محاسن احواله بذكره لم يحتج فيه الى تقديم الانموذج فقوله تعالى السابقون مبتدأ والاظهار في مقام الاضمار للتفخيم واولئك مبتدأ ثان او بدل من الاول وما بعده خبره او الثاني والجملة خبر للاول وقوله تعالى (في جنات النعيم)

الخطاب لا يتعلق الا بالموجودين من حيث اللفظ ويدخل فيه غيره بالدليل (الوجه الثالث) ثلة من الاولين الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنفسهم وقليل من الآخرين الذين قال تعالى فيهم واتبعناهم ذرياتهم فالمؤمنون وذرياتهم ان كانوا من اصحاب اليمين فهم فى الكثرة سواء لان كل صبى مات واحد ابويه مؤمن فهو من اصحاب اليمين واما ان كانوا من المؤمنين السابقين فقلما يدرك ولدهم درجة السابقين وكثيرا ما يكون ولد المؤمن احسن حالا من الاب لتقصير فى ابيه ومعصية لم توجد فى الابن الصغير وعرضا فقوله الآخرين المراد منه الآخرون التابعون من الصغار * ثم قال تعالى (على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين) والموضونة هى المنسوجة القوية اللحمة والسدى ومنه يقال للدرع المنسوجة موضونة والوضين هو الحبل العريض الذى يكون منه الحزم لقوة سداه ولحمته والسرر التى تكون للملوك يكون لها قوائم من شئ صلب ويكون مجلسهم عليها معمولا بحرير وغير ذلك لانه انعم من الخشب وما يشبهه فى الصلابة وهذه السرر قوائمها من الجواهر النفيسة وارضها من الذهب الممدود وقوله تعالى متكئين عليها للتأكيد والمعنى انهم كائنون على سرر متكئين عليها متقابلين ففائدة التأكيد هو ان لا يظن انهم كائنون على سرر متكئين على غيرها كما يكون حال من يكون على كرسى صغير لا يسعه للاتكاء فيوضع تحته شئ آخر للاتكاء عليه فلما قال على سرر متكئين عليها دل هذا على ان استقرارهم واتكاءهم جميعا على سرر وقوله تعالى متقابلين فيه وجهان (احدهما) ان احدا لا يستدبر احدا (وثانيهما) ان احدا من السابقين لا يرى غيره فوقه وهذا أقرب لان قوله متقابلين على الوجه الاول يحتاج الى ان يقال متقابلين معناه ان كل احد يقابل احدا فى زمان واحد ولا يفهم هذا الا فيما لا يكون فيه اختلاف جهات وعلى هذا فيكون معنى الكلام انهم ارواح ليس لهم ادبار وظهور فيكون المراد من السابقين هم الذين اجسامهم ارواح نورانية جميع جهاتهم وجه كالنور الذى يقابل كل شئ ولا يستدبر احدا والوجه الاول اقرب الى اوصاف المكانيات * ثم قال تعالى (يطوف عليهم ولدان مخلدون) والولدان جمع الوليد وهو فى الاصل فعيل بمعنى مفعول وهو المولود لكن غلب على الصغار مع قطع النظر عن كونهم مولودين والدليل عليه انهم قالوا للجارية الصغيرة وليدة ولو نظروا الى الاصل لجردوها عن الهاء كالقتيل اذا ثبت هذا فنقول فى الولدان وجهان (احدهما) انه على الاصل وهم صغار المؤمنين وهو ضعيف لان صغار المؤمنين اخبر الله تعالى عنهم انه يلحقهم بآبائهم ومن الناس المؤمنين الصالحين من لا ولد له فلا يجوز ان يخدم ولد المؤمن مؤمنا غيره فيلزم اما ان يكون لهم اختصاص ببعض الصالحين وان لا يكون لمن لا يكون له ولد من يطوف عليه من الولدان واما ان يكون ولد الآخر يخدم غير ابيه وفيه منقصة بالاب وعلى هذا الوجه قيل هم صغار الكفار وهو اقرب من الاول اذ ليس فيه ما ذكرنا من المفسدة (والثانى) انه على الاستعمال الذى لم يلحظ فيه الاصل وهو ارادة

متعلق بالمقربون او بمضمر هو حال من ضميره اى كائنين فى جنات النعيم وقيل خبر ثان لاسم الاشارة وفيه ان الاخبار بكونهم فيها بعد الاخبار بكونهم مقربين ليس فيه مزيد مزية وقرئ فى جنة النعيم وقوله تعالى (ثلة من الاولين) خبر مبتدأ محذوف اى هم امة كثيرة من الاولين وهم الامم السالفة من لدن آدم الى نبينا عليهما الصلاة والسلام وعلى من بينهما من الانبياء العظام (وقليل من الآخرين) اى من هذه الامة ولا يخالفه قوله عليه الصلاة والسلام ان امتى يكثرون سائر الامم فان اكثرية سابقى الامم السالفة من سابقى هذه الامة لا تمنع اكثرية تابعى هؤلاء من تابعى أولئك ولا يرده قوله تعالى فى اصحاب اليمين ثلة من الاولين وثلة من الآخرين لان كثرة كل من الفريقين فى انفسهما لا تنافى اكثرية احدهما من الآخر وسيأتى ان الثلتين من هذه الامة وقد روى مرفوعا ان الاولين والآخرين

الصغار مع قطع النظر عن كونهم مولودين وهو حينئذ كقوله تعالى ويطوف عليهم غلمان لهم وفي قوله تعالى مخلدون وجهان (احدهما) انه من الخلود والدوام وعلى هذا الوجه يظهر وجهان آخران (احدهما) انهم مخلدون ولاموت لهم ولا فناء (وثانيهما) لايتغيرون عن حالهم ويبقون صغارا دائما لايكبرون ولا يلتحون (والوجه الثاني) انه من الخلدة وهو القرط بمعنى في آذانهم حلق والاول أظهر وأليق ※ ثم قال تعالى (بأكواب وأباريق وكأس من معين) اوانى الخمر تكون في مجالس وفي الكوب وجهان (احدهما) انه من جنس الاقداح وهو قدح كبير (وثانيهما) من جنس الكيزان ولا عروة له ولا خرطوم والابريق له عروة وخرطوم وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما الفرق بين الاكواب والاباريق والكأس حيث ذكر الاكواب والاباريق بلفظ الجمع والكأس بلفظ الواحد ولم يقل وكؤس نقول هو على عادة العرب في الشرب يكون عندهم اوان كثيرة فيها الخمر معدة موضوعة عندهم واما الكأس فهو القدح الذى يشرب به الخمر اذا كان فيه الخمر ولا يشرب واحد في زمان واحد الا من كأس واحد واما اوانى الخمر المملوءة منها في زمان واحد فتوجد كثيرا فان قيل الطواف بالكأس على عادة اهل الدنيا واما الطواف بالاكواب والاباريق فغير معتاد فما الفائدة فيه نقول عدم الطواف بها في الدنيا لدفع مشقة عن الطائف لثقلها والا فهي محتاج اليها بدليل انه عند الفراغ يرجع الى الموضع التى هي فيه واما في الآخرة فالآنية تدور بنفسها والوليد معها اكراما للحمل وفيه وجه آخر من حيث اللغة وهو ان الكأس اناء فيه شراب فيدخل في مفهومه المشروب والابريق آنية لايشترط في اطلاق اسم الابريق عليها ان يكون فيها شراب واذا ثبت هذا فنقول الاناء المملوء الاعتبار لما فيه لا للاناء واذا كان كذلك فاعتبار الكأس بما فيه لكن فيه مشروب من جنس واحد وهو المعتبر والجنس لايجمع الا عند تنوعه فلا يقال للارغفة من جنس واحد اخباز وانما يقال اخباز عند ما يكون بعضها اسود وبعضها ابيض وكذلك اللحوم يقال عند تنوع الحيوان التى منها اللحوم ولا يقال للقطعتين من اللحم لحمان واما الاشياء المصنفة فتجمع فالاقداح وان كانت كبيرة لكنها لما ملئت خمرا من جنس واحد لم يجز ان يقال لها خمور فلم يقل كؤس والا لكان ذلك ترجيحا للظروف لان الكأس من حيث انها شراب من جنس واحد لايجمع واحده فيترك الجمع ترجيحا لجانب المظروف بخلاف الابريق فان المعتبر فيه الاناء فحسب وعلى هذا يتبين بلاغة القرآن حيث لم يرد فيه لفظ الكؤس اذا كان ما فيها نوع واحد من الخمر وهذا بحث عزيز في اللغة (المسئلة الثانية) في تأخير الكأس ترتيب حسن فكذا في تقديم الاكواب اذا كان الكوب منه يصب الشراب في الابريق ومن الابريق في الكأس (المسئلة الثالثة) من معين بيان ما في الكأس او بيان ما في الاكواب والاباريق نقول يحتمل ان يكون الكل من معين والاول اظهر بالوضع والثاني

هؤلا ايضا متقدمو هذه الامة ومتأخروهم واشتقاق الثلة من الثل وهو الكسر (على سرر موضونة) حال اخرى من المقربين او من ضميرهم في الحال الاولى وقيل خبر آخر للضمير والموضونة المنسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت او المتواصلة من الوضن وهو النسج (متكئين عليها متقابلين) حالان من الضمير المستكن فيما تعلق به على سرر اى مستقرين على سرر متكئين عليها متقابلين لاينظر بعضهم من اقفاء بعض وهو وصف لهم بحسن العشرة وتهذيب الاخلاق والآداب (يطوف عليهم) حال اخرى او استئناف اى يدور حولهم للخدمة (ولدان مخلدون) اى مبقون ابدا على شكل الولدان وطراوتهم لا يتحولون عنها وقيل مقرطون والخلد القرط قيل هم اولاد اهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيآت فيعاقبوا عليها روى ذلك عن على رضى الله عنه وعن الحسن رحمه الله

ليس كذلك فلما قال وكأس فكأنه قال ومشروب وكان السامع محتاجا الى معرفة المشروب واما الاباريق فدلالته على المشروب ليس بالوضع واما المعنى فلان كون الكل ملأنا هو الحق ولان الطواف بالفارغ لايليق فكان الظاهر بيان ما فى الكل ومما يؤيد الاول هو انه تعالى عند ذكر الاوانى ذكر جنسها لانوع ما فيها فقال تعالى ويطاف عليهم بآنية من فضة واكواب الآية وعند ذكر الكأس بين ما فيها فقال بكأس من معين فيحتمل ان الطواف بالاباريق وان كانت فارغة للزينة والتجمل وفى الآخرة تكون للاكرام والتنعم لاغير (المسئلة الرابعة) ما معنى المعين قلنا ذكرنا فى سورة الصافات انه فعيل او مفعول ومضى فيه خلاف فان قلنا فعيل فهو من معن الماء اذا جرى وان قلنا مفعول فهو من عانه اذا شخصه بعينه وميزه والاول اصح واظهر لان المعيون يوهم بأنه معيوب لان قول القائل عانني فلان معناه ضرني اذا اصابني عينه ولان الوصف بالمفعول لافائدة فيه واما الجريان فى المشروب فهو ان كان فى الماء فهو صفة مدح وان كان فى غيره فهو أمر عجيب لا يوجد فى الدنيا فيكون كقوله تعالى وانهار من خمر ❊ ثم قال تعالى (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لا يصدعون فيه وجهان (احدهما) لا يصيبهم منها صداع يقال صدعني فلان اى اورثنى الصداع (والثانى) لا ينزفون عنها ولا ينفدونها من الصدع والظاهر أن أصل الصداع منه وذلك لان الالم الذى فى الرأس يكون فى اكثر الامر بخلط وريح فى اغشية الدماغ فيؤلمه فيكون الذى به صداع كأنه يتطرق فى غشاء دماغه (المسئلة الثانية) ان كان المراد نفى الصداع فكيف يحسن عنها مع ان المستعمل فى السبب كلمة من فيقال مرض من كذا وفى المفارقة يقال عن فيقال برئ عن المرض نقول (الجواب) هو ان السبب الذى يثبت امرا فى شئ كأنه ينفصل عنه شئ ويثبت فى مكانه فعله فههنا امران ونظران اذا نظرت الى المحل ورأيت فيه شيئا تقول هذا من ماذا اى ابتداء وجوده من اى شئ فيقع نظرك على السبب فتقول هذا من هذا اى ابتداء وجوده منه واذا نظرت الى جانب المسبب ترى الامر الذى صدر عنه كأنه فارقه والتصق بالمحل ولهذا لا يمكن ان يوجد ذلك مرة اخرى والسبب كأنه كان فيه وانتقل عنه فى اكثر الامر فههنا يكون الامران من الاجسام والامور التى لها قرب وبعد اذا علم هذا فنقول المراد ههنا بيان خمر الآخرة فى نفسها وبيان ما عليها فالنظر وقع عليها لا على الشاربين ولو كان المقصود انهم لا يصدعون عنها لوصف منهم لما كان مدحا لها واما اذا قال هى لا تصدع لامر فيها يكون مدحا لها فلما وقع النظر عليها قال عنها واما اذا كنت تصف رجلا بكثرة الشرب وقوته عليه فانك تقول فى حقه هو لا يصدع من كذا من الخمر فاذا وصفت الخمر تقول هذه لا يصدع عنها احد (المسئلة الثالثة) قوله تعالى ولا ينزفون تقدم تفسيره فى الصافات والذى يحسن ذكره هنا ان نقول ان كان معنى لا ينزفون لا يسكرون فنقول اما ان نقول معنى يصدعون انهم لا يصيبهم الصداع واما

(انهم)

وفى الحديث اولاد الكفار خدام اهل الجنة (بأكواب) بآنية لاعرى لها ولاخراطيم (وأباريق) اى آنية ذات عرى وخراطيم (وكأس من معين) اى خمر جاريه من العيون قيل انما افرد الكأس لانها لا تسمى كأسا الا اذا كانت مملوءة (لا يصدعون عنها) اى بسببها وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها وقرئ لا يصدعون اى لا يتصدعون ولا يتفرقون كقوله تعالى يومئذ يصدعون وقرئ لا يصدعون اى لا يفرق بعضهم بعضا (ولا ينزفون) اى لا يسكرون من انزف الشارب اذا نفد عقله اوشرابه

انهم لايفقدون فان قلنا بالقول الاول فالترتيب فى غاية الحسن لانه على طريقة الارتقاء فان قوله تعالى لايصدعون معناه لايصيبهم الصداع لكن هذا لاينفي السكر فقال بعده ولا يورث السكر كقول القائل ليس فيه مفسدة كثيرة ثم يقول ولا قليلة تتميما للبيان ولو عكست الترتيب لايكون حسنا وان قلنا لاينزفون لايفقدون فالترتيب ايضا كذلك لان قولنا لايصدعون اى لايفقدون ومع كثرته ودوام شربه لايسكرون فان عدم السكر لنفاد الشراب ليس بعجز لكن عدم سكرهم مع انهم مستديمون للشراب عجيب وان قلنا لاينزفون بمعنى لاينفد شرابهم كما بينا هناك فنقول ايضا ان كان لا يصدعون بمعنى لايصيبهم صداع فالترتيب فى غاية الحسن وذلك لان قوله لايصدعون لايكون بيان امر عجيب ان كان شرابهم قليلا فقال لايصدعون عنها مع انهم لايفقدون الشراب ولاينزفون الشراب وان كان بمعنى لاينزفون عنها فالترتيب حسن لان معناه لاينزفون عنها بمعنى لايخرجون عماهم فيه ولايؤخذ منهم ما اعطوا من الشراب ثم اذا افنوها بالشرب يعطون ❊ ثم قال تعالى (وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه الجر والفاكهة لايطوف بها الولدان والعطف يقتضى ذلك نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان الفاكهة واللحم فى الدنيا يطلبان فى حالتين (احداهما) حالة الشرب والاخرى حال عدمه فالفاكهة من رؤس الاشجار تؤخذ كما قال تعالى قطوفها دانية وقال وجنى الجنتين دان الى غير ذلك واما حالة الشرب فجاز ان يطوف بها الولدان فيناولوهم الفواكه الغريبة واللحوم العجيبة لا للاكل بل للاكرام كما يضع المكرم للضيف انواع الفواكه بيده عنده وان كان كل واحد منهما مشاركا للآخر فى القرب منها (والوجه الثانى) ان يكون عطفا فى المعنى على جنات النعيم اى هم المقربون فى جنات وفاكهة ولحم وحور أى فى هذه النعم يتقلبون والمشهور انه عطف فى اللفظ للمجاورة لا فى المعنى وكيف لايجوز هذا وقد جاز تقلد سيفا ورمحا (المسئلة الثانية) هل فى تخصيص التخيير بالفاكهة والاشتهاء باللحم بلاغة قلت وكيف لا وفى كل حرف من حروف القرآن بلاغة وفصاحة وان كان لايحيط بها ذهنى الكليل ولايصل اليها على القليل والذى يظهر لى فيه ان اللحم والفاكهة اذا حضرا عند الجائع تميل نفسه الى اللحم واذا حضرا عند الشبعان تميل الى الفاكهة والجائع مشته والشبعان غير مشته وانما هو مختار ان اراد أكل وان لم يرد لايأكل ولايقال فى الجائع ان اراد أكل لان ان لا تدخل الا على المشكوك اذا علم هذا ثبت ان فى الدنيا اللحم عند المشتهى مختار والفاكهة عند غير المشتهى مختارة وحكاية الجنة على مايفهم فى الدنيا فخص اللحم بالاشتهاء والفاكهة بالاختيار والتحقيق فيه من حيث اللفظ ان الاختيار هو اخذ الخير من امرين والامران اللذان يقع فيهما الاختيار فى الظاهر لايكون للمختار اولا ميل الى احدهما ثم يتفكر ويتروى ويأخذ مايغلبه نظره على الآخر فالتفكه هو مايكون عند عدم الحاجة

(وفاكهة مما يتخيرون) اى يختارونه ويأخذون خيره وافضله (ولحم طير مما يشتهون) اى يتمنون وقرئ ولحوم طير

وا ماان اشتهى واحدفا كهة بعينها فاستحضرها واكلها فهو ليس بتفكه وانما هو دافع حاجة واما فواكه الجنة تكون اولا عند اصحاب الجنة من غير سبق ميل منهم اليها ثم يتفكهون بها على حسب اختيارهم واما اللحم فتميل نفسهم اليه ادنى ميل فيحضر عندهم وميل النفس الى المأكول شهوة ويدل على هذا قوله تعالى قطوفها دانية وقوله وجنى الجنتين دان وقوله تعالى وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولاممنوعة فهو دليل على انها دائمة الحضور واما اللحم فالمروى ان الطائر يطير فتميل نفس المؤمن الى لحمه فينزل مشويا ومقليا على حسب مايشتهيه فالحاصل ان الفاكهة تحضر عندهم فيتخير المؤمن بعد الحضور واللحم يطلبه المؤمن وتميل نفسه اليه ادنى ميل وذلك لان الفاكهة تلذ الاعين بحضورها واللحم لاتلذ الاعين بحضوره * ثم ان فى اللفظ لطيفة وهى انه تعالى قال مما يتخيرون ولم يقل مما يختارون مع قرب احدهما الى الآخر فى المعنى وهو ان التخير من باب التكلف فكأنهم يأخذون مايكون فى نهاية الكمال وهذا لايوجد الا ممن لايكون له حاجة ولا اضطرار (المسئلة الثالثة) ماالحكمة فى تقديم الفاكهة على اللحم نقول الجواب عنه من وجوه (احدها) العادة فى الدنيا التقديم للفواكه فى الاكل والجنة وضعت بما علم فى الدنيا من الاوصاف وعلى ماعلم فيها ولاسيما عادة اهل الشرب وكان المقصود بيان حال شرب اهل الجنة (وثانيها) الحكمة فى الدنيا تقتضى اكل الفاكهة اولا لانها الطف واسرع انحدارا واقل حاجة الى المكث الطويل فى المعدة للهضم ولان الفاكهة تحرك الشهوة للاكل واللحم يدفعها (وثالثها) يخرج مما ذكرنا جوابا خلا عن لفظ التخيير والاشتهاء هو انه تعالى لما بين ان الفاكهة دائمة الحضور والوجود واللحم يشتهى ويحضر عند الاشتهاء دل هذا على عدم الجوع لان الجائع حاجته الى اللحم اكثر من اختياره اللحم فقال وفاكهة لان الحال فى الجنة يشبه حال الشبعان فى الدنيا فيميل الى الفاكهة اكثر فقدمها وهذا الوجه اصح لان من الفواكه مالايؤكل الا بعد الطعام فلا يصح الاول جوابا فى الكل ❊ ثم قال تعالى (وحور عين كامثال اللؤلؤ المكنون) وفيها قرا آت (الاولى) الرفع وهو المشهور ويكون عطفا على ولدان فان قيل قال قبله حور مقصورات فى الخيام اشارة الى كونها مخدرة ومستورة فكيف يصح قولك انه عطف على ولدان نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) وهو المشهور ان نقول هو عطف عليهم فى اللفظ لافى المعنى او فى المعنى على التقدير والمفهوم لان قوله تعالى يطوف عليهم ولدان معناه لهم ولدان كما قال تعالى ويطوف عليهم غلمان لهم فيكون حور عين بمعنى ولهم حور عين (وثانيها) وهو ان يقال ليست الحور منحصرات فى جنس بل لاهل الجنة حور مقصورات فى حظائر معظمات ولهن جوارى وخوادم وحور تطوف مع الولدان السقاة فيكون كأنه قال يطوف عليهم ولدان ونساء (الثانية) الجر عطفا على اكواب واباريق فان قيل كيف يطاف بهن عليهم نقول الجواب سبق عند قوله ولحم طير أو عطفا على جنات اى اولئك

(وحور عين) بالرفع عطف على ولدان اومبتدأ محذوف الخبر اى وفيها اولهم حور وقرئ بالجر عطفا على جنات النعيم كأنه قيل هم فى جنات وفاكهة ولحم ومصاحبة حور أو على اكواب لان معنى يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب ينعمون بأكواب وبالنصب اى ويؤتون حورا (كأمثال اللؤلؤ المكنون) صفة لحور او حال

المقربون في جنات النعيم و حور و قرئ حورا عينا بالنصب و لعل الحاصل على هذه القراءة
على غير العطف بمعنى العطف لكن هذا القارئ لابد له من تقدير ناصب فيقول يؤتون حورا
فيقال قدر رافعا و لهم حور عين فلا يلزم الخروج عن موافقة العاطف وقوله تعالى
كأمثال اللؤلؤ المكنون فيه مباحث (الاول) الكاف للتشبيه و المثل حقيقة فيه فلو قال
امثال اللؤلؤ المكنون لم يكن الى الكاف حاجة فاوجه الجمع بين كلمتي التشبيه نقول
(الجواب المشهور) أن كلمتي التشبيه يفيدان التأكيد والزيادة في التشبيه فان قيل ليس
كذلك بل لا يفيدان ما يفيد احدهما لانك ان قلت مثلا هو كاللؤلؤ فالمشبه دون المشبه به
في الامر الذي لاجله التشبيه نقول التحقيق فيه هو ان الشيء اذا كان له مثل فهو مثله فاذا
قلت هو مثل القمر لا يكون في المبالغة مثل قولك هو قمر و كذلك قولنا هو كالاسد و هو أسد
فاذا قلت كمثل اللؤلؤ كأنك قلت مثل اللؤلؤ و قولك هو اللؤلؤ أبلغ من قولك هو كاللؤلؤ
و هذا البحث يفيدنا ههنا و لا يفيدنا في قوله تعالى ليس كمثله شيء لان النفي في مقابلة
الاثبات و لا يفهم معنى النفي من الكلام مالم يفهم معنى الاثبات الذي يقابله فنقول قوله
ليس كمثله شيء في مقابلة قول من يقول كمثله شيء فنفي ما أثبته لكن معنى قوله كمثله شيء
اذا لم نقل بزيادة الكاف هو ان مثل مثله شيء و هذا كلام يدل على ان له مثلا ثم ان لمثله مثلا
فاذا قلنا ليس كذلك كان ردا عليه و الرد عليه صحيح بقي أن يقال ان الراد على من يثبت
أمورا لا يكون نافيا لكل ما أثبته فاذا قال قائل زيد عالم جيد ثم قيل ردا عليه ليس زيد عالما
جيدا لا يلزم من هذا ان يكون نافيا لكونه عالما فمن يقول ليس كمثله شيء بمعنى ليس مثل
مثله شيء لا يلزم ان يكون نافيا لمثله بل يحتمل ان يكون نافيا لمثل المثل فلا يكون الراد ايضا موحدا
فيخرج الكلام عن افادة التوحيد فنقول يكون مفيدا للتوحيد لانا اذا قلنا ليس مثل مثله
شيء لزم ان لا يكون له مثل لانه لو كان له مثل لكان هو مثل مثله و هو شيء بدليل قوله تعالى
قل اي شيء أكبر شهادة قل الله فان حقيقة الشيء هو الموجود فيكون مثل مثله شيء و هو
منفي بقولنا ليس مثل مثله شيء فعلم ان الكلام لا يخرج عن افادة التوحيد فعلم ان الحمل على
الحقيقة يفيد في الكلام مبالغة في قوله تعالى كامثال و اما عدم الحمل عليها في قوله ليس كمثله
شيء فهو اوجز فتجعل الكاف زائدة لئلا يلزم التعطيل و هو نفي الاله نقول فيه فائدة و هو
ان يكون ذلك نفيا مع الاشارة الى وجه الدليل على النفي و ذلك لانه تعالى واجب الوجود
و قد وافقنا من قال بالشريك و لا يخالفنا الا المعطل و ذلك اثباته ظاهر و اذا كان هو واجب
الوجود فلو كان له مثل لخرج عن كونه واجب الوجود لانه مع مثله تعادلا في الحقيقة
و الا لما كان ذلك مثله و قد تعدد فلا بد من انضمام مميز اليه به يتميز عن مثله فلو كان مركبا فلا
يكون واجبا لان كل مركب ممكن فلو كان له مثل لما كان هو هو فيلزم من اثبات المثل له
نفيه فقوله ليس كمثله شيء اذا حملناه على انه ليس مثل مثله شيء و يكون في مقابلته قول
الكافر مثل مثله شيء فيكون مثبتا لكونه مثل مثله و يكون مثله يخرج عن حقيقة نفسه

ومنه لا يبقى واجب الوجود فذكر المثلين لفظا يفيد التوحيد مع الاشارة الى وجه الدليل على بطلان قول المشرك ولو قلنا ليس مثله شئ يكون نفيا من غير اشارة الى دليله والتحقيق فيه أنا نقول فى نفى المثل ردا على المشرك لا مثل لله ثم نستدل عليه ونقول لو كان له مثل لكان هو مثلا لذلك المثل فيكون ممكنا محتاجا فلا يكون الها ولو كان له مثل لما كان الله الها واجب الوجود لان عند فرض مثل له يشاركه بشئ وينافيه بشئ فيلزم تركه فلو كان له مثل لخرج عن حقيقة كونه الها فاثبات الشريك يفضى الى نفى الاله فقوله ليس كمثله شئ توحيد بالدليل وليس مثله شئ توحيد من غير دليل وشئ من هذا رأيته فى كلام الامام فخر الدين الرازى رحمه الله بعد ما فرغت من كتابة هذا مما وافق خاطرى خاطره على انى معترف بأنى أصبت منه فوائد لا احصيها واما قوله تعالى اللؤلؤ المكنون اشارة الى غاية صفائهن اى اللؤلؤ الذى لم يغير لونه الشمس والهواء * ثم قال تعالى (جزاء بما كانوا يعملون) وفى نصبه وجهان (احدهما) انه مفعول له وهو ظاهر تقديره فعل بهم هذا ليقع جزاء وليجزون بأعمالهم وعلى هذا فيه لطيفة وهى أن نقول المعنى ان هذا كله جزاء عملكم واما الزيادة فلا يدركها احد منكم (وثانيهما) انه مصدر لان الدليل دل على ان كل ما يفعله الله فهو جزاء فكأنه قال تجزون جزاء وقوله بما كانوا قد ذكرنا فائدته فى سورة الطور وهى انه تعالى قال فى حق المؤمن جزاء بما كانوا يعملون وفى حق الكافرين انما تجزون ما كنتم تعملون اشارة الى ان العذاب عين جزاء ما فعلوا فلا زيادة عليهم والثواب جزاء بما كانوا يعملون فلا يعطيهم الله عين عملهم بل يعطيهم بسبب عملهم ما يعطيهم والكافر يعطيه عين ما فعل فيكون فيه معنى قوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اصولية ذكرها الامام فخر الدين رحمه الله فى مواضع كثيرة ونحن نذكر بعضها فالاولى قالت المعتزلة هذا يدل على ان يقال الثواب على الله واجب لان الجزاء لا يجوز المطال به وقد أجاب عنه الامام فخر الدين رحمه الله بأجوبة كثيرة وأظن به أنه لم يذكر ما قوله فيه وهو ان ما ذكروه لو صح لما كان فى الوعد بهذه الاشياء فائدة وذلك لان العقل اذا حكم بان ترك الجزاء قبيح وعلم بالعقل ان القبيح من الله لا يوجد علم ان الله يعطى هذه الاشياء لانها أجزية وايصال الجزاء واجب وأما اذا قلنا بمذهبنا تكون الآيات مفيدة مبشرة لان البشارة لا تكون الا بالخبر عن امر غير معلوم لا يقال الجزاء كان واجبا على الله واما الخبر بهذه الاشياء فلا يذكرها مبشرا لانا نقول اذا وجب نفس الجزاء فما أعطانا الله تعالى من النعم فى الدنيا جزاء فثواب الآخرة لا يكون الا تفضلا منه غاية ما فى الباب انه تعالى كل النعمة بقوله هذا جزاؤكم اى جعلته لكم جزاء ولم يكن متعينا ولا واجبا كما ان الكريم اذا اعطى من جاءه بشئ يسير شيئا كثيرا فيظن انه يودعه ايداعا أو يأمره بحمله الى موضع فيقول له هذا لك فيفرح ثم انه يقول هذا انعام عظيم يوجب على خدمة كثيرة فيقول له هذا جزاء ما أتيت به ولا أطلب منك على هذا خدمة فان

(جزاء بما كانوا يعملون) مفعول له اى يفعل بهم ذلك كله جزاء بأعمالهم او مصدر مؤكد اى يجزون جزاء

اتيت بخدمة فلها ثواب جديد فيكون هذا غاية الفضل و عند هذا نقول هذا كله اذا كان الآتى غير العبد و اما اذا فعل العبد ما اوجب عليه سيده لا يستحق عليه اجرا و لا سيما اذا أتى بما امر به على نوع اختلال فاظنك بحالنا مع الله عز و جل مع ان السيد لا يملك من عبده الا البنية و الله يملك منا انفسنا و اجسامنا ثم انك اذا تفكرت فى مذهب اهل السنة تجدهم قد حققوا معنى العبودية غاية التحقيق و اعترفوا انهم عبيد لا يملكون شيئا و لا يجب للعبد على السيد دين و المعتزلة لم يحققوا العبودية و جعلوا بينهم و بين الله معاملة توجب مطالبة و نرجوا ان يحقق الله تعالى معنا المالكية غاية التحقيق و يدفع حاجاتنا الاصلية و يطهر اعمالنا كما ان السيد يدفع حاجة عبده باطعامه و كسوته و يطهر صومه بزكاة فطره و اذا جنى جناية لم يمكن المجنى عليه منه بل يختار فداءه و يخلص رقبته من الجناية كذلك يدفع الله حاجاتنا فى الآخرة و اهم الحاجات ان يرحمنا و يعفو عنا و يتغمدنا بالمغفرة و الرضوان حيث منع غيره عن تملك رقابنا باختيار الفداء عنا و ارجو ان لا يفعل مع اخواننا المعتزلة ما يفعله المتعاملان فى المحاسبة بالنقير و القطمير و المطالبة بما يفضل لاحدهما من القليل و الكثير (المسئلة الثانية) قالوا لو كان فى الآخرة رؤية لكانت جزاء و قد حصر الله الجزاء فيما ذكر (والجواب عنه) ان نقول لم قلتم انها لو كانت تكون جزاء بل تكون فضلا منه فوق الجزاء و هب انها تكون جزاء و لكن لم قلتم ان ذكر الجزاء حصر و انه ليس كذلك لان من قال لغيره اعطيتك كذا جزاء على عمل لا ينافى قوله و اعطيتك شيئا آخر فوقه أيضا جزاء عليه و هب انه حصر لكن لم قلتم ان القربة لا تدل على الرؤية فان قيل قال فى حق الملائكة و لا الملائكة المقربون و لم يلزم من قربهم الرؤية نقول اجبنا ان قربهم مثل قرب من يكون عند الملك لقضاء الاشغال فيكون عليه التكليف و الوقوف بين يديه بالباب تخرج أوامره عليه كما قال تعالى و يفعلون ما يؤمرون و قرب المؤمن قرب المنعم من الملك و هو الذى لا يكون الا للمكالمة و المجالسة فى الدنيا لكن المقرب المكلف ليس كما يروح الى باب الملك يدخل عليه و اما المنعم لا يذهب اليه الا و يدخل عليه فظهر الفرق و الذى يدل على ان قوله اولئك المقربون فيه اشارة الى الرؤية هو ان الله تعالى فى سورة المطففين ذكر الابرار و الفجار ثم انه تعالى قال فى حق الفجار انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون و قال فى حق الابرار يشرب بها المقربون و لم يذكر فى مقابلة لمحجوبون ما يدل على مخالفة حال الابرار حال الفجار فى الحجاب و القرب لان قوله فى عليين و ان كان دليلا على القرب و علو المنزلة لكنه فى مقابلة قوله فى سجين فقوله تعالى فى حقهم يشرب بها المقربون مع قوله تعالى و سقاهم ربهم شرابا طهورا يدل على ان المراد منه القرب الذى يكون لجلساء الملك عند الملك و قوله فى حق الملائكة فى تلك السورة يشهده المقربون يدل على ان المراد منه القرب الذى يكون للكتاب و الحساب عند الملك لما انه فى الدنيا يحسد احدهما الآخر فان الكاتب ان كان قربه من الملك بسبب الخدمة لا يختار قرب

الكتاب والحساب بل قرب النديم ثم ان بين ذلك النوع من القرب وبين القرب الذى بسبب الكتابة ما يحمله على ان يختار غيره وفى سورة المطففين قوله لمحجوبون يدل على ان المقربين غير محجوبين عن النظر الى الله تعالى وينبغى ان لا ينظر الى قولنا جلساء الملك فى ظاهر النظر الذى يقتضى فى نظر القوم الجهة والى القرب الذى يفهم العامى منه المكان الا ينظر العلماء الاحبار الحكماء الاخيار (المسئلة الثالثة) قالوا قوله تعالى بما كانوا يعملون يدل على ان العمل عملهم وحاصل بفعلهم نقول لا نزاع فى ان العمل فى الحقيقة اللغوية وضع للفعل والمجنون للذى لا عقل له والعقل للذى بلغ الكمال فيه وذلك ليس الا بوضع اللغة لما يدرك بالحس وكل احد يرى الحركة من الجسمين فيقول تحرك وسكن على سبيل الحقيقة كما يقول تدور الرحا ويصعد الحجر وانما الكلام فى القدرة التى بها الفعل فى المحل المرئى وذلك خارج عن وضع اللغة ❊ ثم قال تعالى (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة فى تأخير ذكره عن الجزاء مع انه من النعم العظيمة نقول فيه لطائف (الاولى) ان هذا من اتم النعم فجعلها من باب الزيادة التى منها الرؤية عند البعض ولا مقابل لها من الاعمال وانما قلنا انها من اتم النعم لانها نعمة سماع كلام الله تعالى على ما سنبين ان المراد من قوله سلاما هو ما قال فى سورة يس سلام قولا من رب رحيم فلم يذكرها فيما جعله جزاء وهذا على قولنا اولئك المقربون ليس فيه دلالة على الرؤية (الثانية) انه تعالى بدأ بأتم النعم وهى نعمة الرؤية وهى الرؤية بالنظر كما مر وختم بمثلها وهى نعمة المخاطبة (الثالثة) هى انه تعالى لما ذكر النعم الفعلية وقابلها بأعمالهم حيث قال جزاء بما كانوا يعملون ذكر النعم القولية فى مقابلة اذكارهم الحسنة ولم يذكر اللذات العقلية التى فى مقابلة اعمال قلوبهم من اخلاصهم واعتقادهم لان العمل القلبى لم يرو لم يسمع فما يعطيهم الله تعالى من النعمة تكون نعمة لم ترها عين ولا سمعتها اذن واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقوله عليه السلام ولا خطر اشارة الى الزيادة والذى يدل على ان النعمة القولية فى مقابلة قولهم الطيب قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا الى قوله نزلا من غفور رحيم (المسئلة الثانية) قوله تعالى لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما نفى للمكروه لما ان اللغو كلام غير معتبر لأنه عند المعتبرين من الرجال مكروه ونفى المكروه لا يعد من النعم العظيمة التى مر ذكرها كيف وقد ذكرت ان تأخير هذه النعمة لكونها اتم ولو قال ان فلانا فى بلدة كذا محترم مكرم لا يضرب ولا يشتم فهو غير مكرم وهو مذموم والواغل مذموم وهو الذى يدخل على قوم يشربون ويأكلون فيأكل ويشرب معهم من غير دعاء ولا اذن فكأنه بالنسبة اليهم فى عدم الاعتبار كلام غير معتبر وهو اللغو وكذلك ما يتصرف منه مثل الواوغ لا يقال الا اذا كان الوالغ كلبا او ما يشبهه من السباع واما التأثيم فهو النسبة الى الاثم ومعناه

(لا يسمعون فيها لغوا) اى باطلا (ولا تأثيما) اى ولا نسبة الى الاثم اى لا لغو فيها ولا تأثيم ولا سماع كقوله
❊ ولا ترى الضب بها ينجحر ❊
(الا قيلا) اى قولا (سلاما سلاما) بدل من قيلا كقوله تعالى لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما او صفته او مفعوله بمعنى لا يسمعون فيها الا ان يقولوا سلاما سلاما والمعنى انهم يفشون السلام فيسلمون سلاما بعد سلام او لا يسمع كل من المسلم والمسلم عليه الا سلام الآخر بدأ اوردا وقرئ سلام سلام على الحكاية

لا يذكر الاباطلا ولا ينسبه احد الا الى الباطل واما التقديم فلأن اللغو أعم من التأثيم اى يجعله آثما كما تقول انه فاسق اوسارق ونحو ذلك وبالجملة فالمتكلم ينقسم الى ان يلغو والى ان لا يلغو والذى لا يلغو يقصد الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فيأخذ الناس بأقوالهم وهو لا يؤخذ عليه شئ فقال تعالى لا يلغو احد ولا يصدر منه لغو ولا مايشبه اللغو فيقول له الصادق لا يلغو ولا يأثم ولا شك فى ان الباطل اقبح مايشبهه فقال لا يأثم احد (المسئلة الثالثة) قال تعالى فى سورة النبأ لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا فهل بينهما فرق قلنا نعم الكذاب كثير التكذيب ومعناه هناك انهم لا يسمعون كذبا ولا احدا يقول لآخر كذبت وفائدته انهم لا يعرفون كذبا من معين من الناس ولا من واحد منهم غير معين لتفاوت حالهم وحال الدنيا فانا نعلم ان بعض الناس باعيانهم كذابون فان لم نعرف ذلك نقطع بان فى الناس كذابا لان احدهم يقول لصاحبه كذبت فان صدق فصاحبه كذاب وان لم يصدق فهو كاذب فيعلم ان فى الدنيا كذابا بعينه او بغير عينه ولا كذلك فى الآخرة فلا كذب فيها وقال هنا ولا تأثيما وهو ابلغ من التكذيب فان من يقول فى حق من لا يعرفه انه زان او شارب الخمر مثلا فانه يأثم وقد يكون صادقا فالذى ليس عن علم اثم فلا يقول احد لأحد قلت مالا علم لك به فالكلام ههنا ابلغ لانه قصر السورة على بيان احوال الاقسام لان المذكورين هنا هم السابقون وفى سورة النبأ هم المتقون وقد بينا ان السابق فوق المتقى (المسئلة الرابعة) الا قيلا استثناء متصل او منقطع فنقول فيه وجهان (احدهما) وهو الاظهر انه منقطع لان السلام ليس من جنس اللغو تقديره لكن يسمعون قيلا سلاما سلاما (ثانيهما) انه متصل ووجهه ان نقول المجاز قد يكون فى المعنى ومن جملته انك تقول مالى ذنب الا انى احبك فلهذا تؤذينى فتستثنى محبته من الذنب ولا تريد المنقطع لانك لا تريد بهذا القول بيان انك تحبه انما تريد المبالغة فى تبرئتك عن الذنوب ووجهه هو ان بينهما غاية الخلاف وبينهما امور متوسطة مثاله الحار والبارد وبينهما الفاتر الذى هو أقرب الى الحار من البارد وأقرب الى البارد من الحار والمتوسط يطلق عليه اسم البارد عند النسبة الى الحار فيقال هذا بارد ويخبر عنه بالنسبة الى البارد فيقال انه حار اذا ثبت هذا فنقول قول القائل مالى ذنب الا انى احبك معناه لا تجد مايقرب من الذنب الا المحبة فان عندى امورا فوقها اذا نسبتها الى الذنب تجد بينها غاية الخلاف فيكون ذلك كقوله اقل درجات الحب عندى طاعتك وفوقها انى افضل جانب اقل امر من امورك على جانب الحفظ لروحى اشارة الى المبالغة كما يقول القائل ليس هذا بشئ مستحقرا بالنسبة الى مافوقه فقوله لا يسمعون فيها لغوا اى يسمعون فيها كلاما فائقا عظيم الفائدة كامل اللذة ادناها واقربها الى اللغو قول بعضهم لبعض سلام عليك فلا يسمعون مايقرب من اللغو الا سلاما فاظنك بالذى يبعد منه كما يقول الذى عنده الماء البارد الصادق والماء الذى كسرت الشمس برودته وطلب منه ماء حار ليس عندى ماء حار

الا هذا اى ليس عندى ما يبعد من البارد الصادق البرودة ويقرب من الحار الا هذا وفيه المبالغة الفائقة والبلاغة الرائقة وحينئذ يكون اللغو مجازا والاستثناء متصلا فان قيل اذا لم يكن بد من مجاز وحمل اللغو على مايقرب منه بالنسبة اليه فليحمل الاعلى لكن لانهما مشتركان فى اثبات خلاف ماتقدم نقول المجاز فى الاسماء اولى من المجاز فى الحروف لانها تقبل التغير فى الدلالة وتتغير فى الاحوال ولا كذلك الحروف لان الحروف لاتصير مجازا الا بالاقتران باسم والاسم يصير مجازا من غير الاقتران و بحرف فانك تقول رأيت اسدا يرمى ويكون مجازا ولا اقتران له بحرف وكذلك اذا قلت لرجل هذا اسد وتريد بأسد كامل الشجاعة ولان غرض المتكلم فى قوله مالى ذنب الا انى احبك لايحصل بما ذكرت من المجاز ولان العدول عن الاصل لايكون له فائدة من المبالغة والبلاغة (المسئلة الخامسة) فى قوله تعالى قيلا قولان (احدهما) انه مصدر كالقول فيكون قيلا مصدرا كما ان القول مصدر لكن لايظهر له فى باب فعل يفعل الاحرف (ثانيهما) انه اسم والقول مصدر فهو كالسدل والستر بكسر السين اسم و بفتحها مصدر وهو الاظهر وعلى هذا نقول الظاهر انه اسم مأخوذ من فعل هو قال وقيل لما لم يذكر فاعله وماقيل ان النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن القيل والقال يكون معناه نهى عن المشاجرة وحكاية امور جرت بين اقوام لافائدة فى ذكرها وليس فيها الا مجرد الحكاية من غير وعظ ولا حكمة لقوله صلى الله عليه وسلم رحم الله عبدا قال خيرا فغنم اوسكت فسلم وعلى هذا فالقيل اسم لقول لم يعلم قائله والقال اسم للقول مأخوذ من قيل لما لم يذكر فاعله تقول قال فلان كذا ثم قيل له كذا فقال كذا فيكون حاصل كلامه قيل وقال وعلى هذا فالقيل اسم لقول لم يعلم قائله والقال مأخوذ من قيل هو قال وللقائل ان يقول هذا باطل لقوله تعالى وقيله يارب ان هؤلاء قوم لايؤمنون فان الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم اى يعلم الله قيل محمد يارب ان هؤلاء قوم لايؤمنون كما قال نوح عليه السلام انك ان تذرهم يضلوا عبادك وعلى هذا فقوله تعالى فاصفح عنهم وقل سلام ارشاد له لئلا يدعو على قومه عند يأسه منهم كما دعا عليهم نوح عنده واذا كان القول مضافا الى محمد صلى الله عليه وسلم فلا يكون القيل اسما لقول لم يعلم قائله فنقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان قولنا انه اسم مأخوذ من قيل الموضوع لقول لم يعلم قائله فى الاصل لاينافى جواز استعماله فى قول من علم بغير الموضوع (وثانيهما) وهو الجواب الدقيق ان نقول الهاء فى وقيله ضمير كما فى ربه وكالضمير المجهول عند الكوفيين وهو ضمير الشأن وعند البصريين قال فانها لاتعمى الابصار والهاء غير عائد الى مذكور غير ان الكوفيين جعلوه لغير معلوم والبصريين جعلوه ضمير القصة والظاهر فى هذه المسئلة قول الكوفيين وعلى هذا معنى عبارتهم بلغ غاية علم الله تعالى قيل القائل منهم يارب ان هؤلاء اشارة الى ان الاختصاص بذلك القول فى كل احد انهم لايؤمنون لعلمه انهم قائلون بهذا وانهم عالمون واهل السماء علموا بان عند الله علم الساعة يعلمها فيعلم قول من يقول يارب ان هؤلاء قوم

لايؤمنون من غير تعيين قول لاشتراك الكل فيه ويؤيد هذا ان الضمير لوكان عائدا الى معلوم فاما ان يكون الى مذكور قبله ولاشئ فيما قبله يصح عود الضمير اليه واما الى معلوم غير مذكور وهو محمد صلى الله عليه وسلم لكن الخطاب بقوله فاصفح كان يقتضي ان يقول وقيلك يارب لان محمدا صلى الله عليه وسلم هو المخاطب اولا بكلام الله وقد قال قبله ولئن سألتهم وقال من قبل قل ان كان للرحمن ولد فأنا اول العابدين وكان هو المخاطب اولا اذا تحقق هذا نقول اذا تفكرت في استعمال لفظ القيل في القرآن ترى ماذكرنا ملحوظا مراعى فقال ههنا الاقيلا سلاما سلاما لعدم اختصاص هذا القول بقائل دون قائل فيسمع هذا القول دائما من الملائكة والناس كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام وقال تعالى سلام قولا من رب رحيم حيث كان المسلم منفردا وهو الله كأنه قال سلام قولا منا وقال تعالى ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال هي اشد وطأ واقوم قيلا لان الداعي معين وهم الرسل ومن اتبعهم من الامة وكل من قام ليلا فان قوله قويم ونهجه مستقيم وقال تعالى وقيله يارب لان كل احد يقول انهم لايؤمنون اماهم فلاعترافهم ولاقرارهم واماغيرهم فلكفريانهم باسرافهم واصرارهم ويؤيد ماذكرنا انه تعالى قال لايسمعون فيها لغوا ولاتأثيما والاستثناء المتصل يقرب الى المعنى بالنسبة الى غيره وهو قول لايعرف قائله فقال الاقيلا وهو سلام عليك واما قول من يعرف وهو الله فهو الابعد عن اللغو غاية البعد وبينهما نهاية الخلاف فقال سلام قولا (المسئلة السادسة) سلام فيه ثلاثة اوجه (احدها) انه صفة وصف الله تعالى بها قيلا كما يوصف الشئ بالمصدر حيث قال رجل عدل وقوم صوم ومعناه الاقيلا سالما عن العيوب (وثانيها) هو مصدر تقديره الاان يقولوا سلاما (وثالثها) هو بدل من قيلا تقديره الاسلاما (المسئلة السابعة) تكرير السلام هل فيه فائدة نقول فيه اشارة الى تمام النعمة وذلك لان أثر السلام في الدنيا لايتم الابالتسليم ورد السلام فكما ان احد المتلاقيين في الدنيا يقول للآخر السلام عليك فيقول الآخر وعليك السلام فكذلك في الآخرة يقولون سلاما سلاما ثم انه تعالى لما قال سلام قولا من رب رحيم لم يكن له رد لان تسليم الله على عبده مؤمن له فاما الله تعالى فهو منزه عن ان يؤمنه احد بل الرد ان كان فهو قول المؤمن سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين (المسئلة الثامنة) ما الفرق بين قوله تعالى سلاما سلاما بنصبهما وبين قوله تعالى قالوا سلاما قال سلام قلنا قد ذكرنا هناك ان قوله سلام عليك أتم وابلغ من قولهم سلاما عليك فابراهيم عليه السلام أراد ان يتفضل عليهم بالذكر ويحييهم بأحسن ماحيوا واما ههنا فلا يتفضل احد من اهل الجنة على الآخر مثل التفضل في تلك الصورة اذهم من جنس واحد وهم المؤمنون ولاينسب احد الى احد تقصيرا (المسئلة التاسعة) اذا كان قول القائل سلام عليك أتم وابلغ فابال القراءة المشهورة صارت بالنصب ومن قرأ سلام ليس مثل الذي قرأ بالنصب نقول ذلك من حيث اللفظ والمعنى اما اللفظ فلانه يستثنى

من المسموع وهو مفعول منصوب فالنصب بقوله لايسمعون فيها لغوا واما المعنى فلأنا بينا ان الاستثناء متصل وقولهم سلام ابعد من اللغو من قولهم سلاما فقال الاقيلا سلاما ليكون اقرب الى اللغو من غيره وان كان فى نفسه بعيدا عنه ❊ثم قال تعالى (واصحاب اليمين مااصحاب اليمين فى سدر مخضود وطلح منضود) لمابين حال السابقين شرع فى شأن اصحاب الميمنة من الازواج الثلاثة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ماالفائدة فى ذكرهم بلفظ اصحاب الميمنة عند ذكر الاقسام وبلفظ اصحاب اليمين عند ذكر الانعام نقول الميمنة مفعلة امابمعنى موضع اليمين كالمحكمة لموضع الحكم اى الارض التى فيها اليمين واما بمعنى موضع اليمين كالمنارة موضع النار والمجمرة موضع الجمر فكيفما كان الميمنة فيها دلالة على الموضع لكن الازواج الثلاثة فى اول الامر يتميز بعضهم عن بعض ويتفرقون لقوله تعالى يومئذ يتفرقون وقال يصدعون فيتفرقون بالمكان فأشار فى الاول اليهم بلفظ يدل على المكان ثم عند الثواب وقع تفرقهم بامر مبهم لايتشاركون فيه كالمكان فقال واصحاب اليمين وفيه وجوه (احدها) اصحاب اليمين الذين يأخذون بأيمانهم كتبهم (ثانيها) اصحاب القوة (ثالثها) اصحاب النور وقد تقدم بيانه (المسئلة الثانية) ماالحكمة فى قوله تعالى فى سدر وأية نعمة تكون فى كونهم فى سدر والسدر من اشجار البوادى لايمر ولا يحلو ولا بطيب نقول فيه حكمة بالغة غفلت عنها الاوائل والاواخر واقتصروا فى الجواب والتقريب ان الجنة تمثل بما كان عند العرب عزيزا محمودا وهو صواب ولكنه غير فائق والفائق الرائق الذى هو بتفسير كلام الله لائق هو ان نقول انا قد بينا مرارا ان البليغ يذكر طرفى امرين يتضمن ذكرهما الاشارة الى جميع ما بينهما كما يقال فلان ملك الشرق والغرب ويفهم منه انه ملكهما وملك ما بينهما ويقال فلان ارضى الصغير والكبير ويفهم منه انه ارضى كل احد الى غير ذلك فنقول لاخفاء فى ان تزين المواضع التى يتفرج فيها بالاشجار وتلك الاشجار تارة يطلب منها نفس الورق والنظر اليه والاستظلال به وتارة يقصد الى ثمرها وتارة يجمع بينهما لكن الاشجار اوراقها على اقسام كثيرة ويجمعها نوعان اوراق صغار واوراق كبار والسدر فى غاية الصغر والطلح وهو شجر الموز فى غاية الكبر فقوله تعالى فى سدر مخضود وطلح منضود اشارة الى مايكون ورقه فى غاية الصغر من الاشجار والى مايكون ورقه فى غاية الكبر منها فوقعت الاشارة الى الطرفين جامعة لجميع الاشجار نظرا الى اوراقها والورق احد مقاصد الشجر ونظيره فى الذكر ذكر النخل والرمان عند القصد الى ذكر الثمار لان بينهما غاية الخلاف كما بيناه فى موضعه فوقعت الاشارة اليهما جامعة لجميع الاشجار نظرا الى ثمارها وكذلك قلنا فى النخيل والاعناب فان النخل من اعظم الاشجار المثمرة والكرم من اصغر الاشجار المثمرة وبينهما اشجار فوقعت الاشارة اليهما جامعة لسائر الاشجار وهذا جواب فائق وفقنا الله تعالى له (المسئلة الثالثة) مامعنى المخضود نقول فيه وجهان (احدهما) مأخوذ الشوك فان شوك السدر يستقصف ورقها ولولاه

وقوله تعالى (واصحاب اليمين) شروع فى تفصيل ما اجمل عند التقسيم من شؤنهم الفاضلة اثر تفصيل شؤن السابقين وهو مبتدأ وقوله تعالى (مااصحاب اليمين) جملة استفهامية مسوقة لتفخيمهم والتعجيب من حالهم وقد عرفت كيفية سبكها محلها اما الرفع على انها خبر للمبتدأ او معترضة لامحل لها والخبر قوله تعالى (فى سدر مخضود) وهو على الاول خبر ثان للمبتدأ او خبر لمبتدأ محذوف والجملة استئناف لبيان ماابهم فى قوله تعالى مااصحاب اليمين من علو الشأن اى هم فى سدر غير ذى شوك لا كسدر الدنيا وهو شجر النبق كأنه خضد شوكه اى قطع وقيل مخضود اى مثنى اغصانه لكثرة حمله من خضد الغصن اذا ثناه وهو رطب (وطلح منضود) قد نضد حمله من اسفله الى اعلاه ليست له ساق بارزة وهو شجر الموز او أم غيلان وله انوار كثيرة منتظمة طيبة الرائحة وعن السدى شجر يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر احلى من العسل

(لكان)

لكان منتزه العرب ذلك لانها تظل لكثرة اوراقها ودخول بعضها فى بعض (وثانيهما) مخضود اى منعطف الى اسفل فان رؤس اغصان السدر فى الدنيا تميل الى فوق بخلاف اشجار الثمار فان رؤسها تتدلى وحينئذ معناه انه يخالف سدر الدنيا فان لها ثمرا كثيرا (المسئلة الرابعة) ما الطلح نقول الظاهر انه شجر الموز وبه يتم ماذكرنا من الفائدة * روى ان عليا عليه السلام سمع من يقرأ وطلح منضود فقال ماشأن الطلح انما هو وطلع واستدل بقوله تعالى وطلع نضيد فقالوا فى المصاحف كذلك فقال لاتحول المصاحف فنقول هذا دليل معجزة القرآن وغزارة علم على رضى الله عنه اما المعجزة فلأن عليا كان من فصحاء العرب ولما سمع هذا حمله على الطلع واستمر عليه وما كان قد اتفق حرفه لمبادرة ذهنه الى معنى ثم قال فى نفسه ان هذا الكلام فى غاية الحسن لانه تعالى ذكر الشجر الذى المقصود منه الورق للاستظلال به والشجر المقصود منه الثمر للاستغلال به فذكر النوعين ثم انه لما اطلع على حقيقة اللفظ علم ان الطلح فى هذا الموضع اولى وهو افصح من الكلام الذى ظنه فى غاية الفصاحة فقال المصحف بين لى انه خير مما كان فى ظنى فالمصحف لايحول والذى يؤيد هذا انه لو كان طلع لكان قوله تعالى بعده وفاكهة كثيرة تكرارا احرف من غير فائدة واما على الطلح فتظهر فائدة قوله تعالى وفاكهة وسنبينها ان شاء الله تعالى (المسئلة الخامسة) ما المنضود فنقول اما الورق واما الثمر والظاهر ان المراد الورق لان شجر الموز من اوله الى اعلاه يكون ورقا بعد ورق وهو ينبت كشجر الحنطة ورقا بعد ورق وساقه يغلظ وترتفع اوراقه ويبقى بعضها دون بعض كما فى القصب فموز الدنيا اذا نبت كان بين القضب وبين بعضها فرجة وليس عليها ورق وموز الآخرة يكون ورقه متصلا بعضه ببعض فهو اكثر اوراقا وقيل المنضود الثمر فان قيل اذا كان الطلح شجرا فهو لايكون منضودا وانما يكون له ثمر منضود فكيف وصف به الطلح نقول هو من باب حسن الوجه وصف بسبب اتصاف مايتصل به يقال زيد حسن الوجه وقد يترك الوجه ويقال زيد حسن والمراد حسن الوجه ولا يترك ان اوهم فيصح ان يقال زيد مضروب الغلام ولا يجوز ترك الغلام لانه يوهم الخطأ واما حسن الوجه فيجوز ترك الوجه * ثم قال تعالى (وظل ممدود) وفيه وجوه (الاول) ممدود زمانا اى لازوال له فهو دائم كما قال تعالى اكلها دائم وظلها اى كذلك (الثانى) ممدود مكانا اى يقع على شئ كبير ويستره من بقعة الجنة (الثالث) المراد ممدود اى منبسط كما قال تعالى والارض مددناها فان قيل كيف يكون الوجه الثانى نقول الظل قد يكون مرتفعا فان الشمس اذا كانت تحت الارض يقع ظلها فى الجو فيتراكم الظل فيسود وجه الارض واذا كانت على احد جنبيها قريبة من الافق ينبسط على وجه الارض فيضئ الجو ولا يسخن وجه الارض فيكون فى غاية الطيبة فقوله وظل ممدود اى عند قيامه عمودا على الارض كالظل بالليل وعلى هذا فالظل ليس ظل الاشجار بل ظل يخلقه الله تعالى * وقوله تعالى (وماء مسكوب) فيه ايضا وجوه (الاول) مسكوب من فوق

وعن على رضى الله عنه انه قرأ وطلع وقال ماشأن الطلح وقرأ قوله تعالى لها طلع نضيد فقيل او نحولها قال آى القرآن لاتهاج ولا تحول وعن ابن عباس نحوه (وظل ممدود) ممتد منبسط لايتقلص ولايتفاوت كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس (وماء مسكوب) يسكب لهم اينما شاؤا وكيفما ارادوا بلا تعب او مصبوب سائل يجرى على الارض فى غير اخدود كأنه مثل حال السابقين بأقصى مايتصور لاهل المدن وحال اصحاب اليمين بأكمل مايتصور لاهل البوادى ايذانا بالتفاوت بين الحالين

وذلك ان العرب اكثر مايكون عندهم الآبار والبرك فلاسكب للماء عندهم بخلاف المواضع التى فيها العيون النابعة من الجبال الحاكمة على الارض تسكب عليها (الثانى) جار فى غير اخدود لان الماء المسكوب يكون جاريا فى الهواء ولانهر هناك كذلك الماء فى الجنة (الثالث) كثير وذلك لان الماء عند العرب عزيز لايسكب بل يحفظ ويشرب فاذا ذكروا النعم يعدون كثرة الماء ويعبرون عن كثرتها باراقتها وسكبها والاول اصح ❊ ثم قال تعالى (وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولاممنوعة) لما ذكر الاشجار التى يطلب منها ورقها ذكر بعدها الاشجار التى يقصد ثمرها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة فى تقديم الاشجار المورقة على غير المورقة نقول هى ظاهرة وهو انه قدم الورق على الثمر على طريقة الارتقاء من نعمة الى ذكر نعمة فوقها والفواكه اتم نعمة (المسئلة الثانية) ما الحكمة فى ذكر الاشجار المورقة بانفسها وذكر اشجار الفواكه بثمارها نقول هى ايضا ظاهرة فان الاوراق حسنها عند كونها على الشجر واما الثمار فهى فى انفسها مطلوبة سواء كانت عليها اومقطوعة ولهذا صارت الفواكه لها اسماء بها تعرف اشجارها فيقال شجر التين وورقه (المسئلة الثالثة) ما الحكمة فى وصف الفاكهة بالكثرة لابالطيب واللذة نقول قد بينا فى سورة الرحمن ان الفاكهة فاعلة كالراضية فى قوله فى عيشة راضية اى ذات فكهة وهى لاتكون بالطبيعة الا بالطيب واللذة واما الكثرة فبينا ان الله تعالى حيث ذكر الفاكهة ذكر مايدل على الكثرة لانها ليست لدفع الحاجة حتى تكون بقدر الحاجة بل هى للتنعم فوصفها بالكثرة والتنوع (المسئلة الرابعة) لامقطوعة اى ليست كفواكه الدنيا فانها تنقطع فى اكثر الاوقات والازمان وفى كثير من المواضع والاماكن ولاممنوعة اى لاتمنع من الناس لطلب الاعواض والاثمان والممنوع من الناس لطلب الاعواض والاثمان ظاهر فى الحسن لان الفاكهة فى الدنيا تمنع عن البعض فهى ممنوعة وفى الآخرة ليست ممنوعة واما القطع فيقال فى الدنيا انها انقطعت فهى منقطعة لامقطوعة فقوله تعالى لامقطوعة فى غاية الحسن لان فيه اشارة الى دليل عدم القطع كما ان فى لاممنوعة دليلا على عدم المنع وبيانه هو ان الفاكهة فى الدنيا لا تمنع الالطلب العوض وحاجة صاحبها الى ثمنها لدفع حاجة به وفى الآخرة مالكها الله تعالى ولا حاجة له فلزم ان لاتمنع الفاكهة من احد كالذى له فاكهة كثيرة ولايأكل ولايبيع ولايحتاج اليها بوجه من الوجوه لاشك فى ان يفرقها ولا يمنعها من احد واما الانقطاع فنقول الذى يقال فى الدنيا الفاكهة انقطعت ولايقال عند وجودها امتنعت بل يقال منعت وذلك لان الانسان لايتكلم الابما يفهمه الصغير والكبير لكن كل احد اذا نظر الى الفاكهة زمان وجودها يرى احدا يحوزها ويحفظها ولايراها بنفسها تمتنع فيقول انها ممنوعة واما عند انقطاعها وفقدها لايرى احدا قطعها حسا واعدمها فيظنها منقطعة بنفسها لعدم احساسه بالقاطع وو جودا حساسه بالمانع فقال تعالى لو نظرتم فى الدنيا حق النظر علمتم ان

(وفاكهة كثيرة) بحسب الانواع والاجناس (لامقطوعة) فى وقت من الاوقات كفواكه الدنيا (ولاممنوعة) عن متناولها بوجه من الوجوه لايحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا وقرئ وفاكهة كثيرة بالرفع على وهناك فاكهة الخ كقوله تعالى وحور عين

كل زمان نظرا الى كونه ليلا ونهارا ممكن فيه الفاكهة فهي بنفسها لا تقطع وانما لاتوجد عند المحقق لقطع الله اياها وتخصيصها بزمان دون زمان وعند غير المحقق لبرد الزمان وحره وكونه محتاجا الى الظهور والنمو والزهر ولذلك تجري العادة بأزمنة فهي يقطعها الزمان في نظر غير المحقق فاذا كانت الجنة ظلها ممدودا لاشمس هناك ولا زمهرير استوت الازمنة والله تعالى يقطعها فلا تكون مقطوعة بسبب حقيقي ولا ظاهري فالمقطوع يتفكر الانسان فيه ويعلم انه مقطوع لامنقطع من غير قاطع وفي الجنة لاقاطع فلا تصير مقطوعة (المسئلة الخامسة) قدم نفي كونها مقطوعة لما ان القطع للموجود والمنع بعد الوجود لانها توجد اولا ثم تمنع فان لم تكن موجودة لاتكون ممنوعة محفوظة فقال لاتقطع فتوجد ابدا ثم ان ذلك الموجود لايمنع من احد وهو ظاهر غير انا نحب ان لانترك شيئا مما يخطر بالبال ويكون صحيحا ❊ ثم قال تعالى (وفرش مرفوعة) وقد ذكرنا معنى الفرش ونذكر وجها آخر فيها ان شاء الله تعالى واما المرفوعة ففيها ثلاثة اوجه (احدها) مرفوعة القدر يقال ثوب رفيع اى عزيز مرتفع القدر والثمن ويدل عليه قوله تعالى على فرش بطائنها (ثانيها) مرفوعة بعضها فوق بعض (ثالثها) مرفوعة فوق السرير ❊ ثم قال تعالى (انا انشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا لاصحاب اليمين) وفي الانشاء مسائل (المسئلة الاولى) الضمير في انشأناهن عائد الى من فيه ثلاثة أوجه (احدها) الى حور عين وهو بعيد لبعدهن ووقوعهن في قصة اخرى (ثانيها) ان المراد من الفرش النساء والضمير عائد اليهن لقوله تعالى هن لباس لكم ويقال للجارية صارت فراشا واذا صارت فراشا رفع قدرها بالنسبة الى جارية لم تصر فراشا وهو اقرب من الاول لكن يبعد ظاهرا لان وصفها بالمرفوعة ينبئ عن خلاف ذلك (وثالثها) انه عائد الى معلوم دل عليه فرش لانه قد علم في الدنيا وفي مواضع من ذكر الآخرة ان في الفرش حظايا تقديره وفي فرش مرفوعة حظايا منشآت وهو مثل ما ذكرنا في قوله تعالى قاصرات الطرف ومقصورات فهو تعالى أقام الصفة مقام الموصوف ولم يذكر نساء الآخرة بلفظ حقيقي اصلا وانما عرفهن باوصافهن ولباسهن اشارة الى صونهن وتخدرهن وقوله تعالى انا انشأناهن يحتمل ان يكون المراد الحور فيكون المراد الانشاء الذي هو الابتداء ويحتمل ان يكون المراد بنات آدم فيكون الانشاء بمعنى احياء الاعادة وقوله تعالى ابكارا يدل على الثاني لان الانشاء لو كان بمعنى الابتداء لعلم من ذلك كونهن ابكارا من غير حاجة الى بيان ولما كان المراد احياء بنات آدم قال ابكارا اى نجعلهن ابكارا وان متن ثيبات فان قيل فما الفائدة على الوجه الاول نقول الجواب من وجهين (الاول) ان الوصف بعدها لايكون من غيرها اذا كن ازواجهم بين الفائدة لان البكر في الدنيا لاتكون عارفة بلذة الزوج فلا ترتضي بأن تتزوج من رجل لاتعرفه وتختار التزويج باقرانها ومعارفها لكن اهل الجنة اذا لم يكن من جنس ابناء آدم وتكون الواحدة منهن بكرا

(وفرش مرفوعة) اى رفيعة القدر او منضدة مرتفعة او مرفوعة على الاسرة وقيل الفرش النساء حيث يكنى بالفراش عن المرأة وارتفاعها كونهن على الارائك قال تعالى هم وازواجهم في ظلال على الارائك متكئون ويدل عليه قوله تعالى (انا انشأناهن انشاء) وعلى التفسير الاول اضمر لهن لدلالة ذكر الفرش التي هي المضاجع عليهن دلالة بينة والمعنى ابتدأنا خلقهن ابتداء جديدا او ابدعناهن من غير ولادة ابداء او اعادة وفي الحديث هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطا رمصا جعلهن الله تعالى بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد في الاستواء كلما اتاهن ازواجهن وجدوهن ابكارا وذلك قوله تعالى

لم تزوج ثم تزوجت بغير جنسها فربما توهم منها سوء عشرة فقال ابكارا فلا يوجد فيهن مايوجد فى ابكار الدنيا (الثانى) المراد ابكارا بكارة تخالف بكارة الدنيا فان البكارة لاتعود الا على بعد وقوله تعالى اترابا يحتمل وجوها (احدها) مستويات فى السن فلا تفضل احداهن على الاخرى بصغر ولا كبر كلهن خلقن فى زمان واحد ولا يلحقهن عجز ولا زمانة ولا تغير لون وعلى هذا ان كن من بنات آدم فاللفظ فيهن حقيقة وان كن من غيرهن فمعناه ما كبرن سمين به لان كلامنهن تمس وقت مس الاخرى لكن نسى الاصل وجعل عبارة عن ذلك كاللدة للمتساويين من العقلاء فاطلق على حور الجنة اترابا (ثانيها) اترابا متماثلات فى النظر اليهن كالاتراب سواء وجدن فى زمان أو فى ازمنة والظاهر انه فى ازمنة لان المؤمن اذا عمل عملا صالحا خلق له منهن ماشاء الله (ثالثها) اترابا لاصحاب اليمين اى على سنهم وفيه اشارة الى الاتفاق لان احد الزوجين اذا كان اكبر من الآخر فالشاب يعيره (المسئلة الثانية) ان قيل ما الفائدة فى قوله فجعلناهن نقول فائدته ظاهرة تتبين بالنظر الى اللام فى لاصحاب اليمين فنقول ان كانت اللام متعلقة باترابا يكون معناه انشأناهن وهذا لا يجوز وان كانت متعلقة بانشأناهن يكون معناه انشأناهن لاصحاب اليمين والانشاء حال كونهن ابكارا واترابا فلا يتعلق الانشاء بالابكار بحيث يكون كونهن ابكارا بالانشاء لان الفعل لايؤثر فى الحال تأثيرا واجبا فنقول صرفه للانشاء لايدل على ان الانشاء كان بفعل فيكون الانعام عليهم بمجرد انشائهن لاصحاب اليمين فجعلناهن ابكارا ليكون ترتيب المسبب على السبب فاقتضى ذلك كونهن ابكارا واما ان كان الانشاء اولا من غير مباشرة للازواج ما كان يقتضى جعلهن ابكارا فالفاء لترتيب المقتضى على المقتضى ❊ ثم قال تعالى (ثلة من الاولين وثلة من الآخرين) وقد ذكرنا مافيه لكن هنا لطيفة وهى انه تعالى قال فى السابقين ثلة من الاولين قبل ذكر السرور والفاكهة والحور وذكر فى اصحاب اليمين ثلة من الاولين بعد ذكر هذه النعم نقول السابقون لا يلتفتون الى الحور العين والمأكول والمشروب ونعم الجنة تتشرف بهم واصحاب اليمين يلتفتون اليها فقدم ذكرها عليهم ثم قال هذا لكم واما السابقون فذكرهم اولا ثم ذكر مكانهم فكأنه قال لاهل الجنة هؤلا واردون عليكم والذى يتم هذه اللطيفة انه تعالى لم يقدم ثلة السابقين الالكونهم مقربين حسا فقال المقربون فى جنات ثم قال ثلة ثم ذكر النعم لكونها فوق نعم الدنيا الا المودة فى القربى من الله فانها فوق كل شئ والى هذا اشار بقوله تعالى قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة فى القربى اى فى المؤمنين ووعد المرسلين بالزلفى فى قوله وان له عندنا لزلفى واما قوله فى جنات النعيم فقد ذكرنا انه لتمييز مقربى المؤمنين من مقربى الملائكة فانهم مقربون فى الجنة وهم مقربون فى اماكنهم لقضاء الاشغال التى للناس وغيرهم بقدرة الله وقد بان من هذا ان المراد من اصحاب اليمين هم الناجون الذين اذنبوا واسرفوا وعفا الله عنهم بسبب ادنى حسنة لا الذين غلبت حسناتهم وكثرت وسنذكر الدليل عليه فى قوله تعالى فسلام لك من

(اصحاب)

(فجعلناهن ابكارا) وقوله تعالى (عربا) جمع عروب وهى المتحببة الى زوجها الحسنة التبعل وقرئ عربا بسكون الراء (اترابا) مستويات فى السن بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذا ازواجهن واللام فى قوله تعالى (لاصحاب اليمين) متعلقة بانشأنا اوجعلنا اوباترابا كقولك هذا ترب لهذا اى مساوله فى السن وقيل بمحذوف هو صفة لابكارا اى كائنات لاصحاب اليمين اوخبر مبتدأ محذوف اى هن لاصحاب اليمين وقيل خبر لقوله تعالى (ثلة من الاولين وثلة من الآخرين) وهو بعيد بل هو خبر مبتدأ محذوف ختمت به قصة اصحاب اليمين اى هم امة من الاولين وامة من الآخرين وقد مر الكلام فيهما وعن ابى العالية ومجاهد وعطاء والضحاك ثلة من الاولين اى من سابقى هذه الامة وثلة من الآخرين من هذه الامة فى آخر الزمان وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم جميعا من امتى

اصحاب اليمين ❊ ثم قال تعالى (واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة في ذكر السموم والحميم وترك ذكر النار واهوالها نقول فيه اشارة بالادنى الى الاعلى فقال هواؤهم الذي يهب عليهم سموم وماؤهم الذي يستغيثون به حميم مع ان الهواء والماء ابرد الاشياء وهما اي السموم والحميم من اضر الاشياء بخلاف الهواء والماء في الدنيا فانهما من انفع الاشياء فاظنك بنارهم التي هي عندنا ايضا احر ولو قال هم في نار كنا نظن ان نارهم كنارنا لانا ما رأينا شيئا أحر من النار التي رأيناها ولا أحر من السموم ولا ابرد من الزلال فقال ابرد الاشياء لهم أحرها فكيف حالهم مع أحرها فان قيل ما السموم نقول المشهور هي ريح حارة تهب فتمرض او تقتل غالبا والاولى ان يقال هي هواء متعفن يتحرك من جانب الى جانب فاذا استنشق الانسان منه يفسد قلبه بسبب العفونة ويقتل الانسان واصله من السم كسم الحية والعقرب وغيرهما ويحتمل ان يكون هذا السم من السم وهو خرم الابرة كما قال تعالى حتى يلج الجمل في سم الخياط لان سم الافعى ينفذ في المسام فيفسدها وقيل ان السموم مختصة بما يهب ليلا وعلى هذا فقوله سموم اشارة الى ظلمة ما هم فيه غير انه بعيد جدا لان السموم قد تري بالنهار بسبب كثافتها (المسئله الثالثة) الحميم هو الماء الحار وهو فعيل بمعنى فاعل من حم الماء بكسر الميم او بمعنى مفعول من حم الماء اذا سخنه وقد ذكرناه مرارا غير ان ههنا لطيفة لغوية وهي ان فعولا لما تكرر منه الشئ والريح لما كانت كثيرة الهبوب تهب شيئا بعد شئ خص السموم بالفعول والماء الحار لما كان لا يفهم منه الورود شيئا بعد شئ لم يقل فيه حموم فان قيل ما اليحموم نقول فيه وجوه (اولها) انه اسم من اسماء جهنم (ثانيها) انه الدخان (ثالثها) انه الظلمة واصله من الحمم وهو الفحم فكأنه لسواده فحم فسموه باسم مشتق منه وزيادة الحرف لزيادة ذلك المعنى فيه وربما تكون الزيادة فيه جاءت لمعنيين الزيادة في سواده والزيادة في حرارته وفي الامور الثلاثة اشارة الى كونهم في العذاب دائما لانهم ان تعرضوا لمهب الهواء اصابهم الهواء الذي هو السموم وان استكنوا كما يفعله الذي يدفع عن نفسه السموم بالاستكنان في الكن يكونوا في ظل من يحموم وان أرادوا الرد عن انفسهم السموم بالاستكنان في مكان من حميم فلا انفكاك لهم من عذاب الحميم ويحتمل ان يقال فيه ترتيب وهو ان السموم يضربه فيعطش وتلتهب نار السموم في احشائه فيشرب الماء فيقطع امعاءه ويريد الاستظلال بظل فيكون ذلك الظل ظل اليحموم فان قيل كيف وجه استعمال من في قوله تعالى من يحموم فنقول ان قلنا انه اسم جهنم فهو لابتداء الغاية كما تقول جاءني نسيم من الجنة وان قلنا انه دخان فهو كما في قولنا خاتم من فضة وان قلنا انه الظلمة فكذلك فان قيل كيف يصح تفسيره بجهنم مع انه اسم منصرف منكر فكيف وضع لمكان معرف ولو كان اسمها لما قلنا استعماله بالالف واللام كالجحيم او كان غير منصرف كأسماء جهنم يكون مثله على ثلاثة

(واصحاب الشمال) شروع في تفصيل احوالهم التي اشير عند التنويع الى هولها وفظاعتها بعد تفصيل حسن حال اصحاب اليمين والكلام في قوله تعالى (ما اصحاب الشمال) عين ما فصل في نظيره وكذا في قوله تعالى (في سموم وحميم) والسموم حر نار ينفذ في المسام والحميم الماء المتناهي في الحرارة (وظل من يحموم) من دخان اسود

مواضع كلها يحموم * ثم قال تعالى (لا بارد ولا كريم) قال الزمخشري كرم الظل نفعه الملهوف ودفعه أذى الحر عنه ولو كان كذلك لكان البارد والكريم بمعنى واحد والاقرب ان يقال فائدة الظل امران احدهما دفع الحر والآخر كون الانسان فيه مكرما وذلك لان الانسان فى البرد يقصد عين الشمس ليتدفأ بحرها اذا كان قليل الثياب فاذا كان من المكرمين يكون ابدا فى مكان يدفع الحر والبرد عن نفسه فى الظل اما الحر فظاهر واما البرد فيدفعه بادفاء الموضع بايقاد ما يدفئه فيكون الظل فى الحر مطلوبا للبرد فيطلب كونه باردا وفى البرد يطلب لكونه ذا كرامة لا لبرد يكون فى الظل فقال لا بارد يطلب لبرده ولا ذى كرامة قداعد للجلوس فيه وذلك لان المواضع التى يقع عليها ظل كالمواضع التى تحت الاشجار وامام الجدار يتخذ منها مقاعد فتصير تلك المقاعد محفوظة عن القاذورات وباقى المواضع تصير مزابل ثم اذا وقعت الشمس فى بعض الاوقات عليها تطلب لنظافتها وكونها معدة للجلوس فتكون مطلوبة فى مثل هذا الوقت لاجل كرامتها لا لبردها فقوله تعالى لا بارد ولا كريم يحتمل هذا ويحتمل ان يقال ان الظل يطلب لأمر يرجع الى الحس او لأمر يرجع الى العقل فالذى يرجع الى الحس هو برده والذى يرجع الى العقل ان يكون الرجوع اليه كرامة وهذا لا برد له ولا كرامة فيه وهذا هو المراد بما نقله الواحدى عن الفراء ان العرب تتبع كل منفى بكريم اذا كان المنفى اكرم فيقال هذه الدار ليست بواسعة ولا كريمة والتحقيق فيه ما ذكرنا ان وصف الكمال اما حسى واما عقلى والحسى يصرح بلفظه واما العقلى فلخفائه عن الحس يشار اليه بلفظ جامع لان الكرامة والكرم عند العرب من اشهر اوصاف المدح ونفيهما نفى وصف الكمال العقلى فيصير قوله تعالى لا بارد ولا كريم معناه لا مدح فيه اصلا لا حسا ولا عقلا * ثم قال تعالى (انهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الاولون) وفى الآيات لطائف نذكرها فى مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة فى بيان سبب كونهم فى العذاب مع انه تعالى لم يذكر سبب كون اصحاب اليمين فى النعيم ولم يقل انهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين فنقول قد ذكرنا مرارا ان الله تعالى عند ايصال الثواب لا يذكر اعمال العباد الصالحة وعند ايصال العقاب يذكر اعمال المسيئين لان الثواب فضل والعقاب عدل والفضل سواء ذكر سببه اولم يذكر لا يتوهم فى المتفضل به نقص وظلم واما العدل فان لم يعلم سبب العقاب يظن ان هناك ظلما فقال هم فيها بسبب ترفهم والذى يؤيد هذه اللطيفة ان الله تعالى قال فى حق السابقين جزاء بما كانوا يعملون ولم يقل فى حق اصحاب اليمين ذلك لانا اشرنا ان اصحاب اليمين هم الناجون بالفضل العظيم وسنبين ذلك فى قوله تعالى فسلام لك واذا كان كذلك فالفضل فى حقهم متمحض فقال هذه النعم لكم ولم يقل جزاء لان قوله جزاء فى مثل هذا الموضع وهو موضع العفو عنهم لا يثبت لهم سرورا بخلاف من كثرت

بهم (لا بارد) كسائر الظلال (ولا كريم) افيه خير ما فى الجملة سمى ذلك ظلا ثم نفى عنه وصفاه البرد والكرم الذى عبر به عن دفع اذى الحر لتحقيق انه ليس بظل وقرئ لا بارد ولا كريم بالرفع اى لا هو بارد ولا كريم وقوله تعالى (انهم كانوا قبل ذلك مترفين) تعليل لابتلائهم بما ذكر من العذاب اى اى انهم كانوا قبل ما ذكر من سوء العذاب فى الدنيا منعمين بانواع النعم من المآكل والمشارب والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة منهمكين فى الشهوات فلاجرم عذبوا بنقائضها

حسناته فيقال له نعم مافعلت خذهذا الك جزاء (المسئلة الثانية) جعل السبب كونهم مترفين وليس كل من هو من اصحاب الشمال يكون مترفا فان فيهم من يكون فقيرا نقول قوله تعالى انهم كانوا قبل ذلك مترفين ليس بذم فان المترف هو الذى جعل ذا ترف اى نعمة فظاهر ذلك لايوجب ذما لكن ذلك يبين قبح ماذكر عنهم بعده وهو قوله تعالى وكانوا يصرون لان صدور الكفران ممن عليه غاية الانعام اقبح القبائح فقال انهم كانوا مترفين ولم يشكروا نعم الله بل اصروا على الذنب وعلى هذا فنقول النعم التى تقتضى شكر الله وعبادته فى كل احد كثيرة فان الخلق والرزق ومايحتاج اليه وتتوقف مصالحه عليه حاصل للكل غاية مافى الباب ان حال الناس فى الاتراف متقارب فيقال فى حق البعض بالنسبة الى بعض انه فى ضر ولو حمل نفسه على القناعة لكان اغنى الاغنياء وكيف لا والانسان اذا نظر الى حاله يجدها مفتقرة الى مسكن يأوى اليه ولباس فى الحر والبرد وما يسد جوعه من المأكول والمشروب وغير هذا من الفضلات التى يحمل عليها شح النفس ثم ان احدا لايغلب عن تحصيل مسكن باشتراء او اكتراء فان لم يكن فليس هو اعجز من الحشرات لاتفقد مدخلا او مغارة واما اللباس فلو اقتنع بمايدفع الضرورة كان يكفيه فى عمره لباس واحد كلما تمزق منه موضع يرقعه من اى شئ كان بقى امر المأكول والمشروب فاذا نظر الناظر يجد كل احد فى جميع الاحوال غير مغلوب عن كسرة خبز وشربة ماء غير ان طلب الغنى يورث الفقر فيريد الانسان بيتا مزخرفا ولباسا فاخرا ومأكولا طيبا وغير ذلك من انواع الدواب والثياب فيفتقر الى أن يحمل المشاق وطلب الغنى يورث فقره وارتياد الارتفاع يحط قدره وبالجملة شهوة بطنه وفرجه تكسر ظهره على اننا نقول فى قوله تعالى كانوا قبل ذلك مترفين لاشك ان اهل القبور لما فقدوا الايدى الباطشة والاعين الباصرة وبان لهم الحقائق علموا انهم كانوا قبل ذلك مترفين بالنسبة الى تلك الحالة (المسئلة الثالثة) ما الاصرار على الحنث العظيم نقول الشرك كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم وفيه لطيفة وهى انه تعالى اشار فى الآيات الثلاثة الى الاصول الثلاثة فقوله انهم كانوا قبل ذلك مترفين من حيث الاستعمال يدل على ذمهم بانكار الرسل اذ المترف متكبر بسبب الغنى فينكر الرسالة والمترفون كانوا يقولون أبشرا مناواحدا نتبعه وقوله يصرون على الحنث العظيم اشارة الى الشرك ومخالفة التوحيد وقوله تعالى وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا اشارة الى انكار الحشر والنشر وقوله تعالى وكانوا يصرون على الحنث العظيم فيه مبالغات من وجوه (احدها) قوله تعالى كانوا يصرون وهو آكد من قول القائل انهم قبل ذلك اصروا لان اجتماع لفظى الماضى والمستقبل يدل على الاستمرار لان قولنا فلان كان يحسن الى الناس يفيد كون ذلك عادة له (ثانيها) لفظ الاصرار فان الاصرار مداومة المعصية والغلول ولا يقال فى الخير اصر (ثالثها) الحنث فانه فوق الذنب فان الحنث لايكاد فى اللغة يقع على الصغيرة والذنب يقع عليها واما الحنث فى اليمين فاستعملوه لان

(وكانوا يصرون على الحنث العظيم) اى الذنب العظيم الذى هو الشرك ومنه قولهم بلغ الغلام الحنث اى الحلم ووقت المؤاخذة بالذنب (وكانوا يقولون) لغاية عتوهم وعنادهم (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما) اى كان بعض اجزائنا من اللحم والجلد ترابا وبعضها عظاما نخرة وتقديم التراب لعراقته فى الاستبعاد وانقلابه من الاجزاء البادية واذا متمحضة للظرفية والعامل فيها مادل عليه قوله تعالى (أئنا لمبعوثون) لانفسه لان مابعد ان واللام والهمزة لايعمل فيما قبلها وهو نبعث وهو المرجع للانكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيص انكاره به فانهم منكرون للاحياء بعد الموت وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له بالكلية وتكرير الهمزة لتأكيد النكير وتحلية الجملة بان لتأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فان تقديم الهمزة

نفس الكذب عند العقلاء قبيح فان مصلحة العالم منوطة بالصدق والا لم يحصل لاحد بقول احد ثقة فلا يبنى على كلامه مصالح ولا يجتنب عن مفاسد ثم ان الكذب لما وجد فى كثير من الناس لاغراض فاسدة ارادوا توكيد الامر بضم شئ اليه يدفع توهمه فضموا اليه الايمان ولا شئ فوقها فاذا حنث لم يبق امر يفيد الثقة فيلزم منه فساد فوق فساد الزنا والشرب غير ان اليمين اذا كانت على امر مستقبل ورأى الحالف غيره جوز الشرع الحنث ولم يجوزه فى الكبيرة كالزنا والقتل لكثرة وقوع الايمان وقلة وقوع القتل والذى يدل على ان الحنث هو الكبيرة قولهم للبالغ بلغ الحنث اى بلغ مبلغا بحيث يركب الكبيرة وقبله ما كان ينفى عنه الصغيرة لان الولى مأمور بالمعاقبة على اساءة الادب وترك الصلاة (المسئلة الرابعة) قوله تعالى العظيم هذا يفيد ان المراد الشرك فان هذه الامور لا تجتمع فى غيره (المسئلة الخامسة) كيف اشتهر متنا بكسر الميم مع ان استعمال القرآن فى المستقبل يموت قال تعالى عن يحيى وعيسى عليهما السلام ويوم اموت ولم يقرأ امات على وزن اخاف وقال تعالى قل موتوا ولم يقل قل ماتوا وقال تعالى ولا تموتن ولم يقل ولا تماتوا كما قال ولا تخافوا قلنا فيه وجهان (احدهما) ان هذه الكلمة خالفت غيرها فقيل فيها أموت والسماع مقدم على القياس (والثانى) مات يمات لغة فى مات يموت فاستعمل مافيها الكسر لان الكسر فى الماضى يوجد اكثر لامرين (احدهما) كثرة يفعل على يفعل (وثانيهما) كونه على فعل يفعل مثل خاف يخاف وفى مستقبلها الضم لانه يوجد لسببين (احدهما) كون الفعل على فعل يفعل مثل طال يطول فان وصفه بالطويل دون الطائل يدل على انه من باب قصر يقصر (وثانيهما) كونه على فعل يفعل تقول فعلت فى الماضى بالكسر وفى المستقبل بالضم (المسئلة السادسة) كيف أتى باللام المؤكدة فى قوله لمبعوثون مع أن المراد هو النفى وفى النفى لا يذكر فى خبر ان اللام يقال ان زيدا ليجئ وان زيدا لا يجئ فلا تذكر اللام ومامرادهم بالاستفهام الا الانكار بمعنى أنا لا نبعث نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) عند ارادة التصريح بالنفى يوجد التصريح بالنفى وصيغته (ثانيهما) انهم أرادوا تكذيب من يخبر عن البعث فذكروا أن المخبر عنه يبالغ فى الاخبار ونحن نستكثر مبالغته وتأكيده فحكوا كلامهم على طريقة الاستفهام بمعنى الانكار ثم انهم اشاروا فى الانكار الى أمور اعتقدوها مقررة لصحة انكارهم فقالوا اولا أئذا متنا ولم يقتصروا عليه بل قالوا بعده وكنا ترابا وعظاما اى فطال عهدنا بعد كوننا أمواتا حتى صارت اللحوم ترابا والعظام رفاتا ثم زادوا وقالوا مع هذا يقال لنا انكم لمبعوثون بطريق التأكيد من ثلاثة اوجه (احدها) استعمال كلمة ان (ثانيها) اثبات اللام فى خبرها (ثالثها) ترك صيغة الاستقبال والاتيان بالمفعول كأنه كائن فقالوا أئنا انكم لمبعوثون ثم زادوا وقالوا اوآباؤنا الاولون يعنى هذا أبعد فانا اذا كنا ترابا بعد موتنا والآباء حالهم فوق حال العظام الرفات فكيف يمكن البعث وقد بينا فى سورة والصافات هذا كله وقلنا ان

لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله افلا تعقلون على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين فى المبعوثية بالفعل فى حال كونهم ترابا وعظاما بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له ومرجعه الى انكار البعث بعد تلك الحالة وفيه من الدلالة على غلوهم فى الكفر وتماديهم فى الضلال مالا مزيد عليه وتكرير الهمزة فى قوله تعالى (اوآباؤنا الاولون) لتأكيد النكير والواو للعطف على المستكن فى لمبعوثون وحسن ذلك الفصل بالهمزة يعنون ان بعث آبائهم الاولين ابعد من الوقوع وقرئ اوآباؤنا

(قوله)

قوله او آباؤنا الاولون معناه او يقول آباؤنا الاولون اشارة الى انهم فى الاشكال اعظم ثم ان الله تعالى اجابهم ورد عليهم فى الجواب فى كل مبالغة بمبالغة اخرى فقال (قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم) فقوله قل اشارة الى ان الامر فى غاية الظهور وذلك ان فى الرسالة اسرارا لاتنال الا للابرار ومن جملتها تعيين وقت القيامة لان العوام لو علموا لاتكلوا والانبياء ربما اطلعوا على علاماتها اكثر مما بينوا وربما بينوا للاكابر من الصحابة علامات على ما نبين ففيه وجوه (اولها) قوله قل يعنى ان هذا من جملة الامور التى بلغت فى الظهور الى حد يشترك فيه العوام والخواص فقال قل قولا عاما وهكذا فى كل موضع قال قل كان الامر ظاهرا قال الله تعالى قل هو الله احد وقال قل انما انا بشر مثلكم وقال قل الروح من امر ربى اى هذا هو الظاهر من امر الروح وغيره خفى (ثانيها) قوله تعالى ان الاولين والآخرين بتقديم الاولين على الآخرين فى جواب قولهم او آباؤنا الاولون فانهم اخروا ذكر الآباء لكون الاستبعاد فيهم اكثر فقال ان الاولين الذين تستبعدون بعثهم وتؤخرونهم يبعثهم الله فى امر مقدم على الآخرين يتبين منه اثبات حال من اخرتموه مستبعدين اشارة الى كون الامر هينا (ثالثها) قوله تعالى لمجموعون فانهم انكروا قوله لمبعوثون فقال هو واقع مع امر زائد هو وانهم يحشرون ويجمعون فى عرصة الحساب وهذا فوق البعث فان من بقى تحت التراب مدة طويلة ثم حشر ربما لايكون له قدرة على الحركة وكيف ولو كان حيا محبوسا فى قبره مدة لتعذرت عليه الحركة ثم انه تعالى بقدرته يحركه بأسرع حركة ويجمعه بأقوى سير وقوله تعالى لمجموعون فوق قول القائل مجموعون كما قلنا ان قول القائل انه يموت فى افادة التوكيد دون قوله انه ميت (رابعها) قوله تعالى الى ميقات يوم معلوم فانه يدل على ان الله تعالى يجمعهم فى يوم واحد معلوم واجتماع عدد من الاموات لايعلم عددهم الا الله تعالى فى وقت واحد أعجب من نفس البعث وهذا كقوله تعالى فى سورة والصافات فانما هى زجرة واحدة اى انتم تستبعدون نفس البعث والاعجب من هذا انه يبعثهم بزجرة واحدة اى صيحة واحدة فاذا هم ينظرون اى يبعثون مع زيادة امر وهو فتح اعينهم ونظرهم بخلاف من نعس فانه اذا انتبه يبقى ساعة ثم ينظر فى الاشياء فامر الاحياء عند الله تعالى أهون من تنبيه نائم (خامسها) حرف الى ادل على البعث من اللام ولنذكر هذا فى جواب سؤال هو ان الله تعالى قال يوم يجمعكم ليوم الجمع وقال هنا لمجموعون الى ميقات يوم معلوم ولم يقل لميقاتنا وقال ولما جاء موسى لميقاتنا نقول لما كان ذكر الجمع جوابا للمنكرين المستبعدين ذكر كلمة الى الدالة على التحرك والانتقال لتكون ادل على فعل غير البعث ولا يجمع هناك قال يوم يجمعكم ليوم ولا يفهم النشور من نفس الحرف وان كان يفهم من الكلام ولهذا قال ههنا لمجموعون بلفظ التأكيد وقال هناك يجمعكم وقال ههنا الى ميقات وهو مصير الوقت اليه واما قوله تعالى فلما جاء موسى لميقاتنا فنقول الموضع هناك لم يكن مطلوب

(قل) رد الانكارهم وتحقيقا للحق (ان الاولين والآخرين) من الامم الذين من جملتهم انتم وآباؤكم وفى تقديم الاولين مبالغة فى الرد حيث كان انكارهم لبعث آبائهم اشد من انكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودى (لمجموعون) بعد البعث وقرئ لمجمعون (الى ميقات يوم معلوم) الى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم والاضافة بمعنى من كخاتم فضة

موسى عليه السلام وانما كان مطلوبه الحضور لان من وقت له وقت وعين له موضع كانت حركته فى الحقيقة لامر بالتبع الى امر واما هنالك فالامر الاعظم الوقوف فى موضعه لازمانه فقال بكلمة دلالتها على الوضع والمكان اظهر ❊ ثم قال تعالى (ثم انكم ايها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالؤن منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم) فى تفسير الآيات مسائل (المسئلة الاولى) الخطاب مع من نقول قال بعض المفسرين مع اهل مكة والظاهر انه عام مع كل ضال مكذب وقد تقدم مثل هذا فى مواضع وهو تمام كلام النبى صلى الله عليه وسلم كأنه تعالى قال لنبيه قل ان الاولين والآخرين لمجموعون ثم انكم تعذبون بهذه الانواع من العذاب (المسئلة الثانية) قال ههنا الضالون المكذبون بتقديم الضال وقال فى آخر السورة واما ان كان من المكذبين الضالين بتقديم المكذبين فهل بينهما فرق قلت نعم وذلك ان المراد من الضالين ههنا هم الذين صدر منهم الاصرار على الحنث العظيم فضلوا فى سبيل الله ولم يصلوا اليه ولم يوحدوه وذلك ضلال عظيم ثم كذبوا رسله وقالوا أئذا متنا فكذبوا بالحشر فقال ايها الضالون الذين اشركتم المكذبون الذين انكرتم الحشر لتأكلون ماتكرهون واما هنالك فقال لهم ايها المكذبون الذين كذبتم بالحشر الضالون فى طريق الخلاص الذين لايهتدون الى النعيم (وفيه وجه آخر) وهو ان الخطاب هنا مع الكفار فقال يأأيها الذين ضللتم اولا وكذبتم ثانيا والخطاب فى آخر السورة مع محمد صلى الله عليه وسلم يبين له حال الازواج الثلاثة فقال المقربون فى روح وريحان وجنة نعيم واصحاب اليمين فى سلام واما المكذبون الذين كذبوا فقد ضلوا فقدم تكذيبهم اشارة الى كرامة محمد صلى الله عليه وسلم حيث بين ان اقوى سبب فى عقابهم تكذيبهم والذى يدل على ان الكلام هنالك مع محمد صلى الله عليه وسلم قوله فسلام لك من اصحاب اليمين (المسئلة الثالثة) ما الزقوم نقول قد بيناه فى موضع آخر واختلف فيه اقوال الناس ومآل الاقوال الى كون ذلك فى الطعم مرا وفى اللمس حارا وفى الرائحة منتنا وفى المنظر اسود لايكاد آكله يسيغه فيكره على ابتلاعه والتحقيق اللغوى فيه ان الزقوم لغية عربية دلنا تركيبه على قبحه وذلك لان (زق م) لم يجتمع الا فى مهمل أو فى مكروه منه مزق ومنه زمق شعره اذا نتفه ومنه القزم للدناءة واقوى من هذا ان القاف مع كل حرف من الحرفين الباقيين يدل على المكروه فى اكثر الامر فالقاف مع الميم قامة وبقمة وبالعكس مقامق الغليظ الصوت والقمقمة هو السور واما القاف مع الزاى فالزق رمى الطائر بذرقه والزقزقة الخفة وبالعكس القزتوب فينفر الطبع من تركيب الكلمة من حروف اجتماعها دليل الكراهة والقبح ثم قرن بالاكل فدل على انه طعام ذوغصة واما مايقال بان العرب تقول زقمنى بمعنى اطعمنى الزبد والعسل واللبن فذلك للمجانة كقولهم ارشقنى بثوب حسن وارجمنى بكيس من ذهب وقوله من شجر لابتداء الغاية اى تناولكم منه وقوله فمالؤن منها زيادة فى بيان العذاب اى

(ثم انكم ايها الضالون) عطف على ان الاولين داخل تحت القول وثم للتراخى زمانا اورتبة (المكذبون) اى بالبعث والخطاب لاهل مكة واضرابهم (لآكلون) بعد البعث والجمع ودخول جهنم (من شجر من زقوم) من الاولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر وتفسيره اى مبتدئون الاكل من شجر هو زقوم وقيل من الثانية متعلقة بمضمر هو وصف لشجر اى كائن من زقوم (فمالؤن منها البطون) اى بطونكم من شدة الجوع (فشاربون عليه) عقيب ذلك بلاريث (من الحميم) اى الماء الحار فى الغاية وتأنيث ضمير الشجر اولا وتذكيره ثانيا باعتبار المعنى واللفظ وقرئ من شجرة فضمير عليه حينئذ للزقوم وقيل للاكل وقوله تعالى (فشاربون شرب الهيم) كالتفسير لماقبله على طريقة قوله تعالى فكذبوا عبدنا اى لايكون شربكم شربا معتادا بل يكون مثل شرب الهيم وهى الابل التى بها الهيام وهو داء يصيبها فتشرب ولاتروى جمع اهيم وهيماء وقيل الهيم الرمال على انه جمع الهيام بفتح الهاء وهو الرمل الذى لايتماسك جمع على فعل كسحاب وسحب ثم خفف وفعل به مافعل بجمع ابيض والمعنى انه يسلط عليهم من الجوع والتهاب النار

لايكتفى منكم بنفس الاكل كما يكتفى من يأكل الشئ لتحلة القسم بل يلزمون بان يملؤا منها البطون والهاء عائد الى الشجر والبطون يحتمل ان يكون المراد منه مقابلة الجمع بالجمع اى يملأ كل واحد منكم بطنه ويحتمل ان يكون المراد ان كل واحد منكم يملأ البطون والبطون حينئذ تكون بطون الامعاء لتخيل وصف المعى فى باطن الانسان له كيأكل فى سبعة امعاء فيملؤن بطون الامعاء وغيرها والاول اظهر والثانى ادخل فى التعذيب والوعيد قوله فشاربون عليه اى عقيب الاكل تجر مرارته وحرارته الى شرب الماء فيشربون على ذلك المأكول وعلى ذلك الزقوم من الماء الحار وقد تقدم بيان الحميم وقوله فشاربون شرب الهيم بيان ايضا لزيادة العذاب اى لايكون امركم امر من شرب ماء حارا منتنا فيمسك عنه بل يلزمكم ان تشربوا منه مثل ماتشرب الهيم وهو الجمال التى اصابها العطش فتشرب ولا تروى وهذا البيان فى الشرب لزيادة العذاب وقوله فالئون منها فى الاكل فان قيل الاهيم اذا شرب الماء الكثير يضره ولكن فى الحال يلتذ به فهل لاهل الجحيم من شرب الحميم الحار فى النار لذة قلنا لا وانما ذلك لبيان زيادة العذاب ووجهه ان يقال يلزمون بشرب الحميم ولا يكتفى منهم بذلك الشرب بل يلزمون ان يشربوا كما يشرب الجمل الاهيم الذى به الهيام او هم اذا شربوا تزداد حرارة الزقوم فى جوفهم فيظنون انه من الزقوم لا من الحميم فيشربون منه شيئا كثيرا بناء على وهم الرى والقول فى الهيم كالقول فى البيض اصله هوم وهذا من هام يهيم كانه من العطش يهيم والهيام ذلك الداء الذى يجعله كالبهائم من العطش ❊ ثم قال تعالى (هذا نزلهم يوم الدين) يعنى ليس هذا كل العذاب بل هذا اول مايلقونه وهو بعض منه واقطع لامعائهم ❊ ثم قال تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ماتمنون أ أنتم تخلقونه ام نحن الخالقون) دليلا على كذبهم وصدق الرسل فى الحشر لان قوله أ أنتم تخلقونه الزام على الاقرار بان الخالق فى الابتداء هو الله تعالى ولما كان قادرا على الخلق اولا كان قادرا على الخلق ثانيا ولا مجال للنظر فى ذاته وصفاته تعالى وتقدس وان لم يعترفوا به بل يشكون ويقولون الخلق الاول من منى بحسب الطبيعة فنقول المنى من الامور الممكنة ولا وجود للممكن بذاته بل بالغير على ماعرف فيكون المنى من القادر القاهر وكذلك خلق الطبيعة وغيرها من الحادثات أيضا فقال لهم هل تشكون فى ان الله خلقكم اولا ام لا فان قالوا لانشك فى انه خالقنا فيقال فهل تصدقون أيضا بخلقكم ثانيا فان من خلقكم اولا من لا شئ لايعجز ان يخلقكم ثانيا من اجزاء هى عنده معلومة وان كنتم تشكون وتقولون الخلق لايكون الا من منى وبعد الموت لا والدة ولا منى فيقال لهم هذا المنى انتم تخلقونه ام الله فان كنتم تعترفون بالله وبقدرته وارادته وعلمه فذلك يلزمكم القول بجواز الحشر وصحته ولولا كلمة مركبة من كلمتين معناها التحضيض والحث والاصل فيه لم لا فاذا قلت لم لا كلت ولم ما كلت بجاز الاستفهام فان معناه لا علة لعدم الاكل ولا يمكنك ان تذكر علة له كما تقول لم فعلت موبخا يكون معناه فعلت امرا

فى احشائهم مايضطرهم الى أكل الزقوم الذى هو كالمهل فاذا ملؤا منه بطونهم وهو فى غاية الحرارة والمرارة سلط عليهم من العش مايضطرهم الى شرب الحميم الذى يقطع امعاءهم فيشربونه شرب الهيم وقرئ شرب الهيم بالفتح وهو ايضا مصدر وقرئ بالكسر على انه اسم المشروب (هذا) الذى ذكر من انواع العذاب (نزلهم يوم الدين) اى يوم الجزاء فاذا كان ذلك نزلهم وهو مايعد للنازل مما حضر فاظنك بما لهم بعد ما استقر لهم القرار واطمأنت بهم الدار فى النار وفيه من التهكم بهم مالايخفى وقرئ نزلهم بسكون الزاى تخفيفا والجملة مسوقة من جهته تعالى بطريق الفذلكة مقررة لمضمون الكلام الملقن غير داخلة تحت القول وقوله تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) تلوين للخطاب وتوجيه له الى الكفرة بطريق الالزام والتبكيت والفاء لترتيب التحضيض على ماقبلها اى فهلا تصدقون بالخلق فان مالا يحققه العمل ولا يساعده بل ينبئ عن خلافه ليس من التصديق فى شئ وقيل بالبعث استدلالا عليه بالانشاء فان من قدر عليه قدر على الاعادة حتما والاول هو الوجه كما ستحيط به خبرا

لاسبب له ولا يمكنك ذكر سبب له ثم انهم تركوا حرف الاستفهام عن العلة وأتوا بحرف الاستفهام عن الحكم فقالوا هلا فعلت كما يقولون فى موضع لم فعلت هذا وانت تعلم فساده اتفعل هذا وانت عاقل وفيه زيادة حث لان قول القائل لم فعلت حقيقته سؤال عن العلة ومعناه ان علته غير معلومة وغير ظاهرة فلا يجوز ظهور وجوده وقوله افعلت سؤال عن حقيقته ومعناه انه فى جنسه غير ممكن والسائل عن العلة كأنه سلم الوجود وجعله معلوما وسأل عن العلة كما يقول القائل زيد جاء فلم جاء والسائل عن الوجود لم يسلمه وقول القائل لم فعلت وانت تعلم ما فيه دون قوله افعلت وانت تعلم ما فيه لان فى الاول جعله كالمصيب فى فعله لعلة خفية تطلب منه وفى الثانى جعله مخطئا فى اول الامر واذا علم ما بين لم فعلت وافعلت علم ما بين لم تفعل وهلا تفعل واما لولا فنقول هى كلمة شرط فى الاصل والجملة الشرطية غير مجزومة بها كما ان جملة الاستفهام غير مجزوم به لكن لولا تدل على الاعتساف وتزيد فى النظر والتوانى فيقول لولا تصدقون بدل قوله لم لا وهلا لانه ادل على نفى ما دخلت عليه وهو عدم التصديق وفيه لطيفة وهى ان لولا تدخل على فعل ماض وعلى مستقبل قال تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة فاوجه اختصاص المستقبل ههنا بالذكر وهلا قال فلولا صدقتم نقول هذا كلام معهم فى الدنيا والاسلام فيها مقبول ويجب ما قبله فقال لم لا تصدقون فى ساعتكم والدلائل واضحة مستمرة والفائدة حاصلة فاما فى قوله فلولا نفر لم تكن الفائدة تحصل الا بعد مدة فقال لو سافرتم لحصل لكم الفائدة فى الحال وقد فات ذلك فان كنتم لا تسافرون فى الحال تفوتكم الفائدة ايضا فى الاستقبال ❊ ثم قال تعالى (افرأيتم ماتمنون) من تقرير قوله تعالى نحن خلقناكم وذلك لانه تعالى لما قال نحن خلقناكم قال الطبيعيون نحن موجودون من نطف الخلق بجواهر كامنة وقيل كل واحد نطفة واحد فقال تعالى ردا عليهم هل رأيتم هذا المنى وانه جسم ضعيف متشابه الصورة لا بد له من مكون فأنتم خلقتم النطفة ام غيركم خلقها ولا بد من الاعتراف بخالق غير مخلوق قطعا للتسلسل الباطل والى ربنا المنتهى ولا يرتاب فيه احد من اول ما خلق الله النطفة وصورها واحياها ونورها فلم لا تصدقون انه واحد احد صمد قادر على الاشياء فانه يعيدكم كما انشأكم فى الابتداء والاستفهام يفيد زيادة تقرير وقد علمت ذلك مرارا ❊ قوله تعالى (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على ان نبدل امثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الترتيب فيه وجهان (احدهما) انه تقرير لما سبق وهو كقوله تعالى الذى خلق الموت والحياة فقال نحن خلقناكم ثم قال نحن قدرنا بينكم الموت فمن قدر على الاحياء والاماتة وهما ضدان ثبت كونه مختارا فيمكن الاحياء ثانيا منه بعد الاماتة بخلاف ما لو كان الاحياء منه ولم يكن له قدرة على الاماتة فيظن به انه موجب لا مختار والموجب لا يقدر على كل شئ ممكن فقال نحن خلقناكم وقدرنا الموت بينكم فانظروا فيه واعلموا انا قادرون ان ننشئكم (ثانيهما)

(افرأيتم ماتمنون) اى تقذفون فى الارحام من النطف وقرئ بفتح التاء من منى النطفة بمعنى امناها (أأنتم تخلقونه) اى تقدرونه وتصورونه بشرا سويا (أم نحن الخالقون) له من غير دخل شئ فيه وأم قيل منقطعة لان ما بعدها جملة فالمعنى بل انحن الخالقون على ان الاستفهام للتقرير وقيل متصلة ومجئ الخالقون بطريق الجبرية اصالة (نحن قدرنا بينكم الموت) اى قسمناه عليكم ووقتنا موت كل احد بوقت معين حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة

انه جواب عن قول مبطل يقول ان لم تكن الحياة والموت بأمور طبيعية فى الاجسام من حرارات ورطوبات اذا توفرت بقيت حية واذا نقصت وفنيت ماتت لم يقع الموت وكيف يليق بالحكيم ان يخلق شيأ ويتقن خلقه ويحسن صورته ثم يفسده ويعدمه ثم يعيده وينشئه فقال تعالى نحن قدرنا الموت ولا يرد قولكم لماذا اعدم ولماذا انشأ ولماذا هدم لان كمال القدرة يقتضى ذلك وانما يقبح من الصائغ والبانى صياغة شئ وبناؤه وكسره وافناؤه لانه يحتاج الى صرف زمان اليه وتحمل مشقة وما مثله الامثل انسان ينظر الى شئ فيقطع نظره عنه طرفة عين ثم يعاوده لا يقال له لم قطعت النظر ولم نظرت اليه ولله المثل الاعلى من هذا لان هنا لابد من حركة وزمان ولو توارد على الانسان امثاله لتعب لكن فى المرة الواحدة لا يثبت التعب والله تعالى منزه عن التعب ولا افتقار لفعله الى زمان ولا زمان لفعله ولا الى حركة بجرم وفيه وجه آخر الطف منها وهو ان قوله تعالى افرأيتم ما تمنون معناه افرأيتم ذلك ميتا لا حياة فيه وهو منى ولو تفكرتم فيه لعلمتم انه كان قبل ذلك حيا متصلا بحى وكان اجزاء مدركة متألمة متلذذة ثم اذا امنيتموه لا تستريبون فى كونه ميتا كالجمادات ثم ان الله تعالى يخلقه آدميا ويجعله بشرا سويا فالنطفة كانت قبل الانفصال حية ثم صارت ميتة ثم احياها الله تعالى مرة أخرى فاعلموا انا اذا خلقناكم اولا ثم قدرنا بينكم الموت ثانيا ثم ننشئكم مرة أخرى فلا تستبعدوا ذلك كما فى النطف (المسئلة الثانية) ما الفرق بين هذا الموضع وبين اول سورة تبارك حيث قال هناك خلق الموت والحياة بتقديم ذكر الموت نقول الكلام هنا على الترتيب الاصلى كما قال تعالى فى مواضع منها قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم قال بعد ذلك ثم انكم بعد ذلك لميتون واما فى سورة الملك فنذكر ان شاء الله تعالى فائدتها ومرجعها الى ما ذكرنا انه قال خلق الموت فى النطف بعد كونها حية عند الاتصال ثم خلق الحياة فيها بعد الموت وهو دليل الحشر وقيل المراد من الموت هنا الموت الذى بعد الحياة والمراد هناك الذى قبل الحياة (المسئلة الثالثة) قال ههنا نحن قدرنا وقال فى سورة الملك خلق الموت والحياة فذكر الموت والحياة بلفظ الخلق وههنا قال خلقناكم وقال قدرنا بينكم الموت فنقول كان المراد هناك بيان كون الموت والحياة مخلوقين مطلقا لا فى الناس على الخصوص وهنا لما قال خلقناكم خصصهم بالذكر فصار كأنه قال خلقنا حياتكم فلو قال نحن قدرنا موتكم كان ينبغى انه يوجد موتهم فى الحال ولم يكن كذلك ولهذا قال قدرنا بينكم واما هناك فالموت والحياة كانا مخلوقين فى محلين ولم يكن ذلك بالنسبة الى بعض مخصوص (المسئلة الرابعة) هل فى قوله تعالى بينكم بدلا عن غيره من الالفاظ فائدة نقول نعم فائدة جليلة وهى تبين بالنظر الى الالفاظ التى تقوم مقامها فنقول قدرنا لكم الموت وقدرنا فيكم الموت فقوله قدرنا فيكم يفيد معنى الخلق لان تقدير الشئ فى الشئ يستدعى كونه ظرفا له اما ظرف حصول فيه او ظرف حلول فيه كما يقال البياض فى الجسم

وقرئ قدرنا مخففا (وما نحن بمسبوقين) اى انا قادرون (على ان نبدل امثالكم) لا يغلبنا احد على ان نذهبكم ونأتى مكانكم اشباهكم من الخلق (وننشئكم فيما لا تعلمون) من الخلق والاطوار ولا تعهدون بمثلها قال الحسن رحمه الله اى نجعلكم قردة وخنازير وقيل المعنى وننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا فمن هذا شأنه كيف يعجز عن اعادتكم وقيل المعنى وما يسبقنا احد فيهرب من الموت او يغير وقته وعلى ان نبدل الخ اما حال من فاعل قدرنا او علة للتقدير وعلى بمعنى اللام

والكحل فى العين فلو قال قدرنا فيكم الموت لكان مخلوقا فيناو ليس كذلك وان قلنا قدرنا لكم الموت كان ذلك ينبيء عن تأخره عن الناس فان القائل اذا قال هذا معدلك كان معناه انه اليوم لغيرك وغدالك كما قال تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس (المسئلة الخامسة) قوله وما نحن بمسبوقين المشهوران المراد منه وما نحن بمغلوبين عاجزين عن خلق امثالكم واعادتكم بعد تفرق اوصالكم يقال فاته الشيء اذا غلبه ولم يقدر عليه ومثله سبقه وعلى هذا نعيد ماذكرناه من الترتيب ونقول اذا كان قوله نحن قدرنا بينكم لبيان انه خلق الحياة وقدر الموت وهما ضدان وخالق الضدين يكون قادرا مختارا فقال وما نحن بمسبوقين عاجزين عن الشيء بخلاف الموجب الذى لا يمكنه ايقاع كل واحد من الضدين فيسبقه ويفوته فان النار لا يمكنها التبريد لان طبيعتها موجبة للتسخين واما ان قلنا بأنه ذكره رداعليهم حيث قالوا ولم يكن الموت من فناء الرطوبات الاصلية وانطفاء الحرارة الغريزية وكان بخلق حكيم مختار ما كان يجوز وقوعه لان الحكيم كيف يبنى ويهدم ويوجد ويعدم فقال وما نحن بمسبوقين اى عاجزين بوجه من الوجوه التى يستبعدونها من البناء والصائغ فانه يفتقر فى الايجاد الى زمان ومكان وتمكين من المفعول وامكان ويلحقه تعب من تحريك واسكان والله تعالى يخلق بكن فيكون فهو فوق ماذكرنا من المثل من قطع النظر واعادته فى اسرع حين حيث لا يصح من القائل ان يقول لم قطعت النظر فى ذلك الزمان اللطيف الذى لا يدرك ولا يحس بل ربما يكون مدعى القدرة التامة على الشيء فى الزمان اليسير بالحركة السريعة يأتى بشيء ثم يبطله ثم يأتى بمثله ثم يبطله بدلك عليه فعل اصحاب خفة اليد حيث يوهم انه يفعل شيأ ثم يبطله ثم يأتى بمثله اراءة من نفسه القدرة وعلى هذا فنقول قوله فى سورة تبارك خلق الموت والحياة ليبلوكم معناه امات واحيا لتعلموا انه فاعل مختار فتعبدونه وتعتقدون الثواب والعقاب فيحسن عملكم ولو اعتقدتموه موجبا لما عملتم شيأ هذا على التفسير المشهور * والظاهر ان المراد من قوله وما نحن بمسبوقين حقيقته وهى انا ما سبقنا وهو يحتمل شيئين (احدهما) ان يكون معناه انه هو الاول لم يكن قبله شيء (وثانيهما) فى خلق الناس وتقدير الموت فيهم ما سبق وهو على طريقة منع آخر وفيه فائدتان اما اذا قلنا وما نحن بمسبوقين معناه ما سبقنا شيء فهو اشارة الى انكم من اى وجه تسلكون طريق النظر تنتهون الى الله وتقفون عنده ولا تجاوزونه فانكم ان كنتم تقولون قبل النطفة أب وقبل الاب نطفة فالعقل يحكم بانتهاء النطف والآباء الى خالق غير مخلوق وانا ذلك فانى لست بمسبوق وليس هناك خالق ولا سابق غيرى وهذا يكون على طريقة التدرج والنزول من مقام الى مقام والعاقل الذى هداه الله تعالى الهداية القوية يعرف اولا والذى دونه يعرف بعد ذلك برتبة والمعاند لا بد من ان يعرف ان ما دالى عقله بعد المراتب ويقول لا بد للكل من اله وهو ليس بمسبوق فيما فعله فمعناه انه فعل ما فعل ولم يكن لمفعوله مثال واما ان قلنا انه ليس بمسبوق واى حاجة فى

وما بينهما اعتراض (ولقد علمتم النشأة الاولى) هى خلقهم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة وقيل هى فطرة آدم عليه السلام من التراب (فلولا تذكرون) فهلا تتذكرون ان من قدر عليها قدر على النشأة الاخرى حقا فانه اقل صنعا لحصول المواد وتخصص الاجزاء وسبق المثال وفيه دليل على صحة القياس وقرئ فلولا تذكرون من الثلاثى وفى الخبر عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الاولى وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور

اعادته له بمثال هو اهون فيكون كقوله تعالى وهو اهون عليه ويؤيده قوله تعالى على ان نبدل امثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون فان قيل هذا لا يصح لان مثل هذا ورد في سؤال سائل والمراد ماذكرنا كأنه قال وانا القادرون على ان نبدل امثالكم وما نحن بمسبوقين أي لسنا بعاجزين مغلوبين فهذا دليلنا وذلك لان قوله انا القادرون افاد فائدة انتفاء العجز عنه فلا بد من ان يكون لقوله تعالى وما نحن بمسبوقين فائدة ظاهرة ثم قال تعالى على ان نبدل امثالكم في الوجه المشهور قوله تعالى على ان نبدل يتعلق بقوله وما نحن بمسبوقين أي على التبديل ومعناه وما نحن عاجزين عن التبديل والتحقيق في هذا الوجه ان من سبقه الشيء كأنه غلبه فعجز عنه وكلمة على في هذا الوجه مأخوذة من استعمال لفظ المسابقة فانه يكون على شيء فان من سبق غيره على امر فهو الغالب وعلى الوجه الآخر يتعلق بقوله تعالى نحن قدرنا وتقديره نحن قدرنا بينكم على وجه التبديل لا على وجه قطع النسل من اول الامر كما يقول القائل خرج فلان على ان يرجع عاجلا أي على هذا الوجه خرج وتعلق كلمة على على هذا الوجه اظهر فان قيل على ماذهب اليه المفسرون لا اشكال في تبديل امثالكم اي اشكالكم واوصافكم ويكون الامثال جمع مثل ويكون معناه وما نحن بعاجزين على ان نمسخكم ونجعلكم في صورة قردة وخنازير فيكون كقوله تعالى ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم وعلى ماقلت في تفسير المسبوقين وجعلت المتعلق لقوله على ان نبدل امثالكم هو قوله نحن قدرنا فيكون قوله نبدل امثالكم معناه على ان نبدل امثالهم لا على مثلهم نقول هذا ايراد وارد على المفسرين بأسرهم اذا فسروا الامثال بجمع المثل وهو الظاهر كما في قوله تعالى ثم لا يكونوا امثالكم وقوله واذا شئنا بدلنا امثالهم تبديلا فان قوله اذا دليل الوقوع وتغير اوصافهم بالمسخ ليس امرا يقع والجواب ان يقال الامثال اما ان يكون جمع مثل واما جمع مثل فان كان جمع مثل فنقول معناه قدرنا بينكم الموت على هذا الوجه وهو ان نغير اوصافكم فتكونوا اطفالا ثم شبانا ثم كهولا ثم شيوخا ثم يدرككم الاجل وماقدرنا بينكم الموت على ان نهلككم دفعة واحدة الا اذا جاء وقت ذلك فتهلكون بنفخة واحدة وان قلنا هو جمع مثل فنقول معنى نبدل امثالكم نجعل امثالكم بدلا وبدله بمعنى جعله بدلا ولم يحسن ان يقال بدلناكم على هذا الوجه لانه يفيد انا جعلنا بدلا فلا يدل على وقوع الفناء عليهم غاية مافي الباب ان قول القائل جعلت كذا بدلا لا تتم فائدته الا اذا قال جعلته بدلا عن كذا لكنه تعالى لما قال نبدل امثالكم فالمثل يدل على المثل فكأنه قال جعلنا امثالكم بدلا لكم ومعناه على ماذكرنا انه لم نقدر الموت على ان نفني الخلق دفعة بل قدرناه على ان نجعل مثلهم بدلهم مدة طويلة ثم نهلكهم جميعا ثم ننشئهم وقوله تعالى فيما لا تعلمون على الوجه المشهور في التفسير انه فيما لا تعلمون من الاوصاف والاخلاق والظاهر ان المراد فيما لا تعلمون من الاوصاف والزمان فان احدا لا يدري انه متى يموت ومتى ينشأ أو كأنهم قالوا ومتى الساعة والانشاء فقال لا علم لكم بهما هذا اذا قلنا

ان المراد ماذكر فيه على الوجه المشهور وفيه لطيفة وهى ان قوله فيما لاتعلمون تقرير لقوله أأنتم تخلقونه ام نحن الخالقون وكأنه قال كيف يمكن ان تقولوا هذا وانتم تنشؤن فى بطون امهاتكم على اوصاف لاتعلمون وكيف يكون خالق الشئ غير عالم به وهو كقوله تعالى هو اعلم بكم اذ أنشأكم من الارض واذ انتم اجنة فى بطون امهاتكم وعلى ماذكرنا فيه فائدة وهى التحريض على العمل الصالح لان التبديل والانشاء وهو الموت والحشر اذا كان واقعا فى زمان لايعلمه احد فينبغى ان لايتكل الانسان على طول المدة ولا يغفل عن اعداد العدة وقال تعالى ولقد علمتم النشأة الاولى تقريرا لامكان النشأة الثانية ❊ ثم قال تعالى (أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون) ذكر بعد دليل الخلق دليل الرزق فقوله أفرأيتم ماتمنون اشارة الى دليل الخلق وبه الابتداء وقوله أفرأيتم ماتحرثون اشارة الى دليل الرزق وبه البقاء وذكر امورا ثلاثة المأكول والمشروب ومابه اصلاح المأكول ورتبه ترتيبا فذكر المأكول اولا لانه هو الغذاء ثم المشروب لان به الاستمراء ثم النار التى بها الاصلاح وذكر من كل نوع ماهو الاصل فذكر من المأكول الحب فانه هو الاصل ومن المشروب الماء لانه هو الاصل وذكر من المصلحات النار لان بها اصلاح اكثر الاغذية واعمها ودخل فى كل واحد منها ماهو دونه هذا هو الترتيب واما التفسير فنقول الفرق بين الحرث والزرع هو ان الحرث اوائل الزرع ومقدماته من كراب الارض والقاء البذر وسقى المبذور والزرع هو آخر الحرث من خروج النبات واستغلاظه واستوائه على الساق فقوله افرأيتم ماتحرثون اى ماتبتدؤن منه من الاعمال أأنتم تبلغونها المقصود ام الله ولايشك احد فى ان ايجاد الحب فى السنبلة ليس بفعل الناس وليس بفعلهم ان كان سوى القاء البذر والسقى فان قيل هذا يدل على ان الله هو الزارع فكيف قال تعالى يعجب الزراع وقال النبى صلى الله عليه وسلم الزرع للزارع قلنا قد ثبت من التفسير ان الحرث متصل بالزرع فالحرث اوائل الزرع والزرع اواخر الحرث فيجوز اطلاق احدهما على الآخر لكن قوله يعجب الزراع بدلا عن قوله يعجب الحراث يدل على ان الحارث اذا كان هو المبتدئ فربما يتعجب بما يترتب على فعله من خروج النبات والزارع لما كان هو المنتهى ولايعجبه الاشئ عظيم فقال يعجب الزراع الذين تعودوا اخذ الحراث فاظنك باعجابه الحراث وقوله صلى الله عليه وسلم الزرع للزارع فيه فائدة لانه لو قال للحارث فمن ابتدأ بعمل الزرع واتى بكراب الارض وتسويتها يصير حارثا وذلك قبل القاء البذر فالزرع لمن اتى بالامر المتأخر وهو القاء البذر اى من له البذر على مذهب ابى حنيفة رحمه الله تعالى وهذا اظهر لانه بمجرد الالقاء فى الارض يجعل الزرع للملقى سواء كان مالكا او غاصبا ❊ ثم قال تعالى (لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون انا لمغرمون بل نحن محرومون) وهو تدريج فى الاثبات وبيانه هو انه لما قال أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون لم يبعد من معاند ان يقول نحن نحرث وهو بنفسه يصير زرعا لا بفعلنا ولا بفعل غيرنا فقال

(أفرأيتم ماتحرثون) اى تبذرون حبه وتعملون فى ارضه (أأنتم تزرعون) تنبتونه وتردونه نباتا يرف (أم نحن الزارعون) اى المنبتون لا أنتم والكلام فى ام كما مر آنفا (لو نشاء لجعلناه حطاما) هشيما متكسرا متفتتا بعد ما انبتناه وصار بحيث طمعتم فى حيازة غلاله (فظلتم) بسبب ذلك (تفكهون) تتعجبون من سوء حاله اثر ما شاهدتموه على احسن مايكون من الحال او تندمون على ماتعبتم فيه وانفقتم عليه اوعلى مااقترفتم لاجله من المعاصى فتحدثون فيه والتفكه التنقل بصنوف الفاكهة وقد استعير للتنقل بالحديث وقرئ تفكنون اى تندمون وقرئ فظلتم بالكسر وفظللتم على الاصل

تعالى ولوسلم لكم هذا الباطل فاتقولون في سلامته عن الآفات التي تصيبه فيفسد قبل اشتداد الحب وقبل انعقاده اوقبل اشتدادالحب وقبل ظهورالحب فيه فهل تحفظونه منها اوتدفعونها عنه اوهذا الزرع بنفسه يدفع عن نفسه تلك الآفات كما تقولون انه بنفسه ينبت ولايشك احد ان دفع الآفات باذن الله تعالى وحفظه عنها بفضل الله وعلى هذا اعاده ليذكر امورا مرتبة بعضها على بعض فيكون الامر الاول للمهتدين والثاني للظالمين والثالث للمعاندين الضالين فيذكر الامر الذي لاشك فيه في آخر الامر اقامة للحجة على الضال المعاند وفيه سؤال وهوانه تعالى ههناقال لجعلناه بلام الجواب وقال في الماء جعلناه أجاجا من غير لام فاالفرق بينهما نقول ذكر الزمخشري عنه جوابين (احدهما) قوله تعالى لو نشاء لجعلناه حطاما كان قريب الذكر فاستغنى بذكر اللام فيه عن ذكرها ثانيا وهذا ضعيف لان قوله تعالى لو نشاء لطمسنا على اعينهم مع قوله لو نشاء لمسخناهم أقرب من قوله لجعلناه حطاما وجعلناه أجاجا اللهم الا ان نقول هناك احدهما قريب من الآخر ذكرا لامعنى لان الطمس لايلزمه المسخ ولابالعكس والمأكول مع المشروب في الدهر فالامر ان تقارب لفظا ومعنى (والجواب الثاني) ان اللام يفيد نوع تأكيد فذكر اللام في المأكول ليعلم ان امر المأكول اهم من امر المشروب وان نعمته اعظم وماذكرنا ايضا وارد عليه لان امر الطمس اهون من امر المسخ وادخل فيهما اللام وههنا جواب آخريين بتقديم بحث عن فائدة اللام في جواب لو فنقول حرف الشرط اذا دخل على الجملة يخرجها عن كونها جملة في المعنى فاحتاجوا الى علامة تدل على المعنى فأتوا بالجزم في المستقبل لان الشرط يقتضي جزاء وفيه تطويل فالجزم الذي هو السكون اليق بالموضع وبينه وبين المعنى ايضا مناسبة لكن كلمة لو مختصة بالدخول على الماضي معنى فانها اذا دخلت على المستقبل جعلته ماضيا والتحقيق فيه ان الجملة الشرطية لاتخرج عن اقسام فانها اذا ذكرت لابد من ان يكون الشرط معلوم الوقوع لان الشرط ان كان معلوم الوقوع فالجزاء لازم الوقوع فجعل الكلام جملة شرطية عدول عن جملة اسنادية الى جملة تعليقية وهو تطويل من غير فائدة فقول القائل آتيك ان طلعت الشمس تطويل والاولى ان يقول آتيك جزما من غير شرط فاذا علم هذا فحال الشرط لايخلو من ان يكون معلوم العدم او مشكوكا فيه فالشرط اذا وقع على قسمين فلابد لهما من لفظين وهما ان ولو واختصت ان بالمشكوك ولو بمعلوم العدم لامر بيناه في موضع آخر لكن ماعلم عدم بكون الآخر فقد اثبت منه فهو ماض او في حكمه لان العلم بالامور يكون بعد وقوعها ومايشك فيه فهو مستقبل او في معناه لاننا نشك في الامور المستقبلة انها تكون اولا تكون والماضي خرج عن التردد واذا ثبت هذا فنقول لما دخل لو على الماضي وما اختلف آخره بالعامل لم يتبين فيه اعراب وان لما دخل على المستقبل بان فيه الاعراب ثم ان الجزاء على حسب الشرط وكان الجزاء في باب

لو ماضيا فلم يتبين فيه الحال بحركة ولا سكون فيضاف له حرف يدل على خروجه عن كونه جملة ودخوله في كونه جزء جملة اذا ثبت هذا فنقول عندما يكون الجزاء ظاهرا يستغنى عن الحرف الصارف لكن كون الماء المذكور في الآية وهو الماء المشروب المنزل من المزن اجاجا ليس امرا واقعا يظن انه خبر مستقل ويقويه انه تعالى يقول بجعلناه اجاجا على طريقة الاخبار والحرث والزرع كثيرا ما وقع كونه حطاما فلو قال جعلناه حطاما كان يتوهم منه الاخبار فقال هنالك لو نشاء لجعلناه ليخرجه عما هو صالح له في الواقع وهو الحطامية وقال في الماء المشروب المنزل من المزن جعلناه اجاجا لانه لا يتوهم ذلك فاستغنى عن اللام (وفيه لطيفة أخرى نحوية) وهي ان في القرآن اسقاط اللام عن جزاء لو حيث كانت لو داخلة على مستقبل لفظا واما اذا كان ما دخل عليه لو ماضيا وكان الجزاء موجبا فلا كما في قوله تعالى ولو شئنا لآتينا او لو هدانا الله لهديناكم وذلك لان لو اذا دخلت على فعل مستقبل كما في قوله لو نشاء فقد أخرجت عن حيزها لفظا لان لو للماضي فاذا خرج الشرط عن حيزه جاز في الجزاء الاخراج عن حيزه لفظا واسقاط اللام عنه لان ان لما كان حيزها المستقبل وتدخل على المستقبل فاذا جعل ما دخل ان عليه ماضيا كقولك ان جئتني جاز في الخبر الاخراج عن حيزه وترك الجزم فتقول اكرمك بالرفع واكرمك بالجزم كما تقول في لو نشاء لجعلناه وفي لو نشاء جعلناه وما ذكرنا من الجواب في قوله أنطعم من لو يشاء الله اطعمه اذا نظرت اليه تجده مستقيما وحيث لم يقل لو شاء الله اطعمه علم ان الآخر جزاء ولم يبق فيه توهم لانه اما ان يكون عند المتكلم وذلك غير جائز لان المتكلم عالم بحقيقة كلامه واما ان يكون عندهم وذلك غير جائز ههنا لان قولهم لو شاء الله اطعمه رد على المؤمنين في زعمهم يعني انتم تقولون ان الله لو شاء فعل فلا نطعم من لو يشاء الله اطعمه على زعمكم فلما كان اطعمه جزاء معلوما عند السامع والمتكلم استغنى عن اللام والحطام كالفتات والجذاذ وهو من الحطم كما ان الفتات والجذاذ من الفت والجذ والفعال في اكثر الامر يدل على مكروه او منكر اما في المعاني فكالسبات والفواق والزكام والدوار والصداع لامراض وآفات في الناس والنبات واما في الاعيان فكالجذاذ والحطام والفتات وكذا اذا الحقته الهاء كالبرادة والسحالة وفيه زيادة بيان وهو ان ضم الفاء من الكلمة يدل على ما ذكرنا في الافعال فانا نقول فعل لما لم يسم فاعله وكان السبب ان اوائل الكلم لما لم يكن فيه التخفيف المطلق وهو السكون لم يثبت التثقيل المطلق وهو الضم فاذا ثبت فهو لعارض فان علم كما ذكرنا فلا كلام وان لم يعلم كما في برد وقفل فالامر خفي يطول ذكره والوضع يدلك عليه في الثلاثي وقوله تعالى انا لمغرمون بل نحن محرومون فيه وجهان اما على الوجه الاول كأنما هو كلام مقدر عنهم كأنه يقول وحينئذ يحق ان تقولوا انا لمعذبون دائمون في العذاب واما على الوجه الثاني فيقولون انا لمعذبون ومحرومون عن اعادة الزرع مرة اخرى يقولون انا لمعذبون بالجوع بهلاك الزرع ومحرومون عن دفعه بغير

(انا لمغرمون) اى لملزمون غرامة ما انفقنا او مهلكون بهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك وقرئ أئنا على الاستفهام والجملة على القراءتين مقدرة بقول هو في حيز النصب على الحالية من فاعل تفكهون اى قائلين او تقولون انا لمغرمون (بل نحن محرومون) حرمنا رزقنا او محارفون محدودون لا حظ لنا ولا بخت لا مجدودون

الزرع لفوات الماء والوجه الثاني في الغرم انا لمكرهون بالغرامة من غرم الرجل واصل الغرم والغرام لزوم المكروه ❊ ثم قال تعالى (افرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون) خصه بالذكر لانه الطف وانظف اوتذكيرا لهم بالانعام عليهم والمزن السحاب الثقيل بالماء لابغيره من انواع العذاب يدل على ثقله قلب اللفظ وعلى مدافعة الامر وهو النزم في بعض اللغات السحاب الذى مس الارض وقد تقدم تفسير الاجاج أنه الماء المر من شدة الملوحة والظاهر انه هو الحار من اجيج النار كالحطام من الحطيم وقد ذكرناه في قوله تعالى هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج ذكر في الماء الطيب صفتين (احداهما) عائدة الى طعمه (والاخرى) عائدة الى كيفية ملمسه وهى البرودة واللطافة وفي الماء الآخر ايضا صفتين (احداهما) عائدة الى طعمه (والاخرى) عائدة الى كيفية لمسه وهى الحرارة ثم قال تعالى فلولا تشكرون لم يقل عند ذكر الطعام الشكر وذلك لوجهين (احدهما) أنه لم يذكر في المأكول اكلهم فلما لم يقل تأكلون لم يقل تشكرون وقال في الماء تشربون فقال تشكرون (والثاني) ان في المأكول قال تحرثون فاثبت لهم سعيا فلم يقل تشكرون وقال في الماء أأنتم انزلتموه من المزن لاعمل لكم فيه اصلا فهو محض النعمة فقال فلولا تشكرون وفيه وجه ثالث وهو الاحسن ان يقال النعمة لاتتم الاعند الاكل والشرب ألاترى ان في البرارى التى لايوجد فيها الماء لايأكل الانسان شيئا مخافة العطش فلما ذكر المأكول اولا وأتمه بذكر المشروب ثانيا قال فلولا تشكرون على هذه النعمة التامة ❊ ثم قال تعالى (افرأيتم النار التى تورون) اى تقدحون (أأنتم انشأتم شجرتها ام نحن المنشؤن) وفي شجرة النار وجوه (احدها) انها الشجرة التى تورى النار منها بالزند والزندة كالمرخ (وثانيها) الشجرة التى تصلح لايقاد النار كالحطب فانها لولم تكن لم يسهل ايقاد النار لان النار لاتتعلق بكل شئ كما تتعلق بالحطب (وثالثها) اصول شعلها ووقود شجرتها ولولا كونها ذات شعل لما صلحت لانضاج الاشياء والباقى ظاهر ❊ قوله تعالى (نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) في قوله تذكرة وجهان (احدهما) تذكرة لنار القيامة فيجب على العاقل ان يخشى الله تعالى وعذابه اذا رأى النار الموقدة (وثانيهما) تذكرة بصحة البعث لان من قدر على ايداع النار في الشجر الاخضر لايعجز عن ايداع الحرارة الغريزية في بدن الميت وقد ذكرناه في تفسير قوله تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا والمقوى هو الذى اوقده فقواه وزاده وفيه لطيفة وهو انه تعالى قدم كونها تذكرة على كونها متاعا ليعلم ان الفائدة الاخروية اتم وبالذكر اهم ❊ ثم قال تعالى (فسبح باسم ربك العظيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في وجه تعلقه بماقبله نقول لما ذكر الله تعالى حال المكذبين بالحشر والوحدانية ذكر الدليل عليهما بالخلق والرزق ولم يفدهم الايمان قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ان وظيفتك ان تكمل في نفسك وهو علمك بربك وعملك لربك فسبح

(افرأيتم الماء الذى تشربون) عذبا فراتا وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لان الشرب اهم المقاصد المنوطة به (أأنتم انزلتموه من المزن) اى من السحاب واحده مزنة وقيل هو السحاب الابيض وماؤه اعذب (أم نحن المنزلون) له بقدرتنا (لو نشاء جعلناه اجاجا) ملحا زعاقا لايمكن شربه وحذف اللام ههنا مع اثباتها في الشرطية الاولى للتعويل على علم السامع او الفرق بين المطعوم والمشروب في الاهمية وصعوبة الفقد والشرطيتان مستأنفتان مسوقتان لبيان ان عصمته تعالى للزرع والماء عما يخل بالتمتع بهما نعمة اخرى بعد نعمة الانبات والانزال مستوجبة للشكر فقوله تعالى (فلولا تشكرون) تحضيض على شكر الكل (افرأيتم النار التى تورون) اى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد (أأنتم انشأتم شجرتها) التى منها الزناد وهى المرخ والعفار (ام نحن المنشؤن) لها بقدرتنا والتعبير عن خلقها بالانشاء المنبئ عن بديع الصنع المعرب عن كمال القدرة والحكمة لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر التى لاتخلو عن النار حتى قيل في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار كان التعبير عن نفخ الروح بالانشاء في قوله تعالى ثم انشأناه خلقا آخر لذلك وقوله تعالى (نحن جعلناها تذكرة) استئناف مبين لمنافعها اى

باسم ربك وقد ذكرنا ذلك فى قوله تعالى فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وفى موضع آخر (المسئلة الثانية) التسبيح التنزيه عما لا يليق به فما فائدة ذكر الاسم ولم يقل فسبح بربك العظيم فنقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) هو المشهور وهو ان الاسم مقحم وعلى هذا الجواب فنقول فيه فائدة زيادة التعظيم لان من عظم عظيما وبالغ فى تعظيمه لم يذكر اسمه الا وعظمه فلا يذكر اسمه فى موضع وضيع ولا على وجه الاتفاق كيفما اتفق وذلك لان من يعظم شخصا عند حضوره ربما لا يعظمه عند غيبته فيذكره باسم علمه فان كان بحضر منه لا يقول ذلك فاذا عظم عنده لا يذكره فى حضوره وغيبته الا باوصاف العظمة فان قيل فعلى هذا فما فائدة الباء وكيف صار ذلك ولم يقل فسبح اسم ربك العظيم او الرب العظيم نقول قد تقدم مرارا ان الفعل اذا كان تعلقه بالمفعول ظاهرا غاية الظهور لا يتعدى اليه بحرف فلا يقال ضربت بزيد بمعنى ضربت زيدا واذا كان فى غاية الخفاء لا يتعدى اليه الا بحرف فلا يقال ذهبت زيدا بمعنى ذهبت بزيد واذا كان بينهما جاز الوجهان فتقول سبحته وسبحت به وشكرته وشكرت له اذا ثبت هذا فنقول لما علق التسبيح بالاسم وكان الاسم مقحما كان التسبيح فى الحقيقة متعلقا بغيره وهو الرب وكان التعلق خفيا من وجه فجاز ادخال الباء فان قيل اذا جاز الاسقاط والاثبات فما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى فنقول ههنا تقديم الدليل على العظمة ان يقال الباء فى قوله باسم غير زائدة وتقريره من وجهين (احدهما) انه لما ذكر الامور وقال نحن ام انتم فاعترف الكل بان الامور من الله واذا طولبوا بالوحدانية قالوا نحن لا نشرك فى المعنى وانما نتخذ اصناما آلهة فى الاسم ونسميها آلهة والله الذى خلقها وخلق السموات هو الله فنحن ننزهه فى الحقيقة فقال فسبح باسم ربك وكانك ايها العاقل اعترفت بعدم اشتراكهما فى الحقيقة اعترف بعدم اشتراكهما فى الاسم ولا تقل لغيره اله فان الاسم يتبع المعنى والحقيقة وعلى هذا فالخطاب لا يكون مع النبى صلى الله عليه وسلم بل يكون كما يقول الواعظ يا مسكين افنيت عمرك وما اصلحت عملك ولا يريد احدا بعينه وتقديره يا أيها المسكين السامع (وثانيهما) ان يكون المراد بذكر ربك اى اذا قلت وتولوا فسبح ربك بذكر اسمه بين قومك واشتغل بالتبليغ والمعنى اذكره باللسان والقلب وبين وصفه لهم وان لم يقبلوا فانك مقبل على شغلك الذى هو التبليغ ولو قال فسبح ربك ما افاد الذكر لهم وكان ينبئ عن التسبيح بالقلب ولما قال فسبح باسم ربك والاسم هو الذى يذكر لفظا دل على انه مأمور بالذكر اللسانى وليس له ان يقتصر على الذكر القلبى ويحتمل ان يقال فسبح مبتدئا باسم ربك العظيم فلا تكون الباء زائدة (المسئلة الثالثة) كيف يسبح ربنا نقول اما معنى فبأن يعتقد فيه انه واحد منزه عن الشريك وقادر برئ عن العجز فلا يعجز عن الحشر واما لفظا فبأن يقال سبحان الله وسبحان العظيم وسبحانه عما يشركون او ما يقوم مقامه من الكلام الدال على تنزيهه عن الشريك والعجز فانك

جعلناها تذكيرا لنار جهنم حيث علقنا بها اسباب المعاش لينظروا اليها ويذكروا ما اوعدوا به من نار جهنم او تذكرة وانموذجا من نار جهنم لما روى عن النبى عليه الصلاة والسلام ناركم هذه التى يوقدها بنو آدم جزء من سبعين جزأ من حر جهنم وقيل تبصرة فى امر البعث فانه ليس بابدع من اخراج النار من الشئ الرطب (ومتاعا) ومنفعة (للمقوين) للذين ينزلون القواء وهى القفر وتخصيصهم بذلك لانهم احوج اليها فان المقيمين او النازلين بقرب منهم ليسوا بمضطرين الى الاقتداح بالزناد وقد يجوز ان يراد بالمقوين الذين خلت بطونهم ومزاودهم من الطعام وهو بعيد لعدم انحصار ما يهمهم ويسد خللهم فيما لا يؤكل الا بالطبخ وتأخير هذه المنفعة للتنبيه على ان الاهم هو النفع الاخروى والفاء فى قوله تعالى (فسبح باسم ربك العظيم) لترتيب ما بعدها على ما عدد من بدائع صنعه تعالى وروائع نعمه الموجبة لتسبيحه تعالى اما تنزيها له تعالى عما يقوله الجاحدون بوحدانيته الكافرون بنعمته مع عظمها وكثرتها او تعجبا من امرهم فى غمط تلك النعم الباهرة مع جلالة قدرها وظهور امرها او شكرا على تلك النعم السابقة اى فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى او بذكره فان اطلاق الاسم للشئ ذكر له والعظيم

اذا سبحته واعتقدت انه واحد منزه عن كل مالا يجوز فى حقيقته لزم أن لايكون جسما لان الجسم فيه اشياء كثيرة وهو واحد حقيقى لا كثرة لذاته ولايكون عرضا ولا فى مكان وكل مالا يجوز له ينفى عنه بالتوحيد ولايكون على شئ ولا فى شئ ولا عن شئ واذا قلت هو قادر ثبت له العلم والارادة والحياة وغيرها من الصفات وسنذكر ذلك فى تفسير سورة الاخلاص ان شاء الله تعالى (المسئلة الرابعة) ما الفرق بين العظيم وبين الاعلى وهل فى ذكر العظيم هنا بدل الاعلى وذكر الاعلى فى قوله سبح اسم ربك الاعلى بدل العظيم فائدة نقول اما الفرق بين العظيم والاعلى فهو ان العظيم يدل على القرب والاعلى يدل على البعد بيانه هو أن ماعظم من الاشياء المدركة بالحس قريب من كل ممكن لانه لو بعد عنه لخلا عنه موضعه فلو كان فيه اجزاء اخر لكان أعظم مما هو عليه فالعظيم بالنسبة الى الكل هو الذى يقرب من الكل واما الصغير اذا قرب من جهة فقد بعد عن اخرى واما العلى فهو البعيد عن كل شئ لان ماقرب من شئ من جهة فوق يكون أبعد منه وكان أعلى فالعلى المطلق بالنسبة الى كل شئ هو الذى فى غاية البعد عن كل شئ اذا عرفت هذا فالاشياء المدركة تسبح الله واذا علمنا من الله معنى سلبيا فصح أن نقول هو أعلى من أن يحيط به ادراكنا واذا علمنا منه وصفا ثبوتيا من علم وقدرة يزيد تعظيمه اكثر مما وصل اليه علمنا فنقول هو أعظم وأعلى من أن يحيط به علمنا وقولنا أعظم معناه عظيم لاعظيم مثله ففيه مفهوم سلبى ومفهوم ثبوتى وقوله أعلى معناه هو على ولا على مثله والعلى اشارة الى مفهوم سلبى والاعلى مثله بسبب آخر فالاعلى مستعمل على حقيقته لفظا ومعنى والاعظم مستعمل على حقيقته لفظا وفيه معنى سلبى وكان الاصل فى العظيم مفهوم ثبوتى لا سلب فيه فالاعلى احسن استعمالا من الاعظم هذا هو الفرق ❊ ثم قال تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الترتيب ووجهه هو أن الله تعالى لما أرسل رسوله بالهدى ودين الحق آتاه كل ماينبغى له وطهره عن كل مالا ينبغى له فآتاه الحكمة وهى البراهين القاطعة واستعمالها على وجوهها والموعظة الحسنة وهى الامور المفيدة المرققة للقلوب المنورة للصدور والمجادلة التى هى على أحسن الطرق فاتى بها وعجز الكل عن معارضته بشئ ولم يؤمنوا والذى يتلى عليه كل ذلك ولا يؤمن لايبقى له غير أنه يقول هذا البيان ليس لظهور المدعى بل لقوة ذهن المدعى وقوته على تركيب الادلة وهو يعلم أنه يغلب بقوة جداله لا بظهور مقاله وربما يقول احد المناظرين للآخر عند انقطاعه أنت تعلم أن الحق بيدى لكن تستضعفنى ولاتنصفنى وحينئذ لايبقى للخصم جواب غير القسم بالايمان التى لامخارج عنها انه غير مكابر وانه منصف وذلك لانه لو أتى بدليل آخر لكان له أن يقول وهذا الدليل ايضا غلبتنى فيه بقوتك وقدرتك فكذلك النبى صلى الله عليه وسلم لما آتاه الله جل وعز ماينبغى قالوا انه يريد التفضل علينا وهو يجادلنا فيما يعلم خلافه فلم يبق له الا أن يقسم فأنزل الله تعالى عليه

صفة للاسم او الرب (فلا اقسم) اى فاقسم ولا مزيدة للتأكيد كما فى قوله تعالى لئلا يعلم او فلأنا اقسم فحذف المبتدأ واشبع فتحة لام الابتداء ويعضده قراءة من قرأ فلا قسم اوفلا رد لكلام يخالف المقسم عليه واما ماقيل من ان المعنى فلا أقسم اذ الامر اوضح من ان يحتاج الى قسم فيأباه تعيين المقسم به وتفخيم شأن القسم به (بمواقع النجوم) اى بمساقطها وهى مغاربها وتخصيصها بالقسم لما فى غروبها من زوال اثرها والدلالة على وجود مؤثر دائم لايتغير اولان ذلك وقت قيام المتهجدين والمبتهلين اليه تعالى وأوان نزول الرحمة والرضوان عليهم او بمنازلها ومجاريها فان له تعالى فى ذلك من الدليل على عظم قدرته وكمال حكمته مالا يحيط به البيان وقيل النجوم نجوم القرآن ومواقعها اوقات نزولها

انواعا من القسم بعد الدلائل ولهذا كثرت الايمان فى اوائل التنزيل وفى السبع الاخير خاصة (المسئلة الثانية) فى تعلق الباء نقول انه لما بين انه خالق الخلق والرزق وله العظمة بالدليل القاطع ولم يؤمنوا قال لم يبق الا القسم فاقسم بالله انى لصادق (المسئلة الثالثة) ما المعنى من قوله لا اقسم مع انك تقول انه قسم نقول فيه وجوه منقولة ومعقولة غير مخالفة للنقل اما المنقول (فأحدها) ان لا زائدة مثلها فى قوله تعالى لئلا يعلم معناه ليعلم (ثانيها) اصلها لا قسم بلام التأكيد اشبعت فتحتها فصارت لا كما فى الوقف (ثالثها) لا نافية واصله على مقالتهم والقسم بعدها كأنه قال لا والله لا صحة لقول الكفار اقسم عليه واما المعقول فهو ان كلمة لا هى نافية على معناها غير ان فى الكلام مجازا تركيبيا وتقديره ان نقول لا فى النفى هنا كهى فى قول القائل لا تسألنى عما جرى على يشير الى ان ما جرى عليه اعظم من ان يشرح فلا ينبغى ان يسأله فان غرضه من السؤال لا يحصل ولا يكون غرضه من ذلك النهى الا بيان عظمة الواقعة ويصير كأنه قال جرى على امر عظيم ويدل عليه ان السامع يقول له ماذا جرى عليك ولو فهم من حقيقة كلامه النهى عن السؤال لما قال ماذا جرى عليك فيصح منه ان يقول اخطأت حيث منعتك عن السؤال ثم سألتنى وكيف لا وكثيرا ما يقول ذلك القائل الذى قال لا تسألنى عند سكوت صاحبه عن السؤال اولا تسألنى ولا تقول ماذا جرى عليك ولا يكون للسامع ان يقول انك منعتنى عن السؤال كل ذلك لما تقرر فى افهامهم ان المراد تعظيم الواقعة لا النهى اذا علم هذا فنقول فى القسم مثل هذا موجود من احد وجهين اما لكون الواقعة فى غاية الظهور فيقول لا اقسم بأنه على هذا الامر لانه اظهر من ان يشهروا كثر من ان ينكر فيقول لا اقسم ولا يريد به القسم ونفيه وانما يريد الاعلام بان الواقعة ظاهرة واما لكون المقسم به فوق ما يقسم به والمقسم صار يصدق نفسه فيقول لا اقسم بمينا بل الف يمين ولا اقسم برأس الامير بل برأس السلطان ويقول لا اقسم بكذا مريدا لكونه فى غاية الجزم (والثانى) يدل عليه ان هذه الصيغة لم ترد فى القرآن والمقسم به هو الله تعالى او صفة من صفاته وانما جاءت فى امور مخلوقة والاول لا يرد عليه اشكال ان قلنا ان المقسم به فى جميع المواضع رب الاشياء كما فى قوله والصافات المراد منه رب الصافات ورب القيامة ورب الشمس الى غير ذلك فاذا قوله لا اقسم بمواقع النجوم اى الامر اظهر من ان يقسم عليه وان يتطرق الشك اليه (المسئلة الرابعة) مواقع النجوم ماهى فنقول فيه وجوه (الاول) المشارق والمغارب او المغارب وحدها فان عندها سقوط النجوم (الثانى) هى مواضعها فى السماء فى بروجها ومنازلها (الثالث) مواقعها فى اتباع الشياطين عند المزاحمة (الرابع) مواقعها يوم القيامة حين تنتثر النجوم واما مواقع نجوم القرآن فهى قلوب عباده وملائكته ورسله وصالحى المؤمنين اومعانيها واحكامها التى وردت فيها (المسئلة الخامسة) هل فى اختصاص مواقع النجوم للقسم بها فائدة قلنا نعم فائدة جليلة وبيانها انا قد ذكرنا ان

القسم بمواقعها كما هي قسم كذلك هي من الدلائل وقد بيناه في والذاريات وفي الطور وفي النجم وغيرها فنقول هي هنا ايضا كذلك وذلك من حيث ان الله تعالى لما ذكر خلق الآدمي من المني وموته بين باشارته الى ايجاد الضدين في الانفس قدرته واختياره ثم لما ذكر دليلا من دلائل الانفس ذكر من دلائل الآفاق ايضا قدرته واختياره فقال افرأيتم ما تحرثون أفرأيتم الماء الى غير ذلك وذكر قدرته على زرعه وجعله حطاما او خلقه الماء فراتا عذبا وجعله اجاجا اشارة الى ان القادر على الضدين مختار ولم يكن ذكر من الدلائل السماوية شيئا فذكر الدليل السماوي في معرض القسم وقال بمواقع النجوم فانها ايضا دليل الاختيار لان كون كل واحد في موضع من السماء دون غيره من المواضع مع استواء المواضع في الحقيقة دليل فاعل مختار فقال بمواقع النجوم ليشير الى البراهين النفسية والآفاقية بالذكر كما قال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم وهذا كقوله تعالى وفي الارض آيات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون وفي السماء رزقكم وما توعدون حيث ذكر الانواع الثلاثة كذلك هنا ثم قال تعالى وانه لقسم لو تعلمون عظيم والضمير عائد الى القسم الذي يتضمنه قوله تعالى فلا أقسم فانه يتضمن ذكر المصدر ولهذا توصف المصادر التي لم تظهر بعد الفعل فيقال ضربته قويا وفيه مسائل نحوية ومعنوية اما النحوية (فالمسئلة الاولى) هو ان يقال جواب لو تعلمون ماذا وربما يقول بعض من لا يعلم أن جوابه ما تقدم وهو فاسد في جميع المواضع لان جواب الشرط لا يتقدم وذلك لان عمل الحروف في معمولاتها لا يكون قبل وجودها فلا يقال زيدا ان قام ولا غيره من الحروف والسر فيه ان عمل الحروف مشبه بعمل المعاني ويميز بين الفاعل والمفعول وغيرهما فاذا كان العامل معنى والمعنى لا موضع له في الحس فيعلم تقدمه وتأخره جاز ان يقال قائما ضربت زيدا او ضربا شديدا ضربته واما الحروف فلها تقدم وتأخر مدرك بالحس فلم يمكن بعد علمنا بتأخرها فرض وجودها متقدمة بخلاف المعاني اذا ثبت هذا فنقول عمل حرف الشرط في المعنى اخراج كل واحدة من الجملتين عن كونهما جملة مستقلة فاذا قلت من وان لا يمكن اخراج الجملة الاولى عن كونها جملة بعد وقوعها جملة ليعلم ان حرفها أضعف من عمل المعنى لتوقفه على عمله مع ان المعنى امكن فرضه متقدما ومتأخرا وعمل الافعال عمل معنوي وعمل الحروف عمل مشبه بالمعنى اذا ثبت هذا فنقول في قوله تعالى ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى قال بعض الوعاظ ان هم بها متعلق بلولا فلا يكون الهم قد وقع منه وهو باطل لما ذكرنا وهنا ادخل في البطلان لان المتقدم لا يصلح جزاء للمتأخر فان من قال لو تعلمون ان زيدا القائم لم يأت بالعربية اذا تبين هذا فالقول يحتمل وجهين (احدهما) ان يقال الجواب محذوف بالكلية لم يقصد بذلك جواب وانما يراد نفي ما دخلت عليه لو وكأنه قال وانه لقسم لا تعلمون وتحقيقه ان لو تذكر لامتناع الشيء لامتناع غيره فلا بد فيه من انتفاء الاول فادخال لو على

وقوله تعالى (وانه لقسم لو تعلمون عظيم) اعتراض في اعتراض قصد به المبالغة في تحقيق مضمون الجملة القسمية وتأكيده حيث اعترض بقوله وانه لقسم بين القسم وجوابه

تعلمون أفادنا ان علمهم منتف سواء علمنا الجواب اولم نعلم وهو كقولهم فى الفعل المتعدى فلان يعطى ويمنع حيث لايقصد به مفعول وانما يراد اثبات القدرة وعلى هذا ان قيل فما فائدة العدول الى غير الحقيقة وترك قوله وانه لقسم ولاتعلمون فنقول فائدته تأكيد النفى لان من قال لو تعلمون كان ذلك دعوى منه فاذا طولب وقيل لم قلت انا لانعلم يقول لو تعلمون لفعلتم كذا فاذا قال فى ابتداء الامر لاتعلمون كان مريدا للنفى فكأنه قال اقول انكم لاتعلمون قولا من غير تعلق بدليل وسبب (وثانيهما) ان يكون له جواب تقديره لو تعلمون لعظمتموه لكنكم ماعظمتموه فعلم انكم لاتعلمون اذلو تعلمون لعظم فى اعينكم ولاتعظيم فلاتعلمون (المسئلة الثانية) ان قيل قوله لو تعلمون هل له مفعول ام لاقلنا على الوجه الاول لامفعول له كما فى قولهم فلان يعطى ويمنع وكأنه قال لاعلم لكم ويحتمل ان يقال لاعلم لكم بعظم القسم فيكون له مفعول والاول ابلغ وادخل فى الحسن لانهم لايعلمون شيئا اصلا لانهم لو علموا لكان اولى الاشياء بالعلم هذه الامور الظاهرة بالبراهين القاطعة فهو كقوله صم بكم وقوله كالانعام بل هم اضل وعلى الثانى ايضا يحتمل وجهين (احدهما) لو كان لكم علم بالقسم لعظمتموه (وثانيهما) لو كان لكم علم بعظمته لعظمتموه (المسئلة الثالثة) كيف تعلق قوله تعالى لو تعلمون بما قبله ومابعده فنقول هو كلام اعترض فى اثناء الكلام تقديره وانه لقسم عظيم لو تعلمون لصدقتم فان قيل فما فائدة الاعتراض نقول الاهتمام بقطع اعتراض المعترض لانه لما قال وانه لقسم اراد ان يصفه بالعظمة بقوله عظيم والكفار كانوا يجهلون ذلك ويدعون العلم بأمور النجم وكانوا يقولون لو كان كذلك فما باله لايحصل لنا علم وظن فقال لو تعلمون لحصل لكم القطع وعلى ماذكرنا الامر اظهر من هذا وذلك لانا قلنا ان قوله لااقسم معناه الامر واضح من ان يصدق بيمين والكفار كانوا يقولون اين الظهور ونحن نقطع بعدمه فقال لو تعلمون شيئا لما كان كذلك والاظهر منه انا بينا ان كل ماجعله الله قسما فهو فى نفسه دليل على المطلوب وأخرجه مخرج القسم بقوله وانه لقسم معناه عند التحقيق وانه دليل وبرهان قوى لو تعلمون وجهه لاعترفتم بمدلوله وهو التوحيد والقدرة على الحشر وذلك لان دلالة اختصاص الكواكب بمواضعها فى غاية الظهور ولايلزم الفلاسفة دليل اظهر منه واما المعنوية (فالمسئلة الاولى) ماالمقسم عليه نقول فيه وجهان (الاول) القرآن كانوا يجعلونه تارة شعرا وأخرى سحرا وغير ذلك (وثانيهما) هو التوحيد والحشر وهو أظهر وقوله لقرآن ابتداء كلام وسنبين ذلك (المسئلة الثانية) ماالفائدة فى وصفه بالعظيم فى قوله وانه لقسم فنقول لما قال لاأقسم وكان معناه لاأقسم بهذا لوضوح المقسم به عليه قال لست تاركا للقسم بهذا لانه ليس بقسم اوليس بقسم عظيم بل هو قسم عظيم ولاأقسم به بل بأعظم منه أقسم لجزمى بالامر وعلمى بحقيقته (المسئلة الثالثة) اليمين فى أكثر الامر توصف بالمغلظة والعظم يقال فى المقسم حلف فلان بالايمان العظام ثم تقول فى حقه يمين مغلظة لان

(آثامها)

آثامها كبيرة واما في حق الله عزوجل فبالعظيم وذلك هو المناسب لان معناه هو الذى قرب قوله من كل قلب وملأ الصدر بالرعب لما بينا ان معنى العظيم فيه ذلك كما ان الجسم العظيم هو الذى قرب من اشياء عظيمة وملأ اماكن كثيرة من العظم كذلك العظيم الذى ليس بجسم قرب من امور كثيرة وملأ صدورا كثيرة ❊ ثم قال تعالى (انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون تنزيل من رب العالمين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الضمير فى قوله تعالى انه عائد الى ماذا فنقول فيه وجهان (احدهما) الى معلوم وهو الكلام الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وكان معروفا عند الكل وكان الكفار يقولون انه شعر وانه سحر فقال تعالى رداعليهم انه لقرآن (ثانيهما) عائد الى مذكور وهو جميع ماسبق فى سورة الواقعة من التوحيد والحشر والدلائل المذكورة عليهما والقسم الذى قال فيه وانه لقسم وذلك لانهم قالوا هذا كله كلام محمد ومخترع من عنده فقال انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون (المسئلة الثانية) القرآن مصدر او اسم غير مصدر فنقول فيه وجهان (احدهما) مصدر أريد به المفعول وهو المقروء ومثله فى قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وهذا كما يقال فى الجسم العظيم انظر الى قدرة الله تعالى اى مقدوره وهو كما فى قوله تعالى هذا خلق الله فأرونى (ثانيهما) اسم لما يقرأ كالقربان لما يتقرب به والحلوان لما يحلى به فم المكارى أو الكاهن وعلى هذا سنبين فساد قول من رد على الفقهاء قولهم فى باب الزكاة يعطى شيئا اعلى مما وجب ويأخذ الجبران او يعطى شيئا دونه ويعطى الجبران ايضا حيث قال الجبران مصدر لا يؤخذ ولا يعطى فيقال له هو كالقرآن بمعنى المقروء ويجوز ان يقال لما اخذ جابر اومجبورا ويقال هو اسم لما يجبر به كالقربان (المسئلة الثالثة) اذا كان هذا الكلام للرد على المشركين فهم ماكانوا ينكرون كونه مقروأ فالفائدة فى قوله انه لقرآن نقول فيه وجهان (احدهما) انه اخبار عن الكل وهو قوله قرآن كريم فهم كانوا ينكرون كونه قرآنا كريما وهم ماكانوا يقرون به (وثانيهما) وهو احسن من الاول انهم قالوا هو مخترع من عنده وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول انه مسموع سمعته وتلوته عليكم فما كان القرآن عندهم مقروأ وما كانوا يقولون ان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن وفرق بين القراءة والانشاء فلما قال انه لقرآن اثبت كونه مقروأ على النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ ويتلى فقال تعالى انه لقرآن سماه قرآنا لكثرة ماقرئ ويقرأ الى الابد بعضه فى الدنيا وبعضه فى الآخرة (المسئلة الرابعة) قوله كريم فيه لطيفة وهى ان الكلام اذا قرئ كثيرا يهون فى الاعين والآذان ولهذا ترى من قال شيئا فى مجلس الملوك لا يذكره ثانيا ولو قيل فيه يقال لقائله لم تكرر هذا ثم انه تعالى لما قال انه لقرآن اى مقروء قرئ ويقرأ قال كريم اى لا يهون بكثرة التلاوة ويبقى ابد الدهر كالكلام الغض والحديث الطرى ومن هنا يقع ان وصف القرآن بالحديث مع انه قديم يستمد من هذا مددا فهو قديم يسمعه السامعون كأنه

الذى هو قوله تعالى (انه لقرآن كريم) اى كثير النفع لاشتماله على اصول العلوم المهمة فى صلاح المعاش والمعاد اوحسن مرضى اوكريم عند الله تعالى وبقوله تعالى لو تعلمون بين الموصوف وصفته وجواب لو اما متروك اريد به نفى علمهم او محذوف ثقة بظهوره اى لعظمتموه اولعملتم بموجبه

كلام الساعة وماقرع سمع الجماعة لان الملائكة الذين علموه قبل النبي بألوف من السنين اذا سمعوه من احدنا يلتذون به التذاذ السامع بكلام جديد لم يذكر له من قبل والكريم اسم جامع لصفات المدح قيل الكريم هو الذي كان طاهر الاصل وظاهر الفضل حتى ان من اصله غير زكي لايقال له كريم مطلقا بل يقال له كريم في نفسه ومن يكون زكي الاصل غير زكي النفس لايقال له كريم الامع تقييد فيقال هو كريم الاصل لكنه خسيس في نفسه ثم ان السخي المجرد هو الذي يكثر عطاؤه للناس اويسهل عطاؤه ويسمى كريما وان لم يكن له فضل آخر لاعلى الحقيقة ولكن ذلك لسبب وهو ان الناس يحبون من يعطيهم ويفرحون بمن يعطي اكثر ممايفرحون بغيره فاذا رأوا زاهدا أو عالما لايسمونه كريما ويؤيد هذا انهم اذا رأوا واحدا لايطلب منهم شيئا يسمونه كريم النفس لمجرد تركه الاستعطاء لما ان الاخذ منهم صعب عليهم وهذا كله في العادة الرديئة واما في الاصل فيقال الكريم هو الذي استجمع فيه ماينبغي من طهارة الاصل وظهور الفضل ويدل على هذا ان السخي في معاملته ينبغي ان لايوجد منه مايقال بسببه انه لئيم فالقرآن ايضا كريم بمعنى طاهر الاصل ظاهر الفضل لفظه فصيح ومعناه صحيح لكن القرآن ايضا كريم على مفهوم العوام فان كل من طلب منه شيئا اعطاه فالفقيه يستدل به ويأخذ منه والحكيم يستمد به ويحتج به والاديب يستفيد منه ويتقوى به والله تعالى وصف القرآن بكونه كريما وبكونه عزيزا وبكونه حكيما فلكونه كريما كل من اقبل عليه نال منه مايريده فان كثيرا من الناس لايفهم من العلوم شيئا واذا اشتغل بالقرآن سهل عليه حفظه وقلما يرى شخص يحفظ كتابا يقرؤه بحيث لايغير منه كلمة بكلمة ولايبدل حرفا بحرف وجميع القراء يقرؤن القرآن من غير توقف ولاتبديل ولكونه عزيزا ان كل من يعرض عنه لايبقى معه منه شئ بخلاف سائر الكتب فان من قرأ كتابا وحفظه ثم تركه يتعلق بقلبه معناه حتى ينقله صحيحا والقرآن من تركه لايبقى معه منه شئ لعزته ولايثبت عند من لايلزمه بالحفظ ولكونه حكيما من اشتغل به واقبل عليه بالقلب اغناه عن سائر العلوم * قوله تعالى في كتاب جعله شيئا مظروفا بكتاب فاذلك نقول فيه وجهان (احدهما) المظروف القرآن اي هو قرآن في كتاب كما يقال فلان رجل كريم في بيته لايشك السامع ان مراد القائل انه في الدار قاعد ولايريد به انه كريم اذا كان في الدار وغير كريم اذا كان خارجا ولايشك ايضا انه لايريد به انه كريم في بيته بل المراد انه رجل كريم وهو في البيت فكذلك ههنا القرآن كريم وهو في كتاب او المظروف كريم على معنى انه كريم في كتاب كما يقال فلان رجل كريم في نفسه فيفهم كل احد ان القائل لم يجعله رجلا مظروفا فان القائل لم يرد انه رجل في نفسه قاعد او نائم وانما اراد به انه كريم كرمه في نفسه فكذلك قرآن كريم فالقرآن كريم في اللوح المحفوظ وان لم يكن كريما عند الكفار (ثانيهما) المظروف هو مجموع قوله تعالى قرآن كريم اي هو كذا في كتاب كما يقال وماادراك ماعليون في كتاب الله تعالى والمراد حينئذ انه في اللوح المحفوظ نعته مكتوب

(في كتاب مكنون) اي مصون من غير المقربين من الملائكة لايطلع عليه من سواهم وهو اللوح

(انه)

انه قرآن كريم والكل صحيح والاول ابلغ فى التعظيم بالمقروء السماوى (المسئلة الخامسة) ماالمراد من الكتاب نقول فيه وجوه (الاول) وهو الاصح انه اللوح المحفوظ ويدل عليه قوله تعالى بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ (الثانى) الكتاب هو المصحف (الثالث) كتاب من الكتب المنزلة فهو قرآن فى التوراة والانجيل وغيرهما فان قيل كيف سمى الكتاب كتابا والكتاب فعال وهو اذا كان للواحد فهو امامصدر كالحساب والقيام وغيرهما اواسم لمايكتب كاللباس واللثام وغيرهما فكيفما كان فالقرآن لايكون فى كتاب بمعنى المصدر ولايكون فى مكتوب وانمايكون مكتوبا فى لوح اوورق فالمكتوب لايكون فى الكتاب انمايكون فى القرطاس نقول ماذكرت من الموازين يدل على ان الكتاب ليس المكتوب ولاهو المكتوب فيه او المكتوب عليه فان اللثام مايلثم به والصوان مايصان فيه الثوب لكن اللوح لم يكن الا الذى يكتب فيه صح تسميته كتابا (المسئلة السادسة) المكنون هو المستور قال الله تعالى كامثال اللؤلؤ المكنون وقال بعض مكنون فان كان المراد من الكتاب اللوح فهو ليس بمستور وانما الشئ فيه منشور وان كان المراد هو المصحف فعدم كونه مكنونا مستورا ظاهر فكيف الجواب عنه فنقول المكنون المحفوظ اذا كان غير عزيز يحفظ بالعين وهو ظاهر للناس فاذا كان شريفا عزيزا لايكتفى بالصون والحفظ بالعين بل يستر عن العيون ثم كلما تزداد عزته يزداد ستره فتارة يكون مخزونا ثم يجعل مدفونا فالستر صار كاللازم للصون البالغ فقال مكنون اى محفوظ غاية الحفظ فذكر اللازم وأراد الملزوم وهو باب من الكلام الفصيح تقول مثلا فلان كبريت احمر اى قليل الوجود (والجواب الثانى) ان اللوح المحفوظ مستور عن العين لايطلع عليه الاملائكة مخصوصون ولاينظر اليه الاقوم مطهرون واما القرآن فهو مكتوب مستور ابدالدهر عن اعين المبدلين مصون عن ايدى المحرفين فان قيل فما فائدة كونه فى كتاب وكل مقروء فى كتاب نقول هو لتأكيد الرد على الكفار لانهم كانوا يقولون انه مخترع من عنده مفترى فلما قال مقروء عليه اندفع كلامهم ثم انهم قالوا ان كان مقروأ عليه فهو كلام الجن فقال فى كتاب اى لم ينزل به عليه الملك الا بعدما اخذه من كتاب فهو ليس بكلام الملائكة فضلا عن ان يكون كلام الجن واما اذا قلنا اذا كان كريما فهو فى كتاب ففائدته ظاهرة واما فائدة كونه فى كتاب مكنون فيكون ردا على من قال انه اساطير الاولين فى كتب ظاهرة اى فلم لايطالعوها الكفار ولم لايطلعون عليه لا بل هو فى كتاب مكنون لايمسه الا المطهرون فاذا بين فيما ذكرنا ان وصفه بكونه قرآنا صار ردا على من قال يذكره من عنده وقوله فى كتاب رد على من قال يتلوه عليه الجن حيث اعترف بكونه مقروأ ونازع فى شئ آخر وقوله مكنون رد على من قال انه مقروء فى كتاب لكنه من اساطير الاولين (المسئلة السابعة) لايمسه الضمير عائد الى الكتاب على الصحيح ويحتمل ان يقال هو عائد الى ماعاد اليه المضمر من قوله انه ومعناه لايمس القرآن الا المطهرون

(لايمسه الاالمطهرون) اماصفة اخرى لكتاب فالمراد بالمطهرين الملائكة المنزهون عن الكدورات الجسمانية واوضار الاوزار او للقرآن فالمراد بهم المطهرون من الاحداث

والصيغة اخبار لكن الخلاف في انه هل هو بمعنى النهي كما ان قوله تعالى والمطلقات يتربصن اخبار بمعنى الامر فمن قال المراد من الكتاب اللوح المحفوظ وهو الاصح على ما بينا قال هو اخبار معنى كما هو اخبار لفظا اذا قلنا ان المضمر في يمسه للكتاب ومن قال المراد المصحف اختلف في قوله وفيه وجه ضعيف نقله ابن عطية انه نهي لفظا ومعنى وجلبت اليه ضمة الهاء لا للاعراب ولا وجه له (المسئلة الثامنة) اذا كان الاصح ان المراد من الكتاب اللوح المحفوظ فالصحيح ان الضمير في لا يمسه للكتاب فكيف يصح قول الشافعي رحمه الله تعالى عليه لا يجوز مس المصحف للمحدث نقول الظاهر انه ما اخذه من صريح الآية ولعله اخذه من السنة فان النبي صلى الله عليه وسلم كتب الى عمرو بن حزم لا يمس القرآن من هو على غير طهر او اخذه من الآية على طريق الاستنباط وقال ان المس بطهر صفة من الصفات الدالة على التعظيم والمس بغير طهور نوع اهانة في المعنى وذلك لان الاضداد ينبغي ان تقابل بالاضداد فالمس بالطهر في مقابلة المس على غير طهر وترك المس خروج عن كل واحدة منهما فكذلك الاكرام في مقابلة الاهانة وهناك شيء لا اكرام ولا اهانة فنقول ان من لا يمس المصحف لا يكون مكرما ولا مهينا وبترك المس خرج عن الضدين ففي المس على الطهر التعظيم وفي المس على الحدث الاهانة فلا تجوز وهو معنى دقيق يليق بالشافعي رحمه الله ومن يقرب منه في الدرجة (ثم ان هنا لطيفة فقهية) لاحت لهذا الضعيف في حال تفكره في تفسير هذه الآية فأراد تقييدها هنا فانها من فضل الله فيجب على اكرامها بالتقييد بالكتاب وهي ان الشافعي رحمه الله منع المحدث والجنب من مس المصحف وجعلهما غير مطهرين ثم منع الجنب عن قراءة القرآن ولم يمنع المحدث وهو استنباط منه من كلام الله تعالى وذلك لان الله تعالى منعه عن المسجد بصريح قوله ولا جنبا فدل ذلك على انه ليس اهلا للذكر لانه لو كان اهلا للذكر لما منعه من دخول المسجد لانه تعالى اذن لاهل الذكر في الدخول بقوله تعالى في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه الآية والمأذون في الذكر في المسجد مأذون في دخول المسجد ضرورة فلو كان الجنب اهلا للذكر لما كان ممنوعا عن دخول المسجد والمكث فيه وانه ممنوع عنهما وعن احدهما واما المحدث فعلم انه غير ممنوع عن دخول المسجد فان من الصحابة من كان يدخل المسجد وجوز النبي صلى الله عليه وسلم نوم القوم في المسجد وليس النوم حدثا اذ النوم الخاص يلزمه الحكم بالحدث على اختلاف بين الائمة وما لم يكن ممنوعا من دخول المسجد لم يثبت كونه غير اهل للذكر فجاز له القراءة فان قيل وكان ينبغي ان لا يجوز للجنب ان يسبح ويستغفر لانه ذكر نقول القرآن هو الذكر المطلق قال الله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقال الله تعالى والقرآن ذي الذكر وقوله يذكر فيها اسمه مع انا نعلم ان المسجد يسمى مسجدا ومسجد القوم محل السجود والمراد منه الصلاة والذكر الواجب في الصلاة هو القرآن فالقرآن مفهوم من قوله يذكر فيها اسمه ومن حيث المعقول هو

فيكون نفيا بمعنى النهي اي لا ينبغي ان يمسه الا من كان على طهارة من الناس على طريقة قوله عليه الصلاة والسلام المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه اي لا ينبغي له ان

ان غير القرآن ربما يذكر مريدا به معناه فيكون كلاما غير ذكر فان من قال استغفر الله اخبر عن نفسه بأمر ومن قال لاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم كذلك اخبر عن امر كائن بخلاف من قال قل هو الله احد فانه ليس بمتكلم به بل هو قائل له غير آمر لغيره بالقول فالقرآن هو الذكر الذى لايكون الا على قصد الذكر لا على قصد الكلام فهو الذكر المطلق وغيره قد يكون ذكرا وقد لايكون فان قيل فاذا قال ادخلوها بسلام وأراد الاخبار ينبغى ان لايكون قرآنا وذكرا نقول هو فى نفسه قرآن ومن ذكره على قصد الاخبار وأراد الامر والاذن فى الدخول يخرج عن كونه قارئا للقرآن وان كان لايخرج عن كونه قرأنا ولهذا نقول نحن ببطلان صلاته ولو كان قارئا لما بطلت وهذا جواب فيه لطف ينبغى ان يتنبه له المطالع لهذا الكتاب وذلك من حيث انى فرقت بين ان يقال ليس قول القائل ادخلوها بسلام على قصد الاذن قرآنا وبين قوله ليس القائل ادخلوها بسلام على غير قصد بقارئ للقرآن واما الجواب من حيث المقول فهو ان العبادة على منافاة الشهوة والشهوة اما شهوة البطن واما شهوة الفرج فى اكثر الامر فان احدا لايخلو عنها وان لم يشته شيئا آخر من المأكول والمشروب والمنكوح لكن شهوة البطن قد لاتبقى شهوة بل تصير حاجة عند الجوع وضرورة عند الخوف ولهذا قال تعالى ولحم طير مما يشتهون اى لايكون لحاجة ولاضرورة بل لمجرد الشهوة وقد بيناه فى هذه السورة واما شهوة الفرج فلا تخرج عن كونها شهوة وان خرجت تكون فى محل الحاجة لا الضرورة فلا يعلم ان شهوة الفرج ليست شهوة محضة والعبادة فيها منضمة للشهوة فلم تخرج شهوة الفرج عن كونها عبادة بدنية قط بل حكم الشارع ببطلان الحج به وبطلان الصوم والصلاة واما قضاء شهوة البطن فلما لم يكن شهوة مجردة بطل به الصلاة والصوم دون الحج وربما لم تبطل به الصلاة ايضا اذا ثبت هذا فنقول خروج الخارج دليل قضاء الشهوة البطنية وخروج المنى دليل قضاء الشهوة الفرجية فواجب بهما تطهير النفس لكن الظاهر والباطن متحاذيان فامر الله تعالى بتطهير الظاهر عند الحدث والانزال لموافقة الباطن والانسان اذا كان له بصيرة وينظر فى تطهير باطنه عند الاغتسال للجنابة فانه يجد خفة ورغبة فى الصلاة والذكر (وهنا تتمة لهذه اللطيفة) وهى ان قائلا لو قال لو صح قولك للزم ان يجب الوضوء بالاكل كما يجب بالحدث لان الاكل قضاء الشهوة وهذا كان الاغتسال لما وجب بالانزال لكونه دليل قضاء الشهوة وكذا بالايلاج لكونه قضاء بالايلاج فكذلك الاحداث والاكل فنقول ههنا سر مكنون وهو ما بيناه ان الاكل قد يكون لحاجة وضرورة فنقول الاكل لايعلم كونه للشهوة الا بعلامة فاذا احدث علم انه اكل ولا يعلم كونه للشهوة واما الايلاج فلا يكون للحاجة ولايكون للضرورة فهو شهوة كيفما كان فناط الشارع ايجاب التطهير بدليلين (احدهما) قوله صلى الله عليه وسلم انما الماء من الماء فان الانزال كالاحداث وكما ان الحدث هو الخارج وهو

يطلبه اويسله الى من يطلبه وقيل لايطلبه الا المطهرون من الكفر وقرئ المتطهرون والمطهرون بالادغام والمطهرون من اطهره بمعنى طهره والمطهرون اى انفسهم

اصل فى ايجاب الوضوء كذلك ينبغى ان يكون الانزال الذى هو الخروج هو الاصل فى ايجاب الغسل فان عنده يتبين قضاء الحاجة والشهوة فان الانسان بعد الانزال لايشتهى الجماع فى الظاهر (وثانيهما) ماروى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم الوضوء من اكل مامسته النار فان ذلك دليل قضاء الشهوة كما ان خروج الحدث دليله وذلك لان المضطر لايصبر الى ان يستوى الطعام بالنار بل يأ كل كيفما كان فأ كل الشئ بعد الطبخ دليل على انه قاض به الشهوة لادافع به الضرورة ونعود الى الجواب عن السؤال ونقول اذا تبين هذا فالشافعى رضى الله عنه قضى بأن شهوة الفرج شهوة محضة فلا تجامع العبادة الجنابة فلا ينبغى ان يقرأ الجنب القرآن والمحدث يجوز له ان يقرأ لان الحدث ليس يكون عن شهوة محضة (المسئلة التاسعة) قوله الا المطهرون هم الملائكة طهرهم الله فى اول امرهم وابقاهم كذلك طول عمرهم ولو كان المراد نفى الحدث لقال لايمسه الا المتطهرون او المطهرون بتشديد الطاء والهاء والقراءة المشهورة الصحيحة المطهرون من التطهير لا من الاطهار وعلى هذا يتأيد ماذكرنا من وجه آخر وذلك من حيث ان بعضهم كان يقول هو من السماء ينزل به الجن ويلقيه عليه كما كانوا يقولون فى حق الكهنة فانهم كانوا يقولون النبى صلى الله عليه وسلم كاهن فقال لايمسه الجن وانما يمسه المطهرون الذين طهروا عن الخبث ولا يكونون محلا للافساد والسفك فلا يفسدون ولا يسفكون وغيرهم ليس بمطهر على هذا الوجه فيكون هذا ردا على القائلين بكونه مفتريا وبكونه شاعرا او بكونه مجنونا بمس الجن وبكونه كاهنا وكل ذلك قولهم والكل رد عليهم بماذكر الله تعالى ههنا من اوصاف كتاب الله العزيز (المسئلة العاشرة) قوله تنزيل من رب العالمين مصدر والقرآن الذى فى كتاب ليس تنزيلا انما هو منزل كما قال تعالى نزل به الروح الامين نقول ذكر المصدر وارادة المفعول كثير كما قلنا فى قوله تعالى هذا خلق الله فان قيل مافائدة العدول عن الحقيقة الى المجاز فى هذا الموضع فنقول التنزيل والمنزل كلاهما مفعولان ولهما تعلق بالفاعل لكن تعلق الفاعل بالمصدر اكثر وتعلق المفعول عبارة عن الوصف القائم به فنقول هذا فى الكلام فان كلام الله ايضا وصف قائم بالله عندنا وانما نقول من حيث الصيغة واللفظ ولك ان تنظر فى مثال آخر ليتيسر لك الامر من غير غلط وخطأ فى الاعتقاد فنقول فى القدرة والمقدور تعلق القدرة بالفاعل ابلغ من تعلق المقدور فان القدرة فى القادر والمقدور ليس فيه فاذا قال هذا قدرة الله تعالى كان له من العظمة مالا يكون فى قوله هذا مقدور الله لان عظمة الشئ بعظمة الله فاذا جعلت الشئ قائما بالتعظيم غير مباين عنه كان اعظم واذا ذكرته بلفظ يقال مثله فيما لا يقوم بالله وهو المفعول به كان دونه فقال تنزيل ولم يقل منزل ثم ان ههنا بلاغة اخرى وهى ان المفعول قد يذكر ويراد به المصدر على ضد ماذكرنا كما فى قوله مدخل صدق اى دخول صدق او ادخال صدق وقال تعالى كل ممزق اى تمزيق فالممزق بمعنى التمزيق كالمنزل بمعنى التنزيل وعلى

اوغيرهم بالاستغفار اوغيره (تنزيل من رب العالمين) صفة أخرى للقرآن وهو مصدر نعت به حتى جرى مجرى اسمه وقرئ تنزيلا

العكس سواء وهذه البلاغة هي ان الفعل لايرى والمفعول به يصير مرئيا والمرئي أقوى في العلم فيقال مزقهم تمزيقا وهو فعل معلوم لكل احد علما بينا يبلغ درجة الرؤية ويصير التمزيق هنا كما صار الممزق ثابتا مرئيا والكلام يختلف بمواضع الكلام ويستخرج الموفق بتوفيق الله وقوله من رب العالمين ايضا لتعظيم القرآن لان الكلام يعظم بعظمة المتكلم ولهذا يقال لرسول الملك هذا كلام الملك اوكلامك وهذا كلام الملك الاعظم او كلام الملك الذي هو دونه اذا كان الرسول رسول ملوك فيعظم الكلام بقدر عظمة المتكلم فاذا قال من رب العالمين تبين منه عظمة لاعظمة مثلها وقد بينا تفسير العالم ومافيه من اللطائف وقوله تنزيل رد على طائفة أخرى وهم الذين يقولون انه في كتاب ولا يمسه الا المطهرون وهم الملائكة لكن الملك يأخذ ويعلم الناس من عنده ولايكون من الله تعالى وذلك ان طائفة من الروافض يقولون ان جبرائيل انزل على علي فنزل على محمد فقال تعالى هو من الله ليس باختيار الملك ايضا وعند هذا تبين الحق فعاد الى توبيخ الكفار

❊ فقال تعالى (أفبهذا الحديث انتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا اشارة الى ماذا فقول المشهور انه اشارة الى القرآن واطلاق الحديث في القرآن على الكلام القديم كثير بمعنى كونه اسما او وصفا فان الحديث اسم لما يتحدث به ووصف يوصف به مايتجدد فيقال امر حادث ورسم حديث اي جديد ويقال اعجبني حديث فلان وكلامه وقد بينا ان القرآن قديم له لذة الكلام الجديد والحديث الذي لم يسمع (الوجه الثاني) انه اشارة الى ماتحدثوا به من قبل في قوله تعالى وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا لمبعوثون أوآباؤنا الاولون وذلك لان الكلام مستقل منتظم فانه تعالى رد عليهم ذلك بقوله تعالى قل ان الاولين والآخرين وذكر الدليل عليهم بقوله نحن خلقناكم وبقوله افرأيتم ماتمنون افرأيتم ماتحرثون وأقسم بعد اقامة الدلائل بقوله فلا أقسم وبين ان ذلك كله اخبار من الله بقوله انه لقرآن ثم عاد الى كلامهم وقال أفبهذا الحديث الذي تتحدثون به أنتم مدهنون لاصحابكم تعلمون خلافه وتقولونه ام انتم به جازمون وعلى الاصرار عازمون وسنبين وجهه بتفسير المدهن وفيه وجهان (احدهما) ان المدهن المراد به المكذب قال الزجاج معناه أفبالقرآن أنتم تكذبون والتحقيق فيه ان الادهان تليين الكلام لاستمالة السامع من غير اعتقاد صحة الكلام من المتكلم كما ان العدو اذا عجز عن عدوه يقول له انا داعك ومثن عليك مداهنة وهو كاذب فصار استعمال المدهن في المكذب استعمالا ثانيا وهذا اذا قلنا ان الحديث هو القرآن (والوجه الثاني) المدهن هو الذي يلين في الكلام ويوافق باللسان وهو مصر على الخلاف فقال أنتم مدهنون فمنهم من يقول ان النبي كاذب وان الحشر محال وذلك لما هم عليه من حب الرياسة وتخافون انكم ان صدقتم ومنعتم ضعفاءكم عن الكفر يفوت عليكم من كسبكم ماتربحونه بسببهم فتجعلون رزقكم انكم تكذبون الرسل والاول عليه اكثر

(افبهذا الحديث) الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة لاعظامه واجلاله وهو القرآن الكريم (انتم مدهنون) اي متهاونون به كمن يدهن في الامر اي يلين جانبه ولايتصلب فيه تهاونا به (وتجعلون رزقكم) اي شكر رزقكم (انكم تكذبون) اي تضعون التكذيب موضع الشكر وقرئ وتجعلون شكركم انكم تكذبون اي تجعلون شكركم لنعمة القرآن انكم تكذبون به وقيل الرزق المطر والمعنى وتجعلون شكر مايرزقكم الله تعالى من الغيث انكم تكذبون بكونه من الله تعالى حيث تنسبونه الى الانواء والاول هو الاوفق لسياق النظم الكريم

المفسرين لكن الثانى مطابق لصريح اللفظ فان الحديث بكلامهم اولى و هو عبارة عن قولهم أئنا لمبعوثون و المدهن يبقى على حقيقته فانهم ما كانوا مدهنين بالقرآن وقول الزجاج مكذبون جاء بمده صريحا و اماقوله وتجعلون رزقكم انكم تكذبون ففيه وجوه (الاول) تجعلون شكر النعم انكم تقولون مطرنا بنوء كذا وهذا عليه اكثر المفسرين (والثانى) تجعلون معاشكم وكسبكم تكذيب محمد يقال فلان قطع الطريق معاشه والرزق فى الاصل مصدر سمى به مايرزق يقال للمأكول رزق كما يقال للمقدور قدرة والمخلوق خلق وعلى هذا فالتكذيب مصدر قصد به ما كانوا يحصلون به مقاصدهم واماقوله تكذبون فعلى الاول المراد تكذيبهم بما قال الله تعالى ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها وغير ذلك وعلى الثانى المراد جميع ماصدر منهم من التكذيب وهو اقرب الى اللفظ ۞ ثم قال تعالى (فلولا اذا بلغت الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون ونحن اقرب اليه منكم ولكن لاتبصرون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد من لولا معنى هلا من كلمات التحضيض وهى اربع كلمات لولا ولوما وهلا والا ويمكن ان يقال اصل الكلمات لم لا على السؤال كما يقول القائل ان كنت صادقا فلم لايظهر صدقك ثم انما قلنا الاصل لم لا لكونه استفهاما اشبه قولنا هلا ثم ان الاستفهام تارة يكون عن وجود الشئ واخرى عن سبب وجوده فيقال هل جاء زيد ولم جاء والاستفهام بهل قبل الاستفهام بلم ثم ان الاستفهام قد يستعمل للانكار وهو كثير ومنه قوله تعالى ههنا افبهذا الحديث انتم مدهنون وقوله اتدعون بعلا وتذرون وقوله تعالى أئفكا آلهة دون الله تريدون ونظائرها كثيرة وقد ذكرنا لك الحكمة فيه وهى ان النافى والناهى لايأمن ان يكذب المخاطب فعرض بالنفى لئلا يحتاج الى بيان النفى اذا ثبت هذا فالاستفهام بهل لانكار الفعل والاستفهام بلم لانكار سببه وبيان ذلك ان من قال لم فعلت كذا يشير الى انه لاسبب للفعل ويقول كان الفعل وقع من غير سبب الوقوع وهو غير جائز واذا قال هل فعلت ينكر نفس الفعل لا الفعل من غير سبب وكأنه فى الاول يقول لو وجد للفعل سبب لكان فعله اليق وفى الثانى يقول الفعل غير لائق ولو وجد له سبب (المسئلة الثانية) ان كل واحد منهما يقع فى صدر الكلام ويستدعى كلاما مركبا من كلامين فى الاصل اما فى هل فلان اصلها انك تستعملها فى جملتين فتقول هل جاء زيد او ماجاء لكنك ربما تحذف احديهما واما فى لو فانك تقول لو كان كذا لكان كذا وربما تحذف الجزاء كما ذكرنا فى قوله تعالى لو تعلمون لانه يشير بلو الى ان المنفى له دليل فاذا قال القائل لو كنتم تعلمون وقيل له لم لايعلمون قال انهم لو يعلمون لفعلوا كذا فدليله مستحضر ان طولب به بينة واذا ثبت ان النفى بلو والنفى بهل ابلغ من النفى بلا والنفى بقوله لم وان كان بينهما اشتراك معنى ولفظا وحكما وصارت كلمات التحضيض وهى لوما ولولا وهلا والا كما تقول لم لا فاذن قول القائل هل تفعل وانت عنه مستغن كقوله لم تفعل وهو قبيح وقوله هلا تفعل وانت اليه محتاج والا تفعل وانت اليه

(محتاج)

وسياقه فان قوله عز وجل (فلولا اذا بلغت الحلقوم) الخ تبكيت مبنى على تكذيبهم بالقرآن فيما نطق به قوله تعالى نحن خلقناكم الى هنا من القوارع الدالة على كونهم تحت ملكوته تعالى من حيث ذواتهم ومن حيث طعامهم وشرابهم وسائر اسباب معايشهم كما ستقف عليه ولولا للتحضيض لاظهار عجزهم واذا ظرفية اى فهلا اذا بلغت النفس اى الروح وقيل نفس احدكم الحلقوم وتداعت الى الخروج (وانتم حينئذ) ايها ايها الحاضرون حول صاحبها (تنظرون) الى ماهو فيه من الغمرات (ونحن اقرب اليه) علما وقدرة وتصرفا (منكم) حيث لا تعرفون من حاله الا ما تشاهدونه من آثار الشدة من غير ان تقفوا على كنهها وكيفيتها واسبابها ولا ان تقدروا على دفع ادنى شئ منها ونحن المتولون لتفاصيل احواله بعلمنا وقدرتنا او بملائكة الموت (ولكن لاتبصرون) لاتدركون بذلك لجهلكم بشؤننا

محتاج وقوله لولا ولوما كقوله لم لاتفعل ولم لافعلت فقد وجد فى الا زيادة نص لان نقل
اللفظ لايخلو من نص كما ان المعنى صار فيه زيادة ما على ما فى الاصل كما بيناه وقوله تعالى
فلولا اذا بلغت الحلقوم اى لم لايقولون عند الموت وهو وقت ظهور الامور وزمان اتفاق
الكلمات ولو كان مايقولونه حقا ظاهرا كما يزعمون لكان الواجب ان يشركوا عند النزع
وهذا اشارة الى ان كل احد يؤمن عند الموت لكن لم يقبل ايمان من لم يؤمن قبل فان قيل
ما سمع منهم الاعتراف وقت النزع بل يقولون نحن نكذب الرسل ايضا وقت بلوغ
النفس الى الحلقوم ونموت عليه فنقول هذه الآية بعينها اشارة وبشارة اما الاشارة فالى
الكفار واما البشارة فللرسل اما الاشارة وهى ان الله تعالى ذكر للكفار حالة لا يمكنهم
انكارها وهى حالة الموت فانهم وان كفروا بالحشر وهو الحياة بعد الموت لكنهم لم ينكروا
الموت وهو اظهر من كل ماهو من مثله فلا يشكون فى حالة النزع ولا يشكون فى ان فى ذلك
الوقت لا يبقى لهم لسان ينطق ولا انكار بعمل فتفوتهم قوة الاكتساب لايمانهم ولا يمكنهم
الاتيان بما يجب فيكون ذلك حثا لهم على تجديد النظر فى طلب الحق قبل تلك الحالة واما
البشارة فلأن الرسـل لما كذبوا وكذب مرسلهم صعب عليهم فبشروا بأن المكذبين
سيرجعون عما يقولون ثم هو ان كان قبل النزع فذلك مقبول والا فعند الموت وهو غير نافع
والضمير فى بلغت للنفس او الحياة او الروح وقوله وانتم حينئذ تنظرون تأكيد لبيان
الحق اى فى ذلك الوقت تصير الامور مرئية مشاهدة ينظر اليها كل من بلغ الى تلك الحالة
فان كان ما ذكرتم حقا كان ينبغى ان يكون فى ذلك الوقت وقد ذكرنا ان التحقيق فى حينئذ
فى قوله يومئذ فى سورة والطور واللفظ والمعنى متطابقان على ما ذكرنا لانهم كانوا يكذبون
بالرسل والحشر وصرح به الله فى هذه السورة عنهم حيث قال انهم كانوا يصرون على
الحنث العظيم وكانوا يقولون أئذا متنـا وهذا كالتصريح بالتكذيب لانهم ماكانوا
ينكرون ان الله تعالى منزل لكنهم كانوا يجعلون ايضا الكواكب من المنزلين واما المضمر
فذكره الله تعالى عند قوله أفرأيتم الماء الذى تشربون ثم قال أأنتم انزلتموه من المزن ام نحن
المنزلون بالواسطة وبالتفويض على ماهو مذهب المشركين او مذهب الفلاسفة وايضا
التفسـير المشهور محتاج الى اضمار تقدير أتجعلون شكر رزقكم واما جعل الرزق
بمعنى المعاش فأقرب يقال فلان رزقه فى لسانه ورزق فلان فى رجله ويده وايضا فقوله
تعـالى فلولا اذا بلغت الحلقوم متصل بما قبله لما بينا ان المراد انكم تكذبون الرسـل
فلم لاتكذبونهم وقت النزع لقوله تعـالى ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به
الارض من بعد موتها ليقولن الله فعلم انهم كذبوا كما قال النبى صلى الله عليه وسلم كذب
المنجمون ورب الكعبة ولم يكذبوا وهذا على قراءة من يقرأ تكذبون بالتخفيف واما
المدهن فعلى ما ذكرنا يبقى على الاصل ويوافقه ودوا لو تدهن فيدهنون فان المراد هنالك
ليس تكذب فيكذبون لانهم أرادوا النفاق لا التكذيب الظاهر ❊ ثم قال تعـالى (فلولا

ان كنتم غير مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اكثر المفسرين على ان لولا في المرة الثانية مكررة وهي بعينها هي التي قال تعالى فلولا اذا بلغت الحلقوم ولها جواب واحد وتقديره على ماقاله الزمخشري فلولا ترجعونها اذا بلغت الحلقوم اي ان كنتم غير مدينين وقال بعضهم هو كقوله تعالى فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم حيث جعل فلا خوف جزاء شرطين والظاهر خلاف ماقالوا وهو ان يقال جواب لولا في قوله فلولا اذا بلغت الحلقوم هو مايدل عليه ماسبق يعني تكذبون مدة حياتكم جاعلين التكذيب رزقكم ومعاشكم فلولا تكذبون وقت النزع وانتم في ذلك الوقت تعلمون الامور وتشاهدونها واما لولا في المرة الثانية فجوابها ترجعونها (المسئلة الثانية) في مدينين اقوال منهم من قال المراد مملوكين ومنهم من قال مجزيين وقال الزمخشري من دانه السلطان اذا ساسه ويحتمل ان يقال المراد غير مقيمين من مدن اذا أقام وهو حينئذ فعيل ومنه المدينة وجمعها مدائن من غير اظهار الياء ولو كانت مفعلة لكان جمعها مداين كمعايش باثبات الياء ووجهه ان يقال كان قوم ينكرون العذاب الدائم وقوم ينكرون العذاب ومن اعترف به كان ينكر دوامه ومثله قوله تعالى لن تمسنا النار الا أياما معدودة قيل ان كنتم على ماتقولون لاتبقون في العذاب الدائم فلم لاترجعون انفسكم الى الدنيا ان لم تكن الآخرة دار الاقامة واما على قوله مجزيين فالتفسير مثل هذا كأنه قال ستصدقون وقت النزع رسل الله في الحشر فان كنتم بعد ذلك غير مجزيين فلم لاترجعون انفسكم الى دنياكم فان التعويق للجزاء لا غير ولولا الجزاء لكنتم مختارين كما كنتم في دنياكم التي ليست دار الجزاء مختارين تكونون حيث تريدون من الاماكن واما على قولنا مملوكين من الملك ومنه المدينة للمملوكة فالامر اظهر بمعنى انكم اذا كنتم لستم تحت قدرة احد فلم لاترجعون انفسكم الى دار الدنيا كما كنتم في دنياكم التي ليست دار جزاء مع ان ذلك مشتهى انفسكم ومنى قلوبكم وكل ذلك عند التحقيق راجع الى كلام واحد وانهم كانوا يأخذون بقول الفلاسفة في بعض الاشياء دون بعض وكانوا يقولون بالطبائع وان الامطار من السحب وهي متولدة بأسباب فلكية والنبات كذلك والحيوان كذلك ولا اختيار لله في شيء وسواء عليه انكار الرسل والحشر فقال تعالى ان كان الامر كما يقولون فما بال الطبيعي الذي يدعي العلم لايقدر على ان يرجع النفس من الحلقوم مع ان في الطبع عنده امكان لذلك فان عندهم البقاء بالغذاء وزوال الامراض بالدواء واذا علم هذا فان قلنا غير مدينين معناه غير مملوكين رجع الى قولهم من انكار الاختيار وقلب الامور كما يشاء الله وان قلنا غير مقيمين فكذلك لان انكار الحشر بناء على القول بالطبع وان قلنا غير محاسبين ومجزيين فكذلك ثم لما بين ان الموت كائن والحشر بعده لازم بين مايكون بعد الحشر ليكون ذلك باعثا للمكلف على العمل الصالح وزاجرا للمتمرد عن العصيان والكذب ❊ فقال تعالى (فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم)

وقوله تعالى (فلولا ان كنتم غير مدينين) اي غير مربوبين من دان السلطان رعيته اذا ساسهم واستعبدهم ناظر الى قوله تعالى نحن خلقناكم فلولا تصدقون فان التحضيض يستدعي عدم المحضض عليه حتما وقوله تعالى (ترجعونها) اي النفس الى مقرها هو العامل في اذا والمحضض عليه بلولا الاولى والثانية مكررة للتأكيد وهي مع مافي حيزها دليل جواب الشرط والمعنى ان كنتم غير مربوبين كما ينبئ عنه عدم تصديقكم بخلقنا اياكم فهلا ترجعون النفس الى مقرها عند بلوغها الحلقوم (ان كنتم صادقين) في اعتقادكم فان عدم تصديقهم بخالقيته تعالى لهم عبارة عن تصديقهم بعدم خالقيته تعالى بموجب مذهبهم

هذا وجه تعلقه معنى واما تعلقه لفظا فنقول لما قال فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها وكان فيها ان رجوع الحياة والنفس الى البدن ليس تحت قدرتهم ولا رجوع لهم بعد الموت الى الدنيا صار كأنه قال انتم بعد الموت دائمون فى دار الاقامة ومجزيون فالمجزى ان كان من المقربين فله الروح والريحان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى معنى الروح وفيه وجوه (الاول) هو الرحمة قال تعالى ولا تيأسوا من روح الله اى من رحمة الله (الثانى) الراحة (الثالث) الفرح واصل الروح السعة ومنه الروح لسعة ما بين الرجلين دون الفحج وقرئ فروح بضم الراء بمعنى الرحمة (المسئلة الثانية) فى الكلام اضمار تقديره فله روح افصحت الفاء عنه لكون فاء الجزاء لربط الجملة بالشرط فعلم كونها جزاء وكذلك اذا كان امرا او نهيا او ماضيا لان الجزاء اذا كان مستقبلا يعلم كونه جزاء بالجزم الظاهر فى السمع والخط وهذه الاشياء التى ذكرت لا تحتمل الجزم اما غير الامر والنهى فظاهر واما الامر والنهى فلأن الجزم فيهما ليس لكونهما جزاءين فلا علامة للجزاء فيه فاختاروا الفاء فانها للترتيب امر على امر والجزاء مرتب على الشرط (المسئلة الثالثة) فى الريحان وقد تقدم تفسيره فى قوله تعالى ذو العصف والريحان ولكن ههنا فيه كلام فنهم من قال المراد ههنا ما هو المراد ثمة اما الورق واما الزهر واما النبات المعروف وعلى هذا فقد قيل ان ارواح اهل الجنة لا تخرج من الدنيا الا ويؤتى اليهم بريحان من الجنة يشمونه وقيل ان المراد ههنا غير ذلك وهو الخلود وقيل هو رضا الله تعالى عنهم فاذا قلنا الروح هو الرحمة فالآية كقوله تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم واما جنة نعيم فقد تقدم القول فيها عند تفسير السابقين فى قوله اولئك المقربون فى جنات النعيم وذكرنا فائدة التعريف هناك وفائدة التنكير ههنا (المسئلة الرابعة) ذكر فى حق المقربين امورا ثلاثة ههنا وفى قوله تعالى يبشرهم ربهم وذلك لانهم أتوا بامور ثلاثة وهى عقيدة حقة وكلمة طيبة واعمال حسنة فالقلب واللسان والجوارح كلها كانت مرتبة برحمة الله على عقيدته وكل من له عقيدة حقة يرحمه الله ويرزقه الله دائما وعلى الكلمة الطيبة وهى كلمة الشهادة وكل من قال لا اله الا الله فله رزق كريم والجنة له على اعماله الصالحة قال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله وقال ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى فان قيل فعلى هذا من اتى بالعقيدة الحقة ولم يأت بالكلمة الطيبة ينبغى ان يكون من اهل الرحمة ولا يرحم الله الا من قال لا اله الا الله نقول من كانت عقيدته حقة لابد وان يأتى بالقول الطيب فان لم يسمع لا يحكم به لان العقيدة لا اطلاع لنا عليها فالقول دليل لنا واما الله تعالى فهو عالم الاسرار ولهذا ورد فى الاخبار ان من الناس من يدفن فى مقابر الكفار ويحشر مع المؤمنين ومنهم من يدفن فى مقابر المسلمين ويحشر مع الكفار لا يقال ان من لا يعمل الاعمال الصالحة لا تكون له الجنة على ما ذكرت لانا نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان

وقوله تعالى (فاما ان كان من المقربين) الخ شروع فى بيان حال المتوفى بعد الممات اثر بيان حاله عند الوفاة اى فاما ان كان الذى بين حاله من السابقين من الازواج الثلاثة عبر عنهم بأجل اوصافهم (فروح) اى فله استراحة وقرئ فروح بضم الراء وفسر بالرحمة لانها سبب لحياة المرحوم وبالحياة الدائمة (وريحان) ورزق (وجنة نعيم) اى ذات تنعم

عقيدته الحقة وكلمته الطيبة لايتر كانه بلا عمل فهذا امر غير واقع وفرض غير جائز (وثانيهما) انا نقول من حيث الجزاء واما من قال لا اله الا الله فيدخل الجنة وان لم يعمل عملا لا على وجه الجزاء بل بمحض فضل الله من غير جزاء وان كان الجزاء ايضا من الفضل لكن من الفضل ما يكون كالصدقة المبتدأة ومن الفضل ما لا كما يعطى الملك الكريم آخر والمهدى اليه غير ملك لا يستحق هديته ولا رزقه ❊ ثم قال تعالى (واما ان كان من اصحاب اليمين فسلام لك من اصحاب اليمين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى السلام وفيه وجوه (اولها) يسلم به صاحب اليمين على صاحب اليمين كما قال تعالى من قبل لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما (ثانيها) فسلام لك اى سلامة لك من امر خاف قلبك منه فانه فى اعلى المراتب وهذا كما يقال لمن تعلق قلبه بولده الغائب عنه اذا كان يخدم عند كريم يقول له كن فارغا من جانب ولدك فانه فى راحة (ثالثها) ان هذه الجملة تفيد عظمة حالهم كما يقال فلان ناهيك به وحسبك انه فلان اشارة الى انه ممدوح فوق حد الفضل (المسئلة الثانية) الخطاب بقوله لك مع من نقول قد ظهر بعض ذلك فنقول يحتمل ان يكون المراد من الكلام النبى صلى الله عليه وسلم وحينئذ فيه وجه وهو ما ذكرنا ان ذلك تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم فانهم غير محتاجين الى شئ من الشفاعة وغيرها فسلام لك يا محمد منهم فانهم فى سلامة وعافية لا يهمك امرهم او فسلام لك يا محمد منهم وكونهم ممن يسلم على محمد صلى الله عليه وسلم دليل العظمة فان العظيم لا يسلم عليه الا الاعظم وعلى هذا ففيه لطيفة وهى ان النبى صلى الله عليه وسلم مكانته فوق مكانة اصحاب اليمين بالنسبة الى المقربين الذين هم فى عليين كاصحاب الجنة بالنسبة الى اهل عليين فلما قال واما ان كان من اصحاب اليمين كان فيه اشارة الى ان مكانهم غير مكان الاولين المقربين فقال تعالى هؤلاء وان كانوا دون الاولين لكن لا تنقطع بينهم المكالمة والتسليم بل هم يرونك ويصلون اليك وصول جليس الملك الى الملك والغائب الى اهله وولده واما المقربون فهم يلازمونك ولا يفارقونك وان كنت اعلى مرتبة منهم ❊ ثم قال تعالى (واما ان كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال ههنا من المكذبين الضالين وقال من قبل ثم انكم ايها الضالون المكذبون وقد بينا فائدة التقديم والتأخير هناك (المسئلة الثانية) ذكر الازواج الثلاثة فى اول السورة بعبارة واعادهم بعبارة اخرى فقال اصحاب الميمنة ثم قال اصحاب اليمين وقال اصحاب المشأمة ثم قال اصحاب الشمال واعادهم ههنا وفى المواضع الثلاثة ذكر اصحاب اليمين بلفظ واحد او بلفظين مرتين احدهما غير الآخر وذكر السابقين فى اول السورة بلفظ السابقين وفى آخر السورة بلفظ المقربين وذكر اصحاب النار فى الاول بلفظ اصحاب المشأمة ثم بلفظ اصحاب الشمال ثم بلفظ المكذبين فا الحكمة فيه نقول اما السابق فله حالتان احداهما فى الاولى والاخرى فى الآخرة فذكره فى المرة الاولى بما له فى الحالة الاولى وفى

(الثانية)

(واما ان كان من اصحاب اليمين) عبر عنهم بالعنوان السابق اذ لم يذكر لهم فيما سبق وصف واحد ينبئ عن شأنهم سواه كما ذكر للفريقين الآخرين وقوله تعالى (فسلام لك من اصحاب اليمين) اخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض كما يفصح عنه اللام لا حكاية انشاء سلام بعضهم على بعض والا لقيل عليك والالتفات الى خطاب كل واحد منهم للتشريف (واما ان كان من المكذبين الضالين) وهم اصحاب الشمال عبر عنهم بذلك حسبما وصفوا به عند بيان احوالهم بقوله تعالى ثم انكم ايها الضالون المكذبون ذما لهم بذلك واشعارا بسبب ما ابتلوا به من العذاب (فنزل) اى فله نزل كائن (من حميم) يشرب بعد اكل الزقوم كما فصل فيما قبل (وتصلية جحيم) اى ادخال فى النار وقيل اقامة فيها ومقاساة لالوان عذابها وقيل ذلك ما يجده فى القبر من سموم النار ودخانها

الثانية بماله في الحالة الآخرة وليس له حالة هي واسطة بين الوقوف للعرض وبين الحساب بل هو ينقل من الدنيا الى اعلى عليين ثم ذكر اصحاب اليمين بلفظين متقاربين لان حالهم قريبة من حال السابقين وذكر الكفار بالفاظ ثلاثة كأنهم في الدنيا ضحكوا عليهم بأنهم اصحاب موضع شؤم فوصفوهم بموضع الشؤم فان المشأمة مفعلة وهي الموضع ثم قال اصحاب الشمال فانهم في الآخرة يؤتون كتابهم بشمالهم ويقفون في موضع هو شمال لاجل كونهم من اهل النار ثم انه تعالى لما ذكر حالهم في اول الحشر بكونهم من اصحاب الشمال ذكر مايكون لهم من السموم والحميم ثم لم يقتصر عليه ثم ذكر السبب فيه فقال انهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون فذكر سبب العقاب لما بينا مرارا ان العادل يذكر للعقاب سببا والمتفضل لايذكر للانعام والتفضل سببا فذكرهم في الآخرة ماعملوه في الدنيا فقال واما ان كان من المكذبين ليكون ترتيب العقاب على تكذيب الكتاب فظهر العدل وغير ذلك ظاهر ❊ ثم قال تعالى (ان هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) هذا اشارة الى ماذا نقول فيه وجوه (احدها) القرآن (ثانيها) ماذكره في السورة (ثالثها) جزاء الازواج الثلاثة (المسئلة الثانية) كيف اضاف الحق الى اليقين مع انهما بمعنى واحد نقول فيه وجوه (احدها) هذه الاضافة كما اضاف الجانب الى الغربي في قوله وما كنت بجانب الغربي واضاف الدار الى الآخرة في قوله ولدار الآخرة غير ان المقدر هنا غير ظاهر فان شرط ذلك ان يكون بحيث يوصف باليقين ويضاف اليه الحق ومايوصف باليقين بعد اضافة الحق اليه (وثانيها) انه من الاضافة التي بمعنى من كما يقال باب من ساج وباب ساج وخاتم من فضة وخاتم فضة فكأنه قال لهو الحق من اليقين (ثالثها) وهو اقرب منها ماذكره ابن عطية ان ذلك نوع تأكيد يقال هذا من حق الحق وصواب الصواب اي غايته ونهايته التي لاوصول فوقه والذي وقع في تقرير هذا ان الانسان اظهر ماعنده الانوار المدركة بالحس وتلك الانوار اكثرها مشوبة بغيرها فاذا وصل الطالب الى اوله يقول وجدت امر كذا ثم انه مع صحة اطلاق اللفظ عليه لايتميز عن غيره فيتوسط الطالب ويأخذ مطلوبه من وسطه مثاله من يطلب الماء ثم يصل الى بركة عظيمة فاذا اخذ من طرفه شيئا يقول هو ماء وربما يقول قائل آخر هذا ليس بماء وانما هو طين واما الماء ماأخذته من وسط البركة فالذي في طرف البركة ماء بالنسبة الى اجسام اخرى ثم اذا نسب الى الماء الصافي ربما يقال له شيء آخر فاذا قال هذا هو الماء حقا يكون قد اكد وله ان يقول هذا حق الماء اي الماء حقا بحيث لايقول احد فيه شيء فكذلك ههنا كأنه قال هذا هو اليقين حقا لا اليقين الذي يقول بعض الناس انه ليس بيقين ويحتمل وجها آخر وهو ان يقال الاضافة على حقيقتها ومعناه ان هذا القول لك يامحمد وللمؤمنين وحق اليقين ان تقول كذا ويقرب من هذا مايقال حق الكمال ان يصلي المؤمن وهذا كما قيل في قوله صلى الله عليه وسلم امرت ان

(ان هذا) اي الذي ذكر في السورة الكريمة (لهو حق اليقين) اي حق الخبر اليقين وقيل الحق الثابت من اليقين والفاء في قوله تعالى (فسبح باسم ربك العظيم) لترتيب التسبيح او الامر به على ماقبلها فان حقيقة مافصل في تضاعيف السورة الكريمة مما يوجب تنزيهه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل من الامور التي من جملتها الاشراك به والتكذيب بآياته الناطقة بالحق * عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة ابدا

اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها ان الضمير راجع الى الكلمة اى الا بحق الكلمة ومن حق الكلمة اداء الزكاة والصلاة فكذلك حق اليقين ان يعرف ماقاله الله تعالى فى الواقعة او فى حق الازواج الثلاثة وعلى هذا معناه ان اليقين لايحق ولا يكون الا اذا صدق فيما قاله بحق فالتصديق حق اليقين الذى يستحقه واما قوله فسبح باسم ربك العظيم فقد تقدم تفسيره وقلنا انه تعالى لما بين الحق وامتنع الكفار قال لنبيه صلى الله عليه وسلم هذا هو حق فان امتنعوا فلا تتركهم ولا تعرض عنهم وسبح ربك فى نفسك وما عليك من قومك سواء صدقوك او كذبوك ويحتمل ان يكون المراد فسبح واذكر ربك باسمه الاعظم وهذا متصل بما بعده لانه قال فى السورة التى تلى هذه سبح لله ما فى السموات فكأنه قال سبح لله ما فى السموات فعليك ان توافقهم ولا تلتفت الى الشرذمة القليلة الضالة فان كل شئ معك يسبح الله عز وجل * تم تفسير السورة والله اعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(سورة الحديد وهى تسع وعشرون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبح لله ما فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) التسبيح تبعيد الله تعالى من السوء وكذا التقديس من سبح فى الماء وقدس فى الارض اذا ذهب فيهما وابعد واعلم ان التسبيح عن السوء يدخل فيه تبعيد الذات عن السوء وتبعيد الصفات وتبعيد الافعال وتبعيد الاسماء وتبعيد الاحكام اما فى الذات فان لاتكون محلا للامكان فان السوء هو العدم وامكانه ثم نفى الامكان يستلزم نفى الكثرة ونفيها يستلزم نفى الجسمية والعرضية ونفى الضد والند وحصول الوحدة المطلقة واما فى الصفات فان يكون منزها عن الجهل بأن يكون محيطا بكل المعلومات ويكون قادرا على كل المقدورات وتكون صفاته منزهة عن التغيرات واما فى الافعال فان لاتكون فاعليته موقوفة على مادة ومثال لان كل مادة ومثال فهو فعله لما بينا ان كل ماعداه فهو ممكن وكل ممكن فهو فعله فلو افتقرت فاعليته الى مادة ومثال لزم التسلسل وغيره موقوفة على زمان ومكان لان كل زمان فهو مركب من اجزاء منقضية فيكون ممكنا وكل مكان فهو بعد ممكن مركب من افراد الاحياز فيكون كل واحد منهما ممكنا ومحدثا فلو افتقرت فاعليته الى زمان والى مكان لافتقرت فاعلية الزمان والمكان الى زمان ومكان فيلزم التسلسل وغير موقوفة على جلب منفعة ولا دفع مضرة والا لكان مستكملا بغيره ناقصا فى ذاته وذلك محال واما فى الاسماء فكما قال ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها واما فى الاحكام فهو ان كل ماشرعه فهو مصلحة واحسان وخير وان كونه فضلا وخيرا ليس على سبيل الوجوب عليه بل على سبيل الاحسان وبالجملة يجب ان يعلم من هذا الباب ان حكمه وتكليفه لازم لكل احد وانه ليس لأحد عليه حكم ولا تكليف ولا يجب لاحد عليه شئ

(اصلا)

* (سورة الحديد مكية وقيل مدنية وآيها تسع وعشرون) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(سبح لله ما فى السموات والارض) التسبيح تنزيه الله تعالى اعتقادا وقولا وعملا عما لايليق بجنابه سبحانه من سبح فى الارض والماء اذا ذهب وابعد فيهما وحيث اسند ههنا الى غير العقلاء ايضا فان ما فى السموات والارض يعم جميع مافيهما سواء كان مستقرا فيهما او جزأ منهما كما مر فى آية الكرسى اريد به معنى عام مجازى شامل لما نطق به لسان المقال كتسبيح الملائكة والمؤمنين من الثقلين ولسان الحال كتسبيح غيرهم فان كل فرد من افراد الموجودات يدل بامكانه وحدوثه على الصانع القديم الواجب الوجود المتصف بالكمال المنزه عن النقصان

اصلا فهذا هو ضبط معاقد التسبيح (المسئلة الثانية) جاء في بعض الفواتح سبح على لفظ الماضي وفي بعضها على لفظ المضارع وذلك اشارة الى ان كون هذه الاشياء مسبحة غير مختص بوقت دون وقت بل هي كانت مسبحة ابدا في الماضي وتكون مسبحة ابدا في المستقبل وذلك لان كونها مسبحة صفة لازمة لماهياتها فيستحيل انفكاك تلك الماهيات عن ذلك التسبيح وانما قلنا ان هذه المسبحية صفة لازمة لماهياتها لان كل ماعدا الواجب ممكن وكل ممكن فهو مفتقر الى الواجب وكون الواجب واجبا يقتضي تنزيهه عن كل سوء في الذات والصفات والافعال والاحكام والاسماء على ما بيناه فظهر ان هذه المسبحية كانت حاصلة في الماضي وتكون حاصلة في المستقبل والله اعلم (المسئلة الثالثة) هذا الفعل تارة عدي باللام كما في هذه السورة واخرى بنفسه كما في قوله وتسبحوه بكرة واصيلا واصله التعدي بنفسه لان معنى سبحته بعدته عن السوء فاللام اما ان تكون مثل اللام في نصحته ونصحت له واما ان يراد بسبح لله احدث التسبيح لاجل الله وخالصا لوجهه (المسئلة الرابعة) زعم الزجاج ان المراد بهذا التسبيح التسبيح الذي هو القول * واحتج عليه بوجهين (الاول) انه تعالى قال وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم فلو كان المراد من التسبيح هو دلالة آثار الصنع على الصانع لكانوا يفقهونه (الثاني) انه تعالى قال وسخرنا مع داود الجبال يسبحن فلو كان تسبيحها عبارة عن دلالة الصنع على الصانع لما كان في ذلك تخصيص لداود عليه السلام * واعلم ان هذا الكلام ضعيف الحجتين (اما الاول) فلأن دلالة هذه الاجسام على تنزيه ذات الله وصفاته وافعاله من ادق الوجوه ولذلك فان العقلاء اختلفوا فيها فقوله ولكن لا تفقهون لعله اشارة الى اقوام جهلوا بهذه الدلالة وايضا فقوله لا تفقهون ان لم يكن اشارة الى جمع معين فهو خطاب مع الكل فكأنه قال كل هؤلاء ما فقهوا ذلك وذلك لا ينافي ان يفقهه بعضهم (واما الحجة الثانية) فضعيفة لان هناك من المحتمل ان الله خلق حياة في الجبل حتى نطق بالتسبيح اما هذه الجمادات التي نعلم بالضرورة انها جمادات يستحيل ان يقال انها تسبح الله على سبيل النطق بذلك التسبيح اذ لو جوزنا صدور الفعل المحكم عن الجمادات لما امكننا ان نستدل بافعال الله تعالى على كونه عالما حيا وذلك كفر بل الحق ان التسبيح الذي هو القول لا يصدر الا من العاقل العارف بالله تعالى فينوي بذلك القول تنزيه ربه سبحانه ومثل ذلك لا يصح من الجمادات * فاذا التسبيح العام الحاصل من العاقل والجماد لابد وان يكون مفسرا باحد وجهين (الاول) انها تسبح بمعنى انها تدل على تعظيمه وتنزيهه (والثاني) ان الممكنات بأسرها منقادة له يتصرف فيها كيف يريد ليس له عن فعله وتكوينه مانع ولا دافع اذا عرفت هذه المقدمة فنقول ان حملنا التسبيح المذكور في الآية على التسبيح بالقول كان المراد بقوله ما في السموات من في السموات ومنهم حملة العرش فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون ومنهم المقربون قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم ومنهم سائر الملائكة قالوا

وهو المراد بقوله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده وهو متعد بنفسه كما في قوله تعالى وسبحوه واللام اما مزيدة للتأكيد كما في نصحت له وشكرت له او للتعليل اي فعل التسبيح لاجل الله تعالى وخالصا لوجهه ومجيئه في بعض الفواتح ماضيا وفي البعض مضارعا للايذان بتحققه في جميع الاوقات وفيه تنبيه على ان حق من شانه التسبيح الاختياري ان يسبحه تعالى في جميع اوقاته كما عليه الملأ الاعلى حيث يسبحون الليل والنهار لا يفترون (وهو العزيز) القادر الغالب الذي لا يمانعه ولا ينازعه شئ (الحكيم) الذي لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله مشعر بعلة الحكم

سبحانك ما كان ينبغي لنا واما المسبحون الذين هم في الارض فنهم الانبياء كما قال ذو النون لا اله الا انت سبحانك وقال موسى سبحانك انى تبت اليك والصحابة يسبحون كما قال سبحانك فقنا عذاب النار واما ان حملنا هذا التسبيح على التسبيح المعنوى فأجزاء السموات وذرات الارض والجبال والرمال والبحار والشجر والدواب والجنة والنار والعرش والكرسى واللوح والقلم والنور والظلمة والذوات والصفات والاجسام والاعراض كلها مسبحة خاشعة خاضعة لجلال الله منقادة لتصرف الله كما قال عز من قائل وان من شئ الا يسبح بحمده وهذا التسبيح هو المراد بالسجود في قوله ولله يسجد ما في السموات والارض * اما قوله تعالى وهو العزيز الحكيم فالمعنى انه القادر الذى لا ينازعه شئ فهو اشارة الى كمال القدرة والحكيم اشارة الى انه العالم الذى لا يحتجب عن علمه شئ من الجزئيات والكليات او انه الذى يفعل افعاله على وفق الحكمة والصواب ولما كان العلم بكونه قادرا متقدما على العلم بكونه عالما لا جرم قدم العزيز على الحكيم في الذكر واعلم ان قوله وهو العزيز الحكيم يدل على ان العزيز ليس الا هو لان هذه الصيغة تفيد الحصر يقال زيد هو العالم لا غيره فهذا يقتضى انه لا اله الا الواحد لان غيره ليس بعزيز ولا حكيم وما لا يكون كذلك لا يكون الها * ثم قال تعالى (له ملك السموات والارض) واعلم ان الملك الحق هو الذى يستغنى في ذاته وفي جميع صفاته عن كل ما عداه ويحتاج كل ما عداه اليه في ذواتهم وفي صفاتهم والموصوف بهذين الامرين ليس الا هو سبحانه اما انه مستغن في ذاته وفي جميع صفاته عن كل ما عداه فلأنه لو افتقر في ذاته الى الغير لكان ممكنا لذاته فكان محدثا فلم يكن واجب الوجود واما انه مستغن في جميع صفاته السلبية والاضافية عن كل ما عداه فلأن كل ما يفرض صفة له فاما ان تكون هويته سبحانه كافية في تحقق تلك الصفة سواء كانت تلك الصفة سلبا او ايجابا او لا تكون كافية في ذلك فان كانت هويته كافية في ذلك لزم من دوام تلك الهوية دوام تلك الصفة سلبا كانت الصفة او ايجابا وان لم تكن تلك الهوية كافية فحينئذ تكون تلك الهوية ممتنعة الانفكاك عن ثبوت تلك الصفة وعن سلبها ثم ثبوت تلك الصفة وسلبها يكون متوقفا على ثبوت امر آخر وسلبه والموقوف على الموقوف على الشئ موقوف على ذلك الشئ فهويته سبحانه تكون موقوفة التحقق على تحقق علة ثبوت تلك الصفة او علة سلبها والموقوف على الغير ممكن لذاته فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته هذا خلف فثبت انه سبحانه غير مفتقر لا في ذاته ولا في شئ من صفاته السلبية ولا الثبوتية الى غيره واما ان كل ما عداه مفتقر اليه فلأن كل ما عداه ممكن لان واجب الوجود لا يكون اكثر من واحد والممكن لا بد له من مؤثر ولا واجب الا هذا الواحد فاذن كل ما عداه فهو مفتقر اليه سواء كان جوهرا او عرضا وسواء كان الجوهر روحانيا او جسمانيا وذهب جمع من العقلاء الى ان تأثير واجب الوجود في اعطاء الوجود لا في الماهيات فواجب الوجود يجعل السواد

(موجودا)

وكذا قوله تعالى (له ملك السموات والارض) اى التصرف الكلى فيهما من الموجودات من حيث الايجاد والاعدام وسائر التصرفات مما نعلمه ومالا نعلمه

موجودا اما انه يستحيل ان يجعل السواد سوادا قالوا لانه لوكان كون السواد سوادا بالفاعل لكان يلزم من فرض عدم ذلك الفاعل ان لايبقى السواد سوادا وهذا محال فيقال لهم يلزمكم على هذا التقدير ان لايكون الوجود ايضا بالفاعل والازم من فرض عدم ذلك الفاعل ان لايكون الوجود وجودا فان قالوا تأثير الفاعل ليس فى الوجود بل فى جعل الماهية موصوفة بالوجود قلنا هذا مدفوع من وجهين (الاول) ان موصوفية الماهية بالوجود ليس امرا ثبوتيا اذ لوكان امرا ثبوتيا لكانت له ماهية ووجود فحينئذ تكون موصوفية تلك الماهية بالوجود زائدة عليه ولزم التسلسل وهو محال واذا كان موصوفية الماهية بالوجود ليس امرا ثبوتيا استحال ان يقال لا تأثير للفاعل فى الماهية ولا فى الوجود بل تأثيره فى موصوفية الماهية بالوجود (الثانى) ان بتقدير ان تكون تلك الموصوفية امرا ثبوتيا استحال ايضا جعلها اثرا للفاعل والازم عند فرض عدم ذلك الفاعل ان لاتبقى الموصوفية موصوفية فظهر ان الشبهة التى ذكروها لو تمت واستقرت يلزم نفى التأثير والمؤثر اصلا بل كما ان الماهيات انما صارت موجودة بتأثير واجب الوجود فكذا ايضا الماهيات انما صارت ماهيات بتأثير واجب الوجود واذا لاحت هذه الحقائق ظهر بالبرهان العقلى صدق قوله تعالى له ملك السموات والارض بل ملك السموات والارض بالنسبة الى كمال ملكه اقل من الذرة بل لانسبة له الى كمال ملكه اصلا لان ملك السموات والارض ملك متناه وكمال ملكه غير متناه والمتناهى لانسبة له البتة الى غير المتناهى لكنه سبحانه وتعالى ذكر ملك السموات والارض لانه شئ مشاهد محسوس واكثر الخلق عقولهم ضعيفة قلما يمكنهم الترقى من المحسوس الى المعقول ثم انه سبحانه لما ذكر من دلائل الآفاق ملك السموات والارض ذكر بعده دلائل الانفس فقال (يحيي ويميت وهو على كل شئ قدير) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ذكر المفسرون فيه وجهين (احدهما) يحيي الاموات للبعث ويميت الاحياء فى الدنيا (والثانى) قال الزجاج يحيي النطف فيجعلها أشخاصا عقلاء فاهمين ناطقين ويميت الاحياء وعندى فيه وجه ثالث وهو انه ليس المراد منه تخصيص الاحياء والاماتة بزمان معين وباشخاص معينين بل معناه انه هو القادر على خلق الحياة والموت كما قال فى سورة الملك الذى خلق الموت والحياة والمقصود منه كونه سبحانه هو المنفرد بايجاد هاتين الماهيتين على الاطلاق لايمنعه عنهما مانع ولايرده عنهما راد وحينئذ يدخل فيه الوجهان اللذان ذكرهما المفسرون (المسئلة الثانية) موضع يحيي ويميت رفع على معنى هو يحيي ويميت ويجوز ان يكون نصبا على معنى له ملك السموات والارض حال كونه محييا ومميتا واعلم انه تعالى لما ذكر دلائل الآفاق اولا ودلائل الانفس ثانيا ذكر لفظا يتناول الكل فقال وهو على كل شئ قدير وفوائد هذه الآية مذكورة فى اول سورة الملك ※ قوله تعالى (هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) روى عن

وقوله تعالى (يحيي ويميت) استئناف مبين لبعض احكام الملك والتصرف وجعله حالا من ضميرله ليس كما ينبغى (وهو على كل شئ) من الاشياء التى من جملتها ما ذكر من الاحياء والاماتة (قدير) مبالغ فى القدرة (هو الاول) السابق على سائر الموجودات لما انه مبدئها ومبدعها (والآخر) الباقى بعد فنائها حقيقة او نظرا الى ذاتها مع قطع النظر عن مبقيها فان جميع الموجودات الممكنة اذا قطع النظر عن علتها فهى فانية (والظاهر) وجودا لكثرة دلائله الواضحة (والباطن) حقيقة فلا تحوم حوله العقول والواو الاولى والاخيرة للجمع بين الوصفين المكتنفين بهما والوسطى للجمع بين المجموعين فهو متصف باستمرار الوجود فى جميع الاوقات والظهور والخفاء (وهو بكل شئ عليم) لايعزب عن علمه شئ من الظاهر والخفى

رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال في تفسير هذه الآية انه الاول ليس قبله شئ والآخر ليس بعده شئ * واعلم ان هذا المقام مقام مهيب غامض عميق والبحث فيه من وجوه (الاول) ان تقدم الشئ على الشئ يعقل على وجوه (احدها) التقدم بالتأثير فانا نعقل ان لحركة الاصبع تقدما على حركة الخاتم والمراد من هذا التقدم كون المتقدم مؤثرا في المتأخر (وثانيها) التقدم بالحاجة لا بالتأثير لانا نعقل احتياج الاثنين الى الواحد وان كنا نعلم ان الواحد ليس علة للاثنين (وثالثها) التقدم بالشرف كتقدم ابي بكر على عمر (ورابعها) التقدم بالرتبة وهو اما من مبدأ محسوس كتقدم الامام على المأموم او من مبدأ معقول وذلك كما اذا جعلنا المبدأ هو الجنس العالي فانه كلما كان النوع اشد تسفلا كان اشد تأخرا ولو قلبناه انقلب الامر (وخامسها) التقدم بالزمان وهو ان الموجود في الزمان المتقدم متقدم على الموجود في الزمان المتأخر فهذا ماحصله ارباب العقول من اقسام القبلية والتقدم وعندي ان ههنا قسما سادسا وهو مثل تقدم بعض اجزاء الزمان على البعض فان ذلك التقدم ليس تقدما بالزمان والا وجب ان يكون الزمان محيطا بزمان آخر ثم الكلام في ذلك المحيط كالكلام في المحاط به فيلزم ان يحيط بكل زمان زمان آخر لا الى نهاية بحيث تكون كلها حاضرة في هذا الآن فلا يكون هذا الآن الحاضر واحدا بل يكون كل حاضر في حاضر آخر لا الى نهاية وذلك غير معقول وايضا فلأن مجموع تلك الآنات الحاضرة متأخر عن مجموع الآنات الماضية فلمجموع الازمنة زمان آخر محيط بها لكن ذلك محال لانه لما كان زمانا كان داخلا في مجموع الازمنة فاذا ذلك الزمان داخل في ذلك المجموع وخارج عنه وهو محال فظهر بهذا البرهان الظاهر ان تقدم بعض اجزاء الزمان على البعض ليس بالزمان وظاهر انه ليس بالعلية ولا بالحاجة والا لوجدا معا كما ان العلة والمعلول يوجدان معا والواحد والاثنين يوجدان معا وليس ايضا بالشرف ولا بالمكان فثبت ان تقدم بعض اجزاء الزمان على البعض قسم سادس غير الاقسام الخمسة المذكورة واذا عرفت هذا فنقول ان القرآن دل على انه تعالى اول لكل ماعداه والبرهان دل ايضا على هذا المعنى لانا نقول كل ماعدا الواجب ممكن وكل ممكن محدث فكل ماعدا الواجب فهو محدث وذلك الواجب اول لكل ماعداه انما قلنا ان ماعدا الواجب ممكن لانه لو وجد شيآن واجبان لذاتهما لاشتركا في الوجوب الذاتي ولتباينا بالتعين ومابه المشاركة غير مابه الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبا ثم كل واحد من جزأيه ان كان واجبا فقد اشترك الجزآن في الوجوب وتباينا بالخصوصية فيكون كل واحد من ذينك الجزأين ايضا مركبا ولزم التسلسل وان لم يكونا واجبين اولم يكن احدهما واجبا كان الكل المتقوم به اولى بان لا يكون واجبا فثبت ان كل ماعدا الواجب ممكن وكل ممكن محدث لان كل ممكن مفتقر الى المؤثر وذلك الافتقار اما حال الوجود او حال العدم فان كان حال الوجود فاما حال البقاء وهو

(محال)

محال لانه يقتضى ايجاد الموجود وتحصيل الحاصل وهو محال فاذن تلك الحاجة اما حال الحدوث او حال العدم وعلى التقديرين فيلزم ان يكون كل ممكن محدثا فثبت ان كل ماعدا ذلك الواجب فهو محدث محتاج الى ذلك الواجب فاذن ذلك الواجب يكون قبل كل ماعداه ثم طلب العقل كيفية تلك القبلية فقلنا لايجوز ان تكون تلك القبلية بالتأثير لان المؤثر من حيث هو مؤثر مضاف الى الاثر من حيث هو اثر والمضافان معا والمع لايكون قبل ولايجوز ان تكون لمجرد الحاجة لان المحتاج والمحتاج اليه لايمتنع ان يوجدا معا وقد بينا ان تلك المعية ههنا ممتنعة ولايجوز ان تكون لمحض الشرف فانه ليس المطلوب من هذه القبلية ههنا مجرد انه تعالى اشرف من الممكنات واما القبلية المكانية فباطلة وبتقدير ثبوتها فتقدم المحدث على المحدث امر زائد آخر وراء كون احدهما فوق الآخر بالجهة (واما التقدم الزمانى) فباطل لان الزمان ايضا ممكن ومحدث (اما اولا) فلما بينا ان واجب الوجود لايكون اكثر من واحد (واما ثانيا) فلان امارة الامكان والحدوث فيه اظهر كما فى غيره لان جميع اجزائه متعاقبة وكل ماوجد بعد العدم وعدم بعد الوجود فلاشك انه ممكن ومحدث واذا كان جميع اجزاء الزمان ممكنا ومحدثا والكل متقوم بالاجزاء فالمفتقر الى الممكن المحدث اولى بالامكان والحدوث فاذن الزمان بمجموعه وباجزائه ممكن ومحدث فتقدم موجده عليه لايكون بالزمان لان المتقدم على جميع الازمنة لايكون بالزمان والا فيلزم فى ذلك الزمان ان يكون داخلا فى مجموع الازمنة لانه زمان وان يكون خارجا عنها لانه ظرفها والظرف مغاير للمظروف لامحالة لكن كون الشئ الواحد داخلا فى شئ وخارجا عنه محال (واما ثالثا) فلأن الزمان ماهيته تقتضى السيلان والتجدد وذلك يقتضى المسبوقية بالغير والازل ينافى المسبوقية بالغير فالجمع بينهما محال فثبت ان تقدم الصانع على كل ماعداه ليس بالزمان البتة فاذن الذى عند العقل انه متقدم على كل ماعداه وانه ليس ذلك التقدم على احد هذه الوجوه الخمسة فبقى انه نوع آخر من التقدم يغاير هذه الاقسام الخمسة فاما كيفية ذلك التقدم فليس عند العقل منها خبر لان كل مايخطر بال العقل فانه لابد وان يقترن به حال من الزمان وقد دل الدليل على ان كل ذلك محال فاذن كونه تعالى اولا معلوم على سبيل الاجمال فأما على سبيل التفصيل والاحاطة بحقيقة تلك الاولية فليس عند عقول الخلق. منه اثر (النوع الثانى) من غوامض هذا الموضع وهو ان الازل متقدم على اللايزال وليس الازل شيئا سوى الحق فتقدم الازل على اللايزال يستدعى الامتياز بين الازل وبين اللايزال فهذا يقتضى ان يكون اللايزال له مبدأ وطرف حتى يحصل هذا الامتياز لكن فرض هذا الطرف محال لان كل مبدأ فرضته فان اللايزال كان حاصلا قبله لان المبدأ الذى يفرض قبل ذلك الطرف المفروض بزيادة مائة سنة يكون من جملة اللايزال لا من جملة الازل فقد كان معنى اللايزال موجودا قبل ان كان موجودا وذلك محال (النوع الثالث) من غوامض هذا الموضع ان امتياز الازل عن اللايزال يستدعى

انقضاء حقيقة الازل وانقضاء حقيقة الازل محال لان مالا اول له يمتنع انقضاؤه واذا امتنع انقضاؤه امتنع ان يحصل عقيبه ماهية اللايزال فاذن يمتنع امتياز الازل عن اللايزال وامتياز اللايزال عن الازل واذا امتنع حصول هذا الامتياز امتنع حصول التقدم والتأخر فهذه ابحاث غامضة فى حقيقة التقدم والاولية والازلية وماهى الا بسبب حيرة العقول البشرية فى نور جلال ماهية الازلية والاولية فان العقل انما يعرف الشئ اذا احاط به وكل ما استحضر العقل ووقف عليه فذاك يصير محاطا به والمحاط يكون متناهيا والازلية تكون خارجة عنه فهو سبحانه ظاهر باطن فى كونه اولا لان العقول شاهدة باسناد المحدثات الى موجد متقدم عليها فكونه تعالى اولا أظهر من كل ظاهر من هذه الجهة ثم اذا أردت ان تعرف حقيقة تلك الاولية عجزت لان كل ما احاط به عقلك وعلمك فهو محدود عقلك ومحاط علمك فيكون متناهيا فتكون الاولية خارجة عنها فكونه تعالى اولا اذا اعتبرته من هذه الجهة كان ابطن من كل باطن فهذا هو البحث عن كونه تعالى اولا * اما البحث عن كونه آخرا فن الناس من قال هذا محال لانه تعالى انما يكون آخرا لكل ماعداه لو بقى هو مع عدم كل ماعداه لكن عدم ماعداه انما يكون بعد وجوده وتلك البعدية زمانية فاذن لا يمكن فرض عدم كل ماعداه الا مع وجود الزمان الذى به تتحقق تلك البعدية فاذن حال مافرض عدم كل ماعداه ان لا يعدم كل ماعداه فهذا خلف فاذن فرض بقائه مع عدم كل ماعداه محال وهذه الشبهة مبنية ايضا على ان التقدم والتأخر لا يتقرران الا بالزمان وقد دللنا على فساد هذه المقدمة فبطلت هذه الشبهة واما الذين سلموا امكان عدم كل ماعداه مع بقائه فنهم من اوجب ذلك حتى يتقرر كونه تعالى آخر الكل وهذا مذهب جهم فانه سبحانه يوصل الثواب الى اهل الثواب ويوصل العقاب الى اهل العقاب ثم يفنى الجنة واهلها والنار واهلها والعرش والكرسى والملك والفلك ولا يبقى مع الله شئ اصلا فكما انه كان موجودا فى الازل ولا شئ يبقى موجودا فى اللايزال ابد الآباد ولا شئ واحتج عليه بوجوه (اولها) قوله هو الآخر ولا يكون آخرا الا عند فناء الكل (وثانيها) انه تعالى اما ان يكون عالما بعدد حركات اهل الجنة والنار او لا يكون عالما بها فان كان عالما بها كان عالما بكميتها وكل ماله عدد معين فهو متناه فاذن حركات اهل الجنة متناهية فاذن لابد وان يحصل بعدها عدم ابدى غير منقض واذا لم يكن عالما بها كان جاهلا بها والجهل على الله محال (وثالثها) ان الحوادث المستقبلة قابلة للزيادة والنقصان وكل ما كان كذلك فهو متناه (والجواب) ان امكان استمرار هذه الاشياء حاصل الى الابد والدليل عليه هو ان هذه الماهيات لو زالت امكاناتها لزم ان ينقلب الممكن لذاته ممتنعا لذاته ولو انقلبت قدرة الله من صلاحية التأثير الى امتناع التأثير لانقلبت الماهية وذلك محال فوجب ان يبقى هذا الامكان ابدا فاذن ثبت انه لا يجب انتهاء هذه المحدثات الى العدم الصرف اما التمسك بالآية فسنذكر الجواب عنه بعد ذلك

(ان)

ان شاء الله تعالى (واما الشبهة الثانية) فجوابها انه يعلم انه ليس لها عدد معين وهذا لايكون جهلا انما الجهل ان يكون له عدد معين ولايعلمه اما اذالم يكن له عدد معين وانت تعلمه على هذا الوجه فهذا لايكون جهلا بل علما (واماالشبهة الثالثة) فجوابها ان انالخارج منه الى الوجود ابدا لايكون متناهيا ثم ان المتكلمين لما أثبتوا امكان بقاء العالم ابداعولوا في بقاء الجنة والنارابداعلى اجماع المسلمين وظواهر الآيات ولايخفى تقريرها واماجمهور المسلمين الذين سلموا بقاء الجنة والنار ابدا فقداختلفوا في معنى كونه تعالى آخرا على وجوه (احدها) انه تعالى يفني جميع العالم والممكنات فيتحقق كونه آخرا ثم انه يوجدها ويبقيها ابدا (وثانيها) ان الموجود الذي يصح في العقل ان يكون آخرا لكل الاشياء ليس الاهو فلما كانت صحة آخرية كل الاشياء مختصة به سبحانه لاجرم وصف بكونه آخرا (وثالثها) ان الوجود منه تعالى يبتدى ولايزال ينزل وينزل حتى ينتهى الى الموجود الاخير الذي يكون هو مسببا لكل ماعداه ولايكون سببا لشيء آخر فبهذا الاعتبار يكون الحق سبحانه اولا ثم اذاانتهى اخذ يترقى من هذا الموجود الاخير درجة فدرجة حتى ينتهى الى آخر الترقي فهناك وجود الحق سبحانه فهو سبحانه اول في نزول الوجود منه الى الممكنات آخر عند الصعود من الممكنات اليه (ورابعها) انه يميت الخلق ويبقى بعدهم فهو سبحانه آخر بهذا الاعتبار (وخامسها) انه اول في الوجود وآخر في الاستدلال لان المقصود من جميع الاستدلالات معرفة الصانع وأماسائر الاستدلالات التي لايراد منها معرفة الصانع فهي حقيرة خسيسة اما كونه تعالى ظاهرا وباطنا فاعلم انه ظاهر بحسب الوجود فانك لاترى شيئا من الكائنات والممكنات الاويكون دليلا على وجوده وثبوته وحقيته وبراءته عن جهات التغير على ماقررناه واما كونه تعالى باطنا فمن وجوه (الاول) ان كمال كونه ظاهرا سبب لكونه باطنا فان هذه الشمس لو دامت على الفلك لما كنا نعرف ان هذا الضوء انما حصل بسببها بل ربما كنا نظن ان الاشياء مضيئة لذواتها الا انها لما كانت بحيث تغرب ثم نرى انها متى غربت ابطلت الانوار وزالت الاضواء عن هذا العالم علمنا حينئذ ان هذه الاضواء من الشمس فههنا لو امكن انقطاع جود الله عن هذه الممكنات لظهر حينئذ وجود هذه الممكنات من جود الله تعالى لكنه لما دام ذلك الجود ولم ينقطع صار دوامه وكماله سببا لوقوع الشبهة حتى انه ربما يظن ان نور الوجود ليس منه بل وجود كل شيء له من ذاته فظهر ان هذا الاستتار انما وقع من كمال وجوده ومن دوام جوده فسبحان من اختفى عن العقول لشدة ظهوره واحتجب عنها بكمال نوره (الوجه الثاني) ان ماهيته غير معقولة للبشر البتة ويدل عليه ان الانسان لايتصور ماهية الشيء الااذا ادركه من نفسه على سبيل الوجدان كالألم واللذة وغيرهما او ادركه بحسه كالالوان والطعوم وسائر المحسوسات فأما مالايكون كذلك فيتعذر على الانسان ان يتصور ماهيته البتة وهويته المخصوصة جل جلاله ليست كذلك فلاتكون معقولة للبشر ويدل عليه ايضا

ان المعلوم منه عند الخلق اما الوجود واما السلوب وهو انه ليس بجسم ولا جوهر واما الاضافة وهو انه الامر الذى من شأنه كذا وكذا والحقيقة المخصوصة مغايرة لهذه الامور فهى غير معقولة ويدل عليه ان اظهر الاشياء منه عند العقل كونه خالقا لهذه المخلوقات ومتقدما عليها وقد عرفت حيرة العقل ودهشته فى معرفة هذه الاولية فقد ظهر بما قدمناه انه سبحانه هو الاول وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن وسمعت والدى رحمه الله يقول انه كان يروى انه لما نزلت هذه الآية اقبل المشركون نحو البيت وسجدوا (المسئلة الثانية) احتج كثير من العلماء فى اثبات ان الاله واحد بقوله هو الاول قالوا الاول هو الفرد السابق ولهذا المعنى لو قال اول مملوك اشتريته فهو حر ثم اشترى عبدين لم يعتقا لان شرط كونه اولا حصول الفردية وههنا لم تحصل فلو اشترى بعد ذلك عبدا واحدا لم يعتق لان شرط الاولية كونه سابقا وههنا لم تحصل فثبت ان الشرط فى كونه اولا ان يكون فردا فكانت الآية دالة على ان صانع العالم فرد (المسئلة الثالثة) اكثر المفسرين قالوا انه اول لانه قبل كل شئ وانه آخر لانه بعد كل شئ وانه ظاهر بحسب الدلائل وانه باطن عن الحواس محتجب عن الابصار وان جماعة لما عجزوا عن جواب جهم قالوا معنى هذه الالفاظ مثل قول القائل فلان هو اول هذا الامر وآخره وظاهره وباطنه اى عليه يدور وبه يتم واعلم انه لما امكن حمل الآية على الوجوه التى ذكرناها مع انه يسقط بها استدلال جهم لم يكن بنا الى حمل الآية على هذا المجاز حاجة وذكروا فى الظاهر والباطن ان الظاهر هو الغالب العالى على كل شئ ومنه قوله تعالى فاصبحوا ظاهرين اى غالبين عالين من قولك ظهرت على فلان اى علوته ومنه قوله تعالى عليها يظهرون وهذا معنى ما روى فى الحديث وانت الظاهر فليس فوقك شئ واما الباطن فقال الزجاج انه العالم بما بطن كما يقول القائل فلان يبطن امر فلان اى يعلم احواله الباطنة قال الليث يقال انت ابطن بهذا الامر من فلان اى اخبر بباطنه فمعنى كونه باطنا عالما ببواطن الامور وهذا التفسير عندى فيه نظر لان قوله بعد ذلك وهو بكل شئ عليم يكون تكرارا اما على التفسير الاول فانه يحسن موقعه لانه يصير التقدير كأنه قيل ان احدا لا يحيط به ولا يصل الى اسراره وانه لا يخفى عليه شئ من احوال غيره ونظيره تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك ※ قوله تعالى (هو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش) وهو مفسر فى الاعراف والمقصود منه دلائل القدرة ※ ثم قال تعالى (يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) وهو مفسر فى سبأ والمقصود منه كمال العلم وانما قدم وصف القدرة على وصف العلم لان العلم بكونه تعالى قادرا قبل العلم بكونه تعالى عالما ولذلك ذهب جمع من المحققين الى ان اول العلم بالله هو العلم بكونه قادرا وذهب آخرون الى ان اول العلم بالله هو العلم بكونه مؤثرا وعلى التقديرين فالعلم بكونه قادرا متقدم على العلم بكونه عالما ※ ثم قال تعالى (وهو معكم اينما كنتم والله بما تعملون بصير) وفيه مسائل (المسئلة الاولى)

(هو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش) بيان لبعض احكام ملكهما وقد مر تفسيره مرارا (يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) مر بيانه فى سورة سبأ (وهو معكم اينما كنتم) تمثيل لاحاطة علمه تعالى بهم وتصوير لعدم خروجهم عنه ايناما داروا وقوله تعالى (والله بما تعملون بصير) عبارة عن احاطته باعمالهم فتأخيره عن الخلق لما ان المراد به ما يدور عليه الجزاء من العلم التابع للمعلوم لا لما قيل من انه دليل عليه

اعلم انه قدثبت ان كل ماعداالواجب الحق فهو ممكن وكل ممكن فوجوده من الواجب فاذن وصول الماهية الممكنة الى وجودها بواسطة افادةالواجب الحق ذلك الوجود لتلك الماهية فالحق سبحانه هو المتوسط بين كل ماهية و بين وجودها فهو الى كل ماهية اقرب من وجود تلك الماهية ومن هذا السر قال المحققون مارأيت شيئا الا ورأيت الله قبله وقال المتوسطون مارأيت شيئا الا ورأيت الله معه وقال الظاهريون مارأيت شيئا الا ورأيت الله بعده واعلم ان هذه الدقائق التي اظهرناها في هذه المواضع لها درجتان (احداهما) ان يصل الانسان اليها بمقتضى الفكرة والروية والتأمل والتدبر (والدرجة الثانية) ان تتفق لنفس الانسان قوة ذوقية وحالة وجدانية لا يمكن التعبير عنها وتكون نسبة الادراك مع الذوق الى الادراك لامع الذوق كنسبة من يأكل السكر الى من يصف حلاوته بلسانه (المسئلة الثانية) قال المتكلمون هذه المعية اما بالعلم واما بالحفظ والحراسة وعلى التقديرين فقدا نعقدالاجماع على انه سبحانه ليس معنا بالمكان والجهة والحيز فاذن قوله وهو معكم لابد فيه من التأويل واذا جوزنا التأويل في موضع وجب تجويزه في سائر المواضع (المسئلة الثالثة) اعلم ان في هذه الآيات ترتيبا عجيبا وذلك لانه سبحانه بين بقوله هو الاول والآخر والظاهر والباطن كونه الها لجميع الممكنات والكائنات ثم بين كونه الها للعرش والسموات والارضين ثم بين بقوله وهو معكم اينما كنتم معيته لنا بسبب القدرة والايجاد والتكوين وبسبب العلم وهو كونه عالما بظاهرنا وبواطننا فتأمل في كيفية هذا الترتيب ثم تأمل في الفاظ هذه الآيات فان فيها اسرارا عجيبة وتنبيهات على امور عالية ❊ ثم قال تعالى (له ملك السموات والارض والى الله ترجع الامور) اى الى حيث لامالك سواه ودل بهذا القول على اثبات المعاد ثم قال تعالى (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور) وهذه الآيات قد تقدم تفسيرها في سائر السور وهى جامعة بين الدلالة على قدرته وبين اظهار نعمه والمقصود من اعادتها البعث على النظر والتأمل ثم الاشتغال بالشكر ❊ قوله تعالى (آمنوا بالله ورسوله) اعلم انه تعالى لما ذكر انواعا من الدلائل على التوحيد والعلم والقدرة اتبعها بالتكاليف وبدأ بالامر بالايمان بالله ورسوله فان قيل قوله آمنوا خطاب مع من عرف الله اومع من لم يعرف الله فان كان الاول كان ذلك امرا بأن يعرفه من عرف فيكون ذلك امرا بتحصيل الحاصل وهو محال وان كان الثانى كان الخطاب متوجها على من لم يكن عارفا به ومن لم يكن عارفا به استحال ان يكون عارفا بأمره فيكون الامر متوجها على من يستحيل ان يعرف كونه مأمورا بذلك الامر وهذا تكليف مالا يطاق (والجواب) من الناس من قال معرفة وجود الصانع حاصلة للكل وانما المقصود من هذا الامر معرفة الصفات ❊ ثم قال تعالى (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم اجر كبير) في هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه امر الناس اولا بأن

وقوله تعالى (له ملك السموات والارض) تكرير للتأكيد وتمهيد لقوله تعالى (والى الله ترجع الامور) اى اليه وحده لا الى غيره استقلالا او اشتراكا كما ترجع جميع الامور على البناء للمفعول من رجع رجعا وقرئ على البناء للفاعل من رجع رجوعا (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) مر تفسيره مرارا وقوله تعالى (وهو عليم) اى مبالغ فى العلم (بذات الصدور) اى بمكنوناتها اللازمة لها بيان لاحاطة علمه تعالى بما يضمرونه من نياتهم بعد بيان احاطته بأعمالهم التى يظهرونها (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) اى جعلكم خلفاء فى التصرف فيه من غير ان تملكوه حقيقة عبر عما بأيديهم من الاموال والارزاق بذلك تحقيقا للحق وترغيبا لهم فى الانفاق فان من علم انها لله عز وجل وانما هو بمنزلة الوكيل يصرفها الى ماعينه الله تعالى من المصارف هان عليه الانفاق او جعلكم خلفاء ممن قبلكم فيما كان بايديهم بتوريثه اياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم اليكم وسينتقل منكم من بعدكم فلا تبخلوا به (فالذين آمنوا منكم وانفقوا) حسبما امروا به (لهم) بسبب ذلك (اجر كبير) وفيه من المبالغات مالا يخفى حيث جعل الجملة اسمية واعيد ذكر الايمان والانفاق وكرر الاسناد وفخم الاجر بالتنكير ووصف بالكبير

يشتغلوا بطاعة الله ثم امرهم ثانيا بترك الدنيا والاعراض عنها وانفاقها في سبيل الله كما قال قل الله ثم ذرهم فقوله قل الله هو المراد ههنا من قوله آمنوا بالله ورسوله وقوله ثم ذرهم هو المراد ههنا من قوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه (المسئلة الثانية) في الآية وجهان (الاول) ان الاموال التي في ايديكم انما هي اموال الله بخلقه وانشائه لها ثم انه تعالى جعلها تحت يد المكلف وتحت تصرفه لينتفع بها على وفق اذن الشرع فالمكلف في تصرفه في هذه الاموال بمنزلة الوكيل والنائب والخليفة فوجب ان يسهل عليكم الانفاق من تلك الاموال كما يسهل على الرجل النفقة من مال غيره اذا اذن له فيه (الثاني) انه جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم لاجل انه نقل اموالهم اليكم على سبيل الارث فاعتبروا بحالهم فانها كما انتقلت منهم اليكم فستنتقل منكم الى غيركم فلا تبخلوا بها (المسئلة الثالثة) اختلفوا في هذا الانفاق فقال بعضهم هو الزكاة الواجبة وقال آخرون بل يدخل فيه التطوع ولا يمتنع ان يكون عاما في جميع وجوه البر ثم انه تعالى ضمن لمن فعل ذلك اجرا كبيرا فقال فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم اجر كبير قال القاضي هذه الآية تدل على ان هذا الاجر لا يحصل بالايمان المنفرد حتى ينضاف هذا الانفاق اليه فمن هذا الوجه يدل على ان من اخل بالواجب من زكاة وغيرها فلا اجر له واعلم ان هذا الاستدلال ضعيف وذلك لان الآية تدل على ان من اخل بالزكاة الواجبة لم يحصل له ذلك الاجر الكبير فلم قلتم انها تدل على انه لا اجر له اصلا ❊ قوله تعالى (ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد اخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى وبخ على ترك الايمان بشرطين (احدهما) ان يدعو الرسول والمراد انه يتلو عليهم القرآن المشتمل على الدلائل الواضحة (الثاني) انه اخذ الميثاق عليهم وذكروا في اخذ الميثاق وجهين (الاول) ما نصب في العقول من الدلائل الموجبة لقبول دعوة الرسل واعلم ان تلك الدلائل كما اقتضت وجوب القبول فهي اوكد من الحلف واليمين فلذلك سماه ميثاقا وحاصل الامر انه تطابقت دلائل النقل والعقل اما النقل فبقوله والرسول يدعوكم واما العقل فبقوله وقد اخذ ميثاقكم ومتى اجتمع هذان النوعان فقد بلغ الامر الى حيث تمتنع الزيادة عليه واحتج بهذه الآية من زعم ان معرفة الله تعالى لا تجب الا بالسمع قال لانه تعالى انما ذمهم بناء على ان الرسول يدعوهم فعلمنا ان استحقاق الذم لا يحصل الا عند دعوة الرسول (الوجه الثاني) في تفسير اخذ الميثاق قال عطاء ومجاهد والكلبي والمقاتلان يريد حين اخرجهم من ظهر آدم وقال الست بربكم قالوا بلى وهذا ضعيف وذلك لانه تعالى انما ذكر اخذ الميثاق ليكون ذلك سببا في انه لم يبق لهم عذر في ترك الايمان بعد ذلك واخذ الميثاق وقت اخراجهم من ظهر آدم غير معلوم للقوم الا بقول الرسول فقبل معرفة صدق الرسول لا يكون ذلك سببا في وجوب تصديق الرسول اما نصب الدلائل والبينات فمعلوم لكل احد فذلك يكون سببا لوجوب الايمان بالرسول فعلمنا ان

وقوله عز وجل (ومالكم لا تؤمنون بالله) استئناف مسوق لتوبيخهم على ترك الايمان حسبما امروا به بانكار ان يكون لهم في ذلك عذر ما في الجملة على ان لا تؤمنون حال من الضمير في لكم والعامل ما فيه من معنى الاستقرار اي اي شئ حصل لكم غير مؤمنين على توجيه الانكار والنفي الى السبب فقط مع تحقق المسبب لا الى السبب والمسبب جميعا كما في قوله تعالى ومالي لا اعبد الذي فطرني فان همزة الاستفهام كما تكون تارة لانكار الواقع كما في اتضرب اباك واخرى لانكار الوقوع كما في أأضرب ابي كذلك ما الاستفهامية قد تكون لانكار سبب الواقع ونفيه فقط كما فيما نحن فيه وفي قوله تعالى مالكم لا ترجون لله وقارا فيكون مضمون الجملة الحالية محققا فان كلا من عدم الايمان وعدم الرجاء امر محقق قد انكر ونفي سببه وقد تكون لانكار سبب الوقوع ونفيه فيسريان الى المسبب ايضا كما في قوله تعالى ومالي لا اعبد الى آخره فيكون مضمون الجملة الحالية مفروضا قطعا فان عدم العبادة امر مفروض حتما قد انكر ونفي سببه فانتفى نفسه ايضا وقوله تعالى (والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم) حال من ضمير لا تؤمنون مفيدة لتوبيخهم على الكفر مع تحقق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يوجبه اي واي عذر في ترك الايمان والرسول يدعوكم اليه وينبهكم عليه وقوله تعالى (وقد اخذ ميثاقكم) حال من مفعول يدعوكم اي وقد اخذ الله تعالى ميثاقكم بالايمان من قبل وذلك بنصب الادلة والتمكين من النظر وقرئ وقد اخذ مبنيا للمفعول برفع ميثاقكم

تفسير الآية بهذا المعنى غير جائز (المسئلة الثانية) قال القاضي قوله و مالكم يدل على قدرتهم على الايمان اذلا يجوز ان يقال ذلك لمن لا يتمكن من الفعل كما لا يقال مالك لا تطول ولا تبيض فيدل هذا على ان الاستطاعة قبل الفعل وعلى ان القدرة صالحة للضدين وعلى ان الايمان حصل بالعبد لا بخلق الله (المسئلة الثالثة) قرئ وقد اخذ ميثاقكم على البناء للمفعول اما قوله ان كنتم مؤمنين فالمعنى ان كنتم تؤمنون بشئ لاجل دليل فالكم لا تؤمنون الآن فانه قد تطابقت الدلائل النقلية والعقلية وبلغت مبلغا لا يمكن الزيادة عليها ❁ قوله تعالى (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور وان الله بكم لرؤف رحيم) قال القاضي بين بذلك ان مراده بانزال الآيات البينات التى هى القرآن وغيره من المعجزات ان يخرجكم من الظلمات الى النور واكد ذلك بقوله وان الله بكم لرؤف رحيم ولو كان تعالى يريد من بعضهم الثبات على ظلمات الكفر ويخلق ذلك فيهم ويقدره لهم تقديرا لا يقبل الزوال لم يصح هذا القول فان قيل اليس ان ظاهره يدل على انه تعالى يخرج من الظلمات الى النور فيجب ان يكون الايمان من فعله قلنا لو اراد بهذا الاخراج خلق الايمان فيه لم يكن لقوله تعالى هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم معنى لانه سواء تقدم ذلك او لم يتقدم فخلقه لما خلقه لا يتغير فالمراد اذن بذلك انه يلطف بهم فى اخراجهم من الظلمات الى النور ولولا ذلك لم يكن بأن يصف نفسه بأنه يخرجهم من الظلمات الى النور اولى من ان يصف نفسه بأنه يخرجهم من النور الى الظلمات واعلم ان هذا الكلام على خسته وروغته معارض بالعلم وذلك لانه تعالى كان عالما بأن علمه سبحانه بعدم ايمانهم قائم وعالما بأن هذا العلم ينافى وجود الايمان فاذا كلفهم بتكوين احد الضدين مع علمه بقيام الضد الآخر فى الوجود بحيث لا يمكن ازالته وابطاله فهل يعقل مع ذلك ان يريد بهم ذلك الخير والاحسان لا شك ان هذا مما لا يقوله عاقل واذا توجهت المعارضة زالت تلك القوة اما قوله وان الله بكم لرؤف رحيم فقد حمله بعضهم على بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فقط وهذا التخصيص لا وجه له بل يدخل فيه ذلك مع سائر ما يتمكن به المرء من اداء التكاليف ❁ ثم قال تعالى (ومالكم الا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والارض) لما امر اولا بالايمان وبالانفاق ثم اكد فى الآية المتقدمة ايجاب الايمان اتبعه فى هذه الآية بتأكيد ايجاب الانفاق والمعنى انكم ستموتون فتورثون فهلا قدمتموه فى الانفاق فى طاعة الله وتحقيقه ان المال لابد وان يخرج عن اليد اما بالموت واما بالانفاق فى سبيل الله فان وقع على الوجه الاول كان اثره اللعن والمقت والعقاب وان وقع على الوجه الثانى كان اثره المدح والثواب واذا كان لابد من خروجه عن اليد فكل عاقل يعلم ان خروجه عن اليد بحيث يستعقب المدح والثواب اولى منه بحيث يستعقب اللعن والعقاب ❁ ثم لما بين تعالى ان الانفاق فضيلة بين ان المسابقة فى الانفاق تمام الفضيلة فقال (لا يستوى منكم من انفق من قبل الفتح

(ان كنتم مؤمنين) لموجب ما فان هذا موجب لا موجب وراءه (هو الذى ينزل على عبده) حسبما يعن لكم من المصالح (آيات بينات) واضحات (ليخرجكم) اى الله تعالى او العبد بها (من الظلمات الى النور) من ظلمات الكفر الى نور الايمان (وان الله بكم لرؤف رحيم) حيث يهديكم الى سعادة الدارين بارسال الرسول وتنزيل الايات بعد نصب الحجج العقلية وقوله تعالى (وما لكم الا تنفقوا فى سبيل الله) توبيخ لهم على ترك الانفاق المأمور به بعد توبيخهم على ترك الايمان بانكار ان يكون لهم فى ذلك ايضا عذر من الاعذار وحذف المفعول لظهور انه الذى بين حاله فيما سبق وتعيين المنفق فيه لتشديد التوبيخ اى واى شئ لكم فى ان لا تنفقوا فيما هو قربة الى الله تعالى ما هو له فى الحقيقة وانما انتم خلفاؤه فى صرفه الى ما عينه من المصارف وقوله تعالى (ولله ميراث السموات والارض) حال من فاعل لا تنفقوا ومفعوله مؤكدة للتوبيخ فان ترك الانفاق بغير سبب قبيح منكر ومع تحقق ما يوجب الانفاق اشد فى القبح وادخل فى الانكار فان بيان بقاء جميع ما فى السموات والارض من الاموال بالآخرة لله عز وجل من غير ان يبقى من اصحابها احد اقوى فى ايجاب الانفاق عليهم من بيان انه لله تعالى فى الحقيقة وهم خلفاؤه فى التصرف فيها كأنه قيل ومالكم فى ترك انفاقها فى سبيل الله والحال انه لا يبقى لكم منها شئ بل يبقى كلها

وقاتل اولئك اعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) تقدير الآية لا يستوى منكم من انفق من قبل الفتح ومن انفق من بعد الفتح كما قال لا يستوى اصحاب النار واصحاب الجنة الا انه حذف اولوضوح الحال (المسئلة الثانية) المراد بهذا الفتح فتح مكة لان اطلاق لفظ الفتح فى المتعارف ينصرف اليه قال عليه الصلاة والسلام لاهجرة بعد الفتح وقال ابو مسلم ويدل القرآن على فتح آخر بقوله فجعل من دون ذلك فتحا قريبا وايهما كان فقد بين الله عظم موقع الانفاق قبل الفتح (المسئلة الثانية) قال الكلبى نزلت هذه الآية فى فضل ابى بكر الصديق لانه كان اول من انفق المال على رسول الله فى سبيل الله قال عمر كنت قاعدا عند النبى صلى الله عليه وسلم وعنده ابو بكر وعليه عباءة قد خللها فى صدره بخلال فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال مالى أرى ابابكر عليه عباءة خللها فى صدره فقال انفق ماله على قبل الفتح واعلم ان الآية دلت على ان من صدر عنه الانفاق فى سبيل الله والقتال مع اعداء الله قبل الفتح يكون اعظم حالا ممن صدر عنه هذان الامران بعد الفتح ومعلوم ان صاحب الانفاق هو ابو بكر وصاحب القتال هو على ثم انه تعالى قدم صاحب الانفاق فى الذكر على صاحب القتال وفيه ايماء الى تقديم ابى بكر ولان الانفاق من باب الرحمة والقتال من باب الغضب وقال تعالى سبقت رحمتى غضبى فكان السبق لصاحب الانفاق فان قيل بل صاحب الانفاق هو على لقوله تعالى ويطعمون الطعام قلنا اطلاق القول بأنه انفق لا يتحقق الا اذا انفق فى الوقائع العظيمة اموالا عظيمة وذكر الواحدى فى البسيط ان ابابكر كان اول من قاتل على الاسلام وذلك لان عليا فى اول ظهور الاسلام كان صبيا صغيرا ولم يكن صاحب القتال واما ابو بكر فانه كان شيخا مقدما وكان يذب عن الاسلام حتى ضرب بسببه ضربا اشرف به على الموت (المسئلة الرابعة) جعل علماء التوحيد هذه الآية دالة على فضل من سبق الى الاسلام وانفق وجاهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الفتح وبينوا الوجه فى ذلك وهو عظم موقع نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام بالنفس وانفاق المال فى تلك الحال وفى عدد المسلمين قلة وفى الكافرين شوكة وكثرة عدد فكانت الحاجة الى النصرة والمعاونة اشد بخلاف ما بعد الفتح فان الاسلام صار فى ذلك الوقت قويا والكفر ضعيفا ويدل عليه قوله تعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار وقوله عليه الصلاة والسلام لا تسبوا اصحابى فلو انفق احدكم مثل احد ذهبا ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه ✻ ثم قال تعالى (وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اى وكل واحد من الفريقين وعد الله الحسنى اى المثوبة الحسنى وهى الجنة مع تفاوت الدرجات (المسئلة الثانية) القراءة المشهورة وكلا بالنصب لانه بمنزلة زيدا وعدت خيرا فهو مفعول وعد وقرأ ابن عامر وكل بالرفع وحجته ان الفعل اذا تأخر عن مفعوله لم يقو عمله فيه والدليل عليه انهم قالوا ازيد ضربت وكقوله فى الشعر

(قد)

وقوله تعالى (لا يستوى منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل) بيان لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت احوالهم فى الانفاق بعد بيان ان لهم اجرا كبيرا على الاطلاق حثالهم على تحرى الافضل وعطف القتال على الانفاق للايذان بأنه من اهم مواد الانفاق مع كونه فى نفسه من افضل العبادات وانه لا يخلو من الانفاق اصلا وقسيم من انفق محذوف لظهوره ودلالة ما بعده عليه وقرئ قبل الفتح بغير من والفتح فتح مكة (اولئك) اشارة الى من انفق والجمع بالنظر الى معنى من كما ان افراد الضميرين السابقين بالنظر الى لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلتهم وعلو طبقتهم فى الفضل ومحله الرفع على الابتداء اى اولئك المنعوتون بذينك النعتين الجميلين (اعظم درجة) وارفع منزلة (من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا) لانهم انما فعلوا ما فعلوا من الانفاق والقتال قبل عزة الاسلام وقوة اهله عند كمال الحاجة الى النصر بالنفس والمال وهم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار الذين قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم لو انفق احدكم مثل احد ذهبا ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه وهؤلاء فعلوا ما فعلوا بعد ظهور الدين ودخول الناس فيه افواجا وقلة الحاجة الى الانفاق والقتال (وكلا) اى وكل واحد من الفريقين (وعد الله الحسنى) اى المثوبة الحسنى وهى الجنة لا الاولين فقط وقرئ وكل بالرفع على الابتداء اى وكل وعده الله تعالى

قداصبحت ام الخيار تدعى * على ذنبا كله لم اصنع

روى كله بالرفع لتأخر الفعل عنه لموجب آخر واعلم ان للشيخ عبد القاهر فى هذا الباب كلاما حسنا قال ان المعنى فى هذا البيت يتفاوت بسبب النصب والرفع وذلك لان النصب يفيد انه ما فعل كل الذنوب وهذا لا ينافى كونه فاعلا لبعض الذنوب فانه اذا قال ما فعلت كل الذنوب افاد انه ما فعل الكل ويبقى احتمال انه فعل البعض بل عند من يقول بأن دليل الخطاب حجة يكون ذلك اعترافا بانه فعل بعض الذنوب اما رواية الرفع وهى قوله كله لم اصنع فمعناه ان كل واحد واحد من الذنوب محكوم عليه بأنه غير مصنوع فيكون معناه انه ما أتى بشئ من الذنوب البتة وغرض الشاعر ان يدعى البراءة عن جميع الذنوب فعلمنا ان المعنى يتفاوت بالرفع والنصب ومما يتفاوت فيه المعنى بسبب تفاوت الاعراب فى هذا الباب قوله تعالى انا كل شئ خلقناه بقدر فمن قرأ كل شئ بالنصب افاد أنه تعالى خلق الكل بقدر ومن قرأ كل بالرفع لم يفد انه تعالى خلق الكل بل يفيد ان كل ما كان مخلوقا له فهو انما خلقه بقدره وقد يكون تفاوت الاعراب فى هذا الباب بحيث لا يوجب تفاوت المعنى كقوله والقمر قدرناه فانك سواء قرأت والقمر بالرفع او بالنصب فان المعنى واحد فكذا فى هذه الآية سواء قرأت وكلا وعد الله الحسنى اوقرأت وكل وعد الله الحسنى فان المعنى واحد غير متفاوت (المسئلة الثالثة) تقدير الآية وكلا وعده الله الحسنى الا أنه حذف الضمير لظهوره كما فى قوله اهذا الذى بعث الله رسولا وكذا قوله واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ثم قال والله بما تعملون خبير والمعنى انه تعالى لما وعد السابقين والمحسنين بالثواب فلابد وان يكون عالما بالجزئيات وبجميع المعلومات حتى يمكنه ايصال الثواب الى المستحقين اذ لو لم يكن عالما بهم وبافعالهم على سبيل التفصيل لما امكن الخروج عن عهدة الوعد بالتمام فلهذا السبب اتبع ذلك الوعد بقوله والله بما تعملون خبير ❊ ثم قال تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا ان رجلا من اليهود قال عند نزول هذه الآية ما استقرض اله محمد حتى افتقر فلطمه ابو بكر فشكى اليهودى ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ما اردت بذلك فقال ما ملكت نفسى ان لطمته فنزل قوله تعالى ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا قال المحققون اليهودى انما قال ذلك على سبيل الاستهزاء لا لان العاقل يعتقد ان الاله يفتقر وكذا القول فى قولهم ان الله فقير ونحن اغنياء (المسئلة الثانية) انه تعالى أكد بهذه الآية ترغيب الناس فى ان ينفقوا اموالهم فى نصرة المسلمين وقتال الكافرين ومواساة فقراء المسلمين وسمى ذلك الانفاق قرضا من حيث وعد به الجنة تشبيها بالقرض (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى المراد من هذا الانفاق فمنهم من قال المراد الانفاقات الواجبة ومنهم من قال بل هو فى التطوعات والاقرب دخول الكل فيه (المسئلة الرابعة) ذكروا فى كون القرض حسنا وجوها (احدها) قال

(والله بما تعملون خبير) بظواهره وبواطنه فيجازيكم بحسبه وقيل نزلت الآية فى ابى بكر رضى الله تعالى عنه فانه اول من آمن واول من أنفق فى سبيل الله وخاصم الكفار حتى ضرب ضربا اشرف به على الهلاك وقوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) ندب بليغ من الله تعالى الى الانفاق فى سبيله بعد الامر به والتوبيخ على تركه وبيان درجات المنفقين اى من ذا الذى ينفق ماله فى سبيله تعالى رجاء ان يعوضه فانه كمن يقرضه وحسن الانفاق بالاخلاص فيه وتحرى اكرم المال وافضل الجهات

مقاتل يعنى طيبة بها نفسه (وثانيها) قال الكلبي يعنى يتصدق بها لوجه الله (وثالثها) قال بعض العلماء القرض لايكون حسنا حتى يجمع اوصافا عشرة (الاول) ان يكون من الحلال قال عليه الصلاة والسلام ان الله طيب لايقبل الا الطيب وقال عليه الصلاة والسلام لايقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول (الثانى) ان يكون من اكرم ما يملكه دون ان ينفق الردئ قال الله تعالى ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون (الثالث) ان تتصدق به وانت تحبه وتحتاج اليه بأن ترجو الحياة وهو المراد بقوله تعالى وآتى المال على حبه وبقوله ويطعمون الطعام على حبه على احد التأويلات وقال عليه الصلاة والسلام الصدقة ان تعطى وانت صحيح شحيح تأمل العيش ولا تمهل حتى اذا بلغت التراقى قلت لفلان كذا ولفلان كذا (الرابع) ان تصرف صدقتك الى الاحوج الاولى بأخذها ولذلك خص الله تعالى اقواما بأخذها وهم اهل السهمان (الخامس) ان تكتم الصدقة ما امكنك لانه تعالى قال وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم (السادس) ان لا تتبعها منا ولا اذى قال تعالى لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى (السابع) ان تقصد بها وجه الله ولا ترائى كما قال الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى ولان المرائى مذموم بالاتفاق (الثامن) ان تستحقر ما تعطى وان كثر لان ذلك قليل من الدنيا والدنيا كلها قليلة وهذا هو المراد من قوله تعالى ولا تمنن تستكثر فى احد التأويلات (التاسع) ان يكون من احب اموالك اليك قال تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (العاشر) ان لا ترى عز نفسك وذل الفقير بل يكون الامر بالعكس فى نظرك فترى الفقير كأن الله تعالى احال عليك رزقه الذى قبله بقوله وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها وترى نفسك تحت دين الفقير فهذه اوصاف عشرة اذا اجتمعت كانت الصدقة قرضا حسنا وهذه الآية مفسرة فى سورة البقرة ❊ ثم انه تعالى قال (فيضاعفه له وله اجر كريم) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انه تعالى ضمن على هذا القرض الحسن امرين (احدهما) المضاعفة على ما ذكرها فى سورة البقرة وبين ان مع المضاعفة له اجر كريم وفيه قولان (الاول) وهو قول اصحابنا ان المضاعفة اشارة الى انه تعالى يضم الى قدر الثواب مثله من التفضل والاجر الكريم عبارة عن الثواب (فان قيل) مذهبكم ان الثواب ايضا تفضل فاذا لم يحصل الامتياز لم يتم هذا التفسير (الجواب) انه تعالى كتب فى اللوح المحفوظ أن كل من صدر منه الفعل الفلانى فله قدر كذا من الثواب فذاك القدر هو الثواب فاذا ضم اليه مثله فذلك المثل هو الضعف (والقول الثانى) وهو قول الجبائى من المعتزلة ان الاعواض تضم الى الثواب فذلك هو المضاعفة وانما وصف الاجر بكونه كريما لانه هو الذى جلب ذلك الضعف وبسببه حصلت تلك الزيادة فكان كريما من هذا الوجه (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وابن عامر فيضعفه مشددة بغير الف ثم ان ابن كثير قرأ بضم الفاء وابن عامر بفتح الفاء وقرأ عاصم فيضاعفه بالالف وفتح الفاء وقرأ نافع وابو عمرو وحمزة والكسائى

(فيضاعفه له) بالنصب على جواب الاستفهام باعتبار المعنى كأنه قيل أيقرض الله احد فيضاعفه له اى فيعطيه اجره اضعافا (وله أجر كريم) اى وذلك الاجر المضموم اليه الاضعاف كريم فى نفسه حقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون وان لم يضاعف فكيف وقد ضوعف اضعافا كثيرة وقرئ بالرفع عطفا على يقرض او حملا على تقدير مبتدأ اى فهو يضاعفه وقرئ يضعفه بالرفع والنصب

فيضاعفه بالالف وضم الفاء قال ابو علي الفارسي يضاعف ويضعف بمعنى انما الشأن في
تعليل قراءة الرفع والنصب اما الرفع فوجهه ظاهر لانه معطوف على يقرض او على
الانقطاع من الاول كأنه قيل فهو يضاعف واما قراءة النصب فوجهها انه لما قال من ذا
الذي يقرض فكأنه قال ايقرض الله احد قرضا حسنا ويكون قوله فيضاعفه جوابا عن
الاستفهام فحينئذ ينصب * ثم قال تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين
ايديهم وبأيمانهم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) يوم ترى ظرف لقوله وله اجر كريم او
منصوب باذكر تعظيما لذلك اليوم (المسئلة الثانية) المراد من هذا اليوم هو يوم المحاسبة
واختلفوا في هذا النور على وجوه (احدها) قال قوم المراد نفس النور على ما روى عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كل مثاب فانه يحصل له النور على قدر عمله وثوابه في
العظم والصغر فعلى هذا مراتب الانوار مختلفة فمنهم من يضيء له نور كما بين عدن الى صنعاء
ومنهم من نوره مثل الجبل ومنهم من لا يضيء له نوره الا موضع قدميه وادناهم نورا من
يكون نوره على ابهامه ينطفئ مرة ويتقد أخرى وهذا القول منقول عن ابن مسعود
وقتادة وغيرهما وقال مجاهد ما من عبد الا وينادى يوم القيامة يا فلان ها نورك ويا فلان
لا نور لك نعوذ بالله منه واعلم انا بينا في سورة النور ان النور الحقيقي هو الله تعالى وان نور
العلم الذي هو نور البصيرة اولى بكونه نورا من نور البصر واذا كان كذلك ظهر ان معرفة
الله هي النور في القيامة فمقادير الانوار يوم القيامة على حسب مقادير المعارف في الدنيا
(القول الثاني) أن المراد من النور ما يكون سببا للنجاة وانما قال بين ايديهم وبأيمانهم لان
السعداء يؤتون صحائف اعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الاشقياء يؤتونها من شمائلهم
ووراء ظهورهم (القول الثالث) المراد بهذا النور الهداية الى الجنة كما يقال ليس
لهذا الامر نور اذا لم يكن المقصود حاصلا ويقال هذا الامر له نور ورونق اذا كان المقصود
حاصلا (المسئلة الثالثة) قرأ سهل بن شعيب وبإيمانهم بكسر الهمزة والمعنى يسعى نورهم
بين ايديهم وبإيمانهم حصل ذلك السعي ونظيره قوله تعالى ذلك بما قدمت يداك اي ذلك كائن
بذلك * ثم قال تعالى (بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك
هو الفوز العظيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) حقيقة البشارة ذكرناها في تفسير
قوله وبشر الذين آمنوا ثم قالوا تقدير الآية وتقول لهم الملائكة بشراكم اليوم كما قال
والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم (المسئلة الثانية) دلت هذه الآية على
ان المؤمنين لا ينالهم اهوال يوم القيامة لانه تعالى بين ان هذه صفتهم يوم القيامة من غير
تخصيص (المسئلة الثالثة) احتج الكعبي على ان الفاسق ليس بمؤمن فقال لو كان
مؤمنا لدخل تحت هذه البشارة ولو كان كذلك لقطع بأنه من اهل الجنة ولما لم يكن كذلك
ثبت انه ليس بمؤمن (والجواب) ان الفاسق قاطع بأنه من اهل الجنة لانه اما ان لا يدخل
النار او ان دخلها لكنه سيخرج منها وسيدخل الجنة ويبقى فيها ابد الآباد فهو اذن قاطع

(يوم ترى المؤمنين والمؤمنات) ظرف لقوله تعالى وله اجر كريم او لقوله تعالى فيضاعفه او منصوب باضمار اذكر تفخيما لذلك اليوم وقوله تعالى (يسعى نورهم) حال من مفعول ترى قيل نورهم الضياء الذي يرى (بين ايديهم وبأيمانهم) وقيل هو هداهم وبأيمانهم كتبهم اي يسعى ايمانهم وعملهم الصالح بين ايديهم وفي ايمانهم كتب اعمالهم وقيل هو القرآن وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه يؤتون نورهم على قدر اعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى كالرجل القائم وادناهم نورا من نوره على ابهام رجله ينطفئ تارة ويلمع اخرى قال الحسن يستضيئون به على الصراط وقال مقاتل يكون لهم دليلا الى الجنة (بشراكم اليوم جنات) مقدر بقول هو حال او استئناف اي يقال لهم بشراكم اي ما تبشرون به جنات او بشراكم دخول جنات (تجري من تحتها الانهار خالدين فيها

بأنه من اهل الجنة فسقط هذا الاستدلال (المسئلة الرابعة) قوله ذلك عائد الى جميع ماتقدم وهو النور والبشرى بالجنات المخلدة (المسئلة الخامسة) قرئ ذلك الفوز باسقاط كلمة هو واعلم انه تعالى لما شرح حال المؤمنين فى موقف القيامة اتبع ذلك بشرح حال المنافقين ﷺفقال (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) يوم يقول بدل من يوم ترى او هو ايضا منصوب باذكر تقديرا (المسئلة الثانية) قرأ حمزة وحده انظرونا بكسورة الظاء والباقون انظروا قال ابو على الفارسى لفظ النظر يستعمل على ضروب (احدها) ان تريد به نظرت الى الشئ فيحذف الجار ويوصل الفعل كما انشد أبو الحسن

ظاهرات الجمال والحسن ينظر * ن كما ينظر الاراك الظباء

والمعنى ينظرن الى الاراك (وثانيها) ان تريد به تأملت وتدبرت ومنه قولك اذهب فانظر زيدا أيؤمن فهذا يراد به التأمل ومنه قوله تعالى انظر كيف ضربوا لك الامثال انظر كيف يفترون على الله الكذب انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض قال وقد يتعدى هذا بالى كقوله افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت وهذا نص على التأمل وبيان وجه الحكمة فيه وقد يتعدى بفى كقوله افلم ينظروا فى ملكوت السموات والارض أولم يتفكروا فى انفسهم (وثالثها) ان يراد بالنظر الرؤية كما فى قوله

ولما بدا حوران والآل دونه * نظرت فلم تنظر بعينك منظرا

والمعنى نظرت فلم تر بعينك منظرا تعرفه فى الآل قال الأن هذا على سبيل المجاز لانه دلت الدلائل على ان النظر عبارة عن تقليب الحدقة نحو المرئى التماسا لرؤيته فلما كانت الرؤية من توابع النظر ولوازمه غالبا أجرى على الرؤية لفظ النظر على سبيل اطلاق اسم السبب على المسبب قال ويجوز ان يكون قوله نظرت فلم تنظر كما يقال تكلمت وما تكلمت اى ماتكلمت بكلام مفيد فكذا ههنا نظرت وما نظرت نظرا مفيدا (ورابعها) ان يكون النظر بمعنى الانتظار ومنه قوله تعالى الى طعام غير ناظرين اناه اى غير منتظرين ادراكه وبلوغه وعلى هذا الوجه يكون نظرت معناه انتظرت ومجئ فعلت وافتعلت بمعنى واحد كثير كقولهم شويت واشتويت وحقرت واحتقرت اذا عرفت هذا فقوله انظرونا يحتمل وجهين (الاول) انظرونا اى انتظرونا لانه يسرع بالمؤمنين الى الجنة كالبروق الخاطفة والمنافقون مشاة (والثانى) انظرونا اى انظروا الينا لانهم اذا نظروا اليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين ايديهم فيستضيئون به واما قراءة انظرونا مكسورة الظاء فهى من النظرة والامهال ومنه قوله تعالى انظرنى الى يوم يبعثون وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بانظار المعسر والمعنى انه جعل اتئادهم فى المشى الى ان يلحقوا بهم انظارا لهم واعلم ان اباعبيدة والاخفش كانا يطعنان فى صحة هذه القراءة وقد ظهر الآن وجه صحتها (المسئلة الثالثة) اعلم ان الاحتمالات فى هذا الباب ثلاثة (احدها) ان يكون

ذلك) اى ماذكر من النور والبشرى بالجنات المخلدة (هو الفوز العظيم) الذى لاغاية وراءه وقرئ ذلك الفوز العظيم (يوم يقول المنافقون والمنافقات) بدل من يوم ترى (للذين آمنوا انظرونا) اى انتظرونا يقولون ذلك لما ان المؤمنين يسرع بهم الى الجنة كالبرق الخاطف على ركاب تزف بهم وهؤلاء مشاة اوانظروا الينا فانهم اذا نظروا اليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بالنور الذى بين ايديهم وقرئ انظرونا من النظرة وهى الامهال جعل اتئادهم فى المضى الى ان يلحقوا بهم انظارا لهم (نقتبس من نوركم) اى نستضئ منه واصله اتخاذ القبس (قيل) طردا لهم وتهكما بهم من جهة المؤمنين اومن جهة الملائكة (ارجعوا وراءكم) اى الى الموقف (فالتمسوا نورا) فانه من ثم يقتبس اوالى الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل مباديه من الايمان والاعمال الصالحة او ارجعوا خائبين خاسئين فالتمسوا نورا آخر وقد علموا ان لانور وراءهم وانما قالوه تخييبا لهم اوارادوا بالنور ماوراءهم من الظلمة الكثيفة تهكما بهم

الناس كلهم فى الظلمات ثم انه تعالى يعطى المؤمنين هذه الانوار والمنافقون يطلبونها منهم (وثانيها) ان تكون الناس كلهم فى الانوار ثم ان المؤمنين يكونون فى الجنات فيمرون سريعا والمنافقون يبقون وراءهم فيطلبون منهم الانتظار (وثالثها) ان يكون المؤمنون فى النور والمنافقون فى الظلمات ثم المنافقون يطلبون النور من المؤمنين وقد ذهب الى كل واحد من هذه الاحتمالات قوم فان كانت هذه الحالة انما تقع عند الموقف فالمراد من قوله انظرونا انظروا الينا لانهم اذا نظروا اليهم فقد اقبلوا عليهم ومتى اقبلوا عليهم وكانت انوارهم من قدامهم استضاؤا بتلك الانوار وان كانت هذه الحالة انما تقع عند مسير المؤمنين الى الجنة كان المراد من قوله انظرونا يحتمل ان يكون هو الانتظار وان يكون النظر اليهم (المسئلة الرابعة) القبس الشعلة من النار او السراج والمنافقون طمعوا فى شئ من انوار المؤمنين ان يقتبسوه كاقتباس نيران الدنيا وهو منهم جهل لان تلك الانوار نتائج الاعمال الصالحة فى الدنيا فلما لم توجد تلك الاعمال فى الدنيا امتنع حصول تلك الانوار فى الآخرة قال الحسن يعطى يوم القيامة كل احد نورا على قدر عمله ثم انه يؤخذ من حرجهم ومما فيه من الكلاليب والحسك ويلقى على الطريق فتمضى زمرة من المؤمنين وجوههم كالقمر ليلة البدر ثم تمضى زمرة اخرى كاضواء الكواكب فى السماء ثم على ذلك تغشاهم ظلمة فتطفئ نور المنافقين فهنالك يقول المنافقون للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم كقبس النار (المسئلة الخامسة) ذكروا فى المراد من قوله تعالى قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا وجوها (احدها) ان المراد منه ارجعوا الى دار الدنيا فالتمسوا هذه الانوار هنالك فان هذه الانوار انما تتولد من اكتساب المعارف الالهية والاخلاق الفاضلة والتنزه عن الجهل والاخلاق الذميمة والمراد من ضرب السور هو امتناع العود الى الدنيا (وثانيها) قال ابو امامة الناس يكونون فى ظلمة شديدة ثم المؤمنون يعطون الانوار فاذا اسرع المؤمن فى الذهاب قال المنافق انظرونا نقتبس من نوركم فيقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا قال وهى خدعة خدع بها المنافقون كما قال يخادعون الله وهو خادعهم يرجعون الى المكان الذى قسم فيه النور فلا يجدون شيئا فينصرفون اليهم فيجدون السور مضروبا بينهم وبين المؤمنين (وثالثها) قال ابو مسلم المراد من قول المؤمنين ارجعوا منع المنافقين عن الاستضاءة كقول الرجل لمن يريد القرب منه وراءك اوسع لك فعلى هذا القول المقصود من قوله ارجعوا ان يقطعوا بانه لا سبيل لهم الى وجدان هذا المطلوب البتة لانه امر لهم بالرجوع ❊ قوله تعالى (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا فى السور منهم من قال المراد منه الحجاب والحيلولة اى المنافقون منعوا عن طلب المؤمنين وقال آخرون بل المراد حائط بين الجنة والنار وهو قول قتادة وقال مجاهد هو حجاب الاعراف (المسئلة الثانية) الباء فى قوله بسور صلة وهو للتأكيد والتقدير ضرب بينهم

(فضرب بينهم) بين الفريقين (بسور) اى حائط والباء زائدة (له باب باطنه) اى باطن السور والباب وهو الجانب الذى يلى الجنة (فيه الرحمة وظاهره) وهو الطرف الذى يلى النار (من قبله) من جهته (العذاب) وقرئ فضرب على البناء للفاعل

سور كذا قاله الاخفش ثم قال تعالى له باب اى لذلك السور باب باطنه فيه الرحمة اى فى باطن ذلك السور الرحمة والمراد من الرحمة الجنة التى فيها المؤمنون وظاهره يعنى وخارج السور من قبله العذاب اى من قبله يأتيهم العذاب والمعنى ان مايلى المؤمنين ففيه الرحمة ومايلى الكافرين يأتيهم من قبله العذاب والحاصل ان بين الجنة والنار حائطا وهو السور ولذلك السور باب فالمؤمنون يدخلون الجنة من باب ذلك السور والكافرون يبقون فى العذاب والنار * ثم قال تعالى (ينادونهم الم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الامانى حتى جاء امر الله) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى الآية قولان (الاول) الم نكن معكم فى الدنيا (والثانى) الم نكن معكم فى العبادات والمساجد والصلوات والغزوات وهذا القول هو المتعين (المسئلة الثانية) البعد بين الجنة والنار كثير لان الجنة فى اعلى السموات والنار فى الدرك الاسفل فهذا يدل على ان البعد الشديد لا يمنع من الادراك ولا يمكن ان يقال ان الله عظم صوت الكفار بحيث يبلغ من اسفل السافلين الى اعلى عليين لان مثل هذا الصوت انما يليق بالاشداء الاقوياء جدا والكفار موصوفون بالضعف وخفاء الصوت فعلمنا ان البعد لا يمنع من الادراك على ماهو مذهبنا ثم حكى تعالى ان المؤمنين قالوا بلى كنتم معنا الا انكم فعلتم اشياء بسببها وقعتم فى هذا العذاب (اولها) ولكنكم فتنتم انفسكم اى بالكفر والمعاصى وكلها فتنة (وثانيها) قوله وتربصتم وفيه وجوه (احدها) قال ابن عباس تربصتم بالتوبة (وثانيها) قال مقاتل وتربصتم بمحمد الموت وقلتم يوشك ان يموت فنستريح منه (وثالثها) كنتم تتربصون دائرة السوء لتلتحقوا بالكفار وتتخلصوا من النفاق (وثالثها) قوله وارتبتم وفيه وجوه (الاول) شككتم فى وعيد الله (وثانيها) شككتم فى نبوة محمد (وثالثها) شككتم فى البعث والقيامة (ورابعها) قوله وغرتكم الامانى قال ابن عباس يريد الباطل وهو ما كانوا يتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين حتى جاء امر الله يعنى الموت والمعنى مازالوا فى خدع الشيطان وغروره حتى اماتهم الله والقاهم فى النار * قوله تعالى (وغركم بالله الغرور) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ سماك بن حرب الغرور بضم الغين والمعنى وغركم بالله الاغترار وتقديره على حذف المضاف اى غركم بالله سلامتكم منه مع الاغترار (المسئلة الثانية) الغرور بفتح الغين هو الشيطان لالقائه اليكم ان لا خوف عليكم من محاسبة ومجازاة * ثم قال تعالى (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا) الفدية ما يفتدى به وفيه قولان (الاول) لا يؤخذ منكم ايمان ولا توبة فقد زال التكليف وحصل الالجاء (والثانى) بل المراد لا يقبل منكم فدية تدفعون بها العذاب عن انفسكم كقوله تعالى ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة واعلم ان الفدية ما يفتدى به فهو يتناول الايمان والتوبة والمال وهذا يدل على ان قبول التوبة غير واجب عقلا على ماتقوله المعتزلة لانه تعالى بين انه لا يقبل الفدية اصلا والتوبة فدية فتكون الآية دالة

(ينادونهم) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فاذا يفعلون بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب فقيل ينادونهم (الم نكن) فى الدنيا (معكم) يريدون به موافقتهم لهم فى الظاهر (قالوا بلى) كنتم معنا بحسب الظاهر (ولكنكم فتنتم انفسكم) محنتموها بالنفاق واهلكتموها (وتربصتم) بالمؤمنين الدوائر (وارتبتم) فى امر الدين (وغرتكم الامانى) الفارغة من جملتها الطمع فى انتكاس امر الاسلام (حتى جاء امر الله) اى الموت (وغركم بالله) الكريم (الغرور) اى غركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم وقرئ الغرور بالضم (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية) فداء وقرئ تؤخذ بالتاء (ولا من الذين كفروا) اى ظاهرا او باطنا

على ان التوبة غير مقبولة اصلا واذا كان كذلك لم تكن التوبة واجبة القبول عقلا اما قوله ولا من الذين كفروا ففيه بحث وهو ان عطف الكافر على المنافق يقتضى ان لايكون المنافق كافرا لوجوب حصول المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه (والجواب) المراد الذين اظهروا الكفر والا فالمنافق كافر ❊ ثم قال تعالى (مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير) وفى لفظ المولى ههنا اقوال (احدها) قال ابن عباس مولاكم اى مصيركم وتحقيقه ان المولى موضع الولى وهو القرب فالمعنى ان النار هى موضعكم الذى تقربون منه وتصلون اليه (والثانى) قال الكلبى يعنى اولى بكم وهو قول الزجاج والفراء وابى عبيدة واعلم ان هذا الذى قالوه معنى وليس بتفسير اللفظ لانه لو كان مولى واولى بمعنى واحد فى اللغة لصح استعمال كل واحد منهما فى مكان الآخر فكان يجب ان يصح ان يقال هذا مولى من فلان كما يقال هذا اولى من فلان ويصح ان يقال هذا اولى فلان كما يقال هذا مولى فلان ولما بطل ذلك علمنا ان الذى قالوه معنى وليس بتفسير وانما نبهنا على هذه الدقيقة لان الشريف المرتضى لما تمسك فى امامة على بقوله عليه السلام من كنت مولاه فعلى مولاه قال احد معانى مولى انه اولى واحتج فى ذلك بأقوال أئمة اللغة فى تفسير هذه الآية بأن مولى معناه اولى واذا ثبت ان اللفظ محتمل له وجب حمله عليه لان ماعداه اما بين الثبوت ككونه ابن العم والناصر او بين الانتفاء كالمعتق والمعتق فيكون على التقدير الاول عبثا وعلى التقدير الثانى كذبا واما نحن فقد بينا بالدليل ان قول هؤلاء فى هذا الموضع معنى لا تفسير وحينئذ يسقط الاستدلال به وفى الآية وجه آخر وهو ان معنى قوله هى مولاكم اى لا مولى لكم وذلك لان من كانت النار مولاه فلا مولى له كما يقال ناصره الخذلان ومعينه البكاء اى لا ناصر له ولا معين وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى وأن الكافرين لا مولى لهم ومنه قوله تعالى يغاثوا بماء كالمهل ❊ ثم قال تعالى (ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ الحسن ألما يأن قال ابن جنى اصل لما لم ثم زيد عليها ما فلم نفى لقوله افعل ولما نفى لقوله قد يفعل وذلك لانه لما زيد فى الاثبات قد لاجرم زيد فى نفيه ما الا انهم لما ركبوا لم مع ما حدث لها معنى ولفظ اما المعنى فانها صارت فى بعض المواضع ظرفا فقالوا لما قت قام زيد اى وقت قيامك قام زيد واما اللفظ فانه يجوز ان تقف عليها دون مجزومها فيجوز ان تقول جئت ولما اى ولما يجئ ولا يجوز ان تقول جئت ولم واما الذين قرؤا الم يأن فالمشهور الم يأن من أنى الامر يأنى اذا جاء اناه اى وقته وقرئ الم يئن من آن يئين بمعنى أنى يأنى (المسئلة الثانية) اختلفوا فى قوله الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله فقال بعضهم نزل فى المنافقين الذين اظهروا الايمان وفى قلوبهم النفاق المباين للخشوع والقائلون بهذا القول لعلهم ذهبوا الى ان المؤمن لا يكون مؤمنا فى الحقيقة

(مأواكم النار) لاتبرحونها ابدا (هى مولاكم) اى اولى بكم وحقيقته مكانكم الذى يقال فيه هو اولى بكم كما يقال هو مئنة الكرم اى مكان لقول القائل انه لكريم او مكانكم عن قريب من الولى وهو القرب او ناصركم على طريقة قوله

تحية بينهم ضرب وجيع

او متوليكم تتولاكم كما توليتم موجباتها (وبئس المصير) اى النار (الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله) استئناف ناع عليهم تثاقلهم فى امور الدين ورخاوة عقدهم فيها واستبطاء لانتدابهم لما ندبوا اليه بالترغيب والترهيب وروى ان المؤمنين كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا اصابوا الرزق والنعمة وفتروا عما كانوا عليه فنزلت وعن ابن مسعود رضى الله عنه ما كان بين اسلامنا وبين ان عوتبنا بهذه الآية الا اربع سنين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن اى الم يجئ وقت ان تخشع قلوبهم لذكره تعالى وتطمئن به ويسارعوا الى طاعته بالامتثال بأوامره والانتهاء عما نهوا عنه من غير توان ولا فتور من انى الامر اذا جاء اناه اى وقته وقرئ الم يئن من آن يئين بمعنى أنى وقرئ ألما يأن وفيه دلالة على ان المنفى متوقع

الامع خشوع القلب فلايجوز ان يقول تعالى ذلك الالمن ليس بمؤمن وقال آخرون بل المراد من هو مؤمن على الحقيقة لكن المؤمن قد يكون له خشوع وخشية وقد لايكون كذلك ثم على هذا القول تحتمل الآية وجوها (احدهــا) لعل طائفة من المؤمنين ما كان فيهم مزيد خشوع ولا رقة فحثوا عليه بهذه الآية (وثانيها) لعل قوما كان فيهم خشوع كثير ثم زال منهم شدة ذلك الخشوع فحثوا على المعاودة اليها عن الاعمش قال ان الصحابة لما قدموا المدينة اصابوا لينا فى العيش ورفاهية ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا بهذه الآية وعن ابى بكر ان هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من اهل اليمامة فبكوا بكاء شديدا فنظر اليهم فقال هكذا كنا حتى قست القلوب واما قوله لذكر الله ففيه قولان (الاول) ان تقدير الآية اما حان للمؤمنين ان ترق قلوبهم لذكر الله اى مواعظ الله التى ذكرها فى القرآن وعلى هذا الذكر مصدر اضيف الى الفاعل (القول الثانى) ان الذكر مضاف الى المفعول والمعنى لذكرهم الله اى يجب ان يورثهم الذكر خشوعا ولايكونون كمن ذكره بالغفلة فلايخشع قلبه للذكر وقوله تعــالى وما نزل من الحق فيه مسائل (المسئلة الاولى) ما فى موضع جر بالعطف على الذكر وهو موصول والعائد اليه محذوف على تقدير وما نزله من الحق ثم قال ابن عباس فى قوله وما نزل من الحق يعنى القرآن (المسئلة الثانية) قال ابو على قرأ نافع وحفص والمفضل عن عاصم وما نزل من الحق خفيفة وقرأ الباقون وابو بكر عن عاصم وما نزل مشــددة وعن ابى عمرو وما نزل من الحق مرتفعة النون مكسورة الزاى والتقدير فى القراءة الاولى ان تخشع قلوبهم لذكر الله ولما نزل من الحق وفى القراءة الثانية ولما نزله الله من الحق وفى القراءة الثالثة ولما نزل من الحق (المسـئلة الثالثة) يحتمل ان يكون المراد من الحق هو القرآن لانه جامع للوصفين الذكر والموعظة وانه حق نازل من السماء ويحتمل ان يكون المراد من الذكر هو ذكر الله مطلقا والمراد بما نزل من الحق هو القرآن وانما قدم الخشوع بالذكر على الخشوع بما نزل من القرآن لان الخشوع والخوف والخشية لاتحصل الاعند ذكر الله فاما حصولها عند سماع القرآن فذاك لاجل اشتمال القرآن على ذكر الله ثم قال تعالى ولايكونوا قال الفراء هو فى موضع نصب معناه الم يأن ان تخشع قلوبهم وان لايكونوا قال ولو كان جزما على النهى كان صوابا ويدل على هذا الوجه قراءة من قرأ بالتاء على سبيل الالتفات ثم قال كالذين اوتوا الكتاب من قبل يريد اليهود والنصارى واما قوله تعالى فطال عليهم الامد ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ذكروا فى تفسير طول الامد وجوها (احدها) طالت المدة بينهم وبين انبيائهم فقست قلوبهم (وثانيها) قال ابن عباس مالوا الى الدنيا واعرضوا عن مواعظ الله (وثالثها) طالت اعمارهم فى الغفلة فحصلت القسوة فى قلوبهم بذلك السبب (ورابعها) قال مقاتل ابن حيان الامد ههنا الامل البعيد والمعنى على هذا طال عليهم الامد بطول الامل اى لما طالت آمالهم لاجرم قست قلوبهم (وخامسها) قال مقاتل بن سليمان طال عليهم امد

(وما نزل من الحق) اى القرآن وهو عطف على ذكر الله فان كان هو المراد به ايضا فالعطف لتغاير العنــوانين فانه ذكر وموعظة كما انه حق نازل من السماء والافا لعطف كما فى قوله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ومعنى الخشوع له الانقياد التام لأوامره ونواهيه والعكوف على العمل بما فيه من الاحكام التى من جملتها ماسبق ومالحق من الانفاق فى سبيل الله تعالى وقرئ نزل من التنزيل مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل وأنزل (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) عطف على تخشع وقرئ بالتــاء على الالتفــات للاعتناء بالتحــذير وقيل هو نهى عن مماثلة اهل الكتاب فى قسوة القلوب بعد ان وبخوا وذلك ان بنى اسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم اواذا سمعوا التوراة والانجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم (فطال عليهم الأمد) اى الاجل وقرئ الامد بتشديد الدال اى الوقت الاطول وغلبهم الجفاء وزالت عنهم الروعة التى كانت تأتيهم من الكتابين (فقست قلوبهم) فهى كالحجارة او اشد قسوة (وكثير منهم فاسقون) اى خارجون عن حدود دينهم رافضون لما فى كتابهم بالكلية

(خروج)

خروج النبي عليه السلام (وسادسها) طال عهدهم بسماع التوراة والانجيل فزال وقعهما عن قلوبهم فلاجرم قست قلوبهم فكأنه تعالى نهى المؤمنين عن ان يكونوا كذلك قاله القرطبي (المسئلة الثانية) قرئ الامد بالتشديد اى الوقت الاطول ثم قال وكثير منهم فاسقون اى خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين وكأنه اشارة الى ان عدم الخشوع في اول الامر يفضي الى الفسق في آخر الامر * ثم قال تعالى (اعلموا ان الله يحيي الارض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) وفيه وجهان (الاول) انه تمثيل والمعنى ان القلوب التي ماتت بسبب القساوة فالمواظبة على الذكر سبب لعود حياة الخشوع اليها كما يحيي الله الارض بالغيث (والثاني) ان المراد من قوله يحيي الارض بعد موتها بعث الاموات فذكر ذلك ترغيبا في الخشوع والخضوع وزجرا عن القساوة * ثم

قال تعالى (ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم اجر كريم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابو علي الفارسي قرأ ابن كثير وعاصم في رواية ابي بكر ان المصدقين والمصدقات بالتخفيف وقرأ الباقون وحفص عن عاصم ان المصدقين والمصدقات بتشديد الصاد فيهما فعلى القراءة الاولى يكون معنى المصدق المؤمن فيكون المعنى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لان اقراض الله من الاعمال الصالحة ثم قالوا وهذه القراءة اولى لوجهين (الاول) ان من تصدق لله واقرض اذا لم يكن مؤمنا لم يدخل تحت الوعد فيصير ظاهر الآية متروكا على قراءة التشديد ولا يصير متروكا على قراءة التخفيف (والثاني) ان المتصدق هو الذي يقرض الله فيصير قوله ان المصدقين والمصدقات وقوله واقرضوا الله شيئا واحدا وهو تكرار اما على قراءة التخفيف فانه لا يلزم التكرار وحجة من ثقل وجهان (احدهما) ان قراءة ابي ان المتصدقين والمتصدقات بالتاء (والثاني) ان قوله واقرضوا الله قرضا حسنا اعتراض بين الخبر والمخبر عنه والاعتراض بمنزلة الصفة فهو للصدقة اشد ملازمة منه للتصديق واجاب الاولون بانا لا نحمل قوله واقرضوا على الاعتراض ولكنا نعطفه على المعنى الا ترى ان المصدقين والمصدقات معناه ان الذين صدقوا فصار تقدير الآية ان الذين صدقوا واقرضوا الله (المسئلة الثانية) في الآية اشكال وهو ان عطف الفعل على الاسم قبيح فالفائدة في التزامه ههنا قال صاحب الكشاف قوله واقرضوا معطوف على معنى الفعل في المصدقين لان اللام بمعنى الذين واسم الفاعل بمعنى صدقوا كأنه قيل ان الذين صدقوا واقرضوا واعلم ان هذا لا يزيل الاشكال فانه ليس فيه بيان انه لم عدل عن ذلك اللفظ الى هذا اللفظ والذي عندي فيه ان الالف واللام في المصدقين والمصدقات للمعهود فكأنه ذكر جماعة معينين بهذا الوصف ثم قبل ذكر الخبر اخبر عنهم بأنهم اتوا باحسن انواع الصدقة وهو الاتيان بالقرض الحسن ثم ذكر الخبر بعد ذلك وهو قوله يضاعف لهم فقوله واقرضوا الله هو المسمى بحشو اللوزينج كما في قوله * ان الثمانين وبلغتها * (المسئلة الثالثة) من قرأ المصدقين بالتشديد

(اعلموا ان الله يحيي الارض بعد موتها) تمثيل لاحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة باحياء الارض الميتة بالغيث للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة (قد بينا لكم الآيات) التي من جملتها هذه الآيات (لعلكم تعقلون) كي تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارين (ان المصدقين والمصدقات) اى المتصدقين والمتصدقات وقد قرئ كذلك وقرئ بتخفيف الصاد من التصديق اى الذين صدقوا الله ورسوله (واقرضوا الله قرضا حسنا) قيل هو عطف على ما في المصدقين من معنى الفعل فانه في حكم الذين اصدقوا او صدقوا على القراءتين وعقب بأن فيه فصلا بين اجزاء الصلة بأجنبي وهو المصدقات واجيب بأن المعنى ان الناس الذين تصدقوا وتصدقن واقرضوا فهو عطف على الصلة من حيث المعنى من غير فصل وقيل ان المصدقات ليس بعطف على المصدقين بل هو منصوب على الاختصاص كأنه قيل ان المصدقين على العموم تغليبا واخص المصدقات من بينهم كما تقول ان الذين آمنوا ولا سيما العلماء منهم وعملوا الصالحات لهم كذا لكن لا على ان مدار التخصيص مزيد استحقاقهن لمضاعفة الاجر كما في المثال المذكور بل زيادة احتياجهن الى التصدق الداعية الى الاعتناء بحثهن على التصدق

اختلفوا في ان المراد هو الواجب او التطوع اوهما جميعا او المراد بالتصدق الواجب وبالاقراض التطوع لان تسميته بالقرض كالدلالة على ذلك فكل هذه الاحتمالات مذكورة اما قوله يضاعف لهم ولهم اجر كريم فقد تقدم القول فيه ❊ قوله تعالى

والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم اجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب الجحيم) اعلم انه تعالى ذكر قبل هذه الآية حال المؤمنين والمنافقين وذكر الآن حال المؤمنين وحال الكافرين ثم في الآية مسئلتان (المسئلة الاولى) الصديق نعت لمن كثر منه الصدق وجمع صدقا الى صدق في الايمان بالله تعالى ورسله وفي هذه الآية قولان (احدهما) ان الآية عامة في كل من آمن بالله ورسله وهو مذهب مجاهد قال كل من آمن بالله ورسله فهو صديق ثم قرأ هذه الآية ويدل على هذا ما روى عن ابن عباس في قوله هم الصديقون اى الموحدون (الثاني) ان الآية خاصة وهو قول المقاتلين ان الصديقين هم الذين آمنوا بالرسل حين أتوهم ولم يكذبوهم ساعة قط مثل آل ياسين ومثل مؤمن آل فرعون واما في ديننا فهم ثمانية سبقوا اهل الارض الى الاسلام ابوبكر وعلى وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة وتاسعهم عمر الحقه الله بهم لما عرف من صدق نيته (المسئلة الثانية) قوله والشهداء فيه قولان (الاول) انه عطف على الآية الاولى والتقدير ان الذين آمنوا بالله ورسله هم الصديقون وهم الشهداء قال مجاهد كل مؤمن فهو صديق وشهيد وتلا هذه الآية وعلى هذا القول اختلفوا في انه لم سمى كل مؤمن شهيدا فقال بعضهم لان المؤمنين هم الشهداء عند ربهم على العباد في اعمالهم والمراد انهم عدول الآخرة الذين تقبل شهادتهم وقال الحسن السبب في هذا الاسم ان كل مؤمن فانه يشهد كرامة ربه وقال الاصم كل مؤمن شهيد لانه قائم لله تعالى بالشهادة فيما تعبدهم به من وجوب الايمان ووجوب الطاعات وحرمة الكفر والمعاصى وقال ابو مسلم قد ذكرنا ان الصديق نعت لمن كثر منه الصدق وجمع صدقا الى صدق في الايمان بالله تعالى ورسوله فصاروا بذلك شهداء على غيرهم (القول الثاني) ان قوله والشهداء ليس عطفا على ما تقدم بل هو مبتدأ وخبره قوله عند ربهم او يكون ذلك صفة وخبره هو قوله لهم اجرهم وعلى هذا القول اختلفوا في المراد من الشهداء فقال الفراء والزجاج هم الانبياء لقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنابك على هؤلاء شهيدا وقال مقاتل ومحمد بن جرير الشهداء هم الذين استشهدوا في سبيل الله وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما تعدون الشهداء فيكم قالوا المقتول فقال ان شهداء امتى اذن لقليل ثم ذكر ان المقتول شهيد والمبطون شهيد والمطعون شهيد الحديث واعلم انه تعالى لما ذكر حال المؤمنين اتبعه بذكر حال الكافرين فقال والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب الجحيم ولما ذكر احوال المؤمنين والكافرين ذكر بعده ما يدل على حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة فقال تعالى ❊ (اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد

لما روى انه عليه الصلاة والسلام قال يامعشر النساء تصدقن فانى اريتكن اكثر اهل النار وقيل هو صلة الموصول محذوف معطوف على المصدقين كأنه قيل والذين اقرضوا والقرض الحسن عبارة عن التصدق من الطيب عن طيبة النفس وخلوص النية على المستحق للصدقة (يضاعف لهم) على البناء للمفعول مسندا الى مابعده من الجار والمجرور وقيل وقيل الى مصدر ما في حيز الصلة على حذف مضاف اى ثواب التصدق وقرئ على البناء للفاعل اى يضاعف الله تعالى وقرئ يضعف بتشديد العين وفتحها (ولهم اجر كريم) مر ما فيه من الكلام (والذين آمنوا بالله ورسله) كافة وقدمر بيان كيفية الايمان بهم في خاتمة سورة البقرة (اولئك) اشارة الى الموصول الذى هو مبتدأ وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه قدمر سره مرارا وهو مبتدأ ثان وقوله تعالى (هم) مبتدأ ثالث خبره (الصديقون والشهداء) وهو مع خبره خبر للثانى وهو مع خبره خبر للاول اوهم ضمير الفصل وما بعده خبر لاولئك والجملة خبر للموصول اى اولئك (عند ربهم) بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الرتبة ورفعة المحل وهم الذين سبقوا الى التصديق واستشهدوا في سبيل الله تعالى اوهم المبالغون في التصدق حيث آمنوا وصدقوا جميع اخباره تعالى ورسوله والقائمون

كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) المقصود الاصلى من الآية تحقير حال الدنيا وتعظيم حال الآخرة فقال الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر ولاشك ان هذه الاشياء امور محقرة واما الآخرة فهى عذاب شديد دائم او رضوان الله على سبيل الدوام ولاشك ان ذلك عظيم (المسئلة الثانية) اعلم ان الحياة الدنيا حكمة وصواب ولذلك لما قال انى جاعل فى الارض خليفة قال انى اعلم مالاتعلمون ولولا انها حكمة وصواب لما قال ذلك ولان الحياة خلقه كما قال الذى خلق الموت والحياة وانه لايفعل العبث على ما قال افحسبتم انما خلقناكم عبثا وقال وما خلقنا السماء والارض ومابينهما باطلا ولان الحياة نعمة بل هى اصل لجميع النعم وحقائق الاشياء لاتختلف بأن كانت فى الدنيا او فى الآخرة ولانه تعالى عظم المنة بخلق الحياة فقال كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم فأول ماذكر من اصناف نعمه هو الحياة فدل مجموع ماذكرنا على ان الحياة الدنيا غير مذمومة بل المراد ان من صرف هذه الحياة الدنيا لا الى طاعة الله بل الى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى فذاك هو المذموم ثم انه تعالى وصفها بامور (اولها) انها لعب وهو فعل الصبيان الذين يتعبون انفسهم جدا ثم ان تلك المتاعب تنقضى من غير فائدة (وثانيها) انها لهو وهو فعل الشبان والغالب ان بعد انقضائه لايبقى الا الحسرة وذلك لان العاقل بعد انقضائه يرى المال ذاهبا والعمر ذاهبا واللذة منقضية والنفس ازدادت شوقا وتعطشا اليه مع فقد انها فتكون المضار مجتمعة متوالية (وثالثها) انها زينة وهذا دأب النسوان لان المطلوب من الزينة تحسين القبيح وعمارة البناء المشرف على ان يصير خرابا والاجتهاد فى تكميل الناقص ومن المعلوم ان العرضى لايقاوم الذاتى فاذا كانت الدنيا منقضية لذاتها فاسدة لذاتها فكيف يتمكن العاقل من ازالة هذه المفاسد عنها قال ابن عباس المعنى ان الكافر يشتغل طول حياته بطلب زينة الدنيا دون العمل للآخرة وهذا كما قيل

* حياتك يامغرور سهو وغفلة * (ورابعها) تفاخر بينكم بالصفات الفانية الزائلة وهو اما التفاخر بالنسب او التفاخر بالقدرة والقوة والعساكر وكلها ذاهبة (وخامسها) قوله وتكاثر فى الاموال والاولاد قال ابن عباس يجمع المال فى سخط الله ويتباهى به على اولياء الله ويصرفه فى مساخط الله فهو ظلمات بعضها فوق بعض واعلم انه لاوجه بتبعية اصحاب الدنيا يخرج عن هذه الاقسام وبين ان حال الدنيا اذا لم يخل من هذه الوجوه فيجب ان يعدل عنها الى مايؤدى الى عمارة الآخرة ثم ذكر تعالى لهذه الحياة مثلا فقال كمثل غيث يعنى المطر ونظيره قوله تعالى واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء والكاف فى قوله كمثل غيث موضعه رفع من وجهين (احدهما) ان يكون صفة لقوله لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر (والآخر) ان يكون خبرا بعد خبر قاله الزجاج وقوله اعجب الكفار نباته

بالشهادة لله تعالى بالوحدانية ولهم بالايمان او على الامم يوم القيامة وقوله تعالى (لهم اجرهم ونورهم) بيان لثمرات ماوصفوا به من نعوت الكمال على انه جملة من مبتدأ وخبر محلها الرفع على انه خبر ثان للموصول اوالخبر هو الجار وما بعده مرتفع به على الفاعلية والضمير الاول على الوجه الاول للموصول والاخيران للصديقين والشهداء اى لهم مثل اجرهم ونورهم المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال وقد حذف اداة التشبيه تنبيها على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد كما فعل ذلك حيث قيل هم الصديقون والشهداء وليست المماثلة بين ماللفريق الاول من الاجر والنور وبين تمام ماللفريقين الاخيرين بل بين تمام ماللاول من الاصل والاضعاف وبين ماللاخيرين من الاصل بدون الاضعاف واما على الوجه الثانى فرجع الكل واحد والمعنى لهم الاجر والنور الموعودان لهم هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم وقد قيل والشهداء مبتدأ وعند ربهم خبره وقيل الخبر لهم اجرهم الخ (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك) الموصوفون بتلك الصفة القبيحة (اصحاب الجحيم) بحيث لايفارقونها ابدا (اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد) بعد مابين حال الفريقين

فيه قولان (الاول) قال ابن مسعود المراد من الكفار الزراع قال الازهرى والعرب تقول للزارع كافر لانه يكفر البذر الذى يبذره بتراب الارض واذا اعجب الزراع نباته مع علمهم به فهو فى غاية الحسن (الثانى) ان المراد بالكفار فى هذه الآية الكفار بالله وهم اشد اعجابا بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين لانهم لايرون سعادة سوى سعادة الدنيا وقوله نباته اى ما انبتت من ذلك الغيث وباقى الآية مفسر فى سورة الزمر ثم انه تعالى ذكر بعده حال الآخرة فقال وفى الآخرة عذاب شديد اى لمن كانت حياته بهذه الصفة ومغفرة من الله ورضوان لاوليائه واهل طاعته وذلك لانه لما وصف الدنيا بالحقارة وسرعة الانقضاء بين ان الآخرة اما عذاب شديد دائم واما رضوان وهو اعظم درجات الثواب ثم قال وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور يعنى لمن اقبل عليها واعرض بها عن طلب الآخرة قال سعيد بن جبير الدنيا متاع الغرور اذا الهتك عن طلب الآخرة فاما اذا دعتك الى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة ❊ ثم قال تعالى (سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض) والمراد كأنه تعالى قال لتكن مفاخرتكم ومكاثرتكم فى غير ما انتم عليه بل احرصوا على ان تكون مسابقتكم فى طلب الآخرة واعلم انه تعالى امر بالمسارعة فى قوله وسارعوا الى مغفرة من ربكم ثم شرح ههنا كيفية تلك المسارعة فقال سارعوا مسارعة المسابقين لاقرانهم فى المضمار وقوله الى مغفرة فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لاشك ان المراد منه المسارعة الى ما يوجب المغفرة فقال قوم المراد سابقوا الى التوبة وقال آخرون المراد سابقوا الى سائر ما كلفتم به فدخل فيه التوبة وهذا اصح لان المغفرة والجنة لاينالان الا بالانتهاء عن جميع المعاصى والاشتغال بكل الطاعات (المسئلة الثانية) احتج القائلون بان الامر يفيد الفور بهذه الآية فقالوا هذه الآية دلت على وجوب المسارعة فوجب ان يكون التراخى محظورا اما قوله تعالى وجنة عرضها كعرض السماء والارض وقال فى آل عمران وجنة عرضها السموات والارض فذكروا فيه وجوها (احدها) ان السموات السبع والارضين السبع لو جعلت صفائح والزق بعضها ببعض لكانت الجنة فى عرضها هذا قول مقاتل (وثانيها) قال عطاء عن ابن عباس يريد ان لكل واحد من المطيعين جنة بهذه الصفة (وثالثها) قال السدى ان الله تعالى شبه عرض الجنة بعرض السموات السبع والارضين السبع ولاشك ان طولها ازيد من عرضها فذكر العرض تنبيها على ان طولها اضعاف ذلك (ورابعها) ان هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع فى نفوسهم وافكارهم واكثر ما يقع فى نفوسهم مقدار السموات والارض وهذا قول الزجاج (وخامسها) وهو اختيار ابن عباس ان الجنان اربعة قال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقال ومن دونهما جنتان فالمراد ههنا تشبيه واحدة من تلك الجنان فى العرض بالسموات السبع والارضين السبع ❊ ثم قال تعالى (اعدت للذين آمنوا بالله ورسله) وفيه مسائل (المسئلة

(الاولى)

فى الآخرة شرح حال الحياة الدنيا التى اطمأن بها الفريق الثانى واشير الى انها من محقرات الامور التى لا يركن اليها العقلاء فضلا عن الاطمئنان بها وانها مع ذلك سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال حيث قيل (كمثل غيث اعجب الكفار) اى الحراث (نباته) اى النبات الحاصل به (ثم يهيج) اى يجف بعد خضرته ونضارته (فتراه مصفرا) بعد ما رأيته ناضرا مؤنقا وقرئ مصفارا وانما لم يقل فيصفر ايذانا بأن اصفراره مقارن لجفافه وانما المترتب عليه رؤيته كذلك (ثم يكون حطاما) هشيما متكسرا ومحل الكاف قيل النصب على الحالية من الضمير فى لعب لانه فى معنى الوصف وقيل الرفع على انه خبر بعد خبر للحياة الدنيا بتقدير المضاف اى مثل الحياة الدنيا كمثل الخ وبعد ما بين حقارة امر الدنيا تزهيدا فيها وتنفيرا عن العكوف عليها اشير الى فخامة شأن الآخرة وعظم ما فيها من اللذات والآلام ترغيبا فى تحصيل نعيمها المقيم وتحذيرا من عذابها الاليم وقدم ذكر العذاب فقيل (وفى الآخرة عذاب شديد) لانه من نتائج الانهماك فيما فصل من احوال الحياة الدنيا (ومغفرة) عظيمة (من الله ورضوان) عظيم لا يقادر قدره (وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) اى لمن اطمأن بها ولم يجعلها ذريعة الى الآخرة

الاولى) احتج جمهور الاصحاب بهذا على ان الجنة مخلوقة وقال المعتزلة هذه الآية لا يمكن اجراؤها على ظاهرها لوجهين (الاول) ان قوله تعالى أكلها دائم يدل على ان من صفتها بعد وجودها ان لا تفنى لكنها لو كانت الآن موجودة لفنيت بدليل قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه (الثانى) ان الجنة مخلوقة وهى الآن فى السماء السابعة ولا يجوز مع انها فى واحدة منها ان يكون عرضها كعرض كل السموات قالوا فثبت بهذين الوجهين انه لابد من التأويل وذلك من وجهين (الاول) انه تعالى لما كان قادرا لا يصح المنع عليه وكان حكيما لا يصح الخلف فى وعده ثم انه تعالى وعد على الطاعة بالجنة فكانت الجنة كالمعدة المهيأة لهم تشبيها لما سيقع قطعا بالواقع وقد يقول المرء لصاحبه أعددت لك المكافأة اذا عزم عليها وان لم يوجدها (والثانى) ان المراد اذا كانت الآخرة اعدها الله تعالى لهم كقوله تعالى ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار اى اذا كان يوم القيامة نادى (والجواب) ان قوله كل شئ هالك عام وقوله اعدت للمتقين مع قوله أكلها دائم خاص والخاص مقدم على العام واما قوله ثانيا الجنة مخلوقة فى السماء السابعة قلنا انها مخلوقة فوق السماء السابعة على ما قال عليه السلام فى صفة الجنة سقفها عرش الرحمن واى استبعاد فى ان يكون المخلوق فوق الشئ اعظم منه اليس ان العرش اعظم المخلوقات مع انه مخلوق فوق السماء السابعة (المسئلة الثانية) قوله اعدت للذين آمنوا بالله ورسله فيه اعظم رجاء واقوى امل اذ ذكر ان الجنة اعدت لمن آمن بالله ورسله ولم يذكر مع الايمان شيئا آخر والمعتزلة وان زعموا ان لفظ الايمان يفيد جملة الطاعات بحكم تصرف الشرع لكنهم اعترفوا بان لفظ الايمان اذا عدى بحرف الباء فانه باق على مفهومه الاصلى وهو التصديق فالآية حجة عليهم ومما يتأكد به ما ذكرناه قوله بعد هذه الآية ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء يعنى ان الجنة فضل لا معاملة فهو يؤتيها من يشاء من عباده سواء أطاع اوعصى فان قيل فيلزمكم ان تقطعوا بحصول الجنة لجميع العصاة وان تقطعوا بأنه لا عقاب لهم قلنا نقطع بحصول الجنة لهم ولا نقطع بنفى العقاب عنهم لانهم اذا عذبوا مدة ثم نقلوا الى الجنة وبقوا فيها ابد الآباد فقد كانت الجنة معدة لهم فان قيل فالمرتد قد آمن بالله فوجب ان يدخل تحت الآية قلت خص من العموم فيبقى العموم حجة فيما عداه ❊ثم قال تعالى (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) زعم جمهور اصحابنا ان نعيم الجنة تفضل محض لا انه مستحق بالعمل وهذا ايضا قول الكعبى من المعتزلة واحتجوا على صحة هذا المذهب بهذه الآية اجاب القاضى عنه فقال هذا انما يلزم لو امتنع الجمع بين كون الجنة مستحقة وبين كونها فضلا من الله تعالى فاما اذا صح اجتماع الصفتين فلا يصح هذا الاستدلال وانما قلنا انه لا منافاة بين هذين الوصفين لانه تعالى هو المتفضل بالامور التى تمكن المكلف معها من كسب هذا الاستحقاق فلما كان تعالى متفضلا بما يكسب أسباب هذا الاستحقاق كان متفضلا بها قال ولما ثبت هذا ثبت ان قوله يؤتيه من يشاء

عن سعيد بن جبير الدنيا متاع الغرور ان ألهتك عن طلب الآخرة فأما اذا دعتك الى طلب رضوان الله تعالى فنعم المتاع ونعم الوسيلة (سابقوا) اى سارعوا مسارعة المسابقين لاقرانهم فى المضمار (الى مغفرة) عظيمة كائنة (من ربكم) اى الى موجباتها من الاعمال الصالحة (وجنة عرضها كعرض السماء والارض) اى كعرضهما جميعا واذا كان عرضها كذلك فما ظنك بطولها وقيل المراد بالعرض البسطة وتقديم المغفرة على الجنة لتقدم التخلية على التحلية (اعدت للذين آمنوا بالله ورسله) فيه دليل على ان الجنة مخلوقة بالفعل وان الايمان وحده كاف فى استحقاقها (ذلك) الذى وعد من المغفرة والجنة (فضل الله) عطاؤه (يؤتيه) تفضلا واحسانا (من يشاء) ايتاءه اياه من غير ايجاب (والله ذو الفضل العظيم) ولذلك يؤتى من يشاء مثل ذلك الفضل الذى لا غاية وراءه

لابدوان يكون مشروطا بمن يستحقه ولولاذلك لم يكن لقوله من قبل سابقوا الى مغفرة من ربكم معنى واعلم ان هذا ضعيف لان كونه تعالى متفضلا بأسباب ذلك الكسب لايوجب كونه تعالى متفضلا بنفس الجنة فان من وهب من انسان كاغدا ودواة وقلما ثم ان ذلك الانسان كتب بذلك المداد على ذلك الكاغد مصحفا وباعه من الواهب لايقال ان أداء ذلك الثمن تفضل بل يقال انه مستحق فكذا ههنا واما قوله اولا انه لابد من الاستحقاق والا لم يكن لقوله من قبل سابقوا الى مغفرة معنى فجوابه ان هذا استدلال عجيب لان للمتفضل ان يشرط فى تفضله اى شرط شاء ويقول لاأتفضل الامع هذا الشرط ❊ثم قال تعالى (والله ذو الفضل العظيم) والمراد منه التنبيه على عظم حال الجنة وذلك لان ذا الفضل العظيم اذا اعطى عطاء مدح به نفسه واثنى بسببه على نفسه فانه لابدوان يكون ذلك العطاء عظيما ❊ قوله تعالى (مااصاب من مصيبة فى الارض ولا فى انفسكم الا فى كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير) قال الزجاج انه تعالى لما قال سابقوا الى مغفرة بين ان المؤدى الى الجنة والنار لايكون الا بقضاء وقدر فقال مااصاب من مصيبة والمعنى لاتوجد مصيبة من هذه المصائب الا وهى مكتوبة عند الله والمصيبة فى الارض هى قحط المطر وقلة النبات ونقص الثمار وغلاء الاسعار وتتابع الجوع والمصيبة فى الانفس فيها قولان (الاول) انها هى الامراض والفقر وذهاب الاولاد واقامة الحدود عليها (والثانى) انها تتناول الخير والشر اجع لقوله بعد ذلك لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم ثم قال الا فى كتاب يعنى مكتوب عند الله فى اللوح المحفوظ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذه الآية دالة على ان جميع الحوادث الارضية قبل دخولها فى الوجود مكتوبة فى اللوح المحفوظ قال المتكلمون وانما كتب كل ذلك لوجوه (احدها) لتستدل الملائكة بذلك المكتوب على كونه سبحانه وتعالى عالما بجميع الاشياء قبل وقوعها (وثانيها) ليعرفوا حكمة الله فانه تعالى مع علمه بأنهم يقدمون على تلك المعاصى خلقهم ورزقهم (وثالثها) ليحذروا من امثال تلك المعاصى (ورابعها) ليشكروا الله تعالى على توفيقه اياهم على الطاعات وعصمته اياهم من المعاصى وقالت الحكماء ان الملائكة الذين وصفهم الله بأنهم هم المدبرات امرا وهم المقسمات امرا انما هى المبادى لحدوث الحوادث فى هذا العالم السفلى بواسطة الحركات الفلكية والاتصالات الكوكبية فتصوراتها لانسياق تلك الاسباب الى المسببات هو المراد من قوله تعالى الا فى كتاب (المسئلة الثانية) استدل جمهور اهل التوحيد بهذه الآية على انه تعالى عالم بالاشياء قبل وقوعها خلافا لهشام بن الحكم ووجه الاستدلال انه تعالى لما كتبها فى الكتاب قبل وقوعها وجاءت مطابقة لذلك الكتاب علمنا انه تعالى كان عالما بها بأسرها (المسئلة الثالثة) قوله ولا فى أنفسكم يتناول جميع مصائب الانفس فيدخل فيها كفرهم ومعاصيهم فالآية دالة على ان جميع اعمالهم بتفاصيلها مكتوبة فى اللوح

(المحفوظ)

(مااصاب من مصيبة فى الارض كجدب وعاهة فى الزروع والثمار (ولا فى أنفسكم) كمرض وآفة (الا فى كتاب)اى الا مكتوبة مثبتة فى علم الله تعالى او فى اللوح (من قبل ان نبرأها)اى نخلق الانفس او المصائب أو الارض (ان ذلك)اى اثباتها فى كتاب (على الله يسير) لاستغنائه فيه عن العدة والمدة

المحفوظ ومثبتة فى علم الله تعالى فكان الامتناع من تلك الاعمال محالا لان علم الله بوجودها مناف لعدمها والجمع بين المتنافيين محال فلما حصل العلم بوجودها وهذا العلم ممتنع الزوال كان الجمع بين عدمها وبين علم الله بوجودها محالا (المسئلة الرابعة) انه تعالى لم يقل ان جميع الحوادث مكتوبة فى الكتاب لان حركات اهل الجنة والنار غير متناهية فاثباتها فى الكتاب محال وايضا خصص ذلك بالارض والانفس وما دخل فيها احوال السموات وايضا خصص ذلك بمصائب الارض والانفس لا بسعادات الارض والانفس وفى كل هذه الرموز اشارات واسرار اما قوله من قبل ان نبرأها فقد اختلفوا فيه فقال بعضهم من قبل ان نخلق هذه المصائب وقال بعضهم بل المراد الانفس وقال آخرون بل المراد نفس الارض والكل محتمل لان ذكر الكل قد تقدم وان كان الاقرب نفس المصيبة لانها هى المقصود وقال آخرون المراد من قبل ان نبرأ المخلوقات والمخلوقات وان لم يتقدم ذكرها الا انها لظهورها يجوز عود الضمير اليها كما فى قوله انا انزلناه ثم قال ان ذلك على الله يسير وفيه قولان (احدهما) ان حفظ ذلك على الله هين (والثانى) ان اثبات ذلك على كثرته فى الكتاب يسير على الله وان كان عسيرا على العباد ونظير هذه الآية قوله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب ان ذلك على الله يسير * ثم قال تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذه اللام تفيد جعل اول الكلام سببا لآخره كما تقول قمت لاضربك فانه يفيد ان القيام سبب للضرب وههنا كذلك لانه تعالى بين ان اخبار الله عن كون هذه الاشياء واقعة بالقضاء والقدر ومثبتة فى الكتاب الذى لا يتغير يوجب ان لا يشتد فرح الانسان بما وقع وان لا يشتد حزنه بما لم يقع وهذا هو المراد بقوله عليه السلام من عرف سر الله فى القدر هانت عليه المصائب وتحقيق الكلام فيه ان على مذهب اهل السنة ان وقوع كل ما وقع واجب وعدم كل ما لم يقع واجب أيضا لاسباب أربعة (احدها) ان الله تعالى علم وقوعه فلو لم يقع انقلب العلم جهلا (وثانيها) ان الله اراد وقوعه فلو لم يقع انقلبت تلك الارادة تمنيا (وثالثها) انه تعلقت قدرة الله تعالى بايقاعه فلو لم تقع لانقلبت تلك القدرة عجزا (ورابعها) ان الله تعالى حكم بوقوعه بكلامه الذى هو صدق فلو لم يقع لانقلب ذلك الخبر الصدق كذبا فاذن هذا الذى وقع لو لم يقع لتغيرت هذه الصفات الاربعة من كمالها الى النقص ومن قدمها الى الحدوث ولما كان ذلك ممتنعا علمنا انه لا دافع لذلك الوقوع وحينئذ يزول الغم والحزن عند ظهور هذه الخواطر وهانت عليه المحن والمصائب واما المعتزلة فمذهب انهم ينازعون فى القدرة والارادة ولكنهم يوافقون فى العلم والخبر واذا كان الجبر لازما فى هاتين الصفتين فأى فرق بين ان يلزم الجبر بسبب هاتين الصفتين وبين ان يلزم بسبب الصفات الاربع واما الفلاسفة فالجبر مذهبهم وذلك لانهم ربطوا حدوث الافعال

(لكيلا تأسوا) اى اخبرناكم بذلك لئلا تحزنوا (على ما فاتكم) من نعم الدنيا (ولا تفرحوا بما آتاكم) اى اعطاكم الله تعالى منها فان من علم ان الكل مقدر يفوت ما قدر فواته ويأتى ما قدر اتيانه لا محالة لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هو آت وقرئ بما أتاكم من الاتيان وفى القراءة الاولى اشعار بأن فوات النعم يلحقها اذا خليت وطباعها واما حصولها وبقاؤها فلا بد لهما من سبب يوجدها ويبقيها وقرئ بما اوتيتم والمراد به نفى الاسى المانع عن التسليم لامر الله تعالى والفرح الموجب للبطر والاختيال ولذلك عقب بقوله تعالى (والله لا يحب كل مختال فخور) فان من فرح بالحظوظ الدنيوية وعظمت فى نفسه اختال وافتخر بها لا محالة وفى تخصيص التذييل بالنهى عن الفرح المذكور ايذان بأنه اقبح من الاسى

الانسانية بالتصورات الذهنية والتخيلات الحيوانية ثم ربطوا تلك التصورات والتخيلات بالادوار الفلكية التي لها مناهج مقدرة ويمتنع وقوع مايخالفها واما الدهرية الذين لا يثبتون شيئا من المؤثرات فهم لابدوان يقولوا بأن حدوث الحوادث اتفاقي واذا كان اتفاقيا لم يكن اختياريا فيكون الجبر لازما فظهر انه لامندوحة عن هذا لأحد من فرق العقلاء سواء أقروا به اوانكروه فهذا بيان وجه استدلال اهل السنة بهذه الآية قالت المعتزلة الآية دالة على صحة مذهبنا في كون العبد متمكنا مختارا وذلك من وجوه (الاول) ان قوله لكيلا تأسوا على مافاتكم يدل على انه تعالى انما اخبرهم بكون تلك المصائب مثبتة في الكتاب لاجل ان يحترزوا عن الحزن والفرح ولولا انهم قادرون على تلك الافعال لمابقي لهذه اللام فائدة (والثاني) ان هذه الآية تدل على انه تعالى لا يريد ان يقع منهم الحزن والفرح وذلك خلاف قول المجبرة ان الله تعالى اراد كل ذلك منهم (والثالث) انه تعالى قال بعد هذه الآية والله لا يحب كل مختال فخور وهذا يدل على انه تعالى لا يريد ذلك لان المحبة والارادة سواء فهو خلاف قول المجبرة ان كل واقع فهو مراد الله تعالى (والرابع) انه تعالى ادخل لام التعليل على فعله بقوله لكيلا وهذا يدل على ان افعال الله تعالى معللة بالغرض واقول العاقل يتعجب جدا من كيفية تعلق هذه الآيات بالجبر والقدر وتعلق كلتا الطائفتين بأكثرها (المسئلة الثانية) قال ابو علي الفارسي قرأ أبو عمرو وحده بما أتاكم قصرا وقرأ الباقون آتاكم ممدودا حجة ابي عمرو ان اتاكم معادل لقوله فاتكم فكما ان الفعل للفائت في قوله فاتكم كذلك يكون الفعل للآتي في قوله بما أتاكم والعائد الى الموصول في الكلمتين الذكر المرفوع بانه فاعل وحجة الباقين انه اذا مد كان ذلك منسوبا الى الله تعالى وهو المعطي لذلك ويكون فاعل الفعل في آتاكم ضميرا عائدا الى اسم الله سبحانه وتعالى والهاء محذوفة من الصلة تقديره بما آتاكموه (المسئلة الثالثة) قال المبرد ليس المراد من قوله لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم نفي الاسى والفرح على الاطلاق بل معناه لاتحزنوا حزنا يخرجكم الى ان تهلكوا انفسكم ولا تعتدوا بثواب على فوات ماسلب منكم ولا تفرحوا فرحا شديدا يطغيكم حتى تاشروا فيه وتبطروا ودليل ذلك قوله تعالى والله لا يحب كل مختال فخور فدل بهذا على انه ذم الفرح الذي يختال فيه صاحبه ويبطر واما الفرح بنعمة الله والشكر عليها فغير مذموم وهذا كله معنى ماروى عكرمة عن ابن عباس انه قال ليس احد الا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا للمصيبة صبرا وللخير شكرا واحتج القاضي بهذه الآية على انه تعالى لا يريد افعال العباد (والجواب) عنه ان كثيرا من اصحابنا من فرق بين المحبة والارادة فقال المحبة ارادة مخصوصة وهي ارادة الثواب فلا يلزم من نفي هذه الارادة نفي مطلق الارادة ❊ ثم قال تعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فان الله هو الغني الحميد) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في الآية قولان (الاول) ان هذا بدل من

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) بدل من كل مختال فان المختال بالمال يضن به غالبا ويأمر غيره به او مبتدأ خبره محذوف يدل عليه قوله تعالى (ومن يتول فان الله هو الغني الحميد) فان معناه ومن يعرض عن الانفاق فان الله غني عنه وعن انفاقه محمود في ذاته لا يضره الاعراض عن شكره بالتقرب اليه بشيء من نعمه وفيه تهديد واشعار بأن الامر بالانفاق لمصلحة المنفق وقرئ فان الله الغني

(قوله)

قوله كل مختال فخور كأنه قال لا يحب المختال ولا يحب الذين يبخلون يريد الذين يفرحون الفرح المطغي فاذا رزقوا مالا وحظا من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم يبخلون به ولا يكفيهم انهم بخلوا به بل يأمرون الناس بالبخل به وكل ذلك نتيجة فرحهم به وبطرهم عند اصابته ثم قال بعد ذلك ومن يتول عن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الاسى على الفائت والفرح بالآتي فان الله غني عنه (القول الثاني) ان قوله الذين يبخلون كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله وهو في صفة اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وبخلوا ببيان نعته وهو مبتدأ وخبره محذوف دل عليه قوله ومن يتول فان الله هو الغني الحميد وحذف الخبر كثير في القرآن كقوله ولو ان قرآنا سيرت به الجبال (المسئلة الثانية) قال ابو علي الفارسي قرأ نافع وابن عامر فان الله الغني الحميد وحذفو الفظ هو وكذلك هو في مصاحف اهل المدينة والشام وقرأ الباقون هو الغني الحميد قال ابو علي ينبغي ان يكون هو في هذه الآية فصلا لا مبتدأ لان الفصل حذفه اسهل ألا ترى انه لا موضع للفصل من الاعراب وقد يحذف فلا يخل بالمعنى كقوله ان ترن انا اقل منك مالا وولدا (المسئلة الثالثة) قوله فان الله هو الغني الحميد معناه ان الله غني فلا يعود ضرر عليه ببخل ذلك البخيل وقوله الحميد كأنه جواب عن سؤال يذكر ههنا فانه يقال لما كان تعالى عالما بأنه يبخل بذلك المال ولا يصرفه الى وجوه الطاعات فلم اعطاه ذلك المال فاجاب بانه تعالى حميد في ذلك الاعطاء ومستحق للحمد حيث فتح عليه ابواب رحمته ونعمته فان قصر العبد في الطاعة فان وباله عائد اليه * ثم قال تعالى (لقد ارسلنا رسلنا بالبينات) وفي تفسير البينات قولان (الاول) وهو قول مقاتل بن سليمان انها هي المعجزات الظاهرة والدلائل القاهرة (والثاني) وهو قول مقاتل بن حيان اي ارسلناهم بالاعمال التي تدعوهم الى طاعة الله والى الاعراض عن غير الله والاول هو الوجه لان نبوتهم انما ثبتت بتلك المعجزات * ثم قال تعالى (وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) اعلم ان نظير هذه الآية قوله الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان وقال والسماء رفعها ووضع الميزان وههنا مسائل (المسئلة الاولى) في وجه المناسبة بين الكتاب والميزان والحديد وجوه (احدها) وهو الذي اقوله ان مدار التكليف على امرين (احدهما) فعل ما ينبغي فعله (والثاني) ترك ما ينبغي تركه والاول هو المقصود بالذات لان المقصود بالذات لو كان هو الترك لوجب ان لا يخلق احد لان الترك كان حاصلا في الازل واما فعل ما ينبغي فعله فاما ان يكون متعلقا بالنفس وهو المعارف او بالبدن وهو اعمال الجوارح فالكتاب هو الذي يتوسل به الى فعل ما ينبغي من الافعال النفسانية لان به يتميز الحق من الباطل والحجة من الشبهة والميزان هو الذي يتوسل به الى فعل ما ينبغي من الافعال البدنية فان معظم التكاليف الشاقة في الاعمال هو ما يرجع الى معاملة الخلق والميزان هو الذي يتميز به العدل عن الظلم والزائد عن الناقص واما الحديد ففيه بأس شديد

(لقد ارسلنا رسلنا) اي الملائكة الى الانبياء او الانبياء الى الامم وهو الاظهر (بالبينات) اي الحجج والمعجزات (وانزلنا معهم الكتاب) اي جنس الكتاب الشامل للكل (والميزان ليقوم الناس بالقسط) اي بالعدل روي ان جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه الى نوح عليه السلام وقال مر قومك يزنوا به وقيل اريد به العدل ليقام به السياسة ويدفع به العدوان (وانزلنا الحديد) قيل نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه خمسة اشياء من حديد السندان والكلبتان والمقمعة والمطرقة والابرة وروي ومعه المر والمسحاة وعن الحسن وانزلنا الحديد خلقناه كقوله تعالى وانزل لكم من الانعام وذلك ان اوامره تعالى وقضاياه واحكامه تنزل من السماء

وهو زاجر للخلق عما لا ينبغي والحاصل ان الكتاب اشارة الى القوة النظرية والميزان الى القوة العملية والحديد اشارة الى دفع ما لا ينبغي ولما كان اشرف الاقسام رعاية المصالح الروحانية ثم رعاية المصالح الجسمانية ثم الزجر عما لا ينبغي لاجرم روعي هذا الترتيب في هذه الآية (وثانيها) المعاملة اما مع الخالق وطريقها الكتاب او مع الخلق وهم اما الاحباب والمعاملة معهم بالسوية وهي بالميزان او مع الاعداء والمعاملة معهم بالسيف والحديد (وثالثها) الاقوام ثلاثة اما السابقون وهم يعاملون الخلق بمقتضى الكتاب فينصفون ولا ينتصفون ويحترزون عن مواقع الشبهات واما مقتصدون وهم الذين ينصفون وينتصفون فلابد لهم من الميزان واما ظالمون وهم الذين ينتصفون ولا ينصفون ولابد لهم من الحديد والزجر (ورابعها) الانسان اما ان يكون في مقام الحقيقة وهو مقام النفس المطمئنة ومقام المقربين فههنا لا يسكن الا الى الله ولا يعمل الا بكتاب الله كما قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب واما ان يكون في مقام الطريقة وهو مقام النفس اللوامة ومقام اصحاب اليمين فلابد له من الميزان في معرفة الاخلاق حتى يحترز عن طرفي الافراط والتفريط ويبقى على الصراط المستقيم واما ان يكون في مقام الشريعة وهو مقام النفس الامارة وههنا لابد له من حديد المجاهدة والرياضات الشاقة (وخامسها) الانسان اما ان يكون صاحب المكاشفة والوصول فلا انس له الا بالكتاب او صاحب الطلب والاستدلال فلابد له من ميزان الدليل والحجة او صاحب العناد واللجاج فلابد وان ينفى من الارض بالحديد (وسادسها) ان الدين اما هو الاصول واما الفروع وبعبارة اخرى اما المعارف واما الاعمال فالاصول من الكتاب واما الفروع فالمقصود الافعال التي فيها عدلهم ومصلحتهم وذلك بالميزان فانه اشارة الى رعاية العدل والحديد لتأديب من ترك ذينك الطريقين (وسابعها) الكتاب اشارة الى ما ذكر الله في كتابه من الاحكام المقتضية للعدل والانصاف والميزان اشارة الى حمل الناس على تلك الاحكام المبنية على العدل والانصاف وهو شان الملوك والحديد اشارة الى انهم لو تمردوا لوجب ان يحملوا عليهما بالسيف وهذا يدل على ان مرتبة العلماء وهم ارباب الكتاب مقدمة على مرتبة الملوك الذين هم ارباب السيف ووجوه المناسبات كثيرة وفيما ذكرناه تنبيه على الباقي (المسئلة الثانية) ذكروا في انزال الميزان وانزال الحديد قولين (الاول) ان الله تعالى انزلهما من السماء روى ان جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه الى نوح وقال مر قومك يزنوا به وعن ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه خمسة اشياء من الحديد السندان والكلبتان والمقمعة والمطرقة والابرة والمقمعة ما يحدد به ويدل على صحة هذا ما روى ابن عمر انه عليه الصلاة والسلام قال ان الله تعالى انزل اربع بركات من السماء الى الارض انزل الحديد والنار والماء والملح (والقول الثاني) ان معنى هذا الانزال الانشاء والتهيئة كقوله تعالى وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج قال قطرب انزلناها اي هيئناها من النزل يقال انزل الامير على

(فلان)

فلان نزلا حسنا ومنهم من قال هذا من جنس قوله علفتها تبنا وماء باردا واكلت خبزا ولبنا (المسئلة الثانية) ذكر فى منافع الميزان ان يقوم الناس بالقسط والقسط والاقساط هو الانصاف وهو ان تعطى قسط غيرك كما تأخذ قسط نفسك والعادل مقسط قال الله تعالى ان الله يحب المقسطين والقاسط الجائر قال تعالى واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا واما الحديد ففيه البأس الشديد فان آلات الحروب متخذة منه وفيه ايضا منافع كثيرة منها قوله تعالى وعلمناه صنعة لبوس لكم ومنها ان مصالح العالم اما اصول واما فروع اما الاصول فأربعة الزراعة والحياكة وبناء البيوت والسلطنة وذلك لان الانسان مضطر الى طعام يأكله وثوب يلبسه وبناء يجلس فيه والانسان مدنى بالطبع فلا تتم مصلحته الا عند اجتماع جمع من ابناء جنسه يشتغل كل واحد منهم بمهم خاص فحينئذ ينتظم من الكل مصالح الكل وذلك الانتظام لابد وان يفضى الى المزاحمة ولابد من شخص يدفع ضرر البعض عن البعض وذلك هو السلطان فثبت انه لا تنتظم مصلحة العالم الا بهذه الحرف الاربعة اما الزراعة فمحتاجة الى الحديد وذلك فى كرب الاراضى وحفرها ثم عند تكون هذه الحبوب وتولدها لابد من خبزها وتنقيتها وذلك لايتم الا بالحديد ثم الحبوب لابد من طحنها وذلك لايتم الا بالحديد ثم لابد من خبزها ولايتم الا بالنار ولابد فيها من المقدحة الحديدية واما الفواكه فلابد من تنظيفها عن قشورها وقطعها على الوجوه الموافقة للاكل ولايتم ذلك الا بالحديد واما الحياكة فمعلوم انه يحتاج فى آلات الحياكة الى الحديد ثم يحتاج فى قطع الثياب وخياطتها الى الحديد واما البناء فمعلوم ان كمال الحال فيه لايحصل الا بالحديد واما اسباب السلطنة فمعلوم انها لاتتم ولاتكمل الا بالحديد وعند هذا يظهر ان اكثر مصالح العالم لاتتم الا بالحديد ويظهر ايضا ان الذهب لايقوم مقام الحديد فى شئ من هذه المصالح فلو لم يوجد الذهب فى الدنيا ما كان يختل شئ من مصالح الدنيا ولو لم يوجد الحديد لاختل جميع مصالح الدنيا ثم ان الحديد لما كانت الحاجة اليه شديدة جعله سهل الوجدان كثير الوجود والذهب لما قلت الحاجة اليه جعله عزيز الوجود وعند هذا يظهر اثر جود الله تعالى ورحمته على عبيده فان كل ما كانت حاجتهم اليه اكثر جعل وجدانه اسهل ولهذا قال بعض الحكماء ان اعظم الامور حاجة اليه هو الهواء فانه لو انقطع وصوله الى القلب لحظة لمات الانسان فى الحال فلاجرم جعله الله اسهل الاشياء وجدانا وهيأ اسباب التنفس وآلاته حتى ان الانسان يتنفس دائما بمقتضى طبعه من غير حاجة فيه الى تكلف عمل وبعد الهواء الماء الا انه لما كانت الحاجة الى الماء اقل من الحاجة الى الهواء جعل تحصيل الماء اشق قليلا من تحصيل الهواء وبعد الماء الطعام ولما كانت الحاجة الى الطعام اقل من الحاجة الى الماء جعل تحصيل الطعام اشق من تحصيل الماء ثم تتفاوت الاطعمة فى درجات الحاجة والعزة فكلما كانت الحاجة اليه أشد كان وجدانه اسهل وكلما كان وجدانه اعسر كانت الحاجة اليه اقل والجواهر لما

وقوله تعالى (فيه بأس شديد) لان آلات الحروب انما تتخذ منه (ومنافع للناس) اذ ما من صنعة الا والحديد او ما يعمل بالحديد آلتها والجملة حال من الحديد

كانت الحاجة اليها قليلة جدا لاجرم كانت عزيزة جدا فعلمنا ان كل شئ كانت الحاجة اليه اكثر كان وجدانه اسهل ولما كانت الحاجة الى رحمة الله تعالى اشد من الحاجة الى كل شئ فنرجو من فضله ان يجعلها اسهل الاشياء وجدانا قال الشاعر

سبحان من خص العزيز بعزه * والناس مستغنون عن اجناسه
واذل انفاس الهواء وكل ذى * نفس فمحتاج الى انفاسه

※ ثم قال تعالى (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المعنى وليعلم الله من ينصره اى ينصر دينه وينصر رسله باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح فى مجاهدة اعداء الدين بالغيب اى غائبا عنهم قال ابن عباس ينصرونه ولا يبصرونه ويقرب منه قوله تعالى ان تنصروا الله ينصركم (المسئلة الثانية) احتج من قال بحدوث علم الله بقوله وليعلم الله (والجواب) عنه انه تعالى اراد بالعلم المعلوم فكأنه تعالى قال ولتقع نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام ممن ينصره (المسئلة الثالثة) قال الجبائى قوله تعالى ليقوم الناس بالقسط فيه دلالة على انه تعالى انزل الميزان والحديد ومراده من العباد ان يقوموا بالقسط وان ينصروا الرسول واذا كان هذا مراده من الكل فقد بطل قول المجبرة انه اراد من بعضهم خلاف ذلك (جوابه) انه كيف يمكن ان يريد من الكل ذلك مع علمه بأن ضده موجود وان الجمع بين الضدين محال وان المحال غير مراد (المسئلة الرابعة) لما كانت النصرة قد تكون ظاهرة كما يقع من منافق او ممن مراده المنافع فى الدنيا بين تعالى ان الذى اراده النصرة بالغيب ومعناه ان تقع عن اخلاص بالقلب ثم بين تعالى انه قوى على الامور عزيز لا يمانع ※ قوله تعالى (ولقد ارسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) واعلم انه تعالى لما ذكر انه ارسل الرسل بالبينات والمعجزات وانه انزل الميزان والحديد وامر الخلق بان يقوموا بنصرتهم اتبع ذلك ببيان سائر الاشياء التى انعم بها عليهم فبين انه تعالى شرف نوحا وابراهيم عليهما السلام بالرسالة ثم جعل فى ذريتهما النبوة والكتاب فما جاء بعدهما احد بالنبوة الا وكان من اولادهما وانما قدم النبوة على الكتاب لان كمال حال النبى ان يصير صاحب الكتاب والشرع ※ ثم قال تعالى (فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فمنهم مهتد اى فمن الذرية او من المرسل اليهم وقد دل عليهم ذكر الارسال والمرسلين والمعنى ان منهم مهتد ومنهم فاسق والغلبة للفساق وفى الفاسق ههنا قولان (الاول) انه الذى ارتكب الكبيرة سواء كان كافرا او لم يكن لان هذا الاسم يطلق على الكافر وعلى من لا يكون كذلك اذا كان مرتكبا للكبيرة (والثانى) ان المراد بالفاسق ههنا الكافر لان الآية دلت على انه تعالى جعل الفساق بالضد من المهتدين فكان المراد ان فيهم من قبل الدين واهتدى ومنهم من لم يقبل ولم يهتد ومعلوم ان من كان كذلك كان كافرا وهذا ضعيف لان المسلم الذى عصى قد يقال فيه انه لم يهتد الى وجه رشده ودينه ※ قوله تعالى

(ثم)

وقوله تعالى (وليعلم الله من ينصره ورسله) عطف على محذوف يدل عليه ما قبله فانه حال متضمنة للتعليل كأنه قيل ليستعملوه وليعلم الله علما يتعلق به الجزاء من ينصره ورسله باستعمال السيوف والرماح وسائر الاسلحة فى مجاهدة اعدائه او متعلق بمحذوف مؤخر والواو اعتراضية اى وليعلم الله من ينصره ورسله انزله وقيل عطف على قوله تعالى ليقوم الناس بالقسط وقوله تعالى (بالغيب) حال من فاعل ينصر او مفعوله اى غائبا عنهم او غائبين عنه وقوله تعالى (ان الله قوى عزيز) اعتراض تذييلى جئ به تحقيقا للحق وتنبيها على ان تكليفهم الجهاد وتعريضهم للقتال ليس لحاجته فى اعلاء كلمته واظهار دينه الى نصرتهم بل انما هو لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الامر فيه الى الثواب والا فهو غنى بقدرته وعزته عنهم فى كل ما يريده (ولقد ارسلنا نوحا وابراهيم) نوع تفصيل لما اجمل فى قوله تعالى لقد ارسلنا رسلنا الخ وتكرير القسم لاظهار مزيد الاعتناء بالامر اى وبالله لقد ارسلناهما (وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) بأن استنبأناهم واوحينا اليهم الكتب وقيل المراد بالكتاب الخط بالقلم (فمنهم) اى من الذرية او من المرسل اليهم المدلول عليهم بذكر الارسال والمرسلين (مهتد) الى الحق (وكثير منهم فاسقون) خارجون عن الطريق المستقيم. والعدول عن سنن المقابلة للمبالغة فى الذم والايذان بغلبة الضلال وكثرتهم

(ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) معنى قفاه اتبعه بعد ان مضى والمراد انه تعالى ارسل بعضهم بعد بعض الى ان انتهى الى ايام عيسى عليه السلام فأرسله تعالى بعدهم وآتاه الانجيل (المسئلة الثانية) قال ابن جنى قرأ الحسن وآتيناه الانجيل بفتح الهمزة ثم قال هذا مثال لانظير له لانه افعيل وهو عندهم من نجلت الشئ اذا استخرجته لانه يستخرج به الاحكام والتوراة فوعلة من ورى الزند يرى اذا اخرج النار ومثله الفرقان وهو فعلان من فرقت بين الشيئين فعلى هذا لايجوز فتح الهمزة لانه لانظير له وغالب الظن انه ماقرأه الاعن سماع وله وجهان (احدهما) انه شاذ كما حكى بعضهم فى البرطيل البرطيل (وثانيهما) انه ظن الانجيل اعجميا فحرف مثاله تنبيها على كونه اعجميا * قوله تعالى (وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج اصحابنا بهذه الآية على ان فعل العبد خلق الله تعالى وكسب للعبد قالوا لانه تعالى حكم بأن هذه الاشياء مجعولة لله تعالى وحكم بأنهم ابتدعوا تلك الرهبانية قال القاضى المراد بذلك انه تعالى لطف بهم حتى قويت دواعيهم الى الرهبانية التى هى تحمل الكلفة الزائدة على مايجب من الخلوة واللباس الخشن (والجواب) ان هذا ترك للظاهر من غير دليل على أنا وان سلمنا ذلك فهو يحصل مقصودنا ايضا وذلك لان حال الاستواء يمتنع حصول الرجحان والا فقد حصل الرجحان عند الاستواء والجمع بينهما متناقض واذا كان الحصول عند الاستواء ممتنعا كان عند المرجوحية اولى ان يصير ممتنعا واذا امتنع المرجوح وجب الراجح ضرورة انه لاخروج عن طرفى النقيض (المسئلة الثانية) قال مقاتل المراد من الرأفة والرحمة هو انهم كانوا متوادين بعضهم مع بعض كما وصف الله اصحاب محمد عليه الصلاة والسلام بذلك فى قوله رحماء بينهم (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ رآفة على فعالة (المسئلة الرابعة) الرهبانية معناها الفعلة المنسوبة الى الرهبان وهو الخائف فعلان من رهب كخشيان من خشى وقرئ ورهبانية بالضم كأنها نسبة الى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان والمراد من الرهبانية ترهبهم فى الجبال فارين من الفتنة فى الدين مخلصين أنفسهم للعبادة متحملين كلفا زائدة على العبادات التى كانت واجبة عليهم من الخلوة واللباس الخشن والاعتزال عن النساء والتعبد فى الغيران والكهوف عن ابن عباس ان فى ايام الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام غير الملوك التوراة والانجيل فساح قوم فى الارض ولبسوا الصوف وروى ابن مسعود انه عليه السلام قال يا ابن مسعود أما علمت ان بنى اسرائيل تفرقوا سبعين فرقة كلها فى النار الا ثلاث فرق فرقة آمنت بعيسى عليه السلام وقاتلوا اعداء الله فى نصرته حتى قتلوا وفرقة لم يكن لها طاقة بالقتال فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وفرقة لم يكن لها طاقة بالامرين فلبسوا العباء وخرجوا الى القفار والفيافى وهو قوله وجعلنا فى قلوب الذين

(ثم قفينا على آثارهم برسلنا) اى ثم ارسلنا بعدهم رسلنا (وقفينا بعيسى بن مريم) اى ارسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى الى عيسى بن مريم عليه السلام والضمير لنوح وابراهيم ومن ارسلا اليهم اومن عاصرهما من الرسل لا للذرية فان الرسل المقفى بهم من الذرية (وآتيناه الانجيل) وقرئ بفتح الهمزة فانه اعجمى لايلزم فيه مراعاة ابنية العرب (وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة) وقرئ رآفة على فعالة (ورحمة) اى وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم ونحوه فى شأن اصحاب النبى عليه الصلاة والسلام رحماء بينهم (ورهبانية) منصوب اما بفعل مضمر يفسره الظاهر اى وابتدعوا رهبانية (ابتدعوها) واما بالعطف على ماقبلها وابتدعوها صفة لها اى وجعلنا فى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم اى وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحداثها وهى المبالغة فى العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس ومعناها الفعلة المنسوبة الى الرهبان وهو الخائف فعلان من رهب كخشيان من خشى وقرئ بضم الراء كأنها نسبة الى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان وسبب ابتداعهم اياها ان الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى عليه السلام فقاتلوهم ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم الا القليل فخافوا ان يفتنوا فى دينهم فاختاروا الرهبانية فى قلل الجبال فارين بدينهم مخلصين انفسهم للعبادة

اتبعوه رأفة الى آخر الآية (المسئلة الخامسة) لم يعن الله تعالى بابتدعوها طريقة الذم بل المراد انهم احدثوها من عند انفسهم ونذروها ولذلك قال تعالى بعده ما كتبناها عليهم (المسئلة السادسة) رهبانية منصوبة بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره ابتدعوا رهبانية ابتدعوها وقال ابو على الفارسى الرهبانية لايستقيم حملها على جعلنا لان ما يبتدعونه هم لايجوز ان يكون مجعولا لله تعالى واقول هذا الكلام انما يتم لو ثبت امتناع مقدور بين قادرين ومن اين يليق بأبى على ان يخوض فى امثال هذه الاشياء ※ ثم قال تعالى (ما كتبناها عليهم) اى لم نفرضها نحن عليهم ※ اما قوله تعالى (الا ابتغاء رضوان الله) ففيه قولان (احدهما) انه استثناء منقطع اى ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله (الثانى) انه استثناء متصل والمعنى انا ماتعبدناهم بها الا على وجه ابتغاء مرضاة الله تعالى والمراد انها ليست واجبة فان المقصود من فعل الواجب دفع العقاب وتحصيل رضا الله اما المندوب فليس المقصود من فعله دفع العقاب بل المقصود منه ليس الا تحصيل مرضاة الله تعالى ※ واما قوله تعالى (فارعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم فاسقون) ففيه اقوال (احدها) ان هؤلاء الذين ابتدعوا هذه الرهبانية مارعوها حق رعايتها بل ضموا اليها التثليث والاتحاد وأقام اناس منهم على دين عيسى حتى ادركوا محمدا عليه الصلاة والسلام فآمنوا به فهو قوله فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم فاسقون (وثانيها) انا ما كتبنا عليهم تلك الرهبانية الا ليتوسلوا بها الى مرضاة الله تعالى ثم انهم أتوا بتلك الافعال لكن لا لهذا الوجه بل لوجه آخر وهو طلب الدنيا والرياء والسمعة (وثالثها) انا لما كتبناها عليهم تركوها فيكون ذلك ذما لهم من حيث انهم تركوا الواجب (ورابعها) ان الذين لم يرعوها حق رعايتها هم الذين ادركوا محمدا عليه الصلاة والسلام ولم يؤمنوا به وقوله فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم اى الذين آمنوا بمحمد وكثير منهم فاسقون يعنى الذين لم يؤمنوا به ويدل على هذا ماروى انه عليه السلام قال من آمن بى وصدقنى واتبعنى فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بى فأولئك هم الهالكون (وخامسها) ان الصالحين من قوم عيسى عليه السلام ابتدعوا الرهبانية وانقرضوا عليها ثم جاء بعدهم قوم اقتدوا بهم فى اللسان وما كانوا مقتدين بهم فى العمل فهم الذين مارعوها حق رعايتها قال عطاء لم يرعوها كما رعاها الحواريون ثم قال وكثير منهم فاسقون والمعنى ان بعضهم قام برعايتها وكثير منهم اظهر الفسق وترك تلك الطريقة ظاهرا وباطنا ※ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم) اعلم انه لما قال فى الآية الاولى فآتينا الذين آمنوا منهم اى من قوم عيسى اجرهم قال فى هذه الآية يا أيها الذين آمنوا والمراد به اولئك فأمرهم ان يتقوا الله ويؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ثم قال يؤتكم كفلين اى نصيبين من رحمته لايمانكم اولا بعيسى وثانيا بمحمد عليه الصلاة والسلام ونظيره قوله تعالى اولئك يؤتون

وقوله تعالى (ما كتبناها عليهم) جملة مستأنفة وقيل صفة اخرى لرهبانية والنفى على الوجه الاول متوجه الى اصل الفعل وقوله تعالى (الا ابتغاء رضوان الله) استثناء منقطع اى ما فرضناها نحن عليهم رأسا ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله فذمهم حينئذ بقوله تعالى (فارعوها حق رعايتها) من حيث ان النذر عهد مع الله لايحل نكثه لاسيما اذا قصد به رضاه تعالى وعلى الوجه الثانى متوجه الى قيده لا الى نفسه والاستثناء متصل من اعم العلل اى ما كتبناها عليهم بأن وفقناهم لابتداعها لشئ من الاشياء الا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب ومن ضرورة ذلك ان يحافظوا عليها ويراعوها حق رعايتها فما رعاها كلهم بل بعضهم (فآتينا الذين آمنوا منهم) ايمانا صحيحا وهو الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رعاية رهبانيتهم لا بمجرد رعايتها فانها بعد البعثة لغو محض وكفر بحت وانى لها استتباع الاجر (اجرهم) اى ما يخص بهم من الاجر (وكثير منهم فاسقون) خارجون عن حد الاتباع وحمل الفريقين على من مضى من المراعين لحقوق الرهبانية قبل النسخ والمخلين بها اذذاك بالتثليث والقول بالاتحاد وقصد السمعة من غير تعرض لايمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وكفرهم به مما لايساعده المقام (يا أيها الذين آمنوا) اى بالرسل المتقدمة (اتقوا الله) فيما نهاكم عنه (وآمنوا برسوله) اى بمحمد عليه الصلاة والسلام وفى اطلاقه ايذان بانه علم فرد فى الرسالة لايذهب

أجرهم مرتين عن ابن عباس انه نزل فى قوم جاؤا من اليمن من اهل الكتاب الى الرسول واسلموا فجعل الله لهم أجرين وههنا سؤالان (السؤال الاول) ما الكفل فى اللغة (الجواب) قال المؤرج الكفل النصيب بلغة هذيل وقال غيره بل هذه لغة الحبشة وقال المفضل بن مسلمة الكفل كساء يديره الراكب حول السنام حتى يتمكن من القعود على البعير (السؤال الثانى) انه تعالى لما آتاهم كفلين واعطى المؤمنين كفلا واحدا كان حالهم اعظم (والجواب) روى ان اهل الكتاب افتخروا بهذا السبب على المسلمين وهو ضعيف لانه لا يبعد ان يكون النصيب الواحد ازيد قدرا من النصيبين فان المال اذا قسم بنصفين كان الكفل الواحد نصفا واذا قسم بمائة قسم كان الكفل الواحد جزأ من مائة جزء فالنصيب الواحد من القسمة الاولى ازيد من عشرين نصيبا من القسمة الثانية فكذا ههنا ثم قال تعالى ويجعل لكم اى يوم القيامة نورا تمشون به وهو النور المذكور فى قوله يسعى نورهم ويغفر لكم ما اسلفتم من المعاصى والله غفور رحيم ❊ قوله تعالى (لئلا يعلم اهل الكتاب ألا يقدرون على شئ من فضل الله وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الواحدى هذه آية مشكلة وليس للمفسرين فيها كلام واضح فى كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها واعلم ان اكثر المفسرين على ان لا ههنا صلة زائدة والتقدير ليعلم اهل الكتاب وقال ابو مسلم الاصفهانى وجمع آخرون هذه الكلمة ليست بزائدة ونحن نفسر الآية على القولين بعون الله تعالى وتوفيقه (اما القول المشهور) وهو ان هذه اللفظة زائدة فاعلم انه لابد ههنا من تقديم مقدمة وهى أن أهل الكتاب وهم بنو اسرائيل كانوا يقولون الوحى والرسالة فينا والكتاب والشرع ليس الا لنا والله تعالى خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى لما امر اهل الكتاب بالايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ووعدهم بالاجر العظيم على ذلك الايمان اتبعه بهذه الآية والغرض منها ان يزيل عن قلبهم اعتقادهم بأن النبوة مختصة بهم وغير حاصلة الا فى قومهم فقال انما بالغنا فى هذا البيان واطنبنا فى الوعد والوعيد ليعلم اهل الكتاب انهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بقوم معينين ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة فى قوم مخصوصين وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ولا اعتراض عليه فى ذلك اصلا (اما القول الثانى) وهو ان لفظة لا غير زائدة فاعلم ان الضمير فى قوله الا يقدرون عائد الى الرسول واصحابه والتقدير لئلا يعلم اهل الكتاب ان النبى والمؤمنين لا يقدرون على شئ من فضل الله وانهم اذا لم يعلموا انهم لا يقدرون عليه فقد علموا انهم يقدرون عليه ثم قال وان الفضل بيد الله اى وليعلموا ان الفضل بيد الله فيصير التقدير انا فعلنا كذا وكذا لئلا يعتقد اهل الكتاب انهم يقدرون على حصر فضل الله واحسانه فى اقوام معينين وليعتقدوا ان الفضل بيد الله واعلم ان هذا القول ليس فيه الا انا اضمرنا فيه زيادة فقلنا فى قوله وان الفضل بيد الله

الوهم الى غيره (يؤتكم كفلين) نصيبين (من رحمته) لايمانكم بالرسول وبمن قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام لكن لا على معنى ان شريعتهم باقية بعد البعثة بل على انها كانت حقة قبل النسخ (ويجعل لكم نورا تمشون به) يوم القيامة حسبما نطق به قوله تعالى يسعى نورهم بين ايديهم وبأيمانهم (ويغفر لكم) ما اسلفتم من الكفر والمعاصى (والله غفور رحيم) اى مبالغ فى المغفرة والرحمة وقوله تعالى (لئلا يعلم اهل الكتاب) متعلق بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط اذا لتقدير ان تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم كذا وكذا لئلا يعلم الذين لم يسلموا من اهل الكتاب اى ليعلموا ولا مزيدة كما ينبئ عنه قراءة ليعلم ولكى يعلم ولان يعلم بادغام النون فى الياء وان فى قوله تعالى (الا يقدرون على شئ من فضل الله) مخففة من الثقيلة واسمها الذى هو ضمير الشان محذوف والجملة فى حيز النصب على انها مفعول يعلم اى ليعلموا انه لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله من الكفلين والنور والمغفرة ولا يتمكنون من نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذى هو الايمان برسوله وقوله تعالى (وان الفضل بيد الله) عطف على ان لا يقدرون وقوله تعالى (يؤتيه من يشاء) خبر ثان لان وقيل هو الخبر والجار حال لازمة وقوله تعالى (والله ذو الفضل العظيم) اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله وقد جوز ان يكون الامر بالتقوى والايمان لغير اهل الكتاب فالمعنى اتقوا الله واثبتوا على ايمانكم برسول الله صلى الله عليه وسلم

تقديره وليعتقدوا ان الفضل بيد الله واما القول الاول فقد افتقر نافيه الى حذف شي موجود ومن المعلوم ان الاضمار اولى من الحذف لان الكلام اذا افتقر الى الاضمار لم يوهم ظاهره باطلا اصلا اما اذا افتقر الى الحذف كان ظاهره موهما للتباطل فعلمنا ان هذا القول اولى والله اعلم (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ لكي يعلم ولكيلا يعلم وليعلم ولان يعلم بادغام النون في الياء وحكى ابن جني في المحتسب عن قطرب انه روى عن الحسن ليلا بكسر اللام وسكون الياء وحكى ابن مجاهد عنه ليلا بفتح اللام وجزم الياء من غير همز قال ابن جني وما ذكره قطرب اقرب وذلك لان الهمزة اذا حذفت بقي لنلا فيجب ادغام النون في اللام فيصير للا فتجتمع اللامات فتجعل الوسطى لسكونها وانكسار ما قبلها ياء فيصير ليلا واما رواية ابن مجاهد عنه فالوجه فيه ان لام الجر اذا أضفته الى المضمر فتحته تقول له فنهم من قاس المظهر عليه حكى ابو عبيدة ان بعضهم قرأ وان كان مكرهم لتزول منه الجبال واما قوله تعالى وان الفضل بيد الله اى في ملكه وتصرفه واليد مثل يؤتيه من يشاء لانه قادر مختار يفعل بحسب الاختيار والله ذو الفضل العظيم والعظيم لابد وان يكون احسانه عظيما والمراد تعظيم حال محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته وشرعه وكتابه والله اعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين

(سورة المجادلة عشرون وآيتان مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير) روى ان خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت اخي عبادة بن الصامت رآها زوجها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم وكان بالرجل لمم فلما سلمت راودها فأبت فغضب وكان به خفة فظاهر منها فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت ان أوسا تزوجني وانا شابة مرغوب في فلما خلا سني وكثر ولدي جعلني كأمه وان لي صبية صغارا ان ضممتهم اليه ضاعوا وان ضممتهم الي جاعوا ثم ههنا روايتان يروى انه عليه السلام قال لها ماعندي في امرك شيء وروى انه عليه السلام قال لها حرمت عليه فقالت يارسول الله ماذكر طلاقا وانما هو ابو ولدي وأحب الناس الي فقال حرمت عليه فقالت أشكو الى الله فاقتي ووجدي وكلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت عليه هتفت وشكت الى الله فبينما هي كذلك اذ تربد وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ثم انه عليه الصلاة والسلام ارسل الى زوجها وقال ما حملك على ما صنعت فقال الشيطان فهل من رخصة فقال نعم وقرأ عليه الاربع آيات وقال له هل تستطيع العتق فقال لا والله فقال هل تستطيع الصوم فقال لا والله لولا اني آكل في اليوم مرة او مرتين لكل بصري ولظننت اني اموت فقال له هل تستطيع ان تطعم ستين مسكينا فقال لا والله يارسول الله الا ان تعينني منك بصدقة فأعانه بخمسة عشر صاعا واخرج اوس من عنده

(مثله)

يؤتكم ما وعد من آمن من اهل الكتاب من الكفلين في قوله تعالى اولئك يؤتون اجرهم مرتين ولا ينقصكم من مثل اجرهم لانكم مثلهم في الايمانين لاتفرقون بين احد من رسله وروى ان مؤمني اهل الكتاب افتخروا على سائر المؤمنين بأنهم يؤتون اجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت وقرئ ليلا بقلب الهمزة ياء لانفتاحها بعد كسرة وقرئ بسكون الياء وفتح اللام كاسم المرأة وبكسر اللام مع سكون الياء وقرئ الا يقدروا وهذا وقد قيل لا غير مزيدة وضمير لايقدرون للنبي عليه الصلاة والسلام واصحابه والمعنى لئلا يعتقد اهل الكتاب انه لايقدر النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنون به على شيء من فضل الله الذي هو عبارة عما اوتوه من سعادة الدارين على ان عدم علمهم بعدم قدرتهم على ذلك كناية عن علمهم بقدرتهم عليه فيكون قوله تعالى وان الفضل بيد الله الخ عطفا على ان لايعلم * عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسله

(سورة المجادلة مدنية وقيل)
(العشر الاول مكي والباقي مدني)
(وآيها اثنتان وعشرون)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(قد سمع الله) باظهار الدال وقرئ بادغامها في السين (قول التي تجادلك في زوجها) اى تراجعك الكلام في شأنه وفيما صدر عنه في حقها من الظهار وقرئ تحاورك وتحاولك اى تسائلك (وتشتكي الى الله) عطف على تجادلك اى تتضرع اليه تعالى وقيل حال من فاعله اى تجادلك وهي متضرعة

مثله فتصدق به على ستين مسكينا واعلم ان فى هذا الخبر مباحث (الاول) قال ابو سليمان الخطابى ليس المراد من قوله فى هذا الخبر وكان به لمم الخبل والجنون اذ لو كان به ذلك ثم ظاهر فى تلك الحالة لم يكن يلزمه شئ بل معنى اللمم ههنا الالمام بالنساء وشدة الحرص والتوقان اليهن (البحث الثانى) ان الظهار كان من اشد طلاق الجاهلية لانه فى التحريم اوكد ما يمكن وان كان ذلك الحكم صار مقررا بالشرع كانت الآية ناسخة له والا لم يعد نسخا لان النسخ انما يدخل فى الشرائع لا فى عادة الجاهلية لكن الذى روى انه صلى الله عليه وسلم قال لها حرمت او قال ما أراك الا قد حرمت كالدلالة على انه كان شرعا واما ما روى انه توقف فى الحكم فلا يدل على ذلك (البحث الثالث) ان هذه الواقعة تدل على ان من انقطع رجاؤه عن الخلق ولم يبق له فى مهمه احد سوى الخالق كفاه الله ذلك المهم ولنرجع الى التفسير اما قوله قد سمع الله ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله قد معناه التوقع لان رسول الله والمجادلة كانا يتوقعان ان يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل فى ذلك ما يفرج عنها (المسئلة الثانية) كان حمزة يدغم الدال فى السين من قد سمع الله وكذلك فى نظائره واعلم ان الله تعالى حكى عن هذه المرأة امرين (اولهما) المجادلة وهى قوله تجادلك فى زوجها اى تجادلك فى شان زوجها وتلك المجادلة انه عليه الصلاة والسلام كلما قال لها حرمت عليه قالت والله ما ذكر طلاقا (وثانيهما) شكواها الى الله وهو قولها اشكو الى الله فاقتى ووجدى وقولها ان لى صبية صغارا ثم قال سبحانه والله يسمع تحاوركما والمحاورة المراجعة فى الكلام من حار الشئ يحور حورا اى رجع يرجع رجوعا ومنه نعوذ بالله من الحور بعد الكور ومنه فما حار بكلمة اى فما اجاب ثم قال ان الله سميع بصير اى يسمع كلام من يناديه ويبصر من يتضرع اليه ❊ قوله تعالى (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن امهاتهم) اعلم ان قوله الذين يظاهرون فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ما يتعلق بالمباحث اللغويه والفقهية فنقول فى هذه الآية بحثان (احدهما) ان الظهار ما هو (والثانى) ان المظاهر من هو وقوله من نسائهم فيه بحث وهو ان المظاهر منها من هى اما البحث الاول وهو ان الظهار ما هو ففيه مقامان (المقام الاول) فى البحث عن هذه اللفظة بحسب اللغة وفيه قولان (احدهما) انه عبارة عن قول الرجل لامرأته انت على كظهر امى فهو مشتق من الظهر (والثانى) وهو قول صاحب النظم انه ليس مأخوذا من الظهر الذى هو عضو من الجسد لانه ليس الظهر اولى بالذكر فى هذا الموضع من سائر الاعضاء التى هى مواضع المباضعة والتلذذ بل الظهر ههنا مأخوذ من العلو ومنه قوله تعالى فما اسطاعوا ان يظهروه اى يعلوه وكل من علا شيئا فقد ظهره ومنه سمى المركوب ظهرا لان راكبه يعلوه وكذلك امرأة الرجل ظهره لانه يعلوها بملك البضع وان لم يكن من ناحية الظهر فكأن امرأة الرجل مركب للرجل وظهر له ويدل على صحة هذا المعنى ان العرب تقول فى الطلاق نزلت عن امرأتى اى طلقتها وفى قولهم انت على كظهر امى

اليه تعالى وهى خولة بنت ثعلبة بن مالك بن خزامة الخزرجية ظاهر عنها زوجها اوس بن الصامت اخو عبادة ثم ندم على ما قال فقال لها ما اظنك الا قد حرمت على فشق عليها ذلك فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حرمت عليه فقالت يا رسول الله ما ذكر طلاقا فقال حرمت عليه وفى رواية ما اراك الا قد حرمت عليه فى المرار كلها فقالت اشكو الى الله فاقتى ووجدى وجعلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلما قال عليه الصلاة والسلام حرمت عليه هتفت وشكت الى الله تعالى فنزلت وفى كلمة قد اشعار بأن الرسول

حذف واضمار لان تأويله ظهرك على اى ملكى اياك وعلوى عليك حرام كما ان علوى على امى وملكها حرام على (المقام الثانى) فى الالفاظ المستعملة بهذا المعنى فى عرف الشريعة الاصل فى هذا الباب ان يقال انت على كظهر امى فامان يكون لفظ الظهر و لفظ الام مذكورين واما ان يكون لفظ الام مذكورا دون لفظ الظهر واما ان يكون لفظ الظهر مذكورا دون لفظ الام واما ان لايكون واحد منهما مذكورا فهذه اقسام اربعة (القسم الاول) اذا كانا مذكورين وهو معتبر بالاتفاق ثم لامناقشة فى الصلات اذا انتظم الكلام فلو قال انت على كظهر امى او انت منى كظهر امى فهذه الصلات كلها جائزة ولو لم يستعمل صلة وقال انت كظهر امى فقيل انه صريح وقيل يحتمل ان يريد انها كظهر امه فى حق غيره ولكن هذا الاحتمال كما لو قال لامرأته انت طالق ثم قال اردت بذلك الاخبار عن كونها طالقا من جهة فلان (القسم الثانى) ان يكون الام مذكورة ولايكون الظهر مذكورا وتفصيل مذهب الشافعى فيه ان الاعضاء قسمان منها مايكون التشبيه بها غير مشعر بالاكرام ومنها مايكون التشبيه بها مشعرا بالاكرام (اما الاول) فهو كقوله انت على كرجل امى او كيدامى او كبطن امى و للشافعى فيه قولان الجديد ان الظهار يثبت والقديم انه لايثبت اما الاعضاء التى يكون التشبيه بها سببا للاكرام فهو كقوله انت على كعين امى او روح امى فان اراد الظهار كان ظهارا وان أراد الكرامة فليس بظهار فان لفظه محتمل لذلك وان اطلق ففيه ترددهذا تفصيل مذهب الشافعى واما مذهب ابى حنيفة فقال ابو بكر الرازى فى احكام القرآن اذا شبه زوجته بعضو من الام يحل له النظر اليه لم يكن ظهارا وهو قوله انت على كيد أمى او كرأسها اما اذا شبهها بعضو من الام يحرم عليه النظر اليه كان ظهارا كما اذا قال انت على كبطن امى او فخذها والاقرب عندى هو القول القديم للشافعى وهو انه لايصح الظهار بشئ من هذه الالفاظ والدليل عليه ان حل الزوجة كان ثابتا وبراءة الذمة عن وجوب الكفارة كانت ثابتة والاصل فى الثابت البقاء على ماكان ترك العمل به فيما اذا قال انت على كظهر امى لمعنى مفقود فى سائر الصور وذلك لان اللفظ المعهود فى الجاهلية هو قوله انت على كظهر امى ولذلك سمى ظهارا فكان هذا اللفظ بسبب العرف مشعرا بالتحريم ولم يوجد هذا المعنى فى سائر الالفاظ فوجب البقاء على حكم الاصل (القسم الثالث) ما اذا كان الظهر مذكورا ولم تكن الام مذكورة فهذا يدل على ثلاث مراتب (المرتبة الاولى) ان يجرى التشبيه بالمحرمات من النسب والرضاع وفيه قولان القديم انه لايكون ظهارا والقول الجديد انه يكون ظهارا وهو قول أبى حنيفة (المرتبة الثانية) تشبيهها بالمرأة المحرمة تحريما مؤقتا مثل ان يقول لامرأته انت على كظهر فلانة وكان طلقها ثلاثا فهذا لايكون ظهارا بالاتفاق (المرتبة الثالثة) ان يقول انت على كظهر زوجة ابى والمختار عندى ان شيئا من هذا لايكون ظهارا ودليله ماذكرناه

عليه الصلاة والسلام والمجادلة كانا يتوقعان ان ينزل الله تعالى حكم الحادثة ويفرج عنها كربها كما يلوح به ماروى انه عليه الصلاة والسلام قال لها عند استفتائها ماعندى فى امرك شئ وانها كانت ترفع رأسها الى السماء وتقول اللهم انى اشكو اليك فأنزل على لسان نبيك ومعنى سمعه تعالى لقولها اجابة دعائها لامجرد علمه تعالى بذلك كما هو المعنى بقوله تعالى (والله يسمع تحاوركما) اى يعلم تراجعكما الكلام وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدده وفى نظمها فى سلك الخطاب تغليبا تشريف لها من

(فى)

في المسئلة السالفة وحجة ابي حنيفة انه تعالى قال والذين يظاهرون وظاهر هذه الآية يقتضي حصول الظهار بكل محرم فمن قصره على الام فقد خص (والجواب) انه تعالى لما قال بعده ماهن امهاتهم ان امهاتهم الا اللائي ولدنهم دل على ان المراد هو الظهار بذكر الام ولان حرمة الام اشد من حرمة سائر المحارم فنقول المقتضى لبقاء الحل قائم على ما بيناه وهذا الفارق موجود فوجب ان لا يجوز القياس (القسم الرابع) ما اذا لم يذكر لا الظهر ولا الام كما لو قال انت على كبطن اختي وعلى قياس ما تقدم يجب ان لا يكون ذلك ظهارا (البحث الثاني) في المظاهر وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الشافعي رحمه الله الضابط ان كل من صح ظهاره فعلى هذا ظهار الذمي عنده صحيح وقال ابو حنيفة لا يصح واحتج الشافعي بعموم قوله تعالى والذين يظاهرون من نسائهم واما القياس فمن وجهين (الاول) ان تأثير الظهار في التحريم والذمي اهل لذلك بدليل صحة طلاقه واذا ثبت هذا وجب ان يصح هذا التصرف منه قياسا على سائر التصرفات (الثاني) ان الكفارة انما وجبت على المسلم زجرا له من هذا الفعل الذي هو منكر من القول وزور وهذا المعنى قائم في حق الذمي فوجب ان يصح واحتجوا لقول ابي حنيفة بهذه الآية من وجهين (الاول) احتج ابو بكر الرازي بقوله تعالى والذين يظاهرون منكم من نسائهم وذلك خطاب للمؤمنين فيدل على ان الظهار مخصوص بالمؤمنين (الثاني) ان من لوازم الظهار الصحيح وجوب الصوم على العائد العاجز عن الاعتاق بدليل قوله تعالى والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا الى قوله فمن لم يستطع فصيام شهرين متتابعين وايجاب الصوم على الذمي ممتنع لانه لو وجب لوجب اما مع الكفر وهو باطل بالاجماع او بعد الايمان وهو باطل لقوله عليه السلام الاسلام يجب ما قبله (والجواب) عن الاول من وجوه (احدها) أن قوله منكم خطاب مشافهة فيتناول جميع الحاضرين فلم قلتم انه مختص بالمؤمنين سلمنا انه مختص بالمؤمنين فلم قلتم ان تخصيصه بالمؤمنين في الذكر يدل على ان حال غيرهم بخلاف ذلك لاسيما ومن مذهب هذا القائل ان التخصيص بالذكر لا يدل على ان حال ماعداه بخلافه سلمنا بانه يدل عليه لكن دلالة المفهوم اضعف من دلالة المنطوق فكان التمسك بعموم قوله والذين يظاهرون اولى سلمنا الاستواء في القوة لكن مذهب أبي حنيفة أن العام اذا ورد بعد الخاص كان ناسخا للخاص والذي تمسكنا به وهو قوله والذين يظاهرون من نسائهم متأخر في الذكر عن قوله الذين يظاهرون منكم والظاهر انه كان متأخرا في النزول ايضا لان قوله الذين يظاهرون منكم ليس فيه بيان حكم الظهار وقوله والذين يظاهرون من نسائهم فيه بيان حكم الظهار وكون المبين متأخرا في النزول عن المجمل اولى (والجواب) عن الثاني من وجوه (الاول) ان من لوازمه ايضا انه متى عجز عن الصوم اكتفى منه بالاطعام فههنا ان تحقق العجز وجب ان يكتفي منه بالاطعام وان لم يتحقق العجز فقد زال السؤال (والثاني) ان الصوم بدل عن الاعتاق والبدل اضعف

جهتين والجملة استئناف جار مجرى التعليل لما قبله فان الحاحها في المسئلة ومبالغتها في التضرع الى الله تعالى ومدافعته عليه الصلاة والسلام اياها بجواب منبئ عن التوقف وترقب الوحي وعلمه تعالى بحالهما من دواعي الاجابة وقيل هي حال وهو بعيد وقوله عز وجل (ان الله سميع بصير) تعليل لما قبله بطريق التحقيق اي مبالغ في العلم بالمسموعات والمبصرات ومن قضيته ان يسمع تحاورهما ويرى مايقارنه من الهيئات التي من جملتها رفع رأسها الى السماء وسائر آثار التضرع واظهار الاسم الجليل في الموقعين لتربية المهابة وتعليل الحكم بوصف الالوهية وتأكيد

من المبدل ثم ان العبد عاجز عن الاعتاق معانه يصح ظهاره فاذا كان فوات اقوى اللازمين لايوجب المنع من صحة الظهار ففوات أضعف اللازمين كيف يمنع من القول بصحة الظهار (الثالث) قال القاضي حسين من اصحابنا انه يقال ان اردت الخلاص من التحريم فأسلم وصم اماقوله عليه السلام الاسلام يجب ماقبله قلنا انه عام و التكليف بالتكفير خاص والخاص مقدم على العام و ايضافنحن لانكلفه بالصوم بل نقول اذا أردت ازالة التحريم فصم والافلاتصم (المسئلة الثانية) قال الشافعي وابي حنيفة ومالك رحمهم الله لايصح ظهار المرأة من زوجها وهو ان تقول المرأة لزوجها أنت على كظهر امي وقال الاوزاعي وهو يمين تكفرها وهذا خطألان الرجل لايلزمه بذلك كفارة يمين وهو الاصل فكيف يلزم المرأة ذلك ولان الظهار يوجب تحريما بالقول والمرأة لاتملك ذلك بدليل انها لاتملك الطلاق (المسئلة الثانية) قال الشافعي وابو حنيفة اذا قال انت على كظهر امي اليوم بطل الظهار بمضي اليوم وقال مالك وابن ابي ليلى هو مظاهر ابدا لنا ان التحريم الحاصل بالظهار قابل للتوقيت والالما انحل بالتكفير واذا كان قابلا للتوقيت فاذا وقته وجب ان يتقدر بحسب ذلك التوقيت قياسا على اليمين فهذا مايتعلق من المسائل بقوله تعالى الذين يظاهرون اماقوله تعالى من نسائهم فيتعلق به احكام المظاهر منه و اختلفوا في انه هل يصح الظهار عن الامة فقال ابو حنيفة والشافعي لايصح وقال مالك والاوزاعي يصح (حجة الشافعي) ان الحل كان ثابتا والتكفير لم يكن واجبا والاصل في الثابت البقاء والآية لاتتناول هذه الصورة لان قوله والذين يظاهرون من نسائهم يتناول الحرائر دون الاماء والدليل عليه قوله او نسائهن والمفهوم منه الحرائر ولولاذلك لما صح عطف قوله او ما ملكت ايمانهن لان الشيء لايعطف على نفسه وقال تعالى وامهات نسائكم فكان ذلك على الزوجات دون ملك اليمين (المسئلة الرابعة) فيما يتعلق بهذه الآية من القراآت قال ابو علي قرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو الذين يظهرون بغير الالف وقرأ عاصم يظاهرون بضم الياء وتخفيف الظاء والالف وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي يظاهرون بفتح الياء وبالالف مشددة الظاء قال ابو علي ظاهر من امرأته وظهر مثل ضاعف وضعف وتدخل التاء على كل واحد منهما فيصير تظاهر وتظهر ويدخل حرف المضارعة فيصير يتظاهر ويتظهر ثم تدغم التاء في الظاء لمقاربتها لها فيصير يظاهر ويظهر ويفتح الياء التي هي حرف المضارعة لانها للمطاوعة كما يفتحها في يتدحرج الذي هو مطاوع دحرجته فتدحرج وانما فتح الياء في يظاهر ويظهر لانه المطاوع كما ان يتدحرج كذلك ولانه على وزنهما وان لم يكونا للالحاق واماقراءة عاصم يظاهرون فهو مشتق من ظاهر يظاهر اذا أتى بمثل هذا التصرف (المسئلة الخامسة) لفظة منكم في قوله والذين يظاهرون منكم توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم في الظهار لانه كان من ايمان اهل الجاهلية خاصة دون سائر الامم وقوله تعالى ماهن امهاتهم فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ عاصم في رواية المفضل امهاتهم

(بالرفع)

استقلال الجملتين وقوله تعالى (الذين يظاهرون منكم من نسائهم) شروع في بيان شأن الظهار في نفسه وحكمه المرتب عليه شرعا بطريق الاستئناف والظهار ان يقول الرجل لامرأته انت علي كظهر امي مشتق من الظهر وقدمر تفصيله في الاحزاب والحق به الفقهاء تشبيهها بجزء محرم وفي منكم مزيد توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم فيه فانه كان من ايمان اهل جاهليتهم خاصة دون سائر الامم وقرئ يظاهرون من اظاهر ويتظاهرون ويظهرون وقوله تعالى (ماهن امهاتهم) خبر للموصول اي مانساؤهم امهاتهم على الحقيقة فهو كذب بحت وقرئ امهاتهم بالرفع على لغة تميم . وبأمهاتهم

بالرفع والباقون بالنصب على لغة الخفض وجه الرفع انه لغة تميم قال سيبويه وهو أقيس الوجهين وذلك ان النفي كالاستفهام فكما لا يغير الاستفهام الكلام عما كان عليه فكذا ينبغي أن لا يغير النفي الكلام عما كان عليه ووجه النصب انه لغة أهل الحجاز والاخذ في التنزيل بلغتهم أولى وعليها جاء قوله ماهذا بشرا ووجهه من القياس ان ماتشبه ليس في أمرين (أحدهما) ان ماتدخل على المبتدأ والخبر كما ان ليس تدخل عليهما (والثاني) ان ماتنفي مافي الحال كما ان ليس تنفي مافي الحال واذا حصلت المشابهة من جهين وجب حصول المساواة في سائر الاحكام الاما خص بالدليل قياسا على باب مالا ينصرف (المسئلة الثانية) في الآية اشكال وهو ان من قال لامرأته انت على كظهر أمي فهو شبه الزوجة بالام ولم يقل انها ام فكيف يليق ان يقال على سبيل الابطال لقوله ماهن امهاتهم وكيف يليق ان يقال وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا (والجواب) ان الكذب انما لزم لان قوله انت على كظهر أمي اما ان يجعله اخبارا أو انشاء وعلى التقدير الاول انه كذب لان الزوجة محللة والام محرمة وتشبيه المحللة بالمحرمة في وصف الحل والحرمة كذب وان جعلناه انشاء كان ذلك ايضا كذبا لان كونه انشاء معناه ان الشرع جعله سببا في حصول الحرمة فلما لم يرد الشرع بهذا التشبيه كان جعله انشاء في وقوع هذا الحكم يكون كذبا وزورا وقال بعضهم انه تعالى انما وصفه بكونه منكرا من القول وزورا لان الام محرمة تحريما مؤبدا والزوجة لاتحرم عليه بهذا القول تحريما مؤبدا فلاجرم كان ذلك منكرا من القول وزورا وهذا الوجه ضعيف لان تشبيه الشئ بالشئ لايقتضي وقوع المشابهة بينهما من كل الوجوه فلا يلزم من تشبيه الزوجة بالام في الحرمة تشبيهها بها في كون الحرمة مؤبدة لان مسمى الحرمة اعم من الحرمة المؤبدة والمؤقتة ※ قوله تعالى (ان امهاتهم الا اللائي ولدنهم وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا) اما الكلام في تفسير لفظة اللائي فقد تقدم في سورة الاحزاب عند قوله وماجعل ازواجكم اللائي تظاهرون ثم في الآية سؤال وهو ان ظاهرها يقتضي انه لا أم الا الوالدة وهذا مشكل لانه قال في آية أخرى وامهاتكم من الرضاعة وفي آية أخرى وازواجه امهاتهم ولا يمكن ان يدفع هذا السؤال بان المعنى من كون المرضعة اما وزوجة الرسول اما حرمة النكاح وذلك لانا نقول ان بهذا الطريق ظهر انه لايلزم من عدم الامومة الحقيقية عدم الحرمة فاذا لايلزم من عدم كون الزوجة اما عدم الحرمة وظاهر الآية يوهم انه تعالى استدل بعدم الامومة على عدم الحرمة وحينئذ يتوجه السؤال (والجواب) انه ليس المراد من ظاهر الآية ماذكره السائل بل تقدير الآية كأنه قيل الزوجة ليست بأم حتى تحصل الحرمة بسبب الامومة ولم يرد الشرع بجعل هذا اللفظ سببا لوقوع الحرمة حتى تحصل الحرمة به فاذا لاتحصل الحرمة هناك البتة فكان وصفهم لها بالحرمة كذبا وزورا ※ ثم قال تعالى (وان الله لعفو غفور) امامن غير التوبة لمن شاء كما قال ويغفر مادون ذلك لمن يشاء او بعد التوبة

(ان امهاتهم) اى ماهن (الا اللائي ولدنهم) فلا تشبه بهن في الحرمة الا من الحقهن الشرع بهن من المرضعات وازواج النبي عليه الصلاة والسلام فدخلن بذلك في حكم الامهات واما الزوجات فأبعد شئ من الامومة (وانهم ليقولون) بقولهم ذلك (منكرا من القول) على ان مناط التأكيد ليس صدور القول عنهم فانه امر محقق بل كونه منكرا اى عند الشرع وعند العقل والطبع ايضا كما يشعر به تنكيره ونظيره قوله تعالى انكم لتقولون قولا عظيما (وزورا) اى محرفا عن الحق (وان الله لعفو غفور) اى مبالغ في العفو والمغفرة فيغفر لما سلف منه على الاطلاق او بالمتاب عنه

※ قوله تعالى (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان تماسا) قال الزجاج الذين رفع بالابتداء وخبره فعليهم تحرير رقبة ولم يذكر عليهم لان في الكلام دليلا عليه وان شئت اضمرت فكفارتهم تحرير رقبة اما قوله تعالى ثم يعودون لما قالوا فاعلم انه كثر اختلاف الناس في تفسير هذه الكلمة ولابد اولا من بيان اقوال اهل العربية في هذه الكلمة (وثانيا) من بيان اقوال اهل الشريعة وفيها مسائل (المسئلة الاولى) قال الفراء لافرق في اللغة بين ان يقال يعودون لما قالوا والى ما قالوا وفيما قالوا قال ابو علي الفارسي كلمة الى واللام يتعاقبان كقوله الحمد لله الذي هدانا لهذا وقال فاهدوهم الى صراط الجحيم وقال تعالى واوحي الى نوح وقال بأن ربك اوحى لها (المسئلة الثانية) لفظ ماقالوا في قوله ثم يعودون لما قالوا فيه وجهان (احدهما) انه لفظ الظهار والمعنى انهم يعودون الى ذلك اللفظ (والثاني) ان يكون المراد بقوله لما قالوا المقول فيه وهو الذي حرموه على انفسهم بلفظ الظهار تنزيلا للقول منزلة المقول فيه ونظيره قوله تعالى ونرثه ما يقول اي ونرثه المقول وقال عليه السلام العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه وانما هو عائد في الموهوب ويقول الرجل اللهم انت رجاؤنا اي مرجونا وقال تعالى واعبد ربك حتى يأتيك اليقين اي الموقن به وعلى هذا معنى قوله ثم يعودون لما قالوا اي يعودون الى الشيء الذي قالوا فيه ذلك القول ثم اذا فسرنا هذا اللفظ بالوجه الاول فنقول قال اهل اللغة يجوز ان يقال عاد لما فعل اي فعله مرة اخرى ويجوز ان يقال عاد لما فعل اي نقض مافعل وهذا كلام معقول لان من فعل شيئا ثم أراد أن يفعل مثله فقد عاد الى تلك الماهية لامحالة ايضا وايضا من فعل شيئا ثم أراد ابطاله فقد عاد اليه لان التصرف في الشيء بالاعدام لايمكن الا بالعود اليه (المسئلة الثالثة) ظهر مما قدمنا ان قوله ثم يعودون لما قالوا يحتمل ان يكون المراد ثم يعودون اليه بالنقض والرفع والازالة ويحتمل ان يكون المراد منه ثم يعودون تكوين مثله مرة اخرى اما الاحتمال الاول فهو الذي ذهب اليه اكثر المجتهدين واختلفوا فيه على وجوه (الاول) وهو قول الشافعي ان معنى العود لما قالوا السكوت عن الطلاق بعد الظهار زمانا يمكنه ان يطلقها فيه وذلك لانه لما ظاهر فقد قصد التحريم فان وصل ذلك بالطلاق فقد تمم ماشرع فيه من ايقاع التحريم ولا كفارة عليه فاذا سكت عن الطلاق فذاك يدل على انه ندم على ما ابتدأ به من التحريم فحينئذ تجب عليه الكفارة واحتج ابوبكر الرازي في احكام القرآن على فساد هذا القول من وجهين (الاول) انه تعالى قال ثم يعودون لما قالوا وثم تقتضي التراخي وعلى هذا القول يكون المظاهر عائدا عقيب القول بلا تراخ وذلك خلاف مقتضى الآية (الثاني) انه شبهها بالام والام لايحرم امساكها فتشبيه الزوجة بالام لايقتضي حرمة امساك الزوجة فلا يكون امساك الزوجة نقضا لقوله انت علي كظهر امي فوجب ان لايفسر العود بهذا الامساك والجواب عن الاول ان هذا ايضا وارد على قول ابي حنيفة فانه جعل تفسير العود

وقوله تعالى (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) تفصيل لحكم الظهار بعد بيان كونه امرا منكرا بطريق التشريع الكلي المنتظم لحكم الحادثة انتظاما اوليا اي والذين يقولون ذلك القول المنكر ثم يعودون لما قالوا اي الى ما قالوا بالتدارك والتلافي لا بالتقرير والتكرير كما في قوله تعالى ان تعودوا لمثله ابدا فان اللام والى تتعاقبان كثيرا كما في قوله تعالى هدانا لهذا وقوله تعالى فاهدوهم الى صراط الجحيم وقوله تعالى بأن ربك اوحى لها وقوله تعالى واوحي الى نوح (فتحرير رقبة) اي فتداركه او فعليه اوفا لواجب اعتاق رقبة اي رقبة كانت وعند الشافعي رحمه الله تعالى يشترط الايمان والفاء للسببية ومن فوائدها الدلالة على تكرر وجوب التحرير

(استباحة)

استباحة الوطء فوجب ان لا يتمكن المظاهر من العود اليها بهذا التفسير عقيب فراغه من التلفظ بلفظ الظهار حتى يحصل التراخي مع ان الامة مجمعة على ان له ذلك فثبت ان هذا الاشكال وارد عليه ايضا ثم نقول انه مالم ينقض زمان يمكنه ان يطلقها فيه لا يحكم عليه بكونه عائدا فقد تأخر كونه عائدا عن كونه مظاهرا بذلك القدر من الزمان وذلك يكفي في العمل بمقتضى كلمة ثم (والجواب) عن الثاني ان الام يحرم امساكها على سبيل الزوجية ويحرم الاستمتاع بها فقوله انت على كظهر امي ليس فيه بيان ان التشبيه وقع في امساكها على سبيل الزوجية او في الاستمتاع بها فوجب حمله على الكل فقوله انت على كظهر امي يقتضي تشبيهها بالام في حرمة امساكها على سبيل الزوجية فاذا لم يطلقها فقد امسكها على سبيل الزوجية فكان هذا الامساك مناقضا لمقتضى قوله انت على كظهر امي فوجب الحكم عليه بكونه عائدا وهذا كلام ملخص في تقرير مذهب الشافعي (الوجه الثاني) في تفسير العود وهو قول ابي حنيفة انه عبارة عن استباحة الوطء والملامسة والنظر اليها بالشهوة قالوا وذلك لانه لما شبهها بالام في حرمة هذه الاشياء ثم قصد استباحة هذه الاشياء كان ذلك مناقضا لقوله انت على كظهر امي واعلم ان هذا الكلام ضعيف لانه لما شبهها بالام لم يبين انه في اي الاشياء شبهها بها فليس صرف هذا التشبيه الى حرمة الاستمتاع وحرمة النظر اولى من صرفه الى حرمة امساكها على سبيل الزوجية فوجب ان يحمل هذا التشبيه على الكل واذا كان كذلك فاذا امسكها على سبيل الزوجية لحظة فقد نقض حكم قوله انت على كظهر امي فوجب ان يتحقق العود (الوجه الثالث) في تفسير العود وهو قول مالك ان العود اليها عبارة عن العزم على جماعها وهذا ضعيف لان القصد الى جماعها لا يناقض كونها محرمة انما المناقض لكونها محرمة القصد الى استحلال جماعها وحينئذ يرجع الى قول ابي حنيفة رحمه الله (الوجه الرابع) في تفسير العود وهو قول طاوس والحسن البصري ان العود اليها عبارة عن جماعها وهذا خطأ لان قوله تعالى ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا بفاء التعقيب في قوله فتحرير رقبة يقتضي كون التكفير بعد العود ويقتضي قوله من قبل ان يتماسا ان يكون التكفير قبل الجماع واذا ثبت انه لابد وان يكون التكفير بعد العود وقبل الجماع وجب ان يكون العود غير الجماع واعلم ان اصحابنا قالوا العود المذكور ههنا هب انه صالح للجماع او للعزم على الجماع او لاستباحة الجماع الا ان الذي قال الشافعي رحمه الله هو اقل ماينطلق عليه الاسم فيجب تعليق الحكم عليه لانه هو الذي به يتحقق مسمى العود واما الباقي فزيادة لادليل عليها البتة (الاحتمال الثاني) في قوله ثم يعودون اي يفعلون مثل مافعلوه وعلى هذا الاحتمال في الآية ايضا وجوه (الاول) قال الثوري العود هو الاتيان بالظهار في الاسلام وتقريره ان اهل الجاهلية كانوا يطلقون بالظهار فجعل الله تعالى حكم الظهار في الاسلام خلاف حكمه عندهم في الجاهلية فقال والذين يظاهرون من نسائهم يريد في الجاهلية ثم يعودون لما قالوا

بتكرر الظهار وقيل ماقالوا عبارة عما حرموه على انفسهم بلفظ الظهار تنزيلا للقول منزلة المقول فيه كما ذكر في قوله تعالى ونرثه مايقول اي المقول فيه من المال والولد فالمعنى ثم يريدون العود للاستمتاع فتحرير رقبة (من قبل ان يتماسا) اي من قبل ان يستمتع كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر جماعا ولمسا ونظرا الى الفرج بشهوة وان وقع شيء من ذلك قبل التكفير يجب عليه ان يستغفر ولا يعود حتى يكفر وان اعتق بعض الرقبة ثم مس عليه ان يستأنف عند ابي حنيفة رحمه الله تعالى

اى فى الاسلام والمعنى انهم يقولون فى الاسلام مثل ما كانوا يقولونه فى الجاهلية فكفارته كذا وكذا قال اصحابنا هذا القول ضعيف لانه تعالى ذكر الظهار وذكر العود بعده بكلمة ثم وهذا يقتضى ان يكون المراد من العود شيئا غير الظهار فان قالوا المراد والذين كانوا يظاهرون من نسائهم قبل الاسلام والعرب تضمر لفظ كان كما فى قوله واتبعوا ما تتلو الشياطين اى ما كانت تتلو الشياطين قلنا الاضمار خلاف الاصل (القول الثانى) قال ابو العالية اذا كرر لفظ الظهار فقد عاد فان لم يكرر لم يكن عودا وهذا قول اهل الظاهر واحتجوا عليه بأن ظاهر قوله ثم يعودون لما قالوا يدل على اعادة ما فعلوه وهذا لا يكون الا بالتكرير وهذا ايضا ضعيف من وجهين (الاول) انه لو كان المراد هذا لكان يقول ثم يعيدون ما قالوا (الثانى) حديث اوس فانه لم يكرر الظهار انما عزم على الجماع وقد الزمه رسول الله الكفارة وكذلك حديث سلمة بن صخر البياضى فانه قال كنت لا اصبر على الجماع فلما دخل شهر رمضان ظاهرت من امرأتى مخافة ان لا اصبر عنها بعد طلوع الفجر فظاهرت منها شهر رمضان كله ثم لم اصبر فواقعتها فأتيت رسول الله فأخبرته بذلك وقلت امض فى حكم الله فقال اعتق رقبة فأوجب الرسول عليه السلام عليه الكفارة مع انه لم تذكر تكرار الظهار (القول الثالث) قال ابو مسلم الاصفهانى معنى العود هو ان يحلف على ما قال اولا من لفظ الظهار فانه اذا لم يحلف لم تلزمه الكفارة قياسا على ما لو قال فى بعض الاطعمة انه حرام على كلحم الآدمى فانه لا تلزمه الكفارة فاما اذا حلف عليه لزمه كفارة اليمين وهذا ايضا ضعيف لان الكفارة قد تجب بالاجماع فى المناسك ولا يمين هناك وفى قتل الخطأ ولا يمين هنالك اما قوله تعالى فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فيما يحرمه الظهار فللشافعى قولان (احدهما) انه يحرم الجماع فقط (القول الثانى) وهو الاظهر انه يحرم جميع جهات الاستمتاعات وهو قول ابى حنيفة رحمه الله ودليله وجوه (الاول) قوله تعالى فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا فكان ذلك عاما فى جميع ضروب المسيس من لمس بيد او غيرها (والثانى) قوله تعالى والذين يظاهرون من نسائهم الزمه حكم التحريم بسبب انه شبهها بظهر الام فكما ان مباشرة ظهر الام ومسه يحرم عليه فوجب ان يكون الحال فى المرأة كذلك (الثالث) روى عكرمة ان رجلا ظاهر من امرأته ثم واقعها قبل ان يكفر فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فقال اعتزلها حتى تكفر (المسئلة الثانية) اختلفوا فيمن ظاهر مرارا فقال الشافعى وابو حنيفة لكل ظهار كفارة الا ان يكون فى مجلس واحد وأراد بالتكرار التأكيد فانه يكون عليه كفارة واحدة وقال مالك من ظاهر من امرأته فى مجالس متفرقة فليس عليه الا كفارة واحدة دليلنا ان قوله تعالى والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة يقتضى كون الظهار لايجاب الكفارة فاذا وجد الظهار الثانى فقد وجدت علة وجوب الكفارة والظهار الثانى اما ان يكون علة للكفارة الاولى او لكفارة ثانية والاول باطل لان الكفارة الاولى وجبت بالظهار

الاول وتكوين الكائن محال ولان تأخر العلة عن الحكم محال فعلمنا ان الظهار الثانى يوجب كفارة ثانية واحتج مالك بأن قوله والذين يظاهرون يتناول من ظاهر مرة واحدة ومن ظاهر مرارا كثيرة ثم انه تعالى اوجب عليه تحرير رقبة فعلمنا ان التكفير الواحد كاف فى الظهار سواء كان مرة واحدة او مرارا كثيرة (والجواب) انه تعالى قال لايؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين فهذا يقتضى ان لايجب فى الايمان الكثيرة الا كفارة واحدة ولما كان ذلك باطلا فكذا ماقلتموه (المسئلة الثالثة) رجل تحته اربع نسوة فظاهر منهن بكلمة واحدة وقال انتن على كظهر امى للشافعى قولان اظهرهما انه يلزمه اربع كفارات نظرا الى عدد اللواتى ظاهر منهن ودليله ماذكرنا انه ظاهر عن هذه فلزمه كفارة بسبب هذا الظهار وظاهر ايضا عن تلك فالظهار الثانى لابد وان يوجب كفارة اخرى (المسئلة الرابعة) الآية تدل على ايجاب الكفارة قبل المماسة فان جامع قبل أن يكفر لم يجب عليه الا كفارة واحدة وهو قول اكثر اهل العلم كمالك وأبى حنيفة والشافعى وسفيان واحمد واسحق رحمهم الله وقال بعضهم اذا واقعها قبل ان يكفر فعليه كفارتان وهو قول عبدالرحمن بن مهدى دليلنا ان الآية دلت على انه يجب على المظاهر كفارة قبل العود فههنا فاتت صفة القبلية فيبقى اصل وجوب الكفارة وليس فى الآية دلالة على ان ترك التقديم يوجب كفارة أخرى (المسئلة الخامسة) الاظهر انه لاينبغى للمرأة ان تدعه يقربها حتى يكفر فان تهاون بالتكفير حال الامام بينه وبينها ويجبره على التكفير وان كان بالضرب حتى يوفيها حقها من الجماع قال الفقهاء ولاشئ من الكفارات يجبر عليه ويحبس الا كفارة الظهار وحدها لان ترك التكفير اضرار بالمرأة وامتناع من ايفاء حقها (المسئلة السادسة) قال ابوحنيفة رحمه الله هذه الرقبة تجزئ سواء كانت مؤمنة او كافرة لقوله تعالى فتحرير رقبة فهذا اللفظ يفيد العموم فى جميع الرقاب وقال الشافعى لابد وان تكون مؤمنة ودليله وجهان (الاول) ان المشرك نجس لقوله تعالى انما المشركون نجس وكل نجس خبيث باجماع الامة وقال تعالى ولاتيمموا الخبيث (الثانى) اجمعنا على ان الرقبة فى كفارة القتل مقيدة بالايمان فكذا ههنا والجامع ان الاعتاق انعام فتقييده بالايمان يقتضى صرف هذا الانعام الى اولياء الله وحرمان اعداء الله وعدم التقييد بالايمان قد يفضى الى حرمان اولياء الله فوجب ان يتقيد بالايمان تحصيلا لهذه المصلحة (المسئلة السابعة) اعتاق المكاتب لايجزئ عند الشافعى رحمه الله وقال ابوحنيفة رحمه الله ان اعتقه قبل ان يؤدي شيئا جاز عن الكفارة واذا اعتقه بعد ان يؤدى شيئا فظاهر الرواية انه لايجزئ وروى الحسن عن ابى حنيفة انه يجزئ حجة ابى حنيفة ان المكاتب رقبة لقوله تعالى وفى الرقاب والرقبة مجزئة لقوله تعالى فتحرير رقبة حجة الشافعى ان المقتضى لبقاء التكليف باعتاق الرقبة قائم بعد اعتاق المكاتب وما لاجله

ترك العمل به في محل الرقاب غير موجود ههنا فوجب ان يبقى على الاصل بيان المقتضى ان الاصل في الثابت البقاء على ما كان بيان الفارق ان المكاتب كالزائل عن ملك المولى وان لم يزل عن ملكه لكنه يمكن نقصان في رقه بدليل انه صار احق بمكاسبه ويمتنع على المولى التصرفات فيه ولو اتلفه المولى يضمن قيمته ولو وطئ مكاتبته يغرم المهر ومن المعلوم ان ازالة الملك الخالص عن شوائب الضعف اشق على المالك من ازالة الملك الضعيف ولا يلزم من خروج الرجل عن العهدة باعتاق العبد القن خروجه عن العهدة باعتاق المكاتب (والوجه الثاني) اجمعنا على انه لو اعتقه الوارث بعد موته لا يجزئ عن الكفارة فكذا اذا اعتقه المورث والجامع كون الملك ضعيفا (المسئلة الثامنة) لو اشترى قريبه الذي يعتق عليه بنية الكفارة عتق عليه لكنه لا يقع عن الكفارة عند الشافعي وعند ابي حنيفة يقع حجة ابي حنيفة التمسك بظاهر الآية وحجة الشافعي ما تقدم (المسئلة التاسعة) قال ابو حنيفة الاطعام في الكفارات يتأدى بالتمكين من الطعام وعند الشافعي لا يتأدى الا بالتمليك من الفقير حجة ابي حنيفة ظاهر القرآن وهو ان الواجب هو الاطعام وحقيقة الاطعام هو التمكين بدليل قوله تعالى من اوسط ما تطعمون اهليكم وذلك يتأدى بالتمكين والتملك فكذا ههنا وحجة الشافعي القياس على الزكاة وصدقة الفطر (المسئلة العاشرة) قال الشافعي لكل مسكين مد من طعام بلده الذي يقتات منه حنطة او شعيرا او أرزا او تمرا او اقطا وذلك بمد النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعتبر مد حدث بعده وقال ابو حنيفة يعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو دقيق او سويق او صاعا من تمر او صاعا من شعير ولا يجزئه دون ذلك حجة الشافعي ان ظاهر الآية يقتضي الاطعام ومراتب الاطعام مختلفة بالكمية والكيفية فليس حمل اللفظ على البعض اولى من حمله على الباقي فلابد من حمله على اقل ما لابد منه ظاهرا وذلك هو المد حجة ابي حنيفة ما روى في حديث اوس بن الصامت لكل مسكين نصف صاع من بر وعن علي وعائشة قالا لكل مسكين مدان من بر ولان المعتبر حاجة اليوم لكل مسكين فيكون نظير صدقة الفطر ولا يتأدى ذلك بالمد بل بما قلنا فكذلك هذا (المسئلة الحادية عشرة) لو اطعم مسكينا واحدا ستين مرة لا يجزئ عند الشافعي وعند ابي حنيفة يجزئ حجة الشافعي ظاهر الآية وهو انه تعالى اوجب اطعام ستين مسكينا فوجب رعاية ظاهر الآية وحجة ابي حنيفة ان المقصود دفع الحاجة وهو حاصل وللشافعي ان يقول التحكمات غالبة على هذه التقديرات فوجب الامتناع فيها من القياس وايضا فلعل ادخال السرور في قلب ستين انسانا اقرب الى رضا الله تعالى من ادخال السرور في قلب الانسان الواحد (المسئلة الثانية عشرة) قال اصحاب الشافعي انه تعالى قال في الرقبة فمن لم يجد فصيام شهرين وقال في الصوم فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا فذكر في الاول فمن لم يجد وفي الثاني فمن لم يستطع فقالوا من ماله غائب لم ينتقل الى الصوم بسبب عجزه عن الاعتاق في الحال امامن

(كان)

كان مريضا فى الحال فانه ينتقل الى الاطعام وان كان مرضه بحيث يرجى زواله قالوا والفرق انه قال فى الانتقال الى الاطعام فمن لم يستطع وهو بسبب المرض الناجز والعجز العاجل غير مستطيع وقال فى الرقبة فمن لم يجد والمراد فمن لم يجد رقبة اومالا يشترى به رقبة ومن ماله غائب لايسمى فاقدا للمال وايضا يمكن ان يقال فى الفرق احضار المال يتعلق باختياره واما ازالة المرض فليس باختياره (المسئلة الثالثة عشرة) قال بعض اصحابنا الشبق المفرط والغلمة الهائجة عذر فى الانتقال الى الاطعام والدليل عليه انه عليه السلام لما امر الاعرابى بالصوم قال له وهل اتيت الامن قبل الصوم فقال عليه السلام اطعم دل الحديث على ان الشبق الشديد عذر فى الانتقال من الصوم الى الاطعام وايضا الاستطاعة فوق الوسع والوسع فوق الطاقة فالاستطاعة هو ان يتمكن الانسان من الفعل على سبيل السهولة ومعلوم ان هذا المعنى لايتم مع شدة الشبق فهذه جملة مختصرة مما يتعلق بفقه القرآن فى هذه الآية والله اعلم ❊ قوله تعالى (ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير) قال الزجاج ذلكم التغليظ فى الكفارة توعظون به اى ان غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ولاتعاودوه وقال غيره ذلكم توعظون به اى تؤمرون به من الكفارة والله بما تعملون خبير من التكفير وتركه ثم ذكر تعالى حكم العاجز عن الرقبة فقال (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل ان يتماسا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا) فدلت الآية على ان التتابع شرط وذكر فى تحرير الرقبة والصوم انه لابد وان يوجدا من قبل ان يتماسا ثم ذكر تعالى ان من لم يستطع ذلك فاطعام ستين مسكينا ولم يذكر انه لابد من وقوعه قبل المماسة الاانه كالاولين بدلالة الاجماع والمسائل الفقهية المفرعة على هذه الآية كثيرة مذكورة فى كتب الفقه ❊ ثم قال تعالى (ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب اليم) وفى قوله ذلك وجهان (الاول) قال الزجاج انه فى محل الرفع والمعنى الفرض ذلك الذى وصفناه (الثانى) فعلنا ذلك البيان والتعليم للاحكام لتصدقوا بالله ورسوله فى العمل بشرائعه ولاتستمروا على احكام الجاهلية من جعل الظهار اقوى انواع الطلاق وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) استدلت المعتزلة باللام فى قوله لتؤمنوا على ان فعل الله معلل بالغرض وعلى ان غرضه ان تؤمنوا بالله ولاتستمروا على ماكانوا عليه فى الجاهلية من الكفر وهذا يدل على انه تعالى أراد منهم الايمان وعدم الكفر (المسئلة الثانية) استدل من ادخل العمل فى مسمى الايمان بهذه الآية فقال امرهم بهذه الاعمال وبين انه انما امرهم بها ليصيروا بعملها مؤمنين فدلت هذه الآية على ان العمل من الايمان ومن انكر ذلك قال انه تعالى لم يقل ذلك لتؤمنوا بالله بعمل هذه الاشياء ونحن نقول المعنى ذلك لتؤمنوا بالله بالاقرار بهذه الاحكام ثم انه تعالى اكد فى بيان انه لابد لهم من الطاعة فقال وتلك حدود الله وللكافرين عذاب اليم اى لمن جحد هذا وكذب به ❊ قوله تعالى (ان الذين

(ذلكم) اشارة الى الحكم المذكور وهو مبتدأ خبره (توعظون به) اى تزجرون به عن ارتكاب المنكر المذكور فان الغرامات مزاجر عن تعاطى الجنايات والمراد بذكره بيان ان المقصود من شرح هذا الحكم ليس تعريضكم للثواب بما شرتكم لتحرير الرقبة الذى هو علم فى استتباع الثواب العظيم بل هو ردعكم وزجركم عن مباشرة ما يوجبه (والله بما تعملون) من الاعمال التى من جملتها التكفير وما يوجبه من جناية الظهار (خبير) اى عالم بظواهرها وبواطنها ومجازيكم بها فحافظوا على حدود ماشرع لكم ولاتخلوا بشئ منها (فمن لم يجد) اى الرقبة (فصيام شهرين) اى فعليه صيام شهرين (متتابعين من قبل ان يتماسا) ليلا اونهارا عمدا اوخطأ (فمن لم يستطع) اى الصيام لسبب من الاسباب (فاطعام ستين مسكينا) لكل مسكين نصف صاع من بر او صاع من غيره ويجب تقديمه على المسيس لكن لايستأنف ان مس فى خلال الاطعام (ذلك) اشارة الى مامر من البيان والتعليم للاحكام والتنبيه عليها ومافيه من معنى البعد قد مر سره مرارا ومحله اما الرفع على الابتداء او النصب بمضمر معلل بما بعده اى ذلك واقع اوفعلنا ذلك (لتؤمنوا بالله ورسوله) وتعملوا بشرائعه التى شرعها لكم وترفضوا ما كنتم عليه فى جاهليتكم (وتلك) اشارة الى الاحكام المذكورة ومافيه من معنى البعد لتعظيمها كما مر غير مرة (حدود الله) التى لايجوز تعديها (وللكافرين) اى الذين لايعملون بها

يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد انزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى المحادة قولان قال المبرد اصل المحادة الممانعة ومنه يقال للبواب حداد وللممنوع الرزق محدود قال ابو مسلم الاصفهانى المحادة مفاعلة من لفظ الحديد والمراد المقابلة بالحديد سواء كان ذلك فى الحقيقة او كان ذلك منازعة شديدة شبيهة بالخصومة بالحديد اما المفسرون فقالوا يحادون اى يعادون ويشاقون وذلك تارة بالمحاربة مع اولياء الله وتارة بالتكذيب والصدعن دين الله (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله يحادون يمكن ان يكون راجعا الى المنافقين فانهم كانوا يوادون الكافرين ويظاهرون على الرسول عليه السلام فأذلهم الله تعالى ويحتمل سائر الكفار فاعلم الله رسوله انهم كبتوا اى خذلوا قال المبرد يقال كبت الله فلانا اذا أذله والمردود بالذل يقال له مكبوت ثم قال كما كبت الذين من قبلهم من اعداء الرسل وقد انزلنا آيات بينات تدل على صدق الرسول وللكافرين بهذه الآيات عذاب مهين يذهب بعزهم وكبرهم فبين سبحانه ان عذاب هؤلاء المحادين فى الدنيا الذل والهوان وفى الآخرة العذاب الشديد ثم ذكر تعالى مابه يتكامل هذا الوعيد ※ فقال (يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا احصاه الله ونسوه والله على كل شئ شهيد) يوم منصوب بينبئهم او بمهين او باضمار اذكر تعظيما لليوم وفى قوله جميعا قولان (احدهما) كلهم لا يترك منهم احد غير مبعوث (والثانى) مجتمعين فى حال واحدة ثم قال فينبئهم بما عملوا تخجيلا لهم وتوبيخا وتشهيرا لحالهم الذى يتمنون عنده المسارعة بهم الى النار لما يلحقهم من الخزى على رؤس الاشهاد وقوله احصاه الله اى احاط بجميع احوال تلك الاعمال من الكمية والكيفية والزمان والمكان لانه تعالى عالم بالجزئيات ثم قال ونسوه لانهم استحقروها وتهاونوا بها فلاجرم نسوها والله على كل شئ شهيد اى مشاهد لا يخفى عليه شئ البتة ※ ثم انه تعالى اكد بيان كونه عالما بكل المعلومات فقال (الم تر ان الله يعلم مافى السموات ومافى الارض) قال ابن عباس الم تر اى الم تعلم واقول هذا حق لان كونه تعالى عالما بالاشياء لا يرى ولكنه معلوم بواسطة الدلائل وانما اطلق لفظ الرؤية على هذا العلم لان الدليل على كونه عالما هوان افعاله محكمة متقنة متسقة منتظمة وكل من كانت افعاله كذلك فهو عالم (اما المقدمة الاولى) فمحسوسة مشاهدة فى عجائب السموات والارض وتركيبات النبات والحيوان (واما المقدمة الثانية) فبديهية ولما كان الدليل الدال على كونه تعالى كذلك ظاهرا لاجرم بلغ هذا العلم والاستدلال الى اعلى درجات الظهور والجلاء وصار جاريا مجرى المحسوس المشاهد فلذلك اطلق عليه لفظ الرؤية فقال الم تر واما انه تعالى عالم بجميع المعلومات فلأن علمه علم قديم فلو تعلق بالبعض دون البعض مع ان جميع المعلومات مشتركة فى صحة المعلومية لافتقر ذلك العلم فى ذلك التخصيص الى مخصص وهو على الله تعالى محال فلاجرم وجب كونه تعالى عالما بجميع المعلومات واعلم انه سبحانه

(قال)

(عذاب اليم) عبر عنه بذلك للتغليظ على طريقة قوله تعالى ومن كفر فان الله غنى عن العالمين (ان الذين يحادون الله ورسوله) اى يعادونهما ويشاقونهما فان كلا من المتعادين كانه يكون فى عدوة وشق غير عدوة الآخر وشقه كذلك يكون فى حد غير حد الآخر غيران لورود المحادة فى اثناء ذكر حدود الله دون المعاداة والمشاقة من حسن الموقع مالا غاية وراءه (كبتوا) اى اخروا وقيل خذلوا وقيل اذلوا وقيل اهلكوا وقيل لعنوا وقيل غيظوا وهو ما وقع يوم الخندق قالوا معنى كبتوا ستكبتون على طريقة قوله تعالى أتى امر الله وقيل اصل الكبت الكب (كما كبت الذين من قبلهم) من كفار الامم الماضية المعادين للرسل عليهم الصلاة والسلام (وقد أنزلنا آيات بينات) حال من واو كبتوا اى كبتوا لمحادتهم والحال قد انزلنا آيات واضحات فيمن حاد الله ورسوله ممن قبلهم من الامم وفيما فعلنا بهم وقيل آيات تدل على صدق الرسول وصحة ماجاء به (وللكافرين) اى بتلك الآيات او بكل ما يجب الايمان به فيدخل فيه تلك الآيات دخولا اوليا (عذاب مهين) يذهب بعزهم وكبرهم (يوم يبعثهم الله) منصوب بما تعلق به اللام من الاستقرار او بمهين او باضمار اذكر تعظيما لليوم وتهويلا له (جميعا) اى كلهم

قال يعلم مافى السموات و مافى الارض ولم يقل يعلم مافى الارض ومافى السموات وفى رعاية هذا الترتيب سر عجيب ثم انه تعالى خص مايكون من العباد من النجوى ❊ فقال (مايكون من نجوى ثلاثة الاهو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شئ عليم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن جنى قرأ ابو حيوة ماتكون من نجوى ثلاثة بالتاء ثم قال والتذكير الذى عليه العامة هو الوجه لما هناك من الشياع وعموم الجنسية كقولك ماجاءنى من امرأة وماحضرنى من جارية ولانه وقع الفاصل بين الفاعل والمفعول وهو كلمة من ولان النجوى تأنيثه ليس تأنيثا حقيقيا واما التأنيث فلان تقدير الآية ماتكون نجوى كما يقال ماقامت امرأة وماحضرت جارية (المسئلة الثانية) قوله مايكون من كان التامة اى مايوجد ولا يحصل من نجوى ثلاثة (المسئلة الثالثة) النجوى التناجى وهو مصدر ومنه قوله تعالى لاخير فى كثير من نجواهم وقال الزجاج النجوى مشتق من النجوة وهى ما ارتفع ونجا فالكلام المذكور سرا ماخلى عن استماع الغير صار كالارض المرتفعة فانها لارتفاعها خلت عن اتصال الغير ويجوز ايضا ان تجعل النجوى وصفا فيقال قوم نجوى ومنه قوله تعالى واذهم نجوى والمعنى هم ذوو نجوى فحذف المضاف وكذلك كل مصدر وصف به (المسئلة الرابعة) جر ثلاثة فى قوله من نجوى ثلاثة يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون مجرورا بالاضافة (والثانى) أن يكون النجوى بمعنى المتناجين ويكون التقدير مايكون من متناجين ثلاثة فيكون صفة (المسئلة الخامسة) قرأ ابن ابى عبلة ثلاثة وخمسة بالنصب على الحال باضمار يتناجون لان نجوى يدل عليه (المسئلة السادسة) انه تعالى ذكر الثلاثة والخمسة واهمل امر الاربعة فى البين وذكروا فيه وجوها (احدها) ان هذا اشارة الى كمال الرحمة وذلك لان الثلاثة اذا اجتمعوا فاذا أخذ اثنان فى التناجى والمشاورة بقى الواحد ضائعا وحيدا فيضيق قلبه فيقول تعالى انا جليسك وأنيسك وكذا الخمسة اذا اجتمعوا بقى الخامس وحيدا فريدا اما اذا كانوا اربعة لم يبق واحد منهم فريدا فهذا اشارة الى ان كل من انقطع عن الخلق مايتركه الله تعالى ضائعا (وثانيها) ان العدد الفرد اشرف من الزوج لان الله وتر يحب الوتر فخص الاعداد الفرد بالذكر تنبيها على انه لابد من رعاية الامور الالهية فى جميع الامور (وثالثها) ان اقل ما لابد منه فى المشاورة التى يكون الغرض منها تمهيد مصلحة ثلاثة حتى يكون الاثنان كالمتنازعين فى النفى والاثبات والثالث كالمتوسط الحاكم بينهما فحينئذ تكمل تلك المشورة ويتم ذلك الغرض وهكذا فى كل جمع اجتمعوا للمشاورة فلابد فيهم من واحد يكون حكما مقبول القول فلهذا السبب لابد وان تكون ارباب المشاورة عددهم فردا فذكر سبحانه الفردين الاولين واكتفى بذكرهما تنبيها على الباقى (ورابعها) ان الآية نزلت فى قوم من المنافقين اجتمعوا على التناجى مغايظة للمؤمنين وكانوا على هذين العددين قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى ربيعة وحبيب

بحيث لايبقى منهم احد غير مبعوث ومجتمعين فى حالة واحدة (فينبئهم بما عملوا) من القبائح ببيان صدورها عنهم او بتصويرها فى تلك النشأة بما يليق بها من الصور الهائلة على رؤس الاشهاد تخجيلا لهم وتشهيرا بحالهم وتشديدا لعذابهم وقوله تعالى (احصاه الله) استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله من السؤال اما عن كيفية التنبئة او عن سببها كأنه قيل كيف ينبئهم بأعمالهم وهى اعراض منقضية متلاشية فقيل احصاه الله عددا لم يفته منه شئ فقوله تعالى (ونسوه) حينئذ حال من مفعول احصى باضمار قد اوبدونه على الخلاف المشهور او قيل لم ينبئهم بذلك فقيل احصاه الله ونسوه فينبئهم به ليعرفوا ان ماعاينوه من العذاب انما حاق بهم لاجله وفيه مزيد توبيخ وتنديم لهم غير التخجيل والتشهير (والله على كل شئ شهيد) لايغيب عنه امر من الامور قط والجملة اعتراض تذييلى مقرر لاحصائه تعالى وقوله تعالى (الم تر ان الله يعلم مافى السموات ومافى الارض) استشهاد على شمول شهادته تعالى كما فى قوله تعالى الم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه وفى قوله تعالى الم تر انهم فى كل واد يهيمون اى الم تعلم علما يقينيا متاخما للمشاهدة انه تعالى يعلم مافيهما من الموجودات سواء كان ذلك بالاستقرار فيهما او بالجزئية منهما وقوله تعالى (مايكون من نجوى ثلاثة) الخ استئناف مقرر لماقبله من سعة علمه تعالى ومبين لكيفيته ويكون من كان التامة وقرئ تكون بالتاء اعتبار التأنيث النجوى وان كان

ابن عمرو وصفوان بن امية كانوا يوما يتحدثون فقال احدهم هل يعلم الله مانقول وقال الثاني يعلم البعض دون البعض وقال الثالث ان كان يعلم البعض فيعلم الكل (وخامسها) ان في مصحف عبدالله مايكون من نجوى ثلاثة الا الله رابعهم ولا اربعة الا الله خامسهم ولا خمسة الا الله سادسهم ولا اقل من ذلك ولا اكثر الا الله معهم اذا أخذوا في التناجي (المسئلة السابعة) قرئ ولا ادنى من ذلك ولا اكثر بالنصب على ان لا لنفي الجنس ويجوز ان يكون ولا اكثر بالرفع معطوفا على محل لا مع ادنى كقولك لا حول ولا قوة الا بالله بفتح الحول ورفع القوة (والثالث) يجوز ان يكونا مرفوعين على الابتداء كقولك لا حول ولا قوة الا بالله (والرابع) ان يكون ارتفاعهما عطفا على محل من نجوى كأنه قيل مايكون ادنى ولا اكثر الا هو معهم (والخامس) يجوز ان يكونا مجرورين عطفا على نجوى كأنه قيل مايكون من ادنى ولا اكثر الا هو معهم (المسئلة الثامنة) قرئ ولا اكبر بالباء المنقطة من تحت (المسئلة التاسعة) المراد من كونه تعالى رابعالهم والمراد من كونه تعالى معهم كونه تعالى عالما بكلامهم وضميرهم وسرهم وعلنهم وكأنه تعالى حاضر معهم ومشاهد لهم وقد تعالى عن المكان والمشاهدة (المسئلة العاشرة) قرأ بعضهم ثم ينبئهم بسكون النون وانبأ ونبأ واحد في المعنى وقوله ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة اي يحاسب على ذلك ويجازي على قدر الاستحقاق ثم قال ان الله بكل شئ عليم وهو تحذير من المعاصي وترغيب في الطاعات ❊ ثم انه تعالى بين حال اولئك الذين نهوا عن النجوى فقال (ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه) واختلفوا في انهم من هم فقال الاكثرون هم اليهود ومنهم من قال هم المنافقون ومنهم من قال فريق من الكفار والاول اقرب لانه تعالى حكى عنهم فقال واذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله وهذا الجنس فيما روي وقع من اليهود فقد كانوا اذا سلموا على الرسول عليه السلام قالوا السام عليك يعنون الموت والاخبار في ذلك متظاهرة وقصة عائشة فيها مشهورة ❊ ثم قال تعالى (ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول واذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال المفسرون انه صح ان اولئك الاقوام كانوا يتناجون فيما بينهم ويوهمون المؤمنين انهم يتناجون فيما يسوءهم فيحزنون لذلك فلما اكثروا ذلك شكى المسلمون ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم ان لا يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا الى مناجاتهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وقوله ويتناجون بالاثم والعدوان يحتمل وجهين (احدهما) ان الاثم والعدوان هو مخالفتهم للرسول في النهي عن النجوى لان الاقدام على المنهي يوجب الاثم والعدوان لاسيما اذا كان ذلك الاقدام لاجل المناصبة واظهار التمرد (والثاني) ان الاثم والعدوان هو ذلك السر الذي كان يجري بينهم لانه اما مكر وكيد بالمسلمين او شئ يسوءهم (المسئلة الثانية) قرأ حمزة وحده وينتجون بغير ألف والباقون يتناجون قال ابوعلي ينتجون يفتعلون من

(النجوى)

غير حقيقي اي مايقع من تناجي ثلاثة نفر اي من مسارتهم على ان نجوى مضافة الى ثلاثة او على انها موصوفة بها اما بتقدير مضاف اي من اهل نجوى ثلاثة او بجعلهم نجوى في انفسهم مبالغة (الا هو) اي الله عز وجل (رابعهم) اي جاعلهم اربعة من حيث انه تعالى يشاركهم في الاطلاع عليها وهو استثناء مفرغ من اعم الاحوال (ولا خمسة) ولا نجوى خمسة (الا هو سادسهم) وتخصيص العددين بالذكر اما لخصوص الواقعة فان الآية نزلت في تناجي المنافقين واما لبناء الكلام على اغلب عادات المتناجين وقد عمم الحكم بعد ذلك فقيل (ولا ادنى من ذلك) اي مما ذكر كالواحد والاثنين (ولا اكثر) كالستة ومافوقها (الا هو معهم) يعلم مايجري بينهم وقرئ ولا اكثر بالرفع عطفا على محل من نجوى او محل ولا ادنى بأن جعل لا لنفي الجنس (اينما كانوا) من الاماكن ولو كانوا تحت الارض فان علمه تعالى بالاشياء ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الامكنة قربا وبعدا (ثم ينبئهم) وقرئ ينبئهم بالتخفيف (بما عملوا يوم القيامة) تفضيحا لهم واظهارا لما يوجب عذابهم (ان الله بكل شئ عليم) لان نسبة ذاته المقتضية للعلم الى الكل سواء (ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه) نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون باعينهم اذا رأوا المؤمنين فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عادوا لمثل فعلهم والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والهمزة للتعجيب من حالهم

النجوى والنجوى مصدر كالدعوى والعدوى فينتجون و يتناجون واحد فان يفتعلون و يتفاعلون قد يجريان مجرى واحد كما يقال ازدوجوا واعتوروا وتزاوجوا وتعاوروا وقوله تعالى حتى اذا اداركوا فيها وادركوا فادركوا افتعلوا واداركوا اتفاعلوا وحجة من قرأ يتناجون قوله اذا ناجيتم الرسول وتناجوا بالبر والتقوى فهذ مطاوع ناجيتم وليس فى هذا رد لقراءة حمزة ينتجون لان هذا مثله فى الجواز وقوله تعالى ومعصيت الرسول قال صاحب الكشاف قرئ ومعصيات الرسول والقول لان ههنا كما ذكرناه فى الاثم والعدوان وقوله واذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله يعنى انهم يقولون فى تحيتك السام عليك يا محمد والسام الموت والله تعالى يقول وسلام على عباده الذين اصطفى ويا أيها الرسول ويا أيها النبى ثم ذكر تعالى انهم يقولون فى انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول يعنى انهم يقولون فى انفسهم انه لوكان رسولا فلم لا يعذبنا الله بهذا الاستخفاف ❊ ثم قال تعالى (حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) والمعنى ان تقدم العذاب انما يكون بحسب المشيئة او بحسب المصلحة فاذا لم تقتض المشيئة تقديم العذاب ولم يقتض الصلاح ايضا ذلك فالعذاب فى القيامة كافيهم فى الردع عما هم عليه ❊ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا تناجيتم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول وتناجوا بالبر والتقوى) اعلم ان فى المخاطبين بقوله يا أيها الذين آمنوا قولين وذلك لانا ان حملنا قوله فيما تقدم الم تر الى الذين نهوا عن النجوى على اليهود حملنا فى هذه الآية قوله يا أيها الذين آمنوا على المنافقين اى يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم وان حملنا ذلك على جميع الكفار من اليهود والمنافقين حملنا هذا على المؤمنين وذلك لانه تعالى لما ذم اليهود والمنافقين على التناجى بالاثم والعدوان ومعصية الرسول اتبعه بأن نهى اصحابه المؤمنين ان يسلكوا مثل طريقتهم فقال لا تتناجوا بالاثم وهو ما يقبح مما يخصهم والعدوان وهو ما يؤدى الى ظلم الغير ومعصية الرسول وهو ما يكون خلافا عليه وامرهم ان يتناجوا بالبر الذى يضاد العدوان وبالتقوى وهو ما يتقى به من النار من فعل الطاعات وترك المعاصى واعلم ان القوم متى تناجوا بما هذه صفته قلت مناجاتهم لان ما يدعو الى مثل هذا الكلام يدعو الى اظهاره وذلك يقرب من قوله لا خير فى كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس وايضا فمتى عرفت طريقة الرجل فى هذه المناجاة لم يتأذ من مناجاته احد ❊ ثم قال تعالى (واتقوا الله الذى اليه تحشرون) اى الى حيث يحاسب ويجازى والا فالمكان لا يجوز على الله تعالى ❊ قوله تعالى (انما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا) الالف واللام فى لفظ النجوى لا يمكن ان يكون للاستغراق لان فى النجوى ما يكون من الله ولله بل المراد منه المعهود السابق وهو النجوى بالاثم والعدوان والمعنى ان الشيطان يحملهم على ان يقدموا على تلك النجوى التى هى سبب لحزن المؤمنين وذلك لان المؤمنين اذا رأوهم متناجين قالوا ما نراهم الا وقد بلغهم عن أقربائنا واخواننا الذين خرجوا الى الغزوات انهم قتلوا وهزموا او يقع

وصيغة المضارع للدلالة على تكرر عودهم وتجدده واستحضار صورته العجيبة وقوله تعالى (ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول) عطف عليه داخل فى حكمه اى بما هو اثم فى نفسه وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول عليه الصلاة والسلام وذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين اليه عليه الصلاة والسلام لزيادة تشنيعهم واستعظام معصيتهم وقرئ وينتجون بالاثم والعدوان بكسر العين ومعصيات الرسول (واذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله) فيقولون السام عليك او انعم صباحا والله سبحانه يقول وسلام على المرسلين (ويقولون فى انفسهم) اى فيما بينهم (لولا يعذبنا الله بما نقول) اى هلا يعذبنا الله بذلك لوكان محمد نبيا (حسبهم جهنم) عذابا (يصلونها) يدخلونها (فبئس المصير) اى جهنم (يا أيها الذين آمنوا اذا تناجيتم) فى انديتكم وفى خلواتكم (فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول) كما يفعله المنافقون وقرئ فلا تنتجوا وفلا تناجوا بحذف احدى التاءين (وتناجوا بالبر والتقوى) اى بما يتضمن خير المؤمنين والاتقاء عن معصية الرسول عليه الصلاة والسلام (واتقوا الله الذى اليه تحشرون) وحده لا الى غيره استقلالا او اشتراكا فيجازيكم بكل ما تأتون وتذرون (انما النجوى) المعهودة التى هى التناجى بالاثم والعدوان (من الشيطان) لا من غيره فانه المزين لها والحامل عليها وقوله تعالى (ليحزن الذين آمنوا) خبر آخر اى

ذلك فى قلوبهم ويحزنون له ❊ ثم قال تعالى (وليس بضارهم شيئا الا باذن الله) وفيه وجهان (احدهما) ليس يضر التناجى بالمؤمنين شيئا (والثانى) الشيطان ليس بضارهم شيئا الا باذن الله وقوله الا باذن الله فقيل بعلمه وقيل بخلقه وتقديره للامراض واحوال القلب من الحزن والفرح وقيل بأن يبين كيفية مناجاة الكفار حتى يزول الغم ❊ ثم قال تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فان من توكل عليه لايخيب أمله ولا يبطل سعيه ❊ قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجلس فافسحوا يفسح الله لكم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما نهى عباده المؤمنين عما يكون سببا للتباغض والتنافر امرهم الآن بما يصير سببا لزيادة المحبة والمودة وقوله تفسحوا فى المجلس توسعوا فيه وليفسح بعضكم عن بعض من قولهم افسح عنى اى تنح ولا تتضاموا يقال بلدة فسيحة ومفازة فسيحة ولك فيه فسحة اى سعة (المسئلة الثانية) قرأ الحسن وداود بن ابى هند تفاسحوا قال ابن جنى هذا الائق بالغرض لانه اذا قيل تفسحوا فمعناه ليكن هناك تفسح واما التفاسح فتفاعل والمراد ههنا المفاعلة فانها تكون لما فوق الواحد كالمقاسمة والمكايلة وقرئ فى المجالس قال الواحدى والوجه التوحيد لان المراد مجلس النبى صلى صلى الله عليه وسلم وهو واحد ووجه الجمع ان يجعل لكل جالس مجلس على حدة اى موضع جلوس (المسئلة الثالثة) ذكروا فى الآية أقوالا (الاول) أن المراد مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتضامون فيه تنافسا على القرب منه وحرصا على استماع كلامه وعلى هذا القول ذكروا فى سبب النزول وجوها (الاول) قال مقاتل بن حيان كان عليه السلام يوم الجمعة فى الصفة وفى المكان ضيق وكان يكرم اهل بدر من المهاجرين والانصار فجاء ناس من اهل بدر وقد سبقوا الى المجلس فقاموا حيال النبى صلى الله عليه وسلم ينتظرون ان يوسع لهم فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مايحملهم على القيام وشق ذلك على الرسول فقال لمن حوله من غير اهل بدر قم يافلان قم يافلان فلم يزل يقيم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه وشق ذلك على من اقيم من مجلسه وعرفت الكراهية فى وجوههم وطعن المنافقون فى ذلك وقالوا والله ماعدل على هؤلاء ان قوما اخذوا مجالسهم واحبوا القرب منه فاقامهم واجلس من ابطأ عنه فنزلت هذه الآية يوم الجمعة (الثانى) روى عن ابن عباس انه قال نزلت هذه الآية فى ثابت بن قيس بن الشماس وذلك انه دخل المسجد وقد اخذ القوم مجالسهم وكان يريد القرب من الرسول عليه السلام للوقر الذى كان فى اذنيه فوسعوا له حتى قرب ثم ضايقه بعضهم وجرى بينه وبينه كلام ووصف للرسول محبة القرب منه ليسمع كلامه وان فلانا لم يفسح له فنزلت هذه الآية وأمر القوم بأن يوسعوا ولا يقوم احد لاحد (الثالث) انهم كانوا يحبون القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الرجل منهم يكره ان يضيق عليه فربما سأله اخوه ان يفسح له فيأبى فأمرهم الله تعالى بأن يتعاطفوا ويتحملوا المكروه وكان فيهم من يكره ان يمسه الفقراء وكان اهل الصفة

(يلبسون)

ناهى ليحزن المؤمنين بتوهمهم انها فى نكبة اصابتهم (وليس بضارهم) اى الشيطان او التناجى بضار المؤمنين (شيئا) من الاشياء او شيئا من الضرر (الا باذن الله) اى بمشيئته (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ولايبالوا بنجواهم فانه تعالى يعصمهم من شره وضره (ياأيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا) اى توسعوا وليفسح بعضكم عن بعض ولا تتضاموا من قولهم افسح عنى اى تنح وقرئ تفاسحوا وقوله تعالى (فى المجالس) متعلق بقيل وقرئ فى المجلس على ان المراد به الجنس وقيل مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام كانوا يتضامون تنافسا فى القرب منه عليه الصلاة والسلام وحرصا على استماع كلامه وقيل هو المجلس من مجالس القتال وهى مراكز الغزاة كقوله تعالى مقاعد للقتال قيل كان الرجل يأتى الصف ويقول تفسحوا فيأبون لحرصهم على الشهادة وقرئ فى المجلس بفتح اللام فهو متعلق بتفسحوا قطعا اى توسعوا فى جلوسكم ولا تتضايقوا فيه (فافسحوا يفسح الله لكم) اى فى كل ماتريدون التفسح فيه من المكان والرزق والصدور والقبر وغيرها (واذا قيل انشزوا) اى انهضوا للتوسعة على المقبلين او لما امرتم به من صلاة او جهاد او غيرهما من اعمال الخير (فانشزوا) فانهضوا ولا تتثبطوا ولا تفرطوا وقرئ بكسر الشين (يرفع الله الذين آمنوا منكم) بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا والايواء الى غرف الجنان فى الآخرة (والذين اوتوا العلم) منهم خصوصا (درجات) عالية بما جمعوا من اثرتى

يلبسون الصوف ولهم روائح (القول الثاني) وهو اختيار الحسن ان المراد تفسحوا في مجالس القتال وهو كقوله مقاعد للقتال وكان الرجل يأتي الصف فيقول تفسحوا فيأبون لحرصهم على الشهادة (القول الثالث) ان المراد به جميع المجالس والمجامع قال القاضي والاقرب ان المراد منه مجلس الرسول عليه السلام لانه تعالى ذكر المجلس على وجه يقتضي كونه معهودا والمعهود في زمان نزول الآية ليس الا مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يعظم التنافس عليه ومعلوم ان للقرب منه مزية عظيمة لما فيه من سماع حديثه ولما فيه من المنزلة ولذلك قال عليه السلام ليليني منكم اولو الاحلام والنهى ولذلك كان يقدم الافاضل من اصحابه وكانوا لكثرتهم يتضايقون فامروا بالتفسح اذا امكن لان ذلك ادخل في التحبب وفي الاشتراك في سماع ما لابد منه في الدين واذا صح ذلك في مجلسه فحال الجهاد ينبغي ان يكون مثله بل ربما كانت اولى لان الشديد البأس قد يكون متأخرا عن الصف الاول والحاجة الى تقدمه ماسة فلابد من التفسح ثم يقاس على هذا سائر مجالس العلم والذكر اما قوله تعالى يفسح الله لكم فهو مطلق في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة واعلم ان هذه الآية دلت على ان كل من وسع على عباد الله ابواب الخير والراحة وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة ولا ينبغي للعاقل ان يقيد الآية بالتفسح في المجلس بل المراد منه ايصال الخير الى المسلم وادخال السرور في قلبه ولذلك قال عليه السلام لا يزال الله في عون العبد ما زال العبد في عون اخيه المسلم ❊ ثم قال تعالى (واذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس اذا قيل لكم ارتفعوا فارتفعوا واللفظ يحتمل وجوها (احدها) اذا قيل لكم قوموا للتوسعة على الداخل فقوموا (وثانيها) اذا قيل لكم قوموا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تطولوا في الكلام فقوموا ولا تركزوا معه كما قال ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي وهو قول الزجاج (وثالثها) اذا قيل لكم قوموا الى الصلاة والجهاد واعمال الخير وتأهبوا له فاشتغلوا به وتأهبوا له ولا تتثاقلوا فيه قال الضحاك وابن زيدان قوما تثاقلوا عن الصلاة فامروا بالقيام لها اذا نودي (المسئلة الثانية) قرئ انشزوا بكسر الشين وبضمها وهما لغتان مثل يعكفون ويعكفون ويعرشون ويعرشون واعلم انه تعالى لما نهاهم اولا عن بعض الاشياء ثم امرهم ثانيا ببعض الاشياء وعدهم على الطاعة فقال يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات اي يرفع الله المؤمنين بامتثال اوامره واوامر رسوله والعالمين منهم خاصة درجات ثم في المراد من هذه الرفعة قولان (الاول) وهو القول النادر ان المراد به الرفعة في مجلس الرسول عليه السلام (والثاني) وهو القول المشهور ان المراد منه الرفعة في درجات الثواب ومراتب الرضوان واعلم انا اطنبنا في تفسير قوله تعالى وعلم آدم الاسماء كلها في فضيلة العلم وقال القاضي لا شبهة ان علم العالم يقتضي لطاعته من المنزلة

العلم والعمل فان العلم مع علو رتبته يقتضي العمل المقرون به مزيد رفعة لا يدرك شأوه العمل العاري عنه وان كان في غاية الصلاح ولذلك يقتدى بالعالم في افعاله ولا يقتدى بغيره وفي الحديث فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب (والله بما تعملون خبير) تهديد لمن لم يمتثل بالامر وقرئ يعملون بالياء التحتانية (يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول) في بعض شؤنكم المهمة الداعية الى مناجاته عليه الصلاة والسلام (فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) اي فتصدقوا قبلها مستعار ممن له يدان وفي هذا الامر تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وانفاع الفقراء والزجر عن الافراط في السؤال والتمييز بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا واختلف في انه للندب او للوجوب لكنه نسخ بقوله تعالى أأشفقتم وهو وان كان متصلا به تلاوة لكنه متراخ عنه نزولا وعن علي رضي الله عنه ان في كتاب الله آية ما عمل بها احد غيري كان لي دينار فصرفته فكنت اذا ناجيته عليه الصلاة والسلام تصدقت بدرهم وهو على القول بالوجوب محمول على انه لم يتفق للاغنياء مناجاة في مدة بقائه اذ روي انه لم يبق الا عشرا وقيل الا ساعة (ذلك) اي التصدق (خير لكم واطهر) اي لانفسكم من الريبة وحب المال وهذا يشعر بالندب لكن قوله تعالى (فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم) منبئ عن الوجوب لانه ترخيص لمن لم يجد في المناجاة بلا تصدق (أأشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات) اي أخفتم

مالايحصل للمؤمن ولذلك فانه يقتدى بالعالم فى كل افعاله ولايقتدى بغير العالم لانه يعلم من كيفية الاحتراز عن الحرام والشبهات ومحاسبة النفس مالايعرفه الغير ويعلم من كيفية الخشوع والتذلل فى العبادة مالايعرفه غيره ويعلم من كيفية التوبة واوقاتها وصفاتها مالايعرفه غيره ويتحفظ فيما يلزمه من الحقوق مالايتحفظ منه غيره وفى الوجوه كثرة لكنه كما تعظم منزلة افعاله من الطاعات فى درجة الثواب فكذلك يعظم عقابه فيما يأتيه من الذنوب لمكان علمه حتى لايمتنع فى كثير من صغائر غيره ان يكون كبيرا منه ✻ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم واطهر فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم) فيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا التكليف يشتمل على انواع من الفوائد (اولها) اعظام الرسول عليه السلام واعظام مناجاته فان الانسان اذا وجد الشئ مع المشقة استعظمه وان وجده بالسهولة استحقره (وثانيها) نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة المتقدمة قبل المناجاة (وثالثها) قال ابن عباس ان المسلمين اكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه واراد الله ان يخفف عن نبيه فلما نزلت هذه الآية شح كثير من الناس فكفوا عن المسئلة (ورابعها) قال مقاتل بن حيان ان الاغنياء غلبوا الفقراء على مجلس النبى عليه السلام واكثروا من مناجاته حتى كره النبى صلى الله عليه وسلم طول جلوسهم فأمر الله بالصدقة عند المناجاة فأما الاغنياء فامتنعوا واما الفقراء فلم يجدوا شيأ واشتاقوا الى مجلس الرسول عليه السلام فتمنوا ان لو كانوا يملكون شيئا فينفقونه ويصلون الى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فعند هذا التكليف ازدادت درجة الفقراء عند الله وانحطت درجة الاغنياء (وخامسها) يحتمل ان يكون المراد منه التخفيف عليه لان ارباب الحاجات كانوا يلحون على الرسول ويشغلون اوقاته التى هى مقسومة على الابلاغ الى الامة وعلى العبادة ويحتمل انه كان فى ذلك مايشغل قلب بعض المؤمنين لظنه ان فلانا انما ناجى رسول الله صلى الله عليه وسلم لامر يقتضى شغل القلب فيما يرجع الى الدنيا (وسادسها) انه يتميز به محب الآخرة عن محب الدنيا فان المال محك الدواعى (المسئلة الثانية) ظاهر الآية يدل على ان تقديم الصدقة كان واجبا لان الامر للوجوب ويتأكد ذلك بقوله فى آخر الآية فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم فان ذلك لايقال الافيما بفقده يزول وجوبه ومنهم من قال ان ذلك ما كان واجبا بل كان مندوبا واحتج عليه بوجهين (الاول) انه تعالى قال ذلك خير لكم واطهر وهذا انما يستعمل فى التطوع لافى الفرض (والثانى) انه لو كان ذلك واجبا لما ازيل وجوبه بكلام متصل به وهو قوله أأشفقتم ان تقدموا الى آخر الآية (والجواب عن الاول) ان المندوب كما يوصف بانه خير واطهر فالواجب ايضا يوصف بذلك (والجواب عن الثانى) انه لايلزم من كون الآيتين متصلتين فى التلاوة كونهما متصلتين فى النزول وهذا كما قلنا فى الآية الدالة على وجوب

الفقر من تقديم الصدقات او اختتم التقديم لمايعدكم الشيطان عليه من الفقر وجمع صدقات لجمع المخاطبين (فاذ لم تفعلوا) ما امرتم به وشق عليكم ذلك (وتاب الله عليكم) بأن رخص لكم ان لاتفعلوه وفيه اشعار بأن اشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأى منهم من الانفعال ماقام مقام توبتهم واذ على بابها من المضى وقيل بمعنى اذا كما فى قوله تعالى اذ الاغلال فى اعناقهم وقيل بمعنى ان (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) اى فاذا فرطتم فيما امرتم به من تقديم الصدقات فتداركوه بالمثابرة على اقامة الصلاة وايتاء الزكاة (واطيعوا الله ورسوله) فى سائر الاوامر فان القيام بها كالجابر لما وقع فى ذلك من التفريط (والله خبير بما تعملون) ظاهرا وباطنا (الم تر) تعجيب من حال المنافقين الذين كانوا يتخذون اليهود اولياء ويناصحونهم وينقلون اليهم اسرار المؤمنين اى الم تنظر (الى الذين تولوا) اى والوا (قوما غضب الله عليهم) وهم اليهود كما انبأ عنه قوله تعالى من لعنه الله وغضب عليه (ماهم منكم ولامنهم) لانهم منافقون مذبذبون بين ذلك والجملة مستأنفة او حال من فاعل تولوا (ويحلفون على الكذب) اى يقولون والله انا لمسلمون وهو عطف على تولوا داخل فى حكم التعجيب وصيغة المضارع للدلالة على تكرر الحلف وتجدده حسب تكرر ما يقتضيه وقوله تعالى (وهم يعلمون) حال من فاعل يحلفون مفيدة لكمال شناعة مافعلوا فان الحلف على مايعلم انه كذب فى غاية القبح وفيه دلالة على

الأعتداد بأربعة اشهر وعشر انها ناسخة للاعتداد بحول وان كان الناسخ متقدما فى التلاوة على المنسوخ ثم اختلفوا فى مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ فقال الكلبى مابقى ذلك التكليف الاساعة من النهار ثم نسخ وقال مقاتل بن حيان بقى ذلك التكليف عشرة ايام ثم نسخ (المسئلة الثالثة) روى عن على عليه السلام انه قال ان فى كتاب الله لآية ماعمل بها احد قبلى ولايعمل بها احد بعدى كان لى دينار فاشتريت به عشرة دراهم فكلما انا جيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدى نجواى درهما ثم نسخت فلم يعمل بها احد وروى ابن جريج والكلبى وعطاء عن ابن عباس انهم نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناجه احد الاعلى عليه السلام تصدق بدينار ثم نزلت الرخصة قال القاضى والاكثر فى الروايات انه عليه السلام تفرد بالتصدق قبل مناجاته ثم ورد النسخ وان كان قد روى ايضا ان افاضل الصحابة وجدوا الوقت ومافعلوا ذلك وان ثبت انه اختص بذلك فلان الوقت لم يتسع لهذا الفرض والافلاشبهة ان اكابر الصحابة لايقعدون عن مثله واقول على تقدير ان افاضل الصحابة وجدوا الوقت ومافعلوا ذلك فهذ الايجر اليهم طعنا وذلك الاقدام على هذا العمل ممايضيق قلب الفقير فانه لايقدر على مثله فيضيق قلبه ويوحش قلب الغنى فانه لمالم يفعل الغنى ذلك وفعله غيره صار ذلك الفعل سببا للطعن فيمن لم يفعل فهذا الفعل لماكان سببا لحزن الفقراء ووحشة الاغنياء لم يكن فى تركه كبير مضرة لان الذى يكون سببا للالفة اولى ممايكون سببا للوحشة وايضا فهذه المناجاة ليست من الواجبات ولامن الطاعات المندوبة بل قد بينا انهم انما كلفوا بهذه الصدقة ليتركوا هذه المناجاة ولماكان الاولى بهذه المناجاة ان تكون متروكة لم يكن تركها سببا للطعن (المسئلة الرابعة) روى عن على بن ابى طالب عليه السلام انه قال لما نزلت هذه الآية دعانى رسول الله عليه وسلم فقال ماتقول فى دينار قلت لايطيقونه قال كم قلت حبة اوشعيرة قال انك لزهيد والمعنى انك قليل المال فقدرت على حسب حالك * اماقوله تعالى ذلك خير لكم واطهر اى ذلك التقديم خير لكم فى دينكم واطهر لان الصدقة طهرة * اماقوله تعالى فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم فالمراد منه الفقراء وهذا يدل على ان من لم يجد مايتصدق به كان معفوا عنه (المسئلة الخامسة) انكر ابومسلم وقوع النسخ وقال ان المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات وان قوما من المنافقين تركوا النفاق وآمنوا ظاهرا وباطنا ايمانا حقيقيا فأراد الله تعالى ان يميزهم عن المنافقين فأمر بتقديم الصدقة على النجوى ليتميز هؤلاء الذين آمنوا ايمانا حقيقيا عمن بقى على نفاقه الاصلى واذا كان هذا التكليف لاجل هذه المصلحة المقدرة بذلك الوقت لاجرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت وحاصل قول ابى مسلم ان ذلك التكليف كان مقدرا بغاية مخصوصة فوجب انتهاؤه عند الانتهاء الى الغاية المخصوصة فلايكون هذا نسخا وهذا الكلام حسن مابه بأس والمشهور عند الجمهور انه منسوخ بقوله أأشفقتم ومنهم من

ان الكذب يعم مايعلم المخبر عدم مطابقته للواقع ومالايعلمه روى انه عليه الصلاة والسلام كان فى حجرة من حجراته فقال يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان فدخل عبدالله بن نبتل المنافق وكان ازرق فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم علام تشتمنى انت واصحابك فحلف بالله مافعل فقال عليه الصلاة والسلام فعلت فانطلق فجاء باصحابه فحلفوا بالله ماسبوه فنزلت (اعدالله لهم) بسبب ذلك (عذابا شديدا) نوعا من العذاب متفاقما (انهم ساء ماكانوا يعملون) فيما مضى من الزمان المتطاول فتمرنوا على سوء العمل وضروا به واصروا عليه (اتخذوا ايمانهم) الفاجرة التى يحلفون بها عند الحاجة وقرئ بكسر الهمزة اى ايمانهم الذى اظهروه لاهل الاسلام (جنة) وقاية وسترة دون دمائهم واموالهم فالاتخاذ على هذه القراءة عبارة عن التستر بما ظهروه بالفعل واما على القراءة الاولى فهو عبارة عن اعدادهم لايمانهم الكاذبة وتهيئتهم لها الى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة لاعن استعمالها بالفعل فان ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية والخيانة واتخاذ الجنة لابد ان يكون قبل المؤاخذة وعن سببها ايضا كمايعرب عنه الفاء فى قوله تعالى (فصدوا) اى الناس (عن سبيل الله) فى خلال امنهم بتثبيط من لقوا عن الدخول فى الاسلام وتضعيف امر المسلمين عندهم (فلهم عذاب مهين) وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم وقيل الاول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة

قال انه منسوخ بوجوب الزكاة ﷺ قوله تعالى (أأشفقتم ان تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فاذلم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون) والمعنى اخفتم تقديم الصدقات لما فيه من انفاق المال فاذلم تفعلوا ما أمرتم به وتاب الله عليكم ورخص لكم فى ان لاتفعلوه فلا تفرطوا فى الصلاة والزكاة وسائر الطاعات (فان قيل) ظاهر الآية يدل على تقصير المؤمنين فى ذلك التكليف وبيانه من وجوه (اولها) قوله أأشفقتم ان تقدموا وهو يدل على تقصيرهم (وثانيها) قوله فاذلم تفعلوا (وثالثها) قوله وتاب الله عليكم (قلنا) ليس الامر كما قلتم وذلك لان القوم لما كلفوا بأن يقدموا الصدقة ويشتغلوا بالمناجاة فلابد من تقديم الصدقة فمن ترك المناجاة لايكون مقصرا واما لو قيل بأنهم ناجوا من غير تقديم الصدقة فهذا ايضا غير جائز لان المناجاة لاتمكن الا اذا مكن الرسول من المناجاة فاذا لم يمكنهم من ذلك لم يقدروا على المناجاة فعلمنا ان الآية لاتدل على صدور التقصير منهم فأما قوله أأشفقتم فلا يمتنع انه تعالى علم ضيق صدر كثير منهم عن اعطاء الصدقة فى المستقبل لو دام الوجوب فقال هذا القول واما قوله تعالى وتاب الله عليكم فليس فى الآية انه تاب عليكم من هذا التقصير بل يحتمل انكم اذا كنتم تائبين راجعين الى الله واقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة فقد كفاكم هذا التكليف اما قوله تعالى والله خبير بما تعملون يعنى محيط بأعمالكم ونياتكم ﷺ قوله تعالى (ألم تر الى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ماهم منكم ولامنهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم فى قوله من لعنه الله وغضب عليه وينقلون اليهم اسرار المؤمنين ماهم منكم ايها المسلمون ولا من اليهود ويحلفون على الكذب والمراد من هذا الكذب اما ادعاؤهم كونهم مسلمين واما انهم كانوا يشتمون الله ورسوله ويكيدون المسلمين فاذا قيل لهم انكم فعلتم ذلك خافوا على انفسهم من القتل فيحلفون انا ماقلنا ذلك وما فعلناه فهذا هو الكذب الذى يحلفون عليه * واعلم ان هذه الآية تدل على فساد قول الجاحظ ان الخبر الذى يكون مخالفا للمخبر عنه انما يكون كذبا لو علم المخبر كون الخبر مخالفا للمخبر عنه وذلك لانه لو كان الامر على ماذهب اليه لكان قوله وهم يعلمون تكرارا غير مفيد يروى ان عبدالله بن نبتل المنافق كان يجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه الى اليهود فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجرته اذ قال يدخل عليكم رجل ينظر بعين شيطان او بعينى شيطان فدخل رجل عيناه زرقاوان فقال له لم تسبنى فجعل يحلف فنزل قوله ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﷺ قوله تعالى (اعد الله لهم عذابا شديدا انهم ساء ماكانوا يعملون) والمراد منه عند بعض المحققين عذاب القبر ﷺ ثم قال تعالى (اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ الحسن اتخذوا ايمانهم بكسر الهمزة قال ابن جنى هذا على حذف المضاف اى اتخذوا اظهار ايمانهم

(جنة)

(لن تغنى عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله) اى من عذابه تعالى (شيئا) من الاغناء روى ان رجلا منهم قال لننصرن يوم القيامة بأنفسنا واموالنا واولادنا (اولئك) الموصوفون بما ذكر من الصفات القبيحة (اصحاب النار) اى ملازموها ومقارنوها (هم فيها خالدون) لايخرجون منها ابدا (يوم يبعثهم الله جميعا) قيل هو ظرف لقوله تعالى لهم عذاب مهين (فيحلفون له) اى لله تعالى يومئذ على انهم مسلمون (كما يحلفون لكم) فى الدنيا (ويحسبون) فى الآخرة (انهم) بتلك الايمان الفاجرة (على شئ) من جلب منفعة اودفع مضرة كما كانوا عليه فى الدنيا حيث كانوا يدفعون بها عن ارواحهم واموالهم ويستجرون بها فوائد دنيوية (الا انهم هم الكاذبون) البالغون فى الكذب الى غاية لامطمع وراءها حيث تجاسروا على الكذب بين يدى علام الغيوب وزعموا ان ايمانهم الفاجرة تروج الكذب لديه كما تروجه عند الغافلين (استحوذ عليهم الشيطان) اى استولى عليهم من حذت الابل اذا استوليت عليها وجمعتها وهو مما جاء على الاصل كاستصوب واستنوق اى ملكهم (فأنساهم ذكر الله) بحيث لم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم (اولئك) الموصوفون بما ذكر من القبائح (حزب الشيطان) اى جنوده واتباعه (الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون) اى الموصوفون بالخسران الذى لاغاية وراءه حيث فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم واخذوا بدله العذاب الاليم وفى تصدير الجملة بحرفى التنبيه والتحقيق

جنة عن ظهور نفاقهم وكيدهم للمسلمين أو جنة عن ان يقتلهم المسلمون فلما أمنوا من القتل اشتغلوا بصد الناس عن الدخول في الاسلام بالقاء الشبهات في القلوب وتقبيح حال الاسلام فلهم عذاب مهين أى عذاب الآخرة وانما حملنا قوله أعد الله لهم عذابا شديدا على عذاب القبر وقوله ههنا فلهم عذاب مهين على عذاب الآخرة لئلا يلزم التكرار ومن الناس من قال المراد من الكل عذاب الآخرة وهو كقوله الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب ※ قوله تعالى (لن تغنى عنهم أموالهم ولا اولادهم من الله شيئا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) روى ان واحدا منهم قال لننصرن يوم القيامة بأنفسنا واولادنا فنزلت هذه الآية ※ قوله تعالى (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون انهم على شئ الا انهم هم الكاذبون) قال ابن عباس ان المنافق يحلف لله يوم القيامة كذبا كما يحلف لاوليائه في الدنيا كذبا (اما الاول) فكقوله والله ربنا ما كنا مشركين (واما الثانى) فهو كقوله ويحلفون بالله انهم لمنكم والمعنى انهم لشدة توغلهم في النفاق ظنوا يوم القيامة انه يمكنهم ترويج كذبهم بالايمان الكاذبة على علام الغيوب فكان هذا الحلف الذميم يبقى معهم ابدا واليه الاشارة بقوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه قال الجبائى والقاضى ان اهل الآخرة لا يكذبون فالمراد من الآية انهم يحلفون في الآخرة انا ما كنا كافرين عند انفسنا وعلى هذا الوجه لا يكون هذا الحلف كذبا وقوله الا انهم هم الكاذبون اى في الدنيا واعلم ان تفسير الآية بهذا الوجه لا شك انه يقتضى ركاكة عظيمة في النظم وقد استقصينا في هذه المسئلة في سورة الانعام في تفسير قوله والله ربنا ما كنا مشركين ※ قوله تعالى (استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله اولئك حزب الشيطان الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون) قال الزجاج استحوذ في اللغة استولى يقال حاوذت الابل وحذتها اذا استوليت عليها وجمعتها قال المبرد استحوذ على الشئ حواه واحاط به وقالت عائشة في حق عمر كان احوذيا اى سائسا ضابطا للامور وهو احد ما جاء على الاصل نحو استصوب واستنوق اى ملكهم الشيطان واستولى عليهم ثم قال فانساهم ذكر الله اولئك حزب الشيطان الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون واحتج القاضى به في خلق الاعمال من وجهين (الاول) ذلك النسيان لو حصل بخلق الله لكانت اضافتها الى الشيطان كذبا (والثانى) لو حصل ذلك بخلق الله لكانوا كالمؤمنين في كونهم حزب الله لا حزب الشيطان ※ ثم قال تعالى (ان الذين يحادون الله ورسوله اولئك في الاذلين كتب الله لاغلبن انا ورسلى ان الله قوى عزيز) اى في جملة من هو اذل خلق الله لان ذل احد الخصمين على حسب عز الخصم الثانى فلما كانت عزة الله غير متناهية كانت ذلة من ينازعه غير متناهية ايضا ولما شرح ذلهم بين عز المؤمنين فقال كتب الله لاغلبن انا ورسلى وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن عامر انا ورسلى بفتح الياء والباقون لا يحركون قال ابو على

والاظهار المنافقين معا في موقع الاضمار باحد الوجهين وتوسيط ضمير الفصل من فنون التأكيد ما لا يخفى (ان الذين يحادون الله ورسوله) استئناف مسوق لتعليل ما قبله من خسران حزب الشيطان عبر عنهم بالموصول للتنبيه بما في حيز الصلة على ان موادة من حاد الله ورسوله محادة لهما والاشعار بعلية الحكم (اولئك) بما فعلوا من التولى والموادة (في الاذلين) اى في جملة من هو اذل خلق الله من الاولين والآخرين لان ذلة احد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر وحيث كانت عزة الله عز وجل غير متناهية كانت ذلة من يحاده كذلك (كتب الله) استئناف وارد لتعليل كونهم في الاذلين اى قضى واثبت في اللوح وحيث جرى ذلك مجرى القسم اجيب بما يجاب به فقيل (لاغلبن أنا ورسلى) اى بالحجة والسيف وما يجرى مجراه او بأحدهما ونظيره قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقرئ ورسلى بفتح الياء (ان الله قوى) على نصر انبيائه (عزيز) لا يغلب عليه في مراده (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر) الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام اولكل احد وتجد اما متعد الى اثنين فقوله تعالى (يوادون من حاد الله ورسوله) مفعوله الثانى او الى واحد فهو حال من مفعوله لتخصصه بالصفة وقيل صفة اخرى له اى قوما جامعين بين الايمان بالله واليوم الآخر وبين موادة اعداء الله ورسوله والمراد بنفى الوجدان نفى الموادة على معنى انه

التحريك والاسكان جميعا جائزان (المسئلة الثانية) غلبة جميع الرسل بالحجة حاصلة الاان منهم من ضم الى الغلبة بالحجة الغلبة بالسيف ومنهم من لم يكن كذلك ثم قال ان الله قوى على نصرة انبيائه عزيز غالب لا يدفعه احد عن مراده لان كل ماسواه ممكن الوجود لذاته والواجب لذاته يكون غالبا للممكن لذاته قال مقاتل ان المسلمين قالوا انا لنرجو ان يظهرنا الله على فارس والروم فقال عبدالله بن ابى أتظنون ان فارس والروم كبعض القرى التى غلبتموهم كلا والله انهم اكثر جمعا وعدة فأنزل الله هذه الآية * قوله تعالى (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون) المعنى انه لا يجتمع الايمان مع وداد أعداء الله وذلك لان من احب احدا امتنع ان يحب مع ذلك عدوه وهذا على وجهين (احدهما) انهما لا يجتمعان فى القلب فاذا حصل فى القلب وداد اعداء الله لم يحصل فيه الايمان فيكون صاحبه منافقا (والثانى) انهما يجتمعان ولكنه معصية وكبيرة وعلى هذا الوجه لا يكون صاحب هذا الوداد كافرا بسبب هذا الوداد بل كان عاصيا فى الله فان قيل أجمعت الامة على انه تجوز مخالطتهم ومعاملتهم ومعاشرتهم فاهذه المودة المحرمة المحظورة قلنا المودة المحظورة هى ارادة منافعه دينا ودنيا مع كونه كافرا فاما ماسوى ذلك فلا حظر فيه ثم انه تعالى بالغ فى المنع من هذه المودة من وجوه (اولها) ماذكران هذه المودة مع الايمان لا يجتمعان (وثانيها) قوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم والمراد ان الميل الى هؤلاء اعظم انواع الميل ومع هذا فيجب ان يكون هذا الميل مغلوبا مطروحا بسبب الدين قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى ابى عبيدة بن الجراح قتل اباه عبدالله بن الجراح يوم احد وعمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر وابوبكر دعا ابنه يوم بدر الى البراز فقال النبى عليه الصلاة والسلام متعنا بنفسك ومصعب بن عمير قتل اخاه عبيد بن عمير وعلى بن ابى طالب وحمزة وعبيدة قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يوم بدر اخبران هؤلاء لم يوادوا اقاربهم وعشائرهم غضبا لله ودينه (وثالثها) انه تعالى عدد نعمه على المؤمنين فبدأ بقوله اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المعنى ان من أنعم الله عليه بهذه النعمة العظيمة كيف يمكن ان يحصل فى قلبه مودة اعداء الله واختلفوا فى المراد من قوله كتب اما القاضى فذكر ثلاثة اوجه على وفق قول المعتزلة (احدها) جعل فى قلوبهم علامة تعرف بها الملائكة ماهم عليه من الاخلاص (وثانيها) المراد شرح صدورهم للايمان بالالطاف والتوفيق (وثالثها) قيل فى كتب قضى ان قلوبهم بهذا الوصف واعلم ان هذه الوجوه الثلاثة نسلمها للقاضى ونفرع عليها صحة قولنا فان الذى قضى الله به واخبر عنه وكتبه فى اللوح المحفوظ لو لم يقع لانقلب خبر الله

(الصدق)

لا ينبغى ان يتحقق ذلك وحقه ان ان يمتنع ولا يوجد بحال وان جد فى طلبه كل احد (ولو كانوا) اى من حاد الله ورسوله والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد فيما قبله باعتبار لفظها (آباءهم) آباء المواد ين (او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم) فان قضية الايمان بالله تعالى ان يهجر الجميع بالمرة والكلام فى لو قدمر على التفصيل مرارا (اولئك) اشارة الى الذين لا يوادونهم وان كانوا اقرب الناس اليهم وأمس رحما وما فيه من معنى البعد لرفعة درجتهم فى الفضل وهو مبتدأ خبره (كتب فى قلوبهم الايمان) اى اثبته فيها وفيه دلالة على خروج العمل من مفهوم الايمان فان جزء الثابت فى القلب ثابت فيه قطعا ولا شئ من اعمال الجوارح يثبت فيه (وايدهم) اى قواهم (بروح منه) اى من عند الله تعالى وهو نور القلب او القرآن او النصر على العدو وقيل الضمير للايمان لحياة القلوب به ففى تجريدية وقوله تعالى (ويدخلهم) الخ بيان لآثار رحمته الاخروية اثر بيان الطافه الدنيوية اى ويدخلهم فى الآخرة (جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) ابد الآبدين وقوله تعالى (رضى الله عنهم) استئناف جار مجرى التعليل لما افاض عليهم من آثار رحمته العاجلة والآجلة وقوله تعالى (ورضوا عنه) بيان لا بتهاجهم بما اوتوه عاجلا وآجلا وقوله تعالى (اولئك حزب الله) تشريف لهم ببيان اختصاصهم به عزوجل وقوله تعالى (ألا ان حزب الله هم المفلحون) بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة

الصدق كذبا وهذا محال والمؤدى الى المحال محال وقال أبوعلى الفارسى معناه جمع والكتيبة الجمع من الجيش والتقدير أولئك الذين جمع الله فى قلوبهم الايمان أى استكملوا فلم يكونوا ممن يقولوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض ومتى كانوا كذلك امتنع ان يحصل فى قلوبهم مودة الكفار وقال جمهور اصحابنا معناه اثبت وخلق وذلك لان الايمان لايمكن كتبه فلابد من حمله على الايجاد والتكوين (المسئلة الثانية) روى المفضل عن عاصم كتب على فعل مالم يسم فاعله والباقون كتب على اسناد الفعل الى الفاعل (النعمة الثانية) قوله وأيدهم بروح منه وفيه قولان (الاول) قال ابن عباس نصرهم على عدوهم وسمى تلك النصرة روحا لان بها يحيى امرهم (والثانى) قال السدى الضمير فى قوله منه عائد الى الايمان والمعنى ايدهم بروح من الايمان يدل عليه قوله وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا (النعمة الثالثة) قوله ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وهو اشارة الى نعمة الجنة (النعمة الرابعة) قوله تعالى رضى الله عنهم ورضوا عنه وهى نعمة الرضوان وهى اعظم النعم واجل المراتب ثم لما عدد هذه النعم ذكر الامر الرابع من الامور التى توجب ترك الموادة مع اعداء الله فقال اولئك حزب الله الاان حزب الله هم المفلحون وهو فى مقابلة قوله فيهم اولئك حزب الشيطان الاان حزب الشيطان هم الخاسرون واعلم ان الاكثرين اتفقوا على ان قوله لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله نزلت فى حاطب بن ابى بلتعة واخباره اهل مكة بمسير النبى صلى الله عليه وسلم اليهم لما أراد فتح مكة وتلك القصة معروفة وبالجملة فالآية زجر عن التودد الى الكفار والفساق عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يقول اللهم لاتجعل لفاجر ولالفاسق عندى نعمة فانى وجدت فيما اوحيت لاتجد قوما الى آخره والله اعلم والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد النبى الامى وآله وصحبه اجمعين

(سورة الحشر عشرون واربع آيات مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبح لله مافى السموات ومافى الارض وهو العزيز الحكيم هو الذى اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر) صالح بنو النضير رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان لايكونوا عليه ولاله فلما ظهر يوم بدر قالوا هو النبى المبعوث فى التوراة بالنصر فلما هزم المسلمون يوم احد ارتابوا ونكثوا فخرج كعب بن الاشرف فى اربعين راكبا الى مكة وحالفوا أباسفيان عند الكعبة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الانصارى فقتل كعبا غيلة وكان أخاه من الرضاعة ثم صبحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم اخرجوا من المدينة فقالوا الموت أحب الينا من ذلك فتنادوا بالحرب وقيل استمهلوا رسول الله عشرة أيام ليتجهزوا

الدارين والفوز بسعادة النشأتين والكلام فى تحلية الجملة بفنون التأكيد كما مر فى مثلها * عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة

(سورة الحشر مدنية وآيها)
(اربع وعشرون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبح لله مافى السموات ومافى الارض وهو العزيز الحكيم) مر مافيه من الكلام فى صدر سورة الحديد وقد كرر الموصول ههنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسبيح روى انه عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة صالح بنى النضير وهم رهط من اليهود من ذرية هرون عليه السلام نزلوا المدينة فى فتن بنى اسرائيل انتظارا لبعثة النبى عليه الصلاة والسلام وعاهدهم ان لايكونوا له ولا عليه فلما ظهر عليه الصلاة والسلام يوم بدر قالوا هو النبى الذى نعته فى التوراة لاترد له راية فلما كان يوم احد ارتابوا ونكثوا فخرج كعب بن الاشرف فى اربعين راكبا الى مكة فحالفوا قريشا عند الكعبة على قتاله عليه الصلاة والسلام فأمر عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة الانصارى فقتل كعبا غيلة وكان اخاه من الرضاعة ثم صبحهم بالكتائب فقال لهم اخرجوا من المدينة فاستمهلوه عليه الصلاة والسلام عشرة ايام ليتجهزوا للخروج فدس عبدالله بن ابى المنافق واصحابه اليهم لاتخرجوا من الحصن فان قاتلوكم فنحن معكم لانخذلكم ولئن خرجتم

الخروج فبعث اليهم عبدالله ابن أبي وقال لاتخرجوا من الحصن فان قاتلوكم فنحن معكم لانخذلكم ولئن خرجتم لنخرجن معكم فحصنوا الازقة فحاصرهم احدى وعشرين ليلة فلما قذف الله الرعب في قلوبهم وايسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح فأبى الا الجلاء على ان يحمل كل ثلاثة ابيات على بعير ماشاؤا من متاعهم فجلوا الى الشام الى اريحا واذرعات الأهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حيي بن اخطب فانهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة وههنا سؤالات (السؤال الاول) مامعنى هذه اللام في قوله لاول الحشر (الجواب) انها هي اللام في قولك جئت لوقت كذا والمعنى اخرج الذين كفروا عند اول الحشر (السؤال الثاني) مامعنى اول الحشر (الجواب) ان الحشر هو اخراج الجمع من مكان الى مكان واما انه لم سمي هذا الحشر بأول الحشر فبيانه من وجوه (احدها) وهو قول ابن عباس والاكثرين ان هذا اول حشر اهل الكتاب اي اول مرة حشروا واخرجوا من جزيرة العرب لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك لانهم كانوا أهل منعة وعز (وثانيها) انه تعالى جعل اخراجهم من المدينة حشرا وجعله اول الحشر من حيث يحشر الناس للساعة الى ناحية الشام ثم تدركهم الساعة هناك (وثالثها) ان هذا اول حشرهم واما آخر حشرهم فهو اجلاء عمر اياهم من خيبر الى الشام (ورابعها) معناه أخرجهم من ديارهم لاول ما يحشرهم لقتالهم لانه اول قتال قاتلهم رسول الله (وخامسها) قال قتادة هذا اول الحشر والحشر الثاني نار تحشر الناس من المشرق الى المغرب تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا وذكروا ان تلك النار ترى بالليل ولا ترى بالنهار ❊ قوله تعالى (ماظننتم ان يخرجوا) قال ابن عباس ان المسلمين ظنوا انهم لعزتهم وقوتهم لايحتاجون الى ان يخرجوا من ديارهم وانما ذكر الله تعالى ذلك تعظيما لهذه النعمة فان النعمة اذا وردت على المرء والظن بخلافه تكون اعظم فالمسلمون ماظنوا انهم يصلون الى مرادهم في خروج هؤلاء اليهود فيتخلصون من ضرر مكايدهم فلما تيسر لهم ذلك كان توقع هذه النعمة اعظم ❊ قوله تعالى (وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله) قالوا كانت حصونهم منيعة فظنوا انها تمنعهم من رسول الله وفي الآية تشريف عظيم لرسول الله فانها تدل على ان معاملتهم مع رسول الله هي بعينها نفس المعاملة مع الله فان قيل ما الفرق بين قولك ظنوا ان حصونهم تمنعهم او مانعتهم وبين النظم الذي جاء عليه قلنا في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها اياهم وفي تصيير ضميرهم اسما واسناد الجملة اليه دليل على اعتقادهم في انفسهم انهم في عزة ومنعة لايبالون بأحد يطمع في منازعتهم وهذه المعاني لاتحصل في قولك وظنوا ان حصونهم تمنعهم ❊ قوله تعالى (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) في الآية وجهان (الاول) ان يكون الضمير في قوله فأتاهم عائدا الى اليهود اي فأتاهم عذاب الله واخذهم من حيث لم يحتسبوا (والثاني) ان يكون عائدا الى المؤمنين اي

(فأتاهم)

لنخرجن معكم فدربوا على الازقة وحصنوها فحاصرهم النبي عليه الصلاة والسلام احدى وعشرين ليلة فلما قذف الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح فأبى عليهم الا الجلاء على ان يحمل كل ثلاثة ابيات على بعير ماشاءوا من متاعهم فجلوا الى الشام الى اريحا واذرعات الا اهل بيتين منهم آل ابي الحقيق وآل حيي ابن اخطب فانهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة منهم بالحيرة فأنزل الله تعالى سبح لله ما في السموات الى قوله والله على كل شيء قدير وقوله تعالى (هو الذي اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم) بيان لبعض آثار عزته تعالى واحكام حكمته اثر وصفه تعالى بالعزة القاهرة والحكمة الباهرة على الاطلاق والضمير راجع اليه تعالى بذلك العنوان امابناء على كمال ظهور اتصافه تعالى بهما مع مساعدة تامة من المقام اوعلى جعله مستعار الاسم الاشارة كما في قوله تعالى قل أرأيتم ان اخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به اي بذلك وعليه قول رؤبة بن العجاج * كأنه في الجلد توليع البهق * كما هو المشهور كأنه قيل ذلك المنعوت بالعزة والحكمة الذي اخرج الخ ففيه اشعار بأن في الاخراج حكمة باهرة وقوله تعالى (لاول الحشر) اي في اول حشرهم الى الشام وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط وهم اول من اخرج من جزيرة العرب الى الشام او هذا اول حشرهم وآخر حشرهم اجلاء عمر

فأتاهم نصر الله وتقويته من حيث لم يحتسبوا ومعنى لم يحتسبوا اى لم يظنوا ولم يخطر ببالهم وذلك بسبب امرين (احدهما) قتل رئيسهم كعب بن الاشرف على يد أخيه غيلة وذلك مما اضعف قوتهم وفتت عضدهم وقل من شوكتهم (والثانى) بماقذف فى قلوبهم من الرعب (المسئلة الثانية) قوله فأتاهم الله لايمكن اجراؤه على ظاهره باتفاق جمهور العقلاء فدل على ان باب التأويل مفتوح وان صرف الآيات عن ظواهرها بمقتضى الدلائل العقلية جائز (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ فآتاهم الله اى فآتاهم الهلاك واعلم ان هذه القراءة لاتدفع مابيناه من وجوه التأويل لان هذه القراءة لاتدفع القراءة الاولى فانها ثابتة بالتواتر ومتى كانت ثابتة بالتواتر لايمكن دفعها بل لابد فيها من التأويل * قوله تعالى (وقذف فى قلوبهم الرعب) قال اهل اللغة الرعب الخوف الذى يستوعب الصدر اى يملؤه وقذفه اثباته فيه ومنه قالوا فى صفة الاسد مقذف كأنما قذف باللحم قذفا لاكتنازه وتداخل اجزائه واعلم ان هذه الآية تدل على قولنا من ان الامور كلها لله وذلك لان الآية دلت على ان وقوع ذلك الرعب فى قلوبهم كان من الله ودلت على ان ذلك الرعب صار سببا فى اقدامهم على بعض الافعال وبالجملة فالفعل لايحصل الا عند حصول داعية متأكدة فى القلب وحصول تلك الداعية لايكون الا من الله فكانت الافعال بأسرها مسندة الى الله تعالى بهذا الطريق * قوله تعالى (يخربون بيوتهم بأيديهم وايدى المؤمنين) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابو على قرأ ابو عمرو وحده يخربون مشددة وقرأ الباقون يخربون خفيفة وكان ابو عمرو يقول الاخراب ان يترك الشئ خرابا والتخريب الهدم وبنو النضير خربوا وما اخربوا قال المبرد ولا اعلم لهذا وجها ويخربون هو الاصل خرب المنزل واخرب به صاحبه كقوله علم واعلمه وقام واقامه فاذا قلت يخربون من التخريب فانما هو تكثير لانه ذكر بيوتا تصلح للقليل والكثير وزعم سيبويه انهما يتعاقبان فى بعض الكلام فيجرى كل واحد مجرى الآخر نحو فرحته وافرحته وحسنه الله واحسن وقال الاعشى * واخربت من ارض قوم ديارا * وقال الفراء يخربون بالتشديد يهدمون وبالتخفيف يخرجون منها ويتركونها (المسئلة الثانية) ذكر المفسرون فى بيان انهم كيف كانوا يخربون بيوتهم بايديهم وايدى المؤمنين وجوها (احدها) انهم لما ايقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين ان يسكنوا مساكنهم ومنازلهم فجعلوا هايخربونها من داخل والمسلمون من خارج (وثانيها) قال مقاتل ان المنافقين دسوا اليهم ان لايخرجوا ودربوا على الازقة وحصنوها فنقضوا بيوتهم وجعلوها كالحصون على ابواب الازقة وكان المسلمون يخربون سائر الجوانب (وثالثها) ان المسلمين اذا ظهروا على درب من دروبهم خربوه وكان اليهود يتأخرون الى ماوراء بيوتهم وينقبونها من ادبارهم (ورابعها) ان المسلمين كانوا يخربون ظواهر البلد واليهود لما ايقنوا بالجلاء وكانوا ينظرون الى الخشبة فى منازلهم مما يستحسنونه او الباب فيهدمون بيوتهم

رضى الله عنه اياهم من خيبر الى الشام وقيل آخر حشرهم (١٧٣) حشر يوم القيامة لان المحشر يكون بالشام (ماظننتم) ايها المسلمون (ان يخرجوا) من ديارهم بهذا الذل والهوان لشدة بأسهم وقوة منعتهم (وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله) اى ظنوا ان حصونهم تمنعهم او مانعتهم من بأس الله تعالى وتغيير النظم بتقديم الخبر واسناد الجملة الى ضميرهم للدلالة على كمال وثوقهم بحصانة حصونهم واعتقادهم فى انفسهم انهم فى عزة ومنعة لايبالى معها بأحد يتعرض لهم او يطمع فى معازتهم ويجوز ان يكون مانعتهم خبرا لان وحصونهم مرتفعا على الفاعلية (فأتاهم الله) اى امر الله تعالى وقدره المقدور لهم (من حيث لم يحتسبوا) ولم يخطر ببالهم وهو قتل رئيسهم كعب بن الاشرف فانه مما اضعف قوتهم وقل شوكتهم وسلب قلوبهم الامن والطمأنينة وقيل الضمير فى اتاهم ولم يحتسبوا للمؤمنين اى فأتاهم نصر الله وقرئ فآتاهم اى فآتاهم الله العذاب او النصر (وقذف فى قلوبهم الرعب) اى اثبت فيها الخوف الذى يرعبها اى يملؤها (يخربون بيوتهم بأيديهم) ليسدوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة افواه الازقة ولئلا يبقى بعد جلائهم مساكن للمسلمين ولينقلوا معهم بعض آلاتها المرغوب فيها مما يقبل النقل (وايدى المؤمنين) حيث كانوا يخربونها ازالة لتحصنهم ومتمنعهم وتوسيعا لمجال القتال ونكاية لهم واسناد هذا اليهم لما انهم السبب فيه فكأنهم كلفوهم اياه وأمروهم به قيل الجملة حال او تفسير للرعب وقرئ يخربون بالتشديد للتكثير وقيل الاخراب التعطيل او ترك الشئ خرابا والتخريب النقض والهدم (فاعتبروا يا اولى الابصار) فاتعظوا بما جرى عليهم من الامور الهائلة على وجه لايكاد يهتدى اليه الافكار واتقوا مباشرة ما اداهم اليه من الكفر والمعاصى او انتقلوا من حال الفريقين الى حال انفسكم فلا

ويبنزعونها ويحملونها على الابل فان قيل مامعنى تخريبهم لها بايدى المؤمنين قلنا قال الزجاج لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم امروهم به وكلفوهم اياه ❊قوله تعالى (فاعتبروا يااولى الابصار) اعلم انا قد تمسكنا بهذه الآية فى كتاب المحصول من اصول الفقه على ان القياس حجة فلانذكره ههنا الا انه لابد ههنا من بيان الوجه الذى امرالله فيه بالاعتبار وفيه احتمالات (احدها) انهم اعتمدوا على حصونهم وعلى قوتهم وشوكتهم فاباد الله شوكتهم وازال قوتهم ثم قال فاعتبروا يااولى الابصار ولا تعتمدوا على شئ غير الله فليس للزاهد ان يعتمد على زهده فان زهده لايكون اكثر من زهد بلعام وليس للعالم ان يعتمد على علمه انظر الى ابن الراوندى مع كثرة ممارسته كيف صار بل لا اعتماد لاحد فى شئ الا على فضل الله ورحمته (وثانيها) قال القاضى المراد ان يعرف الانسان عاقبة الغدر والكفر والطعن فى النبوة فان اولئك اليهود وقعوا بشؤم الغدر والكفر فى البلاء والجلاء والمؤمنون ايضا يعتبرون به فيعدلون عن المعاصى فان قيل هذا الاعتبار انما يصح لو قلنا انهم غدروا وكفروا فعذبوا وكان السبب فى ذلك العذاب هو الكفر والغدر الا ان هذا القول فاسد طردا وعكسا (اما الطرد) فلانه رب شخص غدر وكفر وما عذب فى الدنيا (واما العكس) فلان امثال هذه المحن بل اشد منها وقعت للرسول عليه السلام ولاصحابه ولم يدل ذلك على سوء اديانهم وافعالهم واذا فسدت هذه العلة فقد بطل هذا الاعتبار وايضا فالحكم الثابت فى الاصل هو انهم يخربون بيوتهم بأيديهم وايدى المؤمنين واذا عللنا ذلك بالكفر والغدر يلزم فى كل من غدر وكفر ان يخرب بيته بيده وبايدى المسلمين ومعلوم ان هذا لايصح فعلمنا ان هذا الاعتبار غير صحيح (والجواب) ان الحكم الثابت فى الاصل له ثلاث مراتب (اولها) كونه تخريبا للبيت بأيديهم وايدى المؤمنين (ثانيها) وهو اعم من الاول كونه عذابا فى الدنيا (ثالثها) وهو اعم من الثانى كونه مطلق العذاب والغدر والكفر انما ناسبان العذاب من حيث هو عذاب فأما خصوص كونه تخريبا اوقتلا فى الدنيا اوفى الآخرة فذاك عديم الاثر فيرجع حاصل القياس الى ان الذين غدروا وكفروا وكذبوا عذبوا من غير اعتبار ان ذلك العذاب كان فى الدنيا اوفى الآخرة والغدر والكفر يناسبان العذاب فعلمنا ان الكفر والغدر هما السببان فى العذاب فاينما حصلا حصل العذاب من غير بيان ان ذلك العذاب فى الدنيا اوفى الآخرة ومتى قررنا القياس والاعتبار على هذا الوجه زالت المطاعن والنقوض وتم القياس على الوجه الصحيح (المسئلة الثانية) الاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شئ الى شئ ولهذا سميت العبرة عبرة لانها تنتقل من العين الى الخد وسمى المعبر معبرا لان به تحصل المجاوزة وسمى العلم المخصوص بالتعبير لان صاحبه ينتقل من المتخيل الى المعقول وسميت الالفاظ عبارات لانها تنقل المعانى من لسان القائل الى عقل المستمع ويقال السعيد من اعتبر بغيره لانه ينتقل عقله من حال ذلك الغير الى حال نفسه ولهذا قال

الجلاء) اى الخروج عن اوطانهم على ذلك الوجه الفظيع (لعذبهم فى الدنيا) بالقتل والسبى كما فعله ببنى قريظة (ولهم فى الآخرة عذاب النار) استئناف غير متعلق بجواب لولا جئ به لبيان انهم ان نجوا من عذاب الدنيا بكتابة الجلاء لانجاة لهم من عذاب الآخر (ذلك) اى ماحاق بهم وما سيحيق (بانهم) بسبب انهم (شاقوا الله ورسوله) وفعلوا مافعلوا مما حكى عنهم من القبائح (ومن يشاق الله) وقرئ يشاقق الله كما فى الانفال والاقتصار على ذكر مشاقته تعالى لتضمنها لمشاقته عليه الصلاة والسلام وليوافق قوله تعالى (فان الله شديد العقاب) وهو اما نفس الجزاء قد حذف منه العائد الى من عند من يلتزمه اى شديد العقاب له اوتعليل للجزاء المحذوف اى يعاقبه الله فان الله شديد العقاب وايا ما كان فالشرطية تكملة لما قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهانى كأنه قيل ذلك الذى حاق بهم من العقاب العاجل والآجل بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاق الله كائنا من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فاذا لهم عقاب شديد (ماقطعتم من لينة) اى اى شئ قطعتم من نخلة وهى فعلة من اللون وياؤها مقلوبة من واو لكسرة ماقبلها كديمة وتجمع على الوان وقيل من اللين ويجمع على لين وهى النخلة الكريمة (اوتركتموها) التضمير لما وتأنيثه لتفسيره باللينة كما فى قوله تعالى ما يفتح الله للناس من رحمة فلاممسك لها (قائمة على اصولها) كما كانت من غير ان تتعرضوا لها بشئ ما وقرئ على اصلها اما على الاكتفاء من الواو بالضم

اوعلى انها جمع كرهن وقرئ قائما على اصوله ذهابا الى لفظ ما (فباذن الله) فذاك اى قطعها وتركها بأمر الله تعالى (وليخزى

المفسرون الاعتبار هو النظر فى حقائق الاشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شئ آخر من جنسها وفى قوله يااولى الابصار وجهان (الاول) قال ابن عباس يريد يا اهل اللب والعقل والبصائر (والثانى) قال الفراء يااولى الابصار يامن عاين تلك الواقعة المذكورة ※ قوله تعالى (ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار) معنى الجلاء فى اللغة الخروج من الوطن والتحول عنه فان قيل ان لولا تفيد انتفاء الشئ لثبوت غيره فيلزم من ثبوت الجلاء عدم التعذيب فى الدنيا لكن الجلاء نوع من انواع التعذيب فاذا يلزم من ثبوت الجلاء عدمه وهو محال قلنا معناه ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا بالقتل كما فعل باخوانهم بنى قريظة واما قوله ولهم فى الآخرة عذاب النار فهو كلام مبتدأ وغير معطوف على ماقبله اذ لو كان معطوفا على ما قبله لزم ان لا يوجد لما بينا ان لولا تقتضى انتفاء الجزاء لحصول الشرط ※ اما قوله تعالى (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) فهو يقتضى ان علة ذلك التخريب هو مشاقة الله ورسوله فان قيل لو كانت المشاقة علة لهذا التخريب لوجب ان يقال انما حصلت هذه المشاقة حصل التخريب ومعلوم انه ليس كذلك قلنا هذا احد مايدل على ان تخصيص العلة المنصوصة لايقدح فى صحتها ثم قال تعالى (ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب) والمقصود منه الزجر ※ قوله تعالى (ماقطعتم من لينة اوتركتموها قائمة على اصولها فبأذن الله وليخزى الفاسقين) فيه مسائل (المسئلة الاولى) من لينة بيان لما قطعتم ومحل ما نصب بقطعتم كأنه قال اى شئ قطعتم وانث الضمير الراجع الى ما فى قوله اوتركتموها لانه فى معنى اللينة (المسئلة الثانية) قال ابوعبيدة اللينة النخلة مالم تكن عجوة اوبرنية واصل لينة لونة فذهبت الواو لكسرة اللام وجمعها الوان وهى النخل كله سوى البرنى والعجوة وقال بعضهم اللينة النخلة الكريمة كأنهم اشتقوها من اللين وجمعها لين فان قيل لم خصت اللينة بالقطع قلنا ان كانت من الالوان فليستبقوا لانفسهم العجوة والبرنية وان كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود اشد (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ قوما على اصلها وفيه وجهان (احدهما) انه جمع اصل كرهن ورهن واكتفى فيه بالضمة عن الواو وقرئ قائما على اصوله ذهابا الى لفظ ما وقوله فبأذن الله اى قطعها بأذن الله وبأمره وليخزى الفاسقين اى ولاجل اخزاء الفاسقين اى اليهود اذن الله فى قطعها (المسئلة الرابعة) روى انه عليه السلام حين امر ان يقطع نخلهم ويحرق قالوا يامحمد قد كنت تنهى عن الفساد فى الارض فما بال قطع النخل وتحريقها وكان فى انفس المؤمنين من ذلك شئ فنزلت هذه الآية والمعنى ان الله انما اذن فى ذلك حتى يزداد غيظ الكفار وتتضاعف حسرتهم بسبب نفاذ حكم اعدائهم فى اعز اموالهم (المسئلة الخامسة) احتج العلماء بهذه الآية على ان حصون الكفرة وديارهم لابأس ان تهدم وتحرق وتغرق وترمى بالمجانيق وكذلك اشجارهم لابأس بقلعها مثمرة كانت اوغير مثمرة وعن ابن مسعود قطعوا

الفاسقين)اى وليذل اليهود ويغيظهم اذن فى قطعها وتركها لانهم اذا رأوا المؤمنين يتحكمون فى اموالهم كيف احبوا ويتصرفون فيها حسبما شاؤا من القطع والترك يزدادون غيظا ويتضاعفون حسرة واستدل به على جواز هدم ديار الكفرة وقطع اشجارهم واحراق زروعهم زيادة لغيظهم وتخصيص اللينة بالقطع ان كانت من الالوان لاستبقاء العجوة والبرنية اللتين هما كرام النخيل وان كانت هى الكرام ليكون غيظهم اشد وقوله تعالى (وما أفاء الله على رسوله) شروع فى بيان حال ما اخذ من اموالهم بعد بيان ماحل بانفسهم من العذاب العاجل والآجل وما فعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع اى ما اعاده اليه من مالهم وفيه اشعار بأنه كان حقيقا بان يكون له عليه الصلاة والسلام وانما وقع فى ايديهم بغير حق فرجعه الله تعالى الى مستحقه لانه تعالى خلق الناس لعبادته وخلق ما خلق ليتوسلوا به الى طاعته فهو جدير بأن يكون للمطيعين (منهم) اى من بنى النضير (فما اوجفتم عليه) اى فما اجريتم على تحصيله وتغنمه من الوجيف وهو سرعة السير (من خيل ولاركاب) هى مايركب من الابل خاصة كما ان الراكب عندهم راكبها لاغير واما راكب الفرس فانما يسمونه فارسا ولا واحد لها من لفظها وانما الواحدة منها راحلة والمعنى ماقطعتم لها شقة بعيدة ولا لقيتم مشقة شديدة ولا قتالا شديدا وذلك لانه كانت قراهم على ميلين من المدينة فمشوا اليها مشيا وما كان فيهم راكب الا النبى عليه الصلاة والسلام فافتتحها صلحا من غير ان يجرى بينهم مسايفة كأنه قيل وما افاء الله على رسوله منهم فما حصلتموه بكد اليمين وعرق الجبين (ولكن الله يسلط رسله على من يشاء)اى سنته تعالى جارية على ان يسلطهم على من يشاء من اعدائهم تسليطا خاصا وقد سلط النبى عليه الصلاة والسلام على هؤلاء

منها ما كان موضعا للقتال (المسئلة السادسة) روى ان رجلين كانا يقطعان احدهما العجوة والآخر اللون فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا تركتها لرسول الله وقال هذا قطعتها غيظا للكفار فاستدلوا به على جواز الاجتهاد وعلى جوازه بحضرة الرسول ❊ قوله تعالى (ما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير) قال المبرد يقال فاء يفيء اذا رجع وافاءه الله اذا رده وقال الازهرى الفيء ما رده الله على اهل دينه من اموال من خالف اهل دينه بلا قتال اما بأن يجلو عن اوطانهم ويخلوها للمسلمين او يصالحوا على جزية يؤدونها عن رؤسهم او مال غير الجزية يفتدون به من سفك دمائهم كما فعله بنو النضير حين صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان لكل ثلاثة منهم حمل بعير مما شاؤا سوى السلاح ويتركوا الباقي فهذا المال هو الفيء وهو ما افاء الله على المسلمين اى رده من الكفار الى المسلمين وقوله منهم اى من يهود بنى النضير فما اوجفتم يقال وجف الفرس والبعير يجف وجفا ووجيفا وهو سرعة السير واوجفه صاحبه اذا حمله على السير السريع وقوله عليه اى على ما افاء الله وقوله تعالى من خيل ولا ركاب الركاب ما يركب من الابل واحدتها راحلة ولا واحد لها من لفظها والعرب لا يطلقون لفظ الراكب الا على راكب البعير ويسمون راكب الفرس فارسا ومعنى الآية ان الصحابة طلبوا من الرسول عليه الصلا والسلام ان يقسم الفيء بينهم كما قسم الغنيمة بينهم فذكر الله الفرق بين الامرين وهو ان الغنيمة ما اتعبتم انفسكم فى تحصيلها واوجفتم عليها الخيل والركاب بخلاف الفيء فانكم ما تحملتم فى تحصيله تعبا فكان الامر فيه مفوضا الى الرسول يضعه حيث يشاء (ثم ههنا سؤال) وهو ان اموال بنى النضير اخذت بعد القتال لانهم حوصروا اياما وقاتلوا وقتلوا ثم صالحوا على الجلاء فوجب ان تكون تلك الاموال من جملة الغنيمة لا من جملة الفيء ولاجل هذا السؤال ذكر المفسرون ههنا وجهين (الاول) ان هذه الآية ما نزلت فى قرى بنى النضير لانهم اوجفوا عليهم بالخيل والركاب وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون بل هو فى فدك وذلك لان اهل فدك انجلوا عنه فصارت تلك القرى والاموال فى يد الرسول عليه السلام من غير حرب فكان عليه الصلاة والسلام يأخذ من غلة فدك نفقته ونفقة من يعوله ويجعل الباقى فى السلاح والكراع فلما مات ادعت فاطمة عليها السلام انه كان ينحلها فدكا فقال ابو بكر انت اعز الناس على فقرا واحبهم الى غنى لكنى لا اعرف صحة قولك ولا يجوز ان احكم بذلك فشهد لها ام ايمن ومولى للرسول عليه السلام فطلب منها ابو بكر الشاهد الذى يجوز قبول شهادته فى الشرع فلم يكن فأجرى ابو بكر ذلك على ما كان يجريه الرسول صلى الله عليه وسلم ينفق منه على من كان ينفق عليه الرسول ويجعل ما يبقى فى السلاح والكراع وكذلك عمر جعله فى يد على ليجريه على هذا المجرى ورد ذلك فى آخر عهد عمر الى عمر وقال ان بنا غنى وبالمسلمين حاجة

تسليطا غير معتاد من غير ان تقحموا مضايق الخطوب وتقاسوا شدائد الحروب فلا حق لكم فى اموالهم (والله على كل شيء قدير) فيفعل ما يشاء كما يشاء تارة على الوجوه المعهودة واخرى على غيرها وقوله تعالى (ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى) بيان لمصارف الفيء بعد بيان افاته عليه عليه الصلاة والسلام من غير ان يكون للمقاتلة فيه حق واعادة عين العبارة الاولى لزيادة التقرير ووضع اهل القرى موضع ضميرهم للاشعار بشمول ما لعقاراتهم ايضا (فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) اختلف فى قسمة الفيء فقيل يسدس لظاهر الآية ويصرف سهم الله الى عمارة الكعبة وسائر المساجد وقيل يخمس لان ذكر الله للتعظيم ويصرف الآن سهم الرسول عليه الصلاة والسلام الى الامام على قول والى العساكر والثغور على قول والى مصالح المسلمين على قول وقيل يخمس خمسه كالغنيمة فانه عليه الصلاة والسلام كان يقسم الخمس كذلك ويصرف الاخماس الاربعة كما يشاء والآن على الخلاف المذكور (كيلا يكون) اى الفيء الذى حقه ان يكون للفقراء يعيشون به (دولة) بضم الدال وقرئ بفتحها وهى ما يدول للانسان اى يدور من الغنى والجد والغلبة وقيل الدولة بالفتح من الملك بالضم وبالضم من الملك بكسرها او بالضم فى المال وبالفتح فى النصرة اى كيلا يكون جدا (بين الاغنياء منكم) يتكاثرون به او كيلا يكون دولة جاهلية بينكم فان الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون من عزيز وقيل الدولة بالضم ما يتداول كالغرفة اسم ما يغترف فالمعنى كيلا يكون الفيء شيئا يتداوله الاغنياء بينهم ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء والدولة بالفتح بمعنى التداول فالمعنى كيلا يكون ذا تداول بينهم او كيلا يكون امساكه تداولا بينهم لا يخرجونه الى الفقراء (اليه)

اليه وكان عثمان رضي الله عنه يجريه كذلك ثم صار الى علي فكان يجريه هذا المجرى فالأئمة الاربعة اتفقوا على ذلك (والقول الثاني) ان هذه الآية نزلت في بني النضير وقراهم وليس للمسلمين يومئذ كثير خيل ولا ركاب ولم يقطعوا اليها مسافة كثيرة وانما كانوا على ميلين من المدينة فمشوا اليها مشيا ولم يركب الا رسول الله وكان راكب جمل فلما كانت المقاتلة قليلة والخيل والركاب غير حاصل اجراه الله تعالى مجرى ما لم يحصل فيه المقاتلة اصلا فخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الاموال ثم روى انه قسمها بين المهاجرين ولم يعط الانصار منها شيئا الا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهم ابو دجانة وسهل بن حنيف والحرث بن الصمة ❊ ثم انه تعالى ذكر حكم الفيء فقال (ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب) قال صاحب الكشاف لم يدخل العاطف على هذه الجملة لانها بيان للاولى فهي منها وغير اجنبية عنها واعلم انهم اجمعوا على ان المراد من قوله ولذي القربى بنو هاشم وبنو المطلب قال الواحدي كان الفيء في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم مقسوما على خمسة اسهم اربعة منها لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وكان الخمس الباقي يقسم على خمسة اسهم سهم منها لرسول الله ايضا والاسهم الاربعة لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل واما بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام فللشافعي فيما كان من الفيء لرسول الله قولان (احدهما) انه للمجاهدين المرصدين للقتال في الثغور لانهم قاموا مقام رسول الله في رباط الثغور (والقول الثاني) انه يصرف الى مصالح المسلمين من سد الثغور وحفر الانهار وبناء القناطر يبدأ بالاهم فالاهم هذا في الاربعة اخماس التي كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم واما السهم الذي كان له من خمس الفيء فانه لمصالح المسلمين بلا خلاف وقوله تعالى كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم فيه مسائل (المسئلة الاولى) قال المبرد الدولة اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم يكون كذا مرة وكذا مرة والدولة بالفتح انتقال حال سارة الى قوم عن قوم فالدولة بالضم اسم ما يتداول وبالفتح مصدر من هذا ويستعمل في الحالة السارة التي تحدث للانسان فيقال هذه دولة فلان اي تداوله فالدولة اسم لما يتداول من المال والدولة اسم لما ينتقل من الحال ومعنى الآية كي لا يكون الفيء الذي حقه ان يعطى للفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها واقعا في يد الاغنياء ودولة لهم (المسئلة الثانية) قرئ دولة ودولة بفتح الدال وضمها وقرأ ابو جعفر دولة مرفوعة الدال والهاء قال ابو الفتح يكون ههنا هي التامة كقوله وان كان ذو عسرة فنظرة يعني كي لا يقع دولة جاهلية ثم قال تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا يعني ما اعطاكم الرسول من الفيء فخذوه فهو لكم حلال وما نهاكم عن اخذه فانتهوا واتقوا الله في امر الفيء ان الله شديد العقاب على ما نهاكم عنه الرسول والاجود

وقرئ دولة بالرفع على ان كان تامة اي كي لا يقع دولة على ما فصل من المعاني (وما آتاكم الرسول) اي ما اعطاكموه من الفيء او من الامر (فخذوه) فانه حقكم او فتمسكوا به فانه واجب (١٧٧) عليكم (وما نهاكم عنه) عن اخذه او عن تعاطيه (فانتهوا) عنه (واتقوا الله) في مخالفته عليه الصلاة والسلام (ان الله شديد العقاب) فيعاقب من يخالف امره ونهيه (للفقراء المهاجرين) بدل من لذي القربى وما عطف عليه فان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يسمى فقيرا ومن اعطى اغنياء ذوي القربى خص الابدال بما بعده واما تخصيص اعتبار الفقر بفيء بني النضير فتعسف ظاهر (الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم) حيث اضطرهم كفار مكة واحوجوهم الى الخروج وكانوا مائة رجل فخرجوا منها (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) اي طالبين منه تعالى رزقا في الدنيا ومرضاة في الآخرة وصفوا اولا بما يدل على استحقاقهم للفيء من الاخراج من الديار والاموال وقيد ذلك ثانيا بما يوجب تفخيم شأنهم ويؤكده (وينصرون الله ورسوله) عطف على يبتغون فهي حال مقدرة اي ناوين لنصرة الله تعالى ورسوله او مقارنة فان خروجهم من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين الى المدينة نصرة واي نصرة (اولئك) الموصوفون بما فصل من الصفات الحميدة (هم الصادقون) الراسخون في الصدق حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهورا بينا (والذين تبوؤا الدار والايمان) كلام مستأنف مسوق لمدح الانصار بخصال حميدة من جملتها محبتهم للمهاجرين ورضاهم باختصاص الفيء بهم احسن رضا واكمله ومعنى تبوئهم الدار انهم اتخذوا المدينة والايمان مباءة وتمكنوا فيهما اشد تمكن على تنزيل الحال منزلة المكان وقيل ضمن التبوؤ معنى اللزوم وقيل تبوؤا الدار واخلصوا الايمان كقول من قال # علفتها تبنا وماء باردا وقيل المعنى تبوؤا دار الهجرة ودار الايمان فحذف المضاف (٢٣)(را)(من) من الثاني والمضاف اليه من الاول وعوض منه اللام وقيل سمى المدينة بالايمان لكونها مظهره ومنشأه (من قبلهم) اي من قبل هجرة المهاجرين على المعاني الاول ومن قبل تبوؤ المهاجرين على

ان تكون هذه الآية عامة في كل ما أتى رسول الله ونهى عنه وامر الفيء داخل في عمومه

* قوله تعالى (للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون) اعلم ان هذا بدل من قوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كأنه قيل اعني بأولئك الاربعة هؤلاء الفقراء والمهاجرين الذين من صفتهم كذا وكذا ثم انه تعالى وصفهم بامور (اولها) انهم فقراء (وثانيها) انهم مهاجرون (وثالثها) انهم اخرجوا من ديارهم واموالهم يعني ان كفار مكة احوجوهم الى الخروج فهم الذين اخرجوهم (ورابعها) انهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا والمراد بالفضل ثواب الجنة وبالرضوان قوله ورضوان من الله اكبر (وخامسها) قوله وينصرون الله ورسوله اى بانفسهم واموالهم (وسادسها) قوله اولئك هم الصادقون يعني انهم لما هجروا لذات الدنيا وتحملوا شدائدها لاجل الدين ظهر صدقهم في دينهم وتمسك بعض العلماء بهذه الآية على امامة ابي بكر رضي الله عنه فقال هؤلاء الفقراء من المهاجرين والانصار كانوا يقولون لأبي بكر يا خليفة رسول الله والله يشهد على كونهم صادقين فوجب ان يكونوا صادقين في قولهم يا خليفة رسول الله ومتى كان الامر كذلك وجب الجزم بصحة امامته * ثم انه تعالى ذكر الانصار واثنى عليهم حين طابت انفسهم عن الفيء اذ جعله للمهاجرين دونهم فقال (والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) والمراد من الدار المدينة وهي دار الهجرة تبوأها الانصار قبل المهاجرين وتقدير الآية والذين تبوؤا المدينة والايمان من قبلهم (فان قيل) في الآية سؤالان (احدهما) انه لا يقال تبوأ الايمان (والثاني) بتقدير ان يقال ذلك لكن الانصار ما تبوؤا الايمان قبل المهاجرين (والجواب) عن الاول من وجوه (احدها) تبوؤا الدار واخلصوا الايمان كقوله

ولقد رأيتك في الوغى * متقلدا سيفا ورمحا

(وثانيها) جعلوا الايمان مستقرا ووطنا لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه كما انهم لما سألوا سلمان عن نسبه فقال انا ابن الاسلام (وثالثها) انه سمى المدينة بالايمان لان فيها ظهر الايمان وقوى (والجواب) عن السؤال الثاني من وجهين (الاول) ان الكلام على التقديم والتأخير والتقدير والذين تبوؤا الدار من قبلهم والايمان (والثاني) انه على تقدير حذف المضاف والتقدير تبوؤا الدار والايمان من قبل هجرتهم ثم قال ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا قال الحسن اى حسدا وحرارة وغيظا مما اوتي المهاجرون من دونهم واطلق لفظ الحاجة على الحسد والغيظ والحرارة لان هذه الاشياء لا تنفك عن الحاجة فاطلق اسم اللازم على الملزوم على سبيل الكناية ثم قال ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة يقال آثره بكذا اذا خصه به ومفعول الايثار محذوف والتقدير

الاخيرين ويجوز ان يجعل اتخاذ الايمان مباءة ولزومه واخلاصه على المعاني الاول عبارة عن اقامة كافة حقوقه التي من جملتها اظهار عامة شعائره واحكامه ولاريب في تقدم الانصار في ذلك على المهاجرين (۱۷۸) لظهور عجزهم عن اظهار بعضها لا عن اخلاصه قلبا واعتقادا اذ لا يتصور تقدمهم عليهم في ذلك (يحبون من هاجر اليهم) خبر للموصول اى يحبونهم من حيث مهاجرتهم اليهم لمحبتهم الايمان (ولا يجدون في صدورهم) اى في نفوسهم (حاجة) اى شيئا محتاجا اليه يقال خذ منه حاجتك اى ما تحتاج اليه وقيل اثر حاجة كالطلب والحزازة والحسد والغيظ (مما اوتوا) اى مما اوتي المهاجرون من الفيء وغيره (ويؤثرون) اى يقدمون (المهاجرين) على انفسهم في كل شيء من اسباب المعاش حتى ان من كان عنده امرأتان كان ينزل عن احداهما ويزوجها واحدا منهم (ولو كان بهم خصاصة) اى حاجة وخلة واصلها خصاص البيت وهي فرجه والجملة في حيز الحال وقد عرفت وجهه مرارا وكان النبي عليه الصلاة والسلام قسم اموال بني النضير على المهاجرين ولم يعط الانصار الا ثلاثة نفر محتاجين ابا دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحرث بن الصمة قال لهم ان شئتم قسمتم للمهاجرين من اموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة وان شئتم كانت لكم دياركم واموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة فقالت الانصار بل نقسم لهم من اموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت وهذا صريح في ان قوله تعالى والذين تبوؤا الخ مستأنف غير معطوف على الفقراء او المهاجرين نعم يجوز عطفه على اولئك فان ذلك انما يستدعي شركة الانصار للمهاجرين في الصدق دون الفيء فيكون قوله تعالى يحبون وما عطف عليه استئنافا مقررا لصدقهم او حالا من ضمير تبوؤا (ومن يوق شح نفسه) الشح بالضم والكسر وقد قرئ به ايضا اللؤم واضافته الى النفس لانه غريزة فيها مقتضية (ويؤثرونهم) للحرص على المنع الذي هو البخل اى ومن يوق بتوفيق الله تعالى شحها حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الانفاق

(فاولئك) اشارة الى من باعتبار معناها العام المنتظم للمذكورين انتظاما اوليا (هم المفلحون) الفائزون بكل مطلوب الناجون عن كل مكروه والجملة اعتراض وارد لمدح الانصار والثناء (١٧٩) عليهم وقرئ يوق بالتشديد (والذين جاؤامن بعدهم) هم الذين هاجروا بعدما قوى الاسلام او التابعون باحسان وهم المؤمنون بعد الفريقين الى يوم القيامة ولذلك قيل ان الآية قد استوعبت جميع المؤمنين واياما كان فالموصول مبتدأ خبره (يقولون) الخ والجملة مسوقة لمدحهم بمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين ومراعاتهم لحقوق الاخوة فى الدين والسبق بالايمان كما ان ماعطفت عليه من الجملة السابقة لمدح الانصار اى يدعون لهم (ربنا اغفر لنا ولاخوننا) اى فى الدين الذى هو اعز واشرف عندهم من النسب (الذين سبقونا بالايمان) وصفوهم بذلك اعترافا بفضلهم (ولا تجعل فى قلوبنا غلا) وقرئ غمرا وهما الحقد (للذين آمنوا) على الاطلاق (ربنا انك رؤف رحيم) اى مبالغ فى الرأفة والرحمة فحقيق بأن تجيب دعاءنا (الم تر الى الذين نافقوا) حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الاقوال الكاذبة والاحوال الفاسدة وتعجيب منها بعد حكاية محاسن احوال المؤمنين واقوالهم على اختلاف طبقاتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل احد ممن له حظ من الخطاب وقوله تعالى (يقولون) الخ استئناف لبيان المتعجب منه وصيغة المضارع للدلالة على استمرار قولهم او لاستحضار صورته واللام فى قوله تعالى (لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب) للتبليغ والمراد بأخوتهم اما توافقهم فى الكفر او صداقتهم وموالاتهم واللام فى قوله تعالى (لئن اخرجتم) اى من دياركم قسرا موطئة للقسم وقوله تعالى (لنخرجن معكم) جواب القسم اى والله لئن اخرجتم لنخرجن معكم البتة ونذهبن فى صحبتكم اينما ذهبتم (ولانطيع فيكم) اى فى شأنكم (احدا) يمنعنا من الخروج معكم (ابدا) وان طال الزمان وقيل لانطيع فى قتالكم او خذلانكم وليس بذاك لان تقدير القتال مترقب بعد ولان وعدهم لهم على ذلك التقدير ليس بمجرد عدم طاعتهم لمن يدعوه الى

ويؤثرونهم بأموالهم ومنازلهم على انفسهم عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للانصار ان شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم واموالكم وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم وان شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم واموالكم فقالوا لابل نقسم لهم من ديارنا واموالنا ولانشاركهم فى الغنيمة فانزل الله تعالى ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة فبين ان هذا الايثار ليس عن غنى عن المال ولكنه عن حاجة وخصاصة وهى الفقر واصلها من الخصاص وهى الفرج وكل خرق فى منخل او باب او سحاب او برقع فهى خصاص الواحد خصاصة وذكر المفسرون انواعا من ايثار الانصار للضيف بالطعام وتعللهم عنه حتى يشبع الضيف ثم ذكروا ان الآية نزلت فى ذلك الايثار والصحيح انها نزلت بسبب ايثارهم المهاجرين بالفئ ثم لايمتنع ان يدخل فيها سائر الايثارات ثم قال تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون الشح بالضم والكسر وقد قرئ بهما واعلم ان الفرق بين الشح والبخل هو ان البخل نفس المنع والشح هو الحالة النفسانية التى تقتضى ذلك المنع فلما كان الشح من صفات النفس لاجرم قال تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون الظافرون بما أرادوا قال ابن زيد من لم يأخذ شيئا نهاه الله عن اخذه ولم يمنع شيئا امره الله باعطائه فقد وقى شح نفسه ❊ قوله تعالى (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم) اعلم ان قوله والذين جاؤا من بعدهم عطف ايضا على المهاجرين وهم الذين هاجروا من بعد وقيل التابعون باحسان وهم الذين يجيؤن بعد المهاجرين والانصار الى يوم القيامة وذكر تعالى انهم يدعون لانفسهم ولمن سبقهم بالايمان وهو قوله يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا اى غشا وحسدا وبغضا واعلم ان هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين لانهم اما المهاجرون او الانصار او الذين جاؤا من بعدهم وبين ان من شأن من جاء من بعد المهاجرين والانصار ان يذكر السابقين وهم المهاجرون والانصار بالدعاء والرحمة فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء كان خارجا من جملة اقسام المؤمنين بحسب نص هذه الآية ❊ قوله تعالى (الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احدا ابدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون) قال المقاتلان يعنى عبدالله بن ابى وعبدالله بن نبتل ورفاعة بن زيد كانوا من الانصار ولكنهم نافقوا يقولون لاخوانهم وهذه الاخوة تحتمل وجوها (احدها) الاخوة فى الكفر لان اليهود والمنافقين كانوا مشتركين فى عموم الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم (وثانيها) الاخوة بسبب المصادقة والموالاة والمعاونة (وثالثها) الاخوة بسبب ما بينهما من المشاركة فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم اخبر تعالى عنهم انهم قالوا لليهود لئن اخرجتم من المدينة لنخرجن معكم ولانطيع فيكم اى فى خذلانكم احدا ابدا ووعدوهم النصر ايضا

قتالهم بل نصرتهم عليه كما ينطق به قوله تعالى (وان قوتلتم لننصرنكم) اى لنعاونكم على عدوكم على ان دعوتهم الى خذلان اليهود
مما لا يمكن صدوره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٨٠) والمسلمين حتى يدعوا عدم طاعتهم فيه ضرورة انها لو كانت لكانت عند

بقولهم وان قوتلتم لننصرنكم ثم انه تعالى شهد على كونهم كاذبين فى هذا القول فقال والله يشهد انهم لكاذبون ولما شهد على كذبهم على سبيل الاجمال اتبعه بالتفصيل * فقال (لئن اخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لاينصرون) واعلم انه تعالى عالم بجميع المعلومات التى لانهاية لها فعلم الموجودات فى الازمنة الثلاثة والمعدومات فى الازمنة الثلاثة وعلم فى كل واحد من هذه الوجوه الستة انه لو كان على خلاف ماوقع كيف كان يكون على ذلك التقدير فههنا اخبر تعالى ان هؤلاء اليهود لئن اخرجوا فهؤلاء المنافقون لايخرجون معهم وقد كان الامر كذلك لان بنى النضير لما اخرجوا لم يخرج معهم المنافقون وقوتلوا ايضا فانصروهم فأما قوله تعالى ولئن نصروهم فتقديره كما يقول المعترض الطاعن فى كلام الغير لانسلم ان الامر كما تقول ولئن سلمنا ان الامر كما تقول لكنه لايفيد لك فائدة فكذا ههنا ذكر تعالى انهم لاينصرونهم وبتقدير ان ينصروا الا انهم لابد وان يتركوا تلك النصرة وينهزموا ويتركوا اولئك المنصورين فى ايدى الاعداء ونظير هذه الآية قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون فأما قوله ثم لاينصرون ففيه وجهان (الاول) انه راجع الى المنافقين يعنى لينهزمن المنافقون ثم لاينصرون بعد ذلك اى يهلكهم الله ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم (الثانى) لينهزمن اليهود ثم لاينفعهم نصرة المنافقين ثم ذكر تعالى ان خوف المنافقين من المؤمنين اشد من خوفهم من الله تعالى * فقال (لانتم اشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لايفقهون) اى لايعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته تعالى * ثم قال (لايقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة او من وراء جدر) يريد ان هؤلاء اليهود والمنافقين لايقدرون على مقاتلتكم مجتمعين الا اذا كانوا فى قرى محصنة بالخنادق والدروب او من وراء جدر وذلك بسبب ان الله القى فى قلوبهم الرعب وان تأييد الله ونصرته معكم وقرئ جدر بالتخفيف وجدار وجدر وهما الجدار * ثم قال (بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون) وفيه ثلاثة اوجه (احدها) يعنى ان البأس الشديد الذى يوصفون به انما يكون اذا كان بعضهم مع بعض فاما اذا قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة لان الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله (وثانيها) قال مجاهد المعنى انهم اذا اجتمعوا يقولون لنفعلن كذا وكذا فهم يهددون المؤمنين ببأس شديد من وراء الحيطان والحصون ثم يحترزون عن الخروج للقتال فبأسهم فيما بينهم شديد لافيما بينهم وبين المؤمنين (وثالثها) قال ابن عباس معناه بعضهم عدو للبعض والدليل على صحة هذا التأويل قوله تعالى تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى يعنى تحسبهم فى صورتهم مجتمعين على الالفة والمحبة اما قلوبهم فشتى لان كل احد منهم على مذهب آخر وبينهم عداوة شديدة وهذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم وقوله ذلك بأنهم قوم لايعقلون فيه وجهان (الاول) ان ذلك بسبب انهم قوم لايعقلون مافيه الحظ لهم

(والثانى)

استعدادهم لنصرتهم واظهار كفرهم ولاريب فى ان ما يفعله عليه الصلاة والسلام عند ذلك قتالهم لادعوتهم الى ترك نصرتهم واما الخروج معهم فليس بهذه المرتبة من اظهار الكفر لجواز ان يدعوا ان خروجهم معهم لما بينهم من الصداقة الدنيوية لا للموافقة فى الدين (والله يشهد انهم لكاذبون) فى مواعيدهم المؤكدة بالايمان الفاجرة وقوله تعالى (لئن اخرجوا لايخرجون معهم)الخ تكذيب لهم فى كل واحد من اقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم فى الكل على الاجمال (ولئن قوتلوا لاينصرونهم) وكان الامر كذلك فان ابن ابى واصحابه ارسلوا الى بنى النضير ذلك سرا ثم اخلفوهم وفيه حجة بينة لصحة النبوة واعجاز القرآن (ولئن نصروهم) على الفرض والتقدير (ليولن الادبار) فرارا (ثم لاينصرون) اى المنافقون بعد ذلك اى يهلكهم الله ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم او ليهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين (لانتم اشد رهبة) اى اشد مرهوبية على انها مصدر من المبنى للمفعول (فى صدورهم من الله) اى رهبتهم فى السر اشد مما يظهرونه لكم من رهبة الله فانهم كانوا يدعون عندهم رهبة عظيمة من الله تعالى (ذلك) اى ماذكر من كون رهبتهم منكم اشد من رهبة الله (بأنهم) بسبب انهم (قوم لايفقهون) اى شيئا حتى يعلموا عظمة الله تعالى فيخشوه حق خشيته (لايقاتلونكم) اى اليهود والمنافقون بمعنى لايقدرون على قتالكم (جميعا) اى مجتمعين متفقين فى موطن من المواطن (الا فى قرى محصنة) بالدروب والخنادق (اومن وراء جدر) دون ان يصحروا لكم ويبارزوكم لفرط رهبتهم وقرئ جدر بالتخفيف وقرئ جدار وبامالة فتحة الدال وجدر وجدر وهما الجدار (بأسهم بينهم شديد) استئناف سيق

لبيان ان ماذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم فى انفسهم فان بأسهم بالنسبة الى اقرانهم شديد وانما ضعفهم وجبنهم بالنسبة اليكم بما قذف الله تعالى فى قلوبهم من الرعب (تحسبهم (١٨١) جميعا) مجتمعين متفقين (وقلوبهم شتى) متفرقة لا الفة بينها (ذلك بأنهم) اى

(والثانى) لايعقلون ان تشتيت القلوب مما يوهن قواهم ❊ قوله تعالى (كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال امرهم ولهم عذاب اليم) اى مثلهم كمثل اهل بدر فى زمان قريب فان قيل بم انتصب قريبا قلنا بمثل والتقدير كوجود مثل اهل بدر قريبا ذاقوا وبال امرهم اى سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله من قولهم كلأ وبيل اى وخيم سيئ العاقبة يعنى ذاقوا عذاب القتل فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب اليم ثم ضرب لليهود والمنافقين مثله ❊ فقال تعالى (كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برئ منك انى اخاف الله رب العالمين) اى مثل المنافقين الذين غروا بنى النضير بقولهم لئن أخرجتم لنخرجن معكم ثم خذلوهم وماوفوا بعدهم كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر ثم تبرأ منه فى العاقبة والمراد اما عموم دعوة الشيطان الى الكفر واما اغواء الشيطان قريشا يوم بدر بقوله لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم الى قوله انى برئ منكم ❊ ثم قال (فكان عاقبتهما انهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال مقاتل فكان عاقبة المنافقين واليهود مثل عاقبة الشيطان والانسان حيث صارا الى النار (المسئلة الثانية)قال صاحب الكشاف قرأ ابن مسعود خالدان فيها حال على انه خبران وفى النار لغو وعلى القراءة المشهورة الخبر هو الظرف وخالدين فيها وقرئ عاقبتهما بالرفع ثم قال وذلك جزاء الظالمين اى المشركين لقوله تعالى ان الشرك لظلم عظيم ثم انه تعالى رجع الى موعظة المؤمنين ❊ فقال (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد) الغد يوم القيامة سماه باليوم الذى يلى يومك تقريبا له ثم ذكر النفس والغد على سبيل التنكير اما الفائدة فى تنكير النفس فاستقلال الانفس التى تنظر فيما قدمت للآخرة كأنه قال فلتنظر نفس واحدة فى ذلك واما تنكير الغد فلتعظيمه وابهام امره كأنه قيل الغد لايعرف كنهه لعظمه ❊ ثم قال تعالى (واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) كرر الامر بالتقوى تأكيدا او يحمل الاول على اداء الواجبات والثانى على ترك المعاصى ❊ ثم قال تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم انفسهم) وفيه وجهان (الاول) قال المقاتلان نسوا حق الله فجعلهم ناسين حق انفسهم حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده (الثانى) فأنساهم انفسهم اى اراهم يوم القيامة من الاهوال مانسوا فيه انفسهم كقوله لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ❊ ثم قال تعالى (أولئك هم الفاسقون) والمقصود منه الذم واعلم انه تعالى لما ارشد المؤمنين الى ما هو مصلحتهم يوم القيامة بقوله ولتنظر نفس ماقدمت لغد وهدد الكافرين بقوله الذين نسوا الله فأنساهم انفسهم بين الفرق بين الفريقين ❊ فقال تعالى (لا يستوى اصحاب النار واصحاب الجنة اصحاب الجنة هم الفائزون) واعلم ان التفاوت بين هذين الفريقين معلوم بالضرورة فذكر هذا الفرق فى مثل هذا الموضع يكون الغرض منه التنبيه على عظم ذلك الفرق وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المعتزلة احتجوا على ان صاحب الكبيرة لا يدخل الجنة

ماذكر من تشتت قلوبهم بسبب انهم (قوم لا يعقلون) اى لايعقلون شيئا حتى يعرفوا الحق ويتبعوه وتطمئن به قلوبهم وتتحد كلمتهم ويرموا عن قوس واحدة فيقعون فى تيه الضلال وتتشتت قلوبهم حسب تشتت طرقه وتفرق فنونه واما ماقيل من ان المعنى لايعقلون ان تشتت القلوب مما يوهن قواهم فبمعزل من السداد وقوله تعالى (كمثل الذين من قبلهم)خبر مبتدأ محذوف تقديره مثلهم اى مثل المذكورين من اليهود والمنافقين كمثل اهل بدر او بنى قينقاع على ماقيل انهم اخرجوا قبل بنى النضير (قريبا) فى زمان قريب وانتصابه بمثل اذ التقدير كوقوع مثل الخ (ذاقوا وبال امرهم) اى سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا (ولهم) فى الآخرة (عذاب اليم) لايقادر قدره والمعنى ان حال هؤلاء كحال اولئك فى الدنيا والآخرة لكن لا على ان حال كلهم كحالهم بل حال بعضهم الذين هم اليهود كذلك واما حال المنافقين فهى ما نطق به قوله تعالى (كمثل الشيطان) فانه خبر ثان للمبتدأ المقدر مبين لحالهم متضمن لحال اخرى لليهود وهى اغترارهم بمقالة المنافقين اولا وخيبتهم آخرا وقد اجمل فى النظم الكريم حيث اسند كل من الخبرين الى المقدر المضاف الى ضمير الفريقين من غير تعيين ما اسند اليه بخصوصه ثقة بأن السامع يرد كلا من المثلين الى ما عماثله كأنه قيل مثل اليهود فى حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم الخ ومثل المنافقين فى اغرائهم اياهم على القتال حسبما نقل عنهم كمثل الشيطان (اذ قال للانسان اكفر)اى اغراء عن الكفر اغراء الآمر المأمور على المأمور به (فلما كفر قال انى برئ منك) وقرئ انا برئ منك ان اريد بالانسان الجنس فهذا التبرؤ من الشيطان يكون يوم القيامة كما ينبئ عنه قوله تعالى (انى اخاف الله رب العالمين)وان اريد به ابو جهل فقوله تعالى اكفر

عبارة عن قول ابليس يوم بدر لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم وتبرؤه قوله يومئذ في بريء منكم اني ارى ما لا ترون اني اخاف الله الآية (فكان عاقبتهما) بالنصب على انه خبر كان واسمها (انهما في النار) (١٨٢) وقرئ بالعكس وقد مر انه اوضح (خالدين فيها)

لان الآية دلت على ان اصحاب النار واصحاب الجنة لا يستويان فلو دخل صاحب الكبيرة الجنة لكان اصحاب النار واصحاب الجنة يستويان وهو غير جائز وجوابه معلوم (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بهذه الآية على ان المسلم لا يقتل بالذمي وقد بينا وجهه في الخلافيات ثم انه تعالى لما شرح هذه البيانات عظم امر القرآن ❊ فقال تعالى (لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) والمعنى انه لو جعل في الجبل عقل كما جعل فيكم ثم انزل عليه القرآن لخشع وخضع وتشقق من خشية الله ❊ ثم قال تعالى (وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) اى الغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على قساوة قلوب هؤلاء الكفار وغلظ طباعهم ونظيره قوله ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة واعلم انه لما وصف القرآن بالعظم ومعلوم ان عظم الصفة تابع لعظم الموصوف اتبع ذلك بشرح عظمة الله ❊ فقال تعالى (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) اعلم انه تعالى قدم الغيب على الشهادة في اللفظ وفيه سر عقلي اما المفسرون فذكروا اقوالا في الغيب والشهادة فقيل الغيب المعدوم والشهادة الموجود وقيل ما غاب عن العباد وما شاهدوه وقيل السر والعلانية وقيل الدنيا والآخرة ❊ ثم قال تعالى (هو الله الذي لا اله الا هو الملك) وكل ذلك قد تقدم تفسيره ❊ ثم قال تعالى (القدوس) قرئ بالضم والفتح وهو البليغ في النزاهة في الذات والصفات والافعال والاحكام والاسماء وقد شرحناه في اول سورة الحديد ومضى شيء منه في تفسير قوله ونقدس لك وقال الحسن انه الذي كثرت بركاته ❊ وقوله (السلام) فيه وجهان (الاول) انه بمعنى السلامة ومنه دار السلام وسلام عليكم وصف به مبالغة في كونه سليما من النقائص كما يقال رجاء وغياث وعدل فان قيل فعلى هذا التفسير لا يبقى بين القدوس وبين السلام فرق والتكرار خلاف الاصل قلنا كونه قدوسا اشارة الى براءته عن جميع العيوب في الماضي والحاضر وكونه سليما اشارة الى انه لا يطرأ عليه شيء من العيوب في الزمان المستقبل فان الذي يطرأ عليه شيء من العيوب فانه تزول سلامته ولا يبقى سليما (الثاني) انه سلام بمعنى كونه موجبا للسلامة ❊ وقوله تعالى (المؤمن) فيه وجهان (الاول) انه الذي آمن اولياءه عذابه يقال آمنه يؤمنه فهو مؤمن (والثاني) انه المصدق اما على معنى انه يصدق انبياءه باظهار المعجزة لهم او لاجل ان امة محمد صلى الله عليه وسلم يشهدون لسائر الانبياء كما قال لتكونوا شهداء على الناس ثم ان الله يصدقهم في تلك الشهادة وقرئ بفتح الميم يعني المؤمن به على حذف الجار كما حذف في قوله واختار موسى قومه ❊ وقوله تعالى (المهيمن) قالوا معناه الشاهد الذي لا يغيب عنه شيء ثم في اصله قولان قال الخليل وابو عبيدة هيمن يهيمن فهو مهيمن اذا كان رقيبا على الشيء وقال آخرون مهيمن اصله مؤيمن وهو من آمن يؤمن فيكون بمعنى المؤمن وقد تقدم استقصاؤه عند قوله ومهيمنا عليه وقال ابن الانباري المهيمن القائم على خلقه برزقه وانشد

وقرئ خالدان فيها على انه خبران وفي النار لغو (وذلك جزاء الظالمين) اى الخلود في النار جزاء الظالمين على الاطلاق دون هؤلاء خاصة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) اى في كل ما تأتون وما تذرون (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) اى اى شيء قدمت من الاعمال ليوم القيامة عبر عنه بذلك لدنوه اولان الدنيا كيوم والآخرة غده وتنكيره لتفخيمه وتهويله كأنه قيل لغد لا يعرف كنهه لغاية عظمه واما تنكير نفس فلاستقلال الانفس النواظر فيما قدمن لذلك اليوم الهائل كأنه قيل ولتنظر نفس واحدة في ذلك (واتقوا الله) تكرير للتأكيد او الاول في اداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الامر بالعمل وهذا في ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله تعالى (ان الله خبير بما تعملون) اى من المعاصي (ولا تكونوا كالذين نسوا الله) اى نسوا حقوقه تعالى وما قدروه حق قدره ولم يراعوا مواجب اوامره ونواهيه حق رعايتها (فانساهم) بسبب ذلك (انفسهم) اى جعلهم ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها او اراهم يوم القيامة من الاهوال ما انساهم انفسهم (اولئك هم الفاسقون) الكاملون في الفسوق (لا يستوي اصحاب النار) الذين نسوا الله تعالى فاستحقوا الخلود في النار (واصحاب الجنة) الذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود في الجنة ولعل تقديم اصحاب النار في الذكر للايذان من اول الامر بأن القصور الذي ينبئ عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم فان مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وان جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص وعليه قوله تعالى (الا) هل يستوي الاعمى والبصير ام هل تستوي الظلمات والنور الى غير ذلك من المواقع واما قوله تعالى هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون

الاان خير الناس بعد نبيه * مهيمنه التاليه فى العرف والنكر

قال معناه القائم على الناس بعده ❊ واماقوله (العزيز) فهو اماالذى لايوجدله نظيره اما الغالب القاهر ❊ واماقوله (الجبار) ففيه وجوه (احدها) انه فعال من جبراذااغنى الفقير واصلح الكسير قال الازهرى وهو لعمرى جابر كل كسير وفقير وهو جابر دينه الذى ارتضاه قال العجاج * قدجبرالدين الاله فجبر * (والثانى) ان يكون الجبار من جبره على كذا اذا اكرهه على ماراده قال السدى انه الذى يقهر الناس ويجبرهم على ماراده قال الازهرى هى لغة تميم وكثير من الحجازيين يقولونها وكان الشافعى يقول جبره السلطان على كذا بغير الف وجعل الفراء الجبار بهذا المعنى من اجبره وهى اللغة المعروفة فى الاكراه فقال لم اسمع فعالا من افعل الا فى حرفين وهما جبار من اجبر ودراك من ادرك وعلى هذا القول الجبار هو القهار (الثالث) قال ابن الانبارى الجبار فى صفة الله الذى لاينال ومنه قيل للنخلة التى فاتت يدالمتناول جبارة (الرابع) قال ابن عباس الجبار هو الملك العظيم قال الواحدى هذا الذى ذكرناه من معانى الجبار فى صفة الله وللجبار معان فى صفة الخلق (احدها) المسلط كقوله وماانت عليهم بجبار (والثانى) العظيم الجسم كقوله ان فيها قوما جبارين (والثالث) المتمرد عن عبادة الله كقوله ولم يجعلنى جبارا (والرابع) القتال كقوله بطشتم جبارين وقوله ان تريد الاان تكون جبارا فى الارض ❊ اماقوله تعالى (المتكبر) ففيه وجوه (احدها) قال ابن عباس الذى تكبر بربوبيته فلاشئ مثله (وثانيها) قال قتادة المتعظم عن كل سوء (وثالثها) قال الزجاج الذى تعظم عن ظلم العباد (ورابعها) قال ابن الانبارى المتكبر ذوالكبرياء والكبرياء عند العرب الملك ومنه قوله تعالى وتكون لكما الكبرياء فى الارض واعلم ان المتكبر فى حق الخلق اسم ذم لان المتكبر هو الذى يظهر من نفسه الكبر وذلك نقص فى حق الخلق لانه ليس له كبر ولا علو بل ليس معه الا الحقارة والذلة والمسكنة فاذا اظهر العلو كان كاذبا فكان ذلك مذموما فى حقه اماالحق سبحانه فله جميع انواع العلو والكبرياء فاذا اظهره فقد ارشد العباد الى تعريف جلاله وعلوه فكان ذلك فى غاية المدح فى حقه سبحانه ولهذا السبب لما ذكر هذا الاسم ❊ قال تعالى (سبحان الله عمايشركون) كأنه قيل ان المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله فى هذا الوصف لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذى هو حاصل للخلق لانهم ناقصون بحسب ذواتهم فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب الى النقصان الذاتى اماالحق سبحانه فله العلو والعزة فاذا اظهره كان ذلك ضم كمال الى كمال فسبحان الله عما يشركون فى اثبات صفة المتكبرية للخلق ❊ ثم قال تعالى (هو الله الخالق) والخلق هو التقدير معناه انه يقدر افعاله على وجوه مخصوصة فالخالقية راجعة الى صفة الارادة ❊ ثم قال تعالى (البارئ) وهو بمنزلة قولنا صانع وموجد الا انه يفيد اختراع الاجسام ولذلك يقال فى الخلق برية ولايقال فى الاعراض التى هى كاللون والطعم ❊ واماقوله (المصور)

فلعل تقديم الفاضل فيه لان صلته ملكة لصلة المفضول والاعدام مسبوقة بملكاتها ولادلالة فى الآية الكريمة على ان المسلم لايقتص بالكافر وان الكفار لايملكون اموال المسلمين بالقهر لان المراد عدم الاستواء فى الاحوال الاخروية كما ينبئ عنه التعبير عن الفريقين بصاحبية النار وصاحبية الجنة وكذا قوله تعالى (اصحاب الجنة هم الفائزون) فانه استئناف مبين لكيفية عدم الاستواء بين الفريقين اى هم الفائزون بكل مطلوب الناجون عن كل مكروه (لو انزلنا هذا القرآن) العظيم الشان المنطوى على فنون القوارع (على جبل) من الجبال (لرأيته) مع كونه علما فى القسوة وعدم التأثر ممايصادمه (خاشعا متصدعا من خشية الله) اى متشققا منها وقرئ مصدعا بالادغام وهذا تمثيل وتخييل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير مافيه من المواعظ كما ينطق به قوله تعالى (وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) اريد به توبيخ الانسان على قسوة قلبه وعدم تخشعه عند تلاوته وقلة تدبره فيه (هو الله الذى لااله الاهو) وحده (عالم الغيب والشهادة) اى ماغاب عن الحس من الجواهر القدسية واحوالها وماحضر له من الاجرام واعراضها وتقديم الغيب على الشهادة لتقدمه فى الوجود وتعلق العلم القديم به اوالمعدوم والموجود اوالسر والعلانية (هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لااله الاهو) كرر لابراز الاعتناء بامر التوحيد (الملك القدوس) البليغ فى النزاهة عما يوجب نقصانا ما وقرئ بالفتح وهى لغة فيه (السلام) ذوالسلامة من كل نقص وآفة مصدر وصف به للمبالغة (المؤمن) واهب الامن وقرئ بالفتح بمعنى المؤمن به على حذف الجار (المهيمن) الرقيب الحافظ لكل شئ مفيعل من الامن بقلب همزته هاء (العزيز) الغالب (الجبار) الذى جبر خلقه على ماراد او جبر احوالهم اى اصلحها (المتكبر) الذى تكبر عن كل مايوجب حاجة اونقصانا اوالبليغ الكبرياء والعظمة (سبحان الله عمايشركون) تنزيه له تعالى عما يشركون به تعالى اوعن اشراكهم به تعالى اثر تعداد صفاته التى لا يمكن ان يشاركه تعالى فى شئ منها شئ ماصلا (هو الله الخالق) المقدر

ثالاشياء على مقتضى حكمته (البارئ) الموجد لها بريئا من التفاوت وقيل المميز بعضها من بعض بالاشكال المختلفة (المصور) الموجد لصورها وكيفياتها كما اراد (له الاسماء الحسنى) لدلالتها على المعاني (١٨٤) الحسنة (يسبح له ما في السموات والارض) ينطق بتنزهه تعالى عن جميع النقايص تنزها ظاهرا (وهو العزيز الحكيم) الجامع للكمالات كافة فانها مع تكثرها وتشعبها راجعة الى الكمال في القدرة والعلم * عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

*(سورة الممتحنة مدنية وآيها ثلاث عشرة) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء) نزلت في حاطب بن ابي بلتعة وذلك انه لما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزوة لفتح كتب الى اهل مكة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم وارسله مع سارة مولاة بني المطلب فنزل جبريل عليه السلام بالخبر فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وعمارا وطلحة والزبير والمقداد وابا مرثد وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب حاطب الى اهل مكة فخذوه منها وخلوها فان ابت فاضربوا عنقها فادركوها ثمة فجحدت فسل على سيفه فاخرجته من عقاصها فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا وقال ما حملك على هذا فقال يا رسول الله ما كفرت منذ اسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش وليس لي فيهم من يحمي اهلي فأردت ان آخذ عندهم يدا وقد علمت ان كتابي لن يغني عنهم شيا فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل عذره (تلقون اليهم بالمودة) اي توصلون اليهم المودة على ان الباء زائدة كما في قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة او تلقون اليهم اخبار النبي عليه الصلاة والسلام بسبب المودة التي بينكم وبينهم والجملة اما حال من فاعل لا تتخذوا او صفة لاولياء وابراز الضمير في الصفات الجارية على غير من هي له انما يشترط في الاسم دون الفعل او استئناف (فالخطاب)

فمعناه انه يخلق صور الخلق على ما يريد وقدم ذكر الخالق على البارئ لان ترجيح الارادة مقدم على تأثير القدرة وقدم البارئ على المصور لان ايجاد الذوات مقدم على ايجاد الصفات * ثم قال تعالى (له الاسماء الحسنى) وقد فسرناه في قوله ولله الاسماء الحسنى * اما قوله تعالى (يسبح له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) فقد مر تفسيره في اول سورة الحديد والله اعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه اجمعين وسلم تسليما كثيرا

(سورة الممتحنة ثلاث عشرة آية مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان من جملة ما يتحقق به التعلق بما قبلها هو انهما يشتركان في بيان حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع الحاضرين في زمانه من اليهود والنصارى وغيرهم فان بعضهم اقدموا على الصلح واعترفوا بصدقه ومن جملتهم بنو النضير فانهم قالوا والله انه النبي الذي وجدنا نعته وصفته في التوراة وبعضهم انكروا ذلك واقدموا على القتال اما على التصريح واما على الاخفاء فانهم مع اهل الاسلام في الظاهر ومع اهل الكفر في الباطن واما تعلق الاول بالآخر فظاهر لما ان آخر تلك السورة يشتمل على الصفات الحميدة لحضرة الله تعالى من الوحدانية وغيرها واول هذه السورة مشتمل على حرمة الاختلاط مع من لم يعترف بتلك الصفات (المسئلة الثانية) اما سبب النزول فقد روى انها نزلت في حاطب بن ابي بلتعة لما كتب الى اهل مكة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز للفتح ويريد ان يغزوكم فخذوا حذركم ثم ارسل ذلك الكتاب مع امرأة مولاة لبني هاشم يقال لها سارة جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة فقال عليه السلام امسلمة جئت قالت لا قال أمهاجرة جئت قالت لا قال فما جاء بك قالت قد ذهب الموالي يوم بدر اي قتلوا في ذلك اليوم فاحتجت حاجة شديدة فحث عليها بني المطلب فكسوها وحملوها وزودوها فأتاها حاطب واعطاها عشرة دنانير وكساها بردا واستحملها ذلك الكتاب الى اهل مكة فخرجت سائرة فأطلع الله الرسول عليه السلام على ذلك فبعث عليا وعمر وعمارا وطلحة والزبير خلفها وهم فرسان فأدركوها وسألوا عن ذلك فأنكرت وحلفت فقال علي عليه السلام والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله وسل سيفه فأخرجته من عقاص شعرها فجاؤا بالكتاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرضه على حاطب فاعترف وقال ان لي بمكة اهلا ومالا فأردت ان اتقرب منهم وقد علمت ان الله تعالى ينزل بأسه عليهم فصدقه وقبل عذره فقال عمر دعني يا رسول الله اضرب عنق هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم وما يدريك يا عمر لعل الله تعالى قد اطلع على اهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر وقال الله ورسوله اعلم فنزلت واما تفسير الآية

فالخطاب في ياأيها الذين آمنوا قدم وكذلك في الايمان انه في نفسه شئ واحد وهو التصديق بالقلب او اشياء كثيرة وهى الطاعات كما ذهب اليه المعتزلة واما قوله تعالى لاتتخذوا عدوى وعدكم فاتخذ يتعدى الى مفعولين وهما عدوى واولياء والعدو فعول من عدا كعفو من عفا ولكونه على زنة المصدر اوقع على الجمع ايقاعه على الواحد والعداوة ضد الصداقة وهما لايجتمعان في محل واحد في زمان واحد من جهة واحدة لكنهما يرتفعان في مادة الامكان وعن الزجاج والكرابيسي عدوى اى عدو ديني وقال عليه السلام المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل وقال عليه السلام لابى ذر ياابا ذر اى عرا الايمان اوثق فقال الله ورسوله اعلم فقال الموالاة في الله والحب في الله والبغض في الله وقوله تعالى تلقون اليهم بالمودة فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله تلقون بماذا يتعلق نقول فيه وجوه (الاول) قال صاحب النظم هو وصف النكرة التي هى اولياء قاله الفراء (الثانى) قال في الكشاف يجوز ان يتعلق بلا تتخذ حالا من ضميره واولياء صفة له (الثالث) قال ويجوز ان يكون استئنافا فلا يكون صلة لاولياء والباء في المودة كهى في قوله تعالى ومن يرد فيه بالحاد بظلم والمعنى تلقون اليهم اخبار النبي صلى الله عليه وسلم وسره بالمودة التي بينكم وبينهم ويدل عليه تسرون اليهم بالمودة (المسئلة الثانية) في الآية مباحث (الاول) اتخاذ العدو وليا كيف يمكن وقد كانت العداوة منافية للمحبة والمودة والمحبة والمودة من لوازم ذلك الاتخاذ نقول لا يبعد ان تكون العداوة بالنسبة الى امر والمحبة والمودة بالنسبة الى آخر الاترى الى قوله تعالى ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم والنبي صلى الله عليه وسلم قال اولادنا اكبادنا (الثانى) لما قال عدوى فلم لم يكتف به حتى قال وعدوكم لان عدو الله انما هو عدو المؤمنين نقول الامر لازم من هذا التلازم وانما لايلزم من كونه عدوا للمؤمنين ان يكون عدو الله كما قال ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم (الثالث) لم قال عدوى وعدوكم ولم يقل بالعكس فنقول العداوة بين المؤمن والكافر بسبب محبة الله تعالى ومحبة رسوله فتكون محبة العبد من اهل الايمان لحضرة الله تعالى لعلة ومحبة حضرة الله تعالى للعبد لا لعلة لما انه غنى على الاطلاق فلا حاجة به الى الغير اصلا والذى لا لعلة مقدم على الذى لعلة ولان الشئ اذا كان له نسبة الى الطرفين فالطرف الاعلى مقدم على الطرف الادنى (الرابع) قال اولياء ولم يقل وليا والعدو والولى بلفظ فنقول كما ان المعرف بحرف التعريف يتناول كل فرد فكذلك المعرف بالاضافة (الخامس) منهم من قال الباء زائدة وقدم ان الزيادة في القرآن لاتمكن والباء مشتملة على الفائدة فلا تكون زائدة في الحقيقة * ثم قال تعالى

وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم ان تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا في سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالمودة وانا اعلم بما اخفيتم وما اعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) قوله وقد كفروا الواو للحال اى وحالهم انهم

(وقد كفروا بما جاءكم من الحق) حال من فاعل تلقون وقيل من فاعل لاتتخذوا وقرئ لما جاءكم اى كفروا لاجل ما جاءكم بمعنى جعل ما هو سبب الايمان سببا للكفر (يخرجون الرسول واياكم) اى من مكة وهو اما حال من فاعل كفروا او استئناف مبين لكفرهم وصيغة المضارع لاستحضار الصورة وقوله تعالى (ان تؤمنوا بالله ربكم) تعليل للاخراج وفيه تغليب المخاطب على الغائب والتفات من التكلم الى الغيبة للاشعار بما يوجب الايمان من الالوهية والربوبية (ان كنتم خرجتم جهادا في سبيلى وابتغاء مرضاتى) متعلق بلاتتخذوا كأنه قيل لاتتولوا اعدائى ان كنتم اوليائى وقوله تعالى (تسرون اليهم بالمودة) استئناف وارد على نهج العتاب والتوبيخ اى تسرون اليهم المودة او الاخبار بسبب المودة (وانا اعلم) اى والحال انى اعلم منكم (بما اخفيتم وما اعلنتم) ومطلع رسولى على ما تسرون فأى طائل لكم في الاسرار وقيل اعلم مضارع والباء مزيدة وما موصولة او مصدرية وتقديم الاخفاء على الاعلان قد مر وجهه في قوله تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون (ومن يفعله منكم) اى الاتخاذ (فقد ضل سواء السبيل) فقد اخطأ طريق الحق والصواب (ان يثقفوكم) اى ان يظفروا بكم (يكونوا لكم اعداء) اى يظهروا ما في قلوبهم من العداوة ويرتبوا عليها احكامها (ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء) بما يسوءكم من القتل والاسر والشتم (وودوا لو تكفرون) اى تمنوا ارتدادكم وصيغة الماضى للايذان

كفروا بما جاءكم من الدين الحق وقيل من القرآن يخرجون الرسول واياكم يعنى من مكة الى المدينة ان تؤمنوا اى لان تؤمنوا بالله ربكم وقوله ان كنتم خرجتم قال الزجاج هو شرط جوابه متقدم وهو لاتتخذوا عدوى وعدوكم اولياء وقوله تعالى جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى منصوبان لانهما مفعولان لهما تسرون اليهم بالمودة عن مقاتل بالنصيحة ثم ذكر انه لايخفى عليه من احوالهم شئ فقال وانا اعلم بما اخفيتم من المودة للكفار وما اعلنتم اى اظهرتم ولا يبعد ان يكون هذا عاما فى كل ما يخفى ويعلن قال بعضهم هو اعلم باسرار العبد وخفاياه وظاهره وباطنه من افعاله واحواله وقوله تعالى ومن يفعله منكم يجوز ان تكون الكناية راجعة الى الاسرار والى الالقاء والى اتخاذ الكفار اولياء لما ان هذه الافعال مذكورة من قبل وقوله تعالى فقد ضل سواء السبيل فيه وجهان (الاول) عن ابن عباس انه عدل عن قصد الايمان فى اعتقاده وعن مقاتل قد اخطأ قصد الطريق عن الهدى ثم فى الاية مباحث (الاول) ان كنتم خرجتم متعلق بلا تتخذوا يعنى لاتتولوا اعدائى ان كنتم اوليائى وتسرون استئناف معناه اى طائل لكم فى اسراركم وقد علمتم ان الاخفاء والاعلان سيان فى علمى (الثانى) لقائل ان يقول ان كنتم خرجتم الآية قضية شرطية ولو كان كذلك فلا يمكن وجود الشرط وهو قوله ان كنتم خرجتم بدون ذلك النهى ومن المعلوم انه يمكن فنقول هذا المجموع شرط لمقتضى ذلك النهى لا للنهى بصريح اللفظ ولا يمكن وجود المجموع بدون ذلك لان ذلك موجود دائما فالفائدة فى ابتغاء مرضاتى ظاهرة اذ الخروج قد يكون ابتغاء لمرضاة الله وقد لايكون (الثالث) قال تعالى بما اخفيتم وما اعلنتم ولم يقل بما اسررتم وما اعلنتم مع انه اليق بما سبق وهو تسرون فنقول فيه من المبالغة ماليس فى ذلك فان الاخفاء ابلغ من الاسرار دل عليه قوله يعلم السر وأخفى اى اخفى السر (الرابع) قال بما اخفيتم قدم العلم بالاخفاء على الاعلان مع ان ذلك مستلزم لهذا من غير عكس فنقول هذا بالنسبة الى علمنا لا بالنسبة الى علمه تعالى اذ هما سيان فى علمه كما مر ولان المقصود بيان ماهو الاخفى وهو الكفر فيكون مقدما (الخامس) قال تعالى ومن يفعله منكم ماالفائدة فى قوله منكم ومن المعلوم ان من فعل هذا الفعل فقد ضل سواء السبيل نقول اذا كان المراد من منكم من المؤمنين فظاهر لان من يفعل ذلك الفعل لايلزم ان يكون مؤمنا ثم انه اخبر المؤمنين بعداوة كفار اهل مكة ※ فقال تعالى (ان يثقفوكم يكونوا لكم اعداء ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون لن تنفعكم ارحامكم ولا اولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير) قوله يثقفوكم اى يظفروا بكم ويتمكنوا منكم يكونوا لكم فى غاية العداوة وهو قول ابن عباس وقال مقاتل يظهروا عليكم يصادفوكم ويبسطوا اليكم ايديهم بالضرب والسنتهم بالشتم وودوا ان ترجعوا الى دينهم والمعنى ان اعداء الله لايخلصون المودة لاولياء الله لما بينهم من المباينة لن تنفعكم ارحامكم لما عوتب حاطب

بتحقق ودادتهم قبل ان يثقفوهم ايضا (لن تنفعكم ارحامكم) قراباتكم (ولا اولادكم) الذين توالون المشركين لاجلهم وتتقربون اليهم محاماة عليهم (يوم القيامة) بجلب نفع اودفع ضر (يفصل بينكم) استئناف لبيان عدم نفع الارحام والاولاد يومئذ اى يفرق الله بينكم بما اعتراكم من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر حسبما نطق به قوله تعالى يوم يفر المرء من اخيه الآية فمالكم ترفضون حق الله تعالى لمراعاة حق من هذا شأنه وقرئ يفصل ويفصل مبنيا للمفعول ويفصل ويفصل مبنيا للفاعل وهو الله تعالى ونفصل ونفصل بالنون (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم به (قد كانت لكم اسوة حسنة) اى خصلة حميدة حقيقة بأن يؤتسى ويقتدى بها وقوله تعالى (فى ابراهيم والذين معه) اى من اصحابه المؤمنين صفة ثانية لاسوة اوخبر لكان ولكم للبيان اوحال من المستكن فى حسنة اوصلة لها لا لاسوة عند من لايجوز العمل بعد الوصف (اذقالوا) ظرف لخبر كان (لقومهم انا برآء منكم) جمع برئ كظريف وظرفاء وقرئ براء كظراف وبراء كرخال وبراء على الوصف بالمصدر مبالغة (ومما تعبدون من دون الله) من الاصنام (كفرنا بكم) اى بدينكم اوبمعبودكم اوبكم وبه فلا نعتد بشأنكم وبآلهتكم (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا) اى هذا دأبنا معكم لا نتركه (حتى تؤمنوا بالله وحده) وتتركوا ما انتم عليه من الشرك فتنقلب العداوة حينئذ ولاية والبغضاء محبة (الاقول ابراهيم لابيه

على مافعل اعتذر بأن له ارحاما وهى القرابات والاولاد فيما بينهم وليس هناك من يمنع عشيرته فاراد ان يتخذ عندهم يدا يحسنوا الى من خلفهم بمكة من عشيرته فقال لن تنفعكم ارحامكم ولا اولادكم الذين توالون الكفار من اجلهم وتتقربون اليهم مخافة عليهم ثم قال يوم القيامة يفصل بينكم وبين اقاربكم واولادكم فيدخل اهل الايمان الجنة واهل الكفر النار قال تعالى والله بما تعملون بصير اى بما عمل حاطب ثم فى الآية مباحث (الاول) ماقاله صاحب الكشاف ان يثقفوكم يكونوا لكم اعداء كيف يورد جواب الشرط مضارعا مثله ثم قال وودوا بلفظ الماضى نقول الماضى وان كان يجرى فى باب الشرط مجرى المضارع فى علم الاعراب فان فيه نكتة كأنه قيل وودوا قبل كل شئ كفركم وارتدادكم (الثانى) يوم القيامة ظرف لاى شئ قلنا لقوله لن تنفعكم اويكون ظرفا ليفصل وقرأ ابن كثير يفصل بضم الياء وفتح الصاد ويفصل على البناء للفاعل وهو الله ونفصل ونفصل بالنون (الثالث) قال تعالى والله بما تعملون بصير ولم يقل خبير مع انه ابلغ فى العلم بالشئ والجواب ان الخبير ابلغ فى العلم والبصير اظهر منه فيه لما انه يجعل عملهم كالمحسوس بحس البصر والله اعلم ❊ قال تعالى (قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده الاقول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك وما املك لك من الله من شئ ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير) اعلم ان الاسوة مايؤتسى به مثل القدوة لما يقتدى به يقال هو اسوتك اى انت مثله وهو مثلك وجمع الاسوة اسى فالاسوة اسم لكل مايقتدى به قال المفسرون اخبر الله تعالى ان ابراهيم واصحابه تبرؤا من قومهم وعادوهم وقالوا لهم انا برآء منكم وامر اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يأتسوا بهم وبقولهم قال الفراء يقول افلا تأسيت ياحاطب بابراهيم فى التبرئة من اهله فى قوله تعالى اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم وقوله تعالى الاقول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك وهو مشرك وقال مجاهد نهوا ان يتأسوا باستغفار ابراهيم لأبيه فيستغفرون للمشركين وقال مجاهد وقتادة ائتسوا بامر ابراهيم كله الافى استغفاره لابيه وقيل تبرؤا من كفار قومكم فان لكم اسوة حسنة فى ابراهيم ومن معه من المؤمنين فى البراءة من قومهم لافى الاستغفار لابيه وقال ابن قتيبة يريد ان ابراهيم عاداهم وهجرهم فى كل شئ الافى قوله لابيه لاستغفرن لك وقال ابن الانبارى ليس الامر على ماذكره بل المعنى قد كانت لكم اسوة فى كل شئ فعله الافى قوله لابيه لاستغفرن لك وقوله تعالى ومااملك لك من الله من شئ هذا من قول ابراهيم لابيه يقول له مااغنى عنك شيئا ولا ادفع عنك عذاب الله ان اشركت به فوعده الاستغفار رجاء الاسلام وقال ابن عباس كان من دعاء ابراهيم واصحابه ربنا عليك توكلنا الآية اى فى جميع امورنا واليك انبنا رجعنا بالتوبة عن المعصية اليك اذ المصير ليس الا الى حضرتك وفى الآية مباحث

لاستغفرن لك) استثناء من قوله تعالى اسوة حسنة فان استغفاره عليه الصلاة والسلام لابيه الكافر وان كان جائزا عقلا وشرعا لو قوعه قبل تبين انه من اصحاب الجحيم كما نطق به النص لكنه ليس مما ينبغى ان يؤتسى به اصلا اذ المراد به مايجب الائتساء به حتما لورود الوعيد على الاعراض عنه بما سيأتى من قوله تعالى ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد فاستثناؤه من الاسوة انما يفيد عدم وجوب استدعاء الايمان والمغفرة للكافر المرجو ايمانه وذلك مما لا يرتاب فيه عاقل واما عدم جوازه فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا هذا واما تعليل عدم كون استغفاره عليه الصلاة والسلام لابيه الكافر مما ينبغى ان يؤتسى به بانه كان قبل النهى اولموعدة وعدها اياه فبمعزل من السداد بالكلية لا بتنائه على تناول النهى لاستغفاره عليه الصلاة والسلام له وانبائه عن كونه مؤتسى به لم ينه عنه وكلا هما بين البطلان لما ان مورد النهى هو الاستغفار للكافر بعد تبين امره وقد عرفت ان استغفاره عليه الصلاة والسلام لابيه كان قبل ذلك قطعا وان مايؤتسى به مايجب الائتساء به لا مايجوز فعله فى الجملة وتجويز ان يكون استغفاره عليه الصلوة والسلام له بعد النهى كما هو المفهوم من ظاهر قوله الاعن موعدة وعدها اياه مما لامساغ له وتوجيه الاستثناء الى العدة بالاستغفار لا الى نفس الاستغفار بقوله واغفر لابى الآية لانها كانت هى الحاملة له عليه الصلاة والسلام على الاستغفار وتخصيص هذه العدة بالذكر دون ماوقع فى سورة مريم من قوله تعالى سأستغفر لك

(الاول) لقائل ان يقول حتى تؤمنوا بالله وحده ماالفائدة فى قوله وحده والايمان به وبغيره من اللوازم كما قال تعالى كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله فنقول الايمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر من لوازم الايمان بالله وحده اذالمراد من قوله وحده هو وحده فى الالوهية ولانشك فى ان الايمان بالوهية غيره لايكون ايمانابالله اذ هوالاشراك فى الحقيقة والمشرك لايكون مؤمنا (الثانى) قوله تعالى الاقول ابراهيم استثناء من اى شئ هونقول من قوله اسوة حسنة لما انه ارادبالاسوة الحسنة قولهم الذى حق عليهم ان يأتسوا به ويتخذوه سنة يستنون بها (الثالث) ان كان قوله لاستغفرن لك مستثنى من القول الذى سبق وهو اسوة حسنة فما بال قوله وماأملك لك من الله من شئ وهو غير حقيق بالاستثناء الاترى الى قوله تعالى قل فمن يملك لكم من الله شيئا نقول اراد الله تعالى استثناء جملة قوله لابيه والقصد الى موعد الاستغفار له ومابعده مبنى عليه وتابع له كأنه قال انا استغفر لك وماوسعى الاالاستغفار (الرابع) اذاقيل بم اتصل قوله ربنا عليك توكلنا نقول بما قبل الاستثناء وهو من جملة الاسوة الحسنة ويجوز ان يكون المعنى هو الامر بهذا القول تعليما للمؤمنين وتتميما لما وصاهم من قطع العلائق بينهم وبين الكفرة والائتساء بابراهيم وقومه فى البراءة منهم تنبيها على الانابة الى حضرة الله تعالى والاستعاذة به (الخامس) اذا قيل ماالفائدة فى هذا الترتيب فنقول فيه من الفوائد مالا يحيط به الاهو والظاهر من تلك الجملة ان يقال التوكل لاجل الافادة وافادة التوكل مفتقرة الى التقوى قال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا والتقوى الانابة اذ التقوى الاحتراز عما لاينبغى من الامور والاشارة الى ان المرجع والمصير للخلائق حضرته المقدسة ليس الا فكأنه ذكر الشئ وذكر عقيبه مايكون من اللوازم لافادة ذلك كما ينبغى والقراءة فى برآء على اربعة اوجه برآء كشركاء وبراء كظراف وبراء على ابدال الضم من الكسر كرخال وبراء على الوصف بالمصدر والبراء والبراءة مثل الظماء والظماءة ۞ ثم قال تعالى (ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك انت العزيز الحكيم لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم) قوله ربنا لاتجعلنا فتنة من دعاء ابراهيم قال ابن عباس لاتسلط علينا اعداءنا فيظنوا انهم على الحق وقال مجاهد لاتعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لوكان هؤلاء على الحق لما اصابهم ذلك وقيل لاتبسط عليهم الرزق دوننا فان ذلك فتنة لهم وقيل لاتجعلنا فتنة اى عذابا اى سببا يعذب به الكفرة وعلى هذا ليست الآية من قول ابراهيم وقوله تعالى واغفر لنا ربنا الآية من جملة مامر فكأنه قيل لاصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قولوا ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا ثم اعاد ذكر الاسوة تأكيد الكلام فقال لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة اى فى ابراهيم والذين معه وهذا هو الحث على الائتساء بابراهيم

(وقومه)

ربى لورودها على طريق التوكيد القسمى واما جعل الاستغفار دائرا عليها وترتيب التبرؤ على تبين الامر فقدمر تحقيقه فى سورة التوبة وقوله تعالى (وما املك لك من الله من شئ) من تمام القول المستثنى محله النصب على انه حال من فاعل لاستغفرن لك اى استغفر لك وليس فى طاقتى الاالاستغفار فورد الاستثناء نفس الاستغفار لاقيده الذى هو فى نفسه من خصال الخير لكونه اظهار اللعجز وتفويضا للامر الى الله تعالى وقوله تعالى (ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير) الخ من تمام مانقل عن ابراهيم عليه السلام ومن معه من الاسوة الحسنة وتقديم الجار والمجرور لقصر التوكل والانابة والمصير على الله تعالى قالوه بعد المجاهرة وقشر العصا التجاء الى الله تعالى فى جميع امورهم لاسيما فى مدافعة الكفرة وكفاية شرورهم كما ينطق به قوله تعالى (ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا) بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لانطيقه (واغفر لنا) مافرط منا من الذنوب (ربنا انك انت العزيز) الغالب الذى لايذل من التجأ اليه ولا يخيب رجاء من توكل عليه (الحكيم) الذى لايفعل الامافيه حكمة بالغة وتكرير النداء للمبالغة فى التضرع والجؤار هذا واما جعل الآيتين تلقينا للمؤمنين من جهته تعالى وامرا لهم بأن يتوكلوا عليه وينيبوا اليه ويستعيذوا به من فتنة الكفرة ويستغفروا مما فرط منهم تكملة لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفرة فلا يساعده النظم الكريم (لقد كان

وقومه قال ابن عباس كانوا يبغضون من خالف الله ويحبون من احب الله وقوله تعالى لمن كان يرجوالله بدل من قوله لكم وبيان ان هذه الاسوة لمن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة ومن يتول اى يعرض عن الائتساء بهم ويميل الى مودة الكفار فان الله هو الغنى عن مخالفة اعدائه الحميد الى اوليائه اما قوله تعالى عسى الله فقال مقاتل لما امر الله تعالى المؤمنين بعداوة الكفار شددوا فى عداوة آبائهم وابنائهم وجميع اقاربهم والبراءة منهم فأنزل الله تعالى قوله عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم اى من كفار مكة مودة وذلك بميلهم الى الاسلام ومخالطتهم مع اهل الاسلام ومناكحتهم اياهم وقيل تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ام حبيبة فلانت عند ذلك عريكة ابى سفيان واسترخت شكيمته فى العداوة وكانت ام حبيبة قد اسلمت وهاجرت مع زوجها عبيدالله ابن جحش الى الحبشة فتنصر وراودها على النصرانية فأبت وصبرت على دينها ومات زوجها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشى فخطبها عليه وساق عنه اليها اربعمائة دينار وبلغ ذلك اباها فقال ذلك الفحل لايقدع انفه وعسى وعد من الله تعالى وبين الذين عاديتم منهم مودة يريد نفرا من قريش آمنوا بعد فتح مكة منهم ابوسفيان بن حرب وابوسفيان ابن الحرث والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام والله تعالى قادر على تقليب القلوب وتغيير الاحوال وتسهيل اسباب المودة والله غفور رحيم بهم اذا تابوا واسلموا ورجعوا الى حضرة الله تعالى قال بعضهم لاتهجروا كل الهجر فان الله مطلع على الخفيات والسرائر ويروى احبب حبيبك هونا ما عسى ان يكون بغيضك يوما ما ومن المباحث فى هذه الحكمة هو ان قوله تعالى ربنا لا تجعلنا فتنة اذا كان تأويله لاتسلط علينا اعداءنا مثلا فلم ترك هذا واتى بذلك فنقول اذا كان ذلك بحيث يحتمل ان يكون عبارة عن هذا فاذا اتى به فكأنه اتى بهذا وذلك وفيه من الفوائد ما ليس فى الاقتصار على واحد من تلك التأويلات (الثانى) لقائل ان يقول ما الفائدة فى قوله تعالى واغفر لنا ربنا وقد كان الكلام مرتبا اذا قيل لاتجعلنا فتنة للذين كفروا انك انت العزيز الحكيم فنقول انهم طلبوا البراءة عن الفتنة والبراءة عن الفتنة لايمكن وجودها بدون المغفرة اذ العاصى لو لم يكن مغفورا كان مقهورا بقهر العذاب وذلك فتنة اذ الفتنة عبارة عن كونه مقهورا والحميد قد يكون بمعنى الحامد وبمعنى المحمود فالمحمود اى يستحق الحمد من خلقه بما انعم عليهم والحامد اى يحمد الخلق ويشكرهم حيث يجزيهم بالكثير من الثواب عن القليل من الاعمال ※ ثم انه تعالى بعد ما ذكر من ترك انقطاع المؤمنين بالكلية عن الكفار رخص فى صلة الذين لم يقاتلوهم من الكفار فقال

(لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) اختلفوا

لكم فيهم) اى فى ابرهيم ومن معه (اسوة حسنة) تكرير للمبالغة فى الحث على الائتساء به عليه الصلاة والسلام ولذلك صدر بالقسم وقوله تعالى (لمن كان يرجوالله واليوم الآخر) بدل من لكم فائدته الايذان بان من يؤمن بالله واليوم الآخر لايترك الاقتداء بهم وان تركه من مخايل عدم الايمان بهما كما ينبئ عنه قوله تعالى (ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد) فانه مما يوعد بأمثاله الكفرة (عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم) اى من اقاربكم المشركين (مودة) بأن يوافقوكم فى الدين وعدهم الله تعالى بذلك لما رأى منهم من التصلب فى الدين والتشدد لله فى معاداة آبائهم وابنائهم وسائر اقربائهم ومقاطعتهم اياهم بالكلية تطييبا لقلوبهم ولقد انجز وعده الكريم حين اتاح لهم الفتح فأسلم قومهم فتم بينهم من التحاب والتصافى ما تم (والله قدير) اى مبالغ فى القدرة فيقدر على تقليب القلوب وتغيير الاحوال وتسهيل اسباب المودة (والله غفور رحيم) فيغفر لمن اسلم من المشركين ويرحمهم وقيل غفور لما فرط منكم فى موالاتهم من قبل ولما بقى فى قلوبكم من ميل الرحم (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم) اى لاينهاكم عن البر بهؤلاء فان قوله تعالى (ان تبروهم) بدل من الموصول (وتقسطوا اليهم) اى تفضوا اليهم بالقسط اى العدل (ان الله يحب المقسطين) اى العادلين روى ان قتيلة بنت عبد العزى قدمت مشركة على بنتها اسماء بنت ابى بكر رضى الله عنه بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها

في المراد من الذين لم يقاتلوكم فالاكثرون على انهم أهل العهد الذين عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك القتال والمظاهرة في العداوة وهم خزاعة كانوا عاهدوا الرسول على ان لا يقاتلوه ولا يخرجوه فأمر الرسول عليه السلام بالبر والوفاء الى مدة اجلهم وهذا قول ابن عباس والمقاتلين والكلبي وقال مجاهد الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا وقيل هم النساء والصبيان وعن عبد الله بن الزبير انها نزلت في اسماء بنت ابي بكر قدمت أمها قتيلة عليها وهي مشركة بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم ان تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن اليها وعن ابن عباس انهم قوم من بني هاشم منهم العباس اخرجوا يوم بدر كرها وعن الحسن ان المسلمين استأمروا رسول الله في أقربائهم من المشركين ان يصلوهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل الآية في المشركين وقال قتادة نسختها آية القتال وقوله تعالى ان تبروهم بدل من الذين لم يقاتلوكم وكذلك ان تولوهم بدل من الذين قاتلوكم والمعنى لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء وانما ينهاكم عن تولي هؤلاء وهذا رحمة لهم لشدتهم في العداوة وقال اهل التأويل هذه الآية تدل على جواز البر بين المشركين والمسلمين وان كانت الموالاة منقطعة وقوله تعالى وتقسطوا اليهم قال ابن عباس يريد بالصلة وغيرها ان الله يحب المقسطين يريد اهل البر والتواصل وقال مقاتل ان توفوا لهم بعهدهم وتعدلوا ثم ذكر من الذين ينهاهم عن صلتهم فقال انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ان تولوهم وفيه لطيفة وهي انه يؤكد قوله تعالى لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم ❊ ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما انفقوا ولا جناح عليكم ان تنكحوهن اذا آتيتموهن اجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما انفقتم وليسألوا ما انفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم) في نظم هذه الآيات وجه حسن معقول وهو ان المعاند لا يخلو من احد احوال ثلاثة اما ان يستمر عناده او يرجى منه ان يترك العناد او يترك العناد ويستسلم وقد بين الله تعالى في هذه الآيات احوالهم وامر المسلمين ان يعاملوهم في كل حالة على ما يقتضيه الحال اما قوله تعالى قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم فهو اشارة الى الحالة الاولى ثم قوله تعالى عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة اشارة الى الحالة الثانية ثم قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات اشارة الى الحالة الثالثة ثم فيه لطيفة وتنبيه وحث على مكارم الاخلاق لانه تعالى ما امر المؤمنين في مقابلة تلك الاحوال الثلاث بالجزاء الا بالتي هي احسن وبالكلام الا بالذي هو اليق واعلم انه تعالى سماهن مؤمنات لصدور ما يقتضي الايمان وهو كلمة الشهادة منهن ولم يظهر منهن ما هو المنافي له او لانهن مشارفات لثبات ايمانهن بالامتحان والامتحان هو الابتلاء بالحلف والحلف لاجل غلبة الظن

بالدخول فنزلت فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن اليها وقيل المراد بهم خزاعة وكانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه (انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم) وهم عتاة اهل مكة (وظاهروا على اخراجكم) وهم سائر اهلها (ان تولوهم) بدل اشتمال من الموصول اي انما ينهاكم عن ان تتولوهم (ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) لوضعهم الولاية في مواضع العداوة او هم الظالمون لانفسهم بتعريضها للعذاب (يا أيها الذين آمنوا) بيان لحكم من يظهر الايمان بعد بيان حكم فريقي الكافرين (اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات) من بين الكفار (فامتحنوهن) فاختبروهن بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهن لالسنتهن في الايمان يروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول للتي يمتحنها بالله الذي لا اله الا هو ما خرجت من بغض زوج بالله ما خرجت رغبة عن ارض الى ارض بالله ما خرجت التماس دنيا بالله ما خرجت الا حبا لله ورسوله (الله اعلم بايمانهن) لانه المطلع على ما في قلوبهن والجملة اعتراض (فان علمتموهن) بعد الامتحان (مؤمنات) علما يمكنكم تحصيله وتبلغه طاقتكم بعد التي والتي من الاستدلال بالعلائم والدلائل والاستشهاد بالامارات والمخايل وهو الظن الغالب وتسميته علما للايذان بأنه جار مجرى العلم في وجوب العمل به (فلا ترجعوهن الى الكفار) اى الى ازواجهن الكفرة لقوله تعالى

(بايمانهن)

بايمانهن وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للممتحنة بالله الذى لا اله الا هو ماخرجت من بغض زوج بالله ماخرجت رغبة من ارض الى ارض بالله ماخرجت التماس دنيا بالله ماخرجت الاحبا لله ورسوله وقوله الله اعلم بايمانهن منكم والله يتولى السرائر فان علمتموهن العلم الذى هو عبارة عن الظن الغالب بالحلف وغيره فلاترجعوهن الى الكفار اى تردوهن الى ازواجهن المشركين وقوله تعالى لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن وآتوهم ماانفقوا اى اعطوا ازواجهن مثل مادفعوا اليهن من المهور وذلك ان الصلح عام الحديبية كان على ان من اتاكم من اهل مكة يرد اليهم ومن أتى مكة منكم لم يرد اليكم وكتبوا بذلك العهد كتابا وختموه فجاءت سبيعة بنت الحرث الاسلمية مسلمة والنبى صلى الله عليه وسلم بالحديبية فأقبل زوجها مسافر المخزومى وقيل صيفى بن الراهب فقال يامحمد اردد على امرأتى فانك قدشرطت لنا شرطا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طية الكتاب لم تجف فنزلت بيانا لان الشرط انما كان للرجال دون النساء وعن الزهرى انه قال انها جاءت ام كلثوم بنت عقبة بن ابى معيط وهى عاتق فجاء اهلها يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يرجعها اليهم وكانت هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها اخواها عمارة والوليد فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم اخويها وحبسها فقالوا ارددها علينا فقال عليه السلام كان الشرط فى الرجال دون النساء وعن الضحاك ان العهد كان ان يأتك منا امرأة ليست على دينك الارددتها الينا وان دخلت فى دينك ولها زوج رددت على زوجها الذى انفق عليها وللنبى صلى الله عليه وسلم من الشرط مثل ذلك ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد واستحلفها الرسول عليه السلام فحلفت واعطى زوجها ماانفق ثم تزوجها عمر وقوله تعالى ولاجناح عليكم ان تنكحوهن اذا آتيتموهن اجورهن اى مهورهن اذ المهر اجر البضع ولا تمسكوا بعصم الكوافر والعصمة مايعتصم به من عهد وغيره ولاعصمة بينكم وبينهن ولاعلقة النكاح كذلك وعن ابن عباس ان اختلاف الدارين يقطع العصمة وقيل لاتقعدوا للكوافر وقرئ تمسكوا بالتخفيف والتشديد وتمسكوا اى ولاتمسكوا وقوله تعالى واسألوا ماانفقتم وهو اذا لحقت امرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدة فأسألوهم ماانفقتم من المهر اذا منعوها ولم يدفعوها اليكم فعليهم ان يغرموا صداقها كما يغرم لهم وهو قوله تعالى وليسألوا ماانفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم اى بين المسلمين والكفار وفى الآية مباحث (الاول) قوله فامتحنوهن امر بمعنى الوجوب أو بمعنى الندب اوبغير هذا وذلك قال الواحدى هو بمعنى الاستحباب (الثانى) ماالفائدة فى قوله الله اعلم بايمانهن وذلك معلوم من غير شك نقول فائدته بيان ان لاسبيل الى ماتطمئن به النفس من الاحاطة بحقيقة ايمانهن فان ذلك مما استأثر به علام الغيوب (الثالث) ماالفائدة فى قوله ولاهم يحلون لهن ويمكن ان يكون فى احد الجانبين دون الآخر نقول هذا باعتبار الايمان من جانبهن ومن جانبهم اذ الايمان من الجانبين شرط

(لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن) فانه تعليل للنهى عن رجعهن اليهم والتكرير اما التأكيد الحرمة اولان الاول لبيان زوال النكاح الاول والثانى لبيان امتناع النكاح الجديد (وآتوهم ماانفقوا) اى واعطوا ازواجهن مثل مادفعوا اليهن من المهور وذلك ان صلح الحديبية كان على ان من جاءنا منكم رددناه فجاءت سبيعة بنت الحرث الاسلمية مسلمة والنبى عليه الصلاة والسلام بالحديبية فأقبل زوجها مسافر المخزومى وقيل صيفى بن الراهب فقال يامحمد اردد على امرأتى فانك قد شرطت ان ترد علينا من أتاك منا فنزلت لبيان ان الشرط انما كان فى الرجال دون النساء فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلفت فأعطى زوجها ماانفق وتزوجها عمر رضى الله عنه (ولاجناح عليكم ان تنكحوهن) فان اسلامهن حال بينهن وبين ازواجهن الكفار (اذا آتيتموهن اجورهن) شرط ايتاء المهر فى نكاحهن ايذانا بان مااعطى ازواجهن لايقوم مقام المهر (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) جمع عصمة وهى مايعتصم به من عقد وسبب اى لايكن بينكم وبين المشركات عصمة ولاعلقة زوجية قال ابن عباس رضى الله عنهما من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدن بها من نسائه لان اختلاف الدارين قطع عصمتها منه وعن النخعى رحمه الله هى المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر وعن مجاهد امرهم بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن وقرئ لاتمسكوا بالتشديد ولاتمسكوا بحذف احدى التاءين من تتمسكوا (واسألوا ماانفقتم)

للحل ولان الذكر من الجانبين مؤكد لارتفاع الحل وفيه من الافادة مالايكون في غيره فان قيل هب انه كذلك لكن يكفي قوله فلا ترجعوهن الى الكفار لانه لايحل احدهما للآخر فلاحاجة الى الزيادة عليه والمقصود هذا لا غير نقول التلفظ بهذا اللفظ لايفيد ارتفاع الحل من الجانبين بخلاف التلفظ بذلك اللفظ وهذا ظاهر (البحث الرابع) كيف سمى الظن علما في قوله فان علمتموهن نقول انه من باب ان الظن الغالب وما يفضي اليه الاجتهاد والقياس جار مجرى العلم وان صاحبه غير داخل في قوله ولاتقف ماليس لك به علم ❊ قال تعالى (وان فاتكم شيء من ازواجكم الى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت ازواجهم مثل ما انفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) روى عن الزهري ومسروق ان من حكم الله تعالى ان يسأل المسلمون من الكفار مهر المرأة المسلمة اذا صارت اليهم ويسأل الكفار من المسلمين مهر من صارت الينا من نسائهم مسلمة فأقر المسلمون بحكم الله وابى المشركون فنزلت وان فاتكم شيء من ازواجكم اي سبقكم وانفلت منكم قال الحسن ومقاتل نزلت في ام حكيم بنت ابي سفيان ارتدت وتركت زوجها عباس بن تميم القرشي ولم ترتد امرأة من غير قريش غيرها ثم عادت الى الاسلام وقوله تعالى فعاقبتم اي فغنمتم على قول ابن عباس ومسروق ومقاتل وقال ابوعبيدة اصبتم منهم عقبى وقال المبرد فعاقبتم اي فعلتم ما فعل بكم يعني ظفرتم وهو من قولك العقبى لفلان اي العاقبة وتأويل العاقبة الكرة الاخيرة ومعنى عاقبتم غزوتم معاقبين غزوا بعد غزو وقيل كانت العقبى لكم والغلبة فاعطوا الازواج من رأس الغنيمة ماانفقوا عليهن من المهر وهو قوله فآتوا الذين ذهبت ازواجهم مثل ماانفقوا وقرئ فأعقبتم وفعقبتم بالتشديد وفعقبتم بالتخفيف بفتح القاف وكسرها ❊ قوله تعالى (ياأيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لايشركن بالله شيئا ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولايعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم) روى ان النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال اخذ في بيعة النساء وهو على الصفا وعمر اسفل منه يبايع النساء بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبلغهن عنه وهند بنت عتبة امرأة ابي سفيان متقنعة متنكرة خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يعرفها فقال عليه الصلاة والسلام أبايعكن على ان لاتشركن بالله شيئا فرفعت هند رأسها وقالت والله لقد عبدنا الاصنام وانك لتأخذ علينا امرا ما رأيناك اخذته على الرجال تبايع الرجال على الاسلام والجهاد فقط فقال عليه الصلاة والسلام ولاتسرقن فقال هند ان ابا سفيان رجل شحيح واني اصبت من ماله هناة فما ادري أتحل لي ام لا فقال ابوسفيان مااصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال لها وانك لهند بنت عتبة قالت نعم فاعف عما سلف يانبي الله عفا الله عنك فقال ولاتزنين فقالت أوتزني الحرة وفي رواية مازنت منهن امرأة قط فقال

(ولا)

من مهور نسائكم اللاحقات بالكفار (وليسألوا ما انفقوا) من مهور ازواجهم المهاجرات (ذلكم) الذي ذكر (حكم الله) وقوله تعالى (يحكم بينكم) كلام مستأنف اوحال من حكم الله على حذف الضمير اي يحكمه الله اوجعل الحكم حاكما على المبالغة (والله عليم حكيم) يشرع ماتقتضيه الحكمة البالغة روى انه لما نزلت الآية أدى المؤمنون ماامروا به من مهور المهاجرات الى ازواجهن المشركين وابى المشركون ان يؤدوا شيئا من مهور الكوافر الى ازواجهن المسلمين فنزل قوله تعالى (وان فاتكم) اي سبقكم وانفلت منكم (شيء من ازواجكم الى الكفار) اي احد من ازواجكم وقد قرئ كذلك وايقاع شيء موقعه للتحقير والاشباع في التعميم اوشيء من مهور ازواجكم (فعاقبتم) اي فجاءت عقبتكم اي نوبتكم من اداء المهر شبه ماحكم به على المسلمين والكافرين من اداء هؤلاء مهور نساء اولئك تارة واداء اولئك مهور نساء هؤلاء اخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره (فآتوا الذين ذهبت ازواجهم مثل ماانفقوا) من مهر المهاجرة التي تزوجتموها ولاتؤتوه زوجها الكافر وقيل معناه ان فاتكم فأصبتم من الكفار عقبى هي الغنيمة فآتوا بدل الفائت من الغنيمة وقرئ فأعقبتم وفعقبتم بالتشديد وفعقبتم بالتخفيف وفتح القاف وبكسرها قيل جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة ام الحكم بنت ابي سفيان وفاطمة بنت امية وبروع بنت عقبة وعبدة بنت عبد العزى

ولاتقتلن اولادكن فقالت ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا فأنتم وهم اعلم وكان ابنها حنظلة ابن ابي سفيان قد قتل يوم بدر فضحك عمر رضى الله عنه حتى استلقى وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ولا تأتين ببهتان تفترينه وهو ان تقذف على زوجها ماليس منه فقالت هند والله ان البهتان لامر قبيح وما تأمرنا الا بالرشد ومكارم الاخلاق فقال ولا تعصينني فى معروف فقالت والله ماجلسنا مجلسنا هذا وفى انفسنا ان نعصيك فى شئ وقوله ولا يسرقن يتضمن النهى عن الخيانة فى الاموال والنقصان من العبادة فانه يقال اسرق من السارق من سرق من صلاته ولا يزنين يحتمل حقيقة الزنا ودواعيه ايضا على ماقال صلى الله عليه وسلم اليدان تزنيان والعينان تزنيان والرجلان تزنيان والفرج يصدق ذلك او يكذبه وقوله ولا يقتلن اولادهن اراد وأد البنات الذى كان يفعله اهل الجاهلية ثم هو عام فى كل نوع من قتل الولد وغيره وقوله تعالى ولا يأتين ببهتان نهى عن النميمة اى لاتنم احداهن على صاحبها فيورث القطيعة ويحتمل ان يكون نهيا عن الحاق الولد بأزواجهن قال ابن عباس لاتلحق بزوجها ولدا ليس منه قال الفراء كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هذا ولدى منك فذلك البهتان المفترى بين ايديهن وارجلهن وذلك ان الولد اذا وضعته الام سقط بين يديها ورجليها وليس المعنى نهيهن عن الزنا لان النهى عن الزنا قد تقدم وقوله تعالى ولا يعصينك فى معروف اى كل امر وافق طاعة الله وقيل فى امر بر وتقوى وقيل فى كل امر فيه رشد اى ولا يعصينك فى جميع امرك وقال ابن المسيب والكلبى وعبد الرحمن بن زيد ولا يعصينك فى معروف اى مما تأمرهن به وتنهاهن عنه كالنوح وتمزيق الثياب وجز الشعر ونتفه وشق الجيب وخمش الوجه ولاتحدث الرجال الا اذا كان ذا رحم محرم ولاتخلو برجل غير محرم ولا تسافر الا مع ذى رحم محرم ومنهم من خص هذا المعروف بالنوح وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اربع فى امتى من امر الجاهلية لايتركونهن الفخر فى الاحسان والطعن فى الانساب والاستقاء بالنجوم والنياحة وقال النائحة اذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة عليها سربال من قطران ودرع من جرب وقال صلى الله عليه وسلم ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية وقوله فبايعهن جواب اذا اى اذا بايعنك على هذه الشرائط فبايعهن واختلفوا فى كيفية المبايعة فقالوا كان يبايعهن وبين يده وايديهن ثوب وقيل كان يشترط عليهن البيعة وعمر يصافحهن قاله الكلبى وقيل بالكلام وقيل دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم غمسن ايديهن فيه وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة قط وفى الآية مباحث (البحث الاول) قال تعالى اذا جاءك المؤمنات ولم يقل فامتحنوهن كما قال فى المهاجرات (الجواب) من وجهين (احدهما) ان الامتحان حاصل بقوله تعالى على ان لايشركن الى آخره (وثانيهما) ان المهاجرات يأتين من دار الحرب فلا اطلاع لهن على الشرائع فلابد من الامتحان. واما المؤمنات فهن فى دار الاسلام وعلمن الشرائع فلا حاجة الى

وهند بنت ابى جهل وكلثوم بنت جرول (١٩٣) (واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون) فان الايمان به تعالى يقتضى التقوى منه تعالى (يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك) اى مبايعات لك اى قاصدات للمبايعة نزلت يوم الفتح فانه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بيعة الرجال شرع فى بيعة النساء (على ان لايشركن بالله شيئا) اى شيئا من الاشياء او شيئا من الاشراك (ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن اولادهن) اريد به وأد البنات وقرئ ولايقتلن بالتشديد (ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن) كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدى منك كنى عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها لان بطنها الذى تحمله فيه بين يديها ومخرجه بين رجليها (ولا يعصينك فى معروف) اى فيما تأمرهن به من معروف وتنهاهن عنه من منكر والتقييد بالمعروف مع ان الرسول صلى الله عليه وسلم لايأمر الا به للتنبيه على انه لايجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق وتخصيص الامور المعدودة بالذكر فى حقهن لكثرة وقوعها فيما بينهن مع اختصاص بعضها بهن (فبايعهن) اى على ماذكر ومالم يذكر لوضوح امره وظهور اصالته فى المبايعة من الصلاة والزكاة وسائر اركان الدين وشعائر الاسلام وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن على المسارعة اليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهن اليها (واستغفر لهن الله) زيادة على ما فى ضمن المبايعة فانها عبارة عن ضمان الثواب من قبله عليه الصلاة والسلام بمقابلة الوفاء بالامور المذكورة من قبلهن (ان الله غفور رحيم) اى مبالغ فى المغفرة والرحمة فيغفر لهن ويرحمهن اذا وفين بما بايعن عليه واختلف فى كيفية مبايعته عليه الصلاة والسلام لهن يومئذ فروى انه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بيعة (٢٥) (را) (من) الرجال جلس على الصفا ومعه عمر رضى الله تعالى عنه اسفل

الامتحان (الثاني) ما الفائدة في قوله تعالى بين ايديهن وارجلهن وما وجهه نقول من قال المرأة اذا التقطت ولدا فانما التقطت بيدها ومشت الى اخذه برجلها فاذا اضافته الى زوجها فقد اتت ببهتان تفتريه بين يديها ورجليها وقيل يفترينه على انفسهن حيث يقلن هذا ولدنا وليس كذلك اذ الولد ولد الزنا وقيل الولد اذا وضعته امه سقط بين يديها ورجليها (الثالث) ما وجه الترتيب في الاشياء المذكورة وتقديم البعض منها على البعض في الآية نقول قدم الاقبح على ما هو الادنى منه في القبح ثم كذلك الى آخره وقيل قدم من الاشياء المذكورة ما هو الاظهر فيما بينهم ❁ ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من اصحاب القبور) قال ابن عباس يريد حاطب بن ابي بلتعة يقول لا تتولوا اليهود والمشركين وذلك لان جماعة من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود اخبار المسلمين لحاجتهم اليهم فنهوا عن ذلك ويئسوا من الآخرة يعني ان اليهود كذبت محمدا صلى الله عليه وسلم وهم يعرفون انه رسول الله وانهم افسدوا آخرتهم بتكذيبهم اياه فهم يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من اصحاب القبور والتقييد بهذا القيد ظاهر لانهم اذا ماتوا على كفرهم كان العلم بخذلانهم وعدم حظهم في الآخرة قطعيا وهذا هو قول الكلبي وجماعة يعني الكفار الذين ماتوا يئسوا من الجنة ومن ان يكون لهم في الآخرة خير وقال الحسن يعني الاحياء من الكفار يئسوا من الاموات وقال ابو اسحق يئس اليهود الذين عاندوا النبي صلى الله عليه وسلم كما يئس الكفار الذين لا يؤمنون بالبعث من موتاهم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(سورة الصف اربع عشرة آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبح لله ما في السموات وما في الارض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) وجه التعلق بما قبلها هو ان في تلك السورة بيان الخروج جهادا في سبيل الله وابتغاء مرضاته بقوله ان كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي وفي هذه السورة بيان ما يحمل اهل الايمان ويحثهم على الجهاد بقوله تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص واما الاول بالآخر فكأنه قال ان كان الكفرة بجهلهم يصفون لحضرتنا المقدسة بما لا يليق بالحضرة فقد كانت الملائكة وغيرهم من الانس والجن يسبحون لحضرتنا كما قال سبح لله ما في السموات وما في الارض اى شهد له بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات الحميدة جميع ما في السموات والارض والعزيز من عز اذا غلب وهو الذي يغلب على غيره اى شئ كان ذلك الغير ولا يمكن ان يغلب عليه غيره والحكيم من حكم على الشئ اذا قضى عليه وهو الذي يحكم على غيره اى شئ كان ذلك الغير ولا يمكن ان يحكم عليه غيره فقوله سبح لله ما في السموات وما في الارض يدل على

بقدح من ماء فغمس فيه يده ثم غمس ايديهن وروى انه عليه الصلاة والسلام بايعهن وبين يديه وايديهن ثوب قطرى والاظهر الاشهر ما قالت عائشة رضي الله عنها والله ما اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء قط الا بما امر الله تعالى وما مست كف رسول الله صلى الله عليه وسلم كف امرأة قط وكان يقول اذا اخذ عليهن قد بايعتكن كلاما وكان المؤمنات اذا هاجرن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتحنهن بقول الله عز وجل يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات الى آخر الآية فاذا اقررن بذلك من قولهن قال لهن انطلقن فقد بايعتكن (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم) هم عامة الكفرة وقيل اليهود لما روى انها نزلت في بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم (قد يئسوا من الآخرة) لكفرهم بها اولعلمهم بأنه لا خلاق لهم فيها لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة المؤيد بالآيات (كما يئس الكفار من اصحاب القبور) اى كما يئس منها الذين ماتوا منهم لانهم وقفوا على حقيقة الحال وشاهدوا حرمانهم من نعيمها المقيم وابتلاءهم بعذابها الاليم والمراد وصفهم بكمال اليأس منها وقيل المعنى كما يئسوا من موتاهم ان يبعثوا او يرجعوا الى الدنيا احياء والاظهار في موقع الاضمار للاشعار بعلة يأسهم *عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة

(سورة الصف مدنية وقيل)
(مكية وآيها اربع عشرة)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(سبح لله ما في السموات وما في الارض وهو العزيز الحكيم) الكلام فيه كالذي مر في نظيره (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) روى

الربوبية والوحدانية اذن ثم انه تعالى قال فى البعض من السور سبح لله وفى البعض يسبح وفى البعض سبح بصيغة الامر ليعلم ان تسبيح حضرة الله تعالى دائم غير منقطع لما ان الماضى يدل عليه فى الماضى من الزمان والمستقبل يدل عليه فى المستقبل من الزمان والامر يدل عليه فى الحال وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون منهم من قال هذه الآية فى حق جماعة من المؤمنين وهم الذين احبوا ان يعملوا بأحب الاعمال الى الله فأنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة الآية وان الله يحب الذين يقاتلون فأحبوا الحياة وتولوا يوم احد فأنزل تعالى لم تقولون مالا تفعلون وقيل فى حق من يقول قاتلت ولم يقاتل وطعنت ولم يطعن وفعلت ولم يفعل وقيل انها فى حق اهل النفاق فى القتال لانهم تمنوا القتال فلما امر الله تعالى به قالوا لم كتبت علينا القتال وقيل انها فى حق كل مؤمن لانهم قد اعتقدوا الوفاء بما وعدهم الله به من الطاعة والاستسلام والخضوع والخشوع فاذا لم يوجد الوفاء بما وعدهم خيف عليهم فى كل زلة ان يدخلوا فى هذه الآية ثم فى هذه الجملة مباحث (الاول) قال تعالى سبح لله ما فى السموات وما فى الارض فى اول هذه السورة ثم قال تعالى فى اول سورة اخرى وهذا هو التكرار والتكرار عيب فكيف هو فنقول يمكن ان يقال كرره ليعلم انه فى نفس الامر غير مكرر لان ما وجد منه التسبيح عند وجود العالم بايجاد الله تعالى فهو غير ما وجد منه التسبيح بعد وجود العالم وكذا عند وجود آدم وبعد وجوده (الثانى) قال سبح لله ما فى السموات وما فى الارض ولم يقل سبح لله السموات والارض وما فيهما مع ان فى هذا من المبالغة ما ليس فى ذلك فنقول انما يكون كذلك اذا كان المراد من التسبيح التسبيح بلسان الحال مطلقا اما اذا كان المراد هو التسبيح المخصوص بالبعض بوصف كذا فلا يكون كما ذكرتم (الثالث) قال صاحب الكشاف لم هى لام الاضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر فى قولك بم وفيم وعم ومم وانما حذفت الالف لان ما والحرف كشئ واحد وقد وقع استعمالها فى كلام المستفهم ولو كان كذلك لكان معنى الاستفهام واقعا فى قوله تعالى لم تقولون مالا تفعلون والاستفهام من الله تعالى محال وهو عالم بجميع الاشياء فنقول هذا اذا كان المراد من الاستفهام طلب الفهم اما اذا كان المراد الزام من اعرض عن الوفاء بما وعد او انكر الحق واصر على الباطل فلا * ثم قال تعالى (كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون) والمقت هو البغض ومن استوجب مقت الله لزمه العذاب قال صاحب الكشاف المقت اشد البغض وابلغه وافحشه وقال الزجاج ان فى موضع رفع ومقتا منصوب على التمييز والمعنى كبر قولكم مالا تفعلون مقتا عند الله وهذا كقوله تعالى كبرت كلمة * قوله تعالى (ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) قرأ زيد بن على يقاتلون بفتح التاء وقرئ يقتلون اى يصفون صفا والمعنى يصفون انفسهم عند القتال كأنهم بنيان مرصوص قال الفراء مرصوص بالرصاص

قوله تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا بين الاختلال وروى انهم قالوا يا رسول الله لو نعلم احب الاعمال الى الله تعالى لسارعنا اليه فنزلت هل ادلكم على تجارة الى قوله تعالى وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وانفسكم فولوا يوم احد وفيه التزام ان ترتيب الآيات الكريمة ليس على ترتيب النزول وقيل لما اخبر الله تعالى بثواب شهداء بدر قالت الصحابة اللهم اشهد لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا ففروا يوم احد فنزلت وقيل انها نزلت فيمن يتمدح كاذبا حيث كان الرجل يقول قتلت ولم يقتل وطعنت ولم يطعن وهكذا وقيل كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر ونكى فيهم فقتله صهيب وانتحل قتله آخر فنزلت فى المنتحل وقيل نزلت فى المنافقين ونداؤهم بالايمان تهكم بهم وبأيمانهم وليس بذاك كما ستعرفه ولم مركبة من اللام الجارة وما الاستفهامية قد حذفت الفها تخفيفا لكثرة استعمالهما معا كما فى عم وفيم ونظائرهما معناها لاى شئ تقولون نفعل مالا تفعلون من الخير والمعروف على ان مدار التعبير والتوبيخ فى الحقيقة عدم فعلهم وانما وجها الى قولهم تنبيها على تضاعف معصيتهم ببيان ان المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط بل الوعد به ايضا وقد كانوا يحسبونه معروفا ولو قيل لم لا تفعلون ما تقولون لفهم منه ان المنكر هو ترك الموعود (كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون) بيان لغاية قبح ما فعلوه وفرط سماجته وكبر من باب نعم وبئس فيه ضمير مبهم مفسر بالنكرة بعده وان تقولوا هو المخصوص بالذم وقيل قصد فيه التعجب من غير لفظه واسند الى ان تقولوا ونصب مقتا على تفسيره دلالة على ان قولهم مالا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه كبر عند من يحقر دونه كل عظيم

يقال رصصت البناء اذا لايمت بينه و قارنت حتى يصير كقطعة واحدة وقال الليث يقال رصصت البناء اذا ضممته والرص انضمام الاشياء بعضها الى بعض وقال ابن عباس يوضع الحجر على الحجر ثم يرص بأحجار صغار ثم يوضع اللبن عليه فتسميه اهل مكة المرصوص وقال ابو اسحق اعلم الله تعالى انه يحب من يثبت في الجهاد ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص قال ويجوز ان يكون على ان يستوى شأنهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة وموالاة بعضهم بعضا كالبنيان المرصوص وقيل ضرب هذا المثل لاثبات يعني اذا اصطفوا ثبتوا كالبنيان المرصوص الثابت المستقر وقيل فيه دلالة على فضل القتال راجلا لان العرب يصطفون على هذه الصفة ثم المحبة في الظاهر على وجهين (احدهما) الرضا عن الخلق (وثانيهما) الثناء عليهم بما يفعلون ثم وجه تعلق الآية بما قبلها هو قوله تعالى كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون تلك الآية مذمة المخالفين في القتال وهم الذين وعدوا بالقتال ولم يقاتلوا وهذه الآية محمدة الموافقين في القتال وهم الذين قاتلوا في سبيل الله وبالغوا فيه ❊ ثم قال تعالى (واذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون انى رسول الله اليكم فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين) معناه اذكر لقومك هذه القصة واذ منصوب باضمار اذكر اى حين قال لهم تؤذونني وكانوا يؤذونه بأنواع الاذى قولا وفعلا فقالوا ارنا الله جهرة لن نصبر على طعام واحد وقيل قد رموه بالادرة وقوله تعالى وقد تعلمون انى رسول الله في موضع الحال اى تؤذونني عالمين علما قطعيا انى رسول الله وقضية علمكم بذلك موجبة للتعظيم والتوقير وقوله فلما زاغوا اى مالوا الى غير الحق ازاغ الله قلوبهم اى امالها عن الحق وهو قول ابن عباس وقال مقاتل زاغوا اى عدلوا عن الحق بأبدانهم ازاغ الله اى امال الله قلوبهم عن الحق واضلهم جزاء ما عملوا ويدل عليه قوله تعالى والله لايهدى القوم الفاسقين قال ابو اسحق معناه والله لايهدى من سبق في علمه انه فاسق وفي هذا تنبيه على عظم ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم حتى انه يؤدى الى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى وقد معناه التوكيد كأنه قال وتعلمون علما يقينيا لاشبهة لكم فيه ❊ ثم قال تعالى (واذ قال عيسى بن مريم يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه احمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ومن اظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لا يهدى القوم الظالمين) قوله انى رسول الله اى اذكروا انى رسول ارسلت اليكم بالوصف الذى وصفت به في التوراة ومصدقا بالتوراة وبكتب الله وبأنبيائه جميعا من تقدم وتأخر ومبشرا برسول يصدق بالتوراة على مثل تصديقي فكأنه قيل له ما اسمه فقال اسمه احمد فقوله يأتى من بعدى اسمه احمد جملتان في موضع الجر لانهما صفتان للنكرة التى هى رسول وفي بعدى اسمه قراءتان تحريك الياء بالفتح على الاصل وهو الاختيار عند الخليل وسيبويه في كل موضع تذهب فيه الياء

في ان ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال لاعما تقوله المتمدح او المتحل او ادعاه المنافق وان مناط التعيير والتوبيخ هو اخلافهم لاوعدهم كما اشير اليه. وقرئ يقاتلون بفتح التاء ويقتلون وصفا مصدر وقع موقع الفاعل او المفعول ونصبه على الحالية من فاعل يقاتلون اى صافين انفسهم او مصفوفين وقوله تعالى (كأنهم بنيان مرصوص) حال من المستكن في الحال الاولى اى مشبهين في تراصهم من غير فرجة وخلل ببنيان رص بعضه الى بعض ورصف حتى صار شيئا واحدا وقوله تعالى (واذ قال موسى لقومه) كلام مستأنف مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين اى واذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى لبنى اسرائيل حين ندبهم الى قتال الجبابرة بقوله ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولاترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين فلم يمتثلوا بأمره وعصوه اشد عصيان حيث قالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منهـا فانا داخلون الى قوله تعالى فاذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون وأصروا على ذلك وآذوه عليه الصلاة والسلام كل الاذية (ياقوم لم تؤذونني) اى بالمخالفة والعصيان فيما امرتكم به وقوله تعالى (وقد تعلمون انى رسول الله اليكم) جملة حالية مؤكدة لانكار الايذاء ونفي سببه وقد لتحقيق العلم وصيغة المضارع للدلالة على استمراره اى والحال انكم تعلمون علما قطعيا مستمرا بمشاهدة ماظهر بيدى من المعجزات القاهرة التى معظمها اهلاك عدوكم (لاانتفاء)

لالتقاء الساكنين واسكانها كما في قوله تعالى ولمن دخل بيتي فمن اسكن في قوله من بعدى اسمه حذف الياء من اللفظ لالتقاء الساكنين وهما الياء والسين من اسمه قاله المبرد وابو علي وقوله تعالى احمد يحتمل معنيين (احدهما) المبالغة في الفاعل يعني انه اكثر حمدا لله من غيره (وثانيهما) المبالغة من المفعول يعني انه يحمد بما فيه من الاخلاص والاخلاق الحسنة اكثر مما يحمد غيره ولنذكر الآن بعض ماجاء به عيسى عليه السلام بمقدم سيدنا محمد عليه السلام في الانجيل في عدة مواضع (اولها) في الاصحاح الرابع عشر من انجيل يوحنا هكذا وأنا أطلب لكم الى ابي حتى يمنحكم ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم الى الابد والفارقليط هو روح الحق اليقين هذا لفظ الانجيل المنقول الى العربي وذكر في الاصحاح الخامس عشر هذا اللفظ واما الفارقليط روح القدس يرسله ابي باسمي ويعلمكم ويمنحكم جميع الاشياء وهو يذكركم ماقلت لكم ثم ذكر بعد ذلك بقليل واني قد خبرتكم بهذا قبل ان يكون حتى اذا كان ذلك تؤمنون (وثانيها) ذكر في الاصحاح السادس عشر هكذا ولكن اقول لكم الآن حقا يقينا انطلاقي عنكم خير لكم فان لم انطلق عنكم الى ابي لم يأتكم الفارقليط وان انطلقت ارسلته اليكم فاذا جاء هو يفند اهل العالم ويدينهم ويمنحهم ويوقفهم على الخطيئة والبر والدين (وثالثها) ذكر بعد ذلك بقليل هكذا فان لي كلاما كثيرا اريد ان اقوله لكم ولكن لاتقدرون على قبوله والاحتفاظ له ولكن اذا جاء روح الحق اليكم يلهمكم ويؤيدكم بجميع الحق لانه ليس يتكلم بدعة من تلقاء نفسه هذا مافي الانجيل فان قيل المراد بفارقليط اذا جاء يرشدهم الى الحق ويعلمهم الشريعة هو عيسى يجئ بعد الصلب نقول ذكر الحواريون في آخر الانجيل ان عيسى لما جاء بعد الصلب ما ذكر شيئا من الشريعة وما علمهم شيئا من الاحكام ومالبث عندهم الا لحظة وماتكلم الا قليلا مثل انه قال أنا المسيح فلاتظنوني ميتا بل انا ناج عند الله ناظر اليكم واني ماأوحي بعد ذلك اليكم فهذا تمام الكلام وقوله تعالى فلما جاءهم بالبينات قيل هو عيسى وقيل هو محمد ويدل على ان الذي جاءهم بالبينات جاءهم بالمعجزات والبينات التي تبين ان الذي جاء به انما جاء به من عند الله وقوله تعالى هذا سحر مبين اى ساحر مبين وقوله ومن اظلم ممن افترى على الله الكذب اى من اقبح ظلما ممن بلغ افتراؤه المبلغ الذي يفترى على الله الكذب وانهم قد علموا ان ما نالوه من نعمة وكرامة فانما نالوه من الله تعالى ثم كفروا به وكذبوا على الله وعلى رسوله والله لايهدى القوم الظالمين اى لا يوفقهم الله للطاعة عقوبة لهم (وفي الآية بحث) وهو ان يقال بم انتصب مصدقا ومبشرا أبما في الرسول من معنى الارسال أم باليكم نقول بل بمعنى الارسال لان اليكم صلة للرسول ❋ ثم قال تعالى

(يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ليطفئوا اى ان يطفئوا وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الارادة تأكيدا له لما فيها من معنى الارادة في قولك جئتك

وانجاؤكم من ملكته الى رسول الله اليكم لارشدكم الى خير الدنيا والآخرة ومن قضية عليكم بذلك ان تبالغوا في تعظيمي وتسارعوا الى طاعتي (فلما زاغوا) اى اصروا على الزيغ عن الحق الذي جاء به موسى عليه السلام واستمروا عليه (أزاغ الله قلوبهم) اى صرفها عن قبول الحق والميل الى الصواب لصرف اختيارهم نحو الغي والضلال وقوله تعالى (والله لايهدى القوم الفاسقين) اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله من الازاغة ومؤذن بعلته اى لايهدى القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المصرين على الغواية هداية موصلة الى البغية لاهداية موصلة الى مايوصل اليها فانها شاملة للكل والمراد بهم اما المذكورون خاصة والاظهار في موقع الاضمار لذمهم بالفسق وتعليل عدم الهداية به او جنس الفاسقين وهم داخلون في حكمه دخولا اوليا وايا ما كان فوصفهم بالفسق ناظر الى مافي قوله تعالى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين وقوله تعالى فلاتأس على القوم الفاسقين هذا هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم ويرتضيه الذوق السليم واما ماقيل بصدد بيان اسباب الاذية من انهم كانوا يؤذونه عليه الصلاة والسلام بأنواع الاذى من انتقاصه وعيبه في نفسه وجحود آياته وعصيانه فيما تعود اليهم منافعه وعبادتهم البقر وطلبهم رؤية الله جهرة والتكذيب الذي هو تضييع حق الله وحقه فمما لاتعلق له بالمقام وقوله تعالى (واذ قال عيسى ابن مريم) اما معطوف على اذ الاولى معمول

لا كرامك كما زيدت اللام في لاابالك تأكيد المعنى الاضافة في ابالك واطفاء نور الله تعالى
بأفواههم تهكم بهم في ارادتهم ابطال الاسلام بقولهم في القرآن هذا سحر مثلت حالهم
بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه كذا ذكره في الكشاف وقوله والله متم نوره
قرئ بكسر الراء على الاضافة والاصل هو التنوين قال ابن عباس مظهر دينه وقال
صاحب الكشاف متم الحق ومبلغه غايته وقيل دين الله وكتاب الله ورسول الله وكل واحد
من هذه الثلاثة بهذه الصفة لانه يظهر عليهم من الآثار (وثانيها) ان نور الله ساطع ابدا
وطالع من مطلع لا يمكن زواله اصلا وهو الحضرة القدسية وكل واحد من الثلاثة كذلك
(وثالثها) ان النور نحو العلم والظلمة نحو الجهل او النور الايمان يخرجهم من الظلمات الى
النور او الاسلام هو النور او يقال الدين وضع الهي سائق لاولي الالباب الى الخيرات
باختيارهم المحمود وذلك هو النور والكتاب هو المبين قال تعالى تلك آيات الكتاب المبين
فالابانة والكتاب هو النور او يقال الكتاب حجة لكونه معجزا والحجة هو النور فالكتاب
كذلك او يقال في الرسول انه النور والالما وصف بصفة كونه رحمة للعالمين اذ الرحمة
باظهار ما يكون من الاسرار وذلك بالنور او نقول انه هو النور لان بواسطته اهتدى الخلق
او هو النور لكونه مبينا للناس ما نزل اليهم والمبين هو النور ثم الفوائد في كونه نورا وجوه
منها انه يدل على علو شأنه وعظمة برهانه وذلك لوجهين (احدهما) الوصف بالنور
(وثانيهما) الاضافة الى الحضرة ومنها انه اذا كان نورا من انوار الله تعالى كان مشرقا
في جميع اقطار العالم لانه لا يكون مخصوصا ببعض الجوانب فكان رسولا الى جميع
الخلائق لما روي عنه صلى الله عليه وسلم بعثت الى الاحمر والاسود فلا يوجد شخص من
الجن والانس الا ويكون من امته ان كان مؤمنا فهو من امة المتابعة وان كان كافرا فهو
من امة الدعوة وقوله تعالى ولو كره الكافرون اي اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين
وقوله بالهدى لمن اتبعه ودين الحق قيل الحق هو الله تعالى اي دين الله وقيل نعت للدين
اي والدين هو الحق وقيل الذي يحق ان يتبعه كل احد ويظهره على الدين كله يريد الاسلام
وقيل ليظهره اي الرسول صلى الله عليه وسلم بالغلبة وذلك بالحجة وههنا مباحث (الاول)
والله متم نوره والتمام لا يكون الا عند النقصان فكيف نقصان هذا النور فنقول اتمامه
بحسب النقصان في الاثر وهو الظهور في سائر البلاد من المشارق الى المغارب اذ الظهور
لا يظهر الا بالاظهار وهو الاتمام يؤيده قوله تعالى اليوم اكملت لكم دينكم وعن ابي
هريرة ان ذلك عند نزول عيسى من السماء قاله مجاهد (الثاني) قال ههنا متم نوره وقال
في موضع آخر مثل نوره وهذا عين ذلك او غيره فنقول هو غيره لان نور الله في ذلك الموضع
هو الله تعالى عند اهل التحقيق وههنا هو الدين او الكتاب او الرسول (الثالث) قال
في الآية المتقدمة ولو كره الكافرون وقال في المتأخرة ولو كره المشركون فما الحكمة فيه
فنقول انهم انكروا الرسول وما انزل اليه وهو الكتاب وذلك من نعم الله والكافرون كلهم

لعاملها واما معمول لمضمر معطوف
على عاملها (يا بني اسرائيل) اذ ناداهم
بذلك استمالة لقلوبهم الى تصديقه
في قوله (اني رسول الله اليكم
مصدقا لما بين يدي من التوراة)
فان تصديقه عليه الصلاة والسلام
اياها من اقوى الدواعي الى
تصديقهم اياه وقوله تعالى (ومبشرا
برسول يأتي من بعدي) معطوف
على مصدقا داع الى تصديقه عليه
الصلاة والسلام مثله من حيث
ان البشارة به واقعة في التوراة
والعامل فيهما ما في الرسول من
معنى الارسال لا الجار فانه صلة
للرسول والصلات بمعزل من
تضمن معنى الفعل وعليه يدور
العمل اي ارسلت اليكم حال كوني
مصدقا لما تقدمني من التوراة
ومبشرا بمن يأتي من بعدي من
رسول (اسمه احمد) اي محمد صلى
الله عليه وسلم يريد ان ديني
التصديق بكتب الله وانبيائه جميعا
ممن تقدم وتأخر وقرئ من بعدي
بفتح الياء (فلما جاءهم بالبينات)
اي بالمعجزات الظاهرة (قالوا
هذا سحر مبين) مشيرين الى ما جاء به
او اليه عليه الصلاة والسلام
وتسميته سحرا للمبالغة ويؤيده
قراءة من قرأ هذا ساحر (ومن
اظلم ممن افترى على الله الكذب
وهو يدعى الى الاسلام) اي اي
الناس اشد ظلما ممن يدعى الى
الاسلام الذي يوصله الى سعادة
الدارين فيضع موضع الاجابة
الافتراء على الله عز وجل بقوله
لكلامه الذي هو دعاء عباده الى
الحق هذا سحر اي هو اظلم من كل
ظالم وان لم يتعرض ظاهر
الكلام لنفي المساوي وقد مر
بيانه غير مرة وقرئ يدعى يقال
دعاه وادعاه مثل لمسه والتمسه

في كفران النعم فلهذا قال ولو كره الكافرون ولان لفظ الكافر اعم من لفظ المشرك والمراد من الكافرين ههنا اليهود والنصارى والمشركون وهنا ذكر النور واطفاءه واللائق به الكفر لانه الستر والتغطية لان من يحاول الاطفاء انما يريد الزوال وفي الآية الثانية ذكر الرسول والارسال ودين الحق وذلك منزلة عظيمة للرسول عليه السلام وهي اعتراض على الله كما قال

ألا قل لمن ظل لي حاسدا * أتدري على من أسأت الادب

أسأت على الله في فعله * كأنك لم ترض لي ما وهب

والاعتراض قريب من الشرك ولان الحاسدين للرسول عليه السلام كان اكثرهم من قريش وهم المشركون ولما كان النور اعم من الدين والرسول لاجرم قابله بالكافرين الذين هم جميع مخالفي الاسلام والارسال والرسول والدين اخص من النور قابله بالمشركين الذين هم اخص من الكافرين * ثم قال تعالى (يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) اعلم ان قوله تعالى هل أدلكم في معنى الامر عند الفراء يقال هل انت ساكت اى اسكت وبيانه ان هل بمعنى الاستفهام ثم يتدرج الى ان يصير عرضا وحثا والحث كالاغراء والاغراء امر وقوله تعالى على تجارة هي التجارة بين اهل الايمان وحضرة الله تعالى كما قال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة دل عليه تؤمنون بالله ورسوله والتجارة عبارة عن معاوضة الشئ بالشئ وكما ان التجارة تنجي التاجر من محنة الفقر وزحمة الصبر على ما هو من لوازمه فكذلك هذه التجارة وهي التصديق بالجنان والاقرار باللسان كما قيل في تعريف الايمان فلهذا قال بلفظ التجارة وكما ان في التجارة الربح والخسران فكذلك في هذا فان من آمن وعمل صالحا فله الاجر والربح الوافر واليسار المبين ومن اعرض عن العمل الصالح فله التحسر والخسران المبين وقوله تعالى تنجيكم من عذاب اليم قرئ مخففا ومثقلا وتؤمنون استئناف كأنهم قالوا كيف نعمل فقال تؤمنون بالله ورسوله وهو خبر في معنى الامر ولهذا اجيب بقوله يغفر لكم وقوله تعالى وتجاهدون في سبيل الله والجهاد بعد هذين الوجهين ثلاثة * جهاد فيما بينه وبين نفسه وهو قهر النفس ومنعها عن اللذات والشهوات * وجهاد فيما بينه وبين الخلق وهو ان يدع الطمع منهم ويشفق عليهم ويرحمهم * وجهاد فيما بينه وبين الدنيا وهو ان يتخذها زاد المعاده فتكون على خمسة اوجه وقوله تعالى ذلكم خير لكم يعني الذي امرتم به من الايمان بالله تعالى والجهاد في سبيله خير لكم من ان تتبعوا اهواءكم ان كنتم تعلمون اى ان كنتم تنتفعون بما علمتم فهو خير لكم وفي الآية مباحث (الاول) لم قال تؤمنون بلفظ الخبر نقول للايذان بوجوب الامتثال عن ابن عباس قالوا لو نعلم احب الاعمال الى الله تعالى لعملنا فنزلت هذه الآية فمكثوا ما شاء الله يقولون ياليتنا نعلم ما هي فدلهم الله

(والله لا يهدي القوم الظالمين) اى لا يرشدهم الى ما فيه فلاحهم لعدم توجههم اليه (يريدون ليطفؤا نور الله) اى يريدون ان يطفؤا دينه او كتابه او حجته النيرة واللام مزيدة لما فيها من معنى الارادة تأكيدا لها كما زيدت لما فيها من معنى الاضافة تأكيدا لها في لا ابالك او يريدون الافتراء ليطفؤا نور الله (بأفواههم) بطعنهم فيه مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه (والله متم نوره) اى مبلغه الى غايته بنشره في الآفاق واعلائه وقرئ متم نوره بلا اضافة (ولو كره الكافرون) اى ارغاما لهم والجملة في حيز الحال على ما بين مرارا (هو الذي ارسل رسوله بالهدى) بالقرآن او المعجزة (ودين الحق) والملة الحنيفية (ليظهره على الدين كله) ليعليه على جميع الاديان المخالفة له ولقد انجز الله عز وعلا وعده حيث جعله بحيث لم يبق دين من الاديان الا وهو مغلوب مقهور بدين الاسلام (ولو كره المشركون) ذلك وقرئ هو الذي ارسل نبيه (يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم) وقرئ تنجيكم بالتشديد وقوله تعالى (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم) استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله كأنهم قالوا كيف نعمل او ماذا نصنع فقيل تؤمنون بالله الخ وهو خبر في معنى الامر جئ به للايذان بوجوب الامتثال فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه ويؤيده قراءة من قرأ آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا وقرئ تؤمنوا وتجاهدوا على اضمار لام الامر

عليها بقوله تؤمنون بالله (الثانى) مامعنى ان كنتم تعلمون نقول ان كنتم تعلمون انه خير لكم كان خيرا لكم وهذه الوجود للكشاف واما الغير فقال الخوف من نفس العذاب لا من العذاب الاليم اذالعذاب الاليم هو نفس العذاب مع غيره والخوف من اللوازم كقوله تعالى وخافون ان كنتم مؤمنين ومنها ان الامر بالايمان كيف هو بعد قوله ياايها الذين آمنوا فنقول يمكن ان يكون المراد من هذه الآية المنافقين وهم الذين آمنوا فى الظاهر ويمكن ان يكون اهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فانهم آمنوا بالكتب المتقدمة فكأنه قال ياأيها الذين آمنوا بالكتب المتقدمة آمنوا بالله وبمحمد رسول الله ويمكن ان يكون اهل الايمان كقوله فزادتهم ايمانا ليزدادوا ايمانا وهو الامر بالثبات كقوله يثبت الله الذين آمنوا وهو الامر بالتجدد كقوله ياايها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله وفى قوله صلى الله عليه وسلم من جدد وضوءه فكأنما جدد ايمانه ومنها ان رجاء النجاة كيف هو اذا آمن بالله ورسوله ولم يجاهد فى سبيل الله وقد علق بالمجموع ومنها ان هذا المجموع وهو الايمان بالله ورسوله والجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله خير فى نفس الامر

☼ ثم قال تعالى (يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) اعلم ان قوله تعالى يغفر لكم ذنوبكم جواب قوله تؤمنون بالله وتجاهدون فى سبيل الله لما انه فى معنى الامر كأمر فكأنه قال آمنوا بالله وجاهدوا فى سبيل الله يغفر لكم وقيل جوابه ذلكم خير لكم وجزم يغفر لكم لما انه ترجمة ذلكم خير لكم ومحله جزم كقوله تعالى لولا اخرتنى الى اجل قريب فأصدق وأكن لان محل فأصدق جزم على قوله لولا اخرتنى وقيل جزم يغفر لكم بهل لانه فى معنى الامر وقوله تعالى ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار الى آخر الآية من جملة ماقدم بيانه فى التوراة ولا يبعد ان يقال ان الله تعالى رغبهم فى هذه الآية الى مفارقة مساكنهم وانفاق اموالهم والجهاد وهو قوله يغفر لكم وقوله تعالى ذلك الفوز العظيم يعنى ذلك الجزاء الدائم هو الفوز العظيم وقدمر وقوله تعالى واخرى تحبونها اى تجارة اخرى فى العاجل مع ثواب الآجل قال الفراء وخصلة اخرى تحبونها فى الدنيا مع ثواب الآخرة وقوله تعالى نصر من الله هو مفسر للاخرى لانه يحسن ان يكون نصر من الله مفسر التجارة اذ النصر لا يكون تجارة لنا بل هو ربح للتجارة وقوله تعالى وفتح قريب اى عاجل وهو فتح مكة وقال الحسن هو فتح فارس والروم وفى تحبونها شئ من التوبيخ على محبة العاجل ثم فى الآية مباحث (الاول) قوله تعالى وبشر المؤمنين عطف على تؤمنون لانه فى معنى الامر كأنه قيل آمنوا وجاهدوا يثبكم الله وينصركم وبشر يارسول الله المؤمنين بذلك ويقال ايضا بم نصب من قرأ نصرا من الله وفتحا قريبا فيقال على الاختصاص او على تنصرون نصرا ويفتح لكم فتحا او على يغفر لكم ويدخلكم ويؤتكم خيرا واخرى نصرا وفتحا هكذا ذكره فى الكشاف ☼ ثم قال تعالى (ياأيها الذين

(آمنوا)

(ذلكم) اشارة الى ماذكر من الايمان والجهاد بقسميه ومافيه من معنى البعد لما مر غير مرة (خير لكم) على الاطلاق او من اموالكم وانفسكم (ان كنتم تعلمون) اى ان كنتم من اهل العلم فان الجهلة لا يعتد بأفعالهم او ان كنتم تعلمون انه خير لكم كان خيرا لكم حينئذ لانكم اذا علمتم ذلك واعتقدتموه احببتم الايمان والجهاد فوق ما تحبون انفسكم واموالكم فتخلصون وتفلحون (يغفر لكم ذنوبكم) جواب الامر المدلول عليه بلفظ الخبر او لشرط او استفهام دل عليه الكلام تقديره ان تؤمنوا وتجاهدوا او هل تقبلون ان ادلكم يغفر لكم وجعله جوابا لهل ادلكم بعيد لان مجرد الدلالة لا يوجب المغفرة (ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك) اى ماذكر من المغفرة وادخال الجنات الموصوفة بما ذكر من الاوصاف الجليلة (الفوز العظيم) الذى لا فوز وراءه (واخرى) ولكم الى هذه النعم العظيمة نعمة اخرى عاجلة (تحبونها) وترغبون فيها وفيه تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل وقيل اخرى منصوبة باضمار يعطكم او تحبون او مبتدأ خبره (نصر من الله) وهو على الاول بدل او بيان وعلى تقدير النصب خبر مبتدأ محذوف (وفتح قريب) اى عاجل عطف على نصر على الوجوه المذكورة وقرئ نصرا وفتحا قريبا على الاختصاص او على المصدر اى تنصرون نصرا ويفتح لكم فتحا او على البدلية من اخرى على تقدير نصبها اى يعطكم نعمة اخرى نصرا وفتحا (وبشر المؤمنين)

آمنوا كونوا انصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من انصارى الى الله قال الحواريون نحن انصار الله) قوله كونوا انصار الله امر بادامة النصرة والثبات عليه اى ودوموا على ما انتم عليه من النصرة ويدل عليه قراءة ابن مسعود كونوا انتم انصار الله فاخبر عنهم بذلك اى انصار دين الله وقوله كما قال عيسى بن مريم للحواريين اى انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لما قال لهم من انصارى الى الله قال مقاتل يعنى من يمنعنى من الله وقال عطاء من ينصرنى وينصر دين الله ومنهم من قال أمر الله المؤمنين ان ينصروا محمدا صلى الله عليه وسلم كما نصر الحواريون عيسى عليه السلام وفيه اشارة الى ان النصر بالجهاد لا يكون مخصوصا بهذه الامة والحواريون اصفياؤه واول من آمن به وكانوا اثنى عشر رجلا وحوارى الرجل صفيه وخلصاؤه من الحور وهو البياض الخالص وقيل كانوا قصارين يحورون الثياب اى يبيضونها واما الانصار فعن قتادة ان الانصار كلهم من قريش ابو بكر وعمر وعثمان وعلى وحمزة وجعفر وابو عبيدة بن الجراح وعثمان بن مظعون وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن ابى وقاص وعثمان بن عوف وطلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام ثم فى الآية مباحث (البحث الاول) التشبيه محمول على المعنى والمراد كونوا كما كان الحواريون (الثانى) ما معنى قوله من انصارى الى الله نقول يجب ان يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين والذى يطابقه ان يكون المعنى من عسكرى متوجها الى نصرة الله واضافة انصارى خلاف اضافة انصار الله لما ان المعنى فى الاول الذين ينصرون الله وفى الثانى الذين يختصون بى ويكونون معى فى نصرة الله (الثالث) اصحاب عيسى قالوا نحن انصار الله واصحاب محمد لم يقولوا هكذا نقول خطاب عيسى بطريق السؤال فالجواب لازم وخطاب محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الالزام فالجواب غير لازم بل اللازم هو امتثال هذا الامر وهو قوله تعالى كونوا انصار الله ※ ثم قال تعالى (فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين) قال ابن عباس يعنى الذين آمنوا فى زمن عيسى والذين كفروا كذلك وذلك لان عيسى عليه السلام لما رفع الى السماء تفرقوا ثلاث فرق فرقة قالوا كان الله فارتفع وفرقة قالوا كان ابن الله فرفعه اليه وفرقة قالوا كان عبد الله ورسوله فرفعه اليه وهم المسلمون واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس واجتمعت الطائفتان الكافرتان على الطائفة المسلمة فقتلوهم وطردوهم فى الارض فكانت الحالة هذه حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فظهرت المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم وقال مجاهد فاصبحوا ظاهرين يعنى من اتبع عيسى وهو قول المقاتلين وعلى هذا القول معنى الآية ان من آمن بعيسى ظهروا على من كفروا به فاصبحوا غالبين على اهل الاديان وقال ابراهيم اصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم ان عيسى كلمة الله وروحه قال الكلبى ظاهرين بالحجة والظهور بالحجة هو قول

عطف على محذوف مثل قل يا ايها الذين آمنوا وبشرا وعلى تؤمنون فانه فى معنى آمنوا كأنه قيل آمنوا وجاهدوا ايها المؤمنون وبشرهم يا ايها الرسول بما وعدتهم على ذلك عاجلا وآجلا (يا أيها الذين آمنوا كونوا انصار الله) وقرئ انصارا لله بلا اضافة لان المعنى كونوا بعض انصار الله وقرئ كونوا انتم انصار الله (كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من انصارى الى الله) اى من جندى متوجها الى نصرة الله كما يقتضيه قوله تعالى (قال الحواريون نحن انصار الله) والاضافة الاولى اضافة احد المتشاركين الى الآخر لما بينهما من الاختصاص والثانية اضافة الفاعل الى المفعول والتشبيه باعتبار المعنى اى كونوا انصار الله كما كان الحواريون انصاره حين قال لهم عيسى من انصارى الى الله او قل لهم كونوا كما قال عيسى للحواريين والحواريون اصفياؤه وهم اول من آمن به وكانوا اثنى عشر رجلا (فآمنت طائفة من بنى اسرائيل) اى بعيسى واطاعوه فيما امرهم به من نصرة الدين (وكفرت طائفة) اخرى به وقاتلوهم (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم) اى قويناهم بالحجة او بالسيف وذلك بعد رفع عيسى عليه السلام فأصبحوا ظاهرين غالبين * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ

زيد بن على رضى الله عنه والله اعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين

(سورة الجمعة احدى عشرة آية مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يسبح لله مافى السموات ومافى الارض الملك القدوس العزيز الحكيم) وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو انه تعالى قال فى اول تلك السورة سبح لله بلفظ الماضى وذلك لايدل على التسبيح فى المستقبل فقال فى اول هذه السورة بلفظ المستقبل ليدل على التسبيح فى زمانى الحاضر والمستقبل واما تعلق الاول بالآخر فلانه تعالى ذكر فى آخر تلك السورة انه كان يؤيد اهل الايمان حتى صاروا عالين على الكفار وذلك على وفق الحكمة لالحاجة اليه اذهو غنى على الاطلاق ومنزه عما يخطر ببال الجهلة فى الآفاق وفى اول هذه السورة مايدل على كونه مقدسا ومنزها عما لايليق بحضرته العالية بالاتفاق ثم اذا كان خلق السموات والارض بأجمعهم فى تسبيح حضرة الله تعالى فله الملك كما قال تعالى يسبح لله مافى السموات ومافى الارض له الملك ولاملك اعظم من هذا وهو انه خالقهم ومالكهم وكلهم فى قبضة قدرته وتحت تصرفه يسبحون له آناء الليل واطراف النهار بل فى سائر الازمان كما مر فى اول تلك السورة ولما كان الملك كله له فهو الملك على الاطلاق ولما كان الكل بخلقه فهو المالك والمالك والملك اشرف من المملوك فيكون متصفا بصفات يحصل منها الشرف فلامجال لما ينافيه من الصفات فيكون قدوسا فلفظ الملك اشارة الى اثبات مايكون من الصفات العالية ولفظ القدوس اشارة الى نفى مالايكون منها وعن الغزالى القدوس هو المنزه عما يخطر ببال اوليائه وقد مر تفسيره وكذلك العزيز الحكيم ثم الصفات المذكورة قرئت بالرفع على المدح اى هو الملك القدوس ولو قرئت بالنصب لكان وجها كقول العرب الحمد لله اهل الحمد كذا ذكره فى الكشاف ثم فى الآية مباحث (الاول) قال تعالى يسبح لله ولم يقل يسبح الله فالفائدة نقول هذا من جملة مايجرى فيه اللفظان كشكره وشكرله ونصحه ونصح له (الثانى) القدوس من الصفات السلبية وقيل معناه المبارك (الثالث) لفظ الحكيم يطلق على الغير ايضا كما قيل فى لقمان انه حكيم نقول الحكيم عند اهل التحقيق هو الذى يضع الاشياء مواضعها والله تعالى حكيم بهذا المعنى ثم انه تعالى بعد مافرغ من التوحيد والتنزيه شرع فى النبوة *فقال (هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) الامى منسوب الى امة العرب لما انهم امة اميون لاكتاب لهم ولايقرؤن كتابا ولايكتبون وقال ابن عباس يريد الذين ليس لهم كتاب ولانبى بعث فيهم وقيل الاميون الذين هم على ماخلقوا عليه وقدمر بيانه وقرئ الامين بحذف ياء النسب وقوله تعالى رسولا منهم يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم نسبه من نسبهم وهو من جنسهم كما

(قال)

سورة الصف كان عيسى مصليا عليه مستغفراله مادام فى الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه

(سورة الجمعة مدنية وآيها) (احدى عشرة)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يسبح لله مافى السموات ومافى الارض) تسبيحا مستمرا (الملك القدوس العزيز الحكيم) وقدقرئ الصفات الاربع بالرفع على المدح (هو الذى بعث فى الاميين) اى فى العرب لان اكثرهم لايكتبون ولايقرؤن قيل بدئت الكتابة بالطائف اخذوها من اهل الحيرة وهم من أهل الانبار (رسولا منهم) اى كائنا من جلتهم اميا مثلهم (يتلو عليهم آياته) مع كونه اميا مثلهم لم يعهد منه قراءة ولاتعلم (ويزكيهم) صفة اخرى لرسولا معطوفة على يتلو اى يحملهم على مايصيرون به ازكياء من خبائث العقائد والاعمال (ويعلمهم الكتاب والحكمة) صفة اخرى لرسولا مترتبة فى الوجود على التلاوة وانما وسط بينهما التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب قوتها العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للايذان بأن كلا من الامور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود لتبادر الى الفهم كون الكل نعمة

قال تعالى لقد جاءكم رسول من انفسكم قال اهل المعانى وكان هو صلى الله عليه وسلم ايضا اميا مثل الامة التى بعث فيهم وكانت البشارة به فى الكتب قد تقدمت بانه النبى الامى وكونه بهذه الصفة ابعد من توهم الاستعانة على ما اتى به من الحكمة بالكتابة فكانت حاله مشاكلة لحال الامة الذين بعث فيهم وذلك اقرب الى صدقه وقوله تعالى يتلو عليهم آياته اى بيناته التى تبين رسالته وتظهر نبوته ولا يبعد ان تكون الآيات هى الآيات التى تظهر منها الاحكام الشرعية والتى يميز بها الحق من الباطل ويزكيهم اى يطهرهم من خبث الشرك وخبث ما عداه من الاقوال والافعال وعند البعض يزكيهم اى يصلحهم يعنى يدعوهم الى اتباع ما يصيرون به ازكياء اتقياء ويعلمهم الكتاب والحكمة والكتاب ما يتلى من الآيات والحكمة هى الفرائض وقيل الحكمة السنة لانه كان يتلو عليهم آياته ويعلمهم سنته وقيل الكتاب الآيات نصا والحكمة ما اودع فيها من المعانى ولا يبعد ان يقال الكتاب آيات القرآن والحكمة وجه التمسك بها وقوله تعالى وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ظاهر لانهم كانوا عبدة الاصنام وكانوا فى ضلال مبين وهو الشرك فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم الى التوحيد والاعراض عما كانوا فيه وفى هذه الآية مباحث (احدها) احتجاج اهل الكتاب بها قالوا قوله بعث فى الاميين رسولا منهم يدل على انه عليه السلام كان رسولا الى الاميين وهم العرب خاصة غير انه ضعيف فانه لا يلزم من تخصيص الشئ بالذكر نفى ما عداه ألا ترى الى قوله تعالى ولا تخطه بيمينك انه لا يفهم منه انه يخطه بشماله ولانه لو كان رسولا الى العرب خاصة كان قوله تعالى كافة للناس بشيرا ونذيرا لا يناسب ذلك ولا مجال لهذا لما اتفقوا على ذلك وهو صدق الرسالة المخصوصة فيكون قوله تعالى كافة للناس دليلا على انه عليه الصلاة والسلام كان رسولا الى الكل * ثم قال تعالى (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وآخرين عطف على الاميين يعنى بعث فى آخرين منهم قال المفسرون هم الاعاجم يعنون بهم غير العرب اى طائفة كانت قاله ابن عباس وجماعة وقال مقاتل يعنى التابعين من هذه الامة الذين لم يلحقوا بأوائلهم وفى الجملة معنى جميع الاقوال فيه كل من دخل فى الاسلام بعد النبى صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة فالمراد بالاميين العرب وبالآخرين سواهم من الامم وقوله آخرين مجرور لانه عطف على المجرور يعنى الاميين ويجوز ان ينتصب عطفا على المنصوب فى ويعلمهم اى ويعلمهم ويعلم آخرين منهم اى من الاميين وجعلهم منهم لانهم اذا اسلموا صاروا منهم فالمسلمون كلهم امة واحدة وان اختلفت اجناسهم قال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض واما من لم يؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم ولم يدخل فى دينه فانهم كانوا بمعزل عن المراد بقوله وآخرين منهم وان كان النبى مبعوثا اليهم بالدعوة فانه تعالى قال فى الآية الاولى ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وغير المؤمنين ليس من جملة من يعلمه الكتاب

واحدة كما مر فى سورة البقرة وهو السر فى التعبير عن القرآن تارة بالآيات واخرى بالكتاب والحكمة رمزا الى انه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح فيه شمول الحكمة لما فى تضاعيف الاحاديث النبوية من الاحكام والشرائع (وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) من الشرك وخبث الجاهلية وهو بيان لشدة افتقارهم الى من يرشدهم وازاحة لما عسى يتوهم من تعلمه عليه الصلاة والسلام من الغير وان هى المخففة واللام هى الفارقة (وآخرين منهم) عطف على الاميين او على المنصوب فى يعلمهم اى يعلمهم ويعلم آخرين منهم اى من الاميين وهم الذين جاؤا بعد الصحابة الى يوم الدين فان دعوته عليه الصلاة والسلام وتعليمه يعم الجميع (لما يلحقوا بهم) صفة لآخرين اى لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون (وهو العزيز الحكيم) المبالغ فى العزة والحكمة ولذلك مكن رجلا اميا من ذلك الامر العظيم واصطفاه من بين كافة البشر (ذلك) الذى امتاز به من بين سائر الافراد (فضل الله) واحسانه (يؤتيه من يشاء) تفضلا وعطية (والله ذو الفضل العظيم) الذى يستحقر دونه نعيم الدنيا ونعيم الآخرة (مثل الذين حملوا التوراة) اى علموها وكلفوا العمل بها (ثم لم يحملوها) اى لم يعملوا بما فى تضاعيفها من الآيات

والحكمة وهو العزيز حيث جعل فى كل واحد من البشر اثر الذل له والفقر اليه والحكيم حيث جعل فى كل مخلوق مايشهد بوحدانيته ❊ قوله تعالى (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) قال ابن عباس يريد حيث ألحق العجم وابناءهم بقريش يعنى اذا آمنوا الحقوا فى درجة الفضل بمن شاهد الرسول عليه السلام وشاركوهم فى ذلك وقال مقاتل ذلك فضل الله يعنى الاسلام يؤتيه من يشاء وقال مقاتل بن حيان يعنى النبوة فضل الله يؤتيه من يشاء فاختص بها محمدا صلى الله عليه وسلم والله ذو المن العظيم على جميع خلقه فى الدنيا بتعليم الكتاب والحكمة كما مر وفى الآخرة بتفخيم الجزاء على الاعمال ❊ ثم انه تعالى ضرب لليهود الذين اعرضوا عن العمل بالتوراة والايمان بالنبى صلى الله عليه وسلم مثلا فقال (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين) اعلم انه تعالى لما أثبت التوحيد والنبوة وبين فى النبوة انه عليه السلام بعث الى الاميين واليهود لما اوردوا تلك الشبهة وهى انه عليه السلام بعث الى العرب خاصة ولم يبعث اليهم بمفهوم الآية اتبعه الله تعالى بضرب المثل للذين اعرضوا عن العمل بالتوراة والايمان بالنبى عليه السلام والمقصود منه انهم لما لم يعملوا بما فى التوراة شبهوا بالحمار لانهم لو عملوا بمقتضاها لانتفعوا بها ولم يوردوا تلك الشبهة وذلك لان فيها نعت الرسول عليه السلام والبشارة بمقدمه والدخول فى دينه وقوله حملوا التوراة اى حملوا العمل بما فيها وكلفوا القيام بها وحملوا اقرئ بالتخفيف والتثقيل وقال صاحب النظم ليس هو من الحمل على الظهر وانما هو من الحمالة بمعنى الكفالة والضمان ومنه قيل للكفيل الحميل والمعنى ضمنوا احكام التوراة ثم لم يضمنوا ولم يعملوا بما فيها قال الاصمعى الحميل الكفيل وقال الكسائى حملت له حمالة اى كفلت به والاسفار جمع سفر وهو الكتاب الكبير لانه يسفر عن المعنى اذا قرئ ونظيره شبر واشبار شبه اليهود اذ لم ينتفعوا بما فى التوراة وهى دالة على الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم بالحمار الذى يحمل الكتب العلمية ولايدرى مافيها وقال اهل المعانى هذا المثل مثل من يفهم معانى القرآن ولم يعمل به واعرض عنه اعراض من لايحتاج اليه ولهذا قال ميمون بن مهران ياأهل القرآن اتبعوا القرآن قبل ان يتبعكم ثم تلا هذه الآية وقوله تعالى لم يحملوها اى لم يؤدوا حقها ولم يحملوها حق حملها على مابينا فشبههم والتوراة فى ايديهم وهم لايعملون بها بحمار يحمل كتبا وليس له من ذلك الا ثقل الحمل من غير انتفاع بما يحمله كذلك اليهود ليس لهم من كتابهم الا وبال الحجة عليه ثم ذم هذا المثل والمراد منه ذمهم فقال بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله اى بئس القوم مثلا الذين كذبوا كما قال ساء مثلا القوم وموضع الذين رفع ويجوز ان يكون جرا وبالجملة لما بلغ كذبهم مبلغا وهو انهم كذبوا على الله تعالى كان فى غاية الشر والفساد فلهذا قال بئس مثل القوم والمراد بالآيات ههنا الآيات الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول ابن

(عباس)

التى من جانبها الآيات الناطقة بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (كمثل الحمار يحمل اسفارا) اى كتبا من العلم يتعب بحملها ولاينتفع بهـا ويحمل اماحال والعامل فيها معنى المثل اوصفة للحمار اذليس المراد به معينـا فهـو فى حكم النكرة كما فى قول من قال

ولقد امر على اللئيم يسبنى (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) اى بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله على ان التميز محذوف والفاعل المفسر به مستتر ومثـل القوم هو المخصوص بالذم والموصول صفة للقوم اوبئس مثل القوم مثـل الذين كذبوا الخ على ان مثل القوم فاعـل بئس والمخصوص بالذم الموصول بحذف المضاف اوبئس مثـل القوم المكذبين مثـل هؤلاء على ان الموصول صفة القوم والمخصوص بالذم محذوف وهم اليهود الذين كذبوا بما فى التوراة من الآيات الشاهدة بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (والله لايهـدى القوم الظـالمين) الواضعين للتكذيب فى موضع التصديق اوالظالمين لانفسهم بتعريضها للعـذاب الخـالد (قل ياايها الذين هادوا) اى تهودوا (ان زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس) كانوا يقولون نحن ابناء الله واحباؤه ويدعون ان الدار الآخرة لهم عند الله خالصـة ويقولون لن يدخل الجنة الامن

عباس ومقاتل وقيل الايات التوراة لانهم كذبوا بها حين تركوا الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وهذا اشبه هنا والله لا يهدى القوم الظالمين قال عطاء يريد الذين ظلموا انفسهم بتكذيب الانبياء وههنا مباحث (البحث الاول) ما الحكمة فى تعيين الحمار من بين سائر الحيوانات نقول لوجوه منها انه تعالى خلق الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة والزينة فى الخيل اكثر واظهر بالنسبة الى الركوب وحمل الشئ عليه وفى البغال دون الخيل وفى الحمار دون البغال فالبغال كالمتوسط فى المعانى الثلاثة وحينئذ يلزم ان يكون الحمار فى معنى الحمل اظهر واغلب بالنسبة الى الخيل والبغال وغيرهما من الحيوانات ومنها ان هذا التمثيل لاظهار الجهل والبلادة وذلك فى الحمار اظهر ومنها ان فى الحمار من الذل والحقارة ما لا يكون فى الغير والغرض من الكلام فى هذا المقام تعيير ذلك القوم وتحقيرهم فيكون تعيين الحمار اليق واولى ومنها ان حمل الاسفار على الحمار أتم واعم واسهل واسلم لكونه ذلولا سلس القياد لين الانقياد يتصرف فيه الصبى الغبى من غير كلفة ومشقة وهذا من جملة ما يوجب حسن الذكر بالنسبة الى غيره ومنها ان رعاية الالفاظ والمناسبة بينها من اللوازم فى الكلام وبين لفظى الاسفار والحمار مناسبة لفظية لا توجد فى الغير من الحيوانات فيكون ذكره اولى (الثانى) يحمل ما محله نقول النصب على الحال او الجر على الوصف كما قال فى الكشاف اذ الحمار كاللئيم فى قوله * ولقد امر على اللئيم يسبنى * (الثالث) قال تعالى بئس مثل القوم كيف وصف المثل بهذا الوصف نقول الوصف وان كان فى الظاهر للمثل فهو راجع الى القوم فكأنه قال بئس القوم قوما مثلهم هكذا * ثم انه تعالى امر النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب لهم وهو قوله تعالى (قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولا يتمنونه ابدا بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين) هذه الآية من جملة ما مر بيانه قرئ فتمنوا الموت بكسر الواو وهادوا اى تهودوا وكانوا يقولون نحن ابناء الله واحباؤه فلو كان قولكم حقا وانتم على ثقة فتمنوا على الله ان يميتكم وينقلكم سريعا الى دار كرامته التى اعدها لاوليائه قال الشاعر

ليس من مات فاستراح بميت * انما الميت ميت الاحياء

فهم يطلبون الموت لا محالة اذا كانت الحالة هذه وقوله تعالى ولا يتمنونه ابدا بما قدمت ايديهم اى بسبب ما قدموا من الكفر وتحريف الآيات وذكر مرة بلفظ التأكيد ولن يتمنوه ابدا ومرة بدون لفظ التأكيد ولا يتمنونه ابدا وقوله والله عليم بالظالمين اى بظلمهم من تحريف الآيات وعنادهم لها ومكابرتهم اياها * ثم قال تعالى (قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) يعنى ان الموت الذى تفرون منه بما قدمت ايديكم من تحريف الآيات وغيره ملاقيكم لا محالة ولا ينفعكم الفرار ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة يعنى ما اشهد ثم الخلق من التوراة

كان هود افامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم اظهارا لكذبهم ان زعمتم ذلك (فتمنوا الموت) اى فتمنوا من الله ان يميتكم وينقلكم من دار البلية الى دار الكرامة (ان كنتم صادقين) جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه اى ان كنتم صادقين فى زعمكم واثقين بأنه حق فتمنوا الموت فان من ايقن بانه من اهل الجنة احب ان يتخلص اليها من هذه الدار التى هى قرارة الاكدار (ولا يتمنونه ابدا) اخبار بما سيكون منهم والباء فى قوله تعالى (بما قدمت ايديهم) متعلقة بما يدل عليه النفى اى يأبون التمنى بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصى الموجبة لدخول النار ولما كانت اليد من بين جوارح الانسان مناط عامة افاعيله عبر بها تارة عن النفس واخرى عن القدرة (والله عليم بالظالمين) اى بهم وايثار الاظهار على الاضمار لذمهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون فى كل ما يأتون وما يذرون من الامور التى من جملتها ادعاء ما هم عنه بمعزل والجملة تذييل لما قبلها مقررة لمضمونه اى عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصى المفضية الى افانين العذاب وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدى الى ذلك فوقع الامر كما ذكر فلم يتمن منهم موته احد كما يعرب عنه قوله تعالى (قل

والانجيل وعالم بما غيبتم عن الخلق من نعت محمد صلى الله عليه وسلم وما اسررتم في انفسكم من تكذيبكم رسالته وقوله تعالى فينبئكم بما كنتم تعملون اماعيانا مقرونا بلقائكم يوم القيامة اوبالجزاء ان كان خيرا فخير وان كان شرا فشر فقوله ان الموت الذى تفرون منه هو التنبيه على السعى فيما ينفعهم في الآخرة وقوله فينبئكم بما كنتم تعملون هو الوعيد البليغ والتهديد الشديد * ثم في الآية مباحث (البحث الاول) ادخل الفاء لما انه في معنى الشرط والجزاء وفي قراءة ابن مسعود ملاقيكم من غير فانه (الثانى) ان يقال الموت ملاقيهم على كل حال فروا اولم يفروا فامعنى الشرط والجزاء قيل ان هذا على جهة الرد عليهم اذ ظنوا ان الفرار ينجيهم وقد صرح بهذا المعنى و افصح عنه بالشرط الحقيق في قوله

ومن هاب اسباب المنايا تناله * ولو نال اسباب السماء بسلم

❁ قوله تعالى (ياايها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) وجه التعلق بما قبلها هو ان الذين هادوا يفرون من الموت لمتاع الدنيا وطيباتها والذين آمنوا يبيعون ويشترون لمتاع الدنيا وطيباتها كذلك فنبههم الله تعالى بقوله فاسعوا الى ذكر الله اى الى ماينفعكم في الآخرة وهو حضور الجمعة لان الدنيا ومتاعها فانية والآخرة ومافيها باقية قال تعالى والآخرة خير وابقى ووجه آخر في التعلق قال بعضهم قد ابطل الله قول اليهود في ثلاث افتخروا بأنهم اولياء الله واحباؤه فكذبهم بقوله فتمنوا الموت ان كنتم صادقين وبأنهم اهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم بالحمار يحمل اسفارا وبالسبت وليس للمسلمين مثله فشرع الله تعالى لهم الجمعة وقوله تعالى اذا نودى يعنى النداء اذا جلس الامام على المنبر يوم الجمعة وهو قول مقاتل وانه كما قال لانه لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء سواه كان اذا جلس عليه الصلاة والسلام على المنبر أذن بلال على باب المسجد وكذا على عهد ابى بكر وعمر وقوله تعالى للصلاة اى لوقت الصلاة يدل عليه قوله من يوم الجمعة ولا تكون الصلاة من اليوم وانما يكون وقتها من اليوم قال الليث الجمعة يوم خص به لاجتماع الناس في ذلك اليوم ويجمع على الجمعات والجمع وعن سلمان رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سميت الجمعة جمعة لان آدم جمع فيها خلقه وقيل لما انه تعالى فرغ فيها من خلق الاشياء فاجتمعت فيها المخلوقات قال الفراء وفيها ثلاث لغات التخفيف وهى قراءة الاعمش والتثقيل وهى قراءة العامة ولغة لبنى عقيل وقوله تعالى فاسعوا الى ذكر الله اى فامضوا وقيل فامشوا وعلى هذا معنى السعى المشى لا العدو وقال الفراء المضى والسعى والذهاب في معنى واحد وعن عمر انه سمع رجلا يقرأ فاسعوا قال من اقرأك هذا قال ابى قال لايزال يقرأ بالمنسوخ لوكانت فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائى وقيل المراد

ان الموت الذى تفرون منه) فان ذلك انما يقال لهم بعد ظهور فرارهم من التمنى وقد قال عليه الصلاة والسلام لو تمنوا لماتوا من ساعتهم وهذه احدى المعجزات اى ان الموت الذى تفرون منه ولا تجسرون على ان تتمنوه مخافة ان تؤخذوا بوبال كفركم (فانه ملاقيكم) البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف وقرئ بدونها وقرئ تفرون منه ملاقيكم (ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة) الذى لا تخفى عليه خافية (فينبئكم بما كنتم تعملون) من الكفر والمعاصى بأن يجازيكم بها (ياايها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة) اى فعل النداء لها اى اذن لها (من يوم الجمعة) بيان لاذا وتفسير لها وقيل من بمعنى في كما في قوله تعالى ارونى ماذا خلقوا من الارض اى في الارض وانما سمى جمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة وقيل اول من سماها جمعة كعب بن لؤى وكانت العرب تسميه العروبة وقيل ان الانصار قالوا قبل الهجرة لليهود يوم يجتمعون فيه بكل سبعة ايام وللنصارى مثل ذلك فهلموا نجعل لنا يوما نجتمع فيه فنذكر الله فيه ونصلى فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الاحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا الى سعد بن زرارة فصلى بهم ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة

بالسعى القصددون العدو والسعى التصرف فى كل عمل ومنه قوله تعالى فلما بلغ معه السعى قال الحسن والله ماهو سعى على الاقدام ولكنه سعى بالقلوب وسعى بالنية وسعى بالرغبة ونحو هذا والسعى ههنا هو العمل عندقوم وهو مذهب مالك والشافعى اذ السعى فى كتاب الله العمل قال تعالى واذا تولى سعى فى الارض وان سعيكم لشتى اى العمل وروى عنه صلى الله عليه وسلم اذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وانتم تسعون ولكن ائتوها وعليكم السكينة واتفق الفقهاء على ان النبى صلى الله عليه وسلم متى أتى الجمعة أتى على هينة وقوله الى ذكر الله الذكر هو الخطبة عند الاكثر من اهل التفسير وقيل هو الصلاة واما الاحكام المتعلقة بهذه الآية فانها تعرف من الكتب الفقهية وقوله تعالى وذروا البيع قال الحسن اذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع وقال عطاء اذا زالت الشمس حرم البيع والشراء وقال الفراء انما حرم البيع والشراء اذا نودى للصلاة لمكان الاجتماع ولتدرك له كافة الحسنات وقوله تعالى ذلكم خير لكم اى فى الآخرة ان كنتم تعلمون ماهو خير لكم واصلح وقوله تعالى فاذا قضيت الصلاة اى اذا صليتم الفريضة يوم الجمعة فانتشروا فى الارض هذا صيغة الامر بمعنى الاباحة لما ان اباحة الانتشار زائلة بفرضية اداء الصلاة فاذا ازال ذلك عادت الاباحة فيباح لهم ان يتفرقوا فى الارض ويبتغوا من فضل الله وهو الرزق ونظيره ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم وقال ابن عباس اذا فرغتم من الصلاة فان شئت فاخرج وان شئت فصل الى العصر وان شئت فاقعد وكذلك قوله وابتغوا من فضل الله فانه صيغة امر بمعنى الاباحة ايضا لجلب الرزق بالتجارة بعد المنع بقوله تعالى وذروا البيع وعن مقاتل احل لهم ابتغاء الرزق بعد الصلاة فمن شاء خرج ومن شاء لم يخرج وقال مجاهد ان شاء فعل وان شاء لم يفعل وقال الضحاك هو اذن من الله تعالى اذا فرغ فان شاء خرج وان شاء قعد والافضل فى الابتغاء من فضل الله ان يطلب الرزق او الولد الصالح او العلم النافع وغير ذلك من الامور الحسنة والظاهر هو الاول وعن عراك بن مالك انه كان اذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد قال اللهم أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما امرتنى فارزقنى من فضلك وانت خير الرازقين وقوله تعالى واذكروا الله كثيرا قال مقاتل باللسان وقال سعيد بن جبير بالطاعة وقال مجاهد لايكون من الذاكرين كثيرا حتى يذكره قائما وقاعدا ومضطجعا والمعنى اذا رجعتم الى التجارة وانصرفتم الى البيع والشراء مرة اخرى فاذكروا الله كثيرا قال تعالى رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وعن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا أتيتم السوق فقولوا لا اله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير فان من قالها كتب الله له ألف ألف حسنة وحط عنه الف الف خطيئة ورفع له الف الف درجة وقوله تعالى لعلكم تفلحون من جملة ماقد مر مرارا * وفى الآية مباحث (البحث الاول) ما الحكمة فى ان شرع الله

لاجتماعهم فيه فانزل الله آية الجمعة فهى اول جمعة كانت فى الاسلام واما اول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو انه لما قدم المدينة مهاجرا نزل قباء على بنى عمرو بن عوف واقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس واسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة عامدا المدينة فادركته صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف فى بطن واد لهم فخطب وصلى الجمعة (فاسعوا الى ذكر الله) اى امشوا او اقصدوا الى الخطبة والصلاة (وذروا البيع) واتركوا المعاملة (ذلكم) اى السعى الى ذكر الله وترك البيع (خير لكم) من مباشرته فان نفع الآخرة اجل وابقى (ان كنتم تعلمون) اى الخير والشر الحقيقيين او ان كنتم اهل العلم (فاذا قضيت الصلاة) اى اديت وفرغ منها (فانتشروا فى الارض) لاقامة مصالحكم (وابتغوا من فضل الله) اى الربح فالامر للاطلاق بعد الحظر وعن ابن عباس رضى الله عنهما لم يؤمروا بطلب شئ من الدنيا انما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة اخ فى الله وعن الحسن وسعيد بن المسيب طلب العلم وقيل صلاة التطوع (واذكروا الله كثيرا) ذكرا كثيرا او زمانا كثيرا ولاتخصوا ذكره تعالى بالصلاة (لعلكم تفلحون) كى تفوزوا بخير الدارين

تعالى في يوم الجمعة هذا التكليف فنقول قال القفال هي ان الله عز وجل خلق الخلق فاخرجهم من العدم الى الوجود وجعل منهم جمادا وناميا وحيوانا فكان ماسوى الجماد اصنافا منها بهائم وملائكة وجن وانس ثم هي مختلفة المساكن من العلو والسفل فكان اشرف العالم السفلي هم الناس لعجيب تركيبهم ولما كرمهم الله تعالى به من النطق وركب فيهم من العقول والطباع التي بها غاية التعبد بالشرائع ولم يخف موضع عظم المنة وجلالة قدر الموهبة لهم فأمروا بالشكر على هذه الكرامة في يوم من الايام السبعة التي فيها انشئت الخلائق وثم وجودها ليكون في اجتماعهم في ذلك اليوم تنبيه على عظم ما انعم الله تعالى به عليهم واذا كان شأنهم لم يخل من حين ابتدؤا من نعمة تحللهم وان منة الله مثبتة عليهم قبل استحقاقهم لها ولكل اهل ملة من الملل المعروفة يوم منها معظم فلليهود يوم السبت وللنصارى يوم الاحد وللمسلمين يوم الجمعة روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال يوم الجمعة هذا اليوم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله له فلليهود غدا وللنصارى بعد غد ولما جعل يوم الجمعة يوم شكر واظهار سرور وتعظيم نعمة احتيج فيه الى الاجتماع الذى به تقع شهرته فجمعت الجماعات له كالسنة في الاعياد واحتيج فيه الى الخطبة تذكيرا بالنعمة وحثا على استدامتها باقامة مايعود بآلاء الشكر ولما كان مدار التعظيم انما هو على الصلاة جعلت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار ليتم الاجتماع ولم تجز هذه الصلاة الا فى مسجد واحد ليكون ادعى الى الاجتماع والله اعلم (الثانى) كيف خص ذكر الله بالخطبة وفيها ذكر الله وغير الله نقول المراد من ذكر الله الخطبة والصلاة لان كل واحدة منهما مشتملة على ذكر الله واما ماعدا ذلك من ذكر الظلمة والثناء عليهم والدعاء لهم فذلك ذكر الشيطان (الثالث) قوله وذروا البيع لم خص البيع من جميع الافعال نقول لانه من اهم مايشتغل به المرء فى النهار من اسباب المعاش وفيه اشارة الى ترك التجارة ولان البيع والشراء فى الاسواق غالبا والغفلة على اهل السوق اغلب فقوله وذروا البيع تنبيه للغافلين فالبيع اولى بالذكر ولم يحرم لعينه ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب كالصلاة فى الارض المغصوبة (الرابع) ما الفرق بين ذكر الله اولا وذكر الله ثانيا فنقول الاول من جملة مالا يجتمع مع التجارة اصلا اذ المراد منه الخطبة والصلاة كما مر والثانى من جملة ما يجتمع كما فى قوله تعالى رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ❊ ثم قال تعالى (واذا رأوا تجارة اولهوا انفضوا اليها وتركوك قائما قل ماعندالله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) قال مقاتل ان دحية بن خليفة الكلبى اقبل بتجارة من الشام قبل ان يسلم وكان معه من انواع التجارة وكان يتلقاه اهل المدينة بالطبل والصفق وكان ذلك فى يوم الجمعة والنبى صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب فخرج اليه الناس وتركوا النبى صلى الله عليه وسلم ولم يبق الا اثناعشر رجلا او اقل كثمانية او اكثر كاربعين فقال عليه السلام لولا هؤلاء لسومت لهم الحجارة ونزلت الآية وكان من الذين معه ابو

(واذا رأوا تجارة اولهوا انفضوا اليها) روى ان اهل المدينة اصابهم جوع وغلاء شديد فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت الشام والنبى عليه الصلاة والسلام يخطب يوم الجمعة فقاموا اليه خشية ان يسبقوا اليه فابقى معه عليه الصلاة والسلام الاثمانية وقيل احدعشر وقيل اثناعشر وقيل اربعون فقال عليه الصلاة والسلام والذى نفس محمد بيده لوخرجوا جميعا لاضرم الله عليهم الوادى نارا وكانوا اذا اقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق وهو المراد باللهو وتخصيص التجارة برجع الضمير لانها المقصودة اولان الانفضاض للتجارة مع الحاجة اليها والانتفاع بها اذا كان مذموما فاظنك بالانفضاض الى اللهو وهو مذموم فى نفسه وقيل تقديره اذا رأوا تجارة انفضوا اليها اولهوا انفضوا اليه فحذف الثانى لدلالة الاول عليه وقرئ اليهما (وتركوك قائما) اى على المنبر (قل ماعندالله) من الثواب (خير من اللهو ومن التجارة) فان ذلك نفع محقق مخلد بخلاف مافيهما من النفع المتوهم (والله خير الرازقين) فاليه اسعوا ومنه اطلبوا الرزق ❊ عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الجمعة أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من اتى الجمعة ومن لم يأتها فى امصار المسلمين

(بكر)

بكر وعمر وقال الحسن اصاب اهل المدينة جوع وغلاء سعر فقدمت عير والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فسمعوا بها وخرجوا اليها فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو اتبع آخرهم اولهم لالتهب الوادى عليهم نارا قال قتادة فعلوا ذلك ثلاث مرات وقوله تعالى او لهوا او هو الطبل وكانوا اذا انكحوا الجوارى يضربون المزامير فمروا يضربون فتركوا النبي صلى الله عليه وسلم وقوله انفضوا اليها اى تفرقوا وقال المبرد مالوا اليها وعدلوا نحوها والضمير فى اليها للتجارة وقال الزجاج انفضوا اليه واليها ومعناهما واحد كقوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة واعتبر هنا الرجوع الى التجارة لما انها اهم اليهم وقوله تعالى وتركوك قائما اتفقوا على ان هذا القيام كان فى الخطبة للجمعة قال جابر ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخطبة الا وهو قائم وسئل عبد الله اكان النبي يخطب قائما او قاعدا فقرأ وتركوا قائما وقوله تعالى قل ما عند الله خير اى ثواب الصلاة والثبات مع النبي صلى الله عليه وسلم خير من اللهو ومن التجارة من اللهو الذى مر ذكره والتجارة التى جاء بها دحية وقوله تعالى والله خير الرازقين هو من قبيل احكم الحاكمين واحسن الخالقين والمعنى ان امكن وجود الرازقين فهو خير الرازقين وقيل لفظ الرازق لا يطلق على غيره الا بطريق المجاز ولا يرتاب فى ان الرازق بطريق الحقيقة خير من الرازق بطريق المجاز وفى الآية مباحث (البحث الاول) ان التجارة واللهو من قبيل ما لا يرى اصلا ولو كان كذلك كيف يصح واذا رأوا تجارة او لهوا نقول ليس المراد الا ما يقرب منه اللهو والتجارة ومثله حتى يسمع كلام الله اذ الكلام غير مسموع بل المسموع صوت يدل عليه (الثانى) كيف قال انفضوا اليها وقد ذكر شيئين وقدم الكلام فيه وقال صاحب الكشاف تقديره اذا رأوا تجارة انفضوا اليها او لهوا انفضوا اليه فحذف احدهما لدلالة المذكور عليه (الثالث) ان قوله تعالى والله خير الرازقين مناسب للتجارة التى مر ذكرها لا للهو نقول بل هو مناسب للمجموع لما ان اللهو الذى مر ذكره كالتبع للتجاوة لما انهم اظهروا ذلك فرحا بوجود التجارة كما مر والله اعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين

(سورة المنافقون احدى عشرة آية مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) وجه تعلق هذه السوره بما قبلها هو ان تلك السورة مشتملة على ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر من كان يكذبه قلبا ولسانا بضرب المثل كما قال مثل الذين حملوا التوراة وهذه السورة على ذكر من كان يكذبه قلبا دون اللسان ويصدقه لسانا دون القلب واما الاول بالآخر فذلك ان فى آخر تلك السورة تنبيها لاهل الايمان على تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ورعاية حقه بعد النداء لصلاة الجمعة وتقديم متابعته

(سورة المنافقون مدنية وآيها)
(احدى عشرة)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اذا جاءك المنافقون) اى حضروا مجلسك (قالوا نشهد انك لرسول الله) مؤكدين كلامهم بأن واللام للابذان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وخلوص اعتقادهم ووفور رغبتهم ونشاطهم وقوله تعالى (والله يعلم انك لرسوله) اعتراض مقرر لمنطوق كلامهم وسط بينه وبين قوله تعالى (والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) تحقيقا وتعيينا لما نيط به التكذيب من انهم قالوه عن اعتقاد كما اشير اليه واماطة من اول الامر لما عسى يتوهم من توجه التكذيب الى منطوق كلامهم اى والله يشهد انهم لكاذبون فيما ضمنوا مقالتهم من انها صادرة عن اعتقاد وطمأنينة قلب والاظهار فى موقع الاضمار لذمهم والاشعار بعلة الحكم (اتخذوا ايمانهم) الفاجرة التى من جملتها ما حكى عنهم (جنة) اى وقاية عما يتوجه اليهم من المؤاخذة بالقتل والسبى او غير ذلك واتخاذها جنة عبارة عن اعدادهم وتهيئتهم لها الى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلصوا عن المؤاخذة لا عن استعمالها بالفعل فان ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية واتخاذ الجنة لا بد ان يكون قبل المؤاخذة وعن سببها ايضا كما يفصح عنه الفاء فى قوله تعالى (فصدوا عن سبيل الله) اى فصدوا من أراد الدخول فى الاسلام بأنه عليه الصلاة والسلام

في الاداء على غيره وان ترك التعظيم والمتابعة من شيم المنافقين والمنافقون هم الكاذبون كما قال في اول هذه السورة اذا جاءك المنافقون يعني عبدالله بن ابي واصحابه قالوا انشهد انك لرسول الله وتم الخبر عنهم ثم ابتدأ فقال والله يعلم انك لرسوله اى انه ارسلك فهو يعلم انك لرسوله والله يشهد انهم اضمروا واغير ما اظهروا وانه يدل على ان حقيقة الايمان بالقلب وحقيقة كل كلام كذلك فان من اخبر عن شئ واعتقد بخلافه فهو كاذب لما ان الكذب باعتبار المخالفة بين الوجود اللفظى والوجود الذهنى كما ان الجهل باعتبار المخالفة بين الوجود الذهنى والوجود الخارجى الاترى انهم كانوا يقولون بألسنتهم نشهد انك لرسول الله وسماهم الله كاذبين لما ان قولهم يخالف اعتقادهم وقال قوم لم يكذبهم الله تعالى في قولهم نشهد انك لرسول الله انما كذبهم بغير هذا من الاكاذيب الصادرة عنهم في قوله تعالى يحلفون بالله ما قالوا الآية ويحلفون بالله انهم لمنكم وجواب اذا قالوا نشهد اى انهم اذا أتوك شهدوا لك بالرسالة فهم كاذبون في تلك الشهادة لما مر ان قولهم يخالف اعتقادهم وفي الآية مباحث (البحث الاول) انهم قالوا نشهد انك لرسول الله فلو قالوا نعلم انك لرسول الله أفاد مثل ما افاد هذا ام لا نقول ما أفاد لان قولهم نشهد انك لرسول الله صريح في الشهادة على اثبات الرسالة وقولهم نعلم ليس بصريح في اثبات العلم لما ان علمهم في الغيب عند غيرهم ❊ ثم قال تعالى (اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) قوله اتخذوا ايمانهم جنة اى سترا ليستتروا به عما خافوا على انفسهم من القتل قال في الكشاف اتخذوا ايمانهم جنة يجوز ان يراد ان قولهم نشهد انك لرسول الله يمين من ايمانهم الكاذبة لان الشهادة تجرى مجرى الحلف في التأكيد يقول الرجل اشهد واشهد بالله واعزم واعزم بالله في موضع اقسم وأولى وبه استشهد ابو حنيفة على ان اشهد يمين ويجوز ان يكون وصفا للمنافقين في استخفافهم بالايمان (فان قيل) لم قالوا نشهد ولم يقولوا نشهد بالله كما قلتم أجاب بعضهم عن هذا بأنه في معنى الحلف من المؤمن وهو في المتعارف انما يكون بالله فلذلك اخبر بقوله نشهد عن قوله بالله وقوله تعالى فصدوا عن سبيل الله اى اعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله وقيل صدوا اى صرفوا ومنعوا الضعفة عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ساء اى بئس ما كانوا يعملون حيث آثروا الكفر على الايمان واظهروا خلاف ما اضمروا مشاكلة للمسلمين وقوله تعالى ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ذلك اشارة الى قوله ساء ما كانوا يعملون قال مقاتل ذلك الكذب بأنهم آمنوا في الظاهر ثم كفروا في السر وفيه تأكيد لقوله والله يشهد انهم لكاذبون وقوله تعالى فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون لا يتدبرون ولا يستدلون بالدلائل الظاهرة قال ابن عباس رضي الله عنه ختم على قلوبهم وقال مقاتل على قلوبهم بالكفر فهم لا يفقهون القرآن وصدق محمد صلى الله عليه وسلم وقيل انهم كانوا يظنون انهم على الحق

ليس برسول ومن أراد الانفاق في سبيل الله بالنهى عنه كما سيحكى عنهم ولاريب في ان هذا الصد منهم متقدم على حلفهم وقرئ ايمانهم اى ما اظهروه على ألسنتهم فاتخاذه جنة عبارة عن استعماله بالفعل فانه وقاية دون دمائهم وأموالهم فمعنى قوله تعالى فصدوا حينئذ فاستمروا على ما كانوا عليه من الصد والاعراض عن سبيله تعالى (انهم ساء ما كانوا يعملون) من النفاق والصد وفي ساء معنى التعجب وتعظيم امرهم عند السامعين (ذلك) اشارة الى ما تقدم من القول الناعي عليهم انهم اسوأ الناس اعمالا اوالى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستتار بالايمان الصورى وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه لما مر مرارا من الاشعار ببعد منزلته في الشر (بأنهم) اى بسبب انهم (آمنوا) اى نطقوا بكلمة الشهادة كسائر من يدخل في الاسلام (ثم كفروا) اى ظهر كفرهم بما شوهد منهم من شواهد الكفر ودلائله اونطقوا بالايمان عند المؤمنين ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم (فطبع على قلوبهم) حتى تمرنوا على الكفر واطمأنوا به وقرئ على البناء للفاعل وقرئ فطبع الله (فهم لا يفقهون) حقيقة الايمان ولا يعرفون حقيته اصلا (واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم) لضخامتها ويروقك منظرهم لصباحة وجوههم (وان يقولوا تسمع لقولهم) لفصاحتهم

(فاخبر)

فاخبر تعالى انهم لا يفقهون انه طبع على قلوبهم ثم في الآية مباحث (البحث الاول) انه تعالى ذكر افعال الكفرة من قبل ولم يقل انهم ساء ما كانوا يعملون فلم قال هنا نقول لما ان افعالهم مقرونة بالايمان الكاذبة التي جعلوها جنة اى سترة لاموالهم ودمائهم عن ان يستبيحها المسلمون كما مر (الثانى) المنافقون لم يكونوا الا على الكفر الثابت الدائم فامعنى قوله تعالى آمنوا ثم كفروا نقول قال فى الكشاف ثلاثة اوجه (احدها) آمنوا نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من يدخل فى الاسلام ثم كفروا ثم ظهر كفرهم بعد ذلك (وثانيها) آمنوا نطقوا بالايمان عند المؤمنين ثم كفروا نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالاسلام كقوله تعالى واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا (وثالثها) ان يراد اهل الذمة منهم (البحث الثالث) الطبع على القلوب لا يكون الا من الله تعالى ولما طبع الله على قلوبهم لا يمكنهم ان يتدبروا ويستدلوا بالدلائل ولو كان كذلك لكان هذا حجة لهم على الله تعالى فيقولون اعراضنا عن الحق لغفلتنا وغفلتنا بسبب انه تعالى طبع على قلوبنا فنقول هذا الطبع من الله تعالى لسوء افعالهم وقصدهم الاعراض عن الحق فكأنه تعالى تركهم فى انفسهم الجاهلة واهوائهم الباطلة ❊ ثم قال تعالى (واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله انى يؤفكون واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون سواء عليهم استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ان الله لا يهدى القوم الفاسقين) اعلم ان قوله تعالى واذا رأيتهم يعنى عبدالله بن ابى ومغيث بن قيس وجد بن قيس كانت لهم اجسام ومنظر تعجبك اجسامهم لحسنها وجمالها وكان عبدالله بن ابى جسيما صبيحا فصيحا واذا قال سمع النبى صلى الله عليه وسلم قوله وهو قوله تعالى وان يقولوا تسمع لقولهم اى يقولوا انك لرسول الله تسمع لقولهم وقرئ يسمع على البناء للمفعول ثم شبههم بالخشب المسندة وفى الخشب التخفيف كبدنة وبدن واسد واسد والتثقيل كذلك كثمرة وثمر وخشبة وخشب ومدرة ومدر وهى قراءة ابن عباس والتثقيل لغة اهل الحجاز والخشب لا تعقل ولا تفهم فكذلك اهل النفاق كأنهم فى ترك التفهم والاستبصار بمنزلة الخشب واما المسندة يقال سند الى الشئ اى مال اليه واسنده الى الشئ اى أماله فهو مسند والتشديد للمبالغة وانما وصف الخشب بها لانها تشبه الاشجار القائمة التى تنمو وتثمر بوجه ما ثم نسبهم الى الجبن وعابهم به فقال يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو قال مقاتل اذا نادى مناد فى العسكر او انفلتت دابة او نشدت ضالة مثلا ظنوا انهم يرادون بذلك لما فى قلوبهم من الرعب وذلك لانهم على وجل من ان يهتك الله استارهم ويكشف اسرارهم يتوقعون الايقاع بهم ساعة فساعة ثم اعلم رسوله بعداوتهم فقال هم العدو فاحذرهم ان تأمنهم على السر ولا تلتفت الى ظاهرهم فانهم الكاملون فى العداوة بالنسبة الى غيرهم وقوله تعالى قاتلهم الله أنى

وذلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامهم وكان ابن ابى جسيما فصيحا يحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من امثاله وهم رؤساء المدينة وكان عليه الصلاة والسلام ومن معه يعجبون بهياكلهم ويسمعون الى كلامهم وقيل الخطاب لكل احد ممن يصلح للخطاب ويؤيده قراءة يسمع على البناء للمفعول وقوله تعالى (كأنهم خشب مسندة) فى حيز الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف او كلام مستأنف لا محل له شبهوا فى جلوسهم فى مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستندين فيها بخشب منصوبة مسندة الى الحائط فى كونهم اشباحا خالية عن العلم والخير وقرئ خشب على انه جمع خشبة كبدن جمع بدنة وقيل هو جمع خشباء وهى الخشبة التى دعر جوفها اى فسد شبهوا بها فى نفاقهم وفساد بواطنهم وقرئ خشب كمدرة ومدر (يحسبون كل صيحة عليهم) اى واقعة عليهم ضارة لهم لجبنهم واستقرار الرعب فى قلوبهم وقيل كانوا على وجل من ان ينزل الله فيهم ما يهتك استارهم ويبيح دماءهم واموالهم (هم العدو) اى هم الكاملون فى العداوة والراسخون فيها فان اعدى الاعادى العدو المكاشر الذى يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوى والجملة مستأنفة وجعلها مفعولا ثانيا للحسبان مما لا يساعده النظم الكريم اصلا فان الفاء فى قوله تعالى (فاحذرهم) لترتيب الامر بالحذر على كونهم اعدى

يؤفكون مفسر وهو دعاء عليهم وطلب من ذاته ان يلعنهم ويخزيهم وتعليم للمؤمنين ان يدعوا بذلك وانى يؤفكون اى يعدلون عن الحق تعجبا من جهلهم وضلالتهم وظنهم الفاسد انهم على الحق وقوله تعالى واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله قال الكلبي لما نزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم بصفة المنافقين مشى اليه عشائرهم من المؤمنين وقالوا لهم ويلكم افتضحتم بالنفاق واهلكتم انفسكم فأتوا رسول الله وتوبوا اليه من النفاق واسألوه ان يستغفر لكم فأبوا ذلك وزهدوا في الاستغفار فنزلت وقال ابن عباس لما رجع عبدالله بن ابي من احد بكثير من الناس مقته المسلمون وعنفوه واسمعوه المكروه فقال له بنوابيه لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستغفر لك ويرضى عنك فقال لااذهب اليه ولااريد ان يستغفر لي وجعل يلوي رأسه فنزلت وعند الاكثرين انما دعى الى الاستغفار لانه قال ليخرجن الاعز منها الاذل وقال لاتنفقوا على من عند رسول الله فقيل له تعال يستغفر لك رسول الله فقال ماذا قلت فذلك قوله تعالى لووا رؤسهم وقرئ لووا بالتخفيف والتشديد للكثرة والكناية قد تجعل جمعا والمقصود واحد وهو كثير في اشعار العرب قال جرير

لابارك الله فيمن كان يحسبكم * الاعلى العهد حتى كان ماكانا

وانما خاطب بهذا امرأة وقوله تعالى ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون اى عن استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر تعالى ان استغفاره لاينفعهم فقال سواء عليهم استغفرت لهم قال قتادة نزلت هذه الآية بعد قوله استغفر لهم اولاتستغفر لهم وذلك لانها لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرني ربي فلأزيدنهم على السبعين فأنزل الله تعالى لن يغفر الله لهم ان الله لايهدى القوم الفاسقين قال ابن عباس المنافقين وقال قوم فيه بيان ان الله تعالى يملك هداية وراء هداية البيان وهى خلق فعل الاهتداء فيمن علم منه ذلك وقيل معناه لايهديهم لفسقهم وقالت المعتزلة لايسميهم المهتدين اذا فسقوا وضلوا وفي الآية مباحث (البحث الاول) لم شبههم بالخشب المسندة لابغيره من الاشياء المنتفع بها نقول لاشتمال هذا التشبيه على فوائد كثيرة لاتوجد في الغير (الاولى) قال في الكشاف شبهوا في استنادهم وماهم الا اجرام خالية عن الايمان والخير بالخشب المسندة الى الحائط ولان الخشب اذا انتفع به كان في سقف اوجدار اوغيرهما من مظان الانتفاع ومادام متروكا فارغا غير منتفع به اسند الى الحائط فشبهوا به في عدم الانتفاع ويجوز ان يراد بها الاصنام المنحوتة من الخشب المسندة الى الحائط شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم (الثانية) الخشب المسندة في الاصل كانت غصنا طريا يصلح لان يكون من الاشياء المنتفع بها ثم تصير غليظة يابسة والكافر والمنافق كذلك كان في الاصل صالحا لكذا وكذا ثم يخرج عن تلك الصلاحية (الثالثة) الكفرة من جنس الانس حطب كما قال تعالى حصب جهنم انتم لها واردون والخشب المسندة حطب ايضا (الرابعة) ان الخشب المسندة الى

(الحائط)

الاعداء (قاتلهم الله) دعاء عليهم وطلب من ذاته تعالى ان يلعنهم ويخزيهم او تعليم للمؤمنين ان يدعوا عليهم بذلك وقوله تعالى (انى يؤفكون) تعجيب من حالهم اى كيف يصرفون عن الحق الى ماهم عليه من الكفر والضلال (واذا قيل لهم) عند ظهور جناياتهم بطريق النصيحة (تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم) اى عطفوها استكبارا (ورأيتهم يصدون) يعرضون عن القائل او عن الاستغفار (وهم مستكبرون) عن ذلك (سواء عليهم استغفرت لهم) كما اذا جاؤك معتذرين من جناياتهم وقرئ استغفرت بحذف حرف الاستفهام ثقة بدلالة ام عليه وقرئ استغفرت باشباع همزة الاستفهام لابقلب همزة الوصل الفا (ام لم تستغفر لهم) كما اذا أصروا على قبائحهم واستكبروا عن الاعتذار والاستغفار (لن يغفر الله لهم) ابدا لاصرارهم على الفسق ورسوخهم في الكفر (ان الله لايهدى القوم الفاسقين) الكاملين في الفسق الخارجين عن دائرة الاستصلاح المنهمكين في الكفر والنفاق والمراد اماهم بأعيانهم والاظهار في موقع الاضمار لبيان غلوهم في الفسق او الجنس وهم داخلون في زمرتهم دخولا اوليا وقوله تعالى (هم الذين يقولون) اى للانصار (لاتنفقوا على من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (حتى ينفضوا) يعنون

الحائط احد طرفيها الى جهة والآخر الى جهة اخرى والمنافقون كذلك لان المنافق احد طرفيه وهو الباطن الى جهة اهل الكفر والطرف الآخر وهو الظاهر الى جهة اهل الاسلام (الخامسة) المعتمد عليه الخشب المسندة مايكون من الجمادات والنباتات والمعتمد عليه للمنافقين كذلك اذا كانوا من المشركين اذهو الاصنام وانها من الجمادات او النبات (الثانى) من المباحث انه تعالى شبههم بالخشب المسندة ثم قال من بعد ماينافى هذا التشبيه وهو قوله تعالى يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو والخشب المسندة لايحسبون اصلا نقول لايلزم ان يكون المشبه والمشبه به يشتركان فى جميع الاوصاف فهم كالخشب المسندة بالنسبة الى الانتفاع وعدم الانتفاع وليسوا كالخشب المسندة بالنسبة الى الاستماع وعدم الاستماع للصيحة وغيرها (الثالث) قال تعالى ان الله لايهدى القوم الفاسقين ولم يقل القوم الكافرين او المنافقين او المستكبرين مع ان كل واحد منهم من جملة ماسبق ذكره نقول كل احد من تلك الاقوام داخل تحت قوله الفاسقين اى الذين سبق ذكرهم وهم الكافرون والمنافقون والمستكبرون ❊ ثم قال تعالى (هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لايفقهون يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون) اخبر الله تعالى بشنيع مقالتهم فقال هم الذين يقولون كذا وكذا وينفضوا اى يتفرقوا وقرئ ينفضوا من انفض القوم اذا فنيت ازوادهم قال المفسرون اقتتل اجير عمر مع اجير عبدالله بن ابى فى بعض الغزوات فاسمع اجير عمر عبدالله ابن ابى المكروه واشتد عليه لسانه فغضب عبدالله وعنده رهط من قومه فقال اما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل يعنى بالاعز نفسه وبالاذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اقبل على قومه فقال لو امسكتم النفقة عن هؤلاء يعنى المهاجرين لاوشكوا ان يتحولوا عن دياركم وبلادكم فلاتنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فنزلت وقرئ ليخرجن بفتح الياء وقرأ الحسن وابن ابى عبلة لنخرجن بالنون ونصب الاعز والاذل وقوله تعالى ولله خزائن السموات والارض قال مقاتل يعنى مفاتيح الرزق والمطر والنبات والمعنى ان الله هو الرزاق قل من يرزقكم من السماء والارض وقال اهل المعانى خزائن الله تعالى مقدوراته لان فيها كل مايشاء مما يريد اخراجه وقال الجنيد خزائن الله تعالى فى السموات الغيوب وفى الارض القلوب وهو علام الغيوب ومقلب القلوب وقوله تعالى ولكن المنافقين لايفقهون اى لايفقهون ان امره اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون وقوله يقولون لئن رجعنا اى من تلك الغزوة وهى غزوة بنى المصطلق الى المدينة فرد الله تعالى عليه وقال ولله العزة اى الغلبة والقوة ولمن اعزه الله وايده من رسوله ومن المؤمنين وعزهم بنصرته اياهم واظهار دينهم على سائر الاديان واعلم رسوله بذلك ولكن المنافقين لايعلمون ذلك ولو علموه ماقالوا مقالتهم هذه قال صاحب الكشاف ولله العزة ولرسوله

فقراء المهاجرين استئناف جار مجرى التعليل لفسقهم اولعدم مغفرته تعالى لهم وقرئ حتى ينفضوا من انفض القوم اذا فنيت ازوادهم وحقيقته حان لهم ان ينفضوا مزاودهم وقوله تعالى (ولله خزائن السموات والارض) رد وابطال لما زعموا من ان عدم انفاقهم يؤدى الى انفضاض الفقراء من حوله عليه الصلاة والسلام ببيان ان خزائن الارزاق بيد الله تعالى خاصة يعطى من يشاء ويمنع من يشاء (ولكن المنافقين لايفقهون) ذلك لجهلهم بالله تعالى وبشؤنه ولذلك يقولون من مقالات الكفر ما يقولون (يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل) روى ان جهجاه بن سعيد اجير عمر رضى الله عنه نازع سنانا الجهنى حليف ابن ابى واقتتلا فصرخ جهجاه بالمهاجرين وسنان بالانصار فأعان جهجاها جعال من فقراء المهاجرين ولطم سنانا فاشتكى الى ابن ابى فقال للانصار لاتنفقوا الخ والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل عنى بالاعز نفسه وبالاذل جانب المؤمنين واسناد القول المذكور الى المنافقين لرضاهم به فرد عليهم ذلك بقوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) اى ولله الغلبة والقوة ولمن اعزه من رسوله والمؤمنين لالغيرهم (ولكن المنافقين لايعلمون) من فرط جهلهم وغرورهم فيهذون مايهذون روى

وللمؤمنين وهم الاخصاء بذلك كما ان المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين وعن بعض الصالحات وكانت فى هيئة رثة ألست على الاسلام وهو العز الذى لاذل معه والغنى الذى لافقر معه وعن الحسن بن على رضى الله عنهما ان رجلا قال له ان الناس يزعمون ان فيك تيها قال ليس بتيه ولكنه عزة فان هذا العز الذى لاذل معه والغنى الذى لافقر معه وتلا هذه الآية قال بعض العارفين فى تحقيق هذا المعنى العزة غير الكبر ولا يحل للمؤمن ان يذل نفسه فالعزة معرفة الانسان بحقيقة نفسه واكرامها عن ان يضعها لاقسام عاجلة دنيوية كما ان الكبر جهل الانسان بنفسه وانزالها فوق منزلها فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة وتختلف من حيث الحقيقة كاشتباه التواضع بالضعة والتواضع محمود والضعة مذمومة والكبر مذموم والعزة محمودة ولما كانت غير مذمومة وفيها مشاكلة للكبر قال تعالى ذلكم بما كنتم تستكبرون فى الارض بغير الحق وفيه اشارة خفية لاثبات العزة بالحق والوقوف على حد التواضع من غير انحراف الى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن نار الكبر فان قيل قال فى الآية الاولى لايفقهون وفى الاخرى لايعلمون فما الحكمة فيه فنقول ليعلم بالاول قلة كياستهم وفهمهم وبالثانى كثرة حماقتهم وجهلهم ولايفقهون من فقه يفقه كعلم يعلم ومن فقه يفقه كعظم يعظم والاول لحصول الفقه بالتكلف والثانى لابالتكلف فالاول علاجى والثانى مزاجى ❊ ثم قال تعالى (يأيها الذين آمنوا لاتلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتى احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتنى الى اجل قريب فأصدق واكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء اجلها والله خبير بما تعملون) لاتلهكم لاتشغلكم كما شغلت المنافقين وقد اختلف المفسرون منهم من قال نزلت فى حق المنافقين ومنهم من قال فى حق المؤمنين وقوله عن ذكر الله عن فرائض الله تعالى نحو الصلاة والزكاة والحج اوعن طاعة الله تعالى وقال الضحاك الصلوات الخمس وعند مقاتل هذه الآية ومابعدها خطاب للمنافقين الذين أقروا بالايمان ومن يفعل ذلك اى الهاه ماله وولده عن ذكر الله فأولئك هم الخاسرون اى فى تجاراتهم حيث باعوا الشريف الباقى بالخسيس الفانى وقيل هم الخاسرون فى انكار ما قال به رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوحيد والبعث وقال الكلبى الجهاد وقيل هو القرآن وقيل هو النظر فى القرآن والتفكر والتأمل فيه وانفقوا مما رزقناكم قال ابن عباس يريد زكاة المال ومن للتبعيض وقيل المراد هو الانفاق الواجب من قبل ان يأتى احدكم الموت اى دلائل الموت وعلاماته فيسأل الرجعة الى الدنيا وهو قوله رب لولا اخرتنى الى اجل قريب وقيل حضهم على ادامة الذكر وان لايضنوا بالاموال اى هلا امهلتنى واخرت اجلى الى زمان قليل وهو الزيادة فى اجله حتى يتصدق ويتزكى وهو قوله تعالى فاصدق واكن من الصالحين قال ابن عباس هذا دليل على ان القوم لم يكونوا مؤمنين اذ المؤمن

(لايسأل)

ان عبدالله بن ابى لما أراد ان يدخل المدينة اعترضه ابنه عبدالله ابن عبدالله بن ابى وكان مخلصا وقال لئن لم تقر لله ولرسوله بالعز لاضربن عنقك فلما رأى منه الجد قال اشهد ان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال النبى عليه الصلاة والسلام لابنه جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا (يأيها الذين آمنوا لاتلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله) اى لايشغلكم الاهتمام بتدبير امورها والاعتناء بمصالحها والتمتع بها عن الاشتغال بذكره عزوجل من الصلاة وسائر العبادات المذكرة للمعبود والمراد نهيهم عن التلهى بها وتوجيه النهى اليها للمبالغة كما فى قوله تعالى ولايجرمنكم شنآن قوم الخ (ومن يفعل ذلك) اى التلهى بالدين (فاولئك هم الخاسرون) اى الكاملون فى الخسران حيث باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى (وانفقوا مما رزقناكم) اى بعض ما اعطيناكم تفضلا من غير ان يكون حصوله من جهتكم ادخارا للآخرة (من قبل ان يأتى احدكم الموت) بأن يشاهد دلائله ويعاين اماراته ومخايله وتقديم المفعول على الفاعل لما مر مرارا من الاهتمام بما قدم والتشويق الى ما اخر (فيقول) عند تيقنه بحلوله (رب لولا اخرتنى) اى امهلتنى (الى اجل قريب) اى امد قصير (فأصدق) بالنصب على جواب التمنى وقرئ فأصدق (واكن من الصالحين)

لايسأل الرجعة وقال الضحاك لاينزل بأحد لم يحج ولم يؤد الزكاة الموت الا وسأل الرجعة وقرأ هذه الآية وقال صاحب الكشاف من قبل ان يعاين مايبأس معه من الامهال ويضيق به الخناق ويتعذر عليه الانفاق ويفوت وقت القبول فيتحسر على المنع ويعض أنامله على فقد ماكان متمكنا منه وعن ابن عباس تصدقوا قبل ان ينزل عليكم سلطان الموت فلاتقبل توبة ولاينفع عمل وقوله وأكن من الصالحين قال ابن عباس أحج وقرئ فأكون وهو على لفظ فأصدق وأكون قال المبرد واكون على ماقبله لان قوله فأصدق جواب للاستفهام الذى فيه التمنى والجزم على موضع الفاء وقرأ أبي فأتصدق على الاصل واكن عطفا على موضع فأصدق وأنشد سيبويه ابياتا كثيرة فى الحمل على الموضع منها * فلسنا بالجبال ولاالحديدا * فنصب الحديد عطفا على المحل والباء فى قوله بالجبال للتأكيد لالمعنى مستقل يجوز حذفه وعكسه قول ابن أبى سلمى

بدالى انى لست مدرك مامضى * ولاسابق شيئا اذا كان جائيا

توهم انه قال بمدرك فعطف عليه قوله سابق عطفا على المفهوم واما قراءة ابى عمرو واكون فانه حمله على اللفظ دون المعنى ثم اخبر تعالى انه لايؤخر من انقضت مدته وحضر اجله فقال ولن يؤخر الله نفسا يعنى عن الموت اذا جاء اجلها قال فى الكشاف هذا نفى للتأخير على وجه التأكيد الذى معناه منافاة المنفى وبالجملة فقوله لاتلهكم اموالكم ولااولادكم تنبيه على الذكر قبل الموت وانفقوا مما رزقناكم تنبيه على الشكر لذلك وقوله تعالى والله خبير بماتعملون اى لورد الى الدنيا مازكى ولاحج ويكون هذا كقوله ولوردوا لعادوا لمانهوا عنه والمفسرون على ان هذا خطاب جامع لكل عمل خيرا اوشرا وقرأ عاصم يعملون بالياء على قوله ولن يؤخر الله نفسا لان النفس وان كان واحدا فى اللفظ والمراد به الكثير فحمل على المعنى والله اعلم وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين

(سورة التغابن ثمان عشرة آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يسبح لله مافى السموات ومافى الارض له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير) وجه التعلق بماقبلها ظاهر لما ان تلك السورة للمنافقين الكاذبين وهذه السورة للموافقين الصادقين وايضا تلك السورة مشتملة على بطالة اهل النفاق سرا وعلانية وهذه السورة على ماهو التهديد البالغ لهم وهو قوله تعالى يعلم مافى السموات والارض ويعلم ماتسرون وماتعلنون والله عليم بذات الصدور واما الاول بالآخر فلأن فى آخر تلك السورة التنبيه على الذكر والشكر كمامر وفى اول هذه اشارة الى انهم ان اعرضوا عن الذكر والشكر فلنا من الخلق قوم يواظبون على الذكر والشكر دائما وهم الذين يسبحون كما قال تعالى يسبح لله مافى السموات ومافى الارض وقوله تعالى له الملك وله الحمد معناه اذا سبح لله مافى السموات

بالجزم عطفا على محل فاصدق كأنه قيل ان اخرتنى اصدق واكن وقرئ واكون بالنصب عطفا على لفظه وقرئ واكون بالرفع اى انا اكون عدة منه بالصلاح (ولن يؤخر الله نفسا) اى ولن يمهلها (اذا جاء اجلها) اى آخر عمرها اوانتهى ان اريد بالاجل الزمان الممتد من اول العمر الى آخره (والله خبير بماتعملون) فمجازيكم عليه ان خيرا فخير وان شرا فشر فسارعوا فى الخيرات واستعدوا لماهو آت وقرئ يعملون بالياء التحتانية *عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المنافقين برئ من النفاق

(سورة التغابن مختلف)

(فيها وآيها ثمانى عشرة)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يسبح لله مافى السموات ومافى الارض) اى ينزهه سبحانه جميع مافيهما من المخلوقات عما لايليق بجناب كبريائه تنزيها مستمرا (له الملك وله الحمد) لالغيره اذ هو المبدئ لكل شئ وهو القائم به والمهيمن عليه وهو المولى لاصول النعم وفروعها واما ملك غيره فاسترعاء من جنابه وحمد غيره اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده (وهو على كل شئ قدير) لان نسبة ذاته المقتضية للقدرة الى الكل سواء (هو الذى خلقكم) خلقا بديعا حاويا لجميع مبادى الكمالات العلمية والعملية ومع ذلك (فمنكم كافر) اى فبعضكم او فبعض منكم مختار للكفر كاسب له على خلاف

وما في الارض فله الملك وله الحمد ولما كان له الملك فهو متصرف في ملكه والتصرف مفتقر الى القدرة فقال والله على كل شيء قدير وقال في الكشاف قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله تعالى وذلك لان الملك في الحقيقة له لانا مبدئ لكل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه وكذلك الحمد فان اصول النعم وفروعها منه واما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده وقوله تعالى وهو على كل شيء قدير قيل معناه وهو على كل شيء أراده قدير وقيل قدير يفعل مايشاء بقدر مايشاء لايزيد عليه ولا ينقص وقدمر ذلك وفي الآية مباحث (الاول) انه تعالى قال في الحديد سبح والحشر والصف كذلك وفي الجمعة والتغابن يسبح لله فالحكمة فيه نقول الجواب عنه قد تقدم (البحث الثاني) قال في موضع سبح لله مافي السموات ومافي الارض وفي موضع آخر سبح لله ما في السموات والارض فالحكمة فيه قلنا الحكمة لابد منها ولا نعلمها كما هي لكن نقول مايخطر بالبال وهو ان مجموع السموات والارض شيء واحد وهو عالم مؤلف من الاجسام الفلكية والعنصرية ثم الارض من هذا المجموع شيء والباقي منه شيء آخر فقوله تعالى يسبح لله مافي السموات ومافي الارض بالنسبة الى هذا الجزء من المجموع وبالنسبة الى ذلك الجزء منه كذلك واذا كان كذلك فلا يبعد ان يقال قال تعالى في بعض السور كذا وفي البعض كذا ليعلم ان هذا العالم الجسماني من وجه شيء واحد ومن وجه شيئان بل اشياء كثيرة والخلق في المجموع غير ما في هذا الجزء وغير ما في ذلك ايضا ولا يلزم من وجود الشيء في المجموع ان يوجد في كل جزء من اجزائه الا بدليل منفصل فقوله تعالى سبح لله مافي السموات ومافي الارض على سبيل المبالغة من جملة ذلك الدليل لما انه يدل على تسبيح مافي السموات وعلى تسبيح مافي الارض كذلك بخلاف قوله تعالى سبح لله ما في السموات والارض * ثم قال تعالى (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير خلق السموات والارض بالحق وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير يعلم مافي السموات والارض ويعلم ماتسرون وماتعلنون والله عليم بذات الصدور) قال ابن عباس رضي الله عنهما انه تعالى خلق بني آدم مؤمنا وكافرا ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمنا وكافرا وقال عطاء انه يريد فمنكم مصدق ومنكم جاحد وقال الضحاك مؤمن في العلانية كافر في السر كالمنافق وكافر في العلانية مؤمن في السر كعمار بن ياسر قال الله تعالى الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان وقال الزجاج فمنكم كافر بأنه تعالى خلقه وهو من اهل الطبائع والدهرية ومنكم مؤمن بأنه تعالى خلقه كما قال قتل الانسان ما اكفره من اي شيء خلقه وقال أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة وقال ابو اسحق خلقكم في بطون امهاتكم كفارا ومؤمنين وجاء في بعض التفاسير ان يحيى خلق في بطن امه مؤمنا وفرعون خلق في بطن امه كافرا دل عليه قوله تعالى ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وقوله تعالى والله بما تعملون بصير اي عالم بكفركم وايمانكم اللذين

ماتستدعيه خلقته (ومنكم مؤمن) مختار للايمان كاسب له حسبما تقتضيه خلقته وكان الواجب عليكم جميعا ان تكونوا مختارين للايمان شاكرين لنعمة الخلق والايجاد ومايتفرع عليها من سائر النعم فما فعلتم ذلك مع تمام تمكنكم منه بل تشعبتم شعبا وتفرقتم فرقا وتقديم الكفر لانه الاغلب فيما بينهم والانسب بمقام التوبيخ وجعله على معنى فمنكم كافر مقدر كفره موجه اليه مايحمله عليه ومنكم مؤمن مقدر ايمانه موفق لما يدعوه اليه مما يلائم المقام (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم بذلك فاختاروا منه مايجديكم من الايمان والطاعة واياكم وما يرديكم من الكفر والعصيان (خلق السموات والارض بالحق) بالحكمة البالغة المتضمنة للمصالح الدينية والدنيوية (وصوركم فأحسن صوركم) حيث برأكم في احسن تقويم واودع فيكم من القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة مانيط بها جميع الكمالات البارزة والكامنة وزينكم بصفوة صفات مصنوعاته وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته وجعلكم انموذج جميع مخلوقاته في هذه النشأة (واليه المصير) في النشأة الاخرى لا الى غيره استقلالا او اشتراكا فاحسنوا سرائركم باستعمال تلك القوى والمشاعر فيما خلقن له (يعلم مافي السموات والارض) من الامور الكلية والجزئية والاحوال

من اعمالكم والمعنى انه تعالى تفضل عليكم بأصل النعم التى هى الخلق فانظروا النظر الصحيح وكونوا بأجمعكم عبادا شاكرين فافعلتم مع تمكنكم بل تفرقتم فرقا فمنكم كافر ومنكم مؤمن * قوله تعالى خلق السموات والارض بالحق اى بالارادة القديمة على وفق الحكمة ومنهم من قال بالحق اى للحق وهو البعث وقوله وصوركم فأحسن صوركم يحتمل وجهين (احدهما) أحسن اى اتقن وأحكم على وجه لايوجد بذلك الوجه فى الغير وكيف يوجد وقد وجد فى انفسهم من القوى الدالة على وحدانية الله تعالى وربوبيته دلالة مخصوصة لحسن هذه الصورة (وثانيهما) ان نصرف الحسن الى حسن المنظر قال من نظر فى قد الانسان وقامته والنسبة بين اعضائه فقد علم ان صورته أحسن صورة وقوله تعالى اليه المصير اى البعث وانما اضافه الى نفسه لانه هو النهاية فى خلقهم والمقصود منه ثم قال تعالى وصوركم فأحسن صوركم لانه لايلزم من خلق الشئ أن يكون مصورا بالصورة ولايلزم من الصورة ان تكون على احسن الصور * ثم قال واليه المصير اى المرجع ليس الا اليه * وقوله تعالى يعلم مافى السموات والارض ويعلم ماتسرون وماتعلنون والله عليم بذات الصدور نبه بعلمه مافى السموات والارض ثم بعلمه مايسره العباد وما يعلنونه ثم بعلمه مافى الصدور من الكليات والجزئيات على انه لايخفى عليه شئ لما انه تعالى لايعزب عن علمه مثقال ذرة البتة أزلا وأبدا وفى الآية مباحث (الاول) انه تعالى حكيم وقد سبق فى علمه انه اذا خلقهم لم يفعلوا الا الكفر والاصرار عليه فأى حكمة دعته الى خلقهم نقول اذا علمنا انه تعالى حكيم علمنا أن افعاله كلها على وفق الحكمة وخلق هذه الطائفة فعله فيكون على وفق الحكمة ولايلزم من عدم علمنا بذلك أن لايكون كذلك بل اللازم أن يكون خلقهم على وفق الحكمة (الثانى) قال وصوركم فأحسن صوركم وقد كان من افراد هذا النوع من كان مشوه الصورة سمج الخلقة نقول لاسماجة ثمة لكن الحسن كغيره من المعانى على طبقات ومراتب فلا نحطاط بعض الصور عن مراتب مافوقها انحطاطا بينا لايظهر حسنه والا فهو داخل فى حيز الحسن غير خارج عن حده (الثالث) قوله تعالى واليه المصير يوهم الانتقال من جانب الى جانب وذلك لايمكن الا وان يكون الله فى جانب فكيف هو قلت ذلك الوهم بالنسبة الينا والى زماننا لا بالنسبة الى مايكون فى نفس الامر فان نفس الامر بمعزل عن حقيقة الانتقال من جانب الى جانب اذا كان المنتقل اليه منزها عن الجانب وعن الجهة ※ ثم قال تعالى (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال امرهم ولهم عذاب أليم ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) اعلم ان قوله ألم يأتكم نبأ الذين كفروا خطاب لكفار مكة وذلك اشارة الى الوبال الذى ذاقوه فى الدنيا والى ما اعد لهم من العذاب فى الآخرة فقوله فذاقوا وبال امرهم اى شدة امرهم مثل

الجلية والخفية (ويعلم ماتسرون وماتعلنون) اى ماتسرونه فيما بينكم وماتظهرونه من الامور والتصريح به مع اندراجه فيما قبله لانه الذى تدور عليه الجزاء ففيه تأكيد الوعد والوعيد وتشديد لهما وقوله تعالى (والله عليم بذات الصدور) اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من شمول علمه تعالى لسرهم وعلنهم اى هو محيط بجميع المضمرات المستكنة فى صدور الناس بحيث لاتفارقها اصلا فكيف يخفى عليه مايسرونه وما يعلنونه واظهار الجلالة للاشعار بعلة الحكم وتأكيد استقلال الجملة قيل وتقديم تقرير القدرة على تقرير العلم لان دلالة المخلوقات على قدرته بالذات وعلى علمه بما فيها من الاتقان والاختصاص ببعض الانحاء (ألم يأتكم) ايها الكفرة (نبأ الذين كفروا من قبل) كقوم نوح ومن بعدهم من الامم المصرة على الكفر (فذاقوا وبال امرهم) عطف على كفروا والوبال الثقل والشدة المترتبة على امر من الامور وامرهم كفرهم عبر عنه بذلك للايذان بأنه امر هائل وجناية عظيمة اى ألم يأتكم خبر الذين كفروا من قبل فذاقوا من غير مهلة مايستتبعه كفرهم فى الدنيا (ولهم) فى الآخرة (عذاب اليم) لايقادر قدره (ذلك) اى ماذكر من العذاب الذى ذاقوه فى الدنيا وما سيذوقونه فى الآخرة (بأنه) بسبب ان الشأن (كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) اى بالمعجزات الظاهرة (فقالوا) عطف على كانت (أبشر يهدوننا) اى قال كل قوم من المذكورين فى حق رسولهم الذى اتاهم بالمعجزات منكرين لكون الرسول من جنس البشر متعجبين من ذلك أبشر يهدينا كما قالت ثمود أبشرا منا واحدا نتبعه وقد اجمل فى الحكاية فأسند القول الى جميع الاقوام واريد بالبشر الجنس فوصف بالجمع كما اجمل الخطاب والامر فى قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا

وطاعتهم حيث اهلكهم وقطع دابرهم ولولا غناه تعالى عنهما لما فعل ذلك (والله غنى) عن العالمين فضلا عن ايمانهم وطاعتهم (حميد) يحمده كل مخلوق بلسان الحال او مستحق للحمد بذاته وان لم يحمده حامد (زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا) الزعم ادعاء العلم يتعدى الى مفعولين وقد قام مقامهما ان المخففة مع ما فى حيزها والمراد بالموصول كفار مكة اى زعموا ان الشان لن يبعثوا بعد موتهم ابدا (قل) ردا عليهم وابطالا لزعمهم باثبات ما نفوه (بلى) اى تبعثون وقوله (وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم) اى لتحاسبن ولتجزون بأعمالكم جملة مستقلة داخلة تحت الامر واردة لتأكيد ما افاده كلمة بلى من اثبات البعث وبيان تحقق امر آخر متفرع عليه منوط به ففيه تأكيد لتحقق البعث بوجهين (وذلك) اى ما ذكر من البعث والجزاء (على الله يسير) لتحقق القدرة التامة وقبول المادة والفاء فى قوله تعالى (فآمنوا) فصيحة مفصحة عن شرط قد حذف ثقة بغاية ظهوره اى اذا كان الامر كذلك فآمنوا (بالله ورسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (والنور الذى انزلنا) وهو القرآن فانه باعجازه بين بنفسه مبين لغيره كما ان النور كذلك و لالتفات الى نون العظمة لابراز كمال العناية بأمر الانزال (والله بما تعملون) من الامتثال بالامر وعدمه (خبير) فمجاز لكم عليه والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من الامر موجب للامتثال به بالوعد والوعيد والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وتأكيد استقلال الجملة (يوم يجمعكم) ظرف

قوله ذق انك انت العزيز الكريم و قوله ذلك بأنه اى بأن الشان و الحديث انكروا ان يكون الرسول بشرا ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجرا فكفروا و تولوا كفروا بالرسل واعرضوا واستغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم من الازل وقوله تعالى والله غنى حميد من جملة ماسبق والحميد بمعنى المحمود اى المستحق للحمد بذاته ويكون بمعنى الحامد وقوله تعالى زعم الذين كفروا قال فى الكشاف الزعم ادعاء العلم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم زعموا مطية الكذب وعن شريح لكل شئ كنية وكنية الكذب زعموا ويتعدى الى مفعولين تعدى العلم قال الشاعر * ولم أزعمك عن ذلك معزولا * والذين كفروا هم اهل مكة بلى اثبات لما بعد ان وهو البعث وقيل قوله تعالى قل بلى وربى يحتمل ان يكون تعليما للرسول صلى الله عليه وسلم ان يعلمه القسم تأكيدا لما كان يخبر عن البعث وكذلك جميع القسم فى القرآن وقوله تعالى وذلك على الله يسير اى لايصرفه صارف وقيل ان أمر البعث على الله يسير لانهم انكروا البعث بعد ان صاروا ترابا فأخبر ان اعادتهم اهون فى العقول من انشائهم وفى الآية مباحث (الاول) قوله فكفروا يتضمن قوله وتولوا فما الحاجة الى ذكره نقول انهم كفروا وقالوا أبشر يهدوننا وهذا فى معنى الانكار والاعراض بالكلية وذلك هو التولى فكأنهم كفروا وقالوا قولا يدل على التولى ولهذا قال فكفروا وتولوا (الثانى) قوله وتولوا واستغنى الله يوهم وجود التولى والاستغناء معا والله تعالى لم يزل غنيا قال فى الكشاف معناه انه ظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم الى الايمان ولم يضطرهم اليه مع قدرته على ذلك (الثالث) كيف يفيد القسم فى اخباره عن البعث وهم قد انكروا رسالته نقول انهم وان أنكروا الرسالة لكنهم يعتقدون انه يعتقد ربه اعتقادا لامزيد عليه فيعلمون انه لايقدم على القسم بربه الا وان يكون صدق هذا الاخبار اظهر من الشمس عنده وفى اعتقاده والفائدة فى الاخبار مع القسم ليس الا هذا ثم انه أكد الخبر باللام والنون فكأنه قسم بعد قسم وللمبالغ فى الاخبار عن البعث والاعتراف بالبعث من لوازم الايمان ※ قال تعالى (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك اصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) قوله فآمنوا يجوز ان يكون صلة لما تقدم لانه تعالى لما ذكر ما نزل من العقوبة بالامم الماضية وذلك لكفرهم بالله وتكذيب الرسل قال فآمنوا أنتم بالله ورسوله لئلا ينزل بكم ما نزل بهم من العقوبة والنور الذى أنزلنا وهو القرآن فانه يهتدى به فى الشبهات كما يهتدى بالنور فى الظلمات وانما ذكر النور الذى هو القرآن لما انه مشتمل على الدلالات الظاهرة على البعث ثم ذكر فى الكشاف انه عنى برسوله والنور محمدا صلى الله عليه وسلم والقرآن والله بما تعملون خبير اى بما تسرون وما تعلنون فراقبوه وخافوه فى الحالين

لتنبؤن وقيل لخبير لما فيه من معنى الوعيد كأنه قيل والله مجازيكم ومعاقبكم يوم يجمعكم او مفعول لاذكر وقرى نجمعكم بنون العظمة (جميعا)

جميعا وقوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع يريد به يوم القيامة جمع فيه اهل السموات واهل الارض وذلك يوم التغابن والتغابن تفاعل من الغبن فى المجازاة والتجارات يقال غبنه يغبنه غبنا اذا اخذ الشئ منه بدون قيمته قال ابن عباس رضى الله عنهما ان قوما فى النار يعذبون وقوما فى الجنة يتنعمون وقيل هو يوم يغبن فيه اهل الحق اهل الباطل واهل الهدى اهل الضلالة واهل الايمان اهل الكفر فلاغبن أبين من هذا وفى الجملة فالغبن فى البيع والشراء وقد ذكر تعالى فى حق الكافرين انهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى ثم ذكر انهم ماربحت تجارتهم ودل المؤمنين على تجارة رابحة فقال هل أدلكم على تجارة الآية وذكر انهم باعوا انفسهم بالجنة فخسرت صفقة الكفار وربحت صفقة المؤمنين وقوله تعالى ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يؤمن بالله على ماجاءت به الرسل من الحشر والنشر والجنة والنار وغير ذلك ويعمل صالحا اى يعمل فى ايمانه صالحا الى ان يموت قرئ يجمعكم ويكفر ويدخل بالياء والنون وقوله والذين كفروا اى بوحدانية الله تعالى وبقدرته وكذبوا بآياتنا اى بآياته الدالة على البعث اولئك اصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ثم فى الآية مباحث (الاول) قال فآمنوا بالله ورسوله بطريق الاضافة ولم يقل ونوره الذى انزلنا بطريق الاضافة مع ان النور ههنا هو القرآن والقرآن كلامه ومضاف اليه نقول الالف واللام فى النور بمعنى الاضافة كأنه قال ورسوله ونوره الذى انزلنا (الثانى) بم انتصب الظرف نقول قال الزجاج بقوله لتبعثن وفى الكشاف بقوله لتنبؤن او بخبير لما فيه من معنى الوعيد كأنه قيل والله معاقبكم يوم يجمعكم او باضمار اذكر (الثالث) قال تعالى فى الايمان من يؤمن بالله بلفظ المستقبل وفى الكفر قال والذين كفروا بلفظ الماضى فنقول تقدير الكلام ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ومن لم يؤمن منهم اولئك اصحاب النار (الرابع) قال تعالى ومن يؤمن بلفظ الوحدان وخالدين فيها بلفظ الجمع نقول ذلك بحسب اللفظ وهذا بحسب المعنى (الخامس) ما الحكمة فى قوله وبئس المصير بعد قوله خالدين فيها وذلك بئس المصير فنقول ذلك وان كان فى معناه فلا يدل عليه بطريق التصريح فالتصريح ممايؤكده ❊ ثم قال تعالى (ما اصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شئ عليم واطيعوا الله واطيعوا الرسول فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين الله لااله الاهو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) قوله تعالى الا باذن الله اى بأمر الله قاله الحسن وقيل بتقدير الله وقضائه وقيل بارادة الله تعالى ومشيئته وقال ابن عباس رضى الله عنهما بعلمه وقضائه وقوله تعالى يهد قلبه اى عند المصيبة اوعند الموت او المرض او الفقر أو القحط ونحو ذلك فيعلم انها من الله تعالى فيسلم لقضاء الله تعالى ويسترجع فذلك قوله يهد قلبه اى للتسليم لامر الله ونظيره قوله الذين اذا أصابتهم مصيبة الى قوله اولئك هم المهتدون قال اهل المعانى يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء

(ليوم الجمع) ليوم يجمع فيه الاولون والآخرون اى لاجل (٢١٩) مافيه من الحساب والجزاء (ذلك يوم التغابن) اى يوم غبن بعض الناس بعضا بنزول السعداء منازل الاشقياء لوكانوا اسعداء وبالعكس وفى الحديث مامن عبد يدخل الجنة الاأرى مقعده من النار لوأساء ليزداد شكرا ومامن عبد يدخل النار الاأرى مقعده من الجنة لواحسن ليزداد حسرة وتخصيص التغابن بذلك اليوم للايذان بأن التغابن فى الحقيقة هو الذى يقع فيه مالايقع فى امور الدنيا (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) اى عملا صالحا (يكفر) اى الله عز وجل وقرئ بنون العظمة (عنه سيئاته) يوم القيامة (ويدخله جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا) وقرئ ندخله بالنون (ذلك) اى ماذكر من تكفير السيئات وادخال الجنات (الفوز العظيم) الذى لافوز وراءه لانطوائه على النجاة من اعظم الهلكات والظفر بأجل الطلبات (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) اى النار كأن هاتين الآيتين الكريمتين بيان لكيفية التغابن (ما اصاب من مصيبة) من المصائب الدنيوية (الا بأذن الله) اى بتقديره وارادته كأنها بذاتها متوجهة الى الانسان متوقفة على اذنه تعالى (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) عند اصابتها للثبات والاسترجاع وقيل يهد قلبه حتى يعلم ان ما اصابه لم يكن ليخطئه وما اخطأه لم يكن ليصيبه وقيل يهد قلبه اى يلطف به ويشرحه لازدياد الطاعة والخير وقرئ يهد قلبه على البناء للمفعول ورفع قلبه وقرئ بنصبه على نهج سفه نفسه وقرئ يهدأ قلبه بالهمزة اى يسكن (والله بكل شئ) من الاشياء التى من جلتها القلوب واحوالها (عليم) فيعلم ايمان المؤمن ويهدى قلبه الى ماذكر (وأطيعوا الله واطيعوا الرسول) كرر الأمر للتأكيد والايذان

وهو معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما يهد قلبه لما يحب ويرضى وقرئ نهد قلبه بالنون
وعن عكرمة يهد قلبه بفتح الدال وضم الياء وقرئ يهدأ قال الزجاج هدأ قلبه يهدأ اذا سكن
والقلب بالرفع والنصب ووجه النصب ان يكون مثل سفه نفسه والله بكل شئ عليم يحتمل
ان يكون اشارة الى اطمئنان القلب عند المصيبة وقيل عليم بتصديق من صدق رسوله فمن
صدقه فقد هدى قلبه واطيعوا الله واطيعوا الرسول فيما جاءبه من عند الله يعنى هونوا
المصائب والنوازل واتبعوا الاوامر الصادرة من الله تعالى ومن الرسول فيما دعاكم اليه
وقوله فان توليتم اى عن اجابة الرسول فيما دعاكم اليه فما على الرسول الا البلاغ الظاهر
والبيان البائن وقوله الله لا اله الا هو يحتمل ان يكون هذا من جملة ما تقدم من الاوصاف
الحميدة لحضرة الله تعالى من قوله له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير فان من كان
موصوفا بهذه الصفات ونحوها فهو الذى لا اله الا هو اى لا معبود الا هو ولا مقصود الا هو
عليه التوكل فى كل باب واليه المرجع والمآب وقوله وعلى الله فليتوكل المؤمنون
بيان ان المؤمن لا يعتمد الا عليه ولا يتقوى الا به لما انه يعتقد ان القادر بالحقيقة ليس
الا هو وقال فى الكشاف هذا بعث لرسول الله صلى الله عليه وسلم على التوكل عليه
والتقوى به فى امره حتى ينصره على من كذب به وتولى عنه فان قيل كيف يتعلق
ما أصاب من مصيبة الا باذن الله بما قبله ويتصل به نقول يتعلق بقوله تعالى فآمنوا بالله
ورسوله لما ان من يؤمن بالله فيصدقه يعلم انه لا تصيبه مصيبة الا باذن الله * ثم قال تعالى
(يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا
وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم انما اموالكم واولادكم فتنة والله عنده اجر عظيم
فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه
فأولئك هم المفلحون) قال الكلبي كان الرجل اذا أراد الهجرة تعلق به بنوه وزوجته
فقالوا انت تذهب وتذرنا ضائعين فمنهم من يطيع اهله ويقيم فحذرهم الله طاعة نسائهم
واولادهم ومنهم من لا يطيع ويقول أما والله لو لم نهاجر ويجمع الله بيننا وبينكم فى دار
الهجرة لا ننفعكم شيئا ابدا فلما جمع الله بينهم امرهم ان ينفقوا ويحسنوا ويتفضلوا وقال
مسلم الخراسانى نزلت فى عوف بن مالك الاشجعى كان اهله وولده يثبطونه عن الهجرة
والجهاد وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن هذه الآية فقال هؤلاء رجال من اهل مكة
اسلموا وأرادوا أن يأتوا المدينة فلم يدعهم ازواجهم واولادهم فهو قوله عدوا لكم
فاحذروهم ان تطيعوا وتدعوا الهجرة وقوله تعالى وان تعفوا وتصفحوا قال هو ان
الرجل من هؤلاء اذا هاجر ورأى الناس قد سبقوا بالهجرة وفقهوا فى الدين هم ان
يعاقب زوجته وولده الذين منعوه الهجرة وان لحقوا به فى دار الهجرة لم ينفق عليهم ولم
يصبهم بخير فنزل وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا الآية يعنى ان من ازواجكم واولادكم
عدوا لكم ينهون عن الاسلام ويثبطون عنه وهم من الكفار فاحذروهم فظهر ان هذه

بالفرق بين الطاعتين فى الكيفية وتوضيح مورد التولى فى قوله تعالى (فان توليتم) اى عن اطاعة الرسول وقوله تعالى (فانما على
رسولنا البلاغ المبين) تعليل
للجواب المحذوف اى فلا بأس
عليه اذ ما عليه الا التبليغ المبين
وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه
واظهار الرسول مضافا الى نون
العظمة فى مقام اضماره لتشريفه
عليه الصلاة والسلام والاشعار
بمدار الحكم الذى هو كون وظيفته
عليه الصلاة والسلام محض
البلاغ ولزيادة تشنيع التولى عنه
(الله لا اله الا هو) جملة من مبتدأ
وخبر اى هو المستحق للمعبودية
لا غيره وفى اضمار خبر لا مثل فى
الوجود اويصح ان يوجد خلاف
للنحاة معروف (وعلى الله) اى عليه
تعالى خاصة دون غيره لا استقلالا
ولا اشتراكا (فليتوكل المؤمنون)
واظهار الجلالة فى موقع الاضمار
للاشعار بعلة التوكل والامر به
فان الالوهية مقتضية للتبتل اليه
تعالى بالكلية وقطع التعلق عما
سواه بالمرة (يا أيها الذين آمنوا ان
من ازواجكم واولادكم عدوا
لكم) يشغلونكم عن طاعة الله
تعالى اويخاصمونكم فى امور
الدين اوالدنيا (فاحذروهم)
الضمير للعدو فانه يطلق على الجمع
نحو قوله تعالى فانهم عدولى او
للازواج والاولاد جميعا فالمأمور
به على الاول الحذر عن الكل وعلى
الثانى اما الحذر عن البعض لان
منهم من ليس بعدو واما الحذر عن
مجموع الفريقين لاشتمالهم على
العدو (وان تعفوا) عن ذنوبهم
القابلة للعفو بأن تكون متعلقة
بأمور الدنيا او بأمور الدين لكن
مقارنة للتوبة (وتصفحوا) بترك
التثريب والتعيير (وتغفروا)
بإخفائها وتمهيد عذرها (فان الله
غفور رحيم) يعاملكم بمثل ما عملتم
ويتفضل عليكم وقيل ان ناسا من المؤمنين أرادوا الهجرة عن مكة فثبطهم ازواجهم واولادهم وقالوا اتنطلقون

العداوة انما هى للكفر والنهى عن الايمان ولا تكون بين المؤمنين فأزواجهم واولادهم المؤمنون لا يكونون عدوا لهم وفى هؤلاء الازواج والاولاد الذين منعوا عن الهجرة نزل انما اموالكم واولادكم فتنة قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تطيعوهم فى معصية الله تعالى وفتنة اى بلاء وشغل عن الآخرة وقيل أعلم الله تعالى ان الاموال والاولاد من جميع مايقع بهم فى الفتنة وهذا عام يعم جميع الاولاد فان الانسان مفتون بولده لانه ربما عصى الله تعالى بسببه وباشر الفعل الحرام لاجله كغصب مال الغير وغيره والله عنده اجر عظيم اى جزيل وهو الجنة اخبر ان عنده اجرا عظيما ليتحملوا المؤنة العظيمة والمعنى لا تباشروا المعاصى بسبب الاولاد ولا تؤثروهم على ماعند الله من الاجر العظيم وقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم قال مقاتل اى ما اطقتم يجتهد المؤمن فى تقوى الله ما استطاع قال قتادة نسخت هذه الآية قوله تعالى اتقوا الله حق تقاته ومنهم من طعن فيه وقال لا يصح لان قوله تعالى اتقوا الله حق تقاته لا يراد به الاتقاء فيما لا يستطيعون لانه فوق الطاقة والاستطاعة وقوله واسمعوا اى لله ولرسوله ولكتابه وقيل لما امركم الله ورسوله به واطيعوا الله فيما أمركم وانفقوا من اموالكم فى حق الله خيرا لانفسكم والنصب بقوله وانفقوا كأنه قيل وقدموا خيرا لانفسكم وهو كقوله فآمنوا خيرا لكم وقوله تعالى ومن يوق شح نفسه الشح هو البخل وانه يعم المال وغيره يقال فلان شحيح بالمال وشحيح بالجاه وشحيح بالمعروف وقيل يوق ظلم نفسه فالشح هو الظلم ومن كان بمعزل عن الشح فذلك من اهل الفلاح فان قيل انما اموالكم واولادكم فتنة يدل على ان الاموال والاولاد كلها من الاعداء وان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم يدل على ان بعضهم من الاعداء دون البعض فنقول هذا فى حيز المنع فانه لا يلزم ان يكون البعض من المجموع الذى مر ذكره من الاولاد يعنى من الاولاد من يمنع ومنهم من لا يمنع فيكون البعض منهم عدوا دون البعض * ثم قال تعالى (ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) اعلم ان قوله ان تقرضوا الله قرضا حسنا اى ان تنفقوا فى طاعة الله متقربين اليه يجزكم بالضعف لما انه شكور يحب المتقربين الى حضرته حليم لا يعجل بالعقوبة غفور يغفر لكم والقرض الحسن عند بعضهم هو التصدق من الحلال وقيل هو التصدق بطيبة نفسه والقرض هو الذى يرجى مثله وهو الثواب مثل الانفاق فى سبيل الله وقال فى الكشاف ذكر القرض تلطف فى الاستدعاء وقوله يضاعفه لكم اى يكتب لكم بالواحدة عشرة وسبعمائة الى ماشاء من الزيادة وقرئ يضعفه شكور مجاز اى يفعل بكم مايفعل المبالغ فى الشكر من عظيم الثواب وكذلك حليم يفعل بكم مايفعل من يحلم عن المسئ فلا يعاجلكم بالعذاب مع كثرة ذنوبكم ثم لقائل ان يقول هذه الافعال مفتقرة الى العلم والقدرة والله تعالى ذكر العلم دون القدرة فقال عالم الغيب فنقول قوله العزيز يدل على

واولادهم فزين لهم العفو وقيل قالوا لهم اين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم واموالكم فغضبوا عليهم وقالوا لئن جمعنا الله فى دار الهجرة لم نصبكم بخير فلما هاجروا منعوهم الخير فحثوا على ان يعفوا عنهم ويردوا اليهم البر والصلة (انما اموالكم واولادكم فتنة) بلاء ومحنة يوقعونكم فى الاثم من حيث لا تحتسبون (والله عنده اجر عظيم) لمن آثر محبة الله تعالى وطاعته على محبة الاموال والاولاد والسعى فى تدبير مصالحهم (فاتقوا الله ما استطعتم) اى ابذلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم (واسمعوا) مواعظه (وأطيعوا) اوامره (وانفقوا) مما رزقكم فى الوجوه التى امركم بالانفاق فيها خالصا لوجهه (خيرا لانفسكم) اى ائتوا خيرا لانفسكم وافعلوا ماهو خير لها وانفع وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الاوامر وبيان لكون الامور المذكورة خيرا لانفسهم ويجوز ان يكون صفة لمصدر محذوف اى انفاقا خيرا او خبرا لكان مقدرا جوابا للاوامر اى يكن خيرا لانفسكم (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) الفائزون بكل مرام (ان تقرضوا الله) بصرف اموالكم الى المصارف التى عينها (قرضا حسنا) مقرونا بالاخلاص وطيب النفس (يضاعفه لكم) بالواحد عشرة الى سبعمائة واكثر وقرئ يضعفه لكم (ويغفر لكم) ببركة الانفاق مافرط منكم من بعض الذنوب (والله شكور) يعطى الجزيل بمقابلة النزر القليل (حليم) لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم (عالم الغيب والشهادة) لا يخفى عليه

القدره من عز اذا غلب والحكيم على الحكمة وقيل العزيز الذى لايعجزه شئ والحكيم الذى لايلحقه الخطأ فى التدبير والله تعالى كذلك فيكون عالما قادرا حكيما جل ثناؤه وعظم كبرياؤه والله اعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وسلم تسليما كثيرا

(سورة الطلاق اثنتا عشرة آية مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة) اما التعلق بما قبلها فذلك انه تعالى قال فى اول تلك السورة له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير والملك يفتقر الى التصرف على وجه يحصل منه نظام الملك والحمد يفتقر الى ان ذلك التصرف بطريق العدل والاحسان فى حق المتصرف فيه وبالقدرة على من يمنعه عن التصرف وتقرير الاحكام فى هذه السورة متضمن لهذه الامور المفتقرة اليها تضمنا لايفتقر الى التأمل فيه فيكون لهذه السورة نسبة الى تلك السورة واما الاول بالآخر فلأنه تعالى اشار فى آخر تلك السورة الى كمال علمه بقوله عالم الغيب وفى اول هذه السورة الى كمال علمه بمصالح النساء وبالاحكام المخصوصة بطلاقهن فكأنه بين ذلك الكلى بهذه الجزئيات وقوله يا أيها النبي اذا طلقتم النساء عن أنس رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة فأتت الى اهلها فنزلت وقيل راجعها فانها صوامة قوامة وعلى هذا انما نزلت الآية بسبب خروجها الى اهلها لما طلقها النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله فى هذه الآية ولايخرجن من بيوتهن وقال الكلبى انه عليه السلام غضب على حفصة لما اسر اليها حديثا فأظهرته لعائشة فطلقها تطليقة فنزلت وقال السدى نزلت فى عبد الله ابن عمر لما طلق امرأته حائضا والقصة فى ذلك مشهورة وقال مقاتل ان رجالا فعلوا مثل مافعل ابن عمر وهم عمرو بن سعيد بن العاص وعتبة بن غزوان فنزلت فيهم وفى قوله تعالى يا أيها النبي اذا طلقتم النساء وجهان (احدهما) انه نادى النبي صلى الله عليه وسلم ثم خاطب امته لما انه سيدهم وقدوتهم فاذا خوطب خطاب الجمع كانت امته داخلة فى ذلك الخطاب قال ابو اسحق هذا خطاب للنبي عليه السلام والمؤمنون داخلون معه فى الخطاب (وثانيهما) ان المعنى يا أيها النبي قل لهم اذا طلقتم النساء فأضمر القول وقال الفراء خاطبه وجعل الحكم للجميع كما تقول للرجل ويحك أما تتقون الله أما تستحيون تذهب اليه والى اهل بيته واذا طلقتم اى اذا أردتم التطليق كقوله اذا قمتم الى الصلاة اى اذا أردتم الصلاة وقد مر الكلام فيه وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن قال عبد الله اذا أراد الرجل ان يطلق امرأته فليطلقها طاهرا من غير جماع وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل والحسن قالوا أمر الله تعالى الزوج بتطليق امرأته اذا شاء الطلاق فى طهر لم يجامعها فيه وهو قوله تعالى لعدتهن اى لزمان عدتهن وهو الطهر باجماع الامة وقيل

تخصيص النداء به عليه الصلاة والسلام مع عموم الخطاب لامته ايضا لتشريفه عليه الصلاة والسلام واظهار جلالة منصبه وتحقيق انه المخاطب حقيقة ودخولهم فى الخطاب بطريق استتباعه عليه الصلاة والسلام اياهم وتغليبه عليهم لا لان نداءه كندائهم فان ذلك الاعتبار لو كان فى حيز الرعاية لكان الخطاب هو الاحق به لشمول حكمه للكل قطعا والمعنى اذا أردتم تطليقهن وعزمتم عليه كما فى قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة (فطلقوهن لعدتهن) اى مستقبلات لها كقولك اتيته لليلة خلت من شهر كذا فان المرأة اذا طلقت فى طهر يعقبه القرء الاول من اقرائها فقد طلقت مستقبلة لعدتها والمراد ان يطلقن فى طهر لم يقع فيه جماع ثم يخلين حتى تنقضى عدتهن وهذا احسن الطلاق وادخله فى السنة (واحصوا العدة) واضبطوها واكملوها ثلاثة اقراء كوامل (واتقوا الله ربكم) فى تطويل العدة عليهن والاضرار بهن وفى وصفه تعالى بربوبيته لهم تأكيد للامر ومبالغة فى ايجاب الاتقاء (لاتخرجوهن من بيوتهن) من مساكنهن عند الفراق الى ان تنقضى عدتهن واضافتها اليهن وهى لازواجهن لتأكيد النهى ببيان كمال استحقاقهن لسكناها كأنها املاكهن (ولايخرجن) ولو باذن منكم فان الاذن بالخروج فى حكم الاخراج وقيل المعنى لايخرجن باستبداد منهن اما اذا اتفقا على الخروج جاز اذ الحق لايعدوهما (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) استثناء من الاول قيل هى الزنا فيخرجن لاقامة الحد عليهن وقيل الا ان يبذون على الازواج فيحل حينئذ اخراجهن ويؤيده قراءة الا ان يفحشن عليكم او من الثانى

لاظهار عدتهن وجماعة من المفسرين قالوا الطلاق للعدة ان يطلقها طاهرة من غير جماع وبالجملة فالطلاق فى حال الطهر لازم والا لايكون الطلاق سنيا والطلاق فى السنة انما يتصور فى البالغة المدخول بها غير الآيسة والحامل اذ لاسنة فى الصغيرة وغير المدخول بها والآيسة والحامل ولابدعة ايضا لعدم العدة بالاقراء وليس فى عدد الطلاق سنة وبدعة على مذهب الشافعى حتى لو طلقها ثلاثا فى طهر صحيح لم يكن هذا بدعيا بخلاف ماذهب اليه اهل العراق فانهم قالوا السنة فى عدد الطلاق ان يطلق كل طلقة فى طهر صحيح وقال صاحب النظم فطلقوهن لعدتهن صفة للطلاق كيف يكون وهذه اللام تجئ لمعان مختلفة للاضافة وهى اصلها ولبيان السبب والعلة كقوله تعالى انما نطعمكم لوجه الله وبمنزلة عند مثل قوله اقم الصلاة لدلوك الشمس اى عنده وبمنزلة فى مثل قوله تعالى هو الذى اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر وفى هذه الآية بهذا المعنى لان المعنى فطلقوهن فى عدتهن اى فى الزمان الذى يصلح لعدتهن وقال صاحب الكشاف فطلقوهن مستقبلات لعدتهن كقوله أتيته لليلة بقيت من المحرم أى مستقبلا لها وفى قراءة النبى صلى الله عليه وسلم من قبل عدتهن فاذا طلقت المرأة فى الطهر المتقدم للقرء الاول من اقرائها فقد طلقت مستقبلة العدة والمراد ان يطلقن فى طهر لم يجامعن فيه ثم يخلين الى ان تنقضى عدتهن وهذا احسن الطلاق وادخله فى السنة وابعده من الندم ويدل عليه ماروى عن ابراهيم النخعى ان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون ان لايطلقوا ازواجهم للسنة الا واحدة ثم لايطلقوا غير ذلك حتى تنقضى العدة وما كان اخس عندهم من ان يطلق الرجل ثلاث تطليقات وقال مالك بن انس لااعرف طلاقا الا واحدة وكان يكره الثلاث مجموعة كانت او متفرقة واما ابو حنيفة واصحابه فانما كرهوا مازاد على الواحدة فى طهر واحد وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لابن عمر حين طلق امرأته وهى حائض ماهكذا أمرك الله تعالى انما السنة ان تستقبل الطهر استقبالا وتطلقها لكل قرء تطليقة وعند الشافعى لابأس بارسال الثلاث وقال لااعرف فى عدد الطلاق سنة ولابدعة وهو مباح فمالك يراعى فى طلاق السنة الواحدة والوقت وابو حنيفة يراعى التفريق والوقت والشافعى يراعى الوقت وحده وقوله تعالى واحصوا العدة اى اقراءها فاحتفظوا لها واحفظوا الحقوق والاحكام التى تجب فى العدة واحفظوا نفس ماتعتدون به وهو عدد الحيض ثم جعل الاحصاء الى الازواج يحتمل وجهين (احدهما) انهم هم الذين يلزمهم الحقوق والمؤن (وثانيهما) ليقع تحصين الاولاد فى العدة ثم فى الآية مباحث (الاول) ما الحكمة فى اطلاق السنة واطلاق البدعة نقول انما سمى بدعة لانها اذا كانت حائضا لم تعتد بأيام حيضها من عدتها بل تزيد على ثلاثة اقراء فتطول العدة عليها حتى تصير كأنها اربعة اقراء وهى فى الحيض الذى طلقت فيه فى صورة المعلقة التى لاهى معتدة ولا ذات بعل والعقول

مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو درجتها وبعد منزلتها(حدود الله) التى عينها لعباده(ومن يتعد حدود الله) اى حدوده المذكورة بأن اخل بشئ منها على ان الاظهار فى حيز الاضمار لتهويل امر التعدى والاشعار بعلة الحكم فى قوله تعالى(فقد ظلم نفسه) اى اضربها وتفسير الظلم بتعريضها للعقاب يأباه قوله تعالى(لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك امرا)فانه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية وقد قالوا ان الامر الذى يحدثه الله تعالى ان يقلب قلبه عما فعله بالتعدى الى خلافه فلابد ان يكون الظلم عبارة عن ضرر دنيوى يلحقه بسبب تعديه ولا يمكن تداركه او عن مطلق الضرر الشامل للدنيوى والاخروى ويخص التعليل بالدنيوى لكون احتراز الناس منه اشد واهتمامهم بدفعه اقوى وقوله تعالى لاتدرى خطاب للمتعدى بطريق الالتفات لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدى لاللنبى عليه الصلاة والسلام كما توهم فالمعنى ومن يتعد حدود الله فقد اضر بنفسه فانك لاتدرى ايها المتعدى عاقبة الامر لعل الله يحدث فى قلبك بعد ذلك الذى فعلت من التعدى امرا يقتضى خلاف مافعلته فيبدل ببغضها محبة وبالاعراض عنها اقبالا اليها ويتسنى تلافيه رجعة او استئناف نكاح(فاذا بلغن اجلهن)شارفن آخر عدتهن(فأمسكوهن) فراجعوهن(بمعروف) بحسن معاشرة وانفاق لائق(او فارقوهن بمعروف) بأيفاء الحق واتقاء الضرار بأن يراجعها ثم يطلقها تطويلا للعدة (واشهدوا ذوى عدل منكم) عند الرجعة والفرقة قطعا للتنازع وهذا امر ندب كما فى قوله تعالى واشهدوا اذا تبايعتم ويروى عن الشافعى انه

للوجوب في الرجعة (واقيموا الشهادة لله) أيها الشهود عند الحاجة (٢٣٤) خالصا لوجهه تعالى (ذلكم) اشارة الى الحث على الاشهاد

تستقبح الاضرار واذا كانت طاهرة مجامعة لم يؤمن ان قد علقت من ذلك الجماع بولد ولو علم الزوج لم يطلقها وذلك ان الرجل قد يرغب في طلاق امرأته اذا لم يكن بينهما ولد ولا يرغب في ذلك اذا كانت حاملا منه بولد فاذا طلقها وهي مجامعة وعنده انها حائل في ظاهر الحال ثم ظهر بها حمل ندم على طلاقها ففي طلاقه اياها في الحيض سوء نظر للمرأة وفي الطلاق في الطهر الذي جامعها فيه وقد حملت فيه سوء نظر للزوج فاذا طلقت وهي طاهر غير مجامعة أمن هذان الامر ان لانها تعتد عقيب طلاقه اياها فتجرى في الثلاثة قروء والرجل أيضا في الظاهر على امان من اشتمالها على ولد منه (الثاني) هل يقع الطلاق المخالف للسنة نقول نعم وهو اثم لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ان رجلا طلق امرأته ثلاثا بين يديه فقال له أو تلعبون بكتاب الله وانا بين اظهركم (الثالث) كيف يطلق للسنة التي لاتحيض لصغر اوكبر او غير ذلك نقول الصغيرة والآيسة والحامل كلهن عند ابي حنيفة وابي يوسف يفرق عليهن الثلاث في الاشهر وقال محمد وزفر لايطلق للسنة الا واحدة واما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة الا واحدة ولا يراعى الوقت (الرابع) هل يكره ان تطلق المدخول بها واحدة بائنة نقول اختلفت الرواية عن اصحابنا والظاهر الكراهة (الخامس) اذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من ذوات الاقراء والآيسات والصغار والحوامل فكيف يصح تخصيصه بذوات الاقراء والمدخول بهن نقول لاعموم ثمة ولا خصوص ايضا لكن النساء اسم جنس للاناث من الانس وهذه الجنسية معنى قائم في كلهن وفي بعضهن فجاز ان يراد بالنساء هذا وذاك فلما قيل فطلقوهن لعدتهن علم انه اطلق على بعضهن وهن المدخول بهن من المعتدات بالحيض كذا ذكره في الكشاف ❊ ثم قال تعالى (واتقوا الله ربكم لاتخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك امرا) قوله واتقوا الله قال مقاتل اخشوا الله فلا تعصوه فيما امركم ولا تخرجوهن اى لاتخرجوا المعتدات من المساكن التي كنتم تسا كنونهن فيها قبل الطلاق فان كانت المساكن عارية فارتجعت كان على الازواج ان يعينوا مساكن أخرى بطريق الشراء او بطريق الكراء او بغير ذلك وعلى الزوجات ايضا ان لايخرجن حقا لله تعالى الا لضرورة ظاهرة فان خرجن ليلا اونهارا كان ذلك الخروج حراما ولا تنقطع العدة وقوله تعالى الا ان يأتين بفاحشة مبينة قال ابن عباس هو ان يزنين فيخرجن لاقامة الحد عليهن قاله الضحاك والاكثرون فالفاحشة على هذا القول هي الزنا وقال ابن عمر الفاحشة خروجهن قبل انقضاء العدة قال السدى والباقون الفاحشة المبينة هى العصيان المبين وهو النشوز وعن ابن عباس الا ان يبذون فيحل اخراجهن لبذائهن وسوء خلقهن فيحل للازواج اخراجهن من بيوتهن وفي الآية مباحث (البحث الاول) هل للزوجين التراضى على اسقاطها نقول السكنى الواجبة في حال قيام الزوجية حق

والاقامة او على جميع ما في الآية (يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) اذ هو المنتفع به والمقصود تذكيره وقوله تعالى (ومن يتق الله) الخ جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من وجوب مراعاة حدود الله تعالى بالوعد على الاتقاء عن تعديها كما ان ما تقدم من قوله تعالى ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه مؤكد له بالوعيد على تعديها فالمعنى ومن يتق الله فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط في الاشهاد وغيره من الامور (يجعل له مخرجا) مما عسى يقع في شأن الازواج من الغموم والوقوع في المضايق ويفرج عنه مايعتريه من الكروب (ويرزقه من حيث لايحتسب) اى من وجه لايخطر بباله ولا يحتسبه ويجوز ان يكون كلاما جيء به على نهج الاستطراد عند ذكر قوله تعالى ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله الى آخره فالمعنى ومن يتق الله في كل ما يأتي وما يذر يجعل له مخرجا وخلاصا من غموم الدنيا والآخرة فيندرج فيه ما نحن فيه اندراجا اوليا عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قرأها فقال مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة وقال عليه الصلاة والسلام انى لاعلم آية لو اخذ الناس بها لكفتهم ومن يتق الله فما زال يقرؤها ويعيدها وروى ان عوف بن مالك الاشجعي اسر المشركون ابنا له سالما فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اسر ابنى وشكا اليه الفاقة فقال عليه الصلاة والسلام اتق الله واكثر قول لاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم ففعل فبينما هو في بيته اذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الابل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)

(المرأة)

للمرأة وحدها فلها ابطالها ووجه هذا ان الزوجين ماداما ثابتين على النكاح فانما مقصودهما المعاشرة والاستمتاع ثم لابد فى تمام ذلك من ان تكون المرأة مستعدة له لاوقات حاجته اليها وهذا لايكون الا بأنه يكفيها فى نفقتها كطعامها وشرابها وادمها ولباسها وسكناها وهذه كلها داخلة فى احصاء الاسباب التى بها يتم كل ماذكرنا من الاستمتاع ثم ماوراء ذلك من حق صيانة الماء ونحوها فان وقعت الفرقة زال الاصل الذى هو الانتفاع وزواله بزوال الاسباب الموصلة اليه من النفقة عليها واحتيج الى صيانة الماء فصارت صيانته اصلا فوجب بوجوبها الاحصاء لاسبابها لان اصلها السكنى لان بها تحصينها فصارت السكنى فى هذه الحالة لااختصاص لها بالزوج وصيانة الماء من حقوق الله ومما لايجوز التراضى من الزوجين على اسقاطه فلم يكن لها الخروج وان رضى الزوج ولا اخراجها وان رضيت الا عن ضرورة مثل انهدام المنزل واخراج غاصب اياها او نقلة من دار بكراء قد انقضت اجارتها او خوف فتنة او سيل او حريق او غير ذلك من طريق الخوف على النفس فاذا انقضى ما اخرجت له رجعت الى موضعها حيث كان (الثانى) قال واتقوا الله ربكم ولم يقل واتقوا الله مقصورا عليه فنقول فيه من المبالغة ما ليس فى ذلك فان لفظ الرب ينبههم على التربية التى هى الانعام والاكرام بوجوه متعددة غاية التعداد فيبالغون فى التقوى حينئذ خوفا من فوت تلك التربية (الثانى) ما معنى الجمع بين اخراجهم وخروجهن نقول معنى الاخراج ان لايخرجهن البعولة غضبا عليهن وكراهة لمساكنتهن او لحاجة لهم الى المساكن وان لايأذنوا لهن فى الخروج اذا طلبن ذلك ايذانا بأن اذنهم لا اثر له فى رفع الحظر ولايخرجن بأنفسهن ان أردن ذلك (الثالث) قرئ بفاحشة مبينة ومبينة فمن قرأ مبينة بالخفض فمعناه ان نفس الفاحشة اذا تفكر فيها تبين انها فاحشة ومن قرأ مبينة بالفتح فمعناه انها مبرهنة بالبراهين ومبينة بالحجج وقوله وتلك حدود الله والحدود هى الموانع عن المجاوزة نحو النواهى والحد فى الحقيقة هو النهاية التى ينتهى اليها الشئ قال مقاتل يعنى ماذكر من طلاق السنة وما بعده من الاحكام ومن يتعد حدود الله وهذا تشديد فيمن يتعدى طلاق السنة ومن يطلق لغير العدة فقد ظلم نفسه اى ضر نفسه ولايبعد ان يكون المعنى ومن يتجاوز الحد الذى جعله الله تعالى فقد وضع نفسه موضعا لم يضعه فيه ربه والظلم هو وضع الشئ فى غير موضعه وقوله تعالى لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك امرا قال ابن عباس يريد الندم على طلاقها والمحبة لرجعتها فى العدة وهو دليل على ان المستحب فى التطليق ان يوقع متفرقا قال ابو اسحق اذا طلقها ثلاثا فى وقت واحد فلا معنى فى قوله لعل الله يحدث بعد ذلك امرا * ثم قال تعالى (فاذا بلغن اجلهن فأمسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف واشهدوا ذوى عدل منكم واقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره قد جعل الله

اى كافيه فى جميع اموره (ان الله بالغ امره) بالاضافة اى منفذ امره وقرئ بتنوين بالغ ونصب امره اى يبلغ مايريده لايفوته مراد ولايعجزه مطلوب وقرئ برفع امره على انه مبتدأ وبالغ خبر مقدم والجملة خبر ان او بالغ خبر ان وامره مرتفع به على الفاعلية اى نافذ امره وقرئ بالغا امره على انه حال وخبر ان قوله تعالى (قد جعل الله لكل شئ قدرا) اى تقديرا او توقيتا ومقدارا وهو بيان لوجوب التوكل عليه تعالى وتفويض الامر اليه لانه اذا علم ان كل شئ من الرزق وغيره لايكون الا بتقديره تعالى لايبقى الا التسليم للقدر والتوكل على الله تعالى (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم) لكبرهن وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين (ان ارتبتم) اى شككتم وجهلتم كيف عدتهن (فعدتهن ثلاثة اشهر واللائى لم يحضن) بعد لصغرهن اى فعدتهن ايضا كذلك فحذف ثقة بدلالة ماقبله عليه (واولات الاحمال اجلهن) اى منتهى عدتهن (ان يضعن حملهن) سواء كن مطلقات او متوفى عنهن ازواجهن وقد نسخ به عموم قوله تعالى والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا يتربصن بأنفسهن اربعة اشهر وعشرا لتراخى نزوله عن ذلك لما هو المشهور من قول ابن مسعود رضى الله عنه من شاء باهلته ان سورة النساء القصرى نزلت بعد التى فى سورة البقرة وقد صح ان سبيعة بنت الحرث الاسلمية ولدت بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها قد حللت فتزوجى (ومن يتق الله) فى شان احكامه

لكل شئ قدرا) فاذابلغن اجلهن اى قاربن انقضاء اجل العدة لاانقضاء اجلهن والمراد
من بلوغ الاجل هنا مقاربة البلوغ وقدم تفسيره قال صاحب الكشاف هو آخر
العدة ومشارفته فأنتم بالخيار انشئتم فالرجعة والامساك بالمعروف وانشئتم فترك
الرجعة والمفارقة واتقاء الضرار هوان يراجعها فى آخر العدة ثم يطلقها تطويلا للعدة
وتعذيبا لها وقوله تعالى واشهدوا ذوى عدل منكم اى امروا ان يشهدوا عند الطلاق
وعند الرجعة ذوى عدل وهذا الاشهاد مندوب اليه عند ابى حنيفة كما فى قوله واشهدوا
اذا تبايعتم وعند الشافعى هو واجب فى الرجعة مندوب اليه فى الفرقة وقيل فائدة
الاشهاد ان لايقع بينهما التجاحد وان لايتهم فى امساكها ولئلا يموت احدهما فيدعى
الباقى ثبوت الزوجية ليرث وقيل الاشهاد انما امروا به للاحتياط مخافة ان تنكر المرأة
المراجعة فتنقضى العدة فتنكح زوجا ثم خاطب الشهداء فقال واقيموا الشهادة وهذا
ايضا مر تفسيره وقوله ومن يتق الله يجعل له مخرجا قال الشعبى من يطلق للعدة يجعل الله له
سبيلا الى الرجعة وقال غيره مخرجا من كل امر ضاق على الناس قال الكلبى ومن يصبر
على المصيبة يجعل له مخرجا من النار الى الجنة وقرأها النبى صلى الله عليه وسلم فقال مخرجا
من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة وقال اكثر اهل التفسير انزل
هذا ومابعده فى عوف بن مالك الاشجعى اسر العدو ابنا له فأتى النبى صلى الله عليه وسلم
وذكر له ذلك وشكا اليه الفاقة فقال له اتق الله واصبر واكثر من قول لاحول ولاقوة
الا بالله ففعل الرجل ذلك فبينما هو فى بيته اذ اتاه ابنه وقد غفل عنه العدو فأصاب ابلا
وجاء بها الى ابيه وقال صاحب الكشاف فبينا هو فى بيته اذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من
الابل غفل عنها العدو فاستاقها فذلك قوله ويرزقه من حيث لايحتسب ويجوز انه ان
اتقى الله وآثر الحلال والصبر على اهله فتح الله عليه ان كان ذا ضيق ويرزقه من حيث
لايحتسب وقال فى الكشاف ومن يتق الله جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من اجراء
امر الطلاق على السنة كما مر وقوله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه اى من وثق به
فيما ناله كفاه الله ما اهمه ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب ان يكون
اقوى الناس فليتوكل على الله وقرئ ان الله بالغ امره بالاضافة وبالغ امره اى نافذ
امره وقرأ المفضل بالغا امره على ان قوله قد جعل الله خبر ان وبالغا حال قال ابن عباس
يريد فى جميع خلقه والمعنى سيبلغ الله امره فيما يريد منكم وقد جعل الله لكل شئ قدرا
اى تقديرا وتوقيتا وهذا بيان لوجوب التوكل على الله تعالى وتفويض الامر اليه
قال الكلبى ومقاتل لكل شئ من الشدة والرخاء ينتهى اليه قدر الله تعالى ذلك
كله لايقدم ولايؤخر وقال ابن عباس يريد قدرت ماخلقت بمشيئتى وقوله فاذا بلغن
اجلهن الى قوله مخرجا آية ومنه الى قوله قدرا آية اخرى عند الاكثر وعند الكوفى
والمدنى المجموع آية واحدة ثم فى هذه الآية لطيفة وهى ان التقوى فى رعاية احوال

ومراعاة حقوقها (يجعل له من
امره يسرا) اى يسهل عليه
امره ويوفقه للخير (ذلك)
اشارة الى ماذكر من الاحكام وما
فيه من معنى البعد مع قرب العهد
بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته فى
الفضل وافراد الكاف مع ان
الخطاب للجمع كما يفصح عنه قوله
تعالى (امر الله انزله اليكم) لما انها
لمجرد الفرق بين الحاضر والمنقضى
لالتعيين خصوصية المخاطبين وقد
مر فى قوله تعالى ذلك يوعظ به من
كان منكم يؤمن بالله من سورة
البقرة (ومن يتق الله) بالمحافظة
على احكامه (يكفر عنه سيئاته)
فان الحسنات يذهبن السيئات
(ويعظم له اجرا) بالمضاعفة
وقوله تعالى (اسكنوهن من
حيث سكنتم) استئناف وقع
جوابا عن سؤال نشأ مما قبله من
الحث على التقوى كأنه قيل كيف
نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات
فقيل اسكنوهن مسكنا من حيث
سكنتم اى بعض مكان سكناكم
وقوله تعالى (من وجدكم) ى
اى من وسعكم اى مما تطيقونه
عطف بيان لقوله من حيث سكنتم
وتفسير له (ولاتضاروهن)
اى فى السكنى (لتضيقوا عليهن)
وتلجئوهن الى الخروج (وان كن)
اى المطلقات (اولات حمل
فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن)
فيخرجن من العدة اما المتوفى عنهن
ازواجهن فلا نفقة لهن (فان
ارضعن لكم) بعد ذلك (فآتوهن
اجورهن) على الارضاع (وأتمروا
بينكم بمعروف) اى تشاوروا و
حقيقته ليأمر بعضكم بعضا بجميل
فى الارضاع والاجر ولايكن من
الاب مماكسة ولامن الام معاسرة
(وان تعاسرتم) اى تضايقتم
(فسترضع له اخرى) اى فستوجد

النساء مفتقرة الى المال فقال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا وقريب من هذا قوله ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله فان قيل ومن يتوكل على الله فهو حسبه يدل على عدم الاحتياج للكسب فى طلب الرزق وقوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله يدل على الاحتياج فكيف هو نقول لايدل على الاحتياج لان قوله فانتشروا وابتغوا من فضل الله للاباحة كما مر والاباحة مما ينافى الاحتياج الى الكسب لما ان الاحتياج مناف للتخيير ※ ثم قال تعالى (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة اشهر واللائى لم يحضن واولات الاحمال اجلهن ان يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من امره يسرا ذلك امر الله انزله اليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيآته ويعظم له اجرا) قوله واللائى يئسن من المحيض الآية ذكر الله تعالى فى سورة البقرة عدة ذوات الاقراء والمتوفى عنها زوجها وذكر عدة سائر النسوة اللائى لم يذكرن هنالك فى هذه السورة وروى ان معاذ بن جبل قال يارسول الله قد عرفنا عدة التى تحيض فاعدة التى لم تحض فنزل واللائى يئسن من المحيض وقوله ان ارتبتم اى ان اشكل عليكم حكمهن فى عدة التى لاتحيض فهذا حكمهن وقيل ان ارتبتم فى دم البالغات مبلغ الاياس وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين أهو دم حيض او استحاضة فعدتهن ثلاثة اشهر فلما نزل قوله تعالى فعدتهن ثلاثة اشهر قام رجل فقال يارسول الله فاعدة الصغيرة التى لم تحض فنزل واللائى لم يحضن اى هى بمنزلة الكبيرة التى قد يئست عدتها ثلاثة اشهر فقام آخر وقال وماعدة الحوامل يارسول الله فنزل واولات الاحمال اجلهن ان يضعن حملهن معناه اجلهن فى انقطاع مابينهن وبين الازواج وضع الحمل وهذا عام فى كل حامل وكان على عليه السلام يعتبر ابعد الاجلين ويقول والذين يتوفون منكم لايجوز ان يدخل فى قوله واولات الاحمال وذلك لان اولات الاحمال انما هو فى عدة الطلاق وهى لا تنقض عدة الوفاة اذا كانت بالحيض وعند ابن عباس عدة الحامل المتوفى عنها زوجها ابعد الاجلين واما ابن مسعود فقال يجوز ان يكون قوله واولات الاحمال مبتدأ خطاب ليس بمعطوف على قوله تعالى واللائى يئسن ولما كان مبتدأ يتناول العدد كلها ومما يدل عليه خبر سبيعة بنت الحرث انها وضعت حملها بعد وفاة زوجها بخمسة عشر يوما فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تتزوج فدل اباحة النكاح قبل مضى اربعة اشهر وعشرا على ان عدة الحامل تنقضى بوضع الحمل فى جميع الاحوال وقال الحسن ان وضعت احد الولدين انقضت عدتها واحتج بقوله تعالى ان يضعن حملهن ولم يقل احمالهن لكن لايصح وقرئ احمالهن وقوله ومن يتق الله يجعل له من امره يسرا اى ييسر الله عليه فى امره ويوفقه للعمل الصالح وقال عطاء يسهل الله عليه امر الدنيا والآخرة وقوله ذلك امر الله انزله اليكم يعنى الذى ذكر من الاحكام امر الله انزله اليكم ومن يتق الله بطاعته ويعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يكفر عنه

ولا تعوز مرضعة اخرى وفيه معاتبة للام على المعاسرة (لينفق ذوسعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) وان قل اى لينفق كل واحد من الموسر والمعسر مايبلغه وسعه (لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها) جل او قل فانه تعالى لا يكلف نفسا الا وسعها وفيه تطييب لقلب المعسر وترغيب له فى بذل مجهوده وقد اكد ذلك بالوعد حيث قيل (سيجعل الله بعد عسر يسرا) اى عاجلا أو آجلا (وكأى من قرية) اى كثير من اهل قرية (عتت) اى اعرضت (عن امر ربها ورسله) بالعتو والتمرد والعناد (فحاسبناها حسابا شديدا) بالاستقصاء والتنقير والمناقشة فى كل نقير وقطمير (وعذبناها عذابا نكرا) اى منكرا عظيما وقرئ نكرا والمراد حساب الآخرة وعذابها والتعبير عنهما بلفظ الماضى للدلالة على تحققهما كما فى قوله تعالى ونادى اصحاب الجنة (فذاقت وبال امرها وكان عاقبة امرها خسرا) هائلا لا خسر وراءه (اعد الله لهم عذابا شديدا) تكرير للوعيد وبيان لكونه مترقبا كأنه قيل اعد الله لهم هذا العذاب (فاتقوا الله يا أولى الالباب) ويجوز ان يراد بالحساب استقصاء ذنوبهم واثباتها فى صحائف الحفظة وبالعذاب مااصابهم عاجلا وقد جوز ان يكون عتت وماعطف عليه صفة للقرية واعد الله لهم جوابا لقوله تعالى كأى (الذين آمنوا) منصوب باضمار اعنى بيانا للمنادى او عطف بيان له او نعت وفى ابداله منه ضعف لتعذر حلوله محله (قد انزل الله اليكم ذكرا) هو جبريل عليه السلام سمى به لكثرة ذكره

سيآته من الصلاة الى الصلاة و من الجمعة الى الجمعة ويعظم له فى الآخرة اجرا قاله ابن عباس فان قيل قال تعالى اجلهن ان يضعن حملهن ولم يقل ان يلدن نقول الحمل اسم لجميع ما فى بطنهن ولو كان كما قاله لكانت عدتهن بوضع بعض حملهن و ليس كذلك ❊ ثم قال تعالى (اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وان كن اولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فأن ارضعن لكم فآتوهن اجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وان تعاسرتم فسترضع له اخرى لينفق ذو سعة من سعته و من قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا) قوله تعالى اسكنوهن و ما بعده بيان لما شرط من التقوى فى قوله و من يتق الله كأنه قيل كيف يعمل بالتقوى فى شأن المعتدات فقيل اسكنوهن قال صاحب الكشاف من صلة والمعنى اسكنوهن حيث سكنتم قال ابو عبيدة من وجدكم اى وسعكم وسعتكم وقال الفراء على قدر طاقتكم وقال ابو اسحق يقال وجدت فى المال وجدا اى صرت ذا مال وقرئ بفتح الواو ايضا وبخفضها والوجد الوسع والطاقة وقوله ولا تضاروهن نهى عن مضارتهن بالتضييق عليهن فى السكنى والنفقة وان كن اولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن وهذا بيان حكم المطلقة البائنة لان الرجعية تستحق النفقة وان لم تكن حاملا وان كانت مطلقة ثلاثا او مختلعة فلا نفقة لها الا ان تكون حاملا وعند مالك والشافعى ليس للمبتوتة الا السكنى ولا نفقة لها وعن الحسن وحماد لا نفقة لها ولا سكنى لحديث فاطمة بنت قيس ان زوجها بت طلاقها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم لا سكنى لك ولا نفقة وقوله فان ارضعن لكم فآتوهن اجورهن يعنى حق الرضاع واجرته وقد مر وهو دليل على ان اللبن وان خلق لمكان الولد فهو ملك لها والا لم يكن لها ان تأخذ الاجر وفيه دليل على ان حق الرضاع والنفقة على الازواج فى حق الاولاد وحق الامساك والحضانة والكفالة على الزوجات والا لكان لها بعض الاجر دون الكل وقوله تعالى وأتمروا بينكم بمعروف قال عطاء يريد بفضل معروفا منك وقال مقاتل بتراضى الاب والام وقال المبرد ليأمر بعضكم بعضا بالمعروف والخطاب للازواج من النساء والرجال والمعروف ههنا ان لا يقصر الرجل فى حق المرأة ونفقتها ولا هى فى حق الولد ورضاعه ومر تفسير الائتمار وقيل الائتمار التشاور فى ارضاعه اذا تعاسرت هى وقوله تعالى وان تعاسرتم اى فى الاجرة فسترضع له اخرى غير الام ثم بين قدر الانفاق بقوله لينفق ذو سعة من سعته امر اهل التوسعة ان يوسعوا على نسائهم المرضعات على قدر سعتهم ومن كان رزقه بمقدار القوت فلينفق على مقدار ذلك ونظيره على الموسع قدره وعلى المقتر قدره وقوله تعالى لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها أى ما أعطاها من الرزق قال السدى لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغنى وقوله سيجعل الله بعد عسر يسرا اى بعد ضيق وشدة غنى وسعة ورخاء وكان الغالب فى ذلك الوقت الفقر والفاقة فاعلمهم الله تعالى ان يجعل بعد عسر يسرا

(وهذا)

اولنزوله بالذكر الذى هو القرآن كما ينبئ عنه ابدال قوله تعالى (رسولا) منه اولانه مذكور فى السموات وفى الامم او اريد بالذكر الشرف كما فى قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك كأنه فى نفسه شرف امالانه شرف للمنزل عليه واما لانه ذو مجد وشرف عند الله تعالى كقوله تعالى عند ذى العرش مكين او هو النبى عليه الصلاة والسلام وعليه الاكثر عبر عنه بالذكر لمواظبته على تلاوة القرآن او تبليغه والتذكير به وعبر عن ارساله بالانزال بطريق الترشيح اولانه مسبب عن انزال الوحى اليه وابدل منه رسولا للبيان اوهو القرآن ورسولا منصوب بمقدر مثل ارسل او بذكرا على اعمال المصدر المنون اوبدل منه على انه بمعنى الرسالة وقوله تعالى (يتلو عليكم آيات الله مبينات) نعت لرسولا وآيات الله القرآن ومبينات حال منها اى حال كونها مبينات لكم ما تحتاجون اليه من الاحكام وقرئ مبينات اى بينها الله تعالى لقوله تعالى قد بينا لكم الآيات واللام فى قوله تعالى (ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات) متعلقة بيتلو او بانزل وفاعل يخرج على الاول ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام او ضمير الجلالة والموصول عبارة عن المؤمنين بعد انزاله اى ليحصل لهم الرسول او الله عز وعلا ماهم عليه الآن من الايمان والعمل الصالح اوليخرج من علم اوقدر انه سيؤمن (من الظلمات الى النور) من الضلالة الى الهدى (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) حسبما بين فى تضاعيف ما انزل من الآيات المبينات (يدخله جنات تجرى من

وهذا كالبشارة لهم بمطلوبهم ثم في الآية مباحث (الاول) اذا قيل من في قوله من حيث سكنتم ماهي نقول هي التبعيضية اي بعض مكان سكناكم ان لم يكن غير بيت واحد فاسكنوها في بعض جوانبه (الثاني) ماموقع من وجدكم نقول عطف بيان لقوله من حيث سكنتم وتفسير له اي مكانا من مسكنكم على قدر طاقتكم (الثالث) فاذا كانت كل مطلقة عندكم يجب لها النفقة فما فائدة الشرط في قوله تعالى وان كن اولات حمل فانفقوا عليهن نقول فائدته ان مدة الحمل ربما طال وقتها فيظن ان النفقة تسقط اذا مضى مقدار مدة الحمل فنفى ذلك الظن * ثم قال تعالى (وكأين من قرية عتت عن امر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال امرها وكان عاقبة امرها خسرا اعدالله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يااولي الباب الذين آمنوا قدانزل الله اليكم ذكرا رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور) قوله تعالى وكأين من قرية الكلام في كأين قدمر وقوله عتت عن امر ربها وصف القرية بالعتو والمراد اهلها كقوله واسأل القرية قال ابن عباس عتت عن امر ربها اي اعرضت عنه وقال مقاتل خالفت امر ربها وخالفت رسله فحاسبناها حسابا شديدا فحاسبها الله بعملها في الدنيا فجازاها العذاب وهو قوله وعذبناها عذابا نكرا اي عذابا منكرا عظيما فسر المحاسبة بالتعذيب وقال الكلبي هذا على التقديم والتأخير يعني فعذبناها في الدنيا وحاسبناها في الآخرة حسابا شديدا والمراد حساب الآخرة وعذابها فذاقت وبال امرها اي شدة امرها وعقوبة كفرها وقال ابن عباس عاقبة كفرها وكان عاقبة امرها خسرا اي عاقبة عتوها خسارا في الآخرة وهو قوله تعالى اعدالله لهم عذابا شديدا يخوف كفار مكة ان يكذبوا محمدا فينزل بهم مانزل بالامم قبلهم وقوله تعالى فاتقوا الله يااولي الالباب خطاب لاهل الايمان اي فاتقوا الله عن ان تكفروا به وبرسوله وقوله قدانزل الله اليكم ذكرا رسولا هو على وجهين (احدهما) انزل الله اليكم ذكرا هو الرسول وانما سماه ذكرا لانه يذكر مايرجع الى دينهم وعقباهم (وثانيهما) انزل الله اليكم ذكرا وارسل رسولا وقال في الكشاف رسولا هو جبريل عليه السلام ابدل من ذكرا لانه وصف بتلاوة آيات الله فكان انزاله في معنى انزال الذكر والذكر قديراد به الشرف كما في قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقديراد به القرآن كما في قوله تعالى وانزلنا الذكر وقرئ رسول على هو رسول ويتلو عليكم آيات الله مبينات بالخفض والنصب والآيات هي الحجج فبالخفض لانها تبين الامر والنهي والحلال والحرام ومن نصب يريد انه تعالى اوضح آياته وبينها انها من عنده وقوله تعالى ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور يعني من ظلمة الكفر الى نور الايمان ومن ظلمة الشبهة الى نور الحجة ومن ظلمة الجهل الى نور العلم وفي الآية مباحث (الاول) قوله تعالى فاتقوا الله يااولي الالباب يتعلق بقوله تعالى وكأين من قرية عتت عن امر ربها

تحتها الانهار) وقرئ ندخله بالنون وقوله تعالى (خالدين فيها ابدا) حال من مفعول يدخله والجمع باعتبار معنى من كان الافراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها وقوله تعالى (قد احسن الله له رزقا) حال اخرى منه او من الضمير في خالدين بطريق التداخل وافراد ضميره له قدمر وجهه وفيه معنى التعجيب والتعظيم لما رزقه الله المؤمنين من الثواب (الله الذي خلق سبع سموات) مبتدأ وخبر (ومن الارض مثلهن) اي خلق من الارض مثلهن في العدد وقرئ مثلهن بالرفع على انه مبتدأ ومن الارض خبره. واختلف في كيفية طبقات الارض قالوا الجمهور على انها سبع ارضين طباقا بعضها فوق بعض بين كل ارض وارض مسافة كما بين السماء والارض وفي كل ارض سكان من خلق الله تعالى وقال الضحاك مطبقة بعضها فوق بعض من غير فتوق بخلاف السموات قال القرطبي والاول اصح لان الاخبار دالة عليه كما روى البخاري وغيره من ان كعبا حلف بالذي فلق البحر لموسى ان صهيبا حدثه ان النبي صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها الا قال حين يراها اللهم رب السموات السبع وما اظللن ورب الارضين السبع وما اقللن ورب الشياطين وما اضللن ورب الرياح وما اذرين نسألك خير هذه القرية وخير اهلها ونعوذ بك من شرها وشر اهلها وشر من فيها وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان نافع بن الازرق سأله هل تحت الارضين خلق قال نعم قال فالخلق قال اما ملائكة او جن قال الماوردي

ام لا فنقول قوله فاتقوا الله يؤكد قول من قال المراد من قرية اهلها لمـا انه يدل على ان خطاب الله تعالى لا يكون الا لذوى العقول فمن لا عقل له فلا خطاب عليه وقيل قوله تعالى وكأين من قرية مشتمل على الترهيب والترغيب (الثانى) الايمان هو التقوى فى الحقيقة واولو الالباب الذين آمنوا كانوا من المتقين بالضرورة فكيف يقـال لهم فاتقوا الله نقول للتقوى درجات ومراتب فالدرجة الاولى هى التقوى من الشرك والبواقى هى التقوى من المعاصى التى هى غير الشرك فاهل الايمان اذا امروا بالتقوى كان ذلك الامر بالنسبة الى الكبائر والصغائر لا بالنسبة الى الشرك (الثالث) كل من آمن بالله فقد خرج من الظلمات الى النور واذا كان كذلك فحق هذا الكلام وهو قوله تعالى ليخرج الذين آمنوا ان يقال ليخرج الذين كفروا نقول يمكن ان يكون المراد ليخرج الذين يؤمنون على ماجاز ان يراد من الماضى المستقبل كما فى قوله تعالى واذ قال الله ياعيسى اى واذ يقول الله ويمكن ان يكون ليخرج الذين آمنوا من ظلمات تحدث لهم بعد ايمانهم * ثم قال تعالى (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا قد احسن الله له رزقا الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شئ قدير وان الله قد احاط بكل شئ علما) قوله ومن يؤمن بالله فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزق الله المؤمن من الثواب وقرئ يدخله بالياء والنون وقد احسن الله له رزقا قال الزجاج رزقه الله الجنة التى لا ينقطع نعيمها وقيل رزقا اى طاعة فى الدنيا وثوابا فى الآخرة ونظيره ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار قال الكلبى خلق سبع سموات بعضها فوق بعض مثل القبة ومن الارض مثلهن فى كونها طباقا متلاصقة كما هو المشهور ان للارض ثلاث طبقات طبقة ارضية محضة وطبقة طينية وهى غير محضة وطبقة منكشفة بعضها فى البحر وبعضها فى البر وهى المعمورة ولا بعد فى قوله ومن الارض مثلهن من كونها سبعة اقاليم على حسب سبع سموات وسبع كواكب فيها وهى السيارة فان لكل واحد من هذه الكواكب خواص تظهر آثار تلك الخواص فى كل اقليم من اقاليم الارض فتصير سبعة بهذا الاعتبار فهذه هى الوجوه التى لا يأباها العقل وما عداها من الوجوه المنقولة من اهل التفسير فذلك من جملة ما يأباها العقل مثل ما يقال السموات السبع اولها موج مكفوف وثانيها صخر وثالثها حديد ورابعها نحاس وخامسها فضة وسادسها ذهب وسابعها ياقوت وقول من قال بين كل واحدة منها مسيرة خمسمائة سنة وغلظ كل واحد منها كذلك فذلك غير معتبر عند اهل التحقيق اللهم الا ان يكون نقل متواتر ويمكن ان يكون اكثر من ذلك والله اعلم بانه ماهو وكيف هو فقوله الله الذى خلق مبتدأ وخبر وقرئ مثلهن بالنصب عطفا على سبع سموات وبالرفع على الابتداء وخبره من الارض وقوله تعالى يتنزل الامر بينهن قال عطاء يريد الوحى بينهن الى خلقه فى كل ارض وفى كل سماء وقال مقاتل يعنى الوحى من السماء العليا الى

(الارض)

وعلى هذا تختص دعوة الاسلام باهل الارض العليا دون من عداهم وان كان فيهن من يعقل من خلق وفى مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان احدهما انهم يشاهدون السماء من كل جانب من ارضهم ويستمدون الضياء منها والثانى انهم لا يشاهدون السماء وان الله تعالى خلق لهم ضياء يشاهدونه وحكى الكلبى عن ابى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما انها سبع ارضين متفرقة بالبحار وتظل الجميع السماء (يتنزل الامر بينهن) اى يجرى امره وقضاؤه بينهن وينفذ ملكه فيهن وعن قتادة فى كل سماء وفى كل ارض خلق من خلقه وامر من امره وقضاء من قضائه وقيل هو ما يدبر فيهن من عجائب تدبيره وقرئ ينزل الامر (لتعلموا ان الله على كل شئ قدير) متعلق بخلق او بيتنزل او بمضمر يعمهما اى فعل ذلك لتعلموا ان من قدر على ماذكر قادر على كل شئ (وان الله قد احاط بكل شئ علما) لاستحالة صدور الافاعيل المذكورة ممن ليس كذلك ويجوز ان يكون العامل فى اللام بيان ماذكر من الخلق وتنزل الامر اى اوحى ذلك وبينه لتعلموا بما ذكر من الامور التى تشاهدونها والتى تتلقونها من الوحى من عجائب المصنوعات انه لا يخرج عن قدرته وعلمه شئ ما اصلا وقرئ ليعلموا * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

الارض السفلى وقال مجاهد يتنزل الامر بينهن بحياة بعض وموت بعض وسلامة هذا وهلاك ذاك مثلا وقال قتادة فى كل سماء من سمواته وارض من ارضه خلق من خلقه وامر من امره وقضاء من قضائه وقرئ ينزل الامر بينهن وقوله تعالى لتعلموا ان الله على كل شئ قدير قرئ ليعلموا بالياء والتاء اى لكى تعلموا اذا تفكرتم فى خلق السموات والارض وماجرى من التدبير فيهما ان من بلغت قدرته هذا المبلغ الذى لا يمكن ان يكون لغيره كانت قدرته ذاتية لا يعجزه شئ عما اراده وقوله تعالى ان الله على كل شئ قدير من قبيل ماتقدم ذكره وقد احاط بكل شئ علما يعنى بكل شئ من الكليات والجزئيات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء عالم بجميع الاشياء وقادر على الانشاء بعد الافناء وتبارك الله رب العالمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وامام المتقين وخاتم النبيين وعلى آله وصحبه اجمعين

(سورة التحريم اثنتا عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبتغى مرضاة ازواجك والله غفور رحيم) اما التعلق بما قبلها فذلك لاشتراكهما فى الاحكام المخصوصة بالنساء واشتراك الخطاب بالطلاق فى اول تلك السورة مع الخطاب بالتحريم فى اول هذه السورة لما كان الطلاق فى الاكثر من الصور أو فى الكل كما هو مذهب البعض مشتملا على تحريم ما احل الله واما الاول بالآخر فلان المذكور فى آخر تلك السورة يدل على عظمة حضرة الله تعالى كأنه يدل على كمال قدرته وكمال علمه لما كان خلق السموات والارض وما فيهما من الغرائب والعجائب مفتقرا اليهما وعظمة الحضرة مما ينافى القدرة على تحريم ما احل الله ولهذا قال تعالى لم تحرم ما احل الله لك واختلفوا فى الذى حرمه النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه قال فى الكشاف روى انه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية فى يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها اكتمى على وقد حرمت مارية على نفسى وابشرك ان ابابكر وعمر يملكان بعدى امر امتى فاخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين وقيل خلا بها فى يوم حفصة فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم فطلقها واعتزل نساءه ومكث تسعا وعشرين ليلة فى بيت مارية وروى ان عمر قال لها لو كان فى آل الخطاب خير لما طلقك فنزل جبريل عليه السلام وقال راجعها فانها صوامة قوامة وانها من نسائك فى الجنة وروى انه ما طلقها وانما هم بطلاقها وروى انه عليه الصلاة والسلام شرب عسلا فى بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له انا نشم منك ريح المغافير وكان يكره رسول الله صلى الله عليه وسلم التفل فحرم العسل فمعناه لم تحرم ما احل الله لك من ملك اليمين او من العسل والاول قول الحسن ومجاهد وقتادة والشعبي ومسروق ورواية ثابت عن انس قال مسروق حرم النبي صلى الله عليه وسلم ام ولده وحلف ان لا يقربها فأنزل الله تعالى هذه الآية فقيل له اما

* (سورة التحريم مدنية)
(وآيها اثنتا عشرة) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(يا أيها النبي لم تحرم ما احل الله لك) روى ان النبي عليه الصلاة والسلام خلا بمارية فى يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها اكتمى على فقد حرمت مارية على نفسى وابشرك ان ابابكر وعمر يملكان بعدى امر امتى فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين وقيل خلا بها فى يوم حفصة فارضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم فطلقها واعتزل نساءه فنزل جبريل عليه السلام فقال راجعها فانها صوامة قوامة وانها لمن نسائك فى الجنة وروى انه عليه الصلاة والسلام شرب عسلا فى بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا نشم منك ريح المغافير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره التفل فحرم العسل فنزلت فمعناه لم تحرم ما احل الله لك من ملك اليمين او من العسل (تبتغى مرضاة ازواجك) اما تفسير لتحرم او حال من فاعله او استئناف ببيان ما دعاه اليه مؤذن بعدم صلاحيته لذلك (والله غفور) مبالغ فى الغفران قد غفر لك هذه الزلة (رحيم) قد رحمك ولم يؤاخذك به وانما عاتبك محاماة على عصمتك (قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم) اى شرع لكم تحليلها وهو حل ما عقده بالكفارة او بالاستثناء متصلا حتى لا يحنث والاول هو المراد ههنا (والله مولاكم) سيدكم ومتولى اموركم (وهو العليم) بما يصلحكم فيشرعه لكم (الحكيم) المتقن فى افعاله واحكامه فلا يأمركم ولا ينهاكم الا حسبما تقتضيه الحكمة (واذ اسر النبي الى بعض ازواجه) وهى حفصة (حديثا) اى حديث تحريم

الحرام فحلال واليمين التي حلفت عليها فقد فرض الله لكم تحلة ايمانكم وقال الشعبي كان مع الحرام يمين فعوتب في الحرام وانما يكفر اليمين فذلك قوله تعالى قد فرض الله الآية قال صاحب النظم قوله لم تحرم استفهام بمعنى الانكار والانكار من الله تعالى نهى وتحريم الحلال مكروه والحلال لا يحرم الا بتحريم الله تعالى وقوله تعالى تبتغي مرضاة ازواجك وتبتغي حال خرجت مخرج المضارع والمعنى لم تحرم مبتغيا مرضاة ازواجك قال في الكشاف تبتغي اما تفسير لتحرم او حال او استئناف وهذا زلة منه لانه ليس لاحد ان يحرم ما احل الله والله غفور رحيم قد غفر لك ما تقدم من الزلة رحيم قد رحمك لم يؤاخذك به ثم في الآية مباحث (البحث الاول) لم تحرم ما احل الله لك يوهم ان هذا الخطاب بطريق العتاب وخطاب الوصف وهو النبي ينافي ذلك لما فيه من التشريف والتعظيم فكيف هو نقول الظاهر ان هذا الخطاب ليس بطريق العتاب بل بطريق التنبيه على ان ما صدر منه لم يكن كما ينبغي (البحث الثاني) تحريم ما احل الله تعالى غير ممكن لما ان الاحلال ترجيح جانب الحل والتحريم ترجيح جانب الحرمة ولا مجال للاجتماع بين الترجيحين فكيف يقال لم تحرم ما احل الله نقول المراد من هذا التحريم هو الامتناع عن الانتفاع بالازواج لا لاعتقاد كونه حراما بعد ما احله الله تعالى فالنبي صلى الله عليه وسلم امتنع عن الانتفاع معها مع اعتقاده بكونه حلالا ومن اعتقد ان هذا التحريم هو تحريم ما احله الله تعالى بعينه فقد كفر فكيف يضاف الى الرسول صلى الله عليه وسلم مثل هذا (البحث الثالث) اذا قيل ما حكم تحريم الحلال نقول اختلفت الائمة فيه فابو حنيفة يراه يمينا في كل شيء ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرمه فاذا حرم طعاما فقد حلف على اكله او امة فعلى وطئها او زوجة فعلى الايلاء منها اذا لم يكن له نية وان نوى الظهار فظهار وان نوى الطلاق فطلاق بائن وكذلك ان نوى ثنتين وان نوى ثلاثا فكما نوى وان قال نويت الكذب دين فيما بينه وبين ربه ولا يدين في القضاء بابطال الايلاء وان قال كل حلال عليه حرام فعلى الطعام والشراب اذا لم ينو والا فعلى ما نوى ولا يراه الشافعي يمينا ولكن سببا في الكفارة في النساء وحدهن وان نوى الطلاق فهو رجعي عنده واما اختلاف الصحابة فيه فكما هو في الكشاف فلا حاجة بنا الى ذكر ذلك ۞ ثم قال تعالى (قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم واذ اسر النبي الى بعض ازواجه حديثا فلما نبأت به واظهره الله عليه عرف بعضه واعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من انبأك هذا قال نبأني العليم الخبير) قد فرض الله لكم قال مقاتل قد بين الله كما في قوله تعالى سورة انزلناها وفرضناها وقال الباقون قد اوجب قال صاحب النظم اذا وصل بعلى لم يحتمل غير الايجاب كما في قوله تعالى قد علمنا ما فرضنا عليهم واذا وصل باللام احتمل الوجهين وقوله تعالى تحلة ايمانكم اى تحليلها بالكفارة وتحلة على وزن تفعلة واصله تحللة وتحلة القسم على وجهين (احدهما) تحليله بالكفارة كالذي في هذه الآية

(وثانيهما)

مارية او العسل او امر الخلافة (فلما نبأت به) اى اخبرت حفصة عائشة بالحديث وافشته اليها وقرئ انبأت به (واظهره الله عليه) اى اطلعه الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام على افشاء حفصة (عرف) اى النبي عليه الصلاة والسلام حفصة (بعضه) بعض الحديث الذى افشته قيل هو حديث الامامة روى انه عليه الصلاة والسلام قال لها لم اقل لك اكتمي على قالت والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسي فرحا بالكرامة التي خص الله تعالى بها اباها (واعرض عن بعض) اى عن تعريف بعض تكرما قيل هو حديث مارية (فلما نبأها به) اى اخبر النبي عليه الصلاة والسلام حفصة بما عرفه من الحديث (قالت من انبأك هذا) اى افشاءها للحديث (قال نبأني العليم الخبير) الذى لا تخفى عليه خافية (ان تتوبا الى الله) خطاب لحفصة وعائشة على الالتفات للمبالغة في العتاب (فقد صغت قلوبكما) لفاء للتعليل كما في قولك اعبد ربك فالعبادة حق اى فقد وجد منكما ما يوجب التوبة من ميل قلوبكما عما يجب عليكما من مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه وقرئ فقد زاغت (وان تظاهرا عليه) باسقاط احدى التاءين وقرئ على الاصل وبتشديد الظاء وتظهرا اى تتعاونا عليه بما يسوءه من الافراط في الغيرة وافشاء سره (فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) اى فلن يعدم من يظاهره فان الله هو ناصره وجبريل رئيس الكروبيين قرينه ومن صلح من المؤمنين اتباعه واعوانه

(وثانيهما) ان يستعمل بمعنى الشئ القليل وهذا هوالاكثر كما روى فى الحديث لن يلج النار الا تحلة القسم يعنى زمانا يسيرا وقرئ كفارة أيمانكم ونقل جماعة من المفسرين ان النبي صلى الله عليه وسلم حلف ان لايطأ جاريته فذكر الله له ماأوجب من كفارة اليمين روى سعيد بن جبير عن ابن عباس ان الحرام يمين يعنى اذا قال أنت على حرام ولم ينو طلاقا ولا ظهارا كان هذا اللفظ موجبا لكفارة يمين والله مولاكم اى وليكم وناصركم وهو العليم بخلقه الحكيم فيما فرض من حكمه وقوله تعالى واذ أسر النبي الى بعض ازواجه حديثا يعنى ماأسر الى حفصة من تحريم الجارية على نفسه واستكتمها ذلك وقيل لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم الغيرة فى وجه حفصة أراد ان يترضاها فأسر اليها بشيئين تحريم الامة على نفسه والبشارة بأن الخلافة بعده فى ابى بكر وأبيها عمر قاله ابن عباس وقوله فلما نبأت به اى اخبرت به عائشة واظهره الله عليه اطلع نبيه على قول حفصة لعائشة فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم حفصة عند ذلك ببعض ماقالت وهو قوله تعالى عرف بعضه حفصة واعرض عن بعض لم يخبرها انك اخبرت عائشة على وجه التكرم والاغضاء والذى اعرض عنه ذكر خلافة ابى بكر وعمر وقرئ عرف مخففا اى جازى عليه من قولك للمسئ لأعرفن لك ذلك وقد عرفت ماصنعت قال تعالى اولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم اى يجازيهم وهو يعلم مافى قلوب الخلق اجمعين وقوله تعالى فلما نبأها به قالت حفصة من انبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير وصفه بكونه خبيرا بعد ماوصفه بكونه عليما لما ان فى الخبير من المبالغة ماليس فى العليم وفى الآية مباحث (البحث الاول) كيف يناسب قوله قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم الى قوله لم تحرم ماأحل الله لك نقول يناسبه لما كان تحريم المرأة يمينا حتى اذا قال لامرأته انت على حرام فهو يمين ويصير موليا اذا لم يقربها اربعة اشهر من بعد ويكفر (البحث الثانى) ظاهر قوله تعالى قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم انه كانت منه يمين فهل كفر النبي عليه الصلاة والسلام لذلك نقول عن الحسن انه لم يكفر لأنه كان مغفورا له ماتقدم من ذنبه وماتأخر وانما هو تعليم للمؤمنين وعن مقاتل انه اعتق رقبة فى تحريم مارية ❊ ثم قال تعالى (ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير عسى ربه ان طلقكن ان يبدله ازواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وابكارا) قوله ان تتوبا الى الله خطاب لعائشة وحفصة على طريقة الالتفات ليكون ابلغ فى معاتبتهما والتوبة من التعاون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالايذاء فقد صغت قلوبكما اى عدلت ومالت عن الحق وهو حق الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك حق عظيم يوجد فيه استحقاق العقاب بأدنى تقصير وجواب الشرط محذوف للعلم به على تقدير كان خيرا لكما والمراد بالجمع فى قوله تعالى قلوبكما التثنية قال الفراء وانما اختير الجمع على التثنية لان اكثر مايكون عليه الجوارح اثنان اثنان فى الانسان كاليدين والرجلين والعينين فلما

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اراد بصالح المؤمنين ابابكر وعمر رضى الله عنهما وقد روى ذلك مرفوعا الى النبي عليه الصلاة والسلام وبه قال عكرمة ومقاتل وهو اللائق بتوسيطه بين جبريل والملائكة عليهم السلام فانه جمع بين الظهير المعنوى والظهير الصورى كيف لا وان جبريل ظهير له عليهما السلام يؤيده بالتأييدات الالهية وهما وزيراه وظهيراه فى تدبير امور الرسالة وتمشية احكامها الظاهرة ولان بيان مظاهرتهما له عليه الصلاة والسلام اشد تأثيرا فى قلوب بنتيهما وتوهينا لامرهما فكان حقيقا بالتقديم بخلاف ما اذا اريد به جنس الصالحين كما هو المشهور (والملائكة) مع تكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم (بعد ذلك) قيل اى بعد نصرة الله عز وجل وناموسه الاعظم وصالح المؤمنين (ظهير) اى فوج مظاهر له كأنهم يد واحدة على من يعاديه فاذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه ومايبنئ عنه قوله تعالى بعد ذلك من فضل نصرتهم على نصرة غير هم من حيث ان نصرة الكل نصرة الله تعالى وان نصرته تعالى بهم وبمظاهرتهم افضل من سائر وجوه نصرته هذا ماقالوه ولعل الانسب ان يجعل ذلك اشارة الى مظاهرة صالح المؤمنين خاصة ويكون بيان بعدية مظاهرة الملائكة تداركا لمايوهمه الترتيب الذكرى من افضلية المقدم فكأنه قيل بعد ذكر مظاهرة صالح المؤمنين وسائر الملائكة بعد ذلك ظهير له عليه الصلاة والسلام ايذانا بعلو رتبة مظاهرتهم وبعد منزلتها وجبرا لفصلها عن مظاهرة جبريل عليه السلام

جرى اكثره على ذلك ذهب بالواحد منه اذا اضيف الى اثنين مذهب الاثنين وقد مر هذا وقوله تعالى وان تظاهرا عليه اى وان تعاونا على النبي صلى الله عليه وسلم بالايذاء فان الله هو مولاه اى لم يضره ذلك التظاهر منكما ومولاه اى وليه وناصره وجبريل رأس الكروبيين قرن ذكره بذكره مفردا له من الملائكة تعظيما له واظهارا لمكانته وصالح المؤمنين قال ابن عباس يريد أبا بكر وعمر مواليين للنبي صلى الله عليه وسلم على من عاداه وناصرين له وهو قول المقاتلين وقال الضحاك خيار المؤمنين وقيل من صلح من المؤمنين اى كل من آمن وعمل صالحا وقيل من برئ منهم من النفاق وقيل الانبياء كلهم وقيل الخلفاء وقيل الصحابة وصالح ههنا ينوب عن الجمع ويجوز ان يراد به الواحد والجمع وقوله تعالى والملائكة بعد ذلك اى بعد حضرة الله وجبريل وصالح المؤمنين ظهير اى فوج مظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم واعوان له وظهير في معنى الظهراء كقوله وحسن اولئك رفيقا قال الفراء والملائكة بعد نصرة هؤلاء ظهير قال ابو علي وقد جاء فعيل مفردا يراد به الكثرة كقوله تعالى ولايسأل حميم حميما يبصرونهم ثم خوف نساءه بقوله تعالى عسى ربه ان طلقكن ان يبدله ازواجا خيرا منكن قال المفسرون عسى من الله واجب وقرأ أهل الكوفة ان يبدله بالتخفيف ثم انه تعالى كان عالما انه لايطلقهن لكن اخبر عن قدرته انه ان طلقهن ابدله خيرا منهن تخويفا لهن والاكثر في قوله طلقكن الاظهار وعن ابي عمرو ادغام القاف في الكاف لانهما من حروف الفم ثم وصف الازواج اللاتي كان يبدله فقال مسلمات اى خاضعات لله بالطاعة مؤمنات مصدقات بتوحيد الله تعالى مخلصات قانتات طائعات وقيل قائمات بالليل للصلاة وهذا اشبه لانه ذكر السائحات بعد هذا والسائحات الصائمات فلزم ان يكون قيام الليل مع صيام النهار وقرئ سيحات وهي ابلغ وقيل للصائم سائح لان السائح لازاد معه فلا يزال ممسكا الى ان يجد من يطعمه فشبه بالصائم الذي يمسك الى ان يجئ وقت افطاره وقيل سائحات مهاجرات ثم قال تعالى ثيبات وابكارا لان ازواج النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة بعضها من الثيب وبعضها من الابكار فالذكر على حسب ماوقع وفيه اشارة الى ان تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ليس على حسب الشهوة والرغبة بل على حسب ابتغاء مرضاة الله تعالى وفي الآية مباحث (البحث الاول) قوله بعد ذلك تعظيم للملائكة ومظاهرتهم وقرئ تظاهر او تتظاهر او تظهرا (البحث الثاني) كيف يكون المبدلات خيرا منهن ولم يكن على وجه الارض نساء خير من امهات المؤمنين نقول اذا طلقهن الرسول لعصيانهن له وايذائهن اياه لم يبقين على تلك الصفة وكان غيرهم من الموصوفات بهذه الاوصاف مع الطاعة لرسول الله خيرا منهن (البحث الثالث) قوله مسلمات مؤمنات يوهم التكرار والمسلمات والمؤمنات على السواء نقول الاسلام هو التصديق باللسان والايمان هو التصديق بالقلب وقد لايتوافقان فقوله مسلمات مؤمنات تحقيق للتصديق بالقلب واللسان (البحث الرابع) قال تعالى ثيبات

(وابكارا)

(عسى ربه ان طلقكن ان يبدله) اى يعطيه عليه السلام بدلكن (ازواجا خيرا منكن) على التغليب او تعميم الخطاب وليس فيه مايدل على انه عليه الصلاة والسلام لم يطلق حفصة وان في النساء خيرا منهن فان تعليق طلاق الكل لاينافي تطليق واحدة وماعلق بما لم يقع لايجب وقوعه وقرئ ان يبدله بالتشديد (مسلمات مؤمنات) مقرات مخلصات او منقادات مصدقات (قانتات) مصليات او مواظبات على الطاعة (تائبات) من الذنوب (عابدات) متعبدات او متذللات لامر الرسول عليه الصلاة والسلام (سائحات) صائمات سمي الصائم سائحا لانه يسيح في النهار بلازاد او مهاجرات وقرئ سيحات (ثيبات وابكارا) وسطا بينهما العاطف لتنافيهما (ياايها الذين آمنوا قوا انفسكم) بترك المعاصي وفعل الطاعات (واهليكم) بأن تأخذوهم بما تأخذون به انفسكم وقرئ اهلوكم عطفا على واو قوا فيكون انفسكم عبارة عن انفس الكل على تغليب المخاطبين اى قوا انتم واهلوكم انفسكم (نارا وقودها الناس والحجارة) اى نارا تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب وامر المؤمنين باتقاء هذه النار المعدة للكافرين كما نص عليه في سورة البقرة للمبالغة في التحذير (عليها ملائكة) اى تلى امرها وتعذيب اهلها وهم الزبانية (غلاظ شداد) غلاظ الاقوال شداد الافعال او غلاظ الخلق شداد الخلق اقوياء على الافعال الشديدة (لايعصون الله ماامرهم) اى امره على انه بدل اشتمال من الله او فيما امرهم به على نزع

وابكارا بواو العطف ولم يقل فيما عداهما بواو العطف نقول قال فى الكشاف انهما صفتان متنافيتان لايجتمعن فيهما اجتماعهن فى سائر الصفات (البحث الخامس) ذكر الثيبات فى مقام المدح وهى من جملة مايقل رغبة الرجال اليهن نقول يمكن ان يكون البعض من الثيب خيرا بالنسبة الى البعض من الابكار عند الرسول لاختصاصهن بالمال والجمال او النسب او المجموع مثلا واذا كان كذلك فلا يقدح ذكر الثيب فى المدح لجواز ان يكون المراد مثل ماذكرناه من الثيب ❊ ثم قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ياأيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم انما تجزون ما كنتم تعملون) قوا انفسكم اى بالانتهاء عمانهاكم الله تعالى عنه وقال مقاتل ان يؤدب المسلم نفسه واهله فيأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر وقال فى الكشاف قوا انفسكم بترك المعاصى وفعل الطاعات واهليكم بأن تؤاخذوهم بما تؤاخذون به انفسكم وقيل قوا انفسكم مما تدعو اليه أنفسكم اذ الانفس تأمرهم بالشر وقرئ واهلوكم عطفا على واو قوا وحسن العطف للفاصل ونارا نوعا من النار لاتتقد الا بالناس والحجارة وعن ابن عباس هى حجارة الكبريت لانها اشد الاشياء حرا اذا اوقد عليها وقرئ وقودها بالضم وقوله عليها ملائكة يعنى الزبانية تسعة عشر واعوانهم غلاظ شداد فى اجرامهم غلظة وشدة اى جفاء وقوة او فى افعالهم جفاء وخشونة ولايبعد ان يكونوا بهذه الصفات فى خلقهم او فى افعالهم بان يكونوا اشداء على اعداء الله رحماء على اولياء الله كما قال تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم وقوله تعالى ويفعلون مايؤمرون يدل على اشتدادهم لمكان الامر لاتأخذهم رأفة فى تنفيذ أوامر الله تعالى والانتقام من أعدائه وفيه اشارة الى ان الملائكة مكلفون فى الآخرة بما أمرهم الله تعالى به وبما ينهاهم عنه والعصيان منهم مخالفة للامر والنهى وقوله تعالى ياأيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم لما ذكر شدة العذاب بالنار واشتداد الملائكة فى انتقام الاعداء فقال لاتعتذروا اليوم اى يقال لهم لاتعتذروا اليوم اذ الاعتذار هو التوبة والتوبة غير مقبولة بعد الدخول فى النار فلا ينفعكم الاعتذار وقوله تعالى انما تجزون ما كنتم تعملون يعنى انما أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب فى الحكمة وفى الآية مباحث (البحث الاول) انه تعالى خاطب المشركين فى قوله فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة وقال أعدت للكافرين جعلها معدة للكافرين فما معنى مخاطبته به المؤمنين نقول الفساق وان كانت دركاتهم فوق دركات الكفار فانهم مع الكفار فى دار واحدة فقيل للذين آمنوا قوا أنفسكم باجتناب الفسق ومجاورة الذين أعدت لهم هذه النار ولا يبعد ان يأمرهم بالتوقى عن الارتداد (البحث الثانى) كيف تكون الملائكة غلاظا شدادا وهم من الارواح فنقول الغلظة والشدة بحسب الصفات لما كانوا من الارواح لابحسب الذات وهذا

الخافض اى لايمتنعون من قبول الامر ويلتزمونه (ويفعلون مايؤمرون) اى ويؤدون مايؤمرون به من غير تثاقل ولاتوان وقوله تعالى (ياايها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم) مقول لقول قد حذف ثقة بدلالة الحال عليه اى يقال لهم ذلك عند ادخال الملائكة اياهم النار حسبما امروا به (انما تجزون ما كنتم تعملون) فى الدنيا من الكفر والمعاصى بعد مانهيتهم عنهما اشد النهى وامرتم بالايمان والطاعة فلا عذر لكم قطعا (ياايها الذين امنوا توبوا الى الله توبة نصوحا) اى بالغة فى النصح وصفت التوبة بذلك على الاسناد المجازى وهو وصف التائبين وهو ان ينصحوا بالتوبة انفسهم فيأتوا بها على طريقتها وذلك ان يتوبوا عن القبائح لقبحها نادمين عليها مغتمين اشد الاغتمام لارتكابها عازمين على انهم لايعودون فى قبيح من القبائح موطنين انفسهم على ذلك بحيث لايلويهم عنه صارف اصلا عن على رضى الله عنه ان التوبة يجمعها ستة اشياء على الماضى من الذنوب الندامة وللفرائض الاعادة ورد المظالم واستحلال الخصوم وان تعزم على ان لاتعود وان تذيب نفسك فى طاعة الله تعالى كما ربيتها فى المعصية وان تذيقها مرارة الطاعة كما اذقتها حلاوة المعصية وعن شهر بن حوشب ان لايعود ولو حز بالسيف واحرق بالنار وقيل نصوحا من نصاحة الثوب اى توبة ترقو خرق فى دينك وترم خللك وقيل خالصة من قولهم عسل ناصح اذا خلص من الشمع ويجوز ان يراد توبة تنصح الناس اى هم تدعو الى مثلها لظهور

اقرب بالنسبة الى الغير من الاقوال (البحث الثالث) قوله تعالى لايعصون الله ماامرهم في معنى قوله ويفعلون مايؤمرون فما الفائدة في الذكر فنقول ليس هذا في معنى ذلك لان معنى الاول انهم يقبلون أوامره ويلتزمونها ولاينكرونها ومعنى الثاني انهم يؤدون مايؤمرون به كذا ذكره في الكشاف * ثم قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم ان يكفر عنكم سيآتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار يوم لايخزى الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين ايديهم وبايمانهم يقولون ربنا اتمم لنا نورنا واغفرلنا انك على كل شئ قدير ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) قوله توبة نصوحا اى توبة بالغة في النصح وقال الفراء نصوحا من صفة التوبة والمعنى توبة تنصح صاحبها بترك العود الى ماتاب منه وهوانها الصادقة الناصحة ينصحون بها انفسهم وعن عاصم نصوحا بضم النون وهو مصدر نحو القعود يقال نصحت له نصحا ونصاحة ونصوحا وقال في الكشاف وصفت التوبة بالنصح على الاسناد المجازى وهوان يتوبوا عن القبائح نادمين عليها غاية الندامة لايعودون وقيل من نصاحة الثوب اى خياطته وعسى ربكم اطماع من الله تعالى لعباده وقوله تعالى يوم لايخزى الله النبي نصب بيدخلكم ولا يخزى تعريض لمن اخزاهم الله من اهل الكفر والفسق واستحماد للمؤمنين على انه عصمهم من مثل حالهم ثم المعتزلة تعلقوا بقوله تعالى يوم لايخزى الله النبي وقالوا الاخزاء يقع بالعذاب فقد وعدبان لايعذب الذين آمنوا ولو كان اصحاب الكبائر من اهل الايمان لم يخف عليهم العذاب واهل السنة اجابوا عنه بأنه تعالى وعد اهل الايمان بان لايخزيهم والذين آمنوا ابتداء كلام وخبره يسعى اولا يخزى الله ثم من أهل السنة من يقف على قوله يوم لايخزى الله النبي أى لايخزيه في رد الشفاعة والاخزاء الفضيحة اى لايفضحهم بين يدى الكفار ويجوزان يعذبهم على وجه لايقف عليه الكفرة وقوله بين ايديهم اى عند المشى وبايمانهم عند الحساب لانهم يؤتون الكتاب بأيمانهم وفيه نور وخير ويسعى النور بين ايديهم في موضع وضع الاقدام وبايمانهم لان خلفهم وشمالهم طريق الكفرة وقوله تعالى يقولون ربنا أتمم لنا نورنا قال ابن عباس يقولون ذلك عند اطفاء نور المنافقين اشفاقا وعن الحسن انه تعالى متمم لهم نورهم ولكنهم يدعون تقربا الى حضرة الله تعالى كقوله واستغفر لذنبك وهو مغفور وقيل أدناهم منزلة من نوره بقدر مايبصر مواطئ قدمه لان النور على قدر الاعمال فيسألون اتمامه وقيل السابقون الى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح وبعضهم حبوا وزحفا فهم الذين يقولون ربنا أتمم لنا نورنا قاله في الكشاف وقوله تعالى ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ذكر المنافقين مع ان لفظ الكفار يتناول المنافقين واغلظ عليهم اى شدد عليهم والمجاهدة قد تكون بالقتال وقد تكون بالحجة تارة باللسان وتارة بالسنان وقيل جاهدهم باقامة الحدود عليهم لانهم هم المرتكبون الكبائر لان اصحاب الرسول عصموا

اثرها في صاحبها واستعماله الجد والعزيمة في العمل بمقتضياتها وقرئ توبا نصوحا وقرئ نصوحا وهو مصدر نصح فان النصح والنصوح كالشكر والشكور اى ذات نصوح او تنصح نصوحا او توبوا النصح انفسكم على انه مفعول له (عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار) ورود صيغة الاطماع للجرى على سنن الكبرياء والاشعار بأنه تفضل والتوبة غير موجبة وان العبد ينبغي ان يكون بين خوف ورجاء وان بالغ في اقامة وظائف العبادة (يوم لايخزى الله النبي) ظرف ليدخلكم (والذين آمنوا) عطف على النبي وفيه تعريض بمن اخزاهم الله تعالى من اهل الكفر والفسوق واستحماد الى المؤمنين على انه عصمهم من مثل حالهم وقيل هو مبتدأ خبره قوله تعالى (نورهم يسعى بين ايديهم وبأيمانهم) اى على الصراط وهو على الاول استئناف او حال وكذا قوله تعالى (يقولون) الخ وعلى الثاني خبر آخر للموصول اى يقولون اذا طفئ نور المنافقين (ربنا اتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شئ قدير) وقيل يدعون تقربا الى الله مع تمام نورهم وقيل تتفاوت انوارهم بحسب اعمالهم فيسألون اتمامه تفضلا وقيل السابقون الى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح وبعضهم حبوا وزحفا واولئك الذين يقولون ربنا اتمم لنا نورنا (ياايها النبي جاهد الكفار) بالسيف (والمنافقين) بالحجة (واغلظ عليهم) واستعمل الخشونة على

منها ومأواهم جهنم وقدمر بيانه وفي الآية مباحث (البحث الاول) كيف تعلق يا أيها الذين آمنوا بماسبق وهو قوله يا أيها الذين كفروا فنقول نبههم الله تعالى على دفع العذاب في ذلك اليوم بالتوبة في هذا اليوم اذ في ذلك اليوم لا تفيد وفيه لطيفة وهي ان التنبيه على الدفع بعد الترهيب فيما مضى يفيد الترغيب بذكر احوالهم والانعام في حقهم واكرامهم (البحث الثاني) انه تعالى لا يخزى النبي في ذلك اليوم ولا الذين آمنوا فما الحاجة الى قوله معه فنقول هي افادة الاجتماع يعني لا يخزى الله المجموع الذين يسعى نورهم وهذه فائدة عظيمة اذ الاجتماع بين الذين آمنوا وبين نبيهم تشريف في حقهم وتعظيم (البحث الثالث) قوله واغفر لنا يوهم ان الذنب لازم لكل واحد من المؤمنين والذنب لا يكون لازما فنقول يمكن ان يكون طلب المغفرة لما هو اللازم لكل ذنب وهو التقصير في الخدمة والتقصير لازم لكل احد من المؤمنين (البحث الرابع) قال تعالى في اول السورة يا أيها النبي لم تحرم ومن بعده يا أيها النبي جاهد الكفار خاطبه بوصفه وهو النبي لا باسمه كقوله لآدم يا آدم ولموسى ياموسى ولعيسى ياعيسى نقول خاطبه بهذا الوصف ليدل على فضله عليهم وهذا ظاهر (البحث الخامس) قوله تعالى ومأواهم جهنم يدل على ان مصيرهم بئس المصير مطلقا اذ المطلق يدل على الدوام وغير المطلق لا يدل لما انه يطهرهم عن الآثام * ثم قال تعالى

(ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون اذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين)

قوله ضرب الله مثلا اي بين حالهم بطريق التمثيل انهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير ابقاء ولا محاباة ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كانوا فيه من القرابة بينهم وبين نبيهم وانكارهم للرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاءبه من عند الله واصرارهم عليه قطع العلائق وجعل الاقارب من جملة الاجانب بل ابعد منهم وان كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا كحال امرأة نوح ولوط لما خانتاهما لم يغن هذان الرسولان وقيل لهما في اليوم الآخر ادخلا النار ثم بين حال المسلمين في ان وصلة الكافرين لا تضرهم كحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى مع كونها زوجة ظالم من اعداء الله تعالى ومريم ابنة عمران وما اوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع ان قومها كانوا كفارا وفي ضمن هذين التمثيلين تعريض بامي المؤمنين وهما حفصة وعائشة لما فرط منهما وتحذير لهما على اغلظ وجه واشده لما في التمثيل من ذكر الكفر وضرب مثلا آخر في امرأة فرعون آسية بنت مزاحم وقيل هي عمة موسى عليه السلام آمنت حين سمعت قصة القاء موسى عصاه وتلقف العصا فعذبها فرعون عذابا شديدا بسبب الايمان وعن ابي هريرة انه وتدها بأربعة اوتاد واستقبل بها الشمس والقى عليها صخرة عظيمة فقالت رب نجني من فرعون فرقي

الفريقين فيما جاهدهما من القتال والمحاجة (ومأواهم جهنم) سيرون فيها عذابا غليظا (وبئس المصير) اي جهنم اومصيرهم (ضرب الله مثلا للذين كفروا) ضرب المثل في امثال هذه المواقع عبارة عن ايراد حالة غريبة ليعرف بها حالة أخرى مشاكلة لها في الغرابة اي جعل الله مثلا لحال هؤلاء الكفرة حالا وما لا على ان مثلا مفعول ثان لضرب واللام متعلقة به وقوله تعالى (امرأت نوح وامرأت لوط) اي حالهما مفعوله الاول أخر عنه ليتصل به ما هو شرح وتفسير لحالهما ويتضح بذلك حال هؤلاء فقوله تعالى (كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين) بيان لحالهما الداعية لهما الى الخير والصلاح اي كانتا في عصمة نبيين عظيمي الشأن متمكنتين من تحصيل خيري الدنيا والآخرة وحيازة سعادتيهما وقوله تعالى (فخانتاهما) بيان لما صدر عنهما من الجناية العظيمة مع تحقق ماينفيها من صحبة النبي اي خانتاهما بالكفر والنفاق وهذا تصوير لحالهما المحاكية لحال هؤلاء الكفرة في خيانتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالكفر والعصيان مع تمكنهم التام من الايمان والطاعة وقوله تعالى (فلم يغنيا) الخ بيان لما ادى اليه خيانتهما اي فلم يغن النبيان (عنهما) بحق الزواج (من الله) اي من عذابه تعالى (شيئا) اي شيئا من الاغناء (وقيل) لهما عند موتهما اويوم القيامة (ادخلا النار مع الداخلين) اي مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الانبياء عليهم السلام (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون) اي جعل حالها

بروحها الى الجنة فالقيت الصخرة على جسد لاروح فيه قال الحسن رفعها الى الجنة تأكل فيها وتشرب وقيل لما قالت رب ابن لى عندك بيتا رأت بيتها فى الجنة يبنى لاجلها وهو من درة واحدة والله اعلم كيف هو وماهو وفى الآية مباحث (البحث الاول) ما فائدة قوله تعالى من عبادنا نقول هو على وجهين (احدهما) تعظيما لهم كما مر (البحث الثانى) اظهارا للعبد بأنه لا يترجح على الآخر عنده الا بالصلاح (البحث الثالث) ما كانت خيانتهما نقول نفاقهما واخفاؤهما الكفر وتظاهرهما على الرسولين فامرأة نوح قالت لقومه انه لمجنون وامرأة لوط كانت تدل على نزول ضيف ابراهيم ولا يجوز ان تكون خيانتهما بالفجور وعن ابن عباس ما بغت امرأة نبى قط وقيل خيانتهما فى الدين (البحث الرابع) مامعنى الجمع بين عندك وفى الجنة نقول طلبت القرب من رحمة الله ثم بينت مكان القرب بقولها فى الجنة وأرادت ارتفاع درجتها فى جنة المأوى التى هى اقرب الى العرش ❊ ثم قال تعالى (ومريم ابنت عمران التى احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) احصنت اى عن الفواحش لانها قذفت بالزنا والفرج حمل على حقيقته قال ابن عباس نفخ جبريل فى جيب الدرع ومده باصبعيه ونفخ فيه وكل مافى الدرع من خرق ونحوه فانه يقع عليه اسم الفرج وقيل احصنت تكلفت فى عفتها والمحصنة العفيفة ونفخنا فيه من روحنا اى فى فرج ثوبها وقيل خلقنا فيه مايظهر به الحياة فى الابدان وقوله فيه اى فى عيسى ومن قرأ فيها اى فى نفس عيسى والنفس مؤنث واما التشبيه بالنفخ فذلك ان الروح اذا خلق فيه انتشر فى تمام الجسد كالريح اذا نفخت فى شئ وقيل بالنفخ لسرعة دخوله فيه نحو الريح وصدقت بكلمات ربها قال مقاتل يعنى بعيسى ويدل عليه قراءة الحسن بكلمة ربها وسمى عيسى كلمة الله فى مواضع من القرآن وجمعت تلك الكلمة هنا وقال ابو على الفارسى الكلمات الشرائع التى شرع لها دون القول فكان المعنى صدقت الشرائع واخذت بها وصدقت الكتب فلم تكذب والشرائع سميت بكلمات كما فى قوله تعالى واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات وقوله تعالى صدقت قرئ بالتخفيف والتشديد على انها جعلت الكلمات والكتب صادقة يعنى وصفتها بالصدق وهو معنى التصديق بعينه وقرئ كلمة وكلمات وكتبه وكتابه والمراد بالكتاب هو الكثرة والشياع ايضا قوله تعالى وكانت من القانتين الطائعين قاله ابن عباس وقال عطاء من المصلين وفى الآية مباحث (البحث الاول) ما كلمات الله وكتبه نقول المراد بكلمات الله الصحف المنزلة على ادريس وغيره وبكتبه الكتب الاربعة وان يراد جميع ما كلم الله تعالى ملائكته وما كتبه فى اللوح المحفوظ وغيره وقرئ بكلمة الله وكتابه اى بعيسى وكتابه وهو الانجيل فان قيل لم قيل من القانتين على التذكير نقول لان القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكوره على اناثه ومن للتبعيض قاله فى الكشاف وقيل من القانتين لان المراد هو القوم وانه عام كاركعى مع الراكعين اى كونى من المقيمين على طاعة الله

(تعالى)

مثلا لحال المؤمنين فى ان وصلة الكفرة لا تضرهم حيث كانت فى الدنيا تحت اعدى اعداء الله وهى فى اعلى غرف الجنة وقوله تعالى (اذ قالت) ظرف لمحذوف اشير اليه اى ضرب الله مثلا للمؤمنين حالها اذ قالت (رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة) قريبا من رحمتك او فى اعلى درجات المقربين روى انها لما قالت ذلك اريت بيتها فى الجنة من درة وانتزع روحها (ونجنى من فرعون وعمله) اى من نفسه الخبيثة وعمله السئ (ونجنى من القوم الظالمين) من القبط التابعين له فى الظلم (ومريم ابنت عمران) عطف على امرأة فرعون تسلية للارامل اى وضرب الله مثلا للذين آمنوا حالها وما اوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع كون قومها كفارا (التى احصنت فرجها فنفخنا فيه) وقرئ فيها اى مريم (من روحنا) من روح خلقناه بلا توسط اصلا (وصدقت بكلمات ربها) بصحفه المنزلة او بما اوحى الى انبيائه (وكتبه) بجميع كتبه المنزلة وقرئ بكلمة الله وكتابه اى بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الانجيل (وكانت من القانتين) اى من عداد المواظبين على الطاعة والتذكير للتغليب والاشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعات الرجال حتى عدت من جملتهم او من نسلهم لانها من اعقاب هرون أخى موسى عليهما السلام وعن النبى عليه السلام كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا اربع آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلوات الله عليه وفضل عائشة

تعالى ولانها من اعقاب هرون اخي موسى واماضرب المثل بامرأة نوح المسماة بواعلة وامرأة لوط المسماة بواهلة فمشتمل على فوائد متعددة لايعرفها تمامها الا الله تعالى منها التنبيه للرجال والنساء على الثواب العظيم والعذاب الاليم ومنها العلم بان صلاح الغير لاينفع المفسد وفساد الغير لايضر المصلح ومنها ان الرجل وان كان في غاية الصلاح فلايأمن المرأة ولايأمن نفسه كالصادر من امرأتي نوح ولوط ومنها العلم بان احصان المرأة وعفتها مفيد غاية الافادة كما افاد مريم بنت عمران كما اخبر الله تعالى فقال ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك ومنها التنبيه على ان التضرع بالصدق في حضرة الله تعالى وسيلة الى الخلاص من العقاب والى الثواب بغير حساب وان الرجوع الى الحضرة الازلية لازم في كل باب واليه المرجع والمآب جلت قدرته وعلت كلمته لااله الا هو واليه المصير والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين وآله وصحبه وسلم

سورة الملك وتسمى المنجية لانها تنجي قارئها من عذاب القبر وعن ابن عباس انه كان يسميها المجادلة لانها تجادل عن قارئها في القبر وهي ثلاثون آية مكية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شئ قدير) اما قوله تبارك فقد فسرناه في اول سورة الفرقان واما قوله بيده الملك فاعلم ان هذه اللفظة انما تستعمل لتأكيد كونه تعالى ملكا ومالكا كما يقال بيده فلان الامر والنهي والحل والعقد ولامدخل للجارحة في ذلك قال صاحب الكشاف بيده الملك على كل موجود وهو على كل مالم يوجد من الممكنات قدير وقوله وهو على كل شئ قدير فيه مسائل (المسئلة الاولى) هذه الآية احتج بها من زعم ان المعدوم شئ فقال قوله ان الله على كل شئ قدير يقتضي كون مقدوره شيئا فذلك الشئ الذي هو مقدور الله تعالى اما ان يكون موجودا او معدوما لاجائز ان يكون موجودا لانه لو كان قادرا على الموجود لكان اما ان يكون قادرا على ايجاده وهو محال لان ايجاد الموجود محال واما ان يكون قادرا على اعدامه وهو محال لاستحالة وقوع الاعدام بالفاعل وذلك لان القدرة صفة مؤثرة فلابدلها من تأثير والعدم نفي محض فيستحيل جعل العدم اثر القدرة فيستحيل وقوع الاعدام بالفاعل فثبت ان الشئ الذي هو مقدور الله ليس بموجود فوجب ان يكون معدوما فلزم ان يكون ذلك المعدوم شيئا واحتج اصحابنا النافون لكون المعدوم شيئا بهذه الآية فقالوا لاشك ان الجوهر من حيث انه جوهر شئ والسواد من حيث هو سواد شئ والله قادر على كل شئ فمقتضى هذه الآية يلزم ان يكون قادرا على الجوهر من حيث انه جوهر وعلى السواد من حيث هو سواد واذا كان كذلك كان كون الجوهر جوهرا والسواد سوادا واقعا بالفاعل والفاعل المختار لابد وان يكون متقدما على فعله فاذا وجود الله وذاته متقدم على كون الجوهر جوهرا والسواد سوادا فيلزم ان لايكون المعدوم شيئا وهو المطلوب ثم اجابوا عن شبهة الخصم بانا لانسلم ان

على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام * وعن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحا

* (سورة الملك مكية وتسمى الواقية والمنجية لانها تقي وتنجي قارئها من عذاب القبر وآيها ثلاثون) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *
(تبارك الذي بيده الملك) البركة النماء والزيادة حسية كانت او عقلية وكثرة الخير ودوامه ايضا ونسبتها الى الله عز وجل على المعنى الاول وهو الاليق بالمقام باعتبار تعاليه عما سواه من ذاته وصفاته وافعاله وصيغة التفاعل للمبالغة في ذلك فان مالايتصور نسبته اليه تعالى من الصيغ كالتكبر ونحوه انما تنسب اليه سبحانه باعتبار غاياتها وعلى الثاني باعتبار كثرة مايفيض منه على مخلوقاته من فنون الخيرات والصيغة حينئذ يجوز ان تكون لافادة نماء تلك الخيرات وازديادها

الاعدام لايقع بالفاعل ولئن سلمنا ذلك لكن لم لايجوز ان يقال المقدور الذى هو معدوم سمى شيئا لاجل انه سيصير شيئا وهذا وان كان مجازا الا انه يجب المصير اليه لقيام سائر الدلائل الدالة على ان المعدوم ليس بشئ (المسئلة الثانية) زعم القاضى ابوبكر فى احد قوليه ان اعدام الاجسام انما يقع بالفاعل وهذا اختيار ابى الحسن الخياط من المعتزلة ومحمود الخوارزمى وزعم الجمهور منا ومن المعتزلة انه يستحيل وقوع الاعدام بالفاعل احتج القاضى بان الموجودات أشياء والله على كل شئ قدير فهو اذا قادر على الموجودات فاما ان يكون قادرا على ايجادها وهو محال لان ايجاد الموجود محال او على اعدامها وذلك يقتضى امكان وقوع الاعدام بالفاعل (المسئلة الثالثة) زعم الكعبى انه تعالى غير قادر على مثل مقدور العبد وزعم ابوعلى وابوهاشم انه تعالى غير قادر على مقدور العبد وقال اصحابنا انه تعالى قادر على مثل مقدور العبد وعلى غير مقدوره واحتجوا عليه بان عين مقدور العبد ومثل مقدوره شئ والله على كل شئ قدير فثبت بهذا صحة وجود مقدور واحد بين قادرين (المسئلة الرابعة) زعم اصحابنا انه لامؤثر الا قدرة الله تعالى وابطلوا القول بالطبائع على مايقوله الفلاسفة وابطلوا القول بالمتولدات على مايقوله المعتزلة وابطلوا القول بكون العبد موجدا لافعال نفسه واحتجوا على الكل بان الآية دالة على انه تعالى قادر على كل شئ فلو وقع شئ من الممكنات لا بقدرة الله بل بشئ آخر لكان ذلك الآخر قد منع قدرة الله عن التأثير فيما كان مقدورا له وذلك محال لان ماسوى الله ممكن محدث فيكون اضعف قوة من قدرة الله والاضعف لايمكن ان يدفع الاقوى (المسئلة الخامسة) هذه الآية دالة على ان الاله تعالى واحد لانا لو قدرنا الها ثانيا فاما ان يقدر على ايجاد شئ اولا يقدر فان لم يقدر البتة على ايجاد شئ اصلا لم يكن الها وان قدر كان مقدور ذلك الاله الثانى شيئا فيلزم كونه مقدورا للاله الاول لقوله وهو على كل شئ قدير فيلزم وقوع مخلوق بين خالقين وهو محال لانه اذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد يلزم ان يستغنى بكل واحد منهما عن كل واحد منهما فيكون محتاجا اليهما وغنيا عنهما وذلك محال (المسئلة السادسة) احتج جهم بهذه الآية على انه تعالى ليس بشئ فقال لو كان شيئا لكان قادرا على نفسه لقوله وهو على كل شئ قدير لكن كونه قادرا على نفسه محال فيمتنع كونه شيئا وقال اصحابنا لما دل قوله اى شئ اكبر شهادة قل الله شهيد على انه تعالى شئ وجب تخصيص هذا العموم فاذا هذه الآية قد دلت على ان العام المخصوص وارد فى كتاب الله تعالى ودلت على ان تخصيص العام بدليل العقل جائز بل واقع (المسئلة السابعة) زعم جمهور المعتزلة ان الله تعالى قادر على خلق الكذب والجهل والعبث والظلم وزعم النظام انه غير قادر عليه واحتج الجمهور بان الجهل والكذب اشياء والله على كل شئ قدير فوجب كونه تعالى قادرا عليها (المسئلة الثامنة) احتج اهل التوحيد على انه تعالى منزه عن الحيز والجهة فانه تعالى لو حصل فى حيز دون حيز لكان ذلك الحيز الذى

شيأ فشيأ او آنا فآنا بحسب حدوثها او حدوث متعلقاتها او لاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال وانبائها عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها فى حق غيره سبحانه ولا استعمال غيرها من الصيغ فى حقه تبارك وتعالى واسنادها الى الموصول للاستشهاد بما فى حيز الصلة على تحقق مضمونها واليد مجاز عن القدرة التامة والاستيلاء الكامل اى تعالى وتعاظم بالذات عن كل ماسواه ذاتا وصفة وفعلا الذى بقبضة قدرته التصرف الكلى فى كل الامور (وهو على كل شئ) من الاشيا (قدير) مبالغ فى القدرة عليه يتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة والجملة معطوفة على الصلة مقررة لمضمونها مفيدة لجريان احكام ملكه تعالى فى جلائل الامور ودقائقها

(حكم)

حكم بحصوله فيه متميزا عن الحيز الذى حكم بأنه غير حاصل فيه اذ لو لم يتميز احد الحيزين عن الآخر لاستحال الحكم بأنه تعالى حصل فيه ولم يحصل فى الآخر ثم ان امتياز احد الحيزين عن الآخر فى نفسه يقتضى كون الحيز أمرا موجودا لان العدم المحض يمتنع ان يكون مشارا اليه بالحس وان يكون بعضه متميزا عن البعض فى الحس وان يكون مقصدا للمتحرك فأذن لو كان الله تعالى حاصلا فى حيز لكان ذلك الحيز موجودا ولو كان ذلك الحيز موجودا لكان شيئا ولكان مقدورا لله لقوله تعالى وهو على كل شئ قدير واذا كان تحقق ذلك الحيز بقدرة الله وبايجاده فيلزم ان يكون الله متقدما فى الوجود على تحقق ذلك الحيز ومتى كان كذلك كان وجود الله فى الازل محققا من غير حيز ولا جهة اصلا والازلى لا يزول البتة فثبت انه تعالى منزه عن الحيز والمكان أزلا وأبدا (المسئلة التاسعة) انه تعالى قال أو لا بيده الملك ثم قال بعده وهو على كل شئ قدير وهذا مشعر بأنه انما يكون بيده الملك لو ثبت انه على كل شئ قدير وهذا هو الذى يقوله اصحابنا من انه لو وقع مراد العبد ولا يقع مراد الله لكان ذلك مشعرا بالعجز والضعف وبأن لا يكون مالك الملك على الاطلاق فدل ذلك على انه لما كان مالك الملك وجب أن يكون قادرا على جميع الاشياء (المسئلة العاشرة) القدير مبالغة فى القادر فلما كان قديرا على كل الاشياء وجب ان لا يمنعه البتة مانع عن ايجاد شئ من مقدوراته وهذا يقتضى ان لا يجب لاحد عليه شئ والا لكان ذلك الوجوب مانعا له من الترك وان لا يقبح منه شئ والا لكان ذلك القبح مانعا له من الفعل فلا يكون كاملا فى القدرة فلا يكون قديرا والله اعلم * قوله تعالى (الذى خلق الموت والحيوة) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قالوا الحياة هى الصفة التى يكون الموصوف بها بحيث يصح ان يعلم ويقدر واختلفوا فى الموت فقال قوم انه عبارة عن عدم هذه الصفة وقال اصحابنا انه صفة وجودية مضادة للحياة واحتجوا على قولهم بأنه تعالى قال الذى خلق الموت والعدم لا يكون مخلوقا هذا هو التحقيق وروى الكلبى باسناده عن ابن عباس ان الله تعالى خلق الموت فى صورة كبش املح لا يمر بشئ ولا يجد رائحته شئ الا مات وخلق الحياة فى صورة فرس بلقاء فوق الحمار ودون البغل لا تمر بشئ ولا يجد رائحتها شئ الا حيي واعلم ان هذا لا بد وان يكون مقولا على سبيل التمثيل والتصوير والا فالتحقيق هو الذى ذكرناه (المسئلة الثانية) انما قدم ذكر الموت على ذكر الحياة مع ان الحياة مقدمة على الموت لوجوه (احدها) قال مقاتل يعنى بالموت نطفة وعلقة ومضغة والحياة نفخ الروح (وثانيها) روى عطاء عن ابن عباس قال يريد الموت فى الدنيا والحياة فى الآخرة دار الحيوان (وثالثها) انه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان مناديا ينادى يوم القيامة يا اهل الجنة فيعلمون انه من قبل الله عز وجل فيقولون لبيك ربنا وسعديك فيقول هل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم ثم يؤتى بالموت فى صورة كبش املح ويذبح ثم ينادى يا اهل الجنة خلود بلا موت ويا اهل النار خلود بلا موت

وقوله تعالى (الذى خلق الموت والحيوة) شروع فى تفصيل بعض احكام الملك وآثار القدرة وبيان ابتنائهما على قوانين الحكم والمصالح واستتباعهما لغايات جليلة والموصول بدل من الموصول الاول داخل معه فى حكم الشهادة بتعاليه تعالى والموت عند اصحابنا صفة وجودية مضادة للحياة واما ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من انه تعالى خلق الموت فى صورة كبش املح لا يمر بشئ ولا يجد رائحته شئ الامات وخلق الحياة فى صورة فرس بلقاء لا تمر بشئ ولا يجد رائحتها شئ الا حيي فكلام وارد على منهاج التمثيل والتصوير وقيل هو عدم الحياة فمعنى خلقه حينئذ تقديره او ازالة الحياة وايا ما كان فالاقرب ان المراد به الموت الطارى وبالحياة ما قبله وما بعده لظهور مدار يتهما لما ينطق به قوله تعالى (ليبلوكم ايكم احسن عملا)

فيزداد اهل الجنة فرحا الى فرح ويزداد اهل النار حزنا الى حزن واعلم انا بينا ان الموت عرض من الاعراض كالسكون والحركة فلا يجوز ان يصير كبشا بل المراد منه التمثيل ليعلم ان في ذلك اليوم قد انقضى امر الموت فظهر بما ذكرناه ان ايام الموت هى ايام الدنيا وهى منقضية واما ايام الآخرة فهى ايام الحياة وهى متأخرة فلما كانت ايام الموت متقدمة على ايام الحياة لاجرم قدم الله ذكر الموت على ذكر الحياة (ورابعها) انما قدم الموت على الحياة لان اقوى الناس داعيا الى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لانه فيما يرجع الى الغرض المسوق له اهم (المسئلة الثالثة) اعلم ان الحياة هى الاصل فى النعم ولولاها لم يتنعم احد فى الدنيا وهى الاصل ايضا فى نعم الآخرة ولولاها لم يثبت الثواب الدائم والموت ايضا نعمة على ماشرحنا الحال فيه فى مواضع من هذا الكتاب وكيف لا وهو الفاصل بين حال التكليف وحال المجازاة وهو نعمة من هذا الوجه قال عليه الصلاة والسلام اكثروا ذكرها ذم اللذات وقال لقوم لو اكثرتم ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى وسأل عليه الصلاة والسلام عن رجل فاثنوا عليه فقال كيف ذكره الموت قالوا قليل قال فليس كما تقولون * قوله تعالى (ليبلوكم أيكم احسن عملا وهو العزيز الغفور) فيه مسائل (المسئلة الاولى) الابتلاء هو التجربة والامتحان حتى يعلم انه هل يطيع او يعصى وذلك فى حق من وجب ان يكون عالما بجميع المعلومات أزلا وأبدا محال الا انا قد حققنا هذه المسئلة فى تأويل قوله واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات والحاصل ان الابتلاء من الله هو ان يعامل عبده معاملة تشبه عمل المختبر (المسئلة الثانية) احتج القائلون بأنه تعالى يفعل الفعل لغرض بقوله ليبلوكم قالوا هذه اللام للغرض ونظيره قوله تعالى الا ليعبدون وجوابه ان الفعل فى نفسه ليس بابتلاء الا انه لما اشبه الابتلاء سمى به مجازا فكذا ههنا فانه يشبه الغرض وان لم يكن فى نفسه غرضا فذكر فيه حرف الغرض (المسئلة الثالثة) اعلم انا فسرنا الموت والحياة بالموت حال كونه نطفة وعلقة ومضغة والحياة بعد ذلك فوجه الابتلاء على هذا الوجه ان يعلم انه تعالى هو الذى نقله من الموت الى الحياة وكما فعل ذلك فلا بد وان يكون قادرا على ان ينقله من الحياة الى الموت فيحذر مجئ الموت الذى به ينقطع استدراك مافات ويستوى فيه الفقير والغنى والمولى والعبد واما ان فسرناهما بالموت فى الدنيا وبالحياة فى القيامة فالابتلاء فيهما أتم لان الخوف من الموت فى الدنيا حاصل واشد منه الخوف من تبعات الحياة فى القيامة والمراد من الابتلاء انه هل ينزجر عن القبائح بسبب هذا الخوف املا (المسئلة الرابعة) فى تعلق قوله ليبلوكم بقوله أيكم احسن عملا وجهان (الاول) وهو قول الفراء والزجاج ان المتعلق بأيكم مضمر والتقدير ليبلوكم فيعلم او فينظر أيكم احسن عملا (والثانى) قال صاحب الكشاف ليبلوكم فى معنى ليعلمكم والتقدير ليعلمكم أيكم أحسن عملا (المسئلة الخامسة) ارتفعت اى بالابتداء ولا يعمل فيها ما قبلها لانها على اصل الاستفهام فانك اذا قلت لا اعلم ايكم افضل

فان استدعاء ملاحظتهما الاحسان العمل مما لاريب فيه مع ان نفس العمل لايتحقق بدون الحياة الدنيوية وتقديم الموت لكونه ادعى الى احسان العمل واللام متعلقة بخلق اى خلق موتكم وحياتكم على ان الالف واللام عوض عن المضاف اليه ليعاملكم معاملة من يختبركم ايكم احسن عملا فيجازيكم على مراتب متفاوتة حسب تفاوت طبقات علومكم واعمالكم فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله ايكم احسن عقلا واورع عن محارم الله واسرع فى طاعة الله فان لكل من القلب والقالب عملا خاصا به فكما ان الاول اشرف من الثانى كذلك الحال فى عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد آثر ذى اثير وانما طريقها النظرى التفكر فى بدائع صنع الله تعالى

كان المعنى لا اعلم أزيد افضل ام عمرو واعلم لا يعمل فيما بعد الالف فكذلك لا يعمل في اى لان المعنى واحد ونظير هذه الآية قوله سلهم ايهم بذلك زعيم وقد تقدم الكلام فيه (المسئلة السادسة) ذكروا في تفسير أحسن عملا وجوها (احدها) ان يكون اخلص الاعمال واصوبها لان العمل اذا كان خالصا غير صواب لم يقبل وكذلك اذا كان صوابا غير خالص فالخالص ان يكون لوجه الله والصواب ان يكون على السنة (وثانيها) قال قتادة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يقول ايكم أحسن عقلا ثم قال اتمكم عقلا اشدكم لله خوفا وأحسنكم فيما امر الله به ونهى عنه نظرا وانما جاز أن يفسر حسن العمل بتمام العقل لانه يترتب على العقل فمن كان أتم عقلا كان أحسن عملا على ماذكر في حديث قتادة (وثالثها) روى عن الحسن ايكم ازهد في الدنيا واشد تركا لها واعلم انه لما ذكر حديث الابتلاء قال بعده وهو العزيز الغفور اى وهو العزيز الغالب الذى لا يعجزه من اساء العمل الغفور لمن تاب من اهل الاساءة واعلم ان كونه عزيزا غفورا لا يتم الا بعد كونه قادرا على كل المقدورات عالما بكل المعلومات اما انه لابد من القدرة التامة فلاجل ان يتمكن من ايصال جزاء كل احد بتمامه اليه سواء كان عقابا اوثوابا واما انه لابد من العلم التام فلاجل ان يعلم ان المطيع من هو والعاصى من هو فلا يقع الخطأ في ايصال الحق الى مستحقه فثبت ان كونه عزيزا غفورا لا يمكن ثبوتهما الا بعد ثبوت القدرة التامة والعلم التام فلهذا السبب ذكر الله الدليل على ثبوت هاتين الصفتين في هذا المقام ولما كان العلم بكونه تعالى قادرا متقدما على العلم بكونه عالما لاجرم ذكر أولا دلائل القدرة وثانيا دلائل العلم ※ اما دليل القدرة فهو قوله تعالى (الذى خلق سبع سموات طباقا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر صاحب الكشاف في طباقا ثلاثة اوجه (اولها) طباقا اى مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النعل اذا خصفها طبقا على طبق وهذا وصف بالمصدر (وثانيها) ان يكون التقدير ذات طباق (وثالثها) ان يكون التقدير طوبقت طباقا (المسئلة الثانية) دلالة هذه السموات على القدرة من وجوه (احدها) من حيث انها بقيت في جو الهواء معلقة بلا عماد ولا سلسلة (وثانيها) من حيث ان كل واحد منها اختص بمقدار معين مع جواز ماهو ازيد منه وانقص (وثالثها) انه اختص كل واحد منها بحركة خاصة مقدرة بقدر معين من السرعة والبطء الى جهة معينة (ورابعها) كونها في ذواتها محدثة وكل ذلك يدل على استنادها الى قادر تام القدرة ※ واما دليل العلم فهو قوله تعالى (ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى من تفوت والباقون من تفاوت قال الفراء وهما بمنزلة واحدة مثل تظهر وتظاهر وتعهد وتعاهد وقال الاخفش تفاوت اجود لانهم يقولون تفاوت الامر ولا يكادون يقولون تفوت واختار ابو عبيدة تفوت وقال يقال تفوت الشئ اذا فات واحتج بماروى في الحديث ان رجلا تفوت على ابيه في ماله (المسئلة الثانية) حقيقة

والتدبر في آياته المنصوبة في الانفس والآفاق وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال لا تفضلونى على يونس بن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل اهل الارض قالوا وانما كان ذلك التفكر في امر الله عز وجل الذى هو عمل القلب ضرورة ان احدا لا يقدر على ان يعمل بجوارحه كل يوم مثل عمل اهل الارض وتعليق فعل البلوى اى تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور الذى يقتضى عدم ايراد المفعول اصلا مع اختصاصه بأفعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك اجرى مجراه بطريق التمثيل وقيل بطريق الاستعارة التبعية وايراد صيغة التفضيل مع ان الابتلاء شامل لهم باعتبار اعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح ايضا لا الى الحسن والاحسن فقط للايذان بأن المراد بالذات والمقصد

التفاوت عدم التناسب كان بعض الشئ يفوت بعضا ولا يلائمه ومنه قولهم خلق متفاوت ونقيضه متناسب واما الفاظ المفسرين فقال السدى من تفاوت اى من اختلاف وعيب يقول الناظر لو كان كذا كان احسن وقال آخرون التفاوت الفطور بدليل قوله بعد ذلك فارجع البصر هل ترى من فطور ونظيره قوله ومالها من فروج قال القفال ويحتمل ان يكون المعنى ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فى الدلالة على حكمة صانعها وانه لم يخلقها عبثا (المسئلة الثانية) الخطاب فى قوله ماترى اما للرسول او لكل مخاطب وكذا القول فى قوله فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا (المسئلة الرابعة) قوله طباقا صفة للسموات وقوله بعد ذلك ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت صفة أخرى للسموات والتقدير خلق سبع سموات طباقا ماترى فيهن من تفاوت الا انه وضع مكان الضمير قوله خلق الرحمن تعظيما لخلقهن وتنبيها على سبب سلامتهن من التفاوت وهو انه خلق الرحمن وانه بباهر قدرته هو الذى يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب (المسئلة الخامسة) اعلم ان وجه الاستدلال بهذا على كمال علم الله تعالى هو ان الحس دل على ان هذه السموات السبع اجسام مخلوقة على وجه الاحكام والاتقان وكل فاعل كان فعله محكما متقنا فانه لابد وان يكون عالما فدلت هذه الدلالة على كونه تعالى عالما بالمعلومات فقوله ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت اشارة الى كونها محكمة متقنة (المسئلة السادسة) احتج الكعبى بهذه الآية على ان المعاصى ليست من خلق الله تعالى قال لانه تعالى نفى التفاوت عن خلقه وليس المراد نفى التفاوت فى الصغر والكبر والنقص والعيب فوجب حمله على نفى التفاوت فى خلقه من حيث الحكمة فيدل من هذا الوجه على ان افعال العباد ليست من خلقه على ما فيها من التفاوت الذى بعضه جهل وبعضه كذب وبعضه سفه (والجواب) بل نحن نحمله على انه لا تفاوت فيها بالنسبة اليه من حيث ان الكل يصح منه بحسب القدرة والارادة والداعية وانه لا يقبح منه شئ اصلا فلم كان حمل الآية على التفاوت من الوجه الذى ذكرتم اولى من حملها على نفى التفاوت من الوجه الذى ذكرناه ثم انه تعالى اكد بيان كونها محكمة متقنة وقال فارجع البصر هل ترى من فطور والمعنى انه لما قال ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت كأنه قال بعده ولعلك لا تحكم بمقتضى ذلك بالبصر الواحد ولا تعتمد عليه بسبب انه قد يقع الغلط فى النظرة الواحدة ولكن ارجع البصر واردد النظرة مرة اخرى حتى تتيقن انه ليس فى خلق الرحمن من تفاوت البتة والفطور جمع فطر وهو الشق يقال فطره فانفطر ومنه فطر ناب البعير كما يقال شق ومعناه شق اللحم فطلع قال المفسرون هل ترى من فطور اى من فروج وصدوع وشقوق وفتوق وخروق كل هذا من الفاظهم * ثم قال تعالى (ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير) امره بتكرير البصر فى خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع هل تجد فيه عيبا وخللا يعنى انك اذا كررت نظرك لم يرجع

الاصلى من الابتلاء هو ظهور كمال احسان المحسنين مع تحقق اصل الايمان والطاعة فى الباقين ايضا لكمال تعاضد الموجبات له واما الاعراض عن ذلك فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلا عن الانتظام فى سلك الغاية للافعال الالهية وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب وفيه من الترغيب فى الترقى الى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها مالا يخفى (وهو العزيز) الغالب الذى لا يفوته من اساء العمل (الغفور) لمن تاب منهم (الذى خلق سبع سموات) قيل هو نعت للعزيز الغفور او بيان او بدل والاوجه انه نصب او رفع على المدح متعلق بالموصولين السابقين معنى وان كان منقطعا عنهما اعرابا كما مر تفصيله فى قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب من سورة البقرة منتظم معهما فى سلك الشهادة بتعاليه سبحانه ومع

اليك بصرك بماطلبته من وجدان الخلل والعيب بل يرجع اليك خاسئا اى مبعدا من قولك خسأت الكلب اذا باعدته قال المبرد الخاسئ المبعد المصغر وقال ابن عباس الخاسئ الذى لم ير مايهوى واما الحسير فقال ابن عباس هو الكليل قال الليث الحسر والحسور الاعياء وذكر الواحدى ههنا احتمالين (احدهما) ان يكون الحسير مفعولا من حسر العين بعد المرئى قال رؤبة * يحسر طرف عينه فضاه * (الثانى) قول الفراء ان يكون فاعلا من الحسور الذى هو الاعياء والمعنى انه وان كرر النظر وأعاده فانه لايجد عيبا ولافطورا بل البصر يرجع خاسئا مع الكلال والاعياء وههنا سؤالان (السؤال الاول) كيف ينقلب البصر خاسئا حسيرا برجعه كرتين اثنتين (الجواب) التثنية للتكرير بكثرة كقولهم لبيك وسعديك يريد اجابات كثيرة متوالية (السؤال الثانى) فامعنى ثم ارجع (الجواب) أمره برجع البصر ثم أمره بان لايقنع بالرجعة الاولى بل ان يتوقف بعدها ويجم بصره ثم يعاوده ويعاوده الى ان يحسر بصره من طول المعاودة فانه لايعثر على شئ من فطور * قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير) اعلم ان هذا هو الدليل الثانى على كونه تعالى قادرا عالما وذلك لان هذه الكواكب نظرا الى انها محدثة ومختصة بمقدار خاص وموضع معين وسير معين تدل على ان صانعها قادر ونظرا الى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد من كونها زينة لاهل الدنيا وسببا لانتفاعهم بها تدل على ان صانعها عالم ونظير هذه الآية فى سورة والصافات انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد وههنا مسائل (المسئلة الاولى) السماء الدنيا السماء القربى وذلك لانها أقرب السموات الى الناس ومعناها السماء الدنيا من الناس والمصابيح السرج سميت بها الكواكب والناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح فقيل ولقد زينا سقف الدار التى اجتمعتم فيها بمصابيح اى بمصابيح لاتوازيها مصابيحكم اضاءة اماقوله تعالى وجعلناها رجوما للشياطين فاعلم ان الرجوم جمع رجم وهو مصدر سمى به مايرجم به وذكروا فى معنى هذه الآية وجهين (الوجه الاول) ان الشياطين اذا أرادوا استراق السمع رجموا بها فان قيل جعل الكواكب زينة للسماء يقتضى بقاءها واستمرارها وجعلها رجوما للشياطين ورميهم بها يقتضى زوالها والجمع بينهما متناقض قلنا ليس معنى رجم الشياطين هو انهم يرمون باجرام الكواكب بل يجوز ان ينفصل من الكواكب شعل ترمى الشياطين بها وتلك الشعل هى الشهب وماذاك الا كقبس يؤخذ من نار والنار باقية (الوجه الثانى) فى تفسير كون الكواكب رجوما للشياطين انا جعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الانس وهم الاحكاميون من المنجمين (المسئلة الثانية) اعلم ان ظاهر هذه الآية لايدل على ان هذه الكواكب مركوزة فى السماء الدنيا وذلك لان السموات اذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت فى السماء الدنيا اوكانت فى سموات اخر

الموصول الثانى فى كونه مدارا للبلوى كما نطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا وقوله تعالى (طباقا) صفة لسبع سموات اى مطابقة على انه مصدر طابقت النعل اذا خصفها وصف به المفعول اومصدر مؤكد لمحذوف هو صفتها اى طوبقت طباقا وقوله تعالى (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) صفة اخرى لسبع سموات وضع فيها خلق الرحمن موضع الضمير للتعظيم والاشعار بعلة الحكم وبأنه تعالى خلقها بقدرته القاهرة رحمة وتفضلا وبأن فى ابداعها نعما جليلة اواستئناف والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام اولكل احد ممن يصلح للخطاب ومن لتأكيد النفى اى ماترى فيه شيئا من تفاوت اى اختلاف وعدم تناسب من الفوت فان كلا من

فوقها فهى لابدوان تظهر فى السماء الدنيا وتلوح منها فعلى التقديرين تكون السماء الدنيا مزينة بهذه المصابيح واعلم ان اصحاب الهيئة اتفقوا على ان هذه الثوابت مركوزة فى الفلك الثامن الذى هو فوق أكر السيارات واحتجوا عليه بان بعض هذه الثوابت فى الفلك الثامن فيجب ان تكون كلها هناك وانما قلنا ان بعضها فى الفلك الثامن وذلك لان الثوابت التى تكون قريبة من المنطقة تنكسف بهذه السيارات فوجب ان تكون الثوابت المنكسفة فوق السيارات الكاسفة وانما قلنا ان هذه الثوابت لما كانت فى الفلك الثامن وجب ان تكون كلها هناك لانها باسرها متحركة حركة واحدة بطيئة فى كل مائة سنة درجة واحدة فلابدوان تكون مركوزة فى كرة واحدة ❊ واعلم ان هذا الاستدلال ضعيف فانه لايلزم من كون بعض الثوابت فوق السيارات كون كلها هناك لانه لايبعد وجود كرة تحت كرة القمر وتكون فى البطء مساوية لكرة الثوابت وتكون الكواكب المركوزة فيمايقارن القطبين مركوزة فى هذه الكرة السفلية اذلايبعد وجود كرتين مختلفتين بالصغر والكبر مع كونهما متشابهتين فى الحركة وعلى هذا التقدير لايمتنع ان تكون هذه المصابيح مركوزة فى السماء الدنيا فثبت ان مذهب الفلاسفة فى هذا الباب ضعيف (المسئلة الثالثة) اعلم ان منافع النجوم كثيرة (منها) ان الله تعالى زين السماء بها (ومنها) انه يحصل بسببها فى الليل قدر من الضوء ولذلك فانه اذا تكاثف السحاب فى الليل عظمت الظلمة وذلك بسبب ان السحاب يحجب انوارها (ومنها) انه يحصل بسببها تفاوت فى احوال الفصول الاربعة فانها اجسام عظيمة نورانية فاذا قارنت الشمس كوكبا مسخنا فى الصيف صار الصيف اقوى حرا وهو مثل نار تضم الى نار اخرى فانه لاشك أنه يكون الاثر الحاصل من المجموع أقوى (ومنها) انه تعالى جعلها علامات يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر على ماقال تعالى وعلامات وبالنجم هم يهتدون (ومنها) انه تعالى جعلها رجوما للشياطين الذين يخرجون الناس من نور الايمان الى ظلمات الكفر يروى أن السبب فى ذلك ان الجن كانت تسمع لخبر السماء فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حرست السماء ورصدت الشياطين فمن جاء منهم مسترقا للسمع رمى بشهاب فأحرقه لئلا ينزل به الى الارض فيلقيه الى الناس فيخلط على النبى أمره ويرتاب الناس بخبره فهذا هو السبب فى انقضاض الشهب وهو المراد من قوله وجعلناها رجوما للشياطين ومن الناس من طعن فى هذا من وجوه (احدها) أن انقضاض الكواكب مذكور فى كتب قدماء الفلاسفة قالوا ان الارض اذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس واذا بلغ النار التى دون الفلك احترق بها فتلك الشعلة هى الشهاب (وثانيها) ان هؤلاء الجن كيف يجوز ان يشاهدوا واحدا وألفا من جنسهم يسترقون فيحترقون ثم انهم مع ذلك يعودون لمثل صنيعهم فان العاقل اذا رأى الهلاك فى شئ مرة ومرارا وألفا امتنع أن يعود اليه من غير فائدة (وثالثها) أنه يقال فى ثخن السماء انه مسيرة خمسمائة عام فهؤلاء

المتفاوتين يفوت منه بعض مافى الآخر وقرئ من تفوت ومعناهما واحد وقوله تعالى (فارجع البصر هل ترى من فطور) متعلق به على معنى التسبيب حيث اخبر اولا بأنه لاتفاوت فى خلقهن ثم قيل فارجع البصر حتى يتضح لك ذلك بالمعاينة ولايبقى عندك شبهة ما والفطور الشقوق والصدوع جمع فطر وهو الشق يقال فطره فانفطر (ثم ارجع البصر كرتين) اى رجعتين اخريين فى ارتياد الخلل والمراد بالتثنية التكرير والتكثير كما فى لبيك وسعديك اى رجعة بعد رجعة وان كثرت (ينقلب اليك البصر خاسئا) اى بعيدا محروما من اصابة ماالتمسه من العيب والخلل كأنه يطرد عن ذلك طردا بالصغار والقماءة (وهو حسير) اى كليل لطول المعاودة وكثرة المراجعة وقوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا) بيان لكون خلق السموات

الجن ان نفذوا فی جرم السماء وخرقوا اتصاله فهذا باطل لانه تعالى نفى ان يكون فيها فطور على ماقال فارجع البصر هل ترى من فطور وان كانوا لاينفذون فی جرم السماء فكيف يمكنهم ان يسمعوا اسرار الملائكة من ذلك البعد العظيم ثم ان جاز ان يسمعوا كلامهم من ذلك البعد العظيم فلم لايسمعون كلام الملائكة حال كونهم فی الارض (ورابعها) ان الملائكة انما اطلعوا على الاحوال المستقبلة اما لانهم طالعوها فی اللوح المحفوظ اولانهم تلقفوها من وحی الله تعالى اليهم وعلى التقديرين فلم لم يسكتوا عن ذكرها حتى لايتمكن الجن من الوقوف عليها (وخامسها) ان الشياطين مخلوقون من النار والنار لاتحرق النار بل تقويها فكيف يعقل ان يقال ان الشياطين زجروا عن استراق السمع بهذه الشهب (وسادسها) انه ان كان هذا القذف لاجل النبوة فلم دام بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام (وسابعها) ان هذه الرجوم انما تحدث بالقرب من الارض بدليل انا نشاهد حركتها بالعين ولوكانت قريبة من الفلك لماشاهدنا حركتها كما لم نشاهد حركات الكواكب واذا ثبت ان هذه الشهب انما تحدث بالقرب من الارض فكيف يقال انها تمنع الشياطين من الوصول الى الفلك (وثامنها) ان هؤلاء الشياطين لوكان يمكنهم ان ينقلوا اخبار الملائكة من المغيبات الى الكهنة فلم لاينقلون اسرار المؤمنين الى الكفار حتى يتوصل الكفار بواسطة وقوفهم على اسرارهم الى الحاق الضرر بهم (وتاسعها) لم لم يمنعهم الله ابتداء من الصعود الى السماء حتى لايحتاج فی دفعهم عن السماء الى هذه الشهب (والجواب) عن السؤال الاول انا لاننكر ان هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبی صلى الله عليه وسلم لاسباب اخر الا ان ذلك لاينافی انها بعد مبعث النبی عليه الصلاة والسلام قد توجد بسبب آخر وهو دفع الجن وزجرهم يروى انه قيل للزهری أكان يرمی فی الجاهلية قال نعم قيل أفرأيت قوله تعالى وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا قال غلظت وشدد امرها حين بعث النبی صلى الله عليه وسلم (والجواب) عن السؤال الثانی انه اذا جاء القدر عمی البصر فاذا قضى الله على طائفة منها الحرق لطغيانها وضلالتها قيض لها من الدواعی المطمعة فی درك المقصود ماعندها تقدم على العمل المفضی الى الهلاك والبوار (والجواب) عن السؤال الثالث ان البعد بين السماء والارض مسيرة خمسمائة عام فأما ثخن الفلك فلعله لايكون عظيما (واما الجواب) عن السؤال الرابع ماروى الزهری عن علی بن الحسين بن علی بن ابی طالب عليه السلام عن ابن عباس قال بينا النبی صلى الله عليه وسلم جالسا فی نفر من اصحابه اذ رمی بنجم فاستنار فقال ما كنتم تقولون فی الجاهلية اذا حدث مثل هذا قالوا كنا نقول يولد عظيم او يموت عظيم قال عليه الصلاة والسلام فانها لاترمی لموت احد ولا لحياته ولكن ربنا تعالى اذا قضى الامر فی السماء سبحت حملة العرش ثم سبح اهل السماء وسبح اهل كل سماء حتى ينتهی التسبيح الى هذه السماء ويستخبر اهل السماء حملة العرش

فی غاية الحسن والبهاء اثر بيان خلوها عن شائبة القصور وتصدير الجملة بالقسم لابراز كمال الاعتناء بمضمونها ای وبالله لقد زينا اقرب السموات الى الارض (بمصابيح) ای بكواكب مضيئة بالليل اضاءة السرج من السيارات والثوابت تتراءى كأن كلها مركوزة فيها مع ان بعضها فی سائر السموات وما ذاك الا لان كل واحدة منها مخلوقة على نمط رائق تحار فی فهمه الافكار وطراز فائق تهيم فی دركه الانظار (وجعلناها رجوما للشياطين) وجعلنا لها فائدة اخرى هی رجم اعدائكم بانقضاض الشهب المقتبسة من نار الكواكب وقيل معناه وجعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الانس وهم المنجمون ولايساعده المقام والرجوم جمع رجم بالفتح وهو

ماذا قال ربكم فيخبرونهم ولا يزال ذلك الخبر من سماء الى سماء الى ان ينتهى الخبر الى هذه السماء ويخطف الجن فيرمون فما جاؤا به فهو حق ولكنهم يزيدون فيه (والجواب) عن السؤال الخامس ان النار قدتكون اقوى من نار اخرى فالاقوى يبطل الاضعف (والجواب) عن السؤال السادس انه انما دام لانه عليه الصلاة والسلام اخبر ببطلان الكهانة فلو لم يدم هذا العذاب لعادت الكهانة وذلك يقدح فى خبر الرسول عن بطلان الكهانة (والجواب) عن السؤال السابع ان البعد على مذهبنا غير مانع من السماع فلعله تعالى اجرى عادته بأنهم اذا وقفوا فى تلك المواضع سمعوا كلام الملائكة (والجواب) عن السؤال الثامن لعله تعالى اقدرهم على استماع الغيوب عن الملائكة واعجزهم عن ايصال اسرار المؤمنين الى الكافرين (والجواب) عن السؤال التاسع انه تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد فهذا مايتعلق بهذا الباب على سبيل الاختصار والله اعلم واعلم انه تعالى لما ذكر منافع الكواكب وذكر ان من جملة تلك المنافع انها رجوم للشياطين قال بعد ذلك واعتدنا لهم عذاب السعير اى اعتدنا للشياطين بعد الاحراق بالشهب فى الدنيا عذاب السعير فى الآخرة * قال المبرد سعرت النار فهى مسعورة وسعير كقولك مقبولة وقبيل واحتج اصحابنا على ان النار مخلوقة الآن بهذه الآية لان قوله واعتدنا اخبار عن الماضى ❊ قوله تعالى (وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير) اعلم انه تعالى بين فى اول السورة انه قادر على جميع الممكنات ثم ذكر بعده انه وان كان قادرا على الكل الا انه انما خلق ماخلق لا للعبث والباطل بل لاجل الابتلاء والامتحان وبين ان المقصود من ذلك الابتلاء ان يكون عزيزا فى حق المصرين على الاساءة غفورا فى حق التائبين عنها ولما كان كونه عزيزا وغفورا لايثبتان الا اذا ثبت كونه تعالى كاملا فى القدرة والعلم بين ذلك بالدلائل المذكورة وحينئذ ثبت كونه قادرا على تعذيب العصاة فقال وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم أى ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم عذاب جهنم ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك وقرئ عذاب جهنم بالنصب عطف بيان على قوله عذاب السعير ثم انه تعالى وصف ذلك العذاب بصفات كثيرة (الصفة الاولى) ❊ قوله تعالى (اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا) ألقوا طرحوا كما يطرح الحطب فى النار العظيمة ويرمى به فيها ومثله قوله حصب جهنم وفى قوله سمعوا لها شهيقا وجوه (احدها) قال مقاتل سمعوا لجهنم شهيقا ولعل المراد تشبيه صوت لهب النار بالشهيق قال الزجاج سمع الكفار للنار شهيقا وهو اقبح الاصوات وهو كصوت الحمار وقال المبرد هو والله اعلم تنفس كتنفس المتغيظ (وثانيها) قال عطاء سمعوا لاهلها ممن تقدم طرحهم فيها شهيقا (وثالثها) سمعوا من انفسهم شهيقا كقوله تعالى لهم فيها زفير وشهيق والقول هو الاول (الصفة الثانية) ❊ قوله تعالى (وهى تفور) قال الليث كل شئ جاش فقد فار وهو فور القدر والدخان والغضب والماء من العين قال ابن عباس تغلى بهم

مايرجم به (واعتدنا لهم) فى الآخرة (عذاب السعير) بعد الاحراق فى الدنيا بالشهب (وللذين كفروا بربهم) من الشياطين وغيرهم (عذاب جهنم) وقرئ بالنصب على انه عطف على عذاب السعير وللذين على لهم (وبئس المصير) اى جهنم (اذا القوا فيها سمعوا لها) اى لجهنم وهو متعلق بمحذوف وقع حالا من قوله تعالى (شهيقا) لانه فى الاصل صفته فلما قدمت صارت حالا اى سمعوا كائنا لها شهيقا اى صوتا كصوت الحمير وهو حسيسها المنكر الفظيع قالوا الشهيق فى الصدر والزفير فى الحلق (وهى تفور) اى والحال انها تغلى بهم غليان المرجل بما فيه وجعل الشهيق لاهلها منهم وممن طرح فيها قبلهم كما فى قوله تعالى لهم فيها زفير وشهيق يرده قوله تعالى

كغلى المرجل وقال مجاهد تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل ويجوز ان يكون هذا من فور الغضب قال المبرد يقال تركت فلانا يفور غضبا ويتأكد هذا القول بالآية الآتية (الصفة الثانية)* قوله تعالى (تكاد تميز من الغيظ) يقال فلان يتميز غيظا ويتقصف غيظا وغضب فطارت منه شعلة فى الارض وشعلة فى السماء اذا وصفوه بالافراط فيه واقول لعل السبب فى هذا المجاز ان الغضب حالة تحصل عند غليان دم القلب والدم عند الغليان يصير اعظم حجما ومقدارا فتتمدد تلك الاوعية عند ازدياد مقادير الرطوبات فى البدن فكلما كان الغضب اشد كان الغليان اشد فكان الازدياد اكثر وكان تمدد الاوعية وانشقاقها وتميزها اكثر فجعل ذكر هذه الملازمة كناية عن شدة الغضب فان قيل النار ليست من الاحياء فكيف يمكن وصفها بالغيظ قلنا (الجواب) من وجوه (احدها) ان البنية عندنا ليست شرطا للحياة فلعل الله يخلق فيها وهى نار حياة (وثانيها) انه شبه صوت لهبها وسرعة تبادرها بصوت الغضبان وحركته (وثالثها) يجوز ان يكون المراد غيظ الزبانية (الصفة الرابعة)* قوله تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها الم يأتكم نذير) الفوج الجماعة من الناس والافواج الجماعات فى تفرقة ومنه قوله تعالى فتأتون افواجا وخزنتها مالك واعوانه من الزبانية الم يأتكم نذير وهو سؤال توبيخ قال الزجاج وهذا التوبيخ زيادة لهم فى العذاب وفى الآية مسئلتان (المسئلة الاولى) احتجت المرجئة على انه لا يدخل النار احد الا الكفار بهذه الآية قالوا لانه تعالى حكى عن كل من ألقى فى النار انهم قالوا كذبنا النذير وهذا يقتضى ان من لم يكذب الله ورسوله لا يدخل النار واعلم ان ظاهر هذه الآية يقتضى القطع بأن الفاسق المصر لا يدخل النار واجاب القاضى عنه بأن النذير قد يطلق على ما فى العقول من الادلة المحذرة المخوفة ولا احد يدخل النار الا وهو مخالف للدليل غير متمسك بموجبه (المسئلة الثانية) احتج القائلون بأن معرفة الله وشكره لا يجبان الا بعد ورود السمع بهذه الآية وقالوا هذه الآية دلت على انه تعالى انما عذبهم لانه اتاهم النذير وهذا يدل على انه لو لم يأتهم النذير لما عذبهم ثم انه تعالى حكى عن الكفار جوابهم عن ذلك السؤال من وجهين (الاول)* قوله تعالى (قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ) واعلم ان قوله بلى قد جاءنا نذير فكذبنا اعتراف منهم بعدل الله واقرار بأن الله أزاح عللهم ببعثة الرسل ولكنهم كذبوا الرسل وقالوا ما نزل الله من شئ * اما قوله تعالى (ان انتم الا فى ضلال كبير) ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى الآية وجهان (الوجه الاول) وهو الاظهر انه من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين (الوجه الثانى) يجوز ان يكون من كلام الخزنة للكفار والتقدير ان الكفار لما قالوا ذلك الكلام قالت الخزنة لهم ان انتم الا فى ضلال كبير (المسئلة الثانية) يحتمل ان يكون المراد من الضلال الكبير ما كانوا عليه من ضلالهم فى الدنيا ويحتمل ان يكون المراد بالضلال الهلاك ويحتمل ان يكون قد سمى عقاب الضلال باسمه * قوله تعالى (وقالوا لو كنا نسمع

(تكاد تميز) اى تتميز وتتفرق (من الغيظ) اى من شدة الغضب عليهم فانه صريح فى انه من آثار الغضب عليهم كما فى قوله تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا فأين هو من شهيقهم الناشئ من شدة ما يقاسونه من العذاب الاليم والجملة اما حال من فاعل تفور او خبر آخر وقوله تعالى (كلما ألقى فيها فوج) استئناف مسوق لبيان حال اهلها بعد بيان حال نفسها وقيل حال من ضميرها اى كلما ألقى فيها جماعة من الكفرة (سألهم خزنتها) بطريق التوبيخ والتقريع ليزدادوا عذابا فوق عذاب وحسرة على حسرة (الم يأتكم نذير) يتلو عليكم آيات ربكم وينذركم لقاء يومكم هذا كما وقع فى سورة الزمر ويعرب عنه جوابهم ايضا (قالوا) اعترافا بانه تعالى قد أزاح عللهم بالكلية (بلى قد جاءنا نذير) جامعين بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها مبالغة فى الاعتراف بمجئ النذير وتحسرا على ما فاتهم من السعادة فى تصديقهم وتمهيدا لبيان ما وقع منهم من التفريط تندما واغتماما على ذلك اى قال كل فوج من تلك الافواج قد جاءنا نذير اى واحد حقيقة او حكما كأنبياء بنى اسرائيل فانهم فى حكم نذير واحد فأنذرنا وتلا علينا ما نزل الله تعالى عليه من آياته (فكذبنا) ذلك النذير فى كونه نذيرا من جهته تعالى (وقلنا) فى حق ما تلاه من الآيات افراطا فى التكذيب وتماديا فى النكير (ما نزل الله) على احد (من شئ) من الاشياء فضلا عن تنزيل الآيات عليكم (ان انتم) اى ما انتم فى ادعاء انه تعالى نزل عليكم آيات تنذروننا بما فيها (الا فى ضلال كبير) بعيد

اونعقل ما كنا فى اصحاب السعير) هذا هو الكلام الثانى مما حكاه الله تعالى عن الكفار جوابا للخزنة حين قالوا ألم يأتكم نذير والمعنى لو كنا نسمع الانذار سماع من كان طالبا للحق او نعقله عقل من كان متأملا متفكرا لما كنا من اصحاب السعير وقيل انما جمع بين السمع والعقل لان مدار التكليف على ادلة السمع والعقل وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج اصحابنا بهذه الآية فى مسئلة الهدى والاضلال بأن قالوا لفظة لو تفيد امتناع الشئ لامتناع غيره فدلت الآية على انه ما كان لهم سمع ولا عقل لكن لاشك انهم كانوا ذوى اسماع وعقول صحيحة وانهم ما كانوا صم الاسماع ولا مجانين فوجب ان يكون المراد انه ما كان لهم سمع الهداية ولا عقل الهداية (المسئلة الثانية) احتج بهذه الآية من قال الدين لا يتم الا بالتعليم فقال انه قدم السمع على العقل تنبيها على انه لابد اولا من ارشاد المرشد وهداية الهادى ثم انه يترتب عليه فهم المستجيب وتأمله فيما يلقيه المعلم (الجواب) انه انما قدم السمع لان المدعو اذا لقى الرسول فأول المراتب انه يسمع كلامه ثم انه يتفكر فيه فلما كان السمع مقدما بهذا السبب على التعقل والتفهم لا جرم قدم عليه فى الذكر (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف ومن بدع التفاسير ان المراد لو كنا على مذهب اصحاب الحديث او على مذهب اصحاب الرأى ثم قال كأن هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين وكأن سائر اصحاب المذاهب والمجتهدين قد انزل الله وعيدهم (المسئلة الرابعة) احتج من فضل السمع على البصر بهذه الآية وقالوا دلت الآية على ان للسمع مدخلا فى الخلاص عن النار والفوز بالجنة والبصر ليس كذلك فوجب ان يكون السمع افضل * واعلم انه تعالى لما حكى عن الكفار هذا القول قال تعالى (فاعترفوا بذنبهم) قال مقاتل يعنى بتكذيبهم الرسل وهو قولهم فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ وقوله بذنبهم فيه قولان (احدهما) ان الذنب ههنا فى معنى الجمع لان فيه معنى الفعل كما يقال خرج عطاء الناس اى عطياتهم هذا قول الفراء (والثانى) يجوز ان يراد بالواحد المضاف الشياع كقوله وان تعدوا نعمة الله * ثم قال تعالى (فسحقا لاصحاب السعير) قال المفسرون فبعدا لهم اعترفوا او جحدوا فان ذلك لا ينفعهم والسحق البعد وفيه لغتان التخفيف والتثقيل كما تقول فى العنق والطنب قال الزجاج سحقا منصوب على المصدر والمعنى اسحقهم الله سحقا اى باعدهم الله من رحمته مباعدة وقال ابو على الفارسى كان القياس اسحاقا فجاء المصدر على الحذف كقولهم عمرك الله * واعلم انه تعالى لما ذكر وعيد الكفار اتبعه بوعد المؤمنين * فقال تعالى (ان الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة واجر كبير) وفيه وجهان (الوجه الاول) ان المراد ان الذين يخشون ربهم وهم فى دار التكليف والمعارف النظرية وبهم حاجة الى مجاهدة الشيطان ودفع الشبه بطريق الاستدلال (الوجه الثانى) ان هذا اشارة الى كونه متقيا من جميع المعاصى لان من يتق معاصى الله فى الخلوة اتقاها حيث يراه الناس لا محالة واحتج اصحابنا بهذه الآية على انقطاع وعيد الفساق فقالوا دلت

من الحق والصواب وجمع ضمير الخطاب مع ان مخاطب كل فوج نذيره لتغليبه على امثاله مبالغة فى التكذيب وتماديا فى التضليل كما ينبئ عنه تعميم المنزل مع ترك ذكر المنزل عليه فانه ملوح بعمومه حتما واما اقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل فأمر تحقيقى يصار اليه تهويل ما ارتكبوه من الجنايات لا مساغ لاعتباره من جهتهم ولا لادراجه تحت عبارتهم كيف لا وهو منوط بملاحظة اجماع النذر على ما لا يختلف من الشرائع والاحكام باختلاف العصور والاعوام واين هم من ذلك وقد حال الجريض دون القريض هذا اذا جعل ما ذكر حكاية عن كل واحد من الافواج واما اذا جعل حكاية عن الكل فالنذير اما بمعنى الجمع لانه فعيل او مصدر مقدر بمضاف عام اى اهل نذير او منعوت به فيتفق كلا طرفى الخطاب فى الجمعية ومن اعتبر الجمعية بأحد الوجوه الثلاثة على التقدير الاول ولم يخص اعتبارها بالتقدير الاخير فقد اشتبه عليه الشؤن واختلط به الظنون وقد جوز ان يكون الخطاب من كلام الخزنة للكفار على ارادة القول على ان مرادهم بالضلال ما كانوا عليه فى الدنيا او هلاكهم او عقاب ضلالهم تسمية له باسم سببه وان يكون من كلام الرسل للكفرة وقد حكوه للخزنة فتأمل وكن على الحق المبين (وقالوا) ايضا معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمع او يعقل (لو كنا نسمع) كلاما (او نعقل) شيئا (ما كنا فى اصحاب السعير) اى فى عدادهم ومن اتباعهم وهم الشياطين لقوله تعالى واعتدنا لهم

الآية على ان من كان موصوفا بهذه الخشية فله الاجر العظيم فاذاجاء يوم القيامة مع الفسق ومع هذه الخشية فقد حصل الامران فامان يثاب ثم يعاقب وهو بالاجماع باطل او يعاقب ثم ينقل الى دار الثواب وهو المطلوب واعلم انه تعالى لما ذكر وعيد الكفار ووعد المؤمنين على سبيل المغايبة رجع بعد ذلك الى خطاب الكفار ✻ فقال تعالى (واسروا قولكم او اجهروا به انه عليم بذات الصدور) وفيه وجهان (الوجه الاول) قال ابن عباس كانوا ينالون من رسول الله فيخبره جبريل فقال بعضهم لبعض اسروا قولكم لئلا يسمع اله محمد فأنزل الله هذه الآية (الوجه الثاني) انه خطاب عام لجميع الخلق في جميع الاعمال والمراد ان قولكم وعملكم على اى سبيل وجد فالحال واحدة في علمه تعالى بها فاحذروا من المعاصي سرا كما تحترزون عنها جهرا فانه لا يتفاوت ذلك بالنسبة الى علم الله تعالى وكما بين انه تعالى عالم بالجهر وبالسر بين انه عالم بخواطر القلوب ثم انه تعالى لما ذكر كونه عالما بالجهر وبالسر وبما في الصدور ذكر الدليل على كونه عالما بهذه الاشياء ✻ فقال تعالى (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان معنى الآية ان من خلق شيئا لابد وان يكون عالما بمخلوقه وهذه المقدمة كما انها مقررة بهذا النص فهي ايضا مقررة بالدلائل العقلية وذلك لان الخلق عبارة عن الايجاد والتكوين على سبيل القصد والقاصد الى الشيء لابد وان يكون عالما بحقيقة ذلك الشيء فان الغافل عن الشيء يستحيل ان يكون قاصدا اليه وكما انه ثبت ان الخالق لابد وان يكون عالما بماهية المخلوق لابد وان يكون عالما بكميته لان وقوعه على ذلك المقدار دون ما هو ازيد منه او انقص لابد وان يكون بقصد الفاعل واختياره والقصد مسبوق بالعلم فلابد وان يكون قد علم ذلك المقدار واراد ايجاد ذلك المقدار حتى يكون وقوع ذلك المقدار اولى من وقوع ما هو ازيد منه او أنقص منه والا يلزم ان يكون اختصاص ذلك المقدار بالوقوع دون الازيد او الانقص ترجيحا لاحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال فثبت ان من خلق شيئا فانه لابد وان يكون عالما بحقيقة ذلك المخلوق وبكميته وكيفيته واذا ثبتت هذه المقدمة فنقول تمسك اصحابنا بهذه الآية في بيان ان العبد غير موجد لافعاله من وجهين (الوجه الاول) قالوا لو كان العبد موجدا لافعال نفسه لكان عالما بتفاصيلها لكنه غير عالم بتفاصيلها فهو غير موجدلها بيان الملازمة من وجهين (الاول) التمسك بهذه الآية (والثاني) ان وقوع عشرة اجزاء من الحركة مثلا ممكن ووقوع الازيد منه والانقص منه ايضا ممكن فاختصاص العشرة بالوقوع دون الازيد ودون الانقص لابد وان يكون لاجل ان القادر المختار خصه بالايقاع والالكان وقوعه دون الازيد والانقص وقوعا للممكن المحدث من غير مرجح لان القادر المختار اذا خص تلك العشرة بالايقاع فلابد وان يكون عالما بأن الواقع عشرة لا أزيد ولا انقص فثبت ان العبد لو كان موجد الافعال نفسه لكان عالما بتفاصيلها واما انه غير عالم بتفاصيلها فلوجوه

عذاب السعير كأن الخزنة قالوا لهم في تضاعيف التوبيخ الم تسمعوا آيات ربكم ولم تعقلوا معانيها حتى لا تكذبوا بها فأجابوا بذلك (فاعترفوا بذنبهم) الذي هو كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ورسله (فسحقا) بسكون الحاء وقرئ بضمها مصدر مؤكد اما لفعل متعد من المزيد بحذف الزوائد كما في قعدك الله اى فأسحقهم الله اى ابعدهم من رحمته سحقا اى اسحاقا اولفعل مترتب على ذلك الفعل اى فأسحقهم الله فسحقوا اى بعدوا سحقا اى بعدا كما في قول من قال وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال الا مسحت او مجلف اى لم تدع فلم يبق الا مسحت الخ وعلى هذين الوجهين قوله تعالى وانبتها نباتا حسنا واللام في قوله تعالى (لاصحاب السعير) للبيان كما في هيت لك ونحوه والمراد بهم الشياطين والداخلون في عدادهم بطريق التغليب (ان الذين يخشون ربهم بالغيب) اى يخافون عذابه غائبا عنهم او غائبين عنه اوعن اعين الناس او بما خفي منهم وهو قلوبهم (لهم مغفرة) عظيمة لذنوبهم (واجر كبير) لا يقادر قدره (واسروا قولكم او اجهروا به) بيان لتساوي السر والجهر بالنسبة الى علمه تعالى كما في قوله سواء منكم من اسر القول ومن جهر به قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبي عليه الصلاة والسلام فيوحى اليه عليه الصلاة والسلام فقال بعضهم لبعض اسروا قولكم كيلا يسمع رب محمد فقيل لهم اسروا ذلك او اجهروا به فان الله يعلمه وتقديم السر على الجهر للايذان بافتضاحهم

(احدها) ان المتكلمين اتفقوا على ان التفاوت بين الحركة السريعة و البطيئة لاجل تخلل السكنات فالفاعل للحركة البطيئة قد فعل في بعض الاحياز حركة و في بعضها سكونا مع انه لم يخطر البتة بباله انه فعل ههنا حركة وههنا سكونا (وثانيها) ان فاعل الحركة لا يعرف عدد اجزاء تلك الحركات الا اذا عرف عدد الاحياز التي بين مبدأ المسافة ومنتهاها وذلك يتوقف على علمه بأن الجواهر الفردة التي تتسع لها تلك المسافة من اولها الى آخرها كم هي ومعلوم ان ذلك غير معلوم (وثالثها) ان النائم و المغمى عليه قد يتحرك من جنب الى جنب مع انه لا يعلم ماهية تلك الحركة ولا كميتها (ورابعها) ان عند ابي علي و ابي هاشم الفاعل انما يفعل معنى يقتضي الحصول في الحيز ثم ان ذلك المعنى الموجب مما لا يخطر ببال اكثر الخلق فظهر بهذه الدلالة ان العبد غير موجد لافعاله (الوجه الثاني) في التمسك بهذه الآية على ان العبد غير موجد ان نقول انه تعالى لما ذكر انه عالم بالسر و الجهر و بكل ما في الصدور قال بعده الا يعلم من خلق وهذا الكلام انما يتصل بما قبله لو كان تعالى خالقا لكل ما يفعلونه في السر و الجهر و في الصدور و القلوب فانه لو لم يكن خالقا لها لم يكن قوله الا يعلم من خلق مقتضيا كونه تعالى عالما بتلك الاشياء و اذا كان كذلك ثبت انه تعالى هو الخالق لجميع ما يفعلونه في السر و الجهر من افعال الجوارح و من افعال القلوب (فان قيل) لم لا يجوز ان يكون المراد الا يعلم من خلق الاجسام و العالم الذي خلق الاجسام هو العالم بهذه الاشياء (قلنا) انه لا يلزم من كونه خالقا لغير هذه الاشياء كونه عالما بها لان من يكون فاعلا لشيء لا يجب ان يكون عالما بشيء آخر نعم يلزم من كونه خالقها لها كونه عالما بها لان خالق الشيء يجب ان يكون عالما به (المسئلة الثانية) الآية تحتمل ثلاثة اوجه (احدها) اي يكون من خلق في محل الرفع و المنصوب يكون مضمرا و التقدير الا يعلم من خلق مخلوقه (وثانيها) ان يكون من خلق في محل النصب ويكون المرفوع مضمرا و التقدير الا يعلم الله من خلق و الاحتمال الاول اولى لان الاحتمال الثاني يفيد كونه تعالى عالما بذات من هو مخلوقه ولا يقتضي كونه عالما بأحوال من هو مخلوقه و المقصود من الآية هذا الاول (وثالثها) ان تكون من في تقدير ما كما تكون ما في تقدير من في قوله و السماء وما بناها وعلى هذا التقدير تكون ما اشارة الى ما يسره الخلق و ما يجهرونه و يضمرونه في صدورهم و هذا يقتضي ان تكون افعال العباد مخلوقة لله تعالى اما قوله تعالى و هو اللطيف الخبير فاعلم انهم اختلفوا في اللطيف فقال بعضهم المراد العالم و قال آخرون بل المراد من يكون فاعلا للاشياء اللطيفة التي تخفى كيفية عملها على اكثر الفاعلين و لهذا يقال ان لطف الله بعباده عجيب ويراد به دقائق تدبيره لهم وفيهم وهذا الوجه اقرب و الا لكان ذكر الخبير بعده تكرارا ❊ قوله تعالى (هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه و اليه النشور) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان تعلق هذه الآية بما قبلها هو انه تعالى بين بالدلائل كونه عالما بما يسرون و ما يعلنون ثم ذكر بعده هذه الآية

(على)

ووقوع ما يحذرونه من اول الامر والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه اقدر منه بما يجهرون به مع كونهما في الحقيقة على السوية فان علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شيء نفسه علم بالنسبة اليه تعالى اولان مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر اذ ما من شيء يجهر به الا وهو او مباديه مضمر في القلب يتعلق به الاسرار غالبا فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية وقوله تعالى (انه عليم بذات الصدور) تعليل لما قبله وتقرير له وفي صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق ووصف الضمائر بصاحبيتها من الجزالة ما لا غاية وراءه كأنه قيل انه مبالغ في الاحاطة بمضمرات جميع الناس واسرارهم الخفية المستكنة في صدورهم بحيث لا تكاد تفارقها اصلا فكيف يخفى عليه ما تسرونه وتجهرون به ويجوز ان يراد بذات الصدور القلوب التي في الصدور والمعنى انه عليم بالقلوب واحوالها فلا يخفى عليه سر من اسرارها وقوله تعالى (ألا يعلم من خلق) انكار ونفي لعدم احاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر اي ألا يعلم السر والجهر من اوجد بموجب حكمته جميع الاشياء التي هما من جملتها وقوله تعالى (وهو اللطيف الخبير) حال من فاعل يعلم مؤكدة للانكار والنفي اي ألا يعلم ذلك والحال انه المتوصل علمه الى ما ظهر من خلقه وما بطن ويجوز ان يكون من خلق منصوبا والمعنى ألا يعلم الله من خلقه والحال انه

على سبيل التهديد ونظيره من قال لعبده الذي اساء الى مولاه في السر يافلان انا اعرف سرك وعلى نيتك فاجلس في هذه الدار التي وهبتها منك وكل هذا الخبز الذي هيأته لك ولا تأمن تأديبي فاني ان شئت جعلت هذه الدار التي هي منزل أمنك ومركز سلامتك منشأ للآفات التي تحير فيها ومنبعا للمحن التي تهلك بسببها فكذا ههنا كأنه تعالى قال ايها الكفار اعلموا اني عالم بسركم وجهركم فكونوا خائفين مني محترزين من عقابي فهذه الارض التي تمشون في مناكبها وتعتقدون انها ابعد الاشياء عن الاضرار بكم انا الذي ذللتها لكم وجعلتها سببا لنفعكم فامشوا في مناكبها فانني ان شئت خسفت بكم هذه الارض وانزلت عليها من السماء انواع المحن فهذا هو الوجه في اتصال هذه الآية بما قبلها (المسئلة الثانية) الذلول من كل شئ المنقاد الذي يذل لك ومصدره الذل وهو الانقياد واللين ومنه يقال دابة ذلول وفي وصف الارض بالذلول اقوال (احدها) انه تعالى ماجعلها صخرية خشنة بحيث يمتنع المشي عليها كما يمتنع المشي على وجوه الصخور الخشنة (وثانيها) انه تعالى جعلها لينة بحيث يمكن حفرها وبناء الابنية منها كما يراد ولو كانت حجرية صلبة لتعذر ذلك (وثالثها) انها لو كانت حجرية او كانت مثل الذهب او الحديد لكانت تسخن جدا في الصيف وكانت تبرد جدا في الشتاء ولكانت الزراعة فيها ممتنعة والغراسة فيها متعذرة ولما كانت كفاتا للاموات والاحياء (ورابعها) انه تعالى سخرها لنا بان امسكها في جو الهواء ولو كانت متحركة على الاستقامة او على الاستدارة لم تكن منقادة لنا (المسئلة الثالثة) قوله فامشوا في مناكبها امر اباحة وكذا القول في قوله وكلوا من رزقه (المسئلة الرابعة) ذكروا في مناكب الارض وجوها (احدها) قال صاحب الكشاف المشي في مناكبها مثل لفرط التذليل لان المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شئ من البعير وابعده من امكان المشي عليه فاذا صار البعير بحيث يمكن المشي على منكبه فقد صار نهاية في الانقياد والطاعة فثبت ان قوله فامشوا في مناكبها كناية عن كونها نهاية في الذلولية (وثانيها) قول قتادة والضحاك وابن عباس ان مناكب الارض جبالها وآكامها وسميت الجبال مناكب لان مناكب الانسان شاخصة والجبال ايضا شاخصة والمعنى اني سهلت عليكم المشي في مناكبها وهي ابعد اجزائها عن التذليل فكيف الحال في سائر اجزائها (وثالثها) ان مناكبها هي الطرق والفجاج والاطراف والجوانب وهو قول الحسن ومجاهد والكلبي ومقاتل ورواية عطاء عن ابن عباس واختيار الفراء وابن قتيبة قال مناكبها جوانبها ومنكبا الرجل جانباه وهو كقوله تعالى والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا اما قوله وكلوا من رزقه اي مما خلقه الله رزقا لكم في الارض واليه النشور يعني ينبغي ان يكون مكثكم في الارض واكلكم من رزق الله مكث من يعلم ان مرجعه الى الله واكل من يتيقن ان مصيره الى الله والمراد تحذيرهم عن الكفر والمعاصي في السر والجهر ثم انه تعالى بين ان بقاءهم مع هذه السلامة في الارض انما كان بفضل الله ورحمته وانه لو شاء لقلب الامر

بهذه المثابة من شمول العلم ولا مساغ لاخلاء العلم عن المفعول باجرائه مجرى يعطي ويمنع على معنى الا يكون عالما من خلق لان الخالق لا يتأتى بدون العلم لخلو الحال حينئذ من الافادة لان نظم الكلام حينئذ الا يكون عالما وهو مبالغ في العلم (هو الذي جعل لكم الارض ذلولا) لينة يسهل عليكم السلوك فيها وتقديم لكم على مفعولي الجعل مع ان حقه التأخر عنهما للاهتمام بما قدم والتشويق الى ما اخر فان ما حقه التقديم اذا اخر لا سيما عند كون المقدم مما يدل على كون المؤخر من منافع المخاطبين تبقى النفس مترقبة لوروده فيتمكن لديها عند ذكره فضل تمكن والفاء في قوله تعالى (فامشوا في مناكبها) لترتيب الامر على الجعل المذكور اي فاسلكوا في جوانبها او جبالها وهو مثل لفرط التذليل فان منكب البعير ارق اعضائه وانباها عن ان يطأه الراكب بقدمه فاذا جعل الارض في الذل بحيث يتأتى المشي في مناكبها لم يبق منها شئ لم يتذلل (وكلوا من رزقه) والتمسوا من نعم الله تعالى (واليه النشور) اي المرجع بعد البعث لا الى غيره فبالغوا في شكر نعمه وآلائه (أأمنتم من في السماء) اي الملائكة الموكلين بتدبير هذا العالم او الله سبحانه على تأويل من في السماء امره وقضاؤه او على زعم العرب حيث كانوا يزعمون انه تعالى في السماء اي أمنتم من تزعمون انه في السماء وهو متعال عن المكان (ان يخسف بكم الارض) بعدما جعلها لكم ذلولا تمشون في مناكبها وتأكلون من رزقه لكفركم انكم تلك النعمة اي يقلبها

عليهم ولا مُطر عليهم من سحاب القهر مطر الآفات ❊ فقال تقريرا لهذا المعنى (أأمنتم من السماء ان يخسف بكم الارض فاذا هى تمور) واعلم ان هذه الآيات نظيرها قوله تعالى قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم وقال فخسفنا به وبداره الارض واعلم ان المشبهة احتجوا على اثبات المكان لله بقوله أأمنتم من فى السماء (والجواب) عنه ان هذه الآية لا يمكن اجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين لان كونه فى السماء يقتضى كون السماء محيطا به من جميع الجوانب فيكون اصغر من السماء والسماء اصغر من العرش بكثير فيلزم ان يكون الله تعالى شيئا حقيرا بالنسبة الى العرش وذلك باتفاق اهل الاسلام محال ولانه تعالى قال قل لمن ما فى السموات والارض قل لله فلو كان الله فى السماء لوجب ان يكون مالكا لنفسه وهذا محال فعلمنا ان هذه الآية يجب صرفها عن ظاهرها الى التأويل ثم فيه وجوه (احدها) لم لا يجوز ان يكون تقدير الآية أأمنتم من فى السماء عذابه وذلك لان عادة الله تعالى جارية بانه انما ينزل البلاء على من يكفر بالله ويعصيه من السماء فالسماء موضع عذابه تعالى كما انه موضع نزول رحمته ونعمته (وثانيها) قال ابو مسلم كانت العرب مقرين بوجود الاله لكنهم كانوا يعتقدون انه فى السماء على وفق قول المشبهة فكأنه تعالى قال لهم أتأمنون من قد اقررتم بانه فى السماء واعترفتم له بالقدرة على ما يشاء ان يخسف بكم الارض (وثالثها) تقدير الآية من فى السماء سلطانه وملكه وقدرته والغرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله وتعظيم قدرته كما قال وهو الله فى السموات وفى الارض فان الشئ الواحد لا يكون دفعة واحدة فى مكانين فوجب ان يكون المراد من كونه فى السموات وفى الارض نفاذ امره وقدرته وجريان مشيئته فى السموات وفى الارض فكذا ههنا (ورابعها) لم لا يجوز ان يكون المراد بقوله من فى السماء هو الملك الموكل بالعذاب وهو جبريل عليه السلام والمعنى ان يخسف بهم الارض بأمر الله واذنه وقوله فاذا هى تمور قالوا معناه ان الله تعالى يحرك الارض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها فيذهبون والارض فوقهم تمور فتلقيهم الى اسفل السافلين وقد ذكرنا تفسير المور فيما تقدم ثم زاد فى التخويف ❊ فقال تعالى (أم أمنتم من فى السماء ان يرسل عليكم حاصبا) قال ابن عباس كما ارسل على قوم لوط فقال انا ارسلنا عليهم حاصبا والحاصب ريح فيها حجارة وحصباء كأنها تقلع الحصباء لشدتها وقوتها وقيل هو سحاب فيها حجارة ثم هدد واوعد ❊ فقال تعالى (فستعلمون كيف نذير) قيل فى النذير ههنا انه المنذر يعنى محمدا عليه الصلاة والسلام وهو قول عطاء عن ابن عباس والضحاك والمعنى فستعلمون رسولى وصدقه لكن حين لا ينفعكم ذلك وقيل انه بمعنى الانذار والمعنى فستعلمون عاقبة انذارى اياكم بالكتاب والرسول وكيف فى قوله كيف نذير ينبئ عما ذكرنا من صدق الرسول وعقوبة الانذار واعلم انه تعالى لما خوف الكفار بهذه التخويفات أكد ذلك التخويف بالمثال

(والبرهان)

ملتبسة بكم فيغيبكم فيها كما فعل بقارون وهو بدل اشتمال من من وقيل هو على حذف الجار اى من ان يخسف (فاذا هى تمور) اى تضطرب ذهابا ومجيئا على خلاف ما كانت عليه من الذل والاطمئنان (ام امنتم من فى السماء) اضراب عن التهديد بما ذكر وانتقال الى التهديد بوجه آخر اى بل أأمنتم من فى السماء (ان يرسل عليكم حاصبا) اى حجارة من السماء كما ارسلها على قوم لوط واصحاب الفيل وقيل ريحا فيها حجارة وحصباء كأنها تقلع الحصباء لشدتها وقوتها وقيل هى سحاب فيها حجارة (فستعلمون) عن قريب البتة (كيف نذير) اى انذارى عند مشاهدتكم للمنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ وقرئ فسيعلمون بالياء (ولقد كذب الذين من قبلهم) اى من قبل كفار مكة من كفار الامم السالفة كقوم نوح وعاد واضرابهم والالتفات الى الغيبة لابراز الاعراض عنهم (فكيف كان نكير) اى انكارى بانزال العذاب اى كان على غاية الهول والفظاعة وهذا هو مورد التأكيد القسمى لا تكذيبهم فقط وفيه من المبالغة فى تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشديد التهديد لقومه ما لا يخفى (اولم يروا) اغفلوا ولم ينظروا (الى الطير فوقهم صافات) باسطات اجنحتهن فى الجو عند طيرانها فانهن اذا بسطنها صففن قوادمها صفا (ويقبضن) ويضممنها اذا ضربن بها جنوبهن حينا فحينا للاستظهار به على التحرك وهو السر فى ايثار يقبضن الدال على تجدد القبض تارة بعد تارة على قابضات

و البرهان اما المثال فهو ان الكفار الذين كانوا قبلهم شاهدوا امثال هذه العقوبات بسبب كفرهم ❊فقال تعالى (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) يعني عاداو ثمود وكفار الامم وفيه وجهان (احدهما) قال الواحدى فكيف كان نكيرى اى انكارى وتغييرى أليس وجدوا العذاب حقا (والثانى) قال ابو مسلم النكير عقاب المنكر ثم قال وانما سقط الياء من نذيرى و من نكيرى حتى تكون مشابهة لرؤس الآى المتقدمة عليها و المتأخرة عنها واما البرهان فهو انه تعالى ذكر مايدل على كمال قدرته و متى ثبت ذلك ثبت كونه تعالى قادرا على ايصال جميع انواع العذاب اليهم وذلك البرهان من وجوه (البرهان الاول) ❊هو قوله تعالى (أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن) صافات اى باسطات اجنحتهن فى الجو عند طيرانها ويقبضن ويضممنها اذا ضربن بها جنوبهن فان قيل لم قال ويقبضن ولم يقل و قابضات قلنا لان الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء والاصل فى السباحة مد الاطراف و بسطها و اما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجئ بما هو طارئ غير اصلى بلفظ الفعل على معنى انهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح ❊ ثم قال تعالى (ما يمسكهن الا الرحمن) وذلك لانها مع ثقلها و ضخامة اجسامها لم يكن بقاؤها فى جو الهواء الا بامساك الله وحفظه و ههنا سؤالان (السؤال الاول) هل تدل هذه الآية على ان الافعال الاختيارية للعبد مخلوقة لله، قلنا نعم وذلك لان استمساك الطير فى الهواء فعل اختيارى للطير ثم انه تعالى قال ما يمسكهن الا الرحمن فدل هذا على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى (السؤال الثانى) انه تعالى قال فى النحل الم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله و قال ههنا ما يمسكهن الا الرحمن فما الفرق قلنا ذكر فى النحل ان الطير مسخرات فى جو السماء فلا جرم كان امساكها هناك محض الالهية و ذكر ههنا انها صافات و قابضات فكان الهامها الى كيفية البسط والقبض على الوجه المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن ❊ ثم قال تعالى (انه بكل شئ بصير) وفيه وجهان (الوجه الاول) المراد من البصير كونه عالما بالاشياء الدقيقة كما يقال فلان له بصر فى هذا الامر اى حذق (والوجه الثانى) ان تجرى اللفظ على ظاهره فنقول انه تعالى شئ والله بكل شئ بصير فيكون رائيا لنفسه ولجميع الموجودات وهذا هو الذى يقوله اصحابنا من انه تعالى يصح ان يكون مرئيا وان كل الموجودات كذلك فان قيل البصير اذا عدى بالباء يكون بمعنى العالم يقال فلان بصير بكذا اذا كان عالما به قلنا لانسلم فانه يقال ان الله سميع بالمسموعات بصير بالمبصرات ❊قوله تعالى (امن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ان الكافرون الا فى غرور) اعلم ان الكافرين كانوا يمتنعون عن الايمان ولا يلتفتون الى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام وكان تعويلهم على شيئين (احدهما) القوة التى كانت حاصلة لهم بسبب مالهم و جندهم (والثانى) انهم كانوا يقولون هذه

(ما يمسكهن) فى الجو عند الصف والقبض على خلاف مقتضى الطبع (الا الرحمن) الواسع رحمته كل شئ بأن برأهن على اشكال وخصائص وهيأهن للجرى فى الهواء والجملة مستأنفة اوحال من الضمير فى يقبضن (انه بكل شئ بصير) يعلم كيفية ابداع المبدعات وتدبير المصنوعات وقوله تعالى (امن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن) تبكيت لهم بنفى ان يكون لهم ناصر غير الله تعالى كما يلوح به التعرض لعنوان الرحمانية ويعضده قوله تعالى ما يمسكهن الا الرحمن اوناصر من عذابه تعالى كما هو الانسب بما سيأتى من قوله تعالى ان امسك رزقه كقوله تعالى ام لهم آلهة تمنعهم من دوننا فى المعنيين معا خلا ان الاستفهام هناك متوجه الى نفس المانع وتحققه و ههنا الى تعيين الناصر لتبكيتهم بأظهار عجزهم عن تعيينه وام منقطعة مقدرة ببل المفيدة للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل فيما يشاهدونه من احوال الطير المنبئة عن تعاجيب آثار قدرة الله عز وجل الى التبكيت بما ذكر والالتفات للتشديد فى ذلك ولا سبيل الى تقدير الهمزة معها لان ما بعدها من الاستفهامية وهى مبتدأ وهذا خبره والموصول مع صلته صفته كما فى قوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده وايثار هذا التحقير المشار اليه وينصركم صفة لجند باعتبار لفظه ومن دون الرحمن على الوجه الاول اما حال من فاعل ينصركم او نعت لمصدره وعلى الثانى متعلق بينصركم كما فى قوله تعالى من ينصرنى من الله فالمعنى بل من هذا الحقير الذى هو

الاوثان توصل الينا جميع الخيرات وتدفع عنا كل الآفات وقد ابطل الله عليهم كل واحد من هذين الوجهين اما الاول فبقوله أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن وهذا نسق على قوله ام أمنتم من فى السماء والمعنى ام من يشار اليه من المجموع ويقال هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الله ان ارسل عذابه عليكم ثم قال ان الكافرون الا فى غرور اى من الشيطان يغرهم بان العذاب لاينزل بهم واما الثانى ❁ فهو قوله تعالى (أمن هذا الذى يرزقكم ان امسك رزقه) والمعنى من الذى يرزقكم من آلهتكم ان امسك الله الرزق عنكم وهذا ايضا مما لاينكره ذو عقل وهو انه تعالى لو امسك اسباب الرزق كالمطر والنبات وغيرهما لما وجد رازق سواه فعند وضوح هذا الامر ❁ قال تعالى (بل لجوا فى عتو ونفور) والمراد اصروا وتشددوا مع وضوح الحق فى عتو اى فى تمرد وتكبر ونفور اى تباعد عن الحق واعراض عنه فالعتو بسبب حرصهم على الدنيا وهو اشارة الى فساد القوة العملية والنفور بسبب جهلهم وهذا اشارة الى فساد القوة النظرية واعلم انه تعالى لما وصفهم بالعتو والنفور نبه على مايدل على قبح هذين الوصفين ❁ فقال تعالى (أفمن يمشى مكبا على وجهه اهدى امن يمشى سويا على صراط مستقيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى اكب مطاوع كبه يقال كببته فأكب ونظيره قشعت الريح السحاب فأقشع قال صاحب الكشاف ليس الامر كذلك وماجاء شئ من بناء افعل مطاوعا بل قولك اكب معناه دخل فى الكب وصار ذا كب وكذلك اقشع السحاب دخل فى القشع وانفض اى دخل فى النفض وهو نفض الوعاء فصار عبارة عن الفقر وألام دخل فى اللوم واما مطاوع كب وقشع فهو انكب وانقشع (المسئلة الثانية) ذكروا فى تفسير قوله يمشى مكبا على وجهه وجوها (احدها) معناه ان الذى يمشى فى مكان غير مستو بل فيه ارتفاع وانخفاض فيعثر كل ساعة ويخر على وجهه مكبا فحاله نقيض حال من يمشى سويا اى قائما سالما من العثور والخرور (وثانيها) ان المتعسف الذى يمشى هكذا وهكذا على الجهالة والحيرة لايكون كمن يمشى الى جهة معلومة مع العلم واليقين (وثالثها) ان الاعمى الذى لا يهتدى الى الطريق فيتعسف ولايزال ينكب على وجهه لايكون كالرجل السوى الصحيح البصر الماشى فى الطريق المعلوم ثم اختلفوا فمنهم من قال هذا حكاية حال الكافر فى الآخرة قال قتادة الكافر اكب على معاصى الله فحشره الله يوم القيامة على وجهه والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره الله تعالى على الطريق السوى يوم القيامة وقال آخرون بل هذا حكاية حال المؤمن والكافر والعالم والجاهل فى الدنيا واختلفوا ايضا فمنهم من قال هذا عام فى حق جميع المؤمنين والكفار ومنهم من قال بل المراد منه شخص معين فقال مقاتل المراد ابوجهل والنبى عليه الصلاة والسلام وقال عطاء عن ابن عباس المراد ابوجهل وحمزة بن عبد المطلب وقال عكرمة هو ابوجهل وعمار بن ياسر (البرهان الثانى) على كمال قدرته ❁ قوله

(تعالى)

فى زعمكم جند لكم ينصركم متجاوزا نصر الرحمن او ينصركم نصرا كائنا من دون نصره تعالى او ينصركم من عذاب كائن من عند الله عز وجل وتوهم ان أم معادلة لقوله تعالى اولم يروا الخ مع القول بأن من استفهامية مما لاتقريب له اصلا وقوله تعالى (ان الكافرون الا فى غرور) اعتراض مقرر لما قبله ناع عليهم ماهم فيه من غاية الضلال اى ماهم فى زعمهم انهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم لا بحفظه تعالى فقط او ان آلهتهم تحفظهم من بأس الله الا فى غرور عظيم وضلال فاحش من جهة الشيطان ليس لهم فى ذلك شئ يعتد به فى الجملة والالتفات الى الغيبة للايذان بأقتضاء حالهم للاعراض عنهم وبيان قبائحهم لغيرهم والاظهار فى موقع الاضمار لذمهم بالكفر وتعليل غرورهم به والكلام فى قوله تعالى (امن هذا الذى يرزقكم ان أمسك) اى الله عز وجل (رزقه) بأمساك المطر وسائر مباديه كالذى مر تفصيله خلا ان قوله تعالى (بل لجوا فى عتو ونفور) منبئ عن مقدر يستدعيه المقام كأنه قيل اثر تمام التبكيت والتعجيز لم يتأثروا بذلك ولم يذعنوا للحق بل لجوا وتمادوا فى عتو اى عناد واستكبار وطغيان ونفور اى شراد عن الحق وقوله تعالى (أفمن يمشى مكبا على وجهه اهدى) الخ مثل ضرب للمشرك والموحد توضيحا لحاليهما وتحقيقا لشأن مذهبيهما والفاء لترتيب ذلك على ماظهر من سوء حالهم وخرورهم فى مهاوى الغرور وركوبهم متن عشواء العتو والنفور وعدم

تعالى (قل هو الذى انشأ كم وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون) اعلم انه تعالى لما اورد البرهان اولا من حال سائر الحيوانات وهو وقوف الطير فى الهواء اورد البرهان بعده من احوال الناس وهو هذه الآية وذكر من عجائب ما فيه حال السمع والبصر والفؤاد ولقد تقدم شرح احوال هذه الامور الثلاثة فى هذا الكتاب مرارا فلا فائدة فى الاعادة واعلم ان فى ذكرها ههنا تنبيها على دقيقة لطيفة كأنه تعالى قال أعطيتكم هذه الاعطاآت الثلاثة مع ما فيها من القوى الشريفة لكنكم ضيعتموها فلم تقبلوا ما سمعتموه ولا اعتبرتم بما ابصرتموه ولا تأملتم فى عاقبة ما عقلتموه فكأنكم ضيعتم هذه النعم وافسدتم هذه المواهب فلهذا قال قليلا ماتشكرون وذلك لان شكر نعمة الله تعالى هو ان يصرف تلك النعمة الى وجه رضاه وانتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل لا الى طلب مرضاته فأنتم ماشكرتم نعمته البتة ※ (البرهان الثالث) قوله تعالى (قل هو الذى ذرأكم فى الارض واليه تحشرون) اعلم انه تعالى استدل بأحوال الحيوانات اولا ثم بصفات الانسان ثانيا وهى السمع والبصر والعقل ثم بحدوث ذاته ثالثا وهو قوله هو الذى ذرأكم فى الارض واحتج المتكلمون بهذه الآية على ان الانسان ليس هو الجوهر المجرد عن التحيز والكمية على ما يقوله الفلاسفة وجماعة من المسلمين لانه قال قل هو الذى ذرأكم فى الارض فبين انه ذرأ الانسان فى الارض وهذا يقتضى كون الانسان متحيزا جسما واعلم ان الشروع فى هذه الدلائل انما كان لبيان صحة الحشر والنشر ليثبت ما ادعاه من الابتلاء فى قوله ليبلوكم ايكم احسن عملا وهو العزيز الغفور ثم لاجل اثبات هذا المطلوب ذكر وجوها من الدلائل على كمال قدرته ثم ختمها بقوله قل هو الذى ذرأكم فى الارض ولما كانت القدرة على الخلق ابتداء توجب القدرة على الاعادة لاجرم قال بعده واليه تحشرون فبين بهذا ان جميع ما تقدم ذكره من الدلائل انما كان لاثبات هذا المطلوب ※ واعلم انه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بان يخوفهم بعذاب الله حكى عن الكفار شيئين (احدهما) انهم طالبوه بتعيين الوقت وهو قوله تعالى (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابو مسلم انه تعالى قال ويقولون بلفظ المستقبل فهذا يحتمل ما يوجد من الكفار من هذا القول فى المستقبل ويحتمل الماضى والتقدير فكانوا يقولون متى هذا الوعد (المسئلة الثانية) لعلهم كانوا يقولون ذلك على سبيل السخرية ولعلهم كانوا يقولونها ايهاما للضعفة انه لما لم يتعجل فلا اصل له (المسئلة الثالثة) الوعد المسؤل عنه ما هو فيه وجهان (احدهما) انه القيامة (والثانى) انه مطلق العذاب وفائدة هذا الاختلاف تظهر بعد ذلك ان شاء الله ※ ثم اجاب الله عن هذا السؤال بقوله تعالى (قل انما العلم عند الله وانما انا نذير مبين)والمراد ان العلم بالوقوع غير العلم بوقت الوقوع فالعلم الاول حاصل عندى وهو كاف فى الانذار والتحذير اما العلم الثانى فليس الا الله ولا حاجة فى كونى نذيرا مبينا اليه ※ ثم انه تعالى بين

اهتدائهم فى مسالك المحاجة الى جهة ينوهم فيها ارشد فى الجملة فان تقدم الهمزة عليها صورة انما هو لاقتضائها الصدارة واما بحسب المعنى فالامر بالعكس كما هو المشهور حتى لو كان مكان الهمزة هل لقيل فهل من يمشى مكبا الخ والمكب الساقط على وجهه يقال خر على وجهه وحقيقته صار ذا كب ودخل فى الكب كأقشع الغمام اى صار ذا قشع والمعنى افمن يمشى وهو يعثر فى كل ساعة ويخر على وجهه فى كل خطوة لتوعر طريقه واختلال قواه اهدى الى المقصد الذى يؤمه (امن يمشى سويا) اى قائما سالما من الخبط والعثار (على صراط مستقيم) مستوى الاجزاء لاعوج فيه ولا انحراف قيل خبر من الثانية محذوف لدلالة خبر الاولى عليه ولا حاجة الى ذلك فان الثانية معطوفة على الاولى عطف المفرد على المفرد كقولك ازيد افضل ام عمرو وقيل اريد بالمكب الاعمى وبالسوى البصير وقيل من يمشى مكبا هو الذى يحشر على وجهه الى النار ومن يمشى سويا الذى يحشر على قدميه الى الجنة (قل هو الذى انشأ كم) انشاء بديعا (وجعل لكم السمع) لتسمعوا آيات الله وتمتثلوا بما فيها من الاوامر والنواهى وتتعظوا بمواعظها (والابصار) لتنظروا بها الى الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله عز وجل (والافئدة) لتتفكروا بها فيما تسمعونه وتشاهدونه من الآيات التنزيلية والتكوينية وترتقوا فى معارج الايمان والطاعة (قليلا ما تشكرون) اى باستعمالها فيما خلقت لاجله من الامور المذكورة وقليلا نعت لمحذوف وما مزيدة لتأكيد القلة اى شكرا

حالهم عندنزول ذلك الوعد فقال تعالى (فلمارأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله فلمارأوه الضمير للوعد والزلفة القرب والتقدير فلما رأوه قربا ويحتمل انه لمااشتد قربه جعل كأنه نفس القرب وقال الحسن معاينة وهذا معنى وليس بتفسير وذلك لان ماقرب من الانسان رآه معاينة (المسئلة الثانية) قوله سيئت وجوه الذين كفروا قال ابن عباس اسودت وعلتها الكآبة والقترة وقال الزجاج تبين فيها السوء واصل السوء القبح والسيئة ضد الحسنة يقال ساء الشئ يسوء فهوسئ اذاقبح وسئ يساء اذاقبح وهوفعل لازم ومتعد فمعنى سيئت وجوههم قبحت بان علتها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة وكلحوا وصارت وجوههم كوجه من يقاد الى القتل (المسئلة الثالثة) اعلم ان قوله فلمارأوه زلفة اخبار عن الماضى فمن حمل الوعد فى قوله ويقولون متى هذا الوعد على مطلق العذاب سهل تفسير الآية على قوله فلهذا قال ابومسلم فى قوله فلمارأوه زلفة يعنى انه لما أتاهم عذاب الله المهلك لهم كالذى نزل بعاد وثمود سيئت وجوههم عندقربه منهم وامامن فسر ذلك الوعد بالقيامة كان قوله فلمارأوه زلفة معناه فتى مارأوه زلفة وذلك لان قوله فلمارأوه زلفة اخبار عن الماضى واحوال القيامة مستقبلة لاماضية فوجب تفسير اللفظ بماقلناه قال مقاتل فلمارأوه زلفة اى لمارأوا العذاب فى الآخرة قريبا ※ واماقوله تعالى (وقيل هذا الذى كنتم به تدعون) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم القائلون هم الزبانية وقال آخرون بل يقول بعضهم لبعض ذلك (المسئلة الثانية) فى قوله تدعون وجوه (احدها) قال الفراء يريد تدعون من الدعاء اى تطلبون وتستعجلون به وتدعون وتدعون واحد فى اللغة مثل تذكرون وتذكرون وتدخرون وتدخرون (وثانيها) انه من الدعوى معناه هذا الذى كنتم تبطلونه اى تدعون انه باطل لايأتيكم اوهذا الذى كنتم بسببه تدعون انكم لاتبعثون (وثالثها) ان يكون هذا استفهاما على سبيل الانكار والمعنى أهذا الذى تدعون لابل كنتم تدعون عدمه (المسئلة الثالثة) قرأ يعقوب الحضرمى تدعون خفيفة من الدعاء وقرأ السبعة تدعون مثقلة من الادعاء ※ قوله تعالى (قل أرأيتم ان اهلكنى الله ومن معى اورحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب اليم) اعلم ان هذا هوالجواب عن النوع الثانى مماقاله الكفار لمحمد صلى الله عليه وسلم حين خوفهم بعذاب الله يروى ان كفار مكة كانوايدعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك كماقال تعالى ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون وقال بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم ابدا ثم انه تعالى اجاب عن ذلك من وجهين (الوجه الاول) هوهذه الآية والمعنى قل لهم ان الله تعالى سواء اهلكنى بالاماتة أورحمنى بتأخير الاجل فأى راحة لكم فى ذلك واى منفعة لكم فيه ومن الذى يجيركم من عذاب الله اذانزل بكم أتظنون ان الاصنام تجيركم اوغيرها فاذاعلمتم ان لامجير لكم فهلا

(تمسكتم)

قليلا اوزماناقليلا تشكرون وقيل القلة عبارة عن العدم (قل هو الذى ذرأكم فى الارض) اى خلقكم وكثركم فيها لاغيره (واليه تحشرون) للجزاء لاالى غيره اشتراكا او استقلالا فابنوا اموركم على ذلك (ويقولون) من فرط عتوهم وعنادهم (متى هذا الوعد) اى الحشر الموعود كما ينبئ عنه قوله تعالى واليه تحشرون (ان كنتم صادقين) يخاطبون به النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من حيث كانوا مشاركين له عليه الصلاة والسلام فى الوعد وتلاوة الآيات المتضمنة له وجواب الشرط محذوف اى ان كنتم صادقين فيما تخبرونه من مجئ الساعة والحشر فبينوا وقته (قل انما العلم) اى العلم بوقته (عند الله) عزوجل لايطلع عليه غيره كقوله تعالى قل انما علمها عند ربى (وانما انا نذير مبين) انذركم وقوع الموعود لامحالة واما العلم بوقت وقوعه فليس من وظائف الانذار والفاء فى قوله تعالى (فلما رأوه) فصيحة معربة عن تقدير جملتين وترتيب الشرطية عليهما كأنه قيل وقد أتاهم الموعود فرأوه فلمارأوه الى آخره كما مر تحقيقه فى قوله تعالى فلمارآه مستقرا عنده الاان المقدر هنالك امر واقع مرتب على ماقبله بالفاء وهنا امر منزل منزلة الواقع وارد على طريقة الاستئناف وقوله تعالى (زلفة) حال من مفعول رأوا اما بتقدير المضاف اى ذازلفة وقرب اوعلى انه مصدر بمعنى الفاعل اى مزدلفا اوعلى انه مصدر نعت به مبالغة اوظرف اى رأوه فى مكان ذى زلفة (سيئت وجوه الذين كفروا) بأن غشيتها الكآبة ورهقها القتر والذلة ووضع

تمسكتم بما يخلصكم من العذاب وهو العلم بالتوحيد والنبوة والبعث (الوجه الثانى) فى الجواب * قوله تعالى (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين) والمعنى انه الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فيعلم انه لا يقبل دعاءكم وانتم اهل الكفر والعناد فى حقنا مع انا آمنا به وعليه توكلنا فان قيل لم لم يقل آمنا به وتوكلنا عليه او به آمنا وعليه توكلنا قلنا لان التقدير آمنا به ولم نكفر به كما كفرتم ثم قال وعليه توكلنا لا على غيره كما فعلتم انتم حيث توكلتم على رجالكم واموالكم وقرئ فستعلمون على المخاطبة وقرئ بالياء ليكون على وفق قوله فمن يجير الكافرين * واعلم انه لما ذكر انه يجب ان يتوكل عليه لا على غيره ذكر الدليل عليه فقال تعالى (قل أرأيتم ان اصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين) والمقصود ان يجعلهم مقرين ببعض نعمه ليريهم قبح ماهم عليه من الكفر اى اخبرونى ان صار ماؤكم ذاهبا فى الارض فمن يأتيكم بماء معين فلابد وان يقولوا هو الله فيقال لهم حينئذ فلم تجعلون من لا يقدر على شئ اصلا شريكا له فى المعبودية وهو كقوله أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون وقوله غورا اى غائرا ذاهبا فى الارض يقال غار الماء يغور غورا اذا نضب وذهب فى الارض والغور ههنا بمعنى الغائر سمى بالمصدر كما يقال رجل عدل ورضا والمعين الظاهر الذى تراه العيون فهو مفعول من العين كمبيع من البيع وقيل المعين الجارى من العيون من الامعان فى الجرى كأنه قيل ممعن فى الجرى والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(سورة القلم وهى اثنتان وخمسون آية مكية)
(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ن) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الاقوال المذكورة فى هذا الجنس قد شرحناها فى اول سورة البقرة والوجوه الزائدة التى يختص بها هذا الموضع (اولها) ان النون هو السمكة ومنه فى ذكر يونس وذا النون وهذا القول مروى عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل والسدى ثم القائلون بهذا منهم من قال انه قسم بالحوت الذى على ظهره الارض وهو فى بحر تحت الارض السفلى ومنهم من قال انه قسم بالحوت الذى احتبس يونس عليه السلام فى بطنه ومنهم من قال انه قسم بالحوت الذى لطخ سهم نمروذ بدمه (والقول الثانى) وهو ايضا مروى عن ابن عباس واختيار الضحاك والحسن وقتادة ان النون هو الدواة ومنه قول الشاعر

اذا ما الشوق يرجع بى اليهم * ألقت النون بالدمع السجوم

فيكون هذا قسما بالدواة والقلم فان المنفعة بهما بسبب الكتابة عظيمة فان التفاهم تارة يحصل بالنطق واخرى بالكتابة (والقول الثالث) ان النون لوح من نور تكتب الملائكة ما يأمرهم الله به فيه رواه معاوية بن قرة مرفوعا (والقول الرابع) ان النون هو المداد الذى تكتب الملائكة واعلم ان هذه الوجوه ضعيفة لانا اذا جعلناه مقسما به وجب ان

الموصول موضع ضميرهم لذمهم بالكفر وتعليل المساءة به (وقيل) توبيخالهم وتشديد العذاب بهم (هذا الذى كنتم به تدعون) اى تطلبونه فى الدنيا وتستعجلونه انكارا واستهزاء على انه تفتعلون من الدعاء وقيل هو من الدعوى اى تدعون ان لا بعث ولا حشر وقرئ تدعون هذا وقد روى عن مجاهد ان الموعود عذاب يوم بدر وهو بعيد (قل ارايتم) اى اخبرونى (ان اهلكنى الله) اى اماتنى والتعبير عنه بالاهلاك لما كانوا يدعون عليه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك (ومن معى) من المؤمنين (اورحمنا) بتأخير آجالنا فنحن فى جوار رحمته متربصون لاحدى الحسنيين (فمن يجير الكافرين من عذاب اليم) اى لا ينجيكم منه احد متنا او بقينا ووضع الكافرين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر وتعليل نفى الانجاء به (قل هو الرحمن) اى الذى ادعوكم الى عبادته مولى النعم كلها (آمنا به) وحده لما علمنا ان كل ما سواه اما نعمة او منعم عليه (وعليه توكلنا) لا على غيره اصلا لعلمنا بأن ماعداه كائنا ما كان بمعزل من النفع والضر (فستعلمون) عن قريب البتة (من هو فى ضلال مبين) منا ومنكم وقرئ فسيعلمون بالياء التحتانية (قل أرأيتم) اى أخبرونى (ان اصبح ماؤكم غورا) اى غائرا فى الارض بالكلية وقيل بحيث لا تناله الدلاء وهو مصدر وصف به (فمن يأتيكم بماء معين) جار او ظاهر سهل المأخذ * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الملك فكأنه احيى ليلة القدر * (سورة ن مكية وآيها ثنتان) (وخمسون) *

كان جنسا ان نجره وننونه فان القسم على هذا التقدير يكون بدواة منكرة او بسمكة منكرة كأنه قيل وسمكة والقلم اوقيل ودواة والقلم وان كان علما ان نصرفه ونجره اولا نصرفه ونفتحه ان جعلته غير منصرف (والقول الخامس) ان نون ههنا آخر حروف الرحمن فانه يجتمع من الر حم ن اسم الرحمن فذكر الله هذا الحرف الاخير من هذا الاسم والمقصود القسم بتمام هذا الاسم وهذا ايضا ضعيف لان تجويزه يفتح باب ترهات الباطنية بل الحق ههنا انه اما ان يكون اسما للسورة او يكون الغرض منه التحدى او سائر الوجوه المذكورة فى اول سورة البقرة (المسئلة الثانية) القراء مختلفون فى اظهار النون واخفائه من قوله ن والقلم فمن اظهرها فلأنه ينوى بها الوقف بدلالة اجتماع الساكنين فيها واذا كانت موقوفة كانت فى تقدير الانفصال مما بعدها واذا انفصلت مما بعدها وجب التبيين لانها انما تخفى فى حروف الفم عند الاتصال ووجه الاخفاء ان همزة الوصل لم تقطع مع هذه الحروف فى نحو الم الله وقولهم فى العدد واحد اثنان فمن حيث لم تقطع الهمزة معها علمنا انها فى تقدير الوصل واذا وصلتها اخفيت النون وقد ذكرنا هذه فى طس ويس قال الفراء واظهارها اعجب الى لانها هجاء والهجاء كالموقوف عليه وان اتصل * وقوله تعالى (والقلم) فيه قولان (احدهما) ان المقسم به هو هذا الجنس وهو واقع على كل قلم يكتب به من فى السماء ومن فى الارض قال تعالى وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم فمن بتيسير الكتابة بالقلم كما من بالنطق فقال خلق الانسان علمه البيان ووجه الانتفاع به انه ينزل الغائب منزلة المخاطب فيتمكن المرء من تعريف البعيد به ما يتمكن باللسان من تعريف القريب (والثانى) ان المقسم به هو القلم المعهود الذى جاء فى الخبر ان اول ماخلق الله القلم قال ابن عباس اول ماخلق الله القلم ثم قال له اكتب ماهو كائن الى ان تقوم الساعة فجرى بما هو كائن الى ان تقوم الساعة من الآجال والاعمال قال وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والارض وروى مجاهد عنه قال ان اول ماخلق الله القلم فقال اكتب القدر فكتب ماهو كائن الى يوم القيامة وانما يجرى الناس على امر قد فرغ منه قال القاضى هذا الخبر يجب حمله على المجاز لان القلم الذى هو آلة مخصوصة فى الكتابة لا يجوز ان يكون حيا عاقلا فيؤمر وينهى فان الجمع بين كونه حيوانا مكلفا وبين كونه آلة للكتابة محال بل المراد منه انه تعالى اجراه بكل ما يكون وهو كقوله اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون فانه ليس هناك امر ولا تكليف بل هو مجرد نفاذ القدرة فى المقدور من غير منازعة ولا مدافعة ومن الناس من زعم ان القلم المذكور ههنا هو العقل وانه شئ هو كالاصل لجميع المخلوقات قالوا والدليل عليه انه روى فى الاخبار ان اول ماخلق الله القلم وفى خبر آخر اول ماخلق الله العقل وفى خبر آخر اول ماخلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فذابت وتسخنت فارتفع منها دخان وزبد فخلق من الدخان السموات ومن الزبد الارض قالوا فهذه الاخبار بمجموعها تدل على ان القلم والعقل وتلك

(الجوهرة)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(ن) بالسكون على الوقف وقرئ بالكسر وبالفتح لالتقاء الساكنين ويجوز ان يكون الفتح باضمار حرف القسم فى موضع الجر كقولهم الله لافعلن بالجر وان يكون ذلك نصبا باضمار اذكر لا فتحا كما سبق فى فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث على انه علم للسورة ثم ان جعل اسما للحرف مسرودا على نمط التعديد للتحدى باحد الطريقين المذكورين فى موقعه او اسما للسورة منصوبا على الوجه المذكور او مرفوعا على انه خبر لمبتدأ محذوف فالواو فى قوله تعالى (والقلم) للقسم وان جعل مقسما به فهى للعطف عليه وايا ما كان فان اريد به قلم اللوح والكرام الكاتبين فاستحقاقه للاعظام بالاقسام به ظاهر وان اريد به الجنس فاستحقاق ما فى ايدى الناس لذلك لكثرة منافعه ولو لم يكن له مزية سوى كونه آلة لتحرير كتب الله عز قائلا لكفى به فضلا موجبا لتعظيمه وقرئ بادغام النون فى الواو (وما يسطرون) الضمير لاصحاب القلم المدلول عليهم بذكره وقيل للقلم على ان المراد به اصحابه كأنه قيل واصحاب القلم ومسطوراتهم على ان ما موصولة او وسطرهم على انها مصدرية وقيل للقلم نفسه باسناد الفعل الى الآلة واجرائه مجرى العقلاء لاقامته مقامهم وقيل المراد بالقلم ماخط اللوح خاصة والجمع للتعظيم وقوله تعالى (ما انت بنعمة ربك بمجنون) جواب القسم والباء متعلقة بمضمر هو حال من الضمير فى خبرها والعامل فيها معنى النفى كأنه

الجوهرة التى هى اصل المخلوقات شئ واحد والاحصل التناقض ❊ قوله تعالى (وما يسطرون) اعلم ان ماسع مابعدها فى تقدير المصدر فيحتمل ان يكون المراد وسطرهم فيكون القسم واقعا بنفس الكتابة ويحتمل ان يكون المراد به المسطور والمكتوب وعلى التقديرين فان حملنا القلم على كل قلم فى مخلوقات الله كان المعنى ظاهرا وكأنه تعالى اقسم بكل قلم وبكل ما يكتب بكل قلم وقيل بل المراد ما يسطره الحفظة والكرام الكاتبون ويجوز ان يراد بالقلم اصحابه فيكون الضمير فى يسطرون لهم كأنه قيل واصحاب القلم وسطرهم اى ومسطوراتهم واما ان حملنا القلم على ذلك القلم المعين فيحتمل ان يكون المراد بقوله وما يسطرون اى وما يسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ ولفظ الجمع فى قوله يسطرون ليس المراد منه الجمع بل التعظيم او يكون المراد تلك الاشياء التى سطرت فيه من الاعمال والاعمار وجميع الامور الكائنة الى يوم القيامة واعلم انه تعالى لما ذكر المقسم به اتبعه بذكر المقسم عليه ❊ فقال تعالى (ماأنت بنعمة ربك بمجنون وان لك لأجرا غير ممنون وانك لعلى خلق عظيم) اعلم ان قوله ماانت بنعمة ربك بمجنون فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) روى عن ابن عباس انه عليه السلام غاب عن خديجة الى حراء فطلبته فلم تجده فاذابه وجهه متغير بلا غبار فقالت له مالك فذكر نزول جبريل عليه السلام وانه قال له اقرأ باسم ربك فهو اول مانزل من القرآن قال ثم نزل بى الى قرار الارض فتوضأ وتوضأت ثم صلى وصليت معه ركعتين وقال هكذا الصلاة يامحمد فذكر عليه الصلاة والسلام ذلك لخديجة فذهبت خديجة الى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان قد خالف دين قومه ودخل فى النصرانية فسألته فقال ارسلى الى محمدا فأرسلته فأتاه فقال له هل أمرك جبريل عليه السلام ان تدعو الى الله احدا فقال لا فقال والله لئن بقيت الى دعوتك لأنصرنك نصرا عزيزا ثم مات قبل دعاء الرسول ووقعت تلك الواقعة فى ألسنة كفار قريش فقالوا انه لمجنون فأقسم الله تعالى على انه ليس بمجنون وهو خمس آيات من اول هذه السورة ثم قال ابن عباس واول مانزل قوله سبح اسم ربك وهذه الآية هى الثانية (المسئلة الثانية) قال الزجاج انت هو اسم ما وبمجنون الخبر وقوله بنعمة ربك كلام وقع فى البين والمعنى انتفى عنك الجنون بنعمة ربك كما يقال انت بحمد الله عاقل وانت بحمد الله لست بمجنون وانت بنعمة الله فهم وانت بنعمة الله لست بفقير ومعناه ان تلك الصفة المحمودة انما حصلت والصفة المذمومة انما زالت بواسطة انعام الله ولطفه واكرامه وقال عطاء وابن عباس يريد بنعمة ربك عليك بالايمان والنبوة وهو جواب لقولهم يأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون واعلم انه تعالى وصفه ههنا بثلاثة أنواع من الصفات (الصفة الاولى) نفى الجنون عنه ثم انه تعالى قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها وذلك لان قوله بنعمة ربك يدل على ان نعم الله تعالى كانت ظاهرة فى حقه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية والبراءة عن كل عيب والاتصاف بكل مكرمة واذا كانت هذه النعم

قيل انت برئ من الجنون ملتبسا بنعمة الله التى هى النبوة والرياسة العامة والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ الى معارج الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه عليه الصلاة والسلام والايذان بأنه تعالى يتم نعمته عليه ويبلغه من العلو الى غاية لاغاية وراءها والمراد تنزيهه عليه الصلاة والسلام عما كانوا ينسبونه عليه الصلاة والسلام اليه من الجنون حسدا وعداوة ومكابرة مع جزمهم بانه عليه الصلاة والسلام فى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية من حصانة العقل ورزانة الرأى (وان لك) بمقابلة مقاساتك الوان الشدائد من جهتهم وتحملك لأعباء الرسالة (لأجرا) لثوابا عظيما لايقادر قدره (غير ممنون) مع عظمه كقوله تعالى عطاء غير مجذوذ اوغير ممنون عليك من جهة الناس فانه عطاؤه تعالى بلاتوسط (وانك لعلى خلق عظيم) لايدرك شأوه احد من الخلق ولذلك تحتمل من جهتهم مالايكاد يحتمله البشر وسئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه عليه الصلاة والسلام فقالت كان خلقه القرآن ألست تقرأ القرآن قد افلح المؤمنون والجملتان معطوفتان على جواب القسم (فستبصر ويبصرون) قال ابن عباس رضى الله عنهما فستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتبين الحق

محسوسة ظاهرة فوجودها ينافي حصول الجنون فالله تعالى نبه على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين في قولهم له انه مجنون (الصفة الثانية) قوله وان لك لاجرا غير ممنون وفي الممنون قولان (احدهما) وهو قول الاكثرين ان المعنى غير منقوص ولا مقطوع يقال منه السير اى اضعفه والمنين الضعيف ومن الشئ اذا قطعه ومنه قول لبيد * عبس كواسب ما يمن طعامها * يصف كلابا ضارية ونظيره قوله تعالى عطاء غير مجذوذ (والقول الثاني) وهو قول مجاهد ومقاتل والكلبي انه غير مكدر عليك بسبب المنة قالت المعتزلة في تقرير هذا الوجه انه غير ممنون عليك لانه ثواب تستوجبه على عملك وليس بتفضل ابتداء والقول الاول اشبه لان وصفه بأنه اجر يفيد انه لا منة فيه فالحمل على هذا الوجه يكون كالتكرير ثم اختلفوا في ان هذا الاجر على اى شئ حصل قال قوم معناه ان لك على احتمال هذا الطعن والقول القبيح اجرا عظيما دائما وقال آخرون المراد ان لك في اظهار النبوة والمعجزات في دعاء الخلق الى الله وفي بيان الشرع لهم هذا الاجر الخالص الدائم فلا تمنعك نسبتهم اياك الى الجنون عن الاشتغال بهذا المهم العظيم فان لك بسببه المنزلة العالية عند الله (الصفة الثالثة) قوله تعالى وانك لعلى خلق عظيم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان هذا كالتفسير لما تقدم من قوله بنعمة ربك وتعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كذب وخطأ وذلك لان الاخلاق الحميدة والافعال المرضية كانت ظاهرة منه ومن كان موصوفا بتلك الاخلاق والافعال لم يجز اضافة الجنون اليه لان اخلاق المجانين سيئة ولما كانت اخلاقه الحميدة كاملة لا جرم وصفها الله بأنها عظيمة ولهذا قال قل لا اسألكم عليه اجرا وما انا من المتكلفين اى لست متكلفا فيما يظهر لكم من اخلاقي لان المتكلف لا يدوم امره طويلا بل يرجع الى الطبع وقال آخرون انما وصف خلقه بأنه عظيم وذلك لانه تعالى قال له اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وهذا الهدى الذي أمر الله تعالى محمدا بالاقتداء به ليس هو معرفة الله لان ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول وليس هو الشرائع لان شريعته مخالفة لشرائعهم فتعين ان يكون المراد منه امره عليه الصلاة والسلام بان يقتدي بكل واحد من الانبياء المتقدمين فيما اختص به من الخلق الكريم فكان كل واحد منهم كان مختصا بنوع واحد فلما أمر محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكل فكأنه أمر بمجموع ما كان متفرقا فيهم ولما كان ذلك درجة عالية لم تتيسر لأحد من الانبياء قبله لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم وفيه دقيقة اخرى وهي قوله لعلى خلق عظيم وكلمة على للاستعلاء فدل اللفظ على انه مستعل على هذه الاخلاق ومستول عليها وانه بالنسبة الى هذه الاخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة الى العبد وكالامير بالنسبة الى المأمور (المسئلة الثانية) الخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الاتيان بالافعال الجميلة واعلم ان الاتيان بالافعال الجميلة غير وسهولة الاتيان بها غير فالحالة التي باعتبارها تحصل تلك السهولة هي الخلق ويدخل في حسن الخلق التحرز من الشح

(والبخل)

من الباطل وقيل فستبصر ويبصرون في الدنيا بظهور عاقبة امركم بغلبة الاسلام واستيلائك عليهم بالقتل والنهب وصيرورتك مهيبا معظما في قلوب العالمين وكونهم اذلة صاغرين قال مقاتل هذا وعيد بعذاب يوم بدر (بأيكم المفتون) اى ايكم الذي فتن بالجنون والباء مزيدة او بأيكم الجنون على ان المفتون مصدر كالمعقول والمجلود اوباى الفريقين منكم الجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين اى في ايهما يوجد من يستحق هذا الاسم وهو تعريض بأبي جهل ابن هشام والوليد بن المغيرة واضرابهما كقوله تعالى سيعلمون غدا من الكذاب الاشر قوله تعالى (ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله) تعليل لما ينبئ عنه ماقبله من ظهور جنونهم بحيث لا يخفى على احد وتأكيد لما فيه من الوعد والوعيد اى هو اعلم بمن ضل عن سبيله تعالى المؤدي الى سعادة الدارين وهام في تيه الضلال متوجها الى ما يفضيه الى الشقاوة الابدية وهذا هو المجنون الذي لا يفرق بين النفع والضرر بل يحسب الضرر نفعا فيؤثره والنفع ضررا فيهجره (وهو اعلم بالمهتدين) الى سبيله الفائزين بكل مطلوب الناجين عن كل محذور وهم العقلاء المراجيح فيجزي كلا من الفريقين حسبما يستحقه من العقاب والثواب واعادة هو اعلم لزيادة التقرير والفاء

والبخل والغضب والتشدد فى المعاملات والتحبب الى الناس بالقول والفعل وترك التقاطع والهجران والتساهل فى العقود كالبيع وغيره والتسمح بما يلزم من حقوق من له نسب او كان صهراله وحصل له حق آخر وروى عن ابن عباس انه قال معناه وانك لعلى دين عظيم وروى ان الله تعالى قال له لم اخلق دينا احب الى ولا ارضى عندى من هذا الدين الذى اصطفيته لك ولامتك يعنى الاسلام واعلم ان هذا القول ضعيف وذلك لان الانسان له قوتان قوة نظرية وقوة عملية والدين يرجع الى كمال القوة النظرية والخلق يرجع الى كمال القوة العملية فلا يمكن حمل احدهما على الآخر ويمكن ايضا ان يجاب عن هذا السؤال من وجهين (الوجه الاول) ان الخلق فى اللغة هو العادة سواء كان ذلك فى ادراك او فى فعل (الوجه الثانى) انا بينا ان الخلق هو الامر الذى باعتباره يكون الاتيان بالافعال الجميلة سهلا فلما كانت الروح القدسية التى له شديدة الاستعداد للمعارف الالهية الحقة وعديمة الاستعداد لقبول العقائد الباطلة كانت تلك السهولة حاصلة فى قبول المعارف الحقة فلا يبعد تسمية تلك السهولة بالخلق (المسئلة الثالثة) قال سعيد بن هشام قلت لعائشة اخبرينى عن خلق رسول الله قالت ألست تقرأ القرآن قلت بلى قالت فانه كان خلق النبى عليه الصلاة والسلام وسئلت مرة اخرى فقالت كان خلقه القرآن ثم قرأت قد افلح المؤمنون الى عشر آيات وهذا اشارة الى ان نفسه المقدسة كانت بالطبع منجذبة الى عالم الغيب والى كل ما يتعلق بها وكانت شديدة النفرة عن اللذات البدنية والسعادات الدنيوية بالطبع ومقتضى الفطرة اللهم ارزقنا شيئا من هذه الحالة وروى هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة قالت ما كان احد احسن خلقا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مادعاه احد من اصحابه ولا من اهل بيته الا قال لبيك فلهذا قال تعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال أنس خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى فى شئ فعلته لم فعلت ولا فى شئ لم افعله هلا فعلت واقول ان الله تعالى وصف مايرجع الى قوته النظرية بأنه عظيم فقال وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ووصف مايرجع الى قوته العملية بأنه عظيم فقال وانك لعلى خلق عظيم فلم يبق للانسان بعد هاتين القوتين شئ فدل مجموع هاتين الآيتين على ان روحه فيما بين الارواح البشرية كانت عظيمة عالية الدرجة كأنها لقوتها وشدة كمالها كانت من جنس ارواح الملائكة واعلم انه تعالى لما وصفه بأنه على خلق عظيم ❊ قال (فستبصر ويبصرون) اى فسترى يا محمد ويرون يعنى المشركين وفيه قولان منهم من حمل ذلك على احوال الدنيا يعنى فستبصر ويبصرون فى الدنيا انه كيف يكون عاقبة امرك وعاقبة امرهم فانك تصير معظما فى القلوب ويصيرون ذليلين ملعونين وتستولى عليهم بالقتل والنهب قال مقاتل هذا وعيد بالعذاب ببدر ومنهم من حمله على احوال الآخرة وهو كقوله سيعلمون غدا من الكذاب الاشر ❊ واما قوله تعالى (بأيكم المفتون) ففيه وجوه (احدها) وهو قول الاخفش وابى عبيدة وابن قتيبة

فى قوله تعالى (فلا تطع المكذبين) لترتيب النهى على ما ينبئ عنه ما قبله من اهتداء انه عليه الصلاة والسلام وضلالهم او على جميع ما فصل من اول السورة وهذا تهييج والهاب للتصميم على معاصاتهم اى دم على ما انت عليه من عدم طاعتهم وتصلب فى ذلك او نهى عن مداهنتهم ومداراتهم باظهار خلاف ما فى ضميره عليه الصلاة والسلام استجلابا لقلوبهم لا عن طاعتهم حقيقة كما ينبئ عنه قوله تعالى (ودوا لو تدهن) فانه تعليل للنهى او للانتهاء وانما عبر عنها بالطاعة للمبالغة فى الزجر والتنفير اى احبوا لو تلاينهم وتسامحهم فى بعض الامور (فيدهنون) اى فهم يدهنون حينئذ او فهم الآن يدهنون طمعا فى ادهانك وقيل هو معطوف على تدهن داخل فى حيز لو والمعنى ودوا لو يدهنون عقيب ادهانك ويأباه ما سيأتى من بدئهم بالادهان على ان ادهانهم امر محقق لا يناسب ادخاله تحت التمنى وايا ما كان فالمعتبر فى جانبهم حقيقة الادهان الذى هو اظهار الملاينة واضمار خلافها واما فى جانبه عليه الصلاة والسلام فالمعتبر بالنسبة الى ودادتهم هو اظهار الملاينة فقط واما اضمار خلافها فليس فى حيز الاعتبار بل هم فى غاية الكراهة له وانما اعتباره بالنسبة اليه عليه الصلاة والسلام وفى بعض المصاحف فيدهنوا على انه جواب

ان الباء صلة زائدة والمعنى ايكم المفتون وهو الذى فتن بالجنون كقوله تنبت بالدهن اى تنبت الدهن وانشد ابوعبيدة * نضرب بالسيف ونرجو بالفرج * والفراء طعن فى هذا الجواب وقال اذا امكن فيه بيان المعنى الصحيح من دون طرح الباء كان ذلك اولى واما البيت فمعناه نرجو كشف ما نحن فيه بالفرج او نرجو النصر بالفرج (وثانيها) وهو اختيار الفراء والمبرد ان المفتون ههنا بمعنى الفتون وهو الجنون والمصادر تجئ على المفعول نحو المعقود والميسور بمعنى العقد واليسر يقال ليس له معقود رأى اى عقد رأى وهذا قول الحسن والضحاك ورواية عطية عن ابن عباس (وثالثها) ان الباء بمعنى فى ومعنى الآية فستبصر ويبصرون فى اى الفريقين المجنون أفى فرقة الاسلام ام فى فرقة الكفار (ورابعها) المفتون هو الشيطان اذ لاشك انه مفتون فى دينه وهم لما قالوا انه مجنون فقد قالوا ان به شيطانا فقال تعالى سيعلمون غدا بأيهم الشيطان الذى يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل * ثم قال تعالى (ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين) وفيه وجهان (الاول) هو ان يكون المعنى ان ربك هو اعلم بالمجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيله وهو اعلم بالعقلاء وهم المهتدون (والثانى) ان يكون المعنى انهم رموك بالجنون ووصفوا انفسهم بالعقل وهم كذبوا فى ذلك ولكنهم موصوفون بالضلال وانت موصوف بالهداية والامتياز الحاصل بالهداية والضلال اولى بالرعاية من الامتياز الحاصل بسبب العقل والجنون لان ذلك ثمرته السعادة الابدية والشقاوة وهذا ثمرته السعادة والشقاوة فى الدنيا * قوله تعالى (فلا تطع المكذبين) اعلم انه تعالى لما ذكر ماعليه الكفار فى امر الرسول ونسبته الى الجنون مع الذى انعم الله به عليه من الكمال فى امر الدين والحق اتبعه بما يدعوه الى التشدد مع قومه وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار فان هذه السورة من اوائل ما نزل فقال فلا تطع المكذبين يعنى رؤساء اهل مكة وذلك انهم دعوه الى دين آبائه فنهاه الله ان يطيعهم وهذا من الله الهاب وتهييج للتشدد فى مخالفتهم * ثم قال تعالى (ودوا لو تدهن فيدهنون ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد اثيم عتل بعد ذلك زنيم) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الليث الادهان اللين والمصانعة والمقاربة فى الكلام وقال المبرد داهن الرجل فى دينه وداهن فى امره اذا خان فيه واظهر خلاف مايضمر والمعنى تترك بعض ما انت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض مالا ترضى فتلين لهم ويلينون لك وروى عطاء عن ابن عباس لو تكفر فيكفرون (المسئلة الثانية) انما رفع فيدهنون ولم ينصب باضمار ان وهو جواب التمنى لانه قد عدل به الى طريق آخر وهو ان جعل خبر مبتدأ محذوف اى فهم يدهنون كقوله فمن يؤمن بربه فلا يخاف على معنى ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ قال سيبويه وزعم هرون وكان من القراء انها فى بعض المصاحف ودوا لو تدهن فيدهنوا واعلم انه تعالى لما نهاه عن طاعة المكذبين وهذا يتناول النهى عن طاعة

(جميع)

التمنى المفهوم من ودوا او ان مابعده حكاية لودادتهم وقيل على انه عطف على تدهن بناء على ان لو بمنزلة ان الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولا لودوا كأنه قيل ودوا ان تدهن فيدهنوا وقيل لو على حقيقتها وجوابها محذوف وكذا مفعول ودوا اى ودوا ادهانك لو تدهن فيدهنون لسروا بذلك (ولا تطع كل حلاف) كثير الحلف فى الحق والباطل تقديم هذا الوصف على سائر الاوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه ادخل فى الزجر (مهين) حقير الراى والتدبير (هماز) عياب طعان (مشاء بنميم) مضرب نقال للحديث من قوم الى قوم على وجه السعاية والافساد بينهم فان النميم والنميمة السعاية (مناع للخير) اى بخيل او مناع للناس من الخير الذى هو الايمان والطاعة والانفاق (معتد) متجاوز فى الظلم (اثيم) كثير الآثام (عتل) جاف غليظ من عتله اذا قاده بعنف وغلظة (بعد ذلك) بعد ما عد من مثالبه (زنيم) دعى مأخوذ من الزنمة وهى الهنة من جلد الماعزة تقطع فتخلى متدلية فى حلقها وفى قوله تعالى بعد ذلك دلالة على ان دعوته اشد معايبه واقبح قبائحه قيل هو الوليد بن المغيرة فانه كان دعيا فى قريش وليس من سنخهم ادعاه المغيرة بعد ثمانى عشرة من مولده وقيل هو الاخنس بن شريق اصله من ثقيف وعداده فى زهرة

جميع الكفار الا انه اعاد النهي عن طاعة من كان من الكفار موصوفا بصفات مذمومة وراء الكفر وتلك الصفات هي هذه (الصفة الاولى) كونه حلافا والحلاف من كان كثير الحلف في الحق والباطل وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ومثله قوله ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم (الصفة الثانية) كونه مهينا قال الزجاج هو فعيل من المهانة ثم فيه وجهان (احدهما) ان المهانة هي القلة والحقارة في الرأى والتميز (والثاني) انه انما كان مهينا لان المراد الحلاف في الكذب والكذاب حقير عند الناس واقول كونه حلافا يدل على انه لا يعرف عظمة الله تعالى وجلاله اذ لو عرف ذلك لما اقدم في كل حين وأوان بسبب كل باطل على الاستشهاد باسمه وصفته ومن لم يكن عالما بعظمة الله وكان متعلق القلب بطلب الدنيا كان مهينا فهذا يدل على ان عزة النفس لا تحصل الا لمن عرف نفسه بالعبودية وان مهانتها لا تحصل الا لمن غفل عن سر العبودية (الصفة الثالثة) كونه هماز او هو العياب الطعان قال المبرد هو الذي يهمز الناس اى يذكرهم بالمكروه واثر ذلك يظهر العيب وعن الحسن يلوى شدقيه في اقفية الناس وقد استقصينا فيه في قوله تعالى ويل لكل همزة (الصفة الرابعة) كونه مشاء بنميم اى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم يقال نم ينم وينم نما ونميما ونميمة (الصفة الخامسة) كونه مناعا للخير وفيه قولان (احدهما) ان المراد انه بخيل والخير المال (والثاني) كان يمنع اهله من الخير وهو الاسلام وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وكان له عشرة من البنين وكان يقول لهم ولاقاربه لئن تبع دين محمد منكم احد لا أنفعه بشئ ابدا فنعهم الاسلام فهو الخير الذي منعهم وعن ابن عباس انه ابو جهل وعن مجاهد الاسود بن عبد يغوث وعن السدى الاخنس بن شريق (الصفة السادسة) كونه معتديا قال مقاتل معناه انه ظلوم يعتدى الحق ويتجاوزه فيأتي بالظلم ويمكن حمله على جميع الاخلاق الذمية يعنى انه نهاية في جميع القبائح والفضائح (الصفة السابعة) كونه اثيما وهو مبالغة في الاثم (الصفة الثامنة) العتل واقوال المفسرين فيه كثيرة وهي محصورة في امرين (احدهما) انه ذم في الخلق (والثاني) انه ذم في الخلق وهو مأخوذ من قولك عتله اذا قاده بعنف وغلظة ومنه قوله تعالى فاعتلوه اما الذين حملوه على ذم الخلق فقال ابن عباس في رواية عطاء يريد قوى ضخم وقال مقاتل واسع البطن وثيق الخلق وقال الحسن الفاحش الخلق اللئيم النفس وقال عبيد بن عمير هو الاكول الشروب القوى الشديد وقال الزجاج هو الغليظ الجافي اما الذين حملوه على ذم الاخلاق فقالوا انه الشديد الخصومة الفظ العنيف (الصفة التاسعة) قوله زنيم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) في الزنيم اقوال (الاول) قال الفراء الزنيم هو الداعي الملصق بالقوم وليس منهم قال حسان

وانت زنيم نيط في آل هاشم * كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

والزنمة من كل شئ الزيادة وزنمت الشاة ايضا اذا شقت اذنها فاسترخت ويبست وبقيت كالشئ المعلق فالحاصل ان الزنيم هو ولد الزنا الملحق بالقوم في النسب وليس منهم وكان

(ان كان ذامال وبنين) متعلق بقوله تعالى لا تطع اى لا تطع من هذه مثالبه لان كان متمولا مستظهرا بالبنين وقوله تعالى (اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين) استئناف جار مجرى التعليل للنهى وقيل متعلق بما دل عليه الجملة الشرطية من معنى الجحود والتكذيب لا بجواب الشرط لان ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله كأنه قيل لكونه مستظهرا بالمال والبنين كذب بآياتنا وفيه انه يدل على ان مدار تكذيبه كونه ذامال وبنين من غير ان يكون لسائر قبائحه دخل في ذلك وقرئ أأن كان على معنى ألان كان ذامال كذب بها او اتطيعه لان كان ذامال وقرئ ان كان بالكسر والشرط للمخاطب اى لا تطع كل حلاف شارطا يساره لان اطاعة الكافر لغناه بمنزلة اشتراط غناه في الطاعة (سنسمه على الخرطوم) بالكي على اكرم مواضعه لغاية اهانته واذ لاله قيل اصاب انف الوليد جراحة يوم بدر فبقيت علامتها وقيل معناه سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يعلم بها عن سائر الكفرة (انا بلوناهم) اى اهل مكة بالقحط بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (كما بلونا اصحاب الجنة) وهم قوم من اهل الصلاة كانت لابيهم

الوليد دعيا فى قريش وليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده وقيل بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية (القول الثانى) قال الشعبى هو الرجل يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها (والقول الثالث) روى عكرمة عن ابن عباس قال معنى كونه زنيما انه كانت له زنمة فى عنقه يعرف بها وقال مقاتل كان فى اصل أذنه مثل زنمة الشاة (المسئلة الثانية) قوله بعد ذلك معناه انه بعد ماعدله من المثالب والنقائص فهو عتل زنيم وهذا يدل على ان هذين الوصفين وهو كونه عتلا زنيما اشد معايبه لانه اذا كان جافيا غليظ الطبع قسا قلبه واجترأ على كل معصية ولان الغالب ان النطفة اذا خبثت خبث الولد ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لايدخل الجنة ولد الزنا ولا ولده ولا ولد ولده وقوله ههنا بعد ذلك نظير ثم فى قوله ثم كان من الذين آمنوا وقرأ الحسن عتل رفعا على الذم

❊ ثم انه تعالى بعد تعديد هذه الصفات قال (أن كان ذا مال وبنين اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم ان قوله أن كان يجوز أن يكون متعلقا بما قبله وان يكون متعلقا بما بعده (اما الاول) فتقديره ولا تطع كل حلاف مهين أن كان ذا مال وبنين اى لاتطعه مع هذه المثالب ليساره وأولاده وكثرتة (واما الثانى) فتقديره لاجل أن كان ذا مال وبنين اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين والمعنى لاجل أن كان ذا مال وبنين جعل مجازاة هذه النعم التى خولها الله له الكفر بآياته قال ابو على الفارسى العامل فى قوله ان كان اما ان يكون هو قوله تتلى اوقوله قال اوشيئا ثالثا والاول باطل لان تتلى قد أضيفت اذا اليه والمضاف اليه لايعمل فيما قبله ألاترى انك لاتقول القتال زيدا حين يأتى تريد حين يأتى زيدا ولايجوز أن يعمل فيه ايضا قال لان قال جواب اذا وحكم الجواب ان يكون بعد ماهو جواب له ولا يتقدم عليه ولما بطل هذان القسمان علمنا أن العامل فيه شىء ثالث دل مافى الكلام عليه وذلك هو يجحد اويكفر أو يمسك عن قبول الحق اونحو ذلك وانما جاز ان يعمل المعنى فيه وان كان متقدما عليه لشبهه بالظرف والظرف قد تعمل فيه المعانى وان تقدم عليها ويدل على مشابهته للظرف تقدير اللام معه فان تقدير الآية لأن كان ذا مال واذا صار كالظرف لم يمتنع المعنى من ان يعمل فيه كما لم يمتنع من ان يعمل فى نحو قوله ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد لما كان ظرفا والعامل فيه يقسم الدال عليه قوله انكم لفى خلق جديد فكذلك قوله ان كان ذامال وبنين تقديره انه جحد آياتنا لأن كان ذامال وبنين او كفر بآياتنا لأن كان ذا مال وبنين (المسئلة الثالثة) قرىء أأن كان على الاستفهام والتقدير ألأن كان ذا مال كذب أو التقدير أتطيعه لأن كان ذا مال وروى الزهرى عن نافع ان كان بالكسر والشرط للمخاطب اى لاتطع كل حلاف شارطا يساره لانه اذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط فى الطاعة الغنى ونظير صرف الشرط الى المخاطب صرف الترجى اليه فى قوله لعله يتذكر ❊ واعلم أنه تعالى لما حكى عنه قبائح افعاله واقواله قال

هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين فكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدق بالباقى وكان ينادى الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما اخطأه المنجل وما فى اسفل الاكداس وما اخطأه القطاف من العنب وما بقى على البساط الذى يبسط تحت النخلة اذا صرمت فكان يجتمع لهم شىء كثير فلما مات ابوهم قال بنوه ان فعلنا ما كان يفعل ابونا ضاق علينا الامر فحلفوا فيما بينهم وذلك قوله تعالى (اذ اقسموا ليصرمنها مصبحين) ليقطعنها داخلين فى الصباح (ولا يستثنون) اى لايقولون ان شاء الله وتسميته استثناء مع انه شرط من حيث ان مؤداه مؤدى الاستثناء فان قولك لأخرجن ان شاء الله ولا اخرج الا ان يشاء الله بمعنى واحد أو ولايستثنون حصة المساكين كما كان يفعله ابوهم والجملة مستأنفة (فطاف عليها) اى على الجنة (طائف) بلاء طائف وقرىء طيف (من ربك) مبتدأ من جهته تعالى (وهم نائمون) غافلون عما جرت به المقادير (فأصبحت كالصريم) كالبستان الذى صرمت ثماره بحيث لم يبق منها شىء فعيل بمعنى مفعول وقيل كالليل اى احترقت فاسودت وقيل كالنهار اى يبست وابيضت سميا بذلك لان كلا منهما ينصرم عن

متوعداله (سنسمه على الخرطوم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الوسم اثر الكية وما يشبهها يقال وسمته فهوموسوم بسمة يعرف بها اماكية واماقطع فى اذن علامة له (المسئلة الثانية) قال المبرد الخرطوم ههنا الانف وانما ذكر هذا اللفظ على سبيل الاستخفاف به لان التعبير عن اعضاء الناس بالاسماء الموضوعة لاشباه تلك الاعضاء من الحيوانات يكون استخفافا كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر وعن ايديهم وارجلهم بالاظلاف والحوافر (المسئلة الثالثة) الوجه اكرم موضع فى الجسد والانف اكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الانفة وقالوا الانف فى الانف وحمى انفه وفلان شامخ العرنين وقالوا فى الذليل جدع انفه ورغم انفه فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الاذلال والاهانة لان السمة على الوجه شين فكيف على اكرم موضع من الوجه (المسئلة الرابعة) منهم من قال هذا الوسم يحصل فى الآخرة ومنهم من قال يحصل فى الدنيا اما على القول الاول ففيه وجوه (اولها) وهو قول مقاتل وابى العالية واختيار الفراء ان المراد انه يسود وجهه قبل دخول النار والخرطوم وان كان قد خص بالسمة فان المراد هو الوجه لان بعض الوجه يؤدى عن بعض (وثانيها) ان الله تعالى سيجعل له فى الآخر العلم الذى يعرف به اهل القيامة انه كان غاليا فى عداوة الرسول وفى انكار الدين الحق (وثالثها) ان فى الآية احتمالا آخر عندى وهو ان ذلك الكافر انما بالغ فى عداوة الرسول وفى الطعن فى الدين الحق بسبب الانفة والحمية فلما كان منشأ هذا الانكار هو الانفة والحمية كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الانفة والحمية فعبر عن هذا الاختصاص بقوله سنسمه على الخرطوم واما على القول الثانى وهو ان هذا الوسم انما يحصل فى الدنيا ففيه وجوه (احدها) قال ابن عباس سنخطمه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على انفه ما عاش وروى انه قاتل يوم بدر فخطم بالسيف فى القتال (وثانيها) ان معنى هذا الوسم انه يصير مشهورا بالذكر الردىء والوصف القبيح فى العالم والمعنى سنلحق به شينا لا يفارقه ونبين امره بيانا واضحا حتى لا يخفى كما لا تخفى السمة على الخراطيم تقول العرب للرجل الذى تسبه فى مسبة قبيحة باقية فاحشة قد وسمه ميسم سوء والمراد انه الصق به عارا لا يفارقه كما ان السمة لا تنمحى ولا تزول البتة قال جرير

لما وضعت على الفرزدق ميسمى * وعلى البعيث جدعت انف الاخطل

يريد انه وسم الفرزدق وجدع انف الاخطل بالهجاء اى القى عليه عارا لا يزول ولا شك ان هذه المبالغة العظيمة فى مذمة الوليد بن المغيرة بقيت على وجه الدهر فكان ذلك كالوسم على الخرطوم ومما يشهد لهذا الوجه قول من قال فى زنيم انه يعرف كما تعرف الشاة بزنمتها (وثالثها) يروى عن النضر بن شميل ان الخرطوم هو الخمر وانشد

تظل يومك فى لهو وفى طرب * وانت بالليل شراب الخراطيم

فعلى هذا معنى الآية سنحده على شرب الخمر وهو تعسف وقيل للخمر الخرطوم كما يقال

صاحبه وقيل الصريم الرمال (فتنادوا) اى نادى بعضهم بعضا (مصبحين) داخلين فى الصباح (ان اغدوا) اى اغدوا على ان ان مفسرة او بأن اغدوا على انها مصدرية اى اخرجوا اغدوة (على حرثكم) بستانكم وضيعتكم وتعدية الغدو بعلى لتضمينه معنى الاقبال او الاستيلاء (ان كنتم صارمين) قاصدين للصرم (فانطلقوا وهم يتخافتون) اى يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة وخفى وخفت وخفد ثلاثتها فى معنى الكتم ومنه الخفدود للخفاش (ان لا يدخلنها) اى الجنة (اليوم عليكم مسكين) ان مفسرة لما فى التخافت من معنى القول وقرئ بطرحها على اضمار القول والمراد بنهى المسكين عن عن الدخول المبالغة فى النهى عن تمكينه من الدخول كقولهم لا أرينك ههنا (وغدوا على حرد قادرين) اى على نكد لا غير من حاردت السنة اذا لم يكن فيها مطر وحاردت الابل اذا امنعت درها والمعنى انهم ارادوا ان يتنكدوا على المساكين ويحرموهم وهم قادرون على نفعهم فغدوا بحال لا يقدرون فيها الا على النكد والحرمان وذلك انهم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان والمسكنة أو وغدوا على محاردة جنتهم وذهاب خيرها قادرين بدل كونهم قادرين

لها السلافة وهى ماسلف من عصير العنب اولانها تطير فى الخياشيم ※ قوله تعالى (انا بلوناهم كما بلونا اصحاب الجنة اذاقسموا ليصرمنها مصبحين ولايستثنون) اعلم انه تعالى لماقال لاجل أن كان ذامال وبنين جحد وكفر وعصى وتمرد وكان هذا استفهاما على سبيل الانكار بين فى هذه الآية انه تعالى انما اعطاه المال والبنين على سبيل الابتلاء والامتحان وليصرفه الى طاعة الله وليواظب على شكر نعم الله فان لم يفعل ذلك فانه تعالى يقطع عنه تلك النعم ويصب عليه انواع البلاء والآفات فقال انا بلوناهم كما بلونا اصحاب الجنة اى كلفنا هؤلاء بأن يشكروا على النعم كما كلفنا اصحاب الجنة ذات الثمار ان يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم روى ان واحدا من ثقيف وكان مسلما كان يملك ضيعة فيها نخل وزرع بقرب صنعاء وكان يجعل من كل مافيها عند الحصاد نصيبا وافرا للفقراء فلمامات ورثها منه بنوه ثم قالوا عيالنا كثير والمال قليل ولا يمكننا ان نعطى المساكين مثل ماكان يفعل ابونا فأحرق الله جنتهم وقيل كانوا من بنى اسرائيل وقوله اذ اقسموا اذ حلفوا ليصرمنها ليقطعن ثمر نخيلهم مصبحين اى فى وقت الصباح قال مقاتل معناه اغدوا اسرا الى جنتكم فاصرموها ولاتخبروا المساكين وكان ابوهم يخبر المساكين فيجتمعون عند صرام جنتهم يقال قد صرم العذق عن النخلة واصرم النخل اذاحان وقت صرامه وقوله ولايستثنون يعنى ولم يقولوا ان شاء الله هذا قول جماعة المفسرين يقال حلف فلان يمينا ليس فيها ثنيا ولاثنوى ولاثنية ولامثنوية ولااستثناء وكله واحد واصل هذا كله من الثنى وهو الكف والرد وذلك ان الحالف اذا قال والله لأفعلن كذا الا أن يشاء الله غيره فقد رد انعقاد ذلك اليمين واختلفوا فى قوله ولايستثنون فالاكثرون انهم انما لم يستثنوا بمشيئة الله تعالى لانهم كانوا كالواثقين بأنهم يتمكنون من ذلك لامحالة وقال آخرون بل المراد انهم يصرمون كل ذلك ولايستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذى كان يدفعه ابوهم الى المساكين ※ ثم قال تعالى (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم) طائف من ربك اى عذاب من ربك والطائف لايكون الاليلا اى طرقها طارق من عذاب الله قال الكلبى ارسل الله عليها نارا من السماء فاحترقت وهم نائمون فأصبحت الجنة كالصريم * واعلم ان الصريم فعيل فيحتمل انيكون بمعنى المفعول وانيكون بمعنى الفاعل وههنا احتمالات (احدها) انها لما احترقت كانت شبيهة بالمصرومة فى هلاك الثمر وان حصل الاختلاف فى امور أخر فان الاشجار اذا احترقت فانها لاتشبه الاشجار التى قطعت ثمارها الان هذا الاختلاف وان حصل من هذا الوجه لكن المشابهة فى هلاك الثمر حاصلة (وثانيها) قال الحسن اى صرم عنها الخير فليس فيها شئ وعلى هذين الوجهين الصريم بمعنى المصروم (وثالثها) الصريم من الرمل قطعة ضخمة تنصرم عن سائر الرمال وجمعه الصرائم وعلى هذا شبهت الجنة وهى محترقة لاثمر فيها ولاخير بالرملة المنقطعة عن الرمال وهى لاتنبت شيئا ينتفع به (ورابعها) الصبح

على اصابة خيرها ومنافعها اى غدوا حاصلين على النكد والحرمان مكان كونهم قادرين على الانتفاع وقيل الحرد الحرد وقد قرئ بذلك اى اى لم يقدروا الاعلى حنق بعضهم لبعض لقوله تعالى يتلاومون وقيل الحرد القصد والسرعة اى غدوا قاصدين الى جنتهم بسرعة قادرين عند انفسهم على صرامها وقيل هو علم للجنة (فلمارأوها قالوا) فى بديهة رؤيتهم (انا لضالون) اى طريق جنتنا وماهى بها (بل نحن محرومون) قالوه بعدما تأملوا ووقفوا على حقيقة الامر مضربين عن قولهم الاول اى لسنا ضالين بل نحن محرومون حرمنا خيرها بجنايتنا على انفسنا (قال اوسطهم) اى رأيا اوسنا (الم اقل لكم لولاتسبحون) لولاتذكرون الله تعالى وتتوبون اليه من خبث نيتكم وقد كان قال لهم حين عزموا على ذلك اذكروا الله وتوبوا اليه عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم وسارعوا الى حسم شرها قبل حلول النقمة فعصوه فعيرهم كما ينبئ عنه قوله تعالى (قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين) وقيل المراد بالتسبيح الاستثناء لاشتراكهما فى التعظيم اولانه تنزيه له تعالى عن ان يجرى فى ملكه مالايشاؤه (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) اى يلوم بعضهم بعضا فان منهم من اشار

يسمى صريما لانه انصرم من الليل والمعنى ان تلك الجنة يبست وذهبت حضرتها ولم يبق فيها شيء من قولهم بيض الاناء اذا فرغه (وخامسها) انها لما احترقت صارت سوداء كالليل المظلم والليل يسمى صريما وكذا النهار ايضا صريما لان كل واحد منهما ينصرم بالآخر وعلى هذا الصريم بمعنى الصارم وقال قوم سمى الليل صريما لانه يقطع بظلمته عن التصرف وعلى هذا هو فعيل بمعنى فاعل وقال آخرون سميت الليلة بالصريم لانها تصرم نور البصر وتقطعه ❊ ثم قال تعالى (فتنادوا مصبحين ان اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين) قال مقاتل لما اصبحوا قال بعضهم لبعض اغدوا على حرثكم ويعنى بالحرث الثمار والزرع والاعناب ولذلك قال صارمين لانهم ارادوا قطع الثمار من هذه الاشجار فان قيل لم لم يقل اغدوا الى حرثكم وما معنى على قلنا لما كان الغدو اليه ليصرموه ويقطعوه كان غدوا عليه كما تقول غدا عليهم العدو ويجوز ان تضمن الغدو معنى الاقبال كقولهم * يغدى عليهم بالجفنة ويراح * فاقبلوا على حرثكم باكرين ❊ قوله تعالى (فانطلقوا وهم يتخافتون) اى يتسارون فيما بينهم وخفى وخفت وخفد ثلاثتها فى معنى كتم ومنه الخفدود للخفاش قال ابن عباس غدا اليها بسدفة يسر بعضهم الى بعض الكلام لئلا يعلم احد من الفقراء والمساكين ❊ ثم قال تعالى (أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) أن مفسرة وقرأ ابن مسعود بطرحها باضمار القول اى يتخافتون يقولون لا يدخلنها والنهى للمسكين عن الدخول نهى لهم عن تمكينه منه اى لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل كقولك لا أرينك ههنا ❊ ثم قال تعالى (وغدوا على حرد قادرين) وفيه اقوال (الاول) الحرد المنع يقال حاردت السنة اذا قل مطرها ومنعت ريعها وحاردت الناقة اذا منعت لبنها فقل اللبن والحرد الغضب وهما لغتان الحرد والحرد والتحريك اكثر وانما سمى الغضب بالحرد لانه كالمانع من ان يدخل المغضوب منه فى الوجود والمعنى وغدوا وكانوا عند انفسهم وفى ظنهم قادرين على منع المساكين (الثانى) قيل الحرد القصد والسرعة يقال حردت حردك قال الشاعر

اقبل سيل جاء من امر الله * يحرد حرد الجنة المغله

وقطا حراد اى سراع يعنى وغدوا قاصدين الى جنتهم بسرعة ونشاط قادرين عند انفسهم يقولون نحن نقدر على صرامها ومنع منفعتها عن المساكين (الثالث) قيل حرد علم لتلك الجنة اى غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند انفسهم اومقدرين ان يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان ❊ قوله تعالى (فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون) فيه وجوه (احدها) انهم لما رأوا جنتهم محترقة ظنوا انهم قد ضلوا الطريق فقالوا انا لضالون ثم لما تأملوا وعرفوا انها هى قالوا بل نحن محرومون حرمنا خيرها بشؤم عزمنا على البخل ومنع الفقراء (وثانيها) يحتمل انهم لما رأوا جنتهم محترقة قالوا انا لضالون حيث كنا عازمين على منع الفقراء وحيث كنا نعتقد كوننا قادرين على الانتفاع بها بل

بذلك ومنهم من استصوبه ومنهم من سكت راضيا به ومنهم من انكره (قالوا ياويلنا انا كنا طاغين) متجاوزين حدود الله (عسى ربنا ان يبدلنا) وقرئ بالتشديد اى يعطينا بدلا منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة (خيرا منها انا الى ربنا راغبون) راجون العفو طالبون الخير والى لانتهاء الرغبة اولتضمنها معنى الرجوع عن مجاهد تابوا فأبدلوا خيرا منها وروى انهم تعاقدوا وقالوا ان ابدلنا الله خيرا منها لنصنعن كما صنع ابونا فدعوا الله تعالى وتضرعوا اليه فأبدلهم الله تعالى من ليلتهم ماهو خير منها قالوا ان الله تعالى امر جبريل عليه السلام ان يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزغر من ارض الشأم ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ان القوم لما اخلصوا وعرف الله منهم الصدق ابدلهم جنة يقال لها الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقودا وقال ابو خالد اليمانى دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الاسود القائم وسئل قتادة عن اصحاب الجنة اهم من اهل الجنة ام من اهل النار فقال لقد كلفتنى تعبا وعن الحسن رحمه الله تعالى قول اصحاب الجنة انا الى ربنا

الامر انقلب علينا فصرنا نحن المحرومين ❊ قوله تعالى (قال اوسطهم) يعنى اعدلهم وافضلهم وبينا وجهه فى تفسير قوله أمة وسطا (الم أقل لكم لولا تسبحون) يعنى هلا تسبحون وفيه وجوه (الاول) قال الاكثرون معناه هلا يستثنون فتقولون ان شاء الله لان الله تعالى انما عابهم بأنهم لايستثنون وانما جاز تسمية قول ان شاء الله بالتسبيح لان التسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل سوء فلو دخل شئ فى الوجود على خلاف ارادة الله لكان ذلك يوجب عود نقص الى قدرة الله فقولك ان شاء الله يزيل هذا النقص فكان ذلك تسبيحا واعلم ان لفظ القرآن يدل على ان القوم حين كانوا يحلفون ويتركون الاستثناء كان اوسطهم ينهاهم عن ترك الاستثناء ويخوفهم من عذاب الله فلهذا حكى عن ذلك الاوسط انه قال بعد وقوع الواقعة ألم أقل لكم لولا تسبحون (الثانى) ان القوم حين عزموا على منع الزكاة واغتروا بمالهم وقوتهم قال الاوسط لهم توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب فلما رأوا العذاب ذكرهم ذلك الكلام الاول وقال لولا تسبحون فلا جرم اشتغل القوم فى الحال بالتوبة ❊ وقالوا (سبحان ربنا انا كنا ظالمين) فتكلموا بما كان يدعوهم الى التكلم به لكن بعد خراب البصرة (الثالث) قال الحسن هذا التسبيح هو الصلاة كأنهم كانوا يتكاسلون فى الصلاة والا لكانت ناهية لهم عن الفحشاء والمنكر ولكانت داعية لهم الى ان يواظبوا على ذكر الله وعلى قول ان شاء الله ثم انه تعالى لما حكى عن ذلك الاوسط انه امرهم بالتوبة وبالتسبيح حكى عنهم اشياء (اولها) انهم اشتغلوا بالتسبيح وقالوا فى الحال سبحان ربنا عن ان يجرى فى ملكه شئ الا بارادته ومشيئته ولما وصفوا الله تعالى بالتنزيه والتقديس اعترفوا بسوء افعالهم وقالوا انا كنا ظالمين ❊ (وثانيها) (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) اى يلوم بعضهم بعضا يقول هذا لهذا انت اشرت علينا بهذا الرأى ويقول ذاك لهذا أنت خوفتنا بالفقر ويقول الثالث لغيره انت الذى رغبتنى فى جمع المال فهذا هو التلاوم ❊ ثم نادوا على انفسهم بالويل (قالوا ياويلنا انا كنا طاغين) والمراد انهم استعظموا جرمهم ❊ ثم قالوا عند ذلك (عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها) قرئ يبدلنا بالتخفيف والتشديد (انا الى ربنا راغبون) طالبون منه الخير راجعون لعفوه واختلف العلماء ههنا فنهم من قال ان ذلك كان توبة منهم وتوقف بعضهم فى ذلك قالوا لان هذا الكلام يحتمل انهم انما قالوه رغبة منهم فى الدنيا ❊ ثم قال تعالى (كذلك العذاب) يعنى كما ذكرنا من احراقها بالنار وههنا تم الكلام فى قصة اصحاب الجنة * واعلم ان المقصود من ذكر هذه القصة امران (احدهما) انه تعالى قال ان كان ذا مال وبنين اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين والمعنى لاجل ان اعطاه الله المال والبنين كفر بالله كلا بل الله تعالى انما اعطاه ذلك للابتلاء فاذا صرفه الى الكفر دمر الله عليه بدليل ان اصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعصية دمر الله على جنتهم فكيف يكون الحال فى حق من عاند الرسول واصر على الكفر والمعصية

راغبون لاادرى ايمانا كان ذلك منهم اوعلى حد مايكون من المشركين اذا أصابتهم الشدة فتوقف فى امرهم والاكثرون على انهم تابوا واخلصوا حكاه القشيرى (كذلك العذاب) جملة من مبتدأ وخبر مقدم لافادة القصر والالف واللام للعهد اى مثل الذى بلونا به اهل مكة واصحاب الجنة عذاب الدنيا (ولعذاب الآخرة اكبر) اعظم واشد (لوكانوا يعلمون) انه اكبر لاحترزوا عما يؤديهم اليه (ان للمتقين) اى من الكفر والمعاصى (عند ربهم) اى فى الآخرة اوفى جوار القدس (جنات النعيم) جنات ليس فيها الا التنعم الخالص عن شائبة ماينغصه من الكدورات وخوف الزوال كما عليه نعيم الدنيا وقوله تعالى (افنجعل المسلمين كالمجرمين) تقرير لماقبله من فوز المتقين بجنات النعيم ورد لما يقوله الكفرة عند سماعهم بحديث الآخرة وماوعد الله المسلمين فيها فانهم كانوا يقولون ان صح انا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم الامثل ماهى فى الدنيا والا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا واقصى امرهم ان يساوونا والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى انحيف فى الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين ثم قيل لهم

(والثانى)

(والثانى) ان اصحاب الجنة خرجوا لينتفعوا بالجنة ويمنعوا الفقراء عنها فقلب الله عليهم القضية فكذا اهل مكة لما خرجوا الى بدر حلفوا على ان يقتلوا محمدا واصحابه واذا رجعوا الى مكة طافوا بالكعبة وشربوا الخمور فاخلف الله ظنهم فقتلوا واسروا كاهل هذه الجنة ※ ثم انه تعالى لما خوف الكفار بعذاب الدنيا قال (ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون) وهو ظاهر لا حاجة به الى التفسير ※ ثم انه تعالى ذكر بعد ذلك احوال السعداء فقال (ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم) عند ربهم اى فى الآخرة جنات النعيم اى جنات ليس لهم فيها الا التنعم الخالص لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا قال مقاتل لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للمسلمين ان الله تعالى فضلنا عليكم فى الدنيا فلا بد وان يفضلنا عليكم فى الآخرة فان لم يحصل التفضيل فلا اقل من المساواة ※ ثم ان الله تعالى اجاب عن هذا الكلام بقوله (افنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون) ومعنى الكلام ان التسوية بين المطيع والعاصى غير جائزة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضى فيه دليل واضح على ان وصف الانسان بانه مسلم ومجرم كالمتنافى فالفاسق لما كان مجرما وجب ان لا يكون مسلما (والجواب) انه تعالى انكر جعل المسلم مثلا للمجرم ولا شك انه ليس المراد انكار المماثلة فى جميع الامور فانهما يتماثلان فى الجوهرية والجسمية والحدوث والحيوانية وغيرها من الامور الكثيرة بل المراد انكار استوائهما فى الاسلام والجرم او فى آثار هذين الامرين او المراد انكار ان يكون اثر اسلام المسلم مساويا لاثر جرم المجرم عند الله وهذا مسلم لا نزاع فيه فمن اين يدل على ان الشخص الواحد يمتنع ان يجتمع فيه كونه مسلما ومجرما (المسئلة الثانية) قال الجبائى دلت الآية على ان المجرم لا يكون البتة فى الجنة لانه تعالى انكر حصول التسوية بينهما ولو حصلا فى الجنة لحصلت التسوية بينهما فى الثواب بل لعله يكون ثواب المجرم ازيد من ثواب المسلم اذا كان المجرم اطول عمرا من المسلم وكانت طاعاته غير محبطة (والجواب) هذا ضعيف لانا بينا ان الآية لا تمنع من حصول التسوية فى شئ اصلا بل تمنع من حصول التسوية فى درجة الثواب ولعلهما يستويان فيه بل يكون ثواب المسلم الذى لم يعص اكثر من ثواب من عصى على انا نقول لم لا يجوز ان يكو المراد من المجرمين هم الكفار الذين حكى الله عنهم هذه الواقعة وذلك لان حمل الجمع المحلى بالالف واللام على المعهود السابق مشهور فى اللغة والعرف (المسئلة الثالثة) ان الله تعالى استنكر التسوية بين المسلمين والمجرمين فى الثواب فدل هذا على انه يقبح عقلا ما يحكى عن اهل السنة انه يجوز ان يدخل الكفار فى الجنة والمطيعين فى النار (والجواب) انه تعالى استنكر ذلك بحكم الفضل والاحسان لان ذلك بسبب ان احدا يستحق عليه شيئا واعلم انه تعالى لما قال على سبيل الاستبعاد افنجعل المسلمين كالمجرمين قرر هذا الاستبعاد بأن قال لهم على طريقة الالتفات مالكم كيف تحكمون هذا الحكم المعوج ※ ثم قال تعالى (ام لكم كتاب فيه تدرسون ان لكم فيه لما تخيرون)

بطريق الالتفات لتأكيد الرد وتشديده (مالكم كيف تحكمون) تعجيبا من حكمهم واستبعادا له وايذانا بأنه لا يصدر عن عاقل (ام لكم كتاب) نازل من السماء (فيه تدرسون) اى تقرؤن (ان لكم فيه لما تخيرون) اى ما تختارونه وتشتهونه واصله ان لكم بالفتح لانه مدروس فلما جئ باللام كسرت ويجوز ان يكون حكاية للمدروس كما هو كقوله تعالى وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين وتخير الشئ واختياره اخذ خيره (ام لكم ايمان علينا) اى عهود مؤكدة بالايمان (بالغة) متناهية فى التوكيد وقرئت بالنصب على الحال والعامل فيها احد الظرفين (الى يوم القيامة) متعلق بالمقدر فى لكم اى ثابتة لكم الى يوم القيامة لا تخرج عن عهدتها حتى نحكمكم يومئذ ونعطيكم ما تحكمون او ببالغة اى ايمان تبلغ ذلك اليوم وتنتهى اليه وافرة لم تبطل منها يمين (ان لكم لما تحكمون) جواب القسم لان معنى ام لكم علينا ايمان ام اقسمنا لكم (سلهم) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم باسقاطهم عن رتبة الخطاب اى سلهم مبكتا لهم (ايهم بذلك) الحكم الخارج عن العقول (زعيم) اى قائم يتصدى

وهو كقوله ام لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم والاصل تدرسون ان لكم ماتخيرون بفتح ان لانه مدروس فلما جاءت اللام كسرت وتخير الشئ واختاره اى اخذ خيره ونحوه تنحله وانتحله اذا اخذ منحوله ❊ ثم قال تعالى (ام لكم ايمان علينا بالغة الى يوم القيامة ان لكم لما تحكمون) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) يقال لفلان علىّ يمين بكذا اذا ضمنته منه وحلفت له على الوفاء به يعنى ام ضمنا منكم واقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية فى التوكيد فان قيل الى فى قوله الى يوم القيامة بم يتعلق قلنا فيه وجهان (الاول) انها متعلقة بقوله بالغة اى هذه الايمان فى قوتها اوكدنا لها بحيث تبلغ الى يوم القيامة (والثانى) ان يكون التقدير ايمان ثابتة الى يوم القيامة ويكون معنى بالغة مؤكدة كما تقول جيدة بالغة وكل شئ متناه فى الصحة والجودة فهو بالغ واما قوله ان لكم لما تحكمون فهو جواب القسم لان معنى ام لكم ايمان علينا ام اقسمنا لكم (المسئلة الثانية) قرأ الحسن بالغة بالنصب وهو نصب على الحال من الضمير فى الظرف ❊ ثم قال للرسول عليه السلام (سلهم ايهم بذلك زعيم) والمعنى ايهم بذلك الحكم زعيم اى قائم به وبالاستدلال على صحته كما يقوم زعيم القوم باصلاح امورهم ❊ ثم قال تعالى (ام لهم شركاء فليأتوا بشركائهم ان كانوا صادقين) وفى تفسيره وجهان (الاول) المعنى ام لهم اشياء يعتقدون انها شركاء الله فيعتقدون ان اولئك الشركاء يجعلونهم فى الآخرة مثل المؤمنين فى الثواب والخلاص من العقاب وانما اضاف الشركاء اليهم لانهم جعلوها شركاء الله وهذا كقوله هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ (الوجه الثانى) فى المعنى ام لهم ناس يشاركونهم فى هذا المذهب وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين فليأتوا بهم ان كانوا صادقين فى دعواهم والمراد بيان انه كما ليس لهم دليل عقلى فى اثبات هذا المذهب ولا دليل نقلى وهو كتاب يدرسونه فليس لهم من يوافقهم من العقلاء على هذا القول وذلك يدل على انه باطل من كل الوجوه ❊ واعلم انه تعالى لما ابطل قولهم وافسد مقالتهم شرح بعد ذلك عظمة يوم القيامة ❊ فقال (يوم يكشف عن ساق) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) يوم منصوب بما ذا فيه ثلاثة اوجه (احدها) انه منصوب بقوله فليأتوا فى قوله فليأتوا بشركائهم وذلك ان ذلك اليوم يوم شديد فكأنه تعالى قال ان كانوا صادقين فى انها شركاء فليأتوا بها يوم القيامة لتنفعهم وتشفع لهم (وثانيها) انه منصوب باضمار اذكر (وثالثها) ان يكون التقدير يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت فحذف للتهويل البليغ وان ثم من الكوائن مالا يوصف لعظمته (المسئلة الثانية) هذا اليوم الذى يكشف فيه عن ساق أهو يوم القيامة او فى الدنيا فيه قولان (الاول) وهو الذى عليه الجمهور انه يوم القيامة ثم فى تفسير الساق وجوه (الاول) انه الشدة روى انه سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال اذا خفى عليكم شئ من القرآن فابتغوه فى الشعر فانه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر

لتصحيحه (ام لهم شركاء) يشاركونهم فى هذا القول ويذهبون مذهبهم (فليأتوا بشركائهم ان كانوا صادقين) فى دعواهم اذ لا اقل من التقليد وقد نبه فى هذه الآيات الكريمة على ان ليس لهم شئ يتوهم ان يتشبثوا به حتى التقليد الذى لا يفلح من تشبث بذيله وقيل المعنى ام لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين فى الآخرة (يوم يكشف عن ساق) اى يوم يشتد الامر ويصعب الخطب وكشف الساق مثل فى ذلك واصله تشمير المخدرات عن سوقهن فى الهرب قال حاتم ❊ اخو الحرب ان عضت به الحرب عضها ❊ وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا ❊ وقيل ساق الشئ اصله الذى به قوامه كساق الشجر وساق الانسان اى يوم يكشف عن اصل الامر فتظهر حقائق الامور واصولها بحيث تصير عيانا وتنكيره للتهويل او التعظيم وقرئ تكشف بالتاء على البناء للفاعل والمفعول والفعل للساعة او الحال وقرئ نكشف بالنون وتكشف بالتاء المضمومة وكسر الشين من اكشف الامر اى دخل فى الكشف وناصب الظرف فليأتوا او مضمر مقدما اى اذكر يوم الخ او مؤخر اى يوم يكشف عن ساق الخ يكون من الاهوال وعظائم الاحوال مالا يبلغه الوصف

سن لنا قومك ضرب الاعناق * وقامت الحرب بنا على ساق

ثم قال وهو يوم كرب وشدة وروى مجاهد عنه قال هو اشد ساعة فى القيامة وأنشد اهل اللغة ابياتا كثيرة فى هذا المعنى منها ما انشد ابو عبيدة لقيس بن زهير

فان شمرت لك من ساقها * فدنهار بيع ولا تسأم

ومنها كشف لكم عن ساقها * وبدأ من الشر الصراح

وقال جرير الارب سامى الطرف من آل مازن * اذا شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقال آخر فى سنة قد شمرت عن ساقها * حمراء تبرى اللحم عن عراقها

وقال آخر قد شمرت عن ساقها فشدوا * وجدت الحرب بكم فجدوا

ثم قال ابن قتيبة اصل هذا أن الرجل اذا وقع فى امر عظيم يحتاج الى الجد فيه يشمر عن ساقه فلا جرم يقال فى موضع الشدة كشف عن ساقه واعلم ان هذا اعتراف من اهل اللغة بأن استعمال الساق فى الشدة مجاز واجمع العلماء على انه لا يجوز صرف الكلام الى المجاز الا بعد تعذر حمله على الحقيقة فاذا اقمنا الدلائل القاطعة على انه تعالى يستحيل ان يكون جسما فحينئذ يجب صرف اللفظ الى المجاز واعلم ان صاحب الكشاف أورد هذا التأويل فى معرض آخر فقال الكشف عن الساق مثل فى شدة الامر فمعنى قوله يوم يكشف عن ساق يوم يشتد الامر ويتفاقم ولا كشف ثم ولا ساق كما تقول للاقطع الشحيح يده مغلولة ولا يد ثم ولا غل وانما هو مثل فى البخل ثم اخذ يعظم علم البيان ويقول لولاه لما وقفنا على هذه الاسرار (واقول) اما ان يدعى انه صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل او يقول انه لا يجوز ذلك الا بعد امتناع حمله على الحقيقة والاول باطل باجماع المسلمين ولانا ان جوزنا ذلك انفتحت ابواب تأويلات الفلاسفة فى امر المعاد فانهم يقولون فى قوله جنات تجرى من تحتها الانهار ليس هناك لا انهار ولا اشجار وانما هو مثل للذة والسعادة ويقولون فى قوله اركعوا واسجدوا ليس هناك لا سجود ولا ركوع وانما هو مثل للتعظيم ومعلوم ان ذلك يفضى الى رفع الشرائع وفساد الدين واما ان قال بأنه لا يصار الى هذا التأويل الا بعد قيام الدلالة على انه لا يجوز حمله على ظاهره فهذا هو الذى لم يزل كل احد من المتكلمين قال به وعول عليه فأين هذه الدقائق التى استبد هو بمعرفتها والاطلاع عليها بواسطة علم البيان فرحم الله امرأ عرف قدره وما تجاوز طوره (القول الثانى) وهو قول ابى سعيد الضرير يوم يكشف عن ساق اى عن اصل الامر وساق الشئ اصله الذى به قوامه كساق الشجر وساق الانسان اى تظهر يوم القيامة حقائق الاشياء واصولها (القول الثالث) يوم يكشف عن ساق جهنم او عن ساق العرش او عن ساق ملك مهيب عظيم واللفظ لا يدل الا على ساق فأما ان ذلك الساق ساق اى شئ هو فليس فى اللفظ ما يدل عليه (والقول الرابع) وهو اختيار المشبهة انه ساق الله تعالى الله عنه روى عن ابن مسعود عنه عليه الصلاة والسلام انه تعالى يتمثل للخلق يوم القيامة حين يمر المسلمون

(ويدعون الى السجود) توبيخا وتعنيفا على تركهم اياه فى الدنيا وتحسيرا لهم على تفريطهم فى ذلك (فلا يستطيعون) لزوال القدرة عليه وفيه دلالة على انهم يقصدون السجود فلا يتأتى منهم ذلك عن ابن مسعود رضى الله عنه تعقم اصلابهم اى ترد عظاما بلا مفاصل لا تنثنى عند الرفع والخفض وفى الحديث وتبقى اصلابهم طبقا واحدا اى فقارة واحدة (خاشعة ابصارهم) حال من مرفوع يدعون على ان ابصارهم مرتفع به على الفاعلية ونسبة الخشوع الى الابصار لظهور أثره فيها (ترهقهم) تلحقهم وتغشاهم (ذلة) شديدة (وقد كانوا يدعون الى السجود) فى الدنيا والاظهار فى موضع الاضمار لزيادة التقرير اولان المراد به الصلاة اوما فيها من السجود والدعوة دعوة التكليف (وهم سالمون) متمكنون منه اقوى تمكن اى فلا يجيبون اليه ويأبونه وانما ترك ذكره ثقة بظهوره (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث) اى كله الى فانى اكفيك امره اى حسبك فى الايقاع به والانتقام منه ان تكل امره الى وتخلى بينى وبينه فانى عالم بما يستحقه من العذاب ومطيق له والفاء لترتيب

فيقول من تعبدون فيقولون نعبدالله فيشهدهم مرتين اوثلاثا ثم يقول هل تعرفون ربكم فيقولون سبحانه اذا عرفنا نفسه عرفناه فعند ذلك يكشف عن ساق فلايبقى مؤمن الا خرساجدا ويبقى المنافقون ظهورهم كالطبق الواحد كأنما فيها السفافيد * واعلم ان هذا القول باطل لوجوه (أحدها) ان الدلائل دلت على ان كل جسم محدث لان كل جسم متناه وكل متناه محدث ولان كل جسم فانه لاينفك عن الحركة والسكون وكل ما كان كذلك فهو محدث ولان كل جسم ممكن وكل ممكن محدث (وثانيها) انه لو كان المراد ذلك لكان من حق الساق ان يعرف لانها ساق مخصوصة معهودة عنده وهي ساق الرحمن اما لو حملناه على الشدة ففائدة التنكير الدلالة على التعظيم كأنه قيل يوم يكشف عن شدة واى شدة اى شدة لايمكن وصفها (وثالثها) ان التعريف لايحصل بالكشف عن الساق وانما يحصل بكشف الوجه (القول الثانى) ان قوله يوم يكشف عن ساق ليس المراد منه يوم القيامة بل هو فى الدنيا وهذا قول ابى مسلم قال انه لايمكن حمله على يوم القيامة لانه تعالى قال فى وصف هذا اليوم ويدعون الى السجود ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف بل المراد منه اما آخر ايام الرجل فى دنياه كقوله تعالى يوم يرون الملائكة لابشرى ثم انه يرى الناس يدعون الى الصلوات اذا حضرت أوقاتها وهو لايستطيع الصلاة لانه الوقت الذى لاينفع نفسا ايمانها واما حال الهرم والمرض والعجز وقد كانوا قبل ذلك اليوم يدعون الى السجود وهم سالمون مما بهم الآن اما من الشدة النازلة بهم من هول ماعاينوا عند الموت او من العجز والهرم ونظير هذه الآية قوله فلولا اذا بلغت الحلقوم * واعلم انه لا نزاع فى انه يمكن حمل اللفظ على ماقاله ابو مسلم فأما قوله انه لايمكن حمله على القيامة بسبب ان الامر بالسجود حاصل ههنا والتكاليف زائلة يوم القيامة فجوابه ان ذلك لايكون على سبيل التكليف بل على سبيل التقريع والتخجيل فلم قلتم ان ذلك غير جائز (المسئلة الثانية) قرئ يوم نكشف بالنون وتكشف بالتاء المنطوقة من فوق على البناء للفاعل والمفعول جميعا والفعل للساعة او للحال اى يوم يشتد الحال او الساعة كما تقول كشفت الحرب عن ساقها على المجاز وقرئ تكشف بالتاء المضمومة وكسر الشين من اكشف اذا دخل فى الكشف ومنه اكشف الرجل فهو مكشف اذا انقلبت شفته العليا * قوله تعالى (ويدعون الى السجود فلايستطيعون خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون) اعلم انا بينا انهم لايدعون الى السجود تعبدا وتكليفا ولكن توبيخا وتعنيفا على تركهم السجود فى الدنيا ثم انه تعالى حال مايدعوهم الى السجود يسلب عنهم القدرة على السجود ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على مافرطوا فيه حين دعوا الى السجود وهم سالمو الاطراف والمفاصل قال الجبائى لما خصص عدم الاستطاعة بالآخرة دل ذلك على انهم فى الدنيا كانوا يستطيعون فيبطل بهذا قول من قال الكافر

الامر على ماقبلها من احوالهم المحكية اى واذا كان حالهم فى الآخرة كذلك فذرنى ومن يكذب بهذا القرآن وتوكل على فى الانتقام منه وقوله تعالى (سنستدرجهم) استئناف مسوق لبيان كيفية التعذيب المستفاد من الامر السابق اجمالا والضمير لمن والجمع باعتبار معناها كما ان الافراد فى يكذب باعتبار لفظها اى سنستنزلهم الى العذاب درجة فدرجة بالاحسان وادامة الصحة وازدياد النعمة (من حيث لايعلمون) انه استدراج وهو الانعام عليهم بل يزعمون انه ايثار لهم وتفضيل على المؤمنين مع انه سبب لهلاكهم (وأملى لهم) وأمهلهم ليزدادوا اثما وهم يزعمون ان ذلك لارادة الخير بهم (ان كيدى متين) لايوقف عليه ولايدفع بشئ وتسمية ذلك كيدا لكونه فى صورة الكيد (ام تسألهم) على الابلاغ والارشاد (اجرا) دنيويا (فهم) لاجل ذلك (من مغرم) اى غرامة مالية (مثقلون) مكلفون حملا ثقيلا فيعرضون عنك (ام عندهم الغيب) اى اللوح او المغيبات (فهم يكتبون) منه مايحكمون ويستغنون به عن علمك (فاصبر لحكم ربك) وهو امهالهم وتأخير

لاقدرة له على الايمان وان القدرة على الايمان لاتحصل الاحال وجود الايمان (والجواب) عنه ان علم الله بأنه لايؤمن مناف لوجود الايمان والجمع بين المتنافيين محال فالاستطاعة فى الدنيا ايضا غير حاصلة على قول الجبائى اما قوله خاشعة ابصارهم فهو حال من قوله لايستطيعون ترهقهم ذلة يعنى يلحقهم ذل بسبب انهم ماكانوا مواظبين على خدمة مولاهم مثل العبد الذى اعرض عنه مولاه فانه يكون ذليلا فيما بين الناس وقوله وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون يعنى حين كانوا يدعون الى الصلوات بالاذان والاقامة وكانوا سالمين قادرين على الصلاة وفى هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة ولم يجب المؤذن الى اقامة الصلاة فى الجماعة ❊ قوله تعالى (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لايعلمون) اعلم انه تعالى لما خوف الكفار بعظمة يوم القيامة زاد فى التخويف فخوفهم بما عنده وفى قدرته من القهر فقال ذرنى واياه مريد كله فانى اكفيكه كأنه يقول يامحمد حسبك انتقاما منه ان تكل امره الى وتخلى بينى وبينه فانى عالم بما يجب ان يفعل به قادر على ذلك ثم قال سنستدرجهم يقال استدرجه الى كذا اذا استنزله اليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه وقوله من حيث لايعلمون قال ابو روق سنستدرجهم اى كلما اذنبوا ذنبا جددنا لهم نعمة وانسيناهم الاستغفار فالاستدراج انما حصل فى الاغتناء الذى لايشعرون انه استدراج وهو الانعام عليهم لانهم يحسبونه تفضيلا لهم على المؤمنين وهو فى الحقيقة سبب لهلاكهم ❊ ثم قال (واملى لهم ان كيدى متين) اى امهلهم كقوله انما نملى لهم ليزدادوا اثما واطيل لهم المدة والملاوة المدة من الدهر يقال املى الله له اى اطال الله له الملاوة والملوان الليل والنهار والملا مقصورا الارض الواسعة سميت به لامتدادها وقيل واملى لهم اى بالموت فلا اعاجلهم به ثم انه انما سمى احسانه كيدا كما سماه استدراجا لكونه فى صورة الكيد ووصفه بالمتانة لقوة اثر احسانه فى التسبب للهلاك واعلم ان الاصحاب تمسكوا بهذه الآية فى مسئلة ارادة الكائنات فقالوا هذا الذى سماه بالاستدراج وبالكيد اما ان لايكون له اثر فى ترجيح جانب الفعل على جانب الترك او يكون له فيه اثر (والاول) باطل والا لكان هو وسائر الاشياء الاجنبية بمثابة واحدة فلا يكون استدراجا البتة ولا كيدا (واما الثانى) فانه يقتضى كونه تعالى مريدا لذلك الفعل الذى ينساق اليه ذلك الاستدراج وذلك الكيد لانه اذا كان تعالى لايزال يؤكد هذا الجانب ويفتر ذلك الجانب الآخر وعلم ان تأكيد هذا الجانب لابد وان ينساق بالآخرة الى فعله ودخوله فى الوجود فلابد وان يكون مريدا لدخول ذلك الفعل فى الوجود وهذا هو المطلوب اجاب الكعبى عنه فقال المراد سنستدرجهم الى الموت من حيث لايعلمون وهذا هو الذى تقتضيه الحكمة فانهم لو عرفوا الوقت الذى يموتون فيه لصاروا آمنين الى ذلك الوقت ولأقدموا على المعاصى وفى ذلك اغراء بالمعاصى واجاب الجبائى عنه فقال سنستدرجهم الى العذاب من حيث لايعلمون فى الآخرة واملى لهم فى الدنيا توكيدا

نصرتك عليهم (ولاتكن كصاحب الحوت) اى يونس عليه السلام (اذنادى) فى بطن الحوت (وهو مكظوم) مملوء غيظا والجملة حال من ضمير نادى وعليها يدور النهى لاعلى النداء فانه امر مستحسن ولذلك لم يذكر المنادى واذ منصوب بمضاف محذوف اى لايكن حالك كحاله وقت ندائه اى لايوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائه (لولا ان تداركه نعمة من ربه) وقرئ رحمة وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه وحسن تذكير الفعل للفصل بالضمير وقرئ تداركته وتداركه اى تتداركه على حكاية الحال الماضية بمعنى لولا ان كان يقال فيه تتداركه (لنبذ بالعراء) بالارض الخالية من الاشجار (وهو مذموم) مليم مطرود من الرحمة والكرامة وهو حال من مرفوع نبذ عليها يعتمد جواب لولا لانها هى المنتفية لا النبذ بالعراء كما مر فى الحال الاولى والجملة الشرطية استئناف وارد لبيان كون المنهى عنه امرا محذورا مستتبعا للغائلة وقوله (فاجتباه ربه) عطف على مقدر اى فتداركته نعمة من ربه فاجتباه بان رد اليه الوحى وارسله الى مائة الف او يزيدون وقيل

الحجة عليهم ان كيدى متين فأمهله وازيح الاعذار عنه ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة فهذا هو المراد من الكيد المتين ثم قال والذى يدل على ان المراد ماذكرنا انه تعالى قال قبل هذه الآية فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ولا شك ان هذا التهديد انما وقع بعقاب الآخرة فوجب ان يكون المراد من الاستدراج والكيد المذكورين عقيبه هو عذاب الآخرة او العذاب الحاصل عند الموت واعلم ان اصحابنا قالوا الحرف الذى ذكرناه هو ان هذا الامهال اذا كان متأديا الى الطغيان كان الراضى بالامهال العالم بتأديه الى الطغيان لابد وان يكون راضيا بذلك الطغيان واعلم ان قوله سنستدرجهم الى قوله ان كيدى متين مفسر فى سورة الاعراف ❊ ثم قال تعالى (ام تسألهم اجرا فهم من مغرم مثقلون) وهذه الآية مع مابعدها مفسرة فى سورة الطور وأقول انه اعاد الكلام الى ماتقدم من قوله ام لهم شركاء والمغرم الغرامة اى لم يطلب منهم على الهداية والتعليم اجرا فيثقل عليهم حمل الغرامات فى اموالهم فيثبطهم ذلك عن الايمان ❊ ثم قال تعالى (ام عندهم الغيب فهم يكتبون) وفيه وجهان (الاول) ان عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ثواب ماهم عليه من الكفر والشرك فلذلك اصروا عليه وهذا استفهام على سبيل الانكار (الثانى) ان الاشياء الغائبة كأنها حضرت فى عقولهم حتى انهم يكتبون على الله اى يحكمون عليه بماشاؤا وأرادوا ❊ ثم انه تعالى لما بالغ فى تزييف طريقة الكفار وفى زجرهم عماهم عليه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم (فاصبر لحكم ربك) وفيه وجهان (الاول) فاصبر لحكم ربك فى امهالهم وتأخير نصرتك عليهم (والثانى) فاصبر لحكم ربك فى ان اوجب عليك التبليغ والوحى واداء الرسالة وتحمل مايحصل بسبب ذلك من الاذى والمحنة ❊ ثم قال (ولاتكن كصاحب الحوت اذنادى وهو مكظوم) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) العامل فى اذ معنى قوله كصاحب الحوت يريد لاتكن كصاحب الحوت حال ندائه وذلك لانه فى ذلك الوقت كان مكظوما فكأنه قيل لاتكن مكظوما (المسئلة الثانية) صاحب الحوت يونس عليه السلام اذنادى فى بطن الحوت بقوله لااله الاانت سبحانك انى كنت من الظالمين وهو مكظوم مملوء غيظا من كظم السقاء اذاملأه والمعنى لايوجد منك ماوجد منه من الضجر والمغاضبة فتبلى ببلائه ❊ ثم قال تعالى (لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم) وقرئ رحمة من ربه وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم لم يقل لولا ان تداركته نعمة من ربه (الجواب) انما حسن تذكير الفعل لفصل الضمير فى تداركه وقرأ ابن عباس وابن مسعود تداركته وقرأ الحسن تداركه اى تتداركه على حكاية الحال الماضية بمعنى لولا ان كان يقال فيه تتداركه كما يقال كان زيد سيقوم فمنعه فلان أى كان يقال فيه سيقوم والمعنى كان متوقعا منه القيام (السؤال الثانى) ماالمراد من قوله نعمة من ربه (الجواب) المراد من تلك النعمة هو انه تعالى انعم عليه بالتوفيق للتوبة وهذا يدل على انه لايتم شىء من الصالحات والطاعات الابتوفيقه وهدايته

استنباء ان صح انه لم يكن نبيا قبل هذه الواقعة (فجعله من الصالحين) من الكاملين فى الصلاح بان عصمه من ان يفعل فعلا يكون تركه اولى روى انها نزلت بأحد حين هم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يدعو على المنهزمين من المؤمنين وقيل حين أراد ان يدعو على ثقيف (وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) وقرئ ليزلقونك بفتح الياء من زلقه بمعنى ازلقه ويزهقونك وان هى المخففة واللام دليلها والمعنى انهم من شدة عداوتهم لك ينظرون اليك شزرا بحيث يكادون يزلون قدمك فيرمونك من قولهم نظر الى نظرا يكاد يصرعنى اى لوامكنه بنظره الصرع لفعله او انهم يكادون يصيبونك بالعين اذقد روى انه كان فى بنى اسد عيانون فأراد بعضهم ان يعين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وفى الحديث ان العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر ولعله من خصائص بعض النفوس وعن الحسن دواء الاصابة بالعين ان تقرأ هذه الآية (لما سمعوا الذكر) اى وقت سماعهم بالقرآن على ان الناظر فيه منصوبة بيزلقونك وذلك لاشتداد بغضهم وحسدهم عند سماعه (ويقولون) الغاية

(السؤال الثالث) اين جواب لولا الجواب من وجهين (الاول) تقدير الآية لولا هذه النعمة لنبذ بالعراء مع وصف المذمومية فلما حلت هذه النعمة لاجرم لم يوجد النبذ بالعراء مع هذا الوصف لانه لما فقد هذا الوصف فقد فقد ذلك المجموع (الثاني) لولا هذه النعمة لبقي في بطن الحوت الى يوم القيامة ثم نبذ بعراء القيامة مذموما ويدل على هذا قوله فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون وهذا كما يقال عرصة القيامة وعراء القيامة (السؤال الرابع) هل يدل قوله وهو مذموم على كونه فاعلا للذنب (الجواب) من ثلاثة اوجه (الاول) ان كلمة لولا دلت على ان هذه المذمومية لم تحصل (الثاني) لعل المراد من المذمومية ترك الافضل فان حسنات الابرار سيآت المقربين (الثالث) لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة لقوله فاجتباه ربه والفاء للتعقيب (السؤال الخامس) ما سبب نزول هذه الآيات (الجواب) يروى انها نزلت بأحد حين حل برسول الله ما حل فأراد ان يدعو على الذين انهزموا وقيل حين اراد ان يدعو على ثقيف * قوله تعالى (فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) في الآية وجهان (احدهما) قال ابن عباس رد الله عليه الوحي وشفعه في قومه (والثاني) قال قوم لعله ما كان رسولا صاحب وحي قبل هذه الواقعة ثم بعد هذه الواقعة جعله الله رسولا وهو المراد من قوله فاجتباه ربه والذين انكروا الكرامات والارهاص لابد وان يختاروا القول الاول لان احتباسه في بطن الحوت وعدم موته هنالك لما لم يكن ارهاصا ولا كرامة فلابد وان يكون معجزة وذلك يقتضي انه كان رسولا في تلك الحالة (المسئلة الثانية) احتج الاصحاب على ان فعل العبد خلق الله تعالى بقوله فجعله من الصالحين فالآية تدل على ان ذلك الصلاح انما حصل بجعل الله وخلقه قال الجبائي يحتمل ان يكون معنى جعله انه اخبر بذلك ويحتمل ان يكون لطف به حتى صلح اذ الجعل يستعمل في اللغة في هذه المعاني (والجواب) ان هذين الوجهين اللذين ذكرتم مجاز والاصل في الكلام الحقيقة * قوله تعالى (وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان مخففة من الثقيلة واللام علمها (المسئلة الثانية) قرئ ليزلقونك بضم الياء وفتحها وزلقه وازلقه بمعنى ويقال زلق الرأس وأزلقه حلقه وقرئ ليزهقونك من زهقت نفسه وأزهقها ثم فيه وجوه (احدها) انهم من شدة تحديقهم ونظرهم اليك شزرا بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك من قولهم نظر الى نظرا يكاد يصرعني ويكاد يأكلني اى لو امكنه بنظره الصرع او الاكل لفعله قال الشاعر

يتقارضون اذا التقوا في موطن * نظرا يزل مواطئ الاقدام

وانشد ابن عباس لما مر بأقوام حددوا النظر اليه

نظروا الى بأعين محمرة * نظر التيوس الى شفار الجازر

وبين الله تعالى ان هذا النظر كان يشتد منهم في حال قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن

حيرتهم في امره عليه الصلاة والسلام ونهاية جهلهم بما في تضاعيف القرآن من تعاجيب الحكم وبدائع العلوم المحجوبة عن العقول المنغمسة باحكام الطبائع ولتنفير الناس عنه (انه لمجنون) وحيث كان مدار حكمهم الباطل ما سمعوه منه عليه الصلاة والسلام رد ذلك ببيان علو شأنه وسطوع برهانه فقيل (وما هو الا ذكر للعالمين) على انه حال من فاعل يقولون مفيدة لغاية بطلان قولهم وتعجيب السامعين من جرأتهم على تفوه تلك العظيمة اى يقولون ذلك والحال انه ذكر للعالمين اى تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون اليه من امور دينهم فاين من انزل عليه ذلك وهو مطلع على اسراره طرا ومحيط بجميع حقائقه خبرا مما قالوا وقيل معناه شرف وفضل لقوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكونه مذكرا وشرفا للعالمين لاريب فيه * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القلم اعطاه الله ثواب الذين حسن الله اخلاقهم

وهو قوله لما سمعوا الذكر (الثانى) منهم من حمله على الاصابة بالعين وههنا مقامان (احدهما) الاصابة بالعين هل لها فى الجملة حقيقة املا (والثانى) ان بتقدير كونها صحيحة فهل الآية ههنا مفسرة بها املا (المقام الاول) من الناس من انكر ذلك وقال تأثير الجسم فى الجسم لايعقل الابواسطة المماسة وههنا لاممامسة فامتنع حصول التأثير واعلم ان المقدمة الاولى ضعيفة وذلك لان الانسان اما ان يكون عبارة عن النفس اوعن البدن فان كان الاول لم يمتنع اختلاف النفوس فى جواهرها وماهياتها واذا كان كذلك لم يمتنع ايضا اختلافها فى لوازمها وآثارها فلا يستبعد ان يكون لبعض النفوس خاصية فى التأثير وان كان الثانى لم يمتنع ايضا ان يكون مزاج انسان واقعا على وجه مخصوص يكون له اثر خاص وبالجملة فالاحتمال العقلى قائم وليس فى بطلانه شبهة فضلا عن حجة والدلائل السمعية ناطقة بذلك كما يروى انه عليه الصلاة والسلام قال العين حق وقال العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر (والمقام الثانى) من الناس من فسر الآية بهذا المعنى قالوا كانت العين فى بنى اسد وكان الرجل منهم يجوع ثلاثة ايام فلا يمر به شئ فيقول فيه لم اركاليوم مثله الا عانه فالتمس الكفار من بعض من كانت له هذه الصفة ان يقول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فعصمه الله تعالى وطعن الجبائى فى هذا التأويل وقال الاصابة بالعين تنشأ عن استحسان الشئ والقوم ما كانوا ينظرون الى الرسول عليه السلام على هذا الوجه بل كانوا يمقتونه ويبغضونه والنظر على هذا الوجه لا يقتضى الاصابة بالعين واعلم ان هذا السؤال ضعيف لانهم وان كانوا يبغضونه من حيث الدين لعلهم كانوا يستحسنون فصاحته وايراده للدلائل وعن الحسن دواء الاصابة بالعين قراءة هذه الآية ❊ ثم قال تعالى (ويقولون انه لمجنون) وهو على ما افتتح به السورة (وماهو) اى وما هذا القرآن الذى يزعمون انه دلالة جنونه (الاذكر للعالمين) فانه تذكير لهم وبيان لهم وادلة لهم وتنبيه لهم على ما فى عقولهم من ادلة التوحيد وفيه من الآداب والحكم وسائر العلوم مالاحد له ولا حصر فكيف يدعى من يتلوه مجنونا ونظيره مما يذكرون مع انه من أدل الامور على كمال الفضل والعقل والله اعلم بالصواب واليه المرجع والمآب

(سورة الحاقة خمسون وآيتان مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحاقة ماالحاقة ومادراك ماالحاقة) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اجمعوا على ان الحاقة هى القيامة واختلفوا فى معنى الحاقة على وجوه (احدها) ان الحق هو الثابت الكائن فالحاقة الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجئ التى هى آتية لاريب فيها (وثانيها) انها التى تحق فيها الامور اى تعرف على الحقيقة من قولك لاحق هذا اى لاعرف حقيقته جعل الفعل لها وهو لاهلها (وثالثها) انها ذوات الحواق من الامور وهى الصادقة الواجبة الصدق والثواب والعقاب وغيرهما من احوال القيامة امور واجبة الوقوع

(والوجود)

(سورة الحاقة مكية وآيها)
(احدى وخمسون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحاقة) اى الساعة اوالحالة الثابتة الوقوع الواجبة المجئ لامحالة اوالتى تحق فيها الامور الحقة من الحساب والثواب والعقاب اوالتى تحق فيها الامور اى تعرف على الحقيقة من حقه يحقه اذا عرف حقيقته جعل الفعل لها مجازا وهو لما فيها من الامور اولمن فيها من اولى العلم وايا ما كان فحذف الموصوف للايذان بكمال ظهور اتصافه بهذه الصفة وجريانها مجرى الاسم وارتفاعها على الابتداء خبرها (ماالحاقة) على ان ما مبتدأ ثان والحاقة خبره والجملة خبر للمبتدأ الاول والاصل ماهى اى اى شئ هى فى حالها وصفتها فان ما قد يطلب بها الصفة والحال فوضع الظاهر موضع المضمر تأكيدا لهولها هذا ماذكروه فى اعراب هذه الجملة ونظائرها وقد سبق فى سورة الواقعة ان مقتضى التحقيق ان تكون ما الاستفهامية خبرا لما بعدها فان مناط الافادة بيان ان الحاقة أمر بديع وخطب فظيع كما يفيده كون ما خبرا لابيان ان أمر ابديعا الحاقة كما يفيده كونها مبتدأ وكون الحاقة خبرا وقوله تعالى (ومادراك) اى واى شئ اعلمك (ماالحاقة) تأكيد لهولها

والوجود فهي كلها حواق (ورابعها) ان الحاقة بمعنى الحقة والحقة أخص من الحق واوجب تقول هذه حقتي اي حقي وعلى هذا الحاقة بمعنى الحق وهذا الوجه قريب من الوجه الاول (وخامسها) قال الليث الحاقة النازلة التي حقت بالجارية لها فلا كاذبة وهذا معنى قوله تعالى ليس لوقعتها كاذبة (وسادسها) الحاقة الساعة التي يحق فيها الجزاء على كل ضلال وهدى وهي القيامة (وسابعها) الحاقة هو الوقت الذي يحق على القوم ان يقع بهم (وثامنها) انها الحق بأن يكون فيها جميع آثار اعمال المكلفين فان في ذلك اليوم يحصل الثواب والعقاب ويخرج عن حد الانتظار وهو قول الزجاج (وتاسعها) قال الازهري والذي عندي في الحاقة انها سميت بذلك لانها تحق كل محاق في دين الله بالباطل اي تخاصم كل مخاصم وتغلبه من قولك حاققته فحققته اي غالبته فغلبته وفلجت عليه (وعاشرها) قال ابو مسلم الحاقة الفاعلة من حقت كلمة ربك (المسئلة الثانية) الحاقة مرفوعة بالابتداء وخبرها ما الحاقة والاصل الحاقة ماهي اي اي شئ هي تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها فوضع الظاهر موضع المضمر لانه اهول لها ومثله قوله القارعة ما القارعة وقوله وما ادراك اي واي شئ اعلمك ما الحاقة يعني انك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها يعني انه في العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية احد ولا وهمه وكيف ما قدرت حالها فهي اعظم من ذلك وما في موضع الرفع على الابتداء وادراك معلق عنه لتضمنه معنى الاستفهام ※ قوله تعالى (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) القارعة هي التي تقرع الناس بالافزاع والاهوال والسماء بالانشقاق والانفطار والارض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار وانما قال كذبت ثمود وعاد بالقارعة ولم يقل بها ليدل على ان معنى القرع حاصل في الحاقة فيكون ذلك زيادة على وصف شدتها ولما ذكرها وفخمها اتبع ذلك بذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيرا لاهل مكة وتخويفا لهم من عاقبة تكذيبهم ※ قوله تعالى (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) اعلم ان في الطاغية اقوالا (الاول) ان الطاغية هي الواقعة المجاوزة للحد في الشدة والقوة قال تعالى انا لما طغى الماء اي جاوز الحد وقال ما زاغ البصر وما طغى فعلى هذا القول الطاغية نعت محذوف واختلفوا في ذلك المحذوف فقال بعضهم انها الصيحة المجاوزة في القوة والشدة للصيحات قال تعالى انا ارسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر وقال بعضهم انها الرجفة وقال آخرون انها الصاعقة والقول الثاني ان الطاغية ههنا الطغيان فهي مصدر كالكاذبة والباقية والعاقبة والعافية اي اهلكوا بطغيانهم على الله اذ كذبوا رسله وكفروا به وهو منقول عن ابن عباس والمتأخرون طعنوا فيه من وجهين (الاول) وهو الذي قاله الزجاج انه لما ذكر في الجملة الثانية نوع الشئ الذي وقع به العذاب وهو قوله تعالى بريح صرصر وجب ان يكون الحال في الجملة الاولى كذلك حتى تكون المناسبة حاصلة (والثاني) وهو الذي قاله القاضي وهو انه لو كان المراد ما قالوه لكان من حق

وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات على معنى ان عظم شأنها ومدى هولها وشدتها بحيث لا تكاد تبلغه دراية احد ولا وهمه وكيفما قدرت حالها فهي اعظم من ذلك واعظم فلا يتسنى الاعلام وما في حيز الرفع على الابتداء وأدراك خبره ولا مساغ ههنا للعكس وما الحاقة جملة من مبتدأ وخبر على الوجه الذي عرفته محلها النصب على اسقاط الخافض لان أدرى يتعدى الى المفعول الثاني بالباء كما في قوله تعالى ولا ادراكم به فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت في موضع المفعول الثاني والجملة الكبيرة معطوفة على ما قبلها من الجملة الواقعة خبرا لقوله تعالى الحاقة مؤكدة لهولها كما مر (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) اي بالحالة التي تقرع الناس بفنون الافزاع والاهوال والسماء بالانشقاق والانفطار والارض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار ووضعها موضع ضمير الحاقة للدلالة على معنى القرع فيها تشديدا لهولها والجملة استئناف مسوق لاعلام بعض احوال الحاقة له عليه الصلاة والسلام اثر تقرير انه ما ادراه عليه الصلاة والسلام بها احد كما في قوله تعالى وما ادراك ماهيه نار حامية ونظائره خلا ان المبين هناك نفس المسؤل عنها وههنا حال من احوالها

الكلام ان يقال اهلكوا لها ولاجلها (والقول الثالث) بالطاغية اى بالفرقة التى طغت من جملة ثمود فتنا آمروا بعقر الناقة فعقروها اى اهلكوا بشؤم فرقتهم الطاغية ويجوز ان يكون المراد بالطاغية ذلك الرجل الواحد الذى اقدم على عقر الناقة واهلك الجميع لانهم رضوا بفعله وقيل له طاغية كما يقال فلان راوية الشعر وداهية وعلامة ونسابة ❊ قوله تعالى (واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) الصرصر الشديدة الصوت لها صرصرة وقيل الباردة من الصر كأنها التى كرر فيها البرد وكثر فهى تحرق بشدة بردها واما العاتية ففيها اقوال (الاول) قال الكلبى عتت على خزانها يومئذ فلم يحفظوا كم خرج منها ولم يخرج قبل ذلك ولا بعده منها شئ الا بقدر معلوم قال عليه الصلاة والسلام طغى الماء على خزانه يوم نوح وعتت الريح على خزانها يوم عاد فلم يكن لهم عليها سبيل فعلى هذا القول هى عاتية على الخزان (الثانى) قال عطاء عن ابن عباس يريد الريح عتت على عاد فاقدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء او استناد الى جبل فانها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم (القول الثالث) ان هذا ليس من العتو الذى هو عصيان انما هو بلوغ الشئ وانتهاؤه ومنه قولهم عتا النبت اى بلغ منتهاه وجف قال تعالى وقد بلغت من الكبر عتيا فعاتية اى بالغة منتهاها فى القوة والشدة ❊ قوله تعالى (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما) قال مقاتل سلطها عليهم وقال الزجاج اقامها عليهم وقال آخرون ارسلها عليهم هذه هى الالفاظ المنقولة عن المفسرين وعندى ان فيه لطيفة وذلك لان من الناس من قال ان تلك الرياح انما اشتدت لان اتصالا فلكيا نجوميا اقتضى ذلك فقوله سخرها فيه اشارة الى نفى ذلك المذهب وبيان ان ذلك انما حصل بتقدير الله وقدرته فانه لولا هذه الدقيقة لما حصل منه التخويف والتحذير عن العقاب وقوله سبع ليال وثمانية ايام حسوما الفائدة فيه انه تعالى لو لم يذكر ذلك لما كان مقدار زمان هذا العذاب معلوما فلما قال سبع ليال وثمانية ايام صار مقدار هذا الزمان معلوما ثم لما كان يمكن ان يظن ظان ان ذلك العذاب كان متفرقا فى هذه المدة أزال هذا الظن بقوله حسوما اى متتابعة متوالية واختلفوا فى الحسوم على وجوه (احدها) وهو قول الاكثرين حسوما اى متتابعة اى هذه الايام تتابعت عليهم بالريح المهلكة فلم يكن فيها فتور ولا انقطاع وعلى هذا القول حسوم جمع حاسم كشهود وقعود ومعنى الحسم فى اللغة القطع بالاستئصال وسمى السيف حساما لانه يحسم العدو عما يريد من بلوغ عداوته فلما كانت تلك الرياح متتابعة ما سكنت ساعة حتى أتت عليهم اشبه تتابعها عليهم تتابع فعل الحاسم فى اعادة الكى على الداء كرة بعد اخرى حتى ينحسم (وثانيها) ان تلك الرياح حسمت كل خير واستأصلت كل بركة فكانت حسوما او حسمتهم فلم يبق منهم احد فالحسوم على هذين القولين جمع حاسم (وثالثها) ان يكون الحسوم مصدرا كالشكور والكفور وعلى هذا التقدير فاما ان ينتصب بفعله مضمرا والتقدير يحسم حسوما يعنى

كما فى قوله تعالى وما ادراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من الف شهر فكما ان المبين هناك ليس نفس ليلة القدر بل فضلها وشرفها كذلك المبين ههنا هول الحاقة وعظم شأنها وكونها بحيث يحق اهلاك من يكذب بها كأنه قيل وما ادراك ما الحاقة كذبت بها ثمود وعاد فأهلكوا (فاما ثمود فأهلكوا بالطاغية) اى بالواقعة المجاوزة للحد وهى الصيحة او الرجفة (واما عاد فأهلكوا بريح صرصر) اى شديدة الصوت لها صرصرة او شديدة البرد تحرق ببردها (عاتية) شديدة العصف كأنها عتت على خزانها فلم يتمكنوا من ضبطها او على عاد فلم يقدروا على ردها وقوله تعالى (سخرها عليهم) الخ استئناف جئ به بيانا لكيفية اهلاكهم بالريح اى سلطها الله عليهم بقدرته القاهرة (سبع ليال وثمانية ايام حسوما) اى متتابعات جمع حاسم كشهود جمع شاهد من حسمت الدابة اذا تابعت بين كيها او نحسات حسمت كل خير واستأصلته او قاطعات قطعت دابرهم ويجوز ان يكون مصدرا منتصبا على العلة بمعنى قطعا او على المصدر لفعله المقدر حالا اى تحسمهم حسوما ويؤيده القراءة بالفتح وهى كانت ايام العجوز من صبيحة اربعاء الى غروب الاربعاء الآخر وانما سميت عجوزا لان

استأصل استئصالا اويكون صفة كقولك ذات حسوم او يكون مفعولا له اى سخرها
عليهم للاستئصال وقرأ السدى حسوما بالفتح حالا من الريح اى سخرها عليهم مستأصلة
وقيل هى ايام العجوز وانما سميت بأيام العجوز لان عجوزا من عاد توارت فى سرب فانتزعتها
الريح فى اليوم الثامن فأهلكتها وقيل هى ايام العجز وهى آخر الشتاء ✻ قوله تعالى
(فترى القوم فيها صرعى) اى فى مهابها وقال آخرون اى فى تلك الليالى والايام صرعى
جمع صريع قال مقاتل يعنى موتى يريد انهم صرعوا بموتهم فهم مصروعون صرع الموت
✻ ثم قال (كأنهم اعجاز نخل خاوية) اى كأنهم اصول نخل خالية الاجواف لاشئ فيها
والنخل يؤنث ويذكر قال الله تعالى فى موضع آخر كأنهم اعجاز نخل منقعر وقرئ اعجاز
نخيل ثم يحتمل انهم شبهوا بالنخيل التى قلعت من اصلها وهو اخبار عن عظيم خلقهم
واجسامهم ويحتمل ان يكون المراد به الاصول دون الجذوع اى ان الريح قد قطعتهم
حتى صاروا قطعا ضخاما كاصول النخل واما وصف النخل بالخواء فيحتمل ان يكون وصفا
للقوم فان الريح كانت تدخل اجوافهم فتصرعهم كالنخل الخاوية الجوف ويحتمل ان تكون
الخالية بمعنى البالية لانها اذا بليت خلت اجوافها فشبهوا بعد ان هلكوا بالنخيل البالية
✻ ثم قال تعالى (فهل ترى لهم من باقية) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى الباقية ثلاثة اوجه
(احدها) انها البقية (وثانيها) المراد من نفس باقية (وثالثها) المراد بالباقية البقاء
كالطاغية بمعنى الطغيان (المسئلة الثانية) ذهب قوم الى ان المراد انه لم يبق من نسل
اولئك القوم احد واستدل بهذه الآية على قولهم قال ابن جريج كانوا سبع ليال وثمانية
ايام احياء فى عقاب الله من الريح فلما أمسوا اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم فى
البحر فذاك هو قوله فهل ترى لهم من باقية وقوله فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم (القصة
الثانية) قصة فرعون ✻ قوله تعالى (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة) اى
ومن كان قبله من الامم التى كفرت كما كفر هو ومن لفظ عام ومعناه خاص فى الكفار دون
المؤمنين وقرأ ابو عمرو وعاصم والكسائى ومن قبله بكسر القاف وفتح الباء قال سيبويه
قبل لما ولى الشئ تقول ذهب قبل السوق ولى قبلك حق اى فيما يليك واتسع فيه حتى صار
بمنزلة لى عليك فمعنى من قبله اى من عنده من اتباعه وجنوده والذى يؤكد هذه القراءة ما روى
ان ابن مسعود وابيا وأبا موسى قرؤا ومن تلقاءه روى عن ابى وحده انه قرأ ومن معه اما قوله
والمؤتفكات فقد تقدم تفسيرها وهم الذين اهلكوا من قوم لوط على معنى والجماعات
المؤتفكات وقوله بالخاطئة فيه وجهان (الاول) ان الخاطئة مصدر كالخطأ (والثانى)
ان يكون المراد بالفعلة او الافعال ذات الخطأ العظيم ✻ قوله تعالى (فعصوا رسول ربهم
فأخذهم اخذة رابية) الضمير ان كان عائدا الى فرعون ومن قبله فرسول ربهم هو موسى
عليه السلام وان كان عائدا الى اهل المؤتفكات فرسول ربهم هو لوط قال الواحدى
والوجه ان يقال المراد بالرسول كلاهما للخبر عن الامتين بعد ذكرهما بقوله فعصوا فيكون

عجوزا من عاد توارت فى سرب
فانتزعتها الريح فى اليوم الثامن
فاهلكتها وقيل هى ايام العجز
وهى آخر الشتاء واسماؤها الصن
والصنبر والوبر والآمر والمؤتمر
والمعلل ومطفئ الجمر وقيل
ومكفئ الظعن (فترى القوم) ان
كنت حاضرا حينئذ (فيها) فى
مهابها او فى تلك الليالى والايام
(صرعى) موتى جمع صريع (كأنهم
اعجاز نخل) اى اصول نخل
(خاوية) متأكلة الاجواف
(فهل ترى لهم من باقية) اى بقية
اونفس باقية او بقاء على انها مصدر
كالكاذبة والطاغية (وجاء فرعون
ومن قبله) اى ومن تقدمه وقرئ
ومن قبله اى ومن عنده من اتباعه
ويؤيده انه قرئ ومن معه
(والمؤتفكات) اى قرى قوم
لوط اى اهلها (بالخاطئة) بالخطأ
أو بالفعلة او الافعال ذات الخطأ
التى من جملتها تكذيب البعث
والقيامة (فعصوا رسول ربهم)
اى فعصى كل امة رسولها حين
نهوهم عما كانوا يتعاطونه من
القبائح (فأخذهم) اى الله عز
وجل (اخذة رابية) اى زائدة فى
الشدة كما زادت قبائحهم فى القبح

كقوله انارسول رب العالمين وقوله فأخذهم أخذة رابية يقال ربا الشيء يربو اذا زاد ثم فيه وجهان (الاول) انها كانت زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفار كما ان افعالهم كانت زائدة في القبح على افعال سائر الكفار (الثاني) ان عقوبة آل فرعون في الدنيا كانت متصلة بعذاب الآخرة لقوله اغرقوا فادخلوا نارا وعقوبة الآخرة اشد من عقوبة الدنيا فتلك العقوبة كأنها كانت تنمو وتربو (القصة الثالثة) قصة نوح عليه السلام ※ قوله تعالى (انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية) طغى الماء على خزانه فلم يدروا كم خرج وليس ينزل من السماء قطرة قبل تلك الواقعة وبعدها الابكيل معلوم وسائر المفسرين قالوا طغى الماء اى تجاوز حده حتى علا كل شيء وارتفع فوقه حملناكم اى حملنا آباءكم وانتم في اصلابهم ولاشك ان الذين خوطبوا بهذا هم اولاد الذين كانوا في السفينة وقوله في الجارية يعني في السفينة التي تجري في الماء وهي سفينة نوح عليه السلام والجارية من اسماء السفينة ومنه قوله وله الجوارى ※ قوله تعالى (لنجعلها لكم تذكرة) الضمير في قوله لنجعلها الى ماذا يرجع فيه وجهان (الاول) قال الزجاج انه عائد الى الواقعة التي هي معلومة وان كانت ههنا غير مذكورة والتقدير لنجعل نجاة المؤمنين واغراق الكفرة عظة وعبرة (الثاني) قال الفراء لنجعل السفينة وهذا ضعيف والاول هو الصواب ويدل على صحته قوله وتعيها اذن واعية فالضمير في قوله وتعيها عائد الى ماعاد اليه الضمير الاول لكن الضمير في قوله وتعيها لايمكن عوده الى السفينة فكذا الضمير الاول ※ قوله تعالى (وتعيها أذن واعية) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) يقال لكل شيء حفظته في نفسك وعيته ووعيت العلم ووعيت ماقلت ويقال لكل ماحفظته في غير نفسك اوعيته يقال اوعيت المتاع في الوعاء ومنه قول الشاعر * والشر اخبث ماوعيت من زاد * واعلم ان وجه التذكير في هذا ان نجاة قوم من الغرق بالسفينة وتغريق من سواهم يدل على قدرة مدبر العالم ونفاذ مشيئته ونهاية حكمته ورحمته وشدة قهره وسطوته وعن النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول هذه الآية سألت الله ان يجعلها اذنك ياعلي قال علي فانسيت شيئا بعد ذلك وما كان لي ان انسى فان قيل لم قال اذن واعية على التوحيد والتنكير قلنا للايذان بان الوعاة فيهم قلة ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم وللدلالة على ان الاذن الواحدة اذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الاعظم عند الله وان ماسواها لايلتفت اليهم وان امتلأ العالم منهم (المسئلة الثانية) قراءة العامة وتعيها بكسر العين وروى عن ابن كثير وتعيها ساكنة العين كأنه جعل حرف المضارعة مع مابعده بمنزلة فخذ فأسكن كما اسكن الحرف المتوسط من فخذ وكبد وكتف وانما فعل ذلك لان حرف المضارعة لاينفصل من الفعل فاشبه ماهو من نفس الكلمة وصار كقول من قال وهو وهي ومثل ذلك قوله ويتقه في قراءة من سكن القاف ※ واعلم انه تعالى لما حكى هذه القصص الثلاثة ونبه بها على ثبوت القدرة والحكمة للصانع فحينئذ ثبت بثبوت القدرة امكان القيامة وثبت بثبوت الحكمة

من ربا الشيء اذا زاد (انا لما طغا الماء) بسبب اصرار قوم نوح على فنون الكفر والمعاصي ومبالغتهم في تكذيبه عليه الصلاة والسلام فيما اوحى اليه من الاحكام التي من جملتها احوال القيامة (حملناكم) اى في اصلاب آبائكم (في الجارية) في سفينة نوح عليه السلام والمراد بحملهم فيها رفعهم فوق الماء الى انقضاء ايام الطوفان لا مجرد رفعهم الى السفينة كما يعرب عنه كلمة في فانها ليست بصلة للحمل بل متعلقة بمحذوف هو حال من مفعوله اى رفعناكم فوق الماء وحفظناكم حال كونكم في السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا وفيه تنبيه على ان مدار نجاتهم محض عصمته تعالى انما السفينة سبب صوري (لنجعلها) اى لنجعل الفعلة التي هي عبارة عن انجاء المؤمنين واغراق الكافرين (لكم تذكرة) عبرة ودلالة على كمال قدرة الصانع وحكمته وقوة قهره وسعة رحمته (وتعيها) اى تحفظها والوعي ان تحفظ الشيء في نفسك والايعاء ان تحفظه في غير نفسك من وعاء وقرئ تعيها بسكون العين تشبيها له بكتف (اذن واعية) اى

امكان وقوع القيامة ولما ثبت ذلك شرع سبحانه فى تفاصيل احوال القيامة فذكر اولا مقدماتها ❊ فقال تعالى (فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ نفخة بالرفع والنصب وجه الرفع انه اسند الفعل اليها وانما حسن تذكير الفعل للفصل ووجه النصب ان الفعل مسند الى الجار والمجرور ثم نصب نفخة على المصدر (المسئلة الثانية) المراد من هذه النفخة الواحدة هى النفخة الاولى لان عندها يحصل خراب العالم فان قيل لم قال بعد ذلك يومئذ تعرضون والعرض انما يكون عند النفخة الثانية قلنا جعل اليوم اسما للحين الواسع الذى تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب فلذلك قال يومئذ تعرضون كما تقول جئته عام كذا وانما كان مجيئك فى وقت واحد من اوقاته ❊ قوله تعالى (وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) رفعت الارض والجبال اما بالزلزلة التى تكون فى القيامة واما بريح بلغت من قوة عصفها انها تحمل الارض والجبال او بملك من الملائكة او بقدرة الله من غير سبب فدكتا اى فدكت الجملتان جملة الارض وجملة الجبال فضرب بعضها ببعض حتى تندق وتصير كثيبا مهيلا وهباء منبثا والدك ابلغ من الدق وقيل فبسطتا بسطة واحدة فصارتا ارضا لاترى فيها عوجا ولا امتا من قولك اندك السنام اذا انفرش وبعير ادك وناقة دكاء ومنه الدكان (المسئلة الثانية) قال الفراء لايجوز فى دكة ههنا الا النصب لارتفاع الضمير فى دكتا ولم يقل فدككن لانه جعل الجبال كالواحدة والارض كالواحدة كما قال ان السموات والارض كانتا رتقا ولم يقل كن ❊ ثم قال تعالى (فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) اى فيومئذ قامت القيامة الكبرى وانشقت السماء لنزول الملائكة فهى يومئذ واهية اى مسترخية ساقطة القوة كالعهن المنفوش بعد ما كانت محكمة شديدة ❊ ثم قال (والملك على ارجائها) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله والملك لم يرد به ملكا واحدا بل اراد الجنس والجمع (المسئلة الثانية) الارجاء فى اللغة النواحى يقال رجا ورجوان والجمع الارجاء ويقال ذلك لحرف البئر وحرف القبر وما اشبه ذلك والمعنى ان السماء اذا انشقت عدلت الملائكة عن مواضع الشق الى جوانب السماء فان قيل الملائكة يموتون فى الصعقة الاولى لقوله فصعق من فى السموات ومن فى الارض فكيف يقال انهم يقفون على ارجاء السماء قلنا الجواب من وجهين (الاول) انهم يقفون لحظة على ارجاء السماء ثم يموتون (الثانى) ان المراد الذى استثناهم الله فى قوله الا من شاء الله ❊ قوله تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) فيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا العرش هو الذى اراده الله بقوله الذين يحملون العرش وقوله وترى الملائكة حافين من حول العرش (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله فوقهم الى ماذا يعود فيه وجهان (الاول) وهو الاقرب ان المراد فوق الملائكة الذين هم على الارجاء والمقصود التمييز بينهم وبين الملائكة الذين هم حملة العرش (الثانى) قال مقاتل يعنى ان الحملة يحملون العرش فوق

اذن من شأنها ان تحفظ ما يجب حفظه بتذكره واشاعته والتفكر فيه ولا تضيعه بترك العمل به والتنكير للدلالة على قلتها وان من هذا شأنه مع قلته يتسبب لنجاة الجم الغفير وادامة نسلهم وقرئ اذن بالتخفيف (فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) شروع فى بيان نفس الحاقة وكيفية وقوعها اثر بيان عظم شأنها باهلاك مكذبيها وانما حسن اسناد الفعل الى المصدر لتقييده وحسن تذكيره للفصل وقرئ نفخة واحدة بالنصب على اسناد الفعل الى الجار والمجرور والمراد بها النفخة الاولى التى عندها خراب العالم (وحملت الارض والجبال) اى قلعت ورفعت من اماكنها بمجرد القدرة الالهية او بتوسط الزلزلة او الريح العاصفة (فدكتا دكة واحدة) اى فضربت الجملتان اثر رفعهما بعضها ببعض ضربة واحدة حتى تندق وترجع كثيبا مهيلا وهباء منبثا وقيل فبسطتا بسطة واحدة فصارتا قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا امتا من قولهم اندك السنام اذا تفرش وبعير ادك وناقة دكاء ومنه الدكان (فيومئذ) فحينئذ (وقعت الواقعة)

رؤسهم والضمير قبل الذكر جائز كقوله * في بيته يؤتى الحكم * (المسئلة الثالثة) نقل عن الحسن رحمه الله انه قال لا ادرى ثمانية اشخاص او ثمانية آلاف او ثمانية صفوف او ثمانية آلاف صف واعلم ان حمله على ثمانية اشخاص اولى لوجوه (احدها) ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هم اليوم اربعة فاذا كان يوم القيامة ايدهم الله بأربعة آخرين فيكونون ثمانية ويروى ثمانية املاك ارجلهم في تخوم الارض السابعة والعرش فوق رؤسهم وهم مطرقون مسبحون وقيل بعضهم على صورة الانسان وبعضهم على صورة الاسد وبعضهم على صورة الثور وبعضهم على صورة النسر وروى ثمانية املاك في صورة الاوعال مابين اظلافها الى ركبها مسيرة سبعين عاما وعن شهر بن حوشب اربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك واربعة يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك (الوجه الثانى) في بيان ان الحمل على ثمانية اشخاص اولى من الحمل على ثمانية آلاف وذلك لان الثمانية اشخاص لابد منهم في صدق اللفظ ولا حاجة في صدق اللفظ الى ثمانية آلاف فحينئذ يكون اللفظ دالا على ثمانية اشخاص ولا دلالة فيه على ثمانية آلاف فوجب حمله على الاول (الوجه الثالث) وهو ان الموضع موضع التعظيم والتهويل فلو كان المراد ثمانية آلاف او ثمانية صفوف لوجب ذكره ليزداد التعظيم والتهويل فحيث لم يذكر ذلك علمنا انه ليس المراد الا ثمانية اشخاص (المسئلة الرابعة) قالت المشبهة لو لم يكن الله في العرش لكان حمل العرش عبثا عديم الفائدة ولا سيما وقد تأكد ذلك بقوله تعالى يومئذ تعرضون والعرض انما يكون لو كان الاله حاصلا في العرش اجاب اهل التوحيد عنه بأنه لا يمكن ان يكون المراد منه ان الله جالس في العرش وذلك لان كل من كان حاملا للعرش كان حاملا لكل ما كان في العرش فلو كان الاله في العرش للزم في الملائكة ان يكونوا حاملين لله تعالى وذلك محال لانه يقتضى احتياج الله اليهم وان يكونوا اعظم قدرة من الله تعالى وكل ذلك كفر صريح فعلمنا انه لابد فيه من التأويل فنقول السبب في هذا الكلام هو انه تعالى خاطبهم بما يتعارفونه فخلق لنفسه بيتا يزورونه وليس انه يسكنه تعالى الله عنه وجعل في ركن البيت حجرا هو يمينه في الارض اذ كان من شأنهم ان يعظموا رؤساءهم بتقبيل ايمانهم وجعل على العباد حفظة ليس لأن النسيان يجوز عليه سبحانه لكن لان هذا هو المتعارف فكذلك لما كان من شأن الملك اذا أراد محاسبة عماله جلس اليهم على سرير ووقف الاعوان حوله احضر الله يوم القيامة عرشا وحضرت الملائكة وحفت به لا لانه يقعد عليه او يحتاج اليه بل لمثل ما قلناه في البيت والطواف * قوله تعالى (يومئذ تعرضون) العرض عبارة عن المحاسبة والمساءلة شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف احواله نظيره قوله وعرضوا على ربك صفا وروى ان في القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ واما الثالثة ففيها تنشر الكتب فيأخذ السعيد كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله

اى قامت القيامة (وانشقت السماء) لنزول الملائكة (فهى) اى السماء (يومئذ واهية) ضعيفة مسترخية بعدما كانت محكمة (والملك) اى الخلق المعروف بالملك (على ارجائها) اى جوانبها جمع رجا بالقصر اى تنشق السماء التى هى مساكنهم فيلجؤن الى اكنافها وحافاتها (ويحمل عرش ربك فوقهم) فوق الملائكة الذين هم على الارجاء او فوق الثمانية (يومئذ ثمانية) من الملائكة عن النبى عليه الصلاة والسلام هم اليوم اربعة فاذا كان يوم القيامة ايدهم الله تعالى بأربعة آخرين فيكونون ثمانية وروى ثمانية املاك ارجلهم فى تخوم الارض السابعة والعرش فوق رؤسهم وهم مطرقون مسبحون وقيل بعضهم على صورة الانسان وبعضهم على صورة الاسد وبعضهم على صورة الثور وبعضهم على صورة النسر وروى ثمانية املاك فى خلق الاوعال ما بين اظلافها الى ركبها مسيرة سبعين عاما وعن شهر بن حوشب اربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك

❊ ثم قال تعالى (لاتخفى منكم خافية) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى الآية وجهان (الاول) تقدير الآية تعرضون لايخفى امركم فانه عالم بكل شئ ولايخفى عليه منكم خافية ونظيره قوله لايخفى على الله منهم شئ فيكون الغرض منه المبالغة فى التهديد يعنى تعرضون على من لايخفى عليه شئ اصلا (الوجه الثانى) المراد لايخفى يوم القيامة ماكان مخفيا منكم فى الدنيا فانه تظهر احوال المؤمنين فيتكامل بذلك سرورهم وتظهر احوال اهل العذاب فيظهر بذلك حزنهم وفضيحتهم وهو المراد من قوله يوم تبلى السرائر فماله من قوة ولاناصر وفى هذا اعظم الزجر والوعيد وهو خوف الفضيحة (المسئلة الثانية) قراءة العامة لاتخفى بالتاء المنقطة من فوقها واختار ابو عبيدة الياء وهى قراءة حمزة والكسائى قال لان الياء تجوز للذكر والانثى والتاء لاتجوز الا للانثى وههنا يجوز اسناد الفعل الى المذكور وهو ان يكون المراد بالخافية شئ ذو خفاء وايضا فقد وقع الفصل ههنا بين الاسم والفعل بقوله منكم ❊ واعلم انه تعالى لما ذكر ماينتهى هذا العرض اليه قال (فأما من اوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هاء صوت يصوت به فيفهم منه معنى خذ كاف وحس وقال ابو القاسم الزجاجى وفيه لغات واجودها ماحكاه سيبويه عن العرب فقال ومما يؤمر به من المبنيات قولهم هاء يافتى ومعناه تناول ويفتحون الهمزة ويجعلون فتحها علم المذكر كما قالوا هاك يافتى فيجعل فتحة الكاف علامة المذكر ويقال للاثنين هاؤما وللجمع هاؤموو هاؤم والميم فى هذا الموضع كالميم فى انتما وانتم وهذه الضمة التى تولدت فى همزة هاؤم انما هى ضمة ميم الجمع لان الاصل فيه هاؤمو وانتموا فاتبعوا الضمة الضمة وحكم واللاثنين بحكم الجمع لان الاثنين عندهم فى حكم الجمع فى كثير من الاحكام (المسئلة الثانية) اذا اجتمع عاملان على معمول واحد فاعمال الاقرب جائز بالاتفاق واعمال الابعد هل يجوز ام لا ذهب الكوفيون الى جوازه والبصريون منعوه واحتج البصريون على قولهم بهذه الآية لان قوله هاؤم ناصب وقوله اقرؤا ناصب ايضا فلو كان الناصب هو الابعد لكان التقدير هاؤم كتابيه فكان يجب ان يقول اقرؤه ونظيره آتونى افرغ عليه قطرا (واعلم) ان هذه الحجة ضعيفة لان هذه الآية دلت على ان الواقع ههنا اعمال الاقرب وذلك لانزاع فيه انما النزاع فى انه هل يجوز اعمال الابعد ام لا وليس فى الآية تعرض لذلك وايضا قد يحذف الضمير لان ظهوره يغنى عن التصريح به كما فى قوله والذاكرين الله كثيرا والذاكرات فلم لايجوز ان يكون ههنا كذلك ثم احتج الكوفيون بأن العامل الاول متقدم فى الوجود على العامل الثانى والعامل الاول حين وجد اقتضى معمولا لامتناع حصول العلة دون المعلول فصيرورة المعمول معمولا للعامل الاول متقدم على وجود العامل الثانى والعامل الثانى انما وجد بعد ان صار المعمول معمولا للعامل الاول فيستحيل ان يصير ايضا معمولا للعامل الثانى لامتناع تعليل الحكم الواحد بعلتين ولامتناع تعليل ماوجد قبل بما وجد بعد وهذه المسئلة من لطائف النحو

بعد قدرتك واربعة يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك وعن الحسن الله اعلم اثمانية اشخاص ام ثمانية آلاف وعن الضحاك ثمانية صفوف لايعلم عددهم الا الله تعالى ويجوز ان يكون الثمانية من الروح او من خلق آخر وقيل هو تمثيل لعظمته تعالى بما يشاهد من احوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العام لكونها اقصى مايتصور من العظمة والجلال والافشؤنه سبحانه اجل من كل مايحيط به فلك العبارة والاشارة (يومئذ تعرضون) اى تسئلون وتحاسبون عبر عنه بذلك تشبيها له بعرض السلطان العسكر لتعرف احوالهم روى ان فى يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فأعتذار واحتجاج وتوبيخ واما الثالثة ففيها تنشر الكتب فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك بشماله وهذا وان كان بعد النفخة الثانية لكن لما كان اليوم اسما لزمان متسع يقع فيه النفختان والصعقة والنشور والحساب وادخال اهل الجنة الجنة واهل النار النار صح

(المسئلة الثالثة) الهاء للسكت فى كتابيه وكذلك فى حسابيه وماليه وسلطانيه وحق هذه الهاآت ان تثبت فى الوقف وتسقط فى الوصل ولما كانت هذه الهاآت مثبتة فى المصحف والمثبتة فى المصحف لابد وان تكون مثبتة فى اللفظ ولم يحسن اثباتها فى اللفظ الا عند الوقف لاجرم استحبوا الوقف لهذا السبب وتجاسر بعضهم فأسقط هذه الهاآت عند الوصل وقرأ ابن محيصن باسكان الياء بغير هاء وقرأ جماعة باثبات الهاء فى الوصل والوقف جميعا لاتباع المصحف (المسئلة الرابعة) اعلم انه لما أوتى كتابه بيمينه ثم انه يقول هاؤم اقرؤا كتابيه دل ذلك على انه بلغ الغاية فى السرور لانه لما اعطى كتابه بيمينه علم انه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم فأحب ان يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله وقيل يقول ذلك لاهل بيته وقرابته ❁ ثم انه تعالى حكى عنه انه يقول (انى ظننت انى ملاق حسابيه) وفيه وجوه (الاول) المراد منه اليقين الاستدلالى وكل ماثبت بالاستدلال فانه لا ينفك من الخواطر المختلفة فكان ذلك شبيها بالظن (الثانى) التقدير انى كنت اظن انى ألاقى حسابى فيؤاخذنى الله بسيآتى فقد تفضل على بالعفو ولم يؤاخذنى بها فهاؤم اقرؤا كتابيه (وثالثها) روى ابو هريرة انه عليه السلام قال ان الرجل يؤتى به يوم القيامة ويؤتى كتابه فتكتب حسناته فى ظهر كفه وتكتب سيآته فى بطن كفه فينظر الى سيآته فيحزن فيقال له اقلب كفك فينظر فيه فيرى حسناته فيفرح ثم يقول هاؤم اقرأوا كتابيه انى ظننت عند النظرة الاولى انى ملاق حسابيه على سبيل الشدة واما الآن فقد فرج الله عنى ذلك الغم واما فى حق الاشقياء فيكون ذلك على الضد مما ذكرنا (ورابعها) ظننت اى علمت وانما اجرى الظن مجرى العلم لان الظن الغالب يقام مقام العلم فى العادات والاحكام يقال اظن ظنا كاليقين ان الامر كيت وكيت (وخامسها) المراد انى ظننت فى الدنيا ان بسبب الاعمال التى كنت اعملها فى الدنيا سأصل فى القيامة الى هذه الدرجات وقد حصلت الآن على اليقين فيكون الظن على ظاهره لان اهل الدنيا لا يقطعون بذلك ❁ ثم بين تعالى عاقبة امره فقال (فهو فى عيشة راضية) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) وصف العيشة بأنها راضية فيه وجهان (الاول) المعنى انها منسوبة الى الرضا كالدارع والنابل والنسبة نسبتان نسبة بالحروف ونسبة بالصيغة (والثانى) انه جعل الرضا للعيشة مجازا مع انه لصاحب العيشة (المسئلة الثانية) ذكروا فى حد الثواب انه لابد وان يكون منفعة ولابد وان تكون خالصة عن الشوائب ولابد وان تكون دائمة ولابد وان تكون مقرونة بالتعظيم فالشئ انما يكون مرضيا به من جميع الجهات لو كان مشتملا على هذه الصفات فقوله عيشة راضية كلمة حاوية لمجموع هذه الشرائط التى ذكرناها ❁ ثم قال تعالى (فى جنة عالية) وهو من صلة عيشة راضية اى يعيش عيشا مرضيا فى جنة عالية والعلو ان اريد به العلو فى المكان فهو حاصل لان الجنة فوق السموات فان قيل أليس ان منازل البعض فوق منازل الآخرين فهؤلاء السافلون لا يكونون فى الجنة العالية قلنا ان كون

(بعضها)

جعله ظرفا للكل (لاتخفى منكم خافية) حال من مرفوع تعرضون اى تعرضون غير خاف عليه تعالى سر من اسراركم قبل ذلك ايضا وانما العرض لافشاء الحال والمبالغة فى العدل او غير خاف يومئذ على الناس كقوله تعالى يوم تبلى السرائر وقرئ يخفى بالياء التحتانية (فأما من اوتى كتابه بيمينه) تفصيل لاحكام العرض (فيقول) تبجحا وابتهاجا (هاؤم اقرؤا كتابيه) هاسم لخذ وفيه ثلاث لغات اجودهن هاء يارجل وهاء يا امرأة وهاؤما يارجلان او امرأتان وهاؤن يارجال وهاؤن يانسوة ومفعوله محذوف وكتابيه مفعول اقرؤا لانه اقرب العاملين ولانه لو كان مفعول هاؤم لقيل اقرؤه اذ الاولى اضماره حيث امكن والهاء فيه وفى حسابيه وماليه وسلطانيه للسكت تثبت فى الوقف وتسقط فى الوصل واستحب اثباتها لثباتها فى الامام (انى ظننت انى ملاق حسابيه) اى علمت ولعل التعبير عنه بالظن للاشعار بأنه لايقدح فى الاعتقاد ما يهجس فى النفس من الخطرات التى لاتنفك

بعضها دون بعض لايقدح فى كونها عالية وفوق السموات وان اريد العلو فى الدرجة والشرف فالامر كذلك وان اريد به كون تلك الابنية عالية مشرفة فالامر ايضا كذلك ❊ ثم قال تعالى (قطوفها دانية) اى ثمارها قريبة التناول يأخذها الرجل كما يريد ان احب ان يأخذها بيده انقادت له قائما او جالسا او مضطجعا وان احب ان تدنو الى فيه ذنت والقطوف جمع قطف وهو المقطوف ❊ ثم قال تعالى (كلوا واشربوا هنيأ بما اسلفتم فى الايام الخالية) والمعنى يقال لهم ذلك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) منهم من قال قوله كلوا ليس بأمر ايجاب ولا ندب لان الآخرة ليست دار تكليف ومنهم من قال لايبعد ان يكون ندبا اذا كان الغرض منه تعظيم ذلك الانسان وادخال السرور فى قلبه (المسئلة الثانية) انما جمع الخطاب فى قوله كلوا بعد قوله فهو فى عيشة لقوله فأما من اوتى ومن مضمن معنى الجمع (المسئلة الثالثة) قوله ماسلفتم اى قدمتم من اعمالكم الصالحة ومعنى الاسلاف فى اللغة تقديم ماترجو أن يعود عليك بخير فهو كالاقراض ومنه يقال اسلف فى كذا اذا قدم فيه ماله والمعنى بما عملتم من الاعمال الصالحة والايام الخالية المراد منها ايام الدنيا والخالية الماضية ومنه قوله وقد خلت القرون من قبلى وتلك امة قد خلت وقال الكلبى بما اسلفتم يعنى الصوم وذلك انهم لما امروا بالاكل والشرب دل ذلك على انه لمن امتنع فى الدنيا عنه بالصوم طاعة لله تعالى (المسئلة الرابعة) قوله بما اسلفتم يدل على انهم انما استحقوا ذلك الثواب بسبب عملهم وذلك يدل على ان العمل موجب للثواب وايضا لو كانت الطاعات فعلا لله تعالى لكان قد اعطى الانسان ثوابا لا على فعل فعله الانسان وذلك محال وجوابه معلوم ❊ قوله تعالى (واما من اوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم اوت كتابيه ولم ادر ما حسابيه) واعلم انه تعالى بين انه لما نظر فى كتابه وتذكر قبائح افعاله خجل منها وصار العذاب الحاصل من تلك الخجالة ازيد من عذاب النار فقال ليتهم عذبونى بالنار وما عرضوا هذا الكتاب الذى ذكرنى قبائح افعالى حتى لا اقع فى هذه الخجالة وهذا ينبهك على ان العذاب الروحانى اشد من العذاب الجسمانى وقوله ولم ادر ماحسابيه اى ولم ادر اى شئ حسابيه لانه لا حاصل ولا طائل له فى ذلك الحساب وانما كله عليه ❊ ثم قال تعالى (ياليتها كانت القاضية) الضمير فى ياليتها الى ماذا يعود فيه وجهان (الاول) الى الموتة الاولى وهى وان لم تكن مذكورة الا انها لظهورها كانت كالمذكور والقاضية القاطعة عن الحياة وفيها اشارة الى الانتهاء والفراغ قال تعالى فاذا قضيت ويقال قضى فلان اى مات فالمعنى ياليت الموتة التى متها كانت القاطعة لأمرى فلم ابعث بعدها ولم ألق ماوصلت اليه قال قتادة تمنى الموت ولم يكن فى الدنيا عنده شئ اكره من الموت وشر من الموت مايطلب له الموت قال الشاعر

وشر من الموت الذى ان لقيته ❊ تمنيت منه الموت والموت اعظم

(والثانى) انه عائد الى الحالة التى شاهدها عند مطالعة الكتاب والمعنى ياليت هذه الحالة

عنها العلوم النظرية غالبا (فهو فى عيشة راضية) ذات رضا على النسبة بالصيغة كما يقال دارع فى النسبة بالحرف او جعل الفعل لها مجازا وهو لصاحبها وذلك لكونها صافية عن الشوائب دائمة مقرونة بالتعظيم (فى جنة عالية) مرتفعة المكان لانها فى السماء او الدرجات او الابنية والاشجار (قطوفها) جمع قطف وهو مايجتنى بسرعة والقطف بالفتح مصدر (دانية) يتناولها القاعد (كلوا واشربوا) باضمار القول والجمع باعتبار المعنى (هنيئا) اكلا وشربا هنيئا او هنئتم هنيئا (بما اسلفتم) بمقابلة ماقدمتم من الاعمال الصالحة (فى الايام الخالية) اى الماضية فى الدنيا وعن مجاهد ايام الصيام وروى يقول الله تعالى يا اوليائى طالما نظرت اليكم فى الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الاشربة وغارت اعينكم وخمصت بطونكم فكونوا اليوم فى نعيمكم وكلوا واشربوا الآية (واما من اوتى كتابه بشماله) ورأى مافيه من قبائح الاعمال (فيقول ياليتنى لم اوت كتابيه ولم ادر ما حسابيه) لما شاهد من سوء العاقبة (ياليتها) ياليت الموتة التى متها (كانت القاضية) اى القاطعة لامرى ولم ابعث بعدها ولم الق ماالقى فضمير ليتها للموتة ويجوز ان

كانت الموتة التي قضيت علي لانه رأى تلك الحالة أبشع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت وشدته فتمناه عندها * ثم قال تعالى (ما اغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) ما اغنى نفى او استفهام على وجه الانكار اى اى شئ اغنى عنى ما كان لى من اليسار ونظيره قوله ويأتينا فردا وقوله هلك عنى سلطانيه فى المراد بسلطانيه وجهان (احدهما) قال ابن عباس ضلت عنى حجتى التى كنت احتج بها على محمد فى الدنيا وقال مقاتل ضلت عنى حجتى يعنى حين شهدت عليه الجوارح بالشرك (والثانى) ذهب ملكى وتسلطى على الناس وبقيت فقيرا ذليلا وقيل معناه انى انما كنت أنازع المحقين بسبب الملك والسلطان فالآن ذهب ذلك الملك وبقى الوبال * واعلم انه تعالى ذكر سرور السعداء اولا ثم ذكر احوالهم فى العيش الطيب وفى الاكل والشرب كذا ههنا ذكر غم الاشقياء وحزنهم ثم ذكر أحوالهم فى الغل والقيد وطعام الغسلين فأولها ان تقول لخزنة جهنم خذوه فيبتدر اليه مائة الف ملك وتجمع يده الى عنقه فذلك قوله فغلوه وقوله ثم الجحيم صلوه قال المبرد اصليته النار اذا أوردته اياها وصليته ايضا كما يقال اكرمته وكرمته وقوله ثم الجحيم صلوه معناه لا تصلوه الا الجحيم وهى النار العظمى لانه كان سلطانا يتعظم على الناس ثم فى سلسلة وهى حلق منتظمة كل حلقة منها فى حلقة وكل شئ مستمر بعد شئ على الولاء والنظام فهو مسلسل وقوله ذرعها معنى الذرع فى اللغة التقدير بالذراع من اليد يقال ذرع الثوب يذرعه ذرعا اذا قدره بذراعه وقوله سبعون ذراعا فيه قولان (احدهما) انه ليس الغرض التقدير بهذا المقدار بل الوصف بالطول كما قال ان تستغفر لهم سبعين مرة يريد مرات كثيرة (والثانى) انه مقدر بهذا المقدار ثم قالوا كل ذراع سبعون باعا وكل باع ابعد مما بين مكة والكوفة وقال الحسن الله اعلم بأى ذراع هو وقوله فاسلكوه قال المبرد يقال سلكته فى الطريق وفى القيد وغير ذلك واسلكته معناه ادخلته ولغة القرآن سلكته قال الله تعالى ما سلككم فى سقر وقال سلكناه فى قلوب المجرمين قال ابن عباس تدخل السلسلة من دبره وتخرج من حلقه ثم يجمع بين ناصيته وقدميه وقال الكلبى كما يسلك الخيط فى اللؤلؤ ثم يجعل فى عنقه سائرها وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة فى تطويل هذه السلسلة (الجواب) قال سويد ابن ابى نجيح بلغنى ان جميع اهل النار فى تلك السلسلة واذا كان الجمع من الناس مقيدين بالسلسلة الواحدة كان العذاب على كل واحد منهم بذلك السبب اشد (السؤال الثانى) سلك السلسلة فيهم معقول اما سلكهم فى السلسلة فما معناه (الجواب) سلكه فى السلسلة ان تلوى على جسده حتى تلتف عليه اجزاؤها وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة وقال الفراء المعنى ثم اسلكوا فيه السلسلة كما يقال ادخلت رأسى فى القلنسوة وادخلتها فى رأسى ويقال الخاتم لا يدخل فى اصبعى والاصبع هو الذى يدخل فى الخاتم (السؤال الثالث) لم قال فى سلسلة فاسلكوه ولم يقل فاسلكوه فى سلسلة (الجواب) المعنى

يكون لما شاهده من الحالة اى ياليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضيت على لانه وجدها امر من الموت فتمناه عندها وقد جوز ان يكون للحياة الدنيا اى ياليت الحياة الدنيا كانت الموتة ولم اخلق حيا (ما اغنى عنى ماليه) مالى من المال والاتباع على ان ما نافية والمفعول محذوف او استفهامية للانكار اى اى شئ اغنى عنى ما كان لى من اليسار (هلك عنى سلطانيه) ى ملكى وتسلطى على الناس او حجتى التى كنت احتج بها فى الدنيا اوتسلطى على القوى والآلات فعجزت عن استعمالها فى العبادات (خذوه) حكاية لما يقول الله تعالى يومئذ لخزنة النار (فغلوه) اى شدوه بالاغلال (ثم الجحيم صلوه) اى لا تصلوه الا الجحيم وهى النار العظيمة ليكون الجزاء على وفق المعصية حيث كان يتعاظم على الناس (ثم فى سلسلة ذرعها) اى طولها (سبعون ذراعا فاسلكوه) فادخلوه فيها بأن تلفوها على جسده فهو فيما بينها مرهق لا يستطيع حراكا ما وتقديم السلسلة كتقديم الجحيم للدلالة على الاختصاص والاهتمام بذكر الوان ما يعذب به وثم لتفاوت ما بين الغل والتصلية وما بينهما وبين السلك فى السلسلة فى الشدة

في تقديم السلسلة على السلك هو الذي ذكرناه في تقديم الجحيم على التصلية اى لاتسلكوه الا في هذه السلسلة لأنها افظع من سائر السلاسل (السؤال الرابع) ذكر الاغلال والتصلية بالفاء وذكر السلك في هذه السلسلة بلفظ ثم فما الفرق (الجواب) ليس المراد من كلمة ثم تراخي المدة بل التفاوت في مراتب العذاب ❊ واعلم انه تعالى لما شرح هذا العذاب الشديد ذكر سببه فقال (انه كان لايؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين) فالاول اشارة الى فساد حال القوة العاقلة (والثانى) اشارة الى فساد حال القوة العملية وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله ولا يحض على طعام المسكين فيه قولان (احدهما) ولا يحض على بذل طعام المسكين (والثانى) ان الطعام ههنا اسم اقيم مقام الاطعام كما وضع العطاء مقام الاعطاء في قوله * وبعد عطائك المائة الرتاعا * (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قوله ولا يحض على طعام المسكين فيه دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المساكين (احدهما) عطفه على الكفر وجعله قرينة له (والثانى) ذكر الحض دون الفعل ليعلم ان تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بمن يترك الفعل (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان الكفار يعاقبون على ترك الصلاة والزكاة وهو المراد من قولنا انهم مخاطبون بفروع الشرائع وعن ابى الدرداء انه كان يحض امرأته على تكثير المرق لاجل المساكين ويقول خلعنا نصف السلسلة بالايمان أفلا نخلع النصف الباقي وقيل المراد منه منع الكفار وقولهم أنطعم من لو يشاء الله اطعمه ❊ ثم قال تعالى (فليس له اليوم ههنا حميم) اى ليس له في الآخرة حميم اى قريب يدفع عنه ويحزن عليه لانهم يتحامون ويفرون منه كقوله ولا يسأل حميم حميما وكقوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ❊ قوله تعالى (ولا طعام الا من غسلين) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) يروى ان ابن عباس سئل عن الغسلين فقال لا ادرى ما الغسلين وقال الكلبي هو ماء يسيل من اهل النار من القيح والصديد والدم اذا عذبوا فهو غسلين فعلين من الغسل (المسئلة الثانية) الطعام ما هيئ للاكل فلما هيئ الصديد ليأكله اهل النار كان طعاما لهم ويجوز ان يكون المعنى ان ذلك اقيم له مقام الطعام فسمى طعاما كما قال * تحية بينهم ضرب وجيع * والتحية لا تكون ضربا الا انه لما اقيم مقامه جاز ان يسمى به ❊ ثم انه تعالى ذكر ان الغسلين اكل من هو فقال (لا يأكله الا الخاطئون) الآثمون اصحاب الخطايا وخطئ الرجل اذا تعمد الذنب وهم المشركون وقرئ الخاطيون بابدال الهمزة ياء والخاطون بطرحها وعن ابن عباس انه طعن في هذه القراءة وقال ما الخاطون كلنا نخطو انما هو الخاطؤن ما الصابون انما هو الصابؤن ويجوز ان يجاب عنه بأن المراد الذين يتخطون الحق الى الباطل ويتعدون حدود الله ❊ واعلم انه تعالى لما اقام الدلالة على امكان القيامة ثم على وقوعها ثم ذكر احوال السعداء واحوال الاشقياء ختم الكلام بتعظيم القرآن فقال (فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) منهم من قال المراد اقسم ولا صلة

(انه كان لا يؤمن بالله العظيم) تعليل بطريق الاستئناف التحقيقي ووصفه تعالى بالعظم للايذان بأنه المستحق للعظمة فحسب فمن نسبها الى نفسه استحق اعظم العقوبات (ولا يحض على طعام المسكين) ولا يحث على بذل طعامه او على اطعامه فضلا ان يبذل من ماله وقيل ذكر الحض للتنبيه على ان تارك الحض بهذه المنزلة فما ظنك بتارك الفعل وفيه دلالة على ان الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذة قالوا تخصيص الامرين بالذكر لما ان اقبح العقائد الكفر واشنع الرذائل البخل وقسوة القلب (فليس له اليوم ههنا حميم) اى قريب يحميه ويدفع عنه ويحزن عليه لان اولياءه يتحامونه ويفرون منه (ولا طعام الا من غسلين) اى من غسالة اهل النار وصديدهم فعلين من الغسل (لا يأكله الا الخاطئون) اصحاب الخطايا من خطئ الرجل اذا تعمد الذنب لا من الخطأ المقابل للصواب دون المقابل للعمد عن ابن عباس رضى الله عنهما انهم المشركون وقرئ الخاطيون بابدال الهمزة ياء وقرئ بطرحها وقد جوز ان يراد بهم الذين يتخطون الحق الى الباطل

او يكون ردا لكلام سبق ومنهم من قال لا ههنا نافية للقسم كأنه قال لا اقسم على ان هذا القرآن قول رسول كريم يعني انه لوضوحه يستغني عن القسم والاستقصاء في هذه المسئلة سنذكره في اول سورة لا اقسم بيوم القيامة (المسئلة الثانية) قوله بما تبصرون ومالا تبصرون يعم جميع الاشياء على الشمول لانها لاتخرج من قسمين مبصر وغير مبصر فشمل الخالق والخلق والدنيا والآخرة والاجسام والارواح والانس والجن والنعم الظاهرة والباطنة ❊ ثم قال تعالى (انه لقول رسول كريم) واعلم انه تعالى ذكر في سورة اذا الشمس كورت مثل هذا الكلام والاكثرون هنالك على ان المراد منه جبريل عليه السلام والاكثرون ههنا على ان المراد منه محمد صلى الله عليه وسلم واحتجوا على الفرق بأن ههنا لما قال انه لقول رسول كريم ذكر بعده انه ليس بقول شاعر ولا كاهن والقوم ماكانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة بل كانوا يصفون محمدا بهذين الوصفين واما في سورة اذا الشمس كورت لما قال انه لقول رسول كريم ثم قال بعده وماهو بقول شيطان رجيم كان المعنى انه قول ملك كريم لاقول شيطان رجيم فصح ان المراد من الرسول الكريم ههنا هو محمد وفي تلك السورة هو جبريل عليه السلام وعند هذا يتوجه السؤال ان الامة مجمعة على ان القرآن كلام الله تعالى وحينئذ يلزم ان يكون الكلام الواحد كلام الله تعالى ولجبريل ولمحمد وهذا غير معقول (الجواب) انه يكفي في صدق الاضافة ادنى سبب فهو كلام الله تعالى بمعنى انه تعالى هو الذي اظهره في اللوح المحفوظ وهو الذي رتبه ونظمه وهو كلام جبريل عليه السلام بمعنى انه هو الذي انزله من السموات الى الارض وهو كلام محمد بمعنى انه هو الذي اظهره للخلق ودعا الناس الى الايمان به وجعله حجة لنبوته ❊ ثم قال تعالى (وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون) وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الجمهور تؤمنون وتذكرون بالتاء المنقوطة من فوق على الخطاب الا ابن كثير فانه قرأهما بالياء على المغايبة فمن قرأ على الخطاب فهو عطف على قوله بما تبصرون ومالا تبصرون ومن قرأ على المغايبة سلك فيه مسلك الالتفات (المسئلة الثانية) قالوا لفظة ما في قوله قليلا ماتؤمنون قليلا ماتذكرون لغو وهي مؤكدة وفي قوله قليلا وجهان (الاول) قال مقاتل يعني بالقليل انهم لايصدقون بأن القرآن من الله والمعنى لايؤمنون اصلا والعرب يقولون قلما يأتينا يريدون لايأتينا (الثاني) انهم قد يؤمنون في قلوبهم الا انهم يرجعون عنه سريعا ولا يتمون الاستدلال ألا ترى الى قوله انه فكر وقدر الا انه في آخر الامر قال ان هذا الا سحر يؤثر (المسئلة الثالثة) ذكر في نفي الشاعرية قليلا ماتؤمنون وفي نفي الكاهنية قليلا ماتذكرون والسبب فيه كأنه تعالى قال ليس هذا القرآن قولا من رجل شاعر لان هذا الوصف مباين لصنوف الشعر كلها الا انكم لاتؤمنون اى لاتقصدون الايمان فلذلك تعرضون عن التدبر ولو قصدتم الايمان لعلمتم كذب قولكم انه شاعر لمفارقة هذا التركيب ضروب الشعر ولا ايضا بقول

ويتعدون حدود الله (فلا اقسم) اى فأقسم على ان لا مزيدة للتأكيد واما حمله على معنى نفي الاقسام لظهور الامر واستغنائه عن التحقيق فيرده تعيين المقسم به بقوله تعالى (بما تبصرون ومالا تبصرون) كما مر في سورة الواقعة اى اقسم بالمشاهدات والمغيبات وقيل بالدنيا والآخرة وقيل بالاجسام والارواح والانس والجن والخلق والخالق والنعم الظاهرة والباطنة والاول منتظم للكل (انه) اى القرآن (لقول رسول) يبلغه عن الله تعالى فان الرسول لايقول عن نفسه (كريم) على الله تعالى وهو النبي او جبريل عليهما السلام (وماهو بقول شاعر) كما تزعمون تارة (قليلا ماتؤمنون) ايمانا قليلا تؤمنون (ولا بقول كاهن) كما تدعون ذلك تارة اخرى (قليلا ماتذكرون) اى تذكرا قليلا اوزمانا قليلا تتذكرون على ان القلة بمعنى النفي اى لاتؤمنون ولاتتذكرون اصلا قيل ذكر الايمان مع نفي الشاعرية والتذكر مع نفي الكاهنية لما ان عدم مشابهة القرآن الشعر امر بين لاينكره الا معاند بخلاف مباينته للكهانة فانها تتوقف على تذكر احواله عليه الصلاة والسلام

(كاهن)

كاهن لانه وارد بسب الشياطين وشتمهم فلا يمكن ان يكون ذلك بالهام الشياطين الا انكم لاتتذكرون كيفية نظم القرآن واشتماله على شتم الشياطين فلهذا السبب تقولون انه من باب الكهانة ※ قوله تعالى (تنزيل من رب العالمين) اعلم ان نظير هذه الآية قوله في الشعراء وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين فهو كلام رب العالمين لانه تنزيله وهو قول جبريل لانه نزل به وهو قول محمد لانه انذر الخلق به فههنا ايضا لما قال فيما تقدم انه لقول رسول كريم اتبعه بقوله تنزيل من رب العالمين حتى يزول الاشكال وقرأ ابو السمال تنزيلا اى نزل تنزيلا ※ ثم قال تعالى (ولو تقول علينا بعض الاقاويل) قرئ ولو تقول على البناء للمفعول التقول افتعال القول لان فيه تكلفا من المفتعل وسمى الاقوال المتقولة أقاويل تحقيرا لهـا كقولك الاعاجيب والاضاحيك كأنها جمع افعولة من القول والمعنى ولو نسب الينا قولا لم نقله ※ ثم قال تعالى (لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى الآية وجوه (الاول) معناه لأخذنا بيده ثم لضربنا رقبته وهذا ذكره على سبيل التمثيل بما يفعله الملوك بمن يتكذب عليهم فانهم لا يمهلونه بل يضربون رقبته فى الحال وانما خص اليمين بالذكر لان القتال اذا أراد ان يوقع الضرب فى قفاه اخذ بيساره واذا أراد ان يوقعه فى جيده وان يلحقه بالسيف وهو اشد على المعمول به ذلك العمل لنظره الى السيف اخذ بيمينه ومعناه لأخذنا بيمينه كما ان قوله لقطعنا منه الوتين لقطعنا وتينه وهذا تفسير بين وهو منقول عن الحسن البصرى (القول الثانى) ان اليمين بمعنى القوة والقدرة وهو قول الفراء والمبرد وانشدوا قول الشماخ

اذا ما راية رفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمين

والمعنى لأخذنا منه اليمين اى سلبنا عنه القوة والباء على هذا التقدير صلة زائدة قال ابن قتيبة وانما قام اليمين مقام القوة لان قوة كل شئ فى ميامنه (القول الثالث) قال مقاتل لأخذنا منه باليمين يعنى انتقمنا منه بالحق واليمين على هذا القول بمعنى الحق كقوله تعالى انكم كنتم تأتوننا عن اليمين اى من قبل الحق واعلم ان حاصل هذه الوجوه انه لو نسب الينا قولا لم نقله لمنعناه عن ذلك اما بواسطة اقامة الحجة فانا كنا نقيض له من يعارضه فيه وحينئذ يظهر للناس كذبه فيه فيكون ذلك ابطالا لدعواه وهدما لكلامه واما بان نسلب عنه القدرة على التكلم بذلك القول وهذا هو الواجب فى حكمة الله تعالى لئلا يشتبه الصادق بالكاذب (المسئلة الثانية) الوتين هو العرق المتصل من القلب بالرأس الذى اذا قطع مات الحيوان قال ابو زيد وجمعه الوتن وثلاثة اوتنة والموتون الذى قطع وتينه قال ابن قتيبة ولم يرد انا نقطعه بعينه بل المراد انه لو كذب لامتناه فكان كمن قطع وتينه ونظيره قوله عليه السلام مازالت اكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان انقطاع ابهرى والابهر عرق يتصل بالقلب فاذا انقطع مات صاحبه فكأنه قال هذا اوان ان يقتلنى السم وحينئذ صرت كمن

ومعانى القرآن المنافية لطريقة الكهنة ومعانى اقوالهم وانت خبير بأن ذلك ايضا مما لا يتوقف على تأمل قطعا وقرئ بالياء فيهما (تنزيل من رب العالمين) نزله على لسان جبريل عليه السلام (ولو تقول علينا بعض الاقاويل) سمى الافتراء تقولا لانه قول متكلف والاقوال المفتراة اقاويل تحقيرا لها كأنها جمع افعولة من القول كالاضاحيك (لاخذنا منه باليمين) اى بيمينه (ثم لقطعنا منه الوتين) اى نياط قلبه بضرب عنقه وهو تصوير لاهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه وهو ان يأخذ القتال بيمينه ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه وقيل اليمين بمعنى القوة قال قائلهم

اذا ما راية رفعت لمجد
تلقاها عرابة باليمين

(فما منكم) أيها الناس (من احد عنه) عن القتل او المقتول (حاجزين) دافعين وصف لاحد فانه عام (وانه) اى وان القرآن (لتذكرة للمتقين) لانهم المنتفعون به (وانا لنعلم ان منكم مكذبين) فنجازيهم على تكذيبهم (وانه لحسرة على الكافرين) عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين (وانه لحق اليقين) الذى لا يحوم حوله

انقطع ابهره * ثم قال تعالى (فامنكم من احد عنه حاجزين) قال مقاتل والكلبي معناه ليس منكم احد يحجزنا عنه او يحجزنا عن ذلك الفعل قال الفراء والزجاج انما قال حاجزين في صفة احد لان احداهنا في معنى الجمع لانه اسم يقع في النفي العام مستويا فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ومنه قوله تعالى لانفرق بين احد من رسله وقوله لستن كأحد من النساء واعلم ان الخطاب في قوله تعالى فامنكم للناس واعلم انه تعالى لما بين ان القرآن تنزيل من الله الحق بواسطة جبريل على محمد الذي من صفته انه ليس بشاعر ولا كاهن بين بعد ذلك ان القرآن ماهو * فقال (وانه لتذكرة للمتقين) وقد بينا في اول سورة البقرة في قوله هدى للمتقين مافيه من البحث * ثم قال تعالى (وانا لنعلم ان منكم مكذبين) له بسبب حب الدنيا فكأنه تعالى قال امامن اتقى حب الدنيا فهو يتذكر بهذا القرآن وينتفع واما من مال اليها فانه يكذب بهذا القرآن ولا يقربه واقول للمعتزلة ان تمسكوا بهذه الآية على ان الكفر ليس من الله وذلك لانه وصف القرآن بأنه تذكرة للمتقين ولم يقل بأنه اضلال للمكذبين بل ذلك الضلال نسبه اليهم فقال وانا لنعلم ان منكم مكذبين ونظيره قوله في سورة النحل وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر واعلم ان الجواب عنه ماتقدم * ثم قال تعالى (وانه لحسرة على الكافرين) الضمير في قوله انه الى ماذا يعود فيه وجهان (الاول) انه عائد الى القرآن فكأنه قيل وان القرآن لحسرة على الكافرين اما يوم القيامة اذا رأوا ثواب المصدقين به او في دار الدنيا اذا رأوا دولة المؤمنين (والثاني) قال مقاتل وان تكذيبهم بالقرآن لحسرة عليهم ودل عليه قوله وانا لنعلم ان منكم مكذبين * ثم قال (وانه لحق اليقين) معناه انه حق يقين اي حق لا بطلان فيه ويقين لاريب فيه ثم اضيف احد الوصفين الى الآخر للتأكيد * ثم قال تعالى (فسبح باسم ربك العظيم) اما شكرا على ماجعلك اهلا لايحائه اليك واما تنزيها له عن الرضاء بأن ينسب اليه الكاذب من الوحي ماهو برئ عنه واما تفسير قوله فسبح باسم ربك فمذكور في اول سورة سبح اسم ربك الاعلى وفي تفسير قوله بسم الله الرحمن الرحيم والله اعلم وصلاته على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه اجمعين

(سورة المعارج اربع واربعون آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج) اعلم ان قوله تعالى سأل فيه قراءتان منهم من قرأه بالهمزة ومنهم من قرأه بغير همزة اما الاولون وهم الجمهور فهذه القراءة تحتمل وجوها من التفسير (الاول) ان النضر بن الحرث لما قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم فأنزل الله تعالى هذه الآية ومعنى قوله سأل سائل اي دعا داع بعذاب واقع من قولك دعا بكذا اذا استدعاه وطلبه ومنه قوله تعالى يدعون فيها بكل فاكهة آمنين قال ابن الانباري وعلى

ريب ما (فسبح باسم ربك العظيم) اي فسبح بذكر اسمه العظيم تنزيها له عن الرضا بالتقول عليه وشكرا على ما اوحى اليك * عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله حسابا يسيرا

(سورة المعارج مكية وآيها)
(اربع واربعون)*

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(سأل سائل) اي دعا داع (بعذاب واقع) اي استدعاه وطلبه وهو النضر بن الحرث حيث قال انكارا واستهزاء ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم وقيل ابو جهل حيث قال اسقط علينا كسفا من السماء وقيل هو الحرث ابن النعمان الفهري وذلك انه لما بلغه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في علي رضي الله عنه من كنت مولاه فعلي مولاه قال اللهم ان كان مايقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء فمالبث حتى رماه الله تعالى بحجر فوقع على دماغه فخرج من اسفله فهلك من ساعته وقيل هو الرسول عليه الصلاة والسلام استعجل عذابهم وقرئ سال وهو اما من السؤال على لغة قريش

هذا القول تقدير الباء الاسقاط وتأويل الآية سأل سائل عذابا واقعا فأكد بالباء كقوله تعالى وهزى اليك بجذع النخلة وقال صاحب الكشاف لما كان سأل معناه ههنا دعا لاجرم عدى تعديته كأنه قال دعا داع بعذاب من الله (الثانى) قال الحسن وقتادة لما بعث الله محمدا وخوف المشركين بالعذاب قال المشركون بعضهم لبعض سلوا محمدا لمن هذا العذاب وبمن يقع فأخبره الله عنهم بقوله سأل سائل بعذاب واقع قال ابن الانبارى والتأويل على هذا القول سأل سائل عن عذاب والباء بمعنى عن كقوله

فان تسألونى بالنساء فاننى * بصير بأدواء النساء طبيب

وقال تعالى فاسئل به خبيرا وقال صاحب الكشاف سأل على هذا الوجه فى تقدير عنى واهتم كأنه قيل اهتم مهتم بعذاب واقع (الثالث) قال بعضهم هذا السائل هو رسول الله استعجل بعذاب الكافرين فبين الله ان هذا العذاب واقع بهم فلا دافع له قالوا والذى يدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى فى آخر الآية فاصبر صبرا جميلا وهذا يدل على ان ذلك السائل هو الذى أمره بالصبر الجميل * اما القراءة الثانية وهى سال بغير همز فلها وجهان (احدهما) انه أراد سأل بالهمزة فخفف وقلب قال

سالت قريش رسول الله فاحشة * ضلت هذيل بما سالت ولم تصب

(والوجه الثانى) ان يكون ذلك من السيلان ويؤيده قراءة ابن عباس سال سيل والسيل مصدر فى معنى السائل كالغور بمعنى الغائر والمعنى اندفع عليهم واد بعذاب وهذا قول زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن زيد قالا سال واد من اودية جهنم بعذاب واقع اما سائل فقد اتفقوا على انه لا يجوز فيه غير الهمز لانه ان كان من سأل المهموز فهو بالهمز وان لم يكن من المهموز كان بالهمز ايضا نحو قائل وخائف الا انك ان شئت خففت الهمزة فجعلتها بين بين وقوله تعالى بعذاب واقع للكافرين فيه وجهان وذلك لانا ان فسرنا قوله سأل بما ذكرنا من ان النضر طلب العذاب كان المعنى انه طلب طالب عذابا هو واقع لا محالة سواء طلب اولم يطلب وذلك لان ذلك العذاب نازل بالكافرين فى الآخرة واقع بهم لا يدفعه عنهم احد وقد وقع بالنضر فى الدنيا لانه قتل يوم بدر وهو المراد من قوله ليس له دافع واما اذا فسرناه بالوجه الثانى وهو انهم سألوا الرسول عليه السلام ان هذا العذاب بمن ينزل فأجاب الله تعالى عنه بأنه واقع للكافرين والقول الاول هو السديد * وقوله من الله فيه وجهان (الاول) ان يكون تقدير الآية بعذاب واقع من الله للكافرين (الثانى) ان يكون التقدير ليس له دافع من الله اى ليس لذلك العذاب الصادر من الله دافع من جهته فانه اذا اوجبت الحكمة وقوعه امتنع ان لا يفعله الله وقوله ذى المعارج المعارج جمع معرج وهو المصعد ومنه قوله تعالى ومعارج عليها يظهرون والمفسرون ذكروا فيه وجوها (احدها) قال ابن عباس فى رواية الكلبى ذى المعارج اى ذى السموات وسماها معارج لان الملائكة يعرجون فيها (وثانيها) قال قتادة ذى الفواضل

فالمعنى ماض اومن السيلان ويؤيده انه قرئ سال سيل اى اندفع واد بعذاب واقع وصيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه اما فى الدنيا وهو عذاب يوم بدر فان النضر قتل يومئذ صبرا وقد مر حال الفهرى واما فى الآخرة فهو عذاب النار والله اعلم (للكافرين) صفة اخرى لعذاب اى كائن للكافرين اوصلة لواقع اومتعلق بسأل اى دعا للكافرين بعذاب واقع وقوله تعالى (ليس له دافع) صفة اخرى لعذاب اوحال منه لتخصصه بالصفة او بالعمل اومن الضمير فى للكافرين على تقدير كونه صفة لعذاب او استئناف (من الله) متعلق بواقع او بدافع اى ليس له دافع من جهته تعالى (ذى المعارج) ذى المصاعد التى يصعد فيها الملائكة بالاوامر والنواهى اوهى عبارة عن السموات المترتبة بعضها فوق بعض (تعرج الملائكة والروح) اى جبريل عليه السلام افرد بالذكر لتميزه وفضله وقيل الروح خلق هم حفظة على الملائكة كما ان الملائكة حفظة على الناس (اليه) الى عرشه تعالى والى حيث تهبط منه اوامره تعالى وقيل هو من قبيل قول ابراهيم عليه السلام

والنعم وذلك لان لايادية ووجوه انعامه مراتب وهى تصل الى الناس على مراتب مختلفة (وثالثها) ان المعارج هى الدرجات التى يعطيها اولياءه فى الجنة وعندى فيه وجه رابع وهو ان هذه السموات كما انها متفاوتة فى الارتفاع والانخفاض والكبر والصغر فكذا الارواح الملكية مختلفة فى القوة والضعف والكمال والنقص وكثرة المعارف الالهية وقوتها وشدة القوة على تدبير هذا العالم وضعف تلك القوة ولعل نور انعام الله واثر فيض رحمته لايصل الى هذا العالم الا بواسطة تلك الارواح اما على سبيل العادة او لا كذلك على ما قال فالمقسمات امرا فالمدبرات امرا فالمراد بقوله من الله ذى المعارج الاشارة الى تلك الارواح المختلفة التى هى كالمصاعد لارتفاع مراتب الحاجات من هذا العالم اليها وكالمنازل لنزول اثر الرحمة من ذلك العالم الى ما ههنا ۞ قوله تعالى (تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة) وههنا مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان عادة الله تعالى فى القرآن انه متى ذكر الملائكة فى معرض التهويل والتخويف افرد الروح بعدهم بالذكر كما فى هذه الآية وكما فى قوله يوم يقوم الروح والملائكة صفا وهذا يقتضى ان الروح اعظم الملائكة قدرا ثم ههنا دقيقة وهى انه تعالى ذكر عند العروج الملائكة اولا والروح ثانيا كما فى هذه الآية وذكر عند القيام الروح اولا والملائكة ثانيا كما فى قوله يوم يقوم الروح والملائكة صفا وهذا يقتضى كون الروح اولا فى درجة النزول وآخرا فى درجة الصعود وعند هذا قال بعض المكاشفين ان الروح نور عظيم هو اقرب الانوار الى جلال الله ومنه تتشعب ارواح سائر الملائكة والبشر فى آخر درجات منازل الارواح وبين الطرفين معارج مراتب الارواح الملكية ومدارج منازل الانوار القدسية ولايعلم كميتها الا الله واما ظاهر قول المتكلمين وهو ان الروح هو جبريل عليه السلام فقد قررنا هذه المسئلة فى تفسير قوله يوم يقوم الروح والملائكة صفا (المسئلة الثالثة) احتج القائلون بأن الله فى مكان اما فى العرش او فوقه بهذه الآية من وجهين (الاول) ان الآية دلت على ان الله تعالى موصوف بأنه ذو المعارج وهو انما يكون كذلك لو كان فى جهة فوق (والثانى) قوله تعرج الملائكة والروح اليه فبين ان عروج الملائكة وصعودهم اليه وذلك يقتضى كونه تعالى فى جهة فوق (والجواب) لما دلت الدلائل على امتناع كونه فى المكان والجهة ثبت انه لابد من التأويل فأما وصف الله بأنه ذو المعارج فقد ذكرنا الوجوه فيه واما حرف الى فى قوله تعرج الملائكة والروح اليه فليس المراد منه المكان بل المراد انتهاء الامور الى مراده كقوله واليه يرجع الامر كله والمراد الانتهاء الى موضع العز والكرامة كقوله انى ذاهب الى ربى ويكون هذا اشارة الى ان دار الثواب اعلى الامكنة وارفعها (المسئلة الثالثة) الاكثرون على ان قوله فى يوم من صلة قوله تعرج اى يحصل العروج فى مثل هذا اليوم وقال مقاتل بل هذا من صلة قوله بعذاب واقع وعلى هذا القول يكون فى الآية تقديم وتأخير والتقدير سأل سائل بعذاب

(واقع)

انى ذاهب الى ربى اى الى حيث امرنى بى (فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة) مما يعده الناس وهو بيان لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها على منهاج التمثيل والتخييل والمعنى انها من الارتفاع بحيث لو قدر قطعها فى زمان لكان ذلك الزمان مقدار خمسين الف سنة من سنى الدنيا وقيل معناه تعرج الملائكة والروح الى عرشه تعالى فى يوم كان مقداره كمقدار خمسين الف سنة اى يقطعون فى يوم ما يقطعه الانسان فى خمسين الف سنة لو فرض ذلك وقيل فى يوم متعلق بواقع وقيل بسأل على تقدير كونه من السيلان فالمراد به يوم القيامة واستطالته اما لانه كذلك فى الحقيقة او لشدته على الكفار او لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات وايا ما كان فذلك فى حق الكافر واما فى حق المؤمن فلا لما روى ابو سعيد الخدرى رضى الله عنه انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما اطول هذا اليوم فقال عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده انه ليخف على المؤمن حتى انه يكون اخف من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا وقوله تعالى (فاصبر صبرا جميلا) متعلق بسأل لان

واقع في يوم كان مقداره خمسين الف سنة وعلى التقدير الاول فذلك اليوم اما ان يكون في الآخرة او في الدنيا وعلى تقدير ان يكون في الآخرة فذلك الطول اما ان يكون واقعا واما ان يكون مقدرا فهذه هي الوجوه التي تحتملها هذه الآية ونحن نذكر تفصيلها (القول الاول) هو ان معنى الآية ان ذلك العروج يقع في يوم من ايام الآخرة طوله خمسون الف سنة وهو يوم القيامة وهذا قول الحسن قال وليس يعني ان مقدار طوله هذا فقط اذ لو كان كذلك لحصلت له غاية ولفنيت الجنة والنار عند تلك الغاية وهذا غير جائز بل المراد ان موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون الف سنة من سني الدنيا ثم بعد ذلك يستقر اهل النار في دركات النيران نعوذ بالله منها واعلم ان هذا الطول انما يكون في حق الكافر اما في حق المؤمن فلا والدليل عليه الآية والخبر اما الآية فقوله تعالى اصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا واحسن مقيلا واتفقوا على ان ذلك هو الجنة واما الخبر فاروى عن ابي سعيد الخدري انه قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما طول هذا اليوم فقال والذي نفسي بيده انه ليخفف عن المؤمن حتى يكون عليه اخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا ومن الناس من قال ان ذلك الموقف وان طال فهو يكون سببا لمزيد السرور والراحة لاهل الجنة ويكون سببا لمزيد الحزن والغم لاهل النار (والجواب عنه) ان الآخرة دار جزاء فلابد من ان يعجل للمثابين ثوابهم ودار الثواب هي الجنة لا الموقف فاذن لابد من تخصيص طول الموقف بالكفار (القول الثاني) هو ان هذه المدة واقعة في الآخرة لكن على سبيل التقدير لا على سبيل التحقيق والمعنى انه لو اشتغل بذلك القضاء والحكومة اعقل الخلق واذكاهم لبقي فيه خمسين الف سنة ثم انه تعالى يتمم ذلك القضاء والحكومة في مقدار نصف يوم من ايام الدنيا وايضا الملائكة يعرجون الى مواضع لو اراد واحد من اهل الدنيا ان يصعد اليها لبقي في ذلك الصعود خمسين الف سنة ثم انهم يصعدون اليها في ساعة قليلة وهذا قول وهب وجماعة من المفسرين (القول الثالث) وهو قول ابي مسلم ان هذا اليوم هو يوم الدنيا كلها من اول ما خلق الله الى آخر الفناء فبين تعالى انه لابد في يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم وهذا اليوم مقدر بخمسين الف سنة ثم لا يلزم على هذا ان يصير وقت القيامة معلوما لانا لا ندري كم مضى وكم بقي (القول الرابع) تقدير الآية سأل سائل بعذاب واقع من الله في يوم كان مقداره خمسين الف سنة ثم يحتمل ان يكون المراد منه استطالة ذلك اليوم لشدته على الكفار ويحتمل ان يكون المراد تقدير مدته وعلى هذا فليس المراد تقدير العذاب بهذا المقدار بل المراد التنبيه على طول مدة العذاب ويحتمل ايضا ان العذاب الذي سأله ذلك السائل يكون مقدرا بهذه المدة ثم انه تعالى ينقله الى نوع آخر من العذاب بعد ذلك فان قيل روى ابن ابي مليكة ان ابن عباس سئل عن هذه الآية وعن قوله في يوم كان مقداره الف سنة فقال ايام سماها الله تعالى هو اعلم بها كيف تكون واكره ان اقول فيها ما لا اعلم فان قيل

السؤال كان عن استهزاء وتعنت وتكذيب بالوحي وذلك مما يضجره عليه الصلاة والسلام اوكان عن تضجر واستبطاء للنصر او بسأل سائل اوسال سيل فمعناه جاء العذاب لقرب وقوعه فقد اشارفت الانتقام (انهم يرونه) اي العذاب الواقع اويوم القيامة على تقدير تعلق في يوم بواقع (بعيدا) اي يستبعدونه بطريق الاحالة فلذلك يسألون به (ونراه قريبا) هينا في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر على ان البعد والقرب معتبران بالنسبة الى الامكان والجملة تعليل للامر بالصبر وقوله تعالى (يوم تكون السماء كالمهل) متعلق بقريبا اي يمكن ولا يتعذر في ذلك اليوم او بمضمر دل عليه واقع او بمضمر مؤخر اي يوم تكون السماء كالمهل الخ يكون من الاحوال والاهوال ما لا يوصف اوبدل من في يوم على تقدير تعلقه بواقع هذا ما قالوا ولعل الاقرب ان قوله تعالى سأل سائل حكاية لسؤالهم المعهود على طريقة قوله تعالى يسألونك عن الساعة وقوله تعالى ويقولون متى هذا الوعد ونحوهما اذ هو المعهود بالوقوع على الكافرين لا ما دعا به النضر او ابو جهل اوالفهري فالسؤال بمعناه والباء بمعنى عن كما في قوله تعالى

فاقولكم فى التوفيق بين هاتين الآيتين قلنا قال وهب فى الجواب عن هذا مابين اسفل العالم الى اعلى شرفات العرش مسيرة خمسين الف سنة ومن اعلى السماء الدنيا الى الارض مسيرة الف سنة لان عرض كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ومابين اسفل السماء الى قرار الارض خمسمائة اخرى فقوله تعالى فى يوم يريد فى يوم من ايام الدنيا وهو مقدار الف سنة لو صعدوا فيه الى سماء الدنيا ومقدار خمسين الف سنة لو صعدوا الى أعالى العرش ※ قوله تعالى (فاصبر صبرا جميلا) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم ان هذا متعلق بسأل سائل لان استعجال النضر بالعذاب انما كان على وجه الاستهزاء برسول الله والتكذيب بالوحى وكان ذلك مما يضجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصبر عليه وكذلك من يسأل عن العذاب لمن هو فانما يسأل على طريق التعنت من كفار مكة ومن قرأ سال سائل فمعناه جاء العذاب لقرب وقوعه فاصبر فقد جاء وقت الانتقام (المسئلة الثانية) قال الكلبى هذه الآية نزلت قبل ان يؤمر الرسول بالقتال ※ قوله تعالى (انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) الضمير فى يرونه الى ماذا يعود فيه وجهان (الاول) انه عائد الى العذاب الواقع (والثانى) انه عائد الى يوم كان مقداره خمسين الف سنة اى يستبعدونه على جهة الاحالة ونحن نراه قريبا هينا فى قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر فالمراد بالبعيد البعيد من الامكان وبالقريب القريب منه ※ قوله تعالى (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) يوم تكون منصوب بماذا فيه وجوه (احدها) بقريبا والتقدير ونراه قريبا يوم تكون السماء كالمهل اى يمكن ولا يتعذر فى ذلك اليوم (وثانيها) التقدير سأل سائل بعذاب واقع يوم تكون السماء كالمهل (والثالث) التقدير يوم تكون السماء كالمهل كان كذا وكذا (والرابع) ان يكون بدلا من يوم والتقدير سأل سائل بعذاب واقع فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة يوم تكون السماء كالمهل (المسئلة الثانية) انه تعالى ذكر لذلك اليوم صفات (الصفة الاولى) ان السماء تكون فيه كالمهل وذكرنا تفسير المهل عند قوله بماء كالمهل قال ابن عباس كدردى الزيت وروى عنه عطاء كعكر القطران وقال الحسن مثل الفضة اذا اذيبت وهو قول ابن مسعود (الصفة الثانية) ان تكون الجبال فيه كالعهن ومعنى العهن فى اللغة الصوف المصبوغ ألوانا وانما وقع التشبيه به لان الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود فاذا بست وطيرت فى الجو أشبهت العهن المنفوش اذا طيرته الريح (الصفة الثالثة) قوله ولا يسأل حميم حميما وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال ابن عباس الحميم القريب الذى يعصب له وعدم السؤال انما كان لاشتغال كل احد بنفسه وهو كقوله تذهل كل مرضعة عما ارضعت وقوله يوم يفر المرء من اخيه الى قوله لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ثم فى الآية وجوه (احدها) ان يكون التقدير لا يسأل حميم عن حميمه فحذف الجار واوصل الفعل (الثانى) لا يسأل حميم حميمه كيف حالك ولا يكلمه لان لكل احد مايشغله عن هذا الكلام (الثالث)

فاسأل به خبيرا وقوله تعالى ليس له دافع الخ استئناف مسوق لبيان وقوع المسؤل عنه لامحالة وقوله تعالى فاصبر صبرا جميلا مترتب عليه وقوله تعالى انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا تعليل للامر بالصبر كما ذكر وقوله تعالى يوم تكون الخ متعلق بليس له دافع او بما يدل هو عليه اى يقع يوم تكون السماء كالمهل وهو ما اذيب على مهل من الفلزات وقيل دردى الزيت (وتكون الجبال كالعهن) كالصوف المصبوغ الوانا لاختلاف الوان الجبال منها جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود فاذا بست وطيرت فى الجو اشبهت العهن المنفوش اذا طيرته الريح (ولا يسأل حميم حميما) اى لا يسأل قريب قريبا عن احواله ولا يكلمه لابتلاء كل منهم بما يشغله عن ذلك وقرئ على البناء للمفعول اى لا يطلب من حميم حميم اولا يسأل منه حاله (يبصرونهم) اى يبصر الاحماء الاحماء فلا يخفون عليهم وما يمنعهم من التساؤل الا تشاغلهم بحال انفسهم وقيل ما يغنى عنه من مشاهدة الحال كبياض الوجه وسواده والاول ادخل فى التهويل وجمع الضميرين لعموم الحميم وقرئ يبصرونهم والجملة استئناف

(لا يسأل)

لايسأل حميم حميما شفاعة ولا يسأل حميم حميما احسانا اليه ولا رفقا به (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير ولا يسأل بضم الياء والمعنى لايسأل حميم عن حميمه ليتعرف شأنه من جهته كما يتعرف خبر الصديق من جهة صديقه وهذا ايضا على حذف الجار قال الفراء اى لايقال لحميم اين حميمك ثم قال ولست احب هذه القراءة لانها مخالفة لما اجمع عليه القراء ※ قوله تعالى (يبصرونهم) يقال بصرت به ابصر قال تعالى بصرت بمالم يبصروا به ويقال بصرني زيد بكذا فاذا حذفت الجار قلت بصرني زيد كذا فاذا اثبت الفعل للمفعول به وقد حذفت الجار قلت بصرت زيدا فهذا هو معنى يبصرونهم وانما جمع فقيل يبصرونهم لان الحميم وان كان مفردا فى اللفظ فالمراد به الكثرة والجمع والدليل عليه قوله تعالى فمالنا من شافعين ومعنى يبصرونهم يعرفونهم اى يعرف الحميم الحميم حتى يعرفه وهو مع ذلك لايسأل عن شأنه لشغله بنفسه فان قيل ماموضع يبصرونهم قلنا فيه وجهان (الاول) انه متعلق بما قبله كأنه لما قال ولا يسأل حميم حميما قيل لعله لايبصره فقيل يبصرونهم ولكنهم لاشتغالهم بأنفسهم لايتمكنون من تساؤلهم (الثانى) انه متعلق بما بعده والمعنى ان المجرمين يبصرون المؤمنين حالما يود احدهم ان يفدى نفسه بكل مايملكه فان الانسان اذا كان فى البلاء الشديد ثم رآه عدوه على تلك الحالة كان ذلك فى نهاية الشدة عليه ※ (الصفة الرابعة) قوله تعالى (يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المجرم هو الكافر وقيل يتناول كل مذنب (المسئلة الثانية) قرئ يومئذ بالجر والفتح على البناء لسبب الاضافة الى غير متمكن وقرئ ايضا من عذاب يومئذ بتنوين عذاب ونصب يومئذ وانتصابه بعذاب لانه فى معنى تعذيب ※ وقوله (وفصيلته التى تؤويه ومن فى الارض جميعا) فصيلة الرجل اقاربه الاقربون الذين فصل عنهم وينتهى اليهم لان المراد من الفصيلة المفصولة لان الولد يكون منفصلا من الابوين قال عليه السلام فاطمة بضعة منى فلما كان هو مفصولا منهما كان ايضا مفصولين منه فسميا فصيلة لهذا السبب وكان يقال للعباس فصيلة النبى صلى الله عليه وسلم لان العم قائم مقام الاب واما قوله تؤويه فالمعنى تضمه انتماء اليها فى النسب او تمسكا بها فى النوائب ※ وقوله تعالى (ثم ينجيه) فيه وجهان (الاول) انه معطوف على يفتدى والمعنى يود المجرم لو يفتدى بهذه الاشياء ثم ينجيه (والثانى) انه متعلق بقوله ومن فى الارض والتقدير يود لو يفتدى بمن فى الارض ثم ينجيه وثم لاستبعاد الانجاء يعنى يتمنى لو كان هؤلاء جميعا تحت يده وبذلهم فى فداء نفسه ثم ينجيه ذلك وهيهات ان ينجيه ※ قوله تعالى (كلا انها لظى نزاعة للشوى) كلا ردع للمجرم عن كونه بحيث يود الافتداء ببنيه وعلى انه لاينفعه ذلك الافتداء ولا ينجيه من العذاب ثم قال انها وفيه وجهان (الاول) ان هذا الضمير للنار ولم يجر لها ذكر الا ان ذكر العذاب دل عليها (والثانى) يجوز ان يكون ضمير القصة ولظى من اسماء النار قال الليث اللظى اللهب الخالص يقال لظت النار تلظى لظى وتلظت تلظيا ومنه قوله نارا تلظى ولظى علم للنار

(يود المجرم) اى يتمنى الكافر وقيل كل مذنب وقوله تعالى (لو يفتدى من عذاب يومئذ) اى العذاب الذى ابتلوا به يومئذ (ببنيه وصاحبته واخيه) حكاية لودادتهم ولو فى معنى التمنى وقيل هى بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولا ليود والتقدير يود افتداءه ببنيه الخ والجملة استئناف لبيان ان اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ الى حيث يتمنى ان يفتدى بأقرب الناس اليه واعلقهم بقلبه فضلا ان يهتم بحاله ويسأل عنها وقرئ يومئذ بالفتح على البناء للاضافة الى غير متمكن وبتنوين عذاب ونصب يومئذ وانتصابه بعذاب لانه فى معنى تعذيب (وفصيلته) اى عشيرته التى فصل عنهم (التى تؤويه) اى تضمه فى النسب اوعند الشدائد (ومن فى الارض جميعا) من الثقلين والخلائق ومن للتغليب (ثم ينجيه) عطف على يفتدى اى يود لو يفتدى ثم لو ينجيه الافتداء وثم لاستبعاد الانجاء يعنى يتمنى لو كان هؤلاء جميعا تحت يده وبذلهم فى فداء نفسه ثم ينجيه ذلك وهيهات (كلا) ردع للمجرم عن الودادة وتصريح بامتناع انجاء الافتداء وضمير (انها) اما للنار المدلول عليها بذكر العذاب او هو مبهم ترجم عنه الخبر الذى هو قوله (لظى) وهى علم للنار منقول من اللظى بمعنى اللهب (نزاعة للشوى) نصب على الاختصاص او حال مؤكدة والشوى الاطراف او جمع شواة وهى جلدة الرأس وقرئ نزاعة بالرفع على انه خبر ثان لان او هو الخبر ولظى بدل من الضمير او الضمير للقصة ولظى

منقول من اللظى وهو معرفة لا ينصرف فلذلك لم ينون وقوله نزاعة مرفوعة وفي سبب هذا الارتفاع وجوه (الاول) ان تجعل الهاء في انها عماداو تجعل لظى اسما ان ونزاعة خبران كأنه قيل ان لظى نزاعة (والثاني) ان تجعل الهاء ضمير القصة ولظى مبتدأ ونزاعة خبرا وتجعل الجملة خبرا عن ضمير القصة والتقدير ان القصة لظى نزاعة للشوى (والثالث) ان ترفع على الذم والتقدير انها لظى وهي نزاعة للشوى وهذا قول الاخفش والفراء والزجاج واما قراءة النصب ففيها ثلاثة اوجه (احدها) قال الزجاج انها حال مؤكدة كما قال هو الحق مصدقا وكما يقول انا زيد معروفا اعترض ابو علي الفارسي على هذا وقال حمله على الحال بعيد لانه ليس في الكلام ما يعمل في الحال فان قلت في قوله لظى معنى التلظي والتلهب فهذا لا يستقيم لان لظى اسم علم لماهية مخصوصة والماهية لا يمكن تقييدها بالاحوال انما الذي يمكن تقييده بالاحوال هو الافعال فلا يمكن ان يقال رجلا حال كونه عالما ويمكن ان يقال رأيت رجلا حال كونه عالما (وثانيها) ان تكون لظى اسما للنار تتلظى تلظيا شديدا فيكون هذا الفعل ناصبا لقوله نزاعة (وثالثها) ان تكون منصوبة على الاختصاص والتقدير انها لظى اعنيها نزاعة للشوى ولم يمتنع (المسئلة الثانية) الشوى الاطراف وهي اليدان والرجلان ويقال للرامي اذا لم يصب المقتل اشوى اي اصاب الشوى والشوى ايضا جلد الرأس واحدتها شوأة ومنه قول الاعشى

قالت قتيلة ماله * قد جللت شيبا شواته

هذا قول اهل اللغة قال مقاتل تنزع النار الهامة والاطراف فلا تترك لحما ولا جلدا الا احرقته وقال سعيد بن جبير العصب والعقب ولحم الساقين واليدين وقال ثابت البناني لمكارم وجه بني آدم واعلم ان النار اذا أفنت هذه الاعضاء فالله تعالى يعيدها مرة اخرى كما قال كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ❁ قوله تعالى (تدعو من ادبر وتولى وجمع فأوعى) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا في ان لظى كيف تدعو الكافر فذكروا وجوها (احدها) انها تدعوهم بلسان الحال كما قيل سل الارض من شق انهارك وغرس اشجارك فان لم تجبك حوارا اجابتك اعتبارا فههنا لما كان مرجع كل احد من الكفار الى زاوية من زوايا جهنم كان كأن تلك المواضع تدعوهم وتحضرهم (وثانيها) ان الله تعالى يخلق الكلام في جرم النار حتى تقول صريحا الي يا كافر الي يا منافق ثم تلتقطهم التقاط الحب (وثالثها) المراد زبانية النار يدعون فاضيف ذلك الدعاء الى النار بحذف المضاف (ورابعها) تدعو تهلك من قول العرب دعاك الله اي اهلكك وقوله من أدبر وتولى يعني من أدبر عن الطاعة وتولى عن الايمان وجمع المال فأوعى اي جعله في وعاء وكنزه ولم يؤد الزكاة والحقوق الواجبة فيها فقوله ادبر وتولى اشارة الى الاعراض عن معرفة الله وطاعته وقوله وجمع فأوعى اشارة الى حب الدنيا فجمع اشارة الى الحرص واوعى اشارة الى الامل ولاشك ان مجامع آفات الدين ليست الا هذه ❁ قوله تعالى

(ان)

مبتدأ ونزاعة خبره (تدعو) اي تجذب وتحضر وقيل تدعو وتقول لهم الي الي يا كافر يا منافق وقيل تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح ثم تلتقطهم التقاط الحب وقيل تدعو تهلك وقيل تدعو زبانيتها (من ادبر) اي عن الحق (وتولى) اعرض عن الطاعة (وجمع فأوعى) اي جمع المال فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤد زكاته وحقوقه وتشاغل به عن الدين وزهي باقتنائه حرصا وتأميلا (ان الانسان خلق هلوعا) الهلع سرعة الجزع عند مس المكروه وسرعة المنع عند مس الخير وقد فسره احسن تفسير قوله تعالى (اذا مسه الشر) اي الفقر والمرض ونحوهما (جزوعا) اي مبالغا في الجزع مكثرا منه (واذا مسه الخير) اي السعة والصحة (منوعا) مبالغة في المنع والامساك والاوصاف الثلاثة احوال مقدرة او محققة لانها طبائع جبل الانسان عليها واذا الاولى ظرف لجزوعا والثانية لمنوعا (الا المصلين) استثناء للمتصفين بالنعوت الجليلة الآتية من المطبوعين على القبائح الماضية لانباء نعوتهم عن الاستغراق في طاعة الحق والاشفاق على الخلق والايمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وايثار الآجل على العاجل على خلاف القبائح المذكورة الناشئة من الانهماك في حب العاجل وقصر النظر عليه (الذين هم على صلاتهم دائمون) لا يشغلهم عنها شاغل (والذين في اموالهم حق معلوم) اي نصيب معين يستوجبونه على انفسهم تقربا الى الله تعالى واشفاقا على الناس من الزكاة المفروضة والصدقات

(ان الانسان خلق هلوعا) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم المراد بالانسان ههنا الكافر وقال آخرون بل هو على عمومه بدليل انه استثنى منه الا المصلين (المسئلة الثانية) يقال هلع الرجل يهلع هلعا وهلاعا فهو هالع وهلوع وهو شدة الحرص وقلة الصبر يقال جاع فهلع وقال الفراء الهلوع الضجور وقال المبرد الهلع الضجر يقال نعوذ بالله من الهلع عند منازلة الاقران وعن احمد بن يحيى قال لى محمد بن عبدالله بن طاهر ما الهلع فقلت قد فسره الله ولا تفسير ابين من تفسيره هو الذى اذا ناله شر أظهر شدة الجزع واذا ناله خير بخل ومنعه الناس (المسئلة الثالثة) قال القاضى قوله تعالى ان الانسان خلق هلوعا نظير لقوله خلق الانسان من عجل وليس المراد انه مخلوق على هذا الوصف والدليل عليه ان الله تعالى ذمه عليه والله تعالى لا يذم فعله ولانه تعالى استثنى المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم فى ترك هذه الخصلة المذمومة ولو كانت هذه الخصلة ضرورية حاصلة بخلق الله تعالى لما قدروا على تركها واعلم أن الهلع لفظ واقع على أمرين (أحدهما) الحالة النفسانية التى لاجلها يقدم الانسان على اظهار الجزع والتضرع (والثانى) تلك الافعال الظاهرة من القول والفعل الدالة على تلك الحالة النفسانية أما تلك الحالة النفسانية فلا شك انها تحدث بخلق الله تعالى لان من خلقت نفسه على تلك الحالة لا يمكنه ازالة تلك الحالة من نفسه ومن خلق شجاعا بطلا لا يمكنه ازالة تلك الحالة عن نفسه بل الافعال الظاهرة من القول والفعل يمكنه تركها والاقدام عليها فهى أمور اختيارية أما الحالة النفسانية التى هى الهلع فى الحقيقة فهى مخلوقة على سبيل الاضطرار ❊ قوله تعالى (اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا) المراد من الشر والخير الفقر والغنى أو المرض والصحة فالمعنى انه اذا صار فقيرا أو مريضا أخذ فى الجزع والشكاية واذا صار غنيا أو صحيحا اخذ فى منع المعروف وشح بماله ولم يلتفت الى الناس (فان قيل) حاصل هذا الكلام انه نفور عن المضار طالب للراحة وهذا هو اللائق بالعقل فلم ذمه الله عليه (قلنا) انما ذمه عليه لانه قاصر النظر على الاحوال الجسمانية العاجلة وكان من الواجب عليه أن يكون مشغولا بأحوال الآخرة فاذا وقع فى مرض أو فقر وعلم انه فعل الله تعالى كان راضيا به لعلمه ان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد واذا وجد المال والصحة صرفهما الى طلب السعادات الاخروية واعلم انه استثنى من هذه الحالة المذكورة المذمومة من كان موصوفا بثمانية اشياء ❊ (أولها) قوله تعالى (الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) فان قيل قال على صلاتهم دائمون ثم على صلاتهم يحافظون قلنا معنى دوامهم عليها أن لا يتركوها فى شىء من الاوقات ومحافظتهم عليها ترجع الى الاهتمام بحالها حتى يؤتى بها على أكمل الوجوه وهذا الاهتمام انما يحصل تارة بأمور سابقة على الصلاة وتارة بأمور لاحقة بها وتارة بامور متراخية عنها أما الامور السابقة فهو أن يكون قبل دخول وقتها متعلق القلب بدخول اوقاتها ومتعلق القلب بالوضوء وستر العورة وطلب القبلة ووجدان

الموظفة (للسائل) الذى يسأله (والمحروم) الذى لا يسئله فيظن انه غنى فيحرم (والذين يصدقون بيوم الدين) اى بأعمالهم حيث يتعبون انفسهم فى الطاعات البدنية والمالية طمعا فى المثوبة الاخروية بحيث يستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) خائفون على انفسهم مع مالهم من الاعمال الفاضلة استقصارا لها واستعظاما لجنابه عزوجل كقوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون وقوله تعالى (ان عذاب ربهم غير مأمون) اعتراض مؤذن بأنه لا ينبغى لأحد ان يأمن عذابه تعالى وان بالغ فى الطاعة (والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم او ماملكت ايمانهم فانهم غير ملومين) سلف تفسيره فى سورة المؤمنين (فمن ابتغى) اى طلب لنفسه (وراء ذلك) وراء ما ذكر من الازواج والمملوكات (فاولئك) المبتغون (هم العادون) المتعدون لحدود الله تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) لا يخلون بشىء من حقوقها (والذين هم بشهاداتهم قائمون) اى مقيمون لها بالعدل احياء لحقوق الناس وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فى الأمانات لابانة فضلها وقرئ لامانتهم وبشهادتهم على ارادة الجنس (والذين هم على صلاتهم يحافظون) اى يراعون شرائطها ويكملون فرائضها وسننها ومستحباتها وآدابها وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها اولا وآخرا باعتبارين للدلالة على فضلها وانا فتها على سائر الطاعات وتكرير الموصولات لتنزيل اختلاف

الثوب والمكان الطاهرين والاتيان بالصلاة في الجماعة وفي المساجد المباركة وان يجتهد قبل الدخول في الصلاة في تفريغ القلب عن الوساوس والالتفات الى ماسوى الله تعالى وان يبالغ في الاحتراز عن الرياء والسمعة واما الامور المقارنة فهو ان لايلتفت يمينا ولا شمالا وان يكون حاضر القلب عند القراءة فاهما للاذكار مطلعا على حكم الصلاة واما الامور المتراخية فهي ان لايشتغل بعد اقامة الصلاة باللغو واللهو واللعب وان يحترز كل الاحتراز عن الاتيان بعدها بشيء من المعاصي ❊ (وثانيها) قوله تعالى (والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) اختلفوا في الحق المعلوم فقال ابن عباس والحسن وابن سيرين انه الزكاة المفروضة قال ابن عباس من ادى زكاة ماله فلا جناح عليه ان لايتصدق قالوا والدليل على ان المراد به الزكاة المفروضة وجهان (الاول) ان الحق المعلوم المقدر هو الزكاة اما الصدقة فهي غير مقدرة (الثاني) وهو انه تعالى ذكر هذا على سبيل الاستثناء ممن ذمه فدل على ان الذي لايعطي هذا الحق يكون مذموما ولا حق على هذه الصفة الا الزكاة وقال آخرون هذا الحق سوى الزكاة وهو يكون على طريق الندب والاستحباب وهذا قول مجاهد وعطاء والنخعي وقوله للسائل يعني الذي يسأل والمحروم الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنيا فيحرم ❊ (وثالثها) قوله تعالى (والذين يصدقون بيوم الدين) اي يؤمنون بالبعث والحشر والنشر ❊ (ورابعها) قوله تعالى (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) والاشفاق يكون من امرين اما الخوف من ترك الواجبات أو الخوف من الاقدام على المحظورات وهذا كقوله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة وكقوله سبحانه الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ومن يدوم به الخوف والاشفاق فيما كلف يكون حذرا من التقصير حريصا على القيام بما كلف به من علم وعمل ❊ ثم انه تعالى اكد ذلك الخوف فقال (ان عذاب ربهم غير مأمون) والمراد ان الانسان لايمكنه القطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي واحترز عن المحظورات بالكلية بل يجوز أن يكون قد وقع منه تقصير في شيء من ذلك فلا جرم يكون خائفا أبدا ❊ (وخامسها) قوله تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) وقد مر تفسيره في سورة المؤمنون ❊ (وسادسها) قوله تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) وقد تقدم تفسيره أيضا ❊ (وسابعها) قوله تعالى (والذين هم بشهاداتهم قائمون) قرئ بشهادتهم وبشهاداتهم قال الواحدي والافراد أولى لانه مصدر فيفرد كما تفرد المصادر وان أضيف لجمع كقوله لصوت الحمير ومن جمع ذهب الى اختلاف الشهادات وكثرة ضروبها فحسن الجمع من جهة الاختلاف وأكثر المفسرين قالوا يعني الشهادات عند الحكام يقومون بها بالحق ولا يكتمونها وهذه الشهادات من جملة الامانات الا أنه تعالى خصها من بينها ابانة لفضلها لان في اقامتها احياء الحقوق وفي تركها ابطالها وتضييعها وروى عطاء عن ابن عباس قال يريد الشهادة بأن الله واحد

(لاشريك)

الصفات منزلة اختلاف الذوات كما في قول من قال ❊ الى الملك القرم وابن الهمام ❊ وليث الكتائب في المزدحم ❊ ايذانا بأن كل واحد من الاوصاف المذكورة نعت جليل على حياله له شأن خطير مستتبع لاحكام جمة حقيق بان يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شيء منها تتمة للآخر (اولئك) اشارة الى الموصوفين بما ذكر من الصفات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليهم للايذان بعلو شأنهم وبعد منزلتهم في الفضل وهو مبتدأ خبره (في جنات) اي مستقرون في جنات لايقادر قدرها ولا يدرك كنهها وقوله تعالى (مكرمون) خبر آخر او هو الخبر وفي جنات متعلق به قدم عليه لمراعاة الفواصل او بمضمر هو حال من الضمير في الخبر اي مكرمون كائنين في جنات (فمال الذين كفروا قبلك) حولك (مهطعين) مسرعين نحوك مادي اعناقهم اليك مقبلين بأبصارهم عليك (عن اليمين وعن الشمال عزين) اي فرقا شتى جمع عزة واصلها عزوة من العزو كأن كل فرقة تعتزي الى غير من تعتزي اليه الاخرى كان المشركون يحلقون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حلقا حلقا وفرقا فرقا ويستهزؤن بكلامه عليه الصلاة والسلام ويقولون ان دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزلت (أيطمع كل امرئ منهم ان يدخل جنة نعيم) بلا ايمان (كلا) ردع لهم عن ذلك الطمع الفارغ (انا خلقناهم مما يعلمون) قيل هو تعليل للردع والمعنى انا خلقناهم من اجل مايعلمون كما في قول الاعشى

ازمعت من آل ليلى ابتكارا ❊ وشطت على ذي هوى ان تزارا

لاشريك له ※ (وثامنها) قوله تعالى (والذين هم على صلاتهم يحافظون) وقد تقدم تفسيره ※ ثم وعد هؤلاء وقال تعالى (أولئك فى جنات مكرمون) ثم ذكر بعده مايتعلق بالكفار فقال تعالى ※ (فمال الذين كفروا قبلك مهطعين) المهطع المسرع وقيل المادعنقه وانشدوا فيه

بمكة اهلها ولقدارهم * بمكة مهطعين الى السماع

والوجهان متقاربان روى ان المشركين كانوا يحتفون حول النبى صلى الله عليه وسلم حلقا حلقا وفرقا فرقا يستمعون ويستهزؤن بكلامه ويقولون ان دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزلت هذه الآية فقوله مهطعين اى مسرعين نحوك مادين اعناقهم اليك مقبلين بابصارهم عليك وقال ابومسلم ظاهر الآية يدل على انهم هم المنافقون فهم الذين كانوا عنده واسراعهم المذكور هو الاسراع فى الكفر كقوله لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر ※ ثم قال تعالى (عن اليمين وعن الشمال عزين) وذلك لانهم كانوا عن يمينه وعن شماله مجتمعين ومعنى عزين جماعات فى تفرقة واحدها عزة وهى العصبة من الناس قال الازهرى واصلها من قولهم عزا فلان نفسه الى بنى فلان يعزوها عزوا اذا انتمى اليهم والاسم العزوة وكان العزة كل جماعة اعتزاؤها الى امر واحد واعلم ان هذا من المنقوص الذى جاز جمعه بالواو والنون عوضا من المحذوف واصلها عزوة والكلام فى هذه كالكلام فى عضين وقد تقدم وقيل كان المستهزؤن خمسة ارهط ※ ثم قال تعالى (ايطمع كل امرئ منهم ان يدخل جنة نعيم) والنعيم ضد البؤس والمعنى أيطمع كل رجل منهم ان يدخل جنتى كما يدخلها المسلمون ※ ثم قال تعالى (كلا) وهو ردع لهم عن ذلك الطمع الفاسد ※ ثم قال تعالى (اناخلقناهم ممايعلمون) وفيه مسئلتان (المسئله الاولى) الغرض من هذا الاستدلال على صحة البعث كأنه قال لماقدرت على ان اخلقكم من النطفة وجب ان اكون قادرا على بعثكم (المسئلة الثانية) ذكروا فى تعلق هذه الآية بماقبلها وجوها (احدها) انه لما احتج على صحة البعث دل على انهم كانوا منكرين للبعث فكأنه قيل لهم كلا انكم منكرون للبعث فمن اين تطمعون فى دخول الجنة (وثانيها) ان المستهزئين كانوا يستحقرون المؤمنين فقال تعالى هؤلاء المستهزؤن مخلوقون مما خلقوا فكيف يليق بهم هذا الاحتقار (وثالثها) انهم مخلوقون من هذه الاشياء المستقذرة فلولم يتصفوا بالايمان والمعرفة فكيف يليق بالحكيم ادخالهم الجنة ※ ثم قال تعالى (فلا اقسم برب المشارق والمغارب اناالقادرون على ان نبدل خيرا منهم ومانحن بمسبوقين فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) يعنى مشرق كل يوم من السنة ومغربه اومشرق كل كوكب ومغربه اوالمراد بالمشرق ظهور دعوة كل نبى وبالمغرب موته او المراد انواع الهدايات والخذلانات اناالقادرون على ان نبدل خيرا منهم ومانحن بمسبوقين وهو مفسر فى قوله ومانحن بمسبوقين على ان نبدل امثالكم وقوله فذرهم يخوضوا مفسر فى آخر سورة والطور واختلفوا فى ان ماوصف الله نفسه بالقدرة عليه من ذلك هل خرج

وهو تكميل النفس بالايمان والطاعة فمن لم يستكملها بذلك فهو بمعزل من ان يبوأ مبوأ الكاملين فمن اين لهم ان يطمعوا فى دخول الجنة وهم مكبون على الكفر والفسوق وانكار البعث وقيل معناه اناخلقناهم ممايعلمون من نطفة مذرة فمن اين يتشرفون ويدعون التقدم ويقولون لندخلن الجنة قبلهم وقيل انهم مخلوقون من نطفة قذرة لاتناسب عالم القدس فتى لم تستكمل الايمان والطاعة ولم تتخلق باخلاق الملكية لم تستعد لدخولها ولايخفى مافى الكل من التمحل والاقرب انه كلام مستأنف قدسيق تمهيدا لمابعده من بيان قدرته تعالى على ان يهلكهم لكفرهم بالبعث والجزاء واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبمانزل عليه من الوحى وادعائهم دخول الجنة بطريق السخرية وينشئ بدلهم قوما آخرين فان قدرته تعالى على مايعلمون من النشأة الاولى حجة بينة على قدرته تعالى ذلك كما يفصح عنه الفاء الفصيحة فى قوله تعالى (فلااقسم برب المشارق والمغارب) والمعنى اذا كان الامر كما ذكر من اناخلقناهم ممايعلمون فأقسم برب المشارق والمغارب (اناالقادرون على ان نبدل خيرا منهم) اى نهلكهم بالمرة حسبما تقتضيه جناياتهم ونأتى بدلهم بخلق آخرين ليسوا على صفتهم (ومانحن بمسبوقين) بمغلوبين ان أردنا ذلك لكن مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة اقتضت تأخير عقوباتهم (فذرهم) فخلهم وشأنهم (يخوضوا) فى باطلهم الذى من جملته ماحكى عنهم (ويلعبوا) فى دنياهم (حتى يلاقوا يومهم الذى

الى الفعل ام لا فقال بعضهم بدل الله بهم الانصار والمهاجرين فان حالتهم في نصرة الرسول مشهورة وقال آخرون بل بدل الله كفر بعضهم بالايمان وقال بعضهم لم يقع هذا التبديل فانهم او اكثرهم بقوا على جملة كفرهم الى ان ماتوا وانما كان يصح وقوع التبديل بهم لو اهلكوا لان مراده تعالى بقوله انا لقادرون على ان نبدل خيرا منهم بطريق الاهلاك فاذا لم يحصل ذلك فكيف يحكم بأن ذلك قد وقع وانما هدد تعالى القوم بذلك لكي يؤمنوا * ثم ذكر تعالى ذلك اليوم الذى تقدم ذكره فقال (يوم يخرجون من الاجداث سراعا) وهو كقوله فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون * قوله تعالى (كأنهم الى نصب يوفضون خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون) اعلم ان في نصب ثلاث قرا آت (احدها) وهى قراءة الجمهور نصب بفتح النون والنصب كل شئ نصب والمعنى كأنهم الى علم لهم يستبقون (والقراءة الثانية) نصب بضم النون وسكون الصاد وفيه وجهان (احدهما) النصب والنصب لغتان مثل الضعف والضعف (وثانيهما) ان يكون نصب جمع نصب كسقف جمع سقف (والقراءة الثالثة) نصب بضم النون والصاد وفيه وجهان (احدهما) ان يكون النصب والنصب كلاهما يكونان جمع نصب كأسد وأسد جمع اسد (وثانيهما) ان يكون المراد من النصب الانصاب وهى الاشياء التى تنصب فتعبد من دون الله كقوله وماذبح على النصب وقوله يوفضون يسرعون ومعنى الآية على هذا الوجه انهم يوم يخرجون من الاجداث يسرعون الى الداعى مستبقين كما كانوا يستبقون الى انصابهم وبقية السورة معلومة والله أعلم والحمد لله رب العالمين والصلاة على نبيه محمد وعلى آله وصحبه اجمعين

(سورة نوح عليه السلام عشرون وثمان آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(انا ارسلنا نوحا الى قومه أن انذر قومك) فى قوله ان وجهان (احدهما) اصله بأن انذر فحذف الجار واوصل الفعل والمعنى ارسلناه بأن قلنا له انذر اى ارسلناه بالامر بالانذار (الثانى) قال الزجاج يجوز ان تكون مفسرة والتقدير انا ارسلنا نوحا الى قومه اى انذر قومك وقرأ ابن مسعود انذر بغير ان على ارادة القول * ثم قال تعالى (من قبل ان يأتيهم عذاب اليم قال) قال مقاتل يعنى الغرق بالطوفان * واعلم ان الله تعالى لما امره بذلك امتثل ذلك الامر وقال (ياقوم انى لكم نذير مبين) * ثم قال تعالى (أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ان اجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) وأن اعبدوا هو نظير أن انذر فى الوجهين ثم انه امر القوم بثلاثة اشياء بعبادة الله وتقواه وطاعة نفسه فالامر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من افعال القلوب وافعال الجوارح والامر بتقواه يتناول الزجر عن جميع المحظورات والمكروهات وقوله واطيعون يتناول امرهم بطاعته وجميع المأمورات والمنهيات وهذا وان كان داخلا فى

(الامر)

يوعدون) وهو يوم البعث عند النفخة الثانية لا يوم النفخة الاولى كما توهم فان قوله تعالى (يوم يخرجون من الاجداث) بدل من يومهم وقرئ يخرجون على البناء للمفعول من الاخراج (سراعا) حال من مرفوع يخرجون اى مسرعين (كأنهم الى نصب) وهو كل ما نصب فعبد من دون الله تعالى وقرئ بسكون الصاد وبفتح النون وسكون الصاد ايضا (يوفضون) يسرعون (خاشعة ابصارهم) وصفت ابصارهم بالخشوع مع انه وصف الكل لغاية ظهور آثاره فيها (ترهقهم ذلة) تغشاهم ترهقهم ذلة شديدة (ذلك) الذى ذكر ما سيقع فيه من الاحوال الهائلة (اليوم الذى كانوا يوعدون) فى الدنيا * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة سأل سائل اعطاه الله تعالى ثواب الذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون *

(سورة نوح عليه السلام مكية)
(وآيها تسع او ثمان وعشرون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(انا ارسلنا نوحا الى قومه ان انذر قومك) اى بأن انذرهم على ان ان مصدرية حذف منها الجار واوصل اليها الفعل فان حذفه مع ان وان مطرد وجعلت صلتها امرا كما فى قوله تعالى وان اقم وجهك لان مدار وصلها بصيغ الافعال دلالتها على المصدر وذلك لا يختلف بالخبرية والانشائية ووجوب كون الصلة خبرية فى الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لا توصف الا بالجمل الخبرية وليس الموصول الحرفى كذلك وحيث استوى الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر استويا فى صحة الوصل.

الامر بعبادة الله وتقواه الا انه خصه بالذكر تأكيدا فى ذلك التكليف ومبالغة فى تقريره ثم انه تعالى لما كلفهم بهذه الاشياء الثلاثة وعدهم عليها بشيئين (احدهما) ان يزيل مضار الآخرة عنهم وهو قوله يغفر لكم من ذنوبكم (الثانى) يزيل عنهم مضار الدنيا بقدر الامكان وذلك بان يؤخر اجلهم الى اقصى الامكان وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما فائدة من فى قوله يغفر لكم من ذنوبكم (الجواب) من وجوه (احدها) انها صلة زائدة والتقدير يغفر لكم ذنوبكم (الثانى) ان غفران الذنب هو ان لا يؤاخذ به فلو قال يغفر لكم ذنوبكم لكان معناه ان لا يؤاخذكم بمجموع ذنوبكم وعدم المؤاخذة بالمجموع لا يوجب عدم المؤاخذة بكل واحد من آحاد المجموع فله ان يقول لا اطالبك بمجموع ذنوبك ولكنى اطالبك بهذا الذنب الواحد فقط اما لما قال يغفر لكم من ذنوبكم كان تقديره يغفر كل ما كان من ذنوبكم وهذا يقتضى عدم المؤاخذة على مجموع الذنوب وعدم المؤاخذة ايضا على كل فرد من افراد المجموع (الثالث) ان قوله يغفر لكم من ذنوبكم هب انه يقتضى التبعيض لكنه حق لان من آمن فانه يصير ما تقدم من ذنوبه على ايمانه مغفورا اما ما تأخر عنه فانه لا يصير بذلك السبب مغفورا فثبت انه لا بد ههنا من حرف التبعيض (السؤال الثانى) كيف قال ويؤخركم مع اخباره بامتناع تأخير الاجل وهل هذا الا تناقض (الجواب) قضى الله مثلا ان قوم نوح ان آمنوا عمرهم الله الف سنة وان بقوا على كفرهم اهلكهم على رأس تسعمائة سنة فقيل لهم آمنوا يؤخركم الى اجل مسمى اى الى وقت سماه الله وجعله غاية الطول فى العمر وهو تمام الالف ثم اخبر انه اذا انقضى ذلك الاجل الاطول فانه لا بد من الموت (السؤال الثالث) ما الفائدة فى قوله لو كنتم تعلمون (الجواب) الغرض الزجر عن حب الدنيا وعن التهالك عليها والاعراض عن الدين بسبب حبها يعنى ان غلوهم فى حب الدنيا وطلب لذاتها بلغ الى حيث يدل على انهم شاكون فى الموت * قوله تعالى (قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا) اعلم ان هذا من الآيات الدالة على ان جميع الحوادث بقضاء الله وقدره وذلك لانا نرى انسانين يسمعان دعوة الرسول فى مجلس واحد بلفظ واحد فيصير ذلك الكلام فى حق احدهما سببا لحصول الهداية والميل والرغبة وفى حق الثانى سببا لمزيد العتو والتكبر ونهاية النفرة وليس لاحد ان يقول ان تلك النفرة والرغبة حصلتا باختيار المكلف فان هذا مكابرة فى المحسوس فان صاحب النفرة يجد قلبه كالمضطر الى تلك النفرة وصاحب الرغبة يجد قلبه كالمضطر الى تلك الرغبة ومتى حصلت تلك النفرة وجب ان يحصل عقيبه التمرد والاعراض وان حصلت الرغبة وجب ان يحصل عقيبه الانقياد والطاعة فعلمنا ان افضاء سماع تلك الدعوة فى حق احدهما الى الرغبة المستلزمة لحصول الطاعة والانقياد وفى حق الثانى الى النفرة المستلزمة لحصول التمرد والعصيان لا يكون الا بقضاء الله وقدره فان قيل هب ان حصول النفرة والرغبة ليس باختياره لكن حصول العصيان عند النفرة

بما فتجرد عند ذلك كل منهما عن المعنى الخاص بصيغته فيبقى الحدث المجرد عن معنى الامر والنهى والمضى والاستقبال كأنه قيل ارسلناه بالانذار وقيل المعنى ارسلناه بان قلنا له انذر اى ارسلناه بالامر بالانذار ويجوز ان تكون ان مفسرة لما فى الارسال من معنى القول فلا يكون للجملة محل من الاعراب وعلى الاول محلها النصب عند سيبويه والفراء والجر عند الخليل والكسائى كما هو المعروف وقرئ انذر بغير ان على ارادة القول (من قبل ان يأتيهم عذاب اليم) عاجل او آجل لئلا يبقى لهم عذر ما اصلا (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية ارساله عليه الصلاة والسلام بالوجه المذكور كأنه قيل فافعل عليه الصلاة والسلام فقيل قال لهم (يا قوم انى لكم نذير مبين) منذر موضح لحقيقة الامر وقوله تعالى (ان اعبدوا الله واتقوه واطيعون) متعلق بنذير على الوجهين المذكورين (يغفر لكم من ذنوبكم) اى بعض ذنوبكم وهو ما سلف فى الجاهلية فان الاسلام يجبه (ويؤخركم الى اجل مسمى) هو الامد الاقصى الذى قدره الله تعالى لهم بشرط الايمان والطاعة وراء ما قدره لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان فان وصف الاجل بالمسمى وتعليق تأخيرهم اليه بالايمان والطاعة صريح فى ان لهم اجلا آخر لا يجاوزونه ان لم يؤمنوا وهو المراد بقوله تعالى (ان اجل الله) اى ما قدر لكم على تقدير بقائكم على الكفر (اذا جاء) وانتم على ما انتم عليه من الكفر (لا يؤخر) فبادروا الى

يكون باختياره فان العبد متمكن مع تلك النفرة ان ينقاد ويطيع قلنا انه لو حصلت النفرة غير معارضة بوجه من وجوه الرغبة بل خالصة عن جميع شوائب الرغبة امتنع ان يحصل معه الفعل وذلك لانه عند ماتحصل النفرة والرغبة لم يحصل الفعل البتة فعند حصول النفرة انضم الى عدم المقتضى وجود المانع فبأن يصير الفعل ممتنعا اولى فثبت ان هذه الآية من اقوى الدلائل على القضاء والقدر ※ ثم قال تعالى (وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم) اعلم ان نوحا عليه السلام انما دعاهم الى العبادة والتقوى والطاعة لاجل ان يغفر الله لهم فان المقصود الاول هو حصول المغفرة واما الطاعة فهى انما طلبت ليتوسل بها الى تحصيل المغفرة ولذلك لما امرهم بالعبادة قال يغفر لكم من ذنوبكم فلما كان المطلوب الاول من الدعوة حصول المغفرة لاجرم قال وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم واعلم انه عليه السلام لما دعاهم عاملوه باشياء ※ (اولها) قوله (جعلوا اصابعهم فى آذانهم) والمعنى انهم بلغوا فى التقليد الى حيث جعلوا اصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعوا الحجة والبينة ※ (وثانيها) قوله تعالى (واستغشوا ثيابهم) اى تغطوا بها اما لاجل ان لا يبصروا وجهه كأنهم لم يجوزوا ان يسمعوا كلامه ولا ان يروا وجهه واما لاجل المبالغة فى ان لا يسمعوا فانهم اذا جعلوا اصابعهم فى آذانهم ثم استغشوا ثيابهم مع ذلك صار المانع من السماع اقوى ※ (وثالثها) قوله تعالى (واصروا) والمعنى انهم اصروا على مذهبهم او على اعراضهم عن سماع دعوة الحق ※ (ورابعها) قوله (واستكبروا استكبارا) اى عظيما بالغا الى النهاية القصوى ※ ثم قال تعالى (ثم انى دعوتهم جهارا ثم انى اعلنت لهم واسررت لهم اسرارا) واعلم ان هذه الآيات تدل على ان مراتب دعوته كانت ثلاثة فبدأ بالمناصحة فى السر فعاملوه بالامور الاربعة ثم ثنى بالمجاهرة فلما لم يؤثر جمع بين الاعلان والاسرار وكلمة ثم دالة على تراخى بعض هذه المراتب عن بعض اما بحسب الزمان او بحسب الرتبة لان الجهار اغلظ من الاسرار والجمع بين الاسرار والجهار اغلظ من الجهار وحده فان قيل بم انتصب جهارا قلنا فيه وجوه (احدها) انه منصوب بدعوتهم نصب المصدر لان الدعاء احد نوعيه الجهار فنصب به نصب القرفصاء بقعد لكونها احد انواع القعود (وثانيها) انه اريد بدعوتهم جاهرتهم (وثالثها) ان يكون صفة لمصدر دعا بمعنى دعاء جهارا اى مجاهرا به (ورابعها) ان يكون مصدرا فى موضع الحال اى مجاهرا ※ قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا) قال مقاتل ان قوم نوح لما كذبوه زمانا طويلا حبس الله عنهم المطر واعقم ارحام نسائهم اربعين سنة فرجعوا فيه الى نوح فقال نوح استغفروا ربكم من الشرك حتى يفتح عليكم ابواب نعمه واعلم ان الاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح ابواب الخيرات ويدل عليه وجوه (احدها) ان الكفر سبب لخراب العالم على ما قال فى كفر النصارى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا فلما كان الكفر سببا لخراب العالم وجب ان يكون الايمان سببا لعمارة العالم

(وثانيها)

الايمان والطاعة قبل مجيئه حتى لايتحقق شرطه الذى هو بقاؤكم على الكفر فلا يجئ ويتحقق شرط التأخير الى الاجل المسمى فتؤخروا اليه ويجوز ان يراد به وقت اتيان العذاب المذكور فى قوله تعالى من قبل ان يأتيهم عذاب اليم فانه اجل موقت له حتما وحمله على اجل الاطول مما لايساعده المقام كيف لا والجملة تعليل للامر بالعبادة المستتبعة للمغفرة والتأخير الى الاجل المسمى فلابد ان يكون المنفى عند مجئ الاجل هو التأخير الموعود فكيف يتصور ان يكون مافرض مجيئه هو الاجل المسمى (لو كنتم تعلمون) اى لو كنتم تعلمون شيئا لسارعتم الى ما امركم به (قال) اى نوح عليه الصلاة والسلام مناجيا ربه وحاكيا له تعالى وهو اعلم بحاله ماجرى بينه وبين قومه من القيل والقال فى تلك المدد الطوال بعد مابذل فى الدعوة غاية المجهود وجاوز فى الانذار كل حد معهود وضاقت عليه الحيل وعيت به العلل (رب انى دعوت قومى) الى الايمان والطاعة (ليلا ونهارا) اى دائما من غير فتور ولاتوان (فلم يزدهم دعائى الا فرارا) مما دعوتهم اليه واسناد الزيادة الى الدعاء لسببيته لها كما فى قوله تعالى زادتهم ايمانا (وانى كلما دعوتهم) اى الى الايمان (لتغفر لهم) بسببه (جعلوا اصابعهم فى آذانهم) اى سدوا مسامعهم من استماع الدعوة (واستغشوا ثيابهم) اى بالغوا فى التغطى بها كأنهم طلبوا ان تغشاهم ثيابهم او تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر اليه او لئلا يعرفهم فيدعوهم

(وثانيها) الآيات منها هذه الآية ومنها قوله ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك (وثالثها) انه تعالى قال وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فاذا اشتغلوا بتحصيل المقصود حصل مايحتاج اليه فى الدنيا على سبيل التبعية (ورابعها) ان عمر خرج يستسقى فما زاد على الاستغفار فقيل له ما رأيناك استسقيت فقال لقد استسقيت بمجاديح السماء المجدح ثلاثة كواكب مخصوصة ونوءه يكون عزيزا شبه عمر الاستغفار بالانواء الصادقة التى لا تخطئ وعن بكر بن عبدالله ان اكثر الناس ذنوبا اقلهم استغفارا واكثرهم استغفارا اقلهم ذنوبا وعن الحسن ان رجلا شكى اليه الجدب فقال استغفر الله وشكى اليه آخر الفقر وآخر قلة النسل وآخر قلة ريع ارضه فأمرهم كلهم بالاستغفار فقال له بعض القوم أتاك رجال يشكون اليك انواعا من الحاجة فأمرتهم كلهم بالاستغفار فتلا له الآية وههنا سؤالات (الاول) ان نوحا عليه السلام أمر الكفار قبل هذه الآية بالعبادة والتقوى والطاعة فأى فائدة فى ان أمرهم بعد ذلك بالاستغفار (الجواب) انه لما امرهم بالعبادة قالوا له ان كان الدين القديم الذى كنا عليه حقا فلم تأمرنا بتركه وان كان باطلا فكيف يقبلنا بعد ان عصيناه فقال نوح عليه السلام انكم وان كنتم عصيتموه ولكن استغفروه من تلك الذنوب فانه سبحانه كان غفارا (السؤال الثانى) لم قال انه كان غفارا ولم يقل انه غفار قلنا المراد انه كان غفارا فى حق كل من استغفره كأنه يقول لاتظنوا ان غفاريته انما حدثت الآن بل هو أبدا هكذا كان فكأن هذا هو حرفته وصنعته ❊ قوله تعالى (يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا) اعلم ان الخلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة ولذلك قال تعالى واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب فلاجرم اعلمهم الله تعالى ههنا ان ايمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر فى الآخرة الخصب والغنى فى الدنيا والاشياء والتى وعدهم من منافع الدنيا فى هذه الآية خمسة (اولها) قوله يرسل السماء عليكم مدرارا وفى السماء وجوه (احدها) ان المطر منها ينزل الى السحاب (وثانيها) ان يراد بالسماء السحاب (وثالثها) ان يراد بالسماء المطر من قوله * اذا نزل السماء بأرض قوم * والمدرار الكثير الدرور ومفعال مما يستوى فيه المذكر والمؤنث كقولهم رجل او امرأة معطار ومتفال (وثانيها) قوله ويمددكم بأموال وهذا لايختص بنوع واحد من المال بل يعم الكل (وثالثها) قوله وبنين ولاشك ان ذلك مما يميل الطبع اليه (ورابعها) قوله ويجعل لكم جنات اى بساتين (وخامسها) قوله ويجعل لكم انهارا ❊ ثم قال تعالى (مالكم لاترجون لله وقارا) وفيه قولان (الاول) ان الرجاء ههنا بمعنى الخوف ومنه قول الهذلى

(واصروا) اى اكبوا على الكفر والمعاصى مستعار من اصر الحمار على العانة اذا اصر أذنيه وأقبل عليها (واستكبروا) عن اتباعى وطاعتى (استكبارا) شديدا (ثم انى دعوتهم جهارا ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا) اى دعوتهم تارة بعد تارة ومرة غب مرة على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة وثم لتفاوت الوجوه فان الجهار اشد من الاسرار والجمع بينهما اغلظ من الافراد او لتراخى بعضها عن بعض وجهارا منصوب بدعوتهم على المصدر لانه احد نوعى الدعاء او اريد بدعوتهم جاهرتهم او هو صفة لمصدر اى دعوتهم دعاء جهارا اى مجاهرا به او مصدر فى موقع الحال اى مجاهرا (فقلت استغفروا ربكم) بالتوبة عن الكفر والمعاصى (انه كان غفارا) للتائبين كأنهم تعللوا وقالوا ان كنا على الحق فكيف نتركه وان كنا على الباطل فكيف يقبلنا بعد ما عكفنا عليه دهرا طويلا فأمرهم بما يمحق ماسلف منهم من المعاصى ويجلب اليهم المنافع ولذلك وعدهم بما هو اوقع فى قلوبهم وأحب اليهم من الفوائد العاجلة وقيل لما كذبوه بعد تكرير الدعوة حبس الله تعالى عنهم القطر واعقم ارحام نسائهم اربعين سنة وقيل سبعين سنة فوعدهم انهم ان آمنوا ان يرزقهم الله تعالى الخصب ويدفع

اذا لسعته النحل لم يرج لسعها * والوقار العظمة والتوقير التعظيم ومنه قوله تعالى وتوقروه بمعنى مابالكم لاتخافون لله عظمة وهذا القول عندى غير جائز لان الرجاء ضد الخوف فى اللغة المتواترة الظاهرة فلو قلنا ان لفظة الرجاء فى اللغة موضوعة بمعنى الخوف لكان ذلك ترجيحا للرواية الثابتة بالآحاد على الرواية المنقولة بالتواتر وهذا يفضى الى القدح فى القرآن فانه لالفظ فيه الا ويمكن جعل نفيه اثباتا واثباته نفيا بهذا الطريق (الوجه الثانى) ماذكره صاحب الكشاف وهو ان المعنى مالكم لاتأملون لله توقيرا اى تعظيما والمعنى مالكم لاتكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله اياكم ولله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار * قوله تعالى (وقد خلقكم أطوارا) فى موضع الحال كأنه قال مالكم لاتؤمنون بالله والحال هذه وهى حال موجبة للايمان به وقد خلقكم أطوارا اى تارات خلقكم اولا ترابا ثم خلقكم نطفا ثم خلقكم علقا ثم خلقكم مضغا ثم خلقكم عظاما ولحما ثم أنشأكم خلقا آخر (وعندى فيه وجه ثالث) وهو ان القوم كانوا يبالغون فى الاستخفاف بنوح عليه السلام فأمرهم الله تعالى بتوقيره وترك الاستخفاف به فكأنه قال لهم انكم اذا وقرتم نوحا وتركتم الاستخفاف به كان ذلك لاجل الله فمالكم لاترجون وقارا تأتون به لاجل الله ولاجل امره وطاعته فان كل مايأتى به الانسان لاجل الله فانه لابدوان يرجو منه خيرا (ووجه رابع) وهو ان الوقار هو الثبات من وقر اذا ثبت واستقر فكأنه قال مالكم وعند هذا تم الكلام ثم قال على سبيل الاستفهام بمعنى الانكار لاترجون لله وقارا اى لاترجون لله ثباتا وبقاء فانكم لورجوتم ثباته وبقاءه لخفتموه ولما اقدمتم على الاستخفاف برسله وأوامره والمراد من قوله ترجون اى تعتقدون لان الراجى للشئ معتقد له واعلم انه لما امر فى هذه الآية بتعظيم الله استدل على التوحيد بوجوه من الدلائل (الاول) قوله وقد خلقكم أطوارا وفيه وجهان (الاول) قال الليث الطور التارة يعنى حالا بعد حال كما ذكرنا انه كان نطفة ثم علقة الى آخر التارات (الثانى) قال ابن الانبارى الطور الحال والمعنى خلقكم اصنافا مختلفين لايشبه بعضكم بعضا ولما ذكر هذا الدليل من الانفس على التوحيد اتبعه بذكر دليل التوحيد من الآفاق على العادة المعهودة فى كل القرآن * (الدليل الثانى) على التوحيد قوله تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) واعلم انه تعالى تارة يبدأ بدلائل الانفس وبعدها بدلائل الآفاق كما فى هذه الآية وذلك لان نفس الانسان اقرب الاشياء اليه فلاجرم بدأ بالاقرب وتارة يبدأ بدلائل الآفاق ثم بدلائل الانفس امالان دلائل الآفاق ابهر وأعظم فوقعت البداية بها لهذا السبب اولاجل ان دلائل الانفس حاضرة لاحاجة بالعاقل الى التأمل فيها انما الذى يحتاج الى التأمل فيه دلائل الآفاق لان الشبه فيها اكثر فلاجرم تقع البداية بها وههنا سؤالات (السؤال الاول) قوله سبع سموات طباقا يقتضى كون بعضها منطبقا على البعض وهذا يقتضى

منهم ما كانوا فيه (يرسل السماء عليكم مدرارا) اى كثير الدرور والمراد بالسماء المظلة او السحاب (ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات) بساتين (ويجعل لكم) فيها (انهارا) جارية (مالكم لاترجون لله وقارا) انكار لان يكون لهم سبب مافى عدم رجائهم لله تعالى وقارا على ان الرجاء بمعنى الاعتقاد ولاترجون حال من ضمير المخاطبين والعامل فيها معنى الاستقرار فى لكم على ان الانكار متوجه الى السبب فقط مع تحقق مضمون الجملة الحالية لااليهما معا كما فى قوله تعالى ومالى لااعبد الذى فطرنى ولله متعلق بمضمر وقع حالا من وقارا ولو تأخر لكان صفة له اى اى سبب حصل لكم حال كونكم غير معتقدين لله تعالى عظمة موجبة لتعظيمه بالايمان به الطاعة له (وقد خلقكم اطوارا) اى والحال انكم على حال منافية لما انتم عليه بالكلية وهى انكم تعلمون انه تعالى خلقكم تارات عناصر ثم اغذية ثم اخلاطا ثم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ولحوما ثم انشأكم خلقا آخر فان التقصير فى توقير من هذه شؤنه فى القدرة القاهرة والاحسان التام مع العلم بها مما لايكاد يصدر عن العاقل هذا وقد قيل الرجاء بمعنى الامل اى مالكم لاتأملون له تعالى توقيرا اى تعظيما لمن عبده واطاعه ولاتكونون على حال تأملون فيها

ان لايكون بينهما فرج فالملائكة كيف يسكنون فيها (الجواب) الملائكة ارواح وايضا فلعل المراد من كونهاطباقا كونها متوازية لانها متماسة (السؤال الثانى) كيف قال وجعل القمر فيهن نورا والقمر ليس فيها بأسرها بل فى السماء الدنيا (الجواب) هذا كما يقال السلطان فى العراق ليس المراد انذاته حاصلة فى جميع احياز العراق بل انذاته فى حيز من جملة احياز العراق فكذا ههنا (السؤال الثالث) السراج ضوءه عرضى وضوء القمر عرضى متبدل فتشبيه القمر بالسراج اولى من تشبيه الشمس به (الجواب) الليل عبارة عن ظل الارض والشمس لما كانت سببا لزوال ظل الارض كانت شبيهة بالسراج وايضا فالسراج له ضوء والضوء أقوى من النور فجعل الاضعف للقمر والاقوى للشمس ومنه قوله تعالى هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ❊ (الدليل الثالث) على التوحيد قوله تعالى (والله انبتكم من الارض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا) واعلم انه تعالى رجع ههنا الى دلائل الانفس وهو كالتفسير لقوله خلقكم اطوارا فانه بين انه تعالى خلقهم من الارض ثم يردهم اليها ثم يخرجهم منها مرة أخرى اما قوله انبتكم من الارض نباتا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى هذه الآية وجهان (احدهما) معنى قوله انبتكم من الارض اى انبت اباكم من الارض كما قال ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب (والثانى) انه تعالى انبت الكل من الارض لانه تعالى انما يخلقنا من النطف وهى متولدة من الاغذية المتولدة من النبات المتولد من الارض (المسئلة الثانية) كان ينبغى ان يقال انبتكم انباتا الا انه لم يقل ذلك بل قال انبتكم نباتا والتقدير انبتكم فنبتم نباتا (وفيه دقيقة لطيفة) وهى انه لو قال انبتكم انباتا كان المعنى انبتكم انباتا عجيبا غريبا ولما قال انبتكم نباتا كان المعنى انبتكم فنبتم نباتا عجيبا وهذا الثانى اولى لان الانبات صفة لله تعالى وصفة الله غير محسوسة لنا فلا نعرف ان ذلك الانبات انبات عجيب كامل الا بواسطة اخبار الله تعالى وهذا المقام مقام الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى فلا يمكن اثباته بالسمع اما لما قال انبتكم نباتا على معنى انبتكم فنبتم نباتا عجيبا كاملا كان ذلك وصفا للنبات بكونه عجيبا كاملا وكون النبات كذلك امر مشاهد محسوس فيمكن الاستدلال به على كمال قدرة الله تعالى فكان هذا موافقا لهذا المقام فظهر ان العدول من تلك الحقيقة الى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف اما قوله ثم يعيدكم فيها فهو اشارة الى الطريقة المعهودة فى القرآن من انه تعالى لما كان قادرا على الابتداء كان قادرا على الاعادة وقوله ويخرجكم اخراجا اكده بالمصدر كأنه قال يخرجكم حقا لامحالة ❊ (الدليل الرابع) قوله تعالى (والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا) اى طرقا واسعة واحدها فج وهو مفسر فيما تقدم واعلم ان نوحا عليه السلام لما دعاهم الى الله ونبههم على هذه الدلائل الظاهرة حكى عنهم انواع قبائحهم وأقوالهم وافعالهم فالاول ❊ قوله تعالى (قال نوح رب انهم عصونى) وذلك لانه قال فى اول السورة ان اعبدوا الله

تعظيم الله تعالى اياكم فى دار الثواب ولله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار والاول هو الذى تستدعيه الجزالة التنزيلية فان اللائق بحال الكفرة استبعاد ان لايعتقدوا وقار الله تعالى وعظمته من مشاهدتهم لآثارها واحكامها الموجبة للاعتقاد حتما واما عدم رجائهم لتعظيم الله اياهم فى دار الثواب فليس فى حيز الاستبعاد والانكار مع ان فى جعل الوقار بمعنى التوقير من التعسف وفى قوله لله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار من التناقض مالايخفى فان كونه بيانا للموقر يقتضى ان يكون التوقير صادرا عنه تعالى والوقار وصفا للمخاطبين وكونه صلة للوقار يوجب كون الوقار وصفا له تعالى وقيل مالكم لاتخافون لله عظمة وقدرة على اخذكم بالعقوبة أى أى عذر لكم فى ترك الخوف منه تعالى وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مالكم لاتخشون لله عقابا ولا ترجون منه ثوابا وعن مجاهد والضحاك مالكم لاتبالون لله عظمة قال قطرب هى لغة حجازية يقولون لم ارج اى لم ابال وقوله تعالى (الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا) اى متطابقة بعضها فوق بعض (وجعل القمر فيهن نورا) اى منور الوجه الارض فى ظلمة الليل ونسبته الى الكل مع انه فى السماء الدنيا لما انها محاطة بسائر

واتقوه واطيعون فكأنه قال قلت لهم اطيعون فهم عصوني ❊ (الثاني) قوله (واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ذكر في الآية الاولى انهم عصوه وفي هذه الآية انهم ضموا الى عصيانه معصية أخرى وهي طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم الى الكفر وقوله من لم يزده ماله وولده الا خسارا يعني هذان وان كانا من جملة المنافع في الدنيا الا انهما لما صارا سببا للخسار في الآخرة فكأنهما صارا محض الخسار والامر كذلك في الحقيقة لان الدنيا في جنب الآخرة كالعدم فاذا صارت المنافع الدنيوية اسبابا للخسار في الآخرة صار ذلك جاريا مجرى اللقمة الواحدة من الحلوا اذا كانت مسمومة سم الوقت واستدل بهذه الآية من قال انه ليس لله على الكافر نعمة لان هذه النعم استدراجات ووسائل الى العذاب الابدي فكانت كالعدم ولهذا المعنى قال نوح عليه السلام في هذه الآية لم يزده ماله وولده الا خسارا (المسئلة الثانية) قرئ وولده بضم الواو واعلم ان الولد بالضم لغة في الولد ويجوز ان يكون جمعا كاجمع والد كالفلك وههنا يجوز ان يكون واحدا وجمعا ❊ (النوع الثالث) من قبائح افعالهم قوله تعالى (ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد اضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ومكروا معطوف على من لم يزده لان المتبوعين هم الذين مكروا وقالوا للاتباع لا تذرن وجمع الضمير وهو راجع الى من لانه في معنى الجمع (المسئلة الثانية) قرئ كبارا وكبارا بالتخفيف والتثقيل وهو مبالغة في الكبير فأول المراتب الكبير والاوسط الكبار بالتخفيف والنهاية الكبار بالتثقيل ونظيره جميل وجمال وجمال وعظيم وعظام وعظام وطويل وطوال وطوال (المسئلة الثالثة) المكر الكبار هو انهم قالوا لاتباعهم لا تذرن ودا فهم منعوا القوم عن التوحيد وامروهم بالشرك ولما كان التوحيد اعظم المراتب لا جرم كان المنع منه اعظم الكبائر فلهذا وصفه الله تعالى بأنه كبار واستدل بهذا من فضل علم الكلام على سائر العلوم فقال الامر بالشرك كبار في القبح والخزي فالامر بالتوحيد والارشاد وجب ان يكون كبارا في الخير والدين (المسئلة الرابعة) انه تعالى انما سماه مكرا لوجهين (الاول) لما في اضافة الالهية اليهم من الحيلة الموجبة لاستمرارهم على عبادتها كأنهم قالوا هذه الاصنام آلهة لكم وكانت آلهة لآبائكم فلو قبلتم قول نوح لاعترفتم على انفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالين كافرين وعلى آبائكم بأنهم كانوا كذلك ولما كان اعتراف الانسان على نفسه وعلى جميع اسلافه بالقصور والنقص والجهل شاقا شديدا صارت الاشارة الى هذه المعاني بلفظ آلهتكم صارفا لهم عن الدين فلاجل اشتمال هذا الكلام على هذه الحيلة الخفية سمى الله كلامهم مكرا (الثاني) انه تعالى حكى عن اولئك المتبوعين انهم كان لهم مال وولد فلعلهم قالوا لاتباعهم ان آلهتكم خير من اله نوح لان آلهتكم يعطونكم المال والولد واله نوح لا يعطيه شيئا لانه فقير فبهذا المكر صرفوهم عن

السموات فما فيها يكون في الكل اولان كل واحدة منها شفافة لا تحجب ماوراءها فيرى الكل كانها سماء واحدة ومن ضرورة ذلك ان يكون مافي واحدة منها كأنه في الكل (وجعل الشمس سراجا) يزيل ظلمة الليل ويبصر اهل الدنيا في ضوئها وجه الارض ويشاهدون الآفاق كما يبصر اهل البيت في ضوء السراج مايحتاجون الى ابصاره وليس القمر بهذه المثابة انما هو نور في الجملة (والله انبتكم من الارض نباتا) اى انشأكم منها فاستعير الانبات للانشاء لكونه ادل على الحدوث والتكون من الارض ونباتا اما مصدر مؤكد لانبتكم بحذف الزوائد ويسمى اسم مصدر او لما يترتب عليه من فعله اى انبتكم من الارض فنبتم نباتا ويجوز ان يكون الاصل انبتكم من الارض انباتا فنبتم نباتا فيحذف من الجملة الاولى المصدر ومن الثانية الفعل اكتفاء في كل منهما بما ذكر في الاخرى كما مر في قوله تعالى ام تريدون ان تسألوا رسولكم كما سئل موسى وقوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله (ثم يعيدكم فيها) بالدفن عند موتكم (ويخرجكم) منها عند البعث والحشر (اخراجا) محققا لا ريب فيه (والله جعل لكم الارض بساطا) تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم في بيوتكم وتوسيط لكم بين الجعل ومفعوليه

طاعة نوح وهذا مثل مكر فرعون اذ قال اليس لى ملك مصر وقال ام انا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا القى عليه اسورة من ذهب (المسئلة الخامسة) ذكر ابو زيد البلخى فى كتابه فى الرد على عبدة الاصنام ان العلم بأن هذه الخشبة المنحوتة فى هذه الساعة ليست خالقة للسموات والارض والنبات والحيوان علم ضرورى والعلوم الضرورية لايجوز وقوع الاختلاف فيها بين العقلاء وعبادة الاوثان دين كان موجودا قبل مجئ نوح عليه السلام بدلالة هذه الآية وقد استمر ذلك الدين الى هذا الزمان واكثر سكان اطراف المعمورة على هذا الدين فوجب حمل هذا الدين على وجه لايعرف فساده بضرورة العقل والا لما بقى هذه المدة المتطاولة فى اكثر اطراف العالم فاذا لا بد وان يكون للذاهبين الى ذلك المذهب تأويلات (احدها) قال ابو معشر جعفر بن محمد المنجم هذه المقالة انما تولدت من مذهب القائلين بأن الله جسم وفى مكان وذلك لانهم قالوا ان الله نور هو اعظم الانوار والملائكة الذين هم حافون حول العرش الذى هو مكانه هم انوار صغيرة بالنسبة الى ذلك النور الاعظم فالذين اعتقدوا هذا المذهب اتخذوا صنما هو اعظم الاصنام على صورة الههم الذى اعتقدوه واتخذوا اصناما متفاوتة بالكبر والصغر والشرف والخسة على صورة الملائكة المقربين واشتغلوا بعبادة تلك الاصنام على اعتقاد انهم يعبدون الاله والملائكة فدين عبادة الاوثان انما ظهر من اعتقاد التجسيم (الوجه الثانى) وهو ان جماعة الصابئة كانوا يعتقدون ان الاله الاعظم خلق هذه الكواكب الثابتة والسيارة وفوض تدبير هذا العالم السفلى اليها فالبشر عبيد هذه الكواكب والكواكب عبيد الاله الاعظم فالبشر يجب عليهم عبادة الكواكب ثم ان هذه الكواكب كانت تطلع مرة وتغيب اخرى فاتخذوا اصناما على صورها واشتغلوا بعبادتها وغرضهم عبادة الكواكب (الوجه الثالث) ان القوم الذين كانوا فى قديم الدهر كانوا منجمين على مذهب اصحاب الاحكام فى اضافات سعادات هذا العالم ونحوساتها الى الكواكب فاذا اتفق فى الفلك شكل عجيب صالح لطلسم عجيب فكانوا يتخذون ذلك الطلسم وكان يظهر منه احوال عجيبة وآثار عظيمه وكانوا يعظمون ذلك الطلسم ويكرمونه ويشتغلون بعبادته وكانوا يتخذون كل طلسم على شكل موافق لكوكب خاص ولبرج خاص فقيل كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة اسد ويعوق على صوة فرس ونسر على صورة نسر (الوجه الرابع) انه كان يموت اقوام صالحون فكانوا يتخذون تماثيل على صورهم ويشتغلون بتعظيمها وغرضهم تعظيم اولئك الاقوام الذين ماتوا حتى يكونوا شافعين لهم عند الله وهو المراد من قولهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى (الوجه الخامس) انه ربما مات ملك عظيم اوشخص عظيم فكانوا يتخذون تمثالا على صورته وينظرون اليه فالذين جاؤا بعد ذلك ظنوا ان آباءهم كانوا يعبدونها فاشتغلوا بعبادتها لتقليد الآباء ولعل هذه الاسماء الخمسة

مع ان حقه التأخير لما مر مرارا من الاهتمام ببيان كون المجعول من منافعهم والتشويق الى المؤخر فان النفس عند تأخير ما حقه التقديم لاسيما عند كون المقدم ملوحا بكونه من المنافع تبقى مترقبة له فيتمكن عند وروده لها فضل تمكن (لتسلكوا منها سبلا فجاجا) اى طرقا واسعة جمع فج وهو الطريق الواسع وقيل هو المسلك بين الجبلين ومن متعلقة بما قبلها لما فيه من معنى الاتخاذ او بمضمر هو حال من سبلا اى كائنة من الارض ولو تأخر لكان صفة لها (قال نوح) اعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربه اى قال مناجيا له تعالى (رب انهم عصونى) اى تموا على عصيانى فيما امرتهم به مع ما بالغت فى ارشادهم بالعظة والتذكير (واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا) اى واستمروا على اتباع رؤسائهم الذين ابطرتهم اموالهم وغرتهم اولادهم وصار ذلك سببا لزيادة خسارهم فى الآخرة فصاروا اسوة لهم فى الخسار وفى وصفهم بذلك اشعار بأنهم انما اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الاموال والاولاد لا لما شاهدوا فيهم من شبهة مصححة للاتباع فى الجملة وقرئ وولده بالضم والسكون على انه لغة كالحزن او جمع كالاسد (ومكروا) عطف على صلة من والجمع باعتبار معناها كما ان الافراد فى الضمائر الاول باعتبار لفظها (مكرا كبارا) اى كبيرا فى

وهي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر اسماء خمسة من اولاد آدم فلما ماتوا قال ابليس لمن بعدهم لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون اليهم ففعلوا فلما مات اولئك قال لمن بعدهم انهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم ولهذا السبب نهى الرسول عليه السلام عن زيارة القبور اولا ثم اذن فيها على ما يروى انه عليه السلام قال كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فان في زيارتها تذكرة (الوجه السادس) الذين يقولون انه تعالى جسم وانه يجوز عليه الانتقال والحلول لا يستبعدون ان يحل تعالى في شخص انسان او في شخص صنم فاذا أحسوا من ذلك الصنم المتخذ على وجه الطلسم حالة عجيبة خطر ببالهم ان الاله حل في ذلك الصنم ولذلك فان جماعة من قدماء الروافض لما رأوا ان عليا عليه السلام قلع باب خيبر وكان ذلك على خلاف المعتاد قالوا ان الاله حل في بدنه وانه هو الاله ((الوجه السابع) لعلهم اتخذوا تلك الاصنام كالمحراب ومقصودهم بالعبادة هو الله فهذا جملة ما في هذا الباب وبعضها باطلة بدليل العقل فانه لما ثبت انه تعالى ليس بجسم بطل اتخاذ الصنم على صورة الاله وبطل القول ايضا بالحلول والنزول ولما ثبت انه تعالى هو القادر على كل المقدورات بطل القول بالوسايط والطلسمات ولما جاء الشرع بالمنع من اتخاذ الصنم بطل القول باتخاذها محاريب وشفعاء (المسئلة السادسة) هذه الاصنام الخمسة كانت اكبر اصنامهم ثم انها انتقلت عن قوم نوح الى العرب فكان ود لكلب وسواع لهمدان ويغوث لمذحج ويعوق لمراد ونسر لحمير ولذلك سمت العرب بعبد ود وعبد يغوث هكذا قيل في الكتب وفيه اشكال لان الدنيا قد خربت في زمان الطوفان فكيف بقيت تلك الاصنام وكيف انتقلت الى العرب ولا يمكن ان يقال ان نوحا عليه السلام وضعها في السفينة وامسكها لانه عليه السلام انما جاء لنفيها وكسرها فكيف يمكن ان يقال انه وضعها في السفينة سعيا منه في حفظها (المسئلة السابعة) قرئ لا تذرن ودا بفتح الواو وبضم الواو وقال الليث ود بفتح الواو صنم كان لقوم نوح وود بالضم صنم لقريش وبه سمي عمرو بن عبد ود واقول على قول الليث وجب ان لا يجوز ههنا قراءة ود بالضم لان هذه الآيات في قصة نوح لا في احوال قريش وقرأ الاعمش ولا يغوثا ويعوقا بالصرف وهذه قراءة مشكلة لانهما ان كانا عربيين او عجميين ففيهما سببا منع الصرف اما التعريف ووزن الفعل واما التعريف والعجمة فلعله صرفهما لاجل انه وجد اخواتهما منصرفة ودا وسواعا ونسرا * واعلم ان نوحا لما حكى عنهم انهم قالوا لاتباعهم لا تذرن اصنامكم قال وقد اضلوا كثيرا وفيه وجهان (الاول) اولئك الرؤساء قد اضلوا كثيرا قبل هؤلاء الموصين بعبادة الاصنام وليس هذا اول مرة اشتغلوا بالاضلال (الثاني) يجوز ان يكون الضمير عائدا الى الاصنام كقوله انهن اضللن كثيرا من الناس واجرى الاصنام على هذا القول مجرى الآدميين كقوله ألهم ارجل واما قوله تعالى ولا تزد الظالمين الا ضلالا ففيه سؤالان (الاول) كيف موقع قوله ولا تزد الظالمين (الجواب) كأن نوحا عليه السلام لما اطنب في تعديد افعالهم المنكرة واقوالهم

الغاية وقرئ بالتخفيف والاول ابلغ منه وهو ابلغ من الكبير وذلك احتيالهم في الدين وصدهم للناس عنه وتحريشهم لهم على اذية نوح عليه السلام (وقالوا لا تذرن آلهتكم) اي لا تتركوا عبادتها على الاطلاق الى عبادة رب نوح (ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) اي ولا تذرن عبادة هؤلاء خصوها بالذكر مع اندراجها فيما سبق لانها كانت اكبر اصنامهم واعظمها عندهم وقد انتقلت هذه الاصنام عنهم الى العرب فكان ود لكلب وسواع لهمدان ويغوث لمذحج ويعوق لمراد ونسر لحمير وقيل هي اسماء رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح وقيل من اولاد آدم عليه السلام ماتوا فقال ابليس لمن بعدهم لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون اليهم وتتبركون بهم ففعلو فلما مات اولئك قال لمن بعدهم انهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم وقيل كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة اسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر وقرئ ودا بضم الواو ويغوثا ويعوقا للتناسب ومنع صرفهما للعجمة والعلمية (وقد اضلوا) اي الرؤساء (كثيرا) خلقا كثيرا او الاصنام كقوله تعالى رب انهن اضللن كثيرا من الناس (ولا تزد الظالمين الا ضلالا) عطف

القبيحة امتلأ قلبه غيظا وغضبا عليهم فختم كلامه بأن دعا عليهم (السؤال الثانى) انما بعث ليصرفهم عن الضلال فكيف يليق به ان يدعو الله فى ان يزيد فى ضلالهم (الجواب) من وجهين (الاول) لعله ليس المراد الضلال فى امر الدين بل الضلال فى امر دنياهم وفى ترويج مكرهم وحيلهم (الثانى) الضلال العذاب لقوله ان المجرمين فى ضلال وسعر ثم انه تعالى لما حكى كلام نوح عليه السلام ❊ قال بعده (مما خطاياهم أغرقوا فأدخلوا نارا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما صلة كقوله فبما نقضهم فبما رحمة والمعنى من خطاياهم اى من اجلها وبسببها وقرأ ابن مسعود من خطيئاتهم ما اغرقوا فأخر كلمة ما وعلى هذه القراءة لا تكون ما صلة زائدة لان ما مع ما بعده فى تقدير المصدر واعلم ان تقديم قوله مما خطاياهم لبيان انه لم يكن اغراقهم بالطوفان الا من أجل خطيئاتهم فمن قال من المنجمين ان ذلك انما كان بسبب انه انقضى فى ذلك الوقت نصف الدور الاعظم وما يجرى مجرى هذه الكلمات كان مكذبا لصريح هذه الآية فيجب تكفيره (المسئلة الثانية) قرئ خطيئاتهم بالهمزة وخطياتهم بقلبها ياء وادغامها وخطاياهم وخطيئتهم بالتوحيد على ارادة الجنس ويجوز ان يراد به الكفر واعلم ان الخطايا والخطيئات كلاهما جمع خطيئة الا ان الاول جمع تكسير والثانى جمع سلامة وقد تقدم الكلام فيها فى البقرة عند قوله نغفر لكم خطاياكم وفى الاعراف عند قوله خطيئاتكم (المسئلة الثالثة) تمسك اصحابنا فى اثبات عذاب القبر بقوله اغرقوا فأدخلوا نارا وذلك من وجهين (الاول) ان الفاء فى قوله فأدخلوا نارا تدل على انه حصلت تلك الحالة عقيب الاغراق فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة والا بطلت دلالة هذه الفاء (الثانى) انه قال فأدخلوا على سبيل الاخبار عن الماضى وهذا انما يصدق لو وقع ذلك قال مقاتل والكلبى معناه انهم سيدخلون فى الآخرة نارا ثم عبر عن المستقبل بلفظ الماضى لصحة كونه وصدق الوعد به كقوله ونادى اصحاب النار ونادى اصحاب الجنة واعلم ان الذى قالوه ترك للظاهر من غير دليل (فان قيل) انما تركنا هذا الظاهر لدليل وهو ان من مات فى الماء فانا نشاهده هناك فكيف يمكن ان يقال انهم فى تلك الساعة ادخلوا نارا (الجواب) هذا الاشكال انما جاء لاعتقاد ان الانسان هو مجموع هذا الهيكل وهذا خطأ لما بينا ان هذا الانسان هو الذى كان موجودا من اول عمره مع انه كان صغير الجثة فى اول عمره ثم ان اجزاءه دائما فى التحلل والذوبان ومعلوم ان الباقى غير المتبدل فهذا الانسان عبارة عن ذلك الشئ الذى هو باق من اول عمره الى الآن فلم لا يجوز ان يقال انه وان بقيت هذه الجثة فى الماء الا ان الله تعالى نقل تلك الاجزاء الاصلية الباقية التى كان الانسان المعين عبارة عنها الى النار والعذاب ❊ ثم قال تعالى (فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا) وهذا تعريض بأنهم انما واظبوا على عبادة تلك الاصنام لتكون دافعة للآفات عنهم جالبة للمنافع اليهم فلما جاءهم عذاب الله لم ينتفعوا بتلك الاصنام وما قدرت تلك الاصنام على دفع عذاب

على قوله تعالى رب انهم عصونى على حكاية كلام نوح بعد قال وبعد الواو النائبة عنه اى قال قال رب انهم عصونى وقال لا تزد الظالمين الا ضلالا ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المفرط وتعليل الدعاء عليهم به والمطلوب هو الضلال فى تمشية مكرهم ومصالح دنياهم او الضياع والهلاك كما فى قوله تعالى ان المجرمين فى ضلال وسعر ويؤيده ما سيأتى من دعائه عليه الصلاة والسلام (مما خطيئاتهم) اى من اجل خطيئاتهم وما مزيدة بين الجار والمجرور للتوكيد والتفخيم ومن لم ير زيادتها جعلها نكرة وجعل خطيئاتهم بدلا منها وقرئ مما خطاياهم ومما خطيئتهم اى بسبب خطيئاتهم المعدودة وغيرها من خطاياهم (اغرقوا) بالطوفان لا بسبب آخر (فأدخلوا نارا) المراد اما عذاب القبر فهو عقيب الاغراق وان كانوا فى الماء عن الضحاك انهم كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب او عذاب جهنم والتعقيب لتنزيله منزلة المتعقب لاغراقهم لاقترابه وتحققه لا محالة وتنكير النار اما لتعظيمها وتهويلها او لانه تعالى اعد لهم على حسب خطيئاتهم نوعا من النار (فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا) اى لم يجد احد منهم واحدا من الانصار وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى وبأنها غير قادرة على نصرهم

الله عنهم وهو كقوله ام لهم آلهة تمنعهم من دوننا واعلم ان هذه الآية حجة على كل من عول على شيء غير الله تعالى * قوله تعالى (وقال نوح رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا) قال المبرد ديار لاتستعمل الا في النفي العام يقال ما بالدار ديار ولا تستعمل في جانب الاثبات قال اهل العربية هو فيعال من الدور واصله ديوار فقلبت الواو ياء وادغمت احداهما في الاخرى قاله الفراء والزجاج وقال ابن قتيبة ما بها ديار اى نازل دار * ثم قال تعالى (انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا) فان قيل كيف عرف نوح عليه السلام ذلك قلنا للنص والاستقراء اما النص فقوله تعالى انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن واما الاستقراء فهو انه لبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما فعرف طباعهم وجربهم وكان الرجل منهم ينطلق بابنه اليه ويقول احذر هذا فانه كذاب وان ابي اوصاني بمثل هذه الوصية فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك وقوله ولا يلدوا الا فاجرا كفارا فيه وجهان (احدهما) انهم يكونون في علمك كذلك (والثاني) انهم سيصيرون كذلك واعلم انه عليه السلام لما دعا على الكفار * قال بعده (رب اغفر لي) اى فيما صدر عني من ترك الافضل ويحتمل انه حين دعا على الكفار انما دعا عليهم بسبب تأذيه منهم فكان ذلك الدعاء عليهم كالانتقام فاستغفر عن ذلك لما فيه من طلب حظ النفس * ثم قال (ولوالدي) ابوه لمك بن متوشلخ وامه شمخاء بنت انوش وكانا مؤمنين وقال عطاء لم يكن بين نوح وآدم عليهما السلام من آبائه كافر وكان بينه وبين آدم عشرة آباء وقرأ الحسن بن علي ولولدي يريد ساما وحاما * ثم قال تعالى (ولمن دخل بيتي مؤمنا) قيل مسجدي وقيل سفينتي وقيل لمن دخل في ديني فان قيل فعلى هذا التفسير يصير قوله مؤمنا مكررا قلنا ان من دخل في دينه ظاهرا قد يكون مؤمنا بقلبه وقد لا يكون والمعنى ولمن دخل في ديني دخولا مع تصديق القلب * ثم قال تعالى (وللمؤمنين والمؤمنات) انما خص نفسه اولا بالدعاء ثم المتصلين به لانهم اولى واحق بدعائه ثم عم المؤمنين والمؤمنات ثم ختم الكلام مرة اخرى بالدعاء على الكافرين * فقال (ولا تزد الظالمين الا تبارا) اى هلاكا ودمارا وكل شيء اهلك فقد تبر ومنه قوله ان هؤلاء متبر ما هم فيه وقوله وليتبروا ما علوا تتبيرا فاستجاب الله دعاءه فاهلكهم بالكلية فان قيل ما جرم الصبيان حين اغرقوا والجواب من وجوه (الاول) ان الله تعالى ايبس اصلاب آبائهم واعقم ارحام نسائهم قبل الطوفان باربعين سنة او تسعين فلم يكن معهم صبي حين اغرقوا ويدل عليه قوله استغفروا ربكم الى قوله ويمددكم باموال وبنين وهذا يدل بحسب المفهوم على انهم اذا لم يستغفروا فانه تعالى لا يمددهم بالبنين (الثاني) قال الحسن علم الله براءة الصبيان فاهلكهم بغير عذاب (الثالث) غرقوا معهم لا على وجه العقاب بل كما يموتون بالغرق والحرق وكان ذلك زيادة في عذاب الآباء والامهات اذا ابصروا اطفالهم يغرقون والله اعلم والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه اجمعين

(سورة)

وتهكم بهم (وقال نوح رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا) عطف على نظيره السابق وقوله تعالى مما خطيئاتهم الخ اعتراض وسط بين دعائه عليه الصلاة والسلام للايذان من اول الامر بأن ما اصابهم من الاغراق والاحراق لم يصبهم الا لاجل خطيئاتهم التي عددها نوح عليه السلام واشارة الى استحقاقهم للاهلاك لاجلها لانها حكاية لنفس الاغراق والاحراق على طريقة حكاية ما جرى بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم من الاحوال والاقوال والا لأخر عن حكاية دعائه هذا وديار من الاسماء المستعملة في النفي العام يقال ما بالدار ديار او ديور كقيام وقيوم اى احد وهو فيعال من الدور او من الدار اصله ديوار قد فعل به ما فعل باصل سيد لافعال والا لكان دوارا (انك ان تذرهم) عليهما كلا او بعضا (يضلوا عبادك) عن طريق الحق (ولا يلدوا الا فاجرا كفارا) اى الا من سيفجر ويكفر فوصفهم بما يصيرون اليه وكأنه اعتذار مما عسى يرد عليه من ان الدعاء بالاستئصال مع احتمال ان يكون من اخلافهم من يؤمن منكر وانما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن اعقابهم بعد ما جربهم واستقرأ احوالهم قريبا من الف سنة (رب اغفر لي ولوالدي) ابو لمك بن متوشلخ وامه

(سورة الجن عشرون وثمان آيات مكية)
(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قل اوحى الى انه استمع نفر من الجن) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلف الناس قديما وحديثا فى ثبوت الجن ونفيه فالنقل الظاهر عن اكثر الفلاسفة انكاره وذلك لان اباعلى بن سينا قال فى رسالته فى حدود الاشياء الجن حيوان هوائى متشكل بأشكال مختلفة ثم قال وهذا شرح للاسم فقوله وهذا شرح للاسم يدل على ان هذا الحد شرح للمراد من هذا اللفظ وليس لهذه الحقيقة وجود فى الخارج واما جمهور ارباب الملل والمصدقين للانبياء فقد اعترفوا بوجود الجن واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة واصحاب الروحانيات ويسمونها بالارواح السفلية وزعموا ان الارواح السفلية اسرع اجابة الا انها اضعف واما الارواح الفلكية فهى ابطأ اجابة الا انها اقوى واختلف المثبتون على قولين (فنهم) من زعم انها ليست اجساما ولا حالة فى الاجسام بل هى جواهر قائمة بأنفسها قالوا ولا يلزم من هذا ان يقال انها تكون مساوية لذات الله لان كونها ليست اجساما ولا جسمانية سلوب والمشاركة فى السلوب لا تقتضى المساواة فى الماهية قالوا ثم ان هذه الذوات بعد اشتراكها فى هذا السلب انواع مختلفة بالماهية كاختلاف ماهيات الاعراض بعد استوائها فى الحاجة الى المحل فبعضها خيرة وبعضها شريرة وبعضها كريمة حرة محبة للخيرات وبعضها دنيئة خسيسة محبة للشرور والآفات ولا يعرف عدد انواعهم واصنافهم الا الله قالوا وكونها موجودات مجردة لا يمنع من كونها عالمة بالجزئيات قادرة على الافعال فهذه الارواح يمكنها ان تسمع وتبصر وتعلم الاحوال الجزئية وتفعل الافعال المخصوصة ولما ذكرنا ان ماهياتها مختلفة لا جرم لم يبعد ان يكون فى انواعها ما يقدر على افعال شاقة عظيمة تعجز عنها قدر البشر ولا يبعد ايضا ان يكون لكل نوع منها تعلق بنوع مخصوص من اجسام هذا العالم وكما انه دلت الدلائل الطبية على ان المتعلق الاول للنفس الناطقة التى ليس الانسان الا هى هى الارواح وهى اجسام بخارية لطيفة تتولد من ألطف اجزاء الدم وتتكون فى الجانب الايسر من القلب ثم بواسطة تعلق النفس بهذه الارواح تصير متعلقة بالاعضاء التى تسرى فيها هذه الارواح لم يبعد ايضا ان يكون لكل واحد من هؤلاء الجن تعلق بجزء من اجزاء الهواء فيكون ذلك الجزء من الهواء هو المتعلق الاول لذلك الروح ثم بواسطة سريان ذلك الهواء فى جسم آخر كثيف يحصل لتلك الارواح تعلق وتصرف فى تلك الاجسام الكثيفة ومن الناس من ذكر فى الجن طريقة اخرى فقال هذه الارواح البشرية والنفوس الناطقة اذا فارقت ابدانها وازدادت قوة وكمالا بسبب ما فى ذلك العالم الروحانى من انكشاف الاسرار الروحانية فاذا اتفق ان حدث بدن آخر مشابه لما كان لتلك النفس المفارقة من البدن فبسبب تلك المشاكلة يحصل لتلك النفس المفارقة

شمخا بنت انوش كانا مؤمنين وقيل هما آدم وحواء وقرئ ولولدى يريد ساما وحاما (ولمن دخل بيتى) اى منزلى وقيل مسجدى وقيل سفينتى (مؤمنا) بهذا القيد خرجت امرأته وابنه كنعان ولكن لم يجزم عليه الصلاة والسلام بخروجه الا بعد ما قيل له انه ليس من اهلك وقدمر تفصيله فى سورة هود (وللمؤمنين والمؤمنات) عمهم بالدعاء اثر ما خص به من يتصل به نسبا ودينا (ولا تزد الظالمين الا تبارا) اى هلاكا قيل غرق معهم صبيانهم ايضا لكن لا على وجه العقاب لهم بل لتشديد عذاب آبائهم وامهاتهم باراءة هلاك اطفالهم الذين كانوا اعز عليهم من انفسهم قال عليه الصلاة والسلام يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى وعن الحسن انه سئل عن ذلك فقال علم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب وقيل اعقم الله تعالى ارحام نسائهم وايبس اصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين او سبعين سنة فلم يكن معهم صبى حين غرقوا *عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام

(سورة الجن مكية وآيها ثمان وعشرون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قل اوحى الى) وقرئ احى الى

تعلق مالهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة كالمعاونة لنفس ذلك البدن فى افعالها وتدبيرها لذلك البدن فان الجنسية علة الضم فان اتفقت هذه الحالة فى النفوس الخيرة سمى ذلك المعين ملكا وتلك الاعانة الهاما وان اتفقت فى النفوس الشريرة سمى ذلك المعين شيطانا وتلك الاعانة وسوسة (والقول الثانى) فى الجن انهم اجسام ثم القائلون بهذا المذهب اختلفوا على قولين (منهم) من زعم ان الاجسام مختلفة فى ماهياتها انما المشترك بينها صفة واحدة وهى كونها باسرها حاصلة فى الحيز والمكان والجهة وكونها موصوفة بالطول والعرض والعمق وهذه كلها اشارة الى الصفات والاشتراك فى الصفات لايقتضى الاشتراك فى تمام الماهية لماثبت ان الاشياء المختلفة فى تمام الماهية لايمتنع اشتراكها فى لازم واحد قالوا وليس لأحد ان يحتج على تماثل الاجسام بأن يقال الجسم من حيث انه جسم له حد واحد وحقيقة واحدة فيلزم ان لايحصل التفاوت فى ماهية الجسم من حيث هو جسم بل ان حصل التفاوت حصل فى مفهوم زائد على ذلك وايضا فلأنه يمكننا تقسيم الجسم الى اللطيف والكثيف والعلوى والسفلى ومورد التقسيم مشترك بين الاقسام فالاقسام كلها مشتركة فى الجسمية والتفاوت انما يحصل بهذه الصفات وهى اللطافة والكثافة وكونها علوية وسفلية قالوا وهاتان الحجتان ضعيفتان (اما الحجة الاولى) فلأنا نقول كما ان الجسم من حيث انه جسم له حد واحد وحقيقة واحدة فكذا العرض من حيث انه عرض له حد واحد وحقيقة واحدة فيلزم منه ان تكون الاعراض كلها متساوية فى تمام الماهية وهذا مما لايقوله عاقل بل الحق عند الفلاسفة انه ليس للاعراض البتة قدر مشترك بينها من الذاتيات اذ لو حصل بينها قدر مشترك لكان ذلك المشترك جنسا لها ولو كان كذلك لما كانت التسعة اجناسا عالية بل كانت انواع جنس واحد اذا ثبت هذا فنقول الاعراض من حيث انها اعراض لها حقيقة واحدة ولم يلزم من ذلك ان يكون بينها ذاتى مشترك اصلا فضلا عن ان تكون متساوية فى تمام الماهية فلم لايجوز ان يكون الحال فى الجسم كذلك فانه كما ان الاعراض مختلفة فى تمام الماهية ثم ان تلك المختلفات متساوية فى وصف عارض وهو كونها عارضة لموضوعاتها فكذا من الجائز ان تكون ماهيات الاجسام مختلفة فى تمام ماهياتها ثم انها تكون متساوية فى وصف عارض وهو كونها مشارا اليها بالحس وحاصلة فى الحيز والمكان وموصوفة بالابعاد الثلاثة فهذا الاحتمال لا دافع له اصلا (واما الحجة الثانية) وهى قولهم انه يمكن تقسيم الجسم الى اللطيف والكثيف فهى ايضا منقوضة بالعرض فانه يمكن تقسيم العرض الى الكيف والكم ولم يلزم ان يكون هناك قدر مشترك من الذاتى فضلا عن التساوى فى كل الذاتيات فلم لايجوز ان يكون الامر ههنا ايضا كذلك اذا ثبت انه لاامتناع فى كون الاجسام مختلفة ولم يدل دليل على بطلان هذا الاحتمال فحينئذ قالوا لايمتنع فى بعض الاجسام اللطيفة الهوائية ان تكون مخالفة لسائر انواع

اصله وحى وقد قرئ كذلك من وحى اليه فقلبت الواو المضمومة همزة كاعد وازن فى وعد ووزن (انه) بالفتح لانه فاعل اوحى والضمير للشان (استمع) اى القرآن كما ذكر فى الاحقاف وقد حذف لدلالة ما بعده عليه (نفر من الجن) النفر ما بين الثلاثة والعشرة والجن اجسام عاقلة خفية يغلب عليهم النارية او الهوائية وقيل نوع من الارواح المجردة وقيل هى النفوس البشرية المفارقة عن ابدانها وفيه دلالة على انه عليه الصلاة والسلام لم يشعر بهم وباستماعهم ولم يقرأ عليهم وانما اتفق حضورهم فى بعض اوقات قراءته فسمعوها فأخبره الله تعالى بذلك وقد مر مافيه من التفصيل فى الاحقاف

الهواء في الماهية ثم تكون تلك الماهية تقتضي لذاتها علما مخصوصا وقدرة مخصوصة على افعال عجيبة وعلى هذا التقدير يكون القول بالجن ظاهر الاحتمال وتكون قدرتها على التشكل بالاشكال المختلفة ظاهرة الاحتمال (القول الثاني) قول من قال الاجسام متساوية في تمام الماهية والقائلون بهذا المذهب ايضا فرقتان (الفرقة الاولى) الذين زعموا ان البنية ليست شرطا للحياة وهذا قول الاشعري وجمهور اتباعه وادلتهم في هذا الباب ظاهرة قوية قالوا لو كانت البنية شرطا للحياة لكان اما ان يقال ان الحياة الواحدة قامت بمجموع الاجزاء او يقال قام بكل واحد من الاجزاء حياة على حدة والاول محال لان حلول العرض الواحد في المحال الكثيرة دفعة واحدة غير معقول والثاني ايضا باطل لان الاجزاء التي منها تألف الجسم متساوية والحياة القائمة بكل واحد منها مساوية للحياة القائمة بالجزء الآخر وحكم الشيء حكم مثله فلو افتقر قيام الحياة بهذا الجزء الى قيام تلك الحياة بذلك الجزء لحصل هذا الافتقار من الجانب الآخر فيلزم وقوع الدور وهو محال وان لم يحصل هذا الافتقار فحينئذ ثبت ان قيام الحياة بهذا الجزء لا يتوقف على قيام الحياة الثانية بذلك الجزء الثاني واذا بطل هذا التوقف ثبت انه يصح كون الجزء الواحد موصوفا بالحياة والعلم والقدرة والارادة وبطل القول بأن البنية شرط قالوا واما دليل المعتزلة وهو انه لابد من البنية فليس الا الاستقراء وهو انا رأينا انه متى فسدت البنية بطلت الحياة ومتى لم تفسد بقيت الحياة فوجب توقف الحياة على حصول البنية الا ان هذا ركيك فان الاستقراء لا يفيد القطع بالوجوب فالدليل على ان حال مالم يشاهد كحال ما شوهد وايضا فلان هذا الكلام انما يستقيم على قول من ينكر خرق العادات اما من يجوزها فهذا لا يمشي على مذهبه والفرق بينهما في جعل بعضها على سبيل العادة وجعل بعضها على سبيل الوجوب تحكم محض لا سبيل اليه فثبت ان البنية ليست شرطا في الحياة واذا ثبت هذا لم يبعد ان يخلق الله تعالى في الجوهر الفرد علما بأمور كثيرة وقدرة على اشياء شاقة شديدة وعند هذا ظهر القول بامكان وجود الجن سواء كانت اجسامهم لطيفة او كثيفة وسواء كانت اجزاؤهم كبيرة او صغيرة (القول الثاني) ان البنية شرط الحياة وانه لابد من صلابة في البنية حتى يكون قادرا على الافعال الشاقة فههنا مسئلة اخرى وهي انه هل يمكن ان يكون المرئي حاضرا والموانع مرتفعة والشرائط من القرب والبعد حاصلة وتكون الحاسة سليمة ثم مع هذا لا يحصل الادراك او يكون هذا ممتنعا عقلا اما الاشعري واتباعه فقد جوزوه واما المعتزلة فقد حكموا بامتناعه عقلا * والاشعري احتج على قوله بوجوه عقلية ونقلية اما العقلية فأمران (الاول) انا نرى الكبير من البعد صغيرا وما ذاك الا انا نرى بعض اجزاء ذلك البعيد دون البعض مع ان نسبة الحاسة وجميع الشرائط الى تلك الاجزاء المرئية كهي بالنسبة الى الاجزاء التي هي غير مرئية فعلمنا ان مع حصول سلامة الحاسة وحضور المرئي وحصول

(فقالوا) لقومهم عند رجوعهم اليهم (انا سمعنا قرآنا) كتابا مقروأ (عجبا) بديعا مباينا لكلام الناس في حسن النظم ودقة المعنى وهو مصدر وصف به للمبالغة (يهدي الى الرشد) الى الحق والصواب (فآمنا به) اي بذلك القرآن (ولن نشرك بربنا احدا) حسبما نطق به مافيه من دلائل التوحيد (وانه تعالى جد ربنا) بالفتح قالوا هو وما بعده من الجمل المصدرة بأن في احد عشر موضعا عطف على محل الجار والمجرور في فآمنا به كأنه قيل

الشرائط وانتفاء الموانع لا يكون الادراك واجبا (الثانى) ان الجسم الكبير لامعنى له الا مجموع تلك الاجزاء المتألفة فاذا رأينا ذلك الجسم الكبير على مقدار من البعد فقد رأينا تلك الاجزاء فاما ان تكون رؤية هذا الجزء مشروطة برؤية ذلك الجزء الآخر او لا تكون فان كان الاول يلزم الدور لان الاجزاء متساوية فلو افتقرت رؤية هذا الجزء الى رؤية ذلك الجزء لافتقرت ايضا رؤية ذلك الجزء الى رؤية هذا الجزء فيقع الدور وان لم يحصل هذا الافتقار فحينئذ رؤية الجوهر الفرد على ذلك القدر من المسافة تكون ممكنة ثم من المعلوم ان ذلك الجوهر الفرد لو حصل وحده من غير ان ينضم اليه سائر الجواهر فانه لا يرى فعلمنا ان حصول الرؤية عند اجتماع الشرائط لا يكون واجبا بل جائزا واما المعتزلة فقد عولوا على انا لو جوزنا ذلك لجوزنا ان يكون بحضرتنا طبلات وبوقات ولا نراها ولا نسمعها فاذا عارضناهم بسائر الامور العادية وقلنا لهم فجوزوا ان يقال انقلبت مياه البحار ذهبا وفضة والجبال ياقوتا وزبرجدا وحصلت فى السماء حال ما غمضت العين الف شمس وقمر ثم لما فتحت العين اعدمها الله عجزوا عن الفرق والسبب فى هذا التشوش ان هؤلاء المعتزلة نظروا الى هذه الامور المطردة فى مناهج العادات فوهموا ان بعضها واجبة وبعضها غير واجبة ولم يجدوا قانونا مستقيما ومأخذا سليما فى الفرق بين البابين فتشوش الامر عليهم بل الواجب ان يسوى بين الكل فيحكم على الكل بالوجوب كما هو قول الفلاسفة او على الكل بعدم الوجوب كما هو قول الاشعرى فاما التحكم فى الفرق فهو بعيد اذا ثبت هذا ظهر جواز القول بالجن فأن اجسامهم وان كانت كثيفة قوية الا انه لا يمتنع ان لا نراها وان كانوا حاضرين هذا على قول الاشعرى فهذا هو تفصيل هذه الوجوه وانا متعجب من هؤلاء المعتزلة انهم كيف يصدقون ما جاء فى القرآن من اثبات الملك والجن مع استمرارهم على مذاهبهم وذلك لان القرآن دل على ان للملائكة قوة عظيمة على الافعال الشاقة والجن ايضا كذلك وهذه القدرة لا تثبت الا فى الاعضاء الكثيفة الصلبة فاذا يجب فى الملك والجن ان يكون كذلك ثم ان هؤلاء الملائكة حاضرون عندنا ابدا وهم الكرام الكاتبون والحفظة ويحضرون ايضا عند قبض الارواح وقد كانوا يحضرون عند الرسول صلى الله عليه وسلم وان احدا من القوم ما كان يراهم وكذلك الناس الجالسون عند من يكون فى النزع لا يرون احدا فان وجبت رؤية الكثيف عند الحضور فلم لا نراها وان لم تجب الرؤية فقد بطل مذهبهم وان كانوا موصوفين بالقوة والشدة مع عدم الكثافة والصلابة فقد بطل قولهم ان البنية شرط الحياة وان قالوا انها اجسام لطيفة وحية ولكنها لطافتها لا تقدر على الاعمال الشاقة فهذا انكار لصريح القرآن وبالجملة فحالهم فى الاقرار بالملك والجن مع هذه المذاهب عجيب وليتهم ذكروا على صحة مذاهبهم شبهة مخيلة فضلا عن حجة مبينة فهذا هو التنبيه على ما فى هذا الباب من الدقائق والمشكلات وبالله التوفيق (المسئلة الثانية)

قصدقناه وصدقنا انه تعالى جد ربنا اى ارتفع عظمته من جد فلان فى عينى اى عظم تمكنه او سلطانه او غناه على انه مستعار من الجد الذى هو البخت والمعنى وصفه بالاستغناء عن الصاحبة والولد لعظمته او لسلطانه او لغناه وقرئ بالكسر وكذا الجمل المذكورة عطفا على المحكى بعد القول وهو الاظهر لوضوح اندراج كلها تحت القول واما اندراج الجمل الآتية تحت الايمان والتصديق كما يقتضيه العطف

(اختلفت)

اختلفت الروايات فى انه عليه السلام هل رأى الجن ام لا (فالقول الاول) وهو مذهب ابن عباس انه عليه السلام ما رآهم قال ان الجن كانوا يقصدون السماء فى الفترة بين عيسى ومحمد فيستمعون اخبار السماء ويلقونها الى الكهنة فلما بعث الله محمدا عليه السلام حرست السماء وحيل بين الشياطين وبين خبر السماء وارسلت الشهب عليهم فرجعوا الى ابليس واخبروه بالقصة فقال لابد لهذا من سبب فاضربوا مشارق الارض ومغاربها واطلبوا السبب فوصل جمع من أولئك الطالبين الى تهامة فرأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا هذا والله هو الذى حال بينكم وبين خبر السماء فهنالك رجعوا الى قومهم وقالوا ياقومنا انا سمعنا قرآنا عجبا فأخبر الله تعالى محمدا عليه السلام عن ذلك الغيب وقال قل أوحى الى كذا وكذا قال وفى هذا دليل على انه عليه السلام لم يرالجن اذ لو رآهم لما اسند معرفة هذه الواقعة الى الوحى فان ما عرف وجوده بالمشاهدة لايسند اثباته الى الوحى فان قيل الذين رموا بالشهب هم الشياطين والذين سمعوا القرآن هم الجن فكيف وجه الجمع قلنا فيه وجهان (الاول) ان الجن كانوا مع الشياطين فلما رمى الشياطين اخذ الجن الذين كانوا معهم فى تجسس الخبر (الثانى) ان الذين رموا بالشهب كانوا من الجن الا انه قيل لهم شياطين كما قيل شياطين الجن والانس فان الشيطان كل متمرد بعيد من طاعة الله واختلفوا فى ان أولئك الجن الذين سمعوا القرآن من هم فروى عاصم عن ذر قال قدم رهط زوبعة واصحابه مكة على النبى صلى الله عليه وسلم فسمعوا اقراءة النبى عليه السلام ثم انصرفوا فذلك قوله واذ صرفنا اليك نفرا من الجن وقيل كانوا من الشيصبان وهم اكثر الجن عددا وعامة جنود ابليس منهم (القول الثانى) وهو مذهب ابن مسعود انه امر النبى صلى الله عليه وسلم بالمسير اليهم ليقرأ القرآن عليهم ويدعوهم الى الاسلام قال ابن مسعود قال عليه السلام امرت ان أتلو القرآن على الجن فمن يذهب معى فسكتوا ثم قال الثانية فسكتوا ثم قال الثالثة فقال عبد الله قلت انا اذهب معك يارسول الله قال فانطلق حتى اذا جاء الحجون عند شعب ابن ابى دب خط على خطا فقال لاتجاوزه ثم مضى الى الحجون فانحدروا عليه امثال الحجل كأنهم رجال الزط يقرعون فى دفوفهم كما تقرع النسوة فى دفوفها حتى غشوه فغاب عن بصرى فقمت فأومأ الى بيده ان اجلس ثم تلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع ولصقوا بالارض حتى صرت اسمع صوتهم ولا أراهم وفى رواية أخرى فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما انت قال انا نبى الله قالوا فمن يشهد لك على ذلك قال هذه الشجرة تعالى ياشجرة فجاءت تجر عروقها لها قعاقع حتى انتصبت بين يديه فقال على ماذا تشهدين لى قالت اشهد انك رسول الله قال اذهبى فرجعت كما جاءت حتى صارت كما كانت قال ابن مسعود فلما عاد الى قال اردت ان تأتينى قلت نعم يارسول الله قال ما كان ذلك لك هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن ثم ولوا الى قومهم منذرين فسألونى الزاد

على محل الجار والمجرور ففيه اشكال كما ستحيط به خبرا وقوله تعالى (ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) بيان لحكم تعالى جده وقرئ جدا ربنا على التمييز وجد ربنا بالكسر اى صدق ربوبيته وحق الهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد وذلك انهم لما سمعوا القرآن ووفقوا للتوحيد والايمان تنبهوا للخطأ فيما اعتقده كفرة الجن من تشبيه الله بخلقه فى اتخاذ الصاحبة والولد فاستعظموه ونزهوه تعالى عنه (وانه كان يقول سفيهنا) اى ابليس او مردة

فزودتهم العظم والبعر فلايستطيبن احد بعظم ولابعر واعلم انه لاسبيل الى تكذيب الروايات وطريق التوفيق بين مذهب ابن عباس ومذهب ابن مسعود من وجوه (احدها) لعل ماذكره ابن عباس وقع اولا فأوحى الله تعالى اليه بهذه السورة ثم امر بالخروج اليهم بعد ذلك كما روى ابن مسعود (وثانيها) ان يقدير ان تكون واقعة الجن مرة واحدة الا انه عليه السلام امر بالذهاب اليهم وقراءة القرآن عليهم الا انه عليه السلام ماعرف انهم ماذا قالوا واى شئ فعلوا فالله تعالى أوحى اليه انه كان كذا وقالوا كذا (وثالثها) ان الواقعة كانت مرة واحدة وهو عليه السلام رآهم وسمع كلامهم وهم آمنوا به ثم لما رجعوا الى قومهم قالوا لقومهم على سبيل الحكاية انا سمعنا قرآنا عجبا وكان كذا وكذا فأوحى الله الى محمد صلى الله وسلم ماقالوه لاقوامهم واذا كانت هذه الوجوه محتملة فلاسبيل الى التكذيب (المسئلة الثالثة) اعلم ان قوله تعالى قل امر منه تعالى لرسوله ان يظهر لاصحابه ماأوحى الله في واقعة الجن وفيه فوائد (احداها) ان يعرفوا بذلك انه عليه السلام كما بعث الى الانس فقد بعث الى الجن (وثانيتها) ان يعلم قريش ان الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا اعجازه فآمنوا بالرسول (وثالثتها) ان يعلم القوم ان الجن مكلفون كالانس (ورابعتها) ان يعلم ان الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا (وخامستها) ان يظهر ان المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته الى الايمان وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة اذا عرفها الناس (المسئلة الرابعة) الايحاء القاء المعنى الى النفس في خفاء كالالهام وانزال الملك ويكون ذلك في سرعة من قولهم الوحى الوحى والقراءة المشهورة أوحى بالالف وفي رواية يونس وهرون عن ابي عمرو وحى بضم الواو بغير ألف وهما لغتان يقال وحى اليه وأوحى اليه وقرئ أحى بالهمز من غير واو واصله وحى فقلبت الواو همزة كما يقال اعدوأزن واذا الرسل اقتت وقوله تعالى انه استمع نفر من الجن فيه مسائل (المسئلة الاولى) اجمعوا على ان قوله انه استمع بالفتح وذلك لانه نائب فاعل أوحى فهو كقوله وأوحى الى هذا القرآن واجمعوا على كسر انا في قوله انا سمعنا لانه مبتدأ محكي بعد القول ثم ههنا قراءتان (احداهما) ان نحمل البواقي على الموضعين اللذين بينا انهم اجمعوا عليهما فما كان من الوحى فتح وما كان من قول الجن كسر وكلها من قول الجن الا الآخرين وهما قوله وان المساجد لله وانه لما قام (وثانيهما) فتح الكل والتقدير فآمنا به وآمنا بانه تعالى جد ربنا وبأنه كان يقول سفيهنا وكذا البواقي فان قيل ههنا اشكال من وجهين (احدهما) انه يقبح اضافة الايمان الى بعض هذه السورة فانه يقبح ان يقال وآمنا بأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا (والثاني) وهو انه لايعطف على الهاء المخفوضة الاباظهار الخافض لايقال آمنا به وزيد بل يقال آمنا به وبزيد (والجواب) عن الاشكالين انا اذا حملنا قوله آمنا على معنى صدقنا وشهدنا زال الاشكالان (المسئلة الثانية) نفر من الجن جماعة منهم مابين الثلاثة الى العشرة روى

(ان)

الجن (على الله شططا) اى قولا ذا شطط اى بعد عن القصد ومجاوزة للحد وهو شطط في نفسه لفرط بعده عن الحق وهو نسبة الصاحبة والولد اليه تعالى وتعلق الايمان والتصديق بهذا القول ليس باعتبار نفسه فانهم كانوا عالمين بقول سفائهم من قبل ايضا بل باعتبار كونه شططا كأنه قيل وصدقنا ان ما كان يقوله سفيهنا في حقه تعالى كان شططا واما تعلقهما بقوله تعالى (وانا ظننا ان لن تقول الانس والجن على الله كذبا) فغير ظاهر وهو اعتذار منهم

ان ذلك النفر كانوا يهودا وذكر الحسن ان فيهم يهودا ونصارى ومجوسا ومشركين ثم اعلم ان الجن حكوا أشياء ※ (النوع الاول) مما حكوه قوله تعالى (فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا) اى قالوا لقومهم حين رجعوا اليهم كقوله فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قرآنا عجبا اى خارجا عن حد اشكاله ونظائره وعجب مصدر يوضع موضع العجيب ولاشك انه ابلغ من العجيب يهدى الى الرشد اى الى الصواب وقيل الى التوحيد فآمنا به اى بالقرآن ويمكن ان يكون المراد فآمنا بالرشد الذى فى القرآن وهو التوحيد ولن نشرك بربنا احدا اى ولن نعود الى ما كنا عليه من الاشراك به وهذا يدل على ان اولئك الجن كانوا من المشركين (النوع الثانى) مما ذكره الجن انهم كانفوا عن انفسهم الشرك نزهوا ربهم عن الصاحبة والولد ※ فقالوا (وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى الجد قولان (الاول) الجد فى اللغة العظمة يقال جد فلان اى عظم ومنه الحديث كان الرجل اذا قرأ سورة البقرة جد فينا اى جل قدره وعظم لان الصاحبة تتخذ للحاجة اليها والولد للتكثر به والاستئناس وهذه من سمات الحدوث وهو سبحانه منزه عن كل نقص (القول الثانى) الجد الغنى ومنه الحديث لا ينفع ذا الجد منك الجد قال ابو عبيدة اى لا ينفع ذا الغنى منك غناه وكذلك الحديث الآخر قمت على باب الجنة فاذا عامة من يدخلها الفقراء واذا اصحاب الجد محبوسون يعنى اصحاب الغنى فى الدنيا فيكون المعنى وانه تعالى غنى عن الاحتياج الى الصاحبة والاستئناس بالولد (وعندى فيه قول ثالث) وهو ان جد الانسان اصله الذى منه وجوده فجعل الجد مجازا عن الاصل فقوله تعالى جد ربنا معناه تعالى اصل ربنا واصله حقيقته المخصوصة التى لنفس تلك الحقيقة من حيث انها هى تكون واجبة الوجود فيصير المعنى ان حقيقته المخصوصة متعالية عن جميع جهات التعلق بالغير لان الواجب لذاته يجب ان يكون واجب الوجود من جميع جهاته وما كان كذلك استحال ان يكون له صاحبة وولد (المسئلة الثانية) قرئ جدا ربنا بالنصب على التمييز وجد ربنا بالكسر اى صدق ربوبيته وحق الهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد وكان هؤلاء الجن لما سمعوا القرآن تنبهوا لفساد ما عليه كفرة الجن فرجعوا اولا عن الشرك وثانيا عن دين النصارى ※ (النوع الثالث) مما ذكره الجن قوله تعالى (وانه كان يقول سفيهنا على الله شططا) السفه خفة العقل والشطط مجاوزة الحد فى الظلم وغيره ومنه اشط فى السوم اذا ابعد فيه اى يقول قولا هو فى نفسه شطط لفرط ما اشط فيه واعلم انه لما كان الشطط هو مجاوزة الحد وليس فى اللفظ مايدل على ان المراد مجاوزة الحد فى جانب النفى او فى جانب الاثبات فحينئذ ظهر ان كلا الامرين مذموم فمجاوزة الحد فى النفى تفضى الى التعطيل ومجاوزة الحد فى الاثبات تفضى الى التشبيه واثبات الشريك والصاحبة والولد وكلا الامرين شطط ومذموم ※ (النوع الرابع) قوله تعالى (وانا ظننا ان لن تقول الانس والجن على الله كذبا)

عن تقليدهم لسفيههم اى كنا نظن انه لن يكذب على الله تعالى احد ابدا ولذلك اتبعنا قوله وكذبا مصدر مؤكد لتقول لانه نوع من القول او وصف لمصدره المحذوف اى قولا كذبا اى مكذوبا فيه وقرئ لن تقول بحذف احدى التاءين فكذبا مصدر مؤكد له لان الكذب هو التقول (وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن) كان الرجل من العرب اذا امسى فى واد قفر وخاف على نفسه يقول اعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه يريد الجن وكبيرهم فاذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا سدنا الانس

وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) معنى الآية انا انما اخذنا قول الغير لانا ظننا انه لايقال الكذب على الله فلما سمعنا القرآن علمنا انهم قديكذبون وهذا منهم اقرار بأنهم انما وقعوا فى تلك الجهالات بسبب التقليد وانهم انما تخلصوا عن تلك الظلمات ببركة الاستدلال والاحتجاج (المسئلة الثانية) قوله كذبا بما نصب فيه وجوه (احدها) انه وصف مصدر محذوف والتقدير ان لن تقول الانس والجن على الله قولا كذبا (وثانيها) انه نصب نصب المصدر لان الكذب نوع من القول (وثالثها) ان من قرأ ان لن تقول وضع كذبا موضع تقولا ولم يجعله صفة لان التقول لايكون الا كذبا ❊ (النوع الخامس) قوله تعالى (وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن) وفيه قولان (الاول) وهو قول جمهور المفسرين ان الرجل فى الجاهلية اذا سافر فأمسى فى قفر من الارض قال اعوذ بسيد هذا الوادى او بعزيز هذا المكان من شر سفهاء قومه فيبيت فى جوار منهم حتى يصبح وقال آخرون كان اهل الجاهلية اذا قحطوا بعثوا رائدهم فاذا وجد مكانا فيه كلأ وماء رجع الى اهله فينادبهم فاذا انتهوا الى تلك الارض نادوا نعوذ برب هذا الوادى من ان يصيبنا آفة يعنون الجن فان لم يفزعهم احد نزلوا وربما تفزعهم الجن فيهربون (القول الثانى) المراد انه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الانس ايضا لكن من شر الجن مثل ان يقول الرجل اعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادى واصحاب هذا التأويل انما ذهبوا اليه لان الرجل اسم الانس لا اسم الجن وهذا ضعيف فانه لم يقم دليل على ان الذكر من الجن لايسمى رجلا ❊ اما قوله تعالى (فزادوهم رهقا) قال المفسرون معناه زادوهم اثما وجراءة وطغيانا وخطيئة وغيا وشرا كل هذا من الفاظهم قال الواحدى الرهق غشيان الشئ ومنه قوله تعالى ولا يرهق وجوههم قتر وقوله ترهقها قترة ورجل مرهق اى يغشاه السائلون ويقال رهقتنا الشمس اذا قربت والمعنى ان رجال الانس انما استعاذوا بالجن خوفا من ان يغشاهم الجن ثم انهم زادوا فى ذلك الغشيان فانهم لما تعوذوا بهم ولم يتعوذوا بالله استذلوهم واجترؤا عليهم فزادوهم ظلما وهذا معنى قول عطاء خبطوهم وخنقوهم وعلى هذا القول زادوا من فعل الجن وفى الآية قول آخر وهو ان زادوا من فعل الانس وذلك لان الانس لما استعاذوا بالجن فالجن يزدادون بسبب ذلك التعوذ طغيانا فيقولون سدنا الجن والانس (والقول الاول) هو لائق بمساق الآية والموافق لنظمها ❊ (النوع السادس) قوله تعالى (وانهم ظنوا كما ظننتم ان لن يبعث الله احدا) اعلم ان هذه الآية والتى قبلها يحتمل ان يكونا من كلام الجن ويحتمل ان يكونا من جملة الوحى فان كانا من كلام الجن وهو الذى قاله بعضهم مع بعض كان التقدير وان الانس ظنوا كما ظننتم ايها الجن وان كان من الوحى كان التقدير وان الجن ظنوا كما ظننتم يا كفار قريش وعلى التقديرين فالآية دلت على ان الجن كما انهم كان فيهم مشرك ويهودى ونصرانى ففيهم من ينكر البعث ويحتمل ان يكون المراد انه لايبعث احدا

والجن وذلك قوله تعالى (فزادوهم) اى زاد الرجال العائذون الجن (رهقا) اى تكبروا وعتوا او فزاد الجن العائذين غيا بان اضلوهم حتى استعاذوا بهم (وانهم ظنوا) اى الانس (كما ظننتم) ايها الجن على انه كلام بعضهم لبعض (ان لن يبعث الله احدا) وقيل المعنى ان الجن ظنوا كما ظننتم ايها الكفرة الخ فتكون هذه الآية وماقبلها من جملة الكلام الموحى به والاقرب انهما كذلك على كل تقدير عطفا على انه استمع اذلا معنى لادراجهما تحت ماذكر من الايمان والتصديق

للرسالة على ماهو مذهب البراهمة واعلم ان حمله على كلام الجن اولى لان ماقبله ومابعده كلام الجن فالقاء كلام اجنبى عن كلام الجن فى البين غير لائق (النوع السابع) ※قوله تعالى (وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساشديدا وشهبا) اللمس المس فاستعير للطلب لان الماس طالب متعرف يقال لمسه والتمسه ومثله الجس يقال جسوه بأعينهم وتجسسوه والمعنى طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام اهلها والحرس اسم مفرد فى معنى الحراس كالخدم فى معنى الخدام ولذلك وصف بشديد ولو ذهب الى معناه لقيل شددا (النوع الثامن) ※قوله تعالى (وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجدله شهابا رصدا) اى كنا نستمع فالآن متى حاولنا الاستماع رمينا بالشهب وفى قوله شهابا رصدا وجوه (احدها) قال مقاتل يعنى رميا من الشهب ورصدا من الملائكة وعلى هذا يجب ان يكون التقدير شهابا ورصدا لان الرصد غير الشهاب وهو جمع راصد (وثانيها) قال الفراء اى شهابا قدا رصدله ليرجم به وعلى هذا الرصد نعت للشهاب وهو فعل بمعنى مفعول (وثالثها) يجوز ان يكون رصدا اى راصدا وذلك لان الشهاب لما كان معدا له فكأن الشهاب راصدله ومترصدله واعلم انا قد استقصينا فى هذه المسئلة فى تفسير قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فان قيل هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث ويدل عليه امور (احدها) ان جميع الفلاسفة المتقدمين تكلموا فى اسباب انقضاض هذه الشهب وذلك يدل على انها كانت موجودة قبل المبعث (وثانيها) قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ذكر فى خلق الكواكب فائدتين التزيين ورجم الشياطين (وثالثها) ان وصف هذا الانقضاض جاء فى شعر اهل الجاهلية قال اوس بن حجر

فانقض كالدرى يتبعه * نقع يثور تخاله طنبا

وقال عوف بن الخرع

يرد علينا العير من دون الفه * او الثور كالدرى يتبعه الدم

روى الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس رضى الله عنهما بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى نفر من الانصار اذا رمى بنجم فاستنار فقال ما كنتم تقولون فى مثل هذا فى الجاهلية فقالوا كنا نقول يموت عظيم او يولد عظيم الحديث الى آخره ذكرناه فى تفسير قوله تعالى ولقد زينا السما الدنيا بمصابيح قالوا فثبت بهذه الوجوه ان هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث فامعنى تخصيصها بمحمد عليه الصلاة والسلام (والجواب) مبنى على مقامين (المقام الاول) ان هذه الشهب ما كانت موجودة قبل المبعث وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وابى بن كعب روى عن ابن عباس قال كان الجن يصعدون الى السماء فيستمعون الوحى فاذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا اما الكلمة فانها تكون حقة واما الزيادات فتكون باطلة فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم منعوا مقاعدهم ولم

وكذا قوله تعالى (وانا لمسنا السماء) ومابعده من الجمل المصدرة بأنا ينبغى ان تكون معطوفة على ذلك على ان الموحى عين عبارة الجن بطريق الحكاية كأنه قيل قل اوحى الى كيت وكيت وهذه العبارات اى طلبنا بلوغ السماء اوخبرها واللمس مستعار من المس للطلب كالجس يقال لمسه والتمسه وتلمسه كطلبه واطلبه وتطلبه (فوجدناها ملئت حرسا) اى حراسا اسم جمع كخدم مفرد اللفظ ولذلك قيل (شديدا) قويا وهم الملائكه يمنعونهم عنها (وشهبا) جمع شهاب وهى الشعلة المقتبسة من نار الكواكب (وانا كنا نقعد) قبل هذا (منها) من السماء (مقاعد للسمع) خالية عن الحرس والشهب او صالحة للترصد والاستماع وللسمع متعلق بنقعد اى لاجل السمع او بمضمر هو صفة لمقاعد اى مقاعد كائنة للسمع (فمن يستمع الآن) فى مقعد من المقاعد (يجدله شهابا رصدا) اى شهابا راصدا له ولاجله يصده عن الاستماع بالرجم اوذوى

تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك فقال لهم ابليس ماهذا الا لأمر حدث فى الارض فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يصلى الحديث الى آخره وقال ابى بن كعب لم يرم بنجم منذ رفع عيسى حتى بعث رسول الله فرمى بها فرأت قريش امرا ما رأوه قبل ذلك فجعلوا يسيبون انعامهم ويعتقون رقابهم يظنون انه الفناء فبلغ ذلك بعض أكابرهم فقال لم فعلتم ما أرى قالوا رمى بالنجوم فرأيناها تتهافت من السماء فقال اصبروا فان تكن نجوما معروفة فهو وقت فناء الناس وان كانت نجوما لاتعرف فهو امر قد حدث فنظروا فاذا هى لاتعرف فأخبروه فقال فى الامر مهلة وهذا عند ظهور نبى فما مكثوا الا يسيرا حتى قدم ابو سفيان على امواله واخبر أولئك الاقوام بأنه ظهر محمد بن عبد الله ويدعى انه نبى مرسل وهؤلاء زعموا ان كتب الاوائل قد توالت عليها التحريفات فلعل المتأخرين الحقوا هذه المسئلة بها طعنا منهم فى هذه المعجزة وكذا الاشعار المنسوبة الى اهل الجاهلية لعلها مختلقة عليهم ومنحولة (المقام الثانى) وهو الاقرب الى الصواب ان هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث الا انها زيدت بعد المبعث وجعلت اكمل واقوى وهذا هو الذى يدل عليه لفظ القرآن لانه قال فوجدناها ملئت وهذا يدل على ان الحادث هو الملء والكثرة وكذلك قوله نقعد منها مقاعد اى كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب والآن ملئت المقاعد كلها فعلى هذا الذى حمل الجن على الضرب فى البلاد وطلب السبب انما هو كثرة الرجم ومنع الاستراق بالكلية ※ (النوع التاسع) قوله تعالى (وانا لاندرى أشر اريد بمن فى الارض ام أراد بهم ربهم رشدا) وفيه قولان (احدهما) انا لاندرى ان المقصود من المنع من الاستراق هو شر اريد بأهل الارض ام صلاح وخير (والثانى) لاندرى ان المقصود من ارسال محمد الذى عنده منع من الاستراق هو ان يكذبوه فيهلكوا كما هلك من كذب من الامم ام أراد ان يؤمنوا فيهتدوا ※ (النوع العاشر) قوله تعالى (وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا) اى منا الصالحون المتقون اى ومنا قوم دون ذلك فحذف الموصوف كقوله وما منا الا له مقام معلوم ثم المراد بالذين هم دون الصالحين من فيه قولان (الاول) انهم المقتصدون الذين يكونون فى الصلاح غير كاملين (والثانى) ان المراد من لايكون كاملا فى الصلاح فيدخل فيه المقتصدون والكافرون والقدة من قد كالقطعة من قطع ووصفت الطرائق بالقدد لدلالتها على معنى التقطع والتفرق وفى تفسير الآية وجوه (احدها) المراد كنا ذوى طرائق قددا اى ذوى مذاهب مختلفة قال السدى الجن امثالكم فيهم مرجئة وقدرية وروافض وخوارج (وثانيها) كنا فى اختلاف احوالنا مثل الطرائق المختلفة (وثالثها) كانت طرائقنا طرائق قددا على حذف المضاف الذى هو الطرائق واقامة الضمير المضاف اليه مقامه ※ (النوع الحادى عشر) قوله تعالى (وانا ظننا ان لن نعجز الله فى الارض ولن نعجزه هربا) الظن بمعنى اليقين وفى الارض وهربا فيه وجهان (الاول)

شهاب راصدين له على انه اسم مفرد فى معنى الجمع كالحرس قيل حدث هذا عند مبعث النبى عليه الصلاة والسلام والصحيح انه كان قبل البعث ايضا لكنه كثر الرجم بعده البعثه وزاد زيادة حتى تنبه لها الانس والجن ومنع الاستراق اصلا فقالوا ماهذا الا لامر اراده الله تعالى بأهل الارض وذلك قولهم (وانا لاندرى اشر اريد بمن فى الارض) بحراسة السماء (ام اراد بهم ربهم رشدا) اى خيرا ونسبة الخير الى الله تعالى دون الشر من الآداب الشريفة القرآنية كما قوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين ونظائره (وانا منا الصالحون) اى الموصوفون بصلاح الحال فى شأن انفسهم وفى معاملتهم مع غيرهم المائلون الى الخير والصلاح حسبما تقتضيه الفطرة السليمة لا الى الشر والفساد كما هو مقتضى النفوس الشريرة (ومنا دون ذلك) اى قوم دون ذلك فحذف الموصوف وهم المقتصدون فى صلاح الحال على الوجه المذكور فى الايمان

(انهما)

انهما حالان أي لن نعجزه كائنين فى الارض أينما كنا فيها ولن نعجزه هاربين منها الى السماء (والثانى) لن نعجزه فى الارض ان أرادنا أمرا ولن نعجزه هربا ان طلبنا ❊ (النوع الثانى عشر) قوله تعالى (وانا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا) لما سمعنا الهدى أى القرآن قال تعالى هدى للمتقين آمنا به أى آمنا بالقرآن فلا يخاف فهو لا يخاف أى فهو غير خائف وعلى هذا يكون الكلام فى تقدير جملة من المبتدأ والخبر ادخل الفاء عليها لتصيير جزاء للشرط الذى تقدمها ولولا ذلك لقيل لا يخف فان قيل اى فائدة فى رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبرا له ووجوب ادخال الفاء وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال لا يخف قلنا الفائدة فيه انه اذا فعل ذلك فكأنه قيل فهو لا يخاف فكان دالا على تحقيق ان المؤمن ناج لا محالة وانه هو المختص بذلك دون غيره لان قوله فهو لا يخاف معناه ان غيره يكون خائفا وقرأ الاعمش فلا يخف وقوله تعالى بخسا ولا رهقا البخس النقص والرهق الظلم ثم فيه وجهان (الاول) لا يخاف جزاء بخس ولا رهق لانه لم يبخس احدا حقا ولا ظلم احدا فلا يخاف جزاءهما (الثانى) لا يخاف ان يبخس بل يقطع بانه يجزى الجزاء الاوفى ولا يخاف ان ترهقه ذلة من قوله ترهقهم ذلة ❊ (النوع الثالث عشر) قوله تعالى (وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن اسلم فأولئك تحروا رشدا) القاسط الجائر والمقسط العادل وذكرنا معنى قسط واقسط فى اول سورة النساء فالقاسطون الكافرون الجائرون عن طريق الحق وعن سعيد بن جبير ان الحجاج قال له حين أراد قتله ماتقول فى قال قاسط عادل فقال القوم مااحسن ماقال حسبوا انه يصفه بالقسط والعدل فقال الحجاج ياجهلة انه سمانى ظالما مشركا وتلا لهم قوله واما القاسطون وقوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون تحروا رشدا اى قصدوا طريق الحق قال ابو عبيدة تحروا توخوا قال المبرد اصل التحرى من قولهم ذلك احرى اى احق واقرب وبالحرى ان تفعل كذا اى يجب عليك ❊ ثم ان الجن ذموا الكافرين فقالوا (واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) وفيه سؤالان (الاول) لم ذكر عقاب القاسطين ولم يذكر ثواب المسلمين (الجواب) بل ذكر ثواب المؤمنين وهو قوله تعالى تحروا رشدا اى توخوا رشدا عظيما لا يبلغ كنهه الا الله تعالى ومثل هذا لا يتحقق الا فى الثواب (السؤال الثانى) الجن مخلوقون من النار فكيف يكونون حطبا للنار (الجواب) انهم وان خلقوا من النار لكنهم تغيروا عن تلك الكيفية وصاروا لحما ودما هكذا قيل وههنا آخر كلام الجن ❊ قوله تعالى (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) هذا من جملة الموحى اليه والتقدير قل اوحى الى انه استمع نفر وأن لو استقاموا فيكون هذا هو النوع الثانى مما اوحى اليه وههنا مسائل (المسئلة الاولى) أن مخففة من الثقيلة والمعنى واوحى الى ان الشأن والحديث لو استقاموا لكان كذا وكذا قال الواحدى وفصل لو بينها وبين الفعل كفصل لا والسين فى قوله ان لا يرجع

والتقوى كانوهم فان هذا بيان لحالهم قبل استماع القرآن كما يعرف عنه قوله تعالى (كنا طرائق قددا) واما حالهم بعد استماعه فسيحكى بقوله تعالى وانا لما سمعنا الهدى الى قوله تعالى وانا منا المسلمون اى كنا قبل هذا ذوى طرائق اى مذاهب او مثل طرائق فى اختلاف الاحوال او كانت طرائقنا طرائق قددا اى متفرقة مختلفة جمع قدة من قد كالقطعة من قطع (وانا ظننا) اى علمنا الان (ان لن نعجز الله) اى ان الشأن لن نعجز الله كائنين (فى الارض) اينما كنا من اقطارها (ولن نعجزه هربا) هاربين منها الى السماء اولن نعجزه فى الارض ان ارادنا امرا ولن نعجزه هربا ان طلبنا (وانا لما سمعنا الهدى) اى القرآن الذى هو الهدى بعينه (آمنا به) من غير تلعثم وتردد (فمن يؤمن بربه) وبما انزله (فلا يخاف) فهو لا يخاف (بخسا) اى نقصا فى الجزاء (ولا رهقا) ولا ان ترهقه ذلة او جزاء بخس ولا رهق اذ لم يبخس

اليهم قولا وعلم ان سيكون (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله استقاموا الى من يرجع فيه قولان قال بعضهم الى الجن الذين تقدم ذكرهم ووصفهم اى هؤلاء القاسطون لو آمنوا لفعلنا بهم كذا وكذا وقال آخرون بل المراد الانس واحتجوا عليه بوجهين (الاول) ان الترغيب بالانتفاع بالماء الغدق انما يليق بالانس لا بالجن (والثانى) ان هذه الآية انما نزلت بعد ما حبس الله المطر عن اهل مكة سنين اقصى ما فى الباب انه لم يتقدم ذكر الانس ولكنه لما كان ذلك معلوما جرى مجرى قوله انا انزلناه فى ليلة القدر وقال القاضى الاقرب ان الكل يدخلون فيه واقول يمكن ان يحتج لصحة قول القاضى بأنه تعالى لما اثبت حكما معللا بعلة وهو الاستقامة وجب ان يعم الحكم بعموم العلة (المسئلة الثالثة) الغدق بفتح الدال وكسرها الماء الكثير وقرئ بهما يقال غدقت العين بالكسر فهى غدقة وروضة مغدقة اى كثيرة الماء ومطر مغدودق وغيداق وغيدق اذا كان كثير الماء وفى المراد بالماء الغدق فى هذه الآية ثلاثة اقوال (احدها) انه الغيث والمطر (والثانى) وهو قول ابى مسلم انه اشارة الى الجنة كما قال جنات تجرى من تحتها الانهار (وثالثها) انه المنافع والخيرات جعل الماء كناية عنها لان الماء اصل الخيرات كلها فى الدنيا (المسئلة الرابعة) ان قلنا الضمير فى قوله استقاموا راجع الى الجن كان فى الآية قولان (احدهما) لو استقام الجن على الطريقة المثلى اى لو ثبت ابوهم الجان على ما كان عليه من عبادة الله ولم يستكبر عن السجود لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الاسلام لانعمنا عليهم ونظيره قوله تعالى ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا وقوله ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا وقوله ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه وقوله فقلت استغفروا ربكم الى قوله ويمددكم بأموال وبنين وانما ذكر الماء كناية عن طيب العيش وكثرة المنافع فان اللائق بالجن هو هذا الماء المشروب (والثانى) أن يكون المعنى وأن لو استقام الجن الذين استمعوا القرآن على طريقتهم التى كانوا عليها قبل الاستماع ولم ينتقلوا عنها الى الاسلام لوسعنا عليهم الرزق ونظيره قوله تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة واختار الزجاج الوجه الاول قال لانه تعالى ذكر الطريقة معرفة بالالف واللام فتكون راجعة الى الطريقة المعروفة المشهورة وهى طريقة الهدى والذاهبون الى التأويل الثانى استدلوا عليه بقوله بعد هذه الآية لنفتنهم فيه فهو كقوله انما نملى لهم ليزدادوا اثما ويمكن الجواب عنه ان من آمن فأنعم الله عليه كان ذلك الانعام أيضا ابتلاء واختبارا حتى يظهر انه هل يشتغل بالشكر أم لا وهل ينفقه فى طلب مراضى الله أو فى مراضى الشهوة والشيطان وأما الذين قالوا الضمير عائد الى الانس فالوجهان عائدان فيه بعينه وههنا يكون اجراء قوله لأسقيناهم ماء غدقا على ظاهره أولى لان انتفاع الانس بذلك أتم وأكمل (المسئلة الخامسة) احتج أصحابنا بقوله لنفتنهم على أنه تعالى يضل عباده والمعتزلة أجابوا بأن الفتنة هى الاختبار كما يقال

(فتنت)

احدا حقا ولا رهقا ظلم احد فلا يخاف جزاءهما وفيه دلالة على ان من حق من آمن بالله تعالى ان يجتنب المظالم وقرئ فلا يخف والاول ادل على تحقيق نجاة المؤمن واختصاصها به (وانا منا المسلمون ومنا القاسطون) الجائرون عن طريق الحق الذى هو الايمان والطاعة (فمن اسلم فاولئك) اشارة الى من اسلم والجمع باعتبار المعنى (تحروا) توخوا (رشدا) عظيما يبلغهم الى دار الثواب (واما القاسطون) الجائرون عن سنن الاسلام (فكانوا لجهنم حطبا) توقد بهم كما توقد بكفرة الانس (وان لو استقاموا) ان مخففة من الثقيلة والجملة معطوفة قطعا على انه استمع والمعنى واوحى الى ان الشأن لو استقام الجن والانس او كلاهما (على الطريقة) التى هى ملة الاسلام (لاسقيناهم ماء غدقا) اى لوسعنا عليهم الرزق وتخصيص الماء الغدق وهو الكثير بالذكر لانه اصل المعاش والسعة ولعزة وجوده بين العرب وقيل لو استقام الجن على

وتفتن الذهب بالنار لاخلق الضلال واستدلت المعتزلة باللام فى قوله لنفتنهم على انه تعالى انما يفعل لغرض واصحابنا اجابوا بأن الفتنة بالاتفاق ليست مقصودة فدلت هذه الآية على ان اللام ليست للغرض فى حق الله وقوله تعالى ومن يعرض عن ذكر ربه اى عن عبادته اوعن موعظته اوعن وحيه يسلكه وقرئ بالنون مفتوحة ومضمومة اى ندخله عذابا والاصل نسلكه فى عذاب كقوله ماسلككم فى سقر الاان هذه العبارة ايضا مستقيمة لوجهين (الاول) ان يكون التقدير نسلكه فى عذاب ثم حذف الجار واوصل الفعل كقوله واختار موسى قومه (والثانى) ان يكون معنى نسلكه اى ندخله يقال سلكه واسلكه والصعد مصدر صعد يقال صعد صعدا وصعودا فوصف به العذاب لانه يصعد طاقة المعذب اى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه ومنه قول عمر ماتصعدنى شئ ماتصعدتنى خطبة النكاح يريد ماشق على ولاغلبنى (وفيه قول آخر) وهو ماروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما ان صعدا جبل فى جهنم وهو صخرة ملساء فيكلف الكافر صعودها ثم يجذب من امامه بسلاسل ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ اعلاها فى اربعين سنة فاذا بلغ اعلاها جذب الى اسفلها ثم يكلف الصعود مرة اخرى فهذا دأبه ابدا ونظير هذه الآية قوله تعالى سأرهقه صعودا (النوع الثالث) من جملة الموحى ❊ قوله تعالى (وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله احدا) وفيه مسائل (الاولى) التقدير قل اوحى الى ان المساجد لله ومذهب الخليل ان التقدير ولان المساجد لله فلا تدعوا فعلى هذا اللام متعلقة فلا تدعوا اى فلاتدعوا مع الله احدا فى المساجد لانها لله خاصة ونظيره قوله وان هذه امتكم على معنى ولان هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون اى لاجل هذا المعنى فاعبدون (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المساجد على وجوه (احدها) وهو قول الاكثرين انها المواضع التى بنيت للصلاة وذكر الله ويدخل فيها الكنائس والبيع ومساجد المسلمين وذلك ان اهل الكتاب يشركون فى صلاتهم فى البيع والكنائس فأمر الله المسلمين بالاخلاص والتوحيد (وثانيها) قال الحسن أراد بالمساجد البقاع كلها قال عليه الصلاة والسلام جعلت لى الارض مسجدا كأنه تعالى قال الارض كلها مخلوقة لله تعالى فلا تسجدوا عليها لغير خالقها (وثالثها) روى عن الحسن ايضا انه قال المساجد هى الصلوات فالمساجد على هذا القول جمع مسجد بفتح الجيم والمسجد على هذا القول مصدر بمعنى السجود (ورابعها) قال سعيد بن جبير المساجد الاعضاء التى يسجد العبد عليها وهى سبعة القدمان والركبتان واليدان والوجه وهذا القول اختيار ابن الانبارى قال لان هذه الاعضاء هى التى يقع السجود عليها وهى مخلوقة لله تعالى فلا ينبغى ان يسجد العاقل عليها لغير الله تعالى وعلى هذا القول معنى المساجد مواضع السجود من الجسد واحدها مسجد بفتح الجيم (وخامسها) قال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما يريد بالمساجد مكة بجميع مافيها من المساجد وذلك لان مكة قبلة الدنيا وكل احد يسجد اليها قال الواحدى

الطريقة المثلى اى لو ثبت ابوهم ابليس على ما كان عليه من عبادة الله وطاعته ولم يتكبر عن السجود لآدم عليه السلام ولم يكفر وتبعه ولده فى الاسلام لانعمنا عليهم ووسعنا رزقهم (لنفتنهم فيه) لنختبرهم كيف يشكرونه وقيل معناه انه لو استقام الجن على طريقتهم القديمة ولم يسلموا باستماع القرآن لوسعنا عليهم الرزق استدراجا لنوقعهم فى الفتنة ونعذبهم فى كفران النعمة (ومن يعرض عن ذكر ربه) عن عبادته اوعن موعظته اووحيه (يسلكه) يدخله (عذابا صعدا) اى شاقا صعبا يعلو المعذب ويغلبه على انه مصدر وصف به مبالغة (وان المساجد لله) عطف على قوله تعالى انه استمع اى واوحى الى ان المساجد مختصة بالله تعالى وقيل معناه ولان المساجد لله (فلا تدعوا) اى لاتعبدوا فيها (مع الله احدا) غيره وقيل المراد بالمساجد المسجد الحرام والجمع لان كل ناحية منه مسجد له قبلة مخصوصة اولانه قبلة المساجد وقيل الارض

وواحد المساجد على الاقوال كلها مسجد بفتح الجيم الاعلى قول من يقول انها المواضع التى بنيت للصلاة فان واحدها بكسر الجيم لان المواضع والمصادر كلها من هذا الباب بفتح العين الا فى احرف معدودة وهى المسجد والمطلع والمنسك والمسكن والمنبت والمفرق والمسقط والمجزر والمحشر والمشرق والمغرب وقد جاء فى بعضها الفتح وهو المنسك والمسكن والمفرق والمطلع وهو جائز فى كلها وان لم يسمع (المسئلة الثالثة) قال الحسن من السنة اذا دخل الرجل المسجد ان يقول لا اله الا الله لان قوله لاتدعوا مع الله احدا فى ضمنه امر بذكر الله وبدعائه ❊ (النوع الرابع) من جملة الموحى قوله تعالى (وانه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) اعلم ان عبدالله هو النبى صلى الله عليه وسلم فى قول الجميع ثم قال الواحدى ان هذا من كلام الجن لا من جملة الموحى لان الرسول لا يليق به ان يحكى عن نفسه بلفظ المغايبة و هذا غير بعيد كما فى قوله يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا والاكثرون على انه من جملة الموحى اذ لو كان من كلام الجن لكان ما ليس من كلام الجن فى خلل ما هو كلام الجن مختلا بعيدا عن سلامة النظم وفائدة هذا الاختلاف ان من جعله من جملة الموحى فتح الهمزة فى ان ومن جعله من كلام الجن كسرها ونحن نفسر الآية على القولين اما على قول من قال انه من جملة الموحى فالضمير فى قوله كادوا الى من يعود فيه ثلاثة اوجه (احدها) الى الجن ومعنى قام يدعوه اى قام يعبده يريد قيامه لصلاة الفجر حين أتاه الجن فاستمعوا القراءة كادوا يكونون عليه لبدا اى يزدحمون عليه متراكمين تعجبا مما رأوا من عبادته واقتداء اصحابه به قائما وراكعا وساجدا واعجابا بما تلا من القرآن لانهم رأوا ما لم يروا مثله وسمعوا ما لم يسمعوا مثله (والثانى) لما قام رسول الله يعبد الله وحده مخالفا للمشركين فى عبادتهم الاوثان كاد المشركون لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون عليه (والثالث) وهو قول قتادة لما قام عبدالله تلبدت الانس والجن وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذى جاء به ويطفئوا نور الله فأبى الله الا ان ينصره ويظهره على من عاداه واما على قول من قال انه من كلام الجن فالوجهان ايضا عائدان فيه وقوله لبدا فهو جمع لبدة وهو ما تلبد بعضه على بعض وارتكم بعضه على بعض وكل شئ ألصقته بشئ الصاقا شديدا فقد لبدته ومنه اشتقاق هذه اللبود التى تفرش ويقال لبدة الاسد لما يتلبد من الشعر بين كتفيه ومنه قول زهير ❊ له لبد اظفاره لم تقلم ❊ وقرئ لبدا بضم اللام واللبدة فى معنى اللبدة وقرئ لبدا جمع لابد كسجد فى ساجد وقرئ ايضا لبدا بضم اللام والباء جمع لبود كصبر جمع صبور فان قيل لم سمى محمدا بعبدالله وما ذكره برسول الله او نبى الله قلنا لانه ان كان هذا الكلام من جملة الموحى فاللائق بتواضع الرسول ان يذكر نفسه بالعبودية وان كان من كلام الجن كان المعنى ان عبدالله لما اشتغل بعبودية الله فهؤلاء الكفار لم اجتمعوا ولم حاولوا امنعه منه مع ان ذلك هو الموافق لقانون العقل ❊ قوله تعالى (قال انما ادعو ربى ولا اشرك به احدا) قرأ العامة قال على الغيبة وقرأ عاصم

كلها لانها جعلت مسجدا للنبى عليه الصلاة والسلام وقيل موضع السجود على ان المراد نهى السجود لغير الله تعالى وقيل اعضاء السجود السبعة وقيل السجدات على انه جمع المصدر الميمى (وانه) من جملة الموحى اى واوحى الى ان الشأن (لما قام عبد الله) اى النبى عليه الصلاة والسلام وايراده بلفظ العبد للاشعار بما هو المقتضى لقيامه وعبادته وللتواضع لانه واقع موقع كلامه عن نفسه (يدعوه) حال من فاعل قام اى يعبده وذلك قيامه لصلاة الفجر بنخلة كما مر تفصيله فى سورة الاحقاف (كادوا) اى الجن (يكونون عليه لبدا) متراكمين من ازدحامهم عليه تعجبا مما شاهدوا من عبادته وسمعوا من قراءته واقتداء اصحابه به قياما وركوعا وسجودا لانهم رأوا ما لم يروا مثله وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره وقيل معناه لما قام عليه الصلاة والسلام يعبد الله وحده مخالفا للمشركين كاد المشركون يزدحمون عليه

وحمزة قال حتى يكون نظيرا لما بعده وهو قوله قل انى لا املك قل انى لن يجيرنى قال مقاتل ان كفار مكة قالوا النبى صلى الله عليه وسلم انك جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم فارجع عن هذا فأنزل الله قل انما ادعو ربى وهذا حجة لعاصم وحمزة ومن قرأ قال جل ذلك على ان القوم لما قالوا ذلك اجابهم النبى صلى الله عليه وسلم بقوله انما ادعو ربى فحكى الله ذلك عنه بقوله قال اويكون ذلك من بقية حكاية الجن احوال الرسول لقومهم ❊ قوله تعالى (قل انى لا املك لكم ضرا ولا رشدا) اما ان يفسر الرشد بالنفع حتى يكون تقدير الكلام لا املك لكم غيا ولا رشدا ويدل عليه قراءة ابى غيا ولا رشدا ومعنى الكلام ان النافع والضار والمرشد والمغوى هو الله وان احدا من الخلق لا قدرة له عليه ❊ قوله تعالى (قل انى لن يجيرنى من الله احد) قال مقاتل انهم قالوا اترك ما تدعو اليه ونحن نجيرك فقال الله له قل انى لن يجيرنى من الله احد ❊ ثم قال تعالى (ولن اجد من دونه ملتحدا) اى ملجأ وحرزا قال المبرد ملتحدا مثل قولك منعرجا والتحد معناه فى اللغة مال فالملتحد المدخل من الارض مثل السرب الذاهب فى الارض ❊ قوله تعالى (الا بلاغا من الله ورسالاته) ذكروا فى هذا الاستثناء وجوها (احدها) انه استثناء من قوله لا املك اى لا املك لكم ضرا ولا رشدا الا البلاغا من الله وقوله قل انى لن يجيرنى جملة معترضة وقعت فى البين لتأكيد نفى الاستطاعة عنه وبيان عجزه على معنى انه تعالى ان اراد به سوأ لم يقدر احد ان يجيره منه وهذا قول الفراء (وثانيها) وهو قول الزجاج انه نصب على البدل من قوله ملتحدا والمعنى ولن اجد من دونه ملجأ الا بلاغا اى لا ينجينى الا ان ابلغ عن الله ما ارسلت به واقول هذا الاستثناء منقطع لانه تعالى لم يقل ولن اجد ملتحدا بل قال ولن اجد من دونه ملتحدا والبلاغ من الله لا يكون داخلا تحت قوله من دونه ملتحدا لان البلاغ من الله لا يكون من دون الله بل يكون من الله وباعانته وتوفيقه (وثالثها) قال بعضهم الا معناه ان لا ومعناه ان لا ابلغ بلاغا كقولك ان لا قياما فقعودا والمعنى ان لا ابلغ لم اجد ملتحدا فان قيل المشهور انه يقال بلغ عنه قال عليه السلام بلغوا عنى فلم قال ههنا بلاغا من الله قلنا من ليست بصلة للتبليغ انما هى بمنزلة من فى قوله براءة من الله بمعنى بلاغا كائنا من الله اما قوله تعالى ورسالاته فهو عطف على بلاغا كأنه قال لا املك لكم الا التبليغ والرسالات والمعنى الا ان ابلغ عن الله فأقول قال الله كذا ناسبا لقوله اليه وان ابلغ رسالاته التى ارسلنى بها من غير زيادة ولا نقصان ❊ قوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم) قال الواحدى ان مكسورة الهمزة لان ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء ولذلك حمل سيبويه قوله ومن عاد فينتقم الله منه ومن كفر فأمتعه ومن يؤمن بربه فلا يخاف على ان المبتدأ فيها مضمر وقال صاحب الكشاف وقرئ فأن له نار جهنم على تقدير فجزاؤه ان له نار جهنم كقوله فأن لله خمسه اى فحكمه ان لله خمسه ❊ ثم قال تعالى (خالدين فيها ابدا) حملا على معنى الجمع فى من وفى الآية مسئلتان (المسئلة

متراكمين واللبد جمع لبدة وهى ما تلبد بعضه على بعض ومنها لبدة الاسد وقرئ لبدا جمع لبدة وهى بمعنى اللبدة ولبدا جمع لابد كساجد وسجد ولبدا بضمتين جمع لبود كصبور وصبر وعن قتادة تلبدت الانس والجن على هذا الامر ليطفؤه فأبى الله الا ان يظهره على من ناواه (قل انما ادعو) اى اعبد (ربى ولا اشرك به) بربى فى العبادة (احدا) فليس ذلك ببدع ولا مستنكر يوجب التعجب اى الاطباق على عداوتى وقرئ قال على انه حكاية لقوله عليه الصلاة والسلام للمتراكمين عليه والاول هو الاظهر والاوفق لقوله تعالى (قل انى لا املك لكم ضرا ولا رشدا) كأنه اريد ضرا ولا نفعا ولا غيا ولا رشدا فترك من كلا المتقابلين ما ذكر فى الآخر (قل انى لن يجيرنى من الله احد) ان ارادنى بسوء (ولن اجد من دون ملتحدا) ملتجأ ومعدلا وهذا بيان لعجزه عليه الصلاة

الاولى) استدل جمهور المعتزلة بهذه الآية على ان فساق اهل الصلاة مخلدون فى النار وان هذا العموم يشملهم كشموله الكفار قالوا وهذا الوعيد مشروط بشرط ان لا يكون هناك توبة ولا طاعة اعظم منها قالوا وهذا العموم اقوى فى الدلالة على هذا المطلوب من سائر العمومات لان سائر العمومات ماجاء فيها قوله ابدا فالمخالف يحمل الخلود على المكث الطويل اما ههنا جاء لفظ الابد فيكون ذلك صريحا فى اسقاط الاحتمال الذى ذكره المخالف (والجواب) انا بينا فى سورة البقرة وجوه الاجوبة عن التمسك بهذه العمومات ونزيد ههنا وجوها (احدها) ان تخصيص العموم بالواقعة التى لاجلها ورد ذلك العموم عرف مشهور فأن المرأة اذا ارادت ان تخرج من الدار ساعة فقال الزوج ان خرجت فأنت طالق يقيد ذلك اليمين بتلك الساعة المعينة حتى انها لو خرجت فى يوم آخر لم تطلق فههنا اجرى الحديث فى التبليغ عن الله تعالى ثم قال ومن يعص الله ورسوله يعنى جبريل فان له نار جهنم اى يعص الله فى تبليغ رسالاته واداء وحيه فان له نار جهنم واذا كان ماذكرنا محتملا سقط وجه الاستدلال (الوجه الثانى) وهو ان هذا الوعيد لا بد وان يتناول هذه الصورة لان القبيح ان يذكر عقيب هذه الواقعة حكما لا تعلق له بها فيكون هذا الوعيد وعيدا على ترك التبليغ من الله ولا شك ان ترك التبليغ من الله اعظم الذنوب والعقوبة المرتبة على عظم الذنوب لا يجوز ان تكون مرتبة على جميع الذنوب لان الذنوب المتفاوتة فى الصغر والكبر لا يجوز ان تكون متساوية فى العقوبة واذا ثبت ان هذه العقوبة عقوبة على هذا الذنب وثبت ان ما كان عقوبة على هذا الذنب لا يجوز ان يكون عقوبة على سائر الذنوب علمنا ان هذا الحكم مختص بهذا الذنب وغير متعد الى سائر الذنوب (الوجه الثالث) وهو انه تعالى ذكر عمومات الوعيد فى سائر آيات القرآن غير مقيدة بقيد الابد وذكرها ههنا مقيدة بقيد الابد فلا بد فى هذا التخصيص من سبب ولا سبب الا ان هذا الذنب اعظم الذنوب واذا كان السبب فى هذا التخصيص هذا المعنى علمنا ان هذا الوعيد مختص بهذا الذنب وغير متعد الى جميع الذنوب واذا ثبت ان هذا الوعيد مختص بفاعل هذا الذنب صارت الآية دالة على ان حال سائر المذنبين بخلاف ذلك لان قوله فان له نار جهنم خالدين فيها ابدا معناه ان هذه الحالة له لا لغيره وهذا كقوله لكم دينكم اى لكم لا لغيركم واذا ثبت ان لهم هذه الحالة لا لغيرهم وجب فى سائر المذنبين ان لا يكون لهم نار جهنم على سبيل التأبيد فظهر ان هذه الآية حجة لنا عليهم وعلى تمسكهم بالآية سؤال آخر وهو ان قوله ومن يعص الله ورسوله انما يتناول من عصى الله ورسوله بجميع انواع المعاصى وذلك هو الكافر ونحن نقول بان الكافر يبقى فى النار مؤبدا وانما قلنا ان قوله ومن يعص الله ورسوله انما يتناول من عصى الله بجميع انواع المعاصى لان قوله ومن يعص الله يصح استثناء جميع انواع المعاصى عنه مثل ان يقال ومن يعص الله الا فى الكفر والا فى الزنا والا فى شرب الخمر ومن

(مذهب)

والسلام عن شؤن نفسه بعد بيان عجزه عليه الصلاة والسلام عن شؤن غيره وقوله تعالى (الا بلاغا من الله) استثناء من قوله لا املك فان التبليغ ارشاد ونفع وما بينهما اعتراض مؤكد لنفى الاستطاعة اومن ملتحدا اى لن اجد من دونه منجى الا ان ابلغ عنه ما ارسلنى به وقيل الا مركبة من ان الشرطية ولا النافية ومعناه ان لا ابلغ بلاغا من الله والجواب محذوف لدلالة ماقبله عليه (ورسالاته) عطف على بلاغا ومن الله صفته لا صلته اى لا املك لكم الا تبليغا كائنا منه تعالى ورسالاته التى ارسلنى بها (ومن يعص الله ورسوله) فى الامر بالتوحيد اذ الكلام فيه (فان له نار جهنم) وقرئ بفتح الهمزة على فحقه او فجزاؤه ان له نار جهنم (خالدين فيها) فى النار اوفى جهنم والجمع باعتبار المعنى (ابدا) بلا نهاية

مذهب القائلين بالوعيد ان حكم الاستثناء اخراج مالولاه لكان داخلا تحت اللفظ واذا كان كذلك وجب ان يكون قوله ومن يعص الله متناولا لمن اتى بكل المعاصي والذي يكون كذلك هو الكافر فالآية مختصة بالكافر على هذا التقدير فسقط وجه الاستدلال بها فان قيل كون الانسان الواحد آتيا بجميع انواع المعاصي محال لان من المحال ان يكون قائلا بالتجسيم وان يكون مع ذلك قائلا بالتعطيل واذا كان ذلك محالا فحمل الآية عليه غير جائز قلنا تخصيص العام بدليل العقل جائز فقولنا ومن يعص الله يفيد كونه آتيا بجميع انواع المعاصي ترك العمل به في القدر الذي امتنع عقلا حصوله فيبقى متناولا للآتي بجميع الاشياء التي يمكن الجمع بينها ومن المعلوم ان الجمع بين الكفر وغيره ممكن فتكون الآية مختصة به (المسئلة الثانية) تمسك القائلون بأن الامر للوجوب بهذه الآية فقالوا تارك المأمور به عاص لقوله تعالى أفعصيت امري لايعصون الله ماامرهم لا اعصي لك امرا والعاصي مستحق للعقاب لقوله ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ابدا * قوله تعالى (حتى اذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من اضعف ناصرا واقل عددا) فان قيل ما الشيء الذي جعل مابعد حتى غاية له قلنا فيه وجهان (الاول) انه متعلق بقوله يكونون عليه لبدا والتقدير انهم يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون انصاره ويستقلون عدده حتى اذا رأوا مايوعدون من يوم بدر واظهار الله عليهم او من يوم القيامة فسيعلمون انهم اضعف ناصرا واقل عددا (الثاني) انه متعلق بمحذوف دلت عليه الحال من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده كأنه قيل هؤلاء لايزالون على ماهم عليه حتى اذا كان كذا كان كذا واعلم ان نظير هذه الآية قوله في مريم حتى اذا رأوا مايوعدون اما العذاب واما الساعة واعلم ان الكافر لاناصر له ولا شفيع يوم القيامة على ماقال ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ولا يشفعون الا لمن ارتضى ويفر كل احد منهم من صاحبه على ماقال يوم يفر المرء من اخيه الى آخره ويوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت واما المؤمنون فلهم العزة والكرامة والكثرة قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم والملك القدوس يسلم عليهم سلام قولا من رب رحيم فهنالك يظهر ان القوة والعدد في جانب المؤمنين او في جانب الكفار * قوله تعالى (قل ان ادري أقريب ماتوعدون ام يجعل له ربي امدا) قال مقاتل لما سمعوا قوله حتى اذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من اضعف ناصرا واقل عددا قال النضر بن الحرث متى يكون هذا الذي توعدنا به فأنزل الله تعالى قل ان ادري اقريب ماتوعدون الى آخره والمعنى ان وقوعه متيقن اما وقت وقوعه فغير معلوم وقوله ام يجعل له ربي امدا اي غاية وبعدا وهذا كقوله وان ادري أقريب ام بعيد ماتوعدون فان قيل أليس انه قال بعثت انا والساعة كهاتين فكان عالما بقرب وقوع القيامة فكيف قال ههنا لا ادري اقريب ام بعيد قلنا المراد بقرب وقوعه هو ان مابقي من الدنيا اقل مما انقضى فهذا القدر من القرب

وقوله تعالى (حتى اذا رأوا مايوعدون) غاية لمحذوف يدل عليه الحال من استضعاف الكفار لانصاره عليه الصلاة والسلام واستقلالهم لعدده كأنه قيل لايزالون على ماهم عليه حتى اذا رأوا مايوعدون من فنون العذاب في الآخرة (فسيعلمون) حينئذ (من اضعف ناصرا واقل عددا) وحمل مايوعدون على مارأوه يوم بدر يأباه قوله تعالى (قل ان أدري) اي ماأدري (أقريب ماتوعدون ام يجعل له ربي امدا) فانه رد لما قاله المشركون عند سماعهم ذلك متى يكون ذلك الموعود انكارا له واستهزاء به فقيل قل انه كائن لامحالة واما وقته فما ادري متى يكون (عالم الغيب) بالرفع قيل هو بدل من ربي او بيان له ويأباه الفاء في قوله تعالى (فلا يظهر على غيبه احدا) اذ يكون النظم حينئذ ام يجعل له عالم الغيب امدا فلا يظهر عليه احدا وفيه من الاختلال مالا يخفى فهو خبر مبتدأ محذوف اي هو عالم الغيب والجملة استئناف مقرر لما قبله من عدم الدراية والفاء لترتيب عدم الاظهار على تفرده تعالى بعلم الغيب على الاطلاق اي فلا يطلع على غيبه اطلاعا كاملا ينكشف به جلية الحال انكشافا تاما موجبا لعين اليقين احدا من خلقه (الا من ارتضى من رسول) اي الا رسولا ارتضاه لاظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالته كما يعرب عنه بيان من ارتضى بالرسول تعلقا تاما اما لكونه من مبادي رسالته بأن يكون معجزة دالة على صحتها واما لكونه من اركانها واحكامها كعامة التكاليف الشرعية التي

معلوم واما معرفة القرب القريب وعدم ذلك فغير معلوم ❊ ثم قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول) لفظة من في قوله من رسول تبيين لمن ارتضى يعني انه لا يطلع على الغيب الا المرتضى الذي يكون رسولا قال صاحب الكشاف وفي هذا ابطال الكرامات لان الذين تضاف الكرامات اليهم وان كانوا اولياء مرتضين فليسوا برسل وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وفيها ايضا ابطال الكهانة والسحر والتنجيم لان اصحابها ابعد شئ من الارتضاء وادخله في السخط قال الواحدي وفي هذا دليل على ان من ادعى ان النجوم تدله على ما يكون من حياة او موت او غير ذلك فقد كفر بما في القرآن واعلم ان الواحدي يجوز الكرامات وان يلهم الله اولياءه وقوع بعض الوقائع في المستقبل ونسبة الآية الى الصورتين واحدة فان جعل الآية دالة على المنع من احكام النجوم فينبغي ان يجعلها دالة على المنع من الكرامات على ما قاله صاحب الكشاف وان زعم انها لا تدل على المنع من الالهامات الحاصلة للاولياء فينبغي ان لا يجعلها دالة على المنع من الدلائل النجومية فاما التحكم بدلالتها على المنع من الاحكام النجومية وعدم دلالتها على الالهامات الحاصلة للاولياء فمجرد التشهي وعندي ان الآية لا دلالة فيها على شئ مما قالوه والذي تدل عليه ان قوله على غيبه ليس فيه صيغة عموم فيكفي في العمل بمقتضاه ان لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه فنحمله على وقت وقوع القيامة فيكون المراد من الآية انه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد فلا يبقى في الآية دلالة على انه لا يظهر شيئا من الغيوب لأحد والذي يؤكد هذا التأويل انه تعالى انما ذكر هذه الآية عقيب قوله وان ادري أقريب ما توعدون ام يجعل له ربي امدا يعني لا ادري وقت وقوع القيامة ثم قال بعده عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا اي وقت وقوع القيامة من الغيب الذي لا يظهره الله لأحد وبالجملة فقوله على غيبه لفظ مفرد مضاف فيكفي في العمل به حمله على غيب واحد فاما العموم فليس في اللفظ دلالة عليه (فان قيل) فاذا حملتم ذلك على القيامة فكيف قال الا من ارتضى من رسول مع انه لا يظهر هذا الغيب لأحد من رسله (قلنا) بل يظهره عند القرب من اقامة القيامة وكيف لا وقد قال ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ولا شك ان الملائكة يعلمون في ذلك الوقت قيام القيامة وايضا يحتمل ان يكون هذا الاستثناء منقطعا كأنه قال عالم الغيب فلا يظهر على غيبه المخصوص وهو قيام القيامة احدا ثم قال بعده لكن من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شر مردة الانس والجن لانه تعالى انما ذكر هذا الكلام جوابا بالسؤال من سأله عن وقت وقوع القيامة على سبيل الاستهزاء به والاستحقار لدينه ومقالته واعلم انه لا بد من القطع بأنه ليس مراد الله من هذه الآية ان لا يطلع احدا على شئ من المغيبات الا الرسل والذي يدل عليه وجوه (احدها) انه ثبت بالاخبار القريبة من التواتر ان شقا وسطيحا كانا كاهنين يخبران بظهور نبينا محمد

امر بها المكلفون وكيفيات اعمالهم واجزيتها المرتبة عليها في الآخرة وما تتوقف هي عليه من احوال الآخرة التي من جملتها قيام الساعة والبعث وغير ذلك من الامور الغيبية التي بيانها من وظائف الرسالة واما ما لا يتعلق بها على احد الوجهين من الغيوب التي من جملتها وقت قيام الساعة فلا يظهر عليه احدا ابدا على ان بيان وقته مخل بالحكمة التشريعية التي عليها يدور فلك الرسالة وليس فيه ما يدل على نفي كرامات الاولياء المتعلقة بالكشف فان اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسل لا يستلزم عدم حصول مرتبة ما من تلك المراتب لغيرهم اصلا ولا يدعي احد لأحد من الاولياء ما في رتبة الرسل عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحي الصريح وقوله تعالى (فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) تقرير وتحقيق للاظهار المستفاد من الاستثناء وبيان لكيفيته اي فانه يسلك من جميع جوانب الرسول عليه السلام عند اظهاره على غيبه حرسا من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين لما اظهره عليه من الغيوب المتعلقة برسالته وقوله تعالى (ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم) متعلق بيسلك غاية له من حيث انه مترتب على الابلاغ المترتب عليه اذ المراد به العلم المتعلق بالابلاغ الموجود بالفعل وان مخففة من الثقيلة واسمها الذي هو ضمير الشأن محذوف والجملة خبرها ورسالات ربهم عبارة عن الغيب الذي اريد

(صلى)

صلى الله عليه وسلم قبل زمان ظهوره وكانا فى العرب مشهورين بهذا النوع من العلم حتى رجع اليهما كسرى فى تعرف اخبار رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فثبت ان الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شئ من الغيب (وثانيها) ان جميع ارباب الملل والاديان مطبقون على صحة علم التعبير وان المعبر قد يخبر عن وقوع الوقائع الآتية فى المستقبل ويكون صادقا فيه (وثالثها) ان الكاهنة البغدادية التى نقلها السلطان سنجر بن ملك شاه من بغداد الى خراسان وسألها عن الاحوال الآتية فى المستقبل فذكرت اشياء ثم انها وقعت على وفق كلامها (قال مصنف الكتاب ختم الله له بالحسنى) وأنا قد رأيت أناسا محققين فى علوم الكلام والحكمة حكوا عنها انها اخبرت عن الاشياء الغائبة اخبارا على سبيل التفصيل وجاءت تلك الوقائع على وفق خبرها وبالغ ابو البركات فى كتاب المعتبر فى شرح حالها وقال لقد تفحصت عن حالها مدة ثلاثين سنة حتى تيقنت انها كانت تخبر عن المغيبات اخبارا مطابقا (ورابعها) انا نشاهد فى اصحاب الالهامات الصادقة وليس هذا مختصا بالاولياء بل قد يوجد فى السحرة ايضا من يكون كذلك ونرى الانسان الذى يكون سهم الغيب على درجة طالعه يكون كذلك فى كثير من اخباره وان كان قد يكذب ايضا فى اكثر تلك الاخبار ونرى الاحكام النجومية قد تكون مطابقة موافقة للامور وان كانوا قد يكذبون فى كثير منها واذا كان ذلك مشاهدا محسوسا فالقول بأن القرآن يدل على خلافه مما يجر الطعن الى القرآن وذلك باطل فعلمنا ان التأويل الصحيح ماذكرناه والله اعلم ❊ اما قوله تعالى (فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) فالمعنى انه يسلك من بين يدى من ارتضى للرسالة ومن خلفه رصدا اى حفظة من الملائكة يحفظونه من وساوس شياطين الجن وتخاليطهم حتى يبلغ ما اوحى به اليه ومن زحمة شياطين الانس حتى لا يؤذونه ولا يضرونه وعن الضحاك ما بعث نبى الا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين الذين يتشبهون بصورة الملك ❊ قوله تعالى (ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم) فيه مسائل (المسئلة الاولى) وحد الرسول فى قوله الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه ثم جمع فى قوله ان قد ابلغوا رسالات ربهم ونظيره ماتقدم من قوله فان له نار جهنم خالدين (المسئلة الثانية) احتج من قال بحدوث علم الله تعالى بهذه الآية لان معنى الآية ليعلم الله ان قد ابلغوا الرسالة ونظيره قوله تعالى حتى نعلم المجاهدين (الجواب) من وجهين (الاول) قال قتادة ومقاتل ليعلم محمد ان الرسل قد ابلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة وعلى هذا اللام فى قوله ليعلم متعلق بمحذوف يدل عليه الكلام كأنه قيل اخبرناه بحفظ الوحى ليعلم ان الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ الحق ويجوز ان يكون المعنى ليعلم الرسول ان قد ابلغوا اى جبريل والملائكة الذين يبعثون الى الرسل رسالات ربهم فلا يشك فيها ويعلم انها حق من الله (الثانى) وهو اختيار اكثر المحققين ان المعنى ليعلم الله ان قد ابلغ الانبياء رسالات ربهم والعلم ههنا مثله فى قوله ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم

اظهار المرتضى عليه والجمع باعتبار تعدد افراده وضمير ابلغوا اما للرصد فالمعنى انه تعالى يسلكهم من جميع جوانب المرتضى ليعلم ان الشان قد ابلغوه رسالات ربهم سالمة عن الاختطاف والتخليط علما مستتبعا للجزاء وهو ان يعلمه موجودا حاصلا بالفعل كما فى قوله تعالى حتى نعلم المجاهدين والغاية فى الحقيقة هو الابلاغ والجهاد وايراد علمه تعالى لابراز اعتنائه تعالى بأمرهما والاشعار بترتب الجزاء عليهما والمبالغة فى الحث عليهما والتحذير عن التفريط فيهما واما لمن ارتضى والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد فى الضمير السابقين باعتبار لفظها فالمعنى ليعلم انه قد ابلغ الرسل الموحى اليهم رسالات ربهم الى اممهم كما هى من غير اختطاف ولا تخليط بعد ما ابلغها الرصد اليهم كذلك وقوله تعالى (واحاط بما لديهم) اى بما عند الرصد او الرسل عليهم السلام حال من فاعل يسلك باضمار قد او بدونه على الخلاف المشهور جئ بها لتحقيق استغنائه تعالى فى العلم بالابلاغ عما ذكر من سلك الرصد على الوجه المذكور اى يسلكهم بين يديه ومن خلفه ليترتب عليه علمه تعالى بما ذكر والحال انه تعالى قد احاط بما لديهم من الاحوال جميعا (واحصى كل شئ) مما كان وما سيكون (عددا)

الله الذين جاهدوا منكم والمعنى ليبلغوا رسالات ربهم فيعلم الله ذلك منهم (المسئلة الثانية) قرئ ليعلم على البناء للمفعول * قوله تعالى (واحاط بما لديهم واحصى كل شئ عددا) اما قوله واحاط بما لديهم فهو يدل على كونه تعالى عالما بالجزئيات واما قوله واحصى كل شئ عددا فهو يدل على كونه عالما بجميع الموجودات (فان قيل) احصاء العدد انما يكون فى المتناهى وقوله كل شئ يدل على كونه غير متناه فلزم وقوع التناقض فى الآية (قلنا) لاشك ان احصاء العدد انما يكون فى المتناهى فاما لفظة كل شئ فانها لاتدل على كونه غير متناه لان الشئ عندنا هو الموجودات والموجودات متناهية فى العدد وهذه الآية احد مايحتج به على ان المعدوم ليس بشئ وذلك لان المعدوم لو كان شيئا لكانت الاشياء غير متناهية وقوله تعالى احصى كل شئ عددا يقتضى كون تلك المحصيات متناهية فيلزم الجمع بين كونها متناهية وغير متناهية وذلك محال فوجب القطع بأن المعدوم ليس بشئ حتى يندفع هذا التناقض والله اعلم والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد النبى وآله وصحبه اجمعين

* (سورة المزمل عليه السلام وهى عشرون آية مكية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(يأيها المزمل) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اجمعوا على ان المراد بالمزمل النبى عليه السلام واصله المتزمل بالتاء وهو الذى تزمل بثيابه اى تلفف بها فأدغم التاء فى الزاى ونحوه المدثر فى المتدثر واختلفوا لم تزمل بثوبه على وجوه (احدها) قال ابن عباس اول ماجاءه جبريل عليه السلام خافه وظن ان به مسا من الجن فرجع من الجبل مرتعدا وقال زملونى فبيناهو كذلك اذجاءه جبريل وناداه وقال يأيها المزمل (وثانيها) قال الكلبى انما تزمل النبى عليه السلام بثيابه للتهيئ للصلاة وهو اختيار الفراء (وثالثها) انه عليه السلام كان نائما بالليل متزملا فى قطيفة فنودى بما يهجن تلك الحالة وقيل يأيها النائم المتزمل بثوبه قم واشتغل بالعبودية (ورابعها) انه كان متزملا فى مرط لخديجة مستأنسا بها فقيل له يأيها المزمل قم الليل كأنه قيل اترك نصيب النفس واشتغل بالعبودية (وخامسها) قال عكرمة يأيها الذى زمل امرا عظيما اى حمله والزمل الحمل وازدمله احتمله (المسئلة الثانية) قرأ عكرمة المزمل والمدثر بتخفيف الزاى والدال وتشديد الميم والثاء على انه اسم فاعل اومفعول فان كان على اسم الفاعل كان المفعول محذوفا والتقدير يأيها المزمل نفسه والمدثر نفسه وحذف المفعول فى مثل هذا المقام فصيح قال تعالى وأوتيت من كل شئ اى أوتيت من كل شئ شيئا وان كان على انه اسم المفعول كان ذلك لانه زمل نفسه او زمله غيره وقرئ يأيها المتزمل على الاصل * وقوله تعالى (قم الليل) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال ابن عباس ان قيام الليل كان فريضة على رسول الله لقوله قم الليل وظاهر الامر للوجوب ثم نسخ واختلفوا فى سبب النسخ على وجوه (اولها) انه كان فرضا قبل ان

(تفرض)

اى فردا فردا وهو تمييز منقول من المفعول به كقوله تعالى وفجرنا الارض عيونا والاصل احصى عدد كل شئ وقيل هو حال اى معدودا محصورا او مصدر بمعنى احصاء وايا ما كان ففائدته بيان ان علمه تعالى بالاشياء ليس على وجه كلى اجمالى بل على وجه جزئى تفصيلى فان الاحصاء قد يراد به الاحاطة الاجمالية كما فى قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها اى لاتقدروا على حصرها اجمالا فضلا عن التفصيل وذلك لان اصل الاحصاء ان الحاسب اذا بلغ عقدا معينا من عقود الاعداد كالعشرة والمائة والالف وضع حصاة ليحفظ بها كمية ذلك العقد فيبنى على ذلك حسابه هذا واما ماقيل من ان قوله تعالى واحاط بما لديهم الخ معطوف على مقدر يدل عليه قوله تعالى ليعلم كأنه قيل قد علم ذلك واحاط بما لديهم الخ فبمعزل من السداد * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جنى صدق محمدا او كذب به عتق رقبة

* (سورة المزمل مكية وآيها تسع عشرة او عشرون) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(يأيها المزمل) اى المتزمل من تزمل بثيابه اذا تلفف بها فأدغم التاء فى الزاى وقد قرئ على الاصل

تفرض الصلوات الخمس ثم نسخ بها (وثانيها) انه تعالى لما قال قم الليل الا قليلا نصفه او انقص منه قليلا اوزد عليه فكان الرجل لايدرى كم صلى وكم بقى من الليل فكان يقوم الليل كله مخافة ان لا يحفظ القدر الواجب وشق عليهم ذلك حتى ورمت اقدامهم وسوقهم فنسخ الله تعالى ذلك بقوله فى آخر هذه السورة فأقرؤا ماتيسر منه وذلك فى صدر الاسلام ثم قال ابن عباس وكان بين اول هذا الايجاب وبين نسخه سنة وقال فى رواية أخرى ان ايجاب هذا كان بمكة ونسخه كان بالمدينة ثم نسخ هذا القدر ايضا بالصلوات الخمس والفرق بين هذا القول وبين القول الاول ان فى هذا القول نسخ وجوب التهجد بقوله فاقرؤا ماتيسر من القرآن ثم نسخ هذا بايجاب الصلوات الخمس وفى القول الاول نسخ ايجاب التهجد بايجاب الصلوات الخمس ابتداء وقال بعض العلماء التهجد ماكان واجبا قط والدليل عليه وجوه (اولها) قوله ومن الليل فتهجد به نافلة لك فبين ان التهجد نافلة له لافرض واجاب ابن عباس عنه بأن المعنى زيادة وجوب عليك (وثانيها) ان التهجد لوكان واجبا على الرسول لوجب على امته لقوله واتبعوه وورود النسخ على خلاف الاصل (وثالثها) استدل بعضهم على عدم الوجوب بأنه تعالى قال نصفه او انقص منه قليلا اوزد عليه ففوض ذلك الى رأى المكلف وماكان كذلك لايكون واجبا وهذا ضعيف لانه لايبعد فى العقل ان يقول اوجبت عليك قيام الليل فاما تقديره بالقلة والكثرة فذاك مفوض الى رأيك ثم ان القائلين بعدم الوجوب أجابوا عن التمسك بقوله قم الليل وقالوا ظاهر الامر يفيد الندب لانا رأينا أوامر الله تعالى تارة تفيد الندب وتارة تفيد الايجاب فلابد من جعلها مفيدة للقدر المشترك بين الصورتين دفعا للاشتراك والمجاز وماذاك الا ترجيح جانب الفعل على جانب الترك واما جواز الترك فانه ثابت بمقتضى الاصل فلما حصل الرجحان بمقتضى الامر وحصل جواز الترك بمقتضى الاصل كان ذلك هو المندوب والله اعلم (المسئلة الثانية) قرأ ابو السمال قم الليل بفتح الميم وغيره بضم الميم قال ابو الفتح بن جنى الغرض من هذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين فأى الحركات تحرك فقد حصل الغرض وحكى قطرب عنهم قم الليل وقل الحق برفع الميم واللام وبع الثوب ثم قال من كسر فعلى اصل الباب ومن ضم اتبع ومن فتح فقد مال الى خفة الفتح ❊ قوله تعالى (الا قليلا نصفه او انقص منه قليلا اوزد عليه) اعلم ان الناس قد أكثروا فى تفسير هذه الآية وعندى فيه وجهان ملخصان (الاول) ان المراد بقوله الا قليلا الثلث والدليل عليه قوله تعالى فى آخر هذه السورة ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه فهذه الآية دلت على ان أكثر المقادير الواجبة الثلثان فهذا يدل على ان نوم الثلث جائز واذا كان كذلك وجب ان يكون المراد بالقليل فى قوله قم الليل الا قليلا هو الثلث فاذا قوله قم الليل الا قليلا معناه قم ثلثى الليل ثم قال نصفه والمعنى او قم نصفه كما تقول جالس الحسن او ابن سيرين اى جالس ذا او ذا ايهما شئت فتحذف حرف العطف فتقدير الآية قم الثلثين او قم النصف

وقرئ المزمل من زمله مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل قيل خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام تهجينا لما كان عليه من الحالة حيث كان عليه الصلاة والسلام متلففا بقطيفة مستعدا للنوم كما يفعله من لايهمه امر ولا يعنيه شان فأمر بان يترك التزمل الى التشمر للعبادة والهجود الى التهجد وقيل دخل عليه الصلاة والسلام على خديجة وقد جئث فرقا اول ما اتاه جبريل عليهما السلام وبوادره ترعد فقال زملونى زملونى فحسب انه عرض له فبينا هو على ذلك اذ ناداه جبريل فقال يا ايها المزمل فيكون تخصيص وصف التزمل بالخطاب للملاطفة والتأنيس كما فى قوله عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه حين غاضب فاطمة رضى الله عنها فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب قم يا ابا تراب ملاطفة له واشعارا بانه غير عاتب عليه وقيل المعنى يا ايها الذى زمل امرا عظيما هو امر النبوة اى حمله والزمل الحمل وازدمله اى احتمله فالتعرض للوصف حينئذ للاشعار بعليته للقيام او للامر به فان تحميله عليه الصلاة والسلام لاعباء النبوة مما يوجب الاجتهاد فى العبادة (قم الليل) اى قم الى الصلاة وانتصاب

او انقص من النصف او زد عليه فعلى هذا يكون الثلثان اقصى الزيادة ويكون الثلث اقصى النقصان فيكون الواجب هو الثلث والزائد عليه يكون مندوبا فان قيل فعلى هذا التأويل يلزمكم ان يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد ترك الواجب لانه تعالى قال ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه فمن قرأ نصفه وثلثه بالخفض كان المعنى انك تقوم اقل من الثلثين واقل من النصف واقل من الثلث فاذا كان الثلث واجبا كان عليه السلام تاركا للواجب قلنا انهم كانوا يقدرون الثلث بالاجتهاد فربما اخطؤا في ذلك الاجتهاد ونقصوا منه شيئا قليلا فيكون ذلك ادنى من ثلث الليل المعلوم بتحديد الاجزاء عند الله ولذلك قال تعالى لهم علم ان لن تحصوه (الوجه الثاني) ان يكون قوله نصفه تفسيرا لقوله قليلا وهذا التفسير جائز لوجهين (الاول) ان نصف الشئ قليل بالنسبة الى كله (والثاني) ان الواجب اذا كان هو النصف لم يخرج صاحبه عن عهدة ذلك التكليف بيقين الا بزيادة شئ قليل عليه فيصير في الحقيقة نصفا وشيئا فيكون الباقي بعد ذلك اقل منه واذا ثبت هذا فنقول قم الليل الا قليلا معناه قم الليل الا نصفه فيكون الحاصل قم نصف الليل ثم قال او انقص منه قليلا يعني او انقص من هذا النصف نصفه حتى يبقى الربع ثم قال او زد عليه يعني او زد على هذا النصف نصفه حتى يصير المجموع ثلاثة ارباعه وحينئذ يرجع حاصل الآية الى انه تعالى خيره بين ان يقوم تمام النصف وبين ان يقوم ربع الليل وبين ان يقوم ثلاثة ارباعه وعلى هذا التقدير يكون الواجب الذي لا بد منه هو قيام الربع والزائد عليه يكون من المندوبات والنوافل وعلى هذا التأويل يزول الاشكال الذي ذكرتم بالكلية لان قوله ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه يدل على انه عليه الصلاة والسلام لم يقم ثلثي الليل ولا نصفه ولا ثلثه لان الواجب لما كان هو الربع فقط لم يلزم من ترك قيام الثلث ترك شئ من الواجبات فزال السؤال المذكور والله اعلم ❊ قوله تعالى (ورتل القرآن ترتيلا) قال الزجاج رتل القرآن ترتيلا بينه تبيينا والتبيين لا يتم بأن يعجل في القرآن انما يتم بأن يتبين جميع الحروف ويوفى حقها من الاشباع قال المبرد اصله من قولهم ثغر رتل اذا كان بين الثنايا افتراق ليس بالكثير وقال الليث الترتيل تنسيق الشئ وثغر رتل حسن التنضيد ورتلت الكلام ترتيلا اذا تمهلت فيه واحسنت تأليفه وقوله تعالى ترتيلا تأكيد في ايجاب الامر به وانه مما لا بد منه للقارئ ❊ واعلم انه تعالى لما أمره بصلاة الليل امره بترتيل القرآن حتى يتمكن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها فعند الوصول الى ذكر الله يستشعر عظمته وجلالته وعند الوصول الى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف وحينئذ يستنير القلب بنور معرفة الله والاسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني لان النفس تبتهج بذكر الامور الالهية الروحانية ومن ابتهج بشئ احب ذكره ومن احب شيئا لم يمر عليه بسرعة فظهر ان المقصود من الترتيل انما هو حضور القلب

الليل على الظرفية وقيل القيام مستعار للصلاة ومعنى قم صل وقرئ بضم الميم وبفتحها (الا قليلا) استثناء من الليل وقوله تعالى (نصفه) بدل من الليل الباقي بعد الثنيا بدل الكل اى قم نصفه والتعبير عن النصف المخرج بالقليل لاظهار كمال الاعتداد بشأن الجزء المقارن للقيام والايذان بفضله وكون القيام فيه بمنزلة القيام في اكثره في كثرة الثواب واعتبار قلته بالنسبة الى الكل مع عرائه عن الفائدة خلاف الظاهر (او انقص منه) اى انقص القيام من النصف المقارن له في الصورة الاولى (قليلا) اى نقصا قليلا او مقدارا قليلا بحيث لا ينحط الى نصف النصف (او زد عليه) اى زد القيام على النصف المقارن له فالمعنى تخييره عليه الصلاة والسلام بين ان يقوم نصفه او اقل منه او اكثر وقيل قوله تعالى نصفه بدل من قليلا والتخيير بحاله وليس بسديد اما اولا فلان الحقيق بالاعتناء الذي ينبئ عنه الابدال هو الجزء الباقي بعد الثنيا المقارن للقيام لا الجزء المخرج العاري عنه واما ثانيا فلان نقص القيام وزيادته انما يعتبران بالقياس الى معياره الذي هو النصف المقارن له فلو جعل

(وكمال)

وكمال المعرفة ※ قوله تعالى (انا سنلقى عليك قولا ثقيلا) ذكروا فى تفسير الثقيل وجوها (احدها) وهو المختار عندى ان المراد من كونه ثقيلا عظم قدره وجلالة خطره وكل شئ نفس وعظم خطره فهو ثقل وثقيل وثاقل وهذا معنى قول ابن عباس فى رواية عطاء قولا ثقيلا يعنى كلاما عظيما ووجه النظم انه تعالى لما امره بصلاة الليل فكأنه قال انما امرتك بصلاة الليل لانا سنلقى عليك قولا عظيما فلابد وان تسعى فى صيرورة نفسك مستعدة لذلك القول العظيم ولايحصل ذلك الاستعداد الا بصلاة الليل فان الانسان فى الليلة الظلماء اذا اشتغل بعبادة الله تعالى واقبل على ذكره والثناء عليه والتضرع بين يديه ولم يكن هناك شئ من الشواغل الحسية والعوائق الجسمانية استعدت النفس هنالك لاشراق جلال الله فيها وتهيأت للتجرد التام والانكشاف الاعظم بحسب الطاقة البشرية فلما كان لصلاة الليل اثر فى صيرورة النفس مستعدة لهذا المعنى لاجرم قال انى انما أمرتك بصلاة الليل لانا سنلقى عليك قولا ثقيلا فصير نفسك مستعدة لقبول ذلك المعنى وتمام هذا المعنى ماقال عليه الصلاة والسلام ان لربكم فى ايام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها (وثانيها) قالوا المراد بالقول الثقيل القرآن ومافيه من الاوامر والنواهى التى هى تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين عامة وعلى رسول الله خاصة لانه يتحملها بنفسه ويبلغها الى امته وحاصله ان ثقله راجع الى ثقل العمل به فانه لامعنى للتكليف الا الزام مافى فعله كلفة ومشقة (وثالثها) روى عن الحسن انه ثقيل فى الميزان يوم القيامة وهو اشارة الى كثرة منافعه وكثرة الثواب فى العمل به (ورابعها) المراد انه عليه الصلاة والسلام كان يثقل عند نزول الوحى اليه روى ان الوحى نزل عليه وهو على ناقته فثقل عليها حتى وضعت جرانها فلم تستطع ان تتحرك وعن ابن عباس كان اذا نزل عليه الوحى ثقل عليه وتربد وجهه وعن عائشة رضى الله عنها رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليرفض عرقا (وخامسها) قال الفراء قولا ثقيلا اى ليس بالخفيف ولا بالسفساف لانه كلام ربنا تبارك وتعالى (وسادسها) قال الزجاج معناه انه قول متين فى صحته وبيانه ونفعه كما تقول هذا كلام رزين وهذا قول له وزن اذا كنت تستجيده وتعلم انه قد وقع موقع الحكمة والبيان (وسابعها) قال ابو على الفارسى انه ثقيل على المنافقين من حيث انه يهتك اسرارهم ومن حيث انه يبطل اديانهم واقوالهم (وثامنها) ان الثقيل من شأنه ان يبقى فى مكانه ولا يزول فجعل الثقيل كناية عن بقاء القرآن على وجه الدهر كما قال انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (وتاسعها) انه ثقيل بمعنى ان العقل الواحد لايفى بادراك فوائده ومعانيه بالكلية فالمتكلمون غاصوا فى بحار معقولاته والفقهاء أقبلوا على البحث عن احكامه وكذا اهل اللغة والنحو وارباب المعانى ثم لايزال كل متأخر يفوز منه بفوائد ماوصل اليها المتقدمون فعلمنا ان الانسان الواحد لايقوى على الاستقلال بحمله فصار كالحمل الثقيل الذى يعجز الخلق عن

نصفه بدلا من قليلا لزم اعتبار نقص القيام وزيادته بالقياس الى ماهو عار عنه بالكلية والاعتذار بتساوى النصفين مع كونه تمحلا ظاهر اعتراف بأن الحق هو الاول وقيل نصفه بدل من الليل و الا قليلا استثناء من النصف والضمير فى منه وعليه للنصف والمعنى التخيير بين امرين بين ان يقوم اقل من نصف الليل على البتات وبين ان يختار احد الامرين وهما النقصان من الزيادة عليه وقيل الضميران للاقل من النصف كأنه قيل قم اقل من نصفه اوقم انقص من ذلك الاقل اوازيد منه قليلا وقيل وقيل والذى يليق بجزالة التنزيل هو الاول والله أعلم بما فى كتابه الجليل (ورتل القرآن) فى اثناء ماذكر من القيام اى اقرأه على تؤدة وتبيين حروف (ترتيلا) بليغا بحيث يتمكن السامع من عدها من قولهم ثغر رتل ورتل اذا كان مفلجا (انا سنلقى عليك) اى سنوحى اليك وايثار الالقاء عليه لقوله تعالى (قولا ثقيلا) وهو القرآن العظيم المنطوى على تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين لاسيما على الرسول عليه الصلاة والسلام فانه عليه الصلاة والسلام مأمور بتحملها وتحميلها للامة والجملة اعتراض

حمله (ويباشرها) انه ثقيل لكونه مشتملا على المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والفرق بين هذه الاقسام مما لايقدر عليه الا العلماء الراسخون المحيطون بجميع العلوم العقلية والنقلية والحكمية فلما كان كذلك لاجرم كانت الاحاطة به ثقيلة على اكثر الخلق ※ قوله تعالى (ان ناشئة الليل) يقال نشأت تنشأ نشأ فهى ناشئة والانشاء الاحداث فكل ماحدث فانه يقال للمذكر ناشئ وللمؤنث ناشئة اذا عرفت هذا فنقول فى الناشئة قولان (احدهما) انها عبارة عن ساعات الليل (والثانى) انها عبارة عن الامور التى تحدث فى ساعات الليل اما القول الاول فقال ابو عبيدة ناشئة الليل ساعاته واجزاؤه المتتالية المتعاقبة فانها تحدث واحدة بعد اخرى فهى ناشئة بعد ناشئة ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فنهم من قال الليل كله ناشئة روى ابن ابى مليكة قال سألت ابن عباس وابن الزبير عن ناشئة الليل فقالا الليل كله ناشئة وقال زين العابدين رضى الله عنه ناشئة الليل مابين المغرب الى العشاء وهو قول سعيد بن جبير والضحاك والكسائى قالوا لان ناشئة الليل هى الساعة التى منها يبتدأ سواد الليل (القول الثانى) هو تفسير الناشئة بأمور تحدث فى الليل وذكروا على هذا القول وجوها (احدها) قالوا ناشئة الليل هى النفس الناشئة بالليل التى تنشأ من مضجعها الى العبادة اى تنهض وترتفع من نشأت السحابة اذا ارتفعت (وثانيها) ناشئة الليل عبارة عن قيام الليل بعد النوم قال ابن الاعرابى اذا نمت من اول الليل نومة ثم قمت فتلك النشأة ومنه ناشئة الليل (وعندى فيه وجه ثالث) وهو ان الانسان اذا اقبل على العبادة والذكر فى الليل المظلم فى البيت المظلم فى موضع لاتصير حواسه مشغولة بشئ من المحسوسات البتة فحينئذ يقبل القلب على الخواطر الروحانية والافكار الالهية واما النهار فان الحواس تكون مشغولة بالمحسوسات فتصير النفس مشغولة بالمحسوسات فلاتتفرغ للاحوال الروحانية فالمراد من ناشئة الليل تلك الواردات الروحانية والخواطر النورانية التى تنكشف فى ظلمة الليل بسبب فراغ الحواس وسماها ناشئة الليل لانها لاتحدث الا فى الليل بسبب ان الحواس الشاغلة للنفس معطلة فى الليل ومشغولة فى النهار ولم يذكر ان تلك الاشياء الناشئة منها تارة افكار وتأملات وتارة انوار ومكاشفات وتارة انفعالات نفسانية من الابتهاج بعالم القدس او الخوف منه او تخيلات احوال عجيبة فلما كانت تلك الامور الناشئة اجناسا كثيرة لايجمعها جامع الا انها امور ناشئة حادثة لاجرم لم يصفها الا بأنها ناشئة الليل ※ اما قوله تعالى (هى اشد وطأ) اى مواطأة وملاءمة وموافقة وهو مصدر يقال واطأت فلانا على كذا مواطأة ووطاء ومنه ليواطئوا عدة ماحرم الله اى ليوافقوا فان فسرنا الناشئة بالساعات كان المعنى انها اشد موافقة لما يراد من الخشوع والاخلاص وان فسرناها بالنفس الناشئة كان المعنى شدة المواطأة بين القلب واللسان وان فسرناها بقيام الليل كان المعنى مايراد من الخشوع والاخلاص وان فسرناها بماذكرت كان المعنى ان افضاء تلك المجاهدات الى

(حصول)

بين الامر وتعليله لتسهيل ما كلفه عليه الصلاة والسلام من القيام وقيل معنى كونه ثقيلا انه رصين لرزانة لفظه ومتانة معناه او ثقيل على المتأمل فيه لافتقاره الى مزيد تصفية للسر وتجريد للنظر او ثقيل فى الميزان او على الكفار والفجار او ثقيل تلقيه عن ابن عباس رضى الله عنهما كان اذا نزل عليه الوحى ثقل عليه وتربد له جلده وعن عائشة رضى الله تعالى عنها رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليرفض عرقا (ان ناشئة الليل) اى ان النفس التى تنشأ من مضجعها الى العبادة اى تنهض من نشأ من مكانه اذا نهض او ان قيام الليل على ان الناشئة مصدر من نشأ كالعافية او ان العبادة التى تنشأ بالليل اى تحدث او ان ساعات الليل فانها تحدث واحدة بعد واحدة او ساعاتها الاول من نشأ اذا ابتدأ (هى اشد وطأ) اى هى خاصة اشد ثبات قدم او كلفة فلابد من الاعتناء بالقيام وقرئ وطاء اى اشد موطأة يواطئ قلبها لسانها ان اريد بها النفس او يواطئ فيها قلب القائم لسانه ان اريد بها القيام او العبادة او الساعات او اشد موافقة لما يراد من الخشوع والاخلاص

حصول المكاشفات فى الليل أشد منه فى النهار وعن الحسن اشد موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق (المسئلة الثانية) قرئ اشد وطأ بالفتح والكسر وفيه وجهان (الاول) قال الفراء اى اشد ثبات قدم لان النهار يضطرب فيه الناس ويتقلبون فيه للمعاش (والثانى) اثقل واغلظ على المصلى من صلاة النهار وهو من قولك اشتدت على القوم وطأة سلطانهم اذا ثقل عليهم معاملتهم معه وفى الحديث اللهم اشدد وطأتك على مضر فأعلم الله نبيه ان الثواب فى قيام الليل على قدر شدة الوطأة وثقلها ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام افضل العبادات أحمزها اى اشقها واختار أبو عبيدة القراءة الاولى قال لانه تعالى لما أمره بقيام الليل ذكر هذه الآية فكأنه قال انما امرتك بصلاة الليل لان موافقة القلب واللسان فيه اكمل وايضا الخواطر الليلية الى المكاشفات الروحانية أتم ❊ قوله تعالى (وأقوم قيلا) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اقوم قيلا قال ابن عباس أحسن لفظا قال ابن قتيبة لان الليل تهدأ فيه الاصوات وتنقطع فيه الحركات ويخلص القول ولا يكون دون تسمعه وتفهمه حائل (المسئلة الثانية) قرأ أنس وأصوب قيلا فقيل له يا اباحمزة انما هى وأقوم قيلا فقال أنس اقوم واصوب واهيأ واحد قال ابن جنى وهذا يدل على ان القوم كانوا يعتبرون المعانى فاذا وجدوها لم يلتفتوا الى الالفاظ ونظيره ماروى ان اباسوار الغنوى كان يقرأ فحاسوا خلال الديار بالحاء غير المعجمة فقيل له انما هو جاسوا فقال حاسوا وجاسوا واحد وانا اقول يجب ان نحمل ذلك على انه انما ذكر ذلك تفسيرا للفظ القرآن لا على انه جعله نفس القرآن اذ لو ذهبنا الى ماقاله ابن جنى لارتفع الاعتماد عن الفاظ القرآن ولجوزنا ان كل احد عبر عن المعنى بلفظ رآه مطابقا لذلك المعنى ثم ربما اصاب فى ذلك الاعتقاد وربما أخطأ وهذا يجر الى الطعن فى القرآن فثبت انه يجب حمل ذلك على ماذكرناه ❊ قوله تعالى (ان لك فى النهار سبحا طويلا) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال المبرد سبحا اى تقلبا فيما يجب ولهذا سمى السابح سابحا لتقلبه بيديه ورجليه ثم فى كيفية المعنى وجهان (الاول) ان لك فى النهار تصرفا وتقلبا فى مهماتك فلا تتفرغ لخدمة الله الا بالليل فلهذا السبب أمرتك بالصلاة فى الليل (الثانى) قال الزجاج اى ان فاتك من الليل شئ من النوم والراحة فلك فى النهار فراغ فأصرفه اليه (المسئلة الثانية) قرئ سبخا بالخاء المنقطة من فوق وهو استعارة من سبخ الصوف وهو نفشه ونشر اجزائه فان القلب فى النهار يتفرق بسبب الشواغل وتختلف همومه بسبب الموجبات المختلفة ❊ واعلم انه تعالى امر رسوله اولا بقيام الليل ثم ذكر السبب فى انه لم خص الليل بذلك دون النهار ثم بين ان اشرف الاعمال المأمور بها عند قيام الليل ماهو ❊ قوله تعالى (واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا) وهذه الآية تدل على انه تعالى أمر بشيئين (احدهما) الذكر (والثانى) التبتل اما الذكر فاعلم انه انما قال واذكر اسم ربك ههنا وقال فى آية اخرى واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة لانه لابد فى اول الامر من ذكر الاسم باللسان

(وأقوم قيلا) واشد مقالا واثبت قراءة لحضور القلب وهدو الاصوات (ان لك فى النهار سبحا طويلا) اى تقلبا وتصرفا فى مهماتك واشتغالا بشواغلك فلا تستطيع ان تتفرغ للعبادة فعليك بها فى الليل وهذا بيان للداعى الخارجى الى قيام الليل بعد بيان ما فى نفسه من الداعى وقرئ سبخا اى تفرق قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نفشه ونشر اجزائه (واذكر اسم ربك) ودم على ذكره تعالى ليلا ونهارا على اى وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن

مدة ثم يزول الاسم و يبقى المسمى فالدرجة الاولى هي المرادة بقوله ههنا واذكر اسم ربك والمرتبة الثانية هي المرادة بقوله في السورة الاخرى واذكر ربك في نفسك وانما تكون مشتغلا بذكر الرب اذا كنت في مقام مطالعة ربوبيته وربوبيته عبارة عن انواع تربيته لك واحسانه اليك فما دمت في هذا المقام تكون مشغول القلب بمطالعة آلائه ونعمائه فلا تكون مستغرق القلب به وحينئذ يزداد الترقي فتصير مشتغلا بذكر الهيته واليه الاشارة بقوله اذكروا الله كذكركم آباءكم وفي هذا المقام يكون الانسان في مقام الهيبة والخشية لان الالهية اشارة الى القهارية والعزة والعلو والصمدية ولا يزال العبد يبقى في هذا المقام مترددا في مقامات الجلال والتنزيه والتقديس الى ان ينتقل منها الى مقام الهوية الاحدية التي كلت العبارات عن شرحها وتقاصرت الاشارات عن الانتهاء اليها وهناك الانتهاء الى الواحد الحق ثم يقف لانه ليس هناك نظير في الصفات حتى يحصل الانتقال من صفة الى صفة ولا ان تكون الهوية مركبة حتى ينتقل نظر العقل من جزء الى جزء ولانها مناسبة لشيء من الاحوال المدركة من النفس حتى تعرف على سبيل المقايسة فهي الظاهرة لانها مبدأ ظهور كل ظاهر وهي الباطنة لانها فوق عقول كل المخلوقات فسبحان من احتجب عن العقول بشدة ظهوره واختفى عنها بكمال نوره واما قوله تعالى وتبتل اليه تبتيلا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم ان جميع المفسرين فسروا التبتل بالاخلاص واصل البتل في اللغة القطع وقيل لمريم البتول لانها انقطعت الى الله تعالى في العبادة وصدقة بتلة منقطعة من مال صاحبها وقال الليث التبتيل تمييز الشيء عن الشيء والبتول كل امرأة تنقبض من الرجال لا رغبة لها فيهم اذا عرفت ذلك فاعلم ان للمفسرين عبارات قال الفراء يقال للعابد اذا ترك كل شيء واقبل على العبادة قد تبتل اى انقطع عن كل شيء الى امر الله وطاعته وقال زيد بن اسلم التبتل رفض الدنيا مع كل ما فيها والتماس ما عند الله واعلم ان معنى الآية فوق ما قاله هؤلاء الظاهريون لان قوله وتبتل اى انقطع عن كل ما سواه اليه فالمشغول بطلب الآخرة غير متبتل الى الله تعالى بل متبتل الى الآخرة والمشغول بعبادة الله متبتل الى العبادة لا الى الله والطالب لمعرفة الله متبتل الى معرفة الله لا الى الله فمن آثر العبادة لنفس العبادة او لطلب الثواب او ليصير متعبدا كاملا بتلك العبودية فهو متبتل الى غير الله ومن آثر العرفان للعرفان فهو متبتل الى العرفان ومن آثر العبودية لا للعبودية بل للمعبود وآثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول وهذا مقام لا يشرحه المقال ولا يعبر عنه الخيال ومن أراده فليكن من الواصلين الى العين دون السامعين للاثر ولا يجد الانسان لهذا مثالا الا عند العشق الشديد اذا مرض البدن بسببه وانحبست القوى وعميت العينان وزالت الاغراض بالكلية وانقطعت النفس عما سوى المعشوق بالكلية فهناك يظهر الفرق بين التبتل الى المعشوق وبين التبتل الى رؤية المعشوق (المسئلة الثانية) الواجب ان يقال

ودراسة علم (وتبتل اليه) اى وانقطع اليه بمجامع الهمة واستغراق العزيمة في مراقبته وحيث لم يكن ذلك الا بتجريد نفسه عليه الصلاة والسلام عن العوائق الصادة عن مراقبة الله تعالى وقطع العلائق عما سواه قيل (تبتيلا) مكان تبتلا مع ما فيه من رعاية الفواصل (رب المشرق والمغرب) مرفوع على المدح وقيل على الابتداء خبره (لا اله الا هو) وقرئ بالجر على انه بدل من ربك وقيل على اضمار حرف القسم جوابه لا اله الا هو والفاء في قوله تعالى (فاتخذه وكيلا) لترتيب الامر

وتبتل اليه تبتلا او يقال بتل نفسك اليه تبتيلا لكنه تعالى لم يذكرهما واختار هذه العبارة الدقيقة وهي ان المقصود بالذات انما هو التبتل فأما التبتيل فهو تصرف والمشتغل بالتصرف لايكون متبتلا الى الله لان المشتغل بغير الله لايكون منقطعا الى الله الا انه لابد اولا من التبتيل حتى يحصل التبتل كما قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا فذكر التبتل اولا اشعارا بأنه المقصود بالذات وذكر التبتيل ثانيا اشعارا بأنه لابد منه ولكنه مقصود بالعرض واعلم انه تعالى لما امره بالذكر اولا ثم بالتبتل ثانيا ذكر السبب فيه ※ فقال تعالى (رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان التبتل اليه لايحصل الا بعد حصول المحبة والمحبة لاتليق الا بالله تعالى وذلك لان سبب المحبة اما الكمال واما التكميل اما الكمال فلأن الكمال محبوب لذاته اذ من المعلوم انه يمتنع ان يكون كل شئ انما كان محبوبا لاجل شئ آخر والا لزم التسلسل فاذا لابد من الانتهاء الى مايكون محبوبا لذاته والكمال محبوب لذاته فان من اعتقد ان فلانا الذي كان قبل هذا بالف سنة كان موصوفا بعلم ازيد من علم سائر النفس مال طبعه اليه واحبه شاء ام ابى ومن اعتقد في رستم انه كان موصوفا بشجاعة زائدة على شجاعة سائر الناس احبه شاء ام ابى فعلمنا ان الكمال محبوب لذاته وكمال الكمال لله تعالى فالله تعالى محبوب لذاته فمن لم يحصل في قلبه محبته كان ذلك لعدم علمه بكماله واما التكميل فهو ان الجواد محبوب والجواد المطلق هو الله تعالى فالمحبوب المطلق هو الله تعالى والتبتل المطلق لايمكن ان يحصل الا الى الله تعالى لان الكمال المطلق له والتكميل المطلق منه فوجب ان لايكون التبتل المطلق الا اليه واعلم ان التبتل الحاصل اليه بسبب كونه مبدأ للتكميل مقدم على التبتل الحاصل اليه بسبب كونه كاملا في ذاته لان الانسان في مبدأ السير يكون طالبا للحصة فيكون تبتله الى الله تعالى بسبب كونه مبدأ للتكميل والاحسان ثم في آخر السير يترقى عن طلب الحصة كما بينا من انه يصير طالبا للمعروف لا للعرفان فيكون تبتله في هذه الحالة بسبب كونه كاملا فقوله رب المشرق والمغرب اشارة الى الحالة الاولى التي هي اول درجات المتبتلين وقوله لا اله الا هو اشارة الى الحالة الثانية التي هي منتهى درجات المتبتلين ومنتهى اقدام الصديقين فسبحان من له تحت كل كلمة سر مخفي ثم وراء هاتين الحالتين مقام آخر وهو مقام التفويض وهو ان يرفع الاختيار من البين ويفوض الامر بالكلية اليه فان أراد الحق به ان يجعله متبتلا رضي بالتبتل لا من حيث انه هو بل من حيث انه مراد الحق وان أراد به عدم التبتل رضي بعدم التبتل لا من حيث انه عدم التبتل بل من حيث انه مراد الحق وههنا آخر الدرجات وقوله فاتخذه وكيلا اشارة الى هذه الحالة فهذا ما جرى به القلم في تفسير هذه الآية وفي الزوايا خبايا ومن اسرار هذه الآية بقايا ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله (المسئلة الثانية) رب فيه قراءتان (احداهما) الرفع وفيه وجهان (احدهما) على المدح والتقدير

وموجبه على اختصاص الالوهية والربوبية به تعالى (واصبر على مايقولون) مما لا خير فيه من الخرافات (واهجرهم هجرا جميلا) بأن تجانبهم وتداريهم ولاتكافئهم وتكل امورهم الى ربهم كما يعرب عنه قوله تعالى (وذرني والمكذبين) اي دعني واياهم وكل امرهم الى فاني اكفيكهم (اولي النعمة) ارباب التنعم وهم صناديد قريش (ومهلهم قليلا) زمانا قليلا (ان لدينا انكالا) جمع نكل وهو القيد الثقيل والجملة تعليل للامر اي ان لدينا امورا مضادة لتنعمهم (وجحيما وطعاما ذا غصة) ينشب

هو رب المشرق فيكون خبر مبتدأ محذوف كقوله بشر من ذلكم النار وقوله متاع قليل اى تقلبهم متاع قليل (والثانى) ان ترفعه بالابتداء وخبره الجملة التى هى لا اله الا هو والعائد اليه الضمير المنفصل (والقراءة الثانية) الخفض وفيها وجهان (الاول) على البدل من ربك (والثانى) قال ابن عباس على القسم باضمار حرف القسم كقوله الله لأ فعلن وجوابه لا اله الا هو كما تقول والله لا احد فى الدار الا زيد وقرأ ابن عباس رب المشارق والمغارب اما قوله فاتخذه وكيلا فالمعنى انه لما ثبت انه لا اله الا هو لزمك أن تتخذه وكيلا وان تفوض كل امورك اليه وههنا مقام عظيم فانه لما كانت معرفة انه لا اله الا هو توجب تفويض كل الامور اليه دل هذا على ان من لا يفوض كل الامور اليه فانه غير عالم بحقيقة لا اله الا هو وتقريره ان كل ماسواه ممكن ومحدث وكل ممكن ومحدث فانه مالم ينته الى الواجب لذاته لم يجب ولما كان الواجب لذاته واحدا كان جميع الممكنات مستندة اليه منتهية اليه وهذا هو المراد من قوله فاتخذه وكيلا وقال بعضهم وكيلا اى كفيلا بما وعدك من النصر والاظهار ❊ قوله تعالى (واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا) المعنى انك لما اتخذتنى وكيلا فاصبر على مايقولون وفوض امرهم الى فاننى لما كنت وكيلا لك اقوم باصلاح امرك احسن من قيامك باصلاح امور نفسك واعلم ان مهمات العباد محصورة فى امرين كيفية معاملتهم مع الله وكيفية معاملتهم مع الخلق والاول اهم من الثانى فلما ذكر تعالى فى اول هذه السورة مايتعلق بالقسم الاول اتبعه بما يتعلق بالقسم الثانى وهو سبحانه جمع كل مايحتاج اليه من هذا الباب فى هاتين الكلمتين وذلك لان الانسان اما ان يكون مخالطا للناس او مجانبا عنهم فان خالطهم فلابد له من المصابرة على ايذائهم وايحاشهم فانه ان كان يطمع منهم الخير والراحة لم يجد فيقع فى الغموم والاحزان فثبت ان من أراد المخالطة مع الخلق فلابد له من الصبر الكثير فأما ان ترك المخالطة فذاك هو الهجر الجميل فثبت انه لابد لكل انسان من احد هذين الامرين والهجر الجميل ان يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم فى الافعال مع المداراة والاغضاء وترك المكافأة ونظيره فأعرض عنهم وعظهم واعرض عن الجاهلين فأعرض عمن تولى عن ذكرنا قال المفسرون هذه الآية انما نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بالامر بالقتال وقال آخرون بل ذلك هو الاخذ باذن الله فيما يكون ادعى الى القبول فلا يرد النسخ فى مثله وهذا اصح ❊ قوله تعالى (وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا) اعلم انه اذا اهتم انسان بمهم وكان غيره قادرا على كفاية ذلك المهم على سبيل التمام والكمال قال له ذرنى انا وذاك لاحاجة مع اهتمامى بذاك الى شئ آخر وهو كقوله فذرنى ومن يكذب وقوله أولى النعمة بالفتح التنعم وبالكسر الانعام وبالضم المسرة يقال انعم بك ونعمك عينا اى اسر عينك وهم صناديد قريش وكانوا اهل تنعم وترفه ومهلهم قليلا فيه وجهان (احدهما) المراد من القليل الحياة الدنيا (والثانى) المراد من القليل تلك المدة القليلة

فى الحلوق ولا يكاد يساغ كالضريع والزقوم (وعذابا اليما) ونوعا آخر من العذاب مؤلما لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه كل ذلك معد لهم ومرصد وقوله تعالى (يوم ترجف الارض والجبال) اى تضطرب وتتزلزل ظرف للاستقرار الذى تعلق به لدينا وقيل متعلق بمضمر هو صفة لعذابا اى عذابا واقعا يوم ترجف (وكانت الجبال) مع صلابتها وارتفاعها (كثيبا) رملا مجتمعا من كثب الشئ اذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول (مهيلا) منثورا من هيل هيلا اذا نثر وأسيل (انا ارسلنا اليكم) يا اهل مكة

الباقية الى يوم بدر فان الله اهلكهم فى ذلك اليوم ثم ذكر كيفية عذابهم عند الله ❁ فقال (ان لدينا انكالا وجحيما وطعاما ذاغصة وعذابا اليما) اى ان لدينا فى الآخرة مايضاد تنعمهم فى الدنيا وذكر امورا اربعة (اولها) قوله انكالا واحدها نكل ونكل قال الواحدى النكل القيد وقال صاحب الكشاف النكل القيد الثقيل (وثانيها) قوله وجحيما ولاحاجة به الى التفسير (وثالثها) قوله وطعاما ذاغصة الغصة مايغص به الانسان وذلك الطعام هو الزقوم والضريع كما قال تعالى ليس لهم طعام الا من ضريع قالوا انه شوك كالعوسج يأخذ بالحلق يدخل ولا يخرج (ورابعها) قوله وعذابا اليما والمراد منه سائر انواع العذاب واعلم انه يمكن حمل هذه المراتب الاربعة على العقوبة الروحانية اما الانكال فهى عبارة عن بقاء النفس فى قيد التعلقات الجسمانية واللذات البدنية فانها فى الدنيا لما اكتسبت ملكة تلك المحبة والرغبة فبعد البدن يشتد الحنين مع ان آلات الكسب قد بطلت فصارت تلك كالانكال والقيود المانعة له من التخلص الى عالم الروح والصفاء ثم يتولد من تلك القيود الروحانية نيران روحانية فان شدة ميلها الى الاحوال البدنية وعدم تمكنها من الوصول اليها يوجب حرقة شديدة روحانية كمن تشتد رغبته فى وجدان شئ ثم انه لا يجده فانه يحترق قلبه عليه فذاك هو الجحيم ثم انه يتجرع غصة الحرمان والم الفراق فذاك هو المراد من قوله وطعاما ذاغصة ثم انه بسبب هذه الاحوال بقى محروما عن تجلى نور الله والانخراط فى سلك المقدسين وذلك هو المراد من قوله وعذابا اليما والتنكير فى قوله وعذابا يدل على ان هذا العذاب اشد مما تقدم واكمل واعلم انى لا اقول المراد بهذه الآيات هو ماذكرته فقط بل أقول انها تفيد حصول المراتب الاربعة الجسمانية وحصول المراتب الاربعة الروحانية ولا يمتنع حمله عليهما وان كان اللفظ بالنسبة الى المراتب الجسمانية حقيقة وبالنسبة الى المراتب الروحانية مجازا متعارفا مشهورا ثم انه تعالى لما وصف العذاب اخبر أنه متى يكون ذلك ❁ فقال تعالى (يوم ترجف الارض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج يوم منصوب بقوله ان لدينا انكالا وجحيما اى ننكل بالكافرين ونعذبهم يوم ترجف الارض (المسئلة الثانية) الرجفة الزلزلة والزعزعة الشديدة والكثيب القطعة العظيمة من الرمل تجتمع محدودبة وجمعه الكثبان وفى كيفية الاشتقاق قولان (احدهما) انه من كثب الشئ اذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول (والثانى) قال الليث الكثيب نثر التراب او الشئ يرمى به والفعل اللازم انكثب ينكثب انكثابا وسمى الكثيب كثيبا لان ترابه دقاق كأنه مكثوب منثور بعضه على بعض لرخاوته وقوله مهيلا اى سائلا قد اسيل يقال تراب مهيل ومهيول اى مصبوب ومسيل والاكثر فى اللغة مهيل وهو مثل قولك مكيل ومكيول ومدين ومديون وذلك ان الياء تحذف منه الضمة فتسكن والواو ايضا ساكنة فتحذف الواو لالتقاء الساكنين ذكره

(رسولا شاهدا عليكم) يشهد يوم القيامة بما صدر عنكم من الكفر والعصيان (كما ارسلنا الى فرعون رسولا) هو موسى عليه السلام وعدم تعيينه لعدم دخله فى التشبيه (فعصى فرعون الرسول) الذى ارسلناه اليه ومحل الكاف النصب على انها صفة لمصدر محذوف اى انا ارسلنا اليكم رسولا فعصيتموه كما يعرب عنه قوله تعالى شاهدا عليكم ارسالا كائنا كما ارسلنا الى فرعون رسولا فعصاه وقوله تعالى (فأخذناه اخذا وبيلا) خارج من التشبيه جئ به للتنبيه على انه سيحيق بهؤلاء ماحاق بأولئك لامحالة والوبيل

الفراء والزجاج واذاعرفت هذافنقول انه تعالى يفرق تركيب اجزاء الجبال وينسفها نسفاويجعلها كالعهن المنفوش فعندذلك تصير كالكثيب ثم انه تعالى يحركها على ماقال ويوم نسير الجبال وقال وهى تمر مر السحاب وقال وسيرت الجبال فعندذلك تصير مهيلا فان قيل لم لم يقل وكانت الجبال كثبانا مهيلة قلنا لانها بأسرها تجتمع فتصير كثيبا واحدا مهيلا واعلم انه تعالى لما خوف المكذبين اولى النعمة بأهوال القيامة خوفهم بعد ذلك بأهوال الدنيا ❊ فقال تعالى (انا ارسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما ارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه اخذا وبيلا) واعلم ان الخطاب لأهل مكة والمقصود تهديدهم بالاخذ الوبيل وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم نكر الرسول ثم عرف (الجواب) التقدير ارسلنا الى فرعون رسولا فعصاه فأخذناه اخذا وبيلا فأرسلنا اليكم ايضا رسولا فعصيتم ذلك الرسول فلابد وان نأخذكم اخذا وبيلا (السؤال الثانى) هل يمكن التمسك بهذه الآية فى اثبات ان القياس حجة (الجواب) نعم لان الكلام انما ينتظم لو قسنا احدى الصورتين على الاخرى فان قيل هب ان القياس فى هذه الصورة حجة فلم قلتم انه فى سائر الصور حجة وحينئذ يحتاج الى قياس سائر القياسات على هذا القياس فيكون ذلك اثباتا للقياس بالقياس وانه غير جائز قلنا لانثبت سائر القياسات بالقياس على هذه الصورة والا لزم المحذور الذى ذكرتم بل وجه التمسك هو ان نقول لولا انه تمهد عندهم ان الشيئين اللذين يشتركان فى مناط الحكم ظنا يجب اشتراكهما فى الحكم والا لما ورد هذا الكلام فى هذه الصورة وذلك لان احتمال الفرق المرجوح قائم ههنا فان لقائل ان يقول لعلهم انما استوجبوا الاخذ الوبيل بخصوصية حال العصيان فى تلك الصورة وتلك الخصوصية غير موجودة ههنا فلا يلزم حصول الاخذ الوبيل ههنا ثم انه تعالى مع قيام هذا الاحتمال جزم بالتسويه فى الحكم فهذا الجزم لابد وان يقال انه كان مسبوقا بتقرير انه متى وقع الاشتراك فى المناط الظاهر وجب الجزم بالاشتراك فى الحكم وان مجرد احتمال الفرق بالاشياء التى لايعلم كونها مناسبة للحكم لايكون قادحا فى تلك التسوية فلا معنى لقولنا القياس حجة الا هذا (السؤال الثالث) لم ذكر فى هذا الموضع قصة موسى وفرعون على التعيين دون سائر الرسل والامم (الجواب) لان اهل مكة ازدروا محمدا عليه الصلاة والسلام واستخفوا به لانه ولد فيهم كما ان فرعون ازدرى موسى لانه رباه وولد فيما بينهم وهو قوله ألم نربك فينا وليدا (السؤال الرابع) مامعنى كون الرسول شاهدا عليهم (الجواب) من وجهين (الاول) انه شاهد عليهم يوم القيامة بكفرهم وتكذيبهم (الثانى) المراد كونه مبينا للحق فى الدنيا ومبينا لبطلان ماهم عليه من الكفر لان الشاهد بشهادته يبين الحق ولذلك وصفت بأنها بينة فلا يمتنع ان يوصف عليه الصلاة والسلام بذلك من حيث انه بين الحق وهذا بعيد لان الله تعالى قال وكذلك جعلناكم امة وسطا اى عدولا خيارا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا

الثقيل الغليظ من قولهم كلأ وبيل اى وخيم لايستمرأ لثقله والوبيل العصا الضخمة (فكيف تتقون) اى كيف تقون انفسكم (ان كفرتم) اى بقيتم على الكفر (يوما) اى عذاب يوم (يجعل الولدان) من شدة هوله وفظاعة مافيه من الدواهى (شيبا) شيوخا جمع اشيب اما حقيقة او تمثيلا واصله ان الهموم والاحزان اذا تفاقمت على المرء ضعفت قواه واسرع فيه الشيب وقد جوز ان يكون ذلك وصفا لليوم بالطول وليس بذاك (السماء منفطر) اى منشق وقرئ منفطر اى متشقق

(فبين)

فبين انه يكون شاهدا عليهم فى المستقبل ولان حمله على الشهادة فى الآخرة حقيقة وحمله على البيان مجاز والحقيقة اولى (السؤال الخامس) مامعنى الوبيل (الجواب) فيه وجهان (الاول) الوبيل الثقيل الغليظ ومنه قولهم صار هذا وبالا عليه اى افضى به الى غاية المكروه ومن هذا قيل للمطر العظيم وابل والوبيل العصا الضخمة (الثانى) قال ابو زيد الوبيل الذى لايستمرء وماء وبيل وخيم اذا كان غير مرئ وكلأ مستوبل اذا أدت عاقبته الى مكروه اذا عرفت هذا فنقول قوله اخذناه اخذا وبيلا يعنى الغرق قاله الكلبى ومقاتل وقتادة ثم انه تعالى عاد الى تخويفهم بالقيامة مرة اخرى ❊ فقال تعالى (فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به كان وعده مفعولا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى فى الآية تقديم وتأخير اى فكيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبا ان كفرتم (المسئلة الثانية) ذكر صاحب الكشاف فى قوله يوما وجوها (الاول) انه مفعول به اى فكيف تتقون انفسكم يوم القيامة وهوله ان بقيتم على الكفر (والثانى) ان يكون ظرفا اى فكيف لكم بالتقوى فى يوم القيامة ان كفرتم فى الدنيا (والثالث) ان ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم اى فكيف تتقون الله وتخشونه ان جحدتم يوم القيامة والجزاء لان تقوى الله لامعنى لها الا خوف عقابه (المسئلة الثالثة) انه تعالى ذكر من هول ذلك اليوم امرين (الاول) قوله يجعل الولدان شيبا وفيه وجهان (الاول) انه مثل فى الشدة يقال فى اليوم الشديد * يوم يشيب نواصى الاطفال والاصل فيه ان الهموم والاحزان اذا تفاقمت على الانسان اسرع فيه الشيب لان كثرة الهموم توجب انقصار الروح الى داخل القلب وذلك الانقصار يوجب انطفاء الحرارة الغريزية وانطفاء الحرارة الغريزية وضعفها يوجب بقاء الاجزاء الغذائية غير تامة النضج وذلك يوجب استيلاء البلغم على الاخلاط وذلك يوجب ابيضاض الشعر فلما رأوا ان حصول الشيب من لوازم كثرة الهموم جعلوا الشيب كناية عن الشدة والمحنة وليس المراد ان هول ذلك اليوم يجعل الولدان شيبا حقيقة لان ايصال الألم والخوف الى الصبيان غير جائز يوم القيامة (الثانى) يجوز ان يكون المراد وصف ذلك اليوم بالطول وان الاطفال يبلغون فيه اوان الشيخوخة والشيب ولقد سألنى بعض الادباء عن قول المعرى * وظلم يملأ الفودين شيبا * وقال كيف يفضل هذا التشبيه الذى فى القرآن على بيت المعرى فقلت من وجوه (الاول) ان امتلاء الفودين من الشيب ليس بعجب اما صيرورة الولدان شيبا فهو عجيب كأن شدة ذلك اليوم تنقلهم من سن الطفولية الى سن الشيخوخة من غير ان يمروا فيما بين الحالتين بسن الشباب وهذا هو المبالغة العظيمة فى وصف اليوم بالشدة (وثانيها) ان امتلاء الفودين من الشيب معناه ابيضاض الشعر وقد يبيض الشعر لعلة مع ان قوة الشباب تكون باقية فهذا ليس فيه مبالغة واما الآية فانها تدل على صيرورة الولدان شيوخا فى الضعف والنحافة وعدم طراوة الوجه وذلك نهاية فى شدة

والتذكير لاجرائه على موصوف مذكر اى شئ منفطر عبر عنها بذلك للتنبيه على انه تبدلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبق منها الا مايعبر عنه بالشئ وقيل لتأويل السماء بالسقف وقيل هو من باب النسب اى ذات انفطار والباء فى قوله تعالى (به) مثلها فى فطرت العود بالقدوم (كان وعده مفعولا) الضمير لله عز وجل والمصدر مضاف الى فاعله او لليوم وهو مضاف الى مفعوله

ذلك اليوم (وثالثها) ان امتلاء الفودين من الشيب ليس فيه مبالغة لان جانبى الرأس موضع للرطوبات الكثيرة البلغمية ولهذا السبب فان الشيب انما يحدث اولا فى الصدغين وبعده فى سائر جوانب الرأس فحصول الشيب فى الفودين ليس بمبالغة انما المبالغة هو استيلاء الشيب على جميع اجزاء الرأس بل على جميع اجزاء البدن كما هو مذكور فى الآية والله اعلم (النوع الثانى) من اهوال يوم القيامة قوله السماء منفطر به وهذا وصف اليوم بالشدة ايضا وان السماء على عظمها وقوتها تنفطر فيه فاظنك بغيرها من الخلائق ونظيره قوله اذا السما انفطرت وفيه سؤالان (السؤال الاول) لم لم يقل منفطرة (الجواب) من وجوه (اولها) روى ابوعبيدة عن ابى عمرو بن العلاء انما قال السماء منفطر ولم يقل منفطرة لان مجازها مجاز السقف تقول هذا سماء البيت (وثانيها) قال الفراء السماء تؤنث وتذكر وهى ههنا فى وجوه التذكير وانشد شعرا

فلو رفع السماء اليه قوما * لحقنا بالنجوم مع السحاب

(وثالثها) ان تأنيث السماء ليس بحقيقى وما كان كذلك جاز تذكيره قال الشاعر

والعين بالاثمد الحيرى مكحول • وقال الاعشى

فلا مزنة ودقت ودقها * ولا أرض أبقل ابقالها

(ورابعها) ان يكون السماء ذات انفطار فيكون من باب الجراد المنتشر والشجر الاخضر واعجاز نخل منقعر وكقولهم امرأة مرضع اى ذات رضاع (السؤال الثانى) مامعنى منفطر به (الجواب) من وجوه (احدها) قال الفراء المعنى منفطر فيه (وثانيها) ان الباء فى به مثلها فى قولك فطرت العود بالقدوم فانفطر به يعنى انها تنفطر لشدة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر الشئ بما ينفطر به (وثالثها) يجوز ان يراد السماء مثقلة به اثقالا يؤدى الى انفطارها لعظم تلك الواقعة عليها وخشيتها منها كقوله ثقلت فى السموات والارض اما قوله كان وعده مفعولا فاعلم ان الضمير فى قوله وعده يحتمل ان يكون عائدا الى المفعول وان يكون عائدا الى الفاعل اما الاول فان يكون المعنى وعد ذلك اليوم مفعول اى الوعد المضاف الى ذلك اليوم واجب الوقوع لان حكمة الله تعالى وعلمه يقتضيان ايقاعه واما الثانى فأن يكون المعنى وعد الله واقع لامحالة لانه تعالى منزه عن الكذب وههنا وان لم يجر ذكر الله تعالى ولكنه حسن عود الضمير اليه لكونه معلوما واعلم انه تعالى بدأ فى اول السورة بشرح أحوال السعداء ومعلوم ان احوالهم قسمان (احدهما) مايتعلق بالدين والطاعة للمولى فقدم ذلك (الثانى) مايتعلق بالمعاملة مع الخلق وبين ذلك بقوله واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا واما الاشقياء فقد بدأ بتهديدهم على سبيل الاجمال وهو قوله تعالى وذرنى والمكذبين ثم ذكر بعده انواع عذاب الآخرة ثم ذكر بعده عذاب الدنيا وهو الاخذ الوبيل فى الدنيا ثم وصف بعده شدة يوم القيامة فعند هذا تم البيان بالكلية فلاجرم ختم ذلك الكلام * بقوله (ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه

(سبيلا)

(ان هذه) اشارة الى الآيات المنطوية على القوارع المذكورة (تذكرة) موعظة (فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا) بالتقرب اليه بالايمان والطاعة فانه المنهاج الموصل الى مرضاته

سبيلا) اى هذه الآيات تذكرات مشتملة على انواع الهداية والارشاد فمن شاء اتخذالى ربه سبيلا واتخاذالسبيل عبارة عن الاشتغال بالطاعة والاحتراز عن المعصية ❊ قوله تعالى (ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المراد من قوله ادنى من ثلثى الليل اقل منهما وانما استعير الادنى وهو الاقرب للاقل لان المسافة بين الشيئين اذا دنت قل ما بينهما من الاحياز واذا بعدت كثر ذلك (المسئلة الثانية) قرئ نصفه وثلثه بالنصب والمعنى انك تقوم اقل من الثلثين وتقوم النصف وقرى ونصفه وثلثه بالجر اى تقوم اقل من الثلثين والنصف والثلث لكنا بينا فى تفسير قوله قم الليل الاقليلا انه لايلزم من هذا ان يقال انه عليه الصلاة والسلام كان تاركا للواجب وقوله تعالى وطائفة من الذين معك وهم اصحابك يقومون من الليل هذا المقدار المذكور ❊ قوله تعالى (والله يقدر الليل والنهار) يعنى ان العالم بمقادير اجزاء الليل والنهار ليس الا الله تعالى ❊ قوله تعالى (علم ان لن تحصوه) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الضمير فى ان لن تحصوه عائد الى مصدر مقدر اى علم انه لايمكنكم احصاء مقدار كل واحد من اجزاء الليل والنهار على الحقيقة ولايمكنكم ايضا تحصيل تلك المقادير على سبيل الظن والاحتياط الا مع المشقة التامة قال مقاتل كان الرجل يصلى الليل كله مخافة ان لايصيب ما امر به من قيام ما فرض عليه (المسئلة الثانيه) احتج بعضهم على تكليف مالايطاق بأنه تعالى قال لن تحصوه اى لن تطيقوه ثم انه كان قد كلفهم به ويمكن ان يجاب عنه بأن المراد صعوبته لانهم لايقدرون عليه كقول القائل ماطيق ان انظر الى فلان اذا استثقل النظر اليه ❊ قوله تعالى (فتاب عليكم) هو عبارة عن الترخيص فى ترك القيام المقدر كقوله تعالى فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن والمعنى انه رفع التبعة عنكم فى ترك هذا العمل كما رفع التبعة عن التائب ❊ قوله تعالى (فاقرؤا ما تيسر من القرآن) وفيه قولان (الاول) ان المراد من هذه القراءة الصلاة لان القراءة احد اجزاء الصلاة فاطلق اسم الجزء على الكل اى فصلوا ماتيسر عليكم ثم ههنا قولان (الاول) قال الحسن يعنى فى صلاة المغرب والعشاء وقال آخرون بل نسخ وجوب ذلك التهجد واكتفى بما تيسر منه ثم نسخ ذلك ايضا بالصلوات الخمس (القول الثانى) ان المراد من قوله فاقرؤا ماتيسر من القرآن قراءة القرآن بعينها والغرض منه دراسة القرآن ليحصل الامن من النسيان قيل يقرأ مائة آية وقيل من قرأ مائة آية كتب من القانتين وقيل خمسين آية ومنهم من قال بل السورة القصيرة كافية لان اسقاط التهجد انما كان دفعا للحرج وفى القراءة الكثيرة حرج فلايمكن اعتبارها وههنا بحث آخر وهو ماروى عن ابن عباس انه قال سقط عن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قيام الليل وصارت تطوعا وبقى ذلك فرضا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انه تعالى ذكر الحكمة فى هذا النسخ ❊ فقال تعالى (علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون

ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثى الليل) اى اقل منهما استعير له الادنى لما ان المسافة بين الشيئين اذا دنت قل ما بينهما من الاحياز (ونصفه وثلثه) بالنصب عطفا على ادنى وقرئا بالجر عطفا على ثلثى الليل (وطائفة من الذين معك) اى ويقوم معك طائفة من اصحابك (والله يقدر الليل والنهار) وحده لايقدر على تقديرهما احد اصلا فان تقديم الاسم الجليل مبتدأ وبناء يقدر عليه موجب للاختصاص قطعا كما يعرب عنه قوله تعالى (علم ان لن تحصوه) اى علم ان الشأن لن تقدروا على تقديرا لاوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات ابدا (فتاب عليكم) بالترخيص فى ترك القيام المقدر ورفع التبعة عنكم فى تركه (فاقرؤا ماتيسر من القرآن) فصلوا ماتيسر لكم من صلاة الليل عبر عن الصلاة بالقراءة كما عبر عنها بسائر اركانها قيل كان التهجد واجبا على التخيير المذكور فعسر عليهم القيام به فنسخ به ثم نسخ هذا

يضربون فى الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرؤا ماتيسر منه واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) واعلم ان تقدير هذه الآية كأنه قيل لم نسخ الله ذلك فقال لانه علم كذا وكذا والمعنى لتعذر القيام على المرضى والضاربين فى الارض للتجارة والمجاهدين فى سبيل الله اما المرضى فانهم لا يمكنهم الاشتغال بالتهجد لمرضهم واما المسافرون والمجاهدون فهم مشتغلون فى النهار بالاعمال الشاقة فلو لم يناموا فى الليل لتوالت اسباب المشقة عليهم وهذا السبب ما كان موجودا فى حق النبى صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى ان لك فى النهار سبحا طويلا فلاجرم ماصار وجوب التهجد منسوخا فى حقه ومن لطائف هذه الآية انه تعالى سوى بين المجاهدين والمسافرين للكسب الحلال عن ابن مسعود أيما رجل جلب شيئا الى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء ثم اعاد مرة اخرى قوله فاقرؤا ماتيسر منه وذلك للتأكيد ثم قال وأقيموا الصلاة يعنى المفروضة وآتوا الزكاة اى الواجبة وقيل زكاة الفطر لانه لم يكن بمكة زكاة وانما وجبت بعد ذلك ومن فسرها بالزكاة الوجبة جعل آخر السورة مدنيا ❊ قوله تعالى (واقرضوا الله قرضا حسنا) فيه ثلاثة اوجه (احدها) انه يريد سائر الصدقات (وثانيها) يريد أداء الزكاة على احسن وجه وهو اخراجها من اطيب الاموال واكثرها نفعا للفقراء ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف الى المستحق (وثالثها) يريد كل شئ يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال ثم ذكر تعالى الحكمة فى اعطاء المال ❊ فقال تعالى (وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا واعظم اجرا واستغفروا الله ان الله غفور رحيم) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال ابن عباس تجدوه عند الله خيرا واعظم اجرا من الذى تؤخره الى وصيتك عند الموت وقال الزجاج وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا لكم من متاع الدنيا والقول ماقاله ابن عباس (المسئلة الثانية) معنى الآية وما تقدموا لأنفسكم من خير فانكم تجدوه عند الله خيرا واعظم اجرا الا انه قال هو خيرا للتأكيد والمبالغة وقرأ ابو السمال هو خير واعظم اجرا بالرفع على الابتداء والخبر ثم قال واستغفروا الله لذنوبكم والتقصيرات الصادرة منكم خاصة فى قيام الليل ان الله غفور لذنوب المؤمنين رحيم بهم وفى الغفور قولان (احدهما) انه غفور لجميع الذنوب وهو قول مقاتل (والثانى) انه غفور لمن لم يصر على الذنب احتج مقاتل على قوله بوجهين (الاول) ان قوله غفور رحيم يتناول التائب والمصر بدليل انه يصح استثناء كل واحد منهما وحده عنه وحكم الاستثناء اخراج مالولاه لدخل (والثانى) ان غفران التائب واجب عند الخصم ولا يحصل المدح بأداء الواجب والغرض من الآية تقرير المدح فوجب حمله على الكل تحقيقا للمدح والله اعلم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد النبى وآله وصحبه اجمعين

بالصلوات الخمس وقيل هى قراءة القرآن بعينها قالوا امن قرأ مائة آية من القرآن فى ليلة لم يحاجه وقيل من قرأ مائة آية كتب من القانتين وقيل خمسين آية (علم ان سيكون منكم مرضى) استئناف مبين لحكمة اخرى داعية الى الترخيص والتخفيف (وآخرون يضربون فى الارض) يسافرون فيها للتجارة (يبتغون من فضل الله) وهو الربح وقد عمم ابتغا الفضل لتحصيل العلم (وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) واذا كان الامر كما ذكر وتعاضدت الدواعى الى الترخيص (فاقرؤا ماتيسر منه) من غير تحمل المشاق (واقيموا الصلوة) اى المفروضة (وآتوا الزكوة) الواجبة وقيل هى زكاة الفطر اذلم يكن بمكة زكاة ومن فسرها بالزكاة المفروضة جعل آخر السورة مدنيا (واقرضوا الله قرضا حسنا) اريد به الانفاقات فى سبل الخيرات او اداء الزكاة على احسن الوجوه وانفعها للفقراء (وماتقدموا لأنفسكم من خير) اى خير كان مماذكر ومالم يذكر تجدوه عند الله هو خيرا واعظم اجرا) من

(سورة المدثر خمسون وست آيات مكية وعند بعضهم انها اول ما نزل)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ياايها المدثر) فيه مسائل (المسئلة الاولى) المدثر اصله المتدثر وهو الذى يتدثر بثيابه لينام اوليستدفئ يقال تدثر بثوبه والدثار اسم لما يتدثر به ثم ادغمت التاء فى الدال لتقارب مخرجهما (المسئلة الثانية) اجمعوا على ان المدثر هو رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا فى انه عليه الصلاة والسلام لم سمى مدثرا فنهم من اجراه على ظاهره وهو انه كان متدثرا بثوبه ومنهم من ترك هذا الظاهر اما على الوجه الاول فاختلفوا فى انه لأى سبب تدثر بثوبه على وجوه (احدها) ان هذا من اوائل ما نزل من القرآن روى جابر بن عبد الله انه عليه الصلاة والسلام قال كنت على جبل حراء فنوديت يا محمد انك رسول الله فنظرت عن يمينى ويسارى فلم أر شيئا فنظرت فوقى فرأيت الملك قاعدا على عرش بين السماء والارض فخفت ورجعت الى خديجة فقلت دثرونى دثرونى وصبوا على ماء باردا فنزل جبريل عليه السلام بقوله ياايها المدثر (وثانيها) ان النفر الذين آذوا رسول الله وهم ابوجهل وابولهب وابوسفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وامية بن خلف والعاص بن وائل اجتمعوا وقالوا ان وفود العرب يجتمعون فى ايام الحج ويسألوننا عن امر محمد فكل واحد منا يجيب بجواب آخر فواحد يقول مجنون وآخر يقول كاهن وآخر يقول شاعر فالعرب يستدلون باختلاف الأجوبة على كون هذه الأجوبة باطلة فتعالوا نجتمع على تسمية محمد باسم واحد فقال واحد انه شاعر فقال الوليد سمعت كلام عبيد بن الابرص وكلام امية بن ابى الصلت وكلامه مايشبه كلامهما وقال آخر كاهن قال الوليد ومن الكاهن قالوا الذى يصدق تارة ويكذب اخرى قال الوليد ما كذب محمد قط فقال آخر انه مجنون قال الوليد ومن يكون المجنون قالوا مخيف الناس فقال الوليد ما خيف بمحمد احد قط ثم قام الوليد وانصرف الى بيته فقال الناس صبأ الوليد بن المغيرة فدخل عليه ابوجهل وقال مالك ياابا عبد شمس هذه قريش تجمع لك شيئا زعموا انك احتجت وصبأت فقال الوليد مالى اليه حاجة ولكنى فكرت فى محمد فقلت انه ساحر لان الساحر هو الذى يفرق بين الأب وابنه وبين الاخوين وبين المرأة وزوجها ثم انهم اجمعوا على تلقيب محمد عليه الصلاة والسلام بهذا اللقب ثم انهم خرجوا فصرخوا بمكة والناس مجتمعون فقالوا ان محمدا لساحر فوقعت الضجة فى الناس ان محمدا ساحر فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك اشتد عليه ورجع الى بيته محزونا فتدثر بثوبه فأنزل الله تعالى يأيها المدثر قم فأنذر (وثالثها) انه عليه الصلاة والسلام كان نائما متدثرا بثيابه فجاءه جبريل عليه السلام وايقظه وقال يأيها المدثر قم فأنذر كأنه قال له اترك التدثر بالثياب والنوم واشتغل بهذا المنصب الذى نصبك الله له (القول الثانى) أنه ليس المراد من المدثر المتدثر بالثياب وعلى هذا الاحتمال فيه وجوه (احدها) ان المراد كونه متدثرا بدثار

الذى تؤخرونه الى الوصية عند الموت وخيرا ثانى مفعولى تجدوا وهو تأكيد اوفصل وان لم يقع بين معرفتين فان افعل من فى حكم المعرفة ولذلك يمتنع من حرف التعريف وقرئ هو خير على الابتداء والخبر (واستغفروا الله) فى كافة احوالكم فان الانسان قلما يخلو من تفريط (ان الله غفور رحيم) * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المزمل دفع الله عنه العسر فى الدنيا والآخرة

(سورة المدثر مكية وآيها)
(ست وخمسون)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(يأيها المدثر) اى المتدثر وهو لابس الدثار وهو مايلبس فوق الشعار الذى يلى الجسد قيل هى اول سورة نزلت روى عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كنت على جبل حراء فنوديت يا محمد انك رسول الله

النبوة والرسالة من قولهم ألبسه الله لباس التقوى وزينه برداء العلم ويقال تلبس فلان بأمر كذا فالمراد يا أيها المدثر بدثار النبوة قم فأنذر (وثانيها) ان المتدثر بالثوب يكون كالمختفي فيه وانه عليه الصلاة والسلام في جبل حراء كان كالمختفي من الناس فكأنه قيل يا أيها المتدثر بدثار الخمول والاختفاء قم بهذا الامر واخرج من زاوية الخمول واشتغل بانذار الخلق والدعوة الى معرفة الحق (وثالثها) انه تعالى جعله رحمة للعالمين فكأنه قيل له يا أيها المدثر بأثواب العلم العظيم والخلق الكريم والرحمة الكاملة قم فأنذر عذاب ربك (المسئلة الثالثة) عن عكرمة انه قرئ على لفظ اسم المفعول من دثره كأنه قيل له دثرت هذا الامر وعصبت به وقد سبق نظيره في المزمل ❊ قوله تعالى (قم فانذر) في قوله قم وجهان (احدهما) قم من مضجعك (والثاني) قم قيام عزم وتصميم وفي قوله فأنذر وجهان (احدهما) حذر قومك من عذاب الله ان لم يؤمنوا وقال ابن عباس قم نذيرا للبشر احتج القائلون بالقول الاول بقوله تعالى وانذر عشيرتك الاقربين واحتج القائلون بالقول الثاني بقوله تعالى وما ارسلناك الا كافة للناس (وههنا قول ثالث) وهو ان المراد فاشتغل بفعل الانذار كأنه تعالى يقول له تهيأ لهذه الحرفة فانه فرق بين ان يقال تعلم صنعة المناظرة وبين ان يقال ناظر زيدا ❊ قوله تعالى (وربك فكبر) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ذكروا في تفسير التكبير وجوها (احدها) قالوا لكلبي عظم ربك مما يقوله عبدة الاوثان (وثانيها) قال مقاتل هو ان يقال الله اكبر روى انه لما نزلت هذه الآية قام النبي صلى الله عليه وسلم وقال الله اكبر كبيرا فكبرت خديجة وفرحت وعلمت انه اوحي اليه (وثالثها) المراد منه التكبير في الصلوات (فان قيل) هذه السورة نزلت في اول البعث وما كانت الصلاة واجبة في ذلك الوقت (قلنا) لا يبعد انه كانت له عليه السلام صلوات تطوعية فأمر بأن يكبر ربه فيها (ورابعها) يحتمل عندي ان يكون المراد انه لما قيل له قم فأنذر قيل بعد ذلك وربك فكبر عن اللغو والعبث واعلم انه ما امرك بهذا الانذار الا لحكمة بالغة ومهمات عظيمة لا يجوز لك الاخلال بها فقوله وربك كالتأكيد في تقرير قوله قم فانذر (وخامسها) عندي فيه وجه آخر وهو انه لما امره بالانذار فكأن سائلا سأل وقال بماذا ينذر فقال ان يكبر ربه عن الشركاء والاضداد والانداد ومشابهة الممكنات والمحدثات ونظيره قوله تعالى في سورة النحل أن أنذروا انه لا اله الا انا فاتقون وهذا تنبيه على ان الدعوة الى معرفة الله ومعرفة تنزيهه مقدمة على سائر انواع الدعوات (المسئلة الثانية) الفاء في قوله فكبر ذكروا فيه وجوها (احدها) قال ابو الفتح الموصلي يقال زيدا فاضرب وعمرا فاشكر وتقديره زيدا اضرب وعمرا اشكر فعنده ان الفاء زائدة (وثانيها) قال الزجاج دخلت الفاء لافادة معنى الجزائية والمعنى قم فكبر ربك وكذلك ما بعده على هذا التأويل (وثالثها) قال صاحب الكشاف الفاء لافادة معنى الشرط والتقدير واي شيء كان فلا تدع تكبيره ❊ قوله تعالى (وثيابك فطهر)

فنظرت عن يميني ويساري فلم ار شيئا فنظرت فوقي فاذا به قاعد على عرش بين السماء والارض يعني الملك الذي ناداه فرعبت ورجعت الى خديجة فقلت دثروني دثروني فنزل جبريل وقال يا أيها المدثر وعن الزهري ان اول ما نزل سورة اقرأ الى قوله تعالى ما لم يعلم فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يعلو شواهق الجبال فأتاه جبريل عليه السلام وقال انك نبي الله فرجع الى خديجة فقال دثروني وصبوا على ماء باردا فنزل جبريل فقال يا أيها المدثر وقيل سمع من قريش ما كرهه فاغتم فتغطى بثوبه متفكرا كما يفعل المغموم فأمر ان لا يدع انذارهم وان اسمعوه وآذوه

اعلم ان تفسير هذه الآية يقع على اربعة اوجه (احدها) ان يترك لفظ الثياب والتطهير على ظاهره (الثانى) ان يترك لفظ الثياب على حقيقته ويحمل لفظ التطهير على مجازه (الثالث) ان يحمل لفظ الثياب على مجازه ويترك لفظ التطهير على حقيقته (الرابع) ان يحمل اللفظان على المجاز اما الاحتمال الاول وهو ان يترك لفظ الثياب ولفظ التطهير على حقيقته فهو ان نقول المراد منه انه عليه الصلاة والسلام امر بتطهير ثيابه من الانجاس والاقذار وعلى هذا التقدير يظهر فى الآية ثلاث احتمالات (احدها) قال الشافعى المقصود منه الاعلام بأن الصلاة لاتجوز الا فى ثياب طاهرة من الانجاس (وثانيها) قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم كان المشركون ما كانوا يصونون ثيابهم عن النجاسات فأمره الله تعالى بأن يصون ثيابه عن النجاسات (وثالثها) روى انهم القوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلى شاة فشق عليه ورجع الى بيته حزينا وتدثر بثيابه فقيل يا أيها المدثر قم فأنذر ولا تمنعك تلك السفاهة عن الانذار وربك فكبر عن ان لا ينتقم منهم وثيابك فطهر عن تلك النجاسات والقاذورات (الاحتمال الثانى) ان يبقى لفظ الثياب على حقيقته ويحمل لفظ التطهير على مجازه فههنا قولان (الاول) ان المراد من قوله فطهر اى فقصر وذلك لان العرب كانو ايطولون ثيابهم ويجرون اذيالهم فكانت ثيابهم تتنجس ولان تطويل الذيل انما يفعل للخيلاء والكبر فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك (القول الثانى) وثيابك فطهر اى ينبغى ان تكون الثياب التى تلبسها مطهرة عن ان تكون مغصوبة او محرمة بل تكون مكتسبة من وجه حلال (الاحتمال الثالث) ان يبقى لفظ التطهير على حقيقته ويحمل لفظ الثياب على مجازه وذلك ان يحمل لفظ الثياب على الجسد وذلك لان العرب ما كانوا يتنظفون وقت الاستنجاء فأمر عليه الصلاة والسلام بذلك التنظيف وقد يجعل لفظ الثياب كناية عن النفس قال عنترة

* فشككت بالرمح الاصم ثيابه * اى نفسه ولهذا قال * ليس الكريم على القنا بمحرم *

(الاحتمال الرابع) وهو ان يحمل لفظ الثياب ولفظ التطهير على المجاز وذكروا على هذا الاحتمال وجوها (الاول) وهو قول اكثر المفسرين وقلبك فطهر عن الصفات المذمومة وعن الحسن وثيابك فطهر قال وخلقك فحسن قال القفال وهذا يحتمل وجوها (احدها) ان الكفار لما لقبوه بالساحر شق ذلك عليه جد حتى رجع الى بيته وتدثر بثيابه وكان ذلك اظهار جزع وقلة صبر يقتضيه سوء الخلق فقيل له قم فأنذر ولا تحملنك سفاهتهم على ترك انذارهم بل حسن خلقك (والثانى) انه زجر عن التخلق باخلاقهم فقيل له طهر ثيابك اى قلبك عن اخلاقهم فى الافتراء والتقول والكذب وقطع الرحم (والثالث) فطهر نفسك وقلبك عن ان تعزم على الانتقام منهم والاساءة اليهم ثم اذا فسرنا الآية بهذا الوجه ففى كيفية اتصالها بما قبلها وجهان (الاول) ان يقال ان الله تعالى لما ناداه فى اول السورة فقال يا أيها المدثر وكان التدثر لباسا والدثار من الثياب قيل طهر ثيابك التى انت متدثر

وقيل كان نائما متدثرا وقيل المراد المتدثر بلباس النبوة والمعارف الالهية وقرئ المدثر على صيغة اسم المفعول من دثره اى الذى دثر هذا الامر العظيم وعصب به وفى حرف ابى المتدثر يا ايها المتدثر على الاصل (قم) اى من مضجعك او قم قيام عزم وتصميم (فأنذر) اى افعل الانذار واحدثه وقيل انذر قومك كقوله تعالى وانذر عشيرتك الاقربين او جميع الناس حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا (وربك فكبر) واختص ربك بالتكبير وهو وصفه تعالى بالكبرياء اعتقادا

بها على ان تلبسها على هذا التفكر والجزع والضجر من افتراء المشركين (الوجه الثانى) ان يفسر المدثر بكونه متدثرا بالنبوة كأنه قيل يا أيها المتدثر بالنبوة طهر ما تدثرت به عن الجزع وقلة الصبر والغضب والحقد فان ذلك لا يليق بهذا الدثار ثم اوضح ذلك بقوله ولربك فاصبر واعلم ان حمل المدثر على المتصف ببعض الصفات جائز يقال فلان طاهر الجيب نقى الذيل اذا وصفوه بالنقاء من المعايب ويقال فلان دنس الثياب اذا كان موصوفا بالاخلاق الذميمة قال الشاعر

فلا أب وابنا مثل مروان وابنه * اذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا

والسبب فى حسن هذه الكناية وجهان (الاول) ان الثوب كالشئ الملازم للانسان فلهذا السبب جعلوا الثوب كناية عن الانسان يقال المجد فى ثوبه والعفة فى ازاره (والثانى) ان الغالب ان من طهر باطنه فانه تطهر ظاهره (الوجه الثانى) فى تأويل الآية ان قوله وثيابك فطهر امر له بالاحتراز عن الآثام والاوزار التى كان يقدم عليها قبل النبوة وهذا على تأويل من حمل قوله ووضعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك على ايام الجاهلية (الوجه الثالث) فى تأويل الآية قال محمد بن عرفة النحوى معناه نساءك طهرهن وقد يكنى عن النساء بالثياب قال تعالى هن لباس لكم وانتم لباس لهن وهذا التأويل بعيد لان على هذا الوجه لا يحسن اتصال الآية بما قبلها ❊ قوله تعالى (والرجز فاهجر) فيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى الرجز وجوها (الاول) قال العتبى الرجز العذاب قال الله تعالى لئن كشفت عنا الرجز اى العذاب ثم سمى كيد الشيطان رجزا لانه سبب للعذاب وسميت الاصنام رجزا لهذا المعنى ايضا فعلى هذا القول تكون الآية دالة على وجوب الاحتراز عن كل المعاصى ثم على هذا القول احتمالان (احدهما) ان قوله والرجز فاهجر يعنى كل مايؤدى الى الرجز فاهجره والتقدير وذا الرجز فاهجر اى ذا العذاب فيكون المضاف محذوفا (والثانى) انه سمى مايؤدى الى العذاب عذابا تسمية للشئ باسم مايجاوره ويتصل به (القول الثانى) ان الرجز اسم للقبيح المستقذر وهو معنى الرجس فقوله والرجز فاهجر كلام جامع فى مكارم الاخلاق كأنه قيل له اهجر الجفا والسفه وكل شئ قبيح ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز وهذا يشاكل تأويل من فسر قوله وثيابك فطهر على تحسين الخلق وتطهير النفس عن المعاصى والقبائح (المسئلة الثانية) احتج من جوز المعاصى على الانبياء بهذه الآية قال لولا انه كان مشتغلا بها والا لما زجر عنها بقوله والزجر فاهجر (الجواب) المراد منه الامر بالمداومة على ذلك الهجران كما ان المسلم اذا قال اهدنا فليس معناه انا لسنا على الهداية فاهدنا بل المراد ثبتنا على هذه الهداية فكذا ههنا (المسئلة الثالثة) قرأ عاصم فى رواية حفص والرجز بضم الراء فى هذه السورة وفى سائر القرآن بكسر الراء وقرأ الباقون وعاصم فى رواية ابى بكر بالكسر وقرأ يعقوب بالضم ثم قال الفراء هما لغتان والمعنى واحد وفى كتاب

وقولا ويروى انه لما نزل قال رسول الله الله اكبر فكبرت خديجة وفرحت وايقنت انه الوحى وقد يحمل على تكبير الصلاة والفاء لمعنى الشرط كأنه قيل ما كان اى اى شئ حدث فلا تدع تكبيره او للدلالة على ان المقصود الاولى من الامر بالقيام ان يكبر ربه وينزهه من الشرك فان اول مايجب معرفة الصانع جل جلاله ثم تنزيهه عما لا يليق بجنابه (وثيابك فطهر) مما ليس بطاهر فانه واجب فى الصلاة واولى واحب فى غيرها وذلك بصيانتها وحفظها عن النجاسات وغسلها بعد تلطخها وبتقصيرها ايضا فان طولها يؤدى الى جر الذيول على القاذورات وهو اول ما امر به عليه الصلاة والسلام من

الخليل الرجز بضم الراء عبادة الاوثان وبكسر الراء العذاب ووسواس الشيطان أيضا رجز وقال أبوعبيدة أفشى اللغتين وأكثرهما الكسر * قوله تعالى (ولاتمنن تستكثر) فيه مسائل (المسئلة الاولى) القراءة المشهورة تستكثر برفع الراء وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون التقدير ولاتمنن لتستكثر فتنزع اللام فيرتفع (وثانيها) أن يكون التقدير لاتمنن أن تستكثر ثم تحذف أن الناصبة فتسلم الكلمة من الناصب والجازم فترتفع ويكون مجاز الكلام لاتعط لأن تستكثر (وثالثها) أنه حال متوقعة أى لاتمنن مقدرا أن تستكثر قال أبو على الفارسى هو مثل قولك مررت برجل معه صقر صائدا به غدا أى مقدرا الصيد فكذا ههنا المعنى مقدرا الاستكثار قال ويجوز أن يحكى به حالا آتية اذا عرفت هذا فنقول ذكروا فى تفسير الآية وجوها (أحدها) انه تعالى أمره قبل هذه الآية بأربعة أشياء انذار القوم وتكبير الرب وتطهير الثياب وهجر الرجز ثم قال ولاتمنن تستكثر أى لاتمنن على ربك بهذه الاعمال الشاقة كالمستكثر لما تفعله بل اصبر على ذلك كله لوجه ربك متقربا بذلك اليه غير ممتن به عليه قال الحسن لاتمنن على ربك بحسناتك فتستكثرها (وثانيها) لاتمنن على الناس بما تعلمهم من أمر الدين والوحى كالمستكثر لذلك الانعام فانك انما فعلت ذلك بأمر الله فلا منة لك عليهم ولهذا قال ولربك فاصبر (وثالثها) لاتمنن عليهم بنبوتك لتستكثر أى لتأخذ منهم على ذلك أجرا تستكثر به مالك (ورابعها) لاتمنن أى لاتضعف من قولهم حبل منين أى ضعيف ويقال منه السير أى أضعفه والتقدير فلاتضعف أن تستكثر من هذه الطاعات الاربعة التى أمرت بها قبل هذه الآية ومن ذهب الى هذا قال هو مثل قوله أفغير الله تأمرونى أعبد أى أن أعبد فحذفت أن وذكر الفراء أن فى قراءة عبد الله ولاتمنن أن تستكثر وهذا يشهد لهذا التأويل وهذا القول اختيار مجاهد (وخامسها) وهو قول أكثر المفسرين ان معنى قوله ولاتمنن أى لاتعط يقال مننت فلانا كذا أى أعطيته قال هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك أى فاعط أو امسك وأصله ان من أعطى فقد من فسميت العطية بالمن على سبيل الاستعارة فالمعنى ولاتعط مالك لاجل أن تأخذ أكثر منه وعلى هذا التأويل سؤالات (السؤال الاول) ما الحكمة فى أن الله تعالى منعه من هذا العمل (الجواب) الحكمة فيه من وجوه (الاول) لأجل أن تكون عطاياه لاجل الله لا لأجل طلب الدنيا فانه نهى عن طلب الدنيا فى قوله ولاتمدن عينيك وذلك لان طالب الدنيا لابد وأن تكون الدنيا عنده عزيزة ومن كان كذلك لم يصلح لاداء الرسالة (الثانى) ان من أعطى القليل من الدنيا ليأخذ الكثير لابد وأن يتواضع لذلك الغير ويتضرع له وذلك لايليق بمنصب النبوة لانه يوجب دناءة الآخذ ولهذا السبب حرمت الصدقات عليه وتنفير المأخوذ منه ولهذا قال أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون (السؤال الثانى) هذا النهى مختص بالرسول عليه الصلاة والسلام ام يتناول الامة (الجواب) ظاهرا للفظ لايفيد العموم وقرينة الحال لاتقتضى العموم لانه

رفض العادات المذمومة وقيل هو امر بتطهير النفس مما يستقذر من الافعال ويستهجن من الاحوال يقال فلان طاهر الذيل والاردان اذا وصفوه بالنقاء عن المعايب ومدانس الاخلاق (والرجز فاهجر) اى واهجر العذاب بالثبات على هجر مايؤدى اليه من المآثم وقرئ بكسر الراء وهما لغتان كالذكر والذكر (ولاتمنن تستكثر) ولا تعط مستكثرا اى رائيا لماتعطيه كثيرا او طالبا للكثير على انه نهى عن الاستغزار وهو ان يهب شيئا وهو يطمع ان يتعوض من الموهوب له اكثر مما اعطاه وهو جائز ومنه الحديث المستغزر يثاب من هبته فالنهى

عليه الصلاة والسلام انما نهى عن ذلك تنزيها لمنصب النبوة و هذا المعنى غير موجود فى الامة ومن الناس من قال هذا المعنى فى حق الامة هو الرياء و الله تعالى منع الكل من ذلك (السؤال الثالث) بتقدير أن يكون هذا النهى مختصا بالنبي صلى الله عليه وسلم فهو نهى تحريم أونهى تنزيه (الجواب) ظاهر النهى للتحريم (الوجه السادس) فى تأويل الآية قال القفال يحتمل أن يكون المقصد من الآية أن يحرم على النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطى لأحد شيئا لطلب عوض سواء كان ذلك العوض زائدا أو ناقصا أو مساويا ويكون معنى قوله تستكثر أى طالبا للكثرة كارها أن ينقص المال بسبب العطاء فيكون الاستكثار ههنا عبارة عن طلب العوض كيف كان وانما حسنت هذه الاستعارة لان الغالب أن الثواب يكون زائدا على العطاء فسمى طلب الثواب استكثارا حملا للشئ على أغلب أحواله وهذا كما أن الاغلب أن المرأة انما تتزوج ولها ولد للحاجة الى من يربي ولدها فسمى الولد ربيبا ثم اتسع الامر فسمى ربيبا وان كان حين تتزوج أمه كبيرا ومن ذهب الى هذا القول قال السبب فيه أن يصير عطاء النبي صلى الله عليه وسلم خاليا عن انتظار العوض والتفات النفس اليه فيكون ذلك خالصا مخلصا لوجه الله تعالى (الوجه السابع) أن يكون المعنى ولا تمنن على الناس بما تنعم عليهم وتعطيهم استكثارا منك لتلك العطية بل ينبغي أن تستقلها وتستحقرها وتكون كالمعتذر من ذلك المنعم عليه فى ذلك الانعام فان الدنيا بأسرها قليلة فكيف ذلك القدر الذى هو قليل فى غاية القلة بالنسبة الى الدنيا وهذه الوجوه الثلاثة الاخيرة كالمرتبة (فالوجه الاول) معناه كونه عليه الصلاة والسلام ممنوعا من طلب الزيادة فى العوض (والوجه الثانى) معناه كونه ممنوعا عن طلب مطلق العوض زائدا كان او مساويا او ناقصا (والوجه الثالث) معناه ان يعطى وينسب نفسه الى تقصير ويجعل نفسه تحت منة المنعم عليه حيث قبل منه ذلك الانعام (الوجه الثامن) معناه اذا اعطيت شيئا فلا ينبغي ان تمن عليه بسبب انك تستكثر تلك العطية فان المن محبط لثواب العمل قال تعالى لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس (المسئلة الثانية) قرأ الحسن تستكثر بالجزم واكثر المحققين أبوا هذه القراءة ومنهم من قبلها وذكروا فى صحتها ثلاثة اوجه (احدها) كأنه قيل لاتمنن لاتستكثر (وثانيها) ان يكون أراد تستكثر فاسكن الراء لثقل الضمة مع كثرة الحركات كما حكاه ابوزيد فى قوله تعالى بلى ورسلنا لديهم يكتبون بأسكان اللام (وثالثها) ان يعتبر حال الوقف وقرأ الاعمش تستكثر بالنصب باضمار ان كقوله * الا ايهذا الزاجرى احضر الوغى * ويؤيده قراءة ابن مسعود ولا تمنن ان تستكثر * قوله تعالى (ولربك فاصبر) فيه وجوه (احدها) اذا اعطيت المال فاصبر على ترك المن والاستكثار اى اترك هذا الامر لاجل مرضاة ربك (وثانيها) اذا اعطيت المال فلا تطلب العوض وليكن هذا الترك لاجل ربك (وثالثها) انا امرناك فى اول هذه السورة بأشياء ونهيناك عن اشياء فاشتغل بتلك الافعال والتروك

اما التحريم وهو خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى اختار له اشرف الاخلاق واحسن الآداب او التنزيه للكل وقرئ تستكثر بالسكون اعتبارا بحال الوقف او ابدالا من تمنن كأنه قيل ولا تمنن ولا تستكثر على انه من المن الذى فى قوله تعالى منا ولا اذى لان من يمن بما يعطى يستكثره ويعتد به وقرئ بالنصب باضمار ان مع ابقاء عملها كقول من قال *الا ايهذا الزاجرى احضر الوغى* وقد قرئ باثباتها ويجوز فى قراءة الرفع ان يحذف ان ويبطل عملها كما يروى احضر الوغى بالرفع (ولربك) اى لوجهه تعالى او لامره (فاصبر) فاستعمل الصبر وقيل على اذية المشركين وقيل على اداء الفرائض

لاجل امر ربك فكان ماقبل هذه الآية تكاليف بالافعال والتروك وفي هذه الآية بين مالأجله يجب ان يؤتى بتلك الافعال والتروك وهو طلب رضا الرب (ورابعها) انا ذكرنا ان الكفار لما اجتمعوا وبحثوا عن حال محمد صلى الله عليه وسلم قام الوليد ودخل داره فقال القوم ان الوليد قد صبا فدخل عليه ابو جهل وقال ان قريشا جمعوا لك مالا حتى لاتترك دين آبائك فهو لاجل ذلك المال بقي على كفره فقيل لمحمد انه بقي على دينه الباطل لاجل المال واما انت فاصبر على دينك الحق لاجل رضا الحق لالشئ غيره (وخامسها) ان هذا تعريض بالمشركين كأنه قيل له وربك فكبر لاالاوثان وثيابك فطهر ولاتكن كالمشركين نجس البدن والثياب والرجز فاهجر ولاتقربه كما تقربه الكفار ولاتمنن تستكثر كما أراد الكفار ان يعطوا الوليد قدرا من المال وكانوا يستكثرون ذلك القليل ولربك فاصبر على هذه الطاعات لاللاغراض العاجلة من المال والجاه ❊ قوله تعالى (فاذا نقر في الناقور) اعلم انه تعالى لما تمم مايتعلق بارشاد قدوة الانبياء وهو محمد صلى الله عليه وسلم عدل عنه الى شرح وعيد الاشقياء وهو هذه الآية وههنا مسائل (المسئلة الاولى) الفاء في قوله فاذا نقر للسبب كأنه قال اصبر على أذاهم فبين ايديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى انت عاقبة صبرك عليه (المسئلة الثانية) اختلفوا في ان الوقت الذي ينقر في الناقور هو النفخة الاولى ام النفخة الثانية (فالقول الاول) انه هو النفخة الاولى قال الحليمي في كتاب المنهاج انه تعالى سمى الصور باسمين احدهما الصور والآخر الناقور وقول المفسرين ان الناقور هو الصور ثم لاشك ان الصور وان كان هو الذي ينفخ فيه النفختان معا فان نفخة الاصعاق تخالف نفخة الاحياء وجاء في الاخبار ان في الصور ثقبا بعدد الارواح كلها وانها تجمع في تلك الثقب في النفخة الثانية فيخرج عند النفخ من كل ثقبة روح الى الجسد الذي نزع منه فيعود الجسد حيا باذن الله تعالى فيحتمل ان يكون الصور محتويا على آلتين ينقر في احداهما وينفخ في الاخرى فاذا نفخ فيه للاصعاق جمع بين النقر والنفخ لتكون الصيحة أهد واعظم واذا نفخ فيه للاحياء لم ينقر فيه واقتصر على النفخ لان المراد ارسال الارواح من ثقب الصور الى اجسادها لاتنقيرها من اجسادها والنفخة الاولى للتنقير وهو نظير صوت الرعد فانه اذا اشتد فربما مات سامعه والصيحة الشديدة التي يصيحها رجل بصبي فيفزع منه فيموت هذا آخر كلام الحليمي رحمه الله (ولي فيه اشكال) وهو ان هذا يقتضي ان يكون النقر انما يحصل عند صيحة الاصعاق وذلك اليوم غير شديد على الكافرين لانهم يموتون في تلك الساعة انما اليوم الشديد على الكافرين عند صيحة الاحياء ولذلك يقولون ياليتها كانت القاضية اي ياليتنا بقينا على الموتة الاولى (والقول الثاني) انه النفخة الثانية وذلك لان الناقور هو الذي ينقر فيه اي ينكت فيجوز انه اذا اريد ان ينفخ في المرة الثانية نقر أولا فسمي ناقورا لهذا المعنى واقول في هذا اللفظ بحث وهو ان الناقور فاعول من النقر كالهاضوم مايهضم به

(فاذا نقر في الناقور) اي نفخ في الصور وهو فاعول من النقر بمعنى التصويت واصله القرع الذي هو سبب الصوت والفاء للسببية كأنه قيل اصبر على اذاهم فبين ايديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة اذاهم وتلقى عاقبة صبرك عليه والعامل في اذا مادل عليه قوله تعالى (فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين) فان معناه عسر الامر على الكافرين وذلك اشارة الى وقت النقر ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته في الهول والفظاعة ومحله الرفع على الابتداء ويومئذ بدل منه مبني على الفتح لاضافته الى غير متمكن والخبر يوم عسير وقيل يومئذ ظرف للخبر اذ التقدير وذلك الوقت وقوع يوم عسير وعلى متعلقة بعسير وقيل بمحذوف هو صفة لعسير وحال من المستكن فيه وقوله تعالى (غير يسير) تأكيد لعسره عليهم مشعر بيسره على المؤمنين واختلف في ان المراد به يوم النفخة الاولى او الثانية والحق انها الثانية اذ هي التي يختص عسرها بالكافرين واما النفخة الاولى فحكمها الذي هو الاصعاق يعم البر والفاجر على انها مختصة بمن كان حيا عند وقوعها وقد جاء في الاخبار ان في الصور ثقبا

والحاطوم مايحطم به فكان ينبغي ان يكون الناقور ماينقر به لامانيقر فيه (المسئلة الثانية) العامل في قوله فاذا نقر هو المعنى الذى دل عليه قوله يوم عسير والتقدير اذا نقر في الناقور عسر الامر وصعب ❁ قوله تعالى (فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله فذلك اشارة الى اليوم الذى ينقر فيه في الناقور والتقدير فذلك اليوم يوم عسير واما يومئذ ففيه وجوه (الاول) ان يكون تفسير القوله فذلك لان قوله فذلك يحتمل ان يكون اشارة الى النقر وان يكون اشارة الى اليوم المضاف الى النقر فكأنه قال فذلك اعني اليوم المضاف الى النقر يوم عسير فيكون يومئذ في محل النصب (الثاني) ان يكون يومئذ مرفوع المحل بدلا من ذلك ويوم عسير خبر كأنه قيل فيوم النقر يوم عسير فعلى هذا يومئذ في محل الرفع لكونه بدلا من ذلك الا انه لما اضيف اليوم الى اذ وهو غير متمكن بني على الفتح (الثالث) ان تقدير الآية فذلك النقر يومئذ نقر يوم عسير على ان يكون العامل في يومئذ هو النقر (المسئلة الثانية) عسر ذلك اليوم على الكافرين لانهم يناقشون في الحساب ويعطون كتبهم بشمائلهم وتسود وجوههم ويحشرون زرقا وتتكلم جوارحهم فيفتضحون على رؤس الاشهاد واما المؤمنون فانه عليهم يسير لانهم لايناقشون في الحساب ويحشرون بيض الوجه ثقال الموازين ويحتمل ان يكون انما وصفه الله تعالى بالعسر لانه في نفسه كذلك للجميع من المؤمنين والكافرين على ماروى ان الانبياء يومئذ يفزعون وان الولدان يشيبون الا انه يكون هول الكفار فيه اشد فعلى القول الاول لايحسن الوقف على قوله يوم عسير فان المعنى انه على الكافرين عسير وغير يسير وعلى القول الثاني يحسن الوقف لان المعنى انه في نفسه عسير على الكل ثم الكافر مخصوص فيه بزيادة خاصة وهو انه عليه غير يسير (فان قيل) فا فائدة قوله غير يسير وعسير مغن عنه (والجواب) اما على القول الاول فالتكرير للتأكيد كما تقول انا لك محب غير مبغض وولي غير عدو واما على القول الثاني فقوله عسير يفيد اصل العسر الشامل للمؤمنين والكافرين وقوله غير يسير يفيد الزيادة التي يختص بها الكافر لان العسر قد يكون عسرا قليلا يسيرا وقد يكون عسرا كثيرا فأثبت اصل العسر للكل واثبت العسر بصفة الكثرة والقوة للكافر (المسئلة الثانية) قال ابن عباس لما قال انه غير يسير على الكافرين كان يسيرا على المؤمنين فبعض من قال بدليل الخطاب قال لولا انه دليل الخطاب حجة والا لما فهم ابن عباس من كونه غير يسير على الكافر كونه يسيرا على المؤمن ❁ قوله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيدا) اجمعوا على ان المراد ههنا هو الوليد ابن المغيرة وفي نصب قوله وحيدا وجوه (الاول) انه نصب على الحال ثم يحتمل ان يكون حالا من الخالق وان يكون حالا من المخلوق وكونه حالا من الخالق على وجهين (الاول) ذرني وحدي معه فاني كاف في الانتقام منه (والثاني) خلقته وحدي لم يشركني في خلقه احد واما كونه حالا من المخلوق فعلى معنى اني خلقته حال ما كان وحيدا فريدا لامال له

بعدد الارواح كلها وانها تجمع في تلك الثقب في النفخة الثانية فيخرج عند النفخ من كل ثقبة روح الى الجسد الذى نزعت منه فيعود الجسد حيا باذن الله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيدا) حال اما من الياء اى ذرني وحدي معه فاني اكفيكه في الانتقام منه او من التاء اى خلقته وحدي لم يشركني في خلقه احد او من العائد المحذوف اى ومن خلقته وحيدا فريدا لامال له ولا ولد وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي وكان يلقب في قومه بالوحيد فهو تهكم به وبلقبه وصرف له عن الغرض الذى يؤمونه من مدحه الى جهة ذمه بكونه وحيدا من المال والولد او وحيدا من ابيه لانه كان زنيما كما مر او وحيدا في الشرارة (وجعلت له مالا ممدودا) مبسوطا كثيرا او ممدا بالنماء من مد النهر ومده نهر آخر قيل كان له الضرع والزرع والتجارة وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الاموال وقيل كان له بالطائف بستان لاينقطع ثماره صيفا وشتاء وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير كان له الف دينار وقال قتادة ستة

ولا ولد كقوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة (القول الثانى) انه نصب على الذم وذلك لان الآية نزلت فى الوليد وكان يلقب بالوحيد وكان يقول انا الوحيد ابن الوحيد ليس لى فى العرب نظير ولا لأبى نظير فالمراد ذرنى ومن خلقت اعنى وحيدا وطعن كثير من المتأخرين فى هذا الوجه وقالوا لا يجوز ان يصدقه الله فى دعواه انه وحيد لا نظير له وهذا السؤال ذكره الواحدى وصاحب الكشاف وهو ضعيف من وجوه (الاول) انا ما جعلنا الوحيد اسم علم فقد زال السؤال لان اسم العلم لا يفيد فى المسمى صفة بل هو قائم مقام الاشارة (الثانى) لم لا يجوز ان يحمل على كونه وحيدا فى ظنه واعتقاده ونظيره قوله تعالى ذق انك انت العزيز الكريم (الثالث) ان لفظ الوحيد ليس فيه انه وحيد فى العلو والشرف بل هو كان يدعى لنفسه انه وحيد فى هذه الامور فيمكن ان يقال انت وحيد لكن فى الكفر والخبث والدناءة (القول الثالث) ان وحيدا مفعول ثان لخلق قال ابو سعيد الضرير الوحيد الذى لا أب له وهو اشارة الى الطعن فى نسبه كما فى قوله عتل بعد ذلك زنيم ※ قوله تعالى (وجعلت له مالا ممدودا) فى تفسير المال الممدود وجوه (الاول) المال الذى يكون له مدد يأتى منه الجزء بعد الجزء على الدوام فلذلك فسره عمر بن الخطاب بغلة شهر بشهر (وثانيها) انه المال الذى يمد بالزيادة كالضرع والزرع وانواع التجارات (وثالثها) انه المال الذى امتد مكانه قال ابن عباس كان ماله ممدودا ما بين مكة الى الطائف الابل والخيل والغنم والبساتين الكثيرة بالطائف والاشجار والانهار والنقد الكثير وقال مقاتل كان له بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفا فالممدود هنا كما فى قوله وظل ممدود اى لا ينقطع (ورابعها) انه المال الكثير وذلك لان المال الكثير اذا عدد فانه يمتد تعديده ومن المفسرين من قدر المال الممدود فقال بعضهم الف دينار وقال آخرون اربعة آلاف وقال آخرون الف الف وهذه التحكمات مما لا يميل اليها الطبع السليم ※ قوله تعالى (وبنين شهودا) فيه وجهان (الاول) بنين حضورا معه بمكة لا يفارقونه البتة لانهم كانوا اغنياء فما كانوا محتاجين الى مفارقته لطلب كسب ومعيشة وكان هو مستأنسا بهم طيب القلب بسبب حضورهم (والثانى) يجوز ان يكون المراد من كونهم شهودا انهم رجال يشهدون معه المجامع والمحافل وعن مجاهد كانوا عشرة وقيل سبعة كلهم رجال الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد شمس اسلم منهم ثلاثة خالد وعمارة وهشام ※ قوله تعالى (ومهدت له تمهيدا) اى وبسطت له الجاه العريض والرياسة فى قومه فأتممت عليه نعمتى المال والجاه واجتماعهما هو الكمال عند اهل الدنيا ولهذا المعنى يدعى بهذا فيقال أدام الله تمهيده اى بسطته وتصرفه فى الامور ومن المفسرين من جعل هذا التمهيد البسطة فى العيش وطول العمر وكان الوليد من أكابر قريش ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش ※ قوله تعالى (ثم يطمع ان أزيد) لفظ ثم ههنا معناه التعجب كما تقول لصاحبك أنزلتك دارى واطعمتك واسقيتك ثم انت تشتمنى

آلاف دينار وقال سفيان الثورى اربعة آلاف دينار وقال الثورى ايضا الف الف دينار (وبنين شهودا) حضورا معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم لا يفارقونه للتصرف فى عمل او تجارة لكونهم مكتفيين لوفور نعمهم وكثرة خدمهم او حضورا فى الاندية والمحافل لوجاهتهم واعتبارهم قيل كان له عشرة بنين وقيل ثلاثة عشر وقيل سبعة كلهم رجال الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص والقيس وعبد شمس سلم منهم ثلاثة خالد وهشام وعمارة (ومهدت له تمهيدا) وبسطت له الرياسة والجاه العريض حتى لقب ريحانة قريش (ثم يطمع ان ازيد) على ما أوتيه وهو استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه اما لانه لا مزيد على ما أوتى سعة وكثرة او لانه مناف لما هو عليه من كفران النعم ومعاندة المنعم وقيل انه كان يقول ان كان محمد صادقا فما خلقت الجنة الالى (كلا) ردع وزجر له عن طمعه الفارغ وقطع لرجائه الخائب وقوله تعالى (انه كان لآياتنا عنيدا) تعليل لذلك على وجه الاستئناف التحقيقى فان معاندة آيات المنعم مع وضوحها وكفران نعمته مع سبوغها مما يوجب حرمانه بالكلية

ونظيره قوله تعالى الحمدلله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فعنى ثم ههنا الانكار والتعجب ثم تلك الزيادة التى كان يطمع فيها هل هى زيادة فى الدنيا او فى الآخرة فيه قولان (الاول) قال الكلبى ومقاتل ثم يرجو ان ازيد فى ماله وولده وقد كفربى (والثانى) ان تلك الزيادة فى الآخرة قيل انه كان يقول ان كان محمد صادقا فاخلقت الجنة الالى ونظيره قوله تعالى أرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ❊ ثم قال تعالى (كلا) وهو ردع له عن ذلك الطمع الفاسد قال المفسرون ولم يزل الوليد فى نقصان بعد قوله كلا حتى افتقر ومات فقيرا ❊ قوله تعالى (انه كان لآياتنا عنيدا) انه تعليل للردع على وجه الاستئناف كأن قائلا قال لم لايزاد فقيل لانه كان لآياتنا عنيدا والعنيد فى معنى المعاند كالجليس والاكيل والعشير وفى الآية اشارة الى امور كثيرة من صفاته (احدها) انه كان معاندا فى جميع الدلائل اعنى جميع الدلائل الدالة على التوحيد والعدل والقدرة وصحة النبوة وصحة البعث وكان هو منازعا فى الكل منكرا للكل (وثانيها) ان كفره كان كفر عناد كان يعرف هذه الاشياء بقلبه الا انه كان منكرها بلسانه وكفر المعاند افحش انواع الكفر (وثالثها) ان قوله انه كان لآياتنا عنيدا يدل على انه من قديم الزمان كان على هذه الحرفة والصنعة (ورابعها) ان قوله انه كان لآياتنا عنيدا يفيد ان تلك المعاندة كانت منه مختصة بآيات الله تعالى وبيناته فان تقديره انه كان لآياتنا عنيدا لا لآيات غيرنا فتخصيصه هذا العناد بآيات الله مع كونه تاركا للعناد فى سائر الاشياء يدل على غاية الخسران ❊ قوله تعالى (سأرهقه صعودا) اى سأكلفه صعودا وفى الصعود قولان (الاول) انه مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذى لايطاق مثل قوله يسلكه عذابا صعدا وصعود من قولهم عقبة صعود وكدود شاقة المصعد (والثانى) ان صعودا اسم لعقبة فى النار كلما وضع يده عليها ذابت فاذا رفعها عادت واذا وضع رجله ذابت واذا رفعها عادت وعنه عليه الصلاة والسلام الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى كذلك فيه ابدا ❊ ثم انه تعالى حكى كيفية عناده فقال (انه فكر وقدر) يقال فكر فى الامر وتفكر اذا نظر فيه وتدبر ثم لما تفكر رتب فى قلبه كلاما وهيأه وهو المراد من قوله فقدر ❊ ثم قال تعالى (فقتل كيف قدر) وهذا انما يذكر عند التعجب والاستعظام ومثله قولهم قتله الله ماشجعه واخزاه الله ماشعره ومعناه انه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك اذا عرفت ذلك فنقول انه يحتمل ههنا وجهين (احدهما) انه تعجيب من قوة خاطره يعنى انه لايمكن القدح فى امر محمد عليه السلام بشبهة اعظم ولا اقوى مما ذكره هذا القائل (والثانى) الثناء عليه على طريقة الاستهزاء يعنى ان هذا الذى ذكره فى غاية الركاكة والسقوط ❊ ثم قال تعالى (ثم قتل كيف قدر) والمقصود من كلمة ثم ههنا الدلالة على ان الدعاء عليه فى الكرة الثانية ابلغ من الاولى ❊ ثم قال تعالى (ثم نظر) والمعنى انه اولا فكر وثانيا

(قدر)

وانما اوتى ما اوتى استدراجا قيل مازال بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله حتى هلك (سأرهقه صعودا) سأغشيه بدل مايطمعه من الزيادة او الجنة عقبة شاقة المصعد وهو مثل لما يلقى من العذاب الصعب الذى لايطاق وعن النبى صلى الله عليه وسلم يكلف ان يصعد عقبة فى النار كلما وضع يده عليها ذابت فاذا رفعها عادت واذا وضع رجله ذابت فاذا رفعها عادت وعنه عليه الصلاة والسلام الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى فيه كذلك ابدا (انه فكر وقدر) تعليل للوعيد واستحقاقه له او بيان لعناده لآياته تعالى اى فكر ماذا يقول فى شأن القرآن وقدر فى نفسه مايقوله (فقتل كيف قدر) تعجيب من تقديره واصابته فيه الغرض الذى كان ينتحيه قريش قاتلهم الله او ثناء عليه بطريق الاستهزاء به او حكاية لما كرروه من قولهم قتل كيف قدر تهكما بهم وباعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله ومعنى قولهم قتله الله ماشجعه واخزاه الله ماشعره الاشعار بأنه قد بلغ من الشجاعة والشعر مبلغا حقيقا بأن يدعو عليه حاسده بذلك روى ان الوليد قال لبنى مخزوم والله لقد

قدر و ثالثا نظر فى ذلك المقدر فالنظر السابق للاستخراج و النظر اللاحق للتقدير و هذا هو الاحتياط فهذه المراتب الثلاثة متعلقة بأحوال قلبه ثم انه تعالى وصف بعد ذلك احوال وجهه ❊ فقال تعالى (ثم عبس و بسر) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم ان قوله عبس و بسر يدل على انه كان عارفا فى قلبه صدق محمد صلى الله عليه وسلم الا انه كان يكفر به عنادا ويدل عليه وجوه (الاول) انه بعد ان تفكر وتأمل وقدر نفسه كلاما عزم على انه يظهره ظهرت العبوسة فى وجهه ولو كان معتقدا صحة ذلك الكلام لفرح باستنباطه وادراكه ولكنه لما لم يفرح به علمنا انه كان يعلم ضعف تلك الشبهة الا انه لشدة عناده ما كان يجد شبهة اجود من تلك الشبهة فلهذا السبب ظهرت العبوسة فى وجهه (الثانى) ماروى ان الوليد مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ حم السجدة فلما وصل الى قوله فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود انشده الوليد بالله وبالرحم ان يسكت وهذا يدل على انه كان يعلم انه مقبول الدعاء صادق اللهجة ولما رجع الوليد قال لهم والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وانه ليعلو ومايعلى فقالت قريش صبأ الوليد ولو صبأ لتصبأن قريش كلها فقال ابو جهل انا اكفيكموه ثم دخل عليه محزونا فقال مالك يا ابن الاخ فقال انك قد صبوت لتصيب من طعام محمد واصحابه وهذه قريش تجمع لك مالا ليكون ذلك عوضا مما تقدر ان تأخذ من اصحاب محمد فقال والله مايشبعون فكيف أقدر ان آخذ منهم مالا ولكنى تفكرت فى امره كثيرا فلا أجد شيئا يليق به الا انه ساحر فأقول استعظامه للقرآن واعترافه بأنه ليس من كلام الجن والانس يدل على انه كان فى ادعاء السحر معاندا لان السحر يتعلق بالجن (الثالث) انه كان يعلم ان امر السحر مبنى على الكفر بالله والافعال المنكرة وكان من الظاهر ان محمدا لا يدعو الا الى الله فكيف يليق به السحر فثبت بمجموع هذه الوجوه انه انما عبس وبسر لانه كان يعلم فى قلبه ان الذى يقوله كذب وبهتان (المسئلة الثانية) قال الليث عبس يعبس فهو عابس اذا قطب ما بين عينيه فان أبدى عن اسنانه فى عبوسه قيل كلح فان اهتم لذلك وفكر فيه قيل بسر فان غضب مع ذلك قيل بسل ❊ قوله تعالى (ثم ادبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر) أدبر عن سائر الناس الى اهله واستكبر اى تعظم عن الايمان فقال ان هذا الا سحر يؤثر وانما ذكره بفاء التعقيب ليعلم انه كما ولى واستكبر ذكر هذه الشبهة وفى قوله يؤثر وجهان (الاول) انه من قولهم اثرت الحديث آثره اثرا اذا حدثت به عن قوم فى آثارهم اى بعدما ماتوا هذا هو الاصل ثم صار بمعنى الرواية عمن كان (والثانى) يؤثر على جميع السحر وعلى هذا يكون هو من الايثار ❊ ثم قال تعالى (ان هذا الا قول البشر) والمعنى ان هذا قول البشر ينسب ذلك الى انه ملتقط من كلام غيره ولو كان الامر كما قال لتمكنوا من معارضته اذ طريقتهم فى معرفة اللغة متقاربة واعلم ان هذا الكلام

سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق وانه يعلو ومايعلى فقالت قريش صبأ والله الوليد والله لو صبأ لتصبأن قريش كلهم فقال ابن أخيه ابو جهل انا اكفيكموه فقعد عنده حزينا وكلمه بما احماه فقام فأتاهم فقال تزعمون ان محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق وتقولون انه كاهن فهل رأيتموه تكهن وتزعمون انه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط وتزعمون انه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب فقالوا فى كل ذلك اللهم لا ثم قالوا فما هو ففكر فقال ما هو الا ساحر اما رأيتموه يفرق بين الرجل واهله وولده ومواليه وما الذى يقوله الا سحر يأثره عن اهل بابل فارتج النادى فرحا وتفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه (ثم قتل كيف قدر) تكرير للمبالغة وثم للدلالة على ان الثانية ابلغ من الاولى وفيما بعد على اصلها من التراخى الزمانى (ثم نظر) اى فى القرآن مرة بعد مرة (ثم عبس) قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعنا ولم يدر ماذا يقول وقيل نظر فى وجوه الناس ثم قطب وجهه وقيل نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قطب فى وجهه (وبسر) اتباع

يدل على ان الوليد انما كان يقول هذا الكلام عنادا منه لانه روى عنه انه لما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حم السجدة وخرج من عند الرسول قال سمعت من محمد كلاما ليس من كلام الانس ولا من كلام الجن وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وانه يعلو ولا يعلى فلما اقر بذلك في اول الامر علمنا ان الذي قاله ههنا من انه قول البشر انما ذكره على سبيل العناد والتمرد لا على سبيل الاعتقاد * ثم قال تعالى (سأصليه سقر) قال ابن عباس سقر اسم للطبقة السادسة من جهنم ولذلك لا ينصرف للتعريف والتأنيث * ثم قال تعالى (وما ادراك ما سقر) والغرض التهويل * ثم قال تعالى (لا تبقي ولا تذر) واختلفوا منهم من قال هما لفظان مترادفان معناهما واحد والغرض من التكرير التأكيد والمبالغة كما يقال صد عني واعرض عني ومنهم من قال لابد من الفرق ثم ذكروا وجوها (احدها) انها لا تبقي من الدم واللحم والعظم شيئا فاذا اعيدوا خلقا جديدا فلا تذر ان تعاود احراقهم بأشد مما كانت وهكذا ابدا وهذا رواية عطاء عن ابن عباس (وثانيها) لا تبقي من المستحقين للعذاب الا عذبتهم ثم لا تذر من ابدان أولئك المعذبين شيئا الا أحرقته (وثالثها) لا تبقي من ابدان المعذبين شيئا ثم ان تلك النيران لا تذر من قوتها وشدتها شيئا الا وتستعمل تلك القوة والشدة في تعذيبهم * ثم قال تعالى (لواحة للبشر) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) في اللواحة قولان (الاول) قال الليث لاحه العطش ولوحه اذا غيره فاللواحة هي المغيرة قال الفراء تسود البشرة باحراقها (والقول الثاني) وهو قول الحسن والاصم ان معنى اللواحة انها تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام كقوله وبرزت الجحيم لمن يرى ولواحة على هذا القول من لاح الشيء يلوح اذا لمع نحو البرق وطعن القائلون بهذا الوجه في الوجه الاول وقالوا انه لا يجوز ان يصفها بتسويد البشرة مع قوله تعالى انها لا تبقي ولا تذر (المسئلة الثانية) قرئ لواحة نصبا على الاختصاص للتهويل * ثم قال تعالى (عليها تسعة عشر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المعنى انه يلي امر تلك النار ويتسلط على اهلها تسعة عشر ملكا وقيل تسعة عشر صنفا وقيل تسعة عشر صفا وحكى الواحدي عن المفسرين ان خزنة النار تسعة عشر مالك ومعه ثمانية عشر اعينهم كالبرق وانيابهم كالصياصي واشفارهم تمس اقدامهم يخرج لهب النار من افواههم ما بين منكبي احدهم مسيرة سنة يسع كف احدهم مثل ربيعة ومضر نزعت منهم الرأفة والرحمة يأخذ احدهم سبعين ألفا في كفه ويرميهم حيث أراد من جهنم (المسئلة الثالثة) ذكر ارباب المعاني في تقدير هذا العدد وجوها (احدها) وهو الوجه الذي تقوله ارباب الحكمة ان سبب فساد النفس الانسانية في قوتها النظرية والعملية هو القوى الحيوانية والطبيعية اما القوى الحيوانية فهي الخمسة الظاهرة والخمسة الباطنة والشهوة والغضب ومجموعها اثنتا عشرة واما القوى الطبيعية فهي الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة وهذه سبعة فالمجموع تسعة عشر فلما كان منشأ

لعبس (ثم أدبر) عن الحق او عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (واستكبر) عن اتباعه (فقال ان هذا الا سحر يؤثر) اي يروى ويتعلم والفاء للدلالة على ان هذه الكلمة لما خطرت بباله تفوه بها من غير تلعثم وتلبث وقوله تعالى (ان هذا الا قول البشر) تأكيد لما قبله ولذلك أخلى عن العاطف (سأصليه سقر) بدل من سأرهقه صعودا (وما ادراك ما سقر) اى اى شئ اعلمك ما سقر على ان ما الاولى مبتدأ وأدراك خبره وما الثانية خبر لانها المفيدة لما قصد افادته من التهويل والتفظيع وسقر مبتدأ اى اى شئ هي في وصفها لما مر مرارا من ان ما قد يطلب بها الوصف وان كان الغالب ان يطلب بها الاسم والحقيقة وقوله تعالى (لا تبقي ولا تذر) بيان لوصفها وحالها وانجاز للوعد الضمني الذي يلوح به وما ادراك ما سقر وقيل حال من سقر وليس بذاك اى لا تبقي شيئا يلقى فيها الا اهلكته واذا هلك لم تذره هالكا حتى يعاد او لا تبقي على شئ ولا تدعه من الهلاك بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة (لواحة للبشر) مغيرة لأعالي الجلد مسودة لها قيل تلفح الجلد لفحة فتدعه اشد سوادا من الليل وقيل تلوح للناس كقوله تعالى ثم لترونها

الآفات هو هذه التسعة عشر لاجرم كان عدد الزبانية هكذا (وثانيها) ان ابواب جهنم سبعة فستة منها للكفار وواحد للفساق ثم ان الكفار يدخلون النار لامور ثلاثة ترك الاعتقاد وترك الاقرار وترك العمل فيكون لكل باب من تلك الابواب الستة ثلاثة والمجموع ثمانية عشر واما باب الفساق فليس هناك زبانية بسبب ترك الاعتقاد ولا بسبب ترك القول بل ليس الا بسبب ترك العمل فلا يكون على بابهم الا زبانية واحدة فالمجموع تسعة عشر (وثالثها) ان الساعات اربعة وعشرون خمسة منها مشغولة بالصلوات الخمس فيبقى منها تسعة عشر مشغولة بغير العبادة فلاجرم صار عدد الزبانية تسعة عشر (المسئلة الثالثة) قراءة ابي جعفر ويزيد وطلحة بن سليمان عليها تسعة عشر على تقطيع فاعلاتن قال ابن جني في المحتسب والسبب ان الاسمين كاسم واحد فكثرت الحركات فاسكن اول الثاني للتخفيف وجعل ذلك امارة لقوة اتصال احد الاسمين بصاحبه وقرأ أنس بن مالك تسعة اعشر قال ابو حاتم هذه القراءة لانعرف لها وجها الا ان يعني تسعة اعشر جمع عشير مثل يمين وايمن وعلى هذا يكون المجموع تسعين * قوله تعالى (وماجعلنا اصحاب النار الا ملائكة) روى انه لما نزل قوله تعالى عليها تسعة عشر قال ابو جهل لقريش ثكلتكم امهاتكم قال ابن ابي كبشة ان خزنة النار تسعة عشر وانتم الجمع العظيم أيعجز كل عشرة منكم ان يبطشوا برجل منهم فقال ابو الاشد بن اسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش انا اكفيكم سبعة عشر واكفوني انتم اثنين فلما قال ابو جهل وابو الاشد ذلك قال المسلمون ويحكم (لاتقاس الملائكة بالحدادين) فجرى هذا مثلا في كل شيئين لايسوى بينهما والمعنى لاتقاس الملائكة بالسجانين والحداد السجان الذي يحبس الناس فأنزل الله تعالى وما جعلنا اصحاب النار الا ملائكة واعلم انه تعالى انما جعلهم ملائكة لوجوه (احدها) ليكونوا بخلاف جنس المعذبين لان الجنسية مظنة الرأفة والرحمة ولذلك بعث الرسول المبعوث الينا من جنسنا ليكون له رأفة ورحمة بنا (وثانيها) انهم ابعد الخلق عن معصية الله تعالى واقواهم على الطاعات الشاقة (وثالثها) ان قوتهم اعظم من قوة الجن والانس (فان قيل) ثبت في الاخبار ان الملائكة مخلوقون من النور والمخلوق من النور كيف يطيق المكث في النار (قلنا) مدار القول في اثبات القيامة على كونه تعالى قادرا على كل الممكنات فكما انه لااستبعاد في ان يبقى الحي في مثل ذلك العذاب الشديد ابدا الآباد ولا يموت فكذا الاستبعاد في بقاء الملائكة هناك من غير الم * ثم قال تعالى (وماجعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين اوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) هذا العدد انما صار سببا لفتنة الكفار من وجهين (الاول) ان الكفار يستهزؤن ويقولون لم لم يكونوا عشرين وما المقتضي لتخصيص هذا العدد بالوجود (الثاني) ان الكفار يقولون هذا العدد القليل

عين اليقين وقرئ لواحة بالنصب على الاختصاص للتهويل (عليها تسعة عشر) اى ملكا او صنفا او صفا او نقيبا من الملائكة يلون امرها ويتسلطون على اهلها وقرئ بسكون عين عشر حذرا من توالى الحركات فيما هو في حكم اسم واحد وقرئ تسعة اعشر جمع عشير مثل يمين وايمن (وماجعلنا اصحاب النار) اى المدبرين لامرها القائمين بتعذيب اهلها (الا ملائكة) ليخالفوا جنس المعذبين فلا يرقوا لهم ولا يستروحوا اليهم ولانهم اقوى الخلق واقومهم بحق الله عز وجل وبالغضب له تعالى واشدهم بأسا عن النبي صلى الله عليه وسلم لاحدهم مثل قوة الثقلين يسوق احدهم الامة وعلى رقبته جبل فيرمي بهم في النار ويرمي بالجبل عليهم وروى انه لما نزل عليها تسعة عشر قال ابو جهل لقريش ايعجز كل عشرة منكم ان يبطشوا برجل منهم فقال ابو الاشد بن اسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش انا اكفيكم سبعة عشر فاكفوني انتم اثنين فنزلت اى ماجعلناهم رجالا من جنسكم (وماجعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا) اى ماجعلنا عددهم الا العدد الذي تسبب لافتتانهم وهو التسعة عشر فعبر بالاثر عن المؤثر

كيف يكون وافين بتعذيب اكثرخلق العالم من الجن والانس من اول ماخلق الله الى قيام القيامة واما اهل الايمان فلا يلتفتون الى هذين السؤالين (اما السؤال الاول) فلان جملة العالم متناهية فلابدوان يكون للجواهر الفردة التي منها تألفت جملة هذا العالم عددمعين وعندذلك يجيء ذلك السؤال وهوانه لم خصص ذلك العدد بالايجادولم يزدعلى ذلك العدد جوهرا آخر ولم ينقص وكذا القول في ايجاد العالم فانه لما كان العالم محدثا والاله قديمافقد تأخر العالم عن الصانع بتقدير مدة غير متناهية فلم لم يحدث العالم قبل ان حدث بتقدير لحظة او بعدان وجد بتقدير لحظة وكذا القول في تقدير كل واحد من المحدثات بزمانه المعين وكل واحد من الاجسام باجزائه المحدودة المعدودة ولاجواب عن شيء من ذلك الا بأنه قادر مختار والمختار له ان يرجح الشيء على مثله من غير علة واذا كان هذا الجواب هو المعتمد في خلق جملة العالم فكذا في تخصيص زبانية النار بهذا العدد (واما السؤال الثاني) فضعيف ايضا لانه لايبعد في قدرة الله تعالى ان يعطى هذا العدد من القدرة والقوة مايصيرون به قادرين على تعذيب جملة الخلق و متمكنين من ذلك من غير خلل وبالجملة فمدار هذين السؤالين على القدح في كمال قدرة الله فأما من اعترف بكونه تعالى قادرا على مالانهاية له من المقدورات وعلم ان احوال القيامة على خلاف احوال الدنيا زال عن قلبه هذه الاستبعادات بالكلية (المسئلة الثانية) احتج من قال انه تعالى قد يريد الاضلال بهذه الآية قال لان قوله تعالى وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا يدل على ان المقصود الاصلي انما هو فتنة الكافرين اجابت المعتزلة عنه من وجوه (احدها) قال الجبائي المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا انه تعالى قادر على ان يقوى هؤلاء التسعة عشر على مالا يقوى عليه مائة الف ملك اقوياء (وثانيها) قال الكعبي المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعين الى علم الخالق سبحانه وهذا من المتشابه الذي امروا بالايمان به (وثالثها) ان المراد من الفتنة ماوقعوا فيه من الكفر بسبب تكذيبهم بعدد الخزنة والمعنى الا فتنة على الذين كفروا ليكذبوا به وليقولوا ماقالوا وذلك عقوبة لهم على كفرهم وحاصله راجع الى ترك الالطاف (الجواب) انه لانزاع في شيء مما ذكرتم الا انا نقول هل لانزال هذه المتشابهات اثر في تقوية داعية الكفر ام لا فاذا لم يكن له اثر في تقوية داعية الكفر كان انزالها كسائر الامور الاجنبية فلم يكن للقول بأن انزال هذه المتشابهات فتنة للذين كفروا وجه البتة وان كان له اثر في تقوية داعية الكفر فقد حصل المقصود لانه اذا ترجحت داعية الفعل صارت داعية الترك مرجوحة والمرجوح يمتنع ان يؤثر فالترك يكون ممتنع الوقوع فيصير الفعل واجب الوقوع والله اعلم واعلم انه تعالى بين ان المقصود من انزال هذا المتشابه امور اربعة (اولها) ليستيقن الذين اوتوا الكتاب (وثانيها) ويزداد الذين آمنوا ايمانا (وثالثها) ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون (ورابعها) وليقول الذين

تنبيها على التلازم بينهما وليس المراد مجرد جعل عددهم ذلك العدد المعين في نفس الامر بل جعله في القرآن ايضا كذلك وهو الحكم بأن عليها تسعة عشر اذ بذلك يتحقق افتتانهم باستقلالهم له واستبعادهم لتولي هذا العدد القليل لتعذيب اكثر الثقلين واستهزائهم به حسبما ذكر وعليه يدور ماسيأتي من استيقان اهل الكتاب وازدياد المؤمنين ايمانا قالوا المخصص لهذا العدد ان اختلاف النفوس البشرية في النظر والعمل بسبب القوى الحيوانية الاثنى عشرة والطبيعية السبع اوان جهنم سبع دركات ست منها لاصناف الكفرة كل صنف يعذب بترك الاعتقاد والاقرار والعمل نوعا من العذاب يناسبها وعلى كل نوع ملك اوصنف اوصف يتولاه وواحدة لعصاة الامة يعذبون فيها بترك العمل نوعا يناسبه ويتولاه واحد أوان الساعة اربع وعشرون خمسة منها مصروفة للصلوات الخمس فيبقى تسعة عشر قد تصرف الى مايؤاخذ به بأنواع العذاب يتولاها الزبانية (ليستيقن الذين اوتوا الكتاب) متعلق بالجعل على المعنى المذكور اى ليكتسبوا اليقين بنبوته عليه الصلاة والسلام وصدق القرآن لما شاهدوا مافيه موافقا

فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا واعلم ان المقصود من تفسير هذه الآيات لايتلخص الا بسؤالات وجوابات (السؤال الاول) لفظ القرآن يدل على انه تعالى جعل افتتان الكفار بعدد الزبانية سببا لهذه الامور الاربعة فما الوجه فى ذلك (الجواب) انه ماجعل افتتانهم بالعدد سببا لهذه الاشياء وبيانه من وجهين (الاول) التقدير وماجعلنا عدتهم الافتنة للذين كفروا والاليستيقن الذين اوتوا الكتاب كما يقال فعلت كذا لتعظيمك ولتحقير عدوك قالوا والعاطفة قدتذكر فى هذا الموضع تارة وقد تحذف اخرى (الثانى) ان المراد من قوله وماجعلنا عدتهم الافتنة للذين كفروا هو انه وما جعلنا عدتهم الاتسعة عشر الاانه وضع فتنة للذين كفروا موضع تسعة عشر كأنه عبر عن المؤثر باللفظ الدال على الاثر تنبيها على ان هذا الاثر من لوازم ذلك المؤثر (السؤال الثانى) ماوجه تأثير انزال هذا المتشابه فى استيقان اهل الكتاب (الجواب) من وجوه (احدها) ان هذا العدد لما كان موجودا فى كتابهم ثم انه عليه السلام اخبر على وفق ذلك من غير سابقة دراسة وتعلم فظهر ان ذلك انما حصل بسبب الوحى من السماء فالذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم من اهل الكتاب يزدادون به ايمانا (وثانيها) ان التوراة والانجيل كانا محرفين فأهل الكتاب كانوا يقرؤن فيهما ان عدد الزبانية هو هذا القدر ولكنهم ماكانوا يعولون على ذلك كل التعويل لعلمهم بتطرق التحريف الى هذين الكتابين فلما سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم قوى ايمانهم بذلك واستيقنوا ان ذلك العدد هو الحق والصدق (وثالثها) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم من حال كفار قريش انه متى اخبرهم بهذا العدد العجيب فانهم يستهزؤن به ويضحكون منه لانهم كانوا يستهزؤن به فى اثبات التوحيد والقدرة والعلم مع ان تلك المسائل اوضح واظهر فكيف فى ذكر هذا العدد العجيب ثم ان استهزاءهم برسول الله وشدة سخريتهم به مامنعه من اظهار هذا الحق فعند هذا يعلم كل احد انه لوكان غرض محمد صلى الله عليه وسلم طلب الدنيا والرياسة لاحترز عن ذكر هذا العدد العجيب فلما ذكره مع علمه بانهم لابدوان يستهزؤا به علم كل عاقل ان مقصوده منه انما هو تبليغ الوحى وانه ماكان يبالى فى ذلك لا بتصديق المصدقين ولا بتكذيب المكذبين (السؤال الثالث) ماتأثير هذه الواقعة فى ازدياد ايمان المؤمنين (الجواب) ان المكلف مالم يستحضر كونه تعالى عالما بجميع المعلومات غنيا عن جميع الحاجات منزها عن الكذب والخلف لايمكنه ان ينقاد لهذه العدة ويعترف بحقيتها فاذا اشتغل باستحضار تلك الدلائل ثم جعل العلم الاجمالى بانه صادق لايكذب حكيم لايجهل دافعا للتعجب الحاصل فى الطبع من هذا العدد العجيب فحينئذ يمكنه ان يؤمن بحقية هذا العدد ولاشك ان المؤمن يصير عند اعتبار هذه المقامات اشد استحضارا للدلائل واكثر انقيادا للدين فالمراد بازدياد الايمان هذا (السؤال الرابع) حقيقة الايمان عندكم لاتقبل الزيادة والنقصان فما قولكم

بما فى كتابهم (ويزداد الذين آمنوا ايمانا) اى يزداد ايمانهم كيفية بما رأوا من تسليم اهل الكتاب وتصديقهم انه كذلك اوكمية بانضمام ايمانهم بذلك الى ايمانهم بسائر ماانزل (ولايرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون) تأكيد لماقبله من الاستيقان وازدياد الايمان ونفى لمايعترى المستيقن من شبهة ما وانما لم ينظم المؤمنون فى سلك اهل الكتاب فى نفى الارتياب حيث لم يقل ولايرتابوا للتنبيه على تباين النفيين حالا فان انتفاء الارتياب من اهل الكتاب مقارن لماينافيه من الجحود ومن المؤمنين مقارن لمايقتضيه من الايمان وكم بينهما والتعبير عنهم باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المنبئة عن الحدوث للايذان بثباتهم على الايمان بعد ازدياده ورسوخهم فى ذلك (وليقول الذين فى قلوبهم مرض) شك او نفاق فيكون اخبارا عما سيكون فى المدينة بعد الهجرة (والكافرون) المصرون على التكذيب (ماذا أراد الله بهذا مثلا) اى اى شئ أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل وقيل لما استبعدوه حسبوا انه مثل مضروب وافراد قولهم هذا بالتعليل مع كونه من باب فتنتهم للاشعار باستقلاله فى الشناعة

في هذه الآية (الجواب) نحمله على ثمرات الايمان وعلى آثاره ولوازمه (السؤال الخامس) لما اثبت الاستيقان لاهل الكتاب واثبت زيادة الايمان للمؤمنين فالفائدة في قوله بعد ذلك ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون (الجواب) ان المطلوب اذا كان غامضا دقيق الحجة كثير الشبهة فاذا اجتهد الانسان فيه وحصل له اليقين فربما غفل عن مقدمة من مقدمات ذلك الدليل الدقيق فيعود الشك والشبهة فاثبات اليقين في بعض الاحوال لا ينافي طريان الارتياب بعد ذلك فالمقصود من اعادة هذا الكلام هو انه حصل لهم يقين جازم بحيث لا يحصل عقيبه البتة شك ولا ريب (السؤال السادس) جمهور المفسرين قالوا في تفسير قوله الذين في قلوبهم مرض انهم هم الكافرون وذكر الحسين بن الفضل البجلي ان هذه السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق فالمرض في هذه الآية ليس بمعنى النفاق (الجواب) قول المفسرين حق وذلك لانه كان في معلوم الله تعالى ان النفاق سيحدث فأخبر عما سيكون وعلى هذا تصير هذه الآية معجزة لانه اخبار عن غيب سيقع وقد وقع على وفق الخبر فيكون معجزا ويجوز ايضا أن يراد بالمرض الشك لان اهل مكة كان اكثرهم شاكين وبعضهم كانوا قاطعين بالكذب (السؤال السابع) هب ان الاستيقان وانتفاء الارتياب يصح ان يكونا مقصودين من انزال هذا المتشابه فكيف صح ان يكون قول الكافرين والمنافقين مقصودا (الجواب) اما على اصلنا فلا اشكال لانه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء وسيأتي مزيد تقرير لهذا في الآية الآتية واما عند المعتزلة فان هذه الحالة لما وقعت اشبهت الغرض في كونه واقعا فادخل عليه حرف اللام وهو كقوله ولقد ذرأنا لجهنم (السؤال الثامن) لم سموه مثلا (الجواب) انه لما كان هذا العدد عددا عجيبا ظن القوم انه ربما لم يكن مراد الله منه ما اشعر به ظاهره بل جعله مثلا لشيء آخر وتنبيها على مقصود آخر لا جرم سموه مثلا (السؤال التاسع) القوم كانوا ينكرون كون القرآن من عند الله فكيف قالوا ماذا أراد الله بهذا مثلا (الجواب) اما الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون فكانوا في الظاهر معترفين بأن القرآن من عند الله فلا جرم قالوا ذلك باللسان واما الكفار فقالوه على سبيل التهكم او على سبيل الاستدلال بأن القرآن لو كان من عند الله لما قال مثل هذا الكلام ※ قوله تعالى (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) وجه الاستدلال بالآية للاصحاب ظاهر لانه تعالى ذكر في اول الآية قوله وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ثم ذكر في آخر الآية وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ثم قال كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء اما المعتزلة فقد ذكروا الوجوه المشهورة التي لهم (احدها) ان المراد من الاضلال منع الالطاف (وثانيها) انه لما اهتدى قوم باختيارهم عند نزول هذه الآيات وضل قوم باختيارهم عند نزولها اشبه ذلك ان المؤثر في ذلك الاهتداء وذلك الاضلال هو هذه الآيات وهو كقوله فزادتهم ايمانا وكقوله فزادتهم رجسا (وثالثها) ان المراد من قوله يضل ومن

(كذلك يضل الله من يشاء) ذلك اشارة الى ما قبله من معنى الاضلال والهداية ومحل الكاف في الاصل النصب على انها صفة لمصدر محذوف وأصل التقدير يضل الله من يشاء (ويهدي من يشاء) اضلالا وهداية كائنين مثل ما ذكر من الاضلال والهداية فحذف المصدر واقيم وصفه مقامه ثم قدم على الفعل لافادة القصر فصار النظم مثل ذلك الاضلال وتلك الهداية يضل الله من يشاء اضلاله لصرف اختياره الى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله الناطقة بالحق ويهدي من يشاء هدايته لصرف اختياره عند مشاهدة تلك الآيات الى جانب الهدى لا اضلالا وهداية ادنى منهما (وما يعلم جنود ربك) اي جموع خلقه التي من جملتها الملائكة المذكورون (الا هو) اذ لا سبيل لأحد الى حصر الممكنات والوقوف على حقائقها وصفاتها ولو اجمالا فضلا عن الاطلاع على تفاصيل احوالها من كم وكيف ونسبة (وما هي) اي سقر او عدة خزنتها او الآيات الناطقة بأحوالها (الا ذكرى للبشر) الا تذكرة لهم (كلا) ردع لمن انكرها او انكار ونفي لان يكون لهم تذكر (والقمر والليل اذا دبر) وقرئ اذا دبر بمعنى ادبر كقبل بمعنى اقبل ومنه قولهم صاروا كأمس الدابر وقيل هو من

قوله يهدى حكم الله بكونه ضالا وبكونه مهتديا (ورابعها) انه تعالى يضلهم يوم القيامة عن دار الثواب وهذه الكلمات مع اجوبتها تقدمت فى سورة البقرة فى قوله يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ❊ قوله تعالى (وما يعلم جنود ربك الا هو) فيه وجوه (أحدها) وهو الاولى ان القوم استقلوا ذلك العدد فقال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو فهب ان هؤلاء تسعة عشر الا ان لكل واحد منهم من الاعوان والجنود ما لا يعلم عددهم الا الله (وثانيها) وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها الا هو فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ولكن له فى هذا العدد حكمة لا يعلمها الخلق وهو جل جلاله يعلمها (وثالثها) انه لا حاجة بالله سبحانه فى تعذيب الكفار والفساق الى هؤلاء الخزنة فانه هو الذى يعذبهم فى الحقيقة وهو الذى يخلق الآلام فيهم ولو انه تعالى قلب شعرة فى عين ابن آدم او سلط الالم على عرق واحد من عروق بدنه لكفاه ذلك بلاء ومحنة فلا يلزم من تقليل عدد الخزنة قلة العذاب فجنود الله غير متناهية لان مقدوراته غير متناهية ❊ قوله تعالى (وما هى الا ذكرى للبشر) الضمير فى قوله وما هى الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) انه عائد الى سقر والمعنى وما سقر وصفتها الا تذكرة للبشر (والثانى) انه عائد الى هذه الآيات المشتملة على هذه المتشابهات وهى ذكرى لجميع العالمين وان كان المنتفع بها ليس الا اهل الايمان ❊ ثم قال تعالى (كلا) وفيه وجوه (احدها) انه انكار بعد ان جعلها ذكرى ان تكون لهم ذكرى لانهم لا يتذكرون (وثانيها) انه ردع لمن ينكر ان يكون احدى الكبر نذيرا (وثالثها) انه ردع لقول ابى جهل واصحابه انهم يقدرون على مقاومة خزنة النار (ورابعها) انه ردع لهم عن الاستهزاء بالعدة المخصوصة ❊ ثم قال تعالى (والقمر والليل اذا دبر) وفيه قولان (الاول) قال الفراء والزجاج دبر وادبر بمعنى واحد كقبل واقبل ويدل على هذا قراءة من قرأ اذا دبر وروى ان مجاهدا سأل ابن عباس عن قوله دبر فسكت حتى اذا ادبر الليل قال يا مجاهد هذا حين دبر الليل وروى ابو الضحى ان ابن عباس كان يعيب هذه القراءة ويقول انما يدبر ظهر البعير قال الواحدى والقراءتان عند اهل اللغة سواء على ما ذكرنا وانشد ابو على

وابى الذى ترك الملوك وجمعهم * بصهاب هامدة كأمس الدابر

(القول الثانى) قال ابو عبيدة وابن قتيبة دبر اى جاء بعد النهار يقال دبرنى اى جاء خلفى ودبر الليل اى جاء بعد النهار قال قطرب فعلى هذا معنى اذا دبر اذا أقبل بعد مضى النهار ❊ قوله تعالى (والصبح اذا اسفر) اى أضاء وفى الحديث أسفروا بالفجر ومنه قوله وجوه يومئذ مسفرة اى مضيئة ❊ ثم قال تعالى (انها لاحدى الكبر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا الكلام هو جواب القسم او تعليل لكلا والقسم معترض للتوكيد (المسئلة الثانية) قال الواحدى الف احدى مقطوع ولا تذهب فى الوصل وروى عن ابن كثير انه قرأ انها لاحدى الكبر بحذف الهمزة كما يقال ويلمه وليس هذا الحذف

دبر الليل النهار اذا خلفه (والصبح اذا اسفر) اى اضاء وانكشف (انها لاحدى الكبر) جواب للقسم او تعليل لكلا والقسم معترض للتوكيد والكبر جمع الكبرى جعلت الف التأنيث كتائها فكما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها ونظيرها القواصع فى جمع القاصعاء كأنها جمع قاصعة اى لاحدى البلايا اولاحدى الدواهى الكبر على معنى ان البلايا الكبر او الدواهى الكبر كثيرة وهذه واحدة فى العظم لا نظيرة لها (نذيرا للبشر) تمييز اى لاحد الكبر انذارا اوحال مما دلت عليه الجملة اى كبرت منذرة وقرئ نذير بالرفع على انه خبر بعد خبر لان او لمبتدأ محذوف (لمن شاء منكم ان يتقدم او يتأخر) بدل من للبشر اى نذيرا لمن شاء منكم ان يسبق الى الخير فيهديه الله تعالى اولم يشأ ذلك فيضله وقيل لمن شاء خبر وان يتقدم او يتأخر مبتدأ فيكون فى معنى قوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (كل نفس بما كسبت رهينة) مرهونة عند الله تعالى بكسبها والرهينة اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم لا صفه والالقيل رهين لان فعيلا بمعنى مفعول لا يدخله التاء (الا اصحاب اليمين) فانهم فاكون رقابهم بما احسنوا من اعمالهم كما يفك الراهن رهنه بأداء الدين وقيل هم الملائكة وقيل الاطفال وقيل

بقياس والقياس التخفيف وهو ان يجعل بين بين (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف الكبر جمع الكبرى جعلت الف التأنيث كتاء التأنيث فكما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها ونظيرذلك السوافى فى جمع السافياء وهو التراب الذى سفته الريح والقواصع فى جمع القاصعاء كأنها جمع فاعلة (المسئلة الرابعة) انها لاحدى الكبر يعنى ان سقر التى جرى ذكرها لاحدى الكبر والمراد من الكبر دركات جهنم وهى سبعة جهنم ولظى والحطمة والسعير وسقر والجحيم والهاوية أعاذنا الله منها ❊ قوله تعالى (نذيرا للبشر) نذيرا تمييز من احدى على معنى انها لاحدى الدواهى انذارا كما تقول هى احدى النساء عفافا وقيل هو حال وفى قراءة ابى نذير بالرفع خبر بعد خبر او بحذف المبتدأ ❊ ثم قال تعالى (لمن شاء منكم ان يتقدم او يتأخر) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى تفسير الآية وجهان (الاول) ان يتقدم فى موضع الرفع بالابتداء ولمن شاء خبر مقدم عليه كقولك لمن توضأ ان يصلى ومعناه التقدم والتأخر مطلقان لمن شاءهما منكم والمراد بالتقدم والتأخر السبق الى الخير والتخلف عنه وهو فى معنى قوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (الثانى) لمن شاء بدل من قوله للبشر والتقدير انها نذير لمن شاء منكم ان يتقدم او يتأخر نظيره ولله على الناس حج البيت من استطاع (المسئلة الثانية) المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد متمكنا من الفعل غير مجبور عليه (وجوابه) ان هذه الآية دلت على ان فعل العبد معلق على مشيئته لكن مشيئة العبد معلقة على مشيئة الله تعالى لقوله وما تشاؤن الا ان يشاء الله وحينئذ تصير هذه الآية حجة لنا عليهم وذكر الاصحاب عن وجه الاستدلال بهذه الآية جوابين آخرين (الاول) ان معنى اضافة المشيئة الى المخاطبين التهديد كقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (الثانى) ان هذه المشيئة لله تعالى على معنى لمن شاء الله منكم ان يتقدم او يتأخر ❊ قوله تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة الا اصحاب اليمين) قال صاحب الكشاف رهينة ليست بتأنيث رهين فى قوله كل امرئ بما كسب رهين لتأنيث النفس لانه لو قصدت الصفة لقيل رهين لان فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث وانما هى اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم كأنه قيل كل نفس بما كسبت رهن ومنه بيت الحماسة

أبعد الذى بالنعف نعف كواكب ❊ رهينة رمس ذى تراب وجندل

كأنه قال رهن رمس والمعنى كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك الا اصحاب اليمين فانهم فكوا عنه رقاب انفسهم بسبب اعمالهم الحسنة كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق ثم ذكروا وجوها فى ان اصحاب اليمين من هم (احدها) قال ابن عباس هم المؤمنون (وثانيها) قال الكلبى هم الذين قال الله تعالى هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهم الذين كانوا على يمين آدم (وثالثها) قال مقاتل هم الذين اعطوا كتبهم بأيمانهم لا يرتهنون بذنوبهم فى النار (ورابعها) قال على بن ابى طالب عليه السلام وابن عمر هم أطفال المسلمين قال الفراء

هم الذين سبقت لهم من الله تعالى الحسنى وقيل الذين كانوا عن يمين آدم عليه السلام يوم الميثاق وقيل الذين يعطون كتبهم بأيمانهم (فى جنات) لا يكتنه كنهها ولا يدرك وصفها وهو خبر لمبتدأ محذوف والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ مما قبله من استثناء اصحاب اليمين كأنه قيل ما بالهم فقيل هم فى جنات وقيل حال من اصحاب اليمين وقيل من ضميرهم فى قوله تعالى (يتساءلون) وقيل ظرف للتساؤل وليس المراد بتساؤلهم ان يسأل بعضهم بعضا على ان يكون كل واحد منهم سائلا ومسؤلا معا بل صدور السؤال عنهم مجردا عن وقوعه عليهم فان صيغة التفاعل وان وضعت فى الاصل للدلالة على صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه معا بحيث يصير كل واحد من ذلك فاعلا ومفعولا معا كما فى قولك تراءى القوم اى رأى كل واحد منهم الآخر لكنها قد تجرد عن المعنى الثانى ويقصد بها الدلالة على الاول فقط فيذكر للفعل حينئذ مفعول كما فى قولك تراءوا الهلال فمعنى يتساءلون (عن المجرمين) يسألونهم عن احوالهم وقد حذف المسؤل لكونه عين المسؤل عنه وقوله تعالى (ما سلككم فى سقر) مقدر بقول هو حال من فاعل يتساءلون اى يسألونهم

وهو اشبه بالصواب لوجهين (الاول) لان الولدان لم يكتسبوا اثما يرتهنون به (والثانى) انه تعالى ذكر فى وصفهم فقال فى جنات يتساءلون عن المجرمين ماسلككم فى سقر وهذا انما يليق بالولدان لانهم لم يعرفوا الذنوب فسألوا ماسلككم فى سقر (وخامسها) عن ابن عباس هم الملائكة ❊ قوله تعالى (فى جنات) اى هم فى جنات لايكتنه وصفها ❊ ثم قال تعالى (يتساءلون عن المجرمين) وفيه وجهان (الاول) ان تكون كلمة عن صلة زائدة والتقدير يتساءلون المجرمين فيقولون لهم ماسلككم فى سقر فانه يقال سألته كذا ويقال سألته عن كذا (الثانى) ان يكون المعنى ان اصحاب اليمين يسأل بعضهم بعضا عن احوال المجرمين فان قيل فعلى هذا الوجه كان يجب ان يقولوا ماسلكهم فى سقر قلنا اجاب صاحب الكشاف عنه فقال المراد من هذا ان المسؤلين يلقون الى السائلين ماجرى بينهم وبين المجرمين فيقولون قلنا لهم ماسلككم فى سقر وفيه وجه آخر وهو ان يكون المراد ان اصحاب اليمين كانوا يتساءلون عن المجرمين اين هم فلما رأوهم قالوا لهم ماسلككم فى سقر والاضمارات كثيرة فى القرآن ❊ قوله تعالى (ماسلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى اتانا اليقين) المقصود من السؤال زيادة التوبيخ والتخجيل والمعنى ماحبسكم فى هذه الدركة من النار فأجابوا بأن هذا العذاب لأمور اربعة (اولها) قالوا لم نك من المصلين (وثانيها) لم نك نطعم المسكين وهذان يجب ان يكونا محمولين على الصلاة الواجبة والزكاة الواجبة لان ماليس بواجب لايجوز ان يعذبوا على تركه (وثالثها) وكنا نخوض مع الخائضين والمراد منه الاباطيل (ورابعها) وكنا نكذب بيوم الدين اى بيوم القيامة حتى اتانا اليقين اى الموت قال تعالى حتى يأتيك اليقين والمعنى انا بقينا على انكار القيامة الى وقت الموت وظاهر اللفظ يدل على ان كل احد من اولئك الاقوام كان موصوفا بهذه الخصال الاربعة واحتج اصحابنا بهذه الآية على ان الكفار يعذبون بترك فروع الشرائع والاستقصاء فيه قد ذكرناه فى المحصول من اصول الفقه فان قيل لم أخر التكذيب وهو افحش تلك الخصال الاربع قلنا أريد انهم بعد اتصافهم بتلك الامور الثلاثة كانوا مكذبين بيوم الدين والغرض تعظيم هذا الذنب كقوله ثم كان من الذين آمنوا ❊ ثم قال تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) واحتج اصحابنا على ثبوت الشفاعة للفساق بمفهوم هذه الآية وقالوا ان تخصيص هؤلاء بأنهم لاتنفعهم شفاعة الشافعين يدل على ان غيرهم تنفعهم شفاعة الشافعين ❊ ثم قال تعالى (فمالهم عن التذكرة معرضين) اى عن التذكير وهو العظة يريد القرآن اوغيره من المواعظ ومعرضين نصب على الحال كقولهم مالك قائما ثم شبههم فى نفورهم عن القرآن بحمر نافرة ❊ فقال تعالى (كأنهم حمر مستنفرة) قال ابن عباس يريد الحمر الوحشية مستنفرة اى نافرة يقال نفر واستنفر مثل سخر واستسخر وعجب واستعجب وقرئ بالفتح وهى المنفرة المحمولة على النفار قال ابو على الفارسى الكسر فى مستنفرة

قائلين اى شئ ادخلكم فيها فتأمل ودع عنك ماتكلف فيه المتكلفون (قالوا) اى المجرمون مجيبين للسائلين (لم نك من المصلين) للصلوات الواجبة (ولم نك نطعم المسكين) على معنى استمرار نفى الاطعام لاعلى نفى استمرار الاطعام كامر مرارا وفيه دلالة على ان الكفار مخاطبون بالفروع فى حق المؤاخذة (وكنا نخوض مع الخائضين) اى نشرع فى الباطل مع الشارعين فيه (وكنا نكذب بيوم الدين) اى بيوم الجزاء اضافوه الى الجزاء مع ان فيه من الدواهى والاهوال مالاغاية له لانه ادهاها واهولها وانهم ملابسوه وقد مضت بقية الدواهى وتأخير جنايتهم هذه مع كونها اعظم من الكل لتفخيمها كأنهم قالوا وكنا بعد ذلك كله مكذبين بيوم الدين ولبيان كون تكذيبهم به مقارنا لسائر جناياتهم المعدودة مستمرا الى آخر عمرهم حسبما نطق به قولهم (حتى اتانا اليقين) اى الموت ومقدماته (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) لو شفعوا لهم جميعا والفاء فى قوله تعالى (فما لهم عن التذكرة معرضين) لترتيب انكار اعراضهم عن القرآن بغير سبب على ماقبلها من موجبات الاقبال عليه والاتعاظ به من سوء حال المكذبين ومعرضين حال من الضمير فى الجار الواقع خبرا لما الاستفهامية وعن متعلقة

اولى ألا ترى انه قال فرت من قسورة وهذا يدل على انها هى استنفرت ويدل على صحة ماقال ابو على ان محمد بن سلام قال سألت اباسوار الغنوى وكان اعرابيا فصيحا فقلت كأنهم حمر ماذا فقال مستنفرة طردها قسورة قلت انما هو فرت من قسورة قال أفرت قلت نعم قال فمستنفرة اذا ❊ ثم قال تعالى (فرت) يعنى الحمر ❊ (من قسورة) وذكروا فى القسورة وجوها (احدها) انها الاسد يقال ليوث قساور وهى فعولة من القسر وهو القهر والغلبة سمى بذلك لانه يقهر السباع قال ابن عباس الحمر الوحشية اذا عاينت الاسد هربت كذلك هؤلاء المشركون اذا رأوا محمدا صلى الله عليه وسلم هربوا منه كما يهرب الحمار من الاسد ثم قال ابن عباس القسورة هى الاسد بلسان الحبشة وخالف عكرمة فقال الاسد بلسان الحبشة عنبسة (وثانيها) القسورة جماعة الرماة الذين يتصيدونها قال الازهرى هو اسم جمع للرماة لا واحد له من جنسه (وثالثها) القسورة ركز الناس واصواتهم (ورابعها) انها ظلمة الليل قال صاحب الكشاف وتشبيههم بالحمر شهادة عليهم بالبله ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها فى العدو اذا خافت من شئ ❊ ثم قال تعالى (بل يريد كل امرئ منهم ان يؤتى صحفا منشرة) انهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لانؤمن بك حتى تأتى كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين الى فلان بن فلان ونؤمر فيه باتباعك ونظيره لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه وقال ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم وقيل قالوا ان كان محمد صادقا فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة من النار وقيل كانوا يقولون بلغنا ان الرجل من بنى اسرائيل كان يصبح مكتوبا على رأسه ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك وهذا من الصحف المنشرة بمعزل الا ان يراد بالصحف المنشرة الكتابات الظاهرة المكشوفة وقرأ سعيد بن جبير صحفا منشرة بتخفيفهما على ان انشر الصحف ونشرها واحد كأنزله ونزله ❊ ثم قال تعالى (كلا) وهو ردع لهم عن تلك الارادة وزجر عن اقتراح الآيات ❊ ثم قال تعالى (بل لايخافون الآخرة) فلذلك اعرضوا عن التأمل فانه لما حصلت المعجزات الكثيرة كفت فى الدلالة على صحة النبوة فطلب الزيادة يكون من باب التعنت ❊ ثم قال تعالى (كلا) وهو ردع لهم عن اعراضهم عن التذكرة ❊ ثم قال تعالى (انه تذكرة) يعنى تذكرة بليغة كافية ❊ (فمن شاء ذكره) اى جعله نصب عينه فان نفع ذلك راجع اليه والضمير فى انه وذكره للتذكرة فى قوله فمالهم عن التذكرة معرضين وانما ذكر لانها فى معنى الذكر او القرآن ❊ ثم قال تعالى (وما يذكرون الا أن يشاء الله) قالت المعتزلة يعنى الا ان يقسرهم على الذكر ويلجئهم اليه (والجواب) انه تعالى نفى الذكر مطلقا واستثنى عنه حال المشيئة المطلقة فيلزم انه متى حصلت المشيئة يحصل الذكر فحيث لم يحصل الذكر علمنا انه لم تحصل المشيئة وتخصيص المشيئة بالمشيئة القهرية ترك للظاهر وقرئ يذكرون بالياء والتاء مخففا ومشددا ❊ ثم قال تعالى (هو اهل التقوى واهل المغفرة) اى هو حقيق بأن يتقيه عباده

(ويخافوا)

به اى فاذا كان حال المكذبين به على ماذكر فأى شئ حصل لهم معرضين عن القرآن مع تعاضد موجبات الاقبال عليه وتآخذ الدواعى الى الايمان به وقوله تعالى (كأنهم حمر مستنفرة) حال من المستكن فى معرضين بطريق التداخل اى مشبهين بحمر نافرة (فرت من قسورة) اى من أسد فعولة من القسر وهو القهر والغلبة وقيل هى جماعة الرماة الذين يتصيدونها شبهوا فى اعراضهم عن القرآن واستماع مافيه من المواعظ وشرادهم عنه بحمر جدت فى نفارها مما افزعها وفيه من ذمهم وتهجين حالهم مالا يخفى وقوله تعالى (بل يريد كل امرئ منهم ان يؤتى صحفا منشرة) عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل لايكتفون بتلك التذكرة ولايرضون بها بل يريد كل واحد منهم ان يؤتى قراطيس تنشر وتقرأ وذلك انهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لن نتبعك حتى تأتى كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين الى فلان ابن فلان نؤمر فيها باتباعك كما قالوا لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه وقرئ صحفا منشرة بسكون الحاء والتنوين (كلا) ردع لهم عن تلك الجراءة (بل لايخافون الآخرة) فلذلك يعرضون عن التذكرة لا لامتناع ايتاء الصحف

ويخافوا عقابه فيؤمنوا ويطيعوا وحقيق بأن يغفرلهم ماسلف من كفرهم اذا آمنوا وأطاعوا والله اعلم والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

(سورة القيامة اربعون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(لااقسم بيوم القيامة ولااقسم بالنفس اللوامة) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) المفسرون ذكروا في لفظة لا في قوله لاأقسم ثلاثة اوجه (الاول) انها صلة زائدة والمعنى أقسم بيوم القيامة ونظيره لئلا يعلم اهل الكتاب وقوله مامنعك ان لاتسجد فبمارحمة من الله وهذا القول عندى ضعيف من وجوه (اولها) ان تجويز هذا يفضى الى الطعن فى القرآن لان على هذا التقدير يجوز جعل النفى اثباتا والاثبات نفيا وتجويزه يفضى الى ان لايبقى الاعتماد لا على اثباته ولا على نفيه (وثانيها) ان هذا الحرف انما تزاد فى وسط الكلام لا فى اوله فان قيل الكلام عليه من وجهين (الاول) لانسلم انها انما تزاد فى وسط الكلام ألاترى الى امرئ القيس كيف زادها فى مستهل قصيدته وهى قوله

لاوأبيك ابنة العامرى * لايدعى القوم انى افر

(الثانى) هب ان هذا الحرف لايزاد فى اول الكلام الا ان القرآن كله كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض والدليل عليه انه قد يذكر الشئ فى سورة ثم يجئ جوابه فى سورة اخرى كقوله تعالى وقالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون ثم جاء جوابه فى سورة اخرى وهو قوله ماأنت بنعمة ربك بمجنون واذا كان كذلك كان اول هذه السورة جاريا مجرى وسط الكلام (والجواب) عن الاول ان قوله لاوأبيك قسم على النفى وقوله لاأقسم نفى للقسم فتشبيه احدهما بالآخر غير جائز وانما قلنا ان قوله لاأقسم نفى للقسم لانه على وزان قولنا لااقتل لااضرب لاانصر ومعلوم ان ذلك يفيد النفى والدليل عليه انه لو حلف لايقسم كان البر بترك القسم والحنث بفعل القسم فظهر ان البيت المذكور ليس من هذا الباب (وعن الثانى) ان القرآن كالسورة الواحدة فى عدم التناقض فاما فى ان يقرن بكل آية ماقرن بالآية الاخرى فذلك غير جائز لانه يلزم جواز ان يقرن بكل اثبات حرف النفى الوارد فى سائر الآيات وذلك يقتضى انقلاب كل اثبات نفيا وانقلاب كل نفى اثباتا وانه لايجوز (وثالثها) ان المراد من قولنا لاصلة انه لغو باطل يجب طرحه واسقاطه حتى ينتظم الكلام ومعلوم ان وصف كلام الله تعالى بذلك لايجوز (القول الثانى) للمفسرين فى هذه الآية مانقل عن الحسن انه قرأ لأقسم على ان اللام للابتداء واقسم خبر مبتدأ محذوف معناه لأنا اقسم ويعضده انه فى مصحف عثمان بغير الف واتفقوا فى قوله ولااقسم بالنفس اللوامة على لااقسم قال الحسن معنى الآية انى اقسم بيوم القيامة لشرفها ولااقسم بالنفس اللوامة لخساستها وطعن ابو عبيد فى هذه القراءة

(كلا) ردع عن اعراضهم (انه) اى القرآن (تذكرة) واى تذكرة (فمن شاء) ان يذكره (ذكره) وحاز بسببه سعادة الدارين (وما يذكرون) بمجرد مشيئتهم للذكر كما هو المفهوم من ظاهر قوله تعالى فمن شاء ذكره اذ لاتأثير لمشيئة العبد وارادته فى افعاله وقوله تعالى (الا أن يشاء الله) استثناء مفرغ من أعم العلل اومن اعم الاحوال اى ومايذكرون بعلة من العلل اوفى حال من الاحوال الا بأن يشاء الله أو حال ان يشاء الله ذلك وهو تصريح بأن افعال العباد بمشيئة الله عز وجل وقرئ تذكرون على الخطاب التفاتا وقرئ بهما مشددا (هو اهل التقوى) اى حقيق بأن يتقى عقابه ويؤمن به ويطاع (واهل المغفرة) حقيق بأن يغفر لمن آمن به واطاعه * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المدثر اعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد صلى الله عليه وسلم وكذب به بمكة

(سورة القيامة مكية وآيها تسع وثلاثون)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(لاأقسم بيوم القيامة) ادخال لا النافية على فعل القسم شائع وفائدتها توكيد القسم قالوا انها صلة مثلها فى قوله تعالى لئلا يعلم اهل الكتاب وقيل هى للنفى لكن لالنفى نفس الاقسام بل لنفى

وقال لوكان المراد هذا لقال لأقسمن لان العرب لاتقول لأفعل كذا وانما يقولون لأفعلن كذا الاان الواحدى حكى جواز ذلك عن سيبويه والفراء واعلم ان هذا الوجه ايضا ضعيف لان هذه القراءة شاذة فهب ان هذا الشاذ استمر فالوجه فى القراءة المشهورة المتواترة ولا يمكن دفعها والالكان ذلك قدحا فيما ثبت بالتواتر وايضا فلابد من اضمار قسم آخر لتكون هذه اللام جوابا عنه فيصير التقدير والله لأقسم بيوم القيامة فيكون ذلك قسما على قسم وانه ركيك ولانه يفضى الى التسلسل (القول الثالث) ان لفظة لا وردت للنفى ثم ههنا احتمالان (الاول) انها وردت نفيا لكلام ذكر قبل القسم كأنهم انكروا البعث فقيل لا ليس الامر على ماذكرتم ثم قيل أقسم بيوم القيامة وهذا ايضا فيه اشكال لان اعادة حرف النفى مرة أخرى فى قوله ولا أقسم بالنفس اللوامة مع ان المراد ماذكروه تقدح فى فصاحة الكلام (الاحتمال الثانى) ان لا ههنا لنفى القسم كأنه قال لا أقسم عليكم بذلك اليوم وتلك النفس ولكنى اسألك غير مقسم أتحسب انا لانجمع عظامك اذا تفرقت بالموت فان كنت تحسب ذلك فاعلم انا قادرون على ان نفعل ذلك وهذا القول اختيار ابى مسلم وهو الاصح ويمكن تقرير هذا القول على وجوه أخر (احدها) كأنه تعالى يقول لا أقسم بهذه الاشياء على اثبات هذا المطلوب فأن هذا المطلوب اعظم وأجل من ان يقسم عليه بهذه الاشياء ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم وتفخيم شأنه (وثانيها) كأنه تعالى يقول لا أقسم بهذه الاشياء على اثبات هذا المطلوب فان اثباته أظهر وأجلى وأقوى وأحرى من ان يحاول اثباته بمثل هذا القسم ثم قال بعده أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه اى كيف خطر بباله هذا الخاطر الفاسد مع ظهور فساده (وثالثها) ان يكون الغرض منه الاستفهام على سبيل الانكار والتقدير ألا أقسم بالقيامة ألا أقسم بالنفس اللوامة على ان الحشر والنشر حق (المسئلة الثانية) ذكروا فى النفس اللوامة وجوها (احدها) قال ابن عباس ان كل نفس فأنها تلوم نفسها يوم القيامة سواء كانت برة او فاجرة اما البرة فلأجل انها لم تزد على طاعتها واما الفاجرة فلأجل انها لم تشتغل بالتقوى وطعن بعضهم فى هذا الوجه من وجوه (الاول) ان من يستحق الثواب لا يجوز ان يلوم نفسه على ترك الزيادة لانه لو جاز منه لوم نفسه على ذلك لجاز من غيره ان يلومها عليه (الثانى) ان الانسان انما يلوم نفسه عند الضجارة وضيق القلب وذلك لا يليق بأهل الجنة حال كونهم فى الجنة ولان المكلف يعلم انه لا مقدار من الطاعة الا ويمكن الاتيان بما هو ازيد منه فلو كان ذلك موجبا للوم لامتنع الانفكاك عنه وما كان كذلك لا يكون مطلوب الحصول ولا يلام على ترك تحصيله (والجواب) عن الكل ان يحمل اللوم على تمنى الزيادة وحينئذ تسقط هذه الاسئلة (وثانيها) ان النفس اللوامة هى النفوس المتقية التى تلوم النفس العاصية يوم القيامة بسبب انها تركت التقوى (وثالثها) انها هى النفوس الشريفة التى لا تزال تلوم نفسها وان اجتهدت فى الطاعة وعن

ما ينبئ هو عنه من اعظام المقسم به وتفخيمه كأن معنى لا اقسم بكذا الأعظمه بأقسامى به حق اعظامه فانه حقيق بأكثر من ذلك واكثر واماما قيل من ان المعنى نفى الاقسام لوضوح الامر فقد عرفت ما فيه فى قوله تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم وقيل ان لا نفى ورد لكلام معهود قبل القسم كأنهم انكروا البعث فقيل لا اى ليس الامر كذلك ثم قيل أقسم بيوم القيامة كقولك لا والله ان البعث حق وأياما كان ففى الاقسام على تحقق البعث بيوم القيامة من الجزالة مالا مزيد عليه وقد مر تفصيله فى سورة يس وسورة الزخرف (ولا أقسم بالنفس اللوامة) اى بالنفس المتقية التى تلوم النفوس يومئذ على تقصيرهن فى التقوى ففيه طرف من البراعة التى فى القسم السابق او بالنفس التى لا تزال تلوم نفسها وان اجتهدت فى الطاعات او بالنفس المطمئنة اللائمة للنفس الامارة وقيل بالجنس لما روى انه عليه الصلاة والسلام قال ليس من نفس برة ولا فاجرة الا وتلوم نفسها يوم القيامة ان عملت خيرا قالت كيف لم ازدد وان عملت شرا قالت ليتنى كنت قصرت ولا يخفى ضعفه فان هذا القدر من اللوم لا يكون مدار اللاعظام بالاقسام وان صدر عن النفس المؤمنة المسيئة فكيف من الكافرة

الحسن ان المؤمن لاتراه الا لائما نفسه واما الجاهل فانه يكون راضيا بما هو فيه من الاحوال الخسيسة (ورابعها) انها نفس آدم لم تزل تلوم على فعلها الذى خرجت به من الجنة (وخامسها) المراد نفوس الاشقياء حين شاهدت احوال القيامة واهوالها فانها تلوم نفسها على ماصدر عنها من المعاصى ونظيره قوله تعالى أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت (وسادسها) ان الانسان خلق ملولا فأى شئ طلبه اذا وجده مله فحينئذ يلوم نفسه على انى لم طلبته فلكثرة هذا العمل سمى بالنفس اللوامة ونظيره قوله تعالى ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا *واعلم ان قوله لوامة ينبئ عن التكرار والاعادة وكذا القول فى لوام وكذاب وضرار (المسئلة الثالثة) اعلم ان فى الآية شكالات (احدها) ماالمناسبة بين القيامة وبين النفس اللوامة حتى جمع الله بينهما فى القسم (وثانيها) المقسم عليه هو وقوع القيامة فيصير حاصله الى انه تعالى اقسم بوقوع القيامة على وقوع القيامة (وثالثها) لم قال لااقسم بيوم القيامة ولم يقل والقيامة كما قال فى سائر السور والطور والذاريات والضحى (والجواب) عن الاول من وجوه (احدها) ان احوال القيامة عجيبة جدا ثم المقصود من اقامة القيامة اظهار احوال النفوس اللوامة اعنى سعادتها وشقاوتها فقد حصل بين القيامة والنفوس اللوامة هذه المناسبة الشديدة (وثانيها) ان القسم بالنفس اللوامة تنبيه على عجائب احوال النفس على ماقاله عليه الصلاة والسلام من عرف نفسه فقد عرف ربه ومن احوالها العجيبة قوله تعالى وماخلقت الجن والانس الاليعبدون وقوله اناعرضنا الامانة الى قوله وحملها الانسان وقال قائلون القسم وقع بالنفس اللوامة على معنى التعظيم لها من حيث انها ابدا تستحقر فعلها وجدها واجتهادها فى طاعة الله وقال آخرون انه تعالى اقسم بالقيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة وهذا على القراءة الشاذة التى رويناها عن الحسن فكأنه تعالى قال اقسم بيوم القيامة تعظيما لها ولااقسم بالنفس اللوامة تحقيرا لها لان النفس اللوامة اماان تكون كافرة بالقيامة مع عظم امرها واماان تكون فاسقة مقصرة فى العمل وعلى التقديرين فانها تكون مستحقرة (واماالسؤال الثانى) فالجواب عنه ماذكرنا ان المحققين قالوا القسم بهذه الاشياء قسم بربها وخالقها فى الحقيقة فكأنه قيل اقسم برب القيامة على وقوع يوم القيامة (واماالسؤال الثالث) فجوابه انه حيث اقسم قال والطور والذاريات واماههنا فانه نفى كونه تعالى مقسما بهذه الاشياء فزال السؤال والله تعالى أعلم * قوله تعالى (أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه بلاقادرين على ان نسوى بنانه) فيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى جواب القسم وجوها (احدها) وهو قول الجمهور انه محذوف على تقدير ليبعثن ويدل عليه ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه (وثانيها) قال الحسن وقع القسم على قوله بلى قادرين (وثالثها) وهو اقرب ان هذا ليس بقسم بل هو نفى للقسم فلا يحتاج الى الجواب فكأنه تعالى يقول لااقسم بكذا وكذا على شئ ولكنى اسألك ايحسب

لمندرجة تحت الجنس وقيل بنفس آدم عليه السلام فانها لاتزال تلوم على فعلها الذى خرجت به من الجنة وجواب القسم مادل عليه قوله تعالى (ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه) وهو ليبعثن والمراد بالانسان الجنس والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وان مخففة من الثقيلة وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف اى ايحسب ان الشأن لن نجمع عظامه فان ذلك حسبان باطل فانا نجمعها بعد تشتتها ورجوعها رميما ورفاتا مختلطا بالتراب وبعد ماسفتها الرياح وطيرتها فى اقطار الارض والقتها

الانسان ان لن نجمع عظامه (المسئلة الثانية) المشهور ان المراد من الانسان انسان معين روى ان عدى بن ابى ربيعة ختن الاخنس بن شريق وهما اللذان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيهما اللهم اكفنى شر جارى السوء قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد حدثنى عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو عاينت ذلك اليوم لم اصدقك يا محمد ولم أومن بك كيف يجمع الله العظام فنزلت هذه الآية وقال ابن عباس يريد بالانسان ههنا أباجهل وقال جمع من الاصوليين بل المراد الانسان المكذب بالبعث على الاطلاق (المسئلة الثالثة) قرأ قتادة ان لن تجمع عظامه على البناء للمفعول والمعنى ان الكافر ظن ان العظام بعد تفرقها وصيرورتها ترابا واختلاط تلك الاجزاء بغيرها وبعد مانسفتها الرياح وطيرتها فى اباعد الارض لا يمكن جمعها مرة أخرى وقال تعالى فى جوابه بلى فهذه الكلمة أوجبت ما بعد النفى وهو الجمع فكأنه قيل بلى يجمعها وفى قوله تعالى قادرين وجهان (الاول) وهو المشهور انه حال من الضمير فى نجمع اى نجمع العظام قادرين على تأليف جميعها واعادتها الى التركيب الاول وهذا الوجه عندى فيه اشكال وهو ان الحال انما يحسن ذكره اذا أمكن وقوع ذلك الامر لا على تلك الحالة تقول رأيت زيدا راكبا لانه يمكن ان ترى زيدا غير راكب وههنا كونه تعالى جامعا للعظام يستحيل وقوعه الامع كونه قادرا فكان جعله حالا جاريا مجرى بيان الواضحات وانه غير جائز (والثانى) ان تقدير الآية كنا قادرين على ان نسوى بنانه فى الابتداء فوجب ان نبقى قادرين على تلك التسوية فى الانتهاء وقرئ قادرون اى ونحن قادرون وفى قوله على ان نسوى بنانه وجوه (احدها) انه نبه بالبنان على بقية الاعضاء اى نقدر على ان نسوى بنانه بعد صيرورته ترابا كما كان وتحقيقه ان من قدر على الشئ فى الابتداء قدر ايضا عليه فى الاعادة وانما خص البنان بالذكر لانه آخر ما يتم خلقه فكأنه قيل نقدر على ضم سلامياته على صغرها ولطافتها بعضها الى بعض كما كانت اولا من غير نقصان ولا تفاوت فكيف القول فى كبار العظام (وثانيها) بلى قادرين على ان نسوى بنانه اى نجعلها مع كفه صفيحة مستوية لا شقوق فيها كخف البعير فيعدم الارتفاق بالاعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة وسائر الاعمال اللطيفة التى يستعان عليها بالاصابع والقول الاول اقرب الى الصواب ❊ قوله تعالى (بل يريد الانسان ليفجر امامه) اعلم ان قوله بل يريد عطف على ايحسب فيجوز فيه ان يكون ايضا استفهاما كأنه استفهم عن شئ ثم استفهم عن شئ آخر ويجوز ان يكون ايجابا كأنه استفهم اولا ثم أتى بهذا الاخبار ثانيا وقوله ليفجر امامه فيه قولان (الاول) اى ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه وعن سعيد بن جبير يقدم الذنب ويؤخر التوبة يقول سوف اتوب حتى يأتيه الموت على شر احواله واسوأ اعماله (القول الثانى) ليفجر امامه اى ليكذب بما امامه من البعث والحساب لان من كذب حقا كان كاذبا وفاجرا والدليل عليه قوله تعالى يسأل ايان

فى البحار وقيل ان عدى بن ابى ربيعة ختن الاخنس بن شريق وهما اللذان كان النبى عليه الصلاة والسلام يقول فيهما اللهم اكفنى جارى السوء قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد حدثنى عن يوم القيامة متى يكون وكيف امره فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو عاينت ذلك اليوم لم اصدقك او يجمع الله هذه العظام (بلى) اى نجمعها حال كوننا (قادرين على ان نسوى بنانه) اى نجمع سلامياته ونضم بعضها الى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها فكيف بكبار العظام او

يوم القيامة فالمعنى يريد الانسان ليفجر امامه اى ليكذب بيوم القيامة وهو امامه فهو يسأل ايان يوم القيامة اى متى يكون ذلك تكذيباله ❊ثم قال تعالى (يسأل ايان يوم القيامة) أى يسأل سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة فى قوله ايان يوم القيامة ونظيره ويقولون متى هذا الوعد❊واعلم ان انكار البعث تارة يتولد من الشبهة واخرى من الشهوة اما من الشبهة فهو الذى حكاه الله تعالى بقوله ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه وتقريره ان الانسان هو هذا البدن فاذا مات تفرقت اجزاء البدن واختلطت تلك الاجزاء بسائر اجزاء التراب وتفرقت فى مشارق الارض ومغاربها فكان تمييزها بعد ذلك عن غيرها محالا فكان البعث محالا واعلم ان هذه الشبهة ساقطة من وجهين (الاول) لانسلم ان الانسان هو هذا البدن فلم لايجوز ان يقال انه شئ مدبر لهذا البدن فاذا فسد هذا البدن بقى هو حيا كما كان وحينئذ يكون الله تعالى قادرا على أن يرده الى اى بدن شاء وأراد وعلى هذا القول يسقط السؤال وفى الآية اشارة الى هذا لانه اقسم بالنفس اللوامة ثم قال ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه وهو تصريح بالفرق بين النفس والبدن (الثانى) ان سلمنا ان الانسان هو هذا البدن فلم قلتم انه بعد تفريق اجزائه لايمكن جمعه مرة اخرى وذلك لانه تعالى عالم بجميع الجزئيات فيكون عالما بالجزء الذى هو بدن زيد وبالجزء الذى هو بدن عمرو وهو تعالى قادر على كل الممكنات وذلك التركيب من الممكنات والالما وجد اولا فيلزم ان يكون قادرا على تركيبها ومتى ثبت كونه تعالى عالما بجميع الجزئيات قادرا على جميع الممكنات لايبقى فى المسئلة اشكال (واما القسم الثانى) وهو انكار من انكر المعاد بناء على الشهوة فهو الذى حكاه الله تعالى بقوله بل يريد الانسان ليفجر امامه ومعناه ان الانسان الذى يميل طبعه الى الاسترسال فى الشهوات والاستكثار من اللذات لايكاد يقر بالحشر والنشر وبعث الاموات لئلا تتنغص عليه هذه اللذات الجسمانية فيكون ابدا منكرا لذلك قائلا على سبيل الهزؤ والسخرية ايان يوم القيامة ❊ ثم انه تعالى ذكر علامات القيامة فقال (فاذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ اين المفر) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى ذكر من علامات القيامة فى هذا الموضع امورا ثلاثة (اولها) قوله فاذا برق البصر قرئ برق بكسر الراء وفتحها قال الاخفش المكسورة فى كلامهم اكثر والمفتوحة لغة ايضا قال الزجاج برق بصره بكسر الراء يبرق برقا اذا تحير والاصل فيه ان يكثر الانسان من النظر الى لمعان البرق فيؤثر ذلك فى ناظره ثم يستعمل ذلك فى كل حيرة وان لم يكن هناك نظر الى البرق كما قالوا قمر بصره اذا فسد من النظر الى القمر ثم استعير فى الحيرة وكذلك بعل الرجل فى امره اى تحير ودهش واصله من قولهم بعلة المرأة اذا فاجأها زوجها فنظرت اليه وتحيرت واما برق بفتح الراء فهو من البريق اى لمع من شدة شخوصه وقرأ ابو السمال بلق بمعنى انفتح وانفرج يقال بلق الباب وابلقته وبلقته فتحته (المسئلة الثانية)

على ان نسوى اصابعه التى هى اطرافه وآخر مايتم به خلقه وقرئ قادرون اى نحن قادرون (بل يريد الانسان ليفجر امامه) عطف على أيحسب اما على انه استفهام مثله اضرب عن التوبيخ بذلك الى التوبيخ بهذا اوعلى انه ايجاب انتقل اليه عن الاستفهام اى بل يريد ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الاوقات وما يستقبله من الزمان لايرعوى عنه (يسأل ايان يوم القيامة) اى متى يكون استبعادا او استهزاء (فاذا برق البصر) اى تحير فزعا من برق الرجل اذا نظر الى البرق فدهش بصره

اختلفوا فى ان هذه الحالة متى تحصل فقيل عند الموت وقيل عند البعث وقيل عند رؤية جهنم فن قال ان هذا يكون عند الموت قال ان البصر يبرق على معنى يشخص عند معاينة اسباب الموت والملائكة كما يوجد ذلك فى كل واحد اذا قرب موته ومن مال الى هذا التأويل قال انهم انما سألوه عن يوم القيامة لكنه تعالى ذكر هذه الحالة الحادثة عند الموت والسبب فيه من وجهين (الاول) ان المنكر لما قال ايان يوم القيامة على سبيل الاستهزاء فقيل له اذا برق البصر وقرب الموت زالت عنه الشكوك وتيقن حينئذ ان الذى كان عليه من انكار البعث والقيامة خطأ (الثانى) انه اذا قرب موته وبرق بصره تيقن ان انكار البعث لاجل طلب اللذات الدنيوية كان باطلا واما من قال بأن ذلك انما يكون عند قيام القيامة قال لان السؤال انما كان عن يوم القيامة فوجب ان يقع الجواب بما يكون من خواصه وآثاره قال تعالى انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار (وثانيها) قوله وخسف القمر وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) يحتمل ان يكون المراد من خسوف القمر ذهاب ضوئه كما نعقله من حاله اذا خسف فى الدنيا ويحتمل ان يكون المراد ذهابه بنفسه كقوله فخسفنا به وبداره الارض (المسئلة الثانية) قرئ وخسف القمر على البناء للمفعول (وثالثها) قوله وجمع الشمس والقمر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى كيفية الجمع وجوها (احدها) انه تعالى قال لا الشمس ينبغى لها ان تدرك القمر فاذا جاء وقت القيامة ادرك كل واحد منهما صاحبه واجتمعا (وثانيها) جمعا فى ذهاب الضوء فهو كما يقال الشافعى يجمع مابين كذا وكذا فى حكم كذا (وثالثها) يجمعان اسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران فى النار وقيل يجمعان ثم يقذفان فى البحر فهناك نار الله الكبرى واعلم ان هذه الوجوه التى ذكرناها فى قوله وخسف القمر وجمع الشمس والقمر انما تستقيم على مذهب من يجعل برق البصر من علامات القيامة فاما من يجعل برق البصر من علامات الموت قال معنى وخسف القمر اى ذهب ضوء البصر عند الموت يقال عين خاسفة اذا فقئت حتى غابت حدقتها فى الرأس واصلها من خسفت الارض اذا ساخت بما عليها وقوله وجمع الشمس والقمر كناية عن ذهاب الروح الى عالم الآخرة كأن الآخرة كالشمس فانه يظهر فيها المغيبات وتتضح فيها المبهمات والروح كالقمر فانه كما ان القمر يقبل النور من الشمس فكذا الروح تقبل نور المعارف من عالم الآخرة ولاشك ان تفسير هذه الآيات بعلامات القيامة اولى من تفسيرها بعلامات الموت واشد مطابقة لها (المسئلة الثانية) قال الفراء انما قال جمع ولم يقل جمعت لان المراد انه جمع بينهما فى زوال النور وذهاب الضوء وقال الكسائى المعنى جمع النوران والضياآن وقال ابوعبيدة القمر شارك الشمس فى الجمع وهو مذكر فلاجرم غلب جانب التذكير فى اللفظ قال الفراء قلت لمن نصر هذا القول كيف تقولون الشمس جمع والقمر فقالوا جمعت فقلت ماالفرق بين الموضعين فرجع عن هذا القول (المسئلة الثالثة) طعنت الملاحدة فى الآية وقالوا

وقرئ بفتح الراء وهى لغة او من البريق بمعنى لمع من شدة شخوصه وقرئ بلق اى انفتح وانفرج (وخسف القمر) اى ذهب ضوءه وقرئ على البناء للمفعول (وجمع الشمس والقمر) بأن يطلعهما الله تعالى من المغرب وقيل جمعا فى ذهاب الضوء وقيل يجمعان اسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران فى النار وتذكير الفعل لتقدمه وتغليب المعطوف (يقول الانسان يومئذ) اى يوم اذ تقع هذه الامور (اين المفر) اى الفرار يأسا منه وقرئ بالكسر اى موضع الفرار وقد جوز ان يكون هو ايضا

خسوف القمر لايحصل حال اجتماع الشمس والقمر (والجواب) الله تعالى قادر على ان يجعل القمر منخسفا سواء كانت الارض متوسطة بينه وبين الشمس اولم تكن والدليل عليه ان الاجسام متماثلة فيصح على كل واحد منها مايصح على الآخر والله قادر على كل الممكنات فوجب ان يقدر على ازالة الضوء عن القمر في جميع الاحوال ❊ قوله تعالى يقول الانسان يومئذ أين المفر اى يقول هذا الانسان المنكر للقيامة اذا عاين هذه الاحوال اين المفر والقراءة المشهورة بفتح الفاء وقرئ ايضا بكسر الفاء والمفر بفتح الفاء هو الفرار قال الاخفش والزجاج المصدر من فعل يفعل مفتوح العين وهو قول جمهور اهل اللغة والمعنى أين الفرار وقول القائل أين الفرار يحتمل معنيين (احدهما) انه لايرى علامات مكنة الفرار فيقول حينئذ أين الفرار كما اذا أيس من وجدان زيد يقول أين زيد (الثانى) ان يكون المعنى الى أين الفرار واما المفر بكسر الفاء فهو الموضع فزعم بعض اهل اللغة ان المفر بفتح الفاء كما يكون اسما للمصدر فقد يكون ايضا اسما للموضع والمفر بكسر الفاء كما يكون اسما للموضع فقد يكون مصدرا ونظيره المرجع ❊ قوله تعالى (كلا) وهو ردع عن طلب المفر (لاوزر) قال المبرد والزجاج اصل الوزر الجبل المنيع ثم يقال لكل ما التجأت اليه وتحصنت به وزر وأنشد المبرد قول كعب بن مالك

الناس آلت علينا فيك ليس لنا ❊ الا السيوف واطراف القنا وزر

ومعنى الآية انه لاشئ يعتصم به من امر الله ❊ ثم قال تعالى (الى ربك يومئذ المستقر) وفيه وجهان (احدهما) ان يكون المستقر بمعنى الاستقرار بمعنى انهم لايقدرون ان يستقروا الى غيره وينصبوا الى غيره كما قال ان الى ربك الرجعى والى الله المصير لا الى الله تصير الامور وان الى ربك المنتهى (الثانى) ان يكون المعنى الى ربك مستقرهم اى موضع قرارهم من جنة أو نار أى مفوض ذلك الى مشيئته من شاء ادخله الجنة ومن شاء ادخله النار ❊ قوله تعالى (ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وآخر) بما قدم من عمل عمله وبما اخر من عمل لم يعمله او بما قدم من ماله فتصدق به وبما اخره فخلفه او بما قدم من عمل الخير والشر وبما اخر من سنة حسنة اوسيئة فعمل بها بعده وعن مجاهد انه مفسر بأول العمل وآخره ونظيره قوله فينبئهم بما عملوا احصاه الله ونسوه وقال ونكتب ماقدموا وآثارهم واعلم ان الاظهر ان هذا الانباء يكون يوم القيامة عند العرض والمحاسبة ووزن الاعمال ويجوز ان يكون عند الموت وذلك انه اذا مات بين له مقعده من الجنة والنار ❊ قوله تعالى (بل الانسان على نفسه بصيرة) اعلم انه تعالى لما قال ينبأ الانسان يومئذ باعماله قال بل لايحتاج الى ان ينبئه غيره وذلك لان نفسه شاهدة بكونه فاعلا لتلك الافعال مقدما عليها ثم في قوله بصيرة وجهان (الاول) قال الاخفش جعله في نفسه بصيرة كما يقال فلان جود وكرم فههنا ايضا كذلك لان الانسان بضرورة عقله يعلم ان مايقربه الى الله ويشغله بطاعته وخدمته فهو السعادة ومايبعده عن طاعة الله ويشغله بالدنيا ولذاتها فهو الشقاوة

مصدرا كالمرجع (كلا) ردع من طلب المفر وتمنيه (لاوزر) لاملجأ مستعار من الجبل وقيل كل ما التجأت اليه وتخلصت به فهو وزرك (الى ربك يومئذ المستقر) اى اليه وحده استقرار العباد اوالى حكمه استقرار امرهم او الى مشيئته موضع قرارهم يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار (ينبأ الانسان يومئذ) اى يخبر كل امرئ برا كان او فاجرا عند وزن الاعمال (بما قدم) اى عمل من عمل خيرا كان اوشرا فيثاب بالاول ويعاقب بالثانى (واخر) اى لم يعمل خيرا كان اوشرا

فهو انه بلسانه يروج ويزور ويرى الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق لكنه بعقله السليم يعلم ان الذي هو عليه في ظاهره جيد اوردئ (والثاني) ان المراد جوارحه تشهد عليه بما عمل فهو شاهد على نفسه بشهادة جوارحه وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل وهو كقوله يوم تشهد عليهم ألسنتهم وايديهم وارجلهم وقوله وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم وقوله شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم فأما تأنيث البصيرة فيجوز ان يكون لان المراد بالانسان ههنا جوارح الانسان كأنه قيل بل جوارح الانسان على نفس الانسان بصيرة وقال ابو عبيدة هذه الهاء لاجل المبالغة كقوله رجل راوية وطاغية وعلامة واعلم انه تعالى ذكر في الآية الاولى ان الانسان يخبر يوم القيامة باعماله ثم ذكر في هذه الآية انه شاهد على نفسه بما عمل فقال الواحدي هذا يكون من صفة الكفار فانهم ينكرون ما عملوا فيختم الله على أفواههم وينطق جوارحهم * قوله تعالى (ولو ألقى معاذيره) للمفسرين فيه اقوال (الاول) قال الواحدي المعاذير جمع معذرة يقال معذرة ومعاذر ومعاذير قال صاحب الكشاف جمع المعذرة معاذر والمعاذير ليس جمع معذرة وانما هو اسم جمع لها ونحوه المناكير في المنكر والمعنى ان الانسان وان اعتذر عن نفسه وجادل عنها وأتى بكل عذر وحجة فانه لا ينفعه ذلك لانه شاهد على نفسه (القول الثاني) قال الضحاك والسدي والفراء والمبرد والزجاج المعاذير الستور واحدها معذار قال المبرد هي لغة يمانية قال صاحب الكشاف ان صحت هذه الرواية فذاك مجاز من حيث ان الستر يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب والمعنى على هذا القول انه وان اسبل الستر ليخفى ما يعمل فان نفسه شاهدة عليه * قوله تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به) فيه مسائل (المسئلة الاولى) زعم قوم من قدماء الروافض ان هذا القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص عنه واحتجوا عليه بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها ولو كان هذا الترتيب من الله تعالى لما كان الامر كذلك واعلم ان في بيان المناسبة وجوها (اولها) يحتمل ان يكون الاستعجال المنهي عنه انما اتفق للرسول عليه السلام عند انزال هذه الآيات عليه فلاجرم نهى عن ذلك الاستعجال في هذا الوقت وقيل له لا تحرك به لسانك لتعجل به وهذا كما ان المدرس اذا كان يلقي على تلميذه شيئا فأخذ التلميذ يلتفت يمينا وشمالا فيقول المدرس في اثناء ذلك الدرس لا تلتفت يمينا وشمالا ثم يعود الى الدرس فاذا نقل ذلك الدرس مع هذا الكلام في اثنائه فمن لم يعرف السبب يقول ان وقوع تلك الكلمة في اثناء ذلك الدرس غير مناسب لكن من عرف الواقعة علم انه حسن الترتيب (وثانيها) انه تعالى نقل عن الكفار انهم يحبون السعادة العاجلة وذلك هو قوله بل يريد الانسان ليفجر أمامه ثم بين ان التعجيل مذموم مطلقا حتى التعجيل في امور الدين فقال لا تحرك به لسانك لتعجل به وقال في آخر الآية كلا بل تحبون العاجلة (وثالثها) انه تعالى قال بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره فههنا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يظهر

فيعاقب بالاول ويثاب بالثاني او بما قدم من حسنة او سيئة وبما اخر من سنة حسنة او سيئة فعمل بها بعده او بما قدم من مال تصدق به في حياته وبما اخر فخلفه او وقفه او اوصى به او باول عمله وآخره (بل الانسان على نفسه بصيرة) اى حجة بينة على نفسه شاهدة بما صدر عنه من الاعمال السيئة كما يعرب عنه كلمة على وما سيأتي من الجملة الحالية وصفت بالبصارة مجازا كما وصفت الآيات بالابصار في قوله تعالى فلما جاءتهم آياتنا مبصرة او عين بصيرة او التاء للمبالغة ومعنى بل الترقي اى ينبأ الانسان بأعماله

التعجيل في القراءة مع جبريل وكان يجعل العذر فيه خوف النسيان فكأنه قيل له انك اذا اتيت بهذا العذر لكنك تعلم ان الحفظ لا يحصل الا بتوفيق الله واعانته فاترك هذا التعجيل واعتمد على هداية الله تعالى وهذا هو المراد من قوله لاتحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه (ورابعها) كأنه تعالى قال يا محمد ان غرضك من هذا التعجيل ان تحفظه وتبلغه اليهم لكن لاحاجة الى هذا فان الانسان على نفسه بصيرة وهم بقلوبهم يعلمون ان الذى هم عليه من الكفر وعبادة الاوثان وانكار البعث منكر باطل فاذا كان غرضك من هذا التعجيل ان تعرفهم قبح ماهم عليه ثم ان هذه المعرفة حاصلة عندهم فحينئذ لم يبق لهذا التعجيل فائدة فلاجرم قال لاتحرك به لسانك (وخامسها) انه تعالى حكى عن الكافر انه يقول اين المفر ثم قال تعالى كلا لاوزر الى ربك يومئذ المستقر فالكافر كأنه كان يفر من الله تعالى الى غيره فقيل لمحمد انك فى طلب حفظ القرآن تستعين بالتكرار وهذا استعانة منك بغير الله فاترك هذه الطريقة واستعن فى هذا الامر بالله فكأنه قيل ان الكافر يفر من الله الى غيره واما انت فكن كالمضاد له فيجب ان تفر من غير الله الى الله وان تستعين فى كل الامور بالله حتى يحصل لك المقصود على ماقال ان علينا جمعه وقرآنه وقال فى سورة اخرى ولاتعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما اى لاتستعن فى طلب الحفظ بالتكرار بل اطلبه من الله تعالى (وسادسها) ماذكره القفال وهو ان قوله لاتحرك به لسانك ليس خطابا مع الرسول عليه السلام بل هو خطاب مع الانسان المذكور فى قوله ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر فكان ذلك للانسان حال ما ينبأ بقبائح افعاله وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا فاذا أخذ فى القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة فيقال له لاتحرك به لسانك لتعجل به فانه يجب علينا بحكم الوعد او بحكم الحكمة ان نجمع اعمالك عليك وان نقرأها عليك فاذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالاقرار بأنك فعلت تلك الافعال ثم ان علينا بيان امره وشرح مراتب عقوبته وحاصل الامر من تفسير هذه الآية ان المراد منها انه تعالى يقرأ على الكافر جميع اعماله على سبيل التفصيل وفيه اشد الوعيد فى الدنيا واشد التهويل فى الآخرة ثم قال القفال فهذا وجه حسن ليس فى العقل مايدفعه وان كانت الآثار غير واردة به (المسئلة الثانية) احتج من جوز الذنب على الانبياء عليهم السلام بهذه الآية فقال ان ذلك الاستعجال ان كان باذن الله تعالى فكيف نهاه عنه وان كان لاباذن الله تعالى فقد صدر الذنب عنه (الجواب) لعل ذلك الاستعجال كان مأذونا فيه الى وقت النهى عنه ولايبعد ان يكون الشئ مأذونا فيه فى وقت ثم يصير منهيا عنه فى وقت آخر ولهذا السبب قلنا بجوز النسخ (المسئلة الثالثة) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه حفظ التنزيل وكان اذا نزل عليه الوحى يحرك لسانه وشفتيه قبل فراغ جبريل مخافة ان لايحفظ فأنزل تعالى

بل هو يومئذ عالم بتفاصيل احواله شاهد على نفسه لان جوارحه تنطق بذلك وقوله تعالى (ولو القى معاذيره) اى ولو جاء بكل معذرة يمكن ان يعتذر بها عن نفسه حال من المستكن فى بصيرة او من مرفوع ينبأ اى هو بصيرة على نفسه تشهد عليه جوارحه وتقبل شهادتها ولو اعتذر بكل معذرة او ينبأ بأعماله ولو اعتذر الخ والمعاذير اسم جمع لمعذرة كالمناكير اسم جمع للمنكر وقيل هو جمع معذار وهو الستر اى ولو ارخى ستوره * كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا لقن الوحى

لاتحرك به لسانك اى بالوحى و التنزيل و القرآن وانما جاز هذا الاضمار وان لم يجر له ذكر لدلالة الحال عليه كما اضمر فى قوله انا انزلناه فى ليلة القدر و نظيره قوله و لاتعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه و قوله لتعجل به اى لتعجل بأخذه ❊ اما قوله تعالى (ان علينا جمعه وقرآنه) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) كلمة على للوجوب فقوله ان علينا يدل على ان ذلك كالواجب على الله تعالى اما على مذهبنا فذلك الوجوب بحكم الوعد و اما على قول المعتزلة فلأن المقصود من البعثة لايتم الا اذا كان الوحى محفوظا مبرأ عن النسيان فكان ذلك واجبا نظرا الى الحكمة (المسئلة الثانية) قوله ان علينا جمعه معناه علينا جمعه فى صدرك وحفظك و قوله وقرآنه فيه وجهان (احدهما) ان المراد من القرآن القراءة و على هذا التقدير ففيه احتمالان (احدهما) ان يكون المراد جبريل عليه السلام سيعيده عليك حتى تحفظه (والثانى) ان يكون المراد انا سنقرئك يا محمد الى ان تصير بحيث لاتنساه و هو المراد من قوله سنقرئك فلا تنسى فعلى هذا الوجه الاول القارئ جبريل و على الوجه الثانى القارئ محمد صلى الله عليه وسلم (والوجه الثانى) ان يكون المراد من القرآن الجمع و التأليف من قولهم ماقرأت الناقة سلا قط اى ماجمعت و بنت عمرو بن كلثوم لم تقرأ جنينا و قد ذكرنا ذلك عند تفسير القرء (فان قيل) فعلى هذا الوجه يكون الجمع و القرآن واحدا فيلزم التكرار (قلنا) يحتمل ان يكون المراد من الجمع جمعه فى نفسه و وجوده الخارجى و من القرآن جمعه فى ذهنه و حفظه و حينئذ يندفع التكرار ❊ قوله تعالى (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) جعل قراءة جبريل عليه السلام قراءته و هذا يدل على الشرف العظيم لجبريل عليه السلام و نظيره فى حق محمد عليه السلام من يطع الرسول فقد أطاع الله (المسئلة الثانية) قال ابن عباس معناه فاذا قرأه جبريل فاتبع قرآنه و فيه وجهان (الاول) قال قتادة فاتبع حلاله و حرامه (والثانى) فاتبع قراءته اى لاينبغى ان تكون قراءتك مقارنة لقراءة جبريل لكن يجب ان تسكت حتى يتم جبريل عليه السلام القراءة فاذا سكت جبريل فخذ أنت فى القراءة و هذا الوجه اولى لانه عليه السلام امر ان يدع القراءة و يستمع من جبريل عليه السلام حتى اذا فرغ جبريل قرأه و ليس هذا موضع الامر باتباع مافيه من الحلال و الحرام قال ابن عباس فكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه جبريل بعد هذه الآية اطرق و استمع فاذا ذهب قرأه ❊ قوله تعالى (ثم ان علينا بيانه) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الآية تدل على انه عليه السلام كان يقرأ مع قراءة جبريل عليه السلام و كان يسأل فى اثناء قراءته عن مشكلاته و معانيه لغاية حرصه على العلم فنهى النبى عليه السلام عن الامرين جميعا اما عن القراءة مع قراءة جبريل فبقوله فاذا قرأناه فاتبع قرآنه و اما عن القاء الاسئلة فى البين فبقوله ثم ان علينا بيانه (المسئلة الثانية) احتج من جوز تأخير البيان عن وقت الخطاب بهذه الآية و أجاب ابو الحسين عنه من وجهين (الاول) ان ظاهر الآية يقتضى

(وجوب)

نازع جبريل عليه السلام القراءة ولم يصبر الى ان يتمها مسارعة الى الحفظ وخوفا من ان ينفلت منه فامر عليه الصلاة والسلام بأن يستنصت له ملقيا اليه قلبه وسمعه حتى يقضى اليه الوحى ثم يقفيه بالدراسة الى ان يرسخ فيه فقيل (لاتحرك به) اى بالقرآن (لسانك) عند القاء الوحى (لتعجل به) اى لتأخذه على عجلة مخافة ان ينفلت منك (ان علينا جمعه) فى صدرك بحيث لايذهب عليك شئ من معانيه (وقرآنه) اى اثبات قراءته فى لسانك (فاذا قرأناه) اى اتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام واسناد القراءة الى نون العظمة للمبالغة فى ايجاب التأنى (فاتبع قرآنه) فكن مقفيا له و لا تراسله (ثم ان علينا بيانه) اى بيان ما اشكل عليك من معانيه واحكامه

وجوب تأخير البيان عن وقت الخطاب وانتم لاتقولون به (الثاني) ان عندنا الواجب ان يقرن باللفظ اشعارا بأنه ليس المراد من اللفظ مايقتضيه ظاهره فأما البيان التفصيلي فيجوز تأخيره فنحمل الآية على تأخير البيان التفصيلي وذكر القفال وجها ثالثا وهو ان قوله ثم ان علينا بيانه اى ثم انا نخبرك بأن علينا بيانه ونظيره قوله تعالى فك رقبة الى قوله ثم كان من الذين آمنوا (والجواب) عن الاول ان اللفظ لايقتضي وجوب تأخير البيان بل يقتضي تأخير وجوب البيان وعندنا الامر كذلك لان وجوب البيان لا يتحقق الاعند الحاجة (وعن الثاني) ان كلمة ثم دخلت على مطلق البيان فيتناول البيان المجمل والمفصل واما سؤال القفال فضعيف ايضا لانه ترك للظاهر من غير دليل (المسئلة الثالثة) قوله تعالى ثم ان علينا بيانه يدل على ان بيان المجمل واجب على الله تعالى اما عندنا فبالوعد والتفضل واما عند المعتزلة فبالحكمة * قوله تعالى (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف كلا ردع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة وحث على الاناءة والتؤدة وقد بالغ في ذلك باتباعه قوله بل تحبون العاجلة كأنه قال بل انتم يابني آدم لانكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شئ ومن ثم تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقال سائر المفسرين كلا معناه حقا اى حقا تحبون العاجلة وتذرون الآخرة والمعنى انهم يحبون الدنيا ويعملون لهـا ويتركون الآخرة ويعرضون عنها (المسئلة الثانية) قرئ تحبون وتذرون بالتاء والياء وفيه وجهان (الاول) قال الفراء القرآن اذا نزل تعريفا لحال قوم فتارة ينزل على سبيل المخاطبة لهم وتارة ينزل على سبيل المغايبة كقوله تعالى حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم (الثاني) قال ابو علي الفارسي الياء على ما تقدم من ذكر الانسان في قوله أيحسب الانسان والمراد منه الكثرة كقوله ان الانسان خلق هلوعا والمعنى انهم يحبون ويذرون والتاء على قل لهم بل تحبون وتذرون * قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة) قال الليث نضر اللون والشجر والورق ينضر نضرة والنضرة النعمة والناضر الناعم والنضر الحسن من كل شئ ومنه يقال للون اذا كان مشرقا ناضر فيقال اخضر ناضر وكذلك في جميع الالوان ومعناه الذي يكون له بريق وكذلك يقال شجر ناضر وروض ناضر ومنه قوله عليه السلام نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها الحديث اكثر الرواة رواه بالتخفيف وروى عكرمة عن الاصمعي فيه التشديد والفاظ المفسرين مختلفة في تفسير الناضر ومعناها واحد قالوا مسرورة ناعمة مضيئة مسفرة مشرقة بهجة وقال الزجاج نضرت بنعيم الجنة كما قال تعرف في وجوههم نضرة النعيم * قوله تعالى (الى ربها ناظرة) اعلم ان جمهور اهل السنة تمسكوا بهذه الآية في اثبات ان المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة اما المعتزلة فلهم ههنا مقامان (احدهما) بيان ان ظاهره لايدل على رؤية الله تعالى (والثاني) بيان التأويل (اما المقام الاول) فقالوا النظر المقرون بحرف الى ليس اسما للرؤية بل لمقدمة

(كلا) ردع له عليه الصلاة والسلام عن عادة العجلة وترغيب له في الاناءة واكد ذلك بقوله تعالى (بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) على تعميم الخطاب للكل اى بل انتم يابني آدم لما خلقتم من عجل وجبلتم عليه تعجلون في كل شئ ولذلك تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقيل كلا ردع للانسان عن الاغترار بالعاجل فيكون جمع الضمير في الفعلين باعتبار معنى الجنس ويؤيده قراءة الفعلين على صيغة الغيبة (وجوه يومئذ ناضرة) اى وجوه كثيرة وهي وجوه المؤمنين المخلصين يوم اذ تقوم القيامة بهية

الرؤية وهي تقليب الحدقة نحو المرئي التماسا لرؤيته ونظر العين بالنسبة الى الرؤية كنظر القلب بالنسبة الى المعرفة وكالاصغاء بالنسبة الى السماع فكما ان نظر القلب مقدمة للمعرفة والاصغاء مقدمة للسماع فكذا نظر العين مقدمة للرؤية قالوا والذي يدل على ان النظر ليس اسم الرؤية وجوه (الاول) قوله تعالى وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون اثبت النظر حال عدم الرؤية فدل على ان النظر غير الرؤية (الثاني) ان النظر يوصف بما لا توصف به الرؤية يقال نظر اليه نظرا شزرا ونظر غضبان ونظر راض وكل ذلك لاجل ان حركة الحدقة تدل على هذه الاحوال ولا توصف الرؤية بشيء من ذلك فلا يقال رآه شزرا ورآه رؤية غضبان اورؤية راض (الثالث) يقال انظر اليه حتى تراه ونظرت اليه فرأيته وهذا يفيد كون الرؤية غاية للنظر وذلك يوجب الفرق بين النظر والرؤية (الرابع) يقال دور فلان متناظرة اى متقابلة فمسمى النظر حاصل ههنا ومسمى الرؤية غير حاصل (الخامس) قول الشاعر

وجوه ناظرات يوم بدر * الى الرحمن تنتظر الخلاصا

اثبت النظر المقرون بحرف الى مع ان الرؤية ماكانت حاصلة (السادس) احتج ابو علي الفارسي على ان النظر ليس عبارة عن الرؤية التي هي ادراك البصر بل هو عبارة عن تقليب الحدقة نحوا الجهة التي فيها الشيء الذي يراد رؤيته بقول الشاعر

فيا مي هل يجزى بكائي بمثله * مرارا وانفاسي اليك الزوافر

واني متى اشرف على الجانب الذي * به انت من بين الجوانب ناظر

قال فلو كان النظر عبارة عن الرؤية لما طلب الجزاء عليه لان المحب لم يطلب الثواب على رؤية المحبوب فان ذلك من اعظم مطالبه قال ويدل على ذلك ايضا قول الآخر

ونظرة ذي شجن وامق * اذا ماالركائب جاوزن ميلا

والمراد منه تقليب الحدقة نحو الجانب الذي فيه المحبوب فعلمنا بهذه الوجوه ان النظر المقرون بحرف الى ليس اسم الرؤية (السابع) ان قوله الى ربها ناظرة معناه انها تنظر الى ربها خاصة ولا تنظر الى غيره وهذا معنى تقديم المفعول ألا ترى الى قوله الى ربك يومئذ المستقر الى ربك يومئذ المساق ألا الى الله تصير الامور واليه ترجعون والى الله المصير عليه توكلت واليه أنيب كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص ومعلوم انهم ينظرون الى اشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في موقف القيامة فان المؤمنين نظارة ذلك اليوم لانهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فلما دلت الآية على ان النظر ليس الا الى الله ودل العقل على انهم يرون غير الله علمنا ان المراد من النظر الى الله ليس هو الرؤية (الثامن) قال تعالى ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولو قال لا يراهم كفر فلما نفى النظر ولم ينف الرؤية دل على المغايرة فثبت بهذه الوجوه ان النظر المذكور في هذه الآية ليس هو الرؤية (المقام الثاني) في بيان التأويل المفصل وهو من وجهين

متهللة يشاهد عليها نضرة النعيم على ان وجوه مبتدأ وناضرة خبره ويومئذ منصوب بناضرة وناظرة في قوله تعالى (الى ربها ناظرة) خبر ثان لمبتدأ اونعت لناضرة والى ربها متعلق بناظرة وصحة وقوع النكرة مبتدأ لان المقام مقام تفصيل لا على ان ناضرة صفة لوجوه والخبر ناظرة كما قيل لما هو المشهور من ان حق الصفة ان تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند السامع وحيث لم يكن ثبوت النضرة للوجوه كذلك فحقه ان يخبر به ومعنى كونها ناظرة الى ربها انها تراه تعالى مستغرقة في مطالعة

(الاول)

(الاول) ان يكون الناظر بمعنى المنتظر اى اولئك الاقوام ينتظرون ثواب الله وهو كقول القائل انما انظر الى فلان فى حاجتى والمراد انتظر نجاحها من جهته وقال تعالى فناظرة بم يرجع المرسلون وقال وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة لايقال النظر المقرون بحرف الى غير مستعمل فى معنى الانتظار ولان الانتظار غم وألم وهو لايليق بأهل السعادة يوم القيامة لانا نقول (الجواب) عن الاول من وجهين (الاول) النظر المقرون بحرف الى قد يستعمل بمعنى الانتظار والتوقع والدليل عليه انه يقال أنا الى فلان ناظر مايصنع بى والمراد منه التوقع والرجاء وقال الشاعر

واذا نظرت اليك من ملك * والبحر دونك زدتنى نعما

وتحقيق الكلام فيه ان قولهم فى الانتظار نظرت بغير صلة فانما ذلك فى الانتظار لمجئ الانسان بنفسه فأما اذا كان منتظرا لرفده ومعونته فقد يقال فيه نظرت اليه كقول الرجل وانما نظرى الى الله ثم اليك وقد يقول ذلك من لايبصر ويقول الاعمى فى مثل هذا المعنى عينى شاخصة اليك ثم ان سلمنا ذلك لكن لانسلم ان المراد من الى ههنا حرف التعدى بل هو واحد الآلاء والمعنى وجوه يومئذ ناضرة نعمة ربها منتظرة (واما السؤال الثانى) وهو ان الانتظار غم وألم فجوابه ان المنتظر اذا كان فيما ينتظره على يقين من الوصول اليه فانه يكون فى اعظم اللذات (التأويل الثانى) ان يضمر المضاف والمعنى الى ثواب ربها ناظرة قالوا وانما صرنا الى هذا التأويل لانه لما دلت الدلائل السمعية والعقلية على انه تعالى تمتنع رؤيته وجب المصير الى التأويل ولقائل ان يقول فهذه الآية تدل ايضا على ان النظر ليس عبارة عن تقليب الحدقة لانه تعالى قال لاينظر اليهم وليس المراد انه تعالى لايقلب الحدقة الى جهتهم فان قلتم المراد انه لاينظر اليهم نظر الرحمة كان ذلك جوابنا عما قالوه (التأويل الثالث) ان يكون معنى الى ربها ناظرة انها لاتسأل ولاترغب الا الى الله وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام اعبد الله كأنك تراه فأهل القيامة لشدة تضرعهم اليه وانقطاع اطماعهم عن غيره صاروا كأنهم ينظرون اليه (الجواب) قوله ليس النظر عبارة عن الرؤية قلنا ههنا مقامان (الاول) ان نقيم الدلالة على ان النظر هو الرؤية من وجهين (الاول) ما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام وهو قوله انظر اليك فلو كان النظر عبارة عن تقليب الحدقة الى جانب المرئى لاقتضت الآية ان موسى عليه السلام اثبت لله تعالى جهة ومكانا وذلك محال (الثانى) انه جعل النظر امرا مرتبا على الاراءة فيكون النظر متأخرا عن الاراءة وتقليب الحدقة غير متأخر عن الاراءة فوجب ان لايكون النظر عبارة عن تقليب الحدقة الى جانب المرئى (المقام الثانى) وهو الاقرب الى الصواب سلمنا ان النظر عبارة عن تقليب الحدقة نحو المرئى التماسا لرؤيته لكنا نقول لما تعذر حمله على حقيقته وجب حمله على مسببه وهو الرؤية اطلاقا لاسم السبب على المسبب وحمله على الرؤية اولى من حمله على الانتظار لان تقليب

جاله بحيث تغفل عما سواه وتشاهده تعالى بلا كيف ولا على جهة وليس هذا فى جميع الاحوال حتى ينافيه نظرها الى غيره وقيل منتظرة انعامه ورد بأن الانتظار لايسند الى الوجه وتفسيره بالجملة خلاف الظاهر وان المستعمل بمعناه لايعدى بالى (ووجوه يومئذ باسرة) شديدة العبوس وهى وجوه الكفرة (تظن) يتوقع اربابها (ان يفعل بها فاقرة) داهية عظيمة تقصم فقار الظهر (كلا) ردع عن ايثار العاجلة على الآخرة اى ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا لما بين ايديكم من الموت الذى ينقطع عنده مابينكم

الحدقة كالسبب للرؤية ولاتعلق بينه وبين الانتظار فكان حمله على الرؤية اولى من حمله على الانتظار اماقوله النظر جاء بمعنى الانتظار قلنا لنا في الجواب مقامان (الاول) ان النظر الوارد بمعنى الانتظار كثير في القرآن ولكنه لم يقرن البتة بحرف الى كقوله تعالى انظرونا نقتبس من نوركم وقوله تعالى هل ينظرون الا تأويله هل ينظرون الا ان يأتيهم الله والذي ندعيه ان النظر المقرون بحرف الى المعدى الى الوجوه ليس الا بمعنى الرؤية والدليل عليه ان وروده بمعنى الرؤية اوبالمعنى الذي يستعقب الرؤية ظاهر فوجب ان لا يرد بمعنى الانتظار دفعا للاشتراك واماقول الشاعر

وجوه ناظرات يوم بدر * الى الرحمن تنتظر الخلاصا

قلنا هذا الشعر موضوع والرواية الصحيحة

وجوه ناظرات يوم بكر * الى الرحمن تنتظر الخلاصا

والمراد من هذا الرحمن مسيلمة الكذاب لانهم كانوا يسمونه رحمن اليمامة فأصحابه كانوا ينظرون اليه ويتوقعون منه التخليص من الاعداء واماقول الشاعر

واذا نظرت اليك من ملك * (فالجواب) ان قوله واذا نظرت اليك لايمكن ان يكون المراد منه الانتظار لان مجرد الانتظار لايستعقب العطية بل المراد من قوله واذا نظرت اليك واذا سألتك لان النظر الى الانسان مقدمة المكالمة فجاز التعبير عنه به * قوله كلمة الى ههنا ليس المراد منه حرف التعدى بل واحد الآلاء قلنا ان الى على هذا القول تكون اسما للماهية التى يصدق عليها انها نعمة فعلى هذا يكفى في تحقق مسمى هذه اللفظة اى جزء فرض من اجزاء النعمة وان كان في غاية القلة والحقارة واهل الثواب يكونون فى جميع مواقف القيامة في النعم العظيمة المتكاملة ومن كان حاله كذلك كيف يمكن ان يبشر بأنه يكون فى توقع الشئ الذى ينطلق عليه اسم النعمة ومثال هذا ان يبشر سلطان الارض بأنه سيصير حالك فى العظمة والقوة بعد سنة بحيث تكون متوقعا لحصول اللقمة الواحدة من الخبز والقطرة الواحدة من الماء وكما ان ذلك فاسد من القول فكذا هذا (المقام الثانى) هب ان النظر المعدى بحرف الى المقرون بالوجوه جاء فى اللغة بمعنى الانتظار لكن لايمكن حمل هذه الآية عليه لان لذة الانتظار مع يقين الوقوع كانت حاصلة فى الدنيا فلابد وان يحصل فى الآخرة شئ ازيد منه حتى يحسن ذكره فى معرض الترغيب فى الآخرة ولايجوز ان يكون ذلك هو قرب الحصول لان ذلك معلوم بالعقل فبطل ماذكروه من التأويل (واما التأويل الثانى) وهو ان المراد الى ثواب ربها ناظرة فهذا ترك للظاهر وقولهم انما صرنا اليه لقيام الدلائل العقلية والنقلية على ان الله لايرى قلنا بينا فى الكتب العقلية ضعف تلك الوجوه فلا حاجة ههنا الى ذكرها والله اعلم * قوله تعالى (ووجوه يومئذ باسرة تظن ان يفعل بها فاقرة) الباسر الشديد العبوس والباسل اشد منه ولكنه غلب فى الشجاع اذا اشتد كلوحه والمعنى انها عابسة كالحة قد اظلمت

وبين العاجلة من العلاقة (اذا بلغت التراقى) اى بلغت النفس اعالى الصدر وهى العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال (وقيل من راق) اى قال من حضر صاحبها من يرقيه وينجيه مما هو فيه من الرقية وقيل هو من كلام ملائكة الموت ايكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة اوملائكة العذاب من الرقى (وظن انه الفراق) وايقن المحتضر ان مانزل به الفراق من الدنيا ونعيمها (والتفت الساق بالساق) والتفت ساقه بساقه والتوت عليها عند حلول الموت وقيل هما شدة فراق الدنيا وشدة اقبال الآخرة

(الوانها)

الوانها وعدمت آثار السرور والنعمة منها لما ادركها من الشقاء واليأس من رحمة الله ولما سودها الله حين ميز الله اهل الجنة والنار وقد تقدم تفسير البسور عند قوله عبس وبسر وانما كانت بهذه الصفة لانها قد ايقنت ان العذاب نازل بها وهو قوله تظن ان يفعل بها فاقرة والظن ههنا بمعنى اليقين هكذا قاله المفسرون وعندى ان الظن انما ذكر ههنا على سبيل التهكم كأنه قيل اذا شاهدوا تلك الاحوال حصل فيهم ظن ان القيامة حق واما الفاقرة فقال ابو عبيدة الفاقرة الداهية وهو اسم للوسم الذى يفقر به على الانف قال الاصمعى الفقر ان يحز انف البعير حتى يخلص الى العظم او قريب منه ثم يجعل فيه خشبة يجر البعير بها ومنه قيل عملت به الفاقرة قال المبرد الفاقرة داهية تكسر الظهر واصلها من الفقرة والفقارة كان الفاقرة داهية تكسر فقار الظهر وقال ابن قتيبة يقال فقرت الرجل كما يقال رأسته وبطنته فهو مفقور واعلم ان من المفسرين من فسر الفاقرة بأنواع العذاب فى النار وفسرها الكلبى فقال الفاقرة هى ان تحجب عن رؤية ربها ولا تنظر اليه ❊ قوله تعالى (كلا) قال الزجاج كلا ردع عن ايثار الدنيا على الآخرة كأنه قيل لما عرفتم صفة سعادة السعداء وشقاوة الاشقياء فى الآخرة وعلمتم انه لا نسبة لها الى الدنيا فارتدعوا عن ايثار الدنيا على الآخرة وتنبهوا على ما بين ايديكم من الموت الذى عنده تنقطع العاجلة عنكم وتنتقلون الى الآجلة التى تبقون فيها مخالدين وقال آخرون كلا اى حقا اذا بلغت التراقى كان كذا وكذا والمقصود انه لما بين تعظيم احوال الآخرة بين ان الدنيا لا بد فيها من الانتهاء والنفاد والوصول الى تجرع مرارة الموت وقال مقاتل كلا اى لا يؤمن الكافر بما ذكر من امر القيامة ولكنه لا يمكنه ان يدفع انه لابد من الموت ومن تجرع آلامها وتحمل آفاتها ثم انه تعالى وصف تلك الحالة التى تفارق الروح فيها الجسد ❊ فقال تعالى (اذا بلغت التراقى) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المراد اذا بلغت النفس او الروح اخبر عما لم يجر له ذكر لعلم المخاطب بذلك كقوله انا انزلناه والتراقى جمع ترقوة وهى عظم وصل بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين واعلم انه يكنى ببلوغ النفس التراقى عن القرب من الموت ومنه قول دريد بن الصمة

ورب عظيمة دافعت عنها * وقد بلغت نفوسهم التراقى

ونظيره قوله تعالى حتى اذا بلغت الحلقوم (المسئلة الثانية) قال بعض الطاعنين ان النفس انما تصل الى التراقى بعد مفارقتها عن القلب ومتى فارقت النفس القلب حصل الموت لا محالة والآية تدل على ان عند بلوغها التراقى تبقى الحياة حتى يقال فيه من راق وحتى تلتف الساق بالساق (والجواب) المراد من قوله حتى اذا بلغت التراقى اى اذا حصل القرب من تلك الحالة ❊ قوله تعالى (وقيل من راق) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى راق وجهان (الاول) ان يكون من الرقية يقال رقاه يرقيه رقية اذا عوذه بما يشفيه كما يقال بسم الله ارقيك وقائل هذا القول على هذا الوجه هم الذين يكونون

وقيل هما ساقاه حين تلفان فى اكفانه (الى ربك يومئذ المساق) اى الى الله والى حكمه يساق لا الى غيره (فلا صدق) ما يجب تصديقه من الرسول عليه الصلاة والسلام والقرآن الذى نزل عليه او فلا صدق ماله ولا زكاه (ولا صلى) ما فرض عليه والضمير فيهما للانسان المذكور فى قوله تعالى ايحسب الانسان وفيه دلالة على ان الكفار مخاطبون بالفروع فى حق المؤاخذة كما مر (ولكن كذب) ما ذكر من الرسول والقرآن (وتولى) عن الطاعة (ثم ذهب الى اهله يتمطى) يتبختر افتخارا بذلك

حول الانسان المشرف على الموت ثم هذا الاستفهام يحتمل ان يكون بمعنى الطلب كأنهم طلبوا له طبيبا يشفيه وراقيا يرقيه ويحتمل ان يكون استفهاما بمعنى الانكار كما يقول القائل عند اليأس من الذى يقدر ان يرقى هذا الانسان المشرف على الموت (الوجه الثانى) ان يكون قوله من راق من رقى يرقى رقيا ومنه قوله تعالى ولن نؤمن لرقيك وعلى هذا الوجه يكون قائل هذا القول هم الملائكة قال ابن عباس ان الملائكة يكرهون القرب من الكافر فيقول ملك الموت من يرقى بهذا الكافر وقال الكلبى يحضر العبد عند الموت سبعة املاك من ملائكة الرحمة وسبعة من ملائكة العذاب مع ملك الموت فاذا بلغت نفس العبد التراقى نظر بعضهم الى بعض ايهم يرقى بروحه الى السماء فهو قوله من راق (المسئلة الثانية) قال الواحدى ان اظهار النون عند حروف الفم لحن فلا يجوز اظهار نون من فى قوله من راق وروى حفص عن عاصم اظهار النون فى قوله من راق وبل ران قال ابو على الفارسى ولا اعرف وجه ذلك قال الواحدى والوجه ان يقال قصد الوقف على من وبل فأظهرها ثم ابتدأ بما بعدهما وهذا غير مرضى من القراءة ❊ قوله تعالى (وظن انه الفراق) قال المفسرون المراد انه ايقن بمفارقة الدنيا ولعله انما سمى اليقين ههنا بالظن لان الانسان مادام يبقى روحه متعلقا ببدنه فانه يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة على ماقال كلا بل تحبون العاجلة ولا ينقطع رجاؤه عنها فلا يحصل له يقين الموت بل الظن الغالب مع رجاء الحياة اولعله سماه بالظن على سبيل التهكم واعلم ان الآية دالة على ان الروح جوهر قائم بنفسه باق بعد موت البدن لانه تعالى سمى الموت فراقا والفراق انما يكون لو كانت الروح باقية فان الفراق والوصال صفة والصفة تستدعى وجود الموصوف ❊ ثم قال تعالى (والتفت الساق بالساق) الالتفاف هو الاجتماع كقوله تعالى جئنا بكم لفيفا وفى الساق قولان (القول الاول) انه الامر الشديد قال اهل المعانى لان الانسان اذا دهمته شدة شمر لها عن ساقه فقيل للامر الشديد ساق وتقول العرب قامت الحرب على ساق اى اشتدت قال الجعدى

اخو الحرب ان عضت به الحرب عضها ❊ وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

ثم قال والمراد بقوله التفت الساق بالساق اى التفت شدة مفارقة الدنيا ولذاتها وشدة الذهاب او التفت شدة ترك الاهل وترك الولد وترك المال وترك الجاه وشدة شماتة الاعداء وغم الاولياء وبالجملة فالشدائد هناك كثيرة كشدة الذهاب الى الآخرة والقدوم على الله او التفت شدة ترك الاحباب والاولياء وشدة الذهاب الى دار الغربة (والقول الثانى) ان المراد من الساق هذا العضو المخصوص ثم ذكروا على هذا القول وجوها (احدها) قال الشعبى وقتادة هما ساقاه عند الموت أما رأيته فى النزع كيف يضرب باحدى رجليه على الاخرى (والثانى) قال الحسن وسعيد بن المسيب هما ساقاه اذا التفتا فى الكفن (والثالث) انه اذا مات يبست ساقاه والتصقت احداهما بالاخرى ❊ ثم

من المط فان المتبختر يمد خطاه فيكون اصله يتمطط او من المطا وهو الظهر فانه يلويه (اولى لك فأولى) اى ويل لك واصله اولاك الله ماتكرهه واللام مزيدة كما فى ردف لكم او اولى لك الهلاك وقيل هو افعل من الويل بعد القلب كأدنى من دون او فعلى من آل يؤل بمعنى عقباك النار (ثم اولى لك فأولى) اى يتكرر عليه ذلك مرة بعد اخرى (ايحسب الانسان ان يترك سدى) اى يخلى مهملا فلا يكلف ولا يجزى وقيل ان يترك فى قبره ولا يبعث وقوله تعالى (الم يك نطفة من منى يمنى) الخ استئناف

قال (الى ربك يومئذ المساق) المساق مصدر من ساق يسوق كالمقال من قال يقول ثم فيه وجهان (احدهما) ان يكون المراد ان المسوق اليه هو الرب (والثانى) ان يكون المراد ان السائق فى ذلك اليوم هو الرب اى سوق هؤلاء مفوض اليه *قوله تعالى (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب الى اهله يتمطى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وبفروعه وفيما يتعلق بدنياه اما ما يتعلق باصول الدين فهو انه ما صدق بالدين ولكنه كذب به واما ما يتعلق بفروع الدين فهو انه ما صلى ولكنه تولى واعرض واما ما يتعلق بدنياه فهو انه ذهب الى اهله يتمطى ويتبختر ويختال فى مشيته واعلم ان الآية دالة على ان الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة كما يستحقهما بترك الايمان (المسئلة الثانية) قوله فلا صدق حكاية عمن فيه قولان (الاول) انه كناية عن الانسان فى قوله أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه ألا ترى الى قوله أيحسب الانسان ان يترك سدى وهو معطوف على قوله يسأل أيان يوم القيامة (والقول الثانى) ان الآية نزلت فى ابى جهل (المسئلة الثانية) فى يتمطى قولان (احدهما) ان اصله يتمطط اى يتمدد لان المتبختر يمد خطاه فقلبت الطاء فيه ياء كما قيل فى تقضى اصله تقضض (والثانى) من المطا وهو الظهر لانه يلويه وفى الحديث اذا مشت امتى المطيطا اى مشية المتبختر (المسئلة الرابعة) قال اهل العربية لاههنا فى موضع لم فقوله فلا صدق ولا صلى اى لم يصدق ولم يصل وهو كقوله فلا اقتحم العقبة اى لم يقتحم وكذلك ماروى فى الحديث أرأيت من لا أكل ولا شرب ولا استهل قال الكسائى لم أر العرب قالت فى مثل هذا كلمة وحدها حتى تتبعها بأخرى اما مصرحا او مقدرا اما المصرح فلا يقولون لا عبد الله خارج حتى يقولوا ولا فلان ولا يقولون مررت برجل لا يحسن حتى يقولوا ولا يجمل واما المقدر فهو كقوله فلا اقتحم العقبة ثم اعترض الكلام فقال وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو أطعم وكأن التقدير لا فك رقبة ولا اطعم مسكينا فاكتفى به مرة واحدة ومنهم من قال التقدير فى قوله فلا اقتحم اى أفلا اقتحم وهلا اقتحم *قوله تعالى (أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى) قال قتادة والكلبى ومقاتل أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد أبى جهل ثم قال أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى توعده فقال ابو جهل بأى شئ تهددنى لا تستطيع انت ولا ربك ان تفعلا بى شيئا وانى لاعز اهل هذا الوادى ثم انسل ذاهبا فانزل الله تعالى كما قال له الرسول عليه السلام ومعنى قوله أولى لك بمعنى ويل لك وهو دعاء عليه بأن يليه مايكرهه قال القاضى المعنى بعدا لك فبعدا فى امر دنياك وبعدا لك فبعدا فى امر اخراك وقال آخرون المعنى الويل لك مرة بعد مرة قال القفال هذا يحتمل وجوها (احدها) انه وعيد مبتدأ من الله للكافر (والثانى) انه شئ قاله النبى صلى الله عليه وسلم لعدوه فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه فانزل الله تعالى مثل ذلك (والثالث) ان يكون ذلك امرا من الله لنبيه بأن يقولها لعدو الله فيكون المعنى ثم ذهب الى اهله يتمطى فقل له يا محمد أولى لك فأولى

واورد لابطال الحسبان المذكور فان مداره لما كان استبعادهم للاعادة استدل على تحققها ببدء الخلق (ثم كان علقة) اى بقدرة الله تعالى لقوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة (فخلق) اى فقدر بان جعلها مضغة مخلقة (فسوى) فعدل وكمل نشأته (فجعل منه) من الانسان (الزوجين) اى الصنفين (الذكر والانثى) بدل من الزوجين اليس ذلك العظيم الشأن الذى انشأ هذا الانشاء البديع (بقادر على ان يحيى الموتى) وهو اهون من البدء فى قياس العقل * روى ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأها

اى احذر فقدقرب منك مالاقبل لك به من المكروه ※ قوله تعالى (أيحسب الانسان ان يترك سدى) اى مهملا لايؤمر ولاينهى ولايكلف فى الدنيا ولايحاسب بعمله فى الآخرة والسدى فى اللغة المهمل يقال أسديت ابلى اسداء اهملتها واعلم انه تعالى لماذكر فى اول السورة قوله أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه اعاد فى آخر السورة ذلك وذكر فى صحة البعث والقيامة دليلين (الاول) قوله أيحسب الانسان ان يترك سدى ونظيره قوله ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى وقوله ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض ام نجعل المتقين كالفجار وتقريره ان اعطاء القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والامر بالطاعة والنهى عن المفاسد يقتضى كونه تعالى راضيا بقبائح الافعال وذلك لايليق بحكمته فاذا لابد من التكليف والتكليف لايحسن ولايليق بالكريم الرحيم الااذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة ※ (الدليل الثانى) على صحة القول بالحشر الاستدلال بالخلقة الاولى على الاعادة وهو المراد من قوله (ألم يك نطفة من منى يمنى) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) النطفة هى الماء القليل وجمعها نطاف ونطف يقول ألم يك ماء قليلا فى صلب الرجل وترائب المرأة وقوله من منى يمنى اى يصب فى الرحم وذكرنا الكلام فى يمنى عند قوله من نطفة اذا تمنى وقوله أفرأيتم ماتمنون فان قيل ماالفائدة فى يمنى فى قوله من منى يمنى قلنا فيه اشارة الى حقارة حاله كأنه قيل انه مخلوق من المنى الذى جرى على مخرج النجاسة فلايليق بمثل هذا الشئ ان يتمرد عن طاعة الله تعالى الا انه عبر عن هذا المعنى على سبيل الرمز كما فى قوله تعالى فى عيسى ومريم كانا يأكلان الطعام والمراد منه قضاء الحاجة (المسئلة الثانية) فى يمنى فى هذه السورة قراءتان التاء والياء فالتاء للنطفة على تقدير ألم يك نطفة تمنى من المنى والياء للمنى من منى يمنى اى يقدر خلق الانسان منه ※ قوله تعالى (ثم كان علقة) اى الانسان كان علقة بعد النطفة اما ※ قوله تعالى (فخلق فسوى) ففيه وجهان (الاول) فخلق فقدر فسوى فعدل (الثانى) فخلق اى فنفخ فيه الروح فسوى فكمل اعضاءه وهو قول ابن عباس ومقاتل ※ ثم قال تعالى (فجعل منه) اى من الانسان (الزوجين) يعنى الصنفين ثم فسرهما فقال (الذكر والانثى أليس ذلك بقادر على ان يحيى الموتى) والمعنى أليس ذلك الذى انشأ هذه الاشياء بقادر على الاعادة روى انه صلى الله عليه وسلم كان اذاقرأها قال سبحانك بلى والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد سيد المرسلين وآله وصحبه وسلم

(سورة الانسان احدى وثلاثون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) اتفقوا على ان هل ههنا وفى قوله تعالى هل أتاك حديث الغاشية بمعنى قد كما تقول هل رأيت صنيع فلان وقد علمت انه قد رآه وتقول هل وعظتك هل اعطيتك ومقصودك ان تقرره بانك قد اعطيته

(ووعظته)

قال سبحانك بلى وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القيامة شهدت له اناوجبريل يوم القيامة انه كان مؤمنا بيوم القيامة

(سورة الانسان مكية وآيها) (احدى وثلاثون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(هل اتى) استفهام تقرير وتقريب فان هل بمعنى قد والاصل اهل اتى (على الانسان) قبل زمان قريب (حين من الدهر) اى طائفة محدودة كائنة من الزمن الممتد (لم يكن شيئا مذكورا) بل كان شيئا منسيا غير مذكور بالانسانية اصلا كالعنصر والنطفة وغير ذلك والجملة المنفية حال من الانسان اى غير مذكور اوصفة اخرى لحين على حذف العائد الى الموصوف اى لم يكن فيه شيئا مذكورا والمراد

ووعظته وقد تجىء بمعنى الجحد تقول وهل يقدر احد على مثل هذا واما انها تجىء بمعنى الاستفهام فظاهر والدليل على انها ههنا ليست بمعنى الاستفهام وجهان (الاول) ماروى ان الصديق رضى الله عنه لما سمع هذه الآية قال ياليتها كانت تمت فلا تبتلى ولو كان ذلك استفهاما لما قال ليتها تمت لان الاستفهام انما يجاب بلا او بنعم فاذا كان المراد هو الخبر فحينئذ يحسن ذلك الجواب (الثانى) ان الاستفهام على الله تعالى محال فلابد من حمله على الخبر (المسئلة الثانية) اختلفوا فى الانسان المذكور ههنا فقال جماعة من المفسرين يريد آدم عليه السلام ومن ذهب الى هذا قال ان الله تعالى ذكر خلق آدم فى هذه الآية ثم عقب بذكر ولده فى قوله تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه (والقول الثانى) ان المراد بالانسان بنو آدم بدليل قوله انا خلقنا الانسان من نطفة فالانسان فى الموضعين واحد وعلى هذا التقدير يكون نظم الآية احسن (المسئلة الثالثة) حين فيه قولان (الاول) انه طائفة من الزمن الطويل الممتد وغير مقدر فى نفسه (والثانى) انه مقدر بالاربعين فمن قال المراد بالانسان هو آدم قال المعنى انه مكث آدم عليه السلام اربعين سنة طينا الى ان نفخ فيه الروح وروى عن ابن عباس انه بقى طينا اربعين سنة واربعين من صلصال واربعين من حماء مسنون فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة فهو فى هذه المدة ما كان شيئا مذكورا وقال الحسن خلق الله تعالى كل الاشياء ما يرى ومالا يرى من دواب البر والبحر فى الايام الستة التى خلق فيها السموات والارض وآخر ما خلق آدم عليه السلام فهو قوله لم يكن شيئا مذكورا فان قيل ان الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ الروح فيه ما كان انسانا والآية تقتضى انه قد مضى على الانسان حال كونه انسانا حين من الدهر مع انه فى ذلك الحين ما كان شيئا مذكورا قلنا ان الطين والصلصال اذا كان مصورا بصورة الانسان ويكون محكوما عليه بأنه سينفخ فيه الروح وسيصير انسانا صح تسميته بانه انسان والذين يقولون الانسان هو النفس الناطقة وانها موجودة قبل وجود الابدان فالاشكال عنهم زائل واعلم ان الغرض من هذا التنبيه على ان الانسان محدث ومتى كان كذلك فلابد له من محدث قادر (المسئلة الرابعة) لم يكن شيئا مذكورا محله النصب على الحال من الانسان كأنه قيل هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور او الرفع على الوصف لحين تقديره هل أتى على الانسان حين لم يكن فيه شيئا ۞ قوله تعالى (انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج) فيه مسائل (المسئلة الاولى) المشج فى اللغة الخلط يقال مشج يمشج مشجا اذا خلط والامشاج الاخلاط قال ابن الاعرابى واحدها مشج ومشيج ويقال للشىء اذا خلط مشيج كقولك خليط وممشوج كقولك مخلوط قال الهذلى

كأن الريش والفوقين منه * خلاف النصل شط به مشيج

يصف السهم بأنه قد بعد فى الرمية فالتطخ ريشه وفوقاه بدم يسير قال صاحب الكشاف الامشاج لفظ مفرد وليس بجمع بدليل انه وقع صفة للفرد وهو قوله نطفة امشاج ويقال

بالانسان الجنس فالاظهار فى قوله تعالى (انا خلقنا الانسان من نطفة) لزيادة التقرير او آدم عليه السلام وهو المروى عن ابن عباس وقتادة والثورى وعكرمة والشعبى قال ابن عباس فى رواية ابى صالح عنه مرت به اربعون سنة قبل ان ينفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف وفى رواية الضحاك عنه انه خلق من طين فأقام اربعين سنة ثم من حمأ مسنون فاقام اربعين سنة ثم من صلصال فأقام اربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح وحكى الماوردى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الحين المذكور ههنا هو الزمن الطويل الممتد الذى لا يعرف مقداره فيكون الاول اشارة الى خلقه عليه الصلاة والسلام وهذا بيان الخلق بنيه (امشاج) اخلاط جمع

ايضا نطفة مشيج ولا يصح ان يكون امشاجا جمعا للمشيج بل هما مثلان فى الافراد ونظيره برمة اعشار اى قطع مكسرة وثوب اخلاق وارض سباسب واختلفوا فى معنى كون النطفة مختلطة فالاكثرون على انه اختلاط نطفة الرجل بنطفة المرأة كقوله تعالى يخرج من بين الصلب والترائب قال ابن عباس هو اختلاط ماء الرجل وهو ابيض غليظ وماء المرأة وهو اصفر رقيق فيختلطان ويخلق الولد منهما فما كان من عصب وعظم وقوة فمن نطفة الرجل وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة قال مجاهد هى ألوان النطفة فنطفة الرجل بيضاء ونطفة المرأة صفراء وقال عبد الله امشاجها عروقها وقال الحسن يعنى من نطفة مشجت بدم وهو دم الحيضة وذلك ان المرأة اذا تلقت ماء الرجل وحبلت امسك حيضها فاختلطت النطفة بالدم وقال قتادة الامشاج هو انه يختلط الماء والدم اولا ثم يصير علقة ثم يصير مضغة وبالجملة فهو عبارة عن انتقال ذلك الجسم من صفة الى صفة ومن حال الى حال وقال قوم ان الله تعالى جعل فى النطفة اخلاطا من الطبائع التى تكون فى الانسان من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والتقدير من نطفة ذات امشاج فحذف المضاف وتم الكلام قال بعض العلماء الاولى هو ان المراد اختلاط نطفة الرجل والمرأة لان الله تعالى وصف النطفة بأنها امشاج وهى اذا صارت علقة فلم يبق فيها وصف انها نطفة ولكن هذا الدليل لا يقدح فى ان المراد كونها امشاجا من الارض والماء والهواء والنار ❊ اما قوله تعالى (نبتليه) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) نبتليه معناه لنبتليه وهو كقول الرجل جئتك اقضى حقك اى لاقضى حقك وأتيتك استمنحك اى لاستمنحك كذا قوله نبتليه اى لنبتليه ونظيره قوله ولا تمنن تستكثر اى لتستكثر (المسئلة الثانية) نبتليه فى موضع الحال اى خلقناه مبتلين له يعنى مريدين ابتلاءه (المسئلة الثالثة) فى الآية قولان (احدهما) ان فيه تقديما وتأخيرا والمعنى فجعلناه سميعا بصيرا لنبتليه (والقول الثانى) انه لا حاجة الى هذا التغيير والمعنى انا خلقناه من هذه الامشاج لا للعبث بل للابتلاء والامتحان ثم ذكر انه اعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر ❊ فقال تعالى (فجعلناه سميعا بصيرا) والسمع والبصر كنايتان عن الفهم والتمييز كما قال تعالى حاكيا عن ابراهيم عليه السلام لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر وايضا قد يراد بالسميع المطيع كقوله سمعا وطاعة وبالبصير العالم يقال فلان بصير فى هذا الامر ومنهم من قال بل المراد بالسمع والبصر الحاستان المعروفتان والله تعالى خصهما بالذكر لانهما اعظم الحواس واشرفها ❊ قوله تعالى (انا هديناه السبيل) اخبر الله تعالى انه بعد ان ركبه واعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبيل الهدى والضلال وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الآية دالة على ان اعطاء الحواس كالمقدم على اعطاء العقل والامر كذلك لان الانسان خلق فى مبدأ الفطرة خاليا عن معرفة الاشياء الا انه اعطاه آلات تعينه على تحصيل تلك المعارف وهى الحواس الظاهرة والباطنة فاذا أحس بالمحسوسات تنبه لمشاركات بينها ومباينات ينتزع منها عقائد صادقة اولية كعلمنا بأن

مشج اومشيج من مشجت الشئ اذا خلطته وصف النطفة به لما ان المراد بها مجموع المائين ولكل منهما اوصاف مختلفة من اللون والرقة والغلظ وخواص متباينة فان ماء الرجل ابيض غليظ فيه قوة العقد وماء المرأة اصفر رقيق فيه قوة لانعقاد يخلق منهما الولد فما كان من عصب وعظم وقوة فمن ماء الرجل وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة قال القرطبى وقد روى هذا مرفوعا وقيل مفرد كاعشار واكياش وقيل امشاج الوان واطوار فان النطفة تصير علقة ثم مضغة الى تمام الخلقة وقوله تعالى نبتليه) حال من فاعل خلقنا اى مريدين ابتلاءه بالتكليف فيما سيأتى او ناقلين له من حال الى حال على طريقة الاستعارة كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما نصرفه فى بطن امه

النفي والاثبات لايجتمعان ولا يرتفعان وان الكل اعظم من الجزء وهذه العلوم الاولية هي آلة العقل لان بتركيباتها يمكن التوسل الى استعلام المجهولات النظرية فثبت ان الحس مقدم في الوجود على العقل ولذلك قيل من فقد حسا فقد علما ومن قال المراد من كونه سميعا بصيرا هو العقل قال انه لما بين في الآية الاولى انه اعطاه العقل بين في هذه الآية انه انما اعطاه العقل ليبين له السبيل ويظهر له ان الذي يجب فعله ماهو والذي لايجوز ماهو (المسئلة الثانية) السبيل هو الذي يسلك من الطريق فيجوز ان يكون المراد بالسبيل ههنا سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك ويكون معنى هديناه اي عرفناه وبينا كيفية كل واحد منهما له كقوله تعالى وهديناه النجدين ويكون السبيل اسما للجنس فلهذا افرد لفظه كقوله تعالى ان الانسان لفي خسر ويجوز ان يكون المراد بالسبيل هو سبيل الهدى لانها هي الطريقة المعروفة المستحقة لهذا الاسم على الاطلاق فأما سبيل الضلالة فانما هي سبيل بالاضافة ألا ترى الى قوله تعالى انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل وانما اضلوهم سبيل الهدى ومن ذهب الى هذا جعل معنى قوله هديناه اي ارشدناه واذا ارشد لسبيل الحق فقد نبه على تجنب ماسواها فكان اللفظ دليلا على الطريقين من هذا الوجه (المسئلة الثالثة) المراد من هداية السبيل خلق الدلائل وخلق العقل الهادي وبعثة الانبياء وانزال الكتب كأنه تعالى قال خلقتك للابتلاء ثم اعطيتك كل ماتحتاج اليه ليهلك من هلك عن بينة وليس معناه خلقنا الهداية ألا ترى انه ذكر السبيل فقال هديناه السبيل اي اريناه ذلك (المسئلة الرابعة) قال الفراء هديناه السبيل والى السبيل وللسبيل كل ذلك جائز في اللغة ❊ قوله تعالى (اماشاكرا واما كفورا) فيه مسائل (المسئلة الاولى) في الآية اقوال (الاول) ان شاكرا وكفورا حالان من الهاء في هديناه السبيل اي هديناه السبيل حالتي كونه شاكرا وكفورا والمعنى ان كل مايتعلق بهداية الله وارشاده فقد تم حالتي الكفر والايمان (والقول الثاني) انه انتصب قوله شاكرا وكفورا باضمار كان والتقدير سواء كان شاكرا اوكان كفورا (والقول الثالث) معناه اناهديناه السبيل ليكون اماشاكرا واما كفورا اي ليتميز شكره من كفره وطاعته من معصيته كقوله ليبلوكم ايكم احسن عملا وقوله ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وقوله ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم قال القفال ومجاز هذه الكلمة على هذا التأويل قول القائل قد نصحت لك ان شئت فاقبل وان شئت فاترك اي فان شئت فحذف الفاء فكذا المعنى انا هديناه السبيل فاماشاكرا واما كفورا فحذف الفاء وقد يحتمل ان يكون ذلك على جهة الوعيد اي انا هديناه السبيل فان شاء فليكفر وان شاء فليشكر فانا قد اعتدنا للكافرين كذا وللشاكرين كذا كقوله وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (القول الرابع) ان يكونا حالين من السبيل اي عرفناه السبيل اما سبيلا شاكرا واما سبيلا كفورا ووصف السبيل

نطفة ثم علقة الى آخره (فجعلناه سميعا بصيرا) ليتمكن من استماع الآيات التنزيلية ومشاهدة الآيات التكوينية فهو كالمسبب عن الابتلاء فلذلك عطف على الخلق المقيد به بالفاء ورتب عليه قوله تعالى (انا هديناه السبيل) بانزال الآيات ونصب الدلائل (اماشاكرا واما كفورا) حالان من مفعول هديناه اي مكناه واقدرناه على سلوك الطريق الموصل الى البغية في حالتيه جميعا واما للتفصيل او التقسيم اي هديناه الى مايوصل اليها في حاليه جميعا اومقسوما اليهما بعضهم شاكر بالاهتداء والاخذ فيه وبعضهم كفور بالاعراض عنه وقيل من السبيل اي عرفناه السبيل اماسبيلا شاكرا اوكفورا على وصف السبيل بوصف سالكه مجازا وقرئ اما بالفتح على حذف الجواب اي اماشاكرا

بالشكر والكفر مجاز واعلم ان هذه الاقوال كلها لائقة بمذهب المعتزلة (والقول الخامس) وهو المطابق لمذهب اهل السنة واختيار الفراء ان تكون اما فى هذه الآية كاما فى قوله اما يعذبهم واما يتوب عليهم والتقدير انا هديناه السبيل ثم جعلناه تارة شاكرا وتارة كفورا ويتأكد هذا التأويل بما روى انه قرأ ابو السمال بفتح الهمزة فى اما والمعنى اما شاكرا فبتوفيقنا واما كفورا فبخذلاننا قالت المعتزلة هذا التأويل باطل لانه تعالى ذكر بعد هذه الآية تهديد الكفار فقال انا اعتدنا للكافرين سلاسل واغلالا وسعيرا ولو كان كفر الكافر من الله وبخلقه لما جاز منه ان يهدده عليه ولما بطل هذا التأويل ثبت ان الحق هو التأويل الاول وهو انه تعالى هدى جميع المكلفين سواء آمن او كفر وبطل بهذا قول المجبرة انه تعالى لم يهد الكافر الى الايمان اجاب اصحابنا بانه تعالى لما علم من الكافر انه لا يؤمن ثم كلفه بان يؤمن فقد كلفه بان يجمع بين العلم بعدم الايمان ووجود الايمان وهذا تكليف بالجمع بين المتنافيين فان لم يصر هذا عذرا فى سقوط التهديد والوعيد جاز ايضا ان يخلق الكفر فيه ولا يصير ذلك عذرا فى سقوط الوعيد واذا ثبت هذا ظهر ان هذا التأويل هو الحق وان التأويل اللائق بقول المعتزلة ليس بحق وبطل به قول المعتزلة (المسئلة الثانية) انه تعالى ذكر نعمه على الانسان فابتدأ بذكر النعم الدنيوية ثم ذكر بعده النعم الدينية ثم ذكر هذه القسمة واعلم انه لا يمكن تفسير الشاكر والكفور بمن يكون مشتغلا بفعل الشكر وفعل الكفران والا لم يتحقق الحصر بل المراد من الشاكر الذى يكون مقرا معترفا بوجوب شكر خالقه عليه والمراد من الكفور الذى لا يقر بوجوب الشكر عليه اما لانه ينكر الخالق او لانه وان كان يثبته لكنه ينكر وجوب الشكر عليه وحينئذ يتحقق الحصر وهو ان المكلف اما ان يكون شاكرا واما ان يكون كفورا واعلم ان الخوارج احتجوا بهذه الآية على انه لا واسطة بين المطيع والكافر قالوا لان الشاكر هو المطيع والكفور هو الكافر والله تعالى نفى الواسطة وذلك يقتضى ان يكون كل ذنب كفرا وان يكون كل مذنب كافرا واعلم ان البيان الذى لخصناه يدفع هذا الاشكال فانه ليس المراد من الشاكر الذى يكون مشتغلا بفعل الشكر فان ذلك باطل طردا وعكسا اما الطرد فلأن اليهودى قد يكون شاكرا لربه مع انه لا يكون مطيعا لربه والفاسق قد يكون شاكرا لربه مع انه لا يكون مطيعا لربه واما العكس فلأن المؤمن قد لا يكون مشتغلا بالشكر ولا بالكفران بل يكون ساكتا غافلا عنهما فثبت انه لا يمكن تفسير الشاكر بذلك بل لا بد وان يفسر الشاكر بمن يقر بوجوب الشكر والكفور بمن لا يقر بذلك وحينئذ يثبت الحصر ويسقط سؤالهم بالكلية والله اعلم ❁ قوله تعالى (انا اعتدنا للكافرين سلاسل واغلالا وسعيرا) اعلم انه تعالى لما ذكر الفريقين اتبعهما بالوعيد والوعد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الاعتاد هو اعداد الشئ حتى يكون عتيدا حاضرا متى احتيج اليه كقوله تعالى هذا ما لدى عتيد واما السلاسل فتشد بها ارجلهم

فبتوفيقنا واما كفورا فبسوء اختياره لا بمجرد اجبارنا من غير اختيار من قبله وايراد الكفور لمراعاة الفواصل والاشعار بأن الانسان قلما يخلو من كفران ما وانما المؤاخذ عليه الكفر المفرط (انا اعتدنا للكافرين) من افراد الانسان الذى هديناه السبيل (سلاسل) بها يقادون (واغلالا) بها يقيدون (وسعيرا) بها يحرقون وتقديم وعيدهم مع تأخرهم للجمع بينهما فى الذكر كما فى قوله تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم الآية ولان الانذار اهم وانفع وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين احسن على ان فى وصفهم تفصيلا ربما يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم وقرئ سلاسلا للتناسب (ان الابرار) شروع فى بيان حسن حال الشاكرين اثر

واماالاغلال فتشد بها ايديهم الى رقابهم واماالسعير فهو النار التى تسعر عليهم فتوقد فيكونون حطبا لها وهذا من اغلظ انواع الترهيب والتخويف (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بهذه الآية على ان الجحيم بسلاسلها واغلالها مخلوقة لان قوله تعالى اعتدنا اخبار عن الماضى قال القاضى انه لما توعد بذلك على التحقيق صار كأنه موجود قلنا هذا الذى ذكرتم ترك للظاهر فلا يصار اليه الا لضرورة (المسئلة الثالثة) قرئ سلاسلا بالتنوين وكذلك قواريرا قواريرا ومنهم من يصل بغير تنوين ويقف بالالف فلمن نون وصرف وجهان (احدهما) ان الاخفش قال قد سمعنا من العرب صرف جميع مالا ينصرف قال وهذا لغة الشعراء لانهم اضطروا اليه فى الشعر فصرفوه فجرت ألسنتهم على ذلك (الثانى) ان هذه الجموع اشبهت الآحاد لانهم قالوا صوا حبات يوسف فلما جمعوه جمع الآحاد المنصرفة جعلوها فى حكمها فصرفوها واما من ترك الصرف فانه جعله كقوله لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد واماالحاق الالف فى الوقف فهو كالحاقها فى قوله الظنونا والرسولا والسبيلا فيشبه ذلك بالاطلاق فى القوافى ثم انه تعالى ذكر ماأعد للشاكرين الموحدين ※ فقال تعالى (ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) الابرار جمع بر كالارباب جمع رب والقول فى حقيقة البر قد تقدم فى تفسير قوله تعالى ولكن البر من آمن بالله ثم ذكر من انواع نعيمهم صفة مشروبهم فقال يشربون من كأس يعنى من اناء فيه الشراب ولهذا قال ابن عباس ومقاتل يريد الخمر وفى الآية سؤالان (السؤال الاول) ان مزج الكافور بالمشروب لايكون لذيذا فما السبب فى ذكره ههنا (الجواب) من وجوه (احدها) ان الكافور اسم عين فى الجنة ماؤها فى بياض الكافور ورائحته وبرده ولكن لايكون فيه طعمه ولا مضرته فالمعنى ان ذلك الشراب يكون ممزوجا بماء هذه العين (وثانيها) ان رائحة الكافور عرض فلا يكون الا فى جسم فاذا خلق الله تلك الرائحة فى جرم ذلك الشراب سمى ذلك الجسم كافورا وان كان طعمه طيبا (وثالثها) اى بأس فى ان يخلق الله تعالى الكافور فى الجنة لكن من طعم طيب لذيذ ويسلب عنه مافيه من المضرة ثم انه تعالى يمزجه بذلك المشروب كما انه تعالى سلب عن جميع المأكولات والمشروبات مامعها فى الدنيا من المضار (السؤال الثانى) مافائدة كان فى قوله كان مزاجها كافورا (الجواب) منهم من قال انها زائدة والتقدير من كأس مزاجها كافور وقيل بل المعنى كان مزاجها فى علم الله وحكمه كافورا ※ قوله تعالى (عينا يشرب بها عباد الله) فيه مسائل (المسئلة الاولى) ان قلنا الكافور اسم النهر كان عينا بدلا منه وان شئت نصبت على المدح والتقدير اعنى عينا اما ان قلنا ان الكافور اسم لهذا الشئ المسمى بالكافور كان عينا بدلا من محل من كأس على تقدير حذف مضاف كأنه قيل يشربون خمرا خمر عين ثم حذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه (المسئلة الثانية) قال فى الآية الاولى يشربون من كأس وقال ههنا يشرب بها فذكر هناك من وههنا الباء والفرق ان الكأس مبدأ شربهم واول غايته

بيان سوء حال الكافرين وايرادهم بعنوان البر للاشعار بما استحقوا به مانالوه من الكرامة السنية والابرار جمع بر أو بار كرب وارباب وشاهد واشهاد قيل هو من يبر خالقه اى يطيعه وقيل من يمتثل بأمره تعالى وقيل من يؤدى حق الله تعالى ويوفى بالنذر وعن الحسن البر من لايؤذى الذر (يشربون من كأس) هى الزجاجة اذا كانت فيها خمر وتطلق على نفس الخمر ايضا فمن على الاول ابتدائية وعلى الثانى تبعيضية او بيانية (كان مزاجها) اى ماتمزج به (كافورا) اى ماء كافور وهو اسم عين فى الجنة ماؤها فى بياض الكافور ورائحته وبرده والجملة صفة كأس وقوله تعالى (عينا) بدل من كافورا وعن قتادة تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك وقيل تخلق فيها رائحة الكافور وبياضه وبرده فكأنها

واما العين فبها يمزجون شرابهم فكان المعنى يشرب عباد الله بها الخمر كما تقول شربت الماء بالعسل (المسئلة الثالثة) قوله يشرب بها عباد الله عام فيفيد ان كل عباد الله يشربون منها والكفار بالاتفاق لا يشربون منها فدل على ان لفظ عباد الله مختص بأهل الايمان اذا ثبت هذا فقوله ولا يرضى لعباده الكفر لا يتناول الكفار بل يكون مختصا بالمؤمنين فيصير تقدير الآية ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر فلا تدل الآية على انه تعالى لا يريد كفر الكافر * قوله تعالى (يفجرونها تفجيرا) معناه يجرونها حيث شاؤا من منازلهم تفجيرا سهلا لا يمتنع عليهم واعلم انه سبحانه لما وصف ثواب الابرار في الآخرة شرح اعمالهم التي بها استوجبوا ذلك الثواب فالاول * قوله تعالى (يوفون بالنذر) فيه مسائل (المسئلة الاولى) الايفاء بالشيء هو الاتيان به وافيا اما النذر فقال ابو مسلم النذر كالوعد الا انه اذا كان من العباد فهو نذر وان كان من الله تعالى فهو وعد واختص هذا اللفظ في عرف الشرع بأن يقول لله على كذا وكذا من الصدقة او يعلق ذلك بأمر يلتمسه من الله تعالى مثل ان يقول ان شفى الله مريضى او رد غائبي فعلى كذا وكذا واختلفوا فيما اذا علق ذلك بما ليس من وجوه البر كما اذا قال ان دخل فلان الدار فعلى كذا فمن الناس من جعله كاليمين ومنهم من جعله من باب النذر واذا عرفت هذا فنقول للمفسرين في تفسير الآية اقوال (أولها) ان المراد من النذر هو النذر فقط ثم قال الاصم هذا مبالغة في وصفهم بالتوفر على اداء الواجبات لان من وفى بما أوجبه هو على نفسه كان بما اوجبه الله عليه أوفى وهذا التفسير في غاية الحسن (وثانيها) المراد بالنذر ههنا كل ما وجب عليه سواء وجب بايجاب الله تعالى ابتداء او بأن أوجبه المكلف على نفسه فيدخل فيه الايمان وجميع الطاعات وذلك لان النذر معناه الايجاب (وثالثها) قال الكلبي المراد من النذر العهد والعقد ونظيره قوله تعالى أوفوا بعهدى أوف بعهدكم فسمى فرائضه عهدا وقال أوفوا بالعقود سماها عقودا لانهم عقدوها على انفسهم باعتقادهم الايمان (المسئلة الثانية) هذه الآية دالة على وجوب الوفاء بالنذر لانه تعالى عقبه بيخافون يوما وهذا يقتضى انهم انما وفوا بالنذر خوفا من شر ذلك اليوم والخوف من شر ذلك لا يتحقق الا اذا كان الوفاء به واجبا وتأكد هذا بقوله ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وبقوله ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم فيحتمل ليوفوا اعمال نسكهم التى الزموها انفسهم (المسئلة الثالثة) قال الفراء وجماعة من ارباب المعانى كان في قوله كان مزاجها كافورا زائدة واما ههنا فكان محذوفة والتقدير كانوا يوفون بالنذر ولقائل ان يقول انا بينا ان كان في قوله كان مزاجها ليست بزائدة واما في هذه الآية فلا حاجة الى اضمارها وذلك لانه تعالى ذكر في الدنيا ان الابرار يشربون اى سيشربون فان لفظ المضارع مشترك بين الحال والاستقبال ثم قال السبب في ذلك الثواب الذى سيجدونه انهم الآن يوفون بالنذر (النوع الثانى) من اعمال الابرار التى حكاها الله تعالى عنهم * قوله

(تعالى)

مزجت بالكافور فعينا على هذين القولين بدل من محل من كأس على تقدير مضاف اى يشربون خمرا خمر عين او نصب على الاختصاص وقوله تعالى (يشرب بها عباد الله) صفة عينا اى يشربون بها الخمر لكونها ممزوجة بها وقيل ضمن يشرب معنى يلتذ وقيل الباء بمعنى من وقيل زائدة ويعضده قراءة ابن ابى عبلة يشربها عباد الله وقيل الضمير للكأس والمعنى يشربون العين بتلك الكأس (يفجرونها تفجيرا) اى يجرونها حيثما شاؤا من منازلهم اجراء سهلا لا يمتنع عليهم بل يجرى جريا بقوة واندفاع والجملة صفة اخرى لعينا وقوله تعالى (يوفون بالنذر) استئناف مسوق لبيان ما لاجله رزقوا ما ذكر من النعيم مشتمل على نوع تفصيل لما ينبئ عنه اسم الابرار اجمالا كأنه قيل ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية فقيل يوفون بما اوجبوه على انفسهم فكيف بما

تعالى(ويخافون يوما كان شره مستطيرا) واعلم ان تمام الطاعة لايحصل الا اذا كانت النية مقرونة بالعمل فلما حكى عنهم العمل وهو قوله يوفون حكى عنهم النية وهو قوله ويخافون يوما وتحقيقه قوله عليه السلام انما الاعمال بالنيات وبمجموع هذين الامرين سماهم الله تعالى بالابرار وفى الآية سؤالان (السؤال الاول) احوال القيامة واهوالها كلها فعل الله وكل ما كان فعلا لله فهو يكون حكمة وصوابا وما كان كذلك لايكون شرا فكيف وصفها الله تعالى بأنها شر (الجواب) انها انما سميت شرا لكونها مضرة بمن تنزل عليه وصعبة عليه كما تسمى الامراض وسائر الامور المكروهة شرورا (السؤال الثانى) مامعنى المستطير (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) الذى يكون فاشيا منتشرا بالغا اقصى المبالغ وهو من قولهم استطار الحريق واستطار الفجر وهو من طار بمنزلة استنفر من نفر فان قيل كيف يمكن ان يقال شر ذلك اليوم مستطير منتشر مع انه تعالى قال فى صفة اوليائه لايحزنهم الفزع الاكبر قلنا (الجواب) من وجهين (الاول) ان هول القيامة شديد ألا ترى ان السموات تنشق وتنفطر وتصير كالمهل وتتناثر الكواكب وتتكور الشمس والقمر وتفزع الملائكة وتبدل الارض غير الارض وتنسف الجبال وتسجر البحار وهذا الهول عام يصل الى كل المكلفين على ما قال تعالى يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وقال يوما يجعل الولدان شيبا الا انه تعالى بفضله يؤمن اولياءه من ذلك الفزع (والجواب الثانى) ان يكون المراد ان شر ذلك اليوم يكون مستطيرا فى العصاة والفجار واما المؤمنون فهم آمنون كما قال لايحزنهم الفزع الاكبر لاخوف عليكم اليوم ولا انتم تحزنون الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن الا ان اهل العقاب فى غاية الكثرة بالنسبة الى اهل الثواب فاجرى الغالب مجرى الكل على سبيل المجاز (القول الثانى) فى تفسير المستطير انه الذى يكون سريع الوصول الى اهله وكأن هذا القائل ذهب الى ان الطيران اسراع (السؤال الثالث) لم قال كان شره مستطيرا ولم يقل وسيكون شره مستطيرا (الجواب) اللفظ وان كان للماضى الا انه بمعنى المستقبل وهو كقوله وكان عهد الله مسؤلا ويحتمل ان يكون المراد انه كان شره مستطيرا فى علم الله وفى حكمته كأنه تعالى يعتذر ويقول ايصال هذا الضرر انما كان لان الحكمة تقتضيه وذلك لان نظام العالم لايحصل الا بالوعد والوعيد وهما يوجبان الوفاء به لاستحالة الكذب فى كلامى فكأنه تعالى يقول كان ذلك فى الحكمة لازما فلهذا السبب فعلته (النوع الثالث) من اعمال الابرار ❊ قوله تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) اعلم ان مجامع الطاعات محصورة فى امرين التعظيم لامر الله تعالى واليه الاشارة بقوله يوفون بالنذر والشفقة على خلق الله واليه الاشارة بقوله ويطعمون الطعام وههنا مسائل (المسئلة الاولى) لم يذكر احد من اكابر المعتزلة كأبى بكر الاصم وابى على الجبائى

اوجبه الله تعالى عليهم (ويخافون يوما كان شره) عذابه (مستطيرا) فاشيا منتشرا فى الاقطار غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر وهو ابلغ من طار بمنزلة استنفر من نفر (ويطعمون الطعام على حبه) اى كائنين على حب الطعام والحاجة اليه كما فى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون او على حب الاطعام بأن يكون ذلك بطيب النفس او كائنين على حب الله تعالى او اطعاما كائنا على حبه تعالى وهو الانسب لما سيأتى من قوله تعالى لوجه الله (مسكينا ويتيما وأسيرا) اى اسير فانه كان عليه الصلاة والسلام يؤتى بالاسير فيدفعه الى بعض المسلمين فيقول احسن اليه او اسيرا مؤمنا فيدخل فيه المملوك والمسجون وقد سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الغريم اسيرا

وابى القاسم الكعبى وابى مسلم الاصفهانى والقاضى عبدالجبار بن احمد فى تفاسيرهم ان هذه الآيات نزلت فى حق على بن ابى طالب عليه السلام والواحدى من اصحابنا ذكر فى كتاب البسيط انها نزلت فى حق على عليه السلام وصاحب الكشاف من المعتزلة ذكر هذه القصة فروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الحسن والحسين عليهما السلام مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اناس معه فقالوا ياأبا الحسن لو نذرت على ولدك فنذر على وفاطمة وفضة جارية لهما ان شفاهما الله تعالى ان يصوموا ثلاثة ايام فشفيا وما معهم شئ فاستقرض على من شمعون الخيبرى اليهودى ثلاثة اصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعا واختبزت خمسة اقراص على عددهم ووضعوها بين ايديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال السلام عليكم اهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين اطعمونى اطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا ولم يذوقوا الا الماء واصبحوا صائمين فلما امسوا ووضعوا الطعام بين ايديهم وقف عليهم يتيم فآثروه وجاءهم اسير فى الثالثة ففعلوا مثل ذلك فلما اصبحوا اخذ على عليه السلام بيد الحسن والحسين ودخلوا على الرسول فلما ابصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال ما اشد مايسوءنى ما ارى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة فى محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل عليه السلام وقال خذها يامحمد هناك الله فى اهل بيتك فأقرأه السورة والاولين ان يقولوا انه تعالى ذكر فى اول السورة انه انما خلق الخلق للابتلاء والامتحان ثم بين انه هدى الكل وازاح عللهم ثم بين انهم انقسموا الى شاكر والى كافر ثم ذكر وعيد الكافر ثم اتبعه بذكر وعد الشاكر فقال ان الابرار يشربون وهذه صيغة جمع فتتناول جميع الشاكرين والابرار ومثل هذا لايمكن تخصيصه بالشخص الواحد لان نظم السورة من اولها الى هذا الموضع يقتضى ان يكون هذا بيانا لحال كل من كان من الابرار والمطيعين فلو جعلناه مختصا بشخص واحد لفسد نظم السورة (والثانى) ان الموصوفين بهذه الصفات مذكورون بصيغة الجمع كقوله ان الابرار يشربون ويوفون بالنذر ويخافون ويطعمون وهكذا الى آخر الآيات فتخصيصه بجمع معينين خلاف الظاهر ولاينكر دخول على بن ابى طالب عليه السلام فيه ولكنه ايضا داخل فى جميع الآيات الدالة على شرح احوال المطيعين فكما انه داخل فيها فكذا غيره من اتقياء الصحابة والتابعين داخل فيها فحينئذ لايبقى للتخصيص معنى البتة اللهم الا ان يقال السورة انما نزلت عند صدور طاعة مخصوصة عنه ولكنه قد ثبت فى اصول الفقه ان العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب (المسئلة الثانية) الذين يقولون هذه الآية مختصة بعلى بن ابى طالب عليه السلام قالوا المراد من قوله ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا هو مارويناه انه عليه السلام اطعم المسكين واليتيم والاسير واما الذين يقولون الآية عامة فى حق جميع الابرار قالوا اطعام الطعام كناية عن الاحسان الى المحتاجين والمواساة معهم

فقال غريمك اسيرك فأحسن الى اسيرك (انما نطعمكم لوجه الله) على ارادة قول هو فى موقع الحال من فاعل يطعمون اى قائلين ذلك بلسان الحال او بلسان المقال ازاحة لتوهم المن المبطل للصدقة وتوقع المكافاة المنقصة للاجر وعن الصديقة رضى الله تعالى عنها انها كانت تبعث بالصدقة الى اهل بيت ثم تسأل الرسول ماقالوا فاذا ذكر دعاءهم دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله تعالى (لانريد منكم جزاء ولاشكورا) اى شكرا وهو تقرير وتأكيد لما قبله (انا نخاف من ربنا يوما) اى عذاب يوم (عبوسا) يعبس فيه الوجوه او يشبه الاسد العبوس فى الشدة والضراوة (قمطريرا) شديد العبوس فلذلك نفعل بكم مانفعل رجاء ان يقينا ربنا بذلك شره وقيل هو تعليل لعدم ارادة الجزاء والشكور اى انا نخاف عقاب الله تعالى ان أردناهما

باى وجه كان وان لم يكن ذلك بالطعام بعينه ووجه ذلك ان اشرف انواع الاحسان هو الاحسان بالطعام وذلك لان قوام الابدان بالطعام ولا حياة الا به وقد يتوهم امكان الحياة مع فقد ماسواه فلما كان الاحسان بالطعام اشرف اقسام الاحسان لاجرم عبر به عن جميع وجوه المنافع والذى يقوى ذلك انه يعبر بالاكل عن جميع وجوه المنافع فيقال اكل فلان ماله اذا اتلفه فى سائر وجوه الاتلاف وقال تعالى ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وقال ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل اذا ثبت هذا فنقول ان الله تعالى وصف هؤلاء الابرار بأنهم يواسون بأموالهم اهل الضعف والحاجة واما قوله تعالى على حبه ففيه وجهان (احدهما) ان يكون الضمير للطعام اى مع اشتهائه والحاجة اليه ونظيره وآتى المال على حبه لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون فقد وصفهم الله تعالى بأنهم يؤثرون غيرهم على انفسهم على ماقال ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة (والثانى) قال الفضيل بن عياض على حب الله اى لحبهم لله واللام قد تقام مقام على وكذلك تقام على مقام اللام ثم انه تعالى ذكر اصناف من تجب مواساتهم وهم ثلاثة (احدهم) المسكين وهو العاجز عن الاكتساب بنفسه (والثانى) اليتيم وهو الذى مات كاسبه فيبقى عاجزا عن الكسب لصغره مع انه مات كاسبه (والثالث) الاسير وهو المأخوذ من قومه المملوك رقبته الذى لا يملك لنفسه نصرا ولا حيلة وهؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى ههنا هم الذين ذكرهم فى قوله فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة او اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة او مسكينا ذا متربة وقد ذكرنا اختلاف الناس فى المسكين قبل هذا اما الاسير فقد اختلفوا فيه على اقوال (احدها) قال ابن عباس والحسن وقتادة انه الاسير من المشركين روى انه عليه الصلاة والسلام كان يبعث الاسارى من المشركين ليحفظوا وليقام بحقهم وذلك لانه يجب اطعامهم الى ان يرى الامام رأيه فيهم من قتل او من او فداء او استرقاق ولا يمتنع ايضا ان يكون المراد هو الاسير كافرا كان او مسلما لانه اذا كان مع الكفر يجب اطعامه فمع الاسلام اولى فان قيل لما وجب قتله فكيف يجب اطعامه قلنا القتل فى حال لا يمنع من الاطعام فى حال اخرى ولا يجب اذا عوقب بوجه ان يعاقب بوجه آخر ولذلك لا يحسن فيمن يلزمه القصاص ان يفعل به ماهو دون القتل ثم هذا الاطعام على من يجب فنقول الامام يطعمه فان لم يفعله الامام وجب على المسلمين (وثانيها) قال السدى الاسير هو المملوك (وثالثها) الاسير هو الغريم قال عليه السلام غريمك اسيرك فاحسن الى اسيرك (ورابعها) الاسير هو المسجون من اهل القبلة وهو قول مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وروى ذلك مرفوعا من طريق الخدرى انه عليه السلام قال مسكينا فقيرا ويتيما لا أب له واسيرا قال المملوك المسجون (وخامسها) الاسير هو الزوجة لانهن اسراء عند الازواج قال عليه الصلاة والسلام اتقوا الله فى النساء فانهن عندكم اعوان قال القفال واللفظ

(فوقاهم الله شر ذلك اليوم) بسبب خوفهم وتحفظهم عنه (ولقاهم نضرة وسرورا) اى اعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة فى الوجوه وسرورا فى القلوب (وجزاهم بما صبروا) بصبرهم على مشاق الطاعات ومهاجرة هوى النفس فى اجتناب المحرمات وايثار الاموال (جنة) بستانا يأكلون منه ماشاؤا (وحريرا) يلبسونه ويتزينون به وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما مرضا فعادهما النبى صلى الله عليه وسلم فى ناس معه فقالوا لعلى رضى الله عنه لو نذرت على ولدك فنذر على وفاطمة رضى الله تعالى عنهما وفضة جارية لهما ان برئا مما بهما ان يصوموا ثلاثة ايام فشفيا وما معهم شئ فاستقرض على رضى الله

يحتمل كل ذلك لان اصل الاسر هو الشد بالقد وكان الاسير يفعل به ذلك حبساله ثم سمى بالاسير من شد ومن لم يشد فعاد المعنى الى الحبس واعلم انه تعالى لما ذكر ان الابرار يحسنون الى هؤلاء المحتاجين بين ان لهم فيه غرضين (احدهما) تحصيل رضاالله وهو المراد من قوله انما نطعمكم لوجه الله (والثانى) الاحتراز من خوف يوم القيامة وهو المراد من قوله انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قطريرا وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله انما نطعمكم لوجه الله الى قوله قطريرا يحتمل ثلاثة اوجه (احدها) ان يكون هؤلاء الابرار قد قالوا هذه الاشياء باللسان اما لاجل ان يكون ذلك القول منعا لاولئك المحتاجين عن المجازاة بمثله او بالشكر لان احسانهم مفعول لاجل الله تعالى فلا معنى لمكافأة الخلق واما ان يكون لاجل ان يصير ذلك القول تفقيها وتنبيها على ما ينبغي ان يكون عليه من اخلص لله حتى يقتدى غيرهم بهم فى تلك الطريقة (وثانيها) ان يكونوا أرادوا ان يقولوا ذلك (وثالثها) ان يكون ذلك بيانا وكشفا عن اعتقادهم وصحة نيتهم وان لم يقولوا شيئا وعن مجاهد انهم ما تكلموا به ولكن علمه الله تعالى منهم فاثنى عليهم (المسئلة الثانية) اعلم ان الاحسان الى الغير تارة يكون لاجل الله تعالى وتارة يكون لغير الله تعالى اما طلبا لمكافأة او طلبا لحمد وثناء وتارة يكون لهما وهذا هو الشرك والاول هو المقبول عند الله تعالى واما القسمان الباقيان فردودان قال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس وقال وما آتيتم من ربا ليربو فى اموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ولا شك ان التماس الشكر من جنس المن والاذى اذا عرفت هذا فنقول القوم لما قالوا انما نطعمكم لوجه الله بقى فيه احتمال انه اطعمه لوجه الله ولسائر الاغراض على سبيل التشريك فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (المسئلة الثالثة) الشكور والكفور مصدران كالشكر والكفر وهو على وزن الدخول والخروج هذا قول جماعة اهل اللغة وقال الاخفش ان شئت جعلت الشكور جماعة الشكر وجعلت الكفور جماعة الكفر لقوله فأبى الظالمون الا كفورا مثل بردو برود وان شئت مصدرا واحدا فى معنى جمع مثل قعد قعودا وخرج خروجا (المسئلة الرابعة) قوله انا نخاف من ربنا يحتمل وجهين (احدهما) ان احساننا اليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لارادة مكافأتكم (والثانى) انا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله على طلب المكافاة بالصدقة (فان قيل) انه تعالى حكى عنهم الايفاء بالنذر وعلل ذلك بخوف القيامة فقط ولما حكى عنهم الاطعام علل ذلك بأمرين بطلب رضاالله وبالخوف من القيامة فما السبب فيه (قلنا) الايفاء بالنذر دخل فى حقيقة طلب رضاالله تعالى وذلك لان النذر هو الذى اوجبه الانسان على نفسه لاجل الله فلما كان كذلك لا جرم ضم اليه خوف القيامة فقط اما الاطعام فانه لا يدخل فى حقيقة طلب رضاالله فلا جرم ضم اليه طلب رضاالله وطلب

عنه من شمعون الخيبرى ثلاث اصوع من شعير فطحنت فاطمة رضى الله تعالى عنها صاعا واختبزت خمسة اقراص على عددهم فوضعوها بين ايديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال السلام عليكم اهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين اطعمونى اطعمكم الله تعالى من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا الا الماء واصبحوا صياما فلما امسوا ووضعوا الطعام بين ايديهم وقف عليهم يتيم فآثروه ثم وقف عليهم فى الثالثة اسير ففعلوا مثل ذلك فلما اصبحوا اخذ على بيد الحسن والحسين رضى الله عنهم فأقبلوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فلما ابصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال عليه الصلاة والسلام ما اشد ما يسوءنى ما ارى بكم وقام فانطلق معهم فرأى

الحذر من خوف القيامة (المسئلة الخامسة) وصف اليوم بالعبوس مجازا على طريقين (احدهما) أن يوصف بصفة أهله من الاشقياء كقولهم نهارك صائم روى أن الكافر يعبس حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران (والثانى) أن يشبه فى شدته وضراوته بالاسد العبوس أو بالشجاع الباسل (المسئلة السادسة) قال الزجاج جاء فى التفسير أن قمطريرا معناه تعبس الوجه فيجتمع مابين العينين قال وهذا سائغ فى اللغة يقال اقمطرت الناقة اذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورمت بأنفها يعنى أن معنى اقمطر فى اللغة جمع وقال الكلبى قمطريرا يعنى شديدا وهو قول الفراء وأبى عبيدة والمبرد وابن قتيبة قالوا يوم قمطرير وقماطر اذا كان صعبا شديدا أشد ما يكون من الايام وأطوله فى البلاء قال الواحدى هذا معنى والتفسير هو الاول * قوله تعالى (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) اعلم انه تعالى لما حكى عنهم انهم أتوا بالطاعات لغرضين طلب رضا الله والخوف من القيامة بين فى هذه الآية انه أعطاهم هذين الغرضين أما الحفظ من هول القيامة فهو المراد بقوله فوقاهم الله شر ذلك اليوم وسمى شدائدها شرا توسعا على ما علمت واعلم أن هذه الآية أحد ما يدل على ان شدائد الآخرة لا تصل الا الى اهل العذاب واما طلب رضا الله تعالى فأعطاهم بسببه نضرة فى الوجه وسرورا فى القلب وقدم تفسير ولقاهم فى قوله ويلقون فيها تحية وتفسير النضرة فى قوله وجوه يومئذ ناضرة والتنكير فى سرور التعظيم والتفخيم * قوله تعالى (وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) والمعنى وجزاهم بصبرهم على الايثار وما يؤدى اليه من الجوع والعرى بستانا فيه مأكل هنى وحريرا فيه ملبس بهى نظيره قوله تعالى ولباسهم فيها حرير أقول وهذا يدل على أن المراد من قوله انما نطعمكم ليس هو الاطعام فقط بل جميع أنواع المواساة من الطعام والكسوة ولما ذكر تعالى طعامهم ولباسهم وصف مساكنهم ثم ان المعتبر فى المساكن أمور * (أحدها) الموضع الذى يجلس فيه فوصفه بقوله (متكئين فيها على الارائك) وهى السرر فى الحجال ولا تكون أريكة الا اذا اجتمعت وفى نصب متكئين وجهان (الاول) قال الاخفش انه نصب على الحال والمعنى وجزاهم جنة فى حال اتكائهم كما تقول جزاهم ذلك قياما (والثانى) قال الاخفش وقد يكون على المدح * (والثانى) هو المسكن فوصفه تعالى بقوله (لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) وفيه وجهان (أحدهما) أن هواءها معتدل فى الحر والبرد (والثانى) ان الزمهرير هو القمر فى لغة طيئ هكذا رواه ثعلب وانشد

وليلة ظلامها قد اعتكر * قطعتها والزمهرير ما زهر

والمعنى ان الجنة ضياء فلا يحتاج فيها الى شمس وقمر * (والثالث) كونه بستانا نزها فوصفه الله تعالى بقوله (ودانية عليهم ظلالها) وفى الآية سؤالان (الاول) ما السبب فى نصب ودانية (الجواب) ذكر الاخفش والكسائى والفراء والزجاج فيه وجهين (أحدهما) الحال بالعطف على قوله متكئين كما تقول فى الدار عبد الله متكئا ومرسلة عليه الحجال لانه

فاطمة فى محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل عليه السلام وقال خذها يا محمد هناك الله تعالى اهل بيتك فأقرأه السورة (متكئين فيها على الارائك) حال من هم فى جزاهم والعامل فيها جزى وقيل صفة لجنة من غير ابراز الضمير والارائك هى السرر فى الحجال وقوله تعالى (لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) اما حال ثانية من الضمير او من المستكن فى متكئين والمعنى انه يمر عليهم هواء معتدل لا حار محم ولا بارد مؤذ وقيل الزمهرير القمر فى لغة طيئ والمعنى ان هواءها مضئ بذاته لا يحتاج الى شمس ولا قمر (ودانية عليهم ظلالها) عطف على ما قبلها حال مثلها اوصفه لمحذوف معطوف على جنة اى وجنة اخرى دانية عليهم ظلالها) على انهم وعدوا جنتين كما فى قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقرئ دانية بالرفع

حيث قال عليهم رجع الى ذكرهم (والثانى) الحال بالعطف على محل لايرون فيها شمسا ولازمهريرا والتقدير غير رائين فيها شمسا ولازمهريرا ودانية عليهم ظلالها ودخلت الواو للدلالة على ان الامرين يجتمعان لهم كأنه قيل وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والبرد ودنو الظلال عليهم (والثالث) ان يكون دانية نعتا للجنة والمعنى وجزاهم جنة دانية وعلى هذا الجواب تكون دانية صفة لموصوف محذوف كأنه قيل وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها وذلك لانهم وعدوا جنتين وذلك لانهم خافوا بدليل قوله انا نخاف من ربنا وكل من خاف فله جنتان بدليل قوله ولمن خاف مقام ربه جنتان وقرئ ودانية بالرفع على ان ظلالها مبتدأ ودانية خبر والجملة فى موضع الحال والمعنى لايرون فيها شمسا ولازمهريرا والحال ان ظلالها دانية عليهم (السؤال الثانى) الظل انما يوجد حيث توجد الشمس فان كان لاشمس فى الجنة فكيف يحصل الظل هناك (الجواب) المراد ان اشجار الجنة تكون بحيث لو كان هناك شمس لكانت تلك الاشجار مظلة منها ❊ قوله تعالى (وذللت قطوفها تذليلا) ذكروا فى ذللت وجهين (الاول) قال ابن قتيبة ذللت ادنيت منهم من قولهم حائط ذليل اذا كان قصير السمك (والثانى) ذللت اى جعلت منقادة ولا تمتنع على قطافها كيف شاؤا قال البراء بن عازب ذللت لهم فهم يتناولون منها كيف شاؤا فمن أكل قائما لم يؤذه ومن اكل جالسا لم يؤذه ومن اكل مضطجعا لم يؤذه واعلم انه تعالى لما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف بعد ذلك شرابهم وقدم عليه وصف تلك الأوانى التى فيها يشربون ❊ فقال تعالى (ويطاف عليهم بآنية من فضة واكواب كانت قواريرا قوارير من فضة قدروها تقديرا) فى الآية سؤالات (السؤال الاول) قال تعالى ويطاف عليهم بصحاف من ذهب واكواب والصحاف هى القصاع والغالب فيها الاكل فاذا كان ما يأكلون فيه ذهبا فما يشربون فيه اولى ان يكون ذهبا لان العادة ان يتنوق فى اناء الشرب مالا يتنوق فى اناء الاكل واذا دلت هذه الآية على ان اناء شربهم يكون من الذهب فكيف ذكرههنا انه من الفضة (الجواب) انه لامنافاة بين الامرين فتارة يسقون بهذا وتارة بذاك (السؤال الثانى) ما الفرق بين الآنية والاكواب (الجواب) قال أهل اللغة الاكواب هى الكيزان التى لاعرى لها فيحتمل ان يكون على معنى ان الاناء يقع فيه الشرب كالقدح والكوب ما صب منه فى الاناء كالاباريق (السؤال الثالث) ما معنى كانت (الجواب) هو من يكون فى قوله كن فيكون اى تكونت قوارير بتكوين الله تفخيما لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتى الجوهرين المتباينين (السؤال الرابع) كيف تكون هذه الاكواب من فضة ومن قوارير (الجواب) عنه من وجوه (احدها) أن اصل القوارير فى الدنيا الرمل واصل قوارير الجنة هو فضة الجنة فكما ان الله تعالى قادر على ان يقلب الرمل الكثيف زجاجة صافية فكذلك قادر على ان يقلب فضة الجنة قارورة لطيفة فالغرض

(من)

على انه خبر لظلالها والجملة فى حيز الحال والمعنى لايرون فيها شمسا ولازمهريرا والحال ان ظلالها دانية قالوا معناه ان ظلال اشجار الجنة قريبة من الابرار مظلة عليهم زيادة فى نعيمهم على معنى انه لو كان هناك شمس مؤذية لكانت اشجارها مظلة عليهم مع انه لاشمس ثمة ولا قر (وذللت قطوفها تذليلا) اى سخرت ثمارها لمتناوليها وسهل اخذها من الذل وهو ضد الصعوبة والجملة حال من دانية اى تدنو ظلالها عليهم مذللة لهم قطوفها او معطوفة على دانية اى دانية عليهم ظلالها ومذللة قطوفها وعلى تقدير رفع دانية فهى جملة فعلية معطوفة على جملة اسمية (ويطاف عليهم بآنية من فضة واكواب) الكوب الكوز العظيم الذى لااذن له ولاعروة (كانت قواريرا قوارير من فضة) اى تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها ولين الفضة

من ذكر هذه الآية التنبيه على ان نسبة قارورة الجنة الى قارورة الدنيا كنسبة فضة الجنة الى رمل الدنيا فكما انه لا نسبة بين هذين الاصلين فكذا بين القارورتين في الصفاء واللطافة (وثانيها) قال ابن عباس ليس في الدنيا شيء مما في الجنة الا الاسماء واذا كان كذلك فكمال الفضة في بقائها ونقائها وشرفها الا انه كثيف الجوهر وكمال القارورة في شفافيتها وصفائها الا انه سريع الانكسار فآنية الجنة آنية يحصل فيها من الفضة بقاؤها ونقاؤها وشرف جوهرها ومن القارورة صفاؤها وشفافيتها (وثالثها) انها تكون فضة ولكن لها صفاء القارورة ولا يستبعد من قدرة الله تعالى الجمع بين هذين الوصفين (ورابعها) ان المراد بالقوارير في الآية ليس هو الزجاج فان العرب تسمى ما استدار من الأواني التي تجعل فيها الاشربة ورق وصفا قارورة فمعنى الآية واكواب من فضة مستديرة صافية رقيقة (السؤال الخامس) كيف القراءة في قوارير قوارير (الجواب) قرئا غير منونين وبتنوين الاول وبتنوينهما وهذا التنوين بدل عن الف الاطلاق لانه فاصلة وفي الثاني لاتباعه الاول لان الثاني بدل من الاول فيتبع البدل المبدل وقرئ قوارير من فضة بالرفع على هي قوارير وقدروها صفة لقوارير من فضة اما قوله تعالى قدروها تقديرا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال المفسرون معناه قدروها تقديرا على قدر ريهم لا يزيد ولا ينقص من الري ليكون ألذ لشربهم وقال الربيع بن أنس ان تلك الأواني تكون بمقدار ملء الكف لم تعظم فيثقل حملها (المسئلة الثانية) ان منتهى مراد الرجل في الآنية التي يشرب منها الصفاء والنقاء والشكل اما الصفاء فقد ذكره الله تعالى بقوله كانت قواريرا واما النقاء فقد ذكره بقوله من فضة واما الشكل فقد ذكره بقوله قدروها تقديرا (المسئلة الثالثة) المقدر لهذا التقدير من هو فيه قولان (الاول) انهم هم الطائفون الذين دل عليهم قوله تعالى ويطاف عليهم وذلك انهم قدروا شرابها على قدر ري الشارب (والثاني) انهم هم الشاربون وذلك لانهم اذا اشتهوا مقدارا من المشروب جاءهم على ذلك القدر من غير زيادة ولا نقصان * واعلم انه تعالى لما وصف أواني مشروبهم ذكر بعد ذلك وصف مشروبهم * فقال (ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا) العرب كانوا يحبون جعل الزنجبيل في المشروب لانه يحدث فيه ضربا من اللذع فلما كان كذلك وصف الله شراب اهل الجنة بذلك ولا بد وان تكون في الطيب على اقصى الوجوه قال ابن عباس وكل ما ذكره الله تعالى في القرآن مما في الجنة فليس منه في الدنيا الا الاسم وتمام القول ههنا مثل ما ذكرناه في قوله كان مزاجها كافورا * قوله تعالى (عينا فيها تسمى سلسبيلا) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن الاعرابي لم اسمع السلسبيل الا في القرآن فعلى هذا لا يعرف له اشتقاق وقال الاكثرون يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل اى عذب سهل المساغ وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ودلت على غاية السلاسة قال الزجاج السلسبيل في اللغة

وبياضها والجملة صفة الاكواب وقرئ بتنوين قوارير الثاني ايضا وقرئا بغير تنوين وقرئ الثاني بالرفع على هي قوارير (قدروها تقديرا) صفة لقوارير ومعنى تقديرهم لها انهم قدروها في انفسهم وارادوا ان تكون على مقادير واشكال معينة موافقة لشهواتهم فجاءت حسبما قدروها اوقدروها باعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها وقيل الضمير للطائفين بها المدلول عليهم بقوله تعالى ويطاف عليهم فالمعنى قدروا شرابها على قدر اشتهائهم وقرئ قدروها بالبناء للمفعول اى جعلوا قادرين لها كما شاؤا من قدر منقولا من قدرت الشيء (ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا) اى ما يشبه الزنجبيل في الطعم وكان الشراب الممزوج به اطيب ما تستطيبه العرب والذ ما تستلذ به (عينا) بدل من زنجبيلا وقيل تمزج كأسهم

صفة لما كان في غاية السلاسة والفائدة في ذكر السلسبيل هو ان ذلك الشراب يكون في طعم الزنجبيل وليس فيه لذعة لان نقيض اللذع هو السلاسة وقد عزوا الى على بن ابى طالب عليه السلام ان معناه سل سبيلا اليها وهو بعيد الا ان يراد ان جملة قول القائل سلسبيلا جعلت علما للعين كما قيل تأبط شرا وسميت بذلك لانه لا يشرب منها الا من سأل اليها سبيلا بالعمل الصالح (المسئلة الثانية) في نصب عينا وجهان (احدهما) انه بدل من زنجبيلا (وثانيهما) انه نصب على الاختصاص (المسئلة الثالثة) سلسبيلا صرف لانه رأس آية فصار كقوله الظنونا والسبيلا وقد تقدم في هذه السورة بيان ذلك واعلم انه تعالى ذكر بعد ذلك من يكون خادما في تلك المجالس ❊ فقال (ويطوف عليهم ولدان مخلدون) وقد تقدم تفسير هذين الوصفين في سورة الواقعة والاقرب ان المراد به دوام كونهم على تلك الصورة التي لا يراد في الخدم ابلغ منها وذلك يتضمن دوام حياتهم وحسنهم ومواظبتهم على الخدمة الحسنة الموافقة قال الفراء يقال مخلدون مسورون ويقال مقرطون وروى نفطويه عن ابن الاعرابي مخلدون محلون والصفة الثالثة ❊ قوله تعالى (اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) وفي كيفية التشبيه وجوه (احدها) شبهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم في مجالسهم ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللؤلؤ المنثور ولو كانوا صفا لشبهوا باللؤلؤ المنظوم ألا ترى انه تعالى قال ويطوف عليهم فاذا كانوا يطوفون كانوا متناثرين (وثانيها) انهم شبهوا باللؤلؤ الرطب اذا انتثر من صدفه لانه أحسن وأكثر ماء (وثالثها) قال القاضي هذا من التشبيه العجيب لان اللؤلؤ اذا كان متفرقا يكون أحسن في المنظر لوقوع شعاع بعضه على البعض فيكون مخالفا للمجتمع منه واعلم انه تعالى لما ذكر تفصيل أحوال أهل الجنة اتبعه بما يدل على أن هناك أمورا أعلى واعظم من هذا القدر المذكور ❊ فقال (واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) رأيت هل له مفعول فيه قولان (الاول) قال الفراء المعنى واذا رأيت ما ثم وصلح اضمار ما كما قال لقد تقطع بينكم يريد ما بينكم قال الزجاج لا يجوز اضمار ما لان ثم صلة وما موصولها ولا يجوز اسقاط الموصول وترك الصلة (الثاني) انه ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر والغرض منه ان يشيع ويعم كأنه قيل واذا وجدت الرؤية ثم ومعناه أن بصر الرائي أينما وقع لم يتعلق ادراكه الا بنعيم كثير وملك كبير وثم في موضع النصب على الظرف يعني في الجنة (المسئلة الثانية) اعلم أن اللذات الدنيوية محصورة في أمور ثلاثة قضاء الشهوة وامضاء الغضب واللذة الخيالية التي يعبر عنها بحب المال والجاه وكل ذلك مستحقر فان الحيوانات الخسيسة قد تشارك الانسان في واحد واحد منها فالملك الكبير الذي ذكره الله ههنا لا بد وأن يكون مغايرا لتلك اللذات الحقيرة وما هو الا أن تصير نفسه منقشة بقدس الملكوت متحلية بجلال حضرة اللاهوت وأما على اصول المتكلمين فالوجه فيه أيضا أن الثواب هو المنفعة المقرونة بالتعظيم فبين تعالى

(في)

بالزنجبيل بعينه او يخلق الله تعالى طعمه فيها فعينا حينئذ بدل من كأسا كانه قيل ويسقون فيها كأسا كأس عين اونصب على الاختصاص (فيها تسمى سلسبيلا) لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل ولذلك حكم بزيادة الباء والمراد بيان انها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعه بل نقيض اللذع هو السلاسة (ويطوف عليهم ولدان مخلدون) اى دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء (اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) لحسنهم وصفاء الوانهم واشراق وجوههم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم وانعكاس اشعة بعضهم الى بعض (واذا رأيت ثم) ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر ولا منوى بل معناه ان بصرك اينما وقع في الجنة (رأيت نعيما وملكا كبيرا) اى هنيئا واسعا وفي الحديث ادنى

فى الآيات المتقدمة تفصيل تلك المنافع وبين فى هذه الآية حصول التعظيم وهو ان كل واحدمنهم يكون كالملك العظيم واما المفسرون فنهم من حمل هذا الملك الكبير على ان هناك منافع ازيد مماتقدم ذكره قال ابن عباس لايقدر واصف يصف حسنه ولاطيبه ويقال ان ادنى اهل الجنة منزلة ينظر فى ملكه مسيرة الف عام ويرى اقصاه كما يرى ادناه وقيل لازوال له وقيل اذا أرادوا شيئا حصل ومنهم من حمله على التعظيم فقال الكلبي هو ان يأتى الرسول من عندالله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف الى ولى الله وهو فى منزله فيستأذن عليه ولايدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين الابعد الاستئذان (المسئلة الثالثة) قال بعضهم قوله واذارأيت خطاب لمحمد خاصة والدليل عليه ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارأيت ان دخلت الجنة اترى عيناى ماترى عيناك فقال نعم فبكى حتى مات وقال آخرون بل هو خطاب لكل احد ※ قوله تعالى (عاليهم ثياب سندس خضر وا ستبرق) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وحمزة عاليهم باسكان الياء والباقون بفتح الياء (اما القراءة الاولى) فالوجه فيها ان يكون عاليهم مبتدأ وثياب سندس خبره والمعنى مايعلوهم من لباسهم ثياب سندس (فان قيل) عاليهم مفرد وثياب سندس جماعة والمبتدأ اذا كان مفردا لايكون خبره جمعا (قلنا) المبتدأ وهو قوله عاليهم وان كان مفردا فى اللفظ فهو جمع فى المعنى ونظيره قوله تعالى مستكبرين به سامرا تهجرون فقطع دابر القوم كأنه افرد من حيث جعل بمنزلة المصدر (واما القراءة الثانية) وهى فتح الياء فذكروا فى هذا النصب ثلاثة اوجه (الاول) انه نصب على الظرف لانه لما كان عالى بمعنى فوق اجرى مجراه فى هذا الاعراب كما كان قوله والركب اسفل منكم كذلك وهو قول ابى على الفارسى (والثانى) انه نصب على الحال ثم هذا ايضا يحتمل وجوها (احدها) قال ابو على الفارسى التقدير ولقاهم نضرة وسرورا حال مايكون عاليهم ثياب سندس (وثانيها) التقدير وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا حال مايكون عاليهم ثياب سدس (وثالثها) ان يكون التقدير ويطوف على الابرار ولدان حال مايكون الابرار عاليهم ثياب سندس (ورابعها) حسبتهم لؤلؤا منثورا حال مايكون عاليهم ثياب سندس فعلى الاحتمال الثلاثة الاول تكون الثياب ثياب الابرار وعلى الاحتمال الرابع تكون الثياب ثياب الولدان (الوجه الثالث) فى سبب هذا النصب ان يكون التقدير رأيت اهل نعيم وملك عاليهم ثياب سندس (المسئلة الثانية) قرأ نافع وعاصم خضر واستبرق كلاهما بالرفع وقرأ الكسائى وحمزة كلاهما بالخفض وقرأ ابن كثير خضر بالخفض واستبرق بالرفع وقرأ ابوعمرو وعبدالله ابن عامر خضر بالرفع واستبرق بالخفض وحاصل الكلام فيه ان خضرا يجوز فيه الخفض والرفع اماالرفع فاذا جعلتها صفة لثياب وذلك ظاهر لانها صفة مجموعة لموصوف مجموع واما الخفض فاذا جعلتها صفة سندس لان سندس اريد به الجنس فكان فى معنى

اهل الجنة منزلة ينظر فى ملكه مسيرة الف عام يرى اقصاه كما يرى ادناه وقيل لازوال له وقيل اذا ارادوا شيأ كان وقيل يسلم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم (عاليهم ثياب سندس خضر) قيل عاليهم ظرف على انه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر والجملة صفة اخرى لولدان كأنه قيل يطوف عليهم ولدان فوقهم ثياب الخ وقيل حال من ضمير عليهم او حسبتهم اى يطوف عليهم ولدان عاليا للمطوف عليهم ثياب الخ او حسبتهم لؤلؤا منثورا عاليا لهم ثياب الخ وقرئ عاليهم بالرفع على انه مبتدأ خبره ثياب اى مايعلوهم من لباسهم ثياب سندس وقرئ خضر بالجر حملا على سندس بالمعنى لكونه اسم جنس (واستبرق) بالرفع عطفا على ثياب وقرئ برفع الاول وجر الثانى وقرئ بالعكس وقرئ بجرهما وقرئ واستبرق بوصل الهمزة والفتح على انه استفعل من البريق جعل علما

الجمع واجاز الاخفش وصف اللفظ الذى يراد به الجنس بالجمع كما يقال اهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض الاانه قال انه قبيح والدليل على قبحه ان العرب تجئ بالجمع الذى هو فى لفظ الواحد فيجرونه مجرى الواحد وذلك قولهم حصى ابيض وفى التنزيل من الشجر الاخضر واعجاز نخل منقعر فاذا كانوا قد افردوا صفات هذا الضرب من الجمع فالواحد الذى فى معنى الجمع اولى ان تفرد صفة واما استبرق فيجوز فيه الرفع والخفض ايضا معا اما الرفع فاذا اريد به العطف على الثياب كأنه قيل ثياب سندس واستبرق واما الخفض فاذا اريد اضافة الثياب اليه كأنه قيل ثياب سندس واستبرق والمعنى ثيابهما فاضاف الثياب الى الجنسين كما يقال ثياب خز كتان ويدل على ذلك قوله تعالى ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق واعلم ان حقائق هذه الآية قد تقدمت فى سورة الكهف (المسئلة الثالثة) السندس مارق من الديباج والاستبرق ماغلظ منه وكل ذلك داخل فى اسم الحرير قال تعالى ولباسهم فيها حرير ثم قيل ان الذين هذا لباسهم هم الولدان المخلدون وقيل بل هذا لباس الابرار وكأنهم يلبسون عدة من الثياب فيكون الذى يعلوها افضلها ولهذا قال عاليهم وقيل هذا من تمام قوله متكئين فيها على الارائك ومعنى عاليهم اى فوق حجالهم المضروبة عليهم ثياب سندس والمعنى ان حجالهم من الحرير والديباج ❊ قوله تعالى (وحلوا اساور من فضة) وفيه سؤالان (السؤال الاول) قال تعالى فى سورة الكهف اولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الانهار يحلون فيها من اساور من ذهب فكيف جعل تلك الاساور ههنا من فضة والجواب من ثلاثة اوجه (احدها) انه لامنافاة بين الامرين فلعلهم يسورون بالجنسين اما على المعاقبة او على الجمع كما تفعل النساء فى الدنيا (وثانيها) ان الطباع مختلفة فرب انسان يكون استحسانه لبياض الفضة فوق استحسانه لصفرة الذهب فالله تعالى يعطى كل احد ماتكون رغبته فيه اتم وميله اليه اشد (وثالثها) ان هذه الاسورة من الفضة انما تكون للولدان الذين هم الخدم واسورة الذهب للناس (السؤال الثانى) السوار انما يليق بالنساء وهو عيب للرجال فكيف ذكر الله تعالى ذلك فى معرض الترغيب (الجواب) اهل الجنة جرد مرد شباب فلا يبعد ان يحلوا ذهبا وفضة وان كانوا رجالا وقيل هذه الاسورة من الفضة والذهب انما تكون لنساء اهل الجنة وللصبيان فقط ثم غلب فى اللفظ جانب التذكير وفى الآية وجه آخر وهو ان آلة اكثر الاعمال هى اليد وتلك الاعمال والمجاهدات هى التى يتوسل بها الى تحصيل المعارف الالهية والانوار الصمدية فتكون تلك الاعمال جارية مجرى الذهب والفضة التى يتوسل بهما الى تحصيل المطالب فلما كانت تلك الاعمال صادرة من اليد كانت تلك الاعمال جارية مجرى سوار الذهب والفضة فسميت الاعمال والمجاهدات بسوار الذهب والفضة وعبر عن تلك الانوار الفائضة عن الحضرة الصمدية بقوله وسقاهم ربهم شرابا طهورا وبالجملة فقوله حلوا اساور من فضة اشارة الى قوله والذين جاهدوا

(فينا)

لهذا النوع من الثياب (وحلوا اساور من فضة) عطف على يطوف عليهم ولا ينافيه قوله تعالى اساور من ذهب لامكان الجمع والمعاقبة والتبعيض فان حلى اهل الجنة يختلف حسب اختلاف اعمالهم فلعله تعالى يفيض عليهم جزاء لما عملوه بأيديهم حليا وانوارا تتفاوت تفاوت الذهب والفضة او حال من ضمير عاليهم باضمار قد وعلى هذا يجوز ان يكون هذا للخدم وذاك للمخدومين (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) هو نوع آخر يفوق النوعين السالفين كما يرشد اليه اسناد سقيه الى رب العالمين ووصفه بالطهورية فانه يطهر شاربه عن دنس الميل الى الملاذ الحسية والركون الى ماسوى الحق فيتجرد لمطالعة جماله ملتذا بلقائه باقيا ببقائه وهى الغاية القاصية من منازل الصديقين ولذلك ختم بها مقالة ثواب الابرار

فينا وقوله وسقاهم ربهم شرابا طهورا اشارة الى قوله لنهدينهم سبلنا فهذا احتمال خطر بالبال والله اعلم بمراده ❊ قوله تعالى (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) الطهور فيه قولان (الاول) المبالغة في كونه طاهرا ثم فيه على هذا التفسير احتمالات (احدها) انه لايكون نجسا كخمر الدنيا (وثانيها) المبالغة في البعد عن الامور المستقذرة يعني ما مسته الايدي الوضرة وماداسته الاقدام الدنسة (وثالثها) انها لاتؤل الى النجاسة لانها ترشح عرقا من ابدانهم له ريح كريح المسك (القول الثاني) في الطهور انه المطهر وعلى هذا التفسير ايضا في الآية احتمالان (احدهما) قال مقاتل هو عين ماء على باب الجنة تنبع من ساق شجرة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد وما كان في جوفه من قذر وأذى (وثانيها) قال ابو قلابة يؤتون بالطعام والشراب فاذا كان في آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور فيشربون فتطهر بذلك بطونهم ويفيض عرق من جلودهم مثل ريح المسك وعلى هذين الوجهين يكون الطهور مطهرا لانه يطهر باطنهم عن الاخلاق الذميمة والاشياء المؤذية فان قيل قوله تعالى وسقاهم ربهم هو عين ماذكر تعالى قبل ذلك من انهم يشربون من عين الكافور والزنجبيل والسلسبيل او هذا نوع آخر قلنا بل هذا نوع آخر ويدل عليه وجوه (احدها) دفع التكرار (وثانيها) انه تعالى اضاف هذا الشراب الى نفسه فقال وسقاهم ربهم وذلك يدل على فضل في هذا دون غيره (وثالثها) ماروينا انه تقدم اليهم الاطعمة والاشربة فاذا فرغوا منها أتوا بالشراب الطهور فيشربون فيطهر ذلك بطونهم ويفيض عرقا من جلودهم مثل ريح المسك وهذا يدل على ان هذا الشراب مغاير لتلك الاشربة ولان هذا الشراب يهضم سائر الاشربة ثم له مع هذا الهضم تأثير عجيب وهو انه يجعل سائر الاطعمة والاشربة عرقا يفوح منه ريح كريح المسك وكل ذلك يدل على المغايرة (ورابعها) وهو ان الروح من عالم الملائكة والانوار الفائضة من جواهر أكابر الملائكة وعظمائهم على هذه الارواح مشبهة بالماء العذب الذي يزيل العطش ويقوي البدن وكما ان العيون متفاوتة في الصفاء والكثرة والقوة فكذا ينابيع الانوار العلوية مختلفة فبعضها تكون كافورية على طبع البرد واليبس ويكون صاحبه في الدنيا في مقام الخوف والبكاء والانقباض وبعضها تكون زنجبيلية على طبع الحر واليبس فيكون صاحب هذه الحالة قليل الالتفات الى ماسوى الله تعالى قليل المبالاة بالاجسام والجسمانيات ثم لاتزال الروح البشرية منتقلة من ينبوع الى ينبوع ومن نور الى نور ولاشك ان الاسباب والمسببات متناهية في ارتقائها الى واجب الوجود الذي هو النور المطلق جل جلاله وعز كماله فاذا وصل الى ذلك المقام وشرب من ذلك الشراب انهضمت تلك الاشربة المتقدمة بل فنيت لان نور ماسوى الله تعالى يضمحل في مقابلة نور جلال الله وكبريائه وعظمته وذلك هو آخر سير الصديقين ومنتهى درجاتهم في الارتقاء والكمال فلهذا

(ان هذا) على اضمار القول اى يقال لهم ان هذا الذي ذكر من فنون الكرامات (كان لكم جزاء) بمقابلة اعمالكم الحسنة (وكان سعيكم مشكورا) مرضيا مقبولا مقابلا بالثواب (انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) اى مفرقا منجما لحكم بالغة مقتضية له لاغيرنا كما يعرب عنه تكرير الضمير مع ان (فاصبر لحكم ربك) بتأخير نصرك على الكفار فان له عاقبة جيدة (ولا تطع منهم آثما اوكفورا) اى كل واحد من مرتكب الاثم الداعي لك

السبب ختم الله تعالى ذكر ثواب الابرار على قوله وسقاهم ربهم شرابا طهورا واعلم انه تعالى لما تمم شرح احوال السعداء ❊ قال تعالى (ان هـذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) اعلم ان في الآية وجهين (الاول) قال ابن عباس المعنى انه يقـال لاهل الجنة بعد دخولهم فيها ومشاهدتهم لنعيمها ان هذا كان لكم جزاء قد اعده الله تعـالى لكم الى هذا الوقت فهو كله لكم بأعمـالكم على قلة اعمالكم كما قال حاكيا عن الملائكة انهم يقولون لأهل الجنة سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وقال كلوا واشربوا هنيأ بما اسلفتم في الايام الخالية والغرض من ذكر هذا الكلام ان يزداد سرورهم فانه يقال للمعاقب هذا بعملك الردئ فيزداد غمه والم قلبه ويقـال للمثاب هذا بطاعتك فيكون ذلك تهنئة له وزيادة في سروره والقائل بهـذا التفسير جعل القول مضمرا اى ويقال لهم هذا الكلام (الوجه الثاني) ان يكون ذلك اخبارا من الله تعالى لعباده في الدنيا فكأنه تعالى شرح ثواب اهل الجنة ان هذا كان في علمي وحكمي جزاء لكم يامعاشر عبادى لكم خلقتها ولأجلكم اعددتها وبقي في الآية سؤالان (السؤال الاول) اذا كان فعل العبد خلق الله فكيف يعقل ان يكون فعل الله جزاء على فعل الله (الجواب) الجزاء هو الكافي وذلك لاينافي كونه فعلا لله تعالى (السؤال الثاني) كون سعي العبد مشكورا لله يقتضي كون الله شاكرا له (الجواب) كون الله تعالى شاكرا للعبد محال الا على وجه المجاز وهو من ثلاثة اوجه (الاول) قال القاضي ان الثواب مقابل لعملهم كما ان الشكر مقابل للنعم (الثاني) قال القفال انه مشهور في كلام النـاس ان يقولوا للراضي بالقليل والمثني به انه شكور فيحتمل ان يكون شكر الله لعباده هو رضاه عنهم بالقليل من الطاعات واعطاؤه اياهم عليه ثوابا كثيرا (الوجه الثالث) ان منتهى درجة العبد ان يكون راضيا من ربه مرضيا لربه على ما قال يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية وكونها راضية من ربه اقل درجة من كونها مرضية لربه فقوله ان هذا كان لكم جزاء اشارة الى الامر الذي به تصير النفس راضية من ربه وقوله وكان سعيكم مشكورا اشارة الى كونها مرضية لربه ولمـا كانت هذه الحالة اعلى المقامات وآخر الدرجات لاجرم وقع الختم عليها في ذكر مراتب احوال الابرار والصديقين ❊ قوله تعالى (انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) اعلم انه سبحانه بين في اول السورة ان الانسان وجد بعد العدم بقوله هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ثم بين انه سبحانه خلقه من امشاج والمراد منه اما كونه مخلوقا من العناصر الاربعة او من الاخلاط الاربعة او من ماء الرجل والمرأة او من الاعضاء والارواح او من البدن والنفس او من احوال متعاقبة على ذلك الجسم مثل كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما وعلى اى هذه الوجوه تحمل هذه الآية فذلك يدل على انه لابد من الصانع المختار جل جلاله وعظم كبرياؤه ثم بين بعـد ذلك انى ما خلقته ضائعا عاطلا باطلا بل خلقته لاجل الابتـلاء

اليه ومن الغالي في الكفر الداعي اليه واو للدلالة على انهما سيان في استحقاق العصيان والاستقلال به والتقسيم باعتبار مايدعونه اليه فان ترتب النهي على الوصفين مشعر بعليتهما له فلابد ان يكون النهي عن الاطاعة في الاثم والكفر فيما ليس باثم ولا كفر وقيل الآثم عتبة فانه كان ركابا للمآثم متعاطيا لانواع الفسوق والكفور الوليد فانه كان غاليا في الكفر شديد الشكيمة في العتو (واذكر اسم ربك بكرة واصيلا)ودوام

والامتحان واليه الاشارة بقوله نبتليه وههنا موضع الخصومة العظيمة القائمة بين اهل الجبر والقدر ثم ذكر تعالى انى اعطيته جميع مايحتاج اليه عند الابتلاء والامتحان وهو السمع والبصر والعقل واليه الاشارة بقوله فجعلناه سميعا بصيرا ولما كان العقل اشرف الامور المحتاج اليها فى هذا الباب افرده عن السمع والبصر فقال اناهديناه السبيل ثم بين ان الخلق بعد هذه الاحوال صاروا قسمين منهم شاكر ومنهم كفور وهذا الانقسام باختيارهم كما هو تأويل القدرية او من الله على ماهو تأويل الجبرية ثم انه تعالى ذكر عذاب الكفار على الاختصار ثم ذكر بعد ذلك ثواب المطيعين على الاستقصاء وهو الى قوله وكان سعيكم مشكورا واعلم ان الاختصار فى ذكر العقاب مع الاطناب فى شرح الثواب يدل على ان جانب الرحمة اغلب واقوى فظهر مما بينا ان السورة من اولها الى هذا الموضع فى بيان احوال الآخرة ثم انه تعالى شرع بعد ذلك فى احوال الدنيا وقدم شرح احوال المطيعين على شرح احوال المتمردين اما المطيعون فهم الرسول وامته والرسول هو الرأس والرئيس فلهذا خص الرسول بالخطاب واعلم ان الخطاب اما النهى واما الامر ثم انه تعالى قبل الخوض فيما يتعلق بالرسول من النهى والامر قدم مقدمة فى تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وازالة الغم والوحشة عن خاطره وانما فعل ذلك لان الاشتغال بالطاعة والقيام بعهدة التكليف لايتم الامع فراغ القلب ثم بعد هذه المقدمة ذكر نهيه عن بعض الاشياء ثم بعد الفراغ عن النهى ذكر امره ببعض الاشياء وانما قدم النهى على الامر لان دفع الضرر أهم من جلب النفع وازالة مالاينبغى مقدم على تحصيل ماينبغى ثم انه تعالى ذكر بعد ذلك احوال المتمردين والكفار على ماسيأتى تفصيل بيانه ومن تأمل فيما ذكرناه علم ان هذه السورة وقعت على احسن وجوه الترتيب والنظم فالحمد لله الذى نور عقل هذا المسكين الضعيف بهذه الانوار وله الشكر عليه ابد الآباد ولنرجع الى التفسير فنقول اما تلك المقدمة فهى قوله تعالى انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا واعلم ان المقصود من هذه الآية تثبيت الرسول وشرح صدره فيما نسبوه اليه من كهانة وسحر فذكر الله تعالى ان ذلك وحى من الله فلاجرم بالغ وكرر الضمير بعد ايقاعه اسما لان تأكيدا على تأكيد ابلغ كأنه تعالى يقول ان كان هؤلاء الكفار يقولون ان ذلك كهانة فانا الله الملك الحق اقول على سبيل التأكيد والمبالغة ان ذلك وحى حق وتنزيل صدق من عندى وهذا فيه فائدتان (احداهما) ازالة الوحشة المتقدمة الحاصلة بسبب طعن اولئك الكفار فان بعض الجهال وان طعنوا فيه الاان جبار السموات عظمه وصدقه (والثانية) تقويته على تحمل التكليف المستقبل وذلك لان الكفار كانوا يبالغون فى ايذائه وهو كان يريد مقاتلتهم فلما امره الله تعالى بالصبر على ذلك الايذاء وترك المقاتلة وكان ذلك شاقا عليه فقال له انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا فكأنه قال له انى ماانزلت عليك هذا القرآن مفرقا منجما الا لحكمة بالغة تقتضى تخصيص كل شئ بوقت معين ولقد اقتضت تلك الحكمة

على ذكره فى جميع الاوقات اودم على صلاة الفجر والظهر والعصر فان الاصيل ينتظمهما (ومن الليل فاسجد له) وبعض الليل فصل له ولعله صلاة المغرب والعشاء وتقديم الظرف لما فى صلاة الليل من مزيد كلفة وخلوص (وسبحه ليلا طويلا) وتهجد له قطعا من الليل طويلا (ان هؤلاء) الكفرة (يحبون العاجلة) وينهمكون فى لذاتها الفانية (ويذرون وراءهم) اى امامهم لايستعدون او ينبذون وراء ظهورهم (يوما ثقيلا)

تأخير الاذن فى القتال فاصبر لحكم ربك الصادر عن الحكمة المحضة المبرأ عن العيب والعبث والباطل ثم انه تعالى لما قدم هذه المقدمة ذكر النهى ❊ فقال تعالى (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما او كفورا) فاما ان يكون المعنى فاصبر لحكم ربك فى تأخير الاذن فى القتال ونظيره فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين او يكون المعنى عاما فى جميع التكاليف اى فاصبر فى كل ما حكم به ربك سواء كان ذلك تكليفا خاصا بك من العبادات والطاعات او متعلقا بالغير وهو التبليغ واداء الرسالة وتحمل المشاق الناشئة من ذلك ثم فى الآية سؤالات (السؤال الاول) قوله فاصبر لحكم ربك دخل فيه ان لا تطع آثما او كفورا فكان ذكره بعد هذا تكريرا (الجواب) الاول امر بالمأمورات والثانى نهى عن المنهيات ودلالة احدهما على الآخر بالالتزام لا بالتصريح فيكون التصريح به مفيدا (السؤال الثانى) انه عليه السلام ما كان يطيع احدا منهم فما الفائدة فى هذا النهى (الجواب) المقصود بيان ان الناس محتاجون الى مواصلة التنبيه والارشاد لأجل ما تركب فيهم من الشهوات الداعية الى الفساد وان احدا لو استغنى عن توفيق الله وامداده وارشاده لكان احق الناس به هو الرسول المعصوم ومتى ظهر ذلك عرف كل مسلم انه لا بدله من الرغبة الى الله والتضرع اليه فى ان يصونه عن الشبهات والشهوات (السؤال الثالث) ما الفرق بين الآثم والكفور (الجواب) الآثم هو المقدم على المعاصى اى معصية كانت والكفور هو الجاحد للنعمة فكل كفور آثم اما ليس كل آثم كفورا وانما قلنا ان الآثم عام فى المعاصى كلها لانه تعالى قال ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما فسمى الشرك اثما وقال ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه وقال وذروا ظاهر الاثم وباطنه وقال يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير فدلت هذه الآيات على ان هذا الاسم شامل لكل المعاصى واعلم ان كل من عبد غير الله فقد اجتمع فى حقه هذان الوصفان لانه لما عبد غيره فقد عصاه وجحد انعامه اذا عرفت هذا فنقول فى الآية قولان (الاول) ان المراد شخص معين ثم منهم من قال الآثم والكفور وهو شخص واحد وهو ابوجهل ومنهم من قال الآثم هو الوليد والكفور هو عتبة قال القفال ويدل عليه انه تعالى سمى الوليد أثيما فى قوله تعالى ولا تطع كل حلاف مهين الى قوله مناع للخير معتد اثيم وروى صاحب الكشاف ان الآثم هو عتبة والكفور هو الوليد لان عتبة كان ركابا للمآثم متعاطيا لانواع الفسوق والوليد كان غاليا فى الكفر والقول الاول اولى لانه متأيد بالقرآن يروى ان عتبة بن ربيعة قال للنبى صلى الله عليه وسلم ارجع عن هذا الامر حتى أزوجك ولدى فانى من اجل قريش ولدا وقال الوليد أنا اعطيك من المال حتى ترضى فانى من اكثرهم مالا فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات من اول حم السجدة الى قوله فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فانصرفا عنه وقال احدهما ظننت ان الكعبة ستقع على (القول الثانى) ان الآثم والكفور مطلقان غير

لا يعبؤن به ووصفه بالثقل لتشبيه شدته وهوله بثقل شئ فادح باهظ لحامله بطريق الاستعارة وهو كالتعليل لما امر به ونهى عنه (نحن خلقناهم) لا غيرنا (وشددنا اسرهم) اى احكمنا ربط مفاصلهم بالاعصاب (واذا شئنا بدلنا امثالهم) بعد اهلا كهم (تبديلا) بديعا لا ريب فيه هو البعث كما ينبئ عنه كلمة اذا او بدلنا غيرهم ممن يطيع كقوله تعالى يستبدل قوما غيركم واذا للدلالة على تحقق القدرة وقوة الداعية

(مختصين)

مختصين بشخص معين وهذا هو الاقرب الى الظاهر ثم قال الحسن الآثم هو المنافق والكفور مشركو العرب وهذا ضعيف بل الحق ماذكرناه من ان الآثم عام والكفور خاص (السؤال الرابع) كانوا كلهم كفرة فما معنى القسمة فى قوله آثما اوكفورا (الجواب) الكفور اخبث انواع الآثم فخصه بالذكر تنبيها على غاية خبثه ونهاية بعده عن الله (السؤال الخامس) كلة او تقتضى النهى عن طاعة احدهما فلم لم يذكر الواو حتى يكون نهيا عن طاعتهما جميعا (الجواب) ذكروا فيه وجهين (الاول) وهو الذى ذكره الزجاج واختاره اكثر المحققين انه لوقيل ولاتطعهما لجاز ان يطيع احدهما لان النهى عن طاعة مجموع شخصين لايقتضى النهى عن طاعة كل واحد منهما وحده اما النهى عن طاعة احدهما يكون نهيا عن طاعة مجموعهما لان الواحد داخل فى المجموع ولقائل ان يقول هذا ضعيف لان قوله لاتطع هذا وهذا معناه كن مخالفا لأحدهما ولايلزم من ايجاب مخالفة احدهما ايجاب مخالفتهما معا فانه لايبعد ان يقول السيد لعبده اذا أمرك احد هذين الرجلين فخالفه اما اذا توافقا فلاتخالفهما (والثانى) قال الفراء تقدير الآية لاتطع منهم احدا سواء كان آثما اوكفورا كقول الرجل لمن يسأله شيئا لااعطيك سواء سألت اوسكت ❊ واعلم انه تعالى لما ذكر هذا النهى عقبه بالامر فقال (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) وفى هذه الآية قولان (الاول) ان المراد هو الصلاة قالوا لان التقييد بالبكرة والاصيل يدل على ان المراد من قوله واذكر اسم ربك الصلوات ثم قالوا البكرة هى صلاة الصبح والاصيل صلاة الظهر والعصر ومن الليل فاسجد له المغرب والعشاء فتكون هذه الكلمات جامعة للصلوات الخمس وقوله وسبحه ليلا طويلا المراد منه التهجد ثم اختلفوا فيه فقال بعضهم كان ذلك من الواجبات على الرسول عليه السلام ثم نسخ كما ذكرنا فى سورة المزمل واحتجوا عليه بأن قوله فاسجد له وسبحه امر وهو للوجوب لاسيما اذا تكرر على سبيل المبالغة وقال آخرون بل المراد التطوع وحكمه ثابت (القول الثانى) ان المراد من قوله واذكر اسم ربك الى آخر الآية ليس هو الصلاة بل المراد التسبيح الذى هو القول والاعتقاد والمقصود ان يكون ذاكر الله فى جميع الاوقات ليلا ونهارا بقلبه ولسانه وهو المراد من قوله يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة واصيلا واعلم ان فى الآية لطيفة اخرى وهى انه تعالى قال انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا اى هديناك الى هذه الاسرار وشرحنا صدرك بهذه الانوار واذ قد فعلنا بك ذلك فكن منقادا مطيعا لأمرنا واياك وان تكون منقادا مطيعا لغيرنا ثم لما امره بطاعته ونهاه عن طاعة غيره قال واذكر اسم ربك وهذا اشارة الى ان العقول البشرية ليس عندها الا معرفة الاسماء والصفات اما معرفة الحقيقة فلا فتارة يقال له واذكر اسم ربك وهو اشارة الى معرفة الاسماء وتارة يقال له واذكر ربك فى نفسك وهو اشارة الى مقام الصفات واما

(ان هذه تذكرة) اشارة الى السورة اوالآيات القريبة (فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا) اى فمن شاء ان يتخذ اليه تعالى سبيلا اى وسيلة توصله الى ثوابه اتخذه اى تقرب اليه بالعمل بما فى تضاعيفها وقوله تعالى (وماتشاؤن الا ان يشاء الله) تحقيق للحق ببيان ان مجرد مشيئتهم غير كافية فى اتخاذ السبيل كما هو المفهوم من ظاهر الشرطية اى وماتشاؤن اتخاذ السبيل ولاتقدرون على تحصيله فى وقت من الأوقات الاوقت مشيئته تعالى تحصيله لكم اذلا دخل لمشيئة العبد الا فى الكسب وانما التأثير والخلق لمشيئة الله عز وجل وقرئ يشاؤن

معرفة الحقيقة المخصوصة التي هي المستلزمة لسائر اللوازم السلبية والاضافية فلاسبيل لشيء من الممكنات والمحدثات الى الوصول اليها والاطلاع عليها فسبحان من اختفى عن العقول لشدة ظهوره واحتجب عنها بكمال نوره واعلم انه تعالى لما خاطب رسوله بالتعظيم والنهي والامر عدل الى شرح احوال الكفار والمتمردين * فقال تعالى (ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) والمراد ان الذي حمل هؤلاء الكفار على الكفر وترك الالتفات والاعراض عما ينفعهم في الآخرة ليس هو الشبهة حتى ينتفعوا بالدلائل المذكورة في اول هذه السورة بل الشهوة والمحبة لهذه اللذات العاجلة والراحات الدنية البدنية وفي الآية سؤالان (السؤال الاول) لم قال وراءهم ولم يقل قدامهم (الجواب) من وجوه (احدها) لما لم يلتفتوا اليه واعرضوا عنه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم (وثانيها) المراد ويذرون وراءهم مصالح يوم ثقيل فأسقط المضاف (وثالثها) ان وراء تستعمل بمعنى قدام كقوله من ورائه جهنم وكان وراءهم ملك (السؤال الثاني) ما السبب في وصف يوم القيامة بأنه يوم ثقيل (الجواب) استعير الثقل لشدته وهوله من الشيء الثقيل الذي يتعب حامله ونحوه ثقلت في السموات والارض * ثم انه تعالى لما ذكر ان الداعي لهم الى هذا الكفر حب العاجل قال تعالى (نحن خلقناهم وشددنا اسرهم واذا شئنا بدلنا امثالهم تبديلا) والمراد ان حبهم للعاجلة يوجب عليهم طاعة الله من حيث الرغبة ومن حيث الرهبة اما من حيث الرغبة فلانه هو الذي خلقهم واعطاهم الاعضاء السليمة التي بها يمكن الانتفاع باللذات العاجلة وخلق جميع ما يمكن الانتفاع به فاذا أحبوا اللذات العاجلة وتلك اللذات لا تحصل الا عند حصول المنتفع وحصول المنتفع به وهذان لا يحصلان الا بتكوين الله وايجاده فهذا مما يوجب عليهم الانقياد لله ولتكاليفه وترك التمرد والاعراض وأما من حيث الرهبة فلأنه قادر على ان يميتهم وعلى ان يسلب النعمة عنهم وعلى ان يلقيهم في كل محنة وبلية فلأجل الخوف من فوت هذه اللذات العاجلة يجب عليهم ان ينقادوا لله وان يتركوا هذا التمرد وحاصل الكلام كأنه قيل لهم هب ان حبكم لهذه اللذات العاجلة طريقة مستحسنة الا ان ذلك يوجب عليكم الايمان بالله والانقياد له فلو انكم توسلتم به الى الكفر بالله والاعراض عن حكمه لكنتم قد تمردتم وهذا ترتيب حسن في السؤال والجواب وطريقة لطيفة وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال اهل اللغة الاسر الربط والتوثيق ومنه اسر الرجل اذا وثق بالقيد وفرس مأسور الخلق وفرس مأسور بالعقب والمعنى شددنا توصيل اعضائهم بعضها ببعض وتوثيق مفاصلهم بالاعصاب (المسئلة الثانية) واذا شئنا بدلنا امثالهم اي اذا شئنا اهلكناهم وأتينا بأشباههم فجعلناهم بدلا منهم وهو كقوله على ان نبدل امثالكم والغرض منه بيان الاستغناء التام عنهم كأنه قيل لا حاجة بنا الى احد من المخلوقات البتة وبتقدير ان تثبت الحاجة فلا حاجة الى هؤلاء الاقوام فانا قادرون على افنائهم وعلى ايجاد امثالهم ونظيره

(قوله)

بالياء وقرئ الا ما يشاء الله وقوله تعالى (ان الله كان عليما حكيما) بيان لكون مشيئته تعالى مبنية على اساس العلم والحكمة والمعنى انه تعالى مبالغ في العلم والحكمة فيعلم ما يستأهله كل احد فلا يشاء لهم الا ما يستدعيه علمه وتقتضيه حكمته وقوله تعالى (يدخل من يشاء في رحمته) بيان لاحكام مشيئته المترتبة على علمه وحكمته اي يدخل في رحمته من يشاء ان يدخله فيها وهو الذي يصرف مشيئته نحو اتخاذ السبيل

قوله تعالى ان يشأ يذهبكم ايها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا وقال ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وماذلك على الله بعزيز ثم قيل بدلنا امثالهم اى فى الخلقة وان كانوا اضدادهم فى العمل وقيل امثالهم فى الكفر (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف فى قوله واذا شئنا ان حقه ان يجئ بان لا باذا كقوله وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ان يشأ يذهبكم واعلم ان هذا الكلام كأنه طعن فى لفظ القرآن وهو ضعيف لان كل واحد من ان واذا حرف الشرط الا ان حرف ان لا يستعمل فى ما يكون معلوم الوقوع فلا يقال ان طلعت الشمس اكرمتك اما حرف اذا فانه يستعمل فى ما يكون معلوم الوقوع تقول آتيك اذا طلعت الشمس فههنا لما كان الله تعالى عالما بأنه سيجئ وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم فى الخلقة واضدادهم فى الطاعة لاجرم حسن استعمال حرف اذا ※ واعلم انه تعالى لما شرح احوال السعداء واحوال الاشقياء قال بعده (ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا وما تشاؤن الا ان يشاء الله) والمعنى ان هذه السورة بما فيها من الترتيب العجيب والنسق البعيد والوعد والوعيد والترغيب والترهيب تذكرة للمتأملين وتبصرة للمستبصرين فمن شاء الخير لنفسه فى الدنيا والآخرة اتخذ الى ربه سبيلا واتخاذ السبيل الى الله عبارة عن التقرب اليه واعلم ان هذه الآية من جملة الآيات التى تلاطمت فيها امواج الجبر والقدر فالقدرى يتمسك بقوله تعالى فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ويقول انه صريح مذهبى ونظيره فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر والجبرى يقول متى ضمت هذه الآية الى الآية التى بعدها خرج منه صريح مذهب الجبر وذلك لان قوله فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا يقتضى ان تكون مشيئة العبد متى كانت حاصلة فانها تكون مستلزمة للفعل وقوله بعد ذلك وما تشاؤن الا ان يشاء الله يقتضى ان مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد ومستلزم المستلزم مستلزم فاذا مشيئة الله مستلزمة لفعل العبد وذلك هو الجبر وهكذا الاستدلال على الجبر بقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر لان هذه الاية ايضا تقتضى كون المشيئة مستلزمة للفعل ثم التقرير ما تقدم واعلم ان هذا الاستدلال على هذا الوجه الذى لخصناه لا يتوجه عليه كلام القاضى الا انا نذكره وننبه على ما فيه من الضعف قال القاضى المذكور فى هذه الآية اتخاذ السبيل الى الله ونحن نسلم ان الله قد شاءه لانه تعالى قد أمر به فلا بد وان يكون قد شاءه وهذا لا يقتضى ان يقال العبد لا يشاء الا ما قد شاءه الله على الاطلاق اذ المراد بذلك الامر المخصوص الذى قد ثبت انه تعالى قد أراده وشاءه واعلم ان هذا الكلام الذى ذكره القاضى لا تعلق له بالاستدلال على الوجه الذى ذكرناه وايضا فحاصل ما ذكره القاضى تخصيص هذا العام بالصورة التى مر ذكرهما فيما قبل هذه الآية وذلك ضعيف لان خصوص ما قبل الآية لا يقتضى تخصيص هذا العام به لاحتمال ان يكون الحكم فى هذه الآية واردا بحيث يعم تلك الصورة وسائر الصور بقى فى الآية سؤال يتعلق بالاعراب وهو ان يقال ما محل ان

اليه تعالى حيث يوفقه لما يؤدى الى دخول الجنة من الايمان والطاعة (والظالمين) وهم الذين صرفوا مشيئتهم الى خلاف ما ذكر (اعد لهم عذابا اليما) اى هيأنا فى الايلام قال الزجاج نصب الظالمين لان ما قبله منصوب اى يدخل من يشاء فى رحمته ويعذب الظالمين ويكون اعد لهم تفسيرا لهذا المضمر وقرئ بالرفع على الابتداء * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هل اتى كان جزاؤه على الله تعالى جنة وحريرا

يشاء الله وجوابه النصب على الظرف واصله الا وقت مشيئة الله وكذلك قراءة ابن مسعود الا مايشاء الله لان مامع الفعل كأن معه وقرئ ايضا يشاؤن بالياء * ثم قال تعالى (ان الله كان عليما حكيما) اى عليما بأحوالهم ومايكون منهم حيث خلقهم مع علمه بهم * ثم ختم السورة فقال تعالى (يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين اعدلهم عذابا أليما) اعلم ان خاتمة هذه السورة عجيبة وذلك لان قوله وماتشاؤن الا ان يشاء الله يدل على ان جميع مايصدر عن العبد فبمشيئة الله وقوله يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين اعدلهم عذابا اليما يدل على ان دخول الجنة والنار ليس الا بمشيئة الله فخرج من آخر هذه السورة الا الله وماهو من الله وذلك هو التوحيد المطلق الذى هو آخر سير الصديقين ومنتهى معارجهم فى افلاك المعارف الالهية وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله يدخل من يشاء فى رحمته ان فسرنا الرحمة بالايمان فالآية صريحة فى ان الايمان من الله وان فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئة الله وفضله واحسانه لا بسبب الاستحقاق وذلك لانه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضى الى الجهل والحاجة المحالين على الله والمفضى الى المحال محال فتركه محال فوجوده واجب عقلا وعدمه ممتنع عقلا وما كان كذلك لا يكون معلقا على المشيئة البتة وايضا فلأن من كان مديونا من انسان فأدى ذلك الدين الى مستحقه لا يقال بأنه انما دفع ذلك القدر اليه على سبيل الرحمة والتفضل (المسئلة الثانية) قوله والظالمين أعدلهم عذابا اليما يدل على انه جف القلم بما هو كائن لان معنى أعد أنه علم ذلك وقضى به واخبر عنه وكتبه فى اللوح المحفوظ ومعلوم ان التغير على هذه الاشياء محال فكان الامر على مابيناه وقلناه (المسئلة الثالثة) قال الزجاج نصب الظالمين لان قبله منصوب والمعنى يدخل من يشاء فى رحمته ويعذب الظالمين وقوله أعد لهم عذابا اليما كالتفسير لذلك المضمر وقرأ عبدالله بن الزبير والظالمون وهذا ليس باختيار لانه معطوف على يدخل من يشاء وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية غير حسن واما قوله فى حم عسق يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون فانما ارتفع لانه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصبه فى المعنى فلم يجز ان يعطف على المنصوب قبله فارتفع بالابتداء وههنا قوله أعدلهم عذابا أليما يدل على ذلك الناصب المضمر فظهر الفرق والله اعلم بالصواب

(سورة المرسلات خمسون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا عذرا اونذرا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان هذه الكلمات الخمس اما ان يكون المراد منها جنسا واحدا أو أجناسا مختلفة (اما الاحتمال الاول) فذكروا فيه وجوها (الاول) ان المراد منها بأسرها الملائكة فالمرسلات هم الملائكة الذين ارسلهم الله اما لايصال النعمة الى قوم او لايصال النقمة الى آخرين وقوله عرفا فيه وجوه (احدها)

(سورة والمرسلات مكية)
(وآيها خمسون)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا) اقسام من الله عز وجل بطوائف من الملائكة ارسلهن بأوامره فعصفن فى مضيهن عصف الرياح مسارعة فى الامتثال بالامر وبطوائف اخرى نشرن اجنحتهن فى الجو عند انحطاطهن بالوحى او نشرن الشرائع فى الاقطار او نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما او حين ففرقن بين الحق والباطل فألقين ذكرا الى الانبياء (عذرا) للمحقين (او نذرا) للمبطلين ولعل تقديم نشر الشرائع ونشر النفوس

متتابعة كشعر العرف يقال جاؤا عرفا واحدا وهم عليه كعرف الضبع اذا تألبوا عليه (والثانى) ان يكون بمعنى العرف الذى هو نقيض النكر فان هؤلاء الملائكة ان كانوا بعثوا للرحمة فهذا المعنى فيهم ظاهر وان كانوا لاجل العذاب فذلك العذاب وان لم يكن معروفا للكفار فانه معروف للانبياء والمؤمنين الذين انتقم الله لهم منهم (والثالث) ان يكون مصدرا كأنه قيل والمرسلات ارسالا أى متتابعة وانتصاب عرفا على الوجه الاول على الحال وعلى الثانى لكونه مفعولا لأى ارسلت للاحسان والمعروف وقوله تعالى فالعاصفات عصفا فيه وجهان (الاول) يعنى ان الله تعالى لما ارسل أولئك الملائكة فهم عصفوا فى طيرانهم كما تعصف الرياح (والثانى) ان هؤلاء الملائكة يعصفون بروح الكافر يقال عصف بالشئ اذا أباده وأهلكه يقال ناقة عصوف اى تعصف براكبها فتمضى كأنها ريح فى السرعة وعصفت الحرب بالقوم اى ذهبت بهم قال الشاعر

فى فيلق شهباء ملومة * تعصف بالمقبل والمدبر

وقوله تعالى والناشرات نشرا معناه انهم نشروا أجنحتهم عند انحطاطهم الى الارض اونشروا الشرائع فى الارض اونشروا الرحمة او العذاب اوالمراد الملائكة الذين ينشرون الكتب يوم الحساب وهى الكتب التى فيها اعمال بنى آدم قال تعالى ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا وبالجملة فقد نشروا الشئ الذى أمروا بايصاله الى أهل الارض ونشره فيهم وقوله تعالى فالفارقات فرقا معناه انهم يفرقون بين الحق والباطل وقوله فالملقيات ذكرا معناه انهم يلقون الذكر الى الانبياء ثم المراد من الذكر يحتمل ان يكون مطلق العلم والحكمة كما قال ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ويحتمل ان يكون المراد هو القرآن خاصة وهو قوله أألقى الذكر عليه من بيننا وقوله وما كنت ترجوا ان يلقى اليك الكتاب وهذا الملقى وان كان هو جبريل عليه السلام وحده الا انه يجوز ان يسمى الواحد باسم الجماعة على سبيل التعظيم واعلم انك قد عرفت ان المقصود من القسم التنبيه على جلالة المقسم به وشرف الملائكة وعلو رتبتهم امر ظاهر من وجوه (احدها) شدة مواظبتهم على طاعة الله تعالى كما قال تعالى ويفعلون مايؤمرون لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون (وثانيها) انهم اقسام فمنهم من يرسل لانزال الوحى على الانبياء ومنهم من يرسل للزوم بين آدم لكتابة اعمالهم طائفة منهم بالنهار وطائفة منهم بالليل ومنهم من يرسل لقبض ارواح بنى آدم ومنهم من يرسل بالوحى من سماء الى اخرى الى ان ينزل بذلك الوحى ملك تلك السماء الى الارض ومنهم الملائكة الذين ينزلون كل يوم من البيت المعمور الى الكعبة على ماروى ذلك فى الاخبار فهذا مما ينتظمه قوله والمرسلات عرفا ثم مافيها من سرعة السير وقطع المسافات الكثيرة فى المدة اليسيرة كقوله تعالى تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة ثم مافيها من نشر اجنحتهم العظيمة عند الطيران ونشر العلم والحكمة والنبوة والهداية والارشاد

والفرق على لالقاء للايذان بكونها غاية للالقاء حقيقة بالاعتناء بها او للاشعار بان كلا من الاوصاف المذكورة مستقل بالدلالة على استحقاق الطوائف الموصوفة بها للتفخيم والاجلال بالاقسام بهن ولو جئ بها على ترتيب الوقوع لربما فهم ان مجموع الالقاء والنشر والفرق هو الموجب لما ذكر من الاستحقاق او اقسام برياح عذاب ارسلهن فعصفن وبرياح رحمة نشرن السحاب فى الجو ففرقن بينه كقوله تعالى ويجعله كسفا او بسحائب نشرن الموات ففرقن كل صنف منها عن سائر الاصناف بالشكل واللون وسائر الخواص اوفرقن بين من يشكر الله تعالى

والوحى والتنزيل واظهار الفرق بين الحق والباطل بسبب انزال ذلك الوحى والتنزيل والقاء الذكر فى القلب واللسان بسبب ذلك الوحى وبالجملة فالملائكة هم الوسايط بين الله تعالى وبين عباده فى الفوز بجميع السعادات العاجلة والآجلة والخيرات الجسمانية والروحانية فلذلك أقسم الله بهم (القول الثانى) ان المراد من هذه الكلمات الخمس بأسرها الرياح اقسم الله برياح عذاب ارسلها عرفا اى متتابعة كشعر العرف كما قال يرسل الرياح وارسلنا الرياح ثم انها تشتد حتى تصير عواصف ورياح رحمة نشرت السحاب فى الجو كما قال وهو الذى يرسل الرياح نشرا بين يدى رحمته وقال الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء ويجوز ايضا ان يقال الرياح تعين النبات والزرع والشجر على النشور والانبات وذلك لانها تلقح فيبرز النبات بذلك على ماقال تعالى وارسلنا الرياح لواقح فبهذا الطريق تكون الرياح ناشرة للنبات وفى كون الرياح فارقة وجوه (أحدها) ان الرياح تفرق بعض اجزاء السحاب عن بعض (وثانيها) ان الله تعالى خرب بعض القرى بتسليط الرياح عليها كما قال واما عاد فأهلكوا بريح صرصر وذلك سبب لظهور الفرق بين أولياء الله واعداء الله (وثالثها) ان عند حدوث الرياح المختلفة وترتب الآثار العجيبة عليها من تموج السحاب وتخريب الديار تصير الخلق مضطرين الى الرجوع الى الله والتضرع على باب رحمته فيحصل الفرق بين المقر والمنكر والموحد والملحد وقوله فالملقيات ذكرا معناه ان العاقل اذا شاهد هبوب الرياح التى تقلع القلاع وتهدم الصخور والجبال وترفع الامواج تمسك بذكر الله والتجأ الى اعانة الله فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذكر والايمان والعبودية فى القلب ولا شك ان هذه الاضافة تكون على سبيل المجاز من حيث ان الذكر حصل عند حدوث هذه (القول الثالث) من الناس من حمل بعض هذه الكلمات الخمسة على القرآن وعندى انه يمكن حمل جميعها على القرآن فقوله والمرسلات المراد منها الآيات المتتابعة المرسلة على لسان جبريل عليه السلام الى محمد صلى الله عليه وسلم وقوله عرفا اى نزلت هذه الآيات بكل عرف وخير وكيف لا وهى الهادية الى سبيل النجاة والموصلة الى مجامع الخيرات وقوله فالعاصفات عصفا فالمراد ان دولة الاسلام والقرآن كانت ضعيفة فى الاول ثم عظمت وقهرت سائر الملل والاديان فكان دولة القرآن عصفت سائر الدول والملل والاديان وقهرتها وجعلتها باطلة دائرة وقوله والناشرات نشرا المراد ان آيات القرآن نشرت آثار الحكمة والهداية فى قلوب العالمين شرقا وغربا وقوله فالفارقات فرقا فذلك ظاهر لان آيات القرآن هى التى تفرق بين الحق والباطل ولذلك سمى الله تعالى القرآن فرقانا وقوله فالملقيات ذكرا فالامر فيه ظاهر لان القرآن ذكر كما قال تعالى ص والقرآن ذى الذكر وانه لذكر لك ولقومك وهذا ذكر مبارك وتذكرة كما قال وانه لتذكرة للمتقين وذكرى كما قال وذكرى للعالمين فظهر انه يمكن تفسير هذه الكلمات الخمس بالقرآن وهذا وان لم يذكره احد فانه محتمل (القول الرابع) يمكن

وبين من يكفر به فالقين ذكرا اما عذرا للمعتذرين الى الله تعالى بتوبتهم واستغفارهم عند مشاهدتهم لآثار رحمته تعالى فى الغيث ويشكرونها واما انذارا للذين يكفرونها وينسبونها الى الانواء واسناد القاء الذكر اليهن لكونهن سببا فى حصوله اذا شكرت النعمة فيهن او كفرت او اقسام بآيات القران المرسلة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعصفن سائر الكتب بالنسخ ونشرن آثار الهدى من مشارق الارض ومغاربها وفرقن

حملها ايضا على بعثة الانبياء عليه السلام والمرسلات عرفاهم الاشخاص الذين ارسلوا بالوحى المشتمل على كل خير ومعروف فانه لاشك انهم ارسلوا بلا اله الا الله وهو مفتاح كل خير ومعروف فالعاصفات عصفا معناه ان امر كل رسول يكون فى اول الامر حقيرا ضعيفا ثم يشتد ويعظم ويصير فى القوة كعصف الرياح والناشرات نشرا المراد منه انتشار دينهم ومذهبهم ومقالاتهم فالفارقات فرقا المراد انهم يفرقون بين الحق والباطل والتوحيد والالحاد فالملقيات ذكرا المراد انهم يدعون الخلق الى ذكر الله ويأمرونهم به ويحثونهم عليه (القول الخامس) ان يكون المراد ان الرجل قد يكون مشتغلا بمصالح الدنيا مستغرقا فى طلب لذاتها وراحاتها ففى اثناء ذلك يرد فى قلبه داعية الاعراض عن الدنيا والرغبة فى خدمة المولى فتلك الدواعى هى المرسلات عرفا ثم هذه المرسلات لها أثران (احدهما) ازالة حب ماسوى الله تعالى عن القلب وهو المراد من قوله فالعاصفات عصفا (والثانى) ظهور أثر تلك الداعية فى جميع الجوارح والاعضاء حتى لايسمع الا الله ولا يبصر الا الله ولا ينظر الا الله فذلك هو قوله والناشرات نشرا ثم عند ذلك ينكشف له نور جلال الله فيراه موجودا ويرى كل ماسواه معدوما فذلك قوله فالفارقات فرقا ثم يصير العبد كالمشتهر فى محبته ولا يبقى فى قلبه ولسانه الا ذكره فذلك قوله فالملقيات ذكرا واعلم ان هذه الوجوه الثلاثة الاخيرة وان كانت غير مذكورة الا انها محتملة جدا (واما الاحتمال الثانى) وهو ان لايكون المراد من الكلمات الخمس شيئا واحدا ففيه وجوه (الاول) ماذكره الزجاج واختاره القاضى وهو ان الثلاثة الاول هى الرياح فقوله والمرسلات عرفا هى الرياح التى تتصل على العرف المعتاد والعاصفات مايشتد منه والناشرات ماينشر السحاب اماقوله فالفارقات فرقا فهم الملائكة الذين يفرقون بين الحق والباطل والحلال والحرام بما يحملونه من القرآن والوحى وكذلك قوله فالملقيات ذكرا انها الملائكة المتحملة للذكر الملقية ذلك الى الرسل (فان قيل) وما المجانسة بين الرياح وبين الملائكة حتى يجمع بينهما فى القسم (قلنا) الملائكة روحانيون فهم بسبب لطافتهم وسرعة حركاتهم كالرياح (القول الثانى) ان الاثنين الاولين هما الرياح فقوله والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا هما الرياح والثلاثة الباقية الملائكة لانها تنشر الوحى والدين ثم لذلك الوحى أثران (احدهما) حصول الفرق بين المحق والمبطل (والثانى) ظهور ذكر الله فى القلوب والألسنة وهذا القول ما رأيته لأحد ولكنه ظاهر الاحتمال ايضا والذى يؤكده انه قال والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا عطف الثانى على الاول بحرف الفاء ثم ذكر الواو فقال والناشرات نشرا وعطف الاثنين الباقيين عليه بحرف الفاء وهذا يقتضى ان يكون الاولان ممتازين عن الثلاثة الاخيرة (القول الثالث) يمكن ايضا ان يقال المراد بالاولين الملائكة فقوله والمرسلات عرفا ملائكة الرحمة وقوله فالعاصفات عصفا ملائكة العذاب والثلاثة الباقية آيات القرآن لانها تنشر الحق فى القلوب والارواح وتفرق بين الحق والباطل وتلقى

بين الحق والباطل فالقين ذكر الحق فى اكناف العالمين والعرف امانقيض النكر وانتصابه على العلة اى ارسلنا للاحسان والمعروف فان ارسال ملائكة العذاب معروف للانبياء عليهم السلام والمؤمنين او بمعنى المتابعة من عرف الفرس وانتصابه على الحالية والعذر والنذر مصدران من عذر اذا محا الاساءة ومن انذر اذا خوف وانتصابهما على البدلية من ذكرا او على العلية وقرئا بالتثقيل

الذكر فى القلوب والألسنة وهذا القول ايضا ما رأيته لاحد وهو محتمل ومن وقف على ماذكرناه امكنه ان يذكر فيه وجوها والله اعلم بمراده (المسئلة الثانية) قال القفال الوجه فى دخول الفاء فى بعض ماوقع به القسم والواو فى بعض مبنى على الاصل وهو ان عند اهل اللغة الفاء تقتضى الوصل والتعلق فاذا قيل قام زيد فذهب فالمعنى انه قام ليذهب فكان قيامه سببا لذهابه ومتصلا به واذا قيل قام وذهب فهما خبران كل واحد منهما قائم بنفسه لايتعلق بالآخر ثم ان القفال لما مهد هذا الاصل فرع الكلام عليه فى هذه الآية بوجوه لايميل قلبي اليها وانا افرع على هذا الاصل فأقول اما من جعل الاولين صفتين لشيء والثلاثة الاخيرة صفات لشيء واحد فالاشكال عنه زائل واما من جعل الكل صفات لشيء واحد فنقول ان حملناها على الملائكة فالملائكة اذا ارسلت طارت سريعا وذلك الطيران هو العصف فالعصف مرتب على الارسال فلاجرم ذكر الفاء أما النشر فلا يترتب على الارسال فان الملائكة اول مايبلغون الوحي الى الرجل لايصير فى الحال ذلك الدين مشهورا منتشرا بل الخلق يؤذون الانبياء فى أول الامر وينسبونهم الى الكذب والسحر والجنون فلاجرم لم يذكر الفاء التى تفيد التعقيب بل ذكر الواو بلى اذا حصل النشر ترتب عليه حصول الفرق بين الحق والباطل وظهور ذكر الحق على الألسنة فلاجرم ذكر هذين الامرين بحرف الفاء فكأنه والله أعلم قيل يامحمد انى ارسلت الملائك اليك بالوحي الذى هو عنوان كل سعادة وفاتحة كل خير ولكن لاتطمع فى ان تنتشر ذلك الامر فى الحال ولكن لابد من الصبر وتحمل المشقة ثم اذا جاء وقت النصرة أجعل دينك ظاهرا منتشرا فى شرق العالم وغربه وعند ذلك الانتشار يظهر الفرق فتصير الاديان الباطلة ضعيفة ساقطة ودينك هو الدين الحق ظاهرا غالبا وهنالك يظهر ذكر الله على الألسنة وفى المحاريب وعلى المنابر ويصير العالم مملوأ من ذكر الله فهذا اذا حملنا هذه الكلمات الخمس على الملائكة ومن عرف هذا الوجه أمكنه ذكر ماشابهه فى الرياح وسائر الوجوه والله اعلم أما قوله تعالى عذرا أو نذرا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فيهما قراءتان التخفيف وهو قراءة أبي عمرو وعاصم من رواية حفص والباقون قرؤا بالتثقيل أما التخفيف فلا نزاع فى كونه مصدرا والمعنى اعذارا وانذارا وأما التثقيل فزعم أبوعبيدة انه جمع وليس بمصدر وأما الاخفش والزجاج فزعما انه مصدر والتثقيل والتخفيف لغتان وقرر أبو على قول الاخفش والزجاج وقال العذر والعذير والنذر والنذير مثل النكر والنكير ثم قال أبو على ويجوز فى قراءة من ثقل أن يكون عذرا جمع عاذر كشرف وشارف وكذلك النذر يجوز أن يكون جمع نذير قال تعالى هذا نذير من النذر الاولى (المسئلة الثانية) فى النصب ثلاثة أوجه أما على تقدير كونه مصدرا فوجهان (أحدهما) أن يكون مفعولا على البدل من قوله ذكرا (والثانى) أن يكون مفعولا له والمعنى والملقيات ذكرا للاعذار والانذار وأما على تقدير كونه جمعا فنصب على الحال من الالقاء والتقدير فالملقيات ذكرا

حال كونهم عاذرين ومنذرين ﴿قوله تعالى (انما توعدون لواقع) جواب القسم والمعنى ان الذى توعدون به من مجئ يوم القيامة لكائن نازل وقال الكلبى المراد ان كل ماتوعدون به من الخير والشر لواقع واحتج القائلون بالتفسير الاول بأنه تعالى ذكر عقيب هذه الآيات علامات يوم القيامة فدل على ان المراد من هذه الآية هو القيامة فقط ثم انه ذكر علامات وقوع هذا اليوم ﴿ (اولها) قوله تعالى (فاذا النجوم طمست) وذكرنا تفسير الطمس عند قوله تعالى ربنا اطمس على اموالهم وبالجملة فيحتمل ان يكون المراد محقت ذواتها وهو موافق لقوله انتثرت وانكدرت وان يكون المراد محقت انوارها والاول اولى لأنه لاحاجة فيه الى الاضمار ويجوز ان يمحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور ﴿ (وثانيها) قوله تعالى (واذا السماء فرجت) الفرج الشق يقال فرجه الله فانفرج وكل مشقوق فرج فههنا قوله فرجت اى شقت نظيره اذا السماء انشقت ويوم تشقق السماء بالغمام وقال ابن قتيبة معناه فتحت نظيره وفتحت السماء قال الشاعر * الفارجى باب الامير المبهم * ﴿ (وثالثها) قوله تعالى (واذا الجبال نسفت) وفيه وجهان (احدهما) نسفت كالحب المغلث اذا نسف بالمنسف ومنه قوله لنحرقنه ثم لننسفنه ونظيره وبست الجبال بسا وكانت الجبال كثيبا مهيلا فقل ينسفها ربى نسفا (والثانى) اقتلعت بسرعة من أماكنها من انتسفت الشئ اذا اختطفته وقرئ طمست وفرجت ونسفت مشددة ﴿ (ورابعها) قوله تعالى (واذا الرسل اقتت) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اقتت اصلها وقتت ويدل عليه وجوه (احدها) قراءة ابى عمرو وقتت بالواو (وثانيها) ان اصل الكلمة من الوقت (وثالثها) ان كل واو انضمت وكانت ضمتها لازمة فانها تبدل على الاطراد همزة اولا وحشوا ومن ذلك ان تقول صلى القوم احدانا وهذه أجوه حسان وأدؤر فى جمع دار والسبب فيه ان الضمة من جنس الواو فالجمع بينهما يجرى مجرى جمع المثلين فيكون ثقيلا ولهذا السبب كان كسر الياء ثقيلا اما قوله تعالى ولاتنسوا الفضل بينكم فلا يجوز فيه البدل لان الضمة غير لازمة ألا ترى انه لايسوغ فى نحو قولك هذا عدو ان تبدل (المسئلة الثانية) فى التأقيت قولان (الاول) وهو قول مجاهد والزجاج انه تبيين الوقت الذى فيه يحضرون للشهادة على اممهم وهذا ضعيف وذلك لان هذه الاشياء جعلت علامات لقيام القيامة كأنه قيل اذا كان كذا وكذا كانت القيامة ولايليق بهذا الموضع ان يقال واذا بين لهم الوقت الذى يحضرون فيه للشهادة على اممهم قامت القيامة لان ذلك البيان كان حاصلا فى الدنيا ولأن الثلاثة المتقدمة وهى الطمس والفرج والنسف مختصة بوقت قيام القيامة فكذا هذا التوقيت يجب ان يكون مختصا بوقت قيام القيامة (القول الثانى) ان المراد بهذا التأقيت تحصيل الوقت وتكوينه وهذا اقرب ايضا الى مطابقة اللفظ لان بناء التفعيلات على تحصيل تلك الماهيات فالتسويد تحصيل السواد والتحريك تحصيل الحركة فكذا التأقيت تحصيل الوقت ثم انه ليس فى اللفظ بيان انه تحصيل لوقت اى شئ

(انما توعدون لواقع) جواب للقسم اى ان الذى توعدونه من مجئ القيامة كائن لا محالة (فاذا النجوم طمست) محيت ومحقت اوذهب بنورها (واذا السماء فرجت) صدعت وفتحت فكانت ابوابا (واذا الجبال نسفت) جعلت كالحب الذى ينسف بالمنسف ونحوه وبست الجبال بسا وقيل اخذت من مقارها بسرعة من انتسفت الشئ اذا اختطفته وقرئ طمست وفرجت ونسفت مشددة (واذا الرسل اقتت) اى عين لهم الوقت الذى يحضرون فيه للشهادة على اممهم وذلك عند مجيئه وحضوره اذ لايتعين لهم قبله او بلغوا الميقات الذى كانوا ينتظرونه وقرئ وقتت على الاصل وبالتخفيف فيهما

واعالم ببين ذلك ولم يعين لأجل ان يذهب الوهم الى كل جانب فيكون التهويل فيه اشد فيحتمل ان يكون المراد تكوين الوقت الذى يحضرون فيه للشهادة على اممهم وان يكون هو الوقت الذى يجتمعون فيه للفوز بالثواب وان يكون هو وقت سؤال الرسل عما اجيبوا به وسؤال الامم عما اجابوهم كما قال فلنسألن الذين ارسل اليهم ولنسئلن المرسلين وان يكون هو الوقت الذى يشاهدون الجنة والنار والعرض والحساب والوزن وسائر احوال القيامة واليه الاشارة بقوله ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ❊ قوله تعالى (لأى يوم اجلت) أى اخرت كأنه تعالى يعجب العباد من تعظيم ذلك اليوم فقال لأى يوم اخرت الامور المتعلقة بهؤلاء وهى تعذيب من كذبهم وتعظيم من آمن بهم وظهور ما كانوا يدعون الخلق الى الايمان به من الاهوال والعرض والحساب ونشر الدواوين ووضع الموازين ❊ ثم انه تعالى بين ذلك فقال (ليوم الفصل) قال ابن عباس رضى الله عنهما يوم يفصل الرحمن بين الخلائق وهذا كقوله ان يوم الفصل ميقاتهم اجمعين ❊ ثم اتبع ذلك تعظيما ثانيا فقال تعالى (وما ادراك ما يوم الفصل) اى وما علمك بيوم الفصل وشدته ومهابته ❊ ثم اتبعه بتهويل ثالث فقال تعالى (ويل يومئذ للمكذبين) أى للمكذبين بالتوحيد والنبوة والمعاد وبكل ما ورد من الانبياء عليهم السلام واخبروا عنه بقى ههنا سؤالان (السؤال الاول) كيف وقع النكرة مبتدأ فى قوله تعالى ويل يومئذ للمكذبين (الجواب) هو فى اصله مصدر منصوب ساد مسد فعله ولكنه عدل به الى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ونحوه سلام عليكم ويجوز ويلا بالنصب ولكن لم يقرأ به (السؤال الثانى) اين جواب قوله فاذا النجوم طمست (الجواب) من وجهين (احدهما) التقدير انما توعدون لواقع اذا النجوم طمست وهذا ضعيف لانه يقع فى قوله فاذا النجوم طمست (الثانى) ان الجواب محذوف والتقدير فاذا النجوم طمست واذا واذا فحينئذ تقع المجازاة بالاعمال وتقوم القيامة ❊ قوله تعالى (ألم نهلك الاولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين ويل يومئذ للمكذبين) اعلم ان المقصود من هذه السورة تخويف الكفار وتحذيرهم عن الكفر (فالنوع الاول) من التخويف انه اقسم على ان اليوم الذى يوعدون به وهو يوم الفصل واقع ثم هول فقال وما ادراك ما يوم الفصل ثم زاد فى التهويل فقال ويل يومئذ للمكذبين (والنوع الثانى من التخويف) ما ذكر فى هذه الآية وهو انه اهلك الكفرة المتقدمين بسبب كفرهم فاذا كان الكفر حاصلا فى هؤلاء المتأخرين فلابد وان يهلكهم ايضا ثم قال ويل يومئذ للمكذبين كأنه يقول اما الدنيا فحاصلهم الهلاك واما الآخرة فالعذاب الشديد واليه الاشارة بقوله خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ❊ وفى الآية سؤالان (الاول) ما المراد من الاولين والآخرين (الجواب) فيه قولان (الاول) انه أهلك الاولين من قوم نوح وعاد وثمود ثم اتبعهم الآخرين قوم شعيب ولوط وموسى كذلك نفعل بالمجرمين وهم كفار قريش وهذا القول

(لأى يوم اجلت) مقدر بقول هو جواب لاذا فى قوله تعالى واذا الرسل اقتت او حال من مرفوع اقتت اى يقال لأى يوم اخرت الامور المتعلقة بالرسل والمراد تعظيم ذلك اليوم والتعجيب من هوله وقوله تعالى (ليوم الفصل) بيان ليوم التأجيل وهو اليوم الذى يفصل فيه بين الخلائق (وما ادراك ما يوم الفصل) ما مبتدأ ادراك خبره اى أى شئ جعلك داريا ما هو فوضع موضع الضمير يوم الفصل لزيادة تفظيع وتهويل على ان ما خبر ويوم الفصل مبتدأ لا بالعكس كما اختاره سيبويه لان محط الفائدة بيان كون يوم الفصل امرا بديعا هائلا لا يقادر قدره ولا يكتنه كنهه كما يفيده خبرية ما لا بيان كون امر

(ضعيف)

ضعيف لان قوله نتبعهم الآخرين لفظ المضارع فهو يتناول الحال والاستقبال ولا يتناول الماضى البتة (القول الثانى) ان المراد بالاولين جميع الكفار الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم وقوله ثم نتبعهم الآخرين على الاستئناف على معنى سنفعل ذلك ونتبع الاول الآخر ويدل على الاستئناف قراءة عبدالله سنتبعهم (فان قيل) قرأ الاعرج ثم نتبعهم بالجزم وذلك يدل على الاشتراك فى ألم وحينئذ يكون المراد به الماضى لا المستقبل (قلنا) القراءة الثابتة بالتواتر نتبعهم بحركة العين وذلك يقتضى المستقبل فلو اقتضت القراءة بالجزم ان يكون المراد هو الماضى لوقع التنافى بين القراءتين وانه غير جائز فعلمنا ان تسكين العين ليس للجزم بل للتخفيف كما روى فى بيت امرئ القيس

واليوم اشرب غير مستحقب * ثم انه تعالى لما بين انه يفعل بهؤلاء المتأخرين مثل ما يفعل بأولئك المتقدمين قال كذلك نفعل بالمجرمين اى هذا الاهلاك انما نفعله بهم لكونهم مجرمين فلاجرم عم فى جميع المجرمين لان عموم العلة يقتضى عموم الحكم ثم قال تعالى ويل يومئذ للمكذبين اى هؤلاء وان اهلكوا وعذبوا فى الدنيا فالمصيبة العظمى والطامة الكبرى معدة لهم يوم القيامة (السؤال الثانى) المراد من الاهلاك فى قوله الم نهلك الاولين هو مطلق الاماتة او الاماتة بالعذاب فان كان ذلك هو الاول لم يكن ذلك تخويفا للكفار لان ذلك امر حاصل للمؤمن والكافر فلا يصلح تحذيرا للكافر وان كان المراد هو الثانى وهو الاماتة بالعذاب فقوله ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين يقتضى ان يكون الله قد فعل بكفار قريش مثل ذلك ومن المعلوم انه لم يوجد ذلك وايضا فلأنه تعالى قال وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم (الجواب) لم لا يجوز ان يكون المراد منه الاماتة بالتعذيب وقد وقع ذلك فى حق كفار قريش وهو يوم بدر سلمنا ذلك فلم لا يجوز ان يكون المراد من الاهلاك معنى ثالثا مغايرا للامرين اللذين ذكروهما وهو الاماتة المستعقبة للذم واللعن فكأنه قيل ان اولئك المتقدمين لحرصهم على الدنيا عاندوا الانبياء وخاصموهم ثم ماتوا فقد فاتتهم الدنيا وبقى اللعن عليهم فى الدنيا والعقوبة الاخروية دائما سرمدا فهكذا يكون حال هؤلاء الكفار الموجودين ومعلوم ان مثل هذا الكلام من اعظم وجوه الزجر * قوله تعالى (الم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ويل يومئذ للمكذبين) اعلم ان هذا هو النوع الثالث من تخويف الكفار ووجه التخويف فيه من وجهين (الاول) انه تعالى ذكرهم عظيم انعامه عليهم وكلما كانت نعمة الله عليهم اكثر كانت جناياتهم فى حقه اقبح وافحش وكلما كان كذلك كان العقاب اعظم فلهذا قال عقيب ذكر هذا الانعام ويل يومئذ للمكذبين (الوجه الثانى) انه تعالى ذكرهم كونه قادرا على الابتداء وظاهر فى العقل ان القادر على الابتداء قادر على الاعادة فلما أنكروا هذه الدلالة الظاهرة لاجرم قال فى حقهم ويل يومئذ للمكذبين واما التفسير فهو ان قوله الم نخلقكم من ماء مهين اى

بديع من الامور يوم الفصل كما يفيده عكسه (ويل يومئذ للمكذبين) اى فى ذلك اليوم الهائل وويل فى الاصل مصدر منصوب ساد مسد فعله لكن عدل به الى الرفع للدلالة على ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ويومئذ ظرفه او صفته (الم نهلك الاولين) كقوم نوح وعاد وثمود لتكذيبهم به وقرئ نهلك بفتح النون من هلكه بمعنى اهلكه (ثم نتبعهم الآخرين) بالرفع على ثم نحن نتبعهم الآخرين من نظرائهم السالكين لمسلكهم فى الكفر والتكذيب وهو وعيد لكفار مكة وقرئ ثم سنتبعهم وقرئ نتبعهم بالجزم عطفا على نهلك فيكون المراد بالآخرين المتأخرين هلاكا من المذكورين كقوم لوط وشعيب

من النطفة وهو كقوله ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين وهو الرحم لان ما يخلق منه الولد لابد وان يثبت في الرحم ويتمكن بخلاف ما لا يخلق منه الولد ثم قال الى قدر معلوم والمراد كونه في الرحم الى وقت الولادة وذلك الوقت معلوم لله تعالى لا لغيره كقوله ان الله عنده علم الساعة الى قوله ويعلم ما في الارحام وقوله فقدرنا قرأ نافع وعبد الله بن عامر بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف اما التشديد فالمعنى انا قدرنا ذلك تقديرا فنعم المقدرون له نحن ويتأكد هذا الوجه بقوله تعالى من نطفة خلقه فقدره ولان ايقاع الخلق على هذا التقدير والتحديد نعمة من المقدر على المخلوق فحسن ذكره في موضع ذكر المنة والنعمة ومن طعن في هذه القراءة قال لو صحت هذه القراءة لوجب ان يقال فقدرنا فنعم المقدرون (واجيب عنه) بأن العرب قد تجمع بين اللغتين قال تعالى فمهل الكافرين امهلهم رويدا واما القراءة بالتخفيف ففيها وجهان (الاول) انه من القدرة اى فقدرنا على خلقه وتصويره كيف شئنا وأردنا فنعم القادرون حيث خلقناه في احسن الصور والهيآت (والثاني) انه يقال قدرت الشيء بالتخفيف على معنى قدرته قال الفراء العرب تقول قدر عليه الموت وقدر وقدر عليه رزقه وقدر بالتخفيف والتشديد قال تعالى فقدر عليه رزقه ❊ قوله تعالى (الم نجعل الارض كفاتا احياء وامواتا وجعلنا فيها رواسي شامخات واسقيناكم ماء فراتا ويل يومئذ للمكذبين) اعلم ان هذا هو (النوع الرابع) من تخويف الكفار وذلك لانه في الآية التي قبل هذه الآية ذكرهم بالنعم التي له عليهم في الانفس ففي هذه الآية ذكرهم بالنعم التي له عليهم في الآفاق ثم قال في آخر الآية ويل يومئذ للمكذبين والسبب فيه ما قدمنا ان النعم كلما كانت اكثر كانت الجناية اقبح فكان استحقاق الذم عاجلا والعقاب آجلا اشد وانما قدم تلك الآية على هذه الآية لان النعم التي في الانفس كالاصل للنعم التي في الآفاق فانه لولا الحياة والسمع والبصر والاعضاء السليمة لما كان الانتفاع بشيء من المخلوقات ممكنا واعلم انه تعالى ذكر ههنا ثلاثة اشياء (اولها) الارض وانما قدمها لان اقرب الاشياء الينا من الامور الخارجية هو الارض ومعنى الكفت في اللغة الضم والجمع يقال كفت الشيء اى ضممته ويقال جراب كفيت وكفت اذا كان لا يضيع شيئا مما يجعل فيه ويقال للقدر كفت قال صاحب الكشاف هو اسم ما يكفت كقولهم الضمام والجماع لما يضم ويجمع ويقال هذا الباب جماع الابواب وتقول شددت الشيء ثم تسمى الخيط الذى تشد به الشيء شدادا وبه انتصب أحياء وأمواتا كأنه قيل كافتة احياء وامواتا او بفعل مضمر يدل عليه وهو نكفت ويكون المعنى نكفتكم احياء وامواتا فينصبان على الحال من الضمير هذا هو اللغة ثم في المعنى وجوه (احدها) انها تكفت احياء على ظهرها وأمواتا في بطنها والمعنى ان الاحياء يسكنون في منازلهم والاموات يدفنون في قبورهم ولهذا كانوا يسمون الارض أما لانها في ضمها للناس كالام التي تضم ولدها وتكفله

وموسى عليهم السلام (كذلك) مثل ذلك الفعل الفظيع (نفعل بالمجرمين) اى سنتنا جارية على ذلك (ويل يومئذ) اى يوم اذا اهلكناهم (للمكذبين) بآيات الله تعالى وانبيائه وليس فيه تكرير لان الويل الاول لعذاب الآخرة وهذا لعذاب الدنيا (الم نخلقكم) اى الم نقدركم (من ماء مهين) اى من نطفة قذرة مهينة (فجعلناه في قرار مكين) هو الرحم (الى قدر معلوم) الى مقدار معلوم من الوقت قدره الله تعالى للولادة تسعة اشهر أو أقل منها او اكثر (فقدرنا) اى فقدرناه وقد قرئ مشددا او فقدرنا على ذلك على ان المراد بالقدرة ما يقارن وجود المقدور بالفعل (فنعم القادرون) اى نحن (ويل يومئذ للمكذبين)

ولما كانوا يضمون اليها جعلت كأنها تضمهم (وثانيها) انها كفات الاحياء بمعنى انها تكفت ما ينفصل من الاحياء من الامور المستقذرة فاما انها تكفت الناس حال كونهم على ظهرها فلا (وثالثها) انها كفات الاحياء بمعنى انها جامعة لما يحتاج الانسان اليه في حياته من مأكل ومشرب لان كل ذلك يخرج من الارض والابنية الجامعة للمصالح الدافعة للمضار مبنية منها (ورابعها) ان قوله احياء وامواتا معناه راجع الى الارض والحى ماأنبت والميت مالم ينبت بقى في الآية سؤالان (الاول) لم قيل احياء وامواتا على التنكير وهى كفات الاحياء والاموات جميعا (الجواب) هو من تنكير التفخيم كأنه قيل تكفت احياء لايعدون وامواتا لايحصرون (السؤال الثانى) هل تدل هذه الآية على وجوب قطع النباش (الجواب) نقل القفال ان ربيعة قال دلت الآية على ان الارض كفات الميت فتكون حرزاله والسارق من الحرز يجب عليه القطع (والنوع الثانى) من النعم المذكورة في هذه الآية قوله تعالى وجعلنا فيها رواسى شامخات فقوله رواسى اى ثوابت على ظهر الارض لاتزول وشامخات اى عاليات وكل عال فهو شامخ ويقال للمتكبر شامخ بأنفه ومنافع خلقة الجبال قد تقدمت في هذا الكتاب (النوع الثالث) من النعم قوله تعالى وأسقيناكم ماء فراتا الفرات هو الغاية في العذوبة وقد تقدم تفسيره في قوله هذا عذب فرات ﴿قوله تعالى (انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب لاظليل ولايغنى من اللهب انها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر ويل يومئذ للمكذبين) اعلم ان هذا هو (النوع الخامس) من وجوه تخويف الكفار وهو بيان كيفية عذابهم في الآخرة فأما قوله انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون فالمعنى انه يقال لهم انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون من العذاب والظاهر ان القائلين هم خزنة النار وانطلقوا الثانى تكرير وقرأ يعقوب انطلقوا على لفظ الماضى والمعنى انهم انقادوا للامر لاجل انهم مضطرون اليه لايستطيعون امتناعا منه وهذا بعيد لانه كان ينبغى ان يقال فانطلقوا بالفاء ليرتبط آخر الكلام بأوله قال المفسرون ان الشمس تقرب يوم القيامة من رؤس الخلائق وليس عليهم يومئذ لباس ولا كنان فتلفحهم الشمس وتسفعهم وتأخذ بأنفاسهم وبمتد ذلك اليوم ثم ينجى الله برحمته من يشاء الى ظل من ظله فهنالك يقولون فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ويقال للمكذبين انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون من عذاب الله وعقابه وقوله الى ظل يعنى دخان جهنم كقوله وظل من يحموم ثم انه تعالى وصف هذا الظل بصفات (الصفة الاولى) قوله ذى ثلاث شعب وفيه وجوه (احدها) قال الحسن ماادرى ماهذا الظل ولاسمعت فيه شيئا (وثانيها) قال قوم المراد بقوله الى ظل ذى ثلاث شعب كون النار من فوقهم ومن تحت ارجلهم ومحيطة بهم وتسمية النار بالظل مجاز من حيث انها محيطة بهم من كل جانب كقوله لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل وقال تعالى يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت ارجلهم (وثالثها)

بقدرتنا على ذلك او على الاعادة (ألم نجعل الارض كفاتا) الكفات اسم مايكفت اى يضم ويجمع من كفت الشئ اذا ضمه وجمعه كالضمام والجماع لمايضم ويجمع اى ألم نجعلها كفاتا تكفت (احياء) كثيرة على ظهرها (وامواتا) غير محصورة في بطنها وقيل هو مصدر نعت به للمبالغة وقيل جمع كافت كصائم وصيام او كفت وهو الوعاء اجرى على الارض باعتبار بقاعها وقيل تنكير احياء وامواتا لان احياء الانس وامواتهم بعض الاحياء والاموات وقيل انتصابهما على الحالية من محذوف اى كفاتا تكفتكم احياء وامواتا (وجعلنا فيها رواسى) اى جبالا ثوابت (شامخات) طوالا شواهق ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث في غير العقلاء مطرد كذا جن ودواجن

قال قتادة بل المراد الدخان وهو من قوله احاط بهم سرادقها وسرادق النار هو الدخان ثم ان شعبة من ذلك الدخان على يمينه وشعبة أخرى على يساره وشعبة ثالثة من فوقه واقول هذا غير مستبعد لان الغضب عن يمينه والشهوة عن شماله والقوة الشيطانية في دماغه ومنبع جميع الآفات الصادرة عن الانسان في عقائده وفي أعماله ليس الا هذه الثلاثة فتولدت من هذه الينابيع الثلاثة ثلاثة انواع من الظلمات ويمكن ايضا ان يقال ههنا درجات ثلاث وهي الحس والخيال والوهم وهي مانعة للروح عن الاستنارة بأنوار عالم القدس والطهارة ولكل واحد من تلك المراتب الثلاث نوع خاص من الظلمة (ورابعها) قال قوم هذا كناية عن كون ذلك الدخان عظيما فان الدخان العظيم ينقسم الى شعب كثيرة (وخامسها) قال ابو مسلم ويحتمل في ثلاث شعب ماذكره بعد ذلك وهو انه غير ظليل وانه لا يغني من اللهب وبأنها ترمي بشرر كالقصر (الصفة الثانية) لذلك الظل قوله لا ظليل وهذا تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين والمعنى ان ذلك الظل لا يمنع حر الشمس (الصفة الثالثة) قوله تعالى ولا يغني من اللهب يقال اغن عني وجهك اي ابعده لان الغني عن الشيء يباعده كما ان المحتاج يقاربه قال صاحب الكشاف انه في محل الجر اي وغير مغن عنهم من حر اللهب شيئا قال القفال وهذا يحتمل وجهين (احدهما) ان هذا الظل انما يكون في جهنم فلا يظلهم من حرها ولا يسترهم من لهيبها وقد ذكر الله في سورة الواقعة الظل فقال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم وهذا كأنه في جهنم اذا دخلوها ثم قال لا بارد ولا كريم فيحتمل ان يكون قوله لا ظليل في معنى لا بارد وقوله ولا يغني من اللهب في معنى ولا كريم اي لا روح له يلتجأ اليه من لهب النار (الثاني) ان تكون ذلك انما يكون قبل ان يدخلوا جهنم بل عند ما يحبسون للحساب والعرض فيقال لهم ان هذا الظل لا يظلكم من حر الشمس ولا يدفع لهب النار (وفي الآية وجه ثان) وهو الذي قاله قطرب وهو ان اللهب ههنا هو العطش يقال لهب لهبا ورجل لهبان وامرأة لهبى (الصفة الرابعة) قوله تعالى انها ترمي بشرر قال الواحدي يقال شررة وشرر وشرارة وشرار وهو ما تطاير من النار متبددا في كل جهة واصله من شررت الثوب اذا اظهرته وبسطته للشمس والشرار ينبسط متبددا واعلم ان الله تعالى وصف النار التي كان ذلك الظل دخانا لها بأنها ترمي بالشررة العظيمة والمقصود منه بيان ان تلك النار عظيمة جدا ثم انه تعالى شبه ذلك الشرر بشيئين (الاول) بالقصر وفي تفسيره قولان (احدهما) ان المراد منه البناء المسمى بالقصر قال ابن عباس يريد القصور العظام (الثاني) انه ليس المراد ذلك ثم على هذا التقدير ففي التفسير وجوه (احدها) انها جمع قصرة ساكنة الصاد كتمرة وتمر وجمرة وجمر قال المبرد يقال للواحد من الحطب الجزل الغليظ قصرة والجمع قصر قال عبد الرحمن بن عابس سألت ابن عباس عن القصر فقال هو خشب كنا ندخره للشتاء نقطعه وكنا نسميه القصر وهذا قول سعيد بن جبير ومقاتل

واشهر معلومات وتنكيرها للتفخيم او للاشعار بان فيها ما لم يعرف (واسقيناكم ماء فراتا) بأن خلقنا فيها انهارا ومنابع (ويل يومئذ للمكذبين) بامثال هذه النعم العظيمة (انطلقوا) اي يقال لهم يومئذ للتوبيخ والتقريع انطلقوا (الى ما كنتم به تكذبون) في الدنيا من العذاب (انطلقوا) خصوصا (الى ظل) اي ظل دخان جهنم كقوله تعالى وظل من يحموم وقرئ انطلقوا على لفظ الماضي اخبارا بعد الامر عن عملهم بموجبه لاضطرارهم اليه طوعا او كرها (ذي ثلاث شعب) يتشعب لعظمه ثلاث شعب كما هو شأن الدخان العظيم تراه يتفرق ذوائب وقيل يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسرادق ويتشعب من

(والضحاك)

والضحاك الا انهم قالوا هي اصول النخل والشجر العظام قال صاحب الكشاف قرئ كالقصر بفتحتين وهي أعناق الابل او أعناق النخل نحو شجرة وشجر وقرأ ابن مسعود كالقصر بمعنى القصر كرهن ورهن وقرأ سعيد بن جبير كالقصر في جمع قصرة كحاجة وحوج (التشبيه الثاني) قوله تعالى كأنه جمالات صفر فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) جمالات جمع جمال كقولهم رجالات ورجال وبيوتات وبيوت وقرأ ابن عباس جمالات بضم الجيم وهو قراءة يعقوب وذكروا فيه وجوها (احدها) قيل الجمالات بالضم الحبال الغلاظ وهي حبال السفن ويقال لها القلوس ومنهم من انكر ذلك وقال المعروف في الحبل انما هو الجمل بضم الجيم وتشديد الميم وقرئ حتى يلج الجمل (وثانيها) قيل هي قطع النحاس وهو مروي عن علي بن ابي طالب عليه السلام وابن عباس ومعظم اهل اللغة لا يعرفونه (وثالثها) قال الفراء يجوز ان يكون الجمالات بالضم من الشئ المجمل يقال اجملت الحساب وجاء القوم جملة اي مجتمعين والمعنى ان هذه الشررة ترتفع كأنها شئ مجموع غليظ اصفر وهذا قول الفراء (ورابعها) قال الفراء يجوز ان يقال جمالات بضم الجيم جمع جمال بضم الجيم وجمال بضم الجيم يكون جمع جمل كما يقال رخل ورخال ورخال (القراءة الثالثة) جمالة بكسر الجيم وهي جمع جمل مثل حجر وحجارة قال ابو علي والتاء انما لحقت جمالا لتأنيث الجمع كما لحقت في فحل وفحالة (القراءة الرابعة) جمالة بضم الجيم وهي القلس وقيل صفر لارادة الجنس اما قوله صفر فالاكثرون على ان المراد منه سود تضرب الى الصفرة قال الفراء لا ترى اسود من الابل الا وهو مشوب صفرة والشرر اذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار كان اشبه بالجمل الاسود الذي يشوبه شئ من الصفرة وزعم بعض العلماء ان المراد هو الصفرة لا السواد لان الشرر انما يسمى شررا ما دام يكون نارا ومتى كان نارا كان اصفر وانما يصير اسود اذا انطفأ وهناك لا يسمى شررا وهذا القول عندي هو الصواب (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى شبه الشرر في العظم بالقصر وفي اللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة بالجمالات الصفر وقيل ايضا ابتداء الشرر يعظم فيكون كالقصر ثم يفترق فتكون تلك القطع المتفرقة المتتابعة كالجمالات الصفر واعلم انه نقل عن ابن عباس انه قال في تفسير قوله انها ترمي بشرر كالقصر ان هذا التشبيه انما ورد في بلاد العرب وقصورهم قصيرة السمك جارية مجرى الخيمة فبين تعالى انها ترمي بشرر كالقصر فلما سمع ابو العلاء المعري بهذا تصرف فيه وشبه بالخيمة من الاديم وهو قوله

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى * ترمي بكل شرارة كطراف

ثم زعم صاحب الكشاف انه ذكر ذلك معارضة لهذه الآية واقول كان الاولى لصاحب الكشاف ان لا يذكر ذلك واذ قد ذكره فلا بد لنا من تحقيق الكلام فيه فنقول تشبيه الشرارة بالطراف يفيد التشبيه في الشكل والعظم اما الشكل فمن وجهين (الاول) ان الشرارة تكون قبل انشعابها كالنقطة من النار فاذا انشعبت اتسعت فهي كالنقطة

دخانها ثلاث شعب فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم والمؤمنون في ظل العرش قيل خصوصية الثلاث اما لان حجاب النفس عن انوار القدس الحس والخيال والوهم اولان المؤدي الى هذا العذاب هو القوة الوهمية الشيطانية الحالة في الدماغ والقوة الغضبية السبعية التي عن يمين القلب والقوة الشهوية البهيمية التي عن يساره ولذلك قيل تقف شعبة فوق الكافر وشعبة عن يمينه وشعبة عن يساره (لا ظليل) تهكم بهم اورد لما اوهمه لفظ الظل (ولا يغني من اللهب) اي غير مغن لهم من حر اللهب شيأ (انها ترمي بشرر كالقصر) اي كل شرة كالقصر من القصور في عظمها وقيل هو الغليظ من الشجر الواحدة قصرة نحو جمر وجمرة

التي تتسع فهي تشبه الخيمة فان رأسها كالنقطة ثم انها لاتزال تتسع شيئافشيا (الثاني) ان الشرارة كالكرة اوالاسطوانة فهي شديدة الشبه بالخيمة المستديرة واماالتشبيه بالخيمة في العظم فالامر ظاهر هذامنتهى هذا التشبيه واماوجه القدح فيه فمن وجوه (الاول) ان لون الشرارة اصفر يشوبها شئ من السواد وهذا المعنى حاصل في الجمالات الصفر وغير حاصل في الخيمة من الاديم (الثاني) ان الجمالات متحركة والخيمة لاتكون متحركة فتشبيه الشرار المتحرك بالجمالات المتحركة اولى (الثالث) ان الشرارات متتابعة يجئ بعضها خلف البعض وهذا المعنى حاصل في الجمالات الصفر وغير حاصل في الطراف (الرابع) ان القصر مأمن الرجل وموضع سلامته فتشبيه الشرر بالقصر تنبيه على انه انما تولدت آفته من الموضع الذي توقع منه الأمن والسلامة وحال الكافر كذلك فانه كان يتوقع الخير والسلامة من دينه ثم انه ماظهرت له آفة ولامحنة الامن ذلك الدين والخيمة ليست ممايتوقع منهاالأمن الكلي (الخامس) ان العرب كانوا يعتقدون ان كل الجمال في ملك الجمال وتمام النعم انما يحصل بملك النعم ولهذا قال تعالى ولكم فيهاجمال حين تريحون وحين تسرحون فتشبيه الشرر بالجمال السود كالتهكم بهم كأنه قيل لهم كنتم تتوقعون من دينكم كرامة ونعمة وجمالا الا ان ذلك الجمال هو هذه الشرارات التي هي كالجمال وهذا المعنى غير حاصل في الطراف (السادس) ان الجمال اذانفرت واختلط بعضها بالبعض فكل من وقع فيمابين ايديها وارجلها في ذلك الوقت نال بلاء شديدا وألما عظيما فتشبيه الشرارات بها حال تتابعها يفيد حصول كمال الضرر والطراف ليس كذلك (السابع) الظاهر ان القصر يكون في المقدار اعظم من الطراف والجمالات الصفر تكون اكثر في العدد من الطراف فتشبيه هذه الشرارات بالقصر وبالجمالات يقتضي الزيادة في المقدار وفي العدد وتشبيهها بالطراف لايفيد شيئامن ذلك ولما كان المقصود هو التهويل والتخويف كان التشبيه الاول اولى (الثامن) ان التشبيه بالشيئين في اثبات وصفين اقوى في ثبوت ذينك الوصفين من التشبيه بالشئ الواحد في اثبات ذينك الوصفين وبيانه ان من سمع قوله انها ترمي بشرر كالقصر تسارع ذهنه الى ان المراد اثبات عظم تلك الشرارات ثم اذاسمع بعد ذلك قوله كأنه جمالات صفر تسارع ذهنه الى ان المراد كثرة تلك الشرارات وتتابعها ولونها امامن سمع ان الشرار كالطراف يبقى ذهنه متوقفا في ان المقصود بالتشبيه اثبات العظم اواثبات اللون فالتشبيه بالطراف كالمجمل والتشبيه بالقصر وبالجمالات الصفر كالبيان المفصل المكرر المؤكد ولما كان المقصود من هذا البيان هو التهويل والتخويف فكلما كان بيان وجوه العذاب أتم وابين كان الخوف اشد فثبت ان هذا التشبيه اتم (التاسع) انه قال في اول الآية انطلقوا الى ظل والانسان انمايكون طيب العيش وقت الانطلاق والذهاب اذا كان راكبا وانما يجد الظل الطيب اذا كان في قصره فوقع تشبيه الشرارة بالقصر والجمالات كأنه قيل له مركوبك

وقرئ كالقصر بفتحتين وهي اعناق الابل او اعناق النخل نحو شجرة وشجر وقرئ كالقصر بمعنى القصور كرهن ورهن وقرئ كالقصر جمع قصرة (كأنه جمالة) قيل هو جمع جمل والتاء لتأنيث الجمع يقال جمل وجمال وجمالة وقيل اسم جمع كالحجارة (صفر) فان الشرار لمافيه من النارية يكون اصفر وقيل سود لان سواد الابل يضرب الى الصفرة والاول تشبيه في العظم وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط والحركة وقرئ جمالات جمع جمال اوجمالة وقد قرئ جمالات جمع جمال وقد قرئ بها وهي الحبل العظيم من حبال السفن وقلوس الجسور والتشبيه في امتداده والتفافه (ويل يومئذ للمكذبين

(هذه)

هذه الجمالات وظلك فى مثل هذا القصر وهذا يجرى مجرى التهكم بهم وهذا المعنى غير حاصل فى الطراف (العاشر) من المعلوم ان تطاير القصر الى الهواء ادخل فى التعجب من تطاير الخيمة لان القصر يكون مركبا من اللبن والحجر والخشب وهذه الاجسام ادخل فى الثقل والاكتيار امن الخيمة المتخذة اما من الكرباس اومن الأديم والشئ كلما كان اثقل واشدا كتيارا كان تطايره فى الهواء ابعد فكانت النار التى تطير القصر الى الهواء اقوى من النار التى تطير الطراف فى الهواء ومعلوم ان المقصود تعظيم امر النار فى الشدة والقوة فكان التشبيه بالقصر اولى (الحادى عشر) وهو ان سقوط القصر على الانسان ادخل فى الايلام والايجاع من سقوط الطراف عليه فتشبيه تلك الشرارات بالقصر يفيد ان تلك الشرارات اذا ارتفعت فى الهواء ثم سقطت على الكافر فانها تؤلمه ايلاما شديدا فصار ذلك تنبيها على انه لايزال يسقط عليه من الهواء شرارات كالقصور بخلاف وقوع الطراف على الانسان فانه لايؤلم فى الغاية (الثانى عشر) ان الجمال فى اكثر الامور تكون موقرة فتشبيه الشرارات بالجمال تنبيه على ان مع كل واحد من تلك الشرارات انواعا من البلاء والمحنة لايحصى عددها الاالله فكأنه قيل تلك الشرارات كالجمالات الموقرة بأنواع المحنة والبلاء وهذا المعنى غير حاصل فى الطراف فكان التشبيه بالجمالات اتم واعلم ان هذه الوجوه توالت على الخاطر فى اللحظة الواحدة ولو تضرعنا الى الله تعالى فى طلب الازيد لأعطانا اى قدر شئنا بفضله ورحمته ولكن هذه الوجوه كافية فى بيان الترجيح والزيادة عليها تعد من الاطناب والله أعلم ※ قوله تعالى (هذا يوم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ويل يومئذ للمكذبين) نصب الاعمش يوم اى هذا الذى قص عليكم واقع يومئذ * اعلم ان هذا هو النوع السادس من انواع تخويف الكفار وتشديد الامر عليهم وذلك لانه تعالى بين انه ليس لهم عذر ولاحجة فيما أتوا به من القبائح ولاقدرة لهم على دفع العذاب عن انفسهم فيجتمع فى حقه فى هذا المقام انواع من العذاب (احدها) عذاب الخجالة فانه يفتضح على رؤس الاشهاد ويظهر لكل قصوره وتقصيره وكل من له عقل سليم علم ان عذاب الخجالة اشد من القتل بالسيف والاحتراق بالنار (وثانيها) وقوف العبد الآبق على باب المولى ووقوعه فى يده مع علمه بأنه الصادق الذى يستحيل الكذب عليه على ماقال مايبدل القول لدى (وثالثها) انه يرى فى ذلك الموقف خصماءه الذين كان يستخف بهم ويستحقرهم فائزين بالثواب والتعظيم ويرى نفسه فائزا بالخزى والنكال وهذه ثلاثة انواع من العذاب الروحانى (ورابعها) العذاب الجسمانى وهو مشاهدة النار واهوالها نعوذ بالله منها فلما اجتمعت فى حقه هذه الوجوه من العذاب بل ماهو مما لايصف كنهه الاالله لاجرم قال تعالى فى حقهم ويل يومئذ للمكذبين وفى الآية سؤالان (الاول) كيف يمكن الجمع بين قوله هذا يوم لاينطقون وقوله ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون وقوله والله ربنا ماكنا مشركين وقوله ولايكتمون الله حديثا

هذا يوم لاينطقون) اشارة الى وقت دخولهم النار اى هذا يوم لاينطقون فيه بشئ لما ان السؤال والجواب والحساب قد انقضت قبل ذلك ويوم القيامة طويل له مواطن ومواقيت ينطقون فى وقت دون وقت فعبر عن كل وقت بيوم اولاينطقون بشئ ينفعهم فان ذلك كلانطق وقرئ بنصب اليوم اى هذا الذى فصل واقع يوم لاينطقون (ولايؤذن لهم فيعتذرون) عطف على يؤذن منتظم فى سلك النفى اى لايكون لهم اذن واعتذار متعقب له من غير ان يجعل الاعتذار مسببا عن

ويروى ان نافع بن الازرق سأل ابن عباس عن هذا السؤال (والجواب) عنه من وجوه (احدها) قال الحسن فيه اضمار والتقدير هذا يوم لا ينطقون فيه بحجة ولا يؤذن لهم فيعتذرون لانه ليس لهم فيما عملوه عذر صحيح وجواب مستقيم فاذا لم ينطقوا بحجة سليمة وكلام مستقيم فكأنهم لم ينطقوا لان من نطق بما لا يفيد فكأنه لم ينطق ونظيره ما يقال لمن ذكر كلاما غير مفيد ماقلت شيئا (وثانيها) قال الفراء أراد بقوله يوم لا ينطقون تلك الساعة وذلك القدر من الوقت الذى لا ينطقون فيه كما يقول آتيك يوم يقدم فلان والمعنى ساعة يقدم وليس المراد باليوم كله لان القدوم انما يكون فى ساعة يسيرة ولا يمتد فى كل اليوم (وثالثها) ان قوله لا ينطقون لفظ مطلق والمطلق لا يفيد العموم لا فى الانواع ولا فى الاوقات بدليل انك تقول فلان لا ينطق بالشر ولكنه ينطق بالخير وتاره تقول فلان لا ينطق بشئ البتة وهذا يدل على ان مفهوم لا ينطق قدر مشترك بين ان لا ينطق ببعض الاشياء وبين ان لا ينطق بكل الاشياء وكذلك تقول فلان لا ينطق فى هذه الساعة وتقول فلان لا ينطق البتة وهذا يدل على ان مفهوم لا ينطق مشترك بين الدائم والمؤقت واذا كان كذلك فمفهوم لا ينطق يكفى فى صدقه عدم النطق ببعض الاشياء وفى بعض الاوقات وذلك لا ينافى حصول النطق بشئ آخر فى وقت آخر فيكفى فى صدق قوله لا ينطقون انهم لا ينطقون بعذر وعلة فى وقت السؤال وهذا الذى ذكرناه اشارة الى صحة الجواب ين الاولين بحسب النظر العقلى فان قيل لو حلف لا ينطق فى هذا اليوم فنطق فى جزء من اجزاء اليوم يحنث قلنا مبنى الايمان على العرف والذى ذكرناه بحث عن مفهوم اللفظ من حيث انه هو (ورابعها) ان هذه الآية وردت عقيب قول خزنة جهنم لهم انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب فينقادون ويذهبون فكأنه قيل انهم كانوا يؤمرون فى الدنيا بالطاعات فما كانوا يلتفتون اما فى هذه الساعة صاروا منقادين مطيعين فى مثل هذا التكليف الذى هو أشق من كل شئ تنبيها على انهم لو تركوا الخصومة فى الدنيا لما احتاجوا فى هذا الوقت الى هذا الانقياد الشاق والحاصل ان قوله هذا يوم لا ينطقون متقيد بهذا الوقت فى هذا العمل وتقييد المطلق بسبب مقدمة الكلام مشهور فى العرف بدليل ان المرأة اذا قالت اخرج هذه الساعة من الدار فقال الزوج لو خرجت فأنت طالق فانه يتقيد هذا المطلق بتلك الخرجة فكذا ههنا (السؤال الثانى) قوله ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوهم ان لهم عذرا وقد منعوا من ذكره وهذا لا يليق بالحكيم (والجواب) انه ليس لهم فى الحقيقة عذر ولكن ربما تخيلوا خيالا فاسدا ان لهم فيه عذرا فهم لا يؤذن لهم فى ذكر ذلك العذر الفاسد ولعل ذلك العذر الفاسد هو ان يقول لما كان الكل بقضائك وعلمك ومشيئتك وخلقك فلم تعذبنى عليه فان هذا عذر فاسد اذ ليس لأحد ان يمنع المالك عن التصرف فى ملكه كيف شاء وأراد فان قيل اليس انه قال رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وقال

الاذن كالو نصب (ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل) بين الحق والباطل والمحق والمبطل (جمعناكم) خطاب لامة محمد عليه الصلاة والسلام (والاولين) من الامم وهذا تقرير وبيان للفصل (فان كان لكم كيد فكيدون) فان جميع من كنتم تقلدونهم وتقتدون بهم حاضرون وهذا تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين فى الدنيا واظهار لعجزهم (ويل يومئذ للمكذبين) حيث ظهر ان لا حيلة لهم فى الخلاص من العذاب (ان المتقين) من الكفر والتكذيب (فى ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون) اى مستقرون فى فنون

ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا والمقصود من كل
ذلك ان لا يبقى فى قلبه ان له عذرا فهب ان عذره فى موقف القيامة فاسد فلم لا يؤذن له
فى ذكره حتى يذكره ثم يبين له فساده قلنا لما تقدم الاعذار والانذار فى الدنيا بدليل
قوله فالملقيات ذكرا عذرا اونذرا كان اعادتها غير مفيدة (السؤال الثالث) لم لم يقل
ولا يؤذن لهم فيعتذروا كما قال لا يقضى عليهم فيموتوا (الجواب) الفاء ههنا للنسق فقط
ولا يفيد كونه جزاء البتة ومثله من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له بالرفع
والنصب وانما رفع يعتذرون بالعطف لانه لو نصب لكان ذلك يوهم انهم مايعتذرون لانهم
لم يؤذنوا فى الاعتذار وذلك يوهم ان لهم فيه عذرا منعوا عن ذكره وهو غير جائز اما لما رفع
كان المعنى انهم لم يؤذنوا فى العذر وهم ايضا لم يعتذروا لا لاجل عدم الاذن بل لاجل عدم
العذر فى نفسه ثم ان فيه فائدة اخرى وهى حصول الموافقة فى رؤس الآيات لان الآيات
بالواو والنون ولو قيل فيعتذروا لم تتوافق الآيات ألا ترى انه قال فى سورة اقتربت
الساعة الى شئ نكر فثقل لان آياتها مثقلة وقال فى موضع آخر وعذبناها عذابا نكرا
واجمع القراء على تثقيل الاول وتخفيف الثانى ليوافق كل منهما ماقبله ❊ قوله تعالى (هذا
يوم الفصل جمعناكم والاولين فان كان لكم كيد فكيدون ويل يومئذ للمكذبين) اعلم ان
هذا هو النوع السابع من انواع تهديد الكفار وهذا القسم من باب التعذيب بالتقريع
والتخجيل فاما قوله هذا يوم الفصل فاعلم ان ذلك اليوم يقع فيه نوعان من الحكومة
(احدهما) مابين الرب والعبد وفى هذا القسم كل مايتعلق بالرب فلا حاجة فيه الى الفصل
وهو مايتعلق بالثواب الذى يستحقه المرء على عمله وكذا فى العقاب انما يحتاج الى الفصل
فيما يتعلق بجانب العبد وهو ان تقرر عليهم اعمالهم التى عملوها حتى يعترفوا (والقسم
الثانى) مايكون بين العباد بعضهم مع بعض فان هذا يدعى على ذاك انه ظلمنى وذاك
يدعى على هذا انه قتلنى فههنا لابد فيه من الفصل وقوله جمعناكم والاولين كلام موضح
لقوله هذا يوم الفصل لانه لما كان هذا اليوم يوم فصل حكومات جميع المكلفين فلابد من
احضار جميع المكلفين لاسيما عند من لا يجوز القضاء على الغائب ثم قال فان كان لكم
كيد فكيدون يشير به الى انهم كانوا يدفعون الحقوق عن انفسهم بضروب الحيل
والكيد فكأنه قال فههنا ان امكنكم ان تفعلوا مثل تلك الافعال المنكرة من الكيد
والمكر والخداع والتلبيس فافعلوا وهذا كقوله تعالى فأتوا بسورة من مثله ثم انهم يعلمون
ان الحيل منقطعة والتلبيسات غير ممكنة فخطاب الله تعالى لهم فى هذه الحالة بقوله فان كان
لكم كيد فكيدون نهاية فى التخجيل والتقريع وهذا من جنس العذاب الروحانى فلهذا
قال عقيبه ويل يومئذ للمكذبين ❊ قوله تعالى (ان المتقين فى ظلال وعيون وفواكه
يشتهون كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون انا كذلك نجزى المحسنين ويل يومئذ
للمكذبين) اعلم ان هذا هو النوع الثامن من انواع تهديد الكفار وتعذيبهم وذلك لان

الترفه وانواع التنعم (كلوا واشربوا
هنيئا بما كنتم تعملون) مقدر
بقول هو حال من ضمير المتقين فى
الخبر اى مقولا لهم كلوا واشربوا
هنيئا بما كنتم تعملونه فى الدنيا من
الاعمال الصالحة (انا كذلك)
الجزاء العظيم (نجزى المحسنين) اى
فى عقائدهم واعمالهم لا جزاء ادنى
منه (ويل يومئذ للمكذبين) حيث
نال اعداؤهم هذا الثواب الجزيل
وهم بقوا فى العذاب المخلد
الوبيل (كلوا وتمتعوا قليلا انكم
مجرمون) مقدر بقول هو حال من
المكذبين اى الويل ثابت لهم
مقولا لهم ذلك تذكيرا لهم بحالهم
فى الدنيا وبما

الخصومة الشديدة والنفرة العظيمة كانت فى الدنيا قائمة بين الكفار والمؤمنين فصارت تلك النفرة بحيث ان الموت كان اسهل على الكافران يرى للمؤمن دولة وقوة فلما بين الله تعالى فى هذه السورة اجتماع انواع العذاب والخزى والنكال على الكفار بين فى هذه الآية اجتماع انواع السعادة والكرامة فى حق المؤمن حتى ان الكافر حال مايرى نفسه فى غاية الذل والهوان والخزى والخسران ويرى خصمه فى نهاية العز والكرامة والرفعة والمنقبة تتضاعف حسرته وتتزايد غمومه وهمومه وهذا ايضا من جنس العذاب الروحانى فلهذا قال فى آخر هذه الآية ويل يومئذ للمكذبين وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال مقاتل والكلبى المراد من قوله ان المتقين الذين يتقون الشرك بالله واقول هذا القول عندى هو الصحيح الذى لامعدل عنه ويدل عليه وجوه (احدها) ان المتقى عن الشرك يصدق عليه انه متق لان المتقى عن الشرك ماهية مركبة من قيدين (احدهما) انه متق (والثانى) خصوص كونه عن الشرك ومتى وجد المركب فقد وجد كل واحد من مفرداته لامحالة فثبت ان كل من صدق عليه انه متق عن الشرك فقد صدق عليه انه متق اقصى مافى الباب ان يقال هذه الآية على هذا التقدير تتناول كل من كان متقيا لاى شئ كان الا انا نقول كونه كذلك لايقدح فيما قلناه لانه خص كل من لم يكن متقيا عن جميع انواع الكفر فيبقى فيما عداه حجة لان العام الذى دخله التخصيص يبقى حجة فيما عداه (وثانيها) ان هذه السورة من اولها الى آخرها مرتبة فى تقريع الكفار على كفرهم وتخويفهم عليه فهذه الآية يجب ان تكون مذكورة لهذا الغرض والا لتفككت السورة فى نظمها وترتيبها والنظم انما يبقى لو كان هذا الوعد حاصلا للمؤمنين بسبب ايمانهم لانه لما تقدم وعيد الكافر بسبب كفره وجب ان يقرن ذلك بوعد المؤمن بسبب ايمانه حتى يصير ذلك سببا فى الزجر عن الكفر فأما ان يقرن به وعد المؤمن بسبب طاعته فذلك غير لائق بهذا النظم والترتيب فثبت بما ذكرنا ان المراد من قوله ان المتقين كل من كان متقيا عن الشرك والكفر (وثالثها) ان حمل اللفظ على المسمى الكامل اولى واكمل انواع التقوى هو التقوى عن الكفر والشرك فكان حمل اللفظ عليه اولى (المسئلة الثانية) انه تعالى لما بعث الكفار الى ظل ذى ثلاث شعب أعد فى مقابلته للمؤمنين ثلاثة انواع من النعمة (اولها) قوله ان المتقين فى ظلال وعيون كأنه قيل ظلالهم ما كانت ظليلة وما كانت مغنية عن اللهب والعطش اما المتقون فظلالهم ظليلة وفيها عيون عذبة مغنية لهم عن العطش وحاجزة بينهم وبين اللهب ومعهم الفواكه التى يشتهونها ويتمنونها ولما قال للكفار انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب قال للمتقين كلوا واشربوا هنيئا فاما ان يكون ذلك الاذن من جهة الله تعالى لا بواسطة وما اعظمها او من جهة الملائكة على وجه الاكرام ومعنى هنيئا اى خالص اللذة لايشوبه سقم ولا تنغيص (المسئلة الثالثة) اختلف العلماء فى ان قوله كلوا واشربوا أمر أو اذن قال أبو هاشم هو أمر وأراد الله منهم

(الاكل)

جنوا على انفسهم من ايثار المتاع الفانى عن قريب على النعيم الخالد وعلل ذلك باجرامهم دلالة على ان كل مجرم مآله هذا وقيل هو كلام مستأنف خوطب به المكذبون فى الدنيا بعد بيان مآل حالهم وقرر ذلك بقوله تعالى (ويل يومئذ للمكذبين) لزيادة التوبيخ والتقريع (واذا قيل لهم اركعوا) اى اطيعوا الله واخشعوا وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه وارفضوا هذا الاستكبار والنخوة (لايركعون) لايخشعون ولايقبلون ذلك ويصرون على ماهم عليه من الاستكبار وقيل اذا امروا بالصلاة او بالركوع

الاكل والشرب لان سرورهم يعظم بذلك واذا علموا ان الله أراده منهم جزاء على عملهم فكما يريد اجلالهم واعظامهم بذلك فكذلك يريد نفس الاكل والشرب معهم وقال ابو على ذلك ليس بأمر وانما يريد بقوله على وجه الاكرام لان الامر والنهى انما يحصلان فى زمان التكليف وليس هذا صفة الآخرة (المسئلة الرابعة) تمسك من قال العمل يوجب الثواب بالباء فى قوله بما كنتم تعملون وهذا ضعيف لان الباء للاضافة ولما جعل الله تعالى ذلك العمل علامة لهذا الثواب كان الاتيان بذلك العمل كالآلة الموصلة الى تحصيل ذلك الثواب وقوله تعالى انا كذلك نجزى المحسنين المقصود منه ان يذكر الكفار مافاتهم من النعم العظيمة ليعلموا انهم لو كانوا من المتقين المحسنين لفازوا بمثل تلك الخيرات واذا لم يفعلوا ذلك لاجرم وقعوا فيما وقعوا فيه ❊ قوله تعالى (كلوا وتمتعوا قليلا انكم مجرمون ويل يومئذ للمكذبين) اعلم ان هذا هو النوع التاسع من انواع تخويف الكفار كأنه تعالى يقول للكافر حال كونه فى الدنيا انك انما عرضت نفسك لهذه الآفات التى وصفناها ولهذه المحن التى شرحناها لأجل حبك للدنيا ورغبتك فى طيباتها وشهواتها الا ان هذه الطيبات قليلة بالنسبة الى تلك الآفات العظيمة والمشتغل بتحصيلها يجرى مجرى لقمة واحدة من الحلواء وفيها السم المهلك فانه يقال لمن يريد اكلها ولا يتركها بسبب نصيحة الناصحين وتذكير المذكرين كل هذا وويل لك منه بعد هذا فانك من الهالكين بسببه وهذا وان كان فى اللفظ امرا الا انه فى المعنى نهى بليغ وزجر عظيم ومنع فى غاية المبالغة ❊ قوله تعالى (واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ويل يومئذ للمكذبين) اعلم ان هذا هو النوع العاشر من انواع تخويف الكفار كأنه قيل لهم هب انكم تحبون الدنيا ولذاتها وشهواتها ولكن لا تعرضوا بالكلية عن خدمة خالقكم بل تواضعوا لله فانكم ان آمنتم ثم ضممتم اليه طلب اللذات وانواع المعاصى حصل لكم رجاء الخلاص عن عذاب جهنم والفوز بالثواب كما قال تعالى ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ثم ان هؤلاء الكفار لا يفعلون ذلك ولا ينقادون لطاعته ويبقون مصرين على جهلهم وكفرهم وتعريضهم انفسهم للعقاب العظيم فلهذا قال ويل يومئذ للمكذبين اى الويل لمن يكذب هؤلاء الانبياء الذين يرشدونهم الى هذه المصالح الجامعة بين خيرات الدنيا والآخرة وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما قوله واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون المراد به الصلاة وهذا ظاهر لان الركوع من اركانها فبين تعالى ان هؤلاء الكفار من صفتهم انهم اذا دعوا الى الصلاة لا يصلون وهذا يدل على ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع وانهم حال كفرهم كما يستحقون الذم والعقاب بترك الايمان فكذلك يستحقون الذم والعقاب بترك الصلاة لان الله تعالى ذمهم حال كفرهم على ترك الصلاة وقال قوم آخرون المراد بالركوع الخضوع والخشوع لله تعالى وان لا يعبد سواه (المسئلة الثانية) القائلون بأن الامر للوجوب استدلوا بهذه الآية لانه تعالى ذمهم

لا يفعلون اذ روى انه نزل حين امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقيفا بالصلاة فقالوا لا نجبى فانها مسبة علينا فقال عليه الصلاة والسلام لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود وقيل هو يوم القيامة حين يدعون الى السجود فلا يستطيعون (ويل يومئذ للمكذبين) وفيه دلالة على ان الكفار مخاطبون بالفروع فى حق المؤاخذة (فبأى حديث بعده) اى بعد القرآن الناطق باحاديث الدارين واخبار النشأتين على نمط بديع معجز مؤسس على حجج قاطعة وبراهين ساطعة (يؤمنون) اذا لم يؤمنوا به وقرئ تؤمنون على الخطاب ❊ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والمرسلات كتب له انه ليس من المشركين

بمجر ترك المأمور به وهذا يدل على ان مجرد الامر للوجوب فان قيل انهم كفار فلكفرهم ذمهم قلنا انه تعالى ذمهم على كفرهم من وجوه كثيرة الا انه تعالى انما ذمهم في هذه الآية لانهم تركوا المأمور به فعلمنا ان ترك المأمور به غير جائز * قوله تعالى (فبأي حديث بعده يؤمنون) اعلم انه تعالى لما بالغ في زجر الكفار من اول هذه السورة الى آخرها بالوجوه العشرة التي شرحناها وحث على التمسك بالنظر والاستدلال والانقياد للدين الحق ختم السورة بالتعجب من الكفار وبين انهم اذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل اللطيفة مع تجليها ووضوحها فبأي حديث بعده يؤمنون قال القاضي هذه الآية تدل على ان القرآن محدث لانه تعالى وصفه بأنه حديث والحديث ضد القديم والضدان لا يجتمعان فاذا كان حديثا وجب ان يكون قديما واجاب الاصحاب بأن المراد منه هذه الالفاظ ولا نزاع في انها محدثة والله أعلم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله اجمعين

(سورة النبأ اربعون آية مكية)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) عم اصله حرف جر دخل على ما الاستفهامية قال حسان رحمه الله

على ماقام يشتمني لئيم * كخنزير تمرغ في رماد

والاستعمال الكثير على الحذف والاصل قليل ذكروا في سبب الحذف وجوها (احدها) قال الزجاج لان الميم تشرك الغنة في الانف فصارا كالحرفين المتماثلين (وثانيها) قال الجرجاني انهم اذا وضعوا ما في استفهام حذفوا ألفها تفرقة بينها وبين ان تكون اسما كقولهم فيم وبم ولم وعلام وحتام (وثالثها) قالوا حذفت الالف لاتصال ما بحرف الجر حتى صارت كجزء منه لتنبئ عن شدة الاتصال (ورابعها) السبب في هذا الحذف التخفيف في الكلام فانه لفظ كثير التداول على اللسان (المسئلة الثانية) قوله عم يتساءلون انه سؤال وقوله عن النبأ العظيم جواب والسائل والمجيب هو الله تعالى وذلك يدل على علمه بالغيب بل بجميع المعلومات (فان قيل) ما الفائدة في ان يذكر سؤالا ثم انه يذكر الجواب معه (قلنا) لان ايراد الكلام في معرض السؤال والجواب أقرب الى التفهيم والايضاح ونظيره لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (المسئلة الثالثة) قرأ عكرمة وعيسى بن عمر عما وهو الاصل وعن ابن كثير انه قرأ عمه بهاء السكت ولا يخلو اما ان يجري الوصل مجرى الوقف واما ان يقف ويبتدئ بيتساءلون عن النبأ العظيم على ان يضمر يتساءلون لان ما بعده يفسره كشيء مبهم ثم يفسر (المسئلة الرابعة) ما لفظة وضعت لطلب ماهيات الاشياء وحقائقها تقول ما الملك وما الروح وما الجن والمراد طلب ماهياتها وشرح حقائقها وذلك يقتضي كون ذلك المطلوب مجهولا ثم ان الشيء العظيم الذي يكون لعظمه

(سورة النبأ مكية وآيها اربعون)
(أو احدى وأربعون)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(عم) اصله عما فحذف منه الالف اما فرقا بين ما الاستفهامية وغيرها او قصدا للخفة لكثرة استعمالها وقد قرئ على الاصل وما فيها من الابهام للايذان بفخامة شان المسؤل عنه وهوله وخروجه عن حد الاجناس المعهودة اى عن اى شيء عظيم الشأن (يتساءلون) اى اهل مكة وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم ويخوضون فيه انكارا واستهزاء لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومسماه بل عن وقوعه الذي هو حال من احواله ووصف من اوصافه فان ما وان وضعت لطلب حقائق الاشياء ومسميات اسمائها كما في قولك ما الملك وما الروح لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد فيقال عالم او طبيب وقيل كانوا يسألون عنه الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين استهزاء كقولهم يتداعونهم اى يدعونهم وتحقيقه ان صيغة التفاعل في الافعال المتعدية موضوعة لافادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يصير كل واحد من ذلك فاعلا ومفعولا معا لكنه يرفع باسناد الفعل اليه ترجيحا لجانب فاعليته ويحال بمفعوليته على دلالة العقل كما في قولك تراءى القوم اى رأى كل واحد منهم الآخر وقد تجرد عن المعنى الثاني فيراد بها

وتفاقم مرتبته يعجز العقل عن ان يحيط بكنهه يبقى مجهولا فحصل بين الشئ المطلوب بلفظ ما و بين الشئ العظيم مشابهة من هذا الوجه والمشابهة احدى اسباب المجاز فبهذا الطريق جعل لفظ ما دليلا على عظمة حال ذلك المطلوب و علو رتبته ومنه قوله تعالى وما أدراك ما سجين وما ادراك ما العقبة وتقول زيد وما زيد (المسئلة الخامسة) التساؤل هو ان يسأل بعضهم بعضا كالتقابل وقد يستعمل ايضا في ان يتحدثوا به وان لم يكن من بعضهم لبعض سؤال قال تعالى واقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم انى كان لى قرين يقول انك لمن المصدقين فهذا يدل على معنى التحدث فيكون معنى الكلام عم يتحدثون وهذا قول الفراء (المسئلة السادسة) اولئك الذين كانوا يتساءلون من هم فيه احتمالات (احدها) انهم هم الكفار والدليل عليه قوله تعالى كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون الضمير في يتساءلون وهم فيه مختلفون وسيعلمون راجع الى شئ واحد وقوله كلا سيعلمون تهديد والتهديد لا يليق الا بالكفار فثبت ان الضمير في قوله يتساءلون عائد الى الكفار (فان قيل) فما تصنع بقوله هم فيه مختلفون مع ان الكفار كانوا متفقين في انكار الحشر (قلنا) لا نسلم انهم كانوا متفقين في انكار الحشر وذلك لان منهم من كان يثبت المعاد الروحانى وهم جمهور النصارى واما المعاد الجسمانى فمنهم من كان شاكا فيه كقوله وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى ان لى عنده للحسنى ومنهم من أصر على الانكار ويقول ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ومنهم من كان مقرا به لكنه كان منكرا لنبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فقد حصل اختلافهم فيه وأيضا هب انهم كانوا منكرين له لكن لعلهم اختلفوا في كيفية انكاره فمنهم من كان ينكره لانه كان ينكر الصانع المختار ومنهم من كان ينكره لاعتقاده ان اعادة المعدوم ممتنعة لذاتها والقادر المختار انما يكون قادرا على ما يكون ممكنا في نفسه وهذا هو المراد بقوله هم فيه مختلفون (والاحتمال الثانى) ان الذين كانوا يتساءلون هم الكفار والمؤمنون وكانوا جميعا يتساءلون عنه اما المسلم فليزداد بصيرة ويقينا في دينه واما الكافر فعلى سبيل السخرية او على سبيل ايراد الشكوك والشبهات (والاحتمال الثالث) انهم كانوا يسألون الرسول ويقولون ما هذا الذى تعدنا به من امر الآخرة اما قوله تعالى عن النبأ العظيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر المفسرون في تفسير النبأ العظيم ثلاثة اوجه (احدها) انه هو القيامة وهذا هو الاقرب ويدل عليه وجوه (أحدها) قوله سيعلمون والظاهر ان المراد منه انهم سيعلمون هذا الذى يتساءلون عنه حين لا تنفعهم تلك المعرفة ومعلوم ان ذلك هو القيامة (وثانيها) انه تعالى بين كونه قادرا على جميع الممكنات بقوله ألم نجعل الارض مهادا الى قوله يوم ينفخ في الصور وذلك يقتضى انه تعالى انما قدم هذه المقدمة لبيان كونه تعالى قادرا على اقامة القيامة ولما كان الذى أثبته الله تعالى بالدليل العقلى في هذه السورة هو هذه المسئلة ثبت ان النبأ العظيم الذى كانوا يتساءلون عنه هو يوم القيامة (وثالثها) ان العظيم

مجرد صدور الفعل عن المتعدد عاريا عن اعتبار وقوعه عليه فيذكر للفعل حينئذ مفعول متعدد كما في المثال المذكور او واحد كما في قولك تراءوا الهلال وقد يحذف لظهوره كما فيما نحن فيه فالمعنى عن اى شئ يسأل هؤلاء القوم الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وربما تجرد عن صدور الفعل عن المتعدد ايضا فيراد بها تعدده باعتبار تعدد متعلقه مع وحدة الفاعل كما في قوله تعالى فبأى آلاء ربك تتمارى وقوله تعالى (عن النبأ العظيم) بيان لشأن المسؤل عنه اثر تفخيمه بابهام امره وتوجيه اذهان السامعين نحوه وتنزيلهم منزلة المستفهمين فان ايراده على طريقة الاستفهام من علام الغيوب للتنبيه على انه لانقطاع قرينه وانعدام نظيره خارج عن دائرة علوم الخلق خليق بأن يعتنى بمعرفته ويسأل عنه كأنه قيل اى شئ يتساءلون هل اخبركم به ثم قيل بطريق الجواب عن النبأ العظيم على منهاج قوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فعن متعلقة بما يدل عليه المذكور من مضمر حقه ان يقدر بعدها مسارعة الى البيان ومراعاة لترتيب السؤال هذا هو الحقيق بالجزالة التنزيلية وقد قيل هى متعلقة بالمذكور وعم متعلق بمضمر مفسر به وأيد ذلك بأنه قرئ عمه والاظهر انه مبنى على اجراء الوصل مجرى الوقف وقيل عن الاولى للتعليل كأنه قيل لم

اسم لهذا اليوم بدليل قوله الايظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين وقوله قل هو نبأ عظيم انتم عنه معرضون ولان هذا اليوم اعظم الاشياء لان ذلك منتهى فزع الخلق وخوفهم منه فكان تخصيص اسم العظيم به لائقا (القول الثانى) انه القرآن واحتج القائلون بهذا الوجه بأمرين (الاول) ان النبأ العظيم هو الذى كانوا يختلفون فيه وذلك هو القرآن لان بعضهم جعله سحرا وبعضهم شعرا وبعضهم قال انه اساطير الاولين فاما البعث ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقد كانوا متفقين على انكارهما وهذا ضعيف لانا بينا ان الاختلاف كان حاصلا فى البعث (الثانى) ان النبأ اسم الخبر لا اسم المخبر عنه فتفسير النبأ بالقرآن اولى من تفسيره بالبعث او النبوة لان ذلك فى نفسه ليس بنبأ بل منبأ عنه ويقوى ذلك ان القرآن سمى ذكرا وتذكرة وذكرى وهداية وحديثا فكان اسم النبأ به اليق منه بالبعث والنبوة (والجواب عنه) انه ان كان اسم النبأ اليق بهذه الالفاظ فاسم العظيم اليق بالقيامة وبالنبوة لانه لا عظمة فى الالفاظ انما العظمة فى المعانى وللاولين ان يقولوا انها عظيمة ايضا فى الفصاحة والاحتواء على العلوم الكثيرة ويمكن ان يجاب ان العظيم حقيقة فى الاجسام مجاز فى غيرها واذا ثبت التعارض بقى ما ذكرنا من الدلائل سليما (القول الثالث) ان النبأ العظيم هو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قالوا وذلك لانه لما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام جعلوا يتساءلون بينهم ماذا الذى حدث فأنزل الله تعالى عم يتساءلون وذلك لانهم عجبوا من ارسال الله محمدا عليه الصلاة والسلام اليهم كما قال تعالى بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب وعجبوا ايضا ان جاءهم بالتوحيد كما قال أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب فحكى الله تعالى عنهم مساءلة بعضهم بعضا على سبيل التعجب بقوله عم يتساءلون (المسئلة الثانية) فى كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه (احدها) وهو قول البصريين ان قوله عم يتساءلون كلام تام ثم قال عن النبأ العظيم والتقدير يتساءلون عن النبأ العظيم الا انه حذف يتساءلون فى الآية الثانية لان حصوله فى الآية الاولى يدل عليه (وثانيها) ان يكون قوله عن النبأ العظيم استفهاما متصلا بما قبله والتقدير عم يتساءلون أعن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون الا انه اقتصر على ما قبله من الاستفهام اذ هو متصل به وكالترجمة والبيان له كما قرئ فى قوله أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما انا لمبعوثون بكسر الالف من غير استفهام وهو موضع الاستفهام لان انكارهم انما كان للبعث ولكنه لما ظهر الاستفهام فى اول الكلام اقتصر عليه فكذا ههنا (وثالثها) وهو اختيار الكوفيين ان الآية الثانية متصلة بالاولى على تقدير لأى شئ يتساءلون عن النبأ العظيم ثم كأنها فى المعنى لأى شئ وهذا قول الفراء * قوله تعالى (كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون) قال القفال كلا لفظة وضعت لرد شئ قد تقدم هذا هو الاظهر منها فى الكلام والمعنى ليس الامر كما يقوله هؤلاء فى النبأ العظيم انه باطل او انه لا يكون وقال قائلون كلا

يتساءلون عن النبأ العظيم وقيل قبل عن الثانية استفهام مضمر كأنه قيل عم يتساءلون أعن النبأ العظيم والنبأ الخبر الذى له شأن وخطر وقد وصف بقوله تعالى (الذى هم فيه مختلفون) بعد وصفه بالعظيم تأكيدا لخطره اثر تأكيد واشعارا بمدار التساؤل عنه وفيه متعلق بمختلفون قدم عليه اهتماما به ورعاية للفواصل وجعل الصلة جملة اسمية للدلالة على الثبات اى هم راسخون فى الاختلاف فيه فمن جازم باستحالته يقول ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما نحن بمبعوثين وشاك يقول ماندرى ما الساعة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين وقيل منهم من ينكر المعادين معا كهؤلاء ومنهم من ينكر المعاد الجسمانى فقط كجمهور النصارى وقد حمل الاختلاف على الاختلاف فى كيفية الانكار فمنهم من ينكره لانكاره الصانع المختار ومنهم من ينكره بناء على استحالة اعادة المعدوم بعينه وحمله على الاختلاف بالنفى والاثبات بناء على تعميم التساؤل لفريقى المسلمين والكافرين على ان سؤال الاولين ليزدادوا خشية واستعدادا وسؤال الآخرين ليزدادوا كفرا وعنادا يرده قوله تعالى (كلا سيعلمون) الخ فانه صريح فى ان المراد اختلاف الجاهلين به المنكرين له اذ عليه يدور الردع والوعيد لا على خلاف المؤمنين لهم وتخصيصهما

(معناه)

معناه حقا ثم انه تعالى قرر ذلك الردع والتهديد فقال كلا سيعلمون وهو وعيد لهم بانهم سوف يعلمون ان ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لا دافع له واقع لا ريب فيه واما تكرير الردع ففيه وجهان (الاول) ان الغرض من التكرير التأكيد والتشديد ومعنى ثم الاشعار بان الوعيد الثاني ابلغ من الوعيد الاول وأشد (والثاني) ان ذلك ليس بتكرير ثم ذكروا وجوها (احدها) قال الضحاك الآية الاولى للكفار والثانية للمؤمنين اي سيعلم الكفار عاقبة تكذيبهم وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم (وثانيها) قال القاضي ويحتمل ان يريد بالاول سيعلمون نفس الحشر والمحاسبة ويريد بالثاني سيعلمون نفس العذاب اذا شاهدوه (وثالثها) كلا سيعلمون ما الله فاعل بهم يوم القيامة ثم كلا سيعلمون ان الامر ليس كما كانوا يتوهمون من ان الله غير باعث لهم (ورابعها) كلا سيعلمون ما يصل اليهم من العذاب في الدنيا كما جرى على كفار قريش يوم بدر ثم كلا سيعلمون بما ينالهم في الآخرة (المسئلة الثالثة) جمهور القراء قرؤا بالياء المنقطة من تحت في سيعلمون وروى بالتاء المنقطة من فوق عن ابن عامر قال الواحدي والاول اولى لان ما تقدم من قوله هم فيه مختلفون على لفظ الغيبة والتاء على قل لهم ستعلمون واقول يمكن ان يكون ذلك على سبيل الالتفات وهو ههنا متمكن حسن كمن يقول ان عبدي يقول كذا وكذا ثم يقول لعبده انك ستعرف وبال هذا الكلام ❊ قوله تعالى (ألم نجعل الارض مهادا) اعلم انه تعالى لما حكى عنهم انكار البعث والحشر وأراد اقامة الدلالة على صحة الحشر قدم لذلك مقدمة في بيان كونه تعالى قادرا على جميع الممكنات عالما بجميع المعلومات وذلك لانه مهما ثبت هذان الاصلان ثبت القول بصحة البعث وانما اثبت هذين الاصلين بأن عدد انواعا من مخلوقاته الواقعة على وجه الاحكام والاتقان فان تلك الاشياء من جهة حدوثها تدل على القدرة ومن جهة احكامها واتقانها تدل على العلم ومتى ثبت هذان الاصلان وثبت ان الاجسام متساوية في قبول الصفات والاعراض ثبت لا محالة كونه تعالى قادرا على تخريب الدنيا بسمواتها وكواكبها وأرضها وعلى ايجاد عالم الآخرة فهذا هو الاشارة الى كيفية النظم واعلم انه تعالى ذكر ههنا من عجائب مخلوقاته امورا (فأولها) قوله الم نجعل الارض مهادا والمهاد مصدر ثم ههنا احتمالات (احدها) المراد منه ههنا الممهود اي الم نجعل الارض ممهودا وهذا من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولك هذا ضرب الامير (وثانيها) ان تكون الارض وصفت بهذا المصدر كما تقول زيد جود وكرم وفضل كأنه لكماله في تلك الصفة صار عين تلك الصفة (وثالثها) ان تكون بمعنى ذات مهاد وقرئ مهدا ومعناه ان الارض للخلق كالمهد للصبي وهو الذي مهد له فينوم عليه واعلم انا ذكرنا في تفسير سورة البقرة عند قوله جعل لكم الارض فراشا كل ما يتعلق من الحقائق بهذه الآية ❊ (وثانيها) قوله تعالى (والجبال اوتادا) اي للارض حتى لا تميد

بالكفرة بناء على تخصيص ضمير سيعلمون بهم مع عموم الضميرين السابقين للكل مما ينبغي تنزيه التنزيل عن امثاله هذا ما أدى اليه جليل النظر والذي يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الدقيق ان يحمل اختلافهم على مخالفتهم للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يعتبر في الاختلاف محض صدور الفعل عن المتعدد حسبما ذكر في التساؤل فان الافتعال والتفاعل صيغتان متآخيتان كالاستباق والتسابق والانتضال والتناضل الى غير ذلك يجرى في كل منهما ما يجرى في الاخرى لا على مخالفة بعضهم لبعض من الجانبين لان الكل وان استحق الردع والوعيد لكن استحقاق كل جانب لهما ليس لمخالفته للجانب الآخر اذ لا حقية في شئ منهما حتى يستحق من يخالفه المؤاخذة بل لمخالفته له عليه الصلاة والسلام فكلا ردع لهم عن التساؤل والاختلاف بالمعنيين المذكورين وسيعلمون وعيد لهم بطريق الاستئناف وتعليل للردع والسين للتقريب والتأكيد وليس مفعوله ما ينبئ عنه المقام من وقوع ما يتساءلون عنه ووقوع ما يختلفون فيه كما في قوله تعالى واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت الى قوله تعالى ليبين لهم الذي يختلفون فيه الآية فان ذلك عار عن صريح الوعيد بل هو عبارة عما يلاقونه من فنون الدواهي والعقوبات والتعبير عن لقائها

بأهلها فيكمل كون الارض مهادا بسبب ذلك وتحقيق ذلك قدتقدم ايضا ❊ (وثالثها) قوله تعالى (وخلقناكم أزواجا) وفيه قولان (الاول) المراد الذكر والانثى كما قال وانه خلق الزوجين الذكر والانثى (والثانى) ان المراد منه كل زوجين ومتقابلين من القبيح والحسن والطويل والقصير وجميع المتقابلات والاضداد كما قال ومن كل شئ خلقنا زوجين وهذا دليل ظاهر على كمال القدرة ونهاية الحكمة حتى يصح الابتلاء والامتحان فيتعبد الفاضل بالشكر والمفضول بالصبر ويتعرف حقيقة كل شئ بضده فالانسان انما يعرف قدر الشباب عند الشيب وانما يعرف قدر الامن عند الخوف فيكون ذلك ابلغ فى تعريف النعم ❊ (ورابعها) قوله تعالى (وجعلنا نومكم سباتا) طعن بعض الملاحدة فى هذه الآية فقالوا السبات هو النوم والمعنى وجعلنا نومكم نوما واعلم ان العلماء ذكروا فى التأويل وجوها (اولها) قال الزجاج سباتا موتا والمسبوت الميت من السبت وهو القطع لانه مقطوع عن الحركة ودليله أمران (احدهما) قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل الى قوله ثم يبعثكم (والثانى) انه لما جعل النوم موتا جعل اليقظة معاشا اى حياة فى قوله وجعلنا النهار معاشا وهذا القول عندى ضعيف لان الاشياء المذكورة فى هذه الآية جلائل النعم فلايليق الموت بهذا المكان وايضا ليس المراد بكونه موتا ان الروح انقطع عن البدن بل المراد منه انقطاع أثر الحواس الظاهرة وهذا هو النوم ويصير حاصل الكلام الى اناجعلنا نومكم نوما (وثانيها) قال الليث السبات النوم شبه الغشى يقال سبت المريض فهو مسبوت وقال ابوعبيدة السبات الغشية التى تغشى الانسان شبه الموت وهذا القول ايضا ضعيف لان الغشى ههنا ان كان النوم فيعود الاشكال وان كان المراد بالسبات شدة ذلك الغشى فهو باطل لانه ليس كل نوم كذلك ولانه مرض فلايمكن ذكره فى اثناء تعديد النعم (وثالثها) ان السبت فى اصل اللغة هو القطع يقال سبت الرجل رأسه يسبته سبتا اذا حلق شعره وقال ابن الاعرابى فى قوله سباتا اى قطعا ثم عند هذا يحتمل وجوها (الاول) ان يكون المعنى وجعلنا نومكم نوما منقطعا لادائما فان النوم بمقدار الحاجة من انفع الاشياء امادوامه فمن اضر الاشياء فلما كان انقطاعه نعمة عظيمة لاجرم ذكره الله تعالى فى معرض الانعام (الثانى) ان الانسان اذاتعب ثم نام فذلك النوم يزيل عنه ذلك التعب فسميت تلك الازالة سبتا وقطعا وهذا هو المراد من قول ابن قتيبة وجعلنا نومكم سباتا اى راحة وليس غرضه منه ان السبات اسم للراحة بل المقصود ان النوم يقطع التعب ويزيله فحينئذ تحصل الراحة (الثالث) قال المبرد وجعلنا نومكم سباتا اى جعلناه نوما خفيفا يمكنكم دفعه وقطعه تقول العرب رجل مسبوت اذا كان النوم يغالبه وهو يدافعه كأنه قيل وجعلنا نومكم نوما لطيفا يمكنكم دفعه وما جعلناه غشيا مستوليا عليكم فان ذلك من الامراض الشديدة وهذه الوجوه كلها صحيحة ❊ (وخامسها) قوله تعالى (وجعلنا الليل لباسا) قال القفال اصل اللباس هو الشئ الذى

(يلبسه)

بالعلم لوقوعه فى معرض التساؤل والاختلاف والمعنى ليرتدعوا عماهم عليه فأنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال اذاحل بهم العذاب والنكال وقوله تعالى (ثم كلا سيعلمون) تكرير للردع والوعيد للمبالغة فى التأكيد والتشديد وثم للدلالة على ان الوعيد الثانى ابلغ واشد وقيل الاول للبعث والثانى للجزاء وقرئ ستعلمون بالتاء على نهج الالتفات الى الخطاب الموافق لما بعده من الخطابات تشديدا للردع والوعد لاعلى تقدير قل لهم كما توهم فان فيه من الاخلال بجزالة النظم الكريم مالايخفى وقوله تعالى (ألم نجعل الارض مهادا والجبال اوتادا) الخ استئناف مسوق لتحقيق النبأ المتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقيته اثر مانبه عليها بما ذكر من الردع والوعيد ومن ههنا اتضح ان المتساءل عنه هو البعث لاالقرآن اونبوة النبى عليه الصلاة والسلام كما قيل والهمزة للتقرير والالتفات الى الخطاب على القراءة المشهورة للمبالغة فى الالزام والتبكيت والمهاد البساط والفراش وقرئ مهدا على تشبيهها بمهد الصبى وهو مايمهد له فينوم عليه تسمية للمهود بالمصدر وجعل الجبال اوتادا لها ارساؤها بها كما يرسى البيت بالاوتاد (وخلقناكم) عطف على المضارع المنفى بلم داخل فى

يلبسه الانسان ويتغطى به فيكون ذلك مغطياله فلما كان الليل يغشى الناس بظلمته فيغطيهم جعل لباسا لهم ولهذا السبب سمى الليل لباسا على وجه المجاز والمراد كون الليل ساترا لهم واما وجه النعمة فى ذلك فهو ان ظلمة الليل تستر الانسان عن العيون اذا أراد هربا من عدو أو بياتاله او اخفاء مالايحب الانسان اطلاع غيره عليه قال المتنبي

وكم لظلام الليل عندى من يد * تخبران المانوية تكذب

وايضا فكما ان الانسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل قوته ويندفع عنه اذى الحر والبرد فكذا لباس الليل بسبب مايحصل فيه من النوم يزيد فى جمال الانسان وفى طراوة اعضائه وفى تكامل قواه الحسية والحركية ويندفع عنه أذى التعب الجسمانى وأذى الافكار الموحشة النفسانية فان المريض اذا نام بالليل وجد الخفة العظيمة ※ (وسادسها) قوله تعالى (وجعلنا النهار معاشا) فى المعاش وجهان (احدهما) انه مصدر يقال عاش يعيش عيشا ومعاشا ومعيشة وعيشة وعلى هذا التقدير فلابد فيه من اضمار والمعنى وجعلنا النهار وقت معاش (والثانى) ان يكون معاشا مفعلا وظرفا للتعيش وعلى هذا لاحاجة الى الاضمار ومعنى كون النهار معاشا ان الخلق انما يمكنهم التقلب فى حوائجهم ومكاسبهم فى النهار لافى الليل ※ (وسابعها) قوله تعالى (وبنينا فوقكم سبعا شداد) اى سبع سموات شدادا جمع شديدة يعنى محكمة قوية الخلق لايؤثر فيها مرور الزمان لافطور فيها ولافروج ونظيره وجعلنا السماء سقفا محفوظا (فان قيل) لفظ البناء يستعمل فى أسافل البيت والسقف فى اعلاه فكيف قال وبنينا فوقكم سبعا (قلنا) البناء يكون ابعد عن الآفة والانحلال من السقف فذكر قوله وبنينا اشارة الى انه وان كان سقفا لكنه فى البعد عن الانحلال كالبناء فالغرض من اختيار هذا اللفظ هذه الدقيقة ※ (وثامنها) قوله تعالى (وجعلنا سراجا وهاجا) كلام اهل اللغة مضطرب فى تفسير الوهاج فمنهم من قال الوهج مجمع النور والحرارة فبين الله تعالى ان الشمس بالغة الى اقصى الغايات فى هذين الوصفين وهو المراد بكونها وهاجا وروى الكلبي عن ابن عباس ان الوهاج مبالغة فى النور فقط يقال للجوهر اذا تلألأ توهج وهذا على ان الوهاج يفيد الكمال فى النور ومنه قول الشاعر يصف النور * نوارها متباهج يتوهج * وفى كتاب الخليل الوهج حر النار والشمس وهذا يقتضى ان الوهاج هو البالغ فى الحر واعلم ان اى هذه الوجوه اذا ثبت فالمقصود حاصل ※ (وتاسعها) قوله تعالى (وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) اما المعصرات ففيها قولان (الاول) وهو احدى الروايتين عن ابن عباس وقول مجاهد ومقاتل والكلبي وقتادة انها الرياح التى تثير السحاب ودليله قوله تعالى الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا (فان قيل) على هذا التأويل كان ينبغى ان يقال وانزلنا بالمعصرات قلنا الجواب من وجهين (الاول) ان المطر انما ينزل من السحاب والسحاب انما يثيره الرياح فصح ان يقال هذا المطر انما حصل من تلك الرياح كما يقال هذا من فلان اى من

حكمه فانه فى قوة اماجعلنا الخ او على مايقتضيه الانكار التقريرى فانه فى قوة ان يقال قد جعلنا الخ (ازواجا) اصنافا ذكرا وانثى ليسكن كل من الصنفين الى الآخر وينتظم امر المعاشرة والمعاش ويتسنى التناسل (وجعلنا نومكم سباتا) اى موتا لانه احد التوفيين لما بينهما من المشاركة التامة فى انقطاع احكام الحياة وعليه قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل وقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها وقيل قطعا عن الاحساس والحركة لاراحة القوى الحيوانية وازاحة كلالها والاول هو اللائق بالمقام كما ستعرفه (وجعلنا الليل) الذى فيه يقع النوم غالبا (لباسا) يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ولعل المراد به مايستتر به عند النوم من اللحاف ونحوه فان شبه الليل به اكمل واعتباره فى تحقيق المقصد ادخل فهو جعل الليل محلا للنوم الذى جعل موتا كما جعل النهار محلا لليقظة المعبر عنها بالحياة فى قوله تعالى (وجعلنا النهار معاشا) اى وقت حياة تبعثون فيه من نومكم الذى هو اخو الموت كما فى قوله تعالى وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا وجعل كون الليل لباسا عبارة عن ستره عن العيوب لمن اراد هربا من عدو او بياتاله او نحو ذلك مما لامناسبة له بالمقام وكذا جعل النهار وقت التقلب فى تحصيل المعايش

جهته وبسببه (الثانى) انمن ههنا بمعنى الباء والتقدير وانزلنا بالمعصرات اى بالرياح المثيرة للسحاب ويروى عن عبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير وعكرمة انهم قرؤا وانزلناه بالمعصرات وطعن الازهرى فى هذا القول وقال الاعاصير من الرياح ليست من رياح المطر وقد وصف الله تعالى المعصرات بالماء الثجاج وجوابه ان الاعصار ليست من رياح المطر فلم لايجوز ان يكون المعصرات من رياح المطر (القول الثانى) وهو الرواية الثانية عن ابن عباس واختيار ابى العالية والربيع والضحاك انها السحاب وذكروا فى تسمية السحاب بالمعصرات وجوها (احدها) قال المؤرج المعصرات السحائب بلغة قريش (وثانيها) قال المازنى يجوز ان تكون المعصرات هى السحائب ذوات الاعاصير فان السحائب اذا عصرتها الاعاصير لابد وان ينزل المطر منها (وثالثها) ان المعصرات هى السحائب التى شارفت ان تعصرها الرياح فتمطر كقولك أجز الزرع اذا حان له ان يجز ومنه اعصرت الجارية اذا دنت ان تحيض واما الثجاج فاعلم ان الثج شدة الانصباب يقال مطر ثجاج ودم ثجاج اى شديد الانصباب واعلم ان الثج قد يكون لازما وهو بمعنى الانصباب كما ذكرنا وقد يكون متعديا بمعنى الصب وفى الحديث افضل الحج العج والثج اى رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى وكان ابن عباس مثجا اى يثج الكلام ثجا فى خطبته وقد فسروا الثجاج فى هذه الآية على الوجهين قال الكلبى ومقاتل وقتاده الثجاج ههنا المتدفق المنصب وقال الزجاج معناه الصباب كأنه يثج نفسه اى يصب وبالجملة فالمراد تتابع القطر حتى يكثر الماء فيعظم النفع به ❋ قوله تعالى (لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) كل شئ نبت من الارض فاما ان لايكون له ساق واما ان يكون فان لم يكن له ساق فاما ان يكون له كمام وهو الحب واما ان لايكون له كمام وهو الحشيش وهو المراد ههنا بقوله ونباتا والى هذين القسمين الاشارة بقوله تعالى كلوا وارعوا انعامكم واما الذى له ساق فهو الشجر فاذا اجتمع منها شئ كثير سميت جنة فثبت بالدليل العقلى انحصار ماينبت فى الارض فى هذه الاقسام الثلاثة وانما قدم الله تعالى الحب لانه هو الاصل فى الغذاء وانما ثنى بالنبات لاحتياج سائر الحيوانات اليه وانما أخر الجنات فى الذكر لان الحاجة الى الفواكه ليست ضرورية (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ألفافا فذكر صاحب الكشاف انه لاواحد له كالاوزاع والاخياف والاوزاع الجماعات المتفرقة والاخياف الجماعات المختلطة وكثير من اللغويين اثبتوا له واحدا ثم اختلفوا فيه فقال الاخفش والكسائى واحدها لف بالكسر وزاد الكسائى بالضم وانكر المبرد الضم وقال بل واحدها لفاء وجمعها لف وجمع لف ألفاف وقيل يحتمل ان يكون جمع لفيف كشريف واشراف نقله القفال رحمه الله اذا عرفت هذا فنقول قوله وجنات الفافا اى ملتفة والمعنى ان كل جنة فان مافيها من الشجر تكون مجتمعة متقاربة الاتراهم يقولون امرأة لفاء اذا كانت غليظة الساق مجتمعة اللحم

والحوائج (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) اى سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء لايؤثر فيها مر الدهور وكر العصور والتعبير عن خلقها بالبناء مبنى على تنزيلها منزلة القباب المضروبة على الخلق وتقديم الظرف على المفعول ليس لمراعاة الفواصل فقط بل للتشويق اليه فان ما حقه التقديم اذا اخر تبقى النفس مترقبة له فاذا ورد عليها تمكن عندها فضل تمكن (وجعلنا سراجا وهاجا) هذا الجعل بمعنى الانشاء والابداع كالخلق خلا انه مختص بالانشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما فى الآية الكريمة والتشريعى ايضا كما فى قوله تعالى ماجعل الله من بحيرة الخ وقوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا وايا ما كان ففيه انباء عن ملابسة مفعوله بشئ آخر بأن يكون فيه اوله اومنه اونحو ذلك ملابسة مصححة لأن يتوسط بينهما شئ من الظروف لغوا كان اومستقرا لكن لاعلى ان يكون عمدة فى الكلام بل قيدا فيه كما فى قوله تعالى وجعل بينهما برزخا وقوله تعالى وجعل فيها رواسى وقوله تعالى واجعل لنا من لدنك وليا الآية فان كل واحد من هذه الظروف اما متعلق بنفس الجعل او بمحذوف وقع حالا من مفعوله تقدمت عليه لكونه نكرة وايا ما كان فهو قيد فى الكلام حتى اذا اقتضى الحال وقوعه عمدة فيه يكون الجعل متعديا الى اثنين

يبلغ من تقاربه ان يتلاصق (المسئلة الثالثة) كان الكعبي من القائلين بالطبائع فاحتج بقوله تعالى لنخرج به حبا ونباتا وقال انه يدل على بطلان قول من قال ان الله تعالى لا يفعل شيئا بواسطة شئ آخر * قوله تعالى (ان يوم الفصل كان ميقاتا) اعلم ان التسعة التي عددها الله تعالى نظرا الى حدوثها في ذواتها وصفاتها ونظرا الى امكانها في ذواتها وصفاتها تدل على القادر المختار ونظرا الى ما فيها من الاحكام والاتقان تدل على ان فاعلها عالم ثم ان ذلك الفاعل القديم يجب ان يكون علمه وقدرته واجبين اذ لو كانا جائزين لافتقر الى فاعل آخر ويلزم التسلسل وهو محال واذا كان العلم والقدرة واجبين وجب تعلقهما بكل ما صح ان يكون مقدورا ومعلوما والا لافتقر الى المخصص وهو محال واذا كان كذلك وجب ان يكون قادرا على جميع الممكنات عالما بجميع المعلومات وقد ثبت ان الاجسام متساوية في الجسمية فكل ما صح على واحد منها صح على الآخر فكما يصح على الاجسام السفلية الانشقاق والانفطار والظلمة وجب ان يصح ذلك على كل الاجسام واذا ثبت الامكان وثبت عموم القدرة والعلم ثبت انه تعالى قادر على تخريب الدنيا وقادر على ايجاد عالم آخر وعند ذلك ثبت ان القول بقيام القيامة ممكن عقلا والى ههنا يمكن اثباته بالعقل فاما ما وراء ذلك من وقت حدوثها وكيفية حدوثها فلا سبيل اليه الا بالسمع ثم انه تعالى تكلم في هذه الاشياء بقوله ان يوم الفصل كان ميقاتا ثم انه تعالى ذكر بعض احوال القيامة فأولها قوله ان يوم الفصل كان ميقاتا والمعنى ان هذا اليوم كان في تقدير الله وحكمه حدا تؤقت به الدنيا او حدا للخلائق ينتهون اليه او كان ميقاتا لما وعد الله من الثواب والعقاب او كان ميقاتا لاجتماع كل الخلائق في فصل الحكومات وقطع الخصومات * (وثانيها) قوله تعالى (يوم ينفخ في الصور فتأتون افواجا) اعلم ان يوم ينفخ بدل من يوم الفصل او عطف بيان وهذا النفخ هو النفخة الاخيرة التي عندها يكون الحشر والنفخ في الصور فيه قولان (احدهما) ان الصور جمع الصورة فالنفخ في الصور عبارة عن نفخ الارواح في الاجساد (والثاني) ان الصور عبارة عن قرن ينفخ فيه وتمام الكلام في الصور وما قيل فيه قد تقدم في سورة الزمر وقوله فتأتون افواجا معناه انهم يأتون ذلك المقام فوجا فوجا حتى يتكامل اجتماعهم قال عطاء كل نبي يأتي مع امته ونظيره قوله تعالى يوم ندعو كل اناس بأمامهم وقيل جماعات مختلفة روى صاحب الكشاف عن معاذ انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال عليه السلام يا معاذ سألت عن امر عظيم من الامور ثم ارسل عينيه وقال يحشر عشرة اصناف من امتي بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون ارجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها وبعضهم عمي وبعضهم صم بكم وبعضهم يمضغون ألسنتهم وهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من افواههم يتقذرهم اهل الجمع وبعضهم مقطعة ايديهم وارجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من نار وبعضهم اشد نتنا من الجيف وبعضهم ملبسون جبابا سابغة

هو ثانيهما كما في قوله تعالى يجعلون اصابعهم في آذانهم وربما يشتبه الامر فيظن انه عمدة فيه وهو في الحقيقة قيد بأحد الوجهين كما سلف في قوله تعالى اني جاعل في الارض خليفة والوهاج الوقاد المتلألئ من وهجت النار اذا اضاءت او البالغ في الحرارة من الوهج والمراد به الشمس والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير عن خلق السموات بالبناء (وانزلنا من المعصرات) هي السحائب اذا اعصرت اي شارفت ان تعصرها الرياح فتمطر كما في احصد الزرع اذا حان له ان يحصد ومنه اعصرت الجارية اذا دنت ان تحيض او الرياح التي حان لها ان تعصر السحاب وقرئ بالمعصرات ووجه ذلك ان الانزال حيث كان من المعصرات سواء اريد بها السحائب او الرياح فقد كان بها كما يقال اعطاه من يده وبيده وقد فسرت المعصرات بالرياح ذوات الاعاصير ووجهه ان الرياح هي التي تنشئ السحاب وتدر اخلافه فصلحت ان تجعل مبتدأ للانزال (ماء ثجاجا) اي منصبا بكثرة يقال ثج الماء اي سال بكثرة وثجه اي أساله ومنه قوله عليه الصلاة والسلام افضل الحج العج والثج اي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدي وقرئ ثجاحا بالحاء بعد الجيم قالوا مثاجج الماء مصابه (لنخرج به) بذلك الماء (حبا) يقتات كالحنطة والشعير ونحوهما (ونباتا) يعتلف كالتبن

من قطران لازقة بجلودهم فاماالذين على صورة القردة فالقتات من الناس واماالذين على صورة الخنازير فاهل السحت واماالمنكسون على وجوههم فأكلة الربا واماالعمى فالذين يجورون فى الحكم واماالصم والبكم فالمعجبون باعمالهم واماالذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين يخالف قولهم اعمالهم واماالذين قطعت ايديهم وارجلهم فهم الذين يؤذون الجيران واماالمصلبون على جذوع من النار فالسعاة بالناس الى السلطان واماالذين هم أشد نتنا من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله تعالى من اموالهم واماالذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء * وثالثها قوله تعالى (وفتحت السماء فكانت ابوابا) قرأعاصم وحمزة والكسائى فتحت خفيفة والباقون بالتثقيل والمعنى كثرت ابوابها المفتحة لنزول الملائكة قال القاضى وهذا الفتح هو معنى قوله اذا السماء انشقت واذا السماء انفطرت اذ الفتح والتشقق والتفطر تتقارب واقول هذا ليس بقوى لان المفهوم من فتح الباب غير المفهوم من التشقق والتفطر فربما كانت السماء ابوابا ثم تفتح تلك الابواب مع انه لايحصل فى جرم السماء تشقق ولاتفطر بل الدلائل السمعية دلت على ان عند حصول فتح هذه الابواب يحصل التشقق والتفطر والفناء بالكلية (فان قيل) قوله وفتحت السماء فكانت ابوابا يفيد ان السماء بكليتها تصير ابوابا فكيف يعقل ذلك (قلنا) فيه وجوه (احدها) ان تلك الابواب لما كثرت جدا صارت كأنها ليست الا ابوابا مفتحة كقوله وفجرنا الارض عيونا اى كأن كلها صارت عيونا تتفجر (وثانيها) قال الواحدى هذا من باب تقدير حذف المضاف والتقدير فكانت ذات ابواب (وثالثها) ان الضمير فى قوله فكانت ابوابا عائد الى مضمر والتقدير فكانت تلك المواضع المفتوحة ابوابا لنزول الملائكة كما قال تعالى وجاء ربك والملك صفا صفا * (ورابعها) قوله تعالى (وسيرت الجبال فكانت سرابا) اعلم ان الله تعالى ذكر فى مواضع من كتابه احوال هذه الجبال على وجوه مختلفة ويمكن الجمع بينها على الوجه الذى نقوله وهو ان اول احوالها الاندكاك وهو قوله تعالى وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة (والحالة الثانية) لها ان تصير كالعهن المنفوش وذكر الله تعالى ذلك فى قوله يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش وقوله يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن (والحالة الثالثة) ان تصير كالهباء وذلك ان تتقطع وتتبدد بعد ان كانت كالعهن وهو قوله اذا رجت الارض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا (والحالة الرابعة) ان تنسف لانها مع الاحوال المتقدمة قارة فى موضعها والارض تحتها غير بارزة فتنسف عنها بارسال الرياح عليها وهو المراد من قوله فقل ينسفها ربى نسفا (والحالة الخامسة) ان الرياح ترفعها عن وجه الارض فتطيرها شعاعا فى الهواء كأنها غبار فمن نظر اليها من بعد حسبها لتكاثفها اجساما جامدة وهى بالحقيقة مارة الا ان مرورها

(بسبب)

والحشيش وتقديم الحب مع تأخره عن النبات فى الاخراج لاصالته وشرفه لان غالبه غذاء الانسان (وجنات) الجنة فى الاصل هى المرة من مصدر جنه اذا ستره تطلق على النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف اغصانه قال زهير بن ابى سلمى * كأن عينى فى غربى مقتلة * من النواضح تسقى جنة سحقا * وعلى الارض ذات الشجر قال الفراء الجنة مافيه النخيل والفردوس مافيه الكرم والاول هو المراد وقوله تعالى (الفافا) اى ملتفة تداخل بعضها فى بعض قالوا لا واحد له كالاوزاع والاخياف وقيل الواحد لف ككن واكنان او لفيف كشريف واشراف وقيل هو جمع لف جمع لفاء كخضر وخضراء وقيل جمع ملتفة بحذف الزوائد واعلم ان فيما ذكر من افعاله عزوجل دلالة على صحة البعث وحقيته من وجوه ثلاثة الاول باعتبار قدرته تعالى فان من قدر على انشاء هذه الافعال البديعة من غير مثال يحتذيه ولاقانون ينتحيه كان على الاعادة اقدر واقوى الثانى باعتبار علمه وحكمته فان من ابدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات جليلة ومنافع جميلة عائدة الى الخلق يستحيل ان يفنيها بالكلية ولايجعل لها عاقبة باقية الثالث باعتبار نفس الفعل فان اليقظة بعد النوم انموذج للبعث بعد الموت يشاهدونها كل يوم وكذا اخراج الحب

بسبب مرور الرياح بها مندكة متفتتة وهى قوله وهى تمر مر السحاب ثم بين ان تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره فقال ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة (والحالة السادسة) ان تصير سرابا بمعنى لا شئ فمن نظر الى مواضعها لم يجد فيها شيئا كما ان من يرى السراب من بعد اذا جاء الموضع الذى كان يراه فيه لم يجده شيئا والله اعلم واعلم ان الاحوال المذكورة الى ههنا هى احوال عامة القيامة ومن ههنا يصف اهوال جهنم واحوالها فاولها ※ قوله تعالى (ان جهنم كانت مرصادا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن يعمر ان جهنم بفتح الهمزة على تعليل قيام الساعة بأن جهنم كانت مرصادا للطاغين كأنه قيل كان ذلك لاقامة الجزاء (المسئلة الثانية) كانت مرصادا اى فى علم الله تعالى وقيل صارت وهذان القولان نقلهما القفال رحمه الله تعالى (وفيه وجه ثالث) ذكره القاضى فانا اذا فسرنا المرصاد بالمرتقب أفاد ذلك ان جهنم كانت كالمنتظرة لقدومهم من قديم الزمان وكالمستدعية والطالبة لهم (المسئلة الثالثة) فى المرصاد قولان (احدهما) ان المرصاد اسم للمكان الذى يرصد فيه كالمضمار اسم للمكان الذى يضمر فيه الخيل والمنهاج اسم للمكان الذى ينهج فيه وعلى هذا الوجه فيه احتمالان (احدهما) ان خزنة جهنم يرصدون الكفار (والثانى) ان مجاز المؤمنين وممرهم كان على جهنم لقوله وان منكم الا واردها فخزنة الجنة يستقبلون المؤمنين عند جهنم ويرصدونهم عندها (القول الثانى) ان المرصاد مفعال من الرصد وهو الترقب بمعنى ان ذلك يكثر منه والمفعال من ابنية المبالغة كالمعطار والمعمار والمطعان قيل انها ترصد اعداء الله وتشهق عليهم كما قال تعالى تكاد تميز من الغيظ وقيل ترصد كل كافر ومنافق والقائلون بالقول الاول استدلوا على صحة قولهم بقوله تعالى ان ربك لبالمرصاد ولو كان المرصاد نعتا لوجب ان يقال ان ربك لمرصاد (المسئلة الرابعة) دلت الآية على ان جهنم كانت مخلوقة لقوله تعالى ان جهنم كانت مرصادا اى معدة واذا كان كذلك كانت الجنة ايضا كذلك لانه لا قائل بالفرق (وثانيها ※ قوله (للطاغين مآبا) وفيه وجهان ان قلنا انه مرصاد للكفار فقط كان قوله للطاغين من تمام ما قبله والتقدير ان جهنم كانت مرصادا للطاغين ثم قوله مآبا بدل من قوله مرصادا وان قلنا بأنها كانت مرصادا مطلقا للكفار وللمؤمنين كان قوله ان جهنم كانت مرصادا كلاما تاما وقوله للطاغين مآبا كلام مبتدأ كأنه قيل ان جهنم مرصادا للكل ومآب للطاغين خاصة ومن ذهب الى القول الاول لم يقف على قوله مرصادا امامن ذهب الى القول الثانى وقف عليه ثم يقول المراد بالطاغين من تكبر على ربه وطغى فى مخالفته ومعارضته وقوله مآبا اى مصيرا ومقرا ※ (وثالثها) قوله تعالى (لابثين فيها احقابا) اعلم انه تعالى لما بين ان جهنم مآب للطاغين بين كمية استقرارهم هناك فقال لابثين فيها احقابا وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الجمهور لابثين وقرأ حمزة لبثين وفيه وجهان قال الفراء هما بمعنى واحد يقال لابث ولبث مثل طامع وطمع وفاره وفره وهو

والنبات من الارض الميتة يعاينونه كل حين كأنه قيل ألم نفعل هذه الافعال الآفاقية والانفسية الدالة بفنون الدلالات على حقية البعث الموجبة للايمان به فما لكم تخوضون فيه انكارا وتتساءلون عنه استهزاء وقوله تعالى (ان يوم الفصل كان ميقاتا) شروع فى بيان سر تأخير ما يتساءلون عنه ويستعجلون به قائلين متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ونوع تفصيل لكيفية وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب حسبما جرى به الوعيد اجمالا اى ان يوم فصل الله عز وجل بين الخلائق كان فى علمه وتقديره ميقاتا وميعادا لبعث الاولين والآخرين وما يترتب عليه من الجزاء ثوابا وعقابا لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتأخر وقيل حدا توقت به الدنيا وتنتهى عنده اوحدا للخلائق ينتهون اليه ولا ريب فى انهما بمعزل من التقريب الذى اشير اليه على ان الدنيا تنتهى عند النفخة الاولى وقوله تعالى (يوم ينفخ فى الصور) اى نفخة ثانية بدل من يوم الفصل او عطف بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله ولا ضير فى تأخر الفصل عن النفخ فانه زمان ممتد يقع فى مبدئه النفخة وفى بقيته الفصل ومباديه وآثاره والصور هو القرن الذى ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما فرغ الله تعالى

كثير وقال صاحب الكشاف واللبث اقوى لان اللابث من وجد منه اللبث ولا يقال لبث الا لمن شأنه اللبث وهو ان يستقر فى المكان ولا يكاد ينفك عنه (المسئلة الثانية) قال الفراء اصل الحقب من الترادف والتتابع يقال احقب اذا اردف ومنه الحقيبة ومنه كل من حمل وزرا فقد احتقب فيجوز على هذا المعنى لابثين فيها احقابا اى دهورا متتابعة يتبع بعضها بعضا ويدل عليه قوله تعالى لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين او امضى حقبا يحتمل سنين متتابعة الى ان ابلغ او آنس واعلم ان الاحقاب واحدها حقب وهو ثمانون سنة عند اهل اللغة والحقب السنون واحدتها حقبة وهى زمان من الدهر لا وقت له ثم نقل عن المفسرين فيه وجوه (احدها) قال عطاء والكلبى ومقاتل عن ابن عباس فى قوله احقابا الحقب الواحد بضع وثمانون سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما واليوم الف سنة من ايام الدنيا ونحو هذا روى ابن عمر مرفوعا (وثانيها) سأل هلال الهجرى عليا عليه السلام فقال الحقب مائة سنة والسنة اثناعشر شهرا والشهر ثلاثون يوما واليوم الف سنة (وثالثها) قال الحسن الاحقاب لا يدرى احد ما هى ولكن الحقب الواحد سبعون الف سنة اليوم منها كألف سنة مما تعدون (فان قيل) قوله احقابا وان طالت الا انها متناهية وعذاب اهل النار غير متناه بل لو قال لابثين فيها الاحقاب لم يكن هذا السؤال واردا ونظير هذا السؤال قوله فى اهل القبلة الا ما شاء ربك قلنا الجواب من وجوه (الاول) ان لفظ الاحقاب لا يدل على مضى حقب له نهاية وانما الحقب الواحد متناه والمعنى انهم يلبثون فيها احقابا كلما مضى حقب تبعه حقب آخر وهكذا الى الابد (والثانى) قال الزجاج المعنى انهم يلبثون فيها احقابا لا يذوقون فى الاحقاب بردا ولا شرابا فهذه الاحقاب توقيت لنوع من العذاب وهو ان لا يذوقوا بردا ولا شرابا الا حميما وغساقا ثم يبدلون بعد الاحقاب عن الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب (وثالثها) هب ان قوله احقابا يفيد التناهى لكن دلالة هذا على الخروج دلالة المفهوم والمنطوق دل على انهم لا يخرجون قال تعالى يريدون ان يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ولا شك ان المنطوق راجح وذكر صاحب الكشاف فى الآية وجها آخر وهو ان يكون احقابا من حقب عامنا اذا قل مطره وخيره وحقب فلان اذا اخطأه الرزق فهو حقب وجمعه احقاب فينتصب حالا عنهم بمعنى لابثين فيها حقبين مجدبين وقوله لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا تفسيره ※ (ورابعها) قوله تعالى (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا الا حميما وغساقا جزاء وفاقا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان اخترنا قول الزجاج كان قوله لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا متصلا بما قبله والضمير فى قوله فيها عائدا الى الاحقاب وان لم نقل به كان هذا كلاما مستأنفا مبتدأ والضمير فى قوله فيها عائدا الى جهنم (المسئلة الثانية) فى قوله بردا وجهان (الاول) انه البرد المعروف والمراد انهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة او ظل يمنع من نار ولا يجدون شرابا يسكن

(عطشهم)

من خلق السموات والارض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص بصره الى العرش متى يؤمر بالنفخ فيه فيؤمر به فينفخ فيه نفخة لا يبقى عندها فى الحياة غير من شاء الله وذلك قوله تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم يؤمر بأخرى فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت الا بعث وقام وذلك قوله تعالى ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون والفاء فى قوله تعالى (فتأتون) فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وايذانا بغاية سرعة الاتيان كما فى قوله تعالى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق اى فتبعثون من قبوركم فتأتون الى الموقف عقيب ذلك من غير لبث اصلا (افواجا) اى امما كل امة مع امامها كما فى قوله تعالى يوم ندعو كل اناس بامامهم اوزمرا وجماعات مختلفة الاحوال متباينة الاوضاع حسب اختلاف اعمالهم وتباينها عن معاذ رضى الله عنه انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام يا معاذ سألت عن امر عظيم من الامور ثم ارسل عينيه وقال تحشر عشرة اصناف من امتى بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون ارجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها وبعضهم عمى وبعضهم صم بكم وبعضهم يمضغون السنتهم فهى مدلاة على

عطشهم ويزيل الحرقة عن بواطنهم والحاصل انهم لايجدون هواء باردا ولا ماء باردا (والثانى) البرد ههنا النوم وهو قول الاخفش والكسائى والفراء وقطرب والعتبي قال الفراء وانما سمي النوم بردا لانه يبرد صاحبه فان العطشان ينام فيبرد بالنوم وانشد ابو عبيدة والمبرد فى بيان ان المراد من البرد النوم قول الشاعر

بردت مراشفها على فصدنى * عنها وعن رشفاتها البرد

يعني النوم قال المبرد ومن امثال العرب منع البرد البرد اى اصابني من البرد ما منعني من النوم واعلم ان القول الاول اولى لانه اذا امكن حمل اللفظ على الحقيقة المشهورة فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب والقائلون بالقول الثانى تمسكوا فى اثباته بوجهين (الاول) انه لايقال ذقت البرد ويقال ذقت النوم (الثانى) انهم يذوقون برد الزمهرير فلا يصح ان يقال انهم ماذاقوا بردا وهب ان ذلك البرد برد تأذوا به ولكن كيف كان فقد ذاقوا البرد (والجواب عن الاول) كما ان ذوق البرد مجاز فكذا ذوق النوم ايضا مجاز ولان المراد من قوله لايذوقون فيها بردا اى لايستنشقون فيها نفسا باردا ولا هواء باردا والهواء المستنشق ممره الفم والانف فجاز اطلاق لفظ الذوق عليه (والجواب عن الثانى) انه لم يقل لايذوقون فيها البرد بل قال لا يذوقون فيها بردا اى لايذوقون فيها بردا واحدا وهو البرد الذى ينتفعون به ويستريحون اليه (المسئلة الثالثة) ذكروا فى الحميم انه الصفر المذاب وهو باطل بل الحميم الماء الحار المغلى جدا (المسئلة الرابعة) ذكروا فى الغساق وجوها (احدها) قال ابو معاذ كنت اسمع مشايخنا يقولون الغساق فارسية معربة يقولون للشئ الذى يتقذرونه خاشاك (وثانيها) ان الغساق هو الشئ البارد الذى لايطاق وهو الذى يسمى بالزمهرير (وثالثها) الغساق ما يسيل من اعين اهل النار وجلودهم من الصديد والقيح والعرق وسائر الرطوبات المستقذرة وفى كتاب الخليل غسقت عينه تغسق غسقا وغسقانا (ورابعها) الغساق هو المنتن ودليله ما روى انه عليه السلام قال لو أن دلوا من الغساق يهراق على الدنيا لانتن اهل الدنيا (وخامسها) ان الغاسق هو المظلم قال تعالى ومن شر غاسق اذا وقب فيكون الغساق شرابا اسود مكروها يستوحش كما يستوحش الشئ المظلم اذا عرفت هذا فنقول ان فسرنا الغساق بالبارد كان التقدير لايذوقون فيها بردا الا غساقا ولا شرابا الا حميما الا انهما جمعا لاجل انتظام الآى ومثله من الشعر قول امرئ القيس

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا * لدى وكرها العناب والحشف البالى

والمعنى كأن قلوب الطير رطبا العناب ويابسا الحشف البالى اما ان فسرنا الغساق بالصديد او بالمنتن احتمل ان يكون الاستثناء بالحميم والغساق راجعا الى البرد والشراب معا وان يكون مختصا بالشراب فقط (اما الاحتمال الاول) فهو ان يكون التقدير لايذوقون فيها برد الماء ولا شرابا غير الماء الحميم والصديد المنتن (واما الاحتمال الثانى) فهو ان يكون

صدورهم يسيل القيح من افواههم يتقذرهم اهل الجمع وبعضهم مقطعة ايديهم وارجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من نار وبعضهم اشد نتنا من الجيف وبعضهم يلبسون جبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس واما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت واما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا واما العمى فالذين يجورون فى الحكم واما الصم البكم فالمعجبون باعمالهم واما الذين يمضغون السنتهم فالعلماء الذين خالفت اقوالهم اعمالهم واما الذين قطعت ايديهم وارجلهم فهم الذين يؤذون جيرانهم واما المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس الى السلطان واما الذين هم اشد نتنا من الجيف فالذين يتبعون الشهوة واللذات ومنعوا حق الله تعالى فى اموالهم واما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفجر والخيلاء (وفتحت السماء) عطف على ينفخ وصيغة الماضى للدلالة على التحقق وقرئ فتحت بالتشديد وهو الانسب بقوله تعالى (فكانت ابوابا) اى كثرت ابوابها المفتحة لنزول الملائكة نزولا غير معتاد حتى صارت كأنها ليست الا ابوابا مفتحة كقوله تعالى وفجرنا الارض عيونا كأن كلها عيون متفجرة وهو المراد بقوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام وهو الغمام الذى ذكر فى قوله تعالى هل

التقدير لايذوقون فيها شرابا الا الحميم البالغ فى السخونة او الصديد المنتن والله اعلم بمراده (فان قيل) الصديد لايشرب فكيف استثنى من الشراب (قلنا) انه مائع فأمكن ان يشرب فى الجملة فان ثبت انه غير ممكن كان ذلك استثناء من أجلنس ووجهه معلوم (المسئلة الخامسة) قرأ حمزة والكسائى وعاصم من رواية حفص عنه غساقا بالتشديد فكأنه فعال بمعنى سيال وقرأ الباقون بالتخفيف مثل شراب والاول نعت والثانى اسم *واعلم انه تعالى لما شرح انواع عقوبة الكفار بين فيما بعده انه جزاء وفاقا وفى المعنى وجهان (الاول) انه تعالى انزل بهم عقوبة شديدة بسبب انهم أتوا بمعصية شديدة فيكون العقاب وفاقا للذنب ونظيره قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (والثانى) انه وفاق من حيث لم يزد على قدر الاستحقاق ولم ينقص عنه وذكر النحويون فيه وجوها (احدها) ان يكون الوفاق والموافق واحدا فى اللغة والتقدير جزاء موافقا (وثانيها) ان يكون نصبا على المصدر والتقدير جزاء وافق اعمالهم وفاقا (وثالثها) ان يكون وصفا بالمصدر كما يقال فلان فضل وكرم لكونه كاملا فى ذلك المعنى كذلك ههنا لما كان ذلك الجزاء كاملا فى كونه على وفق الاستحقاق وصف الجزاء بكونه وفاقا (ورابعها) ان يكون بحذف المضاف والتقدير جزاء ذا وفاق وقرأ ابو حيوة وفاقا فعال من الوفق (فان قيل) كيف يكون هذا العذاب البالغ فى الشدة الغير المتناهى بحسب المدة وفاقا للاتيان بالكفر لحظة واحدة وايضا فعلى قول اهل السنة اذا كان الكفر واقعا بخلق الله وايجاده فكيف يكون هذا وفاقا له واما على مذهب المعتزلة فكان علم الله بعدم ايمانهم حاصلا ووجود ايمانهم مناف بالذات لذلك العلم فمع قيام احد المتنافيين كان التكليف بادخال المنافى الثانى فى الوجود ممتنعا لذاته وعينه ويكون تكليفا بالجمع بين المتنافيين فكيف يكون مثل هذا العذاب الشديد الدائم وفاقا لمثل هذا الجرم (قلنا) يفعل الله مايشاء ويحكم مايريد واعلم انه تعالى لما بين على الاجمال ان ذلك الجزاء كان على وفق جرمهم شرح انواع جرائمهم وهى بعد ذلك نوعان *(اولها) قوله تعالى (انهم كانوا لايرجون حسابا) وفيه سؤالان (الاول) وهو ان الحساب شئ شاق على الانسان والشئ الشاق لايقال فيه انه يرجى بل يجب ان يقال انهم كانوا لايخشون حسابا (والجواب) من وجوه (احدها) قال مقاتل وكثير من المفسرين قوله لا يرجون معناه لايخافون ونظيره قولهم فى تفسير قوله تعالى مالكم لاترجون لله وقارا (وثانيها) ان المؤمن لابد وان يرجو رحمة الله لانه قاطع بأن ثواب ايمانه زائد على عقاب جميع المعاصى سوى الكفر فقوله انهم كانوا لا يرجون حسابا اشارة الى انهم ما كانوا مؤمنين (وثالثها) ان الرجاء ههنا بمعنى التوقع لان الراجى للشئ متوقع له الا ان اشرف اقسام التوقع هو الرجاء فسمى الجنس بأسم اشرف انواعه (ورابعها) ان فى هذه الآية تنبيها على ان الحساب مع الله جانب الرجاء فيه اغلب من جانب الخوف وذلك لان للعبد حقا على الله تعالى بحكم الوعد فى جانب الثواب ولله تعالى حق على العبد فى جانب

ينظرون الا ان يأتيهم الله اى أمره وبأسه فى ظلل من الغمام والملائكة وقيل الابواب الطرق والمسالك اى تكشف فينفتح مكانها وتصير طرقا لايسدها شئ (وسيرت الجبال) اى فى الجو على هيآتها بعد قلعها من مقارها كما يعرب عنه قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب اى تراها رأى العين ساكنة فى اماكنها والحال انها تمر مر السحاب الذى يسيره الرياح سيرا حثيثا وذلك ان الاجرام العظام اذا تحركت نحوا من الانحاء لاتكاد تتبين حركتها وان كانت فى غاية السرعة لاسيما من بعيد وعليه قول من قال *بارعن مثل الطود تحسب انهم * وقوف لحاج والركاب تهملج *وقد ادمج فى هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب فى تخلخل الاجزاء وانتفاشها كما ينطق به قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش يبدل الله تعالى الارض ويغير هيآتها ويسير الجبال على تلك الهيئة الهائلة عند حشر الخلائق بعد النفخة الثانية ليشاهدوها ثم يفرقها فى الهواء وذلك قوله تعالى (فكانت سرابا) اى فصارت بعد تسييرها مثل السراب كقوله تعالى وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا اى غبارا منتشرا وهى وان اندكت وانصدعت عند النفخة الاولى لكن تسييرها وتسوية الارض انما يكونان بعد النفخة الثانية كما

العقاب والكريم قد يسقط حق نفسه ولا يسقط ما كان حقا لغيره عليه فلاجرم كان جانب الرجاء اقوى فى الحساب فلهذا السبب ذكر الرجاء ولم يذكر الخوف (السؤال الثانى) ان الكفار كانوا قد أتوا بانواع من القبائح والكبائر فما السبب فى ان خص الله تعالى هذا النوع من الكفر بالذكر فى اول الامر (الجواب) لان رغبة الانسان فى فعل الخيرات وفى ترك المحظورات انما تكون بسبب ان ينتفع به فى الآخرة فمن انكر الآخرة لم يقدم على شئ من المستحسنات ولم يحجم عن شئ من المنكرات فقوله انهم كانوا لا يرجون حسابا تنبيه على انهم فعلوا كل شر وتركوا كل خير (والنوع الثانى) من قبائح افعالهم قوله وكذبوا بآياتنا كذابا اعلم ان النفس الناطقة الانسانية قوتين نظرية وعملية وكمال الانسان فى ان يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به ولذلك قال ابراهيم رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين فهب لى حكما اشارة الى كمال القوة النظرية والحقنى بالصالحين اشارة الى كمال القوة العملية فههنا بين الله تعالى رداءة حالهم فى الامرين (امافى القوة العملية) فنبه على فسادها بقوله انهم كانوا لا يرجون حسابا اى كانوا مقدمين على جميع القبائح والمنكرات وغير راغبين فى شئ من الطاعات والخيرات (واما فى القوة النظرية) فنبه على فسادها بقوله وكذبوا بآياتنا كذابا اى كانوا منكرين بقلوبهم للحق ومصرين على الباطل واذا عرفت ما ذكرناه من التفسير ظهر انه تعالى بين انهم كانوا قد بلغوا فى الرداءة والفساد الى حيث يستحيل عقلا وجود ماهو ازيد منه فلما كانت افعالهم كذلك كان اللائق بها هو العقوبة العظيمة فثبت بهذا صحة ماقدمه فى قوله جزاء وفاقا فما اعظم لطائف القرآن مع ان الادوار العظيمة قد استمرت ولم يتنبه لها احد فالحمد لله حمدا يليق بعلو شأنه وبرهانه على ماخص هذا الضعيف بمعرفة هذه الاسرار* واعلم ان قوله تعالى وكذبوا بآياتنا كذابا يدل على انهم كذبوا بجميع دلائل الله تعالى فى التوحيد والنبوة والمعاد والشرائع والقرآن وذلك يدل على كمال حال القوة النظرية فى الرداءة والفساد والبعد عن سواء السبيل وقوله كذابا اى تكذيبا وفعال من مصادر التفعيل وانشد الزجاج لقد طال ماريثنى عن صحابتى * وعن حوج قضاؤها من شفائيا

من قضيت قضاء قال الفراء وهى لغة فصيحة يمانية ونظيره خرقت القميص خرقا وقال لى اعرابى منهم على المروة يستفتينى الحلو أحب اليك ام العصار وقال صاحب الكشاف كنت أفسر آية فقال بعضهم لقد فسرتها فسارا ماسمع به وقرئ بالتخفيف وفيه وجوه (احدها) انه مصدر كذب بدليل قوله

فصدقتها وكذبتها * والمرء ينفعه كذابه

وهو مثل قوله تعالى أنبتكم من الارض نباتا يعنى وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا (وثانيها) ان ينصبه بكذبوا لانه يتضمن معنى كذبوا لان كل مكذب بالحق كاذب (وثالثها) ان يجعل الكذاب بمعنى المكاذبة فمعناه وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة اوكذبوا بها

نطق به قوله تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعى وقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار فان اتباع الداعى الذى هو اسرافيل عليه السلام وبروز الخلق لله تعالى لايكون الا بعد النفخة الثانية (ان جهنم كانت مرصادا) شروع فى تفصيل احكام الفصل الذى اضيف اليه اليوم اثر بيان هوله ووجه تقديم بيان حال الكفار غنى عن البيان والمرصاد اسم للمكان الذى يرصد فيه كالمضمار الذى هو اسم للمكان الذى يضمر فيه الخيل والمنهاج اسم للمكان الذى ينهج فيه اى انها كانت فى حكم الله تعالى وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها (للطاغين) متعلق بمضمر هو اما نعت لمرصادا اى كائنا للطاغين وقوله تعالى (مآبا) بدل منه اى مرجعا يرجعون اليه لا محالة واما حال من مآبا قدمت عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت صفة له وقد جوز ان يتعلق بنفس مآبا على انها مرصاد للفريقين مآب للكافرين خاصة ولا يخفى بعده فان المتبادر من كونها مرصادا لطائفة كونهم معذبين بها وقد قيل انها مرصاد لاهل الجنة يرصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها لان مجازهم عليها وهى مآب

مكاذبين لانهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة وقرئ ايضا كذابا وهو جمع كاذب اى كذبوا بآياتنا كاذبين وقديكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ في الكذب يقال رجل كذاب كقولك حسان وبخال فيجعل صفة لمصدر كذبوا اى تكذيبا كذابا مفرطا كذبه ❊ واعلم انه تعالى لمابين ان فساد حالهم فى القوة العملية وفى القوة النظرية بلغ الى اقصى الغايات واعظم النهايات بين ان تفاصيل تلك الاحوال فى كميتها وكيفيتها معلومة له وقدر مايستحق عليه من العقاب معلوم له ❊ فقال تعالى (وكل شئ احصيناه كتابا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج كل منصوب بفعل مضمر يفسره احصيناه والمعنى واحصينا كل شئ وقرأ ابو السمال وكل بالرفع على الابتداء (المسئلة الثانية) قوله وكل شئ احصيناه اى علمنا كل شئ كما هو علما لايزول ولايتبدل ونظيره قوله تعالى احصاه الله ونسوه واعلم انهذه الآية تدل على كونه تعالى عالما بالجزئيات واعلم انمثل هذه الآية لاتقبل التأويل وذلك لانه تعالى ذكر هذا تقريرا لما ادعاه من قوله جزاء وفاقا كأنه تعالى يقول أنا عالم بجميع مافعلوه وعالم بجهات تلك الافعال واحوالها واعتباراتها التى لاجلها يحصل استحقاق الثواب والعقاب فلاجرم لااوصل اليهم من العذاب الاقدر مايكون وفاقا لاعمالهم ومعلوم انهذا القدر انما يتم لو ثبت كونه تعالى عالما بالجزئيات واذا ثبت هذا ظهر ان كل من انكره كان كافرا قطعا (المسئلة الثالثة) قوله احصيناه كتابا فيه وجهان (احدها) تقديره احصيناه احصاء وانما عدل عن تلك اللفظة الى هذه اللفظة لان الكتابة هى النهاية فى قوة العلم ولهذا قال عليه السلام قيدوا العلم بالكتابة فكأنه تعالى قال وكل شئ احصيناه احصاء مساويا فى القوة والثبات والتأكد للمكتوب فالمراد من قوله كتابا تأكيد ذلك الاحصاء والعلم واعلم انهذا التأكيد انما ورد على حسب مايليق بأفهام اهل الظاهر فان المكتوب يقبل الزوال وعلم الله بالاشياء لايقبل الزوال لانه واجب لذاته (القول الثانى) انيكون قوله كتابا حالا فى معنى مكتوبا والمعنى وكل شئ احصيناه حال كونه مكتوبا فى اللوح المحفوظ كقوله وكل شئ احصيناه فى امام مبين او فى صحف الحفظة ❊ ثم قال تعالى (فذوقوا فلن نزيدكم الاعذابا) واعلم انه تعالى لماشرح احوال العقاب اولا ثم ادعى كونه جزاء وفاقا ثم بين تفاصيل أفعالهم القبيحة وظهر صحة ماادعاه اولا من انذلك العقاب كان جزاء وفاقا لاجرم أعاد ذكر العقاب وقال فذوقوا والفاء للجزاء فنبه على ان الامر بالذوق معلل بماتقدم شرحه من قبائح افعالهم فهذا الفاء أفادعين فائدة قوله جزاء وفاقا (المسئلة الرابعة) هذه الآية دالة على المبالغة فى التعذيب من وجوه (احدها) قوله فلن نزيدكم وكلمة لن للتأكيد فى النفى (وثانيها) انه فى قوله كانوا لايرجون حسابا ذكرهم بالمغايبة وفى قوله فذوقوا ذكرهم على سبيل المشافهة وهذا يدل على كمال الغضب (وثالثها) انه تعالى عدد وجوه العقاب ثم حكم بأنه جزاء موافق لاعمالهم ثم عدد فضائحهم ثم قال فذوقوا فكأنه تعالى افتى واقام الدلائل

للطاغين وقيل المرصاد صيغة مبالغة من الرصد والمعنى انها مجدة فى ترصد الكفار لئلايشذ منهم احد وقرئ ان بالفتح على تعليل قيام الساعة بانها مرصاد للطاغين (لابثين فيها) حال مقدرة من المستكن فى للطاغين وقرئ لبثين وقوله تعالى (احقابا) ظرف للبثهم اى دهورا متتابعة كلما مضى حقب تبعه حقب آخر الى غير نهاية فان الحقب لايكاد يستعمل الاحيث يراد تتابع الازمنة وتواليها فليس فيه مايدل على تناهى تلك الاحقاب ولواريد بالحقب ثمانون سنة اوسبعون الف سنة وقوله تعالى (لايذوقون فيها بردا ولاشرابا الاحميما وغساقا) جملة مبتدأة اخبر عنهم بانهم لايذوقون فيها شيأما من برد وروح ينفس عنهم حر النار ولامن شراب يسكن من عطشهم ولكن يذوقون فيها حميما وغساقا وقيل البرد النوم وقرئ غساقا بالتخفيف وكلاهما مايسيل من صديدهم (جزاء) اى جوزوا بذلك جزاء (وفاقا) ذاوفاق لاعمالهم او نفس الوفاق مبالغة او وافقها وفاقا وقرئ وفاقا على انه فعال من وفقه كذا اى لاقه (انهم كانوا لايرجون حسابا) تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور اى كانوا لايخافون ان يحاسبوا بأعمالهم (وكذبوا بآياتنا) الناطقة بذلك (كذابا) اى تكذيبا مفرطا ولذلك كانوا مصرين على الكفر وفنون المعاصى وفعال من باب فعل شائع فيمابين الفصحاء

ثم أعاد تلك الفتوى بعينها وذلك يدل على المبالغة فى التعذيب قال عليه الصلاة والسلام هذه الآية اشد ما فى القرآن على اهل النار كلما استغاثوا من نوع من العذاب اغيثوا بأشد منه بقى فى الآية سؤالان (السؤال الاول) أليس انه تعالى قال فى صفة الكفار ولايكلمهم ولاينظر اليهم فههنا لما قال لهم فذوقوا فقد كلمهم (الجواب) قال اكثر المفسرين تقدير الآية فيقال لهم فذوقوا ولقائل ان يقول على هذا الوجه لايليق بذلك القائل ان يقول فلن نزيدكم الا عذابا بل هذا الكلام لايليق الا بالله والاقرب فى الجواب ان يقال قوله ولايكلمهم اى ولا يكلمهم بالكلام الطيب النافع فان تخصيص العموم غير بعيد لاسيما عند حصول القرينة فان قوله ولايكلمهم انما ذكره لبيان انه تعالى لاينفعهم ولايقيم لهم وزنا وذلك لايحصل الا من الكلام الطيب (السؤال الثانى) دلت هذه الآية على انه تعالى يزيد فى عذاب الكافر ابدا فتلك الزيادة اما ان يقال انها كانت مستحقة لهم اوغير مستحقة فان كانت مستحقة لهم كان تركها فى اول الامر احسانا والكريم اذا اسقط حق نفسه فانه لايليق به ان يسترجعه بعد ذلك واما ان كانت تلك الزيادة غير مستحقة كان ايصالها اليهم ظلما وانه لايجوز على الله (الجواب) كما ان الشئ يؤثر بحسب خاصية ذاته فكذا اذا دام ازداد تأثيره بحسب ذلك الدوام فلاجرم كلما كان الدوام اكثر كان الايلام اكثر وايضا فتلك الزيادة مستحقة وتركها فى بعض الاوقات لايوجب الابراء والاسقاط والله اعلم بما أراد واعلم انه تعالى لما ذكر وعيد الكفار اتبعه بوعد الاخيار وهو امور (اولها) ❋ قوله تعالى (ان للمتقين مفازا) اما المتقى فقد تقدم تفسيره فى مواضع كثيرة ومفازا يحتمل ان يكون مصدرا بمعنى فوزا وظفرا بالبغية ويحتمل ان يكون موضع فوز والفوز يحتمل ان يكون المراد منه فوزا بالمطلوب وان يكون المراد منه فوزا بالنجاة من العذاب وان يكون المراد مجموع الامرين وعندى ان تفسيره بالفوز بالمطلوب اولى من تفسيره بالفوز بالنجاة من العذاب ومن تفسيره بالفوز بمجموع الامرين اعنى النجاة من الهلاك والوصول الى المطلوب وذلك لانه تعالى فسر المفاز بمابعده وهو قوله حدائق واعنابا فوجب ان يكون المراد من المفاز هذا القدر (فان قيل) الخلاص من الهلاك أهم من حصول اللذة فلم اهمل الاهم وذكر غير الاهم (قلنا) لان الخلاص من الهلاك لايستلزم الفوز باللذة والخير اما الفوز باللذة والخير يستلزم الخلاص من الهلاك فكان ذكر هذا اولى (وثانيها) ❋ قوله تعالى (حدائق واعنابا) والحدائق جمع حديقة وهى كل بستان محوط عليه من قولهم احدقوا به اى احاطوا به والتنكير فى قوله واعنابا يدل على تعظيم حال تلك الاعناب ❋ (وثالثها) قوله تعالى (وكواعب اترابا) كواعب جمع كاعب وهن النواهد التى تكعبت ثديهن وتفلكت اى يكون الثدى فى النتو كالكعب والفلكة ❋ (ورابعها) قوله تعالى (وكأسا دهاقا) وفى الدهاق اقوال (الاول) وهو قول اكثر اهل اللغة كأبى عبيدة والزجاج والكسائى

وقرئ بالتخفيف وهو مصدر كذب قال فصدقتها وكذبتها والمرء ينفعه كذابه والنتصابه اما بفعله المدلول عليه بكذبوا اى وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا واما بنفس كذبوا لتضمنه معنى كذبوا فان كل من يكذب بالحق فهو كاذب وقرئ كذابا وهو جمع كاذب فانتصابه على الحالية اى كذبوا بآياتنا كاذبين وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ فى الكذب فيجعل صفة لمصدر كذبوا اى تكذيبا كذابا مفرطا كذبه (وكل شئ) من الاشياء التى من جملتها اعمالهم وانتصابه بمضمر يفسره (احصيناه) اى حفظناه وضبطناه وقرئ بالرفع على الابتداء (كتابا) مصدر مؤكد لاحصيناه لما ان الاحصاء والكتبة من واد واحد اولفعله المقدر اوحال بمعنى مكتوبا فى اللوح اوفى صحف الحفظة والجملة اعتراض وقوله تعالى (فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا) مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات وفى الالتفات المنبئ عن التشديد بالتهديد وايراد لن المفيدة لكون ترك الزيادة من قبيل ما لا يدخل تحت الصحة من الدلالة على تبالغ الغضب مالايخفى وقد روى عن النبى عليه الصلاة والسلام ان هذه الآية اشد ما فى القرآن على اهل النار (ان للمتقين مفازا) شروع فى بيان محاسن احوال المؤمنين اثر بيان سوء احوال الكفرة اى ان للذين

والمبرد دهاقا اى ممتلئة دعا ابن عباس غلاماله فقال اسقنا دهاقا فجاء الغلام بها ملأى فقال ابن عباس هذا هو الدهاق قال عكرمة ربما سمعت ابن عباس يقول اسقنا وادهق لنا (القول الثانى) دهاقا اى متتابعة وهو قول ابى هريرة وسعيد بن جبير ومجاهد قال الواحدى واصل هذا القول من قول العرب ادهقت الحجارة ادهاقا وهو شدة تلازمها ودخول بعضها فى بعض ذكره الليث والمتتابع كالمتداخل (القول الثالث) يروى عن عكرمة انه قال دهاقا اى صافية والدهاق على هذا القول يجوز ان يكون جمع دهق وهو خشبتان يعصر بهما والمراد بالكأس الخمر قال الضحاك كل كأس فى القرآن فهو خمر والتقدير وخمرا ذات دهاق اى عصرت وصفيت بالدهاق (وخامسها) ❊ قوله تعالى (لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا) فى الآية سؤالان (الاول) الضمير فى قوله فيها الى ماذا يعود (الجواب) فيه قولان (الاول) انها ترجع الى الكأس اى لايجرى بينهم لغو فى الكأس التى يشربونها وذلك لان اهل الشراب فى الدنيا يتكلمون بالباطل واهل الجنة اذا شربوا لم يتغير عقلهم ولم يتكلموا بلغو (والثانى) ان الكناية ترجع الى الجنة اى لايسمعون فى الجنة شيئا يكرهونه (السؤال الثانى) الكذاب بالتشديد يفيد المبالغة فوروده فى قوله تعالى وكذبوا بآياتنا كذابا مناسب لانه يفيد المبالغة فى وصفهم بالكذب اما وروده ههنا فغير لائق لان قوله يسمعون فيها كذابا يفيد انهم لايسمعون الكذب العظيم وهذا لاينفى انهم يسمعون الكذب القليل وليس مقصود الآية ذلك بل المقصود المبالغة فى انهم لايسمعون الكذب البتة والحاصل ان هذا اللفظ يفيد نفى المبالغة واللائق بالآية المبالغة فى النفى (والجواب) ان الكسائى قرأ الاول بالتشديد والثانى بالتخفيف ولعل غرضه ماقررناه فى هذا السؤال لان قراءة التخفيف ههنا تفيد انهم لايسمعون الكذب اصلا لان الكذاب بالتخفيف والكذب واحد لان أبا على الفارسى قال كذاب مصدر كذب ككتاب مصدر كتب فاذا كان كذلك كانت القراءة بالتخفيف تفيد المبالغة فى النفى وقراءة التشديد فى الاول تفيد المبالغة فى الثبوت فيحصل المقصود من هذه القراءة فى الموضعين على اكمل الوجوه فان اخذنا بقراءة الكسائى فقد زال السؤال وان اخذنا بقراءة التشديد فى الموضعين وهى قراءة الباقين فالعذر عنه ان قوله لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا اشارة الى ماتقدم من قوله وكذبوا بآياتنا كذابا والمعنى ان هؤلاء السعداء لايسمعون كلام المشوش الباطل الفاسد والحاصل ان النعم الواصلة اليهم تكون خالية عن زحمة اعدائهم وعن سماع كلامهم الفاسد واقوالهم الكاذبة الباطلة ثم انه تعالى لما عدد اقسام نعيم اهل الجنة ❊ قال تعالى (جزاء من ربك عطاء حسابا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج المعنى جازاهم بذلك جزاء وكذلك عطاء لان معنى جازاهم واعطاهم واحد (المسئلة الثانية) فى الآية سؤال وهو انه تعالى جعل الشئ الواحد جزاء وعطاء وذلك محال لان كونه جزاء يستدعى ثبوت الاستحقاق وكونه عطاء يستدعى عدم

يتقون الكفر وسائر قبائح اعمال الكفرة فوزا وظفرا بماغيهم او موضع فوز وقيل نجاة مما فيه اولئك او موضع نجاة وقوله تعالى (حدائق واعنابا) اى بساتين فيها انواع الاشجار المثمرة وكروما بدل من مفازا (وكواعب) اى نساء فلكت ثديهن وهن النواهد (اترابا) اى لدات (وكأسا دهاقا) اى مترعة يقال ادهق الحوض اى ملأه (لايسمعون فيها) اى فى الجنة وقيل فى الكأس (لغوا ولا كذابا) اى لاينطقون بلغو ولايكذب بعضهم بعضا وقرئ كذابا بالتخفيف اى لايكذبه اولا يكاذبه (جزاء من ربك) مصدر مؤكد منصوب بمعنى ان للمتقين مفازا فانه فى قوة ان يقال جازى المتقين بمفاز جزاء كائنا من ربك والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال شيئا فشيئا مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام مزيد تشريف له صلى الله عليه وسلم (عطاء) اى تفضلا واحسانا منه تعالى اذ لايجب عليه شئ وهو بدل من جزاء (حسابا) صفة لعطاء بمعنى كافيا على انه مصدر اقيم مقام الوصف او بولغ فيه من احسبه الشئ اذا كفاه حتى قال حسبى وقيل على حسب اعمالهم وقرئ حسابا بالتشديد على انه بمعنى المحسب كالدراك بمعنى المدرك (رب السموات والارض ومابينهما) بدل من ربك وقوله تعالى (الرحمن) صفة له وقيل صفة للاول واياما

(الاستحقاق)

الاستحقاق والجمع بينهما متناف (والجواب) عنه لايصح الاعلى قولنا وهو ان ذلك الاستحقاق انما ثبت بحكم الوعد لامن حيث ان الفعل يوجب الثواب على الله فذلك الثواب نظرا الى الوعد المرتب على ذلك الفعل يكون جزاء ونظرا الى انه لايجب على الله لأحد شيء يكون عطاء (المسئلة الثالثة) قوله حسابا فيه وجوه (الاول) ان يكون بمعنى كافيا مأخوذ من قولهم اعطانى مااحسبنى اى ماكفانى ومنه قوله حسبى من سؤالى علمه بحالى اى كفانى من سؤالى ومنه قوله

فلما حللت به ضمنى * فأولى جميلا واعطى حسابا

اى اعطى ماكفى (والوجه الثانى) ان قوله حسابا مأخوذ من حسبت الشيء اذا اعددته وقدرته فقوله عطاء حسابا اى بقدر ماوجب له فيما وعده من الاضعاف لانه تعالى قدر الجزاء على ثلاثة اوجه وجه منها على عشرة اضعاف ووجه على سبعمائة ضعف ووجه على مالانهاية له كما قال انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب (والوجه الثالث) وهو قول ابن قتيبة عطاء حسابا اى كثيرا واحسبت فلانا اى اكثرت له قال الشاعر

ونقفى وليد الحى ان كان جائعا * ونحسبه ان كان ليس بجائع

(الوجه الرابع) انه سبحانه يوصل الثواب الذى هو الجزاء اليهم ويوصل التفضل الذى يكون زائدا على الجزاء اليهم ثم قال حسابا ثم تمييز الجزاء عن العطاء حال الحساب (الوجه الخامس) انه تعالى لما ذكر فى وعيد اهل النار جزاء وفاقا ذكر فى وعد اهل الجنة جزاء عطاء حسابا اى راعيت فى ثواب اعمالكم الحساب لئلا يقع فى ثواب اعمالكم بخس ونقصان وتقصير والله أعلم بمراده (المسئلة الرابعة) قرأ ابن قطيب حسابا بالتشديد على ان الحساب بمعنى المحسب كالدراك بمعنى المدرك هكذا ذكره صاحب الكشاف واعلم انه تعالى لما بالغ فى وصف وعيد الكفار ووعد المتقين ختم الكلام فى ذلك بقوله (رب السموات والارض ومابينهما الرحمن لايملكون منه خطابا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) رب السموات والرحمن فيه ثلاثة أوجه من القراءة الرفع فيهما وهو قراءة ابن كثير ونافع وأبى عمرو والجر فيهما وهو قراءة عاصم وعبد الله بن عامر والجر فى الاول مع الرفع فى الثانى وهو قراءة حمزة والكسائى وفى الرفع وجوه (احدها) ان يكون رب السموات مبتدأ والرحمن خبره ثم استؤنف لايملكون منه خطابا (وثانيها) رب السموات مبتدأ والرحمن صفة ولايملكون خبره (وثالثها) ان يضمر المبتدأ والتقدير هو رب السموات هو الرحمن ثم استؤنف لايملكون (ورابعها) ان يكون الرحمن ولايملكون خبرين واما وجه الجر فعلى البدل من ربك واما وجه جر الاول ورفع الثانى فجر الاول بالبدل من ربك والثانى مرفوع بكونه مبتدأ وخبره لايملكون (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله لايملكون الى من يرجع فيه ثلاثة أقوال (الاول) نقل عطاء عن ابن عباس انه راجع الى المشركين يريد لايخاطب المشركون الله اما المؤمنون فيشفعون ويقبل الله ذلك منهم (والثانى) قال

كان ففى ذكر ربوبيته تعالى للكل ورحمته الواسعة اشعار بمدار الجزاء المذكور وقوله تعالى (لايملكون منه خطابا) استئناف مقرر لما افاده الربوبية العامة من غاية العظمة والكبرياء واستقلاله تعالى بماذكر من الجزاء والعطاء من غير ان يكون لاحد قدرة عليه وقرئ برفعهما فقيل على انهما خبران لمبتدأ مضمر وقيل الثانى نعت للاول وقيل الاول مبتدأ والثانى خبره ولايملكون خبر آخر او هو الخبر والرحمن صفة للاول وقيل لايملكون حال لازمة وقيل الاول مبتدأ والرحمن مبتدأ ثان ولايملكون خبره والجملة خبر للاول وحصل الربط بتكرير المبتدأ بمعناه على رأى من يقول به والاوجه ان يكون كلاهما مرفوعا على المدح او يكون الثانى نعتا للاول ولايملكون استئنافا على حاله ففيه ماذكر من الاشعار بمدار الجزاء والعطاء كما فى البدلية لما ان المرفوع او المنصوب مدحا تابع لما قبله معنى وان كان منقطعا عنه اعرابا كما فصل فى قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب من سورة البقرة وقرئ بجر الاول على البدلية ورفع الثانى على الابتداء والخبر مابعده او على انه خبر لمبتدأ مضمر ومابعده استئناف او خبر ثان او حال وضمير لايملكون لاهل السموات والارض اى لايملكون ان يخاطبوه تعالى من تلقاء انفسهم كما ينبئ عنه لفظ الملك خطابا ما فى

القاضى انه راجع الى المؤمنين والمعنى ان المؤمنين لا يملكون ان يخاطبوا الله فى امر من الامور لانه لما ثبت انه عدل لا يجور ثبت ان العقاب الذى اوصله الى الكفار عدل وان الثواب الذى اوصله الى المؤمنين عدل وانه ما بخس حقهم فبأى سبب يخاطبونه وهذا القول اقرب من الاول لان الذى جرى قبل هذه الآية ذكر المؤمنين لا ذكر الكفار (والثالث) انه ضمير لاهل السموات والارض وهذا هو الصواب فان احدا من المخلوقين لا يملك مخاطبة الله ومكالمته واما الشفاعات الواقعة باذنه فغير واردة على هذا الكلام لانه نفى الملك والذى يحصل بفضله واحسانه فهو غير مملوك فثبت ان هذا السؤال غير لازم والذى يدل من جهة العقل على ان احدا من المخلوقين لا يملك خطاب الله وجوه (الاول) وهو ان كل ماسواه فهو مملوكه والمملوك لا يستحق على مالكه شيئا (وثانيها) ان معنى الاستحقاق عليه هو انه لو لم يفعل لاستحق الذم ولو فعله لاستحق المدح وكل من كان كذلك كان ناقصا فى ذاته مستكملا بغيره وتعالى الله عنه (وثالثها) انه عالم بقبح القبيح عالم بكونه غنيا عنه وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح وكل من امتنع كونه فاعلا للقبيح فليس لأحد ان يطالبه بشئ وان يقول له لم فعلت والوجهان الاولان مفرعان على قول اهل السنة والوجه الثالث يتفرع على قول المعتزلة فثبت ان احدا من المخلوقات لا يملك ان يخاطب ربه ويطالب الهه واعلم انه تعالى لما ذكر ان احدا من المخلوقات لا يملك ان يخاطب الله فى شئ او يطالبه بشئ قرر هذا المعنى واكده ❊ فقال تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من اذن له الرحمن وقال صوابا) وذلك لان الملائكة اعظم المخلوقات قدرا ورتبة واكثرهم قدرة ومكانة فبين انهم لا يتكلمون فى موقف القيامة اجلالا لربهم وخوفا منه وخضوعا له فكيف يكون حال غيرهم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) لمن يقول بتفضيل الملك على البشر ان يتمسك بهذه الآية وذلك لان المقصود من الآية ان الملائكة لما بقوا خائفين خاضعين وجلين متحيرين فى موقف جلال الله وظهور عزته وكبريائه فكيف يكون حال غيرهم ومعلوم ان هذا الاستدلال لا يتم الا اذا كانوا اشرف المخلوقات (المسئلة الثانية) اختلفوا فى الروح فى هذه الآية فعن ابن مسعود انه ملك اعظم من السموات والجبال وعن ابن عباس هو ملك من اعظم الملائكة خلقا وعن مجاهد خلق على صورة بنى آدم يأكلون ويشربون وليسوا بناس وعن الحسن وقتادة هو بنو آدم وعلى هذا معناه ذو الروح وعن ابن عباس ارواح الناس وعن الضحاك والشعبى هو جبريل عليه السلام وهذا القول هو المختار عند القاضى قال لان القرآن دل على ان هذا الاسم اسم جبريل عليه السلام وثبت ان القيام صحيح من جبريل والكلام صحيح منه ويصح ان يؤذن له فكيف يصرف هذا الاسم عنه الى خلق لا نعرفه او الى القرآن الذى لا يصح وصفه بالقيام اما قوله صفا فيحتمل ان يكون المعنى ان الروح على الاختلاف الذى ذكرناه وجميع الملائكة يقومون صفا واحدا ويجوز ان يكون المعنى يقومون صفين

(ويجوز)

شئ ما والمراد نفى قدرتهم على ان يخاطبوه تعالى بشئ من نقص العذاب اوزيادة الثواب من غير اذنه على ابلغ وجه وآكده وقيل ليس فى ايديهم مما يخاطب الله به ويأمر به فى امر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون فيه او ينقصون منه (يوم يقوم الروح والملائكة صفا) قيل الروح خلق اعظم من الملائكة واشرف منهم واقرب من رب العالمين وقيل هو ملك ماخلق الله عز وجل بعد العرش خلقا اعظم منه وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه اذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفا والملائكة كلهم صفا وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الروح جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة لهم رؤس وايد وارجل يأكلون الطعام ثم قرأ يوم يقوم الروح الآية وهذا قول ابى صالح ومجاهد قالوا ما ينزل من السماء ملك الا ومعه واحد منهم نقله البغوى وقيل هم اشراف الملائكة وقيل هم حفظة على الملائكة وقيل جبريل عليه السلام وصفا حال اى مصطفين قيل هما صفان الروح صف واحد اومتعدد والملائكة صف وقيل صفوف وهو الاوفق لقوله تعالى والملك صفا صفا وقيل يقوم الكل صفا واحدا ويوم ظرف لقوله تعالى (لا يتكلمون) وقوله تعالى (الا من اذن له الرحمن وقال صوابا) بدل من ضمير لا يتكلمون العائد الى

ويجوز صفوفا والصف فى الاصل مصدر فينبئ عن الواحد والجمع وظاهر قول المفسرين انهم يقومون صفين فيقوم الروح وحده صفا وتقوم الملائكة كلهم صفا واحدا فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم وقال بعضهم بل يقومون صفوفا لقوله تعالى وجاء ربك والملك صفا صفا (المسئلة الثالثة) الاستثناء الى من يعود فيه قولان (احدهما) الى الروح والملائكة وعلى هذا التقدير الآية دلت على ان الروح والملائكة لا يتكلمون الا عند حصول شرطين (احدهما) حصول الاذن من الله تعالى ونظيره قوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه والمعنى انهم لا يتكلمون الا باذن الله (والشرط الثانى) ان يقول صوابا فان قيل لما اذن له الرحمن فى ذلك القول علم ان ذلك القول صواب لا محالة فما الفائدة فى قوله وقال صوابا والجواب من وجهين (الاول) ان الرحمن اذن له فى مطلق القول ثم انهم عند حصول ذلك الاذن لا يتكلمون الا بالصواب فكأنه قيل انهم لا ينطقون الا بعد ورود الاذن فى الكلام ثم بعد ورود ذلك الاذن يجتهدون ولا يتكلمون الا بالكلام الذى يعلمون انه صدق وصواب وهذا مبالغة فى وصفهم بالطاعة والعبودية (الوجه الثانى) ان تقديره لا يتكلمون الا فى حق من اذن له الرحمن وقال صوابا والمعنى لا يشفعون الا فى حق شخص اذن له الرحمن فى شفاعته وذلك الشخص كان ممن قال صوابا واحتج صاحب هذا التأويل بهذه الآية على انهم يشفعون للمذنبين لانهم قالوا صوابا وهو شهادة ان لا اله الا الله لان قوله وقال صوابا يكفى فى صدقه ان يكون قد قال صوابا واحدا فكيف الشخص الذى قال القول الذى هو اصوب الاقوال وتكلم بالكلام الذى هو اشرف الكلمات (الوجه الثانى) ان الاستثناء غير عائد الى الملائكة فقط بل الى جميع اهل السموات والارض والقول الاول اولى لان عود الضمير الى الاقرب اولى ※ واعلم انه تعالى لما قرر احوال المكلفين فى درجات الثواب والعقاب وقرر عظمة يوم القيامة قال بعده (ذلك اليوم الحق) ذلك اشارة الى ما تقدم ذكره وفى وصف اليوم بأنه حق وجوه (احدها) انه يحصل فيه كل حق ويندمغ كل باطل فلما كان كاملا فى هذا المعنى قيل انه حق كما يقال فلان خير كله اذا وصف بأن فيه خيرا كثيرا وقوله ذلك اليوم الحق يفيد انه هو اليوم الحق وما عداه باطل لان ايام الدنيا باطلها اكثر من حقها (وثانيها) ان الحق هو الثابت الكائن وبهذا المعنى يقال ان الله حق اى هو ثابت لا يجوز عليه الفناء ويوم القيامة كذلك فيكون حقا (وثالثها) ان ذلك اليوم هو اليوم الذى يستحق ان يقال له يوم لان فيه تبلى السرائر وتنكشف الضمائر واما ايام الدنيا فأحوال الخلق فيها مكتومة والاحوال فيها غير معلومة ※ قوله تعالى (فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا) اى مرجعا والمعتزلة احتجوا به على الاختيار والمشيئة واصحابنا رووا عن ابن عباس انه قال المراد فمن شاء الله به خيرا هداه حتى يتخذ الى ربه مآبا ※ ثم انه تعالى زاد فى تخويف الكفار فقال (انا انذرناكم عذابا قريبا) يعنى

اهل السموات والارض الذين من جملتهم الروح والملائكة وذكر قيامهم واصطفافهم لتحقيق عظمة سلطانه وكبرياء ربوبيته وتهويل يوم البعث الذى عليه مدار الكلام من مطلع السورة الكريمة الى مقطعها والجملة استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لا يملكون الخ ومؤكد له على معنى ان اهل السموات والارض اذا لم يقدروا يومئذ على ان يتكلموا بشئ من جنس الكلام الا من اذن الله تعالى له منهم فى التكلم وقال ذلك المأذون له قولا صوابا اى حقا فكيف يملكون خطاب رب العزة مع كونه اخص من مطلق الكلام واعز منه مراما الا على معنى ان الروح والملائكة مع كونهم افضل الخلائق واقربهم من الله تعالى اذا لم يقدروا ان يتكلموا بما هو صواب من الشفاعة لمن ارتضى الا باذنه فكيف يملكه غيرهم كما قيل فانه مؤسس على قاعدة الاعتزال فمن سلكه مع تجويزه ان يكون يوم ظرفا للا يملكون فقد اشتبه عليه الشؤن واختلط به الظنون وقيل الا من اذن الخ منصوب على اصل الاستثناء والمعنى لا يتكلمون الا فى حق شخص اذن له الرحمن وقال ذلك الشخص صوابا اى حقا هو التوحيد واظهار الرحمن فى موضع الاضمار للايذان بان مناط الاذن هو الرحمة البالغة لا ان احدا يستحقه عليه سبحانه وتعالى (ذلك) اشارة الى يوم قيامهم على الوجه المذكور

العذاب فى الآخرة وكل ماهو آت قريب وهو كقوله تعالى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية او ضحاها وانما سماه انذارا لانه تعالى بهذا الوصف قد خوف منه نهاية التخويف وهو معنى الانذار ※ ثم قال تعالى (يوم ينظر المرء ماقدمت يداه) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) مافى قوله ماقدمت يداه فيه وجهان (الاول) انها استفهامية منصوبة بقدمت اى ينظر اى شئ قدمت يداه (الثانى) ان تكون بمعنى الذى وتكون منصوبة بينظر والتقدير ينظر الى الذى قدمته يداه الا ان على هذا التقدير حصل فيه حذفان (احدهما) انه لم يقل قدمته بل قال قدمت فحذف الضمير الراجع (والثانى) انه لم يقل ينظر الى ماقدمت بل قال ينظر ماقدمت يقال نظرته بمعنى نظرت اليه (المسئلة الثانية) فى الآية ثلاثة اقوال (الاول) وهو الاظهر ان المرء عام فى كل احد لان المكلف ان كان قدم عمل المتقين فليس له الا الثواب العظيم وان كان قدم عمل الكافرين فليس له الا العقاب الذى وصفه الله تعالى فلا رجاء لمن ورد القيامة من المكلفين فى امر سوى هذين فهذا هو المراد بقوله يوم ينظر المرء ماقدمت يداه فطوبى له ان قدم عمل الابرار وويل له ان قدم عمل الفجار (والقول الثانى) وهو قول عطاء ان المرء ههنا هو الكافر لان المؤمن كما ينظر الى ماقدمت يداه فكذلك ينظر الى عفو الله ورحمته واما الكافر الذى لايرى الا العذاب فهو لايرى الا ماقدمت يداه لان ماوصل اليه من العقاب ليس الا من شؤم معاملته (والقول الثالث) وهو قول الحسن وقتادة ان المرء ههنا هو المؤمن واحتجوا عليه بوجهين (الاول) انه تعالى قال بعد هذه الآية ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا فلما كان هذا بيانا لحال الكافر وجب ان يكون الاول بيانا لحال المؤمن (والثانى) وهو ان المؤمن لما قدم الخير والشر فهو من الله تعالى على خوف ورجاء فينتظر كيف يحدث الحال اما الكافر فانه قاطع بالعقاب فلا يكون له انتظار انه كيف يحدث الامر فان مع القطع لايحصل الانتظار (المسئلة الثالثة) القائلون بأن الخير يوجب الثواب والشر يوجب العقاب تمسكوا بهذه الآية فقالوا لولا ان الامر كذلك والا لم يكن نظر الرجل فى الثواب والعقاب على عمله بل على شئ آخر (والجواب) عنه ان العمل يوجب الثواب والعقاب لكن بحكم الوعد والجعل لابحكم الذات ※ اما قوله تعالى (ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) ففيه وجوه (احدها) ان يوم القيامة ينظر المرء اى شئ قدمت يداه اما المؤمن فانه يجد الايمان والعفو عن سائر المعاصى على ماقال ويغفر مادون ذلك لمن يشاء واما الكافر فلا يتوقع العفو على ماقال ان الله لايغفر ان يشرك به فعند ذلك يقول الكافر ياليتنى كنت ترابا اى لم يكن حيا مكلفا (وثانيها) انه كان قبل البعث ترابا فالمعنى على هذا ياليتنى لم ابعث للحساب وبقيت كما كنت ترابا كقوله تعالى ياليتها كانت القاضية وقوله يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض (وثالثها) ان البهائم تحشر فيقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها بعد المحاسبة كونى ترابا فيتمنى الكافر عند ذلك ان يكون هو مثل تلك البهائم فى ان يصير ترابا ويتخلص

وماقيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو درجته وبعد منزلته فى الهول والفخامة ومحله الرفع على الابتداء خبره مابعده اى ذلك اليوم العظيم الذى يقوم فيه الروح والملائكة مصطفين غير قادرين هم وغيرهم على التكلم من الهيبة والجلال (اليوم الحق) اى الثابت المتحقق لامحالة من غير صارف يلويه ولاعاطف يثنيه والفاء فى قوله تعالى (فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا) فصيحة تفصح عن شرط محذوف ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وانتفاء الغرابة فى تعلقها حسب القاعدة المستمرة والى ربه متعلق بمآبا قدم عليه اهتماما به ورعاية للفواصل كأنه قيل واذا كان الامر كما ذكر من تحقق اليوم المذكور لامحالة فمن شاء ان يتخذ مرجعا الى ثواب ربه الذى ذكر شأنه العظيم فعل ذلك بالايمان والطاعة وقال قتادة مآبا اى سبيلا وتعلق الجار به لمافيه من معنى الافضاء والايصال كما فى قوله تعالى من استطاع اليه سبيلا (انا انذرناكم) اى بما ذكر فى السورة من الآيات الناطقة بالبعث وبما بعده من الدواهى اوبها وبسائر القوارع الواردة فى القرآن (عذابا قريبا) هو عذاب الآخرة وقربه لتحقق اتيانه حتما ولانه قريب بالنسبة اليه تعالى وان رأوه بعيدا وسيرونه قريبا لقوله تعالى

من عذاب الله وانكر بعض المعتزلة ذلك وقال انه تعالى اذا أعادها فهى بين معوض وبين متفضل عليه واذا كان كذلك لم يجز ان يقطعها عن المنافع لان ذلك كالاضرار بها ولا يجوز ذلك فى الآخرة ثم ان هؤلاء قالوا ان هذه الحيوانات اذا انتهت مدة اعواضها جعل الله كل ما كان منها حسن الصورة ثوابا لاهل الجنة وما كان قبيح الصورة عقابا لاهل النار قال القاضى ولا يمتنع ايضا اذا وفر الله اعواضها وهى غير كاملة العقل ان يزيل الله حياتها على وجه لا يحصل لها شعور بالألم فلا يكون ذلك ضررا (ورابعها) ماذكره بعض الصوفية فقال قوله ياليتنى كنت ترابا معناه ياليتنى كنت متواضعا فى طاعة الله ولم أكن متكبرا متمردا (وخامسها) الكافر ابليس يرى آدم وولده وثوابهم فيتمنى ان يكون الشئ الذى احتقره حين قال خلقتنى من نار وخلقته من طين والله اعلم بمراده واسرار كتابه

(سورة النازعات أربعون وست آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات امرا) فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم ان هذه الكلمات الخمسة يحتمل ان تكون صفات لشئ واحد ويحتمل ان لا تكون كذلك اما على الاحتمال الاول فقد ذكروا فى الآية وجوها (احدها) انها بأسرها صفات الملائكة فقوله والنازعات غرقا هى الملائكة الذين ينزعون نفوس بنى آدم فاذا نزعوا نفوس الكفار نزعوها بشدة وهو مأخوذ من قولهم نزع فى القوس فأغرق يقال النازع فى القوس اذا بلغ غاية المد حتى ينتهى الى النصل فتقدير الآية والنازعات اغراقا والغرق والاغراق فى اللغة بمعنى واحد وقوله والناشطات نشطا النشط هو الجذب يقال نشطت الدلو انشطها وأنشطتها نشطا نزعتها برفق والمراد هى الملائكة التى تنشط روح المؤمن فتقبضها وانما خصصنا هذا بالمؤمن والاول بالكافر لما بين النزع والنشط من الفرق فالنزع جذب بشدة والنشط جذب برفق ولين فالملائكة تنشط ارواح المؤمنين كما تنشط الدلو من البئر فالحاصل ان قوله والنازعات غرقا والناشطات نشطا قسم بملك الموت وأعوانه الا ان الاول اشارة الى كيفية قبض ارواح الكفار والثانى الى كيفية قبض أرواح المؤمنين اما قوله والسابحات سبحا فنهم من خصصه ايضا بملائكة قبض الارواح ومنهم من حمله على سائر طوائف الملائكة اما الوجه الاول فنقل عن على عليه السلام وابن عباس ومسروق ان الملائكة يسلون الارواح المؤمنين سلا رفيقا فهذا هو المراد من قوله والناشطات نشطا ثم يتركونها حتى تستريح رويدا ثم يستخرجونها بعد ذلك برفق ولطافة كالذى يسبح فى الماء فانه يتحرك برفق ولطافة لئلا يغرق فكذا ههنا يرفقون فى ذلك الاستخراج لئلا يصل اليه ألم وشدة فذاك هو المراد من قوله والسابحات سبحا واما الذين حملوه على سائر طوائف

كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية او ضحاها وعن قتادة هو عقوبة الدنيا لانه اقرب العذابين وعن مقاتل هو قتل قريش يوم بدر ويأباه قوله تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) فانه اما بدل من عذابا اوظرف لمضمر هو صفة له اى عذابا كائنا يوم ينظر المرء اى يشاهد ماقدمه من خير اوشر على ان ما موصولة منصوبة بينظر والعائد محذوف اوينظر اى شئ قدمت يداه على انها استفهامية منصوبة بقدمت وقيل المرء عبارة عن الكافر وما فى قوله تعالى (ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم قيل معنى تمنيه ليتنى كنت ترابا فى الدنيا فلم اخلق ولم اكلف اوليتنى كنت ترابا فى هذا اليوم فلم ابعث وقيل يحشر الله تعالى الحيوان فيقتص للجماء من القرناء ثم يرده ترابا فيود الكافر حاله وقيل الكافر ابليس يرى آدم وولده وثوابهم فيتمنى ان يكون الشئ الذى احتقره حين قال خلقتنى من نار وخلقته من طين * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة عم يتساءلون سقاه الله تعالى برد الشراب يوم القيامة والحمد لله وحده

(سورة والنازعات مكية وآيها خمس اوست واربعون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات امرا) اقسام من الله

الملائكة قالوا ان الملائكة ينزلون من السماء مسرعين فجعل نزولهم من السماء كالسباحة والعرب تقول للفرس الجواد انه السابح واما قوله فالسابقات سبقا فمنهم من فسره بملائكة قبض الارواح يسبقون بأرواح الكفار الى النار وبأرواح المؤمنين الى الجنة ومنهم من فسره بسائر طوائف الملائكة ثم ذكروا في هذا السبق وجوها (احدها) قال مجاهد وأبو روق ان الملائكة سبقت ابن آدم بالايمان والطاعة ولاشك ان المسابقة في الخيرات درجة عظيمة قال تعالى والسابقون السابقون أولئك المقربون (وثانيها) قال الفراء والزجاج ان الملائكة تسبق الشياطين بالوحي الى الانبياء لان الشياطين كانت تسترق السمع (وثالثها) يحتمل ان يكون المراد انه تعالى وصفهم فقال لايسبقونه بالقول يعني قبل الاذن لايتحركون ولاينطقون تعظيما لجلال الله تعالى وخوفا من هيبته وههنا وصفهم بالسبق يعني اذا جاءهم الامر فانهم يتسارعون الى امتثاله ويتبادرون الى اظهار طاعته فهذا هو المراد من قوله فالسابقات سبقا واما قوله فالمدبرات امرا فأجمعوا على انهم هم الملائكة قال مقاتل يعني جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل عليهم السلام يدبرون امر الله تعالى في أهل الارض وهم المقسمات امرا اما جبريل فوكل بالرياح والجنود واما ميكائيل فوكل بالقطر والنبات واما ملك الموت فوكل بقبض الانفس واما اسرافيل فهو ينزل بالامر عليهم وقوم منهم موكلون بحفظ بني آدم وقوم آخرون بكتبة اعمالهم وقوم آخرون بالخسف والمسخ والرياح والسحاب والامطار بقي على الآية سؤالان (السؤال الاول) لم قال فالمدبرات أمرا ولم يقل أمورا فانهم يدبرون أمورا كثيرة لاأمرا واحدا (والجواب) ان المراد به الجنس واذا كان كذلك قام مقام الجمع (السؤال الثاني) قال تعالى ان الامر كله لله فكيف أثبت لهم ههنا تدبير الامر (والجواب) لما كان ذلك الاتيان به كان الامر كله له فهذا تلخيص ماقاله المفسرون في هذا الباب وعندي فيه وجه آخر وهو ان الملائكة لها صفات سلبية وصفات اضافية اما الصفات السلبية فهي انها مبرأة عن الشهوة والغضب والاخلاق الذميمة والموت والهرم والسقم والتركيب من الاعضاء والاخلاط والاركان بل هي جواهر روحانية مبرأة عن هذه الاحوال فقوله والنازعات غرقا اشارة الى كونها منزوعة عن هذه الاحوال نزعا كليا من جميع الوجوه وعلى هذا التفسير النازعات هي ذوات النزع كاللابن والتامر واما قوله والناشطات نشطا اشارة الى ان خروجها عن هذه الاحوال ليس على سبيل التكليف والمشقة كما في حق البشر بل هم بمقتضى ماهياتهم خرجوا عن هذه الاحوال وتنزهوا عن هذه الصفات فهاتان الكلمتان اشارتان الى تعريف احوالهم السلبية واما صفاتهم الاضافية فهي قسمان (احدهما) شرح قوتهم العاقلة اي كيف حالهم في معرفة ملك الله وملكوته والاطلاع على نور جلاله فوصفهم في هذا المقام بوصفين (احدهما) قوله والسابحات سبحا فهم يسبحون من أول فطرتهم في بحار

عز وجل بطوائف الملائكة الذين ينزعون الارواح من الاجساد على الاطلاق كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد او ارواح الكفرة كما قاله علي رضي الله عنه وابن مسعود وسعيد بن جبير ومسروق وينشطونها اي يخرجونها من الاجساد من نشط الدلو من البئر اذا اخرجها ويسبحون في اخراجها سبح الغواص الذي يخرج من البحر ما يخرج فيسبقون بأرواح الكفرة الى النار وبأرواح المؤمنين الى الجنة فيدبرون امر عقابها وثوابها بأن يهيؤها لادراك ما اعد لها من الآلام واللذات والعطف مع اتحاد الكل بتنزيل التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي كما في قوله

الى الملك القرم وابن الهمام
وليث الكتائب في المزدحم*

للاشعار بأن كل واحد من الاوصاف المعدودة من معظمات الامور حقيق بأن يكون على حياله مناطا لاستحقاق موصوفه للاجلال والاعظام بالاقسام به من غير انضمام الاوصاف الاخر اليه والفاء في الاخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما بغير مهلة كما في قوله *يالهف زيابة للحرث الـ*
صابح فالغانم فالآيب*

جلال الله ثم لامنتهى لسباحتهم لانه لامنتهى لعظمة الله وعلو صمديته ونور جلاله وكبريائه فهم ابدا فى تلك السباحة (وثانيهما) قوله فالسابقات سبقا وهو اشارة الى مراتب الملائكة فى تلك السباحة فانه كما ان مراتب معارف البهائم بالنسبة الى مراتب معارف البشر ناقصة ومراتب معارف البشر بالنسبة الى مراتب معارف الملائكة ناقصة فكذلك معارف بعض تلك الملائكة بالنسبة الى مراتب معارف الباقين متفاوتة وكما ان المخالفة بين نوع الفرس ونوع الانسان بالماهية لابالعوارض فكذا المخالفة بين شخص كل واحد من الملائكة وبين شخص الآخر بالماهية فاذا كانت اشخاصها متفاوتة بالماهية لابالعوارض كانت لامحالة متفاوتة فى درجات المعرفة وفى مراتب التجلى فهذا هو المراد من قوله فالسابقات سبقا فهاتان الكلمتان المراد منهما شرح احوال قوتهم العاقلة واما قوله فالمدبرات امرا فهو اشارة الى شرح حال قوتهم العاملة وذلك لان كل حال من احوال العالم السفلى مفوض الى تدبير واحد من الملائكة الذين هم عمار العالم العلوى وسكان بقاع السموات ولما كان التدبير لايتم الابعد العلم لاجرم قدم شرح القوة العاقلة التى لهم على شرح القوة العاملة التى لهم فهذا الذى ذكرته احتمال ظاهر والله اعلم بمراده من كلامه واعلم ان ابامسلم بن بحر الاصفهانى طعن فى حمل هذه الكلمات على الملائكة وقال واحد النازعات نازعة وهو من لفظ الاناث وقد نزه الله تعالى الملائكة عن التأنيث وعاب قول الكفار حيث قال وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا واعلم ان هذا الطعن لايتوجه على تفسيرنا لان المراد الاشياء ذوات النزع وهذا القدر لايقتضى ماذكر من التأنيث (الوجه الثانى) فى تأويل هذه الكلمات انها هى النجوم وهو قول الحسن البصرى ووصف النجوم بالنازعات يحتمل وجوها (احدها) كأنها تنزع من تحت الارض فتجذب الى مافوق الارض فاذا كانت منزوعة كانت ذوات نزوع فيصح ان يقال انها نازعة على قياس اللابن والتامر (وثانيها) ان النازعات من قولهم نزع اليه اى ذهب نزوعا هكذا قاله الواحدى فكأنها تطلع وتغرب بالنزع والسوق (والثالث) ان يكون ذلك من قولهم نزعت الخيل اذا جرت فمعنى والنازعات اى والجاريات على السير المقدر والحد المعين وقوله غرقا يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون حالا من النازعات اى هذه الكواكب كالغرق فى ذلك النزع والارادة وهو اشارة الى كمال حالها فى تلك الارادة فان قيل اذا لم تكن الافلاك والكواكب احياء ناطقة فامعنى وصفها بذلك قلنا هذا يكون على سبيل التشبيه كقوله تعالى وكل فى فلك يسبحون فان الجمع بالواو والنون يكون للعقلاء ثم انه ذكر فى الكواكب على سبيل التشبيه (والثانى) ان يكون معنى غرقها غيبوبتها فى افق الغرب فالنازعات اشارة الى طلوعها وغرقا اشارة الى غروبها اى تنزع ثم تغرق اغراقا وهذا الوجه ذكره قوم من المفسرين اما قوله والناشطات نشطا قال صاحب الكشاف معناه انها تخرج من

وغرقا مصدر مؤكد بحذف الزوائد اى اغراقا فى النزع حيث تنزعها من اقاصى الاجساد قال ابن مسعود رضى الله عنه تنزع روح الكافر من جسده من تحت كل شعرة ومن تحت الاظافر واصول القدمين ثم تغرقها فى جسده ثم تنزعها حتى اذا كادت تخرج تردها فى جسده فهذا عملها بالكفار وقيل يرى الكافر نفسه فى وقت النزع كأنها تغرق وانتصاب نشطا وسبحا وسبقا ايضا على المصدرية واما امرا فمفعول للمدبرات وتنكيره للتهويل والتفخيم ويجوز ان يراد بالسابحات ومابعدها طوائف من الملائكة يسبحون فى مضيهم اى يسرعون فيه فيسبقون الى ما امروا به من الامور الدنيوية والاخروية والمقسم عليه محذوف تعويلا على اشارة ماقبله من المقسم به اليه ودلالة مابعده من احوال القيامة عليه وهو لتبعثن فان الاقسام بمن يتولى نزع الارواح ويقوم بتدبير امورها يلوح بكون المقسم عليه من قبيل تلك الامور لامحالة وفيه من الجزالة مالايخفى وقد جوز ان يكون اقساما بالنجوم التى تنزع من المشرق الى المغرب غرقا فى النزع بأن تقطع الفلك حتى تنحط فى اقصى الغرب وتنشط من برج الى برج اى تخرج من نشط الثور اذا خرج من بلد الى بلد وتسبح فى الفلك فيسبق بعضها بعضا فتدبر امرا نيط بها كاختلاف الفصول وتقدير الازمنة

برج الى برج من قولك ثورنا شط اذا خرج من بلد الى بلد واقول يرجع حاصل هذا
الكلام الى ان قوله والنازعات غرقا اشارة الى حركتها اليومية والناشطات نشطا اشارة
الى انتقالها من برج الى برج وهو حركتها المخصوصة بها فى افلاكها الخاصة والعجب ان
حركاتها اليومية قسرية وحركتها من برج الى برج ليست قسرية بل ملائمة لذواتها فلا
جرم عبر عن الاول بالنزع وعن الثانى بالنشط فتأمل ايها المسكين فى هذه الاسرار وأما
قوله والسابحات سبحا فقال الحسن وأبو عبيدة رحمهما الله هى النجوم تسبح فى الفلك لان
مرورها فى الجو كالسبح ولهذا قال كل فى فلك يسبحون واما قوله فالسابقات سبقا فقال
الحسن وأبو عبيدة هى النجوم يسبق بعضها بعضا فى السير بسبب كون بعضها أسرع
حركة من البعض او بسبب رجوعها او استقامتها واما قوله تعالى فالمدبرات
أمرا ففيه وجهان (أحدهما) ان بسبب سيرها وحركتها يتميز بعض الاوقات عن بعض
فتظهر أوقات العبادات على ماقال تعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد
وقال يسألونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج وقال لتعلموا عدد السنين
والحساب ولان بسبب حركة الشمس تختلف الفصول الاربعة ويختلف بسبب اختلافها
احوال الناس فى المعاش فلاجرم أضيفت اليها هذه التدبيرات (والثانى) انه لما ثبت
بالدليل ان كل جسم محدث ثبت ان الكواكب محدثة مفتقرة الى موجد يوجدها والى
صانع يخلقها ثم بعد هذا لوقدرنا ان صانعها اودع فيها قوى مؤثرة فى احوال هذا العالم
فهذا لايطعن فى الدين البتة وان لم نقل بثبوت هذه القوى ايضا لكننا نقول ان الله سبحانه
وتعالى اجرى عادته بأن جعل كل واحد من احوالها المخصوصة سببا لحدوث حادث
مخصوص فى هذا العالم كما جعل الاكل سببا للشبع والشرب سببا للرى ومماسة النار
سببا للاحتراق فالقول بهذا المذهب لايضر الاسلام البتة بوجه من الوجوه والله اعلم
بحقيقة الحال (الوجه الثالث) فى تفسير هذه الكلمات الخمسة انها هى الارواح وذلك
لان نفس الميت تنزع يقال فلان فى النزع وفلان ينزع اذا كان فى سياق الموت والانفس
نازعات عند السياق ومعنى غرقا اى نزعا شديدا ابلغ مايكون واشد من اغراق النازع
فى القوس وكذلك تنشط لان النشط معناه الخروج ثم ان الارواح البشرية الخالية عن
العلائق الجسمانية المشتاقة الى الاتصال بالعالم العلوى بعد خروجها من ظلمة الاجساد
تذهب الى عالم الملائكة ومنازل القدس على اسرع الوجوه فى روح وريحان فعبر
عن ذهابها على هذه الحالة بالسباحة ثم لاشك ان مراتب الارواح فى النفرة عن الدنيا
ومحبة الاتصال بالعالم العلوى مختلفة فكلما كانت أتم فى هذه الاحوال كان سيرها الى
هناك أسبق وكلما كانت اضعف كان سيرها الى هناك أثقل ولاشك ان الاراوح السابقة
الى هذه الاحوال اشرف فلاجرم وقع القسم بها ثم ان هذه الارواح الشريفة العالية
لايبعد ان يكون فيها مايكون لقوتها وشرفها يظهر منها آثار فى احوال هذا العالم فهى

وتبين مواقيت العبادات وحيث
كانت حركاتها من المشرق الى
المغرب قسرية وحركاتها من برج
الى برج ملائمة عبر عن الاولى
بالنزع وعن الثانية بالنشط او بأنفس
الغزاة اوايديهم التى تنزع القسى
باغراق السهام وينشطون بالسهم
للرمى ويسبحون فى البر والبحر
فيسبقون الى حرب العدو و
فيدبرون امرها او بخيلهم التى
تنزع فى اعنتها نزعا تغرق فيه الاعنة
لطول اعناقها لانها عراب وتخرج
من دار الاسلام الى دار الحرب
وتسبح فى جريها لتسبق الى الغاية
فتدبر امر الظفر والغلبة واسناد
التدبير اليها لانها من اسبابه هذا
والذى يليق بشأن التنزيل هو
الاول وقوله تعالى (يوم ترجف
الراجفة) منصوب بالجواب
المضمر والمراد بالراجفة الواقعة
التى ترجف عندها الاجرام
الساكنة اى تتحرك حركة شديدة
وتتزلزل زلزلة عظيمة كالارض
والجبال وهى النفخة الاولى وقيل
الراجفة الارض والجبال لقوله
تعالى يوم ترجف الارض والجبال
وقوله تعالى (تتبعها الرادفة)
اى الواقعة التى تردف الاولى
وهى النفخة الثانية حال من
الراجفة مصححة لوقوع اليوم
ظرفا للبعث اى لتبعثن يوم النفخة
الاولى حال كون النفخة الثانية
تابعة لها لاقبل ذلك فانه عبارة
عن الزمان الممتد الذى يقع فيه
النفختان وبينهما اربعون سنة
واعتبار امتداده مع ان البعث
لايكون الاعند النفخة

المدبرات امرا اليس ان الانسان قديرى استاذه فى المنام ويسأله عن مشكله فيرشده اليها اليس ان الابن قديرى اباه فى المنام فيهديه الى كنز مدفون اليس ان جالينوس قال كنت مريضا فعجزت عن علاج نفسى فرأيت فى المنام واحدا ارشدنى الى كيفية العلاج اليس ان الغزالى قال ان الارواح الشريفة اذا فارقت ابدانها ثم اتفق انسان مشابه للانسان الاول فى الروح والبدن فانه لا يبعد ان يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على اعمال الخير فتسمى تلك المعاونة الهاما ونظيره فى جانب النفوس الشريرة وسوسة وهذه المعانى وان لم تكن منقولة عن المفسرين الا ان اللفظ محتمل لها جدا (الوجه الرابع) فى تفسير هذه الكلمات الخمس انها صفات خيل الغزاة فهى نازعات لانها تنزع فى اعنتها نزعا تغرق فيه الاعنة لطول اعناقها لانها عراب وهى ناشطات لانها تخرج من دار الاسلام الى دار الحرب من قولهم ثور ناشط اذا خرج من بلد الى بلد وهى سابحات لانها تسبح فى جريها وهى سابقات لانها تسبق الى الغاية وهى مدبرات لامر الغلبة والظفر واسناد التدبير اليها مجاز لانها من اسبابه (الوجه الخامس) وهو اختيار ابى مسلم رحمه الله ان هذه صفات الغزاة فالنازعات ايدى الغزاة يقال للرامى نزع فى قوسه ويقال اغرق فى النزع اذا استوفى مد القوس والناشطات السهام وهى خروجها عن ايدى الرماة ونفوذها وكل شئ حللته فقد نشطته ومنه نشاط الرجل وهو انبساطه وخفته والسابحات فى هذا الموضع الخيل وسبحها العدو ويجوز ان يعنى به الابل ايضا والمدبرات مثل المعقبات والمراد انه يأتى فى ادبار هذا الفعل الذى هو نزع السهام وسبح الخيل وسبقها الامر الذى هو النصر ولفظ التأنيث انما كان لان هؤلاء جماعات كما قيل المدبرات ويحتمل ان يكون المراد الآلة من القوس والاوهاق على معنى المنزوع فيها والمنشوط بها (الوجه السادس) انه يمكن تفسير هذه الكلمات بالمراتب الواقعة فى رجوع القلب من غير الله تعالى الى الله فالنازعات غرقا هى الاوراح التى تنزع الى اعتلاق العروة الوثقى اوالمنزوعة عن محبة غير الله تعالى والناشطات نشطا هى انها بعد الرجوع عن الجسمانيات تأخذ فى المجاهدة والتخلق باخلاق الله سبحانه وتعالى بنشاط تام وقوة قوية والسابحات سبحا ثم انها بعد المجاهدة تسرح فى امر الملكوت فتقع فى تلك البحار فتسبح فيها فالسابقات سبقا اشارة الى تفاوت الارواح فى درجات سيرها الى الله تعالى فالمدبرات امرا اشارة الى ان آخر مراتب البشرية متصلة بأول درجات الملكية فلما انتهت الارواح البشرية الى اقصى غاياتها وهى مرتبة السبق اتصلت بعالم الملائكة وهو المراد من قوله فالمدبرات امرا فالاربعة الاول هى المراد من قوله يكاد زيتها يضئ والخامسة هى النار فى قوله ولو لم تمسسه نار واعلم ان الوجوه المنقولة عن المفسرين غير منقوله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نصا حتى لا يمكن الزيادة عليها بل انما ذكروها لكون اللفظ محتملا لها

الثانية لتهويل اليوم ببيان كونه موقعا لداهيتين عظيمتين لا يبقى عند وقوع الاولى حى الا مات ولا عند وقوع الثانية ميت الا بعث وقام ووجه اضافته الى الاولى ظاهر وقيل يوم ترجف منصوب باذكر فتكون الجملة استئنافا مقررا لمضمون الجواب المضمر كانه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذكر لهم يوم النفختين فانه وقت بعثهم وقيل هو منصوب بما دل عليه قوله تعالى (قلوب يومئذ واجفة) اى يوم ترجف وجفت القلوب قيل قلوب مبتدأ ويومئذ متعلق بواجفة وهى صفة للقلوب مسوغة لوقوعه مبتدأ وقوله تعالى (ابصارها) اى ابصار اصحابها (خاشعة) جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا لقلوب وقد مر ان حق الصفة ان تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند السامع حتى قالوا ان الصفات قبل العلم بها اخبار والاخبار بعد العلم بها صفات فحيث كان ثبوت الوجيف للقلوب وثبوت الخشوع لابصار اصحابها سواء فى المعرفة والجهالة كان جعل الاول عنوانا للموضوع مسلم الثبوت مفروغا عنه وجعل الثانى مخبرا به مقصود الافادة تحكما بحتا على ان الوجيف الذى هو عبارة عن شدة اضطراب القلب وقلقه من الخوف والوجل اشد من خشوع البصر واهول فجعل اهون الشرين عمدة واشدهما فضلة مما لا عهد له فى الكلام وايضا فتخصيص الخشوع

فاذا كان احتمال اللفظ لماذ كرناه ليس دون احتماله للوجوه التى ذكروها لم يكن ماذكروه اولى مماذكرناه الاانه لابدههنا من دقيقة وهو ان اللفظ محتمل للكل فان وجدنا بين هذه المعانى مفهوما واحدا مشتركا حملنا اللفظ على ذلك المشترك وحينئذ يندرج تحته جميع هذه الوجوه امااذالم يكن بين هذه المفهومات قدر مشترك تعذر حمل اللفظ على الكل لان اللفظ المشترك لايجوز استعماله لافادة مفهوميه معا فحينئذ لانقول مراد الله تعالى هذا بل نقول يحتمل ان يكون هذا هو المراد اماالجزم فلاسبيل لنااليه ههنا (الاحتمال الثانى) وهو ان لاتكون الالفاظ الخمسة صفات لشئ واحد بل لاشياء مختلفة ففيه ايضا وجوه (الاول) النازعات غرقا هى القسى والناشطات نشطا الاوهاق والسابحات السفن والسابقات الخيل والمدبرات الملائكة رواه واصل بن السائب عن عطاء (الثانى) نقل عن مجاهد فى النازعات والناشطات والسابحات انها الموت وفى السابقات والمدبرات انها الملائكة واضافة النزع والنشط والسبح الى الموت مجاز بمعنى انها حصلت عند حصوله (الثالث) قال قتادة الجميع هى النجوم الاالمدبرات فانهاهى الملائكة (المسئلة الثالثة) ذكر فالسابقات بالفاء والتى قبلها بالواو وفى علته وجهان (الاول) قال صاحب الكشاف ان هذه مسببة عن التى قبلها كأنه قيل واللاتى سبحن فسبقن كما تقول قام فذهب اوجب الفاء ان القيام كان سببا للذهاب ولو قلت قام وذهب لم تجعل القيام سببا للذهاب قال الواحدى قول صاحب النظم غير مطرد فى قوله فالمدبرات امرا لانه يبعدان يجعل السبق سببا للتدبير واقول يمكن الجواب عن اعتراض الواحدى رحمه الله من وجهين (الاول) لايبعد ان يقال انها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ماامرت بتدبيرها واصلاحها فتكون هذه افعالا يتصل بعضها ببعض كقولك قام زيد فذهب فضرب عمرا (الثانى) لايبعد ان يقال انهم لما كانوا سابقين فى اداء الطاعات متسارعين اليها ظهرت امانتهم فلهذا السبب فوض الله اليهم تدبير بعض العالم (الوجه الثانى) ان الملائكة قسمان الرؤساء والتلامذة والدليل عليه انه سبحانه وتعالى قال قل يتوفاكم ملك الموت ثم قال حتى اذا جاء احدكم الموت توفته رسلنا فقلنا فى التوفيق بين الآيتين ان ملك الموت هو الرأس والرئيس وسائر الملائكة هم التلامذة اذا عرفت هذا فنقول النازعات والناشطات والسابحات محمولة على التلامذة الذين هم يباشرون العمل بأنفسهم ثم قوله تعالى فالسابقات فالمدبرات اشارة الى الرؤساء الذين هم السابقون فى الدرجة والشرف وهم المدبرون لتلك الاحوال والاعمال * قوله سبحانه وتعالى (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة) فيه مسائل (المسئلة الاولى) جواب القسم المتقدم محذوف او مذكور فيه وجهان (الاول) انه محذوف ثم على هذا الوجه فى الآية احتمالات (الاول) قال الفراء التقدير لتبعثن والدليل عليه ماحكى الله تعالى عنهم انهم قالوا أئذا كنا عظاما ناخرة اى انبعث اذا صرنا عظاما ناخرة (الثانى) قال الاخفش

بقلوب موصوفة بصفة معينة غير مشعرة بالعموم والشمول تهوين للخطب فى موقع التهويل فالوجه ان يقال تنكير قلوب يقوم مقام الوصف المختص سواء حمل على التنويع كما قيل وان لم يذكر النوع المقابل فان المعنى منسحب عليه او على التكثير كما فى شر أهر ذاناب فان التفخيم كما يكون بالكيفية يكون بالكمية ايضا كأنه قيل قلوب كثيرة يوم اذ يقع النفختان واجفة اى شديدة الاضطراب قال ابن عباس رضى الله عنهما خائفة وجلة وقال السدى زائلة عن اماكنها كما فى قوله تعالى اذ القلوب لدى الحناجر وقوله تعالى (يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة) حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به اثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمى وذكر مقدماته الهائلة ومايعرض عند وقوعها للقلوب والابصار اى يقولون اذا قيل لهم انكم تبعثون منكرين له متعجبين منه أئنا لمردودون بعد موتنا فى الحافرة اى فى الحالة الاولى يعنون الحياة من قولهم رجع فلان فى حافرته اى فى طريقته التى جاء فيها فحفرها اى اثر فيها بمشيه وتسميتها حافرة مع انها محفورة كقوله تعالى فى عيشة راضية اى منسوبة الى الحفر والرضا او كقولهم نهاره صائم على تشبيه القابل بالفاعل وقرئ فى الحفرة وهى بمعنى المحفورة وقوله تعالى (أئذا

والزجاج لتنفخن في الصور نفختين ودل على هذا المحذوف ذكر الراجفة والرادفة وهما النفختان (الثالث) قال الكسائي الجواب المضمر هو ان القيامة واقعة وذلك لانه سبحانه وتعالى قال والذاريات ذروا ثم قال انما توعدون لصادق وقال تعالى والمرسلات عرفا انما توعدون لواقع فكذا ههنا فان القرآن كالسورة الواحدة (القول الثاني) ان الجواب مذكور وعلى هذا القول احتمالات (الاول) المقسم عليه هو قوله قلوب يومئذ واجفة ابصارها خاشعة والتقدير والنازعات غرقا ان يوم ترجف الراجفة تحصل قلوب واجفة وابصارها خاشعة (الثاني) جواب القسم هو قوله هل اتاك حديث موسى فان هل ههنا بمعنى قد كما في قوله هل اتاك حديث الغاشية اي قد اتاك حديث الغاشية (الثالث) جواب القسم هو قوله ان في ذلك لعبرة لمن يخشى (المسئلة الثانية) ذكروا في ناصب يوم وجهين (احدهما) انه منصوب بالجواب المضمر والتقدير لتبعثن يوم ترجف الراجفة فان قيل كيف يصح هذا مع انهم لا يبعثون عند النفخة الاولى والراجفة هي النفخة الاولى قلنا المعنى لتبعثن في الوقت الواسع الذي يحصل فيه النفختان ولاشك انهم يبعثون في بعض ذلك الوقت الواسع وهو وقت النفخة الاخرى ويدل على ما قلناه ان قوله تتبعها الرادفة جعل حالا عن الراجفة (والثاني) ان ينصب يوم ترجف بما دل عليه قلوب يومئذ واجفة اي يوم ترجف وجفت القلوب (المسئلة الثالثة) الرجفة في اللغة تحتمل وجهين (احدهما) الحركة لقوله تعالى يوم ترجف الارض والجبال (الثاني) الهدة المنكرة والصوت الهائل من قولهم رجف الرعد يرجف رجفا ورجيفا وذلك تردد اصواته المنكرة وهدهدته في السحاب ومنه قوله تعالى فأخذتهم الرجفة فعلى هذا الوجه الراجفة صيحة عظيمة فيها هول وشدة كالرعد واما الرادفة فكل شيء جاء بعد شيء آخر يقال ردفه اي جاء بعده واما القلوب الواجفة فهي المضطربة الخائفة يقال وجف قلبه يجف وجافا اذا اضطرب ومنه ايجاف الدابة وهو حملها على السير الشديد وللمفسرين عبارات كثيرة في تفسير الواجفة ومعناها واحد قالوا خائفة وجلة زائلة عن اماكنها قلقة مستوفزة مرتكضة شديدة الاضطراب غير ساكنة ابصارها خاشعة اي ابصار اهلها خاشعة وهو كقوله خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي اذا عرفت هذا فنقول اتفق جمهور المفسرين على ان هذه الامور احوال يوم القيامة وزعم ابو مسلم الاصفهاني انه ليس كذلك ونحن نذكر تفاسير المفسرين ثم نشرح قول ابي مسلم (اما القول الاول) وهو المشهور بين الجمهور ان هذه الامور احوال يوم القيامة فهؤلاء ذكروا وجوها (احدها) ان الراجفة هي النفخة الاولى وسميت به اما لان الدنيا تتزلزل وتضطرب عندها واما لان صوت تلك النفخة هي الراجفة كما بينا القول فيه والرادفة رجفة اخرى تتبع الاولى فتضطرب الارض لاحياء الموتى كما اضطربت في الاولى لموت الاحياء على ما ذكره تعالى في سورة الزمر ثم يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ان بين النفختين اربعين عاما ويروى

كنا عظاما نخرة) تأكيد لانكار الرد ونفيه بنسبته الى حالة منافية له والعامل في اذا مضمر يدل عليه مردودون اي أئذا كنا عظاما بالية نرد ونبعث مع كونها ابعد شيء من الحياة وقرئ اذا كنا على الخبر واسقاط حرف الانكار وناخرة من نخر العظم فهو نخر وناخر وهو البالي الاجوف الذي تمر به الريح فيسمع له نخير (قالوا) حكاية لكفر آخر لهم متفرع على كفرهم السابق ولعل توسيط قالوا بينهما للايذان بأن صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنهم في كافة اوقاتهم حسبما ينبئ عنه حكايته بصيغة المضارع اي قالوا بطريق الاستهزاء مشيرين الى ما انكروه من الردة في الحافرة مشعرين بغاية بعدها من الوقوع (تلك اذا كرة خاسرة) اي ذات خسران او خاسرة اصحابها اي ان صحت فنحن اذن خاسرون لتكذيبنا بها وقوله تعالى (فانما هي زجرة واحدة) تعليل لمقدر يقتضيه انكارهم لاحياء العظام النخرة التي عبروا عنها بالكرة فان مداره لما كان استصعابهم اياها رد عليهم ذلك فقيل لا تستصعبوها فانما هي صيحة واحدة اي حاصلة بصيحة واحدة وهي النفخة الثانية عبر عنها بها تنبيها على كمال اتصالها بها كأنها عينها او قيل هي راجع الى الرادفة فقوله تعالى (فاذا هم بالساهرة)

ان فى هذه الاربعين يمطر الله الارض ويصير ذلك الماء عليها كالنطف وان ذلك كالسبب للاحياء وهذا مما لاحاجة اليه فى الاعادة ولله ان يفعل مايشاء ويحكم مايريد (وثانيها) الراجفة هى النفخة الاولى والرادفة هى قيام الساعة من قوله عسى ان يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون اى القيامة التى يستعجلون الكفرة استبعادا لها فهى رادفة لهم لاقترابها (وثالثها) الراجفة الارض والجبال من قوله يوم ترجف الارض والجبال والرادفة السماء والكواكب لانها تنشق وتنتثر كواكبها على اثر ذلك (ورابعها) الراجفة هى الارض تتحرك وتتزلزل والرادفة زلزلة ثانية تتبع الاولى حتى تنقطع الارض وتفنى (القول الثانى) وهو قول ابى مسلم ان هذه الاحوال ليست احوال يوم القيامة وذلك لانا نقلنا عنه انه فسر النازعات بنزع القوس والناشطات بخروج السهم والسابحات بعدو الفرس والسابقات بسبقها والمدبرات بالامور التى تحصل ادبار ذلك الرمى والعدو ثم بنى على ذلك فقال الراجفة هى خيل المشركين وكذلك الرادفة ويراد بذلك طائفتان من المشركين غزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقت احداهما الاخرى والقلوب الواجفة هى القلقة والابصار الخاشعة هى ابصار المنافقين كقوله الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت كأنه قيل لما جاء خيل العدو يرجف وردفتها اختها اضطربت قلوب المنافقين خوفا وخشعت ابصارهم جبنا وضعفا ثم قالوا أئنا لمردودون فى الحافرة اى نرجع الى الدنيا حتى نتحمل هذا الخوف لاجلها وقالوا أيضا تلك اذا كرة خاسرة فأول هذا الكلام حكاية لحال من غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين واوسطه حكاية لحال المنافقين وآخره حكاية لكلام المنافقين فى انكار الحشر ثم انه سبحانه وتعالى اجاب عن كلامهم بقوله فانما هى زجرة واحدة فاذاهم بالساهرة وهذا كلام ابى مسلم واللفظ محتمل له وان كان على خلاف قول الجمهور ثم قال تعالى قلوب يومئذ واجفة ابصارها خاشعة اعلم انه تعالى لم يقل القلوب يومئذ واجفة فانه ثبت بالدليل ان اهل الايمان لايخافون بل المراد منه قلوب الكفار ومما يؤكد ذلك انه تعالى حكى عنهم انهم يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة وهذا كلام الكفار لا كلام المؤمنين وقوله ابصارها خاشعة لان المعلوم من حال المضطرب الخائف ان يكون نظره نظر خاشع ذليل خاضع يترقب ماينزل به من الامر العظيم وفى الآية سؤالان (السؤل الاول) كيف جاز الابتداء بالنكرة (الجواب) قلوب مرفوعة بالابتداء وواجفة صفتها وابصارها خاشعة خبرها فهو كقوله ولعبد مؤمن خير من مشرك (السؤال الثانى) كيف صحت اضافة الابصار الى القلوب (الجواب) معناه ابصار اصحابها بدليل قوله يقولون ثم اعلم انه تعالى حكى ههنا عن منكرى البعث اقوالا ثلاثة (اولها) قوله تعالى (يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة) يقال رجع فلان فى حافرته اى فى طريقته التى جاء فيها فحفرها اى أثر فيها بمشيه فيها أثر قدميه حفرا فهى فى الحقيقة محفورة الا انها سميت حافرة كما

(قيل)

حينئذ بيان لترتب الكرة على الزجرة مفاجأة اى فاذاهم احياء على وجه الارض بعد ما كانوا امواتا فى جوفها وعلى الاول بيان لحضورهم الموقف عقيب الكرة التى عبر عنها بالزجرة والساهرة الارض البيضاء المستوية سميت بذلك لان السراب يجرى فيها من قولهم عين ساهرة جارية الماء وفى ضدها نائمة وقيل لان سالكها لاينام خوف الهلكة وقيل اسم لجهنم وقال الراغب هى وجه الارض وقيل هى ارض القيامة وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الساهر ارض من فضة لم يعص الله تعالى عليها قط خلقها حينئذ وقيل هى ارض يجددها الله عز وجل يوم القيامة وقيل هى اسم الارض السابعة يأتى بها الله تعالى فيحاسب الخلائق عليها وذلك حين تبدل الارض غير الارض وقال الثورى الساهرة ارض الشام وقال وهب بن منبه جبل بيت المقدس وقيل الساهرة يعنى الصحراء على شفير جهنم وقوله تعالى (هل اتاك حديث موسى) كلام مستأنف وارد لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه بأنه يصيبهم مثل ما اصاب من كان اقوى منهم واعظم ومعنى هل أتاك ان اعتبر هذا اول ما اتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام ترغيب له عليه الصلاة والسلام فى استماع حديثه كأنه قيل هل اتاك حديثه انا اخبرك به

قيل فى عيشة راضية وماء دافق اى منسوبة الى الحفر والرضا والدفق او كقولهم نهارك صائم ثم قيل لمن كان فى امر فخرج منه ثم عاد اليه رجع الى حافرته اى الى طريقته وفى الحديث ان هذا الامر لا يترك على حاله حتى يرد على حافرته اى على اول تأسيسه وحالته الاولى وقرأ ابو حيوة فى الحفرة والحفرة بمعنى المحفورة يقال حفرت اسنانه فحفرت حفرا وهى حفرة وهذه القراءة دليل على ان الحافرة فى اصل الكلمة بمعنى المحفورة اذا عرفت هذا ظهر ان معنى الآية أنرد الى اول حالنا وابتداء أمرنا فنصير احياء كما كنا (وثانيها) * قوله تعالى (أذا كنا عظاما نخرة) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة وعاصم ناخرة بالالف وقرأ الباقون نخرة بغير الف واختلفت الرواية عن الكسائى فقيل انه كان لا يبالى كيف قرأها وقيل انه كان يقرؤها بغير الف ثم رجع الى الالف واعلم ان اباعبيدة اختار نخرة وقال نظرنا فى الآثار التى فيها ذكر العظام التى قد نخرت فوجدناها كلها العظام النخرة ولم نسمع فى شئ منها الناخرة واما من سواه فقد اتفقوا على ان الناخرة لغة صحيحة ثم اختلف هؤلاء على قولين (الاول) ان الناخرة والنخرة بمعنى واحد قال الاخفش هما جميعا لغتان ايهما قرأت فحسن وقال الفراء الناخر والنخر سواء فى المعنى بمنزلة الطامع والطمع والباخل والبخل وفى كتاب الخليل نخرت الخشبة اذا بليت فاسترخت حتى تتفتت اذا مست وكذلك العظم الناخر ثم هؤلاء الذين قالوا هما لغتان والمعنى واحد اختلفوا فقال الزجاج والفراء الناخرة اشبه الوجهين بالآية لانها تشبه اواخر سائر الآى نحو الحافرة والساهرة وقال آخرون الناخرة والنخر كالطامع والطمع واللابث واللبث وفعل ابلغ من فاعل (القول الثانى) ان النخرة غير والناخرة غير اما النخرة فهو من نخر العظم ينخر فهو نخر مثل عفن يعفن فهو عفن وذلك اذا بلى وصار بحيث لو لمس لتفتت واما الناخرة فهى العظام الفارغة التى يحصل من هبوب الريح فيها صوت كالنخير وعلى هذا الناخرة من النخير بمعنى الصوت كنخير النائم والمخنوق لا من النخر الذى هو البلى (المسئلة الثانية) اذا منصوب بمحذوف تقديره اذا كنا عظاما نرد ونبعث (المسئلة الثالثة) اعلم ان حاصل هذه الشبهة ان الذى يشير اليه كل احد الى نفسه بقوله انا هو هذا الجسم المبنى بهذه البنية المخصوصة فاذا مات الانسان فقد بطل مزاجه وفسد تركيبه فيمتنع اعادته لوجوه (احدها) انه لا يكون الانسان العائد هو الانسان الاول الا اذا دخل التركيب الاول فى الوجود مرة اخرى وذلك قول باعادة عين ما عدم اولا وهذا محال لان الذى عدم لم يبق له عين ولا ذات ولا خصوصية فاذا دخل شئ آخر فى الوجود استحال أن يقال بأن هذا العائد هو عين ما فنى اولا (وثانيها) ان تلك الاجزاء تصير ترابا وتتفرق وتختلط بأجزاء كل الارض وكل المياه وكل الهواء فتميز تلك الاجزاء بأعيانها عن كل هذه الاشياء محال (وثالثها) ان الاجزاء الترابية باردة يابسة قشفة فتولد الانسان الذى لابد وان يكون حارا رطبا فى مزاجه عنها محال هذا تمام تقرير كلام هؤلاء الذين احتجوا على

وان اعتبر اتيانه قبل هذا وهو المتبادر من الايجاز فى الاقتصاص حمله عليه الصلاة والسلام على ان يقر بأمر يعرفه قبل ذلك كأنه قيل اليس قد اتاك حديثه وقوله تعالى (اذ ناداه ربه بالواد المقدس) ظرف للحديث لا للاتيان لاختلاف وقتيهما (طوى) بضم الطاء غير منون وقرئ منونا وقرئ بالكسر منونا وغير منون فمن نونه اوله بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى مصدر لنادى او المقدس اى ناداه نداءين او المقدس مرة بعد اخرى (اذهب الى فرعون) على ارادة القول وقيل هو تفسير للنداء اى ناداه اذهب وقيل هو على حذف أن المفسرة ويدل عليه قراءة عبد الله ان اذهب لان فى النداء معنى القول (انه طغى) تعليل للامر او لوجوب الامتثال به (فقل) بعد ما أتيته (هل لك) رغبة وتوجه (الى ان تزكى) بحذف احد التاءين من تتزكى اى تتطهر من دنس الكفر والطغيان وقرئ تزكى بالتشديد (واهديك الى ربك) وأرشدك الى معرفته عز وجل فتعرفه (فتخشى) اذ الخشية لا تكون الا بعد معرفته تعالى قال عز وجل انما يخشى الله من عباده العلماء وجعل الخشية غاية للهداية لانها ملاك الامر من خشى الله تعالى اتى منه كل خير ومن امن اجترأ على كل شر أمر عليه الصلاة والسلام بان يخاطبه بالاستفهام الذى معناه العرض

انكار البعث بقولهم أئذا كنا عظاما نخرة (الجواب) عن هذه الشبهة من وجوه (اولها) وهو الاقوى لانسلم ان المشار اليه لكل احد بقوله انا هو هذا الهيكل ثم ان الذى يدل على فساده وجهان (الاول) ان اجزاء هذا الهيكل فى الذوبان والتبدل والذى يشير اليه كل أحد الى نفسه بقوله انا ليس فى التبدل والمتبدل مغاير لما هو غير متبدل (والثانى) ان الانسان قد يعرف انه هو حال كونه غافلا عن اعضائه الظاهرة والباطنة والمشعور به مغاير لما هو غير مشعور به والا لاجتمع النفى والاثبات على الشئ الواحد وهو محال فثبت ان المشار اليه لكل احد بقوله انا ليس هو هذا الهيكل ثم ههنا ثلاث احتمالات (احدها) ان يكون ذلك الشئ موجودا قائما بنفسه ليس بجسم ولا بجسمانى على ما هو مذهب طائفة عظيمة من الفلاسفة ومن المسلمين (وثانيها) ان يكون جسما مخالفا بالماهية لهذه الاجسام القابلة للانحلال والفساد سارية فيها سريان النار فى الفحم وسريان الدهن فى السمسم وسريان ماء الورد فى جرم الورد فاذا فسد هذا الهيكل تقلصت تلك الاجزاء وبقيت حية مدركة عاقلة اما فى الشقاوة او فى السعادة (وثالثها) ان يقال انه جسم مساو لهذه الاجسام فى الماهية الا ان الله تعالى خصها بالبقاء والاستمرار من اول حال تكون الشخص فى الوجود الى آخر عمره واما سائر الاجزاء المتبدلة تارة بالزيادة واخرى بالنقصان فهى غير داخلة فى المشار اليه بقوله انا فعند الموت تنفصل تلك الاجزاء وتبقى حية اما فى السعادة او فى الشقاوة واذ ظهرت هذه الاحتمالات ثبت انه لايلزم من فساد البدن وتفرق اجزائه فساد ما هو الانسان حقيقة وهذا مقام حسن متين تنقطع به جميع شبهات منكرى البعث وعلى هذا التقدير لايكون لصيرورة العظام نخرة بالية متفرقة تأثير فى دفع الحشر والنشر البتة سلمنا على سبيل المسامحة ان الانسان هو مجموع هذا الهيكل فلم قلتم ان الاعادة ممتنعة (قوله اولا) المعدوم لايعاد (قلنا) اليس ان حال عدمه لم يمتنع عندكم صحة الحكم عليه بأنه يمتنع عوده فلم لايجوز ان لايمتنع على قولنا ايضا صحة الحكم عليه بالعود (قوله ثانيا) الاجزاء القليلة مختلطة بأجزاء العناصر الاربعة (قلنا) لكن ثبت ان خالق العالم عالم بجميع الجزئيات وقادر على كل الممكنات فيصح منه جمعها بأعيانها واعادة الحياة اليها (قوله ثالثا) الاجسام القشفة اليابسة لاتقبل الحياة (قلنا) نرى السمندل يعيش فى النار والنعامة تبتلع الحديدة المحماة والحيات الكبار العظام متولدة فى الثلوج فبطل الاعتماد على الاستقراء والله الهادى الى الصدق والصواب (النوع الثالث) من الكلمات التى حكاها الله تعالى عن منكرى البعث ❊ قوله تعالى (قالوا تلك اذا كرة خاسرة) والمعنى كرة منسوبة الى الخسران كقولك تجارة رابحة او خاسر اصحابها والمعنى انها ان صحت فنحن اذا خاسرون لتكذيبنا بها او هذا منهم استهزاء ❊ واعلم انه تعالى لما حكى عنهم هذه الكلمات ❊ قال (فانما هى زجرة واحدة فاذا هم بالساهرة) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الفاء فى قوله فاذا هم متعلق بمحذوف معناه لاتستصعبوها فانما هى زجرة واحدة

ليستدعيه بالتلطف فى القول ويستنزله بالمداراة من عتوه وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى والفاء فى قوله تعالى (فأراه الآية الكبرى) فصيحة تفصح عن جمل قد طويت تعويلا على تفصيلها فى السورة الاخرى فانه عليه الصلاة والسلام ما أراه اياها عقيب هذا الامر بل بعد ما جرى بينه وبين الله تعالى ما جرى من الاستدعاء والاجابة وغيرهما من المراجعات وبعد ما جرى بينه وبين فرعون ما جرى من المحاورات الى ان قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين والاراءة اما بمعنى التبصير او التعريف فان اللعين حين ابصرها عرفها وادعاء سحريتها انما كان اراءة منه واظهار التجلد ونسبتها اليه عليه الصلاة والسلام بالنظر الى الظاهر كما ان نسبتها الى نون العظمة فى قوله تعالى ولقد أريناه آياتنا بالنظر الى الحقيقة والمراد بالآية الكبرى قلب العصا حية وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فانها كانت المقدمة والاصل والاخرى كالتبع لها او هما جميعا وهو قول مجاهد فانهما كالآية الواحدة وقد عبر عنهما بصيغة الجمع حيث قال اذهب انت واخوك بآياتى باعتبار ما فى تضاعيفهما من بدائع الامور التى كل منها آية بينة لقوم يعقلون كما مر تفصيله فى سورة طه ولامساغ لحملها على

يعنى لاتحسبوا تلك الكرة صعبة على الله فانها سهلة هينة فى قدرته (المسئلة الثانية) يقال زجر البعير اذا صاح عليه والمراد من هذه الصيحة النفخة الثانية وهى صيحة اسرافيل قال المفسرون يحييهم الله فى بطون الارض فيسمعونها فيقومون ونظير هذه الآية قوله تعالى وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق (المسئلة الثالثة) الساهرة الارض البيضاء المستوية سميت بذلك لوجهين (الاول) ان سالكها لا ينام خوفا منها (الثانى) ان السراب يجرى فيها من قولهم عين ساهرة جارية الماء وعندى فيه وجه ثالث وهى ان الارض انما تسمى ساهرة لان من شدة الخوف فيها يطير النوم عن الانسان فتلك الارض التى يجتمع الكفار فيها فى موقف القيامة يكونون فيها فى أشد الخوف فسميت تلك الارض ساهرة لهذا السبب ثم اختلفوا من وجه آخر فقال بعضهم هى أرض الدنيا وقال آخرون هى أرض الآخرة لانهم عند الزجر والصيحة ينتقلون أفواجا الى أرض الآخرة ولعل هذا الوجه أقرب ❊ قوله تعالى (هل أتاك حديث موسى اذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى اذهب الى فرعون انه طغى) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن وجه المناسبة بين هذه القصة وبين ماقبلها من وجهين (الاول) انه تعالى حكى عن الكفار اصرارهم على انكار البعث حتى انتهوا فى ذلك الانكار الى حد الاستهزاء فى قولهم تلك اذا كرة خاسرة وكان ذلك يشق على محمد صلى الله عليه وسلم فذكر قصة موسى عليه السلام وبين انه تحمل المشقة الكثيرة فى دعوة فرعون ليكون ذلك كالتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم (الثانى) ان فرعون كان أقوى من كفار قريش وأكثر جمعا واشد شوكة فلما تمرد على موسى أخذه الله نكال الآخرة والاولى فكذلك هؤلاء المشركون فى تمردهم عليك ان أصروا أخذهم الله وجعلهم نكالا (المسئلة الثانية) قوله هل أتاك يحتمل أن يكون معناه أليس قد أتاك حديث موسى هذا ان كان قد أتاه ذلك قبل هذا الكلام اما ان لم يكن قد أتاه فقد يجوز ان يقال هل أتاك كذا أم أنا أخبرك به فان فيه عبرة لمن يخشى (المسئلة الثالثة) الوادى المقدس المبارك المطهر وفى قوله طوى وجوه (احدها) انه اسم واد بالشام وهو عند الطور الذى أقسم الله به فى قوله والطور وكتاب مسطور وقوله وناديناه من جانب الطور الايمن (والثانى) انه بمعنى يارجل بالعبرانية فكأنه قال يارجل اذهب الى فرعون وهو قول ابن عباس (والثالث) أن يكون قوله طوى أى ناداه طوى من الليلة اذهب الى فرعون لانك تقول جئتك بعد طوى أى بعد ساعة من الليل (والرابع) أن يكون المعنى بالواد المقدس الذى طوى أى بورك فيه مرتين (المسئلة الرابعة) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو طوى بضم الطاء غير منون وقرأ الباقون بضم الطاء منونا وروى عن أبى عمرو طوى بكسر الطاء قال وطوى مثل ثنى وهما اسمان للشئ المثنى والطى بمعنى الثنى أى ثنيت فيه البركة والتقديس قال الفراء طوى واد بين المدينة ومصر فمن صرفه قال هو ذكر سمينا به ذكرا ومن لم يصرفه جعله معدولا عن جهته كعمر وزفر ثم قال والصرف أحب الى

مجموع معجزاته فان ماعداها بين الآيتين من الآيات التسع انما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ماغلب السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما فى سورة الاعراف ولاريب فى ان هذا مطلع القصة وامر السحرة مترقب بعد (فكذب) موسى عليه السلام وسمى معجزته سحرا (وعصى) الله عز وجل بالتمرد بعدما علم صحة الامر ووجوب الطاعة اشد عصيان واقبحه حيث اجترأ على انكار وجود رب العالمين رأسا وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته عز وجل وترك العظمة التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية لا بارسال بنى اسرائيل من الاسر والقسر فقط (ثم ادبر) اى تولى عن الطاعة او انصرف عن المجلس (يسعى) اى يجتهد فى معارضة الآية اوازيد ثم اقبل اى انشأ يسعى فوضع موضعه ادبر تحاشيا عن وصفه بالاقبال وقيل ادبر هاربا من الثعبان فانه روى انه عليه الصلاة والسلام لما القى العصا انقلبت ثعبانا اشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل على الارض والاعلى على سور القصر فتوجه نحو فرعون فهرب واحدث وانهزم الناس مزدحين فمات منهم خمسة وعشرون الفا من قومه وقيل انها حين انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون

اذلم أجده فى المعدول نظيرا أى لم أجد اسما من الواو والياء عدل عن فاعلة الى فعل غير طوى (المسئلة الخامسة) تقدير الآية اذناداه ربه وقال اذهب الى فرعون وفى قراءة عبدالله ان اذهب لان فى النداء معنى القول واما ان ذلك النداء كان باسماع الكلام القديم أو باسماع الحرف والصوت وان كان على هذا الوجه فكيف عرف موسى انه كلام الله فكل ذلك قد تقدم فى سورة طه (المسئلة السادسة) ان سائر الآيات تدل على انه تعالى فى أول ما نادى موسى عليه السلام ذكر له أشياء كثيرة كقوله فى سورة طه نودى ياموسى انى أنا ربك الى قوله لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون انه طغى فدل ذلك على ان قوله ههنا اذهب الى فرعون انه طغى من جملة ما ناداه به ربه لا انه كل ما ناداه به وأيضا ليس الغرض انه عليه السلام كان مبعوثا الى فرعون فقط بل الى كل من كان فى ذلك الطرف الا انه خصه بالذكر لان دعوته جارية مجرى دعوة كل ذلك القوم (المسئلة السابعة) الطغيان مجاوزة الحد ثم انه تعالى لم يبين انه تعدى فى أى شئ فلهذا قال بعض المفسرين معناه انه تكبر على الله وكفر به وقال آخرون انه طغى على بنى اسرائل والاولى عندى الجمع بين الامرين فالمعنى انه طغى على الخالق بان كفر به وطغى على الخلق بان تكبر عليهم واستعبدهم وكما ان كمال العبودية ليس الا صدق المعاملة مع الخالق ومع الخلق فكذا كمال الطغيان ليس الا الجمع بين سوء المعاملة مع الخالق ومع الخلق واعلم انه تعالى لما بعثه الى فرعون لقنه كلامين ليخاطبه بهما فالاول * قوله (فقل هل لك الى ان تزكى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) يقال هل لك فى كذا وهل لك الى كذا كما تقول هل ترغب فيه وهل ترغب اليه قال الواحدى المبتدأ محذوف فى اللفظ مراد فى المعنى والتقدير هل لك الى أن تزكى حاجة أو اربة قال الشاعر

فهل لكم فيها الى فاننى * بصير بما أعيى النطاسى حذيما

ويحتمل ان يكون التقدير هل لك سبيل الى ان تزكى (المسئلة الثانية) الزكى الطاهر من العيوب كما قال أقتلت نفسا زكية وقال قد أفلح من زكاها وهذه الكلمة جامعة لكل ما يدعوه اليه لان المراد هل لك الى ان تفعل ما تصير به زاكيا عن كل ما لا ينبغى وذلك يجمع كل ما يتصل بالتوحيد والشرائع (المسئلة الثالثة) فيه قراءتان التشديد على ادغام تاء التفعل فى الزاى لتقاربهما والتخفيف (المسئلة الرابعة) المعتزلة تمسكوا به فى ابطال كون الله تعالى خالقا لفعل العبد بهذه الآية فان هذا استفهام على سبيل التقرير أى لك سبيل الى ان تزكى ولو كان ذلك بفعل الله تعالى لانقلب الكلام على موسى (والجواب) عن أمثاله تقدم (المسئلة الخامسة) انه تعالى لما قال لهما فقولا له قولا لينا فكانه تعالى رتب لهما ذلك الكلام اللين الرقيق وهذا يدل على انه لابد فى الدعوة الى الله من اللين والرفق وترك الغلظة ولهذا قال لمحمد صلى الله عليه وسلم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ويدل على ان الذين يخاشنون الناس ويبالغون فى التعصب كانهم على

وجعلت تقول ياموسى مرنى بما شئت ويقول فرعون انشدك بالذى ارسلك الا اخذته فأخذه فعاد عصا ويأباه ان ذلك كان قبل الاصرار على التكذيب والعصيان والتصدى للمعارضة كما يعرب عنه قوله تعالى (فحشر) اى فجمع السحرة لقوله فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين وقوله تعالى فتولى فرعون فجمع كيده اى ما يكاد به من السحرة والآلات وقيل جنوده ويجوز ان يراد جميع الناس (فنادى) فى المجمع بنفسه او بواسطة المنادى (فقال انا ربكم الاعلى) قيل قام فيهم خطيبا فقال تلك العظيمة (فأخذه الله نكال الآخرة والاولى) النكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم وهو التعذيب الذى ينكل من رآه او سمعه ويمنعه من تعاطى ما يفضى اليه ومحله النصب على انه مصدر مؤكد كوعدالله وصبغةالله كأنه قيل نكل الله به نكال الآخرة والاولى وهو الاحراق فى الآخرة والاغراق فى الدنيا وقيل مصدر لأخذ اى اخذه الله اخذ نكال الآخرة الخ وقيل مفعول له اى اخذه لاجل نكال الخ وقيل نصب على نزع الخافض اى أخذه بنكال الآخرة والاولى واضافته الى الدارين باعتبار وقوع الاخذ فيهما لا باعتبار ان ما فيه من معنى المنع يكون فيهما فان ذلك لا يتصور فى الآخرة بل فى الدنيا فان العقوبة الاخروية تنكل من سمعها وتمنعه

ضد ما أمر الله به انبياءه ورسله ❊ ثم قال تعالى (واهديك الى ربك فتخشى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) القائلون بأن معرفة الله لاتستفاد الا من الهادى تمسكوا بهذه الآية وقالوا انها صريحة فى انه يهديه الى معرفة الله ثم قالوا ومما يدل على ان هذا هو المقصود الاعظم من بعثة الرسل امران (الاول) ان قوله هل لك الى ان تزكى يتناول جميع الامور التى لابد للمبعوث اليه منها فيدخل فيه هذه الهداية فلما أعاده بعد ذلك علم انه هو المقصود الاعظم من البعثة (والثانى) ان موسى ختم كلامه عليه وذلك ينبه ايضا على انه اشرف المقاصد من البعثة (والجواب) انا لانمنع ان يكون التنبيه والاشارة معونة فى الكشف عن الحق انما النزاع فى انكم تقولون يستحيل حصوله الا من المعلم ونحن لانحيل ذلك (المسئلة الثانية) دلت الآية على ان معرفة الله مقدمة على طاعته لانه ذكر الهداية وجعل الخشية مؤخرة عنها ومفرعة عليها ونظيره قوله تعالى فى اول النحل ان انذروا انه لا اله الا أنا فاتقون وفى طه اننى انا الله لا اله الا انا فاعبدنى (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان الخشية لاتكون الا بالمعرفة قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء اى العلماء به وذلت الآية على ان الخشية ملاك الخيرات لان من خشى الله اتى منه كل خير ومن أمن اجترأ على كل شر ومنه قوله عليه السلام من خاف ادلج ومن ادلج بلغ المنزل ❊ قوله تعالى (فأراه الآية الكبرى) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الفاء فى فأراه معطوف على محذوف معلوم يعنى فذهب فأراه كقوله فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت اى فضرب فانفجرت (المسئلة الثانية) اختلفوا فى الآية الكبرى على ثلاثة اقوال (الاول) قال مقاتل والكلبى هى اليد لقوله فى طه وادخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء آية اخرى لنريك من آياتنا الكبرى (القول الثانى) قال عطاء هى العصا لانه ليس فى اليد الا انقلاب لونه الى لون آخر وهذا المعنى كان حاصلا فى العصا لانها لما انقلبت حية فلابد وان يكون قد تغير اللون الاول فاذا كل ما فى اليد فهو حاصل فى العصا ثم حصل فى العصا امور اخرى ازيد من ذلك منها حصول الحياة فى الجرم الجمادى ومنها تزايد أجزائه واجسامه ومنها حصول القدرة الكبيرة والقوة الشديدة ومنها انها كانت ابتلعت اشياء كثيرة وكأنها فنيت ومنها زوال الحياة والقدرة عنها وفناء تلك الاجزاء التى حصل بها عظمها وزوال ذلك اللون والشكل اللذين بهما صارت العصا حية وكل واحد من هذه الوجوه كان معجزا مستقلا فى نفسه فعلمنا ان الآية الكبرى هى العصا (القول الثالث) فى هذه المسئلة قول مجاهد وهو ان المراد من الآية الكبرى مجموع اليد والعصا وذلك لان سائر الآيات دلت على ان اول ما اظهر موسى عليه السلام لفرعون هو العصا ثم اتبعه باليد فوجب ان يكون المراد من الآية الكبرى مجموعهما ثم انه تعالى حكى معاملة فرعون مع موسى عليه السلام وهو مجموع امور ثلاثة ❊ (احدها) قوله (فكذب وعصى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) معنى قوله فكذب انه كذب بدلالة ذلك المعجز على صدقه واعلم صدقه

من تعاطى مايؤدى اليها لامحالة وقيل المراد بالآخرة والاولى قوله انا ربكم الاعلى وقوله ما علمت لكم من اله غيرى قيل كان بين الكلمتين اربعون سنة فالاضافة اضافة المسبب الى السبب (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل وما فعل به (لعبرة) عظيمة (لمن يخشى) اى لمن من شأنه ان يخشى وهو من من شأنه المعرفة وقوله تعالى (أأنتم اشد خلقا) خطاب لاهل مكة المنكرين للبعث بناء على صعوبته فى زعمهم بطريق التوبيخ والتبكيت بعدما بين كمال سهولته بالنسبة الى قدرة الله تعالى بقوله تعالى فانما هى زجرة واحدة اى اخلقكم بعد موتكم اشد اى اشق واصعب فى تقديركم (ام السماء) اى ام خلق السماء على عظمها وانطوائها على تعاجيب البدائع التى تحار العقول عن ملاحظة ادناها كقوله تعالى لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس وقوله تعالى اوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم وقوله تعالى (بناها) الخ بيان وتفصيل لكيفية خلقها المستفاد من قوله ام السماء وفى عدم ذكر الفاعل فيه وفيما عطف عليه من الافعال من التنبيه على تعينه وتفخيم شأنه عز وجل مالا يخفى وقوله تعالى (رفع سمكها) بيان للبناء اى جعل مقدار ارتفاعها من الارض وذهابها الى سمت العلو مديدا رفيعا مسيرة

ان القدح فى دلالة المعجزة على الصدق اما لاعتقاد انه يمكن معارضته او لانه وان امتنعت معارضته لكنه ليس فعلالله بل لغيره اما فعل جنى او فعل ملك او ان كان فعلالله تعالى لكنه مافعله لغرض التصديق او ان كان فعله لغرض التصديق لكنه لا يلزم صدق المدعى فانه لا يقبح من الله شئ البتة فهذه مجامع الطعن فى دلالة المعجز على الصدق وما بعد الآية يدل على ان فرعون انما منع من دلالته على الصدق لاعتقاده انه يمكن معارضته بدليل قوله فحشر فنادى وهو كقوله فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين (المسئلة الثانية) فى الآية سؤال وهو ان كل احد يعلم ان كل من كذب الله فقد عصى فما الفائدة فى قوله فكذب وعصى (والجواب) كذب بالقلب واللسان وعصى بأن اظهر التمرد والتجبر (المسئلة الثالثة) هذا الذى وصفه الله تعالى به من التكذيب والمعصية مغاير لما كان حاصلا قبل ذلك لان تكذيبه لموسى عليه السلام وقد دعاه واظهر هذه المعجزة يوفى على ما تقدم من التكذيب ومعصيته بترك القبول منه والحال هذه مخالفة لمعصيته من قبل ذلك ※ (وثانيها) قوله تعالى (ثم ادبر يسعى) وفيه وجوه (احدها) انه لما رأى الثعبان ادبر مرعوبا يسعى يسرع فى مشيه قال الحسن كان رجلا طياشا خفيفا (وثانيها) تولى عن موسى يسعى ويجتهد فى مكايدته (وثالثها) ان يكون المعنى ثم اقبل يسعى كما يقال فلان اقبل يفعل كذا بمعنى انشأ يفعل فوضع ادبر موضع اقبل لئلا يوصف بالاقبال ※ (وثالثها) قوله تعالى (فحشر فنادى فقال انا ربكم الاعلى) فحشر فجمع السحرة كقوله فارسل فرعون فى المدائن حاشرين فنادى فى المقام الذى اجتمعوا فيه معه او أمر مناديا فنادى فى الناس بذلك وقيل قام فيهم خطيبا فقال تلك الكلمة وعن ابن عباس كلمته الاولى ما علمت لكم من اله غيرى والاخيرة أنا ربكم الاعلى واعلم انا بينا فى سورة طه انه لا يجوز ان يعتقد الانسان فى نفسه كونه خالقا للسموات والارض والجبال والنبات والحيوان والانسان فان العلم بفساد ذلك ضرورى فمن تشكك فيه كان مجنونا ولو كان مجنونا لما جاز من الله بعثة الانبياء والرسل اليه بل الرجل كان دهريا منكرا للصانع والحشر والنشر وكان يقول ليس لاحد عليكم امر ولا نهى الا لى فأنا ربكم بمعنى مربيكم والمحسن اليكم وليس للعالم اله حتى يكون له عليكم امر ونهى او يبعث اليكم رسولا قال القاضى وقد كان الاليق به بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية ان لا يقول هذا القول لان عند ظهور الذلة والعجز كيف يليق ان يقول أنا ربكم الاعلى فدلت هذه الآية على انه فى ذلك الوقت صار كالمعتوه الذى لا يدرى ما يقول ※ واعلم انه تعالى لما حكى عنه افعاله واقواله اتبعه بما عامله به وهو قوله تعالى (فاخذه الله نكال الآخرة والاولى) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ذكروا فى نصب نكال وجهين (الاول) قال الزجاج انه مصدر مؤكد لان معنى اخذه الله نكل الله به نكال الآخرة والاولى لان اخذه ونكاله متقاربان وهو كما يقال ادعه تركا شديدا لان ادعه واتركه سواء ونظيره قوله ان

خمسمائة عام (فسواها) فعدلها مستوية ملساء ليس فيها تفاوت ولا فطور او فتممها بما علم انها تتم به من الكواكب والتداوير وغيرها مما لا يعلمه الا الخلاق العليم من قولهم سوى امر فلان اذا اصلحه (واغطش ليلها) اى جعله مظلما يقال غطش الليل واغطشه الله تعالى كما يقال ظلم واظلمه وقدم هذا فى قوله تعالى واذا اظلم عليهم قاموا ويقال ايضا اغطش الليل كما يقال اظلم (واخرج ضحاها) اى أبرز نهارها عبر عنه بالضحى لانه اشرف اوقاته واطيبها فكان احق بالذكر فى مقام الامتنان وهو السر فى تأخير ذكره عن ذكر الليل وفى التعبير عن احداثه بالاخراج فان اضافة النور بعد الظلمة اتم فى الانعام واكمل فى الاحسان واضافة الليل والضحى الى السماء لدوران حدوثهما على حركتها ويجوز ان تكون اضافة الضحى اليها بواسطة الشمس اى ابرز ضوء شمسها والتعبير عنه بالضحى لانه وقت قيام سلطانها وكمال اشراقها (والارض بعد ذلك دحاها) اى بسطها ومهدها لسكنى اهلها وتقلبهم فى اقطارها وانتصاب الارض بمضمر يفسره دحاها (اخرج منها ماءها) بأن فجر منها عيونا واجرى انهارا (ومرعاها) اى رعيها وهو فى الاصل موضع الرعى وقيل هو مصدر ميمى بمعنى المفعول وتجريد الجملة عن العاطف اما لانها بيان وتفسير لدحاها وتكملة له

اخذه اليم شديد (الثانى) قال الفراء يريد أخذه الله أخذا نكالا للآخرة والاولى والنكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم (المسئلة الثانية) ذكر المفسرون فى هذه الآية وجوها (أحدها) ان الآخرة والاولى صفة لكلمتى فرعون احدهما قوله ماعلمت لكم من اله غيرى والاخرى قوله انا ربكم الأعلى قالوا وكان بينهما اربعون سنة وهذا قول مجاهد والشعبى وسعيد بن جبير ومقاتل ورواية عطاء والكلبى عن ابن عباس والمقصود التنبيه على انه ماأخذه بكلمته الاولى فى الحال بل امهله اربعين سنة فلما ذكر الثانية أخذه بهما وهذا تنبيه على انه تعالى يمهل ولايهمل (الثانى) وهو قول الحسن وقتادة نكال الآخرة والاولى اى عذبه فى الآخرة وأغرقه فى الدنيا (الثالث) الآخرة هى قوله انا ربكم الأعلى والاولى هى تكذيبه موسى حين أراه الآية قال القفال وهذا كأنه هو الاظهر لانه تعالى قال فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فذكر المعصيتين ثم قال فأخذه الله نكال الآخرة والاولى فظهر ان المراد انه عاقبه على هذين الامرين (المسئلة الثالثة) قال الليث النكال اسم لمن جعل نكالا لغيره وهو الذى اذا رآه او بلغه خاف ان يعمل عمله وأصل الكلمة من الامتناع ومنه النكول عن اليمين وقيل للقيد نكل لانه يمنع فالنكال من العقوبة هو أعظم حتى يمتنع من سمع به عن ارتكاب مثل ذلك الذنب الذى وقع التنكيل به وهو فى العرف يقع على مايفتضح به صاحبه ويعتبر به غيره والله اعلم ❊ ثم انه تعالى ختم هذه القصة بقوله تعالى (ان فى ذلك لعبرة لمن يخشى) والمعنى ان فيما اقتصصناه من امر موسى وفرعون وماأحله الله بفرعون من الخزى ورزق موسى من العلو والنصر عبرة لمن يخشى وذلك ان يدع التمرد على الله تعالى والتكذيب لانبيائه خوفا من ان ينزل به ما نزل بفرعون وعلما بان الله تعالى ينصر انبياءه ورسله فاعتبروا معاشر المكذبين لمحمد بما ذكرناه اى اعلموا انكم ان شاركتموهم فى المعنى الجالب للعقاب شاركتموهم فى حلول العقاب بكم ❊ ثم اعلم انه تعالى لما ختم هذه القصة رجع الى مخاطبة منكرى البعث فقال (أأنتم اشد خلقا ام السماء) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى المقصود من هذا الاستدلال وجهان (الاول) انه استدلال على منكرى البعث فقال أأنتم اشد خلقا ام السماء فنبههم على امر يعلم بالمشاهدة وذلك لان خلقة الانسان على صغره وضعفه اذا اضيف الى خلق السماء على عظمها وعظم احوالها يسير فبين تعالى ان خلق السماء أعظم واذا كان كذلك فخلقهم على وجه الاعادة اولى ان يكون مقدورا لله تعالى فكيف ينكرون ذلك ونظيره قوله اوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم وقوله لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس والمعنى اخلقكم بعد الموت اشد ام خلق السماء اى عندكم وفى تقديركم فان كلا الامرين بالنسبة الى قدرة الله واحد (والثانى) ان المقصود من هذا الاستدلال بيان كونهم مخلوقين وهذا القول ضعيف لوجهين (احدهما) ان من انكر كون الانسان

فان السكنى لاتتأتى بمجرد البسط والتمهيد بل لابد من تسوية امر المعاش من المآكل والمشرب حتما واما الا انها حال من فاعله باضمار قد عند الجمهور اوبدونه عند الكوفيين والاخفش كما فى قوله تعالى اوجاؤكم حصرت صدورهم (والجبال) منصوب بمضمر يفسره (ارساها) اى اثبتها واثبت بها الارض ان تميد بأهلها وهذا تحقيق للحق وتنبيه على ان الرسو المنسوب اليها فى مواضع كثيرة من التنزيل بالتعبير عنها بالرواسى ليس من مقتضيات ذواتها بل هو بارسائه عزوجل ولولاه لماثبتت فى انفسها فضلا عن اثباتها للارض وقرئ والارض والجبال بالرفع على الابتداء ولعل تقديم اخراج الماء والمرعى ذكرا مع تقدم الارساء عليه وجودا وشدة تعلقه بالدحو لابراز كمال الاعتناء بأمر المآكل والمشرب مع مافيه من دفع توهم رجوع ضميرى الماء والمرعى الى الجبال وهذا كما ترى يدل بظاهره على تأخر دحو الارض عن خلق السماء ومافيها كما يروى عن الحسن من انه تعالى خلق الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها ثم اصعد الدخان وخلق منه السموات وامسك الفهر فى موضعها وبسط منها الارض وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما الآية وقد مر فى سورة حم السجدة ان قوله تعالى قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق

مخلوقا فبأن ينكر في السماء كان اولى (وثانيهما) ان اول السورة كان في بيان مسئلة الحشر والنشر فحمل هذا الكلام عليه اولى (المسئلة الثانية) قال الكسائي والفراء والزجاج هذا الكلام تم عند قوله ام السماء ❊ ثم قوله تعالى (بناها) ابتداء كلام آخر وعند ابي حاتم الوقف على قوله بناها قال لانه من صلة السماء والتقدير ام السماء التي بناها فحذف التي ومثل هذا الحذف جائز قال القفال يقال الرجل جاءك عاقل اى الرجل الذي جاءك عاقل اذا ثبت ان هذا جائز في اللغة فنقول الدليل على ان قوله بناها صلة لما قبله انه لو لم يكن صلة لكان صفة فقوله بناها صفة ثم قوله رفع سمكها صفة فقد توالت صفتان لا تعلق لاحداهما بالاخرى فكان يجب ادخال العاطف فيما بينهما كما في قوله وأغطش ليلها فلما لم يكن كذلك علمنا ان قوله بناها صلة للسماء ثم قال رفع سمكها ابتداء بذكر صفته وللفراء ان يحتج على قوله بأنه لو كان قوله بناها صلة للسماء لكان التقدير ام السماء بناها وهذا يقتضي وجود سماء ما بناها الله وذلك باطل (المسئلة الثالثة) الذي يدل على انه تعالى هو الذي بنى السماء وجوه (احدها) ان السماء جسم وكل جسم محدث لان الجسم لو كان ازليا لكان في الازل اما ان يكون متحركا او ساكنا والقسمان باطلان فالقول بكون الجسم ازليا باطل اما الحصر فلانه اما ان يكون مستقرا حيث هو فيكون ساكنا أو لا يكون مستقرا حيث هو فيكون متحركا وانما قلنا انه يستحيل ان يكون متحركا لان ماهية الحركة تقتضي المسبوقية بالغير وماهية الازلية تنافي المسبوقية بالغير والجمع بينهما محال وانما قلنا انه يستحيل ان يكون ساكنا لان السكون وصف ثبوتي وهو ممكن الزوال وكل ممكن الزوال مفتقر الى الفاعل المختار وكل ما كان كذلك فهو محدث فكل سكون محدث فيمتنع ان يكون ازليا وانما قلنا ان السكون وصف ثبوتي لانه يتبدل كون الجسم متحركا بكونه ساكنا مع بقاء ذاته فاحدهما لا بد وان يكون أمرا ثبوتيا فان كان الثبوتي هو السكون فقد حصل المقصود وان كان الثبوتي هو الحركة وجب أيضا أن يكون السكون ثبوتيا لان الحركة عبارة عن الحصول في المكان بعد ان كان في غيره والسكون عبارة عن الحصول في المكان بعد ان كان فيه بعينه فالتفاوت بين الحركة والسكون ليس في الماهية بل في المسبوقية بالغير وعدم المسبوقية بالغير وذلك وصف عارضي خارجي عن الماهية واذا كان كذلك فاذا ثبت ان تلك الماهية امر وجودي في احدى الصورتين وجب ان تكون كذلك في الصورة الاخرى وانما قلنا ان سكون السماء جائز الزوال لانه لو كان واجبا لذاته لامتنع زواله فكان يجب ان لا تتحرك السماء لكنا نراها الآن متحركة فعلمنا انها لو كانت ساكنة في الازل لكان ذلك السكون جائز الزوال وانما قلنا ان ذلك السكون لما كان ممكنا لذاته افتقر الى الفاعل المختار لانه لما كان ممكنا لذاته فلا بد له من مؤثر وذلك المؤثر لا يجوز ان يكون موجبا لان ذلك الموجب ان كان واجبا وكان غنيا في ايجابه لذلك المعلول عن شرط لزم من دوامه دوام ذلك الاثر

الارض في يومين الى قوله تعالى ثم استوى الى السماء وهي دخان الآية ان حمل ما فيه من الخلق وما عطف عليه من الافعال الثلاثة على معانيها الظاهرة لا على تقديرها فهو وما في سورة البقرة من قوله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات يدلان على تقدم خلق الارض وما فيها على خلق السماء وما فيها وعليه اطباق اكثر اهل التفسير وقد روى ان العرش كان قبل خلق السموات والارض على الماء ثم انه تعالى احدث في الماء اضطرابا فازبد فارتفع منه دخان فاما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله ارضا واحدة ثم فتقها فجعلها ارضين واما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات وروى انه تعالى خلق جرم الارض يوم الاحد ويوم الاثنين ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الاربعاء وخلق السموات وما فيهن يوم الخميس ويوم الجمعة وخلق آدم عليه السلام في آخر ساعة منه وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة فالاقرب كما قيل تأويل هذه الآية بان يجعل ذلك اشارة الى ذكر ما ذكر من بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وغيرها لا الى انفسها ويحمل بعدية الدحو عنها على البعدية في الذكر كما هو المعهود في السنة العرب والعجم لا في الوجود لما عرفت من ان انتصاب الارض

فكان يجب ان لايزول السكون وان كان واجبا ومفتقرا فى ايجابه لذلك المعلول الى شرط واجب لذاته لزم من دوام العلة ودوام الشرط دوام المعلول اما ان كان الموجب غير واجب لذاته او كان شرط ايجابه غير واجب لذاته كان الكلام فيه كالكلام فى الاول فيلزم التسلسل وهو محال او الانتهاء الى موجب واجب لذاته والى شرط واجب لذاته وحينئذ يعود الالزام الاول فثبت ان ذلك المؤثر لابد وان يكون فاعلا مختارا فاذا كل سكون فهو فعل فاعل مختار وكل ما كان كذلك فهو محدث لان المختار انما يفعل بواسطة القصد والقصد الى تكوين الكائن وتحصيل الحاصل محال فثبت ان كل سكون فهو محدث فثبت انه يمتنع ان يكون الجسم فى الازل لامتحركا ولاساكنا فهو اذا غير موجود فى الازل فهو محدث واذا كان محدثا افتقر فى ذاته وفى تركيب اجزائه الى موجد وذلك هو الله تعالى فثبت بالعقل ان بانى السماء هو الله تعالى (الحجة الثانية) كل ماسوى الواجب فهو ممكن وكل ممكن محدث وكل محدث فله صانع انما قلنا كل ماسوى الواجب ممكن لانا لو فرضنا موجودين واجبين لذاتيهما لاشتركا فى الوجود ولتباينا بالتعين فيكون كل منهما مركبا مما به المشاركة ومما به الممايزة وكل مركب مفتقر الى جزئه وجزؤه غيره فكل مركب فهو مفتقر الى غيره وكل مفتقر الى غيره ممكن لذاته فكل واحد من الواجبين بالذات ممكن بالذات هذا خلف ثم ينقل الكلام الى ذينك الجزأين فان كانا واجبين كان كل واحد من تلك الاجزاء مركبا ويلزم التسلسل وان لم يكونا واجبين كان المفتقر اليهما اولى بعدم الوجوب فثبت ان ماعدا الواجب ممكن وكل ممكن فله مؤثر وكل ما افتقر الى المؤثر محدث لان الافتقار الى المؤثر لا يمكن ان يتحقق حال البقاء لاستحالة ايجاد الموجود فلابد وان يكون اما حال الحدوث او حال العدم وعلى التقديرين فالحدوث لازم فثبت ان ماسوى الواجب محدث وكل محدث فلابد له من محدث فلا بد للسماء من بان (الحجة الثالثة) صريح العقل يشهد بأن جرم السماء لا يمتنع ان يكون اكبر مما هو الآن بمقدار خردلة ولا يمتنع ان يكون اصغر بمقدار خردلة فاختصاص هذا المقدار بالوقوع دون الازيد والانقص لابد وان يكون بمخصص فثبت انه لابد للسماء من بان (فان قيل) لم لا يجوز ان يقال انه تعالى خلق شيئا واعطاه قدرة تمكن ذلك المخلوق بتلك القدرة من خلق الاجسام فيكون خالق السماء وبانيها هو ذلك الشئ (الجواب) من العلماء من قال المعلوم بالعقل انه لابد للسماء من محدث وانه لابد من الانتهاء آخر الامر الى قديم واجب الوجود لذاته واحد وهو الله سبحانه وتعالى فاما نفى الواسطة فانما يعلم بالسمع فقوله فى هذه الآية بناها يدل على أن بانى السماء هو الله لاغيره ومنهم من قال بل العقل يدل على بطلانه لانه لما ثبت ان كل ماعداه محدث ثبت انه قادر لاموجب والذى كان مقدورا له انما صح كونه مقدورا له بكونه ممكنا فانك لو رفعت الامكان بقى الوجوب أو الامتناع وهما يحيلان المقدورية واذا كان ما لاجله صح فى البعض أن

عضمر مقدم قد حذف على شريطة التفسير لا بما ذكر بعده ليفيد القصر وتعين البعدية فى الوجود وفائدة تأخيره فى الذكر اما التنبيه على انه قاصر فى الدلالة على القدرة القاهرة بالنسبة الى احوال السماء واما الاشعار بأنه ادخل فى الالزام لما ان المنافع المنوطة بما فى الارض اكثر وتعلق مصالح الناس بذلك اظهر واحاطتهم بتفاصيل احواله اكمل وليس ماروى عن الحسن نصا فى تأخر دحو الارض عن خلق السماء فان بسط الارض معطوف على اصعاد الدخان وخلق السماء بالواو والتى هو بمعزل من الدلالة على الترتيب هذا على تقدير حمل ماذكر فى آيات سورة السجدة من الخلق وماعطف عليه من الافعال الثلاثة على معانيها الظاهرة واما اذا حملت على تقديرها فلا دلالة فيها الا على تقدم تقدير الارض ومافيها على ايجاد السماء كما لا دلالة على الترتيب اصلا اذا حملت كلمة ثم فيها وفيما فى سورة البقرة على التراخى فى الرتبة وقد سلف تفصيل الكلام فى السورة المذكورة وقوله تعالى (متاعا لكم ولانعامكم) اما مفعول له اى فعل ذلك تمتيعا لكم ولانعامكم لان فائدة ماذكر من البسط والتمهيد واخراج الماء والمرعى واصلة اليهم والى انعامهم فان المراد بالمرعى ما يعم ما يأكله الانسان وغيره بناء على استعارة الرعى لتناول المأكول على الاطلاق كاستعارة المرسن

يكون مقدور الله وهو الامكان والامكان عام في الممكنات وجب أن يحصل في كل الممكنات صحة ان تكون مقدورة لله تعالى واذا ثبت ذلك ونسبة قدرته الى الكل على السوية وجب ان يكون قادرا على الكل واذا ثبت ان الله قادر على كل الممكنات فلو قدرنا قادرا آخر قدر على بعض الممكنات لزم وقوع مقدور واحد بين قادرين من جهة واحدة وذلك محال لانه اما ان يقع بأحدهما دون الآخر وهو محال لانهما لما كانا مستقلين بالاقتضاء فليس وقوعه بهذا اولى من وقوعه بذاك او بهما معا وهو ايضا محال لانه يستغنى بكل واحد منهما عن كل واحد منهما فيكون محتاجا اليهما معا وغنيا عنهما معا وهو محال فثبت بهذا انه لا يمكن وقوع ممكن آخر بسبب آخر سوى قدرة الله تعالى وهذا الكلام جيد لكن على قول من لا يثبت في الوجود مؤثرا سوى الواحد فهذا جملة ما في هذا الباب واعلم انه تعالى لما بين في السماء أنه بناها بين بعد ذلك انه كيف بناها وشرح تلك الكيفية من وجوه (اولها) ما يتعلق بالمكان * فقال تعالى (رفع سمكها) واعلم ان امتداد الشيء اذا اخذ من اعلاه الى اسفله سمى عمقا واذا اخذ من اسفله الى اعلاه سمى سمكا فالمراد برفع سمكها شدة علوها حتى ذكروا ان ما بين الارض وبينها مسيرة خمسمائة عام وبين اصحاب الهيئة مقادير الاجرام الفلكية وابعاد ما بين كل واحد منها وبين الارض وقال آخرون بل المراد رفع سمكها من غير عمد وذلك مما لا يصح الا من الله تعالى (الصفة الثانية) * قوله تعالى (فسواها) وفيه وجهان (الاول) المراد تسوية تأليفها وقيل بل المراد نفى الشقوق عنها كقوله ماترى في خلق الرحمن من تفاوت والقائلون بالقول الاول قالوا فسواها عام فلا يجوز تخصيصه بالتسوية في بعض الاشياء ثم قالوا هذا يدل على كون السماء كرة لانه لو لم يكن كرة لكان بعض جوانبه سطحا والبعض زاوية والبعض خطا ولكان بعض أجزائه أقرب الينا والبعض ابعد فلا تكون التسوية الحقيقية حاصلة فوجب ان يكون كرة حتى تكون التسوية الحقيقية حاصلة ثم قالوا لما ثبت انها محدثة مفتقرة الى فاعل مختار فأى ضرر في الدين ينشأ من كونها كرة (الصفة الثالثة) * قوله تعالى (وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أغطش قد يجيء لازما يقال أغطش الليل اذا صار مظلما ويجيء متعديا يقال أغطشه الله اذا جعله مظلما والغطش الظلمة والاغطش شبه الاعمش (ثم ههنا سؤال) وهو ان الليل اسم لزمان الظلمة الحاصلة بسبب غروب الشمس فقوله وأغطش ليلها يرجع معناه الى انه جعل المظلم مظلما وهو بعيد (والجواب) معناه ان الظلمة الحاصلة في ذلك الزمان انما حصلت بتدبير الله وتقديره وحينئذ لا يبقى الاشكال (المسئلة الثانية) قوله وأخرج ضحاها اى أخرج نهارها وانما عبر عن النهار بالضحى لان الضحى اكمل اجزاء النهار في النور والضوء (المسئلة الثالثة) انما اضاف الليل والنهار الى السماء لان الليل والنهار انما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ثم غروبها وطلوعها انما يحصلان بسبب حركة الفلك فلهذا

(السبب)

للانف وقيل مصدر مؤكد لفعله المضمر اى متعكم بذلك متاعا او مصدر من غير لفظه فان قوله تعالى اخرج منها ماءها ومرعاها في معنى متع بذلك وقوله تعالى (فاذا جاءت الطامة الكبرى) اى الداهية العظمى التي تطم على سائر الطامات اي تعلوها وتغلبها وهي القيامة او النفخة الثانية وقيل هي الساعة التي يساق فيها الخلائق الى محشرهم وقيل التي يساق فيها اهل الجنة الى الجنة واهل النار الى النار شروع في بيان احوال معادهم اثر بيان احوال معاشهم بقوله تعالى متاعا لكم الخ والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ماقبلها كما قيل كما ينبئ عنه لفظ المتاع (يوم يتذكر الانسان ما سعى) قيل هو بدل من اذا جاءت والاظهر انه منصوب بأعنى كما قيل تفسير الطامة الكبرى فان الابدال منها بالظرف المحض مما يوهن تعلقها بالجواب ويجوز ان يكون بدلا من الطامة الكبرى مفتوحا لاضافته الى الفعل على رأى الكوفيين اي يتذكر فيه كل احد ما عمله من خير او شر بأن يشاهد مدونا في صحيفة اعماله وقد كان نسيه من فرط الغفلة وطول الامد كقوله تعالى احصاه الله ونسوه ويجوز ان تكون ما مصدرية (وبرزت الجحيم) عطف على جاءت اى اظهرت اظهارا بينا لا يخفى على احد (لمن يرى) كائنا من كان يروى انه يكشف عنها فتتلظى فيراها كل ذى بصر وقرئ

السبب أضاف الليل والنهار الى السماء ثم انه تعالى لما وصف كيفية خلق السماء اتبعه بكيفية خلق الارض وذلك من وجوه ❊ (الصفة الاولى) قوله تعالى (والارض بعد ذلك دحاها) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) دحاها بسطها قال زيد بن عمرو بن نفيل

دحاها فلما رآها استوت * على الماء ارسى عليها الجبالا

وقال امية بن ابى الصلت

دحوت البلاد فسويتها * وانت على طيها قادر

قال اهل اللغة فى هذه اللفظة لغتان دحوت ادحو ودحيت ادحى ومثله صغوت وصغيت ولحوت العود ولحيته وسأوت الرجل وسأيته وبأوت عليه وبأيت وفى حديث على عليه السلام اللهم داحى المدحيات اى باسط الارضين السبع وهى المدحوات ايضا وقيل اصل الدحو الازالة للشئ من مكان الى مكان ومنه يقال ان الصبى يدحو بالكرة اى يقذفها على وجه الارض وادحى النعامة موضعه الذى يكون فيه اى بسطته وازالت مافيه من حصى حتى يتمهد له وهذا يدل على ان معنى الدحو يرجع الى الازالة والتمهيد (المسئلة الثانية) ظاهر هذه الآية يقتضى كون الارض بعد السماء وقوله فى حم السجدة ثم استوى الى السماء يقتضى كون السماء بعد الارض وقد ذكرنا هذه المسئلة فى سورة البقرة فى تفسير قوله ثم استوى الى السماء ولا بأس بأن نعيد بعض تلك الوجوه (احدها) ان الله تعالى خلق الارض اولا ثم خلق السماء ثانيا ثم دحى الارض اى بسطها ثالثا وذلك لانها كانت اولا كالكرة المجتمعة ثم ان الله تعالى مدها وبسطها (فان قيل) الدلائل الاعتبارية دلت على ان الارض الآن كرة ايضا واشكال آخر وهو ان الجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوى فيستحيل ان يكون هذا الجسم العظيم مخلوقا ولا يكون ظاهره مدحوا مبسوطا (وثانيها) ان لا يكون معنى قوله دحاها مجرد البسط بل يكون المراد انه بسطها بسطا مهيأ لنبات الاقوات وهذا هو الذى بينه بقوله اخرج منها ماءها ومرعاها وذلك لان هذا الاستعداد لا يحصل للارض الا بعد وجود السماء فان الارض كالام والسماء كالاب ومالم يحصلا لم تتولد اولاد المعادن والنبات والحيوانات (وثالثها) ان يكون قوله والارض بعد ذلك اى مع ذلك كقوله عتل بعد ذلك زنيم اى مع ذلك وكقولك للرجل أنت كذا وكذا ثم أنت بعدها كذا لا تريد به الترتيب وقال تعالى فك رقبة او اطعام فى يوم ذى مسغبة الى قوله ثم كان من الذين آمنوا والمعنى وكان مع هذا من اهل الايمان بالله فهذا تقرير مانقل عن ابن عباس ومجاهد والسدى وابن جريج انهم قالوا فى قوله والارض بعد ذلك دحاها اى مع ذلك دحاها (المسئلة الثالثة) لما ثبت ان الله تعالى خلق الارض اولا ثم خلق السماء ثانيا ثم دحى الارض بعد ذلك ثالثا ذكروا فى تقدير تلك الازمنة وجوها روى عن عبد الله بن عمر خلق الله البيت قبل الارض بالفى سنة ومنه دحيت الارض واعلم ان الرجوع فى امثال هذه الاشياء الى كتب الحديث

وبرزت بالتخفيف ولمن رأى ولمن ترى على ان فيه ضميرا لجحيم كما فى قوله تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد وعلى انه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم اى لمن تراه من الكفار وقوله تعالى (فأما من طغى) الخ جواب فاذا جاءت على طريقة قوله تعالى فاما يأتينكم منى هدى الآية وقيل هو تفصيل للجواب المحذوف تقديره انقسم الراؤن قسمين فأما من الخ والذى تستدعيه فخامة التنزيل ويقتضيه مقام التهويل ان الجواب المحذوف كان من عظائم الشؤن مالم تشاهده العيون كما مر فى قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل اى فأما من عتا وتمرد عن الطاعة وجاوز الحد فى العصيان (وآثر الحيوة الدنيا) الفانية التى هى على جناح الفوات فانهمك فيما متع به فيها ولم يستعد للحياة الاخروية الابدية بالايمان والطاعة (فان الجحيم) التى ذكر شأنها (هى المأوى) اى مأواه واللام سادة مسد الاضافة للعلم بان صاحب المأوى هو الطاغى كما فى قولك غض الطرف ودخول اللام فى المأوى والطرف للتعريف لانهما معروفان وهى اما ضمير فصل او مبتدأ قيل نزلت الآية فى النضر وابيه الحرث المشهورين بالغلو فى الكفر والطغيان (واما من خاف مقام ربه) اى مقامه بين يدى مالك امره يوم الطامة الكبرى يوم يتذكر الانسان ماسعى (ونهى النفس عن الهوى) عن الميل اليه بحكم الجبلة البشرية ولم يعتد بمتاع الحياة الدنيا وزهرتها ولم يغتر بزخارفها وزينتها علما منه بوخامة عاقبتها (فان الجنة هى المأوى) له لا غيرها وقيل نزلت الآيتان

اولى ۞ (الصفة الثانية) قوله تعالى (اخرج منها ماءها ومرعاها) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ماؤها عيونها المنفجرة بالماء ومرعاها رعيها وهو في الاصل موضع الرعي ونصب الارض والجبال باضمار دحا وارسى على شريطة التفسير وقرأهما الحسن مرفوعين على الابتداء فان قيل هلا ادخل حرف العطف على اخرج قلنا لوجهين (الاول) ان يكون معنى دحاها بسطها ومهدها للسكنى ثم فسر التمهيد بما لابد منه في تأتي سكناها من تسوية أمر المشارب والمآكل وامكان القرار عليها باخراج الماء والمرعى وارساء الجبال واثباتها أوتادا لها حتى تستقر ويستقر عليها (والثاني) ان يكون اخرج حالا والتقدير والارض بعد ذلك دحاها حال ما أخرج منها ماءها ومرعاها (المسئلة الثانية) أراد بمرعاها ما يأكل الناس والانعام ونظيره قوله في النحل انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون وقال في سورة اخرى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا الى قوله متاعا لكم ولأنعامكم فكذا في هذه الآية واستعير الرعي للانسان كما استعير الرتع في قوله نرتع ونلعب وقرئ نرع من الرعي ثم قال ابن قتيبة قال تعالى وجعلنا من الماء كل شئ حي فانظر كيف دل بقوله ماءها ومرعاها على جميع ما اخرجه من الارض قوتا ومتاعا للانام من العشب والشجر والحب والثمر والعصف والحطب واللباس والدواء حتى النار والملح اما النار فلاشك انها من العيدان قال تعالى أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها ام نحن المنشئون واما الملح فلاشك انه متولد من الماء وانت اذا تأملت علمت ان جميع ما يتنزه به الناس في الدنيا ويتلذذون به فأصله الماء والنبات ولهذا السبب تردد في وصف الجنة ذكرهما فقال جنات تجري من تحتها الانهار ثم الذي يدل على انه تعالى أراد بالمرعى كل ما يأكله الناس والانعام قوله في آخر هذه الآية متاعا لكم ولأنعامكم ۞ (الصفة الثالثة) قوله تعالى (والجبال أرساها) والكلام في شرح منافع الجبال قد تقدم ۞ ثم انه تعالى لما بين كيفية خلقة الارض وكيفية منافعها قال (متاعا لكم ولأنعامكم) والمعنى انا انما خلقنا هذه الاشياء متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم واحتج به من قال ان افعال الله واحكامه معللة بالاغراض والمصالح والكلام فيه قد مر غير مرة واعلم انا بينا انه تعالى انما ذكر كيفية خلقة السماء والارض ليستدل بها على كونه قادرا على الحشر والنشر فلما قرر ذلك وبين امكان الحشر والنشر عقلا اخبر بعد ذلك عن وقوعه ۞ فقال تعالى (فاذا جاءت الطامة الكبرى) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الطامة عند العرب الداهية التي لاتستطاع وفي اشتقاقها وجوه قال المبرد أخذت فيما احسب من قولهم طم الفرس طميما اذا استفرغ جهده في الجري وطم الماء اذا ملأ النهر كله وقال الليث الطم طم البئر بالتراب وهو الكبس ويقال طم السيل الركية اذا دفنها حتى يسويها ويقال للشئ الذي يكبر حتى يعلو قد طم والطامة الحادثة التي تطم على ما سواها ومن ثم قيل فوق كل طامة طامة قال القفال اصل الطم الدفن والعلو وكل ما غلب شيئا

(وقهره)

في ابي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير وقد قتل مصعب أخاه اباعزيز يوم أحد ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد رضي الله عنه هذا وقد قيل جواب اذا ما يدل عليه قوله تعالى يوم يتذكر الخ اي فاذا جاءت الطامة الكبرى يتذكر الانسان ما سعى على طريقة قوله تعالى علمت نفس ما احضرت وقوله تعالى علمت نفس ما قدمت وأخرت فيكون قوله تعالى وبرزت الجحيم عطفا عليه وصيغة الماضي للدلالة على التحقق او حالا من الانسان بأضمار قد او بدونه على اختلاف الرأيين ولمن يرى مغن عن العائد وقوله تعالى فاما من طغى الخ تفصيلا لحال الانسان الذي يتذكر ما سعى وتقسيما له بحسب اعماله الى القسمين المذكورين (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) متى ارساؤها اي اقامتها يريدون متى يقيمها الله تعالى ويثبتها ويكونها وقيل ايان منتهاها ومستقرها كما ان مرسى السفينة حيث تنتهي اليه وتستقر فيه وقوله تعالى (فيم انت من ذكراها) انكار ورد لسؤال المشركين عنها اي في اي شئ انت من ان تذكر لهم وقتها وتعلمهم به حتى يسألونك بيانها كقوله تعالى يسألونك كأنك حفي عنها اي ما انت من ذكرها لهم وتبيين وقتها في شئ لان ذلك فرع علمك به واني لك ذلك وهو مما استأثر بعلمه علام الغيوب ومن قال بصدد التعليل فان ذكرها لا يزيدهم الا غيا فقد نأى عن الحق وقيل فيم انكار لسؤالهم وما بعده من الاستئناف تعليل للانكار وبيان لبطلان السؤال اي فيم هذا السؤال ثم ابتدئ فقيل

وقهره واخفاه فقدطمه ومنه الماء الطامي وهو الكثيرالزائدو الطاغي والعاتي والعادي سواء وهو الخارج عن امرالله تعالى المتكبر فالطامة اسم لكل داهية عظيمة ينسى ماقبلها في جنبها (المسئلة الثانية) قدظهر بما ذكرنا ان معنى الطامة الكبرى الداهية الكبرى ثم اختلفوا في انها اى شيء هي قال قوم انها يوم القيامة لانه يشاهد فيه من النار ومن الموقف الهائل ومن الآيات الباهرة الخارجة عن العادة ماينسى معه كل هائل وقال الحسن انها هي النفخة الثانية التي عندها تحشر الخلائق الى موقف القيامة وقال آخرون انه تعالى فسر الطامة الكبرى بقوله تعالى يوم يتذكر الانسان ماسعى وبرزت الجحيم لمن يرى فالطامة تكون اسما لذلك الوقت فيحتمل ان يكون ذلك الوقت وقت قراءة الكتاب على ماقال تعالى ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ويحتمل ان تكون تلك الساعة هي الساعة التي يساق فيها اهل الجنة الى الجنة واهل النار الى النار ثم انه تعالى وصف ذلك اليوم بوصفين * (الاول) قوله تعالى (يوم يتذكر الانسان ماسعى) يعني اذا رأى اعماله مدونة في كتابه تذكرها وكان قدنسيها كقوله احصاه الله ونسوه * (الوصف الثاني) قوله تعالى (وبرزت الجحيم لمن يرى) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله تعالى لمن يرى اى انها تظهر اظهارا مكشوفا لكل ناظر ذي بصر ثم فيه وجهان (احدهما) انه استعارة في كونه منكشفا ظاهرا كقولهم * تبين الصبح لذي عينين * وعلى هذا التأويل لايجب ان يراه كل احد (والثاني) ان يكون المراد انها برزت ليراها كل من له عين وبصر وهذا يفيد ان كل الناس يرونها من المؤمنين والكفار الا انها مكان الكفار ومأواهم والمؤمنون يمرون عليها وهذا التأويل متأكد بقوله تعالى وان منكم الا واردها الى قوله ثم ننجي الذين اتقوا فان قيل انه تعالى قال في سورة الشعراء وازلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين فخص الغاوين بتبريزها لهم قلنا انها برزت للغاوين والمؤمنون يرونها ايضا في الممر ولا منافاة بين الامرين (المسئلة الثانية) قرأ ابو نهيك وبرزت وقرأ ابن مسعود لمن رأى وقرأ عكرمة لمن ترى والضمير للجحيم كقوله اذا رأتهم من مكان بعيد وقيل لمن ترى يامحمد من الكفار الذين يؤذونك واعلم انه تعالى لما وصف حال القيامة في الجملة قسم المكلفين قسمين الاشقياء والسعداء فذكر حال الاشقياء * فقال تعالى (فأما من طغى وآثر الحيوة الدنيا فان الجحيم هي المأوى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في جواب قوله فاذا جاءت الطامة الكبرى وجهان (الاول) قال الواحدي انه محذوف على تقدير اذا جاءت الطامة دخل اهل النار النار واهل الجنة الجنة ودل على هذا المحذوف ماذكر في بيان مأوى الفريقين ولهذا كان يقول مالك ابن معول في تفسير الطامة الكبرى قال انها اذا سيق اهل الجنة الى الجنة واهل النار الى النار (والثاني) ان جوابه قوله فان الجحيم هي المأوى وكأنه جزاء مركب على شرطين نظيره اذا جاء الغد فمن جاءني سائلا اعطيته كذا ههنا اى اذا جاءت الطامة الكبرى

انت من ذكراها اى ارسالك وانت خاتم الانبياء المبعوث في نسيم الساعة علامة من علاماتها ودليل يدلهم على العلم بوقوعها عن قريب فحسبهم هذه المرتبة من العلم فمعنى قوله تعالى (الى ربك منتهاها) على هذا الوجه اليه تعالى يرجع منتهى علمها اى علمها بكنهها وتفاصيل امرها ووقت وقوعها لا الى احد غيره وانما وظيفتهم ان يعلموا باقترابها ومشارفتها وقد حصل لهم ذلك ببعثك فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك واما على الوجه الاول فمعناه اليه تعالى انتهاء علمها ليس لاحد منه شيء ما كائنا من كان فلاى شيء يسألونك عنها وقوله تعالى (انما أنت منذر من يخشاها) على الوجه الاول تقرير لماقبله من قوله تعالى فيم أنت من ذكراها وتحقيق لماهو المراد منه وبيان لوظيفته عليه الصلاة والسلام في ذلك الشان فان انكار كونه عليه الصلاة والسلام في شيء من ذكراها ممايوهم بظاهره ان ليس له عليه الصلاة والسلام ان يذكرها بوجه من الوجوه فازيح ذلك ببيان ان المنفي عنه عليه الصلاة والسلام ذكرها لهم بتعيين وقتها حسبما كانوا يسألونه عليه الصلاة والسلام عنها فالمعنى انما انت منذر من يخشاها وظيفتك الامتثال بما امرت به من بيان اقترابها وتفصيل مافيها من فنون الاهوال كما تحيط به خبرا لاتعيين وقتها الذي لم يفوض اليك فالهم يسألونك عما ليس من وظائفك بيانه وعلى الوجه الثاني هو تقرير لقوله تعالى انت من ذكراها ببيان ان ارساله عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الانبياء عليهم السلام

فمن جاء طاغيا فان الجحيم مأواه (المسئلة الثانية) منهم من قال المراد بقوله طغى وآثر الحياة الدنيا النضر وابوه الحرث فان كان المراد ان هذه الآية نزلت عند صدور بعض المنكرات منه فجيد وان كان المراد تخصيصها به فبعيد لان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لاسيما اذا عرف بضرورة العقل ان الموجب لذلك الحكم هو الوصف المذكور (المسئلة الثالثة) قوله طغى اشارة الى فساد حال القوة النظرية لان كل من عرف الله عرف حقارة نفسه وعرف استيلاء قدرة الله عليه فلا يكون له طغيان وتكبر وقوله وآثر الحياة الدنيا اشارة الى فساد حال القوة العملية وانما ذكر ذلك لما روى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال حب الدنيا رأس كل خطيئة ومتى كان الانسان والعياذ بالله موصوفا بهذين الامرين كان بالغا في الفساد الى اقصى الغايات وهو الكافر الذي يكون عقابه مخلدا وتخصيصه بهذه الحالة يدل على ان الفاسق الذي لا يكون كذلك لا تكون الجحيم مأوى له (المسئلة الرابعة) تقدير الآية فان الجحيم هى المأوى له ثم حذفت الصلة لوضوح المعنى كقولك للرجل غض الطرف اى غض طرفك (وعندى فيه وجه آخر) وهو ان يكون التقدير فان الجحيم هى المأوى اللائق بمن كان موصوفا بهذه الصفات والاخلاق ※ ثم ذكر حال السعداء فقال تعالى (واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) واعلم ان هذين الوصفين مضادان للوصفين اللذين وصف الله اهل النار بهما فقوله واما من خاف مقام ربه ضد قوله فأما من طغى وقوله ونهى النفس عن الهوى ضد قوله وآثر الحياة الدنيا واعلم ان الخوف من الله لابد وان يكون مسبوقا بالعلم بالله على ما قال انما يخشى الله من عباده العلماء ولما كان الخوف من الله هو السبب المعين لدفع الهوى لا جرم قدم العلة على المعلول وكما دخل فى ذينك الوصفين جميع القبائح دخل فى هذين الوصفين جميع الطاعات والحسنات وقيل الآيتان نزلتا فى ابى عزيز بن عمير ومصعب بن عمير وقد قتل مصعب اخاه اباعزيز يوم احد ووقى رسول الله بنفسه حتى نفذت المشاقص فى جوفه ※ واعلم انه تعالى لما بين بالبرهان العقلى امكان القيامة ثم اخبر عن وقوعها ثم ذكر احوالها العامة ثم ذكر احوال الاشقياء والسعداء فيها ※ قال تعالى (يسألونك عن الساعة ايان مرساها) واعلم ان المشركين كانوا يسمعون اثبات القيامة ووصفها بالاوصاف الهائلة مثل انها طامة وصاخة وقارعة فقالوا على سبيل الاستهزاء ايان مرساها فيحتمل ان يكون ذلك على سبيل الايهام لاتباعهم انه لا اصل لذلك ويحتمل انهم كانوا يسئلون الرسول عن وقت القيامة استعجالا كقوله يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ثم فى قوله مرساها قولان (احدهما) متى ارساؤها اى اقامتها ارادوا متى يقيمها الله ويوجدها ويكونها (والثانى) ايان منتهاها ومستقرها كما ان مرسى السفينة مستقرها حيث تنتهى اليه ※ ثم ان الله تعالى أجاب عنه بقوله تعالى (فيم انت من ذكراها) وفيه وجهان (الاول) معناه فى اى شئ انت من ان تذكر وقتها لهم وتبين ذلك الزمان

منذر مجئ الساعة كما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام بعثت انا والساعة كهاتين ان كادت لتسبقنى وقرئ منذر بالتنوين وهو الاصل والاضافة تخفيف صالح للحال والاستقبال فاذا اريد الماضى تعينت الاضافة وتخصيص الانذار بمن يخشى مع عموم الدعوة لانه المنتفع به وقوله تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها) اما تقرير وتأكيد لما ينبئ عنه الانذار من سرعة مجئ المنذر به لاسيما على الوجه الثانى اى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الانذار بها الا عشية يوم واحد او ضحاه فلما ترك اليوم أضيف ضحاه الى عشيته واما رد لما ادمجوه فى سؤالهم فانهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء مستعجلين بها وان كان على نهج الاستهزاء بها ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين فالمعنى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الوعيد بها الا عشية او ضحاها واعتبار كون اللبث فى الدنيا او فى القبور لا يقتضيه المقام وانما الذى يقتضيه اعتبار كونه بعد الانذار او بعد الوعيد تحقيقا للانذار وردا لاستبطائهم والجملة على الاول حال من الموصول فانه على تقديرى الاضافة وعدمها مفعول لمنذر كما ان قوله تعالى كأن لم يلبثوا الا ساعة من نهار حال من ضمير المفعول فى يحشرهم اى يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث فى الدنيا الا ساعة خلا ان التشبيه هناك فى الاحوال الظاهرة من الزى والهيئة وفيما نحن فيه فى الاعتقاد كأنه قيل تنذرهم مشبهين يوم يرونها فى الاعتقاد بمن لم يلبث بعد

المعين لهم ونظيره قول القائل اذا سأله رجل عن شئ لا يليق به ما انت وهذا وأى شئ لك في هذا وعن عائشة لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت هذه الآية فهو على هذا تعجيب من كثرة ذكره لها كأنه قيل في اى شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها والمعنى انهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها ۞ ثم قال تعالى (الى ربك منتهاها) اى منتهى علمها لم يؤت احدا من خلقه (الوجه الثاني) قال بعضهم فيم انكار لسؤالهم اى فيم هذا السؤال ثم قيل أنت من ذكراها اى أرسلك وأنت خاتم الانبياء وآخر الرسل ذكرا من انواع علاماتها وواحدا من اقسام اشراطها فكفاهم بذلك دليلا على دنوها ووجوب الاستعداد لها ولا فائدة في سؤالهم عنها ۞ ثم قال تعالى (انما أنت منذر من يخشاها) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) معنى الآية انك انما بعثت للانذار وهذا المعنى لا يتوقف على علمك بوقت قيام القيامة بل لو أنصفنا لقلنا بأن الانذار والتخويف انما يتم اذا لم يكن العلم بوقت قيام القيامة حاصلا (المسئلة الثانية) انه عليه الصلاة والسلام منذر للكل الا انه خص بمن يخشى لانه الذي ينتفع بذلك الانذار (المسئلة الثالثة) قرئ منذر بالتنوين وهو الاصل قال الزجاج مفعل وفاعل اذا كان كل واحد منهما لما يستقبل او للحال ينون لانه يكون بدلا من الفعل والفعل لا يكون الا نكرة ويجوز حذف التنوين لاجل التخفيف وكلاهما يصلح للحال والاستقبال فاذا أريد الماضي فلا يجوز الا الاضافة كقوله هو منذر زيد أمس ۞ ثم قال تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية او ضحاها) وتفسير هذه الآية قد مضى ذكره في قوله كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار والمعنى ان ما انكروه سيرونه حتى كأنهم ابدا فيه وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا الا ساعة من نهار ثم مضت (فان قيل) قوله او ضحاها معناه ضحى العشية وهذا غير معقول لانه ليس للعشية ضحى قلنا (الجواب) عنه من وجوه (احدها) قال عطاء عن ابن عباس الهاء والالف صلة للكلام يريد لم يلبثوا الا عشية او ضحى (وثانيها) قال الفراء والزجاج المراد باضافة الضحى الى العشية اضافتها الى يوم العشية كأنه قيل الا عشية او ضحى يومها والعرب تقول آتيك العشية او غداتها على ما ذكرنا (وثالثها) ان النحويين قالوا يكفي في حسن الاضافة أدنى سبب فالضحى المتقدم على عشية يصح ان يقال انه ضحى تلك العشية وزمان المحنة قد يعبر عنه بالعشية وزمان الراحة قد يعبر عنه بالضحى فالذين يحضرون في موقف القيامة يعبرون عن زمان محنتهم بالعشية وعن زمان راحتهم بضحى تلك العشية فيقولون كأن عمرنا في الدنيا ما كان الا هاتين الساعتين والله أعلم

(سورة عبس اربعون وآيتان مكية)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(عبس وتولى أن جاءه الاعمى) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اتى رسول الله صلى الله

الانذار بها الا تلك المدة اليسيرة وعلى الثاني مستأنفة لا محل لها من الاعراب * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والنازعات كان ممن حبسه الله عز وجل في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة مكتوبة والله اعلم

(سورة عبس مكية وآيها احدى واربعون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(عبس وتولى ان جاءه الاعمى) روى ان ابن ام مكتوم واسمه عبد الله ابن شريح بن مالك بن ابي ربيعة الفهري وام مكتوم اسم ام ابيه اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وامية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم الى الاسلام رجاء ان يسلم باسلامهم غيرهم فقال له يا رسول الله اقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله عليه الصلاة والسلام بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس واعرض عنه فنزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول اذا رآه مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ويقول له هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين وقرئ عبس بالتشديد للمبالغة وان جاءه علة لتولى او عبس على اختلاف الرأيين اى لان جاءه الاعمى والتعرض لعنوان عماه اما لتمهيد عذره في الاقدام على قطع كلامه عليه الصلاة والسلام بالقوم والايذان باستحقاقه بالرفق والرأفة واما لزيادة الانكار كأنه قيل تولى لكونه اعمى كما ان الالتفات في قوله تعالى (وما يدريك)

عليه وسلم ابن أم مكتوم وأم مكتوم أم أبيه واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم الى الاسلام رجاء ان يسلم باسلامهم غيرهم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم أقرئني وعلمني مما علمك الله وكرر ذلك فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت هذه الآية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول اذا رآه مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ويقول هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين وفي هذا الموضع سؤالات (الاول) ان ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر فكيف عاتب الله رسوله على ان أدب ابن أم مكتوم وزجره وانما قلنا انه كان يستحق التأديب لوجوه (احدها) انه وان كان لفقد بصره لا يرى القوم لكنه لصحة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم أولئك الكفار وكان يسمع اصواتهم ايضا وكان يعرف بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بشأنهم فكان اقدامه على قطع كلام النبي والقاء غرض نفسه في البين قبل تمام غرض النبي ايذاء للنبي عليه الصلاة والسلام وذلك معصية عظيمة (وثانيها) ان الاهم مقدم على المهم وهو كان قد اسلم وتعلم ما كان يحتاج اليه من امر الدين اما أولئك الكفار فما كانوا قد أسلموا وكان اسلامهم سببا لاسلام جمع عظيم فالقاء ابن أم مكتوم ذلك الكلام في البين كالسبب في قطع ذلك الخير العظيم لغرض قليل وذلك محرم (وثالثها) انه تعالى قال ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون فنهاهم عن مجرد النداء الا في الوقت فههنا هذا النداء الذي صار كالصارف للكفار عن قبول الايمان وكالقاطع على الرسول أعظم مهماته اولى ان يكون ذنبا ومعصية فثبت بهذا ان الذي فعله ابن أم مكتوم كان ذنبا ومعصية وان الذي فعله الرسول كان هو الواجب وعند هذا يتوجه السؤال في انه كيف عاتبه الله تعالى على ذلك الفعل (السؤال الثاني) انه تعالى لما عاتبه على مجرد انه عبس في وجهه كان ذلك تعظيما عظيما من الله سبحانه لابن أم مكتوم واذا كان كذلك فكيف يليق بمثل هذا التعظيم ان يذكره باسم الاعمى مع ان ذكر الانسان بهذا الوصف يقتضي تحقير شأنه جدا (السؤال الثالث) الظاهر انه عليه الصلاة والسلام كان مأذونا في ان يعامل اصحابه على حسب ما يراه مصلحة وانه عليه الصلاة والسلام كثيرا ما كان يؤدب اصحابه ويزجرهم عن اشياء وكيف لا يكون كذلك وهو عليه الصلاة والسلام انما بعث ليؤدبهم وليعلمهم محاسن الآداب واذا كان كذلك كان ذلك التعبيس داخلا في اذن الله تعالى اياه في تأديب اصحابه واذا كان ذلك مأذونا فيه فكيف وقعت المعاتبة عليه فهذا جملة ما يتعلق بهذا الموضع من الاشكالات (والجواب) عن السؤال الاول من وجهين (الاول) ان الامر وان كان على ما ذكرتم الا ان ظاهر الواقعة يوهم تقديم الاغنياء على

(الفقراء)

لذلك فان المشافهة ادخل في تشديد العتاب اى واى شئ يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه وقوله تعالى (لعله يزكى) استئناف وارد لبيان ما يلوح به ماقبله فانه مع اشعاره بان له شأنا منافيا للاعراض عنه خارجا عن دراية الغير وادرائه مؤذن بانه تعالى يدريه ذلك اى لعله يتطهر عما يقتبس منك من اوضار الاوزار بالكلية وكلمة لعل مع تحقق التزكى واردة على سنن الكبرياء او على اعتبار معنى الترجي بالنسبة اليه عليه الصلاة والسلام للتنبيه على ان الاعراض عنه عند كونه مرجو التزكى مما لا يجوز فكيف اذا كان مقطوعا بالتزكى كما في قولك لعلك ستندم على مافعلت وفيه اشارة الى ان من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكى والتذكر اصلا وقوله تعالى (اويذكر) عطف على يزكى داخل معه في حكم الترجي وقوله تعالى (فتنفعه الذكرى) بالنصب على جواب لعل وقرئ بالرفع عطفا على يذكر اى اويتذكر فتنفعه موعظتك ان لم يبلغ درجة التزكى التام وقيل الضمير في لعله للكافر فالمعنى انك طمعت في ان يتزكى اويذكر فتقربه الذكرى الى قبول الحق ولذلك توليت عن الاعمى وما يدريك ان ذلك مرجو الوقوع (امامن استغنى) اى عن الايمان وعما عندك من العلوم والمعارف التي ينطوي عليها القرآن (فانت له تصدى) اى تتصدى وتتعرض بالاقبال عليه والاهتمام بارشاده واستصلاحه وفيه مزيد تنفير له عليه الصلاة والسلام عن مصاحبتهم فان الاقبال

الفقراء وانكسار قلوب الفقراء فلهذا السبب حصلت المعاتبة ونظيره قوله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى (والوجه الثانى) لعل هذا العتاب لم يقع على ماصدر من الرسول عليه الصلاة والسلام من الفعل الظاهر بل على ماكان منه فى قلبه وهو ان قلبه عليه الصلاة والسلام كان قدمال اليهم بسبب قرابتهم وشرفهم وعلو منصبهم وكان ينفر طبعه عن الاعمى بسبب عماه وعدم قرابته وقلة شرفه فلما وقع التعبيس والتولى لهذه الداعية وقعت المعاتبة لاعلى التأديب بل على التأديب لاجل هذه الداعية (والجواب عن السؤال الثانى) ان ذكره بلفظ الاعمى ليس لتحقير شأنه بل كأنه قيل انه بسبب عماه استحق مزيد الرفق والرأفة فكيف يليق بك يامحمد ان تخصه بالغلظة (والجواب عن السؤال الثالث) انه كان مأذونا فى تأديب اصحابه لكن ههنا لما اوهم تقديم الاغنياء على الفقراء وكان ذلك مما يوهم ترجيح الدنيا على الدين فلهذا السبب جاءت هذه المعاتبة (المسئلة الثانية) القائلون بصدور الذنب عن الانبياء عليهم السلام تمسكوا بهذه الآية وقالوا لما عاتبه الله فى ذلك الفعل دل على ان ذلك الفعل كان معصية وهذا بعيد فانا قد بينا ان ذلك كان هو الواجب المتعين الابحسب هذا الاعتبار الواحد وهو انه يوهم تقديم الاغنياء على الفقراء وذلك غير لائق بصلابة الرسول عليه السلام واذا كان كذلك كان ذلك جاريا مجرى ترك الاحتياط وترك الافضل فلم يكن ذلك ذنبا البتة (المسئلة الثالثة) اجمع المفسرون على ان الذى عبس وتولى هو الرسول عليه الصلاة والسلام واجمعوا ان الاعمى هو ابن ام مكتوم وقرئ عبس بالتشديد للمبالغة ونحوه كلح فى كلح ان جاءه منصوب بتولى اوبعبس على اختلاف المذهبين فى اعمال الاقرب او الابعد ومعناه عبس لأن جاءه الاعمى واعرض لذلك وقرئ أأن جاءه بهمزتين وبألف بينهما وقف على عبس وتولى ثم ابتدأ على معنى ألان جاءه الاعمى والمراد منه الانكار عليه واعلم ان فى الاخبار عما فرط من رسول الله ثم الاقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الانكار كمن يشكو الى الناس جانيا جنى عليه ثم يقبل على الجانى اذا حمى فى الشكاية مواجها بالتوبيخ والزام الحجة ۞ قوله تعالى (ومايدريك لعله يزكى اويذكر فتنفعه الذكرى) فيه قولان (الاول) اى شئ يجعلك داريا بحال هذا الاعمى لعله يتطهر بما يتلقن منك من الجهل او الاثم اويتعظ فتنفعه ذكراك اى موعظتك فتكون له لطفا فى بعض الطاعات وبالجملة فلعل ذلك العلم الذى يتلقفه عنك يطهره عن بعض مالا ينبغى وهو الجهل والمعصية اويشغله ببعض ماينبغى وهو الطاعة (الثانى) ان الضمير فى لعله للكافر بمعنى انك طمعت فى ان يزكى الكافر بالاسلام اويذكر فتقربه الذكرى الى قبول الحق ومايدريك ان ماطمعت فيه كائن وقرئ فتنفعه بالرفع عطفا على يذكر وبالنصب جوابا للعل كقوله فاطلع الى اله موسى وقدمر ۞ ثم قال تعالى (امامن استغنى) قال عطاء يريد عن الايمان وقال الكلبى استغنى عن الله وقال بعضهم استغنى

على المدبر ليس من شيم الكرام وقرئ تصدى بادغام التاء فى الصاد وقرئ تصدى بضم التاء اى تعرض ومعناه يدعوك الى التصدى له داع من الحرص والتهالك على اسلامه (وماعليك ان لا يزكى) وليس عليك بأس فى ان لايتزكى بالاسلام حتى تهتم بأمره وتعرض عمن اسلم والجملة حال من ضمير تصدى وقيل ما استفهامية للانكار اى اى شئ عليك فى ان لايتزكى ومآله النفى ايضا (وامامن جاءك يسعى) اى حال كونه مسرعا طالبا لما عندك من احكام الرشد وخصال الخير (وهو يخشى) اى الله تعالى وقيل يخشى اذية الكفار فى اتيانك وقيل يخشى الكبوة اذ لم يكن معه قائد والجملة حال من فاعل يسعى كما انه حال من فاعل جاءك (فأنت عنه تلهى) تتشاغل يقال لهى عنه والتهى وتلهى وقرئ تتلهى وتلهى اى يلهيك شأن الصناديد وفى تقديم ضميره عليه الصلاة والسلام على الفعلين تنبيه على ان مناط الانكار خصوصيته عليه الصلاة والسلام اى مثلك خصوصا لا ينبغى ان يتصدى للمستغنى ويتلهى عن الفقير الطالب للخير وتقديم له وعنه للتعريض باهتمامه عليه الصلاة والسلام بمضمونهما روى انه عليه الصلاة والسلام ماعبس بعد ذلك فى وجه فقير قط ولا تصدى لغنى (كلا) ردع له عليه الصلاة والسلام عما عوتب عليه من التصدى لمن استغنى عما دعاه اليه من الايمان والطاعة ومايوجبهما من القرآن الكريم مبالغا فى الاهتمام بأمره متهالكا على اسلامه معرضا بسبب ذلك عن ارشاد من يسترشده

اثرى وهو فاسد ههنا لان اقبال النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن لثروتهم ومالهم حتى يقال له اما من اثرى فأنت تقبل عليه ولانه قال واما من جاءك يسعى وهو يخشى ولم يقل وهو فقير عديم ومن قال اما من استغنى بماله فهو صحيح لان المعنى انه استغنى عن الايمان والقرآن بماله من المال ※ وقوله تعالى (فأنت له تصدى) قال الزجاج اى انت تقبل عليه وتتعرض له وتميل اليه يقال تصدى فلان لفلان يتصدى اذا تعرض له والاصل فيه تصدد يتصدد من الصدد وهو ما استقبلك وصار قبالتك وقد ذكرنا مثل هذا في قوله الامكاء وتصدية وقرئ تصدى بالتشديد بادغام التاء في الصاد وقرأ ابو جعفر تصدى بضم التاء اى تعرض ومعناه يدعوك داع الى التصدى له من الحرص والتهالك على اسلامه ※ ثم قال تعالى (وما عليك الا يزكى) المعنى لا شئ عليك في ان لا يسلم من تدعوه الى الاسلام فانه ليس عليك الا البلاغ اى لا يبلغن بك الحرص على اسلامهم الى ان تعرض عمن اسلم للاشتغال بدعوتهم ※ قال تعالى (واما من جاءك يسعى) اى يسرع في طلب الخير كقوله فاسعوا الى ذكر الله ※ وقوله تعالى (وهو يخشى) فيه ثلاثة اوجه يخشى الله ويخافه في ان لا يهتم بأداء تكاليفه او يخشى الكفار واذاهم في اتيانك او يخشى الكبوة فانه كان اعمى وما كان له قائد (فأنت عنه تلهى) اى تتشاغل من لهى عن الشئ والتهى وتلهى وقرأ طلحة بن مصرف تلهى وقرأ أبو جعفر تلهى اى يلهيك شأن الصناديد فان قيل قوله فأنت له تصدى فأنت عنه تلهى كان فيه اختصاصا قلنا نعم ومعناه انكار التصدى والتلهى عنه اى مثلك خصوصا لا ينبغى ان يتصدى للغنى ويتلهى عن الفقير ※ ثم قال تعالى (كلا) وهو ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله قال الحسن لما تلا جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات عاد وجهه كانما اسف الرماد فيه ينتظر ماذا يحكم الله عليه فلما قال كلا سرى عنه اى لا تفعل مثل ذلك وقد بينا نحن ان ذلك محمول على ترك الاولى ※ ثم قال تعالى (انها تذكرة) وفيه سؤالان (الاول) قوله انها ضمير المؤنث وقوله فمن شاء ذكره ضمير المذكر والضميران عائدان الى شئ واحد فكيف القول فيه (الجواب) فيه وجهان (الاول) ان قوله انها ضمير المؤنث قال مقاتل يعنى آيات القرآن وقال الكلبي يعنى هذه السورة وهو قول الاخفش والضمير في قوله فمن شاء ذكره عائد الى التذكرة ايضا لان التذكرة في معنى الذكر والوعظ (الثانى) قال صاحب النظم انها تذكرة يعنى به القرآن والقرآن مذكر الا انه لما جعل القرآن تذكرة اخرجه على لفظ التذكرة ولو ذكره لجاز كما قال في موضع آخر كلا انه تذكرة والدليل على ان قوله انها تذكرة المراد به القرآن قوله فمن شاء ذكره (السؤال الثانى) كيف اتصال هذه الآية بما قبلها (الجواب) من وجهين (الاول) كأنه قيل هذا التأديب الذى اوحيته اليك وعرفته لك في اجلال الفقراء وعدم الالتفات الى اهل الدنيا اثبت في اللوح المحفوظ الذى قد وكل بحفظه اكابر الملائكة (الثانى) كأنه قيل هذا القرآن قد بلغ في العظمة الى هذا الحد العظيم فأى حاجة به الى

وقوله تعالى (انها تذكرة) اى موعظة يجب ان يتعظ بها ويعمل بموجبها تعليل للردع عما ذكر ببيان علو رتبة القرآن العظيم الذى استغنى عنه من تصدى عليه الصلاة والسلام له وتحقيق ان شأنه ان يكون موعظة حقيقة بالاتعاظ بها فمن رغب فيها اتعظ بها كما نطق به قوله تعالى (فمن شاء ذكره) اى حفظه واتعظ به ومن رغب عنها كما فعله المستغنى فلا حاجة الى الاهتمام بأمره فالضميران للقرآن وتأنيث الاول لتأنيث خبره وقيل الاول للسورة او للآيات السابقة والثانى للتذكرة والتذكير لانها في معنى الذكر والوعظ وليس بذاك فان السورة والآيات وان كانت متصفة بما سيأتى من الصفات الشريفة لكنها ليست مما ألقى على من استغنى عنه واستحق بسبب ذلك ما سيأتى من الدعاء عليه والتعجب من كفره المفرط لنزولها بعد الحادثة واما من جوز رجوعهما الى العتاب المذكور فقد اخطأ واساء الادب وخبط خبطا يقضى منه العجب فتأمل وكن على الحق المبين وقوله تعالى (فى صحف) متعلق بمضمر هو صفة لتذكرة وما بينهما اعتراض جئ به للترغيب فيها والحث على حفظها اى كائنة في صحف منتسخة من اللوح او خبر ثان لان (مكرمة) عند الله عز وجل (مرفوعة) اى في السماء السابعة او مرفوعة المقدار والذكر (مطهرة) منزهة عن مساس ايدى الشياطين (بأيدى سفرة) اى كتبة من الملائكة ينتسخون الكتب من اللوح على انه جمع سافر من السفر وهو الكتب وقيل بأيدى رسل

ان يقبله هؤلاء الكفار فسواء قبلوه او لم يقبلوه فلا تلتفت اليهم ولا تشغل قلبك بهم واياك وان تعرض عمن آمن به تطييبا لقلب ارباب الدنيا ❊ قوله تعالى (فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة) اعلم انه تعالى وصف تلك التذكرة بأمرين (الاول) قوله فمن شاء ذكره اى هذه تذكرة بينة ظاهرة بحيث لو أرادوا فهمها والاتعاظ بها والعمل بموجبها لقدروا عليه (والثاني) قوله في صحف مكرمة اى تلك التذكرة مودعة في هذه الصحف المكرمة والمراد من ذلك تعظيم حال القرآن والتنويه بذكره والمعنى ان هذه التذكرة مثبتة في صحف وفي المراد من الصحف قولان (الاول) انها صحف منتسخة من اللوح مكرمة عند الله تعالى مرفوعة في السماء السابعة او مرفوعة المقدار مطهرة عن ايدي الشياطين او المراد مطهرة بسبب انها لا يمسها الا المطهرون وهم الملائكة ❊ ثم قال تعالى (بأيدي سفرة كرام بررة) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان الله تعالى وصف الملائكة بثلاثة انواع من الصفات (اولها) انهم سفرة وفيه قولان (الاول) قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة هم الكتبة من الملائكة قال الزجاج السفرة الكتبة واحدها سافر مثل كتبة وكاتب وانما قيل للكتبة سفرة وللكاتب سافر لان معناه انه الذي يبين الشيء ويوضحه يقال سفرت المرأة اذا كشفت عن وجهها (القول الثاني) وهو اختيار الفراء ان السفرة ههنا هم الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله وبين رسله واحدها سافر والعرب تقول سفرت بين القوم اذا اصلحت بينهم فجعلت الملائكة اذا نزلت بوحي الله وتأديته كالسفير الذي يصلح به بين القوم وأنشدوا

وما ادع السفارة بين قومي ❊ وما امشي بغش ان مشيت

واعلم ان اصل السفارة من الكشف والكاتب انما يسمى سافرا لانه يكشف والسفير انما سمى سفيرا ايضا لانه يكشف وهؤلاء الملائكة لما كانوا وسائط بين الله وبين البشر في البيان والهداية والعلم لا جرم سموا سفرة (الصفة الثانية) لهؤلاء الملائكة انهم كرام قال مقاتل كرام على ربهم وقال عطاء يريد انهم يتكرمون ان يكونوا مع ابن آدم اذا خلا مع زوجته للجماع وعند قضاء الحاجة (الصفة الثالثة) انهم بررة قال مقاتل مطيعين وبررة جمع بار قال الفراء لا يقولون فعلة للجمع الا والواحد منه فاعل مثل كافر وكفرة وفاجر وفجرة (القول الثاني) في تفسير الصحف انها هي صحف الانبياء لقوله تعالى ان هذا لفي الصحف الاولى يعني ان هذه التذكرة مثبتة في صحف الانبياء المتقدمين والسفرة الكرام البررة هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هم القراء (المسئلة الثانية) قوله تعالى مطهرة بأيدي سفرة يقتضي ان طهارة تلك الصحف انما حصلت بأيدي هؤلاء السفرة فقال القفال في تقريره لما كان لا يمسها الا الملائكة المطهرون اضيف التطهير اليها لطهارة من يمسها ❊ قوله تعالى (قتل الانسان ما اكفره) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين عجب عباده المؤمنين من ذلك

وظيفتهم التلقي من الوحي لا الكتب منه وارشاد الامة بالامر والنهي وتعليم الشرائع والاحكام لا مجرد السفارة اليهم وكذا حملهم على القراء لقراءتهم الاسفار او على اصحابه عليه الصلاة والسلام وقد قالوا هذه اللفظة مختصة بالملائكة لا تكاد تطلق على غيرهم وان جاز الاطلاق بحسب اللغة والباء متعلقة بمطهرة قال القفال لما لم يمسها الا الملائكة المطهرون اضيف التطهير اليها لطهارة من يمسها وقال القرطبي ان المراد بما في قوله تعالى لا يمسه الا المطهرون هؤلاء السفرة الكرام البررة (كرام) عند الله عز وجل او متعطفين على المؤمنين يكملونهم ويستغفرون لهم (بررة) اتقياء وقيل مطيعين لله تعالى من قولهم فلان يبر خالقه اى يطيعه وقيل صادقين من بر في يمينه (قتل الانسان) دعاء عليه بأشنع الدعوات وقوله تعالى (ما اكفره) تعجب من افراطه في الكفران وبيان لاستحقاقه الدعاء عليه والمراد به اما من استغنى عن القرآن الكريم الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة للاقبال عليه والايمان به واما الجنس باعتبار انتظامه له ولامثاله من افراده لا باعتبار جميع افراده وفيه مع قصر متنه وتقارب قطريه من الانباء عن سخط عظيم ومذمة بالغة ما لا غاية وراءه وقوله تعالى (من اى شئ خلقه) شروع في بيان افراطه في الكفران بتفصيل ما افاض عليه من مبدأ فطرته الى منتهى عمره من فنون النعم الموجبة لقضاء حقها بالشكر والطاعة مع اخلاله بذلك وفي الاستفهام عن مبدأ خلقه ثم بيانه بقوله تعالى

فكأنه قيل وأى سبب فى هذا العجب والترفع مع ان أوله نطفة قذرة وآخره جيفة مذرة وفيما بين الوقتين حمال عذرة فلا جرم ذكر تعالى مايصلح ان يكون علاجا لعجبهم ومايصلح ان يكون علاجا لكفرهم فان خلقة الانسان تصلح لان يستدل بها على وجود الصانع ولان يستدل بها على القول بالبعث والحشر والنشر (المسئلة الثانية) قال المفسرون نزلت الآية فى عتبة بن أبى لهب وقال آخرون المراد بالانسان الذين أقبل الرسول عليهم وترك ابن أم مكتوم بسببهم وقال آخرون بل المراد ذم كل غنى ترفع على فقير بسبب الغنى والفقر والذى يدل على ذلك وجوه (احدها) انه تعالى ذمهم لترفعهم فوجب ان يعم الحكم بسبب عموم العلة (وثانيها) انه تعالى زيف طريقتهم بسبب حقارة حال الانسان فى الابتداء والانتهاء على ماقال من نطفة خلقه ثم أماته فأقبره وعموم هذا الزجر يقتضى عموم الحكم (وثالثها) وهو ان حمل اللفظ على هذا الوجه أكثر فائدة واللفظ محتمل له فوجب حمله عليه (المسئلة الثالثة) قوله تعالى قتل الانسان دعاء عليه وهى من أشنع دعواتهم لان القتل غاية شدائد الدنيا وما أكفره تعجب من افراطه فى كفران نعمة الله فقوله قتل الانسان تنبيه على انهم استحقوا أعظم انواع العقاب وقوله ما أكفره تنبيه على انهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات (فان قيل) الدعاء على الانسان انما يليق بالعاجز والقادر على الكل كيف يليق به ذلك والتعجب أيضا انما يليق بالجاهل بسبب الشئ فالعالم بالكل كيف يليق به ذلك (الجواب) ان ذلك ورد على أسلوب كلام العرب وتحقيقه ماذكرنا انه تعالى بين انهم استحقوا أعظم انواع العقاب لاجل انهم أتوا باعظم انواع القبائح واعلم ان لكل محدث ثلاث مراتب اوله ووسطه وآخره وانه تعالى ذكر هذه المراتب الثلاثة للانسان * (اما المرتبة الاولى) فهى قوله تعالى (من اى شئ خلقه) وهو استفهام وغرضه زيادة التقرير فى التحقير ثم أجاب عن ذلك الاستفهام * بقوله تعالى (من نطفة خلقه) ولا شك ان النطفة شئ حقير مهين والغرض منه ان من كان أصله مثل هذا الشئ الحقير فالتكبر والتجبر لا يكون لائقا به * ثم قال تعالى (فقدره) وفيه وجوه (احدها) قال الفراء قدره اطوارا نطفة ثم علقة الى آخر خلقه وذكرا اوأنثى وسعيدا اوشقيا (وثانيها) قال الزجاج المعنى قدره على الاستواء كما قال أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا (وثالثها) يحتمل ان يكون المراد وقدر كل عضو فى الكمية والكيفية بالقدر اللائق بمصلحته ونظيره قوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا (واما المرتبة الثانية) وهى المرتبة المتوسطة فهى * قوله تعالى (ثم السبيل يسره) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) نصب السبيل باضمار يسره وفسره بيسره (المسئلة الثانية) ذكروا فى تفسيره اقوالا (احدها) قال بعضهم المراد تسهيل خروجه من بطن امه قالوا انه كان رأس المولود فى بطن امه من فوق ورجلاه من تحت فاذا جاء وقت الخروج انقلب فمن الذى اعطاه ذلك الالهام الا الله ومما يؤكد هذا التأويل ان خروجه حيا من ذلك المنفذ الضيق من اعجب العجائب (وثانيها) قال ابو مسلم

من الاعضاء والاشكال اوقدره اطوارا الى ان تم خلقه وقوله تعالى (ثم السبيل يسره) منصوب بمضمر يفسره الظاهر اى ثم سهل بخروجه من البطن بأن فتح فم الرحم وألهمه ان ينتكس اويسر له سبيل الخير والشر ومكنه من السلوك فيهما وتعريف السبيل باللام دون الاضافة للاشعار بعمومه (ثم أماته فأقبره) اى جعله ذاقبر يوارى فيه تكرمة له ولم يدعه مطروحا على وجه الارض جزرا للسباع والطير كسائر الحيوان يقال قبر الميت اذا دفنه واقبره اذا امر بدفنه اومكن منه وعد الاماتة من النعم لانها وصلة فى الجملة الى الحياة الابدية والنعيم المقيم (ثم اذا شاء انشره) اى اذ شاء انشاره انشره على القاعدة المستمرة فى حذف مفعول المشيئة وفى تعليق الانشار بمشيئته تعالى ايذان بأن وقته غير متعين بل هو تابع لها وقرئ نشره (كلا) ردع للانسان عماهو عليه وقوله تعالى (لما يقض ماامره) بيان لسبب الردع اى لم يقض بعد من لدن آدم عليه السلام الى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده ماامره الله تعالى بأسره اذ لا يخلو احد عن تقصير ما كذا قالوا وهكذا نقل عن مجاهد وقتادة ولاريب فى ان مساق الآيات الكريمة لبيان غاية عظم جناية الانسان وتحقيق كفرانه المفرط المستوجب للسخط العظيم وظاهر ان ذلك لا يتحقق بهذا القدر من نوع تقصير لا يخلو عنه احد من افراده كيف لا وقد قال عليه الصلاة والسلام شيبتنى سورة هود لما فيها من قوله فاستقم كما أمرت فالوجه ان يحمل عدم القضاء على عموم النفى لا على نفى العموم اما على ان المحكوم عليه هو المستغنى اوهو الجنس لكن لا على الاطلاق بل على ان مصداق الحكم بعدم القضاء بعض افراده وقد اسند الى الكل كما فى قوله تعالى ان الانسان لظلوم كفار للاشباع فى اللوم بحكم

(المراد)

المراد من هذه الآية هو المراد من قوله وهديناه النجدين فهو يتناول التميز بين كل خير وشر يتعلق بالدنيا و بين كل خير وشر يتعلق بالدين اى جعلناه متمكنا من سلوك سبيل الخير والشر والتيسير يدخل فيه الاقدار والتعريف والعقل وبعثة الانبياء وانزال الكتب (وثالثها) ان هذا مخصوص بامر الدين لان لفظ السبيل مشعر بان المقصود من احوال الدنيا امور تحصل فى الآخرة (واما المرتبة الثالثة) وهى المرتبة الاخيرة فهى ❊ قوله تعالى (ثم اماته فأقبره ثم اذا شاء انشره) واعلم ان هذه المرتبة الثالثة مشتملة ايضا على ثلاث مراتب الاماتة والاقبار والانشار اما الاماتة فقد ذكرنا منافعها فى هذا الكتاب ولا شك انها هى الواسطة بين حال التكليف والمجازاة واما الاقبار فقال الفراء جعله الله مقبورا ولم يجعله ممن يلقى للطير والسباع لان القبر مما كرم به المسلم قال ولم يقل فقبره لان القابر هو الدافن بيده والمقبر هو الله تعالى يقال قبر الميت اذا دفنه واقبر الميت اذا امر غيره بان يجعله فى القبر والعرب تقول بترت ذنب البعير والله أبتره وعضبت قرن الثور والله اعضبه وطردت فلانا عنى والله اطرده اى صيره طريدا وقوله تعالى اذا شاء انشره المراد منه الاحياء والبعث وانما قال اذا شاء اشعارا بان وقته غير معلوم لنا فتقديمه وتأخيره موكول الى مشيئة الله تعالى واما سائر الاحوال المذكورة قبل ذلك فانه يعلم اوقاتها من بعض الوجوه اذ الموت وان لم يعلم الانسان وقته ففى الجملة يعلم انه لا يتجاوز فيه الاحدا معلوما ❊ قوله تعالى (كلا لما يقض ما امره) واعلم ان قوله كلا ردع للانسان عن تكبره وترفعه اوعن كفره واصراره على انكار التوحيد وعلى انكاره البعث والحشر والنشر وفى قوله لما يقض ما امره وجوه (احدها) قال مجاهد لا يقضى احد جميع ما كان مفروضا عليه ابدا وهو اشارة الى ان الانسان لا ينفك عن تقصير البتة وهذا التفسير عندى فيه نظر لان قوله لما يقض الضمير فيه عائد الى المذكور السابق وهو الانسان فى قوله قتل الانسان ما اكفره وليس المراد من الانسان ههنا جميع الناس بل الانسان الكافر فقوله لما يقض كيف يمكن حمله على جميع الناس (وثانيها) ان يكون المعنى ان ذلك الانسان المترفع المتكبر لم يقض ما امر به من ترك التكبر اذ المعنى ان ذلك الانسان الكافر لم يقض ما امر به من التأمل فى دلائل الله والتدبر فى عجائب خلقه وبينات حكمته (وثالثها) قال الاستاذ أبو بكر بن فورك كلا لم يقض الله لهذا الكافر ما امره به من الايمان وترك التكبر بل امره بما لم يقض له به واعلم ان عادة الله تعالى جارية فى القرآن بانه كلما ذكر الدلائل الموجودة فى الانفس فانه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة فى الآفاق فجرى ههنا على تلك العادة وذكر دلائل الآفاق وبدأ بما يحتاج الانسان اليه ❊ فقال تعالى (فلينظر الانسان الى طعامه) الذى يعيش به كيف دبرنا امره ولا شك انه موضع الاعتبار فان الطعام الذى يتناوله الانسان له حالتان (احداهما) متقدمة وهى الامور التى لا بد من وجودها حتى يدخل ذلك الطعام فى الوجود (والثانية) متأخرة وهى الامور التى

رفع الايجاب الكلى دون السلب الكلى فالمعنى لما يقض جميع افراده ما امره بل اخل به بعضها بالكفر والعصيان مع ان مقتضى ما فصل من فنون النعماء فى الشاملة للكل ان لا يتخلف عنه احد اصلا هذا وقد قيل كلا بمعنى حقا فيتعلق بما بعده اى حقا لم يعمل بما امره به (فلينظر الانسان الى طعامه) شروع فى تعداد النعم المتعلقة ببقائه بعد تفصيل النعم المتعلقة بحدوثه اى فلينظر الى طعامه الذى عليه يدور امر معاشه كيف دبرناه وقوله تعالى (أنا صببنا الماء صبا) اى الغيث بدل اشتمال من طعامه لان الماء سبب لحدوث الطعام فهو مشتمل عليه وقرئ انا على الاستئناف وقرئ انى بالامالة اى كيف صببنا الى آخره اى صببناه صبا عجيبا (ثم شققنا الارض) اى بالنبات (شقا) بديعا لائقا بما يشقها من النبات صغرا وكبرا وشكلا وهيئة وحمل شقها على ما بالكراب يجعل اسناده الى نون العظمة من قبيل اسناد الفعل الى سببه يأباه كلمة ثم والفاء فى قوله تعالى (فأنبتنا فيها حبا) فان الشق بالمعنى المذكور لا ترتب بينه وبين الامطار اصلا ولا بينه وبين انبات الحب بلا مهلة وانما الترتيب بين الامطار وبين الشق بالنبات على التراخى المعهود وبين الشق المذكور وبين انبات الحب بلا مهلة فان المراد بالنبات ما نبت من الارض الى ان يتكامل النمو وينعقد الحب فان انشقاق الارض بالنبات لا يزال يتزايد ويتسع الى تلك المرتبة على ان مساق النظم الكريم لبيان النعم الفائضة من

فى حصول تلك النعم مخل بالمرام وقوله تعالى (وعنبا) عطف على حبا وليس (٤٧٦) من لوازم العطف ان يقيد المعطوف بجميع ماقيدبه

لابد منها فى بدن الانسان حتى يحصل له الانتفاع بذلك الطعام المأكول ولما كان النوع الاول اظهر للحس وابعد عن الشبهة لاجرم اكتفى الله تعالى بذكرها لان دلائل القرآن لابد وان تكون بحيث ينتفع بها كل الخلق فلابد وان تكون ابعد عن اللبس والشبهة وهذا هو المراد من قوله فلينظر الانسان الى طعامه ❊ واعلم ان النبت انما يحصل من القطر النازل من السماء الواقع فى الارض فالسماء كالذكر والارض كالانثى فذكر فى بيان نزول القطر قوله (انا صببنا الماء صبا) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله صببنا المراد منه الغيث ثم انظر فى انه كيف حدث الغيث المشتمل على هذه المياه العظيمة وكيف بقى معلقا فى جو السماء مع غاية ثقله وتأمل فى اسبابه القريبة والبعيدة حتى يلوح لك شئ من آثار نور الله وعدله وحكمته وفى تدبير خلقه هذا العالم (المسئلة الثانية) قرئ انا بالكسر وهو على الاستئناف وأنا بالفتح على البدل من الطعام والتقدير فلينظر الانسان الى انا كيف صببنا الماء قال ابو على الفارسى من قرأ بكسر انا كان ذلك تفسيرا للنظر الى طعامه كما ان قوله لهم مغفرة تفسير للوعد ومن فتح فعلى معنى البدل بدل الاشتمال لان هذه الاشياء تشتمل على كون الطعام وحدوثه فهو كقوله تعالى يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه وقوله قتل اصحاب الاخدود النار ❊ قوله تعالى (ثم شققنا الارض شقا) والمراد شق الارض بالنبات ثم ذكر تعالى ثمانية انواع من النبات ❊ (اولها) الحب وهو المشار اليه بقوله (فانبتنا فيها حبا) وهو كل ماحصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما وانما قدم ذلك لانه كالاصل فى الاغذية ❊ (وثانيها) قوله (وعنبا) وانما ذكره بعد الحب لانه غذاء من وجه وفاكهة من وجه ❊ (وثالثها) قوله (وقضبا) وفيه قولان (الاول) انه الرطبة وهى التى اذا يبست سميت بالقت واهل مكة يسمونها القضب واصله من القطع وذلك لانه يقضب مرة بعد اخرى وكذلك القضيب لانه يقضب اى يقطع وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل واختيار الفراء وابى عبيدة والاصمعى (والثانى) قال المبرد القضب هو العلف بعينه واصله من انه يقضب اى يقطع وهو قول الحسن ❊ (والرابع والخامس) قوله تعالى (وزيتونا ونخلا) ومنافعهما قد تقدمت فى هذا الكتاب ❊ (وسادسها) قوله تعالى (وحدائق غلبا) الاصل فى الوصف بالغلب الرقاب فالغلب الغلاظ الاعناق الواحد اغلب يقال اسد أغلب ثم ههنا قولان (الاول) ان يكون المراد وصف كل حديقة بان اشجارها متكاثفة متقاربة وهذا قول مجاهد ومقاتل قالا الغلب الملتفة الشجر بعضه فى بعض يقال اغلولب العشب واغلولبت الارض اذا التف عشبها (والثانى) ان يكون المراد وصف كل واحد من الاشجار بالغلظ والعظم قال عطاء عن ابن عباس يريد الشجر العظام وقال الفراء الغلب ماغلظ من النخل ❊ (وسابعها) قوله تعالى (وفاكهة) وقد استدل بعضهم بان الله تعالى لما ذكر الفاكهة معطوفة على العنب والزيتون والنخل وجب ان لاتدخل هذه الاشياء فى الفاكهة وهذا قريب من جهة

المعطوف عليه فلا ضير فى خلو انبات العنب عن شق الارض (وقضبا) اى رطبة سميت بمصدر قضبه اى قطعه مبالغة كأنها لتكرر قطعها وتكثره نفس القطع (وزيتونا ونخلا) الكلام فيهما وفى امثالهما كما فى العنب (وحدائق غلبا) اى عظاما وصف به الحدائق لتكاثفها وكثرة اشجارها اولانها ذات اشجار غلاظ مستعار من وصف الرقاب (وفاكهة وأبا) اى مرعى من ابه اذا امه اى قصده لانه يؤم وينتجع اومن أب لكذا اذا تهيأ له لانه متهيئ للرعى اوفاكهة يابسة تؤب للشتاء وعن الصديق رضى الله عنه انه سئل عن الاب فقال اى سماء تظلنى واى أرض تقلنى اذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به وعن عمر رضى الله عنه انه قرأ هذه الآية فقال كل هذا قد عرفنا فما الاب ثم رفض عصا كانت بيده وقال هذا لعمر الله التكلف وما عليك يا ابن أم عمر ان لاتدرى ما الاب ثم قال اتبعوا ماتبين لكم من هذا الكتاب ومالا فدعوه (متاعا لكم ولأنعامكم) اما مفعول له اى فعل ذلك تمتيعا لكم ولمواشيكم فان بعض النعم المعدودة طعام لهم وبعضها علف لدوابهم والالتفات لتكميل الامتنان واما مصدر مؤكد لفعله المضمر بحذف الزوائد اى متعكم بذلك متاعا اولفعل مترتب عليه اى متعكم بذلك فتمتعتم متاعا اى تمتعا كما مر غير مرة اومصدر من غير لفظه فان ماذكر من الافعال الثلاثة فى معنى التمتيع (فاذا جاءت الصاخة) شروع فى بيان احوال معادهم اثر بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم والفاء للدلالة على ترتب مابعدها على ماقبلها من فنون النعم عن قريب كما يشعر لفظ المتاع بسرعة زوالها وقرب اضمحلالها والصاخة هى الداهية العظيمة

(الظاهر)

الظاهر لان المعطوف مغاير للمعطوف عليه ※ (وثامنها) قوله تعالى (وأبا) والأب هو المرعى قال صاحب الكشاف لانه يؤب أى يؤم وينتجع والاب والام اخوان قال الشاعر

جذمنا قيس ونجد دارنا * ولنا الاب به والمكرع

وقيل الاب الفاكهة اليابسة لانها تؤب للشتاء أى تعد ※ ولما ذكر الله تعالى ما يغتذى به الناس والحيوان قال تعالى (متاعا لكم ولأنعامكم) قال الفراء خلقناه منفعة ومتعة لكم ولأنعامكم وقال الزجاج هو منصوب لانه مصدر مؤكد لقوله فأنبتنا لان انباته هذه الاشياء امتاع لجميع الحيوان واعلم انه تعالى لما ذكر هذه الاشياء وكان المقصود منها أمورا ثلاثة (أولها) الدلائل الدالة على التوحيد (وثانيها) الدلائل الدالة على القدرة على المعاد (وثالثها) ان هذا الاله الذى أحسن الى عبيده بهذه الانواع العظيمة من الاحسان لا يليق بالعاقل أن يتمرد عن طاعته وان يتكبر على عبيده اتبع هذه الجملة بما يكون مؤكدا لهذه الاغراض وهو شرح أهوال القيامة فان الانسان اذا سمعها خاف فيدعوه ذلك الخوف الى التأمل في الدلائل والايمان بها والاعراض عن الكفر ويدعوه ذلك ايضا الى ترك التكبر على الناس والى اظهار التواضع الى كل أحد فلا جرم ذكر القيامة ※ فقال تعالى (فاذا جاءت الصاخة) قال المفسرون يعنى صيحة القيامة وهى النفخة الاخيرة قال الزجاج أصل الصخ في اللغة الطعن والصك يقال صخ رأسه بحجر أى شدخه والغراب يصخ بمنقاره في دابر البعير اى يطعن فمعنى الصاخة الصاكة بشدة صوتها للاذن وذكر صاحب الكشاف وجها آخر فقال يقال صخ لحديثه مثل أصاخ له فوصفت النفخة بالصاخة مجازا لان الناس يصخون لها أى يستمعون ثم انه تعالى وصف هول ذلك اليوم ※ بقوله تعالى (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) يحتمل أن يكون المراد من الفرار ما يشعر به ظاهره وهو التباعد والاحتراز والسبب في ذلك الفرار الاحتراز عن المطالبة بالتبعات يقول الاخ ما واسيتنى بمالك والابوان يقولان قصرت في برنا والصاحبة تقول اطعمتنى الحرام وفعلت وصنعت والبنون يقولون ما علمتنا وما أرشدتنا وقيل اول من يفر من أخيه هابيل ومن أبويه ابراهيم ومن صاحبته نوح ولوط ومن ابنه نوح ويحتمل ان يكون المراد من الفرار ليس هو التباعد بل المعنى انه يوم يفر المرء من موالاة اخيه لاهتمامه بشانه وهو كقوله تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا واما الفرار من نصرته وهو كقوله تعالى يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا واما ترك السؤال وهو كقوله تعالى ولا يسأل حميم حميما (المسئلة الثانية) المراد ان الذين كان المرء في دار الدنيا يفر اليهم ويستجير بهم فانه يفر منهم في دار الآخرة ذكروا في فائدة الترتيب كأنه قيل يوم يفر المرء من أخيه بل من ابويه فانهما اقرب من الاخوين بل من الصاحبة والولد لان تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالابوين ثم انه تعالى لما ذكر هذا الفرار اتبعه بذكر سببه ※ فقال تعالى (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) وفي قوله يغنيه وجهان

التي يصحبها الخلائق اى يصيخون لها من صخ لحديثه (٤٧٧) اذا اصاخ له واستمع وصفت بها النفخة الثانية لان الناس يصيخون لها وقيل هي الصيحة التي تصخ الآذان اى تصمها لشدة وقعها وقيل هي مأخوذة من صخه بالحجر اى صكه وقوله تعالى (يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه) اما منصوب باعنى تفسير الصاخة او بدل منها مبني على الفتح بالاضافة الى الفعل على رأى الكوفيين وقيل بدل من اذا جاءت كما مر في قوله تعالى يوم يتذكر الخ اى يعرض عنهم ولا يصاحبهم ولا يسأل عن حالهم كما في الدنيا لاشتغاله بحال نفسه واما تعليل ذلك بعلمه بأنهم لا يغنون عنه شيأ او بالحذر من مطالبتهم بالتبعات فيأباه قوله تعالى (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) فانه استئناف وارد لبيان سبب الفرار اى لكل واحد من المذكورين شغل شاغل وخطب هائل يكفيه في الاهتمام به واما الفرار حذرا من مطالبتهم او بغضا لهم كما يروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه يفر قابيل من اخيه هابيل ويفر النبي عليه الصلاة والسلام من امه ويفر ابراهيم عليه السلام من ابيه ونوح عليه السلام من ابنه ولوط عليه السلام من امرأته فليس من قبيل هذا الفرار وكذا ما يروى ان الرجل يفر من اصحابه واقربائه لئلا يروه على ما هو عليه من سوء الحال وقرئ يعنيه بالياء المفتوحة والعين المهملة اى يهمه من عناه الامر اذا اهمه اى اوقعه في الهم ومنه من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه لا من عناه اذا قصده كما قيل وقوله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة) بيان لمآل امر المذكورين وانقسامهم الى السعداء والاشقياء بعد ذكر وقوعهم في داهية دهياء فوجوه مبتدأ وان كانت نكرة لكونها في حيز التنويع ومسفرة خبره ويومئذ متعلق به اى مضيئة متهللة من اسفر الصبح

الاول) قال ابن قتيبة يغنيه أى يصرفه ويصده عن قرابته وانشد

سيغنيك حرب بنى مالك * عن الفحش والجهل فى المحفل

أى سيشغلك ويقال اغن عنى وجهك أى اصرفه (الثانى) قال اهل المعانى يغنيه اى ذلك الهم الذى بسبب خاصة نفسه قد ملأ صدره فلم يبق فيه متسع لهم آخر فصار شبيها بالغنى فى انه حصل عنده من ذلك المملوك شئ كثير واعلم انه تعالى لما ذكر حال يوم القيامة فى الهول بين ان المكلفين فيه على قسمين منهم السعداء ومنهم الاشقياء فوصف السعداء * بقوله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) مسفرة مضيئة متهللة من أسفر الصبح اذا أضاء وعن ابن عباس من قيام الليل لما روى من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وعن الضحاك من آثار الوضوء وقيل من طول ما اغبرت فى سبيل الله وعندى انه بسبب الخلاص من علائق الدنيا والاتصال بعالم القدس ومنازل الرضوان والرحمة ضاحكة قال الكلبى يعنى بالفراغ من الحساب مستبشرة فرحة بما نالت من كرامة الله ورضاه واعلم ان قوله مسفرة اشارة الى الخلاص عن هذا العالم وتبعاته واما الضاحكة والمستبشرة فهما محمولتان على القوة النظرية والعملية اوعلى وجدان المنفعة ووجدان التعظيم * (ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة) قال المبرد الغبرة ما يصيب الانسان من الغبار وقوله ترهقها أى تدركها عن قرب كقولك رهقت الجبل اذا لحقته بسرعة والرهق عجلة الهلاك والقترة سواد كالدخان ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد فى الوجه كما ترى وجوه الزنوج اذا اغبرت وكأن الله تعالى جمع فى وجوههم بين السواد والغبرة كما جمعوا بين الكفر والفجور والله أعلم واعلم ان المرجئة والخوارج تمسكوا بهذه الآية اما المرجئة فقالوا ان هذه الآية دلت على ان اهل القيامة على قسمين اهل الثواب واهل العقاب ودلت على ان أهل العقاب هم الكفرة وثبت بالدليل ان الفساق من اهل الصلاة ليسوا بكفرة واذا لم يكونوا من الكفرة كانوا من اهل الثواب وذلك يدل على ان صاحب الكبيرة أهل الصلاة ليس له عقاب واما الخوارج فانهم قالوا دلت سائر الدلائل على ان صاحب الكبيرة يعاقب ودلت هذه الآية على ان كل من يعاقب فانه كافر فيلزم ان كل مذنب فانه كافر (والجواب) أكثر ما فى الباب ان المذكور ههنا هو هذا ن الفريقان وذلك لا يقتضى نفى الفريق الثالث والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبى وآله وصحبه أجمعين

(سورة التكوير عشرون وتسع آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اذا الشمس كورت) اعلم انه تعالى ذكر اثنى عشر شيئا وقال اذا وقعت هذه الاشياء فهنا لك علمت نفس ما احضرت فالاول قوله تعالى اذا الشمس كورت وفى التكوير وجهان (احدهما) التلفيف على جهة الاستدارة كتكوير العمامة وفى الحديث نعوذ

من آثار الوضوء وقيل من طول ما اغبرت فى سبيل الله (ضاحكة مستبشرة) بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة (ووجوه يومئذ عليها غبرة) اى غبار وكدورة (ترهقها) اى تعلوها وتغشاها (قترة) اى سواد وظلمة (اولئك) اشارة الى اصحاب تلك الوجوه وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى سوء الحال اى اولئك الموصوفون بسواد الوجوه وغيره (هم الكفرة الفجرة) الجامعون بين الكفر والفجور فلذلك جمع الله تعالى الى سواد وجوههم الغبرة * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة عبس جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر

(سورة التكوير مكية وآيها تسع (وعشرون)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(اذا الشمس كورت) اى لفت من كورت العمامة اذا لففتها على ان المراد بذلك امار فعها وازالتها من مقرها فان الثوب اذا اريد رفعه يلف لفا ويطوى ونحوه قوله تعالى يوم نطوى السماء واما لف ضوئها المنبسط فى الآفاق المنتشر فى الاقطار على انه عبارة عن ازالتها والذهاب بها بحكم استلزام زوال اللازم لزوال الملزوم او القيت عن فلكها كما وصفت النجوم بالانكدار من طعنه فكوره اذا القاه على الارض وعن ابى صالح كورت نكست وعن ابن عباس رضى الله عنهما تكويرها ادخالها فى العرش ومدار التركيب على الادارة والجمع وارتفاع الشمس على انه فاعل لفعل مضمر يفسره المذكور وعند البعض على الابتداء (واذا النجوم انكدرت) اى انقضت وقيل تناثرت وتساقطت روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه لا يبقى يومئذ نجم (بالله)

بالله من الحور بعد الكور أى من التشتت بعد الالفة والطى واللف والكور والتكوير واحد وسميت كارة القصار كارة لانه يجمع ثيابه فى ثوب واحد ثم ان الشئ الذى يلف لاشك انه يصير مختفيا عن الاعين فعبر عن ازالة النور عن جرم الشمس وتصييرها غائبة عن الاعين بالتكوير فلهذا قال بعضهم كورت أى طمست وقال آخرون انكسفت وقال الحسن محى ضوءها وقال المفضل بن سلمة كورت أى ذهب ضوءها كأنها استترت فى كارة (الوجه الثانى) فى التكوير يقال كورت الحائط ودهورته اذا طرحته حتى يسقط قال الاصمعى يقال طعنه فكوره اذا صرعه فقوله اذا الشمس كورت أى ألقيت ورميت عن الفلك (وفيه قول ثالث) يروى عن عمر انه لفظة مأخوذة من الفارسية فانه يقال للاعمى كور وههنا سؤالان (السؤال الاول) ارتفاع الشمس على الابتداء أو الفاعلية (الجواب) بل على الفاعلية رافعها فعل مضمر يفسره كورت لان اذا يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط (السؤال الثانى) روى ان الحسن جلس بالبصرة الى ابى سلمة بن عبد الرحمن فحدث عن أبى هريرة انه عليه السلام قال ان الشمس والقمر ثوران مكوران فى النار يوم القيامة فقال الحسن وما ذنبهما قال انى احدثك عن رسول الله فسكت الحسن (الجواب) ان سؤال الحسن ساقط لان الشمس والقمر جمادان فالقاؤهما فى النار لا يكون سببا لمضرتهما ولعل ذلك يصير سببا لازدياد الحر فى جهنم فلا يكون هذا الخبر على خلاف العقل ❊(الثانى) قوله تعالى (واذا النجوم انكدرت) اى تناثرت وتساقطت كما قال تعالى واذا الكواكب انتثرت والاصل فى الانكدار الانصباب قال الخليل يقال انكدر عليهم القوم اذا جاؤا ارسالا فانصبوا عليهم قال الكلبى تمطر السماء يومئذ نجوما فلا يبقى نجم فى السماء الاوقع على وجه الارض قال عطاء وذلك انها فى قناديل معلقة بين السماء والارض بسلاسل من النور وتلك السلاسل فى ايدى الملائكة فاذا مات من فى السماء والارض تساقطت تلك السلاسل من أيدى الملائكة ❊ (الثالث) قوله تعالى (واذا الجبال سيرت) أى عن وجه الارض كقوله وسيرت الجبال فكانت سرابا أو فى الهواء كقوله تمر مر السحاب ❊ (الرابع) قوله تعالى (واذا العشار عطلت) فيه قولان (القول الاول) المشهور ان العشار جمع عشراء كالنفاس فى جمع نفساء وهى التى أتى على حملها عشرة أشهر ثم هو اسمها الى ان تضع لتمام السنة وهى انفس ما يكون عند اهلها وأعزها عليهم عطلت قال ابن عباس أهملها أهلها لما جاءهم من اهوال يوم القيامة وليس شئ احب الى العرب من النوق الحوامل وخوطب العرب بامر العشار لان أكثر مالها وعيشها من الابل والغرض من ذلك ذهاب الاموال وبطلان الاملاك واشتغال الناس بأنفسهم كما قال تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم وقال ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة (والقول الثانى) ان العشار كناية عن السحاب تعطلت عما فيها من الماء وهذا وان كان مجازا الا انه أشبه بسائر ماقبله وأيضا فالعرب تشبه السحاب بالحامل قال تعالى

مات من فى السموات ومن فى الارض تساقطت من ايديهم وقيل انكدارها انطماس نورها ويروى ان الشمس والنجوم تطرح فى جهنم ليراها من عبدها كما قال انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم (واذا الجبال سيرت) اى عن أماكنها بالرجفة الحاصلة لا فى الجو فان ذلك بعد النفخة الثانية (واذا العشار) جمع عشراء وهى الناقة التى اتى على حملها عشرة اشهر وهو اسمها الى ان تضع لتمام السنة وهى انفس مايكون عند اهلها وأعزها عليهم (عطلت) تركت مهملة لاشتغال اهلها بأنفسهم وقيل العشار السحائب فان العرب تشبهها بالحامل ومنه قوله تعالى فالحاملات وقرا وتعطيلها عدم امطارها وقرئ عطلت بالتخفيف (واذا الوحوش حشرت) اى جمعت من كل جانب وقيل بعثت للقصاص قال قتادة يحشر كل شئ حتى الذباب للقصاص فاذا قضى بينها ردت ترابا فلا يبقى منها الا مافيه سرور لبنى آدم واعجاب بصورته كالطاوس ونحوه وقرئ حشرت بالتشديد (واذا البحار سجرت) اى أحميت اوملئت بتفجير بعضها الى بعض حتى تعود بحرا واحدا من سجر التنور اذا ملأه بالحطب ليحميه وقيل ملئت نيرانا تضطرم لتعذيب اهل النار وعن الحسن يذهب ماؤها حتى لا يبقى فيها قطرة وقرئ سجرت بالتخفيف (واذا النفوس زوجت) اى قرنت بأجسادها اوقرنت كل نفس بشكلها اوبكتابها اوبعملها اونفوس المؤمنين بالحور ونفوس الكافرين بالشياطين (واذا الموؤدة) اى المدفونة حية وكانت العرب

تئد البنات مخافة الاملاق اولحوق العار بهم من اجلهن قيل كان الرجل منهم اذا ولدت له بنت البسها جبة من صوف

فالحاملات وقرا ﴿ (الخامس) قوله تعالى (واذا الوحوش حشرت) كل شئ من دواب البر مما لا يستأنس فهو وحش والجمع الوحوش حشرت جمعت من كل ناحية قال قتادة يحشر كل شئ حتى الذباب للقصاص قالت المعتزلة ان الله تعالى يحشر الحيوانات كلها فى ذلك اليوم ليعوضها على آلامها التى وصلت اليها فى الدنيا بالموت والقتل وغير ذلك فاذا عوضت على تلك الآلام فان شاء الله ان يبقى بعضها فى الجنة اذا كان مستحسنا فعل وان شاء ان يفنيه أفناه على ماجاء به الخبر وأما أصحابنا فعندهم انه لا يجب على الله شئ بحكم الاستحقاق ولكنه تعالى يحشر الوحوش كلها فيقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها موتى فتموت والغرض من ذكر هذه القصة ههنا وجوه (احدها) انه تعالى اذا كان يحشر كل الحيوانات اظهارا للعدل فكيف يجوز مع هذا ان لا يحشر المكلفين من الانس والجن (والثانى) انها تجتمع فى موقف القيامة مع شدة نفرتها عن الناس فى الدنيا وتبددها فى الصحارى فدل هذا على ان اجتماعها الى الناس ليس الا من هول ذلك اليوم (والثالث) ان هذه الحيوانات بعضها غذاء للبعض ثم انها فى ذلك اليوم تجتمع ولا يتعرض بعضها لبعض وما ذاك الا لشدة هول ذلك اليوم وفى الآية قول آخر لابن عباس وهو ان حشر الوحوش عبارة عن موتها يقال اذا أجحفت السنة بالناس واموالهم حشرتهم السنة وقرئ حشرت بالتشديد ﴿ (السادس) قوله تعالى (واذا البحار سجرت) قرئ بالتخفيف والتشديد وفيه وجوه (أحدها) ان أصل الكلمة من سجرت التنور اذا أوقدتها والشئ اذا أوقد فيه نشف مافيه من الرطوبة فحينئذ لا يبقى فى البحار شئ من المياه البتة ثم ان الجبال قد سيرت على ماقال وسيرت الجبال وحينئذ تصير البحار والارض شيئا واحدا فى غاية الحرارة والاحراق ويحتمل ان تكون الارض لما نشفت مياه البحار ربت فارتفعت فاستوت برؤس الجبال ويحتمل ان الجبال لما اندكت وتفرقت أجزاؤها وصارت كالتراب وقع ذلك التراب فى اسفل الجبال فصار وجه الارض مستويا مع البحار ويصير الكل بحرا مسجورا (وثانيها) ان يكون سجرت بمعنى فجرت وذلك لان بين البحار حاجزا على ماقال مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فاذا رفع الله ذلك الحاجز فاض البعض فى البعض وصارت البحار بحرا واحدا وهو قول الكلبى (وثالثها) سجرت اوقدت قال القفال وهذا التأويل يحتمل وجوها (الاول) ان تكون جهنم فى قعور البحار فهى الآن غير مسجورة لقوام الدنيا فاذا انتهت مدة الدنيا اوصل الله تأثير تلك النيران الى البحار فصارت بالكلية مسجورة بسبب ذلك (والثانى) ان الله تعالى يلقى الشمس والقمر والكواكب فى البحار فتصير البحار مسجورة بسبب ذلك (والثالث) ان يخلق الله تعالى تحت البحار نيرانا عظيمة حتى تسخن تلك المياه وأقول هذه الوجوه متكلفة ولا حاجة الى شئ منها لان القادر على تخريب الدنيا واقامة القيامة لابد وان يكون قادرا على ان يفعل بالبحار ماشاء من تسخين ومن قلب مياهها

او شعر حتى اذا بلغت ست سنين ذهب بها الى الصحراء وقد حفر لها حفرة فيلقيها فيها ويهيل عليها التراب وقيل كانت الحامل اذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فاذا ولدت بنتا رمت بها وان ولدت ابنا حبسته (سئلت بأى ذنب قتلت) توجيه السؤال اليها لتسليتها واظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها واسقاطه عن درجة الخطاب والمبالغة فى تبكيته كما فى قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذونى وامى الهين وقرئ سألت اى خاصمت او سألت الله تعالى او قاتلها وانما قيل قتلت لما ان الكلام اخبار عنها لا حكاية لما خوطبت به حين سئلت ليقال قتلت على الخطاب ولا حكاية لكلامها حين سألت ليقال قتلت على الحكاية عن نفسها وقد قرئ كذلك وبالتشديد ايضا وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه سئل عن اطفال المشركين فقال لا يعذبون واحتج بهذه الآية (واذا الصحف نشرت) اى صحف الاعمال فانها تطوى عند الموت وينشر عند الحساب عن النبى عليه الصلاة والسلام انه قال يحشر الناس عراة حفاة فقالت أم سلمة فكيف بالنساء فقال شغل الناس يا أم سلمة قالت وما شغلهم قال نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل وقيل نشرت اى فرقت بين اصحابها وعن مرثد بن وداعة اذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش فتقع صحيفة المؤمن فى يده فى جنة عالية وتقع صحيفة الكافر فى يده فى سموم وحميم اى مكتوب فيها ذلك وهى صحف غير صحف الاعمال (واذا السماء كشطت) قطعت وأزيلت كما يكشط الاهاب عن الذبيحة والغطاء عن الشئ المستور به وقرئ قشطت واعتقاب الكاف والقاف غير عزيز كالكافور والقافور (واذا الجحيم سعرت) اى اوقدت ايقادا

نيرانا من غير حاجة منه الى ان يلقى فيها الشمس والقمر او يكون تحتها نار جهنم واعلم ان هذه العلامات الستة يمكن وقوعها فى اول زمان تخريب الدنيا ويمكن وقوعها ايضا بعد قيام القيامة وليس فى اللفظ ما يدل على احد الاحتمالين اما الستة الباقية فانها مختصة بالقيامة ❊ (السابع) قوله تعالى (واذا النفوس زوجت) وفيه وجوه (احدها) قرنت الارواح بالاجساد (وثانيها) قال الحسن يصيرون فيها ثلاثة ازواج كما قال وكنتم ازواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة واصحاب المشأمة ما اصحاب المشأمة والسابقون السابقون (وثالثها) انه يضم الى كل صنف من كان فى طبقته من الرجال والنساء فيضم المبرز فى الطاعات الى مثله والمتوسط الى مثله وأهل المعصية الى مثله فالتزويج ان يقرن الشئ بمثله والمعنى ان يضم كل واحد الى طبقته فى الخير والشر (ورابعها) يضم كل رجل الى من كان يلزمه من ملك وسلطان كما قال احشروا الذين ظلموا وازواجهم قيل قرناءهم من الشياطين (وخامسها) قال ابن عباس زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين (وسادسها) قرن كل امرئ بشيعته اليهودى باليهودى والنصرانى بالنصرانى وقد ورد فيه خبر مرفوع (وسابعها) قال الزجاج قرنت النفوس بأعمالها واعلم انك اذا تأملت فى الاقوال التى ذكرناها امكنك ان تزيد عليها ما شئت ❊ (الثامن) قوله تعالى (واذا الموؤدة سئلت بأى ذنب قتلت) فيه مسائل (المسئلة الاولى) وأد يئد مقلوب من آد يئود اذا ثقل قال تعالى ولا يؤده حفظهما اى لا يثقله لانه اثقال بالتراب كان الرجل اذا ولدت له بنت فاراد بقاء حياتها ألبسها جبة من صوف او شعر لترعى له الابل والغنم فى البادية وان اراد قتلها تركها حتى اذا بلغت قامتها ستة اشبار فيقول لامها طيبيها وزينيها حتى اذهب بها الى اقاربها وقد حفر لها بئرا فى الصحراء فيبلغ بها الى البئر فيقول لها انظرى فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى يستوى البئر بالارض وقيل كانت الحامل اذا اقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فاذا ولدت بنتا رمتها فى الحفرة واذا ولدت ابنا أمسكته وههنا سؤالان (السؤال الاول) ما الذى حملهم على وأد البنات (الجواب) الخوف من لحوق العار بهم من أجلهن او الخوف من الاملاق كما قال تعالى ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق وكانوا يقولون ان الملائكة بنات الله فالحقوا البنات بالملائكة وكان صعصعة بن ناجية ممن منع الوأد فافتخر الفرزدق به فى قوله

ومنا الذى منع الوائدات * فاحيى الوئيد فلم توأد

(السؤال الثانى) فما معنى سؤال الموؤدة عن ذنبها الذى قتلت به وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها (الجواب) سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها وهو كتبكيت النصارى فى قوله لعيسى أأنت قلت للناس اتخذونى وامى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى ان اقول ما ليس لى بحق (المسئلة الثانية) قرئ سألت اى خاصمت عن نفسها وسألت

شديدا قيل سعرها غضب الله عز وجل وخطايا بنى آدم وقرئ سعرت بالتخفيف (واذا الجنة ازلفت) اى قربت من المتقين كقوله تعالى وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد قيل هذه اثنتا عشرة خصلة ست منها فى الدنيا اى فيما بين النفختين وهن من اول السورة الى قوله تعالى واذا البحار سجرت على ان المراد بحشر الوحوش جمعها من كل ناحية لا بعثها للقصاص وست فى الآخرة اى بعد النفخة الثانية وقوله تعالى (علمت نفس ما احضرت) جواب اذا على ان المراد بها زمان واحد ممتد يسع ما فى سياقها وسياق ما عطف عليها من الخصال مبدؤه النفخة الاولى ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق لكن لا بمعنى انها تعلم ما تعلم فى كل جزء من اجزاء ذلك الوقت المديد او عند وقوع داهية من تلك الدواهى بل عند نشر الصحف الا انه لما كان بعض تلك الدواهى من مباديه وبعضها من روادفه نسب علمها بذلك الى زمان وقوع كلها تهويلا للخطب وتفظيعا للحال والمراد بما احضرت اعمالها من الخير والشر وبحضورها اما حضور صحائفها كما يعرب عنه نشرها واما حضور انفسها على ما قالوا من ان الاعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح على كيفيات مخصوصة وهيآت معينة حتى ان الذنوب والمعاصى تجسم هنالك وتصور بصورة النار وعلى ذلك حمل قوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين وقوله تعالى ان الذين يأكلون

الله او قاتلها وقرئ قتلت بالتشديد (فان قيل) اللفظ المطابق ان يقال سئلت بأى ذنب قتلت ومن قرأ سألت فالمطابق ان يقرأ بأى ذنب قتلت فالوجه فى القراءة المشهورة قلنا (الجواب) من وجهين (الاول) تقدير الآية واذا الموؤدة سئلت الوائدون عن أحوالها بأى ذنب قتلت (والثانى) ان الانسان قد يسأل عن حال نفسه عند المعاينة بلفظ المغايبة كما اذا أردت ان تسأل زيدا عن حال من احواله فتقول ماذا فعل زيد فى ذلك المعنى ويكون زيد هو المسؤل وهو المسؤل عنه فكذا ههنا ❊ (التاسع) قوله تعالى (واذا الصحف نشرت) قرئ بالتخفيف والتشديد يريد صحف الاعمال تطوى صحيفة الانسان عند موته ثم تنشر اذا حوسب ويجوز ان يراد نشرت بين اصحابها اى فرقت بينهم ❊ (العاشر) قوله تعالى (واذا السماء كشطت) اى كشفت وازيلت عما فوقها وهو الجنة وعرش الله كما يكشط الاهاب عن الذبيحة والغطاء عن الشئ وقرأ ابن مسعود قشطت واعتقاب القاف والكاف كثير يقال لبكت الثريد ولبقته والكافور والقافور قال الفراء نزعت فطويت ❊ (الحادى عشر) قوله تعالى (واذا الجحيم سعرت) اوقدت ايقادا شديدا وقرئ سعرت بالتشديد للمبالغة قيل سعرها غضب الله وخطايا بنى آدم واحتج بهذه الآية من قال النار غير مخلوقة الآن قالوا لانها تدل على ان تسعيرها معلق بيوم القيامة ❊ (الثانى عشر) قوله تعالى (واذا الجنة أزلفت) اى ادنيت من المتقين كقوله وازلفت الجنة للمتقين ❊ ولما ذكر الله تعالى هذه الامور الاثنى عشر ذكر الجزاء المرتب على الشرط الذى هو مجموع هذه الاشياء فقال تعالى (علمت نفس ما احضرت) ومن العلوم ان العمل لا يمكن احضاره فالمراد اذن ما احضرته فى صحائفها وما احضرته عند المحاسبة وعند الميزان من آثار تلك الاعمال والمراد ما احضرت من استحقاق الجنة والنار (فان قيل) كل نفس تعلم ما أحضرت لقوله تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا فما معنى قوله علمت نفس قلنا (الجواب) من وجهين (الاول) ان هذا هو من عكس كلامهم الذى يقصدون به الافراط وان كان اللفظ موضوعا للقليل ومنه قوله تعالى ربما يود الذين كفروا كمن يسأل فاضلا مسئلة ظاهرة ويقول هل عندك فيها شئ فيقول ربما حضر شئ وغرضه الاشارة الى ان عنده فى تلك المسئلة ما يقوم به غيره فكذا ههنا (الثانى) لعل الكفار كانوا يتعبون انفسهم فى الاشياء التى يعتقدونها طاعات ثم بدا لهم يوم القيامة خلاف ذلك فهو المراد من هذه الآية ❊ قوله تعالى (فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس) الكلام فى قوله لا أقسم قد تقدم فى قوله لا أقسم بيوم القيامة والخنس الجوارى الكنس فيه قولان (الاول) وهو المشهور الظاهر انها النجوم الخنس جمع خانس والخنوس الانقباض والاستخفاء تقول خنس من بين القوم وانخنس وفى الحديث الشيطان يوسوس الى العبد فاذا ذكر الله خنس اى انقبض ولذلك سمى الخناس والكنس جمع كانس وكانسة يقال كنس اذا دخل الكناس وهو مقر الوحش يقال كنست الظباء فى كنسها وتكنست المرأة اذا دخلت

(هودجها)

اموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وكذا قوله عليه الصلاة والسلام فى حق من يشرب من انية الذهب والفضة انما يجرجر فى بطنه نار جهنم ولا بعد فى ذلك الا يرى ان العلم يظهر فى عالم المثال على صورة اللبن كما لا يخفى على من له خبرة بأحوال الحضرات الخمس وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه يؤتى بالاعمال الصالحة على صور حسنة وبالاعمال السيئة على صور قبيحة فتوضع فى الميزان واياما كان فاسناد احضارها الى النفس مع انها تحضر بأمر الله تعالى كما ينطق به قوله تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا الآية لانها لما عملتها فى الدنيا فكأنها احضرتها فى الموقف ومعنى علمها بها حينئذ انها تشاهدها على ما هى عليه فى الحقيقة فان كانت صالحة تشاهدها على صور أحسن مما كانت تشاهدها عليه فى الدنيا لان الطاعات لا تخلو فيها عن نوع مشقة وان كانت سيئة تشاهدها على خلاف ما كانت تشاهدها عليه ههنا لانها كانت مزينة لها موافقة لهواها وتنكير النفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس او لبعض منها للايذان بأن ثبوته لجميع افرادها قاطبة من الظهور والوضوح بحيث لا يكاد يحوم حوله شائبة اشتباه قطعا يعرفه كل احد ولو جئ بعبارة تدل على خلافه وللرمز الى ان تلك النفوس العالمة بما ذكر مع توفر أفرادها وتكثر اعدادها مما يستقل بالنسبة الى جناب الكبرياء الذى اشير الى بعض بدائع شؤنه المنبئة عن عظم سلطانه واما ما قيل

هو دجها تشبه بالظبي اذا دخل الكناس ثم اختلفوا في خنوس النجوم وكنوسها على ثلاثة أوجه (فالقول الاظهر) ان ذلك اشارة الى رجوع الكواكب الخمسة السيارة واستقامتها فرجوعها هو الخنوس وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس ولاشك ان هذه حالة عجيبة وفيها اسرار عظيمة باهرة (القول الثاني) ماروى عن علي عليه السلام وعطاء ومقاتل وقتادة انها هي جميع الكواكب وخنوسها عبارة عن غيبوبتها عن البصر في النهار وكنوسها عبارة عن ظهورها للبصر في الليل أي تظهر في اماكنها كالوحش في كنسها (القول الثالث) ان السبعة السيارة تختلف مطالعها ومغاربها على ماقال تعالى رب المشارق والمغارب ولاشك أن فيها مطلعا واحدا ومغربا واحدا هما أقرب المطالع والمغارب الى سمت رؤسنا ثم انها تأخذ في التباعد من ذلك المطلع الى سائر المطالع طول السنة ثم ترجع اليه فخنوسها عبارة عن تباعدها عن ذلك المطلع وكنوسها عبارة عن عودها اليه فهذا محتمل فعلى القول الاول يكون القسم واقعا بالخمسة المتحيرة وعلى القول الثاني يكون القسم واقعا بجميع الكواكب وعلى هذا الاحتمال الذي ذكرته يكون القسم واقعا بالسبعة السيارة والله اعلم بمراده (والقول الثاني) ان الخنس الجواري الكنس وهو قول ابن مسعود والنخعي انها بقر الوحش وقال سعيد بن جبير هي الظباء وعلى هذا الخنس من الخنس في الانف وهو تقعير الانف فان البقر والظباء أنوفها على هذه الصفة والكنس جمع كانس وهي التي تدخل الكناس والقول هو الاول والدليل عليه أمران (الاول) انه قال بعد ذلك والليل اذا عسعس وهذا بالنجوم اليق منه ببقر الوحش (الثاني) ان محل قسم الله كلما كان أعظم وأعلى رتبة كان اولى ولاشك ان الكواكب اعلى رتبة من بقر الوحش (الثالث) ان الخنس جمع خانس من الخنوس واما جمع خنساء وأخنس من الخنس خنس بالسكون والتخفيف ولا يقال الخنس فيه بالتشديد الا ان يجعل الخنس في الوحشية ايضا من الخنوس وهو اختفاؤها في الكناس اذا غابت عن الاعين ❊ قوله تعالى (والليل اذا عسعس) ذكر اهل اللغة ان عسعس من الاضداد يقال عسعس الليل اذا اقبل وعسعس اذا ادبر وانشدوا في ورود ها بمعنى ادبر قول العجاج

حتى اذا الصبح لها تنفسا * وانجاب عنها ليلها وعسعسا

وانشد ابو عبيدة في معنى أقبل * مدرعات الليل لما عسعسا * ثم منهم من قال المراد ههنا أقبل الليل لان على هذا التقدير يكون القسم واقعا باقبال الليل وهو قوله اذا عسعس وبادباره ايضا وهو قوله والصبح اذا تنفس ومنهم من قال بل المراد ادبر وقوله والصبح اذا تنفس اى امتد ضوءه وتكامل فقوله والليل اذا عسعس اشارة الى اول طلوع الصبح وهو مثل قوله والليل اذا ادبر والصبح اذا اسفر وقوله والصبح اذا تنفس اشارة الى تكامل طلوع الصبح فلا يكون فيه تكرار ❊ واما قوله تعالى (والصبح اذا تنفس) اى

من ان هذا من قبيل عكس كلامهم الذى يقصدون به الافراط فيما يعكس عنه وتمثيله بقوله تعالى ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وبقول من قال *قد أترك القرن مصفرا انامله* وبقول من قال حين سئل عن عدد فرسانه رب فارس عندى وعنده المقانب قاصدا بذلك التمادى فى تكثير فرسانه واظهار براءته من التزيد وانه ممن يقلل كثير ماعنده فضلا ان يتزيد فمن لوائح النظر الجليل الا ان الكلام المعكوس عنه فيما ذكر من الامثلة مما يقبل الافراط والتمادى فيه فانه فى الاول كثيرا مايود وفى الثانى كثيرا ماترك وفى الثالث كثير من الفرسان وكل واحد من ذلك قابل للافراط والمبالغة فيه لعدم انحصار مراتب الكثرة وقد قصد بعكسه ماذكر من التمادى فى التكثير حسبما فصل اما فيما نحن فيه فالكلام الذى عكس عنه علمت كل نفس ماأحضرت كما صرح به القائل وليس فيه امكان التكثير حتى يقصد بعكسه المبالغة والتمادى فيه وانما الذى يمكن فيه من المبالغة ماذكرناه فتأمل ويجوز ان يكون ذلك للاشعار بأنه اذا علمت حينئذ نفس من النفوس مااحضرت وجب على كل نفس اصلاح عملها مخافة ان تكون هى تلك التى علمت ماأحضرت فكيف وكل نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه لعلك ستندم على مافعلت وربما ندم الانسان على مافعل فانك لاتقصد بذلك ان ندمه مرجو الوجود لامتيقن به اونادر الوقوع بل تريد ان العاقل يجب عليه ان يجتنب امرا يرجى فيه الندم اوقلما يقع فيه فكيف به اذا

اذا أسفر كقوله والصبح اذا اسفر ثم فى كيفية المجاز قولان (احدهما) انه اذا أقبل الصبح أقبل باقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفساله على المجاز وقيل تنفس الصبح (والثانى) انه شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذى جلس بحيث لايتحرك واجتمع الحزن فى قلبه فاذا تنفس وجد راحة فههنا لماطلع الصبح فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس وهو استعارة لطيفة ❊ واعلم انه تعالى لماذكر المقسم به أتبعه بذكر المقسم عليه فقال (انه لقول رسول كريم) وفيه قولان (الاول) وهو المشهور أن المراد ان القرآن نزل به جبريل (فان قيل) ههنا اشكال قوى وهو انه حلف انه قول جبريل فوجب علينا ان نصدقه فى ذلك فان لم نقطع بوجوب حمل اللفظ على الظاهر فلا أقل من الاحتمال واذا كان الامر كذلك ثبت ان هذا القرآن يحتمل ان يكون كلام جبريل لا كلام الله وبتقدير ان يكون كلام جبريل يخرج عن كونه معجزا لاحتمال ان جبريل القاه الى محمد صلى الله عليه وسلم على سبيل الاضلال (ولا يمكن ان يجاب عنه) بأن جبريل معصوم لايفعل الاضلال لان العلم بعصمة جبريل مستفاد من صدق النبى وصدق النبى مفرع على كون القرآن معجزا و كون القرآن معجزا يتفرع على عصمة جبريل فيلزم الدور وهو محال (والجواب) الذين قالوا بأن القرآن انما كان معجزا للصرفة انما ذهبوا الى ذلك المذهب فرارا من هذا السؤال لان الاعجاز على ذلك القول ليس فى الفصاحة بل فى سلب تلك العلوم والدواعى عن القلوب وذلك ممالايقدر عليه أحد الا الله تعالى (القول الثانى) ان هذا الذى أخبركم به محمد من امر الساعة على ماذكر فى هذه السورة ليس بكهانة ولا ظن ولا افتعال انما هو قول جبريل اتاه به وحيا من عندالله تعالى واعلم انه تعالى وصف جبريل ههنا بصفات ستة (اولها) انه رسول ولا شك انه رسول الله الى الانبياء فهو رسول وجميع الانبياء امته وهو المراد من قوله ينزل الملائكة بالروح من امره على من يشاء من عباده وقال نزل به الروح الامين على قلبك (وثانيها) انه كريم ومن كرمه انه يعطى افضل العطايا وهو المعرفة والهداية والارشاد ❊ (وثالثها) قوله تعالى (ذى قوة) ثم منهم من حمله على الشدة روى انه عليه الصلاة والسلام قال لجبريل ذكر الله قوتك فاذا بلغت قال رفعت قريات قوم لوط الاربع على قوادم جناحى حتى اذا سمع اهل السماء نباح الكلاب واصوات الدجاج قلبتها وذكر مقاتل ان شيطانا يقال له الابيض صاحب الانبياء قصد ان يفتن النبى صلى الله عليه وسلم فدفعه جبريل دفعة رفيقة وقع بها من مكة الى اقصى الهند ومنهم من حمله على القوة فى اداء طاعة الله وترك الاخلال بها من اول الخلق الى آخر زمان التكليف وعلى القوة فى معرفة الله وفى مطالعة جلال الله ❊ (ورابعها) قوله تعالى (عند ذى العرش مكين) وهذه العندية ليست عندية المكان مثل قوله ومن عنده لايستكبرون وليست عندية الجهة بدليل قوله انا عند المنكسرة قلوبهم بل عندية الاكرام والتشريف والتعظيم واما مكين فقال الكسائى يقال قد مكن فلان عند فلان بضم الكاف مكنا ومكانة فعلى هذا

(المكين)

كان قطعى الوجود كثير الوقوع (فلا أقسم بالخنس) اى الكواكب الرواجع من خنس اذا تأخر وهى ماعدا النيرين من الدرارى الخمسة وهى بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشترى وصفت بقوله تعالى (الجوار الكنس) لانها تجرى مع الشمس والقمر وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها وكنوسها اختفاؤها تحت ضوئها من كنس الوحشى اذا دخل كناسه وهو البيت الذى يتخذه من اغصان الشجر وقيل هى جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل اى تطلع فى اماكنها كالوحش فى كنسها (والليل اذا عسعس) اى ادبر ظلامه اواقبل فانه من الاضداد وكذلك سعسع قال الفراء اجمع المفسرون على ان معنى عسعس ادبر وعليه قول العجاج

حتى اذا الصبح لها تنفسا
وانجاب عنها ليلها وعسعسا

وقيل هى لغة قريش خاصة وقيل معنى اقبال ظلامه اوفق لقوله تعالى (والصبح اذا تنفس) لانه اول النهار وقيل ادباره أقرب من تنفس الصبح ومعناه ان الصبح اذا اقبل يقبل باقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفساله مجازا فقيل تنفس الصبح (انه) اى القرآن الكريم الناطق بما ذكر من الدواهى الهائلة (لقول رسول كريم) هو جبريل عليه السلام قاله من جهة الله عزوجل (ذى قوة) شديدة كقوله تعالى شديد القوى وقيل المراد القوة فى اداء طاعة الله تعالى وترك الاخلال بها من اول الخلق الى آخر زمان

المكين هوذوالجاه الذي يعطى مايسئل ※ (وخامسها) قوله تعالى (مطاع ثم) اعلم ان قوله ثم اشارة الى الظرف المذكور أعنى عندذى العرش والمعنى انه عند الله مطاع فى ملائكته المقربين يصدرون عن امره ويرجعون الى رأيه وقرئ ثم تعظيما للامانة وبيانا لانها افضل صفاته المعدودة ※ (وسادسها) قوله تعالى (امين) اى هو امين على وحى الله ورسالاته قدعصمه الله من الخيانة والزلل ※ ثم قال تعالى (وماصاحبكم بمجنون) واحتج بهذه الآية من فضل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم فقال انك اذا وازنت بين قوله انه لقول رسول كريم ذى قوة عندذى العرش مكين مطاع ثم امين وبين قوله وماصاحبكم بمجنون ظهر التفاوت العظيم ※ ثم قال تعالى (ولقد رآه بالافق المبين) يعنى حيث تطلع الشمس فى قول الجميع وهذا مفسر فى سورة النجم ※ ثم قال تعالى (وماهو على الغيب بظنين) اى وما محمد على الغيب بظنين والغيب ههنا القرآن ومافيه من الانباء والقصص والظنين المتهم يقال ظننت زيدا فى معنى اتهمته وليس من الظن الذى يتعدى الى مفعولين والمعنى ما محمد على القرآن بمتهم اى هو ثقة فيما يؤدى عن الله ومن قرا بالضاد فهو من البخل يقال ضننت به اضن اى بخلت والمعنى ليس ببخيل فيما أنزل الله قال الفراء يأتيه غيب السماء وهو شئ نفيس فلا يبخل به عليكم وقال ابو على الفارسى المعنى انه يخبر بالغيب فيبينه ولايكتمه كما يكتم الكاهن ذلك ويمتنع من اعلامه حتى يأخذ عليه حلوانا واختار ابو عبيدة القراءة الاولى لوجهين (احدهما) ان الكفار لم يبخلوه وانما اتهموه فنفى التهمة اولى من نفى البخل (وثانيهما) قوله على الغيب ولو كان المراد البخل لقال بالغيب لانه يقال فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا ※ ثم قال تعالى (وماهو بقول شيطان رجيم) كان اهل مكة يقولون ان هذا القرآن يجئ به شيطان فيلقيه على لسانه فنفى الله ذلك (فان قيل) القول بصحة النبوة موقوف على نفى هذا الاحتمال فكيف يمكن نفى هذا الاحتمال بالدليل السمعى (قلنا) بينا ان على القول بالصرفة لاتتوقف صحة النبوة على نفى هذا الاحتمال فلاجرم يمكن نفى هذا الاحتمال بالدليل السمعى ※ ثم قال تعالى (فأين تذهبون) وهذا استضلال لهم كما يقال لتارك الجادة اعتسافا اين تذهب مثلت حالهم بحاله فى تركهم الحق وعدولهم عنه الى الباطل والمعنى اى طريق تسلكون ابين من هذه الطريقة التى قد بينت لكم قال الفراء العرب تقول الى اين تذهب واين تذهب وتقول ذهبت الشأم وانطلقت السوق واحتج اهل الاعتزال بهذه الاية ووجهه ظاهر ثم بين ان القرآن ماهو ※ فقال تعالى (ان هو الاذكر للعالمين) اى هو بيان وهداية للخلق اجمعين ※ ثم قال تعالى (لمن شاء منكم ان يستقيم) وهو بدل من العالمين والتقدير ان هو الاذكر لمن شاء منكم ان يستقيم وفائدة هذا الابدال ان الذين شاؤا الاستقامة بالدخول فى الاسلام هم المنتفعون بالذكر فكأنه لم يوعظ به غيرهم والمعنى ان القرآن انما ينتفع به من شاء ان يستقيم ثم بين ان مشيئة الاستقامة موقوفة على مشيئة الله ※ فقال تعالى (وماتشاؤن الاان يشاء الله رب العالمين) اى ان يشاء الله تعالى ان

التكليف (عندذى العرش مكين ذى مكانة رفيعة عندالله تعالى عندية اكرام وتشريف لاعندية مكان (مطاع) فيما بين ملائكته المقربين يصدرون عن امره ويرجعون الى رأيه (ثم امين) على الوحى وثم ظرف لماقبله وقيل لمابعده وقرئ ثم تعظيما لوصف الامانة وتفصيلا لها على سائر الاوصاف (وماصاحبكم) هو رسول الله صلى الله عليه وسلم (بمجنون) كما تبهته الكفرة والتعرض لعنوان المصاحبة للتلويح باحاطتهم بتفاصيل احواله عليه الصلاة والسلام خبرا وعلمهم بنزاهته عليه السلام عمانسبوه اليه بالكلية وقداستدل به على فضل جبريل عليه السلام للتباين البين بين وصفيهما وهو ضعيف اذ المقصود رد قول الكفرة فى حقه عليه الصلاة والسلام انما يعلمه بشر افترى على الله كذبا ام به جنة لاتعداد فضائلهما والموازنة بينهما (ولقد رآه) اى وبالله لقد رأى رسول الله جبريل عليهما الصلاة والسلام (بالافق المبين) بمطلع الشمس الاعلى (وماهو) اى رسول الله صلى الله عليه وسلم (على الغيب) على مايخبره من الوحى اليه وغيره من الغيوب (بضنين) اى ببخيل لايبخل بالوحى ولايقصر فى التبليغ والتعليم وقرئ بظنين اى بمتهم من الظنة وهى التهمة (وماهو بقول شيطان رجيم) اى قول بعض المسترقة للسمع وهو نفى لقولهم انه كهانة وسحر (فأين تذهبون) استضلال لهم فيما يسلكونه فى امر القرآن والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها من ظهور انه وحى مبين

يعطيه تلك المشيئة لان فعل تلك المشيئة صفة محدثة فلابد في حدوثها من مشيئة أخرى فيظهر من مجموع هذه الآيات ان فعل الاستقامة موقوف على ارادة الاستقامة وهذه الارادة موقوفة الحصول على ان يريد الله ان يعطيه تلك الارادة والموقوف على الموقوف على الشئ موقوف على ذلك الشئ فافعال العباد في طرفي ثبوتها وانتفائها موقوفة على مشيئة الله وهذا هو قول اصحابنا وقول بعض المعتزلة ان هذه الآية مخصوصة بمشيئة القهر والالجاء ضعيف لانا بينا ان المشيئة الاختيارية شئ حادث فلابد له من محدث فيتوقف حدوثها على ان يشأ محدثها ايجادها وحينئذ يعود الالزام والله اعلم بالصواب

(سورة الانفطار تسع عشرآية مكية)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت واذا البحار فجرت واذا القبور بعثرت علمت نفس ماقدمت وأخرت) اعلم ان المراد انه اذا وقعت هذه الاشياء التي هي اشراط الساعة فهنالك يحصل الحشر والنشر وفي تفسير هذه الآيات مقامات (الاول) في تفسير كل واحد من هذه الاشياء التي هي اشراط الساعة وهي ههنا اربعة اثنان منها تتعلق بالعلويات واثنان آخران تتعلق بالسفليات (الاول) قوله اذا السماء انفطرت اى انشقت وهو كقوله ويوم تشقق السماء بالغمام اذا السماء انشقت فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان وفتحت السماء فكانت ابوابا والسماء منفطر به قال الخليل ولم يأت هذا على الفعل بل هو كقولهم مرضع وحائض ولو كان على الفعل لكان منفطرة كما قال اذا السماء انفطرت اما الثاني وهو قوله والكواكب انتثرت فالمعنى ظاهر لان عند انتقاض تركيب السماء لابد من انتثار الكواكب على الارض واعلم انا ذكرنا في بعض السور المتقدمة ان الفلاسفة ينكرون امكان الخرق والالتئام على الافلاك ودليلنا على امكان ذلك ان الاجسام متماثلة في كونها اجساما فوجب ان يصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر انما قلنا انها متماثلة لانه يصح تقسيمها الى السماوية والارضية ومورد التقسيم مشترك بين القسمين فالعلويات والسفليات مشتركة في انها اجسام وانما قلنا انه متى كان كذلك وجب ان يصح على العلويات ما يصح على السفليات لان المتماثلات حكمها واحد فمتى يصح حكم على واحد منها وجب ان يصح على الباقي واما الاثنان السفليات (فأحدهما) قوله تعالى واذا البحار فجرت وفيه وجوه (احدها) انه ينفذ بعض البحار في البعض بارتفاع الحاجز الذى جعله الله برزخا وحينئذ يصير الكل بحرا واحدا وانما يرتفع ذلك الحاجز لتزلزل الارض وتصدعها (وثانيها) ان مياه البحار الآن راكدة مجتمعة فاذا فجرت تفرقت وذهب ماؤها (وثالثها) قال الحسن فجرت أى يبست واعلم ان على الوجوه الثلاثة فالمراد انه تتغير البحار عن صورتها الاصلية وصفتها وهو كما ذكر انه تتغير الارض عن صفتها في قوله يوم تبدل الارض غير الارض وتغير الجبال عن صفتها في قوله تعالى فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا

(صفصفا)

وليس مما يقولون في شئ كما تقول لمن ترك الجادة بعد ظهورها هذا الطريق الواضح فأين تذهب (ان هو) ماهو (الاذكر للعالمين) موعظة وتذكير لهم وقوله تعالى (لمن شاء منكم) بدل من العالمين باعادة الجار وقوله تعالى (ان يستقيم) مفعول شاء اى لمن شاء منكم الاستقامة بتحري الحق وملازمة الصواب وابداله من العالمين لانهم المنتفعون بالتذكير (وماتشاؤن) اى الاستقامة مشيئة مستتبعة لها في وقت من الاوقات (الا ان يشاء الله) اى الاوقت ان يشاء الله تعالى تلك المشيئة اى المستتبعة للاستقامة فان مشيئتكم لاتستتبعها بدون مشيئة الله تعالى لها (رب العالمين) مالك الحق ومربيهم اجمعين * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التكوير اعاذه الله ان يفضحه حين تنشر صحيفته

* (سورة انفطرت مكية وآيها تسع عشرة) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

اذا السماء انفطرت) اى انشقت لنزول الملائكة كقوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا وقوله تعالى وفتحت السماء فكانت ابوابا والكلام في ارتفاع السماء كما مر في ارتفاع الشمس (واذا الكواكب انتثرت) اى تساقطت متفرقة (واذا البحار فجرت) فتح بعضها الى بعض فاختلط

صفصفا (ورابعها) قرأ بعضهم فجرت بالتخفيف وقرأ مجاهد فجرت على البناء للفاعل والتخفيف بمعنى بغت لزوال البرزخ نظرا الى قوله لا يبغيان لان البغي والفجور اخوان (واما الثانى) فقوله واذا القبور بعثرت فاعلم ان بعثر وبحثر بمعنى واحد وهما مركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة اليهما والمعنى اثيرت وقلب اسفلها اعلاها وباطنها ظاهرها ثم ههنا وجهان (احدهما) ان القبور تبعثر بأن يخرج مافيها من الموتى احياء كما قال تعالى واخرجت الارض اثقالها (والثانى) انها تبعثر لاخراج مافى بطنها من الذهب والفضة وذلك لان من اشراط الساعة ان تخرج الارض افلاذ كبدها من ذهبها وفضتها ثم يكون بعد ذلك خروج الموتى والاول اقرب لان دلالة القبور على الاول اتم (المقام الثانى) فى فائدة هذا الترتيب اعلم ان المراد من هذه الآيات بيان تخريب العالم وفناء الدنيا وانقطاع التكاليف والسماء كالسقف والارض كالبناء ومن اراد تخريب دار فانه يبدأ اولا بتخريب السقف وذلك هو قوله تعالى اذا السماء انفطرت ثم يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب وذلك هو قوله تعالى واذا الكواكب انتثرت ثم انه تعالى بعد تخريب السماء والكواكب يخرب كل ما على وجه الارض وهو قوله تعالى واذا البحار فجرت ثم انه تعالى يخرب آخر الامر الارض التى هى البناء وذلك هو قوله تعالى واذا القبور بعثرت فانه اشارة الى قلب الارض ظهرا لبطن وبطنا لظهر (المقام الثالث) فى تفسير قوله علمت نفس ماقدمت واخرت وفيه احتمالان (الاول) ان المراد بهذه الامور ذكر يوم القيامة ثم فيه وجوه (احدها) وهو الاصح ان المقصود منه الزجر عن المعصية والترغيب فى الطاعة اى يعلم كل احد فى هذا اليوم ماقدم فلم يقصر فيه وما اخر فقصر فيه لان قوله ماقدمت يقتضى فعلا وماأخرت يقتضى تركا فهذا الكلام يقتضى فعلا وتركا وتقصيرا وتوفيرا فان كان قدم الكبائر وأخر العمل الصالح فمأواه النار وان كان قدم العمل الصالح وأخر الكبائر فمأواه الجنة (وثانيها) ماقدمت من عمل ادخله فى الوجود وماأخرت من سنة يستن بها من بعده من خير او شر (وثالثها) قال الضحاك ماقدمت من الفرائض وماأخرت اى ماضيعت (ورابعها) قال ابو مسلم ماقدمت من الاعمال فى اول عمرها وماأخرت فى آخر عمرها (فان قيل) وفى اى موقف من مواقف القيامة يحصل هذا العلم (قلنا) اما العلم الاجمالى فيحصل فى اول زمان الحشر لان المطيع يرى آثار السعادة والعاصى يرى آثار الشقاوة فى اول الامر واما العلم التفصيلى فانما يحصل عند قراءة الكتب والمحاسبة (الاحتمال الثانى) ان يكون المراد قبل قيام القيامة بل عند ظهور اشراط الساعة وانقطاع التكاليف وحين لا ينفع العمل بعد ذلك كما قال تعالى لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل او كسبت فى ايمانها خيرا فيكون ماعمله الانسان الى تلك الغاية هو اول اعماله وآخرها لانه لا عمل له بعد ذلك وهذا القول ذكره القفال ❊ قوله تعالى (يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى اى صورة ماشاء ركبك) اعلم انه سبحانه لما اخبر فى الآية الاولى عن

العذب بالاجاج وزال ما بينهما من البرزخ الحاجز وصارت البحار بحرا واحدا وروى ان الارض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية وهى معنى التسجير عند الحسن رضى الله عنه وقيل ان مياه البحار الآن راكدة مجتمعة فاذا فجرت تفرقت وذهبت وقرئ فجرت بالتخفيف مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل ايضا بمعنى بغت من الفجور نظرا الى قوله تعالى لا يبغيان (واذا القبور بعثرت) اى قلب ترابها وأخرج موتاها ونظيره بحثر لفظا ومعنى وهما مركبان من البعث والبحث مع راء ضمت اليهما وقوله تعالى (علمت نفس ماقدمت واخرت) جواب اذا لكن لا على انها تعلمه عند البعث بل عند نشر الصحف لما عرفت من ان المراد بها زمان واحد مبدؤه النفخة الاولى ومنتهاه الفصل بين الخلائق لا ازمنة متعددة حسب تعدد كلمة اذا وانما كررت لتهويل ما فى حيزها من الدواهى والكلام فيه كالذى مر تفصيله فى نظيره ومعنى ماقدم واخر ما اسلف من عمل خير او شر واخر من سنة حسنة او سيئة يعمل بها بعده قاله ابن عباس وابن مسعود وعن ابن عباس ايضا ماقدم من معصية وأخر من طاعة وهو قول قتادة وقيل ماقدم من امواله لنفسه واخر لورثته وقيل ماقدم من فرض وأخر من فرض وقيل

وقوع الحشر والنشر ذكر فى هذه الآية ما يدل عقلا على امكانه او على وقوعه وذلك من وجهين (الاول) ان الاله الكريم الذى لا يجوز من كرمه ان يقطع موائد نعمه عن المذنبين كيف يجوز فى كرمه ان لا ينتقم للمظلوم من الظالم (الثانى) ان القادر الذى خلق هذه البنية الانسانية ثم سواها وعدلها اما ان يقال انه خلقها لا لحكمة او لحكمة فان خلقها لا لحكمة كان ذلك عبثا وهو غير جائز على الحكيم وان خلقها لحكمة فتلك الحكمة اما ان تكون عائدة الى الله تعالى او الى العبد والاول باطل لانه سبحانه متعال عن الاستكمال والانتفاع فتعين الثانى وهو انه خلق الخلق لحكمة عائدة الى العبد وتلك الحكمة اما ان تظهر فى الدنيا او فى دار سوى الدنيا والاول باطل لان الدنيا دار بلاء وامتحان لا دار الانتفاع والجزاء ولما بطل كل ذلك ثبت انه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى فثبت ان الاعتراف بوجود الاله الكريم الذى يقدر على الخلق والتسوية والتعديل يوجب على العاقل ان يقطع بأنه سبحانه يبعث الاموات ويحشرهم وذلك يمنعهم من الاعتراف بعد الحشر والنشر وهذا الاستدلال هو الذى ذكره بعينه فى سورة التين حيث قال لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم الى ان قال فما يكذبك بعد بالدين وهذه المحاجة تصلح مع العرب الذين كانوا مقرين بالصانع وينكرون الاعادة وتصلح ايضا مع من ينفى الابتداء والاعادة معا لان الخلق المعدل يدل على الصانع وبواسطته يدل على صحة القول بالحشر والنشر (فان قيل) بناء هذا الاستدلال على انه تعالى حكيم ولذلك قال فى سورة التين بعد هذا الاستدلال اليس الله بأحكم الحاكمين فكان يجب ان يقول فى هذه السورة ماغرك بربك الحكيم (الجواب) ان الكريم يجب ان يكون حكيما لان ايصال النعمة الى الغير لو لم يكن مبنيا على داعية الحكمة لكان ذلك تبذيرا لا كرما أما اذا كان مبنيا على داعية الحكمة فحينئذ يسمى كرما اذا ثبت هذه فنقول كونه كريما يدل على وقوع الحشر من وجهين كما قررناه اما كونه حكيما فانه يدل على وقوع الحشر من هذا الوجه الثانى فكان ذكر الكريم ههنا اولى من ذكر الحكيم هذا هو تمام الكلام فى كيفية النظم ولنرجع الى التفسير اما قوله تعالى يا أيها الانسان ففيه قولان (احدهما) انه الكافر لقوله من بعد ذلك كلا بل تكذبون بالدين وقال عطاء عن ابن عباس نزلت فى الوليد بن المغيرة وقال الكلبى ومقاتل نزلت فى ابن الاسد بن كلدة بن اسيد وذلك انه ضرب النبى صلى الله عليه وسلم فلم يعاقبه الله تعالى وانزل هذه الآية (والقول الثانى) انه يتناول جميع العصاة وهو الاقرب لان خصوص السبب لا يقدح فى عموم اللفظ اما قوله ماغرك بربك الكريم فالمراد ما الذى خدعك وسول لك الباطل حتى تركت الواجبات وأتيت بالمحرمات والمعنى ما الذى امنك من عقابه يقال غره بفلان اذا امنه المحذور من جهته مع انه غير مأمون وهو كقوله لا يغرنكم بالله الغرور وهذا اذا حملنا قوله يا أيها الانسان على جميع العصاة واما اذا حملناه على الكافر فالمعنى ما الذى دعاك الى الكفر والجحد بالرسل

اول عمله وآخره ومعنى ما عملها بهما علمها التفصيلى حسبما ذكر فيما مر مرارا (يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم) اى اى شئ خدعك وجرأك على عصيانه وقد علمت ما بين يديك من الدواهى التامة والعراقيل الطامة وماسيكون حينئذ من مشاهدة اعمالك كلها والتعرض لعنوان كرمه تعالى للايذان بأنه ليس مما يصلح ان يكون مدارا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له افعل ماشئت فان ربك كريم قد تفضل عليك فى الدنيا وسيفعل مثله فى الآخرة فانه قياس عقيم وتمنية باطلة بل هو مما يوجب المبالغة فى الاقبال على الايمان والطاعة والاجتناب عن الكفر والعصيان كأنه قيل ما جراك على عصيان ربك الموصوف بالصفات الزاجرة عنه الداعية الى خلافه وقوله تعالى (الذى خلقك فسواك فعدلك) صفة ثانية مقررة للربوبية مبنية للكرم منبهة على ان من قدر على ذلك بدأ أقدر عليه اعادة والتسوية جعل الاعضاء سليمة سوية معدة لمنافعها وعدلها عدل بعضها ببعض بحيث اعتدلت ولم تتفاوت او صرفها عن خلقة غير ملائمة لها وقرئ فعدلك بالتشديد اى صيرك معتدل لا متناسب الخلق من غير تفاوت فيه (فى اى صورة ماشاء ركبك) اى ركبك فى اى صورة

وانكار الحشر والنشر وههنا سؤالات (الاول) ان كونه كريما يقتضى ان يغتر الانسان بكرمه بدليل المعقول والمنقول (اما المعقول) فهوان الجود افادة ماينبغى لالعوض فلما كان الحق تعالى جوادا مطلقا لم يكن مستعيضا ومتى كان كذلك استوى عنده طاعة المطيعين وعصيان المذنبين وهذا يوجب الاغترار لانه من البعيدان يقدم الغنى على ايلام الضعيف من غير فائدة اصلا (واما المنقول) فاروى عن على عليه السلام انه دعا غلامه مرات فلم يجبه فنظر فاذا هو بالباب فقال له لم لم تجبنى فقال لثقتى بحلمك وامنى من عقوبتك فاستحسن جوابه واعتقه وقالوا ايضا من كرم الرجل سوءادب غلمانه ولما ثبت ان كرمه يقتضى الاغتراربه فكيف جعله ههنا مانعا من الاغتراربه (والجواب) من وجوه (احدها) ان معنى الآية انك لما كنت ترى حلم الله على خلقه ظننت ان ذلك لأنه لاحساب ولادار الا هذه الدار فما الذى دعاك الى هذا الاغترار وجرأك على انكار الحشر والنشر فان ربك كريم فهو لكرمه لايعاجل بالعقوبة بسطا فى مدة التوبة وتأخيرا للجزاء الى ان يجمع الناس فى الدار التى جعلها لهم للجزاء فالحاصل ان ترك المعاجلة بالعقوبة لاجل الكرم وذلك لايقتضى الاغترار بأنه لادار بعد هذه الدار (وثانيها) ان كرمه لما بلغ الى حيث لايمنع من العاصى موائد لطفه فبأن ينتقم للمظلوم من الظالم كان اولى فاذن كونه كريما يقتضى الخوف الشديد من هذا الاعتبار وترك الجراءة والاغترار (وثالثها) ان كثرة الكرم توجب الجد والاجتهاد فى الخدمة والاستحياء من الاغترار والتوانى (ورابعها) قال بعض الناس انما قال بربك الكريم ليكون ذلك جوابا عن ذلك السؤال حتى يقول غرنى كرمك ولولا كرمك لمافعلت لانك رأيت فسترت وقدرت فأمهلت وهذا الجواب انما يصح اذا كان المراد من قوله ياأيها الانسان ليس الكافر (السؤال الثانى) ماالذى ذكره المفسرون فى سبب هذا الاغترار قلنا وجوه (احدها) قال قتادة سبب غرور ابن آدم تسويل الشيطان له (وثانيها) قال الحسن غره حمقه وجهله (وثالثها) قال مقاتل غره عفو الله عنه حين لم يعاقبه فى اول امره وقيل للفضيل بن عياض اذا اقامك الله يوم القيامة وقال لك ماغرك بربك الكريم ماذا تقول قال اقول غرتنى ستورك المرخاة (السؤال الثالث) مامعنى قراءة سعيد بن جبير ماغرك قلنا هو اما على التعجب واما على الاستفهام من قولك غرالرجل فهو غار اذا غفل ومن قولك بيتهم العدو وهم غارون واغره غيره جعله غارا اماقوله تعالى الذى خلقك فاعلم انه تعالى لما وصف نفسه بالكرم ذكر هذه الامور الثلاثة كالدلالة على تحقق ذلك الكرم (اولها) الخلق وهو قوله الذى خلقك ولاشك انه كرم وجود لان الوجود خير من العدم والحياة خير من الموت وهو الذى قال كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم (وثانيها) قوله فسواك اى جعلك سويا سالم الاعضاء تسمع وتبصر نظيره قوله اكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا قال ذو النون سواك اى سخر لك

شاءها من الصور المختلفة وما مزيدة وشاء صفة لصورة اى ركبك فى اى صورة شاءها واختارها لك من الصور العجيبة الحسنة كقوله تعالى لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم وانما لم يعطف الجملة على ماقبلها لانها بيان لعدلك (كلا) ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى وجعله ذريعة الى الكفر والمعاصى مع كونه موجبا للشكر والطاعة وقوله تعالى (بل تكذبون بالدين) اضراب عن جملة مقدرة ينساق اليها الكلام كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض وانتم لاترتدعون عن ذلك بل تجترؤن على اعظم من ذلك حيث تكذبون

المكونات اجمع وماجعلك مسخرا لشئ منها ثم انطق لسانك بالذكر وقلبك بالعقل وروحك بالمعرفة وسرك بالايمان وشرفك بالامر والنهى وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلا (وثالثها) قوله فعدلك وفيه بحثان (البحث الاول) قال مقاتل يريد عدل خلقك فى العينين والاذنين واليدين والرجلين فلم يجعل احدى اليدين اطول واحدى العينين اوسع وهو كقوله بلى قادرين على ان نسوى بنانه وتقريره ماعرف فى علم التشريح انه سبحانه ركب جانبى هذه الجثة على التساوى حتى انه لاتفاوت بين نصفيه لافى العظام ولافى اشكالها ولافى ثقبها ولافى الاوردة والشرايين والاعصاب النافذة فيها والخارجة منها واستقصاء القول فيه لايليق بهذا العلم وقال عطاء عن ابن عباس جعلك قائما معتدلا حسن الصورة لاكالبهيمة المنحنية وقال ابو على الفارسى عدل خلقك فأخرجك فى احسن التقويم وبسبب ذلك الاعتدال جعلك مستعدا لقبول العقل والقدرة والفكر وصيرك بسبب ذلك مستوليا على جميع الحيوان والنبات وواصلا بالكمال الى مالم يصل اليه شئ من اجسام هذا العالم (البحث الثانى) قرأ الكوفيون فعدلك بالتخفيف وفيه وجوه (احدها) قال ابو على الفارسى ان يكون المعنى عدل بعض اعضائك ببعض حتى اعتدلت (والثانى) قال الفراء فعدلك اى فصرفك الى اى صورة شاء ثم قال والتشديد احسن الوجهين لانك تقول عدلتك الى كذا كماتقول صرفتك الى كذا ولايحسن عدلتك فيه ولاصرفتك فيه ففى القراءة الاولى جعل فى من قوله فى اى صورة صلة للتركيب وهو حسن وفى القراءة الثانية جعله صلة لقوله فعدلك وهو ضعيف واعلم ان اعتراض الفراء انما يتوجه على هذا الوجه الثانى فأما على الوجه الاول الذى ذكره ابو على الفارسى فغير متوجه (والثالث) نقل القفال عن بعضهم انهما لغتان بمعنى واحد اماقوله فى اى صورة ماشاء ركبك ففيه مباحث (الاول) ماهل هى مزيدة ام لا فيه قولان (الاول) انها ليست مزيدة بل هى فى معنى الشرط والجزاء فيكون المعنى فى اى صورة ماشاء ان يركبك فيها ركبك وبناء على هذا الوجه قال ابو صالح ومقاتل المعنى ان شاء ركبك فى غير صورة الانسان من صورة كلب او صورة حمار او خنزير او قرد (والقول الثانى) انها صلة مؤكدة والمعنى فى اى صورة تقتضيها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة فانه سبحانه يركبك على مثلها وعلى هذا القول تحتمل الآية وجوها (احدها) ان المراد من الصور المختلفة شبه الاب والام او اقارب الاب او اقارب الام ويكون المعنى انه سبحانه يركبك على مثل صور هؤلاء ويدل على صحة هذا ماروى انه عليه السلام قال فى هذه الآية اذا استقرت النطفة فى الرحم احضرها الله كل نسب بينها وبين آدم (والثانى) وهو الذى ذكره الفراء والزجاج ان المراد من الصور المختلفة الاختلاف بحسب الطول والقصر والحسن والقبح والذكورة والانوثة ودلالة هذه الحالة على الصانع القادر فى غاية الظهور لان النطفة جسم متشابه الاجزاء وتأثير طبع الابوين فيه على السوية

بالجزاء والبعث رأسا او بدين الاسلام الذى هما من جملة احكامه فلاتصدقون سؤالا ولاجوابا ولاعقابا وقيل كأنه قيل انكم لاتستقيمون على ماتوجبه نعمى عليكم وارشادى لكم بل تكذبون الخ وقال القفال ليس الامر كما تقولون من انه لابعث ولانشور ثم قيل أنتم لاتتبينون بهذا البيان بل تكذبون بيوم الدين وقوله تعالى (وان عليكم لحافظين) حال من فاعل تكذبون مفيدة لبطلان تكذيبهم وتحقق مايكذبون به اى تكذبون بالجزاء والحال ان عليكم من قبلنا لحافظين لأعمالكم (كراما) لدينا

فالفاعل المؤثر بالطبيعة فى القابل المتشابه لايفعل الا فعلا واحدا فلما اختلفت الآثار والصفات دل ذلك الاختلاف على ان المدبر هو القادر المختار قال القفال اختلاف الخلق والالوان كاختلاف الاحوال فى الغنى والفقر والصحة والسقم فكما انا نقطع انه سبحانه انما ميز البعض عن البعض فى الغنى والفقر وطول العمر وقصره بحكمة بالغة لايحيط بكنهها الا هو فكذلك نعلم انه انما جعل البعض مخالفا للبعض فى الخلق والالوان بحكمة بالغة وذلك لان بسبب هذا الاختلاف يتميز المحسن عن المسيء والقريب عن الاجنبى ثم قال ونحن نشهد شهادة لاشك فيها انه سبحانه لم يفرق بين المناظر والهيئات الالما علم من صلاح عباده فيه وان كنا جاهلين بعين الصلاح (القول الثالث) قال الواسطى المراد صورة المطيعين والعصاة فليس من ركبه على صورة الولاية كمن ركبه على صورة العداوة وقال آخرون انه اشارة الى صفاء الارواح وظلمتها وقال الحسن منهم من صوره ليستخلصه لنفسه ومنهم من صوره ليشغله بغيره مثال الاول انه خلق آدم ليخصه بالطاف بره واعلاء قدره واظهر روحه من بين جماله وجلاله وتوجه بتاج الكرامة وزينه برداء الجلال والهيبة ❊ قوله تعالى (كلا بل تكذبون بالدين) اعلم انه سبحانه لما بين بالدلائل العقلية صحة القول بالبعث والنشور على الجملة فرع عليها شرح تفاصيل الاحوال المتعلقة بذلك وهى أنواع (النوع الاول) انه سبحانه زجرهم عن ذلك الاغترار بقوله كلا وبل حرف وضع فى اللغة لنفى شيء قد تقدم وتحقيق غيره فلا جرم ذكروا فى تفسير كلا وجوها (الاول) قال القاضى معناه انكم لاتستقيمون على توجيه نعمى عليكم وارشادى لكم بل تكذبون بيوم الدين (الثانى) كلا اى ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله ثم كأنه قال وانكم لاترتدعون عن ذلك بل تكذبون بالدين اصلا (الثالث) قال القفال كلا اى ليس الامر كما تقولون من انه لابعث ولانشور لان ذلك يوجب ان الله تعالى خلق الخلق عبثا وسدى وحاشاه من ذلك ثم كأنه قال وانكم لاتنتفعون بهذا البيان بل تكذبون وفى قوله تكذبون بالدين وجهان (الاول) ان يكون المراد من الدين الاسلام والمعنى انكم تكذبون بالجزاء على الدين والاسلام (والثانى) ان يكون المراد من الدين الحساب والمعنى انكم تكذبون بيوم الحساب ❊ (النوع الثانى) قوله تعالى (وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون) والمعنى التعجب من حالهم كأنه سبحانه قال انكم تكذبون بيوم الدين وهو يوم الحساب والجزاء وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة ونظيره قوله تعالى عن اليمين وعن الشمال قعيد مايلفظ من قول الالديه رقيب عتيد وقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ثم ههنا مباحث (الاول) من الناس من طعن فى حضور الكرام الكاتبين من وجوه (احدها) ان هؤلاء الملائكة اما ان يكونوا مركبين من الاجسام اللطيفة كالهواء والنسيم والنار أو من الاجسام الغليظة فان كان الاول لزم

(كاتبين) لها (يعلمون ماتفعلون) من الافعال قليلا وكثيرا ويضبطونه نقيرا وقطميرا لتجازوا بذلك وفى تعظيم الكاتبين بالثناء عليهم تفخيم لامر الجزاء وانه عند الله عزوجل من جلائل الامور حيث يستعمل فيه هؤلاء الكرام وقوله تعالى (ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم) استئناف مسوق لبيان نتيجة الحفظ والكتاب من الثواب والعقاب وفى تنكير النعيم والجحيم من التفخيم والتهويل مالايخفى وقوله تعالى (يصلونها) اما صفة لجحيم واستئناف مبنى على سؤال

أن تنتقض بنيتهم بأدنى سبب من هبوب الرياح الشديدة وامرار اليد والكم والسوط في الهواء وان كان الثاني وجب ان نراهم اذلو جاز أن يكونوا حاضرين ولا نراهم لجاز ان يكون بحضرتنا شموس وأقمار وفيلات وبوقات ونحن لا نراها ولا نسمعها وذلك دخول في التجاهل وكذا القول في انكار صحائفهم وذواتهم وقلمهم (وثانيها) ان هذا الاستكتاب ان كان خاليا عن الفوائد فهو عبث وذلك غير جائز على الله تعالى وان كان فيه فائدة فتلك الفائدة اماأن تكون عائدة الى الله تعالى او الى العبد (والاول) محال لانه متعال عن النفع والضر وبهذا يظهر بطلان قول من يقول انه تعالى انما استكتبها خوفا من النسيان والغلط (والثاني) ايضا محال لان أقصى ما في الباب ان يقال فائدة هذا الاستكتاب ان يكونوا شهودا على الناس وحجة عليهم يوم القيامة الا ان هذه الفائدة ضعيفة لان الانسان الذي علم ان الله تعالى لايجور ولا يظلم لايحتاج في حقه الى اثبات هذه الحجة والذي لايعلم ذلك لاينتفع بهذه الحجة لاحتمال انه تعالى أمرهم بأن يكتبوا تلك الاشياء عليه ظلما (وثالثها) ان افعال القلوب غير مرئية ولا محسوسة فتكون هي من باب المغيبات والغيب لايعلمه الاالله تعالى على ماقال وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو واذا لم تكن هذه الافعال معلومة للملائكة استحال ان يكتبوها والآية تقتضي أن يكونوا كاتبين علينا كل مانفعله سواء كان ذلك من افعال القلوب أم لا (والجواب عن الاول) ان هذه الشبهة لاتزول الاعلى مذهبنا بناء على اصلين (احدهما) ان البنية ليست شرطا للحياة عندنا (والثاني) ان عند سلامة الحاسة وحضور المرئي وحصول سائر الشرائط لايجب الادراك فعلى الاصل الاول يجوز ان تكون الملائكة اجراما لطيفة تمزق وتتفرق ولكن تبقى حياتها مع ذلك وعلى الاصل الثاني يجوز ان يكونوا أجساما كثيفة لكننا لانراها (والجواب عن الثاني) ان الله تعالى انما أجرى اموره مع عباده على مايتعاملون به فيمابينهم لان ذلك أبلغ في تقرير المعنى عندهم ولما كان الابلغ عندهم في المحاسبة اخراج كتاب بشهود خوطبوا بمثل هذا فيمايحاسبون به يوم القيامة فيخرج لهم كتب منشورة ويحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم كما يشهد عدول السلطان على من يعصيه ويخالف امره فيقولون له اعطاك الملك كذا وكذا وفعل بك كذا وكذا ثم قد خالفته وفعلت كذا وكذا فكذا ههنا والله اعلم بحقيقة ذلك (والجواب عن الثالث) ان غاية ما في الباب تخصيص هذا العموم بأفعال الجوارح وذلك غير ممتنع (البحث الثاني) ان قوله تعالى وان عليكم لحافظين وان كان خطاب مشافهة الا ان الامة مجمعة على ان هذا الحكم عام في حق كل المكلفين ثم ههنا احتمالان (أحدهما) ان يكون هناك جمع من الحافظين وذلك الجمع يكونون حافظين لجميع بني آدم من غير ان يختص واحد من الملائكة بواحد من بني آدم (وثانيهما) أن يكون الموكل بكل واحد منهم غير الموكل بالآخر ثم يحتمل أن يكون الموكل بكل واحد من بني آدم واحدا من

(الملائكة)

لشأ من تهويلها كانه قيل ماحالهم فيها فقيل يقاسون حرها (يوم الدين) يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به (وماهم عنها بغائبين) طرفة عين فان المراد دوام نفي الغيبة لانفي دوام الغيبة لما مرارا من الجملة الاسمية المنفية قد يراد بها استمرار النفي لانفي الاستمرار باعتبار ماتفيده من الدوام والثبات بعد النفي لاقبله وقيل معناه وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون سمومها في قبورهم حسبما قال النبي عليه الصلاة والسلام القبر روضة من رياض الجنة اوحفرة من حفر النيران وقوله تعالى (وماادراك مايوم الدين) تفخيم لشأن يوم الدين الذي

الملائكة لانه تعالى قابل الجمع بالجمع وذلك يقتضى مقابلة الفرد بالفرد ويحتمل ان يكون الموكل بكل واحد منهم جمعا من الملائكة كما قيل اثنان بالليل واثنان بالنهار او كما قيل انهم خمسة (البحث الثالث) انه تعالى وصف هؤلاء الملائكة بصفات (اولها) كونهم حافظين (وثانيها) كونهم كراما (وثالثها) كونهم كاتبين (ورابعها) كونهم يعلمون ماتفعلون وفيه وجهان (احدهما) انهم يعلمون تلك الافعال حتى يمكنهم ان يكتبوها وهذا تنبيه على ان الانسان لايجوز له الشهادة الا بعد العلم (والثانى) انهم يكتبونها حتى يكونوا عالمين بها عند أداء الشهادة واعلم ان وصف الله اياهم بهذه الصفات الخمسة يدل على انه تعالى اثنى عليهم وعظم شأنهم وفى تعظيمهم تعظيم لامر الجزاء وانه عند الله تعالى من جلائل الامور ولولا ذلك لما وكل بضبط مايحاسب عليه هؤلاء العظماء الاكابر قال ابو عثمان من لم يزجره من المعاصى مراقبة الله اياه كيف يرده عنها كتابة الكرام الكاتبين

(النوع الثالث) من تفاريع مسئلة الحشر * قوله تعالى (ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم يصلونها يوم الدين وماهم عنها بغائبين) اعلم ان الله تعالى لما وصف الكرام الكاتبين لاعمال العباد ذكر احوال العاملين فقال ان الابرار لفى نعيم وهو نعيم الجنة وان الفجار لفى جحيم وهو النار وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان القاطعين بوعيد اصحاب الكبائر تمسكوا بهذه الآية فقالوا صاحب الكبيرة فاجر والفجار كلهم فى الجحيم لان لفظ الجحيم اذا دخل عليه الف واللام افاد الاستغراق والكلام فى هذه المسئلة قد استقصيناه فى سورة البقرة وههنا نكت زائدة لابد من ذكرها قالت الوعيدية حصلت فى هذه الآية وجوه دالة على دوام الوعيد (احدها) قوله تعالى يصلونها يوم الدين ويوم الدين يوم الجزاء ولا وقت الا ويدخل فيه كما تقول يوم الدنيا ويوم الآخرة (الثانى) قال الجبائى لو خصصنا قوله وان الفجار لفى جحيم لكان بعض الفجار يصيرون الى الجنة ولو صاروا اليها لكانوا من الابرار وهذا يقتضى ان لاتميز الفجار عن الابرار وذلك باطل لان الله تعالى ميز بين الامرين فاذا يجب ان لا يدخل الفجار الجنة كما لايدخل الابرار النار (والثالث) انه تعالى قال وماهم عنها بغائبين وهو كقوله وماهم بخارجين منها واذا لم يكن هناك موت ولا غيبة فليس بعدهما الا الخلود فى النار ابد الآبدين ولما كان اسم الفاجر يتناول الكافر والمسلم صاحب الكبيرة ثبت بقاء اصحاب الكبائر ابدا فى النار وثبت ان الشفاعة للمطيعين لا لاهل الكبائر (الجواب عنه) انا بينا ان دلالة الفاظ العموم على الاستغراق دلالة ظنية ضعيفة والمسئلة قطعية والتمسك بالدليل الظنى فى المطلوب القطعى غير جائز بل ههنا مايدل على قولنا لان استعمال الجمع المعرف بالف واللام فى المعهود السابق شائع فى اللغة فيحتمل ان يكون اللفظ ههنا عائدا الى الكافرين الذين تقدم ذكرهم من المكذبين بيوم الدين والكلام فى ذلك قد تقدم على سبيل الاستقصاء سلمنا ان العموم يفيد القطع لكن لانسلم ان صاحب الكبيرة فاجر والدليل عليه قوله تعالى

يكذبون به اثر تفخيم وتهويل لامره بعد تهويل ببيان انه خارج عن دائرة دراية الخلق على اى صورة تصوروه فهو فوقها وكيفما تخيلوه فهو اطم من ذلك واعظم اى واى شئ جعلك داريا مايوم الدين على ان ما الاستفهامية خبر ليوم الدين لا بالعكس كما هو رأى سيبويه لما مر من ان مدار الافادة هو الخبر لا المبتدأ ولا ريب فى ان مناط افادة الهول والفخامة ههنا هو ما لا يوم الدين اى اى شئ عجيب هو فى الهول والفظاعة لما مر غير مرة ان كلمة ما قد يطلب بها الوصف وان كانت موضوعة لطلب الحقيقة وشرح الاسم

فى حق الكفار اولئك هم الكفرة الفجرة فلا يخلو اما أن يكون المراد أولئك هم الكفرة الذين يكونون من جنس الفجرة او المراد أولئك هم الكفرة وهم الفجرة والاول باطل لان كل كافر فهو فاجر بالاجماع فتقييد الكافر بالكافر الذى يكون من جنس الفجرة عبث واذا بطل هذا القسم بقى الثانى وذلك يفيد الحصر واذا دلت هذه الآية على ان الكفار هم الفجرة لاغيرهم ثبت ان صاحب الكبيرة ليس بفاجر على الاطلاق سلمنا ان الفجار يدخل تحته الكافر والمسلم لكن قوله تعالى وماهم عنها بغائبين معناه ان مجموع الفجار لايكونون غائبين ونحن نقول بموجبه فان احد نوعى الفجار وهم الكفار لايغيبون واذا كان كذلك ثبت ان صدق قولنا ان الفجار باسرهم لايغيبون يكفى فيه ان لايغيب الكفار فلا حاجة فى صدقه الى ان لايغيب المسلمون سلمنا ذلك لكن قوله وماهم عنها بغائبين يقتضى كونهم فى الحال فى الجحيم وذلك كذب فلابد من صرفه عن الظاهر فهم يحملونه على انهم بعد الدخول فى الجحيم يصدق عليهم قوله وماهم عنها غائبين ونحن نحمل ذلك على انهم فى الحال ليسوا غائبين عن استحقاق الكون فى الجحيم الان ثبوت الاستحقاق لاينافى العفو سلمنا ذلك لكنه معارض بالدلائل الدالة على العفو وعلى ثبوت الشفاعة لاهل الكبائر والترجيح لهذا الجانب لان دليلهم لابد وان يتناول جميع الفجار فى جميع الاوقات والالم يحصل مقصودهم ودليلنا يكفى فى صحته تناوله لبعض الفجار فى بعض الاوقات فدليلهم لابد وان يكون عاما ودليلنا لابد وان يكون خاصا والخاص مقدم على العام والله اعلم (المسئلة الثانية) فيه تهديد عظيم للعصاة حكى ان سليمان بن عبد الملك مر بالمدينة وهو يريد مكة فقال لابى حازم كيف القدوم على الله تعالى غدا قال اما المحسن فكالغائب يقدم من سفره على اهله واما المسئ فكالآبق يقدم على مولاه قال فبكى ثم قال ليت شعرى مالنا عند الله فقال ابو حازم اعرض عملك على كتاب الله قال فى اى مكان من كتاب الله قال ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم وقال جعفر الصادق عليه السلام النعيم المعرفة والمشاهدة والجحيم ظلمات الشهوات وقال بعضهم النعيم القناعة والجحيم الطمع وقيل النعيم التوكل والجحيم الحرص وقيل النعيم الاشتغال بالله والجحيم الاشتغال بغير الله تعالى ❊ (النوع الرابع) من تفاريع الحشر تعظيم يوم القيامة وهو قوله تعالى (وما ادراك مايوم الدين ثم ما ادراك مايوم الدين يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى الخطاب فى قوله وما ادراك فقال بعضهم هو خطاب للكافر على وجه الزجر له وقال الاكثرون انه خطاب للرسول وانما خاطبه بذلك لانه ماكان عالما بذلك قبل الوحى (المسئلة الثانية) الجمهور على ان التكرير فى قوله وما ادراك مايوم الدين ثم ما ادراك مايوم الدين لتعظيم ذلك اليوم وقال الجبائى بل هو لفائدة مجددة اذ المراد بالاول اهل النار والمراد بالثانى اهل الجنة كأنه قال وما ادراك مايعامل به الفجار فى يوم الدين

يقال مازيد فيقال فى الجواب كاتب اوطبيب وفى اظهار يوم الدين فى موقع الاضمار تأكيد لهوله وفخامته وقوله تعالى (يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله) بيان اجمالى لشأن يوم الدين اثر ابهامه وبيان خروجه عن علوم الخلق بطريق انجاز الوعد فان نفى ادرائهم مشعر بالوعد الكريم بالادراء قال ابن عباس رضى الله عنهما كل مافى القرآن من قوله تعالى ما ادراك فقد ادراه وكل مافيه من قوله وما يدريك فقد طوى عنه ويوم برفوع على انه خبر مبتدأ محذوف وحركته الفتح لاضافته الى غير متمكن كأنه

ثم ماادراك مايعامل به الابرار وكرر يوم الدين تعظيما لما يفعله تعالى من الامرين بهذين الفريقين (المسئلة الثالثة) في يوم لاتملك قراءتان الرفع والنصب اما الرفع ففيه وجهان (احدهما) على البدل من يوم الدين (والثاني) ان يكون باضمار هو فيكون المعنى هو يوم لاتملك واما النصب ففيه وجوه (احدها) باضمار يدانون لان الدين يدل عليه (وثانيها) باضمار اذكروا (وثالثها) ماذكره الزجاج يجوز ان يكون في موضع رفع الا انه يبنى على الفتح لاضافته الى قوله لاتملك وما أضيف الى غير المتمكن قد يبنى على الفتح وان كان في موضع رفع او جر كما قال

لم يمنع الشرب منهم غير ان نطقت * حمامة في غصون ذات اوقال

فبنى غير على الفتح لما أضيف الى قوله ان نطقت قال الواحدى والذى ذكره الزجاج من البناء على الفتح انما يجوز عند الخليل وسيبويه اذا كانت الاضافة الى الفعل الماضى نحو قولك على حين عاتبت اما مع الفعل المستقبل فلا يجوز البناء عندهم ويجوز ذلك في قول الكوفيين وقد ذكرنا هذه المسئلة عند قوله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم (ورابعها) ماذكره ابو على وهو ان اليوم لما جرى في اكثر الامر ظرفا ترك على حاله الاكثرية والدليل عليه اجماع القراء والعرب في قولهم منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ولا يرفع ذلك احد ومما يقوى النصب قوله وماأدراك ماالقارعة يوم يكون الناس وقوله يسألون أيام يوم الدين يوم هم على النار يفتنون فالنصب في يوم لاتملك مثل هذا (المسئلة الرابعة) تمسكوا في نفي الشفاعة للعصاة بقوله يوم لاتملك نفس لنفس شيئا وهو كقوله تعالى واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا (والجواب) عنه قد تقدم في سورة البقرة (المسئلة الخامسة) ان اهل الدنيا كانوا يتغلبون على الملك ويعين بعضهم بعضا في أمور ويحمى بعضهم بعضا فاذا كان يوم القيامة بطل ملك بنى الدنيا وزالت رياساتهم فلا يحمى احد احدا ولا يغنى احد عن احد ولا يتغلب احد على ملك ونظيره قوله والامر يومئذ لله وقوله مالك يوم الدين وهو وعيد عظيم من حيث انه عرفهم انه لايغنى عنهم الا البر والطاعة يومئذ دون سائر ما كان قد يغنى عنهم في الدنيا من مال وولد وأعوان وشفعاء قال الواحدى والمعنى ان الله تعالى لم يملك في ذلك اليوم احدا شيئا من الامور كما ملكهم في دار الدنيا قال الواسطى في قوله يوم لاتملك نفس لنفس شيئا اشارة الى فناء غير الله تعالى وهنالك تذهب الرسالات والكلمات والغايات فمن كانت صفته في الدنيا كذلك كانت دنياه أخراه واما قوله والامر يومئذ لله فهو اشارة الى ان البقاء والوجود لله والامر كذلك في الازل وفي اليوم وفي الآخرة ولم يتغير من حال الى حال فالتفاوت عائد الى احوال الناظر لا الى احوال المنظور اليه فالكاملون لاتتفاوت احوالهم بحسب تفاوت الاوقات كما قال لو كشف الغطاء ماازددت يقينا وكحارثة لما أخبر بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم يقول كأنى انظر وكأنى وكأنى والله اعلم والحمد لله رب العالمين

قيل هو يوم لايملك فيه نفس من النفوس لنفس من النفوس شيئا من الاشياء الخ او منصوب باضمار اذكر كأنه قيل بعد تفخيم امر يوم الدين وتشويقه عليه الصلاة والسلام الى معرفته اذكر يوم لاتملك نفس الخ فانه يدريك ماهو وقيل بأضمار يدانون وليس بذلك فأنه عار عن افادة مايفيده قبله كما ان ابداله من يوم الدين على قرأة الرفع كذلك بل الحق حينئذ الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الانفطار كتب الله تعالى له بعدد كل قطرة من السماء وبعدد كل قبر حسنة والله تعالى اعلم

(سورة المطففين ثلاثون وست آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم اووزنوهم يخسرون) اعلم ان اتصال اول هذه السورة بآخر السورة المتقدمة ظاهر لانه تعالى بين فى آخر تلك السورة ان يوم القيامة يوم من صفته انه لاتملك نفس لنفس شيئا والامر كله لله وذلك يقتضى تهديدا عظيما للعصاة فلهذا اتبعه بقوله ويل للمطففين والمراد الزجر عن التطفيف وهو البخس فى المكيال والميزان بالشئ القليل على سبيل الخفية وذلك لان الكثير يظهر فيمنع منه وذلك القليل ان ظهر ايضا منع منه فعلمنا ان التطفيف هو البخس فى المكيال والميزان بالشئ القليل على سبيل الخفية وههنا مسائل (المسئلة الاولى) الويل كلمة تذكر عند وقوع البلاء يقال ويل لك وويل عليك (المسئلة الثانية) فى اشتقاق لفظ المطفف قولان (الاول) ان طف الشئ هو جانبه وحرفه يقال طف الوادى والاناء اذا بلغ الشئ الذى فيه حرفه ولم يمتلئ فهو طفافه وطفافه وطففه ويقال هذا طف المكيال وطفافه اذا قارب ملأه لكنه بعد لم يمتلئ ولهذا قيل للذى يسئ الكيل ولا يوفيه مطفف يعنى انه انما يبلغ الطفاف (والثانى) وهو قول الزجاج انه انما قيل للذى ينقص المكيال والميزان مطفف لانه لايكون الذى يسرق فى المكيال والميزان الا الشئ اليسير الطفيف وههنا سؤالات (الاول) وهو ان الاكتيال الاخذ بالكيل كالاتزان الاخذ بالوزن ثم ان اللغة المعتادة ان يقال اكتلت من فلان ولا يقال اكتلت على فلان فما الوجه فيه ههنا (الجواب) من وجهين (الاول) لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا فيه اضرار بهم وتحامل عليهم أقيم على مقام من الدالة على ذلك (الثانى) قال الفراء المراد اكتالوا من الناس وعلى ومن فى هذا الموضع يعتقبان لانه حق عليه فاذا قال اكتلت عليك فكأنه قال أخذت ماعليك واذا قال اكتلت منك فهو كقوله استوفيت منك (السؤال الثانى) هو ان اللغة المعتادة ان يقال كالوا لهم اووزنوا لهم ولا يقال كلته ووزنته فما وجه قوله تعالى واذا كالوهم اووزنوهم (والجواب) من وجوه (الاول) ان المراد من قوله كالوهم اووزنوهم كالوا لهم اووزنوا لهم فحذف الجار واوصل الفعل قال الكسائى والفراء وهذا من كلام اهل الحجاز ومن جاورهم يقولون زنى كذا كلنى كذا ويقولون صدتك وصدت لك وكسبتك وكسبت لك فعلى هذا الكناية فى كالوهم ووزنوهم فى موضع نصب (الثانى) ان يكون على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه والتقدير واذا كالوا مكيلهم اووزنوا موزونهم (الثالث) يروى عن عيسى بن عمر وحمزة انهما كانا يجعلان الضميرين توكيدا لما فى كالوا ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ماأرادا وزعم الفراء والزجاج انه غير جائز لانه لو كان بمعنى كالوا هم لكان فى المصحف ألف مثبتة قبل هم واعترض صاحب الكشاف على هذه الحجة فقال ان خط

(المصحف)

* (سورة المطففين مختلف فيها وآيها ست وثلاثون) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(ويل للمطففين) قيل الويل شدة الشر وقيل العذاب الاليم وقيل هو واد فى جهنم يهوى فيه الكافر اربعين خريفا قبل ان يبلغ قعره وقيل وقيل وايا ما كان فهو مبتدأ وان كان نكرة لوقوعه فى موقع الدعاء والتطفيف البخس فى الكيل والوزن لان ما يبخس شئ طفيف حقير وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وكان اهلها من اخبث الناس كيلا فنزلت فأحسنوا الكيل وقيل قدمها عليه الصلاة والسلام وبها رجل يعرف بأبى جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر وقيل كان اهل المدينة تجارا يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة فنزلت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم وقال خمس بخمس مانقض قوم العهد الاسلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما انزل الله الافشا فيهم الفقر وماظهرت فيهم الفاحشة الافشا فيهم الموت ولا طففوا الكيل الامنعوا النبات واخذوا بالسنين ولامنعوا الزكاة الاحبس عنهم القطر وقوله تعالى (الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون) الخ صفة كاشفة للمطففين شارحة لكيفية

المصحف لم يراع فى كثير منه حد المصطلح عليه فى علم الخط (الجواب) ان اثبات هذه الالف
لو لم يكن معتادا فى زمان الصحابة لمنع من اثباتها فى سائر الاعصار لما انا نعلم مبالغتهم فى ذلك
فثبت ان اثبات هذه الالف كان معتادا فى زمان الصحابة فكان يجب اثباته ههنا (السؤال
الثالث) ما السبب فى انه قال ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا ولم يقل اذا اتزنوا ثم قال واذا
كالوهم اووزنوهم فجمع بينهما (الجواب) ان الكيل والوزن بهما الشراء والبيع
فأحدهما يدل على الآخر (السؤال الرابع) اللغة المعتادة ان يقال خسرته فما الوجه
فى اخسرته (الجواب) قال الزجاج اخسرت الميزان وخسرته سواء أى نقصته وعن
المؤرج يخسرون ينقصون بلغة قريش (المسئلة الثالثة) عن عكرمة عن ابن عباس قال
لما قدم نبى الله المدينة كانوا من ابخس الناس كيلا فأنزل الله تعالى هذه الآية فاحسنوا
الكيل بعد ذلك وقيل كان اهل المدينة تجارا يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة
والملامسة والمخاطرة فنزلت هذه الآية فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم
وقال خمس بخمس قيل يارسول الله وما خمس بخمس قال ما نقض قوم العهد الا سلط الله
عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما انزل الله الا فشا فيهم الفقر وما ظهر فيهم الفاحشة الا فشا
فيهم الموت ولا طففوا الكيل الا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة الا حبس
عنهم المطر (المسئلة الرابعة) الذم انما لحقهم بمجموع انهم يأخذون زائدا ويدفعون ناقصا
ثم اختلف العلماء فقال بعضهم هذه الآية دالة على الوعيد فلا تتناول الا اذا بلغ التطفيف
حد الكثير وهو نصاب السرقة وقال آخرون بل ما يصغر ويكبر دخل تحت الوعيد
لكن بشرط ان لا يكون معه توبة ولا طاعة أعظم منها وهذا هو الاصح (المسئلة الخامسة) احتج
اصحاب الوعيد بعموم هذه الآية قالوا وهذه الآية واردة فى اهل الصلاة لا فى الكفار
والذى يدل عليه وجهان (الاول) انه لو كان كافرا لكان ذلك الكفر اولى باقتضاء هذا
الويل من التطفيف فلم يكن حينئذ للتطفيف أثر فى هذا الويل لكن الآية دالة على ان
الموجب لهذا الويل هو التطفيف (الثانى) انه تعالى قال للمخاطبين بهذه الآية ألا يظن
اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم فكأنه تعالى هدد المطففين بعذاب يوم القيامة والتهديد
بهذا لا يحصل الا مع المؤمن فثبت بهذين الوجهين ان هذا الوعيد مختص بأهل الصلاة
(والجواب) عنه ما تقدم مرارا ومن لواحق هذه المسئلة ان هذا الوعيد يتناول من يفعل
ذلك ومن يعزم عليه اذ العزم عليه ايضا من الكبائر واعلم ان امر المكيال والميزان عظيم
وذلك لان عامة الخلق يحتاجون الى المعاملات وهى مبنية على امر المكيال والميزان فلهذا
السبب عظم الله امره فقال والسماء رفعها ووضع الميزان ان لا تطغوا فى الميزان واقيموا
الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان وقال ولقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب
والميزان ليقوم الناس بالقسط وعن قتادة اوف يا ابن آدم الكيل كما تحب ان يوفى لك
واعدل كما تحب ان يعدل لك وعن الفضيل بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة وقال

تطفيفهم الذى استحقوا به الذم
والدعاء بالويل اى اذا اكتالوا
من الناس مكيلهم بحكم الشراء
ونحوه يأخذونه وافيا وافرا
وتبديل كلمة على بمن لتضمين
الاكتيال معنى الاستيلاء او للاشارة
الى انه اكتيال مضر بهم لكن
لا على اعتبار الضرر فى حيز الشرط
الذى يتضمنه كلمة اذا لاخلاله
بالمعنى بل فى نفس الامر بموجب
الجواب فان المراد بالاستيفاء
ليس اخذ الحق وافيا من غير
نقص بل مجرد الاخذ الوافى
الوافر حسبما ارادوا بأى وجه
تيسر من وجوه الحيل وكانوا
يفعلونه بكبس المكيل وتحريك
المكيال والاحتيال فى ملئه واما
ما قيل من ان ذلك للدلالة على ان
اكتيالهم لما لهم على الناس فمع
اقتضائه لعدم شمول الحكم
لاكتيالهم قبل ان يكون لهم على
الناس شئ بطريق الشراء ونحوه
مع انه الشائع فيما بينهم يقتضى
ان يكون معنى الاستيفاء اخذ ما لهم
عليهم وافيا من غير نقص اذ هو
المتبادر منه عند الاطلاق فى
معرض الحق فلا يكون مدارا

اعرابي لعبدالملك بن مروان قد سمعت ماقال الله تعالى في المطففين أراد بذلك ان المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم في اخذ القليل فاظنك بنفسك وانت تأخذ الكثير وتأخذ اموال المسلمين بلا كيل ولا وزن ❊ قوله تعالى (ألا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) اعلم انه تعالى وبخ هؤلاء المطففين فقال ألا يظن اولئك الذين يطففون انهم مبعوثون ليوم عظيم وهو يوم القيامة وفي الظن ههنا قولان (الاول) ان المراد منه العلم وعلى هذا التقدير يحتمل ان يكون المخاطبون بهذا الخطاب من جملة المصدقين بالبعث ويحتمل ان لا يكونوا كذلك (اما الاحتمال الاول) فهو ماروى ان المسلمين من اهل المدينة وهم الأوس والخزرج كانوا كذلك وحين ورد النبي صلى الله عليه وسلم كان ذلك شائعا فيهم وكانوا مصدقين بالبعث والنشور فلاجرم ذكروا به واما ان قلنا بأن المخاطبين بهذه الآية ماكانوا مؤمنين بالبعث الا انهم كانوا متمكنين من الاستدلال عليه لما في العقول من ايصال الجزاء الى المحسن والمسيء اوامكان ذلك ان لم يثبت وجوبه وهذا مما يجوز ان يخاطب به من ينكر البعث والمعنى ألا يتفكرون حتى يعلموا انهم مبعوثون ولكنهم قد اعرضوا عن التفكر وأراحوا انفسهم عن متاعبه ومشاقه وانما يجعل العلم الاستدلالي ظنا لان اكثر العلوم الاستدلالية راجع الى الاغلب في الرأي ولم يكن كالشك الذي يعتدل الوجهان فيه لاجرم سمى ذلك ظنا (القول الثاني) ان المراد من الظن ههنا هو الظن نفسه لا العلم ويكون المعنى ان هؤلاء المطففين هب انهم لا يجزمون بالبعث ولكن لا أقل من الظن فان الاليق بحكمة الله ورحمته ورعايته مصالح خلقه ان لا يهمل امرهم بعد الموت بالكلية وان يكون لهم حشر ونشر وان هذا الظن كاف في حصول الخوف كأنه سبحانه وتعالى يقول هب ان هؤلاء لا يقطعون به افلا يظنونه ايضا فأما قوله تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ يوم بالنصب والجر أما النصب فقال الزجاج يوم منصوب بقوله مبعوثون والمعنى ألا يظنون انهم يبعثون يوم القيامة وقال الفراء وقد يكون في موضع خفض الا انه اضيف الى بفعل فنصب وهذا كما ذكرنا في قوله يوم لا تملك واما الجر فلكونه بدلا من يوم عظيم (المسئلة الثانية) هذا القيام له صفات (الصفة الاولى) سببه وفيه وجوه (احدها) وهو الاصح ان الناس يقومون لمحاسبة رب العالمين فيظهر هنالك هذا التطفيف الذي يظن انه حقير فيعرف هنالك كثرته واجتماعه ويقرب منه قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان (وثانيها) انه سبحانه يرد الارواح الى اجسادها فتقوم تلك الاجساد من مراقدها فذلك هو المراد من قوله يوم يقوم الناس لرب العالمين (وثالثها) قال ابو مسلم معنى يقوم الناس هو كقوله وقوموا لله قانتين اى لعبادته فقوله يقوم الناس لرب العالمين اى لمحض أمره وطاعته لا لشئ آخر على ماقرره في قوله والامر يومئذ لله (الصفة الثانية) كيفية ذلك القيام روى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله يوم يقوم الناس لرب العالمين

لذمهم والدعاء عليهم وجعل مالهم عليهم على معنى ماسيكون لهم عليهم مع كونه بعيدا جدا مما لا يجدى نفعا فان اعتبار كون المكيل لهم حالا كان اوما لا يستدعى كون الاستيفاء بالمعنى المذكور حتما وهكذا حال مانقل عن الفراء من ان من وعلى تعتقبان في هذا الموضع لانه حق عليه فاذا قال اكتلت عليك فكأنه قال اخذت ماعليك واذا قال اكتلت منك فكقوله استوفيت منك فتأمل وقد جوز ان تكون على متعلقة بيستوفون ويكون تقديما على الفعل لافادة الخصوصية اى يستوفون على الناس خاصة فأما انفسهم فيستوفون لها وانت خبير بأن القصر بتقديم الجار والمجرور انما يكون فيما يمكن تعلق الفعل بغير المجرور ايضا حسب تعلقه به فيقصد بالتقديم قصره عليه بطريق القلب او الافراد او التعيين حسبما يقتضيه المقام ولا ريب في اى الاستيفاء الذى هو عبارة عن الاخذ الوافى مما لا يتصور ان يكون على انفسهم حتى يقصد

(قال)

قال يقوم احدكم في رشحه الى أنصاف اذنيه وعن ابن عمر انه قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله يوم يقوم الناس لرب العالمين بكى نحيبا حتى عجز عن قراءة مابعده (الصفة الثالثة) كمية ذلك القيام روى عنه عليه السلام انه قال يقوم الناس مقدار ثلثمائة سنة من الدنيا لا يؤمر فيهم بأمر وعن ابن مسعود يمكثون اربعين عاما ثم يخاطبون قال ابن عباس وهو في حق المؤمنين كقدر انصرافهم من الصلاة واعلم انه سبحانه جمع في هذه الآية انواعا من التهديد فقال اولا ويل للمطففين وهذه الكلمة تذكر عند نزول البلاء ثم قال ثانيا ألا يظن اولئك وهو استفهام بمعنى الانكار ثم قال ثالثا ليوم عظيم والشيء الذي يستعظمه الله لاشك انه في غاية العظمة ثم قال رابعا يوم يقوم الناس لرب العالمين وفيه نوعان من التهديد (احدهما) كونهم قائمين مع غاية الخشوع ونهاية الذلة والانكسار (والثاني) انه وصف نفسه بكونه ربا للعالمين (ثم ههنا سؤال) وهو كأنه قال قائل كيف يليق بك مع غاية عظمتك ان تهيئ هذا المحفل العظيم الذي هو محفل القيامة لاجل الشيء الحقير الطفيف فكأنه سبحانه يجيب فيقول عظمة الالهية لاتتم الا بالعظمة في القدرة والعظمة في الحكمة فعظمة القدرة ظهرت بكوني ربا للعالمين لكن عظمة الحكمة لاتظهر الا بان أنتصف للمظلوم من الظالم بسبب ذلك القدر الحقير الطفيف فان الشيء كلما كان أحقر واصغر كان العلم الواصل اليه اعظم وأتم فلاجل اظهار العظمة في الحكمة احضرت خلق الاولين والآخرين في محفل القيامة وحاسبت المطفف لاجل ذلك القدر الطفيف وقال الاستاذ ابو القاسم القشيري لفظ المطفف يتناول التطفيف في الوزن والكيل وفي اظهار العيب واخفائه وفي طلب الانصاف والانتصاف ويقال من لم يرض لأخيه المسلم مايرضاه لنفسه فليس بمنصف والمعاشرة والصحبة من هذه الجملة والذي يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه من هذه الجملة ومن طلب حق نفسه من الناس ولا يعطيهم حقوقهم كما يطلبه لنفسه فهو من هذه الجملة والفتى من يقضي حقوق الناس ولا يطلب من احد لنفسه حقا ❊ قوله تعالى (كلا ان كتاب الفجار لفي سجين وما ادراك ماسجين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به الا كل معتد أثيم اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الاولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون) اعلم انه سبحانه لما بين عظم هذا الذنب اتبعه بذكر لواحقه واحكامه (فأولها) قوله كلا والمفسرون ذكروا فيه وجوها (الاول) انه ردع وتنبيه اي ليس الامر على ماهم عليه من التطفيف والغفلة عن ذكر البعث والحساب فليرتدعوا وتمام الكلام ههنا (الثاني) قال ابو حاتم كلا ابتداء يتصل بما بعده على معنى حقا ان كتاب الفجار لفي سجين وهو قول الحسن (النوع الثاني) انه تعالى وصف كتاب الفجار بالخسة والحقارة على سبيل الاستخفاف بهم وههنا سؤالات (السؤال الاول) السجين اسم علم لشيء معين او اسم

بتقديم الجار والمجرور وقصره على الناس على ان الحديث واقع في الفعل لافيما وقع عليه فتدبر والضمير البارز في قوله تعالى (واذا كالوهم اووزنوهم) للناس اي اذا كالوا لهم اووزنوا لهم للبيع ونحوه (يخسرون) اي ينقصون يقال خسر الميزان واخسره فحذف الجار واوصل الفعل كما في قوله ❊ ولقد جنيتك اكمؤا وعساقلا ❊ اي جنيت لك وجعل البارز تأكيدا للمستكن مما لايليق بجزالة التنزيل ولعل ذكر الكيل والوزن في صورة الاخسار والاقتصار على الاكتيال في صورة الاستيفاء لما انهم لم يكونوا متمكنين من الاحتيال عند الاتزان تمكنهم منه عند الكيل والوزن وعدم التعرض للمكيل والموزون في الصورتين لان مساق الكلام لبيان سوء معاملتهم في الاخذ والاعطاء لا في خصوصية المأخوذ والمعطى وقوله تعالى (الا يظن اولئك انهم مبعوثون) استئناف وارد لتهويل ماارتكبوه من التطفيف والتعجيب من اجترائهم عليه واولئك اشارة الى المطففين

مشتق عن معنى قلنا فيه قولان (الاول) وهو قول جمهور المفسرين انه اسم علم لشئ معين ثم اختلفوا فيه فالاكثرون على انه الارض السابعة السفلى وهو قول ابن عباس فى رواية عطاء وقتادة ومجاهد والضحاك وابن زيد وروى البراء انه عليه السلام قال سجين اسفل سبع ارضين قال عطاء الخراسانى وفيها ابليس وذريته وروى ابو هريرة انه عليه السلام قال سجين جب فى جهنم وقال الكلبى ومجاهد سجين صخرة تحت الارض السابعة (القول الثانى) انه مشتق وسمى سجينا فعيلا من السجن وهو الحبس والتضييق كما يقال فسيق من الفسق وهو قول ابى عبيدة والمبرد والزجاج قال الواحدى وهذا ضعيف والدليل على ان سجينا ليس مما كانت العرب تعرفه قوله وما أدراك ما سجين اى ليس ذلك مما كنت تعلمه انت ولا قومك واقول هذا ضعيف فلعله انما ذكر ذلك تعظيما لامر سجين كما فى قوله وما أدراك ما يوم الدين قال صاحب الكشاف والصحيح ان السجين فعيل مأخوذ من السجن ثم انه ههنا اسم علم منقول من وصف كحاتم وهو منصرف لانه ليس فيه الاسبب واحد وهو التعريف اذا عرفت هذا فنقول قد ذكرنا ان الله تعالى أجرى امورا مع عباده على ما تعارفوه من التعامل فيما بينهم وبين عظمائهم فالجنة موصوفة بالعلو والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المقربين والسجين موصوف بالتسفل والظلمة والضيق وحضور الشياطين الملعونين ولا شك ان العلو والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المقربين كل ذلك من صفات الكمال والعزة واضدادها من صفات النقص والذلة فلما أريد وصف الكفرة وكتابهم بالذلة والحقارة قيل انه فى موضع التسفل والظلمة والضيق وحضور الشياطين ولما وصف كتاب الابرار بالعزة قيل انه فى عليين ويشهده الملائكة المقربون (السؤال الثانى) قد اخبر الله عن كتاب الفجار بأنه فى سجين ثم فسر سجينا بكتاب مرقوم فكأنه قيل ان كتابهم فى كتاب مرقوم فما معناه أجاب القفال فقال قوله كتاب مرقوم ليس تفسير السجين بل التقدير كلا ان كتاب الفجار لفى سجين وان كتاب الفجار كتاب مرقوم فيكون هذا وصفا لكتاب الفجار بوصفين (احدهما) انه فى سجين (والثانى) انه مرقوم ووقع قوله وما ادراك ما سجين فيما بين الوصفين معترضا والله اعلم والاولى ان يقال وأى استبعاد فى كون احد الكتابين فى الآخر اما بان يوضع كتاب الفجار فى الكتاب الذى هو الاصل المرجوع اليه فى تفصيل احوال الاشقياء او بان ينقل ما فى كتاب الفجار الى ذلك الكتاب المسمى بالسجين (وفيه وجه ثالث) وهو ان يكون المراد من الكتاب الكتابة فيكون المعنى كتابة الفجار فى سجين اى كتابة اعمالهم فى سجين ثم وصف السجين بأنه كتاب مرقوم فيه جميع اعمال الفجار (السؤال الثالث) ما معنى قوله كتاب مرقوم قلنا فيه وجوه (احدها) مرقوم اى مكتوبة اعمالهم فيه (وثانيها) قال قتادة رقم لهم بسوء اى كتب لهم بايجاب النار (وثالثها) قال القفال يحتمل ان يكون المراد انه جعل ذلك الكتاب مرقوما كما يرقم التاجر ثوبه علامة لقيمته فكذلك كتاب الفاجر

ووضعه موضع ضميرهم للاشعار بمناط الحكم الذى هو وصفهم فان الاشارة الى الشئ متعرضة له من حيث اتصافه بوصفه واما الضمير فلا يتعرض لوصفه وللايذان بأنهم ممتازون بذلك الوصف القبيح عن سائر الناس اكمل امتياز نازلون منزلة الامور المشار اليها اشارة حسية وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد درجتهم فى الشرارة والفساد اى الا يظن اولئك الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل انهم مبعوثون (ليوم عظيم) لا يقادر قدر عظمه وعظم ما فيه ومحاسبون فيه على مقدار الذرة والخردلة فان من يظن ذلك وان كان ظنا ضعيفا متاخما للشك والوهم لا يكاد يتجاسر على امثال هاتيك القبائح فكيف بمن يتيقنه وقوله تعالى (يوم يقوم الناس لرب العالمين) اى لحكمه وقضائه منصوب باضمار اعنى وقيل بمبعوثون او مرفوع المحل خبر المبتدأ مضمر او مجرور بدلا من يوم عظيم مبنى على الفتح لاضافته الى الفعل وان كان

(جعل)

جعل مرقوما برقم دال على شقاوته (ورابعها) المرقوم ههنا المختوم قال الواحدى وهو صحيح لان الختم علامة فيجوز ان يسمى المرقوم مختوما (وخامسها) ان المعنى كتاب مثبت عليهم كالرقم فى الثوب لاينمحى اماقوله ويل يومئذ للمكذبين ففيه وجهان (احدهما) انه متصل بقوله يوم يقوم الناس اى يوم يقوم الناس لرب العالمين ويل لمن كذب باخبار الله (والثانى) ان قوله مرقوم معناه رقم برقم يدل على الشقاوة يوم القيامة ثم قال ويل يومئذ للمكذبين فى ذلك اليوم من ذلك الكتاب ثم انه تعالى اخبر عن صفة من يكذب بيوم الدين فقال وما يكذب به الا كل معتد أثيم اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين ومعناه انه لايكذب بيوم الدين الا من كان موصوفا بهذه الصفات الثلاث فاولها كونه معتديا والاعتداء هو التجاوز عن المنهج الحق (وثانيها) الاثيم وهو مبالغة فى ارتكاب الاثم والمعاصى واقول الانسان له قوتان قوة نظرية وكمالها فى ان يعرف الحق لذاته وقوة عملية وكمالها فى ان يعرف الخير لاجل العمل به وضد الاول ان يصف الله تعالى بمالا يجوز وصفه به فان كل من منع من امكان البعث والقيامة انما منع امالانه لم يعلم تعلق علم الله بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات اولانه لم يعلم تعلق قدرة الله بجميع الممكنات فهذا هو الاعتداء وضد القوة العملية هو الاشتغال بالشهوة والغضب وصاحبه هو الاثيم وذلك لان المشتغل بالشهوة والغضب فلا يتفرغ للعبادة والطاعة وربما صار ذلك مانعا له عن الايمان بالقيامة (واما الصفة الثالثة) للمكذب بيوم الدين فهو قوله اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين والمراد منه الذين ينكرون النبوة والمعنى اذا تلى عليه القرآن قال اساطير الاولين وفيه وجهان (احدهما) اكاذيب الاولين (والثانى) اخبار الاولين وانه عنهم اخذه اى يقدح فى كون القرآن من عند الله بهذا الطريق (وههنا بحث آخر) وهو ان هذه الصفات الثلاث هل المراد منها شخص معين ام لا فيه قولان (الاول) وهو قول الكلبى ان المراد منه الوليد بن المغيرة وقال آخرون انه النضر بن الحرث واحتج من قال انه الوليد بانه تعالى قال فى سورة ن ولا تطع كل حلاف مهين الى قوله معتد اثيم الى قوله اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين فقيل انه الوليد بن المغيرة وعلى هذا التقدير يكون المعنى وما يكذب بيوم الدين من قريش او من قومك الا كل معتد اثيم وهو هذا الشخص المعين (والقول الثانى) أنه عام فى حق جميع الموصوفين بهذه الصفات اما قوله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون فالمعنى ليس الامر كما يقوله من ان ذلك اساطير الاولين بل افعالهم الماضية صارت سببا لحصول الرين فى قلوبهم ولاهل اللغة فى تفسير لفظة الرين وجوه ولاهل التفسير وجوه اخر (اما اهل اللغة) فقال ابو عبيدة ران على قلوبهم غلب عليها والخمر ترين على عقل السكران والموت يرين على الميت فيذهب به قال الليث ران النعاس والخمر فى الرأس اذا رسخ فيه وهو يرين رينا وريونا ومن هذا حديث عمر فى أسيفع جهينة لما ركبه الدين اصبح قد رين به قال أبو زيد يقال رين بالرجل

مضارعا كما هو رأى الكوفيين ويؤيد الاخيرين القراءة بالرفع وبالجر وفى هذا الانكار والتعجيب وايراد الظن ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه كافة لله تعالى خاضعين ووصفه تعالى بربوبية العالمين من البيان البليغ لعظم الذنب وتفاقم الاثم فى التطفيف وامثاله مالايخفى (كلا) ردع عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب وقوله تعالى (ان كتاب الفجار لفى سجين) الخ تعليل للردع او وجوب الارتداع بطريق التحقيق وسجين علم لكتاب جامع هو ديوان الشر دون فيه اعمال الشياطين واعمال الكفرة والفسقة من الثقلين منقول من وصف كحاتم واصله فعيل من السجن هو الحبس والتضييق لانه سبب الحبس والتضييق فى جهنم اولانه مطروح كما قيل تحت الارض السابعة فى مكان مظلم وحش وهو مسكن ابليس وذريته فالمعنى ان كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون اى مايكتب من اعمالهم او كتابة اعمالهم لفى ذلك

يران به رينا اذا وقع فيما لايستطيع الخروج منه قال ابومعاذ النحوى الرين ان يسود القلب من الذنوب والطبع ان يطبع على القلب وهو اشد من الرين والاقفال اشد من الطبع وهوان يقفل على القلب قال الزجاج ران على قلوبهم بمعنى غطى على قلوبهم يقال ران على قلبه الذنب يرين رينا اى غشيه والرين كالصدأ يغشى القلب ومثله الغين (اما اهل التفسير فلهم وجوه) قال الحسن ومجاهد هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والمحقرات من الذنوب فان الذنب على الذنب يوقد على صاحبه جحيما ضخمة وعن مجاهد القلب كالكف فاذا اذنب الذنب انقبض واذا اذنب ذنبا آخر انقبض ثم يطبع عليه وهو الرين وقال آخرون كلما اذنب الانسان حصلت فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله وروى هذا مرفوعا فى حديث ابى هريرة قلت لاشك ان تكرر الافعال سبب لحصول ملكة نفسانية فان من اراد تعلم الكتابة فكلما كان اتيانه بعمل الكتابة اكثر كان اقتداره على عمل الكتابة اتم الى ان يصير بحيث يقدر على الاتيان بالكتابة من غير روية ولا فكرة فهذه الهيئة النفسانية لما تولدت من تلك الاعمال الكثيرة كان لكل واحد من تلك الاعمال اثر فى حصول تلك الهيئة النفسانية اذا عرفت هذا فنقول ان الانسان اذا واظب على الاتيان ببعض انواع الذنوب حصلت فى قلبه ملكة نفسانية على الاتيان بذلك الذنب ولا معنى للذنب الا كل ما يشغلك بغير الله وكل ما يشغلك بغير الله فهو ظلمة فاذن الذنوب كلها ظلمات وسواد ولكل واحد من الاعمال السالفة التى اورث مجموعها حصول تلك الملكة اثر فى حصولها فذلك هو المراد من قولهم كلما اذنب الانسان حصلت فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب ولما كانت مراتب الملكات فى الشدة والضعف مختلفة لاجرم كانت مراتب هذا السواد والظلمة مختلفة فبعضها يكون رينا وبعضها طبعا وبعضها اقفالا قال القاضى ليس المراد من الرين ان قلبهم قد تغير وحصل فيه منع بل المراد انهم صاروا لايقاع الذنب حالا بعد حال متجرئين عليه وقويت دواعيهم الى ترك التوبة وترك الاقلاع فاستمروا وصعب الامر عليهم ولذلك بين ان علة الرين كسبهم ومعلوم ان اكثارهم من اكتساب الذنوب لايمنع من الاقلاع والتوبة واقول قد بينا ان صدور الفعل حال استواء الداعى الى الفعل والداعى الى الترك محال لامتناع ترجيح الممكن من غير مرجح فبأن يكون ممتنعا حال المرجوحية كان اولى ولما سلم القاضى انهم صاروا بسبب ايقاع الذنب حالا بعد حال بحيث قويت دواعيهم الى ترك التوبة فقد صار هذا الجانب بسبب الافعال السالفة راجحا فوجب ان يكون الاقلاع فى هذه الحالة ممتنعا وتمام الكلام قد تقدم مرارا فى هذا الكتاب * اما قوله تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون فاعلم انهم ذكروا فى كلا وجوها (احدها) قال صاحب الكشاف كلا ردع عن الكسب الرائن على قلوبهم

الكتاب المدون فيه قبائح اعمال المذكورين وقوله تعالى (وما ادراك ما سجين) تهويل لامره اى هو بحيث لايبلغه دراية احد وقوله تعالى (كتاب مرقوم) اى مسطور بين الكتابة او معلم يعلم من رآه انه لاخير فيه وقيل هو اسم المكان والتقدير ما كتاب السجين او محل كتاب مرقوم وقوله تعالى (ويل يومئذ للمكذبين) متصل بقوله تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين وما بينهما اعتراض وقوله تعالى (الذين يكذبون بيوم الدين) اما مجرور على انه صفة ذامة للمكذبين او بدل منه او مرفوع او منصوب على الذم (وما يكذب به الا كل معتد) اى متجاوز عن حدود النظر والاعتبار غال فى التقليد حتى استقصر قدرة الله تعالى وعلمه من الاعادة مع مشاهدته للبدء (أثيم) اى منهمك فى الشهوات المخدجة الفانية بحيث شغلته عما وراءها من اللذات التامة الباقية وحملته على انكارها (اذا تتلى عليه آياتنا) الناطقة بذلك (قال) من فرط جهله واعراضه عن الحق الذى لامحيد عنه (اساطير الاولين) اى هى حكايات الاولين قال الكلبى المراد بالمعتدى الاثيم هو الوليد بن المغيرة

(وثانيها) قال القفال ان الله تعالى حكى فى سائر السور عن هذا المعتدى الاثيم انه كان يقول ان كانت الآخرة حقا فان الله تعالى يعطيه مالا وولدا ثم انه تعالى كذبه فى هذه المقالة فقال أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا وقال وماأظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى ولما كان هذا مما قد تردد ذكره فى القرآن ترك الله ذكره ههنا وقال كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون اى ليس الامر كما يقولون من ان لهم فى الآخرة حسنى بل هم عن ربهم يومئذ محجوبون (وثالثها) ان يكون ذلك تكريرا وتكون كلا هذه هى المذكورة فى قوله كلا بل ران اما قوله انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون فقد احتج الاصحاب به على ان المؤمنين يرونه سبحانه قالوا ولولا ذلك لم يكن للتخصيص فائدة (وفيه تقرير آخر) وهو انه تعالى ذكر هذا الحجاب فى معرض الوعيد والتهديد للكفار ومايكون وعيدا وتهديدا للكفار لا يجوز حصوله فى حق المؤمن فوجب ان لا يحصل هذا الحجاب فى حق المؤمن اجابت المعتزلة عن هذا من وجوه (أحدها) قال الجبائى المراد انهم عن رحمة ربهم محجوبون اى ممنوعون كما يقال فى الفرائض الاخوة يحجبون الام عن الثلث ومن ذلك يقال لمن يمنع عن الدخول هو حاجب لانه يمنع من رؤيته (وثانيها) قال ابو مسلم لمحجوبون اى غير مقربين والحجاب الرد وهو ضد القبول والمعنى هؤلاء المنكرون للبعث غير مقبولين عند الله وهو المراد من قوله تعالى ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم (وثالثها) قال القاضى الحجاب ليس عبارة عن عدم الرؤية فانه قد يقال حجب فلان عن الامير وان كان قد رآه من البعيد واذا لم يكن الحجاب عبارة عن عدم الرؤية سقط الاستدلال بل يجب ان يحمل على صيرورته ممنوعا عن وجدان رحمته تعالى (ورابعها) قال صاحب الكشاف كونهم محجوبين عنه تمثيل للاستخفاف بهم واهانتهم لانه لا يؤذن على الملوك الا للمكرمين لديهم ولا يحجب عنهم الا المهانون عندهم (والجواب) لاشك ان من منع من رؤية شئ يقال انه حجب عنه وايضا من منع من الدخول على الامير يقال انه حجب عنه وايضا يقال الام حجبت عن الثلث بسبب الاخوة واذا وجدنا هذه الاستعمالات وجب جعل اللفظ حقيقة فى مفهوم مشترك بين هذه المواضع دفعا للاشتراك فى اللفظ وذلك هو المنع ففى الصورة الاولى حصل المنع من الرؤية وفى الثانية حصل المنع من الوصول الى قربه وفى الثالثة حصل المنع من استحقاق أخذ الثلث فيصير تقدير الآية كلا انهم عن ربهم يومئذ لممنوعون والمنع انما يتحقق بالنسبة الى ماثبت للعبد بالنسبة الى الله تعالى وهو اما العلم واما الرؤية ولا يمكن حمله على العلم لانه ثابت بالاتفاق للكفار فوجب حمله على الرؤية اما صرفه الى الرحمة فهو عدول عن الظاهر من غير دليل وكذا ماقاله صاحب الكشاف ترك للظاهر من غير دليل ثم الذى يؤكد ماذكرناه من الدليل اقوال المفسرين قال مقاتل معنى الآية انهم بعد العرض والحساب لا يرون ربهم والمؤمنون يرون ربهم وقال الكلبى يقول انهم عن النظر الى رؤية ربهم لمحجوبون والمؤمن لا يحجب عن رؤية ربه

وقيل النضر بن الحرث وقيل عام لكل من اتصف بالاوصاف المذكورة وقرئ اذا يتلى بتذكير الفعل وقرئ أاذا تتلى على الاستفهام الانكارى (كلا) ردع للمعتدى الاثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له فيه وقوله تعالى (بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) بيان لما ادى بهم الى التفوه بتلك العظيمة اى ليس فى آياتنا مايصح ان يقال فى شأنها مثل هذه المقالات الباطلة بل ركب على قلوبهم وغلب عليها ما كانوا يكسبونها من الكفر والمعاصى حتى صارت كالصدأ فى المرآة فحال ذاك بينهم وبين معرفة الحق كما قال صلى الله عليه وسلم ان العبد كلما اذنب ذنبا حصل فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه ولذلك قالوا والرين الصدأ يقال ران عليه الذنب وغان عليه رينا وغينا ويقال ران فيه النوم اى رسخ فيه وقرئ بادغام اللام فى الراء (كلا) ردع وزجر عن الكسب الرائن (انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فلا يكادون يرونه بخلاف المؤمنين وقيل هو تمثيل لاهانتهم باهانة من يحجب عن الدخول على الملوك وعن ابن عباس وقتادة وابن ابى مليكة محجوبون عن رحمته وعن

وسئل مالك بن أنس عن هذه الآية فقال لما حجب اعداءه فلم يروه لابدوان يتجلى لأوليائه حتى يروه وعن الشافعي لما حجب قوما بالسخط دل على ان قوما يرونه بالرضا اما قوله تعالى ثم انهم لصالوا الجحيم فالمعنى انهم لما صاروا محجوبين في عرصة القيامة اما عن رؤية الله على قولنا او عن رحمة الله وكرامته على قول المعتزلة فعند ذلك يؤمر بهم الى النار ثم اذا دخلوا النار وبخوا بتكذيبهم بالبعث والجزاء فقيل لهم هذا الذى كنتم به تكذبون فى الدنيا والآن قدعاينتموه فذوقوه ❊ قوله تعالى (كلا ان كتاب الابرار لفى عليين وما ادراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون) اعلم انه تعالى لما ذكر حال الفجار المطففين اتبعه بذكر حال الابرار الذين لا يطففون فقال كلا اى ليس الامر كما توهمه أولئك الفجار من انكار البعث ومن ان كتاب الله اساطير الاولين واعلم ان لاهل اللغة فى لفظ عليين اقوالا ولاهل التفسير ايضا اقوالا (اما اهل اللغة) قال ابو الفتح الموصلى عليين جمع على وهو فعيل من العلو وقال الزجاج اعراب هذا الاسم كاعراب الجمع لانه على لفظ الجمع كما تقول هذه قنسرون ورأيت قنسرين (واما المفسرون) فروى عن ابن عباس انها السماء الرابعة وفى رواية أخرى انها السماء السابعة وقال قتادة ومقاتل هى قائمة العرش اليمنى فوق السماء السابعة وقال الضحاك هى سدرة المنتهى وقال الفراء يعنى ارتفاعا بعد ارتفاع لا غاية له وقال الزجاج اعلى الامكنة وقال آخرون هى مراتب عالية محفوفة بالجلالة قد عظمها الله واعلى شأنها وقال آخرون عند كتاب اعمال الملائكة وظاهر القرآن يشهد لهذا القول الاخير لانه تعالى قال لرسوله وماأدراك ما عليون تنبيها له على انه غير معلوم له وانه سيعرفه ثم قال كتاب مرقوم يشهده المقربون فبين ان كتابهم فى هذا الكتاب المرقوم الذى يشهده المقربون من الملائكة فكأنه تعالى كما وكلهم باللوح المحفوظ فكذلك يوكلهم بحفظ كتب الابرار فى جملة ذلك الكتاب الذى هو ام الكتاب على وجه الاعظام له ولا يمتنع ان الحفظة اذا صعدت بكتب الابرار فانهم يسلمونها الى هؤلاء المقربين فيحفظونها كما يحفظون كتب انفسهم او ينقلون ما فى تلك الصحائف الى ذلك الكتاب الذى وكلوا بحفظه ويصير علمهم شهادة لهؤلاء الابرار فلذلك يحاسبون حسابا يسيرا لان هؤلاء المقربين يشهدون لهم بما حفظوه من اعمالهم واذا كان هذا الكتاب فى السماء صح قول من تأول ذلك على انه فى السماء العالية فتتقارب الاقوال فى ذلك وان كان الذى ذكرناه اولى واعلم ان المعتمد فى تفسير هذه الآية ما بينا ان العلو والفسحة والضياء والطهارة من علامات السعادة والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة فلما كان المقصود من وضع كتاب الفجار فى اسفل السافلين وفى أضيق المواضع اذلال الفجار وتحقير شأنهم كان المقصود من وضع كتاب الابرار فى أعلى عليين وشهادة الملائكة لهم بذلك اجلالهم وتعظيم شأنهم (وفى الآية وجه آخر) وهو ان المراد من الكتاب الكتابة فيكون المعنى ان كتابة أعمال الابرار فى عليين ثم وصف عليين بأنه كتاب مرقوم فيه جميع اعمال

ابن كيسان عن كرامته (ثم انهم لصالوا الجحيم) اى داخلو النار وثم لتراخى الرتبة فان صلى الجحيم اشد من الاهانة والحرمان من الرحمة والكرامة (ثم يقال) لهم توبيخا وتقريعا من جهة الزبانية (هذا الذى كنتم به تكذبون) فذوقوا عذابه (كلا) ردع عما كانوا عليه بعد ردع وزجر اثر زجر وقوله تعالى (ان كتاب الابرار لفى عليين) استئناف مسوق لبيان محل كتاب الابرار بعد بيان سوء حال الفجار متصلا ببيان سوء حالهم كتابهم وفيه تأكيد للردع ووجوب الارتداع وكتابهم ما كتب من اعمالهم وعليون علم لديوان الخير الذى دون فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين منقول من جمع على فعيل من العلو سمى بذلك اما لانه سبب الارتفاع الى اعالى الدرجات فى الجنة واما لانه مرفوع فى السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريما له وتعظيما والكلام فى قوله تعالى (وماادراك ما عليون كتاب مرقوم) كما مر فى نظيره وقوله تعالى (يشهده المقربون) صفة اخرى لكتاب اى يحضرونه ويحفظونه او يشهدون بما فيه يوم القيامة

الابرار وهو قول ابي مسلم اما قوله تعالى كتاب مرقوم ففيه تأويلان (احدهما) ان المراد بالكتاب المرقوم اعمالهم (والثانى) انه كتاب موضوع فى عليين كتب فيه مااعدالله لهم من الكرامة والثواب واختلفوا فى ذلك الكتاب فقال مقاتل ان تلك الاشياء مكتوبة لهم فى ساق العرش وعن ابن عباس انه مكتوب فى لوح من زبرجد معلق تحت العرش وقال آخرون هو كتاب مرقوم بما يوجب سرورهم وذلك بالضد من رقم كتاب الفجار بما يسوءهم ويدل على هذا المعنى قوله يشهده المقربون يعنى الملائكة الذين هم فى عليين يشهدون ويحضرون ذلك المكتوب ومن قال انه كتاب الاعمال قال يشهد ذلك الكتاب اذا صعد به الى عليين المقربون من الملائكة كرامة للمؤمن ※ قوله تعالى (ان الابرار لفى نعيم على الارائك ينظرون تعرف فى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون) اعلم انه سبحانه وتعالى لما عظم كتابهم فى الآية المتقدمة عظم بهذه الآية منزلتهم فقال ان الابرار لفى نعيم ثم وصف كيفية ذلك النعيم بأمور ثلاثة (اولها) قوله على الارائك ينظرون قال القفال الارائك الاسرة فى الحجال ولا تسمى اريكة فيما زعموا الا اذا كانت كذلك وعن الحسن كنا لا ندرى ما الاريكة حتى لقينا رجلا من اهل اليمن اخبرنا ان الاريكة عندهم ذلك اما قوله ينظرون ففيه ثلاثة اوجه (احدها) ينظرون الى انواع نعيمهم فى الجنة من الحور العين والولدان وانواع الاطعمة والاشربة والملابس والمراكب وغيرها قال عليه السلام يلحظ المؤمن فيحيط بكل ما آتاه الله وان ادناهم يتراءى له مثل سعة الدنيا (والثانى) قال مقاتل ينظرون الى عدوهم حين يعذبون فى النار (والثالث) اذا اشتهوا شيئا نظروا اليه فيحضرهم ذلك الشئ فى الحال ※ واعلم ان هذه الاوجه الثلاثة من باب انواع جنس واحد وهو المنظور اليه فوجب حمل اللفظ على الكل (ويخطر ببالى تفسير رابع) وهو اشرف من الكل وهو انهم ينظرون الى ربهم ويتأكد هذا التأويل بما انه قال بعد هذه الآية تعرف فى وجوههم نضرة النعيم والنظر المقرون بالنضرة هو رؤية الله تعالى على ما قال وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ومما يؤكد هذا التأويل انه يجب الابتداء بذكر اعظم اللذات وما هو الا رؤية الله تعالى (وثانيها) قوله تعالى تعرف فى وجوههم نضرة النعيم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المعنى اذا رأيتهم عرفت انهم اهل النعمة بسبب ما ترى فى وجوههم من القرائن الدالة على ذلك ثم فى تلك القرائن قولان (احدهما) انه ما يشاهد فى وجوههم من الضحك والاستبشار على ما قال تعالى وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة (والثانى) قال عطاء ان الله تعالى يزيد فى وجوههم من النور والحسن والبياض ما لا يصفه واصف وتفسير النضرة قد سبق عند قوله ناضرة (المسئلة الثانية) قرئ تعرف على البناء للمفعول ونضرة النعيم بالرفع (وثالثها) قوله يسقون من رحيق وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى)

(ان الابرار لفى نعيم) شروع فى بيان محاسن احوالهم اثر بيان حال كتابهم على طريقة مامر فى شأن الفجار (على الارائك) اى على الاسرة فى الحجال ولا يكاد تطلق الاريكة على السرير عندهم الا عند كونه فى الحجلة (ينظرون) اى الى ماشاؤا مداعينهم اليه من رغائب مناظر الجنة والى ما اولاهم الله تعالى من النعمة والكرامة والى اعدائهم يعذبون فى النار وما تحجب الحجال ابصارهم عن الادراك (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) اى بهجة التنعم وماءه ورونقه والخطاب لكل احد ممن له حظ من الخطاب للايذان بأن مالهم من آثار النعمة واحكام البهجة بحيث لا يختص برؤية راء دون راء (يسقون من رحيق) شراب خالص لا غش فيه (مختوم ختامه مسك) اى مختوم اوانيه واكوابه بالمسك مكان الطين ولعله تمثيل لكمال نفاسته وقيل ختامه مسك اى مقطعه رائحة مسك وقرئ خاتمه بفتح التاء وكسرها اى ما يختم به ويقطع (وفى ذلك) اشارة الى الرحيق وهو الانسب لما بعده اوالى ماذكر من احوالهم ومافيه

في بيان ان الرحيق ماهو قال الليث الرحيق الخمر وانشد لحسان * بردى يصفق بالرحيق السلسل * وقال ابو عبيدة والزجاج الرحيق من الخمر مالا غش فيه ولا شئ يفسده ولعله هو الخمر الذي وصفه الله تعالى بقوله لا فيها غول (المسئلة الثانية) ذكر الله تعالى لهذا الرحيق صفات (الصفة الاولى) قوله مختوم وفيه وجوه (الاول) قال القفال يحتمل ان هؤلاء يسقون من شراب مختوم قد ختم عليه تكريما له بالصيانة على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان وهناك خمر آخر تجرى منها انهار كما قال وانهار من خمر لذة للشاربين الا ان هذا المختوم اشرف من الجارى (الثاني) قال ابو عبيدة والمبرد والزجاج المختوم الذي له ختام اى عاقبة (الثالث) روى عن عبد الله في مختوم انه ممزوج قال الواحدى وليس بتفسير لان الختم لا يكون تفسيره المزج ولكن لما كانت له عاقبة هي ريح المسك فسره بالممزوج لانه لو لم يمتزج بالمسك لما حصل فيه ريح المسك (الرابع) قال مجاهد مختوم مطين قال الواحدى كان مراده من الختم بالطين هو ان لا تمسه يد الى ان يفك ختمه الابرار والاقرب من جميع هذه الوجوه الوجه الاول الذي ذكره القفال (الصفة الثانية) لهذا الرحيق قوله ختامه مسك وفيه وجوه (الاول) قال القفال معناه ان الذي يختم به رأس قارورة ذلك الرحيق هو المسك كالطين الذي يختم به رؤس القوارير فكأن ذلك المسك رطب ينطبع فيه الخاتم وهذا الوجه مطابق للوجه الاول الذي حكيناه عن القفال في تفسير قوله مختوم (الثاني) المراد من قوله ختامه مسك اى عاقبته المسك اى يختم له آخره بريح المسك وهذا الوجه مطابق للوجه الذي حكيناه عن ابي عبيدة في تفسير قوله مختوم كأنه تعالى قال من رحيق له عاقبة ثم فسر تلك العاقبة فقال تلك العاقبة مسك اى من شرب به كان ختم شربه على ريح المسك وهذا قول علقمة والضحاك وسعيد بن جبير ومقاتل وقتادة قالوا اذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك والمعنى لذاذة المقطع وذكاء الرائحة وأرجها مع طيب الطعم والختام آخر كل شئ ومنه يقال ختمت القرآن والاعمال بخواتيمها ويؤكده قراءة علي عليه السلام واختيار الكسائي فانه يقرأ خاتمه مسك اى آخره كما يقال خاتم النبيين قال الفراء وهما متقاربان في المعنى الا ان الخاتم اسم والختام مصدر كقولهم هو كريم الطباع والطابع (الثالث) معناه خلطه مسك وذكروا ان فيه تطييبا لطعمه وقيل بل لريحه واقول لعل المراد ان الخمر الممزوج بهذه الافاويه الحارة مما يعين على الهضم وتقوية الشهوة فلعل المراد منه الاشارة الى قوة شهوتهم وصحة أبدانهم وهذا القول رواه سعيد بن جبير عن الاسود عن عائشة تقول المرأة لقد أخذت ختم طيبي اى لقد اخذت اخلاط طيبي قال ابو الدرداء هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شربهم لو ان رجلا من اهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها لم يبق ذو روح الا وجد طيب ريحه (الصفة الثانية) قوله تعالى وفي ذلك فليتنافس المتنافسون قال الواحدى يقال نفست عليه الشئ انفسه نفاسة اذا ضننت

من معنى البعد اما للاشعار بعلو مرتبته وبعد منزلته او لكونه في الجنة اى في ذلك خاصة دون غيره (فليتنافس المتنافسون) اى فليرغب الراغبون بالمبادرة الى طاعة الله تعالى وقيل فليعمل العاملون كقوله تعالى لمثل هذا فليعمل العاملون وقيل فليستبق المستبقون واصل التنافس التغالب في الشئ النفيس واصله من النفس لعزتها قال الواحدى نفست الشئ انفسه نفاسة والتنافس تفاعل منه كأن كل واحد من الشخصين يريد ان يستأثر به وقال البغوى واصله من الشئ النفيس الذي يحرص عليه نفوس الناس ويريده كل احد لنفسه وينفس به على غيره اى يضن به (ومزاجه من تسنيم) عطف على ختامه صفة اخرى لرحيق مثله ومابينهما اعتراض مقرر لنفاسته اى ما يمزج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم على ان من بيانية او تبعيضية او من نفسه على انها ابتدائية والتسليم علم لعين بعينها سميت به اما لانها ارفع شراب في الجنة واما لانها تأتيهم من فوق روى انها تجرى في الهواء متسنمة فتنصب في اوانيهم (عينا) نصب على

به ولم تحب ان يصير اليه والتنافس تفاعل منه كأن كل واحد من الشخصين يريد ان يستأثر به والمعنى وفى ذلك فليرغب الراغبون بالمبادرة الى طاعة الله واعلم ان مبالغة الله تعالى فى الترغيب فيه تدل على علو شأنه وفيه اشارة الى ان التنافس يجب ان يكون فى مثل ذلك النعيم العظيم الدائم لا فى النعيم الذى هو مكدر سريع الفناء (الصفة الرابعة) قوله تعالى ومزاجه من تسنيم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) تسنيم علم لعين بعينها فى الجنة سميت بالتسنيم الذى هو مصدر سنمه اذا رفعه اما لانها ارفع شراب فى الجنة واما لانها تأتيهم من فوق على ماروى انها تجرى فى الهواء مسنمة فتنصب فى أوانيهم واما لانها لاجل كثرة مائها وسرعته تعلو على كل شئ تمر به وهو تسنيمه او لانه عند الجرى يرى فيه ارتفاع وانخفاض فهو التسنيم ايضا وذلك لان اصل هذه الكلمة للعلو والارتفاع ومنه سنام البعير وتسنمت الحائط اذا علوته واما قول المفسرين فروى ميمون بن مهران ان ابن عباس سئل عن تسنيم فقال هذا مما يقول الله فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ويقرب منه ماقال الحسن وهو انه أمر أخفاه الله تعالى لاهل الجنة قال الواحدى وعلى هذا لايعرف له اشتقاق وهو اسم معرفة وعن عكرمة من تسنيم من تشريف (المسئلة الثانية) انه تعالى ذكر ان تسنيم عين يشرب بها المقربون قال ابن عباس اشرف شراب اهل الجنة هو تسنيم لانه يشرب به المقربون صرفا ويمزج لاصحاب اليمين واعلم ان الله تعالى لما قسم المكلفين فى سورة الواقعة الى ثلاثة اقسام المقربون واصحاب اليمين واصحاب الشمال ثم انه تعالى لما ذكر كرامة المذكورين فى هذه السورة بأنه يمزج شرابهم من عين يشرب بها المقربون علمنا ان المذكورين فى هذا الموضع هم اصحاب اليمين واقول هذا يدل على ان الانهار متفاوتة فى الفضيلة فتسنيم افضل انهار الجنة والمقربون افضل اهل الجنة والتسنيم فى الجنة الروحانية هو معرفة الله ولذة النظر الى وجه الله الكريم والرحيق هو الابتهاج بمطالعة عالم الموجودات فالمقربون لايشربون الامن التسنيم اى لايشتغلون الا بمطالعة وجهه الكريم واصحاب اليمين يكون شرابهم ممزوجا فتارة يكون نظرهم اليه وتارة الى مخلوقاته (المسئلة الثانية) عينا نصب على المدح وقال الزجاج نصب على الحال وقوله يشرب بها المقربون كقوله يشرب بها عباد الله وقدمر ❊ قوله تعالى (ان الذين اجرموا كانوا من الذين امنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا فاكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما ارسلوا عليهم حافظين فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ماكانوا يفعلون) اعلم انه سبحانه لما وصف كرامة الابرار فى الآخرة ذكر بعد ذلك قبح معاملة الكفار معهم فى الدنيا فى استهزائهم وضحكهم ثم بين ان ذلك سينقلب على الكفار فى الآخرة والمقصود منه تسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى سبب النزول وجهين (الاول) ان المراد من قوله ان الذين اجرموا

الاختصاص وجوز ان يكون حالا من تسنيم مع كونه جامدا لاتصافه بقوله تعالى (يشرب بها المقربون) فانهم يشربونها صرفا وتمزج لسائر اهل الجنة فالباء مزيدة او بمعنى من وقوله تعالى (ان الذين اجرموا) الخ حكاية لبعض قبائح مشركى قريش جئ بها تمهيدا لذكر بعض احوال الابرار فى الجنة (كانوا) فى الدنيا (من الذين آمنوا يضحكون) اى يستهزؤن بفقرائهم كعمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين وتقديم الجار والمجرور اما للقصر اشعارا بغاية شناعة مافعلوا اى كانوا من الذين آمنوا يضحكون مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك على منهاج قوله تعالى افى الله شك او لمراعاة الفواصل (واذا مروا) اى فقراء المؤمنين (بهم) اى بالمشركين وهم فى انديتهم وهو الاظهر وان جاز العكس ايضا (يتغامزون) اى يغمز بعضهم بعضا ويشيرون بأعينهم (واذا انقلبوا) من مجالسهم (الى اهلهم انقلبوا فكهين) ملتذين بذكرهم بالسوء والسخرية منهم وفيه اشارة الى

اكابر المشركين كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي كانوا يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين ويستهزؤن بهم (الثاني) جاء علي عليه السلام في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا الى اصحابهم فقالوا رأينا اليوم الاصلع فضحكوا منه فنزلت هذه الآية قبل ان يصل علي الى رسول الله (المسئلة الثانية) انه تعالى حكى عنهم اربعة اشياء من المعاملات القبيحة (فأولها) قوله ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون اي يستهزؤن بهم وبدينهم (وثانيها) قوله واذا مروا بهم يتغامزون اي يتفاعلون من الغمز وهو الاشارة بالجفن والحاجب ويكون الغمز ايضا بمعنى العيب وغمزه اذا عابه ومافي فلان غميزة اي مايعاب به والمعنى انهم يشيرون اليهم بالاعين استهزاء ويعيبونهم ويقولون انظروا الى هؤلاء يتعبون أنفسهم ويحرمونها لذاتها ويخاطرون بأنفسهم في طلب ثواب لايتيقنونه (وثالثها) قوله تعالى واذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا فاكهين معجبين بما هم فيه من الشرك والمعصية والتنعم بالدنيا او يتفكهون بذكر المسلمين بالسوء قرأ عاصم في رواية حفص عنه فكهين بغير ألف في هذا الموضع وحده وفي سائر القرآن فاكهين بالالف وقرأ الباقون فاكهين بالالف فقيل هما لغتان وقيل فاكهين اي متنعمين مشغولين بما هم فيه من الكفر والتنعم بالدنيا وفكهين معجبين (ورابعها) قوله تعالى واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون اي هم على ضلال في تركهم التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب لايدري هل له وجود ام لا وهذا آخر ماحكاه عن الكفار ثم قال تعالى وما ارسلوا عليهم حافظين يعني ان الله تعالى لم يبعث هؤلاء الكفار رقباء على المؤمنين يحفظون عليهم احوالهم ويتفقدون مايصنعونه من حق او باطل فيعيبون عليهم مايعتقدونه ضلالا بل انما امروا باصلاح انفسهم اما قوله تعالى فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المعنى ان في هذا اليوم الذي هو يوم تصفح الاعمال والمحاسبة يضحك المؤمن من الكافر وفي سبب هذا الضحك وجوه (احدها) ان الكفار كانوا يضحكون على المؤمنين في الدنيا بسبب ماهم فيه من الضر والبؤس وفي الآخرة يضحك المؤمنون على الكافرين بسبب ماهم فيه من انواع العذاب والبلاء ولانهم علموا انهم كانوا في الدنيا على غير شيء وانهم قد باعوا باقيا بفان ويرون انفسهم قد فازوا بالنعيم المقيم ونالوا بالتعب اليسير راحة الابد ودخلوا الجنة فاجلسوا على الارائك ينظرون اليهم كيف يعذبون في النار وكيف يصطرخون فيها ويدعون بالويل والثبور ويلعن بعضهم بعضا (الثاني) قال ابو صالح يقال لاهل النار وهم فيها اخرجوا وتفتح لهم ابوابها فاذا رأوها قد فتحت اقبلوا اليها يريدون الخروج والمؤمنون ينظرون اليهم على الارائك فاذا انتهوا الى ابوابها غلقت دونهم فذاك هو سبب الضحك (المسئلة الثانية) قوله على الارائك ينظرون حال من يضحكون اي يضحكون منهم ناظرين اليهم والى ماهم فيه من الهوان والصغار

انهم كانوا لايفعلون ذلك بمرأى من المارين بهم ويكتفون حينئذ بالتغامز وقرئ فاكهين قيل هما بمعنى وقيل فكهين اشرين وقيل فرحين وفاكهين متفكهين وقيل ناعمين وقيل مازحين (واذا رأوهم) ايّما كانوا (قالوا ان هؤلاء لضالون) اي نسبوا المسلمين ممن رأوهم ومن غيرهم الى الضلال بطريق التأكيد (وما ارسلوا عليهم) على المسلمين (حافظين) حال من واو قالوا اي قالوا ذلك والحال انهم ما ارسلوا من جهة الله تعالى موكلين بهم يحفظون عليهم احوالهم ويهيمنون على اعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم وهذا تهكم بهم واشعار بأن ما اجترؤا عليه من القول من وظائف من ارسل من جهته تعالى وقد جوز ان يكون ذلك من جملة قول المجرمين كأنهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما ارسلوا علينا حافظين انكارا لصدهم عن الشرك ودعائهم الى الاسلام وانما قيل عليهم نقلا له بالمعنى كما في قولك حلف ليفعلن لا بالعبارة كما في قولك حلف لافعلن (فاليوم الذين آمنوا) اي المعهودون من الفقراء (من الكفار) اي من المعهودين وهو الاظهر وان امكن التعميم من

بعد العزة والكبر ثم قال تعالى هل ثوب الكفار ماكانوا يفعلون ثوب بمعنى اثيب اى الله المثيب قال أوس

سأجزيك اويجزيك عنى مثوب * وحسبك ان يثنى عليك وتحمدى

قال المبرد وهو فعل من الثواب وهو ماثوب اى يرجع الى فاعله جزاء ماعمله من خير اوشر والثواب يستعمل فى المكافأة بالشر وانشد ابوعبيدة

الا ابلغ اباحسن رسولا * فمالك لاتجئ الى الثواب

والاولى ان يحمل ذلك على سبيل التهكم كقوله ذق انك انت العزيز الكريم والمعنى كأنه تعالى يقول للمؤمنين هل جازينا الكفار على عملهم الذى كان من جملته ضحكهم بكم واستهزاؤهم بطريقتكم كما جازيناكم على اعمالكم الصالحة فيكون هذا القول زائدا فى سرورهم لانه يقتضى زيادة فى تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم والمقصود منها احوال القيامة والله اعلم

(سورة الانشقاق عشرون وخمس آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت واذا الارض مدت والقت مافيها وتخلت واذنت لربها وحقت) اما انشقاق السماء فقد مر شرحه فى مواضع من القرآن وعن على عليه السلام انها تنشق من المجرة اماقوله وأذنت لربها ومعنى أذن له استمع له ومنه قوله عليه السلام ماأذن الله لشئ كاذنه لنبى يتغنى بالقرآن وأنشد أبوعبيدة والمبرد والزجاج قول قعنب

صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به * وان ذكرت بشر عندهم اذنوا

والمعنى انه لم يوجد فى جرم السماء مايمنع من تأثير قدرة الله تعالى فى شقها وتفريق اجزائها فكانت فى قبول ذلك التأثير كالعبد الطائع الذى اذا ورد عليه الامر من جهة المالك انصت له وأذعن ولم يمتنع فقوله قالتا اتينا طائعين يدل على نفاذ القدرة فى الايجاد والابداع من غير ممانعة اصلا وقوله ههنا وأذنت لربها يدل على نفوذ القدرة فى التفريق والاعدام والافناء من غير ممانعة اصلا وأما قوله وحقت فهو من قولك هو محقوق بكذا وحقيق به يعنى وهى حقيقة بأن تنقاد ولاتمتنع وذلك لانه جسم وكل جسم فهو ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فان الوجود والعدم بالنسبة اليه على السوية وكل ماكان كذلك كان ترجيح وجوده على عدمه او ترجيح عدمه على وجوده لابد وان يكون بتأثير واجب الوجود وترجيحه فيكون تأثير قدرته فى ايجاده واعدامه نافذا ساريا من غير ممانعة اصلا واما الممكن فليس له الا القبول والاستعداد ومثل هذا الشئ حقيق به ان يكون قابلا للوجود تارة وللعدم اخرى من واجب الوجود أما قوله واذا الارض مدت ففيه وجهان (الاول) انه مأخوذ من مد الشئ فامتد وهو ان تزال جبالها بالنسف كما قال ويسألونك عن الجبال فقل

الجانبين (يضحكون) حين يرونهم اذلاء مغلولين قد غشيهم فنون الهوان والصغار بعد العزة والكبر ورهقهم الوان العذاب بعد التنعم والترفه وتقديم الجار والمجرور للقصر تحقيقا للمقابلة اى فاليوم هم من الكفار يضحكون لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون فى الدنيا وقوله تعالى (على الارائك ينظرون) حال من فاعل يضحكون اى يضحكون منهم ناظرين اليهم والى ماهم فيه من سوء الحال وقيل يفتح للكفار باب الى الجنة فيقال لهم اخرجوا اليها فاذا وصلوا اليها اغلق دونهم يفعل بهم ذلك مرارا ويضحك المؤمنون منهم ويأباه قوله تعالى (هل ثوب الكفار ماكانوا يفعلون) فانه صريح فى ان ضحك المؤمنين منهم جزاء لضحكهم منهم فى الدنيا فلابد من المجانسة والمشاكلة حتما والتثويب والاثابة المجازاة وقرئ بادغام اللام فى الثاء * وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المطففين سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم

(سورة الانشقاق مكية وآيها خمس وعشرون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اذا السماء انشقت) اى بالغمام كما فى قوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام وعن على رضى الله تعالى

ينسفها ربى نسفا يسوى ظهرها كما قال قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا امتا وعن ابن عباس مدت مد الاديم العكاظى لان الاديم اذا مد زال كل انثناء فيه واستوى (والثانى) انه مأخوذ من مده بمعنى امده اى يزاد فى سعتها يوم القيامة لوقوف الخلائق عليها للحساب واعلم انه لابد من الزيادة فى وجه الارض سواء كان ذلك بتمديدها او بامدادها لان خلق الاولين والآخرين لما كانوا واقفين يوم القيامة على ظهرها فلابد من الزيادة فى طولها وعرضها اما قوله وألقت مافيها فالمعنى انها لما مدت رمت بما فى جوفها من الموتى والكنوز وهو قوله واخرجت الارض اثقالها واذا القبور بعثرت وبعثر مافى القبور وكقوله الم نجعل الارض كفاتا احياء وامواتا واما قوله وتخلت فالمعنى وخلت غاية الخلو حتى لم يبق فى باطنها شئ كأنها تكلفت اقصى جهدها فى الخلو كما يقال تكرم الكريم وترحم الرحيم اذا بلغا جهدهما فى الكرم والرحمة وتكلفا فوق مافى طبعهما واعلم ان التحقيق ان الله تعالى هو الذى اخرج تلك الاشياء من بطن الارض الى ظهرها لكن الارض وصفت بذلك على سبيل التوسع واما قوله وأذنت لربها وحقت فقد تقدم تفسيره الا ان الاول فى السماء وهذا فى الارض واذا اختلف وجه الكلام لم يكن تكرارا ❊ قوله تعالى (يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه) اعلم ان قوله تعالى اذا السماء انشقت الى قوله يأيها الانسان شرط ولابد له من جزاء واختلفوا فيه على وجوه (احدها) قال صاحب الكشاف حذف جواب اذا ليذهب الوهم الى كل شئ فيكون ادخل فى التهويل (وثانيها) قال الفراء انما ترك الجواب لان هذا المعنى معروف قد تردد فى القرآن معناه فعرف نظيره قوله انا أنزلناه فى ليلة القدر ترك ذكر القرآن لان التصريح به قد تقدم فى سائر المواضع (وثالثها) قال بعض المحققين الجواب هو قوله فملاقيه وقوله يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا معترض وهو كقول القائل اذا كان كذا وكذا يأيها الانسان ترى عند ذلك ماعملت من خير أو شر فكذا ههنا والتقدير اذا كان يوم القيامة لقى الانسان عمله (ورابعها) ان المعنى محمول على التقديم والتأخير فكأنه قيل يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه اذا السماء انشقت وقامت القيامة (وخامسها) قال الكسائى ان الجواب فى قوله فأما من أوتى كتابه واعترض فى الكلام قوله يأيها الانسان انك كادح والمعنى اذا السماء انشقت وكان كذا وكذا فمن اوتى كتابه بيمينه فهو كذا ومن اوتى كتابه وراء ظهره فهو كذا ونظيره قوله تعالى فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم (وسادسها) قال القاضى ان الجواب مادل عليه قوله انك كادح كأنه تعالى قال يأيها الانسان ترون ماعملتم فاكدح لذلك اليوم ايها الانسان لتفوز بالنعيم اما قوله يأيها الانسان ففيه قولان (الاول) ان المراد جنس الناس كما يقال يأيها الرجل وكلكم ذلك الرجل فكذا ههنا وكأنه خطاب خص به كل واحد من الناس قال القفال وهو ابلغ من العموم لانه قائم مقام التنصيص على مخاطبة

عنه تنشق من المجرة (واذنت لربها) اى واستمعت اى انقادت واذعنت لتأثير قدرته تعالى حين تعلقت ارادته بانشقاقها انقياد المأمور المطواع اذا ورد عليه امر الآمر المطاع والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة اليها للاشعار بعلة الحكم وهذه الجملة ونظيرتها الآتية بمنزلة قوله تعالى اتينا طائعين فى الانباء عن كون مانسب الى السماء والارض من الانشقاق والمد وغيرهما جاريا على مقتضى الحكمة كما اشير اليه فيما سلف (وحقت) اى جعلت حقيقة بالاستماع والانقياد لكن لابعد ان لم تكن كذلك بل فى نفسها وحد ذاتها من قولهم هو محقوق بكذا وحقيق به والمعنى انقادت لربها وهى حقيقة بذلك لكن لا على ان المراد خصوصية ذاتها من بين سائر المقدورات بل خصوصية القدرة القاهرة الربانية التى يتأتى لها كل مقدور ولا يتخلف عنها امر من الامور فحق الجملة ان تكون اعتراضا مقررا لما قبلها لامعطوفة عليه (واذا الارض مدت) اى بسطت بازالة جبالها وآكامها من مقارها وتسويتها بحيث صارت قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا امتا او زيدت سعة وبسطة من مده بمعنى امده اى زاده (وألقت مافيها) اى رمت مافى جوفها من الموتى

كل واحد منهم على التعيين بخلاف اللفظ العام فانه لايكون كذلك (الثانى) ان المراد منه رجل بعينه وههنا فيه قولان (الاول) ان المراد به محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى انك تكدح فى ابلاغ رسالات الله وارشاد عباده وتحمل الضرر من الكفار فأبشر فانك تلق الله بهذا العمل وهو غير ضائع عنده (الثانى) قال ابن عباس هو أبى بن خلف وكدحه جده واجتهاده فى طلب الدنيا وايذاء الرسول والاصرار على الكفر والاقرب انه محمول على الجنس لانه اكثر فائدة ولان قوله فأما من أوتى كتابه بيمينه وأما من اوتى كتابه وراء ظهره كالنوعين له وذلك لايتم الااذا كان جنسا اما قوله انك كادح فاعلم ان الكدح جهد الناس فى العمل والكدح فيه حتى يؤثر فيها من كدح جلده اذا خدشه اما قوله الى ربك ففيه ثلاثة اوجه (احدها) انك كادح الى لقاء ربك وهو الموت اى هذا الكدح يستمر ويبقى الى هذا الزمان (واقول فى هذا التفسير نكتة لطيفة) وذلك لانها تقتضى ان الانسان لاينفك فى هذه الحياة الدنيوية من اولها الى آخرها عن الكدح والمشقة والتعب ولما كانت كلمة الى لانتهاء الغاية فهى تدل على وجوب انتهاء الكدح والمشقة بانتهاء هذه الحياة وان يكون الحاصل بعد هذه الدنيا محض السعادة والرحمة وذلك معقول فان نسبة الآخرة الى الدنيا كنسبة الدنيا الى رحم الام فكما صح ان يقال يا أيها الجنين انك كادح الى ان تنفصل من الرحم فكان ما بعد الانفصال عن الرحم بالنسبة الى ماقبله خالصا عن الكدح والظلمة فنرجو من فضل الله ان يكون الحال فيما بعد الموت كذلك (وثانيها) قال القفال التقدير انك كادح فى دنياك كدحا تصير به الى ربك فبهذا التأويل حسن استعمال حرف الى ههنا (وثالثها) يحتمل ان يكون دخول الى على معنى ان الكدح هو السعى فكأنه قال ساع بعملك الى ربك اما قوله تعالى فملاقيه ففيه قولان (الاول) قال الزجاج فلاق ربك اى ملاق حكمه لامفر لك منه وقال آخرون الضمير عائد الى الكدح الا ان الكدح عمل وهو عرض لايبقى فملاقاته ممتنعة فوجب ان يكون المراد ملاقاة الكتاب الذى فيه بيان تلك الاعمال ويتأكد هذا التأويل بقوله بعد هذه الآية فأما من أوتى كتابه بيمينه ❊ اما قوله تعالى (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى اهله مسرورا) فالمعنى فأما من اعطى كتاب اعماله بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وسوف من الله واجب وهو كقول القائل اتبعنى فسوف تجد خيرا فأنه لايريد به الشك وانما يريد ترقيق الكلام والحساب اليسير هو ان تعرض عليه اعماله ويعرف ان الطاعة منها هذه والمعصية هذه ثم يثاب على الطاعة ويتجاوز عن المعصية فهذا هو الحساب اليسير لانه لاشدة على صاحبه ولامناقشة ولايقال له لم فعلت هذا ولايطالب بالعذر فيه ولابالحجة عليه فانه متى طولب بذلك لم يجد عذرا ولاحجة فيفتضح ثم انه عند هذا الحساب اليسير يرجع الى اهله مسرورا فائزا بالثواب آمنا من العذاب والمراد من اهله اهل الجنة من الحور العين اومن زوجاته وذرياته اذا كانوا مؤمنين

والكنوز كقوله تعالى واخرجت الارض اثقالها (وتخلت) وخلت عمافيها غاية الخلو حتى لم يبق فيها شئ منه كأنها تكلفت فى ذلك اقصى جهدها (واذنت لربها) فى الالقاء والتخلى (وحقت) اى وهى حقيقة بذلك اى شأنها ذلك بالنسبة الى القدرة الربانية وتكرير كلمة اذا مع اتحاد الافعال المنسوبة الى السماء والارض ووقوعها فى الوقت الممتد الذى هو مدلولها قد مر سره فيما مر (يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا) اى جاهد ومجد الى الموت ومابعده من الاحوال التى مثلت باللقاء مبالغ فى ذلك فان الكدح جهد النفس فى العمل والكد فيه بحيث يؤثر فيها من كدح جلده اذا خدشه (فملاقيه) اى فملاق له عقيب ذلك لامحالة من غير صارف يلويك عنه وقوله تعالى (فأما من اوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) الخ قيل جواب اذا كما فى قوله تعالى فأما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون وقوله تعالى يا أيها الانسان الخ اعتراض وقيل هو محذوف للتهويل والايماء الى قصور العبارة عن بيانه اوللتعويل على دلالة مامر فى سورة التكوير والانفطار عليه وقيل هو مادل عليه قوله تعالى

فدلت هذه الآية على انه سبحانه أعدله ولاهله في الجنة مايليق به من الثواب عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم حاسبني حسابا يسيرا قلت وما الحساب اليسير قال ينظر في كتابه ويتجاوز عن سيآته فأما من نوقش في الحساب فقد هلك وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نوقش الحساب فقد هلك فقلت يارسول الله ان الله يقول فأما من اوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا قال ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب عذب (وفي قوله يحاسب اشكال) لان المحاسبة تكون بين اثنين وليس في القيامة لأحد قبل ربه مطالبة فيحاسبه (وجوابه) ان العبد يقول الهي فعلت الطاعة الفلانية والرب يقول فعلت المعصية الفلانية فكان ذلك بين الرب والعبد محاسبة والدليل عليه انه تعالى خص الكفار بأنه لايكلمهم فدل ذلك على انه يكلم المطيعين والعبد يكلمه فكانت المكالمة محاسبة ❊ اما قوله تعالى (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره) فللمفسرين فيه وجوه (احدها) قال الكلبي السبب فيه لان يمينه مغلولة الى عنقه ويده اليسرى خلف ظهره (وثانيها) قال مجاهد تخلع يده اليسرى فيجعل من وراء ظهره (وثالثها) قال قوم يتحول وجهه في قفاه فيقرأ كتابه كذلك (ورابعها) انه يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره لانه اذا حاول أخذه بيمينه كالمؤمنين يمنع من ذلك وأوتي من وراء ظهره بشماله (فان قيل) أليس انه قال في سورة الحاقة فأما من أوتي كتابه بشماله ولم يذكر الظهر (والجواب) من وجهين (احدهما) يحتمل ان يؤتى بشماله وراء ظهره على ما حكيناه عن الكلبي (وثانيها) ان يكون بعضهم يعطى بشماله وبعضهم من وراء ظهره ❊ اما قوله تعالى (فسوف يدعو ثبورا) فاعلم ان الثبور هو الهلاك والمعنى انه لما أوتي كتابه من غير يمينه علم انه من اهل النار فيقول واثبوراه قال الفراء العرب تقول فلان يدعو لهفه اذا قال والهفاه (وفيه وجه آخر) ذكره القفال فقال الثبور مشتق من المثابرة على الشئ وهو المواظبة عليه فسمي هلاك الآخرة ثبورا لانه لازم لايزول كما قال ان عذابها كان غراما واصل الغرام اللزوم والولوع ❊ اما قوله تعالى (ويصلى سعيرا) ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) يقال صلي الكافر النار قال الله تعالى وسيصلون سعيرا وقال ونصله جهنم وقال الا من هو صال الجحيم وقال لايصلاها الا الاشقى الذي كذب وتولى والمعنى انه اذا اعطي كتابه بشماله من وراء ظهره فانه يدعو الثبور ثم يدخل النار وهو في النار أيضا يدعو ثبورا كما قال دعوا هنالك ثبورا واحدهما لاينفي الآخر وانما هو على اجتماعهما قبل دخول النار وبعد دخولها نعوذ بالله منها ومما قرب اليها من قول او عمل (المسئلة الثانية) قرأ عاصم وحمزة وابو عمرو ويصلى بضم الياء والتخفيف كقوله نصله جهنم وهذه القراءة مطابقة للقراءة المشهورة لانه يصلى فيصلى أي يدخل النار وقرأ ابن عامر ونافع والكسائي بضم الياء مثقلة كقوله وتصلية جحيم وقوله ثم الجحيم صلوه ❊ اما قوله تعالى (انه كان في اهله مسرورا) فقد ذكر القفال فيه وجهين (احدهما) انه كان في اهله مسرورا

(اى)

يأيها الانسان الخ تقديره لاقي الانسان كدحه وقيل هو قوله تعالى فملاقيه وماقبله اعتراض وقيل هو يأيها الانسان الخ باضمار القول ومعنى يسيرا سهلا لامناقشة فيه ولااعتراض عن الصديقة رضي الله عنها هو ان يعرف ذنوبه ثم يتجاوز عنه (وينقلب الى اهله مسرورا) اي عشيرته المؤمنين او فريق المؤمنين مبتهجا بحاله قائلا هاؤم اقرؤا كتابيه. وقيل الى اهله في الجنة من الحور والغلمان (واما من اوتي كتابه وراء ظهره) اي يؤتاه بشماله من وراء ظهره قيل تغل يمناه الى عنقه ويجعل شماله وراء ظهره فيؤتى كتابه بشماله وقيل تخلع يده اليسرى من وراء ظهره (فسوف يدعو ثبورا) اي يتمنى الثبور وهو الهلاك ويدعوه ياثبوراه تعال فانه اوانك واني له ذلك (ويصلى سعيرا) اي يدخلها وقرئ يصلى كقوله تعالى وتصلية جحيم وقرئ ويصلى كما في قوله تعالى ونصله جهنم (انه كان في اهله) فيما بين اهله وعشيرته في الدنيا (مسرورا) مترفا بطرا مستبشرا كديدن الفجار الذين لايهمهم ولايخطر ببالهم امور الآخرة ولايتفكرون في العواقب ولم يكن حزينا متفكرا في حاله وماله كسنة الصلحاء والمتقين والجملة استئناف لبيان علة ماقبلها

اى منعما مستريحا من التعب بأداء العبادات واحتمال مشقة الفرائض من الصلاة والصوم والجهاد مقدما على المعاصى آمنا من الحساب والثواب والعقاب لايخاف الله ولايرجوه فأبدله الله بذلك السرور الفانى غما باقيا لاينقطع وكان المؤمن الذى أوتى كتابه بيمينه متقيا من المعاصى غير آمن من العذاب ولم يكن فى دنياه مسرورا فى اهله فجعله الله فى الآخرة مسرورا فأبدله الله تعالى بالغم الفانى سرورا دائما لاينفد (الثانى) ان قوله انه كان فى اهله مسرورا كقوله واذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا فاكهين اى متنعمين فى الدنيا معجبين بما هم عليه من الكفر فكذلك ههنا يحتمل أن يكون المعنى انه كان فى اهله مسرورا بما هو عليه من الكفر بالله والتكذيب بالبعث يضحك ممن آمن به وصدق بالحساب وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ❊ اما قوله تعالى (انه ظن ان لن يحور) فاعلم ان الحور هو الرجوع والمحار المرجع والمصير وعن ابن عباس ما كنت ادرى ما معنى حور حتى سمعت اعرابية تقول لابنتها حورى اى ارجعى ونقل القفال عن بعضهم ان الحور هو الرجوع الى خلاف ما كان عليه المرء كما قالوا نعوذ بالله من الحور بعد الكور فعلى الوجه الاول معنى الآية انه ظن ان لن يرجع الى الآخرة اى لن يبعث وقال مقاتل وابن عباس حسب ان لايرجع الى الله تعالى وعلى الوجه الثانى انه ظن ان لن يرجع الى خلاف ما هو عليه فى الدنيا من السرور والتنعم ❊ ثم قال تعالى (بلى) اى ليبعثن وعلى الوجه الثانى يكون المعنى ان الله تعالى يبدل سروره بغم لاينقطع وتنعمه ببلاء لاينتهى ولايزول ❊ اما قوله تعالى (ان ربه كان به بصيرا) فقال الكلبى كان بصيرا به من يوم خلقه الى ان بعثه وقال عطاء بصيرا بما سبق عليه فى ام الكتاب من الشقاء وقال مقاتل بصيرا متى يبعثه وقال الزجاج كان عالما بأن مرجعه اليه ولا فائدة فى هذه الاقوال انما الفائدة فى وجهين ذكرهما القفال (الاول) ان ربه كان عالما بأنه سيجزيه (والثانى) ان ربه كان عالما بما يعمله من الكفر والمعاصى فلم يكن يجوز فى حكمته ان يهمله فلا يعاقبه على سوء اعماله وهذا زجر لكل المكلفين عن جميع المعاصى ❊ قوله تعالى (فلا اقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر اذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق فما لهم لايؤمنون) اعلم ان قوله تعالى فلا اقسم بالشفق فيه مسائل (المسئلة الاولى) ان هذا قسم واما حرف لا فقد تكلمنا فيه فى قوله تعالى لا اقسم بيوم القيامة ومن جملة الوجوه المذكورة هناك ان لا نفى ورد لكلام قبل القسم وتوجيه هذا الوجه ههنا ظاهر لانه تعالى حكى ههنا عن المشرك انه ظن ان لن يحور فقوله لا رد لذلك القول وابطال لذلك الظن ثم قال بعده اقسم بالشفق (المسئلة الثانية) قد عرفت اختلاف العلماء فى ان القسم واقع بهذه الاشياء او بخالقها وعرفت ان المتكلمين زعموا ان القسم واقع برب الشفق وان كان محذوفا لان ذلك معلوم من حيث ورد الحظر بأن يقسم الانسان بغير الله تعالى (المسئلة الثالثة) تركيب لفظ الشفق فى اصل اللغة لرقة الشئ ومنه يقال ثوب شفق كأنه

وقوله تعالى (انه ظن ان لن يحور) تعليل لسروره فى الدنيا اى ظن ان لن يرجع الى الله تعالى تكذيبا للمعاد وان مخففة من ان سادة مع ما فى حيزها مسد مفعولى الظن او احدهما على الخلاف المعروف (بلى) ايجاب لما بعد لن وقوله تعالى (ان ربه كان به بصيرا) تحقيق وتعليل له اى بلى ليحورن البتة ان ربه الذى خلقه كان به وبأعماله الموجبة للجزاء بصيرا بحيث لايخفى منها خافية فلابد من رجعه وحسابه وجزائه عليها حتما وقيل نزلت الآيتان فى ابى سلمة بن عبد الاشد وأخيه الاسود (فلا أقسم بالشفق) هى الحمرة التى تشاهد فى افق المغرب بعد الغروب او البياض الذى يليها سمى به لرقته ومنه الشفقة التى هى عبارة عن رقة القلب (والليل وما وسق) وما جمع وضم

لا تماسك له لرقته ويقال للردئ من الاشياء شفق واشفق عليه اذا رق قلبه عليه والشفقة رقة القلب ثم اتفق العلماء على انه اسم للاثر الباقي من الشمس في الافق بعد غروبها الا ما يحكى عن مجاهد انه قال الشفق هو النهار ولعله انما ذهب الى هذا لانه تعالى عطف عليه الليل فيجب ان يكون المذكور أولا هو النهار فالقسم على هذا الوجه واقع بالليل والنهار الذين احدهما معاش والثاني سكن وبهما قوام امور العالم ثم اختلفوا بعد ذلك فذهب عامة العلماء الى انه هو الحمرة وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل ومن اهل اللغة قول الليث والفراء والزجاج قال صاحب الكشاف وهو قول عامة العلماء الا ما يروى عن ابي حنيفة في احدى الروايتين عنه انه البياض وروى أسد بن عمرو انه رجع عنه واحتجوا عليه بوجوه (احدها) قال الفراء سمعت بعض العرب يقول عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان احمر قال فدل ذلك على ان الشفق هو الحمرة (وثانيها) انه جعل الشفق وقتا للعشاء الاخيرة فوجب ان يكون المعتبر هو الحمرة لا البياض لان البياض تمتد وقته ويطول لبثه والحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس ثم بعدت الشمس عن الافق ذهبت الحمرة (وثالثها) ان اشتقاق الشفق لما كان من الرقة ولا شك ان الضوء يأخذ في الرقة والضعف من عند غيبة الشمس فتكون الحمرة شفقا اما قوله والليل وما وسق فقال اهل اللغة وسق اى جمع ومنه الوسق وهو الطعام المجتمع الذي يكال ويوزن ثم صار اسما للحمل واستوسقت الابل اذا اجتمعت وانضمت والراعي يسقها اى يجمعها قال صاحب الكشاف يقال وسقه فاتسق واستوسق ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين اتسع واستوسع واما المعنى فقال القفال مجموع أقاويل المفسرين يدل على انهم فسروا قوله تعالى وما وسق على جميع ما يجمعه الليل من النجوم ورجوع الحيوان عن الانتشار وتحرك ما يتحرك فيه من الهوام ثم هذا يحتمل ان يكون اشارة الى الاشياء كلها لاشتمال الليل عليها فكأنه تعالى اقسم بجميع المخلوقات كما قال فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون وقال سعيد بن جبير ما عمل فيه قال القفال يحتمل ان يكون ذلك هو تهجد العباد فقد مدح الله تعالى بها المستغفرين بالاسحار فيجوز ان يحلف بهم وانما قلنا ان الليل جمع هذه الاشياء كلها لان ظلمته كأنها تجلل الجبال والبحار والشجر والحيوانات فلا جرم صح ان يقال وسق جميع هذه الاشياء اما قوله والقمر اذا اتسق فاعلم ان أصل الكلمة من الاجتماع يقال وسقته فاتسق كما يقال وصلته فاتصل اى جمعته فاجتمع ويقال أمور فلان متسقة اى مجتمعة على الصلاح كما يقال منتظمة واما اهل المعاني فقال ابن عباس اذا اتسق اى استوى واجتمع وتكامل وتم واستدار وذلك ليلة ثلاثة عشر الى ستة عشر ثم انه سبحانه وتعالى بعد ان ذكر ما به اقسم أتبعه بذكر ما عليه اقسم فقال لتركبن طبقا عن طبق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ لتركبن على خطاب الانسان في يا أيها الانسان ولتركبن بالضم على خطاب الجنس لان النداء في قوله يا أيها الانسان انك كادح للجنس ولتركبن بالكسر على

يقال وسقه فاتسق واستوسق اى جمعه فاجتمع وما عبارة عما يجتمع بالليل ويأوى الى مكانه من الدواب وغيرها (والقمر اذا اتسق) اى اجتمع وتم بدر ليلة اربع عشرة (لتركبن طبقا عن طبق) اى لتلاقن حالا بعد حال كل واحدة منها مطابقة لاختها في الشدة والفظاعة وقيل الطبق جمع طبقة وهى المرتبة وهو الاوفق للركوب المنبئ عن الاعتلاء والمعنى لتركبن احوالا بعد احوال هى طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض وهى الموت وما بعده من مواطن القيامة ودواهيها وقرئ لتركبن بالافراد على خطاب الانسان باعتبار اللفظ لا باعتبار شموله لافراده كالقراءة الاولى وقرئ بكسر الباء على خطاب النفس وليركبن بالياء اى ليركبن الانسان ومحل عن طبق النصب

(خطاب)

خطاب النفس وليركبن بالياء على المغايبة اى ليركبن الانسان (المسئلة الثانية) الطبق ماطابق غيره يقال ماهذا بطبق كذا اى لايطابقه ومنه قيل للغطاء الطبق وطباق الثرى ماتطابق منه ثم قيل للحال المطابقة لغيرها طبق ومنه قوله تعالى طبقا عن طبق اى حالا بعد حال كل واحدة مطابقة لاختها فى الشدة والهول ويجوز ان يكون جمع طبقة وهى المرتبة من قولهم هو على طبقات والمعنى لتركبن احوالا بعد احوال هى طبقات فى الشدة بعضها ارفع من بعض وهى الموت ومابعده من اهوال القيامة ولنذكر الآن وجوه المفسرين فنقول اما القراءة برفع الباء وهو خطاب الجمع فتحتمل وجوها (احدها) ان يكون المعنى لتركبن ايها الانسان امورا واحوالا امرا بعد امر وحالا بعد حال ومنزلا بعد منزل الى ان يستقر الامر على مايقضى به على الانسان اوله من جنة او نار فحينئذ يحصل الدوام والخلود اما فى دار الثواب اوفى دار العقاب ويدخل فى هذه الجملة احوال الانسان من حين يكون نطفة الى ان يصير شخصا ثم يموت فيكون فى البرزخ ثم يحشر ثم ينقل اما الى جنة واما الى نار (وثانيها) ان معنى الآية ان الناس يلقون يوم القيامة احوالا وشدائد حالا بعد حال وشدة بعد شدة كأنهم لما انكروا البعث اقسم الله ان البعث كائن وان الناس يلقون فيها الشدائد والاهوال الى ان يفرغ من حسابهم فيصير كل احد الى ما اعد له من جنة اونار وهو نحو قوله بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وقوله يوم يكشف عن ساق وقوله يوما يجعل الولدان شيبا (وثالثها) ان يكون المعنى ان الناس تنتقل احوالهم يوم القيامة عما كانوا عليه فى الدنيا فمن وضيع فى الدنيا يصير رفيعا فى الآخرة ومن رفيع يتضع ومن متنعم يشقى ومن شقى يتنعم وهو كقوله خافضة رافعة وهذا التأويل مناسب لما قبل هذه الآية لانه تعالى لما ذكر حال من يؤتى كتابه وراء ظهره انه كان فى اهله مسرورا وكان يظن ان لن يحور اخبر الله انه يحور ثم اقسم على الناس انهم يركبون فى الآخرة طبقا عن طبق اى حالا بعد حالهم فى الدنيا (ورابعها) ان يكون المعنى لتركبن سنة الاولين ممن كان قبلكم فى التكذيب بالنبوة والقيامة واما القراءة بنصب الباء ففيها قولان (الاول) قول من قال انه خطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا التقدير ذكروا وجهين (احدهما) ان يكون ذلك بشارة للنبى صلى الله عليه وسلم بالظفر والغلبة على المشركين المكذبين بالبعث كأنه يقول اقسم يامحمد لتركبن حالا بعد حال حتى يختم لك بجميل العاقبة فلا يحزنك تكذيبهم وتماديهم فى كفرهم (وفى هذا الوجه احتمال آخر يقرب مما ذكرنا) وهو ان يكون المعنى انه يركب حال ظفر وغلبة بعد حال خوف وشدة (واحتمال ثالث) وهو ان يكون المعنى ان الله تعالى يبدله بالمشركين انصارا من المسلمين ويكون مجاز ذلك من قولهم طبقات الناس وقد يصلح هذا التأويل على قراءة من قرأ بضم الباء كانه خطاب للمسلمين بتعريف تنقل الاحوال بهم وتصييرهم الى الظفر بعدوهم بعد الشدة التى يلقونها منهم كما قال لتبلون فى اموالكم وانفسكم الآية (وثانيهما) ان

على انه صفة لطبقا اى طبقا مجاوزا لطبق او حال من الضمير فى لتركبن اى لتركبن طبقا مجاوزين او مجاوزا او مجاوزة على حسب القراءة والفاء فى قوله تعالى (فمالهم لايؤمنون) لترتيب مابعدها من الانكار والتعجيب على ماقبلها من احوال يوم القيامة واهوالها الموجبة للايمان والسجود اى اذا كان حالهم يوم القيامة كما ذكر فأى شئ لهم حال كونهم غير مؤمنين اى اى شئ يمنعهم من الايمان مع تعاضد موجباته وقوله تعالى (واذا قرئ عليهم القرآن لايسجدون) جملة شرطية محلها النصب على الحالية نسقا على ماقبلها اى فاى مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم واستكانتهم عند قراءة القرآن وقيل قرأ النبى عليه الصلاة والسلام ذات يوم واسجد

يكون ذلك بشارة لمحمد صلى الله عليه وسلم بصعوده الى السماء لمشاهدة ملكوتها واجلال الملائكة اياه فيها والمعنى لتركبن يا محمد السموات طبقا عن طبق وقد قال تعالى سبع سموات طباقا وقد فعل الله ذلك ليلة الاسراء وهذا الوجه مروى عن ابن عباس وابن مسعود (وثالثها) لتركبن يا محمد درجة بعد درجة ورتبة بعد رتبة فى القرب من الله تعالى (القول الثانى) فى هذه القراءة ان هذه الآية فى السماء وتغيرها من حال الى حال والمعنى لتركبن السماء يوم القيامة حالة بعد حالة وذلك لانها اولا تنشق كما قال اذا السماء انشقت ثم تنفطر كما قال اذا السماء انفطرت ثم تصير وردة كالدهان وتارة كالمهل على ماذكر الله تعالى هذه الاشياء فى آيات من القرآن فكأنه تعالى لما ذكر فى اول السورة انها تنشق أقسم فى آخر السورة انها تنتقل من أحوال الى أحوال وهذا الوجه مروى عن ابن مسعود (المسئلة الثالثة) قوله تعالى عن طبق أى بعد طبق كقول الشاعر

مازلت أقطع منهلا عن منهل * حتى أنخت بباب عبد الواحد

ووجه هذا ان الانسان اذا صار من شئ الى شئ آخر فقد صار الى الثانى بعد الاول فصلحت بعد وعن معاقبة وايضا فلفظة عن تفيد البعد والمجاوزة فكانت مشابهة للفظة بعد اما قوله تعالى فالهم لايؤمنون ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الاقرب ان المراد فالهم لايؤمنون بصحة البعث والقيامة لانه تعالى حكى عن الكافر انه ظن أن لن يحور ثم أفتى سبحانه بأنه يحور فلما قال بعد ذلك فالهم لايؤمنون دل على ان المراد فالهم لايؤمنون بالبعث والقيامة ثم اعلم ان قوله فالهم لايؤمنون استفهام بمعنى الانكار وهذا انما يحسن عند ظهور الحجة وزوال الشبهات والامر ههنا كذلك وذلك لانه سبحانه اقسم بتغيرات واقعة فى الافلاك والعناصر فان الشفق حالة مخالفة لماقبلها وهو ضوء النهار ولمابعدها وهو ظلمة الليل وكذا قوله والليل وماوسق فانه يدل على حدوث ظلمة بعد نور وعلى تغير احوال الحيوانات من اليقظة الى النوم وكذا قوله والقمر اذا اتسق فانه يدل على حصول كمال القمر بعد ان كان ناقصا ثم انه تعالى اقسم بهذه الاحوال المتغيرة على تغير احوال الخلق وهذا يدل قطعا على صحة القول بالبعث لان القادر على تغير الاجرام العلوية والسفلية من حال الى حال وصفة الى صفة بحسب المصالح لابد وان يكون فى نفسه قادرا على جميع الممكنات عالما بجميع المعلومات ومن كان كذلك كان لامحالة قادرا على البعث والقيامة فلما كان ماقبل هذه الآية كالدلالة العقلية القاطعة على صحة البعث والقيامة لاجرم قال على سبيل الاستبعاد فالهم لايؤمنون (المسئلة الثانية) قال القاضى لايجوز ان يقول الحكيم فيمن كان عاجزا عن الايمان فالهم لايؤمنون فلما قال ذلك دل على كونهم قادرين وهذا يقتضى ان تكون الاستطاعة قبل الفعل وان يكونوا موجدين لافعالهم وان لايكون تعالى خالقا للكفر فيهم فهذه الآية من المحكمات التى

واقترب فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤسهم وتصفر فنزلت وبه احتج ابو حنيفة رحمه الله تعالى على وجوب السجدة وعن ابن عباس رضى الله عنهما ليس فى المفصل سجدة وعن ابى هريرة رضى الله عنه انه سجد فيها وقال والله ماسجدت الا بعد ان رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يسجد فيها وعن انس رضى الله عنه صليت خلف ابى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم فسجدوا وعن الحسن هى غير واجبة (بل الذين كفروا يكذبون) بالقرآن الناطق بماذكر من احوال القيامة واهوالها مع تحقق موجبات تصديقه ولذلك لايخضعون عند تلاوته (والله اعلم بمايوعون) بمايضمرون فى قلوبهم ويجمعون فى صدورهم من الكفر والحسد

لااحتمال فيها البتة وجوابه قدمر غيرمرة ❊ اماقوله تعالى (واذاقرئ عليهم القرآن لايسجدون) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انهم أرباب الفصاحة والبلاغة فعند سماعهم القرآن لابد وان يعلموا كونه معجزا واذاعلموا ذلك علموا صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ووجوب طاعته فى الاوامر والنواهى فلاجرم استبعدالله منهم عند سماع القرآن ترك السجود والطاعة (المسئلة الثانية) قال ابن عباس والحسن وعطاء والكلبى ومقاتل المراد من السجود الصلاة وقال أبومسلم المراد الخضوع والاستكانة وقال آخرون بل المراد نفس السجود عندآيات مخصوصة وهذه الآية منها (المسئلة الثالثة) روى انه عليه السلام قرأذات يوم واسجد واقترب فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤسهم وتصفر فنزلت هذه الآية واحتج أبوحنيفة على وجوب السجدة بهذا من وجهين (الاول) ان فعل النبى صلى الله عليه وسلم يقتضى الوجوب لقوله تعالى واتبعوه (والثانى) ان الله تعالى ذم من يسمعه فلا يسجد وحصول الذم عند الترك يدل على الوجوب (المسئلة الرابعة) مذهب ابن عباس انه ليس فى المفصل سجدة وعن أبى هريرة انه سجد ههنا وقال والله ماسجدت فيها الابعد ان رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها وعن أنس صليت خلف أبى بكر وعمر وعثمان فسجدوا وعن الحسن هى غير واجبة ❊ أماقوله تعالى (بل الذين كفروا يكذبون) فالمعنى ان الدلائل الموجبة للايمان وان كانت جلية ظاهرة لكن الكفار يكذبون بها اما لتقليد الاسلاف واما للحسد واما للخوف من انهم لوأظهروا الايمان لفاتهم مناصب الدنيا ومنافعها ❊ اما قوله تعالى (والله أعلم بما يوعون) فأصل الكلمة من الوعاء فيقال أوعيت الشئ أى جعلت فى وعاء كما قال وجمع فاوعى والمعنى والله أعلم بما يجمعون فى صدورهم من الشرك والتكذيب فهو مجازيهم عليه فى الدنيا والآخرة ❊ ثم قال تعالى (فبشرهم بعذاب اليم) استحقوه على تكذيبهم وكفرهم ❊ أماقوله تعالى (الاالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غيرممنون) ففيه قولان قال صاحب الكشاف الاستثناء منقطع وقال الاكثرون معناه الا من تاب منهم فانهم وان كانوا فى الحال كفارا الاأنهم متى تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر وهو الثواب العظيم وفى معنى غيرممنون وجوه (أحدها) ان ذلك الثواب يصل اليهم بلامن ولاأذى (وثانيها) من غير انقطاع (وثالثها) من غير تنغيص (ورابعها) من غير نقصان والاولى أن يحمل اللفظ على الكل لان من شرط الثواب حصول الكل فكأنه تعالى وعدهم بأجر خالص من الشوائب دائم لاانقطاع فيه ولانقص ولابخس وهذا نهاية الوعد فصار ذلك ترغيبا فى العبادات كما ان الذى تقدم هو زجر عن المعاصى والله أعلم والحمدلله رب العالمين

والبغى والبغضاء اوبما يجمعون فى صحفهم من اعمال السوء ويدخرون لانفسهم من انواع العذاب علما فعليا (فبشرهم بعذاب اليم) لان علمه تعالى بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم حتما (الاالذين آمنوا وعملوا الصالحات) استثناء منقطع ان جعل الموصول عبارة عن المؤمنين كافة ومتصل ان أريد به من آمن منهم بعد ذلك وقوله تعالى (لهم أجرغيرممنون) اى غير مقطوع اوممنون به عليهم استئناف مقرر لما افاده الاستثناء من انتفاء العذاب عنهم ومبين لكيفيته ومقارنته للثواب العظيم ❊ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة انشقت أعاذه الله تعالى ان يعطيه كتابه وراء ظهره

(سورة البروج عشرون وآيتان مكية)

اعلم ان المقصود من هذه السورة تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن ايذاء الكفار وكيفية تلك التسلية هي انه تعالى بين ان سائر الامم السالفة كانوا كذلك مثل أصحاب الاخدود ومثل فرعون ومثل ثمود وختم ذلك بأن بين ان كل الكفار كانوا في التكذيب ثم عقب هذا الوجه بوجه آخر وهو قوله والله من ورائهم محيط ثم ذكر وجها ثالثا وهو ان هذا شيء مثبت في اللوح المحفوظ ممتنع التغير وهو قوله بل هو قرآن مجيد فهذا ترتيب السورة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود) اعلم ان في البروج ثلاثة اقوال (أحدها) انها هي البروج الاثناعشر وهي مشهورة وانما حسن القسم بها لما فيها من عجيب الحكمة وذلك لان سير الشمس فيها ولا شك ان مصالح العالم السفلي مرتبطة بسير الشمس فيدل ذلك على ان لها صانعا حكيما قال الجبائي وهذا اليمين واقعة على السماء الدنيا لان البروج فيها واعلم ان هذا خطأ وتحقيقه ما ذكرناه في قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (وثانيها) ان البروج هي منازل القمر وانما حسن القسم بها لما في سير القمر وحركته من الآثار العجيبة (وثالثها) ان البروج هي عظام الكواكب سميت بروجا لظهورها وأما اليوم الموعود فهو يوم القيامة رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال القفال يحتمل أن يكون المراد واليوم الموعود لانشقاق السماء وفنائها وبطلان بروجها وأما الشاهد والمشهود فقد اضطربت أقاويل المفسرين فيه والقفال أحسن الناس كلاما فيه قال ان الشاهد يقع على شيئين (أحدهما) الشاهد الذى تثبت به الدعاوى والحقوق (والثاني) الشاهد الذى هو بمعنى الحاضر كقوله عالم الغيب والشهادة ويقال فلان شاهد وفلان غائب وحمل الآية على هذا الاحتمال الثاني أولى اذ لو كان المراد هو الاول لما خلى لفظ المشهود عن حرف الصلة فيقال مشهود عليه أو مشهود له هذا هو الظاهر وقد يجوز ان يكون المشهود معناه المشهود عليه فحذفت الصلة كما في قوله ان العهد كان مسؤلا اى مسؤلا عنه اذا عرفت هذه المقدمة فنقول ان حملنا الشهود على الحضور احتملت الآية وجوها من التأويل (احدها) ان المشهود هو يوم القيامة والشاهد هو الجمع الذين يحضرون فيه وهو مروى عن ابن عباس والضحاك ويدل على صحة هذا الاحتمال وجوه (الاول) انه لا حضور أعظم من ذلك الحضور فان الله تعالى يجمع فيه خلق الاولين والآخرين من الملائكة والانبياء والجن والانس وصرف اللفظ الى المسمى الاكمل اولى (والثاني) انه تعالى ذكر اليوم الموعود وهو يوم القيامة ثم ذكر عقيبه وشاهد ومشهود وهذا يناسب ان يكون المراد بالشاهد من يحضر في ذلك اليوم من الخلائق وبالمشهود ما في ذلك اليوم من العجائب (الثالث) ان الله تعالى وصف يوم القيامة بكونه مشهودا في قوله فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم

(سورة البروج مكية وآيها ثنتان وعشرون)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(والسماء ذات البروج) هي البروج الاثناعشر شبهت بالقصور لانها تنزلها السيارات ويكون فيها الثوابت او منازل القمر او عظام الكواكب سميت بروجا لظهورها اوابواب السماء فان النوازل تخرج منها واصل التركيب للظهور (واليوم الموعود) اى يوم القيامة (وشاهد ومشهود) اى ومن يشهد في ذلك اليوم من الخلائق وما يحضر فيه من العجائب وتنكيرهما للابهام في الوصف اى وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما او للمبالغة في الكثرة وقيل الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم والمشهود يوم القيامة وقيل عيسى عليه السلام وامته لقوله تعالى وكنت عليهم شهيدا الخ وقيل امة محمد وسائر الامم وقيل يوم التروية ويوم عرفة وقيل يوم عرفة ويوم الجمعة وقيل الحجر الاسود والحجيج وقيل الايام والليالي وبنو آدم وعن الحسن ما من يوم الاوينادى انى يوم جديد وانى على ما يعمل فيَّ شهيد فاغتنمني فلو غابت شمسي لم تدركني الى يوم القيامة وقيل الحفظة وبنو آدم وقيل الانبياء ومحمد عليهم الصلاة والسلام (قتل اصحاب الاخدود) قيل هو جواب

وقال ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وقال يوم يدعو كم فتستجيبون بحمده وقال ان كانت الاصيحة واحدة فاذاهم جميع لدينا محضرون وطريق تنكيرهما اما ماذكرناه فى تفسيرقوله تعالى علمت نفس مااحضرت كأنه قيل وماافرطت كثرته من شاهد ومشهود واماالابهام فى الوصف كأنه قيل وشاهد ومشهود لايكتنه وصفهما وانما حسن القسم بيوم القيامة للتنبيه على القدرة اذ كان هو يوم الفصل والجزاء ويوم تفرد الله تعالى فيه بالملك والحكم وهذا الوجه اختيار ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن ابن على وابن المسيب والضحاك والنخعى والثورى (وثانيها) ان يفسر المشهود بيوم الجمعة وهو قول ابن عمر وابن الزبير وذلك لانه يشهده المسلمون للصلاة ولذكر الله ومما يدل على كون هذا اليوم مسمى بالمشهود خبران (الاول) ماروى ابو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكثروا الصلاة على يوم الجمعة فانه يوم مشهود تشهده الملائكة (والثانى) ماروى ابوهريرة انه صلى الله عليه وسلم قال تحضر الملائكة ابواب المسجد فيكتبون الناس فاذا خرج الامام طويت الصحف وهذه الخاصية غير موجودة الا فى هذا اليوم فيجوز ان يسمى مشهودا لهذا المعنى قال الله تعالى وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا روى ان ملائكة الليل والنهار يحضرون وقت صلاة الفجر فسميت هذه الصلاة مشهودة لشهادة الملائكة فكذا يوم الجمعة (وثالثها) ان يفسر المشهود بيوم عرفة والشاهد من يحضره من الحاج وحسن القسم به تعظيما لامر الحج روى ان الله تعالى يقول للملائكة يوم عرفة انظروا الى عبادى شعثا غبرا أتونى من كل فج عميق اشهد كم انى قدغفرت لهم وان ابليس يصرخ ويضع التراب على رأسه لما يرى من ذلك والدليل على ان يوم عرفة مسمى بأنه مشهود قوله تعالى وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم (ورابعها) ان يكون المشهود يوم النحر وذلك لانه اعظم المشاهد فى الدنيا فانه يجتمع اهل الشرق والغرب فى ذلك اليوم بمنى والمزدلفة وهو عيد المسلمين ويكون الغرض من القسم به تعظيم امر الحج (وخامسها) حمل الآية على يوم الجمعة ويوم عرفة ويوم النحر جميعا لانها أيام عظام فأقسم الله بها كما اقسم بالليالى العشر والشفع والوتر ولعل الآية عامة لكل يوم عظيم من ايام الدنيا ولكل مقام جليل من مقاماتها وليوم القيامة ايضا لانه يوم عظيم كما قال ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين وقال فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ويدل على صحة هذا التأويل خروج اللفظ فى الشاهد والمشهود على النكرة فيحتمل ان يكون ذلك على معنى ان القصد لم يقع فيه الى يوم بعينه فيكون معرفا (اما الوجه الاول) وهو ان يحمل الشاهد على من تثبت الدعوى بقوله فقد ذكروا على هذا التقدير وجوها كثيرة (احدها) ان الشاهد هو الله تعالى لقوله شهد الله انه لا اله الا هو وقوله قل اى شئ اكبر شهادة قل الله وقوله أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد والمشهود هو التوحيد لقوله شهد الله انه لا اله الا هو او النبوة قل كفى بالله شهيدا بينى

القسم على حذف اللام منه للطول والاصل لقتل كما فى قول من قال *حلفت لها بالله حلفة فاجر* *لنامو افما ان من حديث ولا صال* وقيل تقديره لقد قتل واياما كان فالجملة خبرية والاظهر انها دعائية دالة على الجواب كأنه قيل اقسم بهذه الاشياء انهم اى كفار مكة ملعونون كما لعن اصحاب الاخدود لماان السورة وردت لتثبيت المؤمنين على ماهم عليه من الايمان وتصبيرهم على اذية الكفر وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الايمان وصبرهم على ذلك حتى يأتسوا بهم ويصبروا على ماكانوا يلقون من قومهم ويعلموا ان هؤلاء عند الله عزوجل بمنزلة اولئك المعذبين ملعونون مثلهم احقاء بأن يقال فيهم ماقد قيل فيهم وقرئ قتل بالتشديد والاخدود الخد فى الارض وهو الشق ونحوهما بناء ومعنى الخق والاخقوق روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر ضم اليه غلاما ليعلمه السحر وكان فى طريق الغلام راهب فسمع منه فرأى فى طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس قيل كانت الدابة اسدا فأخذ حجرا فقال اللهم ان كان الراهب احب

وبينكم (وثانيها) ان الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم والمشهود عليه سائر الانبياء لقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ولقوله تعالى انا ارسلناك شاهدا (وثالثها) ان يكون الشاهد هو الانبياء والمشهود عليه هو الامم لقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد (ورابعها) ان يكون الشاهد هو جميع الممكنات والمحدثات والمشهود عليه واجب الوجود وهذا احتمال ذكرته انا واخذته من قول الاصوليين هذا استدلال بالشاهد على الغائب وعلى هذا التقدير يكون القسم واقعا بالخلق والخالق والصنع والصانع (وخامسها) ان يكون الشاهد هو الملك لقوله تعالى وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد والمشهود عليه هم المكلفون (وسادسها) ان يكون الشاهد هو الملك والمشهود عليه هو الانسان الذى تشهد عليه جوارحه يوم القيامة قال يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم وقال وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا وهذا قول عطاء الخراسانى (واما الوجه الثالث) وهو اقوال مبنية على الروايات لا على الاشتقاق (فأحدها) ان الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة روى ابو موسى الاشعرى انه عليه السلام قال الموعود يوم القيامة والشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة ويوم الجمعة ذخيرة الله لنا وعن ابى هريرة مرفوعا قال المشهود عرفة والشاهد يوم الجمعة ما طلعت الشمس ولا غربت على افضل منه فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير الا استجاب له ولا يستعيذ من شئ الا أعاذه منه وعن سعيد بن المسيب مرسلا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال سيد الايام يوم الجمعة وهو الشاهد والمشهود يوم عرفة وهذا قول كثير من اهل العلم كعلى بن ابى طالب عليه السلام وابى هريرة وابن المسيب والحسن البصرى والربيع بن أنس قال قتادة شاهد ومشهود يومان عظمهما الله من ايام الدنيا كما يحدث ان الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة (وثانيها) ان الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر وذلك لانهما يومان عظمهما الله وجعلهما من اركان ايام الحج فهذان اليومان يشهدان لمن يحضر فيهما بالايمان واستحقاق الرحمة وروى انه عليه السلام ذبح كبشين وقال فى احدهما هذا عمن يشهد لى بالبلاغ فيحتمل لهذا المعنى ان يكون يوم النحر شاهدا لمن حضره بمثل ذلك لهذا الخبر (وثالثها) ان الشاهد هو عيسى لقوله تعالى حكاية عنه وكنت عليهم شهيدا (ورابعها) الشاهد هو الله والمشهود هو يوم القيامة قال تعالى يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون وقوله ثم ينبئهم بما عملوا (وخامسها) ان الشاهد هو الانسان والمشهود هو التوحيد لقوله تعالى واشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى (وسادسها) ان الشاهد الانسان والمشهود هو يوم القيامة اما كون الانسان شاهدا فلقوله تعالى قالوا بلى شهدنا وأما كون يوم القيامة مشهودا فلقوله تعالى ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين فهذه هى الوجوه الملخصة والله اعلم بحقائق القرآن ۞ قوله تعالى (قتل اصحاب الاخدود النار ذات

اليك من الساحر فاقتلها فقتلها فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الاكمه والابرص ويشفي من الادواء وعمى جليس للملك فأبرأه فأبصره الملك فسأله من رد عليك بصرك فقال ربي فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه فدل على الراهب فلم يرجع الراهب عن دينه فقد بالمنشار وابى الغلام فذهب به الى جبل ليطرح من ذروته فدعا فرجف بالقوم فطاحوا ونجا فذهب به الى قرقور فلججوا به ليغرقوه فدعا فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا فقال للملك لست بقاتلي حتى تجمع الناس فى صعيد وتصلبني على جذع وتأخذ سهما من كنانتي وتقول باسم الله رب الغلام ثم ترميني به فرماه فوقع فى صدغه فوضع يده عليه ومات فقال الناس آمنا برب الغلام فقيل للملك نزل بك ما كنت تحذر فأمر بأخاديد فى افواه السكك واوقدت فيها النيران فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست فقال الصبي يا اماه اصبري فانك على الحق فاقتحمت وقيل قال لها قعي ولا تنافقي ماهى الا غميضة فصبرت قيل اخرج الغلام من قبره فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه واصبعه على صدغه كما وضعها حين

الوقود اذهم عليها قعود وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود) اعلم انه لابد للقسم من جواب واختلفوا فيه على وجوه (احدها) ماذكره الاخفش وهوان جواب القسم قوله قتل اصحاب الاخدود واللام مضمرة فيه كما قال والشمس وضحاها قد أفلح من زكاها يريد لقد افلح قال وان شئت على التقديم كأنه قيل قتل اصحاب الاخدود والسماء ذات البروج (وثانيها) ماذكره الزجاج وهوان جواب القسم ان بطش ربك لشديد وهو قول ابن مسعود وقتادة (وثالثها) ان جواب القسم قوله ان الذين فتنوا الآية كما تقول والله ان زيدا القائم الا أنه اعترض بين القسم وجوابه قوله قتل اصحاب الاخدود الى قوله ان الذين فتنوا (ورابعها) ماذكره جماعة من المتقدمين ان جواب القسم محذوف وهذا اختيار صاحب الكشاف الا ان المتقدمين قالوا ذلك المحذوف هو ان الامر حق في الجزاء على الاعمال وقال صاحب الكشاف جواب القسم هو الذي يدل عليه قوله قتل اصحاب الاخدود كأنه قيل أقسم بهذه الاشياء ان كفار قريش ملعونون كما لعن اصحاب الاخدود وذلك لان السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى اهل مكة وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الايمان حتى يقتدوا بهم ويصبروا على أذى قومهم ويعلموا ان كفار مكة عند الله بمنزلة اولئك الذين كانوا في الامم السالفة يحرقون اهل الايمان بالنار وأحقاء بأن يقال فيهم قتلت قريش كما قيل قتل اصحاب الاخدود اما قوله تعالى قتل اصحاب الاخدود ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا قصة اصحاب الاخدود على طرق متباينة ونحن نذكر منها ثلاثة (احدها) انه كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر ضم اليه غلاما ليعلمه السحر وكان في طريق الغلام راهب فال قلب الغلام الى ذلك الراهب ثم رأى الغلام في طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس فأخذ حجرا وقال اللهم ان كان الراهب أحب اليك من الساحر فقوني على قتلها بواسطة رمي الحجر اليها ثم رمى الحجر فقتلها فصار ذلك سببا لاعراض الغلام عن السحر واشتغاله بطريقة الراهب ثم صار الى حيث يبرئ الاكمه والابرص ويشفي من الادواء فاتفق ان عمي جليس للملك فابرأه فلما رآه الملك قال من رد عليك بصرك فقال ربي فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه فدل على الراهب فأحضر الراهب وزجره عن دينه فلم يقبل الراهب قوله فقد بالمنشار ثم أتوا بالغلام الى جبل ليطرح من ذروته فدعا الله فرجف بالقوم فهلكوا ونجا فذهبوا به الى سفينة ولججوا بها ليغرقوه فدعا الله فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا فقال للملك لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد وتصلبني على جذع وتأخذ سهما من كنانتي وتقول بسم الله رب الغلام ثم ترميني به فرماه فوقع في صدغه فوضع يده عليه ومات فقال الناس آمنا برب الغلام فقيل للملك نزل بك ما كنت تحذر فأمر بأخاديد في افواه السكك واوقدت فيها النيران فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست ان تقع فيها فقال الصبي ياأماه اصبري فانك على الحق فصبرت على ذلك

قتل ومن على رضى الله عنه ان بعض ملوك المجوس وقع على اخته وهو سكران فلما صحا ندم وطلب المخرج فقالت له المخرج ان تخطب الناس فتقول ان الله قد احل نكاح الاخوات ثم تخطبهم بعد ذلك ان الله قد حرمه فخطب فلم يقبلوا منه فقالت له ابسط فيهم السوط ففعل فلم يقبلوا فقالت ابسط فيهم السيف ففعل فلم يقبلوا فامر بالاخاديد وايقاد النار وطرح من ابى فيها فهم الذين ارادهم الله تعالى بقوله قتل اصحاب الاخدود وقيل وقع الى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام فدعاهم فأجابوه فسار اليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا فأحرق منهم اثنى عشر الفا في الاخاديد وقيل سبعين الفا وذكر ان طول الاخدود اربعون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا (النار) بدل اشتمال من

(الرواية الثانية) روى عن علي عليه السلام انهم حين اختلفوا في احكام المجوس قال هم اهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها بعض ملوكهم فسكر فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب المخرج فقالت له المخرج ان تخطب الناس فتقول ان الله تعالى قد احل نكاح الاخوات ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول ان الله حرمه فخطب فلم يقبلوا منه ذلك فقالت له ابسط فيهم السوط فلم يقبلوا فقالت ابسط فيهم السيف فلم يقبلوا فأمرته بالاخاديد وايقاد النيران وطرح من أبى فيها فهم الذين أرادهم الله بقوله قتل اصحاب الاخدود (الرواية الثالثة) انه وقع الى نجران رجل ممن كان على دين عيسى فدعاهم فأجابوه فصار اليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا فاحرق منهم اثنى عشر ألفا في الاخاديد وقيل سبعين الفا وذكر ان طول الاخدود أربعون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان اذا ذكر اصحاب الاخدود تعوذ بالله من جهد البلاء فان قيل تعارض هذه الروايات يدل على كذبها قلنا لا تعارض فقيل ان هذا كان في ثلاث طوائف ثلاث مرات مرة باليمن ومرة بالعراق ومرة بالشام ولفظ الاخدود وان كان واحدا الا ان المراد هو الجمع وهو كثير في القرآن وقال القفال ذكروا في قصة اصحاب الاخدود روايات مختلفة وليس في شئ منها ما يصح الا أنها متفقة في انهم قوم من المؤمنين خالفوا قومهم او ملكا كافرا كان حاكما عليهم فألقاهم في اخدود وحفر لهم ثم قال واظن ان تلك الواقعة كانت مشهورة عند قريش فذكر الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله تنبيها لهم على ما يلزمهم من الصبر على دينهم واحتمال المكاره فيه فقد كان مشركو قريش يؤذون المؤمنين على حسب ما اشتهرت به الاخبار من مبالغتهم في ايذاء عمار وبلال (المسئلة الثانية) الاخدود الشق في الارض يحفر مستطيلا وجمعه الاخاديد ومصدره الخد وهو الشق يقال خد في الارض خدا وتخدد لحمه اذا صار فيه طرائق كالشقوق (المسئلة الثالثة) يمكن ان يكون المراد باصحاب الاخدود القاتلين ويمكن ان يكون المراد بهم المقتولين والرواية المشهورة ان المقتولين هم المؤمنون وروى ايضا ان المقتولين هم الجبابرة لانهم لما القوا المؤمنين في النار عادت النار على الكفرة فأحرقتهم ونجى الله المؤمنين منها سالمين والى هذا القول ذهب الربيع بن أنس والواقدي وتأولوا قوله تعالى فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق اى لهم عذاب جهنم في الآخرة ولهم عذاب الحريق في الدنيا اذا عرفت هذه المقدمة فنقول ذكروا في تفسير قوله تعالى قتل اصحاب الاخدود وجوها ثلاثة وذلك لانا اما أن نفسر اصحاب الاخدود بالقاتلين او بالمقتولين اما على الوجه الاول ففيه تفسيران (احدهما) ان يكون هذا دعاء عليهم اى لعن اصحاب الاخدود ونظيره قوله تعالى قتل الانسان ما اكفره قتل الخراصون (والثاني) ان يكون المراد ان اولئك القاتلين قتلوا بالنار على ما ذكرنا ان الجبابرة لما أرادوا قتل المؤمنين بالنار عادت النار عليهم فقتلتهم واما اذا فسرنا اصحاب الاخدود

(بالمقتولين)

الاخدود (ذات الوقود) وصف لها بغاية العظم وارتفاع اللهب وكثرة ما يوجبه من الحطب وابدان الناس وقرئ الوقود بالضم وقوله تعالى (اذ هم عليها قعود) ظرف لقتل اى لعنوا حين احدقوا بالنار قاعدين حولها في مكان مشرف عليها من حافات الاخدود كما في قوله

* وبات على النار الندى والمحلق *

(وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) اى يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأن احدا لم يقصر فيما امر به اوانهم شهود يشهدون بما فعلوا بالمؤمنين يوم القيامة يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وقيل على بمعنى مع والمعنى وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور لا يرقون لهم لغاية سوء قلوبهم هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم وتنطق به الروايات المشهورة وقد روى ان الجبابرة لما القوا المؤمنين في النار وهم قعود حولها علقت بهم النار فأحرقتهم ونجى الله عز وجل المؤمنين منها سالمين والى هذا القول ذهب الربيع بن انس والواحدى وعلى

بالمقتولين كان المعنى ان اولئك المؤمنين قتلوا بالاحراق بالنار فيكون ذلك خبرا لا دعاء (المسئلة الرابعة) قرئ قتل بالتشديد اما قوله تعالى النار ذات الوقود ففيه مسائل (المسئلة الاولى) النار انما تكون عظيمة اذا كان هناك شئ يحترق بها اما حطب او غيره فالوقود اسم لذلك الشئ لقوله تعالى وقودها الناس والحجارة وفى ذات الوقود تعظيم لامر ما كان فى ذلك الاخدود من الحطب الكثير (المسئلة الثانية) قال ابو على هذا من بدل الاشتمال كقولك سلب زيد ثوبه فان الاخدود مشتمل على النار (المسئلة الثالثة) قرئ الوقود بالضم اما قوله تعالى اذهم عليها قعود ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) العامل فى اذ قتل والمعنى لعنوا فى ذلك الوقت الذى هم فيه قعود عند الاخدود يعذبون المؤمنين (المسئلة الثانية) فى الآية اشكال وهو ان قوله هم ضمير عائد الى اصحاب الاخدود لان ذلك اقرب المذكورات والضمير فى قوله عليها عائد الى النار فهذا يقتضى ان اصحاب الاخدود كانوا قاعدين على النار ومعلوم انه لم يكن الامر كذلك (والجواب) من وجوه (احدها) ان الضمير فى هم عائد الى اصحاب الاخدود لكن المراد ههنا من اصحاب الاخدود المقتولون لا القاتلون فيكون المعنى اذ المؤمنون قعود على النار يحترقون مطروحون على النار (وثانيها) ان يجعل الضمير فى عليها عائدا الى طرف النار وشفيرها والمواضع التى يمكن الجلوس فيها ولفظ على مشعر بذلك تقول مررت عليه تريد مستعليا بمكان يقرب منه فالقاتلون كانوا جالسين فيها وكانوا يعرضون المؤمنين على النار فمن كان يترك دينه تركوه ومن كان يصبر على دينه ألقوه فى النار (وثالثها) هب انا سلمنا ان الضمير فى هم عائد الى اصحاب الاخدود بمعنى القاتلين والضمير فى عليها عائد الى النار فلم لا يجوز ان يقال ان اولئك القاتلين كانوا قاعدين على النار فانا بينا انهم لما ألقوا المؤمنين فى النار ارتفع النار اليهم فهلكوا بنفس ما فعلوه بأيديهم لاجل اهلاك غيرهم فكانت الآية دالة على انهم فى تلك الحالة كانوا ملعونين ايضا ويكون المعنى انهم خسروا الدنيا والآخرة (ورابعها) ان تكون على بمعنى عند كما قيل فى قوله ولهم على ذنب اى عندى اما قوله تعالى وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود فاعلم ان قوله شهود يحتمل ان يكون المراد منه حضور ويحتمل ان يكون المراد منه الشهود الذين تثبت الدعوى بشهادتهم اما على الوجه الاول فالمعنى ان اولئك الجبابرة القاتلين كانوا حاضرين عند ذلك العمل يشاهدون ذلك فيكون الغرض من ذكر ذلك احد امور ثلاثة اما وصفهم بقسوة القلب اذ كانوا عند التعذيب بالنار حاضرين مشاهدين له واما وصفهم بالجد فى تقرير كفرهم وباطلهم حيث حضروا فى تلك المواطن المنفرة والافعال الموحشة واما وصف أولئك المؤمنين المقتولين بالجد فى دينهم والاصرار على حقهم فان الكفار انما حضروا فى ذلك الموضع طمعا فى ان هؤلاء المؤمنين اذا نظروا اليهم هابوا حضورهم واحتشموا من مخالفتهم ثم ان أولئك المؤمنين لم يلتفتوا اليهم وبقوا مصرين على دينهم الحق (فأن قيل) المراد من الشهود

ذلك جزاؤه قوله تعالى ولهم عذاب الحريق (وما نقموا منهم) اى ما انكروا منهم وما عابوا (الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد) استثناء مفصح عن براءتهم عما يعاب وينكر بالكلية على منهاج قوله
ولا عيب فيهم غير ان ضيوفهم
تلام بنسيان الاحبة والوطن
ووصفه تعالى بكونه عزيزا غالبا يخشى عقابه وحميدا منعما يرجى ثوابه وتأكيد ذلك بقوله تعالى (الذى له ملك السموات والارض) للاشعار بمناط ايمانهم وقوله تعالى (والله على كل شئ شهيد) وعد لهم ووعيد شديد لمعذبيهم فان علمه تعالى بجميع الاشياء التى من جملتها اعمال الفريقين يستدعى توفير جزاء كل منهما حتما (ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) اى محنوهم فى دينهم ليرجعوا عنه والمراد بهم اما اصحاب الاخدود خاصة وبالمفتونين المطروحون فى الاخدود واما الذين بلوهم فى ذلك بالاذية والتعذيب على الاطلاق وهم داخلون فى جملتهم دخولا اوليا (ثم لم يتوبوا) اى عن كفرهم وفتنتهم فان ما ذكر من الفتنة فى الدين لا يتصور من غير الكافر قطعا وقوله تعالى (فلهم عذاب جهنم) جملة

ان كان هذا المعنى فكان يجب ان يقال وهم لما يفعلون شهود ولا يقال وهم على ما يفعلون شهود (قلنا) انما ذكر لفظة على بمعنى انهم على قبح فعلهم بهؤلاء المؤمنين وهو احراقهم بالنار كانوا حاضرين مشاهدين لتلك الافعال القبيحة اما الاحتمال الثانى وهو ان يكون المراد من الشهود الشهادة التى تثبت الدعوى بهما ففيه وجوه (احدها) انهم جعلوا شهودا يشهد بعضهم لبعض عند الملك ان احدا منهم لم يفرط فيما امر به وفوض اليه من التعذيب (وثانيها) انهم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين يؤدون شهادتهم يوم القيامة يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وارجلهم بما كانوا يعملون (وثالثها) ان هؤلاء الكفار مشاهدون لما يفعلون بالمؤمنين من الاحراق بالنار حتى لو كان ذلك من غيرهم لكانوا شهودا عليه ثم مع هذا لم تأخذهم بهم رأفة ولا حصل فى قلوبهم ميل ولا شفقة ❊ قوله تعالى (وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والارض والله على كل شئ شهيد) المعنى وما عابوا منهم وما انكروا الا الايمان كقوله

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم ❊ بهن فلول من قراع الكتائب

ونظيره قوله تعالى هل تنقمون منا الا ان آمنا بالله وانما قال الا ان يؤمنوا لان التعذيب انما كان واقعا على الايمان فى المستقبل ولو كفروا فى المستقبل لم يعذبوا على ما مضى فكأنه قيل الا ان يدوموا على ايمانهم وقرأ أبو حيوة نقموا بالكسر والفصيح هو الفتح ثم انه ذكر الاوصاف التى بها يستحق الاله ان يؤمن به ويعبد (فأولها) العزيز وهو القادر الذى لا يغلب والقاهر الذى لا يدفع وبالجملة فهو اشارة الى القدرة التامة (وثانيها) الحميد وهو الذى يستحق الحمد والثناء على ألسنة عباده المؤمنين وان كان بعض الاشياء لا يحمده بلسانه فنفسه شاهدة على ان المحمود فى الحقيقة هو هو كما قال وان من شئ الا يسبح بحمده وذلك اشارة الى العلم لان من لا يكون عالما بعواقب الاشياء لا يمكنه ان يفعل الافعال الحميدة فالحميد يدل على العلم التام من هذا الوجه (وثالثها) الذى له ملك السموات والارض وهو مالكهما والقيم بهما ولو شاء لأفناهما وهو اشارة الى الملك التام وانما أخر هذه الصفة عن الاولين لان الملك التام لا يحصل الا عند حصول الكمال فى القدرة والعلم فثبت ان من كان موصوفا بهذه الصفات كان هو المستحق للايمان به وغيره لا يستحق ذلك البتة فكيف حكم أولئك الكفار الجهال بكون مثل هذا الايمان ذنبا واعلم انه تعالى اشار بقوله العزيز الى انه لو شاء لمنع اولئك الجبارة من تعذيب أولئك المؤمنين ولأطفأ نيرانهم ولأماتهم واشار بقوله الحميد الى ان المعتبر عنده سبحانه من الافعال عواقبها فهو وان كان قد أمهل لكنه ما أهمل فانه تعالى يوصل ثواب أولئك المؤمنين اليهم وعقاب أولئك الكفرة اليهم ولكنه تعالى لم يعاجلهم بذلك لانه لم يفعل الاعلى حسب المشيئة او المصلحة على سبيل التفضل فلهذا السبب قال والله على كل شئ شهيد فهو وعد عظيم

وقعت خبرا لان او الخبر لهم وعذاب مرتفع به على الفاعلية وهو الاحسن والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ولاضير فى نسخه بان وان خالف الاخفش والمعنى لهم فى الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم (ولهم عذاب الحريق) وهى نار اخرى عظيمة بسبب فتنتهم للمؤمنين (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) على الاطلاق من المفتونين وغيرهم (لهم) بسبب ما ذكر من الايمان والعمل الصالح (جنات تجرى من تحتها الانهار) ان اريد بالجنات الاشجار فجريان الانهار من تحتها ظاهر وان اريد بها الارض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر فان اشجارها ساترة لساحتها كما يعرب عنه اسم الجنة وقد مر بيانه مرارا (ذلك) اشارة الى الجنات الموصوفة والتذكير لتأويلها بما ذكر للاشعار بأن مدار الحكم عنوانها الذى يتنافس فيه المتنافسون فان اسم الاشارة متعرض لذات المشار اليه من حيث اتصافه باوصافه المذكورة لا لذاته فقط كما هو شان الضمير فاذا

للمطيعين ووعيد شديد للمجرمين * قوله تعالى (ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) اعلم انه سبحانه لما ذكر قصة اصحاب الاخدود اتبعها بما يتفرع عليها من احكام الثواب والعقاب فقال ان الذين فتنوا المؤمنين وههنا مسائل (المسئلة الاولى) يحتمل ان يكون المراد منه اصحاب الاخدود فقط ويحتمل ان يكون المراد كل من فعل ذلك وهذا اولى لان اللفظ عام والحكم عام فالتخصيص ترك للظاهر من غير دليل (المسئلة الثانية) اصل الفتنة الابتلاء والامتحان وذلك لان أولئك الكفار امتحنوا اولئك المؤمنين وعرضوهم على النار واحرقوهم وقال بعض المفسرين الفتنة هى الاحراق بالنار قال ابن عباس ومقاتل فتنوا المؤمنين حرقوهم بالنار قال الزجاج يقال فتنت الشئ احرقته والفتن احجار سود كأنها محترقة ومنه قوله تعالى يوم هم على النار يفتنون (المسئلة الثالثة) قوله تعالى ثم لم يتوبوا يدل على انهم لو تابوا لخرجوا عن هذا الوعيد وذلك يدل على القطع بأن الله تعالى يقبل التوبة ويدل على ان توبة القاتل عمدا مقبولة خلاف ما روى عن ابن عباس (المسئلة الرابعة) فى قوله فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق قولان (الاول) ان كلا العذابين يحصلان فى الآخرة الا ان عذاب جهنم هو العذاب الحاصل بسبب كفرهم وعذاب الحريق هو العذاب الزائد على عذاب الكفر بسبب انهم احرقوا المؤمنين فيحتمل ان يكون العذاب الاول عذاب برد والثانى عذاب احراق وان يكون الاول عذاب احراق والزائد على الاحراق ايضا احراق الا ان العذاب الاول كأنه خرج عن ان يسمى احراقا بالنسبة الى الثانى لان الثانى قد اجتمع فيه نوعا الاحراق فتكامل جدا فكان الاول ضعيفا بالنسبة اليه فلاجرم لم يسم احراقا (والقول الثانى) ان قوله فلهم عذاب جهنم اشارة الى عذاب الآخرة ولهم عذاب الحريق اشارة الى ماذكرنا ان أولئك الكفار ارتفعت عليهم نار الاخدود فاحترقوا بها * قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الانهار ذلك الفوز الكبير) اعلم انه تعالى لما ذكر وعيد المجرمين ذكر وعد المؤمنين وهو ظاهر وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انما قال ذلك الفوز ولم يقل تلك لدقيقة لطيفة وهى ان قوله ذلك اشارة الى اخبار الله تعالى بحصول هذه الجنات وقوله تلك اشارة الى الجنات واخبار الله تعالى عن ذلك يدل على كونه راضيا والفوز الكبير هو رضا الله لا حصول الجنة (المسئلة الثانية) قصة اصحاب الاخدود ولاسيما هذه الآية تدل على ان المكره على الكفر بالاهلاك العظيم الاولى به ان يصبر على ما خوف منه وان اظهار كلمة الكفر كالرخصة فى ذلك روى الحسن ان مسيلمة أخذ رجلين من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما تشهد انى رسول الله فقال نعم فتركه وقال للآخر مثله فقال لا بل انت كذاب فقتله فقال عليه السلام اما الذى ترك فأخذ بالرخصة فلا تبعة عليه واما الذى قتل فأخذ بالفضل فهنيئا له * قوله تعالى (ان بطش ربك لشديد انه هو يبدئ ويعيد وهو

اشير الى الجنات من حيث ذكرها فقد اعتبر معها عنوانها المذكور حتما واما الى مايفيده قوله تعالى لهم جنات الخ من حيازتهم لها فان حصولها لهم مستلزم لحيازتهم لها قطعا وايا ما كان فما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجته وبعد منزلته فى الفضل والشرف ومحله الرفع على الابتداء خبره مابعده اى ذلك المذكور العظيم الشأن (الفوز الكبير) الذى يصغر عنده الدنيا ومافيها من فنون الرغائب بحذافيرها والفوز النجاة من الشر والظفر بالخير فعلى الاول هو مصدر اطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى مصدر على حاله (ان بطش ربك لشديد) استئناف خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم ايذانا بأن لكفار قومه نصيبا موفورا من مضمونه كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام والبطش الاخذ بعنف وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم وهو بطشه بالجبابرة والظلمة واخذه اياهم بالعذاب والانتقام كقوله تعالى وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه اليم شديد (انه هو يبدئ ويعيد) اى هو يبدئ الخلق وهو يعيده من غير دخل لاحد فى شئ

الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد)اعلم انه تعالى لما ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات اولا وذكر وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثانيا اردف ذلك الوعد والوعيد بالتأكيد فقال لتأكيد الوعيد ان بطش ربك لشديد والبطش هو الأخذ بالعنف فاذا وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم ونظيره ان اخذه اليم شديد ثم ان هذا القادر لايكون امهاله لاجل الاهمال لكن لاجل انه حكيم امابحكم المشيئة او بحكم المصلحة وتأخير هذا الامر الى يوم القيامة فلهذا قال انه هو يبدئ ويعيد اى انه يخلق خلقه ثم يفنيهم ثم يعيدهم احياء ليجازيهم فى القيامة فذلك الامهال لهذا السبب لا لاجل الاهمال قال ابن عباس ان أهل جهنم تأكلهم النار حتى يصيروا فحما ثم يعيدهم خلقا جديدا فذلك هو المراد من قوله انه هو يبدئ ويعيد ثم قال لتأكيد الوعد وهو الغفور الودود فذكر من صفات جلاله وكبريائه خمسة (اولها) الغفور قالت المعتزلة هو الغفور لمن تاب وقال اصحابنا انه غفور مطلقا لمن تاب ولمن لم يتب لقوله تعالى ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ولان غفران التائب واجب وأداء الواجب لايوجب التمدح والآية مذكورة فى معرض التمدح (وثانيها) الودود وفيه اقوال (أحدها) المحب هذا قول اكثر المفسرين وهو مطابق للدلائل العقلية فان الخير مقتضى بالذات والشر بالعرض ولابدوان يكون الشر اقل من الخير فالغالب لابدو ان يكون خيرا فيكون محبوبا بالذات (وثانيها) قال الكلبى الودود هو المتودد الى اوليائه بالمغفرة والجزاء والقول هو الاول (وثالثها) قال الازهرى قال بعض اهل اللغة يجوز ان يكون ودود فعولا بمعنى مفعول كركوب وحلوب ومعناه ان عباده الصالحين يودونه ويحبونه لما عرفوا من كماله فى ذاته وصفاته وافعاله قال وكلتا الصفتين مدح لانه جل ذكره اذا أحب عباده المطيعين فهو فضل منه وان احبه عباده العارفون فلما تقرر عندهم من كريم احسانه (ورابعها) قال القفال قيل الودود قد يكون بمعنى الحليم من قولهم دابة ودود وهى المطيعة القياد التى كيف عطفتها انعطفت وانشد قطرب

واعددت للحرب خيفانة * ذلول القياد وقاحا ودودا

(وثالثها) ذو العرش قال القفال ذو العرش اى ذو الملك والسلطان كما يقال فلان على سرير ملكه وان لم يكن على السرير وكما يقال ثل عرش فلان اذا ذهب سلطانه وهذا معنى متفق على صحته وقد يجوز ان يكون المراد بالعرش السرير ويكون جل جلاله خلق سريرا فى سمائه فى غاية العظمة والجلالة بحيث لايعلم عظمته الا هو ومن يطلعه عليه (ورابعها) المجيد وفيه قراءتان (احداهما) الرفع فيكون ذلك صفة لله سبحانه وهو اختيار اكثر القراء والمفسرين لان المجد من صفات التعالى والجلال وذلك لايليق الا بالله سبحانه والفصل والاعتراض بين الصفة والموصوف فى هذا النحو غير ممتنع (والقراءة الثانية) بالخفض وهى قراءة حمزة والكسائى فيكون ذلك صفة للعرش وهؤلاء قالوا القرآن دل

(على)

مهما فقيه مزيد تقرير لشدة بطشه اوهو يبدئ البطش بالكفرة فى الدنيا ويعيده فى الآخرة (وهو الغفور) لمن تاب وآمن (الودود) المحب لمن اطاع (ذو العرش) خالقه وقيل المراد بالعرش الملك اى ذو السلطنة القاهرة وقرئ ذى العرش على انه صفة ربك (المجيد) العظيم فى ذاته وصفاته فانه واجب الوجود تام القدرة كامل الحكمة وقرئ بالجر على انه صفة لربك او للعرش ومجده علوه وعظمته (فعال لما يريد) بحيث لايتخلف عن ارادته مراد من افعاله تعالى وافعال غيره وهو خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (هل اتاك حديث الجنود) استئناف مقرر لشدة بطشه تعالى بالظلمة العصاة والكفرة العتاة وكونه فعالا لما يريد متضمن لتسليته عليه الصلاة والسلام بالاشعار بأنه سيصيب قومه ما اصاب الجنود (فرعون وثمود) بدل من الجنود لان المراد بفرعون هو وقومه والمراد بحديثهم ماصدر عنهم من التمادى فى الكفر والضلال وماحل بهم من العذاب والنكال والمعنى قد اتاك حديثهم وعرفت مافعلوا ومافعل بهم فذكر قومك بشؤن الله تعالى وانذرهم ان يصيبهم مثل ما اصاب امثالهم

على انه يجوز وصف غير الله بالمجيد حيث قال بل هو قرآن مجيد ورأينا ان الله تعالى وصف العرش بأنه كريم فلا يبعد أيضا أن يصفه بأنه مجيد ثم قالوا ان مجد الله عظمته بحسب الوجوب الذاتى وكمال القدرة والحكمة والعلم وعظمة العرش علوه فى الجهة وعظمة مقداره وحسن صورته وتركيبه فأنه قيل العرش أحسن الاجسام تركيبا وصورة (وخامسها) انه فعال لما يريد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فعال خبر مبتدأ محذوف (المسئلة الثانية) من النحويين من قال وهو الغفور الودود خبران لمبتدأ واحد وهذا ضعيف لان المقصود بالاسناد الى المبتدأ اما ان يكون مجموعهما او كل واحد واحد منهما فان كان الاول كان الخبر واحدا لا خبرين وان كان الثانى كانت القضية لا واحدة بل قضيتين (المسئلة الثالثة) احتج اصحابنا بهذه الآية فى مسئلة خلق الافعال فقالوا لا شك انه تعالى يريد الايمان فوجب ان يكون فاعلا للايمان بمقتضى هذه الآية واذا كان فاعلا للايمان وجب ان يكون فاعلا للكفر ضرورة انه لا قائل بالفرق قال القاضى ولا يمكن ان يستدل بذلك على ان ما يريده الله تعالى من طاعة الخلق لابد من ان يقع لان قوله تعالى فعال لما يريد لا يتناول الا ما اذا وقع كان فعله دون ما اذا وقع لم يكن فعلا له هذه الفاظ القاضى ولا يخفى ضعفها (المسئلة الرابعة) احتج اصحابنا بهذه الآية على انه تعالى لا يجب لاحد من المكلفين عليه شئ البتة وهو ضعيف لان الآية دالة على انه يفعل ما يريد فلم قلتم انه يريد ان لا يعطى الثواب (المسئلة الخامسة) قال القفال فعال لما يريد على ما يراه لا يعترض عليه معترض ولا يغلبه غالب فهو يدخل اولياءه الجنة لا يمنعه منه مانع ويدخل اعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر ويمهل العصاة على ما يشاء الى ان يجازيهم ويعاجل بعضهم بالعقوبة اذا شاء ويعذب من شاء منهم فى الدنيا وفى الآخرة يفعل من هذه الاشياء ومن غيرها ما يريد ❋ قوله تعالى (هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا فى تكذيب والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) اعلم انه تعالى لما بين حال اصحاب الاخدود فى تأذى المؤمنين بالكفار بين ان الذين كانوا قبلهم كانوا ايضا كذلك واعلم أن فرعون وثمود بدل من الجنود وأراد بفرعون اياه وقومه كما فى قوله من فرعون وملئهم وثمود كانوا فى بلاد العرب وقصتهم عندهم مشهورة فذكر تعالى من المتأخرين فرعون ومن المتقدمين ثمود والمقصود بيان أن حال المؤمنين مع الكفار فى جميع الازمنة مستمرة على هذا النهج وهذا هو المراد من قوله بل الذين كفروا فى تكذيب ولما طيب قلب الرسول بحكاية أحوال الاولين فى هذا الباب سلاه بعد ذلك من وجه آخر وهو قوله تعالى والله من ورائهم محيط وفيه وجوه (احدها) ان المراد وصف اقتداره عليهم وانهم فى قبضته وحوزته كالمحاط اذا أحيط به من ورائه فسد عليه مسلكه فلا يجد مهربا يقول تعالى فهم كذا فى قبضتى وأنا قادر على اهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم اياك فلا تجزع من تكذيبهم اياك فليسوا يفوتوننى اذا أردت الانتقام منهم (وثانيها) ان

وقوله تعالى (بل الذين كفروا فى تكذيب) اضراب عن مماثلتهم لهم وبيان لكونهم اشد منهم فى الكفر والطغيان كأنه قيل ليسوا امثالهم فى ذلك بل هم اشد منهم فى استحقاق العذاب واستيجاب العقاب فانهم مستقرون فى تكذيب شديد للقرآن الكريم اوقيل ليست جنايتهم مجرد عدم التذكر والاتعاظ بما سمعوا من حديثهم بل هم مع ذلك فى تكذيب شديد للقرآن الناطق بذلك لكن لا انهم يكذبون بوقوع الحادثة بل بكون ما نطق به قرآنا من عند الله تعالى مع وضوح امره وظهور حاله بالبينات الباهرة (والله من ورائهم محيط) تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى بعدم فوت المحاط المحيط وقوله تعالى (بل هو قرآن مجيد) رد لكفرهم وابطال لتكذيبهم وتحقيق للحق اى ليس الامر كما قالوا بل هو كتاب شريف عالى الطبقة فيما بين الكتب الالهية فى النظم والمعنى وقرئ قرآن مجيد بالاضافة اى قرآن رب مجيد (فى لوح محفوظ) اى من التحريف ووصول الشياطين اليه وقرئ محفوظ

يكون المراد من هذه الاحاطة قرب هلاكهم كقوله تعالى واخرى لم تقدروا عليها قد احاط الله بها وقوله واذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس وقوله وظنوا انهم احيط بهم فهذا كله عبارة عن مشارفة الهلاك يقول فهؤلاء في تكذيبك قد شارفوا الهلاك (وثالثها) ان يكون المراد والله محيط بأعمالهم اى عالم بها فهو مرصد بعقابهم عليها ثم انه تعالى سلى رسوله بعد ذلك بوجه ثالث وهو قوله تعالى بل هو قرآن مجيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) تعلق هذا بما قبله هو ان هذا قران مجيد مصون عن التغير والتبدل فلما حكم فيه بسعادة قوم وشقاوة قوم وبتأذى قوم من قوم امتنع تغيره وتبدله فوجب الرضا به ولا شك ان هذا من اعظم موجبات التسلية (المسئلة الثانية) قرئ قرآن مجيد بالاضافة اى قرآن رب مجيد وقرأ يحيى بن يعمر فى لوح واللوح الهواء يعنى اللوح فوق السماء السابعة الذى فيه اللوح المحفوظ وقرئ محفوظ بالرفع صفة للقرآن كما قال انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (المسئلة الثالثة) انه تعالى قال ههنا فى لوح محفوظ وقال فى آية اخرى انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون فيحتمل ان يكون الكتاب المكنون واللوح المحفوظ واحد ثم كونه محفوظا يحتمل ان يكون المراد كونه محفوظا عن ان يمسه الا المطهرون كما قال تعالى لا يمسه الا المطهرون ويحتمل ان يكون المراد كونه محفوظا عن اطلاع الخلق عليه سوى الملائكة المقربين ويحتمل ان يكون المراد ان لا يجرى عليه تغيير وتبديل (المسئلة الرابعة) قال بعض المتكلمين ان اللوح شئ يلوح للملائكة فيقرؤنه ولما كانت الاخبار والآثار واردة بذلك وجب التصديق به والله تعالى اعلم

* (سورة الطارق سبع عشرة آية مكية وهى مشتملة على الترغيب فى معرفة المبدأ والمعاد) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب ان كل نفس لما عليها حافظ) اعلم انه تعالى أكثر فى كتابه ذكر السماء والشمس والقمر لان احوالها فى اشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة واما الطارق فهو كل ما أتاك ليلا سواء كان كوكبا او غيره فلا يكون الطارق نهارا والدليل عليه قول المسلمين فى دعائهم نعوذ بالله من شر طوارق الليل وروى انه عليه السلام نهى عن ان يأتى الرجل اهله طروقا والعرب تستعمل الطروق فى صفة الخيال لان تلك الحالة انما تحصل فى الاكثر فى الليل ثم انه تعالى لما قال والطارق كان هذا مما لا يستغنى سامعه عن معرفة المراد منه فقال تعالى وما ادراك ما الطارق قال سفيان بن عيينة كل شئ فى القرآن ما ادراك فقد اخبر الرسول به وكل شئ فيه ما يدريك لم يخبر به كقوله تعالى وما يدريك لعل الساعة قريب ثم قال النجم الثاقب اى هو طارق عظيم الشأن رفيع القدر وهو النجم الذى يهتدى به فى ظلمات البر والبحر ويوقف به على أوقات الامطار وههنا مسائل (المسئلة الاولى) انما وصف النجم بكونه ثاقبا لوجوده (أحدها) انه

بالرفع على انه صفة قرآن وقرئ فى لوح وهو الهواء اى ما فوق السماء السابعة الذى فيه اللوح

*عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة البروج اعطاه الله تعالى بعدد كل جمعة وعرفة تكون فى الدنيا عشر حسنات

(سورة الطارق مكية وآيها)
(سبع عشرة)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والسماء والطارق) الطارق فى الاصل اسم فاعل من طرق طرقا وطروقا اذا جاء ليلا قال الماوردى واصل الطرق الدق ومنه سميت المطرقة وانما سمى قاصد الليل طارقا لاحتياجه الى طرق الباب غالبا ثم اتسع فى كل ما ظهر بالليل كائنا ما كان ثم اتسع فى التوسع حتى اطلق على الصور الخيالية البادية بالليل قال

طرق الخيال ولا كليلة مدلج
سدكا بارحلنا ولم يتعرج

والمراد ههنا الكوكب البادى بالليل اما على انه اسم جنس او كوكب معهود وقيل الطارق النجم الذى يقال له كوكب الصبح

ثقب الظلام بضوئه فينفذفيه كما قيل درى لانه يدرؤه اى يدفعه (وثانيها) انه يطلع من المشرق نافذا فى الهواء كالشئ الذى يثقب الشئ (وثالثها) انه الذى يرمى به الشيطان فيثقبه اى ينفذ فيه ويحرقه (ورابعها) قال الفراء النجم الثاقب هو النجم المرتفع على النجوم والعرب تقول للطائر اذالحق ببطن السماء ارتفاعا قدثقب (المسئلة الثانية) انما وصف النجم بكونه طارقا لانه يبدو بالليل وقد عرفت ان ذلك يسمى طارقا ولانه يطرق الجنى اى يصكه (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى قوله النجم الثاقب قال بعضهم اشيربه الى جماعة النجوم فقيل الطارق كما قيل ان الانسان لفى خسر وقال آخرون انه نجم بعينه ثم قال ابن زيد انه الثريا وقال الفراء زحل لانه يثقب بنوره سمك سبع سموات وقال آخرون انه الشهب التى يرجم بها الشياطين لقوله تعالى فأتبعه شهاب ثاقب (المسئلة الرابعة) روى ان اباطالب اتى النبى صلى الله عليه وسلم فأتحفه بخبز وابن فبينما هو جالس يأكل اذانحط نجم فامتلأ ماء ثم نارا ففزع ابو طالب وقال اى شئ هذا فقال هذا نجم رمى به وهو آية من آيات الله فعجب ابوطالب ونزلت السورة واعلم انه تعالى لماذكر المقسم به اتبعه بذكر المقسم عليه فقال ان كل نفس لما عليها حافظ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله لما قراءتان (احداهما) قراءة ابن كثير وابى عمرو ونافع والكسائى وهى بتخفيف الميم (والثانية) قراءة عاصم وحمزة والنخعى بتشديد الميم قال ابو على الفارسى من خفف كانت ان عنده المخففة من الثقيلة واللام فى لما هى التى تدخل مع هذه المخففة لتخلصها من ان النافية وماصلة كالتى فى قوله فبما رحمة من الله وعما قليل وتكون ان متلقية للقسم كما تتلقاه مثقلة واما من ثقل فتكون ان عنده النافية كالتى فى قوله ماان مكنا كم ولما فى معنى الا قال وتستعمل لما بمعنى الا فى موضعين (أحدهما) هذا والآخر فى باب القسم تقول سألتك بالله لما فعلت بمعنى الا فعلت وروى عن الاخفش والكسائى وابى عبيدة انهم قالوا لم توجد لما بمعنى الا فى كلام العرب قال ابن عون قرأت عند ابن سيرين لما بالتشديد فانكروه وقال سبحان الله وزعم العتبى ان لما بمعنى الا مع ان الخفيفة التى تكون بمعنى ما موجودة فى لغة هذيل (المسئلة الثانية) ليس فى الآية بيان ان هذا الحافظ من هو وليس فيها أيضا بيان ان هذا الحافظ يحفظ النفس عماذا اما الاول ففيه قولان (الاول) قول بعض المفسرين ان ذلك الحافظ هو الله تعالى اما فى التحقيق فلأن كل موجود سوى الله ممكن وكل ممكن فانه لا يترجح وجوده على عدمه الا لمرجح وينتهى ذلك الى الواجب لذاته فهو سبحانه القيوم الذى بحفظه وابقائه تبقى الموجودات ثم انه تعالى بين هذا المعنى فى السموات والارض على العموم فى قوله ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا وبينه فى هذه الآية فى حق الانسان على الخصوص وحقيقة الكلام ترجع الى انه تعالى اقسم ان كل ماسواه فانه ممكن الوجود محدث محتاج مخلوق مربوب هذا اذا حملنا النفس على مطلق الذات اما اذا حملناها على النفس المتنفسة وهى النفس الحيوانية

وقوله تعالى (وما ادراك ما الطارق) تنويه بشأنه اثر تفخيمه بالاقسام به وتنبيه على ان رفعة قدره بحيث لاينالها ادراك الخلق فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم فالاولى مبتدأ وادراك خبر والثانية خبر والطارق مبتدأ حسبما بين فى نظائره اى واى شئ اعلمك ماالطارق وقوله تعالى (النجم الثاقب) خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف وقع جوابا عن استفهام نشأ مما قبله كأنه قيل ماهو فقيل النجم المضئ فى الغاية كأنه يثقب الظلام اوالافلاك بضوئه وينفذ فيها والمراد به اما الجنس فان لكل كوكب ضوأ ثاقبا لامحالة واما كوكب معهود قيل هو زحل وقيل هو الثريا وقيل هو الجدى وقيل النجم الثاقب نجم فى السماء السابعة لايسكنها غيره فاذا اخذت النجوم امكنتها من السماء هبط فكان معها ثم يرجع الى مكانه من السماء السابعة وهو زحل فهو طارق حين ينزل وحين يصعد وفى ايراده عند الاقسام به بوصف مشترك بينه وبين غيره ثم الاشارة الى ان ذلك

امكن ان يكون المراد من كونه تعالى حافظالها كونه تعالى عالما بأحوالها وموصلا اليها جميع منافعها ودافعا عنها جميع مضارها (والقول الثانى) ان ذلك الحافظ هم الملائكة كما قال ويرسل عليكم حفظة وقال عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وقال وان عليكم لحافظين كراما كاتبين وقال له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله (البحث الثانى) وهو انه ما الذى يحفظه هذا الحافظ ففيه وجوه (احدها) ان هؤلاء الحفظة يكتبون عليه اعماله دقيقها وجليلها حتى تخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا (وثانيها) ان كل نفس لما عليها حافظ يحفظ عملها ورزقها وأجلها فاذا استوفى الانسان أجله ورزقه قبضه الى ربه وحاصله يرجع الى وعيد الكفار وتسلية النبى صلى الله عليه وسلم كقوله فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدا ثم ينصرفون عن قريب الى الآخرة فيجازون بما يستحقونه (وثالثها) ان كل نفس لما عليها حافظ يحفظها من المعاطب والمهالك فلا يصيبها الا ما قدر الله عليها (ورابعها) قال الفراء كل نفس لما عليها حافظ يحفظها حتى يسلمها الى المقابر وهذا قول الكلبى واعلم انه تعالى لما اقسم على ان لكل نفس حافظا يراقبها ويعد عليها اعمالها فحينئذ يحق لكل احد ان يجتهد ويسعى فى تحصيل اهم المهمات وقد تطابقت الشرائع والعقول على ان أهم المهمات معرفة المبدأ ومعرفة المعاد واتفقوا على ان معرفة المبدأ مقدمة على معرفة المعاد فلهذا السبب بدأ الله تعالى بعد ذلك بما يدل على المبدأ ✲ فقال تعالى (فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الدفق صب الماء يقال دفقت الماء أى صببته وهو مدفوق أى منصوب ومندفق أى منصب ولما كان هذا الماء مدفوقا اختلفوا فى انه لم وصف بانه دافق على وجوه (الاول) قال الزجاج معناه ذو اندفاق كما يقال دارع وفارس ونابل ولابن وتامر اى ذو درع وفرس ونبل ولبن وتمر وذكر الزجاج ان هذا مذهب سيبويه (الثانى) انهم يسمون المفعول باسم الفاعل قال الفراء وأهل الحجاز افعل لهذا من غيرهم يجعلون المفعول فاعلا اذا كان فى مذهب النعت كقولهم سر كاتم وهم ناصب وليل نائم وكقوله تعالى فى عيشة راضية اى مرضية (الثالث) ذكر الخليل فى الكتاب المنسوب اليه دفق الماء دفقا ودفوقا اذا انصب بمرة واندفق الكوز اذا انصب بمرة ويقال فى الطيرة عند انصباب الكوز ونحوه دافق خير وفى كتاب قطرب دفق الماء يدفق اذا انصب (الرابع) صاحب الماء كان دافقا أطلق ذلك على الماء على سبيل المجاز (المسئلة الثانية) قرئ الصلب بفتحتين والصلب بضمتين وفيه اربع لغات صلب وصلب وصلب وصالب (المسئلة الثالثة) ترائب المرأة عظام صدرها حيث تكون القلادة وكل عظم من ذلك تريبة وهذا قول جميع أهل اللغة قال امرؤ القيس * ترائبها مصقولة كالسجنجل * (المسئلة الرابعة) فى هذه الآية قولان (أحدهما) ان الولد مخلوق من الماء الذى يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة وقال

(آخرون)

الوصف غير كاشف عن كنه امره وان ذلك مما لا تبلغه افكار الخلائق ثم فى تفسيره بالنجم الثاقب من تفخيم شأنه واجلال محله ما لا يخفى وقوله تعالى (ان كل نفس لما عليها حافظ) جواب للقسم وما بينهما اعتراض جئ به لما ذكر من تأكيد فخامة المقسم به المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسم عليها وان نافية ولما بمعنى الا اى ما كل نفس الا عليها حافظ مهيمن رقيب وهو الله عز وجل كما فى قوله تعالى وكان الله على كل شئ رقيبا وقيل هو من يحفظ عملها ويحصى عليها ما تكسب من خير وشر كما فى قوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما الآية وقوله تعالى ويرسل عليكم حفظة وقوله تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه وقرئ لما مخففة على ان ان مخففة من الثقيلة واسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف واللام هى الفارقة وما مزيدة اى ان الشأن كل نفس لعليها حافظ والفاء فى قوله تعالى (فلينظر الانسان مم خلق) للتنبيه على ان ما بين من ان كل نفس عليها حافظ يحصى عليها كل ما يصدر

آخرون انه مخلوق من الماء الذى يخرج من صلب الرجل وترائبه واحتج صاحب القول الثانى على مذهبه بوجهين (الاول) ان ماء الرجل خارج من الصلب فقط وماء المرأة خارج من الترائب فقط وعلى هذا التقدير لايحصل هناك ماء خارج من بين الصلب والترائب وذلك على خلاف الآية (الثانى) انه تعالى بين ان الانسان مخلوق من ماء دافق والذى يوصف بذلك هو ماء الرجل ثم عطف عليه بأن وصفه بانه يخرج يعنى هذا الدافق من بين الصلب والترائب وذلك يدل على ان الولد مخلوق من ماء الرجل فقط اجاب القائلون بالقول الاول عن الحجة الاولى انه يجوز ان يقال للشيئين المتباينين انه يخرج من بين هذين خير كثير ولان الرجل والمرأة عند اجتماعهما يصيران كالشئ الواحد فحسن هذا اللفظ هناك وأجابوا عن الحجة الثانية بأن هذا من باب اطلاق اسم البعض على الكل فلما كان احد قسمى المنى دافقا اطلق هذا الاسم على المجموع ثم قالوا والذى يدل على ان الولد مخلوق من مجموع الماءين ان منى الرجل وحده صغير فلايكفى ولانه روى انه عليه السلام قال اذا غلب ماء الرجل يكون الولد ذكرا ويعود شبهه اليه والى أقاربه واذا غلب ماء المرأة فاليها والى أقاربها يعود الشبه وذلك يقتضى صحة القول الاول واعلم ان الملحدين طعنوا فى هذه الآية فقالوا ان كان المراد من قوله يخرج من بين الصلب والترائب ان المنى انما ينفصل من تلك المواضع فليس الامر كذلك لانه انما يتولد من فضلة الهضم الرابع وينفصل عن جميع أجزاء البدن حتى يأخذ من كل عضو طبيعته وخاصيته فيصير مستعدا لان يتولد منه مثل تلك الاعضاء ولذلك فان المفرط فى الجماع يستولى الضعف على جميع اعضائه وان كان المراد ان معظم اجزاء المنى يتولد هناك فهو ضعيف بل معظم اجزائه انما يتربى فى الدماغ والدليل عليه انه فى صورته يشبه الدماغ ولان المكثر منه يظهر الضعف اولا فى عينيه وان كان المراد ان مستقر المنى هناك فهو ضعيف لان مستقر المنى هو اوعية المنى وهو عروق ملتف بعضها بالبعض عند البيضتين وان كان المراد ان مخرج المنى هناك فهو ضعيف لان الحس يدل على انه ليس كذلك (والجواب) لاشك ان اعظم الاعضاء معونة فى توليد المنى هو الدماغ وللدماغ خليفة وهى النخاع وهو فى الصلب وله شعب كثيرة نازلة الى مقدم البدن وهو التريبة فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بالذكر على ان كلامكم فى كيفية تولد المنى وكيفية تولد الاعضاء من المنى محض الوهم والظن الضعيف وكلام الله تعالى اولى بالقبول (المسئلة الخامسة) قد بينا فى مواضع من هذا الكتاب ان دلالة تولد الانسان عن النطفة على وجود الصانع المختار من اظهر الدلائل لوجوه (احدها) ان التركيبات العجيبة فى بدن الانسان اكثر فيكون تولده عن المادة البسيطة أدل على القادر المختار (وثانيها) ان اطلاع الانسان على احوال نفسه اكثر من اطلاعه على احوال غيره فلاجرم كانت هذه الدلالة اتم (وثالثها) ان مشاهدة الانسان لهذه الاحوال فى اولاده واولاد سائر الحيوانات دائمة فكان

عنها من قول وفعل مستوجب على الانسان ان يتفكر فى مبدأ فطرته حق التفكر حتى يتضح له ان من قدر على انشائه من مواد لم تشم رائحة الحياة قط فهو قادر على اعادته بل اقدر على قياس العقل فيعمل ليوم الاعادة والجزاء ماينفعه يومئذ ويجديه ولايملى على حافظه مايرديه وقوله تعالى (خلق من ماء دافق) استئناف وقع جوابا عن استفهام مقدر كأنه قيل مم خلق فقيل خلق من ماء ذى دفق وهو صب فيه دفع وسيلان بسرعة والمراد به الممتزج من الماءين فى الرحم كما ينبئ عنه قوله تعالى (يخرج من بين الصلب والترائب) اى صلب الرجل وترائب المرأة وهى عظام صدرها قالوا ان النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الاعضاء حتى تستعد لأن يتولد منها مثل تلك الاعضاء ومقرها عروق ملتف بعضها بالبعض عند البيضتين فالدماغ اعظم الاعضاء معونة فى توليدها ولذلك تشبهه ويورث الافراط فى الجماع الضعف فيه وله خليفة هى النخاع وهو فى

الاستدلال به على الصانع المختار أقوى (ورابعها) وهو ان الاستدلال بهذا الباب كما انه يدل قطعا على وجود الصانع المختار الحكيم فكذلك يدل قطعا على صحة البعث والحشر والنشر وذلك لان حدوث الانسان انما كان بسبب اجتماع اجزاء كانت متفرقة في بدن الوالدين بل جميع العالم فلما قدر الصانع على جمع تلك الاجزاء المتفرقة حتى خلق منها انسانا سويا وجب ان يقال انه بعد موته وتفرق اجزائه لابد وان يقدر الصانع على جمع تلك الاجزاء وجعلها خلقا سويا كما كان اولا ولهذا السر لما بين تعالى دلالته على المبدأ فرع عليه ايضا دلالته على صحة المعاد ❊ فقال تعالى (انه على رجعه لقادر) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الضمير في انه للخالق مع انه لم يتقدم ذكره والسبب فيه وجهان (الاول) دلالة خلق عليه والمعنى ان ذلك الذى خلق قادر على رجعه (الثانى) انه وان لم يتقدم ذكره لفظا ولكن تقدم ذكر ما يدل عليه سبحانه وقد تقرر في بداية العقول ان القادر على هذه التصرفات هو الله سبحانه وتعالى فلما كان ذلك في غاية الظهور كان كالمذكور (المسئلة الثانية) الرجع مصدر رجعت الشئ اذا رددته والكناية في قوله على رجعه الى اى شئ ترجع فيه وجهان (اولهما) وهو الاقرب انه راجع الى الانسان والمعنى ان الذى قدر على خلق الانسان ابتداء وجب ان يقدر بعد موته على رده حيا وهو كقوله تعالى قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وقوله وهو أهون عليه (وثانيهما) ان الضمير غير عائد الى الانسان ثم قال مجاهد قادر على ان يرد الماء في الاحليل وقال عكرمة والضحاك على ان يرد الماء في الصلب وروى ايضا عن الضحاك انه قادر على رد الانسان ماء كما كان قبل وقال مقاتل بن حيان ان شئت رددته من الكبر الى الشباب ومن الشباب الى الصبا ومن الصبا الى النطفة واعلم ان القول الاول اصح ويشهد له قوله يوم تبلى السرائر اى انه قادر على بعثه يوم القيامة ثم انه سبحانه لما اقام الدليل على صحة القول بالبعث والقيامة وصف حاله في ذلك اليوم ❊ فقال تعالى (يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) يوم منصوب برجعه ومن جعل الضمير في رجعه للماء وفسره برجعه الى مخرجه من الصلب والترائب او الى الحالة الاولى نصب الظرف بقوله فما له من قوة اى ما له من قوة ذلك اليوم (المسئلة الثانية) تبلى اى تختبر والسرائر ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وما اخفى من الاعمال وفي كيفية الابتلاء والاختبار ههنا اقوال (الاول) ما ذكره القفال معنى الاختبار ههنا ان اعمال الانسان يوم القيامة تعرض عليه وينظر ايضا في الصحيفة التى كتبت الملائكة فيها تفاصيل أعمالهم ليعلم ان المذكور هل هو مطابق للمكتوب ولما كانت المحاسبة يوم القيامة واقعة على هذا الوجه جاز ان يسمى هذا المعنى ابتلاء وهذه التسمية غير بعيدة لعباده لانها ابتلاء وامتحانا وان كان عالما بتفاصيل ما عملوه وما لم يعملوه (القول الثانى) ان الافعال انما يستحق عليها الثواب والعقاب لوجوهها فرب فعل يكون ظاهره حسنا وباطنه قبيحا وربما كان بالعكس فاختبارها

الصلب وشعب كثيرة نازلة الى الترائب وهما أقرب الى اوعية المنى فلذلك خصا بالذكر وقرئ الصلب بفتحتين والصلب بضمتين وفيه لغة رابعة هي صالب (انه) الضمير للخالق تعالى فان قوله خلق يدل عليه اى ان ذلك الذى خلقه ابتداء مما ذكر (على رجعه) اى على اعادته بعد موته (لقادر) لبين القدرة (يوم تبلى السرائر) ى يتعرف ويتصفح ماأسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها وما اخفى من الاعمال وتميز بين ما طاب منها وما خبث وهو ظرف لرجعه (فما له) اى للانسان (من قوة) في نفسه يمتنع بها (ولا ناصر) ينتصر به (والسماء ذات الرجع) اى المطر سمى رجعا لما ان العرب كانوا يزعمون ان السحاب يحمل الماء من بحار الارض ثم يرجعه الى الارض أو ارادوا بذلك التفاؤل ليرجع ولذلك سموه اوبا اولان الله تعالى يرجعه حينا فحينا (والارض ذات الصدع) هو ما تتصدع عنه الارض من النبات او مصدر من المبنى للمفعول وهو تشققها بالنبات لا بالعيون كما قيل

مايعتبر بين تلك الوجوه المتعارضة من المعارضة والترجيح حتى يظهر ان الوجه الراجح ماهو والمرجوح ماهو (الثالث) قال ابو مسلم بلوت يقع على اظهار الشئ ويقع على امتحانه كقوله ونبلو أخباركم وقوله ولنبلونكم ثم قال المفسرون السرائر التي تكون بين الله وبين العبد تختبر يوم القيامة حتى يظهر خيرها من شرها ومؤديها من مضيعها وهذا معنى قول ابن عمر رضي الله عنهما يبدي الله يوم القيامة كل سر منها فيكون زينا في الوجوه وشينا في الوجوه يعني من أداها كان وجهه مشرقا ومن ضيعها كان وجهه أغبر (المسئلة الثالثة) دلت الآية على انه لاقوة للعبد ذلك اليوم لان قوة الانسان اما ان تكون له لذاته او مستفادة من غيره فالاول منفي بقوله تعالى فماله من قوة والثاني منفي بقوله ولا ناصر والمعنى ماله من قوة يدفع بها عن نفسه ما حل من العذاب ولا ناصر ينصره في دفعه ولاشك انه زجر وتحذير ومعنى دخول من في قوله من قوة على وجه النفي لقليل ذلك وكثيره كأنه قيل ماله شئ من القوة ولا احد من الانصار (المسئلة الرابعة) يمكن ان يتمسك بهذه الآية في نفي الشفاعة كقوله تعالى واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا الى قوله ولاهم ينصرون (والجواب) ماتقدم * قوله تعالى (والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع انه لقول فصل وما هو بالهزل انهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين امهلهم رويدا) اعلم انه سبحانه وتعالى لما فرغ من دليل التوحيد والمعاد أقسم قسما آخر اما قوله والسماء ذات الرجع فنقول قال الزجاج الرجع المطر لانه يجئ ويتكرر واعلم ان كلام الزجاج وسائر أئمة اللغة صريح في ان الرجع ليس اسما موضوعا للمطر بل سمي رجعا على سبيل المجاز ولحسن هذا المجاز وجوه (احدها) قال القفال كأنه من ترجيع الصوت وهو اعادته ووصل الحروف به فكذا المطر لكونه عائدا مرة بعد اخرى سمي رجعا (وثانيها) ان العرب كانوا يزعمون ان السحاب يحمل الماء من بحار الارض ثم يرجعه الى الارض (وثالثها) انهم أرادوا التفاؤل فسموه رجعا ليرجع (ورابعها) ان المطر يرجع في كل عام اذا عرفت هذا فنقول للمفسرين اقوال (احدها) قال ابن عباس والسماء ذات الرجع اي ذات المطر يرجع بمطر بعد مطر (وثانيها) رجع السماء اعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالا بعد حال على مرور الازمان ترجعه رجعا أي تعطيه مرة بعد مرة (وثالثها) قال ابن زيد هو انها ترد وترجع شمسها وقمرها بعد مغيبهما والقول هو الاول اما قوله تعالى والارض ذات الصدع فاعلم ان الصدع هو الشق ومنه قوله تعالى يومئذ يصدعون اي يتفرقون وللمفسرين اقوال قال ابن عباس تنشق عن النبات والاشجار وقال مجاهد هو الجبلان بينهما شق وطريق نافذ كما قال تعالى وجعلنا فيها فجاجا سبلا وقال الليث الصدع نبات الارض لانه يصدع الارض فتنصدع به وعلى هذا سمي النبات صدعا لانه صادع للارض واعلم انه سبحانه كما جعل كيفية خلقة الحيوان دليلا على معرفة المبدأ والمعاد ذكر في هذا القسم كيفية خلقة النبات فالسماء ذات الرجع كالأب

فان وصف السماء والارض عند الاقسام بهما على حقية القرآن الناطق بالبعث بما ذكر من الوصفين للايماء الى انهما في انفسهما من شواهده وهو السر في التعبير بالصدع عنه وعن المطر بالرجع وذلك في تشقق الارض بالنبات المحاكي للنشور حسبما ذكر في مواقع من التنزيل لا في تشققها بالعيون (انه) اي القرآن الذي من جملته ماتلي من الآيات الناطقة بمبدأ حال الانسان ومعاده (لقول فصل) اي فاصل بين الحق والباطل مبالغ في ذلك كأنه نفس الفصل (وماهو بالهزل) ليس في شئ منه شائبة هزل بل كله جد محض لا هوادة فيه فمن حقه ان يهتدي به الغواة وتخضع له رقاب العتاة (انهم) اي اهل مكة (يكيدون) في ابطال امره واطفاء نوره (كيدا) حسبما تفي به قدرتهم (واكيد كيدا) اي اقابلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث أستدرجهم من حيث لا يعلمون (فمهل الكافرين) اي لا تشتغل بالانتقام منهم ولا تدع عليهم بالهلاك او لا تستعجل به والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها

والارض ذات الصدع كالام وكلاهما من النعم العظام لان نعم الدنيا موقوفة على ماينزل من السماء من المطر متكررا وعلى ماينبت من الارض كذلك ثم انه تعالى اردف هذا القسم بالمقسم عليه فقال انه لقول فصل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى هذا الضمير قولان (الاول) ماقال القفال وهوان المعنى ان ماأخبرتكم به من قدرتى على احيائكم فى اليوم الذى تبلى فيه سرائركم قول فصل وحق (والثانى) انه عائد الى القرآن اى القرآن فاصل بين الحق والباطل كما قيل له فرقان والاول اولى لان عود الضمير الى المذكور السالف اولى (المسئلة الثانية) قوله فصل اى حكم ينفصل به الحق عن الباطل ومنه فصل الخصومات وهو قطعها بالحكم ويقال هذا قول فصل اى قاطع للمراء والنزاع وقال بعض المفسرين معناه انه جد حق لقوله وماهو بالهزل اى باللعب والمعنى ان القرآن نزل بالجد ولم ينزل باللعب ثم قال وماهو بالهزل والمعنى ان البيان الفصل قد يذكر على سبيل الجد والاهتمام بشأنه وقد يكون على غير سبيل الجد وهذا الموضع من ذلك ثم قال انهم يكيدون كيدا وذلك الكيد على وجوه منها بالقاء الشبهات كقولهم ان هى الاحياتنا الدنيا من يحيى العظام وهى رميم أجعل الآلهة الها واحدا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ومنها بالطعن فيه بكونه ساحرا وشاعرا ومجنونا ومنها بقصد قتله على ماقال واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك ثم قال وأكيد كيدا واعلم ان الكيد فى حق الله تعالى محمول على وجوه (احدها) دفعه تعالى كيد الكفرة عن محمد عليه السلام ويقابل ذلك الكيد بنصرته واعلاء دينه تسمية لأحد المتقابلين باسم الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وقال الشاعر

ألا لا يجهلن احد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وكقوله تعالى نسوا الله فأنساهم انفسهم يخادعون الله وهو خادعهم (وثانيها) ان كيده تعالى بهم هو امهاله اياهم على كفرهم حتى يأخذهم على غرة ثم قال فمهل الكافرين اى لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل ثم انه تعالى لما أمره بامهالهم بين ان ذلك الامهال المأمور به قليل فقال امهلهم رويدا فكرر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين من الرسول عليه السلام والتصبر وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال ابو عبيدة ان تكبير رويد رود وأنشد

يمشى ولا تكلم البطحاء مشيته * كأنه ثمل يمشى على رود

أى على مهلة ورفق وتؤدة وذكر أبو على فى باب أسماء الافعال رويدا زيدا يريد أرود زيدا ومعناه أمهله وارفق به قال النحويون رويد فى كلام العرب على ثلاثة اوجه (أحدها) أن يكون اسما للامر كقولك رويد زيدا تريد أرود زيدا وخله ودعه وارفق به ولا تنصرف رويد فى هذا الوجه لانها غير متمكنة (والثانى) ان يكون بمنزلة سائر المصادر فيضاف الى مابعده كما تضاف المصادر تقول رويد زيد كما تقول ضرب زيد قال تعالى فضرب الرقاب

فان الاخبار بتوليه تعالى لكيدهم بالذات مما يوجب امهالهم وترك التصدى لمكايدتهم قطعا وقوله تعالى (امهلهم) بدل من مهل وقوله تعالى (رويدا) اما مصدر مؤكد لمعنى العامل اونعت لمصدره المحذوف اى امهلهم امهالا رويدا اى قريبا كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما او قليلا كما قاله قتادة قال ابو عبيدة هو فى الاصل تصغير رود بالضم وانشد

*كأنه ثمل يمشى على روده اى على مهل وقيل تصغير ارواد مصدر ارود بالترخيم وله فى الاستعمال وجهان آخران كونه اسم فعل نحو رويد زيدا وكونه حالا نحو سار القوم رويدا اى متمهلين وفى ايراد البدل بصيغة لا تحتمل التكثير وتقييده برويدا على احد الوجهين المذكورين من تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسكين قلبه مالا يخفى *وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الطارق اعطاه الله تعالى بعدد كل نجم فى السماء عشر حسنات والله أعلم

(والثالث) ان يكون نعتا منصوبا كقولك ساروا سيرا رويدا ويقولون ايضا ساروا رويدا يحذفون المنعوت ويقيمون رويدا مقامه كما يفعلون بسائر النعوت المتمكنة ومن ذلك قول العرب ضعه رويدا اى وضعا رويدا وتقول للرجل يعالج الشيء رويدا اى علاجا رويدا ويجوز فى هذا الوجه أمران (احدهما) ان يكون رويدا حالا (والثانى) ان يكون نعتا فان أظهرت المنعوت لم يجز ان يكون للحال والذى فى الآية هو ماذكرنا فى الوجه الثالث لانه يجوز ان يكون نعتا للمصدر كأنه قيل امهالا رويدا ويجوز ان يكون للحال أى امهلهم غير مستعجل (المسئلة الثانية) منهم من قال امهلهم رويدا الى يوم القيامة وانما صغر ذلك من حيث علم ان كل ماهو آت قريب ومنهم من قال امهلهم رويدا الى يوم بدر والاول اولى لان الذى جرى يوم بدر وفى سائر الغزوات لايعم الكل واذا حمل على امر الآخرة عم الكل ولا يمتنع مع ذلك ان يدخل فى جملته أمر الدنيا مما نالهم يوم بدر وغيره وكل ذلك زجر وتحذير للقوم وكأنه تحذير لهم فهو ترغيب فى خلاف طريقهم فى الطاعات والله أعلم

(سورة الاعلى تسع عشرة آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى والذى اخرج المرعى فجعله غثاء أحوى) اعلم ان قوله تعالى سبح اسم ربك الأعلى فيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله اسم ربك قولان (احدهما) ان المراد الامر بتنزيه اسم الله وتقديسه (والثانى) ان الاسم صلة والمراد الامر بتنزيه الله تعالى اما على الوجه الاول ففى اللفظ احتمالات (احدها) ان المراد نزه اسم ربك عن ان تسمى به غيره فيكون ذلك نهيا عن ان يدعى غيره باسمه كما كان المشركون يسمون الصنم باللات ومسيلمة برحمان اليمامة (وثانيها) ان لا يفسر اسماءه بما لا يصح ثبوته فى حقه سبحانه نحو ان يفسر الاعلى بالعلو فى المكان والاستواء بالاستقرار بل يفسر العلو بالقهر والاقتدار والاستواء بالاستيلاء (وثالثها) ان يصان عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم ويدخل فيه ان يذكر تلك الاسماء عند الغفلة وعدم الوقوف على معانيها وحقائقها (ورابعها) ان يكون المراد سبح باسم ربك اى مجده باسمائه التى انزلتها عليك وعرفتك انها أسماؤه كقوله قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ونظير هذا التأويل قوله تعالى فسبح باسم ربك العظيم ومقصود الكلام من هذا التأويل امران (احدهما) سبح اسم ربك الاعلى اى صل باسم ربك لا كما يصلى المشركون بالمكاء والتصدية (والثانى) ان لا يذكر العبد ربه الا بالاسماء التى ورد التوقيف بها قال الفراء لا فرق بين سبح اسم ربك وبين سبح باسم ربك قال الواحدى وبينهما فرق لان معنى سبح باسم ربك نزه الله تعالى بذكر اسمه المنبئ عن تنزيهه وعلوه عما يقول المبطلون وسبح اسم ربك اى نزه الاسم من السوء (وخامسها) قال ابو مسلم المراد من الاسم ههنا

(سورة الاعلى مكية وآيها تسع عشرة)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبح اسم ربك الاعلى) اى نزه اسمه عز وجل عن الالحاد فيه بالتأويلات الزائغة وعن اطلاقه على غيره بوجه يشعر بتشاركهما فيه وعن ذكره لا على وجه الاعظام والاجلال والاعلى اما صفة للرب وهو الاظهر او للاسم وقرئ سبحان ربى الاعلى وفى الحديث لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال عليه الصلاة والسلام اجعلوها فى ركوعكم فلما نزل سبح اسم ربك الاعلى قال اجعلوها فى سجودكم وكانوا يقولون فى الركوع اللهم لك ركعت وفى السجود اللهم لك سجدت (الذى خلق فسوى) صفة اخرى للرب على الوجه الاول ومنصوب على المدح على الثانى لئلا يلزم الفصل بين الموصوف والصفة بصفة غيره اى خلق كل شئ فسوى خلقه بان جعل له ما به يتأتى كماله ويتسنى معاشه وقوله تعالى (والذى قدر) اما صفة اخرى للرب كالموصول الاول او معطوف عليه وكذا حال ما بعده اى قدر

الصفة وكذا في قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوده بها (اما على الوجه الثانى) وهو ان يكون الاسم صلة ويكون المعنى سبح ربك وهو اختيار جمع من المحققين قالوا لان الاسم في الحقيقة لفظة مؤلفة من حروف ولا يجب تنزيهها كما يجب في الله تعالى ولكن المذكور اذا كان في غاية العظمة لا يذكر هو بل يذكر اسمه فيقال سبح اسمه ومجد ذكره كما يقال سلام على المجلس العالى وقال لبيد * الى الحول ثم اسم السلام عليكما * اى السلام وهذه طريقة مشهورة في اللغة ونقول على هذا الوجه تسبيح الله يحتمل وجهين (الاول) ان لا يعامل الكفار معاملة يقدمون بسببها على ذكر الله بما لا ينبغى على ما قال تعالى ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم (الثانى) انه عبارة عن تنزيه الله تعالى عن كل مالا يليق به في ذاته وفى صفاته وفى افعاله وفى اسمائه وفى احكامه (اما في ذاته) فأن يعتقد انها ليست من الجواهر والاعراض (واما في صفاته) فان يعتقد انها ليست محدثة ولا متناهية ولا ناقصة (واما في افعاله) فأن يعتقد انه مالك مطلق فلا اعتراض لأحد عليه في امر من الامور وقالت المعتزلة هو ان يعتقد ان كل ما فعله فهو صواب حسن وانه لا يفعل القبيح ولا يرضى به (واما في اسمائه) فأن لا يذكر سبحانه الا بالاسماء التى ورد التوقيف بها هذا عندنا واما عند المعتزلة فهو ان لا يذكر الا بالاسماء التى لا توهم نقصا بوجه من الوجوه سواء ورد الاذن بها او لم يرد (واما في احكامه) فهو ان يعلم انه ما كلفنا لنفع يعود اليه بل اما لمحض المالكية على ما هو قولنا او لرعاية مصالح العباد على ما هو قول المعتزلة (المسئلة الثانية) من الناس من تمسك بهذه الآية في ان الاسم نفس المسمى (فأقول) ان الخوض في الاستدلال لا يمكن الا بعد تلخيص محل النزاع فلا بد ههنا من بيان ان الاسم ماهو والمسمى ماهو حتى يمكننا ان نخوض في ان الاسم هل هو نفس المسمى ام لا فنقول ان كان المراد من الاسم هو هذا اللفظ وبالمسمى تلك الذات فالعاقل لا يمكنه ان يقول الاسم هو المسمى وان كان المراد من الاسم هو تلك الذات وبالمسمى ايضا تلك الذات كان قولنا الاسم نفس المسمى هو ان تلك الذات نفس تلك الذات وهذا لا يمكن ان ينازع فيه عاقل فعلمنا ان هذه المسئلة في وصفها ركيكة وان كان كذلك كان الخوض في ذكر الاستدلال عليه أرك وابعد بلى ههنا دقيقة وهى ان قولنا اسم لفظة جعلناها اسما لكل مادل على معنى غير مقترن بزمان والاسم كذلك فيلزم ان يكون الاسم اسما لنفسه فههنا الاسم نفس المسمى فلعل العلماء الاولين ذكروا ذلك فاشتبه الامر على المتأخرين وظنوا ان الاسم في جميع المواضع نفس المسمى هذا حاصل التحقيق في هذه المسئلة ولنرجع الى الكلام المألوف قالوا الذى يدل على ان الاسم نفس المسمى ان احدا لا يقول سبحان اسم الله وسبحان اسم ربنا فمعنى سبح اسم ربك سبح ربك والرب ايضا اسم فلو كان غير المسمى لم يجز ان يقع التسبيح عليه واعلم ان هذا الاستدلال ضعيف لما بينا في المسئلة الاولى انه يمكن ان يكون الامر واردا بتسبيح الاسم ويمكن ان يكون

(المراد)

اجناس الاشياء وانواعها وافرادها ومقاديرها وصفاتها وافعالها وآجالها (فهدى) اى فوجه كل واحد منها الى ما يصدر عنه وينبغى له طبعا او اختيارا ويسره لما خلق له بخلق الميول والالهامات ونصب الدلائل وانزال الآيات ولو تتبعت احوال النباتات والحيوانات لرأيت في كل منها ما تحار فيه العقول يروى ان الافعى اذا بلغت الف سنة عميت وقد الهمها الله تعالى ان تمسح عينيها بورق الرازيانج الغض يرد اليها بصرها فربما كانت عند عروض العمى لها في برية بينها وبين الريف مسافة طويلة فتطويها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها فتحك عينيها بورقها وترجع باصرة باذن الله عز وجل ويروى ان التمساح لا يكون له دبر وانما يخرج فضلات ما يأكله من فمه حيث قيض الله له طائرا قدر غذاؤه من ذلك فاذا رآه التمساح يفتح فمه فيدخله الطائر فيأكل ما فيه وقد خلق الله تعالى له من فوق منقاره ومن تحته قرنين لئلا يطبق عليه التمساح فمه هذا وامافنون هداياته

المراد تسبيح المسمى وذكر الاسم صلة فيه ويمكن ان يكون المراد سبح باسم ربك كما قال فسبح باسم ربك العظيم ويكون المعنى سبح ربك بذكر اسمائه (المسئلة الثالثة) روى عن عقبة بن عامر انه لما نزل قوله تعالى فسبح باسم ربك العظيم قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلوها فى ركوعكم ولما نزل قوله سبح اسم ربك الاعلى قال اجعلوها فى سجودكم ثم روى فى الاخبار انه عليه السلام كان يقول فى ركوعه سبحان ربى العظيم وفى سجوده سبحان ربى الاعلى ثم من العلماء من قال ان هذه الاحاديث تدل على ان المراد من قوله سبح باسم ربك اى صل باسم ربك ويتأكد هذا الاحتمال باطباق المفسرين على ان قوله تعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ورد فى بيان اوقات الصلاة (المسئلة الرابعة) قرأ على عليه السلام وابن عمر سبحان ربى الاعلى الذى خلق فسوى ولعل الوجه فيه ان قوله سبح امر بالتسبيح فلابد وان يذكر ذلك التسبيح وما هو الا قوله سبحان ربى الاعلى (المسئلة الخامسة) تمسكت المجسمة فى اثبات العلو بالمكان بقوله ربك الاعلى والحق ان العلو بالجهة على الله تعالى محال لانه تعالى اما ان يكون متناهيا او غير متناه فان كان متناهيا كان طرفه الفوقانى متناهيا فكان فوقه جهة فلا يكون هو سبحانه اعلى من جميع الاشياء واما ان كان غير متناه فالقول بوجود ابعاد غير متناهية محال وايضا فلأنه ان كان غير متناه من جميع الجهات يلزم ان تكون ذاته تعالى مختلطة بالقاذورات تعالى الله عنه وان كان غير متناه من بعض الجهات ومتناهيا من بعض الجهات كان الجانب المتناهى مغايرا للجانب غير المتناهى فيكون مركبا من جزأين وكل مركب ممكن فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود وهذا محال فثبت ان العلو ههنا ليس بمعنى العلو فى الجهة ومما يؤكد ذلك ان ماقبل هذه الآية ومابعدها ينافى ان يكون المراد هو العلو بالجهة اما ماقبل الآية فلأن العلو عبارة عن كونه فى غاية البعد عن العالم وهذا لايناسب استحقاق التسبيح والثناء والتعظيم اما العلو بمعنى كمال القدرة والتفرد بالتخليق والابداع فيناسب ذلك والسورة ههنا مذكورة لبيان وصفه تعالى بما لاجله يستحق الحمد والثناء والتعظيم واما مابعد هذه الآية فلأنه اردف قوله الأعلى بقوله الذى خلق فسوى والخالقية تناسب العلو بحسب القدرة لاالعلو بحسب الجهة (المسئلة السادسة) من الملحدين من قال بأن القرآن مشعر بان للعالم ربين احدهما عظيم والآخر اعلى منه اما العظيم فقوله فسبح باسم ربك العظيم واما الاعلى منه فقوله سبح اسم ربك الاعلى فهذا يقتضى وجود رب آخر يكون هذا اعلى بالنسبة اليه واعلم انه لما دلت الدلائل على ان الصانع تعالى واحد سقط هذا السؤال ثم نقول ليس فى هذه الآية انه سبحانه وتعالى اعلى من رب آخر بل ليس فيه الا انه اعلى ثم لنا فيه تأويلات (الاول) انه تعالى اعلى وأجل واعظم من كل مايصفه به الواصفون ومن كل ذكر يذكره به الذاكرون فجلال كبريائه اعلى من معارفنا وادراكاتنا واصناف آلائه ونعمائه اعلى

سبحانه وتعالى للانسان من حيث الجسمية ومن حيث الحيوانية لاسيما من حيث الانسانية فمالايحيط به فلك العبارة والتحرير ولايعلمه الاالعليم الخبير (والذى اخرج المرعى) اى انبت مايرعاه الدواب غضا طريا يرف (فجعله) بعد ذلك (غثاء احوى) اى دريئا اسود وقيل احوى حال من المرعى اى اخرجه احوى من شدة الخضرة والرى فجعله غثاء بعد ذلك وقوله تعالى (سنقرؤك فلاتنسى) بيان لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم اثر بيان هدايته تعالى العامة لكافة مخلوقاته وهى هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقى الوحى وحفظ القرآن الذى هو

من حمدنا وشكرنا وانواع حقوقه اعلى من طاعاتنا واعمالنا (الثانى) ان قوله الاعلى تنبيه على استحقاق الله التنزه من كل نقص فكأنه قال سبحانه فانه الاعلى اى فانه العالى على كل شئ بملكه وسلطانه وقدرته وهو كما تقول اجتنبت الخمرة المزيلة للعقل اى اجتنبتها بسبب كونها مزيلة للعقل (الثالث) ان يكون المراد بالاعلى العالى كما ان المراد بالاكبر الكبير (المسئلة السابعة) روى انه عليه السلام كان يحب هذه السورة ويقول لو علم الناس علم سبح اسم ربك الاعلى لرددها احدهم ستة عشر مرة وروى ان عائشة مرت باعرابى يصلى باصحابه فقرأ سبح اسم ربك الاعلى * الذى يسر على الحبلى * فاخرج منها نسمة تسعى * من بين صفاق وحشا * اليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى * ألا بلى ألا بلى فقالت عائشة لاآب غائبكم ولازالت نساؤكم فى لزبة والله اعلم اما قوله تعالى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى فاعلم انه سبحانه وتعالى لما امر بالتسبيح فكأن سائلا قال الاشتغال بالتسبيح انما يكون بعد المعرفة فما الدليل على وجود الرب فقال الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى واعلم ان الاستدلال بالخلق والهداية هى الطريقة المعتمدة عند اكابر الانبياء عليهم السلام والدليل عليه ماحكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام انه قال الذى خلقنى فهو يهدين وحكى عن فرعون انه لما قال لموسى وهرون عليهما السلام فمن ربكما ياموسى قال موسى عليه السلام ربنا الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى واما محمد عليه السلام فانه تعالى اول ما انزل عليه هو قوله اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق وهذا اشارة الى الخلق ثم قال اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم وهذا اشارة الى الهداية ثم انه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة فى هذه السورة فقال الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى وانما وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيرا لما ذكرنا ان العجائب والغرائب فى هذه الطريقة اكثر ومشاهدة الانسان لها واطلاعه عليها أتم فلا جرم كانت اقوى فى الدلالة ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله خلق فسوى يحتمل ان يريد به الناس خاصة ويحتمل ان يريد الحيوان ويحتمل ان يريد كل شئ خلقه فمن حمله على الانسان ذكر للتسوية وجوها (احدها) انه جعل قامته مستوية معتدلة وخلقته حسنة على ما قال لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم واثنى على نفسه بسبب خلقه اياه فقال فتبارك الله احسن الخالقين (وثانيها) ان كل حيوان فانه مستعد لنوع واحد من الاعمال فقط وغير مستعد لسائر الاعمال اما الانسان فانه خلق بحيث يمكنه ان يأتى بجميع افعال الحيوانات بواسطة الآت مختلفة فالتسوية اشارة الى هذا (وثالثها) انه هيأه للتكليف والقيام باداء العبادات واما من حمله على جميع الحيوانات قال المراد انه اعطى كل حيوان مايحتاج اليه من اعضاء وآلات وحواس وقد استقصينا القول فى هذا الباب فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب واما من حمله على جميع المخلوقات قال المراد من التسوية هو انه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات خلق ما أراد على وفق ما أراد

هدى للعالمين وتوفيقه عليه الصلاة والسلام لهداية الناس اجمعين والسين اما للتأكيد واما لان المراد اقراء ما اوحى الله اليه حينئذ وماسيوحى اليه بعد ذلك فهو وعد كريم باستمرار الوحى فى ضمن الوعد بالاقراء اى سنقرؤك ما نوحى اليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام او سنجعلك قارئا بالهام القراءة فلا تنسى اصلا من قوة الحفظ والاتقان مع انك امى لاتدرى ما الكتاب وما القراءة ليكون ذلك آية اخرى لك مع ما فى تضاعيف ماتقرؤه من الآيات البينات من حيث الاعجاز ومن حيث الاخبار بالمغيبات وقيل فلا تنسى نهى والالف

موصوفابوصف الاحكام والاتقان مبرأ عن الفسخ والاضطراب (المسئلة الثانية) قرأ الجمهور قدر مشددة وقرأ الكسائى على التخفيف اما قراءة التشديد فالمعنى انه قدر كل شئ بمقدار معلوم واما التخفيف فقال القفال معناه ملك فهدى وتأويله انه خلق فسوى وملك ماخلق اى تصرف فيه كيف شاء وأراد وهذا هو الملك فهداه لمنافعه ومصالحه ومنهم من قال هما لغتان بمعنى واحد وعليه قوله تعالى فقدرنا فنعم القادرون بالتشديد والتخفيف (المسئلة الثالثة) ان قوله قدر يتناول المخلوقات فى ذواتها وصفاتها كل واحد على حسبه فقدر السموات والكواكب والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والانسان بمقدار مخصوص من الجثة والعظم وقدر لكل واحد منها من البقاء مدة معلومة ومن الصفات والالوان والطعوم والروائح والايون والاوضاع والحسن والقبح والسعادة والشقاوة والهداية والضلالة مقدارا معلوما على ماقال وان من شئ الا عندنا خزائنه ومانزله الا بقدر معلوم وتفصيل هذه الجملة ممالا يفى بشرحه المجلدات بل العالم كله من أعلى عليين الى أسفل السافلين تفسير هذه الآية وتفصيل هذه الجملة اما قوله فهدى فالمراد ان كل مزاج فانه مستعد لقوة خاصة وكل قوة فانها لاتصلح الا لفعل معين فالتسوية والتقدير عبارة عن التصرف فى الاجزاء الجسمانية وتركيبها على وجه خاص لاجله تستعد لقبول تلك القوى وقوله فهدى عبارة عن خلق تلك القوى فى تلك الاعضاء بحيث تكون كل قوة مصدرا لفعل معين ويحصل من مجموعها تمام المصلحة وللمفسرين فيه وجوه قال مقاتل هدى الذكر للانثى كيف يأتيها وقال آخرون هداه للمعيشة ومرعاه وقال آخرون هدى الانسان لسبل الخير والشر والسعادة والشقاوة وذلك لانه جعله حساسادراكامتمكنا من الاقدام على مايسره والاحجام عمايسوءه كما قال اناهديناه السبيل اماشاكرا واما كفورا وقال ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها وقال السدى قدر مدة الجنين فى الرحم ثم هداه للخروج وقال الفراء قدر فهدى وأضل فاكتفى بذكر احدهما كقوله سرابيل تقيكم الحر وقال آخرون الهداية بمعنى الدعاء الى الايمان كقوله وانك لتهدى اى تدعو وقد دعا الكل الى الايمان وقال آخرون هدى أى دلهم بافعاله على توحيده وجلال كبريائه ونعوت صمديته وفردانيته وذلك لان العاقل يرى فى العالم افعالا محكمة متقنة متسقة منتظمة فهى لامحالة تدل على الصانع القديم وقال قتادة فى قوله فهدى ان الله تعالى ماأكره عبدا على معصية ولا على ضلالة ولارضيها له ولاامره بها ولكن رضى لكم الطاعة وأمركم بها ونهاكم عن المعصية واعلم ان هذه الاقوال على كثرتها لاتخرج عن قسمين فمنهم من حمل قوله فهدى على مايتعلق بالدين كقوله وهديناه النجدين ومنهم من حمله على مايرجع الى مصالح الدنيا والاول اقوى لان قوله خلق فسوى وقدر يرجع الى احوال الدنيا ويدخل فيه اكمال العقل والقوى ثم اتبعه بقوله فهدى اى كلف ودل على الدين اما قوله تعالى والذى أخرج المرعى فاعلم انه سبحانه لمابين مايختص به

لمراعاة الفاصلة كما فى قوله تعالى فأضلونا السبيلا وقوله تعالى (الا ماشاء الله) استثناء مفرغ من اعم المفاعيل اى لاتنسى مماتقرؤه شيئا من الاشياء الاماشاء الله ان تنساه ابدا بأن نسخ تلاوته والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة والايذان بدوران المشيئة على عنوان الالهية المستتبعة لسائر الصفات وقيل المرادبه النسيان فى الجملة على القلة والندرة كما روى انه عليه الصلاة والسلام اسقط آية فى قراءته فى الصلاة فحسب ابى انها نسخت فسأله فقال عليه الصلاة والسلام نسيتها وقيل نفى النسيان رأسا فان القلة قد تستعمل فى النفى فالمراد بالنسيان

الناس اتبعه بذكر مايختص به غير الناس من النعم فقال والذى اخرج المرعى اى هو القادر على انبات العشب لا الاصنام التى عبدتها الكفرة والمرعى ما تخرجه الارض من النبات ومن الثمار والزروع والحشيش قال ابن عباس المرعى الكلاء الاخضر ثم قال فجعله غثاء احوى وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الغثاء مايبس من النبت فحملته الاودية والمياه وألوت به الرياح وقال قطرب واحد الغثاء غثاءة (المسئلة الثانية) الحوة السواد وقال بعضهم الاحوى هو الذى يضرب الى السواد اذا أصابته رطوبة وفى أحوى قولان (احدهما) انه نعت الغثاء اى صار بعد الخضرة يابسا فتغير الى السواد وسبب ذلك السواد امور (احدها) أن العشب انما يجف عند استيلاء البرد على الهواء ومن شأن البرودة انها تبيض الرطب وتسود اليابس (وثانيها) ان يحملها السيل فيلصق بها أجزاء كدرة فتسود (وثالثها) ان يحملها الريح فتلصق بها الغبار الكثير فتسود (القول الثانى) وهو اختيار الفراء وأبى عبيدة وهو ان يكون الاحوى هو الاسود لشدة خضرته كما قيل مدهامتان اى سوداوان لشدة خضرتهما والتقدير الذى اخرج المرعى احوى فجعله غثاء كقوله ولم يجعل له عوجا قيما اى انزله قيما ولم يجعل له عوجا ❁ قوله تعالى (سنقرؤك فلا تنسى الا ماشاء الله انه يعلم الجهر ومايخفى) اعلم انه تعالى لما أمر محمدا بالتسبيح فقال سبح اسم ربك الاعلى وعلم محمدا عليه السلام ان ذلك التسبيح لايتم ولايكمل الا بقراءة ما انزله الله تعالى عليه من القرآن لما بينا ان التسبيح الذى يليق به هو الذى يرتضيه لنفسه فلاجرم كان يتذكر القرآن فى نفسه مخافة ان ينسى فأزال الله تعالى ذلك الخوف عن قلبه بقوله سنقرؤك فلا تنسى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى سنقرؤك اى سنجعلك قارئا بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ماتقرؤه والمعنى نجعلك قارئا للقرآن تقرؤه فلا تنساه قال مجاهد ومقاتل والكلبى كان عليه السلام اذا نزل عليه القرآن أكثر تحريك لسانه مخافة ان ينسى وكان جبريل لايفرغ من آخر الوحى حتى يتكلم هو بأوله مخافة النسيان فقال تعالى سنقرؤك فلا تنسى اى سنعلمك هذا القرآن حتى تحفظه ونظيره قوله ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليه وحيه وقوله لاتحرك به لسانك لتعجل به ثم ذكروا فى كيفية ذلك الاستقراء والتعليم وجوها (احدها) ان جبريل عليه السلام سيقرأ عليك القرآن مرات حتى تحفظه حفظا لاتنساه (وثانيها) انا نشرح صدرك ونقوى خاطرك حتى تحفظ بالمرة الواحد حفظا لاتنساه (وثالثها) انه تعالى لما أمره فى اول السورة بالتسبيح فكأنه تعالى قال واظب على ذلك ودم عليه فانا سنقرؤك القرآن الجامع لعلوم الاولين والآخرين ويكون فيه ذكرك وذكر قومك ونجمعه فى قلبك ونيسرك لليسرى وهو العمل به (المسئلة الثانية) هذه الآية تدل على المعجزة من وجهين (الاول) انه كان رجلا أميا فحفظه لهذا الكتاب المطول من غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة خارق للعادة فيكون معجزا (الثانى) ان هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة فهذا اخبار عن امر عجيب غريب

حينئذ النسيان بالكلية اذ هو المنفى رأسا لا ما فقد ينسى ثم يذكر (انه يعلم الجهر ومايخفى) تعليل لماقبله اى يعلم ماظهر ومابطن من الامور التى من جملتها ما أوحى اليك فينسى مايشاء انساءه ويبقى محفوظا مايشاء ابقاءه لمانيط بكل منهما من مصالح دينكم (ونيسرك لليسرى) عطف على نقرؤك كما ينبئ عنه الالتفات الى الحكاية ومابينهما اعتراض وارد لماذكر من التعليل وتعليق التيسير به عليه الصلاة والسلام مع ان الشائع تعليقه بالامور المسخرة للفاعل كما فى قوله تعالى ويسرلى امرى للايذان بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسرى

(مخالف)

مخالف للعادة سيقع في المستقبل وقد وقع فكان هذا اخبارا عن الغيب فيكون معجزا اما قوله فلاتنسى فقال بعضهم فلاتنسى معناه النهى والالف مزيدة للفاصلة كقوله السبيلا يعنى فلاتغفل قراءته وتكريره فتنساه الا ماشاءالله ان ينسيكه والقول المشهور ان هذا خبر والمعنى سنقرؤك الى ان تصير بحيث لاتنسى وتأمن النسيان كقولك سأكسوك فلاتعرى اى فتأمن العرى واحتج اصحاب هذا القول على ضعف القول الاول بأن ذلك القول لايتم الاعند التزام مجازات في هذه الآية منها ان النسيان لايقدر عليه الاالله تعالى فلايصح ورود الامر والنهى به فلابد وان يحمل ذلك على المواظبة على الاشياء التى تنافى النسيان مثل الدراسة وكثرة التذكر وكل ذلك عدول عن ظاهر اللفظ ومنها ان يجعل الالف مزيدة للفاصلة وهو ايضا خلاف الاصل ومنها انا اذا جعلناه خبرا كان معنى الآية بشارة الله اياه بانى أجعلك بحيث لاتنساه واذا جعلناه نهيا كان معناه ان الله امره بان يواظب على الاسباب المانعة من النسيان وهى الدراسة والقراءة وهذا ليس فى البشارة وتعظيم حاله مثل الاول ولانه على خلاف قوله لاتحرك به لسانك لتعجل به اما قوله الاماشاءالله ففيه احتمالان (احدهما) ان يقال هذا الاستثناء غير حاصل فى الحقيقة وانه عليه السلام لم ينس بعد ذلك شيئا قال الكلبى انه عليه السلام لم ينس بعد نزول هذه الآية شيئا وعلى هذا التقدير يكون الغرض من قوله الاماشاءالله احد امور (احدها) التبرك بذكر هذه الكلمة على ماقال تعالى ولاتقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الاأن يشاء الله وكأنه تعالى يقول انا مع انى عالم بجميع المعلومات وعالم بعواقب الامور على التفصيل لاأخبر عن وقوع شئ فى المستقبل الامع هذه الكلمة فأنت وأمتك يامحمد اولى بها (وثانيها) قال الفراء انه تعالى ماشاء أن ينسى محمد عليه السلام شيئا الاان المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان انه تعالى لو أراد ان يصير ناسيا لذلك لقدر عليه كما قال ولئن شئنا لنذهبن بالذى اوحينا اليك ثم انا نقطع بانه تعالى ماشاء ذلك وقال لمحمد عليه السلام لئن اشركت ليحبطن عملك مع انه عليه السلام مااشرك البتة وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء ان الله تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم ان عدم النسيان من فضل الله واحسانه لامن قوته (وثالثها) انه تعالى لما ذكر هذا الاستثناء جوز رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ماينزل عليه من الوحى قليلا كان اوكثيرا ان يكون ذلك هو المستثنى فلا جرم كان يبالغ فى التثبت والتحفظ والتيقظ فى جميع المواضع فكان المقصود من ذكر هذا الاستثناء بقاءه عليه السلام على التيقظ فى جميع الاحوال (ورابعها) ان يكون الغرض من قوله الاماشاءالله نفى النسيان رأسا كما يقول الرجل لصاحبه انت سهيمى فيما املك الافيما شاءالله ولايقصد استثناء شئ (القول الثانى) ان قوله الاماشاءالله استثناء فى الحقيقة وعلى هذا التقدير يحتمل الآية وجوها (أحدها) قال الزجاج الاماشاءالله ان ينسى فانه ينسى ثم يتذكر بعد ذلك فاذاقد ينسى ولكنه يتذكر فلا ينسى نسيانا كليا دائما

والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليها كما فى قوله عليه الصلاة والسلام اعملوا فكل ميسر لما خلق له اى نوفقك توفيقا مستمرا للطريقة اليسرى فى كل باب من ابواب الدين علما وتعليما واهتداء وهداية فيندرج فيه تيسير طريق تلقى الوحى والاحاطة بما فيه من احكام الشريعة السمحة والنواميس الالهية مما يتعلق بتكميل نفسه عليه الصلاة والسلام وتكميل غيره كما تفصح عنه الفاء فى قوله تعالى (فذكر ان نفعت الذكرى) اى فذكر الناس حسبما يسرناك له بما يوحى اليك واهدهم الى مافى تضاعيفه من

روى انه أسقط آية فى قراءته فى الصلاة فحسب أبى انها نسخت فسأله فقال نسيتها (وثانيها) قال مقاتل الا ماشاء الله ان ينسيه و يكون المراد من الانساء ههنا نسخه كما قال ماننسخ من آية اوننسها نأت بخير منها فيكون المعنى الاماشاء الله ان تنساه على الاوقات كلها فيأمرك ان لاتقرأه و لاتصلى به فيصيرذلك سببالنسيانه وزواله عن الصدور (وثالثها) ان يكون معنى قوله الاماشاءالله القلة و الندرة و يشترط ان لايكون ذلك القليل من واجبات الشرع بل من الآداب والسنن فانه لونسى شيئا من الواجبات ولم يتذكره ادى ذلك الى الخلل فى الشرع وانه غيرجائز اما قوله تعالى انه يعلم الجهر ومايخفى ففيه وجهان (احدهما) ان المعنى انه سبحانه عالم بجهرك فى القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام وعالم بالسر الذى فى قلبك وهو انك تخاف النسيان فلاتخف فأنا اكفيك ماتخافه (والثانى) ان يكون المعنى فلاتنسى الاماشاءالله ان ينسخ فانه اعلم بمصالح العبيد فينسخ حيث يعلم ان المصلحة فى النسخ ❊ اماقوله تعالى (ونيسرك لليسرى) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) اليسرى هى اعمال الخيرالتى تؤدى الى اليسر اذاعرفت هذا فنقول للمفسرين فيه وجوه (احدها) ان قوله ونيسرك معطوف على سنقرؤك وقوله انه يعلم الجهر ومايخفى اعتراض والتقدير سنقرؤك فلاتنسى ونوفقك للطريقة التى هى اسهل وأيسر يعنى فى حفظ القرآن (وثانيها) قال ابن مسعود اليسرى الجنة والمعنى نيسرك للعمل المؤدى اليها (وثالثها) نهون عليك الوحى حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به (ورابعها) نوفقك للشريعة وهى الحنيفية السهلة السمحة والوجه الاول اقرب (المسئلة الثانية) لسائل ان يسأل فيقول العبارة المعتادة ان يقال جعل الفعل الفلانى ميسرا لفلان ولايقال جعل فلان ميسرا للفعل الفلانى فما الفائدة فيه ههنا (الجواب) ان هذه العبارة كما انها اختيار القرآن فى هذا الموضع وفى سورة الليل ايضا فكذا هى اختيار الرسول فى قوله عليه السلام اعملوا فكل ميسر لما خلق له (وفيه لطيفة علمية) وذلك لان ذلك الفعل فى نفسه ماهية ممكنة قابلة للوجود والعدم على السوية فما دام القادر يبقى بالنسبة الى فعلها وتركها على التسوية امتنع صدور الفعل عنه فاذا ترجح جانب الفاعلية على جانب التاركية فحينئذ يحصل الفعل فثبت ان الفعل مالم يجب لم يوجد وذلك الرجحان هو المسمى بالتيسير فثبت ان الامر فى التحقيق هو ان الفاعل يصير ميسر الفعل لان الفعل يصير ميسر الفاعل فسبحان من له تحت كل كلمة حكمة خفية وسر عجيب يبهر العقول (المسئلة الثالثة) انما قال ونيسرك لليسرى بنون التعظيم لتكون عظمة المعطى دالة على عظمة العطاء نظيره قوله تعالى انا انزلناه انا نحن نزلنا الذكر انا اعطيناك الكوثر دلت هذه الآية على انه سبحانه فتح عليه من ابواب التيسير والتسهيل مالم يفتحه على أحد غيره وكيف لا وقد كان صبيا لا اب له ولا ام له نشأ فى قوم جهال ثم انه تعالى جعله فى افعاله واقواله قدوة للعالمين وهاديا للخلق أجمعين ❊ اماقوله تعالى (فذكر ان نفعت الذكرى) فاعلم انه تعالى لماتكفل بتيسير جميع مصالح الدنيا والآخرة أمر بدعوة

الاحكام الشرعية كما كنت تفعله لابعد ماستتب لك الامر كما قيل وتقييد التذكير بنفع الذكرى لما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طالما كان يذكرهم ويستفرغ فيه غاية المجهود ويتجاوز فى الجد كل حد معهود حرصا على ايمانهم وما كان يزيد ذلك بعضهم الا كفرا وعنادا فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يخص التذكير بمواد النفع فى الجملة بأن يكون من يذكره كلا او بعضا ممن يرجى منه التذكر ولا يتعب نفسه فى تذكير من لايورثه التذكير الاعتوا ونفورا من المطبوع على قلوبهم كما فى قوله تعالى فذكر بالقرآن من يخاف وعيد وقوله تعالى فاعرض عمن تولى عن ذكرنا وقيل

الخلق الى الحق لان كمال حال الانسان في ان يتخلق باخلاق الله سبحانه تاما وفوق التمام فلما صار محمد عليه السلام تاما بمقتضى قوله ونيسرك لليسرى امر بأن يجعل نفسه فوق التمام بمقتضى قوله فذكر لان التذكير يقتضي تكميل الناقصين وهداية الجاهلين ومن كان كذلك كان فياضا للكمال فكان تاما وفوق التمام وههنا سؤالات (السؤال الأول) انه عليه السلام كان مبعوثا الى الكل فيجب عليه ان يذكرهم سواء نفعتهم الذكرى اولم تنفعهم فما المراد من تعليقه على الشرط في قوله ان نفعت الذكرى (الجواب) ان المعلق بان على الشيء لا يلزم ان يكون عدما عند عدم ذلك الشيء ويدل عليه آيات منها هذه الآية ومنها قوله ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا ومنها قوله واشكروا الله ان كنتم اياه تعبدون ومنها قوله فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم فان القصر جائز وان لم يوجد الخوف ومنها قوله فان لم تجدوا كاتبا فرهان والرهن جائز مع الكتابة ومنها قوله فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا ان يقيما حدود الله والمراجعة جائزة بدون هذا الظن اذا عرفت هذا فنقول ذكروا لذكر هذا الشرط فوائد (احداها) ان من باشر فعلا لغرض فلا شك ان الصورة التي يحصل فيها افضاء تلك الوسيلة الى ذلك الغرض المؤدي الى ذلك الفعل اوجب من الصورة التي علم فيها عدم ذلك الافضاء فلذلك قال ان نفعت الذكرى (وثانيتها) انه تعالى ذكر اشرف الحالتين ونبه على الاخرى كقوله سرابيل تقيكم الحر والتقدير فذكر ان نفعت الذكرى اولم تنفع (وثالثتها) ان المراد منه البعث على الانتفاع بالذكرى كما يقول المرء لغيره اذا بين له الحق قد أوضحت لك ان كنت تعقل فيكون مراده البعث على القبول والانتفاع به (ورابعتها) ان هذا يجري مجرى تنبيه الرسول صلى الله عليه وسلم انه لا تنفعهم الذكرى كما يقال للرجل ادع فلانا ان اجابك والمعنى وما أراه يجيبك (وخامستها) انه عليه السلام دعاهم الى الله كثيرا وكلما كانت دعوته اكثر كان عتوهم اكثر وكان عليه السلام يحترق حسرة على ذلك فقيل له وما انت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد اذ التذكير العام واجب في اول الامر فاما التكرير فلعله انما يجب عند رجاء حصول المقصود فلهذا المعنى قيده بهذا الشرط (السؤال الثاني) التعليق بالشرط انما يحسن في حق من يكون جاهلا بالعواقب اما علام الغيوب فكيف يليق به ذلك (الجواب) روي في الكتب انه تعالى كان يقول لموسى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى وانا اشهد انه لا يتذكر ولا يخشى فامر الدعوة والبعثة شيء وعلمه تعالى بالمغيبات وعواقب الامور غير ولا يمكن بناء أحدهما على الآخر (السؤال الثالث) التذكير المأمور به هل هو مضبوط مثل ان يذكرهم عشر مرات او غير مضبوط وحينئذ كيف يكون الخروج من عهدة التكليف (والجواب) ان الضابط فيه هو العرف والله اعلم ❊ اما قوله تعالى (سيذكر من يخشى) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان الناس في أمر المعاد على ثلاثة اقسام منهم من قطع بصحته ومنهم من جوز وجوده

هو ذم للمذكرين واخبار عن حالهم واستبعاد لتأثير التذكير فيهم وتسجيل عليهم بالطبع على قلوبهم كقولك للواعظ عظ المكاسين ان سمعوا منك قصدا الى انه مما لا يكون والاول انسب لقوله تعالى (سيذكر من يخشى) اى سيتذكر بتذكيرك من من شأنه ان يخشى الله تعالى حق خشيته او من يخشى الله تعالى في الجملة فيزداد ذلك بالتذكير فيتفكر في امر ما تذكر به فيقف على حقيته فيؤمن به وقيل ان بمعنى اذ كما في قوله تعالى وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين اى اذ كنتم وقيل هي بمعنى ما اى فذكر ما نفعت الذكرى فانها لا تخلو عن نفع بكل حال وقيل هناك محذوفه

ولكنه غيرقاطع فيه لابالنفى ولابالاثبات ومنهم من أصر على انكاره وقطع بانه لايكون فالقسمان الاولان تكون الخشية حاصلة لهما واما القسم الثالث فلاخشية له ولاخوف اذا عرفت ذلك ظهر ان الآية تحتمل تفسيرين (احدهما) أن يقال الذى يخشى هو الذى يكون عارفا بالله وعارفا بكمال قدرته وعلمه وحكمته وذلك يقتضى كونه قاطعا بصحة المعاد ولذلك قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فكأنه تعالى لما قال فذكر ان نفعت الذكرى بين فى هذه الآية ان الذى تنفعه الذكرى من هو ولما كان الانتفاع بالذكرى مبنيا على حصول الخشية فى القلب وصفات القلوب مما لااطلاع لأحد عليها الا الله سبحانه وجب على الرسول تعميم الدعوة تحصيلا للمقصود فان المقصود تذكير من ينتفع بالتذكير ولاسبيل اليه الا بتعميم التذكير (والثانى) ان يقال ان الخشية حاصلة للعالمين وللمتوقفين غير المعاندين واكثر الخلق متوقفون غيرمعاندين والمعاندفيهم قليل فاذا ضم الى المتوقفين الذين لهم الغلبة العارفون كانت الغلبة العظيمة لغير المعاندين ثم ان كثيرا من المعاندين انما يعاندون باللسان فاما المعاند فى قلبه بينه وبين نفسه فذلك مما لايكون او ان كان فهو فى غاية الندرة والقلة ثم ان الانسان اذا سمع التخويف بانه يصلى النار الكبرى وانه لايموت فيها ولايحيى انكسر قلبه فلابد وان يستمع وينتفع اغلب الخلق فى اغلب الاحوال واما ذلك المعرض فنادر وترك الخير الكثير لاجل الشر القليل شر كثير فمن هذا الوجه كان قوله فذكر ان نفعت الذكرى يوجب تعميم التذكير (المسئلة الثالثة) السين فى قوله سيذكر يحتمل ان تكون بمعنى سوف يذكر وسوف من الله واجب كقوله سنقرؤك فلا تنسى ويحتمل ان يكون المعنى ان من خشى فانه يتذكر وان كان بعد حين بما يستعمله من التدبر والنظر فهو بعد طول المدة يذكر والله اعلم (المسئلة الثالثة) العلم انما يسمى تذكرا اذا كان قد حصل العلم أولا ثم نسيه وهذه الحالة غير حاصلة للكفار فكيف سمى الله تعالى ذلك بالتذكر (وجوابه) ان لقوة الدلائل وظهورها كأن ذلك العلم كان حاصلا ثم انه زال بسبب التقليد والعناد فلهذا سماه الله تعالى بالتذكر (المسئلة الرابعة) قيل نزلت هذه الآية فى عثمان بن عفان وقيل نزلت فى ابن ام مكتوم ❊ اما قوله تعالى (ويتجنبها الاشقى الذى يصلى النار الكبرى) فاعلم انا بينا ان اقسام الخلق ثلاثة العارفون والمتوقفون والمعاندون وبينا ان القسمين الاولين لابد وان يكون لهما خوف وخشية وصاحب الخشية لابد وان يستمع الى الدعوة وينتفع بها فيكون الاشقى هو المعاند الذى لايستمع الى الدعوة ولاينتفع بها فلهذا قال تعالى ويتجنبها الاشقى الذى يصلى النار الكبرى وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ذكروا فى تفسير النار الكبرى وجوها (احدها) قال الحسن الكبرى نار جهنم والصغرى نار الدنيا (وثانيها) ان فى الآخرة نيرانا ودركات متفاضلة كما ان فى الدنيا ذنوبا ومعاصى متفاضلة وكما ان الكافر أشقى العصاة كذلك يصلى اعظم النيران (وثالثها) ان النار الكبرى هى النار السفلى وهى نصيب

(الكفار)

والتقدير ان نفعت الذكرى وان لم تنفع كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر قاله الفراء والنحاس والجرجانى والزهراوى (ويتجنبها) اى الذكرى (الاشقى) من الكفرة لتوغله فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن ابى ربيعة (الذى يصلى النار الكبرى) اى الطبقة السفلى من طبقات النار وقيل الكبرى نار جهنم والصغرى نار الدنيا لقوله عليه الصلاة والسلام ناركم هذه جزء من سبعين جزأ من نار جهنم (ثم لايموت فيها) حتى يستريح (ولايحيى) حياة تنفعه وثم للتراخى فى مراتب الشدة لان التردد بين الموت والحياة افظع من الصلى

الكفار على ما قال تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار (المسئلة الثانية) قالوا نزلت هذه الآية فى الوليد وعتبة وأبى وانت تعلم ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لاسيما وقد بينا صحة هذا الترتيب بالبرهان العقلى (المسئلة الثالثة) لقائل ان يقول ان الله تعالى ذكرههنا قسمين (احدهما) الذى يذكرويخشى (والثانى) الاشقى الذى يصلى النار الكبرى لكن وجود الاشقى يستدعى وجود الشقى فكيف حال هذا القسم (وجوابه) ان لفظة الاشقى لاتقتضى وجود الشقى اذ قد يجرى مثل هذا اللفظ من غير مشاركة كقوله تعالى اصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا واحسن مقيلا وقيل المعنى ويتجنبها الشقى الذى يصلى كما فى قوله وهو اهون عليه اى هين عليه ومثله قول القائل

ان الذى سمك السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعز وأطول

هذا ما قيل لكن التحقيق ماذكرنا ان الفرق ثلاثة العارف والمتوقف والمعاند فالسعيد هو العارف والمتوقف له بعض الشقاء والاشقى هو المعاند الذى بينا انه هو الذى لايلتفت الى الدعوة ولا يصغى اليها ويتجنبها * اما قوله تعالى (ثم لايموت فيها ولايحيى) ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) للمفسرين فيه وجهان (احدهما) لايموت فيستريح ولايحيى حياة تنفعه كما قال لايقضى عليهم فيموتوا ولايخفف عنهم من عذابها وهذا على مذهب العرب تقول للمبتلى بالبلاء الشديد لاهو حى ولاهو ميت (وثانيهما) معناه ان نفس احدهم فى النار تصير فى حلقه فلاتخرج فيموت ولاترجع الى موضعها من الجسم فيحيى (المسئلة الثانية) انما قيل ثم لان هذه الحالة أفظع واعظم من الصلى فهو متراخ عنه فى مراتب الشدة * اما قوله تعالى (قد افلح من تزكى) ففيه وجهان (احدهما) انه تعالى لما ذكر وعيد من أعرض عن النظر والتأمل فى دلائل الله تعالى اتبعه بالوعد لمن تزكى وتطهر من دنس الشرك (وثانيهما) وهو قول الزجاج تكثر من التقوى لان معنى الزاكى النامى الكثير وهذا الوجه معتضد بقوله تعالى قد افلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون اثبت الفلاح للمستجمعين لثلاث الخصال وكذلك قوله تعالى فى اول البقرة وأولئك هم المفلحون واما الوجه الاول فانه معتضد بوجهين (الاول) انه تعالى لما لم يذكر فى الآية مايجب التزكى عنه علمنا ان المراد هو التزكى عما مر ذكره قبل الآية وذلك هو الكفر فعلمنا ان المراد ههنا قد افلح من تزكى عن الكفر الذى مر ذكره قبل هذه الآية (والثانى) ان الاسم المطلق ينصرف الى المسمى الكامل واكمل انواع التزكية هو تزكية القلب عن ظلمة الكفر فوجب صرف هذا المطلق اليه ويتأكد هذا التأويل بما روى عن ابن عباس انه قال معنى تزكى قول لااله الا الله * اما قوله تعالى (وذكر اسم ربه فصلى) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر المفسرون فيه وجوها (احدها) قال ابن عباس ذكر معاده وموقفه بين يدى ربه فصلى له واقول هذا التفسير متعين وذلك لان مراتب اعمال المكلف ثلاثة (فأولها) ازالة العقائد الفاسدة عن القلب (وثانيها)

(قد افلح) اى نجا من المكروه وظفر بمايرجوه (من تزكى) اى تطهر من الكفر والمعاصى بتذكره واتعاظه بالذكرى اوتكثر من التقوى والخشية من الزكاء وهو النماء وقيل تطهر للصلاة وقيل تزكى تفعل من الزكاة وكلمة قد لما ان عند الاخبار بسوء حال المتجنب عن الذكرى فى الآخرة يتوقع السامع الاخبار بحسن حال المتذكر فيها وينتظره (وذكر اسم ربه) بقلبه ولسانه (فصلى) اقام الصلوات الخمس كقوله اقم الصلاة لذكرى اوكبر تكبيرة الافتتاح فصلى وقيل تزكى اى تصدق صدقة الفطر وذكر اسم ربه اى كبره يوم العيد فصلى اى صلاته (بل تؤثرون الحياة الدنيا) اضراب عن مقدر ينساق اليه الكلام كأنه قيل اثر بيان مايؤدى الى الفلاح لاتفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها والخطاب اما للكفرة فالمراد بايثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها والاعراض عن الآخرة

استحضار معرفة الله تعالى بذاته وصفاته واسمائه (وثالثها) الاشتغال بخدمته فالمرتبة الاولى هى المراد بالتزكية فى قوله قدافلح من تزكى (وثانيها) هى المراد بقوله وذكر اسم ربه فان الذكر بالقلب ليس الا المعرفة (وثالثها) الخدمة وهى المراد بقوله فصلى فان الصلاة عبارة عن التواضع والخشوع فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله تعالى وكبريائه لابد وان يظهر فى جوارحه واعضائه اثر الخضوع والخشوع (وثانيها) قال قوم من المفسرين قوله قدافلح من تزكى يعنى من تصدق قبل مروره الى العيد وذكر اسم ربه فصلى يعنى ثم صلى صلاة العيد بعد ذلك مع الامام وهذا قول عكرمة وابى العالية وابن سيرين وابن عمر وروى ذلك مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم وهذا التفسير فيه اشكال من وجهين (الاول) ان عادة الله تعالى فى القرآن تقديم ذكر الصلاة على ذكر الزكاة لاتقديم الزكاة على الصلاة (والثانى) قال الثعلبى هذه السورة مكية بالاجماع ولم يكن بمكة عيد ولازكاة فطر اجاب الواحدى عنه بانه لا يمتنع ان يقال لما كان فى معلوم الله تعالى ان ذلك سيكون اثنى على من فعل ذلك (وثالثها) قال مقاتل قدافلح من تزكى اى تصدق من ماله وذكر ربه بالتوحيد فى الصلاة فصلى له والفرق بين هذا الوجه وماقبله ان هذا يتناول الزكاة والصلاة المفروضتين والوجه الاول ليس كذلك (ورابعها) قدافلح من تزكى ليس المراد منه زكاة المال بل زكاة الاعمال اى من تطهر فى اعماله من الرياء والتقصير لان اللفظ المعتاد ان يقال فى المال زكى ولايقال تزكى قال تعالى ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه (وخامسها) قال ابن عباس وذكر اسم ربه اى كبر فى خروجه الى العيد وصلى صلاة العيد (وسادسها) المعنى وذكر اسم ربه فى صلاته ولاتكون صلاته كصلاة المنافقين حيث يراؤون الناس ولايذكرون الله الاقليلا (المسئلة الثانية) الفقهاء احتجوا بهذه الآية على وجوب تكبيرة الافتتاح واحتج ابو حنيفة رحمه الله بها على ان تكبيرة الافتتاح ليست من الصلاة قال لان الصلاة معطوفة عليها والعطف يستدعى المغايرة واحتج ايضا بهذه الآية على ان الافتتاح جائز بكل اسم من اسمائه واجاب اصحابنا بان تقدير الآية وصلى فذكر اسم ربه ولافرق بين ان تقول اكرمتنى فزرتنى وبين ان تقول زرتنى فاكرمتنى ولابى حنيفة ان يقول ترك العمل بفاء التعقيب لايجوز من غير دليل والاولى فى الجواب ان يقال الآية تدل على مدح كل من ذكر اسم الله فصلى عقيبه وليس فى الآية بيان ان ذلك الذكر هو تكبيرة الافتتاح فلعل المراد به ان من ذكر الله بقلبه وذكر ثوابه وعقابه دعاه ذلك الى فعل الصلاة فحينئذ يأتى بالصلاة التى احد أجزائها التكبير وحينئذ يندفع الاستدلال ※ ثم قال تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا) وفيه قراءتان قراءة العامة بالتاء ويؤكده حرف ابى اى بل انتم تؤثرون عمل الدنيا على عمل الآخرة قال ابن مسعود ان الدنيا أخضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها وان الآخرة لغيب لنا وزويت عنا فأخذنا بالعاجل وتركنا الآجل وقرأ ابو عمرو يؤثرون بالياء يعنى الاشقى

(ثم)

بالكلية كما فى قوله تعالى ان الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها الآية والكل فالمراد بايثارها ماهو اعم مما ذكر وما لايخلو عنه الانسان غالبا من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة فى السعى وترتيب المبادى والالتفات على الاول لتشديد التوبيخ وعلى الثانى كذلك فى حق الكفرة وتشديد العتاب فى حق المسلمين وقرئ يؤثرون بالياء وقوله تعالى (والآخرة خير وابقى) حال من فاعل تؤثرون مؤكدة للتوبيخ والعتاب اى تؤثرونها على الآخرة والحال ان الآخرة خير فى نفسها لما ان نعيمها مع كونه فى غاية مايكون من اللذة خالص عن شائبة الغائلة ابدى لا انصرام له وعدم التعرض لبيان تكدر نعيم الدنيا بالمنغصات وانقطاعه عما قليل لغاية ظهوره (ان هذا) اشارة الى ماذكر من قوله تعالى قدافلح من تزكى وقيل الى مافى السورة جميعا (لفى الصحف الاولى) اى ثابت فيها معناه

* ثم قال تعالى (والآخرة خير وابقى) وتمامه ان كل ما كان خيرا وابقى فهو آثر فيلزم ان تكون الآخرة آثر من الدنيا وهم كانوا يؤثرون الدنيا وانما قلنا ان الآخرة خير لوجوه (احدها) ان الآخرة مشتملة على السعادة الجسمانية والروحانية والدنيا ليست كذلك فالآخرة خير من الدنيا (وثانيها) ان الدنيا لذاتها مخلوطة بالآلام والآخرة ليست كذلك (وثالثها) ان الدنيا فانية والآخرة باقية والباقي خير من الفاني * ثم قال تعالى (ان هذا لفي الصحف الاولى) واختلفوا في المشار اليه بلفظ هذا منهم من قال جميع السورة وذلك لان السورة مشتملة على التوحيد والنبوة والوعيد على الكفر بالله والوعد على طاعة الله تعالى ومنهم من قال بل المشار اليه بهذه الاشارة هو من قوله قد افلح من تزكى الى قوله والآخرة خير وابقى وذلك لان قوله قد افلح من تزكى اشارة الى تطهير النفس عن كل ما لا ينبغي اما في القوة النظرية فعن جميع العقائد الفاسدة واما في القوة العملية فعن جميع الاخلاق الذميمة واما قوله وذكر اسم ربه فهو اشارة الى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى واما قوله فصلى فهو اشارة الى تكميل الجوارح وتزيينها بطاعة الله تعالى واما قوله بل تؤثرون الحياة الدنيا فهو اشارة الى الزجر عن الالتفات الى الدنيا واما قوله والآخرة خير وابقى فهو اشارة الى الترغيب في الآخرة وفي ثواب الله تعالى وهذه امور لا يجوز ان تختلف باختلاف الشرائع فلهذا السبب قال ان هذا لفي الصحف الاولى وهذا الوجه كما تأكد بالعقل فالخبر يدل عليه روى عن ابي ذر أنه قال قلت هل في الدنيا مما في صحف ابراهيم وموسى فقال اقرأ يا اباذر قد افلح من تزكى وقال آخرون ان قوله هذا اشارة الى قوله والآخرة خير وابقى وذلك لان الاشارة راجعة الى اقرب المذكورات وذلك هو هذه الآية واما قوله لفي الصحف الاولى فهو نظير لقوله وانه لفي زبر الاولين وقوله شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا * وقوله تعالى (صحف ابراهيم وموسى) فيه قولان (احدهما) انه بيان لقوله في الصحف الاولى (والثاني) ان المراد انه مذكور في صحف جميع الانبياء التي منها صحف ابراهيم وموسى روى عن ابي ذر انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كم انزل الله من كتاب فقال مائة واربعة كتب على آدم عشر صحف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى ادريس ثلاثين صحيفة وعلى ابراهيم عشر صحائف والتوراة والانجيل والزبور والفرقان وقيل ان في صحف ابراهيم ينبغي للعاقل ان يكون حافظا للسانه عارفا بزمانه مقبلا على شانه والله تعالى أعلم

(سورة الغاشية عشرون وست آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة) اعلم ان في قوله هل اتاك حديث الغاشية مسئلتين (المسئلة الاولى) ذكروا في الغاشية وجوها (احدها) انها القيامة من قوله يوم يغشاهم العذاب وانما سميت القيامة بهذا الاسم لان ما احاط بالشيء

(صحف ابراهيم وموسى) بدل من الصحف الاولى وفي ابهامها ووصفها بالقدم ثم بيانها وتفسيرها من تفخيم شأنها ما لا يخفى روى ان جميع ما انزل الله عز وجل من كتاب مائة واربعة كتب انزل على آدم عليه السلام عشر صحف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى ادريس ثلاثين صحيفة وعلى ابراهيم عشر صحائف عليهم السلام والتوراة والانجيل والزبور والفرقان * عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الاعلى اعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كل حرف انزله الله تعالى على ابراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام

(سورة الغاشية مكية وآيها)
(ست وعشرون)

* (بسم الله الرحمن الرحيم *)

(هل اتاك حديث الغاشية) قيل هل بمعنى قد كما في قوله تعالى هل اتى على الانسان الآية قال قطرب اى قد جاءك محمد حديث الغاشية وليس بذاك بل هو استفهام اريد به التعجيب مما في حيزه والتشويق الى استماعه والاشعار بأنه من الاحاديث البديعة التي حقها ان يتناقلها الرواة ويتنافس في تلقيها الوعاة من كل حاضر وباد والغاشية الداهية الشديدة التي تغشى الناس

من جميع جهاته فهو غاش له والقيامة كذلك من وجوه (الاول) انها ترد على الخلق بغتة وهو كقوله تعالى أفأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله (والثانى) انها تغشى الناس جميعا من الاولين والآخرين (والثالث) انها تغشى الناس بالاهوال والشدائد (القول الثانى) الغاشية هى النار اى تغشى وجوه الكفرة واهل النار قال تعالى وتغشى وجوههم النار ومن فوقهم غواش وهو قول سعيد بن جبير ومقاتل (القول الثالث) الغاشية اهل النار يغشونها ويقعون فيها والاول اقرب لان على هذا التقدير يصير المعنى ان يوم القيامة يكون بعض الناس فى الشقاوة وبعضهم فى السعادة (المسئلة الثانية) انما قال هل اتاك وذلك لانه تعالى عرف رسول الله من حالها وحال الناس فيها مالم يكن هو ولا قومه عارفا به على التفصيل لان العقل ان دل فانه لا يدل الا على ان حال العصاة مخالفة لحال المطيعين فأما كيفية تلك التفاصيل فلا سبيل للعقل اليها فلما عرفه الله تفصيل تلك الاحوال لاجرم قال هل اتاك حديث الغاشية اما قوله تعالى وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة فاعلم انه وصف لاهل الشقاوة وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المراد بالوجوه اصحاب الوجوه وهم الكفار بدليل انه تعالى وصف الوجوه بانها خاشعة عاملة ناصبة وذلك من صفات المكلف لكن الخشوع يظهر فى الوجه فعلقه بالوجه لذلك وهو كقوله وجوه يومئذ ناضرة وقوله خاشعة اى ذليلة قد عراهم الخزى والهوان كما قال ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم وقال وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وانما يظهر الذل فى الوجه لانه ضد الكبر الذى محله الرأس والدماغ واما العاملة فهى التى تعمل الاعمال ومعنى النصب الدؤوب فى العمل مع التعب (المسئلة الثانية) الوجوه الممكنة فى هذه الصفات الثلاثة لاتزيد على ثلاثة لانه اما ان يقال هذه الصفات بأسرها حاصلة فى الآخرة او هى باسرها حاصلة فى الدنيا او بعضها فى الآخرة وبعضها فى الدنيا (اما الوجه الاول) وهو انها بأسرها حاصلة فى الآخرة فهو ان هؤلاء الكفار يكونون يوم القيامة خاشعين اى ذليلين وذلك لانها فى الدنيا تكبرت عن عبادة الله وعاملين لانها تعمل فى النار عملا تتعب فيه وهو جرها السلاسل والاغلال الثقيلة على ماقال فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا وخوضها فى النار كما تخوض الابل فى الوحل بحيث ترتقى عنه تارة وتغوص فيه اخرى والتقحم فى حر جهنم والوقوف عراة حفاة جياعا عطاشا فى العرصات قبل دخول النار فى يوم كان مقداره الف سنة وناصبين لانهم دائما يكونون فى ذلك العمل قال الحسن هذه الصفات كان يجب ان تكون حاصلة فى الدنيا لاجل الله فلما لم تكن كذلك سلطها الله عليهم يوم القيامة على سبيل العقاب (واما الوجه الثانى) وهو انها بأسرها حاصلة فى الدنيا فقيل هم اصحاب الصوامع من اليهود والنصارى وعبدة الاوثان والمجوس والمعنى انها خشعت لله وعملت ونصبت فى اعمالها من الصوم الدائب والتهجد الواصب وذلك لانهم لما اعتقدوا فى الله مالا يليق به فكأنهم اطاعوا ذاتا

بشدائدها وتكتنفهم باهوالها وهى القيامة من قوله تعالى يوم يغشاهم العذاب الخ وقيل هى النار من قوله تعالى وتغشى وجوههم النار وقوله تعالى ومن فوقهم غواش والاول هو الحق فان ماسيروى من حديثها ليس مختصا بالنار واهلها بل ناطق بأحوال اهل الجنة ايضا وقوله تعالى (وجوه يومئذ خاشعة) الى قوله تعالى مبثوثة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الاستفهام التشويقى كأنه قيل من جهته عليه الصلاة والسلام ماأتانى حديثها فاهو فقيل وجوه يومئذ اى يوم اذ غشيت ذليلة قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن اتاه عليه الصلاة والسلام حديثها فأخبره عليه الصلاة والسلام عنها فقال وجوه الخ فوجوه مبتدأ ولا بأس بتنكيرها لانها فى موقع التنويع وخاشعة خبره وقوله تعالى (عاملة ناصبة) خبران آخران لوجوه اذ المراد بها اصحابها اى تعمل اعمالا شاقة تتعب فيها وهى جر السلاسل والاغلال والخوض فى النار خوض الابل فى الوحل والصعود والهبوط فى تلال النار ووهادها

(موصوفة)

موصوفة بالصفات التي تخيلوها فهم في الحقيقة ماعبدوا الله وانما عبدوا ذلك المتخيل الذي لا وجود له فلا جرم لا تنفعهم تلك العبادات اصلا (واما الوجه الثالث) وهو ان بعض تلك الصفات حاصل في الآخرة وبعضها في الدنيا ففيه وجوه (احدها) انها خاشعة في الآخرة مع انها كانت في الدنيا عاملة ناصبة والمعنى انها لم تنتفع بعملها ونصبها في الدنيا ولا يمتنع وصفهم ببعض اوصاف الآخرة ثم يذكر بعض اوصاف الدنيا ثم يعاد الى ذكر الآخرة اذا كان المعنى في ذلك مفهوما فكأنه تعالى قال وجوه يوم القيامة خاشعة لانها كانت في الدنيا عاملة ناصبة في غير طاعة الله فهي اذن تصلى نارا حامية في الآخرة (وثانيها) انها خاشعة عاملة في الدنيا ولكنها ناصبة في الآخرة فخشوعها في الدنيا خوفها الداعي لها الى الاعراض عن لذائذ الدنيا وطيباتها وعملها هو صلاتها وصومها ونصبها في الآخرة هو مقاساة العذاب على ماقال تعالى وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون وقرئ عاملة ناصبة على الشتم ❊ واعلم انه تعالى بعد ان وصفهم بهذه الصفات الثلاث شرح بعد ذلك كيفية مكانهم ومشربهم ومطعمهم نعوذ بالله منها اما مكانهم فقوله تعالى (تصلى نارا حامية) يقال صلى بالنار يصلى اى لزمها واحترق بها وقرئ بنصب التاء وحجته قوله الا من هو صال الجحيم وقرأ ابوعمرو وعاصم برفع التاء من اصليته النار لقوله ثم الجحيم صلوه وقوله ونصله جهنم وصلوه مثل اصلوه وقرأ قوم تصلى بالتشديد وقيل المصلى عند العرب ان يحفروا حفيرا فيجمعوا فيه جمرا كثيرا ثم يعمدوا الى شاة فيدسوها وسطه فاما مايشوى فوق الجمر او على المقلاة او في التنور فلا يسمى مصلى وقوله حامية اى قد اوقدت واحميت المدة الطويلة فلا حر يعدل حرها قال ابن عباس قد حميت فهي تتلظى على اعداء الله تعالى ❊ واما مشروبهم فقوله تعالى (تسقى من عين آنية) الآنى الذى قد انتهى حره من الايناء بمعنى التأخير وفي الحديث ان رجلا اخر حضور الجمعة ثم تخطى رقاب الناس فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم آنيت وآذيت ونظير هذه الآية قوله يطوفون بينها وبين حميم آن قال المفسرون ان حرها بلغ الى حيث لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت ❊ واما مطعومهم فقوله تعالى (ليس لهم طعام الا من ضريع) واختلفوا في ان الضريع ماهو على وجوه (احدها) قال الحسن لا ادرى ما الضريع ولم اسمع فيه من الصحابة شيئا (وثانيها) روى عن الحسن ايضا انه قال الضريع بمعنى المضرع كالأليم والسميع والبديع بمعنى المؤلم والمسمع والمبدع ومعناه الا من طعام يحملهم على ان يضرعوا ويذلوا عند تناوله لما فيه من الخشونة والمرارة والحرارة (وثالثها) ان الضريع مايبس من الشبرق وهو جنس من الشوك ترعاه الابل مادام رطبا فاذا يبس تحامته وهو سم قاتل قال ابوذؤيب

رعى الشبرق الريان حتى اذا ذوى ❊ وعاد ضريعا عاده عنه النحائص

جمع نحوص وهى الحائل من الابل وهذا قول اكثر المفسرين واكثر اهل اللغة

وقيل عملت في الدنيا اعمال السوء والتذت بها فهي يومئذ في نصب منها وقيل عملت ونصبت في اعمال لا تجدى عليها في الآخرة وقوله تعالى (تصلى) اى تدخل (نارا حامية) اى متناهية في الحر خبر آخر لوجوه وقيل هو الخبر وما قبله صفات لوجوه وقد مر غير مرة ان الصفة حقها ان تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند السامع قبل جعلها صفة له ولا ريب في ان صلى النار وما قبله من الخشوع والعمل والنصب امور متساوية في الانتساب الى الوجوه معرفة وجهالة فجعل بعضها عنوانا للموضوع قيدا مفروغا عنه غير مقصود الافادة وبعضها مناطا للافادة تحكم بحت ويجوز ان يكون هذا وما بعده من الجملتين استئنافا مبينا لتفاصيل احوالها (تسقى من عين آنية) اى متناهية في الحر كما في قوله تعالى وبين حميم آن (ليس لهم طعام الا من ضريع) بيان لطعامهم اثر بيان شرابهم والضريع يبيس الشبرق وهو شوك ترعاه الابل مادام رطبا واذا يبس تحامته وهو سم قاتل وقيل هى شجرة نارية تشبه الضريع وقال ابن كيسان هو طعام يضرعون عنده ويذلون ويتضرعون الى الله تعالى طلبا

(ورابعها) قال الخليل فى كتابه ويقال للجلدة التى على العظم تحت اللحم هى الضريع فكأنه تعالى وصفه بالقلة فلاجرم لايسمن ولايغنى من جوع (وخامسها) قال ابو الجوزاء الضريع السلا ويقرب منه ماروى عن سعيد بن جبير انه شجرة ذات شوك ثم قال أبو الجوزاء وكيف يسمن من كان يأكل الشوك وفى الخبر الضريع شئ يكون فى النار شبيه الشوك امر من الصبر وانتن من الجيفة واشد حرا من النار قال القفال والمقصد من ذكر هذا الشراب وهذا الطعام بيان نهاية ذلهم وذلك لان القوم لما اقاموا فى تلك السلاسل والاغلال تلك المدة الطويلة عطا شاجياعا ثم القوا فى النار فرأوا فيها ماء وشيئا من النبات فأحب اولئك القوم تسكين مابهم من العطش والجوع فوجدوا الماء حميما لايروى بل يشوى ووجدوا النبات مما لايشبع ولايغنى من جوع فأيسوا وانقطعت اطماعهم فى ازالة مابهم من الجوع والعطش كما قال وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل وبين ان هذه الحالة لاتزول ولاتنقطع نعوذ بالله منها وههنا سؤالات (السؤال الاول) قال تعالى فى سورة الحاقة فليس له اليوم ههنا حميم ولاطعام الامن غسلين وقال ههنا ليس لهم طعام الامن ضريع والضريع غير الغسلين (الجواب) من وجهين (الاول) ان النار دركات فن اهل النار من طعامه الزقوم ومنهم من طعامه الغسلين ومنهم من طعامه الضريع ومنهم من شرابه الحميم ومنهم من شرابه الصديد لكل باب منهم جزء مقسوم (الثانى) يحتمل ان يكون الغسلين من الضريع ويكون ذلك كقوله مالى طعام الا من الشاء ثم يقول مالى طعام الامن اللبن ولاتناقض لان اللبن من الشاء (السؤال الثانى) كيف يوجد النبت فى النار (الجواب) من وجهين (الاول) ليس المراد ان الضريع نبت فى النار يأكلونه ولكنه ضرب مثل اى انهم يقتاتون بما لايشبعهم او يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع (الثانى) لم لايجوز ان يقال ان النبت يوجد فى النار فانه لما لم يستبعد بقاء بدن الانسان مع كونه لحما ودما فى النار ابد الآباد فكذا ههنا وكذا القول فى سلاسل النار واغلالها وعقاربها وحياتها ❁ اما قوله تعالى (لايسمن ولايغنى من جوع) فهو مرفوع المحل او مجروره على وصف طعام او ضريع واما المعنى ففيه ثلاثة اوجه (احدها) ان طعامهم ليس من جنس مطاعم الانس وذلك لان هذا نوع من انواع الشوك والشوك مما يرعاه الابل وهذا النوع مما ينفر عنه الابل فاذن منفعتا الغذاء منتفيتان عنه وهما اماطة الجوع وافادة القوة والسمن فى البدن (وثانيها) ان يكون المعنى لاطعام لهم اصلا لان الضريع ليس بطعام للبهائم فضلا عن الانس لان الطعام ما اشبع واسمن وهو منهما بمعزل كما تقول ليس لفلان ظل الا الشمس تريد نفى الظل على التوكيد (وثالثها) روى ان كفار قريش قالت ان الضريع لتسمن عليه ابلنا فنزلت لايسمن ولايغنى من جوع فلايخلوا اما ان يتعنتوا بذلك الكلام كذبا فيردقولهم بنفى السمن والشبع واما ان يصدقوا فيكون المعنى ان طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم

للخلاص منه فسمى بذلك وهذا طعام لبعض اهل النار والزقوم والغسلين لآخرين (لايسمن ولا يغنى من جوع) اى ليس من شانه الاسمان والاشباع كما هو شأن طعام الدنيا وانما هو شئ يضطرون الى اكله من غير ان يكون له دفع لضرورتهم لكن لاعلى ان لهم استعدادا للشبع والسمن الا انه لايفيدهم شيأ منهما بل على انه لااستعداد من جهتهم ولاافادة من جهة طعامهم وتحقيق ذلك ان جوعهم وعطشهم ليسا من قبيل ماهو المعهود منهما فى هذه النشأة من حالة عارضة للانسان عند استدعاء الطبيعة لبدل مايتحلل من البدن مشوقة لها الى المطعوم والمشروب بحيث يلتذ بهما عند الاكل والشرب ويستغنى بهما عن غيرهما عند استقرارهما فى المعدة ويستفيد منهما قوة وسمنا عند انهضامهما بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند اضطرام النار فى احشائهم الى ادخال شئ كثيف يملؤها ويخرج مافيها من اللهب واما ان يكون لهم شوق الى مطعوم ما أو التذاذ به عند الاكل واستغناء به عن الغير او استفادة قوة فهيهات وكذا عطشهم عبارة عن اضطرارهم عند اكل الضريع والتهابه فى

انما هو من ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع قال القاضي يجب في كل طعامهم ان لا يغني من جوع لان ذلك نفع ورأفة وذلك غير جائز في العقاب * قوله تعالى (وجوه يومئذ ناعمة) اعلم انه سبحانه لما ذكر وعيد الكفار اتبعه بشرح احوال المؤمنين فذكر وصف اهل الثواب اولا ثم وصف دار الثواب ثانيا اما وصف اهل الثواب فبأمرين (احدهما) في ظاهرهم وهو قوله ناعمة اي ذات بهجة وحسن كقوله تعرف في وجوههم نضرة النعيم او متنعمة * (والثاني) في باطنهم وهو قوله (لسعيها راضية) وفيه تأويلان (احدهما) انهم حمدوا سعيهم واجتهادهم في العمل لله لما فازوا بسببه من العاقبة الحميدة كالرجل يعمل العمل فيجزى عليه بالجميل ويظهر له منه عاقبة محمودة فيقول ما احسن ما عملت ولقد وفقت للصواب فيما صنعت فيثني على عمل نفسه ويرضاه (والثاني) المراد لثواب سعيها في الدنيا راضية اذا شاهدوا ذلك الثواب وهذا اولى اذ المراد ان الذي يشاهدونه من الثواب العظيم يبلغ حد الرضا حتى لا يريدوا اكثر منه واما وصف دار الثواب فاعلم ان الله تعالى وصفها بأمور سبعة * (احدها) قوله تعالى (في جنة عالية) ويحتمل ان يكون المراد هو العلو في المكان ويحتمل ان يكون المراد هو العلو في الدرجة والشرف والمنقبة اما العلو في المكان فذلك لان الجنة درجات بعضها اعلى من بعض قال عطاء الدرجة مثل ما بين السماء والارض * (وثانيها) قوله تعالى (لا تسمع فيها لاغية) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) في قوله لا تسمع ثلاث قراآت (احدها) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتاء على الخطاب لاغية بالنصب والمخاطب بهذا الخطاب يحتمل ان يكون هو النبي صلى الله عليه وسلم وان يكون لا تسمع يا مخاطب فيها لاغية وهذا يفيد السماع في الخطاب كقوله واذا رأيت ثم رأيت وقوله اذا رأيتهم حسبتهم ويحتمل ان تكون هذه التاء عائدة الى الوجوه والمعنى لا تسمع الوجوه فيها لاغية (وثانيها) قرأ نافع بالتاء المنقوطة من فوق مرفوعة على التأنيث لاغية بالرفع (وثالثها) قرأ ابن كثير وابو عمرو لا يسمع بالياء المنقوطة من تحت مضمومة على التذكير لاغية بالرفع وذلك جائز لوجهين (الاول) ان هذا الضرب من المؤنث اذا تقدم فعله وكان بين الفعل والاسم حائل حسن التذكير قال الشاعر

ان امرأ غره منكن واحدة * بعدي وبعدك في الدنيا لمغرور

(والثاني) ان المراد باللاغية اللغو فالتأنيث على اللفظ والتذكير على المعنى (المسئلة الثانية) لاهل اللغة في قوله لاغية ثلاثة اوجه (احدها) انه يقال لغا يلغو لغوا ولاغية فاللاغية واللغو شيء واحد ويتأكد هذا الوجه بقوله سبحانه لا يسمعون فيها لغوا (وثانيها) ان يكون صفة والمعنى لا يسمع كلمة لاغية (وثالثها) قال الاخفش لاغية اي كلمة ذات لغو كما تقول فارس ودارع لصاحب الفرس والدرع واما اهل التفسير فلهم وجوه (احدها) ان الجنة منزهة عن اللغو لانها منزل جيران الله تعالى وانما نالوها بالجد والحق

بطونهم الى شيء مائع بارد يطفئه من غير ان يكون لهم التذاذ بشربه او استفادة قوة به في الجملة وهو المعنى بما روى انه تعالى يسلط عليهم الجوع بحيث يضطرهم الى اكل الضريع فاذا اكلوه يسلط عليهم العطش فيضطرهم الى شرب الحميم فيشوي وجوههم ويقطع امعاءهم وتنكير الجوع للتحقير اي لا يغني من جوع ما وتأخير نفي الاغناء منه لمراعاة الفواصل والتوسل به الى التصريح بنفي كلا الامرين اذ لو قدم لما احتيج الى ذكر نفي الاسمان ضرورة استلزام نفي الاغناء عن الجوع اياه بخلاف العكس ولذلك كرر لا لتأكيد النفي وقوله تعالى (وجوه يومئذ ناعمة) شروع في رواية حديث اهل الجنة وتقديم حكاية حال اهل النار لانه ادخل في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها ولان حكاية حسن حال اهل الجنة بعد حكاية سوء حال اهل النار مما يزيد المحكي حسنا وبهجة والكلام في اعراب الجملة كالذي مر في نظيرتها وانما لم تعطف عليها ايذانا بكمال تباين مضمونيهما ومعنى ناعمة ذات بهجة وحسن كقوله تعالى تعرف في وجوههم نضرة النعيم او متنعمة (لسعيها راضية) اي لعملها الذي

لابا لغو و الباطل و هكذا كل مجلس فى الدنيا شريف مكرم فانه يكون مبرأ عن اللغو وكل ماكان ابلغ فى هذا كان اكثر جلالة هذا ماقرره القفال (والثانى) قال الزجاج لايتكلم اهل الجنة الا بالحكمة والثناء على الله تعالى على مارزقهم من النعيم الدائم (والثالث) عن ابن عباس يريد لاتسمع فيها كذبا ولا بهتانا ولا كفرا بالله ولا شتما (والرابع) قال مقاتل لايسمع بعضهم من بعض الحلف عند الشراب كما يحلف اهل الدنيا اذا شربوا الخمر واحسن الوجوه ماقرره القفال (الخامس) قال القاضى اللغو مالا فائدة فيه فالله تعالى نفى عنهم ذلك ويندرج فيه مايؤذى سامعه على طريق الاولى ❊ (الصفة الثالثة) للجنة قوله تعالى (فيها عين جارية) قال صاحب الكشاف يريد عيونا فى غاية الكثرة كقوله علمت نفس قال القفال فيها عين شراب جارية على وجه الارض فى غير اخدود وتجرى لهم كما أرادوا قال الكلبى لاأدرى بماء اوغيره ❊ (الصفة الرابعة) قوله تعالى (فيها سرر مرفوعة) اى عالية فى الهواء وذلك لاجل ان يرى المؤمن اذا جلس عليها جميع ما اعطاه ربه فى الجنة من النعيم والملك وقال خارجة بن مصعب بلغنا انها بعضها فوق بعض فيرتفع ماشاء الله فاذا جاء ولى الله ليجلس عليها تطامنت له فاذا استوى عليها ارتفعت الى حيث شاء الله والاول اولى وان كان الثانى ايضا غير ممتنع لان ذلك ربما كان اعظم فى سرور المكلف قال ابن عباس هى سرر الواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة فى السماء ❊ (الصفة الخامسة) قوله تعالى (واكواب موضوعة) الاكواب الكيزان التى لاعرى لها قال قتادة فهى دون الاباريق وفى قوله موضوعة وجوه (احدها) انها معدة لاهلها كالرجل يلتمس من الرجل شيئا فيقول هو ههنا موضوع بمعنى معد (وثانيها) موضوعة على حافات العيون الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها مملوأة من الشراب (وثالثها) موضوعة بين ايديهم لاستحسانهم اياها بسبب كونها من ذهب اوفضة اومن جوهر وتلذذهم بالشراب منها (ورابعها) ان يكون المراد موضوعة عن حد الكبر اى هى اوساط بين الصغر والكبر كقوله قدروها تقديرا ❊ (الصفة السادسة) قوله تعالى (ونمارق مصفوفة) النمارق هى الوسائد فى قول الجميع واحدها نمرقة بضم النون وزاد الفراء سماعا عن العرب نمرقة بكسر النون قال الكلبى وسائد مصفوفة بعضها الى جانب بعض أينما أراد ان يجلس جلس على واحدة واستند الى اخرى ❊ (الصفة السابعة) قوله تعالى (وزرابى مبثوثة) يعنى البسط والطنافس واحدها زربية وزربى بكسر الزاى فى قول جميع اهل اللغة وتفسير مبثوثة مبسوطة منشورة او مفرقة فى المجالس ❊ قوله تعالى (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت) اعلم انه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة وقسم اهل القيامة الى قسمين الاشقياء والسعداء ووصف احوال الفريقين وعلم انه لاسبيل الى اثبات ذلك الا بواسطة اثبات الصانع الحكيم لاجرم اتبع ذلك بذكر هذه الدلالة فقال افلا ينظرون الى الابل ووجه الاستدلال بذلك على صحة المعاد

(انها)

محلته فى الدنيا حيث شاهدت ثمرته (فى جنة عالية) مرتفعة المحل اوعلية المقدار (لاتسمع) اى انت اوالوجوه (فيها لاغية) لغوا او كلمة ذات لغو او نفسا تلغو فان كلام اهل الجنة كله اذكار وحكم وقرئ لاتسمع على البناء للمفعول بالياء والتاء ورفع لاغية (فيها عين جارية) اى عيون كثيرة تجرى مياهها كقوله تعالى علمت نفس (فيها سرر مرفوعة) رفيعة السمك اوالمقدار (واكواب) جمع كوب وهو اناء لاعروة له (موضوعة) اى بين ايديهم (ونمارق) وسائد جمع نمرقة بالفتح والضم (مصفوفة) بعضها الى بعض (وزرابى) اى بسط فاخرة جمع زربية (مبثوثة) اى مبسوطة (افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت) استئناف مسوق لتقرير مافصل من حديث الغاشية وما هو مبنى عليه من البعث الذى هم فيه مختلفون بالاستشهاد عليه بما لايستطيعون انكاره والهمزة للانكار والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وكلمة كيف منصوبة بما بعدها كما فى قوله تعالى كيف تكفرون بالله معلقة لفعل النظر والجملة فى حيز الجر على انها بدل اشتمال من الابل اى ينكرون ماذكر من البعث واحكامه ويستبعدون

انها تدل على وجود الصانع الحكيم ومتى ثبت ذلك فقد ثبت القول بصحة المعاد (أما الاول) فلأن الاجسام متساوية في الجسمية فاختصاص كل واحد منها بالوصف الذى لاجله امتاز عن الآخر لابد وان يكون لتخصيص مخصص وايجاد قادر ولما رأينا هذه الاجسام مخلوقة على وجه الاتقان والاحكام علمنا ان ذلك الصانع عالم ولما علمنا ان ذلك الصانع لابد وان يكون مخالفا لخلقه فى نعت الحاجة والحدوث والاحكام علمنا انه غنى فهذا يدل على ان للعالم صانعا قادرا عالما غنيا فوجب ان يكون فى غاية الحكمة ثم انا نرى الناس بعضهم محتاجا الى البعض فان الانسان الواحد لا يمكنه القيام بمهمات نفسه بل لابد من بلدة يكون كل واحد من اهلها مشغولا بمهم آخر حتى ينتظم من مجموعهم مصلحة كل واحد منهم وذلك الانتظام لا يحسن الامع التكليف المشتمل على الوعد والوعيد وذلك لا يحصل الا بالبعث والقيامة وخلق الجنة والنـار فثبت ان اقامة الدلالة على الصانع الحكيم توجب القول بصحة البعث والقيـامة فلهذا السبب ذكر الله دلالة التوحيد فى آخر هذه السورة فان قيل فأى مجانسة بين الابل والسماء والجبال والارض ثم لم بدأ بذكر الابل قلنا فيه وجهان (الاول) ان جميع المخلوقات متساويه فى هذه الدلالة وذكر جميعها غير ممكن لكثرتها واى واحد منها ذكر دون غيره كان هذا السؤال عائدا فوجب الحكم بسقوط هذا السؤال على جميع التقادير وايضا فلعل الحكمة فى ذكر هذه الاشياء التى هى غير متناسبة التنبيه على ان هذا الوجه من الاستدلال غير مختص بنوع دون نوع بل هو عام فى الكل على ما قال وان من شئ الا يسبح بحمده ولو ذكر غيرها لم يكن الامر كذلك لا جرم ذكر الله تعالى امورا غير متناسبة بل متباعدة جدا تنبيها على ان جميع الاجسام العلوية والسفلية صغيرها وكبيرها حسنها وقبيحها متساوية فى الدلالة على الصانع الحكيم فهذا وجه حسن معقول وعليه الاعتماد (الوجه الثانى) وهو أن نبين ما فى كل واحد من هذه الاشياء من المنافع والخواص الدالة على الحاجة الى الصـانع المدبر ثم نبين انه كيف يجانس بعضها بعضا (اما المقام الاول) فنقول الابل له خواص (منها) انه تعالى جعل الحيوان الذى يقتنى اصنافا شتى فتـارة يقتنى ليؤكل لحمه وتارة ليشرب لبنه وتارة ليحمل الانسان فى الاسفار وتارة لينقل امتعة الانسان من بلد الى بلد وتارة ليكون له به زينة وجمال وهذه المنافع بأسرها حاصلة فى الابل وقد ابان الله عز وجل عن ذلك بقوله تعالى أو لم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون وقال تعالى والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس وان شيئا من سـائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال فكان اجتماع هذه الخصال فيه من العجائب (وثانيها) انه فى كل واحد من هذه الخصال افضل من الحيوان الذى لا يوجد فيه الا تلك الخصلة لانها ان جعلت حلوبة سقت فأروت

وقوعه من قدرة الله عز وجل فلا ينظرون الى الابل التى هى نصب اعينهم يستعملونها كل حين الى انها كيف خلقت خلقا بديعـا معدولا به عن سنن خلقة سائر انواع الحيوانات فى عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيئتهـا اللائقة يتأتى ما يصدر عنها من الافاعيل الشاقة كالنوء بالاوقار الثقيلة وجر الاثقال الفـادحة الى الاقطار النازحة وفى صبرها عـلى الجوع والعطش حتى ان اظماءها لتبلغ العشر فصـاعدا واكتفائها باليسير ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم وفى انقيادها مع ذلك للانسـان فى الحركة والسـكون والبروك والنهوض حيث يستعملها فى ذلك كيفمـا يشاء ويقتـادهـا بقطارها كل صغير وكبير (والى السماء) التى يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار (كيف رفعت) رفعا سحيق المدى بلا عماد ولا مساك بحيث لا يناله الفهم والادراك (والى الجبال)

الكثير وان جعلت أكولة اطعمت واشبعت الكثير وان جعلت ركوبة امكن ان يقطع بها من المسافات المديدة مالا يمكن قطعه بحيوان آخر وذلك لما ركب فيها من قوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش والاجتزاء من العلوفات بما لا يجتزي به حيوان آخر وان جعلت حمولة استقلت بحمل الاحمال الثقيلة التي لا يستقل به سواها (ومنها) ان هذا الحيوان كان اعظم الحيوانات وقعا في قلب العرب ولذلك فأنهم جعلوا دية قتل الانسان ابلا وكان ملوكهم اذا أرادوا المبالغة في اعطاء الشاعر الذي جاءه من المكان البعيد اعطاه مائة بعير لان امتلاء العين منه اشد من امتلاء العين من غيره ولهذا قال تعالى ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (ومنها) اني كنت مع جماعة في مفازة فضللنا الطريق فقدموا جملا وتبعوه فكان ذلك الجمل ينعطف من تل الى تل ومن جانب الى جانب والجميع كانوا يتبعونه حتى وصل الى الطريق بعد زمان طويل فتعجبنا من قوة تخيل ذلك الحيوان انه بالمرة الواحدة كيف انحفظت في خياله صورة تلك المعاطف حتى ان الذي عجز جمع من العقلاء الى الاهتداء اليه فان ذلك الحيوان اهتدى اليه (ومنها) انها مع كونها في غاية القوة على العمل مباينة لغيرها في الانقياد والطاعة لاضعف الحيوانات كالصبي الصغير ومباينة لغيرها ايضا في انها يحمل عليها وهي باركة ثم تقوم فهذه الصفات الكثيرة الموجودة فيها توجب على العاقل ان ينظر في خلقتها وتركيبها ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم سبحانه ثم ان العرب من اعرف الناس باحوال الابل في صحتها وسقمها ومنافعها ومضارها فلهذه الاسباب حسن من الحكيم تعالى ان يأمر بالتأمل في خلقتها ❁ ثم قال تعالى (والى السماء كيف رفعت) اى رفعا بعيد المدى بلا امساك وبغير عمد ❁ (والى الجبال كيف نصبت) نصبا ثابتا فهي راسخة لا تميل ولا تزول ❁ (والى الارض كيف سطحت) سطحا بتمهيد وتوطئة فهي مهاد المتقلب عليها ومن الناس من استدل بهذا على ان الارض ليست بكرة وهو ضعيف لان الكرة اذا كانت في غاية العظمة يكون كل قطعة منها كالسطح وقرأ علي عليه السلام كيف خلقت ورفعت ونصبت وسطحت على البناء للفاعل وتاء الضمير والتقدير فعلتها فحذف المفعول (المقام الثاني) في بيان ما بين هذه الاشياء من المناسبة اعلم ان من الناس من فسر الابل بالسحاب قال صاحب الكشاف ولعله لم يرد ان الابل من اسماء السحاب كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك وانما رأى السحاب مشبها بالابل في كثير من اشعارهم فجوز ان يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز وعلى هذا التقدير فالمناسبة ظاهرة اما اذا حملنا الابل على مفهومه المشهور فوجه المناسبة بينها وبين السماء والجبال والارض من وجهين (الاول) ان القرآن نزل على لغة العرب وكانوا يسافرون كثيرا لان بلدتهم بلدة خالية عن الزرع وكانت اسفارهم في اكثر الامر على الابل فكانوا كثيرا ما يسيرون عليها في المهامة القفار مستوحشين منفردين عن الناس

التي ينزلون في اقطارها وينتفعون بمياهها واشجارها (كيف نصبت) نصبا رصينا فهي راسخة لا تميل ولا تميد (والى الارض) التي يضربون فيها ويتقلبون عليها (كيف سطحت) سطحا بتوطئة وتمهيد وتسوية وتوطيد حسبما يقتضيه صلاح امور ما عليها من الخلائق وقرئ سطحت مشددا وقرئت الافعال الاربعة على بناء الفاعل للمتكلم وحذف الراجع المنصوب والمعنى افلا ينظرون نظر التدبر والاعتبار الى كيفية خلق هذه المخلوقات الشاهدة بحقية البعث والنشور ليرجعوا عما هم عليه من الانكار والنفور ويسمعوا انذارك ويستعدوا للقائه بالايمان والطاعة والفاء في قوله تعالى (فذكر) لترتيب الامر بالتذكير على ما ينبئ عنه الانكار السابق من عدم النظر اى فاقتصر على التذكير ولا تلح عليهم ولا يهمنك انهم لا ينظرون ولا يتذكرون وقوله تعالى (انما انت مذكر) تعليل للامر وقوله تعالى (لست عليهم بمصيطر) تقرير له

(ومن)

ومن شأن الانسان اذا انفرد ان يقبل على التفكر فى الاشياء لانه ليس معه من يحادثه وليس هناك شئ يشغل به سمعه وبصره واذا كان كذلك لم يكن له بد من ان يشغل باله بالفكرة فاذا فكر فى ذلك الحال وقع بصره اول الامر على الجمل الذى ركبه فيرى منظرا عجيبا واذا نظر الى فوق لم ير غير السماء واذا نظر يمينا وشمالا لم ير غير الجبال واذا نظر الى ما تحت لم ير غير الارض فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر ثم انه فى وقت الخلوة فى المفازة البعيدة لا يرى شيئا سوى هذه الاشياء فلا جرم جمع الله بينهما فى هذه الآية (الوجه الثانى) ان جميع المخلوقات دالة على الصانع الا انها على قسمين منها ما يكون للحكمة وللشهوة فيها نصيب معا ومنها ما يكون للحكمة فيها نصيب وليس للشهوة فيها نصيب (والقسم الاول) كالانسان الحسن الوجه والبساتين النزهة والذهب والفضة وغيرها فهذه الاشياء يمكن الاستدلال بها على الصانع الحكيم الا انها متعلق الشهوة ومطلوبة للنفس فلم يأمر تعالى بالنظر فيها لانه لم يؤمن عند النظر اليها وفيها ان تصير داعية الشهوة غالبة على داعية الحكمة فيصير ذلك مانعا عن اتمام النظر والفكر وسببا لاستغراق النفس فى محبته (اما القسم الثانى) فهو كالحيوانات التى لا يكون فى صورتها حسن ولكن يكون فى تركيبها حكم بالغة وهى مثل الابل وغيره الا ان ذكر الابل ههنا اولى لان الف العرب بها اكثر وكذا السماء والجبال والارض فان دلائل الحدوث والحاجة فيها ظاهرة وليس فيها ما يكون نصيبا للشهوة فلما كان هذا القسم بحيث يكمل نصيب الحكمة فيه مع الامن من زحمة الشهوة لاجرم امر الله بالتدبر فيها فهذا ما يحضرنا فى هذا الموضع وبالله التوفيق ❊ قوله تعالى (فذكر انما انت مذكر) اعلم انه تعالى لما بين الدلائل على صحة التوحيد والمعاد قال لرسوله فذكر انما أنت مذكر وتذكير الرسول انما يكون بذكر هذه الادلة وامثالها والبعث على النظر فيها والتحذير من ترك تلك وذلك بعث منه تعالى للرسول على التذكير والصبر على كل عارض معه وبيان انه انما بعث لذلك دون غيره فلهذا قال انما أنت مذكر ❊ وقوله تعالى (لست عليهم بمسيطر) قال صاحب الكشاف بمسيطر بمسلط كقوله وما أنت عليهم بجبار وقوله أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وقيل هو فى لغة تميم مفتوح الطاء على ان سيطر متعد عندهم والمعنى انك ما أمرت الا بالتذكير فاما ان تكون مسلطا عليهم حتى تقتلهم او تكرههم على الايمان فلا قالوا ثم نسختها آية القتال هذا قول جميع المفسرين والكلام فى تفسير هذا الحرف قد تقدم عند قوله تعالى ام هم المسيطرون ❊ اما قوله تعالى (الا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الاكبر) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الآية قولان (احدهما) انه استثناء حقيقى وعلى هذا التقدير هذا الاستثناء استثناء عماذا فيه احتمالان (الاول) ان يقال التقدير فذكر الا من تولى وكفر (والثانى) انه استثناء عن الضمير فى عليهم والتقدير لست عليهم بمسيطر الا على من تولى واعترض عليه بأنه عليه

وتحقيق لمعنى الانذار اى لست بمتسلط عليهم تجبرهم على ما تريد كقوله تعالى وما انت عليهم بجبار وقرئ بالسين على الاصل وبالاشمام وقرئ بفتح الطاء قيل هى لغة بنى تميم فان سيطر عندهم متعد ومنه قولهم تسيطر وقوله تعالى (الا من تولى وكفر) استثناء منقطع اى لكن من تولى منهم فان لله تعالى الولاية والقهر (فيعذبه الله العذاب الاكبر) الذى هو عذاب جهنم وقيل استثناء متصل من قوله تعالى فذكر اى فذكر الا من انقطع طمعك من ايمانه وتولى فاستحق العذاب الاكبر وما بينهما اعتراض ويعضد الاول انه قرئ الا على التنبيه وقوله تعالى (ان الينا ايابهم) تعليل لتعذيبه تعالى بالعذاب الاكبر اى ان الينا رجوعهم بالموت والبعث لا الى احد سوانا لا استقلالا ولا اشتراكا وجمع الضمير فيه وفيما بعده باعتبار معنى من كما ان افراده فيما سبق باعتبار لفظها وقرئ ايابهم على انه فيعال مصدر فيعل من الاياب

السلام ما كان حينئذ مأمورا بالقتال (وجوابه) لعل المراد انك لاتصير مسلطا الاعلى من تولى (القول الثانى) انه استثناء منقطع عما قبله كما تقول فى الكلام قعدنا نتذاكر العلم الا ان كثيرا من الناس لايرغب فكذا ههنا التقدير لست بمستولى عليهم لكن من تولى منهم فان الله يعذبه العذاب الاكبر الذى هو عذاب جهنم قالوا وعلامة كون الاستثناء منقطعا حسن دخول ان فى المستثنى واذا كان الاستثناء متصلا لم يحسن ذلك ألاترى انك تقول عندى مائتان الا درهما فلا تدخل عليه ان وههنا يحسن ان فانك تقول الا ان من تولى وكفر فيعذبه الله (المسئلة الثانية) قرئ ألامن تولى على التنبيه وفى قراءة ابن مسعود فانه يعذبه (المسئلة الثالثة) انما سماه العذاب الاكبر لوجوه (احدها) انه قد بلغ حد عذاب الكفر وهو الاكبر لان ماعداه من عذاب الفسق دونه ولهذا قال تعالى ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر (وثانيها) هو العذاب فى الدرك الاسفل من النار (وثالثها) انه قد يكون العذاب الاكبر حاصلا فى الدنيا وذلك بالقتل وسبى الذرية وغنيمة الاموال (والقول الاول) اولى واقرب * ثم قال تعالى (ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم) وهذا كأنه من صلة قوله فيعذبه الله العذاب الاكبر وانما ذكر تعالى ذلك ليزيل به عن قلب النبى صلى الله عليه وسلم حزنه على كفرهم فقال طب نفسا عليهم وان عاندوا وكذبوا وجحدوا فان مرجعهم الى الموعد الذى وعدنا فان علينا حسابهم وفيه سؤال وهو ان محاسبة الكفار انما تكون لايصال العقاب اليهم وذلك حق الله تعالى ولايجب على المالك ان يستوفى حق نفسه (الجواب) ان ذلك واجب عليه امابحكم الوعد الذى يمتنع وقوع الخلف فيه واما فى الحكمة فانه لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لكان ذلك شبيها بكونه تعالى راضيا بذلك الظلم وتعالى الله عنه فلهذا السبب كانت المحاسبة واجبة وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ أبوجعفر المدنى ايابهم بالتشديد قال صاحب الكشاف وجهه ان يكون فيعالا مصدر أيب فيعل من الاياب اويكون اصله اوابا فعالا من اوب ثم قيل ايوابا كديوان فى دوان ثم فعل به مافعل بأصل سيد (المسئلة الثانية) فائدة تقديم الظرف التشديد فى الوعيد فان ايابهم ليس الا الى الجبار المقتدر على الانتقام وان حسابهم ليس بواجب الا عليه وهو الذى يحاسب على النقير والقطمير والله تعالى اعلم

(سورة الفجر ثلاثون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل اذا يسر هل فى ذلك قسم لذى حجر) اعلم ان هذه الاشياء التى أقسم الله تعالى بها لابد وان يكون فيها امافائدة دينية مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد اوفائدة دنيوية توجب بعثا على الشكر او مجموعهما ولاجل ماذكرناه اختلفوا فى تفسير هذه الاشياء اختلافا شديدا فكل احد فسره بما رآه اعظم درجة فى

اوفعال من اوب كفساد من فسر ثم قيل ايوابا كديوان فى دوان ثم قلبت الواو ياء فأدغمت الياء الاولى فى الثانية (ثم ان علينا حسابهم) فى المحشر لاعلى غيرنا وثم للتراخى فى الرتبة لافى الزمان فان الترتيب الزمانى بين ايابهم وحسابهم لابين كون ايابهم اليه تعالى وحسابهم عليه تعالى فانهما أمران مستمران وفى تصدير الجملتين بأن وتقديم خبرهما وعطف الثانية على الاولى بكلمة ثم المفيدة لبعد منزلة الحساب فى الشدة من الانباء عن غاية السخط الموجب لتشديد العذاب مالا يخفى * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الغاشية يحاسبه الله تعالى حسابا يسيرا

(سورة الفجر مكية وآيها تسع وعشرون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والفجر) اقسم سبحانه بالفجر كما أقسم بالصبح حيث قال والصبح اذا تنفس وقيل المراد به صلاته (وليال عشر) هن عشر ذى الحجة ولذلك فسر الفجر بفجر عرفة اوالنحر اوالعشر الاواخر من رمضان وتنكيرها للتفخيم وقرئ وليال عشر بالاضافة على ان المراد بالعشر الايام (والشفع والوتر) اى الاشياء

الدين واكثر منفعة في الدنيا اما قوله تعالى والفجر فذكروا فيه وجوها (احدها) ماروى عن ابن عباس ان الفجر هو الصبح المعروف فهو انفجار الصبح الصادق والكاذب اقسم الله تعالى به لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء وانتشار الناس وسائر الحيوانات من الطيور والوحوش في طلب الارزاق وذلك مشاكل لنشور الموتى من قبورهم وفيه عبرة لمن تأمل وهذا كقوله والصبح اذا أسفر وقال في موضع آخر والصبح اذا تنفس وتمدح في آية أخرى بكونه خالقا له فقال فالق الاصباح ومنهم من قال المراد به جميع النهار الا انه دل بالابتداء على الجميع نظيره والضحى وقوله والنهار اذا تجلى (وثانيها) ان المراد نفس صلاة الفجر وانما اقسم بصلاة الفجر لانها صلاة في مفتتح النهار وتجتمع لها ملائكة النهار وملائكة الليل كما قال تعالى ان قرآن الفجر كان مشهودا أي تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار القراءة في صلاة الصبح (وثالثها) انه فجر يوم معين وعلى هذا القول ذكروا وجوها (الاول) انه فجر يوم النحر وذلك لان امر المناسك من خصائص ملة ابراهيم وكانت العرب لا تدع الحج وهو يوم عظيم يأتي الانسان فيه بالقربان كأن الحاج يريد أن يتقرب بذبح نفسه فلما عجز عن ذلك فدى نفسه بذلك القربان كما قال تعالى وفديناه بذبح عظيم (الثاني) أراد فجر ذي الحجة لانه قرن به قوله وليال عشر ولانه اول شهر هذه العبادة المعظمة (الثالث) المراد فجر المحرم اقسم به لانه اول يوم من كل سنة وعند ذلك يحدث امور كثيرة مما يتكرر بالسنين كالحج والصوم والزكاة واستئناف الحساب بشهور الاهلة وفي الخبر ان اعظم الشهور عند الله المحرم وعن ابن عباس انه قال فجر السنة هو المحرم فجعل جملة المحرم فجرا (ورابعها) انه عنى بالفجر العيون التي تنفجر منها المياه وفيها حياة الخلق اما قوله وليال عشر ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انما جاءت منكرة من بين ما اقسم الله به لانها ليال مخصوصة بفضائل لا تحصل في غيرها والتنكير دال على الفضيلة العظيمة (المسئلة الثانية) ذكروا فيه وجوها (احدها) انها عشر ذي الحجة لانها ايام الاشتغال بهذا النسك في الجملة وفي الخبر ما من ايام العمل الصالح فيه افضل من ايام العشر (وثانيها) انها عشر المحرم من اوله الى آخره وهو تنبيه على شرف تلك الايام وفيها يوم عاشوراء ولصومه من الفضل ما ورد به الاخبار (وثالثها) انها العشر الاواخر من شهر رمضان اقسم الله تعالى بها لشرفها وفيها ليلة القدر اذ في الخبر اطلبوها في العشر الاخير من رمضان وكان عليه الصلاة والسلام اذا دخل العشر الاخير من رمضان شد المئزر وأيقظ اهله اي كف عن الجماع وأمر اهله بالتهجد واما قوله والشفع والوتر ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الشفع والوتر هو الذي تسميه العرب الخسا والزكا والعامة الزوج والفرد قال يونس اهل العالية يقولون الوتر بالفتح في العدد والوتر بالكسر في الذحل وتميم تقول وتر بالكسر فيهما معا وتقول اوترته اوتره ايتارا أي جعلته وترا ومنه قوله عليه الصلاة والسلام من استجمر فليوتر والكسر قراءة الحسن والاعمش وابن

كلها شفعها ووترها او شفع هذه الليالي ووترها وقد روى ان النبي عليه الصلاة والسلام فسرهما بيوم النحر ويوم عرفة ولقد كثرت فيهما الاقوال والله تعالى اعلم بحقيقة الحال وقرئ بكسر الواو وهما لغتان كالحبر والحبر وقيل الوتر بالفتح في العدد وبالكسر في الذحل وقرئ والوتر بفتح الواو وكسر التاء (والليل اذا يسر) اي يمضي كقوله تعالى والليل اذ أدبر والليل اذا عسعس والتقييد لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة اويسرى فيه من قولهم صلى المقام اي صلى فيه وحذف الياء اكتفاء بالكسر وقرئ باثباتها على الاطلاق وبحذفها في الوقف خاصة وقرئ يسر بالتنوين كما قرئ والفجر والوتر وهو التنوين الذي يقع بدلا من حرف الاطلاق (هل في ذلك قسم) الخ تحقيق وتقرير لفخامة شأن المقسم بها وكونها امورا جليلة حقيقة بالاعظام والاجلال عند ارباب العقول وتنبيه على ان الاقسام بها امر معتد به خليق بأن يؤكد به الاخبار على طريقة قوله تعالى وانه لقسم لو تعلمون عظيم وذلك اشارة اما الى الامور المقسم بها والتذكير بتأويل ما ذكر كما مر

عباس والفتح قراءة أهل المدينة وهي لغة حجازية (المسئلة الثانية) اضطرب المفسرون في تفسير الشفع والوتر واكثروا فيه ونحن نروي ماهو الاقرب (أحدها) ان الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة وانما اقسم الله بهما لشرفهما اما يوم عرفة فهو الذي عليه يدور أمر الحج كما في الحديث الحج عرفة واما يوم النحر فيقع فيه القربان واكثر أمور الحج من الطواف المفروض والحلق والرمي ويروى ان يوم النحر هو يوم الحج الاكبر فلما اختص هذا ان اليومان بهذه الفضائل لاجرم اقسم الله بهما (وثانيها) ان ايام التشريق ايام بقية اعمال الحج فهي ايام شريفة قال الله تعالى واذكروا الله في ايام معدودات فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه والشفع هو يومان بعد يوم النحر والوتر هو اليوم الثالث ومن ذهب الى هذا القول قال حمل الشفع والوتر على هذا أولى من حملهما على العيد وعرفة من وجهين (الاول) ان العيد وعرفة دخلا في العشر فوجب ان يكون المراد بالشفع والوتر غيرهما (الثاني) ان بعض اعمال الحج انما يحصل في هذه الايام فجعل اللفظ على هذا يفيد القسم بجميع ايام اعمال المناسك (وثالثها) الوتر آدم شفع بزوجته وفي رواية أخرى الشفع آدم وحواء والوتر هو الله تعالى (ورابعها) الوتر ما كان وترا من الصلوات كالمغرب والشفع ما كان شفعا منها وروى عمران بن الحصين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال هي الصلوات منها شفع ومنها وتر وانما اقسم الله بها لان الصلاة تالية للايمان ولا يخفى قدرها ومحلها من العبادات (وخامسها) الشفع هو الخلق كله لقوله تعالى ومن كل شيء خلقنا زوجين وقوله وخلقناكم ازواجا والوتر هو الله تعالى وقال بعض المتكلمين لا يصح ان يقال الوتر هو الله لوجوه (الاول) انا بينا ان قوله والشفع والوتر تقديره ورب الشفع والوتر فيجب ان يراد بالوتر المربوب فبطل ماقالوه (الثاني) ان الله تعالى لا يذكر مع غيره على هذا الوجه بل يعظم ذكره حتى يتميز من غيره وروى انه عليه الصلاة والسلام سمع من يقول الله ورسوله فنهاه وقال قل الله ثم رسوله قالوا وماروى انه عليه الصلاة والسلام قال ان الله وتر يحب الوتر ليس بمقطوع به (وسادسها) ان شيئا من المخلوقات لا ينفك عن كونه شفعا ووترا فكأنه يقال اقسم برب الفرد والزوج من خلقه فدخل كل الخلق تحته ونظيره قوله فلا اقسم بما تبصرون ومالا تبصرون (وسابعها) الشفع درجات الجنة وهي ثمانية والوتر دركات النار وهي سبعة (وثامنها) الشفع صفات الخلق كالعلم والجهل والقدرة والعجز والارادة والكراهية والحياة والموت اما الوتر فهو صفة الحق وجود بلا عدم حياة بلا موت علم بلا جهل قدرة بلا عجز عز بلا ذل (وتاسعها) المراد بالشفع والوتر نفس العدد فكأنه اقسم بالحساب الذي لابد للخلق منه وهو بمنزلة الكتاب والبيان الذي من الله به على العباد اذ قال علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم وقال علمه البيان وكذلك بالحساب يعرف مواقيت العبادات والايام والشهور قال تعالى الشمس والقمر بحسبان وقال لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك الا بالحق (وعاشرها) قال مقاتل

(الشفع)

تحقيقه اوالى الاقسام بها وايا ما كان ففيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته في الشرف والفضل اى هل فيما ذكر من الاشياء قسم اى مقسم به (لذى حجر) يراه حقيقا بان يقسم به اجلالا وتعظيما والمراد تحقيق ان الكل كذلك وانما اوثرت هذه الطريقة هضما للخلق وايذانا بظهور الامر او هل في اقسامى بتلك الاشياء اقسام لذى حجر مقبول عنده يعتدبه ويفعل مثله ويؤكد به المقسم عليه والحجر العقل لانه يحجر صاحبه اى يمنعه من التهافت فيما لا ينبغى كما سمى عقلا ونهية لانه يعقل وينهى وحصاة ايضا من الاحصاء وهو الضبط قال الفراء يقال انه لذو حجر اذا كان قاهر النفسه ضابطا لها والمقسم عليه محذوف وهو ليعذبن كما ينبئ عنه قوله تعالى (الم تر كيف فعل ربك بعاد) الخ فانه استشهاد بعلمه عليه الصلاة والسلام بما يدل عليه من تعذيب عاد واضرابهم المشاركين لقومه عليه الصلاة والسلام في الطغيان والفساد على طريقة قوله تعالى الم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه الآية وقوله تعالى الم تر انهم في كل واد يهيمون كأنه قيل الم تعلم علما يقينيا

الشفع هو الايام والليالى والوتر هو اليوم الذى لا ليل بعده وهو يوم القيامة (الحادى عشر) الشفع كل نبى له اسمان مثل محمد واحمد والمسيح وعيسى ويونس وذا النون والوتر كل نبى له اسم واحد مثل آدم ونوح وابراهيم (الثانى عشر) الشفع آدم وحواء والوتر مريم (الثالث عشر) الشفع العيون الاثناعشر التى فجرها الله تعالى لموسى عليه السلام والوتر الآيات التسع التى أوتى موسى فى قوله ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات (الرابع عشر) الشفع ايام عاد والوتر لياليهم لقوله تعالى سبع ليال وثمانية أيام حسوما (الخامس عشر) الشفع البروج الاثنا عشر لقوله تعالى جعل فى السماء بروجا والوتر الكواكب السبعة (السادس عشر) الشفع الشهر الذى يتم ثلاثين يوما والوتر الشهر الذى يتم تسعة وعشرين يوما (السابع عشر) الشفع الاعضاء والوتر القلب قال تعالى ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه (الثامن عشر) الشفع الشفتان والوتر اللسان قال تعالى ولسانا وشفتين (التاسع عشر) الشفع السجدتان والوتر الركوع (العشرون) الشفع أبواب الجنة لانها ثمانية والوتر ابواب النار لانها سبعة واعلم ان الذى يدل عليه الظاهر ان الشفع والوتر أمر ان شريفان أقسم الله تعالى بهما وكل هذه الوجوه التى ذكرناها محتمل والظاهر لا اشعار له بشئ من هذه الاشياء على التعيين فان ثبت فى شئ منها خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم او اجماع من أهل التأويل حكم بأنه هو المراد وان لم يثبت فيجب ان يكون الكلام على طريقة الجواز لا على وجه القطع ولقائل ان يقول ايضا انى أحمل الكلام على الكل لان الالف واللام فى الشفع والوتر تفيد العموم اما قوله تعالى والليل اذا يسر ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اذا يسر اذا يمضى كما قال والليل اذ أدبر وقوله والليل اذا عسعس وسراها مضيها وانقضاؤها او يقال سراها هو السير فيها وقال قتادة اذا يسر أى اذا جاء واقبل (المسئلة الثانية) أكثر المفسرين على انه ليس المراد منه ليلة مخصوصة بل العموم بدليل قوله والليل اذا أسفر والليل اذا عسعس ولان نعمة الله بتعاقب الليل والنهار واختلاف مقاديرهما على الخلق عظيمة فصح ان يقسم به لان فيه تنبيها على ان تعاقبهما بتدبير مدبر حكيم عالم بجميع المعلومات وقال مقاتل هى ليلة المزدلفة فقوله اذا يسر أى اذا يسار فيه كما يقال ليل نائم لوقوع النوم فيه وليل ساهر لوقوع السهر فيه وهى ليلة يقع السرى فى اولها عند الدفع من عرفات الى المزدلفة وفى آخرها كما روى انه عليه الصلاة والسلام كان يقدم ضعفة اهله فى هذه الليلة وانما يجوز ذلك عند الشافعى رحمه الله بعد نصف الليل (المسئلة الثالثة) قال الزجاج قرئ اذا يسرى باثبات الياء ثم قال وحذفها أحب الى لانها فاصلة والفواصل تحذف منها الياآت ويدل عليها الكسرات قال الفراء والعرب قد تحذف الياء وتكتفى بكسرة ماقبلها وانشد

كفاك كف مايبقى درهما * جودا وأخرى تعط بالسيف الدما

فاذا جاز هذا فى غير الفاصلة فهو فى الفاصلة اولى (فان قيل) لم كان الاختيار ان تحذف

كيف عذب ربك عادا ونظائرهم فيعذب هؤلاء ايضا لاشتراكهم فيما يوجبه من الكفر والمعاصى والمراد بعاد اولاد عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام قوم هود عليه السلام سموا باسم ابيهم كما سمى بنو هاشم هاشما وقد قيل لاوائلهم عاد الاولى ولاواخرهم عاد الآخرة قال عماد الدين بن كثير كل ماورد فى القرآن خبر عاد الاولى الا مافى سورة الاحقاف وقوله تعالى (ارم) عطف بيان لعاد للايذان بأنهم عاد الاولى بتقدير مضاف اى سبط ارم او اهل ارم على ماقيل من ان ارم اسم بلدتهم او ارضهم التى كانوا فيها ويؤيده القراءة بالاضافة وايا ما كان فامتناع صرفها للتعريف والتأنيث وقرئ ارم باسكان الراء تخفيفا كما قرئ بورقكم (ذات العماد) صفة لارم اى ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالاعمدة ومنه قولهم رجل عمد وعمدان اذا كان طويلا او ذات الخيام والاعمدة حيث كانوا بدويين اهل عمد اوذات البناء الرفيع اوذات الاساطين على ان ارم اسم بلدتهم وقرئ ارم ذات العماد باضافة ارم الى ذات العماد والارم العلم اى بعاد اهل اعلام

الياء اذا كان فى فاصلة اوقافية والحرف من نفس الكلمة فوجب أن يثبت كما اثبت سائر الحروف ولم يحذف (أجاب أبو على) فقال القول فى ذلك أن الفواصل والقوافى فى موضع وقف والوقف موضع تغيير فلما كان الوقف تغير فيه الحروف الصحيحة بالتضعيف والاسكان وروم الحركة فيها غيرت هذه الحروف المشابهة للزيادة بالحذف وأما من أثبت الياء فى يسرى فى الوصل والوقف فانه يقول الفعل لا يحذف منه فى الوقف كما يحذف فى الاسماء نحو قاض وغاز تقول هو يقضى وأنا أقضى فتثبت الياء ولا تحذف وقوله تعالى هل فى ذلك قسم لذى حجر فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الحجر العقل سمى به لانه يمنع عن الوقوع فيما لا ينبغى كما سمى عقلا ونهية لانه يعقل ويمنع وحصاة من الاحصاء وهو الضبط قال الفراء والعرب تقول انه لذى حجر اذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها كأنه أخذ من قولهم حجرت على الرجل وعلى هذا سمى العقل حجرا لانه يمنع من القبيح من الحجر وهو المنع من الشئ بالتضييق فيه (المسئلة الثانية) قوله هل فى ذلك قسم استفهام والمراد منه التأكيد كمن ذكر حجة باهرة ثم قال هل فيما ذكرته حجة والمعنى ان من كان ذا لب علم ان ما أقسم الله تعالى به من هذه الاشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه قال القاضى وهذه الآية تدل على ماقلنا ان القسم واقع برب هذا الامور لان هذه الآية دالة على ان هذا مبالغة فى القسم ومعلوم ان المبالغة فى القسم لا يحصل الا فى القسم بالله ولان النهى قد ورد بأن يحلف العاقل بهذه الامور ❊ قوله تعالى (الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الاوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد) واعلم ان فى جواب القسم وجهين (الاول) ان جواب القسم هو قوله ان ربك لبالمرصاد ومابين الموضعين معترض بينهما (الثانى) قال صاحب الكشاف المقسم عليه محذوف وهو لنعذبن الكافرين يدل عليه قوله تعالى الم تر الى قوله تعالى فصب عليهم ربك سوط عذاب وهذا أولى من الوجه الاول لانه لما لم يتعين المقسم عليه ذهب الوهم الى كل مذهب فكان ادخل فى التخويف فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين دل على ان المقسم عليه اولا هو ذلك اما قوله تعالى الم تر ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الم تر الم تعلم لان ذلك مما لا يصح ان يراه الرسول وانما أطلق لفظ الرؤية ههنا على العلم وذلك لان اخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة بالتواتر اما عاد وثمود فقد كانا فى بلاد العرب واما فرعون فقد كانوا يسمعونه من اهل الكتاب وبلاد فرعون ايضا متصلة بأرض العرب وخبر التواتر يفيد العلم الضرورى والعلم الضرورى جار مجرى الرؤية فى القوة والجلاء والبعد عن الشبهة فلذلك قال الم تر بمعنى الم تعلم (المسئلة الثانية) قوله الم تر وان كان فى الظاهر خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم لكنه عام لكل من علم ذلك والمقصود من ذكر الله تعالى

ذات العماد على انها اسم بلدتهم وقرئ ارم ذات العماد اى جعلها الله تعالى رميما بدل من فعل ربك وقيل هى جملة دعائية اعترضت بين الموصوف والصفة وروى انه كان لعاد ابنان شديد وشداد فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الامر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال ابنى مثلها فبنى ارم فى بعض صحارى عدن فى ثلثمائة سنة وهى مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضه واساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها اصناف الاشجار والانهار المطردة ولما تم بناؤها سار اليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء فهلكوا وعن عبد الله بن قلابة انه خرج فى طلب ابل له فوقع عليها فحمل ماقدر عليه ثمة وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث الى كعب فسأله فقال هى ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك احمر اشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج فى طلب ابل له ثم التفت الى ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) صفة اخرى لارم اى لم يخلق مثلهم فى عظم الاجرام والقوة

حكايتهم ان يكون زجرا للكفار عن الاقامة على مثل ماأدى الى هلاك عاد وثمود وفرعون وقومه وليكون بعثا للمؤمنين على الثبات على الايمان أماقوله تعالى بعادارم ذات العماد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى ذكر ههنا قصة ثلاث فرق من الكفار المتقدمين وهى عاد وثمود وقوم فرعون على سبيل الاجمال حيث قال فصب عليهم ربك سوط عذاب ولم يبين كيفية ذلك العذاب وذكر فى سورة الحاقة بيان ما بهم فى هذه السورة فقال فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر الى قوله وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة الآية (المسئلة الثانية) عاد هو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح ثم انهم جعلوا الفظة عاد اسما للقبيلة كما يقال لبنى هاشم هاشم ولبنى تميم تميم ثم قالوا للمتقدمين من هذه القبيلة عادا الاولى قال تعالى وانه اهلك عادا الاولى وللمتأخرين عادا الاخيرة واما ارم فهو اسم لجد عاد وفى المراد منه فى هذا الآية اقوال (أحدها) ان المتقدمين من قبيلة عاد كانوا يسمون بعادالاولى فلذلك يسمون بارم تسمية لهم باسم جدهم (والثانى) ان ارم اسم لبلدتهم التى كانوا فيها ثم قيل تلك المدينة هى الاسكندرية وقيل دمشق (والثالث) ان ارم اعلام قوم عاد كانوا يبنونها على هيئة المنارة وعلى هيئة القبور قال ابو الرقيش الاروم قبور عاد وانشد * بها أروم كهوادى البخت * ومن الناس من طعن فى قول من قال ان ارم هى الاسكندرية او دمشق قال لان منازل عاد كانت بين عمان الى حضرموت وهى بلاد الرمال والاحقاف كما قال واذكر اخاعاد اذ أنذر قومه بالاحقاف واما الاسكندرية ودمشق فليستا من بلاد الرمال (المسئلة الثالثة) ارم لا تنصرف قبيلة كانت اوارضا للتعريف والتأنيث (المسئلة الرابعة) فى قوله ارم وجهان وذلك لانا ان جعلناه اسم القبيلة كان قوله ارم عطف بيان لعاد ايذانا بانهم عاد الاولى القديمة وان جعلناه البلدة اوالاعلام كان التقدير بعاد اهل ارم ثم حذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه كما فى قوله واسئل القرية ويدل عليه قراءة ابن الزبير بعادارم على الاضافة (المسئلة الخامسة) قرأ الحسن بعادارم مفتوحتين وقرئ بعادارم بسكون الراء على التخفيف كما قرئ بورقكم وقرئ بعادارم ذات العماد باضافة ارم الى ذات العماد وقرئ بعادارم ذات العماد بدلا من فعل ربك والتقدير ألم تركيف فعل ربك بعاد جعل ذات العماد رميما اما قوله ذات العماد ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى اعرابه وجهان وذلك لانا ان جعلنا ارم اسم القبيلة فالمعنى انهم كانوا بدويين يسكنون الاخبية والخيام والخباء لابد فيها من العماد والعماد بمعنى العمود وقد يكون جمع العمد اويكون المراد بذات العماد انهم طوال الاجسام على تشبيه قدودهم بالاعمدة وقيل ذات البناء الرفيع وان جعلناه اسم البلد فالمعنى انها ذات اساطين اى ذات ابنية مرفوعة على العمد وكانوا يعالجون الاعمدة فينصبونها ويبنون فوقها القصور قال تعالى فى وصفهم اتبنون بكل ريع آية تعبثون اى علامة وبناء رفيعا (المسئلة الثانية) روى انه كان لعاد

حيث كان طول الرجل منهم اربعمائة ذراع وكان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها ويلقيها على الحى فيهلكهم اولم يخلق مثل مدينة شداد فى جميع بلاد الدنيا وقرئ لم يخلق على اسناده الى الله تعالى (وثمود) عطف على عاد وهى قبيلة مشهورة سميت باسم جدهم ثمود اخى جديس وهما ابنا عابر بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك وكانوا يعبدون الاصنام كعاد (الذين جابوا الصخر بالواد) اى قطعوا صخر الجبال فاتخذوا فيها بيوتا نحتوها من الصخر كقوله تعالى وتنحتون من الجبال بيوتا قيل هم اول من نحت الجبال والصخور والرخام وقد بنوا الفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة (وفرعون ذى الاوتاد) وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التى يضربونها فى منازلهم اولتعذيبه بالاوتاد (الذين طغوا فى البلاد) اما مجرور على انه صفة للمذكورين اومنصوب اومرفوع على الذم اى طغى كل طائفة منهم فى بلادهم

ابنان شداد و شديد فملكا و قهرا ثم مات شديد وخلص الامر لشداد فملك الدنيا و دانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال ابنى مثلها فبنى ارم فى بعض صحارى عدن فى ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة و هى مدينة عظيمة قصورها من الذهب و الفضة و اساطينها من الزبرجد و الياقوت و فيها اصناف الاشجار و الانهار فلما تم بناؤها سار اليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم و ليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا و عن عبدالله ابن قلابة انه خرج فى طلب ابل له فوصل الى جنة شداد فحمل ماقدر عليه مما كان هناك و بلغ خبره معاوية فاستحضره وقص عليه فبعث الى كعب فسأله فقال هى ارم ذات العماد و سيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال و على عنقه خال يخرج فى طلب ابل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال هذا و الله هو ذلك الرجل اما قوله التى لم يخلق مثلها فى البلاد فالضمير فى مثلها الى ماذا يعود فيه وجوه (الاول) لم يخلق مثلها اى مثل عاد فى البلاد فى عظم الجثة وشدة القوة كان طول الرجل منهم اربعمائة ذراع وكان يحمل الصخرة العظيمة فيلقيها على الجمع فيهلكهم (الثانى) لم يخلق مثل مدينة شداد فى جميع بلاد الدنيا و قرأ ابن الزبير لم يخلق مثلها اى لم يخلق الله مثلها (الثالث) ان الكناية عائدة الى العماد اى لم يخلق مثل تلك الاساطين فى البلاد و على هذا فالعماد جمع عمد و المقصود من هذه الحكاية زجر الكفار فانه تعالى بين انه أهلكهم بما كفروا وكذبوا الرسل مع الذى اختصوا به من هذه الوجوه فلأن تكونوا خائفين من مثل ذلك أيها الكفار اذا أقمتم على كفركم مع ضعفكم كان اولى اما قوله تعالى وثمود الذين جابوا الصخر بالواد فقال الليث الجوب قطعك الشئ كما يجاب الجيب يقال جاب يجوب جوبا وزاد الفراء يجيب جيبا و يقال جبت البلاد جوبا اى جلت فيها و قطعتها قال ابن عباس كانوا يجوبون البلاد فيجعلون منها بيوتا و احواضا و ما أرادوا من الابنية كما قال وتنحتون من الجبال بيوتا قيل اول من نحت الجبال و الصخور و الرخام ثمود و بنوا ألفا و سبعمائة مدينة كلها من الحجارة و قوله بالواد قال مقاتل بوادى القرى و اما قوله تعالى وفرعون ذى الاوتاد فالاستقصاء فيه مذكور فى سورة ص ونقول الآن فيه وجوه (احدها) انه سمى ذا الاوتاد لكثرة جنوده و مضاربهم التى كانوا يضربونها اذا نزلوا (وثانيها) انه كان يعذب الناس و يشدهم بها الى ان يموتوا روى عن أبى هريرة ان فرعون وتد لامرأته اربعة اوتاد و جعل على صدرها رحا و استقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها الى السماء وقالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ففرج الله عن بيتها فى الجنة فرأته (وثالثها) ذى الاوتاد اى ذى الملك والرجال كما قال الشاعر * فى ظل ملك راسخ الاوتاد * (ورابعها) روى قتادة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان تلك الاوتاد كانت ملاعب يلعبون تحتها لاجله و اعلم ان الكلام محتمل لكل ذلك فبين تعالى لرسوله ان كل ذلك مما تعظم به الشدة و القوة و الكثرة لم يمنع من ورود هلاك عظيم بهم و لذلك قال تعالى الذين

وكذا الكلام فى قوله تعالى (فأكثروا فيها الفساد) اى بالكفر وسائر المعاصى (فصب عليهم ربك) اى انزل انزالا شديدا على كل طائفة من اولئك الطوائف عقيب ما فعلته من الطغيان والفساد (سوط عذاب) اى عذاب شديد لا يدرك غايته وهو عبارة عما حل بكل منهم من فنون العذاب التى شرحت فى سائر السور الكريمة وتسميته سوطا للاشارة الى ان ذلك بالنسبة الى ما اعدلهم فى الآخرة بمنزلة السوط عند السيف والتعبير عن انزاله بالصب للايذان بكثرته واستمراره وتتابعه فانه عبارة عن اراقة شئ مائع او جار مجراه فى السيلان كالرمل والحبوب وافراغه بشدة وكثرة واستمرار ونسبته الى السوط مع انه ليس من ذلك القبيل باعتبار تشبيهه فى نزوله المتتابع المتدارك على المضروب بقطرات الشئ المصبوب وقيل السوط خلط الشئ بعضه ببعض فالمعنى ما خلط لهم من انواع العذاب وقد فسر بالتصبيب وبالشدة ايضا لان السوط يطلق على كل منهما لغة فلا حاجة حينئذ

طغوا في البلاد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) يحتمل انه يرجع الضمير الى فرعون خاصة لانه يليه ويحتمل ان يرجع الى جميع من تقدم ذكرهم وهذا هو الاقرب (المسئلة الثانية) احسن الوجوه في اعرابه ان يكون في محل النصب على الذم ويجوز ان يكون مرفوعا على هم الذين طغوا او مجرورا على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون (المسئلة الثالثة) طغوا في البلاد أي عملوا المعاصي وتجبروا على انبياء الله والمؤمنين ثم فسر طغيانهم بقوله تعالى فأكثروا فيها الفساد ضد الصلاح فكما ان الصلاح يتناول جميع اقسام البر فالفساد يتناول جميع اقسام الاثم فمن عمل بغير امر الله وحكم في عباده بالظلم فهو مفسد ثم قال تعالى فصب عليهم ربك سوط عذاب واعلم انه يقال صب عليه السوط وغشاه وقنعه وذكر السوط اشارة الى ان ما احله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس الى ما اعدلهم في الآخرة كالسوط اذا قيس الى سائر ما يعذب به قال القاضي وشبهه بصب السوط الذي يتواتر على المضروب فيهلكه وكان الحسن اذا قرأ هذه الآية قال ان عند الله اسواطا كثيرة فأخذهم بسوط منها (فان قيل) اليس ان قوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة يقتضي تأخير العذاب الى الآخرة فكيف الجمع بين هاتين الآيتين (قلنا) هذه الآية تقتضي تأخير تمام الجزاء الى الآخرة والواقع في الدنيا شيء من ذلك ومقدمة من مقدماته ثم قال تعالى ان ربك لبالمرصاد ذكرنا تفسير المرصاد عند قوله كانت مرصادا ونقول المرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد مفعال من رصده كالميقات من وقته وهذا مثل لارصاده العصاة بالعقاب وانهم لا يفوتونه وعن بعض العرب انه قيل له اين ربك فقال بالمرصاد وللمفسرين فيه وجوه (احدها) قال الحسن يرصد اعمال بني آدم (وثانيها) قال الفراء اليه المصير وهذان الوجهان عامان للمؤمنين والكافرين ومن المفسرين من يخص هذه الآية اما بوعيد الكفار او بوعيد العصاة اما الاول فقال الزجاج يرصد من كفر به وعدل عن طاعته بالعذاب واما الثاني فقال الضحاك يرصد لاهل الظلم والمعصية وهذه الوجوه متقاربة ❊ قوله تعالى

(فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي اهانن) اعلم ان قوله فأما الانسان متعلق بقوله ان ربك لبالمرصاد كأنه قيل انه تعالى لبالمرصاد في الآخرة فلا يريد الا السعي للآخرة فاما الانسان فانه لا يهمه الا الدنيا ولذاتها وشهواتها فان وجد الراحة في الدنيا يقول ربي اكرمني وان لم يجد هذه الراحة يقول ربي اهانني ونظيره قوله تعالى في صفة الكفار يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون وقال ومن الناس من يعبد الله على حرف فان اصابه خير اطمأن به وان اصابته فتنة انقلب على وجهه وهذا خطأ من وجوه (احدها) ان سعادة الدنيا وشقاوتها في مقابلة ما في الآخرة من السعادة والشقاوة كالقطرة في البحر فالمتنعم في الدنيا لو كان شقيا في الآخرة فذلك التنعم ليس بسعادة والمتألم المحتاج

في تشبيهه بالمصبوب الى اعتبار تكرر تعلقه بالمعذب كما في المعنى الاول فان كل واحد من هذه المعاني مما يقبل الاستقرار في نفسه وقوله تعالى (ان ربك لبالمرصاد) تعليل لما قبله وايذان بأن كفار قومه عليه الصلاة والسلام سيصيبهم مثل ما اصاب المذكورين من العذاب كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام وقيل هو جواب القسم وما بينهما اعتراض والمرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد مفعال من رصده كالميقات من وقته وهذا تمثيل لارصاده تعالى بالعصاة وانهم لا يفوتونه وقوله تعالى (فأما الانسان) الخ متصل بما قبله كأنه قيل انه تعالى بصدد مراقبة احوال عباده ومجازاتهم باعمالهم خيرا وشرا فأما الانسان فلا يهمه ذلك وانما مطمح انظاره ومرصد افكاره الدنيا ولذائذها (اذا ما ابتلاه ربه) اى عامله معاملة من يبتليه بالغنى واليسار والفاء في قوله تعالى (فأكرمه ونعمه) تفسيرية فان الاكرام والتنعيم من الابتلاء

في الدنيا لو كان سعيدا في الآخرة فذلك ليس باهانة ولا شقاوة فثبت ان المتنعم في الدنيا لايجوز له ان يحكم على نفسه بالسعادة والكرامة والمتألم في الدنيا لايجوز له ان يحكم على نفسه بالشقاوة والهوان (وثانيها) ان حصول النعمة في الدنيا وحصول الآلام في الدنيا لايدل على الاستحقاق فانه تعالى كثيرا مايوسع على العصاة والكفرة اما لانه يفعل مايشاء ويحكم مايريد واما بحكم المصلحة واما على سبيل الاستدراج والمكر وقد يضيق على الصديقين لاضداد ماذكرنا فلا ينبغي للعبد ان يظن ان ذلك مجازاة (وثالثها) ان المتنعم لاينبغي ان يغفل عن العاقبة فان الامور بخواتيمها والفقير والمحتاج لاينبغي ان يغفل عما لله عليه من النعم التي لاحد لها من سلامة البدن والعقل والدين ودفع الآفات والآلام التي لاحد لها ولا حصر فلا ينبغي ان يقضي على نفسه بالاهانة مطلقا (ورابعها) ان النفس قد الفت هذه المحسوسات فتى حصلت هذه المشتهيات واللذات صعب عليها الانقطاع عنها وعدم الاستغراق فيها اما اذا لم يحصل للانسان شئ من هذه المحسوسات رجعت شاءت أم ابت الى الله واشتغلت بعبودية الله فكان وجدان الدنيا سببا للحرمان عن الله فكيف يجوز القضاء بالشقاوة والاهانة عند عدم الدنيا مع ان ذلك اعظم الوسائل الى اعظم السعادات (وخامسها) ان كثرة الممارسة سبب لتأكد المحبة وتأكد المحبة سبب لتأكد الألم عند الفراق فكل من كان وجد انه للدنيا اكثر وادوم كانت محبته لها اشد فكان تألمه بمفارقتها عند الموت أشد والذي بالضد فبالضد فاذا حصول لذات الدنيا سبب للالم الشديد بعد الموت وعدم حصولها سبب للسعادة الشديدة بعد الموت فكيف يقال ان وجدان الدنيا سعادة وفقدانها شقاوة واعلم ان هذه الوجوه انما تصح مع القول باثبات البعث روحانيا كان او جسمانيا فأما من ينكر البعث من جميع الوجوه فلا يستقيم على قوله شئ من هذه الوجوه بل يلزمه القطع بأن وجدان الدنيا هو السعادة وفقدانها هو الشقاوة ولكن فيه دقيقة اخرى وهي انه ربما كان وجدان الدنيا الكثيرة سببا للقتل والنهب والوقوع في انواع العذاب فربما كان الحرمان سببا لبقاء السلامة فعلى هذا التقدير لايجوز ايضا لمنكر البعث من جميع الوجوه ان يقضي على صاحب الدنيا بالسعادة وعلى فاقدها بالهوان فربما ينكشف له ان الحال بعد ذلك بالضد وفي الآية سؤالات (السؤال الاول) قوله فأما الانسان المراد منه شخص معين او الجنس (الجواب) فيه قولان (الاول) ان المراد منه شخص معين فروى عن ابن عباس انه عتبة بن ربيعة وابو حذيفة بن المغيرة وقال الكلبي هو ابي بن خلف وقال مقاتل نزلت في امية بن خلف (والقول الثاني) ان المراد كل من كان موصوفا بهذا الوصف وهو الكافر الجاحد ليوم الجزاء (السؤال الثاني) كيف سمى بسط الرزق وتقديره ابتلاء (الجواب) لان كل واحد منهما اختبار للعبد فاذا بسط له فقد اختبر حاله ايشكر ام يكفر واذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر ام يجزع فالحكمة فيهما واحدة ونحوه قوله تعالى (ونبلوكم)

(فيقول ربي اكرمن) اي فضلني بما اعطاني من المال والجاه حسبما كنت استحقه ولايخطر بباله انه فضل تفضل به عليه ليبلوه ايشكر ام يكفر وهو خبر للمبتدأ الذي هو الانسان والفاء لما في اما من معنى الشرط والظرف المتوسط على نية التأخير كأنه قيل فاما الانسان فيقول ربي اكرمن وقت ابتلائه بالانعام وانما تقديمه للايذان من اول الامر بأن الاكرام والتنعيم بطريق الابتلاء ليتضح اختلال قوله المحكي (واما اذا ما ابتلاه) اي واما هو اذا ما ابتلاه ربه (فقدر عليه رزقه) حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة (فيقول ربي اهانن) ولايخطر بباله ان ذلك ليبلوه ايصبر ام يجزع مع انه ليس من الاهانة في شئ بل التقتير قد يؤدي الى كرامة الدارين والتوسعة قد تفضي الى خسرانهما وقرئ فقدر بالتشديد وقرئ اكرمني واهانني باثبات الياء واكرمن واهان بسكون النون في الوقف (كلا) ردع للانسان عن مقالته المحكية وتكذيب له فيهما في كلتا الحالتين قال ابن عباس رضي

ونبلوكم بالشر والخير فتنة (السؤال الثالث) لما قال فأكرمه فقد صح انه أكرمه وأثبت ذلك ثم انه لما حكى عنه انه قال ربي أكرمني ذمه عليه فكيف الجمع بينهما (والجواب) ان كلمة الانكار هي قوله كلا فلم لا يجوز ان يقال انها مختصة بقوله ربي أهانن سلمنا ان الانكار عائد اليهما معا ولكن فيه وجوه ثلاثة (احدها) انه اعتقد حصول الاستحقاق في ذلك الاكرام (الثاني) ان نعم الله تعالى كانت حاصلة قبل وجدان المال وهي نعمة سلامة البدن والعقل والدين فلما لم يعترف بالنعمة الا عند وجدان المال علمنا انه ليس غرضه من ذلك شكر نعمة الله بل التصلف بالدنيا والتكثر بالاموال والاولاد (الثالث) ان تصلفه بنعمة الدنيا واعراضه عن ذكر نعمة الآخرة يدل على كونه منكر البعث فلاجرم استحق الذم على ما حكى الله تعالى ذلك فقال ودخل جنته وهو ظالم لنفسه فقال ما أظن ان تبيد هذه ابدا وما اظن الساعة قائمة الى قوله أكفرت بالذي خلقك من تراب (السؤال الرابع) لم قال في القسم الاول اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه وفي القسم الثاني وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فذكر الاول بالفاء والثاني بالواو (والجواب) لان رحمة الله سابقة على غضبه وابتلاؤه بالنعم سابق على ابتلائه بانزال الآلام فالفاء تدل على كثرة ذلك القسم وقلة الثاني على ما قال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها (السؤال الخامس) لما قال في القسم الاول فأكرمه فيقول ربي أكرمن يجب ان يقول في القسم الثاني فأهانه فيقول ربي اهانن لكنه لم يقل ذلك (والجواب) لانه في قوله أكرمن صادق وفي قوله أهانن غير صادق فهو ظن قلة الدنيا وتقتيرها اهانة وهذا جهل واعتقاد فاسد فكيف يحكي الله سبحانه ذلك منه (السؤال السادس) ما معنى قوله فقدر عليه رزقه (الجواب) ضيق عليه بأن جعله على مقدار البلغة وقرئ فقدر على التخفيف وبالتشديد اي قتر وأكرمن واهانن بسكون النون في الوقف فيمن ترك الياء في الدرج مكتفيا منها بالكسرة

﴿ قوله تعالى (كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما) واعلم انه تعالى لما حكى عنهم تلك الشبهة قال كلا وهو ردع للانسان عن تلك المقالة قال ابن عباس المعنى لم أبتله بالغنى لكرامته علي ولم أبتله بالفقر لهوانه علي بل ذلك اما على مذهب اهل السنة فمن محض القضاء او القدر والمشيئة والحكم الذي تنزه عن التعليل بالعلل واما على مذهب المعتزلة فبسبب مصالح خفية لا يطلع عليها الا هو فقد يوسع على الكافر لا لكرامته ويقتر على المؤمن لا لهوانه ثم انه تعالى لما حكى من اقوالهم تلك الشبهة فكأنه قال بل لهم فعل هو شر من هذا القول وهو ان الله تعالى يكرمهم بكثرة المال فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من اكرام اليتيم فقال بل لا يكرمون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابو عمرو ويكرمون وما بعده بالياء المنقوطة من تحت وذلك انه لما تقدم ذكر الانسان وكان يراد به الجنس والكثرة وهو على لفظ الغيبة حمل يكرمون ويحبون عليه ومن قرأ بالتاء فالتقدير قل لهم يا محمد ذلك (المسئلة

الله عنهما المعنى لم أبتله بالغنى لكرامته علي ولم أبتله بالفقر لهوانه علي بل ذلك لمحض القضاء والقدر وحمل الردع والتكذيب الى قوله الاخير بعيد وقوله تعالى (بل لا تكرمون اليتيم) انتقال من بيان سوء اقواله الى بيان سوء افعاله والالتفات الى الخطاب للايذان باقتضاء ملاحظة جنايته السابقة لمشافهته بالتوبيخ تشديدا للتقريع وتأكيدا للتشنيع والجمع باعتبار معنى الانسان اذ المراد هو الجنس اي بل لكم احوال اشد شرا مما ذكر وأدل على تهالككم على المال حيث يكرمكم الله تعالى بكثرة المال فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من اكرام اليتيم بالمبرة به وقرئ لا يكرمون (ولا تحاضون) بحذف احدى التاءين من تتحاضون اي لا يحض بعضكم بعضا (على طعام المسكين) اي على اطعامه وقرئ تحاضون من المحاضة وقرئ يحضون بالياء والتاء (وتأكلون التراث) اي الميراث واصله وراث (اكلا لما) اي ذا لم اي جمع بين الحلال والحرام فانهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان

الثانية) قال مقاتل كان قدامة بن مظعون يتيما فى حجر أمية بن خلف فكان يدفعه عن حقه واعلم ان ترك اكرام اليتيم على وجوه (أحدها) ترك بره واليه الاشارة بقوله ولا تحاضون على طعام المسكين (والثانى) دفعه عن حقه الثابت له فى الميراث وأكل ماله واليه الاشارة بقوله تعالى وتأكلون التراث أكلا لما (والثالث) أخذ ماله منه واليه الاشارة بقوله وتحبون المال حبا جما اى تأخذون أموال اليتامى وتضمونها الى أموالكم اماقوله ولا تحضون على طعام المسكين قال مقاتل ولا تطعمون مسكينا والمعنى لا تأمرون باطعامه كقوله تعالى انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ومن قرأ ولا تحاضون أراد تتحاضون فحذف تاء تتفاعلون والمعنى لا يحض بعضكم بعضا وفى قراءة ابن مسعود ولا تحاضون بضم التاء من المحاضة اماقوله وتأكلون التراث أكلا لما ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالوا أصل التراث وراث والتاء تبدل من الواو المضمومة نحو تجاه ووجاه من واجهت (المسئلة الثانية) قال الليث اللم الجمع الشديد ومنه كتيبة ملمومة وحجر ملموم والآكل يلم الثريد فيجعله لقما ثم يأكله ويقال لممت ماعلى الخوان ألمه اى اكلته اجمع فمعنى اللم فى اللغة الجمع واما التفسير ففيه وجوه (احدها) قال الواحدى والمفسرون يقولون فى قوله اكلا لما اى شديدا وهو حل معنى وليس بتفسير وتفسيره ان اللم مصدر جعل نعتا للاكل والمراد به الفاعل اى آكلا لاما اى جامعا كأنهم يستوعبونه بالاكل قال الزجاج كانوا يأكلون اموال اليتامى اسرافا وبدارا فقال الله تعالى وتأكلون التراث أكلا لما اى تراث اليتامى لما اى تلمون جميعه وقال الحسن اى يأكلون نصيبهم ونصيب صاحبهم فيجمعون نصيب غيرهم الى نصيبهم (وثانيها) ان المال الذى يبقى من الميت بعضه حلال وبعضه شبهة وبعضه حرام فالوارث يلم الكل اى يضم البعض الى البعض ويأخذ الكل ويأكله (وثالثها) قال صاحب الكشاف ويجوز ان يكون الذم متوجها الى الوارث الذى ظفر بالمال سهلا مهلا من غير ان يعرق فيه جبينه فيسرف فى انفاقه ويأكله اكلا لما واسعا جامعا بين الوان المشتهيات من الاطعمة والاشربة والفواكه كما يفعله الوراث الباطلون اماقوله تعالى ويحبون المال حبا جما فاعلم ان الجم هو الكثير يقال جم الشئ يجم جموما يقال ذلك فى الماء وغيره فهو شئ جم وجام وقال ابو عمرو وجم يجم اى يكثر والمعنى ويحبون المال حبا كثيرا شديدا فبين ان حرصهم على الدنيا فقط وانهم عادلون عن امر الآخرة ❊ قوله تعالى (كلا اذا دكت الارض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا وجئ يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وانى له الذكرى) اعلم ان قوله كلا ردع لهم عن ذلك وانكار لفعلهم اى ولا ينبغى ان يكون الامر هكذا فى الحرص على الدنيا وقصر الهمة والجهد على تحصيلها والاتكال عليها وترك المواساة منها وجمعها من حيث تهيأ من حل او حرام وتوهم ان لا حساب ولا جزاء فأن من كان هذا حاله يندم حين لا تنفعه الندامة ويتمنى ان لو كان افنى

ويأكلون انصباءهم اويأكلون ماجمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك (وتحبون المال حبا جما) كثيرا مع حرص وشره وقرئ ويحبون بالياء (كلا) ردع لهم عن ذلك وقوله تعالى (اذا دكت الارض دكا دكا) الخ استئناف جئ به بطريق الوعيد تعليلا للردع اى اذا دكت الارض دكا متتابعا حتى انكسر وذهب كل ماعلى وجهها من جبال وابنية وقصور حين زلزلت وصارت هباء منبثا وقيل الدك حط المرتفع بالبسط والتسوية فالمعنى اذا سويت تسوية بعد تسوية ولم يبق على على وجهها شئ حتى صارت كالصخرة الملساء وايا ما كان فهو عبارة عما عرض لها عند النفخة الثانية (وجاء ربك) اى ظهرت آيات قدرته وآثار قهره مثل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من احكام هيبته وسياسته وقيل جاء امره تعالى وقضاؤه على حذف المضاف للتهويل (والملك صفا صفا) اى مصطفين اوذوى صفوف فانه ينزل يومئذ ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف بحسب منازلهم

عمره في التقرب بالاعمال الصالحة و المواساة من المال الى الله تعالى ثم بين انه اذا جاء يوم
موصوف بصفات ثلاثة فانه يحصل ذلك التمني وتلك الندامة (الصفة الاولى) من صفات
ذلك اليوم قوله اذا دكت الارض دكا دكا قال الخليل الدك كسر الحائط والجبل
والدكداك رمل متلبد ورجل مدك شديد الوطء على الارض وقال المبرد الدك حط
المرتفع بالبسط واندك سنام البعير اذا انفرش في ظهره وناقة دكاء اذا كانت كذلك
ومنه الدكان لاستوائه في الانفراش فمعنى الدك على قول الخليل كسر كل شيء على وجه
الارض من جبل او شجر حين زلزلت فلم يبق على ظهرها شيء وعلى قول المبرد معناه انها
استوت في الانفراش فذهب دورها وقصورها وسائر ابنيتها حتى تصير كالصخرة
الملساء وهذا معنى قول ابن عباس تمد الارض يوم القيامة واعلم ان التكرار في قوله دكا دكا
معناه دكا بعد دك كقوله حسبته بابا بابا وعلمته حرفا حرفا اى كرر عليها الدك حتى صارت
هباء منثورا واعلم ان هذا التدكدك لابد وان يكون متأخرا عن الزلزلة فاذا زلزلت
الارض زلزلة بعد زلزلة وحركت تحريكا بعد تحريك انكسرت الجبال التي عليها
وانهدمت التلال وامتلأت الاغوار وصارت ملساء وذلك عند انقضاض الدنيا وقد قال
تعالى يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة وقال وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة
وقال اذا رجت الارض رجا وبست الجبال بسا (الصفة الثانية) من صفات ذلك اليوم قوله
تعالى وجاء ربك والملك صفا صفا واعلم انه ثبت بالدليل العقلي ان الحركة على الله تعالى محال
لان كل ما كان كذلك كان جسما والجسم يستحيل ان يكون أزليا فلابد فيه من التأويل
وهو ان هذا من باب حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ثم ذلك المضاف ماهو فيه
وجوه (احدها) وجاء أمر ربك بالمحاسبة والمجازاة (وثانيها) وجاء قهر ربك كما يقال
جاءتنا بنو امية اى قهرهم (وثالثها) وجاء جلائل آيات ربك لان هذا يكون يوم القيامة
وفي ذلك اليوم تظهر العظائم وجلائل الآيات فجعل مجيئها مجيئاله تفخيما لشأن تلك
الآيات (ورابعها) وجاء ظهور ربك وذلك لان معرفة الله تصير في ذلك اليوم ضرورية
فصار ذلك كظهوره وتجليه للخلق فقيل وجاء ربك اى زالت الشبهة وارتفعت الشكوك
(وخامسها) ان هذا تمثيل لظهور آيات الله وتبيين آثار قهره وسلطانه مثلت حاله في ذلك
بحال الملك اذا حضر بنفسه فانه يظهر بمجرد حضوره من آثار الهيبة والسياسة مالايظهر
بحضور عساكره كلها (وسادسها) ان الرب هو المربي ولعل ملكا هو اعظم الملائكة هو
مربي للنبي صلى الله عليه وسلم جاء فكان هو المراد من قوله وجاء ربك اما قوله والملك
صفا صفا فالمعنى انه تنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف محدقين بالجن
والانس (الصفة الثالثة) من صفات ذلك اليوم قوله تعالى وجيء يومئذ بجهنم ونظيره
قوله تعالى وبرزت الجحيم للغاوين قال جماعة من المفسرين جيء بها يوم القيامة مزمومة
بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش

ومراتبهم محدقين بالجن والانس
(وجيء يومئذ بجهنم) كقوله تعالى
وبرزت الجحيم قال ابن مسعود
ومقاتل تقاد جهنم بسبعين الف
زمام كل زمام معه سبعون الف
ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار
العرش لها تغيظ وزفير وقد رواه
مسلم في صحيحه عن ابن مسعود
مرفوعا (يومئذ) بدل من اذا
دكت والعامل فيهما قوله تعالى
(يتذكر الانسان) اى يتذكر
مافرط فيه بتفاصيله بمشاهدة
آثاره واحكامه او بمعاينة عينه على
ان الاعمال تتجسم في النشأة
الآخرة فيبرز كل من الحسنات
والسيئات بما يناسبها من الصور
الحسنة والقبيحة او يتعظ وقوله
تعالى (وانى له الذكرى) اعتراض
جيء به لتحقيق انه ليس يتذكر
حقيقة لعرائه عن الجدوى بعدم
وقوعه في أوانه وأنى خبر مقدم
والذكرى مبتدأ وله متعلق بما
تعلق به الخبر اى ومن اين يكون له
الذكرى وقد فات أوانها وقيل
هناك مضاف محذوف اى وأنى له
منفعة الذكرى والاستدلال به
على عدم وجوب قبول التوبة
في دار التكليف مما لا وجه له على

فتشرد شردة لو تركت لأحرقت اهل الجمع قال الاصوليون ومعلوم انها لاتنفك عن مكانها فالمراد وبرزت اى اظهرت حتى رآها الخلق وعلم الكافر ان مصيره اليها ثم قال يومئذ يتذكر الانسان واعلم ان تقدير الكلام اذا دكت الارض وحصل كذا وكذا فيومئذ يتذكر الانسان وفى تذكره وجوه (الاول) انه يتذكر ما فرط فيه لانه حين كان فى الدنيا كانت همته تحصيل الدنيا ثم انه فى الآخرة يتذكر ان ذلك كان ضلالا وكان الواجب عليه ان تكون همته تحصيل الآخرة (الثانى) يتذكر اى يتعظ والمعنى انه ماكان يتعظ فى الدنيا فيصير فى الآخرة متعظا فيقول ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا (الثالث) يتذكر يتوب وهو مروى عن الحسن ثم قال تعالى وأنى له الذكرى وهو كقوله أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين واعلم ان بين قوله يتذكر وبين قوله وأنى له الذكرى تناقضا فلابد من اضمار المضاف والمعنى ومن اين له منفعة الذكرى (و يتفرع على هذه الآية مسئلة اصولية) وهى ان قبول التوبة عندنا غير واجب على الله عقلا وقالت المعتزلة هو واجب فنقول الدليل على قولنا ان الآية دلت ههنا على ان الانسان يعلم فى الآخرة ان الذى يعمله فى الدنيا لم يكن اصلح له وان الذى تركه كان اصلح له ومهما عرف ذلك لابد وان يندم عليه واذا حصل الندم فقد حصلت التوبة ثم انه تعالى نفى كون تلك التوبة نافعة بقوله وأنى له الذكرى فعلمنا ان التوبة لايجب عقلا قبولها فان قيل القوم انما ندموا على افعالهم لا لوجه قبحها بل لترتب العقاب عليها فلاجرم ما كانت التوبة صحيحة قلنا القوم لما علموا ان الندم على القبيح لابد وان يكون لوجه قبحه حتى يكون نافعا وجب ان يكون ندمهم واقعا على هذا الوجه فحينئذ يكونون آتين بالتوبة الصحيحة مع عدم القبول فصح قولنا ثم شرح تعالى مايقوله هذا الانسان ❊ فقال تعالى (يقول ياليتنى قدمت لحياتى) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) للآية تأويلات (احدها) ياليتنى قدمت فى الدنيا التى كانت حياتى فيها منقطعة لحياتى هذه التى هى دائمة غير منقطعة وانما قال لحياتى ولم يقل لهذه الحياة على معنى ان الحياة كأنها ليست الا الحياة فى الدار الآخرة قال تعالى وان الدار الآخرة لهى الحيوان اى لهى الحياة (وثانيها) انه تعالى قال فى حق الكافر ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وقال فان له جهنم لايموت فيها ولايحيى وقال ويتجنبها الاشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لايموت فيها ولا يحيى فهذه الآية دلت على ان اهل النار فى الآخرة كأنه لاحياة لهم والمعنى فياليتنى قدمت عملا يوجب نجاتى من النار حتى اكون من الاحياء (وثالثها) ان يكون المعنى فياليتنى قدمت وقت حياتى فى الدنيا كقولك جئته لعشر ليال خلون من رجب (المسئلة الثانية) استدلت المعتزلة بهذه الآية على ان الاختيار كان فى ايديهم ومعلقا بقصدهم وارادتهم وانهم ما كانوا محجوبين عن الطاعات مجترئين على المعاصى (وجوابه) ان فعلهم كان معلقا بقصدهم فقصدهم ان كان معلقا بقصد آخر لزم التسلسل وان كان معلقا

(بقصد)

ان تذكره ليس من التوبة فى شئ فانه عالم بأنها انما تكون فى الدنيا كما يعرب عنه قوله تعالى (يقول ياليتنى قدمت لحياتى) وهو بدل اشتمال من يتذكر او استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ منه كأنه قيل ماذا يقول عند تذكره فقيل يقول ياليتنى عملت لاجل حياتى هذه او وقت حياتى فى الدنيا اعمالا صالحة انتفع بها اليوم وليس فى هذا التمنى شائبة دلالة على استقلال العبد بفعله وانما الذى يدل عليه ذلك اعتقاد كونه متمكنا من تقديم الاعمال الصالحة واما ان ذلك بمحض قدرته او بخلق الله تعالى عند صرف قدرته الكاسبة اليه فكلا واما ماقيل من ان المحجور قد يتمنى ان كان ممكنا منه فربما يوهم ان من صرف قدرته الى احد طرفى الفعل يعتقد انه محجور من الطرف الآخر وليس كذلك بل كل احد جازم بأنه لو صرف قدرته الى اى طرف كان من افعاله الاختيارية لحصل وعلى هذا يدور فلك التكاليف والزام

بقصدالله فقد بطل الاعتزال * ثم قال تعالى (فيومئذ لايعذب عذابه احد ولايوثق وثاقه احد) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قراءة العامة يعذب ويوثق بكسر العين فيهما قال مقاتل معناه فيومئذ لايعذب عذاب الله احد من الخلق ولايوثق وثاق الله احد من الخلق والمعنى لايبلغ احد من الخلق كبلاغ الله فى العذاب والوثاق قال ابو عبيدة هذا التفسير ضعيف لانه ليس يوم القيامة معذب سوى الله فكيف يقال لايعذب احد مثل عذابه واجيب عن هذا الاعتراض من وجوه (الاول) ان التقدير لايعذب احد فى الدنيا عذاب الله الكافر يومئذ ولايوثق احد فى الدنيا وثاق الله الكافر يومئذ والمعنى مثل عذابه ووثاقه فى الشدة والمبالغة (الثانى) ان المعنى لايتولى يوم القيامة عذاب الله احد اى الامر يومئذ امره ولا امر لغيره (الثالث) وهو قول ابى على الفارسى ان يكون التقدير لايعذب احد من الزبانية مثل ما يعذبونه فالضمير فى عذابه عائد الى الانسان وقرأ الكسائى لايعذب ولايوثق بفتح العين فيهما واختاره ابو عبيدة وعن ابى عمرو انه رجع اليها فى آخر عمره لما روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأهما بالفتح والضمير للانسان الموصوف وقيل هو ابى بن خلف ولهذه القراءة تفسير ان (احدهما) لايعذب احد مثل عذابه ولايوثق بالسلاسل والاغلال مثل وثاقه لتناهيه فى كفره وفساده (والثانى) انه لايعذب احد من الناس عذاب الكفار كقوله ولاتزر وازرة وزر أخرى قال الواحدى وهذا اولى الاقوال (المسئلة الثانية) العذاب فى القراءتين بمعنى التعذيب والوثاق بمعنى الايثاق كالعطاء بمعنى الاعطاء فى قوله * وبعد عطائك المائة الرتاعا * * قوله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية) اعلم انه تعالى لما وصف حال من اطمأن الى الدنيا وصف حال من اطمئنان الى معرفته وعبوديته فقال يا أيتها النفس وفيه مسائل (المسئلة الاولى) تقدير هذا الكلام يقول الله للمؤمن يا أيتها النفس فاما ان يكلمه اكراما له كما كلم موسى عليه السلام او على لسان ملك وقال القفال هذا وان كان امرا فى الظاهر لكنه خبر فى المعنى والتقدير ان النفس اذا كانت مطمئنة رجعت الى الله وقال الله لها فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى قال ومجئ الامر بمعنى الخبر كثير فى كلامهم كقولهم اذا لم تستح فاصنع ماشئت (المسئلة الثانية) الاطمئنان هو الاستقرار والثبات وفى كيفية هذا الاستقرار وجوه (احدها) ان تكون متيقنة بالحق فلا يخالجها شك وهو المراد من قوله ولكن ليطمئن قلبى (وثانيها) النفس الآمنة التى لا يستفزها خوف ولاحزن ويشهد لهذا التفسير قراءة ابى بن كعب يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة وهذه الخاصة قد تحصل عند الموت عند سماع قوله الا تخافوا ولاتحزنوا وابشروا بالجنة وتحصل عند البعث وعند دخول الجنة لامحالة (وثالثها) وهو تأويل مطابق للحقائق العقلية فنقول القرآن والبرهان تطابقا على ان هذا الاطمئنان لايحصل الا بذكر الله اما القرآن فقوله الابذكر الله تطمئن القلوب واما

الحجة (فيومئذ) اى يوم اذ يكون ماذكر من الاحوال والاقوال (لايعذب عذابه احد ولايوثق وثاقه احد) الهاء لله تعالى اى لايتولى عذاب الله تعالى ووثاقه احد سواء اذ الامر كله له او للانسان اى لايعذب احد من الزبانية مثل مايعذبونه وقرئ الفعلان على البناء للمفعول والضمير للانسان ايضا وقيل المراد به ابى بن خلف اى لايعذب احد مثل عذابه ولايوثق بالسلاسل والاغلال مثل وثاقه لتناهيه فى الكفر والعناد وقيل لايحمل عذاب الانسان احد كقوله تعالى ولاتزر وازرة وزر اخرى وقوله تعالى (ياأيتها النفس المطمئنة) حكاية لاحوال من اطمأن بذكر الله عز وجل وطاعته او حكاية احوال من اطمأن بالدنيا وصفت بالاطمئنان لانها تترقى فى معارج الاسباب والمسببات الى المبدأ المؤثر بالذات

البرهان فن وجهين (الاول) ان القوة العاقلة اذا اخذت تترقى فى سلسلة الاسباب والمسببات فكلما وصل الى سبب يكون هو ممكنا لذاته طلب العقل له سببا آخر فلم يقف العقل عنده بل لايزال ينتقل من كل شئ الى ما هو اعلى منه حتى ينتهى فى ذلك الترقى الى واجب الوجود لذاته مقطع الحاجات ومنتهى الضرورات فلما وقفت الحاجة دونه وقف العقل عنده واطمأن اليه ولم ينتقل عنه الى غيره فاذا كلما كانت القوة العاقلة ناظرة الى شئ من الممكنات ملتفتة اليه استحال ان تستقر عنده واذا نظرت الى جلال واجب الوجود وعرفت ان الكل منه استحال ان تنتقل عنه فثبت ان الاطمئنان لا يحصل الا بذكر واجب الوجود (الثانى) ان حاجات العبد غير متناهية وكل ماسوى الله تعالى فهو متناهى البقاء والقوة الا بامداد الله وغير المتناهى لايصير مجبورا بالمتناهى فلابد فى مقابلة حاجة العبد التى لانهاية لها من كمال الله الذى لانهاية له حتى يحصل الاستقرار فثبت ان كل من آثر معرفة الله لشئ غير الله فهو غير مطمئن وليست نفسه نفسا مطمئنة اما من آثر معرفة الله لا لشئ سواه فنفسه هى النفس المطمئنة وكل من كان كذلك كان انسه بالله وشوقه الى الله وبقاؤه بالله وكلامه مع الله فلاجرم يخاطب عند مفارقة الدنيا بقوله ارجعى الى ربك راضية مرضية وهذا كلام لاينتفع الانسان به الا اذا كان كاملا فى القوة الفكرية الالهية اوفى التجريد والتفريد (المسئلة الثالثة) اعلم ان الله تعالى ذكر مطلق النفس فى القرآن فقال ونفس وماسواها وقال تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك وقال فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين وتارة وصفها بكونها امارة بالسوء فقال ان النفس لامارة بالسوء وتارة بكونها لوامة فقال بالنفس اللوامة وتارة بكونها مطمئنة كما فى هذه الآية واعلم ان نفسك ذاتك وحقيقتك وهى التى تشير اليها بقولك انا حين تخبر عن نفسك بقولك فعلت ورأيت وسمعت وغضبت واشتهيت وتخيلت وتذكرت الا ان المشار اليه بهذه الاشارة ليس هو هذه البنية لوجهين (الاول) ان المشار اليه بقولك انا قد يكون معلوما حال ماتكون هذه البنية المخصوصة غير معلومة والمعلوم غير ماهو غير معلوم (والثانى) ان هذه البنية متبدلة الاجزاء والمشار اليه بقولك انا غير متبدل فانى اعلم بالضرورة انى انا الذى كنت موجودا قبل هذا اليوم بعشرين سنة والمتبدل غير ماهو غير متبدل فاذا ليست النفس عبارة عن هذه البنية ونقول قال قوم ان النفس ليست بجسم لانا قد نعقل المشار اليه بقولى انا حال ما اكون غافلا عن الجسم الذى حقيقته المختص بالحيز الذاهب فى الطول والعرض والعمق والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم وجواب المعارضة بالنفس مذكور فى كتابنا المسمى (بلباب الاشارات) وقال آخرون بل هو جوهر جسمانى لطيف صاف بعيد عن مشابهة الاجرام العنصرية نورانى سماوى مخالف بالماهية لهذه الاجسام السفلية فاذا صارت مشابكة لهذا البدن الكثيف صار البدن حيا وان فارقته صار البدن ميتا وعلى التقدير الاول يكون وصفها بالمجئ والرجوع بمعنى التدبير وتركه

فتستقر دون معرفته وتستغنى به فى وجودها وسائر شؤنها عن غيره بالكلية وقيل هى النفس المؤمنة المطمئنة الى الحق الواصلة الى ثلج اليقين بحيث لايخالجها شك ما وقيل هى الآمنة التى لا يستفزها خوف ولاحزن ويؤيده انه قرئ ياأيتها النفس الآمنة المطمئنة اى يقول الله تعالى ذلك بالذات كما كلم موسى عليه السلام او على لسان الملك عند تمام حساب الناس وهو الاظهر وقيل عند البعث وقيل عند الموت (ارجعى الى ربك) اى الى موعده او الى امره (راضية) بما اوتيت من النعيم المقيم (مرضية) عند الله عز وجل (فادخلى فى عبادى) فى زمرة عبادى الصالحين المختصين بى (وادخلى جنتى) معهم او انتظمى فى سلك المقربين واستضيئ بأنوارهم فان الجواهر القدسية كالمرايا

وعلى التقدير الثاني يكون ذلك الوصف حقيقيا (المسئلة الرابعة) من القدماء من زعم ان النفوس ازلية واحتجوا بهذه الآية وهي قوله تعالى ارجعي الى ربك فان هذا انما يقال لما كان موجودا قبل هذا البدن واعلم ان هذا الكلام يتفرع على ان هذا الخطاب متى يوجد وفيه وجهان (الاول) انه انما يوجد عند الموت وههنا تقوى حجة القائلين بتقدم الارواح على الاجساد الا انه لا يلزم من تقدمها عليها قدمها (الثاني) انه انما يوجد عند البعث والقيامة والمعنى ارجعي الى ثواب ربك فادخلي في عبادي اى ادخلي في الجسد الذي خرجت منه (المسئلة الخامسة) المجسمة تمسكوا بقوله الى ربك وكلمة الى لانتهاء الغاية (جوابه) الى حكم ربك او الى ثواب ربك او الى احسان ربك (والجواب) الحقيقي المفرع على القاعدة العقلية التي قررناها ان القوة العقلية بسيرها العقلي تترقى من موجود الى موجود آخر ومن سبب الى سبب حتى تنتهي الى حضرة واجب الوجود فهناك انتهاء الغايات وانقطاع الحركات اما قوله تعالى راضية مرضية فالمعنى راضية بالثواب مرضية عنك في الاعمال التي عملتها في الدنيا ويدل على صحة هذا التفسير ما روى ان رجلا قرأ عند النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات فقال ابو بكر ما احسن هذا فقال عليه الصلاة والسلام اما ان الملك سيقولها لك * ثم قال تعالى (فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قيل نزلت في حمزة بن عبد المطلب وقيل في خبيب بن عدى الذي صلبه اهل مكة وجعلوا وجهه الى المدينة فقال اللهم ان كان لي عندك خير فحول وجهي نحو بلدتك فحول الله وجهه نحوها فلم يستطع احد ان يحوله وانت قد عرفت ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (المسئلة الثانية) قوله ادخلي في عبادي اى انضمي الى عبادي المقربين وهذه حالة شريفة وذلك لان الارواح الشريفة القدسية تكون كالمرايا المصقولة فاذا انضم بعضها الى البعض حصلت فيما بينها حالة شبيهة بالحالة الحاصلة عند تقابل المرايا المصقولة من انعكاس الاشعة من بعضها عن بعض فيظهر في كل واحد منها كل ما ظهر في كلها وبالجملة فيكون ذلك الانضمام سببا لتكامل تلك السعادات وتعاظم تلك الدرجات الروحانية وهذا هو المراد من قوله فأما ان كان من اصحاب اليمين فسلام لك من اصحاب اليمين وذلك هو السعادة الروحانية ثم قال وادخلي جنتي وهذا اشارة الى السعادة الجسمانية ولما كانت الجنة الروحانية غير متراخية عن الموت في حق السعداء لاجرم قال تعالى فادخلي في عبادي فذكره بفاء التعقيب ولما كانت الجنة الجسمانية لا يحصل الفوز بها الا بعد قيام القيامة الكبرى لاجرم قال تعالى وادخلي جنتي فذكره بالواو لا بالفاء والله تعالى اعلم

* (سورة البلد عشرون آية مكية) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(لا اقسم بهذا البلد وانت حل بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الانسان في كبد) أجمع

لمتقابلة وقيل المراد بالنفس الروح والمعنى فادخلي اجساد عبادي التي فارقت عنها وادخلي دار ثوابي وهذا يؤيد كون الخطاب عند البعث وقرئ فادخلي في عبدي وقرئ في جسد عبدي وقيل نزلت في حمزة بن عبد المطلب وقيل في خبيب بن عدى رضي الله عنهما والظاهر العموم * عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له ومن قرأها في سائر الايام كانت له نورا يوم القيامة

* (سورة البلد مكية وآيها) (عشرون) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(لا اقسم بهذا البلد) اقسم سبحانه بالبلد الحرام وبما عطف عليه على ان الانسان خلق مغمورا بمقاساة الشدائد ومعاناة المشاق واعترض بين القسم وجوابه بقوله تعالى

المفسرون على ان ذلك البلد هى مكة واعلم ان فضل مكة معروف فان الله تعالى جعلها حرما آمنا فقال فى المسجد الذى فيها ومن دخله كان آمنا وجعل ذلك المسجد قبلة لاهل المشرق والمغرب فقال وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وشرف مقام ابراهيم بقوله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وأمر الناس بحج ذلك البيت فقال ولله على الناس حج البيت وقال فى البيت واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا وقال واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ان لا تشرك بى شيئا وقال وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق وحرم فيه الصيد وجعل البيت المعمور بازائه ودحيت الدنيا من تحته فهذه الفضائل واكثر منها لما اجتمعت فى مكة لاجرم اقسم الله تعالى بها فاما قوله وانت حل بهذا البلد فالمراد منه امور (احدها) وانت مقيم بهذا البلد نازل فيه حال به كأنه تعالى عظم مكة من جهة انه عليه الصلاة والسلام مقيم بها (وثانيها) الحل بمعنى الحلال اى ان الكفار يحترمون هذا البلد ولا ينتهكون فيه المحرمات ثم انهم مع ذلك ومع اكرام الله تعالى اياك بالنبوة يستحلون ايذاءك ولو تمكنوا منك لقتلوك فأنت حل لهم فى اعتقادهم لا يرون لك من الحرمة ما يرونه لغيرك عن شعر حبيل يحرمون ان يقتلوا بها صيدا او يعضدوا بها شجرة ويستحلون اخراجك وقتلك وفيه تثبيت لرسول الله وبعث على احتمال ما كان يكابد من اهل مكة وتعجيب له من حالهم فى عداوتهم له (وثالثها) قال قتادة وانت حل اى لست بآثم وحلال لك ان تقتل بمكة من شئت وذلك ان الله تعالى فتح عليه مكة وأحلها له وما فتحت على احد قبله فأحل ماشاء وحرم ماشاء وفعل ماشاء فقتل عبد الله بن خطل وهو متعلق باستار الكعبة ومقيس بن صبابة وغيرهما وحرم دار أبى سفيان ثم قال ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض فهى حرام الى ان تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلى ولن تحل لأحد بعدى ولم تحل لى الا ساعة من نهار فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها الا لمنشد فقال العباس الا الاذخر يارسول الله فانه لبيوتنا وقبورنا فقال الا الاذخر فان قيل هذه السورة مكية وقوله وانت حل اخبار عن الحال والواقعة التى ذكرتم انما حدثت فى آخر مدة هجرته الى المدينة فكيف الجمع بين الامرين قلنا قد يكون اللفظ للحال والمعنى مستقبلا كقوله تعالى انك ميت وكما اذا قلت لمن تعده الاكرام والحباء انت مكرم محبو وهذا من الله احسن لان المستقبل عنده كالحاضر بسبب انه لا يمنعه عن وعده مانع (ورابعها) وانت حل بهذا البلد اى وانت غير مرتكب فى هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه تعظيما منك لهذا البيت لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر بالله وتكذيب الرسل (وخامسها) انه تعالى لما اقسم بهذا البلد دل ذلك على غاية فضل هذا البلد ثم قال وانت حل بهذا البلد اى وانت من حل هذه البلدة المعظمة المكرمة واهل هذا البلد يعرفون اصلك ونسبك وطهارتك وبراءتك طول عمرك عن الافعال القبيحة وهذا هو المراد بقوله تعالى هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم وقال لقد جاءكم رسول

(وانت حل بهذا البلد) اما لتشريفه عليه الصلاة والسلام بجعل حلوله به مناطا لاعظامه بالاقسام به او للتنبيه من اول الامر على تحقق مضمون الجواب بذكر بعض مواد المكابدة على نهج براعة الاستهلال وبيان انه عليه الصلاة والسلام مع جلالة قدره وعظم حرمته قد استحلوه فى هذا البلد الحرام وتعرضوا له بما لاخير فيه وهموا بما لم ينالوا عن شرحبيل يحرمون ان يقتلوا بها صيدا او يعضدوا بها شجرة ويستحلون اخراجك وقتلك او لتسليته عليه الصلاة والسلام بالوعد بفتحه على معنى وانت حل به فى المستقبل كما فى قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون تصنع فيه ما تريد من القتل والاسر وقد كان كذلك حيث احل له عليه الصلاة والسلام مكة وفتحها عليه وما فتحت على احد

(من)

من انفسكم وقوله فقدلبثت فيكم عمرا من قبله فيكون الغرض شرح منصب رسول الله صلى الله عليه وسلم بكونه من هذا البلد اماقوله ووالد وماولد فاعلم ان هذا معطوف على قوله لاأقسم بهذا البلد وقوله وانت حل بهذا البلد معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وللمفسرين فيه وجوه (احدها) الوالد آدم وماولد ذريته اقسم بهم اذهم اعجب من خلق الله على وجه الارض لما فيهم من البيان والنطق والتدبير واستخراج العلوم وفيهم الانبياء والدعاة الى الله تعالى والانصار لدينه وكل مافي الارض مخلوق لهم وامر الملائكة بالسجود لآدم وعلمه الاسماء كلها وقد قال الله تعالى ولقد كرمنا بني آدم فيكون القسم بجميع الآدميين صالحهم وطالحهم لماذكرنا من ظهور العجائب في هذه البنية والتركيب وقيل هو قسم بآدم والصالحين من اولاده بناء على ان الطالحين كأنهم ليسوا من اولاده وكأنهم بهائم كما قال ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا صم بكم عمي فهم لايرجعون (وثانيها) ان الوالد ابراهيم واسمعيل وماولد محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لانه اقسم بمكة وابراهيم بانيها واسمعيل ومحمد عليهما السلام سكانها وفائدة التنكير الابهام المستقل بالمدح والتعجب وانما قال وماولد ولم يقل ومن ولد للفائدة الموجودة في قوله والله اعلم بما وضعت اى بأي شيء وضعت يعني موضوعا عجيب الشأن (وثالثها) الوالد ابراهيم وماولد جميع ولد ابراهيم بحيث يحتمل العرب والعجم فان جملة ولد ابراهيم هم سكان البقاع الفاضلة من ارض الشأم ومصر وبيت المقدس وارض العرب ومنهم الروم لانهم ولد عيص بن اسحق ومنهم من خص ذلك بولد ابراهيم من العرب ومنهم من خص ذلك بالعرب المسلمين وانما قلنا ان هذا القسم واقع بولد ابراهيم المؤمنين لانه قدشرع في التشهد ان يقال كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم وهم المؤمنون (ورابعها) روى عن ابن عباس انه قال الوالد الذي يلد وماولد الذي لايلد فما ههنا يكون للنفي وعلى هذا لابد من اضمار الموصول اى ووالد والذي ماولد وذلك لايجوز عند البصريين (وخامسها) يعني كل والد ومولود وهذا مناسب لان حرمة الخلق كلهم داخل في هذا الكلام واماقوله تعالى لقد خلقنا الانسان في كبد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في الكبد وجهان (احدهما) قال صاحب الكشاف ان الكبد اصله من قولك كبد الرجل كبدا فهو كبد اذا وجعت كبده وانتفخت فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة ومنه اشتقت المكابدة واصله كبده اذا أصاب كبده وقال آخرون الكبد شدة الامر ومنه تكبد اللبن اذا غلظ واشتد ومنه الكبد لانه دم يغلظ ويشتد والفرق بين القولين ان الاول جعل اسم الكبد موضوعا للكبد ثم اشتقت منه الشدة وفي الثاني جعل اللفظ موضوعا للشدة والغلظ ثم اشتق منه اسم العضو (الوجه الثاني) ان الكبد هو الاستواء والاستقامة (الوجه الثالث) ان الكبد شدة الخلق والقوة اذا عرفت هذا فنقول اما على الوجه الاول فيحتمل ان يكون المراد شدائد الدنيا فقط وان يكون المراد شدائد التكاليف فقط وان يكون المراد شدائد

قبله ولا احلت له فأحل عليه الصلاة والسلام فيها ماشاء وحرم ماشاء فقتل ابن خطل وهو متعلق باستار الكعبة ومقيس بن صبابة وغيرهما وحرم دار ابي سفيان ثم ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض فهي حرام الى ان تقوم الساعة لم تحل لاحد قبلي ولن تحل لاحد بعدي ولم تحل لي الا ساعة من نهار فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها الا لمنشد فقال العباس يارسول الله الا الاذخر فانه لقبورنا وبيوتنا فقال عليه الصلوة والسلام الا الاذخر (ووالد) عطف على هذا البلد والمراد به ابراهيم وبقوله تعالى (وماولد) اسمعيل والنبي صلوات الله عليهم اجمعين حسبما ينبئ عنه المعطوف عليه فانه حرم ابراهيم ومنشأ اسمعيل

الآخرة فقط وان يكون المراد كل ذلك اما الاول فقوله لقد خلقنا الانسان فى كبد اى خلقناه اطوارا كلها شدة ومشقة تارة فى بطن الام ثم زمان الارضاع ثم اذا بلغ ففى الكد فى تحصيل المعاش ثم بعد ذلك الموت واما الثانى وهو الكد فى الدين فقال الحسن يكابد الشكر على السراء والصبر على الضراء ويكابد المحن فى اداء العبادات واما الثالث وهو الآخرة فالموت ومساءلة الملك وظلمة القبر ثم البعث والعرض على الله الى ان يستقر به القرار اما فى الجنة واما فى النار واما الرابع وهو ان يكون اللفظ محمولا على الكل فهو الحق وعندى فيه وجه آخر وهو انه ليس فى هذه الدنيا لذة البتة بل ذاك الذى يظن انه لذة فهو خلاص عن الالم فان مايتخيل من اللذة عند الاكل فهو خلاص عن ألم الجوع ومايتخيل من اللذة عند اللبس فهو خلاص عن ألم الحر والبرد فليس للانسان الا الم او خلاص عن ألم وانتقال الى آخر فهذا معنى قوله لقد خلقنا الانسان فى كبد ويظهر منه انه لابد للانسان من البعث والقيامة لان الحكيم الذى دبر خلقة الانسان ان كان مطلوبه منه ان يتألم فهذا لايليق بالرحمة وان كان مطلوبه ان لايتألم ولايلتذ ففى تركه على العدم كفاية فى هذا المطلوب وان كان مطلوبه ان يلتذ فقد بينا انه ليس فى هذه الحياة لذة وانه خلق الانسان فى هذه الدنيا فى كبد ومشقة ومحنة فاذا لابد بعد هذه الدار من دار اخرى لتكون تلك الدار دار السعادات واللذات والكرامات واما على الوجه الثانى وهو ان يفسر الكبد بالاستواء فقال ابن عباس فى كبد اى قائما منتصبا والحيوانات الأخر تمشى منكسة فهذا امتنان عليه بهذه الخلقة واما على الوجه الثالث وهو ان يفسر الكبد بشدة الخلقة فقد قال الكلبى نزلت هذه الآية فى رجل من بنى جمح يكنى اباالاشد وكان يجعل تحت قدميه الاديم العكاظى فيجتذبونه من تحت قدميه فيتمزق الاديم ولم تزل قدماه واعلم ان اللائق بالآية هو الوجه الاول (المسئلة الثانية) حرف فى واللام متقاربان تقول انما انت للعناء والنصب وانما انت فى العناء والنصب (وفيه وجه آخر) وهو ان قوله فى كبد يدل على ان الكبد قد احاط به احاطة الظرف بالمظروف وفيه اشارة الى ماذكرنا انه ليس فى الدنيا الا الكبد والمحنة (المسئلة الثالثة) منهم من قال المراد بالانسان انسان معين وهو الذى وصفناه بالقوة والاكثرون على انه عام يدخل فيه كل احد وان كنا لانمنع من ان يكون ورد عند فعل فعله ذلك الرجل

* قوله تعالى (أيحسب ان لن يقدر عليه احد) اعلم انا ان فسرنا الكبد بالشدة فى القوة فالمعنى ايحسب ذلك الانسان الشديد انه لشدته لايقدر عليه احد وان فسرناه بالمحنة والبلاء كان المعنى تسهيل ذلك على القلب كأنه يقول وهب ان الانسان كان فى النعمة والقدرة أفيظن انه فى تلك الحالة لايقدر عليه احد ثم اختلفوا فقال بعضهم لن يقدر على بعثه ومجازاته فكأنه خطاب مع من انكر البعث وقال آخرون المراد لن يقدر على تغيير احواله ظنا منه انه قوى على الامور لايدافع عن مراده وقوله ايحسب استفهام على

ومسقط رأس رسول الله عليهم الصلاة والسلام والتعبير عنهما بما دون من للتفخيم والتعظيم كتنكير والد وايرادهم بعنوان الولاد ترشيح لمضمون الجواب وايماء الى انه متحقق فى حالتى الوالدية والولدية وقيل آدم عليه السلام ونسله وهو انسب لمضمون الجواب من حيث شموله للكل الا ان التفخيم المستفاد من كلمة ما لابد فيه من اعتبار التغليب وقيل كل والد وولده (لقد خلقنا الانسان فى كبد) اى تعب ومشقة فانه لايزال يقاسى فنون الشدائد من وقت نفخ الروح الى حين نزعها وماوراءه يقال كبد الرجل كبدا اذا وجعت كبده واصله كبده اذا اصاب كبده ثم اتسع فيه حتى استعمل فى كل نصب ومشقة ومنه اشتقت المكابدة

(سبيل)

سبيل الانكار ❊ قوله تعالى (يقول اهلكت مالا لبدا) قال ابو عبيدة لبد فعل من التلبيد وهو المال الكثير بعضه على بعض قال الزجاج فعل للكثرة يقال رجل حطم اذا كان كثير الحطم قال الفراء واحدته لبدة ولبد جمع وجعله بعضهم واحدا ونظيره قثم وحطم وهو في الوجهين جميعا الكثير قال الليث مال لبد لايخاف فناؤه من كثرته وقد ذكرنا تفسير هذا الحرف عند قوله يكونون عليه لبدا والمعنى ان هذا الكافر يقول اهلكت في عداوة محمد مالا كثيرا والمراد كثرة ما انفقه فيما كان اهل الجاهلية يسمونه مكارم ويدعونه معالى ومفاخر ❊ ثم قال تعالى (ايحسب ان لم يره احد) فيه وجهان (الاول) قال قتادة أيظن الله ان لم يره ولم يسأله عن ماله من اين اكتسبه وفيم انفقه (الثانى) قال الكلبي كان كاذبا لم ينفق شيئا فقال الله تعالى ايظن ان الله تعالى ما رأى ذلك منه فعل اولم يفعل انفق اولم ينفق بلى رآه وعلم منه خلاف ما قال واعلم انه تعالى لما حكى عن ذلك الكافر قوله ايحسب ان لن يقدر عليه احد أقام الدلالة على كمال قدرته ❊ فقال تعالى (الم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين) وعجائب هذه الاعضاء مذكورة في كتب التشريح قال اهل العربية النجد الطريق في ارتفاع فكأنه لما وضحت الدلائل جعلت كالطريق المرتفعة العالية بسبب انها واضحة للعقول كوضوح الطريق العالى للابصار والى هذا التأويل ذهب عامة المفسرين في النجدين وهو انهما سبيلا الخير والشر وعن ابى هريرة انه عليه السلام قال انما هما النجدان نجد الخير ونجد الشر ولايكن نجد الشر أحب الى احدكم من نجد الخير وهذه الآية كالآية في هل أتى على الانسان الى قوله فجعلناه سميعا بصيرا انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا وقال الحسن قال اهلكت مالا لبدا فمن الذى يحاسبنى عليه فقيل الذى قدر على ان يخلق لك هذه الاعضاء قادر على محاسبتك وروى عن ابن عباس وسعيد بن المسيب انهما الثديان ومن قال ذلك ذهب الى انهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه والله تعالى هدى الطفل الصغير حتى ارتضعهما قال القفال والتأويل هو الاول ثم قرر وجه الاستدلال به فقال ان من قدر على ان يخلق من الماء المهين قلبا عقولا ولسانا قؤولا فهو على اهلاك ما خلق قادر وبما يخفيه المخلوق عالم فما العذر في الذهاب عن هذا مع وضوحه وما الحجة في الكفر بالله مع تظاهر نعمه وما العلة في التعزز على الله وعلى انصار دينه بالمال وهو المعطى له وهو الممكن من الانتفاع به ثم انه سبحانه وتعالى دل عباده على الوجوه الفاضلة التى تنفق فيها الاموال وعرف هذا الكافر ان انفاقه كان فاسدا وغير مفيد ❊ فقال تعالى (فلا اقتحم العقبة) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الاقتحام الدخول في الامر الشديد يقال قحم يقحم قحوما واقتحم اقتحاما وتقحم تقحما اذا ركب القحم وهى المهالك والامور العظام والعقبة طريق في الجبل وعر والجمع العقب والعقاب ثم ذكر المفسرون في العقبة ههنا وجهين (الاول) انها في الآخرة قال عطاء يريد عقبة جهنم وقال الكلبي هي عقبة بين الجنة والنار وقال ابن عمر

كما قيل كبته بمعنى اهلكه وهو تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما كان يكابده من كفار قريش والضمير في قوله تعالى (أيحسب) لبعضهم الذى كان عليه الصلاة والسلام يكابد منهم ما يكابد كالوليد بن المغيرة واضرابه وقيل هو ابو الاشد بن كلدة الجمحى وكان شديد القوة مغترا بقوته وكان يبسط له الاديم العكاظى فيقوم عليه ويقول من أزالنى عنه فله كذا فيجذبه عشرة فينقطع قطعا ولا تزل قدماه اى ايظن هذا القوى المارد المتضعف للمؤمنين (ان لن يقدر عليه احد) ان مخففة من ان واسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف اى أيحسب انه لن يقدر على الانتقام منه احد (يقول اهلكت مالا لبدا) يريد كثرة ما انفقه فيما كان اهل الجاهلية

هى جبل زلال فى جهنم وقال مجاهد والضحاك هى الصراط يضرب على جهنم وهو معنى قول الكلبى انها عقبة الجنة والنار قال الواحدى وهذا تفسير فيه نظر لان من المعلوم ان هذا الانسان وغيره لم يقتحموا عقبة جهنم ولا جاوزوها فحمل الآية عليه يكون ايضاحا للواضحات ويدل عليه انه لما قال وما ادراك ما العقبة فسره بفك الرقبة وبالاطعام (الوجه الثانى) فى تفسير العقبة هو ان الذكر العقبة ههنا مثل ضربه الله لمجاهدة النفس والشيطان فى اعمال البر وهذا قول الحسن ومقاتل قال الحسن عقبة الله شديدة وهى مجاهدة الانسان نفسه وهواه وعدوه من شياطين الانس والجن واقول هذا التفسير هو الحق لان الانسان يريد ان يترقى من عالم الحس والخيال الى يفاع عالم الانوار الالهية ولا شك ان بينه وبينها عقبات سامية دونها صواعق حامية ومجاوزتها صعبة والترقى اليها شديد (المسئلة الثانية) ان فى الآية اشكالا وهو انه قلما توجد لا الداخلة على الماضى الامكررة تقول لاجنبنى ولا بعدنى قال تعالى فلا صدق ولا صلى وفى هذه الآية ماجاء التكرير فما السبب فيه اجيب عنه من وجوه (الاول) قال الزجاج انها متكررة فى المعنى لان معنى فلا اقتحم العقبة فلا فك رقبة ولا اطعم مسكينا الا ترى انه فسر اقتحام العقبة بذلك وقوله ثم كان من الذين آمنوا يدل ايضا على معنى فلا اقتحم العقبة ولا آمن (الثانى) قال ابو على الفارسى معنى فلا اقتحم العقبة لم يقتحمها واذا كانت لا بمعنى لم كان التكرير غير واجب كما لا يجب التكرير مع لم فان تكررت فى موضع نحو فلا صدق ولا صلى فهو كتكرر لم نحو لم يسرفوا ولم يقتروا (المسئلة الثالثة) قال القفال قوله فلا اقتحم العقبة اى هلا انفق ماله فيما فيه اقتحام العقبة واما الباقون فانهم أجروا اللفظ على ظاهره وهو الاخبار بأنه ما اقتحم العقبة ❋ ثم قال تعالى (وما ادراك ما العقبة) لا بد من تقدير محذوف لان العقبة لا تكون فك رقبة فالمراد وما ادراك ما اقتحام العقبة وهذا تعظيم لامر التزام الدين ❋ ثم قال تعالى (فك رقبة) والمعنى ان اقتحام العقبة هو الفك او الاطعام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الفك فرق يزيل المنع كفك القيد والغل وفك الرقبة فرق بينها وبين صفة الرق بايجاب الحرية وابطال العبودية ومنه فك الرهن وهو ازالة غلق الرهن وكل شئ اطلقته فقد فككته ومنه فك الكتاب قال الفراء فى المصادر فكها يفكها فكاكا بفتح الفاء فى المصدر ولا تقل بكسرها ويقال كانت عادة العرب فى الاسارى شد رقابهم وايديهم فجرى ذلك فيهم وان لم يشدوا ثم سمى اطلاق الاسير فكاكا قال الاخطل

أبنى كليب ان عمى اللذا ❋ قتلا الملوك وفككا الاغلالا

(المسئلة الثانية) فك الرقبة قد يكون بأن يعتق الرجل رقبة من الرق وقد يكون بأن يعطى مكاتبا ما يصرفه الى جهة فكاك نفسه روى البراء بن عازب قال جاء اعرابى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال عتق النسمة وفك الرقبة قال يارسول الله اوليسا واحدا قال لا عتق النسمة ان تنفرد بعتقها وفك الرقبة ان

يسمونها مكارم ويدعونها معالى ومفاخر (أيحسب ان لم يره احد) حين كان ينفق وانه تعالى لا يسأله عنه ولا يجازيه عليه (ألم نجعل له عينين) يبصر بهما (ولسانا) يترجم به عن ضمائره (وشفتين) يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والاكل والشرب وغيرهما (وهديناه النجدين) اى طريقى الخير والشر او الثديين واصل النجد المكان المرتفع (فلا اقتحم العقبة) اى فلم يشكر تلك النعم الجليلة بالاعمال الصالحة وعبر عنها بالعقبة التى هى الطريق فى الجبل لصعوبة سلوكها وقوله تعالى (وما ادراك ما العقبة) اى اى شئ اعلمك ما اقتحام العقبة لزيادة تقريرها وكونها عند الله تعالى بمكانة رفيعة (فك رقبة) اى هو اعتاق رقبة (او اطعام فى يوم ذى مسغبة) اى

تعين فى ثمنها (وفيه وجه آخر) وهو ان يكون المراد ان يفك المرء رقبة نفسه بما يتكلفه من العبادة التى يصير بها الى الجنة فهى الحرية الكبرى ويتخلص بها من النار (المسئلة الثالثة) قرئ فك رقبة أو اطعام والتقدير هى فك رقبة أو اطعام وقرئ فك رقبة أو اطعم على الابدال من اقتحم العقبة وقوله وما أدراك ماالعقبة اعتراض قال الفراء وهو اشبه الوجهين بصحيح العربية لقوله ثم كان لان فك وأطعم فعل وقوله كان فعل وينبغى ان يكون الذى يعطف عليه الفعل فعلا أما لو قيل ثم ان كان ذلك كان مناسبا لقوله فك رقبة بالرفع لانه يكون عطفا للاسم على الاسم (المسئلة الرابعة) عند ابى حنيفة العتق أفضل انواع الصدقات وعند صاحبيه الصدقة أفضل والآية أدل على قول ابى حنيفة لتقدم العتق على الصدقة فيها * قوله تعالى (أو اطعام فى يوم ذى مسغبة) فيه مسائل (المسئلة الاولى) يقال سغب سغبا اذا جاع فهو ساغب وسغبان قال صاحب الكشاف المسغبة والمقربة والمتربة مفعلات من سغب اذا جاع وقرب فى النسب يقال فلان ذو قرابتى وذو مقربتى وترب اذا افتقر ومعناه التصق بالتراب واما أترب فاستغنى أى صار ذا مال كالتراب فى الكثرة قال الواحدى المتربة مصدر من قولهم ترب يترب تربا ومتربة مثل مسغبة اذا افتقر حتى لصق بالتراب (المسئلة الثانية) حاصل القول فى تفسير يوم ذى مسغبة ماقاله الحسن وهو انه يوم محروص فيه على الطعام قال أبو على ومعناه مايقول النحويون فى قولهم ليل نائم ونهار صائم اى ذو نوم وصوم واعلم ان اخراج المال فى وقت القحط والضرورة أثقل على النفس واوجب للاجر وهو كقوله وآتى المال على حبه وقال ويطعمون الطعام على حبه مسكينا وقرأ الحسن ذا مسغبة نصبه باطعام ومعناه او اطعام فى يوم من الايام ذا مسغبة * اما قوله تعالى (يتيما ذا مقربة) قال الزجاج ذا قرابة تقول زيد ذو قرابتى وذو مقربتى وزيد قرابتى قبيح لان القرابة مصدر قال مقاتل يعنى يتيما بينه وبينه قرابة فقد اجتمع فيه حقان يتم وقرابة فاطعامه افضل وقيل يدخل فيه القرب بالجوار كما يدخل فيه القرب بالنسب * اما قوله تعالى (او مسكينا ذا متربة) اى مسكينا قد لصق بالتراب من فقره وضره فليس فوقه مايستره ولا تحته مايوطئه روى ان ابن عباس مر بمسكين لاصق بالتراب فقال هذا الذى قال الله تعالى او مسكينا ذا متربة واحتج الشافعى بهذه الآية على ان المسكين قد يكون بحيث يملك شيئا لانه لو كان لفظ المسكين دليلا على انه لا يملك شيئا البتة لكان تقييده بقوله ذا متربة تكريرا وهو غير جائز * اما قوله تعالى (ثم كان من الذين آمنوا) اى كان مقتحم العقبة من الذين آمنوا فانه ان لم يكن منهم لم ينتفع بشئ من هذه الطاعات ولا مقتحما للعقبة فان قيل لما كان الايمان شرطا للانتفاع بهذه الطاعات وجب كونه مقدما عليها فما السبب فى ان الله تعالى أخره عنها بقوله ثم كان من الذين آمنوا (والجواب) من وجوه (احدها) ان هذا التراخى فى الذكر لا فى الوجود كقوله

ان من ساد ثم ساد أبوه * ثم قد ساد قبل ذلك جده

مجاعة (يتيما ذا مقربة) اى قرابة (او مسكينا ذا متربة) اى افتقار وحيث كان المراد باقتحام العقبة هذه الامور حسن دخول لا على الماضى فانها لا تكاد تقع الا مكررة اذ المعنى فلا فك رقبة ولا اطعم يتيما او مسكينا والمسغبة والمقربة والمتربة مفعلات من سغب اذا جاع وقرب من النسب وترب اذا افتقر وقرئ فك رقبة او اطعم على الابدال من اقتحم (ثم كان من الذين آمنوا) عطف على المنفى بلا وثم للدلالة على تراخى رتبة الايمان ورفعة محله لاشتراط جميع الاعمال الصالحة

لم يرد بقوله ثم ساد أبوه التأخر في الوجود وانما المعنى ثم اذكر انه ساد أبوه كذلك في الآية (وثانيها) ان يكون المراد ثم كان في عاقبة امره من الذين آمنوا وهو ان يموت على الايمان فان الموافاة شرط الانتفاع بالطاعات (وثالثها) ان من اتى بهذه القرب تقربا الى الله تعالى قبل ايمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم آمن بعد ذلك بمحمد عليه الصلاة والسلام فعند بعضهم انه يثاب على تلك الطاعات قالوا ويدل عليه ما روى ان حكيم بن حزام بعد ما اسلم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا كنا نأتي باعمال الخير في الجاهلية فهل لنا منها شيء فقال عليه السلام اسلمت على ما قدمت من الخير (ورابعها) ان المراد من قوله ثم كان من الذين آمنوا تراخي الايمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لان درجة ثواب الايمان اعظم بكثير من درجة ثواب سائر الاعمال ❊ اما قوله تعالى (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) فالمعنى انه كان يوصي بعضهم بعضا بالصبر على الايمان والثبات عليه او بالصبر عن المعاصي وعلى الطاعات والمحن التي يبتلى بها المؤمن ثم ضم اليه التواصي بالمرحمة وهو ان يحث بعضهم بعضا على ان يرحم المظلوم او الفقير او يرحم المقدم على منكر فيمنعه منه لان كل ذلك داخل في الرحمة وهذا يدل على انه يجب على المرء ان يدل غيره على طريق الحق ويمنعه من سلوك طريق الشر والباطل ما امكنه واعلم ان قوله ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة يعني يكون مقتحم العقبة من هذه الزمرة والطائفة وهذه الطائفة هم اكابر الصحابة كالخلفاء الاربعة وغيرهم فانهم كانوا مبالغين في الصبر على شدائد الدين والرحمة على الخلق وبالجملة فقوله وتواصوا بالصبر اشارة الى التعظيم لامر الله وقوله وتواصوا بالمرحمة اشارة الى الشفقة على خلق الله ومدار امر الطاعات ليس الا على هذين الاصلين وهو الذي قاله بعض المحققين ان الاصل في التصوف امران صدق مع الحق وخلق مع الخلق ثم انه سبحانه لما وصف هؤلاء المؤمنين بين انهم من هم في القيامه ❊ فقال تعالى (اولئك اصحاب الميمنة) وانما ذكر ذلك لانه تعالى بين حالهم في سورة الواقعة وانهم في سدر مخضود وطلح منضود قال صاحب الكشاف الميمنة والمشأمة اليمين والشمال او اليمن والشؤم اي الميامين على انفسهم والمشائيم عليها ❊ ثم قال تعالى (والذين كفروا بآياتنا هم اصحاب المشأمة) فقيل المراد من يؤتى كتابه بشماله او وراء ظهره وقد تقدم وصف الله لهم بأنهم في سموم وحميم وظل من يحموم الى غير ذلك ❊ ثم قال تعالى (عليهم نار مؤصدة) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الفراء والزجاج والمبرد يقال آصدت الباب واوصدته اذا اغلقته فمن قرأ مؤصدة بالهمز اخذها من آصدت فهمز اسم المفعول ويجوز ان يكون من اوصدت ولكنه همز على لغة من يهمز الواو اذا كان قبلها ضمة نحو موسى ومن لم يهمز احتمل ايضا امرين (احدهما) ان يكون من لغة من قال اوصدت فلم يهمز اسم المفعول كما يقال من اوعدت موعد (والآخر) ان يكون من آصد مثل آمن ولكنه خفف كما في تخفيف جؤنة وبؤس جونة وبوس فيقلبها في التخفيف واوا

به (وتواصوا بالصبر) عطف على آمنوا اى اوصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله (وتواصوا بالمرحمة) بالرحمة على عباده او بموجبات رحمته من الخيرات (اولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز صلته وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد درجتهم في الشرف والفضل اى اولئك الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة (اصحاب الميمنة) اى اليمين . او اليمن (والذين كفروا بآياتنا) بما نصبناه دليلا على الحق من كتاب وحجة او بالقرآن (هم

قال الفراء ويقال من هذا الاصيد والوصيد وهو الباب المطبق اذا عرفت هذا فنقول قال مقاتل عليهم نار مؤصدة يعني ابوابها مطبقة فلا يفتح لهم باب ولا يخرج منها غم ولا يدخل فيها روح أبد الآباد وقيل المراد احاطة النيران بهم كقوله أحاط بهم سرادقها (المسئلة الثانية) المؤصدة هي الابواب وقد جرت صفة للنار على تقدير عليهم نار مؤصدة الابواب فلما تركت الاضافة عاد التنوين لانهما يتعاقبان والله تعالى اعلم بالصواب

(سورة الشمس خمس عشرة آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها) قبل الخوض في التفسير لابد من مسائل (المسئلة الاولى) المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي وأعلم انه تعالى ينبه عباده دائما بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها لان الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب فتكون الدواعي الى تأمله اقوى (المسئلة الثانية) قد عرفت أن جماعة من أهل الاصول قالوا التقدير ورب الشمس ورب سائر ما ذكره الى تمام القسم واحتج قوم على بطلان هذا المذهب فقالوا ان في جملة هذا القسم قوله والسماء وما بناها وذلك هو الله تعالى فيلزم ان يكون المراد ورب السماء وربها وذلك كالمتناقض أجاب القاضي عنه بأن قوله وما بناها لا يجوز أن يكون المراد منه هو الله تعالى لان ما لا تستعمل في خالق السماء الا على ضرب من المجاز ولانه لا يجوز منه تعالى أن يقدم قسمه بغيره على قسمه بنفسه ولانه تعالى لا يكاد يذكر مع غيره على هذا الوجه فاذا لابد من التأويل وهو ان ما مع ما بعده في حكم المصدر فيكون التقدير والسماء وبنائها اعترض صاحب الكشاف عليه فقال لو كان الامر على هذا الوجه لزم من عطف قوله فألهمها عليه فساد النظم (المسئلة الثالثة) القراء مختلفون في فواصل هذه السورة وما شابهها نحو والليل اذا يغشى والضحى والليل اذا سجى فقرؤها تارة بالامالة وتارة بالتفخيم وتارة بعضها بالامالة وبعضها بالتفخيم قال الفراء بكسر ضحاها والآيات التي بعدها وان كان أصل بعضها الواو نحو تلاها وطحاها ودحاها فكذلك أيضا فانه لما ابتدئت السورة بحرف الياء اتبعها ما هو من الواو ولان الالف المنقلبة عن الواو قد توافق المنقلبة عن الياء ألا ترى ان تلوث وطحوت ونحوهما قد يجوز في أفعالها ان تنقلب الى الياء نحو تلى ودحى فلما حصلت هذه الموافقة استجازوا امالته كما استجازوا امالة ما كان من الياء وأما وجه من ترك الامالة مطلقا فهو ان كثيرا من العرب لا يميلون هذه الالفات ولا ينحون فيها نحو الياء ويقوى ترك الامالة للالف ان الواو في موسر منقلبة عن الياء والياء في ميقات وميزان منقلبة عن الواو ولم يلزم من ذلك ان يحصل فيه مايدل على ذلك الانقلاب فكذا ههنا ينبغي ان تترك الالف غير ممالة ولا ينحى بها نحو الياء وأما امالة البعض وترك امالة البعض كما فعله حمزة فحسن ايضا وذلك

اصحاب المشأمة) اى الشمال او الشؤم (عليهم نار مؤصدة) مطبقة من آصدت الباب اذا اطبقته واغلقته وقرئ موصدة بغير همزة من اوصدته * عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ لا أقسم بهذا البلد اعطاه الله تعالى الامان من غضبه يوم القيامة

(سورة الشمس مكية وآيها خمس عشرة)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والشمس وضحاها) اى ضوئها اذا أشرقت وقام سلطانها وقيل الضحوة ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك والضحاء بالفتح والمد اذا امتد النهار وكاد ينتصف (والقمر اذا تلاها) بأن طلع بعد غروبها وقيل

لان الالف انما تمال نحو الياء لتدل على الياء اذا كان انقلابها عن الياء ولم يكن فى تلاها وطحاها ودجاها ألف منقلبة عن الياء انما هى منقلبة عن الواو بدلالة تلوت ودحوت (المسئلة الرابعة) ان الله تعالى قد أقسم بسبعة اشياء الى قوله قد أفلح وهو جواب القسم قال الزجاج المعنى لقد أفلح لكن اللام حذفت لان الكلام طال فصار طوله عوضا منها قوله تعالى والشمس وضحاها ذكر المفسرون فى ضحاها ثلاثة أقوال قال مجاهد والكلبى ضوءها وقال قتادة هو النهار كله وهو اختيار الفراء وابن قتيبة وقال مقاتل هو حر الشمس وتقرير ذلك بحسب اللغة ان نقول قال الليث الضحو ارتفاع النهار والضحى فويق ذلك والضحاء ممدودا اذا امتد النهار وقرب أن ينتصف وقال أبو الهيثم الضح نقيض الظل وهو نور الشمس على وجه الارض وأصله الضحى فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء فقلبوها وقالوا اضح فالضحى هو ضوء الشمس ونورها ثم سمى به الوقت الذى تشرق فيه الشمس على ما فى قوله تعالى الا عشية أو ضحاها فمن قال من المفسرين فى ضحاها ضوءها فهو على الاصل وكذا من قال هو النهار كله لان جميع النهار هو من نور الشمس ومن قال فى الضحى انه حر الشمس فلأن حرها ونورها متلازمان فمتى اشتد حرها فقد اشتد ضوءها وبالعكس وهذا اضعف الاقوال واعلم انه تعالى انما اقسم بالشمس وضحاها لكثرة ما تعلق بها من المصالح فان اهل العالم كانوا كالاموات فى الليل فلما ظهر اثر الصبح فى المشرق صار ذلك كالصور الذى ينفخ قوة الحياة فصارت الاموات احياء وتزال تلك الحياة فى الازدياد والقوة والتكامل ويكون غاية كمالها وقت الضحوة فهذه الحالة تشبه احوال القيامة ووقت الضحى يشبه استقرار اهل الجنة فيها وقوله والقمر اذا تلاها قال الليث تلا يتلو اذا تبع شيئا وفى كون القمر تاليا وجوه (احدها) بقاء القمر طالعا عند غروب الشمس وذلك انما يكون فى النصف الاول من الشهر اذا غربت الشمس فان القمر يتبعها فى الاضاءة وهو قول عطاء عن ابن عباس (وثانيها) ان الشمس اذا غربت فالقمر يتبعها ليلة الهلال فى الغروب وهو قول قتادة والكلبى (وثالثها) قال الفراء المراد من هذا التلو هو ان القمر يأخذ الضوء من الشمس يقال فلان يتبع فلانا فى كذا اى يأخذ منه (ورابعها) قال الزجاج تلاها حين استدار وكمل فكأنه يتلو الشمس فى الضياء والنور يعنى اذا كمل ضوءه فصار كالقائم مقام الشمس فى الانارة وذلك فى الليالى البيض (وخامسها) انه يتلوها فى كبر الجرم بحسب الحس وفى ارتباط مصالح هذا العالم بحركته ولقد ظهر فى علم النجوم ان بينهما من المناسبة ما ليس بين الشمس وبين غيرها ❊ قوله تعالى (والنهار اذا جلاها) معنى التجلية الاظهار والكشف والضمير فى جلاها الى ماذا يعود فيه وجهان (احدهما) وهو قول الزجاج انه عائد الى الشمس وذلك لان النهار عبارة عن نور الشمس فكلما كان النهار اجلى ظهورا كانت الشمس اجلى ظهورا لان قوة الاثر وكماله تدل على قوة المؤثر فكأن النهار يبرز الشمس ويظهرها كقوله تعالى لا يجليها لوقتها

اذا تلا طلوعه طلوعها وقيل اذا تلاها فى الاستدارة وكمال النور (والنهار اذا جلاها) اى جلى الشمس فانها تتجلى عند انبساط النهار فكأنه جلاها مع انها التى تبسطه او جلى الظلمة او الدنيا او الارض وان لم يجر لها ذكر للعلم بها (والليل اذا يغشاها) اى الشمس فيغطى ضوءها او الآفاق او الارض وحيث كانت الواوات العاطفة نوائب للواو الاولى القسمية القائمة مقام الفعل والباء سادة مسدهما معا فى قولك اقسم بالله حقق ان يعملن عمل الفعل والجار جميعا كما تقول ضرب زيد

الاهو اى لايخرجها (الثانى) وهو قول الجمهور انه عائد الى الظلمة او الى الدنيا او الى الارض وان لم يجرلها ذكر يقولون اصبحت باردة يريدون الغداة وارسلت يريدون السماء ❊ قوله تعالى (والليل اذا يغشاها) يعنى يغشى الليل الشمس فيزيل ضوءها وهذه الآية تقوى القول الاول فى الآية التى قبلها من وجهين (الاول) انه لما جعل الليل يغشى الشمس ويزيل ضوءها حسن ان يقال النهار يجليها على ضد ما ذكر فى الليل (والثانى) ان الضمير فى يغشاها للشمس بلا خلاف فكذا فى جلاها يجب ان يكون للشمس حتى يكون الضمير فى الفواصل من اول السورة الى ههنا للشمس قال القفال وهذه الاقسام الاربعة ليست الا بالشمس فى الحقيقة لكن بحسب اوصاف اربعة (اولها) الضوء الحاصل منها عند ارتفاع النهار وذلك هو الوقت الذى يكمل فيه انتشار الحيوان واضطراب الناس للمعاش ومنها تلو القمر لها واخذه الضوء عنها ومنها تكامل طلوعها وبروزها بمجئ النهار ومنها وجود خلاف ذلك بمجئ الليل ومن تأمل قليلا فى عظمة الشمس ثم شاهد بعين عقله فيها اثر المصنوعية والمخلوقية من المقدار المتناهى والتركب من الاجزاء انتقل منه الى عظمة خالقها فسبحانه ما اعظم شأنه ❊ قوله تعالى (والسماء وما بناها) فيه سؤالات (السؤال الاول) ان الذى ذكره صاحب الكشاف من ان ماههنا لو كانت مصدرية لكان عطف فألهمها عليه يوجب فساد النظم حق والذى ذكره القاضى من انه لو كان هذا قسما بخالق السماء لما كان يجوز تأخيره عن ذكر الشمس فهو اشكال جيد والذى يخطر ببالى فى الجواب عنه ان اعظم المحسوسات هو الشمس فذكرها سبحانه مع اوصافها الاربعة الدالة على عظمها ثم ذكر ذاته المقدسة بعد ذلك ووصفها بصفات ثلاثة وهى تدبيره سبحانه للسماء والارض وللمركبات ونبه على المركبات بذكر اشرفها وهى النفس والغرض من هذا الترتيب هو ان يتوافق العقل والحس على عظمة جرم الشمس ثم يحتج العقل الساذج بالشمس بل بجميع السماويات والارضيات والمركبات على اثبات مبدئ لها فحينئذ يحظى العقل ههنا بادراك جلال الله وعظمته على ما يليق به والحس لا ينازعه فيه فكان ذلك كالطريق الى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات الى يفاع عالم الربوبية وبيداء كبرياء الصمدية فسبحان من عظمت حكمته وكملت كلمته (السؤال الثانى) ما الفائدة فى قوله والسماء وما بناها (والجواب) انه سبحانه لما وصف الشمس بالصفات الاربعة الدالة على عظمتها اتبعه ببيان ما يدل على حدوثها وحدوث جميع الاجرام السماوية فنبه بهذه الآية على تلك الدلالة وذلك لان الشمس والسماء متناهية وكل متناه فانه مختص بمقدار معين مع انه كان يجوز فى العقل وجود ما هو اعظم منه وما هو اصغر منه فاختصاص الشمس وسائر السماوية بالمقدار المعين لابد وان يكون لتقدير مقدر وتدبير مدبر وكما ان بانى البيت يبنيه بحسب مشيئته فكذا مدبر الشمس وسائر السماويات قدرها بحسب مشيئته فقوله وما بناها كالتنبيه على هذه الدقيقة الدالة

عمرا او بكر خالدا (والسماء وما بناها) اى ومن بناها وايثار ما على من لارادة الوصفية تفخيما كأنه قيل والقادر العظيم الشأن الذى بناها وجعلها مصدرية مخل بالنظم الكريم وكذا الكلام فى قوله تعالى (والارض وما طحاها) اى بسطها من كل جانب كدحاها (ونفس وما سواها) اى انشأها وابدعها مستعدة لكمالاتها والتنكير للتفخيم على ان المراد نفس آدم عليه السلام او للتكثير وهو الانسب للجواب (فألهمها فجورها وتقواها) اى افهمها

على حدوث الشمس وسائر السماويات (السؤال الثالث) لم قال وبناها ولم يقل ومن بناها (الجواب) من وجهين (الاول) ان المراد هو الاشارة الى الوصفية كأنه قيل والسماء وذلك الشئ العظيم القادر الذى بناها ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذى سواها (والثانى) ان ما تستعمل فى موضع من كقوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء والاعتماد على الاول (السؤال الرابع) لم ذكر فى تعريف ذات الله تعالى هذه الاشياء الثلاثة وهى السماء والارض والنفس (الجواب) لان الاستدلال على الغائب لا يمكن الا بالشاهد والشاهد ليس الا العالم الجسمانى وهو قسمان بسيط ومركب والبسيط قسمان العلوية واليه الاشارة بقوله والسماء والسفلية واليه الاشارة بقوله والارض والمركب هو اقسام واشرفها ذوات الانفس واليه الاشارة بقوله ونفس وما سواها * اما قوله تعالى (والارض وما طحاها) ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انما اخر هذا عن قوله والسماء وما بناها لقوله والارض بعد ذلك دحاها (المسئلة الثانية) قال الليث الطحو كالدحو وهو البسط وابدال الطاء من الدال جائز والمعنى وسعها قال عطاء والكلبى بسطها على الماء * اما قوله تعالى (ونفس وما سواها) ان حملنا النفس على الجسد فتسويتها تعديل اعضائها على ما يشهد به علم التشريح وان حملناها على القوة المدبرة فتسويتها اعطاؤها القوى الكثيرة كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة والمفكرة والمذكرة على ما يشهد به علم النفس فان قيل لم نكرت النفس قلنا فيه وجهان (احدهما) ان يريد به نفسا خاصة من بين النفوس وهى النفس القدسية النبوية وذلك لان كل كثرة فلا بد فيها من واحد يكون هو الرئيس فالمركبات جنس تحته انواع ورئيسها الحيوان والحيوان جنس تحته انواع ورئيسها الانسان والانسان انواع واصناف ورئيسها النبى والانبياء كانوا كثيرين فلا بد وان يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق فقوله ونفس اشارة الى تلك النفس التى هى رئيسة لعالم المركبات رياسة بالذات (الثانى) ان يريد كل نفس ويكون المراد من التنكير التكثير على الوجه المذكور فى قوله علمت نفس ما احضرت وذلك لان الحيوان انواع لا يحصى عددها الا الله على ما قال بعد ذكر بعض الحيوانات ويخلق ما لا تعلمون ولكل نوع نفس مخصوصة متميزة عن سائرها بالفصل المقوم لماهيته والخواص اللازمة لذلك الفصل فمن الذى يحيط عقله بالقليل من خواص نفس البق والبعوض فضلا عن التوغل فى بحار اسرار الله تعالى * اما قوله تعالى (فألهمها فجورها وتقواها) فالمعنى المحصل فيه وجهان (الاول) ان الهام الفجور والتقوى افهامهما واعقالهما وان احدهما حسن والآخر قبيح وتمكينه من اختيار ما شاء منهما وهو كقوله وهديناه النجدين وهذا التأويل مطابق لمذهب المعتزلة قالوا ويدل عليه قوله بعد ذلك قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها وهذا الوجه مروى عن ابن عباس وعن جمع من اكابر المفسرين (والوجه الثانى) انه تعالى الهم المؤمن المتقى تقواه والهم الكافر فجوره

اياهما وعرفها حالهما من الحسن والقبح وما يؤدى اليه كل منهما ومكنها من اختيار ايهما شاءت وتقديم الفجور لمراعاة الفواصل (قد افلح من زكاها) اى فاز بكل مطلوب ونجا من كل مكروه من انماها واعلاها بالتقوى وهو جواب القسم وحذف اللام لطول الكلام وتكرير قد فى قوله تعالى (وقد خاب من دساها) لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه والايذان بتعلق القسم به ايضا اصالة اى خسر من نقصها واخفاها بالفجور واصل دسى دسس كتقضى

قال سعيد بن جبير الزمها فجورها وتقواها وقال ابن زيد جعل فيها ذلك بتوفيقه اياها للتقوى وخذ لانه اياها بالفجور واختار الزجاج والواحدى ذلك قال الواحدى التعليم والتعريف والتبيين غير والالهام غير فان الالهام هو ان يوقع الله فى قلب العبد شيئا واذا اوقع فى قلبه شيئا فقد الزمه اياه واصل معنى الالهام من قولهم لهم الشئ والتهمه اذا ابتلعه والهمته ذلك الشئ اى أبلعته هذا هو الاصل ثم استعمل ذلك فيما يقذفه الله تعالى فى قلب العبد لانه كالابلاع فالتفسير الموافق لهذا الاصل قول ابن زيد وهو صريح فى ان الله تعالى خلق فى المؤمن تقواه وفى الكافر فجوره واما التمسك بقوله قد افلح من زكاها فضعيف لان المروى عن سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومقاتل والكلبى ان المعنى قد افلحت وسعدت نفس زكاها الله تعالى واصلحها وطهرها والمعنى وفقها للطاعة هذا آخر كلام الواحدى وهو تام واقول قد ذكرنا ان الآيات الثلاثة ذكرت للدلالة على كونه سبحانه مدبرا للاجسام العلوية والسفلية البسيطة والمركبة فههنا لم يبق شئ مما فى عالم المحسوسات الا وقد ثبت بمقتضى ذلك التنبيه انه واقع بتخليقه وتدبيره بقى شئ واحد يختلج فى القلب انه هل هو بقضائه وقدره وهو الافعال الحيوانية الاختيارية فنبه سبحانه بقوله فألهمها فجورها وتقواها على ان ذلك ايضا منه وبه وبقضائه وقدره وحينئذ ثبت ان كل ماسوى الله فهو واقع بقضائه وقدره وداخل تحت ايجاده وتصرفه ثم الذى يدل عقلا على ان المراد من قوله فألهمها فجورها وتقواها هو الخذلان والتوفيق ماذكرنا مرارا ان الافعال الاختيارية موقوفة على حصول الاختيارات فحصولها ان كان لا عن فاعل فقد استغنى المحدث عن الفاعل وفيه نفى الصانع وان كان عن فاعل هو العبد لزم التسلسل وان كان عن الله فهو المقصود وايضا فليجرب العاقل نفسه فانه ربما كان الانسان غافلا عن شئ فتقع صورته فى قلبه دفعة ويترتب على وقوع تلك الصورة فى القلب ميل اليه ويترتب على ذلك الميل حركة الاعضاء وصدور الفعل وذلك يفيد القطع بأن المراد من قوله فألهمها ماذكرناه لا ماذكره المعتزلة ※ اما قوله تعالى (قد افلح من زكاها) فاعلم ان التزكية عبارة عن التطهير او عن الانماء وفى الآية قولان (احدهما) انه قد ادرك مطلوبه من زكى نفسه بان طهرها من الذنوب بفعل الطاعة ومجانبة المعصية (والثانى) قد افلح من زكاها الله وقبل القاضى هذا التأويل وقال المراد منه ان الله حكم بتزكيتها وسماها بذلك كما يقال فى العرف ان فلانا يزكى فلانا ثم قال والاول اقرب لان ذكر النفس قد تقدم ظاهرا فرد الضمير عليه اولى من رده على ماهو فى حكم المذكور لانه مذكور واعلم انا قد دللنا بالبرهان القاطع ان المراد بألهمها ماذكرناه فوجب حمل اللفظ عليه واما قوله بان هذا محمول على الحكم والتسمية فهو ضعيف لان بناء التفعيلات على التكوين ثم ان سلمنا ذلك لكن ماحكم الله به يمتنع تغيره لان تغير المحكوم به يستلزم تغير الحكم من الصدق الى الكذب وتغير العلم الى الجهل وذلك محال والمفضى الى المحال محال أما قوله ذكر النفس

وتقضض وقيل هو كلام تابع لقوله تعالى فألهمها فجورها وتقواها بطريق الاستطراد وانما الجواب ماحذف تعويلا على دلالة قوله تعالى (كذبت ثمود بطغواها) عليه كأنه قيل ليدمدمن الله تعالى على كفار مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحا عليه السلام وهو على الاول استئناف وارد لتقرير مضمون قوله تعالى وقد خاب من دساها والطغوى بالفتح الطغيان والباء للسببية اى فعلت التكذيب بسبب طغيانها كما تقول ظلمنى

قدتقدم قلناهذا بالعكس اولى فان اهل اللغة اتفقوا على ان عود الضمير الى الاقرب اولى من عوده الى الابعد وقوله فألهمها اقرب الى قوله مامنه الى قوله ونفس فكان الترجيح لما ذكرنا ومما يؤكد هذا التأويل ماروا‌ه الواحدى فى البسيط عن سعيد بن ابى هلال انه عليه السلام كان اذا قرأ قد افلح من زكاها وقف وقال اللهم آت نفسى تقواها انت وليها وانت مولاها وزكها انت خير من زكاها ❊ اما قوله تعالى (وقد خاب من دساها) فقالوا دساها اصله دسسها من التدسيس وهو اخفاء الشئ فى الشئ فأبدلت احدى السينات ياء فأصل دسى دسس كما ان اصل تقضى البازى تقضض البازى وكما قالوا البيت والاصل لببت وملبى والاصل ملبب ثم نقول اما المعتزلة فذكروا وجوها توافق قولهم (احدها) ان اهل الصلاح يظهرون انفسهم واهل الفسق يخفون انفسهم ويدسونها فى المواضع الخفية كما ان اجواد العرب ينزلون الربا حتى تشتهر أماكنهم ويقصدهم المحتاجون ويوقدون النيران بالليل للطارقين وأما اللئام فانهم يخفون أماكنهم عن الطالبين (وثانيها) خاب من دساها اى دس نفسه فى جملة الصالحين وليس منهم (وثالثها) من دساها فى المعاصى حتى انغمس فيها (ورابعها) من دساها من دس فى نفسه الفجور وذلك بسبب مواظبته عليها ومجالسته مع اهلها (وخامسها) ان من اعرض عن الطاعات واشتغل بالمعاصى صار خاملا متروكا منسيا فصار كالشئ المدسوس فى الاختفاء والخمول واما اصحابنا فقالوا المعنى خابت وخسرت نفس اضلها الله تعالى واغواها وافجرها وابطلها واهلكها هذه الفاظهم فى تفسير دساها قال الواحدى رحمه الله فكأنه سبحانه اقسم بأشرف مخلوقاته على فلاح من طهره وخسار من خذله حتى لا يظن احد انه هو الذى يتولى تطهير نفسه او اهلاكها بالمعصية من غير قدر متقدم وقضاء سابق ❊ اما قوله تعالى (كذبت ثمود بطغواها) قال الفراء الطغيان والطغوى مصدر ان الا ان الطغوى اشبه برؤس الآيات فاختير لذلك وهو كالدعوى من الدعاء وفى التفسير وجهان (احدهما) انها فعلت التكذيب بطغيانها كما تقول ظلمنى بجراءته على الله تعالى والمعنى ان طغيانهم حملهم على التكذيب به هذا هو القول المشهور (والثانى) ان الطغوى اسم لعذابهم الذى اهلكوا به والمعنى كذبت بعذابها اى لم يصدقوا رسولهم فيما انذرهم به من العذاب وهذا لا يبعد لان معنى الطغيان فى اللغة مجاوزة القدر المعتاد فيجوز ان يسمى العذاب الذى جاءهم طغوى لانه كان صيحة مجاوزة للقدر المعتاد او يكون التقدير كذبت بما اوعدت به من العذاب ذى الطغوى ويدل على هذا التأويل قوله تعالى كذبت ثمود وعاد بالقارعة اى بالعذاب الذى حل بها ثم قال فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية فسمى ما اهلكوا به من العذاب طاغية ❊ قوله تعالى (اذ انبعث اشقاها) انبعث مطاوع بعث يقال بعثت فلانا على الامر فانبعث له والمعنى انه كذبت ثمود بسبب طغيانهم حين انبعث اشقاها وهو عاقر الناقة وفيه قولان (احدهما) انه شخص معين واسمه قدار بن سالف

بجراءة على الله تعالى او صلة للتكذيب اى كذبت بما اوعدت به من العذاب ذى الطغوى كقوله تعالى فأهلكوا بالطاغية وقرئ بطغواها بضم الطاء وهو أيضا مصدر كالرجعى (اذ انبعث أشقاها) منصوب بكذبت او بالطغوى اى حين قام أشقى ثمود وهو قدار بن سالف او هو ومن تصدى معه لعقر الناقة من الاشقياء فأن افعل التفضيل اذا اضيف يصلح للواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وفضل شقاوتهم على من عداهم لمباشرتهم العقر مع اشتراك الكل فى الرضا به

(ويضرب)

ويضرب به المثل يقال اشأم من قدار وهو اشقى الاولين بفتوى رسول الله صلى الله عليه وسلم (والثانى) يجوز ان يكونوا جماعة وانما جاء على لفظ الوحدان لتسويتك فى افعل التفضيل اذا اضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث تقول هذان افضل الناس وهؤلاء افضلهم وهذا يتأكد بقوله فكذبوه فعقروها وكان يجوز ان يقال اشقوها كما يقال افاضلهم ❊ اما قوله تعالى (فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد من الرسول صالح عليه السلام ناقة الله اى انه اشار اليها لما هموا بعقرها وبلغه ماعزموا عليه وقال لهم هى ناقة الله وآيته الدالة على توحيده وعلى نبوتى فاحذروا ان تقدموا عليها بسوء واحذروا ايضا ان تمنعوها من سقياها وقد بينا فى مواضع من هذا الكتاب انه كان لها شرب يوم ولهم ولمواشيهم شرب يوم وكانوا يستضرون بذلك فى امر مواشيهم فهموا بعقرها وكان صالح عليه السلام يحذرهم حالا بعد حال من عذاب ينزل بهم ان اقدموا على ذلك وكانت هذه الحالة متصورة فى نفوسهم فاقتصر على ان قال لهم ناقة الله وسقياها لان هذه الاشارة كافية مع الامور المتقدمة التى ذكرناها (المسئلة الثانية) ناقة الله نصب على التحذير كقولك الاسد الاسد والصبى الصبى باضمار ذروا عقرها واحذروا سقياها فلا تمنعوها عنها ولا تستأثروا بها عليها ثم بين تعالى ان القوم لم يمتنعوا عن تكذيب صالح وعن عقر الناقة بسبب العذاب الذى انذرهم الله تعالى به وهو المراد بقوله (فكذبوه فعقروها) ثم يجوز ان يكون المباشر للعقر واحدا وهو قدار فيضاف الفعل اليه بالمباشرة كما قال فتعاطى فعقر ويضاف الفعل الى الجماعة لرضاهم بما فعل ذلك الواحد قال قتادة ذكر لنا انه أبى ان يعقرها حتى بايعه صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وانثاهم وهو قول أكثر المفسرين وقال الفراء قيل انهما كانا اثنين ❊ اما قوله تعالى (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) فاعلم ان فى الدمدمة وجوها (أحدها) قال الزجاج معنى دمدم اطبق عليهم العذاب يقال دمدمت على الشئ اذا اطبقت عليه ويقال ناقة مدمومة اى قد ألبسها الشحم فاذا كررت الاطباق قلت دمدمت عليه قال الواحدى الدم فى اللغة اللطخ ويقال للشئ السمين كأنما دم بالشحم دما فجعل الزجاج دمدم من هذا الحرف على التضعيف نحو كبكبوا وبابه فعلى هذا معنى دمدم عليهم اطبق عليهم العذاب وعمهم كالشئ الذى يلطخ به من جميع الجوانب (الوجه الثانى) تقول للشئ يدفن دمدمت عليه اى سويت عليه فيجوز ان يكون معنى فدمدم عليهم فسوى عليهم الارض بأن أهلكهم فجعلهم تحت التراب (الوجه الثالث) قال ابن الانبارى دمدم غضب والدمدمة الكلام الذى يزعج الرجل (ورابعها) دمدم عليهم ارجف الارض بهم رواه ثعلب عن ابن الاعرابى وهو قول الفراء اما قوله فسواها يحتمل وجهين وذلك لانا ان فسرنا الدمدمة بالاطباق والعموم كان المعنى فسوى الدمدمة عليهم وعمهم بها وذلك ان هلاكهم كان بصيحة جبريل عليه السلام وتلك الصيحة أهلكتهم جميعا

(فقال لهم) اى لثمود (رسول الله) اى صالح عليه السلام عبر عنه بعنوان الرسالة ايذانا بوجوب طاعته وبيانا لغاية عتوهم وتماديهم فى الطغيان وهو السر فى اضافة الناقة الى الله تعالى فى قوله تعالى (ناقة الله) اى ذروا ناقة الله (وسقياها) ولا تذودوها عنها فى نوبتها (فكذبوه) اى فى وعيده بقوله تعالى ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم وقد جوز ان يكون ضميرلهم للاشقين ولا يلائمه ذكر سقياها (فعقروها) اى الاشقى والجمع على تقدير وحدته لرضا الكل بفعله وقال قتادة بلغنا انه لم يعقرها حتى بايعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وانثاهم وقال الفراء عقرها اثنان والعرب تقول هذان افضل الناس (فدمدم عليهم ربهم) فأطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة اذا

فاستوت على صغيرهم وكبيرهم وان فسرناها بالتسوية كان المراد فسوى عليهم الارض ❁ اما قوله تعالى (ولا يخاف عقباها) ففيه وجوه (اولها) انه كناية عن الرب تعالى اذ هو اقرب المذكورات ثم اختلفوا فقال بعضهم لا يخاف تبعة في العاقبة اذا العقبى والعاقبة سواء كأنه بين انه تعالى يفعل ذلك بحق وكل من فعل ما يكون حكمة وحقا فانه لا يخاف عاقبة فعله وقال بعضهم ذكر ذلك لا على وجه التحقيق لكن على وجه التحقير لهذا الفعل أي هو أهون من أن تخشى فيه عاقبة والله تعالى يجل ان يوصف بذلك ومنهم من قال المراد منه التنبيه على انه بالغ في التعذيب فان كل ملك يخشى عاقبة فانه يتقي بعض الاتقاء والله تعالى لما لم يخف شيئا من العواقب لاجرم ما اتقى شيئا (وثانيها) انه كناية عن صالح الذي هو الرسول اي ولا يخاف صالح عقبى هذا العذاب الذي ينزل بهم وذلك كالوعد لنصرته ودفع المكاره عنه لو حاول محاول ان يؤذيه لأجل ذلك (وثالثها) المراد ان ذلك الاشقى الذي هو أحيمر ثمود فيما اقدم من عقر الناقة لا يخاف عقباها وهذه الآية وان كانت متأخرة لكنها على هذا التفسير في حكم المتقدم كأنه قال اذ انبعث اشقاها ولا يخاف عقباها والمراد بذلك انه اقدم على عقرها وهو كالآمن من نزول الهلاك به وبقومه ففعل مع هذا الخوف الشديد فعل من لا يخاف البتة فنسب في ذلك الى الجهل والحمق وفي قراءة النبي عليه السلام ولم يخف وفي مصاحف اهل المدينة والشام فلا يخاف والله اعلم روي ان صالحا لما وعدهم العذاب بعد ثلاث قال التسعة الذين عقروا الناقة هلموا فلنقتل صالحا فان كان صادقا عجلناه قبلنا وان كان كاذبا الحقناه بناقته فأتوه ليبيتوه فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطؤا على اصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح انت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم والله لا تقتلونه قد وعدكم ان العذاب نازل بكم في ثلاث فان كان صادقا زدتم ربكم عليكم غضبا وان كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنه تلك الليلة فأصبحوا وجوههم مصفرة فأيقنوا بالعذاب فطلبوا صالحا ليقتلوه فهرب صالح والتجأ الى سيد بعض بطون ثمود وكان مشركا فغيبه عنهم فلم يقدروا عليه ثم شغلهم عنه ما نزل بهم من العذاب فهذا هو قوله ولا يخاف عقباها والله اعلم وأحكم

(سورة والليل احدى وعشرون آية مكية)

قال القفال رحمه الله نزلت هذه السورة في ابي بكر وانفاقه على المسلمين وفي أمية بن خلف وبخله وكفره بالله الأأنها وان كانت كذلك لكن معانيها عامة للناس ألا ترى ان الله تعالى قال ان سعيكم لشتى وقال فأنذرتكم نارا تلظى ويروى عن علي عليه السلام انه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدنا حوله فقال ما منكم نفس منفوسة الا وقد علم الله مكانها من الجنة والنار فقلنا يارسول الله أفلا نتكل فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له فأما من اعطى واتقى وصدق

ألبسها الشمس (بذنبهم) بسبب ذنبهم المحكي والتصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للانذار بعاقبة الذنب ليعتبر به كل مذنب (فسواها) اي الدمدمة بينهم لم يفلت منهم احد من صغير وكبير او فسوى ثمود بالارض او سواها في الاهلاك (ولا يخاف عقباها) اي عاقبتها وتبعتها كما يخاف سائر المعاقبين من الملوك فيبقى بعض الابقاء وذلك انه تعالى لا يفعل فعلا الا بحق وكل من فعل بحق فأنه لا يخاف عاقبة فعله وان كان من شأنه الخوف والواو للحال او للاستئناف وقرئ فلا يخاف وقرئ ولم يخف *عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الشمس فكأنما تصدق بكل شئ طلعت عليه الشمس والقمر

* (سورة والليل مكية وآيها احدى وعشرون) *

بالحسنى فسنيسره لليسرى فبان بهذا الحديث عموم هذه السورة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى) اعلم انه تعالى اقسم بالليل الذى يأوى فيه كل حيوان الى مأواه ويسكن الخلق عن الاضطراب ويغشاهم النوم الذى جعله الله راحة لابدانهم وغداء لارواحهم ثم اقسم بالنهار اذا تجلى لان النهار اذا جاء انكشف بضوئه ماكان فى الدنيا من الظلمة وجاء الوقت الذى يتحرك فيه الناس لمعاشهم وتتحرك الطير من اوكارها والهوام من مكامنها فلو كان الدهر كله ليلا لتعذر المعاش ولو كان كله نهارا لبطلت الراحة لكن المصلحة كانت فى تعاقبهما على ماقال وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة وسخر لكم الليل والنهار اما قوله والليل اذا يغشى فاعلم انه تعالى لم يذكر مفعول يغشى فهو اما الشمس من قوله والليل اذا يغشاها واما النهار من قوله يغشى الليل النهار واما كل شئ يواريه بظلامه من قوله اذا وقب وقوله والنهار اذا تجلى اى ظهر بزوال ظلمة الليل او ظهر وانكشف بطلوع الشمس * وقوله تعالى (وماخلق الذكر والانثى) فيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسيره وجوه (احدها) اى والقادر العظيم القدرة الذى قدر على خلق الذكر والانثى من ماء واحد وقيل هما آدم وحواء (وثانيها) اى وخلقه الذكر والانثى (وثالثها) ما بمعنى من اى ومن خلق الذكر والانثى اى والذى خلق الذكر والانثى (المسئلة الثانية) قرأ النبى صلى الله عليه وسلم والذكر والانثى وقرأ ابن مسعود والذى خلق الذكر والانثى وعن الكسائى وماخلق الذكر والانثى بالجر ووجهه ان يكون معنى وماخلق اى وماخلق الله تعالى اى ومخلوق الله ثم يجعل الذكر والانثى بدلا منه اى ومخلوق الله الذكر والانثى وجاز اضمار اسم الله لانه معلوم انه لاخالق الا هو (المسئلة الثالثة) القسم بالذكر والانثى يتناول القسم بجميع ذوى الارواح الذى هو أشرف المخلوقات لان كل حيوان فهو اما ذكر او انثى والخنثى فهو فى نفسه لابد وان يكون اما ذكرا او انثى بدليل انه لو حلف بالطلاق انه لم يلق فى هذا اليوم لاذكرا ولا انثى وكان قد لقى خنثى فانه يحنث فى يمينه * قوله تعالى (ان سعيكم لشتى) هذا جواب القسم فأقسم تعالى بهذه الاشياء ان اعمال عباده لشتى اى مختلفة فى الجزاء وشتى جمع شتيت مثل مرضى ومريض وانما قيل للمختلف شتى لتباعد مابين بعضه وبعضه والشتات هو التباعد والافتراق فكأنه قيل ان عملكم لمتباعد بعضه من بعض لان بعضه ضلال وبعضه هدى وبعضه يوجب الجنان وبعضه يوجب النيران فشتان مابينهما ويقرب من هذه الآية قوله لايستوى اصحاب النار واصحاب الجنة وقوله أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون وقوله ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون وقال ولا الظل ولا الحرور قال المفسرون نزلت هذه الآية فى ابى بكر وابى سفيان ثم انه سبحانه بين معنى اختلاف الاعمال فيما قلناه من العاقبة المحمودة والمذمومة والثواب

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والليل اذا يغشى) اى حين يغشى الشمس كقوله تعالى والليل اذا يغشاها او النهار او كل مايواريه بظلامه (والنهار اذا تجلى) ظهر بزوال ظلمة الليل او تبين وتكشف بطلوع الشمس (وماخلق الذكر والانثى) اى والقادر العظيم القدرة الذى خلق صنفى الذكر والانثى من كل ماله توالد وقيل هما آدم وحواء وقرئ والذكر والانثى وقرئ والذى خلق الذكر والانثى وقيل ما مصدرية (ان سعيكم لشتى) جواب القسم وشتى جمع شتيت اى ان مساعيكم لاشتات مختلفة وقوله تعالى (فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى) الخ تفصيل لتلك المساعى المشتتة وتبيين لاحكامها اى فأما

والعقاب ﴿فقال تعالى (فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) وفي قوله اعطى وجهان (احدهما) ان يكون المراد انفاق المال في جميع وجوه الخير من عتق الرقاب وفك الاسارى وتقوية المسلمين على عدوهم كما كان يفعله ابوبكر سواء كان ذلك واجبا اونفلا واطلاق هذا كالاطلاق في قوله ومما رزقناهم ينفقون فان المراد منه كل ما كان انفاقا في سبيل الله سواء كان واجبا اونفلا وقد مدح الله قوما فقال ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا وقال في آخر هذه السورة وسيجنبها الاتقى الذي يؤتي ماله يتزكى ومالأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى (وثانيهما) ان قوله اعطى يتناول اعطاء حقوق المال واعطاء حقوق النفس في طاعة الله تعالى يقال فلان اعطى الطاعة واعطى البيعة وقوله واتقى فهو اشارة الى الاحتراز عن كل مالا ينبغي وقد ذكرنا انه هل من شرط كونه متقيا ان يكون محترزا عن الصغائر املا في تفسير قوله تعالى هدى للمتقين وقوله وصدق بالحسنى فالحسنى فيها وجوه (احدها) انها قول لا اله الا الله والمعنى فأما من اعطى واتقى وصدق بالتوحيد والنبوة حصلت له الحسنى وذلك لانه لا ينفع مع الكفر اعطاء مال ولا اتقاء محارم وهو كقوله او اطعام في يوم ذي مسغبة الى قوله ثم كان من الذين آمنوا (وثانيها) ان الحسنى عبارة عما فرضه الله تعالى من العبادات على الابدان وفي الاموال كأنه قيل اعطى في سبيل الله واتقى المحارم وصدق بالشرائع فعلم انه تعالى لم يشرعها الا لما فيها من وجوه الصلاح والحسن (وثالثها) ان الحسنى هو الخلف الذي وعده الله في قوله وما انفقتم من شيء فهو يخلفه والمعنى اعطى من ماله في طاعة الله مصدقا بما وعد الله من الخلف الحسن وذلك انه قال مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله فكأن الخلف لما كان زائدا صح اطلاق لفظ الحسنى عليه وعلى هذا المعنى وكذب بالحسنى اى لم يصدق بالخلف فبخل بماله لسوء ظنه بالمعبود كما قال بعضهم منع الموجود سوء ظن بالمعبود وروى عن ابي الدرداء انه قال ما من يوم غربت فيه شمس الا وملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم الا الثقلين اللهم اعط كل منفق خلفا وكل ممسك تلفا (ورابعها) ان الحسنى هو الثواب وقيل انه الجنة والمعنى واحد قال قتادة صدق بموعود الله فعمل لذلك الموعود قال القفال وبالجملة ان الحسنى لفظة تسع كل خصلة حسنة قال الله تعالى قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين يعني النصر او الشهادة وقال تعالى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا فسمى مضاعفة الاجر حسنى وقال ان لي عنده للحسنى واما قوله فسنيسره لليسرى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في تفسير هذه اللفظة وجوه (احدها) انها الجنة (وثانيها) انها الخير وقالوا في العسرى انها الشر (وثالثها) المراد منه ان يسهل عليه كل ما كلف به من الافعال والتروك والمراد من العسرى تعسير كل ذلك عليه (ورابعها) اليسرى هي العود الى الطاعة التي اتى بها اولا فكأنه قال فسنيسره لأن يعود الى الاعطاء في سبيل الله

من اعطى حقوق ماله واتقى محارم الله تعالى التي نهى عنها وصدق بالخصلة الحسنى وهي الايمان او بالكلمة الحسنى وهي كلمة التوحيد او بالملة الحسنى وهي ملة الاسلام او بالمثوبة الحسنى وهي الجنة (فسنيسره لليسرى) فسنهيئه للخصلة التي تؤدي الى يسر وراحة كدخول الجنة ومباديه من يسر الفرس للركوب اذا اسرجها والجمها (واما من بخل) اى بماله فلم يبذله في سبيل الخير (واستغنى) اى زهد فيما عنده تعالى كأنه مستغن عنه فلم يتقه او استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة (وكذب بالحسنى) اى بما ذكر من المعاني المتلازمة (فسنيسره للعسرى) اى للخصلة المؤدية الى

(وقالوا)

وقالوا فى العسرى ضد ذلك اى نيسره لان يعود الى البخل والامتناع من اداء الحقوق المالية قال القفال ولكل هذه الوجوه مجاز من اللغة وذلك لان الاعمال بالعواقب فكل ماادت عاقبته الى يسر وراحة وامور محمودة فان ذلك من اليسرى وذلك وصف كل الطاعات وكل ماادت عاقبته الى عسر وتعب فهو من العسرى وذلك وصف كل المعاصى (المسئلة الثانية) التأنيث فى لفظ اليسرى ولفظ العسرى فيه وجوه (احدها) ان المراد من اليسرى والعسرى ان كان جماعة الاعمال فوجه التأنيث ظاهر وان كان المراد عملا واحدا رجع التأنيث الى الخلة او الفعلة وعلى هذا من جعل يسرى هو تيسير العود الى مافعله الانسان من الطاعة رجع التأنيث الى العود وكأنه قال فسنيسره للعودة التى هى كذا (وثانيها) ان يكون مرجع التأنيث الى الطريقة فكأنه قال للطريقة اليسرى والعسرى (وثالثها) ان العبادات امور شاقة على البدن فاذا علم المكلف انها تفضى الى الجنة سهلت تلك الافعال الشاقة عليه بسبب توقعه للجنة فسمى الله تعالى الجنة يسرى ثم علل حصول اليسرى فى اداء الطاعات بهذه اليسرى وقوله فسنيسره للعسرى بالضد من ذلك (المسئلة الثالثة) فى معنى التيسير لليسرى وللعسرى وجوه وذلك لان من فسر اليسرى بالجنة فسر التيسير لليسرى بادخال الله تعالى اياهم فى الجنة بسهولة واكرام على ما اخبر الله تعالى عنه بقوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليهم وقوله طبتم فادخلوها خالدين وقوله سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وأما من فسر اليسرى باعمال الخير فالتيسير لها هو تسهيلها على من أراد حتى لا يعتريه من التثاقل ما يعترى المرائين والمنافقين من الكسل قال الله تعالى وانها لكبيرة الا على الخاشعين وقال واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى وقال مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض فكان التيسير هو التنشيط (المسئلة الرابعة) استدل الاصحاب بهذه الآية على صحة قولهم فى التوفيق والخذلان فقالوا ان قوله تعالى فسنيسره لليسرى يدل على انه تعالى خص المؤمنين بهذا التوفيق وهو انه جعل الطاعة بالنسبة اليه أرجح من المعصية وقوله فسنيسره للعسرى يدل انه خص الكافر بهذا الخذلان وهو انه جعل المعصية بالنسبة اليه ارجح من الطاعة واذا دلت الآية على حصول الرجحان لزم القول بالوجوب لانه لا واسطة بين الفعل والترك ومعلوم ان حال الاستواء يمتنع الرجحان فحال المرجوحية اولى بالامتناع واذا امتنع أحد الطرفين وجب حصول الطرف الآخر ضرورة انه لا خروج عن طرفى النقيض أجاب القفال رحمه الله عن وجه التمسك بالآية من وجوه (أحدها) ان تسمية احد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور قال تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وقال فبشرهم بعذاب اليم فلما سمى الله فعل الالطاف الداعية الى الطاعات تيسيرا لليسرى سمى ترك هذه الالطاف تيسيرا للعسرى (وثانيها) ان يكون ذلك على جهة اضافة الفعل الى المسبب

العسر والشدة كدخول النار ومقدماته لاختياره لها ولعل تصدير القسمين بالاعطاء والبخل مع ان كلا منهما ادنى رتبة مما بعدهما فى استتباع التيسير لليسرى والتيسير للعسرى للايذان بأن كلا منهما اصل فيما ذكر لا تتمة لما بعدهما من التصديق والتقوى والتكذيب والاستغناء وتفسير الاول باعطاء الطاعة والثانى بالبخل بما امر به مع كونه خلاف الظاهر يأباه قوله تعالى (وما يغنى عنه) اى ولا يغنى او اى شئ يغنى عنه (ماله) الذى يبخل به (اذا تردى) اى هلك تفعل من الردى الذى هو الهلاك او تردى فى الحفرة اذا

له دون الفاعل كما قيل فى الاصنام رب انهن اضللن كثيرا من الناس (وثالثها) ان يكون ذلك على سبيل الحكم به والاخبار عنه (والجواب) عن الكل انه عدول عن الظاهر وذلك غير جائز لاسيما اذا بينا ان الظاهر من جانبنا متأكد بالدليل العقلى القاطع ثم ان اصحابنا اكدوا ظاهر هذه الآية بما روى عن على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مامن نفس منفوسة الا وقد علم الله مكانها من الجنة والنار قلنا أفلا نتكل قال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له اجاب القفال عنه بأن الناس كلهم خلقوا ليعبدوا الله كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون واعلم ان هذا ضعيف لانه عليه السلام انما ذكر هذا جوابا عن سؤالهم يعنى اعملوا فكل ميسر لما وافق معلوم الله وهذا يدل على قولنا ان ماقدره الله على العبد وعلمه منه فانه يمتنع التغير والله اعلم (المسئلة الخامسة) فى دخول السين فى قوله فسنيسره وجوه (احدها) انه على سبيل الترفيق والتلطيف وهو من الله تعالى قطع ويقين كما فى قوله اعبدوا ربكم الى قوله لعلكم تتقون (وثانيها) ان يحمل ذلك على ان المطيع قد يصير عاصيا والعاصى قد يصير بالتوبة مطيعا فلهذا السبب كان التغير فيه محالا (وثالثها) ان الثواب لما كان اكثره واقعا فى الآخرة وكان ذلك مما لم يأت وقته ولا يقف احد على وقته الا الله لاجرم دخله تراخ فأدخلت السين لانها حرف التراخى ليدل بذلك على ان الوعد آجل غير حاضر والله اعلم ۞ اما قوله تعالى (ومايغنى عنه ماله اذا تردى) فاعلم ان ماههنا يحتمل أن يكون استفهاما بمعنى الانكار ويحتمل ان يكون نفيا وأما تردى ففيه وجهان (الاول) ان يكون ذلك ماخوذا من قولك تردى من الجبل قال الله تعالى والمتردية والنطيحة فيكون المعنى تردى فى الحفرة اذا قبر أو تردى فى قعر جهنم وتقدير الآيه انا اذا يسرناه للعسرى وهى النار تردى فى جهنم فماذا يغنى عنه ماله الذى بخل به وتركه لوارثه ولم يصحبه منه الى آخرته التى هى موضع فقره وحاجته شئ كما قال ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم وقال ونرثه مايقول ويأتينا فردا أخبر ان الذى ينتفع الانسان به هو مايقدمه الانسان من اعمال البر واعطاء الاموال فى حقوقها دون المال الذى يخلفه على ورثته (الثانى) ان تردى تفعل من الردى وهو الهلاك يريد الموت ۞ أما قوله تعالى (ان علينا للهدى) فاعلم انه تعالى لما عرفهم ان سعيهم شتى فى العواقب وبين ماللمحسن من اليسرى وللمسئ من العسرى أخبرهم انه قد قضى ماعليه من البيان والدلالة والترغيب والترهيب والارشاد والهداية فقال ان علينا للهدى اى ان الذى يجب علينا فى الحكمة اذا خلقنا الخلق للعبادة ان نبين لهم وجوه التعبد وشرح مايكون المتعبد به مطيعا مما يكون به عاصيا اذ كنا انما خلقناهم لننفعهم ونرحمهم ونعرضهم للنعيم المقيم فقد فعلنا ما كان فعله واجبا علينا فى الحكمة والمعتزلة احتجوا بهذه الآية على صحة مذهبهم فى مسائل (احداها) انه تعالى أباح الاعذار وما كلف المكلف الا مافى وسعه وطاقته فثبت انه تعالى لا يكلف

قبر اوتردى فى قعر جهنم (ان علينا للهدى) استئناف مقرر لماقبله اى ان علينا بموجب قضائنا المبنى على الحكم البالغة حيث خلقنا الخلق للعبادة ان نبين لهم طريق الهدى ومايؤدى اليه من طريق الضلال وما يؤدى اليه وقد فعلنا ذلك بما لامزيد عليه حيث بينا حال من سلك كلا الطريقين ترغيبا وترهيبا ومن ههنا تبين ان الهداية هى الدلالة على مايوصل الى البغية لا الدلالة الموصلة اليها قطعا (وان لنا للآخرة والاولى) اى التصرف الكلى فيهما كيفما نشاء فنفعل فيهما مانشاء من الافعال التى من جملتها ماوعدنا من التيسير

(بما)

بمالايطاق (وثانيها) ان كلة على للوجوب فتدل على انه قد يجب للعبد على الله شئ (وثالثها) انه لو لم يكن العبد مستقلا بالايجاد لما كان فى وضع الدلائل فائدة واجوبة اصحابنا عن مثل هذه الوجوه مشهورة وذكر الواحدى وجها آخر نقله عن الفراء فقال المعنى ان علينا للهدى و الاضلال فترك الاضلال كما قال سرابيل تقيكم الحر وهى تقى الحر والبرد وهذا معنى قول ابن عباس فى رواية عطاء قال يريد ارشد اوليائى الى العمل بطاعتى واحول بين اعدائى ان يعملوا بطاعتى فذكر معنى الاضلال قالت المعتزلة هذا التأويل ساقط لقوله تعالى وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر فبين ان قصد السبيل على الله وأما جور السبيل فبين انه ليس على الله ولا منه واعلم ان الاستقصاء قد سبق فى تلك الآية ※ أما قوله تعالى (وان لنا للآخرة والاولى) ففيه وجهان (الاول) ان لنا كل ما فى الدنيا والآخرة فليس يضرنا ترككم الاهتداء بهدانا ولا يزيد فى ملكنا اهتداؤكم بل نفع ذلك وضره عائدان عليكم ولو شئنا لمنعناكم من المعاصى قهرا اذ لنا الدنيا والآخرة ولكننا لا نمنعكم من هذا الوجه لان هذا الوجه يخل بالتكليف بل نمنعكم بالبيان والتعريف والوعد والوعيد (الثانى) ان لنا ملك الدارين نعطى ما نشاء من نشاء فليطلب سعادة الدارين منا والاول اوفق لقول المعتزلة والثانى اوفق لقولنا ※ اما قوله تعالى (فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الاشقى الذى كذب وتولى) تلظى اى تتوقد وتتلهب وتتوهج يقال تلظت النار تلظيا ومنه سميت جهنم لظى ثم بين انها لمن هى بقوله لا يصلاها الا الاشقى قال ابن عباس نزلت فى امية بن خلف وامثاله الذين كذبوا محمدا والانبياء قبله وقيل ان الاشقى بمعنى الشقى كما يقال لست فيها بأوحد اى بواحد فالمعنى لا يدخلها الا الكافر الذى هو شقى لانه كذب بآيات الله وتولى اى اعرض عن طاعة الله واعلم ان المرجئة يتمسكون بهذه الآية فى انه لا وعيد الا على الكفار قال القاضى ولا يمكن اجراء هذه الآية على ظاهرها ويدل على ذلك ثلاثة اوجه (احدها) انه يقتضى ان لا يدخل النار الا الاشقى الذى كذب وتولى فوجب فى الكافر الذى لم يكذب ولم يتول ان لا يدخل النار (وثانيها) ان هذا اغراء بالمعاصى لانه بمنزلة ان يقول الله تعالى لمن صدق بالله ورسوله ولم يكذب ولم يتول اى معصية اقدمت عليها فلن تضرك وهذا يتجاوز حد الاغراء الى ان يصير كالاباحة وتعالى الله عن ذلك (وثالثها) ان قوله تعالى من بعد وسيجنبها الاتقى يدل على ترك هذا الظاهر لانه معلوم من حال الفاسق انه ليس بأتقى لان ذلك مبالغة فى التقوى ومن يرتكب عظائم الكبائر لا يوصف بأنه أتقى فان كان الاول يدل على ان الفاسق لا يدخل النار فهذا الثانى يدل على ان الفاسق لا يجنب النار وكل مكلف لا يجنب النار فلابد وان يكون من اهلها ولما ثبت انه لابد من التأويل فنقول فيه وجهان (الاول) ان يكون المراد بقوله نارا تلظى نارا مخصوصة من النيران لانها دركات لقوله تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار فالآية تدل على ان تلك النار المخصوصة لا يصلاها سوى هذا

لليسرى والتيسير للعسرى وقيل ان لنا كل ما فى الدنيا والآخرة فلا يضرنا ترككم الاهتداء بهدانا (فأنذرتكم نارا تلظى) بحذف احدى التاءين من تتلظى اى تتلهب وقرئ على الاصل (لا يصلاها) صليا لازما (الا الاشقى) الا الكافر فان الفاسق لا يصلاها لازما وقد صرح به قوله تعالى (الذى كذب وتولى) اى كذب بالحق واعرض عن الطاعة (وسيجنبها) اى سيبعد عنها (الاتقى) البالغ فى اتقاء الكفر والمعاصى فلا يحوم حولها فضلا عن دخولها او صليها الابدى واما من دونه ممن يتقى الكفر دون المعاصى فلا يبعد

الاشقى ولاتدل على ان الفاسق وغير من هذا صفته من الكفار لايدخل سائر النيران (الثانى) ان المراد بقوله نارا تلظى النيران اجمع ويكون المراد بقوله لايصلاها الاالاشقى اى هذا الاشقى به احق وثبوت هذه الزيادة فى الاستحقاق غير حاصل الالهذا الاشقى واعلم ان وجوه القاضى ضعيفة (أماقوله اولا) يلزم فى غير هذا الكافر ان لايدخل النار فجوابه ان كل كافر لابد وان يكون مكذبا للنبى فى دعواه ويكون متوليا عن النظر فى دلالة صدق ذلك النبى فيصدق عليه انه اشقى من سائر العصاة وانه كذب وتولى واذا كان كل كافر داخلا فى الآية سقط ماقال القاضى (واماقوله ثانيا) ان هذا اغراء بالمعصية فضعيف ايضا لانه يكفى فى الزجر عن المعصية حصول الذم فى العاجل وحصول غضب الله بمعنى انه لايكرمه ولايعظمه ولايعطيه الثواب ولعله يعذبه بطريق آخر فلم يدل دليل على انحصار طرق التعذيب فى ادخال النار (واماقوله ثالثا) وسيجنبها الاتقى فهذا لايدل على حال غير الاتقى الا على سبيل المفهوم والتمسك بدليل الخطاب وهو ينكر ذلك فكيف تمسك به والذى يؤكد هذا ان هذا يقتضى فيمن ليس باتقى دخول النار فيلزم فى الصبيان والمجانين ان يدخلوا النار وذلك باطل (واماقوله رابعا) المراد منه نار مخصوصة وهى النار التى تلظى فضعيف ايضا لان قوله نارا تلظى يحتمل ان يكون ذلك صفة لكل النيران وان يكون صفة لنار مخصوصة لكنه تعالى وصف كل نار جهنم بهذا الوصف فى آية اخرى فقال انها لظى نزاعة للشوى واماقوله المراد ان هذا الاشقى أحق به فضعيف لانه ترك للظاهر من غير دليل فثبت ضعف الوجوه التى ذكرها القاضى (فان قيل) فالجواب عنه على قولكم فانكم لاتقطعون بعدم وعيد الفساق (الجواب) من وجهين (الاول) ماذكره الواحدى وهو ان معنى لايصلاها لايلزمها فى حقيقة اللغة يقال صلى الكافر النار اذا لزمها مقاسيا شدتها وحرها وعندنا ان هذه الملازمة لاتثبت الاللكافر اما الفاسق فاما ان لايدخلها او ان دخلها تخلص منها (الثانى) ان نخص عموم هذا الظاهر بالآيات الدالة على وعيد الفساق والله اعلم ❊ قوله تعالى (وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى) معنى سيجنبها اى سيبعدها ويجعل منها على جانب يقال جنبته الشئ اى بعدته وجنبته عنه وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اجمع المفسرون منا على ان المراد منه ابوبكر واعلم ان الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرواية ويقولون انها نزلت فى حق على بن ابى طالب عليه السلام والدليل عليه قوله تعالى ويؤتون الزكاة وهم راكعون فقوله الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى اشارة الى ما فى تلك الآية من قوله يؤتون الزكاة وهم راكعون ولما ذكر ذلك بعضهم فى محضرى قلت أقيم الدلالة العقلية على ان المراد من هذه الآية ابوبكر وتقريرها ان المراد من هذا الاتقى هو افضل الخلق فاذا كان كذلك وجب ان يكون المراد هو ابوبكر فهاتان المقدمتان متى صحتا صح المقصود انما قلنا ان المراد من هذا الاتقى افضل الخلق لقوله تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم

(والاكرم)

عنها هذا التبعيد وذلك لايستلزم صليها بالمعنى المذكور فلا يقدح فى الحصر السابق (الذى يؤتى ماله) يعطيه ويصرفه فى وجوه البر والحسنات وقوله تعالى (يتزكى) اما بدل من يؤتى داخل فى حكم الصلة لامحل له او فى حيز النصب على انه حال من ضمير يؤتى اى يطلب ان يكون عند الله تعالى زاكيا ناميا لا يريد به رياء ولا سمعة (وما لاحد عنده من نعمة تجزى) استئناف مقرر لكون ايتائه للتزكى خالصا لوجه الله تعالى اى ليس لاحد عنده نعمة من شأنها ان تجزى وتكافأ فيقصد بايتاء ما يؤتى مجازاتها وقوله تعالى

والاكرم هوالافضل فدل على ان كل من كان اتقى وجب ان يكون افضل فان قيل الآية دلت على ان كل من كان اكرم كان اتقى وذلك لا يقتضى ان كل من كان اتقى كان اكرم قلنا وصف كون الانسان اتقى معلوم مشاهد ووصف كونه افضل غير معلوم ولامشاهد والاخبار عن المعلوم بغير المعلوم هو الطريق الحسن اما عكسه فغير مفيد فتقدير الآية كأنه وقعت الشبهة في ان الاكرم عندالله من هو فقيل هو الاتقى واذا كان كذلك كان التقدير اتقاكم اكرمكم عندالله فثبت ان الاتقى المذكور ههنا لابد وان يكون افضل الخلق عندالله فنقول لابد وان يكون المراد به ابا بكر لان الامة مجمعة على ان افضل الخلق بعد رسول الله امابوبكر او على ولايمكن حمل هذه الآية على على بن ابى طالب فتعين حملها على ابى بكر وانما قلنا انه لايمكن حملها على على بن ابى طالب لانه قال في صفة هذا الاتقى وما لأحد عنده من نعمة تجزى وهذا الوصف لايصدق على على بن ابى طالب لانه كان فى تربية النبى صلى الله عليه وسلم لانه اخذه من ابيه وكان يطعمه ويسقيه ويكسوه ويربيه وكان الرسول منعما عليه نعمة يجب جزاؤها اما ابو بكر فلم يكن للنبى عليه السلام عليه نعمة دنيوية بل ابوبكر كان ينفق على الرسول عليه السلام بلى كان للرسول عليه السلام عليه نعمة الهداية والارشاد الى الدين الا ان هذا لايجزى لقوله تعالى ما اسئلكم عليه من اجر والمذكور ههنا ليس مطلق النعمة بل نعمة تجزى فعلمنا ان هذه الآية لاتصلح لعلى بن ابى طالب واذا ثبت ان المراد بهذه الآية من كان افضل الخلق وثبت ان ذلك الافضل من الامة اما ابو بكر او على وثبت ان الآية غير صالحة لعلى تعين حملها على ابى بكر رضى الله عنه وثبت دلالة الآية ايضا على ان ابابكر أفضل الامة واما الرواية فهى انه كان بلال لعبد الله بن جدعان فسلح على الاصنام فشكا اليه المشركون فعله فوهبه لهم ومائة من الابل ينحرونها لآلهتهم فأخذوه وجعلوا يعذبونه فى الرمضاء وهو يقول أحد أحد فربه رسول الله وقال ينجيك احد احد ثم اخبر رسول الله ابا بكر ان بلالا يعذب فى الله فحمل ابوبكر رطلا من ذهب فابتاعه به فقال المشركون مافعل ذلك ابو بكر الاليد كانت لبلال عنده فنزل وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى وقال ابن الزبير وهو على المنبر كان ابو بكر يشترى الضعفة من العبيد فيعتقهم فقال له ابوه يابنى لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك فقال منع ظهرى اريد فنزلت هذه الآية (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف فى محل يتزكى وجهان ان جعلته بدلا من يؤتى فلا محل له لانه داخل فى حكم الصلة والصلات لامحل لها وان جعلته حالا من الضمير فى يؤتى فمحله النصب ❊ قوله تعالى (الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى) فيه مسائل (المسئلة الاولى) ابتغاء وجه ربه مستثنى من غير جنسه وهو النعمة اى مالأحد عنده نعمة الا ابتغاء وجه ربه كقولك مافى الدار احد الا حمارا وذكر الفراء فيه وجها آخر وهو ان يضمر الانفاق على تقدير ماينفق الا ابتغاء وجه ربه الأعلى كقوله وما

(الا ابتغاء وجه ربه الاعلى) استثناء منقطع من نعمة وقرئ بالرفع على البدل من محل نعمة فانه الرفع اما على الفاعلية او على الابتداء ومن مزيدة ويجوز ان يكون مفعولا له لان المعنى لايؤتى ماله الا ابتغاء وجه ربه لالمكافأة نعمة والآيات نزلت فى حق ابى بكر الصديق رضى الله عنه حين اشترى بلالا فى جماعة كان يؤذيهم المشركون فأعتقهم ولذلك قالوا المراد بالاشقى ابوجهل أو أمية بن خلف وقد روى عطاء والضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما انه عذب المشركون بلالا وبلال يقول أحد أحد فربه النبى عليه الصلاة والسلام فقال أحد يعنى لله تعالى ينجيك ثم قال لأبى بكر رضى الله عنه ان بلالا يعذب فى

تنفقون الا ابتغاء وجه الله (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى بين ان هذا الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى لايؤتيه مكافأة على هدية او نعمة سالفة لان ذلك يجرى مجرى أداء الدين فلا يكون له دخل فى استحقاق مزيد الثواب بل انما يستحق الثواب اذا فعله لاجل ان الله امره به وحثه عليه (المسئلة الثالثة) المجسمة تمسكوا بلفظة الوجه والمحدة تمسكوا بلفظة ربه الاعلى وان ذلك يقتضى وجود رب آخر وقد تقدم الكلام على كل ذلك (المسئلة الرابعة) ذكر القاضى ابوبكر الباقلانى فى كتاب الامامة فقال الآية الواردة فى حق على عليه السلام انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قطريرا والآية الواردة فى حق ابى بكر الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى فدلت الآيتان على ان كل واحد منهما انما فعل مافعل لوجه الله الا ان آية على تدل على انه فعل مافعل لوجه الله وللخوف من يوم القيامة على ماقال انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قطريرا واما آية ابى بكر فانها دلت على انه فعل مافعل لمحض وجه الله من غير ان يشوبه طمع فيما يرجع الى رغبة فى ثواب اورهبة من عقاب فكان مقام ابى بكر اعلى وأجل (المسئلة الخامسة) من الناس من قال ابتغاء الله بمعنى ابتغاء ذاته وهو محال فلابد وان يكون المراد ابتغاء ثوابه وكرامته ومن الناس من قال لاحاجة الى هذا الاضمار وحقيقة هذه المسئلة راجعة الى انه هل يمكن ان يحب العبد ذات الله او المراد من هذه المحبة محبة ثوابه وكرامته وقد تقدم الكلام فى هذه المسئلة فى تفسير قوله والذين آمنوا اشد حبا لله (المسئلة السادسة) قرأ يحيى بن وثاب الا ابتغاء وجه ربه بالرفع على لغة من يقول مافى الدار احد الا حمار وانشد فى اللغتين قوله

وبلدة ليس بها أنيس * الا اليعافير والا العيس

اما قوله ولسوف يرضى فالمعنى انه وعد أبابكر ان يرضيه فى الآخرة بثوابه وهو كقوله لرسوله ولسوف يعطيك ربك فترضى (وفيه عندى وجه آخر) وهو ان المراد انه ماانفق الا لطلب رضوان الله ولسوف يرضى الله منه وهذا عندى اعظم من الاول لان رضاء الله عن عبده اكمل للعبد من رضائه عن ربه وبالجملة فلابد من حصول الامرين على ماقال راضية مرضية والله اعلم

(سورة الضحى احدى عشرة آية مكية وانا على عزم ان أضم)
(الى تفسير هذه السورة مافيها من اللطائف التذكيرية)
* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(والضحى والليل اذا سجى) لاهل التفسير فى قوله والضحى وجهان (احدهما) ان المراد بالضحى وقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى شعاعها (وثانيها) الضحى هو النهار كله بدليل انه جعل فى مقابلة الليل كله واما قوله والليل اذا سجى فذكر اهل اللغة فى سجى ثلاثة اوجه متقاربة سكن واظلم وغطى (اما الاول) فقال ابو عبيدة والمبرد والزجاج

(سجى)

الله فعرف مراده عليه الصلاة والسلام فانصرف الى منزله فأخذ رطلا من ذهب ومضى به الى أمية بن خلف فقال له أتبيعنى بلالا قال نعم فاشتراه فأعتقه فقال المشركون ماأعتقه ابوبكر الا ليد كانت له عنده فنزلت وقوله تعالى (ولسوف يرضى) جواب قسم مضمر اى وبالله لسوف يرضى وهو وعد كريم بنيل جميع مايبتغيه على أكمل الوجوه واجلها اذ به يتحقق الرضا وقرئ يرضى مبنيا للمفعول من الارضاء * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والليل اعطاه الله تعالى حتى يرضى وعافاه من العسر ويسر له اليسر

* (سورة والضحى مكية وآيها احدى عشرة)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) * (والضحى) هو وقت ارتفاع الشمس

سجى اى سكن يقال ليلة ساجية اى ساكنة الريح وعين ساجية اى فاترة الطرف وسجى البحر اذا سكنت امواجه وقال فى الدعاء * يامالك البحر اذا البحر سجى * (واما الثانى) وهو تفسير سجى بأظلم فقال الفراء سجى اى اظلم وركد فى طوله (واما الثالث) وهو تفسير سجى بغطى فقال الاصمعى وابن الاعرابى سجى الليل تغطيته النهار مثل مايسجى الرجل بالثوب واعلم ان اقوال المفسرين غير خارجة عن هذه الوجوه الثلاثة فقال ابن عباس غطى الدنيا بالظلمة وقال الحسن ألبس الناس ظلامه وقال ابن عباس فى رواية سعيد بن جبير اذا اقبل الليل غطى كل شئ وقال مجاهد وقتادة والسدى وابن زيد سكن بالناس ولسكونه معنيان (احدهما) سكون الناس فنسب اليه كما يقال ليل نائم ونهار صائم (والثانى) هو ان سكونه عبارة عن استقرار ظلامه واستوائه فلا يزداد بعد ذلك وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الحكمة فى انه تعالى فى السورة الماضية قدم ذكر الليل وفى هذه السورة أخره قلنا فيه وجوه (احدها) ان بالليل والنهار ينتظم مصالح المكلفين والليل له فضيلة السبق لقوله وجعل الظلمات والنور وللنهار فضيلة النور بل الليل كالدنيا والنهار كالآخرة فلما كان لكل واحد فضيلة ليست للآخر لاجرم قدم هذا على ذاك تارة وذاك على هذا اخرى ونظيره انه تعالى قدم السجود على الركوع فى قوله واسجدى واركعى ثم قدم الركوع على السجود فى قوله اركعوا واسجدوا (وثانيها) انه تعالى قدم الليل على النهار فى سورة ابى بكر لان أبابكر سبقه كفر وههنا قدم الضحى لان الرسول عليه الصلاة والسلام ماسبقه ذنب (وثالثها) سورة والليل سورة أبى بكر وسورة والضحى سورة محمد عليه الصلاة والسلام ثم ماجعل بينهما واسطة ليعلم انه لاواسطة بين محمد وأبى بكر فان ذكرت الليل اولا وهو ابو بكر ثم صعدت وجدت بعده النهار وهو محمد وان ذكرت والضحى اولا وهو محمد ثم نزلت وجدت بعده والليل وهو ابو بكر ليعلم انه لاواسطة بينهما (السؤال الثانى) ما الحكمة ههنا فى الحلف بالضحى والليل فقط (والجواب) لوجوه (احدها) كأنه تعالى يقول الزمان ساعة فساعة ساعة ليل وساعة نهار ثم يزداد فمرة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار ومرة بالعكس فلا تكن الزيادة لهوى ولا النقصان لقلى بل للحكمة كذا الرسالة وانزال الوحى بحسب المصالح فمرة انزال ومرة حبس فلا كان الانزال عن هوى ولا كان الحبس عن قلى (وثانيها) ان العالم لايؤثر كلامه حتى يعمل به فلما أمر الله تعالى بأن البينة على المدعى واليمين على من انكر لم يكن بد من ان يعمل به فالكفار لما ادعوا ان ربه ودعه وقلاه قال هاتوا الحجة فعجزوا فلزمه اليمين بأنه ماودعه ربه وماقلاه (وثالثها) كأنه تعالى يقول انظر الى جوار الليل مع النهار لايسلم احدهما عن الآخر بل الليل تارة يغلب وتارة يغلب فكيف تطمع ان تسلم عن الخلق (السؤال الثالث) لم خص وقت الضحى بالذكر (الجواب) فيه وجوه (احدها) انه وقت اجتماع الناس وكمال الانس بعد الاستيحاش فى زمان الليل فبشره ان بعد

وصدر النهار قالوا تخصيصه بالاقسام به لانها الساعة التى كلم فيها موسى عليه السلام والقى فيها السحرة سجدا لقوله تعالى وان يحشر الناس ضحى وقيل اريد به النهار كما فى قوله تعالى ان يأتيهم بأسنا ضحى فى مقابلة بياتا (والليل) اى جنس الليل (اذا سجى) اى سكن اهله اوركد ظلامه من سجا البحر سجوا اذا سكنت امواجه ونقل عن قتادة ومقاتل وجعفر الصادق ان المراد بالضحى هو الضحى الذى كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام وبالليل ليلة المعراج وقوله تعالى (ماودعك ربك) جواب القسم اى ماقطعك قطع المودع وقرئ بالتخفيف اى ما تركك (وماقلى) اى وماابغضك وحذف المفعول اما للاستغناء عنه بذكره من قبل او للقصد الى نفى

استيحاشك بسبب احتباس الوحي يظهر ضحى نزول الوحي (وثانيها) انها الساعة التي كلم فيها موسى ربه والقى فيها السحرة سجدا فاكتسى الزمان صفة الفضيلة لكونه ظرفا فكيف فاعل الطاعة وأفاد ايضا ان الذي اكرم موسى لايدع اكرامك والذي قلب قلوب السحرة حتى سجدوا يقلب قلوب اعدائك (السؤال الرابع) ما السبب في انه ذكر الضحى وهو ساعة من النهار وذكر الليل بكليته (الجواب) فيه وجوه (احدها) انه اشارة الى ان ساعة من النهار توازي جميع الليل كما ان محمدا اذا وزن يوازي جميع الانبياء (والثاني) ان النهار وقت السرور والراحة والليل وقت الوحشة والغم فهو اشارة الى ان هموم الدنيا أدوم من سرورها فان الضحى ساعة والليل كذا ساعات يروى ان الله تعالى لما خلق العرش اظلت غمامة سوداء عن يساره ونادت ماذا امطر فأجيبت ان امطري الهموم والاحزان مائة سنة ثم انكشفت فأمرت مرة اخرى بذلك وهكذا الى تمام ثلثمائة سنة ثم بعد ذلك اظلت عن يمين العرش غمامة بيضاء ونادت ماذا امطر فاجيبت ان امطري السرور ساعة فلهذا السبب ترى الغموم والاحزان دائمة والسرور قليلا ونادرا (وثالثها) ان وقت الضحى وقت حركة الناس وتعارفهم فصارت نظير وقت الحشر والليل اذا سكن نظير سكون الناس في ظلمة القبور فكلاهما حكمة ونعمة لكن الفضيلة للحياة على الموت ولما بعد الموت على ماقبله فلهذا السبب قدم ذكر الضحى على ذكر الليل (ورابعها) ذكر والضحى حتى لايحصل اليأس من روحه ثم عقبه بالليل حتى لايحصل الأمن من مكره (السؤال الخامس) هل احد من المذكرين فسر الضحى بوجه محمد والليل بشعره (والجواب) نعم ولا استبعاد فيه ومنهم من زاد عليه فقال والضحى ذكور اهل بيته والليل اناثهم ويحتمل الضحى رسالته والليل زمان احتباس الوحي لان في حال النزول حصل الاستئناس وفي زمن الاحتباس حصل الاستيحاش ويحتمل والضحى نور علمه الذي به يعرف المستور من الغيوب والليل عفوه الذي به يستر جميع العيوب ويحتمل ان الضحى اقبال الاسلام بعد ان كان غريبا والليل اشارة الى انه سيعود غريبا ويحتمل والضحى كمال العقل والليل حال الموت ويحتمل اقسم بعلانيتك التي لايرى عليها الخلق عيبا وبسرك الذي لايعلم عليه عالم الغيب عيبا * قوله تعالى (ماودعك ربك وماقلى) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قال قال ابو عبيدة والمبرد ودعك من التوديع كما يودع المفارق وقرئ بالتخفيف اي ماتركك والتوديع مبالغة في الوداع لان من ودعك مفارقا فقد بالغ في تركك والقلى البغض يقال قلاه يقليه قلا ومقلية اذا ابغضه قال الفراء يريد وماقلاك وفي حذف الكاف وجوه (احدها) حذفت الكاف اكتفاء بالكاف الاولى في ودعك ولان رؤس الآيات بالياء فأوجب اتفاق الفواصل حذف الكاف (وثانيها) فائدة الاطلاق انه ماقلاك ولا احدا من اصحابك ولا احدا ممن احبك الى قيام القيامة تقريرا لقوله المرء مع من احب (المسئلة الثانية) قال المفسرون ابطأ جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال المشركون قد قلاه

صدور الفعل عنه تعالى بالكلية مع ان فيه مراعاة للفواصل

* روي ان الوحي تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اياما لتركه الاستثناء كما مر في سورة الكهف اولزجره سائلا ملحا فقال المشركون ان محمدا ودعه ربه وقلاه فنزلت ردا عليهم وتبشيرا له عليه الصلاة والسلام بالكرامة الحاصلة والمترقبة كما يشعر به ايراد اسم الرب المنبئ عن التربية والتبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام وحيث تضمن ماسبق من نفي التوديع والقلى انه تعالى يواصله بالوحي والكرامة في الدنيا بشره عليه الصلاة والسلام بأنه ما سيؤتيه في الآخرة أجل واعظم من ذلك فقيل

الله وودعه فأنزل الله تعالى عليه هذه الآية وقال السدى ابطأ عليه اربعين ليلة فشكا ذلك الى خديجة فقالت لعل ربك نسيك اوقلاك وقيل ان ام جميل امرأة ابى لهب قالت له يامحمد ماارى شيطانك الاقدتركك وروى عن الحسن انه قال ابطأ على الرسول صلى الله عليه وسلم الوحى فقال لخديجة ان ربى ودعنى وقلانى يشكو اليها فقالت كلا والذى بعثك بالحق ماابتدأك الله بهذه الكرامة الاوهو يريد ان يتمهالك فنزل ماودعك ربك وماقلى وطعن الاصوليون فى هذه الرواية وقالوا انه لايليق بالرسول صلى الله عليه وسلم ان يظن ان الله تعالى ودعه وقلاه بل يعلم ان عزل النبى عن النبوة غير جائز فى حكمة الله تعالى ويعلم ان نزول الوحى يكون بحسب المصلحة وربما كان الصلاح تأخيره وربما كان خلاف ذلك فثبت ان هذا الكلام غير لائق بالرسول عليه الصلاة والسلام ثم ان صح ذلك يحمل على انه كان مقصوده عليه الصلاة والسلام ان يجربها ليعرف قدر علمها او ليعرف الناس قدر علمها واختلفوا فى قدر مدة انقطاع الوحى فقال ابن جريج اثنا عشر يوما وقال الكلبى خمسة عشر يوما وقال ابن عباس خمسة وعشرون يوما وقال السدى ومقاتل أربعون يوما واختلفوا فى سبب احتباس جبريل عليه السلام فذكر اكثر المفسرين ان اليهود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وذى القرنين واصحاب الكهف فقال سأخبركم غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس عنه الوحى وقال ابن زيد السبب فيه كون جرو فى بيته للحسن والحسين فلما نزل جبريل عليه السلام عاتبه رسول الله فقال أما علمت انا لاندخل بيتا فيه كلب ولاصورة وقال جندب بن سفيان رمى النبى عليه الصلاة والسلام بحجر فى اصبعه فقال * هل انت الا اصبع دميت * وفى سبيل الله مالقيت * فأبطأ عنه الوحى وروى انه كان فيهم من لايقلم الاظفار وههنا سؤالان (السؤال الاول) الروايات التى ذكرتم تدل على ان احتباس الوحى كان عن قلى قلنا اقصى ما فى الباب ان ذلك كان تركا للافضل والاولى وصاحبه لايكون ممقوتا ولامبغضا وروى انه عليه الصلاة والسلام قال لجبريل ماجئتنى حتى اشتقت اليك فقال جبريل كنت اليك اشوق ولكنى عبد مأمور وتلا وماتتنزل الابامر ربك (السؤال الثانى) كيف يحسن من السلطان ان يقول لاعظم الخلق قربة عنده انى لاابغضك تشريفا له (الجواب) ان ذلك لايحسن ابتداء لكن الاعداء اذا ألقوا فى الألسنة ان السلطان يبغضه ثم تأسف ذلك المقرب فلا لفظ اقرب الى تشريفه من ان يقول له انى لاأبغضك ولاادعك وسوف ترى منزلتك عندى (المسئلة الثالثة) هذه الواقعة تدل على ان القرآن من عند الله اذ لوكان من عنده لما امتنع * قوله تعالى (وللآخرة خير لك من الاولى) واعلم ان فى اتصاله بما تقدم وجوها (احدها) ان يكون المعنى ان انقطاع الوحى لايجوز ان يكون لانه عزل عن النبوة بل اقصى مافى الباب ان يكون ذلك لانه حصل الاستغناء عن الرسالة وذلك امارة الموت فكأنه يقال انقطاع الوحى متى حصل

(وللآخرة خير لك من الاولى) لانها باقية صافية عن الشوائب على الاطلاق وهذه فانية مشوبة بالمضار وما اوتى عليه الصلاة والسلام من شرف النبوة وان كان مما لايعادله شرف ولايدانيه فضل لكنه لايخلو فى الدنيا من بعض العوارض القادحة فى تمشية الاحكام مع انه عندما اعدله عليه الصلاة والسلام فى الآخرة من السبق والتقدم على كافة الانبياء والرسل يوم الجمع يوم يقوم الناس لرب العالمين وكون امته شهداء على سائر الامم ورفع درجات المؤمنين واعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنية التى لاتحيط بها العبارة بمنزلة بعض المبادى بالنسبة الى المطالب وقيل المراد بالآخرة عاقبة امره

دل على الموت لكن الموت خير لك فان مالك عندالله فى الآخرة خير وافضل مما لك فى الدنيا (وثانيها) لما نزل ماودعك ربك حصل له بهذا تشريف عظيم فكأنه استعظم هذا التشريف فقيل له وللآخرة خير لك من الاولى اى هذا التشريف وان كان عظيما الا ان مالك عندالله فى الآخرة خير واعظم (وثالثها) مايخطر ببالى وهوان يكون المعنى وللاحوال الآتية خير لك من الماضية كأنه تعالى وعده بانه سيزيده كل يوم عزا الى عز ومنصبا الى منصب فيقول لاتظن انى قليتك بل تكون كل يوم يأتى فانى ازيدك منصبا وجلالا وههنا سؤالان (السؤال الاول) بأى طريق يعرف ان الآخرة كانت له خيرا من الاولى (الجواب) لوجوه (احدها) كأنه تعالى يقول له انك فى الدنيا على خير لانك تفعل فيها ماتريد ولكن الآخرة خير لك لانا نفعل فيها ماتريد (وثانيها) الآخرة خير لك تجتمع عندك امتك اذ الامة له كالاولاد قال تعالى وازواجه امهاتهم وهوأب لهم وامته فى الجنة فيكون كأن اولاده فى الجنة ثم سمى الولد قرة اعين حيث حكى عنهم هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين (وثالثها) الآخرة خير لك لانك اشتريتها اما هذه ليست لك فعلى تقدير ان لو كانت الآخرة اقل من الدنيا لكانت الآخرة خير الك لان مملوكك خير لك مما لايكون مملوكا لك فكيف ولا نسبة للآخرة الى الدنيا فى الفضل (ورابعها) الآخرة خير لك من الاولى لان فى الدنيا الكفار يطعنون فيك امافى الآخرة فأجعل امتك شهداء على الامم واجعلك شهيدا على الانبياء ثم اجعل ذاتى شهيدا لك كما قال وكفى بالله شهيدا محمد رسول الله (وخامسها) ان خيرات الدنيا قليلة مشوبة منقطعة ولذات الآخرة كثيرة خالصة دائمة (السؤال الثانى) لم قال وللآخرة خير لك ولم يقل خير لكم (الجواب) لانه كان فى جماعته من كانت الآخرة شرا له فلو انه سبحانه عمم لكان كذبا ولو خصص المطيعين بالذكر لافتضح المذنبون والمنافقون ولهذا السبب قال موسى عليه السلام كلا ان معى ربى سيهدين واما محمد صلى الله عليه وسلم فالذى كان معه لما كان من اهل السعادة قطعا لاجرم قال ان الله معنا اذ لم يكن ثم الانبى وصديق وروى ان موسى عليه السلام خرج للاستسقاء ومعه الالوف ثلاثة ايام فلا يجدوا الاجابة فسأل موسى عليه السلام عن السبب الموجب لعدم الاجابة فقال لااجيبكم مادام معكم ساع بالنميمة فقال موسى من هو فقال أبغضه فكيف اعمل عمله فامضت مدة قليلة حتى نزل الوحى بأن ذلك النمام قدمات وهذه جنازته فى مصلى كذا فذهب موسى عليه السلام الى تلك المصلى فاذا فيها سبعون من الجنائز فهذا ستره على اعدائه فكيف على اوليائه ثم تأمل فان فيه دقيقة لطيفة وهى انه عليه السلام قال لولا شيوخ ركع وفيه اشارة الى زيادة فضيلة هذه الامة فانه تعالى كان يرد الالوف لمذنب واحد وههنا يرحم المذنبين لمطيع واحد ❊ قوله تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) واعلم ان اتصاله بما تقدم من وجهين (الاول) هو انه تعالى لما بين ان الآخرة خير له من الاولى ولكنه لم يبين ان ذلك التفاوت الى اى حد

عليه الصلاة والسلام اى لنهاية امرك خير من بدايته لاتزال تتزايد قوة وتتصاعد رفعة وقوله تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) عدة كريمة شاملة لما اعطاه الله تعالى فى الدنيا من كمال النفس وعلوم الاولين والآخرين وظهور الامر واعلاء الدين بالفتوح الواقعة فى عصره عليه الصلاة والسلام وفى ايام خلفائه الراشدين وغيرهم من الملوك الاسلامية وفشو الدعوة والاسلام فى مشارق الارض ومغاربها ولما ادخرله من الكرامات التى لايعلمها الا الله تعالى وقد أنبأ ابن عباس رضى الله عنهما عن شمة منها حيث قال له عليه الصلاة والسلام فى الجنة الف قصر من لؤلؤ ابيض ترابه المسك واللام

يكون)

يكون فبين بهذه الآية مقدار ذلك التفاوت وهو انه ينتهى الى غاية ماتمناه الرسول ويرتضيه (الوجه الثانى) كأنه تعالى لما قال وللآخرة خير لك من الاولى فقيل ولم قلت ان الامر كذلك فقال لانه يعطيه كل مايريده وذلك ممالاتتسع الدنياله فثبت ان الآخرة خير له من الاولى واعلم انا حملنا هذا الوعد على الآخرة فقد يمكن حمله على المنافع وقد يمكن حمله على التعظيم اما المنافع فقال ابن عباس ألف قصر فى الجنة من لؤلؤ أبيض ترابه المسك وفيها مايليق بها واما التعظيم فالمروى عن على بن ابى طالب عليه السلام وابن عباس ان هذا هو الشفاعة فى الامة (روى) انه عليه السلام لما نزلت هذه الآية قال اذا لا أرضى وواحد من امتى فى النار واعلم ان الحمل على الشفاعة متعين ويدل عليه وجوه (أحدها) انه تعالى أمره فى الدنيا بالاستغفار فقال واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات فأمره بالاستغفار والاستغفار عبارة عن طلب المغفرة ومن طلب شيئا فلاشك انه لايريد الرد ولايرضى به وانما يرضى بالاجابة واذا ثبت ان الذى يرضاه الرسول هو الاجابة لا الرد ودلت هذه الآية على انه تعالى يعطيه كل مايرتضيه علمنا ان هذه الآية دالة على الشفاعة فى حق المذنبين (والثانى) وهو ان مقدمة الآية مناسبة لذلك كأنه تعالى يقول لااودعك ولاابغضك بل لااغضب على احد من اصحابك واتباعك واشياعك طلبا لمرضاتك وتطييبا لقلبك فهذا التفسير اوفق لمقدمة الآية (والثالث) الاحاديث الكثيرة الواردة فى الشفاعة دالة على ان رضا الرسول عليه الصلاة والسلام فى العفو عن المذنبين وهذه الآية دلت على انه تعالى يفعل كل مايرضاه الرسول فتحصل من مجموع الآية والخبر حصول الشفاعة وعن جعفر الصادق عليه السلام انه قال رضا جدى ان لايدخل النار موحد وعن الباقر اهل القرآن يقولون ارجى آية قوله ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم وانا اهل البيت نقول ارجى آية قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى والله انها الشفاعة ليعطاها فى اهل لااله الا الله حتى يقول رضيت هذا كله اذا حملنا الآية على احوال الآخرة اما لو حملناهذا الوعد على احوال الدنيا فهو اشارة الى مااعطاه الله تعالى من الظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة ودخول الناس فى الدين افواجا والغلبة على قريظة والنضير واجلائهم وبث عساكره وسراياه فى بلاد العرب ومافتح على خلفائه الراشدين فى اقطار الارض من المدائن وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة وانهبهم من كنوز الاكاسرة وماقذف فى اهل الشرق والغرب من الرعب وتهييب الاسلام وفشو الدعوة واعلم ان الاولى حمل الآية على خيرات الدنيا والآخرة وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم لم يقل يعطيكم مع ان هذه السعادات حصلت للمؤمنين ايضا (الجواب) لوجوه (احدها) انه المقصود وهم اتباع (وثانيها) انى اذا اكرمت اصحابك فذاك فى الحقيقة اكرام لك لانى اعلم انك بلغت فى الشفقة عليهم الى حيث تفرح باكرامهم فوق ماتفرح باكرام نفسك ومن ذلك حيث تقول الانبياء نفسى نفسى

للابتداء دخلت الخبر لتأكيد مضمون الجملة والمبتدأ محذوف تقديره ولأنت سوف يعطيك الخ لاللقسم لانها لاتدخل على المضارع الا مع النون المؤكدة وجمعها مع سوف للدلالة على ان الاعطاء كائن لامحاله وان تراخى لحكمة وقيل هى للقسم وقاعدة التلازم بينها وبين نون التأكيد قد استثنى النحاة منها صورتين احداهما ان يفصل بينها وبين الفعل بحرف التنفيس كهذه الآية وكقوله والله لسأعطيك والثانية ان يفصل بينهما بمعمول الفعل كقوله تعالى لالى الله تحشرون وقال ابو على الفارسى ليست هذه اللام هى التى فى قولك ان زيدا لقائم بل هى التى فى قولك لأقومن ونابت سوف عن احدى نونى التأكيد فكأنه قيل وليعطينك

اى ابدأ بجزائى و ثوابى قبل امتى لان طاعتى كانت قبل طاعة امتى وانت تقول امتى امتى اى ابدأبهم فان سرورى ان أراهم فائزين بثوابهم (وثالثها) انك عاملتنى معاملة حسنة فانهم حين شجوا وجهك قلت اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون وحين شغلوك يوم الخندق عن الصلاة قلت اللهم املأ بطونهم نارا فتحملت الشجة الحاصلة فى وجه جسدك وما تحملت الشجة الحاصلة فى وجه دينك فان وجه الدين هو الصلاة فرجحت حق على حقك لاجرم فضلتك فقلت من ترك الصلاة سنين او حبس غيره عن الصلاة سنين لا اكفره ومن آذى شعرة من شعراتك اوجزأ من نعلك اكفره (السؤال الثانى) ماالفائدة فى قوله ولسوف ولم يقل وسيعطيك ربك (الجواب) فيه فائدتان (احداهما) انه يدل على انه ماقرب اجله بل يعيش بعد ذلك زمانا (وثانيتها) ان المشركين لماقالوا ودعه ربه وقلاه فالله تعالى ردعليهم بعين تلك اللفظة فقال ما ودعك ربك وماقلى ثم قال المشركون سوف يموت محمد فرد الله عليهم ذلك بهذه اللفظة فقال ولسوف يعطيك ربك فترضى (السؤال الثالث) كيف يقول الله ولسوف يعطيك ربك فترضى (الجواب) هذه السورة من اولها الى آخرها كلام جبريل عليه السلام معه لانه كان شديد الاشتياق اليه والى كلامه كما ذكرناه فأراد الله تعالى ان يكون هو المخاطب له بهذه البشارات (السؤال الرابع) ماهذه اللام الداخلة على سوف (الجواب) قال صاحب الكشاف هى لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة والمبتدأ محذوف تقديره ولأنت سوف يعطيك ربك والدليل على ماقلنا انها اماان تكون لام القسم اولام الابتداء ولام القسم لاتدخل على المضارع الامع نون التوكيد فبقى ان تكون لام ابتداء ولام الابتداء لاتدخل الا على الجملة من المبتدأ والخبر فلابد من تقدير مبتدأ وخبروان يكون اصله ولأنت سوف يعطيك فان قيل مامعنى الجمع بين حرفى التوكيد والتأخير قلنا معناه ان العطاء كائن لامحالة وان تأخر لما فى التأخير من المصلحة ❊ قوله تعالى (الم يجدك يتيما فآوى) فيه مسائل (المسئلة الاولى) ان اتصاله بما تقدم هوانه تعالى يقول الم يجدك يتيما فقال الرسول بلى يارب فيقول انظر كانت طاعاتك فى ذلك الوقت اكرم ام الساعة فلابد من ان يقال بل الساعة فيقول الله حين كنت صبيا ضعيفا ماتركناك بل ربيناك ورقيناك الى حيث صرت مشرفا على شرفات العرش وقلنا لك لولاك ماخلقنا الافلاك اتظن انابعد هذه الحالة نهجرك ونتركك (المسئلة الثانية) الم يجدك من الوجود الذى بمعنى العلم والمنصوبان مفعولا وجد والوجود من الله والمعنى الم يعلمك الله يتيما فآوى وذكروا فى تفسيراليتيم امرين (الاول) ان عبدالله بن عبدالمطلب فيما ذكره اهل الاخبار توفى وام رسول الله حامل به ثم ولد رسول الله فكان مع جده عبد المطلب ومع امه آمنة فهلكت امه آمنة وهو ابن ست سنين فكان مع جده ثم هلك جده بعد امه بسنتين ورسول الله ابن ثمان سنين وكان عبدالمطلب يوصى أباطالب به لان عبدالله وابا طالب كانا من ام واحدة فكان ابوطالب هو الذى يكفل رسول الله بعد

وكذلك اللام فى قوله تعالى وللآخرة الخ وقوله تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى) تعديد لما افاض عليه عليه الصلاة والسلام من اول امره الى ذلك الوقت من فنون النعماء العظام ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود فيطمئن قلبه وينشرح صدره والهمزة لانكار النفى وتقرير المنفى على ابلغ وجه كأنه قيل قدوجدك الخ والوجود بمعنى العلم ويتيما مفعوله الثانى وقيل بمعنى المصادفة ويتيما حال من مفعوله روى ان أباه مات وهو جنين قدأتت عليه ستة اشهر وماتت امه وهو ابن ثمان سنين فكفله عمه ابو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته وذلك ايواؤه وقرئ فأوى وهو امامن اواه بمعنى آواه اومن اوى له اذا رحمه

جده الى ان بعثه الله للنبوة فقام بنصرته مدة مديدة ثم توفي ابو طالب بعد ذلك فلم يظهر على رسول الله يتم البتة فأذكره الله تعالى هذه النعمة روى انه قال ابو طالب يوما لأخيه العباس ألا أخبرك عن محمد بما رأيت منه فقال بلى فقال انى ضممته الى فكنت لا أفارقه من ساعة من ليل ولا نهار ولا أئتمن عليه احدا حتى انى كنت انومه فى فراشى فأمرته ليلة ان يخلع ثيابه وينام معى فرأيت الكراهة فى وجهه لكنه كره ان يخالفنى وقال يا عماه اصرف بوجهك عنى حتى اخلع ثيابى اذ لا ينبغى لأحد ان ينظر الى جسدى فتعجبت من قوله وصرفت بصرى حتى دخل الفراش فلما دخلت معه الفراش اذا بينى وبينه ثوب والله ما ادخلته فراشى فاذا هو فى غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غمس فى المسك فجهدت لأنظر الى جسده فما كنت أرى شيئا وكثيرا ما كنت افتقده من فراشى فاذا قمت لاطلبه نادانى ها انا يا عم فأرجع ولقد كنت كثيرا ما أسمع منه كلاما يعجبنى وذلك عند مضى بعض الليل وكنا لا نسمى على الطعام والشراب ولا نحمد بعده وكان يقول فى اول الطعام بسم الله الاحد فاذا فرغ من طعامه قال الحمد لله فتعجبت منه ثم لم أر منه كذبة ولا ضحكا ولا جاهلية ولا وقف مع صبيان يلعبون واعلم ان العجائب المروية فى حقه من حديث بحيرة الراهب وغيره مشهورة (التفسير الثانى) لليتيم انه من قولهم درة يتيمة والمعنى ألم يجدك واحدا فى قريش عديم النظير فآواك اى جعل لك من تأوى اليه وهو ابو طالب وقرئ فأوى وهو على معنيين اما من اواه بمعنى آواه واما من أوى له اذا رحمه وههنا سؤالان (السؤال الاول) كيف يحسن من الجواد ان يمن بنعمه فيقول ألم يجدك يتيما فآوى والذى يؤكد هذا السؤال ان الله تعالى حكى عن فرعون انه قال ألم نربك فينا وليدا فى معرض الذم لفرعون فما كان مذموما من فرعون كيف يحسن من الله (الجواب) ان ذلك يحسن اذا قصد بذلك ان يقوى قلبه ويعده بدوام النعمة وبهذا يظهر الفرق بين هذا الامتنان وبين امتنان فرعون لان امتنان فرعون محبط لان الغرض فما بالك لا تخدمنى وامتنان الله بزيادة نعمه كأنه يقول مالك تقطع عنى رجاءك ألست شرعت فى تربيتك اتظننى تاركا لما صنعت بل لابد وان اتمم عليك وعلى امتك النعمة كما قال ولأتم نعمتى عليكم أما علمت ان الحامل التى تسقط الولد قبل التمام معيبة ترد ولو اسقطت أو الرجل اسقط عنها بعلاج تجب الغرة وتستحق الذم فكيف يحسن ذلك من الحى القيوم فما أعظم الفرق بين من هو الله وبين من هو فرعون ونظيره ما قاله بعضهم ثلاثة رابعهم كلبهم فى تلك الامة وفى امة محمد ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم فشتان بين امة رابعهم كلبهم وبين امة رابعهم ربهم (السؤال الثانى) انه تعالى من عليه بثلاثة اشياء ثم امره بأن يذكر نعمة ربه فما وجه المناسبة بين هذه الاشياء (الجواب) وجه المناسبة ان نقول قضاء الدين واجب ثم الدين نوعان مالى وانعامى (والثانى) اقوى وجوبا لان المالى قد يسقط بالابراء (والثانى) يتأكد

وقوله تعالى (ووجدك ضالا) عطف على ما يقتضيه الانكار السابق كما اشير اليه او على المضارع المنفى بلم داخل فى حكمه كأنه قيل اما وجدك يتيما فآوى ووجدك غافلا عن الشرائع التى لا تهتدى اليها العقول كما فى قوله تعالى ما كنت تدرى ما الكتاب وقيل ضل فى صباه فى بعض شعاب مكة فرده ابو جهل الى عبد المطلب وقيل ضل مرة اخرى وطلبوه فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا وتضرع الى الله تعالى فسمعوا منا ديا ينادى من

بالابراء والمالى يقضى مرة فينجو الانسان منه (والثانى) يجب عليك قضاؤه طول عمرك ثم اذا تعذر قضاء النعمة القليلة من منعم هو مملوك فكيف حال النعمة العظيمة من المنعم العظيم فكأن العبد يقول الهى أخرجتنى من العدم الى الوجود بشراسويا طاهر الظاهر نجس الباطن بشارة منك انك تستر على ذنوبى بستر عفوك كما سترت نجاستى بالجلد الظاهر فكيف يمكننى قضاء نعمك التى لاحد لها ولاحصر فيقول تعالى الطريق الى ذلك ان تفعل فى حق عبيدى مافعلته فى حقك كنت يتيما فآويتك فافعل فى حق الايتام ذلك وكنت ضالا فهديتك فافعل فى حق عبيدى ذلك وكنت عائلا فاغنيتك فافعل فى حق عبيدى ذلك ثم اذا فعلت كل ذلك فاعلم انك انما فعلتها بتوفيقى لك ولطفى وارشادى فكن ابدا ذاكرا لهذه النعم والالطاف ❊ اما قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) فاعلم ان بعض الناس ذهب الى أنه كان كافرا فى اول الامر ثم هداه الله وجعله نبيا قال الكلبى وجدك ضالا يعنى كافرا فى قوم ضلال فهداك للتوحيد وقال السدى كان على دين قومه اربعين سنة وقال مجاهد وجدك ضالا عن الهدى فهداك لدينه واحتجوا على ذلك بآيات أخر منها قوله تعالى ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان وقوله وان كنت من قبله لمن الغافلين وقوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك فهذا يقتضى صحة ذلك منه واذا دلت هذه الآية على الصحة وجب حمل قوله ووجدك ضالا عليه وأما الجمهور من العلماء فقد اتفقوا على انه عليه السلام ما كفر بالله لحظة واحدة ثم قالت المعتزلة هذا غير جائز عقلا لما فيه من التنفير وعند اصحابنا هذا غير ممتنع عقلا لانه جائز فى العقول ان يكون الشخص كافرا فيرزقه الله الايمان ويكرمه بالنبوة الا ان الدليل السمعى قام على ان هذا الجائز لم يقع وهو قوله تعالى ما ضل صاحبكم وما غوى ثم ذكروا فى تفسير هذه الآية وجوها كثيرة (احدها) ماروى عن ابن عباس والحسن والضحاك وشهر بن حوشب وجدك ضالا عن معالم النبوة واحكام الشريعة غافلا عنها فهداك اليها وهو المراد من قوله ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان وقوله وان كنت من قبله لمن الغافلين (وثانيها) ضل عن مرضعته حليمة حين أرادت ان ترده الى جده حتى دخلت الى هبل وشكت ذلك اليه فتساقطت الاصنام وسمعت صوتا يقول انما هلاكنا بيد هذا الصبى وفيه حكاية طويلة (وثالثها) ماروى مرفوعا انه عليه الصلاة والسلام قال ضللت عن جدى عبد المطلب وانا صبى ضائع كاد الجوع يقتلنى فهدانى الله ذكره الضحاك وذكر تعلقه بأستار الكعبة وقوله

يارب رد ولدى محمدا ❊ اردده ربى واصطنع عندى يدا

فمازال يردد هذا عند البيت حتى اتاه ابو جهل على ناقة ومحمد بين يديه وهو يقول لاتدرى ماذا نرى من ابنك فقال عبد المطلب ولم قال انى أنخت الناقة واركبته من خلفى فأبت الناقة ان تقوم فلما اركبته أمامى قامت الناقة كأن الناقة تقول يا احمق هو الامام فكيف يقوم خلف المقتدى وقال ابن عباس رده الله الى جده بيد عدوه كما فعل بموسى حين حفظه

السماء يامعشر الناس لاتضجوا فان لمحمد ربا لايخذله ولا يضيعه وان محمدا بوادى تهامة عند شجر السمر فسار عبد المطلب وورقة بن نوفل فاذا النبى عليه الصلاة والسلام قائم تحت شجرة يلعب بالاغصان والاوراق وقيل اضلته مرضعته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب وقيل ضل فى طريق الشام حين خرج به ابو طالب يروى ان ابليس اخذ بزمام ناقته فى ليلة ظلماء فعدل به عن الطريق فجاء

على يدعدوه (ورابعها) انه عليه السلام لما خرج مع غلام خديجة ميسرة أخذ كافر بزمام بعيره حتى ضل فأنزل الله تعالى جبريل عليه السلام فى صورة آدمى فهداه الى القافلة وقيل ان اباه طالب خرج به الى الشأم فضل عن الطريق فهداه الله تعالى (وخامسها) يقال ضل الماء فى اللبن اذا صار مغمورا فمعنى الآية كنت مغمورا بين الكفار بمكة فقواك الله تعالى حتى اظهرت دينه (وسادسها) العرب تسمى الشجرة الفريدة فى الفلاة ضالة كأنه تعالى يقول كانت تلك البلاد كالمفازة ليس فيها شجرة تحمل ثمر الايمان بالله ومعرفته الا انت فأنت شجرة فريدة فى مفازة الجهل فوجدتك ضالا فهديت بك الخلق ونظيره قوله عليه السلام الحكمة ضالة المؤمن (وسابعها) ووجدك ضالا عن معرفة الله تعالى حين كنت طفلا صبيا كما قال والله اخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئا فخلق فيك العقل والهداية والمعرفة والمراد من الضال الخالى عن العلم لا الموصوف بالاعتقاد الخطأ (وثامنها) كنت ضالا عن النبوة ما كنت تطمع فى ذلك ولا خطر شئ من ذلك فى قلبك فان اليهود والنصارى كانوا يزعمون ان النبوة فى بنى اسرائيل فهديتك الى النبوة التى ما كنت تطمع فيها البتة (وتاسعها) انه قد يخاطب السيد ويكون المراد قومه فقوله ووجدك ضالا اى وجد قومك ضلالا فهداهم بك وبشرعك (وعاشرها) وجدك ضالا عن الضالين منفردا عنهم مجانبا لدينهم فكلما كان بعدك عنهم اشد كان ضلالهم اشد فهداك الى ان اختلطت بهم ودعوتهم الى الدين المبين (الحادى عشر) وجدك ضالا عن الهجرة متحيرا فى يد قريش متمنيا فراقهم وكان لايمكنك الخروج بدون اذنه تعالى فلما أذن له ووافقه الصديق عليه وهداه الى خيمة أم معبد وكان ما كان من حديث سراقة وظهور القوة فى الدين كان ذلك المراد بقوله فهدى (الثانى عشر) ضالا عن القبلة فانه كان يتمنى ان تجعل الكعبة قبلة له وما كان يعرف ان ذلك هل يحصل له أم لا فهداه الله بقوله فلنولينك قبلة ترضاها فكأنه سمى ذلك التحير بالضلال (الثالث عشر) انه حين ظهر له جبريل عليه السلام فى أول أمره ما كان يعرف أهو جبريل أم لا وكان يخافه خوفا شديدا وربما أراد ان يلقى نفسه من الجبل فهداه حتى عرف انه جبريل عليه السلام (الرابع عشر) الضلال بمعنى المحبة كما فى قوله انك لفى ضلالك القديم اى محبتك ومعناه انك محب فهديتك الى الشرائع التى بها تتقرب الى خدمة محبوبك (الخامس عشر) ضالا عن أمور الدنيا لاتعرف التجارة ونحوها ثم هديتك حتى ربحت تجارتك وعظم ربحك حتى رغبت خديجة فيك والمعنى انه ما كان لك وقوف على الدنيا وما كنت تعرف سوى الدين فهديتك الى مصالح الدنيا بعد ذلك (السادس عشر) ووجدك ضالا أى ضائعا فى قومك كانوا يؤذونك ولا يرضون بك رعية فقوى أمرك وهداك الى ان صرت آمرا واليا عليهم (السابع عشر) كنت ضالا ما كنت تهتدى على طريق السموات فهديتك اذ عرجت بك الى السموات ليلة المعراج (الثامن عشر) ووجدك ضالا أى ناسيا لقوله

جبريل عليه السلام فنفح ابليس نفحة وقع منها الى ارض الهند ورده الى القافلة (فهدى) فهداك الى مناهج الشرائع المنطوية فى تضاعيف ما اوحى اليك من الكتاب المبين وعلمك مالم تكن تعلم اوازال ضلالك عن جدك او عمك (ووجدك عائلا) اى فقيرا وقرئ عيلا وقرئ عديما (فأغنى) فأغناك بمال خديجة او بمال حصل لك من ربح التجارة او بما افاء عليك من الغنائم ثم قال عليه الصلاة والسلام جعل رزقى تحت ظل رمحى وقيل

تعالى ان تضل احداهما فهديتك اى ذكرتك وذلك انه ليلة المعراج نسى مايجب ان يقال بسبب الهيبة فهداه الله تعالى الى كيفية الثناء حتى قال لااحصى ثناء عليك (التاسع عشر) انه وان كان عارفا بالله بقلبه الا انه كان فى الظاهر لايظهر لهم خلافا فعبر عن ذلك بالضلال (العشرون) روى على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ماهممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يعماون به غير مرتين كل ذلك يحول الله بينى وبين ما اريد من ذلك ثم ماهممت بعدهما بسوء حتى اكرمنى الله برسالته فانى قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معى بأعلى مكة لو حفظت لى غنمى حتى ادخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشبان فخرجت اريد ذلك حتى اتيت اول دار من دور مكة فسمعت عزفا بالدفوف والمزامير فقالوا فلان بن فلان يزوج بفلانة فجلست انظر اليهم وضرب الله على اذنى فنمت فما ايقظنى الا مس الشمس قال فجئت صاحبى فقال مافعلت فقلت ماصنعت شيئا ثم أخبرته الخبر قال ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك فضرب الله على اذنى فما ايقظنى الا مس الشمس ثم ماهممت بعدهما بسوء حتى اكرمنى الله تعالى برسالته ۞ اما قوله تعالى (ووجدك عائلا فاغنى) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) العائل هو ذو العيلة وذكرنا ذلك عند قوله تعالى ان لا تعولوا ويدل عليه قوله تعالى وان خفتم عيلة ثم اطلق العائل على الفقير وان لم يكن له عيال وههنا فى تفسير العائل قولان (الاول) وهو المشهور ان المراد هو الفقير ويدل عليه ماروى ان فى مصحف عبد الله ووجدك عديما وقرئ عيلا كما قرئ سيحات ثم فى كيفية الاغناء وجوه (الاول) ان الله تعالى أغناه بتربية ابى طالب ولما اختلت احوال أبى طالب اغناه بمال خديجة ولما اختل ذلك اغناه بمال أبى بكر ولما اختل ذلك أمره بالهجرة واغناه باعانة الانصار ثم أمره بالجهاد واغناه بالغنائم وان كان انما حصل بعد نزول هذه السورة لكن لما كان ذلك معلوم الوقوع كان كالواقع روى انه عليه السلام دخل على خديجة وهو مغموم فقالت له مالك فقال الزمان زمان قحط فان أنا بذلت المال ينفد مالك فأستحى منك وان أنا لم أبذل اخاف الله فدعت قريشا وفيهم الصديق قال الصديق فأخرجت دنانير وصبتها حتى بلغت مبلغا لم يقع بصرى على من كان جالسا قدامى لكثرة المال ثم قالت اشهدوا ان هذا المال ماله ان شاء فرقه وان شاء أمسكه (الثانى) اغناه بأصحابه كانوا يعبدون الله سرا حتى قال عمر حين أسلم ابرز أتعبد اللات جهرا ونعبد الله سرا فقال عليه السلام حتى تكثر الاصحاب فقال حسبك الله وأنا فقال تعالى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين فاغناه الله بمال أبى بكر وبهيبة عمر (الثالث) اغناك بالقناعة فصرت بحال يستوى عندك الحجر والذهب لاتجد فى قلبك سوى ربك فربك غنى عن الاشياء لابها وانت بقناعتك استغنيت عن الاشياء وان الغنى الاعلى الغنى عن الشئ لابه ومن ذلك انه عليه السلام خير بين الغنى والفقر فاختار الفقر (الرابع) كنت عائلا عن البراهين والحجج فأنزل عليك القرآن وعلمك مالم تكن تعلم فاغناك (القول

(الثانى)

اقنعك واغنى قلبك (فاما اليتيم فلا تقهر) فلا تغلبه على ماله وقال مجاهد لا تحتقر وقرئ فلا تكهر اى فلا تعبس فى وجهه (واما السائل فلا تنهر) فلا تزجر ولا تغلظ له القول بل رده ردا جميلا قال ابراهيم بن ادهم نعم القوم السؤال يحملون زادنا الى الآخرة وقال ابراهيم النخعى السائل يريد الآخرة يجئ الى باب احدكم فيقول اتبعثون الى اهليكم بشئ وقيل المراد بالسائل ههنا الذى

الثانى) فى تفسير العائل انك كنت كثير العيال وهم الامة فكفاك وقيل فأغنا هم بك لانهم فقراء بسبب جهلهم وانت صاحب العلم فهداهم على يدك وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الحكمة فى انه تعالى اختار له اليتم قلنا فيه وجوه (احدها) ان يعرف قدر اليتامى فيقوم بحقهم واصلاح امرهم ومن ذلك كان يوسف عليه السلام لايشبع فقيل له فى ذلك فقال أخاف أن اشبع فأنسى الجياع (وثانيها) ليكون اليتيم مشاركا له فى الاسم فيكرم لاجل ذلك ومن ذلك قال عليه السلام اذا سميتم الولد محمدا فأكرموه ووسعوا له فى المجلس (وثالثها) ان من كان له أب أو أم كان اعتماده عليهما فسلب عنه الوالدان حتى لايعتمد من اول صباه الى آخر عمره على احد سوى الله فيصير فى طفوليته متشبها بابراهيم عليه السلام فى قوله حسبى من سؤالى علمه بحالى وكجواب مريم أنى لك هذا قالت هو من عندالله (ورابعها) ان العادة جارية بأن اليتيم لاتخفى عيوبه بل تظهر وربما زادوا على الموجود فاختار تعالى له اليتم ليتأمل كل أحد فى أحواله ثم لايجدوا عليه عيبا فيتفقون على نزاهته فاذا اختاره الله للرسالة لم يجدوا عليه مطعنا (وخامسها) جعله يتيما ليعلم كل أحد ان فضيلته فضل من الله ابتداء لان الذى له أب فان أباه يسعى فى تعليمه وتأديبه (وسادسها) ان اليتم والفقر نقص فى حق الخلق فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام مع هذين الوصفين أكرم الخلق كان ذلك قلبا للعادة فكان من جنس المعجزات (السؤال الثانى) ما الحكمة فى ان الله ذكر هذه الاشياء (الجواب) الحكمة ان لا ينسى نفسه فيقع العجب (السؤال الثالث) روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال سألت ربى مسئلة وددت انى لم اسألها قلت اتخذت ابراهيم خليلا وكلمت موسى تكليما وسخرت مع داود الجبال واعطيت سليمان كذا وكذا واعطيت فلانا كذا وكذا فقال الم اجدك يتيما فآويتك الم اجد ضالا فهديتك الم أجدك عائلا فأغنيتك قلت بلى فقال الم اشرح لك صدرك قلت بلى قال ألم أرفع لك ذكرك قلت بلى قال ألم أصرف عنك وزرك قلت بلى قال ألم أوتك مالم أوت نبيا قبلك وهى خواتيم سورة البقرة ألم أتخذك خليلا كما اتخذت ابراهيم خليلا فهل يصح هذا الحديث (قلنا) طعن القاضى فى هذا الخبر فقال ان الانبياء عليهم السلام لايسألون مثل ذلك الاعن اذن فكيف يصح ان يقع من الرسول مثل هذا السؤال ويكون منه تعالى مايجرى مجرى المعاتبة ❊ قوله تعالى (فأما اليتيم فلاتقهر) وقرئ فلاتكهر اى لاتعبس وجهك اليه والمعنى عامله بمثل ما عاملتك به ونظيره من وجه واحسن كما احسن الله اليك ومنه قوله عليه السلام الله الله فيمن ليس له الا الله (وروى) انها نزلت حين صاح النبى صلى الله عليه وسلم على ولد خديجة ومنه حديث موسى عليه السلام حين قال الهى بم نلت مانلت قال أتذكر حين هربت منك السخلة فلما قدرت عليها قلت اتعبت نفسك ثم حملتها فلهذا السبب جعلتك وليا على الخلق فلما نال موسى عليه السلام النبوة بالاحسان الى الشاة فكيف بالاحسان الى اليتيم واذا كان هذا العتاب بمجرد الصياح

يسأل عن الدين (واما بنعمة ربك فحدث) بشكرها واشاعتها واظهار آثارها واحكامها ريد بها ما افاضه الله تعالى عليه الصلاة والسلام من فنون النعم التى من جلتها النعم المعدودة الموجودة منها والموعودة والمعنى انك كنت يتيما وضالا وعائلا فآواك الله تعالى وهداك واغناك فهما يكن من شئ فلا تنس حقوق نعمة الله تعالى عليك فى هذه الثلاث واقتد بالله تعالى واحسن كما احسن الله اليك فتعطف على

او العبوسة فى الوجه فكيف اذا أذله او أكل ماله عن أنس عن النبى عليه السلام اذا بكى اليتيم وقعت دموعه فى كف الرحمن ويقول تعالى من ابكى هذا اليتيم الذى واريت والده فى التراب من أسكته فله الجنة ❊ ثم قال تعالى (واما السائل فلا تنهر) يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره وفى المراد من السائل قولان (احدهما) وهو اختيار الحسن ان المراد منه من يسأل العلم ونظيره من وجه عبس وتولى ان جاءه الاعمى وحينئذ يحصل الترتيب لانه تعالى قال له اولا ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى ثم اعتبر هذا الترتيب فأوصاه برعاية حق اليتيم ثم برعاية حق من يسأله عن العلم والهداية ثم اوصاه بشكر نعم الله عليه (والقول الثانى) ان المراد مطلق السائل ولقد عاتب الله رسوله فى القرآن فى شأن الفقراء فى ثلاثة مواضع (أحدها) انه كان جالسا وحوله صناديد قريش اذ جاء ابن أم مكتوم الضرير فتخطى رقاب الناس حتى جلس بين يديه قال علمنى مما علمك الله فشق ذلك عليه فعبس وجهه فنزل عبس وتولى (والثانى) حين قالت له قريش لو جعلت لنا مجلسا وللفقراء مجلسا آخر فهم ان يفعل ذلك فنزل قوله واصبر نفسك مع الذين يدعون (والثالث) كان جالسا فجاءه عثمان بعذق من تمر فوضعه بين يديه فأراد ان يأكل فوقف سائل بالباب فقال رحم الله عبدا يرحمنا فأمر بدفعه الى السائل فكره عثمان ذلك وأراد ان يأكله النبى عليه السلام فخرج واشتراه من السائل ثم رجع السائل ففعل ذلك ثلاث مرات وكان يعطيه النبى عليه السلام الى ان قال له النبى صلى الله عليه وسلم أسائل انت أم بائع فنزل واما السائل فلا تنهر ❊ ثم قال تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) وفيه وجوه (احدها) قال مجاهد تلك النعمة هى القرآن فان القرآن اعظم ما انعم الله به على محمد عليه السلام والتحديث به ان يقرأه ويقرئ غيره ويبين حقائقه لهم (وثانيها) روى ايضا عن مجاهد ان تلك النعمة هى النبوة اى بلغ ما انزل اليك من ربك (وثالثها) اذا وفقك الله فراعيت حق اليتيم والسائل وذلك التوفيق نعمة من الله عليك فحدث بها ليقتدى بك غيرك ومنه ما روى عن الحسين بن على عليه السلام انه قال اذا عملت خيرا فحدث اخوانك ليقتدوا بك الا أن هذا انما يحسن اذا لم يتضمن رياء وظن ان غيره يقتدى به ومن ذلك لما سئل امير المؤمنين على عليه السلام عن الصحابة فأثنى عليهم وذكر خصالهم فقالوا له فحدثنا عن نفسك فقال مهلا فقد نهى الله عن التزكية فقيل له أليس الله تعالى يقول وأما بنعمة ربك فحدث فقال فانى احدث كنت اذا سئلت اعطيت واذا سكت ابتديت وبين الجوانح علم جم فاسألونى (فان قيل) فما الحكمة فى ان اخر الله تعالى حق نفسه عن حق اليتيم والعائل (قلنا) فيه وجوه (احدها) كأنه يقول أنا غنى وهما محتاجان وتقديم حق المحتاج اولى (وثانيها) انه وضع فى حظهما الفعل ورضى لنفسه بالقول (وثالثها) ان المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب فى ذكر الله تعالى فجعل خاتمة هذه الطاعات تحدث القلب واللسان بنعم الله تعالى حتى يكون ختم الطاعات على ذكر الله

اليتيم فآوه وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن بابك وحدث بنعمة الله كلها وحيث كان معظمها نعمة النبوة فقد اندرج تحت الامر هدايته عليه الصلاة والسلام للضلال وتعليمه للشرائع والاحكام حسبما هداه الله عز وجل وعلمه من الكتاب والحكمة * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والضحى جعله الله تعالى فيمن يرضى لمحمد ان يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل

(واختار)

واختار قوله فحدث على قوله فخبر ليكون ذلك حديثا عنده لاينساه ويعيده مرة بعد اخرى والله تعالى اعلم

(سورة ألم نشرح ثمان آيات مكية)

يروى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز انهما كانا يقولان هذه السورة وسورة والضحى سورة واحدة وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم والذى دعاهما الى ذلك هو ان قوله تعالى ألم نشرح لك كالعطف على قوله ألم يجدك يتيما وليس كذلك لان الاول كان نزوله حال اغتمام الرسول صلى الله عليه وسلم من ايذاء الكفار فكانت حال محنة وضيق صدر والثانى يقتضى ان يكون حال النزول منشرح الصدر طيب القلب فأنى يجتمعان

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ألم نشرح لك صدرك) استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الانكار فأفاد اثبات الشرح وايجابه فكأنه قيل شرحنا لك صدرك وفى شرح الصدر قولان (الاول) ماروى ان جبريل عليه السلام أتاه وشق صدره واخرج قلبه وغسله وانقاه من المعاصى ثم ملأه علما وايمانا ووضعه فى صدره واعلم ان القاضى طعن فى هذه الرواية من وجوه (احدها) ان الرواية ان هذه الواقعة انما وقعت فى حال صغره عليه السلام وذلك من المعجزات فلا يجوز ان تتقدم نبوته (وثانيها) ان تأثير الغسل فى ازالة الاجسام والمعاصى ليست بأجسام فلا يكون للغسل فيها اثر (وثالثها) انه لايصح ان يملأ القلب علما بل الله تعالى يخلق فيه العلوم (والجواب عن الاول) ان تقديم المعجز على زمان البعثة جائز عندنا وذلك هو المسمى بالارهاص ومثله فى حق الرسول عليه السلام كثير (واما الثانى والثالث) فلا يبعد ان يكون حصول ذلك الدم الاسود الذى غسلوه من قلب الرسول عليه السلام علامة للقلب الذى يميل الى المعاصى ويحجم عن الطاعات فاذا أزالوه عنه كان ذلك علامة لكون صاحبه مواظبا على الطاعات محترزا عن السيأت فكان ذلك كالعلامة للملائكة على كون صاحبه معصوما وأيضا فلأن الله تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد (والقول الثانى) ان المراد من شرح الصدر مايرجع الى المعرفة والطاعة ثم ذكروا فيه وجوها (احدها) انه عليه السلام لما بعث الى الجن والانس فكان يضيق صدره عن منازعة الجن والانس والبراءة من كل عابد ومعبود سوى الله فآتاه الله من آياته مااتسع لكل ماحمله وصغر عنده كل شئ احتمله من المشاق وذلك بأن اخرج عن قلبه جميع الهموم وماترك فيه الاهذا الهم الواحد فما كان يخطر بباله هم النفقة والعيال ولايبالى بما يتوجه اليه من ايذائهم حتى صاروا فى عينه دون الذباب لم يجبن خوفا من وعيدهم ولم يمل الى مالهم وبالجملة فشرح الصدر عبارة عن علمه بحقارة الدنيا وكمال الآخرة ونظيره قوله فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا (وروى) انهم

(سورة ألم نشرح مكية وآيها) (ثمان)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ألم نشرح لك صدرك) لما كان الصدر محلا لاحوال النفس ومخزنا لسرائرها من العلوم والادراكات والملكات والارادات وغيرها عبر بشرحه عن توسيع دائرة تصرفاتها بتأييدها بالقوة القدسية وتحليتها بالكمالات الانسية اى ألم نفسحه حتى حوى عالمى الغيب والشهادة وجمع بين ملكتى الاستفادة والافادة فما صدك الملابسة بالعلائق الجسمانية عن اقتباس انوار الملكات الروحانية وماعاقك التعلق بمصالح الخلق عن الاستغراق فى شؤن الحق وقيل اريد به ماروى ان جبريل اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صباه او يوم الميثاق فاستخرج قلبه فغسله ثم ملأه ايمانا وعلما ولعله تمثيل لما ذكر او انموذج جسمانى مما سيظهر له عليه الصلاة والسلام من الكمال الروحانى والتعبير عن ثبوت الشرح بالاستفهام الانكارى عن انتفائه للايذان بأن ثبوته من الظهور بحيث لايقدر احد على ان يجيب عنه بغير بلى وزيادة الجار والمجرور مع توسيطه بين الفعل ومفعوله للايذان من اول الامر بان الشرح

قالوا يارسول الله أينشرح الصدر قال نعم قالوا وما علامة ذلك قال التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاعداد للموت قبل نزوله وتحقيق القول فيه ان صدق الايمان بالله ووعده ووعيده يوجب للانسان الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والاستعداد للموت (وثانيها) انه انفتح صدره حتى انه كان يتسع لجميع المهمات لايقلق ولايضجر ولايتحير بل هو في حالتي البؤس والفرح منشرح الصدر مشتغل بأداء ما كلف به والشرح التوسعة ومعناه الاراحة من الهموم والعرب تسمى الغم والهم ضيق صدر كقوله ولقد نعلم أنك يضيق صدرك وههنا سؤالات (الاول) لم ذكر الصدر ولم يذكر القلب (الجواب) لان محل الوسوسة هو الصدر على ماقال يوسوس في صدور الناس فأزالة تلك الوسوسة وابدالها بدواعي الخير هي الشرح فلاجرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب وقال محمد بن علي الترمذي القلب محل العقل والمعرفة وهو الذي يقصده الشيطان فالشيطان يجيء الى الصدر الذي هو حصن القلب فاذا وجد مسلكا أغار فيه ونزل جنده فيه وبث فيه الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حينئذ ولايجد للطاعة لذة ولا للاسلام حلاوة واذا طرد العدو في الابتداء منع وحصل الامن ويزول الضيق وينشرح الصدر ويتيسر له القيام بأداء العبودية (السؤال الثاني) لم قال ألم نشرح لك صدرك ولم يقل ألم نشرح صدرك (الجواب) من وجهين (احدهما) كأنه تعالى يقول لام بلام فأنت انما تفعل جميع الطاعات لاجلي كما قال تعالى الاليعبدون اقم الصلاة لذكري فأنا أيضا جميع ما افعله لاجلك (وثانيها) ان فيها تنبيها على ان منافع الرسالة عائدة اليه عليه السلام كأنه تعالى قال انما شرحنا صدرك لاجلك لالاجلي (السؤال الثالث) لم قال ألم نشرح ولم يقل ألم اشرح (الجواب) ان حملناه على نون التعظيم فالمعنى ان عظمة المنعم تدل على عظمة النعمة فدل ذلك على ان ذلك الشرح نعمة لاتصل العقول الى كنه جلالتها وان حملناه على نون الجمع فالمعنى كأنه تعالى يقول لم اشرحه وحدي بل اعملت فيه ملائكتي فكنت ترى الملائكة حواليك وبين يديك حتى يقوى قلبك فأديت الرسالة وانت قوي القلب ولحقتهم هيبة فلم يجيبوا لك جوابا فلو كنت ضيق القلب لضحكوا منك فسبحان من جعل قوة قلبك جبنا فيهم وانشراح صدرك ضيقا فيهم ❊ ثم قال تعالى (ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال المبرد هذا محمول على معنى ألم نشرح لا على لفظه لانك لاتقول الم وضعنا ولكن معنى ألم نشرح قد شرحنا فحمل الثاني على معنى الاول لا على ظاهر اللفظ لانه لو كان معطوفا على ظاهره لوجب ان يقال ونضع عنك وزرك (المسئلة الثانية) معنى الوزر ثقل الذنب وقدم تفسيره عند قوله تعالى وهم يحملون اوزارهم وهو كقوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر واما قوله تعالى انقض ظهرك فقال علماء اللغة الاصل فيه ان الظهر اذا اثقله الحمل سمع له نقيض أي صوت خفي وهو صوت المحامل والرحال والاضلاع او البعير اذا اثقله الحمل فهو مثل لما كان يثقل على رسول الله

من منافعه عليه الصلاة والسلام ومصالحه مسارعة الى ادخال المسرة في قلبه عليه الصلاة والسلام وتشويقاله الى مايعقبه ليتمكن عنده وقت وروده فضل تمكن وقوله تعالى (ووضعنا عنك وزرك) عطف على ما اشير اليه من مدلول الجملة السابقة كأنه قيل قد شرحنا صدرك ووضعنا الخ وعنك متعلق بوضعنا وتقديمه على المفعول الصريح مع ان حقه التأخر عنه لما مر آنفا من القصد الى تعجيل المسرة والتشويق الى المؤخر ولما ان في وصفه نوع طول فتأخير الجار والمجرور عنه مخل بتجاوب اطراف النظم الكريم اي حططنا عنك عبأك الثقيل (الذي انقض ظهرك) اي حمله على النقيض وهو صوت الانتقاض والانفكاك كما يسمع من الرحل المتداعي الى الانتقاض من ثقل الحمل مثل به حاله عليه الصلاة والسلام مما كان يثقل عليه ويغمه من فرطاته قبل النبوة اومن عدم احاطته بتفاصيل الاحكام والشرائع اومن تهالكه على اسلام المعاندين من قومه وتلهفه ووضعه عنه مغفرته وتعليم الشرائع وتمهيد عذره بعد ان بلغ وبالغ وقرئ وحططنا وحللنا مكان وضعنا وقرئ وحللنا عنك وقرك

صلى الله عليه وسلم من اوزاره (المسئلة الثالثة) احتج بهذه الآية من اثبت المعصية للانبياء عليهم السلام (والجواب) عنه من وجهين (الاول) ان الذين يجوزون الصغائر على الانبياء عليهم السلام حملوا هذه الآية عليها لا يقال ان قوله الذى انقض ظهرك يدل على كونه عظيما فكيف يليق ذلك بالصغائر لانا نقول انما وصف ذلك بانقاض الظهر مع كونها مغفورة لشدة اغتمام النبى صلى الله عليه وسلم بوقوعه منه وتحسره مع ندمه عليه او انما وصفه بذلك لان تأثيره فيما يزول به من الثواب عظيم فيجوز لذلك ماذكره الله تعالى هذا تقرير الكلام على قول المعتزلة وفيه اشكال وهو ان العفو عن الصغيرة واجب على الله تعالى عند القاضى والله تعالى ذكر هذه الآية فى معرض الامتنان ومن المعلوم ان الامتنان بفعل الواجب غير جائز (الوجه الثانى) ان يحمل ذلك على غير الذنب وفيه وجوه (احدها) قال قتادة كانت للنبى صلى الله عليه وسلم ذنوب سلفت منه فى الجاهلية قبل النبوة وقد اثقلته فغفرها له (وثانيها) ان المراد منه تخفيف اعباء النبوة التى تثقل الظهر من القيام بأمرها وحفظ موجباتها والمحافظة على حقوقها فسهل الله تعالى ذلك عليه وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تيسرت له (وثالثها) الوزر ما كان يكرهه من تغييرهم لسنة الخليل وكان لا يقدر على منعهم الى ان قواه الله وقال له ان اتبع ملة ابراهيم (ورابعها) انها ذنوب امته صارت كالوزر عليه ماذا يصنع فى حقهم الى ان قال وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم فأمنه من العذاب فى العاجل ووعد له الشفاعة فى الآجل (وخامسها) معناه عصمناك عن الوزر الذى ينقض ظهرك لو كان ذلك الذنب حاصلا فسمى العصمة وضعا مجازا فمن ذلك ما روى انه حضر وليمة فيها دف ومزامير قبل البعثة ليسمع فضرب الله على اذنه فلم يوقظه الاحر الشمس من الغد (وسادسها) الوزر ما اصابه من الهيبة والفزع فى اول ملاقاة جبريل عليه السلام حين اخذته الرعدة وكاد يرمى نفسه من الجبل ثم تقوى حتى الفه وصار بحالة كاد يرمى بنفسه من الجبل لشدة اشتياقه (وسابعها) الوزر ما كان يلحقه من الاذى والشتم حتى كاد ينقض ظهره وتأخذه الرعدة ثم قواه الله تعالى حتى صار بحيث كانوا يدمون وجهه ويقول اللهم اهد قومى (وثامنها) لئن كان نزول السورة بعد موت ابى طالب وخديجة فلقد كان فراقهما عليه وزرا عظيما فوضع عنه الوزر برفعه الى السماء حتى لقيه كل ملك وحياه فارتفع له الذكر فلذلك قال تعالى ورفعنا لك ذكرك (وتاسعها) ان المراد من الوزر والثقل الحيرة التى كانت له قبل البعثة وذلك انه بكمال عقله لما نظر الى عظيم نعم الله تعالى عليه حيث اخرجه من العدم الى الوجود واعطاه الحياة والعقل وانواع النعم ثقل عليه نعم الله وكاد ينقض ظهره من الحياء لانه عليه السلام كان يرى ان نعم الله عليه لا تنقطع وما كان يعرف انه كيف يطيع ربه فلما جاءته النبوة والتكاليف وعرف انه كيف ينبغى له ان يطيع ربه فحينئذ قل حياؤه وسهلت عليه تلك الاحوال فان اللئيم لا يستحى من زيادة النعم بدون مقابلتها بالخدمة

(ورفعنا لك ذكرك) بعنوان النبوة واحكامها اى رفع حيث قرن اسمه بأسم الله تعالى فى كلمة الشهادة والاذان والاقامة وجعل طاعته طاعته تعالى وصلى عليه هو وملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه وسمى رسول الله ونبى الله والكلام فى العطف وزيادة لك كالذى سلف وقوله تعالى (فأن مع العسر يسرا) تقرير لما قبله ووعد كريم بتيسير كل عسير له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين كأنه قيل خولناك ما خولناك من جلائل النعم فكن على ثقة بفضل الله تعالى ولطفه فان مع العسر يسرا كثيرا وفى كلمة مع اشعار بغاية سرعة مجئ اليسر كأنه مقارن للعسر (ان مع العسر يسرا) تكرير للتأكيد اوعدة مستأنفة بأن العسر مشفوع بيسر آخر كثواب الآخرة كقولك ان للصائم فرحة ان للصائم فرحة اى فرحة عند

والانسان الكريم النفس اذا كثر الانعام عليه وهو لايقابلها بنوع من انواع الخدمة فانه يثقل ذلك عليه جدا بحيث يميته الحياء فاذا كلفه المنعم بنوع خدمة سهل ذلك عليه وطاب قلبه ❊ ثم قال تعالى (ورفعنا لك ذكرك) واعلم انه عام في كل ماذكروه من النبوة وشهرته في الارض والسموات اسمه مكتوب على العرش وانه يذكر معه في الشهادة والتشهد وانه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة وانتشار ذكره في الآفاق وانه ختمت به النبوة وانه يذكر في الخطب والاذان ومفاتيح الرسائل وعند الختم وجعل ذكره في القرآن مقرونا بذكره والله ورسوله احق ان يرضوه ومن يطع الله ورسوله واطيعوا الله واطيعوا الرسول ويناديه باسم الرسول والنبي حين ينادي غيره بالاسم ياموسى ياعيسى وايضا جعله في القلوب بحيث يستطيبون ذكره وهو معنى قوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا كأنه تعالى يقول املأ العالم من اتباعك كلهم يثنون عليك ويصلون عليك ويحفظون سنتك بل مامن فريضة من فرائض الصلاة الا ومعه سنة فهم يمتثلون في الفريضة امري وفي السنة امرك وجعلت طاعتك طاعتي وبيعتك بيعتي من يطع الرسول فقد أطاع الله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله لاتأنف السلاطين من اتباعك بل لاجراءة لاجهل الملوك ان ينصب خليفة من غير قبيلتك فالقراء يحفظون الفاظ منشورك والمفسرون يفسرون معاني فرقانك والوعاظ يبلغون وعظك بل العلماء والسلاطين يصلون الى خدمتك ويسلمون من وراء الباب عليك ويمسحون وجوههم بتراب روضتك ويرجون شفاعتك فشرفك باق الى يوم القيامه ❊ ثم قال تعالى (فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) وجه تعلق هذه الآية بما قبلها ان المشركين كانوا يعيرون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر ويقولون ان كان غرضك من هذا الذي تدعيه طلب الغنى جمعنا لك مالا حتى تكون كأيسر اهل مكة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سبق الى وهمه انهم انما رغبوا عن الاسلام لكونه فقيرا حقيرا عندهم فعدد الله تعالى عليه منته في هذه السورة وقال ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك اي ما كنت فيه من امر الجاهلية ثم وعده بالغنى في الدنيا ليزيل عن قلبه ما حصل فيه من التأذي بسبب انهم عيروه بالفقر والدليل عليه دخول الفاء في قوله فان مع العسر يسرا كأنه تعالى قال لايحزنك مايقولون وما انت فيه من القلة فانه يحصل في الدنيا يسر كامل (المسئلة الثانية) قال ابن عباس يقول الله تعالى خلقت عسرا واحدا بين يسرين فلن يغلب عسر يسرين وروى مقاتل عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال لن يغلب عسر يسرين وقرأ هذه الآية وفي تقرير هذا المعنى وجهان (الاول) قال الفراء والزجاج العسر مذكور بالالف واللام وليس هناك معهود سابق فينصرف الى الحقيقة فيكون المراد بالعسر في اللفظين شيئا واحدا واما اليسر فانه مذكور على سبيل التنكير فكان احدهما غير الآخر وزيف الجرجاني هذا وقال اذا قال الرجل ان مع الفارس سيفا ان مع

(الفارس)

الافطار وفرحة عند لقاء الرب وعليه قوله عليه الصلاة والسلام لن يغلب عسر يسرين فان المعرف اذا أعيد يكون الثاني عين الاول سواء كان معهودا او جنسا واما المنكر فيحتمل ان يراد بالثاني فرد مغاير لما اريد بالاول (فاذا فرغت) اي من التبليغ وقيل من الغزو (فانصب) فاجتهد في العبادة واتعب شكرا لما اوليناك من النعم السالفة ووعدناك من الآلاء الآنفة وقيل فاذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء وقيل اذا فرغت من دنياك فانصب في صلاتك (والى ربك) وحده (فارغب) بالسؤال ولا تسأل غيره فانه القادر على اسعافك لاغيره وقرئ فرغب اي فرغب الناس الى طلب ماعنده ❊ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ ألم نشرح فكأنما جاءني وانا مغتم ففرج عني

الفارس سيفا يلزم ان يكون هناك فارس واحد ومعه سيفان ومعلوم ان ذلك غير لازم من وضع العربية (الوجه الثانى) ان تكون الجملة الثانية تكريرا للاولى كما كرر قوله ويل يومئذ للمكذبين ويكون الغرض تقرير معناها فى النفوس وتمكينها فى القلوب كما يكرر المفرد فى قولك جاءنى زيد زيد. والمراد من اليسرين يسر الدنيا وهو ماتيسر من استفتاح البلاد ويسر الآخرة وهو ثواب الجنة لقوله تعالى قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين وهما حسنى الظفر وحسنى الثواب فالمراد من قوله لن يغلب عسر يسرين هذا وذلك لان عسر الدنيا بالنسبة الى يسر الدنيا ويسر الآخرة كالمغمور القليل وههنا سؤالان (الاول) مامعنى التنكير فى اليسر جوابه التفخيم كأنه قيل ان مع العسر يسرا عظيما واى يسر (السؤال الثانى) اليسر لايكون مع العسر لانهما ضدان فلا يجتمعان (الجواب) لما كان وقوع اليسر بعد العسر بزمان قليل كان مقطوعا به فجعل كالمقارن له * ثم قال تعالى (فاذا فرغت فانصب) وجه تعلق هذا بما قبله انه تعالى لما عدد عليه نعمه السالفة ووعده بالنعم الآتية لاجرم بعثه على الشكر والاجتهاد فى العبادة فقال فاذا فرغت فانصب اى فاتعب يقال نصب ينصب قال قتادة والضحاك ومقاتل اذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب الى ربك فى الدعاء وارغب اليه فى المسألة يعطك وقال الشعبى اذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك وقال مجاهد اذا فرغت من امر دنياك فانصب وصل وقال عبدالله اذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل وقال الحسن اذا فرغت من الغزو فاجتهد فى العبادة وقال على بن ابى طلحة اذا كنت صحيحا فانصب يعنى اجعل فراغك نصبا فى العبادة يدل عليه ماروى ان شريحا مر برجلين يتصارعان فقال الفارغ ماامر بهذا انما قال الله فأذا فرغت فانصب وبالجملة فالمعنى ان يواصل بين بعض العبادات وبعض وان لايخلى وقتا من اوقاته منها فاذا فرغ من عبادة اتبعها بأخرى * واما قوله تعالى (والى ربك فارغب) ففيه وجهان (احدهما) اجعل رغبتك اليه خصوصا ولاتسأل الا فضله متوكلا عليه (وثانيها) ارغب فى سائر ماتلتمسه دنيا ودينا ونصرة على الاعداء الى ربك وقرئ فرغب اى رغب الناس الى طلب ماعنده والله اعلم

(سورة التين ثمان آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) اعلم ان الاشكال هو ان التين والزيتون ليسا من الامور الشريفة فكيف يليق ان يقسم الله تعالى بهما فلأجل هذا السؤال حصل فيه قولان (الاول) ان المراد من التين والزيتون هذان الشيآن المشهوران قال ابن عباس هو تينكم وزيتونكم هذا ثم ذكروا من خواص التين والزيتون اشياء اما التين فقالوا انه غذاء وفاكهة ودواء اما كونه غذاء فالاطباء زعموا

(سورة والتين مكية وقيل)
(مدنية وآيها ثمان)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والتين والزيتون) هما هذا التين وهذا الزيتون خصهما الله سبحانه من بين الثمار بالاقسام بهما لاختصاصهما بخواص جليلة فان التين فاكهة طيبة لافضل له وغذاء لطيف سريع الهضم ودواء كثير النفع يلين الطبع ويحلل البلغم ويطهر الكليتين ويزيل مافى المثانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح سدد الكبد والطحال وروى ابوذر رضى الله عنه انه اهدى للنبى عليه الصلاة والسلام سل من تين فاكل منه وقال لاصحابه كلوا افلو قلت ان فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذا لان فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فانها تقطع البواسير وتنفع من النقرس وعن على بن موسى الرضا التين يزيل نكهة الفم ويطول الشعر وهو امان من الفالج واما الزيتون فهو فاكهة وادام ودواء ولو لم يكن له سوى اختصاصه بدهن كثير المنافع مع حصوله فى بقاع لادهنية فيها لكفى به فضلا وشجرته هى الشجرة المباركة المشهود لها فى التنزيل ومر معاذ بن جبل رضى الله عنه بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيبا واستاك به وقال سمعت النبى عليه الصلاة والسلام يقول نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة

انه طعام لطيف سريع الهضم لا يمكث فى المعدة يلين الطبع ويخرج بطريق الترشح ويقلل البلغم ويطهر الكليتين ويزيل ما فى المثانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح مسام الكبد والطحال وهو خير الفواكه واحدها وروى انه اهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه ثم قال لاصحابه كلوا فلو قلت ان فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لان فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فانها تقطع البواسير وتنفع من النقرس وعن على ابن موسى الرضا عليهما السلام التين يزيل نكهة الفم ويطول الشعر وهو امان من الفالج واما كونه دواء فلانه يتداوى به فى اخراج فضول البدن واعلم ان لها بعد ما ذكرنا خواص (احدها) ان ظاهرها كباطنها ليست كالجوز ظاهره قشر ولا كالتمر باطنه قشر بل نقول ان من الثمار ما يخبث ظاهره ويطيب باطنه كالجوز والبطيخ ومنه ما يطيب ظاهره دون باطنه كالتمر والاجاص اما التين فانه طيب الظاهر والباطن (وثانيها) ان الاشجار ثلاثة شجرة تعد وتخلف وهى شجرة الخلاف وثانية تعد وتفى وهى التى تأتى بالنور اولا وبعده بالثمرة كالتفاح وغيره وشجرة تبذل قبل الوعد وهى التين لانها تخرج الثمرة قبل ان تعد بالورد بل لو غيرت العبارة لقلت هى شجرة تظهر المعنى قبل الدعوى بل لك ان تقول انها شجرة تخرج الثمرة قبل ان تلبس نفسها بورد او بورق والتفاح والمشمش وغيرهما تبدأ بنفسها ثم بغيرها اما شجرة التين فانها تهتم بغيرها قبل اهتمامها بنفسها فسائر الاشجار كأرباب المعاملة فى قوله عليه السلام ابدأ بنفسك ثم بمن تعول وشجرة التين كالمصطفى عليه السلام كان يبدأ بغيره فان فضل صرفه الى نفسه بل من الذين اثنى الله عليهم فى قوله ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة (وثالثها) ان من خواص هذه الشجرة ان سائر الاشجار اذا سقطت الثمرة من موضعها لم تعد فى تلك السنة الا التين فانه يعيد البدو وربما سقط ثم يعود مرة اخرى (ورابعها) ان التين فى النوم رجل خير غنى فمن نالها فى المنام نال مالا وسعة ومن اكلها رزقه الله اولادا (وخامسها) روى ان آدم عليه السلام لما عصى وفارقته ثيابه تستر بورق التين وروى انه لما نزل وكان متزرا بورق التين استوحش فطاف الظباء حوله فاستأنس بها فأطعمها بعض ورق التين فرزقها الله الجمال صورة والملاحة معنى وغير دمها مسكا فلما تفرقت الظباء الى مساكنها رأى غيرها عليها من الجمال ما اعجبها فلما كانت من الغد جاءت الظباء على اثر الاولى الى آدم فأطعمها من الورق فغير الله حالها الى الجمال دون المسك وذلك لان الاولى جاءت لآدم لا لاجل الطمع والطائفة الاخرى جاءت للطمع سرا والى آدم ظاهرا فلا جرم الظاهر دون الباطن واما الزيتون فشجرته هى الشجرة المباركة فاكهة من وجه وادام من وجه ودواء من وجه وهى فى اغلب البلاد لا تحتاج الى تربية الناس ثم لا تقتصر منفعتها على غذاء بدنك بل هى غذاء السراج ايضا وتولدها فى الجبال التى لا يوجد فيها شئ من الدهنية البتة وقيل من اخذ ورق الزيتون فى المنام استمسك بالعروة الوثقى وقال مريض لابن سيرين

يطيب الفم ويذهب بالحفر وسمعته يقول هو سواكى وسواك الانبياء قبلى وقيل هما جبلان من الارض المقدسة يقال لهما بالسريانية طور تينا وطور زيتا لانهما منبتا التين والزيتون وقيل التين جبال ما بين حلوان وهمدان والزيتون جبال الشأم لانهما منابتهما كأنه قيل ومنابت التين والزيتون وقال قتادة التين الجبل الذى عليه دمشق والزيتون الجبل الذى عليه بيت المقدس وقال عكرمة وابن زيد التين دمشق والزيتون بيت المقدس وهو اختيار الطبرى وقال محمد بن كعب التين مسجد اصحاب اهل الكهف والزيتون مسجد ايليا وعن ابن عباس رضى الله عنهما التين مسجد نوح عليه السلام الذى بناه على الجودى والزيتون مسجد بيت المقدس وقال الضحاك التين المسجد الحرام والزيتون المسجد الاقصى والصحيح هو الاول قال ابن عباس رضى الله عنهما هو تينكم الذى تأكلون وزيتونكم الذى تعصرون منه الزيت وبه قال مجاهد وعكرمة وابراهيم النخعى وعطاء وجابر وزيد ومقاتل والكلبى (وطور سينين) هو الجبل الذى ناجى عليه موسى ربه وسينين وسيناء علمان للموضع الذى هو فيه ولذلك اضيف اليهما وسينون كبيرون فى جواز الاعراب بالواو والياء والاقرار على الياء وتحريك النون

(رأيت)

رأيت فى المنام كأنه قيل لى كل اللامين تشف فقال كل الزيتون فانه لاشرقية ولا غربية ثم قال المفسرون التين والزيتون اسم لهذين المأكولين وفيهما هذه المنافع الجليلة فوجب اجراء اللفظ على الظاهر والجزم بأن الله تعالى اقسم بهما لما فيهما من المصالح والمنافع (القول الثانى) انه ليس المراد هاتين الثمرتين ثم ذكروا وجوها (احدها) قال ابن عباس هما جبلان من الارض المقدسة يقال لهما بالسريانية طور تينا وطور زيتا لانهما منبتا التين والزيتون فكأنه تعالى اقسم بمنابت الانبياء فالجبل المختص بالتين لعيسى عليه السلام والزيتون الشأم مبعث اكثر انبياء بنى اسرائيل والطور مبعث موسى عليه السلام والبلد الامين مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فيكون المراد من القسم فى الحقيقة تعظيم الانبياء واعلاء درجاتهم (وثانيها) ان المراد من التين والزيتون مسجدان ثم قال ابن زيد التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس وقال آخرون التين مسجد اصحاب اهل الكهف والزيتون مسجد ايليا وعن ابن عباس التين مسجد نوح المبنى على الجودى والزيتون مسجد بيت المقدس والقائلون بهذا القول انما ذهبوا اليه لان القسم بالمسجد احسن لانه موضع العبادة والطاعة فلما كانت هذه المساجد فى هذه المواضع التى يكثر فيها التين والزيتون لاجرم اكتفى بذكر التين والزيتون (وثالثها) المراد من التين والزيتون بلدان فقال كعب التين دمشق والزيتون بيت المقدس وقال شهر بن حوشب التين الكوفة والزيتون الشام وعن الربيع هما جبلان بين همدان وحلوان والقائلون بهذا القول انما ذهبوا اليه لان اليهود والنصارى والمسلمين ومشركى قريش كل واحد منهم يعظم بلدة من هذه البلاد فالله تعالى اقسم بهذه البلاد بأسرها او يقال ان دمشق وبيت المقدس فيهما نعم الدنيا والطور ومكة فيهما نعم الدين اما قوله تعالى وطور سينين فالمراد من الطور الجبل الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه واختلفوا فى سينين والاولى عند النحويين ان يكون سينين وسينا اسمين للمكان الذى حصل فيه الجبل أضيفا الى ذلك المكان واما المفسرون فقال ابن عباس فى رواية عكرمة الطور الجبل وسينين الحسن بلغة الحبشة وقال مجاهد سينين المبارك وقال الكلبى هو الجبل المشجر ذو الشجر وقال مقاتل كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسينا بلغة النبط قال الواحدى والاولى ان يكون سينين اسما للمكان الذى به الجبل ثم ذلك المكان سمى سينين او سينا لحسنه اولكونه مباركا ولا يجوز ان يكون سينين نعتا للطور لاضافته اليه اما قوله تعالى وهذا البلد الامين فالمراد مكة والأمين الآمن قال صاحب الكشاف من أمن الرجل امانة فهو امين وامانته ان يحفظ من دخله كما يحفظ الامين ما يؤتمن عليه ويجوز ان يكون فعيلا بمعنى مفعول من أمنه لانه مأمون الغوائل كما وصف بالامن فى قوله حرما آمنا يعنى ذا امن وذكروا فى كونه امينا وجوها (احدها) ان الله تعالى حفظه عن الفيل على ما يأتيك شرحه ان شاء الله تعالى (وثانيها) انها تحفظ لك جميع الاشياء فباح الدم عند

بالحركات الاعرابية (وهذا البلد الامين) اى الآمن من امن الرجل امانة فهو امين وهو مكة شرفها الله تعالى وامانتها انها تحفظ من دخلها كما يحفظ الامين ما يؤتمن عليه ويجوز ان يكون فعيلا بمعنى مفعول من امنه لانه مأمون الغوائل كما وصف بالآمن فى قوله تعالى حرما آمنا بمعنى ذى امن ووجه الاقسام بهاتيك البقاع المباركة المشحونة ببركات الدنيا والدين غنى عن الشرح والتبيين (لقد خلقنا الانسان) اى جنس الانسان (فى احسن تقويم) اى كائنا فى احسن ما يكون من التقويم والتعديل صورة ومعنى حيث برأه الله تعالى مستوى القامة متناسب الاعضاء متصفا بالحياة والعلم والقدرة والارادة والتكلم والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات التى هى انموذجات من الصفات السبحانية وآثار لها وقد عبر بعض العلماء عن ذلك بقوله خلق آدم على صورته وفى رواية على صورة الرحمن وبنى عليه تحقيق معنى قوله من عرف نفسه فقد عرف ربه وقال ان النفس الانسانية مجردة ليست حالة فى البدن ولا خارجة عنه متعلقة به تعلق التدبير والتصرف تستعمله كيفما شاءت فاذا ارادت فعلا من الافاعيل الجسمانية تلقيه الى ما فى القلب من الروح الحيوانى الذى هو اعدل الارواح واصفاها واقربها منها واقواها مناسبة الى عالم المجردات القاء روحانيا وهو يلقيه بواسطة ما فى الشرايين من الارواح الى الدماغ الذى هو منبت الاعصاب التى فيها القوى المحركة للانسان فعند ذلك يحرك من

الالتجاء اليها آمن بل السباع والصيود تستفيد منها الحفظ عند الالتجاء اليها (وثالثها) ماروى ان عمر كان يقبل الحجر ويقول انك حجر لاتضر ولاتنفع ولولا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك فقال له على عليه السلام اما انه يضر وينفع ان الله تعالى لما أخذ على ذرية آدم الميثاق كتبه فى رق أبيض وكان لهذا الركن يومئذ لسان وشفتان وعينان فقال افتح فاك فالقمه ذلك الرق وقال تشهد لمن وافاك بالموافاة الى يوم القيامة فقال عمر لابقيت فى قوم لست فيهم ياأبا الحسن ※ ثم قال تعالى (لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم) المراد من الانسان هذه الماهية والتقويم تصيير الشئ على ما ينبغى ان يكون فى التأليف والتعديل يقال قومته تقويما فاستقام وتقوم وذكروا فى شرح ذلك الحسن وجوها (احدها) انه تعالى خلق كل ذى روح مكبا على وجهه الا الانسان فانه تعالى خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده وقال الاصم فى اكمل عقل وفهم وأدب وعلم وبيان والحاصل ان القول الاول راجع الى الصورة الظاهرة والثانى الى السيرة الباطنة وعن يحيى بن اكثم القاضى انه فسر التقويم بحسن الصورة فانه حكى ان ملك زمانه خلا بزوجته فى ليلة مقمرة فقال ان لم تكونى احسن من القمر فأنت كذا فأفتى الكل بالحنث الا يحيى بن اكثم فانه قال لايحنث فقيل له خالفت شيوخك فقال الفتوى بالعلم ولقد افتى من هو اعلم منا وهو الله تعالى فانه يقول لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم وكان بعض الصالحين يقول الهنا اعطيتنا فى الاولى احسن الاشكال فأعطنا فى الآخرة احسن الفعال وهو العفو عن الذنوب والتجاوز عن العيوب ※ اما قوله تعالى (ثم رددناه اسفل سافلين) ففيه وجهان (الاول) قال ابن عباس يريد ارذل العمر وهو مثل قوله يرد الى ارذل العمر قال ابن قتيبة السافلون هم الضعفاء والزمنى ومن لايستطيع حيلة ولايجد سبيلا يقال سفل يسفل فهو سافل وهم سافلون كما يقال علا يعلو فهو عال وهم عالون أراد ان الهرم يخرف ويضعف سمعه وبصره وعقله وتقل حيلته ويعجز عن عمل الصالحات فيكون اسفل الجميع وقال الفراء ولو كانت اسفل سافل لكان صوابا لان لفظ الانسان واحد وانت تقول هذا افضل قائم ولاتقول افضل قائمين الا انه قيل سافلين على الجمع لان الانسان فى معنى جمع فهو كقوله تعالى والذى جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون وقال تعالى وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم (والقول الثانى) ماذكره مجاهد والحسن ثم رددناه الى النار قال على عليه السلام وضع ابواب جهنم بعضها اسفل من بعض فيبدأ بالاسفل فيملأ وهو اسفل سافلين وعلى هذا التقدير فالمعنى ثم رددناه الى اسفل سافلين الى النار ※ اما قوله تعالى (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فاعلم ان هذا الاستثناء على القول الاول منقطع والمعنى ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب دائم على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله اياهم بالشيخوخة والهرم وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة وعلى تخاذل نهوضهم واما على القول الثانى

الاعضاء مايليق بذلك الفعل من مباديه البعيدة والقريبة فيصدر عنه ذلك بهذه الطريقة فمن عرف نفسه على هذه الكيفية من صفاتها وافعالها تسنى له ان يترقى الى معارج معرفة رب العزة عز سلطانه ويطلع على انه سبحانه منزه عن كونه داخلا فى العالم او خارجا عنه يفعل فيه مايشاء ويحكم مايريد بواسطة مارتبه فيه من الملائكة الذين يستدل على شؤنهم بما ذكر من الارواح والقوى المرتبة فى العالم الانسانى الذى هو نسخة للعالم الاكبر وانموذج منه وقوله تعالى (ثم رددناه اسفل سافلين) اى جعلناه من اهل النار الذين هم اقبح من كل قبيح واسفل من كل سافل لعدم جريانه على موجب ماخلقناه عليه من الصفات التى لو عمل بمقتضاها لكان فى اعلى عليين وقيل رددناه الى ارذل العمر وهو الهرم بعد الشباب والضعف بعد القوة كقوله تعالى ومن نعمره ننكسه فى الخلق واياما كان فاسفل سافلين اما حال من المفعول اى رددناه حال كونه اسفل سافلين او صفة لمكان محذوف اى رددناه مكانا اسفل سافلين والاول اظهر وقرئ اسفل السافلين وقوله تعالى (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) على الاول استثناء متصل من ضمير رددناه فانه فى معنى الجمع وعلى الثانى منقطع اى لكن الذين كانوا صالحين من الهرمى (فلهم اجر غير ممنون) غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله تعالى بالشيخوخة والهرم وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم اوغير ممنون به عليهم وهذه الجملة على

فالاستثناء متصل ظاهر الاتصال ❊ اماقوله تعالى (فلهم اجر غير ممنون) ففيه قولان (احدهما) غير منقوص ولامقطوع (وثانيهما) اجر غير ممنون اى لايمن به عليهم واعلم ان كل ذلك من صفات الثواب لانه يجب ان يكون غير منقطع و ان لايكون منغضا بالمنة ❊ ثم قال تعالى (فمايكذبك بعد بالدين) وفيه سؤالان (الاول) من المخاطب بقوله فمايكذبك (الجواب) فيه قولان (احدهما) انه خطاب للانسان على طريقة الالتفات و المراد من قوله فمايكذبك ان كل من اخبرعن الواقع بانه لايقع فهو كاذب والمعنى فاالذى يلجئك الى هذا الكذب (والثانى) وهو اختيار الفراء انه خطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى فمن يكذبك يا أيها الرسول بعدظهور هذه الدلائل بالدين (السؤال الثانى) ماوجه التعجب (الجواب) ان خلق الانسان من النطفة وتقويمه بشرا سويا وتدريجه فى مراتب الزيادة الى ان يكمل و يستوى ثم تنكيسه الى ان يبلغ ارذل العمر دليل واضح على قدرة الخالق على الحشر و النشر فمن شاهد هذه الحالة ثم بقى مصرا على انكار الحشر فلاشئ اعجب منه ❊ ثم قال تعالى (أليس الله بأحكم الحاكمين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ذكروا فى تفسيره وجهين (احدهما) ان هذا تحقيق لما ذكر من خلق الانسان ثم رده الى ارذل العمر يقول الله تعالى أليس الذى فعل ذلك بأحكم الحاكمين صنعا وتدبيرا واذا ثبتت القدرة و الحكمة بهذه الدلالة صح القول بامكان الحشر ووقوعه اماالامكان فبالنظر الى القدرة و اما الوقوع فبالنظر الى الحكمة لان عدم ذلك يقدح فى الحكمة كما قال تعالى و ماخلقنا السماء والارض و مابينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا (والثانى) ان هذا تنبيه من الله تعالى لنبيه عليه السلام بأنه يحكم بينه و بين خصومه يوم القيامة بالعدل (المسئلة الثانية) قال القاضى هذه الآية من اقوى الدلائل على انه تعالى لايفعل القبيح ولايخلق افعال العباد مع مافيها من السفه و الظلم فانه لوكان الفاعل لافعال العباد هو الله تعالى لكان كل سفه وكل امر بسفه وكل ترغيب فى سفه فهو من الله تعالى ومن كان كذلك فهو اسفه السفهاء كما انه لاحكمة ولاامر بالحكمة ولاترغيب فى الحكمة الامن الله تعالى و من كان كذلك فهو احكم الحكماء ولما ثبت فى حقه تعالى الامران لم يكن وصفه بأنه احكم الحكماء أولى من وصفه بانه اسفه السفهاء و لماامتنع هذا الوصف فى حقه علمنا انه ليس خالقا لافعال العباد (والجواب) المعارضة بالعلم والدواعى ثم نقول السفيه من قامت السفاهة به لامن خلق السفاهة كما ان المتحرك و الساكن من قامت الحركة و السكون به لامن خلقهما و الله اعلم بالصواب

(سورة القلم تسع عشرة آية مكية)

زعم المفسرين ان هذه السورة اول ما نزل من القرآن وقال آخرون الفاتحة اول مانزل ثم سورة القلم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الاول مقررة لمايفيده الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد و مبينة لكيفية حالهم والخطاب فى قوله تعالى (فمايكذبك بعد بالدين) للرسول عليه الصلاة والسلام اى فاى شئ يكذبك دلالة اونطقا بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة به وقيل ما بمعنى من وقيل الخطاب للانسان على طريق الالتفات للتشديد التوبيخ والتبكيت اى فما يجعلك كاذبا بسبب الدين وانكاره بعد هذه الدلائل والمعنى ان خلق الانسان من نطفة وتقويمه بشرا سويا وتحويله من حال الى حال كمالا و نقصانا من اوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل على البعث والجزاء فاى شئ يضطرك بعد هذا الدليل القاطع الى ان تكون كاذبا بسبب تكذيبه ايها الانسان (أليس الله بأحكم الحاكمين) اى أليس الذى فعل ماذكر باحكم الحاكمين صنعا وتدبيرا حتى يتوهم عدم الاعادة والجزاء وحيث استحال عدم كونه احكم الحاكمين تعين الاعادة والجزاء فالجملة تقرير لماقبلها وقيل الحكم بمعنى القضاء فهى وعيد للكفار وانه يحكم عليهم بمايستحقونه من العذاب عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان اذا قرأها يقول بلى وانا على ذلك من الشاهدين * وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة والتين اعطاه الله تعالى الخصلتين العافية واليقين مادام فى دار الدنيا واذا مات اعطاه الله تعالى من الاجر بعدد من قرأ هذه السورة

(اقرأباسم ربك) اعلم ان في الباء من قوله باسم ربك قولين (احدهما) قال ابو عبيدة الباء زائدة والمعنى اقرأ اسم ربك كما قال الاخطل

هن الحرائر لاربات اخمرة * سود المحاجر لايقرأن بالسور

ومعنى اقرأ اسم ربك اى اذكر اسمه وهذا القول ضعيف لوجوه (احدها) انه لو كان معناه اذكر اسم ربك ما حسن منه ان يقول ما انا بقارئ اى لااذكر اسم ربي (وثانيها) ان هذا الامر لايليق بالرسول لانه ما كان له شغل سوى ذكر الله فكيف يأمره بأن يشتغل بما كان مشغولا به ابدا (وثالثها) ان فيه تضييع الباء من غير فائدة (القول الثاني) ان المراد من قوله اقرأ اى اقرأ القرآن اذ القراءة لاتستعمل الا فيه قال تعالى فاذا قرأناه فاتبع قرآنه وقال وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث وقوله باسم ربك يحتمل وجوها (احدها) ان يكون محل باسم ربك النصب على الحال فيكون التقدير اقرأ القرآن مفتتحا باسم ربك اى قل باسم الله ثم اقرأ وفي هذا دلالة على انه يجب قراءة التسمية في ابتداء كل سورة كما انزل الله تعالى وأمر به وفي هذه الآية رد على من لايرى ذلك واجبا ولا يبتدئ بها (وثانيها) ان يكون المعنى اقرأ القرآن مستعينا باسم ربك كأنه يجعل الاسم آلة فيما يحاوله من امر الدين والدنيا ونظيره كتبت بالقلم وتحقيقه انه لما قال له اقرأ فقال له لست بقارئ فقال اقرأ باسم ربك اى استعن باسم ربك واتخذه آلة في تحصيل هذا الذي عسر عليك (وثالثها) ان قوله اقرأ باسم ربك اى اجعل هذا الفعل لله وافعله لاجله كما تقول بنيت هذه الدار باسم الامير وصنعت هذا الكتاب باسم الوزير ولاجله فان العبادة اذا صارت لله تعالى فكيف يجترئ الشيطان ان يتصرف فيما هو لله تعالى فان قيل كيف يستمر هذا التأويل في قولك قبل الاكل بسم الله وكذا قبل كل فعل مباح قلنا فيه وجهان (احدهما) ان ذلك اضافة مجازية كما تضيف ضيعتك الى بعض الكبار لتدفع بذلك ظلم الظلمة كذا تضيف فعلك الى الله ليقطع الشيطان طمعه عن مشاركتك فقد روى ان من لم يذكر اسم الله شاركه الشيطان في ذلك الطعام (والثاني) انه ربما استعان بذلك المباح على التقوى على طاعة الله فيصير المباح طاعة فيصح ذلك التأويل فيه اما قوله ربك ففيه سؤالان (احدهما) هو ان الرب من صفات الفعل والله من اسماء الذات واسماء الذات اشرف من اسماء الفعل ولانا قد دللنا بالوجوه الكثيرة على ان اسم الله اشرف من اسم الرب ثم انه تعالى قال ههنا باسم ربك ولم يقل اقرأ باسم الله كما قال في التسمية المعروفة بسم الله الرحمن الرحيم وجوابه انه امر بالعبادة وبصفات الذات وهو لايستوجب شيئا وانما يستوجب العبادة بصفات الفعل فكان ذلك ابلغ في الحث على الطاعة ولان هذه السورة كانت من اوائل ما نزل على ما كان الرسول عليه السلام قد فزع فاستماله ليزول الفزع فقال هو الذي رباك فكيف يفزعك فأفاد هذا الحرف معنيين (احدهما) ربيتك فلزمك القضاء فلا تتكاسل (والثاني) ان الشروع ملزم للاتمام وقد

(ربيتك)

---

*(سورة العلق مكية وآيها تسع عشرة) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(اقرأ) اى ما يوحى اليك فان الامر بالقراءة يقتضى المقروء قطعا وحيث لم يعين وجب ان يكون ذلك ما يتصل بالامر حتما سواء كانت السورة اول ما نزل اولا والاقرب ان هذا الى قوله تعالى مالم يعلم اول ما نزل عليه عليه الصلاة والسلام كما ينطق به حديث الزهرى المشهور وقوله تعالى (باسم ربك) متعلق بمضمر هو حال من ضمير الفاعل اى اقرأ ملتبسا باسمه تعالى اى مبتدأ به لتحقق مقارنته لجميع اجزاء المقروء والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ الى الكمال اللائق شيئا فشيئا مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للاشعار بتبليغه عليه السلام الى الغاية القاصية من الكمالات البشرية بانزال الوحى المتواتر ووصف الرب بقوله تعالى (الذى خلق) لتذكير اول النعماء

ربيتك منذ كذا فكيف أضيعك اى حين كنت علقا لم ادع تربيتك فبعدان صرت خلقا نفيسا موحدا عارفا بى كيف اضيعك (السؤال الثانى) ماالحكمة فى انه اضاف ذاته اليه فقال باسم ربك (الجواب) تارة يضيف ذاته اليه بالربوبية كاههنا وتارة يضيفه الى نفسه بالعبودية اسرى بعبده نظيره قوله عليه السلام على منى وأنا منه كأنه تعالى يقول هو لى وأناله يقرره قوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله اونقول اضافة ذاته الى عبده احسن من اضافة العبد اليه اذقد علم فى الشاهد ان من له ابنان ينفعه اكبرهما دون الاصغر يقول هو ابنى فحسب لما انه ينال منه المنفعة فيقول الرب تعالى المنفعة تصل منى اليك ولم تصل منك الى خدمة ولا طاعة الى الآن فأقول أنا لك ولا اقول أنت لى ثم اذا أتيت بما طلبته منك من طاعة او توبة أضفتك الى نفسى فقلت أنزل على عبده ياعبادى الذين اسرفوا (السؤال الثالث) لم ذكر عقيب قوله ربك قوله الذى خلق (الجواب) كأن العبد يقول ما الدليل على انك ربى فيقول لانك كنت بذاتك وصفاتك معدوما ثم صرت موجودا فلابد لك فى ذاتك وصفاتك من خالق وهذا الخلق والايجاد تربية فدل ذلك على انى ربك وأنت مربوبى ❊ اما قوله تعالى (الذى خلق خلق الانسان من علق) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير هذه الآية ثلاثة اوجه (احدها) ان يكون قوله الذى خلق لايقدر له مفعول ويكون المعنى الذى حصل منه الخلق واستأثر به لاخالق سواه (والثانى) ان يقدر له مفعول ويكون المعنى إنه الذى خلق كل شئ فيتناول كل مخلوق لانه مطلق فليس حمله على البعض اولى من حمله على الباقى كقولنا الله اكبر اى من كل شئ ثم قوله بعد ذلك خلق الانسان من علق تخصيصا للانسان بالذكر من بين جملة المخلوقات امالان التنزيل اليه اولانه اشرف ماعلى وجه الارض (والثالث) ان يكون قوله اقرأ باسم ربك الذى خلق مبهما ثم فسره بقوله خلق الانسان من علق تفخيما لخلق الانسان ودلالة على عجيب فطرته (المسئلة الثانية) احتج الاصحاب بهذه الآية على انه لاخالق غير الله تعالى قالوا لانه سبحانه جعل الخالقية صفة مميزة لذات الله تعالى عن سائر الذوات وكل صفة هذا شأنها فانه يستحيل وقوع الشركة فيها قالوا وبهذا الطريق عرفنا ان خاصية الالهية هى القدرة على الاختراع ومما يؤكد ذلك ان فرعون لما طلب حقيقة الاله فقال ومارب العالمين قال موسى ربكم ورب آبائكم الاولين والربوبية اشارة الى الخالقية التى ذكرها ههنا وكل ذلك يدل على قولنا (المسئلة الثالثة) اتفق المتكلمون على ان اول الواجبات معرفة الله تعالى او النظر فى معرفة الله او القصد الى ذلك النظر على الاختلاف المشهور فيما بينهم ثم ان الحكيم سبحانه لما أراد ان يبعثه رسولا الى المشركين لو قال له اقرأ باسم ربك الذى لاشريك له لأبوا ان يقبلوا ذلك منه لكنه تعالى قدم فى ذلك مقدمة تلجئهم الى الاعتراف به كما يحكى ان زفر لما بعثه ابو حنيفة الى البصرة لتقرير مذهبه فلما ذكر أباحنيفة زيفوه ولم يلتفتوا اليه فرجع الى ابى حنيفة واخبره بذلك فقال

الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام منه تعالى والتنبيه على ان من قدر على خلق الانسان على ماهو عليه من الحياة ومايتبعها من الكمالات العلية والعملية من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلا عن سائر الكمالات قادر على تعليم القراءة للحى العالم المتكلم اى الذى انشأ الخلق واستأثر به او خلق كل شئ وقوله تعالى (خلق الانسان) على الاول تخصيص لخلق الانسان بالذكر من بين سائر المخلوقات لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير وعلى الثانى افراد للانسان من بين سائر المخلوقات بالبيان وتفخيم لشأنه اذ هو اشرفهم واليه التنزيل وهو المأمور بالقراءة ويجوز ان يراد بالفعل الاول ايضا خلق الانسان ويقصد بتجريده عن المفعول الابهام ثم التفسير روما لتفخيم فطرته وقوله تعالى (من علق) اى دم جامد لبيان كمال قدرته تعالى باظهار

انك لم تعرف طريق التبليغ لكن ارجع اليهم واذكر في المسئلة اقاويل أئمتهم ثم بين ضعفها ثم قل بعد ذلك ههنا قول آخر واذكر قولي وحجتي فاذا تمكن ذلك في قلبهم فقل هذا قول أبي حنيفة لانهم حينئذ يستحيون فلا يردون فكذا ههنا ان الحق سبحانه يقول ان هؤلاء عباد الاوثان فلو اثنيت علي وأعرضت عن الاوثان لأبوا ذلك لكن اذكرلهم انهم هم الذين خلقوا من العلقة فلا يمكنهم انكاره ثم قل ولا بد للفعل من فاعل فلا يمكنهم ان يضيفوا ذلك الى الوثن لعلمهم بأنهم نحتوه فبهذا التدريج يقرون بأني أنا المستحق للثناء دون الاوثان كما قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ثم لما صارت الالهية موقوفة على الخالقية حصل القطع بأن من لم يخلق لم يكن الها فلهذا قال تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق ودلت الآية على ان القول بالطبع باطل لان المؤثر فيه ان كان حادثا افتقر الى مؤثر آخر وان كان قديما فاما ان يكون موجبا او قادرا فان كان موجبا لزم ان يقارنه الاثر فلم يبق الا انه مختار وهو عالم لان التغير حصل على الترتيب الموافق للمصلحة (المسئلة الرابعة) انما قال من علق على الجمع لان الانسان في معنى الجمع كقوله ان الانسان لفي خسر * اما قوله تعالى (اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم اقرأ اولا لنفسك والثاني للتبليغ او الاول للتعلم من جبريل والثاني للتعليم او اقرأ في صلاتك والثاني خارج صلاتك (المسئلة الثانية) الكرم افادة ماينبغي لا لعوض فمن يهب السكين ممن يقتل به نفسه فهو ليس بكريم ومن اعطى ثم طلب عوضا فهو ليس بكريم وليس يجب ان يكون العوض عينا بل المدح والثواب والتخلص عن المذمة كله عوض ولهذا قال اصحابنا انه تعالى يستحيل ان يفعل فعلا لغرض لانه لو فعل فعلا لغرض لكان حصول ذلك الغرض اولى له من لا حصوله فحينئذ يستفيد بفعل ذلك الشئ حصول تلك الاولوية ولولم يفعل ذلك الفعل لما كان يحصل له تلك الاولوية فيكون ناقصا بذاته مستكملا بغيره وذلك محال ثم ذكروا في بيان اكرميته تعالى وجوها (احدها) انه كم من كريم يحلم وقت الجناية لكن لا يبقى احسانه على الوجه الذى كان قبل الجناية وهو تعالى اكرم لانه يزيد باحسانه بعد الجناية ومنه قول القائل

متى زدت تقصيرا تزدلي تفضلا * كأني بالتقصير استوجب الفضلا

(وثانيها) انك كريم لكن ربك اكرم وكيف لا وكل كريم ينال بكرمه نفعا امامدحا وثوابا او يدفع ضررا اما أنا فالاكرم اذلا افعله الا لمحض الكرم (وثالثها) انه الاكرم لان له الابتداء في كل كرم واحسان وكرمه غير مشوب بالتقصير (ورابعها) يحتمل ان يكون هذا حثا على القراءة اى هو الاكرم لانه يجازيك بكل حرف عشرا او حثا على الاخلاص اى لا تقرأ لطمع ولكن لأجلي ودع على أمرك فأنا اكرم من ان لا أعطيك مالا يخطر ببالك ويحتمل ان المعنى تجرد لدعوة الخلق ولا تخف احدا فأنا اكرم من ان آمرك بهذا

(التكليف)

مابين حالته الاولى والآخرة من التباين البين وايراده بلفظ الجمع بناء على ان الانسان في معنى الجمع لمراعاة الفواصل ولعله هو السر في تخصيصه بالذكر من بين سائر اطوار الفطرة الانسانية مع كون النطفة والتراب أدل منه على كمال القدرة لكونهما ابعد منه بالنسبة الى الانسانية ولما كان خلق الانسان اول النعم الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام منه تعالى واقدم الدلائل الدالة على وجوده عز وجل وكمال قدرته وعلمه وحكمته وصف ذاته تعالى بذلك اولا ليستشهد عليه السلام به على تمكينه تعالى له من القراءة ثم كرر الامر بقوله تعالى (اقرأ) اى افعل ما امرت به تأكيدا للايجاب وتمهيدا لما يعقبه من قوله تعالى (وربك الاكرم) الخ فانه كلام مستأنف وارد لازاحة ما بينه عليه السلام من العذر بقوله عليه السلام ما انا بقارئ يريد ان القراءة شأن من يكتب ويقرأ وانا امي فقيل له وربك الذى امرك بالقراءة

التكليف الشاق ثم لا انصرك (المسئلة الثالثة) انه سبحانه وصف نفسه بانه خلق الانسان من علق وثانيا بأنه الذى علم بالقلم ولا مناسبة فى الظاهر بين الامرين لكن التحقيق ان اول احوال الانسان كونه علقة وهى اخس الاشياء وآخر أمره هو صيرورته عالما بحقائق الاشياء وهو اشرف مراتب المخلوقات فكأنه تعالى يقول انتقلت من أخس المراتب الى اعلى المراتب فلابدلك من مدبر مقدر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة الى هذه الحالة الشريفة ثم فيه تنبيه على ان العلم اشرف الصفات الانسانية كأنه تعالى يقول الايجاد والاحياء والاقدار والرزق كرم وربوبية أما الاكرم هو الذى اعطاك العلم لان العلم هو النهاية فى الشرف (المسئلة الرابعة) قوله باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اشارة الى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة وقوله الذى علم بالقلم اشارة الى الاحكام المكتوبة التى لاسبيل الى معرفتها الا بالسمع فالاول كأنه اشارة الى معرفة الربوبية والثانى الى النبوة وقدم الاول على الثانى تنبيها على ان معرفة الربوبية غنية عن النبوة واما النبوة فانها محتاجة الى معرفة الربوبية (المسئلة الخامسة) فى قوله علم بالقلم وجهان (احدهما) ان المراد من القلم الكتابة التى تعرف بها الامور الغائبة وجعل القلم كناية عنها (الثانى) ان المراد علم الانسان الكتابة بالقلم وكلا القولين متقارب اذ المراد التنبيه على فضيلة الكتابة يروى ان سليمان عليه السلام سأل عفريتا عن الكلام فقال ريح لايبقى قال فما قيده قال الكتابة فالقلم صياد يصيد العلوم يبكى ويضحك بركوعه تسجد الانام وبحركته تبقى العلوم على مر الليالى والايام نظيره قول زكريا اذ نادى ربه نداء خفيا اخفى واسمع فكذا القلم لاينطق ثم يسمع الشرق والغرب فسبحانه من قادر بسوادها جعل الدين منورا كما انه جعلك بالسواد مبصرا فالقلم قوام الانسان والانسان قوام العين ولا تقل القلم نائب اللسان فان القلم ينوب عن اللسان واللسان لاينوب عن القلم التراب طهور ولو الى عشر حجج والقلم بدل ولو الى المشرق والمغرب ❊ أما قوله تعالى (علم الانسان مالم يعلم) فيحتمل ان يكون المراد علمه بالقلم وعلمه ايضا غير ذلك ولم يذكروا و النسق وقد يجرى مثل هذا فى الكلام تقول اكرمتك احسنت اليك ملكتك الاموال وليتك الولايات ويحتمل ان يكون المراد من اللفظين واحدا ويكون المعنى علم الانسان بالقلم مالم يعلمه فيكون قوله علم الانسان مالم يعلم بيانا لقوله علم بالقلم ❊ ثم قال تعالى (كلا ان الانسان ليطغى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اكثر المفسرين على ان المراد من الانسان ههنا انسان واحد وهو ابو جهل ثم منهم من قال نزلت السورة من ههنا الى آخرها فى ابى جهل وقيل نزلت من قوله أرأيت الذى ينهى عبدا الى آخر السورة فى ابى جهل قال ابن عباس كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى فجاء ابو جهل فقال الم انهك عن هذا فزبره النبى صلى الله عليه وسلم فقال أبو جهل والله انك لتعلم بانى اكثر أهل الوادى ناديا فأنزل الله تعالى فليدع ناديه سندع الزبانية قال ابن عباس والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله فكأنه تعالى لما

مبتدئا باسمه هو الاكرام (الذى علم بالقلم) اى علم ماعلم بواسطة القلم لاغيره فكما علم القارئ بواسطة الكتابة والقلم يعلمك بدونهما وقوله تعالى (علم الانسان مالم يعلم) بدل اشتمال من علم بالقلم اى علمه به وبدونه من الامور الكلية والجزئية والجلية والخفية مالم يخطر بباله وفى حذف المفعول اولا وايراده بعنوان عدم المعلومية ثانيا من الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمال كرمه والاشعار بانه تعالى يعلمه من العلوم مالا تحيط به العقول مالا يخفى (كلا) ردع لمن كفر بنعمة الله تعالى بطغيانه وان لم يسبق ذكره للمبالغة فى الزجر وقوله تعالى (ان الانسان ليطغى) اى ليجاوز الحد ويستكبر على ربه بيان للمردوع والمردوع عنه قيل هذا الى آخر السورة نزل فى ابى جهل بعد زمان وهو الظاهر وقوله تعالى (أن رآه استغنى) مفعول له اى يطغى لان رأى نفسه مستغنيا على ان استغنى مفعول ثان لرأى لانه بمعنى علم ولذلك ساغ كون

عرفه انه مخلوق من علق فلا يليق به التكبر فهو عند ذلك ازداد طغيانا وتعززا بماله ورياسته في مكة ويروى انه قال ليس بمكة اكرم مني ولعله لعنه الله قال ذلك ردا لقوله وربك الاكرم ثم القائلون بهذا القول منهم من زعم انه ليست هذه السورة من اوائل مانزل ومنهم من قال يحتمل ان يكون خمس آيات من اول السورة نزلت اولا ثم نزلت البقية بعد ذلك في شأن ابي جهل ثم أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بضم ذلك الى اول السورة لان تأليف الآيات انما كان بأمر الله تعالى ألا ترى ان قوله تعالى واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله آخر مانزل عند المفسرين ثم هو مضموم الى مانزل قبله بزمان طويل (القول الثاني) ان المراد من الانسان المذكور في هذه الآية جملة الانسان (والقول الاول) وان كان اظهر بحسب الروايات الا ان هذا القول اقرب بحسب الظاهر لانه تعالى بين ان الله سبحانه مع انه خلقه من علقة وانعم عليه بالنعم التي قدمنا ذكرها اذا اغناه وزاد في النعمة عليه فانه يطغى ويتجاوز الحد في المعاصي واتباع هوى النفس وذلك وعيد وزجر عن هذه الطريقة ثم انه تعالى اكد هذا الزجر بقوله ان الى ربك الرجعى اى الى حيث لامالك سواه فتقع المحاسبة على ماكان منه من العمل والمؤاخذة بحسب ذلك (المسئلة الثانية) قوله كلا فيه وجوه (احدها) انه ردع وزجر لمن كفر بنعمة الله بطغيانه وان لم يذكر لدلالة الكلام عليه (وثانيها) قال مقاتل كلا لايعلم الانسان ان الله هو الذي خلقه من العلقة وعلمه بعد الجهل وذلك لانه عند صيرورته غنيا يطغى ويتكبر ويصير مستغرق القلب في حب الدنيا فلا يتفكر في هذه الاحوال ولا يتأمل فيها (وثالثها) ذكر الجرجاني صاحب النظم ان كلا ههنا بمعنى حقا لانه ليس قبله ولا بعده شيء تكون كلا ردا له وهذا كما قالوه في كلا والقمر فانهم زعموا انه بمعنى اى والقمر (المسئلة الثالثة) الطغيان هو التكبر والتمرد وتحقيق الكلام في هذه الآية ان الله تعالى لما ذكر في مقدمة السورة دلائل ظاهرة على التوحيد والقدرة والحكمة بحيث يبعد من العاقل ان لايطلع عليها ولا يقف على حقائقها أتبعها بما هو السبب الاصلي في الغفلة عنها وهو حب الدنيا والاشتغال بالمال والجاه والثروة والقدرة فانه لاسبب لعمى القلب في الحقيقة الا ذلك فان قيل ان فرعون ادعى الربوبية فقال الله تعالى في حقه اذهب الى فرعون انه طغى وههنا ذكر في ابي جهل ليطغى فأكده بهذه اللام فالسبب في هذه الزيادة قلنا فيه وجوه (احدها) انه قال لموسى اذهب الى فرعون انه طغى وذلك قبل ان يلقاه موسى وقبل ان يعرض عليه الادلة وقبل ان يدعي الربوبية واما ههنا فانه تعالى ذكر هذه الآية تسلية لرسوله حين ردعليه أقبح الرد (وثانيها) ان فرعون مع كمال سلطنته ما كان يزيد كفره على القول وما كان ليتعرض لقتل موسى عليه السلام ولا لايذائه وأما ابوجهل فهو مع قلة جاهه كان يقصد قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وايذاءه (وثالثها) أن فرعون احسن الى موسى اولا وقال آخرا آمنت وأما ابو جهل فكان يحسد النبي في صباه وقال في آخر رمقه بلغوا عني

(محمدا)

فاعله ومفعوله ضميري واحد كما في علمتني وان جوزه بعضهم في الرؤية البصرية ايضا وجعل من ذلك قول عائشة رضي الله عنها لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام الا الاسودان وتعليل طغيانه برؤيته لابنفس الاستغناء كما ينبئ عنه قوله تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض للايذان بان مدار طغيانه زعمه الفاسد روى ان اباجهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتزعم ان من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهبا لعلنا نأخذ منها فنطغى فندفع دينا ونتبع دينك فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال ان شئت فعلنا ذلك ثم ان لم يؤمنوا فعلنا بهم مافعلنا باصحاب المائدة فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء ابقاء عليهم

محمدا انى أموت ولأحد ابغض الى منه (ورابعها) انهما وان كانا رسولين لكن الحبيب فى مقابلة الكليم كاليد فى مقابلة العين والعاقل يصون عينه فوق مايصون يده بل يصون عينه باليد فلهذا السبب كانت المبالغة ههنا اكثر ❊ أما قوله تعالى (أن رآه استغنى) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الاخفش لان رآه فحذف اللام كما يقال انكم لتطغون ان رأيتم غناكم (المسئلة الثانية) قال الفراء انما قال أن رآه ولم يقل رأى نفسه كما يقال قتل نفسه لان رأى من الافعال التى تستدعى اسما وخبرا نحو الظن والحسبان والعرب تطرح النفس من هذا الجنس فتقول رأيتنى وظننتنى وحسبتنى فقوله ان آراه استغنى من هذا الباب (المسئلة الثالثة) فى قوله استغنى وجهان (أحدهما) استغنى بماله عن ربه والمراد من الآية ليس هو الاول لان الانسان قد ينال الثروة فلا يزيد الا تواضعا كسليمان عليه السلام فانه كان يجالس المساكين ويقول مسكين جالس مسكينا وعبد الرحمن بن عوف ماطغى مع كثرة أمواله بل العاقل يعلم انه عند الغنى يكون أكثر حاجة الى الله تعالى منه حال فقره لانه فى حال فقره لا يتمنى الاسلامة نفسه واما فى حال الغنى فانه يتمنى سلامة نفسه وماله ومماليكه (وفى الآية وجه ثالث) وهو ان سين استغنى سين الطلب والمعنى ان الانسان رأى ان نفسه انما نالت الغنى لانها طلبته وبذلت الجهد فى الطلب فنالت الثروة والغنى بسبب ذلك الجهد لانه نالها باعطاء الله وتوفيقه وهذا جهل وحمق فكم من باذل وسعه فى الحرص والطلب وهو يموت جوعا ثم ترى أكثر الاغنياء فى الآخرة يصيرون مدبرين خائفين يريهم الله ان ذلك الغنى ماكان بفعلهم وقوتهم (المسئلة الرابعة) اول السورة يدل على مدح العلم وآخرها على مذمة المال وكفى بذلك مرغبا فى الدين والعلم ومنفرا عن الدنيا والمال ❊ ثم قال تعالى (ان الى ربك الرجعى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا الكلام واقع على طريقة الالتفات الى الانسان تهديدا له وتحذيرا من عاقبة الطغيان (المسئلة الثانية) الرجعى المرجع والرجوع وهى بأجمعها مصادر يقال رجع اليه رجوعا ومرجعا ورجعى على وزن فعلى وفى معنى الآية وجهان (احدهما) انه يرى ثواب طاعته وعقاب تمرده وتكبره وطغيانه ونظيره قوله ولاتحسبن الله غافلا الى قوله انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار وهذه الموعظة لاتؤثر الا فى قلب من له قدم صدق اما الجاهل فيغضب ولايعتقد الا الفرح العاجل (والقول الثانى) انه تعالى يرده ويرجعه الى النقصان والفقر والموت كما رده من النقصان الى الكمال حيث نقله من الجمادية الى الحياة ومن الفقر الى الغنى ومن الذل الى العز فاهذا التعزز والقوة (المسئلة الثالثة) روى ان أبا جهل قال للرسول عليه الصلاة والسلام أتزعم ان من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة ذهبا وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك فنزل جبريل وقال ان شئت فعلنا ذلك ثم ان لم يؤمنوا فعلنا بهم مثل مافعلناه بأصحاب المائدة فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء ابقاء عليهم

وقوله تعالى (ان الى ربك الرجعى) تهديد للطاغى وتحذير له من عاقبة الطغيان والالتفات للتشديد فى التهديد والرجعى مصدر بمعنى الرجوع كالبشرى وتقديم الجار والمجرور عليه لقصره عليه اى ان الى مالك امرك رجوع الكل بالموت والبعث لا الى غيره استقلالا ولا اشتراكا فسترى حينئذ عاقبة طغيانك وقوله تعالى (أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى) تقبيح وتشنيع لحاله وتعجيب منها وايذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يجب ان يراها كل من يتأتى منه الرؤية ويقضى منها العجب روى ان ابا جهل قال فى ملأ من طغاة قريش لئن رأيت محمدا يصلى لاطأن عنقه فرآه عليه السلام فى الصلاة فجاءه ثم نكص على عقبيه فقالوا مالك قال ان بينى وبينه لخندقا من نار وهولا واجنحة فنزلت ولفظ العبد وتنكيره لتفخيمه عليه السلام واستعظام النهى وتأكيد التعجب منه والرؤية ههنا بصرية واما مافى قوله تعالى (ارأيت ان كان على

※ قوله تعالى (أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) روى عن أبي جهل لعنه الله انه قال هل يعفر محمد وجهه بين اظهركم قالوا نعم قال فو الذى يحلف به لئن رأيته لأطأن عنقه ثم انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فنكص على عقبيه فقالوا له مالك يا أبا الحكم فقال ان بينى وبينه لخندقا من نار وهولا شديدا وعن الحسن ان امية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة واعلم ان ظاهر الآية ان المراد فى هذه الآية هو الانسان المتقدم ذكره فلذلك قالوا انه ورد فى ابى جهل وذكروا ما كان منه من التوعد لمحمد عليه السلام حين رآه يصلى ولا يمتنع ان يكون نزولها فى ابى جهل ثم يعم فى الكل لكن ما بعده يقتضى انه فى رجل بعينه (المسئلة الثانية) قوله أرأيت خطاب مع الرسول على سبيل التعجب ووجه التعجب فيه أمور (أحدها) انه عليه السلام قال اللهم اعز الاسلام اما بأبى جهل بن هشام او بعمر فكأنه تعالى قال له كنت تظن انه يعزبه الاسلام امثله يعزبه الاسلام وهو ينهى عبدا اذا صلى (وثانيها) انه كان يلقب بأبى الحكم فكأنه تعالى يقول كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه أيوصف بالحكمة من يمنع عن طاعة الرحمن ويسجد للاوثان (وثالثها) ان ذلك الاحمق يأمر وينهى ويعتقد انه يجب على الغير طاعته مع انه ليس بخالق ولارب ثم انه ينهى عن طاعة الرب والخالق ألا يكون هذا غاية الحماقة (المسئلة الثالثة) قال ينهى عبدا ولم يقل ينهاك وفيه فوائد (احدها) ان التنكير فى عبدا يدل على كونه كاملا فى العبودية كأنه يقول انه عبد لايفى العالم بشرح بيانه وصفة اخلاصه فى عبوديته (يروى فى هذا المعنى) ان يهوديا من فصحاء اليهود جاء الى عمر فى ايام خلافته فقال اخبرنى عن اخلاق رسولكم فقال عمر اطلبه من بلال فهو اعلم به منى ثم ان بلالا دله على فاطمة ثم فاطمة دلته على على عليه السلام فلما سأل عليا عنه قال صف لى متاع الدنيا حتى أصف لك اخلاقه فقال الرجل هذا لا يتيسر لى فقال على عجزت عن وصف متاع الدنيا وقد شهد الله على قلته حيث قال قل متاع الدنيا قليل فكيف أصف اخلاق النبى وقد شهد الله تعالى بأنه عظيم حيث قال وانك لعلى خلق عظيم فكأنه تعالى قال ينهى اشد الخلق عبودية عن العبودية وذلك عين الجهل والحمق (وثانيها) ان هذا ابلغ فى الذم لان المعنى ان هذا دأبه وعادته فينهى كل من يرى (وثالثها) ان هذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة (روى) عن على عليه السلام انه رأى فى المصلى اقواما يصلون قبل صلاة العيد فقال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فقيل له ألا تنهاهم فقال اخشى ان ادخل تحت قوله أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى فلم يصرح بالنهى عن الصلاة واخذ ابو حنيفة منه هذا الادب الجميل حين قال له ابو يوسف أيقول المصلى حين يرفع رأسه من الركوع اللهم اغفر لى قال يقول ربنا لك الحمد ويسجد ولم يصرح بالنهى (ورابعها) أيظن ابو جهل انه لو لم يسجد محمد لى لا أجد ساجدا غيره ان محمدا عبد واحد ولى من الملائكة المقربين

(مالا)

الهدى او أمر بالتقوى) وما فى قوله تعالى (أرأيت ان كذب وتولى) فقلبية معناه اخبرنى فان الرؤية لما كانت سببا للاخبار عن المرئى اجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها والخطاب لكل من صلح للخطاب ونظم الامر والتكذيب والتولى فى سلك الشرط المتردد بين الوقوع وعدمه ليس باعتبار نفس الافعال المذكورة من حيث صدورها عن الفاعل فان ذلك ليس فى حيز التردد اصلا بل باعتبار اوصافها التى هى كونها امرا بالتقوى وتكذيبا وتوليا كما فى قوله تعالى قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به كما مر والمفعول الاول لأرأيت محذوف وهو ضمير يعود الى الموصول او اسم اشارة يشار به اليه ومفعوله الثانى سد مسده الجملة الشرطية بجوابها المحذوف فان المفعول الثانى لأرأيت لا يكون الا جملة استفهامية او قسمية والمعنى اخبرنى ذلك الناهى ان كان على الهدى فيما ينهى عنه من عبادة

مالا يحصيهم الا الله وهم دائما في الصلاة والتسبيح (وخامسها) انه تفخيم لشأن النبي يقول انه مع التنكير معرف نظيره الكناية في سورة القدر جلت على القرآن ولم يسبق له ذكر أسرى بعبده انزل على عبده وانه لما قام عبد الله ❊ ثم قال تعالى (أرأيت ان كان على الهدى اوأمر بالتقوى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله أرأيت خطاب لمن فيه وجهان (الاول) انه خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والدليل عليه ان الاول وهو قوله أرأيت الذي ينهى عبدا النبي صلى الله عليه وسلم (والثاني) وهو قوله أرأيت ان كذب وتولى للنبي عليه الصلاة والسلام فلو جعلنا الوسط لغير النبي لخرج الكلام عن النظم الحسن يقول الله تعالى يا محمد أرأيت ان كان هذا الكافر ولم يقل لو كان اشارة الى المستقبل كأنه يقول أرأيت ان صار على الهدى واشتغل بأمر نفسه اما كان يليق به ذلك اذ هو رجل عاقل ذو ثروة فلو اختار الدين والهدى والامر بالتقوى أما كان ذلك خيرا له من الكفر بالله والنهي عن خدمته وطاعته كأنه تعالى يقول تلهف عليه كيف فوت على نفسه المراتب العالية وقنع بالمراتب الدنيئة (القول الثاني) انه خطاب للكافر لان الله تعالى كالمشاهد للظالم والمظلوم وكالمولى الذي قام بين يديه عبدان وكالحاكم الذي حضر عنده المدعي والمدعى عليه فخاطب هذا مرة وهذا مرة فلما قال للنبي أرأيت الذي ينهى عبدا اذا صلى التفت بعد ذلك الى الكافر فقال أرأيت يا كافر ان كانت صلاته هدى ودعاؤه الى الله امرا بالتقوى أتنهاه مع ذلك (المسئلة الثانية) ههنا سؤال وهو ان المذكور في اول الآية هو الصلاة وهو قوله أرأيت الذي ينهى عبدا اذا صلى والمذكور ههنا أمران وهو قوله أرأيت ان كان على الهدى في فعل الصلاة فلم ضم اليه شيئا ثانيا وهو قوله اوأمر بالتقوى جوابه من وجوه (احدها) ان الذي شق على أبي جهل من افعال الرسول عليه الصلاة والسلام هو هذان الامران الصلاة والدعاء الى الله فلاجرم ذكرهما ههنا (وثانيها) ان النبي عليه الصلاة والسلام كان لا يوجد الا في أحد أمرين اما في اصلاح نفسه وذلك بفعل الصلاة او في اصلاح غيره وذلك بالامر بالتقوى (وثالثها) انه عليه السلام كان في صلاته على الهدى وآمرا بالتقوى لان كل من رآه وهو في الصلاة كان يرق قلبه فيميل الى الايمان فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل وهو أقوى من الدعوة بلسان القول ❊ ثم قال تعالى (أرأيت ان كذب وتولى) وفيه قولان (القول الاول) انه خطاب مع الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك لان الدلائل التي ذكرها في اول هذه السورة جلية ظاهرة وكل أحد يعلم ببديهة عقله ان منع العبد من خدمة مولاه فعل باطل وسفه ظاهر فاذن كل من كذب تلك الدلائل وتولى عن خدمة مولاه بل منع غيره عن خدمة مولاه يعلم بعقله السليم انه على الباطل وانه لا يفعل ذلك الا عنادا فلهذا قال تعالى لرسوله أرأيت يا محمد ان كذب هذا الكافر بتلك الدلائل الواضحة وتولى عن خدمة خالقه ألم يعلم بعقله ان الله يرى منه هذه الاعمال القبيحة ويعلمها أفلا يزجره ذلك من هذه الاعمال القبيحة (والثاني) انه خطاب

الله تعالى اوآمرا بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الاوثان كما يعتقده اومكذبا للحق معرضا عن الصواب كما نقول نحن (الم يعلم بأن الله يرى) اى يطلع على احواله فيجازيه بها حتى اجترأ على ما فعل وانما افرد التكذيب والتولي بشرطية مستقلة مقرونة بالجواب مصدرة باستخبار مستأنف ولم ينظمها في سلك الشرط الاول بعطفهما على كان للايذان باستقلالهما بالوقوع في نفس الامر وباستتباع الوعيد الذي ينطق به الجواب واما القسم الاول فأمر مستحيل قد ذكر في حيز الشرط لتوسيع الدائرة وهو السر في تجريد الشرطية الاولى عن الجواب والاحالة به على جواب الثانية هذا وقد قيل ارأيت الاول بمعنى اخبرني مفعوله الاول الموصول ومفعوله الثاني الشرطية الاولى بجوابها المحذوف لدلالة جواب الشرطية الثانية عليه وأرأيت في الموضعين تكرير للتأكيد ومعناه اخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته ان كان

لا كافر والمعنى ان كان يا كافر محمد كاذبا او متوليا ألا يعلم بأن الله يرى حتى ينتهى بل احتاج الى نهيك ※ اما قوله تعالى (ألم يعلم بأن الله يرى) ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المقصود من الآية التهديد بالحشر والنشر والمعنى انه تعالى عالم بجميع المعلومات حكيم لا يهمل عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء فلا بد وان يوصل جزاء كل احد اليه بتمامه فيكون هذا تخويفا شديدا للعصاة وترغيبا عظيما لأهل الطاعة (المسئلة الثانية) هذه الآية وان نزلت فى حق ابى جهل فكل من نهى عن طاعة الله فهو شريك ابى جهل فى هذا الوعيد ولا يرد عليه المنع من الصلاة فى الدار المغصوبة والاوقات المكروهة لان المنهى عنه غير الصلاة وهو المعصية ولا يرد المولى يمنع عبده عن قيام الليل وصوم التطوع وزوجته عن الاعتكاف لان ذلك لاستيفاء مصلحته باذن ربه لا بغضا لعبادة ربه ※ ثم قال تعالى (كلا) وفيه وجوه (احدها) انه ردع لابى جهل ومنع له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات (وثانيها) كلا لن يصل ابو جهل الى ما يقول انه يقتل محمدا او يطأ عنقه بل تلميذ محمد هو الذى يقتله ويطأ صدره (وثالثها) قال مقاتل كلا لا يعلم ان الله يرى وان كان يعلم لكن اذا كان لا ينتفع بما يعلم فكأنه لا يعلم ※ ثم قال تعالى (لئن لم ينته) أى عما هو فيه (لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله لنسفعا وجوه (احدها) لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها الى النار والسفع القبض على الشئ وجذبه بشدة وهو كقوله فيؤخذ بالنواصى والاقدام (وثانيها) السفع الضرب اى لنلطمن وجهه (وثالثها) لنسودن وجهه قال الخليل تقول للشئ اذا لفحته النار لفحا يسيرا يغير لون البشرة قد سفعته النار قال والسفع ثلاثة أحجار يوضع عليها القدر سميت بذلك لسوادها قال والسفعة سواد فى الخدين وبالجملة فتسويد الوجه علامة الاذلال والاهانة (ورابعها) لنسمنه كما قال ابن عباس فى قوله سنسمه على الخرطوم انه ابو جهل (وخامسها) لنذلنه (المسئلة الثانية) قرئ لنسفعن بالنون المشددة اى الفاعل لهذا الفعل هو الله والملائكة كما قال فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين وقرأ ابن مسعود لأسفعن اى يقول الله تعالى يا محمد أنا الذى اتولى اهانته نظيره هو الذى ايدك هو الذى أنزل السكينة (المسئلة الثالثة) هذا السفع يحتمل ان يكون المراد منه الى النار فى الآخرة وأن يكون المراد منه فى الدنيا وهذا أيضا على وجوه (احدها) ماروى أن أبا جهل لما قال ان رأيته يصلى لأطأن عنقه فأنزل الله تعالى هذه السورة وأمره جبريل عليه السلام بأن يقرأها على أبى جهل ويخر لله ساجدا فى آخرها ففعل فعدا اليه أبو جهل ليطأ عنقه فلما دنا منه نكص على عقبيه راجعا فقيل له مالك قال ان بينى وبينه لخلا فاغرا فاه لو مشيت اليه لالتقمنى وقيل كان جبريل وميكائيل عليهما السلام على كتفيه فى صورة الاسد (والثانى) ان يكون المراد يوم بدر فيكون ذلك بشارة بأنه تعالى يمكن المسلمين من ناصيته حتى يجرونه الى القتل اذا عاد الى النهى فلما عاد لاجرم مكنهم الله

ذلك الناهى على طريقة سديدة فيما ينهى عن عبادة الله تعالى او كان آمرا بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقده وكذلك ان كان على التكذيب للحق والتولى عن الدين الصحيح كما نقول نحن الم يعلم بأن الله يرى ويطلع على احواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك فتأمل وقيل المعنى أرأيت الذى ينهى عبدا يصلى والمنهى على الهدى آمر بالتقوى والناهى مكذب متول فما اعجب من ذا وقيل الخطاب الثانى للكافر فانه تعالى كالحاكم الذى حضره الخصمان يخاطب هذا مرة والآخر اخرى وكأنه قال يا كافر اخبرنى ان كان صلاته هدى ودعاؤه الى الله تعالى امرا بالتقوى أتنهاه وقيل هو امية ابن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة (كلا) ردع للناهى اللعين وخسوء له واللام فى قوله تعالى (لئن لم ينته) موطئة للقسم اى والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر (لنسفعا بالناصية) لنأخذن

تعالى من ناصيته يوم بدر روى انه لما نزلت سورة الرحمن علم القرآن قال عليه السلام لأصحابه من يقرؤها منكم على رؤساء قريش فتثاقلوا مخافة أذيتهم فقام ابن مسعود وقال انا يارسول الله فاجلسه عليه السلام ثم قال من يقرؤها عليهم فلم يقم الا ابن مسعود ثم ثالثا كذلك الى ان أذن له وكان عليه السلام يبقى عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر جثته ثم انه وصل اليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة فافتتح قراءة السورة فقام ابوجهل فلطمه فشق اذنه وأدماه فانصرف وعينه تدمع فلما رآه النبي عليه السلام رق قلبه واطرق رأسه مغموما فاذا جبريل عليه السلام يجيء ضاحكا مستبشرا فقال ياجبريل تضحك وابن مسعود يبكي فقال ستعلم فلما ظفر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود ان يكون له حظ في الجهاد فقال عليه السلام خذ رمحك والتمس في الجرحى من كان به رمق فاقتله فانك تنال ثواب المجاهدين فأخذ يطالع القتلى فاذا ابوجهل مصروع يخور فخاف ان تكون به قوة فيؤذيه فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه ولعل هذا معنى قوله سنسمه على الخرطوم ثم لما عرف عجزه ولم يقدر ان يصعد على صدره لضعفه فارتقى اليه بحيلة فلما رآه ابوجهل قال يارويعي الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعبا فقال ابن مسعود الاسلام يعلو ولا يعلى عليه فقال له ابوجهل بلغ صاحبك انه لم يكن احد ابغض الي منه في حياتي ولا احد ابغض الي منه في حال مماتي فروى انه عليه السلام لما سمع ذلك قال فرعوني اشد من فرعون موسى فانه قال آمنت وهو قد زاد عتوا ثم قال لابن مسعود اقطع رأسي بسيفي هذا لانه أحد واقطع فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله ولعل الحكيم سبحانه انما خلقه ضعيفا لاجل ان لا يقوى على الحمل لوجوه (احدها) انه كلب والكلب يجر (والثاني) لشق الاذن فيقتص الاذن بالاذن (والثالث) لتحقق الوعيد المذكور بقوله لنسفعا بالناصية فتجر تلك الرأس على مقدمها ثم ان ابن مسعود لما لم يطقه شق اذنه وجعل الخيط فيه وجعل يجره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل بين يديه يضحك ويقول يامحمد أذن باذن لكن الرأس ههنا مع الاذن فهذا ماروى في مقتل ابي جهل نقلته معنى لا لفظا وهو معنى قوله لنسفعا بالناصية (المسئلة الرابعة) الناصية شعر الجبهة وقد يسمى مكان الشعر ناصية ثم انه تعالى كنى ههنا على الوجه والرأس بالناصية ولعل السبب فيه ان اباجهل كان شديد الاهتمام بترجيل تلك الناصية وتطييبها وربما كان يهتم ايضا بتسويدها فأخبره الله تعالى انه يسودها مع الوجه (المسئلة الخامسة) انه تعالى عرف الناصية بحرف التعريف كأنه تعالى يقول الناصية المعروفة عندكم ذاتها لكنها مجهولة عندكم صفاتها ناصية واى ناصية كاذبة قولا خاطئة فعلا وانما وصف بالكذب لانه كان كاذبا على الله تعالى في انه لم يرسل محمدا وكاذبا على رسوله في انه ساحر او كذاب او ليس بنبي وقيل كذبه انه قال أنا أكثر اهل هذا الوادي ناديا ووصف الناصية بأنها خاطئة لان صاحبها متمرد على الله تعالى قال الله تعالى لا يأكله الا الخاطئون والفرق بين الخاطئ والمخطئ

بناصيته ولنسحبنه بها الى النار والسفع القبض على الشيء وجذبه بعنف وشدة وقرئ لنسفعن بالنون المشددة وقرئ لاسفعن وكتبته في المصحف بالالف على حكم الوقف والاكتفاء بلام العهد عن الاضافة لظهور ان المراد ناصية المذكور (ناصية كاذبة خاطئة) بدل من الناصية وانما جاز ابدالها من المعرفة وهي نكرة لوصفها وقرئت بالرفع على هي ناصية وبالنصب وكلاهما على الذم والشتم ووصفها بالكذب والخطأ على الاسناد المجازي وهما لصاحبها وفيه من الجزالة ماليس في قولك ناصية كاذب خاطئ (فليدع ناديه) اى اهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذي ينتدى فيه القوم اى يجتمعون روى ان اباجهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فقال ألم انهك

ان الخاطئ معاقب مؤاخذ والمخطئ غير مؤاخذ ووصف الناصية بالخاطئة الكاذبة كما وصف الوجوه بأنها ناظرة فى قوله تعالى الى ربها ناظرة (المسئلة السادسة) ناصية بدل من الناصية وجاز ابدالها من المعرفة وهى نكرة لانها وصفت فاستقلت بفائدة (المسئلة السابعة) قرئ ناصية بالرفع والتقدير هى ناصية وناصية بالنصب وكلاهما على الشتم واعلم ان الرسول عليه السلام لما اغلظ فى القول لأبى جهل وتلا عليه هذه الآيات قال يا محمد بمن تهددنى وانى لأكثر هذا الوادى ناديا فافتخر بجماعته الذين كانوا يأكلون حطامه فنزل قوله تعالى (فليدع ناديه سندع الزبانية) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قدمر تفسير النادى عند قوله وتأتون فى ناديكم المنكر قال ابو عبيدة ناديه اى اهل مجلسه وبالجملة فالمراد من النادى اهل النادى ولا يسمى المكان ناديا حتى يكون فيه اهله وسمى ناديا لان القوم يندون اليه ندوا وندوة ومنه دار الندوة بمكة وكانوا يجتمعون فيها للتشاور وقيل سمى ناديا لانه مجلس الندى والجود ذكر ذلك على سبيل التهكم اى اجمع اهل الكرم والدفاع فى زعمك فينصروك (المسئلة الثانية) قال ابو عبيدة والمبرد واحد الزبانية زبنية وأصله من زبنته اذا دفعته وهو كل متمرد من انس اوجن ومثله فى المعنى والتقدير عفرية يقال فلان زبنية عفرية وقال الاخفش قال بعضهم واحدها الزبانى وقال آخرون الزابن وقال آخرون هذا من الجمع الذى لا واحد له من لفظه فى لغة العرب مثل أبابيل وعباديد وبالجملة فالمراد ملائكة العذاب ولا شك انهم مخصوصون بقوة شديدة وقال مقاتل هم خزنة جهنم ارجلهم فى الارض ورؤسهم فى السماء وقال قتادة الزبانية هم الشرط فى كلام العرب وهم الملائكة الغلاظ الشداد وملائكة النار سموا زبانية لانهم يزبنون الكفار اى يدفعونهم فى جهنم (المسئلة الثانية) فى الآية قولان (الاول) اى فليفعل ما ذكره من انه يدعو انصاره ويستعين بهم فى مباطلة محمد فانه لو فعل ذلك فنحن ندعو الزبانية الذين لا طاقة لناديه وقومه بهم قال ابن عباس لو دعا ناديه لاخذته الزبانية من ساعته معاينة وقيل هذا اخبار من الله تعالى بأنه يجر فى الدنيا كالكلب وقد فعل به ذلك يوم بدر وقيل بل هذا اخبار بأن الزبانية يجرونه فى الآخرة الى النار (القول الثانى) ان فى الآية تقديما وتأخيرا اى لنسفعا بالناصية وسندع الزبانية فى الآخرة فليدع هو ناديه حينئذ فليمنعوه (المسئلة الرابعة) الفاء فى قوله فليدع ناديه تدل على المعجز لان هذا يكون تحريضا للكافر على دعوة ناديه وقومه ومتى فعل الكافر ذلك ترتب عليه دعوة الزبانية فلما لم يجترئ الكافر على ذلك دل على ظهور معجزة الرسول (المسئلة الخامسة) قرئ ستدعى على المجهول وهذه السين ليست للشك فان عسى من الله واجب الوقوع وخصوصا عند بشارة الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ينتقم له من عدوه ولعل فائدة السين هو المراد من قوله عليه السلام لأنصرنك ولو بعد حين ※ ثم قال تعالى (كلا) وهو ردلأبى جهل وقيل معناه لن يصل الى ما يتصلف به من انه يدعو ناديه ولئن دعاهم لن ينفعوه ولن ينصروه وهو أذل واحقر من ان

(يقاومك)

فاغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اتهددنى وانا اكثر اهل الوادى ناديا فنزلت (سندع الزبانية) ليجروه الى النار والزبانية الشرط الواحد زبنية كعفرية من الزبن وهو الدفع وقيل زبنى وكأنه نسب الى الزبن ثم غير كامسى واصلها زبانى فقيل زبانية بتعويض التاء عن الياء والمراد ملائكة العذاب وعن النبى عليه السلام لو دعا ناديه لاخذته الزبانية عيانا (كلا) ردع بعد ردع وزجر اثر زجر (لاتطعه) اى دم على ما انت عليه من معاصاته (واسجد) وواظب على سجودك وصلاتك غير مكترث به (واقترب) وتقرب بذلك الى ربك

قوله هذه السين الخ لا يخفى ما فيه اه

يقاومك ويحتمل لن ينال مايتمنى من طاعتك له حين نهاك عن الصلاة وقيل معناه الالاتطعه ❊ ثم قال تعالى (لاتطعه) وهو كقوله فلاتطع المكذبين (واسجد) وعند اكثر اهل التأويل أراد به صل وتوفر على عبادة الله تعالى فعلا وابلاغا وليقل فكرك فى هذا العدو فان الله مقويك وناصرك وقال بعضهم بل المراد الخضوع وقال آخرون بل المراد نفس السجود فى الصلاة ❊ ثم قال تعالى (واقترب) والمراد وابتغ بسجودك قرب المنزلة من ربك وفى الحديث اقرب مايكون العبد من ربه اذا سجد وقال بعضهم المراد اسجد يامحمد واقترب ياابا جهل منه حتى تبصر ماينالك من اخذ الزبانية اياك فكأنه تعالى امره بالسجود ليزداد غيظ الكافر كقوله ليغيظ بهم الكفار والسبب الموجب لازدياد الغيظ هو ان الكافر كان يمنعه من القيام فيكون غيظه وغضبه عند مشاهدة السجود أتم ثم قال عند ذلك واقترب منه ياابا جهل وضع قدمك عليه فان الرجل ساجد مشغول بنفسه وهذا تهكم به واستحقار لشأنه والله أعلم

(سورة القدر خمس آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(انا انزلناه فى ليلة القدر) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اجمع المفسرون على ان المراد انا انزلنا القرآن فى ليلة القدر ولكنه تعالى ترك التصريح بالذكر لان هذا التركيب يدل على عظم القرآن من ثلاثة اوجه (احدها) انه اسند انزاله اليه وجعله مختصا به دون غيره (والثانى) انه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التصريح ألا ترى انه فى السورة المتقدمة لم يذكر اسم ابى جهل ولم يخف على احد لاشتهاره وقوله فلولا اذا بلغت الحلقوم لم يذكر الموت لشهرته فكذا ههنا (والثالث) تعظيم الوقت الذى انزل فيه (المسئلة الثانية) انه تعالى قال فى بعض المواضع انى كقوله انى جاعل فى الارض خليفة وفى بعض المواضع انا كقوله انا انزلناه فى ليلة القدر انا نحن نزلنا الذكر انا ارسلنا نوحا انا اعطيناك الكوثر واعلم ان قوله انا تارة يراد به الجمع وتارة يراد به التعظيم وحمله على الجمع محال لان الدلائل دلت على وحدة الصانع ولانه لو كان فى الالهية كثرة لانحطت رتبة كل واحد منهم عن الالهية لانه لو كان كل واحد منهم قادرا على الكمال لاستغنى بكل واحد منهم عن كل واحد منهم وكونه مستغنى عنه نقص فى حقه فيكون الكل ناقصا وان لم يكن كل واحد منهم قادرا على الكمال كان ناقصا فعلمنا ان قوله انا محمول على التعظيم لا على الجمع (المسئلة الثالثة) ان قيل مامعنى انه انزل فى ليلة القدر مع العلم بانه انزل نجوما قلنا فيه وجوه (احدها) قال الشعبى ابتدئ بانزاله ليلة القدر لان المبعث كان فى رمضان (والثانى) قال ابن عباس انزل الى سماء الدنيا جملة ليلة القدر ثم الى الارض نجوما كما قال فلا اقسم بمواقع النجوم وقد ذكرنا هذه المسئلة فى قوله شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن لايقال فعلى هذا القول لم لم يقل انزلناه الى السماء لان اطلاقه يوهم الانزال الى

وفى الحديث اقرب مايكون العبد الى ربه اذا سجد * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة العلق اعطى من الاجر كأنما قرأ المفصل كله

* (سورة القدر مختلف فيها) (وآيها خمس) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(انا انزلناه فى ليلة القدر) تنويه بشأن القرآن الكريم واجلال لمحله باضماره المؤذن بغاية نباهته المغنية عن التصريح به كأنه حاضر فى جميع الاذهان وباسناد انزاله الى نون العظمة المنبئ عن كمال العناية به وتفخيم وقت انزاله بقوله تعالى

الارض لانا نقول ان انزاله الى السماء كانزاله الى الارض لانه لم يكن ليشرع في امر ثم لايتمه وهو كغائب جاء الى نواحي البلد يقال جاء فلان او يقال الغرض من تقريبه وانزاله الى سماء الدنيا ان يشوقهم الى نزوله كمن يسمع الخبر بمجيء منشور لولده او امه فانه يزداد شوقه الى مطالعته كما قال

وابرح مايكون الشوق يوما * اذا دنت الديار من الديار

وهذا لان السماء كالمشترك بيننا وبين الملائكة فهي لهم مسكن ولنا سقف وزينة كما قال تعالى وجعلنا السماء سقفا فانزاله القرآن هناك كانزاله ههنا (والوجه الثالث) في الجواب ان التقدير انزلنا هذا الذكر في ليلة القدر اى في فضيلة ليلة القدر وبيان شرفها (المسئلة الرابعة) القدر مصدر قدرت اقدر قدرا والمراد به ما يمضيه الله من الامور قال تعالى انا كل شيء خلقناه بقدر والقدر والقدر واحد الا انه بالتسكين مصدر وبالفتح اسم قال الواحدي القدر في اللغة بمعنى التقدير وهو جعل الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان واختلفوا في انه لم سميت هذه الليلة ليلة القدر على وجوه (احدها) انها ليلة تقدير الامور والاحكام قال عطاء عن ابن عباس ان الله قدر مايكون في كل تلك السنة من مطر ورزق واحياء واماتة الى مثل هذه الليلة من السنة الآتية ونظيره قوله تعالى فيها يفرق كل امر حكيم واعلم ان تقدير الله لايحدث في تلك الليلة فانه تعالى قدر المقادير قبل ان يخلق السموات والارض في الازل بل المراد اظهار تلك المقادير للملائكة في تلك الليلة بأن يكتبها في اللوح المحفوظ وهذا القول اختيار عامة العلماء (الثاني) نقل عن الزهري انه قال ليلة القدر ليلة العظمة والشرف من قولهم لفلان قدر عند فلان اى منزلة وشرف ويدل عليه قوله ليلة القدر خير من الف شهر ثم هذا يحتمل وجهين (احدهما) ان يرجع ذلك الى الفاعل اى من أتى فيها بالطاعات صار ذا قدر وشرف (وثانيهما) الى الفعل اى الطاعات لها في تلك الليلة قدر زائد وشرف زائد وعن ابي بكر الوراق سميت ليلة القدر لانه نزل فيها كتاب ذو قدر على لسان ملك ذي قدر على امة لها قدر ولعل الله تعالى انما ذكر لفظة القدر في هذه السورة ثلاث مرات لهذا السبب (والقول الثالث) ليلة القدر اى الضيق فان الارض تضيق عن الملائكة (المسئلة الخامسة) انه تعالى اخفى هذه الليلة لوجوه (احدها) انه تعالى اخفاها كما اخفى سائر الاشياء فانه اخفى رضاه في الطاعات حتى يرغبوا في الكل واخفى غضبه في المعاصي ليحترزوا عن الكل واخفى وليه فيما بين الناس حتى يعظموا الكل واخفى الاجابة في الدعاء ليبالغوا في كل الدعوات واخفى الاسم الاعظم ليعظموا كل الاسماء واخفى الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل واخفى قبول التوبة ليواظب المكلف على جميع اقسام التوبة واخفى وقت الموت ليخاف المكلف فكذا اخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالي رمضان (وثانيها) كأنه تعالى يقول لو عينت ليلة القدر وأنا عالم بتجاسركم على المعصية فربما دعتك الشهوة

(وماادراك ماليلة القدر) لما فيه من الدلالة على ان علو قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق لايدريها ولايدريها الا علام الغيوب كما يشعر به قوله تعالى (ليلة القدر خير من الف شهر) فانه بيان اجمالي لشأنها اثر تشويقه عليه السلام الى درايتها فان ذلك معرب عن الوعد بادرائها وقد مر بيان كيفية اعراب الجملتين وفي اظهار ليلة القدر في الموضعين من تأكيد التفخيم مالا يخفى والمراد بانزاله فيها اما انزال كله الى السماء الدنيا كما

في تلك الليلة الى المعصية فوقعت في الذنب فكانت معصيتك مع علمك اشد من معصيتك لامع علمك فلهذا السبب اخفيته عليك روى انه عليه السلام دخل المسجد فرأى نائما فقال ياعلي نبهه ليتوضأ فأيقظه علي ثم قال علي يارسول الله انك سباق الى الخيرات فلم لم تنبهه قال لان رده علي كفر ورده عليك ليس بكفر ففعلت ذلك لتخف جنايته لو أبى فاذا كان هذا رحمة الرسول فقس عليه رحمة الرب تعالى فكأنه تعالى يقول اذا علمت ليلة القدر فان أطعت فيها اكتسبت ثواب الف شهر وان عصيت فيها اكتسبت عقاب الف شهر ودفع العقاب اولى من جلب الثواب (وثالثها) اني اخفيت هذه الليلة حتى يجتهد المكلف في طلبها فيكتسب ثواب الاجتهاد (ورابعها) ان العبد اذا لم يتيقن ليلة القدر فانه يجتهد في الطاعة في جميع ليالي رمضان على رجاء انه ربما كانت هذه الليلة هي ليلة القدر فيباهي الله تعالى بهم ملائكته ويقول كنتم تقولون فيهم يفسدون ويسفكون الدماء فهذا جده واجتهاده في الليلة المظنونة فكيف لو جعلتها معلومة له فحينئذ يظهر سر قوله اني اعلم مالا تعلمون (المسئلة السادسة) اختلفوا في ان هذه الليلة هل تستتبع اليوم قال الشعبي نعم يومها كليلتها ولعل الوجه فيه ان ذكر الليالي يستتبع الايام ومنه اذا نذر اعتكاف ليلتين الزمناه بيوميهما قال تعالى وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة اي اليوم يخلف ليلته وبالضد (المسئلة السابعة) هذه الليلة هل هي باقية قال الخليل من قال ان فضلها لنزول القرآن فيها يقول انقطعت وكانت مرة والجمهور على انها باقية وعلى هذا هل هي مختصة برمضان ام لا روى عن ابن مسعود انه قال من يقم الحول يصبها وفسرها عكرمة بليلة البراءة في قوله انا انزلناه في ليلة مباركة والجمهور على انها مختصة برمضان واحتجوا عليه بقوله تعالى شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن وقال انا انزلناه في ليلة القدر فوجب ان تكون ليلة القدر في رمضان لئلا يلزم التناقض وعلى هذا القول اختلفوا في تعيينها على ثمانية اقوال فقال ابن رزين ليلة القدر هي الليلة الاولى من رمضان وقال الحسن البصري السابعة عشرة وعن انس مرفوعا التاسعة عشرة وقال محمد بن اسحق الحادية والعشرون وعن ابن عباس الثالثة والعشرون وقال ابن مسعود الرابعة والعشرون وقال ابو ذر الغفاري الخامسة والعشرون وقال ابي بن كعب وجماعة من الصحابة السابعة والعشرون وقال بعضهم التاسعة والعشرون اما الذين قالوا انها الليلة الاولى قالوا روى وهب ان صحف ابراهيم انزلت في الليلة الاولى من رمضان والتوراة لست ليال مضين من رمضان بعد صحف ابراهيم بسبعمائة سنة وانزل الزبور على داود لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان بعد التوراة بخمسمائة عام وانزل الانجيل على عيسى لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان بعد الزبور بستمائة عام وعشرين عاما وكان القرآن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم في كل ليلة قدر من السنة الى السنة كان جبريل عليه السلام ينزل من بيت العزة من السماء السابعة الى سماء الدنيا فأنزل الله تعالى القرآن في عشرين شهرا

روى انه انزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا واملاه جبريل عليه السلام على السفرة ثم كان ينزله على النبي عليه السلام نجوما في ثلاث وعشرين سنة واما ابتداء انزاله فيها كما نقل عن الشعبي وقيل المعنى انزلناه في شأن ليلة القدر وفضلها كما في قول عمر رضي الله عنه خشيت ان ينزل في قرآن وقول عائشة رضي الله عنها لأنا احقر في نفسي من ان ينزل في قرآن فالانسب ان يجعل الضمير حينئذ للسورة التي

فى عشرين سنة فلما كان هذا الشهر هو الشهر الذى حصلت فيه هذه الخيرات العظيمة لاجرم كان فى غاية الشرف والقدر والرتبة فكانت الليلة الاولى منه ليلة القدر واما الحسن البصرى فانه قال هى ليلة سبعة عشر لانها ليلة كانت صبيحتها وقعة بدر واما التاسعة عشرة فقد روى أنس فيها خبرا واما الليلة الحادية والعشرون فقد مال الشافعى اليه لحديث الماء والطين والذى عليه المعظم انها ليلة السابع والعشرين وذكروا فيه أمارات ضعيفة (احدها) حديث ابن عباس ان السورة ثلاثون كلمة وقوله هى هى السابعة والعشرون منها (وثانيها) روى ان عمر سأل الصحابة ثم قال لابن عباس غص ياغواص فقال زيد بن ثابت احضرت اولاد المهاجرين وما احضرت اولادنا فقال عمر لعلك تقول ان هذا غلام ولكن عنده ماليس عندكم فقال ابن عباس احب الاعداد الى الله تعالى الوتر وأحب الوتر اليه السبعة فذكر السموات السبع والارضين السبع والاسبوع ودركات النار وعدد الطواف والاعضاء السبعة فدل على انها السابعة والعشرون (وثالثها) نقل ايضا عن ابن عباس انه قال ليلة القدر تسعة احرف وهو مذكور ثلاث مرات فتكون السابعة والعشرين (ورابعها) انه كان لعثمان بن ابى العاص غلام فقال يامولاى ان البحر يعذب ماؤه ليلة من الشهر قال اذا كانت تلك الليلة فأعلمنى فاذا هى السابعة والعشرون من رمضان واما من قال انها الليلة الاخيرة قال لانها هى الليلة التى تتم فيها طاعات هذا الشهر بل اول رمضان كآدم وآخره كمحمد ولذلك روى فى الحديث يعتق فى آخر رمضان بعدد ما اعتق من اول الشهر بل الليلة الاولى كمن ولد له ذكر فهى ليلة شكر والاخيرة ليلة الفراق كمن مات له ولد فهى ليلة صبر وقد علمت فرق مابين الصبر والشكر * ثم قال تعالى (وما أدراك ما ليلة القدر) يعنى ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها ثم انه تعالى بين فضيلتها من ثلاثة اوجه * (الاول) قوله تعالى (ليلة القدر خير من الف شهر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير الآية وجوه (احدها) ان العبادة فيها خير من الف شهر ليس فيها هذه الليلة لانه كالمستحيل ان يقال انها خير من الف شهر فيها هذه الليلة وانما كان كذلك لما يزيد الله فيها من المنافع والارزاق وانواع الخير (وثانيها) قال مجاهد كان فى بنى اسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد حتى يمسى فعل ذلك الف شهر فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من ذلك فأنزل الله هذه الآية اى ليلة القدر لامتك خير من الف شهر لذلك الاسرائيلى الذى حمل السلاح الف شهر (وثالثها) قال مالك بن أنس ارى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعمار الناس فاستقصر اعمار امته وخاف ان لايبلغوا من الاعمال مثل مابلغه سائر الامم فاعطاه الله ليلة القدر وهى خير من الف شهر لسائر الامم (ورابعها) روى القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن قال قلت للحسن بن على عليه السلام يامسود وجوه المؤمنين عمدت الى هذا الرجل فبايعت له يعنى معاوية فقال ان رسول الله صلى الله

هى جزء من القرآن لا الكل واختلفوا فى وقتها فاكثرهم على انها فى شهر رمضان فى العشر الاواخر فى اوتارها واكثر الاقوال انها السابعة منها ولعل السر فى اخفائها تعريض من يريدها للثواب الكثير باحياء الليالى الكثيرة رجاء لموافقتها وتسميتها بذلك اما لتقدير الامور وقضائها فيها لقوله تعالى فيها يفرق كل امر حكيم اولخطرها وشرفها على سائر الليالى وتخصيص الالف بالذكر اما للتكثير اولما روى انه عليه السلام ذكر رجلا

عليه وسلم رأى في منامه بني امية يطؤن منبره واحدا بعد واحد وفي رواية ينزون على منبره نزود القردة فشق ذلك عليه فأنزل الله تعالى انا انزلناه في ليلة القدر الى قوله خير من الف شهر يعني ملك بني امية قال القاسم فحسبنا ملك بني امية فاذا هو الف شهر طعن القاضي في هذه الوجوه فقال ماذكر من الف شهر في ايام بني امية بعيد لانه تعالى لا يذكر فضلها بذكر الف شهر مذمومة وايام بني امية كانت مذمومة واعلم ان هذا الطعن ضعيف وذلك لان ايام بني امية كانت اياما عظيمة بحسب السعادات الدنيوية فلا يمتنع ان يقول الله تعالى انى اعطيتك ليلة هي في السعادات الدينية افضل من تلك السعادات الدنيوية (المسئلة الثانية) هذه الآية فيها بشارة عظيمة وفيها تهديد عظيم اما البشارة فهي انه تعالى ذكر ان هذه الليلة خير ولم يبين قدر الخيرية وهذا كقوله عليه السلام لمبارزة علي عليه السلام مع عمرو بن عبدود افضل من عمل امتي الى يوم القيامة فلم يقل مثل عمله بل قال افضل كأنه يقول حسبك هذا من الوزن والباقي جزاف واعلم ان من احياها فكأنما عبد الله تعالى نيفا وثمانين سنة ومن احياها كل سنة فكأنه رزق اعمارا كثيرة ومن احيا الشهر لينال لها بيقين فكأنه احيى ثلاثين قدرا يروى انه يجاء يوم القيامة بالاسرائيلي الذي عبد الله اربعمائة سنة ويجاء برجل من هذه الامة وقد عبد الله اربعين سنة فيكون ثوابه اكثر فيقول الاسرائيلي انت العدل وأرى ثوابه اكثر فيقول لانكم كنتم تخافون العقوبة المعجلة فتعبدون وامة محمد كانوا آمنين لقوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم ثم انهم كانوا يعبدون فلهذا السبب كانت عباداتهم اكثر ثوابا واما التهديد فهو انه تعالى توعد صاحب الكبيرة بالدخول في النار وان احياء مائة ليلة من القدر لا يخلصه عن ذلك العذاب المستحق بتطفيف حبة واحدة فهذا فيه اشارة الى تعظيم حال الذنب والمعصية (المسئلة الثالثة) لقائل ان يقول صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اجرك على قدر نصبك ومن المعلوم ان الطاعة في الف شهر اشق من الطاعة في ليلة واحدة فكيف يعقل استواؤهما (الجواب) من وجوه (احدها) ان الفعل الواحد قد يختلف حاله في الحسن والقبح بسبب اختلاف الوجوه المنضمة اليه ألا ترى ان صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بكذا درجة مع ان الصورة قد تنتقص فان المسبوق سقطت عنه ركعة واحدة وايضا فأنت تقول لمن يرجم انه انما يرجم لانه زان فهو قول حسن ولو قلته للنصراني فقذف يوجب التعزير ولو قلته للمحصن فهو يوجب الحد فقد اختلف الاحكام في هذه المواضع مع ان الصورة واحدة في الكل بل لو قلته في حق عائشة كان كفرا ولذلك قال وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم وذلك لان هذا طعن في حق عائشة التي كانت رحلة في العلم لقوله عليه السلام خذوا ثلثي دينكم من هذه الحميراء وطعن في صفوان مع انه كان رجلا بدريا وطعن في كافة المؤمنين لانها ام المؤمنين وللولد حق المطالبة بقذف الام وان كان كافرا بل طعن في النبي الذي كان اشد خلق الله غيرة بل طعن في حكمة الله

من بني اسرائيل لبس السلاح في سبيل الله الف شهر فعجب المؤمنون منه وتقاصرت اليهم اعمالهم فاعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي وقيل ان الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله تعالى الف شهر فأعطوا ليلة ان احيوها كانوا احق بأن يسموا عابدين من اولئك العباد وقيل ارى النبي عليه الصلاة اعمار الامم كافة فاستقصر اعمار امته فخاف ان لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله

اذلايجوزان يتركه حتى يتزوج بامرأة زانية ثم القائل بقوله هذا زان فقد ظن ان هذه اللفظة سهلة مع انها اثقل من الجبال فقدثبت بهذا ان الافعال تختلف آثارها فى الثواب والعقاب لاختلاف وجوهها فلايبعد ان تكون الطاعة القليلة فى الصورة مساوية فى الثواب للطاعات الكثيرة (والوجه الثانى فى الجواب) ان مقصود الحكيم سبحانه ان يجر الخلق الى الطاعات فتارة يجعل ثمن الطاعة ضعفين فقال ان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا ومرة عشرا ومرة سبعمائة وتارة بحسب الازمنة وتارة بحسب الامكنة والمقصود الاصلى من الكل جر المكلف الى الطاعة وصرفه عن الاشتغال بالدنيا فتارة يرجح البيت وزمزم على سائر البلاد وتارة يفضل رمضان على سائر الشهور وتارة يفضل الجمعة على سائر الايام وتارة يفضل ليلة القدر على سائر الليالى والمقصود ماذكرناه (الوجه الثانى) من فضائل هذه الليلة ❊ قوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان نظر الملائكة على الارواح ونظر البشر على الاشباح ثم ان الملائكة لما رأوا روحك محلا للصفات الذميمة من الشهوة والغضب ماقبلوك فقالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وابواك لما رأوا قبح صورتك فى اول الامر حين كنت منيا وعلقة ماقبلوك ايضا بل اظهروا النفرة واستقذروا ذلك المنى والعلقة وغسلوا ثيابهم عنه ثم كم احتالوا للاسقاط والابطال ثم انه تعالى لما اعطاك الصورة الحسنة فالابوان لما رأوا تلك الصورة الحسنة قبلوك ومالوا اليك فكذا الملائكة لما رأوا فى روحك الصورة الحسنة وهى معرفة الله وطاعته احبوك فنزلوا اليك معتذرين عما قالوه اولا فهذا هو المراد من قوله تنزل الملائكة فاذا نزلوا اليك رأوا روحك فى ظلمة ليل البدن وظلمة القوى الجسمانية فحينئذ يعتذرون عما تقدم ويستغفرون للذين آمنوا (المسئلة الثانية) ان قوله تعالى تنزل الملائكة يقتضى ظاهره نزول كل الملائكة ثم ان الملائكة لهم كثرة عظيمة لاتحتمل كلهم الارض فلهذا السبب اختلفوا (فقال بعضهم) انها تنزل بأسرها الى السماء الدنيا (فان قيل) الاشكال بعد باق لان السماء مملوأة بحيث لايوجد فيها موضع اهاب الا وفيه ملك فكيف تسع الجميع سماء واحدة (قلنا) يقضى بعموم الكتاب على خبر الواحد كيف والمروى انهم ينزلون فوجا فوجا فمن نازل وصاعد كاهل الحج فانهم على كثرتهم يدخلون الكعبة بالكلية لكن الناس بين داخل وخارج ولهذا السبب مدت الى غاية طلوع الفجر فلذلك ذكر بلفظ تنزل الذى يفيد المرة بعد المرة (والقول الثانى) وهو اختيار الاكثرين انهم ينزلون الى الارض وهو الاوجه لان الغرض هو الترغيب فى احياء هذه الليلة ولانه دلت الاحاديث على ان الملائكة ينزلون فى سائر الايام الى مجالس الذكر والدين فلان يحصل ذلك فى هذه الليلة مع علو شأنها اولى ولان النزول المطلق لايفيد الا النزول من السماء الى الارض ثم اختلف من قال ينزلون الى الارض على وجوه (احدها) قال بعضهم ينزلون ليرون عبادة البشر وجدهم واجتهادهم فى الطاعة (وثانيها) ان

ليلة القدر وجعلها خيرا من الف شهر لسائر الامم وقيل كان ملك سليمان خمسمائة شهر وملك ذى القرنين خمسمائة شهر فجعل الله تعالى العمل فى هذه الليلة لمن ادركها خيرا من ملكهما وقوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها) استئناف مبين لمناط فضلها على تلك المدة المتطاولة وقد سبق فى سورة النبأ ماقيل فى شأن الروح على التفصيل وقيل هم خلق من الملائكة لايراهم الملائكة الاتلك الليلة اى تتنزل الملائكة والروح فى تلك الليلة من كل سماء الى

(الملائكة)

الارض او الى السماء الدنيا (باذن ربهم) متعلق بتنزل او بمحذوف هو حال من فاعله اى ملتبسين باذن ربهم بأمره (من كل امر) اى من اجل كل امر قضاه الله عز وجل لتلك السنة الى قابل كقوله تعالى فيها يفرق كل امر حكيم وقرئ من كل امرئ اى من اجل اكل انسان قيل لا يلقون فيها مؤمنا

الملائكة قالوا وما نتنزل الا بأمر ربك فهذا يدل على انهم كانوا مأمورين بذلك النزول فلا يدل على غاية المحبة اما هذه الآية وهو قوله باذن ربهم فانها تدل على انهم استأذنوا اولا فأذنوا وذلك يدل على غاية المحبة لانهم كانوا يرغبون الينا ويتمنون لقاءنا لكن كانوا ينتظرون الاذن فان قيل قوله وانا لنحن الصافون ينافى قوله تنزل الملائكة قلنا نصرف الحالتين الى زمانين مختلفين (وثالثها) انه تعالى وعد فى الآخرة ان الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم فههنا فى الدنيا ان اشتغلت بعبادتى نزلت الملائكة عليك حتى يدخلوا عليك للتسليم والزيارة روى عن على عليه السلام انهم ينزلون ليسلموا علينا وليشفعوا لنا فمن اصابته التسليمة غفرله ذنبه (ورابعها) ان الله تعالى جعل فضيلة هذه الليلة فى الاشتغال بطاعته فى الارض فهم ينزلون الى الارض لتصير طاعاتهم اكثر ثوابا كما ان الرجل يذهب الى مكة لتصير طاعاته هناك اكثر ثوابا وكل ذلك ترغيب للانسان فى الطاعة (وخامسها) ان الانسان يأتى بالطاعات والخيرات عند حضور الاكابر من العلماء والزهاد احسن مما يكون فى الخلوة فالله تعالى انزل الملائكة المقربين حتى ان المكلف يعلم انه انما يأتى بالطاعات فى حضور اولئك العلماء الزهاد فيكون أتم وعن النقصان ابعد (وسادسها) ان من الناس من خص لفظ الملائكة ببعض فرق الملائكة عن كعب ان سدرة المنتهى على حد السماء السابعة مما يلى الجنة فهى على حد هواء الدنيا وهواء الآخرة وساقها فى الجنة واغصانها تحت الكرسى فيها ملائكة لا يعلم عددهم الا الله يعبدون الله ومقام جبريل فى وسطها ليس فيها ملك الا وقد اعطى الرأفة والرحمة للمؤمنين ينزلون مع جبريل ليلة القدر فلا تبقى بقعة من الارض الا وعليها ملك ساجد او قائم يدعو للمؤمنين والمؤمنات وجبريل لا يدع احدا من الناس الا صافحهم وعلامة ذلك من اقشعر جلده ورق قلبه ودمعت عيناه فان ذلك من مصافحة جبريل عليه السلام من قال فيها ثلاث مرات لا اله الا الله غفر له بواحدة ونجاه من النار بواحدة وادخله الجنة بواحدة واول من يصعد جبريل حتى يصير أمام الشمس فيبسط جناحين اخضرين لا ينشرهما الا تلك الساعة من يوم تلك الليلة ثم يدعو ملكا ملكا فيصعد الكل ويجتمع نور الملائكة ونور جناح جبريل عليه السلام فيقيم جبريل ومن معه من الملائكة بين الشمس وسماء الدنيا يومهم ذلك مشغولين بالدعاء والرحمة والاستغفار للمؤمنين ولمن صام رمضان احتسابا فاذا امسوا دخلوا سماء الدنيا فيجلسون حلقا حلقا فيجتمع اليهم ملائكة السماء فيسألونهم عن رجل رجل وعن امرأة امرأة حتى يقولوا ما فعل فلان وكيف وجدتموه فيقولون وجدناه عام اول متعبدا وفى هذا العام مبتدعا وفلان كان عام اول مبتدعا وهذا العام متعبدا فيكفون عن الدعاء للاول ويشتغلون بالدعاء للثانى ووجدنا فلانا تاليا وفلانا راكعا وفلانا ساجدا فهم كذلك يومهم وليلتهم حتى يصعدوا السماء الثانية وهكذا يفعلون فى كل سماء حتى ينتهوا الى السدرة فتقول

لهم السدرة ياسكانى حدثونى عن الناس فان لى عليكم حقا وانى أحب من أحب الله فذكر كعب انهم يعدون لها الرجل والمرأة بأسمائهم واسماء آبائهم ثم يصل ذلك الخبر الى الجنة فتقول الجنة اللهم عجلهم الى والملائكة واهل السدرة يقولون آمين آمين اذا عرفت هذا فنقول كلما كان الجمع اعظم كان نزول الرحمة هناك اكثر ولذلك فان اعظم الجموع فى موقف الحج لاجرم كان نزول الرحمة هناك اكثر فكذا فى ليلة القدر يحصل مجمع الملائكة المقربين فلاجرم كان نزول الرحمة اكثر (المسئلة الثالثة) ذكروا فى الروح اقوالا (احدها) انه ملك عظيم لو التقم السموات والارضين كانت ذلك له لقمة واحدة (وثانيها) طائفة من الملائكة لاتراهم الملائكة الاليلة القدر كالزهاد الذين لاتراهم الايوم العيد (وثالثها) خلق من خلق الله يأكلون ويلبسون ليسوا من الملائكة ولامن الانس ولعلهم خدم اهل الجنة (ورابعها) يحتمل انه عيسى عليه السلام لانه اسمه ثم انه ينزل فى موافقة الملائكة ليطلع على امة محمد (وخامسها) انه القرآن وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا (وسادسها) الرحمة قرئ لاتيأسوا من روح الله بالرفع كأنه تعالى يقول الملائكة ينزلون ورحمتى تنزل فى اثرهم فيجدون سعادة الدنيا وسعادة الآخرة (وسابعها) الروح اشرف الملائكة (وثامنها) عن ابى نجيح الروح هم الحفظة والكرام الكاتبون فصاحب اليمين يكتب اتيانه بالواجب وصاحب الشمال يكتب تركه للقبيح والاصح ان الروح ههنا جبريل وتخصيصه بالذكر لزيادة شرفه كأنه تعالى يقول الملائكة فى كفة والروح فى كفة ❁ اما قوله تعالى (بأذن ربهم) فقد ذكرنا ان هذا يدل على انهم كانوا مشتاقين الينا (فان قيل) كيف يرغبون الينا مع علمهم بكثرة معاصينا (قلنا) انهم لايقفون على تفصيل المعاصى روى انهم يطالعون اللوح فيرون فيه طاعة المكلف مفصلة فاذا وصلوا الى معاصيه ارخى الستر فلا يرونها فحينئذ يقولون سبحان من اظهر الجميل وستر على القبيح ثم قد ذكرنا فوائد فى نزولهم ونذكر الآن فوائد اخرى وحاصلها انهم يرون فى الارض من انواع الطاعات اشياء مارأوها فى عالم السموات (احدها) ان الاغنياء يجيئون بالطعام من بيوتهم فيجعلونه ضيافة للفقراء والفقراء يأكلون طعام الاغنياء ويعبدون الله وهذا انواع من الطاعة لايوجد فى السموات (وثانيها) انهم يسمعون أنين العصاة وهذا لايوجد فى السموات (وثالثها) انه تعالى قال لأنين المذنبين أحب الى من زجل المسبحين فقالوا تعالوا نذهب الى الارض فنسمع صوتا هو أحب الى ربنا من صوت تسبيحنا وكيف لايكون أحب وزجل المسبحين اظهار لكمال حال المطيعين وأنين العصاة اظهار لغفارية رب الارض والسموات (المسئلة الثانية) هذه الآية دالة على عصمة الملائكة ونظيرها قوله وماتتنزل الا بأمر ربك وقوله تعالى لايسبقونه بالقول وفيها دقيقة وهى انه تعالى لم يقل مأذونين بل قال باذن ربهم وهو اشارة الى انهم لايتصرفون تصرفا ما الاباذنه ومن ذلك قول الرجل لامرأته ان خرجت الاباذنى فانه يعتبر الاذن فى كل خرجة (المسئلة الثالثة) قوله ربهم

ولامؤمنة الاسلوا عليه (سلام هى) اى ماهى الاسلامة اى لايقدر الله تعالى فيها الاالسلامة والخير واما فى غيرها فيقضى سلامة وبلاء اوما هى الاسلام لكثرة ما يسلمون فيها على المؤمنين (حتى مطلع الفجر) اى وقت طلوعه وقرئ بالكسر على انه مصدر كالمرجع اواسم زمان على غير قياس كالمشرق

يفيد تعظيما للملائكة وتحقيرا للعصاة كأنه تعالى قال كانوا الى فكنت لهم ونظيره فى حقنا ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض وقال لمحمد عليه السلام واذ قال ربك ونظيره ماروى ان داود لما مرض الموت قال الهى كن لسليمان كما كنت لى فنزل الوحى وقال قل لسليمان فليكن لى كما كنت لى وروى عن ابراهيم الخليل عليه السلام انه فقد الضيف اياما فخرج بالسفرة لتلتمس ضيفا فاذا بخيمة فنادى أتريدون الضيف فقيل نعم فقال للمضيف أيوجد عندك ادام لبن او عسل فرفع الرجل صخرتين فضرب احداهما بالاخرى فانشقا فخرج من احداهما اللبن ومن الاخرى العسل فتعجب ابراهيم وقال الهى انا خليلك ولم أجد مثل ذلك الاكرام فاله فنزل الوحى ياخليلى كان لنا فكنا له ❊ اما قوله تعالى (من كل امر) فمعناه تنزل الملائكة والروح فيها من اجل كل امر والمعنى ان كل واحد منهم انما نزل لمهم آخر ثم ذكروا فيه وجوها (احدها) انهم كانوا فى اشغال كثيرة فبعضهم بالركوع وبعضهم بالسجود وبعضهم بالدعاء وكذا القول فى التفكر والتعليم وابلاغ الوحى وبعضهم لادراك فضيلة الليلة اوليسلموا على المؤمنين (وثانيها) وهو قول الاكثرين من اجل كل امر قدر فى تلك السنة من خير اوشر وفيه اشارة الى ان نزولهم انما كان عبادة فكأنهم قالوا مانزلنا الى الارض لهوى انفسنا لكن لاجل كل امر فيه مصلحة المكلفين وعمّ لفظ الامر ليعم خير الدنيا والآخرة بيانا منه انهم ينزلون بما هو صلاح المكلف فى دينه ودنياه كان السائل يقول من اين جئت فيقول مالك وهذا الفضول ولكن قل لأى امر جئت لانه حظك (وثالثها) قرأ بعضهم من كل امرئ اى من اجل كل انسان وروى انهم لايلقون مؤمنا ولامؤمنة الاسلموا عليه ان قيل أليس انه قدروى انه تقسم الآجال والارزاق ليلة النصف من شعبان والآن تقولون ان ذلك يكون ليلة القدر قلنا عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله يقدر المقادير فى ليلة البراءة فاذا كان ليلة القدر يسلمها الى اربابها وقيل يقدر ليلة البراءة الآجال والارزاق وليلة القدر يقدر الامور التى فيها الخير والبركة والسلامة وقيل يقدر فى ليلة القدر مايتعلق به اعزاز الدين ومافيه النفع العظيم للمسلمين واماليلة البراءة فيكتب فيها اسماء من يموت ويسلم الى ملك الموت ❊ (الوجه الثالث) من فضائل هذه الليلة قوله تعالى (سلام هى حتى مطلع الفجر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله سلام وجوه (احدها) ان ليلة القدر الى طلوع الفجر سلام اى تسلم الملائكة على المطيعين وذلك لان الملائكة ينزلون فوجا فوجا من ابتداء الليل الى طلوع الفجر فترادف النزول لكثرة السلام (وثانيها) وصفت الليلة بانها سلام ثم يجب ان لايستحقر هذا السلام لان سبعة من الملائكة سلموا على الخليل فى قصة العجل الحنيذ فاز داد فرحه بذلك على فرحه بملك الدنيا بل الخليل لما سلم الملائكة عليه صار نار نمرود بردا وسلاما افلا تصير ناره تعالى ببركة تسليم الملائكة علينا بردا وسلاما لكن ضيافة الخليل لهم

وحتى متعلقة بتنزل على انها غاية لحكم التنزل اى لمكثهم فى محل تنزلهم اولنفس تنزلهم بأن لاينقطع تنزلهم فوجا بعد فوج الى طلوع الفجر وقيل متعلقة بسلام بناء على ان الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ مغتفر فى الجار ❊ عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القدر اعطى من الاجر كمن صام رمضان واحيى ليلة القدر

كانت عجلا مشويا وهم يريدون منا قلبا مشويا بل فيه دقيقة وهى اظهار فضل هذه الامة فان هناك الملائكة نزلوا على الخليل وههنا نزلوا على امة محمد صلى الله عليه وسلم (وثالثها) انه سلام من الشرور والآفات اى سلامة وهذا كما يقال انما فلان حج وغزو اى هو أبدا مشغول بهما ومثله * فانما هى اقبال وادبار * وقالوا تنزل الملائكة والروح فى ليلة القدر بالخيرات والسعادات ولا ينزل فيهـا من تقدير المضار شئ فاينزل فى هذه الليلة فهو سلام اى سلامة ونفع وخير (ورابعها) قال ابو مسلم سلام اى الليلة سالمة عن الرياح والأذى والصواعق الى ماشابه ذلك (وخامسها) سلام لا يستطيع الشيطان فيها سوء (وسادسها) ان الوقف عند قوله من كل امر سلام فيتصل السلام بما قبله ومعناه ان تقدير الخير والبركة والسلامة يدوم الى طلوع الفجر وهذا الوجه ضعيف (وسابعها) انها من أولها الى مطلع الفجر سالمة فى ان العبادة فى كل واحد من اجزائها خير من ألف شهر ليست كسائر الليالى فى انه يستحب للفرض الثلث الاول وللعبادة النصف وللدعاء السحر بل هى بتساوية الاوقات والاجزاء (وثامنها) سلام هى اى جنة هى لان من اسماء الجنة دار السلام اى الجنة المصوغة من السلامة (المسئلة الثانية) المطلع الطلوع يقال طلع الفجر طلوعا ومطلعا والمعنى انه يدوم ذلك السلام الى طلوع الفجر ومن قرأ بكسر اللام فهو اسم لوقت الطلوع وكذا مكان الطلوع مطلع قاله الزجاج اما ابو عبيدة والفراء وغيرهما فانهم اختاروا فتح اللام لانه بمعنى المصدر وقال الكسر اسم نحو المشرق ولا معنى لاسم موضع الطلوع ههنا بل ان حمل على ماذكره الزجاج من اسم وقت الطلوع صح قال ابو على ويمكن حمله على المصدر ايضا لان من المصادر التى ينبغى ان تكون على المفعل ماقد كسر كقولهم علاه المكبر والمعجز وقوله ويسألونك عن المحيض فكذلك كسر المطلع جاء شاذا عما عليه بابه والله تعالى اعلم

(سورة البينة ثمان آيات مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى فى كتاب البسيط هذه الآية من اصعب مافى القرآن نظما وتفسيرا وقد تخبط فيها الكبار من العلماء ثم انه رحمه الله تعالى لم يلخص كيفية الاشكال فيها وأنا اقول وجه الاشكال ان تقدير الآية لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم البينة التى هى الرسول ثم انه تعالى لم يذكر انهم منفكون عن ماذا لكنه معلوم اذ المراد هو الكفر الذى كانوا عليه فصار التقدير لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التى هى الرسول ثم ان كلمة حتى

(سورة لم يكن مختلف فيها) (وآيها ثمان)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب) اى اليهود والنصارى وايرادهم بذلك العنوان للاشعار بعلة مانسب اليهم من الوعد باتباع الحق فان مناط ذلك وجدانهم له فى كتابهم وايراد الصلة فعلا لما ان كفرهم حادث بعد انبيائهم

(لانتهاء)

لانتهاءالغاية فهذه الآية تقتضى انهم صاروا منفكين عن كفرهم عنداتيان الرسول ثم قال بعد ذلك وماتفرق الذين اوتوا الكتاب الامن بعد ماجاءتهم البينة وهذا يقتضى ان كفرهم قدازداد عندمجئ الرسول عليه السلام فحينئذ يحصل بين الآية الاولى والآية الثانية مناقضة فى الظاهر هذا منتهى الاشكال فيما اظن (والجواب) عنه من وجوه (اولها) واحسنها الوجه الذى لخصه صاحب الكشاف وهو ان الكفار من الفريقين اهل الكتاب وعبدة الاوثان كانوا يقولون قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم لاننفك عما نحن عليه من ديننا ولانتركه حتى يبعث النبى الموعود الذى هو مكتوب فى التوراة والانجيل وهو محمد عليه السلام فحكى الله تعالى ماكانوا يقولونه ثم قال وماتفرق الذين اوتوا الكتاب يعنى انهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق اذا جاءهم الرسول ثم مافرقهم عن الحق ولااقرهم على الكفر الامجئ الرسول ونظيره فى الكلام ان يقول الفقير الفاسق لمن يعظه لست أمتنع مما انافيه من الافعال القبيحة حتى يرزقنى الله الغنى فلمارزقه الله الغنى ازدادفسقا فيقول واعظه لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر وماغمست رأسك فى الفسق الابعد اليسار يذكره ماكان يقوله توبيخا والزاما وحاصل هذا الجواب يرجع الى حرف واحد وهو ان قوله لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة مذكور حكاية عنهم وقوله وماتفرق الذين اوتوا الكتاب هو اخبار عن الواقع والمعنى ان الذى وقع كان على خلاف ماادعوا (وثانيها) ان تقدير الآية لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وان جاءتهم البينة وعلى هذا التقدير يزول الاشكال هكذا ذكره القاضى الاان تفسير لفظة حتى بهذا ليس من اللغة فى شئ (وثالثها) انا لانحمل قوله منفكين على الكفر بل على كونهم منفكين عن ذكر محمد بالمناقب والفضائل والمعنى لم يكن الذين كفروا منفكين عن ذكر محمد بالمناقب والفضائل حتى تأتيهم البينة قال ابن عرفة اى حتى أتتهم فاللفظ لفظ المضارع ومعناه الماضى وهو كقوله تعالى ماتتلوا الشياطين اى ماتلت والمعنى انهم ماكانوا منفكين عن ذكر مناقبه ثم لما جاءهم محمد تفرقوا فيه وقال كل واحد فيه قولا آخر رديأ ونظيره قوله تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلماجاءهم ماعرفوا كفروا به والقول المختار فى هذه الآية هو الاول (وفى الآية وجه رابع) وهو انه تعالى حكم على الكفار انهم ماكانوا منفكين عن كفرهم الى وقت مجئ الرسول وكلمة حتى تقتضى ان يكون الحال بعد ذلك بخلاف ماكان قبل ذلك والامر هكذا كان لان ذلك المجموع مابقوا على الكفر بل تفرقوا فمنهم من صار مؤمنا ومنهم من صار كافرا ولما لم يبق حال اولئك الجمع بعد مجئ الرسول كما كان قبل مجيئه كفى ذلك فى العمل بمدلول لفظ حتى (وفيها وجه خامس) وهو ان الكفار كانوا قبل مبعث الرسول منفكين عن التردد فى كفرهم بل كانوا جازمين به معتقدين حقيته ثم زال ذلك الجزم بعد مبعث الرسول بل بقوا شاكين متحيرين فى ذلك الدين وفى سائر

(والمشركين) أى عبدة الاصنام وقرئ والمشركون عطفا على الموصول (منفكين) اى عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق والايمان بالرسول المبعوث فى آخر الزمان والعزم على انجازه وهذا الوعد من اهل الكتاب مما لاريب فيه حتى انهم كانوا يستفتحون ويقولون اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان ويقولون لاعدائهم من المشركين قد اظل زمان نبى يخرج بتصديق ماقلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم واما من المشركين فلعله قد وقع من متأخريهم بعد ماشاع ذلك من اهل الكتاب واعتقدوا صحته بما شاهدوا من نصرتهم على اسلافهم كما يشهد به انهم كانوا يسألونهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هل هو المذكور فى كتابهم وكانوا يغرونهم بتغيير نعوته عليه السلام

الاديان ونظيره قوله كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين والمعنى ان الدين الذى كانوا عليه صار كأنه اختلط بلحمهم ودمهم فاليهودى كان جازما فى يهوديته وكذا النصرانى وعابد الوثن فلما بعث محمد عليه السلام اضطربت الخواطر والافكار وتشككت كل احد فى دينه ومذهبه ومقالته وقوله تعالى منفكين مشعر بهذا لان انفكاك الشئ عن الشئ هو انفصاله عنه فمعناه ان قلوبهم ماخلت عن تلك العقائد وماانفصلت عن الجزم بصحتها ثم ان بعد المبعث لم يبق الامر على تلك الحالة (المسئلة الثانية) الكفار كانوا جنسين (احدهما) اهل الكتاب كفرق اليهود والنصارى وكانوا كفارا باحداثهم فى دينهم ما كفروا به كقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله وتحريفهم كتاب الله ودينه (والثانى) المشركون الذين كانوا لا ينسبون الى كتاب فذكر الله تعالى الجنسين بقوله الذين كفروا على الاجمال ثم اردف ذلك الاجمال بالتفصيل وهو قوله من اهل الكتاب والمشركين وههنا سؤالات (السؤال الاول) تقدير الآية لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب ومن المشركين فهذا يقتضى ان اهل الكتاب منهم كافر ومنهم ليس بكافر وهذا حق وان المشركين منهم كافر ومنهم ليس بكافر ومعلوم ان هذا ليس بحق (والجواب) من وجوه (احدها) كلمة من ههنا ليست للتبعيض بل للتبيين كقوله فاجتنبوا الرجس من الاوثان (وثانيها) ان الذين كفروا بمحمد بعضهم من اهل الكتاب وبعضهم من المشركين فادخال كلمة من لهذا السبب (وثالثها) ان يكون قوله والمشركين ايضا وصفا لاهل الكتاب وذلك لان النصارى مثلثة واليهود عامتهم مشبهة وهذا كله شرك وقد يقول القائل جاءنى العقلاء والظرفاء يريد بذلك قوما بأعيانهم يصفهم بالامرين وقال الله تعالى الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وهذا وصف لطائفة واحدة وفى القرآن من هذا الباب كثير وهو ان ينعت قوم بنعوت شتى يعطف بعضها على بعض بواو العطف ويكون الكل وصفا لموصوف واحد (السؤال الثانى) المجوس هل يدخلون فى اهل الكتاب قلنا ذكر بعض العلماء انهم داخلون فى اهل الكتاب لقوله عليه السلام سنوا بهم سنة اهل الكتاب وانكره الآخرون قال لانه تعالى انما ذكر من الكفار من كان فى بلاد العرب وهم اليهود والنصارى قال تعالى حكاية عنهم ان تقولوا انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا والطائفتان هم اليهود والنصارى (السؤال الثالث) ما الفائدة فى تقديم اهل الكتاب فى الكفر على المشركين حيث قال لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين (الجواب) ان الواو لا تفيد الترتيب ومع هذا ففيه فوائد (احدها) ان السورة مدنية فكان اهل الكتاب هم المقصودون بالذكر (وثانيها) انهم كانوا علماء بالكتب فكانت قدرتهم على معرفة صدق محمد اتم فكان اصرارهم على الكفر أقبح (وثالثها) انهم لكونهم علماء يقتدى غيرهم بهم فكان كفرهم اصلا لكفر غيرهم فلهذا

(قدموا)

وانفكاك الشئ عن الشئ ان يزايله بعد التحامه كالعظم اذا انفك من مفصله وفيه اشارة الى كمال وكادة وعدهم اى لم يكونوا مفارقين للوعد المذكور بل كانوا مجتمعين عليه عازمين على انجازه (حتى تأتيهم البينة) التى كانوا قد جعلوا اتيانها ميقاتا لاجتماع الكلمة والاتفاق على الحق فجعلوه ميقاتا للانفكاك والافتراق واخلاف الوعد والتعبير عن اتيانها بصيغة المضارع باعتبار حال المحكى لا باعتبار حال الحكاية كما فى قوله تعالى واتبعوا ماتتلوا الشياطين اى تلت وقوله تعالى (رسول) بدل من البينة عبر عنه عليه السلام بالبينة للايذان بغاية ظهور امره وكونه ذلك الموعود فى الكتابين وقوله تعالى (من الله) متعلق بمضمر هو صفة لرسول مؤكد لما افاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية اى

قدموا فی الذکر (ورابعها) انهم لکونهم علماء اشرف من غیرهم فقدموا فی الذکر (السؤال الرابع) لم قال من اهل الکتاب ولم یقل من الیهود والنصاری (الجواب) لان قوله من اهل الکتاب یدل علی کونهم علماء وذلك یقتضی اما مزید تعظیم فلا جرم ذکروا بهذا اللقب دون الیهود والنصاری او لان کونه عالما یقتضی مزید قبح فی کفره فذکروا بهذا الوصف تنبیها علی تلك الزیادة من العقاب (المسئلة الثالثة) هذه الآیة فیها احکام تتعلق بالشرع (احدها) انه تعالی فسر قوله الذین کفروا بأهل الکتاب وبالمشرکین فهذا یقتضی کون الکل واحدا فی الکفر فمن ذلك قال العلماء الکفر کله ملة واحدة فالمشرك یرث الیهودی وبالعکس (الثانی) ان العطف اوجب المغایرة فلذلك نقول الذمی لیس بمشرك وقال علیه السلام غیر ناکحی نسائهم ولا آکلی ذبائحهم فاثبت التفرقة بین الکتابی والمشرك (الثالث) نبه بذکر اهل الکتاب انه لا یجوز الاغترار بأهل العلم اذ قد حدث فی اهل القرآن مثل ما حدث فی الامم الماضیة (المسئلة الرابعة) قال القفال الانفکاك هو انفراج الشیء عن الشیء واصله من الفك وهو الفتح والزوال ومنه فککت الکتاب اذا ازلت ختمه ففتحته ومنه فکاك الرهن وهو زوال الانغلاق الذی کان علیه الا تری ان ضد قوله انفك الرهن غلق الرهن ومنه فکاك الاسیر وفکه فثبت ان انفکاك الشیء عن الشیء هو ان یزیله بعد التحامه به کالعظم اذا انفك من مفصله والمعنی انهم متشبثون بدینهم تشبثا قویا لا یزیلونه الا عند مجیء البینة واما البینة فهی الحجة الظاهرة التی بها یتمیز الحق من الباطل فهی من البیان او البینونة لانها تبین الحق من الباطل وفی المراد من البینة فی هذه الآیة اقوال (الاول) انها هی الرسول ثم ذکروا فی انه لم سمی الرسول بالبینة وجوها (الاول) ان ذاته کانت بینة علی نبوته وذلك لانه علیه السلام کان فی نهایة الجد فی تقریر النبوة والرسالة ومن کان کذابا متصنعا فانه لا یتأتی منه ذلك الجد المتناهی فلم یبق فیه الا ان یکون صادقا او معتوها والثانی معلوم البطلان لانه کان فی غایة کمال العقل فلم یبق الا انه کان صادقا (الثانی) ان مجموع الاخلاق الحاصلة فیه کان بالغا الی حد کمال الاعجاز والجاحظ قرر هذا المعنی والغزالی رحمه الله نصره فی (کتاب المنقذ) فاذا لهذین الوجهین سمی هو فی نفسه بأنه بینة (الثالث) ان معجزاته علیه السلام کانت فی غایة الظهور وکانت ایضا فی غایة الکثرة فلاجتماع هذین الامرین جعل کأنه علیه السلام فی نفسه بینة وحجة ولذلك سماه الله تعالی سراجا منیرا واحتج القائلون بأن المراد من البینة هو الرسول بقوله تعالی بعد هذه الآیة رسول من الله فهو رفع علی البدل من البینة وقرأ عبد الله رسولا حالا من البینة قالوا والالف واللام فی قوله البینة للتعریف ای هو الذی سبق ذکره فی التوراة والانجیل علی لسان موسی وعیسی او یقال انها للتفخیم ای هو البینة التی لا مزید علیها او البینة کل البینة لان التعریف قد یکون للتفخیم وکذا التنکیر وقد جمعهما الله ههنا فی حق الرسول علیه السلام فبدأ بالتعریف وهو لفظ

رسول وای رسول کائن منه تعالی وقوله تعالی (یتلو) صفة اخری له او حال من الضمیر فی متعلق الجار (صحفا مطهرة) ای منزهة عن الباطل لا یأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه اومن ان یمسه غیر المطهرین ونسبة تلاوتها الیه علیه السلام من حیث ان تلاوة ما فیها بمنزلة تلاوتها وقوله تعالی (فیها کتب قیمة) صفة لصحفا او حال من ضمیرها فی مطهرة ویجوز ان یکون الصفة او الحال الجار والمجرور فقط وکتب مرتفع به علی الفاعلیة ومعنی قیمة مستقیمة ناطقة بالحق والصواب وقوله تعالی (وما تفرق الذین اوتوا الکتاب) الخ کلام مسوق لغایة تشنیع اهل الکتاب خاصة وتغلیظ جنایاتهم ببیان ان ما نسب الیهم من الانفکاك لم یکن لاشتباه ما فی الامر بل کان بعد وضوح الحق وتبین الحال وانقطاع الاعذار

البينة ثم ثنى بالتنكير فقال رسول من الله اى هو رسول واى رسول ونظيره ماذكره الله تعالى فى الثناء على نفسه فقال ذو العرش المجيد ثم قال فعال فنكر بعد التعريف (القول الثانى) ان المراد من البينة مطلق الرسل وهو قول ابى مسلم قال المراد من قوله حتى تأتيهم البينة اى حتى تأتيهم رسل من ملائكة الله تتلو عليهم صحفا مطهرة وهو كقوله تعالى يسئلك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء وكقوله بل يريد كل امرئ منهم ان يؤتى صحفا منشرة (القول الثالث) وهو قول قتادة وابن زيد البينة هى القرآن ونظيره قوله أولم تأتيهم بينة ما فى الصحف الاولى ثم قوله بعد ذلك رسول من الله لابد فيه من مضاف محذوف والتقدير وتلك البينة وحى رسول من الله يتلو صحفا مطهرة اما قوله تعالى يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة فاعلم ان الصحف جمع صحيفة وهى ظرف للمكتوب وفى المطهرة وجوه (احدها) مطهرة عن الباطل وهى كقوله لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقوله مرفوعة مطهرة (وثانيها) مطهرة عن الذكر القبيح فان القرآن يذكر بأحسن الذكر ويثنى عليه احسن الثناء (وثالثها) ان يقال مطهرة اى ينبغى ان لايمسها الا المطهرون كقوله تعالى فى كتاب مكنون لايمسه الا المطهرون واعلم ان المطهرة وان جرت نعتا للصحف فى الظاهر فهى نعت لما فى الصحف وهو القرآن وقوله كتب فيه قولان (احدهما) المراد من الكتب الآيات المكتوبة فى الصحف (والثانى) قال صاحب النظم الكتب قد يكون بمعنى الحكم كقوله كتب الله لأغلبن ومنه حديث العسيف لأقضين بينكما بكتاب الله اى بحكم الله فيحتمل ان يكون المراد من قوله كتب قيمة اى احكام قيمة اما القيمة ففيها قولان (الاول) قال الزجاج مستقيمة لاعوج فيها تبين الحق من الباطل من قام يقوم كالسيد والميت وهو كقولهم قام الدليل على كذا اذا ظهر واستقام (الثانى) ان تكون القيمة بمعنى القائمة اى هى قائمة مستقلة بالحجة والدلالة من قولهم قام فلان بالامر يقوم به اذا اجراه على وجهه ومنه يقال للقائم بأمر القوم القيم (فان قيل) كيف نسب تلاوة الصحف المطهرة الى الرسول مع انه كان اميا (قلنا) اذا تلا مثل المسطور فى تلك الصحف كان تاليا ما فيها وقد جاء فى كتاب منسوب الى جعفر الصادق انه عليه السلام كان يقرأ من الكتاب وان كان لايكتب ولعل هذا كان من معجزاته اما قوله تعالى وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى هذه الآية سؤال وهو انه تعالى ذكر فى اول السورة اهل الكتاب والمشركين وههنا ذكر اهل الكتاب فقط فما السبب فيه وجوابه من وجوه (احدها) ان المشركين لم يقروا على دينهم فمن آمن فهو المراد ومن لم يؤمن قتل بخلاف اهل الكتاب الذين يقرون على كفرهم ببذل الجزية (وثانيها) ان اهل الكتاب كانوا عالمين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب انهم وجدوها فى كتبهم فاذا وصفوا بالتفرق مع العلم كان من لا كتاب له ادخل فى هذا الوصف (المسئلة الثانية) قال الجبائى هذه الآية تبطل قول القدرية الذين

بالكلية وهو السر فى وصفهم بايتاء الكتاب المنبئ عن كمال تمكنهم من مطالعته والاحاطة بما فى تضاعيفه من الاحكام والاخبار التى من جملتها نعوت النبى عليه الصلاة والسلام بعد ذكرهم فيما سبق بما هو جار مجرى اسم الجنس للطائفتين ولما كان هؤلاء والمشركون باعتبار اتفاقهم على الرأى المذكور فى حكم فريق واحد عبر عما صدر عنهم عقيب الاتفاق عند الاخبار بوقوعه بالانفكاك وعند بيان كيفية وقوعه بالتفرق اعتبارا لاستقلال كل من فريقى اهل الكتاب وايذانا بأن انفكاكهم عن الرأى المذكور ليس بطريق الاتفاق على رأى آخر بل بطريق الاختلاف القديم وقوله تعالى (الا من بعد ما جاءتهم البينة) استثناء مفرغ من اعم الاوقات اى وما تفرقوا فى وقت من الاوقات الا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة الدالة على ان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الموعود فى كتابهم دلالة جلية لاريب فيها كقوله تعالى وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم

قالوا ان الناس تفرقوا فى الشقاوة والسعادة فى اصلاب الآباء قبل ان تأتيهم البينة (والجواب) ان هذا ركيك لان المراد منه علم الله بذلك وارادته له حاصل فى الأزل اما ظهوره من المكلف فانما وقع بعد الحالة المخصوصة (المسئلة الثالثة) قالوا هذه الآية دالة على ان الكفر والتفرق فعلهم لانه مقدر عليهم لانه قال الامن بعد ماجاءتهم البينة ثم قال اوتوا الكتاب اى ان الله وملائكته آتاهم ذلك فالخير والتوفيق مضاف الى الله والشر والتفرق والكفر مضاف اليهم (المسئلة الرابعة) المقصود من هذه الآية تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم اى لايغمنك تفرقهم فليس ذلك لقصور فى الحجة بل لعنادهم فسلفهم هكذا كانوا لم يتفرقوا فى السبت وعبادة العجل الامن بعد ماجاءتهم البينة فهى عادة قديمة لهم ❊ ثم قال تعالى (وماأمروا الاليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله وماأمروا وجهان (أحدهما) ان يكون المراد وماأمروا فى التوراة والانجيل الابالدين الحنيفى فيكون المراد انهم كانوا مأمورين بذلك الاانه تعالى لمااتبعه بقوله وذلك دين القيمة علمنا ان ذلك الحكم كما انه كان مشروعا فى حقهم فهو مشروع فى حقنا (وثانيها) ان يكون المراد وماأمر أهل الكتاب على لسان محمد صلى الله وسلم الابهذه الاشياء وهذا اولى لثلاثة اوجه (أحدها) ان الآية على هذا التقدير تفيد شرعا جديدا وحمل كلام الله على مايكون أكثر فائدة أولى (وثانيها) وهو ان ذكر محمد عليه السلام قدمر ههنا وهو قوله حتى تأتيهم البينة وذكر سائر الانبياء عليهم السلام لم يتقدم (وثالثها) انه تعالى ختم الآية بقوله وذلك دين القيمة فحكم بكون ماهو متعلق هذه الآية دينا قيما فوجب ان يكون شرعا فى حقنا سواء قلنا بانه شرع من قبلنا اوشرع جديد يكون هذا بيانا لشرع محمد عليه السلام وهذا قول مقاتل (المسئلة الثانية) فى قوله الاليعبدوا الله دقيقة وهى ان هذه اللام لام الغرض فلا يمكن حمله على ظاهره لان كل من فعل فعلا لغرض فهو ناقص لذاته مستكمل بذلك الغرض فلو فعل الله فعلا لغرض لكان ناقصا لذاته مستكملا بالغير وهو محال ولان ذلك الغرض ان كان قديما لزم من قدمه قدم الفعل وان كان محدثا افتقر الى غرض آخر فلزم التسلسل وهو محال ولانه ان عجز عن تحصيل ذلك الغرض الا بتلك الواسطة فهو عاجز وان كان قادرا عليه كان توسيط تلك الواسطة عبثا فثبت انه لايمكن حمله على ظاهره فلا بد فيه من التأويل ثم قال الفراء العرب تجعل اللام فى موضع أن فى الامر والارادة كثيرا من ذلك قوله تعالى يريد الله ليبين لكم ويريدون ليطفؤا وقال فى الامر وأمرنا لنسلم وهى قراءة عبد الله وماأمروا الاأن يعبدوا الله فثبت ان المراد وماأمروا الاان يعبدوا الله مخلصين له الدين والاخلاص عبارة عن النية الخالصة والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة فقد دلت الآية على ان كل مأمور به فلابد وان يكون منويا ثم قالت الشافعية الوضوء مأمور به فى قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة

وقوله تعالى (وماامروا الاليعبدوا الله) جملة حالية مفيدة لغاية قبح مافعلوا اى والحال انهم ماامروا بما امروا فى كتابهم الا لاجل ان يعبدوا الله وقيل اللام بمعنى ان اى الا بأن يعبدوا الله ويعضده قراءة الاان يعبدوا الله (مخلصين له الدين) اى جاعلين دينهم خالصا له تعالى او جاعلين انفسهم خالصة له تعالى فى الدين (حنفاء) مائلين عن جميع العقائد الزائغة الى الاسلام

فاغسلوا وجوهكم ودلت هذه الآية على ان كل مأمور به يجب ان يكون منويا فيلزم من مجموع الآيتين وجوب كون الوضوء منويا واما المعتزلة فانهم يوجبون تعليل افعال الله واحكامه بالاغراض لاجرم اجروا الآية على ظاهرها فقالوا معنى الآية وماأمروا بشيء الا لأجل ان يعبدوا الله والاستدلال على هذا القول ايضا قوى لان التقدير وماأمروا بشيء الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين فى ذلك الشيء وهذا ايضا يقتضى اعتبار النية فى جميع المأمورات (فان قيل) النظر فى معرفة الله مأمور به ويستحيل اعتبار النية فيه لان النية لايمكن اعتبارها الا بعد المعرفة فما كان قبل المعرفة لايمكن اعتبار النية فيه (قلنا) هب انه خص عموم الآية فى هذه الصورة بحكم الدليل العقلى الذى ذكرتم فيبقى فى الباقى حجة (المسئلة الثالثة) قوله أمروا مذكور بلفظ مالم يسم فاعله وهو كقوله كتب عليكم الصيام كتب عليكم القصاص قالوا فيه وجهان (أحدها) كأنه تعالى يقول العبادة شاقة ولااريد مشقتك ارادة اصلية بل ارادتى لعبادتك كارادة الوالدة لحجامتك ولهذا لما آل الامر الى الرحمة قال كتب ربكم على نفسه الرحمة كتب فى قلوبهم الايمان وذكر فى الواقعات اذا أراد الأب من ابنه عملا يقول له اولا ينبغى ان تفعل هذا ولايأمره صريحا لانه ربما يرد عليه فتعظم جنايته فههنا ايضا لم يصرح بالامر لتخف جناية المراد (وثانيها) انا على القول بالحسن والقبح العقليين نقول كأنه تعالى يقول لست انا الآمر للعبادة فقط بل عقلك ايضا يأمرك لان النهاية فى التعظيم لمن اوصل اليك نهاية الانعام واجبة فى العقول (المسئلة الرابعة) اللام فى قوله وماأمروا الا ليعبدوا الله تدل على مذهب أهل السنة حيث قالوا العبادة ماوجبت لكونها مفضية الى ثواب الجنة أو الى البعد عن عقاب النار بل لاجل انك عبد وهو رب فلو لم يحصل فى الدين ثواب ولاعقاب البتة ثم أمرك بالعبادة وجبت لمحض العبودية وفيها ايضا اشارة الى انه من عبد الله للثواب والعقاب فالمعبود فى الحقيقة هو الثواب والعقاب والحق واسطة ونعم ماقيل من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى ومن آثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول (المسئلة الخامسة) العبادة هى التذلل ومنه طريق معبد أى مذلل ومن زعم انها الطاعة فقد أخطأ لان جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والاصنام وماأطاعوهم ولكن فى الشرع صارت اسما لكل طاعة لله أديت له على وجه التذلل والنهاية فى التعظيم واعلم ان العبادة بهذا المعنى لايستحقها الا من يكون واحدا فى ذاته وصفاته الذاتية والفعلية فان كان له مثل لم يجز ان يصرف اليه النهاية فى التعظيم ثم نقول لابد فى كون الفعل عبارة من شيئين (أحدهما) غاية التعظيم ولذلك قلنا ان صلاة الصبى ليست بعبادة لانه لايعرف عظمة الله فلايكون فعله فى غاية التعظيم (والثانى) ان يكون مأمورا به ففعل اليهودى ليس بعبادة وان تضمن نهاية التعظيم لانه غير مأمور به والنكتة الوعظية فيه ان فعل الصبى ليس بعبادة لفقد التعظيم وفعل اليهودى ليس بعبادة لفقد الامر فكيف يكون

(ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) ان اريد بهما ما فى شريعتهم من الصلاة والزكاة فالامر ظاهر وان اريد مافى شريعتنا فمعنى امرهم بهما فى الكتابين ان امرهم باتباع شريعتنا امر لهم بجميع احكامها التى هما من جملتها (وذلك) اشارة الى ماذكر من عبادة الله تعالى بالاخلاص واقامة الصلاة وايتاء الزكاة ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبته وبعد منزلته

ركوعك الناقص عبادة ولا لأمر ولا تعظيم (المسئلة السادسة) الاخلاص هو ان يأتي بالفعل خالصا لداعية واحدة ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء الى ذلك الفعل والنكت الوعظية فيه من وجوه (احدها) كأنه تعالى يقول عبدي لاتسع في اكثار الطاعة بل في اخلاصها لاني مابذلت كل مقدوري لك حتى أطلب منك مقدورك بل بذلت لك البعض فأطلب منك البعض نصفا من العشرين وشاة من الاربعين لكن القدر الذي فعلته لم أرد بفعله سواك فلا ترد بطاعتك سواي فلا تستثن من طاعتك لنفسك فضلا من ان تستثنيه لغيرك فمن ذلك المباح الذي يوجدمنك في الصلاة كالحكة والتنحنح فهو حظ استثنيته لنفسك فانتفى الاخلاص واما الالتفات المكروه فذا حظ الشيطان (وثانيها) كأنه تعالى قال ياعقل انت حكيم لاتميل الى الجهل والسفه وأنا حكيم لاافعل ذلك البتة فاذا لاتريد الا ما ارتد ولا اريد الا ما تريد ثم انه سبحانه ملك العالمين والعقل ملك لهذا البدن فكأنه تعالى بفضله قال الملك لايخدم الملك لكن أصطلح اجعل جميع ما افعله لاجلك هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا فاجعل أنت ايضا جميع ماتفعله لأجلي وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين واعلم ان قوله مخلصين نصب على الحال فهو تنبيه على مايجب من تحصيل الاخلاص من ابتداء الفعل الى انتهائه والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه والواجب لوجوبه فيأتي بالفعل لوجهه مخلصا لربه لايريد رياء ولاسمعة ولاغرضا آخر بل قالوا لايجعل طلب الجنة مقصودا ولا النجاة عن النار مطلوبا وان كان لابد من ذلك وفي التوراة ما اريد به وجهي فقليله كثير وما اريد به غير وجهي فكثيره قليل وقالوا من الاخلاص ان لايزيد في العبادات عبادة اخرى لاجل الغير مثلا الواجب من الاضحية شاة فاذا ذبحت اثنتين واحدة لله وواحدة للامير لم يجز لانه شرك وان زدت في الخشوع لان الناس يرونه لم يجز فهذا اذا خلطت بالعبادة عبادة اخرى فكيف ولو خلطت بها محظورا مثل ان تتقدم على امامك بل لايجوز دفع الزكاة الى الوالدين والمولودين ولا الى العبيد ولا الاماء لانه لم يخلص فاذا طلبت بذلك سرور والدك أوولدك يزول الاخلاص فكيف اذا طلبت مسرة شهوتك كيف يبقى الاخلاص وقد اختلفت الفاظ السلف في معنى قوله مخلصين قال بعضهم مقرين له بالعبادة وقال آخرون قاصدين بقلوبهم رضا الله في العبادة وقال الزجاج اي يعبدونه موحدين له لايعبدون معه غيره ويدل على هذا قوله وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا أما قوله تعالى حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ففيه اقوال (الاول) قال مجاهد متبعين دين ابراهيم عليه السلام ولذلك قال تعالى ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين (وهذا التفسير فيه لطيفة) كأنه سبحانه لما علم ان التقليد مستول على الطباع لم يستجز منعه عن التقليد بالكلية ولم يستجز التعويل على التقليد ايضا بالكلية فلاجرم ذكر قوما أجمع الخلق بالكلية على تزكيتهم وهو ابراهيم ومن معه فقال قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم

(دين القيمة) اي دين الملة القيمة وقرئ الدين القيمة على تأويل الدين بالملة هذا وقد قيل قوله تعالى لم يكن الذين كفروا الى قوله كتب قيمة حكاية لما كانوا يقولونه قبل مبعثه عليه السلام من انهم لاينفكون عن دينهم الى مبعثه ويعدون ان ينفكوا عنه حينئذ ويتفقوا على الحق وقوله تعالى وماتفرق الذين اوتوا الكتاب الخ بيان لاخلافهم الوعد

والذين معه فكأنه تعالى قال ان كنت تقلد أحدا فى دينك فكن مقلدا ابراهيم حيث تبرأ من الاصنام وهذا غير عجيب فأنه قد تبرأ من نفسه حين سلمها الى النيران ومن ماله حين بذله للضيفان ومن ولده حين بذله للقربان بل روى انه سمع سبوح قدوس فاستطابه ولم ير شخصا فاستعاده فقال أما بغير أجر فلا فبذل كل ماملكه فظهر له جبريل عليه السلام وقال حق لك حيث سماك خليلا فخذ مالك فان القائل كنت أنا بل انقطع الى الله حتى عن جبريل حين قال له أما اليك فلا فالحق سبحانه وتعالى كأنه يقول ان كنت عابدا فاعبد كعبادته فاذا لم تترك الحلال وأبواب السلاطين أما تترك الحرام وموافقة الشياطين فان لم تقدر على متابعة ابراهيم عليه السلام فاجتهد فى متابعة ولده الصبى كيف انقاد لحكم ربه مع صغره فدعنقه لحكم الرؤيا وان كنت دون الرجل فاتبع الموسوم بنقصان العقل وهو ام الذبيح كيف تجرعت تلك الغصة ثم ان المرأة الحرة نصف الرجل فان الثنتين يقومان مقام الرجل الواحد فى الشهادة والارث والرقيقة نصف الحرة بدليل ان للحرة ليلتين من القسم فهاجر كانت ربع الرجل ثم انظر انها كيف اطاعت ربها فتحملت المحنة فى ولدها ثم صبرت حين تركها الخليل وحيدة فريدة فى جبال مكة بلا ماء ولا زاد وانصرف ولا يكلمها ولا يعطف عليها قالت آلله أمرك بهذا فأومأ برأسه نعم فرضيت بذلك وصبرت على تلك المشاق (القول الثانى) المراد من قوله حنفاء اى مستقيمين والحنف هو الاستقامة وانما سمى مائل القدم أحنف على سبيل التفاؤل كقولنا للاعمى بصير وللمهلكة مفازة ونظيره قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا اهدنا الصراط المستقيم (القول الثالث) قال ابن عباس رضى الله عنهما حجاجا وذلك لانه ذكر العباد اولا ثم قال حنفاء وانما قدم الحج على الصلاة لان فى الحج صلاة وانفاق مال (الرابع) قال ابو قلابة الحنيف الذى آمن بجميع الرسل ولم يستثن احدا منهم فمن لم يؤمن بأفضل الانبياء كيف يكون حنيفا (الخامس) حنفاء اى جامعين لكل الدين اذ الحنيفية كل الدين قال عليه السلام بعثت بالحنيفية السهلة السمحة (السادس) قال قتادة هى الختان وتحريم نكاح المحارم اى مختونين محرمين لنكاح الام والمحارم فقوله حنفاء اشارة الى النفى ثم اردفه بالاثبات وهو قوله ويقيموا الصلاة (السابع) قال ابو مسلم اصله من الحنف فى الرجل وهو ادبار ابهامها عن اخواتها حتى يقبل على ابهام الاخرى فيكون الحنيف هو الذى يعدل عن الاديان كلها الى الاسلام (الثامن) قال الربيع بن أنيس الحنيف الذى يستقبل القبلة بصلاته وانما قال ذلك لانه عند التكبير يقول وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا واما الكلام فى اقامة الصلاة وايتاء الزكاة فقد مر مرارا كثيرة ثم قال تعالى وذلك دين القيمة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال المبرد والزجاج ذلك دين الملة القيمة فالقيمة نعت لموصوف محذوف والمراد من القيمة اما المستقيمة او القائمة وقد ذكرنا هذين القولين فى قوله كتب قيمة وقال الفراء هذا من

وتمكينهم الامر بجعلهم ما هو سبب لانفكاكهم عن دينهم الباطل حسبا وعدوه سببا لثباتهم عليه وعدم انفكاكهم عنه ومثل ذلك بأن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه لأنفك عما انا فيه حتى استغنى فيستغنى فيزداد فسقا فيقول له واعظه لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر وماعكفت على الفسق الابعد اليسار وانت خبير بأن هذا انما يتسنى بعد اللتيا والتى على

(اضافة)

اضافة النعت الى المنعوت كقوله تعالى ان هذا لهو حق اليقين والهاء للمبالغة كما فى قوله كتب قيمة (المسئلة الثانية) فى هذه الآية لطائف (احداها) ان الكمال فى كل شئ انما يحصل اذا حصل الاصل والفرع معا فقوم اطنبوا فى الاعمال من غير احكام الاصول وهم اليهود والنصارى والمجوس فانهم ربما اتعبوا انفسهم فى الطاعات ولكنهم ما حصلوا الدين الحق وقوم حصلوا الاصول واهملوا الفروع وهم المرجئة الذين قالوا لا يضر الذنب مع الايمان والله تعالى خطأ الفريقين فى هذه الآية وبين انه لا بد من العلم والاخلاص فى قوله مخلصين ومن العمل فى قوله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ثم قال وذلك المجموع كله هو دين القيمة أى البينة المستقيمة المعتدلة فكما ان مجموع الاعضاء بدن واحد كذا هذا المجموع دين واحد فقلب دينك الاعتقاد ووجهه الصلاة ولسانه الواصف لحقيته الزكاة لان باللسان يظهر قدر فضلك وبالصدقة يظهر قدر دينك ثم ان القيم من يقوم بمصالح من يعجز عن اقامة مصالح نفسه فكأنه سبحانه يقول القائم بتحصيل مصالحك عاجلا وآجلا هو هذا المجموع ونظيره قوله تعالى دينا قيما وقوله فى القرآن قيما لينذر بأسا شديدا لان القرآن هو القيم بالارشاد الى الحق ويؤيده قوله عليه السلام من كان فى عمل الله كان الله فى عمله وأوحى الله تعالى الى داود يا دنيا من خدمك فاستخدميه ومن خدمنى فاخدميه (وثانيها) ان المحسنين فى افعالهم هم مثل الحق سبحانه وذلك بالاحسان الى عبيده والملائكة وذلك بأن اشتغلوا بالتسبيح لخالقهم فالاحسان من الله لا من الملائكة والتعظيم والعبودية من الملائكة لا من الله ثم ان الانسان اذا احضر عرصة القيامة فيقول الله مباهيا بهم ملائكتى هؤلاء امثالكم سبحوا وهللوا بل فى بعض الافعال امثالى احسنوا وتصدقوا ثم انى اكرمكم يا ملائكتى بمجرد ما أتيتم به من العبودية وأنتم تعظمونى بمجرد ما فعلت من الاحسان فهؤلاء جمعوا بين الامرين أقاموا الصلاة أتوا بالعبودية وآتوا الزكاة أتوا بالاحسان فأنتم صبرتم على احد الامرين وهم صبروا على الامرين فتتعجب الملائكة منهم وينصبون اليهم النظارة فلهذا قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم أفلا يكون هذا الدين قيما (وثالثها) ان الدين كالنفس فحياة الدين بالمعرفة ثم النفس العالمة بلا قدرة كالزمن العاجز والقادرة بلا علم مجنونة فاذا اجتمع العلم والقدرة كانت النفس كاملة فكذا الصلاة للدين كالعلم والزكاة كالقدرة فاذا اجتمعتا سمى الدين قيمة (ورابعها) وهو فائدة الترتيب ان الحكيم تعالى أمر رسوله أن يدعوهم الى اسهل شئ وهو القول والاعتقاد فقال مخلصين ثم لما اجابوه زاد فسألهم الصلاة التى بعد أدائها تبقى النفس سالمة كما كانت ثم لما اجابوه وأراد منهم الصدقة وعلم انها تشق عليهم قال لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول ثم لما ذكر الكل قال وذلك دين القيمة (المسئلة الثالثة) احتج من قال الايمان عبارة عن مجموع القول والاعتقاد والعمل بهذه الآية فقال مجموع القول والفعل والعمل هو الدين والدين هو الاسلام

تقدير ان يراد بالتفرق تفرقهم عن الحق بأن يقال التفرق عن الحق مستلزم للثبات على الباطل فكأنه قيل وما اجمعوا على دينهم الا من بعد ما جاءتهم البينة واما على تقدير ان يراد به تفرقهم فرقا فنهم من آمن ومنهم من انكر ومنهم من عرف وعاند كما جوزه القائل فلا فتأمل (ان الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم) بيان لحال الفريقين فى الاخرة بعد بيان

والاسلام هو الايمان فاذا مجموع القول والفعل والعمل هو الايمان لانه تعالى ذكر في هذه الآية مجموع هذه الثلاثة ثم قال تعالى وذلك دين القيمة اى وذلك المذكور هو دين القيمة وانما قلنا ان الدين هو الاسلام لقوله تعالى ان الدين عندالله الاسلام وانما قلنا ان الاسلام هو الايمان لوجهين (الاول) ان الايمان لو كان غير الاسلام لما كان مقبولا عندالله تعالى لقوله تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه لكن الايمان بالاجماع مقبول عندالله فهو اذا عين الاسلام (والثانى) قوله تعالى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين فاستثناء المسلم من المؤمن يدل على ان الاسلام يصدق عليه واذا ثبتت هذه المقدمات ظهر ان مجموع هذه الثلاثة اعنى القول والفعل والعمل هو الايمان وحينئذ يبطل قول من قال الايمان اسم لمجرد المعرفة او لمجرد الاقرار او لهما معا (والجواب) لم لايجوز ان تكون الاشارة بقوله وذلك الى الاخلاص فقط والدليل عليه انا على هذا التقدير لانحتاج الى الاضمار وانتم تحتاجون الى الاضمار فتقولون المراد وذلك المذكور ولاشك ان عدم الاضمار اولى سلمنا ان قوله وذلك اشارة الى مجموع ماتقدم لكنه يدل على ان ذلك المجموع هو الدين القيم فلم قلتم ان ذلك المجموع هو الدين وذلك لان الدين غير والدين القيم غير فالدين القيم هو الدين الكامل المستقل بنفسه وذلك انما يكون اذا كان الدين حاصلا وكانت آثاره ونتائجه معه حاصلة أيضا وهى الصلاة والزكاة واذا لم يوجد هذا المجموع لم يكن الدين القيم حاصلا لكن لم قلتم ان اصل الدين لايكون حاصلا والنزاع ما وقع الافيه والله تعالى اعلم* قوله تعالى (ان الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها اولئك هم شر البرية) اعلم انه تعالى لما ذكر حال الكفار اولا فى قوله لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين ثم ذكر ثانيا حال المؤمنين فى قوله وما امروا الاليعبدوا الله أعاد فى آخر هذه السورة ذكر كلا الفريقين فبدأ ايضا بحال الكفار فقال ان الذين كفروا واعلم انه تعالى ذكر من احوالهم امرين (احدهما) الخلود فى نار جهنم (والثانى) انهم شر الخلق وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم قدم اهل الكتاب على المشركين فى الذكر (الجواب) من وجوه (احدها) انه عليه الصلاة والسلام كان يقدم حق الله سبحانه على حق نفسه ألاترى ان القوم لما كسروا رباعيته قال اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون ولما فاتته صلاة العصر يوم الخندق قال اللهم املأ بطونهم وقبورهم نارا فكأنه عليه السلام قال كانت الضربة ثم على وجه الصورة فى يوم الخندق على وجه السيرة التى هى الصلاة ثم انه سبحانه قضاه ذلك فقال كما قدمت حقى على حقك فأنا ايضا اقدم حقك على حق نفسى فمن ترك الصلاة طول عمره لايكفر ومن طعن فى شعرة من شعراتك يكفر اذا عرفت ذلك فنقول اهل الكتاب ما كانوا يطعنون فى الله بل فى الرسول واما المشركون فانهم كانوا يطعنون فى الله فلما أراد الله تعالى فى هذه الآية ان يذكر سوء حالهم بدأ اولا فى النكاية بذكر من طعن فى

حالهم فى الدنيا وذكر المشركين لئلا يتوهم اختصاص الحكم بأهل الكتاب حسب اختصاص مشاهدة شواهد النبوة فى الكتاب بهم ومعنى كونهم فيها انهم يصيرون اليها يوم القيامة وايراد الجملة الاسمية للايذان بتحقق مضمونها لامحالة اوانهم فيها الآن اما على تنزيل ملابستهم لما يوجبها منزلة ملابستهم لها واما على ان ماهم فيه من الكفر والمعاصى عين النار الاانها ظهرت

محمد عليه الصلاة والسلام وهم اهل الكتاب ثم ثانيا بذكر من طعن فيه تعالى وهم المشركون (وثانيها) ان جناية اهل الكتاب فى حق الرسول عليه السلام كانت اعظم لان المشركين رأوه صغيرا ونشأ فيما بينهم ثم سفه احلامهم وابطل اديانهم وهذا أمر شاق اما اهل الكتاب فقد كانوا يستفتحون برسالته ويقرون ببعثه فلما جاءهم انكروه مع العلم به فكانت جنايتهم أشد (السؤال الثانى) لم ذكر كفروا بلفظ الفعل والمشركين باسم الفاعل (الجواب) تنبيها على ان اهل الكتاب ما كانوا كافرين من اول الامر لانهم كانوا مصدقين بالتوراة والانجيل ومقرين ببعث محمد صلى الله عليه وسلم ثم انهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام بخلاف المشركين فانهم ولدوا على عبادة الاوثان وانكار الحشر والقيامة (السؤال الثالث) ان المشركين كانوا ينكرون الصانع وينكرون النبوة وينكرون القيامة اما اهل الكتاب فكانوا مقرين بكل هذه الاشياء الا انهم كانوا منكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فكان كفر اهل الكتاب اخف من كفر المشركين واذا كان كذلك فكيف يجوز التسوية بين الفريقين فى العذاب (الجواب) يقال بئر جهنام اذا كان بعيد القعر فكأنه تعالى يقول تكبروا طلبا للرفعة فصاروا الى اسفل السافلين ثم ان الفريقين وان اشتركا فى ذلك لكنه لا ينافى اشتراكهم فى هذا القدر تفاوتهم فى مراتب العذاب واعلم ان الوجه فى حسن هذا العذاب ان الاساءة على قسمين اساءة الى من أساء اليك واساءة الى من احسن اليك وهذا القسم الثانى هو اقبح القسمين والاحسان أيضا على قسمين احسان الى من أحسن اليك واحسان الى من أساء اليك وهذا أحسن القسمين فكان احسان الله الى هؤلاء الكفار اعظم انواع الاحسان واساءتهم وكفرهم أقبح انواع الاساءة ومعلوم ان العقوبة انما تكون بحسب الجناية فبالشتم تعزير وبالقذف حد وبالسرقة قطع وبالزنا رجم وبالقتل قصاص بل شتم المماثل يوجب التعزير والنظر الشزر الى الرسول يوجب القتل فلما كانت جناية هؤلاء الكفار اعظم الجنايات لاجرم استحقوا اعظم العقوبات وهو نار جهنم فانها نار فى موضع عميق مظلم هائل لا مفر عنه البتة ثم كأنه قال قائل هب انه ليس هناك رجاء الفرار فهل هناك رجاء الاخراج فقال لا بل يبقون خالدين فيها ثم كأنه قيل فهل هناك احد يرق قلبه عليهم فقال لا بل يذمونهم ويلعنونهم لانهم شر البرية (السؤال الرابع) ما السبب فى أنه لم يقل ههنا خالدين فيها أبدا وقال فى صفة اهل الثواب خالدين فيها أبدا (الجواب) من وجوه (احدها) التنبيه على ان رحمته ازيد من غضبه (وثانيها) ان العقوبات والحدود والكفارات تتداخل اما الثواب فاقسامه لا تتداخل (وثالثها) روى حكاية عن الله انه قال ياداود حببنى الى خلقى قال وكيف افعل ذلك قال اذكر لهم سعة رحمتى فكان هذا من هذا الباب (السؤال الخامس) كيف القراءة فى لفظ البرية (الجواب) قرأ نافع البريئة بالهمز وقرأ الباقون بغير همز وهو من برأ الله الخلق والقياس فيها الهمز الا انه ترك همزه

فى هذه النشاة بصور عرضية وسيخلعها فى النشـاة الآخرة وتظهر بصورتها الحقيقية كما فى قوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين فى سورة العنكبوت (خالدين فيها) حال من المستكن فى الخبر واشتراك الفريقين فى دخول دار العذاب بطريق الخلود لا ينافى تفاوت عذابهم فى الكيفية فان جهنم دركات وعذابها الوان (اولئك) اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بما هم فيه من القبائح المذكورة ومافيه من معنى البعد للاشعار بغاية بعد منزلتهم فى الشر اى اولئك البعداء المذكورون (هم شر البرية) شر الخليقة اى اعمالا

كالنبي والذرية والخابية والهمز فيه كالرد الى الاصل المتروك فى الاستعمال كما ان من همز النبي كان كذلك وترك الهمز فيه اجود وان كان الهمز هو الاصل لان ذلك صار كالشئ المرفوض المتروك وهمز من همز البرية يدل على فساد قول من قال انه من البرا الذى هو التراب (السؤال السادس) ما الفائدة فى قوله هم شر البرية (الجواب) انه يفيد النفي والاثبات اى هم دون غيرهم واعلم ان شر البرية جملة يطول تفصيلها شر من السراق لانهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد صلى الله عليه وسلم وشر من قطاع الطريق لانهم قطعوا طريق الحق على الخلق وشر من الجهال الاجلاف لان الكبر مع العلم يكون كفر عناد فيكون اقبح واعلم ان هذا تنبيه على ان وعيد علماء السوء اعظم من وعيد كل احد (السؤال السابع) هذه الآية هل هى مجراة على عمومها (الجواب) لا بل هى مخصوصة بصورتين (احداهما) ان من تاب منهم واسلم خرج عن الوعيد (والثانية) قال بعضهم لا يجوز ان يدخل فى الآية من مضى من الكفار لان فرعون كان شرا منهم فاما الآية الثانية وهى الآية الدالة على ثواب المؤمنين فعامة فيمن تقدم وتأخر لانهم افضل الامم

※ قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية) فيه مسائل (المسئلة الاولى) الوجه فى حسن تقديم الوعيد على الوعد وجوه (احدها) ان الوعيد كالدواء والوعد كالغذاء ويجب تقديم الدواء حتى اذا صار البدن نقيا انتفع بالغذاء فان كان البدن غير النقي كلما غذوته زدته شرا هكذا قاله بقراط فى كتاب الفصول (وثانيها) ان الجلد بعد الدبغ يصير صالحا للمداس والخف اماقبله فلا ولذلك فان الانسان متى وقع فى محنة اوشدة رجع الى الله تعالى فاذا نال الدنيا اعرض على ما قال فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون (وثالثها) ان فيه بشارة كأنه تعالى يقول لما لم يكن بد من الامرين ختمت بالوعد الذى هو بشارة منى فى أنى أختم أمرك بالخير ألست كنت نجسا فى مكان نجس ثم اخرجتك الى الدنيا طاهرا أفلا اخرجك الى الجنة طاهرا (المسئلة الثانية) احتج من قال ان الطاعات ليست داخلة فى مسمى الايمان بأن الاعمال الصالحة معطوفة فى هذه الآية على الايمان والمعطوف غير المعطوف عليه (المسئلة الثالثة) قال تعالى ان الذين آمنوا ولم يقل ان المؤمنين اشارة الى انهم اقاموا سوق الاسلام حال كساده وبذلوا الاموال والمهج لاجله ولهذا السبب استحقوا الفضيلة العظمى كما قال تعالى لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ولفظة آمنوا اى فعلوا الايمان مرة واعلم ان الذين يعتبرون الموافاة يحتجون بهذه الآية وذلك لانها تدل على ان من اتى بالايمان مرة واحدة فله هذا الثواب والذى يموت على الكفر لا يكون له هذا الثواب فعلمنا انه ماصدر الايمان عنه فى الحقيقة قبل ذلك (المسئلة الرابعة) قوله تعالى وعملوا الصالحات من مقابلة الجمع بالجمع فلا يكلف الواحد بجميع الصالحات بل لكل مكلف حظ فحظ الغنى الاعطاء وحظ الفقير الاخذ (المسئلة الخامسة) احتج بعضهم بهذه الآية فى تفضيل البشر على

وهو الموافق لما سيأتى فى حق المؤمنين فيكون فى حيز التعليل لخلودهم فى النار اوشرهم مقاما ومصيرا فيكون تأكيدا لفظاعة حالهم وقرئ بالهمز على الاصل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لمحاسن احوال المؤمنين اثر بيان سوء حال الكفرة جريا على السنة القرآنية من شفع الترهيب بالترغيب (اولئك) المنعوتون بما هو فى الغاية القاصية من الشرف والفضيلة من الايمان والطاعة (هم خير البرية) وقرئ خيار البرية وهو جمع خير نحو جيد وجياد

الملك قالوا روى ابو هريرة انه عليه السلام قال اتعجبون من منزلة الملائكة من الله تعالى والذى نفسى بيده لمنزلة العبد المؤمن عندالله يوم القيامة اعظم من ذلك واقرؤا ان شئتم ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية واعلم ان هذا الاستدلال ضعيف لوجوه (احدها) ماروى عن يزيد النحوى ان البرية بنو آدم من البرا وهو التراب فلا يدخل الملك فيه البتة (وثانيها) ان قوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات غير مختص بالبشر بل يدخل فيه الملك (وثالثها) ان الملك خرج عن النص بسائر الدلائل قالوا وذلك لان الفضيلة اما مكتسبة اوموهوبة فان نظرت الى الموهوبة فأصلهم من نور وأصلك من حمأ مسنون ومسكنهم دار لم يترك فيها ابوك مع الزلة ومسكنكم ارض هى مسكن الشياطين وايضا فصالحنا منتظمة بهم ورزقنا فى يد البعض وروحنا فى يد البعض ثم هم العلماء ونحن المتعلمون ثم انظر الى عظيم همتهم لايميلون الى محقرات الذنوب ومن ذلك فان الله تعالى لم يحك عنهم سوى دعوى الالهية حين قال ومن يقل منهم انى اله من دونه اى لو اقدموا على ذنب فهمتهم بلغت غاية لايليق بها الا دعوى الربوبية وانت ابدا عبد البطن والفرج واما العبادة فهم اكثر عبادة من النبى لانه تعالى مدح النبى باحياء ثلثى الليل وقال فيهم يسبحون الليل والنهار لايفترون ومرة لايسأمون وتمام القول فى هذه المسئلة قدتقدم فى سورة البقرة ❊ قوله تعالى (جزاؤهم عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا رضى الله عنهم ورضوا عنه) اعلم ان التفسير ظاهر ونحن نذكر مافيها من اللطائف فى مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان المكلف لما تأمل وجد نفسه مخلوقا من المحن والآفات فصاغه من انجس شئ فى اضيق مكان الى ان خرج باكيا لالفراق ولكن مشتكيا من وحشة الحبس ليرحم كالذى يطلق من الحبس بغلبة البكاء ليرحم ثم لم يرحم بل شدته القابلة ولم يكن مشدودا فى الرحم ثم لم يمض قليل مدة حتى ألقوه فى المهد وشدوه بالقماط ثم لم يمض قليل سلموه الى استاذ يحبسه فى المكتب ويضربه على التعليم وهكذا الى ان بلغ الحلم ثم بعد ذلك شد بمسامير العقل والتكليف ثم ان المكلف يصير كالمتحير يقول من الذى يفعل فى هذه الافعال مع انه ماصدرت عنى جناية فلم يزل يتفكر حتى ظفر بالفاعل فوجده عالما لايشبه العالمين وقادرا لايشبه القادرين وعرف ان كل ذلك وان كان صورته المحنة لكن حقيقته محض الكرم والرحمة فترك الشكاية وأقبل على الشكر ثم وقع فى قلب العبد ان يقابل احسانه بالخدمة له والطاعة فجعل قلبه مسكنا لسلطان عرفانه فكأن الحق قال عبدى انزل معرفتى فى قلبك حتى لايخرجها منه شئ او يسبقها هناك فيقول العبد يارب انزلت حب الثدى فى قلبى ثم اخرجته وكذا حب الاب والام وحب الدنيا وشهواتها واخرجت الكل الا حبك وعرفانك فلا اخرجهما من قلبى ثم انه لمابقيت المعرفة والمحبة فى ارض القلب انفجر من هذا الينبوع انهار وجداول فالجدول الذى وصل الى العين حصل منه الاعتبار والذى وصل الى الاذن حصل منه

(جزاؤهم) بمقابلة مالهم من الايمان والطاعة (عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الانهار) ان اريد بالجنات الاشجار الملتفة الاغصان كما هو الظاهر فجريان الانهار من تحتها ظاهر وان اريد بها مجموع الارض وما عليها فهو باعتبار الجزء الظاهر واياما كان فالمراد جريانها بغير اخدود (خالدين فيها ابدا) متنعمين

استماع مناجاة الموجودات وتسبيحاتهم وهكذا فى جميع الاعضاء والجوارح فيقول الله عبدى جعلت قلبك كالجنة لى واجريت فيه تلك الانهار دائمة مخلدة فأنت مع عجزك وقصورك فعلت هذا فأنا اولى بالجود والكرم والرحمة لجنة بجنة فلهذا قال جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الانهار بل كأن الكريم الرحيم يقول عبدى اعطانى كل ماملكه وأنا اعطيته بعض مافى ملكى وانا اولى منه بالكرم والجود فلاجرم جعلت هذا البعض منه موهوبا دائما مخلدا حتى يكون دوامه وخلوده جابرا لما فيه من النقصان الحاصل بسبب البعضية (المسئلة الثانية) الجزاء اسم لما يقع به الكفاية ومنه اجتزت الماشية بالحشيش الرطب عن الماء فهذا يفيد معنيين (احدهما) انه يعطيه الجزاء الوافر من غير نقص (والثانى) انه تعالى يعطيه مايقع به الكفاية فلايبقى فى نفسه شئ الا والمطلوب يكون حاصلا على ماقال ولكم فيهاما تشتهى انفسكم (المسئلة الثالثة) قال جزاؤهم فأضاف الجزاء اليهم والاضافة المطلقة تدل على الملكية فكيف الجمع بينه وبين قوله الذى أحلنا دار المقامة من فضله (الجواب) اما اهل السنة فانهم يقولون انه لو قال الملك الكريم من حرك اصبعه اعطيته الف دينار فهذا شرط وجزاء بحسب اللغة وبحسب الوضع لابحسب الاستحقاق الذاتى فقوله جزاؤهم يكفى فى صدقه هذا المعنى واما المعتزلة فانهم قالوا فى قوله تعالى الذى أحلنا دار المقامة من فضله ان كلمة من لابتداء الغاية فالمعنى ان استحقاق هذه الجنان انما حصل بسبب فضلك السابق فانك لولا انك خلقتنا واعطيتنا القدرة والعقل وأزلت الاعذار واعطيت الالطاف والا لما وصلنا الى هذه الدرجة (فان قيل) فاذا كان لاحق لأحد عليه فى مذهبكم فما السبب فى التزام مثل هذا الانعام (قلنا) أتسأل عن انعامه الامسى حال عدمنا اوعن انعامه اليومى حال التكليف اوعن انعامه فى غد القيامة فان سألت عن الامسى فكأنه يقول انامنزه عن الانتفاع والمائدة مملوءة من المنافع فلولم اخلق الخلق لضاعت هذه المنافع فكما ان من له مال ولاعيال له فانه يشترى العبيد والجوارى لينتفعوا بماله فهو سبحانه اشترى من دار العدم هذا الخلق لينتفعوا بملكه كما روى الخلق عيال الله واما اليومى فالنعمان يوجب الاتمام بعد الشروع فالرحمن اولى واما الغد فانا مديونهم بحكم الوعد والاخبار فكيف لاأفى بذلك (المسئلة الرابعة) فى قوله تعالى عندربهم لطائف (احداها) قال بعض الفقهاء لو قال لاشئ لى على فلان فهذا يختص بالديون وله ان يدعى الوديعة ولو قال لاشئ لى عند فلان انصرف الى الوديعة دون الدين ولو قال لاشئ لى قبل فلان انصرف الى الدين والوديعة معا اذا عرفت هذا فقوله عندربهم يفيد انه وديعة والوديعة عين ولو قال لفلان على كذا فهو اقرار بالدين والعين اشرف من الدين فقوله عند ربهم يفيد انه كالمال المعين الحاضر العتيد (فان قيل) الوديعة امانة وغير مضمونة والدين مضمون والمضمون خير مما كان غير مضمون (قلنا) المضمون خير اذا تصور الهلاك فيه وهذا فى حق الله تعالى محال

بفنون النعم الجسمانية والروحانية وفى تقديم مدحهم بخيرية البرية وذكر الجزاء المؤذن بكون مامنحوه فى مقابلة ماوصفوا به وبيان كونه من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميرهم وجمع الجنات وتقييدها بالاضافة وبما يزيدها نعيما وتأكيد الخلود

(فلا)

فلاجرم قلنا الوديعة هناك خير من المضمون (وثانيها) اذا وقعت الفتنة فى البلدة فوضعت
مالك عند امام المحلة سبيل الوديعة صرت فارغ القلب فههنا ستقع الفتنة فى بلدة
بدنك وحينئذ تخاف الشياطين من ان يغيروا عليها فضع وديعة أمانتك عندى فانى اكتب
لك كتابا يتلى فى المحاريب الى يوم القيامة وهو قوله جزاؤهم عند ربهم حتى اسلمه اليك
احوج ماتكون اليه وهو فى عرصة القيامة (وثالثها) انه قال عند ربهم وفيه بشارة
عظيمة كأنه تعالى يقول انا الذى ربيتك اولا حين كنت معدوما صفر اليد من الوجود
والحياة والعقل والقدرة فخلقتك واعطيتك كل هذه الاشياء فحين كنت مطلقا اعطيتك
هذه الاشياء وماضيعتك اترى انك اذا اكتسبت شيئا وجعلته وديعة عندى فأنا اضيعها
كلا ان هذا ممالايكون (المسئلة الخامسة) قوله جزاؤهم عند ربهم جنات فيه قولان
(احدهما) انه قابل الجمع بالجمع وهو يقتضى مقابلة الفرد بالفرد كما لو قال لامرأتيه او عبديه
ان دخلتما هاتين الدارين فأنتما كذا فيحمل هذا على ان يدخل كل واحد منهما دارا على
حدة وعن ابى يوسف لم يحنث حتى يدخلا الدارين وعلى هذا ان ملكتما هذين العبدين
ودليل القول الاول جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم فعلى القول الاول بين
ان الجزاء لكل مكلف جنة واحدة لكن ادنى تلك الجنات مثل الدنيا بما فيها عشر
مرات كذا روى مرفوعا ويدل عليه قوله تعالى وملكا كبيرا ويحتمل ان يراد لكل
مكلف جنات كما روى عن ابى يوسف وعليه يدل القرآن لانه قال ولمن خاف مقام ربه
جنتان ثم قال تعالى ومن دونهما جنتان فذكر اربعا لا واحدا والسبب فيه انه بكى من خوف الله
وذلك البكاء انما نزل من اربعة اجفان اثنان دون الاثنين فاستحق جنتين دون الجنتين
فحصلت له اربع جنات لسكبه البكاء من اربعة اجفان ثم انه تعالى قدم الخوف فى قوله
ولمن خاف مقام ربه جنتان وأخر الخوف فى هذه الآية لانه ختم السورة بقوله ذلك لمن
خشى ربه وفيه اشارة الى انه لابد من دوام الخوف اما قبل العمل فالحاصل خوف
الاختلال واما بعد العمل فالحاصل خوف الخلال اذ هذه العبادة لاتليق بتلك الحضرة
(المسئلة السادسة) قوله عدن يفيد الاقامة لايخرجون منها وماهم منها بمخرجين
لايبغون عنها حولا يقول عدن بالمكان اقام وروى ان جنات عدن وسط الجنة وقيل
عدن من المعدن اى هى معدن النعيم والامن والسلامة قال بعضهم انها سميت جنة
امامن الجن اوالجنون اوالجنة اوالجنين فان كانت من الجن فهم المخصوصون بسرعة
الحركة يطوفون العالم فى ساعة واحدة فكأنه تعالى قال انها فى ايصال المكلف الى
مشتهياته فى غاية الاسراع مثل حركة الجن مع انها دار اقامة وعدن واما من الجنون
فهو ان الجنة بحيث لو آرها العاقل يصير كالمجنون لولا ان الله بفضله يثبته واما من الجنة
فلأنها جنة واقية تقيك من النار اومن الجنين فلأن المكلف يكون فى الجنة فى غاية التنعم
ويكون كالجنين لايمسه برد ولاحر لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا (المسئلة السابعة) قوله

بالابود من الدلالة على غاية حسن
حالهم مالايخفى (رضى الله عنهم)
استئناف مبين لما يتفضل عليهم
زيادة على ماذكر من أجزية
أعمالهم (ورضوا عنه) حيث
بلغوا من المطالب قاصيتها وملكوا
من المآرب ناصيتها وأتيح لهم مالا
عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر
على قلب بشر (ذلك) أى ماذكر
من الجزاء والرضوان (لمن خشى

تجرى اشارة الى ان الماء الجارى الطف من الراكد ومن ذلك النظر الى الماء الجارى يزيد نورا فى البصر بل كأنه تعالى قال طاعتك كانت جارية مادمت حيا على ماقال واعبد ربك حتى يأتيك اليقين فوجب ان تكون انهارا كرامى جارية الى الأبد ثم قال من تحتها اشارة الى عدم التنغيص وذلك لان التنغيص فى البستان اما بسبب عدم الماء الجارى فذكر الجرى الدائم واما بسبب الغرق والكثرة فذكر من تحتها ثم الالف واللام فى الانهار للتعريف فتكون منصرفة الى الانهار المذكورة فى القرآن وهى نهر الماء واللبن والعسل والخمر واعلم ان النهار والانهار من السعة والضياء فلا تسمى الساقية نهرا بل العظيم هو الذى يسمى نهرا بدليل قوله وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار فعطف ذلك على البحر (المسئلة الثامنة) اعلم انه تعالى لما وصف الجنة اتبعه بما هو افضل من الجنة وهو الخلود اولا والرضا ثانيا روى انه عليه السلام قال ان الخلود فى الجنة خير من الجنة ورضا الله خير من الجنة (اما الصفة الاولى) وهى الخلود فاعلم ان الله سبحانه وصف الجنة مرة بجنات عدن ومرة بجنات النعيم ومرة بدار السلام وهذه الاوصاف الثلاثة انما حصلت لانك ركبت ايمانك من امور ثلاثة اعتقاد وقول وعمل (واما الصفة الثانية) وهى الرضا فاعلم ان العبد مخلوق من جسد وروح فجنة الجسد هى الجنة الموصوفة وجنة الروح هى رضا الرب والانسان مبتدأ امره من عالم الجسد ومنتهى امره من عالم العقل والروح فلاجرم ابتدأ بالجنة وجعل المنتهى هو رضا الله ثم انه قدم رضا الله عنهم على قوله ورضوا عنه لان الازلى هو المؤثر فى المحدث والمحدث لايؤثر فى الازلى (المسئلة التاسعة) انما قال رضى الله عنهم ولم يقل رضى الله الرب عنهم ولا سائر الاسماء لان اشد الاسماء هيبة وجلالة لفظ الله لانه هو الاسم الدال على الذات والصفات بأسرها اعنى صفات الجلال وصفات الاكرام فلو قال رضى الرب عنهم لم يشعر ذلك بكمال طاعة العبد لان المربى قد يكتفى بالقليل اما لفظ الله فيفيد غاية الجلالة والهيبة وفى مثل هذه الحضرة لايحصل الرضا الا بالفعل الكامل والخدمة التامة فقوله رضى الله عنهم يفيد تطرية فعل العبد من هذه الجنة (المسئلة العاشرة) اختلفوا فى قوله رضى الله عنهم فقال بعضهم معناه رضى اعمالهم وقال بعضهم المراد رضى بأن يمدحهم ويعظمهم قال لان الرضا عن الفاعل غير الرضا بفعله وهذا هو الاقرب واما قوله ورضوا عنه فالمراد انهم رضوا بما جازاهم من النعيم والثواب ※ اما قوله تعالى (ذلك لمن خشى ربه) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) الخوف فى الطاعة حال حسنة قال تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ولعل الخشية اشد من الخوف لانه تعالى ذكره فى صفات الملائكة مقرونا بالاشفاق الذى هو اشد الخوف فقال هم من خشية ربهم مشفقون والكلام فى الخوف والخشية مشهور (المسئلة الثانية) هذه الآية اذا ضم اليها آية اخرى صار المجموع دليلا على فضل العلم والعلماء وذلك لأنه تعالى قال انما يخشى الله من عباده العلماء

ربه) فان الخشية التى هى من خصائص العلماء بشؤن الله عز وجل مناط لجميع الكمالات العلمية والعملية المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية والتعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية والتربية للاشعار بعلة الخشية والتحذير من الاغترار بالتربية * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقيلا

فدلت هذه الآية على ان العالم يكون صاحب الخشية وهذه الآية وهي قوله ذلك لمن خشي ربه تدل على ان صاحب الخشية تكون له الجنة فيتولد من مجموع الآيتين ان الجنة حق العلماء (المسئلة الثالثة) قال بعضهم هذه الآية تدل على ان المرء لا ينتهي الى حد يصير معه آمنا بأن يعلم انه من اهل الجنة وجعل هذه الآية دالة عليه وهذا المذهب غير قوي لان الانبياء عليهم السلام قد علموا انهم من اهل الجنة وهم مع ذلك من اشد العباد خشية لله تعالى كما قال عليه السلام أعرفكم بالله اخوفكم من الله وأنا اخوفكم منه والله تعالى اعلم

(سورة الزلزلة ثمان آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اذا زلزلت الارض زلزالها) ههنا مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا في المناسبة بين اول هذه السورة وآخر السورة المتقدمة وجوها (احدها) انه تعالى لما قال جزاؤهم عند ربهم فكأن المكلف قال ومتى يكون ذلك يارب فقال اذا زلزلت الارض زلزالها فالعالمون كلهم يكونون في الخوف وانت في ذلك الوقت تنال جزاءك وتكون آمنا فيه كما قال تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون (وثانيها) انه تعالى لما ذكر في السورة المتقدمة وعيد الكافر ووعد المؤمن أراد ان يزيد في وعيد الكافر فقال أجازيه حين يقول الكافر السابق ذكره ما للارض تزلزل نظيره قوله يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ثم ذكر الطائفتين فقال فأما الذين اسودت وجوههم وأما الذين ابيضت وجوههم ثم جمع بينهما في آخر السورة فذكر الذرة من الخير والشر (المسئلة الثانية) في قوله اذا بحثان (احدهما) ان لقائل ان يقول اذا للوقت فكيف وجه البداية بها في اول السورة وجوابه من وجوه (الاول) كانوا يسألونه متى الساعة فقال اذا زلزلت الارض كأنه تعالى قال لا سبيل الى تعيينه بحسب وقته ولكني أعينه بحسب علاماته (الثاني) انه تعالى أراد أن يخبر المكلف ان الارض تحدث وتشهد يوم القيامة مع انها في هذه الساعة جماد فكأنه قيل متى يكون ذلك فقال اذا زلزلت الارض (البحث الثاني) قالوا كلمة ان في المجوز واذا في المقطوع به تقول ان دخلت الدار فأنت طالق لان الدخول يجوز اما اذا أردت التعليق بما يوجد قطعا لا تقول ان بل تقول اذا جاء غد فأنت طالق لانه يوجد لا محالة هذا هو الاصل فان استعمل على خلافه فمجاز فلما كان الزلزال مقطوعا به قال اذا زلزلت (المسئلة الثالثة) قال الفراء الزلزال بالكسر المصدر والزلزال بالفتح الاسم وقد قرئ بهما وكذلك الوسواس هو اسم الشيطان الذي يوسوس اليك والوسواس بالكسر المصدر والمعنى حركت حركة شديدة كما قال اذا رجت الارض رجا وقال قوم ليس المراد من زلزلت حركت بل المراد تحركت واضطربت والدليل عليه انه تعالى يخبر عنها في جميع السورة كما يخبر عن المختار القادر ولان هذا ادخل في التهويل كأنه تعالى يقول ان الجماد

(سورة الزلزلة مختلف فيها وآيها) (تسع)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(اذا زلزلت الارض) اي حركت تحريكا عنيفا متكررا متداركا (زلزالها) اي الزلزال المخصوص بها على مقتضى المشيئة الالهية المبنية على الحكم البالغة وهو الزلزال الشديد الذي لا غاية وراءه او زلزالها العجيب الذي لا يقادر قدره او زلزالها الداخل في حيز الامكان وقرئ بفتح الزاي وهو اسم وليس في الابنية فعلال بالفتح الا في المضاعف وقولهم ناقة خزعال نادر وقد قيل الزلزال بالفتح ايضا مصدر كالوسواس والجرجار والقلقال وذلك عند النفخة الثانية لقوله عز وجل (واخرجت الارض اثقالها) اي ما في جوفها من الاموات والدفائن جمع ثقل وهو متاع البيت واظهار الارض في موقع الاضمار لزيادة التقرير او للايماء الى تبدل الارض غير الارض او لان اخراج الاثقال

ليضطرب لأوائل القيامة أما آن لك ان تضطرب و تتيقظ من غفلتك ويقرب منه لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله واعلم ان زلزل للحركة المعتادة وزلزل للحركة الشديدة العظيمة لما فيه من معنى التكرير وهو كالصرصر فى الريح ولأجل شدة هذه الحركة وصفها الله تعالى بالعظم فقال ان زلزلة الساعة شئ عظيم (المسئلة الرابعة) قال مجاهد المراد من الزلزلة المذكورة فى هذه الآية النفخة الاولى كقوله يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة اى تزلزل فى النفخة الاولى ثم تزلزل ثانيا فتخرج موتاها وهى الاثقال وقال آخرون هذه الزلزلة هى الثانية بدليل انه تعالى جعل من لوازمها انها تخرج الارض اثقالها وذلك انما يكون فى الزلزلة الثانية (المسئلة الخامسة) فى قوله زلزالها بالاضافة وجوه (احدها) القدر اللائق بها فى الحكمة كقولك اكرم التقى اكرامه وأهن الفاسق اهانته تريد مايستوجبانه من الاكرام والاهانة (والثانى) ان يكون المعنى زلزالها كله وجميع ماهو ممكن منه والمعنى انه وجد من الزلزلة كل ما يحتمله المحل (والثالث) زلزالها الموعود والمكتوب عليها اذا قدرت تقدير الحى تقريره ماروى انها تزلزل من شدة صوت اسرافيل لما انها قدرت تقدير الحى ❊ اما قوله تعالى (واخرجت الارض اثقالها) ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى الاثقال قولان (احدهما) انه جمع ثقل وهو متاع البيت وتحمل اثقالكم جعل مافى جوفها من الدفائن اثقالا لها قال ابو عبيدة والاخفش اذا كان الميت فى بطن الارض فهو ثقل لها واذا كان فوقها فهو ثقل عليها وقيل سمى الجن والانس بالثقلين لان الارض تثقل بهم اذا كانوا فى بطنها ويثقلون عليها اذا كانوا فوقها ثم قال المراد من هذه الزلزلة الزلزلة الاولى يقول أخرجت الارض اثقالها يعنى الكنوز فيتلى ظهر الارض ذهبا ولا احد يلتفت اليه كان الذهب يصيح ويقول أما كنت تخرب دينك ودنياك لأجلى او تكون الفائدة فى اخراجها كما قال تعالى يوم يحمى عليها فى نار جهنم ومن قال المراد منها الزلزلة الثانية وهى بعد القيامة قال تخرج الاثقال يعنى الموتى احياء كالام تلده حيا وقيل تلفظه الارض ميتا كما دفن ثم يحييه الله تعالى (والقول الثانى) أثقالها أسرارها فيومئذ تكشف الاسرار ولذلك قال يومئذ تحدث اخبارها فتشهد لك او عليك (المسئلة الثانية) انه تعالى قال فى صفة الارض الم نجعل الارض كفاتا ثم صارت بحال ترميك وهو تقرير لقوله تذهل كل مرضعة عما ارضعت وقوله يوم يفر المرء ❊ اما قوله تعالى (وقال الانسان مالها) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) مالها تزلزل هذه الزلزلة الشديدة ولفظت مافى بطنها وذلك اما عند النفخة الاولى حين تلفظ مافيها من الكنوز والدفائن او عند النفخة الثانية حين تلفظ مافيها من الاموات (المسئلة الثانية) قيل هذا قول الكافر وهو كما يقولون من بعثنا من مرقدنا فأما المؤمن فيقول هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون وقيل بل هو عام فى حق المؤمن والكافر اى الانسان الذى هو كنود جزوع ظلوم الذى من شأنه الغفلة والجهالة يقول مالها وهو

حال بعض اجزائها (وقال الانسان) اى كل فرد من افراده لما يدهمهم من الطامة التامة ويبهرهم من الداهية العامة (مالها) زلزلت هذه المرتبة الشديدة من الزلزال واخرجت ما فيها من الاثقال استعظاما لما شاهدوه من الامر الهائل وقد سيرت الجبال فى الجو وصيرت هباء وقيل هو قول الكافر اذ لم يكن مؤمنا بالبعث والاظهر هو الاول على ان المؤمن يقوله بطريق الاستعظام والكافر بطريق التعجب (يومئذ) بدل من اذا وقوله تعالى (تحدث اخبارها) عامل فيهما ويجوز ان يكون اذا منتصبا بعضمر اى يوم اذ زلزلت الارض تحدث الخلق اخبارها اما بلسان الحال حيث تدل دلالة ظاهرة على ما لاجله زلزالها واخراج اثقالها واما بلسان المقال حيث ينطقها الله تعالى فتخبر بما عمل عليها من خير وشر وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انها تشهد على كل احد بما عمل على ظهرها وقرئ تنبئ

ليس بسؤال بل هو للتعجب لما يرى من العجائب التي لم تسمع بها الآذان ولا نطق بها لسان ولهذا قال الحسن انه للكافر والفاجر معا (المسئلة الثالثة) انما قال مالها على غير المواجهة لانه يعاتب بهذا الكلام نفسه كأنه يقول يانفس مالللارض تفعل ذلك يعني يانفس انت السبب فيه فانه لولامعا صيك لماصارت الارض كذلك فالكفار يقولون هذا الكلام والمؤمنون يقولون الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن ❊ اماقوله تعالى (يومئذ تحدث اخبارها) فاعلم ان ابن مسعود قرأتنبئ اخبارها وسعيدبن جبير تنبئ ثم فيه سؤالات (الاول) اين مفعولا تحدث (الجواب) قدحذف اولهما والثانى اخبارها واصله تحدث الخلق اخبارها الاان المقصود ذكر تحديثها الاخبار لاذكر الخلق تعظيما (السؤال الثانى) مامعنى تحديث الارض قلنا فيه وجوه (احدها) وهو قول ابى مسلم يومئذ يتبين لكل احد جزاء عمله فكأنها حدثت بذلك كقولك الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة فكذا انتقاض الارض بسبب الزلزلة تحدث ان الدنيا قدانقضت وان الآخرة قداقبلت (والقول الثانى) وهو قول الجمهور ان الله تعالى يجعل الارض حيوانا عاقلا ناطقا ويعرفها جميع ماعمل اهلها فحينئذ تشهد لمن اطاع وعلى من عصى قال عليه السلام ان الارض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عمل عليها ثم تلا هذه الآية وهذا على مذهبنا غير بعيد لان البنية عندنا ليست شرطا لقبول الحياة فالارض مع بقائها على شكلها ويبسها وقشفها يخلق الله فيها الحياة والنطق والمقصود كان الارض تشكو من العصاة وتشكر من أطاع فتقول ان فلانا صلى وزكى وصام وحج فى وان فلانا كفر وزنا وسرق وجار حتى يود الكافر ان يساق الى النار وكان على عليه السلام اذا فرغ بيت المال صلى فيه ركعتين ويقول لتشهدى انى ملأتك بحق وفرغتك بحق (والقول الثالث) وهو قول المعتزلة ان الكلام يجوز خلقه فى الجماد فلا يبعد ان يخلق الله تعالى فى الارض حال كونها جمادا اصواتا مقطعة مخصوصة فيكون المتكلم والشاهد على هذا التقدير هو الله تعالى (السؤال الثالث) اذا ويومئذ ما ناصبهما (الجواب) يومئذ بدل من اذا وناصبهما تحدث (السؤال الرابع) لفظ التحديث يفيد الاستئناس وهناك لااستئناس فاوجه هذا اللفظ (الجواب) الارض كأنها تبث شكواها الى اولياء الله وملائكته ❊ اماقوله تعالى (بأن ربك اوحى لها) ففيه سؤالات (السؤال الاول) بم تعلقت الباء فى قوله بأن ربك (الجواب) بتحدث ومعناه تحدث اخبارها بسبب ايحاء ربك لها (السؤال الثانى) لم لم يقل اوحى اليها (الجواب) فيه وجهان (الاول) قال ابو عبيدة اوحى لها اى اوحى اليها وانشد للعجاج * اوحى لها القرار فاستقرت * (الثانى) لعله انما قال لها اى فعلنا ذلك لأجلها حتى تتوسل الارض بذلك الى التشفى من العصاة ❊ قوله تعالى (يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم) الصدر ضد الورود فالوارد الجائى والصادر المنصرف وأشتاتا متفرقين فيحتمل ان يردوا الارض ثم يصدرون عن الارض

اخبارها وقرئ تنبئ من الانباء (بأن ربك اوحى لها) اى تحدث اخبارها بسبب ايحاء ربك لها وامره اياها بالتحديث على احد الوجهين ويجوز ان يكون بدلا من اخبارها كأنه قيل تحدث بأخبارها بان ربك اوحى لان التحديث يستعمل بالباء وبدونها واوحى لها بمعنى أوحى اليها (يومئذ) اى يوم اذ يقع ماذكر (يصدر الناس) من قبورهم الى موقف الحساب (أشتاتا) متفرقين بحسب طبقاتهم بيض الوجوه آمنين وسود الوجوه فزعين كما مر فى قوله تعالى فتأتون افواجا وقيل يصدرون عن الموقف اشتاتا ذات اليمين الى الجنة وذات الشمال الى النار (ليروا اعمالهم) اى أجزية أعمالهم خيرا كان او شرا وقرئ ليروا بالفتح وقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) تفصيل ليروا وقرئ يره والذرة النملة الصغيرة وقيل مايرى فى شعاع الشمس من الهباء وايا ما كان فمعنى

الى عرصة القيامة ويحتمل ان يردوا عرصة القيامة للمحاسبة ثم يصدرون عنها الى موضع الثواب والعقاب فان قوله اشتاتا اقرب الى الوجه الاول ولفظة الصدر اقرب الى الوجه الثاني وقوله ليروا اعمالهم اقرب الى الوجه الاول لان رؤية اعمالهم مكتوبة في الصحائف اقرب الى الحقيقة من رؤية جزاء الاعمال وان صح ايضا ان يحمل على رؤية جزاء الاعمال وقوله اشتاتا فيه وجوه (احدها) ان بعضهم يذهب الى الموقف راكبا مع الثياب الحسنة وبياض الوجه والمنادى ينادى بين يديه هذا ولى الله وآخرون يذهب بهم سود الوجوه حفاة عراة مع السلاسل والاغلال والمنادى ينادى بين يديه هذا عدو الله (وثانيها) اشتاتا اى كل فريق مع شكله اليهودى مع اليهودى والنصرانى مع النصرانى (وثالثها) اشتاتا من اقطار الارض من كل ناحية ثم انه سبحانه ذكر المقصود وقال ليروا اعمالهم قال بعضهم ليروا صحائف اعمالهم لان الكتاب يوضع بين يدى الرجل فيقول هذا طلاقك وبيعك هل تراه والمرئى هو الكتاب وقال آخرون ليروا جزاء اعمالهم وهو الجنة او النار وانما اوقع اسم العمل على الجزاء لانه جزاء وفاق فكأنه نفس العمل بل المجاز في ذلك ادخل من الحقيقة وفي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ليروا بالفتح ❊ ثم قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) مثقال ذرة اى زنة ذرة قال الكلبي الذرة اصغر النمل وقال ابن عباس اذا وضعت راحتك على الارض ثم رفعتها فكل واحد مما لزق به من التراب مثقال ذرة فليس من عبد عمل خيرا او شرا قليلا كان او كثيرا الا اراه الله تعالى اياه (المسئلة الثانية) في رواية عن عاصم يره برفع الياء وقرأ الباقون يره بفتحها وقرأ بعضهم يره بالجزم (المسئلة الثالثة) في الآية اشكال وهو ان حسنات الكافر محبطة بكفره وسيئات المؤمن مغفورة اما ابتداء واما بسبب اجتناب الكبائر فامعنى الجزاء بمثاقيل الذر من الخير والشر واعلم ان المفسرين اجابوا عنه من وجوه (احدها) قال احمد بن كعب القرظي فمن يعمل مثقال ذرة من خير وهو كافر فانه يرى ثواب ذلك في الدنيا حتى يلقى الآخرة وليس له فيها شيء هذا مروى عن ابن عباس ايضا ويدل على صحة هذا التأويل ماروى انه عليه السلام قال لابي بكر يا ابا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل الخير حتى توفاها يوم القيامة (وثانيها) قال ابن عباس ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيرا او شرا الا اراه الله اياه فاما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته واما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته (وثالثها) ان حسنات الكافر وان كانت محبطة بكفره ولكن الموازنة معتبرة فتقدر تلك الحسنات انحبطت من عقاب كفره وكذا القول في الجانب الآخر فلا يكون ذلك قادحا في عموم الآية (ورابعها) ان نخصص عموم قوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ونقول المراد فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل من الاشقياء مثقال ذرة شرا يره (المسئلة الرابعة) لقائل ان يقول اذا كان الامر الى هذا الحد فاين الكرم

رؤية مايعادلها من خير وشر اما مشاهدة جزائه فمن الاولى مختصة بالسعداء والثانية بالاشقياء كيف لا وحسنات الكافر محبطة بالكفر وسيئات المؤمن المجتنب عن الكبائر معفوة وماقيل من ان حسنة الكافر تؤثر في نقص العقاب يرده قوله تعالى وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا واما مشاهدة نفسه من غير ان يعتبر معه الجزاء ولاعدمه بل يفوض كل منهما الى سائر الدلائل الناطقة بعفو صغائر المؤمن المجتنب عن الكبائر واثابته بجميع حسناته وبحبوط حسنات الكافر ومعاقبته بجميع معاصيه فالمعنى ماروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيرا أو شرا الا أراه الله تعالى اياه اما المؤمن فيغفر له سيئاته ويثيبه بحسناته واما الكافر فيرد حسناته تحسرا ويعاقبه بسيئاته ❊ عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة اذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله والله اعلم

(والجواب)

(والجواب) هذا هو الكرم لان المعصية وان قلت ففيها استخفاف والكريم لايحتمله وفى الطاعة تعظيم وان قل فالكريم لايضيعه وكأنه سبحانه يقول لاتحسب مثقال الذرة من الخير صغيرا فانك مع لؤمك وضعفك لم تضيع منى الذرة بل اعتبرتها ونظرت فيها واستدللت بها على ذاتى وصفاتى واتخذتها مركبا به وصلت الى فاذالم تضيع ذرتى افأضيع ذرتك ثم التحقيق ان المقصود هو النية والقصد فاذا كان العمل قليلا لكن النية خالصة فقد حصل المطلوب وان كان العمل كثيرا والنية داثرة فالمقصود فائت ومن ذلك ماروى عن كعب لاتحقروا شيئا من المعروف فان رجلا دخل الجنة باعارة ابرة فى سبيل الله وان امرأة اعانت بحبة فى بناء بيت المقدس فدخلت الجنة وعن عائشة كان بين يديها عنب فقدمته الى نسوة بحضرتها فجاء سائل فأمرت له بحبة من ذلك العنب فضحك بعض من كان عندها فقالت ان فيما ترون مثاقيل الذرة وتلت هذه الآية ولعلها كان غرضها التعليم والا فهى كانت فى غاية السخاوة روى ان ابن الزبير بعث اليها بمائة الف وثمانين الف درهم فى غرارتين فدعت بطبق وجعلت تقسمه بين الناس فلما امست قالت ياجارية هلمى فطورى فجاءت بخبز وزيت فقيل لها اما امسكت لنا درهما نشترى به لحما نفطر عليه فقالت لوذكرتينى لفعلت ذلك وقال مقاتل نزلت هذه الآية فى رجلين كان احدهما يأتيه السائل فيستقل ان يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ويقول ماهذا بشئ وانما نؤجر على مانعطى وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ويقول لاشئ على من هذا انما الوعيد بالنار على الكبائر فنزلت هذه الآية ترغيبا فى القليل من الخير فانه يوشك ان يكثر وتحذيرا من اليسير من الذنب فانه يوشك ان يكبر ولهذا قال عليه السلام اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة والله تعالى اعلم

(سورة العاديات احدى عشرة آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والعاديات ضبحا) اعلم ان الضبح اصوات انفاس الخيل اذا عدت وهو صوت ليس بصهيل ولاحمحمة ولكنه صوت نفس ثم اختلفوا فى المراد بالعاديات على قولين (الاول) ماروى عن على عليه السلام وابن مسعود انها الابل وهو قول ابراهيم والقرظى روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال بينا انا جالس فى الحجر اذ اتانى رجل فسألنى عن العاديات ضبحا ففسرتها بالخيل فذهب الى على عليه السلام وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ماقلت فقال ادعه لى فلما وقفت على رأسه قال تفتى الناس بما لاعلم لك به والله ان كانت لاول غزوة فى الاسلام بدر وما كان معنا الافرسان فرس للزبير وفرس للمقداد والعاديات ضبحا الابل من عرفة الى مزدلفة ومن المزدلفة الى منى يعنى ابل الحاج قال ابن عباس فرجعت عن قولى الى قول على عليه السلام ويتأكد هذا القول بما روى ابى فى فضل السورة مرفوعا من قرأها اعطى من الاجر بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعا وعلى هذا القول فالموريات

* (سورة والعاديات مختلف) (فيها وآيها احدى عشرة) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم *)

(والعاديات) اقسم سبحانه بخيل الغزاة التى تعدو ونحو والعدو وقوله تعالى (ضبحا) مصدر منصوب اما بفعله المحذوف الواقع حالا منها اى تضبح ضبحا وهو صوت انفاسها عند عدوها او بالعاديات فان العدو مستلزم للضبح كأنه قيل والضابحات اوحال على انه مصدر بمعنى الفاعل اى ضابحات (فالموريات قدحا) الايراء اخراج النار والقدح الصك يقال قدح فأورى اى فالتى تورى النار من حوافرها وانتصاب قدحا كانتصاب ضبحا على الوجوه الثلاثة (فالمغيرات) اسند الاغارة التى هى مباغتة العدو للنهب او للقتل اوللاسر اليها وهى حال اهلها ايذانا بأنها العمدة فى اغارتهم (صبحا) اى فى وقت

قدحا ان الحوافر ترمى بالحجر من شدة العدو فتضرب به حجرا آخر فتورى النار او يكون المعنى الذين يركبون الابل وهم الحجيج اذا اوقدوا نيرانهم بالمزدلفة فالمغيرات الاغارة سرعة السير وهم يندفعون صبيحة يوم النحر مسرعين الى منى فأثرن به نقعا يعنى غبارا بالعدو وعن محمد بن كعب النقع مابين المزدلفة الى منى فوسطن به جمعا يعنى مزدلفة لانها تسمى الجمع لاجتماع الحاج بها وعلى هذا التقدير فوجه القسم به من وجوه (احدها) ماذكرنا من المنافع الكثيرة فيه فى قوله افلا ينظرون الى الابل (وثانيها) كأنه تعريض بالآدمى الكنود فكأنه تعالى يقول انى سخرت مثل هذا لك وانت متمرد عن طاعتى (وثالثها) الغرض بذكر ابل الحج الترغيب فى الحج كأنه تعالى يقول جعلت ذلك الابل مقسما به فكيف اضيع عملك وفيه تعريض لمن يرغب عن الحج فأن الكنود هو الكفور والذى لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك كما فى قوله ولله على الناس حج البيت الى قوله ومن كفر (القول الثانى) قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعطاء واكثر المحققين انه الخيل وروى ذلك مرفوعا قال الكلبى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية الى اناس من كنانة فمكث ماشاء الله ان يمكث لايأتيه منهم خبر فتخوف عليها فنزل جبريل عليه السلام بخبر مسيرها فان جعلنا الالف واللام فى والعاديات للمعهود السابق كان محل القسم خيل تلك السرية وان جعلناهما للجنس كان ذلك قسما بكل خيل عدت فى سبيل الله واعلم ان الفاظ هذه الآيات تنادى ان المراد هو الخيل وذلك لان الضبح لايكون الا للفرس واستعمال هذا اللفظ فى الابل يكون على سبيل الاستعارة كما استعير المشافر والحافر للانسان والشفتان للمهر والعدول من الحقيقة الى المجاز بغير ضرورة لايجوز وايضا فالقدح يظهر بالحافر مالايظهر بخف الابل وكذا قوله فالمغيرات صبحا لانه بالخيل اسهل منه بغيره وقد روينا انه ورد فى بعض السرايا واذا كان كذلك فالاقرب ان السورة مدنية لان الاذن بالقتال كان بالمدينة وهو الذى قاله الكلبى اذا عرفت ذلك فههنا مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى انما اقسم بالخيل لان لها فى العدو من الخصال الحميدة ماليس لسائر الدواب فانها تصلح للطلب والهرب والكر والفر فاذا ظننت ان النفع فى الطلب عدوت الى الخصم لتفوز بالغنيمة واذا ظننت ان المصلحة فى الهرب قدرت على اشد العدو ولاشك ان السلامة احدى الغنيمتين فاقسم تعالى بفرس الغازى لمافيه من منافع الدنيا والدين وفيه تنبيه على ان الانسان يجب عليه ان يمسكه لاللزينة والتفاخر بل لهذه المنفعة وقد نبه تعالى على هذا المعنى فى قوله والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة فادخل لام التعليل على الركوب وماادخله على الزينة وانما قال ضبحا لانه امارة يظهر به التعب وانه يبذل كل الوسع ولايقف عند التعب فكأنه تعالى يقول انه مع ضعفه لايترك طاعتك فليكن العبد فى طاعة مولاه ايضا كذلك (المسئلة الثانية) ذكروا فى انتصاب ضبحا وجوها (احدها) قال الزجاج والعاديات تضبح ضبحا (وثانيها)

الصبح وهو المعتاد فى الغارات يعدون ليلا لئلا يشعر بهم العدو ويهجمون عليهم صباحا ليروا مايأتون ومايذرون وقوله تعالى (فأثرن به) عطف على الفعل الذى دل عليه اسم الفاعل اذ المعنى واللاتى عدون فأورين فأغرن فأثرن به اى فهيجن بذلك الوقت (نقعا) اى غبارا وتخصيص اثارته بالصبح لانه لاينور ولايظهر ثورانه بالليل وبهذا ظهر ان الايراء الذى لايظهر فى النهار واقع فى الليل ولله در شأن التنزيل وقيل النقع الصياح والجلبة وقرئ فأثرن بالتشديد بمعنى فأظهرن به غبارا لان التأثير فيه معنى الاظهار (فوسطن به) اى توسطن بذلك الوقت او توسطن ملتبسات بالنقع (جمعا) من جموع الاعداء والفاآت للدلالة على ترتب مابعد كل منها على ماقبلها كما فى قوله

ان يكون والعاديات في معنى والضابحات لان الضبح يكون مع العدو وهو قول الفراء (وثالثها) قال البصريون التقدير والعاديات ضابحة فقوله ضبحا نصب على الحال ❊ اما قوله تعالى (فالموريات قدحا) فاعلم ان الايراء اخراج النار والقدح الصك تقول قدح فأورى وقدح فأصلد ثم في تفسير الآية وجوه (احدها) قال ابن عباس يريد ضرب الخيل بحوافرها الجبل فأورت منه النار مثل الزناد اذا قدح وقال مقاتل يعني الخيل تقدحن بحوافرهن في الحجارة نارا كنار الحباحب والحباحب اسم رجل كان بخيلا لا يوقد النار الا اذا نام الناس فاذا انتبه احد اطفأ ناره لئلا ينتفع بها احد فشبهت هذه النار التي تنقدح من حوافر الخيل بتلك النار التي لم يكن فيها نفع ومن الناس من يقول انها نعل الحديد يصك الحجر فتخرج النار والاول ابلغ لان على ذلك التقدير تكون السنابك نفسها كالحديد (وثانيها) قال قوم هذه الآيات في الخيل ولكن ايراؤها ان تهيج الحرب بين اصحابها وبين عدوهم كما قال تعالى كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله ومنه يقال للحرب اذا التحمت حمي الوطيس (وثالثها) هم الذين يغزون فيورون بالليل نيرانهم لحاجتهم وطعامهم فالموريات هم الجماعة من الغزاة (ورابعها) انها هي الألسنة تورى نار العداوة لعظم ما تتكلم به (وخامسها) هي افكار الرجال تورى نار المكر والخديعة روى ذلك عن ابن عباس ويقال لأقدحن لك ثم لأورين لك اى لاهيجن عليك شرا وحربا ومكرا وقيل هو المكر الا انه مكر بايقاد النار ليراهم العدو كثيرا ومن عادة العرب عند الغزو اذا قربوا من العدو ان يوقدوا نيرانا كثيرة لكي اذا نظر العدو اليهم ظنهم كثيرا (وسادسها) قال عكرمة الموريات قدحا الألسنة (وسابعها) فالموريات قدحا اى فالمنجحات امرا يعني الذى وجدوا مقصودهم وفازوا بمطلوبهم من الغزو والحج يقال للمنجح في حاجته ورى زنده ثم يرجع هذا الى الجماعة المنجحة ويجوز ان يرجع الى الخيل ينجح ركبانها قال جرير

وجدنا الازد أكرمهم جوادا ❊ وأوراهم اذا قدحوا زنادا

ويقال فلان اذا قدح اورى واذا منح اروى واعلم ان الوجه الاول اقرب لان لفظ الايراء حقيقة في ايراء النار وفي غيره مجاز ولا يجوز ترك الحقيقة بغير دليل ❊ اما قوله تعالى (فالمغيرات صبحا) يعني الخيل تغير على العدو وقت الصبح وكانوا يغيرون صباحا لانهم في الليل يكونون في الظلمة فلا يبصرون شيئا واما النهار فالناس يكونون فيه كالمستعدين للمدافعة والمحاربة اما هذا الوقت فالناس يكونون فيه في الغفلة وعدم الاستعداد واما الذين حملوا هذه الآيات على الابل قالوا المراد هو ابل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع الى منى والسنة ان لا تغير حتى تصبح ومعنى الاغارة في اللغة الاسراع يقال أغار اذا اسرع وكانت العرب في الجاهلية تقول اشرق ثبير كيما نغير اى نسرع في الافاضة ❊ اما قوله تعالى (فأثرن به نقعا) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في النقع

يالهف زيابة للحرث الصابح فالغانم فالآيب فان توسط الجمع مترتب على الاثارة المترتبة على الاغارة المترتبة على الايراء المترتب على العدو وقوله تعالى (ان الانسان لربه لكنود) اى لكفور من كند النعمة كنودا جواب القسم والمراد بالانسان بعض افراده روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى اناس من بني كنانة سرية واستعمل عليها المنذر بن عمرو الانصاري وكان احد النقباء فأبطأ عليه عليه الصلاة والسلام خبرها شهرا فقال المنافقون انهم قتلوا فنزلت السورة اخبارا للنبي عليه الصلاة والسلام بسلامتها وبشارة له باغارتها على القوم ونعيا على المرجفين في حقهم ماهم فيه من الكنود وفي تخصيص خيل الغزاة بالاقسام بها من البراعة مالا مزيد عليه كأنه قيل وخيل الغزاة التي فعلت كيت

قولان (احدهما) انه هو الغبار وقيل انه مأخوذ من نقع الصوت اذا ارتفع فالغبار يسمى نقعا لارتفاعه وقيل هو من النقع فى الماء فكان صاحب الغبار غاص فيه كما يغوص الرجل فى الماء (والثانى) النقع الصياح من قوله عليه الصلاة والسلام مالم يكن نقع ولا لقلقة اى فهيجن فى المغار عليهم صياح النوائح وارتفعت اصواتهن ويقال ثار الغبار والدخان اى ارتفع وثار القطا عن مفحصه وأثرن الغبار اى هيجنه والمعنى ان الخيل اثرن الغبار لشدة العدو فى الموضع الذى أغرن فيه (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله به الى ماذا يعود فيه وجوه (احدها) وهو قول الفراء انه عائد الى المكان الذى انتهى اليه والموضع الذى تقع فيه الاغارة لان فى قوله فالمغيرات صبحا دليلا على ان الاغارة لابد لها من موضع واذا علم المعنى جاز ان يكنى عما لم يجز ذكره بالتصريح كقوله انا انزلناه فى ليلة القدر (وثانيها) انه عائد الى ذلك الزمان الذى وقعت فيه الاغارة اى فأثرن فى ذلك الوقت نقعا (وثالثها) وهو قول الكسائى انه عائد الى العدو اى فأثرن بالعدو نقعا وقد تقدم ذكر العدو فى قوله والعاديات (المسئلة الثالثة) فان قيل على اى شئ عطف قوله فأثرن قلنا على الفعل الذى وضع اسم الفاعل موضعه والتقدير واللائى عدون فأورين وأغرن فأثرن (المسئلة الرابعة) قرأ ابو حيوة فأثرن بالتشديد بمعنى فأظهرن به غبارا لان التأثير فيه معنى الاظهار او قلب ثورن الى وثرن وقلب الواو همزة ※ اما قوله تعالى (فوسطن به جمعا) ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الليث وسطت النهر والمفازة أسطها وسطا وسطة اى صرت فى وسطها وكذلك وسطتها وتوسطتها ونحو هذا قال الفراء والضمير فى قوله به الى ماذا يرجع فيه وجوه (احدها) قال مقاتل اى بالعدو وذلك ان العاديات تدل على العدو فجازت الكناية عنه وقوله جمعا يعنى جمع العدو والمعنى صرن بعدوهن وسط جمع العدو ومن حمل الآيات على الابل قال يعنى جمع منى (وثانيها) ان الضمير عائد الى النقع اى وسطن بالنقع الجمع (وثالثها) المراد ان العاديات وسطن ملتبسات بالنقع جمعا من جموع الاعداء (المسئلة الثانية) قرئ فوسطن بالتشديد للتعدية والباء مزيدة للتوكيد كقوله وأتوا به وهى مبالغة فى وسطن واعلم ان الناس اكثروا فى صفة الفرس وهذا القدر الذى ذكره الله احسن وقال عليه الصلاة والسلام الخيل معقود بنواصيها الخير وقال ايضا ظهرها حرز وبطنها كنز واعلم انه تعالى لما ذكر المقسم به ذكر المقسم عليه وهو امور ثلاثة ※ (احدها) قوله تعالى (ان الانسان لربه لكنود) قال الواحدى اصل الكنود منع الحق والخير والكنود الذى يمنع ما عليه والارض الكنود هى التى لا تنبت شيئا ثم للمفسرين عبارات فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة الكنود هو الكفور قالوا ومنه سمى الرجل المشهور كندة لانه كند اباه ففارقه وعن الكلبى الكنود بلسان كندة العاصى وبلسان بنى مالك البخيل وبلسان مضر وربيعة الكفور وروى ابو امامة عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الكنود هو الكفور الذى

وكيت وقد أرجف هؤلاء فى حق اربابها ما أرجفوا انهم مبالغون فى الكفران (وانه على ذلك) اى وان الانسان على كنوده (لشهيد) يشهد على نفسه بالكنود لظهور اثره عليه (وانه لحب الخير) اى المال كما فى قوله تعالى ان ترك خيرا (لشديد) اى قوى مطيق مجد فى طلبه وتحصيله متهالك عليه يقال هو شديد لهذا الامر وقوى له اذا كان مطيقا له ضابطا وقيل الشديد البخيل اى انه لاجل حب المال وثقل انفاقه عليه لبخيل ممسك ولعل وصفه بهذا الوصف القبيح بعد وصفه بالكنود للايماء الى ان من جملة الامور الداعية للمنافقين الى النفاق حب المال لانهم بما يظهرون من الايمان يعصمون اموالهم ويحوزون من الغنائم

يمنع رفده ويأكل وحده ويضرب عبده وقال الحسن الكنود اللوام لربه يعد المحن والمصائب وينسى النعم والراحات وهو كقوله واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن واعلم ان معنى الكنود لايخرج عن ان يكون كفرا اوفسقا وكيفما كان فلا يمكن حمله على كل الناس فلابد من صرفه الى كافر معين اوان حملناه على الكل كان المعنى ان طبع الانسان يحمله على ذلك الا اذا عصمه الله بلطفه وتوفيقه من ذلك والاول قول الاكثرين قالوا لان ابن عباس قال انها نزلت في قرط بن عبدالله بن عمرو بن نوفل القرشي وايضا فقوله افلا يعلم اذا بعثر مافي القبور لايليق الا بالكافر لان ذلك كالدلالة على انه منكر لذلك الامر ※(الثاني) من الامور التي اقسم الله عليها قوله تعالى (وانه على ذلك لشهيد) وفيه قولان (احدهما) ان الانسان على ذلك اى على كنوده لشهيد يشهد على نفسه بذلك اما لانه امر ظاهر لايمكنه ان يجحده اولانه يشهد على نفسه بذلك في الآخرة ويعترف بذنوبه (القول الثاني) المراد وان الله على ذلك لشهيد قالوا وهذا اولى لان الضمير عائد الى اقرب المذكورات والاقرب ههنا هو لفظ الرب تعالى ويكون ذلك كالوعيد والزجر له عن المعاصي من حيث انه يحصي عليه اعماله واما الناصرون للقول الاول فقالوا ان قوله بعد ذلك وانه لحب الخير لشديد الضمير فيه عائد الى الانسان فيجب ان يكون الضمير في الآية التي قبله عائدا الى الانسان ليكون النظم احسن ※ (الامر الثالث) مما اقسم الله عليه قوله تعالى (وانه لحب الخير لشديد) الخير المال من قوله تعالى ان ترك خيرا وقوله واذا مسه الخير منوعا وهذا لان الناس يعدون المال فيما بينهم خيرا كما انه تعالى سمى ماينال المجاهد من الجراح وأذى الحرب سوأ في قوله لم يمسسهم سوء والشديد البخيل الممسك يقال فلان شديد ومتشدد قال طرفة

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي * عقيلة مال الفاحش المتشدد

ثم في التفسير وجوه (احدها) انه لاجل حب المال لبخيل ممسك (وثانيها) ان يكون المراد من الشديد القوى ويكون المعنى وانه لحب المال وايثار الدنيا وطلبها قوى مطيق وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيف تقول هو شديد لهذا الامر وقوى له اذا كان مطيقا له ضابطا (وثالثها) أراد انه لحب الخيرات غير هش منبسط ولكنه شديد منقبض (ورابعها) قال الفراء يجوز ان يكون المعنى وانه لحب الخير لشديد الحب يعني انه يحب المال ويحب كونه محبا له الا انه اكتفى بالحب الاول عن الثاني كما قال اشتدت به الريح في يوم عاصف اى في يوم عاصف الريح فاكتفى بالاولى عن الثانية (وخامسها) قال قطرب اى انه شديد حب الخير كقولك انه لزيد ضروب اى انه ضروب زيد ※واعلم انه تعالى لما عد عليه قبائح افعاله خوفه فقال تعالى (أفلا يعلم اذا بعثر مافي القبور) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) القول في بعثر مضى في قوله تعالى واذا القبور بعثرت وذكرنا ان معنى بعثر بعث وأثير واخرج وقرئ بحثر (المسئلة الثانية) لقائل ان يسأل لم قال بعثر مافي القبور

نصيبا وقوله تعالى (افلا يعلم اذا بعثر مافي القبور) لتهديد ووعيد والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى ايفعل مايفعل من القبائح اولا يلاحظ فلا يعلم حاله اذا بعث من في القبور من الموتى وايراد ما لكونهم اذ ذاك بمعزل من رتبة العقلاء وقرئ بحثر وبحث وبحثو وبحث على بنائهما للفاعل (وحصل) اى جمع محصلا او ميز خيره من شره وقرئ وحصل مبنيا للفاعل وحصل مخففا (مافي الصدور) من الاسرار الخفية التي من جملتها مايخفيه المنافقون من الكفر والمعاصي فضلا عن الاعمال الجلية (ان ربهم) اى المبعوثين كنى عنهم بعد الاحياء الثاني بضمير العقلاء بعد ماعبر عنهم قبل ذلك بما بناء على تفاوتهم في الحالين كما فعل نظيره بعد الاحياء الاول حيث التفت الى الخطاب في قوله

ولم يقل بعثر من في القبور ثم انه لما قال ما في القبور فلم قال ان ربهم بهم ولم يقل ان ربها بها يومئذ لخبير (الجواب عن السؤال الاول) هو ان ما في الارض من غير المكلفين اكثر فأخرج الكلام على الاغلب او يقال انهم حال ما يبعثرون لايكونون احياء عقلاء بل بعد البعث يصيرون كذلك فلاجرم كان الضمير الاول ضمير غير العقلاء والضمير الثانى ضمير العقلاء * ثم قال تعالى (وحصل ما في الصدور) قال ابو عبيدة اى ميز ما في الصدور وقال الليث الحاصل من كل شئ مابقى وثبت وذهب ماسواه والتحصيل تمييز ما يحصل والاسم الحصيلة قال لبيد

وكل امرئ يوما سيعلم سعيه * اذا حصلت عند الاله الحصائل

وفى التفسير وجوه (احدها) معنى حصل جمع فى الصحف اى اظهر محصلا مجموعا (وثانيها) انه لابد من التمييز بين الواجب والمندوب والمباح والمكروه والمحظور فان لكل واحد حكما على حدة فتمييز البعض عن البعض وتخصيص كل واحد منها بحكمه اللائق به هو التحصيل ومنه قيل للمنخل المحصل (وثالثها) ان كثيرا ما يكون باطن الانسان بخلاف ظاهره اما في يوم القيامة فانه تنكشف الاسرار وتنهتك الاستار ويظهر ما في البواطن كما قال يوم تبلى السرائر واعلم ان حظ الوعظ منه ان يقال انك تستعد فيما لافائدة لك فيه فتبنى المقبرة وتشترى التابوت وتفصل الكفن وتغزل العجوز الكفن فيقال هذا كله للديدان فأين حظ الرحمن بل المرأة اذا كانت حاملة فانها تعد للطفل ثيابا فاذا قلت لها لاطفل لك فاهذا الاستعداد فتقول أليس يبعثر ما في بطنى فيقول الرب لك ألا يبعثر ما في بطن الارض فأين الاستعداد وقرئ وحصل بالفتح والتخفيف بمعنى ظهر * ثم قال تعالى (ان ربهم بهم يومئذ لخبير) اعلم ان فيه سؤالات (الاول) انه يوهم ان علمه بهم فى ذلك اليوم انما حصل بسبب الخبرة وذلك يقتضى سبق الجهل وهو على الله محال (والجواب) من وجهين (احدهما) كأنه تعالى يقول ان من لم يكن عالما فانه يصير بسبب الاختبار عالما فمن كان لم يزل عالما ألا يكون خبيرا بأحوالك (وثانيهما) ان فائدة تخصيص ذلك الوقت فى قوله يومئذ مع كونه عالما لم يزل انه وقت الجزاء وتقريره لمن الملك كأنه يقول لاحاكم يروج حكمه ولا عالم تروج فتواه يومئذ الا هو وكم عالم لايعرف الجواب وقت الواقعة ثم يتذكره بعد ذلك فكأنه تعالى يقول لست كذلك (السؤال الثانى) لم خص اعمال القلوب بالذكر فى قوله وحصل ما فى الصدور واهمل ذكر اعمال الجوارح (الجواب) لان اعمال الجوارح تابعة لاعمال القلب فانه لولا البواعث والارادات فى القلوب لما حصلت افعال الجوارح ولذلك انه تعالى جعلها الاصل فى الذم فقال آثم قلبه والاصل فى المدح فقال وجلت قلوبهم (السؤال الثالث) لم قال وحصل ما فى الصدور ولم يقل وحصل ما فى القلوب (الجواب) لان القلب مطية الروح وهو بالطبع محب لمعرفة الله وخدمته انما المنازع فى هذا الباب هو النفس ومحلها مايقرب من الصدور ولذلك قال يوسوس

تعالى وجعل لكم السمع والابصار الآية بعد قوله ثم سواه ونفخ فيه من روحه ايذانا بصلاحيتهم للخطاب بعد نفخ الروح وبعدمها قبله كما اشير اليه هناك (بهم) بذواتهم وصفاتهم واحوالهم بتفاصيلها (يومئذ) يوم اذ يكون ماذكر من بعث ما فى القبور وتحصيل ما فى الصدور (لخبير) اى عالم بظواهر ما عملوا وبواطنه علما موجبا للجزاء متصلا به كما ينبئ عنه تقييده بذلك اليوم والا فمطلق علمه سبحانه محيط بما كان وما سيكون وقوله تعالى بهم ويومئذ متعلقان بخبير قدما عليه لمراعاة الفواصل واللام غير مانعة من ذلك وقرأ ابو السمال ان ربهم بهم يومئذ خبير * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والعاديات اعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من بات بمزدلفة وشهد جمعا

في صدور الناس وقال أفمن شرح الله صدره للاسلام فجعل الصدر موضعا للاسلام (السؤال الرابع) الضمير في قوله ان ربهم بهم عائد الى الانسان وهو واحد (الجواب) الانسان في معنى الجمع كقوله تعالى ان الانسان لفي خسر ثم قال الا الذين آمنوا ولولا انه للجمع والا لما صح ذلك واعلم انه بقي من مباحث هذه الآية مسئلتان (المسئلة الاولى) هذه الآية تدل على كونه تعالى عالما بالجزئيات الزمانيات لانه تعالى نص على كونه عالما بكيفية احوالهم في ذلك اليوم فيكون منكره كافرا (المسئلة الثانية) نقل ان الحجاج سبق على لسانه ان بالنصب فأسقط اللام من قوله لخبير حتى لا يكون الكلام لحنا وهذا يذكر في تقرير فصاحته فزعم بعض المشايخ ان هذا كفر لانه قصد لتغيير المنزل ونقل عن ابي السمال انه قرأ على هذا الوجه والله تعالى اعلم

(سورة القارعة احدى عشرة آية مكية)

اعلم انه سبحانه وتعالى لما ختم السورة المتقدمة بقوله ان ربهم بهم يومئذ لخبير فكأنه قيل وماذاك اليوم فقيل هي القارعة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(القارعة ما القارعة وما ادراك ما القارعة) اعلم ان فيه مسائل (المسئلة الاولى) القرع الضرب بشدة واعتماد ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة قال الله تعالى ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ومنه قولهم العبد يقرع بالعصا ومنه المقرعة وقوارع القرآن وقرع الباب وتقارعوا تضاربوا بالسيوف واتفقوا على ان القارعة اسم من اسماء القيامة واختلفوا في لمية هذه التسمية على وجوه (احدها) ان سبب ذلك هو الصيحة التي تموت منها الخلائق لان في الصيحة الاولى تذهب العقول قال تعالى فصعق من في السموات ومن في الارض وفي الثانية تموت الخلائق سوى اسرافيل ثم يميته الله ثم يحييه فينفخ الثالثة فيقومون وروى ان الصور له ثقب على عدد الاموات لكل واحد ثقبة معلومة فيحيي الله كل جسد بتلك النفخة الواصلة اليه من تلك الثقبة المعينة والذي يؤكد هذا الوجه قوله تعالى ما ينظرون الا صيحة واحدة فانما هي زجرة واحدة (وثانيها) ان الاجرام العلوية والسفلية تصطكان اصطكاكا شديدا عند تخريب العالم فبسبب تلك القرعة سمي يوم القيامة بالقارعة (وثالثها) ان القارعة هي التي تقرع الناس بالاهوال والافزاع وذلك في السموات بالانشقاق والانفطار وفي الشمس والقمر بالتكور وفي الكواكب بالانتثار وفي الجبال بالدك والنسف وفي الارض بالطي والتبديل وهو قول الكلبي (ورابعها) انها تقرع اعداء الله بالعذاب والخزي والنكال وهو قول مقاتل قال بعض المحققين وهذا أولى من قول الكلبي لقوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون (المسئلة الثانية) في اعراب قوله القارعة ما القارعة وجوه (احدها) انه تحذير وقد جاء التحذير بالرفع والنصب تقول الاسد الاسد فيجوز الرفع والنصب (وثانيها)

*(سورة القارعة مكية وآيها)
(عشر)*

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(القارعة) القرع هو الضرب بشدة واعتماد بحيث يحصل منه صوت شديد وهي القيامة التي مبدؤها النفخة الاولى ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق كما مر في سورة التكوير سميت بها لانها تقرع القلوب والاسماع بفنون الافزاع والاهوال وتخرج جميع الاجرام العلوية والسفلية من حال الى حال السماء بالانشقاق والانفطار والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتثار والارض بالزلزال والتبديل والجبال بالدك والنسف وهي مبتدأ خبره قوله تعالى (ما القارعه) على ان ما الاستفهامية خبر والقارعة مبتدأ لا بالعكس لما مر غير مرة ان محط الفائدة هو الخبر لا المبتدأ ولا ريب في ان مدار افادة الهول والفخامة ههنا هو كلمة ما لا القارعة اي اي شئ عجيب هي في الفخامة والفظاعة وقد وضع الظاهر موضع الضمير تأكيدا للتهويل وقوله تعالى (وما ادراك ما القارعة) تأكيد لهولها وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق على معنى ان عظم شأنها ومدى شدتها بحيث لا تكاد تناله دراية احد حتى يدرك بها وما في حيز الرفع على الابتداء وادراك هو الخبر ولا سبيل الى العكس ههنا وما القارعة جملة كما مر محلها النصب على نزع الخافض لان ادرى يتعدى الى المفعول الثاني بالباء كما في قوله تعالى ولا ادراكم به فلما وقعت الجملة الاستفهامية معلقة له كانت في موقع المفعول الثاني له والجملة الكبيرة معطوفة على ماقبلها من الجملة الواقعة خبرا للمبتدأ الاول

فيه اضمار اى ستأتيكم القارعة على ماأخبرت عنه فى قولى اذا بعثر مافى القبور (وثالثها) رفع بالابتداء وخبره ماالقارعة وعلى قول قطرب الخبر وماادراك ماالقارعة (فان قيل) اذا أخبرت عن شئ بشئ فلابد وان تستفيدمنه علمازائدا وقوله وماادراك يفيد كونه جاهلا به فكيف يعقل ان يكون هذا خبرا (قلنا) قدحصل لنا بهذا الخبر علم زائد لانا كنا نظن انها قارعة كسائر القوارع فبهذا التجهيل علمنا انها قارعة فاقت القوارع فى الهول والشدة (المسئلة الثالثة) قوله وماادراك ماالقارعة فيه وجوه (احدها) معناه لاعلم لك بكنهها لانها فى الشدة بحيث لا يبلغها وهم احد ولا فهمه وكيفما قدرته فهو اعظم من تقديرك كأنه تعالى قال قوارع الدنيا فى جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع ونار الدنيا فى جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار ولذلك قال فى آخر السورة نار حامية تنبيها على ان نار الدنيا فى جنب تلك ليست بحامية وصار آخر السورة مطابقا لاولها من هذا الوجه (فان قيل) ههنا قال وماادراك ماالقارعة وقال فى آخر السورة فأمه هاوية وماادراك ماهيه ولم يقل وماادراك ماهاوية فماالفرق (قلنا) الفرق ان كونها قارعة امر محسوس اما كونها هاوية فليس كذلك فظهر الفرق بين الموضعين (وثانيها) ان ذلك التفصيل لاسبيل لاحد الى العلم به الا باخبار الله وبيانه لانه بحث عن وقوع الواقعات لاعن وجوب الواجبات فلا يكون الى معرفته دليل الا بالسمع (المسئلة الرابعة) نظير هذه الآية قوله الحاقة ماالحاقة وماادراك ماالحاقة ثم قال المحققون قوله القارعة ماالقارعة اشد من قوله الحاقة ماالحاقة لان النازل آخرا لابد وان يكون أبلغ لان المقصود منه زيادة التنبيه وهذه الزيادة لاتحصل الا اذا كانت أقوى واما بالنظر الى المعنى فالحاقة اشد لكونه راجعا الى معنى العدل والقارعة اشد لما انها تهجم على القلوب بالامر الهائل ❊ ثم قال تعالى (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش) قال صاحب الكشاف الظرف نصب بمضمر دلت عليه القارعة اى تقرع يوم يكون الناس كذا واعلم انه تعالى وصف ذلك اليوم بأمرين (الاول) كون الناس فيه كالفراش المبثوث قال الزجاج الفراش هو الحيوان الذى يتهافت فى النار وسمى فراشا لتفرشه وانتشاره ثم انه تعالى شبه الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث وفى آية أخرى بالجراد المنتشر اما وجه التشبيه بالفراش فلان الفراش اذا ثار لم يتجه لجهة واحدة بل كل واحدة منها تذهب الى غير جهة الاخرى فدل هذا على انهم اذا بعثوا فزعوا واختلفوا فى المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة والمبثوث المفرق يقال بثه اذا فرقه واما وجه التشبيه بالجراد فهو فى الكثرة قال الفراء كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضا وبالجملة فالله سبحانه وتعالى شبه الناس فى وقت البعث بالجراد المنتشر وبالفراش المبثوث لانهم لما بعثوا يموج بعضهم فى بعض كالجراد والفراش ويتأكد ماذكرناه بقوله تعالى فتأتون افواجا وقوله يوم يقوم الناس لرب العالمين وقوله فى قصة يأجوج ومأجوج

(وتركنا)

اى واى شئ اعلمك ماشان القارعة ولما كان هذا منبئا عن الوعد الكريم باعلامها انجز ذلك بقوله تعالى (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) على ان يوم مرفوع على انه خبر مبتدا محذوف وحركته الفتح لاضافته الى الفعل وان كان مضارعا كما هو رأى الكوفيين اى هى يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث فى الكثرة والانتشار والضعف والذلة والاضطراب والتطاير الى الداعى كتطاير الفراش الى النار او منصوب باضمار اذكر كأنه قيل بعد تفخيم امر القارعة وتشويقه عليه الصلاة والسلام الى معرفتها اذكر يوم يكون الناس الخ فانه يدريك ماهى هذا وقد قيل انه ظرف ناصبه مضمر يدل عليه القارعة اى تقرع يوم يكون الناس الخ وقيل تقديره ستأتيكم القارعة يوم يكون الخ (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) اى كالصوف الملون بالالوان المختلفة المندوف فى تفرق اجزائها وتطايرها فى الجو حسبما نطق به قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب وكلا الامرين من آثار القارعة بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدل الله عزوجل الارض غير الارض ويغير هيئاتها ويسير الجبال عن مقارها على ماذكر من الهيئات الهائلة ليشاهدها اهل المحشر وهى وان اندكت وتصدعت عند النفخة الاولى لكن تسييرها وتسوية الارض انما يكونان بعد النفخة الثانية كما ينطق به قوله تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى

وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض فان قيل الجراد بالنسبة الى الفراش كبار فكيف شبه الشيء الواحد بالصغير والكبير معا قلنا شبه الواحد بالصغير والكبير لكن في وصفين اما التشبيه بالفراش فبذهاب كل واحدة الى غير جهة الاخرى واما بالجراد فبالكثرة والتتابع ويحتمل ان يقال انها تكون كبارا أولا كالجراد ثم تصير صغارا كالفراش بسبب احتراقهم بحر الشمس وذكروا في التشبيه بالفراش وجوها أخر (احدها) ماروى انه عليه السلام قال الناس عالم ومتعلم وسائر الناس همج رعاع فجعلهم الله في الآخرة كذلك جزاء وفاقا (وثانيها) انه تعالى انما أدخل حرف التشبيه فقال كالفراش لانهم يكونون في ذلك اليوم أذل من الفراش لان الفراش لايعذب وهؤلاء يعذبون ونظيره كالانعام بل هم أضل (الصفة الثانية) من صفات ذلك اليوم قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش العهن الصوف ذو الالوان وقدم تحقيقه عند قوله وتكون الجبال كالعهن والنفش فك الصوف حتى ينتفش بعضه عن بعض وفي قراءة ابن مسعود كالصوف المنفوش واعلم ان الله تعالى اخبر ان الجبال مختلفة الالوان على ماقال ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ثم انه سبحانه يفرق اجزاءها ويزيل التأليف والتركيب عنها فيصير ذلك مشابها للصوف الملون بالالوان المختلفة اذا جعل منفوشا وههنا مسائل (المسئلة الاولى) انما ضم بين حال الناس وبين حال الجبال كأنه تعالى نبه على ان تأثير تلك القرعة في الجبال هو انها صارت كالعهن المنفوش فكيف يكون حال الانسان عند سماعها فالويل ثم الويل لابن آدم ان لم تتداركه رحمة ربه ويحتمل ان يكون المراد ان جبال النار تصير كالعهن المنفوش لشدة حمرتها (المسئلة الثانية) قد وصف الله تعالى تغير الاحوال على الجبال من وجوه (اولها) ان تصير قطعا كما قال ودكت الجبال دكا (وثانيها) ان تصير كثيبا مهيلا كما قال وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ثم تصير كالعهن المنفوش وهي أجزاء كالذر تدخل من كوة البيت لاتمسها الايدي ثم قال في الرابع تصير سرابا كما قال وسيرت الجبال فكانت سرابا (المسئلة الثالثة) لم يقل يوم يكون الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش بل قال وتكون الجبال كالعهن المنفوش لان التكرير في مثل هذا المقام أبلغ في التحذير * واعلم انه تعالى لما وصف يوم القيامة قسم الناس فيه الى قسمين فقال تعالى (فامامن ثقلت موازينه) واعلم ان في الموازين قولين (احدهما) انه جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله وهذا قول الفراء قال ونظيره يقال لك عندي درهم بميزان درهمك ووزن درهمك وداري بميزان دارك ووزن دارك اي بحذائها (والثاني) انه جمع ميزان قال ابن عباس الميزان له لسان وكفتان لايوزن فيه الا الاعمال فيؤتى بحسنات المطيع في احسن صورة فاذا رجح فالجنة له ويؤتى بسيئات الكافر في اقبح صورة فيخف وزنه فيدخل النار وقال الحسن في الميزان له كفتان ولايوصف قال المتكلمون ان نفس الحسنات والسيآت

فيها عوجاء لاامتا يومئذ يتبعون الداعي وقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار فان اتباع الداعي الذي هو اسرافيل عليه السلام وبروز الخلق لله سبحانه لايكون الا بعد البعث قطعا وقدمر تمام الكلام في سورة النمل وقوله تعالى (فاما من ثقلت موازينه) الخ بيان اجمالي لتحزب الناس الى حزبين وتنبيه على كيفية الاحوال الخاصة بكل منهما اثر بيان الاحوال الشاملة للكل والموازين اما جمع الموزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله كما قاله الفراء او جمع ميزان قال ابن عباس رضي الله عنهما انه ميزان له لسان وكفتان لايوزن فيه الا الاعمال قالوا توضع فيه صحائف الاعمال فينظر اليه الخلائق اظهارا للمعدلة وقطعا للمعذرة وقيل الوزن عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل وبه قال مجاهد والاعمش والضحاك واختاره كثير من المتأخرين قالوا ان الميزان لايتوصل به الا الى معرفة مقادير الاجسام فكيف يمكن ان يعرف به مقادير الاعمال التي هي اعراض منقضية وقيل ان الاعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انه يؤتى بالاعمال الصالحة على صورة حسنة وبالاعمال

لايصح وزنهما خصوصا وقد تقضيا بل المراد ان الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيآت توزن او يجعل النور علامة الحسنات والظلمة علامة السيآت او تصور صحيفة الحسنات بالصورة الحسنة وصحيفة السيآت بالصورة القبيحة فيظهر بذلك الثقل والخفة وتكون الفائدة فى ذلك ظهور حال صاحب الحسنات فى الجمع العظيم فيزداد سرورا وظهور حال صاحب السيآت فيكون ذلك كالفضيحة له عند الخلائق ❊ اما قوله تعالى (فهو فى عيشة راضية) فالعيشة مصدر بمعنى العيش كالخيفة بمعنى الخوف واما الراضية فقال الزجاج معناه اى عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها وهى كقولهم لابن وتامر بمعنى ذو لبن وذو تمر ولهذا قال المفسرون تفسيرها مرضية على معنى يرضاها صاحبها ❊ ثم قال تعالى (واما من خفت موازينه) اى قلت حسناته فرجحت السيآت على الحسنات قال ابوبكر رضى الله عنه انما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لايوضع فيه الا الحق ان يكون ثقيلا وانما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيه الباطل ان يكون خفيفا وقال مقاتل انما كان كذلك لان الحق ثقيل والباطل خفيف ❊ اما قوله تعالى (فأمه هاوية) ففيه وجوه (احدها) ان الهاوية من أسماء النار وكأنها النار العميقة يهوى اهل النار فيها مهوى بعيدا والمعنى فأواه النار وقيل للمأوى ام على سبيل التشبيه بالام التى لايقع الفزع من الولد الا اليها (وثانيها) فأم رأسه هاوية فى النار ذكره الاخفش والكلبى وقتادة قال لانهم يهوون فى النار على رؤسهم (وثالثها) انهم اذا دعوا على الرجل بالهلاك قالوا هوت أمه لانه اذا هوى اى سقط وهلك فقد هوت أمه حزنا وثكلا فكأنه قيل واما من خفت موازينه فقد هلك ❊ ثم قال تعالى (وما أدراك ماهيه) قال صاحب الكشاف هيه ضمير الداهية التى دل عليها قوله فأمه هاوية فى التفسير الثالث او ضمير هاوية والهاء للسكت فاذا وصل جاز حذفها والاختيار الوقف بالهاء لاتباع المصحف والهاء ثابتة فيه وذكرنا الكلام فى هذه الهاء عند قوله تعالى لم يتسنه فبهداهم اقتده ماأغنى عنى ماليه ❊ ثم قال تعالى (نار حامية) والمعنى ان سائر النيران بالنسبة اليها كأنها ليست حامية وهذا القدر كاف فى التنبيه على قوة سخونتها نعوذ بالله منها ومن جميع انواع العذاب ونسأله التوفيق وحسن المآب ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة انك لاتخلف الميعاد

❊ (سورة التكاثر ثمان آيات مكية) ❊

❊ (بسم الله الرحمن الرحيم) ❊

(ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) فيه مسائل (المسئلة الاولى) الالهاء الصرف الى اللهو واللهو الانصراف الى مايدعو اليه ومعلوم ان الانصراف الى الشئ يقتضى الاعراض عن غيره فلهذا قال أهل اللغة الهانى فلان عن كذا اى انسانى وشغلنى ومنه

السيئة على صور قبيحة فتوضع فى الميزان اى فمن ترجحت مقادير حسناته (فهو فى عيشة راضية) اى ذات رضا او مرضية (واما من خفت موازينه) بأن لم يكن له حسنة يعتد بها او ترجحت سيآته على حسناته (فأمه) اى فأواه (هاوية) هى من اسماء النار سميت بها لغاية عمقها وبعد مهواها روى ان اهل النار تهوى فيها سبعين خريفا وقيل انها اسم للباب الاسفل منها وعبر عن المأوى بالام لان اهلها يأوون اليها كما يأوى الولد الى امه وعن قتادة وعكرمة والكلبى ان المعنى فأم رأسه هاوية فى قعر جهنم لانه يطرح فيها منكوسا والاول هو الموافق لقوله تعالى (وما ادراك ماهيه نار حامية) فانه تقرير لها بعد ابهامها والاشعار بخروجها عن الحدود المعهودة للتفخيم والتهويل وهى ضمير الهاوية والهاء للسكت واذا وصل القارى حذفها وقيل حقه ان لايدرج لئلا يسقطها الادراج لانها ثابتة فى المصحف وقد اجيز اثباتها مع الوصل ❊ عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ القارعة ثقل الله تعالى بها ميزانه يوم القيامة

❊ (سورة التكاثر مختلف فيها وآيها ثمان) ❊

❊ (بسم الله الرحمن الرحيم) ❊

(الهاكم التكاثر) اى شغلكم التغالب فى الكثرة والتفاخر بها

الحديث ان الزبير كان اذا سمع صوت الرعد لهـا عن حديثه اى تركه واعرض عنه وكل شئ تركته فقد لهيت عنه و التكاثر التباهي بكثرة المال والجاه و المناقب يقال تكاثر القوم تكاثرا اذا تعادوا مالهم من كثرة المناقب وقال ابو مسلم التكاثر تفاعل من الكثرة والتفاعل يقع على احـد وجوه ثلاثة يحتمل ان يكون بين الاثنين فيكون مفاعلة ويحتمل تكلف الفعل تقول تكارهت على كذا اذا فعلته وأنت كاره وتقول تعاميت عن الامر اذا تكلفت العمى عنه وتقول تغافلت ويحتمل ايضا الفعل بنفسه كما تقول تباعدت عن الامر اى بعدت عنه ولفظ التكاثر فى هذه الآية يحتمل الوجهين الاولين فيحتمل التكاثر بمعنى المفاعلة لانه كم من اثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه انا اكثر منك مالا وأعز نفرا ويحتمل تكلف الكثرة فان الحريص يتكلف جميع عمره تكثير ماله واعلم ان التفاخر والتكاثر شئ واحد ونظير هذه الآية قوله تعالى وتفاخر بينكم (المسئلة الثانية) اعلم ان التفاخر انما يكون باثبات الانسان نوعا من انواع السعادة لنفسه واجناس السعادة ثلاثة (فأحدها) فى النفس (والثانية) فى البدن (والثالثة) فيما يطيف بالبدن من خارج (اما التى فى النفس) فهى العلوم والاخلاق الفاضلة وهما المرادان بقوله حكاية عن ابراهيم رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين وبهما ينال البقاء الأبدى والسعادة السرمدية (واما التى فى البدن) فهى الصحة والجمال وهى المرتبة الثانية (واما التى تطيف بالبدن) من خارج فقسمان (احدهما) ضرورى وهو المال والجاه (والآخر) غير ضرورى وهو الاقرباء والاصدقاء وهذا الذى عددناه فى المرتبة الثالثة انما يراد كله للبدن بدليل انه اذا تألم عضو من اعضائه فانه يجعل المال والجاه فداءله (واما السعادة البدنية) فالفضلاء من الناس انما يريدونها للسعادة النفسانية فانه ما لم يكن صحيح البدن لم يتفرغ لاكتساب السعادات النفسانية الباقية اذا عرفت هذا فنقول العاقل ينبغى ان يكون سعيه فى تقديم الاهم على المهم فالتفاخر بالمال والجاه والاعوان و الاقرباء تفاخر بأخس المراتب من أسباب السعادات و الاشتغال به يمنع الانسان من تحصيل السعـادة النفسانية بالعلم والعمل فيكون ذلك ترجيحا لأخس المراتب فى السعادات على أشرف المراتب فيها وذلك يكون عكس الواجب ونقيض الحق فلهذا السبب ذمهم الله تعالى فقال ألهاكم التكاثر ويدخل فيه التكاثر بالعدد و بالمال والجـاه و الاقرباء والانصـار والجيش وبالجملة فيدخل فيه التكاثر بكل مايكون من الدنيا ولذاتها وشهواتها (المسئلة الثالثة) قوله الهاكم يحتمل ان يكون اخبارا عنهم ويحتمل ان يكون استفهاما بمعنى التوبيخ والتقريع اى أألهاكم كما قرئ أأنذرتهم وأأنذرتهم واذا كنا عظـاما وأئذا كنا عظاما (المسئلة الرابعة) الآية دلت على ان التكاثر والتفـاخر مذموم والعقل دل على ان التكاثر والتفاخر فى السعادات الحقيقية غير مذموم ومن ذلك ماروى من تفاخر العباس بان السقاية بيده وتفاخر شيبة بان المفتاح بيده الى ان قال على عليه السلام وأنا قطعت

روى ان بنى عبدمناف وبنى سهم تفـاخروا وتعادوا وتكاثروا بالسادة والاشراف فى الاسـلام فقال كل من الفريقين نحن اكثر منكم سيدا واعز عزيزا واعظم نفرا فكثرهم بنو عبدمناف فقال بنوسهم ان البغى افنانا فى الجاهلية

خرطوم الكفر بسيفي فصار الكفر مثلة فأسلتم فشق ذلك عليهم فنزل قوله تعالى أجعلتم سقاية الحاج الآية وذكرنا في تفسير قوله تعالى واما بنعمة ربك فحدث انه يجوز للإنسان ان يفتخر بطاعاته ومحاسن اخلاقه اذا كان يظن ان غيره يقتدى به فثبت ان مطلق التكاثر ليس بمذموم بل التكاثر في العلم والطاعة والاخلاق الحميدة هو المحمود وهو اصل الخيرات فالالف واللام في التكاثر ليسا للاستغراق بل للمعهود السابق وهو التكاثر في الدنيا ولذاتها وعلائقها فانه هو الذى يمنع عن طاعة الله تعالى وعبوديته ولما كان ذلك مقررا في العقول ومتفقا عليه في الاديان لاجرم حسن ادخال حرف التعريف عليه (المسئلة الخامسة) في تفسير الآية وجوه (احدها) الهاكم التكاثر بالعدد روى انها نزلت في بني سهم وبني عبد مناف تفاخروا ايهم اكثر فكان بنو عبدمناف اكثر فقال بنو سهم عدوا مجموع احيائنا واموائنا مع مجموع احيائكم واموائكم ففعلوا فزاد بنو سهم فنزلت الآية وهذه الرواية مطابقة لظاهر القرآن لان قوله حتى زرتم المقابر يدل على انه امر مضى فكأنه تعالى يعجبهم من انفسهم ويقول هب انكم اكثر منهم عددا فماذا ينفع والزيارة اتيان الموضع وذلك يكون لأغراض كثيرة واهمها واولاها بالرعاية ترقيق القلب وازالة حب الدنيا فان مشاهدة القبور تورث ذلك على ماقال عليه السلام كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألافزوروها فان في زيارتها تذكرة ثم انكم زرتم القبور بسبب قساوة القلب والاستغراق في حب الدنيا فلما انعكست هذه القضية لاجرم ذكر الله تعالى ذلك في معرض التعجيب (القول الثانى) ان المراد هو التكاثر بالمال واستدلوا عليه بما روى مطرف بن عبدالله بن الشخير عن ابيه انه عليه السلام كان يقرأ ألهاكم وقال ابن آدم يقول مالى مالى وهل لك من مالك الاما أكلت فأفنيت أولبست فأبليت اوتصدقت فأمضيت والمراد من قوله حتى زرتم المقابر اى حتى متم وزيارة القبر عبارة عن الموت يقال لمن مات زار قبره وزار رمسه قال جرير للاخطل

زار القبور أبومالك * فاصبح الأم زوارها

اى مات فيكون معنى الآية ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى اتاكم الموت وانتم على ذلك لايقال حمله على هذا الوجه مشكل من وجهين (الاول) ان الزائر هو الذى يزور ساعة ثم ينصرف والميت يبقى في قبره فكيف يقال انه زار القبر (والثانى) ان قوله حتى زرتم المقابر اخبار عن الماضى فكيف يحمل على المستقبل (الجواب عن السؤال الاول) انه قد يمكث الزائر لكن لابد له من الرحيل وكذا اهل القبور يرحلون عنها الى مكان الحساب (والجواب عن السؤال الثانى) من وجوه (احدها) يحتمل ان يكون المراد من كان مشرفا على الموت بسبب الكبر ولذلك يقال فيه انه على شفير القبر (وثانيها) ان الخبر عمن تقدمهم وعظالهم فهو كالخبر عنهم لانهم كانوا على طريقتهم ومنه قوله تعالى ويقتلون النبيين (وثالثها) قال ابو مسلم ان الله تعالى

فعادونا بالاحياء والاموات فكثرهم بنو سهم والمعنى انكم تكاثرتم بالاحياء (حتى زرتم المقابر) اى حتى اذا استوعبتم عددهم صرتم الى التفاخر والتكاثر بالاموات فعبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة القبور تهكما بهم وقيل

(يتكلم)

يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعيير الكفار وهم فى ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور (القول الثالث) ألهاكم الحرص على المال وطلب تكثيره حتى منعتم الحقوق المالية الى حين الموت ثم تقول فى تلك الحالة اوصيت لاجل الزكاة بكذا ولاجل الحج بكذا (القول الرابع) ألهاكم التكاثر فلا تلتفتون الى الدين بل قلوبكم كأنها أحجار لاتنكسر البتة الا اذا زرتم المقابر هكذا ينبغى ان تكون حالكم وهو ان يكون حظكم من دينكم ذلك القدر القليل من الانكسار ونظيره قوله تعالى قليلا ماتشكرون اى لاأقنع منكم بهذا القدر القليل من الشكر (المسئلة السادسة) انه تعالى لم يقل ألهاكم التكاثر عن كذا وانما لم يذكره لان المطلق أبلغ فى الذم لانه يذهب الوهم فيه كل مذهب فيدخل فيه جميع مايحتمله الموضع اى ألهاكم التكاثر عن ذكر الله وعن الواجبات والمندوبات فى المعرفة والطاعة والتفكر والتدبر أونقول ان نظرنا الى ماقبل هذه الآية فالمعنى الهاكم التكاثر عن التدبر فى امر القارعة والاستعداد لها قبل الموت وان نظرنا الى الاسفل فالمعنى ألهاكم التكاثر فنسيتم القبر حتى زرتموه ❊ أما قوله تعالى (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) فهو يتصل بما قبله وبما بعده (أما الاول) فعلى وجه الرد والتكذيب اى ليس الامر كما يتوهمه هؤلاء من ان السعادة الحقيقية بكثرة العدد والاموال والاولاد (واما اتصاله بما بعده) فعلى معنى القسم اى حقا سوف تعلمون لكن حين يصير الفاسق تائبا والكافر مسلما والحريص زاهدا ومنه قول الحسن لايغرنك كثرة من ترى حولك فانك تموت وحدك وتبعث وحدك وتحاسب وحدك وتقريره يفر المرء ويأتينا فردا ولقد جئتمونا فرادى الى ان قال وتركتم ماخولناكم وهذا يمنعك عن التكاثر وذكروا فى التكرير وجوها (احدها) انه للتأكيد وانه وعيد بعد وعيد كما تقول للمنصوح اقول لك ثم اقول لك لاتفعل (وثانيها) ان الاول عند الموت حين يقال له لابشرى والثانى فى سؤال القبر من ربك والثالث عند النشور حين ينادى المنادى فلان شقى شقاوة لاسعادة بعدها أبدا وحين يقال وامتازوا اليوم (وثالثها) عن الضحاك سوف تعلمون أيها الكفار ثم كلا سوف تعلمون أيها المؤمنون وكان يقرؤها كذلك فالاول وعيد والثانى وعد (ورابعها) ان كل احد يعلم قبح الظلم والكذب وحسن العدل والصدق لكن لايعرف قدر آثارها ونتائجها ثم انه تعالى يقول سوف تعلم العلم المفصل لكن التفصيل يحتمل الزائد فمهما حصلت زيادة لذة ازداد علما وكذا فى جانب العقوبة فقسم ذلك على الاحوال فعند المعاينة يزداد ثم عند السؤال ثم عند البعث ثم عند الحساب ثم عند دخول الجنة والنار فلذلك وقع التكرير (وخامسها) ان احدى الحالتين عذاب القبر والاخرى عذاب القيامة كما روى عن ابى ذر انه قال كنت اشك فى عذاب القبر حتى سمعت على بن ابى طالب عليه السلام يقول ان هذه الآية تدل على عذاب القبر وانما قال ثم لان بين العالمين والحياتين موتا ❊ ثم قال تعالى (كلا لو تعلمون علم اليقين

كانوا يزورون المقابر فيقولون هذا قبر فلان وهذا قبر فلان يفتخرون بذلك وقيل المعنى الهاكم التكاثر بالاموال والاولاد الى ان متم وقبرتم مضيعين اعماركم فى طلب الدنيا معرضين عما يهمكم من السعى لاخراكم فتكون زيارة القبور

لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اتفقوا على ان جواب لو محذوف وانه ليس قوله لترون الجحيم جواب لو ويدل عليه وجهان (أحدهما) ان ما كان جواب لو فنفيه اثبات واثباته نفي فلو كان قوله لترون الجحيم جوابا للو لوجب أن لا تحصل هذه الرؤية وذلك باطل فان هذه الرؤية واقعة قطعا فان قيل المراد من هذه الرؤية رؤيتها بالقلب في الدنيا ثم ان هذه الرؤية غير واقعة قلنا ترك الظاهر خلاف الاصل (والثاني) أن قوله ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم اخبار عن امر سيقع قطعا فعطفه على ما لا يوجد ولا يقع قبيح في النظم واعلم ان ترك الجواب في مثل هذا المكان احسن يقول الرجل للرجل لو فعلت هذا اى لكان كذا قال الله تعالى لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولم يجئ له جواب وقال ولو ترى اذ وقفوا على ربهم اذا عرفت هذا فنقول ذكروا في جواب لو وجوها (احدها) قال الاخفش لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم التكاثر (وثانيها) قال ابو مسلم لو علمتم ماذا يجب عليكم لتمسكتم به أو لو علمتم لأى أمر خلقتم لاشتغلتم به (وثالثها) انه حذف الجواب ليذهب الوهم كل مذهب فيكون التهويل اعظم وكأنه قال لو علمتم علم اليقين لفعلتم مالا يوصف ولا يكتنه ولكنكم ضلال وجهلة واما قوله لترون الجحيم فاللام يدل على انه جواب قسم محذوف والقسم لتوكيد الوعيد وان ما اوعدوا به مما لا مدخل فيه للريب وكرره معطوفا بثم تغليظا للتهديد وزيادة في التهويل (المسئلة الثانية) انه تعالى أعاد لفظ كلا وهو الزجر وانما حسنت الاعادة لانه عقبه في كل موضع بغير ما عقب به الموضع الآخر كأنه تعالى قال لا تفعلوا هذا فانكم تستحقون به من العذاب كذا لا تفعلوا هذا فانكم تستوجبون به ضررا آخر وهذا التكرير ليس بالمكروه بل هو مرضى عندهم وكان الحسن رحمه الله يجعل معنى كلا في هذا الموضع بمعنى حقا كأنه قيل حقا لو تعلمون علم اليقين (المسئلة الثالثة) في قوله علم اليقين وجهان (احدهما) ان معناه علما يقينا فأضيف الموصوف الى الصفة كقوله تعالى ولدار الآخرة وكما يقال مسجد الجامع وعام الاول (والثاني) ان اليقين ههنا هو الموت والبعث والقيامة وقد سمى الموت يقينا في قوله تعالى واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ولأنهما اذا وقعا جاء اليقين وزال الشك فالمعنى لو تعلمون علم الموت وما يلقى الانسان معه وبعده في القبر وفي الآخرة لم يلهكم التكاثر والتفاخر عن ذكر الله وقد يقول الانسان انا اعلم علم كذا أى أتحققه وفلان يعلم علم الطب وعلم الحساب لان العلوم انواع فيصلح لذلك ان يقال علمت علم كذا (المسئلة الرابعة) العلم من اشد البواعث على العمل فاذا كان وقت العمل امامه كان وعدا وعظة وان كان بعد فوات وقت العمل فحينئذ يكون حسرة وندامة كما ذكر ان ذا القرنين لما دخل الظلمات فالذين كانوا معه أخذوا من تلك الخرز فلما خرجوا من الظلمات وجدوها جواهر ثم الآخذون كانوا في الغم أى لما لم يأخذوا اكثر مما أخذوا والذين لم يأخذوا كانوا أيضا في الغم فهكذا يكون احوال اهل

عبارة عن الموت وقرئ أألهاكم على الاستفهام التقريرى (كلا) ردع وتنبيه على ان العاقل ينبغي ان لا يكون معظم همه مقصورا على الدنيا فان عاقبة ذلك وخيمة (سوف تعلمون) سوء مغبة ما انتم عليه اذا عاينتم عاقبته (ثم كلا سوف تعلمون) تكرير للتأكيد وثم للدلالة على ان الثاني ابلغ من الاول او الاول عند الموت او في القبر

القيامة (المسئلة الخامسة) فى الآية تهديد عظيم للعلماء فانها دلت على أنه لو حصل اليقين بما فى التكاثر من الآفة لتركوا التكاثر والتفاخر وهذا يقتضى أن من لم يترك التكاثر والتفاخر لايكون اليقين حاصلا له فالويل للعالم الذى لايكون عاملا ثم الويل له (المسئلة السادسة) فى تكرار الرؤية وجوه (احدها) انه لتأكيد الوعيد ايضا لعل القوم كانوا يكرهون سماع الوعيد فكرر لذلك ونون التأكيد تقتضى كون تلك الرؤية اضطرارية يعنى لو خليتم ورأيكم ما رأيتموها لكنكم تحملون على رؤيتها شئتم ام أبيتم (وثانيها) ان اولهما الرؤية من البعيد اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وقوله وبرزت الجحيم لمن يرى والرؤية الثانية اذا صاروا الى شفير النار (وثالثها) ان الرؤية الاولى عند الورود والثانية عند الدخول فيها وقيل هذا التفسير ليس بحسن لانه قال ثم لتسئلن والسؤال يكون قبل الدخول (ورابعها) الرؤية الاولى الموعد والثانية المشاهدة (وخامسها) ان يكون المراد لترون الجحيم غير مرة فيكون ذكر الرؤية مرتين عبارة عن تتابع الرؤية واتصالها لانهم مخلدون فى الجحيم فكأنه قيل لهم على جهة الوعيد لئن كنتم اليوم شاكين فيها غير مصدقين بها فسترونها رؤية دائمة متصلة فتزول عنكم الشكوك وهو كقوله ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت الى قوله فارجع البصر كرتين بمعنى لو أعدت النظر فيها ماشئت لم تجد فطورا ولم يرد مرتين فقط فكذا ههنا ان قيل ما فائدة تخصيص الرؤية الثانية باليقين قلنا لانهم فى المرة الاولى رأوا لهبا لاغير وفى المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية ولاشك أن هذه الرؤية اجلى والحكمة فى النقل من العلم الاخفى الى الاجلى التقريع على ترك النظر لانهم كانوا يقتصرون على الظن ولا يطلبون الزيادة (المسئلة السابعة) قراءة العامة لترون بفتح التاء وقرئ بضمها من أريته الشئ والمعنى انهم يحشرون اليها فيرونها وهذه القراءة تروى عن ابن عامر والكسائى كأنهما أرادا لترونها ولذلك قرأ الثانية ثم لترونها بالفتح وفى هذه الثانية دليل على انهم اذا أروها رأوها وفى قراءة العامة الثانية تكرير للتأكيد او لسائر الفوائد التى عددناها واعلم ان قراءة العامة اولى لوجهين (الاول) قال الفراء قراءة العامة اشبه بكلام العرب لانه تغليظ فلا ينبغى ان يختلف لفظه (الثانى) قال ابو على المعنى فى لترون الجحيم لترون عذاب الجحيم ألاترى ان الجحيم يراها المؤمنون ايضا بدلالة قوله تعالى وان منكم الا واردها واذا كان كذلك كان الوعيد فى رؤية عذابها لا فى رؤية نفسها يدل على هذا قوله اذ يرون العذاب وقوله واذا رأى الذين ظلموا العذاب وهذا يدل على ان لترون ارجح من لترون ❊ قوله تعالى (ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم) فيه مسائل (المسئلة الاولى) فى ان الذى يسئل عن النعيم من هو فيه قولان (احدهما) وهو الاظهر انهم الكفار قال الحسن لايسئل عن النعيم الا اهل النار ويدل عليه وجهان (الاول) ماروى ان ابا بكر لما نزلت هذه الآية قال يارسول الله أرأيت اكلة اكلتها معك فى بيت

والثانى عند المنشور (كلا لو تعلمون علم اليقين) اى لو تعلمون مابين ايديكم علم الامر اليقين اى كعلمكم ما تستيقنونه لفعلتم مالا يوصف ولايكتنه فحذف الجواب للتهويل وقوله تعالى (لترون الجحيم) جواب قسم مضمرا كدبه الوعيد وشدد به التهديد واوضح به ما أنذروه بعد ابهامه تفخيما (ثم لترونها) تكرير للتأكيد والاولى اذا رأتهم من مكان بعيد والثانية اذا وردوها أو المراد

ابى الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر وماء عذب ان تكون من النعيم الذى تسئل عنه فقال عليه الصلاة والسلام انما ذلك للكفار ثم قرأ وهل يجازى الا الكفور (والثانى) وهو ان ظاهر الآية يدل على ماذكرناه وذلك لان الكفار ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى والاشتغال بشكره فالله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظهر لهم ان الذى ظنوه سببا لسعادتهم هو كان من اعظم اسباب الشقاء لهم فى الآخرة (والقول الثانى) انه عام فى حق المؤمن والكافر واحتجوا بأحاديث روى ابوهريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اول مايسئل عنه العبد يوم القيامة من النعيم فيقال له الم نصحح لك جسمك ونرويك من الماء البارد وقال محمود بن لبيد لما نزلت هذه السورة قالوا يارسول الله عن اى نعيم نسئل انما هما الماء والتمر وسيوفنا على عواتقنا والعدو حاضر فعن اى نعيم نسئل قال ان ذلك سيكون وروى عن عمر انه قال اى نعيم نسئل عنه يارسول الله وقد اخرجنا من ديارنا واموالنا فقال صلى الله عليه وسلم ظلال المساكن والاشجار والاخبية التى تقيكم من الحر والبرد والماء البارد فى اليوم الحار وقريب منه من اصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها وروى ان شابا اسلم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمه سورة ألهاكم ثم زوجه رسول الله امرأة فلما دخل عليها ورأى الجهاز العظيم والنعيم الكثير خرج وقال لااريد ذلك فسأله النبى عليه الصلاة والسلام عنه فقال ألست علمتنى ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم وانا لااطيق الجواب عن ذلك وعن أنس لما نزلت الآية قام محتاج فقال هل على من النعمة شئ قال الظل والنعلان والماء البارد واشهر الاخبار فى هذا ماروى انه عليه الصلاة والسلام خرج ذات ليلة الى المسجد فلم يلبث ان جاء ابوبكر فقال مااخرجك ياابابكر قال الجوع قال والله مااخرجنى الا الذى اخرجك ثم دخل عمر فقال مثل ذلك فقال قوموا بنا الى منزل ابى الهيثم فدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الباب وسلم ثلاث مرات فلم يجب احد فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت امرأته تصيح كنا نسمع صوتك لكن أردنا ان تزيد من سلامك فقال لها خيرا ثم قالت بأبى انت وامى ان اباالهيثم خرج يستعذب لنا الماء ثم عمدت الى صاع من شعير فطحنته وخبزته ورجع ابوالهيثم فذبح عناقا واتاهم بالرطب فأكلوا وشربوا فقال عليه الصلاة والسلام هذا من النعيم الذى تسئلون عنه وروى ايضا لاتزول قدما عبد حتى يسئل عن اربع عن عمره وماله وشبابه وعمله وعن معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم ان العبد ليسئل يوم القيامة حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة باصبعه وعن لمس ثوب اخيه واعلم ان الاولى ان يقال السؤال يعم المؤمن والكافر لكن سؤال الكافر سؤال التوبيخ لانه ترك الشكر وسؤال المؤمن سؤال تشريف لانه شكر وأطاع (المسئلة الثانية) ذكروا فى النعيم المسؤل عنه وجوها (احدها) ماروى انه خمس شبع البطون وبارد الشراب ولذة

بالاولى المعرفة وبالثانية المشاهدة والمعاينة (عين اليقين) اى الرؤية التى هى نفس اليقين فان علم المشاهدة اقصى مراتب اليقين (ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم) اى عن النعيم الذى ألهاكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه فان الخطاب مخصوص بمن عكف همته على استيفاء اللذات ولم يعش الا ليأكل الطيب ويلبس اللين ويقطع اوقاته

النوم واظلال المساكن واعتدال الخلق (وثانيها) قال ابن مسعود انه الامن والصحة والفراغ (وثالثها) قال ابن عباس انه الصحة وسائر ملاذ المأكول والمشروب (ورابعها) قال بعضهم الانتفاع بادراك السمع والبصر (وخامسها) قال الحسين ابن الفضل تخفيف الشرائع وتيسير القرآن (وسادسها) قال ابن عمر انه الماء البارد (وسابعها) قال الباقر انه العافية ويروى ايضا عن جابر الجعفي قال دخلت على الباقر فقال ماتقول ارباب التأويل فى قوله ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم فقلت يقولون الظل والماء البارد فقال لو أنك ادخلت بيتك أحدا واقعدته فى ظل وأسقيته ماء باردا اتمن عليه فقلت لا قال فالله اكرم من ان يطعم عبده ويسقيه ثم يسأله عنه فقلت ماتأويله قال النعيم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم انعم الله به على هذا العالم فاستنقذهم به من الضلالة أماسمعت قوله تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا الآية (والقول الثامن) انما يسألون عن الزائد مما لا بد منه من مطعم وملبس ومسكن (والتاسع) وهو الاولى انه يجب حمله على جميع النعم ويدل عليه وجوه (أحدها) ان الالف واللام يفيدان الاستغراق (وثانيها) انه ليس صرف اللفظ الى البعض اولى من صرفه الى الباقي لاسيما وقد دل الدليل على ان المطلوب من منافع هذه الدنيا اشتغال العبد بعبودية الله تعالى (وثالثها) انه تعالى قال يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم والمراد منه جميع النعم من فلق البحر والانجاء من فرعون وانزال المن والسلوى فكذا ههنا (ورابعها) ان النعيم التام كالشيء الواحد الذي له ابعاض واعضاء فاذا اشير الى النعيم فقد دخل فيه الكل كما ان الترياق اسم للمعجون المركب من الادوية الكثيرة فاذا ذكر الدرياق فقد دخل الكل فيه واعلم ان النعم اقسام فمنها ظاهرة وباطنة ومنها متصلة ومنفصلة ومنها دينية ودنيوية وقد ذكرنا اقسام السعادات بحسب الجنس فى تفسير اول هذه السورة واما تعديدها بحسب النوع والشخص فغير ممكن على ماقال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها واستعن فى معرفة نعم الله عليك فى صحة بدنك بالاطباء ثم هم اشد الخلق غفلة وفى معرفة نعم الله عليك بخلق السموات والكواكب بالمنجمين وهم اشد الناس جهلا بالصانع وفى معرفة سلطان الله بالملوك ثم هم أجهل الخلق واما الذى يروى عن ابن عمر انه الماء البارد فمعناه هذا من جملته ولعله انما خصه بالذكر لانه اهون موجود وأعز مفقود ومنه قول ابن السماك للرشيد أرأيت لو احتجت الى شربة ماء فى فلاة اكنت تبذل فيه نصف الملك واذا شرقت بها اكنت تبذل نصف الملك وان احتبس بولك أكنت تبذل كل الملك فلا تغتر بملك كانت الشربة الواحدة من الماء قيمته مرتين اولان اهل النار يطلبون الماء اشد من طلبهم لغيره قال تعالى ان أفيضوا علينا من الماء اولان السورة نزلت فى المترفين وهم المختصون بالماء البارد والظل والحق ان السؤال يعم المؤمن والكافر عن جميع النعيم سواء كان مما لا بد منه اوليس كذلك لان كل

باللهو والطرب لايعبأ بالعلم والعمل ولا يحمل نفسه مشاقهما فامامن تمتع بنعمة الله تعالى وتقوى بها على طاعته وكان ناهضا بالشكر فهو من ذلك بمعزل بعيد وقيل الآية مخصوصة بالكفار * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التكاثر لم يحاسبه الله تعالى بالنعيم الذى انعم به عليه فى دار الدنيا واعطى من الاجر كأنما قرأ الف آية

ذلك يجب ان يكون مصروفا الى طاعة الله لا الى معصيته فيكون السؤال واقعا عن الكل ويؤكده ماروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال لاتزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن اربع عن عمره فيم افناه وعن شبابه فيم ابلاه وعن ماله من اين اكتسبه وفيم انفقه وعن علمه ماذا عمل به فكل النعيم من الله تعالى داخل فيما ذكره عليه الصلاة والسلام (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى ان هذا السؤال اين يكون (فالقول الاول) ان هذا السؤل انما يكون فى موقف الحساب فان قيل هذا لايستقيم لانه تعالى اخبر ان هذا السؤال متأخر عن مشاهدة جهنم بقوله ثم لتسئلن وموقف السؤال متقدم على مشاهدة جهنم قلنا المراد من قوله ثم اى ثم اخبركم انكم تسألون يوم القيامة وهو كقوله فك رقبة او اطعام فى يوم ذى مسغبة الى قوله ثم كان من الذين آمنوا (القول الثانى) انهم اذا دخلوا النار سئلوا عن النعيم توبيخا لهم كما قال كلما القى فيها فوج سألهم خزنتها وقال ماسلككم فى سقر ولاشك ان مجيء الرسول نعمة من الله فقد سئلوا عنه بعد دخولهم النار او يقال انهم اذا صاروا فى الجحيم وشاهدوها يقال لهم انما حل بكم هذا العذاب لانكم فى دار الدنيا اشتغلتم بالنعيم عن العمل الذى ينجيكم من هذه النار ولو صرفتم عمركم الى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة الفائزين بالدرجات فيكون ذلك من الملائكة سؤالا عن نعيهم فى الدنيا والله سبحانه وتعالى أعلم

* (سورة العصر ثلاث آيات مكية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(والعصر) اعلم انهم ذكروا فى تفسير العصر اقوالا (الاول) انه الدهر واحتج هذا القائل بوجوه (احدها) ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه اقسم بالدهر وكان عليه السلام يقرأ والعصر ونوائب الدهر الا انا نقول هذا مفسد للصلاة فلا نقول انه قرأه قرآنا بل تفسيرا ولعله تعالى لم يذكر الدهر لعلمه بان الملحد مولع بذكره وتعظيمه ومن ذلك ذكره فى هل أتى ردا على فساد قولهم بالطبع والدهر (وثانيها) ان الدهر مشتمل على الاعاجيب لانه يحصل فيه السراء والضراء والصحة والسقم والغنى والفقر بل فيه ماهو أعجب من كل عجيب وهو ان العقل لا يقوى على ان يحكم عليه بالعدم فانه مجزأ مقسم بالسنة والشهر واليوم والساعة ومحكوم عليه بالزيادة والنقصان والمطابقة وكونه ماضيا ومستقبلا فكيف يكون معدوما ولا يمكنه ان يحكم عليه بالوجود لان الحاضر غير قابل للقسمة والماضى والمستقبل معدومان فكيف يمكن الحكم عليه بالوجود (وثالثها) ان بقية عمر المرء لاقيمة له فلو ضيعت ألف سنة ثم ثبت فى اللمحة الاخيرة من العمر بقيت فى الجنة أبد الآباد فعلمت حينئذ ان اشرف الاشياء حياتك فى تلك اللمحة فكان الدهر والزمان من جملة اصول النعم فلذلك اقسم به ونبه على ان الليل والنهار فرصة يضيعها المكلف واليه الاشارة بقوله وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد ان يذكر او أراد

(شكورا)

(سورة والعصر مكية)
(وآيها ثلاث)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والعصر) اقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها الباهر او بالعشى الذى هو مابين الزوال والغروب كما اقسم بالضحى او بعصر النبوة لظهور فضله على سائر الاعصار او بالدهر لانطوائه على تعاجيب الامور القارة والمارة (ان الانسان

شكورا (ورابعها) وهو ان قوله تعالى في سورة الانعام قل لمن ما في السموات والارض قل لله اشارة الى المكان والمكانيات ثم قال تعالى وله ماسكن في الليل والنهار وهو اشارة الى الزمان والزمانيات وقد بينا هناك ان الزمان اعلى واشرف من المكان فلما كان كذلك كان القسم بالعصر قسما بأشرف النصفين من ملك الله وملكوته (وخامسها) انهم كانوا يضيفون الخسران الى نوائب الدهر فكأنه تعالى اقسم على ان الدهر والعصر نعمة حاصلة لاعيب فيها انما الخاسر المعيب هو الانسان (وسادسها) انه تعالى ذكر العصر الذى بمضيه ينتقص عمرك فاذا لم يكن في مقابلته كسب صار ذلك النقصان عين الخسران ولذلك قال لفي خسر ومنه قول القائل

انا لنفرح بالايام نقطعها * وكل يوم مضى نقص من الاجل

فكأن المعنى والعصر العجيب أمره حيث يفرح الانسان بمضيه لظنه انه وجد الربح مع انه هدم لعمره وانه لفي خسر (القول الثانى) وهو قول ابي مسلم المراد بالعصر احد طرفي النهار والسبب فيه وجوه (احدها) انه اقسم تعالى بالعصر كما اقسم بالضحى لما فيهما جميعا من دلائل القدرة فان كل بكرة كأنها القيامة يخرجون من القبور وتصير الاموات احياء ويقام الموازين وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت وكل واحد من هاتين الحالتين شاهد عدل ثم اذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين عد خاسرا فكذا الانسان الغافل عنهما في خسر (وثانيها) قال الحسن رحمه الله انما اقسم بهذا الوقت تنبيها على ان الاسواق قد دنا وقت انقطاعها وانتهاء التجارة والكسب فيها فاذا لم تكتسب ودخلت الدار وطاف العيال عليك يسألك كل احد ماهو حقه فحينئذ تخجل فتكون من الخاسرين فكذا تقول والعصر أى وعصر الدنيا فقد دنت القيامة وبعد لم تستعد وتعلم انك تسأل غدا عن النعيم الذى كنت فيه في دنياك وتسأل في معاملتك مع الخلق وكل احد من المظلومين يدعى ماعليك فاذا أنت خاسر ونظيره قوله تعالى اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون (وثالثها) ان هذا الوقت معظم والدليل عليه قوله عليه السلام من حلف بعد العصر كاذبا لايكلمه الله ولاينظر اليه يوم القيامة فكما اقسم في حق الرابح بالضحى فكذا اقسم في حق الخاسر بالعصر وذلك لانه اقسم بالضحى في حق الرابح وبشر الرسول ان امره الى الاقبال وههنا في حق الخاسر توعده ان امره الى الادبار ثم كأنه يقول بعض النهار باق فحثه على التدارك في البقية بالتوبة وعن بعض السلف تعلمت معنى السورة من بائع الثلج كان يصيح ويقول ارحموا من يذوب رأس ماله ارحموا من يذوب رأس ماله فقلت هذا معنى ان الانسان لفي خسر يمر به العصر فيمضى عمره ولايكتسب فاذا هو خاسر (القول الثالث) وهو قول مقاتل أراد صلاة العصر وذكروا فيه وجوها (أحدها) انه تعالى اقسم بصلاة العصر لفضلها بدليل قوله والصلاة الوسطى صلاة العصر في مصحف حفصة وقيل في قوله تحبسونهما من بعد الصلاة

لفي خسر) اى خسران في متاجرهم ومساعيهم وصرف اعمارهم في مباغيهم والتعريف للجنس والتنكير للتعظيم (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فانهم في تجارة لن تبور حيث باعوا الفانى الخسيس واشتروا الباقى النفيس واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات فيالها من صفقة ماأربحها وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم وقوله

فيقسمان بالله انها صلاة العصر (وثانيها) قوله عليه السلام من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر اهله وماله (وثالثها) ان التكليف فى أدائها اشق لتهافت الناس فى تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم (ورابعها) روى ان امرأة كانت تصيح فى سكك المدينة وتقول دلونى على النبى صلى الله عليه وسلم فرآها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها ماذا حدث قالت يارسول الله ان زوجى غاب عنى فزنيت فجاءنى ولد من الزنا فألقيت الولد فى دن من الخل حتى مات ثم بعنا ذلك الخل فهل لى من توبة فقال عليه السلام اما الزنا فعليك الرجم واما قتل الولد فجزاؤه جهنم واما بيع الخل فقد ارتكبت كبيرا لكن ظننت انك تركت صلاة العصر ففى هذا الحديث اشارة الى تفخيم امر هذه الصلاة (وخامسها) ان صلاة العصر بها يحصل ختم طاعات النهار فهى كالتوبة بها يختم الاعمال فكما تجب الوصية بالتوبة كذا بصلاة العصر لان الامور بخواتيمها فأقسم بهذه الصلاة تفخيما لشأنها وزيادة توصية المكلف على أدائها واشارة منه انك ان اديتها على وجهها عاد خسرانك ربحا كما قال الا الذين آمنوا (وسادسها) قال النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة ولا يكلمهم ولا يزكيهم منهم رجل حلف بعد العصر كاذبا فان قيل صلاة العصر فعلنا فكيف يجوز ان يقال اقسم الله تعالى به (الجواب) انه ليس قسما من حيث انها فعلنا بل من حيث انها امر شريف تعبدنا الله تعالى بها (القول الرابع) انه قسم بزمان الرسول عليه السلام واحتجوا عليه بقوله عليه السلام انما مثلكم ومثل من كان قبلكم مثل رجل استأجر أجيرا فقال من يعمل من الفجر الى الظهر بقيراط فعملت اليهود ثم قال من يعمل من الظهر الى العصر بقيراط فعملت النصارى ثم قال من يعمل من العصر الى المغرب بقيراطين فعملتم انتم فغضبت اليهود والنصارى وقالوا نحن اكثر عملا وأقل اجرا فقال الله وهل نقصت من اجركم شيئا قالوا لا قال فهذا فضلى أوتيه من اشاء فكنتم اقل عملا واكثر اجرا فهذا الخبر دل على ان العصر هو الزمان المختص به وبأمته فلا جرم اقسم الله به فقوله والعصر أى والعصر الذى انت فيه فهو تعالى اقسم بزمانه فى هذه الآية وبمكانه فى قوله وانت حل بهذا البلد وبعمره فى قوله لعمرك فكأنه قال وعصرك وبلدك وعمرك وذلك كله كالظرف له فاذا وجب تعظيم حال الظرف فقس حال المظروف ثم وجه القسم كأنه تعالى يقول انت يامحمد حضرتهم ودعوتهم وهم اعرضوا عنك وماالتفتوا اليك فما اعظم خسرانهم وما اجل خذلانهم ※ قوله تعالى (ان الانسان لفى خسر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الالف واللام فى الانسان يحتمل ان تكون للجنس وان تكون للمعهود السابق فلهذا ذكر المفسرون فيه قولين (الاول) ان المراد منه الجنس وهو قولهم كثر الدرهم فى ايدى الناس ويدل على هذا القول استثناء الذين آمنوا من الانسان (والقول الثانى) المراد منه شخص معين قال ابن عباس يريد جماعة من المشركين كالوليد بن المغيرة والعاص بن

تعالى (وتواصوا بالحق) الخ بيان لتكميلهم لغيرهم اى وصى بعضهم بعضا بالامر الثابت الذى لا سبيل الى انكاره ولا زوال فى الدارين لمحاسن آثاره وهو الخير كله من الايمان بالله عز وجل واتباع كتبه ورسله فى كل عقد وعمل (وتواصوا بالصبر) اى عن المعاصى التى تشتاق اليها النفس بحكم الجبلة البشرية وعلى الطاعات التى يشق

وائل والاسود بن عبد المطلب وقال مقاتل نزلت في ابي لهب وفي خبر مرفوع انه ابوجهل روى ان هؤلاء كانوا يقولون ان محمدا لفي خسر فأقسم تعالى ان الامر بالضد مما يتوهمون (المسئلة الثانية) الخسر الخسران كما قيل الكفر في الكفران ومعناه النقصان وذهاب رأس المال (ثم فيه تفسيران) وذلك لانا اذا حملنا الانسان على الجنس كان معنى الخسر هلاك نفسه وعمره الا المؤمن العامل فانه ماهلك عمره وماله لانه اكتسب بهما سعادة ابدية وان حملنا لفظ الانسان على الكافر المراد كونه في الضلالة والكفر الا من آمن من هؤلاء فحينئذ يتخلص من ذلك الخسار الى الربح (المسئلة الثالثة) انما قال لفي خسر ولم يقل لفي الخسر لان التنكير يفيد التهويل تارة والتحقير أخرى فان حملناه على الاول كان المعنى ان الانسان لفي خسر عظيم لا يعلم كنهه الا الله وتقريره ان الذنب يعظم بعظم من في حقه الذنب اولانه وقع في مقابلة النعم العظيمة وكلا الوجهين حاصلان في ذنب العبد في حق ربه فلاجرم كان ذلك الذنب في غاية العظم وان حملناه على الثاني كان المعنى ان خسران الانسان دون خسران الشيطان وفيه بشارة ان في خلقي من هو أعصى منك والتأويل الصحيح هو الاول (المسئلة الرابعة) لقائل ان يقول قوله لفي خسر يفيد التوحيد مع انه في انواع من الخسر (الجواب) ان الخسر الحقيقي هو حرمانه عن خدمة ربه واما البواقي وهو الحرمان عن الجنة والوقوع في النار فبالنسبة الى الاول كالعدم وهذا كان الانسان في وجوده فوائد ثم قال وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون اى لما كان هذا المقصود أجل المقاصد كان سائر المقاصد بالنسبة اليه كالعدم واعلم ان الله تعالى قرن بهذه الآية قرائن تدل على مبالغته تعالى في بيان كون الانسان في خسر (أحدها) قوله لفي خسر يفيد انه كالمغمور في الخسران وانه أحاط به من كل جانب (وثانيها) كلمة ان فانها للتأكيد (وثالثها) حرف اللام في لفي خسر وههنا احتمالان (الاول) في قوله تعالى لفي خسر أى في طريق الخسر وهذا كقوله في أكل اموال اليتامى انما يأكلون في بطونهم نارا لما كانت عاقبته النار (الاحتمال الثاني) ان الانسان لا ينفك عن خسر لان الخسر هو تضييع رأس المال ورأس ماله هو عمره وهو قلما ينفك عن تضييع عمره وذلك لان كل ساعة تمر بالانسان فان كانت مصروفة الى المعصية فلاشك في الخسران وان كانت مشغولة بالمباحات فالخسران ايضا حاصل لانه كما ذهب لم يبق منه أثر مع انه كان متمكنا من ان يعمل فيه عملا يبقى أثره دائما وان كانت مشغولة بالطاعات فلا طاعة الا ويمكن الاتيان بها او بغيرها على وجه احسن من ذلك لان مراتب الخضوع والخشوع لله غير متناهية فان مراتب جلال الله وقهره غير متناهية وكلما كان علم الانسان بها أكثر كان خوفه منه تعالى أكثر فكان تعظيمه عند الاتيان بالطاعة اتم واكمل وترك الاعلى والاقتصار بالادنى نوع خسران فثبت ان الانسان لا ينفك البتة عن نوع خسران واعلم ان هذه الآية كالتنبيه على ان

عليها أداؤها او على ما يبلو الله عز وجل به عباده وتخصيص هذا التواصي بالذكر مع اندراجه تحت التواصي بالحق لابراز كمال الاعتناء به اولان الاول عبارة عن رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضى به الله

الاصل فی الانسان ان یکون فی الخسران والخیبة وتقریره ان سعادة الانسان فی حب الآخرة والاعراض عن الدنیا ثم ان الاسباب الداعیة الی الآخرة خفیة والاسباب الداعیة الی حب الدنیا ظاهرة وهو الحواس الخمس والشهوة والغضب فلهذا السبب صار أكثر الخلق مشتغلین بحب الدنیا مستغرقین فی طلبها فكانوا فی الخسران والبوار (فان قیل) انه تعالی قال فی سورة التین لقد خلقنا الانسان فی احسن تقویم ثم رددناه اسفل سافلین فهناك یدل علی ان الابتداء من الكمال والانتهاء الی النقصان وههنا یدل علی ان الابتداء من النقصان والانتهاء الی الكمال فكیف وجه الجمع (قلنا) المذكور فی سورة التین أحوال البدن وههنا أحوال النفس فلا تناقض بین القولین ❊ قوله تعالی (الا الذین آمنوا وعملوا الصالحات) اعلم ان الایمان والاعمال الصالحة قد تقدم تفسیرهما مرارا ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولی) احتج من قال العمل غیر داخل فی مسمی الایمان بان الله تعالی عطف عمل الصالحات علی الایمان ولو كان عمل الصالحات داخلا فی مسمی الایمان لكان ذلك تكریرا ولا یمكن ان یقال هذا التكریر واقع فی القرآن كقوله تعالی واذ أخذنا من النبیین میثاقهم ومنك ومن نوح وقوله وملائكته وجبریل ومیكال لانا نقول هناك انما حسن لان اعادته تدل علی كونه اشرف انواع ذلك الكلی وعمل الصالحات لیس أشرف أنواع الامور المسماة بالایمان فبطل هذا التأویل قال الحلیمی هذا التكریر واقع لامحالة لان الایمان وان لم یشتمل علی عمل الصالحات لكن قوله وعملوا الصالحات یشتمل علی الایمان فیكون قوله وعملوا الصالحات مغنیا عن ذكر قوله الذین آمنوا وایضا فقوله وعملوا الصالحات یشتمل علی قوله وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فوجب ان یكون ذلك تكریرا اجاب الاولون وقالوا انا لا نمنع ورود التكریر لاجل التأكید لكن الاصل عدمه وهذا القدر یكفی فی الاستدلال (المسئلة الثانیة) احتج القاطعون بوعید الفساق بهذه الآیة قالوا الآیة دلت علی ان الانسان فی الخسارة مطلقا ثم استثنی الذین آمنوا وعملوا الصالحات والمعلق علی الشرطین مفقود عند فقد احدهما فعلمنا ان من لم یحصل له الایمان والاعمال الصالحة لابد وان یكون فی الخسار فی الدنیا وفی الآخرة ولما كان المستجمع لهاتین الخصلتین فی غایة القلة وكان الخسار لازما لمن لم یكن مستجمعا لهما كان الناجی اقل من الهالك ثم لو كان الناجی اكثر كان الخوف عظیما حتی لا تكون انت من القلیل كیف والناجی اقل افلا ینبغی ان یكون الخوف اشد (المسئلة الثالثة) ان هذا الاستثناء فیه امور ثلاثة (احدها) انه تسلیة للمؤمن من فوت عمره وشبابه لان العمل قد اوصله الی ما هو خیر من عمره وشبابه (وثانیها) انه تنبیه علی ان كل ما دعاك الی طاعة الله فهو الصلاح وكل ما شغلك عن الله بغیره فهو الفساد (وثالثها) قالت المعتزلة تسمیة الاعمال بالصالحات تنبیه علی ان وجه حسنها لیس هو الامر علی ما یقوله الاشعریة لكن الامر انما ورد لكونها فی انفسها مشتملة علی

(وجوه)

تعالی والثانی عن رتبة العبودیة التی هی الرضا بما فعل الله تعالی فان المراد بالصبر لیس مجرد حبس النفس عما تتشوق الیه من فعل وترك بل هو تلقی ما ورد منه تعالی بالجمیل والرضا به ظاهرا وباطنا

وجوه الصلاح وأجابت الاشعرية بأن الله تعالى وصفها بكونها صالحة ولم يبين انها صالحة بسبب وجوه عائدة اليها او بسبب الامر (المسئلة الرابعة) لسائل ان يسأل فيقول انه في جانب الخسر ذكر الحكم ولم يذكر السبب وفي جانب الربح ذكر السبب وهو الايمان والعمل الصالح ولم يذكر الحكم فما الفرق قلنا انه لم يذكر سبب الخسر لان الخسر كما يحصل بالفعل وهو الاقدام على المعصية يحصل بالترك وهو عدم الاقدام على الطاعة اما الربح فلا يحصل الا بالفعل فلهذا ذكر سبب الربح وهو العمل (وفيه وجه آخر) وهو انه تعالى في جانب الخسر أبهم ولم يفصل وفي جانب الربح فصل وبين وهذا هو اللائق بالكرم * أما قوله تعالى (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فاعلم انه تعالى لما بين في أهل الاستثناء انهم بايمانهم وعملهم الصالح خرجوا عن ان يكونوا في خسر وصاروا ارباب السعادة من حيث انهم تمسكوا بما يؤديهم الى الفوز بالثواب والنجاة من العقاب وصفهم بعد ذلك بأنهم قد صاروا لشدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على ما يخصهم بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا ايضا سببا لطاعات الغير كما ينبغي ان يكون عليه أهل الدين وعلى هذا الوجه قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا فالتواصي بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل والتواصي بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف في القيام بما يجب وفي اجتنابهم ما يحرم اذ الاقدام على المكروه والاحجام عن المراد كلاهما شاق شديد وههنا مسائل (المسئلة الاولى) هذه الآية فيها وعيد شديد وذلك لانه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس الا من كان آتيا بهذه الاشياء الاربعة وهي الايمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر فدل ذلك على ان النجاة معلقة بمجموع هذه الامور وانه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه فكذلك يلزمه في غيره امور منها الدعاء الى الدين والنصيحة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وان يحب له ما يحب لنفسه ثم كرر التواصي ليتضمن الاول الدعاء الى الله والثاني الثبات عليه والاول الامر بالمعروف والثاني النهي عن المنكر ومنه قوله تعالى وانه عن المنكر واصبر وقال عمر رضي الله عنه رحم الله من اهدى الي عيوبي (المسئلة الثانية) دلت الآية على ان الحق ثقيل وان المحن تلازمه فلذلك قرن به التواصي (المسئلة الثالثة) انما قال وتواصوا ولم يقل ويتواصون لئلا يقع امرا بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل (المسئلة الرابعة) قرأ ابو عمرو بالصبر بضم الباء شيئا من الحرف لا يشبع قال ابو علي وهذا مما يجوز في الوقف ولا يكون في الوصل الا على اجراء الوصل مجرى الوقف وهذا لا يكاد يكون في القراءة وعلى هذا ما يروى عن سلام بن المنذر انه قرأ والعصر بكسر الصاد ولعله وقف لانقطاع نفس او لعارض منعه من ادراج القراءة وعلى هذا يحمل لا على اجراء الوصل مجرى الوقف والله تعالى اعلم

*عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والعصر غفر الله تعالى له وكان ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر

(سورة الهمزة مكية وآيها تسع)

(سورة الهمزة تسع آيات مكية)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(ويل لكل همزة لمزة) فيه مسائل (المسئلة الاولى) الويل لفظة الذم والسخط وهى كلمة كل مكروب يتولول فيدعوا بالويل وأصله وى لفلان ثم كثرت فى كلامهم فوصلت باللام وروى انه جبل فى جهنم (ان قيل) لم قال ههنا ويل وفى موضع آخر ولكم الويل (قلنا) لان ثمة قالوا ياويلنا انا كنا ظالمين فقال ولكم الويل وههنا نكر لانه لا يعلم كنهه الا الله وقيل فى ويل انها كلمة تقبيح وويس استصغار وويح ترحم فنبه بهذا على قبح هذا الفعل واختلفوا فى الوعيد الذى فى هذه السورة هل يتناول كل من يتمسك بهذه الطريقة فى الافعال الردية او هو مخصوص بأقوام معينين اما المحققون فقالوا انه عام لكل من يفعل هذا الفعل كائنا من كان وذلك لان خصوص السبب لا يقدح فى عموم اللفظ وقال آخرون انه مختص بأناس معينين ثم قال عطاء والكلبى نزلت فى الاخنس بن شريق كان يلمز الناس ويغتابهم وخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مقاتل نزلت فى الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبى صلى الله عليه وسلم من ورائه ويطعن عليه فى وجهه وقال محمد بن اسحق ما زلنا نسمع ان هذه السورة نزلت فى امية بن خلف قال الفراء وكون اللفظ عاما لا ينافى ان يكون المراد منه شخصا معينا كما ان انسانا لو قال لك لأزورك ابدا فتقول انت كل من لم يزرنى لا ازوره وانت انما تريده بهذه العامة وبالجملة هذا هو المسمى فى اصول الفقه بتخصيص العام بقرينة العرف (المسئلة الثانية) الهمز الكسر قال تعالى هماز مشاء واللمز الطعن والمراد الكسر من اعراض الناس والغض منهم والطعن فيهم قال تعالى ولا تلمزوا انفسكم وبناء فعلة يدل على ان ذلك عادة منه قد ضرى بها ونحوهما اللعنة والضحكة وقرئ ويل لكل همزة لمزة بسكون الميم وهى المسخرة التى تأتى بالاوابد والاضاحيك فيضحك منه ويشتم وللمفسرين الفاظ (احدها) قال ابن عباس الهمزة المغتاب واللمزة العياب (وثانيها) قال ابو زيد الهمزة باليد واللمزة باللسان (وثالثها) قال ابو العالية الهمزة بالمواجهة واللمزة بظهر الغيب (ورابعها) الهمزة جهرا واللمزة سرا بالحاجب والعين (وخامسها) الهمزة اللمزة الذى يلقب الناس بما يكرهون وكان الوليد بن المغيرة يفعل ذلك لكنه لا يليق بمنصب الرياسة انما ذلك من عادة السقاط ويدخل فيه من يحاكى الناس بأقوالهم وأفعالهم واصواتهم ليضحكوا وقد حكى الحكم ابن العاص مشية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فنفاه عن المدينة ولعنه (وسادسها) قال الحسن الهمزة الذى يهمز جليسه يكسر عليه عينه واللمزة الذى يذكر اخاه بالسوء ويعيبه (وسابعها) عن ابى الجوزاء قال قلت لابن عباس ويل لكل همزة لمزة من هؤلاء الذين يذمهم الله بالويل فقال هم المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الاحبة الناعتون للناس بالعيب واعلم ان جميع هذه الوجوه متقاربة راجعة الى اصل واحد وهو الطعن واظهار العيب ثم هذا على قسمين فانه اما ان يكون بالجد كما يكون عند الحسد والحقد واما ان

(يكون)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(ويل) مبتدأ خبره (لكل همزة لمزة) وساغ الابتداء به مع كونه نكرة لانه دعاء عليهم بالهلكة او بشدة الشر والهمز الكسر كالهزم واللمز الطعن كاللهز شاعا فى الكسر من اعراض الناس والطعن فيهم وبناء فعلة للدلالة على ان ذلك منه عادة مستمرة قد ضرى بها وكذلك اللعنة والضحكة وقرئ لكل همزة لمزة بسكون الميم وهو المسخرة الذى يأتى بالاضاحيك فيضحك منه ويستهزؤ به وقيل نزلت فى الاخنس بن شريق فانه كان ضاريا بالغيبة والوقيعة وقيل فى امية بن خلف وقيل فى الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وغضه من جنابه الرفيع واختصاص السبب لا يستدعى خصوص الوعيد بهم بل كل من اتصف بوصفهم القبيح فله ذنوب منه مثل ذنوبهم

يكون بالهزل كما يكون عند السخرية والاضحاك وكل واحد من القسمين اما ان يكون في امر يتعلق بالدين وهو مايتعلق بالدين والطاعات واما ان يتعلق بالدنيا وهو مايتعلق بالصورة او المشي او الجلوس وانواعه كثيرة وهي غير مضبوطة ثم اظهار العيب في هذه الاقسام الاربعة قد يكون لحاضر وقد يكون لغائب وعلى التقديرين فقد يكون باللفظ وقد يكون باشارة الرأس والعين وغيرهما وكل ذلك داخل تحت النهي والزجر انما البحث في ان اللفظ بحسب اللغة موضوع لماذا فما كان اللفظ موضوعا له كان منهيا بحسب اللفظ ومالم يكن اللفظ موضوعا له كان داخلا تحت النهي بحسب القياس الجلي ولما كان الرسول اعظم الناس منصبا في الدين كان الطعن فيه عظيما عند الله فلاجرم قال ويل لكل همزة لمزة ❊ ثم قال تعالى (الذي جمع مالا وعدده) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الذي بدل من كل او نصب على الذم وانما وصفه الله تعالى بهذا الوصف لانه يجري مجرى السبب والعلة في الهمزة واللمز وهو اعجابه بما جمع من المال وظنه ان الفضل فيه لاجل ذلك فيستنقص غيره (المسئلة الثانية) قرأ حمزة والكسائي وابن عامر جمع بالتشديد والباقون بالتخفيف والمعنى في جمع وجمع واحد متقارب والفرق ان جمع بالتشديد يفيد انه جمعه من ههنا وههنا وانه لم يجمعه في يوم واحد ولا في يومين ولا في شهر ولا في شهرين يقال فلان يجمع الاموال اي يجمعها من ههنا وههنا واما جمع بالتخفيف فلا يفيد ذلك واما قوله مالا فالتنكير فيه يحتمل وجهين (احدهما) ان يقال المال اسم لكل ما في الدنيا كما قال تعالى المال والبنون زينة الحياة الدنيا فالانسان الواحد بالنسبة الى مال كل الدنيا حقير فكيف يليق به ان يفتخر بذلك القليل (والثاني) ان يكون المراد منه التعظيم اي مال بلغ في الخبث والفساد اقصى النهايات فكيف يليق بالعاقل ان يفتخر به اما قوله وعدده ففيه وجوه (احدها) انه مأخوذ من العدة وهي الذخيرة يقال أعددت الشيء لكذا وعددته اذا امسكته له وجعلته عدة وذخيرة لحوادث الدهر (وثانيها) عدده اي احصاه وجاء التشديد لكثرة المعدود كما يقال فلان يعدد فضائل فلان ولهذا قال السدي وعدده اي احصاه يقول هذا لي وهذا لي يلهيه ماله بالنهار فاذا جاء الليل كان يخفيه (وثالثها) عدده اي كثره يقال في بني فلان عدد اي كثرة وهذان القولان الاخيران راجعان الى معنى العدد والقول الاول الى معنى العدة وقرأ بعضهم وعدده بالتخفيف وفيه وجهان (احدهما) ان يكون المعنى جمع المال وضبط عدده واحصاه (وثانيهما) جمع ماله وعدد قومه الذين ينصرونه من قولك فلان ذو عدد وعدد اذا كان له عدد وافر من الانصار والرجل متى كان كذلك كان ادخل في التفاخر ثم وصفه تعالى بضرب آخر من الجهل ❊ فقال تعالى (يحسب ان ماله اخلده) واعلم ان اخلده وخلده بمعنى واحد ثم في التفسير وجوه (احدها) يحتمل ان يكون المعنى طول المال امله حتى اصبح لفرط غفلته وطول امله يحسب ان ماله تركه خالدا

(الذي جمع مالا) بدل من كل او منصوب او مرفوع على الذم وقرئ جمع بالتشديد للتكثير وتنكير مالا للتفخيم و التكثير الموافق لقوله تعالى (وعدده) وقيل معنى عدده جعله عدة لنوائب الدهر وقرئ وعدده اي جمع المال وضبط عدده اوجمع ماله وعدده الذين ينصرونه من قولك فلان ذو عدد وعدد اذا كان له عدد وافر من الانصار والاعوان وقيل هو فعل ماض بفك الادغام (يحسب ان ماله اخلده) اي يعمل عمل من يظن ان ماله يبقيه حيا والاظهار في موقع الاضمار لزيادة التقرير وقيل طول المال امله ومناه الاماني البعيدة حتى اصبح لفرط غفلته وطول امله يحسب ان المال تركه خالدا في الدنيا لايموت وقيل هو تعريض بالعمل الصالح والزهد في الدنيا وانه هو الذي اخلد صاحبه في الحياة الابدية والنعيم المقيم فأما المال فليس بمخلد ولا بمخلد وروي ان الاخنس كان له اربعة آلاف دينار وقيل عشرة آلاف والجملة مستأنفة او حال من فاعل جمع (كلا) ردع له عن ذلك الحسبان الباطل وقوله

في الدنيا لا اموت وانما قال اخلده ولم يقل يخلده لان المراد يحسب هذا الانسان ان المال ضمن له الخلود واعطاه الامان من الموت وكأنه حكم قد فرغ منه ولذلك ذكره على الماضي وقال الحسن مارأيت يقينا لا شك فيه اشبه بشك لايقين فيه كالموت (وثانيها) يعمل الاعمال المحكمة كتشييد البنيان بالآجر والجص عمل من يظن انه يبقى حيا اولاجل ان يذكر بسببه بعد الموت (وثالثها) أحب المال حبا شديدا حتى اعتقد انه ان انتقص مالي أموت فلذلك يحفظه من النقصان ليبقى حيا وهذا غير بعيد من اعتقاد البخيل (ورابعها) ان هذا تعريض بالعمل الصالح وانه هو الذي يخلد صاحبه في الدنيا بالذكر الجميل وفي الآخرة في النعيم المقيم ❊ اماقوله تعالى (كلا) ففيه وجهان (احدهما) انه ردع له عن حسبانه اي ليس الامر كما يظن ان المال يخلده بل العلم والصلاح ومنه قول علي عليه السلام مات خزان المال وهم احياء والعلماء باقون مابقي الدهر والقول الثاني معناه حقا لينبذن واللام في لينبذن جواب القسم المقدر فدل ذلك على حصول معنى القسم في كلا ❊ اماقوله تعالى (لينبذن في الحطمة وما أدراك ماالحطمة) فانما ذكره بلفظ النبذ الدال على الاهانة لان الكافر كان يعتقد انه من اهل الكرامة وقرئ لينبذان اي هو وماله ولينبذن بضم الذال اي هو وانصاره واما الحطمة فقال المبرد انها النار التي تحطم كل من وقع فيها ورجل حطمة اي شديد الاكل يأتي على زاد القوم واصل الحطم في اللغة الكسر ويقال شر الرعاء الحطمة يقال راع حطمة وحطم بغير هاء كأنه يحطم الماشية اي يكسرها عند سوقها لعنفه قال المفسرون الحطمة اسم من اسماء النار وهي الدركة الثانية من دركات النار وقال مقاتل هي تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الملك ليأخذ الكافر فيكسره على صلبه كما توضع الخشبة على الركبة فتكسر ثم يرمى به الى النار واعلم ان الفائدة في ذكر جهنم بهذا الاسم ههنا وجوه (احدها) الاتحاد في الصورة كأنه تعالى يقول ان كنت همزة لمزة فوراءك الحطمة (والثاني) ان الهامز يكسر غيره ليضع قدره فيلقيه في الحضيض فيقول تعالى وراءك الحطمة وفي الحطم كسر فالحطمة تكسرك وتلقيك في حضيض جهنم لكن الهمز ليس الا الكسر بالحاجب اما الحطمة فانها تكسر كسرا لاتبقي ولاتذر (الثالث) ان الهماز اللماز يأكل لحم الناس والحطمة ايضا اسم للنار من حيث انها تأكل الجلد واللحم ويمكن ان يقال ذكر وصفين الهمز واللمز ثم قابلهما باسم واحد وقال خذ واحدا مني بالاثنين منك فانه يفي ويكفي فكأن السائل يقول كيف يفي الواحد بالاثنين فقال انما تقول هذا لانك لاتعرف هذا الواحد فلذلك قال وماأدراك ماالحطمة ❊ اماقوله تعالى (نار الله) فالاضافة للتفخيم اي هي نار لا كسائر النيران ❊ قوله تعالى (الموقدة) التي لاتخمد ابدا والموقدة بأمره او بقدرته ومنه قول علي عليه السلام عجبا ممن يعصي الله على وجه الارض والنار

(تسعر)

تعالى (لينبذن) جواب قسم مقدر والجملة استئناف مبين لعلة الردع اي والله ليطرحن بسبب تعاطيه للافعال المذكورة (في الحطمة) اي في النار التي شأنها ان تحطم وتكسر كل مايلقى فيها كما ان شأنه كسر اعراض الناس وجمع المال وقوله تعالى (وما ادراك ماالحطمة) لتهويل امرها ببيان انها ليست من الامور التي تنالها عقول الخلق وقوله تعالى (نار الله) خبر مبتدأ محذوف والجملة بيان لشأن المسؤل عنها اي هي نار الله (الموقدة) بأمر الله عز سلطانه وفي اضافتها اليه سبحانه ووصفها بالايقاد من تهويل امرها مالا مزيد عليه (التي تطلع على الافئدة) اي تعلو اوساط القلوب وتغشاها وتخصيصها بالذكر لما ان الفؤاد الطف مافي الجسد واشده تألما بأدنى اذى يمسه اولانه محل العقائد الزائغة والنيات الخبيثة ومنشأ الاعمال السيئة (انها عليهم مؤصدة) اي مطبقة من اوصدت الباب وآصدته اي اطبقته (في عمد ممددة) اما حال من الضمير المجرور في عليهم اي كائنين في عمد ممددة اي موثقين فيها مثل المقاطر

تسعر من تحته وفي الحديث اوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ثم ألف سنة حتى ابيضت ثم ألف سنة حتى اسودت فهي الآن سوداء مظلمة ❊ اما قوله تعالى (التي تطلع على الافئدة) فاعلم انه يقال طلع الجبل واطلع عليه اذا علاه ثم في تفسير الآية وجهان (الاول) ان النار تدخل في أجوافهم حتى تصل الى صدورهم وتطلع على افئدتهم ولا شيء في بدن الانسان ألطف من الفؤاد ولا اشد تألما منه بأدنى اذى يماسه فكيف اذا اطلعت نار جهنم واستولت عليه ثم ان الفؤاد مع استيلاء النار عليه لا يحترق اذ لو احترق لمات وهذا هو المراد من قوله لا يموت فيها ولا يحيى ومعنى الاطلاع هو ان النار تنزل من اللحم الى الفؤاد (والثاني) ان سبب تخصيص الافئدة بذلك هو انها مواطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة واعلم انه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ان النار تأكل اهلها حتى اذا اطلعت على افئدتهم انتهت ثم ان الله تعالى يعيد لحمهم وعظمهم مرة أخرى ❊ اما قوله تعالى (انها عليهم مؤصدة) فقال الحسن مؤصدة اي مطبقة من أصدت الباب واوصدته لغتان ولم يقل مطبقة لان المؤصدة هي الابواب المغلقة والاطباق لا يفيد معنى الباب واعلم ان الآية تفيد المبالغة في العذاب من وجوه (احدها) ان قوله لينبذن يقتضي انه موضع له قعر عميق جدا كالبئر (وثانيها) انه لو شاء يجعل ذلك الموضع بحيث لا يكون له باب لكنه بالباب يذكرهم الخروج فيزيد في حسرتهم (وثالثها) انه قال عليهم مؤصدة ولم يقل مؤصدة عليهم لان قوله عليهم مؤصدة يفيد ان المقصود أولا كونهم بهذه الحالة وقوله مؤصدة عليهم لا يفيد هذا المعنى بالقصد الاول ❊ اما قوله تعالى (في عمد ممددة) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ في عمد بضمتين وعمد بسكون الميم وعمد بفتحتين قال الفراء عمد وعمد وعمد مثل الاديم والادم والادم والاهاب والاهب والاهب والعقيم والعقم والعقم وقال المبرد وابو علي العمد جمع عمود على غير واحد اما الجمع على واحد فهو العمد مثل زبور وزبر ورسول ورسل (المسئلة الثانية) العمود كل مستطيل من خشب او حديد وهو اصل للبناء يقال عمود البيت للذي يقوم به البيت (المسئلة الثالثة) في تفسير الآية وجهان (الاول) انها عمد اغلقت بها تلك الابواب كنحو ما تغلق به الدروب وفي بمعنى الباء اي انها عليهم مؤصدة بعمد مدت عليها ولم يقل بعمد لانها لكثرتها صارت كأن الباب فيها (والقول الثاني) ان يكون المعنى انها عليهم مؤصدة حال كونهم موثقين في عمد ممددة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص اللهم اجرنا منها يا اكرم الاكرمين

(سورة الفيل خمس آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) روى ان ابرهة بن الصباح الاشرم ملك اليمن من قبل اصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس وأراد ان يصرف اليها الحاج

التي تقطر فيها اللصوص او خبر مبتدأ مضمر اي هم في عمد او صفة لمؤصدة قاله ابو البقاء اي كائنة في عمد ممددة بأن تؤصد عليهم الابواب وتمدد على الابواب العمد استيثاقا في استيثاق اللهم اجرنا منها يا خير مستجار وقرئ عمد بضمتين ❊ عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الهمزة اعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد واصحابه

(سورة الفيل مكية وآيها)
(خمس آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة لتقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام بانكار عدمها وكيف معلقة لفعل الرؤية منصوبة بما بعدها والرؤية علمية اي الم تعلم علما رصينا متأخيا للمشاهدة والعيان باستماع الاخبار المتواترة ومعاينة الآثار الظاهرة وتعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لا بنفسه بأن يقال

فخرج من بنى كنانة رجل وتغوط فيها ليلا فاغضبه ذلك وقيل أججت رفقة من العرب نارا فحملتها الريح فاحرقتها فحلف ليهدمن الكعبة فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه محمود وكان قويا عظيما وثمانية أخرى وقيل اثناعشر وقيل ألف فلما بلغ قريبا من مكة خرج اليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث اموال تهامة ليرجع فأبى وعبأ جيشه وقدم الفيل فكانوا كلما وجهوه الى جهة الحرم برك ولم يبرح واذا وجهوه الى اليمن أو الى سائر الجهات هرول ثم ان ابرهة اخذ لعبد المطلب مائتى بعير فخرج اليهم فيها فعظم فى عين ابرهة وكان رجلا جسيما وسيما وقيل هذا سيد قريش وصاحب عير مكة فلما ذكر حاجته قال سقطت من عينى جئت لاهدم البيت الذى هو دينك ودين آبائك فألهاك عنه ذود أخذلك فقال انا رب الابل وللبيت رب سيمنعك عنه ثم رجع وأتى البيت وأخذ بحلقته وهو يقول

لاهم ان المرء يمنع * رحله فامنع حلالك
وانصر على آل الصليب * وعابديه اليوم آلك
لايغلبن صليبهم * ومحالهم عدوا محالك
ان كنت تاركهم وكعبتنا * فأمر ما بدا لك

(ويقول)

يارب لاأرجو لهم سواكا * يارب فامنع عنهم حماكا

فالتفت وهو يدعو فاذا هو بطير من نحو اليمن فقال والله انها لطير غريبة ماهى بنجدية ولاتهامية وكان مع كل طائر حجر فى منقاره وحجران فى رجليه اكبر من العدسة واصغر من الحمصة وعن ابن عباس انه رأى منها عند أم هانى نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفارى فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره وعلى كل حجر اسم من يقع عليه فهلكوا فى كل طريق ومنهل ودوى ابرهة فتساقطت انامله وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره ابو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشى فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر وخر ميتا بين يديه وعن عائشة قالت رأيت قائد الفيل وسائسه اعميين مقعدين يستطعمان ثم فى الآية سؤالات (الاول) لم قال ألم تر مع ان هذه الواقعة وقعت قبل المبعث بزمان طويل (الجواب) المراد من الرؤية العلم والتذكير وهو اشارة الى ان الخبر به متواتر فكان العلم الحاصل به ضروريا مساويا فى القوة والجلاء للرؤية ولذا السبب قال لغيره على سبيل الذم أولم يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون لايقال فلم قال ألم تعلم ان الله على كل شئ قدير لانا نقول الفرق ان مالايتصور ادراكه لايستعمل فيه الا العلم لكونه قادرا واما الذى يتصور ادراكه كفرار الفيل فانه يجوز ان يستعمل فيه الرؤية (السؤال الثانى) لم قال ألم تر كيف فعل ربك ولم يقل ألم تر مافعل ربك (الجواب) لان الاشياء لها ذوات ولها كيفيات باعتبارها يدل على مداومتها وهذه الكيفية هى التى تسميها المتكلمون وجه الدليل واستحقاق المدح انما يحصل برؤية هذه الكيفيات

ألم تر مافعل ربك الخ لتهويل الحادثة والايذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام فان ذلك من الارهاصات لما روى ان القصة وقعت فى السنة التى ولد فيها النبى عليه الصلاة والسلام وتفصيلها ان ابرهة بن الصباح الاشرم ملك اليمن من قبل اصحمة النجاشى بنى بصنعاء كنيسة وسماها القليس واراد ان يصرف اليها الحاج فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلا فأغضبه ذلك وقيل اججت رفقة من العرب نارا فحملتها الريح فأحرقتها فحلف ليهدمن الكعبة فخرج مع جيشه ومعه فيل له اسمه محمود وكان قويا عظيما واثنا عشر فيلا غيره وقيل ثمانية وقيل الف وقيل كان معه وحده فلما بلغ المغمس خرج اليه عبد المطلب

لا برؤية الذوات ولهذا قال افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها ولاشك ان هذه الواقعة كانت دالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته وكانت دالة على شرف محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لان مذهبنا انه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيسا لنبوتهم وارهاصا لها ولذلك قالوا كانت الغمامة تظله وعند المعتزلة ان ذلك لا يجوز فلاجرم زعموا انه لا بد وان يقال كان في ذلك الزمان نبي كخالد بن سنان او قس بن ساعدة ثم قالوا ولا يجب ان يشتهر وجودهما ويبلغ الى حد التواتر لاحتمال انه كان مبعوثا الى جمع قليلين فلاجرم لم يشتهر خبره واعلم ان قصة الفيل واقعة على الملحدين جدا لانهم ذكروا في الزلازل والرياح والصواعق وسائر الاشياء التي عذب الله تعالى بها الامم اعذارا ضعيفة اما هذه الواقعة فلا تجرى فيها تلك الاعذار لانها ليس في شيء من الطبائع والحيل ان يقبل طير معها حجارة فتقصد قوما دون قوم فتقتلهم ولا يمكن ان يقال انه كسائر الاحاديث الضعيفة لانه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول الانيف واربعون سنة ويوم تلا الرسول هذه السورة كان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة ولو كان النقل ضعيفا لشافهوه بالتكذيب فلما لم يكن كذلك علمنا انه لاسبيل للطعن فيه (السؤال الثالث) لم قال فعل ولم يقل جعل ولا خلق ولا عمل (الجواب) لان خلق يستعمل لابتداء الفعل وجعل للكيفيات قال تعالى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور وعمل بعد الطلب وفعل عام فكان اولى لأنه تعالى خلق الطيور وجعل طبع الفيل على خلاف ما كانت عليه وسألوه ان يحفظ البيت ولعله كان فيهم من يستحق الاجابة فلو ذكر الالفاظ الثلاثة لطال الكلام فذكر لفظا يشمل الكل (السؤال الرابع) لم قال ربك ولم يقل الرب (الجواب) من وجوه (احدهما) كأنه تعالى قال انهم شاهدوا هذا الانتقام ثم لم يتركوا عبادة الاوثان وانت يا محمد ما شاهدته ثم اعترفت بالشكر والطاعة فكأنك انت الذي رأيت ذلك الانتقام فلاجرم تبرأت عنهم واخترتك من الكل فأقول ربك اى انا لك ولست لهم بل عليهم (وثانيها) كأنه تعالى قال انما فعلت بأصحاب الفيل ذلك تعظيما لك وتشريفا لمقدمك فأنا كنت مربيا لك قبل قدومك فكيف اترك تربيتك بعد ظهورك ففيه بشارة له عليه السلام بأنه سيظفر (السؤال الخامس) قوله الم تر كيف فعل ربك مذكور في معرض التعجب وهذه الاشياء بالنسبة الى قدرة الله تعالى ليست عجيبة فما السبب لهذا التعجب (الجواب) من وجوه (احدها) ان الكعبة تبع لمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك لان العلم يؤدى بدون المسجد اما لا مسجد بدون العالم فالعالم هو الدر والمسجد هو الصدف ثم الرسول الذي هو الدر همزه الوليد ولمزه حتى ضاق قلبه فكأنه تعالى يقول ان الملك العظيم لما طعن في المسجد هزمته وافنيته فمن طعن فيك وانت المقصود من الكل ألا افنيه واعدمه ان هذا لعجيب (وثانيها) ان الكعبة قبلة صلاتك وقلبك قبلة معرفتك ثم انا حفظت قبلة عملك عن الاعداء أفلا تسعى في حفظ قبلة دينك عن الآثام والمعاصى (السؤال السادس) لم قال

وعرض عليه ثلث اموال تهامة ليرجع فابى وعبأ جيشه وقدم الفيل فكان كلما وجهوه الى الحرم برك ولم يبرح واذا وجهوه الى اليمن اوالى غيره من الجهات هرول فأرسل الله تعالى طيرا اسود او قيل خضرا وقيل بيضا مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه اكبر من العدسة واصغر من الحمصة فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ففروا فهلكوا في كل طريق ومنهل وروى ان ابرهه تساقطت أناملهوآرابه ومامات حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره ابو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشى فقص عليه القصة فلما اتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بين يديه وقيل ان ابرهة اخذ لعبد المطلب مائتى بعير فخرج اليه في شأنها فلما رآه ابرهة عظم في عينه وكان رجلا وسيما جسيما وقيل هذا سيد قريش

اصحاب الفيل ولم يقل ارباب الفيل او ملاك الفيل (الجواب) لان الصاحب يكون من الجنس فقوله اصحاب الفيل يدل على ان اولئك الاقوام كانوا من جنس الفيل فى البهيمية وعدم الفهم والعقل بل فيه دقيقة وهى انه اذا حصلت المصاحبة بين شخصين فيقال للأدون انه صاحب الاعلى ولا يقال للاعلى انه صاحب الادون ولذلك يقال لمن صحب الرسول عليه السلام انهم الصحابة فقوله اصحاب الفيل يدل على ان اولئك الاقوام كانوا اقل حالا وأدون منزلة من الفيل وهو المراد من قوله تعالى بل هم اضل ومما يؤكد ذلك انهم كلما وجهوا الفيل الى جانب الكعبة كان يتحول عنه ويفر عنه كأنه كان يقول لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق عزمى حميد فلا اتركه وهم ما كانوا يتركون تلك العزيمة الردية فدل ذلك على ان الفيل كان احسن حالا منهم (السؤال السابع) أليس ان كفار قريش كانوا ملؤا الكعبة من الاوثان من قديم الدهر ولا شك ان ذلك كان اقبح من تخريب جدران الكعبة فلم سلط الله العذاب على من قصد التخريب ولم يسلط العذاب على من ملأها من الاوثان (والجواب) لان وضع الاوثان فيها تعد على حق الله تعالى وتخريبها تعد على حق الخلق ونظيره قاطع الطريق والباغى والقاتل يقتلون مع انهم مسلمون ولا يقتل الشيخ الكبير والاعمى وصاحب الصومعة والمرأة وان كانوا كفارا لانه لا تتعدى ضررهم الى الخلق (السؤال الثامن) كيف القول فى اعراب هذه الآية (الجواب) قال الزجاج كيف فى موضع نصب بفعل لا بقوله ألم تر لان كيف من حروف الاستفهام ❊ واعلم انه تعالى ذكر ما فعل بهم فقال (ألم يجعل كيدهم فى تضليل) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان الكيد هو ارادة مضرة بالغير على الخفية ان قيل فلم سماه كيدا وامره كان ظاهرا فانه كان يصرح انه يهدم البيت قلنا نعم لكن الذى كان فى قلبه شر مما اظهره لانه كان يضمر الحسد للعرب وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم الى نفسه والى بلدته (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة اضافة الكيد اليهم دليل على انه تعالى لا يرضى بالقبيح اذ لو رضى لأضافه الى ذاته كقوله الصوم لى والجواب انه ثبت فى علم النحو انه يكفى فى حسن الاضافة ادنى سبب فلم لا يكفى فى حسن هذه الاضافة وقوعه مطابقا لارادتهم واختيارهم (المسئلة الثالثة) فى تضليل اى فى تضييع وابطال يقال ضلل كيده اذا جعله ضالا ضائعا ونظيره قوله تعالى وما دعاء الكافرين الا فى ضلال وقيل لامرئ القيس الملك الضليل لانه ضلل ملك ابيه اى ضيعه بمعنى انهم كادوا البيت اولا ببناء القليس وأرادوا ان يفتحوا امره بصرف وجوه الحاج اليه فضلل كيدهم بايقاع الحريق فيه ثم كادوه ثانيا بارادة هدمه فضلل بارسال الطير عليهم ومعنى حرف الظرف كما يقال سعى فلان فى ضلال اى سعيهم كان فى امر ظهر لكل عاقل انه كان ضلالا وخطأ ❊ ثم قال تعالى (وارسل عليهم طيرا ابابيل) وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم قال طيرا على التنكير (الجواب) اما للتحقير فانه مهما كان احقر كان

وصاحب عير مكة الذى يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رؤس الجبال فنزل ابرهة عن سريره وجلس على بساطه وقيل اجلسه معه على سريره ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك فلما ذكر حاجته قال سقطت من عينى حيث جئت لاهدم البيت الذى هو دينك ودين آبائك وعصمتكم وشرفكم فى قديم الدهر لا تكلمنى فيه الهاك عنه ذود اخذت لك فقال عبد المطلب انا رب الابل وان للبيت ربا يحميه ثم رجع واتى باب الكعبة فأخذ بحلقته ومعه نفر من قريش يدعون الله عز وجل فالتفت وهو يدعو فاذا هو بطير من نحو اليمن فقال والله انها لطير غريبة ما هى نجدية ولا تهامية فأرسل حلقة الباب ثم انطلق مع اصحابه ينتظرون ماذا يفعل ابرهة فأرسل الله تعالى عليهم الطير فكان ما كان وقيل كان ابرهة جد النجاشى الذى كان فى زمن

صنع الله اعجب واكبر او للتفخيم كأنه يقول طيرا واى طير ترمى بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل (السؤال الثانى) ما الأبابيل (الجواب) اما اهل اللغة فقال ابو عبيدة أبابيل جماعة فى تفرقة يقال جاءت الخيل أبابيل من ههنا وههنا وهل لهذه اللفظة واحد ام لا فيه قولان (الاول) وهو قول الاخفش والفراء انه لا واحد لها وهو مثل الشماطيط والعباديد لا واحد لها (والثانى) انه له واحد ثم على هذا القول ذكروا ثلاثة اوجه (احدها) زعم ابو جعفر الرواسى وكان ثقة مأمونا انه سمع واحدها ابالة وفى امثالهم ضغث على ابالة وهى الحزمة الكبيرة سميت الجماعة من الطير فى نظامها بالابالة (وثانيها) قال الكسائى كنت اسمع النحويين يقول أبول وأبابيل كعجول وعجاجيل (وثالثها) قال الفراء ولو قال قائل واحد الأبابيل ايبالة كان صوابا كما قال دينار ودنانير (السؤال الثالث) ما صفة تلك الطير (الجواب) روى ابن سيرين عن ابن عباس قال كانت طيرا لها خراطيم كخراطيم الفيل وأكف كأكف الكلاب وروى عطاء عنه قال طير سود جاءت من قبل البحر فوجا فوجا ولعل السبب انها ارسلت الى قوم كان فى صورتهم سواد اللون وفى سرهم سواد الكفر والمعصية وعن سعيد بن جبير انها بيض صغار ولعل السبب ان ظلمة الكفر انهزمت بها والبياض ضد السواد وقيل كانت خضرا ولها رؤس مثل رؤس السباع واقول انها لما كانت افواجا فلعل كل فوج منها كان على شكل آخر فكل احد وصف ما رأى وقيل كانت بلقاء كالخطاطيف ۞ ثم قال تعالى (ترميهم بحجارة من سجيل) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابو حيوة يرميهم اى الله او الطير لانه اسم جمع مذكر وانما يؤنث على المعنى (المسئلة الثانية) ذكروا فى كيفية الرمى وجوها (احدها) قال مقاتل كان كل طائر يحمل ثلاثة احجار واحد فى منقاره واثنان فى رجليه يقتل كل واحد رجلا مكتوب على كل حجر اسم صاحبه ما وقع منها حجر على موضع الا خرج من الجانب الآخر وان وقع على رأسه خرج من دبره (وثانيها) روى عكرمة عن ابن عباس قال لما ارسل الله الحجارة على اصحاب الفيل لم يقع حجر على احد منهم الا نفط جلده وثار به الجدرى وهو قول سعيد بن جبير وكان تلك الاحجار اصغرها مثل العدسة واكبرها مثل الحمصة واعلم ان من الناس من انكر ذلك وقال لو جوزنا ان يكون فى الحجارة التى تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على ان ينفذ من رأس الانسان ويخرج من اسفله لجوزنا ان يكون الجبل العظيم خاليا عن الثقل وان يكون فى وزن التبنة وذلك يرفع الامان عن المشاهدات فانه متى جاز ذلك فليجز ان يكون بحضرتنا شموس واقمار ولا نراها وان يحصل الادراك فى عين الضرير حتى يكون هو بالمشرق ويرى بقعة فى الاندلس وكل ذلك محال واعلم ان كل ذلك جائز على مذهبنا الا ان العادة جارية بأنها لا تقع (المسئلة الثالثة) ذكروا فى السجيل وجوها (احدها) ان السجيل كأنه علم للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار كما ان سجينا علم لديوان اعمالهم كأنه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون واشتقاقه من

النبى عليه الصلاة والسلام وعن عائشة رضى الله عنها قالت رأيت قائد الفيل وسائسه اعميين مقعدين يستطعمان وقرئ الم تر بسكون الراء للجد فى اظهار اثر الجازم وقوله تعالى (الم يجعل كيدهم فى تضليل) الخ بيان اجمالى لما فعله الله تعالى بهم والهمزة للتقرير كما سبق ولذلك عطف على الجملة الاستفهامية ما بعدها كأنه قيل قد جعل كيدهم فى تعطيل الكعبة وتخريبها فى تضييع وابطال بأن دمرهم اشنع تدمير (وارسل عليهم طيرا أبابيل) اى طوائف وجماعات جمع ابالة وهى الحزمة الكبيرة شبهت بها الجماعة من الطير فى تضامها وقيل ابابيل مثل عباديد وشماطيط لا واحد لها (ترميهم بحجارة) صفة لطير اوقرئ يرميهم بالتذكير لان الطير اسم جمع تأنيثه باعتبار المعنى (من سجيل) من طين متحجر معرب سنك كل

الاسجال وهو الارسال ومنه السجل الدلو المملوء ماء وانما سمى ذلك الكتاب بهذا الاسم لانه كتب فيه العذاب والعذاب موصوف بالارسال لقوله تعالى وارسل عليهم طيرا ابابيل وقوله فأرسلنا عليهم الطوفان فقوله من سجيل اى مما كتبه الله فى ذلك الكتاب (وثانيها) قال ابن عباس سجيل معناه سنك وكل يعنى بعضه حجر وبعضه طين (وثالثها) قال ابو عبيدة السجيل الشديد (ورابعها) السجيل اسم لسماء الدنيا (وخامسها) السجيل حجارة من جهنم فان سجيل اسم من اسماء جهنم فابدلت النون باللام ❊ اما قوله تعالى (فجعلهم كعصف مأكول) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى تفسير العصف وجوها ذكرناها فى قوله والحب ذو العصف وذكروا ههنا وجوها (احدها) انه ورق الزرع الذى يبقى فى الارض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله المواشى (وثانيها) قال ابو مسلم العصف التبن لقوله ذو العصف والريحان لانه تعصف به الريح عند الذر فتفرقه عن الحب وهو اذا كان مأكولا فقد بطل ولا رجعة له ولا منفعة فيه (وثالثها) قال الفراء هو اطراف الزرع قبل ان يدرك السنبل (ورابعها) هو الحب الذى اكل لبه وبقى قشره (المسئلة الثانية) ذكروا فى تفسير المأكول وجوها (احدها) انه الذى اكل وعلى هذا الوجه ففيه احتمالان (احدهما) ان يكون المعنى كزرع وتبن قد اكلته الدواب ثم القته روثا ثم يجف وتتفرق اجزاؤه شبه تقطع اوصالهم بتفرق اجزاء الروث الا ان العبارة عنه جاءت على ما عليه آداب القرآن كقوله كانا يأكلان الطعام وهو قول مقاتل وقتادة وعطاء عن ابن عباس (والاحتمال الثانى) على هذا الوجه ان يكون التشبيه واقعا بورق الزرع اذا وقع فيه الاكال وهو ان يأكله الدود (الوجه الثانى) فى تفسير قوله مأكول هو انه جعلهم كزرع قد اكل حبه وبقى تبنه وعلى هذا التقدير يكون المعنى كعصف مأكول الحب كما يقال فلان حسن اى حسن الوجه فاجرى مأكول على العصف من اجل انه اكل حبه لان هذا المعنى معلوم وهذا قول الحسن (الوجه الثالث) فى التفسير ان يكون معنى مأكول انه مما يؤكل يعنى تأكله الدواب يقال لكل شئ يصلح للاكل هو مأكول والمعنى جعلهم كتبن تأكله الدواب وهو قول عكرمة والضحاك (المسئلة الثالثة) قال بعضهم ان الحجاج خرب الكعبة ولم يحدث شئ من ذلك فدل على ان قصة الفيل ما كانت على هذا الوجه وان كانت هكذا الا ان السبب لتلك الواقعة امر آخر سوى تعظيم الكعبة (والجواب) انا بينا ان ذلك وقع ارهاصا لامر محمد صلى الله عليه وسلم والارهاص انما يحتاج اليه قبل قدومه اما بعد قدومه وتأكد نبوته بالدلائل القاطعة فلا حاجة الى شئ من ذلك والله أعلم وأحكم

(سورة قريش اربع آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(لايلاف قريش ايلافهم) اعلم ان ههنا مسائل (المسئلة الاولى) اللام فى قوله لايلاف

(تحتمل)

وقيل كأنه علم للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار كان سجينا علم للديوان الذى يكتب فيه اعمالهم كأنه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون واشتقاقه من الاسجال وهو الارسال (فجعلهم كعصف مأكول) كورق زرع وقع فيه الاكال وهو ان يأكله الدود او اكل حبه فبقى صفرا منه او كتبن اكلته الدواب وراثته اشير اليه بأول احواله * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفيل اعفاه الله تعالى ايام حياته من الخسف والمسخ والله اعلم * (سورة قريش مكية وآيها) (اربع)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(لايلاف قريش) متعلق بقوله تعالى فليعبدوا والفاء لما فى الكلام من معنى الشرط اذ المعنى ان نعم الله تعالى عليهم غير محصورة فان لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه

تحتمل وجوها ثلاثة فانها اما ان تكون متعلقة بالسورة التى قبلها او بالآية التى بعدها او لاتكون متعلقة لا بما قبلها ولا بما بعدها (اما الوجه الاول) وهو ان تكون متعلقة بما قبلها ففيه احتمالات (الاحتمال الاول) وهو قول الزجاج وابى عبيدة ان التقدير فجعلهم كعصف مأكول لالف قريش اى اهلك الله اصحاب الفيل لتبقى قريش وما قدالفوا من رحلة الشتاء والصيف (فان قيل) هذا ضعيف لانهم انما جعلوا كعصف مأكول لكفرهم ولم يجعلوا كذلك لتأليف قريش (قلنا) هذا السؤال ضعيف لوجوه (احدها) انا لانسلم ان الله تعالى انما فعل بهم ذلك لكفرهم فان الجزاء على الكفر مؤخر للقيامة قال تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت وقال ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولانه تعالى لو فعل بهم ذلك لكفرهم لكان قد فعل ذلك بجميع الكفار بل انما فعل ذلك بهم لايلاف قريش ولتعظيم منصبهم واظهار قدرهم (وثانيها) هب ان زجرهم عن الكفر مقصود لكن لاينافى كون شئ آخر مقصودا حتى يكون الحكم واقعا بمجموع الامرين معا (وثالثها) هب انهم اهلكوا لكفرهم فقط الا ان ذلك الاهلاك لما ادى الى ايلاف قريش جاز ان يقال اهلكوا لايلاف قريش كقوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا وهم لم يلتقطوه لذلك لكن لما آل الامر اليه حسن ان يعهد عليه الالتقاط (الاحتمال الثانى) ان يكون التقدير الم تركيف فعل ربك باصحاب الفيل لايلاف كأنه تعالى قال كل مافعلنا بهم فقد فعلناه لايلاف قريش فأنه تعالى جعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل حتى صاروا كعصف مأكول فكل ذلك انما كان لاجل ايلاف قريش (الاحتمال الثالث) ان تكون اللام فى قوله لايلاف بمعنى الى كأنه قال فعلنا كل مافعلنا فى السورة المتقدمة الى نعمة اخرى عليهم وهى ايلافهم رحلة الشتاء والصيف تقول نعمة الى نعمة ونعمة لنعمة سواء فى المعنى هذا قول الفراء فهذه احتمالات ثلاثة توجهت على تقدير تعليق اللام بالسورة التى قبل هذه وبقى من مباحث هذا القول امران (الاول) ان الناس فى تعليق هذه اللام بالسورة المتقدمة قولين (احدهما) ان جعلوا السورتين سورة واحدة واحتجوا عليه بوجوه (احدها) ان السورتين لابد وان تكون كل واحدة منهما مستقلة بنفسها ومطلع هذه السورة لما كان متعلقا بالسورة المتقدمة وجب ان لاتكون سورة مستقلة (وثانيها) ان ابى بن كعب جعلهما فى مصحفه سورة واحدة (وثالثها) ماروى ان عمر قرأ فى صلاة المغرب فى الركعة الاولى والتين وفى الثانية ألم تر ولايلاف قريش معا من غير فصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم (والقول الثانى) وهو المشهور المستفيض ان هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل واما تعلق اول هذه السورة بما قبلها فليس بحجة على ماقالوه لان القرآن كله كالسورة الواحدة وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضا ويبين بعضها معنى بعض الاترى ان الآيات الدالة على الوعيد مطلقة ثم انها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو عند من

لهذه النعمة الجليلة وقيل بعض تقديره فعلنا مافعلنا من اهلاك اصحاب الفيل لايلاف الخ وقيل تقديره اعجبوا لايلاف الخ وقيل بما قبله من قوله تعالى فجعلهم كعصف مأكول ويؤيده انهما فى مصحف ابى سورة واحدة بلا فصل والمعنى اهلك من قصدهم

يقول به وقوله انا انزلناه متعلق بماقبله من ذكر القرآن واما قوله ان ابيا لم يفصل بينهما فهو معارض باطباق الكل على الفصل بينهما واما قراءة عمر فأنها لاتدل على انهما سورة واحدة لان الامام قد يقرأ سورتين (البحث الثانى) فيما يتعلق بهذا القول بيان انه لم صار مافعله الله باصحاب الفيل سببا لايلاف قريش فنقول لاشك ان مكة كانت خالية عن الزرع والضرع على ماقال تعالى بواد غير ذى زرع الى قوله فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات فكان اشراف اهل مكة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين ويأتون لانفسهم ولاهل بلدهم مايحتاجون اليه من الاطعمة والثياب وهم انما كانوا يربحون فى اسفارهم لان ملوك النواحى كانوا يعظمون اهل مكة ويقولون هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة حتى انهم كانوا يسمون اهل مكة اهل الله فلو تم للحبشة ماعزموا عليه من هدم الكعبة لزال عنهم هذا العز ولبطلت تلك المزايا فى التعظيم والاحترام ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحى يتخطفون من كل جانب ويتعرض لهم فى نفوسهم واموالهم فلما اهلك الله اصحاب الفيل ورد كيدهم فى نحرهم ازداد وقع اهل مكة فى القلوب وازداد تعظيم ملوك الاطراف لهم فازدادت تلك المنافع والمتاجر فلهذا قال الله تعالى ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل لايلاف قريش رحلتى الشتاء والصيف (والوجه الثانى) فيمايدل على صحة هذا القول ان قوله تعالى فى آخر هذه السورة فليعبدوا رب هذا البيت الذى اشارة الى اول سورة الفيل كأنه تعالى قال فليعبدوا رب هذا البيت الذى قصده اصحاب الفيل ثم ان رب البيت دفعهم عن مقصودهم لاجل ايلافكم ونفعكم لان الامر بالعبادة انما يحسن مرتبا على ايصال المنفعة فهذا يدل على تعلق اول هذه السورة بالسورة المتقدمة (القول الثانى) وهو ان اللام فى لايلاف متعلقة بقوله فليعبدوا وهو قول الخليل وسيبويه والتقدير فليعبدوا رب هذا البيت لايلاف قريش اى ليجعلوا عبادتهم شكرا لهذه النعمة واعترافا بها (فان قيل) فلم دخلت الفاء فى قوله فليعبدوا (قلنا) لما فى الكلام من معنى الشرط وذلك لان نعم الله عليهم لاتحصى فكأنه قيل ان لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التى هى نعمة ظاهرة (القول الثالث) ان تكون هذه اللام غير متعلقة لابما قبلها ولابما بعدها قال الزجاج قال قوم هذه اللام لام التعجب كأن المعنى اعجبوا لايلاف قريش وذلك لانهم كل يوم يزدادون غيا وجهلا وانغماسا فى عبادة الاوثان والله تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم وينظم اسباب معايشهم وذلك لاشك انه فى غاية التعجب من عظيم حلم الله وكرمه ونظيره فى اللغة قولك لزيد وماصنعنا به ولزيد وكرامتنا اياه وهذا اختيار الكسائى والاخفش والفراء (المسئلة الثانية) ذكروا فى الايلاف ثلاثة اوجه (احدها) ان الايلاف هو الالف قال علماء اللغة الفت الشئ وآلفته الفا والافا وايلافا بمعنى واحد اى لزمته فيكون المعنى لالف قريش هاتين الرحلتين فتتصلا ولاتنقطعا وقرأ ابو جعفر لالف قريش

من الحبشة ليتسامع الناس بذلك فيتهيبوا لهم زيادة تهيب ويحترموهم فضل احترام حتى ينتظم لهم الامن فى رحلتيهم فلا يجترئ عليهم احد وكانت لقريش رحلتان يرحلون فى الشتاء الى اليمن وفى الصيف الى الشام فيمتارون ويتجرون وكانوا فى

وقرأ الآخرون لالاف قريش وقرأ عكرمة ليلاف قريش (وثانيها) ان يكون هذا من قولك لزمت موضع كذا والزمنيه الله كذا تقول ألفت كذا والفنيه الله ويكون المعنى اثبات الالفة بالتدبير الذى فيه لطف ألف بنفسه الفا وآلفه غيره ايلافا والمعنى ان هذه الالفة انما حصلت فى قريش بتدبير الله وهو كقوله تعالى ولكن الله ألف بينهم وقال وألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وقد تكون المسرة سببا للمؤانسة والاتفاق كما وقعت عند انهزام اصحاب الفيل لقريش فيكون المصدر ههنا مضافا الى المفعول ويكون المعنى لاجل ان يجعل الله قريشا ملازمين لرحلتيهم (وثالثها) ان يكون الايلاف هو التهيئة والتجهيز وهو قول الفراء وابن الاعرابى فيكون المصدر على هذا القول مضافا الى الفاعل والمعنى لتجهيز قريش رحلتيها حتى تتصلا ولا تنقطعا وقرأ ابو جعفر ليلاف بغير همز فحذف همزة الافعال حذفا كليا وهو كمذهبه فى يستهزؤن وقدمر تقريره (المسئلة الثالثة) التكرير فى قوله لايلاف قريش ايلافهم وهو انه اطلق الايلاف اولا ثم جعل المقيد بدلا لذلك المطلق تفخيما لامر الايلاف وتذكيرا لعظيم المنة فيه والاقرب ان يكون قوله لايلاف قريش عاما يجمع كل مؤانسة وموافقة كان بينهم فيدخل فيه مقامهم وسيرهم وجميع احوالهم ثم خص ايلاف الرحلتين بالذكر لسبب انه قوام معاشهم كما فى قوله وجبريل وميكال وفائدة ترك واو العطف التنبيه على انه كل النعمة وتقول العرب ألفت كذا اى لزمته والالزام ضربان الزام بالتكليف والامر والزام بالمودة والمؤانسة فانه اذا أحب المرء شيئا لزمه ومنه الزمهم كلمة التقوى كما ان الالجاء ضربان (احدهما) لدفع الضرر كالهرب من السبع (والثانى) لطلب النفع العظيم كمن يجد مالا عظيما ولا مانع من اخذه لا عقلا ولا شرعا ولا حسا فانه يكون كالملجأ الى الاخذ وكذا الدواعى التى تكون دون الالجاء مرة تكون لدفع الضرر واخرى لجلب النفع وهو المراد فى قوله ايلافهم (المسئلة الرابعة) اتفقوا على ان قريشا ولد النضر بن كنانة قال عليه السلام انا بنى النضر بن كنانة لانقفو امنا ولا ننتفى من ابينا وذكروا فى سبب هذه التسمية وجوها (احدها) انه تصغير القرش وهو دابة عظيمة فى البحر تعبث بالسفن ولا تنطلق الا بالنار وعن معاوية انه سأل ابن عباس بم سميت قريش قال بدابة فى البحر تأكل ولا تؤكل تعلو ولا تعلى وأنشد

وقريش هى التى تسكن البحر * ربهـا سميت قريش قريشا

والتصغير للتعظيم ومعلوم ان قريشا موصوفون بهذه الصفات لانها تلى امر الامة فان الائمة من قريش (وثانيها) انه مأخوذ من القرش وهو الكسب لانهم كانوا كاسبين بتجاراتهم وضربهم فى البلاد (وثالثها) قال الليث كانوا متفرقين فى غير الحرم فجمعهم قصى بن كلاب فى الحرم حتى اتخذوها مسكنا فسموا قريشا لان التقرش هو التجمع يقال تقرش القوم اذا اجتمعوا ولذلك سمى قصى مجمعا قال الشاعر

رحلتيهم آمنين لانهم اهل حرم الله تعالى وولاة بيته العزيز فلا يتعرض لهم والناس بين متخطف ومنهوب والايلاف من قولك آلفت المكان ايلافا اذا الفته وقرئ لالاف قريش اى لمؤالفتهم وقيل يقال الفته الفا والافا وقرئ لالف قريش وقريش ولد

أبوكم قصى كان يدعى مجمعا * به جمع الله القبائل من فهر

(ورابعها) انهم كانوا يسدون خلة محاويج الحاج فسموا بذلك قريشا لان القرش التفتيش قال ابن حرة

ايها الشامت المقرش عنا * عند عمرو وهل لذلك بقاء

* قوله تعالى (رحلة الشتاء والصيف) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الليث الرحلة اسم الارتحال من القوم للمسير وفى المراد من هذه الرحلة قولان (الاول) وهو المشهور قال المفسرون كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء الى اليمن لان اليمن ادفأ وبالصيف الى الشام وذكر عطاء عن ابن عباس ان السبب فى ذلك هو ان قريشا اذا أصاب واحدا منهم مخمصة خرج هو وعياله الى موضع وضربوا على انفسهم خباء حتى يموتوا الى ان جاء هاشم ابن عبد مناف وكان سيد قومه وكان له ابن يقال له اسد وكان له ترب من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه فشكا اليه الضر والمجاعة فدخل اسد على امه يبكى فأرسلت الى اولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه اياما ثم اتى ترب اسد اليه مرة اخرى وشكا اليه من الجوع فقام هاشم خطيبا فى قريش فقال انكم اجدبتم جدبا تقلون فيه وتذلون وانتم اهل حرم الله واشراف ولد آدم والناس لكم تبع قالوا نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف فجمع كل بنى اب على الرحلتين فى الشتاء الى اليمن وفى الصيف الى الشام للتجارات فما ربح الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم فجاء الاسلام وهم على ذلك فلم يكن فى العرب بنو اب اكثر مالا ولا أعز من قريش قال الشاعر فيهم

الخالطين فقيرهم بغنيهم * حتى يكون فقيرهم كالكافى

واعلم ان وجه النعمة والمنة فيه انه لو تم لأصحاب الفيل ما أرادوا لترك اهل الاقطار تعظيمهم وايضا لتفرقوا وصار حالهم كحال اليهود المذكور فى قوله وقطعناهم فى الارض امما واجتماع القبيلة الواحدة فى مكان واحد ادخل فى النعمة من ان يكون الاجتماع من قبائل شتى ونبه تعالى ان من شرط السفر المؤانسة والالفة ومنه قوله تعالى ولا جدال فى الحج والسفر احوج الى مكارم الاخلاق من الاقامة (القول الثانى) ان المراد رحلة الناس الى اهل مكة فرحلة الشتاء والصيف عمرة رجب وحج ذى الحجة لانه كان احدهما شتاء والآخر صيفا وموسم منافع مكة يكون بهما ولو كان يتم لاصحاب الفيل ما أرادوا لتعطلت هذه المنفعة (المسئلة الثانية) نصب الرحلة بايلافهم مفعولا به وأراد رحلتى الشتاء والصيف فافرد لا من الالباس كقوله كلوا فى بعض بطنكم وقيل معناه رحلة الشتاء ورحلة الصيف وقرئ رحلة بضم الراء وهى الجهة * قوله تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت) اعلم ان الانعام على قسمين (احدهما) دفع الضرر (والثانى) جلب النفع والاول أهم واقدم ولذلك قالوا دفع الضرر عن النفس واجب اما جلب النفع غير واجب فلهذا السبب بين تعالى نعمة دفع الضرر فى سورة الفيل ونعمة جلب النفع فى هذه

النضر بن كنانة سموا بتصغير القرش وهو دابة عظيمة فى البحر تعبث بالسفن ولا تطاق الا بالنار والتصغير للتعظيم وقيل من القرش وهو الكسب لانهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم فى البلاد وقوله تعالى (ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) بدل من الاول ورحلة

السورة ولما تقرر ان الانعام لابدوان يقابل بالشكر والعبودية لاجرم اتبع ذكر النعمة بطلب العبودية فقال فليعبدوا وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ذكرنا ان العبادة هى التذلل والخضوع للمعبود على غاية مايكون ثم قال بعضهم اراد فليوحدوا رب هذا البيت لانه هو الذى حفظ البيت دون الاوثان ولان التوحيد مفتاح العبادات ومنهم من قال المراد العبادات المتعلقة باعمال الجوارح ثم ذكر كل قسم من اقسام العبادة والاولى حمله على الكل لان اللفظ متناول للكل الا ما اخرجه الدليل وفى الآية وجه آخر وهو ان يكون معنى فليعبدوا اى فليتركوا رحلة الشتاء والصيف وليشتغلوا بعبادة رب هذا البيت فانه يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف ولعل تخصيص لفظ الرب تقرير لما قالوه لابرهة ان للبيت ربا سيحفظه ولم يعولوا فى ذلك على الاصنام فلزمهم لاقرارهم ان لايعبدوا سواه كأنه يقول لما عولتم فى الحفظ على فاصرفوا العبادة والخدمة الى (المسئلة الثانية) الاشارة الى البيت فى هذا النظم تفيد التعظيم فانه سبحانه تارة اضاف العبد الى نفسه فيقول ياعبادى وتارة يضيف نفسه الى العبد فيقول والهكم كذا فى البيت يضيف نفسه الى البيت وهو قوله فليعبدوا رب هذا البيت وتارة يضيف البيت الى نفسه فيقول طهر بيتى ❊ ثم قال تعالى (الذى اطعمهم من جوع) وفى هذا الاطعام وجوه (احدها) انه تعالى لما آمنهم بالحرم حتى لايتعرض لهم فى رحلتهم كان ذلك سبب اطعامهم بعدما كانوا فيه من الجوع (وثانيها) قال مقاتل شق عليهم الذهاب الى اليمن والشأم فى الشتاء والصيف لطلب الرزق فقذف الله تعالى فى قلوب الحبشة ان يحملوا الطعام فى السفن الى مكة فحملوه وجعل اهل مكة يخرجون اليهم بالابل والحمر ويشترون طعامهم من جدة على مسيرة ليلتين وتتابع ذلك فكفاهم الله مؤنة الرحلتين (وثالثها) قال الكلبى هذه الآية معناها انهم لما كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فاشتد عليهم القحط واصابهم الجهد فقالوا يامحمد ادع الله فانا مؤمنون فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخصبت البلاد واخصب اهل مكة بعد القحط فذلك قوله اطعمهم من جوع ثم فى الآية سؤالات (السؤال الاول) العبادة انما وجبت لانه تعالى اعطى اصول النعم والاطعام ليس من اصول النعم فلماذا علل وجوب العبادة بالاطعام (الجواب) من وجوه (احدها) انه تعالى لما ذكر انعامه عليهم بحبس الفيل وارسال الطير واهلاك الحبشة وبين انه تعالى فعل ذلك لايلافهم ثم امرهم بالعبادة فكأن السائل يقول لكن نحن محتاجون الى كسب الطعام والذب عن النفس فلو اشتغلنا بالعبادة فمن ذا الذى يطعمنا فقال الذى اطعمهم من جوع قبل ان يعبدوه الا يطعمهم اذا عبدوه (وثانيها) انه تعالى بعد ان اعطى العبد اصول النعم اساء العبد اليه ثم انه يطعمهم مع ذلك فكأنه تعالى يقول اذا لم تستح من اصول النعم الا تستحى من احسانى اليك بعد اساءتك (وثالثها)

مفعول لايلافهم وافرادها مع ان المراد رحلتا الشتاء والصيف لامن الالباس وفى اطلاق الا يلاف عن المفعول اولا وابدال هذا منه تفخيم لامره وتذكير لعظيم النعمة فيه وقرئ ليألف قريش الفهم رحلة الشتاء والصيف وقرئ رحلة بالضم وهى الجهة التى يرحل اليها (فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم) بسبب تينك الرحلتين اللتين تمكنوا فيهما بواسطة كونهم

انما ذكر الانعام لان البهيمة تطيع من يعلفها فكأنه تعالى يقول لست دون البهيمة (السؤال الثانى) اليس انه جعل الدنيا ملكا لنا بقوله خلق لكم مافى الارض جميعا فكيف تحسن المنة علينا بأن اعطانا ملكنا (الجواب) انظر فى الاشياء التى لابد منها قبل الاكل حتى يتم الطعام ويتهيأ وفى الاشياء التى لابد منها بعد الاكل حتى يتم الانتفاع بالطعام المأكول فانك تعلم انه لابد من الافلاك والكواكب ولابد من العناصر الاربعة حتى يتم ذلك الطعام ولابد من جملة الاعضاء على اختلاف اشكالها وصورها حتى يتم الانتفاع بالطعام وحينئذ تعلم ان الاطعام يناسب الامر بالطاعة والعبادة (السؤال الثالث) المنة بالاطعام لاتليق بمن له شئ من الكرم فكيف باكرم الاكرمين (الجواب) ليس الغرض منه المنة بل الارشاد الى الاصلح لانه ليس المقصود من الاكل تقوية الشهوة المانعة عن الطاعة بل تقوية البنية على اداء الطاعات فكان المقصود من الامر بالعبادة ذلك (السؤال الرابع) ماالفائدة فى قوله من جوع (الجواب) فيه فوائد (احدها) التنبيه على ان امر الجوع شديد ومنه قوله تعالى وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وقوله صلى الله عليه وسلم من اصبح آمنا فى سربه الحديث (وثانيها) تذكيرهم الحالة الاولى الرديئة المؤلمة وهى الجوع حتى يعرفوا قدر النعمة الحاضرة (وثالثها) التنبيه على ان خير الطعام ماسد الجوعة لانه لم يقل واشبعهم لان الطعام يزيل الجوع اما الاشباع فانه يورث البطنة * اماقوله تعالى (وآمنهم من خوف) ففى تفسيره وجوه (احدها) انهم كانوا يسافرون آمنين لايتعرض لهم احد ولايغير عليهم احد لافى سفرهم ولافى حضرهم وكان غيرهم لايأمنون من الغارة فى السفر والحضر وهذا معنى قوله اولم يروا اناجعلنا حرما آمنا (وثانيها) انه آمنهم من زحمة اصحاب الفيل (وثالثها) قال الضحاك والربيع وآمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدتهم الجذام (ورابعها) آمنهم من خوف ان تكون الخلافة فى غيرهم (وخامسها) آمنهم بالاسلام فقد كانوا فى الكفر يتفكرون فيعلمون ان الدين الذى هم عليه ليس بشئ الا انهم ماكانوا يعرفون الدين الذى يجب على العاقل ان يتمسك به (وسادسها) اطعمهم من جوع الجهل بطعام الوحى وآمنهم من خوف الضلال ببيان الهدى كأنه تعالى يقول يااهل مكة كنتم قبل مبعث محمد تسمون جهال العرب واجلافهم ومن كان ينازعكم كانوا يسمون اهل الكتاب ثم انزلت الوحى على نبيكم وعلمتكم الكتاب والحكمة حتى صرتم الآن تسمون اهل العلم والقرآن واولئك يسمون جهال اليهود والنصارى ثم اطعام الطعام الذى يكون غذاء الجسد يوجب الشكر فاطعام الطعام الذى هو غذاء الروح ألايكون موجبا للشكر وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) لم لم يقل عن جوع وعن خوف (قلنا) لان معنى عن انه جعل الجوع بعيدا عنهم وهذا يقتضى ان يكون ذلك التبعيد مسبوقا بمقاساة الجوع زمانا ثم يصرفه عنه ومن لاتقتضى ذلك بل معناه انهم عندما يجوعون

من جيرانه (من جوع) شديد كانوا فيه قبلهما وقيل اريد به القحط الذى اكلوا فيه الجيف والعظام (وآمنهم من خوف) عظيم لايقادر قدره وهو خوف اصحاب الفيل اوخوف التخطف فى بلدهم ومسايرهم وقيل خوف الجذام فلايصيبهم فى بلدهم * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة قريش اعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها

(يطعمون)

يطعمون وحين مايخافون يؤمنون (السؤال الثانى) لم قال من جوع من خوف على سبيل التنكير (الجواب) المراد من التنكير التعظيم اما الجوع فلما روينا انه اصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة واما الخوف فهو الخوف الشديد الحاصل من اصحاب الفيل ويحتمل ان يكون المراد من التنكير التحقير ويكون المعنى انه تعالى لما لم يجوز لغاية كرمه ابقاءهم فى ذلك الجوع القليل والخوف القليل فكيف يجوز فى كرمه لو عبدوه ان يهمل امرهم ويحتمل ان يكون المراد انه اطعمهم من جوع دون جوع وآمنهم من خوف دون خوف ليكون الجوع الثانى والخوف الثانى مذكرا ما كانوا فيه اولا من انواع الجوع والخوف حتى يكونوا شاكرين من وجه وصابرين من وجه آخر فيستحقوا ثواب الخصلتين (السؤال الثالث) انه تعالى انما اطعمهم وآمنهم اجابة لدعوة ابراهيم عليه السلام اما فى الاطعام فهو قوله وارزق اهله واما الامان فهو قوله اجعل هذا البلد آمنا واذا كان كذلك كان ذلك منة على ابراهيم عليه السلام فكيف جعله منة على أولئك الحاضرين (الجواب) ان الله تعالى لما قال انى جاعلك للناس اماما قال ابراهيم ومن ذريتى فقال الله تعالى لاينال عهدى الظالمين فنادى ابراهيم بهذا الادب فحين قال رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق اهله من الثمرات قيده بقوله من آمن بالله فقال الله لاحاجة الى هذا التقييد بل ومن كفر فأمتعه قليلا فكأنه تعالى قال اما نعمة الامانة فهى دينية فلا تحصل الا لمن كان تقيا واما نعمة الدنيا فهى تصل الى البر والفاجر والصالح والطالح واذا كان كذلك كان اطعام الكافر من الجوع وامانه من الخوف انعاما من الله ابتداء عليه لا بدعوة ابراهيم فزال السؤال والله تعالى اعلم

(سورة أرأيت سبع آيات مكية)
(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ارأيت الذى يكذب بالدين) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ بعضهم أريت بحذف الهمزة قال الزجاج وهذا ليس بالاختيار لان الهمزة انما طرحت من المستقبل نحو يرى وأرى وترى فاما رأيت فليس يصح عن العرب فيها ريت ولكن حرف الاستفهام لما كان فى اول الكلام سهل الغاء الهمزة ونظيره

صاح هل ريت اوسمعت براع * ردفى الضرع ماقرى فى العلاب

وقرأ ابن مسعود أرأيتك بزيادة حرف الخطاب كقوله أرأيتك هذا الذى كرمت على (المسئلة الثانية) قوله أرأيت معناه هل عرفت الذى يكذب بالجزاء من هو فأن لم تعرفه فهو الذى يدع اليتيم واعلم ان هذا اللفظ وان كان فى صورة الاستفهام لكن الغرض بمثله المبالغة فى التعجب كقولك أرأيت فلانا ماذا ارتكب ولماذا عرض نفسه ثم قيل انه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وقيل بل خطاب لكل عاقل اى أرأيت ياعاقل هذا الذى يكذب بالدين بعد ظهور دلائله ووضوح تبيانه ايفعل ذلك لا لغرض فكيف يليق

(سورة الماعون مختلف فيها)
(وآيها سبع)*

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(أرأيت الذى يكذب بالدين) استفهام اريد به تشويق السامع الى معرفة من سيق له الكلام والتعجيب منه والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لكل عاقل والرؤية بمعنى المعرفة وقرئ أرأيتك بزيادة حرف الخطاب والفاء فى قوله تعالى (فذلك الذى يدع اليتيم) جواب شرط محذوف على ان ذلك مبتدأ والموصول خبره والمعنى هل عرفت الذى يكذب بالجزاء اوبالاسلام ان لم تعرفه

بالعاقل جر العقوبة الابدية الى نفسه من غير غرض او لاجل الدنيا فكيف يليق بالعاقل ان يبيع الكثير الباقي بالقليل الفانى (المسئلة الثالثة) فى الآية قولان (احدهما) انها مختصة بشخص معين وعلى هذا القول ذكروا اشخاصا فقال ابن جريج نزلت فى ابى سفيان كان ينحر جزورين فى كل اسبوع فأتاه يتيم فسأله لحما فقرعه بعصاه وقال مقاتل نزلت فى العاص بن وائل السهمى وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة والاتيان بالافعال القبيحة وقال السدى نزلت فى الوليد بن المغيرة وحكى الماوردى انها نزلت فى ابى جهل وروى انه كان وصيا ليتيم فجاءه وهو عريان يسأله شيئا من مال نفسه فدفعه ولم يعبأ به فأيس الصبى فقال له اكابر قريش قل لمحمد يشفع لك وكان غرضهم الاستهزاء ولم يعرف اليتيم ذلك فجاء الى النبى صلى الله عليه وسلم والتمس منه ذلك وهو عليه السلام ما كان يرد محتاجا فذهب معه الى ابى جهل فرحب به وبذل المال لليتيم فعيره قريش فقالوا صبوت فقال لا والله ماصبوت لكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت ان لم أجبه يطعنها فى وروى عن ابن عباس انها نزلت فى منافق جمع بين البخل والمراآة (والقول الثانى) انه عام لكل من كان مكذبا بيوم الدين وذلك لان اقدام الانسان على الطاعات واحجامه عن المحظورات انما يكون للرغبة فى الثواب والرهبة عن العقاب فاذا كان منكرا للقيامة لم يترك شيئا من المشتهيات واللذات فثبت ان انكار القيامة كالاصل لجميع انواع الكفر والمعاصى (المسئلة الرابعة) فى تفسير الدين وجوه (احدها) ان يكون المراد من يكذب بنفس الدين والاسلام اما لانه كان منكرا للصانع او لانه كان منكرا للنبوة او لانه كان منكرا للمعاد او لشئ من الشرائع (فان قيل) كيف يمكن حمله على هذا الوجه ولابد وان يكون لكل احد دين (الجواب) من وجوه (احدها) ان الدين المطلق فى اصطلاح اهل الاسلام والقرآن هو الاسلام قال الله تعالى ان الدين عند الله الاسلام اما سائر المذاهب فلا تسمى دينا الا بضرب من التقييد كدين النصارى واليهود (وثانيها) ان يقال هذه المقالات الباطلة ليست بدين لان الدين هو الخضوع لله وهذه المذاهب انما هى خضوع للشهوة او للشبهة (وثالثها) وهو قول اكثر المفسرين ان المراد أرأيت الذى يكذب بالحساب والجزاء قالوا وحمله على هذا الوجه أولى لان من ينكر الاسلام قد يأتى بالافعال الحميدة ويحترز عن مقابحها اذا كان مقرا بالقيامة والبعث اما المقدم على كل قبيح من غير مبالاة فليس هو الا المنكر للبعث والقيامة ❊ ثم قال تعالى (فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) واعلم انه تعالى ذكر فى تعريف من يكذب بالدين وصفين (احدهما) من باب الافعال وهو قوله فذلك الذى يدع اليتيم (والثانى) من باب التروك وهو قوله ولا يحض على طعام المسكين والفاء فى قوله فذلك للسببية اى لما كان كافرا مكذبا كان كفره سببا لدع اليتيم وانما اقتصر عليهما على معنى ان الصادر عمن يكذب بالدين ليس الا ذلك لانا نعلم ان المكذب بالدين لا يقتصر على هذين بل على سبيل التمثيل كأنه

(تعالى)

أو ان اردت ان تعرفه فهو الذى يدفع اليتيم دفعا عنيفا ويزجره زجرا قبيحا ووضع اسم الاشارة المتعرض لوصف المشار اليه موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم والتنبيه بما فيه من معنى البعد على بعد منزلته فى الشر والفساد قيل هو ابو جهل كان وصيا ليتيم فأتاه عريانا يسأله من مال نفسه فدفعه دفعا شنيعا وقيل ابو سفيان نحر جزورا فسأله يتيم لحما فقرعه بعصاه وقيل هو الوليد بن المغيرة وقيل هو العاص بن وائل السهمى وقيل هو رجل بخيل من المنافقين وقيل الموصول على عمومه وقرئ تدع اليتيم اى يتركه ويجفوه

تعالى ذكر فى كل واحد من القسمين مثالا واحدا تنبيها بذكره على سائر القبائح لاجل
ان هاتين الخصلتين كما انهما قبيحتان منكران بحسب الشرع فهما ايضا مستنكران
بحسب المروءة والانسانية اما قوله يدع اليتيم فالمعنى انه يدفعه بعنف وجفوة كقوله يوم
يدعون الى نار جهنم دعا وحاصل الامر فى دع اليتيم امور (أحدها) دفعه عن حقه وماله
بالظلم (والثانى) ترك المواساة معه وان لم تكن المواساة واجبة وقد يذم المرء بترك النوافل
لاسيما اذا اسند الى النفاق وعدم الدين (والثالث) يزجره ويضربه ويستخف به وقرئ
يدع اى يتركه ولا يدعوه بدعوة اى يدعو جميع الاجانب ويترك اليتيم مع انه عليه السلام
قال ما من مائدة أعظم من مائدة عليها يتيم وقرئ يدعو اليتيم اى يدعوه رياء ثم لا يطعمه وانما
يدعوه استخداما اوقهرا اواستطالة واعلم ان فى قوله يدع بالتشديد فائدة وهى ان يدع
بالتشديد معناه انه يعتاد ذلك فلا يتناول الوعيد من وجد منه ذلك وندم عليه ومثله قوله
تعالى الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم سمى ذنب المؤمن لمما لانه كالطيف
والخيال يطرأ ولا يبقى لان المؤمن كما يفرغ من الذنب يندم انما المكذب هو الذى يصر
على الذنب اما قوله ولا يحض على طعام المسكين ففيه وجهان (أحدهما) انه لا يحض
نفسه على طعام المسكين واضافة الطعام الى المسكين تدل على ذلك الطعام حق
المسكين فكأنه منع المسكين مما هو حقه وذلك يدل على نهاية بخله وقساوة قلبه وخساسة
طبعه (والثانى) لا يحض غيره على اطعام ذلك المسكين بسبب انه لا يعتقد فى ذلك الفعل
ثوابا والحاصل انه تعالى جعل علم التكذيب بالقيامة الاقدام على ايذاء الضعيف ومنع
المعروف يعنى انه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لما صدر عنه ذلك فوضع الذنب هو
التكذيب بالقيامة وههنا سؤالان (السؤال الاول) أليس قد لا يحض المرء فى كثير من
الاحوال ولا يكون آثما (الجواب) لان غيره ينوب منابه أو لانه لا يقبل قوله او لمفسدة
أخرى يتوقعها اما ههنا فذكر انه لا يفعل ذلك لما انه مكذب بالدين (السؤال الثانى) لم
لم يقل ولا يطعم المسكين (الجواب) اذا منع اليتيم عن حقه فكيف يطعم المسكين من مال
نفسه بل هو بخيل من مال غيره وهذا هو النهاية فى الخسة فلان يكون بخيلا بمال نفسه
اولى وضده فى مدح المؤمنين وتواصوا بالمرحمة وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ❁ ثم قال
تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى)
فى كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه (أحدها) انه لما كان ايذاء اليتيم والمنع من
الاطعام دليلا على النفاق فالصلاة لا مع الخشوع والخضوع اولى ان تدل على النفاق
لان الايذاء والمنع من النفع معاملة مع المخلوق اما الصلاة فانها خدمة للخالق (وثانيها)
كأنه لما ذكر ايذاء اليتيم وتركه للحض كأن سائلا قال أليس ان الصلاة تنهى عن الفحشاء
والمنكر فقال له الصلاة كيف تنهاه عن هذا الفعل المنكر وهى مصنوعة من عين الرياء
والسهو (وثالثها) كأنه يقول اقدامه على ايذاء اليتيم وتركه للحض تقصير فيما يرجع الى

(ولا يحض) اى اهله وغيرهم من الموسرين (على طعام المسكين) واذا كان حال من ترك حث غيره على ما ذكر فما ظنك بحال من ترك ذلك مع القدرة عليه والفاء فى قوله تعالى (فويل) الخ اما لربط ما بعدها بشرط محذوف كأنه قيل اذا كان ما ذكر من عدم المبالاة

الشفقة على خلق الله وسهوه فى الصلاة تقصير فيما يرجع الى التعظيم لامر الله فلما وقع التقصير فى الامرين فقد كملت شقاوته فلهذا قال فويل واعلم ان هذا اللفظ انما يستعمل عند الجريمة الشديدة كقوله ويل للمطففين فويل لهم مما كتبت ايديهم ويل لكل همزة لمزة ويروى ان كل أحد ينوح فى النار بحسب جريمته فقائل يقول وبلى من حب الشرف وآخر يقول وبلى من الحمية الجاهلية وآخر يقول وبلى من صلاتى فلهذا يستحب عند سماع مثل هذه الآية ان يقول المرء وبلى ان لم يغفر لى (المسئلة الثانية) الآية دالة على حصول التهديد العظيم بفعل ثلاثة امور (أحدها) السهو عن الصلاة (وثانيها) فعل المراآة (وثالثها) منع الماعون وكل ذلك من باب الذنوب ولا يصير المرء به منافقا فلم حكم الله بمثل هذا الوعيد على فاعل هذه الافعال ولاجل هذا الاشكال ذكر المفسرون فيه وجوها (أحدها) ان قوله فويل للمصلين اى فويل للمصلين من المنافقين الذين يأتون بهذه الافعال وعلى هذا التقدير تدل الآية على ان الكافر له مزيد عقوبة بسبب اقدامه على محظورات الشرع وتركه لواجبات الشرع وهو يدل على صحة قول الشافعى ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع وهذا الجواب هو المعتمد (وثانيها) ماروا عطاء عن ابن عباس انه لو قال الله فى صلاتهم ساهون لكان هذا الوعيد فى المؤمنين لكنه قال عن صلاتهم ساهون والساهى عن الصلاة هو الذى لا يتذكرها ويكون فارغا عنها وهذا القول ضعيف لان السهو عن الصلاة لا يجوز ان يكون مفسرا بترك الصلاة كأنه تعالى أثبت لهم الصلاة بقوله فويل للمصلين وايضا فالسهو عن الصلاة بمعنى الترك لا يكون نفاقا ولا كفرا فيعود الاشكال (ويمكن ان يجاب عن الاعتراض الاول) بأنه تعالى حكم عليهم بكونهم مصلين نظرا الى الصورة وبأنهم نسوا الصلاة بالكلية نظرا الى المعنى كما قال تعالى واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا (ويجاب عن الاعتراض الثانى) بأن النسيان عن الصلاة هو ان يبقى ناسيا لذكر الله فى جميع اجزاء الصلاة وهذا لا يصدر الا عن المنافق الذى يعتقد انه لا فائدة فى الصلاة أما المسلم الذى يعتقد فيها فائدة دينية يمتنع ان لا يتذكر أمر الدين والثواب والعقاب فى شئ من اجزاء الصلاة بل قد يحصل له السهو فى الصلاة بمعنى انه يصير ساهيا فى بعض اجزاء الصلاة فثبت ان السهو فى الصلاة من افعال المؤمن والسهو عن الصلاة من افعال الكافر (وثالثها) ان يكون معنى ساهون اى لا يتعهدون اوقات صلواتهم ولا شرائطها ومعناه انه لا يبالى سواء صلى او لم يصل وهو قول سعد بن ابى وقاص ومسروق والحسن ومقاتل (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى سهو الرسول عليه السلام فى صلاته فقال كثير من العلماء انه عليه السلام ماسهى لكن الله تعالى أذن له فى ذلك الفعل حتى يفعل مايفعله الساهى فيصير ذلك بيانا لذلك الشرع بالفعل والبيان بالفعل اقوى ثم بتقدير وقوع السهو منه فالسهو على اقسام (احدها) سهو الرسول والصحابة وذلك منجبر تارة بسجود السهو وتارة بالسنن

بالیتیم والمسكين من دلائل التكذيب بالدين وموجبات الذم والتوبيخ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) غافلون غيرمبالين بها (الذين هم يراؤن) اى يرون الناس اعمالهم ليروهم الثناء عليها (ويمنعون الماعون) اى الزكاة اومايتعاور عادة فان

(والنوافل)

والنوافل (والثاني) مايكون في الصلاة من الغفلة وعدم استحضار المعارف والنيات (والثالث) الترك لا الى قضاء والاخراج عن الوقت ومن ذلك صلاة المنافق وهي شر من ترك الصلاة لانه يستهزئ بالدين بتلك الصلاة * اما قوله تعالى (الذين هم يراؤون) فاعلم ان الفرق بين المنافق والمرائي ان المنافق هو المظهر للايمان المبطن للكفر والمرائي المظهر ماليس في قلبه من زيادة خشوع ليعتقد فيه من يراه انه متدين اونقول المنافق لايصلي سرا والمرائي تكون صلاته عند الناس احسن واعلم انه يجب اظهار الفرائض من الصلاة والزكاة لانه شعائر الاسلام وتاركها مستحق للعن فيجب نفي التهمة بالاظهار انما الاخفاء في النوافل الااذا اظهر النوافل ليقتدى به وعن بعضهم انه رأى في المسجد رجلا يسجد للشكر واطالها فقال ما احسن هذا لوكان في بيتك لكن مع هذا قالوا لايترك النوافل حياء ولايأتي بها رياء وقلما يتيسر اجتناب الرياء ولهذا قال عليه الصلاة والسلام الرياء اخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على المسح الاسود (فان قيل) مامعنى المراآة (قلنا) هي مفاعلة من الاراءة لان المرائي يرى الناس عمله وهم يرونه الثناء عليه والاعجاب به واعلم ان قوله عن صلاتهم ساهون يفيد امرين اخراجها عن الوقت وكون الانسان غافلا فيها وقوله الذين هم يراؤون يفيد المراآة فظهر ان الصلاة يجب ان تكون خالية عن هذه الاحوال الثلاثة ثم لما شرح امر الصلاة اعقبه بذكر الصلات * فقال تعالى (ويمنعون الماعون) وفيه اقوال (الاول) وهو قول ابي بكر وعلي وابن عباس وابن الحنفية وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والضحاك هو الزكاة وفي حديث ابي من قرأ سورة ارايت غفر الله له ان كان للزكاة مؤديا وذلك يوهم ان الماعون هو الزكاة ولان الله تعالى ذكره عقيب الصلاة فالظاهر ان يكون ذلك هو الزكاة (والقول الثاني) وهو قول أكثر المفسرين أن الماعون اسم لما لايمنع في العادة ويسأله الفقير والغني وينسب مانعه الى سوء الخلق ولؤم الطبيعة كالفأس والقدر والدلو والقدحة والغربال والقدوم ويدخل فيه الملح والماء والنار فأنه روى ثلاثة لايحل منعها الماء والنار والملح ومن ذلك ان يلتمس جارك ان يخبز في تنورك اويضع متاعه عندك يوما او نصف يوم واصحاب هذا القول قالوا الماعون فاعول من المعن وهو الشيء القليل ومنه ماله سعنة ولا معنة اي كثير وقليل وسميت الزكاة ماعونا لانه يؤخذ من المال ربع العشر فهو قليل من كثير ويسمى مايستعار في العرف كالفأس والشفرة ماعونا وعلى هذا التقدير يكون معنى الآية الزجر عن البخل بهذه الاشياء القليلة فان البخل بها يكون في نهاية الدناءة والركاكة والمنافقون كانوا كذلك لقوله تعالى الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل وقال مناع للخير معتد اثيم قال العلماء ومن الفضائل ان يستكثر الرجل في منزله مما يحتاج اليه الجيران فيعيرهم ذلك ولايقتصر على الواجب (والقول الثالث) قال الفراء سمعت بعض العرب يقول الماعون هو الماء وأنشدني فيه * يمج بعيره الماعون مجا * ولعله

عدم المبالاة باليتيم والمسكين حيث كان كاذكر فعدم المبالاة بالصلاة التي هي عماد الدين والرياء الذي هو شعبة من الكفر ومنع الزكاة التي هي قنطرة الاسلام وسوء المعاملة مع الخلق احق بذلك واما لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ماذكر من قبائحهم ووضع المصلين موضع

خصه بذلك لانه اعز مفقود وارخص موجود واول شئ يسأله اهل النار الماء كما قال ان افيضوا علينا من الماء واول لذة يجدها اهل الجنة هو الماء كما قال وسقاهم ربهم (والقول الرابع) الماعون حسن الانقياد يقال رض بعيرك حتى يعطيك الماعون اى حتى يعطيك الطاعة واعلم ان الاولى ان يحمل على كل طاعة يخف فعلها لانه اكثر فائدة ثم قال المحققون فى الملاءمة بين قوله يراؤون وبين قوله ويمنعون الماعون كأنه تعالى يقول الصلاة لى والماعون للخلق فما يجب جعله لى يعرضونه على الخلق وما هو حق الخلق يسترونه عنهم فكأنه لا يعامل الخلق والرب الاعلى العكس (فان قيل) لم لم يذكر الله اسم الكافر بعينه فان قلت للستر عليه (قلت) فلم لم يستر على آدم بل قال وعصى آدم ربه (الجواب) انه تعالى ذكر زلة آدم لكن بعد موته مقرونا بالتوبة ليكون لطفا لاولاده اخرج من الجنة بسبب الصغيرة فكيف يطمعون فى الدخول مع الكبيرة وايضا فان وصف تلك الزلة رفعة له فانه رجل لم يصدر عنه الا تلك الزلة الواحدة ثم تاب عنها مثل هذه التوبة ولنختم تفسير هذه السورة بالدعاء * الهنا هذه السورة فى ذكر المنافقين والسورة التى بعدها فى صفة محمد صلى الله عليه وسلم فنحن وان لم نصل فى الطاعة الى محمد عليه الصلاة والسلام والى اصحابه لم نصل فى الافعال القبيحة الى هؤلاء المنافقين فاعف عنا بفضلك يا ارحم الراحمين

(سورة الكوثر ثلاث آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(انا اعطيناك الكوثر) اعلم ان هذه السورة على اختصارها فيها لطائف (احداها) ان هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة وذلك لان فى السورة المتقدمة وصف الله تعالى المنافق بأمور أربعة (أولها) البخل وهو المراد من قوله يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين (والثانى) ترك الصلاة وهو المراد من قوله الذين هم عن صلاتهم ساهون (والثالث) المراآة فى الصلاة وهو المراد من قوله الذين هم يراؤون (والرابع) المنع من الزكاة وهو المراد من قوله ويمنعون الماعون فذكر فى هذه السورة فى مقابلة تلك الصفات الاربع صفات اربعة فذكر فى مقابلة البخل قوله انا أعطيناك الكوثر اى انا أعطيناك الكثير فأعط أنت الكثير ولا تبخل وذكر فى مقابلة الذين هم عن صلاتهم ساهون قوله فصل اى دم على الصلاة وذكر فى مقابلة الذين هم يراؤون قوله لربك اى ائت بالصلاة لرضا ربك لا لمرا آة الناس وذكر فى مقابلة ويمنعون الماعون قوله وانحر واراد به التصدق بلحم الاضاحى فاعتبر هذه المناسبة العجيبة ثم ختم السورة بقوله ان شانئك هو الابتر اى المنافق الذى يأتى بتلك الافعال القبيحة المذكورة فى تلك السورة سيموت ولا يبقى من دنياه اثر ولا خبر واما انت فيبقى لك فى الدنيا الذكر الجميل وفى الآخرة الثواب الجزيل (والوجه الثانى) فى لطائف هذه السورة أن السالكين الى الله لهم ثلاث درجات (اعلاها) ان يكونوا مستغرقين بقلوبهم وارواحهم فى نور جلال الله (وثانيها) ان يكونوا مشتغلين

ضميرهم ليتوسل بذلك الى بيان ان لهم قبائح أخر غير ما ذكر *عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الدين غفر له ان كان للزكاة مؤديا

(سورة الكوثر مكية وآيها) (ثلاث)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(انا اعطيناك) وقرئ انطيناك

بالطاعات والعبادات البدنيـة (وثالثها) ان يكونوا فى مقام منع النفس عن الانصباب الى اللذات المحسوسة والشهوات العاجلة فقوله انا اعطيناك الكوثر اشارة الى المقام الاول وهو كون روحه القدسية متميزة عن سائر الارواح البشرية بالكم والكيف اما بالكم فلأنها اكثر مقدمات واما بالكيف فلانها اسرع انتقالا من تلك المقدمات الى النتائج من سائر الارواح واما قوله تعالى فصل لربك فهو اشـارة الى المرتبة الثانية وقوله وانحر اشارة الى المرتبة الثالثة فان منع النفس عن اللذات العاجلة جار مجرى النحر والذبح ثم قال تعالى ان شانئك هو الابتر ومعناه ان النفس التى تدعوك الى طلب هذه المحسوسات والشهوات العاجلة انها دائرة فانية وانما الباقيات الصالحات خير عند ربك وهى السعادات الروحانية والمعارف الربانية التى هى باقية ابدية ولنشرع الآن فى التفسير قوله تعالى انا اعطيناك الكوثر اعلم ان فيه فوائد (الفائدة الاولى) ان هذه السورة كالتتمة لماقبلها من السور وكالاصل لمابعدها من السور اما انها كالتتمة لماقبلها من السور فلأن الله تعالى جعل سورة والضحى فى مدح محمد عليه السـلام وتفصيل احواله فذكر فى اول السورة ثلاثة اشياء تتعلق بنبوته (اولها) قوله تعالى ماودعك ربك وماقلى (وثانيها) قوله وللآخرة خير لك من الاولى (وثالثها) ولسوف يعطيك ربك فترضى ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة احوال من احواله عليه السـلام فيما يتعلق بالدنيا وهى قوله الم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى ثم ذكر فى سورة ألم نشرح انه شرفه بثلاثة اشياء (اولها) ألم نشرح لك صدرك (وثانيها) ووضعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك (وثالثها) ورفعنا لك ذكرك ثم انه تعالى شرفه فى سورة والتين بثلاثة انواع من التشريف (اولها) انه اقسم ببلده وهو قوله وهذا البلد الامين (وثانيها) انه اخبر عن خلاص امته عن النار وهو قوله الا الذين آمنوا (وثالثها) وصولهم الى الثواب وهو قوله فلهم اجر غير ممنون ثم شرفه فى سورة اقرأ بثلاثة انواع من التشريفات (اولها) اقرأ باسم ربك اى اقرأ القرآن على الخلق مستعينا باسم ربك (وثانيها) انه قهر خصمه بقوله فليدع ناديه سندع الزبانية (وثالثها) انه خصه بالقربة التامة وهو واسجد واقترب وشرفه فى سورة القدر بليلة القدر التى لها ثلاثة انواع من الفضيلة (اولها) كونها خيرا من ألف شهر (وثانيها) نزول الملائكة والروح فيها (وثالثها) كونها سلاما حتى مطلع الفجر وشرفه فى سورة لم يكن بأن شرف امته بثلاث تشريفات (اولها) انهم خير البرية (وثانيها) ان جزاءهم عند ربهم جنات (وثالثها) رضا الله عنهم وشرفه فى سورة اذا زلزلت بثلاث تشريفات (اولها) قوله يومئذ تحدث اخبارها وذلك يقتضى ان الارض تشهد يوم القيامة لامته بالطاعة والعبودية (والثانى) قوله يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم وذلك يدل على انه تعرض عليهم طاعاتهم فيحصل لهم الفرح والسرور (وثالثها) قوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومعرفة الله

(الكوثر) اى الخير المفرط الكثير من شرف النبوة الجامعة لخيرى الدارين والرياسة العامة المستتبعة لسعادة الدنيا والدين فوعل من الكثرة وقيل هو نهر فى الجنة وعن النبى عليه الصلاة والسلام انه قرأها فقال اتدرون ما الكوثر

لاشك انها اعظم من كل عظيم فلابد وان يصلوا الى ثوابها ثم شرفه فى سورة والعاديات بأن اقسم بخيل الغزاة من امته فوصف تلك الخيل بصفات ثلاثة والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا ثم شرف امته فى سورة القارعة بأمور ثلاثة (اولها) فن ثقلت موازينه (وثانيها) انهم فى عيشة راضية (وثالثها) انهم يرون اعداءهم فى نار حامية ثم شرفه فى سورة الهاكم بأن بين ان المعرضين عن دينه وشرعه يصيرون معذبين من ثلاثة اوجه (اولها) انهم يرون الجحيم (وثانيها) انهم يرونها عين اليقين (وثالثها) انهم يسئلون عن النعيم ثم شرف امته فى سورة والعصر بأمور ثلاثة (اولها) الايمان الا الذين آمنوا (وثانيها) وعملوا الصالحات (وثالثها) ارشاد الخلق الى الاعمال الصالحة وهو التواصى بالحق والتواصى بالصبر ثم شرفه فى سورة الهمزة بأن ذكر ان من همزه ولمزه فله ثلاثة انواع من العذاب (اولها) انه لاينتفع بدنياه البتة وهو قوله يحسب ان ماله اخلده كلا (وثانيها) انه ينبذ فى الحطمة (وثالثها) انه يغلق عليه تلك الابواب حتى لايبقى له رجاء الخروج وهو قوله انها عليهم مؤصدة ثم شرفه فى سورة الفيل بأن رد كيد اعدائه فى نحرهم من ثلاثة اوجه (اولها) جعل كيدهم فى تضليل (وثانيها) ارسل عليهم طيرا أبابيل (وثالثها) جعلهم كعصف مأكول ثم شرفه فى سورة قريش بأنه راعى مصلحة اسلافه من ثلاثة اوجه (اولها) جعلهم مؤتلفين متوافقين لايلاف قريش (وثانيها) اطعمهم من جوع (وثالثها) انه آمنهم من خوف وشرفه فى سورة الماعون بأن وصف المكذبين بدينه بثلاثة انواع من الصفات المذمومة (اولها) الدناءة واللؤم وهو قوله يدع اليتيم ولايحض على طعام المسكين (وثانيها) ترك تعظيم الخالق وهو قوله عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن (وثالثها) ترك انتفاع الخلق وهو قوله ويمنعون الماعون ثم انه سبحانه وتعالى لما شرفه فى هذه السور من هذه الوجوه العظيمة قال بعدها انا أعطيناك الكوثر اى انا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة فى السور المتقدمة التى كل واحدة منها اعظم من ملك الدنيا بحذا فيرها فاشتغل انت بعبادة هذا الرب وبارشاد عباده الى ماهو الاصلح لهم اما عبادة الرب فاما بالنفس وهو قوله فصل لربك واما بالمال وهو قوله وانحر واما ارشاد عباده الى ماهو الاصلح لهم فى دينهم ودنياهم فهو قوله ياأيها الكافرون لااعبد ماتعبدون فثبت ان هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور واما انها كالاصل لما بعدها فهو انه تعالى يأمره بعد هذه السورة بأن يكفر جميع اهل الدنيا بقوله ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون ومعلوم ان عسف الناس على مذاهبهم واديانهم اشد من عسفهم على ارواحهم واموالهم وذلك انهم يبذلون اموالهم وارواحهم فى نصرة اديانهم فلاجرم كان الطعن فى مذاهب الناس يثير من العداوة والغضب مالايثير سائر المطاعن فلما امره بأن يكفر جميع اهل الدنيا ويبطل اديانهم لزم ان يصير جميع اهل الدنيا فى غاية العداوة له وذلك مما يحترز عنه كل احد من الخلق فلا يكاد يقدم عليه وانظر الى موسى عليه السلام

انه نهر فى الجنة وعدنيه ربى فيه خير كثير وروى فى صفته انه احلى من العسل وأشد بياضا من اللبن وابرد من الثلج والين من الزبد حافتاه الزبرجد واوانيه من فضة عدد نجوم السماء وروى لايظمأ من شرب منه ابدا اول وارديه فقراء

كيف كان يخاف من فرعون وعسكره واما ههنا فأن محمدا لما كان مبعوثا الى جميع اهل الدنيا كان كل واحد من الخلق كفرعون بالنسبة اليه فدبر تعالى فى ازالة هذا الخوف الشديد تدبيرا لطيفا وهو انه قدم على تلك السورة هذه السورة فان قوله انا أعطيناك الكوثر يزيل عنه ذلك الخوف من وجوه (احدها) ان قوله انا أعطيناك الكوثر أى الخير الكثير فى الدنيا والدين فيكون ذلك وعدا من الله اياه بالنصرة والحفظ وهو كقوله يا أيها النبى حسبك الله وقوله والله يعصمك من الناس وقوله الا تنصروه فقد نصره الله ومن كان الله تعالى ضامنا لحفظه فانه لا يخشى احدا (وثانيها) انه تعالى لما قال انا أعطيناك الكوثر وهذا اللفظ يتناول خيرات الدنيا وخيرات الآخرة وان خيرات الدنيا ما كانت واصلة اليه حين كان بمكة والخلف فى كلام الله تعالى محال فوجب فى حكمة الله تعالى ابقاؤه فى دار الدنيا الى حيث يصل اليه تلك الخيرات فكان ذلك كالبشارة له والوعد بانهم لا يقتلونه ولا يقهرونه ولا يصل اليه مكرهم بل يصير امره كل يوم فى الازدياد والقوة (وثالثها) انه عليه السلام لما كفروا وزيف أديانهم ودعاهم الى الايمان اجتمعوا عنده وقالوا ان كنت تفعل هذا طلبا للمال فنعطيك من المال ما تصير به اغنى الناس وان كان مطلوبك الزوجة نزوجك أكرم نسائنا وان كان مطلوبك الرياسة فنحن نجعلك رئيسا على أنفسنا فقال الله تعالى انا أعطيناك الكوثر اى لما اعطاك خالق السموات والارض خيرات الدنيا والآخرة فلا تغتر بمالهم ومراعاتهم (ورابعها) ان قوله تعالى انا اعطيناك الكوثر يفيد ان الله تعالى تكلم معه لا بواسطة فهذا يقوم مقام قوله وكلم الله موسى تكليما بل هذا أشرف لان المولى اذا شافه عبده بالتزام التربية والاحسان كان ذلك أعلى مما اذا شافهه فى غير هذا المعنى بل يفيد قوة فى القلب ويزيل الجبن عن النفس فثبت أن مخاطبة الله اياه بقوله انا اعطيناك الكوثر مما يزيل الخوف عن القلب والجبن عن النفس فقدم هذه السورة على سورة قل يا أيها الكافرون حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق والاقدام على تكفير جميع العالم واظهار البراءة عن معبودهم فلما امتثلت امرى فانظر كيف أنجزت لك الوعد واعطيتك كثرة الاتباع والاشياع ان اهل الدنيا يدخلون فى دين الله افواجا ثم انه لما تم أمر الدعوة واظهار الشريعة شرع فى بيان ما يتعلق باحوال القلب والباطن وذلك لان الطالب اما ان يكون طلبه مقصورا على الدنيا أو يكون طالبا للآخرة أما طالب الدنيا فليس له الا الخسار والذل والهوان ثم يكون مصيره الى النار وهو المراد من سورة تبت وأما طالب الآخرة فأعظم احواله أن تصير نفسه كالمرآة التى ينتقش فيها صور الموجودات وقد ثبت فى العلوم العقلية ان طريق الخلق فى معرفة الصانع على وجهين منهم من عرف الصانع ثم توسل بمعرفته الى معرفة مخلوقاته وهذا هو الطريق الاشرف الاعلى ومنهم من عكس وهو طريق الجمهور ثم انه سبحانه ختم كتابه الكريم بتلك الطريقة التى هى اشرف الطريقين فبدأ بذكر صفات الله وشرح جلاله

المهاجرين الدنس والثياب الشعث الرؤس الذين لا يزوجون المنعمات ولا تفتح لهم ابواب السدد يموت احدهم وحاجته تتلجلج فى صدره لو اقسم على الله لأبره وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه فسر

وهو سورة قل هو الله احد ثم اتبعه بذكر مراتب مخلوقاته في سورة قل اعوذ برب الفلق ثم ختم الامر بذكر مراتب النفس الانسانية وعند ذلك ختم الكتاب وهذه الجملة انما يتضح تفصيلها عند تفسير هذه السورة على التفصيل فسبحان من ارشد العقول الى معرفة هذه الاسرار الشريفة المودعة في كتابه الكريم (الفائدة الثانية) في قوله انا اعطيناك الكوثر هي ان كلمة انا تارة يراد بها الجمع وتارة يراد بها التعظيم اما الاول فقد دل الدليل على ان الاله واحد فلا يمكن حمله على الجمع الا اذا اريد ان هذا العطية مما سعى في تحصيلها الملائكة وجبريل وميكائيل والانبياء المتقدمون حين سأل ابراهيم ارسالك فقال ربنا وابعث فيهم رسولا منهم وقال موسى رب اجعلني من امة احمد وهو المراد من قوله وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وبشر بك المسيح في قوله ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه احمد (واما الثاني) وهو ان يكون ذلك محمولا على التعظيم ففيه تنبيه على عظمة العطية لان الواهب هو جبار السموات والارض والموهوب منه هو المشار اليه بكاف الخطاب في قوله تعالى انا أعطيناك والهبة هي الشيء المسمى بالكوثر وهو ما يفيد المبالغة في الكثرة ولما أشعر اللفظ بعظم الواهب والموهوب منه والموهوب فيالها من نعمة ما اعظمها وما أجلها ويا له من تشريف ما اعلاه (الفائدة الثالثة) ان الهدية وان كانت قليلة لكنها بسبب كونها واصلة من المهدى العظيم تصير عظيمة ولذلك فان الملك العظيم اذا رمى تفاحة لبعض عبيده على سبيل الاكرام يعد ذلك اكراما عظيما لا لان لذة الهدية في نفسها عظيمة بل لان صدورها من المهدى العظيم يوجب كونها عظيمة فههنا الكوثر وان كان في نفسه في غاية الكثرة لكنه بسبب صدوره من ملك الخلائق يزداد عظمة وكمالا (الفائدة الرابعة) انه لما قال اعطيناك قرن به قرينة دالة على انه لا يسترجعها وذلك لان من مذهب أبي حنيفة انه يجوز للاجنبي أن يسترجع موهوبه فان أخذ عوضا وان قل لم يجز له ذلك الرجوع لان من وهب شيئا يساوي ألف دينار انسانا ثم طلب منه مشطا يساوي فلسا فأعطاه سقط حق الرجوع فههنا لما قال انا اعطيناك الكوثر طلب منه الصلاة والنحر وفائدته اسقاط حق الرجوع (الفائدة الخامسة) انه بنى الفعل على المبتدأ وذلك يفيد التأكيد والدليل عليه انك لما ذكرت الاسم المحدث عنه عرف العقل انه يخبر عنه بأمر فيصير مشتاقا الى معرفة انه بماذا يخبر عنه فاذا ذكر ذلك الخبر قبله قبول العاشق لمعشوقه فيكون ذلك ابلغ في التحقيق ونفي الشبهة ومن ههنا تعرف الفخامة في قوله فانها لا تعمى الابصار فأنه اكثر فخامة مما لو قال فأن الابصار لا تعمى ومما يحقق قولنا قول الملك العظيم لمن يعده ويضمن له انا اعطيك انا اكفيك انا اقوم بأمرك وذلك اذا كان الموعود به امرا عظيما فلما تقع المسامحة به فعظمه يورث الشك في الوفاء به فاذا اسند الى المتكفل العظيم فحينئذ يزول ذلك الشك وهذه الآية من هذا الباب لان الكوثر شيء عظيم قلما تقع المسامحة به فلما قدم المبتدأ وهو قوله انا صار ذلك الاسناد مزيلا لذلك الشك ودافعا لتلك الشبهة (الفائدة

(السادسة)

الكوثر بالخير الكثير فقال له سعد بن جبير فان ناسا يقولون هو نهر في الجنة فقال هو من الخير الكثير وقيل هو حوض فيها وقيل هو اولاده واتباعه او علماء امته او القرآن الحاوي لخير الدنيا والدين والفاء في قوله تعالى

السادسة) انه صدر الجملة بحرف التأكيد الجارى مجرى القسم وكلام الصادق مصون عن الخلف فكيف اذا بالغ فى التأكيد (الفائدة السابعة) قال اعطيناك ولم يقل سنعطيك لان قوله اعطينا يدل على ان هذا الاعطاء كان حاصلا فى الماضى وهذا فيه انواع من الفوائد (احدها) ان من كان فى الزمان الماضى أبدا عزيزا مرعى الجانب مقضى الحاجة اشرف ممن سيصير كذلك ولهذا قال عليه السلام كنت نبيا وآدم بين الماء والطين (وثانيها) انها اشارة الى ان حكم الله بالاسعاد والاشقاء والاغناء والافقار ليس امرا يحدث الآن بل كان حاصلا فى الازل (وثالثها)كأنه يقول انا قدهيأنا اسباب سعادتك قبل دخولك فى الوجود فكيف نهمل امرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية (ورابعها)كأنه تعالى يقول نحن مااخترناك ومافضلناك لاجل طاعتك والا كان يجب ان لانعطيك الا بعد اقدامك على الطاعة بل انما اخترناك بمجرد الفضل والاحسان منا اليك من غير موجب وهو اشارة الى قوله عليه الصلاة والسلام قبل من قبل لا لعلة ورد من رد لا لعلة (الفائدة الثامنة) قال اعطيناك ولم يقل اعطينا الرسول اوالنبى اوالعالم او المطيع لانه لو قال ذلك لاشعر ان تلك العطية وقعت معللة بذلك الوصف فلما قال اعطيناك علم ان تلك العطية غير معللة بعلة اصلا بل هى محض الاختيار والمشيئة كما قال نحن قسمنا الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس (الفائدة التاسعة) قال اولا انا اعطيناك ثم قال ثانيا فصل لربك وانحر وهذا يدل على ان اعطاءه للتوفيق والارشاد سابق على طاعاتنا وكيف لايكون كذلك واعطاؤه ايانا صفته وطاعتنا له صفتنا وصفة الخلق لاتكون مؤثرة فى صفة الخالق انما المؤثر هو صفة الخالق فى صفة الخلق ولهذا نقل عن الواسطى انه قال لا اعبد ربا يرضيه طاعتى ويسخطه معصيتى ومعناه ان رضاه وسخطه قديمان وطاعتى ومعصيتى محدثتان والمحدث لااثر له فى القديم بل رضاه عن العبد هو الذى حمله على طاعته فيما لايزال وكذا القول فى السخط والمعصية (الفائدة العاشرة) قال اعطيناك الكوثر ولم يقل آتيناك الكوثر والسبب فيه امران (الاول) ان الايتاء يحتمل ان يكون واجبا وان يكون تفضلا واما الاعطاء فانه بالتفضل اشبه فقوله انا اعطيناك الكوثر يعنى هذه الخيرات الكثيرة وهى الاسلام والقرآن والنبوة والذكر الجميل فى الدنيا والآخرة محض التفضل منا اليك وليس منه شىء على سبيل الاستحقاق والوجوب وفيه بشارة من وجهين (احدهما) ان الكريم اذا شرع فى التربية على سبيل التفضل فالظاهر أنه لايبطلها بل كان كل يوم يزيد فيها (الثانى) انما يكون سبب الاستحقاق فانه يتقدر بقدر الاستحقاق وفعل العبد متناه فيكون الاستحقاق الحاصل بسببه متناهيا اما التفضل فانه نتيجة كرم الله وكرم الله غير متناه فيكون تفضله ايضا غير متناه فلما دل قوله اعطيناك على انه تفضل لا استحقاق اشعر ذلك بالدوام والتزايد أبدا فان قيل أليس قال آتيناك سبعا من المثانى قلنا الجواب من وجهين (الاول) ان الاعطاء يوجب التمليك

والملك سبب الاختصاص والدليل عليه انه لما قال سليمان هب لى ملكا فقال هذا عطاؤنا فامنن او امسك ولهذا السبب من حمل الكوثر على الحوض قال الامة تكون اضيافا له اما الايتاء فانه لا يفيد الملك فلهذا قال فى القرآن آتيناك فأنه لا يجوز للنبى ان يكتم شيئا منه (الثانى) ان الشركة فى القرآن شركة فى العلوم ولا عيب فيها اما الشركة فى النهر فهى شركة فى الاعيان وهى عيب (الوجه الثانى) فى بيان ان الاعطاء اليق بهذا المقام من الايتاء هو ان الاعطاء يستعمل فى القليل والكثير قال الله تعالى واعطى قليلا واكدى اما الايتاء فلا يستعمل الا فى الشئ العظيم قال الله تعالى وآتاه الله الملك ولقد آتينا داود منا فضلا والآتى السيل المنصب اذا ثبت هذا فقوله انا اعطيناك الكوثر يفيد تعظيم حال محمد صلى الله عليه وسلم من وجوه (احدها) يعنى هذا الحوض كالشئ القليل الحقير بالنسبة الى ما هو مدخر لك من الدرجات العالية والمراتب الشريفة فهو يتضمن البشارة بأشياء هى اعظم من هذا المذكور (وثانيها) ان الكوثر اشارة الى الماء كأنه تعالى يقول الماء فى الدنيا دون الطعام فاذا كان نعيم الماء كوثرا فكيف سائر النعيم (وثالثها) ان نعيم الماء اعطاء ونعيم الجنة ايتاء (ورابعها) كأنه تعالى يقول هذا الذى اعطيتك وان كان كوثرا لكنه فى حقك اعطاء لا ايتاء لانه دون حقك وفى العادة ان المهدى له اذا كان عظيما فالهدية وان كانت عظيمة الا انه يقال انها حقيرة اى هى حقيرة بالنسبة الى عظمة المهدى له فكذا ههنا (وخامسها) ان نقول انما قال فيما اعطاه من الكوثر اعطيناك لانه دنيا والقرآن ايتاء لانه دين (وسادسها) كأنه يقول له اجمع ما نلت منى عطية وان كانت كوثرا الا ان الاعظم من ذلك الكوثر ان تبقى مظفرا وخصمك ابتر فانا اعطيناك بالتقدمة هذا الكوثر اما الذكر الباقى والظفر على العدو فلا يحسن اعطاؤه الا بعد التقدمة بطاعة تحصل منك فصل وانحر أى فاعبدلى وسل الظفر بعد العبادة فانى اوجبت على كرمى ان بعد كل فريضة دعوة مستجابة كذا روى فى الحديث المسند فحينئذ استجيب فيصير خصمك ابتر وهو الايتاء فهذا ما يخطر بالبال فى تفسير قوله تعالى انا اعطيناك * اما الكوثر فهو فى اللغة فوعل من الكثرة وهو المفرط فى الكثرة قيل لاعرابية رجع ابنها من السفر بم آب ابنك قالت آب بكوثر اى بالعدد الكثير ويقال للرجل الكثير العطاء كوثر قال الكميت

وانت كثير يا ابن مروان طيب * وكان ابوك ابن الفضائل كوثرا

ويقال للغبار اذا سطع وكثر كوثر هذا معنى الكوثر فى اللغة واختلف المفسرون فيه على وجوه (الاول) وهو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف انه نهر فى الجنة روى انس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال رأيت نهرا فى الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فضربت بيدى الى مجرى الماء فاذا انا بمسك اذفر فقلت ما هذا قيل الكوثر الذى أعطاك الله وفى رواية انس اشد بياضا من اللبن واحلى من العسل فيه طيور خضر لها اعناق

(كاعناق)

كاعناق البخت من اكل من ذلك الطير وشرب من ذلك الماء فاز بالرضوان ولعله انما سمى ذلك النهر كوثرا اما لانه اكثر انهار الجنة ماء وخيرا اولانه انفجر منه انهار الجنة كما روى انه مافي الجنة بستان الا وفيه من الكوثر نهر جار اولكثرة الذين يشربون منها او لكثرة مافيها من المنافع على ماقال عليه السلام انه نهر وعدنيه ربى فيه خير كثير (القول الثانى) انه حوض والاخبار فيه مشهورة ووجه التوفيق بين هذا القول والقول الاول ان يقال لعل النهر ينصب فى الحوض اولعل الانهار انما تسيل من ذلك الحوض فيكون ذلك الحوض كالمنبع (القول الثالث) الكوثر اولاده قالوا لان هذه السورة انما نزلت ردا على من عابه عليه السلام بعدم الاولاد فالمعنى انه يعطيه نسلا يبقون على مر الزمان فانظر كم قتل من اهل البيت ثم العالم ممتلئ منهم ولم يبق من بنى امية فى الدنيا احد يعبأ به ثم انظر كم كان فيهم من الاكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وامثالهم (القول الرابع) الكوثر علماء امته وهو لعمرى الخير الكثير لانهم كانبياء بنى اسرائيل وهم يحيون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشرون آثار دينه واعلام شرعه ووجه التشبيه ان الانبياء كانوا متفقين على اصول معرفة الله مختلفين فى الشريعة رحمة على الخلق ليصل كل احد الى ماهو صلاحه كذا علماء امته متفقون بأسرهم على اصول شرعه لكنهم مختلفون فى فروع الشريعة رحمة على الخلق ثم الفضيلة من وجهين (احدهما) انه يروى انه يجاء يوم القيامة بكل نبى ويتبعه امته فربما يجئ الرسول ومعه الرجل والرجلان ويجاء بكل عالم من علماء امته ومعه الالوف الكثيرة فيجتمعون عند الرسول فربما يزيد عدد متبعى بعض العلماء على عدد متبعى الف من الانبياء (الوجه الثانى) انهم كانوا مصيبين لاتباعهم النصوص المأخوذة من الوحى وعلماء هذه الامة يكونون مصيبين مع كد الاستنباط والاجتهاد اوعلى قول البعض ان كان بعضهم مخطئا لكن المخطئ يكون ايضا مأجورا (القول الخامس) الكوثر هو النبوة ولاشك انها الخير الكثير لانها المنزلة التى هى ثانية الربوبية ولهذا قال من يطع الرسول فقد اطاع الله وهو شطر الايمان بل هى كالغصن فى معرفة الله تعالى لان معرفة النبوة لابد وان يتقدمها معرفة ذات الله وعلمه وقدرته وحكمته ثم اذا حصلت معرفة النبوة فحينئذ يستفاد منها معرفة بقية الصفات كالسمع والبصر والصفات الخبرية والوحدانية على قول بعضهم ثم لرسولنا الحظ الاوفر من هذه المنقبة لانه المذكور قبل سائر الانبياء والمبعوث بعدهم ثم هو مبعوث الى الثقلين وهو الذى يحشر قبل كل الانبياء ولايجوز ورود الشرع على نسخه وفضائله اكثر من ان تعد وتحصى *ولنذكر ههنا قليلا منها فنقول ان كتاب آدم عليه السلام كان كلمات على ماقال تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات وكتاب ابراهيم ايضا كان كلمات على ماقال واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات وكتاب موسى كان صحفا كما قال صحف ابراهيم وموسى اما كتاب محمد عليه السلام فانه

قف على معجزاته صلى الله عليه وسلم

هو الكتاب المهين على الكل قال ومهيمنا عليه وايضا فان آدم عليه السلام انما تحدى
بالاسماء المنثورة فقال انبؤنى باسماء هؤلاء ومحمد عليه الصلاة والسلام انما تحدى
بالمنظوم قل لئن اجتمعت الانس والجن واما نوح عليه السلام فان الله اكرمه بأن امسك
سفينته على الماء وفعل فى محمد صلى الله عليه وسلم ماهو اعظم منه روى ان النبى عليه الصلاة
والسلام كان على شط ماء ومعه عكرمة بن ابى جهل فقال لئن كنت صادقا فادع ذلك
الحجر الذى هو فى الجانب الآخر فليسبح ولا يغرق فأشار الرسول اليه فانقلع الحجر الذى
اشار اليه من مكانه وسبح حتى صار بين يدى الرسول عليه السلام وسلم عليه وشهد له بالرسالة
فقال له النبى صلى الله عليه وسلم يكفيك هذا قال حتى يرجع الى مكانه فأمره النبى فرجع
الى مكانه واكرم ابراهيم فجعل النار عليه بردا وسلاما وفعل فى حق محمد اعظم من ذلك
*عن محمد بن حاطب قال كنت طفلا فانصب القدر على من النار فاحترق جلدى كله
فحملتنى امى الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت هذا ابن حاطب احترق كما ترى فتفل
رسول الله صلى الله عليه وسلم على جلدى ومسح بيده على المحترق منه وقال اذهب الباس
رب الناس فصرت صحيحا لا بأس بى* واكرم موسى ففلق له البحر فى الارض واكرم محمدا
ففلق له القمر فوق السماء ثم انظر الى فرق مابين السماء والارض وفجر له الماء من الحجر
وفجر لمحمد اصابعه عيونا* واكرم موسى بأن ظلل عليه الغمام وكذا اكرم محمدا بذلك
فكان الغمام يظله* واكرم موسى باليد البيضاء واكرم محمدا بأعظم من ذلك وهو القرآن
العظيم الذى وصل نوره الى الشرق والغرب وقلب الله عصا موسى ثعبانا ولما اراد ابو جهل
ان يرميه بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين فانصرف مرعوبا* وسبحت الجبال مع داود
وسبحت الاحجار فى يده ويد اصحابه* وكان داود اذا مسح الحديد لان وكان هو لما مسح
الشاة الجرباء درت* واكرم داود بالطير المحشورة ومحمدا بالبراق* واكرم عيسى عليه السلام
بأحياء الموتى واكرمه بجنس ذلك حين اضافه اليهود بالشاة المسمومة فلما وضع اللقمة
فى فمه اخبرته وابرأ الاكمه والابرص* روى ان امرأة معاذ بن عفراء اتته وكانت برصاء
وشكت ذلك الى الرسول صلى الله عليه وسلم فمسح عليها رسول الله بغصن فأذهب الله
البرص وحين سقطت حدقة الرجل يوم احد فرفعها وجاء بها الى الرسول صلى الله عليه
وسلم فردها الى مكانها* وكان عيسى يعرف ما يخفيه الناس فى بيوتهم والرسول عرف
ما اخفاه عمه مع ام الفضل فاخبره فاسلم العباس لذلك * واما سليمان فأن الله تعالى رد له
الشمس مرة وفعل ذلك ايضا للرسول حين نام ورأسه فى حجر على فانتبه وقد غربت الشمس
فردها حتى صلى وردها مرة اخرى لعلى فصلى العصر فى وقته* وعلم سليمان منطق الطير
وفعل ذلك فى حق محمد* روى ان طيرا فجع بولده فجعل يرفرف على رأسه ويكلمه فقال ايكم
فجع هذه بولدها فقال رجل انا فقال اردد اليها ولدها* وكلام الذئب معه مشهور* واكرم
سليمان بمسيره غدوة شهرا واكرمه بالمسير الى بيت المقدس فى ساعة وكان حماره يعفور

(يرسله)

يرسله الى من يريد فيجئ به وقدشكوا اليه من ناقة انها اغيلت وانهم لايقدرون عليها فذهب اليها فلمارأته خضعت له وارسل معاذا الى بعض النواحي فلماوصل الى المفازة فاذا اسد جاثم فهاله ذلك ولم يستجران يرجع فتقدم وقال انى رسول رسول الله فتبصبص *و كما انقاد الجن لسليمان فكذا انقادوا لمحمد عليه الصلاة والسلام وحين جاء الاعرابي بالضب وقال لاأومن بك حتى يؤمن بك هذا الضب فتكلم الضب معترفا برسالته *وحين كفل الظبية حين ارسلها الاعرابي رجعت تعدو حتى اخرجته من الكفالة *وحنت الحنانة لفراقه *وحين لسعت الحية عقب الصديق في الغار قالت كنت مشتاقة اليه منذ كذا سنين فلم حجبتني عنه *واطعم الخلق الكثير من الطعام القليل ومعجزاته اكثر من ان تحصى وتعد فلهذا قدمه الله على الذين اصطفاهم فقال واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح فلما كانت رسالته كذلك جازان يسميها الله تعالى كوثرا فقال انا اعطيناك الكوثر (القول السادس) الكوثر هو القرآن وفضائله لاتحصى ولوان مافى الارض من شجرة اقلام قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي (القول السابع) الكوثر الاسلام وهو لعمرى الخير الكثير فأن به يحصل خير الدنيا والآخرة وبفواته يفوت خير الدنيا وخير الآخرة وكيف لا والاسلام عبارة عن المعرفة اومالابد فيه من المعرفة قال ومن يؤت الحكمة فقداوتى خيرا كثيرا واذا كان الاسلام خيرا كثيرا فهو الكوثر (فان قيل) لم خصه بالاسلام مع ان نعمه عمت الكل (قلنا) لان الاسلام وصل منه الى غيره فكان عليه السلام كالاصل فيه (القول الثامن) الكوثر كثرة الاتباع والاشياع ولاشك ان له من الاتباع مالايحصيهم الاالله وروى انه عليه الصلاة والسلام قال انادعوة خليل الله ابراهيم وانابشرى عيسى وانامقبول الشفاعة يوم القيامة فبينااكون مع الانبياء اذ تظهر لنا امة من الناس فنبتدرهم بابصارنا مامنا من نبي الا وهو يرجوان تكون امته فاذاهم غر محجلون من آثار الوضوء فأقول امتي ورب الكعبة فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يظهر لنا مثلا ماظهر اولا فنبتدرهم بابصارنا مامن نبي الاويرجوان تكون امته فاذاهم غر محجلون من آثار الوضوء فأقول أمتي ورب الكعبة فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يرفع لنا ثلاثة امثال ماقد رفع فنبتدرهم وذكر كما ذكر في المرة الاولى والثانية ثم قال ليدخلن ثلاث فرق من امتي الجنة قبل ان يدخلها احد من الناس ولقد قال عليه الصلاة والسلام تناكحوا تناسلوا تكثروا فانى اباهى بكم الامم يوم القيامة ولو بالسقط فاذا كان يباهى بمن لم يبلغ حد التكليف فكيف بمثل هذا الجم الغفير فلاجرم حسن منه تعالى ان يذكره هذه النعمة الجسيمة فقال انا اعطيناك الكوثر (القول التاسع) الكوثر الفضائل الكثيرة التى فيه فانه بأتفاق الامة افضل من جميع الانبياء قال المفضل بن سلمة يقال رجل كوثر اذا كان سخيا كثير الخير وفى صحاح اللغة الكوثر السيد الكثير الخير فلما رزق الله تعالى محمدا هذه

الفضائل العظيمة حسن منه تعالى ان يذكره تلك النعمة الجسيمة فيقول انا اعطيناك الكوثر (القول العاشر) الكوثر رفعة الذكر وقدم تفسيره فى قوله ورفعنا لك ذكرك (القول الحادى عشر) انه العلم قالوا وحمل الكوثر على هذا اولى لوجوه (احدها) ان العلم هو الخير الكثير قال وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما وامره بطلب العلم فقال وقل رب زدنى علما وسمى الحكمة خيرا كثيرا فقال ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا (وثانيها) انا اما ان نحمل الكوثر على نعم الآخرة او على نعم الدنيا والاول غير جائز لانه قال اعطيناه ونعم الجنة سيعطيها الا انه اعطاها فوجب حمل الكوثر على ما وصل اليه فى الدنيا واشرف الامور الواصلة اليه فى الدنيا هو العلم والنبوة داخلة فى العلم فوجب حمل اللفظ على العلم (وثالثها) انه لما قال اعطيناك الكوثر قال عقيبه فصل لربك وانحر والشئ الذى يكون متقدما على العبادة هو المعرفة ولذلك قال فى سورة النحل ان انذروا انه لا اله الا انا فاتقون وقال فى طه اننى انا الله لا اله الا انا فاعبدنى فقدم فى السورتين المعرفة على العبادة ولان فاء التعقيب فى قوله فصل تدل على ان اعطاء الكوثر كالموجب لهذه العبادة ومعلوم ان الموجب للعبادة ليس الا العلم (القول الثانى عشر) ان الكوثر هو الخلق الحسن قالوا الانتفاع بالخلق الحسن عام ينتفع به العالم والجاهل والبهيمة والعاقل فاما الانتفاع بالعلم فهو مختص بالعقلاء فكان نفع الخلق الحسن اعم فوجب حمل الكوثر عليه ولقد كان عليه السلام كذلك كان للاجانب كالوالد يحل عقدهم ويكفى مهمهم وبلغ حسن خلقه الى انهم لما كسروا سنه قال اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون (القول الثالث عشر) الكوثر هو المقام المحمود الذى هو الشفاعة فقال فى الدنيا وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وقال فى الآخرة شفاعتى لاهل الكبائر من امتى وعن ابى هريرة قال عليه السلام ان لكل نبى دعوة مستجابة وانى خبأت دعوتى شفاعة لامتى يوم القيامة (القول الرابع عشر) ان المراد من الكوثر هو هذه السورة قال وذلك لانها مع قصرها وافية بجميع منافع الدنيا والآخرة وذلك لانها مشتملة على المعجز من وجوه (اولها) انا اذا حملنا الكوثر على كثرة الاتباع او على كثرة الاولاد وعدم انقطاع النسل كان هذا اخبارا عن الغيب وقد وقع مطابقا له فكان معجزا (وثانيها) انه قال فصل لربك وانحر وهو اشارة الى زوال الفقر حتى يقدر على النحر وقد وقع فيكون هذا ايضا اخبارا عن الغيب (وثالثها) قوله تعالى ان شانئك هو الابتر وكان الامر على ما اخبر فكان معجزا (ورابعها) انهم عجزوا عن معارضتها مع صغرها فثبت ان وجه الاعجاز فى كمال القرآن انما تقرر بها لانهم لما عجزوا عن معارضتها مع صغرها فبأن يعجزوا عن معارضة كل القرآن اولى ولما ظهر وجه الاعجاز فيها من هذه الوجوه فقد تقررت النبوة واذا تقررت النبوة فقد تقرر التوحيد ومعرفة الصانع وتقرر الدين والاسلام وتقرر ان القرآن كلام الله واذا تقررت هذه الاشياء تقررت جميع خيرات الدنيا والآخرة فهذه السورة جارية

(مجرى)

مجرى النكتة المختصرة القوية الوافية باثبات جميع المقاصد فكانت صغيرة فى الصورة كبيرة فى المعنى ثم لها خاصية ليست لغيرها وهى انها ثلاث آيات وقد بينا ان كل واحدة منها معجز فهى بكل واحدة من آياتها معجز وبمجموعها معجز وهذه الخاصية لاتوجد فى سائر السور فيحتمل ان يكون المراد من الكوثر هو هذه السورة (القول الخامس عشر) ان المراد من الكوثر جميع نعم الله على محمد وهو المنقول عن ابن عباس لان لفظ الكوثر يتناول الكثرة الكثيرة فليس حمل الآية على بعض هذه النعم اولى من حملها على الباقى فوجب حملها على الكل روى ان سعيد بن جبير لما روى هذا القول عن ابن عباس قال له بعضهم ان ناسا يزعمون انه نهر فى الجنة فقال سعيد النهر الذى فى الجنة من الخير الكثير الذى اعطاه الله اياه وقال بعض العلماء ظاهر قوله انا اعطيناك الكوثر يقتضى انه تعالى قد اعطاه ذلك الكوثر فيجب ان يكون الاقرب حمله على ما آتاه الله تعالى من النبوة والقرآن والذكر الحكيم والنصرة على الاعداء واما الحوض وسائر ما أعدله من الثواب فهو وان جاز أن يقال انه داخل فيه لان ماثبت بحكم وعدالله فهو كالواقع الا ان الحقيقة ماقدمناه لان ذلك وان اعدله فلا يصح ان يقال على الحقيقة انه اعطاه فى حال نزول هذه السورة بمكة ويمكن ان يجاب عنه بأن من اقر لولده الصغير بضيعة له يصح ان يقال انه اعطاه تلك الضيعة مع ان الصبى فى تلك الحال لايكون اهلا للتصرف والله تعالى اعلم ❊قوله تعالى (فصل لربك وانحر) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله فصل وجوه (الاول) ان المراد هو الامر بالصلاة فان قيل اللائق عند النعمة الشكر فلم قال فصل ولم يقل فاشكر (الجواب) من وجوه (الاول) ان الشكر عبارة عن التعظيم وله ثلاثة اركان (احدها) يتعلق بالقلب وهو ان يعلم ان تلك النعمة منه لامن غيره (والثانى) باللسان وهو ان يمدحه (والثالث) بالعمل وهو ان يخدمه ويتواضع له والصلاة مشتملة على هذه المعانى وعلى ماهو ازيد منها فالامر بالصلاة امر بالشكر زيادة فكان الامر بالصلاة احسن (وثانيها) انه لو قال فاشكر لكان ذلك يوهم انه ما كان شاكرا لكنه كان من اول امره عارفا بربه مطيعا له شاكرا لنعمه اما الصلاة فانه انما عرفها بالوحى قال ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان (الثالث) انه فى اول ما امره بالصلاة قال محمد عليه الصلاة والسلام كيف اصلى ولست على الوضوء فقال الله تعالى انا اعطيناك الكوثر ثم ضرب جبريل بجناحه على الارض فنبع ماء الكوثر فتوضأ فقيل له عند ذلك فصل فأما اذا حملنا الكوثر على الرسالة فكأنه قال اعطيتك الرسالة لتأمر نفسك وسائر الخلق بالطاعات واشرفها الصلاة فصل لربك (القول الثانى) فصل لربك اى فاشكر لربك وهو قول مجاهد وعكرمة وعلى هذا القول ذكروا فى فائدة الفاء فى قوله فصل وجوها (احدها) التنبيه على ان شكر النعمة يجب على الفور لا على التراخى (وثانيها) ان المراد من فاء التعقيب ههنا الاشارة الى ماقرره بقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون

(فصل لربك وانحر) لترتيب ما بعدها على ماقبلها فان اعطاءه تعالى اياه عليه السلام ماذكر من العطية التى لم يعطها ولن يعطيها احدا من العالمين مستوجب للمأموربه اى استيجاب اى فدم على الصلاة لربك الذى افاض عليك هذه النعمة الجليلة التى لايضاهيها نعمة خالصا لوجهه خلاف الساهين عنها المرائين فيها اداء لحقوق شكرها فان الصلاة جامعة لجميع اقسام الشكر (وانحر) البدن التى هى خيار اموال العرب باسمه تعالى وتصدق على المحاويج خلافا لمن يدعهم ويمنع عنهم الماعون وعن عطية هى صلاة الفجر بجمع والنحر بمنى وقيل صلاة العيد والتضحية وقيل هى جنس الصلاة والنحر وضع اليمين على الشمال وقيل هو ان يرفع يديه فى التكبير الى نحره هو المروى عن النبى عليه الصلاة والسلام وعن ابن عباس رضى الله عنهما استقبل القبلة بنحرك وهو قول الفرا والكلبى وابى الاحواص

ثم انه خص محمدا صلى الله عليه وسلم في هذا الباب بمزيد مبالغة وهو قوله واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ولانه قال له فاذا فرغت فانصب اى فعليك بأخرى عقيب الاولى فكيف بعد وصول نعمتى اليك الايجب عليك ان تشرع فى الشكر عقيب ذلك (القول الثالث) فصل اى فادع الله لان الصلاة هى الدعاء وفائدة الفاء على هذا التقدير كأنه تعالى يقول قبل سؤالك ودعائك مابخلنا عليك بالكوثر فكيف بعد سؤلك لكن سل تعطه واشفع تشفع وذلك لانه كان أبدا فى هم امته واعلم ان القول الاول اولى لانه اقرب الى عرف الشرع (المسئلة الثانية) فى قوله وانحر قولان (الاول) وهو قول عامة المفسرين ان المراد هو نحر البدن (والقول الثانى) ان المراد بقوله وانحر فعل يتعلق بالصلاة اما قبلها اوفيها او بعدها ثم ذكروا فيه وجوها (احدها) قال الفراء معناها استقبل القبلة (وثانيها) روى الاصبغ بن نباتة عن على عليه السلام قال لما نزلت هذه السورة قال النبى عليه الصلاة والسلام لجبريل ماهذه النحيرة التى امرنى بها ربى قال ليست بنحيرة ولكنه يأمرك اذا تحرمت للصلاة ان ترفع يديك اذا كبرت واذا ركعت واذا رفعت رأسك من الركوع واذا سجدت فأنه صلاتنا وصلاة الملائكة الذين فى السموات السبع وان لكل شئ زينة وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة (وثالثها) روى عن على بن ابى طالب انه فسر هذا النحر بوضع اليدين على النحر فى الصلاة وقال رفع اليدين قبل الصلاة عادة المستجير العائذ ووضعها على النحر عادة الخاضع الخاشع (ورابعها) قال عطاء معناه اقعد بين السجدتين حتى يبدو نحرك (وخامسها) روى عن الضحاك وسليمان التيمى انهما قالا النحر معناه ارفع يديك عقيب الدعاء الى نحرك قال الواحدى واصل هذه الاقوال كلها من النحر الذى هو الصدر يقال لمذبح البعير النحر لان منحره فى صدره حيث يبدو الحلقوم من اعلى الصدر فمعنى النحر فى هذا الموضع هو اصابة النحر كما يقال رأسه وبطنه اذا اصاب ذلك منه واما قول الفراء انه عبارة عن استقبال القبلة فقال ابن الاعرابى النحر انتصاب الرجل فى الصلاة بازاء المحراب وهو ان ينصب نحره بازاء القبلة ولا يلتفت يمينا ولا شمالا وقال الفراء منازلهم تتناحر أى تتقابل وأنشد

اباحكم هل انت عم مجالد * وسيد اهل الابطح المتناحر

والنكتة المعنوية فيه كأنه تعالى يقول الكعبة بيتى وهو قبلة صلاتك وقلبك قبلة رحمتى ونظر عنايتى فلتكن القبلتان متناحرتين قال الاكثرون حمله على نحر البدن اولى لوجوه (احدها) هو أن الله تعالى كلما ذكر الصلاة فى كتابه ذكر الزكاة بعدها (وثانيها) ان القوم كانوا يصلون وينحرون للاوثان فقيل له فصل وانحر لربك (وثالثها) ان هذه الاشياء آداب الصلاة وأبعاضها فكانت داخلة تحت قوله فصل لربك فوجب ان يكون المراد من النحر غيرها لانه يبعد ان يعطف بعض الشئ على جميعه (ورابعها) ان قوله فصل اشارة

الى التعظيم لامر الله وقوله وانحر اشارة الى الشفقة على خلق الله وجملة العبودية لاتخرج عن هذين الاصلين (وخامسها) ان استعمال لفظة النحر على نحر البدن اشهر من استعماله في سائر الوجوه المذكورة فيجب حمل كلام الله عليه واذا ثبت هذا فنقول استدلت الحنفية على وجوب الاضحية بأن الله تعالى امره بالنحر ولابد وان يكون قد فعله لان ترك الواجب عليه غير جائز واذا فعله النبي عليه الصلاة والسلام وجب علينا مثله لقوله واتبعوه ولقوله فاتبعوني يحببكم الله واصحابنا قالوا الامر بالمتابعة مخصوص بقوله ثلاث كتبت علي ولم تكتب عليكم الضحى والاضحى والوتر (المسئلة الثالثة) اختلف من فسر قوله فصل بالصلاة على وجوه (الاول) انه اراد بالصلاة جنس الصلاة لانهم كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله فأمره ان لايصلي ولاينحر الا لله تعالى واحتج من جوز تأخير بيان المجمل بهذه الآية وذلك لانه تعالى أمر بالصلاة مع انه مابين كيفية هذه الصلاة اجاب ابومسلم وقال أراد به الصلاة المفروضة اعني الخمس وانما لم يذكر الكيفية لان الكيفية كانت معلومة من قبل (القول الثاني) أراد صلاة العيد والاضحية لانهم كانوا يقدمون الاضحية على الصلاة فنزلت هذه الآية قال المحققون هذا قول ضعيف لان عطف الشئ على غيره بالواو لايوجب الترتيب (القول الثالث) عن سعيد بن جبير صل الفجر بالمزدلفة وانحر بمنى والاقرب القول الاول لانه لايجب اذا قرن ذكر النحر بالصلاة ان تحمل الصلاة على مايقع يوم النحر (المسئلة الرابعة) اللام في قوله لربك فيها فوائد (الفائدة الاولى) هذه اللام للصلاة كالروح للبدن فكما ان البدن من الفرق الى القدم انما يكون حسنا ممدوحا اذا كان فيه روح اما اذا كان ميتا فيكون مرميا كذا الصلاة والركوع والسجود وان حسنت في الصورة وطالت لولم يكن فيها لام لربك كانت ميتة مرمية وهو المراد من قوله تعالى لموسى واقم الصلاة لذكرى وقيل انه كانت صلاتهم ونحرهم للصنم فقيل له لتكن صلاتك ونحرك لله (الفائدة الثانية) كأنه تعالى يقول ذكر في السورة المتقدمة انهم كانوا يصلون للمرآة فصل أنت لالرياء لكن على سبيل الاخلاص (المسئلة الخامسة) الفاء في قوله فصل تفيد سببية أمرين (أحدهما) سببية العبادة كأنه قيل تكثير الانعام عليك يوجب عليك الاشتغال بالعبودية (والثاني) سببية ترك المبالاة كأنهم لما قالوا له انك ابتر فقيل له كما انعمنا عليك بهذه النعم الكثيرة فاشتغل أنت بطاعتك ولاتبال بقولهم وهذيانهم واعلم انه لما كانت النعم الكثيرة محبوبة ولازم المحبوب محبوب والفاء قوله فصل اقتضت كون الصلاة من لوازم تلك النعم لاجرم صارت الصلاة احب الاشياء للنبي عليه الصلاة والسلام فقال وجعلت قرة عيني في الصلاة ولقد صلى حتى تورمت قدماه فقيل له أوليس قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا فقوله أفلا اكون عبدا شكورا اشارة الى انه يجب على الاشتغال بالطاعة بمقتضى الفاء في قوله فصل (المسئلة السادسة) كان الاليق في الظاهر

ان يقول انا أعطيناك الكوثر فصل لنا وانحر لكنه ترك ذلك الى قوله فصل لربك لفوائد (احداها) ان وروده على طريق الالتفات من أمهات ابواب الفصاحة (وثانيها) أن صرف الكلام من المضمر الى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم يأمرك أمير المؤمنين وينهاك أمير المؤمنين (وثالثها) ان قوله انا أعطيناك ليس فى صريح لفظه ان هذا القائل هو الله او غيره وايضا كلمة انا تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه فلو قال صل لنا لنفى ذلك الاحتمال وهو انه ما كان يعرف ان هذه الصلاة لله وحده ام له ولغيره على سبيل التشريك فلهذا ترك ذلك اللفظ وقال فصل لربك ليكون ذلك ازالة لذلك الاحتمال وتصريحا بالتوحيد فى الطاعة والعمل لله تعالى (المسئلة السابعة) قوله فصل لربك ابلغ من قوله فصل لله لان لفظة الرب يفيد التربية المتقدمة المشار اليها بقوله انا أعطيناك الكوثر ويفيد الوعد الجميل فى المستقبل انه يربيه ولا يتركه (المسئلة الثامنة) فى الآية سؤالان (احدهما) ان المذكور عقيب الصلاة هو الزكاة فلم كان المذكور ههنا هو النحر (والثانى) لم لم يقل ضح حتى يشمل جميع انواع الضحايا (والجواب) عن الاول أما على قول من قال المراد من الصلاة صلاة العيد فالامر ظاهر فيه واما على قول من حمله على مطلق الصلاة فلوجوه (أحدها) ان المشركين كانت صلواتهم وقرابينهم للاوثان فقيل له اجعلهما لله (وثانيها) ان من الناس من قال انه عليه السلام ما كان يدخل فى ملكه شئ من الدنيا بل كان يملك بقدر الحاجة فلاجرم لم تجب الزكاة عليه اما النحر فقد كان واجبا عليه لقوله ثلاث كتبت على ولم تكتب على أمتى الضحى والاضحى والوتر (وثالثها) ان اعز الاموال عند العرب هو الابل فأمره بنحرها وصرفها الى طاعة الله تعالى تنبيها على قطع العلائق النفسانية عن لذات الدنيا وطيباتها روى انه عليه السلام اهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل فى أنفه برة من ذهب فنحرهو عليه السلام حتى اعيى ثم أمر عليا عليه السلام بذلك وكانت النوق يزدحمن على رسول الله فلما أخذ على السكين تباعدت منه (والجواب عن الثانى) ان الصلاة اعظم العبادات البدنية فقرن بها أعظم أنواع الضحايا وايضا فيه اشارة الى انك بعد فقرك تصير بحيث تنحر المائة من الابل (المسئلة التاسعة) دلت الآية على وجوب تقديم الصلاة على النحر لالان الواو توجب الترتيب بل لقوله عليه السلام ابدؤا بما بدأ الله به (المسئلة العاشرة) السورة مكية فى أصح الاقوال وكان الامر بالنحر جاريا مجرى البشارة بحصول الدولة وزوال الفقر والخوف * قوله تعالى (ان شانئك هو الابتر) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى سبب النزول وجوها (احدها) انه عليه السلام كان يخرج من المسجد والعاص ابن وائل السهمى يدخل فالتقيا فتحدثا وصناديد قريش فى المسجد فلما دخل قالوا من الذى كنت تتحدث معه فقال ذلك الابتر وأقول ان ذلك من اسرار بعضهم مع بعض مع ان الله تعالى اظهره فحينئذ يكون ذلك معجزا وروى ايضا ان العاص بن وائل كان يقول ان

(ان شانئك) اى مبغضك كائنا من كان (هو الابتر) الذى لاعقب له حيث لايبقى منه نسل ولا حسن ذكر واما انت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك الى يوم القيامة ولك فى الآخرة مالايندرج تحت البيان وقيل نزلت فى العاص بن وائل وايا ما كان فلاريب فى عموم الحكم * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرا سورة الكوثر سقاه الله تعالى من كل نهر فى الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد فى يوم النحر

محمدا ابتر لا ابن له يقوم مقامه بعده فاذا مات انقطع ذكره واسترحتم منه وكان قدمات ابنه عبدالله من خديجة وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبي وعامة اهل التفسير (القول الثانى) روى عن ابن عباس لما قدم كعب بن الاشرف مكة أتاه جماعة قريش فقالوا نحن اهل السقاية والسدانة وانت سيد اهل المدينة فنحن خيرام هذا الابتر من قومه يزعم انه خير منافقال بل انتم خير منه فنزل ان شانئك هو الابتر ونزل ايضا الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت (القول الثالث) قال عكرمة وشهر بن حوشب لما اوحى الله الى رسوله ودعا قريشا الى الاسلام قالوا بتر محمد اى خالفنا وانقطع عنا فأخبر تعالى انهم هم المبتورون (القول الرابع) نزلت فى ابى جهل فانه لما مات ابن رسول الله قال ابوجهل انى ابغضه لانه ابتر وهذا منه حماقة حيث ابغضه بأمر لم يكن باختياره فان موت الابن لم يكن من مراده (القول الخامس) نزلت فى عمه ابى لهب فانه لما شافهه بقوله تبالك كان يقول فى غيبته انه ابتر (القول السادس) انها نزلت فى عقبة بن ابى معيط وانه هو الذى كان يقول ذلك واعلم انه لا يبعد فى كل اولئك الكفرة ان يقولوا مثل ذلك فانهم كانوا يقولون فيه ما هو اسوأ من ذلك ولعل العاص بن وائل كان اكثرهم مواظبة على هذا القول فلذلك اشتهرت الروايات بان الآية نزلت فيه (المسئلة الثانية) الشنآن هو البغض والشانئ هو المبغض واما البتر فهو فى اللغة استئصال القطع يقال بترته ابتره بترا وبتر أى صار ابتر وهو مقطوع الذنب ويقال للذى لا عقب له ابتر ومنه الحمار الابتر الذى لا ذنب له وكذلك لمن انقطع عنه الخير ثم ان الكفار لما وصفوه بذلك بين تعالى ان الموصوف بهذه الصفة هو ذلك المبغض على سبيل الحصر فيه فانك اذا قلت زيد هو العالم يفيد انه لا عالم غيره اذا عرفت هذا فقول الكفار فيه عليه الصلاة والسلام انه ابتر لا شك انهم لعنهم الله ارادوا به انه انقطع الخير عنه ثم ذلك اما ان يحمل على خير معين او على جميع الخيرات اما الاول فيحتمل وجوها (احدها) قال السدى كانت قريش يقولون لمن مات الذكور من اولاده بتر فلما مات ابنه القاسم وعبد الله بمكة وابراهيم بالمدينة قالوا بتر فليس له من يقوم مقامه ثم انه تعالى بين ان عدوه هو الموصوف بهذه الصفة فانا نرى ان نسل اولئك الكفرة قد انقطع ونسله عليه الصلاة والسلام كل يوم يزداد وينمو وهكذا يكون الى قيام القيامة (وثانيها) قال الحسن عنوا بكونه ابتر انه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه والله تعالى بين ان خصمه هو الذى يكون كذلك فانهم صاروا مدبرين مغلوبين مقهورين وصارت رايات الاسلام عالية واهل الشرق والغرب لها متواضعة (وثالثها) زعموا انه ابتر لانه ليس له ناصر ومعين وقد كذبوا لان الله تعالى هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين واما الكفرة فلم يبق لهم ناصر ولا حبيب (ورابعها) الابتر هو الحقير الذليل روى ان اباجهل اتخذ ضيافة لقوم ثم انه وصف رسول الله بهذا الوصف ثم قال قوموا حتى نذهب الى محمد واصارعه واجعله ذليلا حقيرا فلما

وصلوا الى دار خديجة وتوافقوا على ذلك اخرجت خديجة بساطا فلما تصار رجع جعل ابو جهل يجتهد فى ان يصرعه وبقى النبي عليه الصلاة والسلام واقفا كالجبل ثم بعد ذلك رماه النبي صلى الله عليه وسلم على اقبح وجه فلما رجع اخذه باليد اليسرى لان اليسرى للاستنجاء فكان نجسا فصرعه على الارض مرة اخرى ووضع قدمه على صدره فذكر بعض القصاص ان المراد من قوله ان شانئك هو الابتر هذه الواقعة (وخامسها) ان الكفرة لما وصفوه بهذا الوصف قيل ان شانئك هو الابتر اى الذى قالوه فيك كلام فاسد يضمحل ويفنى واما المدح الذى ذكرناه فيك فانه باق على وجه الدهر (وسادسها) ان رجلا قام الى الحسن بن على عليهما السلام وقال سودت وجوه المؤمنين بان تركت الامامة لمعاوية فقال لاتؤذنى يرحمك الله فان رسول الله رأى بنى امية فى المنام يصعدون منبره رجلا فرجلا فساءه ذلك فأنزل الله تعالى انا اعطيناك الكوثر انا انزلناه فى ليلة القدر فكان ملك بنى امية كذلك ثم انقطعوا وصاروا مبتورين (المسئلة الثالثة) الكفار لما شتموه فهو تعالى اجاب عنه من غير واسطة فقال ان شانئك هو الابتر وهكذا سنة الاحباب فان الحبيب اذا سمع من يشتم حبيبه تولى بنفسه جوابه فههنا تولى الحق سبحانه جوابهم وذكر مثل ذلك فى مواضع حين قالوا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد افترى على الله كذبا أم به جنة فقال سبحانه بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد وحين قالوا هو مجنون اقسم ثلاثا ثم قال ما انت بنعمة ربك بمجنون ولما قالوا لست مرسلا اجاب فقال يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين وحين قالوا ائنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون رد عليهم وقال بل جاء بالحق وصدق المرسلين فصدقه ثم ذكر وعيد خصمائه وقال انكم لذائقوا العذاب الاليم وحين قال حاكيا ام يقولون شاعر قال وما علمناه الشعر ولما حكى عنهم قولهم ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون سماهم كاذبين بقوله فقد جاؤا ظلما وزورا ولما قالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق اجابهم فقال وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق فما اجل هذه الكرامة (المسئلة الرابعة) اعلم انه تعالى لما بشره بالنعم العظيمة وعلم تعالى ان النعمة لا تهنأ الا اذا صار العدو مقهورا لا جرم وعده بقهر العدو فقال ان شانئك هو الابتر وفيه لطائف (احدها) كأنه تعالى يقول لا افعله لكى يرى بعض اسباب دولتك وبعض اسباب محنة نفسه فيقتله الغيظ (وثانيها) وصفه بكونه شانئا كأنه تعالى يقول هذا الذى يبغضك لا يقدر على شئ آخر سوى انه يبغضك والمبغض اذا عجز عن الايذاء فحينئذ يحترق قلبه غيظا وحسدا فتصير تلك العداوة من اعظم اسباب حصول المحنة لذلك العدو (وثالثها) ان هذا الترتيب يدل على انه انما صار ابتر لانه كان شانئا له ومبغضا والامر بالحقيقة كذلك فان من عادى محسودا فقد عادى الله تعالى لا سيما من تكفل الله باعلاء شأنه وتعظيم مرتبته (ورابعها) ان العدو وصف

محمدا عليه الصلاة والسلام بالقلة والذلة ونفسه بالكثرة والدولة فقلب الله الامر عليه وقال العزيز من أعزه الله والذليل من أذله الله فالكثرة والكوثر لمحمد عليه السلام والابترية والدناءة والذلة للعدو فحصل بين اول السورة وآخرها نوع من المطابقة لطيف (المسئلة الخامسة) اعلم ان من تأمل في مطالع هذه السورة ومقاطعها عرف أن الفوائد التي ذكرناها بالنسبة الى ما استأثر الله بعلمه من فوائد هذه السورة كالقطرة في البحر روى عن مسيلمة انه عارضها فقال انا اعطيناك الجماهر فصل لربك وهاجر ان مبغضك رجل كافر ولم يعرف المخذول انه محروم عن المطلوب لوجوه (احدها) ان الالفاظ والترتيب مأخوذ ان من هذه السورة وهذا لايكون معارضة (وثانيها) انا ذكرنا ان هذه السورة كالتتمة لما قبلها وكالاصل لما بعدها فذكر هذه الكلمات وحدها يكون اهمالا لاكثر لطائف هذه السورة (وثالثها) التفاوت العظيم الذي يقربه من له ذوق سليم بين قوله ان شانئك هو الابتر وبين قوله ان مبغضك رجل كافر ومن لطائف هذه السورة ان كل احد من الكفار وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصف آخر فوصفه بأنه لا ولد له وآخر بأنه لامعين له ولاناصر له وآخر بأنه لايبقى منه ذكر فالله سبحانه مدحه مدحا ادخل فيه كل الفضائل وهو قوله انا اعطيناك الكوثر لانه لما لم يقيد ذلك الكوثر بشيء دون شيء لاجرم تناول جميع خيرات الدنيا والآخرة ثم امره حال حياته بمجموع الطاعات لان الطاعات اما ان تكون طاعة البدن او طاعة القلب اما طاعة البدن فافضله شيآن لان طاعة البدن هي الصلاة وطاعة المال هي الزكاة واما طاعة القلب فهو ان لا يأتي بشيء الا لاجل الله واللام في قوله لربك يدل على هذه الحالة ثم كأنه نبه على ان طاعة القلب لاتحصل الا بعد حصول طاعة البدن فقدم طاعة البدن في الذكر وهو قوله فصل وأخر اللام الدالة على طاعة القلب تنبيها على فساد مذهب اهل الاباحة في ان العبد قد يستغني بطاعة قلبه عن طاعة جوارحه فهذه اللام تدل على بطلان مذهب الاباحة وعلى انه لابد من الاخلاص ثم نبه بلفظ الرب على علو حاله في المعاد كأنه يقول كنت ربيتك قبل وجودك أفأترك تربيتك بعد مواظبتك على هذه الطاعات ثم كما تكفل اولا بافاضة النعم عليه تكفل في آخر السورة بالذب عنه وابطال قول اعدائه وفيه اشارة الى انه سبحانه هو الاول بافاضة النعم والآخر بتكميل النعم في الدنيا والآخرة والله سبحانه وتعالى اعلم

* (سورة الكافرون ست آيات مكية) *

اعلم ان هذه السورة تسمى سورة المنابذة وسورة الاخلاص والمقشقشة وروى ان من قرأها فكأنما قرأ ربع القرآن والوجه فيه ان القرآن مشتمل على الامر بالمأمورات والنهي عن المحرمات وكل واحد منهما ينقسم الى ما يتعلق بالقلوب والى ما يتعلق بالجوارح وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب فتكون ربعا للقرآن والله تعالى اعلم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قل ياأيها الكافرون) اعلم ان قوله تعالى قل فيه فوائد (احدها) انه عليه السلام كان مأمورا بالرفق واللين فى جميع الامور كما قال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فبما رحمة من الله لنت لهم بالمؤمنين رؤف رحيم وما ارسلناك الا رحمة للعالمين ثم كان مأمورا بأن يدعو الى الله بالوجه الاحسن وجادلهم بالتى هى احسن ولما كان الامر كذلك ثم انه خاطبهم بياأيها الكافرون فكانوا يقولون كيف يليق هذا التغليظ بذلك الرفق فأجاب بأنى مأمور بهذا الكلام لانى ذكرته من عند نفسى فكان المراد من قوله قل تقرير هذا المعنى (وثانيها) انه لما قيل له وانذر عشيرتك الأقربين وهو كان يحب اقرباءه لقوله قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة فى القربى فكانت القرابة ووحدة النسب كالمانع من اظهار الخشونة فأمر بالتصريح بتلك الخشونة والتغليظ فقيل له قل (وثالثها) انه لما قيل له ياأيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته فأمر بتبليغ كل ما انزل عليه فلما قال الله تعالى له قل ياأيها الكافرون نقل هو عليه السلام هذا الكلام بجملته كأنه قال انه تعالى أمرنى بتبليغ كل ما انزل على والذى انزل على هو مجموع قوله قل ياايها الكافرون فأنا ايضا ابلغه الى الخلق هكذا (ورابعها) ان الكفار كانوا مقرين بوجود الصانع وانه هو الذى خلقهم ورزقهم على ما قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله والعبد يتحمل من مولاه ما لا يتحمله من غيره فلو انه عليه السلام قال ابتداء ياأيها الكافرون لجوزوا ان يكون هذا كلام محمد فلعلهم ما كانوا يتحملونه منه وكانوا يؤذونه اما لما سمعوا قوله قل علموا انه ينقل هذا التغليظ عن خالق السموات والارض فكانوا يتحملونه ولا يعظم تأذيهم به (وخامسها) ان قوله قل يوجب كونه رسولا من عند الله فكلما قيل له قل كان ذلك كالمنشور الجديد فى ثبوت رسالته وذلك يقتضى المبالغة فى تعظيم الرسول فان الملك اذا فوض مملكته الى بعض عبيده فاذا كان يكتب له كل شهر وسنة منشورا جديدا دل ذلك على غاية اعتنائه بشأنه وانه على عزم ان يزيده كل يوم تعظيما وتشريفا (وسادسها) ان الكفار لما قالوا نعبد الهك سنة وتعبد آلهتنا سنة فكأنه عليه السلام قال استأمرت الهى فيه فقال قل ياأيها الكافرون لا اعبد ما تعبدون (وسابعها) الكفار قالوا فيه السوء فهو تعالى زجرهم عن ذلك واجابهم وقال ان شانئك هو الابتر وكأنه تعالى قال حين ذكروك بسوء فانا كنت المجيب بنفسى فحين ذكرونى بالسوء واثبتوا لى الشركاء فكن انت المجيب قل ياايها الكافرون لا اعبد ما تعبدون (وثامنها) انهم سموك ابتر فان شئت ان تستوفى منهم القصاص فاذكرهم بوصف ذم بحيث تكون صادقا فيه قل ياأيها الكافرون لكن الفرق انهم عابوك بما ليس من فعلك وانت تعيبهم بما هو فعلهم (وتاسعها) ان بتقدير ان تقول ياأيها الكافرون لا اعبد ما تعبدون والكفار يقولون هذا كلام ربك ام كلامك فان

(كان)

(سورة الكافرون مكية وآيها) (ست)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قل ياأيها الكافرون) هم كفرة مخصوصون قد علم الله تعالى انه لا يأتى منهم الايمان ابدا روى ان رهطا من عتاة قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك تعبد آلهتنا سنة ونعبد الهك سنة فقال معاذ الله ان اشرك بالله غيره فقالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد الهك فنزلت فغدا الى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤسهم فقرأها عليهم فأيسوا

كان كلام ربك فربك يقول انالااعبد هذه الاصنام ونحن لانطلب هذه العبادة من ربك انما نطلبها منك وان كان هذا كلامك فأنت قلت من عند نفسك انى لااعبد هذه الاصنام فلم قلت ان ربك هو الذى امرك بذلك اما لما قال قل سقط هذا الاعتراض لان قوله قل يدل على انه مأمور من عند الله تعالى بأن لايعبدها ويتبرأ منها (وعاشرها) انه لو انزل قوله يأأيها الكافرون لكان يقرؤها عليهم لامحالة لانه لايجوز ان يخون فى الوحى الاانه لما قال قل كان ذلك كالتأكيد فى ايجاب تبليغ هذا الوحى اليهم والتأكيد يدل على ان ذلك الامر امر عظيم فبهذا الطريق تدل هذه الكلمة على ان الذى قالوه وطلبوه من الرسول امر منكر فى غاية القبح ونهاية الفحش (الحادى عشر) كأنه تعالى يقول كانت التقية جائزة عند الخوف اما الآن لما قوينا قلبك بقولنا انا اعطيناك الكوثر وبقولنا ان شانئك هو الابتر فلاتبال بهم ولاتلتفت اليهم وقل يأأيها الكافرون لااعبد ماتعبدون (الثانى عشر) ان خطاب الله تعالى مع العبد من غير واسطة يوجب التعظيم الاترى انه تعالى ذكر من اقسام اهانة الكفار انه تعالى لايكلمهم فلو قال يأأيها الكافرون لكان ذلك من حيث انه خطاب مشافهة يوجب التعظيم ومن حيث انه وصف لهم بالكفر يوجب الايذاء فينجبر الايذاء بالاكرام اما لما قال قل يأأيها الكافرون فحينئذ يرجع تشريف المخاطبة الى محمد صلى الله عليه وسلم وترجع الاهانة الحاصلة لهم بسبب وصفهم بالكفر الى الكفار فيحصل فيه تعظيم الاولياء واهانة الاعداء وذلك هو النهاية فى الحسن (الثالث عشر) ان محمدا عليه السلام كان منهم وكان فى غاية الشفقة عليهم والرأفة بهم وكانوا يعلمون منه انه شديد الاحتراز عن الكذب والاب الذى يكون فى غاية الشفقة بولده ويكون فى نهاية الصدق والبعد عن الكذب ثم انه يصف ولده بعيب عظيم فالولد ان كان عاقلا يعلم انه ماوصفه بذلك مع غاية شفقته عليه الالصدقه فى ذلك ولانه بلغ مبلغا لايقدر على اخفائه فقال تعالى قل يامحمد لهم يأأيها الكافرون ليعلموا انك لما وصفتهم بذلك مع غاية شفقتك عليهم وغاية احترازك عن الكذب فهم موصوفون بهذه الصفة القبيحة فربما يصير ذلك داعيا لهم الى البراءة من هذه الصفة والاحتراز عنها (الرابع عشر) ان الايذاء والايحاش من ذوى القربى اشد واصعب من الغير فأنت من قبيلتهم ونشأت فيما بين اظهرهم فقل لهم يأأيها الكافرون فلعله يصعب ذلك الكلام عليهم فيصير ذلك داعيا لهم الى البحث والنظر والبراءة عن الكفر (الخامس عشر) كأنه تعالى يقول السنا بينا فى سورة والعصر ان الانسان لفى خسر الاالذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وفى سورة الكوثر انا اعطيناك الكوثر وأتيت بالايمان والاعمال الصالحات بمقتضى قولنا فصل لربك وانحر بقى عليك التواصى بالحق والتواصى بالصبر وذلك هو ان تمنعهم بلسانك وبرهانك عن عبادة غير الله فقل يأأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون (السادس عشر) كأنه تعالى يقول يامحمد أنسيت انى لما أخرت الوحى

عليك مدة قليلة قال الكافرون انه ودعه ربه وقلاه فشق عليك ذلك غاية المشقة حتى انزلت عليك السورة واقسمت بالضحى والليل اذا سجى انه ماودعك ربك وماقلى فلما لم تستجز ان اتركك شهرا ولم يطب قلبك حتى ناديت في العالم بأنه ماودعك ربك وماقلى افتستجيز ان تتركني شهرا وتشتغل بعبادة آلهتهم فلما ناديت بنفي تلك التهمة فناد انت ايضا في العالم بنفي هذه التهمة وقل ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون (السابع عشر) لما سألوا منه ان يعبدآ لهتهم سنة ويعبدوا الهه سنة فهو عليه السلام سكت ولم يقل شيئا لالانه جوز في قلبه ان يكون الذى قالوه حقا فانه كان قاطعا بفساد ماقالوه لكنه عليه السلام توقف في انه بماذا يجيبهم أبأن يقيم الدلائل العقلية على امتناع ذلك او بأن يزجرهم بالسيف او بأن ينزل الله عليهم عذابا فاغتنم الكفار ذلك السكوت وقالوا ان محمدا مال الى ديننا فكأنه تعالى قال يامحمد ان توقفك عن الجواب في نفس الامر حق ولكنه اوهم باطلا فتدارك ازالة ذلك الباطل وصرح بماهو الحق وقل ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون (الثامن عشر) انه عليه السلام لما قال له ربه ليلة المعراج اثن على استولى عليه هيبة الحضرة الالهية فقال لااحصى ثناء عليك فوقع ذلك السكوت منه في غاية الحسن فكأنه قيل له ان سكت عن الثناء رعاية لهيبة الحضرة فاطلق لسانك في مذمة الاعداء وقل ياأيها الكافرون حتى يكون سكوتك لله وكلامك لله وفيه تقرير آخر وهو ان هيبة الحضرة سلبت عنك قدرة القول فقل ههنا حتى ان هيبة قولك تسلب قدرة القول عن هؤلاء الكفار (التاسع عشر) لو قال له لاتعبد مايعبدون لم يلزمه ان يقول بلسانه لااعبد ماتعبدون اما لما امره بأن يقول بلسانه لاأعبد ماتعبدون يلزمه ان لايعبد مايعبدون اذ لو فعل ذلك لصار كلامه كذبا فثبت انه لما قال له قل لااعبد ماتعبدون فلزمه ان يكون منكرا لذلك بقلبه ولسانه وجوارحه ولو قال له لاتعبد مايعبدون لزمه تركه اما لايلزمه اظهار انكاره باللسان ومن المعلوم ان غاية الانكار انما تحصل اذا تركه في نفسه وانكره بلسانه فقوله قل يقتضى المبالغة في الانكار فلهذا قال قل لااعبد ماتعبدون (العشرون) ذكر التوحيد ونفي الانداد جنة للعارفين ونار للمشركين فاجعل لفظك جنة للموحدين ونارا على المشركين وقل ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون (الحادى والعشرون) ان الكفار لما قالوا نعبد الهك سنة وتعبدآ لهتنا سنة سكت محمد فقال ان شافهتهم بالرد تأذوا وحصلت النفرة عن الاسلام في قلوبهم فكأنه تعالى قال له يامحمد لم سكت عن الرد اما الطمع فيما يعدونك من قبول دينك فلا حاجة بك في هذا المعنى اليهم فانا أعطيناك الكوثر وأما الخوف منهم فقد ازلنا عنك الخوف بقولنا ان شانئك هو الابتر فلا تلتفت اليهم ولاتبال بكلامهم وقل ياأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون (الثاني والعشرون) انسيت يامحمد انى قدمت حقك على حق نفسي فقلت لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين فقدمت اهل الكتاب في الكفر على المشركين

(لان)

لان طعن اهل الكتاب فيك وطعن المشركون فى فقدمت حقك على حق نفسى وقدمت اهل الكتاب فى الذم على المشركين وأنت ايضا هكذا كنت تفعل فانهم لما كسروا سنك قلت اللهم اهدقومى ولما شغلوك يوم الخندق عن الصلاة قلت اللهم املأ بطونهم نارا فههنا ايضا اقدم حقى على حق نفسك وسواء كنت خائفا منهم اولست خائفا منهم فأظهر انكار قولهم وقل ياأيها الكافرون لاعبد ماتعبدون (الثالث والعشرون) كأنه تعالى يقول قصة امرأة زيد واقعة حقيرة بالنسبة الى هذه الواقعة ثم انني هناك مارضيت منك ان تضمر فى قلبك شيئا ولاتظهره بلسانك بل قلت لك على سبيل العتاب وتخفى فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه فاذا كنت لم ارض منك فى تلك الواقعة الحقيرة الا بالاظهار وترك المبالاة بأقوال الناس فكيف ارضى منك فى هذه المسئلة وهى اعظم المسائل خطرا بالسكوت قل بصريح لسانك ياأيها الكافرون لااعبد ماتعبدون (الرابع والعشرون) يامحمد ألست قلت لك ولوشئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا ثم انى مع هذه القدرة راعيت جانبك وطيبت قلبك وناديت فى العالمين بأنى لااجعل الرسالة مشتركة بينه وبين غيره بل الرسالة له لالغيره حيث قلت ولكن رسول الله وخاتم النبيين فأنت مع علمك بأنه يستحيل عقلا ان يشاركنى غيرى فى المعبودية اولى ان تنادى فى العالمين بنفى هذه الشركة فقل ياأيها الكافرون لااعبد ماتعبدون (الخامس والعشرون) كأنه تعالى يقول القوم جاؤك واطمعوك فى متابعتهم لك ومتابعتك لدينهم فسكت عن الانكار والرد الست انا جعلت البيعة معك بيعة معى حيث قلت ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله وجعلت متابعتك متابعة لى حيث قلت قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ثم انى ناديت فى العالمين وقلت ان الله برئ من المشركين ورسوله فصرح أنت ايضا بذلك وقل ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون (السادس والعشرون) كأنه تعالى يقول الست أرأف بك من الوالد بولده ثم العرى والجوع مع الوالد احسن من الشبع مع الاجانب كيف والجوع لهم لان اصنامهم جائعة عن الحياة عارية عن الصفات وهم جائعون عن العلم عارون عن التقوى فقد جربتنى الم اجدك يتيما واضالا وعائلا الم نشرح لك صدرك الم اعطك بالصديق خزينة وبالفاروق هيبة وبعثمان معونة وبعلى علما الم اكف اصحاب الفيل حين حاولوا تخريب بلدتك الم اكف اسلافك رحلة الشتاء والصيف الم اعطك الكوثر الم اضمن ان خصمك ابتر الم يقل جدك فى هذه الاصنام بعد تخريبها لم تعبد مالا يسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئا فصرح بالبراءة عنها وقل ياأيها الكافرون لااعبد ماتعبدون (السابع والعشرون) كأنه تعالى يقول يامحمد الست قد انزلت عليك فاذكروا الله كذكركم آباءكم او اشد ذكرا ثم ان واحدا لو نسبك الى والدين لغضبت ولاظهرت الانكار ولبالغت فيه حتى قلت ولدت من نكاح ولم اولد من سفاح فاذا لم تسكت عند التشريك فى الولادة فكيف سكت عند التشريك فى العبادة بل

اظهر لانكار وبالغ في التصريح به وقل ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون (الثامن والعشرون) كأنه تعالى يقول يامحمد الست قد انزلت عليك افمن يخلق كمن لايخلق افلا تذكرون فحكمت بأن من سوى بين الاله الخالق وبين الوثن الجماد في المعبودية لايكون عاقلا بل يكون مجنونا ثم انى اقسمت وقلت ن والقلم ومايسطرون ماأنت بنعمة ربك بمجنون والكفار يقولون انك مجنون فصرح بردمقالتهم فانها تفيد براءتى عن عيب الشرك وبراءتك عن عيب الجنون وقل ياأيها الكافرون لااعبد ماتعبدون (التاسع والعشرون) ان هؤلاء الكفار سموا هذه الاوثان آلهة والمشاركة في الاسم لاتوجب المشاركة في المعنى الاترى ان الرجل والمرأة يشتركان في الانسانية حقيقة ثم القيمية كلها حظ الزوج لانه اعلم واقدر ثم من كان اعلم واقدر كان له كل الحق في القيمية فمن لاقدرة له ولاعلم البتة كيف يكون له حق في القيومية بل ههنا شيء آخر وهو ان امرأة لوادعاها رجلان فاصطلحا عليها لايجوز ولو اقام كل واحد منهما بينة على انها زوجته لم يقض لواحد منهما والجارية بين اثنين لاتحل لواحد منهما فاذا لم يجز حصول زوجة لزوجين ولاأمة بين مولين في حل الوطء فكيف يعقل عابد واحد بين معبودين بل من جوزان يصطلح الزوجان على ان تحل الزوجة لاحدهما شهرا ثم الثانى شهرا آخر كان كافرا فمن جوز الصلح بين الاله والصنم الايكون كافرا فكأنه تعالى يقول لرسوله ان هذه المقالة في غاية القبح فصرح بالانكار وقل ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون (الثلاثون) كأنه تعالى يقول أنسيت انى لما خيرت نسوتك حين انزلت عليك قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها الى قوله اجرا عظيما ثم خشيت من عائشة ان تختار الدنيا فقلت لها لاتقولى شيئا حتى تستأمرى ابويك فقالت افى هذا استأمر ابوى بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة فناقصة العقل ماتوقفت فيما يخالف رضاى اتتوقف فيما يخالف رضاى وامرى مع انى جبار السموات والارض قل ياأيها الكافرون لااعبد ماتعبدون (الحادى والثلاثون) كأنه تعالى يقول يامحمد الست انت الذى قلت من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلايقفن مواقف التهم وحتى ان بعض المشايخ قال لمريده الذى يريد ان يفارقه لاتخالط السلطان قال ولم قال لانه يوقع الناس في احد الخطأين اماان يعتقدوا ان السلطان متدين لانه يخالطه العالم الزاهد اويعتقدوا انك فاسق مثله وكلاهما خطأ فاذا ثبت انه يجب البراءة عن مواقف التهم فسكوتك يامحمد عن هذا الكلام يجر اليك تهمة الرضا بذلك لاسيما وقد سبق ان الشيطان القى فيما بين قراءتك تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى فازل عن نفسك هذه التهمة وقل ياأيها الكافرون لااعبد ماتعبدون (الثانى والثلاثون) الحقوق في الشاهد نوعان حق من انت تحت يده وهو مولاك وحق من هو تحت يدك وهو الولد ثم اجمعنا على ان خدمة المولى مقدمة على تربية الولد فاذا كان حق المولى المجازى مقدما فبأن يكون حق المولى الحقيقى مقدما كان اولى ثم روى

(ان)

ان علياعليه السلام استأذن الرسول صلى الله عليه وسلم فى التزوج بأبنة ابى جهل فضجر
وقال لا آذن لا آذن لا آذن ان فاطمة بضعة منى يؤذينى مايؤذيها ويسرنى مايسرها
والله لايجمع بين بنت عدو الله وبنت حبيب الله فكأنه تعالى يقول صرحت هناك بالرد
وكررته على سبيل المبالغة رعاية لحق الولد فههنا اولى ان تصرح بالرد وتكرره رعاية لحق
المولى فقل ياأيهــا الكافرون لاعبد ماتعبــدون ولاجمع فى القلب بين طاعة الحبيب
وطاعة العدو (الثالث والثلاثون) يامحمد الست قلت لعمر رأيت قصرا فى الجنة فقلت
لمن فقيل لفتى من قريش فقلت من هو فقالوا عمر فخشيت غيرتك فلم ادخلها حتى قال عمر
او اغار عليك يارسول الله فكأنه تعالى قال خشيت غيرة عمر فادخلت قصره افاتخشى
غيرتى فى ان تدخل قلبك طاعة غيرى ثم هناك اظهرت الامتناع فههنا أيضــا اظهر
الامتناع وقل ياأيهاالكافرون لاعبد ماتعبدون (الرابع والثلاثون) اترى ان نعمتى
عليك دون نعمة الوالدة الم اربك الم اخلقك الم ارزقك الم اعطك الحياة والقدرة والعقل
والهداية والتوفيق ثم حين كنت طفلا عديم العقل وعرفت تربية الام فلو اخذتك امرأة
اجمل واحسن واكرم من امك لاظهرت النفرة ولبكيت ولو اعطتك الثدى لسددت فك
تقول لااريد غير الام لانها اول المنعم على فههنا اولى ان تظهر النفرة فتقول لاعبد سوى
ربى لانه اول منعم على فقل ياأيهاالكافرون لاعبد ماتعبــدون (الخامس والثلاثون)
نعمة الاطعام دون نعمة العقل والنبوة ثم قد عرفت ان الشــاة والكلب لاينسيان نعمة
الاطعام ولايميلان الى غير من اطعمهمــا فكيف يليق بالعــاقل ان ينسى نعمة الايجاد
والاحسان فكيف فى حق افضل الخلق قل ياأيهاالكافرون لاأعبد ماتعبدون (السادس
والثلاثون) مذهب الشافعى انه يثبت حق الفرقة بواسطة الاعسار بالنفقة فاذا لم تجد
من الانصار تربية حصلت لك حق الفرقة لو كنت متصلا بها لم تعبد مالايسمع ولايبصر
ولايغنى عنك شيئا فبتقدير ان كنت متصلا بها كان يجب ان تنفصل عنها وتتركها فكيف
وما كنت متصلا بها أيليق بك ان تقرب الاتصال بها قل ياأيها الكافرون لاأعبد
ماتعبدون (السابع الثلاثون) هؤلاء الكفار لفرط حماقتهم ظنوا ان الكثرة فى الالهية
كالكثرة فى المال يزيد به الغنى وليس الامر كذلك بل هو كالكثرة فى العيــال تزيد به
الحاجة فقل يامحمد لى اله واحد اقوم له فى الليل واصوم له فى النهار ثم بعد لم اتفرغ من قضاء
حق ذرة من ذرات نعمه فكيف التزم عبادة آلهة كثيرة قل ياأيها الكافرون لاأعبد
ماتعبدون (الثامن والثلاثون) ان مريم عليها السلام لما تمثل لها جبريل عليه الســلام
قالت انى اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا فاســتعاذت ان تميل الى جبريل دون الله
افتستجيز مع كمال رجوليتك ان تميل الى الاصنام قل ياأيها الكافرون لاعبد ماتعبدون
(التاسع والثلاثون) مذهب ابى حنيفة انه لايثبت حق الفرقة بالعجز عن النفقة ولا بالعنة
الطارئة يقول لانه كان قيما فلا يحسن الاعراض عنه مع انه تعيب فالحق سبحانه يقول

كنت قيما ولم اتعيب فكيف يجوز الاعراض عنى قل يا أيها الكافرون لا اعبد ما تعبدون (الاربعون) هؤلاء الكفار كانوا معترفين بأن الله خالقهم ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال فى موضع آخر أرونى ماذا خلقوا من الارض فكأنه تعالى يقول هذه الشركة اما ان تكون مزارعة وذلك باطل لان البذر منى والتربية والسقى منى والحفظ منى فأى شئ للصنم اوشركة الوجوه وذلك ايضا باطل اترى ان الصنم اكثر شهرة وظهورا منى اوشركة الابدان وذلك ايضا باطل لان ذلك يستدعى الجنسية اوشركة العنان وذلك ايضا باطل لانه لابد فيه من نصاب فانصاب الاصنام اويقول ليس هذا من باب الشركة لكن الصنم يأخذ بالتغلب نصيبا من الملك فكأن الرب يقول ما اشد جهلكم ان هذا الصنم اكثر عجزا من الذبابة ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا فأنا اخالق البذر ثم القيه فى الارض فالتربية والسقى والحفظ منى ثم ان من هو أعجز من الذبابة يأخذ بالقهر والتغلب نصيبا منى ماهذا بقول يليق بالعقلاء قل يا أيها الكافرون لا اعبد ما تعبدون (الحادى والاربعون) انه لاذرة فى عالم المحدثات الا وهى تدعو العقول الى معرفة الذات والصفات واما الدعاة الى معرفة احكام الله فهم الانبياء عليهم السلام ولما كان كل بق وبعوضة داعيا الى معرفة الذات والصفات قال ان الله لايستحيى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها وذلك لان هذه البعوضة بحسب حدوث ذاتها وصفاتها تدعو الى قدرة الله وبحسب تركيبها العجيب تدعو الى علم الله وبحسب تخصيص ذاتها وصفاتها بقدر معين تدعو الى ارادة الله فكأنه تعالى يقول مثل هذا الشئ كيف يستحيى منه روى ان عمر رضى الله عنه كان فى ايام خلافته دخل السوق فاشترى كرشا وحمله بنفسه فرآه على من بعيد فتنكب على عن الطريق فاستقبله عمر وقال لم تنكبت عن الطريق فقال على حتى لاتستحى فقال وكيف استحى من حمل ماهو غذائى فكأنه تعالى يقول اذا كان عمر لايستحى من الكرش الذى هو غذاؤه فى الدنيا فكيف استحى عن ذكر البعوض الذى يعطيك غذاء دينك ثم كأنه تعالى يقول يامحمد ان نمروذ لما ادعى الربوبية صاح عليه البعوض بالانكار فهؤلاء الكفار لما دعوك الى الشرك افلا تصيح عليهم افلا تصرح بالرد عليهم قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون وان فرعون لما ادعى الالهية فجبريل ملأ فاه من الطين فان كنت ضعيفا فلست اضعف من بعوضة نمروذ وان كنت قويا فلست اقوى من جبريل فأظهر الانكار عليهم وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون (الثانى والاربعون) كأنه تعالى يقول يامحمد قل بلسانك لا أعبد ما تعبدون واتركه قرضا على فانى اقضيك هذا القرض على احسن الوجوه الاترى ان النصرانى اذا قال اشهد ان محمدا رسول الله فاقول انا لا اكتفى بهذا مالم تصرح بالبراءة عن النصرانية فلما اوجبت على كل مكلف ان يتبرأ بصريح لسانه عن كل دين يخالف دينك فأنت ايضا اوجب على نفسك ان تصرح برد كل معبود غيرى فقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون

(الثالث)

(الثالث والاربعون) ان موسى عليه السلام كان فى طبعه الخشونة فلما ارسل الى فرعون قيل له فقولا له قولا لينا واما محمد عليه السلام فلما ارسل الى الخلق أمر باظهار الخشونة تنبيها على انه فى غاية الرحمة فقيل له قل يا أيها الكافرون لا اعبد ما تعبدون ❊ اما قوله تعالى (قل يا أيها الكافرون) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) يا أيها قد تقدم القول فيها فى مواضع والذى نزيده ههنا انه روى عن على عليه السلام انه قال يا نداء النفس واى نداء القلب وها نداء الروح وقيل يا نداء الغائب واى للحاضر وها للتنبيه كأنه يقول ادعوك ثلاثا ولا تجيبنى مرة ماهذا الا الجهل الخفى ومنهم من قال انه تعالى جمع بين يا الذى هو للبعيد واى الذى هو للقريب كأنه تعالى يقول معاملتك معى وفرارك عنى يوجب البعد البعيد لكن احسانى اليك ووصول نعمتى اليك يوجب القرب القريب ونحن اقرب اليه من حبل الوريد وانما قدم يا الذى يوجب البعد على اى الذى يوجب القرب كأنه يقول التقصير منك والتوفيق منى ثم ذكرها بعد ذلك لان يا يوجب البعد الذى هو كالموت واى يوجب القرب الذى هو كالحياة فلما حصلا حصلت حالة متوسطة بين الحياة والموت وتلك الحالة هى النوم والنائم لابد وان ينبه وها كلمة تنبيه فلهذا السبب ختمت حروف النداء بهذا الحرف (المسئلة الثانية) روى فى سبب نزول هذه السورة ان الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والاسود بن عبد المطلب وامية بن خلف قالوا الرسول الله تعالى حتى نعبد الهك مدة وتعبد آلهتنا مدة فيحصل الصلح بيننا وبينك وتزول العداوة من بيننا فان كان أمرك رشيدا أخذنا منه حظا وان كان أمرنا رشيدا أخذت منه حظا فنزلت هذه السورة ونزل ايضا قوله تعالى قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون فتارة وصفهم بالجهل وتارة بالكفر واعلم ان الجهل كالشجرة والكفر كالثمرة فلما نزلت السورة وقرأها على رؤسهم شتموه وايسوا منه وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم ذكرهم فى هذه السورة بالكافرين وفى الاخرى بالجاهلين (الجواب) لان هذه السورة بتمامها نازلة فيهم فلابد وان تكون المبالغة ههنا اشد وليس فى الدنيا لفظ اشنع ولا ابشع من لفظ الكافر وذلك لانه صفة ذم عند جميع الخلق سواء كان مطلقا او مقيدا اما لفظ الجهل فانه عند التقييد قد لا يذم كقوله عليه السلام فى علم الانساب علم لا ينفع وجهل لا يضر (السؤال الثانى) لم قال تعالى فى سورة لم تحرم يا ايها الذين كفروا ولم يذكر قل وههنا ذكر قل وذكره باسم الفاعل (الجواب) الآية المذكورة فى سورة لم تحرم انما تقال لهم يوم القيامة وثمة لا يكون الرسول رسولا اليهم فأزال الواسطة وفى ذلك الوقت يكونون مطيعين لا كافرين فلذلك ذكره بلفظ الماضى واما ههنا فهم كانوا موصوفين بالكفر وكان الرسول رسولا اليهم فلا جرم قال قل يا أيها الكافرون (السؤال الثالث) قوله ههنا قل يا أيها الكافرون خطاب مع الكل اومع البعض (الجواب) لا يجوز ان يكون قوله لا أعبد ما تعبدون خطابا مع الكل لان فى الكفار من يعبد الله كاليهود والنصارى فلا يجوز ان يقول لهم لا اعبد ما تعبدون

(لا اعبد ما تعبدون) اى فيما يستقبل لان لا لا تدخل غالبا الا على مضارع فى معنى الاستقبال كما ان ما لا تدخل الا على مضارع فى معنى الحال والمعنى لا افعل فى المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهتكم (ولا انتم عابدون ما اعبد) اى ولا انتم فاعلون فيه ما اطلب منكم من عبادة الهى (ولا انا عابد ما عبدتم) اى وما كنت قط عابدا فيما سلف ما عبدتم فيه اى لم يعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية فكيف ترجى منى فى الاسلام (ولا انتم عابدون ما اعبد) اى وما عبدتم فى وقت من الاوقات ما انا على عبادته وقيل هاتان الجملتان لنفى العبادة حالا كما ان الاوليين لنفيها استقبالا وانما لم يقل ما عبدت ليوافق ما عبدتم لانهم كانوا

ولايجوز ايضا ان يكون قوله ولا أنتم عابدون ماأعبد خطابا مع الكل لان في الكفار من آمن وصار بحيث يعبد الله فاذن وجب ان يقال ان قوله يا أيها الكافرون خطاب مشافهة مع اقوام مخصوصين وهم الذين قالوا له نعبد الهك سنة وتعبد آلهتنا سنة والحاصل انا لو حملنا الخطاب على العموم دخل التخصيص ولو حملناه على انه خطاب مشافهة لم يلزمنا ذلك فكان حمل الآية على هذا المحمل اولى * أما قوله تعالى (لا اعبد ماتعبدون ولا انتم عابدون ما أعبد ولا انا عابد ماعبدتم ولا انتم عابدون ما اعبد) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في هذه الآية قولان (احدهما) انه لاتكرار فيها (والثاني) ان فيها تكرارا اما الاول فتقريره من وجوه (احدها) ان الاول للمستقبل والثاني للحال والدليل على ان الاول للمستقبل ان لا لاتدخل الا على مضارع في معنى الاستقبال الاترى ان لن تأكيد فيما ينفيه لا وقال الخليل في لن اصله لا ان اذا ثبت هذا فقوله لا اعبد ماتعبدون اى لا افعل في المستقبل ماتطلبونه مني من عبادة آلهتكم ولا انتم فاعلون في المستقبل ما اطلبه منكم من عبادة الهي ثم قال ولا انا عابد ماعبدتم اى ولست في الحال بعابد معبودكم ولا انتم في الحال بعابدين لمعبودي (الوجه الثاني) ان نقلب الامر فنجعل الاول للحال والثاني للاستقبال والدليل على ان قوله ولا انا عابد ماعبدتم للاستقبال انه رفع لمفهوم قولنا انا عابد ماعبدتم ولاشك ان هذا للاستقبال بدليل انه لو قال انا قاتل زيدا فهم منه الاستقبال (الوجه الثالث) قال بعضهم كل واحد منهما يصلح للحال وللاستقبال ولكنا نخص احدهما بالحال والثاني بالاستقبال دفعا للتكرار فان قلنا انه اخبر عن الحال ثم عن الاستقبال فهو الترتيب وان قلنا أخبر اولا عن الاستقبال فلانه هو الذي دعوه اليه فهو الاهم فبدأ به (فان قيل) مافائدة الاخبار عن الحال وكان معلوما انه ماكان يعبد الصنم واما الكفار فكانوا يعبدون الله في بعض الاحوال (قلنا) اما الحكاية عن نفسه فلئلا يتوهم الجاهل انه يعبدها سرا خوفا منها او طمعا اليها واما نفيه عبادتهم فلان فعل الكافر ليس بعادة أصلا (الوجه الرابع) وهو اختيار ابي مسلم ان المقصود من الاولين المعبود وما بمعنى الذي فكأنه قال لا اعبد الاصنام ولا تعبدون الله واما في الآخرين فما مع الفعل في تأويل المصدر اى لا اعبد عبادتكم المبنية على الشرك وترك النظر ولا أنتم تعبدون عبادتي المبنية على اليقين فأن زعمتم انكم تعبدون الهي كان ذلك باطلا لان العبادة فعل مأمور به وما تفعلونه أنتم فهو منهي عنه وغير مأمور به (الوجه الخامس) ان تحمل الاولى على نفي الاعتبار الذي ذكروه والثانية على النفي العام المتناول لجميع الجهات فكأنه اولا قال لأعبد ماتعبدون رجاء ان تعبدوا الله ولا أنتم تعبدون الله رجاء ان اعبد اصنامكم ثم قال ولا انا عابد صنمكم لغرض من الاغراض ومقصود من المقاصد البتة بوجه من الوجوه ولا انتم عابدون ما اعبد بوجه من الوجوه واعتبار من الاعتبارات ومثاله من يدعو غيره الى الظلم لغرض التنعم فيقول لا اظلم لغرض التنعم بل لا اظلم اصلا

موسومين قبل البعثة بعبادة الاصنام وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوما بعبادة الله تعالى وايثار مافي ما اعبد على من لان المراد هو الوصف كانه قيل ما اعبد من المعبود العظيم الشان الذي لايقادر قدر عظمته وقيل ان ما مصدرية اى لا اعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي وقيل الاوليان بمعنى الذي والاخريان مصدريتان وقيل قوله تعالى ولا انا عابد ماعبدتم تاكيد لقوله تعالى لا اعبد ماتعبدون وقوله تعالى ولا انتم عابدون ما اعبد ثانيا تأكيد لمثله المذكور اولا وقوله تعالى (لكم دينكم) تقرير لقوله تعالى

(لا)

لالهذا الغرض ولا لسائر الاغراض (القول الثانى) وهو ان نسلم حصول التكرار وعلى هذا القول العذر عنه من ثلاثة اوجه (الاول) ان التكرير يفيد التوكيد وكلما كانت الحاجة الى التأكيد اشد كان التكرير احسن ولا موضع احوج الى التأكيد من هذا الموضع لان اولئك الكفار رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا المعنى مرارا وسكت رسول الله عن الجواب فوقع فى قلوبهم انه عليه السلام قد مال الى دينهم بعض الميل فلا جرم دعت الحاجة الى التأكيد والتكرير فى هذا النفى والابطال (الوجه الثانى) انه كان القرآن ينزل شيئا بعد شئ وآية بعد آية جوابا عما يسألون فالمشركون قالوا استلم بعض آلهتنا حتى نؤمن بالهك فانزل الله ولا انا عابد ماعبدتم ولا انتم عابدون ما اعبد ثم قالوا بعد مدة تعبد آلهتنا شهرا ونعبد الهك شهرا فانزل الله ولا انا عابد ماعبدتم ولا انتم عابدون ماعبد ولما كان هذا الذى ذكرناه محتملا لم يكن التكرار على هذا الوجه مضرا البتة (الوجه الثالث) ان الكفار ذكروا تلك الكلمة مرتين تعبد آلهتنا شهرا ونعبد الهك شهرا وتعبد آلهتنا سنة ونعبد الهك سنة فاتى الجواب على التكرير على وفق قولهم وهو ضرب من التهكم فان من كرر الكلمة الواحدة لغرض فاسد يجازى بدفع تلك الكلمة على سبيل التكرار استخفافا به واستحقارا لقوله (المسئلة الثانية) فى الآية سؤال وهو ان كلمة ما لا تتناول من يعلم فهب ان معبودهم كان كذلك فصح التعبير عنه بلفظ ما لكن معبود محمد عليه السلام هو اعلم العالمين فكيف قال ولا انتم عابدون ما اعبد اجابوا عنه من وجوه (احدها) ان المراد منه الصفة كأنه قال لا اعبد الباطل وانتم لا تعبدون الحق (وثانيها) ان ما مصدرية فى الجملتين كأنه قال لا اعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى فى المستقبل ثم قال ثانيا لا اعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى فى الحال (وثالثها) ان يكون ما بمعنى الذى وحينئذ يصح الكلام (ورابعها) انه لما قال اولا لا اعبد ما تعبدون حمل الثانى عليه ليتسق الكلام كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها (المسئلة الثالثة) احتج اهل الجبر بأنه تعالى اخبر عنهم مرتين بقوله ولا انتم عابدون ما اعبد والخبر الصدق عن عدم الشئ يضاده وجود ذلك الشئ فالتكليف بتحصل العبادة مع وجود الخبر الصدق بعدم العبادة تكليف بالجمع بين الضدين واعلم انه بقى فى الآية سؤالات (السؤال الاول) اليس ان ذكر الوجه الذى لاجله تقبح عبادة غير الله كان اولى من هذا التكرير (الجواب) بل قد يكون التأكيد والتكرير اولى من ذكر الحجة اما لان المخاطب بليد ينتفع بالمبالغة والتكرير ولا ينتفع بذكر الحجة او لاجل ان محل النزاع يكون فى غاية الظهور فالمناظرة فى مسئلة الجبر والقدر حسنة اما القائل بالصنم فهو اما مجنون يجب شده او عاقل معاند فيجب قتله وان لم يقدر على قتله فيجب شتمه والمبالغة فى الانكار عليه كما فى هذه الآية (السؤال الثانى) ان اول السورة اشتمل على التشديد وهو النداء بالكفر والتكرير وآخرها

لا اعبد ما تعبدون وقوله تعالى ولا انا عابد ماعبدتم كان قوله تعالى (ولى دين) تقرير لقوله تعالى ولا انتم عابدون ما اعبد والمعنى ان دينكم الذى هو الاشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه الى الحصول لى ايضا كما تطمعون فيه فلا تعلقوا به امانيكم الفارغة فان ذلك من المحالات وان دينى الذى هو التوحيد مقصور على الحصول لى لا يتجاوزه الى الحصول لكم ايضا لانكم علقتموه بالمحال الذى هو عبادتى لآلهتكم او استلامى اياها ولان ما وعدتموه عين الاشراك وحيث كان مبنى قولهم تعبد آلهتنا سنة ونعبد

على الطف والتساهل وهو قوله لكم دينكم ولى دين فكيف وجه الجمع بين الامرين (الجواب) كأنه يقول انى قد بالغت فى تحذيركم عن هذا الامر القبيح وماقصرت فيه فان لم تقبلوا قولى فاتركونى سواء بسواء (السؤال الثالث) لما كان التكرير لاجل التأكيد والمبالغة فكان ينبغى ان يقول لن اعبد ماتعبدون لان هذا ابلغ الاترى ان اصحاب الكهف لما بالغوا قالوا لن ندعو من دونه الها (الجواب) المبالغة انما يحتاج اليها فى موضع التهمة وقد علم كل احد من محمد عليه السلام انه ماكان يعبد الصنم قبل الشرع فكيف يعبده بعد ظهور الشرع بخلاف اصحاب الكهف فانه وجد منهم ذلك فيما قبل * اما قوله تعالى (لكم دينكم ولى دين) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس لكم كفركم بالله ولى التوحيد والاخلاص له (فان قيل) فهل يقال انه اذن لهم فى الكفر (قلنا) كلا فانه عليه السلام مابعث الاللمنع من الكفر فكيف يأذن فيه ولكن المقصود منه احد امور (احدها) ان المقصود منه التهديد كقوله اعملوا ماشئتم (وثانيها) كأنه يقول انى نبى مبعوث اليكم لادعوكم الى الحق والنجاة فاذا لم تقبلوا منى ولم تتبعونى فاتركونى ولاتدعونى الى الشرك (وثالثها) لكم دينكم فكونوا عليه ان كان الهلاك خيرا لكم ولى دينى لانى لاارفضه (القول الثانى) فى تفسير الآية ان الدين هو الحساب اى لكم حسابكم ولى حسابى ولايرجع الى كل واحد منا من عمل صاحبه اثر البتة (القول الثالث) ان يكون على تقدير حذف المضاف اى لكم جزاء دينكم ولى جزاء دينى وحسبهم جزاء دينهم وبالاوعقابا كما حسبك جزاء دينك تعظيما وثوابا (القول الرابع) الدين العقوبة ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله يعنى الحد فلكم العقوبة من ربى ولى العقوبة من اصنامكم لكن اصنامكم جمادات فأنا لااخشى عقوبة الاصنام واما انتم فيحق لكم عقلا ان تخافوا عقوبة جبار السموات والارض (القول الخامس) الدين الدعاء فادعوا الله مخلصين له الدين اى لكم دعاؤكم ومادعاء الكافرين الا فى ضلال وان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ثم ليتها تبقى على هذه الحالة فلا يضرونكم بل يوم القيامة يجدون لسانا فيكفرون بشرككم واماربى فيقول ويستجيب الذين آمنوا ادعونى استجب لكم اجيب دعوة الداع اذا دعان (القول السادس) الدين العادة قال الشاعر

يقول لها وقد دارت وضينى * اهذا دينها ابدا ودينى

معناه لكم عادتكم المأخوذة من اسلافكم ومن الشياطين ولى عادتى المأخوذة من الملائكة والوحى ثم يبقى كل واحد منا على عادته حتى تلقوا الشياطين والنار والقى الملائكة والجنة (المسئلة الثانية) قوله لكم دينكم يفيد الحصر ومعناه لكم دينكم لالغيركم ولى دينى لالغيرى وهو اشارة الى قوله وان ليس للانسان الاماسعى ولاتزر وازرة وزر اخرى اى انا مأمور بالوحى والتبليغ وانتم مأمورون بالامتثال والقبول فأنا لما

الهلك سنة على شركة الفريقين فى كلتا العبادتين كان القصر المستفاد من تقديم المسند قصر افراد حتما ويجوز ان يكون هذا تقرير القوله تعالى ولاانا عابد ماعبدتم اى ولى دينى لادينكم كما هو فى قوله تعالى ولكم ماكسبتم وقيل المعنى انى نبى مبعوث اليكم لادعوكم الى الحق والنجاة فاذا لم تقبلوا منى ولم تتبعونى فدعونى كفافا ولاتدعونى الى الشرك فتأمل * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وتعافى من الفزع الاكبر

(فعلت)

فعلت ما كلفت به خرجت عن عهدة التكليف واما اصراركم على كفركم فذلك مما لا يرجع الى منه ضرر البتة (المسئلة الثالثة) جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة وذلك غير جائز لانه تعالى ما انزل القرآن ليتمثل به بل ليتدبر فيه ثم يعمل بموجبه والله تعالى اعلم واحكم .

(سورة النصر ثلاث آيات مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اذا جاء نصر الله) فى الآية لطائف (احدها) انه تعالى لما وعد محمدا بالتربية العظيمة بقوله ولسوف يعطيك ربك فترضى وقوله انا اعطيناك الكوثر لاجرم كان يزداد كل يوم امره كأنه تعالى قال يا محمد لم يضيق قلبك الست حين لم تكن مبعوثا لم اضيعك بل نصرتك بالطير الابابيل وفى اول الرسالة زدت فجعلت الطير ملائكة الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بخمسة آلاف ثم الآن ازيد فأقول انى اكون ناصرا لك بذاتى اذا جاء نصر الله فقال الهى انما تتم النعمة اذا فتحت لى دار مولدى ومسكنى فقال والفتح فقال الهى لكن القوم اذا خرجوا فأى لذة فى ذلك فقال ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ثم كأنه قال هل تعلم يا محمد بأى سبب وجدت هذه التشريفات الثلاثة انما وجدتها لانك قلت فى السورة المتقدمة يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون وهذا يشتمل على أمور ثلاثة (اولها) نصرتنى بلسانك فكأن جزاؤه اذا جاء نصر الله (وثانيها) فتحت مكة قلبك بعسكر التوحيد فأعطيناك فتح مكة وهو المراد من قوله والفتح (والثالث) أدخلت رعية جوارحك وأعضائك فى طاعتى وعبوديتى فأنا ايضا ادخلت عبادى فى طاعتك وهو المراد من قوله يدخلون فى دين الله أفواجا ثم انك بعد ان وجدت هذه الخلع الثلاثة فابعث الى حضرتى بثلاث انواع من العبودية تهادوا تحابوا ان نصرتك فسبح وان فتحت مكة فاحمد وان أسلموا فاستغفر وانما وضع فى مقابلة نصر الله تسبيحه لان التسبيح هو تنزيه الله عن مشابهة المحدثات يعنى تشاهد انه نصرك فاياك ان تظن انه انما نصرك لانك تستحق منه ذلك النصر بل اعتقد كونه منزها عن ان يستحق عليه احد من الخلق شيئا ثم جعل فى مقابلة فتح مكة الحمد لان النعمة لا يمكن ان تقابل الا بالحمد ثم جعل فى مقابلة دخول الناس فى الدين الاستغفار وهو المراد من قوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات اى كثرة الاتباع مما يشغل القلب بلذة الجاه والقبول فاستغفر لهذا القدر من ذنبك واستغفر لذنبهم فأنهم كلما كانوا اكثر كانت ذنوبهم اكثر فكان احتياجهم الى استغفارك اكثر (الوجه الثانى) انه عليه السلام لما تبرأ عن الكفر وواجههم بالسوء فى قوله يا أيها الكافرون كأنه خاف بعض القول فقلل من تلك الخشونة فقال لكم دينكم ولى دين فقيل يا محمد لا تخف فأنى لا اذهب بك الى النصر بل أجئ بالنصر اليك اذا جاء نصر الله نظيره زويت لى الارض يعنى لا تذهب الى الارض بل تجئ الارض اليك فان سئمت المقام

(سورة النصر مدنية وآيها ثلاث)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(اذا جاء نصر الله) اى اعانته تعالى

واردت الرحلة فثلاث لا يرتحل الا الى قاب قوسين سبحان الذى اسرى بعبده بل ازيد على هذا فأفضل فقراء امتك على اغنيائهم ثم امر الاغنياء بالضحايا ليتخذوها مطايا فاذا بقى الفقير من غير مطية اسوق الجنة اليه وازلفت الجنة للمتقين (الوجه الثالث) كأنه سبحانه قال يا محمد ان الدنيا لا يصفو كدرها ولا يدوم محنها ولا نعيمها فرحت بالكوثر فتحمل مشقة سفاهة السفهاء حيث قالوا اعبد آلهتنا حتى نعبد الهك فلما تبرأ عنهم وضاق قلبه من جهتهم قال ابشر فقد جاء نصر الله فلما استبشر قال الرحيل الرحيل اما علمت انه لا بد بعد الكمال من الزوال فاستغفره ايها الانسان لا تحزن من جوع الربيع فعقيبه غنى الخريف ولا تفرح بغنى الخريف فعقيبه وحشة الشتاء فكذا من تم اقباله لا يبقى له الا القبر ومنه

اذا تم أمر دنا نقصه * توقع زوالا اذا قيل تم

الهى لم فعلت كذلك قال حتى لا تضع قلبك على الدنيا بل تكون ابدا على جناح الارتحال والسفر (الوجه الرابع) لما قال فى آخر السورة المتقدمة لكم دينكم ولى دين فكأنه قال الهى وما جزائى فقال نصر الله فيقول وما جزاء عمى حين دعانى الى عبادة الاصنام فقال تبت يدا أبى لهب فأن قيل فلم بدأ بالوعد قبل الوعيد قلنا لوجوه (أحدها) لان رحمته سبقت غضبه (والثانى) ليكون الجنس متصلا بالجنس فانه قال ولى دين وهو النصر كقوله يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم (وثالثها) الوفاء بالوعد أهم فى الكرم من الوفاء بالانتقام فتأمل فى هذه المجانسات الحاصلة بين هذه السور مع ان هذه السورة من اواخر ما نزل بالمدينة وتلك السورة من اوائل ما نزل بمكة ليعلم ان ترتيب هذه السور من الله وبأمره (الوجه الخامس) ان فى السورة المتقدمة لم يذكر شيئا من اسماء الله بل قال ما أعبد بلفظ ما كأنه قال لا اذكر اسم الله حتى لا يستخفوا فتزداد عقوبتهم وفى هذه السورة ذكر اعظم اساميه لانها منزلة على الاحباب ليكون ثوابهم بقراءته اعظم فكأنه سبحانه قال لا تذكر اسمى مع الكافرين حتى لا يهينوه واذكره مع الاولياء حتى يكرموه (الوجه السادس) قال النحويون اذا منصوب بسبح والتقدير فسبح بحمد ربك اذا جاء نصر الله كأنه سبحانه يقول جعلت الوقت ظرفا لما تريده وهو النصر والفتح والظفر وملأت ذلك الظرف من هذه الاشياء وبعثته اليك فلا ترده على فارغا بل املأه من العبودية ليتحقق معنى تهادوا تحابوا فكأن محمدا عليه السلام قال بأى شئ املأ ظرف هديتك وأنا فقير فيقول الله فى المعنى ان لم تجد شيئا آخر فلا أقل من تحريك اللسان بالتسبيح والحمد والاستغفار فلما فعل محمد عليه السلام ذلك حصل معنى تهادوا لا جرم حصلت المحبة فلهذا كان محمد حبيب الله (الوجه السابع) كأنه تعالى يقول اذا جاءك النصر والفتح ودخول الناس فى دينك فاشتغل أنت ايضا بالتسبيح والحمد والاستغفار فأنى قلت لئن شكرتم لأزيدنكم فيصير اشتغالك بهذه الطاعات سببا لمزيد درجاتك فى الدنيا والآخرة ولا تزال تكون فى الترقى حتى يصير الوعد بقولى

انا اعطيناك الكوثر (الوجه الثامن) ان الايمان انما يتم بأمرين بالنفي والاثبات وبالبراءة والولاية فالنفي والبراءة قوله لااعبدماتعبدون والاثبات والولاية قوله اذاجاء نصرالله فهذه هي الوجوه الكلية المتعلقة بهذه السورة واعلم ان في الآية اسرارا وانما يمكن بيانها في معرض السؤال والجواب (السؤال الاول) ماالفرق بين النصر والفتح حتى عطف الفتح على النصر (الجواب) من وجوه (احدها) النصر هو الاعانة على تحصيل المطلوب والفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلقا وظاهر ان النصر كالسبب للفتح فلهذا ابدأ بذكر النصر وعطف الفتح عليه (وثانيها) يحتمل ان يقال النصر كمال الدين والفتح الاقبال الدنيوى الذى هو تمام النعمة ونظير هذه الآية قوله اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي (وثالثها) النصر هو الظفر في الدنيا على المنى والفتح بالجنة كما قال وفتحت ابوابها واظهر الاقوال في النصر انه الغلبة على قريش اوعلى جميع العرب (السؤال الثاني) ان رسوالله صلى الله عليه وسلم كان ابدا منصورا بالدلائل والمعجزات فما المعنى من تخصيص لفظ النصر بفتح مكة (الجواب) من وجهين (احدهما) المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع وانما جعل لفظ النصر المطلق دالا على هذا النصر المخصوص لان هذا النصر لعظم موقعه من قلوب اهل الدنيا جعل ماقبله كالمعدوم كما ان المثاب عند دخول الجنة يتصور كأنه لم يذق نعمة قط والى هذا المعنى الاشارة بقوله تعالى وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله (وثانيهما) لعل المراد نصر الله في امور الدنيا الذى حكم به لانبيائه كقوله ان أجل الله اذا جاء لايؤخر (السؤال الثالث) النصر لايكون الا من الله قال تعالى وما النصر الا من عندالله فما الفائدة في هذا التقييد وهو قوله نصر الله (الجواب) معناه نصر لايليق الا بالله ولايليق ان يفعله الا الله اولا يليق الا بحكمته ويقال هذا صنعة زيد اذا كان زيد مشهورا بأحكام الصنعة والمراد منه تعظيم حال تلك الصنعة فكذا ههنا اونصر الله لانه اجابة لدعائهم متى نصر الله فيقول هذا الذى سألتموه (السؤال الرابع) وصف النصر بالمجيئ مجاز وحقيقته اذا وقع نصر الله فما الفائدة في ترك الحقيقة وذكر المجاز (الجواب) فيه اشارات (احداها) ان الامور مربوطة بأوقاتها وانه سبحانه قدر لحدوث كل حادث اسبابا معينة واوقاتا مقدرة يستحيل فيها التقدم والتأخر والتغير والتبدل فاذا حضر ذلك الوقت وجاء ذلك الزمان حضر معه ذلك الاثر واليه الاشارة بقوله وان من شئ الا عندنا خزائنه ومانتزله الابقدر معلوم (وثانيتها) ان اللفظ دل على ان النصر كان كالمشتاق الى محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لان ذلك النصر كان مستحقاله بحكم الوعد فالمقتضى كان موجودا الا ان تخلف الاثر كان لفقدان الشرط فكان كالثقيل المعلق فأن ثقله يوجب الهوى الا ان العلاقة مانعة فالثقيل يكون كالمشتاق الى الهوى فكذا ههنا النصر كان كالمشتاق الى محمد صلى الله عليه وسلم (وثالثتها) ان عالم العدم عالم لانهاية له وهو

عالم الظلمات الآن فى قعرها ينبوع الجود والرحمة وهو ينبوع جود الله وايجاده ثم انشعبت بحار الجود والانوار وأخذت فى السيلان وسيلانها يقتضى فى كل حين وصولها الى موضع ومكان معين فبحار رحمة الله ونصرته كانت آخذة فى السيلان من الازل فكأنه قيل يا محمد قرب وصولها اليك ومجيئها اليك فاذا جاءتك أمواج هذا البحر فاشتغل بالتسبيح والتحميد والاستغفار فهذه الثلاثة هى السفينة التى لا يمكن الخلاص من بحار الربوبية الا بها ولهذا السبب لما ركب ابوك نوح بحر القهر والكبرياء استعان بقوله بسم الله مجراها ومرساها (السؤال الخامس) لاشك ان الذين اعانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة هم الصحابة من المهاجرين والانصار ثم انه سمى نصرتهم لرسول الله نصر الله فما السبب فى ان صار الفعل الصادر عنهم مضافا الى الله (الجواب) هذا بحر يتفجر منه بحر سر القضاء والقدر وذلك لان فعلهم فعل الله وتقريره ان افعالهم مسندة الى ما فى قلوبهم من الدواعى والصوارف وتلك الدواعى والصوارف امور حادثة فلا بد لها من محدث وليس هو العبد والالزم التسلسل فلابد وان يكون هو الله تعالى فيكون المبدأ الاول والمؤثر الابعد هو الله تعالى ويكون المبدأ الاقرب هو العبد فمن هذا الاعتبار صارت النصرة المضافة الى الصحابة بعينها مضافة الى الله تعالى (فان قيل) فعلى هذا التقدير الذى ذكرتم يكون فعل العبد مفرعا على فعل الله تعالى وهذا يخالف النص لانه قال ان تنصروا الله ينصركم فجعل نصرنا له مقدما على نصره لنا (الجواب) انه لا امتناع فى ان يصدر عن الحق فعل فيصير ذلك سببا لصدور فعل عنا ثم الفعل عنا ينساق الى فعل آخر يصدر عن الرب فأن اسباب الحوادث ومسبباتها متسلسلة على ترتيب عجيب يعجز عن ادراك كيفيته اكثر العقول البشرية (السؤال السادس) كلمة اذا للمستقبل فههنا لما ذكر وعدا مستقبلا بالنصر قال اذا جاء نصر الله فذكره ذاته باسم الله ولما ذكر النصر الماضى حين قال ولئن جاء نصر من ربك ليقولن فذكره بلفظ الرب فما السبب فى ذلك (الجواب) لانه تعالى بعد وجود الفعل صار ربا وقبله ما كان ربا لكن كان الها (السؤال السابع) انه تعالى قال ان تنصروا الله ينصركم وان محمدا عليه السلام نصر الله حين قال يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون فكان واجبا بحكم هذا الوعد ان ينصره الله فلا جرم قال اذا جاء نصر الله فهل نقول بأن هذا النصر كان واجبا عليه (الجواب) ان ما ليس بواجب قد يصير واجبا بالوعد ولهذا قال وعد الكريم الزم من دين الغريم كيف ويجب على الوالد نصرة ولده وعلى المولى نصرة عبده بل يجب النصر على الاجنبى اذا تعين بأن كان واحدا اتفاقا وان كان مشغولا بصلاة نفسه ثم اجتمعت هذه الاسباب فى حقه تعالى فوعد مع الكرم وهو ارأف بعبده من الوالد بولده والمولى بعبده وهو ولى بحسب الملك ومولى بحسب السلطنة وقيوم للتدبير وواحد فرد لا ثانى له فوجب عليه وجوب الكرم نصرة عبده فلهذا قال اذا جاء نصر الله ❊ اما قوله تعالى (والفتح) ففيه مسائل (المسئلة الاولى)

واظهاره اياك على عدوك (والفتح) اى فتح مكة وقيل جنس نصر الله تعالى ومطلق الفتح فان فتح مكة لما كان مفتاح الفتوح ومناطها كما ان نفسها أم القرى وامامها جعل مجيئه بمنزلة مجئ سائر الفتوح وعلق به امره عليه السلام بالتسبيح والحمد والتعبير عن حصول النصر والفتح بالمجئ للايذان بأنهما متوجهان نحوه عليه السلام وانهما على جناح الوصول اليه عليه السلام عن قريب روى انها نزلت قبل الفتح وعليه الاكثر وقيل فى ايام التشريق بمنى فى حجة الوداع فكلمة اذا حينئذ باعتبار ان بعض ما فى حيزها اعنى رؤية دخول الناس الخ غير منقض بعد وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان ومع النبى عليه الصلاة والسلام عشرة آلاف من المهاجرين والانصار وطوائف العرب وأقام بها خمس عشرة ليلة وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ثم قال يا أهل مكة ما ترون أنى فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فانتم الطلقاء فاعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان الله تعالى امكنه من رقابهم عنوة

نقل عن ابن عباس ان الفتح هو فتح مكة وهو الفتح الذى يقال له فتح الفتوح روى انه لما
كان صلح الحديبية وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم اغار بعض من كان فى عهد
قريش على خزاعة وكانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء سفير ذلك القوم واخبر
رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم ذلك عليه ثم قال اما ان هذا العارض ليخبرنى ان الظفر
يجئ من الله ثم قال لاصحابه انظروا فان أباسفيان يجئ ويلتمس ان يجدد العهد فلم تمض
ساعة ان جاء الرجل ملتمسا لذلك فلم يجبه الرسول ولا أكابر الصحابة فالتجأ الى فاطمة فلم
ينفعه ذلك ورجع الى مكة آيسا وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسير لمكة ثم
يروى ان سارة مولاة بعض بنى هاشم أتت المدينة فقال عليه السلام لها جئت مسلمة
قالت لا لكن كنتم الموالى وبى حاجة فحث عليها رسول الله بنى عبد المطلب فكسوها
وحملوها وزودوها فأتاها حاطب بعشرة دنانير واستحملها كتابا الى مكة نسخته اعلموا
ان رسول الله يريدكم فخذوا حذركم فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر فبعث رسول الله صلى
الله عليه وسلم عليا عليه السلام وعمارا فى جماعة وأمرهم ان يأخذوا الكتاب والا فاضربوا
عنقها فلما ادركوها جحدت وحلفت فسل على عليه السلام سيفه وقال والله ما كذبنا
فأخرجته من عقيصة شعرها واستحضر النبى حاطبا وقال ما حملك عليه فقال والله
ما كفرت منذ اسلمت ولا احببتهم منذ فارقتهم لكن كنت غريبا فى قريش وكل من معك من
المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم فخشيت على اهلى فاردت أن اتخذ عندهم يدا
فقال عمر دعنى اضرب عنق هذا المنافق فقال وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على اهل
بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر ثم خرج رسول الله الى ان نزل
بمر الظهران وقدم العباس وابو سفيان اليه فاستأذنا فأذن لعمه خاصة فقال ابو سفيان اما
أن تأذن لى والا أذهب بولدى الى المفازة فيموت جوعا وعطشا فرق قلبه فأذن له وقال له
الم يأن ان تسلم وتوحد فقال أظن انه واحد ولو كان ههنا غير الله لنصرنا فقال ألم يأن أن
تعرف انى رسوله فقال ان لى شكا فى ذلك فقال العباس اسلم قبل ان يقتلك عمر فقال وماذا
أصنع بالعزى فقال عمر لولا انك بين يدى رسول الله لضربت عنقك فقال يا محمد أليس
الاولى ان تترك هؤلاء الاوباش وتصالح قومك وعشيرتك فسكان مكة عشيرتك واقاربك
وتعرضهم للشن والغارة فقال عليه السلام هؤلاء نصرونى واعانونى وذبوا عن حريمى
واهل مكة اخرجونى وظلمونى فان هم اسروا فبسوء صنيعهم وامر العباس بأن يذهب به
ويوقفه على المرصاد ليطالع العسكر فكانت الكتيبة تمر عليه فيقول من هذا فيقول
العباس هو فلان من امراء الجند الى ان جاءت الكتيبة الخضراء التى لايرى منها الا
الحدق فسأل عنهم فقال العباس هذا رسول الله فقال لقد اوتى ابن اخيك ملكا عظيما
فقال العباس هو النبوة فقال هيهات النبوة ثم تقدم ودخل مكة وقال ان محمدا جاء بعسكر
لايطيقه احد فصاحت هند وقالت اقتلوا هذا المبشر واخذت بلحيته فصاح الرجل

ودفعها عن نفسه ولما سمع ابو سفيان اذان القوم للفجر وكانوا عشرة آلاف فزع لذلك فزعا شديدا وسأل العباس فأخبره بأمر الصلاة ودخل رسول الله مكة على راحلته ولحيته على قربوس سرجه كالساجد تواضعا وشكرا ثم التمس ابو سفيان الامان فقال من دخل دار ابي سفيان فهو آمن فقال ومن تسع داري فقال ومن دخل المسجد فهو آمن فقال ومن يسع المسجد فقال من القى سلاحه فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ثم وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب المسجد وقال لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ثم قال يا أهل مكة ماترون اني فاعل بكم فقالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم فقال اذهبوا فانتم الطلقاء فأعتقهم فلذلك سمى اهل مكة الطلقاء ومن ذلك كان علي عليه السلام يقول لمعاوية أني يستوي المولى والمعتق يعني اعتقنا كم حين مكننا الله من رقابكم ولم يقل اذهبوا فأنتم معتقون بل قال الطلقاء لان المعتق لايجوز ان يرد الى الرق والمطلقة يجوز ان تعاد الى رق النكاح وكانوا بعد على الكفر فكان يجوز أن يخونوا فيستباق رقهم مرة اخرى ولان الطلاق يخص النسوان وقد ألقوا السلاح وأخذوا المساكن كالنسوان ولان المعتق يخلى سبيله يذهب حيث شاء والمطلقة تجلس في البيت للعدة وهم أمروا بالجلوس بمكة كالنسوان ثم ان القوم بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام فصاروا يدخلون في دين الله أفواجا روى انه عليه السلام صلى ثمان ركعات اربعة صلاة الضحى واربعة اخرى شكرا لله نافلة فهذا هو قصة فتح مكة والمشهور عند المفسرين ان المراد من الفتح في هذه السورة هو فتح مكة ومما يدل على ان المراد بالفتح فتح مكة انه تعالى ذكره مقرونا بالنصر وقد كان يجد النصر دون الفتح كبدر والفتح دون النصر كاجلاء بني النضير فانه فتح البلد لكن لم يأخذ القوم اما يوم فتح مكة اجتمع له الامران النصر والفتح وصار الخلق له كالارقاء حتى اعتقهم (القول الثاني) ان المراد فتح خيبر وكان ذلك على يد علي عليه السلام والقصة مشهورة روى انه استصحب خالد بن الوليد وكان يساميه في الشجاعة فلما نصب السلم قال لخالد اتتقدم قال لا فلما تقدم علي عليه السلام سأله كم صعدت فقال لا ادري لشدة الخوف وروى انه قال لعلي عليه السلام الاتصارعني فقال الست صرعتك فقال نعم لكن ذلك قبل اسلامي ولعل عليا عليه السلام انما امتنع عن مصارعته ليقع صيته في الاسلام انه رجل يمتنع عنه علي او كان علي يقول صرعتك حين كنت كافرا اما الآن وانت مسلم فلا يحسن ان اصرعك (القول الثالث) انه فتح الطائف وقصته طويلة (القول الرابع) المراد النصر على الكفار وفتح بلاد الشرك على الاطلاق وهو قول ابي مسلم (القول الخامس) اراد بالفتح مافتح الله عليه من العلوم ومنه قوله وقل رب زدني علما لكن حصول العلم لابد وان يكون مسبوقا بانشراح الصدر وصفاء القلب وذلك هو المراد من قوله اذا جاء نصر الله ويمكن ان يكون المراد بنصر الله اعانته على الطاعات والخيرات والفتح هو انفتاح عالم المعقولات

(والروحانيات)

والروحانيات (المسئلة الثانية) اذا حملنا الفتح على فتح مكة فللناس فى وقت نزول هذه السورة قولان (أحدهما) ان فتح مكة كان سنة ثمان ونزلت هذه السورة سنة عشر وروى انه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوما ولذلك سميت سورة التوديع (والقول الثانى) ان هذه السورة نزلت قبل فتح مكة وهو وعد لرسول الله ان ينصره على أهل مكة وان يفتحها عليه ونظيره قوله تعالى ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد وقوله اذا جاء نصر الله والفتح يقتضى الاستقبال اذ لايقال فيما وقع اذا جاء واذا وقع واذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات من حيث انه خبر وجد مخبره بعد حين مطابقا له والاخبار عن الغيب معجز (فان قيل) لم ذكر النصر مضافا الى الله تعالى وذكر الفتح بالالف واللام (الجواب) الالف واللام للمعهود السابق فينصرف الى فتح مكة ❊ قوله تعالى (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا) فيه مسائل (المسئلة الاولى) رأيت يحتمل ان يكون معناه ابصرت وان يكون معناه علمت فان كان معناه ابصرت كان يدخلون فى محل النصب على الحال والتقدير ورأيت الناس حال دخولهم فى دين الله أفواجا وان كان معناه علمت كان يدخلون فى دين الله مفعولا ثانيا لعلمت والتقدير علمت الناس داخلين فى دين الله (المسئلة الثانية) ظاهر لفظ الناس للعموم فيقتضى ان يكون كل الناس كانوا قد دخلوا فى الوجود مع ان الامر ما كان كذلك (الجواب) من وجهين (الاول) ان المقصود من الانسانية والعقل انما هو الدين والطاعة على ماقال وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فمن أعرض عن الدين الحق وبقى على الكفر فكأنه ليس بانسان وهذا المعنى هو المراد من قوله أولئك كالانعام بل هم اضل وقال آمنوا كما آمن الناس وسئل الحسن بن على عليه السلام من الناس فقال نحن الناس واشياعنا أشباه الناس وأعداؤنا النسناس فقبله على عليه السلام بين عينيه وقال الله اعلم حيث يجعل رسالته (فان قيل) انهم انما دخلوا فى الاسلام بعد مدة طويلة وتقصير كثير فكيف استحقوا هذا المدح العظيم (قلنا) هذا فيه اشارة الى سعة رحمة الله فان العبد بعد ان أتى بالكفر والمعصية طول عمره فاذا اتى بالايمان فى آخر عمره يقبل ايمانه ويمدحه هذا المدح العظيم ويروى ان الملائكة يقولون لمثل هذا الانسان اتيت وان كنت قد أبيت ويروى انه عليه السلام قال لله أفرح بتوبة أحدكم من الضال الواجد والظمآن الوارد والمعنى كان الرب تعالى يقول ربيته سبعين سنة فان مات على كفره فلابد وان ابعثه الى النار فحينئذ يضيع احسانى اليه فى سبعين سنة فكلما كانت مدة الكفر والعصيان اكثر كانت التوبة عنها أشد قبولا (الوجه الثانى) فى الجواب روى ان المراد بالناس اهل اليمن قال ابو هريرة لما نزلت هذه السورة قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الله أكبر جاء نصر الله والفتح وجاء اهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الايمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية وقال أجد نفس ربكم من قبل اليمن (المسئلة الثالثة) قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمين ان

وكانوا له فيئا ولذلك سمى اهل مكة الطلقاء ثم بايعوه على الاسلام ثم خرج الى هوازن (ورأيت النـاس) اى ابصرتهم اوعلمتهم (يدخلون فى دين الله) اى ملة الاسلام التى لادين يضاف اليه تعالى غيرها والجملة على الاول حال من النـاس وعلى الثـانى مفعول ثان لرأيت وقوله تعالى (افواجا) حال من فاعل يدخلون اى يدخلون فيه جماعات كثيفة كاهل مكة والطـائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب وكانوا قبل ذلك يدخلون فيه واحدا واحدا واثنين اثنين روى انه عليه السلام لما فتح مكة اقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا اذا ظفر بأهل الحرم فلن يقاومه احد وقد كان الله تعالى اجارهم من اصحاب الفيل ومن كل من ارادهم فكانوا يدخلون فى دين الاسلام افواجا من غير قتـال وقرئ فتح الله والنصر وقرئ يدخلون على البناء للمفعول

ايمان المقلد صحيح واحتجوا بهذه الآية قالوا انه تعالى حكم بصحة ايمان أولئك الافواج وجعله من أعظم المنن على محمد ولو لم يكن ايمانهم صحيحا لما ذكره في هذا المعرض ثم انا نعلم قطعا انهم ما كانوا يعرفون حدوث الاجساد بالدليل ولا اثبات كونه تعالى منزها عن الجسمية والمكان والحيز ولا اثبات كونه تعالى عالما بجميع المعلومات التي لا نهاية لها ولا اثبات قيام المعجز التام على يد محمد صلى الله عليه وسلم ولا اثبات ان قيام المعجز كيف يدل على الصدق والعلم بأن أولئك الاعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضروري فعلمنا ان ايمان المقلد صحيح ولا يقال انهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه المسائل لان اصول هذه الدلائل ظاهرة بل انما كانوا جاهلين بالتفاصيل الا انه ليس من شرط كون الانسان مستدلا كونه عالما بهذه التفاصيل لانا نقول ان الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان فان الدليل اذا كان مثلا مركبا من عشر مقدمات فمن علم تسعة منها وكان في المقدمة العاشرة مقلدا كان في النتيجة مقلدا لا محالة لان فرع التقليد اولى ان يكون تقليدا وان كان عالما بمجموع تلك المقدمات العشرة استحال كون غيره اعرف منه بذلك الدليل لان تلك الزيادة ان كانت جزأ معتبرا في دلالة هذا الدليل لم تكن المقدمات العشرة الاولى تمام الدليل فانه لا بد معها من هذه المقدمة الزائدة وقد كنا فرضنا تلك العشرة كافية وان لم تكن الزيادة معتبرة في دلالة ذلك الدليل كان ذلك أمرا منفصلا عن ذلك الدليل غير معتبر في كونه دليلا على ذلك المدلول فثبت ان العلم بكون الدليل دليلا لا يقبل الزيادة والنقصان فأما ان يقال ان اولئك الاعراب كانوا عالمين بجميع مقدمات دلائل هذه المسائل بحيث ما شذ عنهم من تلك المقدمات واحدة وذلك مكابرة او ما كانوا كذلك فحينئذ ثبت انهم كانوا مقلدين ومما يؤكد ما ذكرنا ما روى عن الحسن انه قال لما فتح رسول الله مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا اذا ظفر بأهل الحرم وجب أن يكون على الحق وقد كان الله اجارهم من اصحاب الفيل وكل من أرادهم بسوء ثم أخذوا يدخلون في الاسلام أفواجا من غير قتال هذا ما رواه الحسن ومعلوم ان الاستدلال بأنه لما ظفر بأهل مكة وجب ان يكون على الحق ليس بجيد فعلمنا انهم ما كانوا مستدلين بل مقلدين (المسئلة الرابعة) دين الله هو الاسلام لقوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام ولقوله ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وللدين اسماء اخر منها الايمان قال الله تعالى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ومنها الصراط قال تعالى صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ومنها كلمة الله ومنها النور ليطفؤا نور الله ومنها الهدى لقوله يهدي به من يشاء ومنها العروة فقد استمسك بالعروة الوثقى ومنها الحبل واعتصموا بحبل الله ومنها صبغة الله وفطرة الله وانما قال في دين الله ولم يقل في دين الرب ولا سائر الاسماء لوجهين (الاول) ان هذا الاسم اعظم الاسماء لدلالته على الذات والصفات فكأنه يقول هذا الدين ان لم يكن له خصلة سوى انه دين الله فانه يكون واجب

القبول (والثانى) لو قال دين الرب لكان يشعر ذلك بأن هذا الدين انما يجب عليك قبوله لانه ربك واحسن اليك وحينئذ تكون طاعتك له معللة بطلب النفع فلا يكون الاخلاص حاصلا فكأنه يقول اخلص الخدمة بمجرد انى اله لا لنفع يعود اليك (المسئلة الخامسة) الفوج الجماعة الكثيرة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحدا واحدا واثنين اثنين وعن جابر بن عبدالله انه بكى ذات يوم فقيل له ما يبكيك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دخل الناس فى دين الله افواجا وسيخرجون منه افواجا نعوذ بالله من السلب بعد العطاء ❊ قوله تعالى (فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا) فيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى امره بالتسبيح ثم بالحمد ثم بالاستغفار ولهذا الترتيب فوائد (الفائدة الاولى) اعلم ان تأخير النصر سنين مع ان محمدا كان على الحق مما يثقل على القلب ويقع فى القلب انى اذا كنت على الحق فلم لا تنصرنى ولم سلطت هؤلاء الكفرة على فلاجل الاعتذار عن هذا الخاطر امر بالتسبيح اما على قولنا فالمراد من هذا التنزيه انك منزه عن ان يستحق احد عليك شيئا بل كل ما تفعله فأنما تفعله بحكم المشيئة الالهية فلك ان تفعل ما تشاء كما تشاء ففائدة التسبيح تنزيه الله عن ان يستحق عليه احد شيئا واما على قول المعتزلة ففائدة التنزيه هو ان يعلم العبد ان ذلك التأخير كان بسبب الحكمة والمصلحة لا بسبب البخل وترجيح الباطل على الحق ثم اذا فرغ العبد عن تنزيه الله عما لا ينبغى فحينئذ يشتغل بحمده على ما اعطى من الاحسان والبر ثم حينئذ يشتغل بالاستغفار لذنوب نفسه (الوجه الثانى) ان للسائرين طريقين (فمنهم) من قال ما رأيت شيئا الا ورأيت الله بعده (ومنهم) من قال ما رأيت شيئا الا ورأيت الله قبله ولا شك ان هذا الطريق اكمل اما بحسب المعالم الحكمية فلان النزول من المؤثر الى الاثر اجل مرتبة من الصعود من الاثر الى المؤثر واما بحسب افكار ارباب الرياضات فلان ينبوع النور هو واجب الوجود وينبوع الظلمة ممكن الوجود فالاستغراق فى الاول يكون اشرف لا محالة ولان الاستدلال بالاصل على التبع يكون اقوى من الاستدلال بالتبع على الاصل واذا ثبت هذا فنقول الآية دالة على هذه الطريقة التى هى اشرف الطريقين وذلك لانه قدم الاشتغال بالخالق على الاشتغال بالنفس فذكر اولا من الخالق امرين (احدهما) التسبيح (والثانى) التحميد ثم ذكر فى المرتبة الثالثة الاستغفار وهو حالة ممزوجة من الالتفات الى الخالق والى الخلق واعلم ان صفات الحق محصورة فى السلب والايجاب والنفى والاثبات والسلوب مقدمة على الايجابات فالتسبيح اشارة الى التعرض للصفات السلبية التى لواجب الوجود وهى صفات الجلال والتحميد اشارة الى الصفات الثبوتية له وهى صفات الاكرام ولذلك فان القرآن يدل على تقدم الجلال على الاكرام ولما اشار الى هذين النوعين من الاستغفار بمعرفة واجب الوجود نزل منه الى الاستغفار لان الاستغفار فيه رؤية قصور النفس وفيه

فسبح بحمد ربك) فقل سبحان الله حامدا له او فتعجب لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببال احد من ان يغلب احد على اهل حرمه المحترم واجده على جبل صنعه هذا على الرواية الاولى ظاهر واما على الثانية فلعله عليه السلام امر بان يداوم على ذلك استعظاما لنعمه لا باحداث التعجب لما ذكر فانه انما يناسب حالة الفتح او فاذكره مسبحا حامدا زيادة فى عبادته والثناء عليه لزيادة انعامه عليك او فصل له حامدا على نعمه وروى انه لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى ثمان ركعات او فنزهه عما

رؤية جود الحق وفيه طلب لما هو الاصلح والاكمل للنفس ومن المعلوم ان بقدر اشتغال العبد بمطالعة غير الله يبقى محروما عن مطالعة حضرة جلال الله فلهذه الدقيقة اخر ذكر الاستغفار عن التسبيح والتحميد (الوجه الثالث) انه ارشاد للبشر الى التشبه بالملكية وذلك لان اعلى كل نوع اسفل متصل باسفل النوع الاعلى ولهذا قيل آخر مراتب الانسانية اول مراتب الملكية ثم الملائكة ذكروا في انفسهم ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك فقوله ههنا فسبح بحمد ربك اشارة الى التشبه بالملائكة في قولهم ونحن نسبح بحمدك وقوله ههنا واستغفره اشارة الى قوله تعالى ونقدس لك لانهم فسروا قوله ونقدس لك اى نجعل انفسنا مقدسة لاجل رضاك والاستغفار يرجع معناه ايضا الى تقديس النفس ويحتمل ان يكون المراد انهم دعوا لانفسهم انهم سبحوا بحمدى ورأوا ذلك من انفسهم واما انت فسبح بحمدى واستغفر من ان ترى تلك الطاعة من نفسك بل يجب ان تراها من توفيقى واحسانى ويحتمل ان يقال الملائكة كما قالوا في حق انفسهم ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال الله في حقهم ويستغفرون للذين آمنوا فانت يا محمد استغفر للذين جاؤا افواجا كالملائكة يستغفرون للذين آمنوا ويقولون ربنا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك (الوجه الرابع) التسبيح هو التطهير فيحتمل ان يكون المراد طهر الكعبة من الاصنام وكسرها ثم قال بحمد ربك اى ينبغى ان يكون اقدامك على ذلك التطهير بواسطة الاستغفار بحمد ربك واعانته وتقويته ثم اذا فعلت ذلك فلا ينبغى ان ترى نفسك آتيا بالطاعة اللائقة به بل يجب ان ترى نفسك في هذه الحالة مقصرة فاطلب الاستغفار عن تقصيرك في طاعته (الوجه الخامس) كأنه تعالى يقول يا محمد اما ان تكون معصوما اولم تكن معصوما فان كنت معصوما فاشتغل بالتسبيح والتحميد وان لم تكن معصوما فاشتغل بالاستغفار فتكون الآية كالتنبيه على انه لافراغ عن التكليف في العبودية كما قال واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (المسئلة الثانية) في المراد من التسبيح وجهان (الاول) انه ذكر الله بالتنزيه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال تنزيه الله عن كل سوء واصله من سبح فأن السابح يسبح في الماء كالطير في الهواء ويضبط نفسه من ان يرسب فيه فيهلك اويتلوث من مقر الماء ومجراه والتشديد للتبعيد لانك تسبحه اى تبعده عما لايجوز عليه وانما حسن استعماله في تنزيه الله عما لايجوز عليه من صفات الذات والفعل نفيا واثباتا لان السمكة كما انها لاتقبل النجاسة فكذا الحق سبحانه لايقبل مالا ينبغى البتة فاللفظ يفيد التنزيه في الذات والصفات والافعال (القول الثانى) ان المراد بالتسبيح الصلاة لان هذا اللفظ وارد في القرآن بمعنى الصلاة قال تعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وقال فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس والذى يؤكده ان هذه السورة من آخر مانزل وكان عليه السلام في آخر مرضه يقول الصلاة وماملكت ايمانكم جعل يلجلجها في صدره ومايفيض بها لسانه ثم قال بعضهم عنى به

يقوله الظلمة حامدا له على ان صدق وعده اوفائن على الله تعالى بصفات الجلال حامدا له على صفات الاكرام (واستغفره) هضما لنفسك واستقصارا لعملك واستعظاما لحقوق الله تعالى واستدراكا لما فرط منك من ترك الاولى عن عائشة رضى الله عنها انه كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته ان يقول سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك واتوب اليك وعنه عليه السلام انى لاستغفر في اليوم والليلة مائة مرة وروى انه لما قرأها النبى عليه الصلاة والسلام على اصحابه

(صلاة)

صلاة الشكر صلاها يوم الفتح ثمان ركعات وقال آخرون هى صلاة الضحى وقال آخرون صلى ثمان ركعات اربعة للشكر واربعة للضحى وتسمية الصلاة بالتسبيح لما انها لا تنفك عنه وفيه تنبيه على انه يجب تنزيه صلاتك عن انواع النقائص فى الاقوال والافعال واحتج اصحاب القول الاول بالاخبار الكثيرة الواردة فى ذلك روت عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة يكثر ان يقول سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك واتوب اليك وقالت ايضا كان الرسول يقول كثيرا فى ركوعه سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفرلى وعنها ايضا كان نبى الله فى آخر امره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجئ الا قال سبحان الله وبحمده فقلت يارسول الله انك تكثر من قول سبحان الله وبحمده قال انى امرت بها وقرأ اذا جاء نصر الله وعن ابن مسعود لما نزلت هذه السورة كان عليه السلام يكثر ان يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفرلى انك انت التواب الغفور وروى انه قال انى لاستغفر الله كل يوم مائة مرة (المسئلة الثالثة) الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد حيث جعل كافيا فى اداء ما وجب عليه من شكر نعمة النصر والفتح ولم لا يكون كذلك وقوله الصوم لى من اعظم الفضائل للصوم فانه اضافه الى ذاته ثم انه جعل صدف الصلاة مساويا للصوم فى هذا التشريف وان المساجد لله فهذا يدل على ان الصلاة أفضل من الصوم بكثير ثم ان الصلاة صدف للاذكار ولذلك قال ولذكر الله اكبر وكيف لا يكون كذلك والثناء عليه بما مدحه معلوم عقلا وشرعا اما كيفية الصلاة فلا سبيل اليها الا بالشرع ولذلك جعلت الصلاة كالمرضعة من التسبيح والتكبير (فان قيل) عدم وجوب التسبيحات يقتضى انها اقل درجة من سائر اعمال الصلاة (قلنا) الجواب عنه من وجوه (احدها) ان سائر افعال الصلاة مما لا يميل القلب اليه فاحتيج فيها الى الايجاب اما التسبيح والتهليل فالعقل داع اليه والروح عاشق عليه فاكتفى بالحب الطبيعى ولذلك قال والذين آمنوا اشد حبا لله (وثانيها) ان قوله فسبح امر والامر المطلق للوجوب عند الفقهاء ومن قال الامر المطلق للندب قال انه ههنا للوجوب بقرينة انه عطف عليه الاستغفار والاستغفار واجب ومن حق العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه (وثالثها) انها لو وجبت لكان العقاب الحاصل بتركها اعظم اظهارا لمزيد تعظيمها فترك الايجاب خوفا من هذا المحذور (المسئلة الرابعة) اما الحمد فقد تقدم تفسيره واما تفسير قوله فسبح بحمد ربك فذكروا فيه وجوها (احدها) قال صاحب الكشاف اى قل سبحان الله والحمد لله متعجبا مما اراك من عجيب انعامه اى اجمع بينهما تقول شربت الماء باللبن اذا جمعت بينهما خلطا وشربا (وثانيها) انك اذا حمدت الله فقد سبحته لان التسبيح داخل فى الحمد لان الثناء عليه والشكر له لابد وان يتضمن تنزيهه عن النقائص لانه لا يكون مستحقا للثناء الا اذا كان منزها عن النقص ولذلك جعل مفتاح القرآن بالحمد لله وعند فتح مكة قال الحمد لله الذى نصر عبده ولم يفتتح كلامه

استبشروا وبكى العباس فقال عليه السلام ما يبكيك ياعم فقال نعيت اليك نفسك قال عليه السلام انها لكما تقول فلم ير عليه السلام بعد ذلك ضاحكا مستبشرا وقيل ان ابن عباس هو الذى قال ذلك فقال عليه السلام لقد اوتى هذا الغلام علما كثيرا ولعل ذلك للدلالة على تمام امر الدعوة وتكامل امر الدين كقوله تعالى اليوم اكملت لكم دينكم وروى انها لما نزلت خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان عبدا خيره الله تعالى بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء الله تعالى فعلم ابو بكر

بالتسبيح فقوله فسبح بحمد ربك معناه سبحه بواسطة ان تحمده اى سبحه بهذا الطريق (وثالثها) ان يكون حالا ومعناه سبح حامدا كقوله اخرج بسلاحك اى متسلحا (ورابعها) يجوز ان يكون معناه سبح مقدرا ان تحمد بعد التسبيح كأنه يقول لا تأتى لك الجمع لفظا فاجمعهما نية كما انك يوم النحر تنوى الصلاة مقدرا ان تنحر بعدها فيجتمع لك الثوابان فى تلك الساعة كذا ههنا (وخامسها) ان تكون هذه الباء هى التى فى قولك فعلت هذا بفضل الله اى سبحه بحمد الله وارشاده وانعامه لا بحمد غيره ونظيره فى حديث الافك قول عائشة بحمد الله لا بحمدك والمعنى فسبحه بحمده فانه الذى هداك دون غيره ولذلك روى انه عليه السلام كان يقول الحمد لله على الحمد لله (وسادسها) روى السدى بحمد ربك اى بأمر ربك (وسابعها) ان تكون الباء صلة زائدة ويكون التقدير سبح حمد ربك ثم فيه احتمالات (احدها) اختر له اطهر المحامد وازكاها (والثانى) طهر محامد ربك عن الرياء والسمعة والتوسل بذكرها الى الاغراض الدنيوية الفاسدة (والثالث) طهر محامد ربك عن ان تقول جئت بها كما يليق به واليه الاشارة بقوله وما قدروا الله حق قدره (وثامنها) اى ائت بالتسبيح بدلا عن الحمد الواجب عليك وذلك لان الحمد انما يجب فى مقابلة النعم ونعم الله علينا غير متناهية فحمدها لا يكون فى وسع البشر ولذلك قال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فكأنه تعالى يقول انت عاجز عن الحمد فأت بالتسبيح والتنزيه بدلا عن الحمد (وتاسعها) فيه اشارة الى ان التسبيح والحمد امران لا يجوز تأخير احدهما عن الثانى ولا يتصور ايضا ان يؤتى بهما معا فنظيره من ثبت له حق الشفعة وحق الرد بالعيب وجب ان يقول اخترت الشفعة بردى ذلك المبيع كذا قال فسبح بحمد ربك ليقعا معا فيصير حامدا مسبحا فى وقت واحد معا (وعاشرها) ان يكون المراد سبح قلبك اى طهر قلبك بواسطة مطالعة حمد ربك فانك اذا رأيت ان الكل من الله فقد طهرت قلبك عن الالتفات الى نفسك وسعيك وجهدك فقوله فسبح اشارة الى نفى ما سوى الله تعالى وقوله بحمد ربك اشارة الى رؤية كل الاشياء من الله تعالى (المسئلة الخامسة) فى قوله واستغفره وجوه (احدها) لعله عليه السلام كان يتمنى ان ينتقم ممن اذاه ويسأل الله ان ينصره فلما سمع اذا جاء نصر الله استبشر لكن لو قرن بهذه البشارة شرط ان لا ينتقم لتنغصت عليه تلك البشارة فذكر لفظ الناس وانهم يدخلون فى دين الله وامره بأن يستغفر للداخلين لكن من المعلوم ان الاستغفار لمن لا ذنب له لا يحسن فعلم النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الطريق انه تعالى ندبه الى العفو وترك الانتقام لانه لما امره بأن يطلب لهم المغفرة فكيف يحسن منه ان يشتغل بالانتقام منهم ثم ختم بلفظ التواب كأنه يقول ان قبول التوبة حرفته فكل من طلب منه التوبة اعطاه كما ان البياع حرفته بيع الامتعة التى عنده فكل من طلب منه شيأ من تلك الامتعة باعه منه سواء كان المشترى عدوا او وليا فكذا الرب سبحانه يقبل التوبة سواء كان التائب مكيا او مدنيا ثم انه عليه

(السلام)

رضى الله عنه فقال فديناك بأنفسنا وآبائنا واولادنا وعنه عليه السلام انه دعا فاطمة رضى الله عنها فقال يا بنتاه انه نعيت الى نفسى فبكت فقال لا تبكى فانك اول اهلى لحوقا بى ومن ابن مسعود رضى الله عنه ان هذه السورة تسمى سورة التوديع وقيل هو امر بالاستغفار لامته (انه كان توابا) منذ خلق المكلفين اى مبالغا فى قبول توبتهم فليكن كل تائب مستغفر متوقعا للقبول * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النصر اعطى من الاجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة

السلام امتثل امر الرب تعالى فحين قالوا له اخ كريم وابن اخ كريم قال لهم لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم اى امرنى ان استغفر لكم فلا يجوز ان يردنى (وثانيها) ان قوله واستغفره اما ان يكون المراد واستغفر الله لنفسك او لامتك فان كان المراد هو الاول فهو يتفرع على انه هل صدرت عنه معصية ام لا فمن قال صدرت المعصية عنه ذكر فى فائدة الاستغفار وجوها (احدها) انه لا يمتنع ان تكون كثرة الاستغفار منه تؤثر فى جعل ذنبه صغيرة (وثانيها) لزمه الاستغفار لينجو عن ذنب الاصرار (وثالثها) لزمه الاستغفار ليصير الاستغفار جابرا للذنب الصغير فلا ينتقص من ثوابه شئ اصلا واما من قال ما صدرت المعصية عنه فذكر فى هذا الاستغفار وجوها (احدها) ان استغفار النبى جار مجرى التسبيح وذلك لانه وصف الله بأنه غفار (وثانيها) تعبده الله بذلك ليقتدى به غيره اذ لا يأمن كل مكلف عن تقصير يقع منه فى عبادته وفيه تنبيه على انه مع شدة اجتهاده وعصمته ما كان يستغنى عن الاستغفار فكيف من دونه (وثالثها) ان الاستغفار كان عن ترك الافضل (ورابعها) ان الاستغفار كان بسبب ان كل طاعة اتى بها العبد فاذا قابلها باحسان الرب وجدها قاصرة عن الوفاء باداء شكر تلك النعمة فليستغفر الله لاجل ذلك (وخامسها) الاستغفار بسبب التقصير الواقع فى السلوك لان السائر الى الله اذا وصل الى مقام فى العبودية ثم تجاوز عنه فبعد تجاوزه عنه يرى ذلك المقام قاصرا فيستغفر الله عنه ولما كانت مراتب السير الى الله غير متناهية لا جرم كانت مراتب هذا الاستغفار غير متناهية (اما الاحتمال الثانى) وهو ان يكون المراد واستغفر لذنب امتك فهو ايضا ظاهر لانه تعالى امره بالاستغفار لذنب امته فى قوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات فههنا لما كثرت الامة صار ذلك الاستغفار اوجب واهم وهكذا اذا قلنا المراد ههنا ان يستغفر لنفسه ولامته (المسئلة السادسة) فى الآية اشكال وهو ان التوبة مقدمة على جميع الطاعات ثم الحمد مقدم على التسبيح لان الحمد يكون بسبب الانعام والانعام كما يصدر عن المنزه فقد يصدر عن غيره فكان ينبغى ان يقع الابتداء بالاستغفار ثم بعده بذكر الحمد ثم بعده بذكر التسبيح فالسبب فى ان صار مذكورا على العكس من هذا الترتيب وجوابه من وجوه (اولها) لعله ابتدأ بالاشرف فالاشرف نازلا الى الاخس فالاخس تنبيها على ان النزول من الخالق الى الخلق اشرف من الصعود من الخلق الى الخالق (وثانيها) فيه تنبيه على ان التسبيح والحمد الصادر عن العبد اذا صار مقابلا بجلال الله وعزته صار عين الذنب فوجب الاستغفار منه (وثالثها) التسبيح والحمد اشارة الى التعظيم لامر الله والاستغفار اشارة الى الشفقة على خلق الله والاول كالصلاة والثانى كالزكاة وكما ان الصلاة مقدمة على الزكاة فكذا ههنا (المسئلة السابعة) الآية تدل على انه عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه الاعلان بالتسبيح والاستغفار وذلك من وجوه (احدها) انه عليه الصلاة والسلام كان مأمورا بابلاغ السورة الى كل الامة

حتى بتى نقل القرآن متواترا وحتى نعلم انه احسن القيام بتبليغ الوحى فوجب عليه الاتيان بالتسبيح والاستغفار على وجه الاظهار ليحصل هذا الغرض (وثانيها) انه من جملة المقاصد ان يصير الرسول قدوة للامة حتى يفعلوا عند النعمة والمحنة مافعله الرسول من تجديد الشكر والحمد عند تجديد النعمة (وثالثها) ان الاغلب فى الشاهد ان يأتى بالحمد فى ابتداء الامر فأمر الله رسوله بالحمد والاستغفار دائما وفى كل حين واوان ليقع الفرق بينه وبين غيره ثم قال واستغفره حين نعيت نفسه اليه ليفعل الامة عند اقتراب آجالهم مثل ذلك (المسئلة الثامنة) فى الآية سؤالات (احدها) وهوانه قال انه كان توابا على الماضى وحاجتنا الى قبوله فى المستقبل (وثانيها) هلا قال غفارا كما قاله فى سورة نوح (وثالثها) انه قال نصر الله وقال فى دين الله فلم لم يقل بحمد الله بل قال بحمد ربك (الجواب) عن الاول من وجوه (احدها) ان هذا ابلغ كأنه يقول ألست اثنيت عليكم بانكم خير امة اخرجت للناس ثم من كان دونكم كنت اقبل توبتهم كاليهود فأنهم بعد ظهور المعجزات العظيمة وفلق البحر ونتق الجبل ونزول المن والسلوى عصوا ربهم وأتوا بالقبائح فلما تابوا قبلت توبتهم فاذا كنت قابلا للتوبة ممن دونكم افلا اقبلها منكم (وثانيها) منذ كثير كنت شرعت فى قبول توبة العصاة والشروع ملزم على قول النعمان فكيف فى كرم الرحمن (وثالثها) كنت توابا قبل ان آمركم بالاستغفار افلا اقبل وقد امرتكم بالاستغفار (ورابعها) كأنه اشارة الى تخفيف جناياتهم اى لستم بأول من جنى وتاب بل هو حرفتى والجناية مصيبة للجانى والمصيبة اذا عمت خفت (وخامسها) كأنه نظير مايقال

لقد احسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقى

(والجواب عن السؤال الثانى) من وجوه (احدها) لعله خص هذه الامة بزيادة شرف لانه لايقال فى صفات العبد غفار ويقال تواب اذا كان آتيا بالتوبة فيقول تعالى كنت لى سميا من اول الامر انت مؤمن وانا مؤمن وان كان المعنى مختلفا فتب حتى تصير سميالى فى آخر الامر فأنت تواب وانا تواب ثم ان التواب فى حق الله هو انه تعالى يقبل التوبة كثيرا فنبه على انه يجب على العبد ان يكون اتيانه بالتوبة كثيرا (وثانيها) انما قيل توابا لان القائل قد يقول استغفر الله وليس بتائب ومنه قوله المستغفر بلسانه المصر بقلبه كالمستهزئ بربه (ان قيل) فقد يقول اتوب وليس بتائب (قلنا) فاذا يكون كاذبا لان التوبة اسم للرجوع والندم بخلاف الاستغفار فانه لايكون كاذبا فيه فصار تقدير الكلام واستغفره بالتوبة وفيه تنبيه على ان خواتيم الاعمال يجب ان تكون بالتوبة والاستغفار وكذا خواتيم الاعمار وروى انه لم يجلس مجلسا الاختمه بالاستغفار (والجواب عن السؤال الثالث) انه تعالى راعى العدل فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين (احدهما) الرب (والثانى) التواب ولما كانت التربية تحصل اولا والتوابية آخر الاجرم

(ذكر)

ذكر اسم الرب اولا واسم التواب آخرا (المسئلة التاسعة) الصحابة اتفقوا على ان هذه السورة دلت على انه نعى لرسول الله صلى الله عليه وسلم روى ان العباس عرف ذلك وبكى فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك فقال نعيت اليك نفسك فقال الامر كما تقول وقيل ان ابن عباس هو الذى قال ذلك فقال عليه الصلاة والسلام لقد أوتى هذا الغلام علما كثيرا روى ان عمر كان يعظم ابن عباس ويقربه ويأذن له مع اهل بدر فقال عبد الرحمن أتأذن لهذا الفتى معنا وفى ابنائنا من هو مثله فقال لانه ممن قد علمتم قال ابن عباس فأذن لهم ذات يوم واذن لى معهم فسألهم عن قول الله اذا جاء نصر الله وكانه ماسألهم الامن اجلى فقال بعضهم امر الله نبيه اذا فتح عليه ان يستغفره ويتوب اليه فقلت ليس كذلك ولكن نعيت اليه نفسه فقال عمر ما اعلم منها الامثل ماتعلم ثم قال كيف تلومونى عليه بعد ماترون وروى انه لما نزلت هذه السورة خطب وقال ان عبدا خيره الله بين الدنيا وبين لقائه والآخرة فاختار لقاء الله فقال السائل وكيف دلت هذه السورة على هذا المعنى (الجواب) من وجوه (احدها) قال بعضهم انما عرفوا ذلك لما روينا ان الرسول خطب عقيب السورة وذكر التخيير (وثانيها) انه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس فى الدين أفواجا دل ذلك على حصول الكمال والتمام وذلك يعقبه الزوال كما قيل

اذا تم شئ دنا نقصه * توقع زوالا اذا قيل تم

(وثالثها) انه امره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقا واشتغاله به يمنعه عن الاشتغال بامر الامة فكان هذا كالتنبيه على ان امر التبليغ قد تم وكمل وذلك يوجب الموت لانه لو بقى بعد ذلك لكان كالمعزول عن الرسالة وانه غير جائز (ورابعها) قوله واستغفره تنبيه على قرب الاجل كأنه يقول قرب الوقت ودنا الرحيل فتأهب للامر ونبهه به على ان سبيل العاقل اذا قرب اجله ان يستكثر من التوبة (وخامسها) كأنه قيل له كان منتهى مطلوبك فى الدنيا هذا الذى وجدته وهو النصر والفتح والاستيلاء والله تعالى وعدك بقوله وللآخرة خير لك من الاولى فلما وجدت اقصى مرادك فى الدنيا فانتقل الى الآخرة لتفوز بتلك السعادات العالية (المسئلة العاشرة) ذكرنا ان الاصح هو ان السورة نزلت قبل فتح مكة واما الذين قالوا انها نزلت بعد فتح مكة فذكر الماوردى انه عليه السلام لم يلبث بعد نزول هذه السورة الاستين يوما مستديما للتسبيح والاستغفار وقال مقاتل عاش بعدها حولا ونزل اليوم اكملت لكم دينكم فعاش بعده ثمانين يوما ثم نزل آية الكلالة فعاش بعدها خمسين يوما ثم نزل لقد جاءكم رسول من انفسكم فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوما ثم نزل واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فعاش بعدها احد عشر يوما وفى رواية أخرى عاش بعدها سبعة ايام والله تعالى اعلم كيف كان ذلك

(سورة ابى لهب خمس آيات مكية بالاتفاق)

(سورة تبت مكية وآيها خمس)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

اعلم انه تعالى قال وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ثم بين فى سورة قل يا أيها الكافرون ان محمدا عليه الصلاة والسلام اطاع ربه وصرح بنفى عبادة الشركاء والاضداد وان الكافر عصى ربه واشتغل بعبادة الاضداد والانداد فكأنه قيل الهنا ماثواب المطيع وما عقاب العاصى فقال ثواب المطيع حصول النصر والفتح والاستعلاء فى الدنيا والثواب الجزيل فى العقبى كما دل عليه سورة اذا جاء نصر الله واما عقاب العاصى فهو الخسار فى الدنيا والعقاب العظيم فى العقبى كما دلت عليه سورة تبت ونظيره قوله تعالى فى آخر سورة الانعام وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات فكأنه قيل الهنا انت الجواد المنزه عن البخل والقادر المنزه عن العجز فالسبب فى هذا التفاوت فقال ليبلوكم فيما آتاكم فكأنه قيل الهنا فاذا كان مذنبا عاصيا فكيف حاله فقال فى الجواب ان ربك سريع العقاب وان كان مطيعا منقادا كان جزاؤه ان الرب تعالى يكون غفورا لسيأته فى الدنيا رحيما كريما فى الآخرة وذكروا فى سبب نزول هذه السورة وجوها (احدها) قال ابن عباس كان رسول الله يكتم امره فى اول المبعث ويصلى فى شعاب مكة ثلاث سنين الى ان نزل قوله تعالى وانذر عشيرتك الاقربين فصعد الصفا ونادى ياآل غالب فخرجت اليه غالب من المسجد فقال ابولهب هذه غالب قد أتتك فاعندك ثم نادى ياآل لؤى فرجع من لم يكن من لؤى فقال ابولهب هذه لؤى قد أتتك فاعندك ثم قال ياآل مرة فرجع من لم يكن من مرة فقال ابولهب هذه مرة قد أتتك فاعندك ثم قال ياآل كلاب ثم قال بعده ياآل قصى فقال ابولهب هذه قصى قد أتتك فاعندك فقال ان الله امرنى ان انذر عشيرتى الاقربين وانتم الاقربون اعلموا انى لا أملك لكم من الدنيا حظا ولا من الآخرة نصيبا الا ان تقولوا لا اله الا الله فأشهد بها لكم عند ربكم فقال ابولهب عند ذلك تبالك الهذا دعوتنا فنزلت السورة (وثانيها) روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الصفا ذات يوم وقال ياصباحاه فاجتمعت اليه قريش فقالوا مالك قال أرأيتم ان اخبرتكم ان العدو مصبحكم او ممسيكم اما كنتم تصدقونى قالوا بلى قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال عند ذلك ابولهب ماقال فنزلت السورة (وثالثها) انه جمع اعمامه وقدم اليهم طعاما فى صحفة فاستحقروه وقالوا ان احدنا يا كل كل الشاة فقال كلوا فأكلوا حتى شبعوا ولم ينتقص من الطعام الا اليسير ثم قالوا فاعندك فدعاهم الى الاسلام فقال ابولهب ماقال وروى انه قال ابولهب فالى ان اسلمت فقال ماللمسلمين فقال افلا افضل عليهم فقال النبى عليه الصلاة والسلام بماذا تفضل فقال تبا لهذا الدين يستوى فيه انا وغيرى (ورابعها) كان اذا وفد على النبى وفد سألوا عمه عنه وقالوا انت اعلم به فيقول لهم انه ساحر فيرجعون عنه ولا يلقونه فاتاه وفد فقال لهم مثل ذلك فقالوا لا ننصرف حتى نراه فقال انا لم نزل نعالجه من الجنون فتبا له وتعسا

(فاخبر)

فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فحزن ونزلت السورة ❊ قوله تعالى (تبت يدا أبي لهب) اعلم ان قوله تبت فيه اقاويل (احدها) التباب الهلاك ومنه قولهم شابة ام تابة اى هالكة من الهرم ونظيره قوله تعالى وما كيد فرعون الا في تباب اى في هلاك والذى يقرر ذلك ان الاعرابي لما واقع اهله في نهار رمضان قال هلكت واهلكت ثم ان النبي عليه الصلاة والسلام ما انكر ذلك فدل على انه كان صادقا في ذلك ولا شك ان العمل اما ان يكون داخلا في الايمان او ان كان داخلا لكنه اضعف اجزائه فاذا كان بترك العمل حصل الهلاك ففي حق ابي لهب حصل ترك الاعتقاد والقول والعمل وحصل وجود الاعتقاد الباطل والقول الباطل والعمل الباطل فكيف يعقل ان لا يحصل معنى الهلاك فلهذا قال تبت (وثانيها) تبت خسرت والتباب هو الخسر ان المفضى الى الهلاك ومنه قوله تعالى وما زادوهم غير تتبيب اى تخسير بدليل انه قال في موضع آخر غير تخسير (وثالثها) تبت خابت قال ابن عباس لانه كان يدفع القوم عنه بقوله انه ساحر فينصرفون عنه قبل لقائه لانه كان شيخ القبيلة وكان له كالاب فكان لا يتهم فلما نزلت السورة وسمع بها غضب واظهر العداوة الشديدة فصار متهما فلم يقبل قوله في الرسول بعد ذلك فكأنه خاب سعيه وبطل غرضه ولعله انما ذكر اليد لانه كان يضرب بيده على كتف الوافد عليه فيقول انصرف راشدا فأنه مجنون فان المعتاد ان من يصرف انسانا عن موضع وضع يده على كتفه ودفعه عن ذلك الموضع (ورابعها) عن عطاء تبت اى غلبت لانه كان يعتقد ان يده هي العليا وانه يخرجه من مكة ويذله ويغلب عليه (وخامسها) عن ابن وثاب صفرت يداه عن كل خير (ان قيل) ما فائدة ذكر اليدين قلنا فيه وجوه (احدها) ما يروى انه اخذ حجرا ليرمى به رسول الله روى عن طارق المحاربي انه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في السوق يقول ايها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقد أدمى عقبيه وقال لا تطيعوه فأنه كذاب فقلت من هذا فقالوا محمد وعمه ابولهب (وثانيها) المراد من اليدين الجملة كقوله تعالى ذلك بما قدمت يداك ومنه قولهم يداك اوكتا وقوله تعالى مما عملت ايدينا وهذا التأويل متأكد بقوله وتب (وثالثها) تبت يداه اى دينه ودنياه اولاه وعقباه اولان بأحدى اليدين تجر المنفعة وبالاخرى تدفع المضرة أولان اليمنى سلاح والاخرى جنة (ورابعها) روى انه عليه السلام لما دعاه نهارا فأبى فلما جن الليل ذهب الى داره مستنا بسنة نوح ليدعوه ليلا كما دعاه نهارا فلما دخل عليه قال له جئتني معتذرا فجلس النبي عليه الصلاة والسلام امامه كالمحتاج وجعل يدعوه الى الاسلام وقال ان كان يمنعك العار فأجبني في هذا الوقت واسكت فقال لا اومن بك حتى يؤمن بك هذا الجدى فقال عليه الصلاة والسلام للجدى من انا فقال رسول الله واطلق لسانه يثنى عليه فاستولى الحسد على ابي لهب فأخذ يدى الجدى ومزقه وقال تبالك أثر فيك السحر فقال الجدى بل تبالك

(تبت) اى هلكت (يدا ابي لهب) هو عبد العزى بن عبد المطلب وايثار التباب على الهلاك واسناده الى يديه لما روى انه لما نزل وانذر عشيرتك الاقربين رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا وجمع اقاربه فانذرهم فقال ابو لهب تبالك الهذا دعوتنا واخذ حجرا ليرميه عليه السلام به (وتب) اى وهلك كله وقيل المراد بالاول هلاك جلته كقوله تعالى ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة ومعنى وتب وكان ذلك وحصل كقول من قال
* جزاني جزه الله شر جزائه *
* جزاء الكلاب العاويات وقد فعل
*ويؤيده قراءة من قرأ وقد تب وقيل الاول اخبار عن هلاك عمله لان الاعمال تزاول غالبا بالايدى والثاني اخبار عن هلاك نفسه وقيل كلاهما دعاء عليه بالهلاك وقيل الاول دعاء والثاني اخبار وذكر كنيته للتعريض بكونه جهنميا او لاشتهاره

فنزلت السورة على وفق ذلك تبت يدا ابى لهب لتمزيقه يدى الجدى (وخامسها) قال محمد ابن اسحق يروى ان ابا لهب كان يقول يعدنى محمد اشياء لا ارى انها كائنة يزعم انها بعد الموت فلم يضع فى يدى من ذلك شيئا ثم ينفخ فى يديه ويقول تبالكما ما ارى فيكما شيئا فنزلت السورة ٭ اما قوله تعالى (وتب) ففيه وجوه (احدها) انه اخرج الاول مخرج الدعاء عليه كقوله قتل الانسان ما اكفره والثانى مخرج الخبر اى كان ذلك وحصل ويؤيده قراءة ابن مسعود وقد تب (وثانيها) كل واحد منهما اخبار ولكن اراد بالاول هلاك عمله وبالثانى هلاك نفسه ووجهه ان المرء انما يسعى لمصلحة نفسه وعمله فاخبر الله تعالى انه محروم من الامرين (وثالثها) تبت يدا ابى لهب يعنى ماله ومنه يقال ذات اليد وتب هو بنفسه كما يقال خسروا أنفسهم واهليهم وهو قول ابى مسلم (ورابعها) تبت يدا ابى لهب يعنى نفسه وتب يعنى ولده عتبة على ما روى ان عتبة بن ابى لهب خرج الى الشام مع اناس من قريش فلما هموا ان يرجعوا قال لهم عتبة بلغوا محمدا عنى انى قد كفرت بالنجم اذا هوى وروى انه قال ذلك فى وجه رسول الله وتفل فى وجهه وكان مبالغا فى عداوته فقال اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فوقع الرعب فى قلب عتبة وكان يحترز فسار ليلة من الليالى فلما كان قريبا من الصبح فقال له اصحابه هلكت الركاب فما زالوا به حتى نزل وهو مرعوب واناخ الابل حوله كالسرادق فسلط الله عليه الاسد والقى السكينة على الابل فجعل الاسد يتخلل حتى افترسه ومزقه (فان قيل) نزول هذه السورة كان قبل هذه الواقعة وقوله وتب اخبار عن الماضى فكيف يحمل عليه (قلنا) لانه كان فى معلومه تعالى انه يحصل ذلك (وخامسها) تبت يدا ابى لهب حيث لم يعرف حق ربه وتب حيث لم يعرف حق رسوله وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) لما ذا كناه مع انه كالكذب اذ لم يكن له ولد اسمه لهب وايضا فالتكنية من باب التعظيم (الجواب عن الاول) ان الكنية قد تكون اسما ويؤيده قراءة من قرأ تبت يدا ابو لهب كما يقال على بن ابو طالب ومعاوية بن ابو سفيان فان هؤلاء اسماؤهم كناهم واما معنى التعظيم فاجيب عنه من وجوه (احدها) انه لما كان اسما خرج عن افادة التعظيم (والثانى) انه كان اسمه عبد العزى فعدل عنه الى كنيته (والثالث) انه لما كان من اهل النار ومآله الى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته فكان جديرا بأن يذكر بها ويقال ابو لهب كما يقال ابو الشر للشرير وابو الخير للخير (الرابع) كنى بذلك لتلهب وجنتيه واشراقهما فيجوز ان يذكر بذلك تهكما به واحتقارا به (السؤال الثانى) ان محمدا عليه الصلاة والسلام كان نبى الرحمة والخلق العظيم فكيف يليق به ان يشافه عمه بهذا التغليظ الشديد وكان نوح مع انه فى نهاية التغليظ على الكفار قال فى ابنه الكافر ان ابنى من اهلى وان وعدك الحق وكان ابراهيم عليه السلام يخاطب اباه بالشفقة فى قوله يا أبت يا أبت وابوه كان يخاطبه بالتغليظ الشديد ولما قال له لارجمنك واهجرنى مليا قال سلام عليك ساستغفر لك ربى واما موسى عليه السلام فلما بعثه الى

(فرعون)

بها اولكراهة ذكر اسمه القبيح وقرئ ابو لهب كما قيل على بن ابو طالب وقرئ ابى لهب بسكون الهاء (ما اغنى عنه ماله وما كسب) اى لم يغن عنه حين حل به التباب على ان ما نافية او اى شئ اغنى عنه على انها استفهامية فى معنى الانكار منصوبة بما بعدها اصل ماله وما كسبه من الارباح او النتائج والمنافع والوجاهة والاتباع اوماله الموروث من ابيه والذى كسبه بنفسه او عمله الخبيث الذى هو كيده فى عداوة النبى عليه الصلاة والسلام او عمله الذى ظن انه منه على شئ كقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما كسب ولده وروى انه كان يقول ان كان ما يقول ابن اخى حقا فأنا أفتدى منه نفسى بمالى وولدى فأستخلص منه وقد خاب مرجاه وما حصل ما تمناه

فرعون قال له ولهرون فقولا له قولا لينا مع ان جرم فرعون كان اغلظ من جرم أبي لهب كيف ومن شرع محمد عليه الصلاة والسلام ان الاب لا يقتل بابنه قصاصا ولا يقيم الرجم عليه وان خاصمه ابوه وهو كافر في الحرب فلا يقتله بل يرفعه عن نفسه حتى يقتله غيره (والجواب) من وجوه (احدها) انه كان يصرفه الناس عن محمد عليه الصلاة والسلام بقوله انه مجنون والناس ما كانوا يتهمونه لانه كان كالاب له فصار ذلك كالمانع من اداء الرسالة الى الخلق فشافهه الرسول بذلك حتى عظم غضبه واظهر العداوة الشديدة فصار بسبب تلك العداوة متهما في القدح في محمد عليه الصلاة والسلام فلم يقبل قوله فيه بعد ذلك (وثانيها) ان الحكمة في ذلك ان محمدا لو كان يداهن احدا في الدين ويسامحه فيه لكانت تلك المداهنة والمسامحة مع عمه الذي هو قائم مقام أبيه فلما لم تحصل هذه المداهنة معه انقطعت الاطماع وعلم كل احد انه لا يسامح احدا في شيء يتعلق بالدين اصلا (وثالثها) ان الوجه الذي ذكرتم كالمتعارض فان كونه عما يوجب ان يكون له الشفقة العظيمة عليه فلما انقلب الامر وحصلت العداوة العظيمة لاجرم استحق التغليظ العظيم (السؤال الثالث) ما السبب في انه لم يقل قل تبت يدا أبي لهب وقال في سورة الكافرون قل ياأيها الكافرون (الجواب) من وجوه (الاول) لان قرابة العمومة تقتضي رعاية الحرمة فلهذا السبب لم يقل له قل ذلك لئلا يكون مشافها لعمه بالشتم بخلاف السورة الاخرى فأن اولئك ما كانوا اعماما له (الثاني) ان الكفار في تلك السورة طعنوا في الله فقال الله تعالى يامحمد اجب عنهم قل ياأيها الكافرون وفي هذه السورة طعنوا في محمد فقال الله تعالى اسكت انت فاني اشتمهم تبت يدا أبي لهب (الثالث) لما شتموك فاسكت حتى تندرج تحت هذه الآية واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما واذ سكت انت اكون انا المجيب عنك يروى ان ابا بكر كان يؤذيه واحد فبقي ساكتا فجعل الرسول يدفع ذلك الشاتم ويزجره فلما شرع ابو بكر في الجواب سكت الرسول فقال ابو بكر ما السبب في ذلك قال لانك حين كنت ساكتا كان الملك يجيب عنك فلما شرعت في الجواب انصرف الملك وجاء الشيطان واعلم ان هذا تنبيه من الله تعالى على ان من لا يشافه السفيه كان الله ذابا عنه وناصراله ومعينا (السؤال الرابع) ما الوجه في قراءة عبدالله بن كثير المكي حيث كان يقرأ أبي لهب ساكنة الهاء (الجواب) قال ابو علي يشبه ان يكون لهب ولهب لغتين كالشمع والشمع والنهر والنهر واجمعوا في قوله سيصلى نارا ذات لهب على فتح الهاء وكذا قوله ولا يغني من اللهب وذلك يدل على ان الفتح اوجه من الاسكان وقال غيره انما اتفقوا على الفتح في الثانية مراعاة لوفاق الفواصل * قوله تعالى (ما اغنى عنه ماله وما كسب) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما في قوله ما أغنى يحتمل ان يكون استفهاما بمعنى الانكار ويحتمل ان يكون نفيا وعلى التقدير الاول يكون المعنى اى تأثير كان لماله وكسبه في دفع البلاء عنه فانه لا أحد اكثر مالا من قارون فهل دفع الموت عنه ولا اعظم ملكا من

فافترس ولده عتبة اسد في طريق الشام بين العير المكتنفة به وقد كان عليه السلام دعا عليه وقال اللهم سلط عليه كلبا من كلابك وهلك نفسه بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال فاجتنبه اهله مخافة العدوى وكانت قريش تتقيها كالطاعون فبقي ثلاثا حتى انتن ثم استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه فكان الامر كما اخبر به القرآن (سيصلى) بفتح الياء وقرئ بضمها وفتح اللام بالتخفيف والتشديد والسين لتأكيد الوعيد وتشديده اى سيدخل لا محالة بعد هذا العذاب العاجل في الآخرة (نارا ذات لهب) اى نارا عظيمة ذات اشتعال وتوقد وهي نار جهنم وليس هذا نصا في انه لا يؤمن ابدا حتى يلزم من تكليفه الايمان بالقرآن ان يكون مكلفا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن ابدا فيكون مأمورا بالجمع بين النقيضين كما هو المشهور

سليمان وهل دفع الموت عنه وعلى التقدير الثانى يكون ذلك اخبارا بان المال والكسب لا ينفع فى ذلك (المسئلة الثانية) ما كسب مرفوع وما موصولة او مصدرية يعنى مكسوبه اوكسبه يروى انه كان يقول ان كان مايقول ابن اخى حقا فانا افتدى منه نفسى بمالى واولادى فانزل الله تعالى هذه الآية ثم ذكروا فى المعنى وجوها (احدها) لم ينفعه ماله وما كسب بماله يعنى رأس المال والارباح (وثانيها) ان المال هو الماشية وما كسب من نسلها ونتاجها فانه كان صاحب النعم والنتاج (وثالثها) ماله الذى ورثه من أبيه والذى كسبه بنفسه (ورابعها) قال ابن عباس ما كسب ولده والدليل عليه قوله عليه السلام ان اطيب مايأكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه وقال عليه السلام انت ومالك لابيك وروى ان بنى أبى لهب احتكموا اليه فاقتتلوا فقام يحجز بينهم فدفعه بعضهم فوقع فغضب فقال اخرجوا عنى الكسب الخبيث (وخامسها) قال الضحاك ماينفعه ماله وعمله الخبيث يعنى كيده فى عداوة رسول الله (وسادسها) قال قتادة وما كسب اى عمله الذى ظن انه منه على شئ كقوله تعالى وقدمنا الى ماعملوا من عمل وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) قال ههنا ما اغنى عنه ماله وما كسب وقال فى سورة والليل اذا يغشى وما يغنى عنه ماله اذا تردى فما الفرق (الجواب) التعبير بلفظ الماضى يكون آكد كقوله تعالى ما اغنى عنى ماليه وقوله أتى أمر الله (السؤال الثانى) ما اغنى عنه ماله وكسبه فيما ذا (الجواب) قال بعضهم فى عداوة الرسول فلم يغلب عليه وقال بعضهم بل لم يغنيا عنه فى دفع النار ولذلك قال سيصلى ❁ قوله تعالى (سيصلى نارا ذات لهب) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لما اخبر تعالى عن حال ابى لهب فى الماضى بالتباب وبأنه ما اغنى عنه ماله وكسبه اخبر عن حاله فى المستقبل بأنه سيصلى نارا (المسئلة الثانية) سيصلى قرئ بفتح الياء وبضمها مخففا ومشددا (المسئلة الثالثة) هذه الآيات تضمنت الاخبار عن الغيب من ثلاثة اوجه (احدها) الاخبار عنه بالتباب والخسار وقد كان كذلك (وثانيها) الاخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده وقد كان كذلك روى ابو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب وكان الاسلام دخل بيتنا فأسلم العباس واسلمت ام الفضل واسلمت أنا وكان العباس يهاب القوم ويكتم اسلامه وكان أبو لهب تخلف عن بدر فبعث مكانه العاص بن هشام ولم يتخلف رجل منهم الا بعث مكانه رجلا آخر فلما جاء الخبر عن واقعة اهل بدر وجدنا فى انفسنا قوة وكنت رجلا ضعيفا وكنت اعمل القداح انحيها فى حجرة زمزم فكنت جالسا هناك وعندى ام الفضل جالسة وقد سرنا ما جاءنا من الخبر اذ اقبل أبو لهب يجر رجليه فجلس على طنب الحجرة وكان ظهرى الى ظهره فبينا هو جالس اذ قال الناس هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقال له أبو لهب كيف الخبر يا ابن أخى فقال لقينا القوم ومنحناهم اكتافنا يقتلوننا كيف أرادوا وايم الله مع ذلك تأملت الناس لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء

قال صلى النار غير مختص بالكفار فيجوز ان يفهم ابو لهب من هذا ان دخوله النار لفسقه ومعاصيه لا لكفره فلا اضطرار الى الجواب المشهور من ان ما كلفه هو الايمان بجميع ما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام اجمالا لا الايمان بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم ان يكلف الايمان بعدم ايمانه المستقر (وامرأته) عطف على المستكن فى سيصلى لمكان الفصل بالمفعول وهى ام جميل بنت حرب اخت ابى سفيان وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنثرها بالليل فى طريق النبى عليه الصلاة والسلام وكان عليه السلام يطؤه كما يطأ الحرير وقيل كانت تمشى بالنميمة ويقال لمن يمشى بالنمائم ويفسد بين الناس يحمل الحطب بينهم اى يوقد بينهم النار (حمالة الحطب) بالنصب على الشتم والذم

(والارض)

والارض قال ابورافع فرفعت طنب الحجرة ثم قلت اولئك والله الملائكة فاخذني وضربني على الارض ثم برك على فضربني وكنت رجلا ضعيفا فقامت ام الفضل الى عمود فضربته على رأسه وشجته وقالت تستضعفه ان غاب سيده والله نحن مؤمنون منذ ايام كثيرة وقد صدق فيما قال فانصرف ذليلا فوالله ماعاش الاسبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته ولقد تركه ابناه ليلتين اوثلاثا مايد فنانه حتى انتن في بيته وكانت قريش تتقي العدسة وعدواها كما يتقي الناس الطاعون وقالوا نخشى هذه القرحة ثم دفنوه وتركوه فهذا معنى قوله ماأغنى عنه ماله وما كسب (وثالثها) الاخبار بانه من اهل النار وقد كان كذلك لانه مات على الكفر (المسئلة الرابعة) احتج اهل السنة على وقوع تكليف مالايطاق بان الله تعالى كلف ابالهب بالايمان ومن جملة الايمان تصديق الله في كل ما اخبر عنه ومما اخبر عنه انه لايؤمن وانه من اهل النار فقد صار مكلفا بانه يؤمن بانه لايؤمن وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال واجاب الكعبي وابوالحسين البصري بانه لوآمن ابولهب لكان هذا الخبر خبرا بانه آمن لا بانه ما آمن واجاب القاضي عنه فقال متى قيل لوفعل الله ما اخبر انه لايفعله فكيف كان يكون فجوابنا انه لايصح الجواب عن ذلك بلا اونعم واعلم ان هذين الجوابين في غاية السقوط (اما الاول) فلان هذه الآية دالة على ان خبر الله عن عدم ايمانه واقع والخبر الصدق عن عدم ايمانه ينافيه وجود الايمان منافاة ذاتية ممتنعة الزوال فاذا كلفه ان يأتي بالايمان مع وجود هذا الخبر فقد كلفه بالجمع بين المتنافيين (واما الجواب الثاني) فارك من الاول لانا سنا في طلب ان يذكروا بلسانهم لا اونعم بل صريح العقل شاهد بان بين كون الخبر عن عدم الايمان صدقاة وبين وجود الايمان منافاة ذاتيه فكان التكليف بتحصيل احد المتضادين حال حصول الآخر تكليفا بالجمع بين الضدين وهذا الاشكال قائم سواء ذكر الخصم بلسانه شيئا اوبقي ساكتا ✻ اما قوله تعالى (وامرأته حمالة الحطب) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ ومريته بالتصغير وقرئ حمالة الحطب بالنصب على الشتم قال صاحب الكشاف وانا استحب هذه القراءة وقد توسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميل من احب شتم ام جميل وقرئ بالنصب والتنوين والرفع (المسئلة الثانية) ام جميل بنت حرب اخت ابي سفيان بن حرب عمة معاوية وكانت في غاية العداوة لرسول الله وذكروا في تفسير كونها حمالة الحطب وجوها (احدها) انها كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتنثرها بالليل في طريق رسول الله فان قيل انها كانت من بيت العز فكيف يقال انها حمالة الحطب قلنا لعلها كانت مع كثرة مالها خسيسة او كانت لشدة عداوتها تحمل بنفسها الشوك والحطب لاجل ان تلقيه في طريق رسول الله (وثانيها) انها كانت تمشي بالنميمة يقال للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس يحمل الحطب بينهم اي يوقد بينهم النائرة ويقال للمكثار هو حاطب ليل (وثالثها) قول قتادة انها كانت

وقيل على الحالية بناء على ان الاضافة غير حقيقية اذالمراد انها تحمل يوم القيامة حزمة من حطب جهنم كالزقوم والضريع وعن قتادة انها مع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيرت بالبخل فالنصب حينئذ على الشتم حتما وقرئ بالرفع على انه خبر وامرأته مبتدأ وقرئ حمالة للحطب بالتنوين نصبا ورفعا وقرئ مريته بالتصغير للتحقير (في جيدها حبل من مسد) جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة حالية وقيل الظرف خبر لامرأته وحبل مرتفع به على الفاعلية وقيل هو حال من امرأته على تقدير عطفها على ضمير سيصلى وحبل فاعل كما ذكر والمسد مايفتل من الحبال فتلا شديدا من ليف المقل وقيل من اي ليف كان وقيل

تعير رسول الله بالفقر فعيرت بانها كانت تحتطب (والرابع) قول ابي مسلم وسعيد بن جبير ان المراد ما حملت من الآثام في عداوة الرسول لانه كالحطب في تصييرها الى النار ونظيره انه تعالى شبه فاعل الاثم بمن يمشي وعلى ظهره حمل قال تعالى فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا وقال تعالى يحملون اوزارهم على ظهورهم وقال تعالى وحملها الانسان (المسئلة الثالثة) امرأته ان رفعته ففيه وجهان (احدهما) العطف على الضمير في سيصلى اى سيصلى هو وامرأته وفي جيدها في موضع الحال (والثاني) الرفع على الابتداء وفي جيدها الخبر (المسئلة الرابعة) عن اسماء لما نزلت تبت جاءت ام جميل ولها ولولة وبيدها حجر فدخلت المسجد ورسول الله جالس ومعه ابوبكر وهي تقول ✻ مذمما قلينا ✻ ودينه ابينا ✻ وحكمه عصينا ✻ فقال ابوبكر يارسول الله قد اقبلت اليك فأنا اخاف ان تراك فقال عليه السلام انها لاتراني وقرأ واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وقالت لابي بكر قد ذكر لي ان صاحبك هجاني فقال ابوبكر لا ورب هذا البيت ماهجاك فولت وهي تقول قد علمت قريش اني بنت سيدها وفي هذه الحكاية ابحاث (الاول) كيف جاز في ام جميل ان لاترى الرسول وترى ابابكر والمكان واحد (الجواب) اما على قول اصحابنا فالسؤال زائل لان عند حصول الشرائط يكون الادراك جائزا لا واجبا فان خلق الله الادراك رأى والا فلا واما المعتزلة فذكروا فيه وجوها (احدها) لعله عليه السلام اعرض وجهه عنها وولاها ظهره ثم انها كانت لغاية غضبها لم تفتش او لان الله القى في قلبها خوفا فصار ذلك صارفا لها عن النظر (وثانيها) لعل الله تعالى القى شبه انسان آخر على الرسول كما فعل ذلك بعيسى (وثالثها) لعل الله تعالى حول شعاع بصرها عن ذلك السمت حتى انها مارأته واعلم ان الاشكال على الوجوه الثلاثة لازم لان بهذه الوجوه عرفنا انه يمكن ان يكون الشيء حاضرا ولانراه واذا جوزنا ذلك فلم لايجوز ان يكون عندنا فيلات وبوقات ولانراها ولانسمعها (البحث الثاني) ان ابابكر حلف انه ماهجاك وهذا من باب المعاريض لان القرآن لايسمى هجوا ولانه كلام الله لا كلام الرسول فدلت هذه الحكاية على جواز المعاريض بقي من مباحث هذه الآية سؤالان (السؤال الاول) لم لم يكتف بقوله وامرأته بل وصفها بانها حمالة الحطب (الجواب) قيل كان له امرأتان سواها فاراد الله تعالى ان لايظن ظان انه اراد كل من كانت امرأة له بل ليس المراد الا هذه الواحدة (السؤال الثاني) ان ذكر النساء لايليق باهل الكرم والمروءة فكيف يليق ذكرها بكلام الله ولاسيما امرأة العم (والجواب) لما لم يستبعد ذلك في امرأة نوح وامرأة لوط بسبب كفر تينك المرأتين فلأن لايستبعد في امرأة كافرة زوجها رجل كافر اولى ✻ قوله تعالى (في جيدها حبل من مسد) قال الواحدي المسد في كلام العرب الفتل يقال مسد الحبل يمسده مسدا اذا أجاد فتله ورجل ممسود اذا كان مجدول الخلق والمسد ما مسد اى فتل من اى شيء كان فيقال لما فتل من جلود الابل ومن الليف

من لحاء شجر باليمن وقد يكون من جلود الابل واوبارها والمعنى في عنقها حبل مما مسد من الحبال وانها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون تخسيسا بحالها وتصويرا لها بصورة بعض الحطابات من المواهن لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها وهما في بيت العز والشرف قال مرة الهمد اني كانت ام جميل تأتي كل يوم بأبالة من حسك فتطرحها على طريق المسلمين فبينا هي ذات ليلة حاملة حزمة اعيت فقعدت على حجر لتستريح فجذبها الملك من خلفها فاختنقت بحبلها ✻ عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة تبت رجوت ان لايجمع الله بينه وبين ابي لهب في دار واحدة

(والخوص)

والخوص مسد ولما فتل من الحديد ايضا مسد اذاعرفت هذافنقول ذكرالمفسرون وجوها (احدها) فى جيدها حبل ممامسد من الحبال لانها كانت تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها فى جيدها كما يفعل الحطابون والمقصود بيان خسا ستها تشبيها لها بالحطابات ايذاء لها ولزوجها (وثانيها) ان يكون المعنى ان حالها يكون فى نارجهنم على الصورة التى كانت عليها حين كانت تحمل الحزمة من الشوك فلاتزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم وفى جيدها حبل من سلاسل النار فان قيل الحبل المتخذ من المسد كيف يبقى ابدا فى النار قلنا كما يبقى الجلد واللحم والعظم ابدا فى النار ومنهم من قال ذلك المسد يكون من الحديد وظن من ظن ان المسد لايكون من الحديد خطأ لان المسد هو المفتول سواء كان من الحديد او من غيره والله اعلم والحمد لله رب العالمين

(سورة الاخلاص اربع آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قل هو الله أحد) قبل الخوض فى التفسير لابد من تقديم فصول (الفصل الاول) روى ابى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة قل هو الله احد فكأنما قرأ ثلث القرآن واعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من اشرك بالله وآمن بالله وقال عليه الصلاة والسلام من قرأ قل هو الله احد مرة واحدة اعطى من الاجر كمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واعطى من الاجر مثل مائة شهيد وروى انه كان جبريل عليه السلام مع الرسول عليه الصلاة والسلام اذا قبل ابوذر الغفارى فقال جبريل هذا ابوذر قداقبل فقال عليه الصلاة والسلام اوتعرفونه قال هو اشهر عندنا منه عندكم فقال عليه الصلاة والسلام بماذا نال هذه الفضيلة قال لصغره فى نفسه وكثرة قراءته قل هو الله احد وروى انس قال كنا فى تبوك فطلعت الشمس مالها شعاع وضياء ومارأيناها على تلك الحالة قط قبل ذلك فعجب كلنا فنزل جبريل وقال ان الله امر ان ينزل من الملائكة سبعون الف ملك فيصلوا على معاوية بن معاوية فهل لك ان تصلى عليه ثم ضرب بجناحه الارض فازال الجبال وصار الرسول عليه الصلاة والسلام كأنه مشرف عليه فصلى هو واصحابه عليه ثم قال بم بلغ مابلغ فقال جبريل كان يحب سورة الاخلاص وروى انه دخل المسجد فسمع رجلا يدعو ويقول اسألك ياالله ياأحد ياصمد يامن لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد فقال غفرلك غفرلك ثلاث مرات وعن سهل بن سعد جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم وشكا اليه الفقر فقال اذا دخلت بيتك فسلم ان كان فيه احد وان لم يكن فيه احد فسلم على نفسك واقرأ قل هو الله احد مرة واحدة ففعل الرجل فأدر الله عليه رزقا حتى افاض على جيرانه وعن انس ان رجلا كان يقرأ فى جميع صلاته قل هو الله احد فسأله الرسول عن ذلك فقال يارسول الله انى احبها فقال حبك اياها يدخلك الجنة وقيل من قرأها فى المنام اعطى التوحيد وقلة العيال وكثرة الذكر لله وكان مستجاب الدعوة (الفصل

* (سورة الاخلاص مختلف فيها وايها اربع)*

*(بسم الله الرحمن الرحيم) *

(قل هو الله احد) الضمير للشان ومدار وضعه موضعه مع عدم سبق ذكره الايذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل احد واليه يشير كل مشير واليه يعود كل ضمير كما ينبئ عنه اسمه الذى اصله القصد اطلق على المفعول مبالغة ومحله الرفع على الابتداء خبره الجملة بعده ولاحاجة الى الربط لانها عين الشأن الذى عبر عنه بالضمير والسر فى تصدير الجملة به التنبيه من اول الامر على فخامة مضمونها وجلالة حيزها مع مافيه من زيادة تحقيق وتقرير فان الضمير لايفهم منه من اول الامر الاشأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن مترقبا لماامامه مما يفسره ويزيل ابهامه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن وهمزة احد مبدلة من الواو واصله

الثاني) في سبب نزولها وفيه وجوه (الاول) انها نزلت بسبب سؤال المشركين قال الضحاك ان المشركين ارسلوا عامر بن الطفيل الى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا اشققت عصانا وسببت آلهتنا وخالفت دين آبائك فان كنت فقيرا اغنيناك وان كنت مجنونا داويناك وان هويت امرأة زوجناكها فقال عليه الصلاة والسلام لست بفقير ولا مجنون ولا هويت امرأة انا رسول الله ادعوكم من عبادة الاصنام الى عبادته فارسلوه ثانية وقالوا قل له بين لنا جنس معبودك امن ذهب او فضة فانزل الله هذه السورة فقالوا له ثلثمائة وستون صنما لا تقوم بحوائجنا فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق فنزلت والصافات الى قوله ان الهكم لواحد فأرسلوه اخرى وقالوا بين لنا افعاله فنزل ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض (الثاني) انها نزلت بسبب سؤال اليهود روى عكرمة عن ابن عباس ان اليهود جاؤا الى رسول الله ومعهم كعب بن الاشرف فقالوا يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله فغضب نبي الله فنزل جبريل فسكنه وقال اخفض جناحك يا محمد فنزل قل هو الله احد فلما تلاه عليهم قالوا اصف لنا ربك كيف عضده وكيف ذراعه فغضب اشد من غضبه الاول فأتاه جبريل بقوله وماقدروا الله حق قدره (الثالث) انها نزلت بسبب سؤال النصارى روى عطاء عن ابن عباس قال قدم وفد نجران فقالوا صف لنا ربك امن زبرجد او ياقوت او ذهب او فضة فقال ان ربي ليس من شئ لانه خالق الاشياء فنزلت قل هو الله احد قالوا هو واحد وانت واحد فقال ليس كمثله شئ قالوا زدنا من الصفة فقال الله الصمد فقالوا وما الصمد فقال الذي يصمد اليه الخلق في الحوائج فقالوا زدنا فنزل لم يلد كما ولدت مريم ولم يولد كما ولد عيسى ولم يكن له كفوا احد يريد نظيرا من خلقه (الفصل الثالث) في اساميها اعلم ان كثرة الالقاب تدل على مزيد الفضيلة والعرف يشهد لما ذكرناه (فاحدها) سورة التفريد (وثانيها) سورة التجريد (وثالثها) سورة التوحيد (ورابعها) سورة الاخلاص لانه لم يذكر في هذه السورة سوى صفاته السلبية التي هي صفات الجلال ولان من اعتقده كان مخلصا في دين الله ولان من مات عليه كان خلاصه من النار ولان ماقبله خلص في ذم أبي لهب فكان جزاء من قرأه ان لايجمع بينه وبين ابي لهب (وخامسها) سورة النجاة لانها تنجيك عن التشبيه والكفر في الدنيا وعن النار في الآخرة (وسادسها) سورة الولاية لان من قرأها صار من اولياء الله ولان من عرف الله على هذا الوجه فقد والاه فيعد محنه رحمة كما يعد منحه نعمة (وسابعها) سورة النسبة لما رويناه انه ورد جوابا لسؤال من قال انسب لنا ربك ولانه عليه السلام قال لرجل من بني سليم ياخابني سليم استوص بنسبة الله خيرا وهو من لطيف المباني لانهم لما قالوا انسب لنا ربك فقال نسبة الله هذا والمحافظة على الانساب من شأن العرب وكانوا يتشددون على من يزيد في بعض الانساب او ينقص فنسبة الله في هذه السورة اولى بالمحافظة عليها (وثانيها) سورة المعرفة لان معرفة الله لاتتم الا بمعرفة هذه السورة (روى جابر) ان رجلا صلى فقرأ

وحد لا كهمزة مايلازم النفي ويراد به العموم كما في قوله تعالى فما منكم من احد عنه حاجزين ومافي قوله عليه السلام ما احلت الغنائم لاحد سود الرؤس غيركم فأنها اصلية وقال مكي اصل احد واحد فأبدلت الواو همزة فاجتمع الفان لان الهمزة تشبه الالف فحذفت احداهما تخفيفا وقال ثعلب ان احدا لا يبنى عليه العدد ابتداء فلا يقال احد واثنان كما يقال واحد واثنان ولا يقال رجل احد كما يقال رجل واحد ولذلك اختص به تعالى اوهو لما سئل عنه اي الذي سألتم عنه هو الله اذ روى ان قريشا قالوا صف لنا ربك الذي تدعونا اليه وانسبه فنزلت فالضمير مبتدأ والله خبره واحد بدل منه او خبر ثان او خبر مبتدأ محذوف وقرئ هو الله احد بغير قل وقرئ الله احد بغير قل هو وقرئ قل هو الواحد

قل هو الله احد فقال النبي عليه الصلاة والسلام ان هذا عرف ربه فسميت سورة المعرفة لذلك (تاسعها) سورة الجمال قال عليه السلام ان الله جميل يحب الجمال فسألوه عن ذلك فقال احد صمد لم يلد ولم يولد لانه اذا لم يكن واحدا عديم النظير جاز ان ينوب ذلك المثل منابه (عاشرها) سورة المقشقشة يقال تقشقش المريض مما به فمن عرف هذا حصل له البرء من الشرك والنفاق لان النفاق مرض كما قال في قلوبهم مرض (الحادى عشر) المعوذة روى انه عليه السلام دخل على عثمان بن مظعون فعوذه بها وباللتين بعدها ثم قال تعوذ بهن فما تعوذت بخير منها (الثانى عشر) سورة الصمد لانها مختصة بذكره (الثالث عشر) سورة الاساس قال عليه السلام اسست السموات السبع والارضون السبع على قل هو الله احد ومما يدل عليه ان القول بالثلاثة سبب لخراب السموات والارض بدليل قوله تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال فوجب ان يكون التوحيد سببا لعمارة هذه الاشياء وقيل السبب فيه معنى قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (الرابع عشر) سورة المانعة روى ابن عباس انه تعالى قال لنبيه حين عرج به اعطيتك سورة الاخلاص وهى من ذخائر كنوز عرشى وهى المانعة تمنع عذاب القبر ولفحات النيران (الخامس عشر) سورة المحضر لان الملائكة تحضر لاستماعها اذا قرئت (السادس عشر) المنفرة لان الشيطان ينفر عند قراءتها (السابع عشر) البراءة لانه روى عليه السلام رأى رجلا يقرأ هذه السورة فقال اما هذا فقد برئ من الشرك وقال عليه السلام من قرأ سورة قل هو الله احد مائة مرة فى صلاة او فى غيرها كتبت له براءة من النار (الثامن عشر) سورة المذكرة لانها تذكر العبد خالص التوحيد فقراءة السورة كالوسمة تذكرك ما تغافل عنه مما انت محتاج اليه (التاسع عشر) سورة النور قال الله تعالى الله نور السموات والارض فهو المنور للسموات والارض والسورة تنور قلبك وقال عليه السلام ان لكل شئ نورا ونور القرآن قل هو الله احد ونظيره ان نور الانسان فى اصغر اعضائه وهو الحدقة فصارت السورة للقرآن كالحدقة للانسان (العشرون) سورة الامان قال عليه السلام اذا قال العبد لا اله الا الله دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى (الفصل الرابع) فى فضائل هذه السورة وهى من وجوه (الاول) اشتهر فى الاحاديث ان قراءة هذه السورة تعدل قراءة ثلث القرآن ولعل الغرض منه ان المقصود الاشرف من جميع الشرائع والعبادات معرفة ذات الله ومعرفة صفاته ومعرفة افعاله وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات فكانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن واما سورة قل يا ايها الكافرون فهى معادلة لربع القرآن لان المقصود من القرآن اما الفعل واما الترك وكل واحد منهما فهو اما فى افعال القلوب واما فى افعال الجوارح فالاقسام اربعة وسورة قل يا ايها الكافرون لبيان ما ينبغى تركه من افعال القلوب فكانت

وقوله تعالى (الله الصمد) مبتدأ وخبر والصمد فعل بمعنى مفعول من صمد اليه اذا قصده أى هو السيد المصمود اليه فى الحوائج المستغنى بذاته وكل ما عداه محتاج اليه فى جميع جهاته وقيل الصمد الدائم الباقى الذى لم يزل

في الحقيقة مشتملة على ربع القرآن ومن هذا السبب اشتركت السورتان اعني قل يا ايها الكافرون وقل هو الله احد في بعض الاسامي فهما المقشقشتان والمبرأتان من حيث ان كل واحدة منهما تفيد براءة القلب عما سوى الله الا ان قل يا ايها الكافرون يفيد بلفظه البراءة عما سوى الله وملازمة الاشتغال بالله وقل هو الله احد يفيد بلفظه الاشتغال بالله وملازمة الاعراض عن غير الله او من حيث ان قل يا ايها الكافرون تفيد براءة القلب عن سائر المعبودين سوى الله وقل هو الله احد تفيد براءة المعبود عن كل مالايليق به (الوجه الثاني) وهو ان ليلة القدر لكونها صدفا للقرآن كانت خيرا من الف شهر فالقرآن كله صدف والدر هو قل هو الله احد فلاجرم حصلت لهـا هذه الفضيلة (الوجه الثالث) وهو ان الدليل العقلي دل على ان اعظم درجات العبد ان يكون قلبه مستنيرا بنور جلال الله وكبريائه وذلك لايحصل الامن هذه السورة فكانت هذه السورة اعظم السور (فان قيل) فصفات الله ايضا مذكورة في سائر السور (قلنا) هذه السورة لها خاصية وهي انها لصغرها في الصورة تبقى محفوظة في القلوب معلومة للعقول فيكون ذكر جلال الله حاضرا ابدا بهذا السبب فلاجرم امتازت عن سائر السور بهذه الفضائل ولنرجع الآن الى التفسير قوله تعالى قل هو الله احد فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان معرفة الله تعالى جنة حاضرة اذ الجنة ان تنال مايوافق عقلك وشهوتك ولذلك لم تكن الجنة جنة لآدم لما نازع عقله هواه ولا كان القبر سجنا على المؤمن لانه حصل له هناك مايلايم عقله وهواه ثم ان معرفة الله تعالى مما يريدها الهوى والعقل فصارت جنة مطلقة وبيان ماقلناه ان العقل يريد امينا تودع عنده الحسنات والشهوة تريد غنيا يطلب منه المستلذات بل العقل كالانسان الذي له همة عالية فلاينقاد الا لمولاه والهوى كالمنتجع الذي اذا سمع حضور غني فانه ينشط للانتجاع اليه بل العقل يطلب معرفة المولى ليشكر له النعم الماضية والهوى يطلبها ليطمع منه في النعم المتربصة فلما عرفاه كما أراده عالمـا وغنيا تعلقا بذيله فقال العقل لااشكر احدا سواك وقالت الشهوة لااسأل احدا الا اياك ثم جاءت الشبهة فقالت ياعقل كيف افردته بالشكر ولعل له مثلا وياشهوة كيف اقتصرت عليه ولعل ههنا بابا آخر فبقي العقل متحيرا وتنغصت عليه تلك الراحة فأراد ان يسافر في عالم الاستدلال ليفوز بجوهرة اليقين فكأن الحق سبحانه قال كيف انغص على عبدي لذة الاشتغال بخدمتي وشكري فبعث الله رسوله وقال لاتقله من عند نفسك بل قل هذا الذي عرفته صادقا يقول لي قل هو الله احد فعرفك الوحدانية بالسمع وكفاك مؤنة النظر والاستدلال بالعقل وتحقيقه ان المطالب على ثلاثة اقسام قسم منها لايمكن الوصول اليه بالسمع وهو كل ماتتوقف صحة السمع على صحته كالعلم بذات الله تعـالى وعلمه وقدرته وصحة المعجزات وقسم منها لايمكن الوصول اليه الا بالسمع وهو وقوع كل ماعلم بالعقل جواز وقوعه وقسم ثالث يمكن الوصول اليه بالعقل والسمع معا وهو كالعلم بأنه

ولايزال وقيل الذي يفعل مايشاء ويحكم مايريد وتعريفه لعلمهم بصمديته بخلاف احديته وتكرير الاسم الجليل للاشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل من استحقاق الالوهية وتعرية الجملة عن العاطف لانها كالنتيجة للاولى بين اولا الوهيته

واحدوبانه مرئى الى غيرهما وقد استقصينا فى تقرير دلائل الوحدانية فى تفسيرقوله لوكان فيهما آلهة الاالله لفسدتا (المسئلة الثانية) اعلم انهم اجمعوا على انه لابدفى سورة قل ياأيها الكافرون من قل واجمعوا على انه لايجوزلفظ قل فى سورة تبت واما فى هذه السورة فقد اختلفوا فالقراءة المشهورة قل هوالله احد وقرأ ابى وابن مسعود بغيرقل هكذا هوالله احد وقرأ النبى صلى الله عليه وسلم بدون قل هو هكذا الله احدالله الصمد فمن اثبت قل قال السبب فيه بيان ان النظم ليس فى مقدوره بل يحكى كل مايقـال له ومن حذفه قال ذلك لئلا يتوهم ان ذلك ماكان معلوما للنبى عليه الصلاة والسـلام (المسئلة الثالثة) اعلم ان فى اعراب هذه الآية وجوها (احدها) ان هو كناية عن اسم الله فيكون قوله الله مرتفعا بأنه خبرمبتدأ ويجوز فى قولك احد مايجوز فى قولك زيد أخوك قائم (والثانى) ان هو كناية عن الشأن وعلى هذا التقدير يكون الله مرتفعا بالابتداء وأحد خبره والجملة تكون خبرا عن هو والتقدير الشأن والحديث هو ان الله احد ونظيره قوله فاذا هى شاخصة ابصار الذين كفروا الا ان هى جاءت على التأنيث لان فى التفسير اسما مؤنثا وعلى هذا جاء فانها لاتعمى الابصار اما اذا لم يكن فى التفسير مؤنث لم يؤنث ضمير القصة كقوله انه من يأت ربه مجرما (والثالث) قال الزجاج تقدير هذه الآية ان هذا الذى سألتم عنه هو الله احد (المسئلة الرابعة) فى احد وجهان (احدهما) انه بمعنى واحد قال الخليل يجوز ان يقال احد اثنان واصل احد وحد الا انه قلبت الواو همزة للتخفيف واكثر مايفعلون هذا بالواو المضمومة والمكسورة كقولهم وجوه واجوه ووسادة واسادة (والقول الثانى) ان الواحد والاحد ليسا اسمين مترادفين قال الازهرى لايوصف شئ بالاحدية غيرالله تعالى لايقال رجل احد ولادرهم احد كما يقال رجل واحد اى فرد بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شئ ثم ذكروا فى الفرق بين الواحد والاحد وجوها (احدها) ان الواحد يدخل فى الاحد والاحد لايدخل فيه (وثانيها) انك اذا قلت فلان لايقاومه واحد جاز ان يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف الاحد فأنك لوقلت فلان لايقاومه أحد لايجوز ان يقال لكنه يقاومه اثنان (وثالثها) ان الواحد يستعمل فى الاثبات والاحد فى النفى تقول فى الاثبات رأيته رجلا واحدا وتقول فى النفى مارأيت احدا فيفيد العموم (المسئلة الخامسة) اختلف القراء فى قوله احد الله الصمد فقراءة العـامة بالتنوين وتحريكه بالكسر هكذا احدن الله وهو القياس الذى لااشكال فيه وذلك لان التنوين من احد سـاكن ولام المعرفة من الله ساكنة ولما التقى ساكنان حرك الاول منهما بالكسر وعن ابى عمرو احد الله بغير تنوين وذلك ان النون شابهت حروف اللين فى انها تزاد كما يزدن فلما شابهتها اجريت مجراها فى ان حذفت ساكنة لالتقاء السا كنين كما حذفت الالف والواو والياء لذلك نحو غزا القوم ويغزو القوم ويرمى القوم ولهذا حذفت النون السا كنة فى الفعل نحو

عزوجل المستتبعة لكافة نعوت الكمال ثم احديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد والتركيب بوجه من الوجوه وتوهم المشاركة فى الحقيقة وخواصها ثم صمديتـه المقتضية لاستغنائه الذاتى عما سواه وافتقار جميع المخلوقات اليه فى وجودها وبقائها وسـائر

لم يك ولاتك فى مرية فكذا ههنا حذفت فى احدالله لالتقاء الساكنين كما حذفت هذه الحروف وقدذكرنا هذا مستقصى عندقوله عزيرابن الله وروى ايضاعن ابى عمرو احد الله وقال ادركت القراء يقرؤنها كذلك وصلا على السكون قال ابو على قد تجرى الفواصل فى الادراج مجراها فى الوقف وعلى هذا قال من قال فأضلونا السبيلا ربنا وماادراك ماهيه نار فكذلك احدالله لما كان اكثر القراء فيما حكاه ابوعمرو على الوقف اجراه فى الوصل مجراه فى الوقف لاستمرار الوقف عليه وكثرته فى السنتهم وقرأ الاعمش قل هوالله الواحد * فأن قيل لما ذا قيل احد على النكرة قال الماوردى فيه وجهان (احدهما) حذف لام التعريف على نية اضمارها والتقدير قل هوالله الاحد (والثانى) ان المراد هو التنكير على سبيل التعظيم (المسئلة السادسة) اعلم ان قوله هوالله احد الفاظ ثلاثة وكل واحد منها اشارة الى مقام من مقامات الطالبين (فالمقام الاول) مقام المقربين وهواعلى مقامات السائرين الى الله وهؤلاء هم الذين نظروا الى ماهيات الاشياء وحقائقها من حيث هى هى فلاجرم مارأوا موجودا سوى الله لان الحق هو الذى لذاته يجب وجوده واماماعداه فممكن لذاته والممكن لذاته اذانظر اليه من حيث هو هو كان معدوما فهؤلاء لم يروا موجودا سوى الحق سبحانه وقوله هو اشارة مطلقة والاشارة وان كانت مطلقة الا ان المشار اليه لما كان معينا انصرف ذلك المطلق الى ذلك المعين فلاجرم كان قولنا هو اشارة من هؤلاء المقربين الى الحق سبحانه فلم يفتقروا فى تلك الاشارة الى مميز لان الافتقار الى المميز انما يحصل حين حصل هناك موجودان وقد بينا اى هؤلاء ماشاهدوا بعيون عقولهم الا الواحد فقط فلهذا السبب كانت لفظة هو كافية فى حصول العرفان التام لهؤلاء (المقام الثانى) وهو مقام اصحاب اليمين وهو دون المقام الاول وذلك لان هؤلاء شاهدوا الحق موجودا وشاهدوا الخلق ايضا موجودا فحصلت كثرة فى الموجودات فلاجرم لم يكن هو كافيا فى الاشارة الى الحق بل لابد هناك من مميز به يتميز الحق عن الخلق فهؤلاء احتاجوا الى ان يقرنوا لفظة الله بلفظة هو فقيل لاجلهم هو الله لان الله هو الموجود الذى يفتقر اليه ماعداه ويستغنى هو عن كل ماعداه (والمقام الثالث) وهو مقام اصحاب الشمال وهو اخس المقامات وادونها وهم الذين يجوزون ان يكون واجب الوجود اكثر من واحد وان يكون الاله اكثر من واحد فقرن لفظ الاحد بما تقدم ردا على هؤلاء وابطالا لمقالاتهم فقيل قل هو الله احد (وههنا بحث آخر) اشرف واعلى مما ذكرناه وهو ان صفات الله تعالى اما ان تكون اضافية واما ان تكون سلبية اما الاضافية فكقولنا عالم قادر مريد خلاق واما السلبية فكقولنا ليس بجسم ولا بجوهر ولا بعرض والمخلوقات تدل اولا على النوع الاول من الصفات وثانيا على النوع الثانى منها وقولنا الله يدل على مجامع الصفات الاضافية وقولنا احد يدل على مجامع الصفات السلبية فكان قولنا الله احد تاما فى افادة العرفان الذى يليق بالعقول البشرية وانما

احوالها تحقيقا للحق وارشادا لهم الى سننه الواضح ثم صرح ببعض احكام جزئية مندرجة تحت الاحكام السابقة فقيل (لم يلد) تنصيصا على ابطال زعم المفترين فى حق الملائكة والمسيح ولذلك ورد النفى على صيغة الماضى اى لم يصدر عنه ولد لانه لا يجانسه

(قلنا)

قلنا ان لفظ الله يدل على مجامع الصفات الاضافية وذلك لان الله هو الذى يستحق العبادة واستحقاق العبادة ليس الالمن يكون مستبدا بالايجاد والابداع والاستبداد بالايجاد لايحصل الالمن كان موصوفا بالقدرة التامة والارادة النافذة والعلم المتعلق بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات وهذه مجامع الصفات اضافية واما مجامع الصفات السلبية فهى الاحدية وذلك لان المراد من الاحدية كون تلك الحقيقة فى نفسها مفردة منزهة عن انحاء التراكيب وذلك لان كل ماهية مركبة فهى مفتقرة الى كل واحد من اجزائه وكل واحد من اجزائه غيره فكل مركب فهو مفتقر الى غيره وكل مفتقر الى غيره فهو ممكن لذاته فكل مركب فهو ممكن لذاته فالاله الذى هو مبدأ لجميع الكائنات يمتنع ان يكون ممكنا فهو فى نفسه فرد أحد واذا ثبتت الاحدية وجب ان لايكون متحيزا لان كل متحيز فأن يمينه مغاير ليساره وكل ما كان كذلك فهو منقسم فالاحد يستحيل ان يكون متحيزا واذا لم يكن متحيزا لم يكن فى شئ من الاحياز والجهات ويجب ان لايكون حالا فى شئ لانه مع محله لايكون احدا ولايكون محلا لشئ لانه مع حاله لايكون احدا واذا لم يكن حالا ولامحلا لم يكن متغيرا البتة لان التغير لابد وان يكون من صفة الى صفة وايضا اذا كان احدا وجب ان يكون واحدا اذلو فرض موجود ان واجبا الوجود لاشتركا فى الوجوب ولتمايزا فى التعين ومابه المشاركة غير مابه المماىزة فكل واحد منهما مركب فثبت ان كونه احدا يستلزم كونه واحدا (فان قيل) كيف يعقل كون الشئ احدا فان كل حقيقة توصف بالاحدية فهناك تلك الحقيقة وتلك الاحدية ومجموعهما فذاك ثالث ثلاثة لااحد (الجواب) ان الاحدية لازمة لتلك الحقيقة فالمحكوم عليه بالاحدية هو تلك الحقيقة لاالمجموع الحاصل منها ومن تلك الاحدية فقد لاح بما ذكرنا ان قوله الله احد كلام متضمن لجميع صفات الله تعالى من الاضافيات والسلوب وتمام الكلام فى هذا الباب مذكور فى تفسير قوله تعالى والهكم اله واحد * قوله تعالى (الله الصمد) فيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى تفسير الصمد وجهين (الاول) انه فعل بمعنى مفعول من صمد اليه اذا قصده وهو السيد المصمود اليه فى الحوائج قال الشاعر

الا بكر الناعى بخير بنى اسد * بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقال ايضا

علوته بحسامى ثم قلت له * خذها حذيف فأنت السيد الصمد

والدليل على صحة هذا التفسير ماروى ابن عباس انه لما نزلت هذه الآية قالوا ما الصمد قال عليه السلام هو السيد الذى يصمد اليه فى الحوائج وقال الليث صمدت صمد هذا الامر اى قصدت قصده (والقول الثانى) ان الصمد هو الذى لاجوف له ومنه يقال لسداد القارورة الصماد وشئ مصمد اى صلب ليس فيه رخاوة وقال ابن قتادة وعلى هذا التفسير الدال فيه مبدلة من التاء وهو المصمت وقال بعض المتأخرين من اهل اللغة الصمد هو

شئ لم يكن ان يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا كما نطق به قوله تعالى انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ولايفتقر الى مايعينه او يخلفه لاستحالة الحاجة والفناء عليه سبحانه (ولم يولد) اى لم يصدر عن شئ لاستحالة نسبة العدم اليه سابقا ولاحقا والتصريح به مع

الاملس من الحجر الذى لايقبل الغبار ولايدخله شئ ولايخرج منه شئ واعلم انه قد استدل قوم من جهال المشبهة بهذه الآية فى انه تعالى جسم وهذا باطل لانا بينا ان كونه احدا ينافى كونه جسما فقدمة هذه الآية دالة على انه لايمكن ان يكون المراد من الصمد هذا المعنى ولان الصمد بهذا التفسير صفة الاجسام المتضاغطة وتعالى الله عن ذلك فاذن يجب ان يحمل ذلك على مجازه وذلك لان الجسم الذى يكون كذلك يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير وذلك اشارة الى كونه سبحانه واجبا لذاته ممتنع التغير فى وجوده وبقائه وجميع صفاته فهذا مايتعلق بالبحث اللغوى فى هذه الآية اما المفسرون فقد نقل عنهم وجوه بعضها يليق بالوجه الاول وهو كونه تعالى سيدا مرجوعا اليه فى دفع الحاجات وهو اشارة الى الصفات الاضافية وبعضها بالوجه الثانى وهو كونه تعالى واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته ممتنع التغير فيهما وهو اشارة الى الصفات السلبية وتارة يفسرون الصمد بما يكون جامعا للوجهين (اما النوع الاول) فذكروا فيه وجوها (الاول) الصمد هو العالم بجميع المعلومات لان كونه سيدا مرجوعا اليه فى قضاء الحاجات لايتم الابذلك (الثانى) الصمد هو الحليم لان كونه سيدا يقتضى الحلم والكرم (الثالث) وهو قول ابن مسعود والضحاك الصمد هو السيد الذى قد انتهى سودده (الرابع) قال الاصم الصمد هو الخالق للاشياء وذلك لان كونه سيدا يقتضى ذلك (الخامس) قال السدى الصمد هو المقصود فى الرغائب المستغاث به عند المصائب (السادس) قال الحسين بن الفضل البجلى الصمد هو الذى يفعل مايشاء ويحكم مايريد لامعقب لحكمه ولاراد لقضائه (السابع) انه السيد المعظم (الثامن) انه الفرد الماجد لايقضى فى امر دونه (واما النوع الثانى) وهو الاشارة الى الصفات السلبية فذكروا فيه وجوها (الاول) الصمد هو الغنى على ماقال وهو الغنى الحميد (الثانى) الصمد الذى ليس فوقه احد لقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده ولايخاف من فوقه ولايرجو من دونه ترفع الحوائج اليه (الثالث) قال قتادة لايأكل ولايشرب وهو يطعم ولايطعم (الرابع) قال قتادة الباقى بعد فناء خلقه كل من عليها فان (الخامس) قال الحسن البصرى الذى لم يزل ولايزال ولايجوز عليه الزوال كان ولامكان ولاأين ولاأوان ولاعرش ولاكرسى ولاجنى ولاانسى وهو الآن كما كان (السادس) قال ابى بن كعب الذى لايموت ولايورث وله ميراث السموات والارض (السابع) قال يمان وابو مالك الذى لاينام ولايسهو (الثامن) قال ابن كيسان هو الذى لايوصف بصفة احد (التاسع) قال مقاتل ابن حبان هو الذى لاعيب فيه (العاشر) قال الربيع بن انس هو الذى لاتعتريه الآفات (الحادى عشر) قال سعيد بن جبير انه الكامل فى جميع صفاته وفى جميع افعاله (الثانى عشر) قال جعفر الصادق انه الذى نغلب ولايغلب (الثالث عشر) قال ابو هريرة انه المستغنى عن كل احد (الرابع عشر) قال ابو بكر الوراق انه الذى أيس الخلائق من الاطلاع على كيفيته (الخامس عشر)

كونهم معترفين بضعونه لتقرير ماقبله وتحقيقه بالاشارة الى انهما متلازمان اذ المعهود أن مايلد يولد ومالا فلا ومن قضية الاعتراف بأنه لم يولد الاعتراف بأنه لايلد فهو قريب من عطف لايستقدمون على لايستأخرون كما تحقيقه (ولم يكن له كفوا احد) اى لم

(هو)

هو الذى لاتدركه الابصار (السادس عشر) قال ابو العالية ومحمد القرظى هو الذى لم يلد ولم يولد لانه ليس شئ يلد الا سيورث ولا شئ يولد الا وسيموت (السابع عشر) قال ابن عباس انه الكبير الذى ليس فوقه احد (الثامن عشر) انه المنزه عن قبول النقصانات والزيادات وعن ان يكون موردا للتغيرات والتبدلات وعن احاطة الازمنة والامكنة والآنات والجهات (واما الوجه الثالث) وهو ان يحمل لفظ الصمد على الكل وهو ايضا محتمل لانه بحسب دلالته على الوجوب الذاتى يدل على جميع السلوب وبحسب دلالته على كونه مبدأ للكل يدل على جميع نعوت الالهية (المسئلة الثانية) قوله الله الصمد يقتضى ان يكون فى الوجود صمد سوى الله واذا كان الصمد مفسرا بالمصمود اليه فى الحوائج او بما لايقبل التغير فى ذاته لزم ان لايكون فى الوجود موجود هكذا سوى الله تعالى فهذه الآية تدل على انه لااله سوى الواحد فقوله الله احد اشارة الى كونه واحدا بمعنى انه ليس فى ذاته تركيب ولا تأليف بوجه من الوجوه وقوله الله الصمد اشارة الى كونه واحدا بمعنى نفى الشركاء والانداد والاضداد * وبقى فى الآية سؤالان (السؤال الاول) لم جاء احد منكرا وجاء الصمد معرفا (الجواب) الغالب على اكثر اوهام الخلق ان كل موجود محسوس وثبت ان كل محسوس فهو منقسم فاذا مالا يكون منقسما لايكون خاطرا ببال اكثر الخلق واما الصمد فهو الذى يكون مصمودا اليه فى الحوائج وهذا كان معلوما للعرب بل لاكثر الخلق على ماقال تعالى ولئن سالتهم من خلقهم ليقولن الله واذا كانت الاحدية مجهولة مستنكرة عند اكثر الخلق وكانت الصمدية معلومة الثبوت عند جمهور الخلق لاجرم جاء لفظ احد على سبيل التنكير ولفظ الصمد على سبيل التعريف (السؤال الثانى) ما الفائدة فى تكرير لفظة الله فى قوله الله احد الله الصمد (الجواب) لو لم تكرر هذه اللفظة لوجب فى لفظ أحد وصمد ان يردا امانكرتين او معرفتين وقد بينا ان ذلك غير جائز فلاجرم كررت هذه اللفظة حتى يذكر لفظ احد منكرا ولفظ الصمد معرفا * قوله تعالى (لم يلد ولم يولد) فيه سؤالات (السؤال الاول) لم قدم قوله لم يلد على قوله ولم يولد مع ان فى الشاهد يكون اولا مولودا ثم يكون والدا (الجواب) انما وقعت البداءة بأنه لم يلد لانهم ادعوا ان له ولدا وذلك لان مشركى العرب قالوا الملائكة بنات الله وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ولم يدع احد ان له والدا فلهذا السبب بدأ بالاهم فقال لم يلد ثم اشار الى الحجة فقال ولم يولد كأنه قيل الدليل على امتناع الوالدية اتفاقنا على انه ما كان ولدا لغيره (السؤال الثانى) لماذا اقتصر على ذكر الماضى فقال لم يلد ولم يقل لن يلد (الجواب) انما اقتصر على ذلك لانه ورد جوابا عن قولهم ولد الله والدليل عليه قوله تعالى الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم وهم انما قالوا ذلك فى الماضى لاجرم وردت الآية على وفق قولهم (السؤال الثالث) لم قال ههنا لم يلد وقال فى سورة بنى اسرائيل ولم يتخذ ولدا (الجواب)

يكافئه احد ولم يماثله ولم يشاكله من صاحبة وغيرها وله صلة لكفوا قدمت عليه مع ان حقها التأخر عنه للاهتمام بها لان المقصود نفى المكافأة عن ذاته تعالى وقد جوز ان يكون خبرا لا صلة ويكون كفوا حالا من احد وليس بذاك واما تأخير اسم كان

ان الولد يكون على وجهين (احدهما) ان يتولد منه مثله وهذا هو الولد الحقيقي (والثاني) ان لا يكون متولدا منه ولكنه يتخذه ولدا ويسميه هذا الاسم وان لم يكن ولداله في الحقيقة والنصارى فريقان منهم من قال عيسى ولدالله حقيقة ومنهم من قال ان الله اتخذه ولدا تشريفاله كما اتخذ ابراهيم خليلا تشريفاله فقوله لم يلد فيه اشارة الى نفي الولد في الحقيقة وقوله لم يتخذ ولدا اشارة الى نفي القسم الثاني ولهذا قال لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك لان الانسان قد يتخذ ولدا ليكون ناصرا ومعيناله على الامر المطلوب ولذلك قال في سورة اخرى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه هو الغني وهو اشارة الى ماذكر ان اتخاذ الولد انما يكون عند الحاجة (السؤال الرابع) نفي كونه تعالى والدا ومولودا هل يمكن ان يعلم بالسمع ام لا وان كان لا يمكن ذلك فما الفائدة في ذكره ههنا (الجواب) نفي كونه تعالى والدا مستفاد من العلم بأنه تعالى ليس بجسم ولا متبعض ولا منقسم ونفي كونه تعالى مولودا مستفاد من العلم بانه تعالى قديم والعلم بكل واحد من هذين الاصلين متقدم على العلم بالنبوة والقرآن فلا يمكن ان يكونا مستفادين من الدلائل السمعية (بقي ان يقال) فلما لم يمكن استفادتهما من السمع فالفائدة في ذكرهما في هذه السورة (قلنا) قد بينا ان المراد من كونه احدا كونه سبحانه في ذاته وماهيته منزها عن جميع انحاء التراكيب وكونه تعالى صمدا معناه كونه واجبا لذاته ممتنع التغير في ذاته وجميع صفاته واذا كان كذلك فالاحدية والصمدية يوجبان نفي الولدية والمولودية فلما ذكر السبب الموجب لانتفاء الوالدية والمولودية لاجرم ذكر هذين الحكمين فالمقصود من ذكرهما تنبيه الله تعالى على الدلالة العقلية القاطعة على انتفائهما (السؤال الخامس) هل في قوله تعالى لم يلد ولم يولد فائدة ازيد من نفي الوالدية ونفي المولودية قلنا فيه فوائد كثيرة وذلك لان قوله الله احد اشارة الى كونه تعالى في ذاته وماهيته منزها عن التركيب وقوله الله الصمد اشارة الى نفي الاضداد والانداد والشركاء والامثال وهذان المقامان الشريفان مما حصل الاتفاق فيهما بين ارباب الملل والاديان وبين الفلاسفة الا ان من بعد هذا الموضع حصل الاختلاف بين ارباب الملل وبين الفلاسفة فان الفلاسفة قالوا انه يتولد عن واجب الوجود عقل وعن العقل عقل آخر ونفس وفلك وهكذا على هذا الترتيب حتى ينتهي الى العقل الذي هو مدبر ما تحت كرة القمر فعلى هذا القول يكون واجب الوجود قد ولد العقل الاول الذي هو تحته ويكون العقل الذي هو مدبر لعالمنا هذا كالمولود من العقول التي فوقه فالحق سبحانه وتعالى نفي الوالدية اولا كأنه قيل انه لم يلد العقول والنفوس ثم قال والشيء الذي هو مدبر اجسادكم وارواحكم وعالمكم هذا ليس مولودا من شيء آخر فلا والد ولا مولود ولا مؤثر الا الواحد الذي هو الحق سبحانه ❊ قوله سبحانه (ولم يكن له كفوا أحد) فيه سؤالان (السؤال الاول) الكلام العربي الفصيح ان يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه

فلمراعاة الفواصل ووجه الوصل بين هذه الجمل غني عن البيان وقرئ بضم الكاف والفاء مع تسهيل الهمزة وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء هذا ولانطواء السورة الكريمة مع تقارب قطريها على اشتات المعارف الالهية والرد على من ألحد

(فا)

فاباله ورد مقدما فى افصح الكلام (الجواب) هذا الكلام انما سيق لنفى المكافأة عن ذات الله واللفظ الدال على هذا المعنى هو هذا الظرف وتقديم الاهم اولى فلهذا السبب كان هذا الظرف مستحقا للتقديم (السؤال الثانى) كيف القراءة فى هذه الآية (الجواب) قرئ كفوا بضم الكاف والفاء وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء والاصل هو الضم ثم يخفف مثل طنب وطنب وعنق وعنق وقال ابوعبيدة يقال كفو وكفئ وكفاء كله بمعنى واحد وهو المثل وللمفسرين فيه اقاويل (احدها) قال كعب وعطاء لم يكن له مثل ولا عديل ومنه المكافاة فى الجزاء لانه يعطيه مايساوى ماأعطاه (وثانيها) قال مجاهد لم يكن له صاحبة كأنه سبحانه وتعالى قال لم يكن احد كفؤا له فيصاهره ردا على من حكى الله عنه قوله وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا فتفسير هذه الآية كالتأكيد لقوله تعالى لم يلد (وثالثها) وهو التحقيق انه تعالى لما بين انه هو المصمود اليه فى قضاء الحوائج ونفى الوسايط من البين بقوله لم يلد ولم يولد على ما بيناه فحينئذ ختم السورة بأن شيئا من الموجودات يمتنع ان يكون مساوياله فى شئ من صفات الجلال والعظمة اما الوجود فلا مساواة فيه لان وجوده من مقتضيات حقيقته فأن حقيقته غير قابلة للعدم من حيث هى هى واماسائر الحقائق فانها قابلة للعدم واما العلم فلا مساواة فيه لان علمه ليس بضرورى ولا باستدلالى ولا مستفاد من الحس ولا من الروية ولا يكون فى معرض الغلط والزلل وعلوم المحدثات كذلك واما القدرة فلا مساواة فيها وكذا الرحمة والجود والعدل والفضل والاحسان واعلم ان هذه السورة اربع آيات وفى ترتيبها انواع من الفوائد (الفائدة الاولى) ان اول السورة يدل على انه سبحانه واحد والصمد على انه كريم رحيم لانه لايصمد اليه حتى يكون محسنا ولم يلد ولم يولد على انه غنى على الاطلاق ومنزه عن التغيرات فلا يبخل بشئ اصلا ولا يكون جوده لاجل جر نفع او دفع ضر بل بمحض الاحسان وقوله ولم يكن له كفوا احد اشارة الى نفى مالا يجوز عليه من الصفات (الفائدة الثانية) نفى الله تعالى عن ذاته انواع الكثرة بقوله احد ونفى النقص والمغلوبية بلفظ الصمد ونفى المعلولية والعلية بلم يلد ولم يولد ونفى الاضداد والانداد بقوله ولم يكن له كفوا احد (الفائدة الثالثة) قوله احد يبطل مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة والنصارى فى التثليث والصابئين فى الافلاك والنجوم (والآية الثانية) تبطل مذهب من اثبت خالقا سوى الله لانه لو وجد خالق آخر لما كان الحق مصمودا اليه فى طلب جميع الحاجات (والثالثة) تبطل مذهب اليهود فى عزير والنصارى فى المسيح والمشركين فى ان الملائكة بنات الله (والآية الرابعة) تبطل مذهب المشركين حيث جعلوا الاصنام اكفاءله وشركاء (الفائدة الرابعة) ان هذه السورة فى حق الله مثل سورة الكوثر فى حق الرسول لكن الطعن فى حق الرسول كان بسبب انهم قالوا انه ابتر لا ولد له وههنا الطعن بسبب انهم اثبتوا لله ولدا وذلك لان عدم الولد فى حق

فيها ورد فى الحديث النبوى انها تعدل ثلث القرآن فان مقاصده منحصرة فى بيان العقائد والاحكام والقصص ومن عدلها بكله اعتبر المقصود بالذات منه *روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اسست السموات السبع والارضون السبع على قل هو الله احد اى ماخلقت الا لتكون دلائل على توحيد الله تعالى ومعرفة صفاته التى نطقت بها هذه السوره *وعنه عليه السلام انه سمع رجلا يقرأ قل هو الله احد فقال وجبت فقيل وما وجبت يارسول الله قال وجبت له الجنة

الانسان عيب و وجود الولد عيب في حق الله تعالى فلهذا السبب قال ههنا قل حتى تكون ذابا عنى وفي سورة انا اعطيناك انا اقول ذلك الكلام حتى اكون انا ذابا عنك والله اعلم

(سورة الفلق خمس آيات مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قبل الخوض في التفسير لابد من تقديم فصلين (الفصل الاول) سمعت بعض العارفين فسرها تين السورتين على وجه عجيب فقال انه سبحانه لما شرح امر الالهية في سورة الاخلاص ذكر هذه السورة عقيبها في شرح مراتب مخلوقات الله فقال اولا قل اعوذ برب الفلق وذلك لان ظلمات العدم غير متناهية والحق سبحانه هو الذى فلق تلك الظلمات بنور التكوين والايجاد والابداع فلهذا قال قل اعوذ برب الفلق ثم قال من شر ماخلق والوجه فيه ان عالم الممكنات على قسمين عالم الامر وعالم الخلق على ماقال الا له الخلق والامر وعالم الامر كله خيرات محضة بريئة عن الشرور والآفات اما عالم الخلق وهو عالم الاجسام والجسمانيات فالشر لايحصل الافيه وانما سمى عالم الاجسام والجسمانيات بعالم الخلق لان الخلق هو التقدير والمقدار من لواحق الجسم فلما كان الامر كذلك لاجرم قال اعوذ بالرب الذى فلق ظلمات بحر العدم بنور الايجاد والابداع من الشرور الواقعة في عالم الخلق وهو عالم الاجسام والجسمانيات ثم من الظاهر ان الاجسام اما اثيرية او عنصرية والاجسام الاثيرية خيرات لانها بريئة عن الاختلال والفطور على ماقال ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور واما العنصريات فهى اما جماد او نبات او حيوان اما الجمادات فهى خالية عن جميع القوى النفسانية فالظلمة فيها خالصة والانوار عنها بالكلية زائلة وهى المراد من قوله ومن شر غاسق اذا وقب واما النبات فالقوة الغاذية النباتية هى التى تزيد في الطول والعرض والعمق معا فهذه القوة النباتية كأنها تنفث في العقد الثلاثة واما الحيوان فالقوى الحيوانية هى الحواس الظاهرة والحواس الباطنة والشهوة والغضب وكلها تمنع الروح الانسانية عن الانصباب الى عالم الغيب والاشتغال بقدس جلال الله وهو المراد من قوله ومن شر حاسد اذا حسد ثم انه لم يبق من السفليات بعد هذه المرتبة سوى النفس الانسانية وهى المستعيذة فلا تكون مستعاذا منها فلاجرم قطع هذه السورة وذكر بعدها في سورة الناس مراتب درجات النفس الانسانية في الترقى وذلك لانها بأصل فطرتها مستعدة لان تنتقش بمعرفة الله تعالى ومحبته الا انها تكون اول الامر خالية عن هذه المعارف بالكلية ثم انه في المرتبة الثانية يحصل فيها علوم اولية بديهية يمكن التوصل بها الى استعلام المجهولات الفكرية ثم في آخر الامر يستخرج تلك المجهولات الفكرية من القوة الى الفعل فقوله تعالى قل اعوذ برب الناس اشارة الى المرتبة الاولى من مراتب النفس الانسانية وهى حال كونها خالية عن جميع العلوم البديهية والكسبية وذلك لان

(سورة الفلق مختلف فيها)
(وآيها خمس)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قل اعوذ برب الفلق) الفلق الصبح كالفرق لانه يفلق عنه الليل ويفرق فعل بمعنى مفعول فأن كل واحد

النفس فى تلك المرتبة تحتاج الى مرب يربيها ويزينها بتلك المعارف البديهية ثم فى المرتبة الثانية وهى عند حصول هذه العلوم البديهية يحصل لها ملكة الانتقال منها الى استعلام العلوم الفكرية وهو المراد من قوله ملك الناس ثم فى المرتبة الثالثة وهى عند خروج تلك العلوم الفكرية من القوة الى الفعل يحصل الكمال التام للنفس وهو المراد من قوله اله الناس فكان الحق سبحانه يسمى نفسه بحسب كل مرتبة من مراتب النفس الانسانية بما يليق بتلك المرتبة ثم قال من شر الوسواس الخناس والمراد منه القوة الوهمية والسبب فى اطلاق اسم الخناس على الوهم ان العقل والوهم قد يتساعدان على تسليم بعض المقدمات ثم اذا آل الامر الى النتيجة فالعقل يساعد على النتيجة والوهم يخنس ويرجع ويمتنع عن تسليم النتيجة فلهذا السبب يسمى الوهم بالخناس ثم بين سبحانه ان ضرر هذا الخناس عظيم على العقل وانه قلما ينفك احد عنه فكأنه سبحانه بين فى هذه السورة مراتب الارواح البشرية ونبه على عدوها ونبه على ما به يقع الامتياز بين العقل وبين الوهم وهناك آخر درجات مراتب النفس الانسانية فلاجرم وقع ختم الكتاب الكريم والفرقان العظيم عليه (الفصل الثانى) ذكروا فى سبب نزول هذه السورة وجوها (احدها) روى ان جبريل عليه السلام اتاه وقال ان عفريتا من الجن يكيدك فقال اذا أويت الى فراشك قل اعوذ برب السورتين (وثانيها) ان الله تعالى انزلهما عليه ليكونا رقية من العين وعن سعيد بن المسيب ان قريشا قالوا تعالوا نتجوع فنعين محمدا ففعلوا ثم أتوه وقالوا ما اشد عضدك واقوى ظهرك وانضر وجهك فأنزل الله تعالى المعوذتين (وثالثها) وهو قول جمهور المفسرين ان لبيد بن اعصم اليهودى سحر النبى صلى الله عليه وسلم فى احدى عشرة عقدة وفى وتر دسه فى بئر يقال لها ذروان فمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد عليه ذلك ثلاث ليال فنزلت المعوذتان لذلك واخبره جبريل بموضع السحر فأرسل عليا عليه السلام وطلحة وجاآ به وقال جبريل للنبى حل عقدة واقرأ آية ففعل وكان كلما قرأ آية انحلت عقدة فكان يجد بعض الخفة والراحة واعلم ان المعتزلة انكروا ذلك بأسرهم قال القاضى هذه الرواية باطلة وكيف يمكن القول بصحتها والله تعالى يقول والله يعصمك من الناس وقال ولا يفلح الساحر حيث أتى ولان تجويزه يفضى الى القدح فى النبوة ولانه لو صح ذلك لكان من الواجب ان يصلوا الى الضرر الى جميع الانبياء والصالحين ولقدروا على تحصيل الملك العظيم لانفسهم وكل ذلك باطل ولان الكفار كانوا يعيرونه بأنه مسحور فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين فى تلك الدعوة ولحصل فيه عليه السلام ذلك العيب ومعلوم ان ذلك غير جائز قال الاصحاب هذه القصة قد صحت عند جمهور اهل النقل والوجوه المذكورة قد سبق الكلام عليها فى سورة البقرة (اما قوله الكفار كانوا يعيبون الرسول عليه السلام بأنه مسحور) فلو وقع ذلك لكان الكفار صادقين فى ذلك القول (فجوابه) ان الكفار كانوا

من الفلوق والمفلوق عنه مفعول وقيل هو ما انفلق من عموده وقيل هو كل ما يفلقه الله تعالى كالارض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن الامطار والحب والنوى عما يخرج منهما وغير ذلك

يريدون بكونه مسحورا انه مجنون ازيل عقله بواسطة السحر فلذلك تركوا دينهم فاما ان يكون مسحورا بألم يجده في بدنه فذلك مما لا ينكره احد وبالجملة فالله تعالى ما كان يسلط عليه لا شيطانا ولا انسيا ولا جنيا يؤذيه في دينه وشرعه ونبوته فاما في الاضرار ببدنه فلا يبعد وتمام الكلام في هذه المسئلة قد تقدم في سورة البقرة ولنرجع الى التفسير * قوله تعالى (قل اعوذ برب الفلق) فيه مسائل (المسئلة الاولى) في قوله قل فوائد (احدها) انه سبحانه لما امر بقراءة سورة الاخلاص تنزيها له عما لا يليق به في ذاته وصفاته وكان ذلك من اعظم الطاعات فكان العبد قال الهنا هذه الطاعة عظيمة جدا لا اثق بنفسي في الوفاء بها فأجابه بأن قال قل اعوذ برب الفلق اى استعذ بالله والتجئ اليه حتى يوفقك لهذه الطاعة على اكمل الوجوه (وثانيها) ان الكفار لما سألوا الرسول عن نسب الله وصفته فكان الرسول عليه السلام قال كيف انجو من هؤلاء الجهال الذين تجاسروا وقالوا فيك ما لا يليق بك فقال الله قل اعوذ برب الفلق اى استعذ بي حتى اصونك عن شرهم (وثالثها) كأنه تعالى يقول من التجأ الى بيتي شرفته وجعلته آمنا فقلت ومن دخله كان آمنا فالتجئ انت ايضا الى حتى اجعلك آمنا فقل اعوذ برب الفلق (المسئلة الثانية) اختلفوا في انه هل يجوز الاستعانة بالرقى والعوذ ام لا (منهم من قال انه يجوز) واحتجوا بوجوه (احدها) ما روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتكى فرقاه جبريل عليه السلام فقال بسم الله أرقيك من كل شئ يؤذيك والله يشفيك (وثانيها) قال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا من الاوجاع كلها والحمى هذا الدعاء بسم الله الكريم اعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ومن شر حر النار (وثالثها) قال عليه السلام من دخل على مريض لم يحضره اجله فقال أسأل الله العظيم رب العرش العظيم ان يشفيك سبع مرات شفى (ورابعها) عن على عليه السلام قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل على مريض قال اذهب الباس رب الناس اشف انت الشافي لا شافي الا انت (وخامسها) عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين يقول اعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ويقول هكذا كان أبي ابراهيم يعوذ ابنيه اسمعيل واسحق (وسادسها) قال عثمان بن أبي العاص الثقفي قدمت على رسول الله وبي وجع قد كاد يبطلني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعل يدك اليمنى عليه وقل بسم الله اعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد سبع مرات ففعلت ذلك فشفاني الله (وسابعها) روى انه عليه السلام كان اذا سافر فنزل منزلا يقول يا ارض ربي وربك الله اعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما يخرج منك وشر ما يدب عليك واعوذ بالله من اسد واسود وحية وعقرب ومن شر ساكني البلد ووالد وما ولد (وثامنها) قالت عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اشتكى شيئا من جسده قرأ قل هو الله احد والمعوذتين في كفه اليمنى ومسح بها

وفي تعليق العياذ بأسم الرب المضاف الى الفلق المنبئ عن النور عقيب الظلمة والسعة بعد الضيق والفتق بعد الرتق عدة كريمة بأعاذة العائذ مما يعوذ منه وانجائه منه وتقوية لرجائه بتذكير بعض نظائره ومزيد

(المكان .)

المكان الذى يشتكى (ومن الناس من منع من الرقى) لماروى عن جابر قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرقى وقال عليه السلام ان لله عبادا لايكتوون ولايسترقون وعلى ربهم يتوكلون وقال عليه السلام لم يتوكل على الله من اكتوى واسترقى (واجيب عنه) بأنه يحتمل ان يكون النهى عن الرقى المجهولة التى لاتعرف حقائقها فاما ما كان له اصل موثوق فلا نهى عنه (واختلفوا فى التعليق) فروى انه عليه السلام قال من علق شيئا وكل اليه وعن ابن مسعود انه رأى على ام ولده تميمة مربوطة بعضدها فجذبها جذبا عنيفا فقطعها (ومنهم من جوزه) سئل الباقر عليه السلام عن التعويذ يعلق على الصبيان فرخص فيه (واختلفوا فى النفث ايضا) فروى عن عائشة انها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفث على نفسه اذا اشتكى بالمعوذات ويمسح بيده فلما اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه الذى توفى فيه طفقت انفث عليه بالمعوذات التى كان ينفث بها على نفسه وعنه عليه السلام انه كان اذا اخذ مضجعه نفث فى يديه وقرأ فيهما بالمعوذات ثم مسح بهما جسده (ومنهم من انكر النفث) قال عكرمة لاينبغى للراقى ان ينفث ولايمسح ولايعقد وعن ابراهيم قال كانوا يكرهون النفث فى الرقى وقال بعضهم دخلت على الضحاك وهو وجيع فقلت الااعوذك يا أبا محمد قال بلى ولكن لاتنفث فعوذته بالمعوذتين قال الحليمى الذى روى عن عكرمة انه ينبغى للراقى ان لاينفث ولايمسح ولايعقد فكأنه ذهب فيه الى ان الله تعالى جعل النفث فى العقد مما يستعاذ منه فوجب ان يكون منهيا عنه الا ان هذا ضعيف لان النفث فى العقد انما يكون مذموما اذا كان سحرا مضرا بالارواح والابدان فاما اذا كان هذا النفث لاصلاح الارواح والابدان وجب ان لايكون حراما (المسئلة الثالثة) انه تعالى قال فى مفتاح القراءة فاستعذ بالله وقال ههنا أعوذ برب الفلق وفى موضع آخر وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وجاء فى الاحاديث اعوذ بكلمات الله التامات ولاشك ان افضل اسماء الله هو الله واما الرب فانه قد يطلق على غيره قال تعالى أأرباب متفرقون فما السبب انه تعالى عند الامر بالتعوذ لم يقل أعوذ بالله بل قال برب الفلق واجابوا عنه من وجوه (احدها) انه فى قوله واذا قرأت القرآن فاستعذ بالله انما امره بالاستعاذة هناك لاجل قراءة القرآن وانما امره بالاستعاذة ههنا فى هذه السورة لاجل حفظ النفس والبدن عن السحر والمهم الاول اعظم فلا جرم ذكر هناك الاسم الاعظم (وثانيها) ان الشيطان يبالغ حال منعك من العبادة اشد مبالغة فى ايصال الضر الى بدنك وروحك فلاجرم ذكر الاسم الاعظم هناك دون ههنا (وثالثها) ان اسم الرب يشير الى التربية فكأنه جعل تربية الله له فيما تقدم وسيلة الى تربيته له فى الزمان الآتى اوكان العبد يقول التربية والاحسان حرفتك فلا تهملنى ولاتخيب رجائى (ورابعها) ان التربية صار شارعا فى الاحسان والشروع ملزم (وخامسها) ان هذه السورة آخر سور القرآن فذكر لفظ الرب تنبيها على انه سبحانه

ترغيب له فى الجد والاعتناء بقرع باب الالتجاء اليه تعالى واما الاشعار بأن من قدر ان يزيل ظلمة الليل من هذا العالم قدر ان يزيل عن العائذ مايخافه كما قيل فلا اذ لاريب للعائذ فى قدرته تعالى على ذلك حتى

لا ينقطع عنك تربيته واحسانه (فان قيل) انه ختم القرآن على اسم الاله حيث قال ملك الناس اله الناس (قلنا) فيه لطيفة وهى كونه تعالى قال قل أعوذ برب هو ربى ولكنه اله قاهر لوسوسة الخناس فهو كالاب المشفق الذى يقول ارجع عند مهماتك الى أبيك المشفق عليك الذى هو كالسيف القاطع والنار المحرقة لاعدائك فيكون هذا من اعظم انواع الوعد بالاحسان والتربية (وسادسها) كأن الحق قال لمحمد عليه السلام قلبك لى فلا تدخل فيه حب غيرى ولسانك لى فلا تذكر به احدا غيرى وبدنك لى فلا تشغله بخدمة غيرى وان اردت شيئا فلا تطلبه الا منى فان اردت العلم فقل رب زدنى علما وان اردت الدنيا فاسئلوا الله من فضله وان خفت ضررا فقل اعوذ برب الفلق فانى انا الذى وصفت نفسى بأنى فالق الاصباح وبأنى فالق الحب والنوى وما فعلت هذه الاشياء الا لاجلك فاذا كنت افعل كل هذه الامور لاجلك افلا اصونك عن الآفات والمخافات (المسئلة الرابعة) ذكروا فى الفلق وجوها (احدها) انه الصبح وهو قول الاكثرين قال الزجاج لان الليل يفلق عنه الصبح ويفرق فعل بمعنى مفعول يقال هو أبين من فلق الصبح ومن فرق الصبح وتخصيصه فى التعوذ لوجوه (الاول) ان القادر على ازالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر ايضا ان يدفع عن العائذ كل ما يخافه ويخشاه (الثانى) ان طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج فكما ان الانسان فى الليل يكون منتظرا لطلوع الصباح كذلك الخائف يكون مترقبا لطلوع صباح النجاح (الثالث) ان الصبح كالبشر فان الانسان فى الظلام يكون كلحم على وضم فاذا ظهر الصبح فكأنه صاح بالامان وبشر بالفرج فلهذا السبب يجد كل مريض ومهموم خفة فى وقت السحر فالحق سبحانه يقول قل اعوذ برب يعطى انعام فلق الصبح قبل السؤال فكيف بعد السؤال (الرابع) قال بعضهم ان يوسف عليه السلام لما ألقى فى الجب وجعت ركبته وجعا شديدا فبات ليلته ساهرا فلما قرب طلوع الصبح نزل جبريل عليه السلام بأذن الله يسليه ويأمره بأن يدعو ربه فقال يا جبريل ادع انت وأأمن انا فدعا جبريل وامن يوسف فكشف الله ما كان به من الضر فلما طاب وقت يوسف قال يا جبريل وانا ادعو ايضا وتؤمن أنت فسأل يوسف ربه ان يكشف الضر عن جميع اهل البلاء فى ذلك الوقت فلا جرم ما من مريض الا ويجد نوع خفة فى آخر الليل وروى ان دعاءه فى الجب يا عدتى فى شدتى ويا مؤنسى فى وحشتى ويا راحم غربتى ويا كاشف كربتى ويا مجيب دعوتى ويا الهى واله آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب ارحم صغر سنى وضعف ركنى وقلة حيلتى ياحى يا قيوم ياذا الجلال والاكرام (الخامس) لعل تخصيص الصبح بالذكر فى هذا الموضع لانه وقت دعاء المضطرين واجابة الملهوفين فكأنه يقول قل أعوذ برب الوقت الذى يفرج فيه عن كل مهموم (السادس) يحتمل انه خص الصبح بالذكر لانه أنموذج من يوم القيامة لان الخلق كالاموات والدور كالقبور ثم منهم من يخرج عن داره مفلسا عريانا لا يلتفت اليه ومنهم

يحتاج الى التنبيه عليها (من شر ما خلق) اى من شر ما خلقه من الثقلين وغيرهم كائنا ما كان من ذوات الطبائع والاختيار وهذا كما ترى شامل لجميع الشرور فمن توهم ان

من كان مديونا فيجر الى الحبس ومنهم من كان ملكا مطاعا فتقدم اليه المراكب ويقوم الناس بين يديه كذا في يوم القيامة بعضهم مفلس عن الثواب عار عن لباس التقوى يجر الى الملك الجبار ومن عبد كان مطيعا لربه في الدنيا فصار ملكا مطاعا في العقبى يقدم اليه البراق (السابع) يحتمل انه تعالى خص الصبح بالذكر لانه وقت الصلاة الجامعة لاحوال القيامة فالقيام في الصلاة يذكر القيام يوم القيامة كما قال يوم يقوم الناس لرب العالمين والقراءة في الصلاة تذكر قراءة الكتب والركوع في الصلاة يذكر من القيامة قوله تعالى ناكسوا رؤسهم والسجود في الصلاة يذكر قوله ويدعون الى السجود فلا يستطيعون والقعود يذكر قوله وترى كل امة جاثية فكأن العبد يقول الهى كما خلصتنى من ظلمة الليل فخلصنى من هذه الاهوال وانما خص وقت صلاة الصبح لان لها مزيد شرف على ما قال ان قرآن الفجر كان مشهودا اى تحضرها ملائكة الليل والنهار (الثامن) انه وقت الاستغفار والتضرع على ما قال والمستغفرين بالاسحار (القول الثانى) في الفلق انه عبارة عن كل ما يفلقه الله كالارض عن النبات ان الله فالق الحب والنوى والجبال عن العيون وان منها لما يتفجر منه الانهار والسحاب عن الامطار والارحام عن الاود والبيض عن الفرخ والقلوب عن المعارف واذا تأملت الخلق تبين لك ان اكثره عن انقلاب بل العدم كأنه ظلمة والنور كأنه الوجود وثبت انه كان الله في الازل ولم يكن معه شيء البتة فكأنه سبحانه هو الذى فلق بحار ظلمات العدم بأنوار الايجاد والتكوين والابداع فهذا هو المراد من الفلق وهذا التأويل اقرب من وجوه (احدها) هو ان الموجود اما الخالق واما الخلق فاذا فسرنا الفلق بهذا التفسير صار كأنه قال قل اعوذ برب جميع الممكنات ومكون كل المحدثات والمبدعات فيكون التعظيم فيه اعظم ويكون الصبح احد الامور الداخلة في هذا المعنى (وثانيها) ان كل موجود اما واجب لذاته او ممكن لذاته والممكن لذاته يكون موجودا بغيره معدوما في حد ذاته فأذن كل ممكن فلابد له من مؤثر يؤثر فيه حال حدوثه ويبقيه حال بقائه فان الممكن حال بقائه يفتقر الى المؤثر والتربية اشارة لا الى حال الحدوث بل الى حال البقاء فكأنه يقول انك لست محتاجا الى حال الحدوث فقط بل في حال الحدوث وحال البقاء معا في الذات وفي جميع الصفات فقوله رب الفلق يدل على احتياج كل ماعداه اليه حالتى الحدوث والبقاء في الماهية والوجود بحسب الذوات والصفات وسر التوحيد لا يصفو عن شوائب الشرك الا عند مشاهدة هذه المعانى (وثالثها) ان التصوير والتكوين في الظلمة اصعب منه في النور فكأنه يقول انا الذى افعل ما افعله قبل طلوع الانوار وظهور الاضواء ومثل ذلك مما لا يتأتى الا بالعلم التام والحكمة البالغة واليه الاشارة بقوله هو الذى يصوركم في الارحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم (القول الثالث) انه واد في جهنم اوجب فيها من قولهم لما اطمأن من الارض الفلق والجمع فلقان وعن بعض الصحابة انه قدم الشام فرأى دور اهل

الاستعاذة ههنا من المضار البدنية وانها تعم الانسان وغيره مما ليس بصدد الاستعاذة ثم جعل عمومها مدارا لاضافة لرب الى الفلق فقد نأى عن الحق بمراحل واضافة الشر اليه لاختصاصه بعالم الخلق المؤسس

الذمة وماهم فيه من خصب العيش فقال لا ابالى اليس من ورائهم الفلق فقيل وما الفلق
قال بيت فى جهنم اذا فتح صاح جميع اهل النار من شدة حره وانما خصه بالذكر ههنا لانه هو
القادر على مثل هذا التعذيب العظيم الخارج عن حد اوهام الخلق ثم قد ثبت ان رحمته
اعظم واكمل واتم من عذابه فكأنه يقول ياصاحب العذاب الشديد اعوذ برحمتك التى
هى اعظم واكمل واتم واسبق واقدم من عذابك ❊ قوله تعالى (من شر ماخلق) وفيه
مسئلتان (المسئلة الاولى) فى تفسير هذه الآية وجوه (احدها) قال عطاء عن ابن
عباس يريد ابليس خاصة لان الله تعالى لم يخلق خلقا هو شر منه ولان السورة انما نزلت
فى الاستعاذة من السحر وذلك انما يتم بأبليس وبأعوانه وجنوده (وثانيها) يريد جهنم
كأنه يقول قل اعوذ برب جهنم ومن شدائد ماخلق فيها (وثالثها) من شر ماخلق يريد من
شر اصناف الحيوانات المؤذيات كالسباع والهوام وغيرهما ويجوز ان يدخل فيه من
يؤذى من الجن والانس ايضا ووصف افعالها بأنها شر وانما جاز ادخال الجن والانسان
تحت لفظة ما لان الغلبة لما حصلت فى جانب غير العقلاء حسن استعمال لفظة ما فيه لان
العبرة بالاغلب ايضا ويدخل فيه شرور الاطعمة الممرضة وشرور الماء والنار (فان قيل)
الآلام الحاصلة عقيب الماء والنار ولدغ الحية والعقرب حاصلة بخلق الله تعالى ابتداء
على ماهو قول اكثر المتكلمين او متولدة من قوى خلقها الله تعالى فى هذه الاجرام على
ماهو قول جمهور الحكماء وبعض المتكلمين وعلى التقديرين فيصير حاصل الآية انه
تعالى امر الرسول عليه السلام بأن يستعيذ بالله من الله فما معناه (قلنا) وأى بأس بذلك
ولقد صرح عليه السلام بذلك فقال واعوذ بك منك (ورابعها) اراد به ماخلق من
الامراض والاسقام والقحط وانواع المحن والآفات وزعم الجبائى والقاضى ان هذا
التفسير باطل لان فعل الله تعالى لايجوز ان يوصف بأنه شر قالوا ويدل عليه وجوه
(الاول) انه يلزم على هذا التقدير ان الذى امر بالتعوذ منه هو الذى امرنا نتعوذ به وذلك
متناقض (والثانى) ان افعال الله كلها حكمة وصواب وذلك لايجوز ان يقال انها شر
(والثالث) ان فعل الله لو كان شرا لوصف فاعله بانه شرير ويتعالى الله عن ذلك
(الجواب عن الاول) انا بينا انه لا امتناع فى قوله اعوذ بك منك (وعن الثانى) ان الانسان
لما تألم به فانه يعده شرا فورد اللفظ على وفق قوله كما فى قوله وجزاء سيئة سيئة مثلها وقوله
فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم (وعن الثالث) ان اسماء الله توقيفية
لا اصطلاحية ثم الذى يدل على جواز تسمية الامراض والاسقام بانها شرور قوله تعالى
اذا مسه الشر جزوعا وقوله واذا مسه الشر فذو دعاء عريض وكان عليه السلام يقول
واعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار (المسئلة الثانية) طعن بعض الملحدة فى قوله
قل اعوذ برب الفلق من شر ماخلق من وجوه (احدها) ان المستعاذ منه اهو واقع بقضاء
الله وقدره او لا بقضاء الله ولا بقدره فان كان الاول فكيف امر بأن يستعيذ بالله منه

على امتزاج المواد المتباينة وتفاعل كيفياتها المتضادة المستتبعة للكون والفساد واما عالم الامر فهو خير محض منزه عن شوائب الشر بالمرة

(وذلك)

وذلك لان ماقضى الله به وقدره فهو واقع فكأنه تعالى يقول الشيء الذى قضيت بوقوعه وهو لابد واقع فاستعذبى منه حتى لااوقعه وان لم يكن بقضائه وقدره فذلك يقدح فى ملك الله وملكوته (وثانيها) ان المستعاذ منه ان كان معلوم الوقوع فلا دافع له فلا فائدة فى الاستعاذة وان كان معلوم اللا وقوع فلاحاجة الى الاستعاذة (وثالثها) ان المستعاذ منه ان كان مصلحة فكيف رغب المكلف فى طلب دفعه ومنعه وان كان مفسدة فكيف خلقه وقدره واعلم ان الجواب عن امثال هذه الشبهات ان يقال انه لايسأل عما يفعل وقد تكرر هذا الكلام فى هذا الكتاب ※ قوله تعالى (ومن شر غاسق اذا وقب) ذكروا فى الغاسق وجهين (أحدها) الغاسق هو الليل اذا عظم ظلامه من قوله الى غسق الليل ومنه غسقت العين اذا امتلأت دمعا وغسقت الجراحة اذا امتلأت دما وهذا قول الفراء وابى عبيدة وانشد لابن قيس

ان هذا الليل قد غسقا * واشتكيت الهم والارقا

وقال الزجاج الغاسق فى اللغة هو البارد وسمى الليل غاسقا لانه ابرد من النهار ومنه قوله انه الزمهرير (وثانيها) قال قوم الغاسق والغساق هو السائل من قولهم غسقت العين تغسق غسقا اذا سالت بالماء وسمى الليل غاسقا لانصباب ظلامه على الارض اما الوقوب فهو الدخول فى شيء آخر بحيث يغيب عن العين يقال وقب يقب وقوبا اذا دخل والوقبة النقرة لانه يدخل فيها الماء والايقاب ادخال الشيء فى الوقبة هذا مايتعلق باللغة وللمفسرين فى الآية اقوال (احدها) ان الغاسق اذا وقب هو الليل اذا دخل وانما امر ان يتعوذ من شر الليل لان فى الليل تخرج السباع من آجامها والهوام من مكانها ويهجم السارق والمكابر ويقع الحريق ويقل فيه الغوث ولذلك لوشهر سلاحا على انسان ليلا فقتله المشهور عليه لايلزمه قصاص ولوكان نهارا يلزمه لانه يوجد فيه الغوث وقال قوم ان فى الليل تنتشر الارواح المؤذية المسماة بالجن والشياطين وذلك لان قوة شعاع الشمس كأنها تقهرهم اما فى الليل فيحصل لهم نوع استيلاء (وثانيها) ان الغاسق اذا وقب هو القمر قال ابن قتيبة الغاسق القمر سمى به لانه يكسف فيغسق اى يذهب ضوءه ويسود ووقوبه دخوله فى ذلك الاسوداد روى ابوسلمة عن عائشة انه اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها واشار الى القمر وقال استعيذى بالله من شر هذا فانه الغاسق اذا وقب قال ابن قتيبة ومعنى قوله تعوذى بالله من شره اذا وقب اى اذا دخل فى الكسوف وعندى فيه وجه آخر وهو انه صح ان القمر فى جرمه غير مستنير بل هو مظلم فهذا هو المراد من كونه غاسقا واما وقوبه فهو انمحاء نوره فى آخر الشهر والمنجمون يقولون انه فى آخر الشهر يكون منحوسا قليل القوة لانه لايزال ينتقص نوره فبسبب ذلك تزداد نحوسته ولذلك فان السحرة انما يشتغلون بالسحر المورث للتمريض فى هذا الوقت وهذا مناسب لسبب نزول السورة فانها انما نزلت لاجل انهم سحروا النبى صلى الله عليه وسلم لاجل

(ومن شر غاسق) تخصيص لبعض الشرور بالذكر مع اندراجه فيما قبله لزيادة مساس الحاجة الى الاستعاذة منه لكثرة وقوعه ولان تعيين المستعاذ منه ادل على الاعتناء بالاستعاذة وادعى الى الاعاذة اى ومن شر ليل معتكر ظلامه من قوله تعالى الى غسق الليل واصل الغسق الامتلاء يقال غسقت العين اذا امتلأت دمعا وقيل هو السيلان وغسق الليل انصباب ظلامه وغسق العين سيلان دمعها واضافة الشر الى الليل لملابسته له بحدوثه فيه وتنكيره لعدم شمول الشر لجميع افراده ولا لكل اجزائه وتقييده بقوله تعالى (اذا وقب) اى دخل ظلامه فى كل شيء لان حدوثه فيه اكثر والتحرز منه اصعب واعسر ولذلك قيل الليل اخفى للويل وقيل الغاسق هو القمر اذا امتلاء ووقوبه دخوله فى الخسوف واسوداده لماروى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فأشار الى القمر فقال تعوذى بالله تعالى من شر هذا فانه الغاسق اذا وقب وقيل التعبير عن القمر بالغاسق لان جرمه مظلم وانما يستنير بضوء الشمس ووقوبه المحاق فى آخر الشهر والمنجمون يعدونه نحسا ولذلك لايشتغل السحرة بالسحر المورث للتمريض الا فى ذلك الوقت قيل وهو المناسب لسبب النزول وقيل الغاسق الثريا ووقوبها سقوطها لانها اذا سقطت كثرت الامراض والطواعين وقيل هو كل شر يعترى الانسان ووقوبه هجومه (ومن شر النفاثات فى العقد) اى ومن شر النفوس او النساء السواحر اللاتى يعقدن عقدا فى خيوط وينفثن عليها والنفث النفخ مع ريق وقيل بدون ريق وقرىء النافثات كما قرىء النفثات (٩٧) (را) (من) بغير الف وتعريفها اما للعهد او للايذان بشمول الشر لجميع افرادهن وتمحضهن فيه

وتخصيصه بالذكر لما روى ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم انه كان غلام من اليهود يخدم النبي عليه الصلاة والسلام وكان عنده

التمريض (وثالثها) قال ابن زيد الغاسق اذا وقب يعني الثريا اذا سقطت قال وكانت الاسقام تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها وعلى هذا تسمى الثريا غاسقا لانصبابه عند وقوعه في المغرب ووقوبه دخوله تحت الارض وغيبوبته عن الاعين (ورابعها) قال صاحب الكشاف يجوز ان يراد بالغاسق الاسود من الحيات ووقوبه ضربه ونقبه والوقب والنقب واحد واعلم ان هذا التأويل اضعف الوجوه المذكورة (وخامسها) الغاسق اذا وقب هو الشمس اذا غابت وانما سميت غاسقا لانها في الفلك تسبح فسمي حركتها وجريانها بالغسق ووقوبها غيبتها ودخولها تحت الارض * قوله تعالى (ومن شر النفاثات في العقد) فيه مسائل (المسئلة الاولى) في الآية قولان (الاول) ان النفث النفخ مع ريق هكذا قاله صاحب الكشاف ومنهم من قال انه النفخ فقط ومنه قوله عليه السلام ان جبريل نفث في روعي والعقد جمع عقدة والسبب فيه ان الساحر اذا أخذ في قراءة الرقية أخذ خيطا ولا يزال يعقد عليه عقدا بعد عقد وينفث في تلك العقد وانما انث النفاثات لوجوه (أحدها) ان هذه الصناعة انما تعرف بالنساء لانهن يعقدن وينفثن وذلك لان الاصل الاعظم فيه ربط القلب بذلك الامر واحكام الهمة والوهم فيه وذلك انما يتأتى من النساء لقلة علمهن وشدة شهوتهن فلا جرم كان هذا العمل منهن اقوى قال ابو عبيدة النفاثات هن بنات لبيد بن اعصم اليهودي سحرن النبي صلى الله عليه وسلم (وثانيها) ان المراد من النفاثات النفوس (وثالثها) المراد منها الجماعات وذلك لانه كلما كان اجتماع السحرة على العمل الواحد اكثر كان التأثير اشد (القول الثاني) وهو اختيار ابي مسلم من شر النفاثات اي النساء في العقد اي في عزائم الرجال وآرائهم وهو مستعار من عقد الحبال والنفث وهو تليين العقدة من الحبل بريق يقذفه عليه ليصير حبله سهلا فمعنى الآية ان النساء لاجل كثرة حبهن في قلوب الرجال يتصرفن في الرجال يحولنهم من رأي الى رأي ومن عزيمة الى عزيمة فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن كقوله ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم فلذلك عظم الله كيدهن فقال ان كيدكن عظيم واعلم ان هذا القول قول حسن لولا انه على خلاف قول اكثر المفسرين (المسئلة الثانية) انكرت المعتزلة تأثير السحر وقد تقدمت هذه المسئلة ثم قالوا سبب الاستعاذة من شرهن لثلاثة اوجه (احدها) ان يستعاذ من اثم عملهن في السحر (والثاني) يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن (والثالث) ان يستعاذ من اطعامهن الاطعمة الرديئة المورثة للجنون والموت * قوله تعالى (ومن شر حاسد اذا حسد) من المعلوم ان الحاسد هو الذي تشتد محبته لازالة نعمة الغير اليه ولا يكاد يكون كذلك الا ولو تمكن من ذلك بالحيل لفعل فلذلك امر الله بالتعوذ منه وقد دخل في هذه السورة كل شر يتوقى ويتحرز منه دينا ودنيا فلذلك لما نزلت فرح رسول الله بنزولها لكونها مع ما يليها جامعة في التعوذ لكل امر ويجوز ان يراد بشر الحاسد اثمه وسماجة حاله في وقت حسده واظهار اثره ابق

(ههنا)

اسنان من مشطه عليه السلام فأعطاها اليهود فسحروه عليه السلام فيها وتولاه لبيد بن الاعصم اليهودي وبناته وهن النافثات في العقد فدفنها في بئر اريس فمرض النبي عليه الصلاة والسلام فنزل جبريل عليه السلام بالمعوذتين واخبره بموضع السحر وبمن سحره وبم سحره فارسل عليه الصلاة والسلام عليا كرم الله وجهه والزبير وعمارا رضي الله عنهما فنزحوا ماء البئر فكأنه نقاعة الحناء ثم رفعوا راعوفة البئر وهي الصخرة التي توضع في اسفل البئر فاخرجوا من تحتها الاسنان ومعها وتر قد عقد فيه احدى عشرة عقدة مغرزة بالابر فجاؤا بها النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقرأ المعوذتين عليها فكأن كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد عليه السلام خفة حتى انحلت العقدة الاخيرة عند تمام السورتين فقام عليه السلام كأنما انشط من عقال فقالوا يا رسول الله افلا نقتل الخبيث فقال عليه السلام اما انا فقد عافاني الله عز وجل واكره ان اثير على الناس شرا قالت عائشة رضي الله عنها ما غضب النبي عليه الصلاة والسلام غضبا ينتقم لنفسه قط الا ان يكون شيئا هو لله تعالى فيغضب لله وينتقم وقيل المراد بالنفث في العقد ابطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من تليين العقدة بنفث الريق ليسهل حلها (ومن شر حاسد اذا حسد) اي اذا اظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ومبادي الاضرار بالمحسود قولا او فعلا والتقييد بذلك لما ان ضرر الحسد قبله انما يحيق بالحاسد لا غير * عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي انزلها الله تعالى

ههنا سؤالان (السؤال الاول) قوله من شر ما خلق عام في كل مايستعاذ منه فامعنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد (الجواب) تنبيها على ان هذه الشرور اعظم انواع الشر (السؤال الثانى) لم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه (الجواب) عرف النفاثات لان كل نفاثة شريرة ونكر غاسقا لانه ليس كل غاسق شريرا وايضا ليس كل حاسد شريرا بل رب حسد يكون محمودا وهو الحسد في الخيرات والله سبحانه وتعالى اعلم

(سورة الناس ست آيات مدنية)
(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قل أعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ قل أعوذ بحذف الهمزة ونقل حركتها الى اللام ونظيره فخذ اربعة من الطير وايضا اجمع القراء على ترك الامالة في الناس وروى عن الكسائى الامالة في الناس اذا كان في موضع الخفض (المسئلة الثانية) انه تعالى رب جميع المحدثات ولكنه ههنا ذكر انه رب الناس على التخصيص وذلك لوجوه (احدها) ان الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس فكأنه قيل أعوذ من شر الموسوس الى الناس بربهم الذى يملك عليهم امورهم وهو الههم ومعبودهم كما يستغيث بعض الموالى اذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالى امرهم (وثانيها) ان اشرف المخلوقات في هذا العالم هم الناس (وثالثها) ان المأمور بالاستعاذة هو الانسان فاذا قرأ الانسان هذه السورة صار كأنه يقول يارب ياملكى يا الهى (المسئلة الثالثة) قوله تعالى ملك الناس اله الناس هما عطف بيان كقوله سيرة ابى حفص عمر الفاروق فوصف اولا بأنه رب الناس ثم الرب قد يكون ملكا وقد لا يكون كما يقال رب الدار ورب المتاع قال تعالى اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله فلاجرم بينه بقوله ملك الناس ثم الملك قد يكون الها وقد لا يكون فلاجرم بينه بقوله اله الناس لان الاله خاص به وهو سبحانه لا يشركه فيه غيره وايضا بدأ بذكر الرب وهو اسم لمن قام بتدبيره واصلاحه وهو من اوائل نعمه الى ان رباه واعطاه العقل فحينئذ عرف بالدليل انه عبد مملوك وهو ملكه فثنى بذكر الملك ثم لما علم ان العبادة لازمة له واجبة عليه وعرف ان معبوده مستحق لتلك العبادة عرف انه اله فلهذا ختم به وايضا اول مايعرف العبد من ربه كونه معطيا لما عنده من النعم الظاهرة والباطنة وهذا هو الرب ثم لا يزال ينتقل من معرفة هذه الصفات الى معرفة جلالته واستغنائه عن الخلق فحينئذ يحصل العلم بكونه ملكا لان الملك هو الذى يفتقر اليه غيره ويكون هو غنيا عن غيره ثم اذا عرفه العبد كذلك عرف انه في الجلالة والكبرياء فوق وصف الواصفين وانه هو الذى ولهت العقول في عزته وعظمته فحينئذ يعرفه الها (المسئلة الرابعة) السبب في تكرير لفظ الناس انه انما تكررت هذه الصفات لان عطف البيان يحتاج الى مزيد الاظهار ولان

ونقل حركتها الى اللام (برب الناس) اى مالك امورهم ومربيهم بافاضة مايصلحهم ودفع مايضرهم وقوله تعالى (ملك الناس) عطف بيان جئ به لبيان ان تربيته تعالى اياهم ليست بطريق تربية سائر الملاك لما تحت ايديهم من مماليكهم بل بطريق الملك الكامل والتصرف الكلى والسلطان القاهر وكذا قوله تعالى (اله الناس) فانه لبيان ان ملكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم والقيام بتدبير امورهم وسياستهم والتولى لترتيب مبادى حفظهم وحمايتهم كما هو قصارى امر الملوك بل هو بطريق المعبودية المؤسسة على الالوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلى فيهم احياء وامانة وايجادا واعداما وتخصيص الاضافة بالناس مع انتظام جميع العالمين في سلك ربوبيته تعالى وملكوتيته والوهيته للارشاد الى منهاج الاستعاذة المرضية عنده تعالى الحقيقة بالاعاذة فان توسل العائذ به وانتسابه اليه تعالى بالمربوبية والمملوكية والعبودية في ضمن جنس هو فرد من افراده من دواعى مزيد الرحمة والرأفة وامره تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالاعاذة لامحالة ولان المستعاذ منه شر الشيطان المعروف بعداوتهم ففى التنصيص على انتظامهم في سلك عبوديته تعالى وملكوته رمز الى انجائهم من ملكة الشيطان وتسلطه عليهم حسبما ينطق به قوله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان فمن جعل مدار تخصيص الاضافة مجرد كون الاستعاذة من المضار المختصة بالنفوس البشرية فقد قصر في توفية المقام حقه واما جعل المستعاذ منه فيما سبق المضار البدنية فقد عرفت حاله وتكرير المضاف اليه لمزيد الكشف

هذا التكرير يقتضي مزيد شرف الناس لانه سبحانه كأنه عرف ذاته بكونه ربا للناس ملكا للناس الها للناس ولولا ان الناس اشرف مخلوقاته والا لما ختم كتابه بتعريف ذاته بكونه ربا وملكا والها لهم (المسئلة الخامسة) لا يجوز ههنا مالك الناس ويجوز مالك يوم الدين في سورة الفاتحة والفرق ان قوله رب الناس افاد كونه مالكا لهم فلابد وان يكون المذكور عقيبه هذا الملك ليفيد انه مالك ومع كونه مالكا فهو ملك (فان قيل) اليس قال في سورة الفاتحة رب العالمين ثم قال مالك يوم الدين فيلزم وقوع التكرار هناك (قلنا) اللفظ دل على انه رب العالمين وهي الاشياء الموجودة في الحال وعلى انه مالك ليوم الدين اي قادر عليه فهناك الرب مضاف الى شيء والمالك الى شيء آخر فلم يلزم التكرير واما ههنا لو ذكر المالك لكان الرب والمالك مضافين الى شيء واحد فيلزم منه التكرير فظهر الفرق وايضا فجواز القراآت يتبع النزول لا القياس وقد قرئ ايضا مالك لكن في الشواذ ❊ قوله تعالى (من شر الوسواس الخناس) الوسواس اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة واما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال والمراد به الشيطان سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه لانها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه نظيره قوله انه عمل غير صالح أو المراد ذو الوسواس وتحقيق الكلام في الوسوسة قد تقدم في قوله فوسوس لهما الشيطان واما الخناس فهو الذي عادته ان يخنس منسوب الى الخنوس وهو التأخر كالعواج والنفاث عن سعيد بن جبير اذا ذكر الانسان ربه خنس الشيطان وولى فاذا غفل وسوس اليه ❊ قوله تعالى (الذي يوسوس في صدور الناس) اعلم ان قوله الذي يوسوس يجوز في محله الحركات الثلاث فالجر على الصفة والرفع والنصب على الشتم ويحسن ان يقف القارئ على الخناس ويبتدئ الذي يوسوس على احد هذين الوجهين ❊ اما قوله تعالى (من الجنة والناس) ففيه وجوه (احدها) كأنه يقول الوسواس الخناس قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس كما قال شياطين الانس والجن وكما ان شيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس اخرى فشيطان الانس يكون كذلك وذلك لانه يرى نفسه كالناصح المشفق فان زجره السامع يخنس ويترك الوسوسة وان قبل السامع كلامه بالغ فيه (وثانيها) قال قوم قوله من الجنة والناس قسمان مندرجان تحت قوله في صدور الناس كان القدر المشترك بين الجن والانس يسمى انسانا والانسان ايضا يسمى انسانا فيكون لفظ الانسان واقعا على الجنس والنوع بالاشتراك والدليل على ان لفظ الانسان يندرج فيه الجن والانس ما روى انه جاء نفر من الجن فقيل لهم من انتم فقالوا اناس من الجن وايضا قد سماهم الله رجالا في قوله وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فجاز ايضا ان يسميهم ههنا ناسا فمعنى الآية على هذا التقدير ان هذا الوسواس الخناس شديد الخبث لا يقتصر على اضلال الانس بل يضل جنسه وهم الجن فجدير ان يحذر العاقل شره وهذا القول ضعيف لان جعل الانسان اسما للجنس الذي يندرج فيه

والتقرير والتشريف بالاضافة (من شر الوسواس) هو اسم بمعنى الوسوسة وهو الصوت الخفي كالزلزال بمعنى الزلزلة واما المصدر فبالكسر والمراد به الشيطان سمي بفعله مبالغة كأنه نفس الوسوسة (الخناس) الذي عادته ان يخنس اي يتأخر اذا ذكر الانسان ربه (الذي يوسوس في صدور الناس) اذا غفلوا عن ذكره تعالى ومحل الموصول اما الجر على الوصف واما الرفع او النصب على الذم (من الجنة والناس) بيان للذي يوسوس على انه ضربان جني وانسي كما قال عز وجل شياطين الانس والجن او متعلق بيوسوس اي يوسوس في صدورهم من جهة الجن ومن جهة الانس وقد جوز ان يكون بيانا للناس على انه يطلق على الجن ايضا حسب اطلاق النفر والرجال عليهم ولا تعويل عليه واقرب منه ان يراد بالناس الناسي ويجعل سقوط الياء كسقوطها في قوله تعالى يوم يدع الداع ثم بيّن بالجنة والناس فان كل فرد من افراد الفريقين مبتلى بنسيان حق الله تعالى الا من تداركه شوافع عصمته وتناوله واسع رحمته عصمنا الله تعالى من الغفلة عن ذكره ووفقنا لاداء حقوق شكره (قال) العبد الذليل متضرعا الى ربه الجليل اللهم يا ولي العصمة والارشاد وهادي الغواة الى سنن الرشاد وبارئ البرية ومالك الرقاب عليك توكلي واليك متاب انت المغيث لكل حائر ملهوف والمجير من كل هائل مخوف ألوذ بحرمك المأمون من غوائب ريب المنون والتجئ الى حرزك الحريز وآوي الى ركنك العزيز واسألك من خزائن برك المخزون في مكامن سرك المكنون خير ما جرى به قلم التكوين من امور الدنيا والدين واعوذ بك من فنون الفتن والشرور لاسيما الاطمئنان بدار الغرور والاغترار بنعيمها وزهرتها والافتتان بزخارفها وزينتها

(الجن)

الجن والانس بعيد من اللغة لان الجن سموا جنا لاجتنانهم والانسان انسانا لظهوره من الايناس وهو الابصار قال صاحب الكشاف من أراد تقرير هذا الوجه فالاولى ان يقول المراد من قوله يوسوس فى صدور الناس اى فى صدور الناسى كقوله يوم يدع الداع واذا كان المراد من الناس هو الناسى فحينئذ يمكن تقسيمه الى الجن والانس لانهما هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله تعالى (وثالثها) ان يكون المراد اعوذ برب الناس من الوسواس الخناس ومن الجنة والناس كأنه استعاذ بربه من ذلك الشيطان الواحد ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس واعلم ان فى هذه السورة لطيفة اخرى وهى ان المستعاذ به فى السورة الاولى مذكور بصفة واحدة وهى انه رب الفلق والمستعاذ منه ثلاثة انواع من الآفات وهى الغاسق والنفاثات والحاسد واما فى هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة وهى الرب والملك والاله والمستعاذ منه آفة واحدة وهى الوسوسة والفرق بين الموضعين ان الثناء يجب ان يتقدر بقدر المطلوب فالمطلوب فى السورة الاولى سلامة النفس والبدن والمطلوب فى السورة الثانية سلامة الدين وهذا تنبيه على ان مضرة الدين وان قلت اعظم من مضار الدنيا وان عظمت والله اعلم

حمدا لمن غرس فى افكار النبلاء من افنان البلاغة حدائق ذات بهجة* واطلع فى افق سماء اذهان البلغاء من شموس البراعة ما اتضحت به المحجة* وصلاة وسلاما على من اعرب عن احكام شريعته بالنحو الذى يرضيه* سيدنا محمد الكاشف بجوامع كلمه عن سرائر السر وخوافيه* وعلى آله واصحابه الذين ظفروا من غوامض علومه بدقائق الاشارات* وشفوا علل الاذهان من الطب النبوى بمراهم العنايات*
(وبعد) فقد تم بعون من ليس له وزير ولا نظير ولا مشير طبع التفسير الكبير طبعة اخرى* هى بالمدح اجدر وأحرى* وهذا الكتاب قد سطعت من مشكاة مبانيه مشارق الانوار* ونفح من نشر ازهار معانيه ربيع الابرار* وجلى من ابكار نكاته ما هامت به القلوب الى عروس الافراح* واوضح بغامض رموزه ما شاهدت به الافكار الاعجاز فى ضمن الايضاح* فكم احتوى على غرر معانى* يخالها الناظر مثانى* وعلى ثواقب افهام ساطعة* هى رجوم لشياطين الاوهام قامعة* ترد امانى نهى المناظرين حسرى* وتختال فى حلل التيه على ابناء الزمان فخرا* افرغت ايديها كلم التهذيب فى قالب التنقيح* وصيرت ابريز تلويحها اكسير تصريح* فيالها من نتائج اقيستها برهانية* لا كما يظنها الجاهل دلائل خطابية* جزئياتها بالنسبة لسواها كليات* ولمياتها ان حققها الذهن انيات* لا يتضح بدونها

فأعذنى بحمايتك واعنى بعنايتك وافض على من شوارق الانوار الربانية وبوارق الآثار السبحانية ما يخلصنى من العوائق الظلمانية ويجردنى من العلائق الجسمانية وهذب نفسى الابية من دنس الطبائع والاخلاق ونور قلبى القاسى بلوامع الاشراق ليستعد للعبور على سرائر الانس ويتهيأ للحضور فى حظائر القدس وثبتنى على مناهج الحق والهدى وارشدنى الى مسالك البر والتقى واجعل اعز مرامى ابتغاء رضاك واشرف ايامى يوم لقاك يوم يقوم الناس لرب العالمين فريقا فريقا واحشرنى مع الذين انعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا

شرحها * ولا يطيب للطلاب الانفحها * كيف لا وهو لنسيج وحده * وفريد حزبه وجنده *
الامام الاوحد * الفاضل الامجد * ابى عبدالله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على
التيمى البكرى الطبرستانى الرازى المولد الملقب فخر الدين المعروف بابن الخطيب
الفقيه الشافعى فاق اهل زمانه فى المعقولات والكلام وعلوم الاوائل وله التصانيف
المفيدة فى فنون عديدة وكان طبع هذا الكتاب المستطاب (بالمطبعة العامرة) فى دار السلطنة
السنية فى ايام خلافة سلطاننا الاعظم السلطان ﴿الغازى عبدالحميد خان﴾ ابن السلطان
الغازى عبد المجيد خان ابن السلطان الغازى محمود خان
خلدالله ملكه الى آخر الدوران بألتزام (الشركة
الصحافية العثمانية) فى سنة ثمان وثلثمائة
والف من هجرة من له
الانس والالف
م م
م



